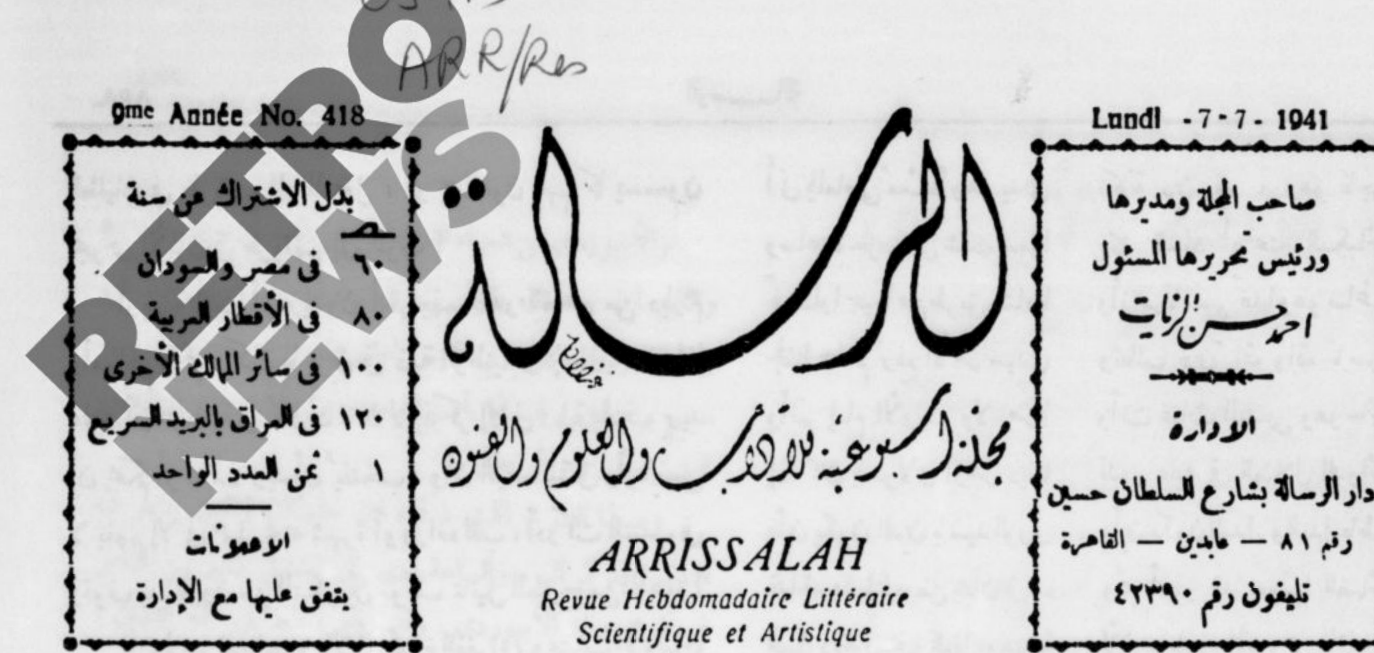


9me Année No. 418 Lundi - 7 - 7 - 1941



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤١٨ « القاهرة في يوم الإثنين ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٧ يولية سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

من طرائف الأزهر القديم

من البكاء إلى الضحك !

لا تزال طوائر المنون تحلق في سماء الإسكندرية فترسل الصواعق والشهب على أهلها النائمين في أكناف الأمان، فتدك المنازل، وتطحن الأجساد، وتخسف الطرق، وتقذف الرعب في قلوب الناجين فيخرجون من دورهم هائمين على وجوههم، في مدارج السهول ومسالك الحقول وأزقة القرى؛ حتى إذا ارفضّ عنهم الهلع واستقر بهم الفِرار، نظروا في أنفسهم، فإذا هم على أرصفة المحطات، أو على حواشي الطرقات، أو تحت أفياء الجُدُر، في ملابس النوم، أو في مباذل البيت، لا يملكون ما يمسك الرمق ولا ما يستر الجسم؛ ثم نظروا إلى من معهم، فإذا زوجة تصحب غريباً وهي تظنه بعلها، وأم تحمل مخدة وهي تحسبها طفلها، وولد ينادي أمه فلا يجاب، ووالد ينشد أسرته فلا يجد. وحينئذ ينجلي الذهول، ويتضح الخطب، وتميد الذاكرة إلى المشاعر تهاويل المنايا السود في هوادي الليل المقمر، فيذكرون انقضاض القنابل على المدينة، وانهيار المنازل على الناس، فيعاودهم الفَرَق فيَذهلون، ثم يساورهم القَلق فيرحلون، وهم لا يدرون أين ينزلون، ولا من أين يأكلون، والناعمون على سُرر الذهب وحشايا الديباج ينظرون إليهم كما ينظرون إلى أمرى

الطليان فى طريقهم إلى المعتقل ، أو يسممون بهم كما يسممون بجرحى الألمان فى طريقهم إلى الموت !

أربعمائة ألف أو يزيدون أخرجهم القدر القاهر من ديارهم وأموالهم ، ثم تركهم عاجزين فى ذمة الوطنية والإنسانية . وإذا علمت أن الوطنية فى عُرفنا لفظ لا يذكر إلا فى دعاية لحزب يريد أن يحكم أو لنائب يريد أن يُنتخب ، وأن الإنسانية فى رأينا معنى لا يفهم إلا فى عمل تحته شهرة أو وراءه لقب ، أدركت السبب فى وقوف بنى قارون من المنكوبين موقف تماثيل المسرح من المأساة !

إذن لم يبق للمهاجرين إلا أكواخ الفقراء ، وعتبات الأولياء ، وهبات الحكومة . فأما مواساة الفقراء لهم فحق ، وأما معونة الحكومة إياهم فيقين ، وأما ضيافة الأولياء فبقيت كضيافة الأغنياء موضع الشك !

كتب إلينا مهاجر أديب بطنطا يقول : « أيأسنى الأمراء والأغنياء من رزق الله ، فلجأت بعيالى إلى مقام سيدى أحمد البدوى فى الغربية ، فلم ألق منه ما لقى اللاجئون إلى مزارع جناكليس فى البحيرة ؛ فهل التوسل بالأولياء عبث ، والالتجاء إليهم فى الخطوب باطل ؟ ... »

أنا يا سيدى المهاجر أعلم الدين ، والحمد لله ، عِلْمَ الفقيه المجتهد ، ولكنى لا أزعم لنفسى درجة الإفتاء ؛ على أن بين يدى الآن شيئاً يشبه الفتوى صدر عن أحدِ مفتى الديار المصرية فى عهد مضى ، أقدمه إليك لعل فيه بعض الغناء ، فى موضوع هذا الاستفتاء !

وقع فى نفس المفتى أن شيخ الأزهر إذ ذاك سعى هو وحزبه بين الخديو وبينه حتى أفسدوا حاله عنده ، فاستعدى عليهم سيدى أحمد البدوى بقصيدة رفعها إلى مقصورته الشريفة ، بعد أن قدم لها هذه المقدمة الطريفة . ودونك المقدمة والقصيدة[1] :

« التجاء واستنجاد ، برجل الفتوة طويل النجاد ، وإمام الأولياء ، وسراج الأصفياء ، الغوث الأوحد ، سيدى وولىّ نعمتى البدوى أحمد ، دامت إمداداته ، وعمت فى الدارين بركاته آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أضم إليها ألف آمينا »

***

أيرضيك يا غوث الورى وإمامهم ... غَبينة أهل الحق والحق ظاهر
تعدى لئيم القوم واشتد بغيه ... وجاء بكل الحقد وهو يجاهر
أتى بالمعاصى مُمثلاً وهو يدعى ... مكانة دينٍ قيم ، وهو فاجر
وساعده حزب على شكله سموا ... بكل فساد أوضحته الكبائر
فضلّوا جميعاً عن طريق رشادنا ... وأزهرنا منهم غداً وهو صاغر
فجئنا حماكم نرفع الأمر سيدى ... ونطلب دينَ الله والله ناصر
وأنتم إمام الأولياء ولا مِرا ... وأنت غياث الملتجى وهو حائر
إذا كان يا مولاى أزهر ديننا ... تدور عليه فى الضلال الدوائر
فأين يكون الدين يا سيد الورى ... وأين يكون العدل والعدل عاطر
فها قد بسطنا بعض شأن يزيده ... وثم أمور قد حوتها الضمائر
فمنها دخول فى البقا وهداية ... لأقوم طرق الله وهى الفاخر
وصحة جسم للذين أحبهم ... كذلك لى فى العز والعمر وافر
ونصر على الأعدا وجاه مؤبد ... وفوز مبين دائماً يتقاطر
وتيسير ما أرجوه من كل مطلب ... وسُكنى جنانِ الخلد حيث الأكابر
ورؤية خير الخلق جهراً بسرعة ... فها قد مضى عمرى وقل التناصر
فقل يا طويل الباع ها قد أجبتكم ... لكل الذى ترجون والله جابر
وصلّ على المختار ربى مسلماً ... كذا آله ما قام بالذكر ذاكر

كتبه عبد الاحسان الواقف بالباب ، الراجى سرعة الجواب :

. . . .

مفتى الديار المصرية

فأنت ترى أن فضيلة المفتى غفر الله له لم يقنع باستمداد السيد البدوى (سيد الورى) على خصومه ، وإنما دفعه الطمع فى فضله إلى أن يسأله الهداية ، وطول العمر ، وصحة الجسم له ولمن يحب ، والنصر على الأعداء ، والجاه المؤبد ، وتيسير كل مطلب ، ودخول الجنة ، ورؤية النبى جهرة ... فإذا كان سيدى أحمد البدوى قد استطاع أن يستجيب هذه الرّغاب ، فليس أسهل عليه من أن يمن عليك برغيف وجلباب . ولكنى أفهم من أسلوب استفتائك أنك ستقول : سبحانك ربى ! هذا شرك عظيم . ولعلك تمعن فى إنكارك فتزعم أن ما أصاب الإسلام من قبح القالة ، وما حل بالمسلمين من سوء الحالة ، إنما يرجع إلى ما ران على القلوب والعقول من أمثال الرسالة المليشية ، والقصيدة الصدفية . ولكنى أعيذك بالله أن تسرع فى الحكم فتخطئ الصواب . والخير لى ولك أن نعلن سؤالك إلى العلماء وننتظر الجواب

احمد حسن الزيات

(١) للمقدمة والقصيدة نشرتها بالمنار م ٢٧ ج ٣ ص ١٧٣

أبو المظفر الأبيوردى
شاعر العرب
للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

ذكرت من قبل كاتباً من كتاب اللغتين العربية والفارسية اسمه رشيد الدين الوطواط ، وبينت أنه عربي قرشي من ذرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وجعلته مثلاً لاختلاط الأمم الإسلامية بعضها ببعض، كما جعلته مثلاً لامتزاج الأدبين العربي والفارسي فى نفوس كثير من الفرس والعرب الذين استوطنوا بلاد فارس

وهذا موضوع واسع ؛ فما زالت بلاد الفرس تمدّ من مواطن الأدب العربي منذ جمعت أخوة الإسلام العرب والفرس وإن اختلفت الأحوال على مر الزمان

ومن الشعراء الذين نبغوا بتلك الديار وهم ينتمون إلى بيوت الخلافة ، الشاعران : المأمونى والواثقى، وهما من ذرية المأمون بن الرشيد والواثق بالله بن المعتصم . ومنهم أبو المظفر محمد بن أبى العباس الأبيوردى

فأما نسبته فإلى أبيورد ، وهى بلدة بخراسان فى شمالها الشرق ، وتعد اليوم فى التركستان الروسية . وهو من قرية من قرى أبيورد اسمها كوفن على ستة فراسخ منها ، بناها عبد الله ابن طاهر فى خلافة المأمون ؛ وقد ذكرها فى شعره فهو يقول عن الشام :

وتلك دار ورثناها معاويةً   لكن كوفن ألقانا بها الزمن

وأما نسبه فينتهى إلى أبى سفيان بن حرب ، بينهما ستة عشر أبا . وكان يتلقب المعاوىّ انتساباً إلى معاوية الأصغر وهو الجد التاسع من أجداده . وقد تلقب فى شعره بالأموىّ والمعاوىّ ، وأكثر من الافتخار بهذه النسبة فى شعره كقوله :

خذى قصبات السبق عنى فإنها   من الحى غيرَ ابن المعاوىّ حائز

وروى ابن خلكان أن الأبيوردى كتب رقعة إلى الخليفة المستظهر بالله وعلى رأسها « الخادم المعاوى » فكره الخليفة مكاتبته بذلك فكشط الميم من المعاوى فصار « الخادم العاوى »

— ٢ —

والأبيوردى من شعراء القرن الخامس الهجرى توفى سنة ٥٠٧ ولكن ابن خلكان يقول : وكانت وفاة الأبيوردى المذكور بين الظهر والعصر يوم الخميس لعشرين من ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة بأصبهان مسموماً وصُلى عليه فى الجامع العتيق بها رحمه الله تعالى

وهذا التاريخ الذى ذكره ابن خلكان والذى يظهر فيه التدقيق بذكر اليوم والساعة أدى إلى تضليل كثير من الناس فى تاريخ وفاة الأبيوردى . وقد وقع الغلط فى كلمة خمسين . فوفاته كانت سنة سبع وخمسمائة لا سبع وخمسين وخمسمائة

وفى حوادث سنة ٥٠٧ ذكر ابن الأثير وأبو الفداء وفاته . وكذلك أرخها بهذه السنة ياقوت الحموى فى معجم البلدان

ثم له مدائح كثيرة فى الخليفة المقتدى بالله المتوفى سنة ٤٨٧ وما أحسبه مدح المقتدى إلا بعد أن أمضى شطراً من شبابه فى خراسان ثم رحل إلى العراق . فبعيد جداً أن يعيش بعد المقتدى أكثر من سبعين سنة . وقد مدح أيضاً الوزير نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٦

— ٣ —

لم يقتصر فضل الأبيوردى على إجادة الشعر ؛ فقد كان واسع العلم بفنون كثيرة . روى ابن خلكان عن أبى زكريا بن مندة صاحب تاريخ أصبهان قوله فى الأبيوردى :

« فخر الرؤساء ، أفضل الدولة ، حسن الاعتقاد ، جميل الطريقة ، يتصرف فى فنون جمة من العلوم ، عارف بأنساب العرب ، فصيح الكلام ، حاذق فى تصنيف الكتب ، وافر العقل ، كامل الفضل ، فريد دهره ، وحيد عصره »

وروى ابن خلكان كذلك أن المقدسى صاحب كتاب الأنساب ذكره فى ترجمة المعاوىّ وقال : « إنه كان أوحد زمانه فى علوم عديدة ؛ وقد أوردنا عنه فى غير موضع من هذا الكتاب أشياء »

وقد نبه إلى هذا الغلط من قبل الصديق الأديب عباس إقبال فى كلمة أرسلها إلىّ حينما دعا الأستاذ على الطنطاوى إلى الاحتفال بمرور ثمانمائة عام على وفاة الشاعر، ونشرتها فى الرسالة

وكان يكتب فى نسبه المعاوىّ . وأليق ما وصف به بيت أبى العلاء المعرى :

وإنى وإن كنت الأخير زمانه ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وقال ابن خلكان : « وكان من أخبر الناس بعلم الأنساب نقل عنه الحفاظ الأثبات الثقات » ثم قال فى آخر ترجمته :

« وله تصانيف كثيرة مفيدة منها تاريخ أبيورد ، وكتاب المختلف والمؤتلف ، وطبقات كل فن ، وما اختلف وائتلف فى أنساب العرب . وله فى اللغة مصنفات كثيرة لم يسبق إلى مثلها . وكان حسن السيرة جميل الأثر له معاملة صحيحة »

هذا ما ذكره ابن خلكان وليس بين أيدينا اليوم مؤلف من هذه المؤلفات

— ٤ —

ولسنا نعرف من أخبار الشاعر وأسرته إلا نبذاً متفرقة فى الديوان . نجد فى الديوان مِدَحاً فى أبيه تدل على أنه من الكتاب وأنه ذو مكانة وجاه . ومدحة فى عمه تدل على أنه من الخطباء . ولعله كان خطيب الجمعة فى بعض البلاد ، وهو منصب له مكانة فى التاريخ الإسلامى . ونجده يمدح بعض الوزراء من أسرته ويمدح بعض بنى عمه وهكذا . ونجد فى الديوان قصائد فى مدح بعض أخواله من سروات العجم . ويدل الديوان على رحلات الأبيوردى فى أرجاء فارس وفى العراق والبلاد العربية . وكان الرجل طموحاً عيوفاً فلم يسكن إلى جانب من الأرض ، وهو يقول فى قصيدته التى هجا فيها فريبرز ملك شروان :

فقلت أين المحصلون ومن ... ينشر قوماً طوتهم الحقب ؟
وقد أخلق الفضل بالعراق وفى ... فارس لما اضمحلت الرتب
والشام أقوى وطالما عهدت ... لفارس النظم حلبةً حلبُ
فكيف يشتد صلب قاصدها ... ما دام للكفر حولها صُلب
وأى سوق تسوق قائدة ... قيامها يوم تعرض الخطب

وقد عرض عليه بعض الوزراء الكتابة فأبى وقال :

خليلى إن العمر ودعت شرخه ... وما فى مشيبى من تلاف لفارط
ألم تعلما أنى أنست لعطلة ... مخافة أن أبلى بخدمة ساقط
فلا تدعوانى للكتابة إنها ... طماعة راج فى مخيلة قانط
يتنافس فيها رعاع تهادنوا ... على دَخَن ما بين راض وساخط
وأنكرت الأقلام منهم أناملاً ... مهيأة أطرافها للمشارط
لئن قدمتهم عصبة خانها النهى ... فهل ساقط لم يحظ يوماً بلاقط ؟
وأى فتى ما بين بُرْدى قابض ... عن الشر كفيه وللخير باسط

وينبئنا الديوان بما كان بينه وبين الخلفاء العباسيين من مودة ، فله مدائح كثيرة فى الخليفتين المقتدى والمستظهر يشيد فيها بمجد العباسيين ، ويبالغ فى مدحهم ، ويذكر قرابته إليهم ، يقول فى مدح المقتدى :

أسير وأسرى للمعالى وما بها ... لطالبها إلا لديك لحوق
وقد ولدتنى عصبة ضم جدهم ... وجد بنى ساقى الحجيج عروق

ونجده فى قصيدة يطلب من المستظهر داراً تقيه برد الشتاء يقول :

فهذه شتوة ألقت كلاكلها ... حتى استبد بصفو العيشة الكدر
ومنزلى أبلت الأيام جدته ... فشفنى البليان الهم والسهر
وللفؤاد وجيب فى جوانبه ... كما يهز الجناح الطائر الحذِر
تحكى عناق محب من يهيم به ... إذا تمانقن فى أرجائه الجدُر
ولن تقيم به نفس فتألفه ... إذ ليس للعين فى أقطاره سفر
والسقف يبكى بأجفان الشوق إذا ... أرمي به هَزِيمُ الأنطاء منهمر
وما سرى البرق والظلماء عاكفة ... إلا وفى القلب من نيرانه شرر
وابن المعاوى يهوى أن يكون له ... مثنى ببغداد لا تخشى به الغير
مثوى يدافع عن كتبى — وأكثرها ... فيه مديحك — أن ينتالها المطر

كذلك نعرف من الديوان أنه فارق العراق كارهاً ، وأن جماعة هنالك منهم وزير للخليفة قد أساءوا إليه . فلما أرسل إليه الخليفة يعاتبه على مفارقة بغداد أجاب بقصيدة فيها هذه الأبيات :

بغداد أيتها المطى فواصلى ... عَنَقاً تئن له القلاص الضمَّر
إنى وحق المستجن بطيبة ... كلف بها ، وإلى ذراها أصور
وكأننى مما تسوله المنى ، ... والدار نازحة ، إليها أنظر

إلى أن يقول :

فصددت عنها إذ نبابى معشرى ... وبغى على من الأراذل معشر
من كل ملتحف بما يصم الفتى ... يؤذي فيظلم أو يخون ويغدر
فنفضت منه يدى مخافة كيده ... إن الكريم على الأذى لا يصبر

ثم يكتب من أصبهان إلى بعض أصدقائه بمدينة السلام يعرب عن حنينه إليها :

نحن إلى ماء الصراة ركائبى ... وصحبى بشطى زرنروذ[1] حلول

(١) تعريب زنده روذ : اسم نهر بأصفهان

أشوقا وأجوازُ المهامه بيننا / بطيخ وجيف دونها وذميل
ألا ليت شعرى هل أرانى بغبطة / أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لا يغبّه / نسيم كلحظ الغانيات عليل

إلى أن يقول :

فقل لأخلائى ببغداد هل بكم / سُلوٌّ فعندى رنة وعويل
برِّحنى ذكراكم فكأنما / تميل بى الصهباء حيث أميل
لئن قصُرت أيام أنسى بقربكم / فليلى على نأى المزار طويل

— ٥ —

ويبين فى شعر الأبيوردى اعتداده بنفسه واعتزازه بنسبه ، وإباؤه وكبرياؤه وعفته ، مع طموحه وبعد آماله . وقد قال عنه ابن منده الذى ذكرناه آنفاً : « وكان فيه تيه وكبر وعزة نفس . وكان إذا صلى يقول : اللهم ملكنى مشارق الأرض ومغاربها »

أقول وهى دعوة عجيبة لا أحسب صاحبها يقنع بملك بنى أمية الذى امتد من السند إلى المحيط الأطلسى وجبال البرانس

وفخر الأبيوردى بعربيته وأمويته يلقاه قارئ الديوان تصريحاً وكناية فى مواضع كثيرة . يقول :

أنا ابن الأكرمين أباً وأماً / وهم خير الورى عماً وخالاً

إلى أن يقول :

وهم فتحوا البلاد بباترات / كأن على أغرتها نمالا
ولولاهم لما درت بفىء / ولا أرعى بها العرب الفصالا
وقد علم القبائل أن قومى / أعزهم وأكرمهم فعالا
وأصرحهم إذ انتسبوا أصولاً / وأعظمهم إذا وهبوا سجالا
مضوا وأزال ملكهم الليالى / وأيةُ دولة أمنت زوالا ؟

وقال أيضاً :

وقالت سليمى إذ رأتنى لتربها / وراقهما وجه أغر مهيب :
أظن الفتى من عبد شمس فإن يكن / أبوه أبا سفيان فهو نجيب
أرى وجهه طلقاً يضيء جبينه / وأحسب أن الصدر منه رحيب
سليه يكلمنا فإن اختياله / على ما به من خَلة لعجيب
فقلت : غلام من أمية شاحب / بأرضكما نائى المزار غريب

وقال فى شعر الصبى :

قالت لصحبى سراً إذ رأت غرمى / من الذى يتمدى مهره خببا ؟
فقال أعلمهم بى : إن والده / من كان يجهد أخلاف العلى حلبا
وذا غلام بعيد صيته وله / فصاحة وفعال زيّن الحسبا
وظل ينشدها شعرى ويطربها / حتى رأته بذيل الليل منتقبا
فودعته وقالت يا أخا مضر / هذا لعمرى غلام يعجب العربا

(البقية فى العدد القادم)

عبد الوهاب عزام

الحديث ذو شجون

للدكتور زكى مبارك

أثواب الخطباء — فتنة أندلسية — تأثير البيئة — الوزراء الأدباء — الدكتور طه حسين — النزعة الكلبية — صديقى فلان — كيف نحب الريف — برج بابل — بريد العراق — العقد الفريد — هل تصلح هذه الأيام لأغاريد الوجد والحنين ؟

أثواب الخطباء

صح عندى بعد الاستئناس بمصادر كثيرة أن مسوح الرهبان(١) كان لها تأثير فى الوضع الذى صارت إليه أثواب الصوفية ، لأن الترهب والتصوف قريبان جداً من الناحية الروحية ، بغض النظر عن اختلاف الدين

ثم بقى النظر فى اللون المختار لأثواب الرهبان وهو السواد ، فهل تأثر به أحد من المسلمين ؟ وهل كان السواد من علائم الرزانة فى أوقات الاهتمام بعظائم الشؤون ؟

وجدت شاهداً صريحاً فى إيثار الخطباء للثياب السود ، وهو ما أنشد المقدسى على لسان غراب البين ، أبعده الله :

أنوح على ذهاب العمر منى　　وحقٌ أن أنوح وأن أنادى
وأندب كلما عاينت ركباً　　حدا بهمُ لوشْك البين حادى
يمنقنى الجهول إذا رآنى　　وقد ألبست أثواب الحداد
فقلت له اتعظ بلسان حالى　　فإنى قد نصحتك باجتهاد
وها أنا كالخطيب وليس بدعاً　　على الخطباء أثواب السواد

ومعنى هذا أن الغراب لبس السواد لأنه وقف وقفة الخطيب ، فهل يكون هذا التقليد رجعة إلى الأثواب الرهبانية ، وكانت تحاك من الشعر الأسود ؟

وعمن أخذ الرهبان لون السواد ؟

أخذوه من رهبة الليل ، فسواد الظلام يشيع فى النفس معانى الانقباض والاستيحاش . ومن أجل ذلك كان السواد شعار المحزونين

فتنة أندلسية

وبهذه المناسبة أذكر بيتين يشهدان بأن أهل الأندلس كانوا فى الحداد يلبسون البياض لا السواد ، فقد قال أحد الشعراء :

يقولون البياضُ لباسُ حزنٍ　　بأندلسٍ وذاك من الصواب
ألم ترنى لبست بياض شيبى　　لأنى قد حزنت على شبابى

تأثير البيئة

وأذكر بهذه المناسبة أيضاً أن الذين زاروا الأندلس من أهل المشرق كان فيهم من دهش حين رأى بعض القضاة يجلسون للحكم بين الناس ورءوسهم عارية ، ولم يفهم أن هذا من تأثير البيئة ، فأهل أوربا ينزعون أغطية الرءوس فى المواقف الجدية ، وبهم تأثر العرب فى الأندلس ، فكان من قضاتهم من ينزع عمامته عند الجلوس للحكم بين الناس

ولكن عمن أخذ الشيخ « فلان » خلع العمامة والاكتفاء بالطاقية فى إحدى المحاكم الشرعية ؟

أبق عمامتك على رأسك ، يا شيخ فلان ، فقد حدثنى من أثق بروايته أن المحتكمات إليك من الملاح لا يرين ما تراه من ذلك التظرف « المقبول » وفيهن من ترى أن الطاقية لا تصلح غطاء لرءوس رجال الشرع الشريف !

وغفل المقّرى صاحب نفح الطيب عن تأثير البيئة حين نص على أن أهل الأندلس تفردوا بشرب الخمر على قارعة الطريق ، وأقول إن هذا من تأثير البيئة الأوربية ، وليس شاهداً على استخفاف أهل الأندلس بواجب التستر عند اقتراف المحرّمات

الوزراء الأدباء

يظهر أنى رجلٌ متعب، كما يقول الدكتور طه حسين، فلى فى كل يوم مشكلات مع أصحاب الرأى والبيان، ولن يكون للمتاعب التى أسوقها إليهم وإلى نفسى حدود

وكلمة اليوم أوحاها تعيين معالى الأستاذ دسوقى أباظه وزيراً للشئون الاجتماعية ، وهو أديب كبير كانت له صولات فى جرائد الحزب الوطنى ، فما الذى ينتظر الأدب من معاليه وقد صار قوة تنفيذية تقدم وتؤخر فى شؤون الدولة والمجتمع ؟

تولّى المناصب الوزارية فى الأعوام الأخيرة رجال من كبار الأدباء ، من أمثال مصطفى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل ومحمد على علوبة وأحمد نجيب الهلالى وإبراهيم عبد الهادى وعبد القوى أحمد ومحمود فهمى النقراشى، فماذا استفاد الأدب من هؤلاء الوزراء الأدباء؟

سيجيبون بأنهم لم يقدموا إساءة لأى أديب

(١) المسوح جمع مسح بكسر الميم ، كما ضبطه الفيومى فى المصباح ، والمعاجم تقول هو البلاس — على وزن سلام — ونص بعضهم على أنه البلاس فارسى معرب ، ومعجم Kazimirski يجعله من أغطية الدواب

وأجيب بأن سكوتهم عن تشجيع الأدب ليس إلا صورة من صور الإيذاء

هل تصدّقون أن بعض هؤلاء الوزراء لم يكن يلقى أحداً من الأدباء إلا وعلى جبينه عبارة تقول : إبعدوا عنى !!

وهل تصدقون أن معالى الأديب العظيم هيكل باشا لم يتلقّ كتاب التصوف الإسلامى يوم أهديته إليه إلا بعبارة : كل كتاب وأنت طيب !

كل كتاب وأنا طيب ، يا معالى الوزير المؤلف ؟

ومتى يتسع العُمر ويسمح الزمان بأن أؤلف كتاباً مثل كتاب التصوف الإسلامى ؟

وإذا لم يظفر المؤلفون بتشجيع الوزراء الذين يعرفون متاعب التأليف ، فنى أىّ عهد ننتظر كلمة اللطف وقد أقذينا عيوننا تحت أضواء المصابيح ؟

لقد بُحَّ صوتى فى الدعوة إلى اعتراف الدولة بالقِيَم الأدبية فلم يسمع سامع ولم يستجب مجيب ، وظل الأدباء مشرَّدين لا يعرفهم غير الحظ الضائع فى بلاد لم يرها شاعرنا حافظ « دار الأديب » مع أنها فيما نحب أن يقال أول مهد للعلوم والآداب والفنون .

إن هؤلاء الوزراء نفعهم الأدب أجزل النفع ، فتى ينتفع بهم الأدب ؟ ومتى يظهر أنهم لم ينسوا التفكير فى أن يدينوه كما دانهم ؟ ومتى نسمع أن الحياة الأدبية تنتعش وتزدهر بفضل الوزراء الأدباء ، كما كانت الحال فى عهود أسلافنا الأماجد بالمشرق والمغرب ؟

الدكتور طه حسين

فى أخبار الجرائد أن الدكتور طه حسين بك لم يذهب إلى مكتبه بوزارة المعارف منذ أيام . ويظهر من الخطاب الذى نشره فى جريدة البلاغ أن ناساً كانوا يحبون أن يواجه الأمور بمداورة وتلبيس !

وأقول إن كفاية الدكتور طه لا تحتاج إلى برهان ، ولكنه سيندم طويلاً « وطويلاً جداً » على الفرصة التى أضاعها على نفسه قبل أن تستفحل أزمة الورق ، فقد نبهته مرات كثيرة إلى أن مراقبة الثقافة العامة لن يكون لها وجود ملحوظ إلا إذا أسندت بطائفة من المطبوعات الجياد ، وأشرت عليه بأن يسارع فيقتنى لمراقبة الثقافة ذخيرة من ورق الطبع قبل أن يرتفع ثمنه وقبل أن ينفد من الأسواق

وهو اليوم يترك مراقبة الثقافة العامة بلا أثر ظاهر يذكره الناس ، فإن رجع إليها فليغير من مسلكه فى تناول الأشياء ، فقد كان يفهم أن الاقتراحات والفروض هى كل شىء فى الدلالة على مواهب الرجال

والأمل كبير فى أن يرجع الدكتور طه لعمله بوزارة المعارف وأن يتدارك ما فاته من تحقيق المشروعات الجدية فى الترجمة والتأليف ، فظهور كتاب أو كتابين أنفع من ألف اقتراح واقتراح؟

النزعة الكلبية

يلقاك بعض المعارف فى الطريق فيسألك عن وجهتك ، ولا يستريح إلا حين يعرف أين تريد وماذا تريد ، كأنه من الأوصياء عليك !

ويدخل أحد الأصدقاء بيتك فيبالغ فى التعرف إلى ما فيه من حُجُرات وغُرُفات ، ولا يهدأ إلا بعد أن يعرف من دخائل بيتك كل شىء ، كأنه مسئول أمام بعض الجهات عن تقديم تقرير مفصَّل عن حياتك المنزلية !!

ويرى بعض الناس أن من حقه أن يعرف مرتبك بالقرش والمليم ، وأن يعرف كيف تنفق ذلك المرتب ، وماذا تدّخر من بواقيه الطفيفة ، ولأى غرض تدّخر ما ادخرت ! !

ومن الأصدقاء من يسأل عن أثاث بيتك ليعرف الأثمان ، ثم يناقشك فى الجزئيات كأنه ابن نجّار أو حدّاد أو سمسار ، والعياذ بالأدب والذوق !

ومنهم من يسألك عن أملاكك فى الريف ليعرف ما تملك من قراريط أو فدادين ، وكأنه « خاطبة » ستجاب خاطباً لأختك أو بنتك !

وفى هؤلاء من يسألك عن الربح الذى تجنيه من مقالاتك ومؤلفاتك . وفيهم من يسألك عن أثمان أثوابك ونعالك ، كأنه ابن بزّاز أو حذّاء ! !

فكيف تقع هذه المزعجات من بعض الناس وأكثرهم على شىء من الذكاء ؟

الجواب سهل ، وهو أن فى بعض الناس نزعة كلبية ، والكلب حين يدخل بيتاً لا يترك فيه بقعة بدون أن يشمها بشرهٍ فظيع ممقوت !

فيا بنى آدم ، إياكم ثم إياكم من التخلق بأخلاق الكلاب !

صديقي فلان

أما صديقي فلان فهو غاية في الأدب والذوق : يدخل بيتك فيجلس حيث تحب أن يجلس ، ولا يمتد بصره إلى اختبار ما في البيت من أثاث ورياش ، ولا يسأل أبداً عن ربة البيت إلا أن يتلطف زوجها فيدعوها للتسليم عليه ، مع أنها قد تكون من بنات الأعمام أو الأخوال ؛ وإذا قُدِّم إليه طعام أقبل عليه بشهية ، كأنه أطيب ما رأى من ألوان الطعام ، ولو كان ممموداً لا يأكل إلا بمقدار وفي وقت محدود ؛ وإذا حضر الأطفال لتحيته تلقّاهم بما يحبّون ، ولا يسألهم عن دروسهم إلا بأسلوب يمكّنهم دائماً من الجواب ، ليأنسوا به وليُدخل على قلوبهم قبساً من نور التشجيع . وإذا عُرِض عليه خلاف سوّاه بلطف ورفق ، لتكون زيارته مرحلة من مراحل التاريخ السعيد . وإذا دخلت عليه صبية دعا لها بالخير وتحدّث عن صباحتها بأدب ولطف . وإذا رأى أن القرية أكثرها بنات كان من واجبه أن يصرّح بأن لله حكمة في ذلك ، فن الخير للانسانية أن تكثر البنات في المغرس الشريف . وإذا رأى عجوزاً واساه وأعلن أن الرجل لا يصل إلى الشيخوخة إلا وهو بنجوة قوية لا تهددها عواصف المشيب . وإذا رأى مريضاً بشّره بقرب العافية ، وأعلن أن مرضه من العوارض الوقتية ، وأنه يعرف مئات كانوا في مثل حاله ثم صاروا في مثل عافية الفرس الجموح . وإذا اعتذر أهل البيت عن مظاهر البساطة في تكوين الأثاث كان عليه أن يقول إن هذا من أدب المعاش ، وإن الإفراط في الزخرف ليس من أدب العقلاء . وإذا رأى البيت على جانب من الزينة والبهجة والنضارة كان عليه أن يعلن إعجابه بما ترى عيناه ، وأن يصرّح بأن أهل البيت لم يريدوا إلا إعلان الحمد والثناء على المنعم الوهاب

فما رأيكم في أخلاق هذا الصديق ؟ ؟

لقد عرفت أنه ما دخل بيتاً ورأى فيه شيئاً غير جميل ، ولا صحب صديقاً وسأل عن أخباره المطويّة ، ولا سمع في صديق كلمة سوء ، ولا استباح التعقب لمسالك المعارف والأصحاب ، ولا كان من همه أن يتخذ الأصدقاء دريئة يدفع بها عاديات الكوارث والخطوب

صديقي هذا يرى للصداقة قدسية منزهة عن شوائب المنافع ، وإن كان لا يضيع فرصة يملك فيها القدرة على نفع الصديق ! !

ما رأيكم في أخلاق هذا الصديق ؟ ؟

أنا أرى هذه الشمائل غاية في الكمال والجمال ، وأرى التحلي بها واجباً على من يهمه الظفر بثقة المجتمع . ولو شئت لقلت إن الإكثار من الصلاة والصيام لا يغني عن التحلي بهذه الصفات ، لأنها أصدق في الدلالة على صفاء القلب وطهارة الروح ، ولأن التحلي بها لا يكون إلا بعد رياضات عنيفة تُقهر فيها نزغات النفوس والأهواء

كيف نحب الريف

تفضل الدكتور عبد الرحمن عمر فدعاني لتناول الغداء في داره بالريف ، فعرفت كيف يطيب له أن يهجر مصر الجديدة أياماً وأسابيع ، وعرفت كيف استطاع سعادة الأستاذ الجليل عبد العزيز فهمي باشا أن يجمل مُقامه المختار في الريف

الدار الجميلة هي التي تجعل القرية أحب إلينا من المدينة ، فجمّلوا بيوتكم في الريف لتشتاقوا إليه ، ولتذيعوا بين أهليكم ذوق الأناقة في بناء البيوت ، فأكبر عيوب مصر هو حرمان ريفها الجميل من التأنق في بناء البيوت

وبعض الناس يتوهمون أنه لا يجوز للرجل أن يقيم داراً جميلة في الريف إلا إذا كان له أملاك واسعة في الريف ، وأقول إن الدار الجميلة هي في ذاتها ملك نفيس ، فلا تنسوا هذا المعنى ، ولا يفتكم أن تكونوا من أصحاب المنازل في الريف وإن لم تكن لكم فيه أملاك

برج بابل

كان في مقال « برج بابل » الذي نشرته « الرسالة » منذ أسابيع إشارات إلى ما قد يحلّ بالإسكندرية ، فهتف الأستاذ عبد اللطيف النشار يقول :

كذَبتْ (بابلُ) فيما زعمتْ لن يصيبَ (الثغر) شرٌّ أبداً
ثم عاد فأبدى أسفه لتحقق النبوءة البابلية

وأقول : ليت تلك النبوءة كانت من كواذب الأوهام والظنون ، فما رأينا من تحققها غير الكرب والويل !

ثم يخاطبني النشار فيقول :

عهدتُك لا يخيفك ما يُخيفُ فهل يحظَى برؤيتك المصيفُ

وأقول : إني لا أملك الصدوف عن هوى الاسكندرية ، وسألقاكم بها في هذا المصيف ، ولو بَغَى العدو واستطال ، فأنا

لم أشبع من الاسكندرية أيام الأمن ، وهى أقل طيباً من أيام الخوف

ثم يقول النشار : علمت أنك نقلت كتبك إلى سنتريس ، فأنت الجدير إذن برثاء مكتبة الاسكندرية الثالثة ، فهل تجيز : لا تذكر اليوم « يوليوسا » ولا « عمرا »

عِلمُ القرون الخوالى مر واندثرا
وانظر لمكتبة الثغر التى صُعقت فلا كتاباً ترى فيها ولا حجرا

وأقول : إنى لم أكن أعرف أن مكتبة الاسكندرية أصابتها الغارات الأخيرة ، فإن كان ذلك فمن حق أن أسجل أن أعداء الأسكندرية يعرفون فى كل عصر أن ثروتها الصحيحة فى تراث الأفكار والعقول ، فهم يحملون « المكتبة » أعظم الأهداف

وما شأن « عمر » فى هذه القضية ، وقد قامت البراهين على أن اتهامه بإحراق مكتبة الاسكندرية لم يكن إلا إشاعة روجها أعداء العرب والمسلمين ؟

بريد العراق

تلقيت اليوم رسالة من العراق ، ونظرت فى التاريخ فرأيتها قطعت الطريق فى شهرين وثلاثة أيام ، فمتى يرجع العهد الذى كان يسمح بأن يصل بريد العراق فى أقل من يومين ؟

كان بريد العراق كله جوياً وبخمسة عشر مليما ، فمتى يعود ذلك العهد ؟ متى يعود ؟

وكان محصول المجلات المصرية حديث الناس فى جميع الأندية العراقية ، فأين حديثهم اليوم وقد جدت خطوب تبلبل الأرواح والقلوب ؟

ليتنى أعرف ما صار إليه أصدقائى فى تلك البلاد . فما أظلمَ ليلٌ ولا أشرق صباح إلا وأنا بأخبارهم مشغول . وهل كانت لوعة الشريف الرضى أقسى من لوعتى حين قال :

ومن حَذَرٍ لا أسأل الركب عنكمُ
وأعلاقُ وجدى باقياتٌ كما هيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائبٍ
فلا بدّ أن يَلقَى بشيراً وناعيا

فهل يتفضل أصدقائى هناك فيعفونى من كرب هذا السؤال ؟

أجيبوا ؛ يا أصدقائى ، أجيبوا ، فلى عليكم لهفة لا يطفئها غير اليقين بأنكم فى سلام وأمان

العقد الفريد

ظهرت الطبعة الجديدة من « العقد الفريد » بتحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، وفى رونق لطيف تهيأ عليه « المكتبة التجارية » التى لم يَعُقها غلاء الورق عن الإنفاق على طبعه بسخاء

ومن القليل جداً أن ننوّه بجهود الأستاذ العريان فى تحقيق هذا الكتاب ، فله مجهودات كثيرة لم تأخذ حقها من الثناء ، فنوجّه إلى هذه الطبعة نظر « الأستاذ الجليل » والأستاذ « ا . ع » فمنذهما من الوقت ما يسمح بالنظر فى نصوص هذا الكتاب بأسلوبهما الجيد فى التحقيق

كنت نسيت

فى الحوار الذى دار بين الأستاذ محمود البشبيشى وابنه النجيب حسين إشارة إلى أنى كنت أكتب فى الوجدانيات ، فمتى كان ذلك ؟ ذكّرونى فقد نسيت !

أنا أكتب فى الوجدانيات ؟ أنا ؟

لعل ذلك كان قبل أن تصير الدنيا إلى ما صارت إليه من الرعب والخوف والانزعاج

إن البشبيشى وابنه يقيمان فى بلد أمين هو المنصورة العصماء ، وأنا أقيم فى بلدٍ مهدَّد بالغارات الجوية ، إلا أن يلطُف الله بما فيه من كنوز السِّحر والفتون

والحق أنى لم أنس واجبى فى التشوف إلى مطالع الأقمار ومشاوق الشموس ، ولكن أين من يسمع فى هذه الأيام أغاريد الوجد والحنين ؟!

زكى مبارك

أنّة وزفـــير

للسيدة الفاضـلة « ليلى »

[إلى أرواح الشهداء والضحايا ، وإلى المنكوبين ، وإلى أولى الرحمة من أغنيائنا الموسرين ، كلمة من قلب حزين ، بل إلى أخاطب الشعب كله ، لنساهم فى الأجر العظيم . لنمسح على رؤوس اليتامى ، ولنضمد جروح الثكالى والأيامى ، ولنساعد المهاجرين المشردين ، والله من ورائنا رزاق معين]

« ليلى »

إن كارثة الإسكندرية من الحوادث الدامية التى تمس شغاف القلب وتتغلغل آلامها فى النفس . هى فاجعة الجميع وحسرة الوطن وصرخة الإنسانية . هى العذاب المر والظلم المبين والصاعقة بغير موعد ولا إنذار . هى الخوف والفزع ، والرعب والهلع . هى النار تندلع ، والهوة تبتلع . هى النحيب والعويل ، ودماء الأبرياء تسيل . هى الهول والوحشية . هى أنات وجراح ، وبكاء ونواح . هى ثكل ويتم وفقر وعُدم . هى ذل وتشتيت وضياع وتبديد . هى قسوة ما فوقها قسوة ، ونكبة ما بعدها نكبة . ولئن بكينا فما جدوى البكاء ؟ ولئن أشفقنا فما ثمرة الإشفاق ؟ من ذا الذى لم يشفق ولم يتألم ؟ كلنا واله متحسر ؛ ولكن ليست المساهمة فى الرثاء والبكاء ، وإنما هى مساعدة فعلية لهؤلاء الضحايا الأبرياء . أشعروهم بالرحمة ، وليعاونهم كل امرىء بما يستطيع . كم من بيوت كبيرة تسع العشرات ! وكم نساء شريدات حائرات ! أطفال فى نعيم ، وأطفال فى جحيم . بطون مكتظة بألوان الطعام ، وأخرى خاوية من الجوع لا تنام . ذل فوق ذل وحسرات تتبعها حسرات . . . آه لليتيم : فقد الأب الحانى الرحيم . واحسرتاه للأرملة تنوح من قلب حزين : فقدت الموئل والعائل ، واستقبلت الشقاء والهوان ، وفى كنفها أطفال يطالبونها بالقوت والحنان ، ستواجه حاجة العيش الملحة . ستريق ماء الوجه وتستنفد كل إحساسها فى سبيلهم . وا رحمة للعجوز الثكلى ، ادخرت ولدها للأيام وكان كل أملها وسند شيخوختها ، فذهب من يدها وغدا حلماً من الأحلام ! ولو كان هماً واحداً لاحتُمل ، ولكن الكارثة عامة ، والفاجعة طامة : إنه ولد وأولاد وآباء وأمهات ، بيوت وأموال طغى عليها الدمار ، فهرع أهلها فزعين لاجئين يطلبون رحمة المحسنين المتصدقين

أيها السادة الأغنياء ، رحمة بالتعساء الأشقياء ! إنهم إخوانكم فى الدين والوطن . حمّ القضاء ، فما استطاعوا له رداً . فوجئوا بالدوىّ والزئير ، فإذاهم أشلاء تطير . صرخوا يسترحمون القضاء ، فنفذ فيمن نفذ فيهم القضاء ، وهوت الدور بساكنيها وهم فى غمرة الذعر والذهول ، وتطايرت الشظايا تهرىُ اللحم وتنزف الدم ، والآلام القاسية تتجاوب أصداؤها من حنايا الأجسام . ومن قدر له النجاة انطوى على نفسه لوعة وحسرة : فقد فقدَ العزيز والنفيس والتالد والطريف ، هى فى الحق كارثة يعجز القلم عن وصفها

فهل تقر أعيننا ونهدأ مضاجعنا ؟ وهل نشعر بالطمأنينة والسعادة ، وتتوفر لنا الغبطة والهناءة ، وصراخ المنكوبين واصلٌ آذاننا ، وبكاء الحيارى المشردين ماثل أمامنا ؟! كيف نرقد على وثير الفراش ومن إخواننا من يفترش الأرض ؟ كيف ننعم بأطايب الأكل والشراب ، وغيرنا يشقى بالجوع والخراب !

أيتها القلوب تفجرى بالرحمة ، أيتها الأيادى الكريمة فيضى بالإحسان !

لقد تمنوا الموت على حياة رخيصة عليهم بعد الأحباء ، لقد تمنوه خشية البؤس والإملاق . مَن أحق بالرحمة من مجروح الجسم والفؤاد لا يجد آسيا لجسمه ولا مواسيا لقلبه ؟ ما أحرانا وقد وقانا الله شر ما ناله بألا نتوانى فى مساعدته ولا نحجم عن إعانته ! إنه القرض الحسن يضاعفه لنا الله ويدرأ عنا به الشرور .

إن البر هو الطائر الميمون إلى الجنة ، به تغتفر الذنوب وتمحى السيئات . رب لماذا قدرت على هذا البلد الآمن أن يحل به هذا الشقاء ؟ إن شعبه قانع بملك هذه القطعة الصغيرة من أرضك . إنه بلد مضياف تنزله كافة الشعوب على الرحب والسعة يقاسمون أهله أرزاقه ، ويستحلون نطاقه ، بل يقاسمونه قسمة ضيزى : لهم الغنم وعليه الغرم

رباه ! إلى متى يحلم الخالق ويطغى المخلوق ؟

فى الاجتماع اللغوى

اللهجات العامية الحديثة

لموائلها ومبلغ بعد كل منها عن الفصحى

للدكتور على عبد الواحد وافى

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

— ٥ —

لم يصل إلينا عن هـذه اللهجات قبل القرن التاسع عشر إلا معلومات ضئيلة ، بعضها مستقى من إشارات جاءت فى ثنايا كتب القواعد والأدب ، وبعضها من أغانىّ شعبية وردت فى مقدمة ابن خلدون وتاريخه ، وبعضها من كتب ألفت بلغة بين العامية والعربية الفصحى ، ككتاب « ألف ليلة وليلة »

ولم يعن العلماء بدراسة هذه اللهجات دراسة جدية إلا منذ القرن التاسع عشر . وقد قسموها إلى خمس مجموعات تشتمل كل مجموعة منها على لهجات متقاربة فى أصواتها ومفرداتها وأساليبها وقواعدها ، ومتفقة فى المؤثرات التى خضعت لها فى تطورها : إحداها مجموعة اللهجات الحجازية — النجدية (وتشمل لهجات الحجاز ونجد واليمن) ؛ وثانيتها مجموعة اللهجات السورية (وتشمل جميع اللهجات العربية[1] المستخدمة فى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) ؛ وثالثتها مجموعة اللهجات العراقية (وتشمل جميع اللهجات العربية[2] المستخدمة فى بلاد العراق) ؛ ورابعتها مجموعة اللهجات المصرية ؛ وخامستها مجموعة اللهجات المغربية (وتشمل جميع اللهجات العربيـة[3] المستخدمة فى شمال أفريقيا)

وتشتمل كل مجموعة من هـذه المجموعات على طائفة كبيرة من اللهجات ؛ وتنقسم كل لهجة إلى عدة فروع ؛ وينشعب كل فرع إلى شعب كثيرة تختلف باختلاف البلاد التى تستخدمه . وإليك مثلاً مجموعة اللهجات المصرية : فهى تنقسم إلى مئات من اللهجات ، وكل لهجة من هذه اللهجات تنقسم إلى عدة فروع وشعب ، تختلف باختلاف البلاد الناطقة بهـا ؛ حتى أنك لتجد بين القريتين المتجاورتين المنتميتين إلى لهجة واحدة خلافاً واضحاً فى كثير من مظاهر الصوت والمفردات والتراكيب والأساليب

ومع كثرة وجوه الخلاف بين هذه المجموعات الخمس ، فإن المتكلمين بإحداها يستطيعون ، مع شيء من الانتباه ، أن يفهموا كثيراً من حديث أهل المجموعات الأخرى ، لاتفاقها فى معظم أصول المفردات وفى القواعد الأساسية ومنحى الأساليب .

وأدنى هذه المجموعات إلى العربية الفصحى مجموعتا اللهجات الحجازية والمصرية . أما اللهجات الحجازية فلنشأتها فى المواطن الأصلية للعربية الفصحي ، ولأن معظم أهل الحجاز ونجد ينتمون إلى عناصر عربية خالصة . وأما اللهجات المصرية فلأن صراع

(١) قيدنا هـذه اللهجات بالعربية لاخراج اللهجات غير العربية التى يتكلم بها بعض طوائف فى سوريا ولبنان . ومن أشهر هذه اللهجات لهجة منحدرة من الآرامية يتكلم بها إلى الوقت الحاضر فى ثلاث قرى سورية ، وهى معلولة وصيدنايا ويبرود

(٢) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لاخراج اللهجات العراقية المنحدرة من أصل غير سامى كاللهجات الكردية والمنحدرة من أصل سامى غير عربى كاللهجات الآرامية التى لا يزال يتكلم بها إلى الوقت الحاضر فى بعض قرى فى طور عابدين وبعض بلاد فى شرق الموصل وشماله وجبال الكرد والشاطىء الشرقى لبحيرة أورميا

(٣) قيدنا هذه اللهجات بالعربية لاخراج اللهجات البربرية التى لا يزال يتكلم بها إلى الوقت الحاضر بعض عشائر فى المغرب وخاصة فى المغرب الأقصى

ألست أنت سبحانك جبار الأرض والسماء ؟ أتترك من يعيث فى الأرض فساداً ، ويقول تكبراً وعناداً : أنا القهار الأعلى . رب رحمة بالبلاد والعباد ، فأنت مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء . لتكن رحمتك أو يحل الميعاد ، فقد ذهب السلام من الأرض وتناحرت وحوش الإنسانية وتكالبت على المال والمتاد . وهذا جبار طاغية وآخرون طغاة يريدون أن يرثوا الأرض ومن عليها ، وللأرض وارث واحد بالمرصاد . اللهم ارحم الفقير والأجير واليتيم والأسير ، وادفع عنا شر هذه الحرب الضروس . اللهم اهد الخلق لما فيه الخير والسلام . اللهم خفف عن الحزانى حزنهم ، وعن المهاجرين بؤسهم ، وعوضهم خيراً عن يتمهم وثكلهم وبيوتهم ومالهم ، إنك أنت الرحمن الرحيم ، كتبت على نفسك الرحمة ، ووعدت بالخير عبادك المتصدقين ، والله ولى الجميع

« لبيب »

العربية مع اللسان القبطى الذى كان يتكلم به أهل مصر قبل الفتح العربى لم يكن عنيفاً ولم تلق فى أثنائه اللغة العربية مقاومة ذات بال ؛ ومن القرر أن اللغة التى يتم لها الغلب بدون كبير مقاومة تخرج من صراعها أقرب ما يكون إلى حالتها التى كانت عليها من قبل [١] . هذا إلى أن معظم أهل مصر منحدر من عشائر عربية الأصل .

وأبعد هذه المجموعات عن العربية الفصحى المجموعتان العراقية والمغربية . أما العراقية فلشدة تأثرها بالآرامية والفارسية والتركية والكردية ، حتى أن قسما كبيراً من مفرداتها وبعض قواعدها غير عربى الأصل ؛ ولذلك يجد المصرى مثلاً صعوبة كبيرة فى فهم حديث العراق [٢] . وأما المغربية فهى أبعد اللهجات العامية جميعاً عن العربية الفصحى . ويرجع السبب فى ذلك إلى شدة تأثرها باللهجات البربرية التى كان يتكلم بها معظم السكان قبل الفتح العربى . فقد انحرفت من جراء ذلك انحرافاً كبيراً عن أصولها الأولى فى الأصوات والمفردات وأساليب النطق وفى القواعد نفسها [٣]

ولهجات البدو فى جميع هذه البلاد أفصح كثيراً من لهجات الحضر ، وأقل منها فى الكلمات الدخيلة ، وأدنى منها إلى العربية الفصحى . ولذلك نرى أن لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر [٤] وخاصة العشائر التى لم تبعد كثيراً عن حالتها البدوية القديمة ، أفصح كثيراً من لهجات المصريين ، وأكثر منها احتفاظاً بالأصوات العربية ، وأدق منها فى إخراج الحروف من مخارجها . فهى لا تزال محتفظة بأصوات الذال والثاء والظاء التى انقرضت من اللهجات المصرية ؛ وأوزان كلماتها أقرب ما يكون إلى الأوزان العربية الصحيحة ، ويندر أن نعثر فيها على مفرد غير عربى الأصل

ولهجات القرى فى جميع هذه المناطق أفصح من لهجات المدن وأقل منها فى الكلمات الدخيلة ، وأدنى منها إلى العربية الفصحى . ويرجع السبب فى ذلك إلى ميل سكان القرى إلى المحافظة وقلة احتكاكهم بالأجانب

* * *

وعلى الرغم من تعدد لهجات المحادثة فى هذه الأمم على الصورة التى وصفناها ، فإن لغة الآداب والكتابة فيها واحدة ؛ وهى تتمثل فى جلتها اللغة القرشية التى نزل بها القرآن . ولكنها قد تطورت فى تفاصيلها تطوراً كبيراً تحت تأثير عوامل كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — اقتباس مفردات أفرنجية بعد تعريبها للتعبير عن مخترعات أو آلات حديثة ، أو مصطلحات علمية ، أو نظريات ، أو مبادئ اجتماعية ، أو أحزاب سياسية ... وهلم جرا

٢ — ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معان خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والآداب . . . وما إلى ذلك ؛ إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل فى معان عامة . فتجردت هذه المفردات من معانيها العامة القديمة وأصبحت مقصورة على هذه المدلولات الاصطلاحية

٣ — التأثر بأساليب اللغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها وطرق استدلالها فى المؤلفات العلمية والقصصية والأدبية وفى الصحف والمجلات ...

٤ — إقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها ... وما إلى ذلك

٥ — إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة . فكثيراً ما لجأ الكتاب فى البلاد العربية إلى هذه الوسيلة للتعبير عن معان لا يجدون فى المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً ، أو لمجرد الرغبة فى الإغراب أو فى الترفع عن المفردات التى لا كتها الألسنة كثيراً . وبكثرة الاستعمال بعثت هذه المفردات خلقاً جديداً ، وزال ما كان فيها من غرابة ، واندمجت فى التداول المألوف

---

(١) انظر تفصيل هذا القانون وآثاره فى كتابنا علم اللغة صفحتى ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) قضيت بالعراق بضعة أشهر وطفت بكثير من بلاده ، وما كنت لأستطيع التفاهم بسهولة إلا مع المتعلمين الذين كنت أستخدم العربية الفصحى فى حديثى معهم

(٣) من أظهر ما تمتاز به هذه الهجات من ناحية القواعد أنها تصوغ المضارع المسند إلى جمع المتكلمين على غرار مضارع الغائبين والمخاطبين ، فيقولون « نكتبوا » بكسر فكسر فسكون ؛ كما يقولون على نفس الوزن « يكتبو » و « تكتبو » . وأنها تستبدل النون بهمزة المضارع للمتكلم المفرد وتصوغه فى وزن يختلف من وزن جمع المتكلمين فيقال « نكتب » بكسر فسكون فكسر ، بدلا من « أكتب »

(٤) نعنى بها قبائل العرب التى تسكن الفيوم وبنى سويف والشرقية والبحيرة ... الخ (الفوايد ، الرماح ، الحرابى ، البراعصة ، أولاد على ، الضعفاء ، خويلد ، عمالوس . . الخ)

اللهجة المالطية

تكلمت مالطة فى العصور القديمة وفاتحة العصور الوسطى لغات كثيرة من أشهرها الفينيقية والبونية (القرطاجنية) . وهكذا شأن جميع البلاد الصغيرة المستضعفة التى ينتمى أهلها إلى عدة شعوب وتقع أرضها فى طريق الغزاة والفاتحين ، فتصبح دولة بينهم ، ويحول ذلك كله دون أن يكون لها كيان وطنى مستقر ، أو قومية واضحة . فجميع البلاد التى من هـذا القبيل لا تستقر على لغة واحدة ، بل تتغير فى الغالب لهجتها مع تغير الدولة المسيطرة عليها ، وينال ألسنتها كثير من مظاهر التبلبل لكثرة ما ينتقل إليها من لهجات ، وما يعتور نطقها من أساليب

وآخر لغة انتقلت إلى مالطة كانت اللغة العربيـة متمثلة فى لهجة من اللهجات العامية المغربية السائدة فى شمال أفريقيا . غير أن هذه اللهجة قد أحيطت بظروف تختلف كل الاختلاف عن الظروف التى أحاطت بسائر اللهجات العربية الأخرى ؛ فسلكت فى تطورها منهجاً يختلف كذلك كل الاختلاف عن منهج أخواتها ، وذلك أن انعزالها عن العالم العربى وانتشارها فى بلد مسيحى ، وكثرة احتكاكها باللغة الإيطالية المجاورة لها ، وخضوع مالطة لحكم الإنجليز ، وكثرة من يفد إليها ويمرّ بها من الأجانب ، وانتماء هؤلاء الأجانب إلى شعوب مختلفة وتكلمهم شتى اللغات ... كل ذلك قد وسّع من هوة الخلاف بينها وبين اللهجات العربيـة الأخرى ، فبعدت عنها بعداً كبيراً ، وفقدت كثيراً من مقوماتها ، وتأثرت بطائفة كبيرة من اللغات الأوربية وخاصة الإيطالية والفرنسية والألمانية والإنجليزية ، وانتقلت إليها مجموعة كبيرة من مفردات هذه اللغات ، وامتزجت هذه العناصر الدخيلة بالعناصر الأصيلة كل الامتزاج ، فتألف من مجموع ذلك كله مخلوق عجيب فى عالم اللغات ، حتى أن الكلمة الواحدة فيها لتتألف أحياناً من أصلين أحدهما عربى والآخر أعجمى (« ليبيرانا » Liberana أى نجّنا أو خلصنا ، فهى مؤلفة من الفعل الفرنسى Liberer بمعنى حرر أو خلص ، والضمير العربى لجماعة المتكلمين) ؛ ويندر أن تعثر على مثل هذا الخلط فى أية لغة أخرى من لغات العالم(١)

ولا يزال اللسان المالطى ، على الرغم من هذا كله ، محتفظاً بكثير من خصائص اللهجات المغربية التى انشعب عنها . ومن أظهر ما بقى فيه من هذه الخصائص طريقة إمالة الألف المتوسطة فى معظم الكلمات (فكلمة « باب » مثلاً ينطق بها فى مالطة بإمالة الألف على طريقة اللهجات المغربية baibe

واللهجة المالطية هى اللهجة العربية الفذة التى ارتقت إلى مصاف لغات الكتابة . وقد تم لها ذلك فى القرن التاسع عشر . فمنذ ذلك العهد تطبع بها الكتب والصحف والمجلات وتدون بها الرسائل ، وبالجملة تستخدم فى جميع الأغراض التى تستخدم فيها لغات الكتابة وهى كذلك اللهجة العربية الفذة التى تدون بحروف لاتينية .

ولا تكاد تستخدم هذه اللهجة إلا فى القرى ؛ أما المدن المالطية فمعظم الحديث يجرى فيها بالإيطالية أو الإنجليزية(١) .

علي عبد الواحد وافي

ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

وقع فى المقالة السابقة (عدد ٤١٦ ص ٨١٠ وتوابعها) عدة أخطاء مطبعية لا يخفى منها على القارئ إلا ما ورد فى السطر الخامس عشر من العمود الأول بصفحة ٨١١ ، وصوابه : « ولا من بكر لمجاورتهم لنبط » ، وفى التعليق الأول فى العمود نفسه ، إذ وضعت فيه كلمة « القبط » بدل « النبط »

---

(١) يوجد لذلك نظائر فى بعض اللغات الحبشية السامية التى اشتد تأثرها باللهجات الحامية والسودانية ؛ ومن هذه اللغات اللغة الأمهرية

(٢) انظر فى اللهجة المالطية De Sacy : Grammaire Arabe; et Renan : Langues Semitiques 413, 414

من وحى الحرب

جيـــل وجيـــل

للأستاذ محمود البشبيشي

— ٤ —

فساد منطق الحياة اليوم — فى الاستقرار يقظة القلم — دوافع الحرب وأسرارها — الغرائز والحرب — جهل الانسان الأول بحقيقة الغرائز — فساد الغرائز اليوم — أثر الطمع والحقد والأثرة فى فسادها

... اللهم إن الإنسانية قد ضلت وهى لضلالها تخبط فى تيهاء، وتخفق أكثر مما تفوز، وكأنما فاضت حيوانيتها الكامنة بخفأت ما فيها من صفات كلها ضلال وكلها شرور ! !

اللهم إن حقيقة الأشياء تقاس اليوم بالكمية لا بالكيفية ؛ وقد انعكس منطق الحياة فأصبح مسيخاً قائماً على أسس من الشهوات والأغراض

اللهم إن الأطماع قد غلبت، والجحود قد طغى، والظلم قد أسفر، والضلال قد اختال واضطربت موازين الحياة ! !

لعمرى لو أمكن أن تمسخ صورة مشوهة بطبيعتها لما أمكن أن تكون أقبح مما صارت إليه صور الإنسانية فى هذه الأيام العجاف ! !

متى يتجلى على الإنسانية بدر الإخاء، ويسطع فى كل قلب شعاع الصفاء، ويعم الشرق والغرب جوٌّ من الرحمة يصل القوى بالضعيف، والضعيف بالقوى، صلةً لا تُشعر هذا بقوته ولا ذاك بضعفه ! !

فما يُطرب الكاتب الإنسانى شىء ما يُطربه انتشار مبادئ السلام الروحى، لا السلام المقيد برموز وألفاظ، السلام المسطور فى القلوب، لا السلام المحفوظ فى أوراق ! وكما يُحب أن يصول ويجول فى ميادين الاضطراب الاجتماعى ليستشعر لذة واجب المصلح السديد الرأى، يُحب أن يخبر الناس عن كثب ومخالطة فى ظل السلام والاستقرار لتنزر تجاريبه وتصدق أغراضه ...

أما بعد فحديثنا اليوم يتصل كل الاتصال بالحرب وجو الحرب، ويساير أحوالها ويلابسها أصدق ملابسة، وواجب الكاتب الحق أن يكون لسان الحياة الناطق بما يضطرب فيها. وخير الأفكار ما كان فى جوهره وليد الحوادث. وحقيق بمن يحمل القلم وهو أشرف سلاح أن يشرعه فى وجه الملمات بحللها، وينشر لقومه ما يبصرهم بما فى الاتجاهات المختلفة من الضُّر والشَّين، ويفقههم على ما فيها من النفع والزَّين

... كنت قلت فى أول نقاشى مع والدنا الأديب « حسين » إن الناس لم يفرطوا فى أمور دنياهم والإنسانية والروابط الدينية، إلا منذ أن فرطوا فى شخصيتهم وأخلاقهم، فأصبحوا لا يحكمهم شعور حى، ولا يقيد شرورهم رحمة ... ورأى هو أن السبب فساد التأمل واختلاطه بحب الذات، فأصبح الإنسان لا يرى الشىء حسناً إلا إذا كان له نصيب من حسنه !

وقادنا الحديث إلى ذكر الحرب ولكنا لم نتناول يومئذ منبهم أسرارها بالتشريح، وكأنما تركنا الأمر إلى عودة، وقد عدنا له فما حديث الحرب بينى وبينه ؟

قلت : ما السر فى الحرب وما الدافع إليها ؟ وكيف تظل قيودها تطوق الإنسان إلى اليوم، وقد سار به الزمن وسار معه من طفرة إلى طفرات فى الرقى العملى والنظرى ؟ وكيف يعجز اليوم عن حل مشكلاته فلا يجد سبيلاً غير التدمير والتخريب ؟

لقد قيل إن المعرفة تكفل السلام بسمو الفكر، والترفع عن الدنيا، والتطهر من أدناس الوحشية والهمجية، وانتشار مبدأ الإنسانية ... فهل تحقق كل هـذا ؟ وما ينفض العالم يده من غبار حرب ضروس، إلا ليخوض فى أوعاث وأوعار حرب عاصفة، تمر السماء بالموت الطائر، وتكتسح الأرض بالموت الزاحف ! !

لقد قيل إن المدنية تصلح فساد الحياة، وتثقف أودها، وتصل أطراف الإنسانية فتقوم ! فهل عرفنا سوى أن المدنية تقدم فى تقويض البناء، وتقطيع الأواصر ؟ فما السر فى هذا الاضطراب ؟ وما مدى أثر المدنية والتقدم فيه ؟

قال : لعل السر من قديم هو طبيعة المغالبة فى سبيل البقاء، فالإنسان بما اجتمع فيه من غرائز تقربه من الحيوان مسوق إلى استغلالها فيما جُعلت له، وخاصة حين تفرض عليه قيود الحياة استعمالها، وعندما تتهيأ له أسباب يقظتها ؛ فهناك غريزة المقاتلة

قد تغلغلت فى نفسه كما تغلغلت فى الحيوان ، وهو فى حاجة إليها لمدافعة الشرور والخوض فى مرابط الهلكة والسعى وراء ما يحفظ نوعه ، وهو فى كل ذلك مدفوع بدافع حب البقاء ، والكفاح فى سبيله ، تسيره غريزة المقاتلة فيطيعها

— إذن هو يحارب يابنى ، أو يميل إلى الحرب بدافع « غريزة المقاتلة » حباً فى البقاء والذود عن حقوقه ، ورغبة فى الاعتزاز بوجوده فى الحياة وشعوره بهذا الوجود ، فهل يكون ذلك مبرراً للحروب وأهوالها ؟ نقف أمامه موقف الاقتناع بأنه أمر غريزى فطرت عليه النفوس ، فلا سبيل للخلاص من قيوده ! وهل إذا وضح أنها لون من ألوان البقاء يجوز أن نتغاضى عن أهوالها وشرورها ، ولا نحاول تشريح أسبابها والنظر إليها كرض اجتماعى له علل ونتائج ؟

— ذلك أمر آخر ، فهى كغريزة جدير بنا أن نتأمل حقيقتها بين سائر الغرائز التى تتصل بها ، فليس من شك عندى أن غريزة المقاتلة وجدت لحكمة جديرة بالاعتبار ، وليس من شك فى أن الحياة وما بها من هلكات وما يحف بها من مخوفات جديرة بأن تتحصن لها الأحياء بمثل هذه الغريزة ... وإنما يكون ذلك بقدر محدود يجئ من بعده الخير المنتظر ، الخير الذى يصيب المجموع ولا يقتصر على الفرد ، الخير الذى تطهر من أدناس الأنانية والأغراض ، وخلص منها خلوص الحقيقة من شباك الباطل . وقياساً على هذه الصورة الكاملة لها ، أرى أن حرب اليوم قد خرجت عن النطاق المعقول لغريزة المقاتلة ، وأصبحت فناً فريداً من فنون الفساد الذى لحق أسس الحياة باضطراب العقل وضلال التأمل ، وما تولد منهما من نظم تقود إلى الدمار وتدفع إلى الأثرة القبيحة

إذن وضح أن الحرب فى صورتها الفطرية التى تدفع إلى حب البقاء وحفظ النوع من غير اعتداء على الحقوق وليدة غريزة المقاتلة ... ولكن حرب اليوم صورة لفساد تلك الغريزة

وقد يكون من أسباب الحرب ودوافعها غريزة « حب الاقتناء » ، وليس بعجيب أن تكون سبباً من أسبابها ، فمن الواضح الجلى أن الإنسان قد درج منذ نشأته على السعى وراء الرغبة الجامحة فى اقتناء كل ما يرى ؛ يدفعه إلى ذلك حبه لنفسه وطمعه فى الانفراد بالنفعة . ويظهر أثر تلك الغريزة قوياً عنيفاً فى عهود الطفولة أيضاً كما كان فى عهود الإنسان المظلمة ، وكما هو فى بعض المجتمعات التى بقيت على فطرتها وظلام غرائزها ؛ ولكن أثر هذه الغريزة يكون أكثر وضوحاً فى عهد الطفولة حيث ينظر الطفل إلى كل شىء نظرة الطامع فيه . ولعل ذلك يرجع إلى ضيق مدى تأمله وبصره بالأمور ، أو تجرده من معنى الخير العام الذى لا يشتد أثره إلا بعد طول رياضة وعظيم دراية وبلوغ لتمام العقلية العامة ! ...

— ومن عجب يا والدى أن الإنسان مع معرفته اليوم للخير العام وتشدقه بجليل منافعه ، تراه منساقاً إلى طاعة هذه الغريزة بل الخضوع لها خضوعاً غلب على قلبه وعقله فأفسد معنى الخير فيها كما أفسد معنى الخير فى غريزة المقاتلة ، فما السر فى ذلك ؟ وكيف يصبح هذا حاله وقد أدرك سرها ؟

السر عندى ... أن هناك بعض صفات كامنة فى النفس ، تتلف هذه الغريزة بخلاف يفسدها ، فهناك الطمع والحسد والحقد والغيرة العمياء ، تجعل من هذه الغريزة قوة قاهرة ، وتفرض سلطانها على كل تصرفات الإنسان ، فيندفع فى سبيل رغباتها ، وقد يخرج عن حدود الخلق ويتخطى الخير العام ، ولكنه لا يستطيع سوى إرضاء تلك الغريزة الجامحة ...

ومن هنا يكون الاعتداء على حقوق غيره ، وابتزاز ما ليس من حقه ، واختراع الأسباب والعلل لهذا الاعتداء وذلك الابتزاز !

— وثمت غريزة أخرى يا بنى قد يكون لها الأثر الكبير فى الحروب والميل إليها ؛ وهى غريزة الهدم والتدمير ، فإن الإنسان مشدود إلى مظاهر هذه الغريزة من يوم ميلاده ، ولكنها أكثر وضوحاً عند الطفل لأنه لا يميز بين الهدم ونتائجه ، فهو فاقد للقياس السليم ، لأن الحقائق لا توزن عنده إلا بميزان عاطفة الطفولة التى لا يهمها سوى إرضاء صاحبها على أية صورة كانت بالهدم أو البناء !!

وهى أيضاً موجودة فى المجتمعات التى ظلت على فطرتها العمياء ، وقد كانت من قبل فى العهود المظلمة ؛ ولكن إذا جاز أن يتصف بها الطفل لضيق تأمله أو انعدامه ، فما يجوز أن تعلق بالرجل الكامل ، فما السر فى سيطرتها اليوم على العقل البشرى ؟

السر هو أن بجوار هذه الغريزة غريزة أخرى تشملها كلما أصابها خمود ، هى غريزة السيطرة ، فصاحب هذه الغريزة يميل إلى فرض سلطانه على غيره ، بل إلى فرض ميوله ومعتقداته . ولعل تضارب المذاهب المختلفة من ديمقراطية ونازية وفاشية وشيوعية صورة صادقة لهذه الغريزة ؛ وصاحب غريزة السيطرة يفعل كل شيء فى سبيلها ؛ فإذا وجد من يعترضه تنمر وظهرت فيه غريزة الهدم والتدمير فى أشد صورها ، رغبة فى قهر هـذا المعترض ! وإذا وجد من استكان له وخضع ، لم يقنع بذلك بل دفعه هذا إلى التمادى فى بسط سيطرته . . . وإن الحرب لمشتعلة حتما حيثما ظهرت هذه الغريزة وما يلابسها

ظهر إذن أن الحرب قد تكون وليدة غريزة المقاتلة كما بينا ووليدة غريزة الاقتناء والامتلاك كما أسلفنا ، وأن من أسبابها غريزة الهدم والتدمير كما وضح أن حقيقة المقاتلة والاقتناء حقيقة تقتضيها أسباب الحياة ولكن فى حدود الخير العام ، كما ظهر أن فسادهما واختلاطهما بالأثرة والحسد والطمع والغيرة جعلهما صورة فاسدة من صور الحرب اليوم !

— بقى شيء واحد يا والدى وهو كيف نفسر أسباب الحرب فى العهود المظلمة وفى عهدنا الحاضر ؟ وهل هناك اختلاف كبير بينهما ؟

أما السبب فهو يرجع كما بينا إلى الغرائز السابقة فى العهدين ، ولكنى أعتقد أن الحرب كانت فى العهود المظلمة وليدة جهل العقول بحقيقة الخير فى الغرائز الفطرية ، وأنها اليوم وليدة فساد هذه الغرائز !!

وجماع القول فى ذلك أن تصرفات الإنسان فى عهوده المظلمة بقيت كما هى فى بعض المجتمعات التى تعيش على الفطرة

ثم إن جهله بغرائزه فى تلك الأحوال يشبه كثيراً ضلاله الغريب فى فهمها أيام الطفولة ؛ فقد أعشت الأبصار فى العهود الأولى ظلمة الغريزة ، حيث لم يكن فى وسع الإنسان الانتفاع بالمح الباصر من التجاريب ، وكذلك الأمر فى عهود الطفولة والمجتمعات المتأخرة ؛ ولم يك همه فى أيامه المظلمة غير ابتزاز ما اختزن دونه ، والنظر إلى الأشياء بعين الفرد ، وعين الطمع ، فقد كان يومئذ أغلف القلب لا تنفذ إليه أسرار معانى الخير من غريزة المقاتلة ، وحب الاقتناء ، وكذلك الأمر فى الطفولة والمجتمعات المتأخرة ...

هذا مكانه من غرائزه أيام جهالته وتأخره وطفولته ! فأين هو منها اليوم ؟ وقد رقى سلماً أطلعه مطالع النور والمعرفة ، وذهب فى التقدم مذاهب الجن . . . ! لا يبالى ولا يستوحش ، يزعم أنه على بصيرة من نفسه ، ويقين من أمره ، وإنه إلى بلوغ أعظم المثل العليا لمنتظر راج ...

أين هو اليوم من غرائزه ؟ هل أدرك مُنبهمها ؟ أم ظل على حيرته الأولى ؟ !

إنه اليوم عليم بأسرارها خبير ! ولكن علمه قد أضله ، وخبرته قد أعمته ! لأنه جعل الأطماع مقصداً ، والأغراض هدفاً ، ووزن الأمور بميزان الفرد فضل السبيل ، وهو من ضلاله يضرب فى تيهاء مظلمة

أجل ، لقد صاول وداور وناوص حتى فك قيود استغلاق غرائزه ، ولكنه قد بذل ويبذل وسعه فى إفسادها ! . وهكذا انقلب الأمر من جهل إلى معرفة أفسدتها الأطماع والأغراض الشخصية ...

وهكذا أستطيع الآن أن أقرر أن الحرب كانت قديماً وليدة الجهل بأسرار الخير الكامنة فى الغرائز ، وأنها اليوم قد أصبحت وليدة فساد هذه الغرائز !

***

أما بعد فهذا حديث الحرب صُب فى قوالب من فنون الحديث بينى وبين ولدنا الأديب « حسين » أول ما يشدَهك منه أقباس الفكر الفلسفى القائم على قوة التصوير والحجاج ، وأشهد أنى ، وإن كنت لا أميل دائماً إلى خوض أوعار الفلسفة وأوعائها إلا فى خلواتى الفكرية الخاصة ، قد اضطررت اضطراراً إلى مكابدة صعابها على صفحات الرسالة إرضاء لميول ولدى الفلسفية ، ونزعاته الفكرية العميقة الطيبة الغراس ، المأمونة الغاية .

محمود البشبيشى

مــــدن الحضارات

فى القديم والحديث

للأستـــاذ محمد عبد الغنى حسن

— ٣ —

ولقد زار بغداد فى القرن الثامن الهجرى الرحالة ابن بطوطة ووصف ما كانت عليه فى وقته فذكر الجسرين ومرور الناس عليهما فى نزهة متصلة ، وذكر عدة مساجدها التى يخطب فيها وتقام فيها الجمعة ، وعدتهـا أحد عشر مسجداً . أما المساجد الأخرى فكانت كثيرة . ووصف حماماتها المطلوة بالقار فيخيل إلى الناظر أنها مرصوفة بالرخام الأسود . وذكر جانبي بغداد الشرق والغربى ، وقبور الخلفاء العباسيين بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه

وزارها قبل سقوطها فى يد التتار الرحالة المشهور ابن جبير الأندلسى ، إلا أنه رآها على أسوأ حال وأقبح مصير ، وكانت لا تزال كما يقول بنص عبارته : « حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية » . فرآها « كالطلل الدارس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، إلا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين »

وفى الوقت الذى كانت تزدهر فيه بغداد بحضارة عربية واسعة ، وثقافة إسلامية كبيرة ، كانت تزدهر حاضرة إسلامية أخرى بألوان من الحضارات ، وتتجه إليها الأنظار من كل صوب ، ويفد إليها الشعراء والأدباء والعلماء حتى لتكاد تنافس بغداد فى المحل ، وتزاحمها فى الموضع والقدر ... تلك الحاضرة هى (القاهرة)

والقاهرة مدينة الفواطم ، وضع أساسها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ . بعد أن تم استيلاؤه على الفسطاط . وكان فى القاهرة فى ذلك الحين طريق عام يخترق وسطها من باب زويلة جنوباً . وبنى حولها السور المشهور . وكانت تقع المقس إلى الغرب وتمتـد إلى النيل ، وظلت ميناء القاهرة إلى أن تحول مجرى النهر فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فانتقلت إلى بولاق

ومن القاهرة أخذت الدعوة الفاطمية تزداد وتكثر وتتخذ مدى واسعاً . وسُكت النقود باسم الخليفة الفاطمى ، ونقش عليها (باسم مولاى المعز) . وفى مسجد عمرو دعى للمذهب الفاطمى من على منبر الجامع . وخطب فى يوم ١٩ شعبان سنة ٣٥٨ هـ هبة الله بن أحمد خليفة إمام مسجد عمرو . ودعى أيضاً فى جامع ابن طولون للخليفة الفاطمى فى يوم جمعة من ربيع الآخر سنة ٣٥٩ هـ ؛ ثم دعى فى الجامع الأزهر بعد بنائه ، وكان الدعاء فيه فى السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ ، وبعد ذلك دعى فى مسجد الحاكم

وكان فى القاهرة (مكتبة القصر) التى ذكرها المقريزى وأبو شامة وغيرهما . وقد قال فيها أبو شامة (يقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى القاهرة فى القصر) . وكانت هـذه المكتبة تحوى النادر من الكتب . وذكر المقريزى صاحب الخطط أنها كانت فى المارستان العتيق وفيها أكثر من مائتى ألف مجلد

ولم تكن تلك هى المكتبة الوحيدة فى القاهرة ، فقد عرف عن الفاطميين حبهم للعلم وتشجيعهم للأدب وإكثارهم من إنشاء المكتبات . ولقد أنشأ الحاكم بأمر الله (دار الحكمة) وهى أشبه بجامعة علمية ، وألحق بها مكتبة تسمى (دار العلم)

وكان هناك مكتبات خاصة للأفراد ، تتسع وتنظم تبعاً لمقدرتهم ؛ ومكتبة ابن كلّس الوزير المشهور أحق ما يذكر فى هذا المقام . وكان ابن كلس هذا مجدوداً فى النعمة ، واسعاً فى الثروة ، وكان له دار يجتمع فيهـا عنده القراء والأئمة ، والغلمان والحاشية ، وفيها ميضأة منظمة وثمانى غرف للنوم ، وديوانه الخاص الذى أسماه (العزيزية) تيمنا باسم العزيز الفاطمى .

ولمـا كان ابن كلس يهودياً وأسلم ، كان لليهود دالة فى عهده ، بل كان لهم شأن كما يذكر المؤرخون . ولقد أثارت محاباتهم شعور الاستياء عند المسلمين ؛ فقد رأوا لهم الكلمة والنفوذ ، والمنزلة والجاه ، والقربى والشفاعة (لأسباب صهرية) ورأوا المسلمين بعيدين من كل خير ، مُنْشأين عن كل منزلة ،

حرّك هذا بعض الشعراء بالكلام ؛ فقال الرضى بن البواب :

يهود هـذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمُ ومنهم المستشـار والملك
يأهل مصر إني نصحت لكم تهوّدوا ، قد تهود الفلك ! !

وكان الغنى في أيام الفاطميين شاملاً ، والثروة واسعة ، وأغلب هذه الثروة بالطبع في أيدي الخلفاء وأبنائهم . وكان للمعز لدين الله وبنتيه ثروة تحتاج إلى أربعين رطلاً من الشمع لختمها

ولقد زار مصر في عهد المستنصر الفاطمي سائح فارسي مشهور هو ناصر خسرو ، وكان ذلك في عام سنة ٤٣٩ هـ . فوصف ما شاهده ورآه في كتابه (سفرنامه) ، وقد أضفى على مشاهده ألواناً من الخيال الجميل الذي أوتى منه حظاً كبيراً فقد كان الرجل شاعراً وأديباً ، وهو يذكر أن القصر الفاطمي كان فيه ثلاثون ألف جارية ، واثنا عشر بهواً ، وعشرة أبواب ، وألف حارس . ويصف دور القاهرة في ذلك الزمان بأنها (محكمة البناء مبنية بالحجر لا باللبن ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة)

كانت القاهرة طيلة حكم الفاطميين مصونة محفوظة لهم ولأولادهم وحرمهم وخواصهم والمقدمين من جنودهم ؛ ولكنها في عهد الأيوبيين تغيرت حالها من الصيانة إلى الابتذال ، وتدلت أمورها من الخواص إلى العوام ، يسكنها الجمهور ، وأصبحت دور الفواطم ذوات الحدائق الغُنّ حارات وشوارع ومسالك وأزقة ؛ وعمر حىّ القلمة ، وحافتا الخليج الكبير ، وما دار على الحسينية . وظلت مصر والقاهرة تتسمان حتى صارتا بلداً واحداً يشتمل على : (البساتين ، المناظر ، القصور ، الدور ، الرباع ، القياسر ، الأسواق ، الفنادق ، الخانات ، الحمامات ، الشوارع ، الأزقة ، الدروب ، الخطط ، الحارات ، الأحكار ، المساجد ، الجوامع ، الزوايا ، الربط ، المشاهد ، المدارس ، الترب ، الحوانيت ، المطابخ ، الشون ، البرك ، الخلجان ، الجزائر ، الرياض ، المتنزهات) . المقريزى ج ٢

وظلت القاهرة كذلك إلى أن حدث الفناء الكبير في سنة تسع وأربعين وسبعمائة فخرب كثير من هذه المواضع ، وتبع ذلك خراب صعيد مصر وجلاء أهله عنه . وقد أدرك هذه الخرائب والأطلال المقريزى وأشار إليها في خططه

ويظهر أن بعضاً من المؤرخين كانوا يتحاملون على القاهرة لحاجة في نفوسهم ، فلا ينصفونها إذا وصفوا ، ولا يقدرونها إذا تكلموا . وقد يجسّمون فيها المعايب ، ويهوّلون فيها المثالب . ومن هؤلاء أبو الحسن على بن رضوان الطبيب ، فقد نقدها نقداً مراً ؛ وذكر كثرة الأوساخ والأقذار فيها ، وكثرة العفونة في مياهها ؛ ثم ذكر نظام «المجارى العامة» فيها وما يجره على السكان من عفونة ووباء . والحق أن ابن رضوان نظر إلى القاهرة نظرة الطبيب الصحى أو (مفتش الصحة) ، فغلا في نقدها وأسرف في ذمها .

ومن الذين لم تعجبهم القاهرة ابن سعيد صاحب كتاب : « المغرب في حلى المغرب » ، فقد سمع عنها كثيراً ، فلما رآها استكثر الأخبار عنها وقال بنص عبارته : « هذه المدينة اسمها أعظم منها . وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين »

وما أشبه هؤلاء المتحاملين من العرب المتجنين على مصر بالمتحاملين اليوم من الفرنجة عليها ! فهم ينكرون منها كل منظر حسن ومشهد جميل ، ويسجلون عليها غير ذلك

استمع إلى ابن سعيد هذا وهو يصف القاهرة في تحامله وتجنيه : (ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه أمراء الدولة وهو في موكب جليل ، وقد لقى في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير ، وعظم الازدحام ، وكان في موضع طباخين ، والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك الشاة وكدت أهلك في جملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين) انتهى .

على أن شيئاً واحداً لا تنساه القاهرة للفاطميين ، وهو الحفلات الكثيرة المختلفة التي كانوا يقيمونها في الجمعة والأعياد والولائم والمناظر وليالى الوقود التي تسبق أول ومنتصف رجب وشعبان وحفلات توديع الحملات الحربية التي سجلها كثير من شعراء ذلك العصر وخاصة عمارة اليمنى شاعر الفواطم المشهور .

(الحديث موصول)

محمد عبد الغنى حسن

الوضع الصحيح
للاصلاح الاجتماعى فى مصر

للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر

اطلعت باهتمام على المناقشات المختلفة العنيفة التى دارت رحاها فى الصحف ، وبخاصة مجلة « الرسالة » الغراء ، حول الإصلاح الاجتماعى فى مصر والوضع الصحيح له . ولست أبالغ إذا قلت إن معظم الكتاب النابهين الذين أداروا تلك المناقشات — مع احترامى الشديد لهم ، وتقديرى العميق لنبل مشاعرهم وسمو أهدافهم — كانوا ينظرون إلى مشاكلنا الاجتماعية من زواياها الأدبية والوجدانية والمثالية الحالمة ، مما يجعل كلامهم وأفكارهم أدنى إلى الفلسفة والأدب منه إلى الاجتماع أو « الطب الاجتماعى » . وفى اعتقادى أن تناول المشاكل الاجتماعية بهذه الطريقة غير موصّل حتماً إلى الغرض المطلوب ، وهو تبرئة المجتمع المريض من علله وأسقامه . بل لست أبالغ - أيضاً - إذا قررت أن تلك الطريقة تبلبل أفكار الشعب ، وتشوّش أمانيه ، وتهيّج خواطره ، لأنها لا تضع أصبعها على مكمن الداء الحقيقى ولا تصف الدواء . وما سمعنا يوماً ، ولا أظننا سنسمع أن مريضاً - والمعضلات الاجتماعية أمراض نفسية حقيقية - شفى بقصيدة عصماء ، أو بمقال بليغ !

وبهذه المناسبة أذكر أن « الطب الاجتماعى » فن حديث له أصول وقواعد ودراسات فنية منظمة كسائر الفنون

ومشاكلنا الاجتماعية قديمة ومعقدة إلى حد محزن . ويخطىء الذين يظنون أن « الفقر » وحده هو أساس كل هذه المشاكل فيخصّونه بالمقالات الطويلة المسهبة ، والأبحاث المستفيضة الدسمة ؛ فالفقر نتيجة لعلل اجتماعية أخرى وليس سبباً . وعليه يجب أن نوجّه أنظارنا وجهودنا إلى جذور هذه المعضلة الاجتماعية لا أن نكتفى بقصقصة أطرافها ، وتشذيب حوافها الدنيبة . وقيل إن مشاكلنا الاجتماعية الكبيرة تكوّن مثلثاً متساوى الأضلاع ، مؤلفاً من : الفقر ، والجهل ، والمرض . وتفاعل هذه المشاكل الثلاث الحية ينتج عصير الشقاء الذى تتجرعه الأغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد . وفى يقينى أن مشاكلنا الحقيقية أربع وليست ثلاثا ، إذ يجب أن تضاف إليها مشكلة الانحلال الخلق المتفاقمة يوماً بعد يوم . فإذا نظرنا إلى هذه المشاكل الاجتماعية الأربع مجتمعة كنا أقرب إلى الصواب

وإذا كنت قد ذكرت أن الفقر نتيجة لا سبباً فهو ليس كذلك فى كل الأحوال ؛ فكما أن الجهل يورث الفقر والمرض ، فإن الفقر يمنع التعلم والصحة . ولهذا يجمل بنا أن نقول إن تلك المشاكل متفاعلة تفاعلاً مستمراً كالمواد الكيميائية ، وليست قريبة من بعضها فحسب

* * *

ولنتحدث الآن بإيجاز عن صلة بعض هذه المشاكل ببعض ، ونبين مدى تفاعلها المستمر الفوار

الفقر

جاء فى الإحصائيات الرسمية لسنة ١٩٣٨ أن عدد ملّاك الأراضى الزراعية من المصريين هو٣٠٤٣٨ر٢ شخصاً يملكون ٠٣٤ر٤٠٣ر٥ فداناً بالتفصيل الآتى :

١ — ٥٧٦ر٦٧٣ر١ شخصاً يملك كل منهم فداناً فأقل . ويبلغ مجموع المساحات التى يملكونها ٦٠٠ر٦٨٨ فداناً

٢ — ٧٠٠ر٥٦٤ شخصاً يملك الواحد منهم من فدان إلى خمسة . ويبلغ مجموع المساحات التى يملكونها ٠١٩ر١٤٨ر١ فداناً

٣ — ٦١٧ر٨٤ شخصاً يملك كل منهم خمسة فدادين إلى عشرة أفدنة . ويملكون جميعاً ٣٤٨ر٥٦١ فداناً

٤ — ٤٤٢ر٦١ شخصاً يملك الواحد منهم من عشرة فدادين إلى خمسين . ويملكون جميعاً ٣٦٢ر١٨٥ر١ فداناً

٥ — وكبار الملاك ، وهم من يملكون أكثر من خمسين فداناً ، وعددهم لا يتجاوز ١٢٫٤٢٠ شخصاً يبلغ مجموع المساحات التي يملكونها ٢٫٢٥٣٫٨٥٣ فداناً !!

وإذا تدبرنا هذه الأرقام وجدنا :

أولاً : أن صغار الملاك ونسبتهم العددية ٩٣٫٥٪ يملكون ١٨ ٪ فقط من الأراضي المزروعة في مصر

ثانياً : إن كبار الملاك ونسبتهم العددية ½ ٪ يملكون حوالي ٤٥ ٪ منها

ولا نظن أن بلداً من بلاد العالم المتمدين اختل فيه توازن الملكية إلى هذا الحد !

ولو أردنا معرفة نوع الأعمال والحرف التي يزاولها مواطنونا المساكين المحرومون من نعمة « الطين » ، وعددهم حوالي الـ ١٣ مليوناً من الأنفس فلنعلم أن ٣٫٥٢٤٫٠٩٠ يشتغلون أجراء في أراضي كبار الملاك (أي عبيداً وأرقاء !) . وهناك ٥٦٩٠٠٠ شخص في حرف غير منتجة

ومن المعلوم أن العامل الزراعي الذي لا يتجاوز متوسط أجره اليومي الثلاثة قروش ، له أسرة تتألف من زوج وأولاد . وقد تضم عدا هؤلاء زوجة أخرى ، أو أباً ، أو أماً ، أو أختاً صغيرة ، أو أرملاً ... أو أولئك جميعاً !!

ويخطئ من يعتقدون أن أغنياءنا الذين نشكو مرّ الشكوى من تضخم ثرواتهم على حساب الفلاح المسكين ... ينتجون في البلاد من الرخاء ما يساوي هذا الاختلال الاقتصادي ، والجرم الاجتماعي ، فإن هؤلاء الأثرياء قد كفر معظمهم بنعمة الله فغرقوا في بحر من الترف والميوعة والتبذل والسفه ليس له من قرار ، حتى أوسعوا أملاكهم ديوناً ورهوناً ، وسلّطوا عليها بنوكاً أجنبية لا ترحم

ومصر لم تستفد كثيراً من النهضة الصناعية التي قامت بين ربوعها . فهذه الشركات الأجنبية المنبثة في طول البلاد وعرضها تحتكر مرافقنا العامة التي هي شرايين الحياة ، احتكاراً قانونياً أو فعلياً . فقد بلغت رءوس أموال الشركات الموجودة في مصر حوالي ٨٨ مليوناً من الجنيهات ليس فيها أكثر من خمسة ملايين لمصريين حقيقيين !!

وليس من المنتظر أن تتحسن هذه الحالة المحزنة كثيراً ما دام الشعب المصري شعباً غير صناعي ، وتظل الثروة العقارية الزراعية — وهي حجر الزاوية في ثروتنا القومية — لا تنمو بنسبة نمو عدد السكان ، فإن هذه النسبة كانت في القرن الماضي ٥ : ٤٥ ٪

ولعل هذه العجالة تعطي صورة واضحة لما عليه الشعب المصري من فقر تجري به الأمثال

والفقر بوجه عام هو نقص الكفاية الضرورية من الطعام والملبس والمسكن وما إلى ذلك من حاجات معيشية لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها : أي الهبوط عن الحد الأدنى لهذه الضرورات . وكلما أمعن الشعب في الحضارة ارتفع مستوى المعيشة فيه ، وزادت تلك المطالب والضرورات الحيوية . ومعنى ذلك أن للفقر — ككل شيء معلوم بالتجربة والبديهة — حداً يجب ألا يجاوزه حتى لا تجني الدولة على نفسها ، وتتفكك عرى شعبها . فالفقر غير المألوف إذن هو مظهر من مظاهر سوء التنظيم الاجتماعي . والتنظيم الاجتماعي من شأن الدولة وحدها . فهي التي تكفل سريان نواميس العمران ، وتضمن تنسيق نشاط الأفراد بحيث لا يعتدي نشاط أحدهم أو رزقه على نشاط الآخر أو رزقه . ويمكن أن نشبّه مهمة الدولة في هذا الصدد بمهمة « البوليس الاجتماعي » !! وتقصير الدولة في تأدية هذه المهمة جريمة لا تغتفر ؛ جريمة خالدة لا ينساها الجيل الحاضر ولا الأجيال القادمة التي تترك لها تركة مثقلة بأكثر من نصيبها من عبء العمران والحضارة !

وسوء التنظيم الاجتماعي الذي يتمخض عنه الفقر له صور متعددة ؛ فللفقر أسباب علمية أدلى بها علماء الاجتماع على مرّ العصور

فإلى ما قُبيل القرن التاسع عشر أيام كانت الأمم تعتمد في معاشها على الزراعة وحدها جهر « مالتوس » بنظريته المشهورة في السكان ، منذراً بقرب وقوع مجاعة عالية ، لأن زيادة السكان أسرع من زيادة الثروة الزراعية . أي أن الأرض سوف لا تكفي غلتها جميع سكانها

وقد فقدت هذه النظرية قيمتها فى القرن التاسع عشر عند ما تقدمت الصناعة ، وتغلب الإنسان على كثير من عقبات الطبيعة مما أدى إلى استنباط موارد جمة للرزق

على أن الفقر ظل مع ذلك طابع الحياة الاجتماعية الرئيسى فى معظم الأمم — ولو إلى حد ما — مما أدى إلى ثورات فكرية لا نهاية لها . وقد وضع له علماء الاجتماع نوعين رئيسيين من الأسباب :

أولاً : الأسباب الشخصية :

أى الأسباب التى تتعلق بشخص بعينه ، وسواء أكان فى مكنته التغلب عليها أم لم يكن ، وهى :

« المرض ، الشيخوخة ، الترمل ، الحداثة ، الطيش وضعف العقلية ، قلة الحيلة ، الكسل ، الإسراف ، الجهل ، البطالة ، موت العائل ... الخ »

وقيل : إن هذه الأسباب تعادل ٣٠٪ من جملة أسباب الفقر

ثانياً : الأسباب الخارجية :

أى الأسباب العامة التى تخرج عن طوق الشخص وإرادته المحدودة ، وهى :

« زيادة السكان بنسبة أكبر من زيادة الثروة الرئيسية فى البلاد ، البطالة العامة بسبب زيادة الإنتاج على الاستهلاك ، عدم استغلال الموارد الطبيعية ، انحطاط المستوى الفكرى للشعب ، تدهور المستوى الصحى ، فساد الأخلاق الشعبية ، الاستهتار العام ، عدم تنظيم وسائل الإحسان ، اختلال توازن الملكية الزراعية العقارية . اتساع هوة التفاوت بين الثروات .

* * *

ولعله يبدو من ذلك كله للأستاذ الكبير الدكتور زكى مبارك أن « الفقر المصرى » علة اجتماعية لا فردية ولا أخلاقية فطرية فى الشعب المصرى ، كما أراد حضرته أن يصورها

وفى مقال قادم سنتناول إن شاء الله علاقة الفقر بالجهل والمرض والانحلال الخلقى العام

محمد عبد الرحيم عنبر

وزارة الشئون الاجتماعية

أغنيـــة روسية (*)

للأستاذ على محمود طه

لا نجمَ ، لا مصباحْ يلمعُ فى المهلِ
قد نامت الأرواحْ مقرورةَ الظلِّ
مطمورةَ الأشباحْ فى مهدِها الثلجى
إلا شعاعاً لاحْ يخفُق فى وهجِ

الحارسُ السهرانْ قد فتَّح البُرجا
سيُنشدُ النيرانْ أغنيةَ الثلجا
واللهبُ السكرانْ يرقصُ فى نارِهْ
والنغمُ الفرحانْ يلهو بقيثارِهْ

أطلقتَ إنشادى يا من تغنِّينى
قيثارُك الشادى حُلوُ الأرانينِ
يدعو لميعادي الليلَ والأحلامْ
يا حارسَ الوادى قد باحت الأنغامْ

. . . .

إنَّ الفتى المِمراحْ قد أغلقَ البابا
واللهبُ الوضَّاحْ من خلفِهِ غابا
لا نجمَ، لا مصباحْ يلمعُ من بعدِ
لاصوتَ، لاأشباحْ إنى هنا وحدى

يا أملَ العُمُرِ
يا حُلمَ العذراءْ
يا توأمَ الفجرِ
يا ابن الصبا الوضّاءْ
يا مَلَكَ الْحُبِّ
إنى لكَ الليلَه
فاطبع على قلبى
أو شَفَتِى قبلَه

على محمود طه

(*) من كتاب « أرواح شاردة » يصدر بعد أيام

دوحة الحب...

للأديب مصطفى على عبد الرحمن

يا حبيبي ! هلّل البلبلُ للنــورِ وغنّى
أى معنى من معانى الحسن غنى، أى معنى
أيقظَ الأزهارَ فى الروضِ فراحت تتثنى
تنهلُ الأقداحَ من خمرِ الندى | فى ظلال من صفاء ونعيم
وترى الدنيا ضلالاً وهُدى | يُسكر الألباب مرآها الوسيم

***

هاهى الشمسُ رنت للكونِ من عرش السماء
فبدا الكون كما نهوى غريقاً فى الضياء
فاض بالفتنةِ والســحر وأنوار الرجاء
ردّد الجدولُ أنغامَ الهوى | لغناء الطيرِ فى هام الغصون
آه يا هاجرُ لو ذقت الجوى | شدّ ما ألقاهُ من نارِ الحنين!

***

ذلك الروض وهــذا الجدولُ الحالم يدرى
يا أخا الروحِ ويا دنيايَ مَن أعنى بشعرى
ناء بالهم الذى يلقاه لو تمــلم صدرى
ما ابتسامُ الكونِ إلا لمحةٌ | من سنا عينيك فاضت بالحياه
فتنة أنت لعمــرى فتنة | فُتِنَ العقلُ بدنياها وتاه

***

دوحةُ الحب تنادينا لقــد حنتْ إلينا
ما علينا لو جنينا الصــفو فيها ؟ ما علينا
في يدينا فرحة العمـــر فعجلْ فى يدينا
كل ما يرجوه قلبٌ آمل | فى نعيم العيش من صفو حبيب
إنما دنياك ظلٌ زائل | سوف يَذوى ثم يمضى عن قريب

(الاسكندرية) مصطفى على عبد الرحمن

أحيـــاء الاسكندرية

للأستاذ عبد اللطيف النشار

شـوارعَ الثغر ما الزحامُ | طيفٌ تولّى به منامُ
أو أملٌ فى الغيوب يُرْجى | إذْ يرجع الأمن والسلام
لا شيء لا شيء فى ذُراها | للهِ سبحــانَهُ الدوام
يا قلبُ كم فيك من معانٍ | تَرُوعُ لو أمكن الكلام

عبد اللطيف النشار

حــلم ... !

الأديب عمر أبو قوس

الشهب من قدم | ترنو إلى البحر
تسبح عن بعـدِ | فى مائه القمـر
والبحر إذ يصبو | يصبو إلى البدر
أمواجـه تُرغى | من لوعة الهجر
حتى إذا أعيت | نامت على الصخر
والريح كم راحت | تبحث عن وكر
أنفامهـا الحرّى | يلهثنَ فى القفر
والفجر إذ يصحو | من سِنة الغمض
لا يفتح العين | إلّا على روض
يملــؤه شــوقاً | بالطول والعرض
من أحمر يبـدو | فى أثر مُبْيض
ووردة هـامت | بالزنبـق الغض
أبعـدها منـه | رفض على رفض
ما ضرّ لو يدنو | بعضيَ من بعضى

« حلب » عمر أبو قوس



تعقيب على خبر

لفت أحد الأصدقاء نظرى إلى أن الدكتور زكى مبارك قد ذكر اسمى فى فقرة من تلك الفقرات التى يكتبها كل أسبوع مما يسميه (الحديث ذو شجون) ، فقرأت ما كتب الدكتور فإذا به قد أقحم فى مقاله ذكر الثقافة والرسالة كأنه يغرى بينهما ، أو كأنه يريد أن يفهم قراءه أن هاتين الصحيفتين الأدبيتين تتنازعان وتتخاصمان . ولقد كنت من قبل أكتب فى الرسالة ، وأنا اليوم أكتب فى الثقافة ، ولا أعرف بينهما غير ما يكون بين صحيفتين تحاول كل منهما أن تؤدى واجبها نحو الأدب على طريقتها

وعجبت أن يكون للدكتور زكى مبارك مثل هذه القدرة على الابتكار فى مثل حديثه هذه المرة ؛ فإن الأمر لم يزد على أنى سمعت من بعض الأصدقاء فى السودان أن الأستاذ الزيات قد اعتزم زيارة ذلك القطر الشقيق وأنهم يرحبون بزيارته ، فأثنيت على الأستاذ بما علمت ، وأردت أن أحمل إليه هذه التحية فلم أجده بالقاهرة ، ولقينى الدكتور زكى مبارك عفواً فحملته هذه التحية إليه فإذا به ينسج من هذه القصة القصيرة حديثه العجيب .

رد الدكتور تحيتى بما تهيأ له من القول فى أسلوبه الصاخب فكان أسوأ رد على التحية

وأما الموازنة بين الثقافة والرسالة فما ينبغى لنا معشر الكتاب فيهما أن نتحدث عنها ، والحكم فيما يكتب الكتاب إنما يرجع إلى القراء فى أقطار الأرض . وإذا كان الدكتور يريد أن يسدى نصحا فليجعل كل همه فى خدمة الرسالة القراء ، فهذا دين فى عنقه للصحيفة التى توسع صدرها لما يكتب دون غيرها ممن لا يوليه مثل هذه الثقة . وإذا كان لنا أن نبيح لنفسنا ما أباح لنفسه من حق إسداء النصيحة فإنا نرجو أن يعنى بأسلوبه فى الكتابة ، وأن يتخير الموضوعات الجديرة بوقت قرائه ، وأن يرفع مستوى كتابته إلى ما يتطلبه العصر الحاضر من أدب القول وجمال الأسلوب والبناء الإنشائى والتعمق فى التفكير ، وأن يحاول أن يخفض من صوته ويقصد إلى معناه

ونحن إذ نسدى إليه هذه النصيحة لا نقصد إلا خيره وخير الأدب إذا كان يعنى حقاً برأى العالم العربى فى أدب مصر

محمد فريد أبو حديد

محصول «الرسالة»

إلى صديق الدكتور مبارك :

من النافع للمتأدب أن يتخير الأطايب فى محصول «الرسالة» ويدونه فى دفتر خاص ، كما يفعل صاحبك الموظف برياسة مجلس الوزراء .

ونافعة أيضاً إهابتك بأصدقاء «الرسالة» أن يتعقبوا كل عدد بالنص على ما فيه من دقائق تفوت بعض القراء

والأنفع من هذا وذاك — فى رأيى — أن يتناول الناقد مواضيع «الرسالة» كلها فيميز بين الغث والسمين ، ويشير إلى الفج والناضج ، ويدل على النافع والحسن ، كما تفعل المجلات الأوربية الراقية ، ولأن القارئ فى حاجة ماسة إلى من يدله ويهديه ويجرعه أطايب «المحصول» الأدبى تجريعاً

وأزعم أن لا كبير فرق بين صحيفة دورية يشترك فى تحريرها طائفة من الكتاب ، وبين كتاب ينفرد فى تأليفه وتصنيفه كاتب واحد ، وقد جرت العادة عند النقاد أن يتناولوا الكتاب ومؤلفه ويسكتوا عن الصحيفة الدورية

فطنت لهذا التقصير من جانبنا ، فاقترحت على صديقنا الزيات أن أتناول بالنقد مجلاتنا المحترمة : المقتطف والهلال ، والثقافة «والرسالة» ، لأنها أخلق بالنقد من كثير من مؤلفات ما نكاد نقرأ بضع صفحات منها حتى نطرحها جانباً

أتعرف يا مبارك بماذا أجاب صديقنا الزيات وقد استحسن الفكرة ورحب بها ؟

قال : كاتبان لا يصلحان لهذا الضرب من النقد : أنت والدكتور مبارك ، لأنكما لا ترفقان فى النقد ولا ترحمان . وهل من دليل أسطع من أنكما غير محبوبين من المؤلفين ؟ ؟ ! !

ولست بناقل إليك تتمة حديث صديقنا الزيات عن النقد

والنقاد ، لأنى أعرف أنك لا ترضى مثلى عن الليونة وما تحتها من معان تشل الروح الأدبى ولا تسمو به إلى الأوج

ولا إخالك إلا معتقداً مثلى بأن مجابهة التيارات الأدبية واقتحامها خير من مجاراتها والتحايل عليها ، ولكن ...

أجل ، ولكن العبرة بالنشر والناشر ، لا بالتمرد والثورة !

حبيب الزحلاوى

من جديد

من التعبيرات التى تسربت حديثاً إلى لغتنا ، فتداولها الكتاب من غير تمحيص ، ولا وزن لصحتها اللغوية ، ولا لصلاحيتها لأن تندمج فى الأساليب الفصيحة وتغدو جزءاً منها

ولم تكن هذه العبارة شائعة بيننا قبل نحو عشر سنين ، على ما أذكر ؛ وكنت أراها أولاً فى بعض القصص والمجلات والجرائد . ثم مرّت فى أحاديث الناس واستظرفوها وتملّحوا بها

وما كنت قط أتوهم أن تصل يوماً إلى أقلام البلغاء ، حتى رأيتها فى قصيدة لشاعر معاصر من شعرائنا البارزين الذين يحتفلون فى جزالة[1] الأسلوب أيما احتفال ، وحتى استعملها العلامة الدكتور زكى مبارك فى مقاله فى العدد ٤١٧ من « الرسالة » ، حيث قال : « ... مع فارق بسيط : هو أن الدكتور أشار إلى المصدر الذى نقل عنه ، وأن الأستاذ ... لم ير موجباً لذلك ، فدلنا (من جديد) على حسن هضمه لما يقرأ من آراء الباحثين »

ولقد جهدت فى أن أخرّج هذا التركيب — فى مختلف أوضاعه — تخريجاً سائغاً ، فلم أوفق . ذلك أنّ (جديد) ملحوظ فيها أن تكون صفة موصوف محذوف . فما هو هذا الموصوف ؟ قد يكون التقدير — فى عبارة الدكتور — : (من وقت جديد) ، أو (من شيء جديد) ، أو (من أمر جديد) مثلاً . ولكن كيفما قدرنا هذا الموصوف ألفينا الكلام — كما ترى — غثاً لا معنى له

والواقع أن هذا التعبير ترجمة الكلمة الإنجليزية anew أو afresh — على ما أعلم — ترجمها من لا يتحرون الصحة ، أو من ليس لهم من علمهم ما به يتحرونها . فاقتبسه الناس وأغرموا به — كغيره من التراكيب الإفرنجية الكثيرة التى شوهتها الترجمة السقيمة — على غير روّية أو إنعام نظر

أفلا يرى معى حضرة الدكتور أنه يجدر بنا أن نحارب هذه الطفيليات فى لغتنا وأن نقضى عليها قبل أن يستشرى فيها شرّها ؟

(ع . ا)

(1) احتفل فى الشيء : اجتهد فيه ، كما فى الأساس

فتوى واستفتاء

١ — فى حاشية فجر الإسلام[1] ما نصه « وجرينا هنا على ما قاله ابن القيم الجوزية » وهذا خطأ بين يقع فيه كثير من المؤلفين والناشرين ، وبخاصة ناشرو كتب شمس الدين محمد بن أبى بكر . وإنما هو ابن القيّم أو ابن قيّم الجوزية ؛ وشتان ما بين الوصف والإضافة . والجوزية مدرسة للحنابلة بدمشق أنشأها محيى الدين ابن جمال الدين بن الجوزى وإليه نسبت[2] . وذكر الأستاذ محمد كرد على فى كتابه خطط الشام أن الجوزية كانت إحدى مدارس عشر للحنابلة ، وأنها كانت فى عهده محكمة شرعية ، ثم جعلتها جمعية الإسعاف الخيرى مدرسة للأيتام ، ثم حرقت فى الثورة[3]

وابن قيم الجوزية هذا — وقد توفى سنة ٧٥١ هـ — غير شيخ الوعاظ غير مدافع ، جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . قيل أن شجرة جوز كانت فى بيت جده جعفر فنسب إليها[4] . وقيل إنه منسوب إلى محلّة بالبصرة تسمى محلة الجوز[5]

٢ — وقريب من هذا الخطأ — وإن تكلف بعض الكتاب تصحيحه — قولهم : « القصر العينى » وإنما هو قصر العينى بالإضافة إلى الأمير الشهابى أحمد بن عبد الرحيم بن البدر العينى نسبة إلى « عين تاب » على ثلاثة مراحل من « حلب »[6]

٣ — جاء فى الوسيط فى ترجمة ابن خلّكان — ما نصه : « وتوفى والده وهو ابن سنتين » الخ وجاء فى ترجمته فى المفصل

(1) ص ٢١٤ ج ١ ط ٣

(2) مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس فى أخبار المدارس مخطوط بدار الكتب ص ٣٢

(3) ص ٩٨ ج ٦

(4) شرح القاموس (5) شذور الذهب

(6) ترجمة الحافظ العينى فى أول كتابه عمدة القارىء ، الطبعة المنيرية

ما نصه : « وكان أبوه مدرساً بالمدرسة المُظَفَّرية بإرْبل ، فأخذ عليه مبادىء العلم » الخ وبدهى ما بين الروايتين من التناقض . اللهم إلا أن يكون صاحب الترجمة من أرباب الخوارق !

ولا يفوتنا ـ مقرين الحق فى نصابه ـ أن نذكر أن الذى نبهنا إلى هذا الخلاف هو تلميذنا الأديب محمد حرب ، وأننا لم نجد جواباً ألا أن نرجح رواية الفصل ربما نستفتى الرسالة .

٤ — تقرر فى كتب النحو أنه لا يجمع من الصفات جمع مذكر سالماً ما استوى فيه المذكر والمؤنث كوقور ، وصبور ، وجريح . فمن الخطأ البين إذاً ما ذاع وشاع من جمع الخاصة فضلاً عن العامة — غيوراً على غيورين . وإلى القراء فتوى المصباح والقاموس فى جمع هذا الوصف ، لكثرة دورانه على الألسنة

غار يغار غَيْراً وغَيْرة وغاراً فهو غيور وغيران والمرأة غيور أيضاً وغيرى ، وجمع غيور غير كرسول ورسل ، وجمع غيران وغيرى غيارى بالضم والفتح[1] وأجدر بنا أن نكون غيراء على لغة القرآن الكريم

٥ — النحويون قاطبة — عدا الفراء وابن مالك — على أنه إذا اجتمع شرط وقسم ولم يتقدمهما ما يحتاج إلى خبر — كان الجواب للسابق منهما ، وأجابوا عن قول الشاعر :

لئن كان ماحدثته اليوم صادقاً أصم فى نهار القيظ للشمس بادياً

بأنه ضرورة أو اللام زائدة لا موطئة للقسم . وقد اجتمع الرأى على أنه يسوغ للشاعر ما لا يجوز للناثر

ولقد بحثت جاهداً عن شاهد واحد من النثر فأعيانى البحث . أفليس من أخطاء الخاصة إذاً ـ بله العامة ـ ما نقرؤه وما نسمعه من قولهم : لئن كان كذا فإن الأمر كذا وكذا ؟ وإن تعجب فعجب أن يخطئوا الصواب ويذيعوا الخطأ . وبعد فهل يتفضل الباحثون باستنباط مثال واحد من منثور العرب نعتمد عليه فى تصحيح مثل هذا التركيب الذائع الآن فعلوا إنى لهم شاكر

طه محمد الساكت

المدرس بمعهد القاهرة

عجوز وعجوزة

قال الأستاذ وحيد فى « أهرام » ٤١/٦/١٦ يقال للشيخ عجوز وللشيخة عجوز وعجوزة .

وفى القرآن الكريم قال الله تعالى : « قالت يا وَيْلَتَى أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخاً » سورة هود .

وقال أيضاً : « فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » سورة الذاريات . وفى القاموس : « والعجوز الشيخ والشيخة ، ولا تقل عجوزة أو هى لُغَيَّةٌ رديئة »

وفى مختار الصحاح : « والعجوز المرأة الكبيرة ، ولا تقل عجوزة ، والعامة تقوله اهـ .

محمد صفى الأحمدى

جماعة الأدب الحر

تألفت بالمنصورة جمعية أدبية باسم « جماعة الأدب الحر » من أهم أغراضها خدمة الأدب ورفع مستوى الإقليم الثقافى ، وإبراز الشخصية المصرية واضحة فى الأدب ، وذلك بإقامة المحاضرات والمناظرات ونشر الأبحاث ، والعناية بنواحى النشاط الفنى والأدبى ، وهى تدعو كل المشتغلين بنواحى الأدب من أبناء هذا الإقليم إلى المساهمة معها فى أداء رسالتها هذه

تصويب :

جاء فى ص (٨٥٢) من العدد (٤١٧) من « الرسالة » :

The leuding article والصواب : The leading article

وجاء فى الصفحة نفسها : فإنما ذلك لإجازتها . والصواب : فإنما ذلك لو جازتها (ع . ا)

(١) هذا نص المصباح ، وعبارة القاموس فهو غيران من غيارى وغيارى وغيور من غير بضمتين ومغيار من مغايير وهى غيرى من غيارى وغيور من غير تأمل



القيء...

للأستاذ نجيب محفوظ

كان سعادة سعيد باشا كامل يقول كثيراً لخاصته إن رجلاً مثله ألف نفسه العمل والنشاط، لأحرى أن تقعده حياة المعاش مقاعد المرضى المنهوكين. وصدقت نبوءته، فما كاد يحال على المعاش حتى سارع إليه ذبول الشيخوخة واعتوره الإعياء والنحول، ولذلك فإنه حين أصيب بالأنفلونزا لم يعمد كعادته إلى قهرها بالعناد والإيحاء الطيب والمثابرة، ولكنه رقد على فراش المرض عشرين يوماً قانعاً من لذيذ المأكل والمشرب بعصير البرتقال وماء الليمون. على أنه في فترة النقه اعتاض عن تصبره لذة لم يكن له عهد بها؛ كان الصيام قد صفى بطنه وطهر قلبه وأسكت نوازع جسده الصارخة، وطرد أشباح نفسه المفزعة، فأضاء عقله بسنا نور بهيج، واستنارت بصيرته بالصفاء والتجلي، وتبدت له الأمور على غير ما كان يرى، تراءت له الدنيا كومة من تراب، وكأنه يعتلي قمة السماء التي تظلها، وانكشفت له الحقيقة بغير قناع، فكأنما انجلت غشاوة الغرور عن ناظريه، فأحس أن بنفسه كنزاً يغنيه عن الدنيا وما فيها، وشعر بالسلام والطمأنينة يتدفقان من ينابيع صدره فذاق سعادة الجنان، وما كان ليفيق منهما لولا أن كرّ به الخيال إلى الوراء يتيه في غياهب الماضي وينبش قبور المنطوي من الزمان وينشر الرمم والعظام من الذكريات...

كيف اختار أن يدعو الماضي ليتطفل على سعادته الراهنة؟ كيف رضى أن ينفل عن لذة الصفاء ليعاني ضراوة الأفكار؟ في الحق أنه لم يرغب في ذلك مختاراً، ولا راضياً ولكنه وجد الذكريات تطرق باب قلبه بإلحاح وعناد وعنف فلم يملك إلا أن يفتح لها كارهاً وأن يستقبلها ساخطاً متبرماً وأن يجترها بتقزز ونفور. ولم تكن المرة الأولى التي تزوره فيها ولكنها لم تكن تبدو له مخيفة ولا محزنة، أما في ساعة الصفو والتجلي فقد آلمته وأحزنته لأنه استقبلها بقلبه الجديد

رجع به الخيال إلى عهد كان سعيد أفندي كامل كاتباً بالأرشيف في الدرجة الثامنة المخفضة؛ وكان يقيم في منزل قديم بعطفة الجلاد بباب الشعرية، يعاني الأمرين من بساطة حاله وكثرة تبعاته وطموح قلبه وتعالي همته. وكان يقول لنفسه دائماً إن الله وهبه ذكاء عالياً ولكن حظه السيء ران عليه فصد أو خبا؛ ولكنه كان معروفاً بين الجيران لجمال زوجته الحسناء، وكانت أمينة من أصل تركي عاجية البشرة سوداء الشعر والعينين فاتنة القسمات فكان يدعوها أهل الحي بالأميرة وكانوا يضربون بجمالها المثل

وفي يوم من الأيام صدر قرار وزاري بنقله إلى أسيوط؛ فأسقط في يده، لأنه كان يعول والديه وإخوة صغاراً ولا يقوم مرتبه بالإنفاق على بيتين؛ وبدا له - في يأسه - أن يوجه زوجه إلى قصر «سليمان باشا سليمان» السكرتير العام لوزارته لتستعطف أمه أو زوجه لكي يبقيه الباشا في الإدارة العامة بالقاهرة؛ وراقت الفكرة لأميرة عطفة الجلاد بباب الشعرية فذهبت إلى قصر الباشا وسألت عن أم الباشا فقيل لها إنها ماتت من عهد طويل معه، فسألت عن زوجه فقيل لها إن الباشا أعزب، فأوشك أن يلحقها القنوط وأن تهم بالعودة من حيث أتت، ولكن صادف ذلك خروج الباشا من قصره، فاستوقف بصره منظر السيدة الجميلة التي تحادث البواب، فسأله عنها، فاستجمعت الشابة شجاعتها الموزعة وحدثت الباشا عما جاءت من أجله؛ ورق الباشا لجمالها فدعاها إلى صالون الاستقبال واستمع إلى شكاتها باهتمام وشغف. كانت تنظر عيناه أكثر مما تسمع أذناه، وكان كلفاً بالحسان ينسى في مجلسهن دينه ودنياه، فتحلب ريقه واحترق صدره، وابتسم لها ابتسامة حلوة وربت على منكبها بحنو وقال لها

— سأنظر في طلبك بعين العطف يا حسناء

وكانت أمينة قادرة على قراءة العيون فتولتها الدهشة ونظرت للباشا نظرة ملؤها الشك والارتياب ففتنته النظرة؛ فد يده - كما تمود وكما ألف - فعبث بذقنها الصغيرة فقطبت جبينها وجفلت منه. فلم يدركه اليأس وما كان يدركه اليأس أبداً وقال لها برقة

— كلا لا له رجاء عند صاحبه فاقضي رجائي أقض رجاءك

وعادت المرأة إلى زوجها وقصت عليه ما لقيت من الباشا فانزعج الشاب انزعاجاً كبيراً، وأرادت أمينة أن تشاركه عواطفه فبكت وإن لم تخل من زهو وفخار، وأزمع الشاب يأساً

وقال لنفسه : «ليكن سفر، والأمر لله» . ولكن فى صباح اليوم الثانى استدعاه مدير الأرشيف فذهب إليه مبلبل النفس مضطرب القلب يظن أنه مبلغه أمر النقل لينفذه ، ولكن الرجل قال له : « مبارك يا سعيد افندى لقد ألغى أمر نقلك » . فشكره الرجل متحيراً وهم بالرجوع ، ولكن المدير قال له : « ومبارك أيضاً فقد رشحت لوظيفة من الدرجة السابعة بمكتب السكرتير العام »

آه كم رنت الدرجة السابعة فى أذنيه رنيناً بديعاً . . . لقد اضطرب وغضب وسخط وتحير وتردد وقارن ووازن ، ولكن رنين الدرجة ابتلع كل صوت حتى صوت ضميره وعفته ، وتيقظت أطماعه وجمح طموحه فاستسلم . وكانت أمينة التركية الجميلة ذات غرور وطموح أيضاً فاتفقا على أن السوأة شيء يدارى، أما الفرصة المؤاتية فشيء لا يعوض ... وهويا معاً ...

وعزم على ألا تكون تضحيته عبثاً ، فدرس فى بيته حتى حصل على ليسانس الحقوق ورقى سكرتيراً للسكرتير العام ؛ ومازال يصعد مدارج الرقى مستعيناً بهمته وذكائه وجمال زوجه . فلما اختير سليمان باشا سليمان وزيراً جعله مدير مكتبه ، وقامت زوجه بنشر الدعوة له فى الأوساط العالية وقدمته إلى كبار الرجال ، فتبوأ بفضلها مركز السكرتير العام ، وصار سعيد باشا كامل ، وصارت هى حرم الباشا المصون ... وكان قد تعود المهانة كما يتعود الأنف الرائحة النتنة . . .

وفى يوم من الأيام أعلن الباشا أنه مسافر إلى بور سعيد فى رحلة تفتيشية تستغرق عشرة أيام . وبلغ المدينة وشرع فى العمل بما عرف عنه من النشاط وعلو الهمة ، ولكن اعتوره تعب فجائى اضطر معه إلى قطع رحلته والعودة إلى القاهرة ، وانتهى إلى قصره مع المساء ، وكانت عودة غير متوقعة ، فاستقبله البواب بدهشة لم تخف عن عينيه على ندرة اندهاش النوبيين ، والتقى الباشا بالسفرجى فى الردهة التحتانية ، فتولى الرجل الانزعاج ولم يستطع أن يخفى تأثره ، فغضب الباشا وسأله : « أين الهانم ؟ » ولم يجب الرجل كأنه لم يسمع ، فقال له بحدة : « أين الهانم يا أحمق ؟ » ، فارتعب الخادم وقال بتلعثم : « فوق يا سعادة الباشا ... فوق » ، فصعد السلم الخشبى المفروش بالبساط الأحمر المخملى وهو يتساءل : ماذا هنالك ! ؟ وبلغ الصالة فى ثوان ، فرأى وصيفة زوجه تنسق باقة زهر ناضرة ... فلما رأته حلقت فى وجهه بذهول وجمدت عن الحركة لحظة كأنها فارة جذبت عيناها إلى عينى هر ... ثم هرعت إلى حجرة النوم ونقرت على بابها القلق وهى تقول : سيدتى ... الباشا هنا ... فساوره القلق والاضطراب ودنا من الباب ووضع يده على الأكرة وهو يعجب كيف لم تسارع الهانم إلى فتح الباب واستقباله ، ثم أدارها فلم ينفتح الباب ، فالتفت ناحية الوصيفة فلم ير لها أثراً ، فنقر الباب وهو يقول بصوت متهدج :

— يا هانم ... لماذا تغلقين الباب ؟

فلم ترد جواباً ، فأدنى رأسه من الباب فسمع حركة وصوت اصطدام شيء صلب بالأرض ... فاهتاجه الغضب ... فضرب الباب بعصاه وصاح بحدة قائلاً :

— يا هانم ... ألا تسمعيننى ... أمينة هانم ...

ثم مضى يدفع الباب بعنف ، فسمع صوت الهانم تقول :

— انتظر من فضلك فى المكتبة حتى ألحق بك !

فقال بحدة : افتحى الباب

فردت عليه بهدوء وإصرار : انتظرنى فى المكتبة من فضلك

— هذا سلوك غريب ... ما هذه الحركة بداخل الحجرة ؟

— إذهب إلى المكتبة من فضلك

— لن أتنحى عن الباب حتى يفتح لى

فسكتت المرأة هنيهة ثم قالت بحدة وغضب :

— من شخص ينبغى أن يخرج بسلام

وخذلته أعضاؤه المنهوكة فأحس خوراً ، وذهولاً ، وجوداً ثقيلاً ران على قلبه وتنفسه ، ولبث دقائق لا يبدى حراكاً ، ثم مضى بخطى ثقيلة إلى المكتبة وارتمى على مقعد ترتعش يداه من الانفعال والحنق ، وقال بصوت كالمختنق : « ياعجبا . . . إنها لا تكلف نفسها مؤونة التستر على فضيحتها فالخدم يعلمون بغير ريب ... » ، واهتاجه الغضب ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ، وما كانت إرادته تقدر على أن تصطدم بإرادتها بحال ، فتصاعد غضبه دخاناً كتم أنفاسه وسد مسالك صدره ... وقال بلهجة هسترية : « هل يكون هذا المنتهك حرمة فراشى إلا تلميذاً شريراً أو متعطلاً متسكعاً ؟! » وانتظر أن تلحق به فلم تفعل ؛ فقام مرة أخرى وقصد إلى حجرة النوم يسير بخطى مضطربة فوجدها جالسة على الشيزلنج منكسة الرأس ، فلما أحست به بادرته قائلة :

— إنى أغادر البيت فى الحال إذا كان هذا يروقك

فلوح بمصاه غاضباً وقال بحنق :

— ما هذه الفضائح ... ما هذه القذارة ؟

وأصابت العصا ساقها دون قصد منه . فرفعت إليه بصرها وحدجته بنظرة باردة قاسية كان لها في نفسه وقع شديد وقالت له :

— أتضرب الساق التي رفعتك إلى أعلى المناصب ؟!

لقد كانت تلك الكلمة ألمية موجعة ، ولكن ذكراها التي تعاوده الآن أنكى وأمر

وشعر عند ذلك بنمز موجع في صدره ، فاتكأ على يديه الضعيفتين وهم جالساً في الفراش وكسر مخدة واستند عليها متنهداً من الأعماق ، وبدأ كالمستغيث من أفكاره ، ولكن ذاكرته لم ترحمه ولم ترق لحاله فاستحضرت أمام ناظريه حادثة أخرى ليست دون سابقتها بشاعة وقبحاً ... وكان ذلك وهو في أوج مجده الحكومي وكان يترأس حفلة بمدرسة الجيزة الثانوية فألقى كلمة استقبلت بالتصفيق والتقدير ووزع الجوائز على المتفوقين وغادر المنصة مودعاً من كبار الموظفين إلى سيارته وانطلقت به السيارة ، وقد أخذ الظلام يغشى الطرق والحقول ؛ وعند منعطف الطريق انبرى له شاب — ولعله كان تلميذاً — وصاح به بأعلى صوته :

« كيف تضرب الساق التي رفعتك إلى أعلى المناصب » وعرته رجفة شديدة ، وتشنج جسمه فلم يلتفت نحو القاذف الخبيث وشعر بانهيار وتفكك ، فتفصد جبينه عرقاً بارداً ثم غلى دمه ، وعجب كيف ذاعت هذه الجملة الآثمة حتى بلغت هذا الشاب . لقد غدا قصره مورداً لفضائح غير مستورة ينهل منها المتطوعون لإذاعة المخازي . على أنه كان في تلك الأيام قوياً مستهتراً يهضم ضميره القتيل الفضائح بغير مبالاة فهدأ روعه وقال باستهانة وحنق : « قولوا ما يحلو لكم قوله — فسأظل — وأنوفكم في الرغام ، السيد المطاع والرئيس المرتجى . أما الآن في ظل النقه والطهارة فقد امتعض وحزن وشعر بالذكريات تصليه لهباً جهنمياً ...

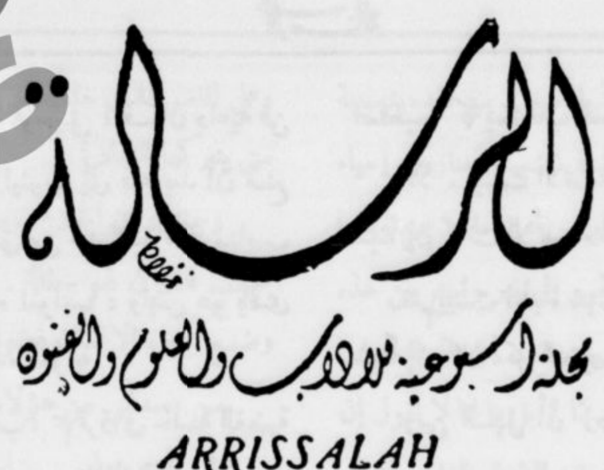
ودخلت عند ذاك أمينه هانم فسألته برقة : « كيف حالك ياباشا » ؛ ثم جلست على مقعد وثير ، فنظر إليها بعينيه الذابلتين نظرة غريبة لم تفهم معناها الحقيقي ؛ وعجب الرجل كيف تحافظ على حسنها وشبابها حتى ليخال الناظر إليها أنها في منتصف عمرها ، مع أنه لا يكبرها بأكثر من ثمانية أعوام ... ثم قال لنفسه دهشاً : « رباه ... كأني كلما زدت عاماً نقصت عاماً ... فتى تذبل وتذوي وتجفل من النظر إلى المرآة ؟؟ »

نجيب محفوظ



9 me Année No. 419 Lundi - 14 - 7 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٤ يولية سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

عبر من سـيرة

للأستاذ عباس محمود العقاد

« بدرفسكى » موسيقى عظيم وإنسان عظيم ، وليس الموسيقى ببالغ أوج العظمة فى فنه حتى يبلغ أوج العظمة الإنسانية فى أفق من آفاقها العليا ، وإن خيل إلى الأكثرين منا أن الموسيقى طرب ، وأن الطرب لهو ، وأن اللهو والعظمة لا يتفقان

كان « بدرفسكى » عظيما لأنه كان أكبر من جميع تلك الأشياء التى يتصاغر لها الناس : كان أكبر من المال ومن المنصب ومن الأثرة ومن المتعة الرخيصة ، وكاد أن يكبر على غواية الفن لولا أنه من الفن قد استمد الكبرياء والعظمة ، فلا يهجره فترة يسيرة إلا بقوة منه ، كما يهجر المرء حياته أحيانا بقوة من دوافع تلك الحياة

وللعظمة مقاييس شتى

وبدرفسكى عظيم بأكثر من مقياس واحد : عظيم بهذا الذى ذكرناه ، وعظيم بإعطائه كل شىء حقه على قدر لا يستطيعه أوساط الناس ، وعظيم لأنه قادر على العمل العظيم فى غير ناحية واحدة . فلم ينحصر فى موسيقاه ولا فى دعوته الوطنية ولا فى غزواته السياسية ، ولم يجاوز فى كل عمل من هذه الأعمال الكبار حده المقدور

أبلغ العالم شكاة أمته بصوت الموسيقى ، فكان داعية فن وداعية وطن . ثم ترك المناصب ليثوب إلى فنه بعد أن صنع ما كان فى وسعه أن يصنع ، ولم يبق من سبب لبقائه فى مناصب الدولة إلا التعلق بها والاستخذاء لنوابها ، وليس هو بالذى يتعلق بهذه الفتنة أو يستخذى لهذه الغواية

وجمع الذهب : أكداس الذهب ، ثم فرق فى خدمة القضية البولونية ما لو احتفظ به لكان أغنى من ملوك المال وأقدر من حكام الأمم

واشتدت به العصبية الوطنية غاية اشتدادها ، ولكنه حين وهب الجوائز للنابغين فى ضروب الموسيقى وهبها عالمية لكل مجيد وكل مأمول الإجادة من أبناء القارة الجديدة

ففيه لكل من الوطن والعالم والغنى نصيب بمقدار ، وبين يديه هو ميزان ذلك المقدار

ومقياس آخر من مقاييس العظمة فيه أنه جند جيشاً وساس دولة ووجه الدول الأخريات توجيهاً لم يحلم به حالم من أبناء وطنه ، ولكنه لم يكن من الحالمين وهو أجدر أبناء بولونيا بالإمامة فى عالم الأحلام

ومن يدرى ماذا كان يجرى فى القارة الأوربية لو استمع أبناء قومه لنصحه واتبعوا هداه فى العلاقة بينهم وبين جيرتهم من الروس ... فلعل الذى كان يجرى يومئذ غير الذى جرى الآن ، وخير مما جرى أو سيجرى بعد الآن !

بدرفسكى رجل عظيم لأنه موسيقى عظيم

وهذا شىء ينبغى لنا أن نفهمه نحن الشرقيين خاصة لأننا أحوج إلى فهمه من جملة العالمين

نحن الشرقيين لا نفهم ما الدنيا وما الحياة فى الدنيا حتى نفهم ما التعبير عن الحياة ، ونفهم أن الفنون أرفع وأجل ما وهب الإنسان من وسائل التعبير عن حياته بل عن حياتيه : الحياة الظاهرة التى لا خفاء بها ، والحياة الباطنة التى ما خلت قط ولن تخلو يوماً من خفاء

فليست الأصداء الموسيقية لغواً من لغو البطالة ، ولا هى بديل من ذيول الفراش أو ذيول السرير ، ولا هى بتسلية للأذن تستطيبها كما يستطاب السجع الموزون والرنين المنغوم

كلا . ليست الأصداء الموسيقية كذلك ، وليست الحياة شيئاً إن كانت الأصداء الموسيقية كذلك

نعم ليست الحياة شيئاً إن لم يكن لها تعبير ، وليست هى شيئاً إن كان كل التعبير عنها لغواً أو تسلية أو متعة فراش

ومن السهل أن تزدرى الرجل الذى يبتذل فنه لشهوة غيره ، وليس من السهل أن تزدرى الرجل الذى يعبر لك عن حياتك ويفتح لك من مغالقها ما عسى أن يحتجب عنك ؛ فإنما هو واهب حياة وليس بواهب شهوة أو تسلية أو فضول

لهذا يلتقى الموسيقى العظيم والرجل العظيم فى إنسان واحد .

ولهذا نحسب بدرفسكى آية من آيات عصره ، لأنه استرعى النظرة الجديدة منهم حين أسندوا إليه رياسة الوزارة فى قومه . وما كانت رياسة الوزارة علواً يرتفع إليه بعد أن رفعته العبقرية ، ولا صوتاً مسموعاً فى جانب من جوانب الأرض بعد أن سمع صوته فى كل جانب منها ، وإنما كانت ولاية الموسيقى لرياسة الوزارة دليلاً على النظرة الجديدة التى ينظرون بها إلى فنه ، أو ينظرون بها إلى الحياة والتعبير عن الحياة

ولو سئل أحد لم كان بدرفسكى رجلاً عظيما لما خطر له أن يقول : إنه كان عظيما لأنه تولى رياسة الوزارة البولونية فى عهد من العهود ، ولكنه يقول إنه كان عظيما لأنه كان أهلاً للمجد وأهلاً للاضطلاع بالأمانة . ولا تناقض بين هذا وبين عزفه على البيان ، واختراعه الجديد من الألحان ، بل هذا حجة له على صدق العظمة فيه واقتداره على كل ما يقتدر عليه العظيم

الحياة تأثير وتعبير . وماذا بعد هذين ؟ بل ماذا فى التأثير نفسه إن لم يتممه التعبير ؟

فالعبقرية التى تتمم الحياة وتعطيها معناها ليست بالمنزلة الهينة بين منازل الإنسانية ، وليست بالنافلة بين النوافل ولا باللغو الذى يكون أو لا يكون على حد سواء

***

قلت فى ذكرى من ذكريات الموسيقار المصرى النابغة سيد درويش إن « الأمة الكاملة عجزت مع هذا عن قضاء حق

الرجل الفرد فات بيننا وهى لا تعلم أنها أصيبت من فقده بعصيبة قومية ، ولم تبال حكومتها أن تشترك فى تشييع جنازته وإحياء ذكره كما تبالى بتشييع جنازات الموتى الذين ماتوا يوم ولدوا والشيمين الذين شيعتهم بطون أمهاتهم إلى قبر واسع من هذه الدنيا يفسدون فيها من أجوائها ماليست تفسده العظام النخرات والجثث الباليات . . . أنقول مع هـذا ؟ بل ما لنا لا نقول إن الرجل قد أهمل فى حياته وبعد مماته ذلك الإهمال القبيح لأجل هذا ؟ أو ليست آدابنا هى تلك آداب هذا الشرق الجامد الذليل الذى تماورته الرزايا وران عليه الطغيان ؟ أو ليست آداب هذا الشرق المسكين تعلمنا أن العزيز العظيم من يسىء إلى الناس ، وأن المهين الحقير من يتوخى لهم الرضى ويوطئ لهم أسباب السرور ؟ أو ليس من شرع الاستبداد وسنن آدابه أن يكون الرجل عظيما لأنه يطغى ويقهر ويكسر النفوس ويحنى الظهور ويصفر الوجوه ؟ أو ليس هذا أعظم ما رأينا من العظمة فى هذا الشرق الآفل منذ علم أبناؤه أنهم صغراء حقراء ، فلن يكون الذى يتقدم إليهم بالرضى والسرور إلا أصغر منهم صغراً وأحقـر منهم حقارة ؟ بلى ، وا أسفاه ! إن دفائن الاستبداد ما برحت عالقة فينا بدخيلة السرائر ، ننفضها فلا تنتفض إلا ذرة بعد ذرة ، وزن المنفوض منها فإذا هو لا يزيد فى الهباء ولا ينقص راكد ذلك التراث ... »

وقد مضت قرابة عشرين سنة بعد وفاة سيد درويش ونحن لم نتقدم خطوة فى هذا المضمار . فلا تزال الأصداء الموسيقية ذيلاً من ذيول الفراش عند جمهرة السامعين ... أتشك فى ذلك ؟ إستمع إليهم وهم يصرخون ويزعقون بين لحة وأخرى ، ثم حاول أن توفق بين هذا النشوز الصادع وبين شعور السامع بانسجام الأنغام وائتلاف المعانى وانتظام الأوزان . إن التوفيق بينهما لمستحيل ، ولكن لا صعوبة فى التوفيق بين هياج الحس المستثار بتصور الشهوة وبين هـذه الثورة الناشزة فى الحناجر والأيدى والأقدام . فهم على مقربة من الفراش فى صورته الحيوانية المريضة ؛ ثم هم لا يستمعون ما يبعدهم عنه أو يحولهم إلى فكرة غير التفكير فيه . وعليهم بعض الوزر وعلى الموسيقيين والطربين وعلى الماضى الذى خلف لهم ذلك التراث بقية الوزر التى لا ندرى متى يدركها النفاد !

وبيننا وبين الخلاص من هـذه البلية عقبتان : أولاهما أننا نحسب الفنون لهو بطالة . وثانيتهما أن اللهو فى عرفنا إسفاف وضيع يعيره الإنسان فضول وقته ، ولعل وقته كله فضول

من يصدقنى من هؤلاء إذ أقول له إن الموسيقى جد رفيع وشاغل مقدس وليس بهزل ولا مجانة ؟

لا أحد

فلنقل لهم إذن أن بدرفسكى الموسيقى تولى رياسة الوزارة فى وطنه وتولى قبل ذلك زعامة قومه باعترافهم واعتراف الغرب كله ، فإنهم ليصدقون إذن وهم حائرون أن الموسيقى جد والأمر لله !

ثم إنهم ليصرخون بعد ذلك ويزعقون كلما رجعوا إلى « التخت » الذى هو عندهم دهليز الفراش ، ولا فضل له عليه !

عباس محمود العقاد

أبو المظفر الأبيوردي

شاعر العرب فى القرن الخامس

للدكتور عبد الوهاب عزام

(تتمة)

— ٦ —

فخر الأبيوردى بأمويته واعتز بها، ولكن عصبيته لبنى أمية لم تورطه فى العداوة التى أثارتها الفتن بين الأمويين والهاشميين، فهو يفخر ببنى عبد مناف جميعاً لا يفرق بين هاشم وأمية كما يفخر بقرشيته وعربيته ويمدح العباسيين ويذكر مآثرهم، وإذا تحدث عن الصحابة وفى الخلفاء حقهم من الثناء والإجلال كما يتحدث المسلم الذى لم تخالط نفسه أهواء العصبية

يقول فى مدح المستظهر بالله :

يا خير من بشرت بعد النبى به ... عدنانُ وادّرعت عِزّاً به مضر
أحيا بك الله ما كانت تُدلّ به ... على قريش ومنها السادة الغرر
لك الوقار من الصدّيق تكنفه ... مهابة كان يحتبوا بها عمر
وجود عثمان والآفاق شاحبة ... ونجدة من علىّ والقنا كِسر
وعِلمُ جدك عبد الله شِيب به ... دهاؤه حين أعيا الوارد الصدر

ثم يذكر الخلفاء العباسيين إلى المعتصم

ويقول فى قصيدة يمدح فيها الرسول والخلفاء الراشدين :

وكلّ صحبك أهوى فالهدى معهم
وغرب من أبغض الأخيار مفلول
وأقتدى بضجيعيك اقتداء أبى ... كلاهما دمُ مَن عاداه مطلول
ومن كعثمان جوداً والسماح له ... عبء على كاهل العلياء محمول
وأين مثل علىّ فى بسالته ... بمأزق من يَرِده فهو مقتول
إنى لأعذل من لم يصفهم مِقة
والناس صنفان : معذور ومعذول

ونجده فى قصيدة أخرى يفخر بالأمويين والعباسيين والعرب كلهم

— ٧ —

كان الأبيوردى شاعر العرب فى القرن الخامس كما كان المتنبى شاعرهم فى القرن الرابع ؛ فشعره ينطق بإباء العرب وعزتهم، ويُعرب عن طباعهم وأخلاقهم، ويتحدث بمآثرهم ومفاخرهم، ويمدح كثيراً من رؤسائهم، ويرثى لحالهم فى عصره ويأنف ألا ينالوا حقهم. وهو كثير الحنين إلى بلاد العرب، نزّاع إلى البداوة تشبهاً بهم

والفرق بين أبى الطيب المتنبى وأبى المظفر الأبيوردى أن الأبيوردى أكثر قصداً فى فخره وثورته وتحدّثه عن مطامعه ؛ على أن له أصلاً فى الملك يجعل كلامه أقرب إلى القبول وأدنى إلى التصديق

وكذلك يتشابه الشاعران العظيمان فى العزوف عن الدنايا، والترفع عما فخر به الشعراء من معاقرة الخمر والاسترسال فى الشهوات

ولا يعوز قارىء ديوان الأبيوردى الدليل على هذه الأخلاق والنزعات ؛ يقول فى اعتداده بنفسه :

وأنى إذا أنكرتنى البلاد ... وشيبَ رضا أهلها بالغضب
لكالضيغم الورد كاد الهوان ... يدبّ إلى غابه فاغترب
فشيدتُ مجداً رسا أصله ... أمتّ إليه بأمّ وأب
ولم أنظم الشعر محباً به ... ولم أمتدح أحداً عن أرب
ولا هزنى طمعٌ للقريض ... ولكنه ترجمان الأدب

ويقول :

وما أنا ممن يملأ الهول صدرَه ... وإن عضه ريب الزمان فأوجعا
إذا ما غسلت العار عنى لم أبَل ... نداء زعيم الحى بشر أو نعى

والأبيوردى لا يرضى بعيشته، ولا يسكن إلى حاله، ولكنه يأنف أن يُسف إلى المطمع الدون، ويستكبر أن تضرعه الحاجة إلى الذل ؛ بل يرى الدنيا كلها أصغر من أن تذل لها نفوس الأحرار. يقول :

قضت وطر أمنى الليالى فلم أبح ... بشكوى ولم يدنس علىّ قميص
أغالى بعرضى والنوائب تشترى
وغيرى يبيع العرض وهو رخيص
وقد علمتْ عليا كنانة أننى ... على ما يزين الأكرمين حريص
فظهرى بأعباء الخصاصة مثقل ... وبطنى من زاد اللئام خميص

ويقول :

وإنى لأقرى النائبات عزائماً ... تروض إباء الدهر والدهر شامس

وأحقر دنيا تسترقُّ لها الطلى مطامع لحظى دونها متشاوس

تجافيت عنها وهى خود غريرة فهل أبتغيها وهى شمطاء عانس؟

أغالى بعرضى فى الخصاصة، والمنى تراودنى عن بيعه ، وأماكس

وأصدى إذا ما أعقب الرى ذلة وأزجر عيسى وهى هِيم خوامس

ولى مقلة وحشية لا تروقها نفائس تحويها نفوس خسائس

ويمثل فى أبيات أخرى ما يتنازع نفس الأبى الذى بدلت أحواله غِيَرُ الزمان :

ولما انتهت أيامنا علقت بنا شدائد أيام قليل رخاؤها

وكان إلينا فى السرور ابتسامها فصار علينا فى الهموم بكاؤها

أصيبت بنا فاستعبرت وضلوعها على مثل وخز السمهرى انطواؤها

ولو علمت ماذا تمانيه بعدنا لما شمتت جهلاً بنا سفهاؤها

إلى أن يقول :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت لنا رغبة أو رهبة عظماؤها

وجاست بنا الجرد العتاق خلالها سوابكَ من لباتهن دماؤها

فصرنا نلاق النائبات بأوجه رقاق الحواشى كاد يقطر ماؤها

إذا ما أردنا أن نبوح بما جنت علينا الليالى لم يدعنا حياؤها

وأنفة الأبيوردى وعفته لا ترضيانه بأدنى العيش ، فهو طماح إلى العلى ، ساع لها، مناضل من أجلها :

رأت أميمة أطمارى وناظرُها يعوم فى الدمع منهلاً بوادره

وما درت أن فى أثنائها رجلاً ترخى على الأسد الضارى غدائره

أغرّ فى ملتقى أوداجه صَيَد حمر مناصله ، بيض عشائره

إن رث بردى فليس السيف محتفلاً بالغمد وهو وميض الغرب باتره

وهو يرى نفسه كفء المعالى التى يطمح إليها ، وأهلاً لها بنسبه وهمته :

لله درى فكم أسمو إلى أمد والدهر فى ناظريه دونه شوس

أبنى عُلَىّ راماجدى فأدركها وكان فى غمرة الهيجاء ينغمس

فأى أروعَ منى نبهت هممى وأى شأو من العلياء ألتمس

ويقول :

سأحمل أعباء الخطوب فطالما تماشت على الأين الجمال القناعس

وأنتظر العقبى وإن بعُد المدَى وأرقب ضوء الفجر والليل دامس

فلله درى حين توقظ همتى مساورة الأشجان والنجم ناعس

هذه الأنفة وهذا الإباء وهذا الطموح وهذه الكبرياء التى أوحت إليه أنه دون مكانته ، وأنّ عليه أن يطلب مكانة تليق به وبآبائه ، أكثرت حديثه عن مباشرة الخطوب وركوب الأهوال فى سبيلها والمحاربة من أجلها ، يقول :

تقول ابنة السعدى وهى تلومنى أمالك عن دار الهوان رحيل؟

فإن عناء المستنيم إلى الأذى بحيث يذل الأكرمون طويل

وعندك محبوك السراة مطهم وفى الكف مطرور الشباة صقيل

فثب وثبة فيها المنايا أو المنى فكل محب للحياة ذليل

وقال :

سواى يجرّ هفونه التظنّى ويرخى عَقد حبْوته التمنى

ويُلبس جيدَه أطواقَ نعمى تشف وراءها أغلال مَنّ

إذا ما سامه اللؤماء ضيماً تمرّغ فى الأذى ظهراً لبطن

وظل نديم عاطية وروض وبات صريع باطية ودن

وأشعر قلبه فَرَق المنايا وأودع سمعه نغم المغنى

وصلصلةُ اللجام لدىّ أحرى بمز فى مباءته مُبِنّ

إلى أن يقول :

وها أنا أوسع الثقلين صدراً ولكن الزمان يضيق عنّى

ويقول :

يا صاحبي خذا للسير أهبته فنيرنا بمناخ السوء يحتبس

أتقدان وفرع الصبح منتشر عليكما وذَماء الليل مختلَس

إن تجهلا ما يناجينى الحفاظ به فالرمح يعلم ما أبغيه والفرس

سخط الأبيوردى وتحدثه بالثورة كانا نتيجة إبائه وطموحه وإنكاره المنزلة التى نشأ فيها كما كانا من سخطه للعرب واستنكافه أن تنزع المقاليد من أيديهم ، وتوكل الأمور إلى غيرهم . فالنعرة العربية بيّنة فى شعره ، والأنفة للعرب مكررة فى قصائده . قال فى قصيدة يمدح فيها أبا النمر المروانى أحد أقاربه :

دهر تذأّب من أبنائه نقَد وأوطئت عربٌ أعقاب أعلاج

وأينع الهام لكن نام قاطفها فن لها بزياد أو بحجاج ؟

وكم أهبنا إليهما بالملوك فلم نظفر بأروع للنهاء فراج
وأنت يا ابن أبي الغمر الأغر لها فقل لذود أضاعوا رعيها : عاج
وألقح الرأى ينتج حادثاً جللاً إن الحوامل قد همت بإخداج
وإن كويت فأنضج غير متئد لا نفع للكى إلا بعد إنضاج

إلى أن يقول :

متى أراها تثير النقع عابسة تردى بكل طليق الوجه مبلاج
ولاج باب أناخ الخطب كلكله به ومن غمرات الموت خراج
فى غلمة كضوارى الأسد أحنقها
زأر العدى دون غابات وأحراج . الخ

وله قصيدة يمدح بها بعض الوزراء من أسرته أولها :

من رام عزا بغير السيف لم ينل
فاركب شبا الهندوانيات والأسل

ويقول فيها :

وخالفت هاشماً فى ملكها عصب
صاروا ملوكا وكانوا أرذل الخول
حنت إليهم ظبى الأسياف ظامئة
حتى أبت صحبة الأجفان والخلل ... الخ

ويقول فى مدح أبى الشداد العقيلى يشكو حال العرب ويحرضه على أن يطلب لهم المكانة الجديرة بهم :

فإيه أبا الشداد إن وراءنا أحاديث تروى بعدنا فى المعاشر
فمن لى بخرق ثائر فوق سابح تردى بإعصار من النقع ثائر
إذا حفزته هزة الروع خلته
على الطرف صقراً فوق فتخاء كاسر
أنرضى وما للعرب غيرك ملجأ توسدهم رملى زرود وحاجر ؟
بهم ظمأ أدمى الجوانح برحه
وذموا إلى الشعرى احتدام الهواجر

وأما إعجابه بأخلاق العرب وحنينه إلى ديارهم فى مدحه وغزله فيذكران بأبى الطيب المتنبى . فهو يحن إلى البداوة ويتغزل بالبدويات ، وإذا تحدث عن أمانيه وأعوانه فالمثل الأعلى عنده فتيان العرب

يقول فى قصيدة يمدح بها المستظهر بالله :

من كل فضفاض الرداء سميدع
أصاحب منه فى الوقائع أروعا
غذته ربى نجد فشب كأنه شهاباً مشرفى يقطر السم منقعا
يريح ، إذا ارمع الندى بمنطق ،
كلاماً كأن الشيح منه تضوعا
ويروى أنابيب الرماح بمأزق
يظل غداة الروع بالدم مترعا ... الخ

ويقول فى قصيدة يمدح بها أحد رؤساء العرب :

وترويك فى قبس حياض تظلها
ذوابل فى أيدى ليوث خوادر
بنو عربيات تحوط ذمارها كماة كأنضاء السيوف البواتر

ويقول فى مدح سيف الدولة صدقة بن دبيس :

له عمة لوثاء تفتر عن نهى علمنا بها أن العمائم تيجان

وحنينه إلى البداوة وعاداتها يتبين فى مثل قوله :

وأسرى بعيس كالأهلة فوقها وجوه من الأقمار أبهى وأبهر
ويعجبنى نفح العرار وربما شمخت بعرنينى وقد فاح عنبر
ويخدش غمدى بالحمى صفحة الثرى
إذا جر من أذياله المتحضر
فما العيش إلا الضب يحرشه الفتى وورد بعستن اليرابيع أكدر
بحيث يلف المرء أطناب بيته على العز والكوم المراسيل تنحر
ويغشى ذراه حين يمتم للقرى ويسمو إليه الطارق المتنور

هذا طرف من أخبار هذا الشاعر العربى الأموى العظيم . ولعل المتأدبين من شباب العرب يجدون فى شعره متعة النفوس الكريمة ، وشحذ الهمم الطامحة ، ونمطاً من الكلام البليغ ، اتفق على تجويده اللفظ والمعنى . ولعل الفرصة تتاح لبحث مفصل جامع فى أدب هذا الشاعر

عبد الوهاب عزام

استدراك : ورد فى المقال السابق فى العمود الأول فى السطر العشرين كلة : معاوية ، والصواب : معاوية

الحديث ذو شجون

للدكتور زكى مبارك

أحزان الاسكندريين توجه الفكر إلى نظرة فلسفية — بين الاحتلال والاستقلال — الاحتقلال — الألمان — محمود ونصف — غرائب التعابير — الكاتب الصوى — شيطنة أدبية — هل فى الأدب ديكتاتورية ؟ — بعض ما يجهل الشبان — صيد الحوت فى بحر الشمال ! — كلمة صريحة إلى الأستاذ « فريد أبو حديد » .

أحزان الإسكندريين

وهذا خطاب جديد من الأستاذ عبد اللطيف النشار ، وهو يدعونى إلى أداء دَيْن الإسكندرية شعراً ، كما أديته نثراً ؛ ثم يهتف :

نبكى لغِرناطةٍ حزناً ولم نرها فكيف بالثغر يذوى تحت أعيننا
يزول يوماً فيوماً من محاسنه ما كان ملء الليالى بهجة وسنا

وأجيب بأن من المسير علىّ أن أوجه خيالى إلى فواجع الإسكندرية ؛ فما أدمت التفكير فى نكبتها لحظات إلا شعرت بدُوار عنيف يزلزل إحساسى بالوجود

والأستاذ النشار يروى فى خطابه حديث اليونانى الذى رأى بعينى رأسه رجلاً فى جبة خضراء يخرج من قبر « أبى الدرداء » ويعتنق الطوربيد ؛ ثم يضمه فى فناء المحافظة ، ويأمره بأن لا ينفجر[1] . (وهو الطوربيد الذى لم ينفجر فى دار المحافظة على بعد ثلاثة أمتار من قبر أبى الدرداء ، وقد وجد الطوربيد ملفوفاً فى باراشوت أخضر اللون)

ثم يقول الأستاذ النشار فى هامش الخطاب :

« فاتنى أن أؤكد لك أن شعور العامة أنه يومٌ دينىٌّ من كبار المواسم لظهور كرامة فيه لأبى الدرداء الذى قتله البرد كراهية منه للنار ، فهو يحمى الاسكندرية من الاحتراق »

وأقول : إنى لا أعرف بالضبط أين دُفِن أبو الدرداء ، ولا أعرف المكان الذى تحتله هذه « الرواية » بين الجِدّ والمزاح ، ولكنى مع هذا لا أستبعد أن يكون للأموات أياد فى مصاير الأحياء ؛ فقد حبَّرتُ أكثر من سبعين صفحة من صفحات « التصوف الإسلامى » فى تأييد نظرية « وحدة الوجود » . ولم يبق عندى شكٌّ فى أن الوجود كله مربوط برباط ونيق من الكهرباء ، بحيث لا تنتقل ورقة من الخضرة إلى الذبول ، ولا يتحول جسدٌ من الحياة إلى الموت ، بدون تأثير فى الوحدة الوجودية ، وإن غفل عن ذلك من يكتفون بما تقع عليه الحواس

وإذن فمن حق الإسكندرية أن تستنجد بأرواح أبنائها البَرَرة والفَجَرة من أقدم عهودها إلى اليوم . ومن حقها أن تثق بأن كربها لن يطول ، لأنه ليس إلا مرحلة قصيرة من مراحل الوحدة الوجودية وهى تنتقل باستمرار من وضع إلى وضع بدون أن يظهر أنها تفرق بين السعود والنحوس

ثم ماذا ؟ ثم أقول بأنْ لا موت فى هذا الوجود ، فليس فيه موجودٌ غيرُ حىّ ، ولو كان هباء تذروه الرياح ، فما كانت الحياة إلا عَرَضاً من أعراض الوجود ، لأنه فى ذاته أصلُ من الحياة ومن الموت

ولهذه الفكرة الفلسفية تفاصيل لا يتسع لها هذا الحديث

بين الاحتلال والاستقلال

دعونا أصدقاء الرسالة إلى الموازنة بين حالين من أحوال الشعوب : هما حال الاحتلال وحال الاستقلال ، فكيف أجابوا؟ كان جواب الأديب « م . ف . م »[1] أن عهد الاحتلال فى مصر كان أفضل من عهد الاستقلال ، ولكن كيف ؟

كانت جداول « المناوبات » تُنفَّذ بدقة فى عهد الاحتلال ، وكان التلاميذ أكثر التفاتاً إلى الدروس ، وكان الزعماء أقوى وأقدر على النضال الشريف

وأقول إن هذه الشواهد لم تقنعنى بأن الاحتلال أفضل من الاستقلال ؛ فجداول المناوبات لا تحتاج فى مراعاتها إلى عناء ، وأنا مستعدٌّ لنقل جميع شكاياته إلى وزير الأشغال

أما انصراف بعض التلاميذ عن الدروس فله أسباب غير الاستقلال . وأما قوة الزعماء فى عهد الاحتلال فلا ترجع لمزية

(١) أنا لا أدغم « أن » الناصبة فى « لا » النافية ، فأرجو حضرة المصحح أن يتفضل بمراعاة ذلك

(١) رمزنا إلى هذا الأديب لئلا يؤذيه التصريح فى هذا الشأن الدقيق

أساسية من مزايا الاحتلال ، وإنما هي فورة طبيعية يؤرثها الشوق إلى الاستقلال

ويقول هذا الأديب : « الاستقلال حلو ولذيذ ، ولكن ... »

وأقول إن الاستقلال لا يوصف بأنه حلو ولذيذ أيها الفلاح الأديب ، وإنما يوصف الاستقلال بأنه متعب وشاق ، لأنه يفرض على جميع أبناء الأمة أن يكونوا رجالاً أقوياء ، وأمناء ، والتسلح بالقوة والأمانة لا يُنال بغير جهاد عنيف

أما الأديب أحمد العجمي فيقول : إن صورة العبد الآمن في رحى سيده هي صورة الشعب الذي ينعم بالرغد تحت ظل الاحتلال ، ثم يقول إن الاستقلال ليس وسيلة وإنما هو غاية من أبعد الغايات في الحياة

وأنا أنتظر آراء أصدقاء « الرسالة » في هذا الموضوع الدقيق على شرط أن يتركوا العبارات الخطابية ، لأني أحب أن يتضح هذا الأمر بأساليب تفرس الإيمان الوثيق ، مع الترحيب بالآراء التي أبداها « فلاح التوفيقية » لأن أمثال هذه الآراء تتيح فرصاً كثيرة لتبديد الشبهات التي توجه إلى عهد الاستقلال

الامتقلال

ليست هذه كلمة الأستاذ إسعاف النشاشيبي ولا كلمة المرحوم أحمد زكي باشا ، وإنما هي كلمة نحتها اللغوي المحقق الأستاذ محمد وحيد الأيوبي

الألعبان

وما دام الحديث ذا شجون فأنا أذكر نادرة تمثل أخطار الأقلام في هذه البلاد ، وتبين أن عداوة الشعراء في العصر القديم ليست أخطر من عداوة الكتّاب في العصر الحديث ... والكاتب في زماننا أقدر من الشاعر على الإيذاء : لأن حرية التعبير تخلق له آفاقاً لا يصل إليها الشاعر المحبوس في قفص القوافي والأوزان ، ولأن للكاتب مجالات لا يجرى فيها الشاعر ، وإن بالغ في التلطف والاحتيال

كان الأستاذ وحيد الأيوبي يعادي الزعيم سعد زغلول ، وكان يكتب في قدحه عبارات لاذعة تحت عنوان « الأُلعُبان » أشهرها العبارة الآتية :

« الآن ، وبعد فوات الأوان ، يتكلم عن السودان ؟ أما ألعبان !!! »

وقد رأت « دار الهلال » أن تصدر مجلة فكاهية باسم « الألعبان » فرفضت وزارة الداخلية بحجة أن في هذا الاسم تعريضاً بالزعيم سعد زغلول ، وسمحت بأن يحول الاسم من وضع إلى وضع فيصير « الفكاهة » لا « الألعبان »

أليس هذا دليلاً على أن الكاتب خَلَفَ الشاعر في إيذاء الرجال ؟

اتقوا شر الكتاب ولا تخاطبوهم إلا باحتراس ، فهم شعراء هذا الزمان !

عمود ونصف !

كانت أطول مقالة للأستاذ عبد القادر حمزة لا تزيد عن عمود ونصف ، إلا أن يجدّ ظرفٌ قاهر يوجب الترسل الفياض

أكتب هذا بمناسبة خطاب أرسله إليّ الأستاذ حافظ محمود سكرتير لجنة الاحتفال بتأبين صاحب البلاغ ؛ ومنه علمت أن الوقت لا يتسع لكلمتي في رثاء ذلك الصديق الغالي

ولو كانت لجنة الاحتفال تعلم الغيب لعرفت أن كلمتي في رثاء عبد القادر حمزة لم تكن تزيد عن عمود ونصف ، اقتداء بصاحب البلاغ في اكتفائه بعمود ونصف ، وتوجيهاً لمن يفوتهم أن بعض المقامات تجعل الإيجاز أبلغ من الإطناب

أنظروا ، ثم انظروا ، عواقب المخلصين ؟

كنت وحدي الصديق لصاحب البلاغ في كثير من العهود ، وأنا اليوم لا أجد فرصة أتحدث فيها عنه بما أشاء ، لأن الموت صرف عنه العداوات الوقتية ؛ فأصبح أصدقاؤه يعدون بالألوف وألوف الألوف ، بحيث يتعذر على أصدق محبيه أن يودعه بكلمة رثاء في حفل مشهود

ما أسعدني بما صرت إليه يا أخي وصديقي !

لقد كنت أخشى أن تلاحقك العداوات فلا يقوم بتأبينك رجلٌ غيري

ولكن نحن في مصر ، يا أخي وصديقي ، مصر التي تحفظ الجميل لأبنائها الأوفياء وإن تظاهرتْ حيناً بالتنكر لجهدهم الأصيل

غرائب التعابير

إن قلت : « كان المرحوم مصطفى كامل يطالب بالجلاء ، كانت « المرحوم » كلمة خفيفة الوزن في الترحم على رجل من

نوادر الزعماء ، وإنما ينبغي أن تقول : « كان المغفور له مصطفى كامل ... »

وإن قلت : « كان مصطفى رحمه الله يرى ... » كانت عبارة « رحمه الله » عبارة جميلة . وإن قلت : « كان مصطفى كامل غفر الله له يرى ... » كان في عبارة « غفر الله له » تمريض !

فالوصف يخالف العبارة المأخوذ عنها في القيمة الأدبية ، بلا موجب معقول ، وإنما كان ذلك لأن التعابير لا تأخذ قوتها من المنطق في جميع الأحيان ، وإنما تخضع للعُرف وهو الذي يكوّن الإحساس

الكاتب العمومي

وحين دُعي المسيو ميكلانج جويدي للتدريس في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٧ كان عليه ذوقياً أن يقول في المحاضرة الافتتاحية كلمة ثناء على مدير الجامعة والسكرتير العام ، ولم يلتفت إلى اللقب الأخير من الوجهة الاصطلاحية ، وإنما ترجمه عن الفرنسية بجمله « الكاتب العمومي » فضحك الجمهور ، وخرج علي بك عمر رحمه الله ، وهو ساخط على « ذوق » المستشرقين !

وكان علي بك عمر هو السكرتير العامّ للجامعة المصرية في ذلك الحين

شيطنة أدبية !

كنت قلت : إن مجلة الثقافة لا تدقق في اختيار ما تنشر من الأشعار ؛ فاعترض أديبٌ لا أسميه بأن مجلة الرسالة تقع في مثل هذا الخطأ بنشر أشعار محمود حسن إسماعيل ! !

والاعتراض غير مقبول ، مع الاعتراف بما فيه من طرافة الشيطنة الأدبية

هل في الأدب ديكتاتورية ؟

يصر الأديب عزت حماد منصور على القول بأن في مصر ديكتاتورية أدبية ، وبأن الأدباء الشباب يعانون عِداء من الأدباء الكهول ، ثم يعجب من أن تتاح الفرصة لظهور بعض الشبان دون بعض ، كالذي تصنع « الرسالة » في نشر مقالات هذا الأديب ، وإغفال مقالات ذلك الأديب ، بلا حدود واضحة تبين سبب النشر وسبب الإغفال

وأجيب بأن من الصعب أن أصدق أن لمجلة الرسالة نية في تقديم فريق على فريق ، وإنما يرجع الأمر كله إلى « سياسة القول » فالأديب الشاب قد يتوهم أن له أن يقول ما شاء ، متى شاء ، بدون أن يلاحظ أن للكلام مقامات لا يدركها غير كبار العقول ، وهذا هو السر في إغفال أكثر مقالات الشبان

وأنا أعرض الموضوعات الآتية :

١ — النص على غلطة جوهرية فيما تنشر « الرسالة » لكتابها المعروفين

٢ — تقديم إقتراح مبتكر لم تنشره الجرائد فيما يجب لإغاثة المهاجرين

٣ — إعداد بحث موجز في تاريخ المدائن التي تعاني أهوال الحرب

٤ — كلمة وجيزة عن الألفاظ التي حرفتها الجرائد أيام الثورة العراقية ، مثل : « باكوبا » و « فالوجا » في مكان : « بَعْقُوبه » و « الفَلُّوجة »

٥ — كلمة في نقد أسئلة امتحان المسابقة لترقية التعليم الثانوي

٦ — كلمة في التعقيب على أحاديث رئيس الوزراء بأسلوب بريءٍ من التحامل والإسفاف

٧ — مقال موجز « عن خط ستالين »

٨ — كلمة عن الأماكن التي سميت باسم « ماجينو » في القاهرة قبل أن يستولى عليه الألمان

٩ — قصيدة في الترحم على « قِطار البحر » وأيامه البيض

١٠ — قصيدة في التوجع المكاره التي تعانيها سورية ولبنان وقد أصبحتا ميادين حروب لثلاثة جيوش

١١ — خبر أدبي لا تعرفه اللجنة التي ألفت لتأبين صاحب « البلاغ »

١٢ — أقصوصة تصور سخرية الإسكندرية من غرور المعتدين

١٣ — كلمة عن نوادر المخطوطات في مكتبة الإسكندرية لنسارع بنقلها إلى مكان أمين

١٤ — مقال وجيز تحدد به الأغراض الصحيحة لوزارة الشؤون الاجتماعية

١٥ — كلمة صريحة في الأسباب التي دعت إلى انصراف فريق من الشبان عن الزواج

١٦ — دعوة الجامعة إلى إنشاء قاعة للمحاضرات فى قلب مدينة القاهرة

أما بعد فأنا أقرر للمرة الأولى بعد الألف أن الأدب من صور الحياة ، فافهموا عصركم وتأثروه ، يا أبناء هذا الجيل ، ليكون فى أدبكم قوة وروح ، ولا تصنعوا ما صنع الأديب الذى سخر منه صاحب مجلة « منبر الشرق » وقد توهم ذلك الأديب أن الكلام فى اليأس والترحيب بالموت يُقبَل من جميع الناس وفى جميع الأحايين

بعض ما يجهل الشبان

والشبان يتوهمون أن الكتّاب الشاهير[1] لا يُرَدُّ لهم قول ، وهذا خطأ فظيع ، فلأولئك الشاهير مقالات يطوونها آسفين ، إلى أن تسمح بنشرها الظروف

قضيت عامين كاملين فى تعقب « اسكندرية أبى الفتح » ولم أر فرصة لنشر هذا البحث ، لأن الأستاذ إسعاف النشاشيبى سكت عنه بعد أن تعرض له فى مجلة « الرسالة » منذ ثلاث سنين

الشبان وصيد الحوت

حدثنا الأستاذ أنطون بك الجميّل قال :

« كان لأحد الأدباء مقال مؤجّل فى جريدة الأهرام ، واشتط هـذا الأديب فى السؤال عن مصير ذلك المقال ، فقلت إن الجريدة مشغولة بقضية المؤامرات ، فقال : إن موضوع مقاله أهم من تلك القضية ، فقلت : وما الموضوع ؟ فأجاب : صيد الحوت فى بحر الشمال ! »

ومن المؤكد أن هـذه قصة خيالية من مبتكرات رئيس تحرير الأهرام ، وإن أقسم على صحتها بأغلظ الإيمان

ولكن لهذه القصة أشباه ونظائر تقع فى كل يوم ، فأكثر أدباء الشباب يصيدون الحوت فى بحر الشمال ، ولو صادوه فى أيام الهجوم على النزويج لكان كلامهم فيه من ألطف ما تنشر الجرائد والمجلات

ولكنهم مع الأسف يصيدون فى غير أوقات الصيد

الى الأستاذ فريد أبو حديد

صديقى العزيز

قراء « الرسالة » يذكرون — إن كنتُ نسيت — أنى وجهت إليك تحية خالصة بمناسبة سفرك إلى السودان ، وهى تحية لم أرد بها التودد إليك ، وإنما أردت بها إكرامك وإعزازك ، على نحو ما أصنع فى التنويه بمواطنىّ الفضلاء حين يمضون لأداء بعض الواجبات فى أحد البلاد العربية أو الإسلامية

فما الموجب للكلمة الجافية التى ندّت عن قلمك فى مخاطبتى ؟ وكيف تصنع بنفسك هذا الصنيع فتنفّر أحد محبيك بدون أن تفكر فى عواقب ذلك ، وقد أصلحت الأيام ما كان بينى وبينك ؟

هل يؤذيك أن أثير المنافسة بين « الرسالة » والثقافة ، وأنت تعرف أن المنافسة من أقوى الأسباب فى إذكاء العزائم والعقول ؟ وهل تنسى أن المنافسة بين هاتين المجلتين واقعة بالفعل وأن زملاءك فى مجلة الثقافة يحسبون لها ألف حساب ، ويتقون نارها بالصبر الجميل ؟ وهل تنكر فضل هذه المنافسة عليك وقد أخرجتك من وقارك فقلت ما قلت فى صديق لم يكن يسرك أن يثور بينك وبينه خلاف ؟

ثم تنكر علىّ أن أوجه نصيحة إلى كتّاب « الثقافة » مع أنكم استفتيتم قراءكم سنة كاملة ليدلوكم على سنن الصواب فى الترجمة والإنشاء !

وشاء لك الذوق أن تدعونى إلى الحرص على جمال الأسلوب فكانت هذه الدعوة دليل الوهم بأنك صرت كاتباً له أسلوب ؛ والوهم يصنع بأصحابه ما يشاء

وتلطفت فقلت : « لفت نظرى أحد الأصدقاء إلى أن الدكتور زكى مبارك ذكر اسمى فى شجون حديثه » فهل يكون معنى ذلك أنك لا تقرأ بنفسك ، وإنما ترفع الأخبار إليك فى جُذاذات ، كما تُرفع إلى بعض المقامات ؟ تواضع قليلاً ، يا أستاذ فريد ، ليفتح الله عليك !

وتقول إنى لقيتك عفواً فحمّلتنى تحية أهل السودان إلى الأستاذ الزيات ، وأقول إنى لقيتك عمداً لا عفواً لأهنئك بسلامة العودة ، ولأقبس بعض ما طبعت تلك الزيارة على وجهك من نور وصفاء !

أما بعد فأنا غير نادم على التحية التى وجهتها إليك ، لأنى لم أكن أنتظر منك أى جزاء ، ولأنى أرجو أن أتحفك بمثلها فى مناسبة ثانية ، إن أراد الله أن يجعلك أهلاً لكرائم التحيات ، ولعله يريد !

زكى مبارك

(١) يجوز جمع مشهور على مشاهير ، ولو كره بعض المتحذلقين ؟

دمشق ...

للأستاذ على الطنطاوى

« دمشق ! » ... وهل توصف دمشق ؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها ؟ من يصفها وهى دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود ؟ من يكتب عنها (وهى من جنات الخلد الباقية) بقلم من أقلام الأرض فانٍ ؟

دمشق : التى يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر ، المترفع عن الأرض ترفع البطولة العبقرية، الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق ... دمشق التى تعانقها الغوطة ، الأم الرؤوم الساهرة أبداً ، تصغى إلى مناجاة السواقى الهائمة فى مرابع الفتنة ؛ وقهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى ، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس ، تخوض الليل إليها لتسبقها فى طلوعها ؛ وهمس الزيتون الشيخ الذى شيبته أحداث الدهر فطفق يفكر فيما رأى فى حياته الطويلة وما سمع ، ويتلو على نفسه آيات حكمته ؛ وأغانى الحور الطروب الذى ألهاه عبث الشباب ولهو الفتوة عن التأمل والتبصر ، فقضى العمر ساحباً ذيل المجون مائساً عجبا وتيها ، خاطراً على أكتاف السواقى وعلى جنبات المسارب يغازل النهيد الحسان من نبات الشمس والرمان ، ويميل عليها ليقطف فى الربيع وردة من خدها ، أو ثمرة من قلائد نحرها ، ثم يرتد عنها يخاف أن تلمحه عيون الجوز الشواخص ، والجوز ملك الغوطة جالس هناك بجلاله وكبريائه ، ولا جلال ملك تحت تاجه ، وعاهل فوق عرشه

دمشق : التى تحرسها (الربوة) ذات (الشاذروان) ، وهى خاشعة فى محرابها الصخرى تسبح الله وتحمده على أن أعطاها نصف الجمال حين قسم فى بقاع الأرض كلها النصف الثانى ... وما الربوة إلا حلم ممتع غامض يغمر قلب رائيه بأجل العواطف التى عرفها قلب بشرى فيذكر كل إنسان بليالى حبه وساعات سعادته ، ثم يتصرم الحلم ويستحيل إلى ذكرى حلوة لا تمحوها الأحداث ولا تطغى عليها سيول الذكريات ... الربوة : لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة فى أذن الأرض ... الربوة هى الربوة لمن يعرفها وكفى !

* * *

دمشق من أقدم مدن الأرض وأكبرها سناً وأرسخها فى الحضارة قدماً . كانت مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن ، وقبل أن تنشأ الأهرام وينحت من الصخر وجه أبى الهول ، وبقيت مدينة عامرة بعد ما مات أترابها واندثرت منهن الآثار ، وفيها تراكم تراث الأعصار ، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها فى سالف الدهر ، ففى نفوسهم من السجايا مثل ما فى أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضى طبقات بعضها فوق بعض ... فالحضارة تجرى فى عروقهم مع الدماء ، وهم ورثتها وحاملو رايتها ، وهى فيهم طبع وسجية ؛ ولقد تكون فى غيرهم تطبعاً وتكلفاً ، فأى مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة وجلال الشيخوخة كالذى جمع لدمشق ؟

وأصعد جبل دمشق حتى تبلغ قبة النصر (التى بناها برقوق سنة ٨٧٧ للهجرة ذكرى انتصاره على سوار بك)[١] . ثم انظر وخبرنى هل تعرف مدينة يجتمع منها فى منظر واحد مثل ما يجتمع من دمشق للواقف عند قبة النصر ؟ أنظر تر البلد كله ما يغيب عنك منه شىء : ها هنا قلب المدينة وفيه الجامع الذى لا نظير له على وجه الأرض — لا أستثنى ولا أبالغ — وقبة النسر تعلو هامته كتاج الملك ، لا بل كعمامة الشيخ ، وها هى ذى منارآتها التى تعد مائة وسبعين منارة ، منها عشرون من أعظم منارات العالم الإسلامى ، قد افتن بناتها فى هندستها ونقشها ، فاختلفت منها الأشكال واتفقت فى العظمة والجلال ، لا كمآذن بغداد التى لا يختلف شىء منها عن شىء ، فإذا أبصرت منها واحدة ، فكأنما أبصرتها جميعاً ... يحف بذلك كله الغوطة الواسعة التى تبدو للناظر كأنها بحر من الخضرة قد نثرت فيها القرى التى تنيف على الأربعين عدا ، أكبرها (دوما) ذات الكروم ، (وداريّا) التى تفاخر بعنبها كل أرض فيها عنب ، (وحرَسْتا) بلد الزيتون ومنبت الإمام محمد صاحب أبى حنيفة ، (وجرمانا) وهى حديقة

(١) وهذا جواب الذى سأل عن تاريخ هذه القبة فى عدد مضى من « الرسالة » ، أما القبة الثانية ، فقد بناها الأمير سيار الشجاعى وسميت باسمه

ورد ، وكفر سوسية ، وكفر بطنا ، والأشرفية ، وصحنايا ، والمآذن وهي مائلة خلال الأشجار ، ووراء الغوطة سهول المزة عن اليمين ، وسهل القابون عن الشمال ، وبطاح من الأمام ، وسهول تمتد إلى الأفق ، حيث تغيب الجبال البعيدة في ضباب الصباح ، ووهج الظهيرة ، وصفرة الأصيل ، وسواد الليل ...

إنك تشمل هذا كله بنظرة منك واحدة وأنت قائم مكانك ، فأين يا صديقي القارئ ترى مثل هذا ؟

* * *

وبردى ! لما قدم شاعر العرب عاصمة العرب ومر على بردى وهو يمشي بين قصر أمية ودار البلدية مشية العاجز الهرم ، قال له صاحبه مستقلًا بردى مستخفاً به : أهذا الذي ملأت الدنيا مدحاً له ؟ يظن صاحب شوقي أن النهر بكثرة مائه وبعد ضفتيه . ما درى أن بردى هو الذي يجري في الوادي زاخراً متوثباً نشيطاً لا الذي يجري في (المرجة) متهافتاً كليلاً ، وأنه هو الذي أطعم دمشق الخبز ، وهو الذي زرع بساتين الغوطة ، وهو الذي أنار دمشق بالكهرباء وسيّر فيها وفي غوطتها (الترام) ، وهو الذي لا تضيع قطرة منه واحدة على حين تمر دجلة على بغداد مر الكرام ، تقرأ عليها السلام ... ثم تحمل خيرها كله لتلقيه في البحر ، لا تمنح بغداد منه إلا ما تأخذه بالمضخات والنواعير التي لا تسير إلا بمال . فمن رأى مثل بردى (في بره بأرضه وكثرة خيراته) نهراً ؟ من ذاق أطيب من مائه ؟ من أبصر أجمل من واديه ؟ ...

* * *

لقد علم بردى أبناءه الولع بالخضرة والظلال ، وحبب إليهم أفانين الجمال ، فصارت النزهة (السيران) من مقومات الحياة في دمشق لا تمحيها أسرة إلا بها ، ولا تستغني عنها ، فهي لهم كالغذاء ، فهل يستغنى عن الغذاء ؟ هل يمكن أن يجيء يوم صائف من أيام الشتاء فتبقى دمشقية أو يبقى دمشقي في بيته لا يؤم (المهاجرين) ، حيث يجتمع على الشماف والصخور وفي ظلال الآس الرجال والنساء على طهر وعفاف ، وتدور أكواب الشاي (الأخضر) خمر المسلمين ، وتنطلق بالغناء الساحر أوتار الحناجر وتجري خيول السبق في ساحة الجريد ؛ ثم إذا جاء وقت الصلاة قاموا إليها فلا ترى إلا جماعات وأئمة ، ثم ينفض اجتماعهم عن طرب وفروسة وعبادة ، وتلك هي المثل العليا لأهل الشام

وهل تمر أمسية من أمسيات الصيف على دمشق قاعد في دكانه أو قابع في بيته ؟ تعال انظر جماعاتهم في قهوات (شارع بغداد) وفي كل قهوة مؤذنها (إي والله) وإمامها . وعلى ضفاف بردى عند (صدر الباز) وفي (الميزان) أجمل موضع في دمشق ، وأمامهم سماورات الشاي الصُّفر الرشيقة ، وفي كل حلقة مغنيها ، وليس مثل الشاميين في الولع بالغناء ، فلا ينفرد الرجل بنفسه إلا غنى لها ؛ فالفلاح وهو نازل من قريته مع الفجر يغني ، والحوذي وهو يسوق عربته إلى (جسر تورا) أو إلى (كيوان) يغني ، وأجير الخباز وهو يحمل المعجن على رأسه يغني ، ونداء الباعة كله غناء وشعر ...

قف ساعة على ظهر الطريق واسمع ما ينادي به الباعة تر عجباً لا شبيه له في البلاد ؛ قصائد من الشعر غير أنها مرسلة القوافي ، وطرائف من الغناء غير أنها محلولة القيود ، تمشي إلى القلوب طليقة حرة لا تسمي شيئاً باسمه ؛ وإنما هي مجازات وكنايات ، عجب منها بعض من كتب عن دمشق من سياح الإفرنج فتساءل في كتاب له عما نظم للباعة هذه الأشعار الرقاق !

وتعال استمع هذا البائع وهو يتغنى بصوت يقطر عذوبة وحناناً (ياغزل البنات ، ياما غزلوك في الليالي ، ياغزل البنات) ويضغط على (الليالي) وبعد (البنات) ، هل يستطيع قارئ أن يحزر ماذا يبيع هذا المنادي ! لا لن أقول فتعالوا إلى دمشق لتأكلوا غزل البنات ... وهذا بائع يهتف بكلمة واحدة لا يزيد عليها (الله الدايم) هل يقع في حسابك أنه يبيع (الخس) ، وأن (يامهون يا كريم) نداء بائع (الكمك) عند الصباح ، وأن من الباعة من ينادي بالحكم النوالي كهذا الذي ينادي : (ويل لك يا ابن الزنا يا خاين) فيفهم الناس أنه بائع (الترخون)

أولا يشجيك ويثير سواكن أشجانك بائع العنب حين تدنو أواخره فينادي بصوت حزين (هدوا خيامك وراحت أيامك . مابقي في الكرم غير الحطب ياعنب ، ودع والوداع لسنة ياعنب) ألا تحس كأنه يودع حبيباً له عزيزاً عليه ؟ وبائع العسل (أي الشمندر) وقد أوقد ناره في الصباح البارد ، ووضع (حلته)

وصفف رؤوس الشمندار الأحمر[1] ونادى فى أيام الشتاء (بردان! تعال صوبى بردان ... أنا بياع العسل) ألا يحبب إليك أكل العسل ؛ واسمع العجائب فى نداء بائع اللفوف (البخنا) : (بخنا والطبخ ، والجارية بتنفخ ، والمبدعَ الباب ، بِقلّع الكلاب) وبائع الحمص المسلوق (البليلة) : (بليلة بلبلوك ، وسبع جوار خدموك ، يا بليلة) ، وبائع الزعرور : (أبيض أحمر يا زعبوب ؛ تمر محنى يا زعبوب ، البزر بن يا زعبوب) ؛ واستمع إلى الشعر والخيال فى نداء بائع الجرادق (ياما رماك الهوا ، وقلبي انكوى ، يا ناعم) . وبائع التين (دابل وعلى دبالك يا عيون الحبيب ، ومن دباله يمشى لحاله) ؛ وبائع الباذنجان (أسود ومن سواده هرب الناطور) ألا تعجبك صورة الناطور وقد هرب من سواد الباذنجان؟

وهذا كله كان من ولع الشاميين بالغناء وإقبالهم عليه حتى انعقد إجماع فقهاء الذوق فيهم على أنه لا يصح اجتماع أو سمر إلا بالغناء؛ وإذا سها عنه ساه ، فكفارته إطعام عشرة أصدقاء صدر كنافة شامية ، أو صدر (كل واشكر) أو غير ذلك من الحلويات التى لا يخالف أحد فى أن دمشق أبرع مدينة فى صنعها . واسألوا محل (أسدية) فى القاهرة، ومطعم الفردوس فى بغداد، واذكرونى بالخير ، فإن الدال على الخير كفاعله

والدمشقيون أكرم الناس ، وأشدهم عطفاً على الغريب ، وحباً له ، فهم يؤثرونه على الأهل والولد ؛ ومدينتهم من أنظف المدن لتدفق مائها وكثرة أنهارها ، ووصولها إلى الأحياء كلها ودخولها البرك فى الدور ، حتى لا يخلو حىّ من نهر . فنهر (يزيد[2]) يسقى الصالحية ، و (تورا) يسقى العقيبة وسوق صاروجا[3] ، و (باناس) يسقى القيمرية ، و (قنوات) يسقى حىّ القنوات ، وقد أخذت مياه عين الفيجة (وهى من أصفى العيون وأعذبها تنبع من جبل على عشرين كيلاً من دمشق) فسيّرت مياهها فى بطون الجبال حتى أبلغت دمشق فأدخلت دورها ، فشرب منها الناس أعذب ماء وأبرده . والشاميون مولعون بالنظافة والطهارة ، حتى أنه ليعدّ من أكبر عيوب المرأة ألا تغسل أرض دارها كل يوم مرة أو مرتين بالماء غسلاً وتمسح جدرانه وزجاجه ، على رحب الدور الشامية ، واتساع صحونها ، وكثرة مرمرها ورخامها . وادخل المساجد تر بلاطها يلمع كالمرايا ، ويحبب الصلاة إلى من ليس من أهلها . وعرج على المطاعم تبصر الأطعمة مصفوفة أمامك فى القدور الصغار النظاف بأناقة تجيع الشبعان ، ونظافة تطمئن إليها نفس الموسوس[1] . أما ألوان الطعام فى الشام فلا يضاهيها شيء فى غيرها ، وما أكل الغريب فى دمشق حلواً ولا حامضاً ولا حاراً ولا بارداً إلا استطابه وفضله على طعام بلده ، وما استطاب الشامى فى غير بلده طعاماً قط . ومن خير مطاعم مصر والعراق ، وألذها طعاماً وأحسنها نظاماً ، ما كان صاحبه شامياً أو كان على مذهب أهل الشام . ثم إن خدم المطاعم والقائمين عليها طيّبون أذكياء ، وهم يدركون باللمحة السريعة ، ويفهمون بالإشارة الخفية .

ودمشق أرخص بلاد الله وفيها النعيم المقيم ولا تخلو من ثمر قط لا فى الصيف ولا فى الشتاء . أما جودة ثمارها فأشهر من أن تذكر ؛ وفيها من العنب ما يزيد على خمسين نوعاً ، ومن المشمش تسعة أنواع ، ومن التين قريب من ذلك ، ومن الدراق والكمثرى والتوت الشامى والجوز واللوز ما لا يوجد مثله فى غيرها

والدمشقيون أهل براعة فى الصناعة وعندهم من المعامل الكبيرة معمل للاسمنت عظيم (فى دمّر ظاهر دمشق) ومعمل للأمقار (الكونسروه) لا نظير لما يصنعه . ومعمل للدباغة كبير ، ومعمل للجوخ ، ومعامل كثيرة لا تحصى للمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والجوارب (والكرافات) ، ومعمل للزجاج ، ومعامل صنعت أكثر أنواع الأدوية وحكم الأطباء بجودة ما تصنعه ، ومعامل لأنواع السكاكر والمربيات (والشوكولاته) . وفى دمشق مدرستان للعلم الدينى فيهما

(١) وبما رأيت فى العراق أنهم يأكلون الشمندر : الفت للسلوق ويدعونه الشلغم

(٢) نسبه إلى يزيد بن معاوية

(٣) نسبه إلى صاروجا من أمراء المماليك

(١) بصيغة الفاعل – كذا يضبطها الفقهاء – أى يوسوس لنفسه

أكثر من خمسمائة طالب متمم فضلاً عن الصغار، ومدرسة للطب تدرس العلوم كلها بالعربية؛ ولأساتذتها فضل كبير على ما وضع من المصطلحات العلمية فى لغة العرب. وفيها مدرسة للحقوق العربية. وفيها أنشئ أول مجمع علمى عربى صحيح.

وفى الشام كثير من الآثار الباقية من القرون الخالية: كالقلعة والسور، والمدارس، والمارستانات، والمساجد القديمة، والربط والخانات، ولكل من ذلك حديث طويل وتاريخ حافل، ولكن الأدلاء الجاهلين لا يعرفونها ولا يدلّون السياح عليها. وفيها مدافن كثيرين من أعلام الإسلام فى السياسة والعلم والأدب والتصوف. وفى مكتبتها الظاهرية نوادر المخطوطات، حتى أنها لتعد أغنى الخزائن الإسلامية بكتب الحديث. وفى المكتبات الخاصة مخطوطات فريدة. ودمشق ذاخرة بالعلماء فى كل فن وعلم

وليس للعروبة مثل دمشق موئلاً وملاذاً، وليس فى المسلمين مثل أهلها تمسكاً بالدين وإقامة لشعائره، فساجدها ممتلئة أبداً؛ فيها كل شاب متأنق تراه فتحسبه من شرّاب مياه التايمس أو السّين، وهو مسلم حقاً، مؤمن صدقاً، ناشئ فى طاعة الله؛ ومساجد بلاد العرب إن امتلأت فبالشيوخ والشيب!

والمنكرات فى دمشق مقموعة وأهلها الأذلاء. وللعلماء العقلاء المخلصين منزلة عند أهل دمشق ليس لأحد من أبناء الدنيا مثلها. والسفور فى نساء الشام قليل نادر، والاحتشام والستر عام شامل. وأهل الشام كالماء لهم فى الرضا رقته وسيلانه، وفى الغضب شدته وطغيانه، بل ربما كان لهم من البركان فورانه وثورانه

* * *

وبعد فأى مزاياك يا دمشق أذكر، وإلى أى معاهدك أشتاق، وأيها أحن إلى حسنه وأهيم بجماله، وفيك الدين وأنت الدنيا، وعندك الجمال وعندك الجلال، وأنت ديار المجد وأنت ديار الوجد، جمعت عظمة الماضى وروعة الحاضر، وسيكون لك المستقبل... المستقبل لك يا دمشق، عشت وعاش بنوك والسلام عليك ممن غربته عنك وأنكرته، وأشقيته بالوفاء حين أسعدت بالغدر الغادرين

علي الطنطاوي

من دموع عذراء

العبير النائح

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

إنّى أراكِ كزهرةٍ ... فى الغابِ نائحةِ العبيرْ
مذعورةِ الأكمامِ بيـ ... ـنَ خُطا السمائمِ والهجيرْ
عذراءَ يتّمها الخريـ ... ـفُ فلا ظِلالَ ولا غديرْ
سكنتْ كطَيفٍ معذّبٍ ... وهفتْ كآهةِ مستجيرْ
ودنا الظلامُ فلفّها ... فى ثوبِ محزونٍ كسيرْ
فكأنّها فى ليلِهِ ... سِرٌّ يغلّفُهُ الضميرْ
وكأنّها فى فجرِهِ ... حُلْمٌ يطيرُ ولا يطيرْ...

يا ليتنى كنتُ الظِّلالْ
أو كنتُ ينبوعَ التِّلالْ
لسكبتُ عُمْرِى فى الرِّمالْ
رُوحاً يرفرفُ كالخيالْ

يَسقيكِ مِنْ شَفةِ الربيـ ... ـعِ رحيقَ فتنتِكِ النضيرْ
ويُحيلُ مَهدَكِ جنّةً ... للحُبِّ والهةَ الأثيرْ
أنا فى رُباها نسمةٌ ... بسوى ضفافِكِ لا تسيرْ!
أنا فى ثراها جدولٌ ... لصِباكِ رقراقٌ نميرْ!
أنا فى شذاها نفحةٌ ... عِطرُ الخلودِ بها أسيرْ!
أنا فى سماها كوكبٌ ... فى بُرجِهِ بكِ يستنيرْ!
أنا فى هواها قُبلةٌ ... حرّى مخلّدةُ السعيرْ
ستظلُّ فى شفتيكِ لا ... تَزوى إلى اليومِ الأخيرْ

محمود حسن إسماعيل

من حديث الثغر الحزين

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد

فى مثل هـذه الأيام من كل صيف مضى ، كان الناس — أو قل كان من الناس من تسمح لهم مقدرتهم وأوقاتهم بقضاء أشهر أو أسابيع أو أيام مع عروس البحر الأبيض كما يدعونها — يرون الإسكندرية ، وقد بدت عروساً سعيدة فى أكمل زينة وأبهى منظر

كان هؤلاء يلجأون إليها ، هاربين من حرارة الصيف لا يطيقونها ، يرجون عندها معانى الراحة والاطمئنان ، وينشدون فيها الهناءة والسعادة . فتتلقاهم الإسكندرية مرحبة بهم ، مكرمة لهم ، باذلة كل جهد لتكون عند حسن ظنهم بها ، غير مترددة فى أن تظهر أمامهم — أو بهم — فى صورة من الحرية المرحة أو السرور المطلق ، نازعة عنها قيود التقاليد الوروثة ، متحملة كثيراً من أنواع النقد اللاذع ، يتقاذفها نخضم هائج لا كموجها الهادىء ... حين تسرف فى إكرامهم ، ولـكن فى ألوان النعمة الساخرة الساحرة !

كانوا يلجأون إليها فى مثل هذه الأيام من كل صيف ، يقاسمونها ما وهبها الله من نعمة الطبيعة ، ويشاركونها فيما منحتها الطبيعة من سحر ، ولا أنكر أنهم كانوا يعطونها شيئاً ما مما أعطتهم الأيام ، ولـكنهم كانوا أخيراً يتركونها إلى حيث يعودون جميعاً ، وقد بقيت وحدها حتى الصيف التالى رمزاً للعبث كما يراها بعض من الناس ، أو صورة لأمنية سعيدة فى خيال بعض آخر لم تحقق له الأيام رجاءه من القدرة على أن يكون من روادها السعداء

يعودون ، لتستقبل جماعة منهم العمل ، ولتستقبل جماعة أخرى أنواعاً جديدة من لذة الشتاء ، وتبقى أذهان هؤلاء وأولئك ثملة برحلة الصيف ، سكرى بذكرياتها ، تستمد من تلك الذكريات الجميلة عوناً على قضاء الأيام حتى تستقبلهم الأسكندرية مرة أخرى ، طروباً ساخرة

***

إشهدوا الأسكندرية كرقصة مرحة صاخبة يأخذ كل قادر منها بنصيب ، ثم لا يهدأ إلا ليأخذ منها بنصيب جديد ...

واسمعوها كأغنية عذبة طويلة من مطرب موهوب محبوب ، لا تـكاد تنتهى حتى يرجو السامعون لو أعيدت من جديد ... وحتى بعد أن تقضى على أنوارها الباهرة بأن تلبث ثوباً من الزرقة القاتمة منذ سنين . إسمعوها فى الليل كقطعة موسيقية صامتة تلمسها أنامل عازف ماهر على أوتار القلوب !

إشهدوها واسمعوها كذلك ، ثم انظروها وقد لبست فى هذا الصيف ثوب الحداد على شهداء أعزاء ... واسمعوها ، اسمعوا منها تلك الأغنية العذبة ، وقد تبدلت فجأة ، فإذا هى عويل وبكاء ... وأنصتوا لموسيقاها الصاخبة ، وقد أضحت لحناً حزيناً خافتاً بين الأطلال ...

إسألوا هؤلاء الذين كانوا بالأمس يسعون إليها هرباً من حرارة الجو ... ماذا قدموا لها اليوم حين سمت إليهم هرباً من جحيم الشيطان !

إسألوا هؤلاء ماذا قدموا من خير — وهم قادرون — للأمهات الحزينات فقدن العائل وفقدن الأبناء !

إسألوهم ماذا قدموا من عون لليتامى ، وقد هاموا على وجوههم حائرين ، ضلوا سبيل الحياة !

إسألوهم ماذا قدموا من مالهم لمن صار محروماً !

إسألوهم ماذا قدموا من مقدرتهم لمن أصبح عاجزاً !

إسألوهم ماذا قدموا من قوتهم وصحتهم لمن صار ضعيفاً عليلاً !

إسألوهم ماذا قدموا من خبزهم للجياع ، وماذا قدموا من كسائهم للعرايا ... وماذا قدموا من دورهم للمشردين !

بل سلوهم ماذا قدموا من كلمة مواساة لهؤلاء ، علها أن تخفف شيئاً من وقع المصاب !

ترى هل يجيبون ... ؟ يقيناً أنهم لا يجدون الجواب !

فـكم منهم ذكر الأسكندرية فى محنتها بشىء ؟ وبأى شىء ذكرها هذا البعض القليل الذى ذكر ... ؟!

***

أيتها الدنيا : إنك لغادرة خادعة !

الله ! . . .

DIEU

لشاعر الحب والجمال لامرتين

بقلم الأستاذ محمد أسعد ولاية

[لما وجه لامرتين هذه الأبيات إلى « لامنيه » كان يومذاك على اتصال به منذ أمد قريب حيث استهواه الباب الأول من بحث ديني في « النكران » عام (١٨١٧) ، فأنشأها خلال رحلة قام بها على جواد بين باريس وديجون في الأيام الأولى من مايو عام (١٨١٩) . وهذه القصيدة التي ترتبط بنوع تعليمي تكاد تشتمل على أروع أبيات تحدد وتصف القدرة الالهية ، ويندر أن يستند الشعر الفلسفي إلى إلهام متقد إلى هذا الحد]

(الى الراهب ف . د . لامنيه)

نعم ، إن روحي لتبتهج بالتحلل من قيودها :

طارحة عِبء البؤس البشرى ،

تاركةً حواسي تهيم في هذا العالم ، عالم الأشباح ،

حيث أصعد إلى عالم الأرواح بدون عناء .

هنالك أطأ تحت أقدامي هذا العالم المنظور ،

وأرتع حراً في ساحات الخفاء .

إنّ روحي لتضيق في سجنها الرحب ،

إنني في حاجة إلى مقر لا أُفُقَ له

* * *

كقطرة ماء صُبَّتْ في المحيط ،

يستغرق الخلدُ في كنفه تفكيرى ،

هنالك ملكة الفضاء والخلود

وهى تجرؤ على استكناه الزمن والعالم اللانهائى

تقترب من العدم ، وتطوف في الوجود

وتعرف من الله الجوهر الغامض .

بيد أنني حينما أريد تصوير ما أشعر به

تتلاشى جميع العبارات كجهودات فاشلة ،

تعتقد روحى أنها تتحدث ولساني متلعثم ،

يصفع الهواء عشرين صفعة خيال تفكيرى .

لقد خلق الله للأرواح لغتين مختلفتين :

في نبرتين تاريخيتين تتبخر إحداهما في الهواء ،

وهذه اللغة المحدودة معروفة للناس

وهى تفي باحتياجات المنفى الذى نحن فيه

وتتكيف طبقاً للضربات القاتلة من تقلبات القدر ،

فتتبدل مع الأجواء أو تذهب مع الزمن .

أما اللغة الخالدة الأخرى النبيلة الجامعة اللانهائية ؟

فهى اللغة الموهوبة بجماع الذكاء :

ولم تكن قط نبرة مائتة تذهب هباء مع الهواء

فليست هـذه مقدرتهم التي عرفناها في ميادين اللهو واللذة والمتعة الفاجرة . . . وليست هـذه وجاهتهم التي عرفناها في قصورهم وحيث يحلّون !

وأنت أيتها الإسكندرية : إنهم لم يحبوك في يوم من الأيام . . . ولكنهم أحبوا لذتهم ولهوهم ، وأحبوا عندك الظهور والكبرياء !

إنهم لم يعطوك ، حين كانوا يعطونك كل صيف مما وهبتهم الأيام ، لرغبتهم في أن ينالك شيء من خيرهم ، ولـكنهم لو استطاعوا لأخذوا كل ما لديك لأنفسهم . واذهبي أنت مع الريح !

أيتها الإسكندرية ، إغضبي من اليوم عليهم . إغضبي غضبة لا تعرف الموادة ولا تعرف اللين ، فليسوا جديرين بعطف منك ولا وفاء ! ولتغضب مصر جميعاً لغضبة الاسكندرية ، لتغضب . . . فإنا نحب الخير ونحترم مثله ، ولسنا عبيد الألقاب ، ولسنا قطيعاً في مزرعة الوجهاء .

إن للفقراء حقاً مشروعاً في رقاب الأغنياء . طلبوه اليوم منهم فأنكره هؤلاء . . . فليذهب كل ما كان لهم في نفوسنا من حب ، وليذهب كل ما كان لهم فيها من تقدير . . .

ولتبق نكبة الاسكندرية ماثلة في أذهاننا دائماً ، لتذكرنا بأن للانسان حقوقاً طبيعية في المجموع الذى يعيش فيه .

تتمثل هذه الحقوق — أول ما تتمثل — في أننا يجب أن نسعى إلى حياة معتدلة ، فيها رخاء لنا جميعاً ، وتحصين لنا جميعاً . فلا تعيش طائفة جاحدة منا عيشة فائقة الثراء . . . وتحيا أخرى حياة الأغنام !

أيها العاجزون المحتاجون المنكوبون ، لا تفكروا طويلاً في عطف القادرين . . . أيها الفقراء ، لا تثقوا كثيراً في قلوب الأغنياء . . . فلا يعرف الألم إلا من قاساه في يوم من الأيام . . .

(حلوان) عماد الدين عبد الحميد

إنها تعبير هى يُسمعُ فى القلب :
فهى تُسمعُ وتُشرحُ ويُتحدثُ بها مع النفس ،
وهذه اللغة الشعورية تخلب وتضىء وتلهب
وليس للنفس لكى تُعبّر عن خطراتها الملتهبة
سوى تنفس الصعداء والحماس والوثوب .
هذه هى لغة السماء التى تنطق بها الصلاة ،
ولغة المحبة المفعمة بالحنان فى الحياة الدنيا

* * *

فى المناطق الطاهرة حيث أحب أن أطير ،
يبعثنى الحماس أيضاً على كشف أسرارها .
هو وحده سراجى فى هذه الليلة الظلماء ،
وهو الذى يفسر لى العالم أحسن مما يفسره العقل .
تعال إذن ! إنه دليلى ، وأريد أن أخدمك .
على أجنحتها النارية تعال واختطف !
ها هو ظل العالم قد انمحى عن أعيننا .
إننا نهجر الزمن ونجول فى الفضاء :
وفى نظام الحقيقة الأبدى ، ها نحن أولاء وجهاً لوجه أمام الحقيقة !
وهذا الكوكب الفرد ، الذى لا زوال له ولا فجر ،
إنه الله ، هو رب كل شىء ، الذى يقدس نفسه !
كل شىء من فضله : الكون والزمن ،
ومن وجوده الخالد ، جميع العناصر الصافية .
اللانهاية مداه ، والأبدية عمره ،
النهار نظرته ، والعالم ظله .
جميع الوجود يبقى تحت ظل يده
فالكائنات الطافية على أمواج الأبدية التى تجرى من فيضه ،
كنهر يتغذى من هذا المنبع الذى لا ينضب له معين ،
يختفى فيه ويؤول إلى الفناء ، بينما كل شىء يبتدىء .
إن صنعه الكامل الذى لا حد له مثله ،
يمجد حين يوجد ، اليد التى صنعته :
يحشد الخلق فى الخلد بين زفرة وأخرى ،
فهو إذا شاء قال : كن فيكون .
كل شىء منه وإليه
إرادته المقدسة هى شريعته الإلهية

ولكن هذه الإرادة التى لا ظلٌ لها ولا خوَر ،
هى فى وقت واحد : القدرة والإرادة والعدل والحكمة .
كل ما عساه أن يكون يجرى وفق إرادته
وكذلك العدم ينهض بمقدار :
الذكاء والحب والقوة والجمال والشباب ،
هو قادر على منحها بلا انقطاع دون أن ينضب له معين .
وهو يغمر العدم بنعمه القيمة .
وأقرب علامات وجوده أنه يستطيع أن يخلق آلهة !
ولكن هؤلاء الآلهة من صنع يده ، والأبناء من قدرته ،
من شأنهم أن يبرهنوا على وجوده الخالد ،
وهم يميلون بطبعهم إلى الإقرار بوجود خالقهم .
إليه مرجعهم جميعاً وهو وحده الكافى !

* * *

هذا هو الله الذى تعبده جميع النفوس ،
والذى دان له (ابراهيم) ، واهتدت إليه ببصيرة (فيثاغورس)[1]
وأشاد بذكره (سقراط) ، ولمس وجوده (أفلاطون) .
هذا الإله الذى أظهر الكون للعقل حقيقة ،
والذى تنتظره العدالة ، ويرجو لطفه الشقاء ،
والذى دعا إليه عيسى فوق الأرض !
ولم يعد من أثر للإله الذى تصنعه يد الإنسان ،
ذلك الإله الذى عبر عنه النفاق الخاطىء ،
ذلك الإله الذى شوهت حقيقته يد الكهنة الزائفين ،
والذى كان يعبده أسلافنا السذج وهم يرتعدون

* * *

إنه وحيد . إنه واحد ، إنه عادل ، إنه حميد
ترى الأرض صنعه ، وتعرف السماء اسمه !
سعيد من يعرفه ، وأسعد منه من يعبده !
هو الذى ، بينما الناس فى جحود أو إنكار ،
يظل وحده فى مصاف مصابيح الليل القانتة ،
ينهض فى المحراب حيث يجتذبه الإيمان ؛

(١) لم يعترف فيلسوف ما من الملحدين اعترافاً تاما بوحدانية الله ، بيد أن الفلسفة الروحانية على الاطلاق تبرهن منطقياً على تلك الوحدانية أما التدرج الذى حاول « لامرتين » أن ينظمه هنا بين « فيثاغورس » و « سقراط » و « أفلاطون » ، فهو مجازى فى صميمه

ويلهج بالمحبة والشكران ،
ويحرق روحه كالبخور فى حضرته !
ولكن لكى تصمد إليه أنفسنا المحطمة
يجب أن تمنح أعلى قوتها وفضيلتها .
ينبغى أن نطير إلى السماء على أجنحة من الحب ،
فالرغبة والحب هما جناحا الروح

***

آه لِمَ لَمْ أولد فى مستهل الخليقة البشرية ؟
حين لم تكد تنتشر من بين يديه ،
قريباً من الله قرباً زمنياً ، وأكثر قرباً بالطاهر ،
حيث تناجيه الخلائق ، وتسير فى حضرته !
لِمَ لَمْ أر العالَم منذ بزوغ شمسه الأولى !
لقد كان كل شىء يحدثه عنك، وكنت أنت نفسك تناجيه ،
وقد كان الوجود يلهج بجلالك المقدس ،
وكانت الطبيعة الخارجة من أيدى الخالق ،
تنشر بكل المعانى اسم منشئها :
هذا الإسم الذى حجب منذ أجيال سحيقة ،
فإذا به يتلألأ فى روعة أكثر بريقاً فوق مبتدعاتك :
ولم يَقتطلعْ الإنسان فيما مضى إلا إليك ،
فكان يدعو ربه ، وكنت تقول : « أنا هو »

***

لقد تفضلت فتعهدت بمناجاتك تعليمه زمناً طويلاً كما يتعهد الطفل ،
وبعد زمن طويل اقتضت مشيئتك أن تهديه سواء السبيل
وقد تجلّت له عظمتك مرة ،
فى أودية رِسِّنار ،
فى حرج حُرَيب بصحراء سينا ،
أو على قمة الجبل المقدس
حيث أملى موسى على العبريين شريعته الجليلة !
وهؤلاء أبناء يعقوب أول مواليد البشر ،
ظلوا يتلقون المن من يديك أربعين عاماً ،
وكنت توقظ نفوسهم بآياتك الحية ،
وكنت توحى أمام أعينهم بلغة المعجزات ،

وعند ما نسوك ، نزلت ملائكتك
وأعادت إلى قلوبهم الحائرة ذكراك .
ولكن أخيراً ، كنهر بعُد عن منبعه ،
ذهبت هذه الذكرى الصافية فى سبيلها ،
ومن هذا الكوكب القديم أخبا ليل الزمان المظلم
الناطقَ المضيئة تدريجياً .
لقد أمسكتَ عن المناجاة ، فالنسيان ويد الأجيال
غفلا عن هذا الاسم العظيم الذى تتسم به بدائعك ،
ولقد أضعف مرور الأجيال الإيمان ،
ووضع الإنسان الشك بين العالم وبينك .
نعم ، هذا العالم يا مولاى قد أصابه الهرم بالنسبة لعظمتك ،
لقد نسىَ اسمك وأترك وذكراك
ولكى نستعيدها يجب علينا أن نعتلى من جديد نهر الأيام موجة فوجة .
أيتها الطبيعة ، أيها الفلك ! عبثاً ترا كما العين .
وا أسفا ! بدون أن يرى الإنسان الله يمجد المبدع ،
إنه يرى وعبثاً يتتبع آلاف الشموس ،
التى تجرى فى صحارى السموات جرياناً عجيباً ،
إنه لم يعد يعترف باليد التى تحركها .
معجزة أبدية لم تعد معجزة .
إنها تسطع فى الغد كما كانت تسطع بالأمس !
من يدرى أين تبتدئ طريقها الجليل ؟
من يدرى إذا كان هذا السراج (الإيمان) الذى يتلألأ ويشمر قام للمرة الأولى فى العالم ؟
إن آباءنا لم يشهدوا قط سطوع دورته الاولى ،
والأيام الخالية لا يعرف لها أول قط .
عبثاً توحى عنايتك الإلهية
بجليك فى هذه التطورات العظيمة على العالم المنوى ،
إن من تدابيرك أن ينتقل صولجان الملك عبثاً
بين البشر من يد إلى أخرى ،
إن أعيننا التى ألفت تقلبها ،
قد جعلت من العظمة عادة فاترة ،
وكم شهدت الأجيال

للعلم والتاريخ

٢ - عبد القادر حمزة باشا

وما ذكره عنه الذاكرون في حفلة التأبين

[« قومية » ، بحثه وراء « الحقيقة » في التاريخ المصرى القـديم ..]

للأستاذ محمد السوادى

احتفل أهل الرأى وذوو المكانة وأبناء الفكر فى عاصمة مصر بتأبين الفقيد من أيام ، فرددت جنبات القاعة الثقافية التذكارية فى الجامعة الأمريكية مواهب الراحل ومناقبه ، جرت نثراً على ألسنة هيكل ومنصور فهمى وأباظة وآخرين ، وجرت شعراً على ألسنة العقاد ومطران ومحرم وآخرين

ومن الرابع عشر من هذا الشهر تحتفل أسرة الفقيد بإحياء ليلة الأربعين ، فيذكر الذاكرون أن أربعين يوماً مرت على آخر عهد لمصر بابنها « الممتاز » الذى وقف عليها ما أوتى من جهود ، وسخر فى سبيلها ما آتاه الله من فضل وفن ومميزات رقت به إلى مستوى فريد ومقام ملحوظ

وأحب بدورى أن أختار هاتين الملابستين — التأبين والأربعين — لأثير ناحية من أدب الفقيد غشى وما ذكره الذاكرون من الشعراء والناثرين ، فقد ذكروا الخدمات التى أداها عبد القادر حمزة لمصر التى أحبها فماش لها ، مصر الحديثة فى جهاده السياسى والصحفى والأدبى ، ومصر القديمة التى بعثها بعثاً رائعاً فى كتابه « على هامش التاريخ المصرى القديم » . هذه الناحية التى أحب اليوم أن أغزوها أو أجلوها هى « قومية البحث عند عبد القادر حمزة وراء الحقيقة فى التاريخ المصرى القديم »

* * *

وأحب أيضاً أن أسجل أسفى على فقر مصر الحديثة من ناحية المؤسسات العلمية التى تفزع إليها الأمم الناهضة لقدر القيم العلمية لجهود الأفراد قدرها الحق ؛ ولو أن مصر كانت مثرية فى هـذه الناحية ثراء الأمريكيين والأوربيين ، لهبت هذه المؤسسات إثر وفاة العظيم تتناول مخلفاته بالبحث ولرأينا الجميات التاريخية تتوفر على الجانب التاريخى منها فتجلوه . المحاضرون من أعضاء المؤسسة بمحاضراتهم ، والباحثون بالكتب التى يصدرونها بسطاً لهذه الجهود وتأييداً أو تفنيداً ، أما وقصارى جهدنا أن يجتمع بعض الناهضين — واجتماعهم مشكور لهم ومحمود — لتأبين العظيم الراحل ، فقصور من ناحية النهضة

كثيراً من تقلبات القدر الكبرى !

لقد قَـدُمَ الدورُ ، والإنسان الجامد فى غفلة

* * *

أيقظنا أيها الإلـه العظيم ، أوْح وبدّل العالم ،

أسمع العدَم كلمتك المثمرة

لقد آن الأوان ، فانهض وتجاوز هذا الهدوء الطويل

اخلق عالماً آخر من هذا الفضاء الآخر .

إن أعيننا الغافلة لتفتقر إلى مشاهد أخرى

وإنّ نفوسنا الشاردة لتحتاج إلى معجزات أخرى

بدل نظام السموات التى لم تعد تحدثنا !

واقذف بشمس أخرى لأعيننا الحائرة

حطم هذا القصر القديم غير الجدير بعظمتك ،

أقبل ، وتجل أنت ـ أنت سبحانك ـ واحملنا على أن نؤمن

ولـكن ربما قبل الأوان حيث فى صحارى السموات

ستكف الشمس عن إنارة الوجود

ومن هذه الشمس المعنوية (الايمان) قد انكسف الضوء .

وسيكف رويداً رويداً عن إنارة التفكير ،

واليوم الذى سيغدو فيه هذا المصباح محطما

سيُغمس العالم فى ليل أبدى !

إذن أنت ستحطم ما خلقت .

وهذا الحطام النهار سيردد عنك جيلاً بعد جيل :

(إننى الوحيد ! وكل ما عدانى لا يستطيع الدوام !

فالإنسان الذى ينقطع عن الايمان ، ينقطع عن البقاء !)

(الأسكندرية) محمد أسعد ولاية

العلمية خاصة والفكرية عامة يثير الأسف، ويبيح للناقد أن يلقى المسؤلية على الدولة ورجال الفكر أنفسهم

وهذه الناحية التي وقع عليها اختياري لتكون موضوع مقالي، هي الناحية التي كنت أود لو كانت من نصيب أساتذة النقد والتاريخ في إحدى المؤسسات العلمية، لأنها ناحية لها من الجلال والقيم ما ينوء به كاهلي وتنوء به جهودي

ولكني سأحاول:

« القومية » في البحث، نقص من ناحية وكمال من ناحية: نقص من ناحية « الحقيقة » العلمية والتاريخية، لأنها - أي القومية - لون من ألوان التعصب يجافي أهداف الباحث وراء « الحقيقة » في ذاتها ولذاتها، وكمال من ناحية « الوطنية » التي تطالبنا بتغليب الصالح الوطني في الغاية، والشعور العاطفي في التحايل على إدراك هذه الغاية

وإذن « القومية » ليست لها قيمة ثابتة، وإنما تختلف قيمتها باختلاف وجهة النظر إليها

و « الحقيقة » نفسها لها ميزاتها ولها مساوئها، أما الميزات فتنحصر في القداسة التي تحوط الباحث، وفي الجمال الذي يحيط اللثام عنه يوم يدرك هذه « الحقيقة »، وفي الجلال الذي يشعر به يوم يرى نفسه وقد تجرد من كل تأثر شخصي أو عائلي أو قومي فأخذ مكانه فوق المستوى العادي وتطلعت الإنسانية المشوقة إلى الحقائق إلى حيث يقيم هذا الباحث داخل برجه العاجي .

وأما مساوىء هذه الحقيقة فتنحصر في مرارتها وأثر هذه المرارة في الجماعة التي ينتمي إليها الباحث، وضرر هذه المرارة بالوطن أو بالأفراد أو بالباحث نفسه . وحسبك أن تتصور نفسك الآن وقد جابهت أمتك حكومة وشعباً بالحقائق العارية فنشرت كتاباً ضمنته نقائصهم أفراداً وجماعة كما تعرفها أنت وكما أعرفها أنا، ثم تتصور نفسك وقد استاقك الجند إلى المحقق وزج بك المحقق في السجن، واستنكر تصرفك الرأي العام، واتهمك بالمروق من دين الوطنية كل وطني

من هذا ترى أن « القومية » نقص من بعض النواحي، و « الحقيقة » نفسها مريرة ولا أقول « نقص » من بعض النواحي، فإذا وجد الرجل الذي يجد في البحث وراء « الحقيقة » خالصة ليرفع جلالها وليبرز جمالها وليساهم بهذا الجهد في الترقي الإنساني، ثم استطاع هذا الرجل أن يخرج بنتيجة « نظيفة سليمة » من الناحية العلمية ومؤدية إلى خدمة بلاده، ثم تبين أن « القومية » هي التي دفعت به من البداية إلى هذا البحث الذي التزم فيه جادة الحق وصادق النهج، فمن حقه على بلاده أولاً وعلى الإنسانية ثانياً أن يأخذ مكانه بين الخالدين

وأنا مؤمن بأن عبد القادر حمزة كان « هذا الرجل » . . . في كتابه الأخير

ويحضرني الآن لإيضاح الفكرة مثل أضربه لها من « القومية » في « الفلسفة الوطنية الاشتراكية » في « ألمانيا النازية » فقد وضع « روزنبرج » وغيره من فلاسفة العنصرية الآرية مجلدات ضخمة سخروا فيها العلم لإثبات أن الجنس الآري سيد هذه الدنيا، وأعداد « الرسالة » الفائتة تتضمن بحوثاً طلية في فلسفة هذه « الوطنية الاشتراكية » وكلها توهم بأن أصحابها إنما يبحثون وراء « الحقيقة » فهل يمكن القول بأن هذه البحوث من النوع الذي نعنيه بـ « قومية البحث وراء الحقيقة » ؟

كلا ... إنما حشد هؤلاء الفلاسفة « معلوماتهم » وجندوا « مواهبهم » لإخفاء وجه « الحقيقة » لا لاجتلائه، ولتسخير هذه « المواهب والمعلومات » في إلباس الباطل ثوب الحق، وفي استخدام الحد الثاني من سلاح المنطق، وفي ارتداء أزياء الفلاسفة وهم في حقيقتهم دعاة سياسيون، ولتضليل « الفكر » بإقناع « المفكرين » بصواب ما تذهب إليه « العنصرية الآرية »

هؤلاء هم أعداء « الحقيقة » وأعداء المعنى الذي نعنيه ونحن نقصد إلى أصدقاء « الحقيقة » ونرمي إلى التدليل على أن « عبد القادر حمزه » المصري أحد هؤلاء الأصدقاء

***

نريد أن ندلل الآن على ثلاثة أمور:

أولها: أن عبد القادر حمزه إنما اتجه إلى دراسة « التاريخ المصري القديم » بحثاً وراء « الحقيقة » في ذاتها ولذاتها كما اتجه « أبناء هذه الحقيقة » في مختلف العصور

ثانيها : أن هذه الدراسة ملأته - كمصرى - زهوا بمصريته فكان هذا الشعور منه إيذاناً بالقومية التى حالفته فى بحثه

ثالثها : أن عبد القادر حمزة « مؤلف كتاب على هامش التاريخ المصرى القديم » قرن بين الحقيقة والقومية فجمع بينهما جمعاً عادلاً ولم يغلب القومية على الحقيقة وإنما وجد فى إبراز هذه الحقيقة إثباتاً لهذه القومية ففعل

هذه هى الأمور الثلاثة التى أريد أن أدلل على صحتها لأخرج منها بنتيجة تعزز موضوع هذا البحث

* * *

ولأعد بالقارئ إلى الكلمة التى قدم بها الفقيد للجزء الأول من كتابه لنستمع إليه وهو يقص علينا بداية شغفه بدراسة التاريخ المصرى القديم فنرى أنه زار الأقصر فى سنة ١٩٢٤ ليشاهد قبر الملك « توت عنخ أمون » فزار قبور وادى الملوك والملكات والدير البحرى ومعبد الكرنك ووقع فى يده كتاب « طيبه Thêbes » للأستاذ كابار Capart مدير معهد الآثار المصرية فى بروكسل فقرأه فخيل إليه أن الآثار التى مر بها مرور الطير أخذت تتجسم وأن الحياة أخذت تدب فيها فحفزه هذا إلى زيارة الأقصر مرة أخرى زيارة مشوق إلى الحقيقة وأصبح « يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفاً بمصر القديمة فأحسست رغبة قوية فى زيارة المتحف المصرى ، مع أننى كنت قد زرته من قبل مرتين فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها فى نفسى معنى جديد »

هكذا كانت البداية ، بداية رجل شغفته آثار مصر القديمة حباً فرغب فى دراستها ، والبحث عن وجه « الحقيقة » فيها

فتى إذن انتقل به البحث إلى « القومية » ، أو متى تسلطت على دراساته « قومية البحث » ؟

يجيبك هو على هذا السؤال فيقول :

« وتكررت زياراتى للآثار وانكببت على المؤلفات التى وصفها علماء المصرولوجيا ، فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر فى عينى وكأنى أمتلئ بذلك زهواً »

من هنا بدأت بذور القومية تنمو فى نفس الرجل ، ولكن هذا النمو فى « البذور » يحتاج إلى كثير من « الماء » و « السماد » ليستقيم العود ويبسق فارعاً فى الفضاء ... فما كان ماؤه وما كان سماده ؟ كان لا بد للرجل من « الغضب » ليكون « تعصب » ولتكون « حماسة » وليكون « إصرار » على إبراز فضائل مصر . . . وقد « غضب » الرجل الذى لا يغضب غضباً ظاهراً ، واستبينا منه هذا الغضب من خلال قوله :

« وأخذتنى الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذى يعرفه الأجانب ، ولا نعجب بها هذا الإعجاب الذى يبذله لها الأجانب ، ولا نغرم بمجدها ونتقصى خفاياه هذا الإغرام الذى يقبل عليه ويرتاح له الأجانب »

من العبارات السابقة وضحت القومية ؛ ولكن العبارة الأخيرة توضح حالة الاقتران بين « القومية » و « الحقيقة » أو مطالع هذا الاقتران ، لأنه لم يقل أنه عجب — أو غضب — فحسب ، ولكنه اعتزم البحث وراء هذا المجد و « تقصى خفاياه » والتقصى — علمياً — هو لباب البحث وراء « الحقيقة »

وبدأ الرجل يقرأ مختلف المؤلفات مرات ومرات ، فكان يفهم فى المرة الثانية ما يبهم عليه فى الأولى ، وينفذ فى الثالثة إلى ما يغيب عنه فى الثانية . وانقضت سنوات حتى اختمرت الدراسات فى ذهن هذا « الباحث المنطقى المرتب » ، وبدأت « النتائج » تطل من « المقدمات » على الصور التى انحاز بها ذهنه فى استخلاص الحقائق . . . هذه الصور التى رددتها إلى عناصرها فى بحث لى نشرته مجلة « الثقافة » الغراء

وبدأ الرجل تجربته الأولى بنشر فصول فى « البلاغ » فى سنة ١٩٣٤ ، وتجربته الثانية بنشر فصول أخرى فى سنة ١٩٣٨ وأخيراً رأى أن يخرج كتابه الأخير

وهو لم يقل أنه أدى لتاريخ مصر القديم كل حقه ، بل اعترف بأن هذا التاريخ بحر خضم ولم يسمه هذا الوصف إنشاء أو إسرافاً فى الإنشاء كما ألفنا نحن الكتاب ، بل عقب على الوصف بما يثبته فقال : « لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر فليس يوفى حقه فى كتاب ولا فى كتب ، وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية فى سنة ١٨٢٢ م مئات من

الـكتب ، وهم إلى اليوم كلما كتب واحد منهم وجد جديداً ، وكلما ضربت فأسه فى أديم مصر خرجت بجديد ، فلا مناص من أن أكتفى فى كتابى هذا بأطراف ، وإذا أراد الله فسأتبع هذه الأطراف بأطراف وأطراف » . ولـكن الله لم يرد ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

وأدع الآن مهمة « التطبيق » إلى المقال الآتى إن شاء الله وأختم مقال اليوم بكلمة تثبت لك دافع الفقيد إلى الأخذ بالقومية فى البحث بعد أن دفعته الآثار إلى البحث عن الحقيقة فيها

لاحظ الفقيد حقائق مريرة حفزته إلى البحث وراء الحقيقة أولاً وحملته على أن يقرن بينها وبين القومية أخيراً ... ومن هذه الحقائق ما يأتى :

أولاً : لاحظ أن جميع المصريين يجهلون تاريخهم مع الأسف

ثانياً : أنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة

ثالثاً : أنهم لا يجدون بعد وقت التحصيل مؤلفات عربية فى هذا التاريخ تجذبهم إليه

رابعاً : أنهم يعرفون عن اليابان فى آسيا وكندا فى أمريكا وعن انجلترا أو عن فرنسا فى ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر « وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ويمتنع علينا أن نأخذ من أمسنا ليومنا وغدنا والإنسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأمسه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت ، وكأنه لم يوجد »

خامساً : إن الناشىء فى انجلترا أو فى فرنسا أو فى ألمانيا « ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع ما فى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن وتتولد رغبة فى محاكاة أبطاله وينمو تبعاً لذلك الشعور بالقومية ... الخ »

سادساً : إن الـكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا مصر وكتبوا عنها فى ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة . مثلهم فى ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوى لا وجود لها ، وإن هذه الـكتابات التى كتبها أمثال هيكاتى دى ميـل وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وكليمان الاسكندرى وبلوتارك ، كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامپوليون الشاب

* * *

وضع الفقيد أمامه هذه الملحوظات الست وخرج منها بأن « الحقيقة » ضائعة فيجب إيجادها ، و « القومية » ضعيفة فيجب إنماؤها ، أما « الحقيقة » فهى أن مدنية مصر لم تقم كما اعتقد المؤرخون الأجانب « على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة » بل قامت كما دلل هو « على أساس علمى وخلق صحيح » .

وإلى اللقاء حيث ندرس معاً « بالتطبيق » الطريق التى سلـكها فى البحث والنتائج التى خرج بها و « النظافة » العلمية التى حالفته فى أثناء هذا البحث .

محمد السوادى

على شاطئ الحياة

شاعر غريب ...

للأستاذ طاهر محمد أبو فاشا

رَائِدُ الليل خلفَ وَهمٍ بعيدِ … وخيالٍ من الأماني عنيدِ

وغريبٌ يرى الصباحَ غريباً … في حياةٍ كليـــلةِ المعقودِ

وَلْوَلَ القيدُ في يديه وصاحتْ … في شرايينه دماء الشهيدِ

قلمٌ كان بسمةً في فمِ الدُّ … يا فماتت على فمِ الغِرِّيدِ

أقفرتْ روحُه ، وغاضتْ معانيـ … ـهِ وأمسى على الثرى فضلَ عُودِ

وبقايا حشاشةٍ تتلوَّى … تحتَ حرِّ الجوى وَبَرْدِ الوعودِ

جَفَّ حتى أنكرتُهُ وهو مِنِّي … شَبَحُ الأمِّ من خيالِ الوليدِ

جَفَّ حتى أنكرتُهُ وهو مني … صورةُ القُرب من فؤاد العميدِ

آهِ من آهةٍ بقلب شريدِ … ضلَّ في ذلك المتاهِ الشريدِ

نحن في عالمٍ حُماداه أنَّا … قد نسينا به معاني الوجودِ

أتكون القبور أضيق أم تِلْـ … ـكَ الفيافي لساهدٍ يرقُودِ ؟

وارتقابُ الجحيم أم ذلك الرُّعْـ … ـبُ بحرٍ مُسَمَّمٍ محدود ؟ !

وعواء الضِّباع بالليل أم جَرْ … سُ الأفاعي مُصَلْصِلاً من بعيد

وجماهير من عقاربَ رُعْنٍ … شائلاتٍ أذنابها كالبُنُودِ ؟ !

تَلسبُ الحيَّ والجمادَ كما استَلْـ … ـهَمَ أعمى عصاه فوق الصَّعيدِ

كل يومٍ لنا فنونُ دفاعٍ … في نزاعٍ على البقاء الكسيدِ

نتبارى مع الطبيعة والأو … هامِ والخوفِ والدجى والبيد

ظلماتٌ يجثُمْنَ خلفَ دَياجٍ … ورعودٌ يجأَرْنَ إثرَ رُعُودِ

أين حربُ الأعصاب من هذه الحر … بِ تلظَّتْ في ليلها الموعود

أعُواء المدافعِ الشُّكْسِ أم زَأْ … رُغَضُوبٍ على الرُّبى شُخْدُودِ ؟

يوقظُ الليلَ كله ويكاد الْـ … ـفجرُ ينشقُّ خيفةً في النُّجُودِ

وَسِمَامُ الغازات أم ذلك الصِّـ … ـلُّ بِقَرْنَيْهِ لابداً في الخريدِ

آهِ من آهةٍ بقلب شريدِ … ضلَّ في ذلك المتاهِ الشريد

من أباح الشذا وكان حراماً … وحشة الرَّوض أم بكاء الورودِ

والذي أسلمَ المنادلَ للذلِّ … هواها ... أم كبرياء النشيد

لهف نفسي على ورود القوافي … يذبل الوردُ في القِفار ويودي

خطراتٌ يلدمْنَ في ذلك القَفْـ … ـرِ كماء في الصَّخرةِ الصَّيْخُودِ

حرَّ قلبي عليك يا مصر يا مَهْـ … ـبِطَ وَحْيِي ويا مَرادَ قصيدي

يا ليالٍ (بالحُسَيْنِ) أعيدي … بسمة الدهر واخطري من جديد

قد بكى الناي في يد العازف النا … ئي ، وأنَّتْ أوتاره من بعيد

نحن في شاطئ الحياة حيارى … قد أقمنا على ضِفافِ الوجودِ !

منية « الدر » … طاهر محمد أبو فاشا

حينما تغمضين عينيك

للأســتاذ العوضي الوكيل

حينما تغمضين عينيك هاتيـ … ـنِ على فتنةٍ وروعةِ سحرِ

ما الذي تشهدينَ في صفحةِ الآ … فاقِ مما أدري وما لستُ أدري؟

هل تشيمين في الخيال فراديـ … ـسَ نشيدٍ معطرٍ بلكِ نَضْرِ

هل تشيمين مهجتي تتلقّا … كِ وتهفو إلى سناكِ وتَسْري

أنا وحدي الذي يراكِ من الغيـ … ـبِ بفكرٍ يدقُّ عن كل فكر

فاشهديني هناك أنتهل الحـــــ … ـبَّ وآوي مع المساء لوكري

حينما تغمضين عينيك هاتيـ … ـن على فتنة وروعة سحر

تستجيبُ الشفاهُ جفنيك لثماً … فكأني لثمتُ روحاً بثغري

وأرى الحسنَ كيف يأسر نفسي … ثم يُلقي الفنَّ الجميلَ بشِعْري

يا فتاةَ الأحلام لو لم أعاصِرْ … كِ لأحسست باليباب بعصري

ولآنستُ في خيالي وجوداً … لك يا بهجة الخيال لعمري !

ولأغمضت مقلتيَّ وشاهد … تُ بعينيَّ ما يجنُّ ويغري

العوضي الوكيل



جواب

يا سيدى الفاضل ، قلتُ يقال للشيخ عجوز وللشيخة عجوز وعجوزة

يا سيدى قال الإمام ابن الأنبارى : يقال عجوزة بالهاء لتحقيق التأنيث ، وروى عن يونس أنه قال سمعتُ قول العرب عجوزة بالهاء .

(رهيد)

تعليم القراءة والكتابة

كان معالى وزير المعارف قد أصدر قراراً بتأليف لجنة لبحث كتب التهجى والمطالعة التى بأيدى المبتدئين فى المعاهد المختلفة لمعرفة مدى فائدتها فى تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة ، ونقدها من جميع نواحيها ، ووضع طريقة لتعليم التهجى والمطالعة تكون سهلة جذابة خالية من العيوب التى قد تنطوى عليها الطرق المتبعة الآن ، ووضع كتب للتهجى والمطالعة العربية تفى بالغرض المقصود

وقد انتهت هذه اللجنة من وضع تقريرها ، ورفعته إلى معالى وزير المعارف . وكان مما جاء فى هذا التقرير أن كتب التهجى والمطالعة المستعملة الآن فيها بعض العيوب التى قد تعوق الطفل عن التقدم فى القراءة والكتابة ، وتحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المرغوبة فى زمن وجيز

وقد اقترحت اللجنة اعتماد الأسس الآتية :

أولاً : تربية الحواس عند التلميذ وتقوية ملاحظته اللغوية ، وذلك بالبدء بدروس المحادثة الشفوية على أن تدور حول ما يقع تحت حسه ، مع ملاحظة أن يكون النطق سليما قدر المستطاع

ثانياً : متى مرن الأطفال على نطق الكلمات وأصوات الحروف انتقل المعلم بهم إلى تعليم التهجى والكتابة والمطالعة بوساطة الطريقة الصوتية فيبدأ بأصوات الحروف التى تقسم إلى طوائف ومجموعات متشابهة ، ولا تعطى دفعة واحدة ، ويبدأ بالحروف التى لا تتصل بما بعدها ، أو بالحروف المتجانسة فى كتابتها

ثالثاً : بعد تعليم الأطفال مجموعة من هذه الحروف تؤلف لهم منها كلمات سهلة واضحة ، ثم جمل قصيرة

واقترحت اللجنة أيضاً تجريب الطريقة «الكلية» التى أجمع على استحسانها علماء النفس فى الوقت الحاضر وأساسها أن العقل يدرك الأشياء على هيئة وحدات كلية ذات معنى ، وأما إدراك تفاصيل هذه الوحدات فإنه يأتى متأخراً . وأوصت اللجنة بأن يكون تجريب هذه الطريقة مبدئياً فى روضة واحدة من رياض الأطفال

التأريخ عند العرب

طلب الدكتور زكى مبارك أن يحقق أحد كتاب (الرسالة) تأريخ العرب قبل هلاك أصحاب الفيل ، وقال : هل يمكن الوصول إلى معرفة ما كانوا عليه (أى العرب) فى التأريخ قبل أن ترجّ أذهانهم واقعة الفيل ؟

وقد بسط القول فى هذا البحث العلامة المؤرخ شمس الدين السخاوى فى كتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) المطبوع بدمشق الشام سنة ١٣٤٩ فنجتزئ بما يأتى منه :

أما التأريخ الجاهلى فقد روى ابن الجوزى من طريق عامر الشعبى قال لما كثر بنو آدم فى الأرض وانتشروا أرخوا من هبوط آدم فكان التاريخ إلى الطوفان ، ثم إلى نار الخليل ، ثم إلى زمان يوسف ، ثم إلى خروج موسى من مصر ببنى إسرائيل ، ثم إلى زمان داود ، ثم إلى زمان سليمان ، ثم إلى زمان عيسى عليهم السلام وقد رواه محمد بن إسحاق عن ابن عباس

وفيه أقوال أخر : منها أنه كان من آدم إلى الطوفان ، ثم إلى زمان نار الخليل ، ثم أرخ بنو إسماعيل من بناء البيت ، ثم إلى معد بن عدنان ، ثم إلى كعب بن لؤى ، ثم من كعب إلى عام الفيل . قاله الواقدى

وعن بعضهم : كان بنو إبراهيم يؤرخون من نار إبراهيم إلى بنيان البيت حين بناه إبراهيم وإسماعيل ، ثم أرخ بنو إسماعيل من بنيان البيت حتى تفرقوا فكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بمخرجهم ، ومن بقى بتهامة من بنى إسماعيل يؤرخون من خروج سعد وفهد وجهينة بنى زيد من تهامة ، حتى مات كعب بن لؤى فأرخوا من موته إلى الفيل ، ثم كان التأريخ من الفيل حتى أرخ عمر من الهجرة ، وذلك فى سنة ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمانى عشرة

ومنها : أن حمير كانت تؤرخ بالتبابعة وغسان بالسند ، وأهل

صنعاء بظهور الحبشة على اليمن ، ثم بغلبة الفرس . ثم أرخت بالأيام المشهورة : كحرب البسوس وداحس والغبراء ويوم ذى قار والفجار ونحوه ، وبين حرب البسوس ومبعث محمد صلى الله عليه وسلم ستون سنة

أحمد صفوان

١ — لابن المقفع لا للخليل

ورد فى مقال الزواج للأستاذ الكبير العقاد أن الخليل ابن أحمد أجاب وقد سئل فى قرض الشعر : أن الذى يرضاه لا يجيئه ، وأن الذى يجيئه منه لا يرضاه !

وقد قال الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين (الجزء الأول ص ١٥١) فى سياق الحديث عن السر فى تبريز الأديب فى فن من فنون الأدب وتأخره فى فن آخر : وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله . وقيل لابن المقفع فى ذلك فقال : « الذى أرضاه لا يجيئنى ، والذى يجيئنى لا أرضاه » . وإنى لأحس أن أستاذنا العقاد تطمئن نفسه إلى موافقة الجاحظ ، ولأن يصدر هذا الكلام من أديب كبير وكاتب عظيم كابن المقفع أقرب إلى الذوق الأدبى من أن يصدر من إمام لغوى نحوى كالخليل

٢ — شاعر وناقد

فيما دار بين الأستاذين الشاعرين من نقاش حول موضوع الرحلات العربية مسألتان نحويتان أرى الحق فى جانب الأستاذ رضوان فى الأولى ، كما أراه فى جانب الأستاذ عبد الغنى فى الأخرى ، وإلى القارىء البيان :

١ — قال الأستاذ عبد الغنى فى مقاله الرحلات عن البيرونى (... ويعد كتابه الثانى — تاريخ الهند — أوفى مرجع عن بلاد الهند وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها)

وهذا تعبير شاذ لأن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه ولا تصح العبارة إلا إذ صيغت « أملأ » إما من الخماسى ، وإما من الثلاثى المبنى للمجهول ، لأن الكتاب مملوء لا مالئ ، والصوغ منهما شاذ كما هو معلوم من القواعد النحوية التى يجب علينا العمل بها لأنها لم تستقر إلا بعد البحث واستقراء الكلام الصحيح . فالصواب ما قاله الأخ رضوان وهو : ويعد المؤلف أملأ المؤلفين لكتابه تعريفاً بالأسفار ...

٢ — قال الأستاذ عبد الغنى أيضاً : « وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار » . وقد طالبه زميله بإعرابها وبيان جواب إذا وتخريج الاستثناء . وإنى أقول للزميل الفاضل : إن هذا التعبير صحيح وارد فى كلام العرب ، فجواب إذا الذى يبحث عنه ويشتاق إليه محذوف أغنت عنه جملة الاستثناء ، وجملة أضافت ... خبر كان ، وأما جملة الاستثناء ففى محل نصب كما وضح ذلك ابن هشام فى المغنى . ثم اسمع ما قال الخضرى على ابن عقيل عند الكلام على قول ابن مالك (ومفرداً يأتى ويأتى جملة) — ص ٩٣ — وتأمله يطمئن قلبك قال : (استشكل وقوع الاستدراك خبراً نحو : زيد وإن كثر ماله ، لكنه بخيل ، مع وروده فى كلامهم ، خرجه بعضهم على أنه خبر عن المبتدأ مقيداً بالغاية ، وبعضهم قال الخبر محذوف والاستدراك منه) . وإلى الأستاذين الفاضلين تحيتى وتقديرى .

٣ — النحو فى الكلام كالملح فى الطعام

غمض على حضرة الأديب أحمد الشرباصى هذا المثل المشهور رغم وجه الشبه ، وأشكل عليه ما كتبه الخطيب القزوينى فى كتابه الإيضاح ، فنسب الأديب المثل إلى الخطأ والفساد ولم ير المخرج من الحيرة إلا تحريفه عن الحكمة القائلة : الهزل فى الكلام كالملح فى الطعام . وأقول إن هذا المثل صحيح لا غبار على صحته لأن مراعاة قواعد النحو مصلحة للكلام لا شك فى هذا ، كما أن وضع الملح فى الطعام مصلح له . فوجه الشبه — وهو الإصلاح بغض النظر عن القلة والكثرة — جلى واضح ، وهذا هو نفسه قول الخطيب (فالوجه كون الاستعمال مصلحاً والإهمال مفسداً) وما وجه الشبه إلا المعنى الذى قصد اشتراك الطرفين فيه .

وأما الحكمة القائلة : الهزل فى الكلام ... فالوجه فيها هو التحسين والتمليح ولا يراد فيها الإصلاح (وإن كان ذلك من ضرورات التحسين) لأنه لا يشترط فى التشبيه أن يشترك طرفاه فى كل أمر من أمورهما ، فإذا شبهنا شخصاً بالأسد لا نريد إلا الجراءة بصرف النظر عن غيرها من الصفات ، وقس على ذلك مثلنا الذائع الصيت بين علماء البلاغة القدامى والسلام على سيدى الأخ ورحمة الله .

بدارى على بدارى
مدرس اللغة العربية بأسيوط الصناعية



الشارب

للقصصي الفرنسي جي دي موبسان

عزيزتي لوسيا :

لا جديد عندنا . نحن نقضي أوقاتنا في غرفة الاستقبال ، نتلهى بالنظر إلى المطر وهو يتساقط ، وحيث أنه يتعذر الخروج في هذه الأيام العابسة ، فإننا نتسلى بتمثيل رواية هزلية ، ولكن ... ما أسخف الروايات التي أعدت لتمثل في الدور ، كما وردت في القائمة الحالية ! ؟

إن كل ما فيها سمج ، متكلف ، غليظ ! ... ولا يقل فعل النكات التي تشتمل عليها عن فعل القنابل . إنها تحطم كل شيء مع أنه ليس فيها أدنى أثر للذكاء ولا للدعابة ولا للباقة !

حقاً إن رجال الأدب لا يعرفون شيئاً عن العالم ! إنهم ليجهلون كل الجهل كيف نفكر وكيف نتكلم ! فإذا أجزنا لهم أن يمقتوا عاداتنا ومواضعاتنا فلا يسعنا أن نجيز لهم أن يجهلوها . وهم إذا أرادوا التدليل على براعتهم وحذقهم لعبوا بالكلمات لعباً غريباً من شأنه أن يزيل غضون ثكنة بأسرها ! وإذا أرادوا بعث السرور لجأوا إلى طائفة من النكات ... لا أشك لحظة أنهم إنما جمعوها من الشارع ... من تلك الحانات التي يدعونها « حانات الفنانين » ، حيث تتكرر منذ خمسين عاماً ذات النكات ، فيتناقلها الطلاب ويتوارثونها ...

إذن نحن نتسلى بتمثيل رواية هزلية ، ولما كان تمثيلها يقتضي وجود سيدتين ، فقد قبل زوجي أن يقوم بدور الخادم ، ولذلك اضطر أن يحلق شاربه . وليس في استطاعتك يا عزيزتي «لوسيا» أن تتصوري مقدار التغير الذي طرأ على زوجي بعد حلق شاربه ... إنني لا أكاد أعرفه ... لا ليلاً ولا نهاراً !

وإذا لم يترك شاربه ينمو من جديد ، فالمرجح أنني لا أتردد

تصويب :

ختم الدكتور زكي مبارك مقاله المنشور بالعدد (٤١٧) من « الرسالة » بقول الله تعالى : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون » . والصواب : « ينقلبون » من غير سين

حول إيمان الخبز :

تضمنت الفصول التي نشرتها لي « الرسالة » الغراء بعض الأخطاء التي لا يحسن السكوت عليها ، ولذا نصلحها دفعاً للبس ومحافظة على دقة العلم وأمانته :

أهديت الفصول إلى الأستاذ الفاضل منصور جرداق : (لا جردان ولا جوداق كما وردت خطأ)

(ص ٧٤٧ ع ١ س ١٨) سقطت كلمة « مصهورة » من العبارة : وهذه الروايات تتميز أول ما تتميز بالفكرة العلمية « مصهورة » في بوتقة الأدب الحي ...

(ص ٧٤١ ع ٢ س ٦) وردت كلمة « جمفر » وصوابها « جلفر » إشارة إلى : Swift's Gullivers Travels

(ص ٧٦٧ ع ٢ س ٢٥) تصلح العبارة هكذا : أما حقيقتها فهي الاندماج في وحدة «الزمكان» كاندماج الماء والملح في الماء الملح

(ص ٧٦٨ ع ٢ س ٢) وردت كلمتا السبب النسبي والصواب « النسبية » الناموس المشهور .

(ص ٧٦٨ ع ٢ س ٩) سقطت إشارات تفقد العبارة التالية معناها : المسافة = الزمن × السرعة = الجذر التربيعي لمجموع مربعات الأبعاد الثلاثة .

(ص ٧٦٨ ع ٢ س ٢٥) مسرعة خطأ وصوابها سرعتها

(ص ٧٦٩ ع ١ س ٣) تبدل علامة السلب (—) في قانون فتزجيرلد بعلامة المساواة (=)

(ص ٧٦٩ ع ٢ س ٢) وحدة (الزمكان) وليس الزمان

(ص ٧٩٥ ع ١ س ١٧) وردت كلمة علوي وصوابها عمودي

(ص ٧٩٥ ع ٢ س ١٦) اسم الكتاب هو : Human Worth of Rigorous Thinking

(ص ٧٩٥ ع ٢ س ٢٩) الصواب (دكستروز Dextrose)

(ص ٧٩٦ ع ١ س ٢) ترجمة الضوء المستقطب هي : Polarized Light.

(ص ٧٩٧ ع ١) وردت كلمة سنيد مرتين ولا حاجة بي للقول إن صوابها (سليد) كما جاءت في مرة سابقة

هذا عدا بعض أخطاء بسيطة نغفلها لأنها ليست في صلب الموضوع والسلام .

خليل السالم

فى خيانته لشدة ما يبدو لى دميا بدون شارب !

والحقيقة أن الرجل لا يعد رجلاً بدون شارب ! أنا لا أحب اللحية كثيراً لأنها تكاد تدل على الإهمال دائماً ، أما الشارب ... أوه الشارب ! فإن وجه الرجل لا يستطيع الاستغناء عنه أبداً !

كلا ! لا يمكنك أن تتصورى قط إلى أية درجة تبدو هذه الفرشاة الصغيرة من الشعر ضرورية للنظر ... ولا سيما للعلاقات الزوجية !

ولقد عرضت لى فى هـذا الموضوع طائفة من الخواطر لا أجرؤ على التعبير عنها كتابة ، برغم استعدادى التام لاطلاعك عليها شفاهياً بصوت خافت وبسرور وافر

إلا أنه قد يتعذر أحياناً العثور على كلمات تصلح للتعبير عن بعض الأشياء ؛ وأكثر هذه الكلمات التى لا يمكن الاستعانة عنها بغيرها تتخذ على القرطاس صوراً فظيعة لا أقوى معها على أن أخط شيئاً منها ... ثم إن الموضوع نفسه من الدقة والصعوبة بحيث يتطلب لباقة شديدة لمعالجته بدون التعرض لخطر

وأخيراً ماذا يمكننى أن أفعل إذا كنت لا أقدر أن أجعلك تفهمينى جيداً ؟

ولـكن اجتهدى يا عزيزتى أن تفرقى بين السطور !

أجل . عند ما أبصرت زوجى بدون شارب أيقنت للحال أنه يتعذر على أن أحب ممثلاً أو مبشراً ... حتى وإن كان الأب (ديدون) نفسه أوفر المبشرين جمالاً وأشدهم إغراء إذا كان حليق الشارب !

وعند ما خلوت بزوجى كانت المصيبة أعظم ! ... أوه يا عزيزتى لوسيا لا تسمحى قط لرجل حليق الشارب أن يقبلك إذ لا يكون لقبلاته أدنى طعم ! ... مطلقاً ! ... مطلقاً ! ... فليس فى قبلاته ذلك الفلفل ... نعم إن الشارب هو فلفل القبلات وبهارها !

تخيلى رقاً جافاً أو رطباً يلامس خدك : هذه هى قبلة الرجل الذى يحلق شاربه ... إنها بدون شك لا تساوى شيئاً !

وقد يخطر لك أن تسأليني : من أين يستمد الشارب إغراءه إذن ؟ وهل تحسبينى أعرف ذلك ؟

أول كل شيء للشارب دغدغة لذيذة جداً ... تحسينه قبل الثغر ، فيبعث فى جسمك كله من قمة رأسك إلى أخمص قدميك رعشات سحرية تجتاحك كالتيار الكهربائى ... فالشارب هو الذى يداعب البشرة ، وهو الذى يجعلها ترتعش وتختلج ، وهو الذى يبعث فى الأعصاب ذلك التنميل المعذب الذى يجعلك تتنهدين (آه) ، كما تفعلين حين يهز جسمك برد قارس !

وعلى النحر ! هل اتفق لك أن أحسست بالشارب يدغدغ نحرك ؟ إن دغدغته هذه لتسكرك وتشنج أعصابك ، وإنها لتنساب فى ظهرك إلى أن تبلغ أطرافك ، فتتلوين وتحركين أكتافك حركة خاصة ، وتلقين رأسك إلقاءة خاصة أيضاً ، وترغبين رغبة قوية فى الفرار والبقاء معاً ... إن قبلة كهذه لتستحق العبادة لشدة ما تبعثه من اللذة وما تحدثه من إثارة وتهييج

وعدا ذلك ... حقاً إنى لا أجرؤ على ... إن الرجل الذى يحب زوجه يعرف كيف وأين يجد مواضع مختبئة ليدفن فيها قبلاته ، مواضع لا تخطر للمرأة حتى عند ما تخلو بنفسها ... وهذه القبلات إذا لم يتقدمها شارب لا يبقى لها طعم ، بل إنها لتغدو مخالفة للذوق والأدب !

ولك أن تفسرى ذلك بمـا تشائين ؛ أما أنا فأفسره هكذا : الثغر بدون شارب كالجسم بدون ثياب ! ... نعم ، لا بد من الثياب ، القليل منها إذا شئت ، ولـكن لا بد من بعضها

والخالق قد ستر بالشعر جميع مواضع الجسد التى يدفن الحب فيها ؛ فالثغر الحليق إنما يبدو كينبوع عذب وسط غابة اقتلعت أشجارها

وهذا يذكرنى بجملة لأحد رجال السياسة ما زالت تتردد فى ذاكرتى منذ ثلاثة أشهر ؛ فقد قرأ على زوجى ذات مساء فى إحدى الجرائد خطبة غريبة لوزير الزراعة السيد «ميلين» ؛ ولست أدرى إذا كان لا يزال إلى الآن فى وظيفته أم حل غيره محله

لم أكن أستمع لزوجى ، ولـكن هذا الاسم «ميلين» لفت انتباهى ؛ وقد ذكرنى – ولست أدرى لماذا – بالحياة فى بوهيميا ، وخيل إلىّ أن الحديث يدور على إحدى العاملات المتأنقات ؛ فأصخت بسمعى ، وهكذا استطاعت بعض الكلمات أن تجد سبيلاً إلى رأسى

والسيد (ميلين) أدلى إلى أهالى إميان — فيما أظن — بالتصريح التالى الذى ما فتئت أبحث عن معناه : لا وطنية بدون زراعة ! ولم أهتد إلى معنى هذه الجملة إلا فى هذه اللحظة ...

وأنا كذلك أصرح بدورى : لا حب بدون شارب !

وقد يبدو ذلك مضحكا ، حين يقال على هذه الصورة ، أليس كذلك ؟ لا حب بدون شارب ! ... لا وطنية بدون زراعة ... ! لقد كان السيد (ميلين) مصيباً فى قوله هذا الذى لم أدرك معناه قبل هذه اللحظة ...

والشارب ضرورى من جهة أخرى ، فهو الذى يحدد صورة الوجه فيجعله لطيفاً أو رقيقاً أو قاسياً أو مضحكا أو جريئاً

إن الرجل الذى يرخى لحيته إرخاء تاماً ، ويترك جميع شعره (يا لها من كلمة قبيحة !) على خديه ، لا يمكن أن يكون فى وجهه شىء من الرقة ، لأن الشعر يخفى الملامح ، وشكل الذقن والفكين يدل على أشياء كثيرة ، ولكن قلَّ من يفهمها

أما الرجل الذى يترك شاربه ، فإنه يحتفظ بهيأته الحقيقية ورقته فى وقت واحد ، وللشوارب أشكال متعددة تختلف عن بعضها اختلافاً عظيما ، فهى تارة : معقصة ، معقوفة ، أنيقة . وهذه يبدو عليها أنها تحب النساء فوق وقبل كل شىء آخر !

وهى طوراً : مسننة ، مهددة ، حادة كالإبر ... وهذه تميل للخمر والخيل والحرب !

وأخرى هى : غليظة ، مترهلة ، مفزعة ... وهذه تخفى عادة طبعاً حسناً ، وطيبة عظيمة إلى درجة الضعف ، ولطفاً لا يكاد يفرق عن الحياء والخجل

ثم إن ما أحبه أكثر من كل شىء فى الشارب ، إنه فرنسى وفرنسى بحت ، فقد تحدر إلينا من أسلافنا الغاليين وما انفك يتوارث حتى غدا سمة فارقة من سماتنا الوطنية

والشارب مهذار ، شجاع ، أنيق ... فهو ينغمس برشاقة فى كأس النبيذ ، ويعرف كيف يبتسم بظرف ، بينما الفك الذى تستطيل لحيته ، يبدو فظاً سمجاً فى كل ما يأتيه من حركات !

وإليك حادثاً استنفد جميع دموعى وجعلنى أفتتن بالشوارب على ثغور الرجال : حدث ذلك خلال الحرب الماضية ، وكنت إذ ذاك فتاة صغيرة ، واتفق ذات يوم أن جرت معركة شديدة على مقربة من قصر والدى ، فأزَّ الرصاص ، وقصفت المدافع منذ الصباح ، فلما هبط المساء دخل علينا قائد ألمانى واتخذ له مجلساً بيننا ، ولم يلبث فى اليوم التالى أن غادرنا ... ثم جاء من أخبر والدى أن فى الحقول كثيراً من القتلى ، فأمر بجمعهم وجلبهم للقيام بدفنهم

فجمعوهم ومددوهم على طرفى شارع الصنوبر من أوله لآخره ، ولما بدأت تنبعث منهم روائح كريهة أخذ الجنود يهيلون عليهم التراب فى انتظار الانتهاء من تهيئة الحفرة الكبرى التى تتسع لهم جميعاً ، وهكذا لم يعد فى الإمكان رؤية شىء من جثثهم ، ما عدا رؤوسهم التى كانت تبدو للناظر كأنها تنبت من الأرض صفراء مثلها بعيونها المقفلة و ...

وقد تملكتنى رغبة قوية فى أن أراهم ، ولكنى عند ما أبصرت هذين الخطين الطويلين من الوجوه الفظيعة ، شعرت كأنما أغمى على ... ثم رحت أستعرض هذه الوجوه وأنا أحاول معرفة أصحابها

كانت بذلاتهم الرسمية مطمورة تحت أطباق الثرى ، ومع ذلك فقد استطعت فجأة يا عزيزتى أن أعرف الفرنسيين من شواربهم !

كان كثير منهم قد حلقوا لحاهم يوم المعركة كأنما أرادوا أن يكونوا أنيقين لآخر لحظة من حياتهم ... ! ولكن لحاهم قد عادت فنمت قليلاً ، لأن اللحى تنمو — كما تعلمين — بعد الموت أيضاً ... وكان يلوح على الآخرين أنهم لم يحلقوها منذ ثمانية أيام ... ولكن كلهم كانوا يتميزون بوضوح تام بالشوارب الفرنسية الفخورة التى خيل إلىَّ أنها تقول لى : أيتها الفتاة ! إحذرى أن تخلطى بينى وبين صديق : إنى من مواطنيك !

وقد بكيت يا عزيزتى ، أوه بكيت كثيراً ، أكثر بكثير مما لو لم أعرف هؤلاء القتلى بهذه الطريقة ...

لماذا قصصت عليك ذلك ... لا شك أننى مخطئة ... فقد بعثت هذه الذكرى فى نفسى كآبة شديدة ، جعلتنى عاجزة عن الثرثرة أكثر مما فعلت ؟ فإلى اللقاء يا عزيزتى لوسيا ، إنى أقبلك قبلات حارة ، وليحيى الشارب !!!

(القدس) اسكندر شمونه

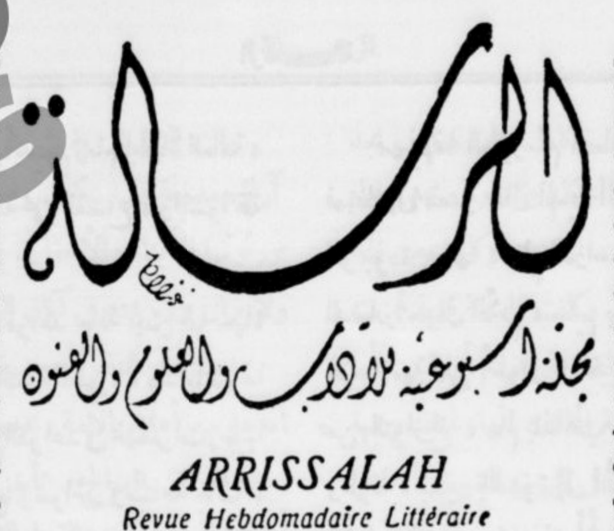
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 420

Lundi - 21 - 7 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٢٠ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢١ يولية سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

الشيخ محمد عبـــده

بمناسبة ذكراه السادسة والثلاثين

للامام الأكبر الأستاذ محمد مصطفى المراغى

عبد من عباد الله الذين اختصهم بمزيد فضله، ومنحهم من صفات الإنسانية الفاضلة ما امتازوا به عن أقرانهم فى عصرهم وأمثالهم فى عصور أخرى، وأشرفوا على الناس يألمون لما عليه الناس من انحطاط على وخلق وأدبى، ويحاولون استبدال أمم أخرى بهم؛ ورجل ممن رزقوا لذة المعرفة، وأفيض عليهم نور العلم الإلهى ففهموا أسرار الدين، وعرفوا السعادة الحق على وجهها، منحه الله قوة فى الجسم والحواس، وبسطة فى العلم، وعقلاً قويًا نفاذاً، وفطرة سليمة، وإلهاماً صادقاً، وشجاعة فى الحق، وزراية على الباطل، وقلباً رحيما بالضعفاء والفقراء، وحبا للبذل والإحسان

نشأ الشيخ فى عصر من العصور القاتمة، كل شىء فيه ممض مؤلم للنفس الحرة والفطرة الصادقة. فالأمم الإسلامية تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً إلى أحط الدركات، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس، والدين يفهمه الناس على غير وجهه، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم، والزلفى إلى الله لما طرق لم يشرعها الله، والزلفى إلى الحكام لما طرق لا يرضاها ذو مروءة

ذهب ريح المسلمين ، وتفلّت من أيديهم زمام الحياة العامة ، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع ، وليسوا قلة بين الأمم ، ولكنهم كغثاء السيل

ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره : قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم . وتعلم القواعد فى مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة ، فلا اللغة العربية بمسعدة على إجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة ، ولا على فهم القرآن الكريم وفق الأساليب العربية ؛ ولا الفقه بساد حاجة المجتمع وحاجة الحكومات والدول فى التشريع والتنظيم ؛ ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة إلى الاستدلال الصحيح الذى يطمئن إليه العقل ويقنع الخصم . المتحدث فى الاجتهاد وتخير الأحكام لتطابق الأحكام حاجة العصر ، ولتلائم أحوال الأمم وأحوال الأزمنة ، مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون . والداعى إلى سيرة السلف الصالح داع إلى مخالفة سيرة العلماء المبرزين . والداعى إلى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين من المتأخرين . والمنادى بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة وبأوهام وقصص لفّقها من قبل علماء الإسرائيليات مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها

عاش الشيخ فى هذه البيئة العلمية ضيق الصدر مرير العيش . فمن من أصحاب الفطر الصادقة والنظر السليم يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هدياً وفيه شفاء ، وأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأمم كلها وللعصور كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس إماماً يهتدون بهديه ، ويشفى أمراض المجتمع فى علمه وخلقه ونظامه ، ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة

عاش الشيخ فى هذه البيئة يلتمس الوسيلة ، وتطلب نفسه مخرجاً منها ، وتتطلع إلى رجل يشفى صدره ويزيل قلق نفسه ، ويشد أزره ، ويبصره بالدين وبالحياة ، وينضم رأيه إلى رأيه فى أن هذا الذى يراه ليس هو الدين ؛ وهذا الذى يعيش فيه الناس ليس هو الحياة ؛ وهذا الذى يدرسه من الكتب ليس موصلاً إلى العلم الصحيح بل مبعداً عنه ؛ وهذا الذى يتعارفه الناس فى طرق الدراسة هو غير طرق الدراسة الصحيحة النافعة

من بهذا الطور ثم أعطاه الله ما كانت تصبو إليه نفسه ، فهبط إلى مصر جمال الدين الأفغانى ، وهو رجل ثائر على النظم الموجودة جميعها : نظم الدراسة ونظم الحكومات ؛ خبير بأحوال الدنيا وأحوال الأمم ، عليم بأدوار التاريخ وما تقلبت عليه الأمم الإسلامية من أطوار ، خبير بالتاريخ الملى الإسلامى وبغيره من التواريخ ، عالم بمذاهب الأمم ونحلها ، عالم بالاستدلال وطرقه ، بصير بالدعوة إلى الله سبحانه وبالدعوة إلى ما يريده من الآراء والمذاهب ؛ يفقه أغراض الدين العامة ، ويحترم العقل ويعرف له قدره ، ويضع الرجال مواضعهم لا يعطيهم أكثر مما يستحقون

رجل يمت بصلة نسبية إلى صاحب الرسالة ويرى أن عليه ديناً لجده لا بد أن يؤديه . ذلك الدين هو وقف مواهبه جميعها على تبيين هذا الدين وإصلاح حال المسلمين . وجد الشيخ فى السيد جمال الدين بغيته ، ووجد ما يشبع نهمه ويشفى صدره ويزيل صدأ عقله ويشحذه ، ويرد ذلك الجوهر صافياً نقياً لامعاً كما فطره الله، ثم يملؤه علماً ويقيناً وإيماناً ومعرفة ويمدّه للاصلاح

أتم الشيخ دراسته ، ولأمر ما أراد الله به كما له ، هجر مصر لأسباب سياسية وطوّف فى بعض بلاد الإسلام وبعض البلاد الغربية فاكتمل نضجه . ثم عاد واشتغل بالقضاء الأهلى وعرف أساليب القضاء الحديثة من منابعها فصار قديراً على الإصلاح فى القضاء الشرعى كما هو قدير على الإصلاح العلمى وإصلاح نظم الدراسة

هيأت له الأسباب جميعها تولى إفتاء الديار المصرية وصار له شأن فى إصلاح الأزهر بعضوية الإدارة فيه ، وكانت مواهبه وجاهه وخبرته بالدولة ورجال الدولة مما جعله المسيطر على الإصلاح فى الأزهر وصاحب النفوذ به

عرف الشيخ أن النفوذ والجاه ووضع النظم وما إلى ذلك لا يكوّن الرجال العاملين ولا العلماء المجددين، وأنه لا بد لهذا كله من أن يضاف إليه التعليم الصحيح وأن يتولاه بنفسه ، فقرأ فى الأزهر كتاباً قيماً من كتب المنطق، وقرأ رسالة فى التوحيد، وقرأ كتب الشيخ عبد القاهر فى البلاغة وشرع يفسر كتاب الله .

كانت دروس الشيخ كالغيث . أما البلد الطيب فقد خرج نباته بإذن ربه ؛ وأما البلد الخبيث فقد خرج نباته نكداً . وكانت دروسه مثلاً عالياً فى طريقة الإلقاء والتفهيم وفى العبارات

النصيحة المتخيرة النافذة إلى القلوب . وكانت دائرة معارف يجد اللغوى فيها حاجته والفقيه رغبته والمتكلم بغيته . ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آى القرآن على معارفهم ، وكانت صرخاته المدوية منبهة للغافل ومحركة للجامد . وكانت عاصفة قوية هزت الأشجار الباسقة القوية فسقطت أوراقها الذابلة ثم أورقت . أما الشجيرات الضعيفه والحشائش الدنيئة فأفلتت منها ولم تنتفع بها .

عاملان من أقوى العوامل وقفا فى طريق الشيخ . عامل الحسد ، وعامل البيئة . ومن المحال أن يوجد رجل كالشيخ فى صفاته وعلمه لا يحسد . ولو أنه لم يحسد ولو أنه لم يرم بالكفر والضلال ولو أنه لم يشتد حسده ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد لما كان شيئاً يتحدث عنه ولما كان رجلاً من رجال التاريخ وقديماً قال الإمام الغزالى : « استصغر من علماء الدين كل من بالكفر لا يعرف ، وكل من بالضلال لا يوصف » . والسلاح القاتل الذى يرمى به علماء الدين هو الكفر والزندقة ، والمقتل الوحيد الذى يقصد بالسهام فى علماء الدين هو العقيدة .

وأما البيئة فقد أشرت إليها من قبل ولا أبيح لنفسى أن أضرب الأمثال وأقيم الأدلة على أنها بيئة لم يكن من العدل أن ينتظر منها مناصرة الشيخ وقبول آرائه وطرائقه فى الإصلاح الدينى واللغوى وغير ذلك . ولم يكن من الحق أن يطمع الشيخ فى مناصرتها إياه . وبخاصة أنه هاجمها هجوماً عنيفاً لا هوادة فيه وسفه آراءها فى أعز شىء لديها وهو العقيدة .

وسبب ثالث له خطره وهو أن جهة ذات نفوذ أظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه . وأن جهة ذات نفوذ آخر ساعدته وشدت أزره فظن القوم أنه رجل يريد إفساد الدين وإفساد العلم وإفساد الأزهر . ومن أشد مظاهر الحسد إذ ذاك أن عالماً من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات فى جريدة المؤيد يحرم فيها تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ فى الأزهر لأن الشيخ كان أول المشيرين بتعليم هذه العلوم فى الأزهر وكاد العناد يكون كفراً .

ذهب الشيخ إلى جوار ربه منذ ست وثلاثين سنة ، وكان فضله مجحوداً ، وكان يرمى بالكفر والزندقة . لكنه كلما ابتعد الناس عنه بالزمان اقتربوا من معرفته ، وزاد المقرون له بالعلم والتقوى والإيمان والغيرة على الدين . والمقرون له بالإصلاح وبالذود عن الإسلام والمسلمين

مات الشيخ وبقيت طريقته فى الإصلاح لم تمت ، وبقيت آراؤه مدونة فى الكتب ومرسومة فى صدور تلاميذه المخلصين يورثونها الأبناء والأحفاد . إن ذلك المصباح لا يزال يسطع نوره ولا يزال نوره يمتد فى آفاق البلاد الإسلامية وغيرها

وسيتجلى للناس جميعهم عندما ينصفه التاريخ ويتقادم العهد أنه علم من أعلام الأمة ومجدد من مجددى الإسلام ؛ وأنه أحد رجال السلف الصالح . تأخر ميلاده عن خير القرون لحكمة أرادها الله ، فولد فى القرن الثالث الهجرى

ترك بذور الإصلاح للتعليم الدينى وتعليم علوم العربية وبذور إصلاح القضاء الشرعى ، وبذور إصلاح المجتمع الإسلامى والأمم الإسلامية . وليس فى رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه فى تطبيق آى القرآن على سنن الاجتماع ، وفى تصوير هدى القرآن ، وفى فهم أغراض الدين العامة

ودعته ليلة سفرى إلى السودان لتولى قضاء مديرية دنقله فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ ، فسألنى : هل معك رفقاء السفر ؟ فقلت : نعم ، بعض كتب آنس إليها وأستديم بها اتصالى بالعلم ؛ فقال : أو معك كتاب الأحياء ؟ فقلت : نعم ؛ قال : الحمد لله ، هذا كتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفراً طويلاً دون أن يكون رفيقه ؛ ثم قال لى : أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضياً ، وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم ، فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح .

وداعبنى مرة إثر خروجى من امتحان شهادة العالمية هل تعرف تعريف العلم ؟ فقلت له نعم وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم فسردت بعضها . فقال اسمع منى تعريفاً مفيداً العلم هو ما ينفعك وينفع الناس . ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ قلت له لا . قال : إذاً أنت لست بعالم . فانفع الناس بعلمك لتكون عالماً

ولم يكن يفوته أن يذكر بالقرآن وأن يعتبر بالقرآن كلما ذكرت الحوادث وكلما جدت العبر ، ولم يكن يفوته أن يشهر بالظالمين ، وأن يثنى على المخلصين العادلين . فقد كان يحب الحق أكثر مما يحب نفسه . عاش للعلم وعاش للدين وعاش للاسلام والمسلمين

رحمة الله ورضوانه عليه وعلى إخوانه الأئمة المهتدين

محمد مصطفى المراغى

استقلال مصر

من الجهة التاريخية

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

روى مصريون أن زعيمين من ساستنا باحثا اللورد اللنبي وتدهّيا له حتى ألان لمصر جناحه وتطوّع لنصرة قضيتها . وزعم آخرون أن مصرياً غيرهما هو الذي حجّ اللوردُ حتى سلّم بحق المصريين في الاستقلال ، ووعد بأن يقدم إلى حكومته اقتراحات إذا هي رفضتها استقال ، وقد وفى بوعده الذي كان أشبه بحلم منه بالحقيقة الواقعة

وإذا كان في معرفة الحقيقة التاريخية فائدة فإنه يحسن بكل مصري وقف على شيء يتعلق باستقلال بلاده أن ينشر ما عرف ، لكي تتضح تلك الحقيقة بأجمعها . ومن هذا القبيل ما يلي ذكره في سبيل المصلحة العامة

في أذيال الحرب الكبيرة الماضية - التي أتلفت الملايين من الأنفس والأموال وانتصر فيها الإنجليز وحلفاؤهم - اضطرت الجيوش البريطانية إلى الجلاء عن تفليس ، وباطوم ، وعشق آباد ، وبخارى ، وشمال إيران . ولما حلت الجنود الفرنسية في سورية محل القوات البريطانية لم تف هذه القوات بحاجة الجيوش التي كان حشدها ضرورياً لقمع الثورات في تركيا ، وإيران ، وكردستان والعراق ، ولحماية المصالح البريطانية المتعلقة بمناطق البترول القوقازية والعراقية والإيرانية . وكان اللورد كتشنر يصرّح بأنه لا يستطيع في أية حال أن يحمي بجيش الهند وحده منطقة في إيران أكبر من منطقة النفوذ التي عينها لانجلترا الاتفاق الإنجليزي الروسي المعقود سنة ١٩٠٧ . أما المستر لويد جورج ، رئيس الوزارة ، فقد رأى أن اليونان تستطيع حراسة المصالح البريطانية في آسيا الصغرى ، وأراد أن يكلف جيش الهند حفظ المصالح البريطانية الجديدة في الشرق . لذلك شكلت لجنة خاصة تحت رياسة اللورد أشر Esher مهمتها أن تحل مسألة تعديل نظام الجيش الهندي وتكبيره ، فأهملت هذه اللجنة قانوناً صدر سنة ١٨٥٨ وفيه نص صريح على أن الجيش الهندي يجب أن يبقى في الهند ، إذ ختمت أعمالها بقرار مضمونه أن هذا الجيش لم يبق في الإمكان اعتباره قوة محلية دائرة أعمالها محصورة داخل حدود الهند ، بل يجب عدّه قسماً من جنود الإمبراطورية ، مستعداً للخدمة في أية جهة من العالم

كانت الحرب العالمية قد وسعت دائرة أعمال ذلك الجيش فأكسبت سكان الهند - ولا سيما المسلمين الذين منهم صفوة الجنود الأهلية - حق إبداء رأيهم في تسوية السلم في الشرق . فلما نشر تقرير اللورد أشر ، بعد أن أمضيت معاهدة سيفر ، قامت في الهند ضجة غضب ؛ ونشرت التيمس يومئذ في عددي ٥ و٦ من نوفبر سنة ١٩٢٠ كتاباً مطولاً من أغا خان نبّه فيه أصدقاءه من البريطانيين إلى أن هذه السياسة لا تلائم العلاقات بين بريطانيا العظمى والهند ، ونصح بالعدول عن احتلال مناطق البترول وبمساعدة القبائل العربية ، مساعدة مالية ، لتقوم هي في مقابل هذه المساعدة بحماية معامل البترول وأنابيبه . وقد وقع هذا الكتاب أحسن وقع لدى الرأي العام البريطاني ، إذ كان في قلق من كثرة الخسارة في الرجال والمال للجيش القائم باحتلال كردستان والعراق وإيران ، البالغ قرابة مائة ألف جندي

هذا ، وقد كانت المسألة العربية من جهة أخرى تستوقف نظر البريطانيين لأسباب منها : خلع الفرنسيين للملك فيصل ، والحركة الوطنية في مصر ، واستئناف المنافسة بين الحجاز ونجد . وقد تبيّن من تقريري اللجنة التي أرسلت إلى الهند ولجنة ملنر أنه يصعب تكبير الجيش الهندي بعيد الحرب ، وأن من الحكمة أن تعدّل حكومة لندن سياستها الشرقية . ثم لوحظ أن لكل من بريطانيا وأمريكا مصلحة في مسألة البترول ، وأن الدولتين متجهتان إلى زيادة التسلح البحري - الذي يستلزم زيادة الإنفاق - وأن الحكومة البريطانية كانت قد وعدت العرب بمساعدتهم في طلب الاستقلال وصرّحت بموافقتها على مبادئ ولسن المشترطة للصلح

من أجل ذلك كله عُقد بالقاهرة فى آخر مارس سنة ١٩٢١ مؤتمر كبير تحت رياسة المستر ونستن تشرشل وزير المستعمرات يومئذ، حضره الكولونيل لورنس (وكان المستر تشرشل قد جعله وكيل وزارته لشؤون الشرق) وجميع البارزين فى السياسة الشرقية الانجليزية: المس جرترود بِلْ، والمارشال اللنبى، والسير پرسى كوكس، والسير هربوت صمويل، والسير جلبرت كلايتون، والكولونيل كورنواليس، وغيرهم؛ وكان الغرض من عقد هذا المؤتمر أن يحل مسألة إنقاص قوات الاحتلال فى إيران، وكردستان، والعراق، ويحل مسألة مصر وبلاد العرب؛ وقد ختم أعماله بالقرارات التالى بيانها:

١ — التسليم بضرورة تعديل تام للسياسة الإمبراطورية فى البلاد العربية والشرق الأوسط.

٢ — إهمال مبدأ الضم والحمايات.

٣ — الاعتراف باستقلال الشعوب الشرقية، ومعاقدتها بمعاهدات تحالف.

٤ — أن يجلس على عرش مصر ملك

٥ — وضع دستور للهند.

٦ — إجلاس الأمير فيصل على عرش العراق، وتولية الأمير عبد الله إمارة شرق الأردن.

٧ — إيجاد طريق امبراطورى جديد يعبر الصحراء بين فلسطين والعراق ويصل بور سعيد وحيفا ببغداد والبصرة؛ وتنشأ فى مواضع مختارة منه محطات للطيارات والسيارات المصفحة تضمن حماية جميع المصالح

أفكانت حجج أولئك الساسة المصريين — التى سلم اللورد اللنبى بصحتها — هى سبب مؤتمر القاهرة أم سبقت قرارات المؤتمر تلك الحجج فهيأت البريطانيين لذلك التسليم الذى أشبه الأحلام عندنا؟ وهل كفى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ومعاهدة سنة ١٩٣٦ لتحقيق استقلالنا، ولضمان المصالح البريطانية كلها، أم نحتت بريطانيا بشىء لتوثيق الصداقة بينها وبيننا؟

لست أدرى، بل لعلى زدت المسألة غموضاً من حيث حاولت المشاركة فى إيضاحها فذكرت بعض ما أعرف، وقد يُوفق غيرى لبيان أدق وأكمل

وحسبنا الآن ما ظهر من أننا حقاً مستقلون للأسباب التى حملت الإنجليز على تعديل سياستهم الإمبراطورية، وعلى الاعتراف باستقلال الشعوب الشرقية، فى مؤتمرهم الذى عقدوه فى عاصمتنا وما زال أمره خافياً — فيما أظن — على الأكثرين منا، والله أعلم

محمد توحيد السلحدار

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

خطر السياسة على مصاير العلماء — الحياد الأدبي — آداب بعض الوعاظ — إلى فضيلة الشيخ المراغي — الشيخ عبد ربه مفتاح — خيمة لم يستمد لحملها القلب — لا ذنب لي قد قلت للقوم استفوا — إلى فلان — إلى العلامة وحيد

خطر السياسة على مصاير العلماء

كان ابن خلدون يرى أن الاشتغال بالسياسة لا يليق بالعلماء، وأُثِر عن الشيخ محمد عبده أنه قال: لعن الله السياسة ومادة ساس يسوس!

فهل تكون السياسة عملاً تنكره الأخلاق أو يأباه الدين؟ وكيف والسياسيُّ الرشيد يؤدي واجباً هو في بعض صوره من أشرف ما يدعو إليه الدين والأخلاق؟

إنما يُكره اشتغال العلماء بالسياسة لأنها قد تصرف عنهم بعض القلوب، فلا يملكون الأبوة الروحية لجميع من يصلحون للانتفاع بما عندهم من ذخائر الحِكم والآداب، والرجل العالم هو بطبيعة مركزه أخو الجميع وأبو الجميع، والسياسة قد تجره إلى التحيز لفريق دون فريق، وإن بالغ في التحرز من شوائب الأهواء.

أكتب هذا وقد قرأت في جريدة «الكرخ» أن الجنسية العراقية نُزِعتْ من الأستاذ ساطع الحصري وأنه أمسى خارج الحدود!! وهو خبر جزعت له أشد الجزع، وإن لم يكن بيني وبين هذا الرجل من الصلات ما يوجب الانزعاج لما صار إليه من نفي وتشريد، إذا صح أن أهل العلم لا يتعاطفون إلا إذا قامت بينهم روابط من الصداقة والوداد... ومن سياق ذلك الخبر عرفت كيف صار الأستاذ ساطع الحصري إلى هذا المصير المزعج فقد عُدَّ من المنحرفين عن الصواب في أيام الانقلاب. ومعنى ذلك أنه اشتغل بالسياسة فتعرض لما يتعرض له العلماء السياسيون في بعض الأحيان

إن أهل العراق قد يرون في الأستاذ ساطع الحصري غير ما أراه، وهم أدرى بما تتعرض له ديارهم من عواصف الخلاف، ولكن الأخوة الأدبية توجب أن نواسي هذا الباحث المتعمق بكلمة عطف، وهي أقل ما نملك في التوجع لمصيره الحزين

لو كان الغيب مما يطلع عليه الناس لرأى قومٌ أن يُسجَن الأستاذ ساطع الحصري في مكتبته فلا يشترك في السياسة من قرب أو من بُعد، لينقطع لأداء رسالته السامية في التربية والأدب والتاريخ، فله في هذه النواحي أبحاث تضمه في الصف الأول بين كبار المفكرين في هذا الجيل

ولكن الانقلابات العنيفة قد تخرج العلماء من وقارهم المنشود، وتسوقهم إلى معاطب لا يَسلم منها أديبهم، ولا ينفع في دفعها علاج

هذه عِبرة جديدة تسوقها الأيام لمن ألقى السمع وهو شهيد وإن رأسي ليدور كلما فكرت في مصاير العلماء الذين تبلبلهم الحوادث فلا يعرفون إلى أين يتوجهون، وقد أحاطت بهم العواصف والأنواء

كان أسلافنا يدعون إلى الاعتكاف عند هبوب الفتنة، وما كان أسلافنا جبناء، ولكنهم كانوا يعرفون أن الفتنة تخبط خبط العشواء فلا تفرق بين العاصي والمطيع، ولا تدري أين تقع أخفافها الهوج الثقال

وأنا مع هذا قوى الأمل في رجعة الحياة الطبيعية إلى ربوع العراق، ويومئذ يكون من السهل على الحكومة العراقية أن تسمح للأستاذ ساطع الحصري بالعودة إلى البلد الذي خدمه بصدق وأمانة وإخلاص، فلن تكون جنايته السياسية أعظم من كفايته العلمية، ولن يكون في أشنع أحواله إلا مجتهداً أخطأه الصواب

الحياد الأدبي

كانت الجرائد الإنجليزية شُغِلتْ بالتنفير من الحياد، فكانت تدعو جميع الأمم إلى إعلان الحرب على الألمان، وكانت هذه الدعوة تقع من بعض الناس موقع الاستخفاف، لأنها في نظرهم لم تكن إلا وسيلة من وسائل التحريض على الأمة الألمانية، والتحريض لا يُقبَل في كل حين

ثم دارت الأيام بالنحس على المحايدين، فهم كل يوم في بلاء

جديد ، ولو أنهم خرجوا على الحياد منذ اليوم الذى سموا فيه النذير الأول ، اقهروا الألمان على الانسحاب من أكثر الميادين وأذاقوهم عواقب الاستهانة بأقدار الشعوب

وفى دنيا المعارك القلمية مذهب دميم هو مذهب « الحياد الأدبى » ولهذا الحياد عواقب سود ، لأنه قد ينتهى بأهل الفكر والرأى إلى إيثار السلامة من أراجيف العوام وأشباه الخواص ، وإذا آثر المصلح السلامة فعلى الإصلاح العفاء

أقول هذا بمناسبة خطاب وصل من أعالى النيل بقلم الأديب إبراهيم محمد إبراهيم ، وهو يرانى أحجمت عن المضى فى شرح أسباب الفقر ، مع أن الفقر علة تستحق الدرس والتشريح ، وتستوجب التفات جميع الأطباء

وأجيب بأن الذى يصدنى هو « الحياد الأدبى » حياد الأدباء الذين يرون ما أراه فى مشكلة الفقر والفقراء ، ثم يعتصمون بالسكوت ، طلباً للسلامة من أوضار التزيد والافتراء

أستطيع أن أسمى عشرين رجلاً من أصحاب المواهب ، وقد هنأونى على القول بالمسئولية الفردية قبل المسئولية الاجتماعية ، ومع ذلك لم يتقدم منهم رجلٌ واحد بمقال يُشعر الجمهور بأن الرأى الذى أعلنته يصلح للأخذ والردّ ، ويستحق عناية أهل الرأى والبيان

وفى مقابل ذلك وقف أنصار « الرياء الاجتماعى » متعاونين متساندين ليقولوا فىّ ما يشاءون على صفحات بعض الجرائد والمجلات ، حتى صحّ للأستاذ صالح جودت أن يتوجع لمصاير أهل الرأى فى هذه البلاد

أنا أنظر فأرى أعدائى يزدادون من يوم إلى يوم ، الأعداء المجاهرين ، أما الأعداء الكاتمون ، فهم أهلٌ للصفح والغفران

ولكن أين أنصارى ؟

أنصارى هم قرائى ، لا زملائى ، وآه ثم آه من تخاذُل الزملاء !

وأولئك القراء هم الجيش الذى نعتمد عليه بعد الله فى نصر قضية الرأى الحر والقول الصريح ، ولن يستطيع أحدٌ أن يفسد ما بينى وبين قرائى ، لأنى اللسان الناطق بما يشتجر فى صدورهم من آراء وأهواء ، ولأنهم يؤمنون بأن الأدب لن يرتفع إلا إذا تحرر أهله من أغلال الأوهام والأضاليل

وما الموجب للرياء ، وما ظفر المراءون بغير الخيبة والإخفاق ؟

وما قيمة الدنيا حتى نطلب نعيمها بالتزلف إلى أبنائها الفانين ؟

آداب بعض الوعاظ

يجب أن يعرف من لا يعرف أن مجلة « الرسالة » مقررة لمكتبات المدارس الأميرية ومكتبات المعاهد الدينية ، ومعنى ذلك أن الأستاذ الزيات ليس له مصلحة أدبية أو مادية فى نشر شىء يخالف مبادئ الدين الحنيف ، بغض النظر عن مكانته من الوجهة الدينية ، فهو موضع الثقة من أكابر رجال الدين ، وله أبحاث كريمة فى لغة القرآن المجيد

إذا صح هذا — وهو صحيح صحيح — فكيف يستبيح جماعةٌ من الوعاظ أن يسيئوا الظن بكل ما أكتب فى مجلة الرسالة عن الدين الإسلامى ؟ ومن أين يعرف هؤلاء الناس أن إيمانهم أقوى من إيمانى ، وتلك علاقة روحية لا يعلم سرها غير علّام الغيوب ؟

مجلة « الرسالة » تُصدر فى كل عام عدداً ممتازاً عن الهجرة النبوية ، ويشاء الحظ « السيئ » أن أحرص — حين أكتب مقالة لأحد تلك الأعداد — على البعد من الأبحاث التى ابتذلتها الأقلام منذ أجيال وأجيال ، لأن روح الإسلام نفسه تنهانا عن الأنس بالحديث المُعاد ، ثم تكون النتيجة أن تُشغَل المجلات الدينية بشتمى وتجريحى سنة كاملة بلا ترفق ولا استبقاء

ساقنى إلى هذه الزفرة الألمية ما كتبه أحد الوعاظ فى مجلة دينية لا أسميها ولا أسميه ، لئلا يغضب عليها وعليه أهل الفكر والرأى والوجدان

وما ذنبى عند هذا الواعظ حتى يشتمنى بألفاظ لا يصح صدورها عن رجل يتصدر للدعوة إلى الدين ؟

أيرانى كفرت حين أشرت بزخرفة المساجد لترتاح إليها بعد قضاء النهار فى طلب المعاش ؟

أيرانى كفرت حين قلت بأن الخوف من الوثنية لم يبق له مكان فى هذا الزمان ، حتى نراعى بعض ما راعاه الأسلاف القدماء ؟

وبأى حق يُصَدُّ رجلٌ مسلم عن إعلان ما يراه فى شئون الإسلام ؟

ومتى جاز أن يكون فى الإسلام صور جديدة لحيوات الأحبار والرهبان ؟

سوف ترون مصايركم ، يا جماعة الجانين على العقل باسم الدين

الى فضيلة الشيخ المراغى

إليك — أيها الأستاذ الأكبر — أوجه الحديث فأقول :

ما رأيك فى الوعظ والواعظين ؟

ما رأيك فى جماعة لا يحدثون الناس إلا بغطرسة واستعلاء كأنهم ملكوا مفاتيح الجنة ، وكأن رحمة الله لا تساق إلى مؤمن إلا بوحى من هوامم المطاع ؟

ما رأيك فى بعض هؤلاء وهم يعجزون عن كسب القوت إن رُفعت عنهم رعاية الأزهر الشريف ؟

إن الدين المسيحى يروض أبناءه على الإيمان بأن فى القسيسين نفحة ربانية ، ومع ذلك يتأدب القسيسون فيخاطبون أتباعهم خطاب الصديق للصديق ، فما عجرفةُ الواعظ المسلم ، والإسلام يدعو جميع أبنائه إلى مناجاة الله بلا وسيط ؟

ومَن هؤلاء الذين يوهمون الأمة بأن فيها طبقة من الملحدين مع أن محصول الفكر فى مصر من الوجهة الدينية لهذا العهد ، لا يقاس إلى ما وصلت إليه أصغر الممالك فى عهد ازدهار الحضارة الإسلامية ؟

ومَن المسلمُ الملحد فى هذه الأيام حتى يجوز الإغضاء عن إفك بعض المتدينين ؟

أنت المسئول — أيها الأستاذ الأكبر — عن تأديب هؤلاء فجرّب فيهم سيفك أو عصاك ، لينزجروا عن التحرش بالمفكرين من أهل الإيمان

كان يجوز فى عهدٍ غير عهدك أن تكون البهلوانية من شمائل بعض المنتسبين إلى الدين ، فما عذرهم فى التسلح بالبهلوانية وأنت هناك ، وفيك من القوة الذاتية والدينية ما يقلّم أظافر المرائين والمداجين ؟

لا تُبقِ على هؤلاء — أيها الأستاذ الأكبر — فهم حجة الأعداء على أن شمس الإسلام فى كسوف . وسيبقى الإسلام على ضيائه برغم أولئك وهؤلاء

إن الخابيل من أعداء الحرية الفكرية هم الذين آذوا سلفك الشيخ محمد عبده ، فلا تسمح لقرونهم بالنجوم ، ولا تدعهم يحكمون على المؤمنين بالزور والبهتان

الإسلام ديننا نحن ، لا دين هؤلاء ، فنحن دعاته الأمناء فى الشرق والغرب ، وعنا يأخذ من يريدون الوصول إلى فهم أغراضه الصحاح ، فمن طاب له أن يزعم أن الإسلام فى مصر أصبح نزعة طائفية ينتسب إليها فريق ويُصدُّ عنها فريق ، فهو مارق من القومية المصرية ، وخليق بأن ينظر إليه الأستاذ الأكبر نظرة تأديب ، لأن أمثال هؤلاء يستمدون قوتهم المنوية من الأزهر ، وهو من انحرافهم فى عناء

الشيخ عبد ربه مفتاح

فُجعت مصر منذ أعوام بوفاة رجل من أصحاب المروءات ، هو الشيخ عبد ربه مفتاح ، وكان شيخ الوعاظ ، وإليه يرجع الفضل فى تنظيم الوعظ الدينى بالأقاليم ، وكان له فى ثورة سنة ١٩١٩ مجال

فماذا خلف هذا الرجل من الآراء ؟

الجواب عند الذين درّبهم على الوعظ والإرشاد ، ولكنى أذكر رأياً واحداً يصور حصافته العقلية ، فقد كان يرى أن ينتفع الأزهر بمواهب المثقفين المتهمين برقة الدين ، لأنه كان يعرف أن التهمة بالإلحاد لا تقوم فى أغلب الأحوال على أساس ، وإنما تكون فرية يذيعها أصحاب الأغراض ، أو تأويلاً خاطئاً لكلام يحتمل التأويل ، وكان من حججه أن الأزهر حين ينتفع بمواهب أولئك المثقفين قد يغرس فيهم الجاذبية الدينية ، على فرض أنهم ينفرون من الدين ، أو يحوّلهم إلى أصدقاء يصعب عليهم التحامل على الأزهر الشريف

والحق أن الأزهريين الشبان يتمنون أن يُرفع الحجاب المسدول بينهم وبين أقطاب الفكر الحديث ، ليروا دنيا العقل فى ثوبها الجديد ، وليصح القول بأنهم عرفوا ما عند أشهر المثقفين من مذاهب وآراء

وهنا فكاهة مؤذية ولكنها طريفة : فقد اقترح فريق من طلبة كلية اللغة على فضيلة الأستاذ الشيخ المراغى أن يقوّى

كليتهم بأصحاب المواهب ، ولو كانوا فى جوح زكى مبارك وشطط طه حسين ! !

أنا والدكتور طه من أصحاب المواهب ، بشهادة كلية اللغة العربية ؟

هو ذلك ، فما يرفض الكرامة إلا لئيم !

أما القول بأننا من أهل الشطط والجوح فهو قولٌ مردود فما عرفوا عنا فيما قرأوا وما سمعوا غير القول بحرية العقل وقدسية الدين

فجيعة لم يستعر لهلها القلب

هى فجيعتى فى الشيخ « عبد الوهاب النجار » ، أستاذى وصاحب الفضل علىّ فى كثير من المواقف ، والصديق الذى لم أر منه ما يسوء ، على كثرة ما عانيت من تغير الأصدقاء

كان الشيخ النجار يتأدب بالأثر الذى يقول : « أطلب العلم من المهد إلى اللحد » فلما دُعِىَ لتدريس التاريخ الإسلامى بالجامعة المصرية سنة ١٩١٨ أخذ يواظب مع الطلبة على دروس اللغة العبرية ، وقد عرف منها أكثر مما عرفت ، مع أنه لن يُسأل عنها أمام لجنة الامتحان !

وحين شبت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ تفضل فدعانى ليحدثنى أنه يريد أن يؤرخ أيام الثورة على طريقة « الجَبَرْتى » بكتاب يسميه « الأيام الحمراء » . ورجانى أن أقدم إليه أخبار الأزهر يوماً بيوم ، وكان الأزهر ملتقى الوفود فى تلك الأيام

والذين نعوا الشيخ النجار فى الجرائد اليومية وتحدثوا عن مؤلفاته نسوا الحديث عن هذا الكتاب ، لأنه غير مطبوع ، فليعرفوا أنى أشرت إليه مرة فى جريدة البلاغ ، فاهتم الأستاذ عبد القادر حمزة بأمره وطلبه من الشيخ لنشره مسلسلاً على صفحات البلاغ . وقد نُشر بالفعل منذ بضع سنين ، فأكبر خدمة يؤديها أصدقاء الشيخ النجار لذكراه هى جمع تلك الصفحات فى كتاب ، لأنها أعظم وثيقة كتبها مؤرخ شاهد الحوادث فى سنة ١٩١٩

لا ذنب لى . . .

لم تُصلح الأيام ما فى ذاكرتى من الشذوذ الفظيع : فهى ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام ، وهى قوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعانى ؛ فأنا قد أتمثل حادثة بظروفها وأحوالها فى غاية من التدقيق ، كأنى شهدتها بالأمس ، ولكنى أنسى اليوم الذى وقعت فيه ، وقد أنسى العام والعهد ؛ ففى أى يوم أو أى عام أو أى عهد وقع الحادث الذى أروى خبره فى العبارات الآتية :

أنكر وزير المعارف فى عهدٍ سلَف — وذاكرتى تزعم أنه مصطفى ماهر باشا — أنكر ذلك الوزير أن تكون « دار العلوم » مدرسة عالية ، لأن طلابها لا يدرسون إحدى اللغات الأجنبية ولأنهم لا يجيدون غير تصريف افوعل وافعنلل ؛ وانبنى على ذلك أن ينكر حقوقهم فى « تعديل الدرجات »

فماذا صنع الشيخ النجار فى دفع ذلك التحامل البغيض ؟ كتب سلسلة من المقالات فى جريدة الأهرام تحت عنوان :

« لا ذنب لى قد قلت للقوم استقوا »

كتبها بإمضاء مستعار ليسلم من بطش الوزير ، فى أوقات لم يكن يجوز فيها لأحد الوظفين أن ينشر مقالاً فى معارضة أحد الوزراء

وتحققت الغاية المنشودة من تلك المقالات ، فتساوى أبناء « دار العلوم » مع أبناء « المعلمين العليا » فى « تعديل الدرجات » بعد أن طال العهد بالتفريق بين هاتين الطبقتين من رجال التعليم

فأين من يذكر وفاء الشيخ النجار للمعهد الذى تخرّج فيه ، يوم تخلّى عن نصرته أبناؤه الأوفياء ؟

إلى فعلان

قرأت خطابك فاستروحت نسائم الحرية حين شهدت غيرتك على الاستقلال ، وأنت تراه غاية معنوية ، لا غاية نفعية ، كما يتوهم بعض الناس

وليس المهم أن تستريح الأمم من الكفاح ، لأن الكفاح هو أيضاً من الغايات ، فما كانت الراحة إلا نذير الموت والفناء

الى العلامة وحيد الأيوبى

قرأت جوابك ، أيها السيد ، فى مجلة الرسالة ، وأنت ترى أنه يقال للشيخ عجوز وللشيخة عجوز وعجوزة . وأقول إن الشيخة

في الاجتماع اللغوى

اللهجات العامية الحديثة

الرسم العربى : أثر اللهجات العامية فى صعوبته مظاهر نقصه ووسائل إصلاحه

للدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

— ٦ —

لا ترمز حروف الهجاء فى الرسم العربى إلا إلى الأصوات الساكنة (ونعنى بهـا ما يقابل أصوات المد) وأصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) . أما أصوات المد القصيرة فيرمز إليها بحركات يوضع بعضها فوق الحرف وبعضها تحته (كُتِبَ كَتَبَ ... الخ)[1]

(١) يرمز كذلك بالحركات فى الرسم العربى إلى تشديد الحرف (أمّا) وتنوينه (كتابٌ) وإلى الألف التى تلحق الهمزة (آجلا)

عجوزة فقط ، ولا يجوز وصفها بعجوز فى لغة هذا العهد ، لأن اللغة صائرة إلى التقعيد Normalisation وهو استنادها إلى قواعد وأصول فى جميع الشؤون ، بحيث ينقرض الشذوذ الذى يأخذ قوته من السماع

فأنا أقول: زوج وزوجة ، وخادم وخادمة ، وصبور وصبورة ، وقتيل وقتيلة ، وجريح وجريحة ، وعجوز وعجوزة ، لتوكيد التفريق بين المذكر والمؤنث ، وهو غرض يقصده البلغاء

فإن احتججت بلغة القرآن فسألقاك بأدلة جديدة توهن ذلك الاحتجاج ، بدون أن أخرج عن الأدب فى الحديث عن لغة القرآن . وإن آزرك الأستاذ الكبير « ا . ع » فسيكون للأقلام مجال فى تحرير مشكلة طال عليها الخلاف ، وسنمد لغة العرب بزاد هى إليه فى اشتياق ، لأنه باب من الحرية فى الأداء ، ولأنه عون على التحديد والتعيين حين تختلف المعانى والأغراض ، والسلام .

زكى مبارك

ولا تـكاد تدون هذه الحركات فى عصرنا الحاضر إلا فى الـكتب الأولية التى تستخدم فى تعليم النشء مبادىء القراءة والـكتابة . أما فيما عدا ذلك فقد جرت العادة غالباً أن تدون الـكلمات فى الـكتابة والطبع عارية عن الشكل . ومن أجل ذلك أخذ بعض الباحثين على الرسم العربى بعض مآخذ من أهمها ما يلى :

١ — أنه لا يستطيع أحد أن يقرأ نصاً عربياً قراءة صحيحة ويشكل جميع حروفه شكلا صحيحاً إلا إذا كان ملماً بقواعد اللغة العربيـة وأوزان مفرداتها إلماماً تاماً ، وفاهماً معنى ما يقرؤه . ويردد من يأخذ هذا المأخذ على الرسم العربى ما قاله قاسم أمين من أنه فى معظم اللغات الأوربية يقرأ الناس قراءة صحيحة ما تقع عليـه أبصارهم وتتخذ القراءة وسيلة للفهم : أما نحن فلا نستطيع أن نقرأ قراءة صحيحة إلا إذا فهمنا أولاً ما نريد قراءته

٢ — أن النص العربى الواحد عُرضة لأن يقرأ قراءات متعددة بعيدة عن اللغة الفصحى . وذلك أنه قد حدث تناوب واسع النطاق فى أصوات المد القصيرة (التى يرمز إليها بالفتحة والـكسرة والضمة) فى اللهجات العامية كما تقدم بيان ذلك فى إحدى مقالاتنا السابقة ؛ حتى أننا لا نـكاد نجد كلمة باقية فى هذه اللهجات على وزنها العربى الصحيح . وتختلف هـذه الأوزان باختلاف اللهجات (خِسِر ، خُسُر ، يِشْمِل ، يِشْمَل ... الخ) . فالنص العربى المجرد من الشكل عُرضة لأن يقرأه أهل كل لهجة حسب منهج لهجتهم فى وزن الـكلمات[1]

٣ — أنه من المتعذر مع هذا الرسم قراءة أسماء الأعلام (أسماء الأمكنة والبلاد والبحار والجبال والأناس ... الخ) قراءة صحيحـة . ولذلك تضطر بعض المعاجم والمؤلفات إلى تهجى حروف الـكلمات التى من هذا القبيل ، والنص على حركة كل حرف منها ؛ فتقول مثلاً « صفين بكسر الصاد وتشديد الفاء المكسورة » ، « الغفارى بكسر الغين وتخفيف الفاء » وهلم جرا

(١) أنظر عدد ١١ ٤ صفحة ٦٧٠

وقد قدمت عدة اقتراحات لسد مواطن النقص السابق ذكرها فتقدم بعضهم باقتراحات ساذجة هدامة لا تكاد تستحق عناء المناقشة . فمن ذلك استبدال الحروف اللاتينية ومنهج الرسم اللاتيني بالحروف العربية ومنهج الرسم العربي . ولا يقوم هذا الاقتراح إلا على مجرد الرغبة الآثمة فى تقليد الغربيين ؛ إذ ليس ثمت ما يدعو إلى اصطناع الحروف اللاتينية . وإن كان لا بد من السير على طريقة الرسم اللاتيني بصدد أصوات المد القصيرة ، فلا يقتضينا ذلك أكثر من اختراع ثلاثة أحرف ترسم فى صلب الكلمة بدل الفتحة والكسرة والضمة كما سنذكر ذلك فى بعض الاقتراحات الآتية . وأكثر من هذا هدماً لكيان اللغة العربية ماذهبت إليه طائفة فى علاج الرسم ، إذ اقترحت إلغاء الإعراب والتزام السكون أواخر الكلمات ، حتى تضيق مسافة الخلف بين رسم الكلمة ونطقها فى اللهجات العاميه المستخدمة فى المحادثة ، فتسهل على النـاس القراءة ، ويتخلص الرسم العربي من بعض عيوبه . وقد كفانا أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا مئونة الرد على هـذا الاقتراح بما عقب عليه به فى الشئون الاجتماعية إذ يقول : « وهذا الرأى مطعون فيه من وجهين : أما الأول فإنه لا يحل من المسألة إلا بعضها دون البعض الآخر ؛ لأن ضبط حركات الحروف ليس ضرورياً فى الإعراب فحسب ، بل هو أشد ضرورة فى بنية الكلمة . وهذا الضبط من جواهر اللغة ؛ فإذا أهملنا الإعراب وأهملنا الشكل ولم نأت بطريقة تقوم مقامه ظل الناس يلفظون الكلمات على غير وجهها الصحيح كما هم الآن يفعلون . وأما الوجه الثاني فإن فى هذا الرأى إهداراً لصورة اللغة العربية وقضاء على أهم مميزاتها . وذلك ما لا نظن أحـداً يرضاه ، خصوصاً متى أمكن تسهييل تعليم اللغة وشيوعها من غير الالتجاء إلى العبث بسلامتها ومميزاتها [1] »

واقترح بعضهم إدخال الشكل فى بنية الكلمة حتى لا يتخطاه نظر القارئ ؛ وذلك بأن تخترع حروف للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التى يرمز إليها الآن بالفتحة والكسرة والضمة) ، وتدون هذه الحروف فى صلب الكلمة فى مواضعها . فلتدوين كلمة « كتب » مثلاً يرسم بعد كل من الكاف والتاء والباء الحرف الذى سيخترع للاشارة إلى ما تشير إليه الفتحة فى رسمنا الحاضر . وهذا هو المنهج الذى يسير عليه الرسم الأوربى Kataba وينتصر لهذا الاقتراح عدد كبير من الباحثين على رأسهم أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا [1] .

واقترح آخرون أن يكون لـكل حرف من حروف الهجاء العربى أربع صور مختلفة : صورة فى حالة تحركه بالفتح ؛ وأخرى فى حالة تحركه بالـكسر ؛ وثالثة فى حالة تحركه بالضم ؛ ورابعة فى حالة تسكينه . وهذا فى مجمله هو المنهج الذى يسير عليه الرسم الحبشى [2] .

(١) مجلة الشئون الاجتماعية عدد فبراير سنة ١٩٤١ . هذا وكنا نود لو اقتصر أستاذنا الجليل على ما تقدم ، ولم يعقب عليه بما قد يفهم منه بعض الناس أن مثل هـذه الاعتبارات لا ينبغي أن تحول دون تحقيق التيسير الذي يتضمنه هذا الاقتراح .

(١) نشر هذا الرأي في مجلة الموسوعات سنة ١٨٩٨ ؛ ثم عاد فأشار إليه بمجلة الشئون الاجتماعية بعدد فبراير سنة ١٩٤١ . غير أنه عقب عليه فى صفحة ١١ من هذه المجلة الأخيرة بما نصه : « ولست متمسكا بالطريقة التى اقترحتها منذ زمان بعيد . ولـكنى راض بأية طريقة أخرى تؤدي إلى الغاية التى ننشدها من توحيد لغة الـكتابة ولغة الـكلام فى الجملة ليسهل تعليمها من ناحية وليوجد حد مشترك من اللغة بين المتعلمين وغير المتعلمين » . غير أنه يظهر لنا أن هذه الغاية لا يكاد يتحقق شيء منها بادخال الشكل فى رسم الـكلمة ؛ وأن الفائدة التى يحققها هذا الاصلاح لا تكاد تعدو تسهيل القراءة واتقاء الخطأ فى ضبط الـكلمة المـكتوبة حسب وزنها فى اللغة الفصحى .

(٢) قدمت أنا هذا الاقتراح فى مجلس علمي جرى فيه الحديث من هذا الموضوع ، ووافقنى عليه كثير من الحاضرين . ولم يتقدم به فيما أعلم أحد من قبلى . وتفضل هذه الطريقة الطريقة السابقة بأنها تحقق الغرض المنشود مع إبقاء عدد حروف الـكلمة على ما هى عليه ؛ فتوفر بذلك قسطا كبيراً من الوقت والمجهود والنفقات المادية فى الورق وجمع الحروف وأجور العمال ... وما إلى ذلك من الأمور التى تقتضيها الطريقة السابقة . فكلمة « كتب » مثلا ترسم ثلاثة أحرف حسب هذه الطريقة ، على حين أنها ترسم ستة حسب الطريقة السابقة

غير أنني عقبت على ذلك فى نفس المجلس بأن مناقشة هذا الاقتراح وما إليه لا يكون إلا بعد التسليم بضرورة إصلاح الرسم العربي من هذه الناحية وصرحت بأنى لا أسلم مطلقا بهذه الضرورة ، وبأن كل إصلاح فى هذا السبيل — مهما بدا وجيها — فان ضرره سيكون أكبر من نفعه .

وترى جماعة الاكتفاء بالتزام الشكل في المطبوع والمكتوب حتى يستطيع كل فرد أن يقرأ ما يقع عليه نظره قراءة صحيحة[1]

والذي أراه أن الصعوبة التي يشتمل عليها الرسم العربي لا يكاد يخلو من مثلها، بل مما هو أشد منها، أي نوع من أنواع الرسم. فاللبس الذي يحدثه أحياناً الرسم العربي ليس شيئاً مذكوراً بجانب اللبس الذي يحدثه الرسم الإنجليزي مثلاً، وخاصة في النطق بأصوات المد Vowels: a, e, i, o, u, ie, io, ei, oi, ea, ee... etc. فكثيراً ما يختلف النطق بالصوت الواحد من هذا النوع وغيره تبعاً لاختلاف الكلمات التي يرد فيها؛ حتى أنه لا يستطاع قراءة معظم الكلمات الإنجليزية قراءة صحيحة بمجرد النظر إلى حروفها؛ بل لا بد في ذلك أن يكون القارئ قد عرف نطق الكلمة من قبل عن طريق سماعها من إنجليزي. كما أنه لا يستطيع كتابتها كتابة صحيحة بمجرد سماعها؛ بل لا بد في ذلك أن يكون قد حفظ حروفها — من قبل عن ظهر قلب[2] —. وفي الحق أن الرسم العربي ليعد من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطاً في القواعد ومطابقة للنطق

أما وجوه الإصلاح التي أشرنا إلى بعضها فيما تقدم فيظهر لنا أن ضررها أكبر من نفعها، فمعظمها يطيل رسم الكلمة أو يزيد من حروفها، وفي هذا إسراف في الوقت والجهود والنفقات المادية وشؤون الطبع . . . وما إلى ذلك. هذا إلى أن كل تغيير جوهري يدخل على الرسم من شأنه أن يحول — عاجلاً أو آجلاً — بين الأجيال القادمة والانتفاع بالتراث العربي. حقاً إنه يمكن اتقاء ذلك بالالتجاء إلى إحدى محاولتين؛ ولكن كلتيهما توقع في صعوبة تزيد كثيراً عن الصعوبة التي تعمل على إزالتها. أما إحداهما فأن يتعلم كل فرد نوعين من الرسم العربي: الرسم القديم الذي يتيح له الانتفاع بنتاج الفكر العربي من النشأة إلى العصر الحاضر؛ والرسم الحديث الذي يقرأ به ما يدون بعد هذا الإصلاح ويستخدمه في كتابته، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الارتباك، وإطالة الزمن الذي تعلم فيه القراءة والكتابة، وانفرادنا من بين سائر الأمم بأعجوبة في ميادين الرسم والتعليم. وأما الأخرى فأن يُعمد إلى جميع ما كتب أو طبع بالرسم العربي القديم فيُعاد تدوينه وفق هذا الرسم الحديث، ولا يخفى أن مشروعاً هذا شأنه تنوء به الجهود الإنسانية وتعجز الخزائن عن تموينه

على أن من اليسير اتقاء وجوه اللبس التي أشرنا إليها بدون الالتجاء إلى أي إصلاح من الإصلاحات الآنفة الذكر. فمن الممكن التغلب على هذه الصعوبة بالتزام شكل الكلمة التي من شأنها أن تثير اللبس عند أواسط المتعلمين إذا نزلت من غير شكل، أما الكلمات التي يدل السياق على شكلها، أو يكفي إلمام بمبادئ القواعد العربية للنطق بها على وجهها الصحيح، أو لا يمكن أن ينطق بها في صورة أخرى، فمن العبث الالتجاء فيها إلى الشكل

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة باريس

(١) لا يخفى ما ترتب على ذلك من إسراف في الوقت والجهود والورق، ومن صعوبات في سبك الحروف وجمعها ... وهلم جرا

(٢) أنظر تفصيل هذا الموضوع وما يتصل به بكتابنا «علم اللغة» آخر صفحة ٢٥١ وصفحات ٢٥٢ — ٢٥٧

القيم الأخـــلاقية
فى الآداب الانجليزية المعاصرة

للدكتور توماس جرينوود
أستاذ الفلسفة بجامعة لندن

لأجل أن نقف على وجهة النظر الأخلاقيـة فى كتّاب الإنجليز الحديثين يجب أن نعرف تلك المهول العامة التى دفعتهم إلى تلك الاتجاهات الجديدة وجعلتهم يثورون على نظم وتقاليد العصر الفكتورى . فإن عظمة الحكم الفكتوري قد انعكست فى ذلك الإلهام الذى ألهم كتاب ذلك العصر ما كتبوا عن الفكرة العامة عن النظام والوجهة المنظمة للعالم ، واحترام التقاليد ، والخضوع للقانون الأخلاق ، واحترام الفضيلة والتسامى بها ، وعدم ذكر الرذيلة إلا للتشهير بها ؛ اللهم إلا بعض الكتاب الثائرين « كسوينبرن » الذى كان أوسع حرية فى الأخذ بتلك الآراء . إن رسوخ الأخلاق فى الآداب الفكتورية قد اختفى تماماً فى الكتاب المعاصرين لأسباب منهـا الحرب العظمى ، والنزعات العلمية والاجتماعية والاقتصادية الحديثة ، وتدهور القيم الأخلاقية العامة ، واتخاذ كل شيء شكلا جديداً

فكان (شو) و (ولز) كبار الرواد الذين سخروا من العصر الفكتورى وهدموا أسسه الأخلاقية . إن الضرر الذى لحق ذلك العصر من جراء هـذين الكاتبين لا يوازن بتلك الأفكار الخيالية المثالية التى جاء بها ولز . وكان من آثار هذا الهدم العنيف أن ترك الجيل الجديد بدون مرشد ، وأصبح يتعثر فى سيره ويتخبط فى عمائه واضطرابه . وهذا أوضح ما يكون فى القصة . فعندنا نماذج خمسة من القصة : المخاطرات ، ثم المواقف الغريبة الشاذة (مع التناقض القوى بين الحوادث الحقيقية والمتخيلة) ، ثم الاجتماعية والنفسية ، ثم السير (وهنا يذكر الكاتب مثالاً لكل منها ليظهر كيف أن المؤلفين قد تأثروا بتلك الأسباب التى ذكرناها ، وكيف أن القيم الأخلاقية قد أصبحت فى عماء وفوضى) . وهذا يظهر جلياً فى قصص أولئك المؤلفين الذين كانوا أشد تأثراً بالنظريات النفسية الحديثة

وعند ما يشير الكاتب باختصار إلى كتابات بارى وولبول وبيريسفورد وبلاكوود وسنكلير وفيرجينيا وولف وغيرهم يعرض لثلاثة من أشهر كتاب القصص وأبعدهم أثراً فى الأدب الحديث وهم : جيمس جويس ولورنس وألدس هكسلى

ففى جويس نجد المسائل النفسية مشروحة على الطرق الحديثة، فهو يصف لنا بدقة فائقة التطورات النفسية لأبطاله . وهو لا يقيم وزناً كبيراً للحوادث فهى متساوية الأثر لديه . فالحياة فى نظره ليست أكثر أهمية فى مكان منها فى مكان آخر ؛ وهو يكشف لنا فى قصته (أهالى دبلن) و (صورة الفنان كشاب) عن مقدرة فائقة واستعداد أدبى ممتاز . ولكن (يوليسيس) أعظم قصصه التى تظهر لنا بوضوح فوضى أخلاق أبطاله . ومع أنه يدّعى أن حوادث قصته تتصل بأبطاله الذين أوجدهم فى هـذه القصة ، إلا أن الناس أميل إلى الاعتقاد أن مستر بلوم مثلاً شخصية مألوفة فى الحياة الإنجليزية . وليس هناك فن أوضح لوصف كل الأفكار المريضة للرجل العربيد من أن يصف حوادث حدثت فى حجرة الاستقبال أو على مائدة العمل . فالإنسان فى نظره ليس فاضلاً ، وهو من أجل هذا يجب أن يكبح أهواءه الدنيئة مستعيناً بذكائه وعقله

وجويس مع ذلك لا يدافع عن أخلاق أبطاله ، فإن معالجته لفن القصة وأسلوبه القوى النشيط ومادته الغزيرة ، كل أولئك يساعد على إظهار أبطاله كما يريد أن يبرزهم لا أن تخفيهم أو تستر بعض عيوبهم . وهذا ما عمله لورنس ، فإن كل كتاباته لا تدور حول الجنس فحسب (مع استثناء بعض قصصه الوصفية الجميلة) ولكنه يدافع عن آرائه فى حرية الحب وغياب الروحية وازدراء القيم الأخلاقيـة والثورة على النظم الثابتة والتقاليد القديمة فى العلاقات الجنسية والاجتماعية

وهنا ذكر الكاتب بعض مقتطفات من قصته (قوس قزح) مدللاً على صحة هذه الآراء

جيـــل وجيـــل

الى أبن يسير الانسان!

للأستاذ محمود البشبيشى

— ٥ —

التعليل الروحى قيد الشخصية — التعليل العملى مطلق للمجموع — الميول والعواطف العامة تعمم التعليل الروحى — والتأمل الخاص يخصصه — الحيوان والتجربة! — التعليل الروحى والعملى والفكر الأدبى

... نصل نقاشنا اليوم بصورة من اتجاهات ولدنا الأديب « حسين » الفلسفية ، فلا سبيل إلى إرضاء هذه الفورة الفكرية إلا بتشريح خواطرها المتدفقة ، تشريحاً لا تنزل صوره إلا بمنزلة اليقظات الحسية ، والأقباس الفكرية اللاحة

وحديث اليوم نسيج وحده ، وجدت فى مسايرته نشوة الفكر الحر إذا انكشفت أمامه مخبآت الفكر الإنسانية ...

ورأيت من الخير أن أتابعه إلى أقصى حدود المتابعة ، وأنتقل معه من شاطئ فكر إلى شاطئ فكر ، لأسبر غور اليقظة الحسية والفكرية فى عقل متوثب من عقول الجيل الجديد ، ولأرى كيف يمكن عقد صلة بين حياتنا الفكرية وبيننا

ولقد رأيت الكثير وعلمت الكثير ودفعنى هذا العلم والتأمل إلى مواصلة النقاش ، ففيه نشوة روحية ولذة فكرية ونوع من التعبير جديد عامر بنفائس المعانى وكرائم الاتجاهات ، لا يمله القارئ الراغب فى التسلية ، ويجد فيه العقول الراجحة الوزينة أطايب وأطايب

— لا شك يا بنى أن الإنسان بما ركب فيه من أحاسيس ومشاعر ، وما اختص به من عقل متأمل له القدرة على تفهم ما يدور حوله وما يضطرب فى أيامه من تغيرات معنوية ومادية ... ولا شك أن قدرته على تفهم دقائق الأسرار تختلف كل الاختلاف وتتفاوت كل التفاوت تبعاً لقدرة الفرد على التغلغل فى ظلمات الفكر ، والتأمل فى بدايتها ونهايتها ، وإدراك الصلة بين هذه البداية وتلك النهاية ... ثم تبعاً للقدرة على التعليل والوصول إلى النتائج

وكما اختلف الإنسان فى جوهر العقل كان اختلافه فى كل ما يصدر عن العقل وكل ما يترتب على نتائجه

— جميل هذا ، ولكنى أعتقد أن مظهر التعليل أهم مظاهر الفكر التى يقع بينها التفاوت ، بل إنى لأعتقد كل الاعتقاد أن للتعليل الخطر الأكبر فى كل ما تقوم عليه الحياة الفكرية والعملية ، يظهر أثره فى الشروع فى العمل وفى حالة القيام به ، ويبدو واضحاً فيما تتكشف عنه النتيجة ...

ففى استطاعة كل إنسان أن يشعر بوجود ما يثير التفكير من موضوعات معنوية أو مادية ، خاصة أو عامة ، طبيعية أو غير طبيعية ، ذلك لأن جوهر العقل المدرك مشترك فى المجموع .

أما هكسلى فإن دفاعه عن آراء لورنس فى حرية الأخلاق قد اتخذ شكلا فلسفياً ، فهو يحاول (قصداً) أن يظهر أن هذه الفوضى الأخلاقية هى النتيجة العقلية لتحليل النفس الحقيقية .

لقد تعرضنا فى هذه الإلمامة النقدية للقيمة الأدبية لكتابات أولئك المؤلفين ؛ وهذه القيمة نفسها تعرض أخلاقهم إلى خطر عظيم ، فقد وقع الكتاب الثلاثة فى أزمات نفسية خاصة وليست شائعة بين عامة الناس . وعلى هذا فمن الخطأ أن نعتقد أن هؤلاء الكتاب على أى حال أو فى أية صورة المظهر الأخلاق الحقيقى للعقل الإنجليزى

وأخيراً أظهر الكاتب أنه بالرغم من تأثير أولئك الثائرين فإن الأدب الإنجليزى المعاصر لديه مؤلفون عديدون يدينون بالآراء القديمة ؛ فهم محافظون على تقاليدهم الموروثة ؛ أمثال : ميروث وجولزورث وبنت وكونراد وجيروم وتشسترتن ؛ حتى هاردى يمكن أن يعتبر أنه أميل ، أو أكثر إخلاصاً وأمانة إلى الأخلاق والتقاليد القديمة ، التى هى من الأسباب الجوهرية فى عظمة الشعب الإنجليزى .

نظمى خليل

ولكن التفاوت قد يقع ، بل لا بد أن يقع فيما وراء مرحلة الإدراك من تصرفات فكرية ، كشعور الإنسان بإحساس خاص نحو موضوع اعترضه ، أو رغبته القائمة على هذا الشعور في سلوك مسلك خاص نحو هذا الموضوع ؛ وكما وقع الاختلاف في مرحلة الإحساس الخاص والسلوك الخاص يحدث في القدرة على التمليل لأن هذه المرحلة تصل معاني الإحساس بمعاني ووسائل السلوك

— حسن هذا يا بني ، وجميل أن نتأمل « التمليل » تأملاً أوسع نطاقاً ، ونحاول أن نستشف أسراره ... عرفنا سر اختلافه فما هي صوره ؟ وإلى أي مدى تتأثر الحياة بتلك الصور ؟ وأي مظاهر من مظاهره أجدى على المجتمع ؟

التمليل نوعان : تمليل روحي وتمليل عملي . أما الروحي ، فهو وليد الفكر ، يسير على ضوء أقباسه وتكون نتائجه صوراً فكرية أساسها التصور والتخيل ؛ والعملي وهو في حقيقته صورة لتمليل روحي انطلقت من قيود التخيل والتصور ووجدت الوسيلة القادرة لتتجسد بالعمل أو بالقياس ، ووسيلة الاتقان في العمل والصدق في القياس هي التجربة

— وعندي يا والدي أن التمليل الروحي قيدٌ من قيود الشخصية ! لأنه مختلف متفاوت ، ومن اختلافه وتفاوته تتميز الشخصيات

فهذا رجل قاتم الروح ، تخرج نظراته إلى الأشياء من ألوانها القاتمة ، فما من فكرة له وعمل إلا وفيه صورة من صورها ، وإنه لسالك هذا السبيل حتى يصبح سمة يعرف بها ولون تتكون منه شخصيته ، وباختلاف ألوان الروح تختلف الشخصية

ولما كان التمليل صورة من صور الروح والعقل ، ومظهراً من مظاهر الشخصية ، كان طبيعياً أنه إذا اشتد وتمت له الغلبة على الشخصية نفسها ، وعلى سائر مكوناتها ، أو تخطى حدود التوازن بينه وبينها ... انتقل بالإنسان من قيد الشخصية الفردية إلى أفق الإنسانية العامة ... فإذا به قد صب في قوالب من صور المجتمع ، واستطاع أن يغالب نوازع النفس الفردية بعد أن كان الحكم والغاية فيه للتصور والتخيل والذوق الخاص ، لا للميول الاجتماعية والخير العام

— رأيتَ يا بني أن التمليل الروحي من مكونات الشخصية ، وإنه في أول أمره يكون من سمات الفردية ، فإذا تمت له الغلبة على سائر مكونات الشخصية ، انتقل بها من نطاق الفرد ومنافعه الخاصة إلى أفق المجموع ومنافعه العامة ، هذا حق ولكن يحسن أن نجلّي عنه قليلاً فنقول : إن التمليل الروحي إذا غلب عليه التأمل الخاص أصبح صاحبه محباً للأثرة ؛ أما إذا مسه شعاع من أقباس الميول العامة والعواطف ، كان طريقاً ممهداً إلى مسايرة منافع المجتمع الإنساني وملابسة تقلباته وتطوراته ، أو كان سبيلاً إلى معارضة تلك المنافع ومحاربتها ... !

فهذا رجل نبيل الروح تظهر روحه النبيلة في مظاهر تمليله ، ويقف تأثيرها في أول الأمر أو في حالة التوازن بينها وبين شخصيته عند منفعته الخاصة . أما إذا قهر هذا التمليل الروحي النبيل سائر مكونات شخصيته جعل منه صاحب ميول اجتماعية إنسانية سامية ؛ فهو بما فُطر عليه من نبل يعمل على إسعاد المجتمع وتقويم أوده ...

وذاك رجل غُلِّفت روحه بالأثرة والطمع ، وطغى ذلك على مذاهب تمليله ؛ فهو يتخبط في ظلمات أثرة محدودة بأطماع مقيدة في أول أمره ؛ ثم إذا تمت الغلبة لتمليله الروحي وقُهرت شخصيته ، انطلق انطلاق الطائر الحبيس تفتحت أمامه آفاق السماء ، فراح ينتهب من هنا وهناك ، ويحلق هنا وهناك ، وكان في جميع أموره مقدماً منفعته ، معارضاً الخير العام

— وأرى يا والدي أن التمليل العملي سبيل من سبل إسعاد المجتمع . فما كانت الآلات المخترعة ووسائل العلاج المختلفة إلا وليدة تمليل عملي ، تأمل في أحوال الكون ، وقارن بين ما فات وما هو آت ، وربط التجاريب القديمة بالنظرات الحديثة ، ووقف عند كل ظاهرة من ظواهر الحياة وقفة الفكر العملي الذي لا يقنع بزاد التخيل ، ولا يرضى بمتاد التصور !

ولقد كان الإنسان فى فجر أيامه تيهان هائماً ، وكان موقفه من مشكلات الأمور موقف العجز المطبق أو القدرة المقيدة تنيم الدهشة فى رأسه إذا طوقته الحادثات ، وتضطرب الحيرة فى فكره إذا بدهته الملمات !

كل أعماله تنم عن نقص فى التدبير ، وكل تصرفاته تدل على قصور فى التفكير ، وما من طريق سلكه إلا هتك عن جهل بعمالية الأمور

ولقد ظلت أموره إلى عهد غير بعيد مشدودة إلى ماضيه بقيود من المنافع الخاصة والنظرات الروحية ! أما اليوم فقد تحول تحولاً كبيراً ، وانقلب انقلاباً خطيراً ...

أفلم يساير الزمن فى تقلباته ، ويلابس التقدم العقلى فى تصرفاته ؟ أو لم يناوص ويصاول حتى أدرك أسراراً لم يكن ليستشفها إلا الفطن الذى تحفزه فكرة وعقيدة ؟ !

ولقد ملك اليوم ناصية فكرة وعقيدة مهما يكن مكانها من الخير أو الشر فهى من علائم اليقظات الحسية ! وجماع القول فى تدرج الإنسان ، ومسايرته للزمن ، وملابسته للتقدم العقلى ، إنه كان روحى التعليل فأصبح عملى التعليل ، وانتقل من لا نهاية التخيل والتصور إلى حدود التجربة والعمل

وكان فى انتقاله هذا إدراك لما لا يناله غوص التخيل وتحقيق لما لا يسبر غوره تغلغل التصور ، ولم يعد الإنسان ذلك المكدود المجهد اللاغب المدلج الحائر

ولكن هذا التطور جلب شراً خطيراً كما حقق خيراً كثيراً وأكبر الظن أن الإنسان سيظل مندفعاً فى سبيل التعليل العملى وحده والتجربة خاصة ، حتى يصل إلى غاية تنقلب فيها الأمور إلى أضدادها ! وما ذلك ببعيد . وهل كانت هذه الحرب الضروس إلا صورة لفساد المذهب التجريبى العملى التعليل ؟

تلك صور الإنسان ، فما صور الحيوان ؟ عندى أن الحيوان عملى التعليل يسير على ضوء التجربة وينهج نهج الخبرة السابقة ، فكل أعماله غير الغريزية لا تكمل صورها إلا بالتكرار والتجربة ولذلك الاعتقاد عندى علل وأسباب

فهو محروم من التعليل الروحى الكامل المعانى ، لحرمانه من صور العقل الكامل وهذا أمر لا يحتمل الجدل ؛ ثم هو عاجز كل العجز عن ملاءمة نفسه بالبيئة التى تحيط به ، والقدرة على الملاءمة من قواعد الحياة الثابتة ، التى تقوم على ضوء أقباس العقل الكامل ، وإشماع التعليل الروحى !

ثم إنى لألمس هذا القصور عن بلوغ مواطن التعليل الروحى عند الحيوان ، حتى فيما يرتكز على غرائزه الثابتة ؛ فهذا حيوان يأكل العشب الأخضر ، تراه يلتهم ما أمامه بغير تأمل ، فهو لا يميز بين الضار وغير الضار ، لحرمانه من التعليل الروحى ؛ ولكنه بالتكرار والتجربة ، يستطيع أن يدرك أن هذا النوع الذى أصابه منه ضرر جدير أن يبتعد عنه ، وهو حتى فى هذه الحال بطىء الإدراك ، بطىء الفهم لوسائل التكرار والتجربة ، فلو غيرت ظروف البيئة الأولى لوقع فيما وقع فيه أولاً !

أما أثر التعليل الروحى فى الأدب فيبدو واضحاً جلياً فى خطرات النفوس الشاعرة ، ونظرات القلوب الفنانة الساحرة ، وإنه ليكون أكثر وضوحاً فى نفثات الشعراء الغزليين ، ونفحات الكتاب الوجدانيين ، وفى كل أثر من آثار الفكر السابحة فى سماء من الخيال المجنح الذى لا يعرف القيود ، ولا يعترف بالحدود ! ومثل هذا التعليل لا يقوم إلا على التصور والتخيل ، فهو من شواهد اليقظة الروحية ، ولكن أثره لا يمتد إلى آفاق التعليل العملى ، القائم على التجربة والقياس ، وإن كان أصحابه من الشعراء والكتاب يحلقون فى سماء الخلود الفكرى . فغاية التعليل الروحى تغلب عليها الشخصية وتكسوها الفردية . فالشاعر الوجدانى إنما يُشرح خواطر قد انبعثت من تقلبه فى غمرات من الآلام الخاصة ، واضطرابه فى طوارق من الأوجاع والأسقام ، فآثاره مقيدة بقوة تأثير ما يضطرب فى حياته

والشعراء والكتاب الذين ينهجون نهجاً وسطاً بين الروحى والعملى هم بناة صروح الحياة ، فما كانت الإنسانية فى حاجة إلا للثبت الذى يستطيع المجانسة بين قوة التعليل الروحى وانطلاقه

وقوة التمليل العملى وقدرته ، وخير المصلحين من جمع بين فلسفة الفكر وفلسفة العمل والتجربة

— رائع هذا يا ولدى ولكنى أميل إلى جمل التعليل الروحى شديد الصلة بالشعر وسائر أنواع الفنون كالرسم والنحت والموسيقى، فما سمعت مرة قطعة موسيقية روحية إلا وأحسست بأنغام سماوية تكاد ترتفع بى من عالم الأرض إلى عالم السماء ، وتطهرنى من معانى التراب الحقيرة ، وتكسونى معانى الروح التي لا تعرف الحدود ...

ويا سحر الشعر الروحى الوجدانى ... يا سحره !

استمع إلى المعانى كيف تنطق وكيف تتراقص من سحر الفن ونور الروح وشفافية الوجدان ! تأمل الألوان النفسية الساحرة تسطع من أزاهير قول الشريف الرضى :

أينعت بيننا المودة حتى ... جللتنا والزهر بالأوراق
نحن غصنان ضمنا عاطف الوجد ... جميعاً فى الحب ضم النطاق
فى جبين الزمان منك ومنى ... غمرة كوكبية الائتلاق !

وتأمل قول القائل وقد فاض به الوجد :

أيامنا جدول والحب زورقنا ... هيهات يحفل بالأمواج ترتطم !
لا يدرك القلب ماضينا وحاضرنا ... وفى نعيم الهوى أيامنا عدم
نعيش فى عالم ألوانه حلم ... فى شارد من خيال الفن ترتسم
قد كان صفو الهوى دنيا منمقة ... وكان فى بهجتينا الحب يبتسم
ولى فيا لوعة ألقت بعاصفة ... على فؤاد ترامت حوله الظلم !

وانظر قول الشاعر :

حدثتنى الرياض عن لفتاتك ... وحكت لى النجوم عن لحاتك
وطيور الغدير بحث من الشدو (م) بلحن الجمال من صدحاتك
وسمعت الأمواج تهمس للشط (م) حديث الجنون عن قسماتك
وضمير الجمال جن من الوجد (م) وذاب الهوى على زهراتك
إذ كرينى يمد ضميرى للنور (م) ويحيي الفؤاد فى ذكرياتك !

ويا سحر قول الشاعر محمد عبد الخالق الجبار يصف الشباب :

أنغامه الأيام وقعها الهوى ... والصمت من أصدائها تغريد !
ملك على عرش المعانى جالس ... من حوله الساريات عبيد !
إطراقة التاريخ حول جبينه ... تكبيرة يجثو لها داود !!

محمود البشبيشى

النجوم تقرر مصير الحرب ...!

وقع فى يدنا تقويم قرى أخرجه السيد أمين الحسينى الفلكى فى بدء العام الهجرى الحاضر ، وقد وردت به نبوءات عن الحرب ، ويلاحظ القارىء أن كثيراً من هذه النبوءات قد صح

قال عن ألمانيا : أنه أمد حربها مع الديمقراطية سيطول وستزداد المعارك شدة ، ولكن الأفلاك تقول إن قوتها بدأت فى الانحطاط وأن هتلر لن يتمكن من تحقيق أمانيه فى حكم العالم وأنه سيسقط فى مستقبل الأيام هو وشعبه ، وإن بدا أنه سيظفر . فهناك شراك خطة ستكون السبب فى سقوطه وستحدث ثورات فى البلاد المحتلة . أما هتلر فسينقلب عليه أعضاء حزب النازى ويخونونه . وسيحاول فى الصيف أن يغزو الجزر البريطانية ولكنه سيفشل لأن خطوط مواصلاته ستقطع من البحر ولن يجد سبيلا للعودة وسيثور عليه أعداؤه من خلفه حتى يسقط وسيقتل فى حادثة وبقتله تخضع ألمانيا وتنهزم

وقال عن إيطاليا : أن زعيمها سيفقد أمبراطوريته الافريقية باستيلاء جيوش الحلفاء عليها وسيطلب مساعدة هتلر وقد يمده ببعض المساعدة ولكنها لن تؤدى إلى إنقاذ أمبراطوريته ، وستضعف إيطاليا نفسها ويغرق أسطولها فى معركة بحرية عظمى فى البحر الأبيض بعيداً عن السواحل وينتج عنها انهيار إيطاليا التام ، وسيرسل هتلر إلى إيطاليا جنوداً ومهمات حربية ويسيطر على إيطاليا ، ولكن لا يمر زمن طويل حتى تطرد ألمانيا من إيطاليا

وقال عن بريطانيا العظمى : أنها ستقضى على القوات الايطالية فى أفريقية وتحتل المستعمرات الايطالية كما تدل الأحوال الفلكية على أن القوات البريطانية ستحرز انتصارات أخرى فى الشرق الأوسط فى هذه السنة . وسيكون هناك انتصار بحرى عظيم فى البحر الأبيض . أما فى برقة فان القوات الألمانية ستقع فى شرك نصب لها بمهارة وستهزم شر هزيمة فى الصحراء . أما فى ألمانيا نفسها بعد فشل الغزو فسيحطم سلاح الطيران الملكى البريطانى المصانع الألمانية ويشل حركة الانتاج الحربى ويقطع خطوط المواصلات

وقال عن الولايات المتحدة : أنها ستدخل الحرب ضد ألمانيا سنة ١٩٤٢ وسيزداد العمل فيها هذا العام ويخصص جانب عظيم من إنتاجها الحربى والغذائى للدفاع عن الحرية الانسانية وستمد الدول الديمقراطية بالمال مساعدة لها فى نضالها

وقال عن تركيا : أنها ستطمئن فى هذه السنة لأن خوفها من روسيا سيزول وسيحاول هتلر أن يفسد التفاهم بين تركيا وبريطانيا ، وسيحاول أن يرغمها على الانضمام إلى المحور ولكنه سيفشل .

فما رأى القارىء فى مقدرة النجوم على التنبؤ ؟ وهل يكون ما قررته النجوم هو فعلا مصير الحرب ؟

مـــدن الحضارات
فى القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

— ٤ —

كانت حفلات الفاطميين فى القاهرة موصولة لا تنقطع العام كله . ولقد صورها المؤرخون المعاصرون صوراً تنقل إلينا حقائق كثيرة عنها ، ومن هؤلاء المؤرخين أبو محمد الحسن ابن زولاق مؤرخ المعز لدين الله وصاحب سيرته ، وابن الطوير الذى يأخذ المقريزى عنه كثيراً فى خططه ، والمسبحى صاحب التاريخ الكبير ، وابن عبد الظاهر وغيرهم .

وكانت القاهرة فى عهد الفواطم تزخر بالقصور الكثيرة والدور المختلفة . ومن القصور التى ورد ذكرها فى كتب الخطط : القصران الكبير والصغير ، والقصر اليافعى ، وقصر الذهب ، وقصر الأقيال ، وقصر الظفر ، وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد ، وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وقصر البحر

ومن الدور المشهورة عندهم دار الضيافة ودار الوزارة ودار الضرب ودار الذهب ودار الملك

ومن المناظر التى كثرت فى عهدهم منظرة اللؤلؤة . وكانت تقع على الخليج ، ومنظرة الغزالة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة السكرة .

والقصر الكبير يسمى المعزى نسبة إلى المعز لأنه هو الذى أمر جوهراً ببنائه حينما زايل مع عسكره شمالى أفريقية إلى مصر . ويقول المقريزى إن هذا القصر من ترتيب المعز ورسمه ، وإن جوهراً لم يكن فى البناء والتعمير إلا منفذاً لتصميم مولاه . ويجد القارئ وصف هذا القصر وصفاً تفصيلياً فى الخطط مما ليس هذا موضع الإفاضة فيه . إلا أن شيئاً واحداً يطيب ذكره فى هذا الموضع ، وهو مد السماط فى شهر رمضان ، وكيف كان يجتمع فيه قاضى القضاة والوزير والأمراء يأكلون الطعام الهنئ ويشربون الشراب المرئ ويقدم إليهم الماء المبخر فى كيزان الخزف .

وكان لعيد الفطر مثل هذا السماط ومثله فى عيد النحر ، وكانت القاهرة المعزية تشهد هذه الحفلات فى فرح عظيم

ولا نجد أحلى فى هذا المقام من تدوين أبيات من القصيدة التى رثى بها عُمارة اليمنى الدولة الفاطمية ، وودع مكارمها وأيامها وحفلاتها وعاداتها ، وشيَّع فيها السنن الجميلة التى استنوها لإحياء عيد أو إقامة شعيرة أو توديع جيش أو فتح خليج ، فقال :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم على طلل

وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جديد عنهم وبلى

وموسم كان فى كسر الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل

وأول العام والعيدان كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل

والأرض تهتز فى عيد الغدير بما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل

والخيل تعرض فى وشى وفى شية
مثل العرائس فى حلى وفى حلل

ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ
أطباق إلا على الأعناق والعجل

وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل

وللجوامع من أحباسكم نعم
لمن تصدر فى علم وفى عمل

والقصيدة تجرى كلها على هذا النسق من حسن السبك وجودة التصوير وصدق العاطفة وأثر الفجيعة والإحساس الأليم

ويذكر المقريزى أنه بسبب هذه القصيدة قتل عمارة وتمحلت عليه الذنوب

لم يكن التصوير الفوتوغرافى قد ظهر فى ذلك العهد ولو كان ذلك لبقيت لنا لوحات ومناظر تغنى عن وصف القلم الذى كثيراً ما يوجز فيجنح إلى الإخلال أو يطيل فيميل إلى المبالغة والإغراق

ولو كان الرسم متقدماً فى ذلك العهد ، لسلمت لنا لوحات مصرية صادقة كتلك التى يصنعها الرسامون المعاصرون أمثال : محمود بك سعيد ، وأحمد بك راسم ، وصبرى ، وعياد ، وصباغ ، وهلبرت التشيكوسلوفاكى المتمصر وغيرهم ممن يسجلون الحياة المصرية المعاصرة فى لوحات ستبقى خالدة تمثل الفن من ناحية وتسجل تاريخ الخطط المصرية من ناحية أخرى

ولقد زار القاهرة فى القرن الثامن الهجرى الرحالة ابن بطوطة صاحب الرحلة المشهورة ، وكان سلطان مصر على عهد دخوله إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحى . وقد أثنى ابن بطوطة على الملك الناصر فى خلال كتابه ثناء عظيما ووصفه بأنه : « صاحب السيرة الكريمة والفضائل العظيمة » .

ولقى ابن بطوطة فى القاهرة جماعة من الأمراء والفضلاء ذكرهم فى رحلته ، ووصف فى خلال ذلك مجلس القاضى فخر الدين (وكان قبطياً ثم أسلم) ، وكيف كانت تقضى عنده الحوائج ، وتدرك لديه المطالب

وقد ترك لنا ابن بطوطة فى رحلته وصفاً مختصراً ممتعاً ليوم المحمل فى القاهرة ، وهو يرينا صورة لما كان يجرى فى هذه العاصمة القديمة فى عصر المماليك الذى جاء بعد عصر الفواطم .

وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً ، يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب ، ومعهم الفقهاء والرؤساء وأصحاب السلطان وأرباب الدولة وأهل الوجاهة ، ويقصدون باب القلعة دار الملك الناصر (سلطان مصر فى عهد المؤرخ) ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه أمير الحج المعين لمرافقة المحمل فى تلك السنة ومع الأمير عسكره وأتباعه والسقاءون على جمالهم ، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل فى أنحاء القاهرة ومصر وأمامهم المنشدون ينشدون والحداة يحدون ... وعندئذ ينبعث فى قلوب الناظرين شوق إلى الحج وتهييج عزماتهم وتتحرك بواعثهم لقضاء الفريضة الموقوتة والعبادة المكتوبة .

ومن دواعى الأسف أن ابن بطوطة لم يترك لقلمه العنان فى وصف القاهرة وما كانت عليه يوم وفوده عليها ، وإنما اكتفى من ذلك بالنظرة العابرة ، واللحظة الخاطفة ، ولو قد فعل لترك لنا وصفاً طويلاً وصورة جميلة لنواح كثيرة من القاهرة كأسواقها ودورها وقصورها وجوامعها ومحافلها ، ومساجدها ومدارسها ، وشوارعها وحواريها ، وقناطرها وجسورها ، ولعل الناحية التخطيطية لم تكن تمنيه كما عنت المقريزى وعلى باشا مبارك من بعده .

أما ابن إياس صاحب التاريخ المشهور ومؤرخ مصر الإسلامية فى آخر عصر المماليك وأول العصر التركى فقد وصف القاهرة فى عصره وصفاً لا يخلو من فائدة

ومن الحفلات التى وصفها ابن إياس فى كتابه المشهور حفلة المولد النبوى الشريف فهو يذكر أن السلطان الغورى أقام الخيمة العظيمة التى صنعها الأشرف قايتباى — وبلغت تكاليفها ستة وثلاثين ألف دينار — وقد صنعت من قماش مختلف الألوان واشترك فى نصبها بالحوش ثلثمائة رجل من النواتية ، ونصبت خارج الخيمة أحواض من الجلد قد ملئت ماء مسكراً ، وجلس السلطان فى الخيمة وحوله الأتابكى (رئيس الجند) والأمراء المقدمون والقضاة الأربعة والوجهاء من أهل القاهرة والقراء والعلماء ومد السماط الحافل بكل هنىء مرىء

وفى أيام نيابة طومان باى عن الغورى ، احتفل بوفاء النيل وكسر السد . فنزل الأمير لهذه الغاية فى سفينة كبيرة ، وتوجه إلى المقياس وعاين زيادة النيل وقدرها ، وتم الاحتفال فى سرور عاد بعده الأمير إلى مقره فى موكب حافل عظيم

وتذكرنا حوادث إخلاء المناطق الخطرة فى الإسكندرية اليوم بسبب الغارات الطائشة عليها ، بحادث إخلاء حىّ (بركة الرطلى) من سكانه ، والفرق بين الحادثين كبير ، إلا أن النتيجة كانت واحدة وهى وحشة كل من الحيين وفرار الناس عنهما .

ولم يذكر ابن أياس السبب الذى حدا بالأمير (طومان باى) إلى تحريم السكن فى بركة الرطلى والسطاحى ، ولا لماذا تشدد الأمير فى إخلاء هذين الحيين حتى صارا موحشين ، وغـدَوا بلقعين لا يسكن إليهما ساكن ، ولا يطمئن إليها ناظر ، ولا تتحرك

فيها من الأنس نسائم . ولقد خسر بذلك أصحاب الدور أموالاً كثيرة ، وأصبحت بيوتهم خاوية خالية . ولقد صوّر الشيخ بدر الزيتونى هذه الصورة الموحشة فى شعر يقول فيه :

وأضحت بيوت الجسر خاليـة فلا
لصاحبها سكنى ولا واحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصـور خواليًا
فيا وحشة السكان من كل ذى قصر
على ركة الرطلى نوحوا وعـددوا
لما حل فيها من نكال ومن خسر
رعى الله أياماً تقضت بطيبها ونحن بمصر فى أمان وفى بشر
وكان الدوادار الكبير هو الذى أشار بهذا المنع بالنهى والأمر

وغفر الله لهـذا الشاعر فشعره أصدق صورة لما وصل إليه الشعر العربى فى عصر المماليك من ركة وسخف وضعف

على أنه يؤخذ على ابن أياس أيضاً — كما أخذ على غيره من المؤرخين — أنه لم يتعرض لوصف القاهرة فى عهده فى تفصيل . ولعله كان مثل الـكثيرين من المؤرخين لا يهتم إلا بالناحية السياسية أو العسكرية من تاريخه . أما ناحية الوصف والتخطيط فقد تركها لغيره ممن يهتمون بأمثال هذه المباحث . ولكن لسوء الحظ لا نعلم فيما بين أيدينا من مراجع وصفاً للقاهرة فى عهد ابن أياس . ولو قد تأخر الزمن بالمقريزى حتى شاهد مصر العثمانية لـكان لنا من مادته فى الخطط فيض غزير

* * *

وندخل القاهرة بعد ذلك فى دور جديد ، وتودع عهد المماليك لتستقبل عهد الأتراك . ويظهر أن هؤلاء خربوا كثيراً من معالمها ، وليس لدى الآن وأنا أكتب هذه الـكلمة نص تاريخى قاطع للتدليل على ما أقول ؛ ولـكن بيتين للشاعر بدر الدين الزيتونى المعاصر للفتح العثمانى يشتم القارئ منهما رائحة التخريب والذبول فيما كان قائماً فيها من آثار

وقد يكون الشاعر بدر الدين الزيتونى جنح إلى المبالغـة فى بيتيه كما يصنع الشعراء غالباً فى أكثر ما يصفون . إلا أنه كلام يلقى ظلاً من الحق على ما نذهب إليه فهو يقول :

نبكى على مصر وسكانهـا قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هى القاهرة

فقوله خربت أركانها العامرة لم يكن ضرورة من ضرورات القافية التجأ إليها ، ولكن يلوح لنا أنه كلام فيه من الحق كثير

وإذا كان العصر التركى قد اتسم بالغموض فى كثير من حوادثه ، إلا أن بعض المؤرخين من المصريين وبعض الرحالين من الأجانب قد وصفوا مصر فى هذه الفترة الطويلة المظلمة . وابن إياس والجبرتى مرجعان مهمان لذلك العصر

وممن زار القاهرة فى ذلك العصر القس (رينشارد بوكوك) فى سنة ١٧٣٧ م وترك كتابه الضخم « وصف الشرق وبلاد أخرى » . وكتب قبله (دى ماييه) قنصل فرنسا فى مصر كتاباً عن أحوال مصر فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر الميلادى

أما القاهرة فى عهد محمد على فقد وصفها المستشرق (لاين) فى أحد كتابيه المشهورين ، ووصف آداب أهلها وعاداتهم ولباسهم وطعامهم وشرابهم وبعض أغانيهم التى كان يقرؤها علينا تحت ظلال شجرة الـكافور على نيل المنصورة قارئ أديب فيستمع إليها الأستاذان الجليلان : أحمد حسن الزيات والشيخ محمود زناتى وكاتب هذه الـكلمات فى لذة ومتاع عقلى عظيم

(الحديث موصول) محمد عبد الغنى حسن

ذكرى قاص عراقي

للسيدة الفاضلة وداد سكاكيني

في الأدب آلام وفيه هموم وأشجان، ولقد تكون صفحاته السود مطوية منسية، حتى تنشرها الذكرى ويبعثها الحنين. من هذه الذكريات ما يهيج في نفسي كلما اطلعت على مقال يصور أدب العراق واتجاهه الحديث؛ ففي تلك الصفحات التي طواها الزمان ولفها النسيان، ذكرى قاص عراقي كان له أثر محمود في تجديد الأدب وبعث القصة على ضفاف دجلة حيث فتحت عينيها «ألف ليلة وليلة» أسطورة الشرق وسحر بغداد

منذ أعوام قريبة أخذت طلائع البعث والتحرر في العراق الجديد تنبثق من أرجائه الراقية وأجوائه الطامحة؛ هنالك ازدهرت معاهد الثقافة، وراجت أسواق الأدب؛ فرأينا بين الرافدين وفي بلد الرشيد والمأمون، كتاباً يعالجون فن القصة أسوة بأدباء العرب المحدثين الذين توفروا أيامنا على هذا اللون الطريف في آدابنا، وكأن النهضة العلمية التي تجددت في ذلك القطر الشقيق، وتمازج الثقافات في آفاقه التليدة، ووقوف أولئك الكتاب على عناية أدباء الغرب بالفن القصصي دون غيره من فنون الأدب؛ كل ذلك حفز الشباب العراقي المثقف وحملة الأقلام الموهوبين منهم إلى إنشاء القصص والاستمتاع بما اشتملت عليه من دقة وصف وعمق تحليل وصدق تصوير؛ وكان ممن أدلى دلوه يومئذ في هذه الينابيع الثرارة أديب مطبوع هو المرحوم محمود أحمد السيد الذي يعرفه قراء الرسالة بما نشر فيها من آثاره، فقد كتب قصصاً عراقية الميسم، منوعة الألوان كانت مرآة لبلاده في عهد أحداثها الجسام، وكان كتابه «في ساع من الزمن» آخر أثر جاء به هذا القاص قبل أن يجود بنفسه الأخير؛ فلما نشر هذا الكتاب طلب إلى أن أنقده على صفحات (الحديث) الحلبية، فأقدمت على تلبيته خالصة النية للأدب، مظهرة محاسن الكتاب مشيرة إلى ما فيه من هنات؛ ولكني لم ألبث أن دعوت على قلمي الذي كان عفاً عنيفاً بنقده، إذ علمت أن ذلك القاص البغدادي عز عليه ما كتبت وآذته صراحتي فصد عنها، ورد على بما لمست منه أنه تحمل نقدي لقصصه على مضض، فخسرت رضاه

وأدى الأمر بيننا إلى مناقرة فاشلة وجدل عقيم. وليس ما وقع بيننا بمجيب، فنحن قوم لم نتعود أن نتقبل النقد النزيه بقبول حسن، وأن نعبأ بمقالاته وفائدته وما يؤول إليه الأثر المنقود. وحسبك برهاناً أن ترى الناس في شرقنا اصطلحوا في شئون النقد على المصانعة والرياء، وأمعنوا في التحيز والمداراة، فلا نقد عندنا يمحص الحقائق، ولا مساجلات تورث الأفكار والآراء

من أجل ذلك غاب عنا النقد الحر الصريح، ولم يتزحزح أدبنا عن التقليد والترديد إلا قليلاً. وأحسب أن نقادنا الأكفاء الذين كفوا أقلامهم عن الخوض في هذا السبيل إيثاراً للمودة والسلامة قد أساءوا شر مساءة، فلولا صمتهم وزهادتهم في النقد لما تجرأ الأدعياء والطفيليون على كبار الأدباء لينهشوا الأشخاص دون الآثار وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأن إسفافهم هذا من أصول النقد الحديث

إننا قوم لم نتعود أن نحق الحق ونزهق الباطل، وإنما درجنا على أن نماري مراء ظاهراً. وكثيراً ما جر نقد الأدب في كل بلاد العرب إلى خصومة وتنابذ فرقا بين الأصحاب وأوغرا الصدور بالأحقاد. ولقد كان بيني وبين شاعرة مصرية معاصرة آصرة أدب وولاء، فلما نقدت ديوانها إجابة لسؤلها، قطعت عني رسائلها اللطاف، فأسفت لما وقع، ولكن قلمي يؤوب ولا يتوب

ما لي ولهذا الاسترسال في قول كاد يلهيني عن «ذكرى قاص عراقي» كانت له مشاركة في توجيه الأدب الحديث في العراق. وأنا بعد أن كادت ترم تجالهد هذا القاص في ثراها، ووالله ما أدري، أعلى ضفاف النيل حيث ذهب يستطب ويستشفي [1]، أم على ضفاف دجلة وفي ظلال النخيل حيث رأى النور، أبعث ذكراه وأدعو أهله وقومه إلى تمجيده وتخليده، والكشف عما في آثاره من جوهر دفين؟

* * *

كان رحمه الله يرى كتابيه: «الطلائع»، «جلال خالد» تجربة ضئيلة في مضمار الأدب الجديد في بلاده، بل محاولات أولى في فن القصة الذي كان يتمنى على الزمان أن يقيض له التفرغ لأصوله والبراعة فيه. وقد أهدى مؤلفيه إلى فتية العراق،

(١) دفن المرحوم محمود أحمد السيد في مقبرة القاهرة حيث توفي (الرسالة)

إلى أشباله الأباة الذين كان يرى فى وثباتهم تحقيق الآمال .

أما رواياته وأقاصيصه فقد لقيت الثناء والتقدير من أدباء العرب كالأساتذة : أحمد حسن الزيات وأحمد أمين ومحمود تيمور وسامى الكيالى ، وغيرهم ؛ ومن بعض المستشرقين أمثال : كراتشكوفسكى و ب . جوزى و ﻫ . ركب و ر . ك طومسن صاحب مجلة العراق فى أكسفورد ، وكنت من أصدق قرائه وأصحابه إعجاباً بها وتنويهاً بطرافتها وروعتها

وكانت مقالاته وبحوثه تتسم بالرأى السديد والأسلوب المبين ويفيض على جنباتها شعور صادق ولمحات شتى تشير إلى مثل الحياة العليا التى يريدها لقومه وبلاده . ولو لم يدركه الموت فى عنفوان شبابه لترك للأدب ميراثاً خصيباً لا تبلى جدته . وحسبه فضلاً أنه ساهم فى فن القصة العراقية قبل أن يشيع هذا الفن فى سورية ولبنان ، وسعى مع أنداده أنصار المدرسة الحديثة إلى تعزيز الحياة الأدبية فى بغداد ، وكتب خواطر وفصولاً فى النقد والاجتماع ، وترجم عن التركية التى أتقنها قصصاً نشر بعضها ورجا أن يجمعها فى سفر مطبوع . على أن أكثر ما كتب هذا القاص مبعثر فى تضاعيف الصحف والمجلات العربية فى مصر والشام والعراق فحبذا لو يتسنى جمع شواردها فى كتاب

ما أشقى حظ الأديب من أهل دنياه ! ففى غابر العصور كان يقول ابن الرومى : لهفى على الدنيا ... ورهن المحبسين كان يولول من أم دفر ، وهكذا فى جديد الدهر يموت الأديب فيتحمس الناس بجانم نبوغه بعد مماته ويهبون لتمجيد ذكراه . وما أحراهم لو فعلوا ذلك فى حياته فقدروه قدره وكرّموه بما كان يزيده بسطة فى أدبه وتحليقاً بفنه . وقد يكون بين عاثرى الجدود من الأدباء من لا يأبه لفقده عارفوه ، كالذى وقع للأديب العراقى محمود السيد ، إذ لم أعرف صحيفة أدبية فى بلادنا عددت مآثره إلا مجلة (الرسالة) فى مصر ، فقد نعته لقرائها ورثته بكلمة وجيزة . وكان المرتجى من صاحب (الحديث) فى حلب وهو الوفى لإخوانه الأدباء أن يختصه بمقالة على الأقل فى مجلته التى سكب للفقيد كثيراً من المداد على بحوثه وقصصه فيها

فيا أسف الآداب والشباب لفقدهما هذا المصاب الذى حل باكورة القصة فى مرابع الرشيد ! ويا فتية العراق المناجيد ، ويا صحبه الأكرمين ، من أولى منكم بإثارة ذكراه ، وأنتم الذين أحبكم وأهدى إليكم ما خطت يراعته قبل أن تنغمض عيناه ؟

لم يكن محمود أحمد السيد مغمور الصيت ولا مجهولاً لدى قراء العرب ، وإنما عاش كأزاهير الليمون فى الربيع تنشق أكمامها عن الحياة ويفوح منها الأريج ، ثم لا تلبث أن تذوى وتتساقط تاركة فى الأفانين ثمراً مختلفاً ألوانه طيباً مذاقه

هكذا أفل شباب هذا القاص البغدادى الذى حرم دنيا تضيّفها تاركاً آثاره التى تشف عن أدب نضير مطبوع بمياسم العراق

(دمشق) وداد سكاكينى

الزاد الأخير

للأستاذ سيد قطب

زوّدينى من الرجاء الأصيلِ   مُشرِقاً فيكِ فى المحيّا الجميلِ
أنت كنزٌ من الطلاقةِ والبشـ   ـرِ ودنيا من السَّنى المعسول
خِفّةُ الطير وانطلاقُ الأمانى   بعضُ مافيكِ واندفاقُ السّيول
وهجٌ يبهر النفوسَ ويُذكِى   خفقاتِ القلوب عند المثول
ذخرَتْكِ الحياةُ كنزَ حياةٍ   ورصيدًا لمالها المبـذول !

* * *

زوّدينى لَـكادَ ينفدُ زادى   فى صراعٍ مع الحياة طويلِ
كاد يخبو المصباحُ إلا بصيصاً   فاسكبى الزيتَ فى بقايا الفَتيلِ
كنتُ كالجذوةِ المشعّة نورًا   وهى اليوم فى طريقِ الأفول
فيكِ زاد يقُوتُنا ويَقِينا   عثراتِ الطريق بين التّلول
أنتِ لا غيرُكِ القديرة أن تُذْ   كِى حياة بخاطرى وميولى

* * *

حين ألقاكِ يغمرُ البشْرُ نفسى   برجاء مُشَعْشَعٍ موصـولِ
وأرى عبئِىَ الثقيلَ خفيفاً   وأرى ناهضاً بعبئى الثقيل
وكأنى استشعرتُ رَوْحَ شبابى   وَرَجَعْتُ الزمانَ صعبَ القفول
فأعيدى إلىّ ماضِىَ عمرى   واغمريه بالبشر والتّأميـل
واطلعى فى قفار نفسى حياةً   وإذا ما دَجا عالَمِى أوْمِضي لِى

(حلوان)   سيد قطب

مدينة بلا نساء . . .

الإسكندرية والهجرة

للأستاذ عبد اللطيف النشار

يا بلدة أمست بلا نساء   منبوذة من رحمة السماء
أين التفات الأم للأبناء   أندي على القلب من الأنداء
حنوّ حان بيْن الوفاء   ورقة فى غير ما رياء ؟
أين ابتسامات على استحياء   وأخريات جمّة السخاء
والواعدات دونَ ما وفاء   يخلطن مُرّ اليأس بالرجاء
مختلفات الخلق والأزياء   لـكل مرئىّ فتون راء
ودانيات وهنّ ناء   أبعد فى القرب من السماء
بواعث الحسرة والعزاء   وخالقات الهمة الشماء
وجالبات الشرّ والشحناء   خلوت يا ثغر من النساء
فما الذى فيك من السراء   وما الذى فيك من الضراء
لا صوت يغرى السمع بالاصغاء   ما صبر أيوب على البلاء
كصبر أهل البلدة البيضاء   يا لكِ من تسمية هوجاء
لون ثياب الحزن للآباء   نحن بنى الأندلس الفيحاء
نشهـد ما قدّر للأبناء   وراثة عن سالف الآباء
صدقت يا سخرية القضاء   قد صُبّحت بغارة شعواء
وغارة تأتى مع المسـاء   وفى أذي الهجرة من أرزاء
فوق الذى نشهد من بأساء   هل عودة لعهدها الوضّاء
يوم ينار النور فى الأجواء   يوم يشيع الأنس فى الأرجاء
يا بلدة المنارة الزهراء   ومضرب الأمثال باللألاء
حتام إسراؤك فى الظلماء ؟   رحماك بى يا خالق السماء !

عبد اللطيف النشار



١ — لابن المقفع لا للخليل

صوب الأستاذ بدارى اعتماداً على رواية الجاحظ نسبة هذه الجملة إلى ابن المقفع : « الذى أرضاه لا يجيئنى ، والذى يجيئنى لا أرضاه » يعنى الشعر . وكان الأستاذ الكبير العقاد نسبها إلى الخليل فى بعض مقالاته

وأقول : إن ذلك لا يمنع من صحة نسبتها للخليل مع تغاير فى الألفاظ . جاء فى الجزء الثالث من العقد : قيل للخليل : مالك لا تقول الشعر ؟ قال : « الذى أريده لا أجده ، والذى أجده منه لا أريده » فالمعنى والصياغة متحدان فى الجملتين ، ولعل الاختلاف فى اللفظ راجع إلى تصرف النقلة : وأروِى الأصمعى قوله فى هذا المعنى : « يأبانى جيدُه وآبى رديئه »

وقد رأى الأستاذ بدارى أن الذوق الأدبى يرجح صدور هذه الجملة عن ابن المقفع لا عن الخليل ، لأن الأول أديب كبير وكاتب عظيم ، والثانى إمام لغوى نحوى . وعندى أن هذه العلة التى ساقها الأستاذ حجة عليه لا له

ذلك أن هذه الجملة وما شابهها وردت للتدليل على شيئين :

أولهما : أن ترديد النظر فى الشعر والرواية له والإكثار من حفظه ، لا تكفى وحدها لخلق الشاعر ، بل لا بد له قبل ذلك من الملكة الموهوبة والطبيعة المواتية . قال ابن عبد ربه : كان الخليل ابن أحمد أروى الناس للشعر ولا يقول بيتاً ، وكذلك الأصمعى

وثانيهما : أن قرض الشعر والنفوذ إلى أسراره والتفطن لمواضع الجمال فيه ، لا يُنال بحفظ متن اللغة ودراسة العروض والقوافى وعلوم البلاغة . قال ابن رشيق فى العمدة : إن أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته : من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم درجات فكيف إذا قاربوهم أو كانوا منهم بسبب . قيل للمفضل الضبى : لم لا تقول الشعر وأنت أعلم به ؟ قال : علمى به هو الذى يمنعنى من قوله ؟

وأنشد :

وقد يقرض الشعر البكئُ لسانه ... وتعيى القوافى المرء وهو أديب

وقال الأصمعى :

أبى الشعر إلا أن يفىء رديئه ... على ، ويأبى منه ما كان محكما

فياليتنى إذ لم أجد حوك وشيه ... ولم أك من فرسانه كنت مفحما

وفى ديوان الصبابة : أن ابن دقيق العيد قال لابن سيد الناس : قل لعلماء المعانى والبيان والبديع : أتحسنون أن تقولوا مثل قول المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى ... وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فإن قالوا لك : لا . فقل : أى فائدة فيما تصنعون . (يريد : أن العمل غير العلم)

فواضح أن الغرض من الجملة السابقة المنسوبة للخليل أو ابن المقفع : بيان أن الشعر لا يملك بالرواية ودراسة العلوم وجمع اللغة ، وإلا لكان الأصمعى والمفضل وأضرابهما أشعر خلق الله ! بل لما كان أحد أولى من الخليل بالشعر وهو واضع العروض نظام الشعر وسلك القافية ! ونسبتها إلى الخليل أولى من نسبتها إلى ابن المقفع حتى تقوم الحجة على أن اللغة والنحو والصرف والعروض وسائر العلوم اللسانية وما يتصل بها — وهى من سمات الخليل البارزة — لا تجعل غير الشاعر شاعراً . وأما ابن المقفع فكان أديباً كاتباً كما قال الأستاذ ، لا راوية ولا عالماً بالمعنى الاصطلاحى ، فالتمثيل به فى هذا السبيل لا يكون ظاهراً ظهوره فى الخليل ، لأن الكتابة والشعر يفيضان من نبع واحد ، والعلم شىء وراء ذلك

وإذا صح ورود هذه الكلمة عن ابن المقفع فلا يفهم منها أنه لا يحسن قول الشعر ، فالحق أن له شعراً جيداً — وإن كان قليلاً — ومعروف أن مقطعات الكتاب أرق وأعذب من شعر الشعراء الخلص ، ولكن المراد أن الشعر لا يواتيه كما يواتيه النثر ، فقصر همه على ما هو أجدى عليه .

٢ — النحو فى الكلام كالملح فى الطعام

وردت هذه الحكمة بلفظها فى كتب كثيرة ، والغرض منها مشابهة النحو للملح فى الإصلاح ، وهو معنى ناصع لا غبار

عليه، وقد تماله الناس وتلقوه بالتسليم والقبول خلفاً عن سلف، حتى لقد بلغ من ذيوعه أن العامة فى الصعيد يسمون اللح: (المصلح) فلا داعى لأن ينكره الأديب الشرباصى أو يخطئه.

وأما الرواية الأخرى: المزل فى الكلام كاللح فى الطعام فلا بأس بها، وورودها لا يفيد عدم ورود الأولى، ويكون وجه الشبه هنا القلة لا التحسين والتمليح كما ذهب إليه الأستاذ البدارى

وقد نظم أحد الشعراء هذه الحكمة على الرواية الثانية مع وضع المزح موضع المزل، فجاء اللفظ أرق وأعف. قال:

أفد طبعك المكدود بالجد راحة
يجم، وعلله بشىء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن
بمقدار ما يعطى الطعام من اللح

على الجندى

نظرات بين المجلات

١ — روى الأستاذ الكريم الدكتور عبد الوهاب عزام فى العدد ٤١٨ من الرسالة فى أثناء دراسته الحافلة بجليل الفوائد عن الشاعر الأبيوردى — روى البيت التالى هكذا:

وقد أخلق الفضل بالعراق وفى فارس لما اضمحلت الرتب

والبيت على هذه الرواية غير موزون ولا يستقيم إلا بإحدى اثنتين: إما أن تحذف الواو التى فى أوله فيصير هكذا:

قد أخلق الفضل ... الخ، وإما أن تحذف كلمة (قد) وتبقى الواو التى قبلها ويصبح البيت هكذا:

وأخلق الفضل بالعراق وفى فارس لما اضمحلت الرتب

٢ — يقول الدكتور الفاضل زكى مبارك فى العدد ٤١٨ من الرسالة (لقد بحّ صوتى فى الدعوة إلى اعتراف الدولة بالقيم الأدبية) ويضبط الفعل بُح بضمة على الباء، والذى أعرفه عن هذا الفعل أن الواجب لغة أن يقال بَحّ صوتُه بفتح الباء كما نص على ذلك الفيروزابادى والجوهرى وأبو بكر الرازي فى مختاره، وقد يعتذر الدكتور كعادته بالذوق فى المسائل اللغوية، وهو عذر لو أخذنا به على علاّته لا تسع فى اللغة باب الفوضى. على أن فى الفعل بَح بفتح الباء لطفاً ورقة لا يوجدان فى حالة الضم التى لا نعرف — على قدر ما نعلم — ما يؤيدها فى اللغة

٣ — فى العدد ١٣٠ من الثقافة الغراء دراسة أدبية طيبة، والدارس الأستاذ جمال الدين الشيال والمدروس الشاعر الشاب تاج الملوك بورى بن الملك الصالح نجم الدين الأيوبى والشعر الذى جاء فى خلال هذه الدراسة كله كريم صحيح، إلا بيتاً واحداً ذكره الأستاذ هكذا:

هذه المعجزات ليست لظبى إنما هذه فعال (عيسى) المسيح

وكلمة عيسى زائدة فى البيت

٤ — مقالات العالم الفاضل الدكتور على عبد الواحد وافى «فى الاجتماع اللغوى»: تدل على تمكن فى البحث وتوفر على الدرس، وفيها غذاء علمى كبير، وهى فوق ذلك لا ترهق القارئ ولا تملّه ... وحبذا لو أطال الكلام على اللهجات التى تفرعت من العربية، وذكر المستشرقين الذين ألفوا كتباً فى قواعد العامية، فذلك موضوع على اتساعه لا يضيق به علم الأستاذ الكبير.

محمد عبد الغنى حسن

عبد القادر حمزة وفوميته بحثه وراء الحقيقة

أرجو — بعد التحية — أن تأذنوا لى فى تصويب واقعة أخطأت فى تحديد زمنها؛ إذ قلت فى مقالى الذى تفضلت «الرسالة» الغراء بنشره بعددها الفائت: «إن أهل الرأى فى مصر احتفلوا «بتأبين الفقيد من أيام»، وأن أسرة الفقيد تحتفل فى الرابع عشر من هذا الشهر بإحياء ليلة الأربعين، وإنى (أحب بدورى أن أختار هاتين اللامعتين ـ التأبين والأربعين ـ لأثير ناحية من أدب الفقيد)»

ووجه الخطأ واضح فى قولى إن أهل الرأى «احتفلوا بتأبين الفقيد من أيام»، ومرد هذا الخطأ إلى أن لجنة الاحتفال كانت قد أزمعت إقامته فى يوم الخميس (١٠ يولية)؛ ثم عادت فحددت له يوم الخميس (١٧ يولية)، ولما كنت قد كتبت مقالى قبل الخميس الأسبق وكان عدد «الرسالة» يصدر بعده، فقد وقعت فى هذا الخطأ الذى لا بد أن يكون قراء «الرسالة» قد فطنوا إليه من تلقاء أنفسهم



ثمن السعادة

للأستاذ نجيب محفوظ

دخل الأستاذ الحجرة التي قاده إليها الخادم فلم يلق تلميذه الصغير في انتظاره كمألوف عادته ، فجلس على كرسيه يقلب عينيه في الصور المعلقة على حيطان الحجرة ، وكانت المرة الأولى التي ينتظر فيهـا تلميذه منذ جئ به ليدرس له لعشرة أيام خلت ، وأوشك أن يدعو الخادم حين سمع وقع أقدام خفيفة ورأى الغلام مقبلاً عليه يتأبط كتبه وكراسته ، فحدجه بنظرة تمنيف ولـكن راعه أن يرى عينيه محمرتين من البكاء وذقنه الصغير يرتعش من التأثر فسأله باهتمام : « مالك ؟ »

وكأن السؤال أثار مكظوم شجون الغلام فاندفعت الدموع إلى مآقيه وقال وهو ينتحب :

— تيزة ... ضربتني . وتشاجرت مع بابا ومازالا يتشاجران

فسأله باقتضاب : « من تيزة هذه ؟ »

« امرأة بابا »

فدلته هاتان الكلمتان على معان كثيرة بغير حاجة إلى مزيد من السؤال . على أن الغلام تطوع من نفسه فسرد قصته الصغيرة الحزينة على مدرسه . قال : إن والدته ماتت لمهد ولادته وأن أباه تزوج من تيزة بعد ذلك بعام أو عامين ، وأنه يعيش بمفرده تحت رعايتها بعد أن تزوج أخواته الأربع في الأعوام الثمانية التي أعقبت وفاة الأم ، وأن أسباب الخلاف لا تنتهي بين تيزة وأبيه ، فلن يزالا يصطدمان ويشتجران ، وأقسم أن الحق دائماً مع أبيه ، وأنه لا يشتبك معها حتى يضطر إلى ذلك اضطراراً ، ثم لا يلبث أن يكف عنها يائساً قانطاً ، فلا تسكت هي عن الغضب والحنق والسباب . وأصغى المدرس إلى تلميذه بغير اهتمام ظاهر ، وواساه بكلمة تافهة ، ثم تناول الـكراسة وبدأ عمله ، ولم يطرقا الحديث مرة أخرى ولا عادا إليه فيما أعقب ذلك من الأيام ، حتى كانت ساعة درس فاقتحمت عليهما الغرفة بغير استئذان شابة حسناء في ريعان الشباب ، فوضع الأستاذ الـكتاب على المـكتب وقام واقفاً في تأدب واحترام وألقى على الزائرة نظرة حيية ، فراعه ما رأى — لا من حسنها وشبابها فحسب — ولـكن من انطلاقها على سجيتها وعدم تكلفها ، الأمر الذي أخرجها — بغير قصد طبعاً — عن الاحتشام ، فـكانت ترتدي (روب دي شامبر) من نسج رقيق يكشف عن ذراعيها ونصفي ساقيها وأعلى الصدر ، وكان الأستاذ يظن أنه لا يجوز لشابة أن تبدو هكذا لعيني رجل غريب ، ولذلك غلبه الارتباك والاستحياء ، وحدس أنها إحدى أخوات تلميذه المتزوجات ، وتأكد حدسه حين رآها تمد يدها في رفق إلى ذقن توتو تداعبه ، ثم جلست باطمئنان تجاه المدرس وهي تخاطبه قائلة : تفضل بالجلوس ... هل يعجبك عمل توتو ؟ فجلس أنيس وهو يقول : « توتو مجتهد ، وقد تقدم في هذين الأسبوعين في الأجرومية والمطالعة ، ولا ينقصه إلا المثابرة على حفظ الـكلمات »

فابتسمت ابتسامة حلوة وطلبت إليه أن يستمر في عمله ، فعلم أنها ترغب في أن تشهد درسه ، فلم ير بداً من متابعة الدرس متلعثماً رماً ، واختلس منها نظرة فوجدها تنظر إليه بإمعان ، فاعتقد أنها تتابع كلامه ، فوجه انتباهه إلى ما يقول ليخرج صحيحاً عذباً . وفي مرة أخرى وقع نظره على جيب الروب وقد انفرج عن أعلى الصدر فزاغ بصره وارتد في اضطراب وذهو

وإلى أن أكتب مقالي التالي الذي وعدت بكتابته أرجو — مرة أخرى — أن تأذنوا لي في تصويب أخطاء « مطبعية » وقعت في مقال الأسبوع الفائت نفسه

ففي السطر السادس من المقال جاء : « ومن الرابع عشر من هذا الشهر » والصواب : « وفي الرابع عشر ... » . وفي السطر السابع عشر من النهر الأول من صفحة ٩٠٤ جاء : « وفي الجمال الذي يحيط اللثام عنه ... » والصواب : « وفي الجمال الذي يحيط ... » . وفي السطر العشرين من النهر الثاني صفحة ٩٠٥ جاء : « على الصور التي انحاز بها ذهنه ... » والصواب : « على الصور التي انماز ... »

محمد السرادى

ولم تمكث الشابة طويلاً لحيته وانصرفت ، فشيعها بنظرة غريبة وقال لتوتو مستفهماً : أهي أختك ؟

فهز الغلام رأسه سلباً وقال بجفاء : « تيزة » فتملكت الشاب الدهشة وتساءل متعجباً : « تيزة ؟ ! » فنظر الغلام إليه بإنكار وقال : « نعم » . فتمالك أعصابه ولم ينبس بكلمة ، ولكنه لبث مشغولاً دائم التفكير ، وفي أثناء عودته إلى مسكنه بشارع ماهر بالجيزة استدعى صورة والد توتو — كما رآه يوم قدم إليه — ببدنه المترهل وكرشه الكبير ورأسه الصغير المستدير الأصلع ، قد علا المشيب قذاله وقلق المنظار على أنفه الغليظ المجدور ، ثم تمتم قائلاً : « الآن فهمت كل شيء . . . فرضوان بك حكمدار في المعاش جاوز الستين ، وزوجه لا تعدو الرابعة والعشرين ، وتوتو غلام بائس تضافرت عليه أسباب التنغيص الظاهرة والخفية ... ولكن لماذا تلطفت بالغلام أمامي ؟! » . ولم يمتور أفكاره سوء ، لأن أنيس كان طالباً ريفياً — كان طالباً وإن كان أستاذاً لتوتو — طاهر النفس ، على أنه تأثر بحسنها وشبابها وخلاعتها غاية التأثر

وفي الدرس التالي لم يكد يطمئن إلى مقعده أمام تلميذه حتى كانت (تيزة) ثالثتهما ؛ وكانت كما رآها أول مرة ، جميلة خليعة متبذلة في ثوبها ، ولم تلازم مكانها طول الوقت ، فكانت تخرج لبعض الشؤون ثم تعود إلى جلستها . وفي مرة عادت فجلست إلى جانبه دون أن يبدو عليها أنها تعمدت ذلك ، فخال أنيس أن ساقها — لدنوها — تلامس ساقه . وعند انصرافه سلمت عليه باليد ، فراح بضوع من كفه أريج معطر ، ومضى مبلبل الفكر تضطرم في وجدانه يقظة عاطفية حارة ، وما زال مشغول البال يحاول أن يتفهم محاضراته عبثاً حتى ضرب مكتبه بقبضة يده وصاح جزعاً مكروباً : « لا أحسبني إلا مجنوناً أو مسحوراً »

وفيما أعقب ذلك من أيام كان يذهب إلى بيت رضوان بك شغفاً بها قبل كل شيء ، وأحس أن تفضلها بحضور درسه هو السعادة الحقيقية التي تبذلها له الدنيا جميعاً ، فاستلذها واستطابها وجن بها جنوناً . وجعلت الشابة الفاتنة تتودد إليه ، وتعرض لعينيه الشغوفتين محاسنها العارية ، وتداعبه بنظرات من عينيها حلوة فاتنة ، أو لفتات من لحظها قاتلة فاتكة . والشاب يذهل عما حوله بسرعة جنونية . وذهب يوماً إلى بيت الحكمدار فوجد الشابة في الحجرة دون الغلام ، فسأل عنه وهو لا يحفل به في باطنه . فقالت له المرأة : « ذهب مع والده إلى شقيقته في الزمالك لأنها مريضة » . فأحس خيبة وحنقاً لأنه سيضطر إلى مغادرة البيت، وقام واقفاً كئيباً، فسألته : « إلى أين ؟ » . فأشار إلى الباب وقال : « سأعود من حيث أتيت » . فصوبت إلى عينيه نظرة ملتهبة وتمتمت بجرأة وهي تهز رأسها الصغير : « كلا ... » فخفق قلبه وتدافعت أنفاسه ووقف حيالها كالمسحور المذهول ... ثم تبعها على الأثر لا يلوى على شيء

وتخلفت بعد ذلك عن حضور درسه ، ولكنها سمَّت له الأيام التي يستطيع أن يلقاها فيها في أمن من الرقباء . فاندفع في سبيله كمياه الشلال الجارفة في فورة عاطفة مشبوبة تصم الآذان وتعمى البصر وتغرق هواجس النفس ، مستكيناً لنوازع شهوته وجنونه . وإنه ليغادر بيتها ذات أصيل من أصائل الحب إذ لاحت منه التفاتة بغير قصد إلى شرفة البيت المطلة على الطريق ، فرأى مشهداً تجمد له الدم في عروقه ، وتصلب شعر رأسه من الهول ، فتعثر وأوشك أن يقع على وجهه ، وهرع إلى الإفريز تحت الشرفة كأنما يدارى نفسه ؛ وتقدم في خطى مضطربة لاهثاً حتى بلغ منعطف الطريق ، وأراد أن يستوثق مما رأى فصوب بصره في خوف وإشفاق نحو الشرفة ، فرأى عند مدخلها رضوان بك برأسه الأصلع المستدير يجلس مطمئناً إلى كرسيه في جلباب فضفاض يطالع جريدة ويهش الذباب عن وجهه بمذبة ... فأيس من تكذيب عينيه ، ولهث قائلاً بفزع لا يوصف : « رباه إنه هو هو ... نعم هو في جلباب البيت فكيف كان ذلك ... ؟ هل عاد إلى البيت أثناء وجوده مع زوجه ... ؟ فكيف لم يشعرا به ؟ ولماذا لم يقصد إلى حجرة نومه ليبدل ثيابه ؟ أم أنه كان في البيت قبل ذهابه هو إليه ؟ فكيف استقبلته المرأة باطمئنان ؟ أو كيف لا تعلم بوجود زوجها في البيت ؟ بل كيف لم يشعر به رب البيت مع أنه غادر المخدع في خطى مطمئنة غير محاذرة؟ ... رباه ... ! لقد نجا من شر فادح ... وداخله إحساس الذي يستيقظ بغتة فيجد أنه قد اجتاز سوراً شاهق العلو في نومه ... وتخايلت لعينيه أشباح الإثم والجريمة والسجن ، فعزم على أن يضرب بغرامه عرض الحائط متعظاً بالهاوية التي أوشك أن يتردى فيها . ولكنه لبث يذهب لإعطاء دروسه للغلام توتو، وكان يعاني آلام قلبه وجموح عواطفه ، ولكن المرأة لم تمهله حتى

يتنامى ويتمزى ، فمادت إلى اقتحام حجرة الدرس عليه وسألته بعينيها فى عتاب وكدر ... وحين انتهاء الدرس تبعته إلى الباب الخارجي وسألته بحدة : « لماذا لا تأتى ؟ » ... فقص عليها همساً ما رأته عيناه آخر مرة ، ونظر فى وجهها ليمتحن أثر كلامه ، فهاله ألا يرى الانزعاج الذى كان يتوقع ، وسمعها تقول بلهجتها الناضبة : « كذبتك عيناك ... » ، فأكد لها أن ما رآه حق بغير ريب ، فاستهانت بتأكيده وقالت له : إنها ستنتظره وترى ما هو فاعل ... فأبدى لها مخاوفه ... فقالت وقد نفد صبرها : « أنت مخطئ واهم ، فتعال ولا تتعب نفسك بالنظر إلى الشرفة ... تعال ولا تخف ... » ، فوعدها بالعودة لكى يتخلص من إلحاحها ثم انطلق على نية ألا يعاود ذلك البيت إلى الأبد ...

ولبث على ذلك أسبوعاً كاملاً . وفى مساء يوم الجمعة ، وكان فى الشقة — التى يشاركه فيها بعض الأقران — بمفرده ، سمع طرقاً على الباب ، فمضى إليه وفتحه ، فرأى أمامه رضوان بك بجسمه المترهل متوكئاً على عصاه ذات المقبض العاجى . فسرت فى جسده رعدة شديدة زلزلت قلبه زلزالاً عنيفاً ، ووثب إلى ذهنه خاطر سريع : أن المرأة ربما وشت به كذباً عند زوجها لتكيد له ، وأنه جاء للتأديب والانتقام ... فاستولى عليه اليأس والقنوط ، وصعد فى وجه الرجل نظرة ارتياع ليقرأ ما تدل عليه أمارات وجهه وما ينذر به حضوره ، فرآه هادئاً مبتسما كأنما جاء لسلام لا لقتال. ومد يده بالسلام ، فمد الشاب يده ، ولما يفق من دهشته ... ثم تنحى عن الباب وهو يقول مترددا ريقه : تفضل بالدخول يا سيدى ... فدخل البك وهو يتحدث قائلاً : إنه لا داعى للجلوس لأنه على عجل ، وأنه جاء ليسأل عن صحته وعما اعتاقه عن متابعة دروسه ... فاعتذر أنيس بأن موعد امتحانه اقترب وأنه فى حاجة إلى كل دقيقة من وقته ... ولكن البك لم يقتنع بحجته ورفض أن يقبل عذره ، وطلب إليه برقة ألا يحرم توتو من دروسه . فعاود الشاب الاعتذار ، وكر الرجل إلى الإلحاح ، ثم أدنى رأسه من أنيس وقال له : لا بد من حضورك ... فهذا ضرورى جداً لتوتو ... تعال حينما تشاء وكيفما تشاء ... لا بد من حضورك ، فهذا ضرورى جداً ... وكان لا يحول بصره عن الشاب ، فوجد فى نظرته ونبرات صوته ما أثار فضوله ودهشته ... أما الشيخ ، فصمت لحظة متردداً ، ثم استدرك قائلاً : « هذا ضرورى لتوتو ولسعادتى ولسعادة الأسرة ... بل لسعادتنا جميعاً ... فاصغ لي ، لا بد من حضورك ... »

واحتقن وجهه بالدم ، وارتعشت شفته السفلى وذقنه كالطفل إذا أوشك أن يفحم فى البكاء ثم تحول عنه ... ومضى دون أن ينتظر موافقة الشاب ، ولبث هـذا فى مكانه متفكراً مذهولاً تتجاذبه شتى العواطف ...

وكان الأسبوع الذى أعقب هذه الزيارة معترك أزمة نفسية عنيفة أخذت بتلابيب أنيس ، فتقاذفته الغرائز والشهوات ، وتجاذبته نوازع اللذة ومغريات السلامة والطمأنينة ، وكان ذا عزيمة قوية وسريرة طاهرة وقلب تقى ، فآثر السلامة . فلما أن استدار الأسبوع أحس قواه تتماسك وتشتد ، فأطرى إرادته وجمل يتناسى بيت رضوان بك السيء الحظ وزوجه الحسناء القلقة الغضوب ويودع ذاك المهد زاوية من زوايا الذكريات الغريبة المنسية ...

... وانتصف مايو ، فقصد أنيس يوماً إلى الكلية ليسأل عن موعد ظهور نتيجة الامتحان . ولما بلغت به قدماه باب مقهى الثلث ، شعر بإنسان يعترض سبيله بعصاه كالمداعب ، فرفع رأسه إليه فرأى رضوان بك يغادر المقهى يسبقه أحد أصدقائه إلى سيارة تنتظر على كثب ، فارتبك ورفع يده بالتحية ، فالتقت يداهما، وابتسم البك ثم سأله عن حاله ، وتحدث معه قليلاً دون أن يعرج إلى الذكريات القديمة . وحين هم بمفارقته غير لهجته وقال بصوت دل على الضراعة والمضض : « أيها الشاب . . . إياك والسخرية من الناس أو الهزء بالبؤساء ، فأنت تجهل الدور الذى تعده لك الأقدار غداً . واذكر أن أغرب تصرفات الإنسان لا تعوزها أسباب تبررها ؛ فصن لسانك عن الأذى وحاول ما استطعت أن تتعظ بما يصادفك من العبر ـ كتب الله لك حظاً سعيداً ... » ورفع يده بالسلام وسار فى طريقه منتصب القامة يدل مظهره على أنه رجل عسكرى بغير جدال .

نجيب محفوظ

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

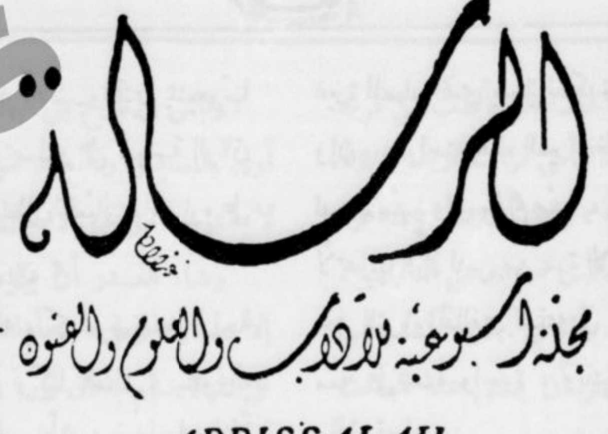


9me Année No. 421

Lundi - 28 - 7 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٢١ « القاهرة في يوم الإثنين ٤ رجب سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٨ يولية سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

قديس الوطنية المصرية

للأستاذ عباس محمود العقاد

عرفت الوطنية المصرية زعماء مختلفين منذ الثورة العرابية، ولكنها لم تعرف منهم أحداً أحق من « محمد فريد » صاحب هذه السيرة [1] بلقب القديس الوطني، لأن العقيدة الوطنية لها قديسوها - كالعقيدة الدينية على ما نعلم؛ وأخص ما للقداسة من صفات هي الإيمان والفداء والسماحة وخلوص الضمير. وقد اجتمعت هذه الصفات لمحمد فريد اجتماعاً لا يماري فيه أحد، فهو في محراب الوطنية المصرية من الزعماء القديسين لا مراء.

كان فداؤه رحمه الله فداء لا غبار عليه ولا شبهة فيه: ترك الوظيفة في العهد الذي كان الناس فيه يعجبون لتارك الوظيفة ولا يعجبون للمنتحر تارك الحياة. ولم يتركها طمعاً فيما هو أكبر منها، لأنه كان يقود حركة بينها وبين أقرب مراحل النجاح سنون وسنون، ولم يكن يجهل بُعد الشقة ولا بُعد الرجاء الذي كان يرتجيه.

ولم يطلب المال وهو ينزل إلى معترك السياسة، فقد كان المال موفوراً بين يديه، وقد أضاعه كله غير نادم عليه وهو في منتصف الطريق.

(١) محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية لمؤلفه الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك.

الفهـــــرس

ولم يطلب الألقاب والمظاهر ، فقد أغضب الذين يمنحونها في مصر والآستانة : أغضب الخديو بحملته على سياسة الوفاق وإصراره على الدستور ، وأغضب السلطان العثماني بإصراره على استقلال مصر والمناداة « بمصر للمصريين »

وحرم نفسه الراحة وهو في وطنه ، كما حرم نفسه الراحة وهو غريب عنه ، فكان جماعة « تركيا الفتاة » يناوئونه ويضايقونه لأنه أبى في الحرب العظمى أن يستبدل احتلالاً باحتلال ، وصارحهم أن مصر لا ترضى لنفسها مكان الولاية العثمانية على أي نحو من الأنحاء

وبلغ الذروة العليا من الفداء حين واجه الموت البطيء أنفة منه أن يواجه التسليم ولو مع السكوت ؛ فقد ثقل عليه الداء في أوربا وعلم أن الجو المصري أنفع الأجواء له والشتاء مقبلة ، وضائقة العالم بعد الحرب محكمة ، وليس أثقل من مرض وغربة وفاقة وشتاء بعد صحة ودعة ويسار وقدرة على التنقل بين الأجواء ، فآثر التلف البطيء الذي لا تخفى غائلته ولا تخفى عقباه ، على أن يشتري السلامة بعودة فيها خضوع وتسليم

قال الأستاذ الرافعي في مقدمة كتابه عن محمد فريد إن الأمة « لم تقدره حق قدره ولا عرفت له عظيم منزلته »

وهذا ويا للأسف صحيح ؛ لأن الصفة الكبرى التي امتاز بها هذا القديس الوطني هي الصفة الكبرى التي نجهلها نحن المصريين أو نحن الشرقيين على التعميم ، وهي الصفة الكبرى التي لا نصدقها إن لمسناها ولمسنا آثارها ، لأنها أشبه عندنا بغرائب الأساطير وخوارق الطبيعة : وهي الفداء الخالصة مع الإيمان الثابت . فقد يلام الرجل على هذه الصفة العلوية لأنها تلتبس علينا بالتفريط ؛ وقد يحمد على الحرص واقتناء المنافع ، ولا يحمد على تضييع منفعة أو نسيان أثرة حريصة ، لأن الفداء شذوذ لم نألفه طويلاً في عادات المجتمع ولا في عادات الأفراد

وما من شيء في اعتقادنا هو أجدى على المصريين والشرقيين من كتاب يؤكد صفة الفداء ويثبت وجودها في رجل معروف السيرة معروف الأعمال مستقيم الخلق كمحمد فريد لم يشتهر بنزوات أهل الشذوذ ولا ببدوات التفرد والاستثناء

فإن الشك في وجود الفداء يغلق المسالك بين ألسنة المصلحين الغيورين وأسماع السواد والناشئين : إنهم لا يصدقون غيرة المصلح الذي يعمل لفكرة يحققها أو مثل عال يجري وراءه ، وإن صدقوا منه هذه الغيرة نظروا إليها نظرتهم إلى طبيعة غريبة ليست منهم وليسوا هم منها ، فلا وجه لاقتدائهم بها ومجاراتهم لأصحابها ؛ إذ ليس من عادة الإنسان أن يصغي إلى من يحلهم منه محل الغرباء المخالفين لسنته في حياته ، وإنما يصغي إلى من يمشون معه على سنة واحدة ، وينتفي بينهم وبينه شعور الاستغراب والاستبعاد !

وهذه ولا ريب إحدى فوائد الكتاب الذي كتبه الأستاذ الرافعي في سيرة هذا الرجل الكبير

* * *

على أننا نحب أن نستدرك هنا استدراكاً له موضعه وله موجبه فيما يكتب بيننا عن القداسة والقديسين

فقد تعودنا أن نجور صفات القداسة على الصفات الدنيوية حتى خيل إلى أناس منا أن وصف القداسة يجرد الإنسان من وصف العمل الدنيوي أو المدارك الواقعية التي يحتاج إليها الساسة وزعماء النهضات القومية

فإن فهم أحد من وصفنا فريداً بالقداسة أنه لم يكن يدرك السياسة العملية إدراكها الصحيح فهو مخطئ أيما خطأ ، وجاهل بحق الرجل أيما جهالة

فقد كان فريد على نقيض ذلك أوسع أقرانه علماً بالسياسة العالمية وأوسعهم نظرة إلى العلاقة بين شؤون الوطنية وشؤون الدول والحكومات في العصر الحاضر

فلم يكن من أصحاب النخوة المحصورة أو الحماسة الضيقة التي تحبسها العصبية بين حيطان بلادها فلا تعدوها إلى غيرها ، ولكنه كان يضرب بنظره شرقاً وغرباً ليتابع الأحوال قديماً وحديثاً متابعة العليم بما بين أطوار العالم ومصير أمته ، وبما بين الحركات الإنسانية والحركات القومية من اتصال وتبادل في التأثير .

ومن مقالاته قبل خمسين سنة مقالة عن المواصلات البرقية في العالم ، وسياحة الرحالة (سفن هدين) في أواسط آسيا ، وانجلترا وآسيا بأفريقيا ، والإنجليز في غرب أفريقيا ، والروسيا في مملكة كوريا ، ومطامع أوربا في الصين ، ورئاسة جمهورية الولايات المتحدة ؛ وأشباه هذه الموضوعات التي لم تكن بينها وبين الحركة الوطنية المصرية صلة قريبة في رأي الأكثرين من كتاب ذلك الجيل

والذى أذكره أنا من ذكرياتى الخاصة أننى أفدت من فريد المؤرخ قبل أن أفيد من فريد الزعيم ، وأننى قرأت تاريخه للدولة العثمانية قبل أن أقرأ له مقالة سياسية ، وقبل أن يتفرغ للدعوة الوطنية ويشتغل بها ذلك الاشتغال الذى صرفه من التأليف .

وسمعت بعض الأدباء يقول وقد وقع فى أيدينا كتاب من كتبه التاريخية : ألم يكن أنفع لمصر أن يمضى هذا الباحث المنقب فى الشوط الذى بدأه بتاريخ محمد على ، وتاريخ الدولة العثمانية ، وتاريخ الرومان ، وما إلى هذه المباحث التى لا يزال فراغها محسوساً فى المكتبة العربية ؟

فوافق الأديب أناس وخالفه أناس ، وكان كاتب هذه السطور من مخالفيه ولا أزال من مخالفيه ؛ لأن فريداً قد أخرج لنا فى القداسة الوطنية طرازاً منقطع النظير ، ولم نخسر مع هذا طرازه فى عالم البحث والتأليف ، وربما كان أصدق ما يقال فى سير العظماء « إن الخيرة فى الواقع » ، خلافاً لما يتمنون لأنفسهم ، وخلافاً لما تمناه لهم الأصدقاء ، وهى قولة مأثورة تنطبق على سير الخاملين فيما نرى ، كما تنطبق على سير النابهين

ولقد كتب فريد صفحات طوالاً فى تاريخ القسطنطينية لم يكن عسيراً على من دونه علماً وخلقاً أن يكتبوها أو يكتبوا أمثالها ، أما الصفحة التى كتبها لنفسه فى القسطنطينية أيام الحرب العظمى فإحدى صفحات قلائل فى سجل البطولة لا يكتبها إلا فريد ومن وهبوا ما وهبه فريد من فضيلة الصدق والمفاداة ، وهم قليلون

ومثّل لنفسك رجلاً منقطعاً عن بلده ، منقطعاً عن موارده ، ليس له جند ولا مال ، وليس له ملجأ يحميه من أصحاب الجند والمال هناك ، وأينما دار ببصره لم يجد حوله ما يثبته ويعلى له فى رأيه ، بل وجد العوائق والمحظورات شتى تفت فى عضده وتثنيه ، وتؤيسه من عاقبة جهوده وأمانيه ... والدنيا حرب والقول ما قال العسكريون والدولة مشغولة كلها بالحملة على مصر أو على الولاية التى ستعود إلى مكانها القديم من الدولة العثمانية ، وهذا الرجل فى عزلته وبين ثلاثة أو أربعة ممن يسيرون على نهجه يقفون فى وجه هذا السيل الجارف ليصدوه بكلمة هى أقسى ما يسمع من قائل فى تلك الأيام ، وهى أن مصر للمصريين وليست للعثمانيين ولا لغيرهم من الفاتحين ...

هذه صفحة فريد فى القسطنطينية

وليس فى تاريخ بنى عثمان ولا تاريخ دولة من الدولات ما هو أولى بالتسجيل والتمجيد من هذه الصفحة التى كتبها بوحى لا يستوحيه مؤرخو الأبطال، بل يستوحيه دونهم أبطال المؤرخين

وشاء القدر أن يبوء هو بفخارها وألا يبوء خصومه إلا بصغارها وعارها . فأولئك الذين عارضوه وعاندوه وأكرهوه على اللياذ منهم بآفاق أوربا وهى أضيق عليه من سم الخياط ... أولئك المعارضون والمعاندون هل عارضوه وعاندوه إيثاراً لتركيا أو إيثاراً لمصر أو إيثاراً للحرية والحضارة الإنسانية ؟

... كلا . بل كان هذا وزيراً منافساً لأمير مصر فهو يغتنم الفرصة السانحة لشفاء الضغن وإحياء التراث ؛ وكان هذا قائداً طموحاً فهو يتخذ من دولته ومن مصر معها مطية لطموحه ؛ وكان هذا وذاك وغيرهما مصريين يقسمون بينهم مناصب الحكم فى الولاية العثمانية المنظورة ! ! وكان فريد وحده أو فريد ومعه تلميذان أو ثلاثة من مريديه يعملون للحق ويخلصون للدولة العثمانية إخلاصهم للأمة المصرية

وهذه إحدى الصفحات التى كانت تفوتنا لو قضى فريد حياته فى تاريخ الأبطال ، ولم يقضها بطلاً يرتجل هذه العظات والأمثال

***

وستنصف مصر فريداً يوم تنصف نفسها وتستحق الإنصاف من أقدارها . أما اليوم فكل ميدان فيها يتسع لتمثال فريد فهو ميدان يتسع للتنبيه والمؤاخذة ، ويتسع لكلام كثير

عباس محمود العقاد

المأمونى الشاعر

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

ذكرت من قبل طرفاً من أخبار أبى المظفر الأبيوردى الشاعر القرشى الأموى وسميته «شاعر العرب فى القرن الخامس» إذ كان يعرب عن أخلاق العرب وعاداتهم، ويبين عن آمالهم وآلامهم.

وأذكر فى هذا المقال شاعراً آخر من بنى الخلفاء عرف باسم المأمونىّ، ينتهى نسبه إلى الخليفة المأمون بن الرشيد رضى الله عنهما.

وأقدم قبل الحديث عن هذا الشاعر أن ما نعرفه عن أخباره مأخوذ عن الثعالبى صاحب يتيمة الدهر. وإنما روى الثعالبى أخبار هذا المأمونى فى الرى ونيسابور وبخارى، أى فى خراسان وما وراء النهر. ويحدثنا هذا المؤلف الكبير عن شاعر آخر من بنى الخلفاء يسمى الواثقى، من بنى الواثق بن المعتصم ابن الرشيد، ويروى من أنبائه فى تلك الأقطار أيضاً. ويخبرنا أنه كان ببخارى إذ ذاك جماعة من بنى الخلفاء العباسيين تجرى عليهم الأرزاق، منهم: ابن المهدى وابن المستكفى. وإن قارئ هذه الأخبار ليعجب ويتساءل لماذا يذهب بنو الخلفاء إلى خراسان وما وراء النهر فى طلب الرزق؟ وإن جاز أن يضطر إلى هذه الرحلة أبناء الخلفاء الذين بعد الزمن بينهم وبين الخلفاء من آبائهم كأبناء المهدى والمأمون والواثق، فكيف أدركت الضرورة ابن المستكفى وقد لبث المستكفى فى الخلافة إلى سنة ٣٣٤، فما مضى نصف قرن من خلافته إلى الزمن الذى يحدثنا بأخباره الثعالبى؟

ومَرَدّ هذا فى رأيى إلى أمرين: الأول أن استيلاء البويهيين على العراق عام ٣٣٤ ـ وهى السنة التى خلع فيها المستكفى، وبأيديهم خلع ـ ذهب بهيبة الخلفاء وثروتهم، وأورث أبناءهم الفقر العاجل، وكان بنو بُوَيه يتشيّعون ولا يؤمنون بخلافة العباسيين

والثانى أن بنى الخلفاء كانوا يلقون حفاوة وإكراماً فى تلك البلاد؛ وأن أمراء السامانيين ووزراءهم كانوا يمنحونهم من التعظيم والبر ما يحبب إليهم ركوب الأسفار البعيدة إلى تلك الديار النائية؛ والسامانيون كانوا يدينون بالطاعة لبنى العباس ويؤمنون بخلافتهم

— ٢ —

وأما المأمونى فيحدثنا عنه الثعالبى أنه فارق وطنه بغداد وهو حدَث إلى مدينة الرى، فامتدح الصاحب بن عباد بقصائد أعجبته فأكرم مثواه وقربه. يقول الثعالبى: «فدبت عقارب الحسد بين ندماء الصاحب وشعرائه، وطفقوا يركبون الصعب والذلول فى رميه بالأباطيل، ويتقولون عليه أقبح الأقاويل، فطوراً ينسبونه إلى الدعوة فى بنى العباس، ومرة يصفونه بالغلو فى النصب واعتقاده تكفير الشيعة والمعتزلة، وتارة ينحلونه هجاء فى الصاحب يعرب عن فحش القدح، ويحلفون على انتحال ما أصدر من شعره فى المدح، حتى تكامل لهم إسقاط منزلته لديه، وتكدر ماؤه عنده عليه. وفى ذلك يقول من قصيدة يستأذنه فيها للرحيل:

فكنت يوسفَ، والأسباط هم وأبا ... الأسباط أنت ودعواهم دماً كذبا

وعصبة بات فيها الغيظ متقداً ... إذ شدت لى فوق أعناق العدا رُتبا

أرى مآربكم فى نظم قافية ... وما أرى لى فى غير العلى أرباً

فارق المأمونى الرى إلى نيسابور، وفيها حينئذ أبو بكر الخوارزمى الكاتب المعروف، فأشار عليه الخوارزمى بإنشاء قصيدة فى الشيخ أبى منصور كثير بن أحمد يسأله فيها تقرير حاله عند صاحب الجيش أبى الحسن بن سيمجور — وبنو سيمجور من ولاة الدولة السامانية وقوادها — فأنشأ المأمونى القصيدة وأبلغها الخوارزمىُّ الشيخَ كثيرا، وحسّنها لديه وأثنى على هذا الشاعر الشاب. فوقعت القصيدة ممن أهديت إليه موقعاً حسناً، وفى هذه القصيدة يقول:

إلى الله أشكو مُنًى فى الحشى ... تضمّن جنباىَ منها سعيرا

تُفارق بى كل يوم خليلاً ... وتفجع بى كل يوم عشيرا

فإن تسألانىَ يا صاحبىَّ ... نص السُرى تجدانى خبيرا

ففى كل يوم ترانى الركا ... بُ أفارق ربعاً وأحتل كورا

إذا سرت عن صاحبى قلت عُـ ... ـد لعودى السنين وخل الشهورا

أرانى ابن عشرين أو دونها ... وقد طبّق الأرض شعرى مسيرا

إذا قلت قافية لم تزل ... تجوب السهول وتطوى الوعورا

ولو كان يفخر ميت بحى ... لكان أبى هاشمٌ بى فخورا

ولو كنت أخطب ما استحقّ … لـما كنت أخطب إلا السريرا

ولو مرتُ صاحت ملوك البلا … د بين يدىّ النفير النفيرا

ولـكننى مكتف باليسير … إذا سهّل الله ذاك اليسيرا

ويتبين فى هذه القصيدة نشوةُ الشباب ، وفخر الشاعر بآبائه واستحقاقه الملك كما تتبين قناعته ورضاه باليسير ، وما طموحه وقناعته إلا من التناقض بين الانتساب إلى المأمون والمدح للعطاء .

أنهى الشيخ كثير أمر هـذا الشاب العباسىّ الشاعر إلى صاحب الجيش

يقول الثعالبي : « فلما وقف على صورة حاله أنهـاها إلى صاحب الجيش فاستدعاه . وحين وصل إليه استقبله بخطوات مشاها إليه ، وبالغ فى إعظامه وأبلغ فى إكرامه . ثم خيّره بين المقام بنيسابور وبين الانحدار إلى الحضرة ببخارى – يعنى عاصمة الدولة السامانية – فاختار الخروج فوصله وزوّده من الـكتب إلى وزير الوقت وغيره من الأركان »

رحل الشاعر الشاب عن نيسابور ميمما بخارى فأبلغه إليها سفر طويل شاق ؛ وكأنه يصف هذا السفر فى أول قصيدة أنشأها فى بخارى مادحاً أحد رؤسائها أبا الحسين عبد الله بن أحمد :

وليل كأنى فيه إنسان ناظر … يقلب فى الآفاق جفنيه داميا

إذا ما أمالتنى به نشوة الكرى … تمايل فى كفى الثقف صاحيا

وإمّا طما لُجّ المنى بين أضلعى … تعسّفت لجا من دجى الليل طاميا

فأمسى شجا فى ظلمة الليل دالجا … وأضحى قذى فى مقلة الصبح غاديا

أحسن أبو الحسين وفادة ابن المأمون ، وبلغ الغاية فى إكرامه . يقول الثعالبي :

« فتقبله بكلتا اليدين وأعجب منه بفتى من أولاد الخلافة يملأ العين جمالاً والقلب كمالاً »

وواصل صلاته ، وخلع عليه ، وألحقه فى الرزق السلطانى بمن كان هناك من أولاد الخلفاء : كابن المهدى وابن المستكفى وغيرهما . وتتابع الوزراء على إكرامه ، فكان كلما دالت الدولة لوزير نافس من تقدمه فى الحفاوة والبرّ به

يقول الثعالبي : « وجعل كل منهم يُربى على من تقدّمه فى الإحسان إليه ، وإدرار الرزق عليه ، وإخراج الخلع السلطانية والحملانات بمراكب الذهب ، حتى حسن حاله ، وتلاحق ماله ، وظهرت مروءته » . وكان هو لا يألو فى شكر أياديهم بقصائد يكافىء فيها نعمهم ، فلبث فى بخارى حقبة مغتبطاً راضياً

ومن قصيدة له فى مدح ابن عزيز أحد وزراء بخارى :

أعبدَ الله لا خُيّرتُ بيتاً … مدى الأيام إلا فى علاكا

فكم لك من يد قلدتنيها … فلست أرى لها عنى فكاكا

ولو حمّلتَ ما حمّلتنيه … شمام لـما استطاع به حراكا

وقد ألبستنى أثواب عزّ … وقد أوطأتَ أخمصىَ السّماكا

فحسبك من عُلىً أعليت كعبى … برفعكه ، فقد بلغ السّكاكا

قال أبو منصور الثعالبي : « رأيت المأمونى ببخارى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ، وعاشرت منه فاضلاً ملء ثوبه ، وذاكرت أديباً شاعراً بحقه وصدقه ، وسمعت منه قطعة من شعره ، ونقلت أكثره من خطه : وكان يسمو بهمته إلى الخلافة ، ويمنى نفسه قصد بغداد فى جيوش تنضم إليه من خراسان لفتحها ، فاقتطعته المنية دون الأمنية . ولما فارقته لم تطل به الأيام بعدى حتى اعتلّ علة الاستسقاء ، وانتقل إلى جوار ربه ، ولم يكن بلغ الأربعين . وذلك فى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة »

ويصدّق الثعالبي فيما حدّث عن همة هذا الفتى وبُعد أمله وطمعه فى الخلافة ، شعرٌ له ينطق عن هذه الهمة وهذا الأمل ، ويعرب عن ثقة الرجل بنفسه واعتداده بها . يقول فى قصيدة أنشأها فى بخارى :

أنا بين أحشاء الليـالى نار … هى لى دخان والنجوم شرار

فتى جلا فجر القضاء ظلامها … صليتْ بى الأقطار والأمصار

بى تحلم الدنيا وبالخبر الذى … لى منه بين ضلوعها أسرار

فبكل مملكة علىّ تلهّـف … وبكل معـركة إلى أوار

يا أهلُ ماشطّت برحلى رحلة … إلا لتسفر عن الأسـفار

لى فى ضمير الدهر سر كامن … لا بد أن تستله الأقدار

— ٣ —

وأما شعر المأمونى فوسط لا يسمو إلى الذروة إلا قليلاً . وقد أثبت صاحب اليتيمة له قصائد قليلة وقطعاً كثيرة أكثرها فى وصف الأزهار والفواكه والأوانى والأطعمة . وقد صدرها المؤلف بقوله : « وهـذا ما اخترته من شعره فى الأوصاف والتشبيهات التى لم يسبق إلى أكثرها »

فأما قصائده فمنها قصيدة فى مدح الصاحب إسماعيل بن عباد مطلعها :

يا ربع لو كنت دمعاً فيك منسكباً
قضيت نحبي ، ولم أقض الذي وجبا
لا ينكرن ربعك البالي بلى جسدى
فقد شربت بكأس الحب ما شربا
ولو أفضت دموعى حسب واجبها
أفضت من كل عضو مدمعاً سربا
عهدى بعهدك للذات مرتبعاً فقدغدا للفؤادى للسحب منتحبا

وهذه أبيات تذكر بقصيدة المتنبي التي أولها :

دمع جرى فقضى فى الربع ما وجبا
من حقه وشفى أنّى ولا كربا ؟

وكأنه أراد بمطلعه مناقضة مطلع المتنبي . ومحاكاةُ المتنبي فى الوزن والقافية تظهر فى قصائد أخرى . وكان المتنبي شاعر القرن الرابع ، وقد ولد المأمونى فى أواخر حياة أبى الطيب ، والزمان يدوى بذكره ويصدق قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

وللمأمونىّ قصيدة أخرى يمدح بها أحد وزراء بخارى أولها :

سيخلُف جفنى مخلفات الغمائم على مامضى من عمرى المتقادم
بأرض رواق العز فيها مطنّب على هاشم بين السُّهى والنعائم
يدين لمن فيها بنو الأرض كلهم وتعنو لهم صيدُ الملوك الأعاظم
وبهماء لا يخطو بها الوهم خطوة
تعسّفتها بالمرقلات الرواسم
وقد نشرت أيدى الدجى من سمائها
رداء عروس نقّطت بالدراهم
خلنا نجوماً فى السماء أسنّة
مذهّبة ما بين بيض صوارم

وأظنه حاول فيها محاكاة أبى الطيب فى قصيدته التى مدح بها ابن طغج :

أنا لائمى إن كنت وقت اللوائم
علمت بما بى بين تلك المعالم

وأخرى من قصائده فى مدح أبى نصر أحد وزراء بخارى ووصف دار بناها ، أولها :

قد وجدنا خُطى الكلام فِساحاً فجعلنا النسيب فيك امتداحا

وهو مطلع يذكر بقول أبى الطيب :

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

ومما وصف به الدار :

بَهوها يملأ العيون بهاء صحنها يملأ الصدور انشراحا
شِيدُها فضة ، وقرمدها تِبْــر قد امتيح من نداك امتياحا
وثراها من عنبر شيب بالمســك فإن هبّت الصّبا فيه فاحا
كل ناد منها قد اتشح الفر شُ بثوب الربيع فيه اتشاحا
صبغة من دم القلوب فمن أبـصره اهتز صبوة وارتياحا
ما بكاء الرياض بالطل إلا خجلاً من رياضها وافتضاحا
شابه النقشُ فرشها مثل ما شابه ولدانها دُماها الصباحا

***

وكأن الستور قد نشر الطا وس منها فى كل باب جناحا
وكأن الجامات فيها شموس أطلعتها ذُرى القباب صباحا

***

هذا حديث فتى من بنى الخلافة بعيد الهمة طمّاح ، وشاعر من الشعراء الأمراء الذين تشرق أقوالهم فى جوانب الأدب العربى ذكراً للهمم العربية والأدب والبلاغة ، أدب النفس واللفظ ، وبلاغة الأفعال والأقوال

عبد الوهاب عزام

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

ليسمع مدير الجامعة ووزير المعارف — فرنسي يستمصر فيستعرب — الشيخ حسين علي — إلى بعض النواب والصحفيين — منارة أبي العباس

ليسمع مدير الجامعة ووزير المعارف

كنت شغلت نفسي عدداً من السنين بالدعوة إلى جعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع كليات الجامعة المصرية ، وانتهزت فرصة اشتراكي في المؤتمرات التي تعقدها « الجمعية الطبية » ، فجعلتها مواسم لبث هذه الدعوة بين المشتغلين بالعلوم من أبناء الأمم العربية ، وما زلت ألحّ حتى مللت وأمللت ، فانصرفت عن نشر تلك الدعوة وأنا آسفٌ حزين

واليوم أطّلع على عبارة تستحق التفات مدير الجامعة ووزير المعارف ، فقد جاء في النشرة التي أصدرتها الجامعة العبرية بالقدس أن جميع الدروس في تلك الجامعة تُلقى باللغة العبرية ما عدا بعض دروس اللغات

فما معنى ذلك ؟

معناه أن اليهود يرون لغتهم قديرة على التعبير عن جميع المعاني في مختلف الأغراض ، وأنهم يرون من القومية أن يدرسوا آداب اللغات الأجنبية باللغة العبرية ، مع استثناء طفيف يوجبه الحرص على التعمق في بعض اللغات

فكيف تعجز لغة العرب عما قدرت عليه لغة اليهود ؟

إن اللغة العبرية لم تكن يوماً لغة علم ومدنية على نحو ما كانت اللغة العربية ، فكيف استطاع اليهود أن يخلقوا من لغتهم أداة صالحة لدرس مقومات التمدن الحديث ، بعد أن ظلت في غيابات السجن عشرات الأجيال ؟

الجواب حاضر ، ولكن أين من يسمع ؟

والجواب أن اللغات لا تقوم بنفسها ، وإنما يقوم بها أهلوها

الجواب أن اللغات من صنع الناس ، وإن كانت في بعض صورها من مواريث التاريخ ، فما كان يجب على العرب في العصور الخوالي أن يبتكروا أدوات التعبير عن شؤون لم يشهدوها ولم يعرفوها ، وإنما يجب علينا أن نعبّر عما شهدنا وعرفنا ، كما عبّروا عما شهدوا وعرفوا ، لنستطيع القول بأننا أهلٌ للإنشاء والإبداع ، وكان أسلافنا من أكابر المنشئين والمبدعين

كان يجب على لغة العرب ـ كما يتوهم أهل الغفلة ـ أن تحيط بكل شيء ، وإلا فهي جديرة بما يصبّون عليها من عذاب العقوق !

فهل كان الأمر كذلك في لغات الإنجليز والفرنسيس والألمان ، حتى نطالب لغة العرب بخلْق المستحيل ؟

لغات العلم والمدنية في هذا العصر كانت فقيرة ثم أغناها أهلوها بالنحت والاشتقاق والاقتباس ، فمتى نصنع كما صنع الأحياء من أبناء هذا الزمان ؟

أكبر هموم علمائنا اللغويين أن يعترضوا على نيابة حرف عن حرف ، وأن يقول قائلهم : إن العرب تعرف كيت ولا تعرف زيت ، وأن يثوروا على أيّ تعبير لا يجدون له شواهد في أقوال القدماء ، كأن من الحرام أن يكون لنا في اللغة حق الاجتهاد ، وهو حقٌ لم يحرّم على أبناء البوادي ، ولو كانوا من أكلة الضباب واليرابيع !

اليهود لهم لغة يدرسون بها جميع العلوم ؟ ؟ ؟

هوذلك ، لأن اليهود يريدون أن يقيموا الدليل على أنهم أحياء

ولو جاز أن يُفتن قومٌ بأوربا ولغاتها ، لكان اليهود أولى بذلك الفُتون ، لأن لهم طلائع في جميع البلاد الأوربية ، فممّن أخذنا نحن فتنة الخضوع الأحمق للغات الأجنبية ، ولنا وجود أدبي واجتماعي لم تُفلح في زعزعته الكوارث والخطوب ؟

نستطيع بدون صعوبة ولا عناء أن نجعل لغة العرب لسان العلم والمدنية في الشرق ، فنزاحم بها ألسنة الأجانب ، ونستبق أعمار أبنائنا فلا تضيع في « رطانات » لا ينتفع بها منهم غير آحاد

وأنا لم أبتكر القول بجناية اللغات الأجنبية في تعويق مواهب

الشبان المصريين ، فقد أعلن الأستاذ محمد بك حسين هذا الرأى فى خطبة ألقاها بالمنصورة فى السنة الماضية ، وكانت حجته أن الشبان يقضون أطيب أعمارهم فى دراسة اللغات ، وهى دراسة لم تنتقل من الحفظ إلى الفهم ، حتى تعود على أذهانهم بالصقل والتهذيب

ولكن ما الذى نصنع ونحن فى احتياج إلى معرفة اللغات الأجنبية ، لنتصل بالتيارات العلمية فى العصر الحديث

نكون طائفة خاصة تكون مهمتها الاشتغال بالترجمة لتغنى اللغة العربية بأمداد جديدة فى ميادين العلم والطب والاقتصاد والتشريع ، وعندئذ تنفعل اللغة العربية بتلك الأمداد ، وتصبح مورداً غنياً بآثار الأفكار والعقول ، فيمكن الاجتهاد فى ميادين كثيرة عن طريق اللغة العربية ، كما اتفق للمرحوم الشيخ أحمد الإسكندرى أن ينتفع بالمترجمات ، فصار يفكر على الأساليب الحديثة فى التفكير بدون أن يتصل بإحدى اللغات الأجنبية ، وبدون أن يتتلمذ لأحد من الأجانب ، وله أبحاث تؤيد ما نقول منها بحثه المشهور فى اصطلاحات الكيمياء

فرنسى يتمصر فيستعرب

فى هذه الفقرة أسوق حديثاً يشهد بما تصنع العزائم الصوادق فى تذليل الصعاب :

كانت البعثة المدنية الفرنسية رأت أن تقصر مهمة مدارسها فى مصر على إعداد تلاميذها للبكالوريا الفرنسية ، إلا مدرسة واحدة هى الكلية الفرنسية بالظاهر ، فقد رأت البعثة أن يُعَدّ تلاميذها للبكالوريا المصرية من القسم الفرنسى

ومدير هذه المدرسة هو المسيو مارسيل يونان ، وقد أقام فى مصر أكثر من عشرين سنة فلم يعرف من اللغة العربية غير ألفاظ معدودات ، مثل مدرسة وقهوة وفراش !! وكان المنطق يوجب أن يجعل ابنه من تلاميذ الليسيه ليفوز بالبكالوريا الفرنسية بدون عناء ، ولكن الرجل أصر على أن يجعل ابنه تلميذاً فى مدرسته ليفوز بالبكالوريا المصرية مع صعوبة اللغة العربية على شاب لغته الفرنسية ودروسه بالفرنسية وحديثه فى البيت بالفرنسية

وظل الشاب يتعثر من عام إلى عام فى امتحان البكالوريا المصرية ، وكان مفروضاً على من كان فى مثل حاله بحكم النظام الجديد أن يؤدى امتحان اللغة العربية فى مقررات أربع سنين ، وذلك عبء ثقيل !

ونصحت المسيو يونان مرات كثيرة أن يعدل منهج ابنه فى الدراسة فلم يقبل ، وكان جوابه أنه يريد أن يمحو الخرافة التى تقول بأن التفوق فى اللغة العربية مستحيل على الأجانب !

وأخيراً ، وبعد جهاد عنيف ، نجح الشاب جاك يونان فى امتحان الثقافة العامة بتفوق ، فهو أول فرنسى يزاحم الطلبة المصريين فى الامتحانات العمومية

بقيت خطوة واحدة ، هى أن يعرف هذا الشاب أن حىّ الظاهر فى رعاية سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، فمتى يُصلّى معى الجمعة فى مسجد الشعرانى ؟

أَسْلِم تسلَم ، يا جاك ؟!

الشيخ حسين على

ما فُجِع رجلٌ بأبيه إلا تجدد جزعى لفجيعتى بأبى ، فما استطعت دخول البيت الذى مات فيه إلى اليوم ، ولا تمثلت وجهه الأصبح إلا غلبنى البكاء

من أجل هذا رأيت الحزن يعصر قلبى حين قرأت فى الجرائد أن الدكتور طه حسين فقد أباه ، ورثّه الله عمر أبيه ، ومنّ عليه بالصبر الجميل !

أبو الدكتور طه هو الشيخ حسين على ، وكان رجلاً فى غاية من اللوذعية والأريحية ، وإن لم يظفر من الألقاب بما يحفظ له مكانة بين رجال التاريخ

وقد أكد عندى فكرة الوراثة العقلية والروحية ؛ فقد كان عقله على جانب من الرجاحة ، وكان روحه على جانب من الصفاء

قضى الشيخ حسين حياته فى عملٍ بسيط بإحدى قُرَى الصعيد ، ولكن بُعده عن الحياة الفكرية فى العاصمة لم يَحُل

بينه وبين الاتصال بما كان يجدّ من تطورات الآداب والفنون ، فكان يحدّثك عن المدنية الحديثة بأسلوب يقنعك بأنه من أبناء الجيل الجديد ، على بُعد بلده من التأثر بأفكار الجيل الجديد

كان الشافعي يقول : « الحرّ من راعى وداد لحظة » ، وقد وادَدْتُ هذا الرجل لحظتين ، فمن واجبي أن أذرف عليه دمعتين وإلى الدكتور طه وإخوته أقدّم أصدق العزاء

الى بعض النواب و الصحفيين

يطيب لجماعة من النواب والصحفيين أن يتحدثوا عن مصر بعبارات لا تخلو من ازدراء واستخفاف ، وقد تصل إلى الطعن والتجريح في بعض الأحيان ، وأنا أنظر إلى هؤلاء نظر الإشفاق ، لأن أقوالهم تشهد بأن فهمهم للمجتمع المصري فهمٌ ضعيف ، ولأنهم نشأوا في أوقات لم تخرج فيها طرائق الوعظ عن البكاء والاستبكاء

وأضرب المثل بقول الأستاذ الشيخ محمد دراز وهو يهدد في مجلس النواب :

« أصبحت هذه البلاد لا هي بالبلاد الدينية ، ولا هي بالبلاد اللادينية ، ولا هي بالبلد الشرقي ، ولا هي بالبلد الغربي ، وذلك ظاهر في كل مظاهرها ، ليس في الزي فقط ، ولكن في الثقافة والخلق وكل ما يتصل بحياتنا الخلقية والاجتماعية »

وهـذا النائب هو أيضاً مفتش الوعظ والإرشاد بالديار المصرية ، فإن كان صادقاً فالأمة في بلاء ، وإلا فهو نفسه بلاء ، والله الحفيظ !

كان الظن برجل مستنير مثل الشيخ محمد عبد اللطيف دراز أن يدرك أنه لا يجوز الجهر بمثل هذا الكلام في مجلس النواب ، لأنه طعنٌ صريح في الأمة المصرية ، ولأنه كلام أجوف لا طائل تحته ولا غَناء

ولكن ما ذنبه وهو يتوهم أن رجال الدين يجب عليهم أن يصرخوا في كل وقت ، وأن يشهدوا بأن أبناء اليوم ليسوا إلا شرّ خَلَف لخير سَلَف ، وأن سعادة الدارين لن تكون إلا من نصيب من يعيشون بقلوب لا تحس روح المدنية في القرن العشرين ؟

هذا الواعظ مسئول عن تغيير منهجه في الوعظ ، وإلا كانت عظاته أقاويل مشئومة لا تُدخل البشاشة الدينية إلى صدور المؤمنين

وقد استراح الأستاذ على الغاياتي إلى صرخات الأستاذ محمد دراز فعلّق عليها في مجلته منبر « الشرق » بعبارات هي غاية في الإيذاء ، فقد قرر أن أكثرنا مسلمون جغرافيًّا فقط ، وأن الواقع لا يُقر لكثير منا بوطنية ولا بمصرية !

وماضي الأستاذ على الغاياتي يصدّنا صدًّا عن محاسبته على هذا الجور البغيض ، فلم يبق إلا أن نرجوه أن يترفق في الحكم على أمته وأن ينظر إليها بمنظار لا يحجب عنه ما فيها من نضارة وإشراق

وإن أراد المنطق فليسمع :

لقد أراد السخرية من زعامة مصر الأدبية والدينية ، وكانت حجته أننا عجزنا عن توحيد كلمتنا والذود عن حمانا

أما توحيد الكلمة فهو مَطلَبٌ برّاق ولكن انعدامه لا يؤذينا في شيء ، لأن الخلاف من أقوى مظاهر الحيوية في الشعوب ، ونحن نختلف أقل مما يجب ، وياويلنا إذا لم نختلف !

وأما عجزنا عن الذود عن حمانا ، فلا يرجع إلى جُبن أو استخذاء ، وإنما يرجع إلى ظروف يعرف الأستاذ منها أضعاف ما أعرف ، وما مرّ يومٌ بدون أن يجاهد المصريون ليكون لهم جيش قادر على دفع العدوان بالعدوان

وإذن فسخريتك ضربٌ من الشماتة وأنت تجهل !

وما أظلمَ من يشمت بأمة لم يكن نُكولها عن الحرب إلا إشفاقاً على بنيها من الفناء ، وذلك مصير من يواجه الحرب بلا استعداد

أليس من الإثم الموبق أن تقول : إن الشعب قد فقد شخصيته وبات عالة على الأمم والشعوب ؟

الشعب المصري لن يفقد شخصيته أبداً ، ولن يبيت عالةً على أحد ، فاتق الله في أمتك ، أيها الرجل المفضال ، واحذر من

العودة إلى مثل هذا التجنى المقيت ، فقد نستطيع القول بأن القلوب الصحاح ليست من المرض فى أمان

ولفضيلة الشيخ دراز أن يسمع هذا النذير ، إن أراد !

منارة أبى العباس

من أعظم الأعمال التى قامت بها وزارة الأوقاف تجميل مسجد أبى العباس المرسى بالإسكندرية ؛ فله منارة ستصير عَلَم الهداية للسفن الضوالّ بعد انتهاء الحرب ، وستكون بشيراً لكل قادم بأنه يَفِد على مدينة إسلامية

وإذا تذكرنا أن أبا العباس كان من أعلام الصوفية ، وأن لقبه « المرسى » مُسَمّىً به ألوف وألوف من أبناء الأمة المصرية كان من السهل أن ندرك كيف خصته وزارة الأوقاف بذلك الالتفات !

ولكن بعض الوعاظ الذين آذاهم أن نقول بوجوب زخرفة المساجد ردّوا علينا فى إحدى مجلاتهم بأن مسجد أبى العباس بلغت تكاليفه نحو اثنين من ألوف الجنيهات ، ولو أنفِق ذلك المبلغ فى إعداد طائرات لوَقَى الاسكندرية من أخطار الغارات الجوية !

وهذا كلامٌ معقول ، ولكنه كلام العوامّ الذين يرتدون ثياب الخواص

وكيف تكون الحال لو عمّ هذا المنطق « المعقول » فدعونا الحكومة إلى إلغاء ميزانية المعاهد الدينية لنشترى بها طيارات ودبابات ؟

وكيف تكون الحال لو عمّ هذا المنطق « المعقول جداً » فقلنا إن الأمة لا تحتاج إلى وعاظ بقدر ما تحتاج إلى جنود ، وإن من الواجب أن نأخذ مرتبات الوعاظ لننفقها فى إعداد الجنود؟

وإذا تم هذا ، أو بعض هذا ، فما مصير من يأكلون العيش باسم الدين ، وهتلر — رضى الله عنه أو غضب عليه — يقول : هذا عصر دبابات لا عصر ديانات ؟ حدثونى كيف تصنعون ، إذا عم هذا المنطق « المعقول » فأنا أعرف مصايركم إذا احتكمت الدنيا إلى هذا الميزان المخلول ؟

كان يكفى أن تقولوا إن زخرفة المساجد ليست من تقاليد الدين الإسلامى ، أما دخولكم فى شِماب تحتاج إلى دليل من الفكر والمنطق فهو المأزق الذى أرجو أن تخرجوا منه سالمين ، إن كانت السلامة من نصيب مَن يواجه الشمس بعين رمداء

زكى مبارك

للتاريخ لا للأدب

كارثة دمشق

للأستاذ على الطنطاوى

[يا أيها العرب : إن أجبتم دمشق ، فافهموا هذا الفصل بعقول جيوبكم ، بعد أن تفهموه بعقول رؤسكم ، واعلموا أن القليل إلى القليل كثير ، والله يجزى والناس تشكر ، والساعى فى الخير كفاعل الخير ، والصديق عند الضيق .]

— ١ —

عادت إلينا الرسالة بعد طول الغياب فيا أهلاً بها نجيّة النفس وسميرة الفؤاد، ويا مرحباً بعمادها — ويا ليتها تعود معها تلك العهود ، حين كانت أقلامنا تجرى فيها طليقة من القيود — لم تصبغ بالدم ولم تجعل مدادها من سواد البارود ... ويا ليت أنى حين أكتب اليوم أقدر على اجتناب أحاديث الكوارث والهموم ، فلا أقص على القراء أخبارها ، وأصف آثارها ، فأزيدهم كرباً على كربهم . وحسب الرجل اليوم همه ، وما بلد إلا وفيه ما يغمه ... وما تجمل بنا الشكوى ، لو لا أنها إلى أخ حبيب . ومن للأخ فى الضيق غير أخيه ؟ ومن للشام إلا مصر والعراق ؟ ومن لمصر إلا العراق والشام ، ومن تجمعه بها أخوة الجذم واللسان والإسلام ؟ وكيف السكوت وما حل بدمشق ينطق بوصف هوله الجماد لو كان ينطق الجماد ، وتنفيض له أعين الصخر ، لو بكى الصخر لذى مصاب ...

— ٢ —

كنا نذكر الحرب التى مضت وما حملت إلينا من الجوع والخوف والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، وكيف كان الشعب يموت جوعاً لأن التجار الفجار قد احتكروا خبزه ، فذهب من الناس من ذهب ، لتمتلئ صناديق المحتكرين بالذهب ، ثم لا يجد الأموات قبراً لأن الحرب لم تبق من الرجال من يقدر على حفر قبر . نذكر هذا كله ثم ننظر إلى هذه الحرب فنراها سلاماً علينا وأمناً لم نجع فيها ولم نعر ، ولم تنل منا منالاً اللهم إلا ما نالت بأظافر التجار وأنيابهم ، إذ جعلوا الواحد من ثمن الأشياء عشراً ، وربما بلغوا ببعض الأثمان مائة ضعف : وما قلت السلع ولا تبدلت ، ولكنه الطمع والجشع ورقة الدين وضعف الخلق ! واستمر سعير الحرب ، وانتشرت نارها ونحن لا نعرف مكانها إلا على السماع ، وجعلت تطيف بلهبها بنا ، وتدنو منا ، فامتد لسانها إلى مصر فجزعنا وأشفقنا وكنا مع المصريين بقلوبنا وألسنتنا ، وما نملك لعمرى إلا الألسنة والقلوب ، ثم دنت منا فبلغ لهيبها العراق ، فأقبلنا على العراق بقلوبنا وما جانبت مصر ولا تولت عنها تلك القلوب ، ثم أصبحنا ذات يوم على صوت الراد (الراديو) يقول إن الحرب فى (الكسوة) على أبواب دمشق ، فنظرنا شطر القبلة فلم نجد على جبل (المانع) أثراً لحرب ، فكذبنا وأنكرنا ، فقال العارفون إن المعركة وراء هذه الجبال . وأكدوا ذلك ولكنا لبثنا مكذبين ، فلم تكن إلا ليال حتى بدت فى الأفق القبلى من دمشق ومضات المدافع وسمعنا أصواتها فصدقنا ما قال الرادّ ، وأيقنا أن قد بلغتنا الحرب ، ولكنا لم نكبرها ولم يصبنا الذعر منها ، إذ لم تمسسنا نارها ، ولا أحسسنا أوارها ، ثم دنت منا النار ، وانطلقت المدافع الثقال من قلاع (المزة) و (قاسيون) ، فاهتزت لها دمشق ولكن أفئدة أهلها لم تهتز ، فانطلقوا يؤمون (المهاجرين) يشرفون منها على المعركة وهى دانية منهم وأصواتها فى آذانهم ، وشظاياها عن أيمانهم وشمائلهم . وإنهم لفى إشرافهم هذا ، واجتماعهم فى المهاجرين ، عشية يوم الجمعة ٢٠ يونية ، يتحدثون فى عرض الجيش المهاجم على المقاتلين فى دمشق كفَّ أذاهم عنها ، وتركها (مكشوفة) كيلا تعبث بمحاسنها أيدى الحرب ، فتجمل عامرها يبابا ، وقصورها تلالا ؛ وكيف أبى المقاتلون فعرضوا دمشق بإبائهم للأذى ؛ وما يمنعهم أذاها ، ولا تهدم لهم (إذا هى تخربت) دار يفجعون فى زوج ولا ولد ! وكانت المعركة مشتدة هذه العشية ، وكان الناس مزدحمين ينظرون بجهنم قد فتحت أبوابها وإذا القنابل قد ضلت طريقها فإذا هى تتساقط على (المهاجرين) أجل أحياء دمشق وأبهاها ، فطار الفزع بألباب الناس ، وكانت ساعة الهول التى يستعاذ بالله منها ، وصار الناس كحالهم يوم القيامة ، حين يجد المرء ما يشغله عن أخيه وزوجه وبنيه ؛ فخلفوا الدور مفتحة الأبواب ، واستلموا منافذ الطرق ، مهاجرين إلى (الشام)[1] يعتصمون بالأموى ، ويقيمون فى جواره بعيدين عن مواقع القنابل التى تحمل الموت والدمار . فلا ترى على الطرق

(١) الشام فى الأصل ما يسمى سورية وفى عرف الدمشقيين دمشق . والقسم القديم منها على التخصيص دون الصالحية والميدان

إلا الناس مسرعين بوجوه شاحبة ، وأعضاء من الخوف مضطربة . وربما خرجت المسلمة المخدرة مكشوفة الوجه ، والمدافع تنطلق ، والقنابل تتتالى وتتعاقب ، كالغيث إذا انهمر . . . وكان أمرٌ لا يوصف !

— ٣ —

ثم انسحب جيش ، ودخل دمشق جيش ، وأعلن استقلال سورية ، وانتهت الحرب ، فتنفس الناس الصعداء ، وتذوقوا لذة الأمن بعد الخوف ، ومن كان لجأ من الخوف إلى دمشق من سكان القرى المرزّأة المروعة الذين أكلت الحرب دورهم وغلاتهم سكان : (التكـوة ، والباردة ، والأشرفية ، وصحنايا ، وسبينية ، وسبينات ، والقدم ، وغيرها) من قرى الغوطة التي كانت تنعم بالأنس والدعة في ظلال الأشجار ، فصارت صحراء قاحلة ، لا شجرة فيها ولا دار . وديرا يا قرية للعنب الديراني الذي تباهي دمشق المدن بلونه وطعمه ونبل حبته وجلال عناقيده واتساع كرومه ؛ وجارتها المزّة (جيزة دمشق) وأجمل ضواحيها، استعدوا للرحيل إلى دورهم ومساكنهم ... يحسب المساكين أنها لا تزال لهم مساكن ، ما دروا أن من هذه القرى ما لم يبق منه إلا أطلال ورسوم ... وانطلق الدمشقيون الذين واسوهم في مصيبتهم ، وآووهم في منازلهم يودعونهم بالحفلات والولائم ... فاشتملت الأحياء التي تحف بالأموي نوراً ، وابتسمت سروراً : (القيمرية والكلاسة ، وباب السلام ، وباب البريد ، وسيدي عامود) ، حتى ليحسبها الرائي ترقص طرباً ، وما بها لو حققت من طرب . وفيم الطرب ؟ ولكن مواساة المنكوبين ، وتطييباً لقلوبهم ، وإظهاراً للرضا بانطفاء نار الحرب ، وحمداً لله على ما لطف وسلم ، فكانت ليلة الأربعاء (٢٥ يونية) ، كأنها من ليالي الأعياد ...

وكان أسبق الأحياء في هذا المضمار (الكلاسة) ، هذا الحي الرابض بين الحرمين الأقدسين : مسجد بني أمية الجامع ، ومدفن البطل صلاح الدين (آخذ الدنيا ومعطيها) ، كأنما سرى في أهله رَوْح من رُوح صلاح الدين ، فظهرت على أيدي أهله مدهشات الشهامة والكرم ، حتى لقد آوى رجل منهم واحد سبع أسر في داره ، وأولاهم من بشاشة وجهه وفضل ماله ومسكنه ما لا يمتد إلى أكثر منه جهد مثله ...

— ٤ —

نام الناس هذه الليلة التي حسبوها من ليالي الأعياد آمنين لا يخافون الحرب وقد انطفأت نارها ، ينتظرون بآمالهم الغد القريب ليحمل إليهم السلام والرخاء . فلما كانت الساعة الرابعة (إلا ربعاً) ، وما أذن دمشق المائة والسبعون تصدح (بالتراحيم) الأخيرة ، ولم يبق دون الفجر إلا قليل ، والليل ساكن سكون السحر الفاتن العميق ... وإذا رجة لا توصف قلقلت البيوت فذهبت بها ، جاءت كأنها الزلزال العظيم ، لولا أنها اقترنت بصوت أفاق منه الناس ، وإن أجلادهم ليضطرب في فراشه اضطراب السمكة خرجت من الماء ، ثم أعقبتها رجتان ، ثم جاءت رجة أنست الناس الأوليات فحاروا وذهبت المفاجأة بألباب ذوي اللب منهم وخرجوا من بيوتهم يتراكضون ، وما لأحدهم وجهة ولا مقصد ... ثم انجابت الحال ، فإذا هي طيارة لا يدري أحد موردها ولا مصدرها ... ألقت قنبلتها الأولى على أكواخ في مزرعة عند (جسر تورا) فيها ثلاث أسر في كل أسرة منها أكثر من عشرة أشخاص ، فأبادت الجميع ، وما ثمة مطار ولا ثكنة ولا شيء مما يصح أن يكون لقنابل الطائرات هدفاً ؛ وألقت الثانية على (باب السلام) من أسفل (الجزيرة) فهدمت أربع عشرة داراً (لا شقة) ، والثالثة وقعت على الكلاسة فأبادت الحي كله ؛ ولو زاحت عن موقعها عشرة أمتار من هنا أو هناك ، لطارت بمأذنة العروس أو بقبر صلاح الدين ، ورمت الأخيرة في الحي الجديد في (سيدي عامود) ، الذي لم يكد يبني بعد خرابه ، حتى حمل إليه الدمار في الثانية من حمله في الأولى ، وما في كل ما دمرت الطائرة ولا في جواره ولا قريباً منه شيء من المصانع والمواقع العسكرية ألبتة

وقع ذلك كله في أقل من خمسين ثانية ، لم يمتد إلا ريثما اجتازت الطيارة من أول المدينة القديمة إلى آخرها ، ثم توارت في الظلام كما خرجت من الظلام ...

— ٥ —

أسرعت مع من أسرع إلى مطرح القنابل وبدأت من (سيدي عامود) فإذا القنبلة قد سقطت في وسط الطريق في ميدان صغير يتقاطع فيه شارعان ، فاحتفرت حفرة هائلة ، وتطايرت قطعها وشظاياها ، فأصابت أربع عمارات جديدة مترعة بالسلع التجارية القيمة فضعضعتها وهدت أركانها وأدخلت بعضها في بعض ، وأبادت كل ما كان فيها من سلعة ومتاع ، وأفقرت أسراً الله أعلم بعددها ، وحطمت القنبلة كل زجاج الحي ،

وقتلت رجلاً وامرأتين – وذهبت من بعد إلى (الكلاسة) فإذا هـذا الحى الآمن بأمان المسجد ، القائم فى حمى صلاح الدين ، قد غدا تلاً واحداً كالقبر العظيم كأنه لم يكن منذ ساعات يبسم للحياة ويبسم له المجد ، وكأنه لم يكن منزل الكرام الصيد المحسنين ... وكان للناس مزدحمين يعملون مساحيهم فى هذه الأنقاض فيكشفون عمـا تنفطر لهوله القلوب ، ويلقون من غرائب الحياة ومآسيها ما يخجل أكبر القصاص ويدفعه إلى حطم القلب ، والنساء يولولن يسألن عن زوج ضائع أو ولد مفقود ويقعن على أرجل الكشافة والفعلة وأصحاب المساحى يسألنهم الإسراع بالكشف عمن افتقدن من أقربائهن ، ومنهن من تقبل على التراب تنبش بيديها وهى تعد الدقائق والثوانى تتصور الموت جاثماً على صدر من تحب ؛ فإذا رأت أنها لم تصل إلى شىء وهالها الأمر ، جن جنونها فأقبلت تلطم وجهها وتنشد شعرها . والرجال ... لم يكن الرجال بأجلد من النساء

وكيف يتجلد الرجل ويصبر وحبيبه تحت الأنقاض وكلما مرت لحظة دنا من الموت باعاً ، كيف يصبر وهو يظن أن فى يده حياته ، وكيف يعيش من بعده إذا توهم أنه هو الذى قتله بتقاعسه عن إسعاده ؟

إن الذى رأيت فى الكلاسة من الفواجع والمآسى لا يقدر على وصفه لسان ولا قلم ، والحفارون خلال ذلك يخرجون جثة من هنا وجثة من هناك ، فينادون عليها ليعرفها من يعرفها . ولقد وجدوا جثثاً مشوهة لم يعرف أصحابها ، ووجدوا ساعداً مبتوراً لم يدر من صاحبه ... وهذه امرأة حديثها عجب من العجب ؛ فقد كانت تنام بين ولديها فلما سمعت الرجفة نهضت وكل عرق منها يرتجف كأنه ريشة فى مهب الريح فوجدت الظلام من حولها دامساً طامساً ، فمدت يديها تتلمس ولديها فوقعت على الرضيع ولم تقع على الآخر ، فتحسست مكانه فإذا يدها على جذع من الخشب وسط تراب منهار ، فنهضت كالمجنونة فاصطدم رأسها بشىء قريب حسبته السقف فازداد جنونها ولم تدر أهى فى يقظة أم فى حلم ، فأخذت بيد ابنتها التى ما ينقطع بكاؤها وقبعت فى فراغ وجدته . وكان ينتهى إلى سمعها صدى طرقات بعيدة كأنها آتية من قرار سبع آبار ، ثم رأت حين ألفت عيناها الظلمة ، كأنما هى فى مغارة من مغارات الجن لا باب لها ولا كوة ، ثم أنها من ضيقها كالقفص ، فأقبلت تضرب بيديها ورأسها ، والتراب يتساقط عليها حتى وجدت بصيصاً من النور ، وازداد صوت الطرق وضوحاً فى أذنيها ، وتسرب إليها الهواء بعد أن كادت تختنق ، فأغمى عليها ولم تفق إلا فى المستشفى ورضيعها إلى جنبها ، وولدها الآخر وزوجها تحت الأنقاض

وهذا هو الأستاذ المصور (أ ...) يفتش عن ولده الحبيب ، وقد جحظت عيناه من الذعر ، وتبدلت حاله ، وصار لون خديه كقشرة الليمون ، وهو يستحث الحفارين ، ويضرب بيـديه التراب ... هنا ابنه ، ولده الحبيب ! يا أيها الآباء ! جاء به من المهاجرين يوم الروع ليودعه المكان الآمن عند جدار المسجد ، عند قبر صلاح الدين . ومرت ثلاث ساعات كانت عليه وعلى الشاهدين كأنها ثلاثة عصور ؛ ثم انكشف الردم عن نصف غرفة وإذا الولد فيها وهو حى ، لكن ذراعه تحت الردم ، وهو يصرخ : أبى ، ارفعنى ، ارفعنى يا أبى . فلما سمع الأب صوته وثب إليه يعانقه وهو يبكى ، وكل عين ثمة تبكى ... ولـكن كيف يرفعه وفوق ذراعه كل تراب ؟ وأقبلوا ينقلون التراب والولد يصيح صياحاً جعل أباه يفكر بإنقاذه ولو بقطع يده ، أسمعتم ؟ وإنهم انى ذلك وإذا بجذع يهوى على رأس الصبى فيقتله حالاً

وها هنا طفل رضيع يجدونه حياً يمتص من ثدى أمه الميتة . حقائق لو كانت خيالاً لـكانت من أغرب الخيال

ولما انصرفت من (الكلاسة) أخذ بيدى صديق لى وأنا لا أبصر من الأسى والحزن طريقى فقال : إن ما رأيت ليس بشىء . إن أحببت أن تنظر إلى أفظع عدوان وأشق ضحية وأروع مشهد ، فتعال معى إلى باب السلام ، فلقد أخرج منه إلى الآن (الضحى) سبعة وعشرون قتيلاً ، فنترت يدى منه ولم أجب !

— ٦ —

وانجلت الغارة عن ثمانية وعشرين منزلاً أضحت خرائب وتلالاً وواحد وسبعين قتيلاً . ثلاثة أرباعهم من النساء والأطفال ، ونحو من خمسين جريحاً لا يكاد يعيش منهم أحد ، ما قتل هؤلاء

صفحة من كتاب

« مرارة اليتم »

[مهداة إلى الصديق المفجوع بوالده]

للأستاذ شكري فيصل

— ١ —

حين مددت يدي أمس إلى ساعي البريد لم أدر سر هذه الخفقة المنيفة التي اضطرمت بها جوانحي فانتفضت معها انتفاضة المذعور ، ووجدت في نفسي ألواناً من الأحاسيس لم أتمالك أن أسكن إليها ، أو أطمئن معها ، أو أدرك سر التأثير فيها ... فلقد فاضت بين جنبي لاهبة مستعرة ، فإذا أنا أصلى بلهبها ، وأ كوى بلفحها ، وإذا كياني كله جمرة متقدة في أتون من اللظى والنار

ولم يكن ذلك من عادتي في شيء ... لشد ما كنت أضحك للساعي وأطرب له ... ولشد ما كنت أقبل عليه وأدنو منه ... لقد كنت ألقاه بالأمل الطروب الذي ينساب ابتسامة عريضة ، وتحية مرحة ، ولقاء حلواً ... وكنت أرقب موعده ، وأنتظر مقدمه ، وأعد له الساعات ؛ فليس أحب إليّ من الساعة التي تصافح فيها يداي هذه « الرسائل » ، أنسم فيها عبير الوطن ، وأنعم بدنيا الأهل ، وتنسق لي الذكريات اللطاف ، وأعيش في هذا العالم الندى : نشوان بالرؤى الحالمة ، ثملاً بالأماني الناعمات .

ولكن كان لي في أمس شأن آخر ... لم تتفتح شفتاي عن التحية الحلوة ، ولم تنطلق في دنياي البسمة الطروب ، ولم تشع في وجهي قسمات الأمل . كان كل شيء في نفسي يهتز ويضطرب كأنما كان ينشر في السماء الصافية أمواه السحاب وأمواج الضباب ، وكأنما يبث في العالم الهادئ الآهات الصاخبة والنفثات الناضبة . وكانت تطيف بي طوائف كابية معتمة لا أتبين معها وجه النور ، ولا ظلمة الغسق ؛ ولا أدري لمـا عبق الأمل أو مرارة الواقعات ، ولا أحس أهي نذر الشر أو بشارات الخير !

وحين أخذت أنزع هذا الغلاف الرقيق لم أدر أين أبتدأ منه . كنت كلما أمسكت بطرف منه توليت عنه إلى طرف آخر ؛ فإذا الكتاب يضطرب بين يدي ، وإذا أنا أدور معه كالخابط في الليلة الظلماء لا يدري أين يضع قدمه لأنه يخشى أن تزل به ... لكأني كنت أخادع نفسي فلا أفجؤها بالآهة الحرّى والدمع الهتون

— ٢ —

وأخذت أقرأ من هنا وهناك لم أبتدئ مع الكلمات الأولى كما يفعل الناس ، لأني لم أك أملك الإرادة الهادئة والطبع المتزن . ولكنما كنت أعدو وراء الكلمات وأمضى في ثنايا الأسطر ، لألقى الشر وأجد خبر المصيبة

إن الفراشة الوادعة ليست هي وحدها التي تسعى إلى النور لتلاقي حتفها فيه ، ولكننا في ساعات المصيبة أشبه بهذه الفراشات ؛ غير أننا نتداعى في قبور الظلمة ومسارب الكهوف لتلتهمنا الآلام الفواجع

— ٣ —

لقد عرفت في كتب صاحبي أناقة الصورة وجمال المظهر :

في المعركة الحمراء ولا سالت نفوسهم على ظُبى الأسنة ، وشفرات السيوف ... ولو واجههم العدو في حومة الوغى لوجدهم فرسانها وسادتها ، ولكنه أخذهم غدراً وعدا عليهم وهم آمنون في فرشهم فأخذ الرجل من جنب زوجته وولده ، أو قتلهم جميعاً لم يتورع عن قتل النساء ، ولا عن ذبح الدراري ، ولم يكسر عليهم الأبواب ويدخل دخول الغاصب القوي ؛ ولكنه مرّ في السدفة الحالكة مرور اللص الجبان ، فراغ عن مواطن الجندية ومنازل الكماة لأنه ليس من أكفائهم ، وتخير هذه البقع الآمنة حول بيت الله فصب عليها كل ما في النفوس الشريرة من خسة ودناءة ، ولعله أراد بنيرانه بيت الله ، أو لعله أراد بها قبر السيد الذي علم قومه كيف يكون النبل

فيا رحمة الله على النبل وأهله ، وسلام على هذه الأرواح الطاهرة ، وعلى الظالمين لعنة الله

علي الطنطاوي

وكنت أجد فيها مرح الطفولة وعبث الصبا؛ وكانت تنشر لعيني ذكريات الماضي وأصداء السنين. لطالما هدأت إلى ظلالها الوارفات بعد الطواف البعيد! كانت أشبه بالزهرة الفواحة التي تتفتح عنها نفس يهزها الأمل، ويحدوها الرجاء، وتزدهر من أمامها مسالك الحياة... ولكنها اليوم شيء آخر، لقد عصفت بها العاتيات فعرتها من الجمال الضافي، وسطت عليها لفحات النار فذهبت بروائها الزاهي... لم يعد كتاب صاحبي إلا الهشيم الذي تذروه الرياح الهائجة: تلطمه بالمصيبة، وتصدمه بالفجيعة، وتنال منه بالحزن

وفي طرف منه جمدت عيناي ويبست أطرافي. كان يهتز في يدي كما تهتز الأوراق البالية في أعقاب الشجرة الضخمة، فتسمع لها حشرجة الروح، وأنين الاحتضار... لكأن كلمة الموت التي طرقت مسمعي فيه، قد ملأت كل كياني، فإذا أنا وهذه الدنيا من حولي هامد همود الجثة. صامت صمت الموت... موحش إيحاش القبر

— ٤ —

يا للمساكين الذين تنالهم الدنيا بأحزانها السود، وتنشب مخالبها الحادة في أجسادهم الطرية الرخوة... إنهم لم يستكملوا بعد ريعان الفتوة وزهرة العمر وربيع الشباب، ولكن الحياة تريدهم على أن يجدوا الربيع القاحل، والزهر الآفل، والريحان الماحل... إنها لتريدهم على الحزن، ولتضطرهم إلى البكاء حين تضحك السماء وتبتسم الأرض... لا تبالي هذه القلوب الساذجة الضاحكة، ولا تأبه لهذه النفوس الخيرة النبيلة، ولا يعنيها أن تلطم باليتم فتياناً عرفوا الحياة نعيماً وأملاً وجنة

يا ويح اليتيم... كان بالأمس ينشأ في أيام من الورد والسوسن، وفي أجواء من العطر والزهر، وفي دنى من النعيم والسحر؛ ولكنه اليوم يغمض لهول المصيبة عينيه، ويصم أذنيه، ويطرق برأسه. فإذا أفاق وأصغى ونظر فلن يجد إلا الصحراء والظلماء والبأساء؛ لأن الدنيا عدت على عالمه الهانئ فذهبت بعطره وسحره، وعقت على جنانه الناعمة فذهبت بورده وزهره، ودفنت عرائسه المائسات في قتام العاصفة، وتركت له أغصان الأسى ينثرها بيده على الهيكل الحبيب والقبر الخصيب

— ٥ —

لم أعد أستطيع أن أقرأ، لأن الدموع التي كانت تتفرح عنها جفوني غشت عيني؛ فإذا أنا أهيم في أودية مرعبة من الحسرة الممضة والألم العميق

وإني لألمح صديقي فما أملك أن أطيل النظر إليه والتأمل فيه. لقد عرته الدنيا من نعمة الأبوة، كما تعرى الزهرة الناشئة من أوراقها الخضر؛ فما يملك أن يرد عن نفسه المكاره العاديات

لشد ما يبعث الأسى هذا اليتم المفاجئ في الليالي السود، ينتزع النعمة الرافلة، ويتعقب الهناء الوارف، ويبدد الحلم السعيد، ويسوق هؤلاء المساكين الفتيان وهم في غضارة الصبا وطراوة الشباب، إلى دنيا من الهموم والكآبات

ولكن لا عليكم أيها الشباب الذين يفقدون آباءهم في أحلى ساعات العمر وأجل أوقات الحياة، ويتطلعون حولهم فلا يجدون القلب الذي ينهلون منه، والساعد الذين يتكئون عليه، والصدر الذي يدفنون وجوههم فيه، لأن الآلام البكرة ليست إلا السحاب الجون يفيض أمطاراً ومياهاً ليغسل الأدران، ويطهر الأجواء، ويصفي النفوس

«القاهرة» شكري فيصل

الوحدة العربية ووحدة اللغة

للأستاذ يوسف كمال حتاتة

استمر حكم العرب فى الأندلس ثمانية قرون من عام الفتح (سنة ٩١ هـ) إلى العام الذى سقطت فيه غرناطة سنة ٨٩٧ هـ)

وكانت فى الأندلس سبعمائة مكتبة عامة يرتادها الناس لدراسة أنواع العلوم وبينها مكتبة قرطبة التى كانت تحوى نصف مليون كتاب

فلما دالت الأيام وأخرج العرب من ديارهم أحرق أعداؤهم الكتب التى ألفوها وبقيت البلاد ترسف فى قيود الجهل وأصبحت كلمة كتاب إحدى الجرائم التى ينبغى الحذر منها ، وظلت مدريد - عاصمة الحكم الذى خلف حكم العرب - لا تضم مكتبة عامة واحدة إلى القرن الثامن عشر الميلادى

فى هذه الفترة كان المتحدث عن نظريات نيوتن وابن رشد يساق إلى محكمة التفتيش فتحكم عليه بالموت بعد التعذيب ، والتعذيب هو قطع الأرجل والأذرع فى شريعة القساوسة ؛ أما الموت فهو إلقاء المحكوم عليهم فى التنانير المسجورة

فى زمن عبدالرحمن الناصر لدين الله كان المبشرون يقفون أمام جامع قرطبة الكبير ويخطبون داعين الناس إلى اعتناق الدين المسيحى فى أثناء اجتماع المسلمين لصلاة الجمعة ، وكان الخليفة يسمعهم فلا يقول لهم كلمة ولا يأمر رجال شرطته باعتراضهم أو الوقوف فى طريقهم

هذا فى الأندلس ؛ أما فى بغداد فقد وضع الرشيد جميع المدارس فى مملكته تحت رقابة يوحنا بن ماسويه الشهير ، وكان الإشراف على أمور التعليم فى الدولة العباسية يفوض تارة إلى النسطوريين وطوراً إلى اليهود

وكان جيورجيس الجنديسابورى طبيباً للمنصور ، وقد علت منزلته عنده ، وسبب ذلك أنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى فأشفق عليه المنصور وأرسل إليه ثلاث جوار حسان فردهن وقال : « إن دينى لا يسمح لى أن أتزوج غير زوجتى ما دامت حية » فأعلى المنصور مكانته وقدمه حتى على وزرائه . ولما مرض أمر المنصور بنقله إلى دار العامة وخرج إليه ماشياً يسأل عن صحته فاستأذنه الطبيب فى الرجوع إلى بلده ليدفن مع آبائه فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة فقال له :

رضيت أن أكون مع آبائى فى الجنة أو فى النار

فهش له المنصور وبش وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار ، وهو المنصور المشهور بالإمساك وكزازة اليد

على أن هلاكوخان الوثنى قد أمر بإلقاء الكتب العربية فى نهر دجلة ، فقضى على مدنية بنى العباس بعد تقويض عرش خلافتهم التى استمرت من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٦٥٦ هـ

فأنت ترى أن هلاكوخان التترى الوثنى لم يعمد لتقويض بنيان الدين الإسلامى ، ولكنه أراد القضاء على لغة العرب ومدنيتهم فى العراق ، وحذا حذوه قساوسة الأسبان فى الأندلس الشهيدة ، لأن الأمة تحيا وتموت بحياة لغتها وموتها . أما كتاب الله وسنة نبيه، فإن هلاكو خان التترى الوثنى وقساوسة الأسبان الذين هدوا هديه فى الأندلس كانوا يعلمون أن المصاحف وكتب الحديث قد انتشرت فى جميع المشارق والمغارب فى بلاد فارس وفى الهند وبلاد الجزيرة العربية وجاوة وبخارى وما إليها .

عندما ضمت ولاية الألزاس إلى ألمانيا بعد حرب السبعين الأخيرة ، قام أحد المدرسين الفرنسيين فى تلك المنطقة الشهيدة إذ ذاك بين تلاميذه وقال لهم : إن درسى هذا هو آخر الدروس التى ألقيها عليكم . فإذا أردتم أن تحتفظوا بفرنسا فى قلوبكم ، فلا تفرطوا فى لغتها

والوحدة العربية التى استشهد الحسين بن على رافع علمها فى سبيل الذود عنها وأضاع ماله وتاجه ، هذه الوحدة التى يدعى لها العرب وعلى رأسهم صاحب السمو الأمير عبدالإله حفيد الحسين، لا يقدر العرب على الوصول إليها — على الرغم من الجهود المبعثرة التى يبذلها أصحاب الزعامات الزائفة الذين يشبهون الذباب الملوث فى الإناء الطاهر — إلا إذا وحدنا لغة الجرائد والمجلات ، ليفهم ابن العراق وابن اليمن والحجاز ونجد وفلسطين ودمشق ما يكتبه ابن مصر

لو عرف الرجل الذى ناطوا به قتل اللغة العربية فى مصر وحكموه فى وزارة المعارف المصرية من عام ١٨٩١ إلى عام ١٩١٩ أن جماعة من تجار الأدب الزائف والثقافة العرجاء ، سيصدرون هذه المجلات التى يكتبونها بلغة طمطمانية ، لا تمت إلى العربية الصحيحة بصلة ويحشونها بمقالات لا صلة لها بالأدب ولا بالتاريخ

ولا يعلم من العلوم الحديثة ولا القديمة ، ليبرأ ذمته من جناية قتل اللغة العربية فى مصر وتخلص من لعنة التاريخ الأبدية ، لأن هذه المجلات قد قضت على اللغة العربية وهبطت بها إلى أقصى دركات الحضيض فخدمت الاستعمار وقضت على الوحدة وعلى الأخلاق

وهذه الكتب التى تدرس فى المدارس التابعة لوزارة المعارف ما قول صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا فيما حوته من الأغلاط اللغوية والتاريخية ، فقد أحصيت فى أحدها ثلاثمائة غلطة لغوية وتاريخية تكاد تخرج الكتاب من حظيرة الكتب التى يشرف على انتخابها عدد من العلماء ، على رأسهم هيكل باشا المشهور بغيرته على لغة الضاد ومحاولته إحياءها بعد موتها

وإنى لا أتحدى أحداً إذا طالبت إلى معاليه الرجوع إلى سجلات مخزن كتب وزارة المعارف فى زمن إدارة « المستر دجلاس دنلوب » ورؤية أسماء الكتب التى أمر ببيعها بالقنطار فبيعت بأبخس من ثمن الورق قبل الطبع ؛ إنه إذا فصل فسيرى بين هذه المجلدات التى بيعت بالقناطير عدداً كبيراً من الكتب اللغوية القيمة مثل : القاموس ولسان العرب وصحاح الجوهرى ، ومن الكتب النحوية التى لا يوجد نظيرها من المؤلفات الحديثة فى مكاتب مصر ولا بين كتب التدريس

وهذا معناه أن يد هلا كوخان أو يد عضو محاكم التفتيش قد حاربت ثقافة مصر من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩١٩ ، فإذا كان العرب يريدون الاحتفاظ بمجدهم ، فإن الواجب يحتم عليهم حفظ لغتهم ، وهذا لا يتم إلا بنبذ المجلات الموبوءة ، والاعتناء بتصحيح لغة كتب التدريس

كان صاحب الجلالة المغفور له على الأول ملك الحجاز السابق ووالد صاحب السمو الأمير عبد الإله الوصى على عرش العراق اليوم يقيم فى حى الكرادة على ضفة نهر دجلة فى مدينة دار السلام ، وكنت أيمم قصره فى كل يوم فأرفع إلى جلالته خلاصة الجرائد العربية والتركية وأحمل بعضها معى لإعادة قراءتها عند عودتى فى المساء . وفى أحد الأيام قرأ أحد أصدقائى جريدة هزلية تصدر فى مصر ودسها فى الجرائد التى تأبطتها ودخلت على الملك الوديع فوجدته منفرداً فى بهو الاستقبال .

وبعد حديث قصير أمرنى بقراءة مقال لى قد نشرته جريدة العراق فى ذلك اليوم فقرأته . وفى هذه الأثناء انتثرت الجرائد التى أحضرتها بسبب الهواء المتسرب فى النافذة المفتوحة وسقطت على الأرض ، وكنت قد وضعتها على مقعد بالقرب من جلالته ، فرأى الجريدة الهزلية وسألنى عن مصدرها وخطها ، وأخذت فى قراءة أحد فصولها ، فأتممت قراءته وشرعت فى قراءة فصل آخر ، وتراءى لنا صاحب السمو الأمير عبد الإله فأومأ إلىّ جلالته بطرفه فأخفيت الجريدة وغيرنا مجرى الحديث . وعرف الأمير الفتى أنه قد نَجِيَا أنا فى خلوتنا فسلم وودع ولم يزد على قوله لكاتب هذا المقال : جئت للسلام عليك وقد قرأت مقالتك اليوم فى جريدة العراق فاسمح لى بالانصراف لأنى ذاهب إلى المدرسة .

وبقيت مع جلالة والده فقال لى بعد انصراف ولده وهو يشيع سيارته بنظراته من نافذة القصر :

— لقد فطنت لما أشرت به إليك ، لأنى لا أقرأ ولا أريد أن يقرأ عبد الإله الجرائد والمجلات التى تنهش الأعراض ؛ وهذه هى المرة الأولى التى منيت فيها برؤية جريدة من هذا النوع

فقلت لجلالته : إن هذه الجريدة قد دست فى جرائدى ولم أرها إلا بعد شروعى فى القراءة ، ولو عثرت عليها قبل دخولى من باب القصر لحرقتها وذريت رمادها فى الهواء ، لأن هذا النوع من الجرائد لا فرق بينه وبين جراثيم الأمراض الوبائية .

ومضى جلالته فى حديثه فقال :

— يقول لك عبد الإله إنه قد قرأ مقالاتك فى جريدة العراق وقد رمى بقوله عصفورين بحجر ، فقد أذنت له فى قراءة الجرائد التى تنشر مقالاتك لا غيرها ، لأنك لا تتعثر فى الأغلاط اللغوية ولا تدنس قلمك بالمُجر من الألفاظ التى تجرح العواطف ولا تغالظ لمناظرك فى القول ، وهذا ما حدا بى إلى النصح لعبد الإله بقراءة ما تكتبه فى الصحف وما تختاره له من الكتب .

فقلت لجلالته : إن المتنبى حكيم العرب وشاعر الأجيال يقول يا صاحب الجلالة :

وكل يرى طرق الشجاعة والندى ولكن طبع النفس للنفس قائد

ويقول أرسطاطاليس إن الفضائل ليست طبيعية فينا ، وإلا عجزنا عن تغيير طبائعنا ؛ فالمادة لا تستطيع أن تغير ما هو فطرى ، مَثلُ ذلك مَثلُ الحجر الذى يهوى بطبيعته إلى أسفل فإنه لا يمكن أن يتعود الصعود ولو حاول به المرء ذلك ألف مرة ؛ وكذلك النار فطرتها الصعود بلهبها ولا يمكن أن تتجه إلى أسفل ؛

وليس فى الوجود جسم واحد يمكن أن يفقد خاصته التى تلقاها من الفطرة ليستبدل بها عادة غيرها

والأمير عبد الإله كريم الطرفين هاشمى الأبوين لم أره مرة مازحاً ولا عابثاً . ولقد تقدم إلىّ يوماً فى طلب كتاب قراءة ليتفكه به فى أوقات فراغه فبحثت فى خاطرى وتخيرت لسموه كتاب كليلة ودمنة وأحضرت له نسخة من الطبعة التى صححها الشيخ خليل اليازجى لخلوها من الأغلاط اللغوية . وبعد قراءة بعض فصولها قال لى : إنه يميل إلى مطالعة الكتب الأدبية واللغوية والتاريخية فأحضرت لسموه شرح ديوان أبى الطيب وفقه اللغة وسر العربية للثعالبى وحاولت أن أردفهما بكتاب أدب الكاتب لمؤلفه أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة

بيد أنى أردت تمحيص أدب الكاتب لأعرف هل هو من سقط المتاع ، أو من البضاعة التى تساوى ما سيبذله الأمير من وقته الثمين فرأيت صاحب أدب الكاتب يقول : (ومن ذلك القافلة يذهب الناس إلى أنها الرفقة فى السفر ذاهبة كانت أو راجعة ، وليس كذلك إنما القافلة الراجعة يقال قفلت فهى قافلة ، وقفل الجند من مبعثهم أى رجعوا ، ولا يقال لمن خرج إلى مكة من العراق قافلة حتى يصدروا)

والقاموس يقول : « والقافلة الرفقة القفال والمبتدئة فى السفر تفاؤلاً بالرجوع »

ويقول فى « باب ما لا ينصرف » وما كان منها على ثلاثة أحرف « يريد ما كان من الأسماء » وأوسطه ساكن فإن شئت صرفته وإن شئت لا تصرفه . قال الله عز وجل : «أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين » وقال تعالى : « اهبطوا مصراً » انتهى قول ابن قتيبة . وهذان المثلان يثبتان أن ابن قتيبة يجهل أسرار اللغة العربية ، فالقاموس يقول المصر الكورة ، والكورة هى المدينة ، فقوله فى الآية لبنى إسرائيل الخارجين من مصر فى طريقهم إلى بيت المقدس (أدخلوا مصراً) معناه أدخلوا إحدى المدن ؛ وقوله تعالى فى الآية (٩٩) من سورة يوسف عليه السلام « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » يريد به مدينة مصر عاصمة وادى النيل واسمها هنا ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ؛ أما فى الآية الأولى فإن العلتين قد زالتا فلا علمية ولا عجمة والاسم فى قوله تعالى : « اهبطوا مصراً » عربى نكرة ولكنه علم أعجمى فى سورة يوسف ؛ وعليه فإن ابن قتيبة قد أخطأ فى التمثيل ولو تمثل باسم غير هذا الاسم مثل (هند) و (دعد) لأصاب لأن العلم الثلاثى الساكن الوسط يجوز فيه المنع والصرف إذا كان غير أعجمى ولا منقول ؛ أما مصر فى الآية الواردة فى سورة يوسف فإن فيها العجمة والعلمية

ويقول ابن قتيبة ويقال : (شتان) ما هما بنصب النون ، ولا يقال شتان ما بينهما ! والقاموس يقول : (وشتانَ بينهما بفتح النون وما هما وما بينهما وما عمرو وأخوه أى بعد ما بينهما)

ويقول ابن قتيبة فى أدب الكاتب : « ورجل منهوم من الطعام ولا يقال نهم » والقاموس يقول : (نهم ونهيم ومنهوم) ، وفى أدب الكاتب أغلاط لا أضيع الوقت بذكرها

ويسرنى أن سمو الأمير قد ذكر لى سبب رغبته عن قراءة كتاب كليلة ودمنة فقال : لقد برمت بما فيه من القصص المتشابكة والإطالة المملة على الرغم من جزالة ألفاظه وسلامة عباراته ورقة أسلوب كاتبه وبلاغة إنشائه الذى هو من نوع السهل الممتنع

وآن وقت الغداء فتغدينا وودعت جلالته وانصرفت

يوسف كمال حتاته
عضو المجمع العلمى بوزارة المعارف فى الآستانة سابقاً

فن تيمـــور

للسيدة الفاضلة وداد سكاكيني

كان الفن القصصي في نهضة أدبنا الجديد أطيب ما أثمر وأينع في إنتاج الأدباء المحدثين ؛ ولا ريب في أن القاص المصري الشهور محمود تيمور كان سباقاً لمفارس القصة ومجانيها ، ولا يزال في طليعة أدبائها الذين توفروا على إنشائها وممارستها على ضوء القواعد التي أجمع على مراعاتها قادة الأدب وأهل الفن

إن في قصص تيمور دنيا العالم الذي يعيش فيه ، فقد سبر هذا الأديب أغوار الحياة ومعايش الصعاليك والشذاذ ، وارتفع إلى قمة الحياة فعرف أهل السرف والترف وما يدور في دنياهم الطافرة من سعادة وشقاء . وإنك لترى في صنعه المتقن مدينة من القصص ، فيها صور الصروح شامخة الهامات متلألئة الثريات ، وفيها تماثيل الأكواخ مفروشة بهلاهل الحصير تترجح في ظلماتها سرج مختنقة الأضواء

ومن يقرأ تيمور في قصصه الحديثة يجدها متنوعة الألوان ، محيطة بمعالم الإنسانية التي تحمل مياسم الشرقيين العرب ، فلم تبق إقليمية محلية مقتصرة على طابع واحد ، وإنما أخذ فن مؤلفها ينمو ويتطور ويتجه صوب النفس الإنسانية ، غائصاً على أسرارها مستجلياً خفاياها . وإنك لتراه أيضاً يلقي النور في بعض أقاصيصه على كثير من مشاكل العصر ومعضلات المجتمع ، وكأن آثاره النبوعة عاصمة من عواصم الفن ، شيدها تيمور بك على ضفاف النيل ، لم يسمع بها خوفو ولا حوتها طيبة . وإن من الكتب ما يبقى على وجه الزمان أكثر من المدن الشيدة بالحجارة والحديد . فليكن كلامي على آخر إنتاجه « مكتوب على الجبين » ففي هذا الكتاب اكتمل الفن واستقام الأسلوب

بدأ القاص كتابه بمقال حافل عن فن كتابة القصة أو كيف يعالج القاص كتابة قصة فنية ؛ فبين في فاتحة كلمته أن الموهبة والقواعد أمران لا بد منهما للقصصي كالشاعرية وصحة النظم للشاعر . وهنا طفق يفيض في أصول القصة ومميزاتها التي تبصر القصصي وترشده إلى أسرار الإبداع ، ثم عرض لأنواع هذا الفن وأسمائه من ناحية الأسلوب والموضوع ، وما يدلان عليه في أدب الفرنجة ، وانتهى إلى بسط العناصر التي إذا جرى عليها القاص برزت قصته ناطقة بالحياة منطبقة على أوضاعها وأطوارها ، فجاءت هذه المقدمة درساً قيما في فن القصة يجدر أن يلم به كل من أوتي الموهبة التي تمده لمعالجة هذا الفن

* * *

لا تثريب على « الشيخ غيث » فلقد مهدت له أم حسن سبيل الغواية والمعصية ، وكأني أشهده الساعة وهو يداعب بأصابعه لحيته المستديرة ، ويستمع للحوار الذي دار بينه وبين زوجه السليطة اللسان المتشاجرة مع الجيران ؛ حتى إذا سافرت هذه للريف وقف الشيطان بينه وبين خادمته جليلة التي أخذته بنظراتها الغاوية ، فانحلت مناطق تفكيره ، وجعلته يفسر آي القرآن كما شاء هواه ؛ ففي هذه الأقصوصة ترى رجل الدين الذي يتصنع الوقار والتقوى ، ولا يلبث أن يهوي في قرار سحيق من الخطيئات

وإني لأتساءل : ما حال « بسمة اللبنانية » بعد أن هامت على وجهها ، فهي مذ حلت في فندق الشمال من لبنان خفت إليه مواكب الطرب ، ولمت فيه الأعين بالجذل ، وفاضت الوجوه بالمرح . لكن ذلك الفتى الفنان الذي حل بالفندق على حين غفلة سلب بغنائه لبها وصهر بحبه نفسها ، فأحال خفتها رزانة وضحكها بكاء حتى كان مآلها الاختفاء

هكذا تتعاقب في ذهني صور هذه المجموعة التي اشتملت على أربع عشرة قصة ، فأحدث عنها كأنني رأيت أبطالها وعرفتهم ، لأن المؤلف قد استمد حوادثهم من الواقع الذي هو ملء سمعه وبصره ، وأفاض على تلك الحوادث من تهاويل الخيال دون كلفة ولا ابتذال ، فلم تصطدم بما يخالف العرف والذوق ، ولا ندت عن العادات والشرائع ، وإنما كانت المثال الحق للقصة الحديثة . على أن ما يلفت النظر ويسترعي الإعجاب في هـــذه المجموعة ظاهرة فيها جديدة لم أكن لأراها فيما سبق من آثار الأستاذ تيمور بك ؛ تلك هي صقال الإنشاء ، وبراعة السبك في الأسلوب ، والطرافة في الأداء والحوار ، وهذا يفسر استماع القاص الموهوب صاحب المجموعة لبعض الناقدين ،

كبرياء !...

للأستاذ صالح جودت

أجلْ أنتِ فاتنــــة ، إنما — أرى عزة النفس لى أفتنا
وإنْ كان عندكِ سحر الجمال — فسحر الرجولة عنـدى أنا
وإنْ كثرتْ فى هواكِ القلوبُ — فذلك من بعض ما عندنا
وإن غرَّروكِ بحلو الشباب — فإنّ الشباب قريب الفنا
وعينيكِ، والخصلِ الحالكات — كأنى بهـا خُلقتْ مُوهنا
وحمرةِ خديكِ فى سُمرةٍ — كحلو النبيــذ رقيق الجنى
يحبكِ قلبى ، ولـكنه — يخاف العواقبَ إن أعلنا
فيكتم عنكِ شؤونَ الهوى — ويُظهر غـير الذى أبطنا
وأنتِ المنى ، غير أنى امرؤٌ — يذلل للكبرياء المنى
ويكره فى الحب بذلَ الدموع — وبسط الخضوع وفرطَ الضنى
إذا المرء هان على نفسه — يكون على غـيرها أهْوَنا
وذلُّ الرجال لوجه الجمال — كذلِّ الضمير لوجه الغني
وإنى امرؤٌ حررته الحياة — فـكيف ترومين أن يُسْجَنا
وهذا الدلال وهذا الضلال — حبيبا الشقاء عَدُوّا المنا
فلا تجعلى من غرور الأنو — ثة باباً يســدُّ الهوى بيننا

صالح جودت

إذ كانوا يرون فى أسلوبه وهناً يمدونه غضاضة فى فنه ، فصح عنده أن سمو الآثار الأدبية والفنية لا يقوم على المعانى وحدها ، وإنما يعوزه المبانى المرصوصة الجميلة ؛ فما خلد الكتاب إلا أساليبهم ، ولا جرم أن الأديب الذى لا يتقدم ولا يتجدد يكون غير مبدع ، لأن من سنة الإبداع التطور والتحرر من كل ما يعوق الفن عن التحليق ، ويطرف الأدب بجدة القرائح ورصانة التعبير

إن أدبنا الجديد مدين للقاص المطبوع محمود تيمور ولأنداده أعلام القصة فى بلاد العرب بهذه النهضة الأدبية التى ما زالت مشرقة الأسارير ، وضاحة المعالم على الرغم من توالى الخطوب وجهامة الزمان

وداد سكاكينى

ليالى القاهرة

الميعاد الضائع

للدكتور ابرهيم ناجى

يا مَنْ طوَاها الليلُ فى ظَلْمائِهِ — رُوحًا مُفزَّعَةً عَلَى بَيْدَائِهِ
تتلفتين إلىَّ فى أنحائه — لَهَفَ الفُؤادِ عَلَى الغَريبِ التّائِهِ !

إنْ تَظْمئى لِى كَمْ ظَمِئْتُ إليكِ — جَمَعَ الوفاءُ شَقِيَّةً وَشَقِيًّا
يا مُنْيَتِى قَسَتِ الحَياةُ عَلَيْكِ — وجرَتْ مَقادِرُها الجِسامُ عَلَيَّا !

إنِّى الْتفتُّ إلى مكانِكِ والمُنَى — شُلَّتْ وَقلبى لا يطيقُ حَرَاكا
فصرخْتُ يا أسفا لقدْ كانتْ هُنا — لِمَ عاقَنى القَدَرُ الخَئُونُ هُناكا !

عَبِسَتْ وَسوَّدَتِ السَّماءُ ظِلالَها — فكأنَّ عِقبانًا تَحُطُّ رِحالَها
وكأنَّ أطوادَ السَّحابِ حِيالَها — أرسَتْ عَلَى الكَتِفِ الضَّنِيْنِ ثِقالَها

تَستصرخين لكِ السماءَ وقدْ خَبَتْ — وطوتْ بَشاشَةَ كُلِّ نجمٍ مُشرِقِ
إنْ خِلتِها استمعتْ إليكِ وقارَبَتْ — ألفيتِها صارتْ كَلَحْدٍ ضَيِّقِ

يا مَنْ هربتِ مِنَ القَضاءِ وصَرْفِهِ — عجبًا لِهاربةٍ تلوذُ بهارِبِ !
إنَّما هَوى نَجمٌ وَمالَ لِضَعْفِهِ — أبصرْتِ حَظَّكِ فى الشُّعاعِ الغارِبِ

أسَفًا عليكِ وأنتِ روحٌ حائرٌ — والكونُ أسرارٌ يضيقُ بها الحِجى
تجتازُ عابرةٌ ويُسْرِعُ عابرٌ — وتمرُّ أشباحٌ يُوارِيها الدُّجى

فى وَجْنَتَيْكِ تَوَهُّجٌ وَضِرامُ — وبِمُقْلتيكِ مدامِعٌ وذهُولُ
وكذا تمرُّ بِمِثْلِكِ الأيامُ — مجهولةً وعذابُها مجهولُ

وَلَّيْتِ قبلَ لقائنا يا جَنَّتى — لِمْ تظفرى منى بقولٍ مُسْعِدِ
وكَعادةِ الحظِّ الشقىِّ وعادتى — أقبلتِ بعدَ ذهابِ نجمى الأوحدِ

تتعاقبُ الأقدارُ وهْىَ مُسِيئةٌ — كمْ عَقَّنا ليلٌ وخانَ نهارُ !
وكأنما هـذا القضاءُ خطيئةٌ ! — وكأنَّ همسَ نسيمِهِ استغفارُ

وَكأنهُ أحزانُ قومٍ ساروا ... هـذى مآتِمُهُمْ وَثَمَّ ظِلالُها
عفَتِ القصورُ وَطَلتِ الأسوارُ ... كمناحةٍ جُمِدَتْ وَذا تِمثالُها !

غامَ السَّوادُ عَلَى وُجُوهِ الدُّرِ ... وَسَرَى إلَيَّ نَحِيبُها وَالأدْمُعُ
وَكأنني فِي شاطِئٍ مَهْجُورِ ... قَدْ فارَقَتْهُ سَفِينَةٌ لا تَرْجِعُ

حمَلَتْ لنا أملاً فلمّا وَدّعتْ ... لمْ يَبْقَ بَعْدَ رَحِيلِها لِلناظِرِ
إلاّ خَيالُ سَعادةٍ قَدْ أقلعَتْ ... وَوَداعُ أحبابٍ وَدَمعُ مُسافِرِ

ابرهيم ناجى

الى روح شقيقى ابراهيم

يا قـــبره !...

الآنسة الفاضلة فدوى طوقان

يا قبرَه ، قُدِّسْتَ من قبرٍ ... باهَيتُ فيــه منازلَ البدرِ
يا قــبرَه ، بالله ما فعلتْ ... أيدى البِلي بشبابه النضرِ
تلك البشـــاشة يا لرونقها! ... هل غيَّضَتْ فى الترب والعفرِ
تلك الخلال ولستُ أحصرها ... تالله قد جَلّتْ عن الحصرِ
لهفى ، أباتتْ فى التراب أتُرى
يَفْنَى ؟ معاذَ خـــلاله الغُرّ
إنى لأستنشِي لهـا عَبَقاً ... فى الخافقَينِ معطّرَ النّشرِ
أوّاه لو تدرى بمن ظفِرتْ ... أيدى البِلى ! أوّاه لو تدرى !

***

ما بهجةُ الدنيـــا وزينتُها ... وأخى رهينُ صفائح القبرِ ؟
واطولَ أحزانى على سندٍ ... أعدَدْتُهُ لنوائب الدّهرِ
الموتُ مال به وخلّفنى ... لتفجُّعٍ أشقَى به عُمْرِى
كمدى أراه قاتلى ، وإذا ... أنا لم أمُتْ كمداً فما عذرى
ما بالُ ذكركَ باتَ لى شجناً
يهتاجنى ،يا طيِّبَ الذكرِ
عهدي به بَرْداً على كَبِدى ، ... أسفى ، أيغدو لَذْعَةَ الجمرِ
ولقد أرومُ القولَ فيكَ ولى ... بحرٌ يمدُّ ـ أخى ـ بلا جزرِ
لـكننى ، والحزنُ معترضٌ ... سُدَّتْ علىَّ مسارح الفكرِ
الشـــعر صوَّحَ روضُه أسفاً
وبكتْ عليكَ عرائسُ الشعرِ
يا طالما حَلِيَتْ ترائبُها ... بالدُّرِّ منك وموْنقِ الزهرِ
واليـــوم ، لا حَلْىٌ يزيِّنها ... إلا لآلى الدمع إذ يجرى .

***

مالي بدارِ الأنس ـ يا سَكَنى ـ ... أُنسٌ وأنتَ بموحشٍ قفْرِ
خلفتها دنيا تضيقُ على ... غرض الأبىِّ وغاية الحرِّ
تُسدى إلى غـــير الكرام يداً
وعلى الكرام تعـــود بالخسرِ
سأظلُّ طول العمر رهن جوًى
يغدو ـ أخى ـ ويروح فى صدرى
ولقـــد يعزِّينى على حَزَنى
أنى ، وإن أجِّلْتُ ، فى الإثرِ

(نابلس) ... فدوى عبد الفتاح طوقان



السيجارة ...

للأستاذ أحمد على الشحات

فى ظل الدخان المتصاعد من السيجارة كم من أفكار قد سبحت وأعصاب قد هدأت وأحلام قد صورت وأمانى قد بعثت : هذه الدخينة وما حوت كانت فى مبدأ الأمر ورقة من نبات اسمه نيكوتيانه Nicotiana وسُمّى بذلك نسبة لاسم السفير الفرنسى فى أسبانيا جان نيكوت الذى أدخل التبغ إلى فرنسا لأول مرة كهدية للملكة كاترين دى مديتشى ، والتبغ يتبع من وجهة التقسيم النباتى العائلة الباذنجانية التى تحوى نباتات أخرى ذات أهمية مثل الطماطم والبطاطس والداتورة والسكران ، وللأخيرين أهمية طبية فى علاج الأمراض الصدرية التشنجية . وبهذه المناسبة نذكر أن السكران المصرى أجود أنواعه فى العالم ، ولذلك يصدر إلى أوربا ، كما أن نبات البلادونا الذى يستخرج منه الأتروبين المستعمل طبياً لتوسيع حدقة العيون من أقارب التبغ إذ يتبع نفس العائلة المذكورة

وقد كانت الأرض الأولى التى نبت عليها التبغ واستعمل فى التدخين هى أمريكا إذ وجدت غلايين فى قبور أمريكية ترجع إلى ما قبل التاريخ ، ومن أمريكا نقله إلى أسبانيا فرنسسكو فرناند مبعوث فيليب الثانى لدراسة حاصلات المكسيك عام ١٥٥٨

وكلمة التبغ يرادفها بالأجنبية Tobacco والأصل الذى أخذت عنه هذه الكلمة غير معروف تماماً ؛ فقد تكون قد أخذت عن اسم جزيرة توباجو إحدى جزر الهند الغربية ، أو عن توباسكو فى خليج المكسيك ، أو عن اسم أداة وجد الأسبان أن الأمريكيين يستعملونها فى التدخين ، وهى عبارة عن أنبوبة تنتهى إلى فرعين تشبه حرف Y اسمها Tobaco ، وكانوا يضعون الفرعين على فتحتى الأنف ويستنشقون منهما الدخان ، وهذا هو المصدر المرجح . ومما يؤسف له أن تكون مصر من أكثر الدول استهلاكاً للدخان ؛ فلقد جاء فى إحدى الإحصائيات أن متوسط نصيب الفرد فى الدولة من الدخان بالأرطال كما يأتى :

الولايات المتحدة	٥ر٩٢	بريطانيا العظمى وإيرلندا	٢ر٩٥
بلجيكا	٤ر٩	فرنسا	٢ر٩
مصر	٤ر٠٦	إيطاليا	٢ر٣٥

وقد يطرأ على ذهن القارئ أنه علاجاً ، لهذه الحالة ، تباح زراعة الدخان فى مصر خصوصاً ، وقد سبق أن كان يزرع إلى أن حرمت زراعته عام ١٨٩٠ ! ، ولقد فكرت الهيئات المختلفة فى ذلك وقامت وزارة الزراعة بتجربة زراعته فى مناطق مختلفة ، ولكن كان الناتج دائماً ردئ النوع ، فإذا قيل أنه سيكون رخيص الثمن ويقبل الجمهور عليه ، فمعنى ذلك أن الحكومة ستحرم من دخل كبير فى الجمرك . فإذا قيل فلتفرض الحكومة على زراعته ضريبة عالية تعوض بها ما تفقده من الجمرك ، كان الجواب أنه بذلك سيرتفع ثمنه إلى أن يقارب الأصناف المستوردة من الخارج - وهى أجود منه نوعاً - فسيفضلها المستهلك ، فإلى أن نستطيع استنبات أنواع جيدة ستظل الحال على ما هى عليه

ويتراوح طول نبات التبغ ما بين ست أو تسع أقدام ، والأوراق منظمة على الساق بالتبادل ، وليست لها أعناق فيما عدا الأوراق السفلى ، فقد تكون لها أعناق قصيرة ، وتغطى الساق والأوراق شعيرات ناعمة ذات غدد ، وسطح النبات لزج لخروج إفرازات سائلة ، وينتهى الساق إلى أزهار لونها قرنفلى أو وردى وحبوب الثمار لونها بنى وصغيرة جداً ، حتى أن النبات الواحد قد ينتج منه مليون حبة ؛ وللأرض التى يزرع فيها الدخان تأثير كبير على لونه . فالأرض الطفلية الرطبة تنتج دخاناً لونه قاتماً : أحمر أو بنى ، والأرض الرملية تنتج دخاناً أصفر اللون ، أو أحمر زاهياً ذا أوراق رقيقة ، وكما حرم الدخان فى أراضينا حرمت زراعته كذلك فى أسبانيا ، مع أنها أول بلد — كما ذكرنا — نقلت زراعته إليه من موطنه الأصلى « أمريكا » ، ومن أسبانيا أدخل إلى فرنسا وإيطاليا عام ١٥٦٠ ، وأدخل فى ظن الناس آنئذ أن له فوائد طبية هائلة ، حتى كانوا يسمونه Herba santa أى العشب الصحى ، وسموه أيضاً Divine Tobacco ، أى التبغ الإلهى ، كما سموه أيضاً holy herb nicotiana ، أى عشب نيكوتيانا المقدس . ويفهم مما سبق شدة ولع الناس بالتبغ ، حتى انتشر التدخين انتشاراً عظيماً هال من بيدهم الأمر من ملوك وباباوات وسلاطين وحكومات . فأصدرت نشرات تبين مدى

الضرر من التدخين، وفرضت ضرائب باهظة، حتى أن انجلترا رفعت الضريبة من بنسين على الرطل إلى ستة شلنات وعشرة بنسات، وقصرت زراعته على مساحة ضئيلة، ولكن الناس لم يكفوا عن التدخين، فلم تجد الحكومة الإنجليزية مناصاً من إصدار منشور يحرم زراعته تحريماً باتاً في انجلترا وإرلندا؛ وبعد بضعة أعوام رفع الحظر على الأخيرة، ولكن سرعان ما أعيد ثانية، وكان ذلك عام ١٨٣١، إلى أن رفع الحظر عن انجلترا وإرلندا عام ١٩١٠

وهو يزرع الآن في الولايات المتحدة، وكوبا، والمكسيك، والبرازيل، وبارجواي، وجزر الهند الهولاندية، وبورنيو الشمالية، واستراليا، والهند، والصين، وبورما، والفيليبين، وإيران، والترنسفال، وروديسيا، واليونان، وتركيا، وهنغاريا، وألمانيا، وروسيا، وفرنسا، وهولاندة

وتبذر بذوره في فبراير ومارس وأبريل في مشتل، على أن تكون التربة قد طهرت من آثار الحشرات بأن تحرق عليها بعض المواد، فإذا ظهرت البادرة أحيطت بمظلات رقيقة، ويحافظ عليها من الريح، حتى إذا ما اكتمل طول النبات ست بوصات نقل إلى الحقل، وذلك في الفترة ما بين أبريل ويونية، ويكون بُعد كل نبات عما يجاوره قدم ونصف إلى ثلاثة أقدام في صفوف بين كل صف وتاليه ثلاثة أو أربعة أقدام، ويتم نضج النبات حين يعلو الورقة اصفرار في اللون بعد أن كانت خضراء زاهية، كما تصبح هشة سهلة التكسر إذا أحنيت، ثم تجفف الأوراق صناعياً، وعملية التجفيف هذه تحتاج دقة ملاحظة في درجات الحرارة المختلفة التي تتعرض لها الأوراق فيحوطها أولاً جو تضبط حرارته فيما بين ٨٠ ؟ ٩٠ درجة بالمقياس الفهرنهيتي، أي بما يعادل ٢٦٫٦ — ٣٣٫٣ تقريباً بالمقياس المئوي، وذلك لمدة تتراوح ما بين ١٨ — ٣٦ ساعة، ثم تزاد درجة الحرارة بفرق ٥ — ١٠ درجات فهرنهيتية كل ساعتين إلى أن تصل إلى درجة ١٢٠ف ثم تثبت. أما السيقان فترفع حرارتها بعد ذلك إلى ١٦٠ — ١٧٥° ف بفرق قدره ٥ — ١٠ درجات كل ساعة، وتستغرق مثل هذه العملية ثلاثة أيام. وأما في الأقطار الشرقية كالهند وسيلان حيث الجو دافئ فيكتفى في التجفيف بحرارة الشمس الطبيعية، وفي التجفيف الصناعي لا بد من رفع درجات الحرارة بانتظام وهدوء حتى يحتفظ النبات باللون والنكهة المطلوبة؛ ثم تكبس الأوراق في صناديق أو تكوم في حفر دافئة رطبة، ويضغط عليها يومياً لمدة عشرة أيام، ويوالى الضغط بعد ذلك في فترات أطول لمدة ثلاثة شهور. فتحدث في هذه الفترة عملية اختمار، وتتخذ الأوراق شكل التبغ المعروف، ويكون في الأوراق في هذه المدة رائحة الكحول ويصبح لونها داكناً لامعاً

والسماد المستعمل في زراعة الدخان تأثير هام في شكل الأوراق، فالسماد الذي يحوي نسبة عالية من الأزوت أو الفوسفات ينتج أوراقاً سميكة؛ بينما السماد الذي يحوي البوتاسيوم ينتج أوراقاً ناعمة ذات نكهة طيبة، إلا أن نمو النبات يكون بطيئاً، والأوراق الخضراء في النبات تحوي نسبة عالية من الماء من ٨٠ — ٩٠ ٪ بينما الورقة حين تصبح معروضة للبيع في السوق تحوي ١٢ — ١٤ ٪

والمادة الكيميائية التي يمتاز بها التبغ هي مادة النكوتين وهي مادة شبه قلوية سامة، تختلف نسبتها باختلاف أصناف النبات، ففي نبات السّماس أو شجرة الحِرش Nicotiana glauca أقل من ١ ٪ بينما في التبغ الناتج من جنوب أفريقية تتراوح بين ٣ — ٥ ٪ بينما في نبات الدخان البلدي Nicotiana rustica تكون أعلى من ذلك. كذلك تختلف هذه النسبة باختلاف سمك الورقة، فكلما غلظت كانت النسبة أعلى

كذلك كلما دكن اللون وكلما ارتفع موقع الورقة على الساق، أو كلما كثر الأزوت في السماد، ووجد أنه كلما زادت نسبة النيكوتين ضعفت قوة الرائحة الملموسة في التبغ، وفي الدخان المتصاعد من التبغ وجدت كذلك النوشادر، وأول أكسيد الكربون، وسيانور الإيدروجين، والأخيران من الغازات السامة، وكبريتور الإيدروجين، وحامض البوتريك، ومواد كيميائية أخرى لا ضرورة الاستطراد في ذكرها، وأما غاز أول أكسيد الكربون السام فتختلف نسبته باختلاف سرعة الاحتراق، ففي الدخان المتصاعد من السيجارة تتراوح نسبته بين ٦ — ٨ ٪ بينما في دخان الغليون ما بين ٧ و — ١٤ و ١ ٪، وفي السيجار من ٦ — ٨ ٪، كما تختلف نسبة الرماد المتخلف فهي أقلها في تبغ السجائر بينما هي أعلاها في الرماد المتخلف من السيجار والرماد يحتوي على عناصر مختلفة منها: البوتاسيوم، والكالسيوم، والمنجنيز، والحديد، والألومنيوم، والصوديوم ومواد كبريتية وفوسفورية، وهذه العناصر مرتبة ترتيباً تنازلياً حسب نسبتها، وقد يضاف إلى التبغ مواد تكسبه طعماً مقبولاً مثل السكر والعسل والجلسرين والصمغ ونبات السوس أو رُبّه

أحمد علي الشماتي



جواب

جوابي عن قول الأديب الأمثل الأستاذ زكي مبارك ها هو ذا :

يا سيدي الصديق ، قال تعالى : « إنّا أنزلناه قرآناً عربياً » ، وجاءت الكلمة « عجوز » للشيخة في التنزيل العزيز ، كما تعلم .

وإن في علمك يا سيدي الأستاذ الكبير قول الشاعر :

عجوز علتْها كُبرة في ملاحة   أقائلق يا للرجال عجـــوز

ونحن نتبع « اللسان العربي » يا صديق لا نُبْدع لغة

زادك الله بسطة وأزكى لك الخير   « وهيب »

إلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي

قرأت مقالك العظيم بالعدد (٤٢٠) من مجلة الرسالة الغراء ؛ فكان آية من آيات تلك المجلة الكريمة علينا ، العاملة على إصلاح الأزهر وإعادة مجده السالف . وقد ملأني ذلك المقال أملاً في الإصلاح بعد يأس ، وأفعمني رجاء فيه بعد قنوط ؛ ولكني رجعت إلى نفسي بعد ذلك الأمل والرجاء فقلت : أي ربي ، هذا القائد فأين الجنـد ؟ وهذا رسول الإصلاح فأين الأصحاب والحواريون ؟ وهذا الداعي إلى النهوض فأين المجيبون ؟

بني المعاهد هبوا طال نومكم   قد هيأ الله هذا المصلح البطلا

ولقد وقفت يا سيدي كثيراً عند قولك عن الأستاذ الإمام : وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة . فقلت في نفسي : كيف ينظر أستاذنا المراغي إلى تلك المختصرات وشروحها وحواشيها تلك النظرة ؟ وكيف يذكر العصر الذي رضيها باسم العصر المظلم ؟ ثم يرضى بعد هذا أن تبقى في عهده الكريم كما كانت في ذلك العصر ، إذ لا تزال لها المكانة الأولى في الأزهر ، ولا تزال علومنا لا تدرس إلا فيها ، ولا تزال قواعدها لا تؤخذ إلا منها يا سيدي الأستاذ الأكبر إن تلك المختصرات وحواشيها وشروحها هي علة العلل في فساد التعليم بالأزهر ، وهي مصدر ذلك الجمود الذي حارب الأستاذ الإمام ، وحال بينه وبين الوصول بالأزهر إلى الإصلاح المنشود ، ثم يحول الآن بينك وبين الوصول إلى ذلك الإصلاح ، وإن الفرصة سانحة بوجودك على رأس الأزهر للقضاء على تلك المختصرات وشروحها وحواشيها ، وبين يديك طائفة صالحة من العلماء ، تنتظر منك أن تدعو فتجيب ، وأن تقول : حي على العمل فتعمل ؛ ولا يمضي عليها إلا زمن قليل حتى تظهر لك بدل تلك المختصرات الميتـة المظلمة كتباً حية مشرقة ، تسري فيها روح الاجتهاد ، وتظهر عليها آثار التجديد ، وتخرج لك من الأزهر العلماء المجددين ، والأئمة المجتهدين

فهل لك يا سيدي الأستاذ الأكبر أن تبدأ بتلك الدعوة ، وهل لك أن تصل بين تلك الطائفة وأمنيتها في العمل ؟

عبد المتعال الصعيدي

في اللغة :

كان العلامة الدكتور زكي مبارك قد عدّى (حرَمَ) بمن في بعض قصائده . فاعترض عليه بعض أدباء الشرق . فدافع عن هذه التعدية (بأنه قد يرى المنى في بعض الأحايين لا يؤدي تأدية صحيحة إلا إذا عبّر عنه بتلك الصورة)

وهو دفاع غير مقنع كما ترى

فكتبت في العدد ٤٠٥ من « الرسالة » أقول : « إن الفعل (حرم) يتعدّى بمن أيضاً ، وعندي شاهد لذلك عثرت عليه في بعض مطالعاتي للأغاني »

وبينما كنت أجيل الطرف أمس في كنّاشتي ، إذ أنا أمام هذا الشاهد ، وهو للعباس بن الأحنف ، قال :

أحرم منكم بما أقول وقد   نال به العاشقون مَنْ عشقوا
صِرت كأني ذُبالة نُصبتْ   تضيء للناس وهي تحترق[1]

***

ثم قلبت صفحات الكُنّاشة ، فلمحت مما كنت اختزنته

(١) الجزء ٨ ، ص ٢٧٠ ، طبعة دار الكتب .

فيها من (الأغاني)، تعبيرين يستوقفان النظر، لِمَا أنهما كانا يُظَنَّان من توليد العامة في مصر أو في غيرها من الشرق العربي

وقد آثرت أن أعرضهما، كلاً في نصه الذي ورد فيه، ليستبين المعنى، ويتضح المقام:

١ — أخبرني عمي، قال: حدثنا السكراني... قال: أنشد جرير قولَ عمر بن أبي ربيعة:

سائلا الربع... الأبيات

فقال جرير: «إن هذا الذي كنا (ندُور عليه) فأخطأناه وأصابه هذا القرشي[1]»

فندور عليه: نبحث عنه لنصل إليه[2]؛ وهو نفس تعبير الناس عن هذا المعنى الآن، غير أنهم يضعّفون عين الفعل[3].

٢ — غنّى إبراهيم الموصليّ الرشيد صوتاً، فأمر له بألف دينار. فلما كان بعد سنين، خطر ببال إسحق ذلك الصوت، وذكر قصته، فغنناه إياه؛ فقال الرشيد: «قد أخذ ثمنه أبوك مرة، فلا نطمع»؛ فقال إسحق: «فعجبت من قوله، ثم قلت له: ياسيدي، قد أخذ أبي منك مائتي ألف درهم، ما رأيتك ذكرت منها غير هذا الألف، (على بختي أنا...)[4]»

فهل كنت تظن أن هذه العبارة — على ابتذالها الآن — مما كان يتكلم به إسحاق ابن إبراهيم الموصليّ الجليل القدر في حضرة الرشيد؟ (ا. ع)

١ — حول السواد

سأل الدكتور زكي مبارك في العدد الثامن عشر بعد المئة الرابعة من الرسالة: «هل كان السواد من علائم الرزانة في أوقات الاهتمام بعظائم الأمور ...؟»

وأقول: إن الثياب السود كان لها شأن في الدهر الغابر أيام بني العباس (أنظر أول من لبس السواد: محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر)، وكان الناس يلبسونها إذا دخلوا على الخلفاء وكانوا في موكب واحتفال: شأنهم اليوم فيما يشا كل تلك الرسوم

قال التنوخي في (نشوار المحاضرة): «حدث أبو الحسن ابن الفرات قال: فدخلنا في الليلة التي ولى فيها العباس بن الحسن الوزارة بعد موت القاسم بن عبيد الله. فتشاغل الحسن بتقليب ثياب السواد وقد جاؤوه بها ليختار منها ما يقطع له فيلبسه من غد في دخوله إلى الخليفة، وكان الرسم إذ ذاك ألا يصل أحد إلى الخليفة في يوم موكب إلا بسواد ...» ٨ — ٩١

وقال أيضاً: «... فإذا كان يوم موكب كانت الأقبية كلها سواداً، وإذا كان غير موكب فربما كانت بياضاً، وفي الأكثر من سواد» ٨ — ١٢ (نشوار المحاضرة. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق)

وكانت الخلفاء والشعراء تلبس السواد، والشواهد كثيرة منها ما قاله التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة): «حدث عبيد الله بن عبد الله قال: كنت مع الرشيد بطوس لما ثقلت علته فجلس يوماً وعليه جبة خز سوداء، وفوقها دراعة خز أسود... وقلنسوة طويلة وعمامة خز سوداء» ٢ — ٥٣

وقال الجاحظ في (البيان والتبيين): «وكانت الشعراء تلبس الوشي والمقطعات والأردية السود» ٣ — ٧٨

وكانوا يتخذون العمامة من خز أسود. ذكر الجاحظ في (أخلاق الملوك) أن ابراهيم بن المهدي دخل على أحمد بن أبي دؤاد وعليه مبطنة ملونة من أحسن ثوب في الأرض وقد اعتمّ على رأسه رصافية بعمامة خز سوداء. لها طرفان يتدليان خلفه وأمامه، وفي يده عكازة آبنوس ملوح بذهب وفي أصبعه فص ياقوت ...» ٤٨

قال (أحمد زكي باشا): «والرصافية هيئة عمة على قلنسوة خاصّة بالخليفة أو ولي عهده وذكر (بن خلكان) في (وفيات الأعيان) عند ترجمة (جعفر البرمكي) «أن أكابر بني العباس كان لهم الحق باتخاذها أيضاً»

(١) الجزء ١، ص ١٠٦، طبعة دار الكتب.

(٢) هذا هو المعنى المجازي. والمعنى الحقيقي لدار على الشيء، أو به: طاف حوله حتى رجع إلى الموضع الذي ابتدأ منه.

(٣) ويقال أيضاً: دور (بالتضعيف) بالشيء. وليس ببعيد أن يكونوا قد قالوا أيضاً: دوّر على الشيء — لأنهم قالوا: دار على الشيء وإن كنت لم أره نصاً حتى الآن. فإذا تحقق هذا كان الناس الآن على صواب في الفعل الماضي، وعلى خطأ في المضارع؛ لأنهم يشددون الواو فيه مفتوحة.

(٤) ما بين الأقواس نص ما في (الأغاني)، الجزء ٥، ص ١٩٢ طبعة دار الكتب، والبخت. الحظ وزناً ومعنى. وهو عجمي، كما في المصباح. وفي المختار: البخت: الجد. وفي شفاء الغليل واللسان أن العرب تكلمت به.

ويقول الدكتور المبارك : إن السواد اتخذ شعاراً للحزن لما يشيع فى النفس من انقباض واستيحاش فلِمَ اتخذ أهل الأندلس البياض شعاراً ، وهو يشيع فى النفس الانشراح والصفاء ؟

٢ – أوهام لغوية

جاء فى مقال الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

أ – « كانت القاهرة طيلة حكم الفاطميين ... » استعمل (طيلة) بمعنى (طول) . وهى من أوهام الكتاب وليست بشىء . فى (اللسان) « أطال الله طيلته أى عمره » ، والصواب « طول وطَوال » فتقول « كانت القاهرة طول حكم الفاطميين وطَواله » وفى (الصحاح) و (الأساس) « والطَوال بالفتح من قولك لا أ كلمه طَوال الدهر وطول الدهر بمعنى ... »

ب – وقال صاحب « الوضع الصحيح للاصلاح الاجتماعى »

« تشوّش أمانيه » ولم يسمع هذا الحرف فى كلام فصيح صحيح . قال صاحب القاموس : « والتشويش والمُشوّش والتشوّش كلها لحن . ووَهِم الجوهرى . والصواب : التهويش والمهوّش والتهوّش ... » وانظر الزمخشرىّ أيضاً

و – وقال « سوف لا تكفى غلّتها ... » وهذا خطأ شائع عند المبتدئين والمتأدبين يستعملون « سوف لا » للنفى فى المستقبل ولم يسمع هذا عن العرب . ولكنهم قالوا « لن » بدلاً عنها . فتقول « لن تكفى غلتها » « ولن أفعل كذا ... »

(دمشق) صلاح الدين المنجد

بين العزوبة والزواج

قرأنا المقال الذى دبجته براعة الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى الزواج ، فوقع من أنفسنا موقعاً حسناً . ولما كان الشىء بالشىء يذكر فنرجو الأستاذ النابغة أن يسمح لنا أن نضيف إلى مقاله القيم رأياً نذكر أننا قرأناه فى إحدى مطالعاتنا إلى عهد قريب

يقول صاحب الرأى – واعتقادى أنه طبيب مشهور – بأن الإحصائيات بسنين متوالية قد أثبتت إثباتاً جازماً بأن نسبة عدد الوفيات بين المتزوجين أقل بكثير من نسبة عدد الوفيات بين العزاب فى العام الواحد . ويستنتج – بعد أن يعرض جدولاً بإحصائياته – أن العزوبة متلفة للحياة أكثر مما تتلفها مهنة مجهدة مضنية . أو أكثر من مسكن قدر له أن يلقى بكل عنف فى أقل الأماكن محافظة على الشروط الصحية . وبالرغم من أن للاحصائيات بعض الأخطاء ، فإننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان « إن الحياة تكون أسعد جداً برفيق » . وأن ما يمكن أن تتضمنه هذه الإحصائيات من الصحة يجب أن يكون حافزاً قوياً على الزواج . فإنه لمن السهل جداً أن يجد الباحث فى حياة المتزوج أسباباً كثيرة تبعده عن المفاسد والأمراض وكل ما ينهك قواه وبالنتيجة يطيل فى عمره ويمد أجل سعادته . فهلاّ يشعر العزاب بيننا بأن الحياة جديرة بأن نحياها بسرور فيقبلوا على الزواج مسرعين ؟

هذا ما نرجوه مخلصين والسلام .

(الحصن – شرق الأردن) خليل السالم

حول اللهجات العامية

أشكر للكاتب الألمعى الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ما وجهه إلىّ وإلى مقالاتى « فى الاجتماع اللغوى » من عبارات الحمد والثناء ؛ وقد وددت لو ألبى رغبته الكريمة ، فأطيل الكلام على اللهجات العامية التى تفرعت من العربية ، وأذكر ما كتبه المستشرقون فى قواعد كل منها ، لولا خشيتى أن بحوثاً دقيقة كهذه قد تجرد مقالاتى مما وصفها به من أنها « لا ترهق القارئ ولا تمله »

وسأعرض لهذه البحوث وما إليها فى كتاب لى فى « فقه اللغة » ، وهو الآن تحت الطبع ، وآمل أن أفرغ منه قريباً إن شاء الله

على عبد الواحد وافى

« الزاد الأخير »

قرأت فى العدد الفائت (٤٢٠) من « الرسالة » الغراء قصيدة بالعنوان المتقدم للأستاذ سيد قطب جاء فى نهايتها :

واطاى فى قفار نفسى حياةً وإذا ما دجا عالمَى أومضى لى

والشطر الثانى من البيت مكسور ، ويكون صحيحاً لو أنه قال :

واطاى فى قفار نفسى حياةً وإذا اسودَّ عالَمى أوْمِضى لى

« القاهرة » عبد الرحمن الحبيسى



في وزارة الخارجية

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

أكثر من بقي إلى اليوم من أصدقاء « ألفونس لا كور » لم يروه إلا في أخريات أيامه. وقد كان ألفونس منذ ثورة ١٧٤٨ إلى أن قتل في حرب القرم في العام التالي يقضي كل أيامه في مشرب « كافيه دي بروفنس » في شارع « ريوسان هورنيه » حيث لا يجالسه ولا يحادثه أحد، لأن القصص التي كان يرويها هذا السياسي القديم مما لا يستطيع تصديقه إنسان. فإذا ما جلست إليه وسمعته يبعد ويشتط عن مدى ما تتصور أنه الحقيقة...

انتهزت أول فرصة لتحتج بها وتترك مجلسه، لكنني قد قرأت مذكرات خاصة لبعض السياسيين، فلم أستغرب ما نقلوه إليّ من أخبار هذا السياسي القديم، فذهبت إليه وسمعته يتحدث عن مدة وجوده في مصر تحت قيادة كليبر، وكان مما قاله:

« لقد تركت مصر على أثر قتل هذا القائد. ولست أكتم عنك أني كنت أوثر البقاء فيها، وكنت أريد اعتناق الإسلام؛ وكان أول ما لفتني إليه وحببني فيه إباحته تعدد الزوجات، ولولا تحريمه الخمر ومجادلتي مع المفتي في شأنها مجادلة أقنعته بأنني لن أترك شربها لو أسلمت لأعلن المفتي إسلامي من زمن بعيد. فلما توفي الجنرال « كليبر » وجعلوا المسيو « منو » رئيساً لي، عولت على الاستقالة والإقامة في لندن حيث لا أشتغل بشيء غير ترجمة ما وقع عليه اختياري من الكتب الإسلامية، وفي مقدمتها القرآن. وكان المسيو أوتو سفير فرنسا في لندن يمهد للصلح بين انكلترا وفرنسا بعد حرب استمرت عشرة أعوام، ولست أحب التحدث عن كفايتي، ولكني أؤكد لك أن هذا السفير استعان بي، فأديت له خدمات جليلة: ذهبت معه إلى لندن مستقيلاً من الجيش، فكانت أسعد أيامي تلك التي قضيتها في لندن أترجم كتب الإسلام وأسعى في توطيد السلم بين الدولتين

ولقد كادت تقضي على السفير وعلى أعوانه كثرة أعمالهم؛ لأن الرجل الذي كنا نفاوضه من أصلب الرجال وهو وليم بت، وليس من السهل على ست دول مجتمعة أن تعامل رجلاً كهذا، فكيف ونحن نفاوضه في صلح بعد حرب استمرت أعواماً عشرة؟ وكانت أعمالنا مساومة على أخذ أرض مقابل أرض والتنازل عن جزيرة في مقابل شبه جزيرة. وهل إذا فعلنا ذلك في فينيس تفعلون ذلك في سيراليونا؟ وهل إذا أعطينا مصر للسلطان، تعطوننا مدينة الكاب التي أخذتموها من حلفائنا الهولانديين؟

وفي يوم من الأيام عاد إلينا السفير متعباً منهوك القوى فأجلسناه واجتمعنا حوله وبعد أن تمالك قواه قال: « لقد كان أهم لعبة يريد أن يلعبها ضدنا الإنكليز خاصة بمركز مصر، وقد وجدت أنه لا يزعجهم شيء كما يزعجهم وجودنا فيها لأنهم يخشون أن يجعلها نابليون قاعدة للهجوم على الهند، ولذلك كنا كلما توقف وليم بت في أمر من الأمور قلنا له: « إذا كان الأمر كذلك فنحن لا نستطيع أن نخلي مصر » فنراه في الحال قد رجع إلى صوابه، وبسبب مصر نلنا شروطاً باهرة في الصلح مع الانكليز والحق أننا لم نخش الأساطيل والجيوش الإنكليزية وإنما نخشى دهاءهم السياسي، ويختلف الإنكليز عنا في نقطة هامة هي أننا إذا حصلنا على جزء من الممتلكات فيما وراء البحار جلسنا مطمئنين في باريس ودبرنا التسهيلات التي نستطيع بها إخضاع ذلك الجزء لنا ونحن في أماكننا جاثمون. أما الإنكليزي فيحمل زوجته وأبناءه ويذهب إلى ذلك الجزء كائناً ما كان وصفه محاولاً جعله كأنه بقعة من بلاد الإنكليز

وأخيراً تم التفاهم على شروط المعاهدة وهنأت المسيو أوتو على نجاحه وكان شديد الفرح بذلك النجاح فلم يجلس مطمئناً إلينا بل أخذ يجري من غرفة إلى غرفة وهو يضحك ضحكاً عالياً وأنا جالس في ركن من غرفة الاستقبال أنظر إليه كلما مر من أمامي. وفي وسط السهرة جاءت رسالة على يد رسول من باريس فنظر إليها السفير ولم يفتح فمه بحرف، بل خانته قوته ووقع على الأرض فجريت نحوه فاجتمعنا حوله وحملناه فنام على النمرقة وكان شكله يدل على أنه قد مات لولا أن نبضه كان لا يزال يدل على حياته

والواقع أني أكره الفضول ولكن لما رأيت الإغماء على السفير لم أستطع منع نفسي من النظر إلى الرسالة التي سببت

ذلك فبكيت أصمق أنا أيضاً عند ما قرأتها . لكنه لم ينم عليّ ، بل جلست فى ركن من القاعة وأخذت أبكي . وهذه الرسالة تدل على أن جيوشنا أخلت مصر . وكانت المعاهدة لم توقع بعد ولا بد إذن من فسخها لأن الانكليز ما عادوا فى حاجة إلى إخراجنا منها . لكننا فرنسيون فلا نهزم بسهولة . والانكليز يظلموننا حين يرون أن إظهارنا للعواطف التى يستطيعون كتمانها يدل على أننا ضعفاء .

بعد قليل أفاق المسيو أوتو وقال لى : « ترى يا مسيو ألفونس أن هذا الإنكليزى ولم بت سيضحك منى عند ما أطلب إليه توقيع المعاهدة » . فخطر ببالى خاطر فجائى وقلت : « تشجع ! كيف نجزم بأن الإنكليز وصل إليهم هذا الخبر ؟ ربما استطعنا الحصول على توقيعهم على المعاهدة قبل أن يعلموا بهذا الخبر »

فقفز المسيو أوتو من مكانه ومدّ نحوى ذراعيه وعانقنى وقال : « لقد أنقذتنى يا مسيو ألفونس ! إن الخبر وصل إلى باريس عن طريق طولون ، وسيصل متأخراً إلى انكلترا عن طريق جبل طارق ؛ فإذا نحن احتفظنا بالسر أمكننا الحصول على توقيعهم على المعاهدة

ولست أستطيع أن أصف حالتنا فى اليوم التالى ؛ فقد كانت ساعاته تمر بطيئة ، حتى لقد انتقل المسيو أوتو من الشباب إلى الشيخوخة فى ذلك اليوم . ولم أطق الصبر على الانتظار ، فخرجت من المنزل مرتاداً كل طريق مقتحماً كل مكان . ولكننى لم أسمع أى خبر . ولما جاءت الساعة الثامنة وهى موعد توقيع المعاهدة اقترحت على المسيو أوتو أن يشرب زجاجة من الخمر قبل أن يذهب ، لأنى خشيت أن يستدل الإنكليز على الحقيقة من اصفرار وجهه واضطراب يده . ثم ركبت معه عربة من عربات السفارة ، وكانت الخمر قد أنعشت قواه ، فلما وصلنا إلى باب وزارة الخارجية بقيت فى العربة ونزل وقلت له : « إذا تم التوقيع فأعطنى إشارة . وإلى ذلك الحين سأمنع وصول أية رسالة إلى الوزير الإنكليزى » . فصافحنى ووعدنى بأن يدنى شمعة من النافذة حتى أراها من الطريق ، ثم تركت العربة تعود ووقفت قرب الوزارة فرأيت العربات مقبلة ، وقلت فى نفسى : لو جاء رسول من رئيس الوزارة إلى وزير الخارجية فإنى أمنعه ولو بقتله ، فإن آلافاً من الجنود قد ماتت لتكسب مجد الحرب . وماذا إن شنقت وانتصرت بلادى ... ؟

ثم خطر ببالى خاطر فدعوت حوذياً وأعطيته جنيهاً وقلت له : « إذا ركبت عربتك مع أى إنسان فلا تتلق الأوامر منه بل منى ، وأنزلنى فى شارع هارى ولا تترك الذى معى إلا فى نادى ويتر فى بروتون ، وسأعطيك جنيهاً آخر »

فوافق الحوذى . وبعد دقائق جاء رسول وهم بدخول الوزارة فأمسكت بذراعه وقلت : « هل أنت رسول إلى وزير الخارجية ؟ » قال : « نعم » . فقلت : « تعال معى فهو الآن عند السفير الفرنسى »

وكان كلامى بلهجة تأكيد لم يتردد الرسول فى تصديقها . وركب معى فى عربة الحوذى الذى اتفقت معه . ولكن السائق جرى بنا فى الطريق الذى أرشدته إليه وهو يختلف عن الطريق المؤدى إلى السفارة . فصاح الراكب معى بالحوذى أن يقف وقال إن فى الأمر حيلة . ومنعته فاستغاث فكتمت أنفاسه فجلس هادئاً وأردت أن أطمئنه فقلت : « إنى رجل شريف مثله ، وإن الأمر مراهنة فقط »

قال : « مراهنة ! ألا تعلم أنى أؤدى عمل الحكومة ؟ إن عملك يستوجب العقاب »

فقلت : « هذا هو موضوع المراهنة »

قال : « إذن فأنت مجنون »

عند ذلك نظرت إلى ساعتى فوجدت موعد التوقيع قد فات ولم أجد ضرورة للاستمرار فى الخطة ، فأوقفت العربة ونزلت راكضاً تاركا من فيها تحت رحمة الحوذى . وركبت عربة أخرى إلى دار السفارة . ومن منعطف فى الطريق راقبت ذلك الرسول يقبل نحوها . وبعد دقائق نزل المسيو أوتو فرحاً مستبشراً وقال لى أنه تم توقيع المعاهدة . ولكن بعد التوقيع وصلت رسالة إلى الوزير الإنكليزى بأن الفرنسيين أخلوا مصر . فقال ذلك الوزير أنه لو تقدمت الرسالة دقيقة لما أمكن توقيع المعاهدة ، ولكن أمرها خرج من يده

فهنأت السفير بانتصاره ، وعدت وفكرت فى أن مصادفات صغيرة كتأخير الخبر لحظة أو تقديمه لحظة يكون لها تأثير فى مصائر الدول وأحوال السياسة العالمية . فآمنت بالقضاء والقدر ولم أعد أسخر من اعتقاد الشرقيين بهما . وعكفت بعد ذلك بإيمان صادق على استئناف ترجمة القرآن وسائر الكتب الإسلامية

عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 422

Lundi - 4-8-1941

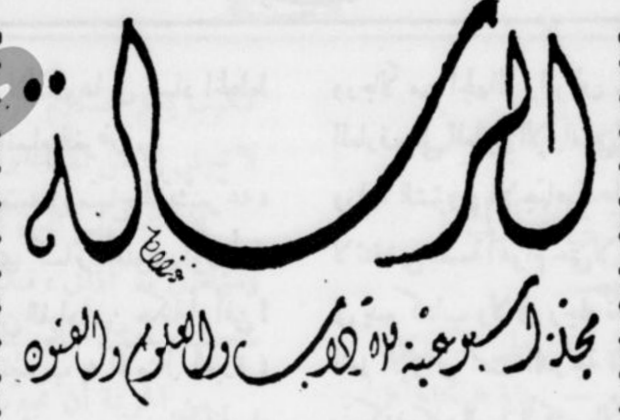
بدل الاشتراك عن سنة

مص

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة





الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٢٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ١١ رجب سنة ١٣٦٠ — الموافق ٤ أغسطس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

صفحة

حول التعليم الالزامى

جنود مجهولون ...

فى ميدان الجهاد الثقافى جنود مجهولون لا يشكرهم شاكر، ولا يكاد يذكرهم ذاكر : أولئك هم فِرق الأساس الذين يمهدون الأرض للدفاع، ويُمدون الجيش للعمل، ويهيئون الشعب للنهوض. وهم الذين يعيشون على عشرات القروش وينفقون من ومضات أرواحهم ونبضات قلوبهم وذخائر قواهم، ما يضمن للقادة يوم النصر أكاليل الغار وألقاب الفخار وأكياس الذهب. فإذا فشلت الخطط وطاشت المعارك ربأ الناس بالقادة عن التهم، ورموا هؤلاء المجهودين المجحودين بنقص الكفاية وسوء الدُّربة

هؤلاء الجنود المجهولون هم المعلمون الإلزاميون ! كتب الله عليهم جهاد الأمية ونشر المعرفة بين الطبقات الفقيرة بالقدْر الذى يساعد الإنسان على استكمال حظه من العلم الضرورى، فأبلى هؤلاء الجنود الصابرون أحسن البلاء فى معركة الأمية خمسة عشر عاماً؛ ثم أسفر هذا العراك الطويل الثقيل عن بقاء هذه الأمية منيعة الحصون شديدة البأس؛ كأنما كانت رحا هذه الحرب تدور على فراغ !

دهش الكتاب والنواب لهذه النتيجة الموئسة، وراحوا كدأبهم يلتمسون العلل فى إعداد المعلم الإلزامى وكفايته

وخبرته ، ولو هداهم النظر الصادق لالتمسوها فى فساد الخطط وسوء التوجيه واضطراب النظام وانبهام الغرض

ما ذنب المعلم إذا أخفق نظام لم يضعه ، ومنهاج لم يَشْرَعه ، وكتاب لم يؤلفه ؟ هل هو إلا جندى كسائر الجنود يكون أداة للنصر أو للهزيمة على حسب ما يصدر عن القيادة من حكمة أو أفن ؟

لقد فشل التعليم الثانوى فشلاً تضرب به الأمثال للعبرة ؛ فهل يجوز فى منطق العقل أن نخرج من حسابه الخبراء والمراقبين والمفتشين واللجان والتقارير والتجارب ؛ ثم نحصر علته فى المعلمين وهم من حيث الخبرة والمران بنجوة عن الشك ؟

نحن لا نزعم أن المعلمين منزهون عن صفة النقص ، ولا مبرأون من تبعة الفشل ، فإنهم ناس كسائر الناس ، فيهم الضعيف بفطرته والقاصر فى أداته ؛ ولكنا نزعم أن نصيبهم من إخفاق التعليم أقل الأنصبة ، وأن حظ الإلزاميين من هذا النصيب أضعف الحظوظ . ولو جاز لنا أن نوازن بين طوائف المعلمين فى الاستعداد والاجتهاد لجاء الإلزاميون فى أصحاب الكفة الراجحة ؛ ذلك لأنهم بحكم تنشئتهم وإعدادهم يشعرون بالضعف والتخلف ، فهم لا ينفكون يستفيدون ويستزيدون ما أمكنتهم الوسيلة والقدرة . ومن النادر أن تجد معلماً إلزامياً لا يقتنى الكتاب المفيد ولا يشترك فى المجلة النافعة . وأشهد أن ثمانين فى المائة منهم مشتركون فى « الرسالة » ، وإنهم ليقتطعون بدل اشتراكها من قوتهم النزر ؛ ولكنك تجد الكثرة الكاثرة من حملة الشهادات والذبات[1] من المعلمين الثانويين والجامعيين لا يقرأون غير الكتب المقررة وما يتصل بها من قريب ، ثم لا يجدون فى أنفسهم حاجة إلى مطالعة كتاب أو قراءة مجلة

المعلم الإلزامى والطالب الأزهرى هما الشعاع المنبعث من نور الدين والعلم إلى القرية ، ولولاهما لتدجى على القرى ظلام من الضلال والجهل لا يعتد فيه بصر ولا بصيرة . ذلك لأنهما يعايشان سواد الشعب وعامته من الزراع والصناع ، فيوقظان فيهم العقل ، ويحييان الضمير ، ويعقدان الصلة الاجتماعية بين حياة المدينة وحياة القرية . ولو كان للتوفيق كرسى فى الحكومة لاتخذوا من التعليم الإلزامى وحدة ثقافية تبرئ الفلاحين أطفالاً ورجالاً من الجهالة والمرض . كان من الممكن أن تعتمد وزارة المعارف على المعلمين الإلزاميين فى تعليم الأطفال بالنهار ، وأن تعتمد وزارة الشؤون الاجتماعية عليهم فى تعليم الرجال بالليل ؛ وإذن لا تنقضى بضعة أعوام حتى لا تجد فى بلد الأميين والحفاة مَن ليس فى يده كتاب ولا فى رجله نعل . ولكن وزارة المعارف وضعت المعلم الإلزامى تحت الدرجة الأولى من السلم ثم نظرت إلى أعلى وتركته يكابد العمل الكثير بالأجر القليل : فهو يعطى ثمانية وأربعين درساً فى الأسبوع ، ويأخذ أربعة جنيهات أو خمسة فى الشهر ؛ وهو مع ذلك موضع البركة فى تبكير الزواج وتكثير النسل ، وعبدُ الثقافة بنشدان المعرفة وإدمان القراءة . فبالله ربك كيف يحسن عمله هذا البائس ونهاره مكدودٌ بعمل المدرسة وليله مجهودٌ بهم البيت ؟ وكيف يقضى حياته هذا المسكين ومظهره مظهر الأمير وعمله عمل الأسير وأجره أجر الخادم ؟ على أن أعجب ما فى الأمر أن يؤدى عمله كاملاً على الوجه الذى رسم له ، ويقضى حياته كريمة على النحو الذى يليق به ، ويكمل نفسه بالاطلاع والدرس حتى نبه من أفراده كثيرون فى التعليم والصحافة والأدب !

ذلك ما صنعت به وزارة المعارف أو وزارة الداخلية لا أدرى ؛ أما وزارة الشؤون الاجتماعية فلا تزال فى ظلام الحيرة تتحسس بيديها المرورقتين طريق الإصلاح . ولقد دللناها فى بضع مقالات كتبناها ، على طريق الاستفادة من المعلم الإلزامى فى محاربة الجهالة ، فأبت إلا أن تحارب الأمية بنفسها فأصدرت مجلة ، وأن تصلح فساد المجتمع برأيها فحشدت الأطفال المتشردين فى مزارع (السرو) الأميرية ، ثم سلطت عليهم قسوة الجند وشدة النظام فاستفحل فى نفوسهم الشر ، وعصف فى رؤوسهم التمرد ، وتسللوا لِواذاً فى البلاد ، حتى لم يبق من الأطفال الأربعمائة إلا أربعون يكلفون الحكومة من الجهد والنفقة ما لا رادّة فيه ولا عوض منه

كنا نود أن نجيل الرأى فى مشكلة التعليم الإلزامى ليستفىء أولو الأمر بخبرة المحنكين من الكتاب ، ولكنا نعتقد أن الرأى فى هذا الموضوع لا يصيب إلا إذا كان للتعليم فى مختلف درجاته وغاياته سياسة واضحة تنفذ ، ونظام مستقر يتَّبع . فحسبنا اليوم أن تعطف وزارة المعارف على هؤلاء الجنود المجهولين الذين عملوا وأحسنوا ؛ وإنهم ليستطيعون أن يزيدونا عملاً وإحساناً ، إذا أولاهم معالى الوزير جزاء وشكراناً .

« المنصورة » احمد حسن الزيات

---

(١) يكاد حمل الذبة يكون شعاراً للمدرسين ، ولا ندرى مصدر هذا التقليد ولا سببه ، وربما يكون حملهم للذبة بدل العصا أثراً لتطور سياسة التعليم من الشدة إلى اللين !

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بعض ما علمتنى الأيام — الشيخ عباس الجمل — فكاهة سياسية — كاريكاتور طريف — جناية الكتابة على الشعر والخطابة — كيف نعامل رجال الوعظ والارشاد

بعض ما علمتنى الأيام

تلقيت عن الأيام دروساً تفوق العدّ والإحصاء، وإن كنت قليل الانتفاع بتلك الدروس ... وهل ينتفع جميع الناس بما يتعلمون؟ لو كان ذلك لصرتُ أحكم الحكماء، فلى من الدهر فى كل يوم درسٌ جديد، مع الوعى الصحيح لما أسمع من دروس الزمان

ولكنى مع ذلك انتفعت بدرس واحد، وأحب أن ينتفع به قرائى، فما هذا الدرس؟

هو الخوف الشديد من أحاديث المجالس، فأنا لا أتكلم أبداً فى الشؤون الدينية أو السياسية أو الاجتماعية حين أقابل الناس أو حين أزور الأندية فى بعض الأحايين، لأنى أعرف أن التزيد والتحريف صارا من عيوب بنى آدم فى هذه الأيام، ولا يجوز ائتمان مخلوقات هذا العصر على مكنون الأفكار والآراء، لأن حظهم من صدق الرواية صار غايه فى الضآلة والهزال

وذلك هو السر فى إقلالى من غشيان الأندية والاتصال بالناس، حتى جاز اتهامى بالنفرة من بنى آدم وإيثار العزلة والانفراد، مع أنى فى حقيقة الأمر رجلٌ ألوف، ولا أختار العزلة إلا طلباً للسلامة من التزيد والافتراء

فما العبرة من هذا الدرس؟ وما الذى أنصح به قرائى؟

أنا أرى أن نخاطب الناس عن طريق الجرائد والمجلات، أو عن طريق المؤلفات، فلا نعلن رأياً إلا وهو نصٌّ مكتوب يعجز عن تحريفه المفترون، وإلا فمن حق كل مخلوق أن يتزيد علينا كيف شاء

إن النصوص المكتوبة لا تسلم من تحريف المغرضين، فكيف يسلم الكلام المرسل فى أحد المجالس وفيها أوشاب لا تعيش إلا من الإفك والإرجاف؟

إن التحريف الذى ابتُليتُ به آرائى المدوّنة فى مقالاتى ومؤلفاتى قد آذانى، فكيف يكون حالى لو أرسلت نفسى على سجيتها وحدثت الناس بما أراه فى الأدب والحياة؟

من الجريمة أن نحدّث الناس فى شؤون يُخاف عليها من التحريف، ومن الجريمة أن يكون اللسان وحده أداة التعبير وهو لا يرسل غير لفظٍ وصفه القدماء بأنه عَرَضٌ سيّال؟

يجب أن يكون القلم أداة التعبير فى دقائق الشؤون، لأنه يحدد أغراضنا تحديداً يمكن الاحتكام إليه عند اشتجار الخلاف

أَقِلّوا من أحاديث المجالس، يا قرائى، لتسلموا من أكاذيب المفترين، فما وثق أحد بالناس فى غير حذر ولا احتراس إلاسقوه الصاب والعلقم، وأكرهوه على الوقوع فى الخطيئة الذميمة وهى اليأس من الثقة بإخوان الزمان

ما الموجب للثرثرة فى الأندية والمجالس وعندنا من الجرائد والمجلات ما يتسع لنشر ما نريد من الأفكار والآراء؟

إرحموا أنفسكم من أوزار التحريف لما يصدُر عنكم، واعرفوا جيداً أن المبادئ لا تخدَم بالقيل والقال بين أجواف الُجدران، وإنما تخدَم المبادئ بالقول الصريح الذى يعجز عن تحريفه أصحاب الأغراض المِراض

ثم ماذا؟

ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم، فلا تقولوا فى السر ما تعجزون عن نشره فى العلانية، وما أوصيكم إلا بما أوصى به نفسى، فأنا لا أقول كلمة فى مجلسٍ خاصّ إلا إذا عرفت أنى أملك نشرها على الجمهور بلا تهيب ولا إشفاق، ولو شئت لقلت بدون أن يكذّبنى أحد المكابرين. إن لسانى فى غاية من التلطف والترفق، وإن اشتهر قلمى بالشطط والجوح، وما كان ذلك كذلك إلا لأنى أكره المواربة وأبغض الاستخفاء، وما حقد علىَّ حاقدٌ إلا بما قلت فيه بكلام منشور فى الجرائد والمجلات يملك الرد عليه حين يشاء. أما إيذاء الناس فى السر فلا أستطيعه أبداً، لأن الله تباركت أسماؤه عصمنى من رذيلة الاغتياب، فله الحمد وعليه الثناء

الشيخ عباس الجمل

من أفظع الشواهد على أن أدباء مصر لا يعطف بعضهم على بعض ، ولا يبكي أحدهم لكربة أخيه ، ولا يسأل عنه حين يغيب ، ولا يلتفت إليه إلا حين يسمع عَرَضاً أنه صار إلى بؤس أو نعيم ... من أفظع الشواهد على انعدام خلة الوفاء بين الأدباء المصريين أنهم لم يسمعوا أن الأستاذ عباس الجمل يعاني علة دامية — سينجو منها بإذن الله — وأنه كان يجب عليهم أن يواسوه في جميع الجرائد والمجلات بما يدفع عنه العلة والعناء ؛ فقد يكون في الكلمة الطيبة ما يزوّد الجسم بقوة المناعة ويقلّم أظفار الداء . ولكن أين من يفهم هذه المعاني ؟ !

فُجِع الشيخ عباس بغَرَق ابنه « طاهر » وهو يقارع أمواج البحرين في دمياط فما تحركت يراعة أديب لمواساته في ذلك الرزء الجليل !

و بُتِرت ساق الشيخ عباس منذ أسابيع ، فما بكى شاعر ، ولا تأثر كاتب لمصيبة الأديب الذي كانت مِشيته في شوارع القاهرة أرشق من مِشية الأسد المختال !

عباس الجمل في أحزان وكروب منذ خمس سنين ، فأين الكاتب الذي واساه ؟ وأين الشاعر الذي جعل بلاءه بالزمان موضوعاً لنشيد جميل يصوّر بلاء الرجال بالزمان ! !

شفاك الله يا صديقي ، وشفى من أجلك كل عليل ! !

فكاهة سياسية

كان الحزب السعدي دعا إلى إعلان الحرب على الطليان والألمان ، وهي الدعوة التي استوجبت إلقاء أطول خطبة سياسية في العهد الجديد ، وهي خطبة الدكتور أحمد ماهر باشا في مجلس النواب ، فقد استغرقت ست ساعات ، على نحو ما كانت تستغرق خطب سُحبان وهو يَهْدر بين السِّماطَين !

ولكن أنصار الحزب السعدي ليسوا جميعاً أعضاء في مجلس النواب ، فلا بد من خطيب يشرح لسائر الأنصار وجاهة القول بإعلان الحرب ، فكان الخطيب المختار هو الشيخ عباس الجمل ... وما كاد الشيخ يعتلي منصة الخطابة ، حتى عوّت صَفارة الإنذار فأجّل خطبته إلى أسبوع مُقبل ، ودار الأسبوع وجاء الشيخ يُلقي خطبته ، فعوّت صَفارة الإنذار من جديد !

وهنا قالت جريدة المصري : سترى كيف تُلاحقك الغارات يا شيخ عباس !

فأجابت جريدة الدستور : إن صحّ هذا النذير ، ففي مصر طابور خامس !

كاريكاتور ظريف

نبغت الصحف المصرية في إبداع الصور الكاريكاتورية برغم ما يقع فيها أحياناً من سخافات ؛ ومن أبدع ما رأيت صورة نشرتها مجلة « الشعلة » لميزان يحمله رجل معصوب العينين باسم « الرأي العام » ، وقد رجحت كفة الوفديين على السعديين ، فابتهج النحاس باشا وقال : ما رأيك يا ماهر باشا ؟

فأجاب الدكتور ماهر : وما قيمة هذا الميزان وحامله رجلٌ من حزبك ؟ !

وإذا كان الرأي العام من حزب الوفد فقد انحل الإشكال ! في مصر اليوم أدبٌ سياسيٌّ ، فأين من يقيّد الأوابد من ذلك الأدب الطريف ؟

جناية الكتابة على الشعر والخطابة

هي سجعة ذكرتني بالحوار المعروف :

— أجمل السجع ، ما خف على السمع

— مثل ماذا ؟

— مثل هذا !

ولكن كيف تجني الكتابة ، على الشعر والخطابة ؟

تأمل هذا التمهيد :

إذا كان عند أحد جيرانك طفل أخرس فلا تسمح لأطفالك بأن يلعبوا مع ذلك الطفل ، لأن طريقته في التفاهم ستروضهم على التعبير بالإشارات ، وعندئذ يقل فيهم الشوق إلى التعبير بالكلام ، فيحرمون أفضل النطق وهو أظهر الخصائص الإنسانية

وإذا رأيت الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني يطيل القول في انصرافه عن قرض الشعر فلا تصدق أنه حرم الشاعرية ، وإنما يرجع زهده في الشعر إلى أنه أكثر من التعبير عن أغراضه

بالإنشاء ، ففترت رغبته فى التعبير بالقصيد ، والمواهب يجنى بعضها على بعض

وأقوى البراهين عندى على أن الشريف الرضى ليس المنشئ لكتاب « نهج البلاغة » هو إمعان الشريف فى التعبير عن أغراضه بالشعر ، فديوانه من حيث الكم يزيد عن ديوان المتنبي بألوف من الأبيات الجياد ، وما أثر من الرسائل النثرية للشريف لا يشهد بأنه كان يشتهى التعبير عن ذات نفسه بالإنشاء

وكما تجنى الكتابة على الشاعر تجنى على الخطيب : لأن أعظم أسباب الإجادة فى أحد هذه الفنون هو الشوق إلى التعبير بإحدى أدوات هذه الفنون ، ومتى عبّر المفكر عن نفسه بالكتابة فقدَ الرغبة فى التعبير بطريقة ثانية وثالثة فصار أزهد الناس فى مقامات الخطباء والشعراء

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد الاعتذار عن نفسى ، فقد عاب على قوم أن أنصرف عن الشعر والخطابة ، وعدونى فى هذين الفنين من المتخلفين ، ولم أكن كذلك فيما سلف من الأيام ، فلى ديوان شعر ، وكنت فى الثورة المصرية من أعلام الخطباء ، ولم أزهد فى هذين الفنين إلا بعد اشتغالى بالتدريس والكتابة والتأليف ، فألِفْتُ التعبير بأسلوب يغاير أسلوب الشاعر وأسلوب الخطيب

وإذن فما هذا التحدى الذى يواجهنى به جماعة من أدباء الإسكندرية ؟

قال قائل منهم : إن الرجل الذى ودع بغداد بقصيدة بلغت ١١١ بيت هو الرجل الذى بخل على الإسكندرية الجريحة ببيت من الشعر أو بيتين ! ؟

هو ذلك يا نَدَامى « الثغر الجميل »

ولو أنى فكرتُ فى مواساة الإسكندرية بالشعر قبل أن أواسيها بالنثر لأطلت فيها القصيد ، ولكنى عبرت عن أحزانى بالإنشاء ، فلم يبق لقرض الشعر مجال ... ألم أقل لكم : إن المواهب يجنى بعضها على بعض ؟

وهل كان النثر الفنى إلا شعراً تحرر من القوافى والأوزان ؟

قولوا ما شئتم ، فلن تهمنى الألقاب الأدبية ، وإنما يهمنى أن أصدق فيما يصدر عن قلمى ، بغض النظر عن نوع الأداء

كيف نعامل رجال الوعظ والإرشاد

إلى الباحث الفضال « ا . ا » أوجه القول :

جاء فى خطابك أن واعظ مركز ...... آذاك بغير حق أمام أهل قريتك ، وفى بيت الله بعد صلاة الجمعة ، بألفاظ لا يليق صدورها عن الوعاظ

وفهمت من خطابك أن النزاع نشأ من الخلاف حول مسألة لم تتفق فيها أقوال الفقهاء

ومن حق أن أوجه إليك هذه الأسئلة :

هل ترى من الخير أن نطالب الوعاظ بالخوض فى الدقائق الفقهية أمام جماهير لا يصح تعريضها لمشكلات تلك الدقائق ؟

وهل ترى من الذوق أن تحرج واعظاً هو ضيفك فى بلدك فتجره إلى مآزق تنتهى بكما إلى اللجاجة والعناد ؟

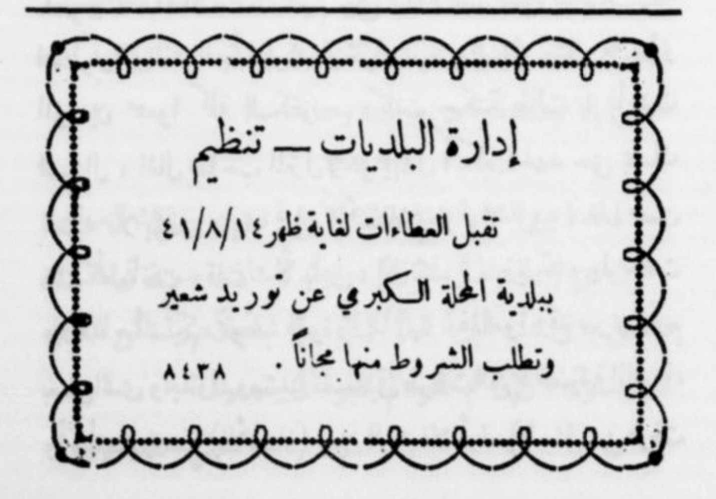
وهل ترى أن الوعاظ يعيَّنون لإرشاد من يكون فى مثل علمك واطلاعك ؟

انظر فى هذه الأسئلة جيداً لتعفينى من نشر الكلمة التى تريد أن أوجهها باسمك إلى علماء الأزهر الشريف ، فما أحب أن أشجعك على مجادلة الوعاظ ، وهم قومٌ لا تباح لهم مجادلة الناس ، وإلا كثرت الشُّبه وانعدم الصفاء بين أهالى البلاد .

وأنا بعد هذا أوصى نفسى وأوصيك بالنظر فى باب الرياء من كتاب الإحياء ، فإنى أخشى أن نقع فى مهلكات ، باسم الغيرة على الدين ، وهوَى النفس له مسالك لا يفطن لها الرجال إلا فى أندر الأحيان

لَطَفَ الله بى وبك ، وهدانى وهداك

زكى مبارك



من أدب المدرسة

أستاذ

للأستاذ على الطنطاوى

لما بلغنا قرية (صاربتا) كان الصبح يتنفس ، فطرقنا أول باب لقيناه ، فلما فتح لنا واحتوانا (المنزل) المعد للضيفان ، سقطنا من الكلال والإعياء كالقتلى ، فلم نلبث أن غرقنا فى لجة الكرى . ولا عجب أن يبلغ منا التعب هذا المبلغ وقد سرنا الليل كله على الأقدام نصعد جبلاً ثم نهبط وادياً ثم نتسلق الصخر . حتى أدركنا هذه القرية التى فرت من العمران ، وتغلغلت فى الأودية المقفرة من لبنان الشرق حتى وجدت هذه الذروة التى لا يضارعها شىء فى عزلتها وعلوها وضياعها بين الأرض والسماء فاستقرت عليها

ولما أفقنا ورأينا احتفاء القوم بنا ، وعجبهم من مسرانا إليهم وقدومنا عليهم ، سألناهم وضربنا معهم فى شعاب الأحاديث ، فعلمنا أنه لم ينزل بلدهم (أعنى أنه لم يصعد إليها ...) غريب عنها قبلنا ، وكانوا يكلموننا على تخوف وحذر ، فلما انتسبنا إليهم ، وعرفناهم بنفوسنا داخلهم شىء من الاطمئنان . غير أنهم لم يكونوا يجيبون عن أسئلتنا وإنما يحيلونها على الأستاذ (نحن فلاحون لا نفهم عنكم ، ولكن إذا جاء الأستاذ ...) ورأيتهم يذكرون الأستاذ كما تذكر الرعية الملك المحبوب ، تبرق عيونهم حباً ، وتخشع أصواتهم احتراماً ، فكنت أعجب أن يكون لمعلم القرية ، وهو لعمرى أستاذهم مثل هذه المنزلة ، وعهدنا بمعلمى القرى أن الجندى أكبر فى عيون الفلاحين منهم . وقلت : ألا تدعون لنا هذا الأستاذ المحترم حتى نراه ؟ فلما سمعوا هذه الكلمة اضطربوا وتلفتوا يتبادلون النظرات ، وعراهم مثل ما يعرو المؤمنين سمعوا كلمة الكفر . وكانت سكتة طالت ، فأعدت السؤال ، فقال صاحب المنزل وهو يبذل أكبر الجهد حتى يمسك غضبه فلا يؤذى ضيفه : إن الأستاذ يزار ولا يزور . فلما سمعت ذلك اطمأننت وقلت : لا بأس ، إنا نتشرف بزيارته ، ولو علمت عادته ما سألتكم دعوته ، فقوموا بنا إليه . فقاموا وقد سرى عنهم بعض الذى وجدوا ، ومشينا نصعد فى طرقات القرية الضيقة الملتوية ، وأنا أتصور هذا (الأستاذ) بعين الوهم فلا أراه إلا مثل من عرفت من معلمى الصبيان ، غير أن له فيما يبدو دهاء ومكراً ، تخرق بهما على الفلاحين وموه عليهم حتى حسبوه شيئاً وما هو بشىء

حتى إذا بلغنا ذروة الجبل وجدنا عليها بيتاً هو أعلى بيت فى القرية و (العين) أسفل منه ، وحوله حديقة لطيفة ، فدخلنا البيت فإذا فيه فرش نظيف ، وأثاث من أثاث المدن ، وخزانة كتب بالقرب منها مكتب صغير عليه أوراق وأقلام ، وكتاب مفتوح عرفت من نظرة واحدة أنه « الإحياء » للغزالى ، فلا والله ما أظن أنى عجبت من شىء عجبى منه . ولبثنا هنيهة ؛ ثم دخل علينا شيخ أبيض اللحية ، قد وضع على كتفيه عباءة ستر بها ثوباً من ثياب التفضل أبيض نظيفاً ، فرحب بنا بلهجة فصيحة وانطلق يحدثنا . أما الفلاحون فقد جلسوا عند الباب لم يقتربوا من الشيخ إجلالاً له ، وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير

كان الشيخ يتكلم وكنت أحدّ النظر إليه وأكدّ ذهنى لأذكر أين رأيت هذا الوجه . فلما طال ذلك منى ولحظه قال : مالك يا بنى ؟ قلت : أظن أنى أعرفك يا سيدى . فضحك وقال : وأنا أعرفك يا بنى ، أما كنت فى المدرسة التجارية سنة ١٩١٨ ؟ فتأملته ورأيت كأنى رجعت طفلاً أنظر من وراء ثلاث وعشرين سنة إلى أستاذى الجليل الشيخ « عبد الواسع » ، فلم أملك أن صحت : أستاذى ! ووقعت على يديه أقبلهما ، وأقبل يمسح على ظهرى ويقبل جبينى ، وقد استعبر كل من حضر

أستاذى الذى ترك المدرسة وأحيل إلى المعاش منذ عشرين عاما ، وانقطعت أخباره عنا وحسبناه مات ، لا يزال حياً ؟ ويقيم فى قرية (صاربتا) الضائعة بين السماء والأرض ! إن هذا لعجيب

***

قلت وقد سكن المجلس بعد أن حركته هذه المفاجأة الغريبة : وكيف عرفتنى يا سيدى الأستاذ ، وقد غيرتنى الأيام ؟ قال : ما تغيرت علىّ ، ولقد ذكرتك من أول نظرة . ألم تكن فى الصف الخامس حينما انتهت الحرب ، وخرج الأتراك من الشام ليدخلها الشريف ؟ ألم تكن فى المقعد الأول حيال الشباك ، وإلى جانبك (سرّى) أين هو (سرى) الآن ؟ قلت : لا أدرى يا سيدى ، ولم ألقه أبداً بعد تلك السنة . قال الشيخ مترفقاً ناصحاً بلهجته التى كان يخاطبنى بها وأنا صغير (لم أنسها) قال : ولم يا بنىّ ؟ لماذا لا تصل إخوان المدرسة ؟ أما علمتك الحياة أن صداقة المدرسة خير صداقة ولمتنها ؟ أصلحك الله يا ولدى

وأطرق الشيخ يفكر، ثم قال: هل علمت يا ولدى أن المعلم يتمنى ألا يكبر تلاميذه أبداً، وأنه لا يتصورهم إلا كما عرفهم أول مرة ولو صاروا رجالاً؟ أنا لا أرى فيك الآن إلا ذلك الصبي الذي كان في المقعد الأول حيال الشباك. فقدر المحنة التي يصاب بها المعلم حين يرأسه أحد تلاميذه. أتعرف عدنان؟

قلت: ومن عدنان؟ قال: لا. لم يكن معكم، هو أصغر منكم. عدنان هذا كان من أصغر تلاميذي وأحبهم إلىّ. لقد جعلته الأيام ناظر المدرسة التي كنت فيها، فتصوره وهو يدعوني إليه ويستقبلني قاعداً، ويأمرني بأمره. ولقد نالني مرة بسوء لأني لم أوفه ما يراه حقه من الاحترام. وكيف أحترمه يا ولدى وأنا لا أقدر أن أرى على كرسيه إلا عدنان الطفل ذا الشعر الذهبي؟ كيف أحترمه؟ أأحترم ولدى! سامحه الله. سامحه الله لقد آلمني وآذاني

إن المعلم يحس بوخزة في كبده إذا أعرض عنه تلاميذه أو أنكروه أو ترفعوا عليه. كأن أولئك الأطفال هم الذين ترفعوا عليه. لا يعلم المسكين أن الطفل لا يبقى أبد الدهر طفلاً... لا. لا يتخيل ذلك أبداً...

وسكت الشيخ قليلاً ثم رجع يقول: وكنت ترفع أصبعك دائماً، أرأيت؟ إني لم أنسك. وكيف ينسى المعلم تلاميذه وهم بعض ذكرياته، والذكريات هي الحياة

ثم سألني: وماذا تشتغل أنت الآن؟ فضحكت وقلت: معلم

قال: آه... مسكين... لماذا اخترت هذه المهنة يا ولدى؟

قلت: إني سأتركها يا سيدى؛ قال: وتظن أنك تستطيع؟ إن تلاميذي الذين أحببتهم ومنحتهم قلبي، قد أنكروني... لم أعد أخطر لهم على بال. لم يزرني منهم أحد... لقد رأيت منهم ألوان الجحود، ولكني لا أزال أحبهم، وأتمنى لو أستطيع أن أضمهم إلى صدري... آه... كم يتألم الأب إذا رأى ولده يعرض عنه وينكره ويمر كأنه لا يعرفه؟ لم ألق منهم خيراً، ومع ذلك فأنا أحب أن أنشئ غيرهم، وأن أصب البقية الباقية من روحي وحياتي في نفوس أطفال جدد، أعلم أنهم لن يكونوا خيراً من أولئك، ولكن هذه هي آفة المهنة... إنها مهنة ليس فيها إلا الألم... ولكن صاحبه يستمرئه ويجزع لفقده كصاحب (الكوكائين) يأخذه وهو يأخذ حياته، فإذا افتقده حنّ إليه... أليس هذا من الغرائب؟

إني أمر على مدرسة القرية، فأسمع الطلاب يرددون درساً، أو يرتلون أنشودة، فيخفق قلبي في صدري، وأحسد هذا المعلم الذي أخذ مني أولادي... لا تعجب يا ولدى... سل الفلاح الذي يشق الأرض ويغرس فيها البذر وينتظر النبتة الضعيفة... فإذا ظهرت تعهدها بالسقي والعناية، وقاس طولها يوماً بعد يوم، فلا تنمو أنملة إلا وضع في هذه الأنملة أمله ورجاءه وخوفه وإشفاقه وأحاطها بعواطفه، وصب فيها من ماء حياته... حتى إذا نما النبت واستطال، وظللته غصونه، وتدلى من حوله زهره، وأينع ثمره، اضطر إلى بيعه... فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى يراه في يد غير يده... سَلْهُ كم يتألم ويشقى، ويتقطع القلب منه حسرات كلما نظر إلى هذه الأشجار، وذكر ما له فيها من ذِكَر وما أنفق عليها من أصباحه وأماسيه، ومن حبه وأماني نفسه... وإنها لأشجار... جمادات لا تعقل... فكيف بي وقد ربيت بشراً ثم أعرضوا عني ونسوا عواطفي وحبي... وما نسيتهم ولا أقلعت عن حبهم؟

وما كان لي يا ولدى أن أزعجك بحديثي لولا أني أنفّس به عن نفسي. إنني أعيش وحيداً في هذه القرية المنعزلة لا أدرى كيف أزجي الباقي من أيام حياتي. إني أشكو الليل، ولا أطيق النوم، فلا أجد إلا النجم أراقبه وذكرياتي أناجيها. وكثيراً ما تثقل علىّ هذه الذكريات، حتى لأضلّ قلبي بين حاضر لا متعة فيه وماض لا رجعة له...

لا، يا ولدى، لا تحرص على هذه المهنة. اتركها إن استطعت فهي محنة لا مهنة. هي ممات بطيء لا حياة. إن المعلم هو الشهيد المجهول الذي يعيش ويموت ولا يدرى به أحد، ولا يذكره الناس إلا ليضحكوا من نوادره وحماقاته...

* * *

وعدنا من العشية نسلك تلك الأودية، ونتسلق تلك الصخور عائدين من (صاريتا) ولا يزال حديث أستاذي يدوى في أذني، فأحس به في هذه البرية الساكنة قوياً مجلجلاً، ولكن الناس لا يسمعونه، وإن هم سمعوه لم يحبوا أن يفهموه!

علي الطنطاوي

بين إنكارين

فى قسمة غنائم حنين

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

راق بعض إخواننا من أفاضل العلماء ما ذكرته فى إنكار ذى الخويصرة التميمى على النبى صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حنين[1] وأعجبه إرجاعى ذلك الإنكار إلى جمود ذى الخويصرة، وأنه يرى الوقوف فى الدين عند حدود القواعد، ولا يرى الأخذ فى ذلك بشىء من التساهل، وقد أداه هذا التنطع فى الدين إلى ذلك الإنكار الفاضح، وكان من النبى صلى الله عليه وسلم أن أعرض عنه فى ازدراء، وتركه فى ذلك الجهل الفاضح الذى لا يقبل الدواء، لأنه من الجهل المركب وهو شر أنواع الجهل، وصاحبه لا يفيد فيه العلاج أصلاً

وقد كان هناك إنكار آخر من الأنصار على قسمة غنائم حنين، وهو أدل على ما راق ذلك العالم الفاضل من أن الجمود على القواعد ليس من الدين فى شىء، وأنه لا قيمة لمنطق الألفاظ إذا اعترضه منطق الحوادث، لأن منطق الألفاظ يسهل تذليله لمنطق الحوادث بشىء من التصرف فى دلالتها، أما منطق الحوادث فصريح لا يقبل تأويلاً، ويأبى إلا أن يخضع له منطق الألفاظ.

وكان إنكار الأنصار على النبى صلى الله عليه وسلم أنه أعطى قومه من غنائم حنين ما أعطى ولم يعطهم، فوجدوا فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة — وهى القول الردئ — وقال بعضهم: إن هذا لهو العجب: يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! وفى رواية أخرى: إن هذا لعجب، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش، وإن غنائمنا ترد عليهم. وقال آخرون منهم: إذا كانت شديدة ندعى إليها، ويعطى الغنيمة غيرنا!

(١) انظر العدد ٤١٧ من مجلة الرسالة

وقال حسان بن ثابت فى ذلك:

دع عنك شماء إذ كانت مودتها
نزراً وشرُّ وصال الواصل النزرُ
وائت الرسول فقل يا خير مُؤتمن
للمؤمنين إذا ما عُدِّدَ البشرُ
علام تدعى سُليمٌ وهى نازحة
قدَّامَ قوم هم آووا وهم نصروا
سماهمُ الله أنصاراً بنصرهمُ
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
نجالد الناس لا نُبقى على أحد
ولا نضيِّع ما توحى به السوَر
كما رددنا ببدر دون ما طلبوا
أهلَ النفاق وفينا ينزل الظفرُ
ونحن جندك يوم النَّعف[1] من أُحُد
إذ حزَّبت بَطراً أحزابها مُضرُ
فما ونِينا وما خِمْنا وما خبروا
منا عثاراً وكل الناس قد عثروا

وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هذا الإنكار من أصحابه الأنصار، فلم يهمه أمر الألفاظ التى بلغته، ولم يبحث عن دلالتها على الشك فى رسالته أو عدم دلالتها عليه، ولم ينظر إلى ما تقضى به قاعدة الإنكار عليه من كفر أو نفاق، بل نسى ذلك كله ولم يعبأ به ولم ينظر إلا إلى ماضى الأنصار الحافل بالجهاد فى نصر الدين، ولم يذكر إلا أنهم آووه وآثروه وأصحابه على أنفسهم حين هاجروا إليهم، وبذلوا دماءهم وأموالهم حتى تم له ما تم من النصر على قومه وغيرهم، وليس من حسن السياسة أن يؤخذ الصاحب بزلة لا تذكر بجانب حسناته، وليس من الإنصاف أن يحاسب على الألفاظ إذا كانت أفعاله توجب الإغضاء عنها، وتدل على أنه لا يقصد ما فيها من دلالة على كفر أو نفاق. ولا شك أن من لا يراعى مثل هذا فى سياسة أصحابه تختل عليه أموره، وتضطرب أحواله، وينظر فلا يجد له صاحباً ولا نصيراً

(١) أسفل الجبل

وهكذا آثر النبي صلى الله عليه وسلم ما يقضي به حسن السياسة من أخذ أنصاره باللين ، والتغافل عما صدر عنهم من تلك القالة . وقد دخل عليه سعد بن عبادة الأنصاري يبلغه شكوى قومه ، فقال له : يارسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، لِمَا صنعت في هذا الفَيْء الذي أصبت : قسَّمْتَ في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . فخرج سعد فجمع الأنصار له ، فلما حضروا قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وجِدةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل . ثم قال : ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنُّ والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّبا فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً

فلله هذه السياسة البارعة التي يتواضع فيها النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار هذا التواضع ، ويقوم فيهم كأنه فرد منهم ، فيوازن بين ما قدمه لهم من حسنات ، وما قدموه له من حسنات ، ويجعل ما قدموه له مثل ما قدمه لهم أو أرجح منه ، ثم يذكرلهم عظيم حظهم إذا عادوا به في رحالهم ، وعاد الناس بما أخذوه من تلك الغنائم ، فيقتلع من نفوسهم كل أثر لتلك الموجدة ، ويجعلهم يبكون ندماً عليها أو فرحاً بعظيم حظهم

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمد على قواعد الدين ورسومه كما نجمد اليوم ، لم يأخذ الأنصار بتلك السياسة البارعة بل وقف يؤنبهم على تلك القالة ، ويذكر أن الإصرار عليها كفر ونفاق في الدين ، وأنهم إن لم يتوبوا منها حل عليهم عذاب الله وحبط ما قدموه من حسنات في الإسلام

ولكن مثل هذا لا يشفي النفوس العاتبة ، ولا ينال به رضا الأصحاب عند عتابهم ، وإنما يكسب رضاهم بالإغضاء عن زلاتهم ، وأخذهم بالرغبة واللين ، لا بالرهبة والوعيد . وها نحن أولاء اليوم نأخذ الناس في ديننا بالتشديد والوعيد ، ولا نأخذهم بالرغبة وحسن السياسة ، ونقف جامدين أمام النصوص وألفاظها ، ونغالي في الأخذ بالقواعد غير متأثرين بالظروف التي تحيط بها . ولا شك أن هذه مغالاة في الغيرة على الدين تضر ولا تنفع ، وتنفر الناس منه ولا تجذبهم إليه ، وقد خسرنا بها كثيراً ممن كان يمكن أخذهم بالرغبة وحسن السياسة . ومن الواجب أن نقلع عن هذا الجمود ، وأن نأخذ الناس إذا زلوا بتلك السياسة التي سنها النبي صلى الله عليه وسلم

عبد المتعال الصعيدي

(1) اللعاعة بقلة خضراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .



٥ ـ مدن الحضارات
فى القديم والحديث

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

يعتبر عصر الأسرة العلوية فاتحة عصر جديد فى تاريخ القاهرة التى دارت عليها من الزمان أحوال من النحس والسعد ، كما هو الشأن دائماً فى كل بلد تنوشه الخطوب وتتقاذفه الأقدار

ولقد طبعت القاهرة فى عهد هذه الأسرة بطابع خاص مع احتفاظها بجلال القدم وروعة الماضى ، وأفاضت عليها مآثر هذا البيت حللاً رائعة التقى فى أثنائها الماضى بالحاضر والقديم بالحديث والشرق بالغرب ، فبدت القاهرة بلداً شرقياً جميلاً يخلب اللب ويلفت النظر . وتهاوى إليها العلماء وأهل الفنون والرحالون يمتعون النظر بمحاسن جمالها ، أو يسرحون الطرف فى رباعها المملوءة بروعة التاريخ وقدسية الماضى ، ويجدون فى آثارها القائمة وأعلامها الباقية ومعابدها وهياكلها مجالاً للدرس وميداناً للبحث ومراداً للهو . فوصل إليها فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٦ — أى فى أوائل حكم محمد على باشا — الأديب الفرنسى المشهور « شاتوبريان » صاحب القصص الرائع والأسلوب المحكم

قضى هذا الكاتب العظيم أياماً فى مدينة رشيد ، ثم وفد إلى القاهرة ، فاستقبله نجل الوالى الكبير ، ولقى فى رحاب مصر وظلال الأهرام وعَبْرى النيل ، ما جعله يتغنى دائماً بهذه الرحلة السعيدة .

وزار القاهرة فى ذلك الحين أيضاً الكونت « دى فوربان » De Forbin والكونت ماركيلوس ؛ وسجل أولهما فى كتابه وصفاً ممتعاً لمصر عامة والقاهرة خاصة ، وحظى الاثنان بعطف الوالى عليهما وميله إليهما وإهدائهما بالهدايا الثمينة والعطايا الكريمة . وممن زار القاهرة فى ذلك الحين الضابط الفرنسى الكبير مارمون Marmont ، وشامبوليون المؤرخ الكبير وصاحب اليد الطولى فى حل طلاسم الكتابة الهيرغليفية ، وجوزيف ميشو المؤرخ ، ودوزا الرسام الصناع والمصور الحاذق

وليس عجيباً أن تزخر القاهرة فى ذلك الحين بطائفة من أكابر العلماء وأعلامهم ، فقد كان الوالى يحسن ضيافتهم ويرحب بهم ويستعين بعلمهم ، ويحثهم على فتح آفاق جديدة فى النهضة المصرية التى حمل لواءها ، ورفع بناءها

ودبت الحياة فى القاهرة من جديد ، وودعت عهد الفتن التى سادتها حيناً من الدهر ، واستقر فيها الأمر واستقام الحكم ، وبدأت عناية الوالى تنصرف إلى البناء والتعمير ، والإصلاح والتجديد ، فبنى مسجد محمد على بالقلعة على نسق تركى بديع ، وأصلح مسجد عمرو بن العاص بمصر العتيقة ، وجدد مسجد السيدة زينب وأصلحت أجزاؤه المتهدمة وزخرفت جدرانه وزينت أركانها بالنقوش البديعة ، وصلى فيه الوالى صلاة الجمعة يوم ١٤ ربيع الآخر سنة ١٢١٧ هـ

وشهدت القاهرة فى عهد تلك الأسرة أفراحاً ومعالم تذكر بأفراح الفواطم ولياليهم الخوالد ، وكانت أضواء الثريات تنعكس ليلاً على بركة الأزبكية ، وتتراءى النجوم فى جوانبها فيخال الرائى أن سماء ركبت فيها . وأقيمت السوارى وركبت القناديل ، ونصبت المصابيح ، وأديرت المطابخ ، واستمر اللهو فى القاهرة أياماً . واجتمع اللاعبون والراقصون والمغنون وأصحاب القردة والمضحكون يبعثون إلى النفوس ألواناً من السرور

وكان مهرجان الزفاف — كما تذكر كتب التاريخ — شيئاً عجباً ، وازدحمت قنطرة الموسكى وباب الخلق ودرب الجماميز ، والصليبية والسروجية والجمالية والأزبكية بآلاف من الناس ومئات من العربات

حدث ذلك فى عهد محمد على باشا ، وحدث بصورة أروع فى عهد اسماعيل حينما تزوج أبناؤه الثلاثة . ولقد ظلت القاهرة فى فرح كامل مدة أربعين يوماً لما تهدأ لها عين ، ولم يسكن لها طرف ، ولم يخبُ فيها ضوء . . . وكانت الموائد موصولة غير مقطوعة ؛ وأصناف الطعام تروح وتندو على المدعوين فيجدون تنوعاً ولذة ، وغصت الساحات الرحاب والعرصات الفساح بالفرق الغنائية ، فهذا (الحمولى وتخته) ، وذلك (الدمياطى وجوقته) . واشترك فى هذه الحفلات الغنى والفقير ، والصغير والكبير ، والأمير وغير الأمير . فنى داخل القصر لهو ولعب ، وفى خارج القصر فرح وطرب ، وفى الشوارع زحام بالمناكب ، وفى شرفات المنازل أجسام مشرفة ورؤوس مطلة ، وفى النيل قوارب ومراكب غصت بالراكبين

ولا شك أن هذه الصورة الجميلة التي لم ترها رأى العين تذكرنا بأفراح القاهرة في قران الفاروق ، فقد رأيناها وقد لبست أبهى حلة وأكمل زينة ، وزيّنتها ثريات الكهرباء ، وسطعت فوق دورها الأنوار الساطعة والأضواء اللامعة ، وبدا قصر عابدين وكأنه قبس من نور ، أو قطعة هائلة من البلور ؛ وامتدت أقواس النصر هنا وهناك وقد جللتها الأنوار ، وكللتها الأزهار ، وازدحمت القاهرة بالوافدين إليها على قُطُر تنهب الأرض وتطوى الفضاء ، وكان في كل بقعة فرح ، وفي كل رقعة سرور

* * *

وفي عهد هذه الأسرة اختطت في القاهرة شوارع جديدة ، وأنشئت أحياء حديثة . ففتح شارع السكة الجديدة ، وشارع الموسكي ، ومُهّد الطريق بين القاهرة وبولاق ، وفتح شارع محمد علي فتحاً جديداً أزيلت بسببه بيوت قذرة ، وحارات ضيقة ، ومنعطفات مظلمة . وكذلك كان حال شارعي الفجالة وشبرا . وأقيمت على حفاف هذه الشوارع بيوت عالية وقصور كبيرة لا تزال بعض بقاياها إلى اليوم . وبهذه الحركة الإنشائية خلقت القاهرة خلقاً جديداً ، وقُضى على كثير من مبانيها الخربة ، وخرائبها القذرة ، وبركها النتنة في داخلها ، وأقيم على أنقاض ذلك كله شوارع واسعة طويلة ، وبيوت أخذت مجارى التقدم العلمي وتماشى التطور الهندسي حتى وصلت إلى ما نشاهده اليوم من قصور عالية رفعت لتخترق السماء سموكها ، وكادت تلامس الجوزاء قممها ، حتى كأن البحتري كان يعني كل قصر منها بقوله :

ذُعر الحمام وقد ترنم فوقه   من منظر خطر المزلة هائل

* * *

وأخذت مكانة القاهرة تعظم وشهرتها تتسع ، حتى زاد إقبال الملوك والأمراء عليها ، وكثرت رحلة العلماء والأدباء إليها . فزارها في عهد إسماعيل — غيرَ من شهدوا حفلة افتتاح قناة السويس — السلطان عبد العزيز الخليفة العثماني سنة ١٨٦٣ وتجد وصفاً ممتعاً لزيارته في كتاب نفحات تاريخية لعزيز بك خانكي ؛ كما زارها : «فلوبير» ، و«تيوفيل جوتييه» ، و«رينان» ، و«شارل إدمون» ، و«سولسي» ، و«إدمون أبوت» صاحب كتاب (أحمد الفلاح) وكثير غيرهم

وجمّلت ميادين القاهرة في عهد تلك الأسرة بالتماثيل المقامة تخليداً لذكرى الأبطال والعظماء ؛ فأقيم في الميدان المعروف اليوم بميدان المسكة فريدة تمثال البطل الفاتح إبراهيم باشا ، الذي نقل بعد الثورة العرابية إلى موضعه الحالي بميدان الأوبرا . وأخذت فكرة إقامة هذه التماثيل تزداد وتتسع كل يوم ، حتى رأينا منها إلى اليوم تمثال لاظ أوغلي في الميدان المنسوب إليه ، وتمثال سليمان باشا الفرنساوي ، وتمثال سعد زغلول عند نهاية جسر الخديو إسماعيل (قصر النيل سابقاً) ، وتمثال مصطفى باشا كامل الزعيم الوطني في الميدان الذي ينسب إليه اليوم ، والذي كان يعرف قبلاً بميدان (سوارس)

* * *

وشهدت القاهرة منذ ذلك العهد روحاً علمية لم تشهدها حتى في أيام الفاطميين . فأنشئت الجمعيات العلمية المتعددة كالجمعية الجغرافية التي رأسها الدكتور (شوينفرت) الألماني ، وجمعية المعارف التي وضعت تحت رعايتها الأمير توفيق باشا ورياسة عارف باشا لنشر الكتب والقيام على طبعها ترويجاً للثقافة ونشراً للعلم والأدب .

وتبع ذلك سيل فياض من الجمعات العلمية ذوات النشاط الملحوظ في عهد الملك فؤاد ، وهي جمعيات كان جلالته يتولاها بكثير من رعايته وتشجيعه حتى اتخذت طابعاً علمياً ، وكان لها مكان وقدم راسخة بين الجمعيات الأوربية المختلفة .

وأنشئت الجامعة المصرية وأخذت تحتضن رويداً رويداً المدارس العالية التي كانت في القاهرة حينئذ حتى ضمت إليها وأصبحت كليات تابعة لها ومتفرعة منها إلا بعض معاهد ظلت — لعوامل خاصة — محتفظة باستقلالها أو تبعيتها لوزارة المعارف كدار العلوم وكلية البوليس .

وأصبحت الجامعة المصرية قبلة أنظار كثير من أبناء الشرق يولون وجوههم شطرها استغناء بها عن جامعات أوربا . وحفلت تلك الجامعة الفتية بكثير من العلماء الأجانب الذين نشروا فيها علمهم ووسعوا فيها دوائر بحثهم حتى خرج جيل جديد يختلف في مناحي بحثه ودرسه عن الأجيال القديمة .

وأصبحت القاهرة اليوم حاضرة إسلامية كبيرة لا تقل عن كثير من حواضر اليوم في تخطيطها وآثارها ومبانيها الشاهقة وشوارعها وجسورها ورياضها وملاهيها .

(الحديث موصول)   محمد عبد الغني حسن

للحق والتاريخ

٣ – عبد القادر حمزة باشا

كلمة أخيرة عنه

[ومن « قومية » بحثه وراء « الحقيقة » فى التاريخ المصرى القديم]

للأســتاذ محمد السوادى

كلمة ! !

دللت فى مقالى الذى تفضلت « الرسالة » الغراء بنشره فى (العدد ٤١٩) على أن عبد القادر حمزة إنما اتجه إلى دراسة « التاريخ المصرى القديم » بحثاً وراء « الحقيقة » فى ذاتها ولذاتها ، وأن هذه الدراسة ملأته – كمصرى – زهواً بمصريته فكان هذا الشعور منه إيذاناً « بالقومية » التى حالفته فى بحثه ، وأن عبد القادر حمزة مؤلف كتاب « على هامش التاريخ المصرى القديم » قرن بين « الحقيقة » و « القومية » ، وإنما رأى فى الاهتداء إلى « الحقيقة » إثباتاً « للقومية » ففعل

وأثبت فى مقالى الملحوظات الست – أو الحقائق المريرة – التى وضعها الرجل أمامه وخرج منها بأن « الحقيقة » ضائعة فيجب إيجادها ، و « القوميــة » ضعيفة فيجب إنماؤها . أما « الحقيقة » فهى أن مدنية مصر لم تقم كما اعتقد المؤرخون الأجانب « على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة » ، بل قامت كما دلل هو « على أساس علمى وخلق صحيح »

هذه هى خلاصة المقال الذى اختتمته بوعد منى لك أن ألتقى بك لندرس معاً « بالتطبيق » الطريق التى سلكها فى البحث ، والنتائج التى خرج بها ، و « النظافة » العلمية التى حالفته فى هذا البحث

وأحب أن أضيف إلى ذلك الوعد « كلمة » لا بد منها كما يقولون ، أحب أن أقول إن هذا « التطبيق » بالمعنى الذى أفهمه من هذه الكلمة يسوقنا إلى دراسة مستفيضة بدا لى أن أرجئها إلى وقت يحفظ على « كرامتى » و « براءتى » بعد إذ ترامى إلى أن بعض خصوم البراءة ، يزعمون أنى إنما أنشر هذه الفصول ابتغاء مرضاة جريدة « البلاغ » التى أعمل فيها . وليس يسوءنى أن تنشط الشياطين السود فى أشباه الرجال لتسرد على مسمعى قائمة طويلة من الإفك ، ما دمت مطمئناً إلى قدرة القراء على التفريق بين الصدق والكذب فى أى اتهام يوجه إلى ؛ ولكنى إزاء اتهام كهذا لا أملك له دفعاً ، وفى مجتمع تقوم الصلات بين جمهرة بنيه على النفاق ، ويجد مثل هذا الاتهام سبيله إلى بعض الأذهان ، لا يسعنى إلا أن أجعل من هذا المقال خاتمة للبحث.

ويعزز هذا العزم منى سبب آخر بل أسباب أخر . . . ليس من اللياقة أن أميط اللثام عنها اليوم ؛ فإلى غد ... إلى الغد المجهول الذى لا أدرى متى يطل ! ! وفيــه – إن علم – أقوم ببعض ما يجب على لهذا العظيم الراحل

تاريخ ولكن

ولأعد الآن إلى « تطبيق » متواضع محدود لناحية واحدة يصح الوقوف عندها

أدرك الرجل أنه مقدم على « تاريخ » ، وهو لم يكن يوماً « مؤرخاً » ولكن الدراسات التى قام بها أهلته لهذا الإقدام ، بل أثارت له السبيل إلى تصويب أخطاء المؤرخين العالميين ، وإلى تفنيد الأباطيل التى أذاعها المغرضون منهم ؛ فماذا يصنع ؟

رأى – كما يرى كل عالم زاد علمه فزاد تواضعه – أن يسمى جهوده « على هامش التاريخ المصرى القديم » ، فلما تمت له التسمية واطمأن إليها وأنس بها ، وصارح الأخصاء من الأصدقاء بهذا الشعور ، ونشر فصولاً ضمن هذا « النطاق الحر » ، كف فجأة عن مواصلة النشر ، وعاد يواصل الدراسة فى صمت ، لأن « فكرة جديدة » نبتت فى ذهنه وحددت له « اتجاهاً جديداً » فى بحثه . فما هو هذا الاتجاه؟

هو أن يجمع بين « الحقيقة » كمؤرخ و « القومية فى البحث » كمصرى ، ما دام المجال قد انفسح أمامه ، ولم يعد مقيداً بالتاريخ

فى صميمه ، بعد إذ أذاع أن كل جهوده ستكون وقفات « على هامش هذا التاريخ » ، فضلاً عن أن هذا اللون من البحث يحمل طابع الأخذ والرد ، ويحكم المنطق فى رقاب الوقائع ، ويخرج من المقدمات بنتائج ، فيجئ البحث أدنى إلى العراك العميق المادى ... عليه من طلاوة المنطق طابع ، وله من ذات الحقيقة جمال ... فيدرسه رجال « الحقيقة » على أنه « تاريخ » ، ويدرسه أبناء الجيل بنفس الروح الذى يطالعون به جدلاً بديعاً أو قصة رائعة ... فتنساب إلى أذهانهم حقائق مجلوة من تاريخ بلادهم ، ويتغلغل إلى أعماقهم حب لهذا التاريخ يغدو على الأيام إعزازاً لهذا البلد ، فتزكو الوطنية فيهم ، وينمو الشعور بحق بلادهم عليهم ، فيصبح هذا النتاج « إنسانياً » من حيث « الحقيقة » و « وطنياً » من حيث « قومية البحث » وراء هذه « الحقيقة »

كانت هذه هى « الفكرة » التى حددت له « الاتجاه » ، فاطمأن إلى أن للبحث هدفاً يهون دونه كل شقاء ، وكانت هذه هى « الفكرة » التى استطعت أن أخرج بها من أحاديثى الكثيرة معه ، وإن كنت — لوجه الحق — أقرر أنه لم يحددها بهذا الوضوح ، لأنه كان يأنف أن يشعرك بأنه يقصد إلى مدح نفسه أو الثناء على جهده

الجوهر :

اختمرت « الفكرة » إذن وتحدد « الهدف » ، فكيف يدرك المؤلف هدفه ، أوما هى الوسائل التى تمكن له من إدراكه ؟ لم يصارحنى بها ، ولكن كتابه فى جزأيه — ما طبع منها وما هو تحت الطبع — ناطق بهذه الوسائل التى أستطيع أن ألخصها لك فيما يأتى :

أولاً : حدد مدار البحث كما قلت لك بالتدليل على أن المدنية المصرية قامت على أساس علمى وخلق صحيح ، وحدد الحقيقة التى يجب أن يثبتها التدليل على أن المدنية الحديثة وما سبقها من مختلف المدنيات ، وفى طليعتها المدنية اليونانية ، إنما هى « سير مطرد » لمدنية مصر وأقباس مستمدة من نهضة المصريين ؛ ثم حدد النتيجة التى يجب أن يبلغها التدليل على أن هذا العالم القائم الذى يتطاحن بسلاح التضليل ، وتتيه فيه العنصرية الآرية من ناحية ، والديمقراطية السياسية من ناحية أخرى ، إنما يغفل عمداً الحقيقة الكبرى ، وهى أن لا آرية هنا ولا ديمقراطية ، وإنما هناك « مصرية » أمدتهم جميعاً بالفضل الذى ينازعونه ، وإذا صح أن للأصيل فضل المباهاة ، فمن حقنا وحدنا أن نباهى بعصريتنا .

ثالثاً : آثر عبد القادر حمزة أن يختار من بين موضوعات هذا التاريخ القديم موضوعات بالذات ، يركز فيها الجهود ويستخلص منها النتائج كما سيجئ فى التطبيق

رابعاً : رأى أن يكون نهجه علمياً إزاء المؤرخين ، ومنطقياً إزاء القراء ، ففى النهج يذكر الرواية التى ساقها المؤرخون الأجانب بأسانيدها ، ثم يذكر المراجع ويحدد الكتاب ويبين الصفحات ، ثم يعود إلى التفنيد ويضيف إلى الأسانيد كل سند جديد وفقت إليه الكشوف ، ثم يخرج بالنتيجة وضاحة الجبين لا سبيل معها إلى دعاة الشك بعد أن انبلج منها صبح اليقين ...

أمثلة للتطبيق

وإليك الآن بعض الأمثلة التى تحقق لك « التطبيق المتواضع » الذى وعدت به :

أراد أن يخلص ذهن قرائه مما علق بها أيام الدراسة من خرافات اختلقها المؤرخون الأجانب فاعترفنا بها كحقائق وحشونا بها البرامج فذكر قارئه بادئ ذى بدء بأن الكتابات التى تركها لنا الكتاب اليونانيون والرومانيون كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامبوليون الشاب أى مدى أربعة عشر قرناً ؛ وهؤلاء الكتاب الذين زاروا مصر وكتبوا عنها فى ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة ، مثلهم فى ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدعون عليها دعاوى لا وجود لها لأنهم لم يفهموا ما شاهدوه ، أو لأنهم يريدون أن يثيروا دهشة قرائهم بما يقصونه من المبالغات

وهذا كلام يفهمه القارئ الحديث الذى كان يرى الشركات الأمريكية والأوربية تجيء إلى مصر قبل الحرب فلا تلتقط

لأفلامها غير صور الطبقات الدنيا في حي (زينهم) و (عشش الترجمان) بل تستأجر من الدهماء فقراء يطلب إليهم التزيي بالطراطير وما إليها لتوهم الشركات شعوب الغرب بأن مصر لا تزال تتخبط في مثل هذه الأزياء

يفهم القارىء الحديث هـذا النحو من المنطق فهل قنع عبد القادر حمزة بهذا التدليل وترك المؤرخ أو المحقق يطالبه بالدليل؟ كلا . وإنما تناول أقوال شيخ أولئك الـكتاب والمؤرخين — هيرودوت — ونقلها بأمانة ، ثم دلل على فسادها . وحسبك منها أن أذكر لك بعضها في سطور :

أبان لك المؤلف أن هيرودوت نقل عن موظف مصري في معبد « المعبودة نيت » في صا الحجر أن النيل يولد بين « سيين » و « ابلفنتين » — وهذه كانت تجاور أسوان — وأن شطراً من مائه يجري إلى مصر والشطر الآخر إلى النوبة ، وأن هذا الزعم كان يعتقده المصريون ، ثم دلل عبد القادر على أن هذا القول ليس سوى خرافة ما كانت تستحق أن يثبتها هيرودوت في كتابه بعد أن قال هو نفسه : « إنه يميل إلى الظن بأن ذلك الموظف الذي نقل عنه هذا القول كان يمزح . » وقال المؤلف إن المصريين « الذين كانت سيين وابلفنتين من مدنهم كانوا يوقنون من غير شك أن النيل لا يجري شطر منه إلى مصر وشطر منه إلى النوبة ، بل يأتي من النوبة جارياً إلى مصر . وقد أرسل المصريون قوافلهم التجارية وحملاتهم العسكرية وسفنهم التجارية والحربية إلى النوبة وإلى ما وراء النوبة منذ الدولة القديمة ... فهم إذن ركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع ... فالادعاء عليهم بأنهم كانوا يعتقدون أنه يولد عند أسوان هو ادعاء زور ، والاعتماد فيه على حديث قال هيرودوت إنه سمعه من موظف مصري هو اعتماد على سند ساقط »

ثم لم يشأ المؤلف أن يقول له قائل : « ولـماذا تتجاهل أن بعض المؤرخين تأولوا هذه الرواية ، فقالوا إنها كانت اعتقاداً للمصريين قبل أن يفتحوا النوبة ، ويركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع » . بل أثبت عبد القادر هذا التأول ، ورد عليه بأن هيرودوت لم يقدم إلى مصر إلا في مختتم الحضارة المصرية . أي بعد أن كان المصريون قد فتحوا النوبة في عصر الدولة القديمة . فالموظف الذي نقل عنه لا يمكن أن يكون إلا جاهلاً أو مخرفاً ، وهيرودوت لا يدل بنقله هذا التخريف إلا على أنه كان يلتقط ما يقال له بغير احتياط ولا تمحيص

ثم نقل المؤلف عن هيرودوت قوله إنه وصل في تجواله إلى بلفنتين وقوله : « فما أكتبه وصفاً لمصر إلى هـذه المدينة رأيته بعيني » ثم قطع عبد القادر بأن هيرودوت كاذب » لأنه لو كان قد وصل إليها وشاهد مجرى النيل عندها لعلم أنه ليس له مجريان متعارضان أحدهما يتجه إلى مصر والثاني إلى النوبة »

ولم يشأ المؤلف أن يدع هيرودوت « الـكذاب » في هذه الرواية كذاباً على طول الخط وبسوء نية ، بل راح يلتمس له المعاذير ويقلب الأمر على مختلف وجوهه ، حتى اهتدى — أي المؤلف — إلى الأناشيد التي وجدت منقوشة على الأهرام موجهة إلى النيل وفيها :

« لقد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود . إن المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) » . ورجح عبد القادر أن تكون هذه الخرافة قد انبعثت من هذا النشيد ، لأن الصخرتين قائمتان عند ابلفنتين . ورجح أن يكون غرض الشاعر أن النيل يدخل حدود مصر عند هاتين الصخرتين ؛ فكأنه يولد عندهما بالنسبة لها وهو تعبير شعري جائز ، والمصريون كانوا مشغوفين بالمجاز ، أما إذا قلنا إن الشاعر لم يرد معنى مجازياً فهو على كل حال قال بأن النيل يظهر من بين صخرتين ، ولم يقل إن شطراً منه يجري إلى مصر وشطراً إلى النوبة . والعلماء اتفقوا على أن نقوش الأهرام تسجل أساطير كانت عامة المصريين تعتقدها فيما قبل التاريخ يوم كانت المدنية المصرية تحبو كالطفل

ملحوظات

هذه خلاصة متواضعة لنقطة تافهة وردت عرضاً ضمن كتاب هيرودوت ، فما بالك إذا عدت إليها في الكتاب وقرأت أسانيدها ولمست مدى الاهتمام الذي أخذها به المؤلف ليقضي عليها ؟ ثم ما بالك حين تتبعه في تناوله الحقائق الكبرى . ألم تلاحظ معي أن للمؤلف « ضمير المؤرخ » يمشي جنباً إلى جنب مع « حماسة

القومية » فى الذود عن المصرية ، حتى لقد راح يلتمس العذر للمؤرخ اليونانى إرضاء للضمير العلمى ، فإذا وجد له سنداً خيل إليه أنه راجح أثبته ؛ فإذا أثبت التفنيد أنه مرجوح قضى عليه ثم ترك لقارئه الحكم على رواية هيرودوت

ثم ما قيمة مسألة تافهة كهذه يعنى بها هذه العناية ؟

القيمة أنك — بها وبأخواتها التى تلتها — تعرف أقوال هؤلاء المؤرخين وقيمتها ، فتطهر ذهنك من الإيمان الخاطئ بالتاريخ الذى درسته تلميذاً وشاباً وكهلاً وشيخاً لتستقبل معه بحوثه الكبرى وراء الحقيقة الخاصة بالتاريخ المصرى القديم

ومن هذا « التطبيق المتواضع » ترى أن الرجل لم يكن يثبت حرفاً — بله البحث — من غير أن يرى به إلى نتيجة . وقد ترى الكلمة مثبتة فى مقدمة الكتاب للعودة إليها فى خاتمته

ميزة

وكان للمؤلف ضمن الميزات ميزة لا يسعنى إغفالها على الرغم من ضيق النطاق واعتزامى اختتام البحوث ، ميزة العودة إلى الحق شأن العالم الثبت ، وميزة مسايرة أحدث البحوث وآخر الكشوف بحيث إذا عثر على كشف يصوب نتيجة بلغها قبلاً عاد فصارحك بخطأه وأرشدك إلى الكشف الذى هداه إلى الصواب

وفى الجزء الأول مجالان للتطبيق أرجو أن تعود إليهما : أحدهما فى صفحة ٢٢٣ تحت عنوان « ملحق للتقويم المصرى » ضمنه نصوصاً اهتدى بعد أن فرغ من طبع الكتاب إلى أنها عثر عليها أخيراً ودلت على أن الكهنة ورجال الحكومة كانوا يدونون أيام المواسم الزراعية طبقاً للتقويم وأمام كل واحد منها اليوم المعادل له طبقاً لدورة الشعرى اليمانية : « الأمر الكانونى » الذى أصدره بطليموس الثالث بتعديل التقويم على أساس إضافة يوم كل أربع سنوات إلى الخمسة الأيام الإضافية

والآخر فى ص ٢٢٧ وهو تصحيح خطأ وقع فيه فى قوله : إن من المباحث التى بحثها برستيد أنه حفر فى مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ متراً أو ٣٠ فوجد أن الإنسان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأوانى والقوالب يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت . فقال عبد القادر إن هنا اسماً سقط وكان يجب أن يذكر لأن صاحبه هو الذى حفر عند مدخل الدلتا وهو هو شوينفورت ، وأما برستيد فقد درس نتائج هذا الحفر وحسب طبقات الطمى التى يكسو بها النيل أرض الدلتا كل سنة فوجد أن الإنسان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمة يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت

كلمة أخيرة

ها هو ذا « التطبيق المتواضع » انصب على موضوع واحد ومنه رأيت أن « التطبيق الدرامى المشبع » يقتضى كتاباً ضخماً أو فصولاً يستغرق نشرها عامين ، فاعذرنى — إزاء القيل والقال الذى ألمت إليه — إذا أنا أعفيت نفسى من هذه المهمة المضنية التى أخذت بها نفسى عن طواعية ولوجه الوفاء ، وأرجأتها إلى وقت يحفظ على الكرامة ولا يدع سبيلاً للمطاعن الرخيصة فى العمل المحمود

وقد ألتقى بك بين الحين والحين ؛ على صفحات (الرسالة) الغراء ولكن فى أحاديث أدبية أخرى بعد أن أثارت بحوثى الأخيرة شهية التحدث إليك . فإلى لقاء قريب

محمد السرارى

الضمير الفـــردي والضمير الاجتماعي

للأستاذ جريس القسوس

إذا جاز لنا العبث بعلوم الاجتماع والنفس والأخلاق استطعنا أن نقسم الضمير إلى نوعين: «ضمير فردي وضمير اجتماعي»؛ ولا يتضح معنى ذلك إلا بكلمة سابقة في تعريف الفضيلة والرذيلة اللتين هما قسطاسا الضمير، بل مقرّرتا وجوده. إذ كيف يجوز أن يقال بأن لزيد ضميراً حياً أو ضميراً ميتاً إذا لم يربط ذلك الضمير بفضائل أو برذائل؟

لكل فئة أو جماعة أو طائفة من البشر قواعد وأنظمة وعادات جرت عليها وتمشت بموجبها عهوداً طويلة، لا تحيد عنها قيد شعرة إلا بقوة جبارة عاتية تفوق قوة تلك الطائفة؛ فإذا حادت جرت على الأنظمة الجديدة وتمسكت بها تمسك المستميت، ودعمتها ودافعت عنها دفاعها عن النظم التي تحولت عنها في بدء الأمر تحت تأثير القوة، كغاندي مثلاً، يحاول جهده أن يزحزح الطائفة الهندوسية عما جرت عليه من شعور سيئ نحو جماعة الأنجاس. وسبب تمسك أي طائفة بنوع خاص من التقليد أو العرف والعادة، هو إدراكها بالتجربة والاختبار أن هذا النوع — دون غيره — يفيض على أكثرية مجموع أعضائها أجزل النعم وأتم البركات... نعمة وبركة يشترك فيها الفرد والجماعة معاً، إلا في حالات نادرة خاصة، حيث تنتفع الجماعة من أمر لا ينتفع منه الفرد إن لم يكن يخسر

هذه التقاليد والعادات التي اختارتها الجماعة وأدركت نظرياً وعملياً أنها نافعة للأكثرية الساحقة من مجموع أفرادها نفعاً يغشى على أبصار أعضائها، لا أفرادها، فلا يرون فيها ضرّاً ولا شرّاً بل نفعاً وخيراً هي الفضيلة. أقول: أعضاؤها لا أفرادها، لأن العضو يفكر ويقوم في كثير من الأحيان بأمور لا تستند إلى العقل والمنطق تحت تأثير الجماعة التي لا تختلف في عقليتها الاجتماعية عن عقلية الطفل. ويتجلى ذلك في تصوير شكسبير للرعاع في يوليوس قيصر؛ فهم ينساقون ويندفعون كالصبيان اندفاعين متناقضين تارة تحت تأثير السحر البياني الذي يتدفق من لسان بروتس، وتارة مأخوذين ببيان أنطونيوس وعباراته العاطفية الشديدة. لكن الفرد يستقل في عقليته في كثير من الأحيان، فيقوم بأمور لا غبار عليها من حيث منطقها واستنادها إلى العقل

أما خروج الجماعة عن القواعد والأحكام فهو الرذيلة والإثم، وعاقبته العذاب الأليم في الدنيا وفي الآخرة. ولهذا لا يستغرب أن ترى فضيلة عند فئة رذيلة عند أخرى والعكس بالعكس.

كمذهب العري نعرفه رذيلة وعند أهله فضيلة

لكن هناك قواعد وأحكاماً وعادات أجمع العالم على الجري عليها إجماعاً استقلالياً أو تقليدياً، فهذه فضائل عالمية كونية عرفت منذ انبثاق الخليقة أنها فضائل كالصدق والعدل والتواضع والإحسان. هذه الفضائل كما شرحتها ترتسم في نفس الفرد وتنطبع في ذهنه بالتقليد والتلقين؛ ولا يورث منها إلا الميل لها، لأن ما يكتسب لا يورث. فيجد المرء نفسه في حظيرة الجماعة وتحت سلطتها وتأثيرها لا يستطيع أن يقوم بعمل مناف لما تمشت عليه، أو يفكر أو يقول ما لا يروق في نظر الجماعة، ولا يشعر بالأثر السيئ يحز في نفسه. فالصوت الذي ينبعث من أعماق المرء يدعوه إلى تجنب الرذيلة ويدفعه إلى عمل الفضيلة قبل إتيانها ويقرن العمل بالتشجيع على الإتمام ويلحقه بالطمأنينة واللذة النفسية — هذا الصوت هو ما نسميه بالضمير — الضمير الاجتماعي لأنه ليس إلا صدى لجلجلة القيود والأصفاد التي ترسف بها الجماعة. ويصح أن تسمى ما يقابل هذه القوة من قوة عنيفة مضادة سكبت في النفس البشرية مع القوة الأخرى

ورافقتها فى الحياة جنباً إلى جنب : هذه القوة يصح أن تسمى بالوسواس ، وهو المذكور فى قول الله تعالى : « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إلـه الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس »

هذا هو الضمير الاجتماعى – بل هذا هو الضمير المطلق كما نعرفه عادة وتعرفه جمهرة العلماء ؛ لـكننى عرفته بالاجتماعى على اعتبار وجود ضمير آخر غير هذا الضمير ؛ وهو الذى اصطلحت على تسميته بالضمير الفردى المطلق ، ذلك لأن الفرد قد لا يرتبط ارتباطاً عقلياً حراً مجرداً بما ترتبط به الجماعة من خير أو شر ، فيستوى عنده خيرها وشرها ، رذيلتها وفضيلتها ، ويصبح طليقاً من هذه القيود الاجتماعية ، لا يتأثر بما تتأثر به الجماعة من جميل أو قبيح تأثيراً تقليدياً غير منطقى . لأنه لم يتهيأ لبشر من الناس أن يميز الحدّ الفاصل بين الخير المطلق والشر المطلق غير الأنبياء . هذا الفرد – إن وُجد – عرفته الجماعة بميت الضمير – من حيث علاقته بها . وما كان فى الحقيقة إلا حىّ الضمير – ذلك الضمير الروحى المستقل الذى قرّ فى نفسه وركب فى طبعه منذ أن عرف الحياة . وهو لا يختلف عن الضمير الاجتماعى من حيث أنه قوة مؤنبة ، خفية عميقة فى النفس . إلا أن إدراكاته تختلف فى كثير من الأحيان عن إدراكات الضمير الاجتماعى فى أنها أرهف وأبعد وأدق وأصل . ذاك يقاس بفضائل خارجة عن النفس فرضت عليها فرضاً ، فأصبحت كأنها جزء منها ؛ ولـكن مدركات الضمير الفردى من جمال وبرّ وصلاح خلقت مع الإنسان منـذ الأزل ، إلا أنها مطموسة بالمادة . فبذرة هذا الضمير الفردى فى كل نفس ، فإذا زاولها الفـرد بالرياضة المنيفة ، وتعهدها بالصقل والتهذيب والتجريد ، فجلى عنها الأصداء ، وأزال كل ما علق بها من أقذار المادة ، نمت وازدهرت وجاءت بثمار روحية سامية ، واستطاعت إذ ذاك التحليق فى غير جوّ المرئيات الهيوليات . وبذا يصبح هذا الضمير الفردى المطلق بمثابة ذوق مهذب راق ، تقاس به الأعمال والأطوار ، ويدرك بالفطرة السامية والضـمير الإلهى ما هو خير وما هو شرّ . وصاحب هذا الضمير فوق أصحاب الضمير الاجتماعى أو الإحساس التقليدى المزيف ، فهو يعرف الله مباشرة ، ولـكن أولئك لا يعرفونه إلا بالواسطة .

(شرق الأردن) جريس القسوس

وحى الحرب

على مسيل الدماء...

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قَالَتْ سَكَتَّ وَمَا عهِدْتُكَ ساكِتَا
أنَا ما عرَفْتُكَ فى الحوادثِ صامتَا
وَغَدَوْتَ صَوْتًا فى المسامعِ خافِتَا
أتُرَاكَ تَنْدُبُ من شَبابكَ فائِتَا ؟

فَأَجبتُهَا

وَالقلبُ مَحْطُومُ الرَّجاء
كَيْفَ الْغِناءُ مَعَ الدِّماءْ ؟
كيْفَ التَرَنُّمُ بالنَّغَمْ
مَا بَيْنَ أَنَّاتِ الأَلَمْ
فَوْقَ الضَّحايا والرِّمَمْ ؟ !

قَالَتْ مَلأْتَ الأَرْضَ شِعرًا صادِقَا
وَسَكَبْتَ فى الأَسماعِ لحْنًا دافِقَا
وَالآنَ . . . تُمعِنُ فى رُقادِكَ غَارِقَا
وَسَكَتَّ حتى لا أظنُّكَ نَاطِقَا . . .

فَأَجبتُهَا

وَالقَلْبُ تَفْجَعُهُ الكُرُوبْ
وَالأَرضُ يَحْرِقُهَا اللَّهِيبْ
وَالنَّاسُ تَحْصُدُهَا الحُرُوبْ
كَيْفَ الْغِناءُ مَعَ الدِّماءْ
وَالأَرضُ أَجْدَرُ بالبُكاءْ ؟ !

قَالَتْ تَعَالَ معى إلى الشطِّ البعيدْ
لا النَّارُ تُزْعِجُنَا وَلاَ جَرْسُ الحَدِيدْ
فَهُنَاكَ ظِلُّ الأَمْنِ مُنبَسِطٌ مَدِيدْ
وَهُنَاكَ نُسْمِعُنِى أَنَاشِيدَ الخُلودْ

فَأَجبتُهَا

وَالنَّارُ تَلْمَعُ والسُّيوفْ
والصفُّ تَتْبَعُهُ الصُّفوفْ
كيف الفِرارُ من الحُتوفْ
والبحرُ خُضِّبَ بالدِّماءْ
وَالأَرضُ تَصْرُخُ والسَّماءْ ؟ !

قَالَتْ مَتى سُحُبُ الوَغَى تَتَقَشَّعُ
وَمَتَى يَذُوبُ من الوُجودِ المِدْفَعُ ؟
وَمَتَى حَمَامُ السِّلمِ يَوْمًا يَسْجَعُ ؟
وَمَتَى القُلوبُ عَلَى المَحَبَّةِ تَجْمَعُ ؟

فَأَجبتُهَا

واللَّفظُ يُمْسِكُهُ الحياءْ
والقَلْبُ مُنْكَسِرُ الرَّجاءْ
هَيْهَاتَ لاَ يُرْجَى شِفَاءْ
ما بالنفُوسِ من الْدَاءْ !
فالحربُ فى الإِنْسَانِ دَاءْ

« وَالحَرْبُ تَعْمَلُ لِلْفَنَاءْ كَالحَرْبِ تَعْمَلُ لِلْبَقَاءْ »

محمد عبد الغنى حسن

أصابع على معزف

للأستاذ العوضى الوكيل

كلما أرسلتْ أصابعُكِ اللحـ ـنَ رقيقاً كالشعرِ فى روحِ شاعرْ
خِلتُ أنى سبحتُ فى عالمِ القد سِ وجدَّفتُ بالرُّؤى والخواطرْ
وتمنيتُ أن تسيلَ على كفَّـ ـيكِ روحى كاللحنِ ريَّانَ عاطرْ

العوضى الوكيل

هتاف من الماضى

أو

فى ظلال الأقصر

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد

[هذه مقطوعة غنائية أطلعنى عليها صاحبها الأديب فى حياء وتردد واستطلاع !

فوجدتها — كأغنية — تستطيع أن تقف شامخة بين نظيراتها وأحببت أن أقدمها للرسالة .

وإذا قدر لها أن تخرج ألحاناً وغناء فأرجو أن يكون حظها من التلحين والأداء خيراً من حظ مثيلاتها . وأن تخرج فى جو مصرى لا فى « سوق فارسية » ولا فى « معبد صينى » . وأن تسلم كذلك من روح الميوعة والتطريب التى يشقى بها الغناء وتفسد الأذواق]

سيد قطب

جَرت الفلكُ بركبِ الأملِ ... تسمع الدنيا نشيد القبلِ
كلما مرّت بنبعِ الأزلِ ... شدت الأطيارُ لحن الغزلِ

***

أيها السّارى إلى الفجر بنا ... تتهادى بشراعٍ من منى
هاك خمر النيل تجرى فاسقنا ... واملأ الدنيا غناء حَوْلنا

***

مرّ بنا كم سار فى هذا المكان ... موكبُ النيل رهيباً بالحسان
ومضىَ يختالُ فى عرسِ الزمانِ ... بين عزفٍ وشراب وأغانِ

***

كم جميلٍ قد طوى النيلُ وسارا ... ها هنا كم قبّل النيلُ عذارى
كنّ يلقَيْنك يا نيلُ حيارى ... ثملاتٍ بين نشوى وسكارى

***

ملْ بنا نحو ظلالِ الأقصرِ ... فى تهادٍ يا لسحر المنظر
لَيتنا نقضى نصيب العمر ... ها هنا بين ظلال الأثر

***

حين تبدو سابحاتٍ كالجبالِ ... فى محيطٍ من صخورٍ ورمالِ
لا ترى غير خيالٍ لجمالِ ... وخلودٍ لوجودٍ وزوالِ

***

قف بنا نتل كتاب الأقدمين ... سادة الأيام بين العالمينْ
ونحيّى فى الثرى مجدَ السنينْ ... فى جلالٍ وخشوعٍ وسكونْ

***

ها هنا قد عاش فرعونُ هنا ... ها هنا قد ساد خوفو ومِنا
ها هنا كل بعيدٍ قد دنا ... وجثا كلُّ عظيمٍ وانحنى !

***

هات يا هيكل وحىَ العبر ... شاخصاتٍ بين هذى الصُّور
ليتنا نقضى نصيب العمر ... ها هنا بين ظلال الأثر

عماد الدين عبد الحميد

مدينة تدمر

للأديب مصطفى بعيو الطرابلسي

« فى يوم ١٤ يوليو انتهت حملة الحلفاء فى سوريا بعد قتال استمر حوالى ستة أسابيع فى تلك البلاد الشقيقة بين قوات الحلفاء من جهة وقوات فيشى من جهة أخرى ، ولقد قام مطار تدمر فى هذه الحملة بدور خطير ، وتكرر ذكر هذه المدينة على صفحات الجرائد . نوفاء لتاريخ هذه المدينة وماضيها المجيد أكتب هذه السطور »

فى وسط بادية الشام وجنوب خط عرض ٣٥ شمالاً ، وغرب خط طول ٤٠ شرقاً، تقع مدينة تدمر ذات المطار الحربى فى الوقت الحاضر والتاريخ المجيد فى العصور الماضية ، إذ كانت تسمى باليونانية بالميرا Balmira ، أى مدينة النخل ، وباللغة العبرية « تمر » بإقحام الدال فيها ، وهذا اللفظ يرادف كلمة « النخل » .

وقد ذكر المتنبي هذه المدينة فى شعره ، ولكنه اشتق اسمها من الدمار حيث نراه يقول فى مدح سيف الدولة الذى تغلب على بعض قبائل العرب عند مدينة تدمر :

وليس بغير تدمر مستغاثٌ وتدمر كاسمها لهمُ دمارُ

على أن المؤرخين لا يأخذون بهذا الرأى ، ويرجحون أن قول المتنبي هذا من باب الاشتقاق البديعى ذكره على طريقة الجناس، ويجمعون على أن سيدنا سليمان هو الذى قام بتأسيسها ، ولهم فى ذلك أدلة يذكرونها ، منها شهادة الكتاب المقدس فى سفر أخبار الأيام الثانى وسفر الملوك الثالث ، إذ قال الكتاب عن سليمان : « فبنى سليمان جازر . . . وتدمر فى أرض البرية »

ومنها أن اليهود يتناقلون أباً عن جد قصة بناء سيدنا سليمان لها، هذا فضلاً عن أن المؤرخ الشهير يوسف اليهودى قد روى هذا فى كتاب العاديات اليهودية، وهو أحد مصادر التاريخ الإسرائيلى .

ثم إن العرب اتفقوا على هذا الرأى ولا سيما سكان البادية ، بل نراهم يزيدون على ذلك ويزعمون أن الجن هم الذين بنوا مدينة تدمر لسليمان ؛ ومما يؤيد هذا الرأى قول النابغة الذبيانى ، ونحن نعلم مكانته بين شعراء الجاهلية :

إلا سليمان إذ قال الإله لهُ قم فى البرية فاحددها عن الفَنَدِ
وخيِّر الجن أنى قد أمرتهمُ يبنون تدمر بالصُّفَّاح والعمدِ

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على بناء سيدنا سليمان لها فقد اختلفوا فى سبب بنائها ، ولكن أغلبيتهم أجمعت على رغبة سيدنا سليمان فى أن يجعل منها مربطاً لتجارة رعاياه ، أو كما جاء فى الكتاب المقدس إحدي « مدن الخزن »

هذه المدينة التى ازدهرت أيامها فى عهد سليمان كعادة المدن الجديدة فى أول إنشائها لم تلبث أن تدهورت بعد وفاة منشئها وأصبحت خاملة الذكر حتى أوائل النصرانية ، حتى أن هيرودوت أبا التاريخ القديم لم يذكرها فى تاريخه ، مع أنه قد زار معظم البلاد الشرقية الهامة فى عصره والمحيطة بالبحر الأبيض المتوسط . وكذلك لا نجد لها ذكراً فى أخبار فتوح الإسكندر فضلاً عن أن العالم الجغرافى « استرابون » لم يذكرها مع إلمامه بمعرفة الأنحاء الشرقية . كل هذه الشواهد تؤيد ما آلت إليه حالة تدمر من تدهور وخمول وهى التى كانت عامرة فى أول عهدها لما اشتهرت به من غزارة مياهها ، إذ كانت تجرى فيها عدة أنهار لم يبق منها سوى جدول أو جدولين ؛ أما عيونها المعدنية التى اشتهرت بها منذ القدم ، فقد نضبت

وقد عثر الأثريون على كتابة نبطية قديمة فى شمال جزيرة العرب ترجع إلى القرن السادس ق . م . تصف مدينة تدمر بأنها فندق متسع الأرجاء فى بادية الشام ، وهذا دليل على مركزها التجارى العظيم فى سابق الأزمان وتأييد لما ذهب إليه بعض المؤرخين فى تعليل سبب بنائها

على أن تلك المدة التى اضمحلت فيها مدينة تدمر ما كانت إلا فترة استجمام سرعان ما عاد إليها نشاطها بعد ذلك ، واستردت شهرتها من جديد، واسترجعت سلطانها القديم فى التجارة على أثر انهيار الدولة السلوقية وكثرة الولايات المستقلة فى شمال بلاد العرب والعراق التى اتخذت التجارة مهنة لها ، فكانت القوافل تسير إلى بطرة وغزة وتدمر فأصبحت منذ ذلك العهد مدينة خطيرة وأخذت تتقدم عمرانياً ، وأصبحت تجارة أوربا وآسيا فى أوائل المسيحية فى قبضة يدها . تمر بها تجارة بلاد العرب من ذهب وعطور ولآلئ البحرين وتوابل الهند وهى فى طريقها إلى روما ، فعرف الرومان قيمة مركزها التجارى فاستمالوها إليهم ثم ما لبثوا أن ضموها إلى أقاليمهم الشرقية وأحاطوها بالحاميات العسكرية ، كما حصنوا الطريق الذى يصلها بنهر الفرات لحماية تجارتهم وتأمينها من غارات القبائل .

***

ومن الآثار التى عثر عليها الأثريون والتى ترجع إلى سنة ١٣٧ م مرسوم أصدره مجلس شيوخ المدينة لحسم الفتن التى قامت بين التجار ومأمورى الخزانة من أجل المكوس وارتفاعها إذ كانت البضائع الصادرة أو الواردة تجبى عليها ضريبة ثابتة ثم ضريبة أخرى تختلف باختلاف قيمة البضائع ومقدارها ، وقد عرفنا من هذه النقوش أيضاً نوع التجارة التى كانت تمر بمدينة تدمر وهى بالإضافة للأنواع السابقة عبارة عن دقيق وزيوت عطرية وغلال وأثمار يابسة وملح من مملاح تدمر الكثيرة فى ذلك العهد مما جعل لأهلها شهرة خاصة فى قيادة القوافل التجارية عبر الصحراء لحسن خبرتهم بالطرق ولاستعدادهم لمقاومة أعمال قطاع الطرق . فلا عجب بعد ذلك أن شابهت تدمر البندقية فى العصور الوسطى من حيث المركز التجارى . وكانت تدمر تحتفظ لنفسها بنصيب من دخلها السنوى بعد أن تؤدى إلى روما الجزية المفروضة عليها .

هـذا كل ما يمكن أن يقال باختصار عن تجارة تدمر فى أزهى عصورها . وقد تكلم فى هذه الناحية بتوسع كل من الأستاذ « نولدكا » ، « ساخو » ، « دى فوكويه » . وعرفنا من النقوش السابقة الذكر أنه كان لتدمر مجلس وطنى يسن القوانين ويتألف من رئيس وكاتب وعدد من الأعضاء . وكانت السلطة التنفيذية فى عهدة شيخين وديوان يتكون من عشرة حكام . أما السلطة القضائية فكانت من اختصاص بعض الوكلاء .

أما لغتها الرسمية فكانت اللغة اليونانية كما هى العادة فى جميع الممالك الرومانية الشرقية ؛ ولكن أهلها كانت لهم لهجة خاصة هى اللهجة الآرامية وهى قريبة من السريانية . ويقال إن المسيح عليه السلام قد تكلم بها ، ولكن هذا لم يثبت بعد . على أن الخط التدمرى إلى الآن لا يعرف المؤرخون صورته حق المعرفة فى القرون السابقة للمسيحية ، لأن جميع الكتابات والرسوم التى عثر عليها حتى الآن ينحصر تاريخها فيما بين القرنين الأول والرابع المسيحيين ، وأقدم هذه الكتابات لا تتعدى السنة التاسعة قبل المسيح . ويؤكد المؤرخون أن تدمر قد اقتبست صورة حروفها من الفينيقيين

***

اختلف المؤرخون فى تحديد السنة التى خضعت فيها تدمر لحكم الرومان ولكنهم أجمعوا على أنها لم تتبع روما قبل سنة ٣٦ م ، وعلى الرغم من خضوعها لروما كانت تتمتع ببعض الحقوق المدنية ، ومنحت امتيازاً خاصاً يخولها السيادة على جميع البلاد المجاورة لها . ثم تطورت العلاقة بين تدمر وروما إلى شبه محالفة لا سيما بعد أن أخذ أمر بنى ساسان يستفحل وهم الأعداء الألداء لروما وأباطرتها .

ثم انتهى الأمر فى تدمر بقيام رجل من أبنائها ينتمى إلى بنى السميدع ويلقب بأذينة ، تمكن من إعلان سلطانه على تدمر وإخضاع قومه ، واتخذ له لقباً ملكياً فى سنة ٢٥٠ م ، ولكن

سرعان ما أقلق هذا العمل بال الأمبراطور الرومانى واستطاع أن يتخلص منه بقتله ؛ ولكن سلالته استطاعت أن تحتفظ بعرشها وعملت على تحسين علاقتها مع روما ، بل نرى أذينة الثانى يحارب الفرس إلى جانب الروم مما كان له أحسن الأثر فى نفوس الرومانيين. ولكن أذينة الثانى لم يعمر طويلاً إذ اغتاله ابن أخيه لحقده عليه ، وتولت إدارة شئون البلاد زوجته الزباء وصية على ابنها الكبير « وهبلات » ونجحت فى إدارة شئون الدولة وقامت بأعمال جليلة وعملت على تعمير البلاد . وما زالت آثارها باقية تخلد اسمها ؛ مع أن الاهالى يخلطون بينها وبين ما فعلته « زبيدة » زوجة هارون الرشيد ومن الصعب تعقب أخبار هذه الملكة فى سطور لكثرتها وقد نشر الأستاذ فريد أبو حديد قصة تاريخها فى مجلة الثقافة .

ومما يلفت النظر أنه على الرغم من شهرة هذه الملكة فإن الغموض يحيط بتاريخها ، فنجد مثلاً مؤرخى العرب ينسبون إليها قصة مع أحد ملوك الحيرة ، وقد أورد لها ملخصاً المسعودى فى كتابه مروج الذهب ولكن بعض المستشرقين وعلى رأسهم الأب سبستيان رنزفال اليسوعى يشك فى صحة هذه القصة

توترت العلاقات السياسية بين زينب ملكة تدمر وروما وانتهى الأمر بأسرها بعد حرب شاقة وتدمير المدينة مما دفع أهلها للقيام لأخذ ثأرها ؛ ولكن القائد الرومانى « أورليانس » قابل هذه الحركة بتهديم المدينة . وهكذا تدهور حال المدينة وأخنى عليها الدهر إلى أن جاء بنو غسان فاتخذها بعضهم منزلاً له وبقيت على حالها المتأخرة حتى فتحها المسلمون فى سنة ٦٣٤ م عند ما مر بها خالد بن الوليد فى حملته إلى سوريا

مصطفى عبد الطرابلسى
كلية الآداب . اسكندرية



والد الملوك الأيوبيين

أنقل ميدان الكلام عن الملك ووالد الملوك نجم الدين بن أيوب إلى مجلة « الرسالة » الغراء ، لأنني أسلحت على صفحاتها شعراً رواه الأستاذ جمال الدين الشيال عن الشاعر بورى أخى السلطان صلاح الدين الأيوبي

ولقد ذكرت فى كلمتى الأولى فى « الرسالة » أن بورى هو (ابن الملك الصالح نجم الدين الأيوبي) فعد الأستاذ الشيال ذلك منى (خطأ رئيسياً هاماً) ، ووهم — سامحه الله — أننى خلطت بين والد صلاح الدين وبين الملك الصالح نجم الدين حفيد العادل وأحد الذين حكموا مصر فى العهد الأيوبي

وليس فى تلقيبى نجم الدين بن أيوب (بالملك الصالح) خطأ يدعو الأستاذ الشيال إلى تصحيحه فى مجلة « الثقافة » الغراء ؛ ولم أكن فى هذا التلقيب حائداً عما اعتاده مؤرخو العصر الأيوبي من تلقيب طائفة من أمراء هذا البيت بالملوك ، مع أنهم لم يكونوا ملوكا (ولم يحكموا مصر) . فالعماد الأصبهانى مؤرخ صلاح الدين وصاحب كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » يلقب الأمير أسد الدين شيركوه (بالملك المجاهد ، الجواد الماجد) — [ص ٢٣٥ طبعة الموسوعات] ؛ ويلقب أيضاً سيف الدين أخا صلاح الدين الأيوبي (بالملك العادل) قبل أن يصير إليه ملك مصر : [أنظر ص ٢٧٧ من الفتح فى الكلام على وقعة أرسوف]

ويلقب تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أخى صلاح الدين (بالملك المظفر) ، مع أنه مات فى حكم صلاح الدين ولم يكن له ، ولا يمكن أن يكون له حكم مصر : [أنظر ص ٢٩٠ من المصدر المذكور]

ومن هذا يتضح أن تلقيب نجم الدين بن أيوب بالملك الصالح صحيح لا غبار عليه وقد وصفه أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة بالأمير : [أنظر الجزء السادس]

والسبب فى تلقيبه بالصالح أنه كان محباً للصالحين ، كما يذكر أبو المحاسن (ص ٦٧ ج ٦)

والحق أننى بعد ذلك كله لم أر وجهاً لاعتراض الأخ الأستاذ جمال الدين الشيال على هذا اللقب الذى لقب به نجم الدين الملك وأبو الملوك ، وهو اللقب الذى كان يخلع فى ذلك العهد على أمراء البيت الأيوبي غير الملوك

« المنصورة »

محمد عبد الغنى حسن

آثار الحضارة المصرية فى نيجيريا العليا

نشرت إحدى المجلات العلمية فى لوزان نبأ جاء فيه أن بعض المكتشفين عثروا فى منطقة نيجريا العليا على مجموعة من الفيروز الأزرق الذى كان يحتفظ الصناع من قدماء المصريين بسره

ومما قالته المجلة أن هذه المجموعة من لآلئ الزجاج الأزرق ، لا بد أن تكون أتت من مصر ، لأن قدماء المصريين كانوا رسل الحضارة ، وأول من أنشأوا المراكز التجارية ، وأدخلوا الحرف فى المناطق التى تقع على ضفاف بحيرة تشاو والبلاد التى يرويها نهر النيجر وفى السنغال . بل إن أولئك المصريين القدماء كانوا أول من أدخلوا فى هذه البلاد عن طريق دارفور و « وادای » الحيوانات الداجنة ، ولا سيما الحمير كما أنهم مارسوا فيها فن البناء الفرعونى

فى اللغة

١ — دعا الأستاذ طه محمد الساكت الباحثين إلى استنباط مثال واحد من منثور العرب — بعد أن بحث جاهداً عن شاهد واحد فأعياه البحث — تقدم فيه القسم على الشرط والجواب فيه للشرط ، على خلاف القاعدة النحوية المشهورة أن يكون الجواب للمتقدم

وأجيب دعوة الأستاذ فأقول : إن لدى شواهد كثيرة لما يريد وقعت لى فى أثناء قراءتى وعنيت بتدوينها وإن لم تكن بين يدى أو فى الطاقة الحصول عليها الآن ؛ ولكنى أذكر واحداً منها يحضرنى ، وقع لى فى الجزء الأول من العقد الفريد من كلام لعمر بن الخطاب قاله لمعاوية بن أبى سفيان حين قدم عمر

على معاوية بالشام . قال معاوية : « فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه وإن نهيتنى عنه انتهيت » . فقال عمر : « لئن كان الذى تقول حقاً فإنه رأى أريب ، وإن كان باطلاً فانها خدعة أديب »

قلت : ورد الخبر هكذا فى جميع طبعات العقد حتى الطبعة الحديثة التى أخرجتها لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ شهور ، (ج ١ ص ١٦)

وهكذا ورد أيضاً فى طبعة المكتبة التجارية التى صدرت منذ شهرين وحققها الأستاذ محمد سعيد العريان

فان لم يكن محرفاً — وما أكثر التحريف فى العقد — فهو الشاهد المسكت للأستاذ الساكت

٢ — من قواعد أفعل التفضيل المشهورة أنه إذا كان محلى بأل امتنع أن يؤتى بعده بالمفضل عليه مجروراً بمن ، فلا يصح أن يقال : (أنا الأكثر منك مالاً)

ولما رأيت أكثر أدبائنا وأشدهم تدقيقاً وتحرياً للصواب فى اللغة يقعون فى هذا الخطأ أوفزت إلى التنبيه عليه . ومن أمثلة الخطأ فيه ماجاء أخيراً فى كلة الأستاذ حبيب الزحلاوى (محصول الرسالة) المنشورة بالعدد ٤١٨ من الرسالة قال : (والأنفع من هذا وذاك الخ) ، وما جاء من مقال الأستاذ العقاد (القدوة والإصلاح) بالعدد ٣٧٧ قال : (والأنكأ من هذا أن الفلاح الخ) وماجاء فى شجون الدكتور زكى مبارك بالعدد ٣٩٦ قال : (دنيا صاخبة هى العوض الأنفس من كل ما يفوته من الأنس بالمجتمعات) إن كان يريد أن كل ما يفوته هو المفضل عليه . أما إن جعل الجار والمجرور متعلقاً بالعوض — ولست أظنه يريده — فلا خطأ . ومنه أيضاً ما جرى على لسان الشيخ البشرى كثيراً فى الجزء الثانى من كتابه (المختار) حيث قال : (الأقل من القليل) ... والسلام على من اتبع الهدى

(بنى سويف)

محمد محمود رضوان

المدرس بالمدرسة النموذجية

الحسبة فى الإسلام

نشر الأستاذ محمود الشرقاوى فى العدد ٤١٧ من (مجلة الرسالة) كلة عن التسعيرة الجبرية فى الأندلس تحت عنوان : (من حضارة الإسلام فى الأندلس) . ولعل فى الكلمة الآتية زيادة فائدة فى الموضوع :

علم الاحتساب علم باحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملاتهم اللاتى لا يتم التمدن بدونها ، من حيث إجراؤها على القانون العدل بحيث يتم التراضى بين المتعاملين ، وعن سياسة العباد بنهى المنكر وأمر المعروف .

أما المحتسب فله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم . وكثير من الأمور الدينية هو مشترك بين ولاة الأمور ، فمن أدى فيه الواجب وجبت طاعته فيه . فعلى المحتسب أن يأمر العامة بالصلوات الخمس فى مواقيتها ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس ، ويتعاهد الأئمة والمؤذنين ، فمن فرط منهم فيما يجب من حقوق الإمامة أو خرج عن الأذان المشروع ألزمه بذلك ، واستعان فيما يعجز عنه بوالى الحرب والحكم وكل مطاع يعين على ذلك .

ويأمر المحتسب بصدق الحديث وبأداء الأمانات وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة وما يدخل فى ذلك من تطفيف الميزان والمكيال والغش فى الصناعات والبياعات ونحو ذلك .

وله أن يكره الباعة على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه ، ولا معنى للتسعير إلا إلزامهم بقيمة المثل . وله أن يجبر أهل الصناعات على ما يحتاج إليه الناس من صناعاتهم كالفلاحة والحياكة والبناية ، ويقدر أجرة المثل فلا يمكن المستعمل من نقص أجرة الصانع عن ذلك ، ولا يمكن الصانع من المطالبة بأكثر من ذلك حيث تعين عليه العامل . وهذا من التسعير الواجب .

وأما صفة ذلك (أى التسعير) فينبغى للامام أن يجمع وجوه أهل سوق ذلك الشىء ويحضر غيرهم استظهاراً على صدقهم فيسألهم كيف يشترون وكيف يبيعون فينازلهم إلى ما فيه لهم وللعامة سداد حتى يرضوا ، وإذا امتنعوا عن بيع ما يجب عليهم بيعه عوقبوا .

أحمد صفوان

مصطلحات المجمع اللغوى

كان المجمع اللغوى ينشر فى مجلته السنوية ما أقره من المصطلحات العلمية والفنية أثناء موسم الانعقاد ؛ وقد رؤى

أن تفرق هـذه المصطلحات فى مختلف أجزاء المجلة ، واختلاطها بغيرها من الأبحاث والدراسات ، لا ييسر على الباحثين سبيل الرجوع إليها عند الحاجة ، فتقرر أن تجرد جميع المصطلحات التى وضعها المجمع خلال أدوار انعقاده الماضية قبل النظام الجديد، وأن تطبع فى كتاب مستقل يكون قريب التناول للمؤلفين والمدرسين والراغبين فى البحث والدراسة . وقد أعد هذا الكتاب للطبع فى المطبعة الأميرية ، وتبلغ مصطلحاته نحو ثلاثة آلاف فى علوم الأحياء والطب والحرارة والكهربا واللاسلكى ، وفروع الرياضة والعمارة والموسيقى والتاريخ ، وأدوات الشؤون العامة ، إلى غير ذلك من ضروب العلوم والفنون والآداب . وينتظر أن يخرج هذا الكتاب من المطبعة فى سبتمبر المقبل

إلى الدكتور على عبد الواحد وافى من السودان

أتتبع باهتمام بحوثك القيمة « فى الاجتماع اللغـوى » على صفحات « الرسالة » الزاخرة ... وفى حديثك أخيراً عن اللهجات العامية الحديثة استوقفتنى عبارتك : « وأدنى هـذه المجموعات إلى العربية الفصحى مجموعتا اللهجات الحجازية والمصرية » ... استوقفتنى هذه العبارة ، وكان بودى أن أكتب إليك هـذا فى حينها ، ولكن الانهماك المتواصل فى سبيل العيش لم يسمح لى بذلك

فإن كنت تقصد بتلك العبارة أن اللهجة المصرية هى لهجة وادى النيل الذى يشمل مصر والسودان ، وهذا ما أستبعده وأشك فيه ، لأنها ليست هذه هى أولى المرات التى يُهمل فيها السودان ويسقط سهواً وعمداً من حساب الشرق والعرب ... إن كنت تعنى بها ما قدمت ، فذاك ، وإلا فلتعلم يا أستاذى الفاضل أن بالسودان — وخصوصاً أواسطه — لهجة هى من أدنى اللهجات إلى العربية الفصحى إن لم تكن أدناها جميعاً

ولست فى حاجة لسرد الأدلة والبراهين لإثبات هذه الحقيقة ولكن لك أن تبحث وراءها ، ولك فى الكثير من قادة الفكر المصرى الذين زاروا السودان خلال السنوات الأخيرة أكبر مصدر ومرجع

وبهذه المناسبة أتمنى أن تساعدنى ظروف السيئة لأتحف أستاذينا الكبيرين المبارك والزيات بمختارات من أدبنا القوى ليلمسا فيه الذوق العربى الصحيح مجسماً ، وليستنشقا منه عبير العربية المتغلغلة فى النفوس . أسأل الله أن يوفقنى ويوفق معى الكثير من أبناء هذا القطر البررة هنا وهناك للقيام بهذه المهمة وإسداء هذا الجميل إليهما ، حتى إذا ما زارا هذا القطر المظلوم تذوقا بسهولة ما يقدمه إليهما من أدب قوى رفيع

أحمد المبارك عيسى

تعقيب

جاء فى ص (٨٦٧) من العدد (٤١٨) من « الرسالة » فى حديث للدكتور على عبد الواحد وافى عن « اللهجات العامية الحديثة » ، ومنه عن اللهجات غير العربية التى يتكلم بها بعض الطوائف فى سوريا ، وهى اللغة المتحدرة من الآرامية ، وأن ثلاث قرى هى : معلولة ، صيدنايا ، يبرود . هى التى يتكلم أهلها هذه اللغة

والمعروف أن القرى الثلاث المقصودة فى حديث الدكتور هى : معلولة — جَبْعدِين — بخْعَا ، وهى واقعة فى الشمال الشرقى عن دمشق

فهل لحضرة الدكتور أن ينير معرفتنا عن سبب الخطأ الوارد فى حديثه عن تسميته هذه القرى ، وله منا خالص الشكر المشفوع بالاحترام

« دمشق » جودة مرعشلى

استدراك

فى العدد ٤١٧ من الرسالة الغراء مقال فى غزوة حنين ، جاء فى آخره ما يفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الخوارج : « أكفارٌ هم ؟ » فقال : « من الكفر فروا » قيل : « أمنافقون هم ؟ » فقال : « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً » قيل : « فما هم ؟ » قال : « فتنة غشيتهم »

والصواب أن المسؤول الذى أجاب هـذه الأجوبة عن الخوارج هو على بن أبى طالب لا النبى صلى الله عليه وسلم . وفى أيام على خرج الخوارج فى العراق ، وكانت سيرة على فى مقاتليه من أصحاب الجمل وصفين والخوارج سيرة إنصاف وإعذار واعتراف بحق ولم يك رضى الله عنه يبخس أحداً شيئه صديقاً كان أم عدواً .

(دمشق) سعيد الأفغانى



الرجـــل المكروه

عن الإنجليزية
للأستاذ عبد اللطيف النشار

وقف على غير انتظار فى وسط الجمع وكان صامتاً وكانوا صامتين، ويظهر أنهم لم يشعروا بدخوله، فابتسم ثم جر كرسياً وجلس على مقربة من صاحبة المنزل، فلما نظرت إليه قالت: «ما أغرب تصرفاتك! هل مشيت كل المسافة بين بروم هيل وبين المنزل فى هذه الشمس؟»

فهز رأسه بالإيجاب دون أن يتكلم، وقد كان غريب التصرفات كما وصفته مسز أليونورا بوينتون التى أمرت على أثر مجيئه بالشاى والتفتت إليه وقد كان مجيئه بغير دعوة وجلوسه بغير استئذان

ودار الحديث بينهم متجاهلين وجوده فشرب الشاى فى صمت وهو شاعر بهذا التجاهل ولكنه لم ينسحب من المجلس ولم يهم بالانسحاب

وقالت اللادى مارتين لصاحبة المنزل: «ما أغرب هذا الرجل يا عزيزتى أليونورا! أهو نموذج لأهل جيرتكم؟ لقد كنت أظن أهل هذا الوسط راقين!»

فهزت مسز أليونورا كتفها وقالت: «لا يعلم إلا الله من هو وماذا يريد، وليس فينا من يحبه غير زوجى، وأنت تعرفين أنه يسر من كل شىء غير عادى»

فقالت الزائرة: «ولكن من أين أتى؟ هل هو جار؟»

قالت أليونورا: «اسمه ليندهام وهو يسكن فى كوخ على بعد بضعة أميال، وليس لدى أى إنسان فكرة عن شخصيته ولا عن الجهة التى جاء منها، وهو يقضى معظم أوقاته فى المشى فى الطريق وفى غزو المنازل»

قالت اللادى مارتن: «يظهر من هيئته أنه راق وأنه غريب الأطوار»

فاختلست مسز بوينتون نظرة من المستر ليندهام وقد كان فى ثياب شديدة القدم ولحية مقصوصة على غير نظام ورباط رقبته منحرف، ولكن فى هويته علائم التهذيب وصوته الهادئ الرصين يفتن سامعيه

وعادت الزائرة إلى الكلام فسألت صاحبة المنزل: «لماذا يأتى هذا الرجل هنا؟»

فأجابتها أليونورا: «لا أعرف سبب مجيئه خصوصاً مع غياب زوجى عن المنزل، ولا أحد يلاطفه هنا وهو لا يكاد يكلم أحداً، وهو يكثر من المشى تحت الدار. وقد قابلته فى إحدى الليالى فرأيته يكلم نفسه بصوت منخفض ولم تكن المسافة بينى وبينه أكثر من متر، ولكنه لم يلاحظنى وقد خفت منه كما أخاف من الموت»

قالت الزائرة: «إن زوجك رجل طيب يا أليونورا؛ وعلى ذكر زوجك أخبرينى ماذا تم فى القضية؟»

فقالت صاحبة المنزل: «إنه ذهب ليقابل المحامين، ويظهر أنهم لم يحصلوا على رد من السير جيرفاس؛ ويظهر أنهم لا يعرفون مكانه»

فنظرت اللادى مرتين من خلال النافذة وقالت: «أرجو ألا تخسروا القضية فإن هذه الجهة من أحسن الأماكن فى الإقليم» ونظرت أليونورا من خلال النافذة أيضاً إلى المنظر الذى أطلت عليه اللادى وقالت: «إخال أننى أسمع صوت عربة مقبلة» ثم وقفت وخرجت من الغرفة. وبعد قليل عادت وأعلنت قدوم الأميرة فوقف جميع الضيوف إلا الزائر غير المرغوب فيه. ونظرت أليونورا إلى هذا الرجل الذى لا يحبه إنسان نظرة مقت وانتظر الجميع أن يكون لدى الرجل من حسن الذوق ما يحمله على مغادرة المنزل قبل أن تأتى الأميرة

على أنه لما أقبلت الأميرة وقف ودار بعينيه فى الفضاء، وكان بادياً على الأميرة التعب ولكن تعبها لم يؤثر على جمالها الرائع. وفى فترة التعارف وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام ليندهام الذى لم تعن مسز بوينتون بتقديمه إلى الأميرة فقدم هو نفسه إليها قال: «هل تسمحين يا صاحبة السمو بأن أذكرك باسمى؟ أنا ريتشارد ليندهام وأرجو ألا تكونى نسيتنى»

فمدت إليه يدها وقالت بصوت عذب: «إن الإنسان لا ينسى أقدم أصدقائه. وإنى مسرورة جداً برؤيتك يا مستر ليندهام» وجىء بالشاى، ثم دخلت الأميرة قاعة أخرى وطلبت من

صاحبة المنزل أن تدعو إليها المستر ليندهام لأنها تريد محادثته.

قالت مسز بوينتون: «ليندهام يا صاحبة السمو ؟!»

وكانت لهجتها شديدة الدلالة على الاستغراب، ولكن الأميرة كررت أنها تريد محادثته، فذهبت إليه صاحبة المنزل وقالت بغير ما اعتادته من لهجة في مخاطبته: «إن الأميرة تريد أن تراه»؛ فقام متباطئاً ولم يبد عليه شيء من الاستغراب، ولا أظهر شيئاً من الاهتمام وقال: «اسبقيني وسأتبعك»

أغلق الباب وكانت الأميرة في حالة غير عادية: فعيناها مغرورقتان بالدموع وقالت: «لقد ظفرت بك في النهاية ولن تستطيع أن تفلت مني. تعال الآن»

فتناول كفها ورفع يدها إلى شفته؛ وتغيرت هيئته ففارقه مظهر الخشونة المعتاد، وأصبحت نظراته وصوته كصوت الطفل ونظراته وقال: «يا عزيزتي جبرييل، هل لا تزالين مؤمنة؟ ألم تفقدي ثقتك؟». فقالت: «كلا. كلا. ولا لحظة واحدة»

قال: «الحمد لله»

ثم انقضت لحظات في صمت، وبعد ذلك قالت: «ألا تزال باسمك المستعار؟» فقال: ليس لي اسم سواه

قالت: ولكنك في انكلترا ولم تتركها إلى غيرها. فقال بلهجته التهكمية القديمة: ليس أغرب من ذلك

قالت: «لقد تغير كل شيء فلم أتبين أين كنت»؛ فمشى نحو النافذة وقال: «لقد كان إطلاق الرصاصة من هذا المكان وكان أكثر من عشرة أشخاص مستعدين للشهادة بأنه لم يكن يقيم هنا أحد غيري»

قالت الأميرة: يظهر يا جيرفاس أنك هنا لغرض خاص، فقال: وأنت؟

قالت: لغرض أيضاً ... فقل لي: هل تسلمت خطاباً؟

فقال: نعم، وهو سبب مجيئي من الاسكا

قالت: وهذا هو السبب في مجيئي من النمسا ... انظر ... وعرضت عليه خطاباً، فرمقه بنظرة ثم قال: هو كخطابي تماماً، ويعلم الله أن هذا في منتهى الغرابة ... ولكن الذين على وشك الموت كثيراً ما يقولون الحقيقة!

وكان في هذه الأثناء يفحص الحائط وفي يده سكين يضرب بها في مكان بعد مكان ويتسمع الصوت ... وكانت الأميرة تراقب حركته وهي واقفة وراء ظهره، وقال: ليس هنا أي دليل يساعدنا

قالت: لقد اختفى جزء مهم من أركان القضية ... أين هو الرجل الذي أخفى مطلق الرصاص؟

فهز رأسه وقال: لقد كان من الغباوة ألا أفكر في المكان من قبل، ولقد اختفى جزء من القضية كما تقولين، ولكن الجزء الآخر لا يزال باقياً ...

وأشارت إلى شيء ملقى على الأرض، فتناوله وقال: هذا دفتر مذكرات ... ففتحت الصحيفة الأخيرة منه وصاحت:

— ما هذا يا جيرفاس؟

فهز كتفه وقال: هذا ما ليس يعلمه إلا الله

وحاول أن يقرأ الأسطر التي أشارت إليها، ولكنه صاح بدوره: إقرئي أنت ... فإنني لا أستطيع

فاختطفت الدفتر من يده واقتربت من النور ...

ظل الرجل الذي لا يحبه إنسان ... الرجل الذي تعده صاحبة المنزل فضولياً ... ظل مع الأميرة نحو ساعة، وكانت صاحبة المنزل ومن معها يتحدثن في هذه الأثناء ...

وقد نالت الأميرة رتبتها بالزواج من أمير، وهي من أسرة قديمة، ولكنها قبل الزواج كانت فقيرة، ويشاع أنها كانت مربية في بعض البيوت ...

وفي عهد هذه القصة كان الأمير متوفى منذ عام، تاركاً لها ثروة كبيرة، وكان مركزها في المجتمع موطداً بالرغم من إشاعات السوء التي كان يشيعها عنها بعض الناس

وقد سئمت مسز «بوينتون» من تكرار القول لزائريها أنها لا تعرف «ليندهام»، وأنه جاء من حيث لا يعرف إنسان، وأن زوجها المستر «آرثر» قد اهتم بشأنه، ولكنها كانت مرتابة منه منذ البداية ... وبينما هي لا تزال كذلك تضرب على هذه النغمة، إذ دخلت الأميرة ومعها المستر «ليندهام» كما هو معروف بهذا الاسم بين الزائرين، أو السير «جيرفاس» هو اسمه الحقيقي، وقالت الأميرة: لقد رأيت الغرف التي أعددتها لضيافتي، ولكن يظهر أن إحداها لها تاريخ، فهل صحيح أن السير «نولز فلتون» قتل برصاصة أطلقت عليه من نافذة غرفة الجلوس؟!

ظهر شيء من الاضطراب على وجه صاحبة المنزل وقالت:

— نعم، ولكن هذا من سنوات عديدة، وكنت أظن أن كل إنسان نسي ذلك، وأظنك يا صاحبة السمو لا تخافين من الأشباح ...

فابتسمت الأميرة وقالت : لقد رأيت الآن واحداً من هذه الأشباح ...

وكان السامعون يتحدثون فيما بينهم ويتساءلون عما تتحدث عنه الأميرة . وقد بدت عليهم علائم الاهتمام . وقالت الأميرة : نريد أن تحدثينا يامسز بوينتون عن تلك الجريمة . لقد قتل السير نوليس وهو يمشي على الشرفة . وكانت الإصابة من مجهول، فهل عرف شيء من سرها ؟

فقالت مسز بوينتون : أما في المحاكم فلا ، وأما بصفة قاطعة بين الناس فلا . ولكن القرائن قوية ضد السير جيرفاس فلتون شقيق القتيل . وأقوى القرائن ضده أنه بالرغم من أن التهمة لم توجه إليه فإنه غادر البلاد هارباً ولم يعرف له مكان

قالت الأميرة : وهل كان بين الشقيقين خصومة ؟

فقالت : لم يكن بينهما خصومة معروفة ، ولكن شاع بعد الحادث وبعد سفر جيرفاس أن بينهما سوء تفاهم ، إلا أنه لحسن حظ جيرفاس لم تقل كلمة في هذا الصدد في التحقيق .

قالت الأميرة : ولكن هل عرف شيء من أسباب سوء التفاهم ؟ فهزت مسز بوينتون كتفها وقالت : يقال إنه كانت هناك مربية لأولاد اللادي موري أخت الشقيقين ، وكان كلاهما عاشقاً لها ، وأن جيرفاس قتل أخاه مدفوعاً بدافع الغيرة . ويرجح أن الرصاصة خرجت من غرفة السير جيرفاس . وقد بقي السير جيرفاس في انكلترا بعد وقوع الجريمة ببضعة شهور ، ثم سافر وأملي ألا يعود ، لأنه إن عاد فسنضطر إلى إخلاء هذا المنزل له وهو خير مكان يوافقنا .

فابتسمت الأميرة وابتسم المستر ليندهام ، وقالت الأولى : ولكن ما رأيك في أن السير جيرفاس قد عاد وأنه جالس بجانبي الآن؟

فقالت مسز بوينتون وقد بدت عليها علائم الدهشة والانزعاج : المستر ليندهام ؟

فأحنى الرجل رأسه وقال : إنني أعتذر عن انتحالي اسماً مستعاراً ، ولكن كان لدي أسباب هامة تضطرني إلى زيارة الأماكن المجاورة ، وأنتم تدركون عذري إذا لم أستطع الظهور باسمي الحقيقي . وإن غياب ثمانية أعوام وإرسال اللحية لجديران بتغيير الهوية .

قالت مسز بوينتون : ولكن الأميرة عرفتك عند ما رأتك

فقال : نعم

وقالت الأميرة : ربما كنتم قد سمعتم بأنني قضيت عامين مربية قبل زواجي من الأمير برليتز ، ولكن الذي لا تعرفونه على ما أظن هو أنني كنت مربية في نفس هذا المنزل . وربما أدهشكم أن السير جيرفاس الذي يتهم بأنه قتل أخاه من أجلي لم يكلمني أية كلمة قبل الآن .

ساد الصمت وقد كانت القرائن كلها قوية ضد جيرفاس والأميرة . ولكن لم تظهر على واحد منهما أدلة الإجرام .

واستأنفت الأميرة الكلام فقالت : « وقد استكشفنا أن في الغرفة التي كنت أقيم فيها مكاناً سرياً في الحائط بينها وبين الغرفة المجاورة ؛ وهذا المكان هو المخبأ الذي أطلقت منه الرصاصة

وقالت : إنه وصل إليها بالنمسا وإلى السير جيرفاس في الاسكا خطابان من مجهول فاضطرا إلى المجيء وإلى دخول المنزل للبحث عن هذا المكان السري . وقالت : إن استكشافهما كان خطيراً .

ثم اطلعت صاحبة المنزل على دفتر المذكرات وقالت : إنه دفتر مذكرات السير جوليس لترانج وصيف السير نوليس فيلتون ، وهو يعترف بأن كتمانه الحقيقة يكاد يصيبه بالجنون ، ويظهر أنه كان قريباً جداً من الجنون لما كتب هذه المذكرة . وهذا نصها فاقرئيها !

فقرأت مسز بوينتون :

« سبتمبر — لا أستطيع الاحتمال فوق ذلك . إنها كانت تغض النظر عني لأني وصيف ولا تعنى بغير السيد ، وقد قتلته وألصقت التهمة بالسير جيرفاس »

وقرأت مسز بوينتون بعد ذلك الخطاب الذي وصل إلى الأميرة والخطاب الذي وصل إلى السير جيرفاس فوجدتهما بخط واحد ، وهو نفسه خط صاحب المذكرة . وقد روى في الخطابين أنه في المستشفى في حالة الاحتضار

فقالت : « هذه أنباء غريبة ، ولكن أخشى ألا أستطيع تجديد عقد الإيجار »

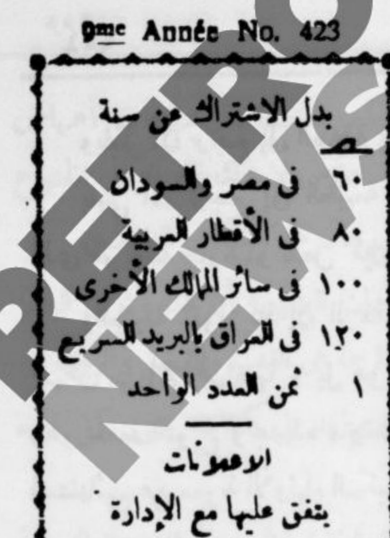
فابتسم السير وقال : « هذا يتوقف على رغبة الأميرة »

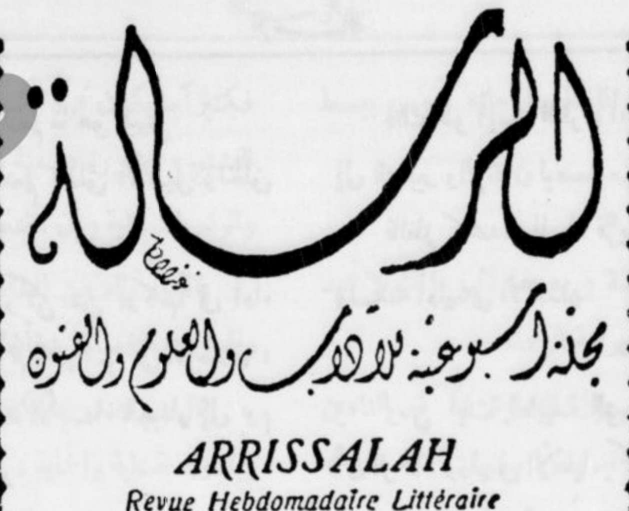
عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 423 — Lundi - 11 - 8 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٢٣ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٨ رجب سنة ١٣٦٠ — الموافق ١١ أغسطس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

الرحمـــة قوة

للأستاذ عباس محمود العقاد

« ... وبعد فإننى أحد دارسيك ، ومن طليعة المعجبين بغزارة علمك وقوة أدبك وسموه ، ووفرة إنتاجك وتنوعه ، لهذا لا أحسبنى متطفلاً إذا ما سألتك سؤالاً فى موضوع طالما فكرت فيه ، وهو : أصحيح ما يقال إن الرحمة من أخلاق الضعفاء ، وإنها أبعد الصفات عن الأقوياء ، وإن الإنسان كلما ازداد قوة ازداد قسوة ؟ ... فهل تتفضل يا سيدى بالإجابة على سؤالى هذا على صفحات مجلة الرسالة الغراء لأننى من المدمنين قراءتها ؟ ولك منى جزيل الشكر سلفاً ... »

بغداد — شارع الرشيد — عبد الكريم جواد المحامي

***

وجوابى على سؤال الأستاذ الفاضل أن الرحمة قوة وليست بضعف ، لأن الرحيم يعطى من فيض نفسه من يحتاجون إلى رحمة ، ولا تملك النفس فيضاً تعطيه إلا وهى ممتلئة تستغنى عن جزء من ذخيرتها لإسعاف غيرها . وليس هذا من شيمة الضعفاء

والرحمة كلاءة ورعاية ، ومن يكلأ غيره ويرعاه فليس هو بالضعيف

وينبغى أن نرجع إلى الطبيعة ، لنعلم ما هو طبيعى

ينبغى أن نرجع إلى الطبيعة لنعلم الخلق الأصيل والخلق الذى هو عاهة طارئة أو نقص كمين

والطبيعة تقول لنا إن الرحمة ركن من أركانها فى أداء غرض من أهم أغراضها ، بل هو أهم أغراضها على الإطلاق ، وهو حفظ النوع وتجديده ، وتمهد الأبناء الصغار إلى يوم استغنائهم عن معونة الأولياء الكبار

فكل والد رحيم بغير اختياره : رحيم باختيار الخالق الذى خلقه وسخره لحفظ نوعه

وكيف يقال إن الطبيعة تعتمد على الضعف فى طلب البقاء؟ أو تعتمد على الضعف فى غريزة أصيلة يوشك أن يتلاقى فيها الإنسان وسائر الأحياء ، ممن صعد ولو قليلاً على سلم الارتقاء؟

لو قلنا إن القسوة عجز وليست بقوة لما أخطأنا الدليل على ذلك من طبائع الأحياء التى عهدت فيها الضراوة وخلت طبائعها من الرحمة وما يماثلها

فإن الوحوش المشهورة بالقسوة لا تعرف وسيلة غير البطش والضراوة لتحصيل العيش ومكافحة الأعداء ، وكل بطش فهو إلى القوة الآلية أقرب منه إلى الخصال النفسية والملكات العقلية . فالفرق يسير بين صدمة الحجر وضربة الوحش من هياجه ، فهى — أى القسوة — أدنى الوسائل التى لا وسيلة دونها ، ثم تترقى وسائل الأحياء درجة بعد درجة حتى يكون استغناؤها عن القسوة بمقدار ارتقائها فى تلك الدرجات

ومن ثم يصح أن يقال إن القسوة عجز وفقدان وسيلة ، وإنها من البدائيات التى يوشك أن تلحق بالآلة والجماد

فالإنسان يقسو لأنه عاجز عن الرحمة ، ولا يناقض قولنا هذا قول المتنبى :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

فإن بيت المتنبى معناه أن الظلم أيسر الوسائل وأقربها : أيسرها لمن لا يتيسر له ما هو أصعب منها . وهذا هو بعينه ما نذهب إليه حين نقول إن القادر على الصعب لا يهبط إلى ما دونه ، وإن القادر على الرحمة مستغن عن التقتيل والتخويف

إن الماء لا يحتاج إلى تدبير وإتقان لينحدر من الأعلى إلى الأسفل

ذلك هو أيسر الطرق أمامه وأقربها إليه ؛ ولكنه محتاج إلى التدبير والإتقان ليصعد من الأسفل إلى الأعلى

فالظلم كانحدار الماء قريب ؛ والرحمة كارتفاع الماء صعب ولكنه أدل على الاقتدار

* * *

ومن آيات الطبيعة التى نستفيدها منها فى هذا المعنى أن الرحمة تزداد فى الأحياء كلما ازداد الشبه بينها وبين الإنسان فى الغريزة الاجتماعية

فالرحمة معروفة بين الحيوانات الاجتماعية فى العلاقة بين والدها ومولودها ، وفى العلاقات بين الفرد منها وسائر أفرادها ، وفى العلاقات بينها وبين الآدميين

ومؤدى هذا أن الرحمة وغريزة الاجتماع متلازمتان ، فكيف تكون مرضاً وهى أصل من أصول الأخلاق الاجتماعية؟ وكيف يتركب فى البنية ما هو مرض أو انحراف مناقض لأساس التكوين؟

على أننا خلقاء أن نميز بين الرحمة وبين الاضطراب الجسدى الذى يعجز صاحبه عن احتمال المؤلمات والمشقات ، فيخور ويبكى حين يرى ما يؤلم أو يتعرض لما يشق عليه . وليس من الضرورى مع هذا أن يرحم المتألم أو يعينه أو ينفعه بعطفه ، وإنما هو عجز عن احتمال الآلام المشهودة كالعجز عن احتمال الهواء والاضطلاع بالمتاعب ، وبين الرحمة وهذا النقص بون بعيد

إن المرأة الهستيرية التى يغشى عليها حين ترى جريحاً يتألم ، ليست بأرحم لذلك الجريح من الطبيب الذى يفتح جراحه ويزيده ألماً على ألمه

فالذين يزعمون أن الرحمة ضعف أو مرض ، إنما يلتبس عليهم الأمر بين هذه الحالة الهستيرية التى هى ضعف ، وبين الرحمة التى هى قوة ، لأنها حماية لضعف الآخرين

وإن الرجل الذى يبطش بالضعفاء لأقوى من الضعفاء ؛ ولكن أقوى منه وأرجل منه وأرفع منه ذلك الرجل الذى يغلب الأقوياء لينقذ الضعفاء من أيديهم ، ويريهم قوة أكبر من قوتهم ، لأنها لا تكتفى بالقسوة على الضعيف ، ولا تحجم عن زجر القوى ، وزجره أحوج إلى القوة وأدل على الاستغناء

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

نمر ، وأرجل منه من يعول كل الرجال عليه ، ومن يبسط جناحيه على كل من حواليه

***

وآية أخرى من آيات الطبيعة في هذا المعنى أنك لا تجد متدرباً بالرحمة إلا وهو محتاج إلى رحمة الرحماء

« فردريك نيتشه » : رسول القسوة وأكبر الناعين على الرحمة في العصور الحديثة ، قد عاش سنوات ولا سند له في الحياة غير رحمة امرأة عجوز ، وهي أمه !

وروى عن الوزير ابن الزيات أنه كان يقول : إن الرحمة خور في الطبيعة . فلما نكب وعذب بالتنور الذي كان يعذب به الناس إذا به يرثي لنفسه ويستدعى الرثاء لها ويجرى في ضعفه أمثولة لمن يسترحمون الأقوياء والضعفاء ، و « لم يزل - كما جاء في الطبرى - أياماً في حبسه مطلقاً ، ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع عن الطعام ، وكان لا يذوق شيئاً . وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكر ... وكان قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه : يا محمد يا ابن عبد الملك ! لم تقنعك النعمة والدواب الفُرْه ، والدار النظيفة ، والكسوة الفاخرة ، وأنت في عافية ، حتى طلبت الوزارة ! ذق ما عملت بنفسك ... »

ومن شوهد عليهم من القساة أنهم كانوا أصلب من ذلك عوداً وأخشن مساً وأقرب إلى التمرد والعتو والأنفة من الشكوى فكثيراً ما يكون تمردهم ضرباً من التخبط ، أو عرضاً من أعراض التشنج ، أو ثورة عصبية هي مرض لا شك فيه كمرض الخنوع والولع بالشكاية وإن اختلف مظهرهما كاختلاف النقيضين

فالذي نراه من المشاهدات الطبيعية أن القسوة هي العجز والمرض والنقصان ، وأن الرحمة هي القدرة والفضل والزيادة

فالرحيم عنده ما يكفيه ويزيد على كفايته حتى يكفي غيره ويتناوله بالعناية والحماية !

والقاسي عنده من القوة ما يغلب به الضعيف ، فهو في الدرجة التالية من الضعف ليس دونه في مراتب القوة إلا فاقد القوة والعاجز عن كبحها

وهذا بلا ريب غير قسوة الرحمة التي يقول فيها حكيم الشعر العربي :

وقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

فالرحيم الذي يقسو هنا لينفع بقسوته من لا تنفعهم رحمته ، إنما هو أرحم وأقدر على الرحمة ، لأن رحمته لا تغلبه ولا تقوده غير واع ولا متدبر حتى يصنع باسم الرحمة ما هو نقيضها أو ما هو قسوة معيبة فيما تنتهي إليه من الإيذاء

وكفى بالرحمة أنها فتح إنساني في عالم الحياة ، ترق إليها الإنسان وحده بين المخلوقات الحية ، وشابهته فيها بمقدار ما صعدت بهم الطبيعة في مرتقاه .

عباس محمود العقاد

كيف يكتب التاريخ؟ (*)

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ١ —

مقدمة

الشرق القريب — ومصر على وجه الخصوص — حديث العهد جداً بدراسة موضوع طريقة البحث التاريخي وكتابة التاريخ بالمعنى العلمي الحديث؛ وكلية الآداب بالقاهرة تكاد تبدأ هـذا النوع من الدرس الذي أرجو أن يتسع ويطبق عملياً في المستقبل القريب. وفي صيف ١٩٣٩ أصدر صديق الدكتور أسد رستم كتاب « مصطلح التاريخ » نتيجة خبرته في تدريس طريقة البحث التاريخي سنوات عديدة في جامعة بيروت الأمريكية. وابتداء من نوفبر ١٩٤٠، أخذ الدكتور محمد مصطفى زيادة الأستاذ المساعد لتاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بالقاهرة ينشر سلسلة من المقالات بمجلة « الثقافة » عن صناعة التاريخ في مصر، فرأيت أن أساهم أيضاً — بعد أن فتحت لي « الرسالة » صدرها الرحيب — بنشر بعض مقالات عن هذا الموضوع، لاحتمال تقديمه بعض النفع للراغبين في دراسة وكتابة التاريخ. ولإعطاء القارئ فكرة عن طريقة كتابة المؤلفات التاريخية التي يتداولها؛ والتاريخ لا يدرس عفواً، ولا يكتب اعتباطاً؛ وإنما يدرس لأغراض وفوائد، ولا بد لكتابته من استعداد خاص ودراية وخبرة بطريقة البحث التاريخي

ولماذا نحاول الوصول إلى الحقيقة التاريخية؟ وما الذي نستفيده من دراسة التاريخ؟ لكي نصل إلى نتيجة معقولة، فلنبحث أولاً فيما هو التاريخ؛ فكلمة تاريخ مستمدة من اليونانية بمعنى بحث واستقصاء حوادث الماضي، أي تسجيل حوادث الإنسان منذ ظهر في الوجود، ومنذ بدأ يترك آثاره ومخلفاته على الصخر وعلى الأرض، حتى الوقت الحاضر. ونحن إذا تصفحنا أي كتاب عام عن تاريخ العالم، نجد أنه يتناول أوجه النشاط الإنساني المتنوعة في الزمن الماضي، فيشرح حوادث الحروب ومشاكل السياسة ومسائل الدين والفن والاقتصاد ... وهو يحاول بذلك أن يعطي صورة للمجتمع الإنساني في حالة حركة مستمرة؛ وهي حركة لا تتكرر ولا تعيد نفسها على نفس المنوال وفي نفس الظروف التي حدثت بها في فترة سابقة. نعم إنه قد تقع حوادث متشابهة، ولكن تشابهها لا يمكن أن يكون مطلقاً؛ والإنسان يجب أن يعرف تاريخه ككائن اجتماعي، فينبغي أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ آثاره في الزمن الماضي. وينبغي أن يدرس العوامل التي أدت إلى حدوث الثارات والحروب، وما لابس ذلك، وما خلفته من آثار؛ وأن يتتبع مثلاً حركة الكشف الجغرافي في أواخر القرن الخامس عشر، وما ترتب عليها من تغيير طريق التجارة العالمي، وما ارتبط بذلك من هبوط سلطنة المماليك وجمهورية البندقية، وارتفاع شأن دول غرب أوربا كالبرتغال وهولندا وانجلترا؛ وأن يدرس الأسباب التي أوجدت

(*) المقصود بهذه المقالة وما يليها عرض موجز لدراسة طريقة البحث التاريخي، بدون التعرض لفلسفة التاريخ ولتطور كتابته في الشرق والغرب؛ وقد أعود إلى ذلك في المستقبل. وإنني أقدم بعض المراجع لمن يرغب للمزيد فيما نحن بصدده الآن:

١ — أسد رستم: مصطلح التاريخ، بيروت، ١٩٣٩

٢ — ابن خلدون: المقدمة، القاهرة، ١٩٣٠

٣ — السخاوي: الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق، ١٣٤٩هـ

٤ — هرنشو، ترجمة وتعليق الأستاذ عبد الحميد العبادي: علم التاريخ، القاهرة، ١٩٣٧

٥ — الدكتور مصطفى زيادة: صناعة التاريخ في مصر، مجلة الثقافة، أعداد ٩٧، ١٠٠، ١٠٥، ١١١

٦ — Fling, F. M.: The Writing of History, An Introduction to Historical method. Yale, U. S. A., 1926

٧ — Oman, Sir Ch.: On The Writing of History, London, 1939

٨ — Freeman, E. A.: The Methods of Historical Study. London, 1886

٩ — Acton, Lord J. E.: Lectures on Modern History. London, 1930. (pp. 1-28; On the Study of History)

١٠ — Emerson, R. W.: Essays. Oxford, 1927

١١ — Langlois, Ch. V. & Seignobos, Ch.: Introduction aux Etudes Historiques. Paris, 1898 — English Trans. by G. B. Berry. London 1912

١٢ — Feuter, E.: Histoire de l'Historiographie Moderne. Paris, 1914

١٣ — Croce, B.: Teoria e Storia della Storiografia. Bari, 1920. English Trans. by D. Ainslie. London, 1921

١٤ — Croce, B.: Primi Saggi. Bari, 1927. (pp. 1-72: La Storia ridotta sotto il concetto generale dell'arte, e Illustrazioni e Discussioni)

١٥ — Croce, B.: Conversazioni Critiche, 4 vol. Bari, 1924-1932. (V. 1. pp. 153-224: Teoria della Storia, e Storia della Cultura) — (V. 4. pp. 115-163: Metodologia Storica)

١٦ — Pecchiai, P.: Manuale Pratico per gli Archivisti. Milano, 1928.

نوعاً جديداً من الأدب أو الفن وما إلى ذلك من أوجه النشاط الإنسانى ومقومات الحضارة

وحوادث التاريخ هى من صنع الإنسان فى ظروف معينة ؛ فينبغى أن يقرأ الإنسان وأن يدرس هذا التاريخ ؛ فالعلاقة وطيدة بين حياة الإنسان وبين القرون والعصُر الماضية. ولا يمكن للانسان أن يفهم نفسه وأن يفهم الحاضر بدون الماضى ؛ ومعرفة الماضى تكسبه خبرة السنين الطويلة ؛ والتأمل فى الماضى يبعد الإنسان عن شخصه ، فيرى ما لا يراه فى نفسه بسهولة من مزايا وأخطاء الغير ؛ ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه وأقدر على حسن التصرف فى الحاضر وفى المستقبل . ولكى ندرك أهمية معرفة الماضى ووجوب دراسة التاريخ ، فلنفرض أننا استطعنا بوسيلة ما أن نقطع صلتنا بالماضى نهائياً ، وأن نحرق دور الكتب وأن ندمر كل آثار العمران الراهنة ، وأن ننسى أنفسنا ؛ فماذا تكون عليه حال الإنسان وحال الحضارة؟ لا بد للانسان فى هذه الحالة من أن يعود ليبدأ من جديد ما كان قد بدأه منذ آلاف السنين من أوجه النشاط المختلفة لكى يصل إلى النقطة التى قطع فيها صلته بماضيه التاريخى ، أو إلى ما يقاربها . فماضى الشعوب وماضى الإنسان حافل بشتى الصور ، وهو عزيز عليه فى كل أدواره ، سواء عهود المجد والقوة ، أو فترات المحن والكوارث؛ والأقوام الذين لا ماضى لهم ليسوا من شعوب الأرض المتحضرة . ومتى اقتنعنا بوجوب معرفة التاريخ والاستفادة منه ، فينبغى إذاً أن يكتب هذا التاريخ ، ويجب أن يتخصص لكتابته بعض الناس من أصحاب الاستعداد

وليس كل من يحاول أن يكتب التاريخ يصبح مؤرخاً . فالمؤرخ ينبغى أن تتحقق فيه الصفات اللازمة لكل من يشتغل بالعلم . ومن بين هذه الصفات أن يكون محباً للعمل جلداً صبوراً فلا تمنعه وعورة البحث ولا المصاعب والعقبات مهما كان نوعها عن مواصلة البحث ، ولا توقفه ندرة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الحقائق التاريخية واختلاطها ، فيقضى الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد إلى آخر بحثاً عن الحقيقة . ويلزم المؤرخ أن تكون له ملكة النقد ، فلا يقبل أى كلام ، ولا يصدق أية وثيقة إلا بعد الدرس والاستقراء ، فيأخذ الصدق والحق ويطرح ما دون ذلك . والمؤرخ لا بد أن يكون مخلصاً أميناً شجاعاً ، فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق ، ولا يخفى الحقائق التى قد لا يعرفها غيره فى بعض الأحيان ، والتى قد لا ترضيه أو لا ترضى قومه ؛ فإنه لا رقيب عليه غير ضميره . والمؤرخ ينبغى أن يكون بعيداً عن حب الشهرة ، وألا يحفل بالكسب وبالألقاب وبالجاه ؛ فإن الحقيقة التاريخية التى قد يكشف عنها تعدل كل ذلك أو تزيد . والمؤرخ ينبغى أن يكون قوى الشخصية ، فيستطيع أن يكون آراءه بناء على الواقع التاريخى ، ويعرضها علينا ، فنلمس شخصيته خلال السطور . والمؤرخ ينبغى أن يكون صاحب إحساس وعاطفة وتسامح وخيال؛ فيدرك آراء الغير ونوازع الآخرين ، ويحس ما جاش بصدور الناس من شتى العواطف ، ويفهم الدوافع التى حركتهم فى اتخاذ سلوك معين فى الزمن الماضى ، ويشارك رجال الأمس مواقفهم فى ساعات التاريخ الفاصلة ، فى فترات الانقلاب ، وفى عهود المقاومة المنيفة ، وفى ظروف النجاح والفشل ؛ لأن المؤرخ المجيد يجد فى كل هذه الحوادث صدى نفسه ، فتتجلى فيه روح العلم والفن، ويبعث التاريخ حياً ، ويحيا فى التاريخ ، ويعيش للتاريخ

وإذاً فما هو الطريق الذى نتبعه لكتابة التاريخ ؟ وما هى طريقة البحث التاريخى ؟ طريقة البحث التاريخى عبارة عن العملية والمراحل التى يصل خلالها الباحث إلى الحقيقة التاريخية ، بجمع الأصول والمصادر ، ودراستها ونقدها ، واستخلاص الحقائق وتنظيمها وعرضها عرضاً تاريخياً معقولاً . إنما نلاحظ بأنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية إمكان الوصول إلى معلومات صحيحة على الإطلاق ؛ فالحقيقة المطلقة غير مستطاع الوصول إليها فيما يتعلق بالوقت الحاضر فضلاً عن الماضى ، لظروف مختلفة كالأغراض والمصالح ، أو لضياع الأدلة وانطماس الآثار . فالحقيقة التى يصل إليها الباحث فى التاريخ صحيحة نسبياً ، وكلما زادت نسبة الصدق وكبر عنصر الحقيقة أصبح التاريخ تاريخاً بالمعنى الصحيح

وإن من يدرس العلوم الطبيعية يستطيع أن يشاهد بنفسه التغيرات والتحولات التى تصيب المادة فى معمل التجارب . إنما دارس التاريخ لا يستطيع أن يضع الحوادث أمامه فى بوتقة التجارب ؛ ولا بد له من وسائل أخرى تؤدى به إلى الغرض . فينبغى أن تتوفر لديه الأصول والمصادر التى يستخرج منها

الحقائق التاريخية . وهذه المصادر عبارة عن آثار ومخلفات الإنسان ، وهي على أنواع مختلفة ؛ فمن ذلك بقايا جسم الإنسان نفسه ، وملابسه وطعامه ومساكنه وأسلحته وأدواته التي كان يستخدمها أثناء حياته ، ونقوشه على الأحجار وكتبه المخطوطة والمطبوعة ، وصوره ورسومه وتماثيله ومبانيه ، ولغته وآدابه وقوانينه وعاداته وتقاليده . وآثار الإنسان كلها تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ ؛ وهي تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها ، إلى أن يتمكن الإنسان بالدراسة الطويلة ، وبالتأمل العميق من أن يحملها على النطق ، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها . وينبغي ألا يفوتنا أن بعض آثار الإنسان تشيد للمبالغة والتعظيم ، مثل أقواس النصر التي أقامها نابليون في بعض الولايات الألمانية ، والتي لا تدل على أنه قد أصبح سيد أوربا على الدوام ، أو المدالية التي ضربها تذكاراً لنزوله في انجلترا ، مع أن ذلك لم يحدث تاريخياً ؛ فهذه المدالية ستبقى كذكرى لأمل لم يتحقق . أو تمثال الرجل الذي يقتل الأسد ، مع أن ذلك لم يحدث إلا نادراً ، والعكس هو الشائع . ولو استطاع الأسد أن يصنع تمثالاً لفتكه بالإنسان لصحّ الوضع . وأحياناً قد يعثر الباحث في التاريخ على وثائق مزيفة ومنتحلة ، سواء بقصد الدعاية أو الدفاع عن فكرة معينة أو من أجل الشهرة أو للاتجار والكسب . وعلى ذلك ينبغي أن تدرس آثار الإنسان بروح النقد والحذر

وتتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الأسس العامة . فأولاً نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته ، هل هي أصول original sources أو هل هي نقوش قديمة معاصرة وثبت صحة معلوماتها ، أو هل هي وثائق ومراسلات سياسية مستخرجة من دور الأرشيف وثبت أنها غير مزيفة وأن معلوماتها صحيحة ، أم أن المادة التي جمعها الباحث مستمدة من مجرد مراجع ثانوية ليست لها قيمة كبيرة . وثانياً قدرة الباحث على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر . ويختلف الباحثون في النقد وفي استخلاص الحقائق على حسب اختلافهم في الفهم والتفسير والاستنباط . وأحياناً يضع الباحثون في التاريخ افتراضات مختلفة لمحاولة فهم حركة تاريخية مهمة مثل حركة النهضة في إيطاليا أو الثورة الفرنسية . وأحياناً يختلف الباحثون في تقدير معنى الحوادث من ناحية السياسة أو الخلق . وأحياناً يكتبون متأثرين بروح العصر السائدة مثل حركة الانقلاب الصناعي أو نمو الديموقراطية في أوربا ؛ إنما كل هذه الاختلافات ضرورية لأنها تقدم آراء ووجهات نظر مختلفة عن عصر معين ؛ وهي تعطي للتاريخ الحركة والحياة ، وتجعل البحث التاريخي مستمراً بنشاط . وعلى العكس ، عدم الاختلاف بسبب الجمود والركود . وثالثاً مطابقة التاريخ للواقع ، وبعده عن التمييز والأهواء والنوازع المختلفة ؛ فلا تعتبر تاريخاً صحيحاً الكتابة التي يطعن فيها مسيحي على المسلمين في زمن الحروب الصليبية ؛ أو العكس ، فالكتابة التي تخدم غرضاً معيناً قد تعتبر تاريخاً لنوع من التفكير أو النوازع الإنسانية ، وإنما لا يمكن أن يعتبر ما جاء بها معبراً عن الحقيقة التاريخية بالنسبة لما تناولته من الموضوعات

وبمعنى آخر يمكننا أن نقول إن قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناء على ملكات الباحث في التاريخ واستعداده ، وبناء على مدى ثقافته ، وعلى درجة إلمامه بطريقة البحث التاريخي . وكثير من كتب التاريخ تعتبر من أمتع ثمرات العقول ، لنضوج عقلية المؤرخ ، وخبرته الوطيدة ، ونجاحه في إعطاء وحدة جامعة واضحة ، بعكس الكثير من كتبَ التاريخ أيضاً التي يكتبها من لا يفهم التاريخ ، ومن لا يملك ملكة النقد ؛ فلا تزيد عن مجرد معلومات موضوعة بين دفتي كتاب . ومثل هذه الكتب غير جديرة بأسمائها ، وهي قد لا تساوي الورق الذي طبعت عليه .

(يتبع) حسني عثمان

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد السنوسي

إخصائي الحالات النفسية

مؤلف يبحث على ضوء العلم الحديث فيما هي فوائد علم الكف . الكف والمؤثرات النفسية . كيف تكشف خطوط الكف عن استعدادات المرء التي تمكنه من النجاح في الحياة

قيمة الاشتراك قبل الطبع ٣٠ قرشاً وثمنه بعد الطبع ٥٠ قرشاً وقد مد أجل الاشتراك إلى ١٥ سبتمبر المقبل كرغبة الكثيرين ، وترسل الاشتراكات إلى مكتبة الأنجلو ٣٣ ش قصر النيل ، أو لمجلة الرسالة ٨١ ش السلطان حسين ، أو للمؤلف ٣٣ ش الملكة فريدة .

بمناسبة الغارات الجوية على الاسكندرية :

دار الوجـــد والمجد

للدكتور زكى مبارك

[لو عاش « شوقى » إلى أن شهد ما تعانى الاسكندرية من كوارث وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ . فالى روحه فى دار الخلود أهدى هذا القصيد]

زكى مبارك

بأهل اسكندريةَ بعضُ ما بى ... من الأحزانِ للثغر المصاب

أدارَ هَواىَ ما قلبى بناسٍ ... هُيامى فوق أثباجِ العُباب

وهل يَنسى أخو كرمٍ وعهد ... رحيقَ الراحِ يُمزجُ بالرُّضاب ؟

فإن تكن الكوارثُ آثماتٍ ... صببْن عليك أسواطَ العذاب

فلن ينسى لك التاريخُ عهداً ... ضحوكَ الوجه موهوب الجناب

* * *

حَماكِ اللهُ يا دارَ التنادى ... إلى الهيجاء أو دارَ التصابى

ألم تمرح بساحتــك الجوازى ... لَواعبَ فى حمى الأُسْد الغِضاب (١)

ألم تُلقِ مع الأقـدار يوماً ... كتائبَ من لحاظ أو حراب ؟

وكيف يطيبُ للدنيا وُجودٌ ... إذا هُدِّدتِ ظلماً بالخراب ؟

وأين تجولُ أفراسُ المعالى ؟ ... وأين تصول أحلامُ الشباب ؟

* * *

عروسَ البحر، والدنيا سفينٌ ... تروَّع بالقواصف والضباب (٢)

أعندكَ أن دارَ المجدِ تنجو ... على الأيام من كُرَب الصِّعاب؟

أعنـدك أن فى الدنيا رياضاً ... تصان من الأفاعى والذباب ؟

* * *

عروسَ البحر، ما هذى الرزايا ... تصب على بنيك بلا حساب ؟

أكنت جنيت ، والدنيا مجالٌ ... لمفروض الثواب أو العقاب ؟

جمالكِ فاتنٌ، والحسن ذنبٌ ... لأهل الحسن فى شرع الذئاب

فما شكواكِ من ظلماء طالت ... وتلك جناية المجدِ اللباب ؟

* * *

عروس البحر، يا مهوى فتونى ... ويا مَغنى أمانىَّ العِذاب

عُقلتُ بأرضك العزَّاء عاماً ... فكان أعزَّ عام فى شبابى (١)

دخلتُك عانياً فى أسر ليل ... أصمَّ القلب زنجىِّ الإهاب

فأقبلَ نورك الروحىُّ يسرِى ... إلى أرواحنا من كلِّ باب

رأى الصقالُ أن نحيا أسارى ... حياةَ السيف فى سُدَفِ القِراب (٢)

فلا ندرى لوجه البحر لوناً ... سوى الموهوم من لمع السراب

ولا نقْشات من زاد الأمانى ... سوى المظنون من يوم المآب

فهل سمعَ الشقىُّ بما أفاءت ... علينا اسكندرية من ثواب ؟

هَديرُ البحر كان يمجّ عمداً ... ليطربنا على بُعْد الشباب

وحَبُ الرمل صار لنا مهاداً ... مُطرَّزة بأزهارِ الروابى

فأمسى الاعتقال على اجتواه ... رخىَّ القيد مأنوس الرِّحاب (٣)

* * *

عروس البحر، حدَّثنى شهودٌ ... بأن الشط صارَ إلى تباب

فلا غيْداءُ تخطِرُ فى حِماهُ ... كرقص البدر من خلف السحاب

ولا صَبٌّ تخفُورُ العهد يمشى ... على جَنباته مَشْىَ الحُباب

ولا صهْباء يحْسُوها بنوهُ ... وقد قُبستْ من الذهب المذاب

إذا طافت بهم هاموا فخفُّوا ... لِمقبول المجانة والدُّعاب

وأمسوا والكواكب فى عُلاها ... لهم أسلابُ فتكٍ وانتهاب

سُلافٌ صانها (باكوسُ) عما ... يشوبُ الراحَ من إثمٍ وعاب (٤)

ألمْ يثقل على حُكماء قومى ... وقد عاقرتها وِزْرُ اغتيابى ؟

* * *

أميرَ الشطِّ كنتُ فأين عهدى ... برَمْى الحسن فى الشطِّ المُعجاب

وأينَ رِمالهُ منى وكانت ... مناسكَ صَبْوتى فى كلِّ (آب) (٥)

---

(١) الجوازى هى الظباء لاجتزائها بالعشب عن الماء

(٢) القواصف هى الرياح التى تثور فى البحر . أما العواصف فهى الرياح التى تثور فى البر

(١) العزاء هى الأرض الصلبة ، وكان موضع الاعتقال فى بقعة جرداء بناحية « سيدى بشر » قبل أن تصبح تلك الناحية من ملاعب الصيف

(٢) الصقال على وزن سجان هو حارس المعتقلين ، والسدف جمع سدفة بالضم وهى الظلمة ، والقراب بكسر القاف هو الغمد

(٣) الاجتواء : البغض

(٤) باكوس هو إله الخمر عند اليونان ، وبه سميت ضاحية كبيرة من ضواحى الاسكندرية

(٥) آب : شهر أغسطس ، وهو أم شهور الاصطياف

إليها كان حَجِّي واعتماري ... وفيها كان تَخَتُّلي واُختِيلابي
فكيف أذوقُ للصَّبوات طعماً ... وعن عَرَفاتها طال احتجابي؟

* * *

نداني البحرُ، سوف أعود يوماً ... لأُطفئ ما بقلبي من لؤاب (1)
نشيدي في التصوف كان لحناً ... نقلتُ صداه عن قصف العباب
سوايَ يرى الوجود إن اجتلاه ... سطوراً ناويات في كتاب
ويجلوه لوِجداني ورُوحي ... إذا ماشئتُ إظلالُ السحاب (2)
وهل كانت حياة الناس إلا ... قلائد صاغها ربُّ الرَّباب (3)
عشقتُ البحرَ والصحراء عشقاً ... به طال اندفاعي وانجذابي
أطلُّ على الفضاء فتزدهيني ... رِحابٌ غارقاتٌ في رِحاب
وأنظُر للوجود فلا أراه ... سوى خمرٍ تماقَر أو رُضاب (4)

* * *

أخِلّائي هنالكَ، حدّثوني ... حديث (الثغر) وانتظروا إيابي
أفوقَ رُبوعه غامتْ سماء ... مؤجَّجة بأقباس الهُباب (5)
وما للقومُ الذين عَدَوْا عليه ... كعدوان الذباب على الشراب؟
أكانوا جِنَّة صُمّاً فماثوا ... به عَيْثَ الأراقم بالوِطاب (6)
أكان (النسر) في التحليق أدنى
إلى الإسفاف من ذاك (الغراب)؟
وما الألمانُ إلا قوم بَغْيٍ ... أثيم الجِدِّ مذموم القِطاب (7)
نِطاحٌ كله سفَهٌ ولؤمٌ ... ولو كَرِه المصانع والمحابي

* * *

(1) اللؤاب: العطش

(2) أجمل الشاعر في هذين البيتين معنى فصله في «ذكريات باريس» في بحث عنوانه «بين فصول الكتاب وآيات الوجود»

(3) الرباب هو ما دون السحاب، فالسحاب ربه، ورب السحاب هو البحر، ورب البحر هو الله. وللشاعر عقيدة صوفية تقوم على أساس «الحقيقة البحرية»، وهي عقيدة لا يتسع لشرحها المجال؛ وقد تفتح أبواباً من الجدل لا يطيقها أكثر الناس، لأنها تخالف ما اصطلح عليه الصوفية

(4) يريد الشاعر أن يقول إن الوجود كله جميل حتى ليحسبه رشفات من خمر أو رضاب

(5) الهباب بالضم هو الهب أو الهيب

(6) الأراقم هي الحيات الرقط، والوطاب مفردها وطب، وهي أوعية اللبن، والحيات تحب اللبن إلى حد الجنون، والعرب يصفونها بالصمم ليبالغوا في قدرتها على الايذاء؛ وهو الوصف الذي أضافه الشاعر إلى أولئك الجن العاثين

(7) القطاب بكسر القاف هو المزاح

أحقٌّ أن نادي (الثغر) أقوى ... وأقفر من أحاديث الصحاب؟
فلا «النشارُ» يسأل غير صاحٍ ... ولا «شيبوب» يحلم بالجواب؟
«أبو شادي» أفاقَ، فمَن بشيري
برَجْع الأمن للثغر المَهاب (1)
وكيف يعيش رُوحٌ كان أُنسي
وإن أَلِفَ اللجاجةَ في الهِضاب؟
أكاتمُ حبَّه قلبي وأمضي ... فأُعلنُ بُغضه عند العتاب
هو الدنيا: وقد جُنتْ فصاغت ... رحيقَ هواه من شهد وصاب

* * *

بأهل اسكندرية بعضُ ما بي ... من الأحزان للثغر المُصاب
سمعتُ حديثَ نكبتهم فأمسى ... فؤادي في انصداع وانشعاب
ملائك من أديم الخلد صيغوا ... لِيوم الوَجْدِ أو يوم الغلاب
أعزّ البحرُ أنفسهم فعزوا ... فهم قوم اعتلاء واصطخاب
هُمُ الحراسُ للوطن المفدّى ... من العادينَ أشباه القُلاب (2)
فكيف تبددوا وأدال منهم ... مديل البأس من وكر العُقاب (3)
تُساق إليهمُ الأقوات، هلاّ ... تساق إليهم عُددُ الحراب؟
أغيثوهمْ بسيفٍ لا يُراد ... فهم خلف القساورة الصلاب (4)
أمِدّوهم، إذا شئتم، بجيش ... وقاح الوجه منزوع النقاب
فما حفظ الديارَ سوى حسامٍ ... به ظمأٌ إلى يوم الضِّراب

* * *

أجب «عبد القوي (5)» وأنت شهم
صريحٌ لا يُداوِرُ في الجواب
أأنت ترى «المخابي» واقيات ... وهُنَّ أذل من غار الضِّباب؟
وما شرفُ الفتى وقد استنامتْ ... جوانحُه إلى مثوى الهوابي (6)
لنا ماضٍ نَسيناه فضِعْنا ... ضَياعَ التبر في جوف التراب
لقد كنّا، وكنّا، ثم كنا ... أداة الفتك من ظُفر وناب

(1) المهاب بفتح الميم، هو المكان الذي يكثر فيه التهيب والخوف. وإفاقة الدكتور أبي شادي تستحق التنويه، فقد سقطت قنبلة على بعد خمسمائة متر من داره ولم يصب بسوء. وتلك أول مرة تظهر فيها كرامة «أبولون»!! (2) القلاب، بضم القاف، داء يصيب القلب

(3) العقاب، بضم العين، طائر من الجوارح

(4) القساورة: الأسود

(5) هو المهندس الأديب عبد القوي أحمد باشا وزير الوقاية المدنية

(6) الهوابي: أتربة القبور

ركزنا الرعبَ في مهج الضواري ... فكيف تروزنا مهجُ الذئاب ؟

لوادينا القويِّ عنت وجوهٌ ... عززن بالانتساب والاكتساب

ألم ندفن بوادينا قرومًا ... أرادوا الشرب من أمواه (حابى) [1]

فكيف نكولُنا عن ردع قوم ... لئام البغي منكودي الإصاب [2]

هم ظنوا الكنانة زاد يوم ... كظن النمل في نسف الهضاب

فإن فازوا فسوف نكون منهم ... مكان البحر من لهب الضوابي [3]

وسوف نظل نحن ـ كما فُطرنا ـ ... أباةَ الضيم أحرار الرقاب

عركنا الدهر جيلاً بعد جيل ... وكابدنا الألوف من الصعاب

فما هُنّا على الأقدار يومًا ... ولا أمست بوارقنا نوابي [4]

ألم نشرق على الشرق المعنّى ... فندفع عنه آصار الضباب ؟ [5]

بنا وثقت شعوب لم تواجه ... بروق الغرب إلا في ارتياب

بنا استهدت بصائر لم ترضها ... خداعًا بالمواعيد الكذاب

كدأبكم وقد مرنت نهاكم ... على ستر الخيانة بالخلاب [6]

أكان السلم في عالي سناه ... ذريعةَ الاسترقاق والاستلاب

أروني . منّة أسلفتموها ... بلا نهب يراد ولا اغتصاب

طلائع كان هلككم ليوم ... يهون بجنبه يوم الحساب

ولم يك علمنا إلا نظيرًا ... لضوء الشمس يزهد في الثواب

أأنتم تفتنون بما ملكتم ... من العدد النذيرة بالخراب

ولا تزهى بآراء صحاح ... هي المنشود من فصل الخطاب

فإن تخلد مآثرنا وتسلم ... على التاريخ من شُبَه المعاب

فذاك لأنها آثار قوم ... كرام الروح أطهار الإهاب

لنا الخلد الذي لن ترزقوه ... ولو أوتيتم ملك السحاب

تخبّوا في المطامع كيف شئتم ... وخوضوا القاتمات من العقاب [7]

وردوا الأرض في شرق وغرب ... بكبر الليث أو زهو الغراب

وصولوا آمنين بنار حرب ... تحيل المزهرات إلى يباب [1]

فسوف ترون بعد مدى قصير ... فرائس للمحاق وللذهاب

***

بأهل اسكندرية بعض ما بي ... من الأحزان للثغر المصاب

أتلك قيامة قامت فدكت ... حصون البأس من تلك الطوابي [2] ؟

فمن كهل سديد الرأي يعمى ... لوقع الهول مفقودَ الصواب

ومن رشأ تصيّره الرزايا ... وقيذ الشيب في شرخ الشباب [3]

ومن عذراء يلفظها حماها ... فتخرج للبلاء بلا نقاب

قوارع لم تقع إلا بأرض ... يقارع أهلها وقد الحراب [4]

فما آثام أهل (الثغر) حتى ... يشن عليهم ويل العذاب ؟

مضت زمر إلى الأرياف منهم ... مضي الأُسْد من غاب لغاب

فكيف استقبلوا بعد ارتفاه ... جشيب العيش في تلك الشعاب ؟

أمن بعد الحشايا ناعمات ... يكون بساطهم متن التراب ؟

إلى جلوائهم في الصيف كانت ... تزف أطايب الحسن اللباب

وفي داراتهم كان التنادي ... إلى الصبوات في الشط الرغاب [5]

فكيف مضوا حيارى لم يشوبوا ... إلى زاد يعد ولا ثياب ؟

وكيف غدوا بهذا الصيف صرعى ... لمشئوم الشتات والاغتراب ؟

كذاك العيش بؤس بعد لين ... وشهد يستقى من بعد صاب

ومن عشق السلافة في صفاها ... أحب لحبها رنق الصُّباب [6]

***

عروس البحر ، نسرف إن رأينا ... حياتك في المزاح وفي اللعاب [7]

وكيف وفي معاهدك الحوالي ... تسابقت العقول إلى الوثاب ؟

بكل محلة وبكل أرض ... مآثر منك طيبة النصاب [8]

---

(١) حابى هو اسم النيل عند قدماء المصريين ، والحابى هو الوهاب
(٢) الإصاب مصدر أصاب ، كالإقام مصدر أقام وفيه إعلال بالحذف
(٣) الضوابي : النيران (٤) البوارق : السيوف
(٥) الآصار : الأثقال
(٦) الخلاب بالكسر ، هو الخداع
(٧) العقاب جمع عقبة بالتحريك وهى الطريق الصعب في الجبل

(١) اليباب : الخراب
(٢) الطوابي : القلاع ، وهى كلمة تركية الأصل
(٣) الوقيذ : المطعون
(٤) الحراب : المحاربة
(٥) الرغاب ، بفتح الراء ، الفسيح
(٦) الصباب ، بضم الصاد ، بقية الكأس ، والرنق : الكدر
(٧) اللعاب : الملاعبة (٨) النصاب : الأصل

وما روما وآثينا إذا ما — تبارى الفاخرون بالانتساب ؟
منار العقل كنت بلا امتراء — ونار القلب كنت بلا ارتياب
بكى التاريخ من عهد لعهد
مصاب العلم في (دار الكتاب)[1]
فهل كانت بدائعها لقوم — أجانب عن مرابعك الرحاب ؟
بناك أسكندر فيما بناه — كذلك قيل رجماً بالمغاب[2]
ولو أصغى أولو الألباب يوماً — لهمس الوحي في تلك الروابي
لآمن فتية منهم برأي — يخالك صادقاً « بكر العباب »
وهل « فينوس » عند مربيها
سوى « راقود » في أحلام « حابي » ؟[3]
لـ « كيمى » أنت، يا دار التنادي — إلى الهيجاء أو دار التصابي[4]
لـ « كيمى » أنت من أيام نوح — توارثك ابنم عن خير آب[5]

* * *

مضى عهد القياصر في انزعاج — بأرض اسكندرية وانقلاب
بلاد لم تكن إلا مجالاً — لمشبوب الصيال والاحتراب
بجمر الثورة الحمراء يغذى — بنوها لا بزاد أو شراب
وجاء الفتح فانقادوا لقوم — مساكنهم بصهوات العراب[6]
هوى الإسلام طهرهم فأضحوا
كماء المزن في شعب اللصاب[7]

فهل يدري المؤرخ كيف صاروا
طلائع للجهاد وللغلاب ؟
عليهم عول الإسلام فيما — أراد من المغاربة الصلاب
فأموا الغرب يحرسهم تقاهم — وقد مشت الملائك في الركاب
وحلوا عادلين به كراماً — حلول الغيث بالبقع الجداب
فلما أن هوت شمس المعالي — بأندلس ولاذت بالحجاب
تقاطر أهلها يبنون حصناً — يقيهم شر أيام التباب
إلى جفن الحمى بالثغر عادوا — كما عاد الجراز إلى القراب[1]

* * *

أتاريخاً يحبّره قصيدي — لماضي «الثغر» في عهد الشباب ؟
وما الشمس المضيئة إن حكتها — لرائيها خيوط من لعاب ؟[2]

* * *

عليك اسكندرية أج حزني — فطار تجلدي وهوى صوابي[3]
إذا فكرت فيك غلت دمائي — وآذن جمر حقدي بالتهاب
ألا سيف أجرده وأمضى — لأدفع عنك عادية الذئاب ؟
ألا جيش قوي البطش ضار — يذيق عداك أكواب العذاب ؟
سأصمت كارهاً، والصمت حيناً — يعد من البراعة في الجواب

زكي مبارك

(١) دار الكتاب هي مكتبة الاسكندرية المشهورة في التاريخ
(٢) المغاب هو الغيب، ومعناه الظن والتخمين
(٣) يريد الشاعر أن يقول: إن الأسكندرية كانت موجودة قبل الأسكندر بأزمان طوال، وإنما سمى أحد أحيائها باسمه، فغلبت التسمية على مر الزمان، واسمها القديم راقود. وهنا التفت الشاعر لفتة خيالية، فجعل « راقود » نظيرة « فينوس » و « فينوس » هي ربة الجمال عند القدماء وقد ولدت على شاطئ البحر، وكذلك ولدت « راقود »، وذلك معنى قوله: إنها « بكر العباب ». ومن المؤكد أن « راقود » هي أقدم المدائن البحرية، لأن طبيعة ذلك المكان من شواطئ مصر توجب أن يكون أهلاً للحضارة والعمران
(٤) « كيمى » هو اسم مصر عند أهلها القدماء، وكيمى معناه السواد، وسميت « كيمى » لغلبة هذا اللون على أرضها، ومن كيمى جاءت لفظة « الكيمياء » لشهرة المصريين بالتفوق في الاختبارات الكيميائية
(٥) « الآب »، بالمد، هو: « الأب » ؟ وهذا المد جاء لعلة صرفية هي تعويض الحرف المحذوف وهو الواو، وهو يعوض في لغة التخاطب بتضعيف الباء ؟ فقول النصارى « باسم الآب » صحيح من الوجهة اللغوية
(٦) « العراب »: الخيل العربية، ومساكن العرب في أيام بأسهم كانت بصهوات الخيل
(٧) « اللصاب » جمع لصب، بكسر اللام، وهو الشعب الضيق في الجبل، وهو يحفظ الماء من الأقذاء

(١) الجراز، بالضم، هو السيف القاطع، والشاعر يشير إلى حقيقة تاريخية، وهي أن فريقاً من الجيش الذي فتح أفريقية ثم دخل الأندلس كان من الأسكندرية، فلما غاب نجم الأندلس لاذ كثير من أهلها بالأسكندرية، فكثير من العائلات بالثغر يرجعون إلى أصول أندلسية ومغربية، وذلك سر الفراسة الغالبة على طباع الأسكندريين
(٢) لعاب الشمس شعاع ينحدر من السماء عند الظهيرة، والتاريخ لا يصور الحقائق إلا بمقدار ما يصور اللعاب حقيقة الشمس
(٣) أج الحزن: استعر واضطرم

من الأدب الحضرمي

ابن شهاب العلوى

للأستاذ على عبود العلوى

[السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوى شخصية بارزة في سماء الأدب الحضرمى تألق نجمها من أواخر القرن الثالث عشر الهجرى إلى أوائل العقد الخامس من الرابع عشر

وقد تزعم الحركة الأدبية بحضرموت وهو لم يتجاوز العقد الثانى من العمر ونهض بحضرموت فى عالم الأدب بعد أن كان حظها من النهوض فيه قليلا

ولئن تغلبت عليه الناحية العلمية فاستأثرت منه بالتفكير وقطعت من حياته جزءاً عظيما فى التأليف ، وأرغمته أن يترك لنا ذخيرة فى العلم وثروة كبيرة جليلة القدار تقارب الثلاثين مؤلفاً ، فأشهد أنه فوق هذا كان الأديب بالطبع ، والأدب سلوته الوحيدة وثروته التى لا تنفد ، ورأس ماله العظيم

ولو وجد فى بيئة شاعرة لكان منه أديب كبير نفاخر به العالم

قرأت ديوانه منذ ثلاث سنوات وعلقت عليه مذكرات يصح أن يستقل بها كتاب خاص وهذه الكلمة من إحدى فصوله

زار ابن شهاب مصر والعالم العربى والاسلامى عام ١٣٠٣ هـ وألهمه جو مصر بست عشرة قصيدة

ولد الشهاب العلوى بحضرموت سنة ١٢٦٢ هـ وتوفى بحيدر أباد دكهن بالهند فى ٢٩ / ١٢ / ١٩٢٢ الموافق ١٠/ ٥/ ١٣٤١ هـ]

البيئة المحافظة وحياة الشاعر :

قضى الأمر ولات مفر أن ينشأ شاعرنا فى البيئة المحافظة وهو الشاعر . والشاعرية ثورة نفسية تطمح لتحطيم القيود ، وتجنح إلى إرضاء النفس واتساع العاطفة ، وتميل إلى التغنى بمحاسن الجمال ، وتخفق أجنحتها حينما ترى الوسامة والصباحة فى القد السمهرى تخطر فى كوكبنا الأرضى ، كالنجوم تتلألأ فى السماء !

ولكن يحول دون ورود مناهل هذه الرياض ذات الأريج النمش ما سنته أحلام الفلاسفة وفرضته الأديان وأقره العرف واصطلحت عليه الإنسانية منذ عصورها الأولى فورثته لنا أجيالها القديمة حتى صار من الأسس المقررة التى لا يمكن الخروج عليها دون أن تثور ثائرة الرأى العام وتقوم بصخبها العظيم تجاه النفوس الحساسة الرقيقة

ولئن كانت فى هذه الثورة نوازع إنسانية كثيرة جديرة بالإكبار والإعجاب ، فإن فيها من الشطط والإجحاف بحقوق العالم الروحى شيئاً كثيراً ، لا سيما وأن المجتمع الحضرمى كغيره من مجتمعات بنى الدنيا ، قد أضافوا إلى القيود التى يرتضيها العقل والدين والعلم قيوداً أخرى لا تمت إلى الإصلاح بشئ

اللهم إلا إن كان جانب الإصلاح فيها ضئيلاً . وعلى كل فلن يقاس بالجانب العظيم الذى فقدناه من جراء كتم العواطف عند ذوى الإحساس المرهف ، القادرين على التعبير عما تجيش به نفوسهم .

وإذا كانت هذه الأوبئة الطفيلية تتهادى بها الأمم ، وتنتقل منها ولو إلى قطر بعيد كحضرموت قل من يقصده بالزيارة من بين الأقطار العربية والإسلامية بله الأقطار الأجنبية .

فإن حضرموت فوق ما سرى إليها من العدوى بيئة عربية إسلامية صوفية ، بلغت المثل الأعلى فى تطبيق القول بالعمل ، حتى كأنها المعنية بقول الشاعر :

كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهمُ من جميع الناس إنسانا

فى هذه البيئة نشأ شاعرنا الشهاب العلوى ، وجاشت نفسه بالشعر وهو فى سن المراهقة ، فتغنى وأغنى الشعب الحضرمى بالشعر الغنائى الوجدانى ، وذاعت شهرته فى النوادى الحضرية ، وفى المجتمع الحضرمى على اختلاف طبقاته ، لأنه كان يقول الشعر وهو فى هذه السن المبكرة بلغة حضرموت الدارجة ، وبأوزانها الشعرية مما يدعونه بالشعر الحمينى ، أى غير الشعر المعرب ذى الأوزان العروضية الخليلية

والشعر الحمينى قد يكون مرسل القافية كما يكون رباعياً ،

وأحياناً ثنائياً بلا نغم مردد، وإما ثانياً بالنغم المردد[1]

فاضت نفس شاعرنا بالشعر الحبيني وملأت به الجو الحضرمي

ولكنها بعد ذلك سمت إلى أن تسامى في الأصيب العربي الخالد، وأن ترد المنهل الكبير منه، وأن تشاطر في المثل السامي الذي اتخذته العروبة لها نبراساً تستضيء به معالمها الشعرية

وليس من الصعب على نفس شاعرة بطبيعتها ألا تهتدي إلى ينابيعه العذبة، ولكن من الصعب علينا نحن أن نتبين تاريخ الدور الذي جنحت إليه نفس شاعرنا بالضبط، لأن ديوانه قد خلا من إثبات أشعاره وهو في دور العقد الثاني وأوائل العقد الثالث؛ وكل ما نعرفه عن مقدرته الشعرية في هذا الدور تلك الأرجوزة التي نظمها في علم الفرائض، وضمنها كل ما يحتويه الفن إجابة لاقتراح أحد مشائخه عليه[1]، والتي يقول في مطلعها:

لله حمدي وارث الأرض المتين ... ومن عليها وهو خير الوارثين

وفي ختامها يقول:

فاصفح وأصلح مابها من الغلط ... فقد أتى: من ذا الذي ماساء قط

وعذر من لم يبلغ العشرينا ... يقبل عند الناس أجمعينا

أو قصيدته التي امتدح بها شريف مكة الشريف عبد الله باشا ابن عون الحسيني وعمره إذ ذاك ٢٤ سنة، قال:

حي الحيا حياً به حلت سُما ... ومنازلاً خطرت بهن وأربعا

وهمت على الوادي الذي سكنت به ... ديم تغادره أنيقاً ممرعا

---

(١) الأنغام الحضرمية ليست لها دائرة علمية تنظمها وإنما ترد إلينا تباعا من أماكن عديدة بحضرموت كوادي حجر بن دغار — ولوادي حجر ابن دغار في تاريخ حضرموت القديمة مكانة معروفة في التاريخ ليس هنا موضع ذكرها — وترد إلينا من منحدر وادي حضرموت الشرقي ويسمونه الغناء الحدري ومن غير هذه الأماكن

وجل الغناء الشعبي بدوي اللهجة ولكنه يكهرب الحضرمي ويبعث فيه السرور والنشوة ويوقظ فيه الحمية والأريحية والنجدة

لم أهتم بدراسة الموسيقى — الأنغام — الحضرمية عند ما كنت بحضرموت، ولو قصدت لما استطعت لأني أجهل علم الموسيقى، وإنما الذي يعنيني أن أقوله: هو أن أساتذة الأنغام كما سمعت عنهم: كثيراً ما يهيمون في الجبال والأودية يترقبون الوحي وهم في العزلة حتى يفتح الله عليهم أو تلهمهم آلهة الشعر ما تصبو إليه نفوسهم فيعودون إلى أهلهم وأقاربهم وهم علون بما اكتنفوه من آيات الفن الغنائي وقد توجوه بما تجيش به نفوسهم الشاعرة من الشعر ليتغنوا به وليذيعوه ما بين الشعب الحضرمي

وما هي إلا أيام قلائل حتى ينتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية ومن واد إلى آخر حتى تتغنى به حضرموت كلها، ولا يقتصر التغني به على عامة الشعب بل تزدان به مجالس الطبقة المتنورة ويتهافت سراة القوم وأرباب الأدب على القول فيه، والفرق بين القول والقول هو ما تنتجه القرائح المثقفة والتي لم يكن لها نصيب من التثقيف

شهدت حفلة زواج لأحد سراة العلويين وأدبائهم سنة ١٣٤٠ هـ — هو السيد العلامة الأديب المرحوم الحسن بن عبد الله السكاف العلوي المتوفى بتريم سنة ١٣٤٦ هـ وعائلة آل السكاف إحدى العائلات العلوية المشهورة بالثروة والغنى وحب الاصلاح — وفي الليلة الثالثة من حفلة الزواج كانت حفلة سمر حضرتها كما شهدها بعض أقرباء العروسين وغيرهم، وكان يقيم عند السيد السكاف مغن رخيم الصوت حسن الغناء، وبعد أن قدمت أنواع المرطبات بمختلف أجناسها استدعى السيد المذكور المغني واقترح عليه الغناء بأحد الأنغام الحضرمية وأخذ يملي عليه الأبيات تلو الأبيات وما انقطع عن قول الشعر إلا بعد أن استأذن للانصراف. ومما أريد أن أقوله للدلالة على الفوارق الأدبية والتي لم يكن لها حظ منه، أو كان لها حظ منه ولكنه قليل، أن أحد أقرباء العروسين غاب من المجلس هو وابن خاله. وفي أثناء غيبتهما قدمت أصناف المأكولات، وبعد عودتهما علم قريب العروسين بما لم يرزقه الحظ أن يناله فقال مخاطباً السيد السكاف:

يَا عمِّي حَسَنْ قُمْ هَاتْ قِسْمِي مِنْ عِنْدِ الحبائب قِدْهْ مَسْنِي لِي مَطْرُوحْ طَايِحْ وَسْطِ لِصْحَانْ صُبِّي يَا مَطَرْ وَالرَّعِدْ حُنَّانْ نخيس

فأجابه السري السقاف: رُوْعَكْ قَدْ بَدَرْ وَالوَشْرْ، من مِّيْ حَظَّكْ قَدْ قَصَرْ، سَايَرْتْ مَعْمِي بِنْ خَالَكْ عُمَرْ، له قلب حيران... صبي يا مطر

ألفاظ الأبيات: الأصحان بمعنى الأطباق. روعك نصيبك. الوشر نشارة الخشب والكلمة مشتقة من وشر ولم يراعوا القاعدة في التصريف

---

(١) نظم السيد ابن شهاب الأرجوزة وعمره ١٨ سنة وشرحها فيما بعد بكتاب سماه: الفتوحات. وقد أكبر المنظومة والشرح علماء حضرموت واليمن وانتدب أحد أشراف اليمن وعلمائها فوضع عليها حاشية

ويقال: إن السيد ضمنها علم الفرائض ولم يغادر منه شاردة أو واردة إلا أشار إليها. ومن العجب أن يتهيأ له نظمها في ليلة واحدة. وكما أذكر أن أبياتها نحو ٣٠٠ بيت

ونص صديقنا الأديب الشاعر صالح الحامد العلوي في مقال له: نشر عن ابن شهاب على أن المقترح لنظم الأرجوزة هو الامام العلامة كبير علماء حضرموت وعين أعيان مشايخ الصوفية السيد علي بن محمد ابن حسين الحبشي العلوي المتوفي بسيون يوم الاثنين ٢٠ / ٤ / ١٣٣٣: وأنا أروي قوله بتحفظ: لما بين ميلاد السيد ابن الجليلين من تقارب في المدة فقد وجد ابن شهاب عام ١٢٦٢ هـ والامام الحبشي في ٢٤ شوال سنة ١٢٥٩ هـ. وإن لم تخنى الذاكرة فان المقترح لنظم الأرجوزة هو شيخه المؤرخ النسابة مفتي حضرموت السيد عبد الرحمن بن محمد المشهور العلوي الموجود بتريم ١٢٥٠ هـ والمتوفى بها ليلة السبت ١٦ / ٢ / ١٣٢٠ هـ

وسقى المهاد معاهداً بسفوحها تختال جارات الصفا والمدعى
ديم أوانس صيدهن محرم ليظلّن فى تلك المحاجر رتّما
سود الذوائب والجلابب والعيــون القـاتلات متيا ومولما
من كل غانية بلطف حديثها ودلالها تذر الفؤادُ مقطما
يا ظبيـة البطحاء مهلاً إننى بهواك ذو كلف سقيما موجما
هل تسعفين فداً لحسنك مهجتى بالوصل ذا شغف بفيض الأدمعا
واقضى لبانتــه لديك وزحزحى
عن وجهك الحسن الصبيح البرقما
حاشا لحسنك أن يكون محرماً ولمثل وصلك أن يكون ممنما
تيهى فإنك فى الحسان مليكة يأتين نحو حماك شعثاً خضما
وتمايلى بحلى محاسنك التى لم تترك لسواك فيهـا مطمما
وتبخترى جذلاً فقد جاوزت من جمع المفاخر والمكارم أجمعا
قمر البطاح خليفة الحرمين مو لانا أبا شرف الشريف الأروعا

إلى آخر ما قال

ومن الظلم ألا أشـير إشارة إجمالية إلى أن ابن شهاب فى هذا المهد لا يزال يتوثب للصعود، ولكنه مكبل بقيود الصنعة الزائفة :

حى الحيا حياً به حلت سما ومنازلاً خطرت بهن وأربعا

أو سود الذوائب ... الذى مصدره التقليد المحض أو الإعجاب بما قال أبو الطيب :

من الجآذر فى زى الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

والفتى الناهض لا بد أن يتحرر يوماً ما وأن يصبح حراً طليقاً ليتغنى بالشعر كما توخى به العاطفه، لا كما تريده الصناعة الزائفة . وفى الفصل الذى يتضمن الـكلام على الأدوار التى اجتازت بها شاعرية شيخ حضرموت سترى ذلك

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فإن الأستاذ الـكبير عباس محمود العقاد ذكر عن أهل الجيل المـاضى بأنهم كانوا لا يرون الشعر إلا مغالبة لسانية ، ومساجلة كلامية ، ولباقة منطق ، وسرعة جواب وارتجال[1]

وكذلك قدر لابن شهاب أن يدخل فى شراك هذه الأحبولة الضيقة ، فإن الشريف عبد الله ارتاب فى أن تكون القصيدة لشاعر حضرموت ، وظن أنها مقولة على لسانه ؛ لا سيما وقد شايعه على هذا الرأى أحد ندمائه ، إذ أسر إليه فى المجلس بذلك فاقترح الشريف على شاعرنا أن يجيز البيت الآتى ليختبر بذلك قريحته :

صــفى الوقت لا أبناء الزنا ولمن يحسن ضرباً وغنى

ولا مناص لابن شهاب من أن يقيم الدليـل على شاعريته فيقول[1] :

وبنو الدهر كما قد مال ما لوا إلى من كان منهم ذا غنى
قل أن يوجد منهم منصف أنا قد جبت القرى والمدنا
وبلوت النـاس طراً فإذا أكثر النـاس أرقاء الهنا
جانبوا الصدق الذى من قاله بان إبريزاً إذا ما امتحنا
عزفت أنفسهم عن كل من كان من أهل الثانى والثنا
وغدوا لم يرفعوا رأساً بمن لهم الآداب كانت ديدنا

ذلك ذوق عصر نربأ بأنفسنا اليوم أن نقفو إثره أو نتبع خطواته . وما أدرى مقدار صحة الرواية التى نصت على الحـكاية المذكورة ، وإن كنت أعرف أنها دليل على انحطاط الذوق الأدبى والاجتماعى

يا ترى ماذا أريد أن أقول ؟ !

أظننى أريد أن أقول : إن للسيد ابن شهاب كثيراً من الشعر الوجدانى الذى ماجت به عاطفة الشباب ودفعته به خصوبة النفس اليقظة الشاعرة التى يستهويها الجمال ، والتغنى بمشاعر القلب والوجدان ، ولـكن ظروف البيئة المثقفة بالروح الصوفية هى التى حرمتنا الاستفادة من شعر الغناء والوجدان .

ومن ناحية أخرى فإن العزلة التى استهوت حضرموت والتى لا تزال تستهويها إلى اليوم وصيرتها بمعزل بعيد عن الأخذ بوسائل النهوض وتنمية المعارف والثقافة ، هى التى هيأت الفرصة

(١) ٨٩ من شعراء مصر

(١) ٢٤٧ من ديوانه

لأن ينكص ابن شهاب فى آخر عمره عن نشر آثاره التى تحمل سورة الصبا ومطارح الفتون والفتوة .

ولو كانت لنا إذذاك مجلة أدبية أو صحيفة سياسية أو اجتماعية لما أمكن شاعرنا أن يتنازل عن بنات أفكاره ؛ ولأنه لو فعل لاستطعنا الوصول إلى أشعاره بلا أقل كلفة ولا عناء .

ولا تزال ترن فى أذنى سورة القصيدة التى أنشدنى إياها حفيد الشاعر الأديب السيد حسن بن عمر الشاطرى العلوى وذلك منذ سنوات وأنا بجاوة .

نعم لا أزال أذكرها لاستحسانى إياها إذ ذاك وهى من الأشعار التى لم تثبت فى ديوانه [1]

وإذا كنت على ذكرى لإعجابى بالقصيدة فإنى لا أعرف الأسباب التى حالت بينى وطلب نسخة منها من صديقى الأديب لاحتفظ بها مع الذكرات التى جمعتها فى تاريخ حضرموت .

لا أريد أن أحجم عن أن أبين الغرض المقصود من ذلك أن السيد ابن شهاب كما ذكرت فى جملة التعريف به أكبر شخصية تزعمت النهضة الأدبية فى عصره الحضرمى . ومن كانت له هذه المكانة السامية جدير بأن تمطينا المعلومات الكافية عنه من كل الجهات ، وأن نتعرف إليه وهو فى سن الصبا كما نتعرف إليه وهو يافع وفتى وكهل لأن التعرف به هو التعرف إلى الأدب الحضرمى فى الصميم

ودراسة الأدب الحضرمى هى دراسة البيئة الحضرمية بما لها من مكانة علمية وأدبية وما فيها من عادات وأخلاق وميول ومشارب واصطلاحات وروح فكرية وصوفية

وهـذه كلها قيم تاريخية جديرة باعتبارها فى المكان الأول فى تاريخ حضرموت الأدبى ، والبيئة المحافظة تقيس الآداب والفنون بمعيار علم الأخلاق .

علی عبود العلوی

(١) فى افتتاحية الديوان ما نصه : « هذا ما أذن بنشره العلامة المصقع البليغ المتفنن السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوى الحسينى من شعره بعد عرضه عليه وتنقيحه لأكثره دون ما لم يأذن فيه أو استولت عليه أيدي الضياع من قبل فإن له شعراً كثيراً ذهب مع الأيام » صحيفة ١٠٧

من تراثنا الأدبي

ما ألف عن النساء

للأستاذ صلاح الدين المنجد

سمرنا ليلة عند صاحب لنا أديب، فنقضنا الأحاديث نقضاً، ثم ملنا إلى ذكر النساء وأخبارهن، والعرب وآرائها فيهن؛ وكان في المجلس متأدب فجّ العلم، أخذ اللغة عن الأعاجم وتخرّج على طرائقهم ونهج مناهجهم، ونحا في تفكيره منحى لا استقامة فيه. فذهب إلى استخفاف العرب بالنساء، وادعى أنهم لم يحفلوهن ولم يخصوهن بالتآليف، أو يفردوا لهن التصانيف؛ ودعم زعمه هذا بأقوال باردة لبعض المستشرقين

وقد أردت تتبّع هذا الزعم بالرد ... لتبيان طرافة جهل هذه الفئة، وضيق علمها، وأفَن رأيها، وسخف دعواها؛ واستقرأت تراث الإسلام والعرب الزاهر، فإذا فيه تآليف حِسان وتصانيف مِلاح خصّوها بالنساء، وجلّوا فيها عن أسرار خفيّات وأخبار مكنونات، ولم يدعوا أمراً أدركوا صلته بهن إلا تكلموا عليه وبحثوا فيه

وليت أن هذا التراث العربي كان قد سلم ... إذن لرأينا من أخبار النساء كل معجب مطرب ... ولوجدنا فيه سيرهن وأحاديثهن وأسرارهن منذ الجاهلية حتى عصور الانحطاط:

١ — فقد ألف عنهن في الجاهلية كتب كثيرة، منها: كتاب «الموءودات» لهشام بن محمد ... بن الكلبي النسابة الأخباري[١]، وكتاب «المعروفات من نساء قريش» له أيضاً، وكتاب «المردفات من قريش» ألفه علي بن محمد المدائني المحدث المتكلم[٢]، وكتاب «بغايا قريش في الجاهلية» ألفه الهيثم بن عدي الراوية الأديب الأخباري[٣] ... وغيرها

(١) مات سنة ٢٠٦ أنظر أخباره في فهرست ابن النديم. ومعجم الأدباء ج ١٩ (دار المأمون)

(٢) ولد سنة ١٣٥ مات سنة ٢٢٥. أنظر الفهرست ومعجم الأدباء ج ١٤

(٣) مات حوالى سنة ٢٠٨هـ. أنظر وفيات الأعيان ج ٢. ومعجم الأدباء ج ٤

٢ — ثم خصوا نساء النبي وأمهاته بالرضاع وبناته بعدد من الكتب لا يُحصى، منها: كتاب «أمهات النبي» للمدائني الذي مر ذكره، وكتاب «أزواج النبي» لمحمد بن عمر المعروف بابن القوطية، وكان نحوياً لغوياً أديباً شاعراً[١]، وكتاب «أزواج النبي» لابن الكلبي ... وآخرمثله للواقدي محمد بن عمرو المؤرخ الإخباري[٢]، ثم كتاب «بنات النبي وأزواجه»، لأحمد الرقي الراوية الحفظة الثقة ذي التآليف الكثيرة[٣]

٣ — وتكلموا على نساء المسلمين ممن أوتى الشهرة والمُلك في كتب شتى. منها كتاب «أمهات السبعة من قريش» لمحمد بن حبيب، وكان من علماء بغداد ومهرة مؤدبيها[٤] وكتاب «أمهات الخلفاء» لابن الكلبي. وكتاب «من تزوج من نساء الخلفاء» للمدائني ... وغيرها

٤ — ثم ألفوا في أخبار النساء كتباً كثيرة، تعرّضوا فيها إلى أحوالهن ومعايشهن وطبائعهن وما يعجبن به أو يصدفن عنه وما قيل فيهن وروى عنهن. فقد ألف الجاحظ كتاباً أفرده على النساء وما يتصل بهن، وألف الهيثم بن عدي «كتاب النساء»، وصنّف هارون بن علي المنجم الأديب الشاعر الراوية النديم[٥] كتابه في «أخبار النساء»، وألف المدائني كتاباً في «أخبار النساء» أيضاً. وكان للرقي كتاب في النساء، ولإبراهيم ابن القاسم الكاتب القيرواني الشاعر الرقيق[٦] كتاب «النساء» قال عنه ياقوت «إنه كبير». ولابن قتيبة العالم المؤرخ الأديب كتاب (النساء)[٧]، ولمحمد بن خلف بن المرزبان كتاب (النساء والغزل)[٨]

٥ — ثم ألفوا في الموضوعات الدقيقة الخاصة بهن، فأبانوا عن أحوالهن الدينية في كتب مختلفة منها كتاب (الحيض)

(١) مات سنة ٣٦٧. أنظر معجم الأدباء ج ١٨

(٢) أنظر وفيات الأعيان ج ٢

(٣) أنظر أخباره في الصفدي ـ ٢. ق٣ ـ معجم الأدباء ج ٤

(٤) مات سنة ٢٤٥. أنظر معجم الأدباء ج ١٨

(٥) توفى سنة ٢٨٨. أنظر بغية الوعاة للسيوطي ومعجم الأدباء ج١٨

(٦) مات سنة ٤٠٠. أنظر ياقوت الجزء الأول

(٧) الفهرست ص ٧٧

(٨) المصدر السابق ص ١٥٠

للقاسم بن سلام (أمام أهل عصره فى كل فن من العلم)(١) كما ذكر ياقوت. وكتاب (العدّة) و (الرضاع) و (الطلاق) و (الشغار)(٢) لمحمد بن إدريس الشافعى(٣)

٦ — وقد أفردوا للتزيّن والتجمّل والتحلّى كتباً كثيرة، ذلك لأنها أمور ذات شأن عند النساء؛ فألف أحمد بن سعد أبو الحسين، الكاتب الشاعر(٤) كتاب (الثياب والحلى)، وصنف أحمد بن فارس اللغوى(٥) كتاباً مثله. وجمع الرق أصول (الزينة) و (التزيّن) فى كتابين. وألف إسحاق بن إبرهيم الموصلى وغيره كتباً فى (الرقص والزفن). ولم يقنعوا بذلك بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فألف على بن محمد الطاهرى الميكالى الأديب الفاكه(٦) كتاب (نخر المشط على المرآة)

٧ — ورأوا أن الظرف أحلى خصائص المرأة، فألف محمد بن أحمد أبو الطيب النحوى(٧) وكان من أهل الأدب، كتاب (المتظرفات). وألف أحمد بن أبى طاهر أحد البلغاء الشعراء الرواة كتاباً مثله؛ وصنّف الرقّ كتاب: (المحبوبات والمكروهات). وكان للمفجّع الشاعر الشيبى(٨) كتاب: (عرائس المجالس). وكان هذا شاعراً حلواً. قال عنه الثعالبى: (شعره قليل ولكنه كثير الحلاوة). ثم ألفوا فيما يجب أن تكون عليه النساء، وشروط عشرتهن من الرفق والرحمة والقسوة والغلظة، ومن ذلك كتاب الشافعى فى (عشرة النساء)

٨ — ولم يغفلوا عن حياة النساء الخاصة فى دورهن وصلتهن بأزواجهن، فألف الشافعى كتاب (أخلاق الزوجين)، والمدائنى كتاب (من هجاها زوجها)، و (من شكت زوجها)، و (من ميّل عنها زوجها)، و (من قتل عنها زوجها)، و (من نهيت عن تزويج رجل فتزوجته). وألف خالد بن طليق الراوية النسابة كتاب (المتزوجات)(١)

٩ — ثم تطرفوا فألفوا فى علاقة الرجل الجنسية بزوجه... وهذه التآليف وافرة ولا جدوى فى التنويه بها

١٠ — ثم ذهبوا إلى أبعد من هذا فخصوا الشذوذ الجنسى عند المرأة بكتب وتآليف منها: كتاب (السحق)، وكتاب (البغاء)، وكتاب (برحان وحباحب)، وهو فى أخبار النساء والباه... ألفها محمد بن حسان النملى أحد الكتاب الأدباء فى عهد المتنصم(٢). ومنها كتاب (السحاقات والبغائين) لمحمد بن إسحق الصميرى أبو العنبس(٣) وكان أديباً مليحاً وهجاء لاذعاً

ولقد خصّ ابن النديم مسرداً لأسماء الكتب التى ألفت فى «الحبائب المتظرفات» ككتاب «ريحانة وقرنفل»، وكتاب «رقية وخديجة»، وكتاب «سكينة والرباب»، وكتاب «سلمى وسعاد»... وغيرها(٤)

١١ — وكما ألفوا فى أخبار السواقط وذوات الشذوذ، فقد ألفوا فى الشواعر والنابهات والمواقل؛ فهناك كتاب «أشعار النساء» لمحمد بن عمران المرزبانى(٥) الراوية الإخبارى، وكتاب «المواقل» لابن الكلبى... وغير ذلك

١٢ — ولقد عنوا أيضاً بأخبار القينات والجوارى والمغنيات والمسيمات والنوائح وأمهات الأولاد، فكتب الجاحظ كتاباً عن (القيان)، وألف اسحاق بن ابراهيم الموصلى كتاباً مثله. وكان للمدائنى كتاب فى (القينات)، وآخر فى (المغنيات)

---

(١) مات سنة ٢٢٤. أنظر ياقوت جـ ١٦، التذكرة جـ ٢، الوفيات جـ ١

(٢) جاء فى الصحاح: «الشغار بالكسر نكاح كان فى الجاهلية، وهو أن يقول الرجل لآخر: زوجنى ابنتك أو أختك على أن أزوجك ابنتى أو أختى... وفى الحديث (لا شغار فى الاسلام)...»

(٣) ولد سنة ١٥٠ مات سنة ٢٠٤

(٤) أنظر أخباره فى ياقوت جـ ٣

(٥) مات سنة ٣٦٩هـ. أنظر معجم الأدباء جـ ٤، نزهة الألباء

(٦) أنظر ياقوت جـ ١٤، وبغية الوعاة للسيوطى

(٧) مات سنة ٣٢٥. ياقوت جـ ١٧. نزهة الألباء

(٨) مات سنة ٣٢٧. ياقوت جـ ١٧

---

(١) فهرست ابن النديم ص ٩٥

(٢) الفهرست — معجم الأدباء جـ ١٨

(٣) مات سنة ٢٧٥. الفهرست — ياقوت جـ١٨

(٤) الفهرست ص ٣٠٧ (طبعة أوربا)

(٥) ولد سنة ٢٩٧ مات سنة ٣٨٤. أنظر ياقوت جـ ١٨

زخرفة المساجد

للأستاذ الشيخ سيد رجب

كان الدكتور زكى مبارك قد كتب فى بعض أعداد (الرسالة) القريبة كلة من « شجون حديثه » يدعو بها إلى زخرفة المساجد وتنميقها، ذاهباً إلى أن هذا مما يرفه عن النفس بعد مشاغل العمل، ويهدئ الخاطر، ويلهم الروح، ويرغب فى المساجد، ويعين على العبادة! وذاهلاً - وهو مؤلف (التصوف الإسلامى) وإن كنا لم نره - عن أن للعبادة الحق إنما تنبعث من نبع الإيمان فى القلب، ومن مثابة الهداية فى النفس، وتستلهم الروح لا المادة، وتتجه بحقيقتها المنوية إلى السماء لا إلى الأرض.

وهذه حقائق لا ينفع لإيجادها، ولا يغنى فى التسبب لها، أن نملأ الأرض - لا المساجد وحدها - بما يقترحه الدكتور من دُمى وتماثيل وتهاويل وتصاوير! بل إن كل أولئك لن يكون - إن وجد - إلا مشغلة للحس والوجدان والعقل، وصارفاً للنفس، فى موقفها الرهيب العظيم عما يجب أن تفرغ له من استغراق وتأمل ومناجاة. وهذا بعض ما من أجله صرحت النصوص الدينية بالنهى عن زخرفة المساجد وتنميقها.

ذهل الدكتور عن كل هذا، وأخذ - وهو الرجل الأزهرى رغم صبغته الجديدة - بما لا ينبغى أن يؤخذ مثله به، ولا أن يغلط فى حقيقته! فلما قام فقيه فى المسألة يرجعه إلى الصواب، وإرشاده للحق، استنكف ذلك وكبر عليه، وأخذته العزة بنفسه، فلم يرض لها أن تخطئ، ولم يرض لها - إن هى أخطأت - أن يردها عن الخطأ ناصح من المسلمين! والكلمة التى كتبت فى الرد عليه بغير توقيع، وفى مجلة لا شأن للوعظ والوعاظ بها؛ ولكن هذا لم يكن من مصلحة الدكتور أن يفكر فيه، وليس من شأنه أن يعرفه، فإنه عسى أن يفسد عليه ما قصد، وهو لا يقصد إلا الأزهر والأزهريين

وعلى هذه النية وهذا الأساس هاجم الدكتور الأزهر فى أشخاص الوعاظ، وأخمز ذكرى الرجل الفاضل والمؤمن البار المرحوم الشيخ عبد ربه مفتاح فى حديثه، وعرض نفسه وعلمه وثقافته وفكره الحر الطليق على شباب الأزهر عامة، وكتاب اللغة العربية خاصة، وسمى الدكتور ذلك كله « زخرفة المساجد »

بيد أن الدكتور قد عرض فى كلمته الأولى، فى « الرسالة » الصادرة بتاريخ (٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠) لما تعود هو وأمثاله أن يلوذوا بحصنه كلما حزبهم الأمر فى ميدان من ميادين الخلق والعلم والدين، وهو المناداة بحرية الفكر، واصطناع

وثالث فى (أخبار عزة الميلاء)، ورابع فى (قيان الحجاز)، وخامس فى (قيان مكة)[1]. وكان لأبى الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى كتاب فى (الإماء الشواعر)، وللمفجّع الشاعر الشيعى كتاب فى (أشعار الجوارى) ولأحمد بن مطرّف القاضى المصرى[2] كتاب فى (النوائح)

وألف الطبرى المحدث الفقيه[3] كتاب أمهات الأولاد، وألف الشافعى كتاب (عتق أمهات الأولاد)

١٣ - ونضيف إلى ذلك فصولاً كثيرة مبعثرة فى كتب الأدب خصت بالنساء وأخبارهن وصفاتهن وأحوالهن، كالعقد الفريد لابن عبد ربه، ونهاية الأرب للنويرى، وربيع الأبرار للزمخشرى، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وغير ذلك...

***

تلك جريدة بأسماء الكتب التى ألفت عن النساء وأحاط بها علمى؛ ولعل هناك كتباً كثيرة غفلت عنها فلم أذكرها ولم أعلم بها[1]

أفبعد ذلك كله - وإن قلّ - تقولون إن العرب لم يحفلوا بالنساء ولم يؤلفوا فى أخبارهن...؟

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(١) الفهرست ص ١٠٢ و ١٤٨

(٢) أنظر أخباره فى ياقوت

(٣) أنظر ياقوت. ووفيات الأعيان

(١) لعل من القراء من يذكر لنا كتباً أخرى سهونا عنها ليستفيد أولئك الناس

الصراخ والعويل على ما يحاول رجال الدين الرجعيون الجامدون من حجر على العقل، وتكبيل للرأي، ومناوأة لهذه الحرية !! وتلك ناحية لا نحب أن يخلو حديثنا من الكلام فيها، إحقاقاً للحق، وإرشاداً للصواب، وحرصاً على فائدة من تعوزه هذه الفائدة من القراء

وفي «الرسالة» التالية، الصادرة بتاريخ (٤ من رجب) عرض الدكتور لحضرة النائب المحترم مفتش الوعظ، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من أجل كلمة ألقاها في مجلس النواب، وهذه أيضاً لا نحب أن نتركها حتى نحاسب الدكتور عليها

حرية الفكر:

يظن بعض الناس أن الحرية هي التحلل من كل حرمة، والانطلاق من كل قيد، والخوض ما وسع المرء أن يخوض في كل ما يسنح لخاطره ويستهوي نفسه ! فإن بصّرهم ناصح بالصواب، أو ذاد عن حقه المعتدَى عليه ذو حق، هب أولئك الناس في وجهه، يدقون طبول الحرب للدفاع عن الحرية المهضومة والفكر المقيد، جاهلين أن حرية الناس — إلا من العبودية لخالقهم جل جلاله — هي أول عقيدة دعا إليها الرسل والأنبياء، وأول مبدأ قام من أجله ذلك الصراع الطويل الهائل في تاريخ البشرية بين الحق والباطل والسماء والأرض. وهل قدس كتاب أو شريعة أو أمة، ما قدس القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وسلف الإسلام الصالح، من هذه الحرية والدفاع عنها وتحقيقها في النفوس وتقريرها بين الناس ؟ ومَن أوْلى بأن يعرف هذا للكتاب والسنة وسلف الإسلام من أعلام الملة وجنود الدعوة ورجال الدين ؟ ؟

ولكنها الحرية بمعناها الحق، وفي هيئتها التي برأها الله على سنته من الوزن والتقدير والإحكام، ومراعاة العدل والحق في كل ما يبرأ وما يبدع، فلا يتجاوز خلق حده، ولا يخرج عن طوقه، ولا يطغى شيء على شيء في وجوده وكنهه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا

هذه الحرية الموزونة المقدرة التي لا تَجهل ولا تظلِم ولا تَطغى، هي الحرية التي يقرها ناموس الوجود ويعرفها العقل ويدعو إليها الدين؛ وهي الحرية التي يطلبها الناس ويهيمون بها ويتفانون في الدفاع عنها، لأنهم يرون فيها قوام وجودهم وصلاح حياتهم، وهو بعض ما من أجله أعزها الله ومكن لها تمكيناً، فجعلها فطرة النفس وصبغة الخلق وحقيقة التوحيد

فهل سمع بهذا أو عرفه من قبل أولئك الذين يكثرون من تصنع الغيرة على الحرية والدفاع عنها، ليبرروا بها كل مخزاة، ويدّرعوا بها عند كل طغيان ؟ !

هل علم هؤلاء — وهم لا يقفون الحرية إلا حيث تناوئ الدين والخلق وتقاليد الإسلام — أنهم بهذا يسيئون إليها ولا يحسنون، ويهدمونها من حيث لا يشعرون ؟ !

إن علماء الدين — يا قوم — لا يمكن أن يكونوا أعداء الحرية، لأن الحرية من صميم الدين، ولكنهم أعداء الفوضى وأول هادميها، وهذا واجبهم الذي لن يتخلوا عنه مهما لاقوا في سبيله من أذى واعتداء

الرياء الاجتماعي

طالما وصف الدكتور زكي مبارك مخالفيه في الرأي بهذا الوصف، وعلى الأخص أثناء مناقضتهم إياه في مسألة الأغنياء والفقراء، وأسباب الفقر وأسباب الغنى، مع أنهم كانوا يستمسكون بحق معروف لم نر لهم فيه مخالفاً من القراء، وكان هو يدافع عن شاذ من الرأي لم يوافقه عليه أحد؛ وقد ظل سادراً حتى أرسل إليه القراء يخيرونه بين اختفائه من الميدان الأدبي، أو سكوته عن هذا الباطل ! فهل يسمح الدكتور أن نستعير منه هذا الوصف لنصف به تصنعه الدفاع عن مصر والإشفاق عليها من تلك النصيحة المخلصة التي أسداها فضيلة الأستاذ الشيخ دراز مفتش الوعظ إلى الأمة والحكومة في مجلس النواب ؟!

إننا لا نجد وصفاً أصدق منه لموقفك هذا يا دكتور. أيكون الأستاذ دراز متحاملاً على مصر وطاعناً فيها، ومقرراً غير الحق حين يقول بلسان العالم المصلح والنائب الغيور، ناصحاً أمته داعياً إلى الإصلاح فيها: «أصبحت هذه البلاد لا هي بالبلاد

إلى الأستاذ الزيات

محنة التعليم الالزامى

للأستاذ على عبد الله

كانت كلمتك يا سيدى عن هؤلاء الجنود المجهولين ، نفحة من نفحاتك المباركة ، ونظرة من نظراتك الصادقة ، أنصفت بها هؤلاء المظلومين المكدودين ، وذكرتهم حين لم يذكرهم ذاكر ، وقلت فيهم قالة الحق فى وقت بخلت عليهم فيه الوزارة بما يسد الرمق ، وحرمهم الناس حتى من كلمة طيبة ونظرة رحيمة !

وأشهد لقد وجدوا فى كلامك عنهم ورأيك فيهم أحسن العزاء ؛ وإن لهم فيه لغنية إذا بخلت الوزارة بالجزاء . وقد يجد المظلوم برد الراحة فى كلام من يرثى له أو يعطف عليه

وأشد ما أدهشنى من كلمتك أنها كانت على إيجازها أصدق وأوفى ما كتب فى هذا الموضوع منذ عرفته البلاد إلى اليوم ؛ فصورت العيوب والعلل ، وفرقت بين الجوهر والعرض ، ووازنت بين الماهية والكيفية ، وحددت المسؤولية ووضعتها فى موضعها ؛ وعرفت من أمر هذا النوع من التعليم ما لم يعرفه القائمون بأمره ، ولو عرفوا بعض ما عرفت لوجدوا إلى الصواب رسولاً ، ولاتخذوا مع هذا الرسول سبيلاً ...

ومن ألطف ما رأيته أنى مررت بمعلم يقرأ على بعض إخوانه ما كتبته (الرسالة) عنهم ؛ ولم يكن يقرأ من المجلة ، وإنما كان يقرأ من ذاكرته ، إذ كان قد حفظ المقال من شدة كلفه به ؛ وما انتهى من القراءة حتى انصرف إلى إخوانه يقول لهم : والله لو لم أكن معلماً إلزامياً لوددت أن أكون ذلك المعلم اليوم ! ولو لم أكن مظلوماً لتمنيت أن أكون مظلوماً ، لأن ما كتبه صاحب الرسالة أشهى عندى وأحب إلىّ من أن تنصفنى الوزارة أو ينصفنى الناس . وإن من الخير لى أن أكون مع هؤلاء المجهولين الذين ذكرتهم الرسالة بالخير ، من أن أكون مع المترفين المجدودين الذين غمرتهم الحكومة بالمال ...

إنك يا سيدى لم تدع لأحد بعد مقالك أن يقول شيئاً ؛

الدينية ، ولا هى بالبلاد اللادينية ، ولا هى بالبلد الشرقى ، ولا هى بالبلد الغربى ؛ وذلك ظاهر فى كل مظاهرها ، ليس فى الزى فقط ، ولكن فى الثقافة والخلق وكل ما يتصل بحياتنا الخلقية والاجتماعية » — ولا يكون الدكتور مرائياً فى موقفه حين يرد هذا القول ويمارى فى الواقع الذى يشهد له ويؤيده ، ويقر الباطل والفساد فى الأمة ، متظاهراً بالدفاع المريب عنها ، والإشفاق المصطنع على سمعتها الدينية والأدبية ؟

فهل نأخذ من هـذا أن الدكتور يقر ذلك الاختلاف والتناقض فى ثقافة الأمة وقوميتها وأصول اجتماعها وتمدد شرائعها وأزيائها ، وغير هذا مما أجمع المتصدون للاصلاح الاجتماعى على أنه شر ما نكبت به البلاد من بلاء يجب دفعه والتخلص منه أم ماذا يريد ؟

***

أما بعد ، فإن من أبدى صفحته للحق هلك ، ولقد أراد الدكتور زكى مبارك أن يدفع عن نفسه ما حسبه من بعض الناس عدواناً عليه فلم يستطع هذا إلا بأن يعتدى هو على نفسه مرتين : مرة بمجافاته الحق ، وأخرى بمحاولته التنيل من جماعة كبيرة كريمة كعلماء الوعظ والإرشاد ؛ وما منهم إلا يملك ما يملك الدكتور من قلم ولسان . فما أكثر فى الناس من يسىء لنفسه حين يريد أن يحسن إليها ، أكان ذلك دفاعاً عن نفسه ، أم كان توريطاً لها فى مأزق آخر تكون فيه أكثر ملامة وأثقل حملاً وأشد حاجة للدفاع ؟ وهل صان الدكتور بذلك أنفه الذى قام حامياً له ، أم حقق عليه المثل العربى الحكيم : « رب حام لأنفه وهو جادعه » ؟

نسأل الله أن يجنبنا مزالق الأقلام ، وفتنة اللسان والجنان ، وأن يعصمنا من خطل الرأى وضلال الهوى ، وأن يهدينا بفضله سواء السبيل

السيد رجب
واعظ القاهرة

ولكني أحب أن أؤيد ما ذكرته عن هؤلاء الجنود المكافحين، بما يدل على أنك كنت ملهماً تستشف الحقائق من وراء أستار الغيب!!

فمن ذلك أن أولياء الأمر أسرفوا في غبن هؤلاء المعلمين فخفضوا من مرتبهم جنيهاً كاملاً، وأصبح المعلم الجديد يتقاضى ثلاثة جنيهات بدلاً من أربعة؛ ثم جعلوا العلاوة الدورية نصف جنيه كل ثلاث سنوات. وزعمت الوزارة بهذا أنها استجابت لرغباتهم وحسَّنت حالهم ووضعت لهم نظاماً للعلاوات: مع أن الجنيه الذي استقطع من رواتبهم الضئيلة أصبح لا ينال إلا بعد قضاء ست سنوات في الكفاح والشقاء...

وأنا أعرف معلمين قضوا في خدمة هذا التعليم أكثر من خمسة عشر عاما، ورافقوه وهو طفل في مهده وما تزال مرتباتهم أقل من خمسة جنيهات. وكان هؤلاء لا يعولون إلا أنفسهم؛ ولكنهم أصبحوا بعد هذه المدة الطويلة في عائلات يزيد أفراد كل منها على العشرة

أقول هذا وأنا أعلم أن في رجال التعليم الأولي من يبلغ مرتبه عشرة جنيهات وخمسة عشر وتسعة عشر، وعلة ذلك لا ترجع إلى تفاوت في الكفاية أو زيادة في العمل أو امتياز بالأقدمية؛ وإنما ترجع إلى ارتباك نظام التعليم الأولي وتعدد أنواعه ومدارسه وبرامجه ونظمه. فهناك مدارس أولية تابعة للوزارة، وأخرى تابعة لسكة الحديد، وثالثة تابعة لمجالس المديريات؛ ثم هناك شيء اسمه التعليم الأولي الراقي، والتعليم الأولي القديم، ومشروع التعليم الأولي، ثم التعليم الإلزامي، ومع أن الجميع يعلمون الأطفال ولا يزيد بعضهم على بعض شيئاً في العمل، فإن مرتباتهم تختلف كل الاختلاف حسب أسماء المدارس التي يعملون فيها. وقد أجازت الوزارة أخيراً أن ينتقل المعلمون من مدارسهم إلى المدارس الأخرى التي ليست من درجتها ولا من نوعها، واحتفظت لكل معلم بمرتبه ودرجته؛ وبذلك أصبح في المدرسة الواحدة من يتقاضى أربعة جنيهات ومن يتقاضى ثمانية. وقد يكون الأول أقدم من الثاني، كما قد يزيد مرتب المعلم على مرتب الرئيس

ومن غريب الأمور أن الوزارة قد أسرفت في التجني على رجال التعليم الإلزامي، فأصدرت منشوراً عاماً استبدلت فيه اسم المكاتب بالمدارس، وحرمت فيه على كل معلم أن يزعم لنفسه أنه مدرس في مدرسة، وإنما يجب أن يكون معلماً في مكتب عام. والمفهوم من هذا أنها استكثرت على هؤلاء البؤساء حتى الأسماء وتعمدت تحقيرهم، بينما هي أسلمت إليهم فلذات أكباد الأمة لإعداد الجيل الجديد منها

أما قبل تنفيذ قانون الإلزام، فقد شقي المعلمون بمحنة لم يسمع بمثلها الناس، وهي أن المعلمين الإلزاميين كانوا يكلفون بالمرور على بيوت الفلاحين وحقولهم في القرى، لمطاردة التلاميذ والقبض عليهم وإحضارهم إلى المدارس... فمن استطاع أن يملأ فصله فهو في أمن من العقوبة؛ أما الذي تنهاه كرامته عن التعرض لأذى الفلاحين وعدوانهم فهو مغضوب عليه، وقد يعرضه هذا للفصل من الخدمة

ومن بواعث الأسى أن أحد مديري الدقهلية الأسبقين دخل عليه معلم إلزامي في مظهر أنيق وسمات وسيمة، يرفع إليه ظلامة من الظلامات، فظنه الباشا واحداً من الكبراء في البلد، فأكرمه واحتفى به، ولكنه عرف في آخر الأمر أنه من الإلزاميين فشتمه وطرده، وأقسم أن يجرد جميع المعلمين من هذه الملابس التي يظهرون فيها بمظهر أهل النعمة؛ وبر الباشا بقسمه وساعده مفتشو المعارف اتقاء بطشه!

وصدرت الأوامر إلى جميع قوات البوليس والمباحث والخفر والعمد في البلاد بالتفتيش على المعلمين في المدارس والتبليغ عمن يوجد منهم غير متلبس بعمامة أو لابس قفطاناً...

ولم يكن للمفتشين من عمل في تلك الأيام إلا التفتيش على الجبب والقفاطين، لا على التربية والتعليم؛ وأصبح لبس العمامة عند الباشا من مؤهلات الترقية وزيادة المرتب، فلم يكن يرد لمعمم حاجة!

أقول هذا وأنا مشفق من أن أذكر كل ما أعرف، ولو شفيت نفسي بذكر الحقيقة المؤلمة، لأبكيت الناس وأضحكتهم، وأظهرت لهم أن التعليم الإلزامي إنما شقي بقادته وسادته، أولئك الذين يعيشون فيه وهم عنه غرباء، ويلقون المسئولية على المعلمين وهم منها أبرياء

«المنصورة» علي عبد الله

من رسائل الصيف

الدار المقدسة

[مهداة إلى الإنسان الشاعر . .]

للأستاذ عبد الحميد يونس

أخي إبراهيم ...

قرأتُ فيما قرأت أن هُناك مرآة مسحورة لا ترى فيها نفسك في لحظة من لحظات حاضرك أو فترة من فترات مستقبلك ، ولكنك تشاهد فيها شخصك في برهة واحدة تختارها من ماضيك

وأنا الآن أتمنى كالأطفال أن أحصل على هذه المرآة ، وأن أركب في هذا السبيل ما يركب أبطالُ الأساطير من أهوال ، فإن عبور البحر أهون من عبور الزمن إلى الوراء ، وملاقاة المجهول آلم من ملاقاة المعلوم ، واستعادة الذي كان معك ثم ضاع ، أشهى من حصولك على ما لا ترتقبه مما هو آت !...

ودعني أسائل نفسي وقد تحققت أمنية العثور على هذه المرآة « أي لحظة من لحظات ماضيّ أريد ؟ » ... هي هذه الومضة من ومضات صباي وقد ذهبت إلى بيتنا الجديد ، فلم أنظر إليه إلا بعد أن تمليت من البناء المواجه له ذي النوافذ الشبيهة بنوافذ المساجد ، وكنت أعلم أنه مقام صاحب النظرات والعبرات[1]

هذه الدار أيها الصديق أنفقت ما يقرب من خُمس قرن خلعتُ فيها صباي وسلختُ شبابي ؛ دخلتها تسابقني آمال عذاب ، وخرجت منها بذكريات أعذب !

وما أظنك نسيت البرج الذي كان يشبه أبراج المنائر حيث كنت أبشر بالطريقة الإشراقية التي تعلو على الناس وإن لم تنفصل عنهم ؛ وحيث خيَّلت إلى نفسي القدرة على مطاردة الأوهام والوساوس والكشف عن الترهات والأباطيل ؛ وحيث ظننتني أستطيع هداية الضالين ، ولو كانوا من القرصان والمهربين ؛

وحيث رأيتني أحارب إله الظلام ، فلا أكاد أصرعه حتى أراه يتسلل من الناحية الأخرى !

أو نسيت الغرفة الجرداء التي كنت أستقبل فيها وفود الفكر زمراً تعقبها زمر ، وأفراداً في إثر أفراد ، والتي كنت أمثل فيها خاشعاً بين يدي الأنبياء والأولياء والقديسين ؟ وكيف تنساها وقد وسمت جمهورية أفلاطون وطوبى مور وجزيرة مكدوجال ؟

أما المقصورة ، فأنت لا تذكرها ، لأنها كانت المكان الحرام الذي مارست فيه فن الحياة ، ومهدت للقصائد التي هجت بها نفسي ولم تنفرج عنها شفتاي أو يسجلها قلمي ... وجمت فيها بين الملائكة والشياطين ، ولقيت فيها « ليليت » وبناتها ، وتاييس في انطلاقها وفي توبتها ، وأفروديت في خلابتها ؛ وسمعت فيها أعذب اللثغات وأشهى الضحكات وأعمق الزفرات ... ! هنا ، أيها الصديق ، عجنت تجاربي ، واختزنت ذكرياتي ، وحبست أوهامي ... ! هنا أديت فرائض الشاعر وشعائر الحكيم !

***

والخزانة الصغيرة التي كانت وكأنها « باب جحا » لا تكاد تطلب منها شيئاً حتى تراه ؟ ... الخزانة الصغيرة النفيسة التي لم يكن خادمها موكلا بغذاء البطون ، وإنما كان مختصاً بغذاء العقول والقلوب ؟ ... لقد أخذتها مني ، فبطل السحر ، وبقيت الصحائف والرفوف !

وأنت ألم تجلس معي تحت هذا المصباح ؟ أنا موجود وأنت موجود ، والمصباح كذلك موجود ؛ ولكن « التغير » صيرني شخصاً آخر ، وحولك إلى غيرك ، ونور المصباح في عيوننا الآن ليس كما كان بالأمس !

واليوم أقتلع من هذه الدار المقدسة اقتلاعاً ، فكم رددت جدرانها صلواتي ، وسمعت ابتهالاتي ، ووعت حكمتي ، وحفظت قصائدي ! وكم انشقت سقوفها عن طيف ، وانفرجت نوافذها عن خيال ، وانفتحت أبوابها حتى لعدو !

ألا قل لهذه الدار المقدسة ألا تبوح بأسرار وجداني إلا لصاحب وجدان ، وألا تطلع أحداً على خزائن تجاربي إلا إذا كان من زمرة الإشراقيين ، وألا تفتح كنوز ذكرياتي إلا لمن يصلح للقيام على البرج والمقصورة والمحراب !

---

(١) يقصد بيت المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي .



الشيخ عباس

أويت إلى مرقدي حين الظهيرة فلمحت العدد الأخير من مجلة الرسالة فأخذته آنس بمطالعة عناوينه إلى أن يُريح عليّ النوم راحتي وجمامي ، ووقع بصري على حديث أخي الدكتور زكي ذي الشجون والأشجان فسارعت إلى الفصل الذي عنوانه : (الشيخ عباس الجمل) أرجو أن أطلع فيه على بشرى أو فكاهة أو دعابة فقرأت ما روّعني وأفزعني وعزب بسروري وراحتي وأقض مضجعي

قرأت قول الدكتور وهو ينعى على أدباء مصر تجافيهم : (فجع الشيخ عباس الجمل بغرق ابنه طاهر وهو يقارع أمواج البحر في دمياط فما تحركت يراعة أديب لمواساته في ذلك الرزء الجليل)

(وبترت ساق الشيخ عباس منذ أسابيع فما بكى شاعر ولا تأثر كاتب لمصيبة الأديب) الخ

فأما المصيبة الأولى فقد عرفتها من قبل وراعني نبؤها وأنا في اسطنبول منذ أربع سنين ؛ وأما المصيبة الأخيرة فما عرفت نبأها الفاجع إلا من كلام الدكتور زكي وقد وقعت من نفسي وقلبي موقعاً مفظعاً أليماً

وإذا بي أجلس واجماً تسير بي الفكر في عالم من مصائب الماضي والحاضر ، وتسرح بيَ الفكر فيما أصاب الرجال الكبار من أحداث وأرزاء ، فذكرت فيما ذكرت عقبة بن أبي وقاص حينما قطعت رجله في الموقعة يوم صفين فلبث يقاتل مرتجزاً :

الفحل يحمى شوكه معقولاً

وتذكرت هذا الفارس العربي عبد الله بن شبرة الجُرَشيّ وكانت يده قطعت في موقعة فلطاس إحدى وقائع الروم فقال يرثيها في أبيات أولها :

ويل أم جار غداة الروح فارقني ... أهْوِنْ عليّ به إذ بان فانقطعا

يمنى يديّ غدت مني مفارقة ... لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا

ثم إذا بي أسير إلى خزانة كتبي ألتمس عروة بن الزبير لأقرأ ما قال حين أصيب برجله ، وأتأسى بما عزاه به أصحابه ، وذكرت قول أحد المعزين له : (يا أبا محمد والله ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقى الله لنا أكثرك : عقلك وعلمك) وطلبت بقية هذا الكلام في مظانه فلم أهتد إليه ، ولكني وجدت في ابن خلكان خبر عروة حين صبر لقطع رجله لا يتحرك ولا يتأوه ووجدت فيه هذه الكلمة :

وكان أحسن من عزاه إبرهيم بن محمد بن طلحة فقال له : « والله ما بك حاجة إلى المشي ولا أرب في السعي ، وقد تقدمك عضو من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنة ؛ وقد أبقى الله لنا منك ما كنا إليه فقراء ، وعنه غير أغنياء ، من علمك ورأيك . نفعك الله وإيانا به . والله ولي ثوابك ، والضمين بحسابك »

يا أخانا العباس ! إن لك في أرزاء الرجال وخطوب الزمان أسوة وعبرة ؛ وإن لك من دينك وعقلك وعلمك ما يغنيك أن تساق إليك الأُسى والمواعظ . وإنا لنعرفك كبيراً أبياً عزيزاً ، وإنا لنرجو أن نجدك اليوم أكبر وآبي وأعز من ألا قل لهذه الدار المقدسة إنني ما غادرتها قالياً ، ولا تركتها راضياً ، وإنني كلما مررت بها سأقف وأستوقف ، وكلما ذكرتها سأبكي وأستبكي ؛ وإنني — لولا التجمل — لفعلت ساعة الرحيل ما يفعل العجائز في الأضرحة ، فقبلت المقابض والجدران !

وهكذا تراني أيها الأخ إذا حصلت على تلك المرآة : لا أقنع من ماضي بلحظة واحدة ، وإنما أريده كله لا أنتقص منه حتى ساعات الألم !

بل وهكذا تراني إذا حصلت على هذه المرآة وتحققت رغبتي فرأيت ماضي كله لا أقنع بالمشاهدة والنظر ، فالفرق بينك وبين صورتك كبير ، والفرق بين تذكرك لماضيك وبين أن تعيش ماضيك أكبر وأكبر ...

« طبق الأصل » « حمدي »

عبد الحميد يونس

أن يضعضعك خطب ، أو يبهظك رزء . وإنك لتعلم أن الحر الأبي يسير في هذه الحياة صابراً على لأوائها ، مستكبراً على أرزائها مشى الجمل الثقال بالحمل الثقيل لا يرزح ولا يرزم ولا يعيا ولا يقف دون غايته

يا أخانا العباس ! إن لك من دينك وعقلك وعلمك وأدبك ما يؤنسك بالصبر والرضا ، ويوطن نفسك للحادثة وإن جلت ، والخطب وإن فدح ، وإن لك من إبائك وشممك ما يربأ بك أن تضيق بالرزء الشديد ، وتطأطئ للنازلة الجليلة

والله يجمل هذا آخر محنك ، ونهاية بلائك ويبقيك لآلك وإخوانك موفور العقل والعلم، معافى في نفسك وبدنك وأسرتك

وأما الأخ الدكتور زكي فقد صدق حين نعى على الإخوان تقاطعهم وغفلة بعضهم عن بعض . وإنَّا يا أخي زكي — ولا تؤاخذني بهذا التشبيه — لنسير من مشاغل هذه الحياة جليلها وسفسافها في مثل طريق الساقية أو مدار الساقية : حركة دائبة في مضطرَب متشابه ضيق ، لو سارت فيه الدابة أبد الدهر ما خرجت منه وإن توهمت - وهي محجوبة العينين - أنها أبعدت السير ، وتناءى ما بين مبدئها ومنتهاها . ولست أدري إلام تشغلنا الشواغل عما هو أعظم من التقاء أخ بأخ ، وتفقد صديق صديقاً ، ومذاكرة أديب مثله ؛ وفي أولئك من قضاء الحق ومتعة النفس وربح العقل وفقه الأمور ، ما لا نجده وإن حرصنا في هذه الحركة العاجلة التي كادت تسلب الإنسان عقله وإرادته .

عبد الوهاب عزام

حول اللهجات العامية

يقصد علماء اللغة بكلمة « اللهجات المصرية » ما يشمل اللهجات العربية المستخدمة في السودان ، فليس السودان جزءاً لا يتجزأ من مصر في نظر علماء الجغرافيا وأساطين القانون وعدول السياسة فحسب ، بل هو كذلك أيضاً في نظر علماء اللغات

ولذلك لم أر ضرورة لأن أخصه بالذكر في مقالي عن طوائف اللهجات العامية ، بل رأيت أن عطفه على مصر ، كما يفعل الغربيون ، قد يسيء إلى الحقيقة فيشعر بأنه بلد آخر منفصل عنها

فليفرخ إذن روع الأستاذ أحمد المبارك عيسى [1] . فما كان لمثلي ، وأنا من مواليد السودان ومن أكثر الناس إيماناً بوحدة وادي النيل ، أن أغفل أمر هذا البلد الأمين

وإنا لنرتقب بذاهب الصبر أن تواتي الظروف حضرة الأستاذ المبارك فيتحفنا على صفحات « الرسالة » بما وعد به من مختارات في الأدب القومي للسودان ، ويزيدنا بذلك يقيناً أن اللهجات المصرية كافة من أقرب اللهجات العامية إلى العربية الفصحى .

* * *

أشكر للأستاذ جودة مرعشلي بدمشق تصحيحه لما ورد سهواً في مقالي بصدد أسماء بعض القرى السورية التي لا يزال أهلها يتكلمون بلهجة منحدرة من الآرامية الغربية .

علي عبد الواحد وافي

هل نستفيد مما نقرأ ؟

المعروف في اللغة أن فعولا بمعنى فاعل مما يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وأن ما يستوي فيه المذكر والمؤنث لا يجمع جمع مذكر سالماً مثل : صبور وفخور وغيور

وأذكر أني قرأت مقالاً منذ شهور للكاتب الكبير الأستاذ العقاد بالرسالة جمع فيه غيوراً على غيورين ، وهو خطأ كما ترى .

ثم حدث أن الأستاذ السباعي بيومي جمع فخوراً على فخورين في مقال له بالعدد ٤٠١ من الرسالة رداً على الدكتور زكي مبارك فتنبه أحد القراء لهذه الغلطة وأشار إليها في الرسالة بعد ذلك .

وحدث أيضاً أن الأديب طه الساكت كتب منذ أسابيع كلمة مسهبة في الرسالة عن هذه القاعدة ، وذكر الشواهد لها ، ودعا الكتاب إلى مراعاتها

وأخيراً رأينا الأستاذ العقاد يقول في العدد ٤١١ من الرسالة : « فإن الشك في وجود المفاداة يغلق المسالك بين ألسنة المصلحين الغيورين »

(١) أنظر كلمته بعدد ٤٢٢ ص ٩٩٣

ولا شك أن إصرار الأستاذ الكبير العقاد على هذا الجمع لهذه الكلمة — وهو عضو مجمعنا اللغوي — يدلنا على أن له رأياً فيها يخالف ما أجمع عليه نحاة البصرة

فهل يتفضل الأستاذ ببيان رأيه على صفحات الرسالة فنكون من الشاكرين ؟

« بني سويف »

محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية

فتوى واستفتاء

١ — تحت هذا العنوان في عدد « الرسالة » ٣١٨ أفتيت واستفتيت الأدباء والباحثين في بعض المباحث الأدبية ، وعرضت لهم ما بين روايتي الوسيط والفصل من التناقض في ترجمة ابن خلكان ، ثم استبان لي صواب رواية الوسيط ومنشأ خطأ الفصل على الرغم من أني كنت أستبعد أن يقع مؤلفوه الأماثل في مثل هذا الخطأ ؛ وإلى القراء البيان :

قال ابن خلكان نفسه : ومولدي يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة إربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين رحمهما الله[1]

وقال هو نفسه في ترجمة أبي الفضل أحمد بن كمال الدين : وتولى التدريس بمدرسة الملك المعظم بعد والدي رحمه الله تعالى ، وكان وصوله إليها من الموصل في أوائل شوال سنة عشرة وستمائة ؛ وكانت وفاة الوالد ليلة الإثنين الثاني والعشرين من شعبان من السنة المذكورة ، وكنت أحضر درسه وأنا صغير ، وما سمعت أحداً يلقي الدروس مثله[2]

ومن هذا يظهر جلياً أنه أخذ مبادئ العلم عن شيخه أبي الفضل ، لا عن والده كما قال أصحاب الفصل ، ومنشأ الخطأ أنهم رجعوا[3] ضمير « درسه » إلى الوالد وغفلوا عن المترجم له وحق لمن استفتى ثم أفتى بعد عمر[4] أن يقول : بيدي لا بيد عمرو

(١) ترجمة المؤلف للعلامة نصر الهوريني ص ٤٢١ جـ ٢ وفيات

(٢) ص ٣٢ جـ ١ وفيات

(٣) رجعه أنصح من أرجعه ولم تأت في التنزيل كذلك

(٤) زمن طويل

٢ — نقرأ في كتب السيرة أن للنبي صلى الله عليه وسلم خصائص ؛ ونطالع في كتب الأدب كثيراً من خصائص اللغة العربية ؛ ونسمع بكتاب الخصائص لابن جني — وإن لم يره إلا قليل — فما مفرد هذا الجمع ؟ أمرضتني كتب اللغة ، ولم تسعفني ، ثم رأيت أقرب الموارد يقول : « والخاصة الذي تخصه لنفسك ... والخاصيّة نسبة إلى الخاصة ج خاصيات وخصائص على غير القياس » ، وفي أثناء مطالعتي في « المواهب اللدنية » ألفيته يقول : « وقد ذكر بعض العلماء أنه صلى الله عليه وسلم أوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصيَّة[1] » فما قول السيد وحيد ؛ والأستاذ الكبير (ا . ع) ؟

٣ — نبه كثير من الباحثين على[2] خطأ الافتعال من قَطَفَ وعابوا « المقتطف » علماً على المجلة المعروفة ؛ فما رأيهم في قصيدة النابغة الشيباني الفائيّة وفيها يقول :

تَسبي القلوب بوجه لا كفاء له ... كالبدر تم جمالاً حين ينتصف
تحت الخمار لها جَثْل تُمكّفه ... مثل المثاكيل[3] سودا حين تقتطف[4]

وبعد فكثير من مفردات اللغة العربية حائر بين المخطئين والمصوّبين ، فهل يضع المجمع اللغوي الملكي حداً لهذه الفوضى ؟

طه محمد الساكت
المدرس بمعهد القاهرة

حول استدراك في غزوة حنين

ذكر الأستاذ الفاضل سعيد الأفغاني في العدد (٤٢٢) من مجلة الرسالة الغراء استدراكاً على مقالي الأول في غزوة حنين ؛ وقد جاء فيه أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي سئل عن الخوارج : « أكفار هم » ؟ فقال : « من الكفر فروا » . قيل : « أمنافقون هم » ؟ فقال : « إن المنافقين لا يذكرون الله

(١) ص ٢٠٦ جـ ٥ شرح للمواهب الزرقاني

(٢) نبه على الشيء وتنبه ا . هـ مختار وإنما نبهت عليها لأن مصحح الرسالة استبدل بعلى إلى كلمتي السابقة

(٣) المثكول النخلة كالعنقود المكرم

(٤) ديوان نابغة بني شيبان ص ١٢٦ ط دار الكتب

إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً » . قيل : « فما هم » ؟ قال : « فتنة غشيتهم »

وكنت أحب أن يذكر الأستاذ سعيد الأفغانى المصدر الذى نسب فيه ذلك إلى على بن أبى طالب ، لأن هذا قد يفيد فى تحقيق نسبة ذلك القول إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرت ، أو إلى على بن أبى طالب كما ذكر هو ؛ فأما المصدر الذى نقلت عنه نسبة ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فهو كتاب إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبية ، وهو تأليف نور الدين على بن إبراهيم بن أحمد الحلبي القاهرى الشافعى المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ . وقد جاء ذلك فى الجزء الثالث (ص ١٤٠) من النسخة المطبوعة بمطبعة محمد على صبيح بمصر

ولا شك أن صدور ذلك القول من النبى صلى الله عليه وسلم لا يمنع صدوره بعده من على بن أبى طالب ، والقطع بالصواب فى مثل ذلك كما قطع الأستاذ سعيد الأفغانى لا ضرورة إليه ، لأن صدوره محتمل من النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وليس هناك ما يمنع صحة نسبته إليه على سبيل القطع

عبد المتعال الصعيدى

القصر العينى

فى العدد (٤١٨) من الرسالة الغراء ذكر الأستاذ طه الساكت خطأ الكثيرين فى تسمية ابن قيم الجوزية ثم قال : « وقريب من هذا الخطأ — وإن تكلف بعض الكتاب تصحيحه — قولهم (القصر العينى) ، وإنما هو قصر العينى بالإضافة إلى الأمير الشهابى أحمد بن عبد الرحيم بن البدر العينى نسبة إلى (عين تاب) على ثلاث مراحل من حلب » اهـ .

والواقع أننى كتبت فى العام الماضى عن هذا التصحيح فى مجلتى « منبر الشرق » و « الصباح » الغراوين ، ولكنى عدتُ فوجدت أن قولهم « القصر العينى » صحيح لا غبار عليه ولا تكلف فيه ، وذلك لأن قولنا « قصر العينى » من باب الإضافة ، وقولنا « القصر العينى » من باب النسب ، والصلة وثيقة بين الإضافة والنسب ، حتى لقد كتب الشيخ (الأشمونى) فى كتابه عنوانَ (النسب) ثم قال : « هذا هو الأعرف فى ترجمة هذا الباب ، ويُسمى أيضاً باب الإضافة ، وقد سمّاه سيبويه بالاسمين ... » .

فقل « قصر العينى » وقل « القصر العينى » ، ولا تضيّق على نفسك ، فلغة الضاد أفسح مجالاً وأرحب صدراً ، ولنا فى لهجاتها ورواياتها وأقوال أهليها متسع ومستراد !

« البجلات » أحمد الشرباصى



مفترق الطـــــرق

للأستاذ نجيب محفوظ

زماننا عاثر الحظ أو نحن به عاثرو الحظ . فأينما تول وجهك تسمع تنهد شكوى أو تر تجهم كدر . ولن تعدم قائلاً يقول إن هـذا الزمان أضيق رزقاً وأنضب حياء وأفسد خلقاً وأقل سعادة وأنساً من الزمان الماضى ، ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين ، وأننا نتحامل عليه لا لعيب اختص به دون غيره من الأزمنة ، ولـكن تبرماً بقساوة الحياة وفراراً من جفاف الواقع ولياذاً بظلام الماضى الذى يشبه ظلام المستقبل بعث أمل وطب آلام . ومهما يكن من أمر هذا السخط فما من شك فى أن جلال أفندى رغيب كان على حق فى شكواه التى يرددها بغير انقطاع . كان مراجع حسابات فى وزارة المعارف وفى السادسة والأربعين من عمره ، قد وسع الله له فى إحدى زينتى الحياة الدنيا وقتر عليه فى الأخرى ، فرزق ستة أبناء يصمون ما بين حجر الأم والسنة الرابعة الثانوية . وأما مرتبه فسبعة عشر جنيهاً ، فناء بأثقال العيش ومتاعب الحياة ، وقصمت ظهره المصاريف المدرسية . وكان كثيراً ما يقول متبرماً حانقاً كلما آن موعد قسط أو اقترب موسم من المواسم : « رجل مثلى — أب لستة ذكور ، اثنين فى المدرسة الثانوية ، واثنين فى المدرسة الإبتدائية ، وواحد فى المدرسة الأولية ، وواحد فى البيت ، غير زوجة وأم ، ولا تراه الوزارة حقيقاً بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف ... فتى إذاً تجوز المجانية ! ... ولمن تجوز ؟ » . وكان كغالبية أهل هذا البلد يائساً من العدالة قانطاً من الخير ، يعتقد اعتقاداً كالإيمان الراسخ أنهما لا يصيبان إلا المجدودين من ذوى القربى والأصهار والأصدقاء ، فرأى أن ليس أمامه سوى الـكفاح الشاق ، ومماناة الشدة عاماً بعد عام ، والتصبر على مرارة الحياة

ولبث على حاله لا يطمع فى رجاء حتى تولى وزارة المعارف معالى حامد بك شامل ، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد ، وجذبت عينيه صورته المنشورة فى الصحف ، فومض فى أفقه المظلم بارق أمل جديد ، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به ، وقال لنفسه : « ينبغى أن أقابله ... وأن أشكو إليه ... هل يرفض رجائى ؟ ... لا أظن » ، وقصد يوماً إلى سكرتير الوزير وكتب حاجته على رقعة ليوصلها إليه ، فمضى الشاب بها وتركه فى حالة من القلق والإشفاق لا توصف ؛ وعاد مسرعاً يقول لجلال افندى : « معالى الباشا مشغول جداً اليوم فلتتفضل بالمجىء ضحى الغد » ، فعاد إلى حجرته مسرعاً واجداً متألماً ، وكان ألف طوال مدة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهار المديرين ، ولـكن انشغال الوزير آلمه أكثر من أى شىء ، وجعل يتساءل : ترى هل يذكرنى ؟ ... ولم يكن شىء ليصده عن هذا الباب ، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلاً حتى قال له الشاب : « تفضل » ، فقام مسرعاً خافق الفؤاد ، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف ، ونظر إلى صدر المكان فرأى معالى الباشا كما يدعونه يطالع فى شىء بين يديه ، فلما أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومد له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال :

— أهو أنت ! ... لقد اشتبه على الإسم ... أو ما تزال حياً ؟

فسر جلال للدعابة الأخيرة واطمأنت نفسه وقال بخضوع وإجلال :

— نعم يا صاحب المعالى ما أزال أكابد حظى فى الدنيا

فنظر إليه نظرة استفهام ، ومال إلى الوراء قليلاً وهو يتمتم : « أفندم » ، فقال جلال :

— يا معالى الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيام . لى أسرة كبيرة وأبناء كثيرون ومرتبى صغير ، ولست طامعاً فى علاوة أو درجة ، ولـكنى أضرع إلى معاليكم أن تعفى ابنين لى فى مدرسة شبرا الثانوية من المصروفات

— الاثنين معاً ؟ !

— نعم يا معالي الوزير ؛ إن آمالي مشرقة بمعاليكم ، لقد جاورت معاليكم عهداً طويلاً من سني الدراسة ، وينبغي لمن حظي بذاك الجوار أن يربو حظه على حظوظ الناس جميعاً ، خاصة إذا علمتم أن لي غيرهما أربعة آخرين ، فقال له الوزير باقتضاب :

— قدم لي مذكرة

وكان الرجل محتاطاً لذلك ، فأخرج من جيبه التماساً أعده لهذه الساعة وقدمه إلى الوزير ، فجرت عليه عيناه بسرعة ، ثم أمسك قلمه ووقع عليه بكلمة ، وقال للرجل :

— اطمئن ...

فانحنى جلال أفندي تحية ، فتكرم الآخر بمد يده له ، ثم غادر الحجرة مغتبطاً مثلج الصدر . ولكنه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة ، حتى قال لنفسه متعجباً : لم يتغير « حامد شامل » ألبتة ، ولا تقدم به العمر ، وكأنه في ريعان الشباب ... هل يصدق إنسان أن كلينا ابن خمس وأربعين ؟ ... تالله إني لأبدو لعين الناظر في سن والده ! . . . وقضى وقته يفكر في الوزير ، في حاضره وماضيه ، وفي صلته القديمة به ... ثم اضطجع بعد تناول غدائه في بيته ، وأشعل سيجارة ، واستسلم إلى أحلام الذكريات ... فألوت به إلى عهود الماضي المنطوي ... إلى الوقت الذي كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ « حامد شامل » على مقعد واحد ، لا يكاد يفرق بينهما فارق جوهري ... وكان التلميذ « حامد شامل » يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار شعره ، وبملازمة عبد متهدم طويل يرتدي بذلة سوداء له في الطريق إلى المدرسة وفي طريق العودة ، يتبعه كالظل إذا مشى ، ويطمئن إلى مكانه إلى جانب حوذي العربة إذا ركب ، ولذلك كان يحلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه « حامد أغا » ، على أنه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتد بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأنهما أخوا حظ واحد ... والأعجب من هذا أنهما جريا معاً وراء تلك العاطفة — التي تهيج الجد والنشاط ولا تتناسى عن المرارة والألم — منذ أول عهد تجاورهما ؛ وكانا في كفاحهما كأنهما يعيشان منفردين في فصل واحد ، فكانت الغاية التي يهدف إليها كل منهما أن يتفوق على قرينه بغير مبالاة الآخرين . وعلى الرغم من استمانة حامد بالدروس الخصوصية يتلقاها على أنبه مدرسي المدرسة ، فقد كانت الغلبة بينهما سجالاً ، وكانت كفة جلال الراجحة ... وكانا في ملعب كرة القدم مثلهما في الفصل لا يريحان ولا يستريحان . وكان كلاهما يزعم أنه أحق من صاحبه بقلب الدفاع . فكان مدرس الألعاب يعاقب بينهما فيه ، حتى بدا تفوق جلال للجميع فاستأثر به ، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة . يا لله ! . . . كانا يستبقان كأنما الدنيا تضيق عنهما معاً ، وكأنما كان مستقبلهما ينذر بحرب مستعرة تشمل ميادينها الجد واللعب والإدارة والوزارة .

فكيف شالت كفته بعد ذلك ؟ ! كيف سقط من عيون الغربال وضاع في الحثالة ؟ . . . كيف صار رفيقا المقعد الواحد أحدهما وزيراً والآخر ضارعاً بالحسابات ينوء صدره بآلام الحاضر ووساوس المستقبل !

ثم تمتم قائلاً وهو يطفئ سيجارته ويرمي بالعقب إلى المنفضة : تالله ما يستحق أن يكون وزيراً ولا وكيل وزارة ولا شيئاً من هذا ، وخشي أن يكون متجنياً عليه أو مائلاً مع عواطفه القديمة فتساءل باهتمام وجد كأنما يزمع كتابة ترجمة له كيف اعتلى كرسي الوزارة ؟ ... لقد انفصلا في نهاية الدراسة الثانوية فاضطر هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة في فمه ، إلى الانقطاع عن الدراسة والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق ، ثم حصل على الليسانس ، وكان أبوه محمد باشا شامل وزيراً للحقانية فعينه سكرتيراً له في الدرجة الخامسة ، فكانت القفزة الموفقة الأولى . وقرأ بعد ذلك في الصحف أنه اختير لبعثة في فرنسا لا يعلم كم أمضى بها ولا ما حصل عليه فيها من الإجازات ، ولكن كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات من كريمة المرحوم حامد باشا حامد الذي تولى الوزارة مرات ، فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديراً لإدارة التشريع ، وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتى علم بتوليته مديرية أسوان ، ثم بترقيته محافظاً للقنال بعد ذلك بقليل ، ثم باختياره وزيراً للمعارف ، ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلات لا تكف عن الإشادة بمواهبه القانونية ومقدرته الإدارية

ومشروعاته عن إصلاح التعليم ، وكاد جلال افندى أن يصدق ما يقال لولا أنه قرأ مقالاً عن تفوق الوزير فى عهد الدراسة — فى العلم والرياضة البدنية معاً — وكيف أن مفتشاً من مفتشى الوزارة تنبأ له على أثر مناقشته بأنه سيكون يوماً وزيراً ، فأغرق الرجل فى الضحك ، وقال ساخراً : « الآن فهمت سر المواهب القانونية والإدارية ! »

وتنهد جلال افندى رغيب وتمتم قائلاً : « دنيا ! » ، وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلة يقلب صفحاتها المصورة ؛ والظاهر أن ذكريات الوزير كانت تأبى أن تفارقه ، فرأى صفحة من المجلة مخصصة للوزير تتوسطها صورة كبيرة ؛ ما إن بصر بها حتى صاح فى دهشة وغرابة : «رباه هذه صورة فصلنا القديم» وألقى عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف فى الصف الأول وراء المدرسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصور فى ابتسام وثقة ؛ وكان الوزير كالعابس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة ، فضحك جلال طويلاً وذكر قصة الذبابة ، وقد كانت فى الأصل من نصيبه هو وتنبه لها والمصور يهم بالتقاط الصورة فهشها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطت عليه ؛ وقد أحس أسفاً لذبه الذبابة فلعلها كانت ذبابة الحظ السعيد سكنت إلى وجه الوزير المدخر ؛ ورنا إلى الصورة بعينين حالتين فهامت روحه فى آفاق الماضى حتى شعر بأن روح الطفولة تحل فيه مرة أخرى ، وأن شعيرات قذاله البيضاء تسود ، وتجاعيد جبينه وما حول فه تلين ، ونظرة عينيه تصفو وترق ، ويمسح على ما فيها من هم وبلبال ... أحس قلبه يخفق مرة أخرى بالأمل والطمأنينة ، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل : ترى كيف صار هؤلاء جميعاً ؟ ... وعاين أول صورة فى الصف الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب ، وذكر اسمه (عبد الملك حنا) ، وذكر كيف كانت تنتابه نوبات الصرع فى الفصل حتى انقطع عن المدرسة ... أما بقية الصف فتذكر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصايرهم ؛ وعرف فى الصف الثانى وجهاً كأنما تركه بالأمس ؛ كان ابناً لأحد كبار المستشارين فكان يتمتع لذلك بنفوذ وسوة فيحييه الناظر إذا بصر به ، ويلاطفه المدرسون ، وقد علم فيما بعد أنه عين وكيلاً للنيابة وترقى قاضياً ، ولعله يتأثر الآن خطى أبيه الكبير . أما من يليه من الصغار فجلهم من المغمورين وبعضهم معه فى المعارف وهو يعرفهم حق المعرفة ، وأما آخر هذا الصف — الذى ينظر إلى المصور بتحد غريب ويشبك ذراعيه على صدره — فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم ، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرسين . ومن العجيب أنه احترف فيما بعد « البلطجة » ، وطاف بالسجن مرات . وألقى نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئاً إلا الدكتور المعروف (حنا عبد السيد) ، وإلا هذا الذى يتوسط الصف الأول ، كان أنبغ التلاميذ جميعاً ، وكان أول الابتدائية ثم أول البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير الهمة سخى المواهب ، ولكنه أصيب أول عهده بها بداء الصدر فاضطر إلى ترك المدرسة والكف عن التحصيل ، واشتغل بعد ذلك بمامين كاتباً فى الصحة ... فلا يقل حظه شذوذاً عن حظ الوزير نفسه

نال كل منهم نصيبه وخضع لحكم حظه وسعيه . كانت تجمع بينهم جدران واحدة ، لا يكاد يتميز وراءها إنسان إلا بجده وخلقه ، ففرقت بينهم الحياة ، فرفعت وخفضت ، وأحيت وأماتت ، وأذاقت الفقر ، ومتعت بكرسى الوزارة ، وكل بما قسم له غير راض ولا قانع ...

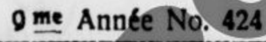
ونظر جلال أفندى عند ذاك فى الساعة فوجدها تدور فى الرابعة ، فعلم أن موعد الصغار آن واقترب ، وأنهم عما قليل يملأون البيت حياة وقلبه نوراً ، فرمى بالمجلة بعيداً وطرد من عقله الوسواس ليستقبلهم أجل استقبال ، وقال لنفسه متعزياً :

— من الخطأ أن يفكر الإنسان فى شئون الناس ما دام هذا لا يورث إلا الضيق ، وحسبى أن معاليه قال لى : «اطمئن»

نجيب محفوظ

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)




9 me Année No. 424

Lundi - 18 - 8 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة التاسعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ رجب سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٩٤١ » العــدد ٤٢٤

الفهــــرس

صفحة

تحت ظلال الفاتورة

من أحاديث القهوة

- ١ -

المنصورة بلد الطبيعة الساحرة والطبع الشاعر هى الآن مَصيف ومَهجر

هى مصيف ، لأن موقعها على ملتقى النهر الصغير والنهر الكبير جعلها كرأس البر على ملتقى النيل والبحر ؛ والفرق بينهما أن (رأس البر) رملة من رمال الصحراء ، والمنصورة روضة من رياض الجنة . وهى مهجر ، لأن بعدها عن الأهداف الحربية والثغور البحرية صرف عنها لحَظات المنيرين والغِيَر

ومن جلة المصطافين بها والمهاجرين إليها تتألف فى القهَوات والندَوات جماعاتٌ فى الأدب والسياسة والتجارة واللهو والفضول ترتسم من مجموعها صورة مقاربة لمجتمعنا العام تصلح للتأمل والدرس . ومن جعل الله ديدنه وصفَ ما يبصر ، وتسجيل ما يسمع ، لا يملك أن يشاهد هذا العالم الصغير دون أن يعرض بعض أحاديثه للبحث ، وبعض حوادثه للنظر

تتفيأ القهوة التى نجلس فيها الدوح الباسق والشجر الوريف بين شارع الكرنيش وشاطئ النيل . فهى تنظر عن اليمين فترى فى الطريق أخلاطاً من الأجناس أكثرها الإغريق ، وأنماطاً من اللباس أغربها القلانس ، وصوَراً من الحسن أبدعها

الأوانس، وهَوَلاً من القبح أشنعها المتسولون والباعة. وتنظر عن الشمال فترى فى النهر زوارق العبور تنساب حابسة فى شُرُعها طلق الهواء، أو ضاربة بمجاديفها وجه الماء، وشباكَ الصيد يطرحها الصيادون فى المكان الضحل فلا تصيب إلا صغار الحصى أو شِهار السمك، وخواطفَ الطير تحلق فوق الصائد فتخطف ما نال أو تأخذ ما ترك

يندو إلى هذه القهوة طوائف من الناس ألّفت بينهم وحدة الحرفة أو مصافقة المودة أو مبادلة المنفعة: فهنا المعلمون قد تكوفوا على بعض المناضد القاصية، يجادلون بالصوت الجهير فى الحرب والأخبار، أو يخوضون فى حديث المفتشين والنظار، ومذباتهم التقليدية تتحرك آليًا فى أيديهم فتذود الغبار عن الثياب والذباب عن الأوجه. وهناك التجار يتعاقب على مناضدهم الوسطى شُكول من السماسرة والمنتجين فيقيمون فى حدودهم الضيقة سوقاً تصطرع فيها طباع المتسوقين من الإغراء والإباء، والصخب والغضب، والمشادة والملاينة، والمسارّة والمسارة، ثم ينجلى الأمر عن صفقة من الشعير أو الرز. وهنالك فى أقصى الشرق مناضد بُسطت عليها أغطية من القماش المفوّف وقد أحاط بها عقائل من حسان الروم يفسرهن شباب منهن، قد أنقذهم من نار الحرب سلام النيل، وأفرغ عليهم وضاءةَ النعيم خير مصر، وضمن لهم عيش الأمان سماحة المصريين؛ فهم يتساقون أقداح الزبيب، ويتناقلون أحاديث الأنس، ويتطارحون أضاحيك الحياة، كأن شعبهم لم يُذل ووطنهم لم يُحتل ومَلكهم لم يشرّد!

وفى خلال هذه الزُّمر ترى شاعراً وسْنان الحركة نشوان الحس يقرأ على صفحة النهر الوردية أشعار الطبيعة، أو طارئاً من ضخام القرويين لم يطق صبراً على عبث النسيم فنام على كرسيه أثقل النوم، وغط فى نومه أقبح الغطيط. وعلى حفافى القهوة ومماشيها تتهافت أفناء من ذباب البشر يقولون إنهم من رعايا وزارة الشئون الاجتماعية، فيهم المتوه المخيف، والمريض المُعدى، والشيخ المتهدم، والشمطاء الخاوية، والناشئ الضرير، وكلهم يسأل بالحافِ، أو يبيع بسماجة، أو يحتال فى سخف!

وتحت الدوحة الكبرى وفى مكان لا يكاد يتغير تجلس جماعتنا طَرَفَىْ النهار وزُلفاً من الليل. وهذه الجماعة من تأليف الحب وحده. تقارَب فى أفرادها الذوق والرأى والهوى فتمكنت بينهم الألفة، واستكمل بعضهم من بعض ما نقص من عوامل أنسه ومباهج نفسه. وأحسبنى لا أعدو الحق إذا قلت إنها كثيراً ما تُشقق الحديث فى شجون من الأدب والتاريخ، وفنون من السياسة والنقد، وشؤون من التجديد والإصلاح، إذا هى سُجلت فى الرسالة على إيحاء الخاطر وإملاء الطبع كانت نوعاً من الإنتاج الأدبى له قيمته وأثره. ولعلنى أستطيع أن أنقل إليك الحين بعد الحين مقطعات من هذه الأحاديث تجد فيها لوناً طريفاً من ألوان المعرفة

واسطة عقد الجماعة رجلان كل منهما طراز وحده فى مناقلة الحديث ومبادهة الرأى: أحدهما الأستاذ توحيد السلحدار، والآخر الأستاذ الزناتى. أما صديقنا السلحدار فكنز مدفون لم يشأ الله أن يُعرف: نفس كريمة لا تخلق إلا فى ملك، وحس مرهف لا يكون إلا لشاعر، وذوق سليم لا يوهب إلا لفنان، ورأى حصيف لا يختمر إلا فى حكيم، وثقافة شاملة لا تجتمع إلا لعالم، وخبرة واسعة لا تتهيأ إلا لأريب. درس الأستاذ توحيد وقرأ، ثم رحل وشاهد، ثم ذاق وجرب، ثم عايش النبلاء بحكم نشأته، ولابس الدهماء بحكم وظيفته، وأعانه على الإفادة من كل أولئك أسرة غنية ويد سخية ونفس طُلَعَة. فأنت لا تكاد تبدأ الحديث أو تلقى السؤال فى ناحية من نواحى الأدب أو الفن أو السياسة أو التاريخ أو الطب أو الطعام أو الشراب أو اللهو إلا بادرك بقول تظنه لصوابه تفكير يومه، أو بادهك بجواب تحسبه لسداده اطّلاعَ ساعته

وأما أخونا الزناتى فمُحَدِّثٌ حسن المنطق عذب الأسلوب جامع لطائفة مختارة من أخبار العلماء والأدباء ورجال الحكم، شهدها بنفسه، أو سمعها من أبيه، أو قرأها فى مخطوط من نوادره؛ ومن هذه الأخبار ما لا تجده فى كتاب ولا تسمعه من أحد. وللزناتى تطلّع الجبرتى وملاحظته، فهو يستقصى أطراف الخبر، ويستوعب أحوال الأشخاص، ثم يخزن ذلك فى حافظة واعية ليؤديه متى شاء لا يند منه حرف ولا وصف. ولقد اقترح أحد الأصدقاء على الأستاذ توحيد أن يُطرف قراء (الرسالة) بأحاديث «من جانب الذاكرة»، وعلى الأستاذ الزناتى أن يمتعهم بنوادر «من فيض الحافظة»؛ فعسى أن ينزل الأستاذان على مقترح الصديق، وأن يَعجَلا إلى القراء الظِّماء بهذا الرحيق!

(للتصورة) احمد حسن الزيات

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

فرصة ذهبية لاختبار العزائم والأخلاق — قسم اللغة العربية بكلية الآداب — إدفع الثمن يا جاحد — الموت في الرؤيا حياة — إلى جيراني أوجه القول — تحية عراقية .

فرصة . . .

هي فرصة ذهبية لاختبار العزائم والأخلاق فاغتنموها قبل أن تفوت

وما تلك الفرصة ؟ هي فرصة التنبه الشديد الذي يلازم النفوس والعقول عند اشتداد المكاره والحرجات . ولا موجب للتذكير بما نعاني في هذه الأيام « البيض » ، وإنما الواجب هو التذكير بالقيمة الصحيحة لأمثال هذه الأيام في تاريخ المشاعر والقلوب ، فهي عندي أصلح الأيام للنضال في الميادين الأدبية والاجتماعية — بغض النظر عن الميادين السياسية — والرجل الذي يتبلد في هذه الأيام بحيث يقضي أوقاته في مضغ الحديث المعاد ، هو رجل لا يصلح لشيء ، وهو بمسلكه البليد يشهد على نفسه بفتور العزيمة وضعف الأخلاق

حين يأتي النذير بأن العالم معرض للدمار والهلاك ـ لا قدر الله ولا سمح ! ـ ينقسم الناس إلى فريقين : فريق يسارع إلى انتهاب اللذات ليأخذ منها حظه قبل أن يموت ، وفريق يستبق إلى الأعمال الجدية ليواجه الموت وهو على أشرف حال ، فإلى أي الفريقين تميلون ، يا قرائي ؟

كونوا كيف شئتم ، ولكن المهم هو تذكيركم بأن الساعة من هذه الأيام قد تساوي سنوات بفضل ما فيها من التنبه والتيقظ ، وبفضل ما تصنع في إرهاف عزائمنا وقلوبنا ، وتلك فرص لا تسنح في كل يوم ، فاغتنموها قبل أن تفوت ، ثم اغتنموها قبل أن تفوت

لو كنا في حرب لدعوت نفسي ودعوتكم إلى الاستشهاد في سبيل الوطن الغالي ، ولكن مصر لم تقرر إعلان الحرب ، فلم يبق إلا أن ننتفع بالفرصة التي أتيحت بسبب تعرضنا لأخطار الحرب ، بلا بغي منا ولا عدوان

والفرصة هي تلك اليقظة العقلية والروحية ، اليقظة التي تحت جميع النفوات ، وصيرت أعصابنا في وقدة الجمر الوهاج

لا يجوز أن تنقضي هذه الأيام بلا محصول نفيس يرفع رءوسنا بين كرام الشعوب ، ولا يجوز أن نقف موقف المنتظرين لما تسفر عنه الأعداء الآتية ، وهي أعداء مجهولة الألوان ، ولا ينتظرها إلا أهل الغفلة والخمود

لا يجوز أن تقل أوقات العمل عن عشر ساعات من كل يوم، بالنسبة للضعفاء. أما الأقوياء فمن واجبهم أن ينتفعوا بجميع الأوقات ولو قهرتهم الغارات على اللجوء إلى ظلمات السراديب

هي فرصة للتخلص من الأمراض النفسية والروحية ، فاغتنموها قبل أن تفوت

هل سمعتم بجهنم — أعاذكم الله من حرجهنم — ؟

يقيم الآثم مدة في جهنم عقاباً على ما اجترح من السيئات ، ولو أصغيت لوحي النزعة الصوفية لقلت : يقيم الآثم مدة في جهنم ليتطهر من الأوضار النفسية والروحية بحيث يصلح لمجاورة سكان الفردوس

ومكاره الحرب ليست عقاباً على آثام جناها المصريون — وهم نماذج في الرفق والتسامح — وإنما هي محن مطهِّرة سنقطف ثمارها بعد حين

والإقبال على الأعمال بشغف وشوق هو الذي يقصر أمد ذلك الامتحان ، فأقيموا الدليل على الصلاحية لحياة البر والمجد ، ليرفع الله عنكم آصار الخوف ، وليُذهب عنكم أوجال هذه الأيام

إن اللاهين واللاعبين لا يستحقون الحياة ، فمن حق الأقدار أن تسلب منهم هذه النعمة حين تشاء

أما الذين يبذلون حياتهم في الأعمال الجدية صابرين مُصابرين ، فلهم في الحياة شرف الكرامة ، ولهم بعد الموت شرف الخلود

فى كلية الآداب

قيل وقيل إن قسم اللغة العربية بكلية الآداب صائر إلى الزوال ، مع أنه كان النواة لدوحة الجامعة المصرية ؛ فما أغربَ ما تصنع التقلبات بمصاير الشخصيات المنوية فى هذه البلاد !

ويقال إن فكرة توحيد المعاهد التى تصوغ مدرسى اللغة العربية هى السبب فى إلغاء ذلك القسم ، فما تستطيع الدولة أن تحتمل الإنفاق على ثلاثة معاهد توصل إلى غرض واحد !

هو ذلك ، يا مَن أقمتم البرهان على تبحركم فى علم الاقتصاد ! ولكن هل يوجد فى الدنيا كلية آداب ليس بها قسم خاص بآداب اللغة القومية ؟

لكم أن تنشئوا معهداً يتخرج فيه مدرسو اللغة العربية على المنهاج الذى تَنشُدون ... أما اعتداؤكم على قسم اللغة العربية بكلية الآداب فهو جناية لا يُقدم على اقترافها رجل حصيف

وقد سمعت — وما أشنع هذا الذى سمعت — أن أساتذة كلية الآداب رحبوا بذلك الاقتراح اللطيف ! « يشهد بذلك خطاب تلقيته من أحد المتخرجين فى كلية الآداب ، وإن كان بغير إمضاء ، كأن صاحبه يخاف عواقب الجهر بالرأى الصحيح »

أما بعد فهذه تجربة جديدة لأساتذة كلية الآداب ، فإن ألغى ذلك القسم وهم شهود فسيعرف القلم كيف يجزيهم أحسن الجزاء

كان يقال : إن من عيوب عهد الاحتلال أنه لم يرِ التعليم إلا وسيلة للتوظف ، فكانت مكيدة لقتل المواهب المصرية

فأين أذناك ، لأسمعك صوت الحق ، يا عهد الاستقلال ؟ !

وأين اليمين ؟ أين اليمين ؟ إى والله ، فقد أقسمنا على الوفاء لكلية الآداب ، وهى اليوم بلا ناصر ولا معين ، فأين أبناؤها الأوفياء ؟ كان الظن أن لا يلغى كرسى واحد من كراسى تلك الكلية ، ولو كان خاصاً بدرس لغة الزنوج ، فكيف يلغى قسم اللغة العربية ؟ تلك أمور يحار فيها اللبيب

ادفع الثمن يا جاهد !

هذا مدرس « من شرق الأردن » كتب إلىّ خطاباً بلغت كلماته ١٥٠٠ بالتقريب ، وإنما قدرت الكلمات لسبب سيعرفه بعد لحظات

وذنبى عند هذا الدرس أننى لم أفِ بما وعدت من بسط القول عن الحياة الأدبية فى العراق ، فقد سكتُّ بعد بضع مقالات ... فهل غاب عنه أن الدنيا وقعت فيها أكدار صرفت القلم عما اعتزم المضىّ فيه ، وأن من تلك الأكدار انقطاع البريد بين مصر والعراق ؟؟ وما قيمة الكتابة عن الأدب العراقى ، وكان أهله فى شغل بما عرف الناس ، إلا ذلك المدرس الأديب ؟!

انتظر ، فقد نصل ما انقطع بعد أسابيع

ثم أرجع إلى بيت القصيد فأقول : إن هذا المدرس أتعب نفسه بمناوشتى وهو يعتقد بأنى لن أنشر خطابه فى « الرسالة » ولن أرد عليه ، فمن أين عرف أنى أبخل عليه بالنشر والردّ ، إن اتسعت صفحات « الرسالة » لما يريد ؟

لو فكر قليلاً لعرف أن من الخير للحياة الأدبية أن يكون فيها كاتب يثير بعض القراء إلى الحد الذى يسمح بأن ينفعل فيكتب مئات الكلمات باهتمام واحتفال : فكتابة ١٥٠٠ كلمة فى ساعة غضب توقظ العقل والذوق ، وتروض الكاتب على الاصطلاء بنار الفكر والوجدان

وما قال أحد إنه يبغضنى ويحقد علىّ إلا اطمأننت إلى تبليغ رسالتى الأدبية ، فأنا أخلق الفرص خلقاً لإذكاء نار الغضب والحقد فى القلوب التى طال عهدها بالنفوة والخمود ... وهذا الغاضب الحاقد لا يعرف كيف انشرح صدرى لما صدر عن قلمه من غضب وحقد ، فذلك شاهدٌ جديد على أن جهودى الأدبية لن تضيع

إن هذا المدرس لا يعرف كيف خدمته حين أثرت عواطفه النافية ، وحين قهرته على الفزع إلى القلم والمداد والقرطاس ، وحين فرضت عليه أن يقول ما يقول بألفاظ خِفاف أو ثِقال !

ادفع الثمن ، يا جاهد ، ليرفع الله عنك إصر الجحود !

الموت فى الرؤيا حياة

الأديب الفاضل السيد « كاشف » الذى كتب إلينا من

« أهالي النيل » رأى فى منامه حلماً أزعجه أشد الإزعاج ، وكيف لا ينزعج وقد رأى أن أعظم أحبابه الروحيين قد مات ؟

وأجيب بأن الموت فى الرؤيا حياة ، فله أن يطمئن كل الاطمئنان

والطريف فى هذه الرؤيا أن الميت هو صاحب « النثر الفنى » وأن السيدة التى كانت تبكى خلف نعشه اسمها « ليلى » وهذا الأديب يرجونى أن أفسر له هذا الحلم المزعج ليذهب خوفه وأساه ...

ومن غريب المصادفات أن أقرأ فى جريدة الدستور قبل أن أتسلم خطاب هذا الأديب بلحظة قصيرة كلمة مترجمة عن جندى يابانى ، وهى :

« حلمت ليلة أمس أنى فقدت أبى ، وقد أخبرنى أحد رفاقى أن هذا الحلم فأل حسن »

والقول بأن الموت فى الرؤيا حياة هو قول ابن سيرين ، فاتفاقه مع العقيدة اليابانية دليل على ارتباط الأمم الشرقية بعضها ببعض فى كثير من المعانى والآراء

أما بكاء « ليلى » خلف نعشى فهو شاهد على اعتزازى بمودة أهل العراق فهم أنصارى الأوفياء . أعزنى الله بودهم الوثيق

الى جيرانى أوجه القول

لا تظنوا أن أعماركم سيضيع منها شىء إن أقلقتم من الجزع وقت النذير بغارة جوية ، ولا تتوهموا أن الأعداء عندهم من الذخائر ما يكفى لتقويض جميع البيوت ، ولا يخطر فى بالكم أن جنود السوء ستقصدكم بالذات ، فهم يجهلون مواقع أرواحكم بالنهار وبالليل ، ولعلهم يجهلون مواقع أرواحهم من وثبات القضاء

تلك كروب ستنجلى وستنكشف بعد أمد قصير أو طويل ، ثم تعود الحياة إلى ما كانت عليه من الرخاء والصفاء

العاقبة للصابرين ، يا جيرانى ، فلا تزعجونى بما أسمع من أمارات القلق والخوف ، وقد أويتُ إلى سرداب البيت لأدوّن بعض الملاحظات فى أمان من اعتراض البوليس لا من اعتراض الموت ، فالأعمار بيد الله يتصرف فيها كيف شاء

أكتب هذا وأنتم فى هرج ومرج ، كأن صفارة الإنذار هى النفخ فى الصور ، وكأن الدنيا على شفا الزوال !

يكفى أن تراعوا نصائح وزارة الوقاية ، تأدُّباً مع النظام ، لا تخوُّفاً من الموت ، ولتصنع الأقدار بعد ذلك ما تريد

لن يترك أحد من عمره دقيقة واحدة ، ولو عرّض صدره لقواذف الموت ، فما جَزَعكم من كوارث لن تُصيب إلا من كُتِبتْ عليه فى سريرة الوجود ؟

ثِقوا ، يا جيرانى بأنكم باقون ، إلى أن تنتهى الحرب بسلام ، وثقوا بأن الاستهانة بالخطوب تفلّ أنياب الخطوب ، واعرفوا جيداً أن الحياة لا توهَب إلا لمن تَصغُر فى نفسه قيمة الموت

ما هذا ؟ تلك قهقهة عنيفة يصل دويها إلى أذنىّ ، وهى الأمارة على أنكم أصحّاء النفوس والقلوب . جزاكم الوطن عن تلك القهقهة أحسن الجزاء

تحية عراقية

فى صدر جريدة « الأحوال » البغدادية تحية موجّهة إلى مجلة « الرسالة » بإمضاء « رفيع » ، وقد وُضعت التحية فى إطار جميل يصور بعض مواقع السحر فى بغداد

فاذا نصنع فى رد تلك التحية ؟

نقدّم إلى قرائنا الأخبار الآتية :

أولاً — لم ألاحظ فيما يصل من جرائد ومجلات أمثال « الأحوال ، والأخبار ، والكرخ ، والحضارة ، وصوت الحق » أن العراق كان وقع فى كروب بسبب الحرب ؛ فالعراق هو هو ، وروحُه المعنوى لا يزال قويًّا سليماً ، واهتمام هذه الصحف بشؤون التعليم والاقتصاد لم ينله أى ضعف ، فهى لا تلتفت إلى الماضى لتجترّ ما وقع فيه من لأواء ، وإنما توجّه جهودها إلى المستقبل بعزيمة ومَضاء ، وكذلك يفعل عقلاء الرجال

ثانياً — وزارة الدفاع الوطنى هناك تنشر الإعلانات من وقت إلى وقت فى دعوة الشبان إلى الإقبال على الجندية ، وهى ترغّبهم بشتى الوسائل كأن تقول إن مرتباتهم فى أيام الدراسة

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٢ —

العلوم المساعدة

المقبل على دراسة التاريخ وكتابته ينبغي أن يعلم من أول الأمر أنه مقبل على عمل شاق يتطلب الجهد والتضحية والصبر الطويل، وأنه تلزمه دراسة عميقة وتحصيل جدى . وأنواع المعرفة الإنسانية متداخلة متشابكة فيما بينها؛ ولا يمكن أن يُدرس علم معين مستقلاً بذاته عن باقى العلوم الأخرى . فمثلاً لا يستطيع الإنسان أن يفهم القرآن بدون أن يعرف اللغة العربية وعلم القراآت والفقه ... وكذلك دراسة التاريخ متصلة بأنواع مختلفة من المعرفة الإنسانية . وكاتب التاريخ ينبغي أن يكون واسع الثقافة عارفاً بالعلوم المتصلة مباشرة بدراسة وكتابة التاريخ . ويمكن أن تسمى أنواع المعرفة اللازمة للمؤرخ بالعلوم المساعدة؛ وهى تختلف باختلاف العصر الذى يرغب الكتابة عنه؛ فالعلوم المساعدة اللازمة لمن يكتب فى تاريخ اليونان القديم تختلف عن العلوم المساعدة الضرورية لمن يكتب فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية

ومعرفة اللغات من أهم العلوم المساعدة الضرورية للراغب فى كتابة التاريخ . فلا بد أولاً من معرفة اللغة الأصلية للعصر التاريخى المرغوب الكتابة عنه، لأن التراجم التى تكفى للثقافة العامة لا تكفى المؤرخ للتغلغل فى تاريخ ذلك العصر . فالراغب فى الكتابة عن تاريخ اليونان القديم لا بد له من معرفة اللغة اليونانية القديمة . ومن يرغب الكتابة عن تاريخ العصور الوسطى فى الغرب يلزمه معرفة اللغة اللاتينية التى كانت سائدة فى تلك العصور . والراغب فى الكتابة عن تاريخ إيطاليا من الضرورى له أن يعرف اللغة الإيطالية . وأهمية اللغات لا تكون بدرجة واحدة بالنسبة للعصور التاريخية المختلفة . فمثلاً الراغب فى الكتابة عن الثورة الفرنسية ليس من الضرورى له أن يعرف اللاتينية، ومن الأفضل أن يصرف جهده لتعلم لغة أوربية حديثة؛ ولكن اللاتينية ضرورية لمن يرغب فى دراسة تاريخ الكنيسة حتى فى العصر الحديث . وعلى كل فإنه كلما تعددت اللغات القديمة أو الحديثة التى يلم بها الباحث فى التاريخ اتسع أمامه أفق البحث والاستقصاء . فأى باحث فى التاريخ ينبغي أن يعرف اللغات الأصلية، قديمة أو حديثة، المتعلقة بالعصر الذى يدرسه كالهيرغليفية واليونانية واللاتينية والعبرية والعربية والفارسية والتركية لكى يستطيع أن يرجع بنفسه إلى الأصول التاريخية الأولى؛ وكذلك ينبغي أن يعرف اللغات الأوربية الحديثة الشائعة الاستعمال وهى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وإن قصر فى معرفة بعضها ينبغي أن يسد هذا النقص، وذلك لكى يقرأ المؤلفات التى تصدر بهذه اللغات عن العصر الذى يدرسه . وقد تبدو مسألة تعلم اللغات عسيرة، وقد تجعل أشجع الناس يتردد فى الإقدام عليها؛ ولكنها دراسة لا بد منها لمن يرغب جدياً فى كتابة التاريخ . ويحسن أن يبدأ الراغب فى كتابة

بمختلف المدارس العسكرية ستكون على هذا الوصف أو ذاك، وأن حالتهم بعد التخرج ستكون على هذه القاعدة أو تلك، وأعظم وسيلة فى نظر وزارة الدفاع هى تذكير أولئك الشبان بأنهم سيكونون حماة البلاد . وهذا روح يدل على الشعور بقوة الذاتية، ويبشر بمستقبل مرموق، حقق الله الآمال!

ثالثاً — فى جميع النشرات التى تصدرها وزارة الدفاع نجد العبارة الآتية :

« يجب أن يكون الطالب عراقياً، وليس متجنساً »

ومن هذه العبارة نفهم أن الاتجاه الجديد فى العراق يوجب أن يكون الجنود والضباط والقواد من دم عراقىّ سليم، ولهذا الاتجاه الجديد أسباب لا تخفى على أولى الألباب

زكى مبارك

التاريخ دراسة اللغات الضرورية أثناء وجوده بالمعاهد النظامية ؛ ولكن لا داعي لأن يدرس عدة لغات في وقت واحد. وليس هناك ما يمنع الباحث من دراسة أية لغة جديدة في أي وقت من حياته ؛ ودراسة سنتين في إحدى اللغات الجديدة على الباحث كافية كأساس مبدئي ، يستمر بعدها في المزيد . ويا حبذا لو أمكنه قضاء بعض الزمن في بلد تلك اللغة الجديدة

ومن العلوم المساعدة الأساسية لكتابة التاريخ علم قراءة الخطوط Paleography [(١)]. وقراءة أنواع الخطوط تدرس بعناية في جامعات الغرب . وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الغربية والشرقية تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها . ودراسة هذه الخطوط توفر عليه الوقت وتجنبه الوقوع في الخطأ فيما لو ترك المسألة لمجرد التعلم بالتمرين ؛ وأحياناً توجد وثائق كتبها سفراء وقناصل الدول إلى حكوماتهم بالشفرة ، وذلك لإخفاء معلوماتها عمن يحتمل أن تقع في يده من الأعداء ؛ فينبغي تعلم فك هذه الشفرة بواسطة المفتاح الخاص بها إن وجد في دار الأرشيف التي يعمل فيها دارس التاريخ . ويوجد بالأرشيف الواحد أكثر من مفتاح واحد على حسب الحالة ، ومفاتيح الأرشيف تختلف من بلد إلى آخر . فمفاتيح أرشيف الفاتيكان تخالف نظيرها في فلورنسا أو فينا أو باريس أو مدريد . وعلم قراءة الخطوط ضروري جداً لدراسة فروع مختلفة من التاريخ مثل تاريخ مصر القديم ، وتاريخ اليونان والرومان ، وتاريخ العصور الوسطى ، والتاريخ الحديث ، حتى أوائل القرن السابع عشر ، بالنسبة لدور الأرشيف في أوربا ، وبعد ذلك العهد تصبح الخطوط واضحة مقروءة . والخط العربي مثلاً كتب بأشكال مختلفة ، فمنه : الطومار والنسخي والرقعة ، وقراءتها تحتاج إلى تعلم وتمرين ؛ ولقد وضع بعض القدماء والمحدثين في الشرق والغرب بحوثاً في قراءة الخطوط العربية[(٢)] . وفي الشرق الأدنى العثماني كتبت الوثائق التركية بعدة خطوط مثل الخط الديواني وخط القيرمة ، وقراءتها تحتاج إلى تعليم خاص . ومجموعات وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة تحتوي آلاف الوثائق عن تاريخ مصر المالي والإداري في العهد العثماني وفي عهد محمد علي وخلفائه ، وكلها مكتوب باللغة التركية وبخط القيرمة[(١)] ؛ وكذلك توجد مجموعات من الوثائق بهذا الخط في سورية وتركيا . وستظل معلوماتنا عن هذه القرون الطويلة قاصرة وناقصة وقابلة للتعديل حتى يتعلم الباحثون قراءة خط القيرمة ، ويتمكنوا من دراسة هذه الكنوز التاريخية على مدى عدة أجيال

ويتصل بدراسة الخطوط علم الدبلومات والوثائق Diplomatics . فيتعلم الباحث لغة ومصطلحات وثائق العصر الذي يدرسه ، وأنواع الورق والحبر الخاص بها ، لكي يستطيع أن يعرف صحة الوثيقة أو بطلانها . ويلزم الباحث أن يعرف بعض نواحي علم الكيمياء لكي يستعين بذلك على فحص هذه الوثائق بنفسه إذا اقتضى الأمر ؛ ثم يأتي علم النومات Numismatics أي علم النقود والمسكوكات . فالعملة والأنواط التي تحمل صور الملوك أو ذكرى حوادث تاريخية معينة ، عليها سنو ضربها تفيد في دراسة التاريخ ، فنعرف منها حقائق عن حكم الملوك وعن مدى انتشار التجارة وعن تاريخ الفنون

والجغرافيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة وكتابة

(١) Encyclopaedia Britannica : Palaeography

(٢) كاتب جلبي : كشف الظنون ، ج ٣ ، طبع لندن ١٨٤٢ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، طبع القاهرة ١٩١٤ ، أدولف جروهمان : أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ ، = Moritz, B. : Arabic Palaeography. Cairo, 1905 (اشترك في ترجمته من الانجليزية مع المؤلف الدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ عبد الحميد حسن

(١) قيرمة كلمة تركية بمعنى التكسير أو الثني ، لأن خط القيرمة كثير الزوايا والثنايا ؛ ويمكن أن تكتب به معلومات كثيرة في حيز ضيق ؛ وهو معقد ولا يقرأ إلا بعد التعليم والتدريب . ولقد أوجده العثمانيون لتحرير الشؤون الادارية والمالية ولكي يحيطوا محفوظاتهم بالسرية والكتمان . وشاع استعماله في ديوان الروزنامة المصرية ابتداء من القرن ١١ هـ . ولقد كتب زميلي الأستاذ محمد محمد توفيق الوثائقي المترجم بدار المحفوظات المصرية بالقلعة مقالا بمجلة الهلال عدد يونيو ١٩٤١ عن وثائق مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل عهد محمد علي . ولقد وضع بحثا عن مشق خط القيرمة أرجو أن يطبع قريبا حتى يستفيد منه الباحثون .

التاريخ ؛ والارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا . فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ ، والظواهر الجغرافية المختلفة لها أكبر الأثر في الإنسان والتاريخ . فالسهول والجبال والصحارى والوديان والأنهار والبحار والمناخ وأنواع الرياح والثروة الطبيعية والموقع الجغرافي تؤثر كلها على تكوين الإنسان وعلى نوع حياته وعلى نوع الحضارة وعلى حوادث التاريخ . فلدرس تاريخ مصر مثلاً لا بد من معرفة أثر ظروفها الجغرافية في التاريخ المصري . فوقع مصر بين الشرق والغرب قد جعلها مجمع ثروة طائلة لمرور التجارة العالمية بأراضيها في العصور الوسطى ؛ وموقعها الجغرافي جعلها تقف أمام أوربا أثناء الحروب الصليبية . وظروف الجزر البريطانية الجغرافية قد منعت أوربا عن التدخل في شؤونها . وفي الوقت نفسه جعلتها تسيطر على البحار وتتدخل في الشؤون الأوربية في أوقات مختلفة . وأحياناً تتدخل العوامل الجغرافية تدخلاً حاسماً في تغيير مجرى التاريخ . فالعواصف والأنواء قد ساعدت الأسطول الإنجليزي على التغلب على الأرمادا الإسبانية في ١٥٨٨ . وشتاء الروسيا كان من العوامل التي أدت إلى فشل حملة نابليون في ١٨١٢ . فلا بد من الإحاطة بكل هذه الظروف لفهم التاريخ . والتاريخ والجغرافيا متلازمان ولا يمكن استغناء الواحد منهما عن الآخر

والأدب من العلوم المساعدة لفهم وكتابة التاريخ . فدراسة الأدب بصفة عامة توسع عقل الإنسان وتجعله أقدر على الفهم . ولا بد للراغب في كتابة التاريخ من أن يتذوق الشعر لكي يفهم ملكة الخلق والابتكار . ويلزمه أن يقرأ القصص الأدبي لكي يتعلم فن عرض الموضوع وإبراز الحوادث المهمة وبحث الشخصيات ، ووضع التفاصيل في المكان اللائق ، وإثارة انتباه القارئ . ويحسن أيضاً دراسة بعض كتب النقد الأدبي لأن هذا يساعد على نقد التاريخ . ودراسة الآثار العقلية لأمة ما أمر ضروري جداً لفهم تاريخ هذه الأمة . فمعرفة الأدب اليوناني ضرورية لكتابة تاريخ اليونان ؛ والإلمام بالأدب الإيطالي لازم لكتابة تاريخ إيطاليا ؛ ودرس الأدب الإنجليزي مهم لفهم تاريخ انجلترا

ويتصل بدراسة الأدب الفنون المرتبطة بالشعب أو بالعصر الذي يرغب الباحث الكتابة عنه ، مثل فنون النحت والتصوير والعمارة والموسيقى . فمن يرغب في دراسة تاريخ اليونان القديم لا بد له من أن يدرس تطور الفن اليوناني القديم . ومن يرغب الكتابة عن تاريخ النهضة في إيطاليا يلزمه أن يدرس تطور الفن الإيطالي في عصر النهضة . ويمكن جمع ثقافة فنية عامة بدراسة الصور والرسوم في بعض المؤلفات العامة . ويا حبذا لو أمكن الباحث أن يدرس أهم آثار الفن اليوناني أو الإيطالي في متاحف اليونان وإيطاليا ، ويعيش بعض الزمن في ذلك الجو الفني الخالص بين روائع فنون التصوير والنحت والموسيقى . ولا ريب فإن الفنون خلاصة العواطف الإنسانية ، تعبر أصدق تعبير عن روح العصر ، والتأثر بها يجعل الباحث أقدر على فهم التاريخ وكتابته

ومن المسائل الأساسية لمن يرغب في كتابة التاريخ أن يعلم ما عرفه العالم عن التاريخ قبل أن يكتب التاريخ . فينبغي أن يقرأ بعض آثار كبار المؤرخين السابقين مثل : هيرودوت وتوسيديد وليفي وماكيافيلي وفيكو وجبون وفولتير ... وأن يقرأ بعض المؤلفات الحديثة عن التاريخ عامة ، وعن العصر الذي يرغب في الكتابة عنه خاصة . فيلم بثقافة تاريخية عامة ، كما يعرف الطرق التي اتبعها الأقدمون والمحدثون في بحث وكتابة التاريخ

ومن المفيد أيضاً أن يلم الباحث في التاريخ بطائفة أخرى من العلوم المساعدة . فيلزمه أن يعرف شيئاً عن المنطق وتقسيم العلوم لكي يفهم موضع التاريخ من بقية العلوم الأخرى ، كما ينبغي أن يدرس فلسفة التاريخ فيعرف آراء بعض الكتاب مثل : برجسون وكروتشي . وهو محتاج أيضاً لأن يعرف مسائل عامة عن علم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والمالية والقانون والنظريات السياسية ، والرياضة والفلك في بعض الأحيان ، لأنه قد تعرض للباحث كل أو بعض هذه المسائل ، فلا بد من أن يكون ملماً بها ، وإذا لم يكن يعرف بعض هذه النواحي ، فيمكنه تحصيلها بسهولة

الشعر

للأستاذ بنيامين خليل

كثيراً ما قامت موازنات بين الشعر والتصوير ؛ فقد قال (سيمونيدس) Simonides : « الشعر تصوير ناطق ، والتصوير شعر صامت » . وقال (كوزن) Cousin : « الشعر أول فن من الفنون الجميلة ، لأنه يمثل غير المحدود خير تمثيل » . وقال أيضاً : « ولو أن الفنون — إلى حد ما — بعضها بمعزل عن البعض الآخَر ، فإن فناً منها قد انتفع بموارد جميع الفنون ، ألا وهو الشعر . فمن الكلمات يستطيع صاحب القريض أن يصوغ صورة ، أو ينحت تمثالاً ، أو يحاكي المهندس المعماري في تشييد المباني . وفي مقدور الشعر أن يجمع بين عذوبة اللفظ والموسيقى . ففي الشعر كما يقولون تتلاقى جميع الفنون » .

إن قصيدة عصماء معرض من الصور . ومما لا جدال فيه أن التصوير والنحت يعطياننا — عن شيء لم نره من قبل — صورة أكثر وضوحاً من أي قول أو وصف ؛ ولكن إذا ما وقع الشيء تحت أنظارنا — تنعكس الآية — فنرى ثمة أموراً كثيرة يبرزها الشاعر أمامنا ، وقد كنا لا نراها قبلاً في الشيء ذاته من تلقاء أنفسنا ؛ فالفنّي هو الذي يصنع الأشياء واضحة كل الوضوح ، أما الشاعر فهو الذي يخلق الأحداث والمعاني .

الشاعر العبقري مهبط الوحي والإلهام ، وقلما نرى له حاسة فائقة لإدراك الجمال ، وله مشاعر أدق من مشاعر معظم الرجال ، مشاعر مضبوطة ضبطاً محكما . قد يكون المرء شاعراً ولو لم يدرس شيئاً عن علم العروض ؛ أما من يكتب شعراً رديئاً ، أو حقيراً ، فهو ليس بشاعر . لا يحيا الشعر ويدوم طويلاً إلا إذا كان شعراً حياً ، إذ أن ما يصدر عن العقل والعاطفة ينسكب في القلب .

إن الشعراء والكتاب الذين يعدون في الطبقة الثانية سرعان ما تنقرض ذكراهم، ويتقلص ذكرهم، ويتوارى في زوايا النسيان ؛ أما العباقرة منهم فأثرهم خالد إلى الأبد . ألم يعمر شعر (هوميروس) Homer حوالى ٢٥٠٠ سنة دون أن يفقد حرفاً من حروفه ، أو مقطعاً من مقاطعه ، على حين نرى قصوراً شاهقة وقلاعاً حصينة قد دمرت وأتى عليها العفاء ؟ أجل لا يتسنى لنا أن نحصل

وأخيراً من الضروري جداً ألا يبقى الباحث في التاريخ في بلد واحد وفي دائرة محصورة ؛ بل يلزمه السفر والارتحال إلى بلدان مختلفة ، لا من أجل البحث التاريخي في ذاته فقط ، بل لكي يرى آفاقاً جديدة ، ويكسب خبرة بالناس وبالأوساط المختلفة . ومن الضروري أن يقضي زمناً في البلد الذي يدرس تاريخه . والأفضل أن يبدأ الباحث سفره بعد أن ينهي تعليمه الجامعي في بلده الأصلي ، وبعد أن يقطع شوطاً في الدرس ، وبعد أن يتعين له العصر الذي يرغب الكتابة عنه ؛ فيسافر وقد تزود بأسلحة نافعة وبدأ طريق البحث العلمي ، فيمضي في الدرس والكشف عن الحقائق التاريخية ، ويزور الأماكن المختلفة ، ويدرس ويتأمل ؛ والنفس العالية لا تشعر بأنها غريبة في أي مكان

وهذا كله ملخص عن العلوم المساعدة وعن الإعداد اللازم لمن يتصدى لكتابة التاريخ . وليس المقصود بذلك التوسع في كل هذه النواحي لذاتها ؛ فإن هذا غير مستطاع . وإنما يكفي المعرفة العامة بقراءة بعض الكتب . وقد تزيد المعرفة في نواحي معينة من هذه العلوم المساعدة ، على حسب طبيعة العصر الذي يرغب الباحث في دراسته والكتابة عنه . وقد يبدو من العسير جمع هذه الثقافة العامة ؛ ولكن تخصيص حوالى ست سنوات أو سبع ، تفعل العجائب، وتكفي للوصول إلى مستوى مناسب، يزداد بالتدريج . وروح العلم الصحيح لا تعرف العقبات ؛ والإخلاص والصبر يصلان بالباحث إلى الغرض في أغلب الأحيان .

(يتبع) حسن عثمان

على تماثيل كورش والإسكندر قيصر ، أو على صورهم الحقيقية ، لأن الصور الأصلية لا تدوم ، وما يُنقل عنها تنقصه الحياة وتعوزه الحقيقة . أما الصور الذهنية لعبقرية الرجال وعلمهم ، فتبقى في الكتب بعيدة من عبث الزمن متجددة في كل حين . وليس من الصواب أن نسميها صوراً لأنها تتوالد وتلقى بذورها في عقول الناس فتثير في الأجيال المتعاقبة أحداثاً وآراء لا حد لها

* * *

إذا كان اختراع السفينة فكرة نبيلة ... تلك السفينة التي تنقل الثروة والمتاجر من مكان إلى آخر ، وتصل البلاد المتنائية بعضها ببعض فتتبادل محصولاتها — فما أحرانا أن نعظم الآداب التي تحاكي السفن في كونها تمخر عباب البحار ، ولكنها بحار الزمن المترامية الأطراف ، فتربط العصور المتوغلة في القدم ، فينتفع كل عصر بحكمة العصور الأخرى وثقافتها واختراعاتها !

يحتاج الشاعر إلى مؤهلات كثيرة . يقول (كوزن) Cousin : « من الذي وضع تصميم هذه القصيدة النفل ؟ وما الذي ألبسها الحياة والبهاء ؟ الحب . وما الذي أرشد العقل والحب ؟ الإرادة » . ومن المسلم به أن لكل من الرجال قسطاً من الخيال ، أما المحب والشاعر فمن الخيال قد خُلقا كلاهما

إن عين الشعر ترنو في سمو وجلال ، وتسبح من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء ؛ وبينما خيال الشاعر يتصور الأشياء غير المنظورة ، نرى يراعته تصوغها في قالب فني جميل ، تعين للعَدم مكاناً وتعطيه اسماً

يقول (شيشرون) Ciceron الخطيب الروماني الشهير في خطبته عن (أركياس) Orchias : « أليس هذا الرجل جديراً بحبّي ، جديراً بإعجابي ، جديراً بكل ما أستطيع من وسائل دفاعي عنه ؟ إننا قد تعلمنا عن أكثر الناس حكمة أن التربية والتعليم والمران تكسب المرء تفوقاً في أي فرع من فروع العلم غير الشعر . أما الشاعر فقد صاغته الطبيعة وأيقظته القوى العقلية ، وأوحى إليه بما نسميه روح الإله نفسه » .

يقول أفلاطون : « الشعراء أبناء الآلهة ومترجموهم »

* * *

يرفع الشعر الحجاب عن جمال العالم ، ويبسط على الأشياء المألوفة فيضاً من النور وهالة من الخيال . إن من يحب الشعر حباً حقيقياً لا يعجز عن إحراز قسط وافر من السرور بمظاهر الطبيعة التي لا يرى فيها محبّوها إلا جمالاً ، ولا يسمعون منها إلا أنغاماً موسيقية . على أن الطبيعة — مع ما فيها من أنهار عذبة ، وأشجار مثمرة ، وأزاهير أرجة عطرة — لم تبرز الأرض في حلة أبهى وأجمل مما وصفها به الشعراء

نرى الشاعر ينقلنا من المدينة التي تنعقد فوقها سحب الدخان بطريقة ساحرة — ينقلنا من جوٍ ملبّد بالدخان إلى الهواء الطلق ، إلى الشمس الساطعة ، إلى حفيف أشجار الغابات ، إلى خرير المياه ، إلى تلاطم الأمواج بالرمال — ويساعدنا الشاعر على نسيان هموم العيش ومتاعب الحياة كأننا مستغرقون في حُلم من ألذ الأحلام

* * *

يجب أن يكون الشاعر ذا معرفة لا بالطبيعة الإنسانية فحسب ، بل بالطبيعة بأكملها أكثر مما يتصف به غيره من الرجال . أخبرنا (كراب روبنسون) Crabbe Robinson أن رجلاً استأذن في مشاهدة حجرة مكتب (وردسورث) Wordsworth ؛ فأجابته الخادم قائلة : « هذه حجرة مكتب سيدي ، ولكنه يقوم بالدرس في الحقول »

* * *

ولنقدّر الشعر حق قدره يجب ألا ننظر فيه نظرة سطحية ، أو نقرأه على عجل ، أو نطالعه لكي نتكلم أو نكتب عنه ، بل يجب أن يركز الإنسان عقله في وضعه الصحيح

إن كنوز الشعر التي لا تحصى في متناول كل منا ؛ فقد يكون خير الكتب أرخصها ، إذ بثمن كوب من الجعة أو قليل من تبغ ، نستطيع أن نشتري أحد مؤلفات شكسبير أو ملتون ،

أو عدداً من الكتب يفيد الإنسان من مطالعتها طيلة العام

وفى تعرّف فائدة الشعر، لا نقصر نظرنا على أثره فى الماضى أو الحاضر فحسب، يقول مستر متيو أرنولد Mr. Matthew Arnold ولم يقم ثمة من هو أحق بالكلام عن الشعر منه : إن مستقبل الشعر عظيم ، فالفكرة فى نظمه هى كل شىء ، وما عدا ذلك فهو ضرب من الغرور . فنى الفكرة تمتزج العاطفة والشاعرية ، فتصبح الفكرة حقيقة . إن أقوى عنصر فى الدين فى أيامنا هذه هو الجانب الشعرى غير المحس فيه

لقد سمى الشعر بحق : سجل أسعد الأوقات وخيرها لخير المقول وأكثرها هناءة ... الشعر ضوء الحياة ، بل هو نفس صورة الحياة ، معبراً عنها بصدق أبدى ... الشعر يخلد كل ما هو خير ، وكل ما كان آية فى الإبداع والجمال ... إنه يزيل عن بصيرتنا الداخلية غشاوة الابتذال التى تخفى عنا عجائب الكون ! ما الشعراء إلا مرايا لتلك الظلال الكبيرة التى يلقيها المستقبل على حاضرنا

وفى الواقع أن الشعر بطيل الحياة : إنه يخلق لنا الوقت إذا قيس الوقت بتتابع الأفكار لا بعدد الدقائق ... الشعر هو روح المرفة، لا يحده زمان ولا مكان، بل يعيش فى روح الإنسان... فأى مديح خير من أن يقال : إن الحياة يجب أن تكون شعراً مصوغاً فى قالب عملى فنى جميل

ترجمة بنيامين خليل
مدرس الآداب
بالأقباط الثانوية بالمنيا

الحروب الصليبية

ماضيها ، تطوراتها ، نتائجها

للأستاذ ر. التميمى

كان مركز البابوية ومقامها قد انحط كثيراً فى أثناء القرن العاشر وأصبح موضوع نزاع الأحزاب فى رومة ؛ واعتلى عرشها أناس لا خلق لهم كانوا سبباً فى تشويه سمعتها الدينية فسقطت أهميتها فى نظر المسيحيين . وحينما اعتلى عرش الأمبراطورية هنرى الثالث اهتم بأمر البابوية وعزم على النهوض بها فعين لها رجالاً من ذوى الكفاءة والمقدرة ؛ وهكذا بدأ البابوات يستعيدون مكانتهم التى كانوا قد أضاعوها خلال القرن العاشر وأخذوا يعملون على إصلاح المساوئ وإعادة المجد البابوى

وأشهر من قام بهذه المهمة الصعبة هو هيلد براند الذى ارتقى عرش البابوية باسم غريغورى السابع ، فلقد نظم شؤون الكنيسة تنظيما محكما وقضى على الفوضى فيها وجمع السلطة الدينية فى يده وحكم على رجال الدين كبيرهم وصغيرهم أن يخضعوا له دون أخذ وورد . وهكذا مهد السبيل لخليفته أربان الثانى الذى رأى بعين البصيرة أن الظروف أضحت مواتية ليقوم بأكبر عمل يعلى به مجد النصرانية وهو إشهار الحروب الصليبية على المسلمين وتخليص الأراضى المقدسة من أيديهم . ولقد اتفق أن هاجت الجيوش السلجوقية الأمبراطورية البيزنطية وهددتها فى عقر دارها فهرع الأمبراطور ألكس يطلب النجدة من البابا أربان الثانى ؛ فلما تلق هذا تلك الاستغاثة رآها فرصة سانحة لبسط سلطان الكنيسة الكاثوليكية على سائر أنحاء العالم النصرانى فى الشرق والغرب فلبى النداء وقرر السير فى ترتيب حملة صليبية كبرى

لقد كان أربان الثانى فى قراره هذا يستند على ما كان للكنيسة من قوة ونفوذ فى الأوساط المسيحية . إذ أن النصارى يومئذ كانوا لشدة جهلهم يقترفون آثاماً كبيرة ويحملون أنفسهم أوزاراً كثيرة ، ولم يكن أمامهم لرفع تلك الأوزار إلا القيام بالأعمال الصالحة كالحج والصوم وتعذيب الجسم والتقشف فى الملبس والمأكل، وكان الحج أهم هذه الأعمال وأكثرها ثواباً. أما القتال فى سبيل تخليص بلاد ذلك الحج فهو فى نظرهم أهم عمل يقوم به إنسان لأنه يرضى به ضميره ويقدم أعظم تضحية للعالم النصرانى الذى ينتمى إليه

لقد انتبه البابا أربان الثانى إلى هذه الحالة النفسية فتشجع فى إشهار الحرب وزاد فى نشاطه وجود طائفة من الأمراء ، ولا سيما النرمنديين منهم سمعوا بكنوز الشرق وسلطان ملوكه وأمرائه العظيم فطمعوا فيهما ، وتمنوا لو أتيحت لهم الظروف ليكونوا سادة فى ذلك الشرق الساحر مثل أولئك الذين ينعمون بأموال وافرة وجاه عظيم وسلطان مطلق

وصادف أن قحطاً شديداً اجتاح القسم الغربى من قارة أوربا وسبب مجاعة وفقراً وموتاً ولا سيما فى فرنسا حيث أهلك الحرث والنسل ومات مئات الألوف من الناس وخربت القرى واقفرت المزارع فبات بسبب ذلك كله معظم سواد الشعب فى أشد حالات البؤس والشقاء ؛ فلما نادى منادى الحرب الصليبية أقبل أولئك الجياع إقبالاً هائلاً عليها أملاً فى العثور على أقواتهم اليومية ، وهم بعملهم هـذا يمتثلون أوامر الكنيسة التى كانوا يخشون بأسها وعقابها من جهة ، ويحاربون فى سبيل تخليص الأرض المقدسة من أيدى المسلمين من جهة أخرى

والحقيقة أن هـذه الحروب لم تكن إلا مظهراً من مظاهر التعصب الدينى قامت به البابوية فى القرون الوسطى ضد العالم الإسلامى . ولقد أثارها البابوات وقذفوا بفرسان الغرب وأمرائه إلى ساحات القتال فى الشرق ليحققوا منافع مادية لصالح الكنيسة .

ولقد اشترك فيهـا الملك والأمير والفارس والراجل والنبيل والوضيع والناسك والسارق والراهب والقاتل والتقى والفاجر وكل منهم كان يرمى إلى غاية فى نفسه ؛ فهذا يريد ملكا أو إمارة ، وذاك يسعى لاكتساب مغنم ، وذلك للاغتراف من كنوز الشرق الثمينة . أما السواد الأعظم فقد كان على جهله المطبق لا يريد من وراء تضحياته إلا رضا الكنيسة وتأمين حياة أخروية سعيدة

وهكذا تحركت تلك الجماهير الغفيرة من الغرب إلى الشرق، فكانت حينما تصل إلى البلاد الإسلامية تنقض عليها انقضاض الحيوانات المفترسة فتقتل الناس وتهدم القرى وتحرق ما تجده أمامها من أشجار وزرع ونباتات ، وهى بعملها هذا تعتقد أنها تؤدى أقدس واجب تتحمله ، وكان الرهبان يشجعون فيهم هذه العقيدة ويستزيدونهم قتلاً ونهباً وتنكيلاً بالمسلمين

وزحفت الحملة الأولى بخيلها ورجلها وشبانهـا وصبيانها ونسائها وحيوانها قاصدة فلسطين مؤتمة بطيور الأوز ومواشى الماعز ، وهى عادة حافظ عليها الجرمان من حياتهم الوثنية الغابرة حين كانوا يقدسون كثيراً من الحيوانات بينها الأوز والماعز ، ويتبركون بها ؛ فلما زحفوا نحو الشرق مشوا وراءها يلتمسون منها النجاح والظفر . وحينما اجتازت الحملة آسيا الصغرى تعرضت لأشد أنواع المحنة والفاقة والعطش ، وكان السلاجقة ينقضون عليهم ويحصدون منهم الألوف حتى لم يبق من تلك الجماهير الزاحفة إلا عدد صغير أمكنه الوصول إلى الديار السورية بعد أن كان عددهم يربو على نصف المليون

وحين وصلت الحملة الأولى كان سوء الحظ ملازماً لسوريا بسبب حكامها السلاجقة وهم من السذاجة بمكان ، وكان يحارب بعضهم بعضاً فلم يلتفتوا إلى الخطر الصليبى الذى دهم البلاد . وقد أدت هذه الغفلة التى لا تغتفر إلى ضعف الجبهة الإسلامية ضعفاً لا يمكن وصفه إلا إذا تذكرنا تلك الهزيمة الشنعاء التى منى بها كربوغا صاحب الموصل أمام مدينة أنطاكية ، فلقد كان يقود جيشاً عظيما فيه أكثر من مائتى ألف محارب بعددهم وأقواتهم الكاملة ، ومع ذلك فقد انهزم أمام هيا كل بشرية صليبية مزقتهم الفاقة وأهلكهم الجوع وحصدتهم الأمراض السارية ، فسجل كربوغا بحماقته صفحة فى التاريخ كلها خزى وعار

ولقد كان لهذه الهزيمة نتائج خطيرة جداً ؛ فالصليبى الذى أنهكه التعب وأهلكه الجوع أخذ يتقوى بسرعة عجيبة ويستصغر من شأن المسلم الذى دبت فيه عوامل الضعف والخور فولى مدبراً ولم يعقب تاركا البلاد لأشد أنواع الاعتساف والظلم

هكذا استصغر الصليبيون شأن المسلمين واحتقروا قوتهم المفككة وهزأوا بجبهتهم المتصدعة ، فأخذوا ينتقلون من مدينة إلى أخرى ، ولا جيش يقف فى وجههم ، إلا صوتاً ضعيفاً ارتفع من الخليفة الفاطمى بمصر يكافهم الكف عن اكتساح المدن السورية ، ويعرض عليهم صلحاً شريفاً ، إلا أن هذا الصوت تبدد بين قعقعة السيوف وهدير الجماهير المسيحية

المتحمسة . وهكذا وصلت حملة الأمراء الأولى إلى فلسطين ، وملكت بيت المقدس . وحين دخلوا المدينة أراقوا دماء المسلمين أنهاراً ، ولجأ اليهود إلى معبدهم فأحرقوه ، فماتوا وسط اللهيب . وفي خلال ثلاثة أيام قتلوا سبعين ألف مسلم ، ولم يرعوا للشيوخ وقار سنهم ، ولا للأطفال حرمة صغرهم ، ولا للنساء ضعفهن ؛ وهكذا برهنوا على همجية مستنكرة وقلوب متحجرة ، لا تجد لها مثيلاً إلا عند أجدادهم القبائل المتبربرة أيام اكتساحهم الإمبراطورية الرومانية

وبعد الحملة الثانية التي انتهت بفشل ليس بعده فشل ، رأى منظمو الحملات الصليبية المتاعب والأخطار الجسمية التي لاقاها الصليبيون في أسفارهم البرية السابقة ، فعدلوا عنها واستبدلوا بها أسفاراً بحرية أفادت الموانئ الطليانية فوائد جمة ، لأن بحارتها أخذوا ينقلون على مراكبهم الجماهير لقاء أجرة طيبة

لقد كانت وطأة الفرسان الصليبيين شديدة بسبب أسلحتهم ودروعهم وتروسهم وبسبب تمرنهم الطويل على أنواع القتال والمبارزة ، فإذا ما خاض أولئك الفرسان حرباً أو موقعة فترت همتهم وضعفت شوكتهم وأخذوا يشكون من حرارة الطقس ومن شدة بأس المحاربين المسلمين . وكانوا ينتهزون أول فرصة ليعودوا إلى بلادهم تاركين الفكرة الصليبية بين يدي أولئك الأمراء ذوي المطامع ورجال الدين الذين انتدبهم البابا لينفذوا أوامره ويشتركوا في وضع الخطط الصليبية والإقطاعية المختلفة

لقد ملك الصليبيون شواطئ سورية مع بيت المقدس والبلاد الفلسطينية ومقاطعة الكرك عبر الأردن وانشأوا فيها مملكة بالقدس وإمارات ثلاثاً لاتينية إقطاعية في كل من طرابلس وانطاكية والرها ؛ ثم رحل معظم المحاربين إلى ديارهم ولم يبق منهم إلا آلاف قليلة مسلحة أخذت على عاتقها أمر الدفاع عن تلك الإمارات ؛ وهؤلاء المدافعون هم أولئك الفرسان الذين ارتبطت منافعهم ومصالحهم بمستقبل البلاد الجديدة اللاتينية . وفي تلك الآونة ألف فريق من الرهبان الفرسان وهيئات دينية عسكرية وظيفتها خدمة الفرنج من الوجهة الصحية وتقديم المساعدات الحربية للدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم وهذه الهيئات هي الهيكليون أو الداوية والاسبتاليون والتيوتونيون .

ومما تقدم يفهم أنه كان من السهل جداً على أي أمير مسلم يعرف واجباته ويقدر حرج موقف خصومه أن ينقض بجيش مدرب على أولئك الغرباء وأن يقذف بهم إلى لجج اليم ويخلص البلاد من أحكامهم الجائرة وقوانينهم القاسية ؛ إلا أن شيئاً من هذا لم يحصل إلا بعد مضي نحو نصف قرن على امتلاك اللاتين للشطوط السورية .

وأول من تنبه إلى موقف الفرنج الضعيف هو عماد الدين زنكي صاحب الموصل حينئذ ، فلقد شهر عليهم حرباً شعواء ظل لهيبها مستعراً نحو خمسين سنة ، خاض غمارها هو بنفسه مع جيشه المدرب بضع سنين ، ثم مات مقتولاً ، فخلفه في الجهاد ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي وانتهت هذه الحرب بظفر صلاح الدين الكبير وامتلاكه بيت المقدس .

لقد قام صلاح الدين بالمهمة التي تلقاها من سيده وأستاذه نور الدين محمود فأداها على أحسن وجه بعد أن انقض على الجيش الفرنجي في معركة حطين (صيف سنة ١١٨٧) وسحقه سحقاً ، ثم استرد البلاد من أيديهم الواحدة تلو الأخرى ، واسترد بيت المقدس ، فدخلها صلحاً وعامل الفرنج بمنتهى التسامح والشفقة والرحمة ، فكان مثالاً ممتازاً للحاكم العادل والقائد الظافر المتصف بالشهامة والمروءة ؛ وكأنه بتسامحه ومروءته وشهامته يريد أن يلقي درساً في الأخلاق العالية والشفقة والرحمة على أولئك السفاكين والقتلة الذين ذبحوا سبعين ألف مسلم ذبح الخراف حين احتلوا المدينة المقدسة

ولقد كان في نيته وفي مكنته أن يطهر البلاد منهم نهائياً ، لو لم تغتله المنية قبل الأوان ، فترك مهمة التطهير النهائي إلى خلفائه من بعده

على أن الجهاد الذي استأنفه خلفاء صلاح الدين ظل قائماً نحو عصر كامل آخر ، وذلك لأن ذلك الجهاد لم يكن متصل الحلقات بل كانت تنتابه فترات يتقاتل ويتطاحن خلالها الأمراء والسلاطين المسلمون .

فقد تخاصم الملك العادل مع أولاد أخيه صلاح الدين وتقاتل

سائر الأمراء الأيوبيين ، فكان لنزاعهم الأثر السيء في نفوس المسلمين ، إذ ضعفت همتهم وانحطت شوكتهم وقلت قيمتهم ، وهذا ما مكن الفرنج من إطالة الإقامة والحكم في إماراتهم اللاتينية المزيلة . على أن التقاتل هذا لم يكن يقتصر على الحكام المسلمين ، بل تناول أيضاً أمراء الفرنج في إماراتهم ، فكان يشتد بين الفرنسيس والإنكليز والألمان ، وبين البنادقة وتجار جنوة ، وبين رهبان طائفتي الداوية والإسبتالية . وفي بعض الأحيان كان ينقلب ذلك الخلاف إلى حرب طاحنة تذهب فيها الأرواح الصليبية بلا حساب

والفرنج الذين كانوا يأتون حديثاً إلى الأرض المقدسة كانوا يختلفون مع إخوانهم القدماء من اللاتين المقيمين في هذه البلاد وذلك بسبب الفروق البارزة في عادات وتقاليد كل من الفريقين . فالمشارقة منهم مضى عليهم أكثر من عصر وهم يعيشون في ديار الشرق ويقلدون الشرقيين في مأكلهم ومشربهم ومسكنهم ؛ وصاروا ينظرون إلى مسلمي سوريا نظرة الجار إلى جاره ، فيتعاقدون معهم ، ويبادلونهم السلع ، ويراعون حقوقهم وعهودهم ، وذلك بخلاف حملات الفرسان التي كانت تدهم البلاد بخيلها ورجلها وتعصبها الذميم وقوتها المتناهية ، فقد كان رجالها يجهلون الإسلام والمسلمين ولا يعرفون عنهم إلا أموراً وآراء خاطئة ومشوهة ؛ فإذا ما دهموا بلداً لهم أو قرية انقضوا عليها انقضاض الباشق على فريسته ، وهكذا كان الخلاف يشتد بين فريقي اللاتين القدماء والجدد ، وكان يرمي بعضهم بعضاً بأشنع التهم ؛ فقد كان الغربيون يقولون مثلاً إن المشارقة خونة لا عهد لهم ولا ذمة ، يصادقون المسلمين أعداء النصرانية ويتعاقدون معهم ؛ أما المشارقة وهم الذين صقلت طباعهم وتهذبت أخلاقهم وهدأت ثورة التعصب الذميم عندهم بفضل مجاورتهم للشرقيين ، فقد كانوا يرون في فرسان الحملات المتتابعة شراسة في الطبع وغلظة في الخلق مع قوة متزايدة وجشع في سفك الدماء وميل غريزي للنهب والسلب ، فكانوا لذلك يحتقرونهم ويخشون بأسهم

ولقد بحث الفارس المسلم والأديب المعاصر أسامة بن منقذ الكناني الشيزري في مذكراته « كتاب الاعتبار » من اختباراته الشخصية في عادات الأفرنج الصليبيين فقال : ليس عند الأفرنج شيء من النخوة والغيرة ، وهم يعالجون مرضاهم بطرق ابتدائية ، ويحاكمون المذنبين منهم بأساليب غبية عجيبة ، وكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية يكون أجفى أخلاقاً من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين . ثم يذكر أنه نفّذ صاحباً له إلى أنطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي — وهو يقصد بثودوروس سوفيانوس — وكان بينهما صداقة ، فقال هذا الصاحب أسامة الموفد إلى أنطاكية يوماً : « قد دعاني صديق لي من الإفرنج : تجيء معي حتى ترى زيهم » ، فمضى المسلم إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة ورأى المسلم موقفاً عن الأكل فقال له :

« كل طيب النفس فأنا ما آكل من طعام الإفرنج ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم خنزير »

فأكل المسلم وهو محترز ثم انصرف

(فلسطين) ر . التميمي

سنة . . .

الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

سَنةٌ مرّت ولا كلّ السنين
بين صيف من هوانا وشتاء
وربيع كلما غام أضاء
والضحى والليل حيناً بعد حين

***

سنةٌ كان لها نجم فريد
غمر الشمس وغطّى القمرا
ومشى فى حسنه منتصرا
كل برج تحته برج سعيد

***

إن يكن لى فى سناه رقباء
فالذى أرصده لم يرصدوه
والذى أنشده لم يَنشدوه
والذى هاموا به عندى هباء

***

سنةٌ مرت على روض الغرام
أنبتت فيه فنون الشجر
من رياحينَ وغرسٍ مثمر
وسل الأرواح ما أزكى الطعام

***

يومها الأول وافى ودنا
فانس أيامك فى ساعاته
واجمع الصافىَ من لذّاته
جرعةً ، واطرَب عليها زمنا

***

جرعة نجمع فيها سكرَ عام
إن شربناها فقد تشربُنا
أو سكبناها فقد تسكبنا
فى الهوى روحين فى كأسٍ وثام

***

جدد الذكرى وقرّب لى العِيان
فهما يا صاحبى بين يدىّ
حضرا الساعة يا صاح لدىّ
ربة الذكرى وذكراها قران

***

هات لي الذكرى أراها وترانى
غضةً ملموسة فى راحتىْ
حلوة معسولة فى شفتىْ
جنةً تنبت فى كل أوان

***

جنتى لا حيّةٌ تخرجنى
أبداً منها ولا أحياؤها
لا ولا إبليس أو حواؤها
أنا فيها خالد كالزمن

***

أنا منها وهى منى فى الضمير
فإذا فارقتها بالنظر
لم يفارقها ضميرى عُمُرى
وله العصمة من مس السعير

***

سنةٌ كان لها نجم فريد
هات منها أيها النجم وهات
سنةً ثانيةً بل سنوات
ولنا منك مزيد المستزيد

***

أنت يا نجم معيدٌ ما تشاء
لا السموات ولا داراتها
غُنيةٌ عنك ولا أوقاتها
أنت ميقات وشمس وسماء

***

أنت تدنيها سماء زلَفا
تنسج الوقت لنا منفردين
لا مشاعا كنسيج النيِّرين
بل لنا طوع يدينا وكفى

عباس محمود العقاد

أخبار سلم الخاسر

للأستاذ حسن خطاب الوكيل

هو سلم بن عمرو مولى بنى تيم بن مرة ثم مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وكان من سبب تسميته بالخاسر أنه ورث عن أبيه مالاً كثيراً — مائة ألف درهم — أنفقها كلها فى طلب الشعر والأدب والموسيقى . كما أنه ورث مصحفاً من أبيه كان لجده من قبل فباعه واشترى بثمنه طنبوراً ، فلذلك لقبه بعض أهله وجيرانه بالخاسر وقالوا أنفق ماله على ما لا ينفعه . فأسرها سلم فى نفسه ولم يبدها لهم . ومضى فى سبيله يجد فى طلب الشعر وراويه ، والأدب وذويه ، حتى حاز قصب السبق وصار علماً من أعلامه ، وشاعراً مطبوعاً متصرفاً فى فنون الشعر ، وراوية لبشار ابن برد أستاذه ، وعنه أخذ ، ومن بحره اغترف . ومدح الملوك والأمراء ، وتحدى الشعراء . ومن محاسن الصدف أنه مدح المهدى العباسى بقصيدة فأعجب بها وأمر له بمائة ألف درهم ، وكان المهدى على علم بسبب تسميته بالخاسر ، فقال خذ هذا المال وكذب به جيرانك ؛ فجاءهم سلم بالمال وقال لهم هذه المائة ألف درهم التى أنفقتها وربحت الأدب . فأنا إذاً سلم الرابح لا سلم الخاسر

وحدث أن أستاذه بشار بن برد بعثه إلى عمر بن العلاء بقصيدة مدحه بها وهى التى يقول فيها :

إذا نبهتك صعاب الأمور فنبه لها عمراً ثم نم

فلما جاءه سلم بها وأنشده إياها أمر عمر بن العلاء بمائة ألف درهم لبشار بن برد ؛ فلما رأى سلم المال الموهوب لأستاذه بشار تحركت نفسه وتلمظت شفتاه إلى نيل جائزة له أيضاً . فقال لعمر بن العلاء إن خادمك — يعنى نفسه — قد قال فى طريقه إليك قصيدة فيك . فقال له عمر — فإنك لهناك — فأجابه سلم . تسمع ثم تحكم ، فقال عمر هات فأنشده قوله :

قد عزنى الداء فمالى دواء مما ألاقى من حسان النساء

قلب صحيح كنت أسطو به أصبح من سلمى بداء عياء

أنفاسها مسك وفى طرفها سحر ومالى غيرها من دواء

إلى أن قال :

كم كربة قد مسنى ضرها ناديت فيها عمر بن العلاء

فأعجب بها عمر وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكانت عطية سنية لم تخطر له ببال

وكان من خبره أنه حدث بينه وبين أستاذه بشار فتور وانقطاع بسبب أنه أخذ معنى لبيت من شعر بشار وصاغه فى بيت له قضى به على بيت بشار وسارت بحديثه الركبان ، وأصل البيت من قصيدة لبشار :

لا خير فى العيش إن دُمنا كذا أبداً

لا نلتقى وسبيل الملتقى نهج

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم ما فى التلاقى ولا فى غيره حرج

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فعمد سلم الخاسر إلى البيت الثالث وصاغه هكذا :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور

فبينا بشار بن برد فى منزله إذ دخل عليه أبو معاذ النميرى فقال له : لقد قال سلم الخاسر بيتاً من الشعر هو أحسن وأخف على الألسن من بيتك ، فقال له بشار وما هو ؟ أنشدنيه . فأنشده قول سلم :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور

فقال بشار : سار والله بيت سلم وخمل بيتنا . وكان كذلك إذ لهج الناس ببيت سلم وصار مثلاً من الأمثال السائرة ؛ أما بيت بشار فلم يتمثل به أحد ؛ فغضب بشار من سلم وحلف ألا يدخل عنده ولا يفيده ولا ينفعه ما دام حياً . فلما علم سلم بذلك وطال عليه جفاء أستاذه شق عليه ذلك فاستشفع إليه بكل صديق له ، وكل من يثقل عليه رده ، فكلموه فيه ؛ فبعد اللتيا والتى قال بشار : أدخلوه إلى ، فاستدناه ، فلما كلمه قال : إيه يا سلم ! من الذى يقول : من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... الخ . قال سلم : أنت يا أبا معاذ ، جعلنى الله فداك . فقال بشار : فمن الذى يقول :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور

قال سلم تلميذك وخريجك وعبدك يا أبا معاذ

فاجتذبه بشار إليه وقنعه بمخصرة كانت بيده ثلاثاً وقال له : يا فاسق ! أتجيء إلى معنى قد سهرت له عيني، وتعب فيه فكري، وسبقت الناس إليه ، فتسرقه ثم تختصره لفظاً تقربه به لتزرى على وتذهب ببيتي ؟ فحلف له سلم ألا يعود لشيء مما يكرهه وينكره منه ، فرق له ورضى عنه

ومن طريف ما حدث لسلم الخاسر أن أبا العتاهية حقد على سلم وحسده على ما يناله من الحظوة والجوائز عند الملوك والأمراء فأرسل إليه ببيتين من الشعر يرميه فيهما بالحرص وهما :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تصير إليك عفواً أليس مصير ذاك إلى الزوال

فلما قرأهما سلم غضب من أبي العتاهية وقال : ويلى على الجرار ابن الفاعلة الزنديق ! زعم أنى حريص وقد كنز البدر وهو يطلب المزيد ، وأنا في ثوبيّ هذين لا أملك غيرهما ، ولما سرّى عنه كتب إليه هذه الأبيات :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزّهد الناس ولا يزهد

لو كان فى تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجد

ورفض الدنيا ولم يلقها ولم يكن يسعى ويسترفد

يخاف أن تنفد أرزاقه والرزق عند الله لا ينفد

الرزق مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسود

كل يوفى رزقه كاملا من كف عن جهد ومن يجهد

***

هذا فصل فى الكلام قد ساق إليه البيان عن بعض أخبار سلم الخاسر تفكهة للقراء ، ولنتخذه دليلاً ثانياً وحجة ناصعة فى إثبات أن الجزء الحادى والعشرين من كتاب الأغانى هو من الأغانى ، وسبق أن قدمنا فى حجتنا بقصة إسحاق الموصلى وغلامه زياد ، وأنها لم تذكر إلا فى الجزء الحادى والعشرين منه وأقرها ابن منظور فى مختصره « الأخبار والتهانى » ، فكذا هنا قصة مسلم الخاسر مع أهله وجيرانه ، وسبب تسميته لم تذكر إلا فى الجزء الحادى والعشرين من الكتاب ، وهى بطبيعة الحال جاءت فى مختصر الأغانى (حرف السين) ، ولولا ذهاب المخطوطات إلى الخابى لأتينا بالنص كما هو مدون فى محله ، والله يهدى السبيل

حسن خطاب الوكيل

المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الانجليزى ادورد وليم لين

للأستاذ عدلى طاهر نور

مقدمة المؤلف — القاهرة سنة ١٨٣٥

فى زيارة سابقة للقاهرة قصدت بها — على الأخص — دراسة اللغة العربية فى أشهر مدرسة، جعلت أكثر همى ملاحظة شمائل المصريين المسلمين وعاداتهم؛ وسرعان ما أدركت بعد معاشرة هذا الشعب سنتين ونصف سنة أن كل ما أمكننى الحصول عليه سابقاً من الأخبار المتعلقة بهم، لا يكفى ليكون ذا فائدة كبيرة لمن يَدْرُس الأدب العربى، أو ليقضى حاجة القارئ العادى. لذلك رغبت فى تدوين الملاحظات عن أشهر عاداتهم لأستزيد لنفسى من جهة، ولأستطيع أن أزيد فى معرفة مواطنى بالطبقات المتحضرة لأمة من أهم أمم العالم من جهة أخرى، وذلك برسم صورة مفصلة عن سكان أكبر مدينة عربية. إلا أن زيارتى الأولى لم تكف لبلوغ هذا الغرض مع متابعة دروسى الأخرى، فصرفت النية عن نشر ما قيدته عن المصريين المحدثين. وبعد خمس سنوات من عودتى إلى انجلترا عُرِضت هذه المذكرات على بعض أعضاء من لجنة جمعية نشر المعارف المفيدة Commettee of the Society for the diffusion of useful knowledge فاستحسنوها وأوعزوا إلى اللجنة أن تعنى بموضوعاتها، وطرافة بعض محتوياتها، فعهدت إلىَّ تكملتها ثم طبعها. وقد كان ذلك حافزاً لى على قبول النصيحة ومتابعة العمل. وفى أقرب فرصة عدت ثانية إلى مصر. وبعد أن أتممت أكثر من سنة فى عاصمة ذلك البلاد، ورحلت نصف سنة فى الوجه القبلى، أتممت — بقدر ما استطعت — العمل الذى تعهدت به

قد يقال إن القارئ الإنجليزى استفاد من كتاب الدكتور رَسل Russel عن أهل حلب وصفاً صادقاً لشمائل العرب وعاداتهم؛ ولا أحب أن أمس أمانتى الكتابية التى أديها بمحاولة التقليل من المزايا الحقيقية لهذا الكتاب القيم؛ ولكن يجب أن أؤكد أن الكتاب فى مجموعه قد وصف العادات التركية أكثر مما وصف العادات العربية، وأن المؤلف الأصلى وأخاه الذى ندين له بالطبعة المزيدة المنقحة، لم يكونا يعرفان اللغة العربية معرفة كافيـة لإتمام النظر فى بعض ما يقتضى وضع الكتاب معالجته من الموضوعات المهمة، ولم يكن منصبهما المعروف فى حلب ولا شعورهما الوطنى يسمحان لهما أن يتنكرا هـذا التنكر الضرورى الذى يمكنهما من إيلاف الكثير المهم من الحفلات الدينية، والأفكار الاجتماعية، والأساطير الشعبية، التى قاما بوصفها. فنقص الملاحظة هو الخطأ الوحيد الذى استطعت أن أكشف عنه فى كتابهما العلمى الجليل

أما ظروفى فكانت غير ذلك. فقبل قدومى الأول إلى هذا البلد شدوت شيئاً من العلم بلغة العرب وآدابهم. وكنت أستطيع — بعد سنة من قدومى — أن أتحدث إلى الشعب الذى كنت أعيش بين أفراده فى شىء من السهولة. وقد عايشت بصفة خاصة مسلمين من جميع الطبقات؛ وأخذت إخذَهم فى الحياة العامة. وكنت أصرح دائماً أننى أوافقهم على آرائهم كلما سمح بذلك ضميرى اكتساباً لصداقتهم وإخلاصهم؛ وفى أحوال كثيرة أخرى أمسكت عن مخالفتهم فى الرأى، بقدر ما امتنعت عن أى عمل ينفرون منه. فأمسكت عما يحرمه دينهم من الطعام والشراب، وتركت ما لا يألفونه من العادات والأساليب: كاستعمال الشوك والسكاكين. واستطعت بفضل ألفتى لحفلاتهم الدينية العامة أن أشاهد أعيادهم وطقوسهم، من غير أن أثير الشك فى أننى أجنبى لا يحق له التدخل فى شؤونهم. وبينما كان العامة يظنوننى تركياً — من ملابسى التى وجدتها أكثر ملاءمة لى —

كان أصدقائى يعرفون طبعاً أننى إنجليزى . ولكنى ألزمتهم أن يعاملونى معاملة المسلم باعترافى مختاراً بأثر العناية الإلهية فى ظهور الإسلام وانتشاره، وبإقرارى، عند ما أسأل، باعتقادى فى المسيح طبقاً لما جاء فى القرآن من أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . وهكذا حسن رأيهم فىَّ وقويت ثقتهم بى، ولكن إلى حد لم يغننى عن مجابهة بعض الصعاب. والمسلمون يكرهون أن يبوحوا بشىء يتعلق بدينهم أو بأساطيرهم للذين يشتبهون فى أنهم يخالفونهم فى العاطفة؛ ولكنهم لا يأبون الكلام فى هذه الموضوعات مع من يعتقدون أن بينه وبينهم معرفة وألفة . لذلك كنت أعمد إلى سؤال الذين هم أكثر تساهلاً وأقل علماً لأجل الذين هم أوسع معرفة وأضيق صدراً على الكلام فى المسائل التى أريدها . وبهذه الطريقة نجحت فى التغلب على ترددهم . وكان لى أستاذان للعربية وآدابها، وللدين الإسلامى وفقهه ، يدرسان لى بانتظام وبأجر . وكنت أسألهما عما أشك فيه لأحقق ما سمعته فى أحاديثى مع أصدقائى ، أو أصححه أو أضيف إليه . وأحياناً كنت أتصل بالسلطات العليا ، وكان من دواعى غبطتى أن أعد بين أصدقائى فى هذه المدينة بعض رجال بلغوا شأواً بعيداً فى المعارف الشرقية

وربما يفيد القارئ أن أعرفه بأحد معلمىَّ اللذين أشرت إليهما آنفاً، وأن أبين له فى الوقت نفسه كيف كان كثيره من مواطنيه ينظر إلىَّ : ذلك هو الشيخ أحمد (أو السيد أحمد ، لأنه من طبقة « الأشراف » الكثيرة العدد : أى من سلالة النبى) وكانت سنه تربى على الأربعين باعترافه ، ولكن يبدو عليه أنه يناهز الخمسين . وكانت سحنته وخلقته تستحقان الذكر : كان ربعة إلى القصر ، وكان أصهب اللحية قد وشمها الشيب . ويظهر أن العور قد أصابه منذ سنوات عديدة . وهو يكحل عينيه فى المناسبات الخاصة ولا سيما فى عيدى الفطر والأضحى. والكحل قلما يستعمله غير النساء . وهو لا يفتخر بانتمائه إلى الرسول فحسب ، بل يتمدح كذلك بانتسابه إلى الولى المشهور الشعراوى[1] . وبشرته الصافية تؤيد ادعاءه أن أجداده عاشوا منذ أجيال فى مناطق أفريقيا الشمالية الغربية . وكان يعيش على ميراث قليل مع اتجاره فى الكتب . وكان يزورنى كل ليلة تقريباً لينتفع من مهنته من ناحية ، وليجتمع بى ، أو ليتحدث إلىَّ للتدخين وشرب القهوة من ناحية أخرى

وكان قبل احترافه تجارة الكتب وراثةً عن أبيه، قد قضى بضع سنوات لم يحترف فيها غير الذكر فى الحفلات الصوفية . والذكر عبارة عن جماعة يقفون مترنحين يرددون اسم الله وصفاته الخ . وهو لا يزال إلى اليوم يقوم بهذا العمل . وكان حينئذ درويشاً فى الطريقة السعدية ، وأهل هذه الطريقة معروفون على الأخص بأكل الثعابين الحية . ويقال إنه كان واحداً من آكلى الثعابين ، ولكنه لم يقصر نفسه على أكل بهضم بمثل هذه السهولة . ففى ذات ليلة بينما كان فريق من أهل طريقته فى حفل حضره شيخهم ، اعترت صديقى جذبة ، فخطف زجاجة طويلة كانت تحيط بقنديل موضوع على الأرض وأكل جزءاً كبيراً منها . . . فدهش الشيخ والدراويش الآخرون ، ونموا عليه خروجه على نظم الطريقة ، لأن أكل الزجاج لم يكن من الكرامات التى كان يسمح لهم باظهارها . ثم طردوه فى الحال ، فدخل فى الطريقة الأحمدية .

ولما كان أهل هذه الطريقة هم أيضاً لا يأكلون الزجاج ، فقد عزم على ألا يعود إلى فعلته مرة أخرى ... غير أنه بعد ذلك بقليل أخذته هذه الجذبة فى اجتماع بعض الإخوان من أهل الطريقة وفى حضرة كثير من رجال الطريقة السعدية ، فوثب على شمعدان وقبض على مصباح من مصابيحه الزجاجية الصغيرة ، فابتلع نصفه وشرب ما فيه من الزيت والماء . فقادوه إلى شيخه ليعزره على هذا التعدى ، ولكنه أقسم ألا يعود إلى أكل الزجاج أبداً ، فعفا عنه وأبقاه فى الطريقة . وعلى الرغم من حلفه اليمين لم يلبث أن عاد إلى ديدنه من أكل الزجاج . وقد حاول أحد الحاضرين من الإخوان أن يقلده فنشبت قطعة كبيرة من الزجاج بين لسانه وسقف حلقه، وقد شق على صديقى أحمد استخراجها . فأعيد ثانية إلى شيخه ، ولما لامه على الحنث بقسمه والرجوع فى توبته أجاب بهدوء : أتوب مرة أخرى . وما أحسن التوبة ، لأن الله قال فى

(١) هكذا ينطق عادة ، بدلا من الشعرانى

كتابه العزيز: « إن الله يحب التوابين » فصاح الشيخ مغتاظاً: أتجرؤ على هذا التصرف ثم تستشهد بالقرآن أمامي؟ » ثم أمر بعد هذا التوبيخ أن يسجن عشرة أيام. ثم طلب منه القسم مرة أخرى على أن يمتنع عن أكل الزجاج وبهذا سمح له بالبقاء في الطريقة الأحمدية؛ وقد حرص على أن يبر بقسمه هذه المرة

وقد قص عليّ هذه الوقائع مَن كان مكلفاً بمراقبته من الإخوان ثم اعترف لي هو بعد ذلك بحقيقتها

وقد عرفت الشيخ أحمد قانعاً بزوجة واحدة من زمن طويل؛ إلا أنه سمح لنفسه الآن بزوجة أخرى[1] استمرت تعيش في منزل أهلها. ومع ذلك فقد اهتم بأن يؤكد لي أنه ليس من الغنى بحيث يرفض الكسوة السنوية التي أهديها إليه. وفي زيارتي الثانية لمنزله أثناء إقامتي الحالية في هذا المكان حضرت أمه لدى باب الغرفة التي كنت جالساً فيها معه، لتشكو إليّ سوء عمله باتخاذه زوجة جديدة. وكانت تشير بيديها من خلال الباب بالحركة اللائقة ليكون لكلامها تأثير؛ أو لعلها كانت تريد أن تظهر جمال راحة اليد وأطراف البنان المخضوبة بالحناء الرطبة. إلا أنها كانت تستر شخصها، فأخذت تناشد شعوري بقوة وتقول:

« يا أفندي! إني أضع نفسي تحت رحمتك! أقبل قدميك! لا أمل عندي إلا في الله وفيك »

فقلت لها: « ما هذا الكلام يا سيدتي؟ أي مصيبة أصابتك؟ وماذا أستطيع أن أصنع لك؟ أخبريني »

فاستمرت تقول: إبني هذا، إبني أحمد، شخص لا قيمة له. له زوجة طيبة، عاش معها سعيداً على بركة الله ستة عشر عاماً. وها هو الآن يهملها ويهملني ويتخذ زوجة أخرى صغيرة السن قليلة الحياء ... وهو يبدد نقوده على هذه القردة وعلى غيرها من أمثالها، وينفق على أبيها وأمها وأعمامها وأخيها وأولاد أخيها، ولا أعلم من عداهم، ثم يقصر في حقنا — أنا وزوجته الأولى — ولا يوفر لنا الراحة التي تعودناها من قبل ... والنبي! ورأسك الغالي! إنني أقول الحق ... أقبل قدميك، أرجوك أن تلح في تطليق زوجته الجديدة ...

وكان الرجل المسكين أثناء مخاطبة أمه لي من وراء الباب ينظر بغباء، وما كادت تذهب حتى وعد بتحقيق رغباتها ... ثم قال: على أن المسألة صعبة، فقد كنت متعوداً أن أنام أحياناً في منزل شقيق البنت التي تزوجتها أخيراً، وهو يشتغل كاتباً عند عباس باشا ... ومنذ أكثر من سنة، أرسل عباس باشا في طلبي وقال: سمعت أنك تنام غالبا في منزل كاتبي محمد ... لماذا تفعل هذا؟ ألا تعلم أن هذا غير لائق وفي المنزل نساء؟ ...

فقلت: سأتزوج من أخته ...

فسألني الباشا: إذاً لماذا لم تتزوجها من قبل؟

— لأن سنها تسع سنوات فقط!

— هل عقد العقد؟

— لا ...

— ولم لا؟

— ليس في قدرتي الآن دفع المهر

— وما مقدار المهر؟

— تسعون قرشاً. فقال الباشا

— هاك إذاً النقود ... وليعقد العقد حالاً

فهكذا تراني أنني اضطررت إلى التزوج من البنت، وأخشى أن يغضب الباشا إذا طلقتها؛ ولكني سأتصرف تصرفاً يجعل أخاها يشدد في طلب الطلاق، ويومئذ أعود ثانية إلى عيش السلام والهدوء. وهذا مثل طيب للراحة التي ينعم بها من يتزوج اثنتين!

ومنذ وقت قريب عرض علي نسخة من القرآن لأشتريها، وظن من الضروري أن يلقي إليّ بعض المعاذير. وقد لاحظ أنني من طول ما ألفت طقوس المسلمين أقر ضمناً أنني واحد منهم، وأن من الواجب عليه أن يعتبرني أحسن اعتبار، وأنه يفعل ذلك مطمئن النفس، لأنه يعلم أن اعتقادي ملاءمة بالإسلام يُغضب عليّ مليكي، وأنه لأجل ذلك لا يمكنني أن

---

(١) وقد قال لي إنه تزوج أكثر من ثلاثين مرة، ولكني أعتقد أنه يبالغ كثيراً

أفعل هذا[1] وقال لي « : إنك تحييني بقولك : السلام عليك . فلا أكون آثماً لو قلت أنك كافر ، لأن الله عز اسمه قال : ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » . ثم أضاف إلى ذلك قوله : « وعلى هذا ليس حراماً أن أضع بين يديك القرآن الكريم . ولكن من مواطنيك من يأخذه بيده القذرة ، بل ويجلس عليه . وأنا أستغفر الله من مثل هذا الكلام وأستبعد أن تفعل هذا وأنت والحمد لله تعرف أنه : « لا يمسه إلا المطهرون » وتراعيه . وفي مرة أخرى باع نسخة من القرآن بناء على طلبي لمواطن لي ؛ وفي أثناء انعقاد الصفقة دخل الغرفة إنسان ، فانزعج مواطني وأسرع فوضع الكتاب على المقعد وخبأه بجزء من ملابسه . فأخجل هذا العمل الكتبي ، وظن أن صديق جلس على الكتاب ، وأنه يفعل هذا احتقاراً له ؛ فلم يخف باعتقاده أن الله سيعاقبه أشد عقاب على هذا البيع الحرام ؛ وكان هناك شيء واحد صعُب عليّ أن أقنعه بعمله أثناء زيارتي السابقة لهذا البلد ؛ وهو أن يذهب معي في وقت خاص إلى مسجد الحسنين — وهو المدفن المشهور لرأس الحسين — وأقدس المساجد في العاصمة المصرية . وبعد ظهر يوم من أيام رمضان كنت أمشي وإياه أمام أحد أبواب هذا الجامع ، وكان ساعتئذ يغص بالأتراك ، وكثير من سكان المدينة العظماء بين الحشد ... فظننت أنها مناسبة طيبة لأشاهده من كثب ، وطلبت من رفيقي الدخول معي فرفض بحزم خوفاً من أن يُعرف أنني انجليزي ، وكان من الممكن أن يثير ذلك غضب المتعصبين من الأتراك الموجودين هناك فأعرض نفسي إلى بعض الأذى . فدخلت وحدي وبقي هو بالباب يتبعني بعينه الوحيدة متعجباً من جرأتي ؛ فلما رآني عارفاً بالأساليب العادية : أطوف حول الستر البرنزي المحيط بالضريح ، وأقوم بأوضاع الصلاة المنتظمة ، دخل وأقام صلاته بجانبي

وأود بعد سرد هذه الحكايات أن أذكر أن أخلاق أصدقائي الآخرين لا يلاحظ عليها مثل هذا الشذوذ . وكان استقبالي لضيوفي لا يخرج عن عادات الضيافة الشرقية المألوفة . كنت أقدم إليهم الشبك والقهوة وأدعوهم إلى مشاركتي الغداء أو العشاء . وقد كتبت الكثير من أخبارهم بالعربية بإملائهم ثم ترجمتها إلى الانجليزية ونشرتها في هذه الصفحات

والقصد الأول من وضع هذا الكتاب هو تمحيص الأشياء وتحقيق الحوادث ؛ فلم أضح بالحقيقة في سبيل تجميل القصة . أما الصور التي نشرت فيه فقد رسمتها للشرح لا للزينة .

(يتبع) عدلي طاهر نور

(١) من الاعتقادات الشائعة لدى المصريين أن كل سائح أوربي يزور بلادهم يكون رسولا من ملك بلاده ، ومن الصعب إقناعهم بالعكس إذ هم يستغربون تعرض الشخص لكثير من المضايقات والنفقات بقصد الحصول على معارف الأمم الأجنبية .

حول التعليم الإلزامي

هؤلاء الجنود المجهولون

للأستاذ محمد كامل حتة

إلى الأستاذ الجليل صاحب الرسالة

ليس عجيباً أن يجرى قلمك فى قضية المعلم الإلزامى بما جرى به من البيان الرائع والدفاع المحكم والحجة البالغة ؛ فإن هذا القلم الذى وقفته على نصرة الحق فى جميع صوره وقضاياه خليق بأن يكون له فى هذه القضية بلاء يزلزل جوانب البغى ، ويفضح مسارب الهوى ، ويسفر عن أوجه الحق وضيئة ساطعة !

إن قضية المعلم الإلزامى ، هى فى الواقع ومع النظر الدقيق ، ليست إلا قضية الأجيال المقبلة التى تتكون على يديه وتنطبع على غراره . وليس من اليسير أن نتصور حياة هذه الأجيال ومظاهر وجودها شيئاً منفصلاً عن حياة هذا المعلم الإلزامى ومظاهر وجوده . ومن هنا كان الوضع الحاضر للمعلم الإلزامى جريمة فى حق الشعب الذى تتصايح الدعوات فى كل مكان بالحرص على مستقبله والرغبة فى إنصافه وإسعاده . وكان المقياس الصادق للوطنية فى مصر ما يبذل فى سبيل المعلم الإلزامى من جهود مخلصة ، تهيئ له النهوض بأعبائه الثقال فى مكافحة الجهل والفقر والمرض والانحلال ، وتنشئة الأجيال القادمة على الصورة التى تتحقق بها معانى الوجود ومقومات الحياة ...

أما أن يضيق على المعلم الإلزامى فى الرزق ، حتى لا يكاد يقيم أوده ويستمر مظاهره ويلحق بقافلته ؛ ثم يحمل من الأعباء الثقال عملاً مرهقاً وحساباً عسيراً وتقديراً مجحفاً ، ثم تتكأكأ عليه التهم الجائرة والدعايات النكراء ، فتلك إساءات مؤذية ، أهون مظاهرها أن تصيب أشخاص المعلمين الإلزاميين وأسرهم ، وأخطر حقائقها أنها تصيب الشعب فى آماله ومستقبل أجياله ؛ لأن هذه الأجيال لن تكون إلا صورة مضطربة من هذه الحياة الشقية التى يحياها أولئك المعلمون ، مهما حبرت وزارة الشئون الاجتماعية فى مجلاتها من الصحائف ، ومهما افتنت فى وضع البرامج الأخاذة والمشروعات الوشاة ، ومهما تباكى أدعياء الإصلاح غيرة على مستقبل هذا الشعب البائس المحروم !

ولعل من الحقائق المؤلمة أن التراث الذى أورثتنا إياه القرون المتعاقبة على مصر قد وضع المعلم الإلزامى فى مركز دقيق جعله هدفاً لكثير من الأفراد والجماعات ، ترى فى وجود هذا المعلم وفى طبيعة عمله خطراً تخشى مغبته على كثير من الأوضاع التى يرزح الشعب تحت أثقالها ، ولا حياة لهؤلاء الأفراد والجماعات إلا فى ظل هذه الأوضاع الجائرة ؛ ومن هنا كانت الحملات على المعلم الإلزامى فى كثير من الأحيان حملات مغرضة ، تلبس ثوب الحق وهى من صميم الباطل ، وتتظاهر بالإصلاح وهى ترمى إلى الهدم ؛ وقد انساق فى هذا التيار الجارف كثيرون عن حسن قصد وبراءة ضمير ، من غير أن يفطنوا إلى هذه البواعث الخفية ومن غير أن يبذلوا فى سبيل الإصلاح ما ينبغى من جهود ...

ومن الأمور التى تستوقف النظر وتدعو إلى التفكير الطويل أن فى وزارة المعارف ثلاثة رجال بأيديهم مقاليد الأمر فى هذه الوزارة التى تتولى شئون التعليم الإلزامى ، وكلهم قد أبلى فى بحث هذه المشكلة البلاء العظيم ، واستطاع أن يلمس مواطن الداء ويقرر وسائل العلاج ، وأن تكون له آراء جديرة بالتنفيذ لإصلاح حال المعلم الإلزامى الذى يتوقف على صلاح حاله صلاح المجتمع الذى يعيش فيه ، ومع هذا فإن تلك الآراء القيمة التى سجلها هيكل وطه والسنهورى فى صحائف الكتب والمجلات ، لم يكن حظها على أيدى أصحابها وقد مكنتهم الأقدار من العمل والتنفيذ ، أكثر من حظ ما يسطره كاتب مثلى قد تعوزه القدرة على إعلان رأيه ، قبل أن تعوزه القدرة على تحقيق الرأى الذى يريد !

إنى لأشفق على مشكلة التعليم الإلزامى فى وزارة المعارف إذا لم تحل فى عهد هؤلاء الثلاثة الذين ارتبطوا بمناهج قويمة فى الإصلاح ، وإلا فهل من اليسير أن تجود الأيام بمجموعة كهذه ، اجتمعت على الرأى المتحد والمبدء المشترك والقدرة المتاحة لتحقيق الآمال ؟

(القاهرة) محمد كامل حتة

ليالى القاهرة

الكأس ...

للدكتور ابراهيم ناجى

لا تَبْكِهَا ذَهَبَتْ وَمَاتَ هَوَاهَا … فى القَلْبِ مُتَّسَعٌ غداً لِسِوَاهَا
أَحْبَبْتُهَا وَطَوَيْتَ صَفْحَتَهَا وكم … قرأ اللبيبُ صحيفةً وطَوَاهَا
يا شاطئَ الأحزانِ كم من موجةٍ … هبها ارتطامة موجةٍ وصداها
تلك الوليدةُ لم تطلْ بشراها … لمّا تكدْ تطأُ الثرى قدماها
زفَّ الصباحُ إلى الرمالِ نداءها … وسرى النسيمُ عشيةً فنعاها
هاتِ اسقنى واشربْ على سِرِّ الأسى
وعلى صبابةِ مهجةٍ وجواها !
مهلاً نديمى كيف ينسى حبَّها … مَن ينشدُ السلوى على ذكراها
ما زلتَ تسقينى لتنسينى الجوى … حتى نسيتُ فما ادّكرتُ سواها
كانت لنا كأسٌ وكانت قصةٌ … هذا الحبابُ أعادها ورواها
كأسى وشمسُ هواىَ ، والساقى الذى
عصرَ الشعاعَ لمهجتى وسقاها
الآن غشاها الضبابُ وها أنا … خلفَ المدامعِ والهمومِ أراها
غال الفناءُ حبابها وضبابها … وتبخرتْ أحلامُها ورؤاها !

ابراهيم ناجى

من الشعر الرمزى

فى مفرق الطريق

للأستاذ سيد قطب

بين نفسين من النفوس الكثيرة التى تعيش فى الانسان الواحد متفرقة فى بعض الأحيان . دار هذا الحوار . . .
فأما إحداهما فتتعلق بماض عزيز لا رجعة له ولا أمل فيه ، وأما الأخرى فتنزع إلى العزاء بالتطلع إلى جديد :

أنتَ أوغلتَ فى الظلامِ طويلا … فمتى يا رفيقُ تبغى القفولا ؟
شدَّ ما آدنا التخبط فى الليل … وخفنا ظلامه المدخولا !
ورأينا الأوهامَ تبدو شخوصا
ورأينا الشخوصَ تبدو هيولى
وخبرنا فلم نفدْ باختبار … وسخرنا مما خبرنا طويلا
يا رفيقى . إذا قدرتَ فأوِّبْ … إن هذا الظلام يضنى العقولا

***

أنا أخشى الضياء أبصر فيه … ذكرياتى تبدلت تبديلا
أنا أخشى النهارَ يكشف عنى … كلَّ وهمٍ أرودُه تعليلا
أنا يا صاحبى أشيحُ بوجهى … أن أرى عهدنا تردَّى قتيلا
أنا يا صاحبى أدافعُ عقلى … أن يرودَ اليقينَ جهماً ثقيلا
الظلام الظلام أروحُ للقلب … ولو كان لا يريح العقولا !

***

يا رفيقُ . الحياةُ أسمى وأغلى … أن تُقضَّى كذاك وهماً ضئيلا
يا رفيقُ . الحياةُ أقصرُ عهداً … أن تُضحَّى ساعاتها تخييلا
أُبْ من الظلمةِ الحبيبةِ واهجرْ … كلَّ ما كان فى الحياة الأولى
وتطلَّعْ إلى جمالٍ جديدٍ … أفلمْ تلقَ فى الحياةِ جميلا ؟
عِشْ بما قد وهبته من حياة … مستثارَ الإحساس نهماً عجولا

***

آهِ يا صاحبى . أتجهلُ أنى
أفقدُ الدارَ[1] إن فقدتُ الطلولا
ذاك عهدٌ أنفقتُ فيه رصيدى … كلَّهُ لم أُبقِّ منه قليلا
أتراني أجدِّدُ الذخرَ والعمرُ (م) مُوَلٍّ والجهدُ أمسى هزيلا ؟
أنا باقٍ هنا فإن شئتَ دعنى … وردِ الكونَ حافلا مأهولا
أنا باقٍ هنا أرودُ طلولى … لم أعدْ بعدُ أستطيبُ القفولا !

(حلوان) سيد قطب

(١) أل هنا الجنس . والمعنى : أنى أفقد جنس الدار كله لو فقدت هذه الطلول . إذ ليست هناك دار لى سواها



من سوء الترجمة أيضاً . . .

تكلمت فى العدد ٤١٨ من الرسالة على قولهم (من جديد) وأوضحت أن هذا التركيب مما جناه جهلة المترجمين ، وأن كتابنا وبلغاءنا قبلوه من غير تفكير ولا بحث ، فوشج بلغتنا[1] ، وعاد مما لا يستطاع استئصاله منها — كغيره من الطفيليات التى أغارت عليها — إلا بطويل جهاد وكبير عناء

ثم تذكرت بعد أن كتبت تلك الكلمة أنى كنت قد قيدت فى كناشتى طائفة مما فشا بيننا من أمثلة سوء الترجمة . فعدت إليها ، وتخيرت منها ما أرجو أن أوفق لنشره فى هذه المجلة كلما ساعفت الفرصة

فمن ذلك استعمال « عَبْر » (مصدر عبَر النهر وغيره : إذا قطعه إلى الجانب الآخر)[2] ترجمة للكلمة الإنجليزية (across) لحملوها فى نسج الكلام ظرفاً — كما يصنع الإنجليز بكلمتهم — فأخرجوها عن معناها ووضعها اللغوى بلا مسوغ مطلقاً[3]

وكثيراً ما نراها هكذا فى البرقيات والتعليقات الحربية ، وفى وصف الغارات والحركات العسكرية ، وفى الخطب السياسية وغير ذلك

وأنى مورد لهذا الاستعمال الخاطئ ثلاثة أمثلة قبستها من الصحف ، ليتضح بها المقام[4]

١ — ومن زمن قريب ادعت اليابان لنفسها حق مرور قواتها (عَبْرَ) شمال الهند الصينية

٢ — وسنواصل كل شهر قذف . . . بالقنابل الشديدة الانفجار ، كما فرغت مصانعنا من إخراج طائراتنا الضخمة ، أو جاءت إلى هنا (عبر) الأطلنطى

٣ — لهذا وصلوا بين باكو وباطوم (عبر) القوقاز بأنابيب[5]

(فظرفية) « عَبْر » المقتملة واضحة فى هذه المقتبسات ، يدل عليها متعلق (الظرف) فى كل

وقد يسبق إلى الوهم أن هذا العبث مما يمكن تخريجه على وجه صحيح : كأن يحمل مثلاً على حذف عامل المصدر

ولكن قليلاً من التأمل فيما أسلفت من الأمثلة وفى غيرها يذهب بهذا الوهم . على أن قواعد حذف عامل المصدر وأمثلته مبسوطة مفصلة فى موضعها . وليس هذا مما يدخل منها فى باب أو يمت له بصلة

(ع . ا)

(١) وشج به : علق به واشتبك .

(٢) والعبور مصدر له أيضا ، وهو أشهر .

(٣) كان أول عهدى بهذا الاستعمال فى صحيفة مسائية ، منذ نحو خمسة عشر عاما . وقد لبث حقبة طويلة متباطئا ، لا يكاد يرى إلا فى تلك الصحيفة ثم ذاع وتناولته الأقلام فى مختلف الموضوعات ، ولا سيما الحربى منها والتاريخى والجغرافى

(٤) هذه الفقر منقولة بنصها

أخبار تهم الأدباء

١ — مضت أسابيع وأسابيع ولم نقرأ شيئاً من روائع الأستاذ إسعاف النشاشيبى ، ونحن نرجو أن يكون بعافية ، فهو من أعاظم الباحثين فى هذا الجيل

٢ — الفائزون من شعراء العراق فى المسابقة الشعرية التى أقامتها محطة لندن للاذاعة العربية هم بالترتيب حضرات السادة : عبدالرحمن البناء ، وجميل أحمد الكاظمى ، ومصطفى كامل ياسين . وقد وزِّعت عليهم الجوائز فى حفلة أقامها السفير البريطانى فى بغداد

٣ — والفائزون من شعراء مصر ثلاثة ، كان ثانيهم السيد حسن القاياتى ، وقد تألم من هذه المنزلة « الثانوية » فإن تفضل أحد الموظفين بمحطة الإذاعة المصرية وقدم إلينا أصول القصائد الثلاث فقد نقيم ميزاناً يُنصف السيد القاياتى بعض الإنصاف ، وإن كان يؤذى لجنة التحكيم بعض الإيذاء !

٤ — من بين الذين فازوا بعضوية « جماعة كبار العلماء » اثنان من أدباء اللغة العربية ؛ وهما الشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد عرفة ، ومعنى ذلك أن الأدب يزاحم بمنكب ضخم فى بيئات العلماء

(١) هذه الفقرة من مقال لعالم جليل من علماء الطبيعيات . وقد ضبط (عبر) فيها بالشكل ، ونصبها توكيداً (لظرفيتها)

٥ — لم يفصل وزير المعارف فى استقالة الدكتور طه حسين، ويقال إنه سيعيَّن فى مجلس الشيوخ ، فإن صح هذا النبأ كان فوزاً للسلطة الأدبية ، وذلك بأن التعيين فى مجلس الشيوخ كانت تراعى فيه اعتبارات لم يكن للأدب فيها مكان

٦ — حان الوقت لتقييد أوابد الفصاحة البرلمانية ، فقد وقعت فى الأسبوع الماضى محاورات فى مجلس الشيوخ ومجلس النواب تشهد بأن الفصاحة البرلمانية قد وصلت إلى أبعد حدود التفوق ، وسيأتى يوم تباع فيه مضابط البرلمان فى المكاتب كما تباع أطايب المؤلفات !

زكى مبارك

وفاة طاغور

توفى الدكتور رابندرانات طاغور شاعر الهند وحكيمها فى اليوم السابع من شهر أغسطس ، وقد نعته إلى العالم شركة روتر بما يأتى :

كان السير رابندرانات طاغور الذى أعلنت الآن وفاته فى مقدمة المحبوبين فى العالم وفى الهند، وقد نال جائزة نوبل فى الآداب وألقى محاضرات هبرت فى جامعة أكسفورد سنة ١٩٣٠

ولد فى ٦ مايو سنة ١٨٦١ وتلقى تعليما خاصاً فى القرية التى ولد فيها قبل أن يقيم فى كلكتا . ولما بلغ الرابعة والعشرين ذهب إلى الريف ليتولى إدارة مزارع والده، وهناك بدأ الكتابة لأول مرة . ومن ذلك الوقت كتب نحو ستين ديواناً من الشعر وعدة مؤلفات نثرية منها روايات وقصص صغيرة ومقالات فلسفية وروايات تمثيلية . وكان السير رابندرانات فضلاً عن نظمه الشعر وكتابته النثر مؤلفاً موسيقياً ، فقد نظم أكثر من ثلاثة آلاف أغنية

وفى سنة ٩٣٩ تلقى فى عيد ميلاده الخامس والسبعين رسائل التهنئة من جميع أنحاء العالم وكلها إشادة بفضله كشاعر وروائى وقصصى ومفكر سياسى ومصلح اجتماعى وأستاذ دينى

وفى سنة ١٩٠١ أسس مدرسة فى سانتينكتان تحولت فيما بعد إلى معهد علمى دولى يسمى — فسفا بهاراتى — وكان هذا عمله فى حياته

وقد اشتهر أيضاً بأنه سائح عظيم، فإنه زار انجلترا فى سنة ٩١٢ حيث نقل بعض مؤلفاته البنغالية إلى اللغة الإنجليزية ، وساح فى أوربا مراراً ، وكذلك فى اليابان وروسيا السوفيتية والصين والولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وإيران وكندا ومصر والعراق

ولما بلغ ٦٣ عاماً شرع فجأة يشتغل بالتصوير بالألوان ، وقد أقيم معرض لصوره بلندن فى ديسمبر سنة ١٩٨٣ وكانت هذه الصور خيالية غريبة ، أى ما يدور بعقل الشاعر مرسوماً على الورق

وأقيمت لصوره معارض أخرى فى برمنجهام وموسكو وبرلين وميونيخ وباريس ونيويورك

وقد مرض السير طاغور فجأة مرضاً خطراً بالحرة فى صيف سنة ٩٣٧ ولكنه شفى منه . وبعد ذلك كان لغزو اليابان للصين أثر شديد فى نفسه ؛ وفى أكتوبر سنة ٩٣٧ أذاع رسالة لاسلكية على مواطنيه الهنود – استنكر فيها وحشية الحربيين اليابانيين فى معاملتهم للصين

وبعث إلى يونى ناجوشى الشاعر اليابانى تعنيفاً أدبياً مؤلماً بسبب ضرب اليابانيين للصينيين غير المحاربين بالقنابل

ولما بلغ الثمانين من عمره منحته جامعة أكسفورد درجة دكتور فى الآداب . وقد منحه إياها السير موريس جوير كبير قضاة الهند فى اجتماع خاص عقدته لهذا الغرض جامعة أكسفورد فى قرية سانتينكتان بالبنغال ...

وكان لسير رابندرانات طاغور هيئة وقورة خارقة للعادة ، فكان كبير الجسم عظيم الرأس ، فضى الشعر قد سال على جانبى رأسه فى خصائل كثيفة . وكان جميل الوجه ذا لحية بيضاء طويلة وكان يبدو فى أرديته الطويلة الواسعة كأنه أحد الروحانيين

وكان ذا صوت جميل وقوة لا تقاوم فى الكلام ، وكان كلامه يشع الهدوء والسكينة والخير

ولم ير فى معظم الأحوال إلا مع الأطفال سواء أكانوا هنوداً أم بريطانيين أم صينيين أم يابانيين ؛ فقد كان الأطفال يخضعون فى الحال لقوته الجذابة وحبه لهم .



البيت الهادئ

كتبت في القطار النازح عن الإسكندرية

للأستاذ سعد محمود دوارة

ها هو ذا القطار تتسارع دقاته كأنها خفقات قلب كبير...

وها هي ذي أعمدة التلغراف تتلاحق كأن بينها سباقاً لا نهاية له...

وها هو الثغر الحبيب يختفي وراء الأفق البعيد

القطار مزدحم بالكتل البشرية وكتل المتاع. الناس وجوههم مكفهرة مغبرة، نظراتهم حزينة قلقة. لقد هجروا ديارهم فارين من الموت الذي كان يحوم فوق رؤوسهم، لا حديث لهم إلا ما أصابهم من نقص في الأموال والأرزاق والأرواح.

أمامي سيدة تبكي بكاء صامتاً... تركت زوجها الذي لم يستطع اللحاق بالقطار؛ ولقد حاولت أن تعود إليه، ولكن أنى لها أن تتحرك بين هذه الجموع المحتشدة. إنها لا تعرف أين تذهب ولا كيف تعيش، وهي لا تملك سوى الثوب الذي لا يكاد يستر جسدها

أما هذه الفتاة الهيفاء التي تجلس بجانبي شاحبة كأنها تمثال من الشمع، فهي خطيبتي وفتاة أحلامي «عايدة»

لقد كانت في يوم من الأيام زهرة نضرة تستقبل أشعة الشمس الذهبية وتميل مع النسيم الرخاء... ولكنها الآن بعد أن حطمت قلبها يد القدر القاسية، تبدو واجمة... وقد نفرت مني كأن قلبها لم يخفق في يوم من الأيام بحبي... وإذا التقت عيناي بعينيها نظرت إلى نظرة عتاب شديدة ثم أخفت وجهها كي لا أرى دموعها المنهمرة

***

في تلك الليلة المشؤومة، كنت أنا وعايدة في إحدى دور السينما حين سمعنا زمارات الإنذار ترسل نعيبها الحزين؛ وتسابق

قصص مسرحية للأطفال

القصص من أنفع الوسائل لتهذيب النفوس، وتلقين الناشئين اللغة الصحيحة، ورياضتهم على البيان؛ ومن الممكن أن تكون عوناً للمدرسين على تدريس الحقائق التاريخية في غير عسر، وطريقاً لإتقان فني الإلقاء والتمثيل، وداعية لتآلف التلاميذ وتقوية أواصر المودة بينهم لما تشتمل عليه من حوار مسرحي يصحبه شيء من الحرية التي تخرج بالتلاميذ عن نطاق التعليم الجاف.

ولقد تلوت مؤلَّف الأستاذ (محمد يوسف المحجوب) فوجدته مبعثاً لسرور القارئ، شاهداً بفضل المؤلف، ولا شك أنه فتح جديد في تدريس القصص المدرسية؛ فهو مصوغ في أسلوب شعري منسجم النغمات، سهل العبارة، متين النسج، بريء من الغرابة والتعقيد، سليم من المحاورات المنيفة التي تسوق الأطفال سوقاً إلى حب اللجاج والمهاترة.

والقصص مشتملة على أغراض نبيلة، فمنها ما يدعو إلى مكارم الأخلاق كقصة (على البحيرة)، وما يربي العاطفة الوطنية وينمّي المعارف التاريخية كقصة (قناطر محمد علي) وقصة (فتح مصر). هذا إلى ما يزيد شوق القارئ ويبعث السرور في نفوس الناشئين من جمال الطبع، والعناية بضبط الحروف، وتجميل القصص بالصور المتقنة التي تربي الخيال والذوق السليم.

ولا غرابة في ذلك فالمؤلف معروف برقة العاطفة، ولطف الحس، وهو — كما قال الأستاذ الكبير محمد علي مصطفى في مقدمة الكتاب — (يمتاز بأنه معلم فيه مهارة وحذق، وبأنه خَبَر الأطفال وعرف ميولهم، وبأنه درس هذه القصص لتلاميذه فأحبوها وشغفوا بها، واستزادوه منها).

(المنصورة) محمود البشبيشي

المتفرجون إلى الخروج يلتجئون إلى أقرب مخبأ ، وأخذ كل يتحسس طريقه فى الظلام ...

... وأخيراً وجدنا مكاناً ضيقاً فى أحد المخابئ ... كان الجو خانقاً ، والكآبة غاشية على كل وجه ، وكان السواد الأعظم من الناس بملابس النوم ... وابتدأت المدافع تدوى متعاقبة ... وتعالت أصوات الدعاء من كل جانب ... ومن حين إلى آخر كنا نسمع صفير القنابل وهى تشق طريقها فى الهواء متجهة إلى الأرض ، فتحتبس الأنفاس ويخيم على المكان هدوء كهدوء القبور ... ثم نحس بالأرض تهتز تحت أقدامنا ، ونسمع صوت الانفجار مصحوباً بصوت تناثر الزجاج ...

وتبرعت « عايدة » بزجاجة عطرها تمررها بين الناس ... كانت تبدى شجاعة نادرة ، وكانت تواسى النساء قائلة : إن القنابل لا تقذف إلا على الأهداف الحربية ، وإننا جميعاً فى سلام !

وبعد ساعات — خيل إلينا أنها سنوات — سمعنا الزمارات تعلن انتهاء الغارة ... فاندفع الناس خارج المخبأ لاستنشاق الهواء الطلق ...

كانت الشوارع مضاءة بأشعة القمر الفضية ، وكانت قطع الزجاج المتناثر تتلألأ ببريق غريب ... وخرج الناس من كل جانب فامتلأت بهم الطرقات ... كل يريد أن يطمئن على ذويه وأقاربه !

وشاهدنا ونحن نشق طريقنا بين الأكتاف بيوتاً تهدمت ، وبيوتاً لا تزال تتهدم ... كما شهدنا عربات صغيرة محملة بالمتاع وبالناس متجهة نحو محطة السكة الحديدية ... كأن أصحابها لا يطيقون الإقامة فى هذه المدينة لحظة أخرى بعد أن رأوا الموت بينهم ... ومعهم !

وأخيراً ... وبعد مجهود عنيف ، بلغنا الشارع الذى تقيم فيه « عايدة » مع أمها وأختها الطفلة ... كان الزحام شديداً بدرجة غير عادية ، وكان عمال الإنقاذ والإسعاف يحاولون صد تيار الجموع المحتشدة ... !

ولم أشعر إلا و « عايدة » قد تركتنى واندفعت بين الزحام حتى غابت عن ناظرى ، كما تغيب قطعة الحرير البيضاء بين عتمة الأمواج المتلاطمة ...

أخذت أناديها . . . ولكن صوتى كان يختنق بين همهمة الجمهور ، وبين الصراخ والنحيب ...

وأشرفت على مكان أستطيع منه أن أرى بيت « عايدة » ... لم أكد أصدق عينى . . . ذلك البيت الذى كان يشق الفضاء قد صار أثراً بعد عين ، وقد تصاعدت فى مكانه سحب من الغبار الأبيض الكثيف ... !

ورأيت « عايدة » تحاول أن تتملص عن أيدى رجال الإنقاذ الذين منعوها ... من الاقتراب ... من الأنقاض ...

حاولت أن أصل إليها وأقنعها أن محاولتها هى الجنون بعينه ، ولكن دون جدوى ، فقد كان تيار الجمهور الجارف يدفعنى إلى الوراء

وغابت عايدة عن ناظرى لحظات ، وعندما رأيتها ثانية كانت فوق الأنقاض ، ولا أدرى كيف وصلت إلى هناك ... كانت ترفع قطع الحجارة المحطمة وبقايا الأثاث المتهالك . كانت تفعل ذلك بقوة عجيبة لم أكن أعهدها فى ساعدها البض ويديها النحيفتين الناعمتين ... وقد انسدل شعرها الفاحم فوق وجهها حتى أخفاه

وحاولت أن أثنيها عن محاولتها الجنونية ، فقد كانت هناك بضعة جدران تريد أن تنقض . ولكن أنى لها أن تسمع صوتى الضعيف ..؟

وفى هذه اللحظة سمعنا زمارة الإنذار ترسل نعيبها وكأنه نعيب غراب سوء ، وساد الهرج واندفع الناس كأنهم قطيع من البقر الوحشى نحو المخابئ

وبذلت جهود الجبابرة حتى وصلت إلى عايدة وكانت مكبة على عملها كأنها لم تسمع شيئاً . . . أفهمتها أن بقاءها مستحيل ، ولكنها لم تقتنع ، بل أخذت تردد فى صوت حزين : « دعنى أنقذهم ... دعنى أنقذهم »

واضطررت إزاء إصرارها أن أقسو عليها بعض القسوة ،

فحملتها بين ساعدى كطفلة صغيرة ، ولكنها قبل أن تغادر المكان كانت قد استخلصت من بين الأنقاض دمية صغيرة . كانت دمية أختها !

وقضينا ليلة مضنية ... وعند ما خرجنا من المخابئ كان الشفق الوردى ظاهراً فى الأفق معلناً قدوم يوم جديد

وحملت عايدة مغمى عليها إلى منزلى

وهناك استطعت بمساعدة خادمتى العجوز — وهى الشخص الوحيد الذى يعيش معى — أن أسعف عايدة . وبعد مدة ليست قصيرة أفاقت

كان جفناها ذابلين وقد أحيطت عيناها بهالتين من الزرقة الداكنة . وكانت أصابعها لا زالت ممسكة بدمية أختها الطفلة

كانت تتكلم بهدوء غريب وهى تغالب دموعها التى حفرت لها مجرى فوق وجنتيها الشاحبتين ... ولا زالت كلماتها ترن فى أذنى وتتكرر فى سرعة متزايدة

قالت إنه كان فى إمكانها أن تنتشل أختها وأمها من بين الأنقاض لولا حملى إياها عنوة إلى المخبأ

حاولت جهدى أن أفهمها أن هذا كان مستحيلاً ، وأننى خفت أن يسقط عليها جدار أو تنهار من تحتها الأنقاض فأفقد بموتها آمالى ولا يبقى لى سوى الأحزان ، ولكنها كانت فى حالة غير عادية ... وكانت فكرة إمكان إنقاذ أهلها تتملكها وتلح عليها . وانتابتها بعد ذلك حالة ذهول هى أشبه بالإغماء ، فلم تعارض حين شققنا طريقنا نحو محطة السكة الحديدية

***

لا زال القطار تتسارع دقاته ، ومن حين إلى آخر يرسل أنيناً حاداً كأنه يشارك الناس أحزانهم وأنينهم

لقد صرنا فى قلب الريف ! الخضرة تلفنا من كل جانب . ما أروع اللون الأخضر ؟ ! ... إنه يهدئ الأعصاب ويحيى فى النفس حب الحياة

الجو دافئ ، وكأن ركاب القطار قد أنهكهم التعب فخيم السكون على المكان . أما عايدة فقد مال رأسها الرائع فوق كتفى ، وهبت نسمات الأصيل الدافئة تطيح بخصلات من شعرها الثائر إلى وجهى فينتقل إلى شذى عاطراً

لا زالت آيات الحزن مرتسمة على وجهك أيتها الحبيبة ... وإنى لأشاركك هذا الحزن ؛ فقد كانت أمك تعوضنى بعطفها وحنانها مما حرمته منذ زمن طويل

أما أختك الصغيرة ، فقد كانت عصفورة مرحة ، ولا زالت صورتها مطبوعة فوق مخيلتى وهى تندفع نحوى وتدس يديها الصغيرتين فى جيوبى باحثة عن الحلوى ... ثم تأبى أن تفارقنى حتى تنام فأحملها برفق إلى مخدعها ...

نحن ذاهبون إلى أختى التى تسكن الريف ...

إن لها ابنة صغيرة تشبه أختك ... وستجدين هناك عطفاً وحناناً وستغفرين لى ذنبى !

سنبقى هناك حتى تنقشع تلك الغمامة التى تحجب سماء بلادنا الحبيبة ... ثم نعود إليها

وإنى لأتخيل يوم عودتنا ... سيكون القطار الذى نركبه مزدحماً ... ولكن السعادة ستحل على وجوه المسافرين محل التعاسة التى نراها الآن مرتسمة على وجوههم ... وإن صورة البيت الذى سنقيم فيه فى الأسكندرية لمطبوعة فوق مخيلتى حتى لأكاد أراها ... هو بيت هادئ تحيط به من كل جانب حديقة صغيرة خضراء ...

أما هؤلاء الذين أحزننا فقدهم وأبكانا ، فإنى موقن أن لهم الآن بيتاً هادئاً .

سعد دواره

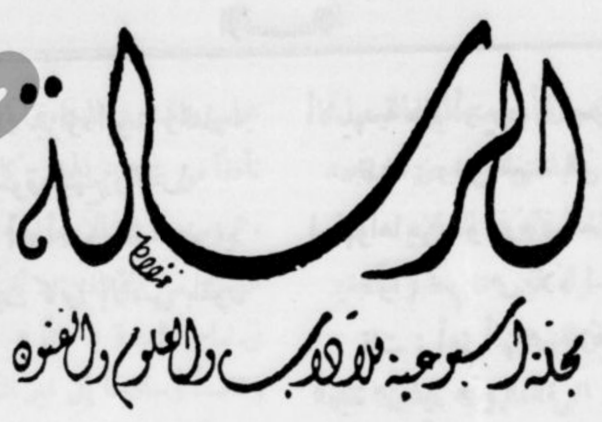
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 425

Lundi - 25 - 8 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ شعبان سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــــرس

شيء واحـــــد !

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان الضابط المصرى « أحمس » الذى ارتفع إلى عرش الفراعنة فى القرن السادس قبل الميلاد معروفاً فى صباه بالمزح والمجون ، وكان عربيداً لا يسلم من دعاباته زملائه ولا رؤساؤه ولا أصحاب القداسة من أحبار زمانه . فلما استوى على عرش بلاده نسى أصحابه أنه فرعون مصر وذكروا أنه الضابط العربيد ، ثم جروا فى معاشرته على السنة التى ألفوها يوم كانوا أنداداً فى الرتبة وإخواناً فى اللهو والمجانة ، فصبر قليلاً على هذه المعاشرة التى لا يصبر عليها الملوك ، ثم ضاق ذرعاً بها وبأصحابه وأزمع أن ينهرهم بالعظة والتمثيل ، قبل أن ينهرهم بالسطوة والتنكيل ؛ وقيل فيما قيل من أساطيره الكثيرة أنه أتى بإناء من الفضة تغسل فيه الأيدى فاتخذ منه تمثالاً لرب من الأرباب المعبودة فى زمانه . ثم نصب التمثال فى مدخل القصر حيث يراه القوم أول ما يرون عند دخوله ، فما عبروه حتى خروا له ساجدين

وظهر لهم أحمس وهم يسجدون للتمثال فقال لهم : أتعلمون م صنع هذا التمثال الذى حييتموه بالسجود ؟ إنه من ذلك الإناء الذى كنتم فى الوليمة الماضية تغسلون فيه أيديكم وتبصقون فيه من مضمضة أفواهكم . فمن منكم يجرؤ اليوم أن يبصق عليه

أو يصيبه بنسالة الأيدى ؟ من فعل ذلك فجزاؤه الموت والعار ، وإن كان ممدنه اليوم كمدنه أمس فى سوق البيع والشراء

وفطن الضباط لما أراد ، وعلموا أن أحمس الفرعون غير أحمس الضابط المريد ، فسجدوا حيث كانوا بالأمس يلقون الرشاش من غسالة الأفواه !

***

والمقصود من عظة « أحمس » أن الشيء الواحد قد يختلف فى قيمته باختلاف الصورة حتى يهان ويبتذل فى صورة ، ويصان ويعبد فى صورة أخرى

ولكننا نتجاوز ما أراده أحمس فى هذه العظة لنقول : إن الشيء الواحد فى الصورة الواحدة يختلف باختلاف التقدير والنظر حتى يهان ويبتذل عند أناس ويصان ويعبد عند آخرين ، بل حتى يكون له عند الإنسان الواحد شأنان متفاوتان

وهذا تمثال أحمس نكتفى به ولا ننتقل إلى غيره لنعرف كيف يختلف قدره باختلاف النظر إليه

فالصائغ للفنان يعطيه فى تقويمه قيمة التحفة الجميلة التى لا تحسب بالدراهم والدنانير

والبخيل المتصيد للمال يغليه بمقدار ما يبذله فيه طلاب اقتنائه من عشاق الفن أو عباد هذه الأرباب

وعابد الوثن يتمرغ بين يديه

ومنكر الوثن يمرغه هو فى التراب ، وقد يعدو ذلك إلى تحطيمه وتحريم النظر إليه فى صينته المعبودة

وتاجر الفضة يحيله إلى الميزان ، وصاحب الضرورة يبيعه بأبخس الأثمان ، وحارسه يمنع الغبار أن يصل إليه لأنه يمنع رزقه وعقيدته وحماه

وهو مع هذا شيء واحد فى صورة واحدة

فهل هو فى الحق شيء واحد أو جملة أشياء ؟

***

كنا على المائدة نخوض فى حديث من هذا المعنى رهطاً من الإخوان الأدباء ورجال الفن والثقافة

فقال أحدنا : إن صديقنا فلاناً لتستهويه تلك الفتاة التى كانت تتهالك على من دونه فضلاً وعلماً ومكانة فلا تظفر منه بأكثر من الهوى بها أو الإعراض عنها ؛ فما باله لا يرعوى ؟ ألا يهديه هاد أو يرده إلى صوابه ناصح أمين ؟

قلت : وهل الفتاة التى استهوت صديقنا هى الفتاة التى استهواها من هو دونه فى فضله ومقامه ؟

قالوا : نعم . هى فلانة !

قلت : أعلم أنها هى فلانة ، ولكنى أحسب مع هذا أن تلك الفتاة هى غير هذه الفتاة

وكان أمامنا على المائدة صحفة من البط المطبوخ ، فمضيت أقول : ألا أحدثكم بلغة الأماثيل فيما نتناوله الآن من الطعام ونحن مستطردون فيما بدأناه آنفاً من حديث العظات الرمزية ؟

كان أربعة فى جيرة واحدة من أحياء المدينة : متسول ولص ورجل كادح لرزقه وصائد من هواة الرياضة

فقال المتسول لزميل له وقد عبر به اللص فى قيوده مسوقاً إلى سجنه : أنظر إلى ذلك الأحمق ! ... سطا على حظيرة البط ليلة أمس فتيقظ له الحارس وأوشك أن يرديه برصاصة لأنه طمع فى بطة أو بطتين ! وها هو ذا يساق إلى السجن حيث يصوم عن أمثال هذه الطعوم . أفما كان خيراً له أن يصنع كما صنعت أمس وقد شممت رائحة البط المطبوخ فى منزل ذلك الصائد فما طرقت الباب حتى ناولونى صحفة أكلتها هانئاً بها غير جاهد فى شرائها ولا سرقتها ولا صيدها ولا طبخها ولا اقتناء صحائفها ؟ فأين غابت عنه حكمة القناعة وهى أقرب إليه من ذلك الخطار ، ومما وراءه من الحبس والعار ؟!

قال زميله : وما ظنك بالصائد الذى أكلت البط المطبوخ من بيته ؟ أليس هو أحمق من اللص فى طلب البط الذى يجود به مطبوخاً ولا ينال منه أكثر مما تنال ؟ فعلام السفر من هنا إلى البحريات النائية ؟ وعلام شراء السلاح والعدو بين الماء والعراء ؟ وعلام صيد الأسراب وبطة واحدة تكفيه ، أو لعله يجود بها على سائليه ؟

وأصغى إليهما الرجل الكادح لرزقه فقال : الحمد لله على ما وفقنى له من القصد والسداد : دريهمات معدودات تغنينى عن نفقة الصياد وعن ذل السؤال وعن غشيان السجون

فمن من هؤلاء الأربعة على صواب ! لو أخذنا بالظاهر لكان الصائد المتعب أحمق الأربعة ، ولو أخذنا بالحقيقة لكان دونهم جميعاً هو صاحب السهم الربيح والعقل الرجيح ، لأن البطة

عنده ليست هي البطة التي يسرقها اللص، أو يستعطيها المتسول، أو يشتريها الشاري من السوق، ولكنها شيء يستحق أن يجهد له بالسفر والنصب وتعلم الرماية وبذل المال في السلاح، وهي كذلك شيء غير الذي ظفر به المتسول من بيته مطبوخاً بغير ثمن. فلا وجه للمبادلة ولا للمقابلة بين الشيئين

وهكذا يجوز أن تكون الفتاة التي استهوت صديقنا غير الفتاة التي تؤكل رخيصة على موائد منافسيه، فإنما العبرة بما يشعر به هو وما يشعر به هؤلاء، وليست العبرة بوحدة الأسماء والأجسام.

وليس الشيء الواحد بشيء واحد على هذا التقدير

* * *

تلك حقيقة ينساها معظم الناس وهي داخلة في كل عمل من أعمالهم اليومية، معترضة في كل خطوة من خطوات الحياة

فالصنف الواحد من الخضر يشتريه اثنان في يوم واحد من سوق واحدة بثمن واحد، فيؤكل على مائدة أحدهما كأنه من طعام أهل الجنة، ويؤكل على مائدة الآخر كأنه السم الزعاف

والكتاب الواحد يطالعه القارئان فيستفيد أحدهما منه ما لا يقدر بمال، ويخرج الآخر من قراءته ولم يأخذ منه ما يساوي ثمن ورقه

والمكان الواحد يقصده زائران فيرجع أحدهما بالصحة والمعرفة والثروة، ويرجع الآخر منه بالمرض والضلال والإفلاس

وقد تفتحت عيناي على هذه الحقيقة منذ أيام الطفولة، فشهدت في بلدتي التي نشأت فيها التقاء الحضارات القديمة والحديثة، والتقاء الأمم من غربية وشرقية؛ وكان يزور أسوان في الشتاء ألوف السائحين منهم الأمريكي والإنجليزي والفرنسي والألماني والنمسوي، وأبناء الأمم الأوربية كافة، فكانت أوربا عندي على اجتماعها في كلمة واحدة صوراً مختلفات لا تتفق في مشارب ولا أطوار ولا عادات

وكنت أسمع العجب من اختلاف الآراء في سن يعجب فيها الإنسان من كل مشهود ومسموع، فلا أعجب ولا أحار إن عجبت، لكثرة ما تعودت من تناقض الأفهام والأحكام

زار أسوان أمير انجليزي كبير، فخرج في الظهيرة إلى حيث يلعب «التنس» مع فئة من صغار الموظفين والضباط، وشهدت مجلس والدي في المساء وأنا معجب بالأمير الحر الظريف، فما سمعت تأففاً من شيوخ المجلس كالتأفف الذي سمعته منهم تلك الليلة، وهم يعيبون على الأمير لعبه «أولاً» ونزوله في اللعب إلى مرتبة الصغار من الموظفين «ثانياً»، وخلعه ملابس الإمارة ليظهر في لباس العامة «ثالثاً»، وما شئت من مآخذ شتى: رابعاً وخامساً وسادساً إلى غير انتهاء

وكان «العقلاء» يضحكون من هؤلاء الأوربيين الذين يبلون أحذيتهم أو ينضون مطاياهم في الجبال ليرجعوا منها بكيس ملآن بحجارة وحصيات تلقى في عرض الطريق، وكنت أرى هذه الحجارة في متحف المدرسة، فأحسبها كنزاً من الكنوز المكنونة، أو أحسبها على أقل تقديرها موضوع درس ممتع مفيد

وكان المنقبون في الآثار القديمة من عامة الناس يهزأون بالعلماء الذين يعطونهم الذهب ويأخذون منهم خرقة بالية أو حلية مكسورة أو ورقة ممزقة، وكنت أسمع في دروس التاريخ كل أسبوع أن هؤلاء العلماء رابحون مفلحون، وأن الخاسر الحقيق بالاستهزاء هم أولئك الجهلاء المستهزئون

وازددت علماً بالدنيا وبنيها، فكأنما اجتمعت الزيادة كلها في توكيد هذه الحقيقة الجامعة وخلاصتها بلغة الحرب والتسعيرة والغلاء: أن ليس لعروض الدنيا تسعيرة واحدة، وأن ما يصدق من ذلك على العروض والأشياء، أحرى أن يصدق على الأحياء وعلى الرجال والنساء

عباس محمود العقاد

بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة

قصائد الشعراء في تأبين سعد

للدكتور زكى مبارك

— ١ —

فى مثل هذه الأيام من سنة ١٩٢٧ فُجعت مصر بوفاة الزعيم سعد زغلول ، والتفتت الأمم العربية إلى هذه الفجيعة الدامية ، فنُظِمت للقصائد الجياد فى الحزن لوفاة ذلك الزعيم المظيم ، نظمها شعراء فضلاء من الحجاز واليمن والمغرب والشام والعراق ؛ وكان من أجود المراثى التى صدرت عن شعراء الأمم الشقيقة قول الأستاذ بشارة الخورى شاعر لبنان :

قالوا دهتْ مصرَ دهياءُ فقلتُ لهم
هل غُيِّض النيل؟ أم هل زُلزل الهرم؟
قالوا أشدُّ وأدهى ، قلتُ ويحكمُ
إذن فقد مات سعدٌ وانطوى العلمُ
لمْ لا تقولون إن الصُّرْبَ قاطبةً
تيتّموا ، كان زغلولٌ أباً لهمُ

وما نريد فى هذه الدراسات الوجيزة أن نتحدث عما تفضل به شعراء الأمم العربية من المواساة الكريمة لوادى النيل ، فذلك يوجب أن نستعد لأبحاث طوال لا يسمح بها الزمن الضنين ، فلم يبق إلا أن نتحدث عن القصائد التى نظمها أكابر شعراء مصر من أمثال : شوقى وحافظ والعقاد والجارم ومطران

حفلة التأبين

أقيمت تلك الحفلة التاريخية فى اليوم السابع من أكتوبر سنة ١٩٢٧ بعد انقضاء الأربعين لوفاة سعد زغلول ، وكان الخطباء والشعراء على هذا الترتيب : مصطفى النحاس ، عبد الخالق ثروت ، محمد محمود ، حسن نبيه المصرى ، حافظ ابراهيم ، عبد الحميد سعيد ، فكرية حسنى ، مكرم عبيد ، أحمد شوقى ، نسيم أصيبعة ، عباس محمود العقاد ، حسين رشدى ، بهى الدين بركات

جو الحفلة

ومن هذه الأسماء نلاحظ أن جو الحفلة روعيت فيه الصّبغة القومية والعربية ، فقد تكلم محمد محمود عن حزب الأحرار الدستوريين ، وتكلم محمد سعيد من الحزب الوطنى ، وتكلمت فكرية حسنى عن السيدات ، وتكلم نسيم أصيبعة عن سورية .

دموع ثروت

وكانت الحوادث قضت بأن يصفو ما بين سعد وثروت بعد طول الخصام والعداء ، فلما وقف عبد الخالق ثروت لرثاء سعد زغلول ، نظر إلى صورة الصديق الفقيد ، فغلبه الحزن وأجهش بالبكاء ... فترك المنبر ، وقدم خطبته للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلى ، فأتمها بالنيابة عن ذلك الخطيب المحزون

برقية نسيم

وفى تلك الحفلة ألقيت برقية نسيم باشا ، رئيس الديوان الملكى حينذاك ، وفيها يقول :

« أشاطركم الأسى وأقاسمكم الشعور فى تأبين الفقيد العظيم ، أسبغ الله عليه ثوب الرحمة والرضوان ، وإنى أستوهبكم عذراً : إذ ليس ميسوراً لى حضور الحفلة اليوم »

وإنما نصصت على هذه البرقية لأن جريدة « البلاغ » أشارت إلى أنها لفتت أنظار الحاضرين ، ولبيان هذه الإشارة شرح يطول

إن تاريخنا السياسى الحديث فيه أسرار وغرائب وأعاجيب ، فأين الباحث الذى يميط اللثام عن العبقرية المصرية فى ميادين الجدل السياسى ؟

إن طلبة الدكتوراه بكلية الآداب يشغلون أنفسهم بإعداد الرسائل عن مشكلات العصور الخوالى فى الأدب والسياسة والاجتماع ، فتى يتجهون إلى درس المشكلات الأدبية والسياسية والاجتماعية فى العصر الحديث ؟

سارعوا إلى درس هذا العصر قبل أن تضيع الوثائق ، وقبل أن يموت الشهود ، فقد يصعُبُ عليكم درسه يوم يصبح ظنوناً فى ظنون !

قصيدة شوقى

نشرت فى صدر « الأهرام » مع تمهيد نظنه من قلم المرحوم صادق عنبر ، وهو يقول فى ذلك التمهيد :

« هذه هى القصيدة التى تنزلت من سماء العبقرية وحياً يسيل

نور الحكمة على أبياته ، ويتجلى الإعجاز فى حالية آياته ، وتتعرف فيه مواضع سجداته ... أبدعها شاعر العصر « شوقى » فى تأبين زعيم الشرق « سعد » وأودعها صورتين متقابلتين إحداهما صورة الحياة التى تعجز الموت ، والأخرى صورة الموت الذى يعجز الحياة ، منتزعاً من الحياة والموت مما أصدق ما فيهما من العظات ، وأجل ما فيهما من العبر والمثلات . وإنك لتجد فيما بين ذلك روحاً من الحكمة الكهلة ترف على كل بيت من أبياتها كما تدرج نسمة من الصبا فى الخميلة النضرة الفيحاء . وقد تمثلت فى هذا الشعر عاطفة شوقى المشبوبة وعظمة سعد الخالدة . وناهيك من خالدين تلاقيا ، وسحرين تظاهرا »

جو القصيدة

لم أكن فى مصر يوم مات سعد ، وإنما كنت فى باريس ، فلا أعرف أين كان شوقى يوم مات سعد ، فهل كان بمصر ؟ فى القصيدة ما يشهد بذلك ، كأن يقول :

قلتُ والنعش بسعدٍ مائلٌ … فيه آمالُ بلادٍ ومُناها

وفيها مع ذلك أبيات تشهد بأنه كان يصطاف فى البلاد السورية ، كأن يقول :

سائلوا « زحلة » عن أعراسها … هل مشى الناعى عليها فمحاها
عطل المصطافَ من سُمّاره … وجلا عن ضفة الوادى دُماها
فتّح الأبوابَ ليلاً دَيْرُها … وإلى الناقوس قامت بيعتاها
صدَع البرقُ الدُّجا تنشرُه … أرض سوريّا وتطويه سماها
يحمل الأنباء تسرى موهناً … كموادى الثكل فى حرّ سراها
عرض الشك لها فاضطربت … تطأ الآذان همساً والشفاها
قلت ياقوم اجمعوا أحلامكم … كلُّ نفس فى وريديْها رداها

فهذه الأبيات صريحة فى أن الشاعر كان فى سورية حين مات سعد ؛ فكيف جاز له أن يخاطب النعش ولم يكن من المشيّعين ؟

إنما صنع ذلك ليتسق له هذا الحوار الجميل :

يا عدوّ القيــد لم يلمح له … شبحاً فى خطةٍ إلا أباها
لا يَضقْ ذرعُك بالقيد الذى … حزّ فى سوق الأوالى وبَرَاها
يا رفاتاً مثل ريحان الضحى … كللتْ عدْنٌ به هام رباها
وبقايا هيكلٍ من كرمٍ … وحياة أترع الأرض حيَاها
ودّعَ العدلُ بها أعلامَه … وبكت أنظمة الشورى صواها
حَضنَتْ نعشَك والتفت به … راية كنت من الذل فِداها
ضُمّت الصدر الذى قد ضمها … وتلقى السهم عنها فوقاها
مُجتَبى منها ومن قائدها … كيف يحمى الأعزل الشيخ حماها

وهنا يظهر روح القصيدة ، فالشاعر يتحدث عن القيد وعدو القيد ، ويذكر الراية التى احتضنت نعش سعد ، بعبارة لطيفة تعد من أدق العبارات ، إذ جعل الراية تحس نار الفجيعة ، وتشعر بفقد القائد الذى كان يحمي حماها ، وإن جردته الأقدار من السلاح

عيون القصيدة

وفى هذه القصيدة أبيات روائع ، منها قوله فى فجيعة مصر بدفن سعد :

ما درَتْ مصر بدفنٍ صُبّحت … أم على البعث أفاقت من كَراها
صرختْ تحسبها بنتَ الشّرى … طلبت من مخلب الموت أباها

وقوله فى جزع مصر لفقد الخطيب الذى أسكرها بسحر بيانه حيناً من الزمان :

طافت الكأس بساقى أمةٍ … من رحيق الوطنيات سقاها
عطلَتْ آذانُها من وترٍ … ساحرٍ رنّ مليّاً فشجاها
أرغُنٌ هام به وجدانُها … وأذانٌ عشقتْه أذناها
كلّ يومٍ خطبةٌ روحيةٌ … كالمزامير وأنغام لُغاها
دلّهتْ مصراً ولو أن بها … فلواتٍ دلّهتْ وحش فلاها

وقوله فى مصاير الأحياء :

زورقٌ فى الدمع يطفو أبداً … عرف الضفّة إلا ما تلاها
تهلع الثكلى على آثاره … فإذا خفّ بها يوماً شفاها

وقوله فى فضل سعد على الثورة وجعلها خير ما ترك من الذرية :

ولدَ الثورة سعدٌ حُرّةً … بحياتى ماجدٌ حرٌّ نماها
ما تمنّى غيرهـا نسلاً ومَن … يلد الزهراء يزهد فى سواها
رَقدَ الثائرُ إلا ثورةً … فى سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاها صبياً فكوتْ … راحتيْه وفتياً فرعاها
أعلمتم بعد موسى من يدٍ … قذفت فى وجه فرعون عصاها
وَطئتْ ناديَهُ صارخةً … شاه وجهُ الرّق يا قوم وشاها

وقوله فى أخلاق سعد :

أين من عينىّ نفسٌ حرةٌ ... كنت بالأمس بعينى أراها
روعة النادى إذا جدّت فإن ... مَزحتْ لم يذهب المزح بهاها
يظفر العذر بأقصى سخطها ... وينال الود غايات رضاها
ولها صبرٌ على حسّادها ... يشبه الصفح وحلمٌ عن عِداها
لست أنسى صفحة ضاحكة ... تأخذ النفس وتجرى فى هواها
وحديثاً كروايات الهوى ... جدٌّ للصبّ حنينٌ فرواها
وقناة صَعْدَةً لو وُهبتْ ... للسماك الأعزل اختال وتاها

تلك عيون هذه الشوقية، وما زاد فهو معان يكررها شوقى فى أكثر مراثيه، وإن كانت تجل عن الابتذال

قصيدة حافظ

ابتدأ حافظ قصيدته بما أَلِف الشعراء من الحديث عن تأثر الوجود لفقد العظماء، فسأل الليل: هل شهد المصاب ورأى كيف ينصبٌّ فى النفوس؟ ثم دعاه إلى تبليغ الشرقين غياب الرئيس، مع نعيه للنيِّرات لتلبس عليه ثوب الحداد؛ ثم توجع لغياب سعد عن الحفل فقال:

أين سعدٌ فذاك أول حفل ... غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعوّد جنودَهُ يوم خطب ... أن ينادَى فلا يردّ الجوابا
علّ أمراً قد عاقهُ، علّ سقما ... قد عراه، لقد أطال الغيابا
أىْ جنود الرئيس نادوا جهاراً ... فإذا لم يُجب فشقُّوا الثيابا

ثم وازن بين بلية فلسطين بالزلزال وبلية مصر بموت سعد. فقال:

قل لمن بات فى فلسطين يبكى ... إنَّ زلزالنا أجلُّ مصابا
قد دُهيتم فى دوركم ودُهينا ... فى نفوس أبين إلا احتسابا
ففقدتم على الحوادث جَفناً ... وفقدنا المهنَّد القرضابا
سلَّهُ ربُّهُ زماناً فأبْلَى ... ثم ناداه ربُّهُ فأجابا
قدرٌ شاء أن يزلزل مصراً ... فتنالى فزلزل الألبابا

وجعل حمل النعش على المدافع دليلاً على أنه أضخم من أن تحمله الرقاب:

خرجتْ أمةٌ تشيِّع نعشاً ... قد حوَى أمة وبحراً عُبابا
حملوه على المدافع لما ... أعجزَ الهامَ حمله والرقابا

واتخذ تعزية «التيمس» شاهداً على عظمة سعد فقال:

ساقت التيمس العزاء إلينا ... وتوخّت فى مدحك الإسهابا
لم يَنُح جازعٌ عليك كما نا ... حتْ ولا أطنب المحبُّ وحابَى
واعتراف «التاميز» ياسعد مقيا ... سٌ لما نال نيلنا وأصابا

وغُرة هذه القصيدة هى الأبيات التى ينص فيها حافظ إبراهيم على أن روح الثورة لن يموت بموت سعد، وأن الأمة لن تُصَدّ عن النيابة بوعد أو وعيد:

ليت سعداً أقام حتى يرانا ... كيف نُعلى على الأساس القبابا
قد كشفنا بهَدْيه كل خافٍ ... وحسبنا لكل شىء حسابا
حُججُ المبطلين تمضى سراعاً ... مثل ما تطلع الكؤوس الحُبابا
حين قال «انتهيت» قلنا بدأنا ... نحمل العبء وحدنا والصعابا
فاحجبوا الشمس واحبسوا الروح عنا ... وامنعونا طعامنا والشرابا
واستشِفّوا يقيننا رغم ما نلـ ... ـقاه هل تلمحون فيه ارتيابا
قد ملكتم فَمَ السبيل علينا ... وفتحتمْ لكل شعواء بابا
وأتيتم بالسابحات تراءى ... تحمل الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً ... ووعيداً ورحمةً وعذابا
هل ظفرتم منا بقلبٍ أبىٍّ ... أو رأيتم منا إليكم مَثابا
لا تقولوا «خلا العرين» ففيه ... ألف ليث إذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروموا حِماهُ ... إن عند العرين أسداً غضابا

فهذه الأبيات هى خير ما فى قصيدة حافظ، وقد خلت من معانيها قصيدة شوقى، وكان حافظ كثير الالتفات إلى المعانى التى ألف الزأر بها قبل عهد الاستقلال

ثم تحدث عن أخلاق سعد فقال:

تقتُل الدسَّ بالصراحة قتلاً ... وتُسقّى منافق القوم صابا
وترى الصدق والصراحة دِيناً ... لا يراه المخالفون صوابا
تمشق الجوّ صافىَ اللون صحواً ... والمضلّون يمشقون الضبابا
أنت أوردتنا من الماء عذباً ... وأراهم قد أوردونا السرابا

وعطف على أيامه مع سعد فى «بساتين بركات» فقال:

نم هنيئاً فقد سهرت طويلاً ... وسئمت المقام والأوصابا
كم شكوتَ السهاد لى يوم كنا ... فى «البساتين» نستعيد الشبابا
نَنْهب اللهو غافلين وكنا ... نحسب الدهر قد أناب وتابا
فإذا الرزء كان منا بمرأى ... وإذا حائم الردى كان قابا

أما بعد فهذه ملامح من قصيدة شوقى وقصيدة حافظ فى تأبين سعد، وسنتكلم فى المقال المقبل عن قصائد العقاد والجارم ومطران والله ولىُّ التوفيق

زكى مبارك

نظرات في التربية

اللعب وأثره في حياة الطفل

للأستاذ رفعة الحنبلي

لكل إنسان فى هذه الحياة أهداف يرمى إليها ، لكنهم قلما يشتركون فى هذه الأهداف ؛ إلا أن هنالك غاية واحدة يشترك البشر كلهم فيها . هذه الغاية هى السعادة .

إن هذه الغاية التى عرفها علماء النفس « بعامل اللذة » تكيف أعمال الإنسان ، وتتحكم فى تصرفاته ، وتدفعه إلى سلوك السبل التى توصله إليها فتمهد له حياة مرحة وعيشة رخية

وفى الواقع أن هذه اللذة قد تختلف باختلاف البيئة والوسط وقد تتباين بتباين الجنس والعمر ، فاللذة التى تنساق إليها الفتاة أو المرأة هى غير اللذة التى يتجه إليها الفتى أو الرجل ، كما أن لذة الأطفال هى غير لذة المراهق والشيخ

بيد أن البيئة والوسط لهما أثرهما فى توجيه هذه اللذة وتكييفها حسب النظم الاجتماعية والقوانين الأخلاقية ، والطرق التربيوية التى يعيش الفرد فى كنفها ويتفيأ ظلها ؛ ولذة الطفل تتمركز فى لعبه المختلفة الأنواع ، فهى أولى رغائبه ، وقبلة أنظاره ، ومحط آماله ، وهدف أحلامه

* * *

والتربية الحديثة تقوم على تهيئة الوليد للمستقبل ، أى أنها تؤهله للحياة ، والتأهل للحياة إنما يكون فى الاهتمام بميوله ، ومعرفة غريزته ، وتمهد حاجاته فى دور طفولته الذى هو وقت نموه وتقدمه ، لذا كان من أقدس الواجبات على المرء أن يهتم بهذه المرحلة من حياة الوليد ، وما تفتقر إليه من عناية

وما العناية إلا تهيئة أجواء من الحياة ، تسمح للوليد بالنمو الطبيعى فى الجسم والعقل والخلق ، ولا يتوقف هذا النمو على ما يكتنفه من العوامل التربيوية والاجتماعية ، وما يحف به من العناصر التهذيبية والأخلاقية وحسب ، بل يتوقف على ترك قوى الأطفال وغرائزهم وميولهم فى جو حر طليق لا يقيده نظام ولا تحده إرادة ؛ والطبيعة هى الجو الطليق للطفل ، توجب عليه أن يعيش عيشة الأطفال ، وتلزمه أن يحيا حياتهم ، وتحمله على أن يلعب لعبهم ، من تلقاء نفسه ، وبكامل حريته ، كما تتطلب مصلحته ، وتقتضى غريزته

فالطفولة هى أهم الأدوار التى يمر بها الإنسان إذ تكون طبيعة الوليد سريعة الانفعال شديدة التأثر بما يعرض فى دائرة حسه ، والتى يتأهب عقل الطفل خبها لقبول المؤثرات التى تمتزج فى مزاجه الرخص ، فتنبعث فيه صفات تختلف قوة وضعفاً تبعاً لتلك المؤثرات

إن العوامل التى لها الأثر العميق فى تربية الوليد وتهذيبه كثيرة ، والعناصر التى لها النصيب الأوفر فى تنشئته تنشئة تتلاءم مع غاية الحياة وفيرة ؛ على أن اللعب هو أهم تلك العوامل والعناصر فى حياته ، فاللعب إنما هو استعداد للحياة كما يقول العلامة « كروس » . وقد ذهب المربى الكبير « فروبل » — وهو أول من ابتكر روضات الأطفال — إلى أبعد مما ذهب إليه زميله فهو يقول : « من خطل الرأى وعقم الفكر ، أن ننظر إلى اللعب كشىء لا وزن له ولا قيمة ؛ ولكن من حسن الرأى وبعد النظر ، أن ننظر إلى اللعب كعامل له حيويته ومؤثراته وغايته . إن لعب الأطفال لأشبه بالبراعم لحياة الإنسان ، فإن كانت هادئة أو مضطربة ، نشيطة أو خاملة ، خصبة أو ماحلة ، مفعمة بالسعادة أو منمورة بالألم ، تحمل رمز السلام أو صدى الحرب ، كل هذه تتصل اتصالاً وثيقاً باللعب التى تنمر الطفل مدة طفولته »

ولا بد لنا من أن نعرض نظريات اللعب المتعددة التى اختلف علماء النفس فى أمرها وتفاوتت بحوثهم فيها ، ليقف الإنسان على عواملها ودوافعها

ذهب بعضهم إلى أن اللعب ليس إلا ظاهرة من ظواهر الراحة ، أو بعبارة أخرى ليس اللعب إلا فترة من الوقت يأخذ الجسم فيها قسطه من الراحة ، والفكر حظه من الهدوء ؛ ولا يسع المرء إلا أن يتساءل لماذا يطيب اللعب للانسان ، بعد أن يكون تعباً منهوك القوى ، متوتر الأعصاب ، أكثر مما تطيب له الراحة ؟ ألا نشاهد الأطفال يرغبون فى اللعب ويلتمسونه فور نهوضهم من فراشهم ؟ والحيوان ألا تراه يلعب من الصباح حتى المساء دون أن يقوم بعمل ما ؟

وراح يزعم البعض وعلى رأسهم « شيلر » — وناصره بعد ذلك الفيلسوف الإنكليزى الكبير « سبنسر » — أن اللعب

يمثل فيضان القوة الزائدة فى الطفل ؛ ويعلل ذلك أن القوى الحيوية تزداد عنده ازدياداً كبيراً فى وقت لا يمكنه أن يصرفها إلى أى عمل ذى أهمية ، فتتكتل هذه القوى ، وتنساب إلى الشعب التى تكونت — فيما مضى من الأيام — فى الجهاز العصبى ، فتحدث فى الطفل فيضاناً يدفعه إلى اللعب .

ولا ريب أن تكتل هذه القوى الفياضة يدفع الطفل إلى اللعب ، ويساعده على التبسط به ، ولكننا نجد أحياناً بعضاً من الأولاد — على الرغم من التعب الذى يستولى عليهم من جراء أعمالهم — لا يزالون يلعبون لعبهم حتى إلى وقت إغفائهم ! وقد نشاهد أيضاً أن بعض المرضى من الأولاد ، يفزعون إلى ألاعيبهم ، يلعبون بها ويعبثون ، قبل إبلالهم من مرضهم وحتى قبل استكمالهم قواهم ونشاطهم !

ويرد « ستانلى هول » أسباب اللعب إلى عوامل وراثية بعيدة Atavisme خلفتها الأجيال الماضية . فيقول : إن اللعب ليس إلا قوى بدائية للانسال السالفة ورثها الطفل واحتفظ بها . وهذا الرأى يطابق ما ذهب إليه « هيكل [1] » من أن الطفل يمثل فى لعبه ما مرّ على الإنسان من الأدوار فى نشوئه

وما اللعب فى نظر « هول » إلا عبارة عن ارتياض ضرورى لإخفاء بعض الوظائف التى أصبحت عديمة الفائدة ؛ فالهدف الذى أراده من نظريته هذه هو أن اللعب ليس وسيلة للقضاء على هذه الوظائف غير النافعة ، بل للتأثير فى غيرها من الوظائف الأخرى وتكييفها وإعدادها لقبول حياة جديدة

على أن أهم تلك النظريات التى فازت بإعجاب قسم كبير من علماء النفس هى نظرية « التدريب الإعدادى » Théorie de l'exercice préparatoire ، وأول من فكر فيها وتعمق فى دراستها العالم الكبير Karl Groos عام ١٨٩٦ فى كتابه « ألعاب الحيوان » Les Jeux des animaux

أراد هذا العالم أن يتجه فى درس اللعب إلى ناحية جديدة — بعد أن لمس عقم نظريات زملائه — فولى وجهه شطر الناحية البيولوجية من بحثه ليقف على دقائقها وليعرف كنه أسرارها . ولقد وفق « كروس » فى نظريته هذه توفيقاً كبيراً ، حتى أنه أدرك القوى العقلية وتفهم اضطرابها ، لا عند الإنسان فحسب ، بل عند الحيوان أيضاً

(١) Hækel

ولو أردنا أن نبحث ، على ضوء هذه النظرية القوى الفعالة للعب ، لوجدناه يختلف جد الاختلاف فى جماعة الإنسان ، ويتباين بتباين أنواع الحيوان . فالهرة الصغيرة تقبع فى ركن من أركان الحجرة ، منبسطة اليدين ، مغمضة العينين ، مرهفة السمع ، حتى إذا ما اهتزت أمامها ورقة ما أو سحبت من أمامها ، تراها قفزت عليها قفزة سريعة ، وداعبتها بيديها فترة من الزمن ، ثم مزقتها بأنيابها ، فكأنها بعملها هذا تستمد للحياة وتهيئ نفسها للقفز على فريستها فى المستقبل . والجدى الذى يمارس النطاح منذ صغره يعد نفسه للحياة التى عرفت عنه ، فلكل حيوان غريزة خاصة به ، أتته عن طريق الوراثة البعيدة أو القريبة من الفصيلة التى ينتسب إليها ، فتظهر هذه الغريزة واضحة جلية ـ وإن كانت فى بدئها ضعيفة إلى حد ما ـ منذ النشأة الأولى

وقد تتفاوت مدة نمو هذه الغرائز فى الحيوان بتفاوت درجته فى سلم الحياة ، فالحيوانات الدنيا تحتاج إلى مدة أكثر مما تحتاجه الحيوانات العليا ، لاستكمال نمو غرائزها واستيفاء قوتها ؛ وقلما نجد غريزة فى حيوان تتفق مع غريزة فى حيوان آخر ، فالهرة تقفز على الورقة إذا ما اهتزت أو تحركت ، أما الجدى فلا يقفز عليها مهما اهتزت وتحركت ، ولكنه يتأهب للنطاح حالاً إذا وجد أمامه جدياً آخر ؛ فالهرة تجهل النطاح ، كما أن الجدى يجهل القفز ، لأن لكل منهما غريزته الخاصة به

كذلك نرى للانسان غرائز بقدر ما لديه من أنواع اللعب : فغريزة للصيد ، وثانية للقتال ، وأخرى للمداعبة وغيرها . . .

على أن هذه الغرائز الموروثة لا يكتمل نموها ولا تستوفى حيويتها إلا باكتساب واقتباس جديدين ؛ ولن يفوز الانسان بهذين المنصرين الهامين إلا بعد ممارسة اللعب الذى من شأنه أن يعد المرء للحياة الصحيحة . لذا وجب على الإنسان — وهو أكثر الحيوان طفولة — أن يلعب ، ويلعب كثيراً سنين عديدة ، كى يمسى فيما بعد إنساناً جديراً بالحياة ؛ إذ أن اللعب ، فى الواقع ، يروض بعض قواه الفعالة ، ويروض معها بعض وظائف أعضائه ، ويسمو هذا الترويض بالإنسان إلى ما يصبو إليه من أهداف سامية وغايات نبيلة

هذه هى أهم تلك النظريات[1] التى أشبعها علماء النفس

(١) اعتمدنا فى بحث نظريات اللعب على كتاب العلامة (كلابارد) « نفسية الطفل وعلم التربية التجريبى »

دراسة وبحثاً ، ولا بد لنا من الرجوع إلى البحث عن أثر الألعاب فى حياة الانسان بعد أن أتينا على ذكر عواملها المتعددة

والواقع أن اللعب لا يعنى الراحة ولا التسلية ؛ وإنما هو عمل حيوى للانسان ، له الأثر الأكبر فى حياته ، كما أن له خصائص بيولوجية ، تسهل على المرء سبل التقدم ، وتمهد له طريق الحياة

فالرغبة فى اللعب إنما تنبثق من الغريزة الكامنة فيه ، فيختار من الألعاب ما يتفق وميوله ورغائبه وتساعده على بلوغ هدفه . على أن هذه الرغائب وهذه الميول تتنوع بتنوع العوامل الاجتماعية والخصائص الفردية ، إذ تعبر عما يختلج فى نفسه من هذه الخصائص وتفصح عن نفسيته بأجلى مظاهرها

وأخذت التربية الحديثة تواجه هذه الميول وتتمهد هذه الخصائص ، فتوجهها إلى النواحى الاجتماعية والأعمال الانسانية التى قد يقوم بها المرء فى المستقبل

يقول (فرويل) : « ليس للمشرف على الوليد إلا أن يوجه تصرفاته ، منذ نعومة أظفاره ، فى الوقت الذى يرتع ويلعب بين ألاعيبه الكثيرة ، إلى معرفة خصائصها ، وأن يظهر له أثرها فى نفسيته وخلقه » وهى إلى ذلك تمتاز بأنها العامل الأقوى فى نموه العقلى والجسدى

فالأبحاث التى قام بها العلامة الفرنسى Binet أكدت لنا أن هنالك اتصالاً وثيقاً بين النمو الجسدى والنمو العقلى ، أو بالأحرى بين صحة الجسم ونزوة العقل ووثبة الفكر . لذلك نرى أن الألعاب التى يتهالك عليها الطفل ، فى بدء حياته ، والتى يختلف إليها بين آونة وأخرى تساعده على هذا النمو الذى أشار إليه « بينه » والذى يلازمه طول حياته الأولى ؛ فالاعتناء بالألعاب هو وسيلة لتحسين العقل والجسم معاً

يحتاج الوليد ، فى الواقع ، إلى كثير من اللعب ، فالقوانين المدرسية التى تحتم عليه الصمت والجمود ، لا تتلاءم مع حياته ، وما يتطلبه من حرية ، وما ينشده من استقلال . لذلك أدرك « فرويل » أن المعهد ليس هو البيئة الخاصة التى تلائم الوليد ، لأنها تقيد حريته وتفقده حيويته وتخمد نشاطه . وهذا ما حداه إلى إنشاء روضات الأطفال يلعبون ويغنون ويرقصون فى جو حر طليق يتعهدهم كما يتعهد البستانى نبات روضته

فالنظم المدرسية الحديثة حتمت على المربين تعهد الأطفال تعهداً كلياً ، وإغراءهم على اللعب بالألاعيب وبشتى الوسائل ، وترغيبهم فيها بمختلف العوامل ، مما حداهم إلى وضع مقادير وفيرة من الألاعيب الجميلة بين أيديهم ، يختلفون إليها برغبة وشوق ، ويتصرفون بها بحرية تامة . والطفل لن يكون طفلاً إذا لم يفزع بين حين وآخر إلى اللعب لأن طبيعته تقتضى ذلك

وقد يثير منظر هذه الألعاب فضول الطفل ، فيدفعه إلى تفهم أسرارها والوقوف على دقائقها ، وما يحيط بها من إبهام وغموض ، فيتفتح عقله على آفاق جديدة ، وتنكشف نفسه على أجواء طريفة ، ويتقوى جسمه وتتصلب أعضاؤه ، فينعم بالعقل النير ، ويتمتع بالجسم القوى ، ويتزود بالمعرفة الواسعة

لذا وجب على المربى أن يُذكى غريزة اللعب فى نفس الولد ، ويستحث رغباته ، ويلهب فضوله للاستقراء عن خصائص هذه اللعب والوقوف على ماهيتها ، لأن هذا الاستقراء هو فى الواقع من أهم العوامل التى لها الأثر الأكبر فى إيقاظ القوى الفكرية فيه ، ورفع مستواه الأدبى والعقلى والخلقى ؛ بل يجب على المربى ألا يهمل رغبات الطفل — التى هى خلجات نفسية وقتية — وألا يتجاهل فضوله الذى يرتبط إلى حد ما بالبيئة والوسط والعمر. فالإهمال يورثه قلة المعرفة ، والتجاهل يخمد فيه الدافع النفسى للعمل الذى من شأنه أن يرسم لنا خطوط نفسيته ويبين ما يجول فى خاطره

هذا إلى أن التربية الجسمية والخلقية والعقلية تتصل اتصالاً مباشراً بالألعاب التى يتسلى بها الأطفال ؛ وقد تختلف هذه الألعاب باختلاف حداثتهم ، وقد تتباين بتباين عواملها ، إلا أن الهدف الأسمى والغاية المثلى منها هى تربية الوليد تربية سامية صحيحة .

فاللعب يرمى إلى إنماء الجسم وتقوية البدن ، وإلى غرس الفضيلة فى النفس ، وتزويد العقل بشتى المعارف والعلوم ، فصفاء القلب ، وجمال الأدب ، وطيب الخلق ، وإظهار التعاطف ، وإبراز العادات الحسنة ، وتقوية الميول الاجتماعية ، وجميل المعاملة ، وحسن المعاشرة ، وحب الإنسانية ، إنما تكتسب عن طريق الألعاب

ولما كان الوليد يميل بطبيعته إلى العمل ويندفع بغريزته إليه — واللعب أول مظهر من مظاهر العمل — كان هدف التربية الحديثة أن تصاغ أعمال التربية الأولى فى صور الألاعيب ، ممدة لتصريف غرائز الطفل وتوجيه ميوله ورغائبه توجيهاً يعود عليه بالنفع فى مستقبل حياته ، فاللعب إذاً هو بمثابة وسيلة هامة لتكوين الطفل تكويناً أدبياً . فلينتست « الحركات والألاعيب التى

يأتيها الطفل، يقصد بها إشباع الرغبات، وسد أطماع النفوس وحسب، ولكنها مختارة لغايات تهذيبية وأخلاقية وأدبية ».

ولما كانت التربية تبتدئ عملها منذ الدقيقة الأولى التي يبصر الطفل فيها النور، والتي تتمشى جنباً إلى جنب مع الطفولة، وتستمر معه طوال حياته، وجب أن تعاون التربية الطبيعة على الوصول به إلى الغاية المقدرة له، ويتوقف نجاح نشأة الطفل على قوة بدء التربية. لذا كانت العناية بالتربية الأولى في دور الطفولة التي هي أهم أدوار الحياة، تفوق كل عناية، وهذا ما عناه Perez في قوله: إن التربية تبتدئ منذ المهد

وماذا يراد بالتربية الأولى؟ ... أليست هي التي ترمي إلى « إنماء قوى الأطفال الجسمية، وتمرين حواسهم وإيقاظ مداركهم، وحملهم على تعرف مظاهر الطبيعة حولهم، ووقفهم على أسرار الاجتماع، والتعاون على الأعمال، وتوجيه نفوسهم إلى النافع في الحياة؟ »

أليست هي التي ترمي إلى إنماء الجسم وإيقاظ العقل وإحياء القلب؟ أليست هي التي تحتم جعل أساليب التعليم سائغة شائقة، تبعث في نفس الوليد الغبطة، وتنفخ فيه أسباب المرح، وتملأ قلبه بهجة وسعادة؟ ...

ليس اللعب في نظر المربين إلا وسيلة للتربية الأولى التي من شأنها أن تؤدب النفس، وتهذب الخلق، وتقوم الطباع، وتوجه الغرائز. وما اللعب إلا العامل الأقوى في تهيئة تلك الأجواء التي تتطلبها التربية، وتلك الآفاق التي ترغب في إحاطة الوليد بها؛ فاللعب من أهم الأحداث في حياته — إن لم يكن أهمها — لأن من خصائصها التهذيب والتأديب والتثقيف، فضلاً عن تفتيح النفس لألوان من المعرفة، وانفساحها لصنوف المؤثرات والأحاسيس، وتهيؤها للحياة المقبلة

وهو إلى ذلك — أي اللعب — يمثل دوراً اجتماعياً من الطراز الأول في الهيئة الاجتماعية. وإذا ما رجعنا إلى رأي العالم كار Karr نجده يقول: إن الألعاب لها الأثر الكبير في إنماء شعور التكتل عند الفرد، وهذا التكتل له الشأن الخطير في حياة الإنسان وفي رفع المجتمع البشري. وقد ذهب هذا العالم الكبير إلى أبعد من هذا الحد، فزعم أن كثيراً من الألعاب تساعد المرء على التخلص من بعض الغرائز الموروثة غير الاجتماعية والتي يتضرر المرء منها، إن هي بقيت متأصلة فيه

غير أن هذا التخلص لا يراد به سوى التسامي بهذه الغرائز وتوجيهها توجيهاً اجتماعياً سامياً، فالانفعالات في الوليد أوجدوا لها علاجاً اجتماعياً أطلقوا عليه « التسلية النفسية » التي تتسامى بغرائزه غير الاجتماعية، وتت انفعالها إلى النواحي الاجتماعية كتربية الحيوان وتعهد الأزهار وغيرها

وقد تأثر العلم قديماً ولم يزل يتأثر حتى الآن، بالألعاب التي يتلهى بها الإنسان، وبفضل هذه الألعاب اكتشفت أول خصائص الكهرباء، وظهرت المراجة، وحلت بعض المعضلات وتمتع العالم بشتى الاختراعات ومختلف الاكتشافات

إن الألعاب التي يلعبها المرء والملاهي التي يلهو بها هي عوامل لها الأثر في ترقيته وتكوين خلقه وميوله وتحديد وجهة نظره في الحياة، فهي عوامل في تربيته تؤثر فيه أثراً مستمراً، فتشكل أخلاقه وعقله من يوم يحل في هذا العالم إلى يوم يغادره » فهي وسيلة لتأديب نفسه وتهذيب خلقه وتنمية ذوقه

وإذا ما غمرنا الطفل بالألعاب الكثيرة ووسائل اللهو فكأننا غمرناه في بيئة هي أسبقها إلى التربية الحقة، وأدناها غاية من البيئات الأخرى.

(بيروت) رفعة الحنبلي

كليلة ودمنة

نقد وتعليق

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

« كتاب دهرىّ الصَّنعة ، متقادم الميلاد » ، أفرغت فيه حكم الدنيا ومواعظ الأجيال ، وكان عجباً عاجباً وأدباً خالداً ! !

وكان اختيار مطبعة المعارف لهذا السِّفر الجليل أن يكون تذكاراً لعيدها الخمسينى — اختياراً موفَّقاً كل التوفيق ، فبرهنت بذلك أنها تحسن هذا الأمر وتجيده

وأما الرجل الذى وُكِلَ إليه الاضطلاع بعبء نشر الكتاب وتحقيق مواضع الشُّبه فيه والحكم عليها، فرجل هَدّكَ مِنْ رجل ! فالدكتور عبد الوهاب عزام قطب من أقطاب الثقافة العربية كما هو من الثقافة الفارسية . فكان بذلك خير من يتصدّى لمثل « كليلة ودمنة » ، لينشره على الناس فى هذا الثوب الرائع الفائق ، وليجهد نفسه فيه هذا الإجهاد المثمر الطيب

وإنى لأبادر فأهنئ الأستاذ عزام تهنئة صادقة ، لِمَا أحيا « كليلة ودمنة » على نحو يغتبط له ابن المقفع فى مثواه ، ويغتبط له أيضاً ذلك الجندى المجهول الذى صنع للناس هذا الكتاب فى أصله الهندى ، ثم تركه يسير فى الدنيا كريماً عزيزاً ، تتهاداه اللغات ، وتتنازعه اللهجات ، ويغتبط له كذلك أنصار الأدب العربى فى المشرقين والمغربين

كما أزجى تهنئتى إلى رجال مطبعة المعارف ، منوّهاً بهذا الفن العجيب الذى أبرز الكتاب تحفة تاريخية ناطقة . وإن كان للنشر أدب خاص ، فهذا الكتاب منه قطعة أدبية عالية ؛ وإن للألواح الثلاثة عشر التى رسمها المصور « رومان ستريكالفسكى » لأثراً كبيراً فى إحداث هذا الجو الفنى البهيج

وقد صنع الأستاذ عزام لهذا الكتاب مقدمة بلغت من النفاسة مبلغاً ، وحوت من الفوائد الكثير ؛ فهو قد عرض لتاريخ الكتاب ، وبيّن أن النسخة العربية « أصل لكل ما فى اللغات الأخرى ، حاشا الترجمة السريانية الأولى ، فقد فُقد الأصل الفهلوى الذى أخذت عنه الترجمة العربية ، وفُقد بعض الأصل الهندى الذى أخذت عنه الترجمة الفهلوية واضطرب بعضه ، فصارت النسخة العربية أمّاً يرجع إليها من يريد إحداث ترجمة أو تصحيح ترجمة قديمة ، بل يرجع إليها من يريد جمع الأصل الهندى وتصحيحه »

ثم تحدّث عن طبعات الكتاب ، فذكر :

١ — طبعة المستشرق دى سامى الذى كانت طبعته أصلاً من أصول الطبعات المصرية الكثيرة ؛ وهى نسخة ملفقة من عدة نسخ

٢ — ثم طبعتى اليازجى وطبارة ، وهما ملفقتان من طبعة دى سامى ومخطوطات ومصورات أخرى

٣ — ثم طبعة شيخو ، وهى أول طبعة فى اللغة العربية تقدم للقراء نصّاً كاملاً غير ملفق من كتاب « كليلة ودمنة » وأصلها مخطوط سنة ٧٣٩ هـ ؛ وقد طبعه شيخو كما هو لم يصحح أغلاطه ولم يوضح غامضه ، ليكون أمام المستشرقين صالحاً للمقارنة والنقد

ثم تحدث عن النسخة التى نقلت عنها الطبعة الحديثة ، وهى فى مكتبة أيا صوفيا باسطنبول كتبت سنة ٦١٨ ، فهى أقدم من كل المخطوطات التى وصفها المستشرقون ، وأقدم من نسخة شيخو المكتوبة سنة ٧٣٩

وهذه النسخة مفعمة بالتحريف والتصحيف والأسقاط وخطأ الرسم ؛ وتستطيع أن تعد فى النموذج المصور من الصفحة الأولى فقط[1] نحو اثنى عشر تحريفاً وتصحيفاً

وهذا يدل على مقدار الجهد الهائل الذى بذله الأستاذ عزام فى تحقيق هذه النسخة وتقريبها إلى السلامة

ونحن فى هذا الصدد نأخذ على الأستاذ أنه لم يتوخ فى هذه الناحية ما يقتضيه النشر العلمى من إثبات الأصل والتنبيه عليه ؛ فقد يكون للقارئ وجه فى التصحيح غير الذى ارتضى . نعم ، إن الأستاذ قد أثبت بعض كلمات الأصل فى التعليقات التى ألحقها بالكتاب ، لكنها من القلة بحيث لا تغنى شيئاً فى معرفة أصل الكتاب والوقوف عليه

وأمامنا جهود المستشرقين ناطقة بمدى تقديرهم لهذه الناحية التاريخية الفنية ، فلا تكاد تجد كتاباً نشروه إلا وقد أثبتوا أصله أو أصوله إن كان ذا نسخ مختلفة

وكتاب مثل كتابنا هذا ، لَبِسَ من جلال التاريخ ما لَبِس ، جدير بما ذكرت من وجوب بيان أصله للرجوع إليه ، ووجوب مقارنة نسخه بعضها ببعض

(١) ص ٢٣ من المقدمة

ولغة ابن المقفع فى « كليلة ودمنة » لغة عالية ، تعلو على المتأدب والأديب أيضاً ، فهى محتاجة إلى توضيح وتقييد وبيان . فكان من المستحسن أن يصنع الأستاذ لها شرحاً أو معجماً يلحقه بنهاية الكتاب ، كما فعل من قبلُ الخورى نعمة الله الأسمر ، حينما نشر ترجمة ابن الهبارية لكليلة ودمنة ، مع أن لغة هذا النظم فى مستوىً دون مستوى ترجمة ابن المقفع

على أن الأستاذ قد أحسن صنعاً بما حقق من الأعلام الفارسية والهندية ، مما يشهد له بتمام البراعة فى ذلك

***

قرأت نسخة الأستاذ عزام ، ونعمت — كما نعم غيرى — بما فيها من دقة وجمال ، فطالعنى فيها خير كثير ومقدرة فنية عظيمة ، كما ظهرت لى بعض هنات أحببت أن أنبه عليها ، وبدا لى بعض الرأى فى عبارات الكتاب ، فآثرت أن أنشره راجياً أن يباعدنى العَنتُ ، ويفارقنى التكلف ، وأن يسعفنى فى ذلك الحق

١ — فى الضبط اللغوى

١ — ص ٣٦ س ٦ : (كالعظم المتعرِّق) بكسر الراء ، صوابه : (المتعرَّق) بفتح الراء المشددة . يقال عرق العظم يعرقه عرقاً ، وتعرقه ، واعترقه : أكل ما عليه من اللحم

٢ — ٨١ : ٥ ، ٦ : (ولكن النفس الواحدة يفتدِى بها أهلُ البيت ، وأهل البيت تفتدِى بهم القبيلة ، والقبيلة يفتدى بها المصر) . الوجه : (يُفتَدَى) و (تفتَدَى) بالبناء للمجهول فيهما . فأهل البيت ، وكذا القبيلة والمصر لا يفعلون الافتداء ، وإنما يفعل بهم ذلك غيرهم فهم مفتَدون . ومن ذلك ما قال كعب بن سعد الغنوى[1] :

فلو كان حىٌّ يُفتَدَى نفديتُه بما لم تكن عنه النفوس تطيب

٣ — ٨٧ : ٦ : (ولا تغتر إليه) ، ولا يقال (اغتر إليه) بل (اغتر به) . على أن جو العبارة يؤذن بأن صحتها : (ولا تقترب إليه) فليس فيما سبقها من الكلام ما يشعر بأن « شتربة » قد يتعرض للاغترار أو يقع فيه

٤ — ٩١ : ١٢ : (وندفن بقيتها مكاناً حرزاً) . وهذه عبارة غير صحيحة . والصواب : (فى مكان حرز) فإن الفعل (دفن) لا يتعدى إلى ثان إلا بالحرف (فى) . وليس هذا أيضاً من المواضع التى يكون فيها لفظ (مكان) ظرفاً من الظروف المكانية ؛ فإن اسم المكان الصالح للظرفية إما أن يشتق من حدث بمعنى الاستقرار والكون فى مكان ، أوْ لا . والثانى لا ينتصب على الظرفية إلا بالفعل الذى ينتصب به على الظرفية المختص من المكان كدخلت ونزلت وسكنت . وذلك نحو الضرب والقتل والمأكل والمشرب

والأول (ومنه لفظ مكان) إنما ينصبه على الظرفية أمران : أحدهما الفعل المشتق مما اشتق منه اسم المكان نحو قمت مقامه ، وجلست مجلسه ، وأويت مأواه ؛ وثانيهما كل ما فيه معنى الاستقرار وإن لم يشتق مما اشتق منه ، نحو قعدت موضعك ، ومكان زيد ، وجلست منزلَ فلان ، ونمت مبيته ، وأقمت مشتاه . وما ليس فيه معنى الاستقرار لا ينصبه ، فلا يقال كتبت الكتاب مكانك ، وقتلته مكان القراءة ، وشتمتك منزل فلان[1]

وليس « الدفن » من الاستقرار فى شىء ، فلا ينصب لفظ « المكان » على الظرفية المكانية

وقد جاء فى نسخة بولاق[2] ص ٤٩ : « وندفن الباقى فى أصل هذه الشجرة ، فهو مكان حرز »

٥ — ٩٥ : ١٣ « وبلاء يضيِّع عند من لا شكر له » البلاء هنا بمعنى الإنعام . وفى ترجمة ابن الهبّارية ص ٩٥ :

ما أضيع النعمة عند الكافر وأقبح الخلّة عند الماجر

وبين اللغويين خلاف فى أن يكون البلاء بمعنى الإنعام ؛ فقال بعضهم : « الإبلاء : الإنعام . والبلاء : الإشقاء والإتعاس » . أما الإبلاء بمعنى الإنعام فلا خلاف فيه . ومنه قول زهير[3]

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

أى صنع بهما خير الصنيع . والحق أن الإنعام إنما هو الإبلاء لا البلاء . ومنه الحديث : « من أُبلى فذكر فقد شكر » وحديث كعب بن مالك : « ما علمت أحداً أبلاه الله خيراً مما أبلانى »[4]

وقد احتج من زعم أن « البلاء » يكون أيضاً بمعنى الإنعام بقوله تعالى : « وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » وقوله : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ورُدَّ عليه بأن البلاء فى الآية الأولى

---

(١) أمالى القالى (٢ : ١٤٩)

(١) انظر همع الهوامع (١ : ١٩٩) وشرح الرضى الكافية (١ : ١٦٩ — ١٧٠)

(٢) كليلة ودمنة طبع بولاق سنة ١٢٥١

(٣) فى ديوانه ٢١

(٤) نهاية ابن الأثير ولسان العرب

بمعنى الاختبار لا الإنعام. وكذلك «نبلوكم» أريد بها: «نختبركم»

وجاء في نسخة بولاق ص ٥١ : «وحباء يصطنع عند من لا شكر له». والحباء، بالكسر: العطاء

٦ — ٢٢١ : ١٥ : «ولكن إيش الفائدة فيها» بكسر الهمزة، وهذا ضبط عامي؛ والصواب: (أَيْشٍ) بفتح الهمزة وتنوين الشين المكسورة، وأصلها: (أيّ شيء؟) خففت بحذف الياء الثانية من (أيّ) وحذف همزة (شيء) بعد أن نقلت حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، ثم أعلّت إعلال المنقوص. ونحوها في ذلك (وَيْلُمِّهِ)، أصلها: (ويلُ لأمّه)، حذفت لام (ويل) وهمزة (أمّ). قال المتنخل الهذلي[١]:

ويلمه رجلاً تأتى به غبناً ... إذا تجرّد لا خال ولا بخلُ

وقال ذو الرمّة[٢]:

ويلمّها روحةً والريحُ معصفةٌ ... والغيث مرتجزٌ والليل مقتربُ

وقال علقمة بن عبدة[٣]:

ويلم أيام الشباب معيشةً ... مع الكُثر يُعطاه الفتى المتلف الندى

قال ابن السِّيد في الاقتضاب[٤]: «حذف لام ويل وهمزة أمّ، كما قالوا أيش لك، يريدون: أي شيء؟». وقال الخفاجي في شفاء الغليل: «أيش بمعنى أي شيء خفف منه. نص عليه ابن السيد في شرح أدب الكاتب، وصرحوا بأنه سمع من العرب. وقال بعض الأئمة: جنّبونا أيش؛ فذهب إلى أنها مولدة. وقول الشريف في حواشي الرضى أنها كلمة مستقلة[١] بمعنى أي شيء وليست مخففة منها، ليس بشيء. ووقع في شعر قديم[٢] أنشدوه في السير:

من آل قحطان وآل أيش»

قال السهيلي في تفسيره: «وأما آل أيش فيحتمل أن تكون قبيلة من الجن المؤمنين ينسبون إلى أيش. فإن يكن هذا وإلا فله معنى في المدح غريب. تقول فلان أيش هو وابن أيش! ومعناه: أي شيء عظيم؛ فكأنه أراد من آل قحطان ومن المهاجرين الذين يقال فيهم مثل هذا، كما تقول: هم وما هم! وزيد وما زيد، وأي شيء زيد! وأيش في معنى أي شيء كما يقال ويلمه في معنى ويل أمه، على الحذف وكثرة الاستعمال. وهذا كما قال هو: في جيش وأي جيش!»

(له بقية) عبد السلام محمد هارون

(١) أدب الكاتب ١٨٣ سلفية والاقتضاب ٣٦٣
(٢) خزانة الأدب (٣ : ٢٤٨ سلفية)
(٣) الخزانة (٣ : ٢٥٣ سلفية)
(٤) الاقتضاب ٣٦٥. وانظر أيضاً تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي ص ٤٧

(١) في الأصل: «مستعملة»
(٢) هذا وهم. والصواب أنه سجع كاهن. وقد ذكره السهيلي في (١ : ١٣٨). وهو قول خطر الكاهن: «والحياة والعيش، إنه لمن قريش؛ ما في حلمه طيش، ولا في خلقه هيش، يكون في جيش، وأي جيش، من آل قحطان وآل أيش»

الحروب الصليبية

للأستاذ ر. التميمي

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

تطورات الحركة الصليبية

لقد كانت الغاية الأولى من إشهار الحرب الصليبية امتلاك الأرض المقدسة وجعلها خاضعة لحكم مسيحى ؛ فلما ظهر قواد كبار فى الشرق الإسلامى أمثال : نور الدين وصلاح الدين ، ورأوا مملكة اللاتين لم تنشأ فى الشرق إلا بسبب تخاذل المسلمين وتفرقهم ، أخذوا يستعدون لمطاردتهم والقضاء عليهم وهيأوا لذلك جيوشاً مدربة تطورت على أثرها الحركة الصليبية ودب الضعف فى جنباتها وفى نفوس منظميها وقوادها .

ولقد تطرق إليها الفشل أيضاً حينما أخذ البابوات يقاتلون آل هوهن شتاوفن وينازعونهم الحكم فى جنوب إيطاليا وشمالها ، فتجزأت قواتهم وانصرف الجانب الأكبر من عملهم وتفكيرهم إلى إضعاف قوة مسيحية كان عليهم أن يوجهوها إلى تعزيز الفكرة الصليبية إذا أرادوا استمرارها . ويقول بعض المؤرخين إن لأطماع الجمهوريات الطليانية دخلاً كبيراً فى التطورات التى طرأت على الفكرة الصليبية ، إذ أن البنادقة كانوا السبب الأكبر فى توجيه الحملة الرابعة إلى القسطنطينية وسائر ممتلكات البيزنطيين بدلاً من فلسطين وهم الذين كانوا يختلفون لأسباب مادية مع تجار جنوا فيضعفون باختلافهم الجبهة المسيحية . وقد أباحوا لأنفسهم التقرب من بعض ملوك المسلمين وأمرائهم ، فعقدوا مثلاً معاهدة تجارية مع الملك الكامل بينما كان العالم الغربى يستعد للحملة الصليبية الخامسة .

لقد تكرر حادث عقد المعاهدات مع المسلمين أكثر من مرة ، فعقدها كل من ملوك صقلية والأراغون وجمهورية جنوا قبيل سقوط عكا النهائى فى يد سلطان مصر . كل ذلك أضعف الروح الصليبية وحور اتجاهها وخفف كثيراً من حدتها .

أضف إلى كل ما تقدم النزاع الشديد الذى كان قائماً بين رهبان طائفتى الداوية والاسبتالية وانصراف كل فريق إلى الحط من كرامة الآخر واتهامه بأفظع التهم تأميناً لمنافع مادية ليس لها أية علاقة بمجد الصليب والحركة الصليبية .

ويفهم مما تقدم أن الحركة الصليبية قد باءت بالفشل التام بعد أن انتقلت القدس نهائياً إلى أيد إسلامية مع سائر البلاد الفلسطينية ، ثم تلا ذلك سقوط عكا وطرابلس وأنطاكية وهى آخر الحصون اللاتينية وطرد آخر صليبى من الديار الشامية فى أواخر القرن الثالث عشر . وبهذا السقوط وذلك الطرد ختم الفصل الأخير من الحركة الصليبية التى كانت ألفت لغاية نصرانية كبرى أقامت العالم الغربى وأقعدته وانتقل بسببها مئات الألوف من الفرسان والأمراء وسائر المحاربين إلى ساحات القتال فى الشرق ، ومنهم من قضى نحبه ، وفيهم من حكم أو أصبح ذا سلطان وإمرة بعد أن كان فى وطنه الفقير مفلساً لا يملك شروى نقير ؛ والجانب الأكبر عاد إلى موطنه يجر ذيول الخسران وعار الهزيمة .

ومجمل القول أن الحركة تطورت وباءت بالفشل حين تغيرت غايات المشرفين عليها والمنظمين لها ؛ فباباوات القرن الثانى عشر الذين كانوا يتمتعون بسلطان منقطع النظير كانوا وطدوا العزم على امتلاك القدس فاستعملوا سلطانهم وسؤددهم وقذفوا بالجماهير السذج نحو الشرق حيث امتلكوا ما أرادوا . أما بابوات القرن الرابع عشر فلقد كانوا على اختلاف دائم مع ملوك ذلك العصر الذين أخذوا يشعرون بقوتهم وينكرون على السلطة الدينية تدخلها فى شؤونهم الداخلية والسياسية ؛ وقد بلغ بأولئك الملوك وفى مقدمتهم فيليب الرابع ملك فرنسا وإدورد الأول ملك انكلترا أن رفضوا أوامر البابا وتغاضوا عن تهديداته ؛ وكان النزاع يدور حول فرض الضرائب على رجال الدين بعد أن كانوا معفين منها ؛ وكانت الكنيسة ترفض ذلك مدعية أن أرض الكنيسة موقوفة لخدمة الله فلا يصح أن يؤخذ عنها ضرائب . أما الملوك فإنهم كانوا فى أشد الحاجة للمال بسبب كثرة نفقاتهم ؛ لذلك طمعوا فى ممتلكات رجال الدين الواسعة ورغبوا فى فرض ضرائب عليها ؛ وفى ظروف كهذه ليس من المعقول أن يكون أمل فى تجديد حملات صليبية على نمط الحملات السابقة

ومع كل ما تقدم فكر بعضهم عقب سقوط القدس

وسائر الإمارات اللاتينية نهائياً فى أيدى المسلمين ، فى تأليف حملة صليبية جديدة ، والسعى فى إحلال التفاهم محل التنابذ والتحاسد بين رهبان الداوية والاسبتالية . وقد كان فكر فى هذا الأمر فى مجمع ليون المنعقد سنة ١٢٤٥ ، وتقرر القيام به أيضاً فى مؤتمر فينا الدينى سنة ١٣١١ ؛ على أن رغبته فى التوفيق بين هؤلاء الرهبان لم تتحقق وانتهى الأمر بأن قضى على هيأة الداوية وصادر ملك فرنسا فيليب الرابع أملاكها وأموالها بعد أن تقاسمها مع البابا . أما رغبة تأليف حملة صليبية جديدة فلم يلتفت إليها حينئذ سوى بطرس الأول ملك قبرص الذى كان يحكم فى أواسط القرن الرابع عشر ؛ فلقد أنشأ جمعية دعاها جمعية السيف وغايتها تخليص القدس ، ثم أرسل وفداً إلى غربى أوربا قام بالتبشير والدعاية لتأليف حملة صليبية جديدة فلم ينجح ، فأرسل بطرس أسطولاً اعتدى على شطوط سوريا ومصر وعاد للجزيرة غانماً . وحين مات بطرس هذا أوصى بوجوب متابعة الدعاية لحملة صليبية . واعتباراً من سنة ١٣٣٠ ارتدت الحركة الصليبية حلة جديدة لم تعرف من قبل ؛ فبينما كان الصليبيون حتى الآن يهاجمون كلما سنحت الظروف بلاد الاسلام فى الشرق وأهمها سوريا ومصر ، انقلبوا الآن إلى مدافعين ، وأضحى خصمهم الأتراك العثمانيين بدل العرب والأكراد والأتراك من سلاجقة ومماليك . . .

لقد جاء الأتراك العثمانيون إلى أوربا الشرقية سنة ١٣٠٨ م بعد أن أنشأوا ملكا واسعاً لهم فى آسيا الصغرى فى فجر القرن الرابع عشر وبنوا مجدهم وسطوتهم الحربية بجيش مدرب ومجهز أحسن تجهيز دعوه بجيش الإنكشارية (الينيشرية) ومعناها الجيش الجديد ، فأخذوا يهاجمون به البيزنطيين ويتغلبون عليهم ، ويدمرون لهم الحصن بعد الحصن ، ويقهرون الجيش تلو الجيش ، حتى باتوا على مقربة من عاصمتهم . هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى هاجموا فرسان الاسبتالية فى رودس وآل لوزينيان فى قبرص ؛ فذعر العالم المسيحى لهذا الخطر الاسلامى الجديد ، وهب البابوات ينفضون عنهم غبار الخمول والمسكنة ؛ ويحاولون تجديد جبهة صليبية قوية تقف فى وجه أولئك الأتراك الأقوياء ، وظلوا يثابرون على حشد الجهود تلو الجهود ، وأخذ الناس بالنعرة الدينية إلى أن وصلوا فعلاً إلى تأليف حملة قوية من البنادقة والقبارصة وفرسان الاسبتالية وكلهم باتوا مهددين ؛ فجاءوا بأسطولهم المتحد وامتلكوا مرفأ أزمير سنة ١٣٤٤ ؛ إلا أن هذا الظفر لم يكن ليؤثر فى نشاط الأتراك وتقدمهم فلقد واصلوا نجاحهم فى البلقان وامتلكوا مدينة فيليبية البلغارية ؛ وعلى أثر ذلك جاءت حملة صليبية واشتبكت مع جيش السلطان بايزيد الأول فانكسرت شر كسرة

وفى سنة ١٤٣٩ تألفت حملة صليبية أخرى من المجريين والبولونيين تحت رياسة قائد ترانسيلوانى ممتاز يدعى يوحنا هنياد وحاربت السلطان بايزيد الثانى وتغلبت عليه ؛ إلا أنها لم تلبث أن غلبت على أمرها ، فكانت هذه آخر حملة جردتها أوربا المسيحية على الأتراك المسلمين

وفى سنة ١٤٥٣ ملك الأتراك مدينة القسطنطينية ، وبامتلاكها قضوا نهائياً على الأمبراطورية البيزنطية . وعلى أثر ذلك قام البابا بيوس الثانى ونشر دعاية واسعة النطاق لحملة صليبية وقاد طائفة من المحاربين لبت نداءه إلى مدينة أنكونا الطليانية ، وكان يريد أن يزحف بها على البلقان ليقاتل الأتراك ؛ إلا أن أفراد الحملة انفضوا من حوله فحزن البابا لتلك النهاية ومات متأثراً غاضباً .

وبعد ذلك لم نعد نسمع بحملات تحمل اسم الصليبية وانتقلت مهمة منازلة الأتراك المسلمين إلى ملوك أوربا الحديثة وإلى جيوشها المنظمة

وقبل الانتهاء من هذا الفصل لابد لنا من القول بأن الحركة الديموقراطية قد أثرت كثيراً فى عقول الناس وفى طريقة التفكير الأوربى بالمسلمين ؛ فبينما كان هم البابوات وسائر رجال الدين ومن ورائهم الملوك والامراء والفرسان والعامة خلال القرون الوسطى هو القضاء التام على الديانة الإسلامية وامتلاك بلاد المسلمين أخذت الاحوال تتبدل منذ عهد اليقظة إلى أن حل القرن الثامن عشر ، فظهر فيه حكماء وفلاسفة بشروا بحرية الأديان وبمبادىء التسامح والتساهل وظلوا فى تبشيرهم حتى أثروا فى عقول فريق ليس بقليل من الناس المثقفين ، فصاروا ينظرون إلى الشرقيين لا بمنظار التعصب الذميم والحقد الكامن بل بصفتهم أحد أركان هذه الهيأة البشرية التى ساهمت فى إقامة

صروح المدنية على ممر الأجيال والعصور

ومبادىء التساهل هـذه قد انتشرت انتشاراً واسعاً خلال القرنين التاسع عشر والعشرين فاقترب بسببها الشرق من الغربي أكثر من قبل، ولعبت المصالح المادية الدور الأول في إقامة العلاقات الودية بين الطرفين، وصار الغربي يتودد في كثير من الأحيان إلى الشرق دون أن ينظر إلى دينه، ويخلص في تودده؛ على أن هـذا لا يمنعنا من التنبيه إلى ما يكتبه بعض المؤرخين المغرضين وهم ما زالوا يحرصون كل الحرص على مبادىء التعصب والحقد التي سادت دنياهم منذ العصور الوسطى المظلمة، وقد نجد من هؤلاء من ينفث سمومه في صحف ومجلات محترمة أوربية وأميركية وتراه يحمل حملات شعواء على العرب مثلاً ولا ذنب لهم في نظره إلا لأنهم مسلمون وهو لا يحب الإسلام ولا المسلمين، ويريد أن يرى في الحرب العالمية السابقة حرباً صليبية انتهت بظفر الصليبيين على الهلال ودخول البلاد المقدسة تحت الحكم الإنكليزي

نتائج الحروب الصليبية

من المناسب أن ننظر إلى الحركة الصليبية كجزء أو فصل من تاريخ البشرية، لا كعمل أريد به تنصير الشعوب الشرقية؛ وتأريخ هذا الفصل صعب جداً، لأنك بينما تجد بعض المؤرخين يذهبون إلى أن معظم التطورات الاجتماعية العالمية قد نشأت عن الحروب الصليبية، يقول آخرون خلاف ذلك فلا يهتمون أبداً بتلك الحروب الاهتمام الذي تستحقه

على أن من الإنصاف أن نقول ونقرر بأن اضمحلال عهد الإقطاع وظهور المدن الحرة وبشائر عهد اليقظة، حتى والاكتشافات البحرية، كل أولئك يمكن إرجاعه إلى حد ما إلى الحركة الصليبية

ففي أوائل القرن الحادي عشر كان الأشراف والفرسان أول من لبى نداء البابا، وخرج منهم عدد كبير إلى الشرق فقتل أكثرهم، وأقام آخرون في الأراضي المقدسة، فقل بذلك عدد الأشراف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إعداد الحملات الصليبية قد اضطر هؤلاء إلى بيع أملاكهم كلها أو بعضها كما اضطرهم إلى تحرير أرقائهم مقابل مبالغ دفعوها إليهم، وقد أقام أولئك العتقاء في المدن واشتغلوا بالصناعة والتجارة، فزادت أهمية المدن وظهرت فيها طبقة جديدة هي الطبقة الوسطى المؤلفة من أولئك الذين حرروا أنفسهم بما دفعوه لسادتهم النبلاء. ولقد استطاعت هذه المدن بفضل جد أبنائها من أرباب الصناعة والتجارة أن تشتري هي أيضاً حريتها من الأشراف ذوي السيادة عليها وتكتفي بحماية الملك أو الإمبراطور

وأما بوادر النهضة واليقظة فقد ظهرت حين اتصل نصارى الغرب بمسلمي الشرق وأخذوا عنهم ما سمعوه من أغان وأحاديث واطلعوا على تاريخ البلاد الآسيوية وجغرافيتها وهي التي أيقظت العالم الغربي من سباته العميق وجمعت كلمته على عمل مشترك بعد أن كانت الفردية فيها مستحكمة العرى وكانت الفكرة القومية كلمة لا معنى لها، فكان الباريزي مثلاً ينظر إلى ابن مرسيليا نظره إلى الألماني الأجنبي عنه أو الإنكليزي، وذلك لأن الطرق لم تكن معبدة ووسائل التنقل نادرة صعبة، فكان الناس لا يعرفون إلا من جاورهم من السكان، فلما ضمتهم الحروب الصليبية تحت لواء واحد تعارف أبناء الأمة الواحدة وتآلفوا. ثم أيقظت هذه الحروب بين النصارى فكرة الدفاع عن مبدأ مشترك مقدس وهذا ما كان يقوم في العصور الوسطى مقام المبادئ المشتركة التي تربط جيلنا المتحضر مثل نظرية الحرية الدينية والسياسية وتقرير المصير واحترام العهود والمواثيق

ومن نتائج الحروب الصليبية قيام فريق من الملوك الأوربيين بجمع الضرائب الثابتة من رعاياهم، فقد باشر بجمعها لويس السابع ملك فرنسا فتبعه هنري الثاني ملك انكلترا، ثم جبيت ضريبة صلاح الدين في معظم العالم الغربي سنة ١١٨٨ ولم تقتصر الضرائب هـذه على الأهلين بل تناولت أيضاً رجال الكنيسة وذلك بقرار استحصله البابا أينوسن الثالث في مجمع لاتيران الديني سنة ١٢١٥ على أن تنفق تلك الضرائب على الحروب الصليبية

وحينما جاء الفرنج ساحات الحرب في الشرق لم يفكروا في تنصير المسلمين بادئ بدء، فلما مضى عليهم نحو عصر استيقظوا من غفلتهم، وكأنهم أرادوا أن يتلافوا ما فاتهم بالتبشير بالدين المسيحي ودعوة الشرقيين إلى التنصر فقاموا قومة واحدة وعلى رأسهم البابا، وأخذوا يبعثون إلى ديار الشرق وإلى قبائل التتارية مبشرين انتشروا في جميع البلاد الواقعة بين عكا والإمارات اللاتينية الشامية من جهة، وسد الصين من جهة أخرى؛ وكان النصارى مع البابوات يعلقون آمالاً كبيرة على تنصير التتار.

٢ - المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الانجليزى ادورد وليم لين
للأستاذ عدلى طاهر نور

مقدمة الكتاب

البلد ومناخه — العاصمة — المنازل — السكان

من المشاهد أن أكثر الخصائص لشمائل أمة وعاداتها وأخلاقها، إنما يرجع إلى الخصائص الطبيعية لإقليم هذه الأمة. لخصائص الإقليم المصرى تؤثر ولا شك فى أحوال المصريين الأخلاقية والاجتماعية، وهى لذلك تقتضينا كلمة إيضاحية نجمل فيها الآثار العامة؛ أما الآثار الخاصة، فستتجلى فى الفصول الآتية من هذا الكتاب

يجرى النيل فى وادى مصر العليا الشديد الضيق الكثير الريع بين صحراوين جبليتين رمليتين، حتى يجتاز سهول مصر السفلى؛ وهو فى مجراه تكتنفه فى كل مكان، ما خلا مواضع قليلة منه، حقول زراعية تكونت من غرينه؛ وهذه المناطق الزراعية ليست مستوية كل الاستواء لانخفاضها عند الصحراء وارتفاعها قليلاً عند النهر؛ يتخللها غابات من النخل وسلاسل من القرى، وتقطعها ترع عديدة

تصل أمطار الصيف الغزيرة التى تقع فى الحبشة وما جاورها من البلاد أرض مصر حول الانقلاب الصيفى؛ وعند الاعتدال الخريفى يبلغ النهر أقصى فيضانه، فيُترع النهيرات والقنوات التى تروى الحقول، ويغمر بقاعاً واسعة من الأرض الصالحة للزراعة، ثم يهبط تدريجياً حتى يعود سيرته الأولى. ويحمل النيل معه، وعلى الأخص فى وقت الفيضان الغِرْيَن (الطمى) الذى يجرفه من البلاد الجبلية حيث ينبع، فيوزع فى كل سنة هـذا الغِرْيَن الوفر على الحقول المنبسطة على جانبيه، بالفيضان

فلما حكم هؤلاء تيمورلنك قضى على فكرة التبشير وحمل أبناء قومه على اعتناق الديانة الإسلامية

وقد نقل الفرنج من سوريا أموراً كثيرة إلى بلادهم. فالفرسان منهم أخذوا عن العرب القوس والطبل والبيرق والرمح. وقد كانت الفروسية فى مهدها عربية أخذها الفرنج عن فرسان العرب الذين كانوا يغيرون على بلادهم خلال القرنين الثامن والتاسع. ويقول سديو المؤرخ الفرنسى: « إن خلال الفروسية الأندلسية وشمائلها الرقيقة كانت مستقى أخذت منه الفروسية النصرانية الكثير من خلالها ورسومها ». ويقول فياردو: « إن الفروسية وكل نظامها التى عرفت فى الأمم النصرانية كانت مزدهرة عند الأندلسيين أيام الناصر والحكم والحاجب المنصور، وكانت الأندلس فى ذلك العصر كعبة يقصدها فرسان النصرانية من كل صوت بعهد سلام وحماية من الخلفاء ليعقدوا المباريات مع فرسان الإسلام. وقد بلغت الفروسية العربية أسمى درجاتها وذروة ازدهارها فى مملكة غرناطة التى يفيض تاريخها

بأخبار السادة والأمجاد وأحاديث شهامتهم ووفائهم

فالألعاب الفروسية أصلها سباق الجريد المعروف عند العرب، والمبارزة، وما يتبعها من آداب اجتماعية، مثل تقديم المساعدة للمرأة والولد والشيخ العاجز، والوفاء بالوعد، والتجمل بمبادئ الرجولة، والمروءة، والكرم، كل أولئك أشياء معروفة عند العرب الذين كانت طبيعة بلادهم وحياتهم الاجتماعية فى صحرائهم المترامية الأطراف وشدة عنايتهم بضروب الفروسية تحملهم على الاعتماد على السواعد المفتولة فى بلوغ ما يصبون إليه من صفات الرجولة أكثر من اعتمادهم على شىء آخر. كما نقل الفرنج إلى بلادهم بعض المحصولات النباتية كالسمسم والمشمش والبطيخ والذرة والليمون والشمام والقطن والسكر.

هذا عدا أشياء وأمور وعادات شرقية كثيرة انتقلت إليهم عن طريق الأندلس وصقلية. كل ذلك يبرهن على مبلغ التأثير الكبير للحروب الصليبية فى حياة الأمم الاجتماعية فى الديار الغربية

(فلسطين) ... التميمى

الطبيعي أو بالري الصناعي ؛ بينما يرتفع مجراه من ترا كم هذا النِّيرَيْن بدرجة مساوية لارتفاع الحقول . ويعتمد المصريون جميعاً على نهرهم في خصب الأرض ، لأن المطر ظاهرة نادرة جداً في بلادهم ، ما عدا البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط . ولما كانت الفصول منتظمة كل الانتظام ، فإن الفلاح يمكنه أن يرتب العمل الواجب إنجازه بكل دقة . وعمل الفلاح على الجملة سهل ، ولكن رفع المياه للري شاق متعب !

ومناخ مصر — في معظم السنة — ملائم للصحة إلى درجة تستحق الذكر . غير أن الأبخرة المتصاعدة من الأرض بعد الفيضان تجعل أواخر الخريف أقل ملاءمة للصحة ، فهي تسبب الرمد والديسنطاريا وبعض أمراض أخرى تكون أكثر شيوعاً في الخريف منها في الفصول الأخرى . وتهب فجأة رياح جنوبية حارة تدوم ثلاثة أيام في وقت الخماسين[1] التي تدوم على وجه التقريب خمسين يوماً تبدأ في شهر أبريل وتنتهي في آخر مايو ؛ وتلك الرياح يندر أن ترتفع منها الحرارة فوق ٩٥ درجة فاهرنهايت في الوجه البحري ، أو ١٠٥ درجة[2] في الوجه القبلي ؛ إلا أنها تكرُب الأنفاس وتضيق الصدور . وفي الصيف يفد الطاعون إلى مصر ، ويكون أشد خطراً في مدة الخماسين . ومصر معرضة أيضاً في الربيع وفي الصيف لريح السموم ، وهي أشد وطأة من رياح الخماسين ، ولكنها أقصر مدة ، إذ يندر أن تدوم أكثر من ربع ساعة أو عشرين دقيقة ؛ وهي تهب عامة من الجنوب الشرقي حاملة معها سحباً من الغبار والرمال . وتتراوح الحرارة في منتصف الشتاء بعد الظهر في الوجه البحري بين الخمسين والستين درجة في الظل . أما في أشد الفصول حرارة فتتراوح بين التسعين والمائة درجة . ويزيد على ذلك حوالي عشر درجات في مناطق الصعيد الجنوبية . على أن حرارة الصيف مهما بلغت شدتها قلما تضايق النفس ، لأن النسيم الشمالي يلطفها ، ولأن المناخ شديد الجفاف . إلا أن هناك مصدراً كبيراً للضيق يصيبه ذلك الجفاف ، وهو كثرة الغبار . وهناك أوبئة أخرى تقلل كثيراً من الراحة التي ينعم بها المصريون وضيوفهم في هذا المناخ البهيج . ويكثر الذباب في الربيع والصيف والخريف كثرة مزعجة أثناء النهار . أما في الليل فينتشر البعوض انتشاراً يقض المضاجع ما لم يتقه النائم بالكلة . ويملأ البق أثناء الفصل الحار كل المنازل ذات الأثاث الخشبي . ولا يمكن تجنب القمل في أي فصل ، ولكن من السهل التخلص منه . أما البراغيث فتكثر في الشتاء كثرة مزعجة

ومناخ الصعيد أكثر ملاءمة للصحة من الريف وإن كان أشد حرارة . وقلما ينتشر الطاعون فيما وراء القاهرة . وهو أكثر انتشاراً في مناطق المستنقعات القريبة من البحر المتوسط . وفي أثناء السنين العشر الأخيرة ، قبل زيارتي الثانية لمصر ، لم تحدث غير إصابات قليلة جداً ، إلا في الأقاليم السابقة الذكر ؛ وهذه لم يكن الوباء فيها شديداً[1] ، لأن البلاد تحسن صرف مياهها ، وأدخلت فيها نظم المحاجر الصحية لمنع دخول هذا المرض من بلاد أخرى أو لوقفه . والرمد أكثر انتشاراً في الوجه البحري منه في الأقاليم الجنوبية . وهو يحدث عامة من العرق ؛ ولكن ضرره يتفاقم من الغبار ومن أسباب كثيرة أخرى . وقلما يستفحل خطر هذا المرض إذا أسرع المرضى في استعمال الدواء ، ولكن كثيراً من الوطنيين لجهلهم طريقة العلاج ، أو لإصرارهم على تفويض الأمر للقدر ، يفقدون البصر كله أو بعضه

وكثيراً ما سألني السائلون هل في مصر معمرون ؟ ومن المحقق أن قليلاً من أهل هذا البلد مَن يبلغ السن العالية ؛ ولكن من

---

(١) أنظر هامش الفقرة الأولى فصل ٢٦

(٢) هذه هي الحرارة في الظل وقد لاحظت في مدينة طيبة أن ميزان الحرارة يرتفع إلى ما فوق ١١٠ درجة في الظل أثناء ريح خماسيني

(١) هذه الملاحظة كتبت قبل طاعون سنة ١٨٣٥ الهائل الذي دخل من تركيا وانتشر في كل أنحاء مصر ، ولو أن آثاره لم تكن عظيمة في الأقاليم الجنوبية . وقد أهلك ما لا يقل عن ثمانين ألف نفس في القاهرة ، أي ثلث السكان ، وأزيد بكثير على ما أعتقد من مائتي ألف في كل مصر . وطبقاً لتقرير حكومي بلغ عدد ضحايا هذا الوباء حوالي أربعين ألفا في القاهرة . ولكن أخبرتني جهة رسمية عليا أن الحكومة جرت في هذه الحالة على قاعدة تقرير نصف عدد الأموات فقط

النادر أن يبلغ المرء هذه السن فى بلدنا دون أن يصاب مراراً بعرض مميت لولا عناية الطب التى لا ينالها إلا النزر القليل فى مصر . وحرارة الصيف تنهك الجسم ولكنها تدفع المصريين إلى الإفراط فى اللذات الشهوانية . وخصوبة الأرض تولد الكسل ، فيكتفى المصرى بالقوت القليل ، وهذه الكفاية يحصل عليها بأدنى سعى وأقل مشقة

والعاصمة المصرية الحديثة التى يشغل الحديث عن سكانها أكثر صفحات هذا الكتاب، تسمى الآن «مَصر [١]» أو باللفظ الأفصح «مِصر» ؛ ولكنها كانت تسمى من قبلُ القاهرة فصحفها الأوربيون إلى «كايرو» . وموقعها عند مدخل الصعيد فى منتصف المسافة بين النيل وسلسلة المقطم الشرقية ، وبينها وبين النهر بقعة صالحة للزراعة فى أكثر أجزائها . يزيد عرضها على ميل فى المناطق الشمالية (حيث يقع ميناء بولاق) ، ولكنها فى الجنوب أقل من نصف ميل . ومساحة العاصمة تبلغ تقريباً ثلاثة أميال مربعة . وقد أحصى عدد سكانها أثناء زيارتى الثانية فبلغ زهاء مائتين وأربعين ألفاً ؛ وقد زاد هذا العدد بعد ذلك كثيراً بسبب إنقاص عدد الجيش ولأسباب أخرى . والقاهرة محاطة بسور تقفل أبوابه ليلاً ، وتشرف عليها قلعة كبيرة تقع فى زاوية من المدينة بالقرب من الجبل ، وشوارعها ليست مبلطة وأكثرها ضيق غير منتظم ، وهى أحرى بأن تسمى أزقة

وتبدو القاهرة للأجنبى العابر فى شوارعها مدينة ضيقة جداً تغص بالسكان ؛ ولكن الحال تختلف فى نظر من يشرف على المدينة من سطح منزل أو من مأذنة مسجد . وأكبر الشوارع يكون فيه عادة صف من الحوانيت على كل جانب ، وفوق الحوانيت غرف لا تتصل بها ، وقلما تكون مشغولة بمستأجرى الدكاكين وتوجد على أيمان الشوارع الكبيرة وعلى شمائلها دروب وحارات ، وأغلب الدروب طرق مزدحمة لكل منها بوابة من الخشب كبيرة على مدخلها تقفل ليلاً ، ويحرسها بواب من الداخل يفتح لكل من

(١) هذا هو الاسم الذى يطلقه المصريون المحدثون على بلدهم كما يطلقونه على عاصمة بلدهم

يطلب الدخول . أما الحارات فغالباً ما تتكون من عطفات صغيرة لها مدخل عام واحد ذو بوابة تقفل كذلك ليلاً ، ولكن أكثرها يشقها درب من أولها إلى آخرها

ولا بد لى من وصف دور العاصمة ، وهذه الصورة التى أمامك تعطيك فكرة عامة عن خارج تلك المنازل . وتبنى



شكل ١ ـ (منزل فى القاهرة)

الجدران الأساسية فى الطابق الأول خارجاً وداخلاً من الحجر الجيرى الناعم ، يقطعونه من الجبال المجاورة . وعند ما يقطع الحجر يكون سطحه ذا لون ضارب إلى الصفرة الخفيفة ، ولكن لونه سريعاً ما يقتم . وتلون خطوط الواجهة أحياناً بالحمرة والبياض على التعاقب خصوصاً فى المبانى الكبيرة كما هو الحال فى أكثر المساجد [١]

(١) طريقة تزيين الدور أصبحت أهم بكثير مما كانت عليه قبلا بناء عن أمر الحكومة طلبت فيه من السكان الاحتفال بقدوم إبراهيم باشا من سورية . وبعد ذلك بسنوات كان سكان القاهرة يأمرون بتبييض طبقات منازلهم العليا ؛ فشوش هذا منظر المدينة الجميل ، لأن التباين بين بياض الجدران وسواد أخشاب النوافذ القديمة أحدث تأثيراً غير جميل

ويظهر الشارع فى الصورة (شكل ١) أوسع مما هو فى الواقع فإن النوافذ البارزة على جانبى الطريق تكاد تتقابل فتحجب الشمس تقريبا وتحدث رطوبة مقبولة فى الصيف

الإنجليز والعمل

[نقلا عن مجلة الشهر الفرنسية]

للأستاذ مصطفى كامل

يضرب المثل بالبرود الإنجليزي ، ولكن النشاط الإنجليزي لا يقل ذيوعاً عنه . وكثيراً ما كان الشعب الإنجليزي في رأى الأجانب قليل الاكتراث ، بطيئاً في التصميم ، مفضلاً الاحتفاظ الشديد بعمله وراحته وعاداته اليومية على كل شيء آخر . مع أن هـذا الشعب نفسه قد أدهش العالم مراراً بجلده في الشاق وإصراره الخارق وموارده المادية والأدبية التي لا تنفد ، والتي يستخدمها في العمل بمجرد شروعه فيه . أخذ بعض الذين عيل صبرهم على الإنجليز أنهم لم يعبأوا بتوغل الألمان واستفزازهم في أوائل هذه الحرب ؛ ولكن العالم كله اليوم يتحقق من إرادة هـذه الحكومة وهـذا الشعب التي لا تنثني أمام أية تضحية ، وفي عدم ادخار أي مجهود لوضع نهاية لتهديد الريخ الثالث للأمم الشرقية ولمجموع العالم المتمدن . فكيف نوفق بين هذين النوعين من الوقائع ؟ سنوضح أنهما غير متناقضين إلا في الظاهر

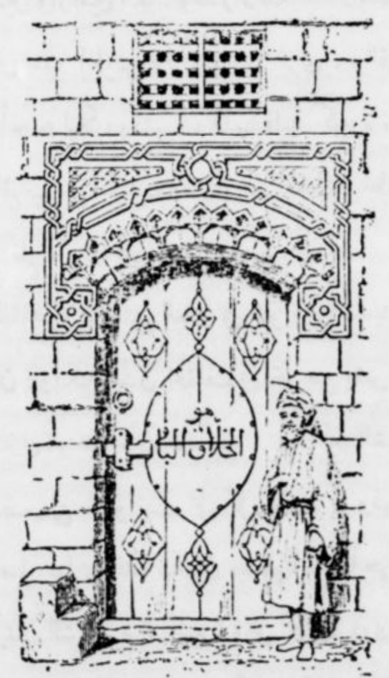
فلو أننا تأملنا الشعب الإنجليزي إبان العمل لأدركنا سر تصرفه في وقت الراحة . فاللغز هو أن العمل عنصر طبيعي للنفس الإنجليزية ، فلا حاجة إلى كلمات بيانية ، أو حركات خطابية لحثه على العمل . إذ أن النفس الإنجليزية لا تستطيع أن تتصور حياة بدونه ، فالتصرف والعمل لهذه النفس ضرورة حيوية وليس نظاماً ، ولهذا لم يكن النشاط المتوالي الذي يفيض منها مكتسباً أو زائفاً أو وقتياً ؛ ولم يكن الهدوء والراحة في نظر الإنجليزي غير نتائجه المفيدة المرغوبة . ويجب الاعتراف بأن للإنجليزي سيطرة لا مجارى في العمل تعطيه مع غريزة الاستمرار والتضامن في الجهود ، قوةً تجعل منه أثمن حليف وأنفع صديق

الصرامة في العمل

وليس أدل على أن الإنجليز شعب عمل من نفس اللغة التي خلقوها لاستعمالهم ؛ فليست توجد لغة أوربية أخرى يهيمن

ويشيد البناء العلوي بالآجر ، ويغطى بالكلس أحياناً ، وهو ذو واجهة تبرز حوالي قدمين ، يقوم على كوابيل أو دعائم ؛ والآجر لبن محروق ذو لون أحمر قاتم . ويتكون الملاط من طين بنسبة النصف ، وكلس بنسبة الربع ، والباقي من رماد التبن والسقط . لذلك تبدو الجدران غير المغشاة بالكلس قذرة اللون كما لو كانت مبنية باللبن . ويغطى سطح المنزل بالكلس ، ويكون عادة من غير سور

ويبين الرسم رقم ٢ الأسلوب المعماري « الأكثر ذيوعاً » لمدخل المنزل القاهري . فالباب كثيراً ما يزين على هذه الطريقة المصورة ، فيصبغ القسم الذي فيه الكتابة والأقسام الأخرى المتشابهة الشكل بلون أحمر يحده حد أبيض ، بينما تلون بقية الباب باللون الأخضر . أما عبارة « هو الخلاق الباقي » التي سنشرح موضوعها عند الكلام على خرافات المصريين فترى على أبواب كثيرة . وهي تنقش عادة بحروف سوداء أو بيضاء . وقلما تصبغ الأبواب ما عدا أبواب البيوت العظيمة . ويكون لها على العموم سماعة من الحديد وضبة من الخشب ،



شكل ٢ — (باب منزل قاهري)

وعلى جانب الباب درجتان من الحجر للركوب [1]

(يتبع)

عدلي طاهر نور

(١) وهي المعروفة بسلم التسليم (المترجم)

(الفعل) عليها بهذه الدرجة — أعني التعبير عن الحركة والفعل والنشاط — كما أنه لا توجد لغة لها مثل قدرتها على التعبير الدقيق عن النظام والأمر، وفي تصوير ما فعل أو ما يتعلق بما يفعل، بمثل هذا الإيجاز والوضوح

ولكل مراتب الحركة والعمل (فعل) في الإنجليزية ينطبق عليها تماماً بغير ضرورة إلى استعمال ظرف أو أي تعبير للتحديد أو الإيضاح. وفعل يرفس to kick، وهو مثل من آلاف الأمثلة التي تزخر بها اللغة الإنجليزية، ليس له مثيل في أية لغة أوربية، كما أن الفعل في الإنجليزية يتغلغل في الجملة بأكملها، فيبرز جرسها ويحدد وزنها

والذي تفصح عنه اللغة الإنجليزية ببراعة هو دقائق تكوين الذكاء الإنجليزي الذي تبدو الفكرة في ثناياه كأنها لم تخلق إلا للاستعداد للعمل والترحيب به وجعله سائغاً. وقد ذكر سلڤادور دي مادرياجا عن هذا الموضوع في كتابه (الإنجليز والفرنسيون والإسبان) آراء في منتهى السداد والدقة، قال:

«إن الذكاء الإنجليزي في الدرجة الأولى من القوة، ويبلغ أقصاه أثناء العمل وعند ما يكون الإنتاج العملي محط النظر، ولكنه لا يتكلف المشقة من أجل تصرفات لا تجدي، وهذا هو أحد أسباب الشهرة السيئة التي نسبت إليه؛ كما أن هناك سبباً آخر، فذكاء الإنجليزي، وهو أقل تخصصاً في الأمور الذهنية، كأنه ذائب في جميع أنحاء جسمه؛ وهذا ما يفسر بطئه في التحرك، فإنه لا يكفي أن يحشد التهييج الخارجي قوى المخ وحده بل جميع الجهاز العصبي أيضاً، كما أن الإدراك لا يتم بالمخ وحده ولكن بجميع الجهاز العصبي كذلك. ولهذا كانت الآلة العقلية في الإنجليزي أكثر تعقداً وثقلاً وبطئاً للبدء في العمل»

وهذه الفكرة التي تركزت في العمل من تلقاء نفسها تتضح في مذهب المنفعة الغريزي الذي نجد الأدلة العديدة عليه في تاريخ انجلترا، والذي يفسر كثيراً من الأمور في عادات الإنجليز، فالإنجليزي يتجه قدُماً نحو العمل عند ما يتعلق الأمر بالتصرف مهما كانت الوسيلة. ومن السهل عليه أن يقنع بالضروري، ويكون لديه كل ما لم يفد مباشرة في الغرض الذي تكفل ببلوغه فائضاً عديم الجدوى، ومع ذلك فإن هذا لا يعني أن العمل يقوم بطريقة تدل على التسرع والشدة والعسف، بل على العكس، فإن عادة الإنجليزي في التصرف وفهمه للحياة في ظلال العمل تملمه أن يتصرف بهدوء وتؤدة، وتخول له أن يشعر بالراحة وهو في أوج العمل، وأن يدخل في حسابه على قدر المستطاع أوقاتاً للاستجمام والراحة

والإنجليزي لا يستسلم للاهتياج بسرعة، ولا للاندفاع إلى العمل بغير أن ينضجه تماماً في ذهنه، فهو بطيء في التحرك، ولكنه عند ما تستولي عليه فورة العمل لا يقفه شيء، فإنه عند ما يتصرف يؤدي عمله بكل جوارحه وقلبه. وكيف لا يكون كذلك وهو في أثناء العمل يشعر أنه كالسمكة في الماء، لا تشعر وهي في الماء بالحاجة إلى الزعنف لتسبح، ولهذا لم يكن في النشاط الإنجليزي أثر من الضيق أو الوهن، بل تصحبه الابتسامة والراحة

وإننا نجد في بعض رسائل الشاعر الروسي تيوتشيف بتاريخ ٢٥ يونيو ١٨٥٥ قوله: «أما عن العدو — ويقصد الأسطول الإنجليزي في حرب القرم — فقد تبادلت الرسل بين الفريقين هذه الأيام، ولقد كان بين الطلبات السخيفة التي طلبت منا، طلبٌ في غاية الغرابة، هو أن نمنحهم ركناً صغيراً في أرض محايدة ليستطيع رجال أسطولهم أن ينصرفوا إلى لعبتهم المحبوبة (الكريكيت)».

صحيح إن حرب ١٨٥٥ لا تشبه الحرب في ١٩٣٩، ولكن الخلق الانجليزي لم يتغير تغيراً محسوساً، ومع ذلك فإن طلب البحارة الإنجليز لم يكن سخيفاً كما ظن تيوتشيف، لأن التدريب الرياضي جزء من نظام التعليم الذي خلق طراز رجل العمل الإنجليزي السكسوني

غريزة التضامن

وهناك مظهر أساسي آخر للنفس الإنجليزية، هو غريزة التضامن التي تسود العاطفة الشديدة للمنفعة المشتركة والعمل المشترك؛ فإن النفس الإنجليزية ممتلئة أكثر من أية نفس أخرى بهذه العاطفة. فالتضامن للانجليزي، سواء أكان مقصوراً على أعضاء الجماعة الصغيرة أم كان يشمل الوطن كله،

ليس شيئاً معنوياً أو مثلاً أعلى للأخلاق أو الاجتماع ، وإنما هو حقيقة واضحة مادية ، بل هو ضرورة يشعر بالحاجة إليها ، وكل أمة جديرة بهذا الاسم تتآزر في الخطر إذا داهمها من الخارج ، ولكن ذلك يكون عن اقتناع بالضرورة إليه ؛ أما في انجلترا ، فإن الذي نراه في مثل هذه الحالات هو غريزة غير واعية ، ولو أنها سليمة الإدراك ، وهي تشبه من بعض الوجوه الغريزة التي تثير أعضاء فريق الكريكيت عند ما يتعلق الأمر بالدفاع عن الشرف الرياضي لقرية أو مدرسة . وقد أصبحت التقاليد والتعليم طبيعة ثانية ، فإنه في الخلايا الاجتماعية الصغيرة وفي الحياة اليومية تتكون على التحقيق الغريزة التي يمكن أن توحد ، عند ما تسنح الفرصة ، بين جميع انجلترا ، وكل الامبراطورية ، بل بين جميع العالم السكسوني الإنجليزي

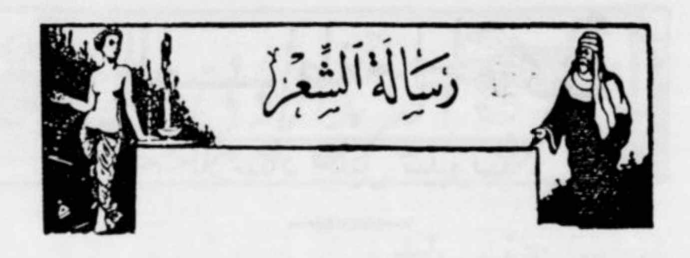
وغريزة التضامن مصدر للنظام الاختياري الذي لا يشبه النظام الفرنسي ولا للنظام الألماني من باب أولى، فإن الألماني يخضع لأمر، والفرنسي يخضع لمبدأ، والانجليزي يخضع لنفسه ، لغريزته، لرغبة الحياة في المجموع ، وهي رغبة طبيعية لديه بمقدار الرغبة في الحياة . النظام الألماني رق اختياري ، والنظام الفرنسي خضوع الإرادة للآراء الواضحة البينة ؛ أما النظام الإنجليزي فهو فيض غريزة خاصة بكل إنجليزي ، وهو وثيق الصلة بفكرة الخدمة : الخدمة التي يؤديها الإنسان طواعية إلى قريبه، لا الخدمة التي يؤديها الشخص إلى متبوعه . وكلمة موظف تترجم في الإنجليزية (بالخادم المدني) ، فإن لفكرة الخدمة الاجتماعية عند الإنجليزي معنى يشبه المعاني الدينية . ومن الواجبات الرئيسية على رجال الدين الانجليكانيين والبروتستنت في انجلترا غرس الخدمة الاجتماعية ، ومكافحة البؤس والأماكن غير الصحية ، وتنظيم الإحسان العام ومقاومة البطالة ، وتعويد الإنسان أن يكون نافعاً على أية صورة وبأية وسيلة ؛ ولكن ذلك غير مقصور على الكنائس والقسس فحسب ، ولكن التعاون الاختياري منتشر بين جميع الطبقات وفي جميع ولايات المملكة المتحدة ، وفي مجموع العالم الانجلوسكسوني

ولتفهم غريزة التضامن الانجليزية يجب التنويه على الأخص بأنه تضامن إيجابي في العمل، وليس عاطفة سلبية بتحمل المسؤولية المشتركة مما يمكن أن نجدها كذلك في الشعوب الأخرى ، فإن الصدارة في العمل تتأكد في هذا الميدان كما تتأكد في مجال الاستمرار التاريخي ، في التقاليد الحية . ففي اللحظة التي يهدد الخطر بلاده فيها ، وتكون الضرورة إلى العمل المشترك لا محيص عنها، يتجه الانجليزي بكليته نهائياً إلى تقليده وإلى جماعته، وعندئذ تبلغ عبقريته الفردية أقصى قوتها وتتكشف عن كافة مواردها

إن أهم ما يريد الانجليزي قوله يقوله في صوت خافت ، فإذا كان قلقاً بدا أكثر صمتاً وهدوءاً من قبل ، حتى إذا هدد الخطر جميع الذين ممه يدرك أن الصمت لم يعد يكفي ، وأنه يجب عمل شيء آخر يسهل انجاز أثقل الواجبات ؛ وكلما ازداد الخطر بدت على وجوه المارة في لندن علائم الأنس واللطف

لقد تكلم الناس كثيراً عن قوة بريطانيا المادية وقوة بحريتها وطيرانها ، ولكن الذي يفوق هذا كله هو أطوارها في الجهود بمجرد أن تباشرها ، وإحساسها بالتضامن ، وهدوءها الحازم في الأوقات الحرجة ؛ وبمعنى آخر قواها الأدبية التي تؤيد الحقيقة المطلقة للحكم القائل : « إن الشعب البريطاني ما يزال أغنى حليف في العالم »

مصطفى كامل



من جراح الحرب!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

[مهداة إلى الذين نضر الله أيامهم بالغنى واليسار، فتركوا أيام الأشقياء والبائسين صرعى على أعتابهم بلا رحمة ولا إحسان ...! وإلى الذين شردتهم ويلات الحرب في كل مكان ...]

عَبيدَ الخزائنِ ... طوفوا بها   كما طافَ نَعْشُ الهُدى بالصَّنَمْ!

وأدُّوا الصلاةَ بأعتابها   عساها لكمْ كعبةٌ أو حَرَمْ

وبثُّوا الكنوزَ حديثَ الهوى   لعلَّ شذا المالِ يَرْوي النَّهَمْ

وقفتمْ هواكمْ وأحلامَكمْ   على أخرسٍ سرمديِّ البَكَمْ

لهُ رنَّةٌ في حشاكمْ لها   صدى عازفٍ عبقريِّ النَّغَمْ

غزا رِقُّهُ دهرَكمْ مثلما   غزا النورَ ليلٌ دجيُّ الظُّلَمْ

عبدتمْ جمادًا على وجهِهِ   لجُرحِ النَّدى آهةٌ تبتسمْ

ظلمتمْ صِباهُ فشيَّبتمو   هُ كما شابَ في الدهرِ مَغنى القِدَمْ

سجنتمْ خُطاهُ بأيامِكمْ   ولُذتمْ بهِ في زوايا العَدَمْ

إذا امتدَّ ضوءٌ لمحرابِهِ   ذبحتمْ خُطا الشمسِ فوقَ القِمَمْ

وإنْ رفَّ حلمٌ على مهدِهِ   نسختمْ فناءً لهذا الحُلُمْ

سهرتمْ عليهِ كأمِّ الوحيدِ   سُرى الليلِ فيها هوًى يحتدمْ

قلوبٌ سواهدُ مثلُ العيونِ   شرايينُها ساهداتُ الضَّرَمْ

وقفتمْ بها وقفةَ الديدبانِ   وطفتمْ بها طوفةَ المستلِمْ

على رَصَدٍ كفَّنتْ سِرَّهُ   يدٌ سِرُّها في الجمادِ الأصمّ

يسمُّونَهُ المالَ وهوَ الذي   يميلُ الحظوظَ ويُملي النِّعَمْ!

***

أما جاءكمْ نبأٌ عن أمّي   جراحاتُ مصرٍ بهِ تضطرمْ؟

بكى الثغرُ حتى سرى دمعُهُ   معَ الريحِ رؤيا لهيبٍ ودَمْ

يعانيكمْ موجُهُ في الضفافِ   وللموجِ شِعرٌ شجيُّ النغَمْ

إذا أذَّنَ الفجرُ في أفقِهِ   يؤذِّنُ عزريلُ فوقَ الأكَمْ

فتهوي قصورٌ لها في السَّما   جبينٌ على النجمِ عالٍ أشمّ

وتهوي قبورٌ على أرضِها   تكادُ منَ الهولِ تبكي الرِّمَمْ

ألا مَنْ لسارينَ تحتَ الدُّجى   يُسَفُّونَ مِنْ كلِّ بؤسى وهمّ

تهاجرُ أيامُهمْ والطوى   بأحشائها وقدةٌ مِنْ ضرَمْ

لهمْ سيرةٌ راحَ يروي الأسى   أساها بدمعٍ كسيبِ الدِّيَمْ

ديارُهمُ أقسمتْ لا ترى   فبرَّ الخرابُ لها بالقَسَمْ

فلمَّا تهاوتْ على أمِّها   ودكَّ الثرى صرحَها المنهدِمْ

مشى الموتُ أعمى ضريرَ العصا   ينقِّلُ في كلِّ عمرٍ قدَمْ

تنوحُ بكفَّيهِ زمّارةٌ   إذا نامَ زمّارُها لم تنمْ

نمى غابُها في خرابِ البِلى   وطافَ بهِ الشؤمُ يسقي الأجَمْ

سقًى فرَّعهُ مِنْ صروفِ الزمانِ   رزايا مُشعشعةٌ بالنِّقَمْ

بأدغالِهِ لاذَ جنُّ الفلا   وبومُ الدجى بذُراهُ اعتصمْ

نمى غابُها ... ليتهُ ما نما!   ولا مِنْ حشاهُ عوى أيُّ فَمْ

إذا ولولتْ في ظلامِ الضفافِ   أصابَ البِلى مِنْ صداها صَمَمْ

فلا صرخةُ الطفلِ تلوي خُطاهُ   ولو ذابَ فيها حشا كلِّ أمّ!

مفاجئةٌ لا تعي ما الوعودُ   ولا ما العهودُ ولا ما الحُرَمْ؟

إذا صفرتْ ذابَ قلبُ الضياءِ   ودسَّ الدجى وجهَهُ المظلمْ

تخيَّرتِ الليلَ مسرى نداها   كماردةٍ تشتكي للسُّدُمْ

عواءُ الذئابِ لدى نوحِها   ألذُّ استماعًا وأشجى نغَمْ

تنادي فينشقُّ جرحُ الأثيرِ   على قاذفاتِ اللظى والحُمَمْ

طوائرُ لم يدرِ ساقي الحديدِ   أهولًا سقى قلبَها أم ضرَمْ؟

وَهَلْ سَاقَهَا لِلْوَغَى سَائِقٌ ... مِنَ الْجِنِّ أَمْ عَاصِفٌ مِنْ عَدَمْ
يُغِيرُ بِهَا وَالْكَرَى نَائِمٌ ... وَلَيْلُ الْحِمَى رَاهِبُ الْحُلُمْ
وَلِلنِّيلِ إِغْفَاءَةٌ أَقْبَلَتْ ... عَذَارَى الْخَيَالِ بِهَا تَسْتَحِمْ
سَجَا وَاطْمَأَنَّ كَأَنِّي بِهِ ... نَبِيٌّ يُبَارِكُ خَطْوَ النَّسَمْ
وفي وَجْهِهِ قِصَّةٌ لَمْ يَزَلْ ... مَعَ اللهِ قِرْطَاسُهَا وَالْقَلَمْ !
أَغَارَتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ الْمَنُونِ ... فَضَجَّ لَهَا مَوْجُهُ الْمُرْتَطِمْ
وَحَالَتْ مِنَ الرَّوْعِ شُطْآنُهُ ... نِدَاءً يَصِيحُ بِمَوْتَى الْهَرَمْ :
مَتَى نَافِخُ الصُّورِ فِي أَرْضِكُمْ ... فَكُونُوا الْبَشِيرَ لِبَعْثِ الأُمَمْ
دَعُوا الْهَوْلَ يَأْتِي كَمَا يَشْتَهِي ... فَإِنَّا أَلِفْنَاهُ مُنْذُ الْقِدَمْ
يُدِيرُ عَلَيْنَا خُطَا السَّاقِيَاتِ ... عَلَى جَبَلٍ سَرْمَدِيِّ الشَّمَمْ !
عَلَى خَمْرَةِ الصَّبْرِ مِلْنَا بِهِ ... نَشَاوَى بِسِحْرِ الأَسَى وَالأَلَمْ
فَمَنْ رَامَ كَيْدَ الْحِمَى وَيْلَهُ ... سَيُشْقِيهِ جَبَّارُهُ الْمُنْتَقِمْ !
وَيَسْقِيهِ من سُخْرِيَاتِ الْفَنَاءِ ... عَتِيٌّ عَلَى الدَّهْرِ يُدْعَى الْهَرَمْ
أَبُو الْهَوْلِ فِينَا يَسُوقُ الزَّمَانَ ... وَيَرْعَى اللَّيَالِيَ رَعْيَ الْغَنَمْ
فَمَا الْهَوْلُ ؟ مَا خَطْبُهُ إِنْ دَجَا ... سِوَى هَاجِسٍ بِخُطَانَا أَلَمْ ؟

* * *

دَعُونَا نُحَيِّ الْوَغَى وَاللَّظَى ... وَإِنْ كَرْبُهَا فِي ثَرَانَا احْتَدَمْ
فَمَا يَصْرَعُ الْمِحَنَ الْمُبْكِيَاتِ ... إِلاَّ الذي ذَاقَهَا وَابْتَسَمْ !
دَعُونَا نُحَيِّ لَهِيبَ الْخُطُوبِ ... وَإِنْ جَمْرُهَا فِي حَشَانَا اضْطَرَمْ
سَئِمْنَا حَيَاةَ الزَّمَانِ الْمَرِيضِ ... وَعَيْشَ الزَّمَانِ السَّقِيمِ الْهَرِمْ
دَعُونَا نُقِمْ مَجْدَنَا فِي النُّجُومِ ... فَمِنْ ضَوْئِهَا قد نَسَجْنَا الْعَلَمْ
سَتَعْصِفُ أَيَّامُنَا بِالْوُجُودِ ... وَتَهْزَأُ أَرْوَاحُنَا بِالْعَدَمْ
وَنَبْنِي جَدِيدًا لِتَارِيخِنَا ... كَفَانَا فَخَارًا بِسِحْرِ الْكَلِمْ
تَمَرَّدَتِ الأَرْضُ تَبْغِي الْوُثُوبَ ... فَمَا بَالُنَا بِالْكَرَى نَعْتَصِمْ
أَلاَ فَلْنَقُمْ من عَمِيقِ الرُّقَادِ ... فَلاَ بَعْثَ لِلْجِيلِ إِنْ لَمْ نَقُمْ !

محمود حسن اسماعيل

العاطفة الحيرى

للأستاذ خليل شيبوب

في الصدر عاطفةٌ ولمى محيرةٌ ... قد طال ما أتقي منها وما أجِدُ
وددتُ لو ظهرتْ حتى يخفَّ بها ... قلبي وحتى يُراحَ الروحُ والجسدُ
كأنها في فؤادي حينما خفيتْ ... أنشودةٌ لم يُذِعْ ألحانَها أحد
حامت على الوترِ المشدودِ صامتة ... فهل إلى نزعها منه تُمَدُّ يد
كأنها النجمُ يسري في الغيوبِ وما ... يَدْرِي إلى أيِّ دنيا نورُه يَفِد
أو خمرةٌ ليس يُدْرَى بَعْدُ شاربُها ... تظلُّ في ختمها تغـــلي وتتَّقِد
أو درةٌ أخطأ الغوّاص موقعها ... تظلُّ في الصدفِ المختوم تنعقد
أو حبةٌ علقت في الأرض ناضجة ... فالأرضُ حُبلى بما فيها وما تلد
يا نزعةً في فؤادي لست أفهمها ... شرٌّ من الجدِّ لهوٌ قاتلٌ وَدَدُ (1)
أنَّى الزمانُ الذي ما زلتُ أرقبه ... وفيه كلُّ أمانيِّ الهوى بِدَد
وعُطِّلَتْ بدواتٌ كان يبعثُها ... وجهٌ به قسماتُ الحسن تتَّحِد
ما عاد لي اليومَ من قصدٍ أحققُه ... وأيُّ قصدٍ أداريه وأفتقد
تقطّعَ الوترُ المشدودُ حين خبا ... نجمٌ سرى وأُريقتْ خمرةٌ تقد
وأطفأ الصدفُ المختومُ دُرَّتَه ... وحبَّةُ الأرضِ ماتت وهي ترتعد
قد بان أمسي وما يومي بمعتلق ... به وليس ليومي في الزمانِ غدُ (2)
طفتْ هواجسُ في صدري تُغَمْغِمُ لي ... صلاتِ عُمْرِيَ تشقيه وتضطهد
كأن تحتي فضاءً لستُ أُبصره ... لكنْ أحسُّ به يدنو ويبتعد
حسبُ الشقاءِ بأني قد رضيتُ به ... وأن لي ما وَهَى عزمٌ ولا جلدُ

خليل شيبوب

---

(1) الدد : الهزل

(2) بان : ذهب



من الأستاذ نوحيد السلحدار

صديقي العزيز

شاء فضلك أن تنوِّه بي في سياق وصفك الفني لمنتداك تحت الكافورة — التي خلَّدت ذكرها بأدبك البارع ، وإني متيمن ، يا صاحب الرسالة ، بحسن ظنك شاعر بأثر حبك وعطفك في رأيك .

وكم بودى لو يساعدنى ما تعرف من حالى الصحية على القيام بما دعوتنى إليه ، ولو يكون لى حظ من الكفاية يسمح بالإقدام فى ميدان أتهيب الدخول فيه بعد ثنائك الكريم . على أنى قد أخاطر كلما خطر لى موضوع وأسعدتنى الصحة .

هذا ، ولك منى جزيل الشكر ، وصادق الأخاء ، وأحسن التحية .

(المنصورة) محمد نوحيد السلحدار

تعقيب لغوى

جاء فى (شجون) العلامة الدكتور زكى مبارك بالعدد ٤٢١ من الرسالة ما يأتى :

« أكبر هموم علمائنا اللغويين أن يعترضوا على نيابة حرف عن حرف ، وأن يقول قائلهم : إن العرب تعرف كيت ولا تعرف زيت (كذا) ، وأن يثوروا على أى تعبير لا يجدون له شواهد فى أقوال القدماء ... الخ »

ولست الآن من محاجّة الدكتور فى أفكاره هذه بصدد . وإنما هما ملحوظتان لفظيتان أريد التنبيه عليهما فى عبارته :

١ — أن (ذَيْت) بالذال لا بالزاى . وقد انتظرت طويلاً لعل الدكتور يعود فيصححها ، فلم يفعل . وقد يكون هذا من سبق القلم ، كما قد يكون من زلات المطبعة .

٢ — أن (كَيْتَ) و (ذَيْتَ) لا بد أن تُكرّرا . تقول : كان من الأمر كيت وكيت ، أو : كان من الأمر ذيت وذيت . وفى الحديث : « بئس ما لأحدكم أن يقول : نسيت آية كيت وكيت [1] » .

(١) كذا فى (النهاية) لابن الأثير واللسان وغيرهما .

فكان واجباً أن يقول الدكتور : ... إن العرب تعرف كيت وكيت ، ولا تعرف ذيت وذيت ... [1]

والله الموفق .

(ع ٠ ١)

١ — صحة مثل

فى ثلاثة مواطن من باب « البريد الأدبى » فى هذه المجلة ، (أنظر الرسالة ، الأعداد : ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠) كلمات ثلاث فى المثل القائل : « النحو فى الكلام كالملح فى الطعام » . ذهب كاتب الأولى إلى تضعيف هذا المثل كون وجه الصحة فى إيراده : « الهزل فى الكلام كالملح فى الطعام » استناداً منه إلى ما جاء فى كتاب مجالس السلطان الغورى . فجاء الكاتبان الثانى فالثالث يؤيدان صحة المثل بنصه الأول

وهأنذا الآن بين يدى نص صريح وقفتُ عليه ، يثبت صحة المثل ويبين مغزى إطلاقه

جاء فى القسم الثانى من الجزء الخامس من كتاب « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (ص ١٦٠ من الطبعة التى ظهرت أخيراً فى حيدر آباد) :

« حدثنا محمد بن يحيى الصولى قال : دخلتُ على أبى العيناء فى آخر عمره ، وقد كُفّ بصره ، فسمع صرير قلمى على الدفتر قال : مَن هذا ؟ قلت : عبدك وابن عبدك محمد بن يحيى الصولى ! قال : بل ولدى وابن أخى ! ما تكتب ؟ فقلت : جعلنى الله فداءك شيئاً من النحو والتصريف ! فقال : النحو فى الكلام كالملح فى الطعام ، فإذا أكثرت منه صارت القدر زعاقاً يا بنى ! إذا أردت أن تكون صدراً فى المجالس ، فعليك بالفقه ومعانى القرآن . وإذا أردت أن تكون منادماً للخلفاء وذوى المروءة والأدباء ، فعليك بنُتَف الأشعار ومُلَح الأخبار » اهـ

(١) ومما تحسن الاشارة إليه هنا أنه لا يصح أن يقال : كان من الأمر كيت وذيت ، أو : كان من الأمر ذيت وكيت ، كما أراه أحياناً فى بعض الأقلام — ويكنى من الأمر أيضا بكذا ؛ إلا أن (كذا) تفرد إن لم يتعدد الفعل . قال فى (المصباح) : ويكون كناية عن الأشياء . يقال : فعلت كذا ، وقلت كذا . فإن قلت : فعلت كذا وكذا فلتعدد الفعل اهـ . وكذا يفهم من كلام الجوهرى . ومما أراه أحياناً قولهم : كان كذا وكيت ، أو فعل كذا وكيت . وهو خطأ .

فأنت راء مما نقلنا أن هذا المثل لا يحتمل تأويلاً ولا يستوجب تبديلاً ، بعد أن كفانا أبو العيناء (المتوفى سنة ٢٨٢ هـ) نصب البحث عن موقع استعماله

٢ – نظرة في مقال

أطالع باغتباط ما يكتبه الأستاذ محمد عبد الغني حسن بعنوان « مدن الحضارات في القديم والحديث » ، فهو بحث جليل ؛ وقد استوقفتني فيه نقاط (العدد ٤١٧ من الرسالة) أظنها تحتاج إلى مراجعة ، وهي :

١ – قال في الصفحة ٨٤٤ في كلامه على بغداد : « والبحتري الشاعر الرقيق يصف لنا بركة المتوكل في شعر تصويري جيل ... ويقول في ذلك :

تنساب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها »

والذي يُفهم من هذا الكلام ومما يتلوه ، أن بركة المتوكل كانت في بغداد ، في حين أن من المعروف عرفان اليقين أنها في سامراء . والذي يقرأ سيرة المتوكل يجد أنه قضى أغلب أيام خلافته في سامراء ، وبها أقام قصوره التي فاقت سائر قصور الخلفاء ، ولا داعي إلى تفصيل ذلك

٢ – وورد بعد ذلك بخمسة عشر سطراً قوله : « وكان نهر دجلة في ذلك الحين يكاد يغص بالحرامات الكثيرة والزوارق الجميلة ... الخ » . والواضح أنها « ... يغص بالحرّاقات ... » وهي ضرب من السفن النهرية ، ولعل هذا من أغلاط الطبع

٣ – وفي آخر الصفحة نفسها ، عَدَّ « جميل نخلة المدور » عراقياً مع أنه لبناني

(بغداد) كوركيس عواد

الطنطاوي يتحرك ... فهل يحركونه ؟

قضت الظروف القواهر التي حلت بدمشق إلا أن تحطم الأقلام القليلة التي كانت تهتز بين حين وحين لتمسح عبرة من مقلة ، أو لتأسو جرحاً في قلب ، أو لتبعث نشوة في نفس . وأخذت حِلَق تطوى الليالي السود وفي نفوس المثقفين من أبنائها غصة ، وتقضي الأيام العوابس والألم يصهر القُسِّير من شبابها على الأدب الذي أصبح ميتاً فيها خلال هذه الأحداث أو شبه ميت . ولسنا ممن يزعمون أن الأدب في دمشق كان قبل الحرب خيراً منه في خلالها ، ولكن العاملين والعاملات كانوا يجدون حين يعتلى القلم أناملهم الخمس النطاف ميداناً ينشرون به ما ينتجون . ولكن هذا الميدان بدأ نطاقه يضيق منذ اتقدت الشرارة الأولى لهذه الحرب الضروس – التي توشك أن تقضي على البشرية إن لم يطفئها عقلاء قوم – ولم يكن هذا الضيق خاصاً بالأدب والأدباء وحدهما ، وإنما كان عليهما أشد منه على غيرهما من مرافق الحياة . وما زال الضيق يشتد، والنطاق يتأزم، حتى أمسينا منذ شهور وليس في الميدان من يخط حرفاً (لرثاء) الأدب بعد أن تلاشى وخمدت أنفاسه

وهكذا حطم الأدباء والمتأدبون يراعهم ، وحرمنا الأنس بصرير أقلامهم ، وطريف أقوالهم ... حُرمنا ذلك كله لتحل محله الوحشة بدوى القنابل ، والذعر من عويل الطائرات[1] . ولم يعد ثمة مجال لغذاء العقل ، وقوت الفكر ، ونشوة الروح

وها قد أخذنا نتنفس الصعداء بعد هذه الضُّغطة[2] القاتلة وشرعنا نستعيد شيئاً من هدوء النفس ، وطمأنينة الفؤاد بعد الانقلاب الأخير . فهل نترك عقولنا إلى الأبد دون غذاء ، وأفكارنا دون قوى ، وأرواحنا دون خمر ؟

تقول العامة إن الحركة بركة ! وهذا الأستاذ الطنطاوي يتحرك ويسارع بنشاط إلى قلمه بعد أن سكت فأطال وأطال . وهذه الأنباء تترى علينا من كل ناحية وصوب ، والشائعات تملأ الجو الأدبي وكلها تبشر بخير كثير ونفع عميم . ولعل أعظم هذه الأنباء شأناً وأدعاها للغبطة والسرور هو نبأ إعادة مجلة المجمع العلمي في وقت قريب إلى حيز الوجود وتأمين صدورها بأوقاتها المعينة ؛ والذين يعرفون مبلغ أهمية هذه المجلة في دنيا الأدب سيغتبطون لهذا النبأ دون ريب . وهناك من يقول بأن الدكتور العجلاني يسعى للحصول على ترخيص لإصدار مجلة أدبية راقية ، إن لم يكن قد حصل بالفعل . وهناك طائفة من الشبان العاملين في حقل الأدب تمد العدة لإصدار صحيفة في الموضوع نفسه . ونعتقد أن هذه الصحيفة ستكون أكثر توفيقاً من غيرها لأنها ستقوم على سواعد أناس لا يبغون من وراء عملهم سوى خدمة الأدب والثقافة . وهناك ... وهناك ... فهل يتحقق كل

(١) كانت أصوات الطائرات التي أغارت على دمشق في فجر الخامس والعشرين من شهر حزيران (يونيو) لا تختلف عن العويل في قليل أو كثير

(٢) الشدة .

هذا فيك يا دمشق ؟ وهل تصدق كل هذه الأماني والأحلام العذاب ؟ وهل نرى أدباءنا كلهم يتسابقون إلى الميدان بإخلاص وعزم وثبات ؟ هل نرى الأدب في دمشق مزدهراً يانعة ثماره ؟ وهل نرى شيوخ الأدب وشبانه يعملون معاً متوادين متآلفين، مخلصين متفقين، ليس في الشيوخ واحد يستخف بشاب، ولا بين الشبان متحذلق واحد يشتم الشيوخ ويسكب الثناء على نفسه من وراء حجاب ؟ هل نرى كل ذلك ... ؟ هل نراه ؟

(دمشق) عبد الغني العطري

الواو التي حيرت النحويين

لا بد لهذا الجمود في العلم عندنا من آخر، ولا شيء يقرب نهاية هذا الجمود غير الطعنة الجريئة توجه للمتعارف بين أهله، والمجمع بينهم على صحته، لتثور بذلك ثائرتهم، وتتفتح به أذهانهم المقفلة

وطعنتي اليوم لتلك الواو التي حيرت النحويين في نحو إياك والشر وغيره من صيغ التحذير، فقد حمّلوها ما لا تحتمله من معنى العطف، وتكلفوا في حملها عليه وجوهاً تأباها جزالة اللغة، فقال بعضهم : إن الأصل في ذلك — اتق نفسك أن تدنو من الشرّ والشرّ أن يدنو منك — فحذف أن والفعل وجارّه المقدّر والجارّ المتعلّق به من كل من المعطوف والمعطوف عليه، فصار — اتق نفسك والشر — ثم حذف الفعل والمضاف وأنيب عنه الضمير فانفصل . وهناك تكلفات أخرى في ذلك أسهلها أن الأصل فيه — إحذر تلاقي نفسكَ والشرّ — فحذف الفعل ثم المضاف الأول وأنيب عنه الثاني، فصار — نفسكَ والشرّ — ثم حذف لفظ نفس وأنيب عنه الضمير فانتصب وانفصل وصار — إياك والشرّ

والحقيقة أن هذه الواو ليست من العطف في شيء، وأن التعليم التلقيني التقليدي هو الذي يجعلنا نصر إلى الآن على أنها للعطف، وأكبر دليل على أنها ليست للعطف أن صيغة التحذير قد تخلو منها فيكون معناها مع خلوها منها كمعناها مع وجودها فيها، كما قال الشاعر :

فإياك إياك المِــــراء فإنه إلى الشر دعّاء وللشر جالب

وليس هذا شأن حرف العطف، وإنما هو شأن الحرف الزائد، فهذه الواو عندي زائدة لا عاطفة

ويلي هذا عندي أن تكون أصلية عاطفة لا على معنى التشريك في الحكم، ولكن على معنى من الجارّة، فيكون معنى — إياك والشر — إياك من الشر، ولا غرابة في أن تأتي الواو العاطفة بمعنى من الجارة، فقد وردت عاطفة بمعنى باء الجر في نحو قولهم — أنت أعلم ومالك — أي بمالك، وهذا هو رأيي في تلك الواو أعرضه على قراء الرسالة الغراء، ليوازنوا بين الرأيين، وكم ترك الأول للآخر .

عبد المتعال الصعيدي

النفط

يحتل السائل المستعمل في الاستصباح اليوم مكانة ملحوظة من جميع الشعوب، والقوم في مصر يشكون الآن قلته، ويتنافسون في سبيل الحصول عليه، وذلك لندرته واستنفاد الحرب القائمة لأكثرية الكمية الموجودة منه في العالم . ومن العجيب أن هذا الزيت قد أطلق عليه في مصر العربية جملة أسماء ليس من بينها اسم كانت تستعمله العرب ؛ فالحكومة المصرية تسميه في بطاقاتها « الكيروسين » ولا أدري من أين جاءت هذه اللفظة، وكتاب السياسة يسمونه « البترول » ولم أر لها أصلاً في اللغة، والعامة تسميه « الجاز » أو « الغاز » وكل منهما لفظة مجهولة منكورة .

فلماذا لا نسمي هذا السائل باسمه العربي القديم، والذي يطلق عليه اليوم في العراق وفي البيئات العربية الصميمة، ألا وهو النِّفط ؟

جاء في المختار : « والنِّفط والنَّفط دهن، والكسر فيه أفصح » ؛ وجاء في القاموس إنه : « ضرب من السرج يستصبح به » ؛ وقال المصباح : « والنفاطة أيضاً منبت النفط ومعدنه » . فلنقل « النفاطات » بدل « منابع البترول » .

ويقول بشار بن برد في حبيبته عبدة :

لعبدة دار، ما تكلمنا الدار تلوح مغانيها كما لاح أسطارُ

أسائل أحجاراً ونؤياً مهدماً وكيف يجيب القول نؤى وأحجار ؟

وما كلمتني دارها إذ سألتها وفي كبدي (كالنفط) شبت له النار !

« البجلات » أحمد الشرباصي

والد الملوك الأيوبيين أيضاً

أراد الأخ الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن يناقش (في العدد ٤٢٢ من الرسالة) فكرة جديدة بعيدة عما قصدت إليه بردى المنشور في الثقافة عدد ١٣٥ ؛ تلك الفكرة تتلخص — كما فهمت — فيما يلي : هل كان أمراء بني أيوب يلقبون بلفظ الملك أم لا ؟ وأنا لا أعارضه في هذا الرأي بل أزيده أن هذا التقليد بدأ في مصر

فكان يحمل لقب الملك وزراء بنى فاطمة الأقوياء عند ما جمعوا السلطان فى أيديهم ، وساعدهم على ذلك ضعف الخلفاء « وأول من لقب بالملك منهم مضافاً إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عند ما وزر للحافظ لدين الله ... سنة ثلاثين وخمسمائة » (المقريزى الخطط ، طبعة النيل ج ٢ ص ٣٠٥) . وصار وزراء الفاطميين بعد هذه السنة يحملون ذلك اللقب ، ومنهم أسد الدين شيركوه الذى لقبه الخليفة العاضد فى خطاب توليته الوزارة بالملك المنصور؛ ومنهم أيضاً صلاح الدين الأيوبى الذى لقبه العاضد كذلك بالملك الناصر ، فكان هذا اللقب يمناً عليه ، ولزمه حتى وفاته

ولما ملك صلاح الدين وأصبح لآل أيوب الأمر والذكر لقب الكثيرون منهم بألفاظ الملك ، وإن لم يحكموا مصر ، بل لدى ما يجعلنى أستزيد الأستاذ دعاءه لى أن يسامحنى الله . فقد قال صاحب شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب حزاب عند ترجمة نجم الدين أيوب : « أيوب بن شادى نجم الدين الملك الأفضل وقيل الأوحد أبو الملوك الأيوبية ... الخ » . فنجم الدين الذى عنيته فى مقالى بالثقافة عن تاج الملوك بورى لقب بالملك الأفضل أو الأوحد ، والذى حمله هـذا اللقب هو الخليفة العاضد أيضاً (راجع المصدر السابق نفس الصفحة) إذ يقول عند كلامه عن لحاق نجم الدين بابنه صلاح الدين وحضوره إلى مصر : « وخرج إلى مصر بجماعته كلهم ، ولما قدم خرج العاضد للقائه ولقبه وزينت البلد الخ » ولم أعثر فيما قرأت عن الأيوبيين على مؤرخ واحد لقبه بالملك الصالح إنما الذى تفرد بحمل هذا اللقب هو نجم الدين بن الملك الكامل محمد ، لهذا كان لى عذرى أن حسبت أن الأسماء تشابهت على الأستاذ عبد الغنى ، ورأيت أنه لزام على أن أكتب ما كتبت

لم يبق إذن إلا أن الأستاذ يريد أن يضفى — من عنده — هـذا اللقب على أبى الملوك الأيوبيين لأنه كان محباً للصالحين كما يقول أبو المحاسن جـ ٦ ص ٦٧ ، وهذا فرض بعيد أولاً ، ولا يسمح به التاريخ للأستاذ ثانياً ، لأن هؤلاء الملوك وأسماؤهم وألقابهم وأعمالهم أصبحت فى ذمة التاريخ ، ولا يسمح التحقيق العلمى لأحدنا ألبتة أن يغير فى صغيرة أو كبيرة منها ، فهل لا يزال الأستاذ بعد هـذا التحقيق مصراً على تلقيب نجم الدين الكبير بالملك الصالح ؟ لا ـ بل أنا أظنه ـ وقد ثبت لدى أنه يعلم أن الكبير غير الصغير ، يوافقنى على تلقيب الأول بالملك الأفضل أو الأوحد ، ويترك لقب الملك الصالح لمن يتميز به وهو حفيد العادل ؛ ولعلى — بهذه الكلمة — أكون قد أرضيت الحق والتاريخ أولاً ، والأستاذ عبد الغنى حسن ثانياً

جمال الدين الشيال

المهرجان الأدبى الثالث

يحتفل السودانيون كعادتهم فى كل عام بالمهرجان الأدبى الذى سيقام هذه السنة بنادى الخريجين بأم درمان فى أيام عيد الفطر المبارك حيث يعرض ما تنتجه العقلية السودانية فى ميادين الآداب والعلوم والفنون .

والسودانيون الذين تربطهم بمصر روابط لا تنفصم عراها، والذين يستمدون ثقافتهم منها ، كم يسرهم أن يلبى رجال الفكر وقادة الرأى وحملة الأقلام دعوتهم ليسعدوا برؤية من يستطيع زيارة السودان فى ذلك الحين ، وليتذوقوا ما تخطه تلك الأقلام القوية فى مختلف الأبحاث

ولهت أبناء الكنانة عاملون على تحقيق تلك الرغبة التى سيكون لها أثرها الخالد فى تدعيم الصلات بين القطرين الشقيقين

الأمين التوم
سكرتير للمهرجان

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 426 — Lundi - 1 - 9 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٢٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ شعبان سنة ١٣٦٠ — الموافق أول سبتمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

تحت ظلال الكافورة

من أحاديث القهوة

— ٢ —

أصبحنا فإذا النيل الجليل يقبل نفّاحاً بالخير فيّاحاً بالنعيم ، تتربّع شُطآنه الخُضر بالمسجد الذائب ، وتتدفق مجاريه الفِيحُ بالكوثر العذب ، وتتنفس أمواجه الصُّهبُ بالتحيات والبركات على بنيه الخلّص الذين خُلقوا من طينه الحر ومائه الطّهور، وعاشوا على نائله الجم وخصبه الموفور ؛ وكأنما تنفرج كل موجة من سؤال من هذه الأسئلة التى اعتاد أن يلقيها كل عام على أهله :

— ماذا صنعتم يا بَنىّ بالذهب الذى نثرته على أرضكم فى العام الذاهب ؟ هل قسَمتموه بينكم على شريعة الله ، وأنفقتموه فيكم على منفعة الوطن ؟ أم هل بقيتم على طباع الوحوش الأوابد ، تتفارسون بالنيلة أو بالحيلة حتى لا تدع المخالب والمجاريف ، شيئاً للفقير أو للضعيف ؟ ألا تزال الأمة مقسومة إلى باشوات و (دلاديل) ، والسياسة قائمة على بهلوانات وتماثيل ؟

ألا يزال أربعة الأخماس من أبنائى ، يعيشون مجهودين على فضلات الخمس من أغنيائى ، وخيرى الفياض لم يدع فى مصر كلباً جوعان ولا ضِفدعاً عطشى ؟

أيّ شيء صار مائى السماوى الفرات فى دمائكم يا ساكنى الوادى ؟ أموتاً وقد أحييت الصحارى ؟ أم ذلًّا وقد أعززت الفراعين ؟ أم جهلاً وقد خلقت الحضارة ؟ إلى متى يا بَنى تقابلون برّى بالعقوق ووفائى بالغدر ، وتقبلون من أوليائكم أن يدعوا مائى وثرائى يذهبان فى عباب البحر كما تذهب النفحة الرخية فى ثورة العاصفة وثراىَ مكروب وشعبى جائع ؟

ولكن أسئلته الأبوية السنوية تذهب فى الهواء كما يذهب فيضه فى البحر ، فلا أذن تعى ، ولا لسان يجيب !!

* * *

أخذنا مجلسنا المعتاد من القهوة ، وكان النادون المتادون قد راعهم ما رأوا من جمال النيل وجلال الفيضان فسكنت ثرثرتهم بعض السكون ، واتجهوا بمشاعرهم إلى النهر الطامى يقابلونه بالهشاشة ويبادلونه التحية . وملكتنا نحن أيضاً روعة المنظر ، فذهلنا ذهول الشاعر المستغرق ؛ وتراءت على مُرْهَفى الحس منا سِمات من جلوة الخاطر وطلاقة النفس ؛ وكاد الذهول ينقلب نشوة والحديث يتحول شعراً ، لولا الذباب الذى يقع فى الكأس فيكدر الصفو ، أو المتسول الذى يسقط فى الحديث فيقطع الأنس ! والمتسولون فى المنصورة كالذباب فى رأس البر ، لا يَدَعون للجالس مشغلة إلا بالاستعاذة والطرد . وكان الذى صرفنا عن المنظر الساحر والحديث العذب نوع من هؤلاء المتسولين طريف : رجل كفيف البصر ، وثيق التركيب ، مربوع القامة ؛ على جسمه جلباب محكم التفصيل ، وعلى رأسه عمامة حسنة التكوير ، وفى يده هراوة صلبة العود ؛ كان يقود نفسه على طِوار الشارع وهو يقول بصوت جهير رزين ولهجة متزنة آمرة : « طالب من الله : أفطر ، وأشرب القهوة ، ونصف ريال ، وواحد يلمه لى » !

لم يكد هذا الرجل يُبدئ ويعيد ، ويذهب ويجئ ، حتى نهض إليه الجالسون بالقرش بعد القرش حتى أعلنهم أنه استوفى حقه . ثم انصرف عنهم إلى غيرهم دون أن يجود عليهم بما تعود المتسولون أن يسرفوا فيه من مبتذل الدعاء والشكر !

قلت لصاحبى وقد بدا عليه ما بدا علىّ من العجب الناجب : هذا المتسول واحد من هؤلاء الأوزاع المتبطلين الذين يلحون على الناس بالضراعة والوضاعة ، ويلح الناس عليهم بالنهر والقهر ، فما السر الذى حمل القوم على أن يفردوه بهذه المعاملة ؟

السر فى رأيى هو القوة التى برزت فى هيئته ولهجته . والإنسان منذ كان يُعجب بالقوة ويخضع للقوى بدافع من فطرته ؛ لأن القوة دليل الحياة الصحيحة ووسيلة العيش العزيز ؛ وهى معبودة منذ كانت فى تهاويل الفلك وأفاعيل الطبيعة وتماجيب الناس . ولولا سلطانها الفطرى على القلوب لما عُبد صنم ولا قدّس طاغية

ربما يتفق لك أن تجادل بعض الناس بالحسنى وتحاجّه بالمنطق ، فيركب هواه ويصر على غيه ؛ فإذا فجأته بالصيحة الغاضبة استكان وسلّم . وإنك لتجد كثيراً من خلق الله يصفقون لمجات هتلر ، ويصفرون لخطب رزفلت ! وأولئك هم العامة وأشباههم ممن غلبت على نفوسهم عبودية القوة فآمنوا بالحيوان وكفروا بالإنسان ، وانقادوا للعاطفة وغفلوا عن المنفعة !!

الديمقراطية كما تعلم وليدة المدنية العليا . وما كان لمدنى سليم النفس والفكر والإرادة أن يعود إلى عيش القطيع فيلق مقادته إلى رجل مثله يجوز عليه ما يجوز على البهيم من غلبة الشهوة وطغيان الأثرة . ولكن النفس البشرية على ما بلغته من المدنية والثقافة لا تزال فى سرائرها بقايا من نوازع القوة تفسد بها وتصلح . فهى فى السلم الطويلة والرخاء الوارف تماع فلا يمسكها غير الشدة ؛ وفى الحكم الصارم والسلطان الغشوم تذل فلا يعزها غير الهوادة . لذلك كانت الديمقراطية يا صديقى كاللحم : كلما اعتل الجسم واختل نظامه ، كان أول ما يشير به الطبيب على المريض ترك اللحم . كذلك كلما انحل الشعب واسترخت قواه واضطرب أمره ، كان أول ما يأمر به الزعيم نَسخ الديمقراطية . ذلك ما كان فى روسيا وإيطاليا وألمانيا وأسبانيا ، ثم كان أخيراً فى فرنسا وطن الجمهورية ومعبد الحرية ومعقل الدستور ! كأنما خُلق الإنسان آكل عشب فاللحم دخيل على طعامه ، وكأنما فطر على الجبر والإكراه فالحرية غريبة عن نظامه !

* * *

وافقنى صديقى على جملة الرأى ؛ ثم أخذ بطرَف من الحديث وجذبه بعنف إلى حالنا التى لا تشبه حالاً من أحوال الأمم ! وصديقى حديد اللسان جرىء الرأى فلا أستطيع أن أنقل إليك ما قال فى خضوع القطيع لرجل اسمه الباشا ، وفناء الجميع فى فرد اسمه الزعيم

(المنصورة)

احمد حسن الزيات

٢ – قصائد الشعراء

فى تأبين سعد

للدكتور زكى مبارك

قصيدة العقاد :

لم يرسل العقاد قصيدته على النحو المألوف فى قصائد الرثاء ، وإنما قسّمها إلى موضوعات ليصف أكثر الجوانب من شخصية سعد فى الحياة والممات ، فرأينا فى القصيدة أربعة عشر موضوعاً تصورها العناوين الآتية :

« الأربعون — موقف التشييع — من منبر القبر — سعد والضعفاء — مراحل الخلود — سعد يملى على التاريخ — صور على صفحة الزمن — يوم النفى — إلى مؤتمر السلام — مواكب العودة — سيشل وجبل طارق — الاعتداء الأثيم — المؤتمر الوطنى — وداع »

وبهذا التقسيم استطاع الأستاذ عباس العقاد أن ينوّع الصور فى قصيدته ، وأن يجعلها حافلة بطوائف مؤتلفة من الألوان

وتظهر جودة هـذه القصيدة لمن ينظر الصورة الأولى ، إذ يقول الشاعر فى انقضاء أربعين يوماً بعد وفاة سعد :

أمَضتْ بعد الرئيس الأربعون؟ عجباً! كيف إذن تمضي السنون؟

فترةُ « التيـه » تنشّتْ أمة
غاب « موساها » على « طورسنين »

كلُّ يوم ينقضى نفقـدُه وهو ملء الصدر من كل حزين
تكبُر البلوى به حين مضتْ والبلايا حينما تمضى تهون
كيف ينسى الناس من لم يَنسهم يوم تُنسى النفس والأُخرالثمين
لم يزالوا كلما قيـل لهم ذهب الموت به يلتفتون
ينظرون القبر لم يعهد بهم عهدُ رب القبر فى البيت الأمين
لا ولا طالت على أسماعهم هدأةٌ من دعوات الهاتفين
يتـدانى طيفُه فى سِـنة يُفجِع الحالم فيها كلَّ حين
إيهِ يا سعد وما أنت سوى بَشر يدركه ريبِ المنون
جئت للناس بِبشْرى خالق فإذا متَّ فلمْ لا يُفتَنُون
تلبس الخلد وتنضـوه فما أجدرَ القومَ بمسف الحائرين
لِمَ يا دنيا — وقد أنشأتِهِ بدعة — فى خُلده لا تبدعين
عاش ممنوع قرين فى المُلا ليته فى الخلد ممنوع القرين

ذلك هو الموضوع الأول من موضوعات هـذه القصيدة ، والقارئ يشهد قوة الفطرة والطبع فى مثل هذا البيت :

تكبُر البلوى به حين مضت والبلايا حينما تمضى تهون

أما قوله :

أمضت بعد الرئيس الأربعون ؟ عجباً ! كيف إذن تمضى السنون

فهو من القوة بمكان ، ومعناه أن الأربعين يوماً طالت حتى عصفت بالصبر الجميل ، فكيف إذن تمضى السنون ، وهى طِوال طِوال ؟ !

أطايب القصيدة

وفى هذه القصيدة كثير من الأطايب ، كأن يقول الشاعر فى عصامية سعد :

يا كبير النفس فى ميمنه وفتىّ البأس والعمرُ وهون
وعصامياً بَنى الطود وكم هُدمت أطواد أقوام بُنين
زاهداً فى كل فانٍ وله طمعٌ فى المجد أعيا الطامعين
خلف المؤدد آفاقاً وما جاوزت دنيا تراه أربعين
قبل ميلادك لم يشرف أب من بنى الريف ولم تنجب بطون

وفى هـذا البيت إشارة صريحة إلى خصيصة من أظهر خصائص سعد ، وهى نشأته الريفية . ويريد بها الشاعر أن يجعل سعداً عريقاً فى المظلمة القومية ، وكأنه يعرض بمن كانت لهم أصول مدخولة فى هذه البلاد ، وبدون هذا الغرض لا يتسق الكلام ، فللريف المصرى فضل كبير فى إنشاء المواهب ، وما نشأ عظيم فى مصر إلا وهو موصول الأواصر بذلك الريف ، وإن كان من الدخلاء

ومن أعجب خصائص الريف أنه ينوع المواهب ، ويفتح أمام الأذهان آفاقاً لا تفتحها المدائن . ومن هنا يصلح أى ناشئ فى الريف للنهوض بأعمال لم تؤهله لها ثقافته الشخصية

وتفسير ذلك أن الحياة بالريف توجه العقل إلى إدراك المطالب القومية ، وتروض الذهن على تعرف المشكلات التى تعترض

حياة الأهلين ، وهى مشكلات ذات ألوان وأشكال ، والتمرس بها يخلق القدرة على الإحاطة بما يثور فى الصدور من آلام وآمال .
فقول العقاد فى سعد :

قبل ميلادك لم يشرف أب … من بنى الريف ولم تنجب بطون

لم يرد به غير تأكيد القول فى نباهة سعد ، فهو يريد التنويه لا الاستقراء ؛ وإلا فالشواهد كثيرة على من نبغوا من أبناء الريف قبل سعد زغلول

ومن أطايب هذه القصيدة قول سعد كما صوره العقاد :

صـــال بالجيش « كمال » ومضى … بذوى القمصان يسطو « موسلين »

وأنا الأمـة والجيش معـاً … وأنا السيف جميعاً واليمين

من بيان الصدق جرّدت لهم … عدة تصمى الكماة الفاتحين

أنا مصر وهى فى سؤددها … أنا مصر وهى فى الأسر سجين

أنا ألقيت على عاتقهـــا … حملهـا المطروح بين الآخرين

وهذا البيت جيد جداً ، ومعناه أن سعداً راض الأمة على أن تحمل وحدها عبء الكرامة القومية ، وهو عبء لا يحمله غير من وصل إلى شرف الفهم لقيمة التكاليف الثقال ، ولا تضيع الأمم إلا حين تتوهم أن الحرية مغنم يساق ، وليست مطلباً ينال بالدماء ، وتشقى فى سبيله عزائم الرجال

ومن روائع هذه المرثية قول العقاد فى شخصية سعد :

يعجبُ المرء أشخص واحد … أنت أم شتّى شخوص وفنين

ناضر النفس وإن لاحت على … وجهك السمح سمات وغضون

وغضير القلب لا يألوك فى … صرعات النزع فى نبض رزين

تأخذ اللب برأى ثاقب … وفكاهات عِذاب وفنون

ضحِكُ الأطفال فى الطيب إلى … ضحك الأقدار فى الجد الرزين

يوم ودعتك ودعت امرأً … يملأ الدنيا ويَقضى ويَدين

وأحييك لألقاك غــداً … حجراً يعلوه نوّار الغصون

وهذا شعر نفيس . . . وقول العقاد إن سعداً كان غضير القلب حتى فى ساعات النزع ليس خيال شاعر ، وإنما هو حقيقة ؛ فقد شهد الأطباء بأن قلب سعد كان ينبض عند النزع بمثل القوة التى كان ينبض بها وهو فى أوقات الصحة والعافية ، وإلى هذه الظاهرة الغريبة أشار الشاعر محمود عماد إذ يقول :

وانهد قلبٌ طالما اعتدت به … مصرٌ ليوم كريهة وصدام

قلبٌ كقلب الكون يلبث نابضاً … والموت بادٍ فى الحشا والهام

ولا يتسع المقام للافاضة فى محاسن قصيدة العقاد ، وما أشرنا إليه يبين جوهرها الثمين

قصيدة الجارم بك

لم تُلق هذه القصيدة فى حفلة التأبين ، وإنما نشرها المقطم فى اليوم التالى وقال إنها « للأستاذ الشيخ على الجارم المفتش بوزارة المعارف » وهى تبتدئ بهذه الأبيات الجياد :

لا الدمع غاض ولا فؤادك سالى … دَخَل الِحمامُ عرينة الرئبالِ

وأصاب فى الميدان فارس أمة … رفع « الكنانة » بعد طول نضال

رشقته أحداثُ الخطوب فأقصدت … حربُ الخطوب الدُّهم غير سِجال

للموت أسلحة يطيح أمامها … حول الجرئ وحيلة المحتال

ما كان سعدٌ آية فى جيله … سعد المخلّد آية الأجيال

تفنَى أحاديث الرجال وذكره … سيظل فى الدنيا حديث رجال

سارٍ كمصباح السماء يحثه … كر الضحا وتعاقب الآصال

ومضى الجارم فتحدث عن الأيام التى عانتها مصر قُبيل الدعوة إلى الإستقلال : فجعل السيف يلمع فوق كل رأس ، وجعل الأرض ترجف والذعر يعصف بالقلوب ، وأسرف فجعل الناس جميعاً فى أهولَ من يوم الحساب :

وإذا بصوت رهن مصر زئيره … غضبُ الليوث حماية الأشبال

صوت كصور الحشر جمّع أمة … منحلة الأطراف والأوصال

فتطلعت عين وأصغت بعدها … أذن وهمّت ألسنٌ بسؤال

مَن ذلك الشمشاع طال كأنه … صدر القناة وعاملُ العسال

ومَن الذى اخترق الصفوف كأنه … قدَرُ الإله يسير غير مبال

سعدٌ ، وحسبُك من ثلاثة أحرف … ما فى البرية من نُهَى وكمال

ومن السيوف إرادةٌ مصقولة … طُبِعت ليوم كريهة ونزال

ومضى يفنّد لا المصير بخاذل … أملاً ولا نيل السها بمحال

فكأنه سيف المهيمن خالدٌ … وكأن دعوته أذان بلال

ما راعه نفىٌ ولا لعبت به … فى حب مصر زعازع الأوجال

كالشعلة الحمراء لو نكستها … لأضفت إشعالاً إلى إشعال

والسيل إن أحكمت سد طريقه دك الحصون فعدن كالأطلال

ومن أجود هذه القصيدة قول الجارم فى صراحة سعد :

خصم شريف نال من خصمائه ما نال من إجلال كل موال
عرفوه وضّاح السريرة طاهراً شر البلاء خصومة الأنذال
إن الشجاعة أن تناضل مصحراً لا أن تدب كفاتك الأصلال

قصيدة مطران

لم تُلق فى حفلة التأبين ، وإنما نشرت فى (الأهرام) بعد الحفلة بأيام ، وأذكر أنى قرأت على الدكتور طه حسين جملة منها فى صبيحة اليوم الذى نشرت فيه ، وكنا على موعد بداره فى مصر الجديدة لنمضى معاً إلى الجامعة المصرية ، فاتفق أن رأينا الأستاذ خليل مطران فى الطريق ، فكان من الطبيعى أن يحدثه الدكتور طه عن قصيدته ، فقال الأستاذ مطران ما نصه بالحرف :

« لم أرد أن أقيم مَلْطَمَةً عامة على سعد ، كما صنع جماعة من الشعراء ، وإنما أردت أن أحدد مكانه فى التاريخ »

وكانت القصيدة كذلك ، فقد تحدث مطران عن سعد كما يتحدث المؤرخ ، وإن وشى حديثه بزخارف البيان

وقد رجعتُ إلى مكتبتى أستهديها تلك القصيدة فبخلت ، فرجوتُ الدكتور رشيد كرم أن يتلطف فيحضر نسخة القصيدة من الأستاذ خليل مطران ، فأحضرها بعد أيام طوال ، ولكن أى قصيدة ؟ هى قصيدة سنة ١٩٣٦ لا قصيدة ١٩٢٧ ، وهى القصيدة التى نظمها مطران عند انتقال رفات سعد إلى الضريح . وذكَّرت الأستاذ مطران بما كنت أرجوه وقد لقيته فى حفل خاص مع الدكتور على باشا إبراهيم ؛ فقال الجرّاح الأكبر : ألستَ تذكر أنها نشرت فى الأهرام ؟ قلت : نعم ! فقال : أطلبها من أنطون بك الجميّل . فقلت : ولكن ذلك يضيع فرصة الحديث عن هذه القصيدة فى هذا الوقت ، وسأقدم مقالى لمجلة (الرسالة) بعد يومين اثنين

ثم نظرت فى القصيدة الثانية فرأيت فيها محاسن جديدة لا أذكر أنى ظفرت بمثلها فى القصيدة الأولى ، فقدّرت أن الشاعر اختارها عن عمد ، لتكون صوته المختار فى تأبين سعد .

ومطران يقسّم قصائده الطوال إلى موضوعات وتلك عادته منذ زمن بعيد ، وقد تحدّث فى قصيدته عن الشؤون الآتية :

« مات سعد وروح سعد باقية — مأتم سعد فى مصر والشرق — ترجمة سعد — سعد فى الصحافة — سعد فى المحاماة — سعد فى القضاء — سعد وزيراً للمعارف — سعد نائباً عن الأمة فى العهدين — صورة سعد — سعد فى أحاديثه — سعد الأديب — سعد الخطيب — سعد الزعيم الأكبر ووصف أخلاقه — سعد فى وجه أعداء الوطن سعد فى صحابته — سعد فى منفاه وبعد عودته ظافراً — سعد فى رياسته للحكومة الدستورية — بيت الحياة وبيت الخلود — إلى أم المصريين »

وقد احتفل الشاعر بهذه الموضوعات فتكلم عنها بتفصيل شائق خلاب ، كأن يقول فى سعد الخطيب

قضى الخطيب الذى كانت فصاحته
حالاً فحالاً هى الآلاء والنعم (١)
حدّث عن البلسم الشافى يمرّ به
على الجراح قد استشرت فتلتئم
حدّث عن البلبل الغرّيد مختلفاً
بين الأفانين من تطريبه النغم
حدث عن الضيغم الساجى يثور به
تحرُّشٌ يحمى الأشبال لا القَرَم
حدث عن السيل يجرى وهو مصطخبٌ
حدث عن النار تعلو وهى تحتدم
حدث عن البحر والأرواح عاصفةٌ
والسحب عازفة والفلك ترتطم

وكأن يقول فى وصف أحاديث سعد :

قضى الذى كان ناديه ومحضره قلادةً لكرام الناس تنتظم
إذا تكلم أصغت كل جارحةٍ إليه لا الكدّ يثنيها ولا السأم
دُرٌّ يُسلسله فيما يفوه به فالقلب مبتهجٌ والعقل مغتنم
كأن جلاّسه مهما علَوْا رتباً راجو صلاتٍ عليهم تنثر النعم

ويرى مطران أن شمائل سعد تعجز المؤبّنين فيقول :

(١) النعم بالعين المهملة جمع نعمة ، وكذلك وردت فى القصيدة منشورة بجريدة « كوكب الشرق » ولم يصححها الشاعر ، وأجب أن أقرأ « النقم » بالقاف جمع نقمة ، ليظهر المراد من قول الشاعر « حالا فحالا » ومعنى ذلك أن خطب سعد تكون حينا من الآلاء ، وتكون حينا من النقم ، وبقية الأبيات تؤيد هذا التصحيح .

يا من يؤبن سعداً ، مَن تؤبنه
هو الهدى والندى والبأس والشمم
هيهات توصف بالوصف الخليق بها
تلك الفضائل والآداب والشيم
ما القول فى دوحة فينانة سقطت
ومن أماليدها الإحسان والكرم
كأنها غيضة مجموعة نشبت فيها المنايا تُشنّها وتخترم
لكننى أستعين الله معتذراً عن القصور وبعض العجز لا يصم

ومع هذا الاعتذار الظريف فقد أبدع مطران فى رثاء سعد كل الإبداع

أما بعد . فقد رأى القراء أن الشعراء الذى تحدثنا عنهم قد التقوا فى كثير من المعانى ، وكان من الممكن أن نعقد الموازنات فنعرف كيف سبّق هذا أو تخلّف ذاك ، كأنْ نُشرّح ما قالوا فى وصف خطابة سعد ، وكأن ننظر كيف صوروه فى المحاماة والقضاء

فتى نوازن بين هذه القصائد الجياد ؟

ومتى نبين المعانى التى انفرد بها بعض أصحاب هذه القصائد ؟

زكى مبارك

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

– ٣ –

أول مسألة تواجه المبتدئ فى دراسة التاريخ هى مسألة اختيار موضوع البحث ؛ والمسألة تختلف بالنسبة للطالب الذى يبدأ دراسته الجامعية عنها بالنسبة للباحث الذى أنهى مرحلة التعليم المدرسى وبدأ يتطلع إلى الدراسة العلمية المنتجة . فالطالب المبتدئ فى التعليم الجامعى لا ينتظر منه عادة أن يقوم ببحث أصلى ، أو أن يكشف عن مجموعة وثائق لم تكن معروفة من قبل ، أو أن يستخلص حقائق تاريخية مجهولة ؛ وإنما المطلوب منه أن يتوفر على تحصيل وسائل الإعداد والتدريب الذى يؤهله للعمل العلمى فى المستقبل . فالطالب أثناء الدراسة الجامعية يختار – بإرشاد المدرس – بعض الموضوعات المدروسة ، لا لكى يبحثها من جديد وإنما للتمرن والتدريب والاقتباس ؛ وهو فى هذا يشبه دارس الكيمياء أو الطبيعة الذى يقوم بعمل التجارب التى ثبت صحتها نهائياً لكى يتدرب ويعرف ما عمله غيره من قبل . فطالب التاريخ يستطيع أن يختار موضوعات متنوعة فى الفروع التى يدرسها . ويمكنه أن يبحث بعض الموضوعات العامة ، كأن يختار مثلاً كتابة ملخص عام عن تاريخ نابليون فى حيز محدود . ويعتمد على القليل من المراجع الأساسية عن الموضوع التى يأخذها من المدرس أو التى يستخرجها بنفسه من كتب المراجع . فيقتبس ويدوّن مذكرات من هذه المراجع . وينبغى أن يلاحظ وضع أرقام الصفحات لكى يمكنه الرجوع إلى بعض النقط عند الضرورة ؛ ثم يقارن ويمزج بين المعلومات التى جمعها ، ثم يعرض بإيجاز نشأة نابليون وتعليمه وشخصيته وتدرجه فى المناصب ، وحروبه فى الشرق وفى أوربا ، وحكومته وإدارته ، وظروف أوربا فى عهده ، ووقوف انجلترا فى سبيله ، ثم سقوطه وحياته فى المنفى . ويعطى الطالب ملخصاً وافياً لكل هذه النواحى . وهو فى هذه الحالة سيتجاوز عن الكثير من التفصيلات والحركات المحلية . وسيكتفى بالمسائل المهمة البارزة فقط، سواء أكانت حوادث الحروب أم مشا كل السياسة الداخلية أو الخارجية . وبعد ذلك يختارُ الطالب جزءاً من الموضوع العام الذى ألم به مثل موضوع حملة نابليون على الروسيا فى سنة ١٨١٢ ، فيبحث الظروف التى أدت إلى تلك الحملة ، ويتتبع سيرها والحركات الحربية التى وقعت ، ووصول نابليون إلى موسكو ، ثم ارتداده وفشله ، وما ترتب على ذلك من الآثار فى فرنسا وفى أوربا . وهو فى هذا سيبحث موضوعاً أكثر تحديداً من الموضوع السابق ، وإلمامه بتاريخ نابليون العام سيساعده على فهم الحملة الروسية . ثم يتدرج إلى بحث نقطة تاريخية محددة بالذات مثل معركة واترلو ، فيدرس فى بعض المراجع العامة الظروف التى أدت إلى هذه المعركة ويوازن بين القوى الحربية لكل من فرنسا وانجلترا وبروسيا ، ثم يدرس خطط المعركة ، ويتتبع العمليات الحربية ، ويوضح كيف هزم نابليون ؛ ثم يشرح النتائج التى ترتبت على ذلك . ويمكن للطالب

أن يطبق هذه الطريقة فى نواح مختلفة من التاريخ . وهذا التدريج نافع جداً لأنه سيجعله يدرك فائدة الإلمام بتاريخ العصر أو الموضوع العام ؛ وأثر ذلك واضح فى فهم النواحى الخاصة ، وفى التغلغل فى بحث الموضوعات الجزئية . وسيعلمه هذا التدرج ضرورة الاهتمام بالجزئيات المعينة مع عدم إغفال الروح العام والنظرة العامة عن العصر الذى يبحث فيه . فلا بد من العناية بهاتين الناحيتين معاً على اتساق وتوافق . ثم يدرس الطالب بعض الوثائق الأصلية المطبوعة لبحث موضوع معين ؛ كما يدرس بإرشاد الأستاذ طائفة مختارة من الوثائق المخطوطة ، ويستخرج منهـا بعض الحقائق اللازمة لبحث نقطة معينة . وهذا كله كتدريب وإعداد للمستقبل . وما ينطبق على الطالب فى الجامعة ينطبق على أى شخص لم تتح له فرصة التعليم الجامعى فى بلد كمصر ويشعر فى نفسه بالميل إلى دراسة التاريخ وبحثه

وعند ما يتم الطالب مرحلة التعليم العالى ويحصل على درجة جامعية ، ويرغب فى متابعة البحث التاريخى، فإن اختيار موضوع البحث يبدو بشكل مخالف . فهو فى هذه الحالة لا يستطيع أن يبحث أى موضوع كان ؛ لأن المطلوب أن يقوم ببحث أصلى Original ، ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة ؛ فلا يكون البحث بناء على الرغبة فقط ، وإنما يكون بناء على ما يجب أن يبحث ، أو ما الذى يمكن أن يبحث . والباحث المبتدئ قد يثير اهتمامه أثناء دراسته بعض المسائل فى تاريخ اليونان القديم أو فى تاريخ العصور الوسطى أو فى تاريخ الروسيا مثلاً . فللمضى فى بحث إحدى هذه النواحى ينبغى أولاً أن يعرف العلوم المساعدة الرئيسية المرتبطة بالفرع الذى يرغب دراسته . وإذا لم يكن يعرفها فينبغى أن يقرر بصراحة من أول الأمر : هل هو مستعد لأن يتعلمها أم لا ؟ هل هو مستعد لأن يتعلم اللغة اليونانية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى أو اللغة الروسية مثلاً ؟ وهل هو مستعد لأن يتقن ما يتصل بهذه اللغات من العلوم المساعدة الضرورية مثل علم النقوش ، وعلم قراءة الخطوط ... فإذا لم يكن مستعداً لذلك فينبغى عليه أن يعدل عن المضى فى بحث إحدى هذه النواحى التى تعوزه فيها الوسائل الضرورية ، ويمكنه أن ينتقل إلى مجال بحث آخر يعرف أصوله وقواعده

والمبتدئ فى البحث التاريخى طبقاً للطرق العلمية الحديثة ، ينبغى أن يراعى بعض الأمور . فيجب أن يختار ناحية أو نقطة محددة لكى يستطيع أن يتفرغ لدراستها وإخراج جديد عنها ؛ وتكون هذه النقطة جزءاً من موضوع عام لكى يتسع المجال أمام الباحث لمتابعة دراساته فى المستقبل . فمثلاً لا يصح للباحث أن يتخذ تاريخ الدولة الأيوبية بأكله موضوعاً للبحث ، لأنه موضوع طويل . فالأيوبيون قد حكموا مصر من سنة ١١٦٩ إلى ١٢٥٠ م . ودراسة هذه الفترة دراسة عميقة مع كشف حقائق جديدة عنها لا يمكن تحقيقها فى سنوات قلائل . وإذا أصر الباحث على القيام بهذه الدراسة ، فإنه لن يأتى بأكثر من تلخيص ما هو موجود فى المراجع المعروفة . أما إذا خصص وقته وجهده فى نفس هذه السنوات القلائل لبحث ناحية معينة بالذات ، مثل تاريخ صلاح الدين أو تاريخ الملك العادل أو تاريخ التجارة فى عهـد الدولة الأيوبية ، فإنه يستطيع أن يسبر غور الأرض المجهولة ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة . وبديهى أن الوقت والجهد اللذين يخصصان لفترة قصيرة يأتيان بنتائج علمية أعمق ممـا لو خصصا لفترة طويلة . ووضع مؤلف علمى دقيق عن عصر الدولة الأيوبية بأكله لا يمكن أن يتم إلا بعد دراسة جزئيات هذا العصر وبعد كشف كل الحقائق التى يمكن الوصول إليها . وما يقال عن عصر الدولة الأيوبية ينطبق تماماً على أى عصر آخر . وكذلك ينبغى أن يلاحظ الباحث عند التفكير فى اختيار موضوع البحث ميله واستعداده ، سواء للناحية الحربية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو الفنية . ولا داعى لأن يقسر الباحث نفسه على ولوج ميدان لا يميل إليه ؛ وعلى العكس فإن طرْق الميدان الذى يميل إليه يجعله أقدر على العمل وأقوى على كشف الحقائق . والمرحلة الأخيرة التى ينبغى أن يمر خلالها الباحث قبل أن يختار نهائياً موضوع البحث من الناحية العملية تتلخص فيما يلى :

هل الموضوع الذى فكر فيه يحتاج إلى أن يبحث ؟ ألم يكن قد بحث من قبل مطلقاً ؟ أو هل بحث بطريقة غير كافية

وهل المادة الأصلية الموجودة عنه لم تدرس ولم تنقد كما ينبغى ؟ أو هل قد وجدت أو يمكن أن توجد مادة أصلية جديدة تبرر إعادة بحث الموضوع من جديد ؟ فإذا توفرت بعض هذه الشروط فمعنى ذلك أن الموضوع يحتاج إلى الدرس والبحث. ولكن كيف يمكن للباحث أن يثبت توفر بعض هذه الشروط ؟ الطريقة العاجلة هى أن يبادر باستشارة أحد الإخصائيين فى ميدان البحث التاريخى المعين، سواء فى البلد الذى يعيش فيه أو فى أى بلد آخر بواسطة المراسلات. وإذا تعذر الوصول إلى ذلك الإخصائى فعلى الباحث أن يجيب على هذه الأسئلة بنفسه. فلكى يعرف الباحث المراجع العامة والخاصة التى ظهرت عن العصر المعين، وهل اعتمدت على كل الأصول المعروفة فإنه يلزمه الاسترشاد بفن البيبليوغرافيا. والتأكد من أن الأصول التاريخية الموجودة قد نقدت واستخدمت بطريقة علمية صحيحة يدخل فى باب نقد الأصول والمصادر ؛ ومسألة وجود مادة أصلية جديدة عن الموضوع تعرف عن طريق البحث والعمل فى دور الأرشيف مثلاً. وسوف نعرف أشياء عامة عن هذه النواحى فى هذه المقالات. وإذا لم تتوفر بعض هذه الشرط السالفة فلا معنى مطلقاً للاستمرار فى البحث بدون جدوى عن ذلك الموضوع. ولا بد إذاً من العدول عنه إلى موضوع آخر يمكن الإتيان فى بحثه بجديد

وما هى الأعمال العلمية والأبحاث التى ينبغى أن تعمل فى مصر ؟ نحن فقراء ومتأخرون جداً فى ميدان البحث التاريخى بالمعنى العلمى الحديث. والغرب قد سبقنا بمراحل هائلة جداً فى كل أدواره مثل طبع الفهارس ووضع البيبليوغرافيات المتعددة الأنواع، وجمع الأصول، ونشر بعضها فى مجموعات ضخمة، ووضع المؤلفات التى لا حصر لها عن مختلف أنواع التاريخ فى جميع عصوره عن تاريخ العالم كله، وعن تاريخ كل من الدول والشعوب على حدة، سواء فى ذلك المراجع التى تتناول التاريخ العام، أو المراجع التى تبحث عصوراً معينة ونواحى خاصة فى تاريخ كل من هذه الدول والشعوب. فأين نحن من كل هذا ؟ ؟ صحيح أن بعض الباحثين من المصريين قد وضعوا أبحاثاً عن بعض مسائل التاريخ المصرى وغير المصرى نتيجة جهود فردية[1] ولكنها قليلة جداً ؛ ونحن عالة على علماء الغرب الذين درسوا نواحى متعددة من التاريخ المصرى فى عصوره المختلفة. ولكن هذه الدراسات المتعلقة بمصر سواء من جانب المصريين أو الأجانب لا تكفى مطلقاً. وقبل أن نفكر فى اختيار موضوعات للبحث فى تاريخ مصر ينبغى أن نقوم بأعمال تمهيدية واسعة النطاق وأساسية جداً، لكى يسير العمل سيراً منتظماً وفعّالاً. وأول هذه الأعمال التمهيدية القيام بطبع كتالوجات وفهارس لدور الكتب ودور الأرشيف فى مصر بالطرق العلمية الحديثة — أى بتبويبها وتقسيمها ووضع الفهارس لها — مما هو غير متوفر تماماً فى الموجود منها حالياً، فضلاً عن غير الموجود أصلاً. ثم وضع

(١) من بين المؤلفات التى وضعها الباحثون المصريون نجد :

١ — الأمير عمر طوسون : مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن. الأسكندرية، ١٩٣١

٢ — الأمير عمر طوسون : الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم. الأسكندرية، ١٩٣٦

٣ — الأمير عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ؛ ٣ أجزاء. القاهرة، ١٩٣٧ ... الخ

٤ — حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر. القاهرة، ١٩٣٢

٥ — « « « : تاريخ الاسلام السياسى ؛ ج ١. القاهرة ١٩٣٥

٦ — أحمد أحمد الحتة : الفلاح المصرى فى عهد محمد على. القاهرة، ١٩٣٤ (لم يطبع بعد)

٧ — أبو الفتوح رضوان : تاريخ المطبعة الأميرية. القاهرة، ١٩٣٦ (لم يطبع بعد)

٨ — عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر محمد على. القاهرة، ١٩٣٨

٩ — عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عهود عباس وسعيد واسماعيل. القاهرة، ١٩٤١. (لم يطبع بعد)

١٠ — Chafik Ghorbal : The Beginnings of the Egyptian Question & the Rise of Mehmet Ali. London, 1928

١١ — M. Sabry : L'Empire Egyptien sous Muhammed Aly. Paris, 1930

١٢ — M. Sabry : L'Empire Egyptien sous Ismail. Paris, 1933

١٣ — M. F. Shukry : The Khedive Ismail & Slavery in the Sudan. Cairo, 1938

١٤ — Zaki M. Hassan : Les Tulunides. Paris, 1933

١٥ — A. S. Atiya : The Crusade of nicopolis. London, 1934

١٦ — « « : The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938

١٧ — Ibr. Noshy : The Arts in Ptolemaic Egypt. London, 1937

١٨ — H. Osman : Fakhr Ad-Din II., Emiro del Libano e le sue Relazioni con l'Occidente, con Documenti inediti. (V. I. : 1572-1618). Roma, 1938. (لم يطبع بعد)

فهارس وقوائم للكتب والمخطوطات التي تناولت تاريخ مصر في العصور المختلفة؛ ثم جمع المخطوطات التاريخية ونشر بعضها نشراً علمياً حديثاً. وصحيح أن بعض الأفراد وبعض الهيئات مثل: المطبعة الأميرية، ودار الكتب المصرية، ولجنة التأليف والترجمة والنشر، تقوم بنشر بعض الأصول التاريخية[١]. ولكن لم تنشر أغلبها النشر العلمي الواجب لخلوها من الفهارس مثلاً.

ولقد عنى المغفور له الملك فؤاد الأول بجمع الكثير من الوثائق المتعلقة بتاريخ مصر في القرن التاسع عشر من محفوظات مصر ومن بعض دور الأرشيف في أوربا وأمريكا، وقد حُفظت في أرشيف عابدين؛ كما عنى بنشر بعض مجموعات من هذه الوثائق مثل مجموعة دوان وسامار كو[٢] ومجموعة الفرمانات السلطانية[٣] وكذلك أشرف جلالته على وضع مؤلفين عن تاريخ مصر العام باللغة الفرنسية، واشترك في كتابتهما طائفة من العلماء الأجانب[٤]؛ ولكن هذا لا يعني أن العمل قد انتهى، فهناك عشرات الألوف من الوثائق لا تزال مجهولة عن نواح هامة في تاريخ مصر منذ العهد العثماني حتى أوائل عهد محمد علي الكبير في دار المحفوظات المصرية بالقلعة، ويقابلها آلاف الوثائق عن هذا العهد محفوظة في دور الأرشيف الأوربية، وأغلبيتها الساحقة لم تمسها يد إنسان بعد. فلا بد من حصر وجمع وتبويب هذه الوثائق في مصر وفي الخارج؛ ولا بد من نشر بعض أجزاء منها نشراً علمياً. وما عمله الغرب بخصوص نشر مجموعات ضخمة من الوثائق التاريخية[١]، وما عمله ذلك الرجل القيم في ظلال الأرز، والجدير بالإعجاب والتقدير، من نشر بعض مجموعات من الوثائق عن تاريخ سوريا[٢] كفيل بأن يجعلنا نجدّ ونسعى لنشر وثائقنا وأصولنا التاريخية

وبعد إتمام بعض هذه الأعمال التمهيدية يمكن أن يتقدم وأن ينشط البحث التاريخي في مصر بدرجة مرضية. والمؤلفات التي تكتب قبل أن تتم بالنسبة إليها هذه المراحل التمهيدية، مع أنها جديرة بالتقدير، لا يمكن أن تعتبر آخر كلمة في الموضوع الذي تتناوله. وأرى أنه ينبغي على الباحثين أن يُتبعوا أبحاثهم بنشر المهم من الوثائق التي اعتمدوا عليها في مجلد أو في مجلدات خاصة، لأن هذا العمل لا يقل - إن لم يزد - في قيمته العلمية عن البحث التاريخي نفسه. وبعد ذلك تواجهنا ثغرات هائلة في مراحل التاريخ المصري ينبغي أن تدرس وتبحث على مدى الزمن. مثل تاريخ المدن المصرية، وتاريخ الأزهر والمساجد، وتاريخ الكنائس والأديرة، وتاريخ التجارة في مصر، وتاريخ مصر المالي والإداري في العهد العثماني، وتاريخ علي بك الكبير، وتاريخ الحركة العرابية ...

وهذه الأعمال الخطيرة لا يمكن أن تؤديها الجهود الفردية، ولا يمكن أن يقوم بها جيل واحد من الباحثين. وللسير في سبيل تحقيقها بالتدريج من الضروري جداً إنشاء معهد أو جمعية للدراسات التاريخية، كما هو الحال في الغرب، وتزود بالمال اللازم، وتضم شتات المشتغلين بالبحث التاريخي في مصر، وتنظم أعمالهم وتوحد جهودهم للانتاج العلمي الصحيح. ومن اللازم أيضاً أن نبدأ بإصدار مجلة للعلوم التاريخية، فإنه توجد

---

(١) يقوم الدكتور مصطفى زيادة بنشر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي منذ عدة سنوات. وقد أنجز منه الجزء الأول في ثلاثة أقسام، وهذا هو النمط الذي ينبغي أن يكون عليه نشر أصول التاريخ في مصر

(٢) من مجموعات الوثائق التي نشرت عن تاريخ مصر الحديث نجد:

١ — Douin, G. et Mme. E. C. Fawtier-Jones : L'Angleterre et l'Egypte (1801-1803) Le Caire, 1929

٢ — Douin, G. : L'Egypte de 1802 à 1804. Le Caire, 1925 ... etc.

٣ — Sammarco, A. : Il Regno di Mohammed Ali nei documenti italiani inediti. V. I. : L'Egitto nell'anarchia (1801-1804) Cairo, 1930 — V. VIII : Genesi e primo svolgimento della Crisi egiziano-orientale del 1831-1833. Roma, 1931 ... etc.

(٣) مجموعة الفرمانات الشاهانية الصادرة إلى ولاة مصر وخديويها (١٥٩٧ — ١٩٠٤). القاهرة، ١٩٣٣. ولها تلخيص وتعليق باللغة الفرنسية:

Haïm Nahoum : Recueil de Firmans Impériaux Ossomans adressés aux Valis et aux Khédives d'Egypte. (1597-1904) Le Caire, 1934

يقول الأستاذ L. Bonelli بمعهد الشرق في نابلي إنه كان قد درس ولخص هذه الفرمانات، ولم يتم إصدار المجموعة لظروف خاصة. راجع مجلة: Oriente Moderno. Roma. gennais, 1935. pp. 42-44

(٤) 1 — Précis de l'Histoire d'Egypte. 4 vol. Le Caire, (1932 — 1935)

2 — Histoire de la Nation Egyptienne (Hanotaux). 7 vol. Paris, 1931-1940

(١) من مجموعات الوثائق في التاريخ الأوروبي نجد:

١ — Calender of state Papers. 300 vol. crica. London.

٢ — Collection de documents relatifs à l'Histoire de France. 300 vol. circa Paris, 1835...

٣ — Sanuto, M. : I Diarū. 58 vol. Venezia, 1879...

(٢) مجموعات الوثائق التي نشرها الدكتور أسد رستم:

١ — الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا؛ ٥ أجزاء بيروت، ١٩٣٠ - ١٩٣٣

٢ — المحفوظات الملكية المصرية: بيان بوثائق الشام. المجلد الأول بيروت، ١٩٤٠.

٢ – كليلة ودمنة

نقد وتعليق

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

٧ – ١٧٩ : ٤ : (فأسعفنى بِطِلبق) بكسر الطاء وهى صحيحة . لكن العرب يختارون فى مثل هذا « الطَّلِبة » بفتح الطاء وكسر اللام . ومنه حديث نقادة الأسدى : « قلت : يا رسول الله ، اطلب إلىّ طَلِبة ، فإنى أحب أن أُطلِبَكها »

٨ – ٣٦١ : ٤ : « إن الملوك وغيرهم جدُرٌ أن يأتوا الخير إلى أهله » . وقد أفسد هذه العبارة أمران : أما الواحد ، فأن (جُدر) جمع (جِدار) بالكسر ، وهو الحائط ؛ والصواب : (جُدَراء) ، أو (جديرون) ، وهما الجمعان اللذان يجمع عليهما (جدير)[1] ؛ وجمع (فَعيل) صفة على (فُعُل) بضمتين نادر سمع منه : نذير ونُذُر ، وجديد وجُدُد (بدالين) ، وسديس وسُدُس[2]

وأما الثانى ، فأن (أتى) إذا تعدّى إلى المفعول لا يكون بمعنى الإعطاء ، بل يكون بمعان أخر منها الفَعْل : أتى الأمرَ والذنبَ : فَعَلَه ؛ ومنها الهدم والقلع ، قال الله تعالى : « فأتى اللهُ بُنيانَهم من القواعد »[1] . ومنها الانتساب ، أتى الرجل القوم : انتسب إليهم وليس منهم ، فهو أَتِىّ

وأما الذى هو بمعنى الإعطاء ، فهو الفعل (آتى) على زنة أفعلَ . ومنه قول الله تعالى : « آتِنا غداءنا »[2] ؛ وقوله : « وآتيناه الحكمَ صبيًّا »[3] ؛ ومضارعه (يؤتى) على يُفعِل . وفى كتاب الله تعالى : « يُؤتى . يؤتون . يؤتين . يؤتيه . سيؤتينا . يؤتكم . يؤتيهم . تؤتونهن . وتؤتوها . نؤتيه . نؤته . نؤتها . يؤتهم . سنؤتيهم »[4] ؛ وإنما سقت هذه الشواهد لأنبه على أن ما ورد فى اللسان من قوله[5] : « والإيتاء : الإعطاء . آتى يُؤاتى إيتاء ، وآتاه إيتاء أى أعطاه » وهمٌ أو تصحيف ؛ والصواب : آتى يُؤتى

فوجه عبارة ابن المقفع إذن : « جُدراء أن يُؤتوا الخير إلى أهله » .

ولعل السر فى هذا التحريف أن طائفة من علماء الرسم الأقدمين كانوا يرسمون الهمزة ألفاً فى كل حالة ، وزعيمهم فى ذلك أبو زكريا الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ . وجمهور علماء الرسم يسمون أولئك « أصحاب التحقيق » ، أى تحقيق الهمزة ؛ وأما الكتابة الغالبة التى نأخذ نحن بها الآن ، فيسمى أصحابها : « أصحاب مذهب التخفيف والتسهيل » ، وهم يجرون على لغة أهل الحجاز فى تخفيف الهمزة وتسهيلها ، ويعبرون عنها بصور تسهيلها : من الألف والواو والياء[6] . فلعل هذه بقية من بقايا رسم التحقيق

٢ — فى الضبط النحوى

١ — ص ١٤ س ٧ : (ولكل علة مَجرَى) ، صوابه : (مجرًى) بالتنوين ، وهو تحريف طبع

٢ — ١٨ : ١١ : (فيعلم سرَّ نفسه وما يضمر عليه قلبَه) بنصب (قلبه) وجعلها مفعولاً ليُضمر ، وأضمر يُضمر بمعنى أخفى يخفى ، فما يكون المعنى فى أن يخفى قلبَه عليه ؟ الصواب :

(١) اللسان والقاموس وكتاب سيبويه (٢ : ٢٠٧ — ٢٠٨) .
(٢) سيبويه ، وهمع الهوامع (٢ : ١٧٥ طبع ١٣٢٧)

(١) سورة النحل ٢٦
(٢) سورة الكهف ٦٢
(٣) سورة مريم ١٢
(٤) انظر فلوجل Flügel ص ٣ ، أو مصباح الاخوان ص ٩
(٥) لسان العرب (١٨ : ١٧ س ١٦)
(٦) المطالع النصرية ٦٤ — ٦٥ ، ٨٩ ، ١٤٩ طبع ١٢٧٥ وهمع الهوامع (٢ : ٢٣٩) وأدب الكاتب ١٩٧

فى الغرب مجلات عديدة فى التاريخ العام ومجلات خاصة لفروع التاريخ المختلفة[1] . ولا بد من جهد متواصل وتضافر وإخلاص فى العمل ، وبعد عن الزخارف وأبهة المناصب ؛ ونحن فى أشد الحاجة إلى إيجاد بيئة علمية صحيحة تعمل للعلم وحده ، وتضع تقاليد وطيدة ، وتقوم ببعض الواجب نحو العلم والتاريخ .

(يتبع)

حسن عثمان

استدراك : قد ورد خطأ فى المقال الماضى بالعدد ٤٢٤ ص ١٠٣١ فى هامش ٢ ، والصواب هو أن الدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ عبد الحميد حسن قد اشتركا فى ترجمة كتاب أدولف جروهمان من أوراق البردى العربية بدار الكتب ، وليس فى كتاب Moritz

(١) من المجلات التاريخية فى الغرب نجد :
١ — American Historical Review. New York, 1879
٢ — English Historical Review. London, 1886...
٣ — La Revue des Questions Historiques, 1866...
٤ — Rivista Storica Italiana. Torino, 1884...

(قلبُه) بالرفع على الفاعليـة ؛ لأن القلب هو الذي يضمر الأسرار والنوايا

٣ — ٤١ : ١٤ : (وشبّهت الجرذين بالليل والنهار، وقرضُهما دأْبهما في إنفاد الآجال) يصح أن تقرأ : (وقرضَهما دأْبهما) باستمرار التشبيه ، و (شبّه) من الأفعال التي تتعدى إلى مفعولين . وفي اللسان : (شبّهه إياه وبه) . ومنه قول الشمردل[1] :

يُشبَّهون مُلوكاً في تجِلّتهم وطول أنضية الأعناق والأُمم

وقول عبد بني الحسحاس[2] :

فشبّهني كلباً ولست بفوقه ولا دونه إن كان غير قليل

وقد سبق استعمال ابن المقفع لهذه اللغة في ٣٥ س ٤ : (وشبههما الجُنّةَ الحريزةَ) . وعلى ذلك يسوغ أيضاً أن تضبط كلمة (العسل) في السطر بعدها بالنصب

٤ — ٦٨ : ١٤ — ١٦ : (قال دمنة : حدثني الأمين الصادق عندي أن شتربة خلا برءوس جندك فقال لهم : قد عجمت الأسد، وبلوت رأيه ومكيدته وقوته ، فاستبان لي في كل ذلك ضعف، وإنه — بكسر الهمزة — كائن لي وله شأن . وأنه — بفتح الهمزة — لما بلغني هذا عرفتُ ... الخ) ، يصح أيضاً : (وأنه كائن) بفتح أنّ ، عطف على فاعل (استبان) . ويتعيّن : (وإنه لما بلغني) بكسر الهمزة ، عطف على مقول دمنة ، أي وقال دمنة : إنه لما بلغني ... الخ

٥ — ٩٦ : ٣ (وكذلك الجهّال لم يزالوا يستثقلون عقلاءهم واللوماء كرامهم) . صوابه : (واللؤماء) بالرفع . وهذا تحريف طبع

١٢٨ — : ٤ (فأعادت ذلك عليه مراراً — كلُّ ذلك لا يلتفت إلى قولها) . ولا وجه للرفع هنا . والوجه (كل ذلك) بالنصب على الظرفية الزمانية . ولا يصح أن تكون : (كل) مبتدأ ، وذلك لأن الضمير العائد عليها محذوف تقديره (فيه) . والبصريون يمنعون حذف الضمير العائد على لفظ (كل) إذا كان مبتدأ[3] ولذلك حكموا بشذوذ قراءة ابن عامر في سورة الحديد[4] (وكلٌّ وعدَ الله الحُسنى) ، وقراءة باقي السبعة : (وكُلاًّ) بالنصب[1] . وابن عامر قرأ نظير هذه الآية من سورة النساء ٩٥ (وكُلاًّ وعدَ الله الحُسنى) بالنصب كالجماعة[2]

٧ — ١٦٠ : ٢ (إلى مكان كذا وكذا) . تكرار (كذا) مع العطف أحد استعمالين صحيحين . والوجه الآخر الإفراد، أي (مكان كذا) . وبهذا وردت في ص ٨٣ من طبعة بولاق

قال ابن هشام في رسالته التي صنفها في معنى هذه الكلمة : كذا وكذا يكنى بها عن غير العدد . وفيها حينئذ الإفراد والعطف، نحو مررت بمكان كذا ، ومررت بمكان كذا وكذا . ويكنى بها عن العدد وليس فيها إلى العطف ... وقال ابن مالك : سمع فيها العطف وعدمه كالأولى ، لكنه قليل[3]

وفي شرح الأشموني : (تأتي كذا هذه — أعني المركبة — كناية عن غير العدد وهو الحديث مفردة ومعطوفة)

ففُهم من هذين النصين أن الإفراد في المكنى بها من غير العدد مقدم على العطف . لكن الرضيّ قدم العطف على الإفراد في الحالين

قال[4] : (وورود كذا كذا مكرراً مع واو نحو كذا وكذا أكثر من إفراده ومن تكرره بلا واو ، ويكنى بها عن العدد نحو عندي كذا درهما ، وعن الحديث نحو قال فلان كذا)

وقد التزم ابن المقفع لغة العطف ، فقد جاء في ١٦٨ س ١٤ (إن اليوم بمكان كذا وكذا) وفي ٢٢٤ س ٨ : (في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا) ، وفي ٢٥٨ س ١٣ (فقال كذا وكذا)

٨ — ١٧٩ : ٢ (ولم أذكر ما ذكرت ألا أكون أعرف منك الكرم والسمة) . الوجه : (إلا لكوني أعرف منك) الخ

٩ — ١٩٩ ، ٣ : (لم تدر أيُّهما تأخذ) برفع (أيُّهما) والصواب (أيَّهما) بالنصب ؛ فإنها مفعول مقدم لتأخذ ؛ وليس من باب الاشتغال و (أي) هنا استفهامية ، ولذا علقت الفعل القلبي قبلها عن العمل فيها . ولا يجوز أن تكون (أي) هنا موصولة بنيت على الضم ، ولو فرضنا أنها موصولة فإنها لا تبنى عليه إلا في حالة واحدة ، وهي إذا ما أضيفت وحذف صدر الصلة . وليس في الكلام صدر صلة محذوف ؛ فإنها جملة فعلية

(١) الحيوان (٣ : ٩٢) والكامل ٣٠ ليبسك والقالي (١ : ٢٣٨)
(٢) الحيوان (١ : ٢٥٥)
(٣) الصبان (١ : ٢٠٩ بولاق ١٢٨٧)
(٤) سورة الحديد ١٠

(١) ابن القاصح ٣٣٨ وغيث النفع ٣٢١
(٢) انظر المغني (كل) وكذا للمصدرين السابقين
(٣) شرح درة الغواص ١٤٣
(٤) في شرح الكافية (٢ : ٥٩)

قال الرضى[1] : (صلتها إما اسمية[2] أو فعلية . والفعلية لا يحذف منها شيء[3] ، فلا تبنى أى منها . والاسمية قد يحذف صدرها » . فلا بناء مع الصلة الفعلية

١٠ — ٢٦٨ ، ٩ : (من غُدوةَ إلى الليل) ، بمنع (غدوة) من الصرف . وهذا ضبط جيد ؛ فإن (غدوة) هنا معرفة من قبيل أعلام الأجناس ، بدليل قرنها بالليل وهو معرفة . وغدوة حين تعدها معرفة تمنعها الصرف فتجرها بالفتحة[4]

وزعم الخليل أنه يجوز أن تقول : آتيك اليوم غدوةً وبكرةً[5] ؛ فهذا يدل على جواز الصرف مع إرادة المعرفة

٣ — فى تحقيق النص

١ — ٢٦ ، ١٠ : (مثل الحراث الذى يثير أرضه ويعمرها ابتغاء الزرع لا العشب) فما وجه العمارة فى طلب الزرع ؟! الصواب (يغمرها) بالغين المعجمة ، أى بالماء

٢ — ٣٨ ، ٣ فى الحديث عن الجنين : (منوط قمع سرته إلى مريء بأمعائها) . وهو كلام متهالك مضطرب . فما العلاقة بين سرة الجنين وأمعاء الأم ؟ ! وإنما الجنين موطنه الرحم ، لا يعدوه ولا يتصل بغيره من الأعضاء . والصواب : (منوط بمعى [من] سرته) كما ورد فى نسخة بولاق ص ٢٨ . والمعى ، بالفتح ، وكإلى : واحد الأمعاء . والمراد به هنا ما يسمى : « الحبل السُّرّى » : Umbilical cord

أما كلمة (مريء) فعجيبة أيضاً ؛ فإن المريء بفتح الميم وكسر الراء : هو رأس المعدة اللاحق بالحلقوم ، وهو مجرى الطعام والشراب إلى المعدة ؛ لا يكون إلا ذلك ، فكيف يكون المريء بالأمعاء ؟ ! ووجه سائر العبارة عندى : (إلى مَراقّ رحمها) . وأصل المراق للبطن ، وهى ما رقّ منه ولانَ

٣ — ٤٠ : ٦ : (والرضا مجهوداً مفقوداً) هى (مجهولاً) باللام . جاء فى نسخة بولاق[6] : (وكان الرضى أصبح مجهولاً)

وفى نسخة شيخو ٤٢ : (وأصبح الرضى مفقوداً مجهولاً) . وعند ابن المبارية[1] :

من بعد ما عاد الحجا مجهولا   والشر قد سامي السماء طولا

والحجا بالكسر : العقل والفطنة

٤ — ٤٤ : ٧ : (كالكحل الذى لا يؤخذ منه إلا مثل الغبار) . صوابه : (إلا مثل غبار الميل[2]) . وقد جاء فى نسخة بولاق ص ٣٠ (إلا غبار الميل) وفى نظم ابن المبارية ص ٢٢ :

أوشك أن يبقى بغير مال   فالكحل لا يبقى على الأميال

الأميال : جمع ميل بالكسر

٥ — ٥٢ : ٢ (كالشعلة من النار التى يصونها) وفى التذييل ص ٢٩٠ : أنها كذلك فى الأصل وفى نسخة شيخو ، وأنها فى النسخ الأخرى (يضربها) وأن قريباً من هذا فى السريانية الحديثة

أضيف إلى هذا التذييل أن فى نسخة بولاق ص ٣٤ (يضرمها) بالميم . وهذه محرفة بلا ريب . فليس المراد تقوية النار وإضرامها وتذكيتها ، بل المراد سترها ومحاولة إضعافها

٦ — ٥٨ : ١ (فأحسن الأسد مسئلة شنزبة) المسألة هنا بمعنى السؤال ، مصدر ميمى من سأل ؛ والكتابة المعروفة (مسألة) برسم الهمزة فوق الألف

٧ — ٧٥ : ١٢ (مثل المكارى[3] ، كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه) هى فى الأصل ونسخة شيخو : (مثل البنى كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه) . وفى نسخة بولاق : (كمثل البنى كلما فقدت واحداً جاء آخر) . وتغيير الأصل هنا لا مبرر له . والأستاذ الجليل يعرف أنه لا يجوز لناشر كتاب تاريخى عالى أن يبدل ما يراه غير ملائم لأذواق معاصريه وميولهم ، ويعلم أن ذلك قد يعد جوراً على حق مؤلف الكتاب ، فإن تسويغ التبديل يسلب الكتاب شخصيته ، وربما نكَّره على مرور الزمان فعاد آخر غير الأول

ولعل ما حدا بالأستاذ على ذلك أن قد وجد ابن المبارية قد صنع مثله (فى ترجمته ص ٦٩) إذ يقول :

---

(١) فى شرح الكافية (٢ : ٥٣)

(٢) النسبة إلى « اسم » : « اسمى » همزته وصل ، ويوهم من يجعلها فى النسبة همزة قطع انظر سيبويه (٢ : ٨١)

(٣) يعنى صدر الصلة

(٤) الرضى (١ : ١٧٣) وسيبويه (٢ : ٤٨)

(٥) سيبويه (٢ : ٤٨ س ٢٤)

(٦) من كليلة ودمنة ص ٢٩

(١) نظم كليلة ودمنة ص ٢٨

(٢) الميل ، بالكسر : المرود الذى يكتحل به

(٣) المكارى بضم الميم وكسر الراء : من يكرى الناس دابته . والكراء ، بالكسر : الأجرة

الفقر مسألة اجتماعية (*)

للأستاذ رمسيس يونان

كتب الأستاذ العقاد فى عدد مضى من « الرسالة »[١] فصلاً قيما فى مشكلة الفقر كان من بين ما كتب الكاتبون جديراً بالدرس والتحليل

وبالرغم من دفاع الأستاذ العقاد القديم المتواصل عن العامل العاطفى فى حياة الإنسان ، فلا شك فى أنه من رجال الفكر المفتونين بالمنطق العقلى ؛ وهذه ميزة فى بيئة تعمه فى الخرافات والآراء المنقولة والحكم المسطورة . ولكن للمنطق العقلى حدوداً ونقائص ؛ وأولى هذه النقائص أن عرض المشاكل الاجتماعية كما تعرض القضايا المنطقية كثيراً ما يوهم المفكرين بأن حل المشاكل الاجتماعية رهين بحل قضية اجتماعية ؛ وليس هكذا يحل المجتمع مشكلاته ؛ وليس هكذا تتطور وتسير الحياة . ونقيصة ثانية تلازم المعتمدين على المنطق العقلى وحده هو نزوعهم فى أغلب الأحيان إلى صياغة آرائهم فى قالب الحقائق المجردة الثابتة ، وليس هناك حقائق بوجه عام — وحقائق اجتماعية بنوع خاص — مجردة عن ظروف الزمان والمكان . فالمجتمع ظاهرة متطورة ، ومع تطوره تتطور حقائقه ومثالياته وأحكامه . . . على أن أهم هذه النقائص هو أن رجال المنطق العقلى كثيراً ما يقعون فى شرك خدعة نفسية كبرى ، فهم إذ يعرضون آراءهم على أنها أحكام مطلقة أو حقائق لا مراء فيها أو بديهيات أولية ، لا ينتبهون إلى أن هذه الآراء هى — عن غير وعى منهم — ليست فى صميمها غير انعكاس فى أذهانهم لصور مادية يحيطهم بها مجتمع بعينه

وأول ما ألاحظه — تفسيراً لما أقول — أن الاهتمام الحديث المتزايد الذى بدا من كتابنا بدراسة المشاكل الاجتماعية المتصلة بتوزيع الثروات لم يأت عفواً ، ولا من شهوة ذهنية طارئة هبطت على عقولهم من عالم الفكر المجرد . . . وإنما هناك حقائق مادية جديدة قد نشأت فى المجتمع المصرى هى التى انفعلت فى أذهان هؤلاء الكتاب وبعثتهم على التفكير فيها وعرض الآراء والحلول ؛ وهذه الحقائق — ككل الحقائق الاجتماعية — فى حركة وتطور مستمر ، وهى لا تتحرك وتتطور تبعاً لما يرتأى لها المنطقيون ، بل بفعل مطالب إنسانية تكشفت ونمت إذ مهدت لتحقيقها وسائل مادية جديدة

وعلى ذلك فأنا أعتقد أن الأسلوب الصحيح الذى يجب أن نسلكه فى دراسة مشكلة اجتماعية مثل مسألة الفقر ، هو أن نبدأ أولاً ببحث هذه الحقائق المادية الجديدة ، وقبل أن نبدى الآراء والحلول المنطقية أو غير المنطقية ، يجب علينا أن نتبين جيداً الاتجاه الذى تسير إليه هذه الحقائق ، وبهذا فقط يمكن أن يصبح تفكيرنا قوة إيجابية مجددة ، بدلاً من أن يكون مجرد انعكاس سلبى ، قد يعبر عن « إحدى صور المجتمع » ، ولكنه لا يعبر عن « الحركة الاجتماعية » فى تطورها الخالق

والعقاد — إذ يعتمد على المنطق العقلى — لم يستطع أن يأتى بحكم واحد لا يقبل الجدل

فالفقر عند العقاد داء ، ولكنا لن نعدم أديباً آخر يقرر أن الفقر عقاب ، أو أنه تجربة من رب السموات

ونفهم من كلام العقاد أنه يريد أن يكون ربح الأفراد مساوياً لما يقدمون للمجتمع من نفع ؛ وكلمة « المجتمع » هنا خداعة غامضة المدلول ، فأى مجتمع يقصد ؟ هل يقصد المجتمع الإنسانى شمولاً ؟ إذا كان ذلك كذلك فالمجتمع الإنسانى كما نرى مقسم إلى

(*) هذا المقال تأخر نشره سهواً

(١) أنظر عدد ٤١١

شبيه خان فاعلمن ومكتب ... من فر[١] يوماً عنهما لم يطلب

لا يحفلان أبداً بمن رحل ... لكل من يمضى من الناس بدل

ومهما يكن فإن لفظ (المكارى) قلق نابٍ فى موضعه ، لا يتوجه إلى المعنى إلا مع الجهد والعسر ، وإن فيما أثبته الأستاذ من التنبيه على ذلك التبديل فى التعليقات لما يحمد عليه ، وإن كان لا يعد عذراً صالحاً للناشر

ونسأل : ما الحكمة فى أن يرفع الأستاذ هذا اللفظ من صلب الكتاب ثم يثبته وينبه عليه فى التعليقات؟! وكيف تسخط هذه الكلمة وغفر لنظائر لها وأشباه متفرقات فى ثنايا الكتاب[٢] ؟!

(له بقية) عبد السلام محمد هارون

(١) فى الأصل : « مر » بالميم . وليس يتجه

(٢) منها ما فى ٥٩ س ٩ ، ١١٧ س ٧ ، ١٢١ س ١٠ ، ١٣٨ س ١٠ ، ١٨٢ س ١٣ — ١٥

مجتمعات كثيرة تتضارب مصالحها إلى حد يصل بها إلى حرب شنيعة كالحرب الحاضرة. وعلى ذلك فالرجل الذى يعد نافعاً أكبر النفع بالنسبة للمجتمع الألمانى مثلاً قد يعد مجرماً بالنسبة للمجتمع البريطانى . أما إذا كان العقاد يقصد « بالمجتمع » أمة بعينها ، فالأمم كما نرى أيضاً مقسمة إلى طبقات ذات مصالح متعارضة . فإذا اكتشف عامل مثلاً وسيلة جديدة يلجأ إليها العمال ليرغموا بها أصحاب المصانع على زيادة أجورهم ، عُد هذا العامل مفيداً أكبر الفائدة بالنسبة لطبقة العمال ، ولكنه لن يعد كذلك فى نظر الطبقة التى تملك المصانع

والربح عند العقاد منه الحلال ومنه الحرام ؛ وليس لمقاييس الحلال والحرام ثبات ؛ فلكل مجتمع مقاييسه التى تنشأ معه لتوافق مصالح الطبقة الحاكمة . فاغتصاب ثروات الآخرين بالقوة مثلاً يعد إجراماً فى معظم المجتمعات الحاضرة ، ولكنه لا يعد كذلك فى كل المجتمعات ، ولم يكن يعد كذلك فى كل العصور ، بل هو ما زال يعد عملاً من أعمال البطولة فى ساحات الحروب ...

ويستنكر العقاد أن « يكون الجزاء الوافى حظ المثل الذى لا يستحى أن يعرض رجولته للفضوليات من المتفرجات » ؛ وقد يشارك العقاد فى هذا الرأى قوم كثيرون ، ولكنه من المؤكد أن (الفضوليات من المتفرجات) لا يشاركنه إياه

ومن الحقائق التى لا مراء فيها عند العقاد « أن حياة الإنسان كائناً ما كان أنفس من القوت والكساء ... » ؛ فلماذا لا نضيف إلى ذلك أن حياة الإنسان كائناً ما كان هى أنفس أيضاً من سيارة رشيقة ، ودار أنيقة ، تحيطها حديقة موردة ؟ ... فإذا قيل لنا : إن الإنسان يموت إذا حرم القوت والكساء ، ولا يموت إذا حرم سيارة أو حديقة ، فلنقل : إن الحياة لا تعنى عدم الموت فقط ، وإن الحياة بغير متعة إيجابية هى والموت سيان

ومن الحقائق أيضاً عند العقاد أن « الأمان كل الأمان خطر على الهمم والأذهان » ؛ وهو يريد أن يقول بذلك أنه لو اطمأن كل فرد إلى قوته وكسائه ، فقدنا من بنى الإنسان المنصر المقتحم المناضر ، « ومنى العالم بخطر من جراء ذلك ، هو أخطر عليه من الإجحاف فى تقسيم بعض الأعمال ، وتوزيع بعض الأرزاق » ... ولو صدر هذا القول من اسماعيل صدق مثلاً لعذرناه ... ولكن الغريب حقاً أن يصدر من العقاد ... ! فكيف يستطيع العقاد الشاعر أن يقول إنه لا تكون مناضرة أو اقتحام إلا حيث يكون طلب الرزق ، وإن الإنسان لا يناضر فى سبيل غرام ، أو فى سبيل كشف علمى أو إنتاج فنى ؟ ... ولماذا لا نقول : إن روح المناضرة إذا تحررت من هموم العيش وأعباء الثروات ، فسوف تكتشف لنفسها ميادين وآفاقاً جديدة هى أجدر بعواطف الإنسان ؟ ...

ويرى العقاد — كما يرى غيره — أن « العالم مدين للمصاميين » ؛ وهذا رأى أقل ما يقال إنه مشكوك فيه . . . فإن عدد الفلاحين الهنود والصينيين يزيد على نصف سكان هذا العالم ؛ فهل يمكن أن يقال مثلاً : إن هؤلاء الفلاحين مدينون بشىء للمصاميين ؟ ... ولكن لنفرض جدلاً أن هذا الرأى صحيح ، فمن الصحيح أيضاً أن نقول : إن الفلسفة والفنون الإغريقية مدينة لنظام الرق . . . وإن الديمقراطية الإنجليزية مدينة للفقر المدقع الذى يعانيه فلاحو الهند . . . فلولا وجود العبيد عند الإغريق لما استطاع « السادة » أن يتفرغوا للتفكير المجرد والبحث عن المثل العليا ، ولما ازدهرت عندهم فلسفة أو فنون . . . ولولا الأجور المنحطة التى ينالها فلاحو الهند لما أمكن المستعمر أن يربح هذه الأرباح الطائلة التى بدونها لما يتيسر للحكومة الإنجليزية أن تتقدم لعمالها بمشروعات الإصلاح وبالإعانات والهبات الكثيرة . ولكن لولا هذه الإعانات والهبات لانتظرنا أن تنشط بين العمال الإنجليز الحركة الشيوعية كما نشطت فى ألمانيا ؛ وفى هذه الحالة ، لا يكون غريباً أن الطبقة الحاكمة الإنجليزية كانت تلجأ إلى النظام الدكتاتورى لقمع هذه الحركة

ولكنا إذا قلنا إن الفنون الإغريقية مدينة للعبيد ، وإن الديمقراطية الإنجليزية مدينة لفقر الفلاحين الهنود ، فليس معنى ذلك أن نظام الرق كان يجب ألا يزول ، أو أن فقر الفلاحين الهنود ينبغى أن يستمر ... وكذلك إذا صح أن العالم مدين للمصاميين ، فليس صحيحاً أن العالم سيبقى مديناً لهم أبد الآبدين . فمهما تكن قيمة الدور التاريخى الذى لعبه المصاميون فى تطور الاقتصاد العالمى فى القرنين الماضيين ، فإن كل الحقائق تدل على أن ما يسميه العقاد « البراعة المالية » ليست فى الوقت الحاضر

كما يقول « لازمة لتأسيس المرافق الاجتماعية والأخلاق القومية وتنظيم العلاقات واستثارة الهمم وتوزيع الأعمال التي لا يستبحر بغيرها عمران ... » بل إنها على العكس من ذلك تؤدى بالعالم الآن إلى أشنع تمزيق وتخريب وتدمير عرفه الإنسان ...

فلا وجود للمصاميين بغير تنافس اقتصادى ؛ والتنافس الاقتصادى العالمى هو المسؤول الأول عن الحرب الماضية وعن الحرب الحاضرة . ولسنا ننتظر من مخلوق به مسكة من الشعور الإنسانى أن يقول إن هذه الحرب فى ذاتها بركة للانسان . هذا وإن كنا نأمل — بعد أن فشلت الحرب الماضية فى تنبيه الشعوب تنبيهاً كافياً إلى عواقب التنافس الاقتصادى — أن تكون نتيجة هذه الحرب الحاضرة هو القضاء فعلاً على النظام الاقتصادى الذى يؤدى التكالب فيه على جمع الثروات إلى الدجل والاحتيال من ناحية ، وإلى الشقاء والمرض والحروب الهمجية من ناحية أخرى ...

ولا شك أن الفقر — كصفة لاصقة بحياة الأغلبية من الشعب المصرى — ظاهرة قديمة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ . فما الذى جد إذاً على فقراء مصر حتى أصبحت لهم مسألة تشغل بال كثير من الأغنياء ، ويهتم لها المفكرون ، وتقلق أدباء كانوا يؤثرون الدعة والراحة فى مخادع البرج العاجى ... ؟

قد يكون صحيحاً أن بعض الأدباء والمفكرين المصريين قد تأثروا بالأدب والتفكير الاوربى الحديث الذى يعالج مشاكل الاقتصاد وتوزيع الثروات ، وهى أم المشكلات فى الحياة الأوربية المعاصرة ؛ ولكن هذا التأثر كان يبقى شيئاً خاصاً بأفراد ، لا قيمة اجتماعية له ، ولا يثير اهتمام الرأى العام ، لو لم تكن حياتنا الاجتماعية قد تأثرت تأثراً مادياً بالمدنية الغربية

ولقد اقتبسنا عن الغرب أشياء كثيرة ؛ منها مظاهر سطحية كأساليب الأكل واللباس ، ومنها مظاهر أعمق كأساليب التشريع والقضاء والتعليم ؛ ولكن وراء كل هذه المظاهر يكمن تأثر مادى أساسى ، هو اقتباسنا لبعض الأساليب الحديثة فى إنتاج الثروات ، أى لبعض الصناعات الآلية التى نمت فى مصر نمواً مطرداً فى السنوات الأخيرة

ودخول الصناعة الحديثة فى مصر معناه نشوء طبقتين جديدتين : طبقة رجال الأعمال من ناحية ، وطبقة العمال من ناحية أخرى . ورجال الأعمال يعيشون فى جو مادى ، ولهم أساليب فى التفكير ، ولهم مصالح اقتصادية تختلف عن نظائرها عند أولئك الذين تعتمد ثروتهم على ملكية الأراضى المزروعة . فمن مصلحة رجال الأعمال مثلاً أن ينتشر التعليم ، لأن المصانع محتاجة إلى العدد الوفير من العمال الفنيين وإلى العلماء والمهندسين وماسكى الدفاتر ... وليس لطبقة ملاك الأرض مصلحة ما فى أن يستخدم نصيب من الضرائب المفروضة عليها فى إنشاء المدارس الفنية . . . فالزراعة فى مصر ما زالت تسير على الطرق البدائية التى كانت تسير عليها فى عصور الفراعنة . وما دامت الأيدى العاملة فى الزراعة رخيصة إلى الحد الذى نراه ، فلن يسعى ملاك الأرض إلى استخدام الآلات الزراعية الحديثة الغالية الأثمان ، ولن يحتاجوا تبعاً لذلك إلى المتعلمين تعلما فنياً إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السبب الأساسى فى نكبة خريجى مدارس الزراعة على قلتهم فى بلد تعيش أغلبيته على الإنتاج الزراعى

وهذا فى رأينا هو بعض التفسير المادى للمجادلات الصحفية التى كثرت فى السنوات الأخيرة عن التعليم فى مصر وضرورة توسيعه أو تحديده أو تغيير مناهجه

وقد تنبه رجال الأعمال فى مصر من وقت ظهورهم إلى أن العقبة الأولى التى تقف فى سبيل توسعهم الصناعى ورواج بضائعهم هى المنافسة الأجنبية . ومن هنا كانت الدعوة إلى الوطنية الاقتصادية التى لعبت دورها أولاً فى حركة الاستقلال وإلغاء الامتيازات ، ثم استحالت دعوة مستقلة لتشجيع المصنوعات المصرية ...

أما العقبة الثانية — وقد بدأ التنبه إليها حديثاً — فهى ضعف السوق المحلية . وما دامت الصناعة المصرية لا تطمع فى منافسة الصناعة الغربية فى الأسواق الأجنبية ، فهى مضطرة إلى الاعتماد قبل كل شىء على السوق المحلية . ولكن ما دام هناك أربعة عشر مليوناً من سكان مصر لا يكادون لفقرهم أن يستهلكوا شيئاً من المصنوعات ، فلا أمل لأرباب الصناعة المصرية فى الإنتاج الضخم الذى يدر الأرباح الطائلة على زملائهم فى الغرب .

(البقية فى العدد القادم)

رمسيس يونان

٦ ـ مدن الحضارات
فى القديم والحديث

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قرطبة :

يحق للحضارة العربية الإسلامية أن تفخر بما كان لها فى عدوة الأندلس من تاريخ مجيد، فلقد كانت الحضارة الشرقية الإسلامية فى الشرق يقابلها حضارة إسلامية شرقية فى المغرب، ولم يظهر فى الشرق عالم جليل أو محدث كبير، أو شاعر شهير، أو فيلسوف حكيم، أو وزير له خطر، أو أمير له قدر، إلا ظهر فى المغرب من يدانيه علماً أو ينافسه قدراً أو يزاحمه محلاً

فلقد وقعت المفاضلة بين ابن رشد والطوسى [١]، وبين ابن زهر الحكيم وابن سينا، وبين ابن فرناس والفارابى، وبين ابن هانىء الشاعر والمتنبى، وبين ابن زيدون والبحترى، وبين ابن عبدون والأصمعى، وبين أبى مروان البصرى والمعرى، فقد كان الشبه بين النظيرين فى الفن الواحد قريباً، وكان الفرق بين المماثلين غير بعيد

وكان حظ المدن من تلك المفاضلة ونصيبها من تلك المقابلة حظ الأناسى من أهل العلم والنظر والجلال والخطر؛ فهذه بغداد فى المشرق على نهر دجلة، وتلك قرطبة فى المغرب على الشاطىء الغربى من نهر الوادى الكبير

ولقد أتيح لكثير من المؤرخين فى العصور التالية لسقوطها أن يزوروا تلك المدينة الضائعة فى ذلك الفردوس الإسلامى المفقود. وزارها فى العصر الحديث اثنان من أهل النظر والرأى والأدب والعلم. هما الأمير العربى المسلم النيور شكيب أرسلان [٢] والكاتب المصرى الرحالة محمد لبيب البتانونى ـ صاحب الرحلة الحجازية ورحلة الأندلس

ووصف كل من الكاتبين المدنية الإسلامية على حالها اليوم، ثم تطرق بهما الحديث إلى ذكر تاريخها وشىء من أحداثها، وذكر الجامع المعظم فيها

(١) رحلة الأندلس لمحمد لبيب البتانونى ص ٤٢

(٢) تجد وصفاً ممتعاً لها فى كتاب الحلل السندسية للأمير شكيب طبعة الحلبى جـ ١

رأى البتانونى قرطبة فى العقد الثالث من القرن العشرين الميلادى (سنة ١٩٢٧) فلاحت أمام عينيه عربية المظهر، شرقية المنظر (وشكل مبانيها يكاد يكون عربياً صرفاً) [١]

ورآها الأمير شكيب بعد ذلك ببضع سنوات، وقد طحنتها رحى الفتنة حين تأليفه كتاب الحلل، وغيّرها حلول المصائب والأحداث، واتصلت الشدائد على أهلها فلم يبق منهم بها وقت زيارته لها إلا الخلق اليسير [٢]

ولقد لفت حياء نسائها نظر البتانونى فأثنى عليهن ونعتهن بالاحتشام وغض البصر والإطراق إلى الأرض فى غير تحديق إلى الرجال [٣]. والظاهر عندى أن ذلك الحياء الجميل يكاد يكون طبعاً فى نساء الأندلس اليوم، فقد رأيت كثيراً من فتيات أسبانيا المتعلمات يفدن إلى جامعة (تور) بفرنسا لتعلم الفرنسية فى عطلة الصيف، ورأيت منهن الحياء والعفة والبعد عن التبرج الممقوت الذى كنت أنعيه على نساء فرنسا، ورأيت منهن ما يؤيد قول البتانونى (ومع أن بلادهم حارة جداً لا تكاد ترى صدورهن عارية)

على أن هناك رحالة ثالثاً معاصراً تعرض لذكر الأندلس فى كتابه (السفر إلى المؤتمر) وهو المرحوم أحمد زكى باشا؛ إلا أن حديثه عن الأندلس جاء فى عرض كلامه عن رحلة إلى المؤتمر، ولم يكن حديث الإصالة كما فعل الأمير شكيب والبتانونى

وأغلب المعلومات التاريخية التى أوردها الرحالتان مستقاة من نفح الطيب الذى اختص قرطبة فى الجزء الأول بحديث طويل. ويروى المقرى صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد المغربى أو عن الشريف الأدريسى، أو عن الحضرمى

ومعتمدنا فى كتابة هذا الفصل عن قرطبة على كتاب نفح الطيب الذى يعد بحق مرجعاً وافياً لتاريخ الأندلس

ولقد وصف كثير من العلماء (قرطبة) فى أزهى عصورها وأجمل أيامها، ويستشهد (المقرى) بأقوال هؤلاء العلماء، إلا أنه لا يذكر أسماءهم ولا يدلى بخبر عنهم، فهو يقول مثلاً: قال بعضهم، وقال بعض العلماء ... وفى الوقت نفسه يذكر أسماء الأعلام منهم، أو الذين وصل إليه علمهم، واشتهر عنده اسمهم: كالحجازى والحضرمى وابن سعيد والبكرى

(١) رحلة الأندلس ص ٥٣

(٢) الحلل السندسية جـ١ ص ١٤٣ (٣) رحلة الأندلس ص ٥٣

ولقد ذكر ابن سعيد عمارة قرطبة فقال : إن العمارة اتصلت بها فى أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون فى الطول وستة فى العرض ، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادى الكبير .

وذكر آدم متز المستشرق فى كتابه : « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، نقلاً عن ابن عذارى المراكشى صاحب كتاب البيان المغرب أن عدد الدور التى كانت بها للرعية دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، وأن مساجدها ثلاثة آلاف : (الجزء الثانى من الحضارة الإسلامية ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٢٢٧) .

ولقد بلغ من اتساع قرطبة وامتداد مساحتها واتصال العمران بها أن عدد أرباضها بلغ واحداً وعشرين ربضاً ، وفى كل منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره[١]

وفى خارج قرطبة امتدت قرى كثيرة قدرها ابن سعيد بثلاثة آلاف قرية . وهو عدد إذا فرضنا أن المبالغة التاريخية قد ضاعفته ، فهو يدل بغير شك على ازدحام القرى حول تلك العاصمة الإسلامية ، كما تزدحم القرى الصغيرة والكبيرة حول (لندن) اليوم مثلاً ، وتمتد إلى عشرات الأميال . وقد قدر لنا أن نرى هذه القرى اللندنية من أعوام خلت

وكان القرويون من أهل أندلس لا ينقطعون ترددهم على قرطبة واختلافهم إليها فى كل مناسبة صغرت أم كبرت ، وكان أعظم ما يجذبهم[٢] إليها شهود يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة والتسليم عليه ومطالعته بأحوال بلادهم

ولقد بلغت المنافسة بينها وبين بغداد حداً عظيما ، حتى لقد أحبها المؤرخون من أهلها ، لحابوها بالوصف ، كما يقول المرحوم شوق : [ولكن من أحب الشىء حابى] ...

وحاول كثير من وصافها أن يلحقوها ببغداد فى أيام عظمتها ، حتى لقد زعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبي بغداد ، وإن لم تكن كأحد جانبيها فهي قريبة من ذلك

(١) نفح الطيب . الطبعة الأزهرية جـ ١ ص ٢١٣
(٢) المصدر نفسه

ولم تكن قرطبة خاملة الذكر وضيعة المحل قبل الفتح العربى ولكنها كانت عامرة فزادها الفاتحون من المسلمين عمراناً ، وزادوها عظمة بما بنوه فى ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة (راجع تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان حـ ٥ ص ٩٠)

ويغلب على الظن أن قرطبة قبل الإسلام كانت مما شيده القرطاجنيون ، ثم صارت تابعة للرومان سنة ١٥٢ ق . م إلى أن دخلها المسلمون ، وجعلوها حاضرة الملك ومقر الأمارة ، وحاولوا أن يخلعوا عليها من جلال الملك ما يدنيها من عواصم الشرق الكبرى ، ولعبت المنافسة فى ذلك الدور العظيم

وكان فيها نظام الطبقات المبنائى كما حدث فى القاهرة وفى بغداد وفى سامرا وفى دمشق وفى غيرها من العواصم . والواقع أن فكرة التقسيم بين الطبقات قديمة منذ الزمان الأول ؛ فلقد كان فى أيام الفراعنة قصور وأحياء الأشراف وأحياء للعامة

وقد عقد المرحوم جورجى زيدان[١] موازنة بسيطة بين دور الأشراف فى رومة إبان عمرانها وبين دور الأشراف فى قرطبة إبان عمرانها كذلك ، وكانت فى الأولى ألفين — على ما رواه (جيبون) وفى الثانية أكثر من ستة آلاف — على ما رواه المقرى نقلاً عن غيره

وأعجب ما فى قرطبة من بدائع الفن وروائع الهندسة العربية آيتان : القصر الكبير والمسجد الجامع . أما القصر الكبير فكان مؤلفاً من ٤٣٠ داراً كالكامل والمشوق والمبارك وقصر السرور وغيرها[٢]

وكان فى هذا القصر من العجائب الكثير سئل عنه ابن بشكوال[٣] فقال بعد كلام : (وفيه من المبانى الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يعجز الوصف ، ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها فى قصرها البدائع الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة

(١) تاريخ التمدن الاسلامى حـ ٥ ص ٩١
(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ٢١٦
(٣) نفح الطيب

المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منه إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة . . . وفى هذا القصر القباب العالية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها) .

وقد بناه عبد الرحمن الداخل الأموى بعد ما فر من الشرق ووطد لنفسه فى الأندلس ملكا ، وزاد الأمراء من بعده عليه كلٌ على حسب طاقته . ومن المؤلم أن تتطاول يد الزمان وتمتد إلى قصور ذلك القصر فتقتلعها من أساسها ، وتدكها من قواعدها ، ولم يبق منها بعد منولها للميان ، وكونها فى الزمان ، نقش ولا أثر ، إلا أثراً يذكر ، وخبراً يسطر ، وقصة تروى ، وحديثاً لمن ألق السمع

وقد اصطلحت على محو تلك القصور والدور عوامل من الزمن ، ودوافع من الإحن والمحن . أما الزمن فقد تطاول ، والبناء لا يبقى على التطاول ، ولا يدوم على امتداد . وأما الإحن والمحن فقد اختلفت على قرطبة ، وحدثت الثورات ، وفتكت يد التخريب ، وأصبح أهل قرطبة منذ عهد المرابطين عرضة للحوادث وغرضا للشغب . وجاء المتعصبون من النصارى فحاولوا أن يزيلوا للأسلام كل أثر ، وأن يدكوا للعرب كل قاعدة ، وأن يهدموا من الحضارة العربية كل ركن ؛ فزال البِنَاء ومات البنّاء ، وبكى حين لا ينفع البكاء . وهل يرد الملك المضيّع فيضُ الدموع ، أو يعيد المجد المحطم وَقْد الضلوع ؟ ولم يدم ذلك الجلال طويلا . ففى القرن الخامس الهجرى أخذ كل شىء ينذر بسقوط قرطبة[1] . وقبل ذلك بزمن كانت هذه العاصمة الجليلة مسرحا للفتن ، وميداناً للمحن[2] . وصار الخلفاء يولون ويعزلون فى أجل قصير وأمد قريب . فتولاها فى مدة يسيرة ستة من الأمويين ، وثلاثة من بنى حمود ، مما انتهى إلى التفرقة والانقسام

(١) عن المؤرخ الألمانى « أشباخ » فى كتابه : « تاريخ الأندلس » فى عهد المرابطين والموحدين

(٢) رحلة الأندلس

وكان الأمراء يختلفون ويحتربون وتسيل دماء الناس على أيامهم . وقام العداء بين أمير وأمير ، ومدينة ومدينة . ودارت الحرب بين طليطلة وقرطبة . وظلت بضعة أعوام تتخللها معارك مضطرمة بين الفريقين ، انتهت نهاية مؤلمة ومصيراً محزناً بالنسبة إلى قرطبة وحاكمها ابن جهور . فقد ظفر صاحب طليطلة بابن جهور وضرب الحصار على العاصمة القديمة للأندلس ، ولم يرفع عنها إلا بعد أن أسيلت الدماء ، وانهارت على أثر ذلك دولة بنى جهور فى قرطبة[1]

ومن هذه الفتن أيضاً ما حدث بعد ذلك بقليل ، فقد هاجم أهل طليطلة ومرتزقة قشتالة قرطبة على غرة ، فسقطت فى أيديهم بلا مقاومة ، ولكن نشبت بين الفريقين فى الزهراء — مجمع القصور الملكية — معركة دموية دافع فيها الحرس عن القصور دفاعاً شديداً[2] . وقتل ابن الأمير ابن عباد ، ورفع رأسه على رمح وطيف به فى شوارع قرطبة

ولم يطل ملك بنى عباد ، حتى تغلب عليه المرابطون سنة ٤٨١ فالموحدون سنة ٥٣٩ ؛ وانتقصت أطراف هذا الفردوس الجميل شيئاً فشيئاً

[الحديث موصول] محمد عبد الغنى حسن

(١) يوسف أشباخ فى المصدر السابق

(٢) للمصدر نفسه



٣ - المصريون المحدثون

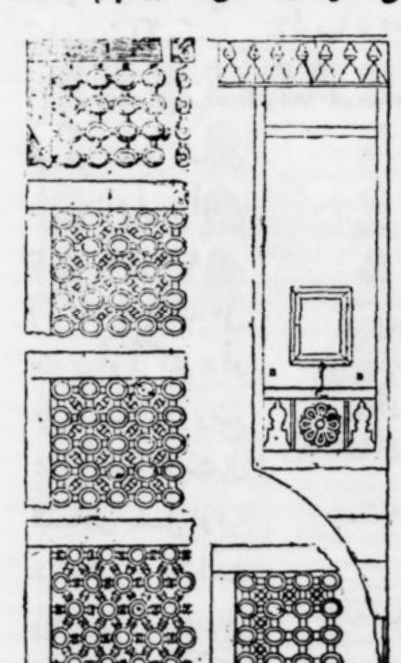
شمائلهم وعاداتهم

تأليف المستشرق الانجليزى ادورد وليم لين

للأستاذ عدلى طاهر نور

المنازل

وحجرات الطابق الأرضى لها نوافذ صغيرة مركبة من قضبان من الخشب المنقور Grille de bois مرتفعة بحيث لا تسمح للراجل أو للراكب أن ينظر من خلالها . أما الغرف العلوية فنوافذها تبرز بمقدار قدم ونصف قدم أو أكثر ؛ وأغلبها مصنوع من الخشب المخروط المشبك ؛ وهو لضيق ثقوبه ، يمنع كثيراً من النور والشمس ، ويحجب سكان المنزل عن الأنظار ؛ ولكنه فى الوقت نفسه يسمح بدخول الهواء . ومن العادة ألا يُصبغ هذا الخشب ، ولكن القليل منها يصبغ بعضه بالأحمر والأخضر ، وبعضه يصبغ كله . وهذا النوع من النوافذ يسمى روشنا ، ولكنه فى الاصطلاح الغالب يسمى مشربية ؛ والكلمة الأخيرة لها وضع آخر سيذكر بعد.



شكل ٣ - (نماذج من شبابيك الخشب الخرط والدائرة بين منتصف صف من الحبات إلى منتصف صف آخر تبلغ من بوصة ونصف إلى بوصة وثلاثة أرباع

وكثير من النوافذ المختلفة الأنواع مصور فى هذا الكتاب ؛ وقد أوردت على قياس أوسع رسوما لأكثر نماذج الشبابيك شيوعاً . انظر شكل (٣) . وقد يكون للنافذة الموصوفة آنفاً مشربية صغيرة تشبه نوعاً ما روشنا مصغراً ، تبرز عند الواجهة أو عند الجانبين . وتوضع فوقها قلل من الفخار ذات مسام لتبريد الماء بتعريضه لتيار الهواء . ومن هنا اشتق اسم «مشربية» ومعناه «مكان الشرب» . ويعلو النافذة البارزة مباشرة نافذة أخرى مصنوعة من الخشب المشبك أو من القضبان الخشبية أو من الزجاج الملون . وشباك هذه النافذة العلوية ، إذا كان لها شباك ، كثيراً مايكون ذا رسوم قوامها موضوعات تصويرية fantastique أكثر من الأنواع الأخرى ، فيمثل طستاً فوقه إبريق ، أو صورة أسد ، أو اسم الله ، أو أمثال هذه الجملة : «الله أملى» الخ . وقد تكون النوافذ البارزة مُلوّحة كلها بالخشب ، وقليل منها يميل إلى الأمام من أسفل إلى أعلى بزاوية عشرين درجة تقريباً . وتفتح من القمة لدخول النور . وبعض الأشكال الغالبة ، تكون جوانبها ذوات ألواح زجاجية .



شكل ٤ - (فناء منزل قاهرى)

وفى أجل المنازل أيضاً تجهز شبابيك النوافذ الآن بألواح زجاجية من الداخل فتقفل كلها فى الشتاء لأن البرد القارس يشعر به المصريون عندما تنخفض الحرارة إلى أقل من ستين درجة فاهرنهايت [١] . وأما نوافذ الدور الدنيا فأكثرها من طراز آخر لأنها مستوية مع سطح الحائط الخارجى . وجزؤها الأعلى يكون شباكا أو قضباناً خشبية ، والجزء الأسفل له دُرَف معلقة يقفل بها ؛ والكثير منها له مشربية للقلل تبرز عند جزئه الأسفل

---

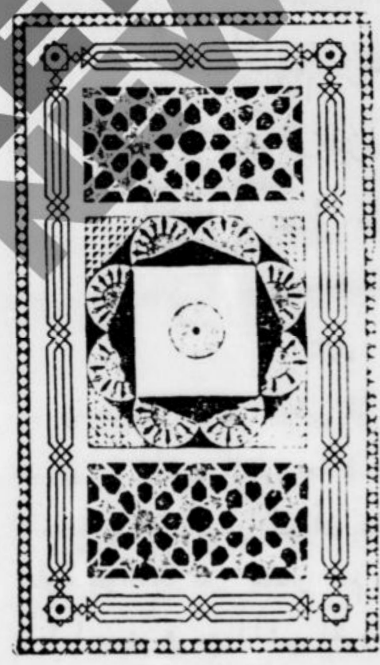
(١) أما النوافذ الزجاجية على الطريقة الأوربية التى لكل منها شباك فى خارج نصفها الأسفل فقد شاع استعمالها فيما بعد فى المنازل الجديدة فى أقسام كثيرة من القاهرة . وأكثر هذه النوافذ توجد فى المنازل المشيدة على الطراز التركى الذى يقرب كثيراً أو قليلا من النظم الأوربية ؛ وهى لا تلائم المناخ الحار وإن كانت مريحة فى الشتاء

وتتألف المنازل، على العموم، من طابقين أو ثلاثة (شكل ٤) ويتوسط كل دار كبيرة فناء مكشوف غير مبلط يدخل إليه من دهليز ينعطف مرة أو مرتين بقصد منع المارين فى الطريق من النظر إلى الداخل. وفى هذه الطرقة من داخل الباب يوجد مقعد حجرى طويل يسمى «مصطبة» وهو ملاصق للحائط الخلفى أو الجانبي يجلس عليه البواب والخدم الآخرون. وفى هذا الفناء بئر يتسرب ماؤه المائل للملوحة خلال الأرض من النيل، كما يوجد فى جانبه الظليل جرتان يجلب إليهما الماء يومياً من النهر فى قرب[1]. وتطل الغرف الرئيسية على الحوش، وتغطى جدرانها الخارجية بالجص وتبيض. وهناك كثير من الأبواب تفتح على الفناء، منها واحد يسمى «باب الحريم» وهو مدخل السلم الذى يؤدى إلى الحجرات المخصصة للنساء ولرب الدار وأولاده[2].



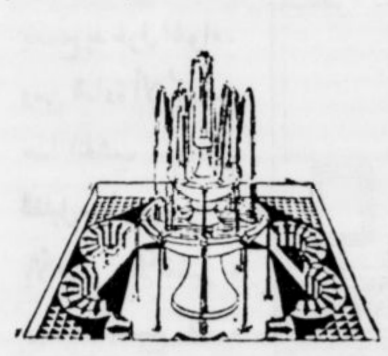
شكل ٥ – (البهو أو غرفة الاستقبال)

ويوجد غالباً فى الطابق الأرضى غرفة تسمى (منضرة) شكل ٥ يستقبل فيها الزائرون من الرجال. ولهذه الغرفة نافذة واسعة من القضبان الخشبية، أو نافذتان من هذا النوع تطلان على الحوش، وأرضيتها جزء صغير يمتد من الباب إلى الجهة المقابلة منخفضاً عن بقية الغرفة بأربع أو خمس بوصات تقريباً. ويطلق عليه اسم (دُرْقاعة)[1]. وهذه الأخيرة تبلط فى المنازل الجميلة برخام أبيض وأسود، وبقطع صغيرة من القراميد الحمر الجميلة فى نماذج معقدة أنيقة، ويتوسطها فوارة تسمى (فسقية) يتدفق ماؤها فى بركة صغيرة قليلة الغور، مخططة برخام بلون الأرضية المحيطة بها. وتصرف مياه هذا النبع من الحوض بواسطة ماسورة. وأمامك نموذج من أرضية الدرقاعة شكل ٦ كما وصفتها آنفاً

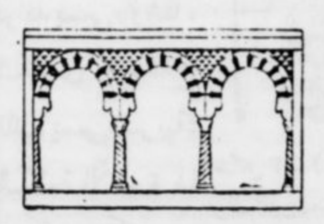


شكل ٦
(أرضية درقاعة عرضها حوالى ثمانى أقدام)

ويوجد فى نهاية الدرقاعة فى مواجهة الباب رف من الرخام أو من الحجر العادى على ارتفاع أربع أقدام تقريباً يطلق عليه اسم (صفة) يستند على عقدين أو أكثر، أو على عقد منفرد؛ ويوضع تحته أوعية للاستعمال العادى مثل أوعية «العطور» والطست والإبريق المستعملين للغسيل قبل الأكل وبعده وللوضوء، كما توضع فوقه أوانى المياه وفناجين القهوة وتكسى عقود الصفة فى الدور الجميلة بالرخام والقراميد على مثال بركة الفسقية (أنظر رقم ٧ ورقم ٨) كما يكسى الحائط الذى يعلوها إلى ارتفاع أربع أقدام أو أكثر تقريباً بمواد مماثلة: جزء منها بألواح رخامية



شكل ٧ – (نافورة)



شكل ٨ – (صفة)

---

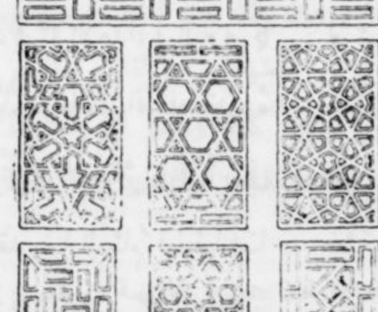
(١) يوجد فى بعض المنازل الكبيرة فناءان يخصص الداخلى منهما للحريم. ويوجد عادة فى الفناء الآخر أو فى الاثنين معا سياج صغير به أقواس خشبية تزرع فيه الأشجار والزهور. وأكثر أنواع الشجر شيوعا فى فناء المنازل الكروم والتوت، وكثيرا ما يوجد معهما الموز والنخيل وأشجار أخرى

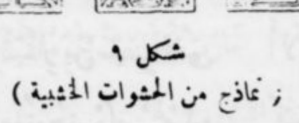
(٢) يلاحظ فى الرسم الذى رسمته لفناء المنزل أن باب الحريم هو ذلك الذى يواجه الناظر

(١) الظاهر أن هذه الكلمة محرفة من الكلمة الفارسية «درجاه»

كبيرة قائمة ، والجزء الآخر بقطع صغيرة على أسلوب الدرقاعة . أما المنصة أو الجزء المرتفع من الأرضية فيسمى (ليوان)[1]

ويجب على كل داخل أن يخلع نعليه فى الدرقاعة قبل الصعود إلى الليوان ؛ وهذا الليوان يبلط عادة بالحجر العادى ، ويفرش بالحصير صيفاً وبالبسط فوق الحصر شتاء ، وتوضع فوقه الحشايا والوسائد ملاصقة للجدران ، ويسمى حينئذ (ديوان) . وتوضع الحشية التى يبلغ عرضها حوالى ثلاث أقدام ، وسمكها ثلاث بوصات أو أربعاً ، على الأرض عادة . أما الوسائد وطولها بقدر عرض الحشية ، وارتفاعها مساو لنصف هذا القياس ، فتسند مائلة إلى الحائط . وتحشى الحشايا والوسائد بالقطن وتغطى بالشيت المطبوع أو الجوخ أو بما هو أغلى ثمناً . وأحياناً توضع الحشية على سرير من جريد النخل ، وأحياناً أخرى توضع على منصة حجرية تعلو إلى نصف قدم تقريباً وتسمى « سِدِلّه » ، وهى كلمة من أصل فارسى تطلق أيضاً على فجوة عرضها مساو لعمقها تقريباً، وبها فرش ووسائد حول جوانبها الثلاثة . ويلاحظ أن بعض الغرف به مكان أو أكثر من هذه الأمكنة الداخلة تستخدم للجلوس شتاء وهى لذلك تبقى بدون نوافذ . أما حوائط الحجرة فتغطى بالجص وتبيض . ويوجد فى داخل جدران الغرفة دولابان أو ثلاثة قليلة العمق ، بمصاريعها حشوات خشبية دقيقة الصنع ، لأن الحرارة ويبوسة الجو يعرضان الخشب للتقلص والالتواء كما لو كان داخل تنور ؛ ولهذا السبب تصنع أبواب الغرف أيضاً بالطريقة نفسها . ويلاحظ أن هناك تفنناً عظيماً



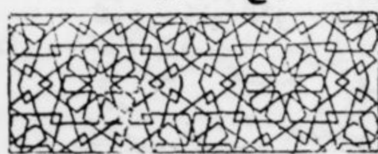


شكل ٩
(نماذج من الحشوات الخشبية)

ومهارة فائقة فى مختلف الأساليب المتبعة فى صنع تلك الحشوات الصغيرة وتركيبها، وقد نشرت بعض نماذج مختارة منها (شكل ٩) . أما السقف الذى يعلو الليوان ، فهو ذو جسور من الخشب المنقور يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة قدم ؛ ويلون بعضها وأحياناً يذهب ، ولكن هذا الجزء من السقف الذى يعلو الدرقاعة يكون فى المنازل الجميلة أفخم نقوشاً وأكثر زخرفة . وبدلاً من العروق الكبيرة تسمر بضعة شرائط خشبية دقيقة فى الألواح فتؤلف نماذج غريبة التعقيد ، كاملة الانتظام ، ذات تأثير زخرفى عظيم .

وقد رسمت جزءاً من السقف على هذا الأسلوب الزخرفى ، ولكنه ليس من الطراز الكثير التعقيد . (شكل رقم ١٠) . وهذه الشرائط تدهن بالأصفر أو تذهب ، وما بينها يلون بالأخضر والأحمر والأزرق . وتكون الألوان فى المثل الذى ضربته ، كما هو مشار إليها فى الرسم بالنسبة نفسها ، ولكن على مقياس أكبر . أما المربع الذى يتوسط السقف حيث تكون الشرائط سوداء على أرضية صفراء . وكثيراً ما يتدلى قنديل من وسط هذا المربع . وهناك بضعة نماذج متشابهة ، وألوانها – الواحد بالنسبة للآخر – توضع غالباً بالترتيب نفسه ؛ إلا أن هذه السقوف فى بعض المنازل لا تلون . أما سقف النافذة البارزة فكثيراً ما يزخرف بالطريقة نفسها . كما ترى فى الشكل ١١ ، وهكذا يتجلى الذوق السليم بقصر الزخرفة على الأجزاء التى لا تكون دائماً أمام العين ، لأن إدمان النظر إلى مثل تلك الخطوط الكثيرة المتقاطعة المتجهة فى اتجاهات عديدة مما يؤلم العين

شكل ١٠ – (سقف درقاعة)
عرضه حوالى ثمانية أقدام



شكل ١١ – (سقف نافذة بارزة)
والمقاييس ثمانية أقدام فى ثلاثة

(يتبع) عدلى طاهر نور

---

(١) يجب عدم الخلط بين « ليوان » و « ديوان » المذكورة فيما بعد . والليوان يسمى أيضاً « إيوان » ومعناه الحقيقى رواق مكشوف الواجهة أو قصراً الخ . وكلمتا « ليوان » و « إيوان » من أصل فارسى إلا أن الأولى تنطق محرفة من كلمة « الأيوان »

إيماءة إلى الله . . .

[إلى طيفها الذى لا يفارقنى]

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

. . . وَأَوْمَأْتُ لِله عَلِّى أَرَاهَا !
مَعَ اللَّيْـلِ تَسْرِى بِقَلْبِى خُطَاهَا
مَعَ الصَّمْتِ يُشْجِى خَيَالِى نِدَاهَا
مَعَ الزَّهْرِ يَرْوِى دَمِى مِنْ شَذَاهَا
مَعَ الطَّيْرِ تَرْوِى لِرُوحِى أَسَاهَا
مَعَ النَّفْسِ تَجْرِى هَوًى فى هَوَاهَا
وَيَجْرِى بِدَمْعِ اللَّيَالِى بُكَاهَا . . .

فَقَالَ لِىَ الْغَيْبُ : ضَلَّتْ سُرَاهَا !
فَهَامَتْ مَعَ الْمَوْجِ حَتَّى طَوَاهَا
وَذَابَتْ مَعَ الْفَجْرِ حَوْلِى رُؤَاهَا
وَرَفْرَفَ مِنْ حَاجِبَيْهِ سَنَاهَا
وَأَشْرَقَ مِنْ رَاحَتَيْهِ صِبَـاهَا
وَكَانَتْ لَهُ غُنْوَةً فى لِقَاهَا
وكَانَتْ لهُ آهَــةً فى نَوَاهَا
وكَانَتْ لهُ قِصَّــةً ما رَوَاهَا
لِغَيْرِى ، وَغَيْرُ الرُّبَى . قُلْتُ : وَاهَا !
فيَا لَيْتَهُ نَحْــوَ قلبِى هَدَاهَا
وَنَضَّرَ مِنْ صَفْحَتَيْهِ ثَرَاهَا
فَإِنْ ظَمِئَتْ مِنْ شَبَابِى سَقَاهَا
وَإِنْ شَقِيَتْ سَاقَ دَهْرِى فِدَاهَا
فَمَالِى مَدَى الْعُمْرِ سِحْرٌ سِوَاهَا

هَتَفْتُ . . . فَصَدَّتْ نِدَائِى سَمَاهَا !
فَأَوْمَأْتُ لِله . . . عَلِّى أَرَاهَا
كَأَنِّي « بِسَيْنَاءَ » صَوْتٌ تَنَاهَى
إِلى شَفَةِ الْغَيْبِ يَدْعُو الإِلٰهَا . . .

(النخيلة) محمود حسن اسماعيل

من الأدب الفرعونى

نشيـــد السيفين (١)

[من رواية « مصر الخالدة » التى ألفها ويخرجها الأستاذ « فتوح نشاطى » . وهي مسرحية فرعونية ، تفتتح بها الفرقة القومية موسمها التمثيـلى للقبل . . .]

للأديب عبد الرحمن الخميسى

هَيْهَاتَ تُغْفِلُ ذِكْرَنَا الأَيَّامُ ... وَلِمِصْرِنَا الْبَتَّــارُ والْبَسَّامُ
سَيْفَانِ تَرْجُفُ إِنْ رَأَتْ حَدَّيْهِمَا (م) الأَرَضُونَ وَالْجَوْزَاءُ وَالأَيَّامُ
الْهَوْلُ مِنْ حَوْلَيْهِمَا عَبْدٌ، فكَمْ ... أَمَرَا فَبَادَتْ فِي الوَغَي أَقْوَامُ
وَالْمَوْتُ يَكْمُنُ فِيهِمَا، فكأَنَّمَا ... هُوَ أَنفُسٌ وَهُمَا لَهُ أَجْسَامُ
سَلْ فِي الْمَعَارِكِ كَمْ أَرَاقَا مِنْ دَمٍ ... قَدْ صَفَّقَتْ لَهُمَا بِهِ الأَعْلَامُ
فَكِلَاهُمَا بَطَلٌ يُبَارِكُ بَأْسَهُ ... مِنِثٌ (٢) وَتَفْزَعُ مِنْ أَذَاهُ الْهَامُ
نَبَتٌ عَلَى الأَحْدَاثِ يَصْرَعُ بَطْشَهَا
فَإِذَا بِهَــا فَوْقَ الرَّغَامِ رَغَامُ
قَدْ شَرَّدَ الأَعْدَاءَ فِي الْبَلْوَي كَمَا ... لَوْ شُرِّدَتْ فِي الْمَهْمَهِ الأَنْعَامُ
أَيَّامَ يُوغِلُ فِي الدِّمَاءِ حَدِيدُهُ ... ظَمْآنَ لَا يَرْوِى صَدَاهُ حِمَامُ
وَيُجَدِّلُ الأَحْبَاشَ وَالْحِيتَاسَ فِي ... سُوحِ الوَغَى فَتُكَبِّرُ الأَهْرَامُ
وَلَقَدْ غَزَا الْبَسَّامُ فِينِيقِيَا فَمَا ... خَشَعَتْ لِغَيْرِ شَبَاتِهِ الأَفْهَامُ
وَمَشَى بِهِ رَمْسِيسُ يَفْتَتِحُ الدُّنَى ... مِثْلَ الْقَضَاءِ فُتُوحُهُ أَحْكَامُ
وَالْمَجْدُ لِلْبَتَّارِ مِنْ سَيْفٍ قَضَى ... أَلَّا يَرَى أَرْضَ الْعَدُوِّ سَلَامُ
يَسْتَلُّهُ (مِنْتُوحُتِبْ) مِنْ غِمْدِهِ ... فَتَهَابُ حَتَّى فَتْكَهُ الأَصْنَامُ
لَكِنَّهُ وَالْحَرْبُ تَرْعَى بِاسْمِهِ ... فِي قَادِشٍ وَجُيُوشُهُمْ أَغْنَامُ
وَالصَّفُّ بَعْدَ الصَّفِّ مُنْهَارٌ كَمَا ... تَنْهَارُ تَحْتَ الْقَلْعَةِ الأَكْوَامُ

---

(١) هذه القصيدة من أصل فرعونى

(٢) منت : هو إله الحرب عند الفراعنة



كليلة ودمنة

قرأت ما كتبه فى الرسالة (العدد ٤٢٥) الأستاذ عبد السلام محمد هارون فشكرت للكاتب الفاضل حسن رأيه ، وجميل ثنائه وأعجبت بتدقيقه وتحقيقه ، وتلقيت بالقبول والسرور نقده الذى يبين عن صدق النية ، وخلوص القصد فى طلب الحق . وكلنا طلاب علم نسأل الله الهداية والتسديد !

وقد أخذ الأستاذ على الكتاب مآخذ وهذا بيان رأيي فيها :

قال بعد أن ذكر كثرة التحريف فى النسخة المخطوطة ، والجهد الذى بذل فى تصحيحها :

« ونحن فى هذا الصدد نأخذ على الأستاذ أنه لم يتوخ للنشر العلمى من إثبات الأصل والتنبيه عليه فقد يكون للقارئ وجه فى التصحيح غير الذى ارتضى . . . وكتاب مثل كتابنا لبس من جلال التاريخ ما لبس جدير بما ذكرت من وجوب بيان أصله المرجوع إليه ووجوب مقارنة نسخه بعضها ببعض »

والجواب أن مذهبي فى النشر ألا أخالف النسخة التى اتخذتها أصلاً إلا حين يتضح غلطها ، وإن كان هذا الغلط فى مواضع قليلة أثبته فى مواضع . أثبته فى الحاشية ليعرف القارئ ما وقع فى أصل الكتاب ؛ ولكن نسخة كليلة ودمنة التى أنشرها مملوءة بأغلاط واضحة كثيرة لا ينال الناشر والقارئ من إثباتها إلا العنت

وأما مقارنة النسخ المختلفة فقد بينت فى المقدمة أن النسخ المطبوعة ، إلا نسخة شيخو ، ملفقة مغيرة تصرف فيها الناشرون كما شاءوا على غير خطة معروفة . ثم بين هذه النسخ كلها بعضها وبعض ، وبينها وبين نسختنا ونسخة شيخو ، ثم بين هاتين النسختين من الاختلاف ما لا يمكن إثباته فى الحواشى بل يختلف السياق أحياناً حتى يحسب القارئ أن أمامه كتباً مختلفة

ثم يرى الأستاذ أن « لغة ابن المقفع فى كليلة ودمنة لغة عالية تعلو على المتأدب والأديب أيضاً فهى محتاجة إلى توضيح وتقييد وبيان ... الخ »

وليس هذا رأياً فى هذه الطبعة التى أريد بها أن تكون فى الأغلب هدية للعلماء والأدباء لا أن تكون كتاباً مدرسياً يؤدب به الناشئون . نعم ربما يستعان بهذا الكتاب على درس أساليب ابن المقفع وأساليب النثر فى عصره ، ولكن هذا بحث آخر لا يتعلق بمقصدنا من نشر الكتاب

ثم أخذ الأستاذ ألفاظاً رأى أنها خالفت الصواب . وقد بينت رأيى فيها على الترتيب الذى ساقه فى مقاله :

١ — ص ٣٦ س ٦ : كالمظم المتمرِّق ، والصواب المتمرَّق بفتح الراء كما قال الأستاذ ، وهى زلة مطبعية فاتت عناية المصحح واجتهاده

٢ — ٨١ : ٥و٦ : « ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت ، وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة ... الخ » . قال الأستاذ : الوجه يُفتدَى .

وعلل هذا بقوله : فأهل البيت لا يفعلون الافتداء ، وإنما يفعل بهم ذلك غيرهم ... الخ

ولست أرى هذا الرأى ، فأهل البيت يفتدون أنفسهم ؛ وفى القرآن الكريم : « ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به » . ومثلها آيات أخرى ، فلا وجه للعدول عن المعلوم إلى المجهول . ويؤكد هذا أن اللزوم فى افتدى هو الأصل ؛ وقد عرضت لها التعدية ، ولم ترد فى القرآن إلا لازمة . فالعدول إلى البناء للمجهول عدول عن الأصل لغير سبب

٣ — ٨٧ : ٦ : يقول دمنة للثور : « إن أنت رأيت الأسد حين تدخل إليه ينتصب مقعياً ويرفع صدره ... الخ . فاعلم أنه يريد قتلك ، فاحذره ولا تغتر إليه » . يقول الأستاذ : لا يقال اغتر إليه ، بل اغترَّ به ، ويرى أن الصواب لا تقترب إليه

خانته من منتوحتب يده التي   خارت فطارت إثره الأحلام
واستأثر الخيتاس بالسيف الذي
كانت تقدس مجده الأعوام
لكننا والحزن يفري روحنا   من أجله وتهدنا الآلام
متمردون على الزمان جبابر   ترتاع من أهوالنا الأيام

(القاهرة)   عبد الرحمن الخميسى

وقد بينتُ في المقدمة أن كثيراً مما وقع في الكتاب من تحريف سببه تغيير العبارات غير الشائعة إلى العبارات الشائعة . وأرى أن كل فعل يعدّى بإلى إذا أريد الانتهاء إلى ما بعده ، أو الركون إليه . فلذلك يقال : استمع إليه ، وجلس إليه ، وسكن إليه . وفي القرآن : « إلى ربك يومئذ المستقر » ... فما رأى الأستاذ في أن يقال استقرّ إليه ؟ ... فالتعدية : بإلى وعلى ونحوهما جائزة إن كان في الفعل ما يدل على الانتهاء أو العلو صراحة أوضمنا . وإنما الكلام في تعدية الفعل إلى المفعول به ، أيتعدى فيها الفعل بنفسه أو بالباء ... الخ . ومعنى اغتر إليه هنا سكن إليه أو ركن أو نحو ذلك مما يتضمنه معنى الانتهاء أو الركون

٤ — ٩١ : ١٢ (وندفن بقيتها مكاناً حريزاً) . قال الأستاذ وهذه عبارة غير صحيحة والصواب في مكان حريز . ونقل عن همع الهوامع وشرح الكافية كلاماً في اسم المكان ، وانتهى إلى قوله : « وليس الدفن من الاستقرار في شيء فلا ينصب لفظ المكان على الظرفية المكانية » وهذه الجملة تبطل الاحتجاج الطويل الذي نقل له ما نقل عن كتب النحو . ففي الدفن إقرار واستقرار ولاريب ، وأنا أعرف أن في النسخ الأخرى : «وندفن الباقي في أصل هذه الشجرة فهو مكان حريز ، أو ندفن بقيتها في مكان حريز » ولكني لا أغير نص الكتاب ولو كان غيره أرجح منه حتى يكون غلطاً واضحاً لا شبهة فيه ، فكيف وليس فيه غلط ولا شبهة الغلط ؟

٥ — ٩٥ : ١٣ « وبلاء يضيّع عند من لا شكر له » قال الأستاذ وبين اللغويين خلاف في أن يكون البلاء بمعنى الإنعام ونقل في هذا كلاماً عن نهاية ابن الأثير ولسان العرب

وليس لازماً أن يكون البلاء هنا بمعنى الإنعام ، بل الأرجح أن يكون بمعنى الاختبار ، والبلاء اختبار بالخير والشر . فكل معروف تصطنعه عند إنسان هو بلاء عنده .

٦ — ٢٢١ — ٥ (ولكن إيش الفائدة) قال الأستاذ : (وهذا ضبط عامي والصواب أيش) . وقد بينت في المقدمة رأيي في هذا الباب ولغته وقلت : « بل أرى فيه من الركاكة ومقاربة العامية الخ المقدمة ص ٥٠ » ولم أتبعه إلا اتباعاً لنسخة الأصل واستيفاء للبحث .

وبعد . فالأستاذ مشكور على نقده ، ولعل فيما أجبت به ما يزيل شبهته .

عبد الوهاب عزام

في مدن الحضارات

أشكر للأستاذ الفاضل كوركيس عواد العراقي ما أبداه من الغبطة بما أكتب في الرسالة الغراء (عن مدن الحضارات) ، وأنا سعيد لأنه يتابع ما أنشره متابعة الباحث المتمكن ، والقارئ المتفطن ، ولا عجب إذا الفته مدينة السلام أو دار السلام بما كتبته عنها فقد عرفت مما ينشره في الرسالة أن بغداد دار إقامته

وللأستاذ الشكر على ما كتبه خاصاً ببركة المتوكل مصححاً به ما توهمت من أنها كانت في بغداد . ولعل الأستاذ وهو جد قريب من سامراء يحدثنا حديث المؤرخ الثبت عن « المختار » و « البديع » أجل قصورها وعن ساجهما الذي حمل إلى « الجعفري » وعن « المتوكلية » التي بناها قرب سامراء وبنى فيها قصر « اللؤلؤة »

أما نسبة « جبيل نخلة الدور » إلى العراق فهي شائعة عندنا في مصر ولعلها نسبة جاءت إليه من سبيل كتابته على حاضرة العراق

والحق أنني لم أقرأ ترجمة لهذا الباحث العظيم ، وكل ما قرأت له أوعنه كتابه « حضارة الإسلام » وتقريظ كتبه المرحوم الدكتور يعقوب صروف في مقتطف شهر مايو سنة ١٨٨٨م . المجلد الثاني عشر صفحة ٥١٥ وفيه عن جبيل نخلة الدور أنه (قد ربي منذ نعومة الأظفار على سلامة الذوق ، ورضع آداب العرب والعجم مع اللبن ، وأوتي قريحة وقادة لا تخبو نارها بسلاسة عبارته ، وبصيرة نقادة لا يخفى شرارها بطلاوة نوادره وحسن فكاهته ، وجداً يستسهل المتاعب ، وثباتاً يغلب المصاعب)

ولا نجد في الطبعات المختلفة التي طبعتها وزارة المعارف المصرية من هذا الكتاب القيم ترجمة مختصرة أو مطولة لكاتبه

ونحن منتظرون تعريفاً بمؤرخ بغداد اللبناني من الباحث العراقي الأستاذ كوركيس عواد وله الفضل والشكر

أما ورود كلمة « الحرامات » في مقالي مكان « الحراقات » فذلك خطأ لم أكن — شهد الله — من جناته ، فكيف أصلي بحرّه ؟ والطابعون دائماً يريدون مالا يريد الكاتبون ؛ وكثيراً ما يحرفون الكلم عن مواضعه ، وإذا كان صاحب المقال معذوراً في خطأ أُقحم عليه فما عذر القارئ اللبيب ؟

(المنصورة) محمد عبد الغني حسن

إلى وزارة المعارف

أعلنت وزارة المعارف عن مسابقة القصة فى غضون شهر مايو من هذا العام وحددت يوم ١٥ أكتوبر آخر موعد لقبول قصص المتبارين — ولعل وزارة المعارف راعت فى هذه المواعيد ظروف عملها وطلبتها دون أن تلتفت إلى عوامل أخرى أكثر أهمية .

ونلاحظ (١) أن المدة كلها واقعة فى الصيف ، والصيف فصل الركود والراحة والاستجمام ، والنشاط فيه محدود ، خصوصاً النشاط الذهنى ، والقصة — بحكم طولها — عمل فنى دقيق لا يخلو من مزالق ، ووحدة الموضوع والحبكة الفنية عاملان جوهريان فى كل قصة . لذلك نرى أن الصيف غير ملائم للانتاج القصصى

(٢) المدة قصيرة جداً لا تكفى لإنتاج عمل فنى بارز — وكثير من مشاهير الكتاب العالميين ينتجون قصة كل عامين فكيف تتسع خمسة أو ستة أشهر لكتابة قصة ؟ !

(٣) العالم يعيش الآن على كف عفريت . والظروف التى نعيش فى حلقتها تشغل البال وترهق الأعصاب وتستهلك كثيراً من النشاط الذهنى ؛ فالانتاج الأدبى يستلزم وقتاً أطول مما كان يستلزمه وقت الدعة والسلام . والذى نعرفه أن هذه العوامل صرفت الكثيرين من الأدباء عن التفكير فى مباراة وزارة المعارف . لهذا نعتقد أننا نعبر عن رغبات الكثيرين حين نتقدم إلى معالى هيكل باشا راجين أن يتفضل ويمد أجل المباراة حتى نهاية يناير على الأقل ليتاح للأدباء إنتاج قصص ناجحة تحقق أمل الوزارة .

م . ع . مرسى

إلى الأستاذ محمود الخفيف

حرمت قراءك ومحبي الرسالة من مقالاتك القيمة ، وأسلوبك الممتع . فما الذى حجبك عنا ؟ أنفدت الشخصيات التى تكتب عنها ، أم نسيت منظارك فى القاهرة وأخلدت إلى الريف الحبيب إلى نفسك ؟

أرجو أن تعود سيرتك الأولى ؛ وإنى أنتهز هذه الفرصة فأستوضحك عن الشخصيات التى تكتب عنها هل هى موجودة حقاً ، أم هى عيوب المجتمع ألبستها هذا اللباس فكانت كما رأينا ؟

(أسيوط) زكى عبد الله

الجواب

أشكر لك يا أخى تحيتك ومودتك . أما جوابى عما جاء فى كتابك عن تلك الشخصيات فهو أن عملى فيها هو كعمل القصصى الذى يخلق أشخاص قصته ؛ فهى إذاً أشخاص من خلق الخيال ؛ وأحسب أن ذلك هو سبب ما قد يكون لها من قيمة . وما كتبت من شخص بذاته ، وإلا لما استطعت أن أكتب على هذا النحو الذى أرى قوامه الابتكار والخيال .

الخفيف

١ — الألقاب لا ترتجل

اطلعت على ما دار بين الأستاذين محمد عبد الغنى حسن وجمال الدين الشيال حول تلقيب الأمير نجم الدين بن أيوب بالملك الصالح ـ فرأيت أن أنقل كلمة فيمن لقب ـ بالصالح ـ من كتاب (نزهة الألباب فى الألقاب للحافظ ابن حجر العسقلانى — من مخطوطات دار الكتب المصرية) :

الصالح : أول من لقب به من الملوك : طلائع بن رُزِّيك وزير الفاطميين . ثم الصالح إسماعيل بن نور الدين الشهيد . ثم الصالح أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب . ثم لقب به جماعة من الملوك .

٢ — لفتة

جاء فى مقال الأستاذ عبد السلام هارون فى نقد (كليلة ودمنة) بيت المتنخل الهزلى هكذا :

ويله رجلاً تأتى به غبناً إذا تجرد لا خال ولا بخل

والصواب : تأبى به غبناً ، على ما فى (شرح أدب الكاتب للجواليقى) ص ٢٦٠ حيث قال فى شرح البيت : يقول تأبى به أن تظلم إذا كان معك . . . وسبب غلط الأستاذ هارون هو اعتماده على (الاقتضاب للبطليوسى) و (أدب الكاتب) حيث ورد فيهما البيت كذلك مصحفاً .

٣ — العود أحمد

قررت وزارة المعارف فى تركيا إعادة طبع (كشف الظنون) عن نسخة المؤلف مع مِنْهُوات[١] له لم تكن فى الطبعات السابقة ، وإكمال خرم كان فيها ، والإشارة والتنبيه على أغلاط الطبعة الأوربية ، وضم ذيول نادرة إليه للعلماء الأجلة : رئيس الأطباء الشيخ بهجت ، والشيخ محمد أسعد صاحب المكتبة العامة المشهورة فى الآستانة ، والشيخ عارف حكمت شيخ الإسلام صاحب المكتبة العظيمة فى المدينة المنورة ، واسماعيل باشا البغدادى المعروف ، والعلامة اسماعيل صائب مدير مكتبة بايزيد العامة ، رحمهم الله . وقد صدر الجزء الأول منه مطبوعاً بحروف عربية

(١) هى حواش يكتبها المؤلف ويقول فى آخرها : (منه)، أى من المؤلف



الليلة الثانية بعد الألف

سهرة المليونير

قصة عصرية على طراز ألف ليلة وليلة

للأستاذ محمد علي غريب

فلما كانت الليلة الثانية بعد الألف قالت شهر زاد : سأقص عليك أيها الملك السعيد قصة سهرة المليونير ، قال الملك شهريار :

— ومن هو المليونير يا شهر زاد ! أهو ملك قبيلة في الجان ، أم تاجر لؤلؤ في جزائر واق الواق ؟ !

وتبسمت شهر زاد فكشفت عن أسنان كأنها الدر المنظوم ، ثم قالت : لا هذا ولا ذاك أيها الملك السعيد ، فالمليونير هو صاحب مليون من الدنانير فأكثر

— مليون من الدنانير ! ما هذه الأحاجي أيتها الجارية ! وكم هو عدد المليون ؟

— يعني ألف ألف دينار يا مولاي . كل من ملك ألف ألف عد مليونيراً . ولنبدأ القصة من أولها . فقد زعموا أنه كان في مصر شاب اسمه الشاطر « ممدوح » توفي والداه في حادث قطار بخاري و . . .

— قطار بخاري ؟ ما هذا الكلام المبهم !

— القطار البخاري يا مولاي مركبات تقودها آلة ، وهذه الآلة تتحرك بقوة البخار وتأكل الفحم ، ويسمع لها دوي هائل وهي تسير ؛ فإذا تعرض لها أحد سحقته سحقاً . وقد وقع لأبوي الشاطر « ممدوح » ذلك فأكلهما القطار البخاري كأنهما قطعتان من الفحم

— وهل القطار البخاري يا شهر زاد منسوب إلى بخارَى ، وهل تجره خيول أم بغال ؟

— كلا يا مولاي إنه منسوب إلى البخار : بخار الماء حين يغلي ، ولا تجره خيول ولا بغال ، ولكنه يسير على قضب من حديد . ولنعد إلى الشاطر « ممدوح » فقد أصبح وحيداً في هذه الدنيا حتى عثرت به سائحة أمريكية

ممتازة في نحو خمسمائة صفحة في كل صفحة عمودان ، وأسماء الكتب في أوائل السطور ويحققه جماعة من الاختصاصيين .

أحمد صفوان

القاموس السياسي

في الوقت الذي زخرت فيه الصحف بالمباحث السياسية ، واتصلت فيه الحوادث اتصالاً سريعاً بما قبلها من نقط التاريخ الفاصلة ، ومعاهدات الأمم ومواثيقها ، وأسماء الكبار من الساسة ، وحركات المذاهب المتوازية والمتعارضة ، أصدر باحث مصري مدقق « قاموساً سياسياً » يكون في هذا الظرف ، وفي كل الظروف بالطبع ، رائد المهتمين بهذه الشئون والمباحث ، ومعيناً لهم على اختصار الوقت ، وضبط المعلومات ، وإدراك الغاية مما يتلمسون البحث عنه في غيابة المراجع العربية أو في تيه المصادر الأجنبية

فالقاموس السياسي قد أخذ محله كما أراد له الأستاذ أحمد عطية الله في صدر المكتبة العربية ، أو في « جيب » صدارها كما يقول أصدقاؤه ، وأصبح بداية طيبة في تاريخ هذه المكتبة لنظم الكثير الصالح من أمثال هذا المعجم في كثير من الأغراض والأبواب

ولسنا نغمط الأستاذ عطية الله حقه إذا قلنا إن هذا القاموس الذي أصدره وإن يكن قد صار اليوم مرجعاً سريعاً للباحث أو القارئ ، إذا ما اعترض أحدهما شأن من الشئون العامة ، فإن افتقاره إلى زيادة العناية بالشئون العربية ، وإلقاء الضوء على الكثير من تلك الروابط القوية التي تجمعها وتحركها يجعل من حق الذين قدروا جهده في هذا السبيل أن يلفتوا نظره إلى تلافي هذا النقص عند إعادة الطبع إن شاء الله

ويبدو أن شبهة عدم الانسجام في (الشئون العربية) في القاموس ظاهرة أيضاً في بعض ما تناوله من المسائل الدولية والأوربية . على أنه ليس من شك مطلقاً في أن مثل هذه الشوائب في كتاب يصدر في مثل هذا الظرف ، لتغني به المكتبة العربية في مثل هذا الباب — كانت متوقعة لأي كاتب ، وذلك لحداثة التأليف في هذا الموضوع وقلة المراجع ، وصعوبة الحصول عليها . فهذا العمل الذي قام به الأستاذ عطية الله سينال مشكوراً على كل حال (أ . ص)

— تقولين أمريكية ! من أى بلاد هى يا شهر زاد ؟

— أمريكا يا مولاى بلاد بعيدة يسكنها الكفار ، وظلت مجهولة حتى عثر عليها رجل اسمه (خريستوف كولمبس) ، وهو كافر أيضاً . وقيل إن العرب كشفوا عنها قبله بدليل وجود مسلمين توطنوا هذه البلاد فى جزر (الفلبين)

وقد ربته هذه السائحة أحسن تربية ، ثم سافرت فأخذته معها إلى أمريكا ، وهناك أيفع واستوى ، فلما ماتت الأمريكية أوصت له بجميع أموالها إذا لم يكن لها أهل يرثونها

— وتوفر الشاطر ممدوح على تنمية ثروته ، فساهم فى صناعة (الأتومبيلات) ، وكان هو الذى أعان مخترع (الفنوغراف) على إتمام اختراعه ، وأنشأ محطة للراديو و ...

— حسبك أيتها الجارية ! ما هذه الرطانة التى تذهب العقل ؟

— الأوتومبيل يا مولاى سيارة تجرى بقوة النفط المكرر

— وحدها ! ؟

— وحدها ... كالقطار البخارى تماماً ، ولكنها لا تسير على قضب من حديد . والفنوغراف صندوق يوضع فيه قرص من الشمع الأسود المنقوش ، وهناك إبرة ممغنطة تدور حول القرص فتسمع الصوت الذى سجل ، فإما غناء وإما موسيقى وإما حديثاً يروى . والراديو آلة تلتقط الأصوات من مكان بعيد ، فلو كان هنا راديو لأمكنك أن تسمع الهمس الذى يدور فى القصر المسحور ، وراء السبعة بحور

— إن كان هذا من صنع الجن فلا غرابة

— كلا يا مولاى ! لم تعد للجن هـذه القدرة على الخلق والإبداع ، وملك الجان نفسه أصبح عاجزاً عن أن يكون شيئاً إلى جانب أى عالم من أولئك العلماء المخترعين

— تقولين العلماء ؟ أهؤلاء المخترعون رجال فقه ولغة ودين ؟

— حاشاك الخطأ يا مولاى . فالعلم فى هذا العصر الذى أحدثك عنه لم يعد وقفاً على ذوى اللحى والعمائم ، ولكنه أصبح عنواناً على غيرهم ... حتى أولئك الكفار ! ولنعد إلى الشاطر ممدوح فبعد أن اغتنى وأضحى ذا ثروة طائلة ، تذكر وهو فى بلاد الغربة أن له أختاً تكفل بها أحد أقاربه ولم يكن يعرف عنها شيئاً ؛ فلما طفت عليه موجة الذكريات أنشأ يترنم بهذه الأبيات :

أذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رب ذكرى قربت من نزحا

واذكروا صباً إذا غنى بكم ... شرب الدمع وعاف القدحا

ثم فاضت دموعه حتى أصبحت كالأنهار ... وأخيراً قرر أن يسافر إلى مصر فأعد عدته وركب الباخرة

قال الملك :

— وما هى الباخرة يا شهر زاد ؟ أهى القطار البخارى ؟

— قالت شهر زاد :

— أجل يا مولاى ... قطار بخارى يسير فى الماء ويتسع لمئات من الراكبين دون قلوع ولا مجاذيف . وقد اختار الشاطر ممدوح جناحاً له فى الباخرة على أفخم ما يكون من الروعة والجمال ؛ فلما وصل إلى مصر ذهب إلى فندق « الكونتننتال »

— قوليها مرة أخرى ! يخيل إلى أنها رطانة يا شهر زاد !

— الكونتننتال يا مولاى ! اسم خان ولكنه فخم كأنه بيت وزير من الوزراء ، وينزل فيه الملوك والأمراء والعظماء ، وتملكه شركة من الأجانب يعرفون كيف يستغلون خيرات مصر دون أهلها الفقراء . وقد نزل الشاطر ممدوح فى هذا الفندق وتقاطر عليه مندوبو الصحف من كل مكان

قال الملك :

— مندوبو الصحف ! وما هى الصحف يا شهر زاد ؟!

قالت شهر زاد :

— هى جرائد يا مولاى تطبع كل يوم حاملة الأنباء والمعلومات والطرائف ؛ أما كيف تطبع فقد اخترعوا آلة لطباعة الكلمات

— عجباً يا شهر زاد ! كأننى أستمع إلى أقصوصة عن الجان !

— حاشاك يا مولاى ! فالإنسانية فى هذه الأيام التى أحدثك عنها تقدمت ، والعقل البشرى نضج فأصبح مخترعاً ، ولكنه لم ينج من الجمع بين الخير والشر فى اختراعه

— وكيف كان ذلك

— لقد اخترعوا كل ما يضمن أسباب الراحة والمتاعة للانسان ، ولكنهم اخترعوا كذلك المدمرات المهلكات ... فإن قنبلة فى حجم الكف قادرة على أن تدمر بناء من عشرين دوراً . وهناك غازات سامة ما يكاد الإنسان يستنشقها حتى يموت ، وقذائف من كل صنف تحملها الطائرات فى الجو والسابحات فى البحر

— وى ! كأنى أسمع عما يحدث فى يوم القيامة ...

— هذا هو الواقع يا مولاى . فالدنية التى استحدثتها الفرنجة تحمل عناصر هدمها ... ولنعد إلى الشاطر ممدوح فإنه لم يكد يستقر به المقام حتى بث العيون والأرصاد تفتش له عن أخته التى تركها صغيرة

وبعد أيام عاد إليه عين من عيونه التى أطلقها يقول ...

وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

* * *

فلما كانت الليلة الثالثة بعد الألف قالت شهرزاد : بلغنى أيها الملك السعيد أن عيناً من عيون الشاطر ممدوح عاد إليه يقول : إنه عرف مكان أخته « نفيسة » ، ولكنه يعتذر عن التفوه بكلمة مما بلغه عنها

وعندئذ غضب الشاطر ممدوح واشتد غيظه ، فأمسك بالجاسوس من رقبته يريد أن يخنقه قائلاً :

— إن لم تقل لى — أيها الكلب — ما هنالك قذفت بك من النافذة ... !

وخاف الجاسوس على حياته عندما رأى روح الشرق الليبونير فوعده بأن يقول . ثم راح يتحدث قائلاً : إنه لم يصر على الصمت إلا رغبة منه فى عدم إزعاج الشاطر ممدوح ، فإن أخته بعد وفاة والديها ، تولى تربيتها أحد أقربائها ، وقد ظلت فى كفالته خمس سنوات ذاقت فيها الويل والعذاب من زوج قريبها التى كانت تضربها لأتفه الأسباب ... وأخيراً ، هربت من ذلك الجحيم ، سارت على وجهها حتى لقيها ذئب بشرى ... فاختطفها وراح يعلمها السرقة ، وهى صغيرة لا تكاد تميز ... ثم كبرت ونضجت أنوثتها ... فتزوجت أفاقاً راحا معاً يغامران فى الحياة ويتظاهران بالوجاهة والأناقة ...

وبعد أن سمع الشاطر ممدوح هذه المعلومات استغرق فى سبات عميق ... ثم انهمرت دموعه على خديه ، وأصبح كالمجنون لا يستقر على حال . وأخيراً فكر فى طريقة ، فدعا إلى مأدبة ساهرة ، وما حل موعدها حتى كانت الموائد قد نسقت ، وأقداح الشراب قد اعتدت ... شراب : الكونياك والويسكى والشمبانيا والبيرة وما هنالك من أصناف ...

قال الملك :

— ما هذه الأسماء يا شهر زاد ؟

— أسماء لأشربة يا مولاى اخترعها الفرنجة للخمر وكلها مسكر والعياذ بالله . ثم زين مكان الحفلة بالثريات الكهربائية ، والأوراق الملونة ، ووقف الخدم فى ثيابهم الزاهية ... ولما حان الموعد حتى توافد المدعوون من كل جانب فى ثياب السهرة ... وكانت السيدات مزدانات بالحلى ، وقد كشفت كل واحدة عن مفاتنها ، فبدا جسدها العارى وصدرها المكتنز ...

قال الملك :

— أمام الناس !

— أجل يا مولاى أمام الناس ، فما من ضير فى هذا بعد أن شاع السفور وتواضع الناس على اختلاط الجنسين ، وحتى المصريات كن بهذه الأزياء . ثم دار الرقص فتخاصر الجنسان كل رجل مع سيدة يرقصان « الرومبا » و « الفوكس تروت »

قال الملك :

— عجب ! ... وهل يرقص الرجال !

فأجابت شهزاد :

— نعم ! ... إنهم يرقصون طوعاً للمدنية الحديثة التى ترى فى الرقص نوعاً من أنواع الرياضة

وعندئذ أشار الجاسوس للشاطر ممدوح على سيدة ومعها رجل يرقصان . وقال له :

— هذه أختك ... والذى معها هو زوجها وهو أكبر محتال فى الوجود

واقترب ممدوح من أخته ، وفجأة أطفئت الأنوار ، وبعد قليل أضيئت ، وتفقد سيدات كثيرات حليهن فلم يجدنها ، وكان ممدوح قد رأى أخته وهى تخفى فى حقيبة يدها حلياً ، فحار فى أمره . لا بد أن تفتش ، ولابد أن تظهر أنها السارقة ، فهل ينقذها . ويعمل على خلاصها لأنها أخته ، أم يتركها تفضح دون أن يكشف لها عن حقيقة نفسه !

تنازعته عواطف مختلفة وتآمرت عليه الانفعالات الشديدة هل ينقذها ؟ هل يتركها ؟ هذان هما السؤالان البارزان فى رأسه ؟ وأخيراً راح يعمل على تنفيذ أحد الاقتراحين اللذين عرضا فى ذهنه

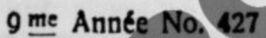
وأدرك شهر زاد الصباح فسكت عن الكلام المباح .

محمد على غريب

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 427 — Lundi - 8 - 9 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٢٧ « القاهرة في يوم الاثنين ١٦ شعبان سنة ١٣٦٠ — الموافق ٨ سبتمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

السيـــف والكتب

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاء في نبأ برقي من نيويورك أن الجماعة البريطانية المؤلفة للترفيه عن الجنود أعلنت أن ستين ألف كتاب ومجلة تجتاز الآن طريقها إلى الجيش الإمبراطوري في الشرق الأوسط؛ وهي أول ثمرة من ثمرات الدعوة التي بدئت في الولايات المتحدة قبل ذلك بأسبوع واحد لجمع مائتين وخمسين ألفاً من الكتب والمجلات لرجال الجنرال «أوفنلك» بمصر وجاراتها

وهذا في الولايات المتحدة

وهناك جماعات أخرى مبثوثة في أنحاء العالم — وبعضها في القاهرة والإسكندرية — تجمع الكتب بالألوف ومئات الألوف للترفيه عن المقاتلين أو المتحفزين للقتال

وهذه كتب ترسل إلى الجنود بغير ثمن، ولكن الجنود أنفسهم يشترون الكتب والمجلات حيث وجدوها بأثمان مضاعفة تربي على أثمانها المكتوبة عليها، ولا يكتفون بما يصل إليهم من طريق التبرع والمساعدة

ومن راقب المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية في العواصم المصرية عرف أن حركة البيع فيها مقرونة بحركة الجنود في نواحيها، فلا يكثر الجنود في عاصمة إلا كثر فيها بيع الكتب والمطبوعات على اختلاف موضوعاتها

وليست هذه الكتب والمطبوعات جميعها قصصاً أو من قبيل القصص كما يتبادر إلى الخاطر لأول وهلة ؛ فإن الموضوعات القصصية تغلب عليها ، إلا أنها تقترن بموضوعات شتى لها نصيب من إقبال الجنود غير مبخوس ، ومن هذه الموضوعات الرحلات والملاحظات الحربية ، والكلام على مستقبل العالم الاجتماعى والسياسى بعد الحرب الحاضرة ، ومنها الدراسات الأدبية والفلسفية للقدماء والمحدثين من المؤلفين !

واتفق كثيراً أن المكتبات التى تعرف ما عندى من الكتب التى انقطع ورودها كانت تسألنى عما أستغنى عنه منها ، لأنها تطلب من تلك المكتبات ولا تستطيع جلبها من الخارج فى أيام معدودات ، وكنت أسأل أصحاب المكتبات أحياناً عمن يطلبونها فيدهشنى أن أسمع أنهم فى بعض الأحايين من طبقة الجنود الصغار وهم مع ذلك حريصون على استطلاع أحوال البلاد وتواريخها ، أو أحوال العالم وقضاياه ومشكلاته ، كأنهم سيدبرون أمر تلك القضايا والمشكلات ، أو سيصنفون فيها الكتب والمقالات .

ولا شىء من هذا وذاك يشغلهم فى الحقيقة وإنما هو العقل المتفتح لما حوله لا يستطيع أن يحتجب عنه أو يحجبه عن الوصول إليه ، ولو كان فى ميدان قتال !

نعم ولو كان فى ميدان قتال !

وينبغى أن نذكر هذا الاستدراك وأن نعيد ذكره ولا ننساه ، فإن الجندى فى ميدان القتال إما مشغول بحركة العمل الحربى ، أو بحركة الرياضة والمرانة والاستعداد ، أو هو إن فرغ من هذه وتلك منصرف إلى اللهو والتزود من متعة الحياة ؛ فليس فى وقته متسع للقراءة كائناً ما كان موضوعها من السهولة والتشويق ، وأحرى ألا يبلغ من اتساع وقته لها أن يحتاج الجيش كله إلى كتب ومجلات تعد بمئات الألوف

ولكن الحاصل هو هذا

الحاصل أن الجنود المقاتلين أو المتأهبين للقتال يقرأون ويدرسون ، ويشترون الكتب ولا يقنعون بمئات الألوف التى يتبرع لهم بها المتبرعون

وينبغى أن نعيد هنا توكيد ميدان القتال والقراءة على أهبة من دخول الميدان

فإن طوائف من الشبان المصريين — والشرقيين عامة — كنت إذا اتهم فى الإعراض عن القراءة والمعرفة قالوا لك إن العصر عصر رياضة ولعب وركوب ومسابقات ، وليس بعصر قعود ودراسة وقبوع فى المكتبات ! فهم يعتذرون من خمود الذهن بما ينتحلونه من نشاط الجسد ... وليس من النشاط أن يصاب الذهن الإنسانى بالخمود ولو صحبته ألوف من الأذرع والسيقان لا ينقطع لها حراك

فهذه الطوائف من الشبان خليقة أن تعلم أية رياضة هى رياضة الجندى على أهبة القتال . فهو فى رياضة لا انتهاء لها فى صباح ولا مساء ، بل فى رياضة تبلغ من العنف أن تستنفد جهود الأعضاء والأفهام

ومع هذا هم يطلعون ويستطلعون ، وتظفر منهم الطالعة والاستطلاع بحصة من الوقت لا تظفران بعشر معشارها من أوقات شبابنا فى إبان البطالة والسلام

قال لى أديب يحب أن يتحذلق بالغريب من الآراء : أترى أن القراءة شاغل من شواغل الطبيعة ؟ أليست هذه الكتب وهذه الأوراق بدعة من بدع الصناعة التى لا أساس لها فى تكوين البنية ، ولا حرج إذن على الشاب « المطبوع » أن يصدف عنها بفطرته وينصرف إلى ما تصرفه إليه طبيعة التكوين ؟

وأديبنا هذا يحسب الكتب أوراقاً وحروفاً من صنع الحداد وابتداع المخترع الحديث ؟

ولهذا هى عنده متاع « مصنوع » وليست بالمتاع المطبوع الذى له فى البنية أساس كأساس الجوع والظمأ وسائر الشهوات أما معانى الكتب وما تبعثه من شعور فلا تدخل له فى حساب . ومعانى الكتب مع هذا شىء حيوى عضوى يمتزج بالتكوين الإنسانى كما يمتزج به الغذاء واللهو والرياضة ، لأنها من وظائف الوعى الذى هو خلاصة الشعور والإدراك . وهل للحياة الإنسانية بغير « الوعى » وجود ؟ وهل لوجودها بغيره قيمة ؟ وهل تختلف قيمة الإنسان الذى ينحصر وعيه فى المطالب الحيوانية من قيمة الحيوان ؟

فالقراءة ليست هى الورق المصنوع من الخرق والعيدان ، وليست هى الحروف المسبوكة من المعدن ، وليست هى المطبعة التى تدار بالبخار والكهرباء ، وتدخل من أجل ذلك فى عداد البدع والمستحدثات

كلا ؛ بل القراءة هي اتساع الواعية بما يضاف إليها من التجارب والأحاسيس والمعارف والمعقولات ، وهي امتداد الحياة إلى آفاق لم يكن يبلغها الفرد في عمره القصير ، وهي بديل من السياحة ، ومن البحث عن المجهول ، ومن الإصغاء إلى النوادر والحكايات ، ومن تحصيل التجارب التي يتحدث بها المجربون ومن كل تشوف مطبوع في أساس التكوين ، لأنه امتداد لحواس النظر والسمع والإدراك على تعدد وسائله وأدواته .

وليس يصح قول القائلين إن الكتاب لذة مصنوعة لأنه يطبع بالبخار والكهرباء إلا إذا صح أن يقال إن الرغيف لذة مصنوعة لأن البخار والكهرباء مما يصنع عليه الخبز في العصر الحديث

فالوعي هو الحاسة الكبرى التي تطلب القراءة

والوعي هو الحياة في أصدق معانيها وفي أوسعها وأرفعها على السواء

وهنا مناط الامتياز والتفرقة بين أجناس بني آدم ، فأيهم كان أكثر وعياً فهو أكثر استطلاعاً بمختلف الأساليب ، والقراءة أعم هذه الأساليب

* * *

ويبدو لنا على نحو يشبه اليقين أن الفرق بين الآدميين في مسألة « الوعي » كالفرق بين سلالة وسلالة أو عنصر وعنصر من عناصر الأحياء . ونعني أنه فرق لا يفسره اختلاف البيئة واختلاف التعليم واختلاف المصادفات العارضة ، لأنه أعمق من ذلك وأعرق وأشد إيغالاً في الطبائع على مثال لا نراه إلا في اختلاف وظائف الأعضاء

ويجب أن يكون هذا الفرق قد تجمع في أجيال بعد أجيال ، وفي موروثات بعد موروثات ، حتى أصبح وشيكاً أن يفصل بين الآدمي والآدمي كما ينفصل الحيوان المتباينان . ومناط ذلك فيما نعتقد الأعصاب ثم الخلايا التي يتألف منها نسيج الأجسام ، لأن الأعصاب والخلايا هي أجزاء الجسم التي تتسع لتخزين الملكات والطبائع في العصور بعد العصور ، والسلالات وراء السلالات . فما أبعد الفارق بين إنسان تملأه المطالب التي تملأ الحيوان الأعجم حتى لا تبقى فيه بقية للمزيد، وبين إنسان يستوعب الأحاسيس والأفكار، ويستكنه المجهولات والأسرار، ولا يزال بعد ذلك كأنه في حاجة إلى أكوان وراء هذا الكون تملأ ما في نفسه من آفاق لا تمتلىء ولا تزال مشرئبة متشوفة إلى المزيد

هنا نفهم معنى الشوق إلى المعرفة ومنه الشوق إلى المطالعة ، فإنه على هذا التفسير وظيفة حيوية في أصل البنية وليس بالبدعة الحديثة التي ظهرت بظهور الورق والمداد أو بظهور المطبعة والكهرباء

وهنا نعرف لماذا تضيق حياة الفرد في بعض الأمم حتى يوسعها بالفرجة والاستطلاع والرياضة واستيعاب الأخبار ومشاهدة الآثار والأقطار ، ثم يكتفي الفرد في أمم أخرى بما يشغل الحيوان فلا يتعداه باختياره إلى أمد بعيد . وغاية ما نرجوه ألا يكون بين أمم الشرق وأمم الحضارة الحاضرة فارق كالذي نحسبه فيصلاً متغلغلاً في أصول التكوين . فكل ما عدا ذلك فهو قابل للاصلاح والعلاج

إذ الحقيقة أن القراءة لم تزل عندنا سخرة يساق إليها الأكثرون طلباً لوظيفة أو منفعة ، ولم تزل عند أمم الحضارة الحاضرة حركة نفسية كحركة العضو الذي لا يطيق الجمود . وربما تغيرت موضوعات الكتب وأثمانها وأساليب تداولها عندهم في الفترة بعد الفترة وفي العهد بعد العهد وفاقاً لتغير الأحوال . أما أن تنقطع الكتب أو ينقطع الاطلاع فذلك عندهم أقرب شيء إلى المستحيل . ولو شئنا لأحصينا هنا عشرات الموضوعات التي أثارتها الحرب ونشطت لها أقلام الكتاب في زمن يخاله بعضنا صارفاً عن كل كتابة وكل قراءة ، ولكننا في غنى بالمشاهدة عن الإحصاء .

عباس محمود العقاد

رسالة القلم البليغ

للدكتور زكى مبارك

فى ظهر يوم الجمعة الأسبق دعانى أحد الصحفيين تليفونياً إلى الإجابة عن أسئلة متصلة بمهمة الكاتب فى المجتمع ، وقد أجبت بصراحة لا تحتمل التأويل ، ودعوت ذلك الصحفى إلى مراعاة الأمانة فيما ينقل عنى ، فقد طال بلائى بتحريف آرائى ، ثم راعنى أن أرى كلماتى مثبتة بدون تغيير ولا تبديل ، كأن ذلك الصحفىّ كان يدوّن ما يسمع بالحرف . وإنما نصصت على هذه الأمانة فى النقل لأحكم على ما نُشر باسم الأستاذ عباس العقاد ؛ واسم الأستاذ أحمد أمين فى هذا الموضوع بالذات ، فليس من المعقول أن يحرص ذلك الصحفى على مراعاة الأمانة فيما ينقل عنى ثم يمضى فيتزيّد على هذين الباحثَين الكبيرين بلا موجب معقول

وعلى هذا يكون عندنا ثلاثة آراء صريحة فى تحديد « مهمة الكاتب فى المجتمع » ، فما هى تلك الآراء ؟

يرى الأستاذ عباس العقاد[1] أنه لا يمكن فصل المهمة الثقافية عن المهمة الاجتماعية ، لأن الثقافة تمهد لأن ينظر الناس للحياة نظرة عالية ، والنفوس التى تنظر للحياة نظرة عالية هى النفوس التى تستحق الحياة . ويرى أن يكون الأدب للأدب فلا يكتب الكاتب غير ما يوحى به الطبع ، وهو يُعنَى بالحقائق الخالدة . أما المشكلات التى تتعلق بالطبقات المختلفة ، فهى مشكلات وقتية يناط تدبيرها بالرجال الإداريين

ويرى زكى مبارك أن للكاتب غاية واحدة هى الصدق ، وليست القصة أو المقالة إلا من وسائل التعبير عن ذلك الصدق . ويرى أن الكاتب ليس أجيراً للوطن ولا للمجتمع ، وهو مطلق الحرية فى جميع الشؤون . ويرى أن التعبير عن آلام المجتمع وآماله لا يكون أدباً إلا إذا صدر عن الكاتب ، فإن اهتم بالمجتمع طاعةً للمجتمع فليس بكاتب . ويرى أن الصرخة الأدبية لا تكون وحياً إلا إن صدرت عنه بحرارة وإيمان ، فهو يحارب حين يشاء ، ويسالِم حين يريد ، ومن حقه أن يتحدث عن الشعر والحب ، لأن ذلك يصور إحساسه بالوجود ... ويختم زكى مبارك كلامه بأن الأدب أنواع : أدبٌ محلىّ يصوّر البيئة ، وأدبٌ وقتىّ يصور العصر ، وأدبٌ خالد لجميع الأزمان

أما الأستاذ أحمد أمين ، فيصرّح بأن الرأى الذى يقول بأن يكون الأدب للأدب هو رأىٌ سخيف ، وهو لهذا يشغل نفسه بالكلام عن الفقر والمرض والجهل

تلك هى الآراء الثلاثة ، كما نقلتْها عن أصحابها مجلة العزيمة فى العدد ٧٩

فما محصول هذه الآراء ؟ وكيف اختلف أو ائتلف هؤلاء الكاتبون ؟

يرى الأستاذ عباس العقاد أن يكون الأدب للأدب ، ويرى الأستاذ أحمد أمين أن القول بأن يكون الأدب للأدب هو رأىٌ سخيف . (ومن الواضح أن الأستاذ أحمد أمين لا يوجه الكلام إلى الأستاذ عباس العقاد ، لأنه أجاب إجابة موضوعية بدون أن يخطر فى باله أنه يعارض هذا الكاتب أو ذاك)

ويرى زكى مبارك أن غاية الأدب هى الصدق ، ولو سار الكاتب وحده فى جانب ، وسار المجتمع كله فى جانب ، فهو يحاسَب أمام ضميره لا أمام المجتمع ، وهو أعزّ من أن يكون صدًى لأى صوت ، لأنه يرى أن صوته هو صوت الوطن ، وأن الوطن حين ينطق بصوتٍ غير صوته لا يكون إلا حاكياً لأقوال محرومة من روح اليقين

أما بعد ، فهذه مشكلة من أصعب المشكلات ، والأستاذ عباس العقاد أن يوضح رأيه كما يشاء ، والأستاذ أحمد أمين أن يُصرّ على قوله كما يريد . أما أنا ، فأسارع إلى تحديد غايتى الأدبية بلا تسويف ، ليعرف قومٌ كيف أعادِى وأصادِق فى الحدود التى ترسمها « رسالة القلم البليغ »

وإنما يهمنى أن أسارع إلى تحديد غايتى الأدبية ، لأنى أحب أن يعرف قرائى وجه الرأى فيما أذهب إليه من الدعوة إلى حرية القلم بلا قيد ولا شرط ، إلا أن يدعو العقل إلى التلطف والترفق فلا نواجه الناس بما لم يألفوه فى بعض الميادين العقلية والروحية والذوقية والاجتماعية

(١) العبارات الآتية ملخصة من الأجوبة المنشورة فى مجلة « العزيمة » بالعدد ٧٩

وما يجوز لك – أيها الكاتب – أن تجادل قومك إلا حين تؤمن في سريرة نفسك بأنك رجلٌ له وجودٌ خاصٌ ، وبأن عندك معانيَ لا تجدها عند أحد من أهل زمانك ، وحينئذ تصارح مواطنيك بما يجيش في صدرك ، على أن تكون أنت أنت في كفرك وإيمانك ، وضلالك وهُداك ، فلا تقول ما يحب الناس أن يقال ، ولا تكتم ما يكره الناس أن يباح

وأعيذك أن تفهم أني أوصيك باللجاجة والعناد ، وأني أدعوك إلى مخالفة قومك في جميع ما يحبون وما يكرهون ... فما إلى هذا قصدت . ولا يسرني أن تكون أداة انزعاج وانشقاق ، وإنما أوصيك بالصدق في جميع الأحوال ، فإن اتفق رأيك مع رأي قومك فسرْ معهم باطمئنان ، لأن التوافق الإجماعي له دلالة معنوية لا يستهين بها العقلاء ، وهو يزيدك قوة إلى قوة ، ويُمدّك بالعصبية الفكرية ، وهي عصبية لا توجد أسبابها إلا في أندر الأحايين ، وتلاقِي المفكر الصادق مع قومه فرصةٌ من فرص التوفيق ... وبالله نستعيذ من الخذلان !

وإن رأيت أن الحق في جانبك أنت ، وأن قومك مخطئون ، فتذكّر أنك لهذا المقام خُلِقت ، وأن الجبن هو الآفة التي لا يَسلم من شرها غير الموهوبين ، وأن الشجاعة هي أعظم مناقب الأحرار من الكتّاب

وهنا دقيقة قد تخفى عليك وعلى مَن قلّ حظهم من التجاريب ، وهي الوهم الذي يقول بوجوب النضال في جميع ضروب الخلاف . فاحترس من هذا الوهم كل الاحتراس ، واعلم بأنه لا يجوز لك أن تجاهر بمخالفة قومك إلا في الشؤون التي يكون فيها سكوتك إثماً تحاسب عليه أمام الذي جعل سواد المداد أشدّ إشراقاً من بياض الصباح

إن قومك يختلفون في كل يوم — والاختلاف من أظهر الخصائص الإنسانية — فلا تناضلهم في كل خلاف ، والتزم الحياد في أكثر أوقاتك ، إلى أن تحين الفرصة التي توجب الجهر بكلمة الحق ، ولو تعرّضتَ لأفظع المكاره والخطوب

واعلم أنك سَتُبتلَى بأقوام يرون غير ما تراه في أكثر الشؤون ، وقد يدعونك إلى الترحيب بأن تكون أسير زمنك ، وأجير وطنك ، بحيث لا تنطق بغير ما يستسيغ زمانك وبلادك .

وهنا يكون الخوف عليك ، وقد تهوِي إلى أحط دركات الإسفاف ، فما ذل شاعر ولا كاتب ولا خطيب إلا بسبب الخضوع لما قد يريد أبناء الوطن وأبناء الزمان ، بلا تدبُّر ولا إدراك . وكيف تطيع أولئك في كل وقت وهم في بعض أحوالهم فقراء من الوجهة العقلية والروحية ، ولا يساير هواهم غير الضعفاء ؟

وما الغاية من وجودك إذا كنت صورة مكررة من وطنك وزمنك ؟

وبأي حق تحمل القلم إذا خضعت لما يملي عليك العوام وأشباه الخواص ؟

وهل قلت الآراء المنخوبة حتى يضاف إليها رأي من صنفها المنخوب ؟

وما قيمتك وأنت تغني صوتاً ليس من تأليفك ولا تلحينك ؟

وما قوتك وقد صرت حاكياً لأقوال لم تصدر عن وحي ضميرك ؟

وما انتفاع الأمة بك وأنت صوت يحكيه العهد القديم في أذن العهد الحديث ؟

يجب حتماً أن تكون لك ذاتية جديدة ، ذاتية متفردة يجهلها الزمن الماضي ، ويهابها الزمن الحاضر . يجب حتماً أن يستقل وجودك في كل يوم عن حاضرك وماضيك ، فتطلُع مع الشمس بنور جديد ، وتواجه الليل بتأملات لم يشاهد مثلها مع قوم سواك . يجب حتماً أن تنظر في آرائك كما تنظر في أثوابك ، فالآراء تَبلَى كما تَبلَى الأثواب ؛ والذي يعيش على رأي واحد قد يكون أجهل من الذي يعيش بثوب واحد . فاحذر من العيش وأنت بالي الآراء ، كما يحذر مَن يلقى الناس وهو بالي الثياب

وقد يعيّرك الغافلون بالتنقل من رأي إلى رأي ، مع أنهم لا يعيّرون مَن يلبس ثوباً بعد ثوب ، وإنما كان ذلك لأنهم يجهلون أن الآراء من صور الحيوية ، ولأنهم يتوهمون أن الثبات على الرأي الواحد من شواهد اليقين . ولو عقلوا لأدركوا أن العين التي تنظر بأسلوب واحد هي عينٌ بليدة لا تدرك الفروق بين دقائق المرئيات ، وكذلك يكون العقل البليد وهو الذي لا يدرك الفروق بين المعنويات والمعقولات ، ولها وجوه تعد بالألوف وألوف الألوف

فهل تعقل هذا الكلام ، وأنت تحاول الاضطلاع بحمل رسالة القلم البليغ ؟

وهنا أيضاً مجال للخوف عليك ، فقد يقع فى وهمك أن المفكر الحق هو الذى يسرع فى التنقل من رأى إلى رأى . هيهات ثم هيهات ! فالرجل لا يغيّر رأيه إلا بقدر ما يتحول الجبل من وضع إلى وضع . وما كان ذلك إلا لأن الأصل فى الرأى أن يكون عقيدة فكرية أو روحية ، والعقائد لا تغيّر بالسهولة التى تتغير بها الثياب . وإذن يجب أن لا تتحول من رأى إلى رأى إلا وقد تحولتَ من حياة إلى حياة ؛ وهذا قد يقع من لحظة إلى لحظة ، وقد لا يقع إلا بعد أعوام طوال وفقاً لاستعدادك فى تلقى وحى الوجود

والمهم أن تكون أنت أنت فى تحولك وقرارك ، فلا تكون أداة للتعبير عن أوهام زمانك وبلادك ، ولا تكون ظلاً لعظيم من العظماء ، أو حزب من الأحزاب ، إلا إن بدا لك أن تصير من طلاب المغانم ، وهو مصير لا يعاب ، وإن كان يزحزحك عن فردوس البيان ، فما قال قوم بأن الأدب للأدب ، أو الفن للفن L'art pour l'art إلا وهم يرجون أن تكون لنا دولة لا يتطاول إليها أصحاب المناصب والألقاب

فمن أنت أيها الكاتب وماذا تريد ؟

لن يصح انتسابك إلينا إلا يوم تؤمن بأن للقلم رسالة يطيب فى سبيلها الاستشهاد . ونحن قد رحبنا بجميع الآلام فى سبيل القلم البليغ . ولو رأيت كيف تقدّم تلاميذنا وتخلفنا فى الميادين الرسمية لعرفت أننا دفعنا ثمن الاعتزاز بدولة البيان

قد يتُوشك أقوام لا يعرفون كيف توحدتَ توحُّد الليث ؛ وقد يسخر منك أقوام يرون الزهد فى التودد إلى المقامات العالية ضرباً من الجود ؛ وقد يوافيك أجلك وليس فى جيبك ما يشيعك به أهلك إلى مثواك الأخير ، فما رأيك فيمن يدعوك إلى الاعتصام بالوحدانية الأدبية لتَلقى الله وأنت رجل لم يعرف الخضوع لصاحب العزة والجبروت إلا تأدباً مع ذاته العالية ؟

هل تعرف لأى سبب لا ينبغ من أرباب القلم غير آحاد ، ولو كانوا فى أمة تبلغ المئات من الملايين ؟

إنما كان ذلك لأن رسالة القلم تشبه الأمانة التى تهيبت حملها السموات والجبال

وهل تعرف لأىّ سبب فَتَر شوق المصريين والشرقيين إلى مسايرة الأقلام العربية ، على نحو ما كانوا قبل أعوام قصار أو طوال ؟

إنما كان ذلك لأن المفكرين صاروا أصحاب منافع ومطامع ، فهم يتوددون إلى طبقات المجتمع ليحكموها باسم الغيرة المصطنعة على آمالها الضوائع . ومن هنا قلّ فى هذا العصر من يخاطر بمواجهة تلك الطبقات بالرأى الحق ، لأن ذلك يُقصيه عما يتسامى إليه من المناصب ، ويصوره بصورة من يعادى المجتمع ، المجتمع الذى أسرف فى تدليله من زيّنت لهم الدنيا أن يتسلحوا بسلاح الرياء الاجتماعى ، وهم قومٌ لا تصح نسبتهم إلى المصلحين إلا مع التسامح البغيض

أين فى زمانك من خاطر بمركزه فى المجتمع ، كما خاطر قاسم أمين ؟

وأين فى بلدك من رحّب بتهمة الكفر فى سبيل الإصلاح الدينى ، كما خاطر محمد عبده وعبد العزيز جاويش ؟

وأين جهود الكتاب المفكرين فى هذا الزمان ؟

لقد أصبح من الآفات المألوفة أن يتحكم الجمهور فى الكاتب كما يتحكم فى المغنّى . ومن العَجَب أن يتحرر المغنّى ولا يتحرر الكاتب . فالمغنى يضع أمام جمهوره لوحة كتب عليها « ممنوع طلب الأدوار » ؛ أما الكاتب فقد عجز عن القول بأنه صاحب الحق المطلق فيما يعالج من الشؤون

يجب أن يخرج الكاتب الأجير من الميدان ، الكاتب الذى رضى بأن يكون أجير الوطن أو أجير المجتمع ؛ فما يكون الرجل كاتباً إلا إذا شعر بأنه مؤيَّد بقوة روحانية تعصمه من أحلاف الزور والبهتان . وذلك هو الكاتب المنشود ؛ الكاتب الذى يرغم الدهر على الاعتراف بأنه طاف على أهل زمانه بكأس لم يذوقوها من قبل ، ولم يعرفوا فى أى كرمة نَبَغ رحيقها النفيس ! !

فمن هؤلاء الذين يحملون الأقلام وليسوا لحملها بأهل ، لأنهم عبيد تلاميذهم من القراء ، ولأنهم يتوهمون أن القلم وسيلة من وسائل النفع الرخيص ؟ مَن هؤلاء ؟ مَن هؤلاء ؟ !

لن تكون كاتباً إلا يوم يستطيع قلمُك أن يصنع بقارئك ما يصنع الدواء بالمريض ، والدواء قد يزلزل الجسد فيمثّل له شبح الموت ، ثم تكون العافية ، وكذلك يصنع القلم الصادق ،

فهو يزلزل الفكر والعقل والروح ، ثم تكون العافية الفكرية والعقلية والروحية لمن يصلحون للبقاء ، ولا بقاء لغير من يستمعون صوت الصراحة والصدق والإخلاص

دنيا هذا العصر هي التي أضاعت الكاتب الصادق ؟ !

وقد دار رأسي منذ سنين حين سألت أحد كتّاب باريس عن الهوّة التي تفصل بين كتّاب فرنسا المحدثين وكتّابها القدماء من الوجهة الروحية فأجاب وهو محزون :

L'honnêteté n'est plus à la mode !!

وما أشدّ جزعي لما صرنا إليه ! فالشرف لا يعوزنا ، ولكن الشجاعة هي التي تعوزنا ، فنحن بالفطرة شرفاء ، وإنما نحتاج إلى قوة من الحزم والشراسة والإباء . وأقول بصراحة إن الأدب في مصر على شفا الهاوية ، لأن الأدباء يستوحون قراءهم ، وتلك علامة الفتانة والهزال ، ومثلهم في ذلك مثل الطبيب الذي يستشير المريض في وصف الدواء ! !

قد تقبل هذه الحال من الكتّاب الذين يشتغلون بتسلية الجماهير ليأخذوا أموالهم كما يأخذها « الحاوي » في ساحات « الموالد » . فما عذر الكتاب الذين أعدتهم مواهبهم ليكونوا هداة صادقين ؟

« الرأي القائل بأن يكون الأدب للأدب هو رأي سخيف »

كذلك قال الأستاذ أحمد أمين ، حفظه الله ! ومعنى كلامه أن يصبح الأدب في خدمة المجتمع ؛ وهو كلام معقول ، ولكني كنت أنتظر أن تكون للأدب قوة السيطرة على المجتمع ، لا حسن الطاعة في خدمة المجتمع ، فالمجتمع مريض ونحن الأطباء ، ولو كره الخوارج على سلطان القلم البليغ

يستطيع الأستاذ أحمد أمين أن يستوحي قراءة سبعين سنة أو ثمانين أو تسعين ، ثم يلقاني بعد ذلك ، إن عشت وعاش ، فلن يكون محصوله الفكري والأدبي غير أوشاب جمعها من أوهام القراء

أيكون الأستاذ أحمد أمين فهم أن « الأدب للأدب » معناه أن يكون جهد الأديب مقصوراً على وصف الأزهار والرياحين ، والأقمار والشموس ؟

إن كان ذلك ما فهم فأين صرخة العقل المقدود من ضمير الوجود ؟

وأين الأقباس الروحية التي نستعين بها على كشف المجاهيل من سرائر القلوب والعقول ؟

الكاتب يُعنى بجميع الشؤون : فيتحدث عن الغنى والفقر والصحة والمرض والعلم والجهل ، على أن يكون انفعل بهذه المعاني ، بحيث تصير من الغايات التي تشغل روحه الموهوب ، وبحيث يكون الاهتمام بالمجتمع غرضاً من أغراضه الصحاح

أما القول بأن يكون قلم الكاتب أجيراً للمطالب الوطنية والاجتماعية فهو قول مردود ، ونحن أول من يرفع راية العصيان ، فلن نخدم الوطن إلا طائعين ، ولن نعترف للوطن بأي حق إلا إذا اعترف بأننا أصدق أبنائه الأوفياء

وماذا بقي لمصر الفرعونية والإسلامية بعد المسطور من آثار القلم البليغ ؟

وبأي حق صار لمصر سلطان أدبي في الشرق لهذا العهد ؟

تلك جهود أقلامنا وأقلام أسلافنا . فمن خضع لصوت الحق واعترف بأن ما بذلناه لخدمة مصر والشرق كان عملاً تنصب له الموازين فهو رجل صادق الإيمان ، ومن جهل حقنا فهو صائر لا محالة إلى القرار في هوة العقوق

الأدب للأدب ، كما يقول عباس العقاد

والفن للفن ، كما قال بعض أقطاب الفرنسيس

والأدب هو الصدق ، كما قال الرجل الذي تعرفون

فمتى تعترف الدولة الرسمية بالدولة الأدبية ؟

البقاء للحق . البقاء لبياض القرطاس وسواد المداد ، ولن يتخلى الله عمن يرى الصدق في الحب والبغض هو الغاية من شرف الوجود .

زكي مبارك



ماكس إشترنر

MAX. STIRNER

فيلسوف الأنانية

١٨٠٦ – ١٨٥٦م

للدكتور جواد على

ولم لا تكون للأنانية فلسفة وفلاسفة ، والأنانية من أهم الغرائز التي لعبت دوراً هاماً في الحياة البشرية ؟ لعبت دورها في حياة الأفراد كما لعبت دورها في حياة الأمم . وليس بعجيب إن أصبحت « الأنانية » موضوعاً هاماً من موضوعات الفلسفة ، وهدفاً أو مثلاً أعلى لبعض المذاهب الفلسفية ، بل محور فلسفتها تدور حولها جميع أبحاثها كالذي يلاحظ عند « الأبيقوريين »[1] أو عند كثير من فلاسفة القرن الثامن عشر وبعض فلاسفة الإنكليز أمثال فرنسيس هيتجسون (Francis Hutscheson ١٦٩٤ — ١٧٤٦)[2] ، وجرميا بنتام (Jeremy Bentham ١٧٤٨ — ١٨٣٢)[3] ، وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill ١٨٠٦ — ١٨٧٣)[4] وغيرهم

غير أن كاسبر شميد ، أو ماكس اشترنر كما كان يلقبه إخوانه التلاميذ في المدرسة لعلو جبهته واتساعها ، كان قد جاوز حدود هيام هؤلاء بالأنانية وتفانيهم فيها وضرب رقمهم القياسي بأضعاف . أعلن للناس أنه صب بالأنانية مغرم ، وأنه جاء إليهم برسالة جديدة وديانة جديدة : هي ديانة الأنانية ومحبة الذات ... ديانة قويمة فوق كل الديانات . إنها السعادة الأبدية للجماعات والأفراد ؛ وإنها مفتاح اللذة ؛ وإنها الطريقة المثلى للوصول إلى الكمال الإنساني وما يتمناه كل فرد من هذه الحياة . هي طلسم السعادة والكبريت الأحمر الذي أفنى الحكماء أنفسهم عبثاً للوصول إليه ، وكيمياء الحياة

مفتاح هذا العالم في نظرية ماكس إشترنر كلمة «أنا» ؛ ولكن كلمة « أنا » هذه لا تدل على معنى مجرد ، بل على شخصية معينة ؛ بواسطة هذه الشخصية عرف الكون والوجود . كل ما في الكون هو «أنا» وما عداي وهم وخيال . أنا خلقت الأسماء ، وأنا خلقت المصطلحات ، وأنا الذي وضعت تلك التعابير التي لا وجود لها في الحقيقة . وأنا الذي سجنت نفسي بيدي . خلقت تلك المعايير الأخلاقية والمقاييس الأدبية فقلت : شرف ووطنية وإنسانية وديانة وأخلاق وفضيلة إلى آخر ما هنالك من كلمات جوفاء[1]

قيدت البشرية نفسها منذ خلق العالم بقيود فرضتها عليها جماعة من الأنانيين الأقوياء الذين مثلوا دور « أنا » خير تمثيل ... استغلوا عقول السذج البلهاء ، والسواد الأعظم من البلهاء ، فحللوا وحرموا ووضعوا القيود الأدبية والحواجز الأخلاقية والاجتماعية . أطاعتها المجتمعات الإنسانية حتى اليوم ، وأدخلت نفسها طوعاً واختياراً أو خوفاً ورهبة في عداد العبيد وطبقات الأرقاء . صارت تقاد كما يقاد قطيع الغنم أو البقر إلى المجازر باسم الوطن والشرف والدفاع عن العرض أو العقيدة والمال ، إلى غير ذلك من الكلمات التي «فبركتها» معامل أولئك الأنانيين ، وأنتجتها أفواه أولئك الحكام الجبابرة العتاة . وما التاريخ البشرى سوى عبودية دائمة من هذا النوع[2]

---

(١) أتباع الفيلسوف اليوناني إبيقور Epikur (٣٤١ – ٢٧٠ق.م) أحسن من كتب من مذهبه وأتباعه Russwurm والفيلسوف Kreisbig و H. Schmidt

(٢) فيلسوف إنكليزي راجع عنه Wilhelm Dibelius في كتابه England جـ ١ ص ١٦٦

(٣) نفس المصدر وكذلك Oskar Kraus في كتابه المطبوع عام ١٩٢٦ و H. Schmidt ص ٧٠

(٤) نفس المصادر مضافاً إلى ذلك Sänger لسنة ١٩٢١ و Langel في تاريخ الفلسفة المادية جزئين لسنة ١٩٢٦

(١) يذهب الفيلسوف في الأسماء والكلمات مذهب « الاسميين » الذين يقولون بأن الأسماء لا وجود لها في الخارج Nomina Lismus أمثال : يوحنا دوسيلينوس (١٠٥٠ — ١١٢٠ م) وأنسلم الكانتربرى (من ١٠٣٣ — ١١٠٩ م) راجع قاموس الفلسفة لشميد ص ٤٠٠ . وقصة الفلسفة الحديثة جـ ١ ص ١٣ ، ١٤ . وكتاب الفيلسوف دريوس ص ٢٣ جـ ٧

(٢) انظر Diehl Die Somialismus Jena Sl 1911. S, 112

يقول: لو حللنا الأعمال البشرية بجميع أنواعها وألوانها تحليلاً علمياً لوجدنا « الأنانية » هي الدافع الأول في جميع حركات الإنسان. هي الأول، وهي كل شيء. هي الحقيقة الأولى، وهي الحقيقة الأخيرة. هي التي صورت لي العالم بهذه الصورة. وهي التي جعلت الإنسان يبني ويشيد ويشتغل. لو جردنا ما نسميه في قاموسنا « العالم » من أنا، أو الأنانية لما بقي شيء من هذا الذي سميناه عالماً. ولذلك فالحقيقة واحدة وهي حقيقة « أنا ». تدرك هذه الحقيقة ما يحيط بها بواسطة منبعين: منبع الإدراك أو التصور Vorstellung ومنبع الإرادة Wille[1]

فما دام الأفراد الأنانيون هم الذين وضعوا تلك القيود في سبيل منافعهم الشخصية ومآربهم الذاتية؛ وما دامت الأنانية هي الغالبة على كل عمل إنساني، فلم يستمر الفرد على تحمل تلك العبودية؟ ولم يذعن لتلك القيود التي قيد بها جبراً؟ ساقت هذه النتيجة المنطقية إشترنر إلى البحث عن الحرية: حرية الأفراد، وما يملكه الفرد، فوضع كتاباً في هذا المعنى سماه « الفرد وما يملك »[2] تهجم فيه تهجماً شديداً على القيود الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي تحكمت وظلت تتحكم في عصره، وشن حرباً شعواء مقدسة على المبادئ الدولية وعلى كل شيء عام يطلق عليه وصف بشري، وعلى الحكومات التي انتزعت سلطة الأفراد، وعلى الشيوعية التي ناوأت الملكية الفردية، وهي أقدس حق من حقوق الإنسان. سخر من المجتمع ومن تكاليف المجتمع بعبارات لاذعة لم يعرف مثلها في أي كتاب من كتب العالم

كان الشاعر الأديب الإنكليزي « برنارد مندويل »[3] Bernard Mandeville صاحب كتاب « أسطورة النحل » The Fable of the Bees or Private Vices Made Public Benefits

(نشر لأول مرة في عام ١٧١٤ م)، قد صرح في كتابه بلا خوف ولا وجل بأن « الأنانية » هي الدافع الوحيد للإنسان على أعماله الروحية والمادية، وأن جميع القيود الأخلاقية أو الإنسانية أو الدينية لا قيمة لها أبداً؛ لأنها من وضع الحكام الذين توخوا تأمين السيادة. غير أن كتاب ماكس إشترنر كان قد جاوز كتاب مندويل الإسكتلندي في التهكم والتهجم على أخلاق المجتمع وجميع الأنظمة البشرية القائمة بأضعاف!

كان كتاب « الفرد وما يملك » عنوان ثورة جديدة أراد أن يؤجج نارها ذلك الفيلسوف: ثورة الفرد على المجتمع، ثورة الفرد على الحكومة. فشارك الديمقراطيين بالفكرة، وكان في طليعة جماعة الاشتراكي اليهودي لاسال[1]؛ إلا أنه اختلف عنهم بالأسلوب. ترى ماكس ديمقراطياً من رأسه إلى أخمص قدميه، ولكنه ديمقراطي فردي يريد أن يشيد بناء ديمقراطياً على أساس السلطة الفردية. يريد أن يرى البشرية مجموعة أفراد، كل فرد من هذه المجموعة يتمتع بحريته وذاته، هو نهم لا يشارك الآخرين ولا يرضى بأن يشاركه أحد. غايته التمتع بالحياة إلى آخر حد، وأن ينفرد بكل شيء؛ لا يفكر إلا لنفسه، ولا يبالي بما يفعل الآخرون. شعاره لا تهمني إلا نفسي[2]

كل سلطة تتحدى سلطة الفرد يجب أن تقاوم وتهدم. وحيث أن الحكومات تحاول دائماً التعدي على حريات الأفراد ومجال عمل الأفراد، فهي سلطات استعبادية ودوائر تفرض الرق على البشرية فرضاً بواسطة صكوك وأوراق تحبرها تطلق

---

(١) انظر فندلبند Windelband Lehrbuch. s, 564 f ويظهر أن كاسبر شميد قد أخذ فكرته عن منبعي العلم الانساني من الفيلسوف الشهير شوبنهور فيلسوف المتشائمين وهو صاحب كتاب Die welt als wille und vorstellung وقد نشر لأول مرة في عام ١٨١٩م

(٢) Der Einzige und Sein Eigentum نشر لأول مرة في عام ١٨٤٠م

(٣) طبيب إنكليزي وفيلسوف عاش بين ١٦٧٠ — ١٧٣٣ م. أثرت أفكاره على الموسوعيين الفرنسيين « الانسكلوبيديين » راجع عنه Prof. Voigt Die Somial Utopien s, 134 و Schmidt ص ٣٨٩

---

(١) Otto Ziegler Die Geistigen Berlin 1899 ص ٨٠. وقد تزعم فرناند لاسال حركة العمال الألمان وكانت له مناظرات مع كارل ماركس مؤسس المذهب المنسوب إليه. ولد عام ١٨٢٥ وتوفي عام ١٨٦٤م.

(٢) Karl Diehl über Som. s. 113 وكذلك Ziegler s, 580

عليها الصبغ الشرعية . لذلك تبرم الفيلسوف من الحكومات وعدّ نفسه من ألدّ أعدائها ، ولكنه كان من ألدّ أعداء النظام الشيوعى كذلك ؛ إذ بينما الشيوعية تحطم ملكية الفرد وتندد بالملكية الخاصة ، نرى (إشترنر) يندد بالملكية العامة ويدعو إلى الملكية الخاصة

يرى أنه ما دامت الأنانية هى الصفة الغالبة فى الطبيعة ، وما دامت حركات الإنسان وسكناته كلها حركات منبعها الأنانية، فمن الحماقة التغاضى عن هذه السنة الطبيعية ، والالتجاء إلى الأحلام الذهبية الشعرية ؛ وقد دلت الأحوال على أن كل محاولة من هذا النوع كانت فاشلة ، وأنها ترتد دائماً إلى الأنانية الفردية .

ثم من ذا الذى يضمن للانسان عدالة أولئك الذين سيقومون بالإشراف على المجتمع العادل ؟ لذا ، فأنا وحدى صاحب الحق فى الملكية ، ولى الحق كل الحق فى الامتلاك ، وعلىّ أن أتفاهم مع الآخرين فى هذا الحق ، فإذا خالفونى على حق هذا الزمته ودافعت عنه بكل قواى لأجبر الآخرين على الاعتراف بهذا الحق ، ولكن الملكية مع ذلك غير مقدسة ، إذ لا قدسية فى العالم إلا للحق والسيطرة فقط[1]

وبدلاً من هذه الحكومات والتشكيلات الشيوعية ، يجب تشكيل جماعات من الأنانيين الأحرار الذين لا يرتبطون فيما بينهم بروابط أو حقوق طبيعية أو روحية كالتى يطلقها عليها اتباع النظريات الأخرى . يكوّن الأفراد جماعة لا تحاول امتلاك الأفراد ، بل يحاول الأفراد امتلاك الجماعة ، والرابطة الوحيدة التى تربط الفرد بهذه الجماعة هى رابطة « المنفعة » ، وعلى كل فرد أن يبذل كل ما فى وسعه لاستغلال الجماعة إلى آخر ما يمكن . فإن حاولت الجماعة استغلال الفرد ثار عليها . وهذا فى زعمه هو الفرق بين العبودية والحرية . فى المجتمعات الديمقراطية أو الشيوعية تحاول الجماعة السيطرة على الفرد ، ولكنها فى مجتمع ماكس اشترنر يسيطر الفرد فى زعمه على الجماعة

لا قيود فى هذا المجتمع ولا فروض . لكل شخص عقيدته وديانته ، لا تهمه إلا نفسه ، ولا يشتغل إلا لنفسه فقط . فإذا تحققت هذه الأمنية على زعم فيلسوفنا تحققت الحرية وتحققت معها السعادة البشرية وتحقق كل شىء . أما الفكرة العالمية أو البشرية أو الدولية فيسائل الفيلسوف نفسه عنها : ما الذى أربحه من الاعتقاد بهذه الآراء ؟ وما الذى استفيده منها ؟ ثم يجيب : لا بأس من أن أساير الناس وأن أوافقهم موافقة رجل حذر ، ولكن موافقة رجل حكيم أعدّ لكل شىء عدته ، يحاول جهد الإمكان الانتفاع من هؤلاء السذّج . فإن انعكست الآية نفر من تلك الجماعة ونبذ ذلك المجتمع الفاسد . والحرية هى تجريد النفس من كل القيود والحدود التى تعوق إرادة الفرد وتحاول منعه من استغلال أنانيته ولو أنها كلمة جوفاء فى حد ذاتها . وبعملنا هذا نكون قد أدركنا حقيقة الحرية . والجندى الشجاع مثلاً هو الذى يستطيع أن ينجو بنفسه من الحرب ؛ فلا يضحى بنفسه فى سبيل أطماع نفر من جزّارى البشرية إن ربحوا تقلدوا الأوسمة ودخلوا القصور الفخمة، وإن خسروا انسحبوا إلى مملكة أخرى أو إلى القصور الهادئة وعاشوا عيشة السادة المترفين . فى حين أن الجندى المسكين بطل المعركة إن مات مات فقيراً تاركا وراءه عائلة تبكى ، وإن عاش عاش فقيراً كذلك لا يهتم بشجاعته أحد

سخرت الأوساط الأدبية من آراء ماكس إشترنر ومن كتابه « الفرد وما يملك » وعلى الأخص الشيوعية منها ، فنشرت جريدة الراين « دانيشه تزايتنك » جريدة كارل ماركس نبى الشيوعية مقالات تهكمت فيها من نظرية اشترنر ؛ وانبرى أمثال كارل كرين Karl Crün وموزس هيس Moses Hess ، ونفر آخر من محررى الجريدة فنشروا رسالة بعنوان « آخر الفلاسفة» سخروا فيها من الفيلسوف ومن آرائه

(١) Die Gessel Schaft 1910 Ziecler s, 580

لم يفهم ألمان ذلك الزمن معنى لهذه « الأنانية » العلمية الجديدة ، ولم يدافع أحد من فلاسفة العصر عن آراء فيلسوف « الأنانية » ، ولم يتمكن محب الدنيا من استغلال الدنيا . لم تقبل الدنيا عليه رغم إقباله عليها . ظلت مدبرة عنه وهو مقبل عليها . توفيت زوجته الأولى « بنت الشارع » في السنة الأولى من زواجه ، وطلقته زوجته الثانية « الحرة البوهيمية » لأنه حاول أن يتزوج مالها مكتفياً به عنها . ولم تنفعه شيئاً « جمعية أحرار الروح » التي ألفها مع بعض زملائه البوهيميين المفاليس في حانة « هبل » إحدى حانات برلين . لأن الحياة البوهيمية تحتاج إلى مال ، وهـذا ما لا قبل للفيلسوف به . ولم ينجح صاحبنا في بيع « الحليب » وتوزيعه عند ما اضطرته الدنيا إلى العمل . فقد انهال عليه الحليب وقل الزبائن ، وذهب آخر فلس لديه . ولم تنجح آخر نظرية من نظرياته الفلسفية ، عند ما دخل طوعاً واختياراً في عالم الديون والقروض ، ثم في عالم الفشل والإجرام حيث قالت الحكومة : عدوته رقم واحد ، كلها وأدخل السجن . وبذلك أثبتت عملياً أن فيلسوفنا لم يكن على حق فيما قال

لم ينعم « صاحب الجلالة » كما كان يلقب نفسه حتى بقليل من الاهتمام . ثم عده الفوضويون الأجانب نبيًّا من أنبيائهم المرسلين ، وحسبوا كتابه معجزة من معجزات الدماغ البشري ؛ فكتبت فئة منهم عن نبيهم ، كما فعل الاسكتلندي جون هنري مكي John Henry Mackay صاحب كتاب « سيرة ماكس اشترنر »[1] وكتاب « الفوضويون » . وكذلك الأمريكي توكر Josiah Tucker صاحب جريدة الحرية Liberty الأمريكية ، والفرنسي فكتور بشي Viktor Basch الأستاذ في جامعات فرنسا

لم تنصف الدنيا فيلسوفنا الفقير ، ولم ينصف أهل الأرض ذلك الفيلسوف المتعجرف الذي كان يكتب الحرف الأول من كلمة « أنا » دائماً بالحرف الكبير ، دلالة على العجرفة والعظمة ؛ فعسى أن يكون نصيبه من الآخرة خيراً من نصيبه في الدنيا .

« بغداد » جواد علي

---

(١) Stirner Sein Leben und Sein Werk Berlin 1910

(الرسالة) : ذكر الأستاذ الكاتب في رسالة خاصة أنه أرسل إلينا مقالات لم تنشر ؛ والواقع أن كل ما وصلنا من مقالاته نشر في حينه .

طاغور الخالد

للأستاذ فخري شهاب


طاغور عام ١٨٧٧
من كتابه « ذكرياتي »

[ولد رابندرانات طاغور سنة ١٨٦٠ بكلكتا من أسرة عريقة في المجد بنغالية. وفي هذه المدينة نشأ وفي جامعتها تخرج، ثم ذهب إلى انكلترا وانتسب إلى جامعة اكسفورد وعكف على دراسة اللاتينية فيها، غير أنه لم يلبث أن مل تلك الحياة وعاد إلى موطنه، سويداء الشرق. وفي ١٩١٣ منحه المجمع العلمي في (استوكهولم) جائزة نوبل عن ديوان شعره الفلسفي (جيتانجالي). وقد بدأ طاغور حياته الفنية في الربيع الثامن عشر من عمره وبزغ نجمه في سماء الأدب بمسرحيته التي أخرجها يومذاك (جيترا). وفي هذه الفترة كان تأثره بالكاتب البنغالي (شندراشترجي) عظيما، وعكف من بعد ذلك على دراسة الفلسفة الهندية ونقل بعض رواياتها إلى الانكليزية بنفسه. ثم أسس جامعة (سانتينكتان) بمدينة بلبور بجوار كلكتا. وقد قام طاغور برحلات لممالك مختلفة واجتمع بأكابر المفكرين المعاصرين ومشاهير القادة الوطنيين من انشتاين إلى فيصل الأول ملك العراق الذي دعاه لزيارة بلاد الرافدين فلبى النداء قبل نحو عشر سنين. وقد كان طاغور يغمر كل مجتمع يحل به بفيض من علمه وحكمته وسحره وفكاهته وحسن محاضرته التي تستلب الألباب على ما يقول سامعوه. وقبل أن يشهد طاغور انتصار مبدأ السلام الذي خصص له أدبه وافاه الأجل المحتوم فاستشهد في ميدان الدفاع هذا العام. وإذا فقدت الدنيا جسمه ففكره الجبار لن يغيب عن رعاية الناس]

وأخيراً آن لهذا المطاف الطويل أن ينتهي إلى نهايته ويشرف على غايته. لقد مات طاغور وبموته استطاع أن يصل إلى الخلود الذي اشتاقه ومنى به نفسه، وردد ذكره في شعره ونثره؛ والذي من أجله أحب هذه الحياة التي كانت الطريق إليه فسايرها مسايرة المحبة والصفاء، لأنه عالم أن سير الركب به كان حثيثاً، وأنه عما قريب واصل منزل الأبدية الخالد وإن تطل في هذه الدنيا الطريق أو تعترضه فيها الصعاب

لقد مات طاغور، وليس بدعاً أن يموت طاغور؛ ذلك لأنه كان من أبناء الكون الأحياء، وسنة الكون أن يتدرج أبناؤه نحو الكمال، طوعاً كان ذلك أو كرهاً؛ فهو مكتوب عليهم وهم لا بد سائرون إليه

أصبح طاغور اليوم اسماً مخلداً في تاريخ الفكر البشري يعرفه الناس — معرفتهم لسقراط وسبينوزا وبرجسون — من مؤلفاته التي تربو على الثلاثين مجلداً وقفها بأجمعها لنصرة الراية التي انضوى تحتها: راية المحبة ونشر السلام في الأرض

ولو أن طاغور لم يقدر له أن يسبق عصره الذي جاء فيه بعثات السنين — إن لم نقل بألوفها — لرأى ساعة استشهد في ذلك الميدان علائم الظفر وبشائر الفوز ورجحان الكفة التي وقف نفسه للكفاح من أجلها كفاح يقين وإخلاص وثبات؛ ولكن سبقه عصره بهذا الأمد الطويل الذي تحتاجه البشرية للتخفيف من غلوائها في محبة القوة والدعوة للهدم أشقى طاغور كثيراً وآلم نفسه وأرمضها، ولكنه عجز عن أن يزعزع يقينها الثابت بالنصر آخر الأمر. وإن ما نرى من استبشاره وحبه للحياة، وتغنيه بما فيها من جمال وسحر، ودعوته إلى عبادة ذلك الجمال وقوله: « إفسحوا لي مجال العيش في نور الشمس في هذه الروضة الزاهرة بين القلوب النابضة »[1]، إنما كان مصدره ذلك اليقين وذلك اليقين وحده

لو أن طاغور كتب له أن يعيش في المجتمع المثالي الذي كان يريد بناء مجتمعنا وإصلاحه على نحوه، ولم يقاس في ذلك ألم خيبة الدعوة المبكرة لما اضطر إلى خطاب دعاة الحرب بقوله: « إن صح أن تكون الحقيقة الثابتة الأزلية الكبرى هي شهوة التدمير والتخريب فقد كان لزاماً على هذه الحقيقة أن تعصف بذاتها فتميد بها وتحطمها شر تحطيم »[2] وقوله أيضاً[3]: « إنما تفضح قوة السلاح ضعف الإنسان » وإنما الذي أنطقه بهذا، وشبهه كثير، ما رأى من بعد الحقيقة المادية عن المثالية التي حاول توجيه البشرية إليها قبل أوان ذلك بعصور وعصور

(١) من قصيدته « الحياة »
(٢) و (٣) من روايته « القربان »

عرف الناس طاغور لشيء واحد لم يُعرَف فيلسوفٌ قبله لمثله : عرفه الناس لأنه شرقي هندي حاز جائزة نوبل وبذّ مفكري الدنيا بأسرها في مضمار الدعوة للسلام ، وقد قرظه مجمع (ستوكهولم) الذي منحه تلك الجائزة بقوله : « إن شعره مثابة النفوس يشمل جميع خلجاتها ويعرب عن جميع مطامحها » .

ولقد كان طاغور أغنى الناس عن إشادة (استوكهولم) بفضله والتنويه به ، ذلك لأن حكمته السامية التي لخصت حكمة الشرق العريقة وأجلتها ، ما كانت لتحتاج إلى مثل هذه المظاهر والأحكام لتبدو آثار صحتها . وإذا كان لذلك المجمع من فضل ، فليس له على طاغور من ذلك شيء ، وإنما يده التي أسداها كانت للدنيا التي عرّفها بفلسفة طاغور وأدبه الرفيع الممتاز ، فأقبلت عليه إقبالاً قوياً أحيا أملها بالفوز بالإخلاد إلى السلام ذات يوم ، وجدد قواها ، واستأنفت كبار العقول من أجل ذلك كفاحها ، لا يعوقها عنه بعد الثاية ولا طول الطريق

عرف الناس طاغور لهذا ، ولو عرفوه لغير هذا لكان أدلّ على الحجا وأدنى إلى الحق والصواب ؛ وبسبب هذه المعرفة التي قدمتها (ستوكهولم) لهم ، جاء عرفانهم لفضل هذا الفيلسوف الجليل قاصراً ناقصاً ؛ فقد عرف أكثر الناس طاغور مفكراً وأديباً ، وجهلوه مربياً ، ومصوراً ، وموسيقياً ، وصاحب فكاهة حلوة ، ونادرة مُستطرَفة ؛ أو بكلمة أخرى جهلوه فيلسوفاً اتخذ مختلف تعابير الفنون الجميلة وسائل لهديه الناس والسعي وراء إصلاحهم

وإن الإحاطة بهذه النواحي من طاغور ، هي الإحاطة بفلسفته المثالية التي حاول رفع التفكير البشري إلى مستواها ، فحسبها البشر إغراباً في الخيال يخالف حقيقة حياتهم المادية التي يحيون والتي انغمسوا فيها واندفعوا في تيارها مقهورين فيما يظنون وأنهم لمختارون . ولو شاء طاغور أن يكون مثل « نيتشه » لكان ، ولداهن الواقع ، ونزل إلى سوية الناس وتطرف في الدعوة إلى القوة ؛ ولكنه جاء إلى الدنيا برسالة تقول بالتطرف في الدعوة إلى الحق ، فمن أجل هذا قام بينه وبين أهل عصره الخلاف ، فلم يفز في إبان حياته بطائل مما رجا للناس من خير وسلام

ذلك من حيث كون طاغور مناراً في طريق البشرية نحو الكمال . أما هو في نفسه ، فعلى العكس مما أخرجته قصور أسرته البرهمية العريقة في أرستقراطيتها : صوفي عظيم ، يألف التأمل وينعم به ، ولكن تأمله هذا لم يمنعه من الاندماج في الناس لأنه إنما كان يتأمل في خيرهم وصلاحهم ، ولأن سعيه إنما كان في توحيدهم برغم إجماعهم على التنابذ والتخالف ؛ وقد كانت نظرته إليهم نظرة متأثرة بفلسفة (الحلول) التي اشتهرت بها الهند ، فجمعتهم روح الإله الأكبر ، وظهرت أمامهم في مظاهر الكون الفسيح كافة لتستهويهم وتأسرهم بجمالها ، ولتكون فتنة عقولهم التي تأسرها لذة التأمل العميق

على أن هذه الفلسفة لم تقف مانعاً في طريق طاغور ، ليتأمل تلك القدرة البدعة الجبارة التي زانت الكون وغمرته بفيض من جمالها الذي يشمل النفس ، بل كانت الفلسفة (الحلولية) — على العكس من ذلك — طريقته التي استطاع أن يتلمس بها آثار تلك القوة القادرة المهيمنة الحكيمة التي أبدعت كل شيء صنعاً .

وإذا تأمل القارئ هذه القصيدة التي نسوقها إليه الآن ، رأى مصداق هذا الكلام ، قال طاغور :

« كلا ، ليس لك أن تفتق البراعم في شكل الأزاهير

« هز البرعم ما شئت ، أو أضربه ، فلن تقدر على جعله زهرة ، لأن ذلك فوق ما تستطيع

« إنك لتلوثه إذ تلمسه ، وإنك لتقطع وريقاته إرباً إرباً ثم تلقيها في التراب

« غير أنه لا لون يظهر ولا عطر يفوح

« آه ... ذلك لأنه ليس لك أن تفتق البرعم زهرة

« وإن من في استطاعته تفتيقه ، هو الذي أبدع صنعه ، فسواه بهذه البساطة واليسر

« إنه ليرمقه بنظرته ، فإذا بدم الحياة يتسرب في تضاعيف عروقه ، ومن أنفاسه تفتح الزهرة أجنحتها لتخفق في مهب الرياح

« ثم تنتشر فيها الألوان انتشار الأشواق في القلوب ... ويفوح منها العطر لينمّ فيها عن سر جميل

« إن من في استطاعته تفتيق البرعم في شكل زهرة هو الذي أبدع فسواه بهذه البساطة واليسر »[1]

(١) من كتابه « قطف الثمار Fruit gathering »

وأبدع مما تقدم قوله فى مقطوعة رمزية أخرى تظهر ما أحس به طاغور العظيم من بون شاسع يفصل دنيا الناس عن دنيا المثالية ، وكأنه بذلك كان يندد بفكرة البشر المادية ويحلق فى سموات تصوفه وتأملاته العالية وذلك حيث يقول مخاطباً حبيبه :

« حينما اعتزمتُ على تصويركِ نُصُباً أقتطعه من حياتى لأقدمه إلى الرجال ليعبدوه ، جمعت — لذلك — ترابى ورغباتى وجميع أوهامى التى زانتها التهاويل ، وما عندى من أحلام »

« وعند ما سألتك أن تقيمى لحياتى نصباً تقدّينه من قلبك جمعتِ نيرانك وقوتك إلى الحقيقة ، وَضمَمْتِ إلى ذلك كلّه المحبةَ والسلام[1] »

فانظر كيف رمز إلى المثل الأعلى فى المقطع الأخير ووشحه بغيره مما فى النفس الآدمية من دعوة للقوة والنار

لا نأمل فى هذه العجالة أن نحيط بآفاق طاغور الفلسفية المترامية أطرافها ، بل من ذا الذى منى نفسه بأن ينال من طاغور هذا المنال ؟ ولكنا نريد أن نلم به اليوم إلمامة الطارق العجلان ربما تتيسر زيارته الزيارة الطويلة ، زيارة المحب ليقضى شوقه من زيارة الحبيب ، وإذا لم يكن المجال يتسع لنا بأكثر من هذا ، فلنعطف النظر إلى ناحية أخرى عظيمة من نواحى طاغور العظيم

كان طاغور إلى ما نعم به من سمو تفكيره جندياً من جنود الوطنية الهندية على نحو مبتكر جديد لم يكن قد سمعه من قبله الناس . كان طاغور يعشق الحرية عشقاً ظهرت آثاره فى مؤلفاته كلها ، والحر ليس يرضيه أن يقيم فردمن البشر فى قيد الإسار فضلاً عن رضائه على رؤية الملايين من أولئك البشر أسرى خاضعين ، ولهذا التنافر بين طبيعته الحرة وما أصيبت به الهند من عوادى الاستعمار برز طاغور فى ميدان الوطنية وبذ فيه غيره من المكافحين

كان طاغور يتعشق الحرية ويتعشق السلام فى آن واحد . والناس اليوم لا يستطيعون أن يسموا إلى الجمع بين هذين المبدأين ، ذلك لأن قلب الإنسان — وإن شئت فذهنه — لم يصل من الكبر والعظمة إلى الحد الذى يتسع فيه لهذين المبدأين فى الوقت ذاته . وإذا ما رأينا من إنكارهم لوطنية طاغور التى خفيَتْ عليهم فإنما مرجع ذلك هذا الاختلاف فى التفكير

(١) المصدر عينه

والاختلاف فى محبة المثل العليا والتأليف بينها . فقدر طاغور على ما لم يقدروا ، وجمع أكثر مما جمعوا ، وسما عليهم بهذا وبمعجزة أخرى هى سلامة تلك المثل العليا وعدم تنافرها فى نفسه بل كانت جميعاً عنده تسير فى وفاق والتئام

دعا طاغور إلى الحرية ، ودعا إلى تحرير البشر من إسار أقويائهم ، ولكنها كانت دعوة موجهة إلى جهة الإيجاب البانية لا إلى جهة السلب المدمرة ، وهو فى هذا يختلف عن زعماء الوطنية الآخرين الداعين بتطرف إلى الجانب المضاد لصفة طاغور السهلة الجبلة . وليس بدعاً أن يدعو هذا المفكر الجبار لهذه الدعوة ، إذ بها وحدها كان يضمن التوفيق بين عقيدتيه اللتين تنافرتا من اجتماعهما عند غيره من الناس ، عقيدة الحرية والوطنية وعقيدة تسوية السلام والمحبة بين الناس

إذا شئت أمثلة من وطنية طاغور فاسترجع فى ذهنك الضجة التى أحدثتها منذ أمد قريب جداً إحدى النائبات الإنكليزيات إذ اتهمته — خلافاً لعقائده — بالدعوة السلبية التى لم تؤثر عنه منذ خلق حتى انتقل إلى عالم الخلود . وإذا شئت مثلاً آخر فاذكر أيضاً خطابه الذى وجهه إلى إخوانه الهنود المقيمين فى اليابان إذ أرسلوا يسألونه أن يؤيد اليابان بكلمة من عنده فى حرب استيلائها على الصين الحرة لكى يكفكف من عدوان اليابانيين على النزلاء الهنود فكان جوابه متضمناً هذا المعنى : « لخير لى أن أرى الهنود من أبناء جلدتى يروحون ضحية للجهاد من أن أنتصر باسم الهند للجور والطغيان »

وإليك مثلاً آخر من وطنيته حين نبذ أوسمة الشرف وألقابه التى قدمتها إليه الحكومة البريطانية وذلك حين استشعر منها الإجحاف والظلم فى معاملة الهنود ، وأبى أن يحمل من بعد ذلك اليوم لقب (سير) ولم يجدد وضعه على طبعات مؤلفاته الجديدة ونفر منه نفرة كانت تغضبه وتؤلمه إذا دعى بها

عالج طاغور فيما عالج من مشكلات الهند مشكلتين عظيمتين : أولاهما مشكلة « المنبوذين » التى أقدم على علاجها علاجاً عملياً غير مكتف بما كتب عنها ، وكسر جميع أغلال أسرته البرهمية العريقة ، وذلك لأنه كان فى أعماله أشبه بالمفكر الخالد الحكيم سقراط ينحو نحو تطبيق الفضيلة على نفسه بعد معرفتها ثم يدعو الناس بعد تلك المعرفة وذلك التطبيق إلى أخذ أنفسهم بها

والعمل بمقتضاها . وقد أقام طاغور للمنبوذين من ماله الخاص المدارس وأنشأ لهم منشآت الثقافة التي كان أعظمها وأجلها أثراً مدرسته النموذجية التي مر ذكرها آنفاً والتي أصبحت جامعة مثالية يأمها أساتذة الجامعات ليتخرجوا فيها على طاغور تلاميذ مشربين بروح محبته للخير والسلام . وإنه ليروى أنه أنفق الجائزة المالية التي قدمها له مجمع (استكهلم) سنة ١٩١٣ في سبيل هؤلاء المنبوذين بعد أن أنفق في ذلك كل ما آل إليه من ثروة موروثة ومال مكتسب

أما الناحية الأخرى التي عالجها من مشكلات الهند فكانت مشكلة المرأة الهندية التي كانت عند ما فتح طاغور عينيه للدنيا ليراها في مستوى المنبوذين هؤلاء أو أرفع قليلاً . ومن أجل تلك المخلوقة المهيض جناحها التي ظلمها تعسف الرجل مئات السنين في الهند وقف قسطاً من جهاده ، وأكرمها في شخص زوجته وابنته ، وجعلها ملاكاً كريماً يرفرف بجناحيه على البيت ليكون فيه ظل المحبة الشاملة والسلام الذي ينتظم البيوت .

وما من مسرحية له أو قصة أو أقصوصة أو رواية أو شعر إلا كانت المرأة فيه العنصر السامي الذي يخفف الحدة ، ويلطف الشدة ، ويمزج بالشر الذي يندس بين الناس ليفنيهم إكسيرا مضاداً له يكافحه ويقف آثار فعله لتنحصر في زاوية ضيقة بدل أن يمتد ويفور

المرأة في نظر طاغور مخلوق جمل لتزيين الحياة ، يخفف آلامها ، ويكثر من مسراتها ، ويطبعها بطابع البهجة الذي يحلو للرجل النظر إليه ؛ ذلك ما دامت امرأة ، فإما اعتلت أريكة الأمومة فهنالك الكمال في السمو إلى حقيقة الحقائق حقيقة المحبة التي يفيض بها قلبها أو فكرها على الناس أجمعين

ولا يستغرب القارئ هذا القول لأن دعمه بالبرهان سهل ، فالرجوع إلى كتابه الذي أتممنا نقله إلى العربية ونشرناه كاملاً في أجزاء مجلة وزارة المعارف العراقية (المعلم الجديد) ، ذلك الكتاب الذي أسماه الهلال (The Crescent Moon) يؤيد هذه الدعوة ويصور الأم للقارئ بشراً سوياً لا تبلغ المحبة في قلب في الكون مبلغها عند أحد سواه

* * *

أما بعد ، فهذه كلمة موجزة عن طاغور نرجو أن تعقبها لنا عنه دراسات مستفيضة تعرفه إلى الشباب ، لأن طاغور من الشخصيات الفذة التي يتعب المؤرخ الاهتداء إلى أمثالها في الدنيا . وتفكير طاغور العميق الهادئ ، وتصوفه الروحي البعيد عن المظاهر ، ونظرات تأمله التي شملت كل ما في الكون من أسرار وجمال جعلت منه دائرة معارف شرقية حديثة ، ولكنها تمت إلى القديم بأوثق الأسباب . وهل كان لعمري ثمة شيء لا يحضنه طاغور ؟ ومن أجل هذه السمة في المعرفة يوصى الذين شغفوا بطاغور حباً بدرسه دراسة تأمل وإنعام نظر وفهم دقيق ، لأن في دائرة المعارف الشرقية هذه غذاء روحياً أبدياً ، ولكنه دسم لا يفهمه كل إنسان

إن طاغور لم يمت ، لأن حكمته الرفيعة وفلسفته وتصوفه وأدبه الذي يحيط من وراء ذلك كله خالد تخجل يد الفناء أن تمتد إليه بعبث أو تخريب . ولئن تعرف الإنسانية قدر طاغور اليوم ، وإنما ستعرفه الإنسانية بعد مئات طويلة من السنين حين تخرج من سن الطيش إلى طور العقل والحصافة والتفكير الهادئ العميق .

فخري شهاب

الفقر مسألة اجتماعية

للأستاذ رمسيس يونان

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

وهذا مثل ثان من تناقض المصالح بين الطبقة الغنية المعتمدة على الزراعة ، والطبقة الغنية المتصلة بالصناعة . فطبقة ملاك الأرض تزداد ثروتها كلما رخصت الأيدى العاملة فى الزراعة ، وهم الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى ؛ أما رجال الصناعة فإن دخلهم يزداد كلما زادت قدرة هذه الأغلبية على الاستهلاك ، أى كلما ارتفع مستوى معيشتها

وعلى ذلك ليس عجيباً أن نرى أن معظم السياسيين المصريين الداعين إلى الإصلاح الاجتماعى ؛ أمثال : حافظ عفيفى ، على الشمسى ، وهيب دوس ، هم ممن اتصلت حياتهم عن قرب أو عن بعد بالصناعة ، أو ممن تأثروا تأثراً كبيراً بالحياة الاجتماعية فى الغرب التى هى نتيجة وسط صناعى . وليس عجيباً أيضاً أن نرى رجلاً مثل إسماعيل صدقى ينادى بمكافحة الفقر ورفع مستوى حياة الفلاح . . .

وهناك عوامل ثانوية أخرى تدفع المولين إلى التفكير فى الإصلاح : منها أن الأبحاث الطبية تثبت إثباتاً قاطعاً أن الأمراض تنهك العامل والفلاح وتضعف قدرتهما على الإنتاج إلى حد مخيف . وعلى ذلك فبين المولين من يرى أن مكافحة هذه الأمراض قد يؤدى إلى زيادة فى الربح تعادل على الأقل ما يحتاجون إلى بذله فى سبيل هذه المكافحة ...

ومن هذه العوامل أيضاً الرغبة النامية فى إنشاء جيش قوى سليم يشعر أرباب الثروة المصرية بضرورته للاحتفاظ باستقلال سياسى يضمن لهم استقلالهم الاقتصادى

على أن رجال الصناعة فى مصر والمتكلمين باسمهم لا يدعون إلى الإصلاح الاجتماعى إلا فى حدود ضيقة ... ذلك لأن الدعوة إلى تحسين حال الفلاح تؤدى حتماً إلى تحميس الحركة العمالية المطالبة برفع الأجور . وليس هذا مما يرتاح إليه المولون وأرباب الأعمال ...

* * *

ومع أن معظم العمال المصريين قد جاءوا من الريف ، وبالرغم من حداثة عهدهم بالوسط الصناعى ، فلا شك فى أنهم قد اكتسبوا أساليب فى التفكير المادى تختلف عن أساليب إخوانهم الفلاحين . ولسنا الآن بصدد بحث العوامل المادية التى سببت هذا الاختلاف ، وإنما يهمنا بعض ظواهره الواضحة

وأوضح هذه الظواهر أن العمال قد تجمعوا فى نقابات يسمون عن طريقها إلى تحسين أحوالهم ، وتشغيل العاطلين منهم ، وتنظيم الإضرابات والمظاهرات وإصدار الاحتجاجات عند ما يزداد ضغط أرباب الأعمال عليهم . ولم نسمع بعد — بالرغم من مجهودات بعض الأفراد طيبي القلوب — عن هيئة من الفلاحين تسعى إلى شىء من هذا

ولا شك أن هذه النقابات قد أفادت العمال فى كثير من الظروف ، وزادت بينهم ما يسمى « الوعى الطبقى » ؛ وإذا كان هذا الوعى الطبقى لم يصل بهم بعد إلى درجة النجاح فى تكوين حزب عمال مستقل ، فقد كان كافياً على الأقل إلى أن يقنع بعض الأحزاب السياسية الموجودة أن من مصلحتها التقرب بين العمال ورعاية نقاباتهم والتودد إليهم بالوعود ...

ومع ذلك فما زالت الحركة النقابية فى مصر ضعيفة ، وذلك لسببين :

السبب الأول يتصل بالحركة العمالية ذاتها التى لم تنجح بعد فى تحقيق « التضامن الطبقى » الكامل بين العمال ، كما لم تنجح بعد فى إثارة حركة مشابهة بين الفلاحين ، لا شك أنها إذا قامت واتحدت مع الحركة العمالية ، أصبح لمجموع الأيدى العاملة فى مصر قدرة رائعة على الكفاح الاقتصادى الناجح ...

أما السبب الثانى لضعف الحركة النقابية فيرجع إلى المقاومة الجبارة المنظمة التى تواجهها بها الطبقة التى تخاف على مصالحها

من نمو هذه الحركة ، والتي منها من لا يتحرج أحياناً عن اللجوء إلى أحط الوسائل لإفساد أخلاق بعض زعماء العمال ، وتأليب بعضهم على بعض . ولهذه الطبقة سلطان مادي يضمن لها نفوذاً كافياً على التشريع والصحافة . وليس أدل على هذا النفوذ من أن مشروع قانون النقابات ما زال من سنوات يتأرجح بين قاعتي مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وما زال يؤجل الدورة بعد الدورة ... هذا بالرغم من أن هذا القانون يكاد يحرّم على العمال كل وسيلة من وسائل الكفاح الجدي

***

ولسنا نستطيع الحديث عن مسألة الفقر في مصر بغير أن نذكر مشكلة المتعلمين العاطلين . وقد يبدو عجيباً أن تظهر مثل هذه المشكلة في بلد لا تزيد فيه نسبة المتعلمين على ١٠ ٪ بينما لم تظهر هذه المشكلة في معظم الأمم الغربية إلا بعد أن عمّ فيها التعليم . ولكن تعليل ذلك غير عسير ؛ فإن انتشار التعليم في الغرب — كما هو الحال في مصر — كان ملازماً للنهضة الصناعية ، وقد وجدت الصناعة الغربية أسواقاً ضخمة بين الشعوب الآسيوية والإفريقية فنشطت واتسعت واستطاعت أن تستوعب القدر الأكبر من خريجي المدارس ؛ بينما جاءت الصناعة إلى مصر بعد أن اكتظت الأسواق الخارجية بالمصنوعات الغربية ، فلم يبق أمامها غير السوق المحلية ، وهي سوق في غاية الضعف كما قلنا بالنسبة للفقر الشنيع الذي تعيش فيه أغلبية الشعب ، ونتيجة هذا أن الصناعة (وما يتبع الصناعة من أعمال تجارية ومرافق عمرانية) لا تنمو في مصر إلا في بطء هو أشد من البطء الذي ينتشر معه التعليم

وعلى ذلك فنحن نرى أن السبب المعوق لظاهرة المتعلمين العاطلين بالنسبة لمصر هو هذا الفقر الساحق الذي تعيش فيه غالبية الشعب

ولسنا من المدافعين عن مناهج التعليم في مصر ؛ ولكنا لا نرى في عيوب هذا التعليم السبب الأساسي في عدم اشتغال الشبان المتعلمين بالأعمال الحرة . فالواقع المشاهد أن هؤلاء الشبان لا يترددون عن الاشتغال بأي عمل منتج ؛ وقد رأينا من حملة الشهادات من يبيع أوراق النيصب في الشوارع ، ولكن الأعمال الحرة في مصر — بحالتها الاقتصادية الراهنة — مكتظة بالمشتغلين بها ، وشوارع المدن الآن ليس فيها مكان لحانوت جديد ، ولن يتسع المجال أمام الأعمال الحرة إلا إذا اتسعت الحركة العمرانية ، أي إلا إذا نفذت وسائل الحياة الحديثة إلى الريف ونشأت فيه مدن جديدة ، وهذا كله موكول بالتقدم الصناعي وارتفاع مستوى المعيشة بين الفلاحين والعمال

***

ويهمنا الآن أن ننبه إلى الصلات الاقتصادية التي تربط مشاكل الفلاحين ، ومشاكل العمال ، ومشاكل العاطلين من عمال ومتعلمين . فمن فائدة العمال أن ترتفع أجور الفلاحين حتى تروج تجارة المصنوعات وتزداد حاجة أصحاب المصانع إلى العمال فترتفع أجورهم . ومما يؤذي العمال المشتغلين أن يوجد إلى جانبهم عمال متعطلون ؛ لأن الخوف من البطالة يضطر العمال إلى قبول ما يعرضه أصحاب المصانع من أجور مهما انحطت . وما يقال عن العمال يقال عن المتعلمين العاطلين وعن صغار الموظفين ؛ فالمصانع تحتاج إلى خريجي المدارس كما تحتاج إلى عمال ؛ والتقدم في الإنتاج الصناعي يفتح الأبواب للكثير من الأعمال الحرة أمام المتعلمين ، ووجود عدد كبير من المتعلمين العاطلين يخيف المستخدمين في المصارف والمتاجر وغيرها ويضطرهم إلى الإذعان لاستبداد الرؤساء وإلى القناعة بالدون من المرتبات

وإذا كانت مصالح الفلاحين والعمال وصغار المستخدمين والعاطلين من متعلمين وعمال مترابطة كما نرى من هذا التحليل ، فما يؤسف له أنه لم يظهر حتى الآن اتجاه نحو توحيد الصفوف بين هذه الطبقات . فما زال العمال بعيدين عن التفكير في حال الفلاحين ؛ وما زال صغار المستخدمين بعيدين عن الاهتمام بالحركة العمالية ، بل ما زال المتعلمون العاطلون أفراداً منعزلين لا تربطهم هيئة منظمة ، وما زال طلبة المدارس الموشكون على التخرج منصرفين عن دراسة المشاكل الاقتصادية التي تهدد مستقبلهم

ونحن نعلم أن قلوب المتعلمين والعمال العاطلين طافحة بالسخط والحقد، وأن بين العمال نفوساً متوثبة تطلب الجهاد، وأن بين شباب الجامعة عدداً كبيراً من الثائرين الناقمين على الأوضاع الحاضرة ؛ ولكن هذا السخط والحقد والتوثب ، وهذه الثورة والنقمة لن

تنجح فى مكافحة الفقر والتعطل إلا إذا انتظمت فى جهاد يقوم على خطط مدبرة محكمة

ونحن نعلم أن هناك عقبات كثيرة تقوم دون ظهور حركة منظمة بين الفلاحين ؛ ولكن ظهور هذه الحركة (وقد ظهر مثلها بين فلاحى الهند) غير مستحيل إذا تضافرت جهود الشباب المتعلم والعمال مع الفلاحين فى هذا الكفاح .

والطبقات التى تؤذيها الأوضاع الاقتصادية الحاضرة تكوّن الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى ؛ وما دمنا نعيش فى نظام ديمقراطى ، فإن من الممكن لهذه الأغلبية - إذا وحدت صفوفها - أن يصبح لها يوماً حزب سياسى مستقل قوى يعمل على تحقيق مصالحها

* * *

فمسألة الفقر فى مصر لن تحل بجهود منعزلة يقوم بها أفراد لا يفكرون إلا داخل حدود حياتهم الضيقة ؛ فقد ينجح فلاح صغير - لظروف شاذة - فى أن يصبح مالكا صغيراً ، وقد ينجح عامل فى أن يستولى على مصنع حقير ، وقد ينجح بعض المتعلمين العاطلين فى الحصول على عمل مكان آخرين مطرودين... ولكن هذا كله لن يغير شيئاً فى حال ستة ملايين فلاح ومليونى عامل وعشرات الآلاف من المتعلمين العاطلين . . .

ولن ينجح أفراد فى تغيير أوضاع اقتصادية تقوم على حمايتها سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية منظمة .

ولا تحل مشكلة الفقر بسياسة الإحسان ؛ فلن تنجح هذه السياسة - إذا نجحت - إلا فى تحويل الشعب المصرى إلى أمة من الشحاذين المستكينين الصاغرين ... يقبّلون أيدى الأغنياء ويدعون بطول العمر للمستفيدين الرابحين من بقاء الأوضاع الاقتصادية الحاضرة ...

ولا تحل مشكلة الفقر بالبحث عما يسميه الأستاذ العقاد « حقائق جامحة » و « حقائق كابحة » ؛ فأغلب الظن أن هذه الحقائق عند العقاد ليست إلا انعكاساً من موقف التردد عند الطبقة البورجوازية المصرية ، التى ترى ضرورة الإصلاح، ولكنها تخاف فى نفس الوقت من كل دعوة إلى إصلاح عميق ... وهو موقف تشترك فيه البورجوازية المصرية مع البورجوازية الغربية ، ونرى صداه فى تفكير الكثيرين من الكتاب الغربيين المعاصرين الذين يقرأ لهم العقاد

وإنما تحل مشكلة الفقر بجهاد مشترك منظم يساير نهضة البلاد ويتمشى مع قوانينها وتقاليدها . والله الهادى إلى أقوم طريق .

رمسيس يونان

٧ ـ مدن الحضارات
فى القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

أما الآية الكبرى الباقية فى قرطبة شاهداً على ما كان للعرب فيها من عمارة وهندسة فهى الجامع الكبير أو المسجد الجامع الذى بناه عبد الرحمن الداخل فى موضع كنيسة للنصارى عوضهم عنها أرضاً واسعة ومالاً كثيراً . وطراز هذا المسجد على غرار المسجد النبوى الذى بناه الوليد بن عبد الملك بالمدينة المنورة .

وقد وصفه « لابورد » فى كتابه « صفة أسبانيا » وذكر أن طوله ٦٢٠ قدماً وعرضه ٤٤٠ قدماً . ونقل دوزى عن لابورد هذا الوصف . أما المستشرق بروفنسال صاحب كتاب « إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر » فقد ذكر أن طوله ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ متراً

وفى كتاب الحلل السندسية للأمير شكيب وصف مفصل لهذا المسجد[١] ، كما أفاض الوصف فيه البتانونى صاحب رحلة الأندلس

وتمتاز كتابات الأمير الجليل بالتحقيق والتدقيق والشرح والتفصيل والتعليق على كل مشهد والتحليل لكل حادثة ؛ فهو لا يكتفى بأبعاد المسجد التى ذكرها دوزى ولابورد والبارون شاك Schack ، ولكنه يسأل دليله فى قرطبة المهندس هرناندز وأحد الموكلين بالجامع والقيام عليه ، فذكر له أن طول المسجد ١٧٥ متراً وعرضه ١٢٥ متراً وذلك قريب مما ذكره بروفنسال

وعلى كل حال لا تخلو الروايات التاريخية المختلفة من اختلاف بينها على سعة هذا المسجد وأبوابه ومحاريبه وسواريه وثرياته ونقوشه ورقومه وصناعات قبلته وفرجة محرابه وقسيّه وعمده

وينقل صاحب نفح الطيب عن الإدريسى كلاماً فى وصف هذا المسجد ، إلا أن النسختين الباريسية والاكسفوردية من

(١) الحلل السندسية ج ١ ص ١٣٦

كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للادريسى جاء فيهما ما يخالف ما رواه صاحب نفح الطيب . ولعل ذلك من أخطاء النسخ وعدم تحرى الدقة فى النقل ، وخاصة فيما يتعلق بذكر الأرقام والإحصاء ، وهذا مشاهد كثيراً لمن يكثر المطالعة فى كتب الأدب والتاريخ

وأعجب ما فى هذا المسجد مئذنته ، وقالوا لم يكن فى مآذن المسلمين ما تعدلها[١] ، فبلغ طولها إلى مكان وقوف المؤذن ٥٤ ذراعاً ، وإلى أعلى الرمانة الأخيرة ٧٣ ذراعاً ، وعرضها فى كل تربيع ١٨ ذراعاً

وقد حول نصارى أسبانيا هذا المسجد إلى كنيسة بعد أن دخلت الأندلس فى حوزة الفرنجة . وما تزال النقوش العربية العجيبة الشبيهة بالمخرّم (الدنتلا) تزين وجهته[٢] وعلى الباب الكبير المصفح بالنحاس رسم القوم صلباناً بعد أن تم التحويل إلى كنيسة . وبقيت المئذنة على حالها ؛ إلا أن النواقيس أصبحت ترن فيها بعد الأذان والتكبير ، وما تزال الآيات القرآنية الكريمة مكتوبة فى دائرة القبلة والمحراب بالخط الكوفى[٣]

أما القبة الضخمة التى كانت قائمة فوق المسجد على ٣٦٥ عموداً من الرخام ، فقد أزيلت وأزيل معها ١٦٣ عموداً كما أزيل بعض سقف المسجد المحلاة بالأطلية الجميلة والليقة الذهبية ؛ ونهب الفرنسيون فى غارة نابليون الأول على أسبانيا أربعمائة مصباح من الفضة الخالصة[٤] . ولا تنس أن جميع خشب هذا المسجد من عيدان شجر الصنوبر الطرطوشى الذى تضرب به الأمثال فى الصلابة والثبات[٥]

ويذكر الأدريسى أن بمسجد قرطبة مصحفاً يقال إنه عثمانى . ويروى صاحب نفح الطيب الخبر عن الأدريسى ، ثم يرويه فى العصر الحديث الأمير شكيب صاحب الحلل السندسية ، ويذكر أنه المصحف الذى خطه بيمينه عثمان بن عفان رضى الله عنه وفيه نقط من دمه ، ولكن البتانونى يناقش هذه الرواية

(١) تاريخ التمدن الاسلامى عن نفح الطيب
(٢) البتانونى
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر نفسه
(٥) الحلل السندسية

فى تحقيق علمى ، ويدنى عقلاً أن ينتقل مصحف عثمان الأصلى من المدينة إلى الأندلس[1]

وإذا ذكرت قرطبة ، ذكرت بجانبها (الزهراء) التى بناها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، ولم يكتمل بناؤها إلا فى عهد ابنه الحكم ؛ وقد شرع الناصر فى بنائها على بعد أربعة أميال من قرطبة مرضاة لحظية له كان اسمها زهراء[2]

ويروى المقرى عن ابن الفرضى أنه كلل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى أجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ، يدخل الماء إلى جوف الأسد ويخرج من عجزه إلى تلك البركة فى منظر يعجب الناظر ويبهره ... فتدق من هذا الماء المجوج رياض القصر وجنانه على رحبها ، ويجوز الفضل من ذلك الماء إلى النهر

ويبدع الواصف لهذا القصر — سواء أكان المقرى أو ابن الفرضى — فى وصف سطحه المرد المشرف على الروضة ووصف مرمره المسنون ، وذهبه المصون ، وعمده ونقوشه وبركه وحياضه وتماثيله . وكان يخصص لبحيرة الزهراء كل يوم أحمال وأوزان من اللحم والخبز المصنوع من الحمص الأسود غذاء لحيتانها وأسماكها ...

وهنا تمعن الرواية التاريخية إلى الإغراق فى المبالغة والمغالاة فى الإحصاء والأرقام مما لا حاجة بى إلى ذكره فى هذا المقام . وهى مبالغة تدل على شيء كثير من الحق ، وتصور لنا هذه القصور والدور فى صورة نستطيع أن نتخيلها لا بحقائقها ولكن بما أضفى عليها من تهويل وإغراق

وكان الرخام يجلب إلى الزهراء من قرطاجنة وأفريقية وتونس[3] ، واشترك فى وضع الرخام ولصقه على بن جعفر الإسكندرانى . ولعله اجتلب من الإسكندرية خاصة لذلك

(١) رحلة الأندلس

(٢) نفح الطيب وتاريخ التمدن الاسلامى

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦

وازدهرت « الزهراء » فى عصر الناصر ازدهاراً كاد يضيع من مكان قرطبة ومحلها . وشغل الناصر نفسه بالبناء والعمارة وإتقان القصور ، وزخرفة المصانع فى الزهراء حتى عطل شهود الجمعة ثلاث جمع متواليات ، مما جعل القاضى العادل والواعظ الناصح منذر بن سعيد يعرض بأمير المؤمنين مبتدئاً الخطبة بقوله تعالى : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) ومذكراً فيها بالدنيا الزائلة ، والحياة الفانية ، والدار الباقية والموت الفاجىء ، والقدر الواقى ، مما أبكى الناصر وأحنقه على منذر لشدة وعظه وغلاظة تقريعه[1]

وكان منذر بن سعيد هذا يكثر تعنيف الخليفة الناصر على اهتمامه بالبناء إلى حد كاد ينسيه أمور دينه ، وشئون آخرته . ويروى المقرى عن الحجارى فى كتاب (المسهب فى أخبار المغرب) أن منذراً هذا دخل على الناصر يوماً وهو مكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه ، فرد عليه الناصر قائلاً :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبألسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم	ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه	أضحى يدل على عظيم الشان

ولا يدرى الرواى إن كان هذا الشعر من نظم الناصر أم مما تمثل به فى هذا المقام

* * *

لقد شهدت قرطبة منذ الفتح العربى إلى أيام المنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع الهجرى كثيراً من نواحى الجلال التاريخى ، فبقيت زهاء ثلاثة قرون تتمتع بحكم مستقر ، وملك وطيد وعمارة وبناء ، ويسر ورخاء ؛ إلى أن نكبت فى النصف الأول من القرن الخامس الهجري بالحوادث الجسام وخاصة فى زمن المستعين بالله سليمان وفى دولتيه اللتين مكثتا ست سنين وعشرة أشهر ، وهى تلك المدة التى يصفها ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة ناقلاً عن ابن حيان بقوله[2] ، وكانت كلها شداداً نكدات ، صعاباً مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة

(١) كتب الأدب ، ومطمح الأنفس مطبعة السعادة ص ٤٢ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦

(٢) الذخيرة لابن بسام القسم الأول ص ٢٥

قبيحات المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتمال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن ، وحلول المخافة

وشهدت قرطبة أيضاً الفتنة في زمان المستظهر ، وحبسته الشنيعة في أتون الحمام حين قام الدائرة في وجهه وزرقوه وهم يسمونه ، فارتد على عقبه وترجل عن فرسه وتجرد من ثيابه حتى بقي في قميصه واستخفى في أتون الحمام ففقد شخصه[1] ، ثم أخرج في قميص مسود بحال قبيحة حيث قتل أمام ابن عمه المستكفي ...

وشهدت قرطبة في سنة ٤١٤هـ ثورة[2] لتحويل أهلها على رد الأمر لبني أمية الذين اغتصب سلطانهم بنو حمود ، وبايعوا المستظهر الأموي الذي قتله حفيد الناصر وجلس على العرش باسم المستكفي بالله — وهو والد ولاده الشاعرة الأندلسية المشهورة — ثم قتل المستكفي وجاء بعده - بعد فتن وحوادث - المعتمد بالله آخر ملوك بني أمية بالأندلس

***

ظلت قرطبة منذ الفتح العربي مقصد أهل العلم وطلاب الأدب ، يفدون إليها انتجاعاً للعلم أو طلباً للحكمة كما كانت بغداد والقاهرة في المشرق . ويذكر القاضي صاعد الأندلسي أن ابن البنونش الطبيب الحكيم الأندلسي رحل من طليطلة إلى قرطبة لطلب العلم بها[3]

ولم لا تكون قرطبة مقصد العلماء والشداة من أهل الحكمة والمعرفة والنظر والفلسفة ، وقد كان من أهلها الطبيب الفلكي الفيلسوف يحيي بن يحيي المعروف بابن السمينة ، والرياضي الحكيم أبو القاسم مسلمه المعروف بالرحيطي . وكان من تلاميذه ابن السمح وابن الصفار والزهراوي والكرماني وابن خلدون (غير المؤرخ صاحب المقدمة) . وكان ابن السمح السالف الذكر من أهل غرناطة ، ثم وفد على الرحيطي في قرطبة لأخذ الرياضة والحكمة عنه[1]

كما كان من أهلها الكرماني أحد الراسخين في علم العدد والهندسة ، والذي قال عنه تلميذه ابن حي المهندس الفلكي (أنه ما لقي أحداً يجاريه في علم الهندسة ولا يشق غباره في فك غامضها وتبين مشكلها واستيفاء أجزائها[2]

ومنهم الفيلسوف ابن رشد أبو الوليد الذي اشتغل بالرياضة والفلسفة والطب والتشريح وقال : (من اشتغل بعلم التشريح ازداد بالله إيماناً) ، وترك من الكتب القيمة عدة صالحة تجد ذكرها في ترجمته في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

كما وفد على قرطبة من أهل المشرق أحمد بن يونس الحراني وأخوه عمر وغيرهما

وكان ضياع قرطبة - فيما ضاع من الفردوس الإسلامي - سبباً في إثارة شاعرية كثير من شعراء المراثي للمالك والدول كابن الأبار القضاعي صاحب كتاب التكملة الذي قتل قعصا بالرماح سنة ٦٥٨ هـ وأحرقت أشلاؤه والذي يقول في رثائه لمدينة بلنسية :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة ألمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة أجحاف نائبة ... تثني الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... ألا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها (وقرطبة) ... ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا

وفي قرطبة يقول صالح بن شريف الرندي المعروف بأبي البقاء وهو خاتمة شعراء الأندلس وأدبائها :

وأين (قرطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شأن ؟

والحق أنه يسأل حيث لا جواب ولا كلام ؛ ولله سبحانه البقاء والدوام .

[الحديث موصول]

محمد عبد الغني حسن

(١) الذخيرة لابن سام ص ٣٩
(٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباخ الألماني
(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٨

(١) المصدر نفسه
(٢) المصدر السابق ص ٤٠

١٨ ، ١٧

٤ – المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

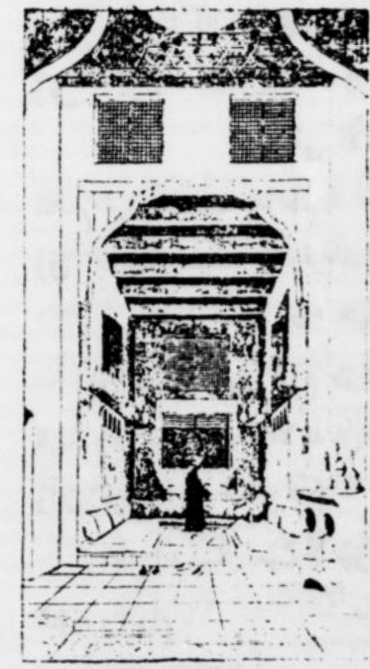
في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

وفي بعض المنازل توجد حجرة أخرى تسمى « مقعد » – كما مر بك في شكل ٤ – ترتفع عن الطابق الأرضي نحو ثماني أقدام أو عشر وتستعمل كالمنضرة، وهي ذات واجهة مكشوفة لها عقدان أو أكثر ودرابزون منخفض. كذلك يوجد في الطابق الأرضي مكان مربع يسمى « تختبوش » له واجهة مكشوفة يتوسطها عامود يحمل الجدران العليا، وأرضية هي ليوان مبلط عليه مقاعد خشبية طويلة يسمى الواحد منها « دكة » تصف على جانب واحد أو على جانبين أو على الجوانب الثلاثة. وكثيراً ما يرش الحوش أثناء الصيف بالماء حتى تصبح الغرف المحيطة به (أو على الأقل غرف الطابق الأرضي) لطيفة الحرارة. أما تأثيث الغرف فعلى الطريقة السابق وصفها

وبين الغرف العلوية الخاصة بالحريم يوجد غالباً غرفة تسمى « قاعة »، كما ترى أمامك في (شكل ١٢)، وهي عالية بصفة خاصة، ولها ليوانان، واحد على كل جانب، أحدهما أكبر من الآخر. وفي سطح هذه القاعة قسم يعلو الدرقاعة مرتفعاً عن بقية السقف على شكل قبة، يتدلى في وسطه مصباح صغير يسمى « يمشراق » ذو جوانب من خشب المشربية



شكل ١٢ – (قاعة)

والدرقاعة هنا كثيراً ما تكون من غير فسقية؛ وغالباً تبلط على مثال المنضرة (المنظرة)، ومن مثالها أيضاً يوجد في القاعة صفة جميلة ودواليب ذوات حشوات دقيقة الصنع، فضلاً عما في هذه الغرفة وفي غيرها من رفوف خشبية ضيقة تمتد على طول حائطين، أو على طول الحوائط الثلاثة التي تحد الليوان مرتفعة حوالي سبع أقدام أو أكثر عن الأرض فوق الدواليب تماماً. ويوضع فوق هذه الرفوف أوان زخرفية هي للزخرفة أكثر منها للاستعمال العام[1]. وكل الغرف تعلو إلى أربع عشرة قدماً أو أكثر، ولكن القاعة أكبرها وأعلاها، وهي تمد في المنازل العظيمة غرفة استقبال جليلة

وفي كثير من الغرف العلوية في بيوت الأغنياء يوجد فضلاً عن الشبابيك نوافذ أخرى من الزجاج الملون يمثل باقات من الزهر وطواويس ورسوماً أخرى ذات زخرفة صرحة فاخرة، أو نماذج خيالية ذات أثر في النفس لطيف. وتلك النوافذ الملونة الزجاج يطلق عليها لفظ « قمرية »[2]، ارتفاعها يتراوح بين قدم ونصف وبين قدمين ونصف، وعرضها من قدم إلى قدمين؛ وهي تصف بطول القسم الأعلى من مشربية النوافذ البارزة، أو يعلو بعضها هذه المشربيات بحيث تكون مربعاً كبيراً، أو توضع في أي مكان في أعلى الجدران منفردة أو مزدوجة كل زوج بجانب الآخر. وهذه النوافذ الزجاجية تتكون من قطع صغيرة من الزجاج المختلف الألوان، المثبتة بالجص في إطار من الخشب. وكثيراً ما تزين حيطان بعض الغرف بصور غليظة للمسجد الحرام، أو لقبر الرسول (صلعم)، أو لبعض الزهور، أو لموضوعات أخرى يصورها صناع الوطنيين المسلمين الذين يجهلون القواعد الأولى للرسم النظاري،

---

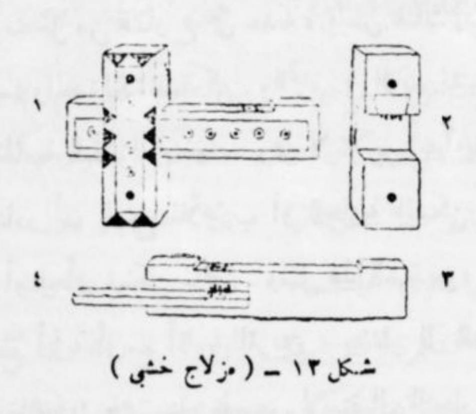
(١) في البيوت الكبيرة يوجد علاوة على القاعة الرئيسية الخاصة بالحريم مخدع مرتفع مخصص للمغنيات حتى يستترن عن أنظار الرجال من العائلة أو من الزائرين (وفي الحالة الأخيرة تنسحب النساء) وستجد وصف هذا في فصل الموسيقى

(٢) هذه الكلمة مشتقة من « قمر » ويعتقد البارون هامر بورجستال Baron Hammer Purgstall أن أصلها من خومارو ج (أو كما يسميه العرب خارويه)، وهو أحمد أمراء بني طولون، وكان يحكم مصر في أواخر القرن التاسع من الميلاد، وهي في رأيه تثبت أن فن تلوين الزجاج كان مزدهراً في مصر في هذا العصر

فيشوهون هكذا ما يحاولون أن يزينوه . وفى أغلب الأحوال تمثل هذه الرسوم الملطخة إرضاء لذوق الأتراك الردئ . وقلما يوجد نظيرها فيما بنى على الطراز العربي الجميل ، وأحياناً تزين الحوائط بعبارات عربية من حكم وغيرها تكتب على ورق بخط جميل ، ثم توضع فى أُطُرٍ مجهزة بألواح زجاجية . وليست هناك غرفة خاصة تؤثث للنوم : فالسرير يطوى أثناء النهار ويوضع على جانب ، أو فى غرفة ملحقة تسمى « خزنة » تمهد للنوم فى الشتاء . وفى الصيف ينام الكثيرون فى أعلى المنازل . ويغطى الجزء المرتفع من الأرضية المبلطة بالحجر بحصير أو بساط ويوضع فوقها ديوان ، وهذا هو الأثاث الكامل للغرفة .

وعند تناول الطعام يؤتى بصينية مستديرة توضع فوق كرسى منخفض ، ويجلس الآكلون حولها على الأرض . وليس هناك موقد[1] ؛ وإنما تدفأ الغرفة بفحم الحطب الذى يحرق فى مجامر . ولكثير من المنازل عند القمة مسقط منحدر يسمى « ملقف »[2] ويكون غالباً من ألواح خشبية أو من خشب وقصب ، ويغطى فى الحالة الأخيرة بالجص ويبيَّض من الداخل والخارج ، وفتحته تتجه نحو الشمال أو نحو الجنوب ليدخل النسيم البارد الذى يهب من هاتين الجهتين إلى « فسحة » — غرفة مفتوحة — سفلى ، وهناك عادة فسحة قبل مدخل كل غرفة أو أكثر من الغرف الرئيسية ، فيها يجلس أفراد العائلة أو ينامون صيفاً ...

ويجهز كل باب بقفل خشبي يسمى « ضَبّة » كما ترى فى (شكل ١٣) ؛ ورقم ١ من هذا الشكل هو منظر أمامى للضبة والمزلاج مسحوب للوراء . أما الأرقام ٢ ، ٣ ، ٤ فهى مناظر خلفية لأجزاء القفل كل على حدته والمفتاح . وفى رأس الضبة مسامير صغيرة (أربعة أو خمسة أو أكثر) تسقط فى ثقوب مقابلة لها فى المزلاج المتحرك كلما دفع إلى الأمام . وفى المفتاح أيضاً مسامير مطابقة لتلك الثقوب تدخل فيها فترفع المسامير الأولى وحينئذ يمكن سحب المزلاج للوراء فيفتح القفل . ويبلغ طول قفل باب الشارع أربع عشرة بوصة تقريباً . وأبواب الغرف والدواليب الخ . من سبع إلى تسع بوصات تقريباً . أما أبواب الحارات والمبانى العامة فأقفالها من النوع نفسه ، ولكن طولها غالباً قدمان أو أكثر . وليس من الصعب فتح هذا القفل



شكل ١٣ — (مزلاج خشبي)

ويلاحظ أن رسم أكثر المنازل يعوزه النظام . فالغرف مختلفة الارتفاع بحيث يجب على الإنسان أن يخطو عدة درجات عندما ينتقل من غرفة لأخرى ملحقة بها . وغاية المعمارى الأولى هى جعل المنزل خاصاً بقدر الامكان ، وخصوصاً قسم الحريم ؛ فيشيد المنزل بحيث لا تطل النوافذ على غرف منازل أخرى . ويراعى المعمارى غرضاً آخر فى بناء منازل الموسرين والعظماء وهو أن يجعل للمنزل باب سر[1] يستطيع الساكن أن يهرب منه فى حالة الخطر ، أو يمكن للعاشقين المرور منه . ومن الشائع أيضاً بناء مكان لإخفاء الكنوز يسمى « مخبأ » يكون فى جانب من المنزل . وفى حريم المنازل الكبيرة حمام يسخن على طريقة الحمامات العمومية

(١) إلا فى المطبخ حيث توجد عدة أوعية صغيرة للنار مبنية بالآجر . لهذا ولأسباب أخرى (من بينها اعتدال عادات الشعب المتسترة وانعدام الستائر فى الغرف وتشييد الأدوار بالخشب ثم تغطيته بالأحجار) قلما تحدث حرائق فى القاهرة . ولكن عندما يحدث مثل هذا الحادث يشب حريق هائل ، لأن هناك كمية كبيرة من الخشب الأبيض اليابس مستعملة فى بناء المنازل

(٢) انظر شكل رقم ٤

(١) وهذه العبارة تطلق أحياناً على الباب المؤدى إلى الحريم

وقد أشرت إلى طراز معمارى آخر على الطريقة التركية جرى عليه الأغنياء أخيراً فى بناء منازلهم وتلك المنازل لا تختلف كثيراً عن تلك التى سبق وصفها ما عدا النوافذ. فهى فى الغالب بوضع بعضها بجانب بعض تقريباً. وعند ما تشغل الحوانيت الجزء الأسفل من البناء فى شارع ما (كما هو الحال فى شوارع العاصمة الكبيرة، وفى بعض الشوارع الصغيرة) يقسم البناء العلوى عادة إلى مساكن منفصلة يطلق عليها اسم «ربع» وتلك المساكن ينفصل بعضها عن بعض، وكذلك عن الدكاكين تحتها، تؤجر للعائلات التى لا تقوى على دفع إيجار منزل بأكمله. وكل مسكن فى الربع يحتوى على غرفة أو غرفتين للجلوس والنوم، وعلى مطبخ ودورة مياه. ويندر أن يكون للمسكن مدخل من الشارع على حدته، فليس هناك إلا مدخل واحد وسلم واحد لعدة مساكن. والغرف فى الربع تشبه غرف الدور الخاصة السابق وصفها. وهى لا تؤجر أبداً بفرشها. ومن النادر أن يسمح للأعزب أو للجارية بالسكن فى تلك الربوع أو فى أى مسكن خاص. ومثل هذا الشخص، مالم يكن يعيش مع أبويه أو مع أقاربه القريبين، يضطر إلى السكن فى وكالة (خان)؛ وهى بناء مخصص لاستقبال التجار وإيداع بضائعهم (1)

وفيما عدا العاصمة وبعض المدن الأخرى، قلما توجد منازل كبيرة أو جميلة. أما مساكن الطبقات السفلى وخصوصاً طبقات الفلاحين فيبدو عليها الفقر المدقع. فأكثرها مبنى باللبن والطين وبعضها ليست إلا أكواخاً عادية. ومع ذلك فأغلبها يحوى غرفتين أو أكثر بالرغم من أن القليل منها يتألف من طابقين. ويوجد فى مساكن فلاحى الوجه البحرى، فى غرفة ما، «فرن» فى الطرف الأقصى من المدخل شاغلاً عرض الغرفة كلها، وهو عبارة عن دكة من الطوب والطين لا يزيد ارتفاعها على صدر الإنسان، وسقفها مقوس فى الداخل ومسطح عند القمة. ويندر أن يمتلك الفلاحون لحافاً يلتحفون به فى ليالى الشتاء، فينامون كلهم على سطح الفرن بعد أن يوقدوا فيه ناراً، أو يتمتع بهذا الترف الزوج وزوجته، بينما يفترش الأطفال الأرض. وفى الغرف فتحات صغيرة مرتفعة يدخل منها النور والهواء وتشبك أحياناً بقضبان خشبية. وتكون السقوف من جذوع النخل وتغطى بالجريد والسعف وسيقان الذرة، وتكسى بطبقة من الطين والتبن. ولا يتعدى أثاث المنزل حصيرة أو حصيرتين للنوم، وبعض أوعية من الفخار، ورحاً لطحن الحبوب. ويلاحظ أن فى كثير من القرى أبراجاً للحمام كبيرة مربعة الشكل مع ميل خفيف فى جدرانها نحو الداخل (مثل كثير من مبانى قدماء المصريين)، أو على شكل قالب سكر، تبنى على أسطح الأكواخ باللبن والفواخير والطين. وأكثر قرى مصر يقع على أطلال مرتفعة بحيث لا تصل إليها مياه الفيضان. ويحيط بها أو تجاورها أشجار النخل. وهذه المرتفعات تتكون عادة من بقايا أكواخ سابقة أو مدينة قديمة، ويبدو أنها تزيد بقدر ما يزيد مستوى الوادى من الرواسب وبقدر ما يزيد مجرى النهر

(يتبع) عدلى طاهر نور

(1) ومع ذلك فالفرنج الآن مألوفون من هذا النمع

ليالي القاهرة

خائن !...

للدكتور إبرهيم ناجي

الليالي ! يا ما أمرَّ الليالي ! غيبَتْ وجهكَ الجميلَ الحبيبا
أنتَ قاسٍ معذِّبٌ ليتَ أني أستطيعُ الهجرانَ والتعذيبا
إنَّ حبي إليكَ بالصفحِ سبَّا قٌ وقلبي إليكَ مهما أصيبا
يا حبيبي كانَ اللقاء غريباً وافترقنا فباتَ كلٌّ غريبا
غيرَ أني أستنجدُ الدمعَ لا أل قى مكانَ الدموعِ إلا لهيبا
آهِ لو ترجعُ الدموعُ لعيني جفَّ دمعي فلستُ أبكي حبيبا
أنتَ مَنْ بدَّلَ الوجودَ لعيني أنتَ صيَّرتَه جمالاً وطيبا
أنتَ مَنْ بدَّلَ السماءَ لعيني أنتَ صيَّرتَها ابتساماً رحيبا
أنتَ يا رقةً تذيبُ القلوبا وتذيبُ الصخرَ الأصمَّ المذيبا
غيرَ أني إليكَ جئتُ من اللي لِ وقد حانَ للدجى أن أؤوبا

ابرهيم ناجي

كنت أهـــواك

للأديب محمد قطب

كنتُ أهواكِ خاطراً في شعوري وخيالاً يجول في تفكيري
كنت أهواكِ « فكرةً » ذات حسن ورواء ، رفافةً في ضميري
كنت أهواكِ لا كحب الأناسيّ فما كنتِ غير روح طهور
كنتِ روحاً مرفرفاً في خيالي بجناحين من نقاء ونور
كنتِ معنى منّي أراكِ بروحي في ثنايا عواطفي وشعوري
كنتِ معنى مني بأعماق حسي مشرقاً صافياً صفاء الزهور
كنتُ ألقاكِ حين أسمو بنفسي عن دُنى الناس لُطّخت بالشرور
لقد طالما هبطتُ إلى الأر ض فأعليتِني لوادي النور
حيث نرتاده خفافاً من القيـ ـد ونساب كانطلاق الطيور
حيث ننسى ضآلة الأرض إذ تجـ ـمعنا وحدةُ الوجود الكبير
ونحس الحيـاة خلداً جميلاً رائق الصفو كالسنى ، كالعبير

كان هذا متاع قلبي وفكري كان فيه سعادتي وسروري
ولقد كنتِ أنت معنى من السحر طليقاً في عالمي المسحور
كنت سراً أرتاده في ضميري وضمير الحياة خلف الستور
فإذا ما لقيته طرت نشـوا ن بهذا اللقاء جد فخور !

إنما اليوم أنت عقل وجسم رابض جاثم بغـير طفور
أنت في الأرض تثقلين انطلاقي وتمدّينني كقيد الأسـير
وتريدين لي حيـاة ظلام في نظام محـدد مكرور
ما حياة الأجسام ؟ ما « واقع » الـ ـعقل ؟ سوى عالم من الديجور
كنت أهواكِ حين كنتِ خيالاً وانطلاقاً في عالم مذخور
كنت أهواكِ هل ترى كان هذا ماضياً ؟ يا لشقوتي وكفوري !
كيف أحيا وأنت لست بدنيا ي تضيئينها بنور غزير ؟
وتبثين في فنوني حيـاة وتمـدينها بخصب وفير ؟
سوف أهواكِ فكرة ذات حسن ورواء ، رفافة في ضمـيري
سوف تبقين في فؤادي ذكرى لهوى مشرق وعهد نضير

محمد قطب

ثورة !...

للأديب عبد الرحمن الخميسي

ماذا تريدُ الزعزعُ النكباءُ من راسخٍ أكتافُهُ شمّاءُ ؟
تتكسّرُ الأحداثُ تحتَ يمينِهِ وتميدُ من صرخاتِهِ الغبراءُ
ويمزّقُ الظلماتِ عن فجرٍ لَهُ فيـهِ حياةٌ عذبةٌ ورجاءُ
ويُدكُّ بالإيمانِ كلَّ كريهـةٍ وتملُّ من أوصالِهِ الأدواءُ
ويشارفُ النجمَ الرفيعَ جبينُهُ وتبثُّهُ إلهامَها الجوزاءُ
ويبيتُ ينفثُ قلبَهُ في شدوِهِ فإذا تهيمُ بصوغِها الشعراءُ
في كفِّهِ قدرٌ كَنينٌ ترتمي من حولِهِ الأهوالُ والأرزاءُ



من جديد

يقول الأستاذ الجليل (ا. ع) إن قول بعضهم: (من جديد) إنما هو تركيب غير عربي «مما جناه جهلة المترجمين، وأن كتابنا وبلغاءنا قبلوه من غير تفكير ولا بحث فوشج بلغتنا»

ثم هو يدعم حجته برد هذا التعبير إلى اللفظة الإنجليزية: Anew

ولكني وجدت الحسن بن رشيق القيرواني (٣٩٠-٤٦٣هـ) قد أورد هذا التعبير في شعره، إذ أثبت المترجم له في مقدمة كتابه — العمدة — قوله في إحدى قصائده:

قد أحكمتْ مني التجار ... بُ كل شيء غير جودي
أبداً أقول: لئن كسبـ ... ـتُ لأقبضنَّ يديْ شديد
حتى إذا أثريت عُد ... تُ إلى السماحة من جديد

فيتضح من ذلك أن هـذا التعبير قديم الاستعمال، أو هو — على الأقل — لا ينتمي إلى التعبير الإنجليزي الحديث في شيء

ثم إن ابن رشيق ممن لا يحتج بكلامه، ولكن ورود هذا التركيب في شعره مما ينفي عنه تهمة «الترجمة الخاطئة» ويميل بنا إلى الجزم بانتمائه إلى العربية الصحيحة، فما رأى أستاذنا الجليل (ا. ع) في ذلك؟

(جرجا) **محمود عزت عرفة**

١ — فرية قتل الإمام الشافعي

نشر بعضهم كلمات في «جريدة الأهرام» يؤيدون فيها خبر أن الإمام الشافعي مات مقتولاً، ورد بعضهم ذلك، وإني مثبت هنا ما يستبين منه كذب هذا الخبر. قيل أن أشهب المالكي ضرب الشافعي فشجه فرض حتى مات. وقيل إن الذي ضربه هو فتيان المالكي: أما نسبة ذلك إلى أشهب ففرية صريحة، وإن ذكرها الشمس البرماوي من غير سند، بل هـذا لا يصدر من عالم قطعاً، على ما حققه العلامة ابن حجر العسقلاني في (توالي التأسيس). وأما نسبتها إلى فتيان فإنك أيضاً. قال الحافظ بن حجر في كتابه المذكور: «لم أره من وجه يعتمد»، وقال العلامة أبو عبد الله الراعي في كتابه (إنتصار السالك) «لم يصح ولم يرد من وجه يعتمد عليه»

وَعَلَى يَدَيْهِ مِنَ الصِّرَاعِ دِمَاءُ ... وَبِنَاظِرَيْهِ تَمَرُّدٌ وَإِبَاءُ
وَبِأَصْغَرَيْهِ ثَوْرَةٌ هَوْجَاءُ ... تَنْهَارُ فِي تَيَّارِهَا الْبُرَحَاءُ
الشَّوْكُ يَا كَمْ دَاسَهُ مُسْتَهْزِئاً ... وَمَشَى تُزَمْجِرُ فَوْقَهُ الأَنْوَاءُ
وَالنَّارُ يَعْبُرُهَا فَتَسْكُنُ رُوحَهُ ... لَكِنَّهَا فِي رُوحِهِ أَنْدَاءُ
وَالصَّعْبُ تَمْحَقُهُ خُطَاهُ وَلاَ تَنِي ... تَجْتَازُهُ مَا مَسَّهَا الإِعْيَاءُ

مَاذَا تُرِيدُ الزَّعْزَعُ النَّكْبَاءُ ... مِنْ رَاسِخٍ أَكْتَافُهُ شَمَّاءُ
سَأَرُدُّهَا مَدْحُورَةً مَجْنُونَةً ... تَعْوِي فَتَعْوِلُ حَوْلَهَا الأَجْوَاءُ
وَأَعِيشُ كَالْبُرْكَانِ أَقْذِفُ مِنْ فَمِي ... حُمَماً تَمُوتُ بِنَارِهَا الأَعْدَاءُ
وَأُحِبُّ نَفْسِي وَحْدَهَا فَهْيَ الَّتِي ... لِلْحُبِّ فِيهَا حُرْمَةٌ وَوَفَاءُ
وَأَضُمُّ هَذَا الْكَوْنَ لِي وَحْدِي فَفِي ... ذَاتِي لَهُ تَسْبِيحَـــةٌ وَغِنَاءُ
هَذِي الْحَيَاةُ جَمِيلَةٌ بِشُرُورِهَا ... وَنَقَاؤُهَا مَغْشُوشَةٌ حَسْنَاءُ
وَلَقَدْ خُلِقْتُ لِكَيْ أَعِيشَ وَيَنْحَنِي ... مِنْ حَوْلِيَ الإِصْبَاحُ وَالإِمْسَاءُ
أَسْتَقْبِلُ الْفَجْرَ الْوَدِيعَ مُغَرِّداً ... وَتَلُفُّنِي مِنْ آيِهِ الأَضْوَاءُ
وَأُوَدِّعُ اللَّيْلَ الْبَهِيمَ تُضِيءُ لِي ... مِنْ حُجْزَتَيْهِ شُعْلَةٌ حَمْرَاءُ
وَأَكُونُ كَالإِعْصَارِ أَعْصِفُ بِالَّذِي ... يَعْتَاقُنِي وَتَهَابُنِي الأَعْبَـــاءُ
فِي قَبْضَتِي قَبَسٌ يُنِيرُ مَسَالِكِي ... نَحْوَ الزَّمَانِ وَغَايَتِي الْعَلْيَاءُ
تَتَجَدَّدُ الرَّغَبَاتُ فِي نَفْسِي كَمَا ... تَتَجَدَّدُ الأَكْوَانُ وَالأَحْيَاءُ
أَنَا ذَلِكَ الْجَبَّارُ لاَ تَعْنُو لَهُ ... إِلاَّ الْمَصَائِبُ وَالْمُنَى الْقَعْسَاءُ
الْبَابُ تَقْرَعُهُ رِيَاحٌ مُلِحَّةٌ! ... مَاذَا تُرِيدُ الزَّعْزَعُ النَّكْبَاءُ

(القاهرة) **عبد الرحمن الخميسي**

وفى الخبر نفسه ما ينقض عزو ذلك إليه ، لأنه عاش سنة كاملة بعد وفاة الشافعى ، ومات حتف أنفه سنة ٢٠٥ ، فلو كان قتله بمفتاح حديد – كما قيل – لما ولى الوالى (وهو السرى ابن الحكم) من الاقتصاص منه، لأنه كان قد عزره تعزيراً شديداً لما بلغه أنه سب الإمام الشافعى فى مناظرة بينهما ، فكيف لو قتله ؟!

وإنما هى أفائك مكشوفة من دعاة الفتنة ، يمكرون بها صفو الإخاء بين المذاهب . ولم يقع من صميم رجال المذاهب ما يشين ناصع أعمالهم فى دور من أدوار التاريخ مطلقاً ؛ وإنما ذلك من المتطفلين البعيدين عن الفقه وأهله . ومرض الشافعى بالباسور الشديد متواتر الخبر بأسانيده فى (توالى التأسيس) وغيره .

٢ – جميل نخلة المدور

قال الأستاذ محمد عبد الغنى حسن (فى العدد ٤٢٦) : أما نسبة جميل نخلة المدور إلى العراق فهى شائعة عندنا فى مصر . والحق أنى لم أقرأ ترجمة لهذا الباحث العظيم

وفى (الأعلام للأستاذ الزركلى) ترجمة موجزة له تتطلع بها إلى أن يسمح الأستاذ البحاث كوركيس عواد بترجمة مبسوطة : جميل بن نخلة المدور (١٢٧٩ – ١٣٢٥ للهجرة) : متأدب ، من أهل بيروت ، وسكن مصر فتوفى فيها ، اشتهر بكتابيه (حضارة الإسلام فى دار السلام) و (تاريخ بابل وأشور) ، وكان الشيخ ابراهيم اليازجى يصحح له ما يكتبه . وفى أصحابهما من يرى أن (حضارة الإسلام) لليازجى ، وأنه نحله جميلاً فى أيام ادقاع الأول وإثراء الثانى .

أحمد صفوان

« تصويب » : وقع فى كلمى فى العدد (٤٢٦) غلطتان مطبعيتان ، صوابهما : « المذل » و « البطليوسى »

تصويبات سريعة

عرض الأستاذ وجدى فى الجزء السابع من مجلة الأزهر لبعض كتب النبى صلى الله عليه وسلم والردود عليها واستهل مقاله بأنها كانت فى السنة السادسة من النبوة ، ثم شك فى ردود ثلاثة مستدرجاً فى شكه حتى أنكرها وسماها مفتريات ساذجة . وإحقاقاً للحق وإنصافاً للسيرة والتاريخ – نشير فى هذه العجالة إلى الصواب ؛ ونهيب بالأستاذ وهو رجل مسئول أن يعطى السيرة بعض عنايته واهتمامه حتى لا يورط القارئ فى مهاوى الشكوك بعد:

١ – الصواب أن إرسال الكتب كان فى السنة السادسة من الهجرة والتاسعة عشرة من النبوة

٢ – وأن هرقل والمقوقس كانا يعلمان من الكتب القديمة أن نبياً سيظهر . وموضوع التبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم معروف مستفيض جاء به القرآن الكريم وغيره مما لا يدع مجالاً لشك الأستاذ ولا استبعاده . وإنما لم يذعنا له خوفاً على الملك والسلطان ، ولا عبرة بتصديق لا إذعان معه ولا إسلام

٣ – ثم حسبك دليلاً على إسلام النجاشى أصحمة أن النبى صلى الله عليه وسلم نعاه ، وصلى عليه صلاة الغائب ، وأنه أكرم المهاجرين إليه فى الهجرتين إكراماً ، وأنه زوج النبى صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان وأصدقها عنه أربعمائة دينار ، فكيف تنكر بعد هذا إسلامه وتستبعد رده بشبهة ظهور الصنعة فيه ؟ ولئن سلمنا هذه الصنعة أن الرد مترجم قطعاً . وللمترجم أن يتصرف فى الألفاظ ما شاء ما دام أميناً على المعنى حفيظاً عليه

هذه تصويبات خاطفة ومن ابتغى المزيد فليرجع إلى السيرة الحلبية ، وإلى كتاب الجنائز فى البخارى ، وإلى شرح المواهب اللدنية ص ٣٤٦ ج ٣ . وكفى بهن دليلاً

طه محمد الساكت

المدرس بمعهد القاهرة

إلى الدكتور زكى مبارك

الحسن والفضل منفوسان على أصحابهما . لهذا ما ترانى فى هذه الكلمة متصدياً للرأى الطريف الذى ارتأيت فى أحد « شجون الأحاديث » التى تحدث قراءك كل أسبوع فى الرسالة الغراء . إن للأفكار الحسان عشاقاً يحومون حولها كما يحوم حول الحسان من بنات حواء كل عاشق ولهان . فاسمح لى إذاً أن أحوم قليلاً حول ما ارتأيت من رأى فى حديث « ما علمتنى الأيام » .

ارتأيت ألا يبدى أحد رأياً فى مسائل الأخلاق والدين والاجتماع إلا مكتوباً ، فيأمن مغبة التزيد الشنيع الذى يتزيد بعض خصاص الناس على الأحاديث ترسل إرسالاً فى المجالس والنوادى والمجتمعات . وذلك أن الكلمة المكتوبة ، خلافاً

للكلمة الملفوظة ، لا تقبل التزيد ولا التحريف المقصود ، أو غير المقصود ، وإن ركب أحد المعاندين المكابرين رأسه وحاول أن يزيد أو ينقص أو يحرف فيما كتبت ونشرت ، فأنت بما تملك من سلاح المنطق والرجوع إلى الحقائق والاحتكام إلى الرأى العام خليق أن ترده إلى محجّة الصواب أو تلقمه حجراً إن كان لا يسد فاه إلا حجر . ولا أنكر أن للرأى قوته وإغراءه وللنصيحة ما تستأهله من إصغاء تام ، لا سيما وهذه الأيام هى الأيام التى تروج فيها سوق الرواة المتزيدين المحرفين المشنعين . ولكن ، ولا بد من لكن هنا ، هل ينجو صيارفة الفكر وصاغة الكلام من مساوئ التشنيع والتزيد والتحريف لو اعتصموا بالصمت ولاذوا بالسكوت كما تنصح لهم أن يفعلوا يا دكتور ؟ ! أما أنت فقد أجبت جواب الوثن أنه ما على المرء لينجو من مساوئ التزيد والتحريف إلا أن يطبق شفتيه ويطلق قلمه ينقل إلى القارئين آراءه وأفكاره فلا تعبث بها الأهواء الخبيثة والذواكر العابثة . أما أنا ، وإنى على أشد اليقين مما أقول ، فلا أرى الاعتصام بالسكوت فى النوادى والمجالس الخاصة أو العامة منجياً من أذى التزيد والتشنيع لسبب واحد بسيط يكاد لبساطته وشيوعه لا يخفى على أحد : فقد تنجح فى أن تروض نفسك على ألا تبدى رأياً فى شؤون السياسة والدين والاجتماع إلا مكتوباً ، ولكن ما حيلتك فى هذا النفر الذين لا يمنعهم أن يسمعوا رأيك خارجاً من شفتيك أو مدوناً فى صحيفة أو كتاب فيمضون يشيعون أنك قلت كيت وكيت وارتأيت زيت وزيت ؟

هذا شيء ، والشيء الآخر وجوب الكلام أننا قد نفيد فى عرض أفكارنا على غيرنا قبل إثباتها على الورق فائدة التمحيص لهذه الأفكار وإزالة الفضول ، فنعدل عن الفكرة الجائرة ، ونعدّل الفكرة الحائرة ونثبت على الفكرة الصائبة

وشيء ثالث أن كثيراً من المفكرين لا يجدون الوسيلة إلى التدوين ، إما لأنهم خطباء مرتجلون أو لأنهم لا يجدون الصحيفة تنشر لهم ما يرتأون ، فهل يصمت هؤلاء أو يتكلمون ؟ !

بناء على هذه وبناء على أن الله خلق الحنجرة والشفتين واللسان قبل أن يخلق الورق والمداد والأقلام وحتى لا تصبح المجالس والنوادى ميادين تتبارى فيها فنون الملق والتدجيل والرياء أرى أن يتكلم كلٌّ ما أطاق لسانه وحنجرته الكلام ، ولكن فى حدود اللياقة والمنطق والاحتشام

هذا ولما كان الحديث ذا شجون فقد استرعى انتباهى من شجون حديثك ما ارتأيت من أن الكفايات يجنى بعضها على بعض ، وهى قولة حق يحسّ صدقها كل من عانى التعبير عن هواجس النفس وخوافى الحس بطريق غير الطريق الذى اعتاده ؛ ولكن هذا لا يعنى أن نخضع للأمر الواقع ونترك هذه الكفايات يبتلع بعضها بعضاً حتى لا تبقى إلا الكفاية الواحدة تستبد بصاحبها أبلغ الاستبداد ، ولا تدع له أن يقول قولاً أو يبدى رأياً أو يبدون هاجسة من هواجسه إلا عن طريقها وبأسلوبها ، وقد يكون بين الكفايات المكبوتة ما هو أولى بالبروز وأخلق بالرعاية وأحق بالترويض من الكفاية التى زاحمت ما عداها من الكفايات فزحمتها وردتها ذليلة مقهورة . ثم يجب ألا يفوتنا أن الممارسة والمران كفيلان بأن يزيلا عن الكفاية المكبوتة ما قد يحسه صاحبها من العسر عند أول ما يحاول استغلالها . فالكفاية العالية المهملة كالجواد الكريم طال ارتباطه وحُرم أن يعدو أو يجول فى طريق أو ميدان ، فيجد راكبه صعوبة فى تصريفه أول الأمر ، ولكنه لا يلبث طويلاً حتى يعود إلى ما هو خليق بالعتق والأصل الكريم من التبرز فى غير عسر ولا عناء .

أديب عباسى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

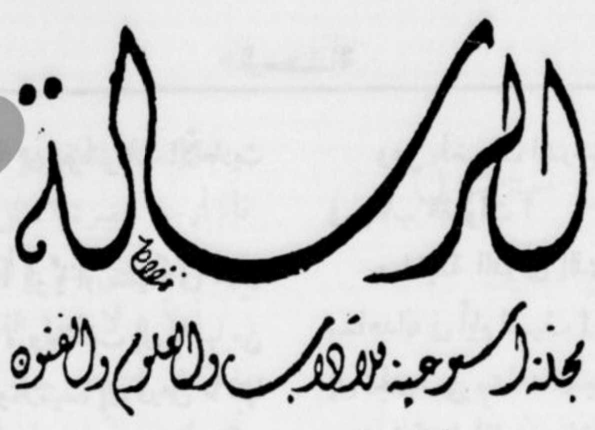


9 me Année No. 428

Lundi - 15 - 9 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٢٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ شعبان سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــرس

صـفحة

أحاديث التلاميذ المصريين

يوم العودة إلى المدارس

« لـكاتب كبير »

فى أكثر البلاد الأوربية والأمريكية يكون « يوم العودة إلى المدارس » يوماً خفيف الظل ، لطيف الروح ، وهو عند تلاميذ تلك البلاد أجمل أيام العام الدراسىّ الجديد ، ولكن ما سرّ الجمال فى ذلك اليوم ؟ أيكون فى تنسُّم أرواح المدرسة من جديد ، ولها فى قلوب أكثر التلاميذ مكان ؟ أيكون فى تسلُّم الـكتب الجديدة ، ولها جاذبية يتشوف إليها عقلاء التلاميذ ؟

لا هذا ولا ذاك ، فهنالك عُذوبة تفوق هذين المعنيَيْن الـكريمين ، وهى عذوبة الأحاديث التى يتجاذبها التلاميذ ، وهم يقصُّون أخبار الصيف وما وقع لهم فيه من نوادر وطرائف ، وما شاهدوا فيه من غرائب وأعاجيب ... إى والله ، فهنالك لذة طبيعية ، هى لذة الحديث عما رأينا وسمعنا فى أيام الراحة من متاعب الدروس ، وهى لذة لم نذقها ولم يذقها أبناؤنا ولا تلاميذنا ، ولن يلتفت إليها المربّون المصريون إلا يوم يؤمنون بأنها تصنع فى خَلق الحيوية الذوقية والروحية ما تعجز عنه المدارس والمعاهد والـكليات .

فماذا يقول التلاميذ المصريون بعضهم لبعض يوم يلتقون

فى مطلع العام الدراسىّ الجديد ؟ وما هى موضوعات الأحاديث التى يتجاذبونها فى ذلك اليوم ؟

الواقع يشهد بأننا لم نبذل جهداً قويًا أو ضعيفاً فى تلوين البلاد المصرية ؛ فلم ننشئ فيها غابات ، ولم نلتفت إلى ما بها من بُحيرات ، ولم نحاول تشويق أبنائنا وتلاميذنا إلى درس ما فيها من نبات وحيوان ، ولا فكّر جماعةٌ منا فى إعداد المناهج لأيام الصيف ، وهى فى مصر أطيب الأيام ، وإن تعرضت لوهج القيظ من حين إلى حين

الحق أننا لا نفكر فى حقوق الأبناء والتلاميذ ... وهل نفكر فى أنفسنا حتى نفكر فيهم ؟ إن عيشنا رتيب رتيب ، وأكثرنا يقضى أيام الإجازة على النحو الذى يقضى به أوقات الفراغ فى موسم الأعمال ، فلا ينتقل من بلد إلى بلد ، ولا يتيح لعينيه فرصة التطلع إلى منظر جديد ، وكذلك نحبس أبناءنا فى بيوتنا أيام الصيف . إلا أن نتلطف فنسمح لهم بالتجول فى رحاب تلك البيوت ، ثم تكون النتيجة أن يلقوا رفاقهم يوم افتتاح العام الدراسى وليس عندهم ما يتحدثون به غير المناصرات الصبيانية ، وهى لا تخرج عن التغزّل المزيّف أو الصحيح بخادمات الجيران !

أنا أريد أن يلق التلميذ رفاقه فى مطلع الخريف وعنده أشياء يحدّث بها أولئك الرفاق ؛ كأن يقول إنه قضى أياماً أو أسابيع فى رحلات طريفة تعرّف بها إلى بعض خصائص هذه البلاد ، وكأن يقول إن « بحيرة قارون » لها تاريخ لم تظفر بمثله « بحيرة التمساح » ، وكأن يقول إنه عجب من الأقدار التى فكرت منذ الأزل فى تهيئة الوسائل لإقامة خزان أسوان ، وكأن يقول إنه عرف بالضبط مواطن اللوبيين ، وكان لهم تاريخ فى مناوشة قدماء المصريين ، وكأن يقول إنه عرف المسجد الثانى ، وهو المسجد الذى بُنى بعد المسجد الجامع بمدينة الفسطاط ، وكأن يقول إنه عرف الموجب الذى قضى بأن تكون هناك منافسات ظاهرة أو خفية بين أهل الشمال وأهل الجنوب

أريد وأريد ، ولكن المدرّسين والآباء يصدوننى عما أريد فإن اعتذر الآباء بشواغلهم اليومية ، فما أعذارُ المدرسين ولهم مواسم يرون بها مع تلاميذهم ما يشاءون ، لو كانت لهم عيون ؟!

وهل لحضرات المدرسين عيون وأكثرهم يقضى الإجازات فى رحاب القهوات ؟

وما قيمة المدرس الذى لا يجد ما يحدّث به تلاميذه عن مشاهداته فى أيام الصيف ؟ ما قيمة العيون البليدة التى لا تتطلع إلى الجديد من مشاهد الوجود ؟

ولكن ما الموجب لإيذاء المدرس بهذا الهجوم العنيف وهو عضو من الأسرة المصرية ، وهى أسرة لا تفكر فى إعداد ميزانية لأيام الإجازات ؟

أيامُ العمل مرجعُها إلى البيت ، وأيامُ الراحة مرجعُها إلى البيت ، وأيامُ المرض مرجعُها إلى البيت ، ولو أُبيح لهؤلاء أن يُقبَروا فى بيوتهم لعدُّوا ذلك من دلائل التوفيق !

فيا بنى آدم ، من أهل هذه البلاد ، تذكّروا أن المثَلَ المصرى يقول : « الحركة بَرَكة » وتذكّروا أن لأبنائكم منافع من التعرف إلى أقاليم النيل السعيد ، إن كانت لكم غاية فى تثقيف أولئك الأبناء

ماذا يقول المدرس لتلاميذه يوم العودة المدرسية ؟

وماذا يقول التلاميذ بعضهم لبعض فى ذلك اليوم ؟

ضُربَ حجابُ الغفلة على أولئك وهؤلاء ، فلن يجدوا غير الحديث عن صفّارات الإنذار وأسعار القطن وغلاء الأقوات وهو حديثٌ مُعاد لا تنشرح لسرده القلوب

لأولئك وهؤلاء أن يعتذروا بعجزهم المادىّ عن مشاهدة بعض الأقطار الشرقية أو الغربية ، فما عذرهم فى العجز عن مشاهدة الأقاليم المصرية ؟

أيريدون أن تقوم وزارة المعارف بتكاليف تلك الرحلات ؟

كنت أرجو أن يكون فى أنفس المدرسين والتلاميذ ما يوجب جَوْب الأقاليم المصرية مشياً على الأقدام ليعرفوا كيف يكون « طولها شهرٌ وعرضها عَشْر » ، كما قال عمرو بن العاص ، ولكن ... ولكن أبناء هذه البلاد مصريون لا أعراب !

تحرّكوا قليلاً ، يا أبناء مصر ، فالحركة فى أسوأ أحوالها أفضلُ من السكون ، لأن الحركة حياة والسكون موت ، أعاننى الله وإياكم على التخلق بأخلاق الأحياء

« كاتب »

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الإسلام الصحيح — القدوة الصالحة أنفع من البرهان — مناجاة روحية — عجز المدنية الأوربية من إقراء السلام لا يجب أن يصرفكم من فهم روحها الأصيل ...

الإسلام الصحيح

رجاني الأستاذ أحمد كامل مدرس علم النبات بمدرسة مشتهر الزراعية أن أجيب عن أسئلة وجهها إليّ حضرة الأديب تادرس مسيحة وكيل بريد أخطاب ، والأسئلة تدور حول التعريف بالإسلام الصحيح

ويظهر أن هذه الأسئلة وُجّهت من قبلُ إلى حضرة الباحث المفكر الأستاذ فريد وجدى ، كما وُجّهت إلى بعض الوعاظ ، وإلى أحد الأساتذة بكلية أصول الدين

ويظهر أيضاً أن صاحب الأسئلة رجلٌ قد اطّلع على كثير من المباحث الإسلامية ، فخطابه يشهد بأنه قرأ بعض التفاسير ، ونظر في بعض المذاهب ، وكوّن لنفسه فكرة واضحة أو غامضة عن العقيدة الإسلامية ، بحيث يستطيع المجادلة في كثير من المسائل التي يدور حولها الخلاف بين المسيحيين والمسلمين

ويظهر كذلك أنه يتوهم أن الإجابة عن أسئلته ضربٌ من المستحيل ، وإلا فكيف جاز له أن يتحداني فيقول : هذا موطن الشجاعة إن كنت من الشجعان ؟ ! !

وأجيب بأن هذه الأسئلة ترجع إلى غرضٍ من اثنين : الأول هو الرغبة في درس بعض المشكلات الدينية ، والثاني هو الشوق إلى فهم أسرار العقيدة الإسلامية . فإن كان الحافز هو الغرض الأول ، فأنا غير مستعد المشاركة في هذا الجدال ، فقد علمتني التجارب أن المجادلة التي تقع بين رجلين من دينين مختلفين ، تنتهى غالباً إلى تعميق هوّة الخلاف ، ولا يجنِى منها غير ثمرة الفُرقة والشقاق ، إلا أن نكون وصلنا إلى أشرف الغايات في التفاهم العلمى ، وذلك غير مضمون ، ما دام الجدل قد انتقل إلى الجرائد والمجلات ، فقد ينقلب الجدل إلى لجاجة من حيث لا نريد

وإن كان الحافز هو الشوق إلى فهم أسرار العقيدة الإسلامية فأنا أرجو حضرة السائل أن يراعى المسائل الآتية حين ينظر في الكتب التي تشرح أصول الدين الإسلامي :

أولاً : لا يجوز القول بأن الإسلام مسؤول عن جميع ما سُطّر باسمه عن حسن نية من أقوال بعض الوعاظ والفقهاء ، حتى يجوز اتهامه بقبول الأباطيل والأضاليل ، كالذى يقع في كلام أهل الغفلة عن روح الإسلام ، وهو من أوهامهم براء

ثانياً : لا يجوز الاعتماد على ما قاله بعض أئمة المسلمين في ساعة غضب ، كالذى نقله الأديب تادرس مسيحة عن الشيخ محمد عبده إذ يقول : « لو أخذنا مسلماً من شاطئ الأطلنطى ، وآخر من تحت جدار الصين ، لوجدنا كلة واحدة تخرج من أفواههما وهى : إنا وجدنا آباءنا ... »

فتلك كلة قالها الشيخ محمد عبده في ساعة من ساعات غضبه على من كان يناوئه من رجال الدين بلا فهم ولا إدراك ، وإلا فهى كلة مفتراة على المسلمين ، وفيهم ألوف الألوف من أهل البصيرة واليقين

ثالثاً : يجب أن يكون مفهوماً أن تقاليد الإسلام تعرّضت لما تعرضت له تقاليد سائر الديانات من التشويه والتحريف ، فمن الظلم أن يؤخذ الإسلام بعبارات دُوّنت في عصور الظلمات ، ولو نُسبت إلى بعض الأكابر من العلماء

رابعاً — مرّت أوقات على الباحثين من المسلمين وهم لا يفطنون إلى خطر التساهل في سرد الظنون والفروض ، ولو عقلوا لأدركوا أن ذلك التساهل ستكون له عواقب سود ، كأن يصبح حجة ينتفع بها خصوم الشريعة الإسلامية ، وهم قد انتفعوا بما في بعض التفاسير من أباطيل

خامساً — يجب أن نفهم أن الإسلام قد سيطر على كثير من أمم الشرق والغرب ، وهذه السيطرة نفعته من جانب وأضرته من جانب : نفعته لأنها كانت شاهداً على قوته الذاتية ، وأضرته لأنها كانت السبب في مزج روحه الأصيل بأوشاب الآراء الموروثة عن تلك الشعوب ؛ فمن العدل والإنصاف أن ننزه الإسلام عما أضيف إليه بسبب الغفلة أو بقصد التضليل

سادساً — قد اختلف المسلمون أنفسهم لأسباب عنصرية أو سياسية ؛ وكان من نتائج هذا الاختلاف أن يتأثر المؤلفون بالنزعات العنصرية والسياسية ، وهى نزعات توجب على الباحث

أن يحترس ويحتاط ، حتى لا يُحمّل الإسلام ما لا يطيق ، ولو كان من غير المسلمين ، لأن نزاهة الحكم واجبة على الجميع

سابعاً — لم يَغفُل أكابر المسلمين عما أضيف إلى الإسلام من الأباطيل ، فلكلّ اعتراض له دفع ، وكل شبهة لها تفنيد ، فإن رأيت مايسوءك من كلام بعض الوعاظ أو بعض الفقهاء فارجع إلى ما دُحض به على ألسنة الموهوبين من أهل الإسلام الصحيح ، وذلك في مقدورك إن أردت الاهتداء

ثامناً — بيننا وبين ظهور الإسلام نحو أربعة عشر قرناً ، فحدثني أيها المنصف ، حدثني كيف تمرّ هذه القرون بدون أن تجني على ذلك الدين بالتحريف والتزييف ؟ وهل سمعت برأي عاش أربعة عشر عاماً بدون أن يتعرض للمسخ والتشويه ؟ فكيف يعيش دينٌ أربعة عشر قرناً وهو في أمان من أهل التزيد والافتراء ، وله ملايين من الخصوم والأعداء ، فضلاً عما له من الأصدقاء الجهلاء ؟ !

إذا صحّ هذا — وهو صحيح صحيح — فكيف يؤخذ الإسلام بآراء مدخولة أملاها الحقد الأسود ، أو صاغها التودد إلى بعض الوثنيات البوائد في الممالك الأسيوية والإفريقية والأوربية في عصور غاب عنها الناقد الرشيد ؟ !

تاسعاً — المصدر الأصيل للعقيدة الإسلامية هو القرآن ، فماذا في القرآن من اللبس والغموض ؟ وماذا فيه مما يوجب الشك والارتياب ؟

في القرآن كلمات تحتاج إلى تأويل ، لبعد العهد بيننا وبين ظهور القرآن ، وأنا حاضر لتأويل تلك الكلمات ، على شرط أن يكون مناظريّ طلاب فهم وحق ، لا عشاق لجاجة وعناد

عاشراً — عاش الإسلام نحو أربعة عشر قرناً برغم القواصف والعواصف والأعاصير ؛ وأنشئت في دحضه وتزييفه ألوف الألوف من الخطب والرسائل والقصائد والمؤلفات ، فهل يتصور عاقل أن الباطل تكون له مثل هذه القوة العاتية ؟

إن كان للباطل مثل هذه الصلاحية للبقاء فسأغير رأيي ، وسأقول إن الثبات على الخطوب من صور الحق الغلاب ، ولو قيل في معنى الثبات ما قيل « بغض النظر عن عقيدتي الصوفية في الأنس بجميع صور الوجود »

والإسلام باق ، ولن يبيد أبداً ، لأن روحه مقبوسة من جوهر الخلود

القدوة الصالحة أنفع من البرهان

ويرجو الأديب نادرس مسيحة أن اقنعه بمزايا الإسلام ليسلم . وأقول : إن الكمية لا تهمني ، ولو كان الأمر بيدي لشذبت الإسلام من بعض النصون الطفيلية ، فما انتصر الإسلام بالأرقام وإنما انتصر بالمعاني ، وهذا الأديب قد وعد بمتابعة ما أكتب في هذا الموضوع الدقيق ، فليتدبر هذا القول :

لا ينتقل الرجل من دين إلى دين بفضل الحجج والبراهين إلا في حال التجرد من مستور النوازع والأهواء ، ولو كان الناس يصغون في كل وقت إلى صوت العقل لأراحوا كواهلهم من ألوف المتاعب والمصاعب

فلم يبق إلا باب واحد من أبواب الهداية ، وهو القدوة الصالحة ، القدوة التي تخلق الجاذبية الروحية فتنقل القلب من مكان إلى مكان بلا دعوة ولا نداء

وهذه القدوة هي التي استطاعت في الأزمان الماضية أن تحول جماهير الأقباط إلى الإسلام عن رغبة صحيحة وقلب سليم

وكان للأقباط الذين أسلموا فضل كبير في إذكاء الروح الإسلامي بالديار المصرية . فكان منهم نوابغ في الفقه والتوحيد ، واستطاع جماعة منهم أن يصلوا إلى أعظم المناصب الإسلامية بجدارة واستحقاق ، وليس أمام الإخلاص مستحيل

وما أحب أن أكتم رغبتي الشديدة في وحدة الأمة المصرية من الوجهة الدينية لتنعدم أسباب الشقاق الذي يثور من وقت إلى وقت ، ولنقضي على الفتنة التي تهددنا من حين إلى حين باسم الأكثرية والأقلية ، وهي فتنة لا ينتفع بها غير الأعداء .

ولكن هذا الغرض لن يتحقق في عام أو عامين ، فماذا نصنع إلى أن تريد المقادير أن يتحقق ؟

نعتصم بالأخوة الوطنية فلا يبغي بعضنا على بعض ، ولا يأثم فريق في حق فريق بسبب اختلاف الدين

والأخوّة الوطنية تحتاج إلى حراسة قوية ، وهي لا تقوم إلا على قواعد من الأخلاق الصحاح . والخُلُق الصحيح يوجب أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك . ويوم نتحلى بهذا الخلق تنعدم الفوارق أو تكاد بين المختلفين في الدين ، ويشعر المسيحيّ في مصر بجاذبية نحو الإسلام ، وهي الحجر الأول في بناء الإخاء

وهنا شبهة يجب عرضها بلا مواربة لنعرف كيف نهدمها

من الأساس ، وهى الشبهة التى تصيح وتصرخ فى كل يوم بأن اختلاف الدين له دخلٌ فى المشكلات الماشية المتصلة بالوظائف الرسمية

وأساس الشبهة أن المتعلمين من الأقباط كانوا قبل عشرين سنة يجدون الوظائف بلا صعوبة ، وهم اليوم لا يجدون وظائف إلا بمشقة وعناء

هذا حق ، ولكن تعليله سهل ، فالمتعلمون قبل عشرين سنة من المسلمين والأقباط كان عددهم أقل من عدد الوظائف ، فكان الشاب المتعلم يجد وظيفة تريحه من هموم البطالة ، ولو كان من حملة الشهادة الابتدائية

أما اليوم فعدد الوظائف أقل من عدد المتعلمين ، وهى أزمة تواجه المسلمين بأكثر مما تواجه الأقباط ؛ بسبب النسبة العددية ؛ والشبان الأقباط يعرفون هذه الأزمة بلا جدال ، والشكوى لا تصدُر عنهم ، وإنما تصدُر عن آبائهم الذين نشأوا فى عهود الرخاء ، فهم يظنون أن التعصب الدينى هو الذى ضيّق ميدان الوظائف ، ولا يدرون أن قانون العرض والطلب هو الذى خلق ذلك الضيق

وإنما نصصت على هذه الشبهة لأنها موجودة بالفعل ، ولأن أذاها يواجهنا فى كل يوم ، ولأن التحرر منها يبدد غيوماً تعكر سماء هذه البلاد ، بدون أن يكون للمسلمين يدٌ فى حوْك ظلالها السود

الشاب القبطى قد يتجاهل الواقع فيعلل نفسه بأنه مضطهد لقبطيته ، فكيف أعلل الظلم الذى أعانيه منذ أعوام طوال واسمى محمد ورئيسى اسمه محمد ؟

وأنا بعد هذا أرجو أن يفتح الله علينا جميعاً فلا نعانى أزمات هذا الزمان ، ولا يفسد ما بيننا بسبب المعاش ، وهو غاية ثانوية فى حيوات أصحاب المبادىء والآراء

أتراني أجبتك بصراحة وصدق ، يا وكيل البريد فى أخطاب ؟

مناجاة روحية

كدت أعرف بعض الخصائص التى يمتاز بها قلبى وروحى لطول ما أجهدت نفسى فى التعرف إلى ما ينطوى عليه القلب والروح من أسرار وغرائب وأعاجيب ، وقد كنت أخشى أن ينقضى العمر قبل الظفر بذلك المطلب المنشود

وأظهرُ ما عرفت من تلك الخصائص هو الشوق إلى إدراك سرائر الوجود ، بما فيه من النقائض لمن يجهل ما أقيم عليه من الأساس ، كأن يجتمع فيه البغض والحب والدمامة والجمال

وأعجبُ العجب أن يصح عندى أنْ ليس فى الدنيا شرٌّ بالمعنى المعروف لهذا اللفظ ، فما مرَّت بى أزْمةٌ إلا أحمدتُ عواقبها ، وعددتُها من فضل المنعم الوهاب ، ولا تنكّر صاحبٌ أو صديق إلا كان ذلك التنكر فرصة لدرس أهواء النفوس والقلوب

وأعجب من هذا أن تكون الوشايات والنمائم والأراجيف مصدر قوة واستعلاء ، فما أذكر أبداً أنى تهيبت أقوال الناس ، أو نصبت لأوهامهم أى ميزان ، إلا أن يلتفت ذهنى إلى الاستفادة من ذلك فى أبواب التعليم والتثقيف

وأنا أبتسم كلما رأيت ناساً يتوهمون أن فى مقدورهم أن يأمرونى فأطيع ، كأنهم يجهلون أنى أؤرّق جفونهم عامداً متعمداً ليعرفوا كيف يكون الاستصباح بظلام الليل ، وليهتدوا إلى السر المكنون فى سواد المداد

والحق كل الحق أنى رجل طبيب القلب ، وتلك الطيبة هى سر شقائى بالناس ، فأنا أريد أن أرفع الغشاوة عن قلوب أهل الجمود ، ولن تُرفع تلك الغشاوة بغير مِشرَط يؤلم ويوجع ، وإن كان لا يريد غير النفع الصحيح

ولو كانت غايتى من حمل راية القلم هى الانتفاع المادى لسلكت سبيلاً غير هذا السبيل ، فللأقلام ميادين تصل بأصحابها إلى الثراء العريض ، ولكن أين هذا مما أريد ؟ وما قيمة الدنيا وأمانىّ لا تتسع لغير وجبة واحدة فى كل يوم ، وما أراد الله أن أعرف معنى الظمأ والجوع فى غير المعنويات ؟

غايتى الأصيلة هى رفع الغشاوة عن قلوب الجامدين من أبناء هذا الجيل . والجهاد فى طب القلوب قد يفضُل الجهاد فى طب العيون

فما ذلك الصراخ الذى ينبعث من بعض الجرائد والمجلات ؟

وما بال قوم يتشهدون على أنفسهم بالضجر من كلمة الحق ، وكان الظن أن يكونوا رسل هداية وتوفيق لم

وما بال فلان يحشد جيشاً من الثرثارين لإيذائى ، ولى عليه فضلٌ سيذكره صاغراً أمام صاحب العزة والجبروت ، إن كان لمثله يوم البعث مكان ؟

أما بعد ، فما أردت بهذه الكلمات غير المناجاة الروحية ، وأناجى روحى فأقول :

من أى جوهر صاغك الله ، أيها الروح ، وقد بقيت سليما على رغم ما اعترض طريقك من ألوف الصعاب والعراقيل ؟

واجهتَ بلادك وزمانك بكل ما تريد بلا تهيب ولا إشفاق ، وبَغَى عليك الأصدقاء قبل الأعداء ، ثم بقيتَ رحيا بالعدوّ ، وبَرًّا بالصديق ، كأنك لم تدرك ما بيَّتت أولئك وهؤلاء

من أى جوهر صاغك الله ، أيها الروح ، وقد غلبتَ من غلبتَ وقهرتَ من قهرت ، مع الترفق الشديد بصرعاك ؟

يمرّ بك المناضلون مرور الطيف العابر فلا يبقون غير لحظات ثم يختفون ، وإن كان مرورهم أعنف من الكابوس الثقيل ؛ ثم تبقى أنت أنت فى سنة ١٩٤١ كما كنت فى سنة ١٩١٩ ولا يكون لمناضليك غير الازدهاء بأنهم ساجلوك ساعةً من زمان ، وذلك حظهم فى هذه الدنيا من أصول التشاريف

أيها الروح ، صاغك الله كما أراد ، فله الحمد وعليه الثناء

أسرار المدنية الأوربية

لم تمر على أوربا أزمة أقسى وأعنف من الأزمة التى عانتها فى العامين الأخيرين ، فقد اندحرت ممالك كنا نرى اندحارها من المستحيلات ، واستطالت شعوب لم نكن ننتظر أن تستطيل وصح عند الأكثرين أن المدنية الأوربية أفلست كل الإفلاس ، بعد خيبتها فى إقرار قواعد العدل والسلام

وأقول إنه يجب أن ندرس أوربا من جديد ، وأن نستعد لدفع شرها كل الاستعداد ، فمن الظاهر أن طمع طغاتها لن تكون له حدود ، وإن عللونا بمعسول الأمانى والمواعيد

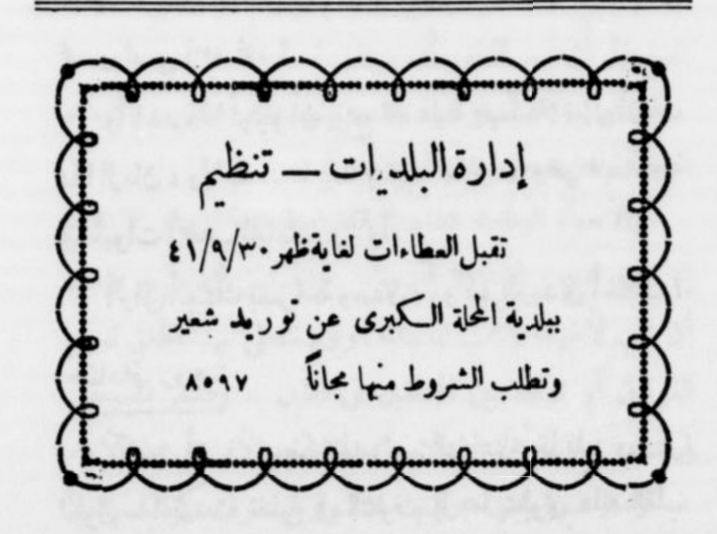
وآفتُنا منذ أزمان هى الغفلة عن مرامى المدنية الأوربية ، وفهم ما تقوم عليه من قواعد وأصول ، وقد نعرف ثم نكتم ليصح ولاؤنا للشرق ، كأن من الحرام أن ندل قومنا على مصادر الحيوية فى أقطار الغرب !! وهناك آفة أفظع وهى غفلة بعض من عاشوا فى أوربا عن التعرف إلى مواهبها العلمية والروحية والاقتصادية والحربية ، فأنا أعرف شخصاً عاش فى تلك البلاد سبعاً وعشرين سنة ثم عاد وهو هو لم يتغير ولم يتبدل ، ولم يعرف من خريطة البلد الذى عاش فيه غير خطوط معدومة المدلول ، ثم انسجم حين عاد مع بيئته القديمة بلا تحفظ ولا احتراس ، وكان الظن أن يغيرها من حال إلى حال ، ولكنه عاش فى أوربا معصوب العينين فلم يعرف ما فيها من أسرار لمجدٌ قومه حين يعود بزاد جديد

ولهذا الشخص أمثال وأمثال ، وجهلهم أو رياؤهم هو السبب فى صد مصر عن فهم الاتجاهات السياسية والاقتصادية فى البلاد الأوربية

إعرفوا أوربا . إعرفوها . إعرفوها ، لتتقوا شرها عن بصيرة وإدراك ، واحترسوا ممن يوهمكم أن أوربا ذهبت ولن تعود

أوربا المهلهلة باقية إلى أزمان وأزمان ، فادرسوها بعناية لتعرفوا مسالكها الظاهرة والخفية ، ولتقفوا على غرضها المستور من التودد إلى أقطار الشرق ، فالجسم المزخرف الأملس هو أظهر شمائل الحية الرقطاء ، وما قال أحد إنه رأى أنياب الحية إلا بعد التزود من سمها الزعاف ... والله الحفيظ ، وبه نستعيذ

زكى مبارك



كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٤ —

جمع المراجع والأصول التاريخية

الخطوة التالية بعد اختيار موضوع البحث التاريخى هى عملية جمع المادة التاريخية عن ذلك الموضوع سواء من المراجع العامة والخاصة أو من المصادر والأصول المطبوعة والمخطوطة، مع جمع ودراسة الآثار والخلفات التى تتعلق بذلك الموضوع[1]. والمراجع العامة والخاصة تفيد فى إعطاء فكرة عامة عن العصر الذى يكون موضوع البحث جزءاً منه. وعدم الاستفادة بما كتبه السابقون يعتبر مضيعة للوقت وإخلالاً بشروط البحث العلمى ؛ فينبغى على كل جيل من المؤرخين أن يعرف ما كتبه السابقون، وأن يبدأ حيث انتهوا، وأن يعمل مؤرخ اليوم لكى يمهد لمؤرخ الغد. والمراجع العامة والخاصة تساعد أيضاً فى كشف بعض الأصول التاريخية المجهولة وتفتح آفاقاً جديدة للبحث. والباحث الذى يكتب فى ناحية من تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر مثلاً ينبغى أن يدرس بعض المراجع التى تناولت تاريخ مصر منذ أقدم العصور، كما يدرس بعناية المراجع التى تبحث فى تاريخها أثناء القرن الثامن عشر، ويطالع ما كتبه الرحالون الذين زاروا مصر من الشرق ومن الغرب، ويدرس ما دونوه من المعلومات والمشاهدات، وذلك لكى يفهم تاريخ العهد المعين الذى يرغب فى الكتابة عنه

وكيف يمكن للباحث أن يعرف كل المراجع العامة والخاصة والأصول المطبوعة عن الناحية التى يرغب فى دراستها؟ الإحاطة بذلك ليست أمراً سهلاً. ويمكن الباحث فى أول الأمر أن يستعين بالاطلاع على بعض المقالات فى دوائر المعارف فيعرف

(١) يسمى الدكتور أسد رستم عملية جمع المصادر والأصول بالتفتيش بمعنى الجمع، وأخذ ذلك عن المحدثين مثل أبو حاتم الرازي من أعيان القرن ٣ هـ. راجع كتاب الدكتور رستم عن مصطلح التاريخ ص ١ – ٦

بعض المراجع والأصول التى تهمه. ثم يرجع إلى كتب البيبليوغرافيات (المراجع) التى تتناول موضوع دراسته.

ولقد أصدر الغربيون أنواعاً مختلفة من البيبليوغرافيات، فمنها البيبليوغرافيات العامة ومنها الخاص بقطر أو بمصر أو بشخصية معينة ؛ وبعضها يكتفى بذكر المراجع والمصادر وأماكن وسنى طبعها وعدد صفحاتها ؛ بينما البعض الآخر يعطى مذكرات وصفية موجزة عن تلك المراجع والأصول المطبوعة[1]. إنما هذا لا يكفى، لأن كتب المراجع لا تكون وافية فى كل الأحوال، وهى فى الغالب لا تذكر شيئاً عن المقالات التى تنشر فى المجلات التاريخية وهى كثيرة ومتنوعة ؛ فمن الضرورى إذاً مراجعة فهارس هذه المجلات للالمام بما كتب فيها عن الموضوع المعين. وكذلك يلزم الباحث أن يراجع فهارس دور الكتب المطبوعة وغير المطبوعة. ويجمع الباحث من كل هذه النواحى

(١) بعض أمثلة من كتب البيبليوغرافيا :

١ — International Bibliography of Historical Sciences
Edited by the international committee of Historical Sciences, Washington

ويصدر هذا المجلد مرة فى السنة ابتداء من ١٩٢٦ ويشترك فى وضعه طائفة من العلماء والباحثين، وله لجان فرعية فى أقطار أوروبا وأمريكا وهو ينعصر قوائم مختارة بالمراجع والأصول التاريخية التى صدرت فى عام مكتفيا بذكر مكان وتاريخ الطبع مع عدد صفحات الكتاب. والمؤلفات التى يوردها تشمل جميع نواحى التاريخ ؛ فتتناول طرق البحث التاريخى والعلوم المساعدة ودور الأرشيف والمؤلفات العامة من التاريخ الدستورى والاقتصادى ومن تاريخ الحضارة وعصر ما قبل التاريخ وشعوب الشرق القديم وتاريخ اليونان والرومان وتاريخ الكنيسة القديم وتاريخ بيزنطة وتاريخ العصور الوسطى فى الغرب ونواح مختلفة من التاريخ الحديث مثل التاريخ الدينى والثقافى والاجتماعى وتاريخ العلاقات السياسية وتواريخ آسيا وأفريقيا وأمريكا ...

٢ — Bibliographie Critique des Principaux Travaux parus sur l'Histoire de 1600 à 1914 en 1932 et 1933. Paris, 1935

نشرت هذا المجلد جمعية التاريخ الحديث فى باريس. وهو يعطي قوائم عن نواح من التاريخ العام والخاص مع وصف موجز لما تتناوله من الموضوعات

٣ — من كتب البيليوغرافيات عن قطر معين نجد عن سوريا مثلا :

Röhricht, R. : Bibliotheca Geographica Palaestinae. Berlin, 1890
Masson, P. : Bibliographie Française de la Syrie. Marseille, 1919

ونجد عن مصر :

Ibr. Hilmy, Prince : The Literature of Egypte & The Soudan 2 vols. London, 1886—88
Maunier, R. : Bibliographie économique, juridiqne et sociale de l'Egypte moderne (1798—1916) Le Caire, 1918

ونجد عن تاريخ كمال أتاتورك مثلا :

Melzig, H. : Atatürk Bibliyografyasi. Ankara, 1941

أسماء المراجع والأصول التى تعنيه ؛ ويحسن أن يستعين بعمل فهرس أبجدى على جذاذات من الكرتون ويضع عليها ملاحظاته ؛ وإذا اقتضى الأمر أن يكتب ملاحظات مطولة فليدونها على أوراق خاصة . ثم يبدأ فى قراءة الكتب التى يصل إليها ويأخذ منها مذكرات بالنسبة الأصلية فى المواضع الهامة على الأقل ، مع وضع أرقام الصفحات ؛ ويرجىء قراءة الباقى لحين الوصول إليه بتصويره بالفوتوستات أو بالسفر إلى مكان وجوده

ثم تأتى الأصول التاريخية التى لا توجد فى أغلب الأحوال كتب بيليوغرافية تدل عليها . ومن هذا النوع نجد الوثائق والرسوم والصور ومخلفات الإنسان ... والوثائق عبارة عن القوانين والأوامر والمنح والأحكام والفتاوى والعقود والمراسلات والمعاهدات والمذكرات والتقارير . وهى تحفظ فى الأصل عند الملوك والأمراء وفى المحاكم والأديرة أو عند الأشخاص العاديين .

وليس من الضرورى وجود وثائق وافية عن كل حوادث التاريخ ؛ فالكثير منها تنطمس آثاره وتزول دلالاته لأنها تتعرض فى ظروف مختلفة للتلف والضياع مثل ظروف الثورات أو الحرائق أو الرغبة فى التخلص منها وإتلافها عمداً عند ما تكون فى حوزة من لا يفهم قيمتها التاريخية ، أو من يهمه منع تداول معلوماتها بين الناس . وبذلك يضيع الكثير منها بالنسبة للتاريخ ؛ وكأن الأفكار والحوادث التى كانت تحملها فى طياتها وثناياها لم تكن فى الوجود . وعلى ذلك فإن المؤرخ كثيراً ما يجد فجوات فى التاريخ لا يستطيع أن يملأها . وستبقى حلقات كثيرة من التاريخ مجهولة إلى الأبد ؛ وليس هناك ما يمكن أن يعوض عن ضياع هذه الوثائق ؛ وحيث لا توجد وثائق لا يوجد تاريخ . وينطبق ذلك على كل آثار الإنسان

وعملية البحث والكشف عن الوثائق Heuristic هى أهم عملية أساسية لكتابة التاريخ . وكشف كمية من الوثائق الهامة عن الموضوع المعين هو الذى يحدد إمكان الاستمرار فى بحثه أو العدول عنه إلى غيره . والباحث الذى يكتب التاريخ وقد فاته الوصول إلى مجموعة من الوثائق الأساسية لا يكون لبحثه قيمة علمية مهما كانت كفاءته وقدرته على العمل . والباحثون الأولون فى التاريخ قد لاقوا صعوبات جمة فى سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية ؛ وإذا كانت الحوادث التى قصدوا أن يكتبوا عنها قريبة العهد من العصر الذى عاشوا فيه ، فإنهم كانوا يرجعون إلى أقوال بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث ويوازنون بينها ويستخلصون منها ما يمكن الوصول إليه من الحقائق التاريخية . على أن هذه الطريقة لا تكون سليمة دائماً نظراً لتعرض الروايات الشفوية للتغيير والتعديل ، والأفكار والآراء والأقوال الشفوية إذا مادونت أصبحت مسجلة ووقف تغييرها إلى الحد الذى وصلت إليه .

فالوثائق ضرورية جداً للعهد القريب من المؤرخ فضلاً عن العهد البعيد عن الزمن الذى عاش فيه . والوثائق فى أغلب الأحيان تنتقل بالتدريج من حوزة الأشخاص إلى الأماكن العامة وتحفظ فى دور الأرشيف ودور الكتب وفى المتاحف والكنائس

والكثير من الوثائق المحفوظة فى الأماكن العامة قد وضعت عنها كتالوجات وفهارس مختلفة ؛ إلا أنها فى أحوال كثيرة أيضاً لا تزال غير وافية ، وأغلبها يكتفى بوضع أرقام مجلدات الوثائق مع بيان الشهور والسنوات التى تتناولها ، بدون أن تصف محتوياتها ، وهى بين قديم وحديث ومخطوط ومطبوع . كما أنه توجد وثائق فى مصر وفى الخارج لم تنظم ولم توضع عنها الفهارس الأولية بعد ، وهذه بالنسبة للباحثين تعتبر فى حكم المجهولة ، ولا يمكن الاستفادة منها قبل تقسيمها وترتيبها ترتيباً أولياً على الأقل ، وهذا كله يبين صعوبة البحث عن الوثائق . إلا أن التقدم مستمر فى هذا الباب . ولقد وضعت كتالوجات وصفية لبعض نواح من الوثائق فى دور الأرشيف بالغرب ؛ واهتمت الحكومات الغربية بإرسال بعثات خاصة إلى الخارج لكى تبحث فى دور الأرشيف الأجنبية عن الوثائق التى تهم تاريخ بلادها وعند ما فتح أرشيف الفاتيكان للباحثين أنشأت كثير من الدول معاهد خاصة فى روما لكى يشتغل أعضاؤها بجمع ونسخ ووضع فهارس عن الوثائق التى تهمها فى الفاتيكان ، فهكذا فعلت انجلترا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وبلجيكا والدانمرك . . .

وكيف يمكن للباحث المبتدئ أن يشق طريقه فى هذا البحر المجاج ؟ لا ريب فى أن طريق البحث وعر شاق ؛ ولا بد من الصبر والجلد ، ويستطيع الباحث أن يتصفح فهارس وكتالوجات الوثائق التى يظن أنها تحوى شيئاً يعنيه ، وبعض هذه الفهارس

مطبوع وأغلبها مخطوط . ومن حسن حظ الباحث أن تكون بعض الوثائق اللازمة له قد حصرت ونظمت ووضعت عنها الفهارس . ولكن ستبقى أمامه دائماً مناطق مجهولة لا بد من الإقدام على كشفها بنفسه . والباحث عن الوثائق يشبه المنقب عن الآثار الذى يظل سنوات عديدة يبحث فى مناطق مختلفة حتى يعثر فى النهاية على ما يرضيه ويُرضى العلم . ولنأخذ بعض الأمثلة العملية عن جمع الوثائق والأصول التاريخية . فالباحث فى دار المحفوظات المصرية بالقلعة عن تاريخ محمد على قائد الجند الألبانى ، بعد رحيل رجال الحملة الفرنسية عن مصر وقبيل ولايته حكم مصر ، سيجد مادة قد وضعت عنها بعض السجلات الأولية فيستعين بها فى فحص بعض دفاتر مرتبات العساكر الألبانيين ابتداء من ١٢١٧ هـ ، وسيجدها مكتوبة بخط القيرمة ؛ فلا بد من الاستعانة على قراءتها بمن يعرف ذلك الخط ، حتى يتعلم الباحث قراءته بنفسه . وسيعثر الباحث فى هذه الدفاتر على اسم « محمد على أغا سرچشمه ء عساكر أرنؤود[١] » . وسيعلم بعض أشياء عن مرتباته وعن تكاليف عساكره . ثم يفحص أيضاً دفاتر « كشيده ء ديوان مصر[٢] » ؛ ويجد أنها تحتوى على صور فرمانات سلطانية وأوامر باشوية بعضها يخص محمد على أغا . ثم يبحث بعض الأوراق التركية التى لم يتم وضع سجلات لها ، وهى عبارة عن بعض أوامر باشوية أو تذاكر ديوانية خاصة بمرتبات جند محمد على[٣]

وقد يسافر الباحث فى ناحية من تاريخ الشام إلى سوريا لمقابلة بعض العارفين بتاريخ البلاد وبدور الكتب بها كالدكتور أسد رستم فيجده قد انتقل إلى المصيف ، فيتبعه إلى ضهور الشوير ويتحدث إليه طويلاً ويأخذ منه ما يريد . وقد يحاول الاتصال بالأستاذ إسكندر المعلوف فينتقل إليه فى زحلة ويستفيد بخبرته ومعلوماته . ثم يقصد دمشق فيجد الأستاذ كرد على قد غادرها إلى شمالى سوريا ، وفى انتظاره يجتمع بالأستاذ عبد القادر المغربى وبالأستاذ حسنى الكسم فيتحدث إليهما وتنفتح أمامه سبل لم يكن يعرفها من قبل ، وبذلك يمكنه الوصول إلى مجموعة من المخطوطات الأساسية التى لم تدرس من قبل

والباحث فى أرشيف الحكومة التاريخى فى فلورنسا[١] عن تاريخ المصادمات البحرية بين الأسطول العثمانى وبين السفن التسكانية فى القرن السابع عشر مثلاً ، يجد فى الفهارس والكتالوجات المطبوعة والمخطوطة بدار الأرشيف بعض ما يفيد فى فحص مجلدات خاصة ؛ ولكن هذا لا يكفى ، بل عليه أن يدرس عشرات من المجلدات فى سنوات معينة وفى نواح مختلفة ؛ فيفحص مثلاً المجلدات التى تحوى مراسلات ممثلى فلورنسا فى الدولة العثمانية ، ومذكرات التجار الفلورنسيين ، وتقارير رجال سان ستيفانو الواردة إلى حكومة فلورنسا ، والتى تحوى أخباراً عن حوادث ذلك الاصطدام . وكذلك يفحص المجلدات التى تضم صور المراسلات الصادرة من حكومة فلورنسا إلى ممثليها فى الشرق الأدنى ، وإلى التجار الفلورنسيين ، وإلى رؤساء وقواد نظام سان ستيفانو[٢] . وللغرض نفسه ينبغى أن يفحص أيضاً عشرات من المجلدات عن المراسلات الواردة من صقلية والبندقية وجنوا مثلاً إلى حكومة فلورنسا ، والتى تتضمن أخباراً عن هذه المصادمات ؛ ثم المجلدات التى تحوى صور المراسلات الصادرة من فلورنسا إلى كل تلك الجهات فى هذا الخصوص ؛ وينتج عن ذلك المجهود جمع مادة أصلية مهمة لم تكن معروفة من قبل عن موضوع البحث

ولا ينبغى على الباحث أن يقتصر فى جمع وثائق البحث الذى يدرسه على أرشيف واحد فقط ؛ فمن الضرورى البحث عن وثائق أخرى — إن وجدت — فى أمكنة متعددة ، وتتناول نفس الموضوع ، فيتجه الباحث إلى أرشيف الحكومة التاريخى فى ڤينا[٣] ، لأنه يرى أن علاقات السلم والحرب كانت قوية دائماً بين الدولة العثمانية وامبراطورية النمسا ، وأنه لا بد من أن أخبار

(١) أى قائد الجند الألبانى

(٢) أى دفاتر قيد ديوان مصر

(٣) علم هذه الدفاتر عند زميلى الأستاذ محمد محمد توفيق الوثائقى المترجم بدار المحفوظات المصرية بالقلعة

(١) Archivio di Stato di Firenze

(٢) أنشأ كوزيمو الأول جراندوق تسكانا (١٥٣٧ — ١٥٧٤) نظام سان ستيفانو البحرى للدفاع عن سواحل تسكانا ولمهاجمة السفن العثمانية فى البحر الأبيض المتوسط

(٣) Haus-Hof-Und Staatsarchiv, Wien

الاصطدام البحرى بين السفن العثمانية والسفن التسكانية قد وصلت إلى ممثلى النمسا فى القسطنطينية، وأنهم قد أرسلوها بدورهم إلى حكومة فينا. ويكتب الباحث إلى مدير أرشيف فينا فيرسل إليه المعلومات التى يعرفها؛ وملخصها أن المادة الموجودة عن ذلك الموضوع قليلة جداً وعديمة الأهمية. إنما ذلك لا يعنى أن هذه المعلومات صحيحة، ولا يقتنع الباحث برد مدير الأرشيف. ويسافر بنفسه إلى فينا، ويجد أن الكتالوجات الموجودة لا تفيد شيئاً؛ ولكن ذلك لا يمنعه من البحث؛ فيعمل بعض الزمن وينتهى به الأمر إلى كشف طائفة ممتعة من الوثائق الألمانية والإيطالية عن الموضوع الذى يدرسه، فيحملها إلى مدير الأرشيف ويرجوه أن يدرجها فى كتالوجاته. ونلاحظ أن الباحث ينسخ بنفسه جزءاً من الوثائق التى يعثر عليها، ويمكنه اختصاراً للوقت أن يشرك معه بعض الإخصائيين فى نسخ جزء من الوثائق، كما يمكنه أن يصور بالفوتوستات جزءاً آخر على حسب الحالة.

ولا يكتفى الباحث بكل ذلك، بل يمضى فى البحث والكشف عن الوثائق فى أماكن أخرى مثل باريس ومدريد ولندن ...

ويدرس الباحث المادة التى جمعها ويقارن بين مجموعات الوثائق التى كشفها ويوازن بين معلوماتها وبين ما وصل إليه من المراجع والأصول المطبوعة، ويستخلص الحقائق التاريخية التى يمكنها الوصول إليها، كما سنرى ذلك فى المقالات التالية. وهذه كلها أمثلة عملية تعطى فكرة عامة عن كيفية البحث عن الوثائق والأصول التى تظل مجهولة للعلم حتى يُكشف عنها. وإلى آخر لحظة يظل الباحث يتوقع كشف أصول جديدة توضح أو تغير ما وصل إليه من الحقائق مما قد يضطره إلى تعديل معلوماته إذا لم يكن قد طبع بحثه بعد، أو إلى تنويره إذا ما أعاد طبعه[1]

ويتصل بالوثائق الرسوم والصور وهى مهمة من الناحية التاريخية. والأثر الذى يحدثه الشكل يسجله الفنان على الورق أو على الرص، والوصف الكتابى مفيد فى بيان عادات وخلق نابليون مثلاً؛ ولكن رسم الفنان إياه أو صنع تمثال له يعطينا فكرة مجسمة تضاف إلى ما نعرفه من أوصافه بطريق الكتابة. والرسوم والصور وثائق مهمة لأنها تحفظ لنا أبداً آثاراً وأشكالا ومناظر وأزياء مختلفة قد تغيرت معالمها أو زالت من الوجود، ولا نستطيع أن نعبر عنها بوضوح الكتابة الوصفية. وتزداد أهمية التصوير بعد تقدم استعمال الفوتوغرافيا فى الوقت الحاضر، فهى تسجل مشاهد عديدة للانسان ولآثار الحضارة والعمران

ومن الأصول المهمة أيضاً نجد آثار الإنسان ومخلفاته وتقاليده، كما عرفنا ذلك فى مقال سابق[1]. وأعمال الحفر والتنقيب تكشف عن مخلفات العصور القديمة؛ والبحث فى بعض الأماكن يؤدى إلى العثور على آثار الإنسان فى العصور الحديثة. ويجب على الباحث أن يشاهد ويدرس بنفسه آثار العصر الذى يكتب عنه. وينبغى أن يزور المبانى القائمة التى كان رجال العصر يعيشون فيها، والحدائق التى كانوا يروحون عن خواطرهم فى أرجائها، وأن يتعرف طرق المعيشة والأزياء وأدوات الحرب وآلات الموسيقى ... وفى الغالب تحوّل المبانى إلى متاحف ويجمع فيها بعض آثار الإنسان. ولا ريب فإنه من الضرورى للمؤرخ أن يعيش فترة خلال هذه الذكريات التى تأدت من الماضى إلى الحاضر، وأن تشيع فى نفسه هذه الرؤى وتلك الخلجات التى أحاطت برجال العصر الذى يدرسه

(يتلى) حسن عثمان

استدراك: فى العدد ٤٢٦ من الرسالة ص ١٠٨٦ قد سقط عنوان المقاله ٣ وهو «اختيار موضوع البحث التاريخى» فلزم التنويه

(١) الباحث لا يمكنه الرجوع إلى وثائق أرشيف القسطنطينية مثلا لعدم ترتيبها وتنظيمها بعد مما لا يسمح ذلك بدراستها الآن

(١) راجع مجلة الرسالة عدد ٤٢٣ ص ١٠٠٢

إعلان وتحذير

تعلن الست فاطمة عبد العزيز نور من ناحية كفر دميرة القديم مركز طلخا غربية بأنه إذا ظهرت لدى أى شخص أوراق مهصومة بختمها الذى كان بطرف أخيها خالد افندى عبد العزيز نور من الطويلة تعتبر مزورة ويعاقب حاملها وقد أخذت من أخيها المذكور إقراراً بذلك وتسلمت منه الختم، وكسرته وجددت بدلاً منه من هذا التاريخ.

٣ - كليلة ودمنة

نقد وتعليق

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

٨ — ٨٠ : ١ — ٥ « فلبث الذئب وابن آوى والغراب أياماً لا يصبن شيئاً مما كن يعشن به من فضول الأسد ، وأصابهم جوع وهزال شديد . فعرف الأسد ذلك منهم فقال : جهدتن واحتجتن إلى ما تأكلن . فقلن ليس همنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى ، ولسنا نجد للملك بعض ما يصلحه . قال الأسد : ما أشك في مودتكم ومحبتكم »

وهذه صورة عجيبة من التعبير لم أدر لها سراً ، وكان أولى بابن المقفع أن يجعل الضمائر العائدة إلى هذه الجماعة من الحيوان على طراز واحد ، كما هو الأصل في إرجاع الضمائر . أما أن يجعلها للمؤنثات ثم لجماعة العاقلين ثم للمؤنثات أخرى ثم لجماعة العاقلين رابعة ، فهذا عجب لم نره لكاتب غيره

وقد ينزل العرب غير العاقل منزلة العاقل ، وابن المقفع جعل هذه الجماعة مرتين من غير العاقلين ومرتين من العاقلين فأسرف فيما أجازه القوم إسرافاً

وألفيته يعاود هذا المذهب ويراجعه . ففي ٨٦ س ٧ « فلنأت سائر الطير فلنذكر ذلك لهم . فأجابوه إلى ذلك وأعلمهن ما أصابه وحل به » الضميران في « لهم » و « أعلمهن » عائدان إلى سائر الطير . وفي ٩١ س ٤ « ودنا منهن ليبصرهن ، فتناوله بعضهم وضرب به الأرض » الضمائر راجعة إلى : « جماعة من القردة » في الصفحة السابقة . وفي ١٥٢ — ١٥٣ « فبينما هم في ذلك إذ وقع لهم غراب فقال بعضهم : انتظرن حتى يأتينا هذا الغراب » الضمائر مرجعها « جماعة من الطير » . وغير ذلك كثير

٩ — ٧٤ : ٥ « فلما فرغ دمنة من تضريب الأسد على الثور » التضريب هنا : التحريض ، وفي اللسان[١] : « والتضريب تحريض للشجاع في الحرب . يقال ضربه وحرضه » والتضريب أيضاً : الإغراء ، وفي اللسان[٢] : « والتضريب بين القوم : الإغراء » وفي نسخة بولاق ص ٤٣ « من تحميل الأسد على الثور » . وهي الرواية الجيدة ؛ لأنها لغة ابن المقفع ، ولازمة من لوازمه الكتابية . فقد جاء في ص ١٠١ س ٧ « ولكن قتل لتحميل الأشرار » وفي س ١١ من الصفحة عينها « من تحميله إياك عليه » وفي ص ٢٤٩ س ٨ : « تحميل الملك علي » وفي س ١٤ من الصفحة نفسها « ليحملوا عليه الأسد » فهذا هذا

وقد أراد ابن المقفع بكلمة « التحميل » الإغراء » . ومن العجب أن ابن منظور وصاحب القاموس لم يذكرا هذا اللفظ في مادته ، بل ذكرا في هذا المعنى « حمله على الأمر يحمله حملاً فانحمل : أغراه به[١] » ثم انفرد ابن منظور[٢] بقوله « وحملت على بني فلان إذا أرشت بينهم » ، والتأريش : التحريش والإغراء

١٠ — ٨٦ : ٤ « فأعينوني وظافروني » وبدلها في نسخة بولاق ص ٤٨ : « فأعينني » ، و « ظافره » بمعنى أعانه وظاهره لم يذكرها صاحبا اللسان والقاموس ، وقاربها ابن منظور بقوله[٣] « وتظافر القوم عليه وتظاهروا بمعنى واحد » فنستطيع أن نزيد في معجمنا المنتظر هذه الكلمة ، وابن المقفع ثقة يحتج بقوله : وهو دليل أن المعاجم المتداولة لم تستوف ولم تستوعب كل أصول اللغة وفروعها إلا ما نبهت على عدم وروده . فذا مرجعه إلى استيثاق الرواة الأولين واستقصائهم

١١ — ٩٥ : ٧ « ليس بمستكبر لها أن تختطف بزاتها الفيلة » ابن المقفع — فيما أشعر — لا يقول هذه الكلمة بل يقول « بمستنكر »

ومما يجدر ذكره أن استكبر الشيء بمعنى رآه كبيراً وعظم عنده ، قولٌ منسوب إلى الإمام ابن جني[٤] ، ولم يقله عامة اللغويين . واتفقوا أن استكبر بمعنى تكبّر ؛ وفي كتاب الله : « إنه لا يحب المستكبرين »[٥] ، « يصدون وهم مستكبرون »[٦]

وقد رجعت إلى نسخة شيخو (ص ٩٩) ، فوجدت : « ما أرضا (كذا) يأكل جرذها مئة منٍّ من حديد بمستنكر لبزاتها أن تختطف غلاما »

١٢ — ١٠٧ : ٦ : (إذا جئتني بالليل من غير نداء ولا رمي ولا شيء يرتاب به) . فما ذلك الرمي ؟ !

(١) لسان العرب (٢ : ٣٩)
(٢) لسان العرب (٢ : ٣٦)

(١) القاموس ولسان العرب (١٣ : ١٨٥)
(٢) في لسان العرب (١٣ : ١٩٢)
(٣) في لسان العرب (٦ : ١٩٢ س ٥ — ٦)
(٤) لسان العرب (٦ : ٤٣٩ س ٢٢)
(٥) النحل ٢٣ (٦) المنافقون ٥

الصواب : (ولا رمز) — أى إشارة وعلامة ؛ وقد جاء بدلها فى نسخة بولاق (٥٣) : (ولا إيماء) ، وهو والرمز والإشارة بمعنى

١٣ — ١١٥ : ١٣ ، ١٦ و ص ١١٦ : ١ و ص ١١٧ : ١ ، ١٦ و ص ١١٨ : ٢ ، ٦ : (رأس الخنازير) و (سيد الخنازير) . عندى أنها : (رأس الخبّازين) و (سيد الخبازين)

يؤيد ذلك ما جاء بدلها فى نسخة شيخو السريانية : (فتكلم صاحب المائدة) ، وما هو عند ابن المبارية (١١٥) :

فأخذ الخبّاز كفٌ دمنه وقال : لله العظيم المنّه

وكذلك ص ١١٨ :

فأطرق الخباز لما سمعا ذلك من مقاله وخضعا

وكما يفهم من قول ابن المقفع عنه ١١٧ : ١٢ : (ثم أنت تجترئ أن تقوم بين يدى الملك وتلى طعامه)

١٤ — ١١٦ : ١١ : (ولا مسىء وإن أذنبه بضائره ذنبه) تطبيع ، صوابه : (وإن أذنب)

١٥ — ١٢٠ : ٩ : (فأقر بذنبك وبؤ بإساءتك) : باء بإثمه فهو يبوء به بوءا : إذا أقر به ؛ وفى الكتاب : (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) ؛ وفى الحديث : (أبوء بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى) — أى أقر ؛ وقال لبيد :

أنكرت باطلها وبؤت بحقها عندى ولم تفخر علىّ كرامها

وأصل البوء الرجوع ، فمن باء فكأنه رجع إلى الإقرار بعد الإنكار والسكوت[1]

وبهذا أيضاً يفسر قول ابن المقفع فى ص ١٥ : (وأن أبوء بما لم أجنِ)

١٦ — ١٢١ : ١١ ، ١٢ (لحفظ الفرخان ذلك بلسان البلخية) البلخية : أهل بلخ ، بفتح الباء : مدينة مشهورة بخراسان[2] والتاء فيه للدلالة على الجمع . وهى عند التحقيق علامة للتأنيث بتقدير الجماعة أو الطائفة كأنك تقول : الجماعة البلخية ، فلما حذفت الموصوف وأقمت صفته مقامه ألحقت بها تاء التأنيث المنبهة

(١) نهاية ابن الأثير ولسان العرب : (١ : ٢٨) ؛ ومشارق الأنوار : (١ : ٨٩)

(٢) معجم البلدان

على الجمع أيضاً[1] . ومثلها فى ذلك : الإباضية ، والإسماعيلية ، والأشعرية ، والباطنية ، والجبائية . ونحو ذلك كثير من أسماء الفرق الدينية والسياسية

١٧ — ١٢٧ : ١٤ (وأخفت على الشبكة حتى لَجِجْتُ فيها وصويحباتى) . لج فلان فى الأمر تمادى عليه وأبى أن ينصرف . فهو فعل اختيارى لا دخل للقسر فيه . والمعنى لا يتجه بهذا . وإنما هو (لَحِجْتُ) بالحاء المكسورة المهملة بعدها جيم . لحج السيف وغيره بالكسر يلحج لحجاً : أى نشب فى الغمد فلم يخرج . وفى حديث على يوم بدر « فوقع سيفه فلحج » أى نشب فيه . ويقال لحج فى الأمر يلحج إذا دخل فيه ونشب[2] . ومن البين أن المراد نشوب الطير فى الشبكة ، مما أعماهن القدر وأعشى أبصارهن

١٨ — ١٢٨ : ١ (ويستنزل الطير من الهواء ، إذا قضى ذلك عليهم) أجرى (الطير) مجرى العاقل فجمل لها ضميره . وهو معروف عند العرب . وفى كتاب الله : « لا الشمسُ يَنبغى لها أن تُدرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌ فى فلك يسبحون » وفيه : « إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ، « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » ، وقال عبدة بن الطبيب :

إذ أشرف الديك يدعو بعض أسرته
إلى الصياح وهم قوم معازيل
جعل للديك أسرة وسماهم قوماً

١٩ — ١٣٠ : ١ (منها عداوة من يجتزيان على ذلك كعداوة الأسد والفيل) . وفى نسخة بولاق ٦٢ (منها ما هو متكافٍ كعداوة الفيل والأسد) وعند ابن المبارية ١٢٩ :

« وهو التجازى لا سواه إنما »

الاجتزاء : طلب الجزاء ، قال :

يجزون بالقرض إذا ما يُجتزى[3]

وفى ذلك معنى التكافؤ . والتجازى — كما فى ترجمة ابن المبارية

(١) انظر الرضى (٢ : ١٥٢) تجد هذا التحقيق النادر

(٢) نهاية ابن الأثير ، واللسان

(١) لسان العرب (١٨ : ١٠٦)

أصل معنـاه التقاضى[1] ، والمراد به المقاصة ، فهو كذلك فى معنى التكافؤ

٢٠—١٣٣ : ١٥ (وكان الضيف رجلاً قد جال الآفاق ورأى الأعاجيب) ، والفعل (جال) لا يتعدى بنفسه . والوجه (جال [فى] الآفاق) . وسُمع جوّل الأرض : جال فيها ، وجوّل فى البلاد أى طوّف[2] . فهذا المضعف ورد بالوجهين . وفى القاموس أن جال الشىء : اختاره . وهذا معنى لا يراد هنا

٢١— ١٣٩ : ٨ (وانقلبتُ ظهر البطن ، وانجررت حتى دخلت جُحرى) فاذا جرّه حتى انجر ؟! إنما هى (وانحدرت) أى نزلت فى سرعة إلى الُجحر

٢٢— ١٥٠ : ٧ (إن كان بعيداً لم يأمن من معاودته ، وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده ، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته). متكشفاً أى بادياً ظاهراً ، وهى لا تساير الكلام . والصواب (مُكْثِباً) أى دانياً . أكثبك الصيد والرمى وأكثب لك : دنا منك . وعلى هذا الوجه الذى أثبتُ وردت الكلمة فى نسخة بولاق ٦٩ . ويؤيد هذا التصحيح ترجمة ابن الهبارية ١٤٨ :

لأنه إن كان منه نازحا أعاد مثل فعـله مشايحا
أوكان منه دانياً أوحاضرا واثبه مبـادراً مساورا

فكلمة (دانياً) فى النظم تقابل كلمة (مكثباً) التى ذكرت

٢٣— ١٦٥ : ١٦ (فإن الغراب ذو أدب ومكر ومكيدة) . لا وجه لورود كلمة (أدب) بالدال فى هذا المعرض . والصواب (أرب) بالراء ؛ ليصح اقترانها بأختيها : المكر والمكيدة . والمقام مقام ذم وتهجين . والإرب بالكسر ، أو بالتحريك : الدهاء والخبث والنُّكر . وفى نسخة شيخو ١٥٨ (فإن الغراب ذا أرب ومكائد[3])

٢٤ — ١٦٦ : ١٥ (فإن الشر يدور حيثما دارت) . هى (حيثما دُرْتَ) .

٢٥ — ١٧١ : ٤ (فابتُليتُ ببلاء حُرّمت علىّ الضفادع) والجملة بهذا الوضع مبتورة ناقصة . وتمامها (حرمت علىّ الضفادع [من أجله]) أى من أجل البلاء . وذلك كما فى ص ٧٧ من طبعة بولاق

٢٦—١٧٣ : ١ (بل برأيك وعقلك كان هذا ؛ فإن الرجل الواحد أبلغ فى إهلاك العدد من كثير العدد من ذوى البأس) . وفى هذه العبارة نقص كسابقتها . وتمامها كما فى نسخة بولاق ٧٨ : (؛ فإن الرجل الواحد [العاقل الحازم]) ... الخ . وعند ابن الهبارية ص ١٧٤ :

فالرجل اللبيب فى الأعداء أبلغ من ألف ذوى فَتَـاء[1]

و (اللبيب) هو العاقل ذو اللب

٢٧ — ١٩٠ : ١٢ قول البرهميين للملك حين سألهم تعبير الرؤيا : «فلعلنا ــ إن استطعنا ــ أن ندفع ما نتخوف منه» . الوجه (تتخوف) بالخطاب ؛ إذ ليس من شأنهم أن يحكموا فى تعبير الرؤيا بهـذا الحكم قبل أن يجتمعوا للتشاور والتآمر . وهم قد استمهلوا الملك (ستة أيام) ليتمكنوا من ذلك . والملك هو الذى كان متخوفاً ، لأنه (رأى ثمانية أحلام يستيقظ عنـد كل منها)

٢٨—١٩١ : ٦ «لنجعل دماءهم فى أَبْزَن ثم نقعدك فيه» . كلمة (الأَبْزن) معربة عن الفارسية ، بفتح الهمزة بعدها باء موحدة ساكنة ثم زاى مفتوحة . وهو الحوض من نحاس يستنقع فيه الرجل ؛ ويعرف فى ألفاظنا الدخيلة باسم (البانيو) ، وبالفرنسية : Baignoire ، وبالإنجليزية : Bathing - tub . و (أبزن) أصله فى الفارسية : (آبْزَن) بمد الهمزة ؛ وتكتب أحياناً (آب زن) ؛ وفسرت فى معجم استينجاس[2] بأنها حوض للاستحمام من نحاس أو حديد بطول جسم الإنسان يملأ بماء فاتر طبّى يجلس فيه المريض أو يتمدد

وقد أهمل هـذا اللفظ كثير من اللغويين ، منهم الليث ، والجواليقى ، وابن دريد ، والزمخشرى[3] ، مع أنه مستعمل قديماً

---

(١) لسان العرب (١٨ : ١٠٧)

(٢) لسان العرب (١٣ : ١٣٩)

(٣) كذا فى أصل نسخة شيخو . والصواب ذو أرب ومكايد)

---

(١) الفتاء ، بالفتح : الشباب والقوة . وفى الأصل : (عناء) بالعين المهملة والنون

(٢) معجم Steingass الفارسى الانجليزى ص ٨

(٣) نص صاحب اللسان على إغفال الليث . وأما الجواليقى فلم يذكره فى المعرب ، وكذا ابن دريد فى الجمهرة ، والزمخشرى فى الفائق والأساس

معركة الأطلنطى

للأديب محمد شاهين الجوهرى

« لا تكاد خطبة من خطب تشرشل تخلو من ذكر « معركة الأطلنطى » ، فعلى صفحات هذا المحيط تقوم معركة من أشد المعارك وأعنفها ، فهى المعركة التى ستكتب السطر الأخير من سطور الحرب . وفى هذه المعركة يتعاون السلاح الجوى الألمانى مع سلاح الغواصات ، فتضرب الطائرات الألمانية الموانىء والمدن الانجليزية لتنهك قوى بريطانيا فى الداخل ، وتفتك الغواصات بالقوافل التجارية فى عرض المحيط . وإذا كان يجرى فى هذا المحيط شريان الأمبراطورية البريطانية الحيوى ، فلا عجب إذا رأينا ألمانيا تبذل قصارى جهدها لتقطع هذا الشريان لتمنع من بريطانيا ما يأتيها من مؤونة ومدد ، بينما تعمل بريطانيا على أن تبقى على هذا الشريان إذ فى بقائه بقاؤها »

المصانع الأمريكية تعمل فتنتج المؤن والعتاد الحربى ؛ واتفاقية الإعارة والتأجير تبيح إصدار هذه المؤن وهذا العتاد إلى بريطانيا . وفى الجزر البريطانية يرابط المدافعون عن الديمقراطية ، ويفصل المحيط الأطلنطى بين هذا المدد الأمريكى وبين المدافعين عن هذه الجزر . وفى هذا المحيط ترتع الغواصات الألمانية متعاونة مع الطائرات فى معركة لا تعرف هوادة ولا رحمة ضد السفن الإنجليزية . ويرى هتلر من وراء هذه إلى غرضين : أولهما إضعاف انجلترا بتدمير موارد تموينها الداخلية وأحواض سفنها وموانيها ، وشل حركة إنتاج السفن والذخائر الحربية . وثانيهما منع المدد الذى يصل إلى بريطانيا من الخارج بإغراق سفنها فى المحيط ، وعزلها عن أمريكا . وعندئذ يسهل عليه مهاجمة بريطانيا

تبلغ هذه المعركة شدتها فى فصل الربيع . ففى هذا الفصل تتقشع السحب التى كانت تخيم على آفاق المحيط فتجعل عمل الغواصات والطائرات عسيراً ، وتبدأ الغواصات الألمانية تجوب المحيط باحثة عن السفن البريطانية ، وتنطلق الطائرات الألمانية فى الجو لتساعد الغواصات فى المهمة الملقاة على عاتقها .

وقد كان المتحمسون للطيران فى ألمانيا يعقدون آمالاً كباراً على السلاح الجوى ضد الملاحة البريطانية ، فكانوا يعتقدون أن قاذفة القنابل قادرة على أن ترسل أية سفينة حربية إلى أعماق المحيط ، ولكن التجارب برهنت على أن هذا السلاح لم يحقق ما بنى عليه من آمال ، ولذا أصبح عمل الطائرات الألمانية الرئيسى هو القيام بمهمة استكشاف مواقع السفن واتجاهاتها وإبلاغ ذلك باللاسلكى إلى الغواصات لتهاجم هذه السفن

وعدد السفن الذى يصل إلى بريطانيا سالماً هو الذى يقرر إن كان فى مقدورها أن تحافظ على سلامة هذا الخط الحيوى بينها وبين أمريكا ، وأن تضمن دوام وصول الإمدادات إليها . ويقول المستر نوكس : « إن هتلر يعمل على ألا تصل المؤن والذخائر إلى بريطانيا ، لأن فى وصولها هزيمته . إننا لا نرضى لمنتجاتنا أن تغرق فى الأطلنطى ، وستلحقنا الهزيمة إذا رضينا بذلك . يجب علينا أن نفى بوعدنا ونساعد بريطانيا لأنها عانت كثيراً فى الحرب الكبرى الماضية لما كان قد لحق أسطولها من الوهن من جراء نشاط العدو . ففى أبريل من سنة ١٩١٧ ، أغرقت الغواصات الألمانية من السفن البريطانية ما حمولته مليون طن تقريباً . وكان الألمان يتوقعون انهزام بريطانيا فى ذلك العام ، ولكن تطبيق نظام القوافل البحرية

وجاء فى شعر أبى دُؤَاد الإيادى ، يصف فرساً وصفه بانتفاخ جنبيه[1] :

أجوف الجوف فهو منه هواء مثلُ ما جافَ أَزْنَا نجّار

وأبو دواد جاهلى[2] . ويفهم من هذا الشعر أنه يصنع أحياناً من الخشب ، لِمَا جعل صانعه النجار . وكأن بعض العرب كانوا يجتزون بالخشب عن النحاس ، قال ابن برى : « الأزن شىء يعمله النجار مثل التابوت » ، وأنشد بيت أبى دواد . وروى البخارى أن أنس بن مالك قال : « إن لى أزنًا أتقحم فيه وأنا صائم[3] »

وقد فسر (الأزن) فى هذا الحديث بأنه الحوض الصغير ، أو حجر منقور كالحوض ، أو شىء يتبرد فيه وهو صائم يستعين بذلك على صومه من الحر والعطش[4] .

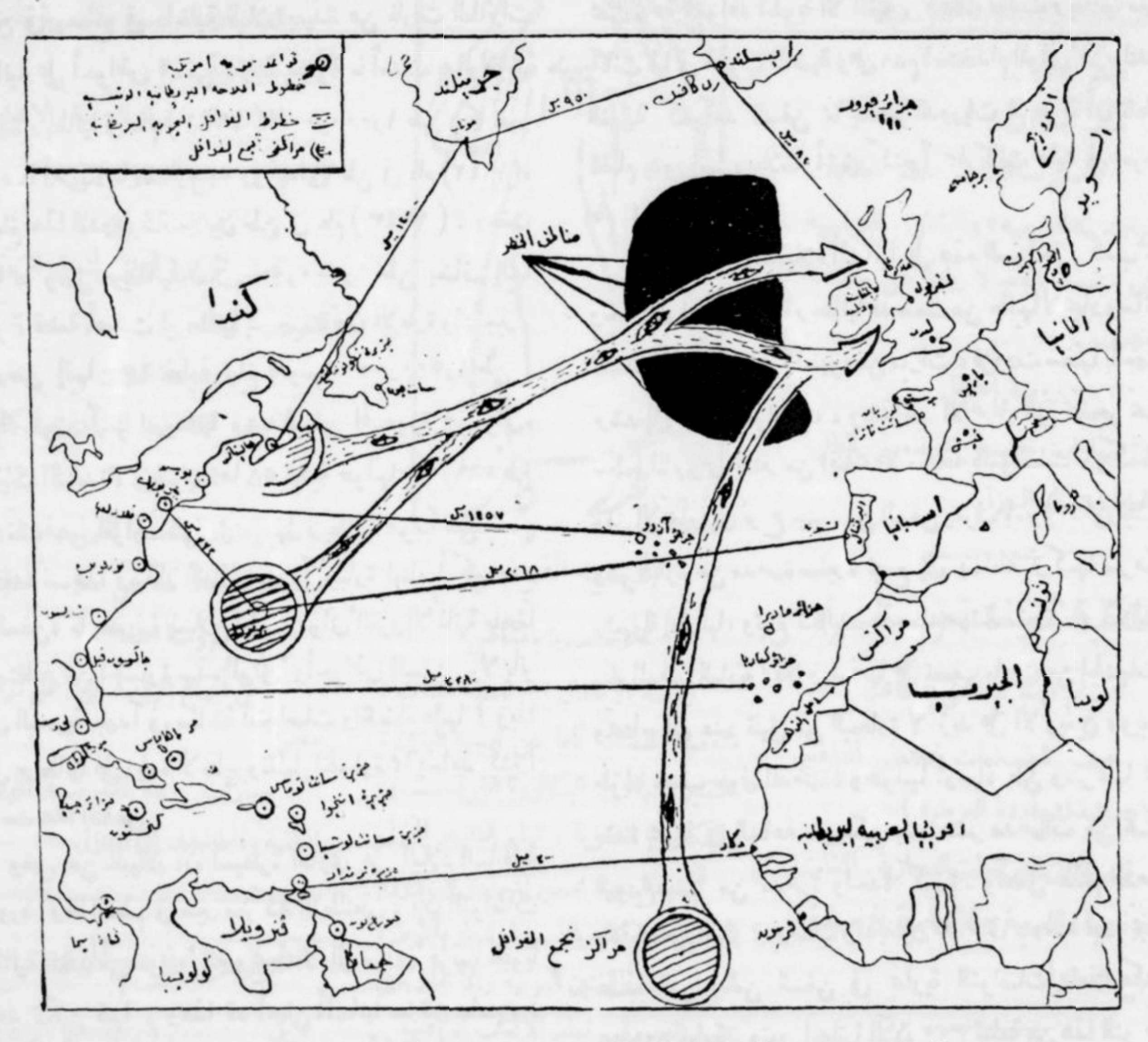
(له بقية) عبد السلام محمد هارون

(١) لسان العرب (١٦ : ١٩٦)
(٢) الأغانى (١٥ : ٩١ ساسى)
(٣) صحيح البخارى (٣ : ٣٠ س ٢٠ طبع ١٣١٤)
(٤) عمدة القارى (١١ : ١٣) ومشارق الأنوار وشفاء الغليل ١٤

ووصول المدمرات الأمريكية ، وسفن الحراسة ، واختراع الأجهزة المخبرة عن الغواصات ، قد أضعف كثيراً من خطر الغواصات » .

ويحاول هتلر الآن جهد طاقته كسر شوكة بريطانيا البحرية ويبذل في ذلك أعنف الجهود . فإن دخول إيطاليا الحرب ، وما يحرض به اليابان من قيامها بمناورات دبلوماسية وعسكرية ، إنما هي خطة

وفي حراسة القوافل . وقد فطنت بريطانيا إلى ذلك وعملت من جانبها على إحباط السياسة الألمانية فأجرت بعض القواعد البحرية للولايات المتحدة ، أو بمعنى آخر ألقت مهمة الدفاع عن هذه القواعد على عاتق الأسطول الأمريكي ، وذلك لتقلل من الأعباء الملقاة على عاتق الأسطول البريطاني وتوجه قواه لمناهضة العدو وتأمين طرق قوافلها التجارية وضمان وصول الإمدادات إليها



يرمى من ورائها إلى إرغام انجلترا على استخدام أسطولها في ميادين بحرية متعددة لتتوزع قواه ، وتقل مقدرته ، ويصبح من السهل على هتلر أن يضربه الضربة القاضية . وأن مجرد وجود الأسطول الإيطالي في البحر المتوسط قد اضطر بريطانيا إلى الاحتفاظ بوحدات عديدة من أسطولها في هذا البحر في وقت تحتاج فيه إلى هذه الوحدات في الأطلنطي لتعمل ضد الغواصات ،

عند ما بدأت الحرب كانت بريطانيا تملك من السفن ما حمولته ١٨ ½ مليون طن ، أضيفت إليها حمولة قدرها ٨ ½ من الأطنان حصلت عليها انجلترا من الدانيمرك وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والنرويج وهولندا ، ومن هذا المجموع الذي يبلغ ٢٧ مليوناً من الأطنان أغرق الألمان ما حمولته خمسة ملايين طن أي ما يعادل ⅕ ما تملكه بريطانيا تقريباً

من أين لبريطانيا أن تحصل على ما يسد هذا النقص ؟

تنتج بريطانيا من السفن سنوياً ما حمولته ١،٥٠٠،٠٠٠ طن . ولكي تسهل المهمة الملقاة على عاتقها أدخلت بعض تعديلات على بناء السفن ، وذلك بالتخلي عن كل ما ليس له مهمة رئيسية في السفينة . وقد صار يُبنى الآن نوع من السفن يكبر حجم السفن العادية مرتين ونصفاً ، ويمكن بناء أجزاء هذه السفن في مصانع في داخلية البلاد بعيدة عن غارات الطائرات الألمانية على أحواض السفن . ويبلغ حمولة ما أمدت به الولايات المتحدة بريطانيا في عام (١٩٤١) ١،٠٠٠،٠٠٠ طن . كما تقرر أن تمدها أمريكا بما مقداره ٢،٠٠٠،٠٠٠ طن في عام (١٩٤٢)، وسيبلغ هذا المدد خمسة ملايين طن في عام (١٩٤٣) . وبلغت حمولة ما وصل بريطانيا فعلاً ١،٥٠٠،٠٠٠ طن يضاف إليها خمسون قطعة أعطيت لبريطانيا بموجب قانون الإعارة والتأجير . وسيرسل إليها ١٥٠ قطعة تبلغ حمولتها ١،٥٠٠،٠٠٠ طن . وهناك مورد آخر لبريطانيا وهو السفن المحجوزة في موانىء الولايات المتحدة ، ويبلغ عددها ٥٨ قطعة حمولتها ٥٨٩،٠٠٠ طن

تلك هي الموارد التي تجد فيها بريطانيا عوضاً عن بعض ما تفقده . هذا ويبذل العمال جهوداً جبارة لبناء أكبر عدد من السفن، كما يضرب السلاح الجوي موانىء الغزو الألمانية ملحقاً ما استطاع من الخسارة بهذه الموانىء وأحواض السفن . ولا يألو رجال البحرية جهداً في مكافحة الغواصات والقضاء عليها ؛ وبذا تعمل بريطانيا على زيادة الانتاج وتقليل الخسارة مما يساعد كثيراً على سد هذا النقص

وغني عن البيان أن لسيطرة النازي على البلاد الساحلية في أوربا أثرها العظيم في سير معركة الاطلنطي ، فإن الغواصات الألمانية تتخذ من موانىء النرويج شمالاً إلى موانىء فرنسا جنوباً قواعد تكمن فيها . وهذا قد أعطى ألمانيا ميزتين هامتين : أولاهما أن ألمانيا باستيلائها على هذه القواعد أمكنها أن تستخدم غواصات صغيرة الحجم تسع من خمسة رجال إلى عشرة ، بدلاً من الغواصات الكبيرة التي تسع من ثلاثين رجلاً إلى أربعين ، وبذلك قلت الخسارة التي كان يتحملها الألمان من إغراق غواصاتهم كما زاد عدد الغواصات التي تعمل في المحيط . والميزة الثانية أنه باستيلاء ألمانيا على النرويج وفرنسا مكن الغواصات الألمانية من أن تتفادى الخطر الذي كانت تلاقيه في الحرب الماضية حين كان من المحتوم عليها أن تمر بحقول الألغام التي كان ينشرها الانجليز في مضيق دوفر وبحر الشمال كلما أرادت الوصول إلى قواعدها على الساحل الألماني . فالانجليز الآن إذا ما حاولوا تضييق الخناق على الغواصات الألمانية يجب عليهم أن يبذروا حقول الألغام على طول الساحل الأوربي، وهذا يعد من أصعب الأمور وأشقها على الأسطول البريطاني نظراً لوقوع هذه السواحل تحت رحمة القواعد الجوية الألمانية . كذلك فقدت بريطانيا ميزة كانت لها في الحرب الماضية وهي عدم استخدام الموانىء الإيرلندية الغربية كقواعد للسفن مما يضطر الدوريات البحرية أن تقطع للقيام بدورياتها رحلات أشق كثيراً مما كانت عليه في حرب عام ١٩١٤

وإذا كان في استيلاء ألمانيا على هذه السواحل كسب لها وخسران لبريطانيا ، فبريطانيا قد سمت من جانبها لإيجاد وسائل تفسد على الألمان ما اكتسبوه من ميزات ، فزودت سفنها بأجهزة ترشد إلى مكان الغواصات ، وبقذائف الأعماق التي تنفجر تحت سطح الماء وهي تعتبر من أفتك الأسلحة بالغواصات . وكذلك وفق الإنجليز إلى نوع جديد من السفن يعرف باسم (الكورتيث) وهو عبارة عن مدمرة صغيرة تجمع إلى بساطة تركيبها سرعتها وسهولة إدارتها، وتبلغ تكاليف هذه المدمرة الصغيرة ⅕ تكاليف بناء المدمرة العادية ؛ فلا يزيد ثمنها على نصف مليون من الجنيهات، وتحتاج إلى عدد قليل من البحارة لا يزيد على الأربعين ، ويبلغ طولها نصف طول المدمرة ؛ وحمولتها أربعمائة طن وسرعتها ٢٥ عقدة بحرية في الساعة . ويمكن بناء عشر مدمرات من هذا النوع بدلاً من مدمرة واحدة كبيرة . وتحمل هذه المدمرة مدفعين من عيار ٤ بوصات وقذيفتين للأعماق . ولما ثبت نجاح هذا النوع من السفن في محاربة الغواصات قامت كندا ببناء ٨٠ قطعة . وتبني انجلترا الآن ٣٠٠ قطعة من هذا النوع . هذا وقد زودت كل سفينة تجارية بمدافع ضد الطائرات والغواصات لتكون أقدر على حماية نفسها .

وهكذا تبذل الدولتان قصارى جهودهما وتقذفان بثمرات إنتاجهما في هذا المحيط حيث تدور المعركة الكبرى .

محمد شاهين الجوهري
معهد الصحافة العالي
بالجامعة الأمريكية

مدارس البعثة العلمانية الفرنسية

الليسيه الفرنسية

رقم ٢ شارع الحوياتي بالقاهرة

١ — مدرسة البنين : تحضر الطلبة لمختلف أقسام البكالوريا الفرنسية

قسم مصرى

قسم تجارى

٢ — مدرسة البنات : تحضر الطالبات لشهادات « البريفيه » والبكالوريا الفرنسية وهى منفصلة انفصالاً تاماً عن مدرسة البنين

٣ — روضة أطفال

سيارات خاصة لتوصيل الطلبة والطالبات إلى المنازل

الكلية الفرنسية (للبنات)

رقم ٦ شارع ذهنى بالظاهر

تحضر الطالبات بمقتضى المناهج الابتدائية لشهادة (البريفيه)

قسم خاص للدراسات التجارية . اللغات الفرنسية والعربية والإنجليزية إلزامية فى جميع الفصول

الكلية الفرنسية (للبنين)

رقم ٤٥ شارع الظاهر

تحضر الطلبة بمقتضى المناهج الابتدائية الفرنسية ومناهج البكالوريا المصرية



الليسيه الفرنسية

بالإسكندرية بالشاطبي

روضة الأطفال — ليسيه البنات : منفصلة انفصالاً تاماً عن ليسيه البنين : تحضير لشهادتى البكالوريا الفرنسية والبكالوريا المصرية . تعليم التدبير المنزلى

ليسيه البنين : تحضير لشهادتى البكالوريا الفرنسية والبكالوريا المصرية ودبلوم التجارة العليا . تعليم اللغتين العربية والانجليزية فى جميع الفصول . تعليم الألعاب الرياضية

مدرسة الزراعة العليا المصرية : فى الليسيه وفى الملحق الزراعى فى رأس السودا

الدراسات العليا : — علوم ، آداب حقوق ، وعلوم اقتصادية

دراسات المهندسين : كيائيين ومساعدى المهندسين الكهربائيين والميكانيكيين .

الليسيه الفرنسية المصرية

شارع فؤاد الأول بمصر الجديدة

(هليوبوليس)

الثقافتان الفرنسية والمصرية تلقنان لجميع التلاميذ

اللغات الفرنسية والعربية والإنجليزية إلزامية فى جميع الفصول

١ — مدرسة البنين

تحضر الطلبة لمختلف أقسام البكالوريا الفرنسية والمصرية

٢ — مدرسة البنات

تحضر الطالبات لشهادات البكالوريا وبها قسم للدراسات العامة وفصول خاصة إعدادية للغة الفرنسية . وهى منفصلة انفصالاً تاماً عن مدرسة البنين

٣ — روضة أطفال

كل أنواع الرياضة على أجمل أراضى مصر

سيارات خاصة للمدرسة لتوصيل الطلبة والطالبات إلى المنازل

تحدد يوم الافتتاح لجميع معاهد البعثة العلمانية الفرنسية

٣ أكتوبر سنة ١٩٤١

٥ – المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

السكان

من المستحيل تقريباً في بلد لا يقيد فيه مواليد ولا أموات أن يعين عدد السكان بدقة . وقبل تأليف هذا الكتاب ببضع سنوات عمل إحصاء على أساس عدد البيوت في مصر وافتراض ثمانية أشخاص لكل بيت في العاصمة ، وأربعة أشخاص لكل بيت في الريف . وهذا الإحصاء — على ما أعتقد — يقرب جداً من الحقيقة . ولكن الملاحظة الشخصية والبحث يحملانني أميل إلى الاعتقاد بأن مدناً كالإسكندرية وبولاق ومصر العتيقة تحوى كل منها خمسة أشخاص على الأقل لكل منزل . أما رشيد فنصفها آهلٌ ونصفها الآخر قفر ، ودمياط المزدحمة بالسكان يجب أن نحسب ستة أشخاص لكل منزل فيها وإلا نقص تقديرنا كثيراً عما يظن أنه عدد سكانها . فإذا أضيف شخص أو شخصان إلى كل منزل في المدن المذكورة ، فلا يحدث مع ذلك إلا فرق ضئيل في إحصاء سكان مصر . ومجموعهم طبقاً لتلك الطريقة الحسابية يبلغ أكثر من مليونين ونصف مليون من الأنفس ؛ ولكن هذا العدد قل فيما بعد . وكان من المحتمل أن يكون من هذا العدد قرابة مليون ومائتي نفس من الذكور ، ثلثهم (٤٠٠٠٠٠) يصلحون للخدمة العسكرية

وقد جنّد محمد علي من هذا العدد الأخير مائتي ألف رجل على الأقل لجيوشه النظامية وللخدمة البحرية . وأقصى خسارة نتجت من إبعاد هؤلاء الرجال عن زوجاتهم ، أو منعهم من الزواج عشر سنين ، لا بد أن تزيد على ثلاثمائة ألف ؛ ولذلك جعلت مجموع السكان أقل من مليونين . أما عدد أفراد الطبقات المهمة فقد كان كما يلي على وجه التقريب :

مصريون (فلاحون وحضريون) ٠٠٠ر٧٥٠ر١

مصريون مسيحيون (أقباط) ٠٠٠ر١٥٠

عثمانيون أو أتراك ٠٠٠ر١٠

سوريون ٠٠٠ر٥

يونانيون ٠٠٠ر٥

أرمن ٠٠٠ر٢

يهود ٠٠٠ر٥

أما بقية السكان من البدو والنوبيين والعبيد والمماليك والفرنج ، فمن المحتمل أن يبلغ عددهم نحو سبعين ألفاً . أما عدد كل طائفة على حدة فلا يمكن معرفته على وجه اليقين . وقد كان عرب الصحراء بين الغربية والشرقية لا يعدون في سكان مصر .

قلت : إن القاهرة يبلغ عدد سكانها مائتين وأربعين ألف نفس تقريباً عند ما وضع هذا الكتاب[1] . ولو كنا قد بنينا حكمنا على أهل هذه المدينة من ازدحام شوارعها المهمة وأسواقها لخدعنا كثيراً . ففي كثير من الحارات والأزقة لا يرى إلا القليل من المارين . كذلك لا يمكننا الحكم من سعة المدينة وضواحيها ، فإن داخل الجدران كثيراً من الأمكنة الخالية ، بعضها يتحول إلى بحيرات أثناء الفيضان[2] . ثم إن الحدائق والمقابر الكثيرة وأحواش المنازل والجوامع تشغل مساحة واسعة . وقد عددت بين سكان القاهرة نحو مائة وتسعين ألفاً من المصريين المسلمين ،

---

(١) وصل مجموع سكان القاهرة إلى هذا العدد ، بعد أن كان نحو ٠٠٠ر٢٠٠ منذ ثلاث سنوات أو أربع . ومنذ هذا الأحصاء أهلك وباء سنة ١٨٣٥ ما لا يقل عن ثلث السكان ، كما ذكر قبلا ، ولكن سرعان ما سد هذا النقص من الريف

(٢) وقد ردمت أكبر هذه البرك ، وكانت تعرف ببركة الأزبكية (ولا زال مكانها يسمى بهذا الاسم) ، وزرعت أشجاراً بعد سنوات قليلة من وضع هذا الكتاب

وحوالى عشرة آلاف من الأقباط وثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من اليهود ، والبقية أجانب من بلدان مختلفة [١]

ويرجح أن سكان مصر فى عصور الفراعنة كان عددهم ستة ملايين أو سبعة [٢] . ولو أن شيئاً من محصول الأرض فى العصر الحاضر لم يصدّر ، لعال هذا المحصول أربعة ملايين نفس . وإذا كانت كل الأرض الصالحة للزراعة تزرع ، لكفى المحصول ثمانية مليون ، وهذا غاية ما يمكن أن تصل إليه مصر فى أغزر السنين فيضاناً . ولذلك فإنى أعتقد أن المصريين القدماء فى الوقت الذى كانت فيه الزراعة فى حالة ازدهار كان عددهم كما قررت سابقاً . كما أنه من المفروض أن عددهم لم يكن يزيد على نصفهم إلا بقليل فى عصر البطالسة والعصور التالية ، عندما كانت تصدّر كميات كبيرة من الحبوب سنوياً [٣] . وهذا الإحصاء يتفق مع ما قاله ديودور الصيقلى من أن مصر بلغ عدد سكانها فى أيام الملوك الأقدمين سبعة ملايين ، بينما فى عصره لم يقلوا عن ثلاثة ملايين

ومن تأمل فى سياسة محمد على لا يسعه إلا أن يأسف للفرق بين حالة مصر تحت حكمه وبين ما كان يجب أن تكون ، إذ لم يزد عدد سكانها بكثير عن ربع العدد الذى كان فى إمكانها إعالته .

ولقد كان فى استطاعة العاهل العظيم أن ينفع شعبه أجزل النفع لو أنه بدلا من إفقار الفلاحين بنزع الأراضى الزراعية واحتكار المحصولات القيمة ، واستخدام كفاءة السكان فى إرضاء طموحه وتحقيق فتوحه ، أو فى منافسته الصناعة الأوربية على غير طائل

كان قد وجه عنايته إلى مساعدة الطبيعة فى أن يجعل مصر بلداً زراعياً على الأخص ، فقد كان يكفى محصول قطنها وحده ، بل ويفيض ، للحصول على كل منتجات المصانع الأجنبية وكل المحصولات الطبيعية التى تتطلبها حاجة السكان من البلاد الأجنبية [١]

الفصـــل الأول

مميزات المصريين المسلمين ومعاداتهم

يؤلف المسلمون المربيو الأصل غالبية سكان مصر منذ قرون. وقد أحدث ذلك انقلاباً فى اللغة والقوانين والشمائل العامة ، وأصبحت العاصمة المصرية أعظم قاعدة للمعارف والفنون العربية . وسيخصص لوصف هذا الشعب — وعلى الأخص الطبقتان الوسطى والعليا فى القاهرة — أكبر جزء من هذا الكتاب

ويلاحظ أن شمائل المصريين وعاداتهم تثير الاهتمام بنوع خاص ، لأنها مزيج من تلك الشمائل والعادات التى تسود الجزيرة العربية وسورية وشمال أفريقية كله وتركية إلى حد بعيد . وليس فى العالم بلد كمصر يمكننا أن نحصل فيه على معرفة تامة بأ كثر طبقات العرب تمدناً

ويظهر من الإحصائيات الواردة فى مقدمة هذا الكتاب أن المصريين المسلمين — أو المصريين العرب — يؤلفون تقريباً أربعة أخماس سكان العاصمة ، وسبعة أثمان سكان مصر كلها

والمصريون المسلمون من جنس خليط انحدر إلى حد كبير من عدة قبائل وعشائر عربية وفدت إلى مصر فى عصور مختلفة ، بعيد الفتح . وهؤلاء العرب المهاجرون كانوا أولاً قبائل تجوب الصحراء ، ولكنهم تركوا حياة البداوة وتحضروا ، ثم أصهروا إلى الأقباط الذين أصبحوا بالإسلام آمنين ، فأدّى اختلاطهم هذا إلى تكوين شعب كثير الشبه بقدماء المصريين الذين ينتمون إلى الجنس « القوقازى » مع قرابتهم

---

(١) يتألف ثلث سكان القاهرة من الذكور البالغين . وقد أحصيت من هـذا العدد حوالى ٣٠٠٠٠ تاجراً من صغار أصحاب الحوانيت والصناع ، و ٢٠٠٠٠ من الخدم الذكور و ١٥٠٠٠ من العمال والحمالين الخ . أما البقية فمكونة غالبا من خدم الحكومة المدنيين والحربيين

(٢) أنا لا أعتمد كثيرا على أقوال المؤلفين القدماء فى هذا الموضوع .

(٣) وقد لمح لى البعض أنه بتصدير الحبوب ، تستورد أشياء ذات قيمة مساوية ؛ وإن تصدير الحبوب أو أي شيء آخر ينعش الصناعة وينشط السكان . ولكن أي شيء يمكن استيراده ليقوم بالغذاء اللازم لشعب عدده يستهلك أكثر من محصول أرضه

(١) فى ١٨٣٥ شحن من الاسكندرية أكثر من ١٠٠٠٠٠ بالة قطن ، وكان ما دفعه التجار يزيد على ٢٠٠٠٠٠ . أما الكمية المصدرة فى العام الماضى فكانت ٣٤٠٠٠ بالة وهى أقل من المعتاد بكثير

إلى الجنس الأسود على درجات مختلفة ، وهذا الشبه يبدو تاماً في عدة أفراد منهم على الجملة ، وعلى الأخص في القبط والنوبيين ، وهو في مسلمي مصر الوسطى والعليا أكثر شيوعاً ووضوحاً ، ولكنهم مع ذلك ليسوا أقل عروبة من أهل الحضر في الجزيرة ذاتها ، إذ فشت فيهم منذ القدم عادة اقتناء الجواري من قبائل الجلا Galla والأحباش ، إما للزواج وإما للتسري . ولذلك كان عرب المدن الآن يشبهون الجلا والأحباش بقدر ما يشبهون البدو .

وهذا — على الأقل — هو الحال في مدن الإقليم الجنوبي الغربي من بلاد العرب ؛ أما الجهات الجنوبية ، فالحضريون فيها أكثر اختلاطاً بالهنود وأجناس الملايا وبالإفريقيين كذلك . فالمصريون عامة والعرب كذلك ـ ولو على درجة أقل ـ ينزعون بعرق إلى أهل أفريقيا الأصليين . ويلاحظ أن لفظ « العرب »[1] يطلقه سكان البلاد العربية الآن على البدو في مجموعهم ، ويطلقون كلمة « العربان » على أهل القبيلة أو على القليل منهم . أما الفرد فيسمى « بدوياً » . وقد زال التمييز بين القبائل تقريباً في العاصمة وفي غيرها من المدن المصرية ؛ ولكنه لا يزال باقياً بين الفلاحين الذين حافظوا على عادات بدوية كثيرة سأتكلم عنها فيما بعد . وفي بقاع مختلفة من مصر عشائر تنحدر من العرب الأولين الذين يترفعون عن التزوج ممن هم أقل منهم جنساً . وهؤلاء يصعب بل يستحيل تمييزهم من قبائل صحراء الجزيرة العربية . ومسلمو القاهرة الوطنيون يسمون أنفسهم عادة : « المصريين » و « أولاد مصر » أو « أهل مصر » و « أولاد البلد » ؛ وآخر تلك العبارات الثلاث أكثرها شيوعاً في المدينة نفسها . أما أهل الريف ، فيسمون بالفلاحين (أو المزارعين) ؛ وكثيراً ما يطلق الأتراك على المصريين لفظ الفلاحين ، ويقصدون به معنى الغلظة والجفاء ، أو ينبذونهم بأهل فرعون إهانة لهم ، فيرد عليهم المصريون كلما اجترأوا على ذلك بتسميتهم أهل نمرود

ويتراوح طول المصريين بين خمس أقدام وثماني بوصات ، وخمس أقدام وتسع بوصات ، وأغلب الأطفال تحت سن التاسعة أو العاشرة دقاق الأطراف ضخام البطون ، ولكن ... سرعان ما تتحسن أشكالهم كلما تدرجوا في النمو ، فلا يبلغون أشدهم حتى تتناسب أعضاؤهم بشكل ظاهر . فالرجال أقوياء مفتولو العضلات ، والنساء جميلات التكوين بدينات من غير إفراط . ولم أر في المصريين بدانة إلا في الذين أخلدوا إلى حياة البطالة في العاصمة وفي غيرها من المدن

(يتبع) عدلي طاهر نور

(١) هذا اللفظ كان يستعمل أولا للاشارة إلى العرب الحضريين ، بينما كان العرب الرحل يسمون « أعراباً » ، وعرب المدن يطلقون الآن على أنفسهم « أولاد العرب »

ليالى القاهرة

وقفـــة على دار

للدكتور إبرهيم ناجى

قِفْ يا فُؤادُ عَلى المَنازِلِ ساعَا   فهُنا الشَّبابُ عَلى الأحِبَّةِ ضَاعا

وَهُنا أذلَّ إباءَهُ مُتَكَبِّرٌ   أمَرَتْ عيُونٌ قَلْبَهُ فأَطَاعا

أحْسَسْتُ بالدَّاءِ القَديمِ وَعادَنِي   جُرْحٌ أبَيْتُ لِعَهْدِهِ إرْجاعا

وَمَشَى مَعَ الألَمِ الذُّهولُ كأنَّمَا   طَارَتْ بِلُبِّي الحَادِثَاتُ شعاعا

كَثُرَتْ عَلى مَتَاعِبِي فمَحَوْنَنِي   وَمَحَوْنَ حَتَّى السُّقْمَ والأوْجاعا

يا مَنْ هَجَرْتَ لقَدْ هَجَرْتَ إلى مَدَى   فإلى اللِّقاءِ ! وأنْ أقولَ وداعا

غيمــــة

للأديب عبد الرحمن الخميسى

تخِفُّ إلى صَـــدْرِ السَّماءِ تَميمَةٌ

رَمادِيَّةُ الأصْباغِ مِنْ كَفِّ راهِبِ

تَشُقُّ عُبابَ الجَوِّ حَيْرَى كأنها   سَفينَةُ وَهْمٍ في خَواطِرِ كاتِبِ

يُنادِمُها فَجْرٌ نَدِيٌّ مُنَوَّرٌ   وَيُطْلِقُها في أُرْجُوانِ المَواكِبِ

وَتُرْضِعُها مَشْفُوحَها الشَّمْسُ وَقْتَما   تُريقُ دِماها فَوْقَ هامِ المَغارِبِ

وَتَرْقُبُ دَمْعَ البَدْرِ في كُلِّ لَيْلَةٍ   لِتَسْبَحَ في غَمْرٍ مِنَ النُّورِ ذائِبِ

من لواعج الذكرى

للأستاذ محمد كامل حته

أبى ! كيفَ ماتَتْ مَعانِي الرِّثاءْ   عَلَى شَـفَتِيَّ وَغَصَّ القلَمْ !

وكيفَ احتواني ذهولُ الفناءْ   عَشِيَّةَ غُيِّبْتَ بينَ الرِّمَمْ...

وأينَ الدموعُ ، وأينَ البكاءْ   يموجُ على شاطِئَيْهِ الألَمْ !

وأينَ الرثاءُ يهزُّ السماءْ   وَيُدْمِي الجفونَ وَيُذْكِي الضَّرَمْ

تأبَّتْ عَلَيَّ فنونُ العزاءْ   وَجارَتْ عَلَيَّ همومُ العدمْ

فأعْوَزَني يومَ مِتَّ الوَفاءْ   وما أنا في الناسِ بالمُتَّهَمْ

كأني وقد حُمَّ فيكَ القضاءْ   ذبيحٌ تَحَشْرَجَ فيهِ النَّغَمْ !

* * *

تُرَى كيفَ مَرَّتْ عليَّ الشهورْ   وكيف انقضى العامُ والآخَرُ ؟

وكيف احتوانِيَ صَمْتُ القبورْ   وأخرسني وَجْبُها الساخرُ !

وبي لوعةٌ من عذابِ السعيرْ   تَلَظَّى بها القلبُ والخاطرُ

وما في بيَاني وَنًى أو قصورْ   ولي منطِقي المسعفُ المادرُ

لقد خدعَتْني المنى وهي زورْ   وغَرَّرَ بي الأملُ الغادرُ

فأقسمتُ: ساقي الردَى لن يدورْ   على مهجتي كأسُهُ الدائرُ

فدارَتْ بيَ الكأسُ ظمأي تفورْ   وَغُولُ الردَى مُطْبِقٌ كاشِرُ !

* * *

هُوَ الموتُ قدْ رَوَّعَتْني رُؤاهْ   فذابَ جنَانِيَ في قبضَتِهِ

وَأَغْوَلَ في دُنْيَايَتي صَدَاهْ   وَغَامَتْ حَيَاتي على صفْحَتِهْ

فلمَّا تقشَّعَ عَنِّي دُجاهْ   تَلَفَّتُّ ، وَالقلبُ في غَشْيَتِهْ

فألْفَيْتُني في خِضَمِّ الحَياهْ   مَهيضَ الشراعِ على لُجَّتِهْ

وَحِيدًا تُرَوِّعُهُ في سُراهْ   همومٌ تفزَّعُ مِنْ وَحْشَتِهْ !

وَأينَ العزاءُ ، وكيفَ النجاهْ ؟   سؤالٌ يُدَمْدِمُ في وَحْدَتِهْ

وأين أبي ؟ في جِوارِ الإلهْ   يُلَقَّى الكرامة في جَنَّتِهْ !

إلى البـــدر . . .

للأديب محمد عبد السلام كفافى

سميرك يا بدر الدجى كاد يغربُ   ويحجبه من عالم الموت غيهبُ

أرانا تشابهنا فإنك في الدجى   منار وإني في دجى اليأس كوكب

ونحن بنو أم كلانا سليلها   ولكننا فيها نُوارى ونُحجب

فويلك إن ألقت عليك بظلها   وويلي إذا ما في ثراها أُغيَّب

ولكن تخالفنا فأنت تعود من   غروب ولن آتي إذا حان مغرب

وأنت صليب القلب لكنني فتى   فؤادي بألوان الهموم معذَّب

فكم بات قبلي سامرون مدى الدجى

طوتهم من الماضي سنون وأحقب

تناجيك أشعار لهم وأهازجٌ

ويشجيك نايٌ خالد اللحن مطرب



١ – ما رأيكم في هذا الجواب؟

لأستاذنا الكبير (ا . ع) فضل في تقييد ما يقع في أقوال الكتاب والشعراء من التعابير الدخيلة في اللغة العربية . وهو يخصني بالعناية فيتناول كلامي بالنقد من حين إلى حين ، وإن كان في يأس من إصغائي إليه في كل وقت ، لأني أرى من حق الكاتب أو الشاعر أن يدير التعبير كيف شاء ، وفقاً للصورة التي تتمثل في ذهنه وهو يساور بعض المعاني والأغراض

ومن أغلاطي عنده عبارة « من جديد » وهي كثيرة الدوران في كلامي ، ويرى أستاذنا (ا . ع) أنها « من التعبيرات التي تسربت حديثاً إلى لغتنا ، فتداولها الكتّاب من غير تمحيص ، ولا وزن لصحتها اللغوية ، ولا لصلاحيتها الآن تندمج في الأساليب الفصيحة وتندو جزءاً منها » ثم قال : « وما كنت أتوهم قط أنها تصل يوماً إلى أقلام البلغاء » وبعد أن رجّح أنها « من التراكيب الأفرنجية الكثيرة التي شوهتها الترجمة السقيمة » تلطف فقال : « أفلا يرى معي حضرة الدكتور أنه يجدر بنا أن نحارب هذه الطفيليات في لغتنا ، وأن نقضي عليها قبل أن يستشري فيها شرها ؟ »

واتفق أن صرفتني الشواغل عن الجواب فكتب الأستاذ بعد ذلك بأسابيع كلمة يقرر فيها أن عبارة « من جديد » لن تُقتلَع من اللغة إلا بعناء ، وفوض أمره وأمر اللغة إلى الله !

فما رأي أستاذنا (ا . ع) فيمن يخبره أن اللغة العربية عرفت هذا التعبير قبل أكثر من تسعة قرون ؟ ما رأيه في قول ابن رشيق وهو من أقطاب الأدب العربي :

قد أحكمتْ مني التجا ربُ كل شيء غير جودي

أبداً أقول لئن كسبـ ـتُ لأقبضنْ يَدَيَّ شديد

حتى إذا أثريتُ عُـد تُ إلى السماحة من جديد

أيراني أجبتُ ؟ إن لم يقتنع فسأرجع إلى مصاولته من جديد وإن اقتنع فأنا أنتظر منه جائزة سنية على هذا الجواب ، والسلام

٢ – مشكلة جديدة

قبل ظهور العدد الماضي بثلاثة أيام قدمت الكلمة السابقة لمطبعة الرسالة ، وراعني أن أجد أحد الأدباء سبقني بكلمة عن أبيات ابن رشيق ، ولم تكن تلك الأبيات بعيدة مني ، فهي من شواهد كتاب « الموازنة بين الشعراء » ولكن الحظ قضى بأن تكون « الجائزة السنية » من حق ذلك الأديب وقد وصلت كلمته قبل كلمتي

وهنا تظهر مشكلة جديدة تصورها الأسئلة الآتية :

١ – حكم الأستاذ الكبير (ا . ع) بأن عبارة « من جديد » لم تكن شائعة بيننا قبل نحو عشر سنين ، فهل يؤمن بقيمة الاستقراء الفردي في اللغات ؟

٢ – وحكم بأنه ما كان يتوهم قط أن تصل هذه العبارة يوماً إلى أقلام البلغاء ، فهل يتفضل فيشرح الأسباب التي تمنع وقوع هذه العبارة في كلام بليغ ، ولو صح القول بأنها منقولة عن اللغات الأجنبية ؟

٣ – ورجح القول بأنها مترجمة عن الإنجليزية ، وأقول إن لها نظيراً في الفرنسية ، فهل يجب أن ننفي من لغتنا كل عبارة لها نظائر في لغات الأجانب ؟

٤ – قال أستاذنا (ا . ع) إنه جهد في أن يخرّج هذا التركيب في مختلف أوضاعه تخريجاً سائغاً فلم يوفق ، ثم قال : « قد يكون التقدير في عبارة الدكتور (من وقت جديد) أو (من شيء جديد) أو (من أمر جديد) مثلاً ، ولكن كيفما قدرنا هذا الموصوف ألفينا الكلام غثاً لا معنى له »

ولولا ولم تحزن عليهم بدمعة ولكن على أجداثهم بت تلعب

حكيت فتاتي في الملاحة والسنى وتحكيك منها قسوة وتجنب

كأنك منها وهي منك تحدرت

فليست إلى الأرضين تُنمى وتنسب

أراها على أفق الجمال تربّعت يداعبني منها شعاع محبّب

فيوهن بأسي حبُّها ويهدّ من قُوى عزمتي والحب أقوى وأغلب

فويلي يابدران إن مت منكما فلا هي تبكيني ولا أنت تندب

ومن حق أن أسأل أستاذنا عن الموجب لهذا التقدير وهو من صور التكلف والافتعال ؟ يضاف إلى ذلك أن البحث عن أصول التعابير يضيع الغرض الأصيل وهو الإيجاز ويُفقد التعابير حظها من الذاتية البيانية

إن أجاب سعادة الأستاذ عن هذه الأسئلة بما يقنع فله عندى جائزة سنية ، على شرط أن يخص السؤال الثانى بالعناية والاحتفال

زكى مبارك

من جديد

اطلعت فى العدد (٤٢٧) من « الرسالة » على كلمة للأستاذ الفاضل محمود عزت عرفة ، يعقّب بها على ما كتبته فى تخطئة قول بعضهم : « من جديد » ؛ ويستشهد لعربية هذا التعبير بما رواه لابن رشيق القيروانى فى إحدى قصائده

ولقد طربت — علم الله — لهذا التصويب ، وإن كان لا ينزلنا منزلة اليقين ؛ ولكنه — كما قال الأستاذ — يميل بنا إلى الجزم بانتماء هذا التعبير إلى العربية الصحيحة ، ويبعد بنا عن فكرة أنه مترجم عن الإنجليزية لقدم عهده

وإنى أشكر للأستاذ إفادتى وخدمته للغة بكشفه هذا هدانا الله إلى السداد ، وألهمنا الصواب فيما نقول ونعمل .

« ا . ع »

الذى حرك العالم !

تساءل الأديب الفاضل أحمد الشرباصى فى العدد الخامس والعشرين بعد الأربعمائة من « رسالتنا الغراء » عن السبب فى تسمية « الجاز » المستعمل فى المنازل بأسماء مختلفة ، فقال : إن الحكومة تكتبه فى البطاقات التى تعطى شهرياً للجمهور باسم « الكيروسين » ، وكتاب السياسة يسمونه « البترول » ، والعامة تسميه « الجاز » ؛ ويقترح الأديب أن يطلق عليه « النفط » ، كما كان يسميه العرب وتسمى منابعه « النفاطات »

والواقع أن « الجاز » أحد مشتقات عديدة تستخرج من زيت معدنى هو البترول ، أى أن كلمة « الجاز » لا ترادف كلمة « البترول » ، والعلاقة بينهما هى علاقة الفرع بالأصل . وأما كلمة « الكيروسين » ، فهى ترجمة إفرنجية علمية صحيحة Kerosene للجاز ، وموضوع « البترول » موضوع كيميائى متشعب . والمكتبة الإفرنجية غنية بالمصنفات العديدة عنه نظراً لأهميته الحيوية لجميع الأمم ، سواء المتحاربة أم المسالمة ، فما من مصنع يشتغل ، أو سيارة تتحرك ، أو طائرة تحلق ، أو قطار يسير ، أو بيت يعمر بأهله ، إلا كان للبترول ومشتقاته فضل كبير فى ذلك : فمنه يستخرج بنزين السيارات والطائرات ، ومنه تستوقد النيران فى المنازل بالجاز ، ومنه زيوت التشحيم بأنواعها المختلفة ، ومنه زيوت الديزل والمازوت للوقود ، ومنه الشمع ، ومنه الأسفلت . وأما كلمة « الجاز » التى شاعت على لسان الجمهور فأغلب الظن أنها مأخوذة من أحد زيوت البترول المسمى جاز أويل Gas Oil وهو نوع خفيف من زيت الديزل ويستضاء به أيضاً

وإذا كان قد جاء فى المختار والقاموس والمصباح أن النفط ضرب من السرج يستصبح به ، وأن النفاطة منبت النفط ومنبعه ، فأظن أنه بعد التقدم العلمى فى دراسة البترول وتقسيم مشتقاته لا يكفى . فعلى علماء المجمع اللغوى أن يحددوا اللفظ المقابل لكل من المواد السالفة الذكر ، بعد أن اتضح أن الجاز شيء والبترول شيء آخر

أحمد على الشحات
كيميائى

استيضاح

فى العدد (٤٢٥) كتب الأستاذ الكبير (ا . ع) تعقيباً لغوياً على الدكتور زكى مبارك جاء فى هامشه ما نصه : « ويكنى عن الأمر بكذا ؛ إلا أن (كذا) تفرد إن لم يتعدد الفعل . قال فى (المصباح) : ويكون كناية عن الأشياء ، يقال فعلت كذا ، وقلت كذا ؛ فإن قلت : فعلت كذا وكذا فلِيتعدَّدِ الفعل اهـ »

وفى هذا القول نظر ، كما يقول الأسلاف إذ جاء فى مختار الصحاح ما نصه : « تقول فعل كذا وكذا » و « تقول عندى كذا وكذا درهماً » وهذا يفيد جواز تكرار (كذا)

وقول المصباح : « فإن قلت : فعلت كذا وكذا فليتعدَّد الفعل » مبهم محتاج إلى توضيح ، إذ لا نفهم معنى تعدد الفعل هنا ؛ أيقصد تعدد الفعل من الفاعل ، أم يقصد تعدد الفعل فى الجملة



ذهب آل هوهنزلرن

تأليف الكاتب الإنجليزي س. فورستر

للأديب سيد إبراهيم البكار

عند ما كان ابن عمي بريان طالباً بالطب، كان كثيراً ما يختلف إلى منزلي، وخاصة عند ما يكون في حاجة شديدة إلى النقود. أما الآن وقد أصبح طبيباً ناجحاً فلم أعد أراه أو أسمع صوته. لذلك كانت دهشتي شديدة، عند ما دق جرس التليفون في أحد الأيام وكان المتكلم بريان. وسألني عما إذا كان في استطاعتي أن أستغني عن جزء من وقتي ليواضعني الرأي في أمر هام. وقد انتهى حديثي معه بأن دعوته إلى العشاء.

ومع أنني كنت مشغولاً إذ ذاك بعرض إحدى رواياتي على مسارح لندن، ومنهمكا في درس تفاصيل اتفاق مع إحدى الشركات السينمائية على شراء رواية أخرى، فإني كنت مشتاقاً إلى رؤية بريان، وقضاء بعض الوقت معه. فقد كان شاباً ظريفاً، يتفجر حيوية ونشاطاً

وكان لبريان مقدرة عظيمة على ضبط نفسه، فلم يكلمني في ذلك الأمر الهام حتى فرغنا من تناول العشاء وشرب القهوة. وفي أثناء ذلك أخذ يسألني بكل أدب عن الرواية والفلم، وعن مدى نجاح مسرحيتي الجديدة. ولم يكن عجيباً أن يلاقيني بريان بالدم فقد درج على ذلك منذ صغره؛ ولم أكن من ناحيتي أرى غضاضة في ذلك، بل كنت أعتبر هذا شعوراً طبيعياً منه نحوي. ولما فرغ بريان من إشعال سيجارته سألته عن ذلك الأمر الهام الذي كلمني عنه في التليفون.

قال بريان: حسن يا عمي، كل ما أريده منك أن تصحبني في رحلة على ظهر الدوليسينيا. والدوليسينيا هو الاسم الذي أطلقه على يختي الخاص.

قلت: يا طفلي العزيز، لقد كنت تتكلم الآن عن الرواية والفلم. وأنت تعرف أني أريد أن أنتهي منهما. وعلى ذلك فلن يكون في استطاعتي أن أستغني عن دقيقة واحدة في ستة الأسابيع القادمة.

قال بريان: حسن، هذا ما كنت أخشاه، فبعد ستة أسابيع يكون الوقت قد مضى، وأنت تعرف أن الملاحة في الدانوب تتعطل في أثناء الشتاء.

— الدانوب؟ وأين تريد أن تذهب؟ ولماذا؟

— أنت ترى، ولكن يحسن بي أن أتكلم من البداية.

— إن هذا يكون أكثر إيضاحاً.

— لقد بدأت هذه القصة منذ أسبوعين مع أحد مرضاي وهو بحار ألماني ظريف يدعى «باير». وكانوا قد حملوه إلى المستشفى من الميناء، إذ أصابته إحدى الرافعات إصابة خطرة. وقد بذلت ما في وسعي لإنقاذه فنلت بذلك ثقته، وقد ساعدني على ذلك معرفتي باللغة الألمانية. وقبل وفاته بقليل أرسل إحدى الممرضات لاستدعائي — ولحسن الحظ كنت موجوداً حينئذ في المستشفى — وأخبرني عن الكنز.

— الكنز؟

— نعم، الكنز. إنها تبدو لك رواية خيالية. وقد فكرت

وتقديره مضمراً يفسره المذكور، أم ماذا؟ مع ملاحظة أن المصباح نفسه قد أورد قبل ذلك في المادة نفسها هذه الجملة: «يقال اشترى الأمير كذا وكذا عبداً»

فهل يتفضل الأستاذ الكبير (ا. ع) بتوضيح ذلك وتبسيطه لعامة القراء؟

(البجلات) أحمد الشرباصي

في اللغة

طالعت بجريدة الأهرام صباح الأحد كلمة (هناء) في مقال بإمضاء (مصري) وتحت عنوان (يا أولياء الأمور) وقد سبق أن أنكر الباحثون وجود تلك الكلمة في اللغة وقالوا إن الصحيح (هناءة) لا (هناء) فهل يتفضل العلامة وحيد بك بما يؤكد الخطأ أو الصواب. ولحضرته الشكر (م. ع)

فيك وهو يقص علىّ تلك القصة العجيبة . ألا ترى مى أنها كذلك ؟ البحار الذى يحتضر يقص على الدكتور الطبيب فى المستشفى قصة الكنز المخبوء ، إنما كان ينبغى أن تكون مع البحار خريطة يبين عليها مكان الكنز .

— وهل كان معه ؟

— كلا ولكن ما قاله يكفى . لقد قال إنه كان جندياً فى الحرب العظمى ، ولم يشتغل بالملاحة إلا أخيراً . وقد كان أحد الحراس الثلاثة الذين أرسلته الحكومة الألمانية لحراسة مقدار من المال أرسلته إلى بلغاريا أثناء الحرب . وقد عهد إلى أحد الضباط حراسة العربة المملوءة بالمال . ولما كانت أرض بلغاريا صخرية وعرة ، فقد وصلوا إلى هناك متأخرين . وأنت تعرف أن بلغاريا كانت أسبق الدول التى بادرت إلى التسليم

— نعم . هذا صحيح . ولا زلت أعجب كيف أن الشبان الذين لم يكونوا إلا صبية صغار فى سنة ١٩١٨ يعرفون عن معركة هاستنج أكثر مما يعرفه آباؤهم وأعمامهم الذين خاضوا غمارها وذاقوا ويلاتها

* * *

وعاد بريان يقول : لقد كانوا قريبين من الحدود عند ما سلمت بلغاريا . ولما سمع الضابط أن جيشاً إنجليزياً كان فى طريقه إلى صوفيا أمر بتحويل عربة الكنز إلى خط آخر ، ووصلها بالقطار الذاهب إلى ألمانيا . ولم يكن سيرهم سريعاً ، لأن خطوط السكك الحديدية كانت غير منتظمة . وكانوا لا يزالون فى هنغاريا عند ما سلمت النمسا أيضاً

قلت : هذا معقول جداً . فالنمسا كانت ثانية الدول التى سلمت

واستطرد بريان يقول : وهكذا كانوا هناك مع عربة من عربات السكك الحديدية ملأى بالذهب . ولم يكونوا قادرين على التقدم ولا على الرجوع . وكان عليهم أن يعملوا عملاً حازماً سريعاً . ومما حملهم على ذلك أيضاً أن التشيك والرومانيين كانوا يسيرون فى اتجاههم . وكان الإيطاليون يتقدمون نحو فينا . وبالطبع لم يكن الضابط يريد أن يستولى الحلفاء على ذلك الكنز ولذلك دفنوه

قلت : وهل أخبرك أين دفنوه ؟

— بالطبع . فقد وقف قطارهم عند تل عال يقع بالقرب من قرية تسمى (ديلنجن) على نهر الدانوب . وعلى قمة هذا التل صليب تذكارى . وقد تعاون الضابط وباير والرجل الثالث على إخراج الذهب من العربة ، وحملوه ليلاً إلى أعلى التل ، ودفنوه هناك على عشر خطوات من الصليب المذكور

وقد قال لى باير إن المال كله كان فى صناديق حديدية ، من بينها اثنان لم يستطيعوا حملهما إلا بصعوبة

— وهل تظن أنه كان يقول الحقيقة ؟

— نعم .. إنى متأكد من ذلك تأكدى من جلوسى هنا معك

— ولكن هذا لا يعنى أن الكنز لا يزال هناك

— صبراً . فسأخبرك عن كل شىء فى وقته ، فبعد أن دفنوا الكنز رحل الثلاثة : باير ، والضابط ، والرجل الثالث ، قاصدين بلادهم . وقد كان رجوعهم شاقاً ، فقد كانت هناك ثورات فى كل مكان ؛ وكانت آثار التخريب والدمار بادية فى كل قرية

— نعم هذا صحيح ، فقد شاهدت بعينى ما حدث فى دول أوربا الوسطى بعد الهدنة بقليل

— وعلاوة على ذلك لم يكن مع أحدهم الغذاء الكافى . وكانت عدوى الأنفلونزا منتشرة فى ذلك الوقت ، وقد أصيب بها الرجل الثالث فمات فى فينا . وبقى باير والضابط . ولما وصلا أخيراً إلى ألمانيا كانت الحرب هناك قد انتهت أيضاً ؛ ولكن كانت هناك فتن وقلاقل داخلية . وبينما كانا خارجين من محطة السكك الحديدية فى درسدن قذف شخص مجهول قنبلة أصابت من الضابط مقتلاً . وأصيب باير بجروح لم تكن خطرة على كل حال ، فقضى هناك بعض الوقت حتى التأمت جروحه ، ولما ثابت إليه صحته صمم على أن يحتفظ بسر الكنز لنفسه وألا يخبر به أحداً ما داموا لم يسألوه عنه . فقد نسى الجميع كل شىء عن هذا الكنز وسط القلق والاضطراب والثورات القائمة

— ليس هذا بعجيب

— حسن . منذ ذلك الوقت وباير يبحث عن طريقة يحصل بها على هذا المال ؛ ولكن لم يكن ذلك بالشىء اليسير ، إذ يجب

عليه أن يجتاز بعض الحدود، ويتعرض للشبهات والظنون . وفضلاً عن ذلك فإن هذه الرحلة الطويلة الشاقة تتطلب كثيراً من النقود ولم تكن النقود متوفرة لديه . وكان يخاف أن يطلب معونة أحد حتى لا يطلعه على سره . لذلك أخذ يتنقل من عمل إلى آخر ، منتظراً حدوث معجزة تدنيه من غرضه . ولكن لم يتحقق حلمه، فقد كان آخر عمل له أنه كان بحاراً على ظهر هذه السفينة الألمانية، ولم يعش طويلاً ؛ فقد مات بعد أن قص على هذه القصة

— وهل سمعه أحد وهو يخبرك بهذه القصة ؟

— كلا . إن هذا مستحيل . ومع ذلك فقد كان يكلمني باللغة الألمانية

— حسن ، كل شيء يكاد يبدو حقيقياً ، ولكن ما هي خطاتك ؟

— أريد أن نركب الدوليسينيا إلى هناك ، ويمكننا أن نبحر إلى أعالي نهر الرين ، ونعبر القناة الواصلة بين الرين والدانوب

— يا إلهي ! لقد نسيت كل شيء عن هذه القناة

— ومن ثم ننزل إلى الدانوب ، من فينا ، وبعد ذلك نرسى عند ديللجمه ، ثم نحمل الكنز ليلاً إلى اليخت . وأنت تعرف أن اليخت أكثر صلاحية لتخبئة الكنز من السيارة . ولن يرتاب فينا إنسان أو يشك في الأمر أحد

— هه !

— ستأتي معنا . أليس كذلك ؟ سنكون أنا ودوروثي مسرورين بمجيئك

— دوروثي؟ يا للشيطان ! وما الذي أدخل دروثي في الأمر؟ ودروثي هي خطيبة بريان

— نحن على وشك الزواج ، وستكون هذه الرحلة بمثابة شهر العسل لنا

— فليبارك الله نفسي . هل تظنني أصحبكما وأتطفل على زوجين في شهر العسل ؟

— لكننا لا نبالي بذلك

— ربما لا تبالون أنتم بالأمر ؛ ولكني أنا أبالي . إني أفضل أن يختل عقلي — كما أتوقع لنفسي — بهذه التجارب وهذا الفلم . أما أنت فخذ اليخت ، ولكن لا تسألني أن أصحبكما

— أشكرك يا عمي . سنأخذ نصف الكنز . هل تقبل ؟ إننا سنستخدم يختك كما تعلم

ردني ما قاله إلى عالم الحقيقة مرة ثانية . لقد رن كل شيء في أذني معقولاً إلى الآن . ولكن عند ما أخذت أنظر في الأمر عن كثب بدا لي كل شيء أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة الواقعة . فاكتشاف الكنز المخبوء لا يكون إلا في القصص والروايات

وقطع على بريان سلسلة تأملاتي بقوله :

— كم تظن من المال هناك ؟

قلت : أنا لا أعتقد أن دولة كبيرة كألمانيا ترسل إلى بلغاريا في أثناء الحرب أقل من مليون جنيه . أليس كذلك ؟

وتناولت ورقة وقلماً وأخذت أحسب

— كل شيء حسن . لقد حسبناها أنا ودوروثي . نحن نستطيع أن نحمل مليون جنيه على ظهر الدوليسينيا بكل سهولة

وأخيراً اتفقنا على كل شيء . سأضع يختي تحت تصرف بريان ؛ وعند ما يأتي بالمليون سيعطيني عشر هذا المليون . وأنا أعتقد أن مائة ألف جنيه تكفي عجوزاً مثلي لكي يقضي بقية حياته في هدوء واطمئنان . ويستطيع بريان أن يأخذ باقي المليون ، وإذا لم يستطع إنفاق كل هذا المال فعليه أن يعيد بناء مستشفى لندن . وكنت أعرف أن بلاد الدانوب مليئة بالفتن والقلاقل ، وأنهم سيتعرضون لكثير من المخاطر . فلما أبديت مخاوفي إلى بريان ابتسم وقال :

— إن دوروثي تحب المغامرات ، وهي تخوض المخاطر بشجاعة منقطعة النظير . وعلى كل حال نحن نعرف كيف نحتفظ برؤوسنا سليمة ، فلا تخف

وأخذنا نتناقش في بعض التفصيلات الخاصة بالرحلة ، وإعداد العدة لها ، ولم يبرح بريان منزلي إلا بعد الساعة الرابعة صباحاً

* * *

وأخيراً أتى اليوم السعيد ، يوم زواج بريان ودوروثي . ولم أستطع التخلص من مشاغلي إلا بصعوبة . وما صدقت أني أصبحت حراً طليقاً ، من أوامر الأستديو ، وقيود التجارب في يوم بأكمله ، حتى قصدت الكنيسة حيث أقيمت مراسيم الزواج ، ووقعت باسمي شاهداً في السجل الخاص بالزواج ، ثم

قدت العروسين السعيدين إلى مرسى الدوليسينا . كان أمامى ستة أسابيع قبل أن أراهما ثانية . ولا أقول إن هذه الستة أسابيع مرت ببطء ، أو إنى قضيتها على أحر من الجمر ، فقد كانت مشاغلى كثيرة . كان أمامى الرواية المسرحية ، ومضايقات التجارب التى لا تنتهى ؛ ثم هناك أيضاً الفلم ، ولا يستطيع من يشتغل بإخراج فلم أن يجد من وقته لحظة واحدة يقضيها فى هدوء وسلام . وعند ما انتهى الفلم وأصبح صالحاً للعرض ، كان لا يزال على أن أنتهى من هذه الرواية بسرعة ، وقد انتهيت منها فى الوقت الذى تعهدت بتقديمها فيه إلى الناشر . وعند ما انتهيت من هذا كله أحسست كأن عبئاً ثقيلاً أزيح عن عاتقى . ومن ثم أخذت أفكر طويلاً فى الدوليسينا ، وكنت أتخيلها وهى تأخذ طريقها عبر القناة بين مرتفعات بافاريا ، ثم أتخيلها وهى تندفع مع التيار فى نهر الدانوب ؛ ثم أتخيلها وهى تثير شكوك البوليس فى سبع دول مختلفة

وكنت أواظب فى أثناء ذلك على قراءة الجرائد الأجنبية . ولكنى لم أعثر فيها على أى نبأ بالقبض على زوجين انجليزيين بتهمة التجسس أو سرقة كنز . ولكننى مع ذلك أخذت أتضايق ، وأوشك صبرى أن ينفد عند ما سمعت جرس التليفون يدق فجأة ، وكان الترنك ينادينى من سوثهامبتن

— هالو ! عمى ! لقد رجعنا ثانية . وكان الصوت صوت بريان

قلت : وهل أنتما بخير ؟

قال : نعم وقد وجدنا الكنز

وصحت فجأة : وجدتما ماذا ؟

— وجدنا الكنز كله سليما . ألم أقل لك إنى سأجده ؟ سأخبرك بكل شىء فى هذا المساء . نحن الآن فى المحطة على وشك ركوب القطار إلى المدينة

وربما كان أول ما خالج نفسى من مشاعر هو الاطمئنان لعودتهم سالمين ، ولكن مع هذا طغى علىّ فضول هائل لمعرفة كل شىء عن الكنز . وقد كنت ما أزال فى ريب من أن هذه المغامرة قد انتهت بهذه السهولة . وعهدى بالمغامرات أنها لا تتحقق إلا فى الروايات الخيالية التى كنت أؤلف منها العدد الكبير . كنت فى الحقيقة بين الشك واليقين ، وكنت فى اضطراب ذهنى ، وقلق فكرى ، عند ما أتى بريان ودوروثى لينقذانى مما أعانى

قلت عند رؤيتهم : حسن ؟

قال بريان : نحن مسروران لرؤية عمى المؤلف العظيم

وقالت دوروثى : لقد رأينا ونحن فى التاكسى جموع الجماهير المحتشدة وهى تتزاحم على شراء التذاكر لرؤية مسرحيتك الخالدة !

قلت : لعنة الله على المسرحية ، لنتكلم عن الكنز أولاً

قال بريان : حسن ، ولكن اسمح لى أولاً بشىء من الشراب يا عمى

وأحضرت إليه ما طلبه ، ثم أخبرت الخادم أن الدكتور والمسز سومرست سيبقيان للعشاء . ثم استدرت نحوهما وقلت : حسن

وابتدأ بريان يقول : لم تكن رحلة رديئة بالنظر إلى الذين كانوا يرافقوننى

ورمته دوروثى بمخدة صغيرة

قلت وقد شعرت بالغضب لتدخلها : لا تكونى طفلة حديثة الزواج هكذا ! أتركى هذا الطفل الأحمق يقص قصته بطريقته الخاصة

وعاد بريان يقول : لم تكن الرحلة تستحق الذكر . إلا أن النهر كان مليئاً بالقوارب الكبيرة والجرارات الضخمة التى كانت تحدث صوتاً عالياً ، حتى أنك لا تستطيع أن تسمع كلامك نفسه ؛ وقضينا يومين على هذا الحال . أما اليخت فيجب عليك يا عمى أن تضع فيه ماكينة فاخرة بعد ذلك . لقد كنت أقول دائماً إنك ستستعمل اليخت عاجلاً أو آجلاً

قلت بضيق : سأفعل ذلك فى المرة القادمة

— هذا عن نهر الرين . أما الملاحة فى الدانوب فقد كانت حسنة . إنه نهر واسع جميل ، وكانت الرياح تساعدنا ، وكانت الأمواج هادئة ، وبعبارة أصح كانت الرحلة موفقة . آه ، لقد نسيت أن أخبرك عن العبور من هولندا إلى ألمانيا . كان علينا أن ندفع ...

قلت وقد نفذ صبرى : أنا لا أهتم بما تدفعه . استمر فى قصتك

— حسن ، لقد عبرنا تشيكوسلوفاكيا والنمسا والمجر ، وكان كل من يرى الراية الزرقاء ترفرف على اليخت لا يفهم السبب الذى حدا بيخت إنجليزى خاص إلى المجىء إلى أواسط أوربا ، ولكنهم اعتادوا رؤيتنا فلم يسببوا لنا متاعب عند رجوعنا أخيراً بالذهب ؛ وكان كل مكتب جمارك يدعونا ليلقى علينا بعض الأسئلة عن المكان الذى أتينا منه ، وعما نفعله ، وإلى أين نحن ذاهبان ، وكان أكثرهم يتظاهر بأنه لا يعرف الألمانية

قلت وقد عيل صبرى : اللعنة الله على الألمانية ! ألم تذهب أخيراً إلى ديللنجن ؟

— نعم فى آخر الأمر ، وكان أول شىء بدا لنا من ديللنجن هو الصليب التذكارى على المرتفعات القريبة من الماء . وكان هناك خط حديدى بجوار التل كما قال باير تماماً ؛ وكان علينا أن نذهب إلى الشاطئ ونعبر شريط القطار ، ثم نصعد إلى قمة الجبل ، ولما وصلنا إلى ذلك الصليب التذكارى خطوت عشر ياردات إلى الشمال منه ، وكان كل شىء حسناً

— ماذا تعنى بقولك حسن ؟

— لقد قال باير الصدق ، فقد كان هناك كثيب صغير من الرمال وحشيش نام لا يلاحظه إلا من يعرف مكانه بالضبط . وعلى ذلك فقد رجعنا إلى اليخت ، وانتظرنا إلى أن أتى الليل ، وكان الانتظار طويلاً ومملاً ، إذ كان يلوح لنا أن الوقت لا يتقدم . ولما خيم الظلام على الكون ، ذهبنا إلى الشاطئ ثانية ... وكنت قد اشتريت مجرافاً أثناء مرورى بمدينة فينا ، فأخذناه معنا واجتزنا شريط القطار ، وكان قطار الشرق السريع الآتى من استامبول يمر فى ذلك الوقت ... فانتظرنا حتى مر ، ثم ارتقينا التل فى الظلام . ولم يكن من السهل العثور على ذلك الصليب التذكارى فى هـذا الظلام الشامل . . . ولكن كان من حسن حظنا أننا قد أتينا إلى هذا المكان فى النهار . . . فجلست القرفصاء ، وأخذت أتحسس الأرض لكى أعثر على كثيب الرمل ... ولما وجدته بدأت أحفر فى ذلك المكان ... ولم أحفر كثيراً ، فبعد أن حفرت ثلاث بوصات بدأ المجراف يحدث صوتاً مسموعاً نجم عن اصطدامه بشىء معدنى ، وكان ذلك الشىء صندوقاً حديدياً كبيراً . . . وبذلنا أنا ودوروثى مجهوداً كبيراً حتى أخرجناه من الحفرة ... !

وكان هناك صناديق أخرى فى تلك الحفرة . وكنت أعرف أننا إذا أخرجناها كلها من الحفرة فلن نجد الوقت الكافى لكى نحملها إلى اليخت قبل طلوع النهار . وهذا يعنى أن بعضها سيبقى على التل إلى النهار ، وسيظهر الناس على حقيقة الأمر كله . لذلك آثرنا أن نحمل هـذا الصندوق أولا ، ثم نحمل بقية الصناديق فى الليالى التالية . وعلى ذلك ، فقد ردمنا الحفرة بمهارة ورجعنا إلى اليخت بالصندوق الأول ، وكان ثقيلاً . وقد حدث أن وقع على قدمى ، وكشط الجلد كله ، وكانت دوروثى هى السبب فى ذلك ...

وصاحت دوروثى معارضة : كلا ، لست أنا ...

وصحت غاضباً : كونى هادئة ، أيتها الطفلة ...

وعاد بريان يقول : حسن ، بعد ما اجتزنا شريط القطار أوصلنا الصندوق إلى اليخت بواسطة قارب ، ثم وضعناه أخيراً فى الكابينة ، وكان أمامنا وقت كاف لكى نحضر صندوقاً آخر ، ولكننا آثرنا أن نفتح ذلك الصندوق أولاً لنرى ما بداخله

***

وكأنما تعمد بريان مضايقتى ، لأنه اختار هذه اللحظة بالذات لكى يشعل سيجارته ، ولكننى امتنعت عن أى معارضة وانتظرت بفارغ الصبر حتى انتهى من هذه العملية وعاد يقول :

— ولم يكن فتح الصندوق بالشىء الصعب ، فقد كان القفل قديماً قد أتلفه الصدأ ، فلم نجد صعوبة فى كسره ، وكان ...

فقاطعته وأنا أقول بلهفة : وماذا وجدتم فى الداخل ؟

— وجدنا المال الذى قال عنه « باير » ؛ ولكنه كان أوراقاً مالية ، وبالطبع كانت هذه الأوراق من الطبعة التى أصدرتها ألمانيا أثناء الحرب . وكان فى الصندوق نصف مليون فرنك إن لم يكن أكثر ؛ وأظنك اشتريت لى أوراقاً من هذا النوع بعد الحرب مباشرة لكى ألعب بها ، وفى الوقت الذى خرجت فيه هـذه الأوراق من دائرة التعامل ، كان المائة ألف منها تساوى بنساً واحداً على ما أظن !

سيد ابراهيم النجار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

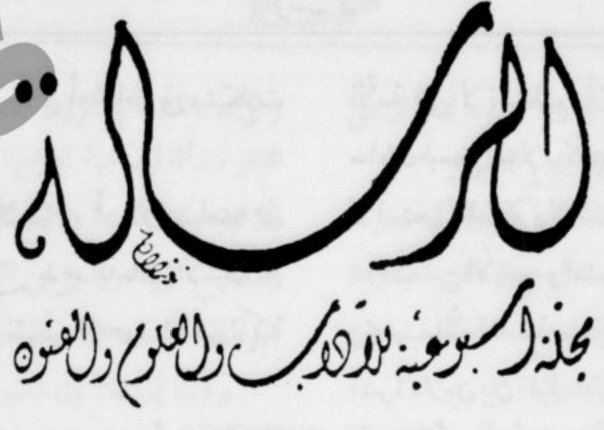


9me Année No. 429

Lundi - 22 - 9 - 1941


بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٤٢٩ «القاهرة في يوم الإثنين أول رمضان سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤١» السنة التاسعة

الفهرس

الأدب والاصلاح

للأستاذ عباس محمود العقاد

أشار الدكتور زكي مبارك إلى حديث لي لخصته صحيفة المزيجة الأسبوعية بقلم مراسل من مراسليها ولخصه الدكتور في قوله إن الأدب ينبغي «أن يكون للأدب، فلا يكتب الكاتب غير ما يوحى به الطبع، وهو يعنى بالحقائق الخالدة؛ أما المشكلات التي تتعلق بالطبقات المختلفة فهي مشكلات وقتية يناط تدبيرها بالرجال الإداريين»

ثم قال الدكتور: «أما بعد فهذه، مشكلة من أصعب المشكلات، وللأستاذ عباس العقاد أن يوضح رأيه كما يشاء»

ورأيي في هذا الموضوع الذي يستحق التوضيح أن الأديب لا يغض من أدبه أن يكتب في مسائل الاجتماع والإصلاح الموقوت، ولكن الكتابة في هذه المسائل ليست شرطاً من شروط الأدب وليست حتماً لزاماً على كل أديب

لأن الأدب التعبير، والتعبير غاية مقصودة، وغاية كافية، وغاية لا يعيبها أن تنفصل عن سائر الغايات

ولا فرق بين الأديب المعبر بنظمه ونثره وبين الموسيقى المعبر بألحانه ونغماته. فكلاهما يصف النفس الإنسانية في حالة من حالاتها، وكلاهما مستقل بوحيه لا يشترط فيه أن يتعرض

لعمل المصلح الاجتماعي أو الباحث الأخلاقي أو الناظر في مشكلات الثروة وشؤون المعيشة

وإنما جاء اشتراط البحث الاجتماعي أو الاقتصادي على الأدباء وأصحاب الفنون بدعة من بدع المذهب الاشتراكي في العصر الحديث ، وهو مع هذا نقيض الدعوة الاشتراكية في الأساس والصميم

لأن الدعوة الاشتراكية تستكثر على الفقراء أن يستغرقوا حياتهم في طلب القوت والاشتغال بأعباء المعيشة ، وترى أن الحياة الصالحة هي الحياة التي يقل فيها جهد العمل ، وتكثر فيها فرص المتعة بالنعيم

فإذا كان هذا هو رجاءها الأعلى وغايتها القصوى ، فمن أعجب العجب أن تجعل الخبز وضرورات المعيشة شاغلاً لكل عامل وقائل ، ومحوراً للأحلام والآمال ، وفريضة لا يعفى منها أحد من الناس حتى الذين وكلتهم المجتمعات الإنسانية منذ كانت إلى التجميل والتزيين وتذكير أبناء آدم بأنهم نفوس وألباب لها مطالب في بعض ساعاتها غير مطالب المعدات والجلود ! وأكبر من مطالب السوائم والحشرات

ماذا نقول ! أنقول السوائم والحشرات ؟ كلا معاذ الله أن نتهم السوائم والحشرات بالاستغراق في الطعام والمعدات ، فإنها تعلمنا ما يجهله غلاة الاشتراكيين ، ويريدون منا أن نغفل عنه ونتعلم نقيضه : تعلمنا أن الجمال غاية الحياة ، وأن الطعام ضرورة مفروضة وليس بالحياة كلها ولا بالشاغل الذي يستوعب كل حي في كل ساعة في كل عمل وكل مسعاة : تعلمنا أنها تغني وتمرح وتلعب وتحيي الشمس والقمر ، وتلوذ بالأعشاب والأزهار ، ولا تدين نفسها بدين الخبز والمعدة إلا ريثما تفرغ من هذه السخرة المفروضة عليها أو هذا العبء الذي يثقلها ويعطلها عن سرورها ونشوتها

ونحن إذ نقول هذا لا نجهل ما يقوله الاشتراكيون إذ يستخفون بالفنون والآداب التي تناط بالجمال الخالد ولا تناط بالمنافع الموقوتة . فإنهم يزعمون أن الجوع أولى بالتفكير والتعبير من هذه المطالب التي يسمونها بالكماليات وهي هي كما أسلفنا طلبة الحياة وطلبة جميع الأحياء

وحسنٌ ما يقولون أو فليكن حسناً كما يشاءون ، ولكن الأمة التي لا تستطيع أن تفرغ من حياة جميع أبنائها بعض ساعات لبعض هؤلاء الأبناء يشبعون فيها مطالب الجمال ، هي أمة لا تستحق الطعام ولا تستحق الوجود . فبحسب الفرد عشر ساعات من الأربع والعشرين للكد والكدح وطلب المعاش ؛ وبحسب الأمة تسعة ملايين وتسعمائة وتسعة وتسعون ألفاً من عشرة ملايين بين أفرادها يكدون ويكدحون لمعاشها . وغير كثير بعد ذلك ألف أو أقل من ألف يذكرونها الجمال ويعبرون لها عن أحلام الحياة التي يعطيها الطير والحشرة وتعطيها الضارية والبهيمة كل ما استخلصته من براثن الضرورات

لا بل نزيد على ذلك أن الألف الذين يذكرونها الجمال ويعبرون لها عن أحلام الحياة لا يخلون من فائدة في باب الخبز والطعام إذا نظرنا إلى النتائج والحقائق ولم نقصر النظر على البوادر والعناوين

فالشاعر الذي يفتن المرء بجمال الزهرة ، يرفعه من معيشة الذل والشظف ، ويجعل قناعته بالدون والسفساف ضرباً من المستحيل . وفكتور هوجو لم يكن من أصحاب البرامج الاجتماعية ، ولكنه وصف البؤس والظلم فأغنى عن البائسين والمظلومين ما لم يغنه الدعاة المتقطعون لما يسمونه : مشاكل المجتمع وبرامج الإصلاح . وكل نغمة موسيقية تعبر عن شوق إنساني هي خبز لا يحسن بالإنسان أن يحتمل جوعه ويصبر على فقده ، لأن عدم الخبز الذي تطلبه المعدات فقر وعوز . أما عدم الخبز الذي تطلبه الأرواح ، فهو مسخ وحرمان من الأذواق والأخلاق

ويكثر الاشتراكيون من ذكر الاقتصاد ، ويحسبون الدنيا بحذافيرها اقتصاداً في اقتصاد ، وهم يخالفون قواعد « القصد الطبيعي » فيما يشيرون به على نوابغ الأدب والفنون ، لأنهم يطلبون من العبقريين الموهوبين عملاً يقوم به من ليست لهم عبقرية فنية ولا ملكة أدبية ، وإنما يغني فيه من درسوه وحذقوه وتفرغوا لإحصاءاته وقواعده ومقابلاته ومقارناته ، ونريد به بحث المسائل الاجتماعية ، ومسائل الفقر والغنى ، وتوزيع الثروة ونظام الطبقات . فهذه موضوعات لا حاجة بها إلى عبقريات هوميروس وابن الرومي والمتنبي وشكسبير وبيرون ؛ ولا تخسر شيئاً إذا أقبل عليها من خلقوا لها وانقطعوا للاحاطة بمعارفها وأصولها ، ولكن العالم الإنساني يخسر أولئك العبقريين إذا وقفوا ملكاتهم على مسائل يوم أو مسائل أمة ، لن تصبح مسألة بعد يوم آخر

ولا بين أمة أخرى ... فى حين أن الذى كتبوه لا يزال من شاغل بنى الإنسان فى جميع الأيام وبين جميع الأقوام

فليس من القصد الذى يترنم به الاشتراكيون أن تصرف عبقرية عن عمل يحسنه ، ويحيلها إلى عمل يتولاه غير العبقريين وغير الموهوبين ، وإنما هو خلط فى التوزيع يعاب لما فيه من سوء الوضع فوق ما يعاب لفشله وقلة جدواه

ويستطرد بى هذا إلى مقال فى « الرسالة » للأستاذ رمسيس يونان ، ينحلنى فيه كلاماً لم أقله ولم أقل ما يؤديه ؛ بل قلت ما هو نقيضه على وجه صريح لا محل فيه لتأويل

فالأستاذ رمسيس يونان يروى الحقائق عند العقاد ومنها « أن الأمان كل الأمان، خطر على الهمم والأذهان، وأنه لو اطمأن كل فرد إلى قوته وكسائه، فقدنا من بنى الإنسان العنصر المقتحم المنافس »

ثم يقول : « ولو صدر هذا القول من إسماعيل صدقى مثلاً لمذرناه ، ولكن الغريب حقاً أن يصدر من العقاد . فكيف يستطيع العقاد الشاعر أن يقول إنه لا تكون منافسة أو اقتحام إلا حيث يكون طلب الرزق ، وأن الإنسان لا ينافس فى سبيل غرام أو فى سبيل كشف علمى أو إنتاج فنى ؟ ! ولماذا لا نقول إن روح المنافسة إذا تحررت من هموم العيش وأعباء الثروات ، فسوف تكتشف لنفسها ميادين وآفاقاً جديدة هى أجدر بعواطف الإنسان ؟ ! »

والعجيب كما أسلفت أننى صرحت بنقيض هذا الكلام فى مقالى عن المال الذى يناقشه الأستاذ رمسيس يونان . فقلت : « إن طلب المال كطلب العلم فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه الآباء للأبناء ؛ وقد يهمل الإنسان رزقه ورزق أبنائه ليتابع الدرس ويتقصى مسألة من مسائل العلم والمعرفة ... وإنما تفسر أعمال الإنسان بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات . وإذا قيل لنا إن فلاناً يجمع المال لأنه يخاف عاقبة الفقر ، قلنا : ولماذا يخاف هذه العاقبة التى لا يخافها غيره ! إنه لا يخالف غيره إلا لاختلاف البواعث النفسية دون الاختلاف فى الغايات ... »

هذا كلامى فكيف فهمه كاتب المقال عن الفقر ومسألته الاجتماعية ؟ !

فهمه على أسلوب الاشتراكيين فى فهم كل شىء؛ وأسلوبهم أنهم يفهمون ما يروقهم ، وأن الذى يروقهم هو المناوأة والإنكار ، وعلى هذه السنة ينكرون العصامية كما ينكرون الغنى ، ويسمون الفقر مسألة اجتماعية ليريحوا أنفسهم من العطف على الضعفاء ، فلا هم يطيقون الممتازين بالفضل أو بالثروة ، ولا هم يشعرون بالعطف الصحيح على المحرومين من النبوغ والمال . وماذا يفيد العطف كما يقولون ؟ أليست هى مسألة اجتماعية لا دخل فيها للشعور والرحمة ؟ !

وكأننا إذا قلنا إن الفقر داء اجتماعى يعالج كما تعالج الأدواء الاجتماعية خرجنا به من طريق العلاج ... وكأنهم إذا قالوا إنه مسألة وليس بداء فرجوا أزمة الفقر أو اقتربوا بها من التفريج

على أن الحقيقة أن الدنيا لن يزال فيها الفقراء والأغنياء ، ولن يزال فيها الأذكياء والأغبياء ، ولن يزال فيها الأخيار والأشرار ، ولن يزال فيها السمان والعجاف والطوال والقصار والأقوياء والضعفاء . وآفة الاشتراكيين أنهم لا يعيشون ويتمرضون مع هذا لعلاج مسألة العيش ... فحياة كارل ماركس الشخصية تكتب فى صفحتين ، وكذلك حياة لنين وستالين وإخوانهم أجمعين . ولو عاشوا لفهموا العيش غير هذا الفهم وعالجوه غير هذا العلاج

فقوانين الحياة سابقة لقوانين الاجتماع . وقوانين الحياة هى التى أوجبت بين الناس هذا التفاوت فى الأرزاق كما أوجبته بين الحيوان والنبات . وعبث أن نعلق الرجاء بالمستحيل ، فلا انتهاء للتفاوت فى مطبوع ولا فى مكسوب . وغاية ما نستطيع أن نمنع الفقر الذى يشقى به من لا يستحقه ، وأن نرفع طبقة الفقراء بالقياس إلى الأغنياء ، وأن نجعل للأمم نصيباً من ثروة الأفراد

أما محو التفاوت فى الكسب فلا سبيل إليه ، وليست كلمة « مسألة » بالتى تخلق سبله لو كان إليه سبيل .

عباس محمود العقاد

ملخصة من كتاب :

الحروب الحاسمة فى التاريخ

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

[من (أحاديث القهوة) حديث دار بيننا من هزيمة ألمانيا المنكسرة فى الحرب الماضية وأسبابها الظاهرة والباطنة ؛ فقال الأستاذ السلحدار — ومن عادته أن يجعل لكل حديث نتيجة — إنه قرأ فى هذا الموضوع كتابا له قيمة وفيه ثقة ؛ ثم لخص لنا رأى المؤلف فكان فصل الخطاب ومقطع الحكم . فرغبت إليه أن يكتب هذا التلخيص لقراء الرسالة فكتبه الأستاذ لتوه من غير تنقيح ولا مراجعة]

فى سنة ١٩٣٣ نشر پايو Payot كتاباً اسمه « الحروب الحاسمة فى التاريخ » Les Gueres Décisives de l'Histoire ومؤلفه هو الكبتين ب . ه . لِدِّلْ هَرْت Capitaine B. H. Liddell Hart الكاتب العسكرى للانسيكلوبيدية البريطانية Military editor of the New Encyclopaedia Britannica ، وترجمته الفرنسية هى لكل من ميرا والكلونيل فنلونج B. Mayra et le Lt Colonel de Fonlongue

قال المؤلف : إن موضوع الكتاب والغرض من وضعه وقيمته هى أمور لم تتبين فى ذهنه تبيناً دقيقاً إلا شيئاً فشيئاً ، وعلى ترتيب وسياق هما دون المعتاد فى إعداد كتاب . ذلك بأن فكرته الأصلية إنما كانت أن يستخلص الجوهر من مطالعات واصلها عدة سنين ، ومن خواطر ألهمته إياها هذه المطالعات . ولذا جاء كتابه خلاصة مكثفة من ملاحظاته التى دونها فى أثناء دراسته لكل من تلك الحروب الحاسمة

وقال إنه أتم أول وضع لكتابه من غير أن يُدخل فيه نظرة فى عوامل الحرب الكبيرة الماضية وفيما بين هذه العوامل من علاقات ونسب ؛ وقد علل ذلك بأن الاعتماد على أسانيد وافرة أخذاً عن وثائق المحفوظات وعن الشهادات الشخصية كان يومئذ أمراً ممكناً ، لكنه اعتقد أن الجو كان لم يزل مشحوناً بكهرباء المجادلات الدلنية بسبب ما تدور عليه من المصالح الخاصة ؛ وتلك حال يصعب فيها التجرد من الشهوات لقبول حكم فى الموضوع . وكان هو شديد الرغبة فى ألا يضعف مثل هذا الجو ما اعتبره درساً صادقاً حيوى الأهمية استنبطه من الماضى لينفع فى المستقبل ، إذ كان غرضه من التأليف هو فى الواقع تنشيط بحوث تجرى بروح علمى لا إذكاء نار الجدل . كان يريد بما استنبطه من خبرة العالم القديم والعالم الحديث أن يمكن القارئ من الاهتداء إلى الدروس التى أتت بها حرب سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ . غير أن أصدقاء ونقاداً بصراء عرض عليهم أول وضع للكتاب حثوه على أن يدخل فيه بعض نظرات فى تلك الحرب تصل بين خبرة الماضى وخبرة العصر على النظام الذى تقتضيه طبيعة ملاحظات المؤلف ، محتجين لنصيحتهم بأن الطلبة قد أتيح لقليلين منهم الفرصة والوقت للتعمق فى أكداس المواد التاريخية

فالكتاب أبحاث استراتيجية فى الحروب الحاسمة ، مهّد لها مؤلفه بفصل فى التاريخ من حيث هو خبرة عملية ؛ ثم بحث فى حروب اليونان (إبامينونداس Epaminondas ، وفيليب Philippe ، والاسكندر Alexandre) ، فحروب رومة (هنيبال Annibal ، وسبيون Scipion ، وقيصر Cesar) ، فحروب القرون الوسطى ، فحروب القرن السابع عشر (جستاف أدُلف Gustave-Adolphe ، وكرومويل Cromwell ، وتُرين Turenne) ، فحروب القرن الثامن عشر (مَرْلبورو Marlborough ، وفردريك الثانى Frédéric II) ، فحروب الثورة الفرنسية (نابليون) ، فحرب القرم وحرب سنة ١٩١٤

* * *

يريدون بكلمة استراتيجى stratégie فى اللغة الفرنسية باباً من الفن العسكرى يتعلق بخطط قيادة الجيوش إلى حيث تلاقى جيوش العدو . ويعنون بكلمة تكْتيك tactique فن ترتيب الجنود واستعمالها فى القتال

وقد ذهب المؤلف إلى أن هذين التعريفين ضيّقا النطاق ، وأن التكتيك والاستراتيجى متداخلان . وأن هناك الاستراتيجى العادية والاستراتيجى الكبرى وهى تشمل السياسة العامة للحرب سواء أدارت فى ميدان أم فى ميادين ، وأن هذه السياسة يضعها ويديرها الحكام الدنيون ؛ أما القواد العسكريون — خصوصاً فى البلاد الديموقراطية — فعليهم حسن استعمال وسائل القتال لتحقيق أغراض السياسة . وفيما يلى خلاصات من بعض فصول الكتاب . قال صاحبه :

١ — رجال العسكرية فى العالم يعترفون جميعاً بصدق قول نابليون

فى الحرب : « إن نسبة الحال النفسية إلى الحال المادية كنسبة ثلاثة إلى واحد » فى الحرب

Le moral est au physique comme trois est à un

وقد لا يكون لهذه النسبة أية أهمية فى الحقيقة إذا اجتزىء بالنظر إلى قيمتها الحسابية ، لأن المستوى النفسى le moral يميل إلى الهبوط عند عدم كفاية السلاح ، وأى نفع يكون لأشد الإرادات ثباتاً فى جسم هامد ؟

لكن لهذه الحكمة قيمتها على الدوام ، وإن كان العامل النفسى والعامل المادى متلازمين ، وكان كل منهما لا ينقسم ، لأنها عبارة عن أن العوامل النفسية هى المرجحة فى جميع الأعمال العسكرية الحاسمة ؛ فإنها عليها وحدها تتوقف باطراد نتيجة المعركة ونتيجة الحرب ؛ وفى التاريخ العسكرى هى وحدها العوامل التى توجد على قليل من الاختلاف فى جميع مسائل الحرب ، فى حين أن العوامل المادية تختلف فى كل موقف تقريباً وفى أثناء كل حرب . ويمكن أن يصاغ معنى تلك الحكمة فى أسلوب أقرب إلى التعبير العلمى فيقال : إن قوة بلاد العدو تشبه أن تكون قائمة على عدد العسكر وعلى المصادر المادية على حين أن العساكر والمصادر متوقفة توقفاً جوهرياً على اعتدال القيادة équilibre وعلى حال الجيش النفسية وعلى المؤن .

٢ — الاقتراب المباشر approche directe هو قيادة الجيش إلى ملاقاة الجيش المعادى الأساسى رأساً والهجوم على قلبه طلباً لنتيجة حاسمة ، ولم ينتج هذه النتيجة إلا فى النادر عند التفاوت العظيم بين الجيشين . أما الاقتراب غير المباشر approche indirecte فهو الاقتراب بحركات الالتفاف عن بعد والهجوم على جوانب الجناحين ، أو فى الميدان البعيد عن الجيش الأساسى عند تعدد الميادين ، وهو الذى جاء بالنتيجة الحاسمة فى كل حرب تقريباً

٣ — والحصر ، بحرياً كان أو برياً ، يمكن عده من أعمال الاقتراب غير المباشر والاستراتيجى الكبرى ؛ وقد كانت الدول الوسطى فى آخر سنة ١٩١٧ تعانى شدته القاسية . وهذا الضغط الاقتصادى هو الذى خدع الألمان وحملهم فى سنة ١٩١٨ على هجومهم العسكرى فى الميدان الغربى (إقتراب مباشر بالنسبة إلى سائر الميادين)

إن فرنسا فى سنة ١٩١٤ حاربت بخطة حربية اشتهرت باسم الخطة رقم ١٧ تم وضعها بعد تعيين جوفر رئيساً لهيئة أركان الحرب العامة سنة ١٩١٢ ، وهى الهجوم السريع المفاجئ على قلب الجيش الألمانى رأساً بالاقتراب المباشر . ومن الغريب أن هذه الخطة كانت مستلهمة من آراء القائد الألمانى فون كلوزويتز von Clausewitz فى حين أن الخطة الألمانية التى وضعها الكونت شليفن Schlieffen سنة ١٩٠٥ كانت قريبة إلى آراء نابليون . فكانت الخطة الفرنسية خير ما ساعد فون شيلفن على تحويل الخطة الألمانية الأصيلة إلى طريقة الاقتراب غير المباشر من غرب بلجيكا . ومحل المهارة الحقيقية الدقيقة التى جملت هذه الخطة اقتراباً مباشراً هى الفكرة المتبعة فيها فى توزيع القوات على أقسام الجيش : ٥٣ فرقة المفاجأة الأولى والصدمة من بلجيكا ، وعشر فرق لتكون محوراً أمام فردان Verdun تدور عليه تلك الكتلة ، وتسع فرق فقط للجناح الأيسر من الجبهة الألمانية على طول الحدود الفرنسية فيما يلى فردان من الشرق إلى الجنوب . غير أن مولتك Moltek عدّل فى تلك الخطة من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩١٤ إذ قوى الجناح الأيسر تقوية لم تحفظ النسبة بينه وبين الجناح الأيمن الذى كان معداً للتقدم من بلجيكا ، وأبعد الطريق المختار لهذا الجناح عن البحر ؛ ثم لم يزل يقوض بتعديلاته أسس الخطة فى الميدان حتى انهارت وعدل عنها آخر الأمر فى ٤ سبتمبر سنة ١٩١٤ (معركة المارن الأولى ٥ — ٩ سبتمبر سنة ١٩١٤) . ومن تعديلاته أنه أجاب على تحدى الفرنسيين عند قيامهم بالهجوم المباشر فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، وحاول إحداث معركة حاسمة فى اللورين فجنح بذلك إلى الاقتراب المباشر

ولو أن ألمانيا — بعد معارك المارن فى سنة ١٩١٤ وحتى بأخرة عنها — اتبعت سياسة حرب دفاعية فى الغرب هجومية فى الشرق (اقتراب غير مباشر) لجاز أن تختلف النتيجة : إذ ليس يوجد غير أسباب واهية كانت تحمل على الظن بأن جهود الحلفاء — فى هذه الحالة — كانت تصل إلى أكثر من حمل ألمانيا على النزول عن بلجيكا وشمال فرنسا مقابل احتفاظها ، غير مدافَعة ، بغنائمها فى الشرق . أما فى سنة ١٩١٨ فإن الفرصة كانت قد فاتتها وكان جَلَدها الاقتصادى قد تأثر تأثراً خطراً . ذلك هو الموقف الذى كانت فيه ألمانيا سنة ١٩١٨ حين بدأت هجومها الأخير فى الميدان الغربى

نظر المؤلف فى معارك الميدان الغربى إلى إبريل سنة ١٩١٨ ثم قال :

أصبحت فكرة فوش الموجهة لقيادته أن يحتفظ بالقدرة على ابتداء الأعمال الحربية غير مسوق فى المحاربة بعمل العدو garder l'initiative ، وألا يدع له سبيلاً إلى الراحة فى ذلك الوقت الذى فيه كانت القوات الاحتياطية تتجمع لديه هو . وكان أول عمل قام به هو تخليص السكك الحديدية على جوانب جيشه وذلك بسلسلة من الهجمات المحلية

فقام هيج Haig بالهجمة المحلية الأولى فى ٨ إبريل سنة ١٩١٨ تجاه أميان Amiens ، وقد ضاعف لذلك جيش رولنسن Rawlinson باحتياطات وحيل ماهرة من حيث لم يشعر الألمان . ولعل هذه الهجمة — التى قادها ٤٥٠ دبابة — كانت أتم مفاجأة وقعت فى هذه الحرب ، وقد كفت لإفساد الاعتدال النفسى équilibre moral فى القيادة العليا الألمانية ، وأشعرت لودندورف Ludendorff بهزيمة جنوده المنوية حتى حملته على التصريح بأن الصلح لن يمكن الوصول إليه إلا بالمفاوضة . وقال : إنه ربما يتيسر ذلك يجب أن يكون هدف ألمانيا الإستراتيجى شل إرادة العدو الحربية شيئاً فشيئاً بدفاع إستراتيجى ! !

تلاحقت الهجمات حتى عرقلت خطة لودندورف ، إذ لم يبق فى وسعه أن ينقل جنوده الاحتياطية بسرعة تمكنه من سبق ضربات الحلفاء ومنعها ، واستمر النقصان فى هذه الجنود بنسبة كانت فى مصلحة الحلفاء ؛ وقد سمحت هذه الخطة للحلفاء مدة — على الأقل — بأن يستمروا فى التقدم وأن يضعفوا المقاومة الألمانية بالتدريج على نسبة النقصان العددى والخور النفسى فى القوات الألمانية . ونظراً إلى هذا الانحطاط ، وإلى تأكيد هيج أنه يستطيع اختراق خط هندنبرج قرر فوش أن يقوم بهجوم عام فى آخر سبتمبر . وكان من نتائج هذا الهجوم أن جلا الألمان عن الأراضى التى احتلوها بهجومهم سنة ١٩١٨ ، وأن ارتدت جبهتهم الغربية كلها ، وأتيح لهم تقصيرها وتعديلها بتضحية ساقة الجيش فى تقهقره

فى ١١ نوفبر سنة ١٩١٨ — وهو يوم الهدنة — كانت القوات الألمانية التى دفعها الهجوم العام آمنة فى جبهتها المعدلة ، وكان الحلفاء الزاحفون فى وقفة لم تكن يومئذ بسبب مقاومة العدو بقدر ما كانت لصعوبة تموين الجيوش فى منطقة أعملتها الحرب وخربتها

لم يكن للهجوم العسكرى فى طوره الأخير إلا أهمية ثانوية ؛ لكن الصدمة المنوية التى أصابت القيادة الألمانية بفعل المفاجأة الأولى التى قام بها هيج بدباباته يوم ٨ أبريل سنة ١٩١٨ فى بدء الهجوم ، تلك الصدمة قد أكلتها الحرب فى ميدان بعيد وقعت فيه حركة اقتراب غير مباشر ، جعلت الصدمة قاتلة : ذلك أن هجوم الحلفاء من (سلانيك) هو الذى أدى إلى هذه النتيجة ، فإن العدو لم يستطع أن يمنع تقدم الحلفاء على جناحه ، إذ لم يتمكن من جلب جنوده الاحتياطية بسرعة كافية بسبب بطء حركاته فى تلك الجبال . وقد طلب البلغار الهدنة إذ انقطع جيشهم قطعتين وهم متعبون من الحرب . وهذا الفوز الذى أحرزه الحلفاء أخرج من ميدان البلقان البعيد أهم نصير فيه للدول الوسطى ، وفتح الطريق لِتفجُّر الجنود المتحالفة على النمسا من خلف . ولقد تمكن هذا الخطر المهدد عند نجاح هجمة إيطالية على الجبهة النمسوية المنهوكة القوى النفسية والمادية ، لأن تسليم النمسا فى الحال أمر جعل للحلفاء إمكان التصرف فى أرضها وسككها الحديدية ، واتخاذ قواعد فيها لأعمال حربية ضد ألمانيا من بابها الخلفى . وكان الجنرال جلوز Gallwitz قد صرح للمستشار الألمانى — منذ سبتمبر — بأن ما كان من ذلك محتملاً وقوعه يومئذ يكون حاسماً إذا هو وقع فعلاً . فهذا الخطر المهدد وهو الدخول من الباب الخلفى ، والتأثر النفسى المتفاقم من وقع الحصر — الذى هو اقتراب غير مباشر فى الاستراتيجى الكبرى — حصر شعب جائع ضائع الأمل ، هما أمران كانا مهمازين دافعين للحكومة الألمانية انتهيا بها إلى التسليم

ففى الطور الأخير من هجوم الحلفاء العام ، قام هيج فى ٢٩ سبتمبر بهجمة على خط هندنبرج كانت أخبارها الأولى مقلقة للألمان . ويومئذ قررت قيادتهم العليا فجأة أن تطلب الهدنة زاعمة أن انهيار بلغاريا قلب كل ترتيباتها : إذ كانت قد اضطرت إلى أن ترسل إليها جنوداً أعدت أولاً للميدان الغربى ، وهذا تصرف كان قد غير الوقف تغييراً أساسياً بسبب الهجمات التى وقعت فى الوقت نفسه على الجبهة الغربية ؛ وهى هجمات وإن أمكن صدها إلى ذلك الحين ، يجب أن يتوقع الألمان استمرارها ،

تلك هي الحال التي فيها دُعي البرنس ماكس إلى تولّي وظيفة مستشار الامبراطورية ليبدأ المفاوضة في الصلح ، وسبب اختياره لذلك هو شهرته الدولية بالاعتدال والأمانة

وقد طلب البرنس إمهاله عشرة أيام ، أو ثمانية أو حتى أربعة ليساوم مساومة مفيدة من غير اعتراف بالهزيمة قبل أن يفاتح العدو رأساً . لكن هندنبرج كرر بصراحة قوله « إن خطورة الوقف العسكري ليس يمكن معها أي تأجيل » وشدّد في « أن يعرض الصلح على الأعداء في الحال » ، فأرسل طلب « الهدنة في الحال » إلى الرئيس ولسن يوم ٣ أكتوبر

وقد تضمّن طلب « الهدنة في الحال » اعترافاً واضحاً بالهزيمة . وكانت القيادة العليا قد اجتمعت برؤساء جميع الأحزاب السياسية في أول أكتوبر ، وأعدتهم من شعورها هذا فقوضت بذلك دعائم جبهتها الداخلية الخاصة قبل إرسال طلب الهدنة إلى الحلفاء بيومين : لأن هذا النور الفجائي أعمى رجالاً طال إبقاؤهم عمداً على جهل الأمور وحرّك دعاة السلام وكامن قوى الخلاف جميعها . وقد قامت الثورة في ألمانيا يوم ٤ أكتوبر ، أي بعد إرسال الطلب بيوم ، وانتشرت في أنحاء البلاد ، فاستقال البرنس ماكس في ٩ نوفبر وسلم مقاليد الحكم إلى إبرت Epert الاشتراكي

حقاً إن لودندرف هدأت نفسه بعد ٢٩ سبتمبر بمدة ، حين اطلع على تقارير تخبره أن الحلفاء خففوا هجماتهم . ولم يرجع عن طلب الهدنة ولكنه كان يريدها لإراحة الجنود ، بل شعر في ١٧ أكتوبر أن هذه الإراحة قد يمكن الاستغناء عنها ، وذهب إلى أن تصوره الموقف في ٢٩ سبتمبر كان أسوأ من الحقيقة الواقعة

لكن شعوره الأول كان قد ذاع أمره في الدوائر السياسية والجمهور الألماني ، وكانت الأمة قد تحطمت قوة إرادتها وفقدت الثقة بالقيادة العامة . وفي ٢٣ أكتوبر أجاب الدكتور ولسن على المذكرة الألمانية إجابة كانت في حكم طلب التسليم بلا قيد ولا شرط ، فاضطر لودندرف إلى الاستقالة في ٢٦ أكتوبر

والنظر في تاريخ مئة اليوم الأخيرة من تلك الحرب يبين صحة الدرس القديم قدم العالم : ذلك أن الغرض الحقيقي في كل حرب هو إصابة عقلية mentalité رؤساء العدو لا أجسام عساكره ؛ ويبين أن صدمة المفاجأة والشعور بالعجز عن درء الأعمال الاستراتيجية المحتملة هما اللذان أوهيا قوى لودندرف المعنوية أكثر مما أوهاها فقده الجنود والمدافع والأراضي .

محمد توحيد السلحدار

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الترقية إلى المدارس الثانوية — إلى وزير المعارف — ردوا هؤلاء المدرسين إلى المدارس الأولية ! — أربعة قرون من تاريخ العراق — افتحوا الشبابيك وانظروا النيل ، لتشغلوا عما فى قلوبكم من أسباب المعاطب والحتوف

الترقية إلى المدارس الثانوية

كانت وزارة المعارف تراعى « الأقدمية » فى ترقية المدرسين من الابتدائى إلى الثانوى ، مع ملاحظة تقارير المفتشين ومع النظر فى درجات « الدبلوم » وذلك نظام غير مقبول ، وإن كان يعتمد على قواعد لها صلات « ظاهرة » بفكرة العدل

والحق أن نظرية « الأقدمية » لها دخل فى تعويق المواهب ، لأنها تصل بأهل البلادة والخمود إلى ما يريدون على مر الزمان ، وتصد الموهوبين عن الوصول إلى مطامحهم العالية فتردهم أشباحاً تنتظر مرور الأيام لتصل إلى الهدف المنشود بلا تعب ولا عناء .

والحق أيضاً أن درجات الدبلوم ليست وثيقة أبدية لكفاية المدرس ، فقد يخمد نشاطه بعد ذلك ، وقد يبذه من سبقهم فى الترتيب

وإذن فلا بد من مقياس جديد ، وهو مقياس « المسابقة » لاختيار المدرسين للمدارس الثانوية ، وذلك نظام لا يثور عليه غير الزاهدين فى الدرس والتحصيل ، أو الخائفين من الخيبة والإخفاق

وقد أجريت المسابقة بين المدرسين فى الأعوام الأخيرة فكانت فرصة لمراجعات نحوية وصرفية وبلاغية وأدبية غفل عنها أكثر مدرسى اللغة العربية ، وكذلك يقال فى سائر المواد ، فتلك المسابقة هى فى الواقع فتح جديد ، وإن قيل فيها ما قيل .

فإن لم يكن بد من النص على بعض المؤخذات فأنا أقول إن الترفق بالمتسابقين ظاهر ظهوراً جلياً ، وكنت أحب أن يكون ذلك الاختبار أقوى مما رأيناه ، ليكون شهادة بالقدرة على التعمق والاستقصاء ، ولتكون له جميع خصائص الـ Concours بحيث يمكن للسابقين أن يصبحوا ولهم منازل أدبية وعلمية تستوجب الالتفات

والخطأ يرجع إلى الأساس الذى يبنى عليه تكوين اللجان ، فتلك اللجان تختار فى الأغلب من رجال مشغولين ، وهم الرجال الذين تختارهم وزارة المعارف لجميع اللجان ، كأنهم من « أهل الخطوة » وكأنهم يقدرون على كل شىء ، فهم أعضاء فى كل لجنة ، وهم شهود فى كل اجتماع ، وهم زينة جميع الحفلات !!!

واختيار اللجان على هذا الأساس يضيع المقصود من المسابقة بعض التضييع ، فالأصل أن يكون عند الممتحن من الوقت ما يسمح بأن يراجع مواد الامتحان بعناية وتدقيق ، ليدرك الفروق الخفية بين مواهب الممتحَنين ، وليُشعر المتسابقين بقيمة التعمق والاستقصاء ، وذلك لا يتيسر لرجل مشغول ، وأعضاء اللجان عندنا رجال مشاغيل بحرفة الاشتراك فى اللجان ، وهى حرفة لم نجد لها أثراً فيما قرأنا من كتب التاريخ ! جعل الله كلامى خفيفاً على جميع أعضاء اللجان !

أما بعد ، فقد ثار على هذا النظام « ستة نَفَر » من المدرسين بالمدارس الابتدائية ؛ وهم الأساتذة : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبد السلام محمد هارون ، وعلى محمد البجاوى ، وإبراهيم الإبيارى ، ومحمد سعيد العريان ، وعبد الحفيظ شلبى .

وهم يرجون أن يُرَقَّوا إلى المدارس الثانوية بدون امتحان

ولكن كيف وهو نظام لا يثور عليه رجلٌ حصيف ؟ ؟

هم يجيبون بأن لهم جهوداً فى « التأليف والتحقيق الأدبى » وتلك الجهود لا تقل قيمة عن الجهود التى تُبذَل فى الاستعداد لذلك الامتحان !

وأقول إن هذا حق ، فلهؤلاء المدرسين جهود محمودة فى التأليف والتحقيق ، وفيهم من وصل إلى الابتكار فى بعض الفنون

ولكن وزارة المعارف لا يعجزها أن تجيب ، فهى تقول إن هذا الباب إن فُتِح فسيتيح فرصاً كثيرة لأدعياء التأليف والتحقيق . وهى تقول أيضاً إن المؤلف أو المحقق لا يجوز له النكول عن مثل ذلك الامتحان

وأنا أرى ما ترى وزارة المعارف فى هذا الموضوع ؛ ولكن الحجة التى ساقها هؤلاء « النَّفَر » — وهو التعبير الذى اختاروه فى المذكرة التى قدموها إلى وزير المعارف — الحجة

التى ساقوها تبعث على التفكير فى حظهم من الإنصاف

يقول هؤلاء : « إن مدرسى اللغة العربية الذين يبلغون ١٢٠٠ ليس فيهم إلا ستة نفر استغلوا بجهادهم بين هذا الجمع الجامع » إلى آخر الاحتجاج[1]

فى مصر ١٢٠٠ مدرس لم يلتفت منهم إلى التأليف والتحقيق غير هؤلاء ؟ ؟

أهذا حق ؟ أم هو وهمٌ اعتصم به أولئك المدرسون ؟

إن كان حقاً فيجب أن يُرَقَّوا فى الحال ، وإن كان باطلاً فيجب أن يحالوا إلى « مجلس التأديب » ، لأنهم أهانوا طائفة المدرسين !

وعلى فرض أنهم لم يقولوا غير الحق فلن تعجز وزارة المعارف عن الجواب ؛ فستقول — وقد قالت — إن المسابقة يراد بها اختيار المدرسين الأكفاء ، لا المؤلفين الأكفاء ، وهنالك فروق بين التدريس والتأليف

وهذا أيضاً حق ، ولكن هؤلاء مدرسون رضىَ عنهم المفتشون فى أمدٍ يزيد على عشر سنين ؛ فاذا تريد الوزارة أكثر من ذلك لتطمئن إلى صلاحيتهم للتدريس ؟

الى وزير المعارف

وزيرنا اليوم هو معالى الدكتور محمد حسين باشا ، وهو رجلٌ منوَّع المواهب ، ولكن التاريخ لن يحفظ له غير موهبة واحدة هى موهبة التأليف والتحقيق ، لأنها أظهر مواهبه العقلية ، فما الذى يمنع من أن يتلطف فينظر إلى هؤلاء المدرسين بعين العطف وقد شاطروه إقذاء العيون تحت أضواء المصابيح ؟

إن لم ينصفهم الوزير المؤلف فمن ينصفهم ؟

وإن كان فى ريب من قدرتهم على إجادة التأليف فليراجع مؤلفاتهم « فى أوقات الفراغ » ليحكم لهم أو عليهم بما يشاء !

ردّوا هؤلاء الى المدارس الأولية

ومَن هؤلاء ؟ هم جماعة من المدرسين فى المدارس الابتدائية لا يحسنون كتابة مذكرة إلى وزير المعارف ، وإن كان فيهم أفراد من أهل التأليف والتحقيق

(١) الاحتجاج : إقامة الحجة ، وهو يستعمل اليوم بمعنى الاعتراض ، والمراد هو المعنى الأول

وأعيذ القارئ أن يفهم أنى أغض من أقدار معلمى المدارس الأولية ؛ فأنا أشير دائماً بأن يكون « كبار الأساتذة أوصياء على صغار التلاميذ » فالطفل يحتاج إلى مدرس عليم ، أما التلميذ أو الطالب فحاجته قليلة إلى المدرس الممتاز ، لأنه يطلع بنفسه على دقائق العلوم والفنون

فمن هؤلاء الذين أشير برجعهم إلى المدارس الأولية عقاباً لهم على التقصير فى الإنشاء ؟

هم « النَّفرَ » الذين يرجون أن يُرقوا إلى المدارس الثانوية بدون امتحان ، بفضل ما قدموا فى خدمة التأليف والتحقيق !

وسأهجم على هؤلاء النفر ، مع الرجاء بأن يراعى وزير المعارف أن هذا الهجوم لا يراد به الغض من منازلهم الأدبية ، فهم حقاً وصدقاً من أفاضل المدرسين ، وإنما جاءت العلة من اشتراك جماعة فى كتابة مذكرة معدودة السطور والكلمات ولو أنشأها كاتبٌ واحد لجاءت غاية فى الوضوح والجلاء

وإليهم أسوق المؤاخذات الآتية :

أولاً — قالوا إن ماضيهم فى التدريس والتأليف قضى بأنْ « لا تهيأ لهم العوامل النفسية التى تسمح بأن يُقبلوا على امتحان الترقية »

ومعنى ذلك أنهم صاروا فى أنفسهم أعظم من لجان الامتحان مع أن الأخبار تَرِد من وقت إلى وقت بأن فى أوربا وأمريكا من يتقدمون إلى المسابقات بعد الخمسين ، ولهم فى ميدان المجد الأدبى والعلمى مكان

ثانياً — قالوا « إن المعلم بعد أن ينضج وتكتمل شخصيته العلمية لا يتأتى له أن يعود تلميذاً يستوعب ويفرغ ما يستوعب »

وأقول إن التلميذ الحق هو المدرس الحق ، والاستكبار على التلمذة ضربٌ من الجهل

ثالثاً — قالوا « إن الذى يحسن أن يقول لا يستحسن كل ما يقال »

وأجيب بأن امتحان الترقية يطالبهم بالنقد لا بالاستحسان

رابعاً — قالوا « إن الذى له عقل الناقد غير الذى له عقل السامع »

وأقول إن السمع نوع من النقد ، لو كانوا يعقلون !

خامساً — قالوا : « كلما ارتفع الإنسان منزلة فى الرأى نزل

مرتبة فى الاستعداد للتعلم من غيره »

وأجيب بأن هذا زهو بغيض ، ولو أنصفوا لحكموا بأن الارتفاع فى الرأى يزيد فى الاستعداد للفهم والاستيعاب

أما بعد فذكرة هؤلاء النفر لن تنفعهم بشيء لأنها أقيمت على حجج ظاهرة البطلان

ولكن هذه المذكرة لا تصور أقدار هؤلاء المدرسين ، وأنا أنتظر أن يتلطف وزير المعارف فينظر إليهم بعين العدل والإنصاف وهو أقدر الرجال على وزن أهل التأليف والتحقيق

إن غلطة واحدة يكشفها باحث فى كتاب قديم أو حديث تستوجب الالتفات ، فما سكوتنا عن جماعة كشفوا العشرات أو المئات من المغلطات ؟

يضاف إلى ذلك أن الاهتمام بالتأليف والتحقيق يشهد لأصحابه بالقيمة الأخلاقية ، فأولئك المؤلفون والمحققون أنفقوا أوقات فراغهم فيما ينفع ويفيد ، ولم ينفقوها فى (لعب الأوراق) كما يصنع الفارغون من أكثر الموظفين !

أنصفْ هؤلاء ، يا معالى الوزير ، ليعرف جمهور المدرسين أن الدرس والبحث والتنقيب من الأعمال التى لا تضيع

هؤلاء جنود العلم والأدب ، يا معالى الوزير ، وهم صوت مصر الصداح ، وإليهم وإلى أمثالهم يرجع الفضل فى رفع صوت مصر بأقطار الشرق

وما عسى أن تكون مصر فى العهد الحديث لو حُرِمتْ أصوات الشعراء والكتاب والمؤلفين ؟

أولئك هم المضحّون بأنفسهم فى سبيل المجد المصري ، فمن الواجب أن نعفيهم من حضور الامتحان ، أمام فلان وفلان ، وأنت تعرف ما أريد ! ؟

أربعة قرون من تاريخ العراق

كتاب ظهر بالإنجليزية سنة ١٩٢٥ وهو من تأليف المستر لونكريك المفتش الإدارى بالحكومة العراقية سابقاً ، ونقله إلى العربية الأستاذ جعفر خياط مدير التعليم الثانوى بوزارة المعارف العراقية

وترجع أهمية هـذا الكتاب إلى أنه تحدث عن عصور لم يتحدث عنها أحد بالتفصيل ، فقد بحث من تاريخ العراق فى العصور المظلمة من بداية القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر

وكانت النية أن أنظر فيه نظرة عابرة لأكتب عنه كلمة تقوم مقام التحية لصديق كريم من أعز أصدقائى فى العراق ، وهو الأستاذ جعفر خياط وليس من الإسراف أن نذكر صديقاً بالخير لأنه ترجم كتاباً بلغ أربعمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وإن لم نطل النظر فى ذلك الكتاب

وبدأت بقراءة الفصل الأخير لأهميته عندى ، وهو الفصل الذى يسجل أعمال مدحت باشا فى العراق ، فقد كنت سمعت أنه أعظم حاكم عرفته تلك البلاد بعد الحجاج ، ثم استهوانى أسلوب المؤلف فى التاريخ فمضيتُ صُعُداً إلى أن وصلت إلى المقدمة ، وكان آخر ما قرأت كلمة المترجم ، وتم ذلك كله فى يومين اثنين ، بفضل مهارة المؤلف فى إحياء معالم التاريخ

دلنى هذا الكتاب على كثير من الحقائق ، ومنه عرفت كيف كانت دول أوربا تنازل العراق فى القرن التاسع عشر ، وكيف كانت التجارة وسيلة لإيقاع بلاد الرافدَيْن فى الأشراك

والمؤلف لم يُرد بكتابه غير هداية قومه إلى خصائص الحياة العراقية ، وهو قد صرح بأنه يتحدث « عن تاريخ بلاد يتعلق ماضيها الأخير بحياة الألوف من أبناء بلاده ومصايرهم » ولم يفته أن ينص على أن تلك المصاير تثير الجدل بين مواطنيه وهم ينظرون إلى المستقبل بعناية والتفات

وكذلك يرى علماء الإنجليز أن التاريخ أداة من أدوات النفع ، وهل يُدرَّس التاريخ لغرضٍ أنفع من هذا الغرض ؟

إن الهدف الأول لهـذا المؤلف هو إرشاد قومه إلى خفايا العصور التى كوّنت العراق الحديث ، وقد وصل إلى ما أراد ، وإن كان اهتمامه بتسجيل ما صنع أسلافه لم يخل من تحيّز مستور أو مكشوف ، والنزاهة المثالية لا تتاح لجميع الناس

ولا بدّ من النص على أن هذا الكتاب من نماذج البراعة فى سرد حوادث التاريخ ، وهو يربط العراق بالأمم التى تأثر بها من قُرب أو من بُعد فى مدى أربعة قرون ، حتى لنكاد نشهد سيال النافع بين تركيا وإيران ، ولو شئت لقلت إنه يشير من طرف خفىّ إلى تأثير مصر فى بعض وقائع ذلك التاريخ ، وتلك

نقطة لم يلتفت إليها مؤرخو مصر فى العصر الحديث

وإذا كان المؤلف قد أراد هداية قومه إلى خصائص الحياة العراقية ، فقد أراد المترجم أن يدل قومه على تلك الخصائص بنقل هذا الكتاب إلى العربية ، وهم قومٌ شغلتهم متاعب الكفاح عن تأريخ العراق فى عصور الظلمات

وفى مقدمة المترجم إشارة إلى جهود الدكتور مصطفى جواد فى المراجعة وبعض التعليقات ، وهى إشارة ذكّرتنا بأديب فاضل قضى وقتاً فى طلب العلم بالجامعة المصرية ، وترك فى أنفس عارفيه صورة محفوفة بالود والإعجاب .

افتحوا الشبابيك وانظروا الليل

الشبابيك جمع شِبّاك ، وهى كلمة فصيحة تؤدى معنًى لا تؤديه كلمة النوافذ ؛ كما تؤدى كلمة الدكاكين معنًى لا تؤديه كلمة الحوانيت

والليل صديق فى هذا العهد ، ولا أقضيه فى غير دارى ، لأن صدرى ينقبض من السهر فى القاهرة منذ عرفت المصابيح الزرق ؛ وكانت لياليها أشد إشراقاً من الصباح

وفى هذه الليالى البيض أو السود ، عرفت قيمة الخلوة إلى قلبى ؛ كما عرفت قيمة الليل ، وكما عرفت أن القلم هو الصديق الباقى على الزمان

إذا عوّتْ صفارة الإنذار كان من واجبك أن تطفئ النور وتفتح الشبابيك ؛ كما توصى « وزارة الوقاية المدنية » ، وقد اكتفت بذلك فلم تأمرك بالنظر إلى الليل ، ولعلها تخاف عليك ففى صدورنا بقية من الخوف الموروث عن أسلافنا القدماء ، يوم كانوا يعيشون فى الغابات والأدغال ، وحين كان الليل مسرح المهالك والحتوف

ولكن ، هل تعرف لِمَ أوصيك بنظر الليل حين تطفئ المصباح ؟

أوصيك بنظر الليل لتشغل به عن النظر فى قلبك ، إن كان لك قلب !

وهل فى الوجود مماطب أخطر وأعنف من المعاطب المبثوثة فى ثنيات القلوب ؟

الوقوع فى مهاوى سقَر أهونُ علىّ من الوقوع فى مهاوى قلبى ، ففيه مخاوف ومهالك لا أستطيع اجتيازها بأمان ، ولو زوّدتنى المقادير بما زوّدت به أهل الغفلة والجمود ، وما أسعدَ الغافلين والجامدين من أبناء هذا الزمان !

إحترس من قلبك كل الاحتراس ، وتغافلْ فى كل وقت عن مطامحه العاتية ، فهو لا يقنع بالقليل ، ولا يرضيه إلا أن تسيطر على جميع من فى الوجود ، وأين أنت مما يريد ؟

إحترس من قلبك ، إلا أن تعرف كيف تسايره فى أودية الأمانى والآمال ، وشِعاب الشعر والخيال

إحترس من قلبك ، كما أحترس من قلبى ، فما سايرته إلا فى ميدانين اثنين : ميدان الحب وميدان الجد ، ثم كان نصيبى أن أقضى حياتى فى عناء وشقاء

القلب ، وما أدراك ما القلب ؟ هو جارحة روحانية تدرك بها ما لا تدرك بالجوارح الطبيعية ، وهو سبب ضلالك ومرشدك هداك ، فنزّهه من النظر إليه فى كل وقت ، لينتفع بغفلتك عنه فيندمى ويستطيل ، كما يصنع السفهاء عند غفلة الرقيب !

لا بدّ لك من قلب فتّاك صوّال ، ليكون من حظك أن تشهد قيام الموازين ، فقد سمعتُ أن الخلائق لن تُبعث جسماً ، وإنما يُبعث من لهم تاريخ فى إزاغة البصائر أو هداية القلوب ...

زكى مبارك

كليلة ودمنة

نقد وتعليق

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

(تتمة)

٢٩ — ١٩٥ : ١٥ (أرادوا إدخال النقص عليك في ملكك) كلمة (النقص) ركيكة في هذا المعرض لا يقولها مثل ابن المقفع. وإنما هي (النقض) بالضاد المعجمة. والنقض الإفساد وحل المعقد. وهي سائرة في لغة الجاحظ وأضرابه من أمراء البيان العربي

٣٠ — ١٩٩ : ٥ (وكانت شارته إليها أن غمزها بعينه). الشارة : الحسن والهيئة واللباس . وليست مرادة . بل هي (إشارته) . وقبل هذا (وأشار عليها بأخذها فأخذتها)

٣١ — ١٩٩ : ١٥ (فأضاء كل ما حولها فاشتاف إليها ، وقال للإبراخت) فاعل (أضاء) هو (كل) . وأما فاعل (اشتاف) فهو الملك ، فالجملتان محتاجتان إلى فاصل بينهما ، واشتاف بالفاء ، إذا تطاول ونظر . واشتاف للبرق أي شامه . ومنه قول العجّاج :

« واشتافَ من نحو سهيل بَرْقا »

٣٢ — ٢٠٠ : ٩ (فإنها امرأة عاقلة لبيبة ، حريصة على الخير ، سعيدة من الملكات ، ليس لها في النساء عديل) وكيف تكون (سعيدة) مع أن الملك أمر بقتلها وأوشك أن ينفذ أمره ؟ ثم هو في معرض التنويه بخصالها . وليست السعادة خصلة أو خلقاً من الأخلاق . والوجه (سديدة [الرأي] من الملكات [التي] ليس لها في النساء عديل)[1]

٣٣ — ٢٠٨ : ١١ ، ١٢ (الذي يصنع الطعام وينظفه لسيده ثم يقدمه إليه في إبانه) ليست كذلك ، وإنما هي (وينضجه لسيده) تصحفت على الناسخ فشوهها بما رأيت

٣٤ — ٢١٠ : ٥ (والجريء الجاهل المقدم على ما ليس له وإن أتلف نفسه ونفس غيره في طلب حاجته وشحه) صوابه (ونجحه) والنجح بالضم النجاح وإدراك البغية

٣٥ — ٢٢٣ : ١٣ (إن أنا واخذته) هي لغة في (آخذته) بالهمز . قال صاحب القاموس (وآخذه بذنبه مؤاخذة . ولا تقل واخذه) . وفي اللسان[1] (والعامة تقول واخذه) والحق أن الكلمة عربية ، وأنها لغة لبعض العرب . وفي المصباح : وتبدل واواً في لغة اليمن فيقال واخذه مواخذة . وقرأ بعض السبعة[2] « لا يواخذكم الله » بالواو ، على هذه اللغة . والأمر منه واخِذْ)

وقال العرب في مثل ذلك (واخيته) لغة في (آخيته)[3] ، و(واسيته مواساة) لغة في (آسيته مؤاساة)[4] ، و(واكلته) لغة في (آكلته) ، (وامرته) لغة في (آمرته)[5]

والهمز في كل ذلك أكثر وأجود

٣٦ — ٢٢٤ : ١٥ (الحيوانات) جمع حيوان . زعم بعضهم أن العرب لم تنطق بها . ومجيئها هنا شاهد على صحتها وعلى استعمالها . وقد استعملها (الجاحظ) في كتاب الحيوان (٣ : ٢٦٥ س ١) قال : « والنسيم الذي يحيي جميع الحيوانات » وكذا الثعالبي في فقه اللغة ص ٢٤ طبع الحلبي ، قال « فصل في طبقات الناس وذكر سائر الحيوانات » . وكذا البغدادي صاحب (الفرق بين الفرق) المتوفى ٤٢٩ قال في ص ١١٨ : « وأصناف الحيوانات » وقال في الصفحة ، نفسها « ولا نوعاً من الحيوان » فأجاز بذلك الاستعمالين . واستعمله أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) في الجزء الثاني من طبعة التجارية ، استعمالاً كثيراً ، يدل على ذيوع هذه الكلمة وإقرار العلماء لها

٣٧ — ٢٣٤ : ٩ : (وقع موقع من يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه النعاس) . كثر ما ورد اسم (الفيل) في هذا الكتاب وذاك راجع بالطبع إلى الجو الهندي الذي يشيع فيه . ونجده أيضاً مقروناً بكلمة (المغتلم) ، كما ورد في ٤٧ س ١١ ، ٧١ س ١٣ ، ٧٩ س ١ ، ٢٥٥ س ٥ ، فهو مضرب المثل عندهم بالقوة وشدة البأس . قال الجاحظ في ذلك :

« وإذا اغتلم الفيل قتل الفيلة والفيالين ، وكل من لقيه من

---

(١) أنظر كليلة ودمنة طبع بولاق ص ٩٧

(١) لسان العرب

(٢) هو ورش . أبدل الهمزة واواً وصلا ووقفا . وأبدلها كذلك حمزة وقفا لا وصلا . غيث النفع ٦٧

(٣) بحر العوام لابن الحنبلي ١٠٢

(٤) لسان العرب (١٨ : ٣٢)

(٥) لسان العرب (أكل ، أمر)

سائر الناس ولم يقم له شيء ، حتى لا يكون لسواسه همٌّ إلا الهرب وإلا الاحتيال لأنفسهم » . ثم ذكر قصة كان يتداولها الفرس عن مصارعة كسرى لفيل مغتلم تمكن من ضربه والفتك به .

٣٨ — ٢٥٠ : ٣ : (فلما رأوا الأسد قد احتشد فى طلب اللحم وغضب) : أرى أنها (احتدَّ) والحدة تقارن الغضب

٣٩ — ٢٤٧ : ٤ : (فما الذى يشبه كفّك عن الدماء وتركك اللحم) ؛ وكلمة (يشبه) مقحمة ، لعلها زيادة من الملى للناسخ حين تردُّده فى الكلمة بعدها ؛ وصواب العبارة : (فما الذى كفّك عن الدماء وأ كلِكَ اللحم)

٤٩٠ — ٢٥٦ : ٤ : (والفج بالزنا) : لا تجوز كتابتها بالألف إلا لمن نظر إلى أنها مقصورة من الممدودة (الزناء) وهى لغة بنى تميم ، ولغة أهل الحجاز القصر[٢] ؛ ومن ذهب إلى قصرها لم يكتبها إلا بالياء ، لأنها يائية الأصل .

٤١ — ٢٧١ : ١١ : (وعلمنا أنك كنت لما ساق الله إليك من ذلك أهلاً ، بفضلِ قسَمَه لك ، وتابَع نعمه عليك) . فعلى أى فعل عطف الفعل (وتابع) ؟ !

إن عطف على (قسَمه) استركّ المعنى وعاد الضمير فى (نعمه) إلى (فضل) أى نِعَم الفضل ، وليس ذلك شيئاً ؛ والوجه : (بفضل [ما] (قسمه)... الخ . أو (بفضل قسمه لك ، ونعمة تابع عليك) — أى تابعها — أو (بفضل قسمه لك ، وسابغ نعمِهِ عليك)

٤٢ — ٥٢ : ٢ : (كالشعلة من النار التى يصوبها صاحبها وتأبى إلا ضياء وارتفاعاً) . سبق الحديث عن هذه الفقرة فى رقم (٥) ، وكنت على شك من صحة كلمة (يصوبها) ، إلى أن ظهر لى وجهها فيما قرأت من عيون الأخبار[٣] : « ذو الهمة إن حُطّ ، فنفسه تأبى إلا عُلوًّا ، كالشعلة من النار (يُصوِّبها) صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً » ؛ والتصويب : الخفض والتنكيس ؛ وفى التهذيب : « صوَّبت الإناء ورأس الخشبة تصويباً إذا خفضته » . فصاحب النار يخفض رأس الخشبة المشتعلة ، فلا يمنع ذلك النار أن ترتفع وتأخذ طريقها فى العلو

٤٣ — ٢٧٦ : ١٣ (ولم تجدى من الأسف والحزن على شبليك شيئاً إلا وقد كان من كنت تفعلين بأحبابه ما تفعلين يجد مثله أو أفضل منه) . وليس يقال حزن فلان حزناً أفضل من حزن فلان ، أو أسف أسفاً أفضل من أسفه . والوجه (أمثل) كما ورد فى أصل النسخة . و (أمثل) هنا تفضيل من مَثَل بالرجل يمثُل مَثْلا ومُثْلة : نكّل به[١] . فالمعنى أشد تنكيلاً منه

٤٤ — ٢٧٩ : ٤ (وبقى حيران متلدداً) . وفى نسخة بولاق ١٠١ (متردداً) وعند ابن الهبارية ٢٦٧ :

عاد إلى طِلاب ما قد تركا فضلٌ عنه وبقى مرتبكا

والتلدد والتردد بمعنى ، وهو من أسرار العربية : أن يختلف اللفظان فى حرفين متقاربى المخرج فإذا المعنى واحد أو كالواحد . وفى اللسان (تلدد : تلفت يميناً وشمالاً ، وتحير متبلداً) . وجاءت هذه الكلمة بالراء فى ٢٨٠ : ١٢ (فبقى حيران متردداً)

٤ ـ فى التعليقات

١ — أورد الأستاذ فى شواهده على أثر الأسلوب الفارسى فى هذه النسخة ما جاء فى صفحة ٢٧٠ (فسأله رجل فقال) وقال فى المقدمة ٢٦ (تشبه هذه الجملة التعبير الفارسى) : (پرسيده كفت) وفى التعليقات ٣٠٠ (هذه الجملة تذكر بالتعبير الفارسى (پرسيده كفت[٢])

وليس للأسلوب الفارسى أى أثر فى هذه العبارة ، بل هى عربية خالصة جرى عليها العرب فى النثر ، واستفاضت فى كلامهم وبين يدىَّ أحد الصحاح الستة ، وهو صحيح أبى عبد الله البخارى[٣] . ففى ١ : ٢ س ٦ (أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى) . وفى ١ : ١٦٢ س ٣ (أن زيد بن خالد الجهنى أخبره أنه سأل عثمان بن عفان فقال : أرأيت) وفى ٢ : ١٦١ س ٣ (سألت أنس بن مالك رضى الله عنه قلت أخبرنى بشىء عقلته عن النبى صلى الله عليه وسلم) وفى ٣ : ٤١ س (عن عمران بن حصين رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سأله — أو سأل رجلاً ، وعمران يسمع — فقال : يا أبا فلان) . وغير ذلك كثير .

٢ — ٢٨٧ تعليقاً على ما ورد فى الأصل ص ١٦ (آدر هربر) قال الأستاذ : (نظنها محرفة عن آزر هربد ، أى سادن النار) ،

---

(١) الحيوان (٧ : ٥٣ ساسى) (٢) لسان العرب (١٩ : ٧٩)
(٣) عيون الأخبار (١ : ٢٣١ س ١٨ — ١٩)

(١) لسان العرب (١٨ : ١٣٦ س ٢٣)
(٢) هى بالكاف الفارسية التى تنطق كالجيم المصرية . ورسمت بالكاف العربية فى التعليقات لضرورة الطبع
(٣) طبع بولاق ١٣١٤

ولست أدرى : لم عدل عن لفظ (آدر) بالدال إلى (آذر) بالذال المعجمة مع أنهما بالفارسية فى معنى واحد ، وهو النار[١] ؟!

٣ — وفى الصفحة نفسها تعليقاً على ما ورد فى ص ٢١ س ٤ (ما أتندم لذلك منك) أن (ذلك) وضع موضع الضمير والمعنى ما أتندم له . قال الأستاذ (وضع الإشارة موضع الضمير هنا يشبه التعبير الفارسى) وقال نحو هذا القول فى تعليقه فى المقدمة ص٢٦ على قول ابن المقفع (تجرى أمورهم فنوناً يغلب على أكثر ذلك الخطأ) حين استشهد على أثر اللغة الفارسية فى ترجمة ابن المقفع

والحق أن هذا أثر من آثار اللغة العربية لا الفارسية ؛ فإن العرب يضمون الإشارة موضع الضمير فى كثير من عباراتهم . ويطرد ذلك فى ربط الجمل الخبرية ، والأصل فى ذلك الضمير . وفى الكتاب (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار) أى هم . وفيه (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) أى كله

٤ — ٢٨٨ تعليقاً على ما ورد فى الأصل ص ٣٠ (أكن كالمصدق المخدوع الذى زعموا أن جماعة من اللصوص) أن كلمة الذى هنا تشبه أن تكون ترجمة الكلمة الفارسية (كِهْ) وهى تكون بمعنى الذى ، وتأتى للتعليل والتفريع . أى أن ابن المقفع ترجم كلمة (كه) بكلمة (الذى) مع أنها هنا للتعليل والتفريع ، أى بمعنى (فقدته) فلا تحتاج إلى ضمير عائد ، على حين أن كلمة (الذى) فى استعمالها العربى تحتاج إلى عائد

وهذه شبهة طيبة ، واستنتاج حسن . ولكن الضمير العائد إلى الموصول يحذف كثيراً[٢] . وجاء حذف العائد حين يتصل بحرف الجر فى قول الله تعالى : (ذلك الذى يبشر الله عباده)[٣] أى به . وفى قوله (فاصدع بما تؤمر)[٤] فى أحد وجهى تخريجه وقول حاتم الطائى :

ومِنْ حسدٍ يجورُ علىَّ قومى وأىُّ الدهرِ ذو لم يحسدونى

أى فيه ، وذو موصول عند طيء . وقال الجاحظ[٥] (فالحمد لله الذى كان هذا مقدار عقولهم) أى كان هذا منه . فهذا الحذف فى كلامهم جائز وإن كان قليلاً جداً[٦] . وهو أولى فى التخريج مما ذهب إليه الأستاذ من تأثير اللغة الفارسية . وابن المقفع أيقظ من أن يؤثر فى بيانه العربى هجنة فارسية ، أو يلتاث فى ترجمته هذه اللُّوثة

٥ — ٢٩٥ تعليقاً على ما ورد فى ١٧٤ من قوله (وأكيس الأقوام من لم يكن يلتمس الأمر بالقتال ما وجد إلى غير القتال سبيلاً) : « هممنا أن نحذف (يكن) من هذه الجملة ثم رأينا أنها تشبه أن تكون من أثر الترجمة الفارسية ؛ فإن استعمال الفعل بكون ، مألوف فى مثل هذا التركيب بالفارسية »

هذا نص ما ورد فى التعليق . والحق أن التعبير عربى خالص ، لم تشبه شائبة فارسية ولم تقربه ، وأنْ (يكن) هنا قد جردت من معنى المضى ، وألزمت معنى الثبوت واتصال الزمان من غير انقطاع . وفى كتاب الله من ذلك كثير . « وكان الله شاكراً عليما » ، « وكان الله سميعاً عليما » ، « فإن الله كان عفواً قديرا » ، « وكان الله غفوراً رحيما » ، « وكان الله عزيزاً حكيما »[١] ومنه قول المتلمس[٢] :

وكنا إذا الجبار صَعَّرَ خده أقمنا له من صعره فتقوَّما

وقول الفرزدق :

وكنا إذا القيسى نبَّ عَتودُه ضربناه فوق الأنثيين على الكردِ

وقول قيس بن الخطيم :

وكنت امرأ لا أسمع الدهر سُبَّةً
أسبُّ بها إلا كشفت غطاءها

فليس فى الكلام هجنة فارسية كما رأيت

***

هذه نظراتٌ فى بعض مواضع من هذا الكتاب الجليل . ولم أشأ أن أطنب فى سرد محاسن النشر وجودة العرض ؛ فذلك أمرٌ يبادر الناظر فى هذه النسخة ويبدهه فى أول ما ينظر

وليس يفوتنى فى هذه الفرصة أن أكرر تهنئتى للأستاذ الكبير « عبد الوهاب عزام » بهذا العمل العظيم الخالد على الزمان ، وأن أزجى مثلها إلى الأخ المحترم « الأستاذ شفيق مترى » صاحب مطبعة المعارف ، بما أنفق من جهد ومال ، فى الاحتفال الناجح بمرور خمسين عاماً على جهاد مثمر ، بدأه والده ومهر هو على إتمامه ورعايته .

عبد السلام محمد هارون

---

(١) معجم استينجاس ص ٢٨ ، ٣٠
(٢) شرح درة الغواص ٢٠٩ وحواشى الحيوان (ج ٤ : ٣٠٠)
(٣) الشورى ٢٣ (٤) الحجر ٩٤ (٥) الحيوان ٤ : ٣٠٠ س٦
(٦) أمالى ابن الشجرى (١ : ٧ حيدر أباد)

(١) فى الآيات ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٨ من سورة النساء
(٢) لسان العرب (١٧ : ٢٤٩)
(٣) الديوان (١ : ٢١٠) ولسان العرب والمعرب للجواليقى ص ٢٧٩ طبع دار الكتب ١٣٦٠
(٤) ديوان قيس ص ٣ طبع ليدك ولسان العرب (١٧ : ٢٤٩)

المجرم رجل مريض

للأستاذ حسين الظريفي

كان سيزار لمبروزو أول من تناول المجرم بالبحث العلمي وطلع على العالم بنتائج طريفة كان أخطر ما فيها إثبات الملامح الدالة على الإجرام . وقد لبثت نظريته في المجرم والجريمة ردحاً من الزمن وهي ذات سيادة تكاد تكون كاملة في عالم الجنائيات . إلا أنها أخذت بعد حين بكثير من النقد والتجريح ، ثم توسع فيها الناقدون وأضافوا إلى أصلها كثيراً من الحواشي التي لم يقل بها صاحب النظرية ، حتى يكاد يُعد لمبروزو خارجاً على ما ينسب إليه ، أو أنه ليس من المدرسة المعروفة باسمه

وفي الواقع أن لمبروزو لم يصب كبد الحقيقة ، إلا أنه لم يزغ عنها تمام الزيوغ ؛ فالنظرية ليست كلها على خطأ كما أنها ليست كلها على صواب ؛ وأحسن ما يمكن أن يقال فيها إنها صورت نصف الحقيقة ، ولم يُمن جمهور العلماء بنقضها ودحضها إلا لأنها ظهرت في غير ظرفها الملائم وقبل الزمن المهيأ لأخذها بالقبول

وتتضح خطوط هذا التحليل في تفصيل النظرية الحديثة على بواعث الإجرام ، تلك النظرية التي تنطوي على بعث الجريمة من وراء الخلل في الغدد الصماء

وهذه الغدد غير مقناة ، وهي تلقي عصاراتها في الدم مباشرة من دون وسيط فتنتقل على متنه إلى كافة أجهزة الجسم وتفعل فيه الأفاعيل من هدم وبناء وتنويم وإيقاظ على رغم مقاديرها الضئيلة ، وهي في مجموعها تؤلف وحدة حيوية مترابطة الأجزاء تفعل وتتفاعل بمقدار وعلى نمط خاص

وكان من العلماء الذين وقفوا سنوات طويلة من حياتهم على البحث في الغدد الصماء الدكتور (رالف رينولدز) بسان فرنسيسكو وزميله الدكتور (ستانلي) طبيب سجن كنتين . وقد قام هذان الدكتوران بكثير من العمليات لإزالة اضطرابات الغدد وتنظيم سيرها في السجناء من الجناة فكان ما قاما به عظيم الأثر في تحسين أحوالهم الطبيعية والعقلية ؛ وتغيرت طباعهم وأخلاقهم وحتى أشكالهم الظاهرة . وقد وجد الدكتور (رالف) أثناء اختباراته المتواصلة أن نسبة مئوية كبيرة من أبناء السجون مصابة بحالة غير عادية في الغدد الصماء ، وشاهد أن من يرتكبون جناية القتل وما يماثلها من الجروح يكونون مصابين باضطرابات في الغدد الدرقية الموجودة في أصل العنق ، وأن المزورين والمحتالين والسراق يختلفون عن غيرهم بغددهم النخامية ، وأن من ينغمسون في الجرائم الشهوانية والنقائص الجنسية وما إليها من المفاسد يوجد عندهم نوع من الاضطرابات في غددهم الجنسية ، وإذا كانت هيئة أعضائهم في الذكورة والأنوثة شبيهة بسواها فلأن منبع الاختلاف مستقر في الداخل

على أن الغدد المضطربة يكثر أن تترك آثار اضطراباتها ظاهرة في أجزاء البدن الظاهرة ، تلكم الآثار التي أوحت إلى لمبروزو نظريته فأصاب وأخطأ في آن واحد

والذي يظهر من هذه الكشوف العلمية أن الجريمة ظاهرة مادية لعلة فسيولوجية تقوم في جانحة المجرم ، أو أنها ليست إلا مظهراً لزيادة أو نقص تلك العصارات القدرية التي تفرزها الغدد الصماء في الدم ؛ فتختلق في الإنسان ما تشاء من عواطف وشذوذ .

وبالقياس إلى هذه النظرية يصبح العقاب غير مجد في معالجة الإجرام وفيه جناية اجتماعية على الجاني . والطريقة الوحيدة لإزالة الجريمة هي معالجة ما يعانيه الجناة من الاضطرابات في غددهم الصماء

قد يقال : إن من الجناة من لا يعود إلى ما جنى إذا نزل به العقاب ، وإن منهم من يقلع عن ارتكاب الجرائم متى تقدمت به السن . وعندي أن الرد على هذا النقد منطو في أن من الجناة من يندفع إلى الجريمة بقوة ظرفه الخاص ؛ فمثل هذا الجاني لا يمكن أن يعد في عداد أولئك الذين تتحرك في نفوسهم عوامل الإجرام من وراء الخلل في الغدد الصماء . كذلك يمكن أن يقال : إن الغدد قد تعود إلى التوازن بعد الإفراط في الإفراز متى ضمرت ببلوغ الشيخوخة

ونحن وإن كنا نرى استحالة تطبيق هذه النظرية في أكثر البلاد وتعسر تطبيقها في البلدان الأخرى ، فإن البحث العلمي

يجب ألا ينقطع بقيام التعذر والاستحالة فى التطبيق ، وأنه لا مناص من اعتباره باعثاً عليه

على أن من الجرائم ما قد يكون منبعثاً عن سوء التربية فى دور الطفولة . فقد ثبت فى دائرة العلوم النفسية والتربيوية أن لسنوات الطفولة من التأثير الخطير فى نفس وأخلاق الطفل ما يبقى رازحاً تحت أعبائه طول حياته

وليس عجيباً أن نحلل بعض مظاهر الإجرام ، فنجدها عائدة إلى ما كان من سوء التربية فى مراحل الطفولة ، فإن الوليد لا بد أن يأخذ عن وسطه المحدود كثيراً مما ندعوه بالعقد النفسية ، تلك التى تتسرب إلى سريرة الطفل كأمراض داخلية تظهر عادة فى أخلاقه وأعماله وفى طريقة تفكيره ، وقد تندفع به إلى نوع خاص من الإجرام ، وذلك أن سلسلة التفكير تصطدم بالعقد النفسية فيقف دون نموه الطبيعى ويضطر إلى اتخاذ طريق آخر معوج فى النمو يوحى به ما ترسب فى قاع النفس من عهد الطفولة . فالعقدة ليست إلا الشرك الذى تقع فيه حياتنا العقلية ، وقد توحى بارتكاب الجريمة ، وهى من وراء قناع من العقل الباطنى تتوارى فيه عن الأبصار

إن هذه العقد النفسية مهما كانت راسية فى قرارة النفس ، ولا تكاد تظهر إلا فى ثوب مستعار تخفى فيه حقيقتها عن الأنظار فإن فى الإمكان أن تصل إليها يد البحث العلمى بطريقة التحليل النفسى ، حيث يهتدى بهذه الطريقة إلى العقد النفسية التى اعترضت حياتنا العقلية ، وعاقتها عن السير فى طريق تكاملها الطبيعى ؛ ثم أخذت تظهر من حين لآخر فى ضروب أخلاقنا وأفكارنا وأعمالنا ، وكانت مصدر شذوذ فى كثير من أولئك . وقد ظهر لدى البحث العلمى أن المرض يزول بالوقوف على العقدة التى فرضته . وبهذه الطريقة يمكن إرجاع المصابين فى حياتهم العقلية إلى حالتهم الطبيعية بعد أن تكون قد انحلت العقدة ، وقضى على أصل المرض .

وظاهر مما سبق أن الجريمة قد تكون منبعثة عن تلك الرسائل الكهربائية التى تطلقها الغدد الصماء على متون الدماء فتتصل عن طريقها إلى أجهزة البدن كافة . وقد تكون وليدة العقد النفسية التى تصيب الحياة العقلية ؛ وتورث من الأمراض ما قد تظهر آثارها فى صورة ارتكاب بعض الجرائم

فالمجرم لم يعد بعد كما كان من قبل مثال الرجولة والبطولة ، والسجن لا يقوم على الرجال ، وإنما يقوم على أشباه الرجال ممن أصيبوا فى غددهم أو فى نفوسهم ، وكانوا أجدر بالمعالجة الطبية أو النفسية من الزج بهم فى أعماق السجون

(بغداد) حسين الظريفى المحامى

شخصيات تاريخية :

تيموستوكل
THÉMISTOCLE

للأستاذ محمد الشحات أيوب

كانت بلاد اليونان فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، محاطة بدول فتية ناهضة كدولة الفرس فى الشرق التى قضت على الإمبراطوريات الكبرى القديمة فى مصر وكلدونيا وسوريا وليديا ، وكدولة القرطاجنيين التى نهضت فى شمال إفريقيا ، وأخذت تبسط سلطانها على البلاد المجاورة لها فى الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط ، وكدولة روما الناشئة التى ثارت فى وجه الأترسكيين ، وأخذت تكون لنفسها سلطاناً واسعاً فى شبه جزيرة إيطاليا . وقد اتفق الفرس والقرطاجنيون ، واتفق القرطاجنيون والأترسكيون ، على وضع حد لاستعمار اليونان بعد هذه الحركة التى كان من نتائجها انتشارهم فى معظم أجزاء البحر الأبيض المتوسط

لذلك كان لا بد من أن ترتطم قوة الفرس بقوة اليونان فى الشرق ، وقوة القرطاجنيين والأترسكيين مع اليونان فى الغرب . وقد أراد الفرس الانتشار غرباً ، فوجدوا أمامهم اليونان منتثرين فى غرب آسيا الصغرى ، فأخضعوهم لسلطانهم ، ولكن هؤلاء اليونان ثاروا على أسيادهم الفرس ، وطلبوا المعونة والمساعدة من إخوانهم يونان القارة الأوربية ، فلم يلب نداءهم إلا دولتان هما : أثينا وإرسيزى اللتان وجهتا حملة لتخليص إخوانهم من نير الفرس . من أجل هذا حقد الفرس على هاتين الدولتين ، وصمموا على معاقبتهما والانتقام منهما ؛ فكانت ثورة اليونان فى غرب آسيا الصغرى بدء عهد نزاع خطير ، يعرف باسم الحروب الميدية بين قوتين لا يستهان بهما وهما : قوة الفرس وقوة اليونان

وقد استمر النزاع مدة طويلة بين هاتين القوتين . ونحن لا يعنينا اليوم من هذا النزاع إلا تلك الحروب التى نشبت فى أول القرن الخامس قبل الميلاد ، ولا يهمنا منها إلا تلك الشخصية العظيمة ، شخصية « تيموستوكل » التى لعبت دوراً مهماً جداً فى ترجيح كفة اليونان على كفة الفرس

ولكى نتمثل أهمية الدور الذى لعبه تيموستوكل ، يجب أن نعلم أن اليونان لم يكونوا متفقين فيما بينهم وبين أنفسهم على الخطة التى يجب عليهم أن يتبعوها . كانوا فريقين : فريقاً منهم مع الفرس يساعدهم ويشد أزرهم ، وفريقاً آخر فى صف الوطن يعمل للدفاع عنه وللتمكين من استقلاله ، وهم بعد ذلك لم يكونوا دولة متحدة قوية تقف صفاً واحداً أمام دولة الفرس ، بل كانوا دولاً صغيرة تتنافس فيما بينها وتحقد كل منها على الأخرى ، ثم إلى جانب هذا وذاك كانت كل دولة على صغرها منقسمة على نفسها فى الداخل تتنازعها الأهواء والأحزاب ، فكان النزاع قوياً جداً بين الارستقراطيين والديمقراطيين فى أثينا ، وشديداً جداً بين الملكين والإيفور الخمسة فى اسبرطة ؛ وكذلك كانت الحال فى أرجوس وكورنث وتساليا وغيرها ، فجاء تيموستوكل واستطاع أن يوحد بين هذه الأشتات المتناقضة وكون منها جبهة قوية وقفت أمام الفرس وصدتهم عن أرض اليونان ، بل وأحرزت عليهم انتصاراً عظيما هو انتصار موقعة « سلامين » . فالشخص الذى يستطيع أن يحمل بلاده تحرز هذا النصر الحاسم وهى على هذا النحو من الانقسام والفرقة لا شك يعد من أكبر الشخصيات فى التاريخ

وقعت الحرب الميدية الأولى فى عام ٤٩٠ ق . م ووجه الفرس حملتهم الأولى ضد أثينا وبلاد اليونان فى هذه السنة ، فتصدت لهم القوة الأثينية وعلى رأسها ملتياد يساعده بعض القواد مثل طاللبا كوس وتيموستوكل وأرستيد ، وتمكنت هذه القوة من صدهم وإلحاق الهزيمة بهم فى موقعة ماراثون الكبرى ، فارتد أسطول الفرس بعد ذلك عائداً إلى بلاده . انتصرت أثينا فى هذا الدور الأول وكانت الشخصية الغالبة هى شخصية ملتياد ؛ أما تيموستوكل فلم يكن له شأن كبير حينئذ ، إنما كان يقوم بدور ثانوى فى هذه المعركة ، إذ وضع هو وأرستيد على رأس الوسط فى الجيش ، أما كبار القواد مثل ملتياد فقد وضعوا على رأس الجناحين لأن خطة الجيش اليونانى كانت ترمى إلى القيام بحركة تطويق لحصر جيش الأعداء

هزم الفرس فى هذه الموقعة ؛ ولكن (دارا) ملكهم لم يكن بالشخص الذى يرضى عن الهزيمة ، وإنما أخذ يعد العدة للانتقام ، ثم مات دون أن يحقق هذا الغرض ، وخلفه ابنه أجزرنسيس تاركا لهذا الابن عبئاً ثقيلاً ومهمة خطيرة ، ولم يصب أجزرنسيس

هذا من النجاح أكثر مما أصاب أبوه من قبل ، ولم ينجح في النيل من اليونان والانتقام منهم بالرغم مما عرف عنه من مضاء العزيمة وقوة الإرادة وحدة الذكاء ونشاط الشباب . هزم كما هزم أبوه من قبل ، وانتصر عليه اليونان لأنهم أوتوا من الحظ السعيد ما أوجد لهم شخصية عبقرية هي شخصية تيموستوكل التي عرفت كيف تتبصر للأمر ، وتضع الخطط الحربية الباهرة استعداداً لهذا العراك العنيف . وكانت هذه الهزيمة سبباً لازدراء اليونان به ، واحتقارهم له ؛ فتحدث عنه « إشيل » في تراجيديته الرائعة « الفرس » وصوره كما صوره غيره من كبار الكتاب اليونانيين في صورة بشعة : صوروه كأنه رجل مجنون أصيب في عقله ، أراد أن يتسامى إلى صف الآلهة فاعتقد نفسه منهم ، فتكبر وطغى ، فحقدت عليه وتربصت له ، وجعلته يضل السبيل ، ويرتكب من المآثم والغلطات ما كان من الأسباب التي أدت إلى هزيمته

وكان الحزب المسيطر على شؤون الحكم في أثينا في ذلك الوقت هو الحزب الديمقراطي ، وهو الحزب الذي استطاع أن يقودها إلى النصر . وكان على رأس هذا الحزب زعيمه تيموستوكل الذي إليه يرجع الفضل الأكبر في إحراز النصر في موقعة « سلامين » ، لذلك كان هذا النصر من الأسباب التي قوت من شأن الديمقراطية الأثينية وجعلتها ترتكز على أساس متين حتى بلغت أوجها في عهد بركليس

لم يكن تيموستوكل من الأشراف ولا من الأرستقراط ، بل ولم يكن من الطبقات الوسطى ، وكانت العادة في القديم ألا يولى الشخص مهام الدولة إلا إذا كان من أبناء البيوتات الكبيرة . لذلك كان من أعجب الأمور أن يستطيع شخص كتيموستوكل أن يصل إلى أعلى المناصب في الدولة وهو فرد من أفراد الشعب ، فلم يتعود الناس من قبل أن يتزعم الحزب الديمقراطي شخص من أبناء الشعب ، وإنما كانت العادة أن يتزعمه أفراد من الأرستقراط الذين كانوا يميلون إلى الشعب ويودون إنصافه ورفع الظلم عن كاهله ؛ بل كان تيموستوكل أكثر من هذا ، كان من أصل أجنبي ، ونحن نعرف أن الشعوب القديمة كانت تنظر نظرة خاصة إلى الأجانب لاعتبارات أساسها الدين ، كما وضح ذلك خير توضيح المؤرخ الفرنسي الشهير « فيستيل دي كولانج Fuastel de Coulanges » في كتابه عن « المدنية القديمة La Cité Antique » لذلك كانوا في مركز خاص من الوجهة القانونية ، فلم يكن يسمح لهم بالتدخل في شؤون البلاد الداخلية إلا إذا اكتسبوا حقوق المدينة وهي ما نعرفها اليوم « بحقوق التجنس بالجنسية الأهلية » . كان أبو تيموستوكل من هذا النوع : كان أجنبياً ولكنه اكتسب صفة المواطن بما خوله له دستور كليستين من حقوق ، وكانت أمه أجنبية أيضاً ، ولكنه تمكن ، بالرغم من ذلك ، من أن يعتلي أكبر المناصب في الدولة ، وهو صغير السن ، كمنصب الأركون في عام ٤٩٣/٤٩٢ ق . م . وسنه لا تزيد على ثلاثين عاماً ومنصب الاستراتيج في عام ٤٩٠/٤٨٩ وقد بلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً ، لأنه أوتي من المواهب والصفات ما جعله يصل إلى الحكم في سهولة ويسر ؛ إذ كان ذكياً إلى أقصى درجة من درجات الذكاء ، وكان سريع الحكم في ثقة واطمئنان ، وكان خطيباً بارعاً ذلق اللسان فصيحاً ، وكانت موهبته من هذه الناحية موهبة طبيعية لم تأت عن طريق الدراسة ولا عن التجربة ، إنما آتاه الله حظاً عظيماً من الفصاحة والبلاغة جعله يسيطر على مواطنيه ، فيملك عليهم مشاعرهم ويوجههم أنى شاء ، فأسلسوا له القياد ، وجعلوه يتربع على مكان الزعامة فيهم . وقد تمكن من هذه الزعامة واستأثر بها ، حتى أنقذ بلاده من خطر داهم كاد يقضي عليها ، فأحرز لها نصراً حاسماً نقلها من دولة صغرى إلى دولة كبرى لها امبراطورية ضخمة ، وتتحكم في موارد البلاد المجاورة وتشرف على جزء كبير من شرق البحر الأبيض المتوسط . فتكبر وتغطرس ، وطغى وتجبر ؛ ولكنه كان رجلاً لا كالرجال ، وعبقرياً لا كالعبقريين . تضطرنا عبقريته إلى التغاضي عن كثير من عيوبه ، لأن هذه العبقرية من النوع الذي يجعلنا ننحني أمامه إجلالاً واحتراماً . وهو كغيره من الشخصيات العظيمة التي أحدثت انقلاباً هائلاً في تاريخ بلادهم مثار نزاع بين كثير من المؤرخين ولا سيما القدماء منهم مثل أبي التاريخ هيرودوت ، والمؤرخ الأول توسيديد : قسا الأول عليه قسوة شديدة ، فأصدر عليه حكماً فيه شيء كثير من البعد عن جادة الحق ، أما الثاني فكان أقرب إلى الاعتدال : وقف إلى صفه ودافع عنه دون تحفظ ولا احتياط

نظر تيموستوكل إلى بلاده فوجدها عبارة عن شبه جزيرة تحيط بها المياه من جميع الجهات إلا جهة واحدة ، ووجد أن الخطر عليها عظيم إذا ما أتى العدو إليها يغزوها عن طريق البحر فينزل إلى البر — كما فعل الفرس — قوات هائلة ، لا يستطيع الأثينيون لها رداً ولا صداً ، إلا إذا كانت لديهم قوات بحرية

تستطيع أن تنازلهم فتبعدهم عن أرض الوطن ، فأخذ يعلن بين الأثينيين أن مستقبل أثينا على البحار . وقد خالفه الكثيرون في ذلك ؛ ولكن التجارب والحوادث التي وقعت فيما بعد أيدت رأيه وصدقت نظريته . رأى كثير من أبناء جلدته أن موقعة ماراثون هي آخر المواقع بين الفرس واليونان ، وأنهم ما داموا قد انتصروا فيها ، وما دام العدو قد ابتعد عن بلادهم فلن يعود إليهم أبداً . لذلك وثقوا واطمأنوا ؛ أما هو فكان يرى غير هذا الرأي ، كان يرى أن ماراثون ما هي إلا خطوة من خطوات النزاع بين الفريقين ، وأن الفرس لا شك راجعون من جديد للانتقام لأنفسهم من الهزيمة الساحقة التي لحقتهم من قبل ، وذلك لوقوفه على بعض أخلاقهم ولمعرفته ببعض عاداتهم . من أجل هذا رأى أن يمكن لأثينا على البحر بأن يؤسس لها أسطولاً بحرياً ضخماً يحمل لها السيادة البحرية من دون منازع . ورأى أيضاً أن يعمل على تحويل الشعب الأثيني من شعب حربي بري ، إلى شعب حربي بحري ، من شعب مشاة وفرسان، إلى شعب ملاحين وبحارة، ولكن هذا وحده لا يكفي ، فلا بد إلى جانب هذا من اختيار الموانى المنيعة التي تصلح لإرساء الأسطول ، والمواقع الطبيعية التي إن حصنت صلحت مراكز مهمة للدفاع عن البلاد . فعدل عن ميناء فالير المكشوف لتعرضه للرياح والأعاصير ، ولعدم صلاحيته من الناحية الطبيعية ، إلى ميناء بيريه وحوله خلجان طبيعية منيعة كخليج « زيا » وخليج « مونيخيا » ؛ وهذه الخلجان تصلح هي الأخرى لأن تكون موانى جيدة . فأخذ يحصن هذا الميناء الجديد ، وساعده على القيام بهذه الأعمال أعمال التحصين — أن كان يتولى مركزاً من مراكز القيادة — وهو مركز الاستراتيج Stratège في عام ٤٩٠/٤٨٩

ذاعت آراء « تيموستوكل » وانتشرت بين الأثينيين ، فانضم إليه كثير منهم يؤيدونه ويساعدونه على تكوين هذا الأسطول البحري الضخم الذي يحلم بتأسيسه ، بعد أن سمعوا ما سمعوا عن استعداد الفرس العظيم ، وقرب قيامهم بالهجوم على وطنهم ، وبعد أن رأوا ما رأوا من هذا النزاع الذي يهدد بلادهم بالخطر بين أثينا وأرجينا ، وفي هذا النزاع لم تستطع أثينا إحراز النصر إلا بعد صعوبة كبيرة ، بعد أن أعارتها كورنت عشرين سفينة من أسطولها، فأثر الخطر الفارسي والخطر الأرجيني عليهم . وقد زاد عدد المؤيدين لنظرية « تيموستوكل » زيادة هائلة بعد ما وجد الأثينيون أن وطنهم أصبح في حاجة شديدة إلى المواد الغذائية التي قلت بنسبة عظيمة بعد إقفال الأسواق الاقتصادية في الخارج في بلاد معادية لبلادهم ، كبلاد البيوسيين والشاليين ، أو في بلاد خضعت للفرس مثل بلاد شبه جزيرة الكاسيديك والبحر الأسود ومصر . فلم يكن بعد ذلك أمام أثينا إلا سوق اقتصادية واحدة تستطيع أن تتمون منها ، وهي سوق الغرب في صقلية وبلاد اليونان الكبرى ؛ وأثينا لا تستطيع أن تستورد من هذه البلاد القمح والمواد الغذائية الأخرى إلا إذا كان لديها أسطول عظيم يحمل لها ما هي في حاجة إليه

ثم إن تيموستوكل أثر على مواطنيه بحجة أخيرة وهي من أقوى الحجج تأثيراً على ذهنية الشعب — إن صح أن للشعب ذهنية — فبين لهم أن الأسطول المزمع إنشاؤه سيكون مورداً لإعالة فقراء الأمة من الذين لا يجدون عملاً ما ، وهم أصحاب الطبقة الرابعة من الشعب المسماة طبقة « التيت Les Thètes » فمن هذه الطبقة سيجند الملاحون والبحارة الذين من دونهم لا يستطيع الأسطول أن يقوم بمهمته على الوجه الأكمل

اقتنعت أغلبية الشعب بهذه الحجج المختلفة ؛ ولكنهم تساءلوا : من أين لنا بالمال الذي يساعدنا على بناء هذا الأسطول ، ونحن نعرف أن الأسطول يحتاج إلى مال كثير ؟ لم يقفوا كثيراً عند هذا السؤال ، إذ ساعدهم الحظ في ذلك الوقت فوجدوا المال اللازم ، وجدوه في مناجم « لوريون » بالمثور في عام ٤٨٣ — ٤٨٢ على عرق ثالث من عروق الفضة قائم بين طبقتين من الطبقات الأرضية ، كطبقة « الشيست » وطبقة « الكلكير » ، وكان هذا مصدر ثروة كبيرة ، وعلى الأخص بعد أن نضب معين العرقين السابقين . وهنا اختلفت آراء الشعب بصدد هذا المصدر الجديد من مصادر الثروة ، فانقسمت الأمة قسمين : قسم على رأسه أرشيد الزعيم المعروف يريد توزيع هذا الإيراد — وهو إيراد منتظم — بين المواطنين جميعاً (ويتراوح هذا الإيراد بين ٥٠ ، ١٠٠ تالانت) فإذا وزع على هذا النحو نال كل فرد ما يقرب من ٢٠ دراخمة (والتالانت فيها ٦٠٠٠ دراخمة) . وقسم آخر على رأسه تيموستوكل يرى أن تمير الدولة لكل مائة من كبار الأغنياء « تالانت واحدة » على أن تكلف كل وحدة من هذه الوحدات المئوية ببناء سفينة ، حتى إذا اجتمعت هذه السفن بعد بنائها كانت نواة طيبة للأسطول الأثيني . طالت المناقشات بين الفريقين وزاد النزاع حدة بينهما ، ولكن تيموستوكل وأنصاره تغلبوا

فى آخر الأمر ، ونفى الشعب الزعيم المعارض أرشيد ، وظفر ثيموستوكل وأتباعه بما أرادوه لوطنهم من هذا الأسطول الذى كان السبب الأكبر فى إحراز النصر فى أكبر معركة بحرية فى القرن الخامس على الإطلاق وهى معركة «سلامين» . وعلى هذا النحو حدث هذا الانقلاب الهائل الذى حول أثينا من دولة برية إلى دولة بحرية لها أسطول قوى ضخم كان هو السبب الرئيسى فى بناء مجدها وعظمتها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، فأصبحت أثينا بذلك دولة بحرية قادرة على الدفاع عن أرضها وعن أرض اليونان جميعاً ضد قوات كبيرة تفوقها فى العدد والعدة وهى قوات الفرس . وقد كان ثيموستوكل فى هذا رجلاً عظيما، إذ استطاع أن يحدث هذا الانقلاب وأن يكون هذا الأسطول الذى جمع ما يقرب من مائتى سفينة والذى كان العامل الأساسى فى بناء الأمبراطورية الأثينية البحرية

أخذت أثينا بعد ذلك تستعد للمعركة القادمة وهى واثقة ومطمئنة إلى أسطولها القوى ، ولكنها تشعر تمام الشعور أنها لا تستطيع وحدها مناهضة الفرس ، بل كانت على يقين من ضرورة الحصول على تأييد أسبرطة والدول اليونانية الأخرى . وكانت أسبرطة أنانية ، بلغت أنانيتها حداً عظيما جداً عرف فى التاريخ القديم ، فهى لا تهتم إلا بشؤونها وبشؤون شبه جزيرة البيلوبونيز الخاصة لسلطانها المستمكنة لأمرها ، ولكنها فهمت أخيراً أن من مصلحتها الاتفاق مع أثينا والمدن اليونانية الأخرى التى تريد الدفاع عن اليونان لوضع خطة دفاعية مشتركة ، لأنها أحست أن فى انتصار الفرس ترجيحاً لكفة أعدائها كدولة أرجوس التى تناوئها العداء فى شبه جزيرة البيلوبونيز ، وإضعافاً لسلطانها ونفوذها هى؛ لذلك دعت إلى عقد مؤتمر يونانى عام، هو مؤتمر الجامعة اليونانية الأول، اشترك فيه عدد من اليونان، وامتنع عن الاشتراك فيه عدد آخر كان يؤيد الفرس، ولزم عدد ثالث جانب الحياد . وفى هذا المؤتمر العام الذى عقد بجوار مدينة كورنث نرى ثيموستوكل يلعب دوراً بارزاً مهماً هو دور المصلح والتوفيق بين اليونان، وتحقيق الوحدة بينهم جميعاً ضد العدو المشترك، فسعى سعياً حقيقياً للقضاء على أسباب الخلاف بينهم، وعلى الأخص بين أثينا وأرجينا ؛ ثم إنه أظهر فى هذا المؤتمر أيضاً بعداً فى النظر وترفعا عن المطامع الشخصية ، فقبل أن يكون قواد الأسطول والجيش من رجال اسبرطة ، وأن يمثل هو فى الأسطول مكاناً ثانوياً مع أن المنطق كان يقضى بأن تكون قيادة الأسطول لأثينا ، لأنها أصبحت أقوى الدول اليونانية فى البحر ، ولكنه تغاضى عن ذلك ورضى أن يعمل تحت إمرة أمير البحر الأسبرطى «إربيياد» بل وأيده كل التأييد ، مع أن «إربيياد» هذا كان دونه فى شؤون البحر ، ثم بذل له من النصح والإرشاد فى موقعة سلامين الكبرى ما يحملنا على أن نقارن بين موقفه هذا وبين موقف سيف الإسلام خالد بن الوليد الذى رضى أن يجاهد فى سبيل الإسلام تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح مع أنه يفوقه فى الفنون الحربية ، ومع أنه كان يتولى شؤون القيادة قبله على نفس الجيش الذى كان يحارب فى صفوفه . وقد رضى كل من خالد وثيموستوكل بهذ الأنهما لا ينظران إلى مصالحهما الشخصية ، بل ينظران نظرة كلها جلال وجمال . هى النظرة إلى المصلحة العامة ووضعها فى المكان الأول من اهتمامهم ورعايتهم . ثيموستوكل من الرجال الذين يفضلون وطنهم على أشخاصهم ويتعالون بمطامع بلادهم على مطامعهم الشخصية ، لذلك كانوا أبطالاً حقاً . ومن أجل هذا السبب استطاعوا أن يكونوا عند حسن ظن مواطنيهم بهم ، فكونوا لأنفسهم مجداً لا زال باقياً على الحياة ، واسماً لا يزال صداه يرن فى آذاننا حتى اليوم

هذا فى الخارج ؛ أما فى الداخل فقد رضى أن يستدعى منافسه ومعارضه أرشيد من النفى ، بل وأن يشركه معه فى الحكم ، فاتفق الاثنان معاً فى ذلك الوقت العصيب الذى تعرضت فيه بلادهم لخطر الغزو الأمين . فبرهن ثيموستوكل بذلك أيضاً على أنه قادر على دفن الأحقاد الشخصية فى سبيل رفع كلمة الوطن

وعلى هذا النحو استطاع ثيموستوكل أن يحقق الوحدة داخل وطنه بالاتفاق مع خصومه ومعارضيه، وأن يحقق الوحدة فى الخارج بالاتفاق بين بلاده والبلاد المنافسة لها وعلى رأسها أسبرطة ، وأن يعد العدة للنزاع المقبل ببناء أسطول قوى لا يستطيع اليونان إحراز النصر بدونه ، فكان أن أعد البلاد على خير وجه لاستقبال قوى الفرس . واليونان مطمئنون إلى عدالة قضيتهم وواثقون إلى قوادهم وزعمائهم ، وهم يعملون آخر الأمر ويحاربون متحدين متراصين كالبنيان يشد بعضه بعضاً فى سبيل الدفاع عن الوطن المقدس

كان هذا هو الدور الإعدادي الذى أظهر فيه ثيموستوكل مواهب العبقرية فى الزعامة والتنظيم والإدارة . أما عن دور التنفيذ وهو الدور الحاسم الذى أحرز فيه لليونان جميعاً النصر المبين فله مجال آخر سنحدثك عنه فى العدد القادم إن شاء الله

محمد الشحات أيوب

مدارس البعثة العلمانية الفرنسية

الليسيه الفرنسية

رقم ٢ شارع الحوياتى بالقاهرة

١ — مدرسة البنين: تحضر الطلبة لمختلف أقسام البكالوريا الفرنسية

قسم مصرى

قسم تجارى

٢ — مدرسة البنات: تحضر الطالبات لشهادات «البريفيه» والبكالوريا الفرنسية وهى منفصلة انفصالاً تاماً عن مدرسة البنين

٣ — روضة أطفال

سيارات خاصة لتوصيل الطلبة والطالبات إلى المنازل

الكلية الفرنسية (للبنات)

رقم ٦ شارع زهنى بالظاهر

تحضر الطالبات بمقتضى المناهج الابتدائية لشهادة (البريفيه)

قسم خاص للدراسات التجارية. اللغات الفرنسية والعربية والإنجليزية إلزامية فى جميع الفصول

الكلية الفرنسية (للبنين)

رقم ٤٥ شارع الظاهر

تحضر الطلبة بمقتضى المناهج الابتدائية الفرنسية ومناهج البكالوريا المصرية



الليسيه الفرنسية

بالاسكندرية بالشاطبي

روضة الأطفال — ليسيه البنات: منفصلة انفصالاً تاما عن ليسيه البنين: تحضير لشهادتى البكالوريا الفرنسية والبكالوريا المصرية. تعليم التدبير المنزلى

ليسيه البنين: تحضير لشهادتى البكالوريا الفرنسية والبكالوريا المصرية ولدبلوم التجارة العليا. تعليم اللغتين العربية والانجليزية فى جميع الفصول. تعليم الألعاب الرياضية

مدرسة الزراعة العليا المصرية: فى الليسيه وفى الملحق الزراعى فى رأس السودا

الدراسات العليا: — علوم، آداب حقوق، وعلوم اقتصادية

دراسات المهندسين: كيمائيين ومساعدى المهندسين الكهربائيين والميكانيكيين.

الليسيه الفرنسية المصرية

شارع فؤاد الأول بمصر الجديدة

(هليوبوليس)

الثقافتان الفرنسية والمصرية تلقنان لجميع التلاميذ

اللغات الفرنسية والعربية والإنجليزية إلزامية فى جميع الفصول

١ — مدرسة البنين

تحضر الطلبة لمختلف أقسام البكالوريا الفرنسية والمصرية

٢ — مدرسة البنات

تحضر الطالبات لشهادات البكالوريا وبها قسم للدراسات العامة وفصول خاصة إعدادية للغة الفرنسية. وهى منفصلة انفصالاً تاماً عن مدرسة البنين

٣ — روضة أطفال

كل أنواع الرياضة على أجمل أراضى مصر

سيارات خاصة للمدرسة لتوصيل الطلبة والطالبات إلى المنازل

تحدد يوم الافتتاح لجميع معاهد البعثة العلمانية الفرنسية

٣ أكتوبر سنة ١٩٤١

٦ — المصريون المحدثون
شمائلهم وعاداتهم
في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

(تابع الفصل الأول)

يلاحظ أن أهل القاهرة وسكان الأقاليم الشمالية حيث يكثر المهاجرون لاعتدال الجو : هؤلاء لقلة تعرضهم للشمس يمتازون بوجوههم الشديدة الصفرة وبشرتهم الناعمة اللمس ، بينما الآخرون يزداد لونهم ظلمة وبشرتهم غلاظة . أما في مصر الوسطى وفي الصعيد الأعلى فيشتد وهج الشمس وتزيد سمرة الوجه كلما صعد الإنسان نحو النوبة حيث يكون الجو أشد حرارة ، وحيث يحل النوبيون محل المصريين تدريجياً . وسحنة المصريين المسلمين بيضية الشكل جميلة الهيئة . فالجبهة معتدلة الحجم نادرة الارتفاع شديدة التقوس ، والعينان بعيدتا الغور ، أو تبدوان كذلك نتيجة لخفض الحاجب من بهر الشمس ، سوداوان لامعتان ، تشبهان بعض الشبه أعين الأجناس الحبشية ، والأنف مستقيم غليظ بعض الشيء ، والفم جميل التكوين ، والشفتان أقرب إلى الناظر ، والأسنان جميلة الشكل تشبه إذا نظرنا إلى الموميات أسنان المصريين القدماء[1] واللحية سوداء خفيفة جعداء . وقلما ترى عيوناً رمادية ، إلا في ذرية الأجانب من أوربيين وغيرهم أو في سلالتهم . وقد اعتاد الفلاحون ، لدوام تعرضهم للشمس كسر جفونهم؛ وهذه من مميزات البدو . وأكثر المصريين مصابون بالعور أو بالعمى . وهم لا يحلقون اللحية كلها وإنما يحلقون ما فوق الفك الأسفل وما تحته وكذلك ما تحت الشفة السفلى ما عدا المنفقة على مثال الرسول (صلعم) . وقد ينتفون تلك

(١) ومع ذلك فآلام الأسنان مرض شائع في مصر كما كان في العصور القديمة على الأرجح ، إذ يشير هيرودوتس في كلامه من طبقات الأطباء المصريين إلى أطباء الأسنان

المواضع . والقليل منهم يحلق اللحية كلها[1] ما عدا الشاربين فلا يحلقهما أحد ، وهم يطلقون لحاهم بمقدار قبضة اليد تقريباً وهذا هو التبع عادة . وتلك كانت عادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم لمحافظتهم على السُّنة لا يطيلون الشاربين ولا يعدونهما على الأقل فوق الشفة العليا حتى لا يضايقانهم عند الأكل أو الشرب . وعادة الخضاب ليست شائعة في مصر لأنهم يحترمون الشيب . ويحلق المصريون شعر الرأس كله ، أو يتركون خصلة صغيرة فوق الناصية تسمى « شوشة »[2] . ويقال إن هذه العادة الأخيرة — التي تكاد تكون عامة بينهم — منشأها خوف المسلمين عند وقوعهم في أسر الكفار أن يعمد هؤلاء — عند ذبحهم — إلى وضع أيديهم النجسة في الفم ليحملوا الرأس منه إذا لم يجدوا شعراً . وقد تكون اللحية قصيرة أيضاً ، ولكن الراجح أن تلك العادة أخذت عن الأتراك ، لأنها لا تشاهد عامة عند البدو ، ولأن عادة حلق الرأس ظهرت بين العرب منذ عهد قريب ، ثم إنها للنظافة[3] . ويتبع المصريون عادات أخرى لنظافتهم لا محل لذكرها هنا[4] . ويلاحظ أن كثيراً ما يَشِم رجال الطبقة السفلى وغيرهم أذرعتهم وأحياناً أيديهم وصدورهم كما يفعل النساء ، (وسنصف هذه العادة عند الكلام عن النساء)

وتتألف ملابس رجال الطبقتين العليا والوسطى من الأجزاء الآتية[5] : أولاً ، سروال[6] فضفاض من الكتان أو القطن

(١) وقلما يحلق الخدم لحاهم ، وما من أحد منهم يحلق شاربيه . ومن المشاهد كثيراً احترام الشرقيين اللحية . فهي محل قسمهم ، وهم يقولون لمن يرتكب قبيحاً إنه أسقط حرمتها . وكثيراً ما طبقت في العصور الحديثة العقوبة المنصوص عنها في سفر صموئيل الثاني ، الاصحاح العاشر الآية الرابعة ، ونصها . فأخذ حانون عبيد داود وحلق أنصاف لحاهم ثم أطلقهم . ولكنها لم تتواتر بقدر عقوبة حلق اللحية كلها

(٢) يعد المسلمون ترك قصاصة الشعر أو قلامة الأظافر الخ على الأرض مخالفاً للاحترام الواجب لكل ما يخص الجسد ، وهم لذلك يدفنون هذه الأشياء في التراب ؛ بينما النساء يحشين بها شقوق الجدران

(٣) ويستقبح رجال العلم والدين هذه الشوشة

(٤) وهي مذكورة في « مشكاة المصابيح » الجزء الثاني ص ٣٠٩ ويراعيها كلا الجنسين

(٥) ولا تزال طريقة لبسهم كما كانت على مر القرون

(٦) يسمى « لباس »

يشد حول الوسط بشريط[١] طرفاه مطرزان بالحرير الملون وإن كانا تحت الملابس الخارجية . ويصل السروال إلى ما تحت الركبتين بقليل أو ينزل حتى الكعبين . إلا أن الكثير من العرب لا يلبسون السراويل الطوال لأن النبي (ص) حرمها عليهم . بعد ذلك قميص أكمامه واسعة جداً تصل حتى المعصم ، يصنع من نسيج الكتان الأبيض الرخص أو من نسيج القطن أو الحرير الموصلي أو الحرير المخلوط بالقطن ، وكلها مفوفة بيضاء[٢] . ويرتدى أغلب الناس فوق هذا ، عند ما يبرد الطقس ، « صديرياً » قصيراً من الجوخ أو من الحرير الملون المفوف أو من القطن ، ولا أكمام له . يضاف إلى هذا رداء طويل من الحرير المفوف أو القطن[٣] يسمى « قَفطان » أو على حسب التعبير الغالب « قُفطان ») ينزل حتى الكعبين وأردانه الطويلة تمتد إلى ما بعد أطراف الأصابع بضع بوصات وتشق من فوق الرسغ بقليل، أومن وسط الذراع بحيث تكشف اليد ؛ إلا أنه يمكن سترها بالكم عند الضرورة، لأن من العادة أن تغطى اليدان فى حضرة شخص عظيم . ثم يلف حول هذا الثوب شال ملون[٤] أو قطعة طويلة من

شكل ١٤ – (زى الطبقتين الوسطى والعليا)

الحرير الموصلى الأبيض المنقوش . وأخيراً ، الحلة الخارجية العادية وهى عبارة عن كساء طويل من الجوخ ، من أى لون كان ، يسميه الأتراك « جُبه » ويسميه المصريين « جبه » ولا تتعدى أكمامه المعصم تماماً[١] وبعض الأشخاص يلبسون « البنش » – وهو قباء من الجوخ – أكمامه كأكمام القفطان طولاً ولكنه أوسع منها[٢] ويرتدونه – على الأخص – فى الحفلات فوق الجبة ، ولكن الكثير منهم يستبدلونه بها ؛

شكل ١٥ – (زى الطبقة الدنيا)

وهناك رداء آخر يسمى « فرجيّة » يشبه البنش تقريباً وأكمامه طويلة غير مشقوقة ، ويلبسها غالباً رجال العلم . ويتوشح شتاء بنوع من المآزر الصوفية السوداء يسمى « عباية » ، وقد تشد فوق الرأس[٣] ، وفى الشتاء أيضاً يتدثر كثير من الناس بشال من الحرير الموصلى ، أو غيره (مثل الذى يستعملونه للعمامة) يلف حول الرأس والكتفين .

أما غطاء الرأس ، فيتكون من قلنسوة[٤] قطنية صغيرة مطابقة للرأس تماماً وتغير كثيراً . ثم يوضع « الطربوش » – وهو غطاء من الجوخ الأحمر – محكم على الرأس أيضاً ، يتدلى من قمته شرّابة من الحرير الأزرق القاتم ، وأخيراً يلف على الطربوش قطعة طويلة من الحرير الموصلى الأبيض المصور ، أو شال

(١) يسمى « دكة » أو « تكة »

(٢) وقد نهى الرسول (صلعم) الرجال دون النساء عن لبس الحرير إلا أن هذا النهى لا يراعيه إلا القليل جداً من المسلمين المحدثين ، ما عدا الوهابيين

(٣) وقلما يكون التفويف واحد الشكل فقد يكون مصوراً أو مزهراً

(٤) حزام

(١) أنظر الصورة الأمامية فى الشكل رقم ١٤

(٢) أنظر الصورة اليسرى من نفس الشكل

(٣) أنظر الشكل رقم ١٥ وقوامه عباءة مخططة

(٤) تسمى « طاقية » أو « عرقية »

كشميري وهذه هي العمامة . وقلما يستعمل الشال الكشميري إلا عند ما يبرد الجو . وقد يلبس البعض طربوشين أو ثلاثة ، الواحد فوق الآخر . أما عمامة الشريف وهو الموصول نسبه بنسب الرسول نخضراء ، وله وحده هذا الامتياز ؛ كما أنه ليس من المعتاد أن يلبس أحد غير الأشراف ثياباً خضراء ناضره

أما الجوارب فلا يستعملها إلا بعض الناس شتاء ، ويتخذونها من الصوف أو القطن . وأما الحذاء[1] فهو من الجلد المراكشي Maroguin الأحمر السميك وطرفه الأمامي مدبب معقوف إلى أعلى . وينتعل البعض حذاء داخلياً[2] من الجلد المراكشي الأصفر الناعم ذا نعل من الجلد نفسه ، فيخلع الحذاء الخارجي وحده عند الدوس على البسط . ولهذا السبب يلبس الحذاء الخارجي مكعوباً

ويحمل المصريون في خنصر اليد اليمنى خاتماً[3] من العقيق أو غيره ينقش عليه اسم حامله ويصاغ عادة من الفضة . ويرفق الإسم غالباً بعبارة خادمه (أي خادم الله أو عبده) أو بعبارات أخرى تعبر عن إيمان الشخص بالله الخ . وكان الرسول (ص) يستقبح استعمال الذهب ، ولذلك قلما يلبس المسلمون خواتم من ذهب . ولكن النساء يتحلين بمختلف الحلي (من خواتم وأساور الخ) من هذا المعدن الثمين

ويستعمل الخاتم لختم الرسائل وغيرها من المكاتبات !

(١) مركوب

(٢) ويسمى (مز) أو أكثر صحة (مزد) من التركية (مست)

(٣) وقد يوضع في أي أصبع من أصابع اليد اليسرى

ويعتبر الخاتم أصدق من إمضاء اليد[1] ، وطريقة ذلك أن يلطخ الخاتم بقليل من الحبر بإصبع من الأصابع ، ثم يضغط على الورقة بعد أن يأخذ الشخص من ريقه بأصبع آخر ويبلل المكان المراد ختمه . وكل فرد تقريباً يحمل خاتماً متى كان يستطيع ذلك ولو كان خادماً . ويضع محترفو الكتابة والعلماء وغيرهم في منطقتهم دواة «دواية» من الفضة أو النحاس الأصفر أو النحاس الأحمر ، وهي عبارة عن محبرة أو صندوق به أوعية للحبر والأقلام . ويحمل البعض بدلاً منها أو علاوة عليها مطواة أو خنجر ، وتلك عادة قديمة . أنظر حزقيال ، الإصحاح التاسع الآية الثانية[2]

ويحمل المصريون شُبُكهم معهم أينما حلوا (إلا في المساجد) أو يحملها لهم خدمهم ؛ وإن كانت العادة لم تجر بالتدخين في الشوارع . وهم يضعون كيس التبغ في صدر القفطان الذي يتهدل فوق الحزام ، كما يضعون فيه أيضاً مناديلهم المطرزة بالحرير والمرصعة بالذهب ، بعد أن تطوى باعتناء

وقد رغب الكثير من أفراد الطبقة الوسطى أن ينفوا عنهم فكرة الإثراء فيرتدوا فوق ملابسهم مئزراً قطنياً أسود اللون لا تميزه عن مآزر العامة ميزة

(يتبع) عدلي طاهر نور

(١) ولذلك يعتبر إعطاء الخاتم لأي شخص آخر دليلا على الثقة

(٢) ونصه : وإذا بستة رجال مقبلين من طريق الباب الأعلى الذي هو من جهة الشمال . . . وفي وسطهم رجل لابس الكتان وعلى جانبه دواة كاتب

في الليـــل !

للأديب عبد الرحمن الخميسي

« في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي .. طلبته فما وجدته »
[التوراة]

أسدل الليل يا حبيبي ستوره   وَمَشَى في جوانب المعموره
كاهناً تخفق الشموع على كفـ   ـيه حيرى كأنها مذعوره
حالماً يعقد الضباب حواليـ   ـه أكاليل في الدجى منثوره
شاعراً ينقل النسيم أغانيـ   ـه وتندى جواؤه المسحوره
ساحراً يبهر النفوس ويلقي   بعصاه على الرياض الشجيره
شادياً ينصت الوجود لموسيـ   ـقاه حتى كأنها منظوره
عابداً تظمأ الصلاة إليه   ومحاريبه السماء الكبيره
ذاهلاً أغرق الدنى في ذهول   مستحب إلى القلوب الكسيره
صامتاً تضجر المروج بنجوا   ه ولكنه وسيع السريره
ساهماً يرقص الخيال حواليـ   ـه ويجري الربيع فيه عبيره
راحماً يلجأ الحزين إليه   بشكاياته الدوامي المريره
شاع في جوه السكون ومدت   فيه أنغامها النجوم المنيره
وجرت خلفه الظنون وحاطته   طيوف مجنحات سحيره
فهو للبائس الطريد عذاب   يمسح الفجر في الفضاء سطوره
وهو للعاشق الوفي سميع   يتلقى عن حبه أسطوره
وهو للشاعر الكئيب ملاذ   ينفض الدمع في صواه الضريره
أقبل الليل ! آه يا ويلتا من   مقدم الليل للنفوس الكسيره
أقبل الليل ! فاستبدت بقلبي   حسرات على عهودي النضيره
وسرى في دمي حنين وشوق   مبهم ... آه ما أشد سعيره
وسعت حولي الهموم وناشت   ذات نفسي كأنها مسعوره

* * *

أقبل الليل فارتطمت كأني   موجة فوق شطه المحبوب
قذفت بي إليه أشواق روحي   وشجوني وحسرتي ولهيبي
وارتياحي إلى الظلام ويأسي   وحنيني إلى السكون الرحيب
واغترابي عن الأنام كأني   زهرة بين جلمد وجديب
وهروبي من الحقيقة يا ليـ   ـل فأترع بخمرة الوهم كوبي!
آه ! إني أريد أنسى غرامي   وجراحي وذكريات حبيبي
أبعدوا الصورة الجميلة عني !   أبعدوها لتخمدوا تعذيبي !
أبعدوا الصورة الجميلة عني !   أبعدوها فإنها لحبيبي !
فهي في مسبح الهواء تهادت   رقة تبعث اشتياق القلوب
وهي في جبهة السماء هلال   يتغنى بنوره تشبيبي
وهي في الظلمة المديدة نسك   شاع في رحبها الندى الرطيب
وهي في البحر! والسماء! وفي النو   ر! وفي سحمة الظلام الرهيب!
وهي في الأرض كلها.. حيوات   ومثال لكل حسن نشيب
صاغها الله من مفاتن هذا الـ   ـكون فناً لكل فن ذهيب
أبعدوا الصورة الجميلة عني   أبعدوها لتخمدوا تعذيبي !
كيف أني أريد أنسى غرامي   وجراحي وذكريات حبيبي ؟
ولقد أطبقت جفوني ولكن   قد تراءت رسومه في جنوبي
أيها الليل قد فزعت إلى عطـ   ـفك من ظلم حرقتي وكروبي
أنا أهواك يا ظلام فأطفئ   لي دراريك واستمع لنحيبي!
ولتكن في النسيم منك شكاتي   إزوها للسماء عن مكروب !

* * *

أيها الليل ليتني كنت نجماً   عائماً في مياهك الزرقاء
أقطع الظلمة الأبية لما   ن إلى مخدع الحبيب النائي
ثم أضفي عليه مني خيوطاً   تحتويه في ضمة رعناء
لأروي بقبلة منه نفسي   تطلق الروح من أسى وعناء
وأحلي بسحر عينيه ذاتي   ثم أزهى على نجوم السماء
غير أني يا حسرتا آدمي !   قيدتني أرضيتي في بنائي !
أيها الليل ليتني كنت عصفو   راً طليقاً مع السني والهواء

كنتُ نقّرتُ فوقَ نافذةِ المحـ … ـبوبِ أدعوه لاستماعِ غنائي

ليُغنّي معي ويحكمَ قيدي … بينَ كفّيهِ راضيًا بشقائي

غيرَ أني يا حسرتا آدميٌّ ! … قيّدتني أرضيّتي في بنائي

أيها الليلُ ليتَ أني هواءٌ … سابحٌ في حديقةٍ زهراءِ

أجمعُ العطرَ من نُوّارِ الأقاحي … والرياحينِ في مدى أحنائي

ثم أمضي إلى حبيبي عليلاً … أشكرُ البدرَ عنصري بالضياءِ

أحملُ الطيبَ في فؤادي إليهِ … وأفرّي حيـــاله أحشائي

لأكونَ الأنفاسَ في رئتيهِ … ولأحظى في صدرهِ بفنائي

غيرَ أني يا حسرتا آدميٌّ ! … قيّدتني أرضيّتي في بنائي

أيها الليلُ ! ليتني كنتُ روضًا … مورقَ الزهرِ ، وارفَ الأفياءِ

نمّقتْ صفحتي أناملُ حسنا … ءَ ربيعيّةُ الندى والرُّواءِ

كنتُ نسّقتُ من ورودي تاجًا … لحبيبي كالهالةِ البيضاءِ

غيرَ أني يا حسرتا آدميٌّ ! … قيّدتني أرضيّتي في بنائي !

* * *

أيها الليلُ يا مقيلَ الحيارى … والمساكينِ في البلاءِ الشديدِ

في دمي نورةٌ يبثُّ لظاها … هاجسٌ ألهبتهُ نارُ الصدودِ

وعلى مهجتي يئزُّ التياعٌ … جائعٌ للوقودِ بعدَ الوقودِ

وأنا بينَ ما أعاني خفيفٌ … أتهاوى في قلبيَ المهدودِ

نهزةٌ للشجونِ لكنَّ روحي … تتخطّى إليكَ كلَّ السدودِ

خذْ بنفسي إلى السلامِ وهدّئْ … سورةَ الوجدِ في فؤادي العميدِ

وامسحِ السهدَ عن عيوني وضمَّ من … زفراتي النشيدَ تلوَ النشيدِ

فارتقابُ الوصالِ أمرٌ بعيدٌ … خلقتهُ ليسَ كالسها بالبعيدِ

وحرامٌ على الغرامِ ضياعي ! … وحلالٌ في ظلّهِ تغريدي !

وحرامٌ على العذابِ اجتياحي … وأنا ما بلغتُ عمرَ الورودِ

وحرامٌ على العيونِ التواني … حيّرتني ، في بعدها تشريدي

وحرامٌ على الهوى يا حبيبي … أن يحيلَ السعيدَ غيرَ سعيدِ !

وحرامٌ على الليالي طوافي … حولَ أهوالها الغضابِ السودِ

وأنا ما خُلقتُ إلا لأشدو … في ركابٍ من الجمالِ فريدِ

أيها الليلُ ! في فؤاديَ ليلٌ … زاخرُ الموجِ ليسَ بالمحدودِ

وسيهتزُّ في ضلوعكَ فجرٌ … يوقظُ الطيرَ للنهارِ الجديدِ

وأنا مظلمُ الجوانحِ ظمآ … نُ إلى فجريَ المنيرِ الفقيدِ

لي رجاءٌ في رحمةِ اللهِ لمّا … وسعتْ في الوجودِ كلَّ الوجودِ

أن يُنيرَ الحياةَ في قلبيَ الدا … جي ويقصي عني هزيمَ الرعودِ

فأنا زورقٌ يضلّلهُ الإعـ … ـصارُ عن شطّهِ الأمينِ الوحيدِ

* * *

حجبوها ! ومن سيطلقُ أسرا … بَ الأماني إلى وكورِ حياتي؟

حجبوها ! ومن ينضّرُ أغرا … سي ويجني مع الصبا ثمراتي؟

حجبوها ! ومن يجمّلُ عيشي … ويغذّي بحسنهِ صبواتي ؟

ولمن جئتُ بأغرامي إلى الدنـ … ـيا ؟ ومن ذاته تُكمّلُ ذاتي؟

حجبوها ! فمن يهدهدُ أشوا … قي إليها ولهفتي وشكاتي؟

أيهذا القضاءُ لا كنتَ يا غا … درُ ! فرّقتَ في اللهيبِ شتاتي

وشربتَ الدماءَ من غورِ قلبي … واختطفتَ الضياءَ من بسماتي

وغرستَ الهمومَ في ذاتِ نفسي … كحرابٍ تدكُّ في جنباتي

وزرعتَ الأشواكَ في طرقاتي … وأرقتَ الذهولَ في نظراتي !

فعبرتُ السنينَ كالطائرِ المحـ … ـمومِ أقتاتُ من رمالِ الفلاةِ

أينَ عشّي وأيكتي وغديري … ورحيقي وزهرتي ولداتي ؟

ولماذا أبعدتني يا زماني … عن حماها ! فأظلمتْ طرقاتي؟

أنا أهواكِ يا شقيقةَ روحي ! … أنا أهواكِ يا حياةَ حياتي !

فنيتْ نفسي في هواكِ كما لو … فنيَ النهرُ في الخضمِّ العاتي

وتلاشيتُ في غرامكِ ، واهتا … جتْ من الشوقِ والجوى حُرُقاتي

أنتِ شطري وكيفَ يبعدُ شطري … ثم تخبو إذا نأى حسراتي ؟

أنتِ إشراقةٌ من اللهِ تنسا … بُ وتمحو بنورها ظلماتي

أنتِ معنًى فوقَ الجمالِ رفيعٌ … أتسامى إليهِ في صلواتي

قرّبيني من الإلهِ وهاتي … ما تشائينَ من كؤوسكِ هاتي

وخذيني إليكِ في كلِّ معنًى … من معانيكِ يا حياةَ حياتي!

(القاهرة)

عبد الرحمن الخميسي



جواب

أجيب عن سؤال الأستاذ الفاضل « ح . ح » بأن « المناء » لفظ عربي صحيح ، والله يحفظه

رهيد

البيئة ونزع العمائم

ذكر الأستاذ الكبير الدكتور زكي مبارك تحت موضوع البيئة في عدد ٤١٨ من الرسالة المحبوبة أن الذين زاروا الأندلس من أهل الشرق كان فيهم من دهش حين رأى بعض القضاة يجلسون للحكم بين الناس ورءوسهم عارية ، ولم يفهم أن هذا من تأثير البيئة ، فأهل أوربا ينزعون أغطية الرءوس في المواقف الجدية وبهم تأثر العرب في الأندلس ... الخ

بهذا التأثير الغربي حكم الدكتور كما قد مر بك ، وبه قطع ، وبه استشهد ، وبه يريد أن يقوّم ما اعوجّ من بعض أبناء زمانه ساعده الله عليهم ... فإن صح هذا الحكم على أن أهل الأندلس تأثروا بالبيئة الأندلسية فبمن تأثر أهل المشرق وعمن أخذوا نزع العمائم في بعض المواقف وبيئتهم تختلف اختلافاً كبيراً عن بيئة الأندلس ؟ ومن أخبار تلك المواقف الجدية الشرقية البغدادية الرواية الآتية : قال صاحب الأغاني في (ح ٩ ص ٩٧) [1] : قال الراوي حدثنا محمد بن عباد المهلبي قال : لما مات أبو عيسى بن الرشيد دخلت إلى المأمون وعمامتي على نخلعت عمامتي ونبذتها وراء ظهري والخلفاء لا تعزى في العمائم ... الخ

فعلى هذا أرجو من الدكتور المبارك أن يدلي برأيه في هذه الرواية ولحضرته من أبناء الشرق وتأريخه الحديث كل التحيات

(بغداد) عبد المجيد الساكني

النفط

جاء في مقال الأديب الأخ أحمد الشرباصي أن كلمة نفط عربية الأصل ، ولكن يا سيدي الأديب جاء في كتاب منشة برى أن النفط هو سائل أفضل من زيت الزيتون للمعابد وخصوصاً في ليلة السبت . وهذا الكتاب مطبوع في بغداد من قبل ١٧٠٠ سنة فهو دليل على أن هذا الاسم عبراني لا عربي . والرجاء من علمائنا اللغويين وهم الأفاضل الأيوبي بك والعوامري بك والنشاشيبي بك أن يفيدونا هل نفط عربية أو يوجد لها اسم آخر بلغة العرب ؟ ولهم الشكر من قراء الرسالة .

(القدس الشريف) داود أحمد العارورى

لحبيب أم لابن عبد ربه ؟

في « يتيمة الدهر » للثعالبي ج ١ ص ٤٠٠ الأبيات الآتية منسوبة إلى حبيب بن أحمد الأندلسي وهي :

ودعتني بزفرة واعتناق ... ثم نادت متى يكون التلاق

وتصدت فأشرق الصبح عنها ... بين تلك الجيوب والأطواق

يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق

إن يوم الفراق أفظع يوم ... ليتني مت قبل يوم الفراق

وقوله :

هيج البين دواعي سقمي ... وكسا جسمي ثوب الألم

أيها البين أقلني مرة ... فإذا عدت فقد حل دمي

يا خليَّ الروع نم في غبطة ... إن من فارقته لم ينم

ولقد هاج لقلبي سقما ... حب من لو شاء داوى سقمي

وفي « العقد » لابن عبد ربه ـ المجلد الرابع ص ٤١ ـ عند ما تكلم في التوديع ينسب هذه الأبيات إلى نفسه . فهل أخطأ الثعالبي في التحرير ، أم كذب ابن عبد ربه وادعى لنفسه ما لم يقل ؟ نريد من الأستاذ إسعاف النشاشيبي أن يسعفنا بالقول الفصل وله منا الشكر ومن الله حسن الجزاء

أحمد حسن علي شعيب

كتاب « محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعي بك

لم يُكتب إلى اليوم تاريخ مصر الحديثة كاملاً ، وإلا فأين صفحات فلان وفلان من أبطال جهادها والذادة عن حقوقها ؟ وإذا كان تاريخ « محمد فريد » — وهو من زعمائها الآحاد — كادت تغمره الحوادث في لجة النسيان حتى نشأ الناشئ وهو لا يدرى عنه إلا ما لا غناء فيه فكيف بمن هم دون فريد أثراً ؟ لقد عني بعضهم داخل الجامعة وخارجها بالكثير من الموضوعات التاريخية ، فقرأنا لهم المباحث الطيبة في شتى فترات التاريخ ، ولكنا لم نجد بين إنتاجهم التاريخي شيئاً عن مصر الحديثة الجاهدة

(١) طبعة بولاق

ولقد قيل كثيراً : إنه يصعب كتابة تاريخ الأيام القريبة لاعتبار سياسي ؛ وهو قول ينبغي الأخـذ به ، فالمؤرخ الحق لا يعرف شيئاً يمكن أن يجور به في عمله عن قصد السبيل ؛ والإنسانية استطاعت الآن إلى حد كبير أن تحمي العلم الخالص من كل تحكم ظالم ؛ وإن أناساً هنا وهناك نشروا مذكراتهم ، أو تآليفهم التاريخية ، وفيها مساس كبير بالمعاصرين ، فخرج عملهم على حظ عظيم من الإحسان والدقة ... هذا ، ووثائق التاريخ المصري الحديث لمّا تندثر ، وفرصة تمحيص رواياته أكثر اليوم مواتاةً للباحثين ؛ ونشر صفحاته ستفيد منه الأمة وناشئتها بصفة خاصة خيراً كثيراً ؛ وإذن فليس بجمل إهمال هذه الاعتبارات جميعاً تلقاء الخوف من اعتبار واحد فيه ضعفه .

لا غرو بعـد هذا إن نحن قابلنا كتاب « محمد فريد » للرافعي بك ، وهو إحدى حلقات سلسلته الذهبية في تاريخ مصر القومي بالكثير من الغبطة والتقدير ... فهو تأريخ كامل للفترة الواقعة بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩١٩ ، تلك الفترة التي لا نغالي إذا قررنا أن شبيبتنا التي لم تدركها تجهلها ، أو — على أحسن الفروض — تجهل الكثير من أحداثها

ولقد جمع الرافعي في كتابه ما يكاد يُطلع القارىء على كل ما كان في هذه الحقبة الهامة في تاريخ النهضة المصرية ، وكأن القارىء الشابّ عاشها فعلاً ، ولكن لا كفرد عادي يعرف شيئاً وتغيب عنه أشياء ، بل كفرد وثيق الصلة بالحركات المختلفة للنهضة ، مطّلع على دقائقها

ولن يجد الشباب في كتاب الرافعي كتاباً تاريخياً دقيقاً فحسب ، ولكنهم سيجدون فيه أيضاً سيرةً مثاليّة توجّه نزعاتهم الطامحة

سيَروْن الجهادَ والمثابرة في أسمى صورها ، وسيَروْن كيف يكون الزهد في المنصب والجاه ، وكيف يكون التفاني في المثل العليا بأوفى معانيه . وسيرون السعي السلمي المنظم لإيقاظ الشعور الوطني ، وترقية الأفكار العامة ، وإحراز الدستور . وسيرون مولد الكثير من المشروعات الإنسانية في نواحي الاقتصاد والاجتماع والتعليم ، وسيرون في جنباته صوراً كثيرة لأدب تلك الفترة ، وسيجدون أمامهم من الوقائع والروايات ما يستشفّون منـه الواضعات الاجتماعية والسياسية وقتئذ وسيرون — وما أنفع وما أروع ! — سيرون العنت الماثل بلحق بأسلافهم المجاهدين فيزيدهم إيماناً ! سيرون كيف كانت المطالبة بالحقوق جريمة يحاكم فاعلوها بالحبس مع الشغل .

وسيرون الأخلاق الواهية ، وكيف ينبعث من بني الوطن من يكيدون للوطن وخدام الوطن . ثم سيرون في تاريخ الوطنية أحداثاً لم يعهدوها إلا في تاريخ الأديان : سيرون الهجرة والفتن والرِّدّة ! وسيرون بعدُ حاملَ الرسالة لا يهن ولا يهون

ليقرأ الشباب هـذا الكتاب ليروا فريداً المجاهد تمذ به الغُربة ، وتؤوده العلّة ، ويود لو انتقل إلى مكان في نفس أوربا أرحم بمرضه فلا يستطيع لضيق ذات يده ! ثم ليروه وهو المصاب بأدواء الكبد والاستسقاء ، والذي يغادر مشفى ليدخل آخر ، وينتهي من عملية الفيلة المائية ليعاني (بزل) الماء الراشح في تجويف بطنه ... تارة بالتسعة لترات ، وتارة بالسبعة عشر لتراً ... ليروا هذا المريض المجهود يدع البلد الذي آنس فيه بعض الشفاء وينفر إلى المؤتمر الدولي الاشتراكي في (لوسرن) ليرفع فيه صوت مصر !

وسيتابع الشباب في الكتاب حياة « فريد » حتى تأفل ، وسيسمعون قوله والمنيّة ترنّق عليه : « لست أخاف الموت ، لأنه حق ، ولكن كل ما كنت أتمناه أن أرى مصر متمتعة بتمام استقلالها ! »

وسيسمعون إلى وصيته الدافقة وطنيـة وأسى وشعراً : « فإذا متّ فضعوني في صندوق ، واحفظوني في مكان أمين ، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتي إلى وطني العزيز الذي أفارقه وكنت أود أن أراه ! »

أما بعد، فقد ترك لنا الأستاذ الرافعي سبيلاً ننقد منه كتابه القيم ، فهو يتعقّب عامداً زعيماً بعينه يبحث له عن زلات ، ويفسر الكثير من تصرفاته بما يسيء إلى سيرته ؛ والرافعي قد يكون رجلاً حزبياً سياسياً يتلمس الأسباب لرفع مذهب على مذهب ، وينظر إلى عمل خصمه السياسي نظرة تبدي المساوئ ؛ فهو لذلك قد يكون معذوراً فيما صنع ، ولكننا كنا نؤثر أن يغلب الطابع العلمي التاريخي المحض على كتابه العظيم

وفي الكتاب أخطاء مطبعية يضيق المقام عن سردها ، ونرجو أن يبرأ منها في طبعاته التالية إن شاء الله

وللأستاذ المؤلف شكر الوطن القادر صنيعه ووفاءه

(المنصورة) لبيب السعيد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

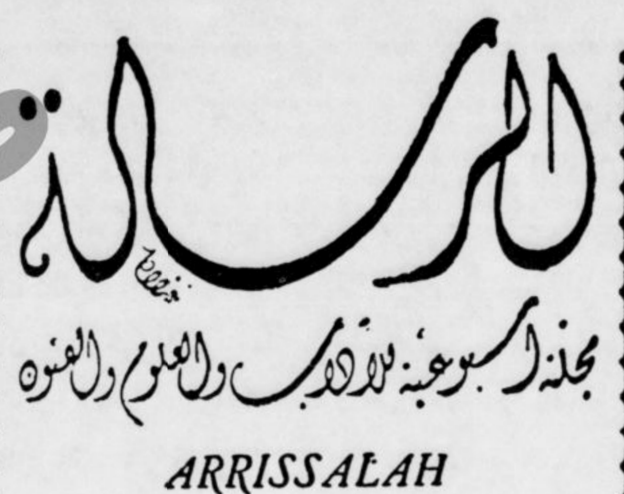


9me Année No. 403

Lundi - 29 - 9 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٣٠ « القاهرة في يوم الإثنين ٨ رمضان سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

عبرة من « نظام أوربا الجديد »

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

« نظام أوربا الجديد » عنوان إن هو إلا زواق خادع ، خلعته الدعاية النازية على سياسات شيطانية تؤسسها القوة الألمانية في أوربا ، لتستذل بها الشعوب المغلوبة وتستفحل ، فتمد رواق سيادتها حيث توجد مطامعها من العالم القديم إلى الجديد ، إن هي خرجت ظافرة من هذه الحرب الضروس

وقد استعار إينتسِج[1] ذلك العنوان لكتابٍ فنّد به « ما تدعيه النازية من أن الدول الأوربية التي تخضع لسلطان ألمانيا ستتمتع برخاء منقطع النظير في تاريخ البشرية » في ظل هذا النظام ، وكشف « عن الخطط المحتملة التي تدل التجارب على أن النازيين سوف يتبعونها في المستقبل » . فلله درّه !

دعاية تحارب دعاية ! لكن « إينتسج » جاء بحقائق وعبر يجب أن يتأملها الناس ، عسى أن تستنير بها بصائر ، وترتفع أوهام ، ويتبين مآل كل حال . وحسب الشرقيين موعظة قوله :

(١) باول اينتسج (Paul Einzig) ، من علماء السياسة والاقتصاد ولد سنة ١٨٩٧ في ترنسلفانيا (جنوب الكاربات ، بين رومانيا والمجر) وتجنس بالجنسية الانجليزية سنة ١٩٢٩ .

« الشرط السياسي الأساسي لقيام نظام أوربا الجديد هو وجود جيش ألماني . . . بحال تمكنه من غزو البلاد التي يريد غزوها من غير أن يلقى مقاومة تستحق الذكر ، يكفي لقيام الأحوال السياسية التي يحتاجها إنشاء النظام الجديد »

ولذلك فإننا غير واثقين من أن البلاد التي يشملها هذا النظام ستحتلها قوى ألمانيا العسكرية بصفة دائمة ... وأكبر ظننا أن بعض أجزاء من البلاد المفتوحة ستضم بالفعل إلى الدولة الألمانية ... لكن ألمانيا قد تجد من الملائم لها مع ذلك أن تقيم عدداً من الدول الخاضعة لسلطانها مستقلة بالاسم عنها ، ولكنها خاضعة لها خضوعاً تاماً[1] . . .

ولن ينقضي أجل الاحتلال الألماني للبلاد المفتوحة حتى يقام فيها نظام للحكم موال لألمانيا . ولربما اتخذوا من وعدهم بجلاء الجيوش الألمانية وسيلة يحصلون بها على تأييدهم في إنشاء نظم للحكم صورية تكون ألعوبة في أيديهم . أما الأمم التي تظهر عدم رغبتها في قبول « حقائق الموقف » ، فستنذر بالضم إلى الدولة الألمانية ...

إن قيام هذه الحكومات المحلية بالأعمال الإدارية العادية يوفر على برلين عناء كبيراً ، ويمكنها من أن تتفرغ لوضع قواعد سياستها العامة . يضاف إلى هذا أن جزءاً من العداء الذي يوجه إلى ألمانيا إن أدارت هي شؤون البلاد ، سيتحول تياره نحو هؤلاء الحكام ، فإذا لم يطق الناس حكمهم لشدة كرههم إياه ، استبدلت بهم طائفة أخرى من الخونة الذين لا يستنكفون أن يخدموا المصالح الألمانية ...

وليس من المحتم أن يكون الذين يقبلون الاشتراك في هذا العمل الاداري خونة ، فقد يشعرون بأنهم يخدمون أمتهم إذا قاموا بالعمل العادي الضروري لحياة المجتمع الحديث[2]

ولكن الذي نرجحه أن تقوم سياسة ألمانيا في البلاد التي تحت سلطانها على إيجاد طوائف من الخونة مختلفين ، نازيين أو غير نازيين يعارض بعضهم بعضاً . وقد تكون الأحزاب النازية المحلية المتنافسة أصلح الطوائف لهذا الغرض ، فإذا لم تكن كذلك فإن ألمانيا لن تتردد في أن تقدم معونتها لأي نظام يخضع لمشيئتها وإن لم يكن قائماً على المبادئ النازية ...[1] »

تلك إذن هي السياسة النازية العاملة في البلاد الأوربية ، وهي من ظواهر المنطق الألماني الذي يوهم صاحبه أنها سياسة يعمل بها حتى غير الألمان ، فيقول استي[2] مثلاً في كلام على التوسع الامبراطوري البريطاني في مصر : « وجد لسوء الحظ في مصر ، كما وجد في الهند ، خونة للوطن ظنوا أنهم بعون الانجليز يستطيعون الاستيلاء على الحكم ، وبهذا نجحت في البقاء بعصر سلطة أجنبية ما كانت أبداً لتستطيع التسلط على بلد متحد حول الفكرة القومية »

لو وقع ذلك في مصر لكانت حالها حينئذ عين الحال التي يضربها الألمان من الآن على أمم أوربا المغلوبة وهي ليست بأقل منهم إنسانية ، وإن أنكرت ذلك النازية المتغطرسة حتى على الآريين من غير الجرمان

وإذا كان شأن الألمان مع الأوربيين أنفسهم هو ما علمت فما الظن بما يستحلون في استعباد الشرق واستغلاله واستيعاب ثروته ، إن قدر لهم النصر في النهاية ؟

حقاً إن في بيان إينتسج لعبرة يجب أن يعتبرها كل مخدوع أو مخادع وهو غافل عن الحقائق

محمد توحيد السلحدار

(١) ويقول في سياق كلامه : « ستجعل ألمانيا من هذه البلاد بلاداً زراعية لكيلا يكون ثمة خطر عليها هي ، وستحرمها بذلك حرماناً دائماً من كل فرصة تمكنها من الوقوف في وجه القوة الصناعية والحربية لدولة الألمانية صاحبة الحول والطول . وفوق هذا فإن ألمانيا سترقب بعين يقظة الحاصلات الداخلية والواردات الآتية إلى البلاد التي ستتخلى من سيطرتها الحربية المباشرة عليها . فستسيطر ألمانيا بمقتضى قواعد النظام الجديد على التجارة الخارجية لهذه البلاد سيطرة تامة . وستحول هذه السيطرة بينها وبين شراء الأسلحة من البلاد الأجنبية » . ص ٣٠ و ص ٣١ .

(٢) وهؤلاء ، في أغلب الظن ، لا يزعمون أنهم أماديرون واللاصرفون في السياسات القومية العليا ، ولا يحيدون في أعمالهم عن الصراط المستقيم

(١) الصفحات ٢٧ إلى ٢٩ و ٣١ إلى ٣٤ — ويقول كذلك : « قد يسمح الألمان بحكم الضرورة الوقتية إلى بعض الأمم المغلوبة أن تعتقد أنها ستتعاون مع المغلوبين معاونة الند للند ، ولكن الألمان لا يلبثون أن يستردوا من فورهم ما منحوه لهذه الأمم من امتيازات متى زالت الضرورات العملية التي أملت عليهم هذه السياسة . فإذا كانت هذه الأمم المغلوبة بعيدة النظر ، فإن عليها أن تعلم أنها لن تستفيد شيئاً من محاكاة نظم حكمها السياسية ، كما أن الأرقاء في الدولة الرومانية لم يكونوا ليستفيدوا شيئاً إذا ما خدعوا أنفسهم واعتقدوا أنهم مواطنون رومانيون » ، ص ٣٧

(٢) (Johannes Stoye) يوحنا أستي راجع الصفحة ١٣٠ في كتابه المترجم من الألمانية « انجلترا في العالم »

L'Angleterre dans le Monde Payot 1935 .

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الدراسة الجامعية كما يفهمها الأستاذ أحمد أمين — كيف تنترب ومعك قلمك ؟ — الشكوى إلى ضريح الامام الشافعي تصور يأس الناس من العدل في الأرض ، فهم يلتمسونه في السماء — إلى وزير الأوقاف — مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية ...

الدراسة الجامعية

للأستاذ أحمد أمين آراء تظهر من وقت إلى وقت ، فتدل على مبلغ فهمه للحياة الأدبية والاجتماعية ، وهي آراء لا تحتمل النقض ، لأنها في الأغلب واهية البنيان ، والمِعوَل لا ينقضّ إلا على البناء المتين

وآخِرُ ما صدَر من تلك الآراء ، هو حكمه على الدراسة الجامعية ، فهو يرى أنها « تجعل من الحبة قُبّة ، ومن الهزل جدًّا ، وإن شاءت فمن الجد هزلاً » ؛ ثم يقرر بعبارة صريحة أن الدراسة الجامعية : « تميت الحي وتحيي الميت ، فهي تحيي اللاتينية واليونانية والحبشية والأكادية وقد ماتت ؛ وهي تميت الحي ، فتدرس اللغات الحية دراسة تميتها وتُفقدها روحها ، وتُبعد عن تذوّقها ، ولذلك قلّ أن تُخرج الجامعة أديباً شاعراً أو كاتباً ، وإنما تخرج أديباً ناقداً أو أديباً عالماً ؛ ومن كان أديباً من رجال الجامعة فمن طبعه ونفسه ، لا من الدراسات الجامعية ، وإن شئت فقل إنه أديب برغم الدراسات الجامعية ، لا بفضل الدراسات الجامعية »

ذلك ما قاله الأستاذ أحمد أمين في العدد ١٤٢ من مجلة الثقافة الغراء ، وهو أعجب ما صدر عن هذا الرجل المفضال

وقبل أن أنقض رأيه في الدراسة الجامعية أقرر أن كلية الآداب لا تُطوّق بهذا الرأي ، ولن يكون حجة على أساتذتها وطلابها وخريجيها ، فيشمت فيهم الدَّرعميُّون والـكلفريون[1].

فكلية الآداب هي صوت مصر الأدبي في الشرق ، ولن يضيرها أن يخطئ أحد المنتسبين إليها بكلمة يكتبها في وقت لم يكن يصلح فيه لجد ولا لعب ، كما صرّح بذلك في تلك الكلمة الواهية

ثم أواجه الموضوع فأقول :

أتكون مهمة الدراسة الجامعية أن تجعل من الحبة قبة ؟ أم تكون مهمتها أن تمنع الحبة من أن تصير قبة ، وأن تحمي القبة من أن تصير حَبّة ؟

المنطق يوجب أن تكون مهمة الدراسة الجامعية هي إقرار الحقائق في نصابها الصحيح ، بلا تزيّد ولا تحيّف ، وإلا كانت دراسة بهلوانية !

ثم أقول : كيف يكون واجب الدراسة الجامعية أن تجعل من الهزل جداً ، ومن الجد هزلاً ؟

يصح أن يقال إن الدراسة الجامعية ترى كل شيء صالحاً للدرس ولو كان من الهزل ، لأن العلم جِدُّه جد وهزله جد ، ولـكن كيف يصير الجد هزلاً بفضل الدراسة الجامعية ؟

ثم يحكم بأن الدراسة الجامعية « تدرس اللغات الحية دراسة تميتها ، وتفقدها روحها ، وتُبعد عن تذوّقها »

فمن أين أخذ هذا الرأي ؟ وعمن سمع هذا القول ؟

أتكون الحالة كذلك في كلية الآداب لهذا العهد ؟

ثم يرى الأستاذ أحمد أمين أنه يقلّ أن تُخرج الجامعة أديباً ، شاعراً أو كاتباً ، وإنما تُخرج أديباً ناقداً أو عالماً . فهل يستطيع أن يدلنا كيف تستطيع الجامعة أن تُخرج الأديب الناقد أو العالم وهي تدرس اللغة دراسة تميتها وتفقدها حيويتها وتبعد عن تذوقها ؟

إن الأصل المتفق عليه أن النقد هو إدراك الصلات الوثيقة بين الألفاظ والمعاني والأغراض ، فإذا صح أن الدراسات الجامعية تنحرف بالأستاذ والطالب عن ذلك الأصل فكيف تخرج الجامعة أديباً ناقداً وقد تمّ على أساس منخوب ؟

والأصل في العلم أن يصل بصاحبه إلى فهم الحقائق على ما هي عليه ، فكيف تخرج الجامعة أديباً عالماً وقد أُبعِد عمداً عن تذوّق الجمال الأدبي ؟

كيف تغترب ومعك قلمك

قرأت خطابك يا صديقي ، وعزّ عليّ أن يقع في حياتك ما يزعجك ، ولو شئت لنصصت على اسمك وبلدك لتكون

(١) « الدرعميون » : أبناء دار العلوم ؛ « والـكلفريون » : أبناء كلية اللغة العربية

الواساة جَهيرة الصوت ، لا يصدها نهيب ، ولا يسترها حجاب ، ولكن حرصى على استقلالك يمنع من هذه الواساة الجهرية ، فما أحب لأرباب الأقلام أن يحتاجوا إلى أسندة من العطف والإشفاق على صفحات الجرائد والمجلات ، وإن كان ذلك من الأساليب المألوفة فى العصر الحديث

إن الذى يعوزك هو الثقة بنفسك ، لتأنس بقلمك ، فلا تشعر بضجر الاغتراب فى بلدك وبين قومك ، فقد كتب الله الغربة على أهل الفكر والعقل ، ولو عاشوا فى رحاب عشيرتهم الأقربين ... ألا تذكر قول أبى تمام فى اغتراب أحد الفضلاء :

غَرَّبته العُلا على كثرة الأهـــل فأمسى فى الأقربين جنيبا

فليَطُل عمرُه فلو مات فى «مَرْ وَ» مقيماً بها لمات غريباً

فما رأيت أصدق من هذين البيتين فى وصف ابتلاء أهل الفضل بالغربة والتوحّد ، وإن كانوا محفوفين بالمئات من الأصحاب والسُّجَراء ، ولا نظرتُ فى هذين البيتين إلا عرفت الأقدار التى قضت بأن يكون فى ماضينا الأدبى معانٍ كهذه المعانى ... طيّب الله ثراك ياحبيب !

على أنه لا بد من لومك على ما استجزت من إعلان التبرم بالناس ، فى رسائلك إلىّ ما يشهد بأنك على جانب من الغفلة ، فقد كنت تتوهم أن الناس سيقيمون لك التماثيل فى حياتك ، لأنك واجهتهم بالطرائف الروحية والذوقية ، وفاتك أن تذكر أن « كل ذى نعمة محسود » وأن الفضل قد يعد من أكبر الذنوب ، لأنه يمنح أصحابه سلطاناً لا يزول ، ولأنه الآية الباقية على الزمان ، الآية التى تشهد بأن لله حكمة فى إعزاز أرباب المواهب ، ولو كانوا فقراء الجيوب ، والفقر فقر القلب لا فقر الجيب ...

يجب أن تعرف أن الذين يحاربونك لأنك جهرت بهذا الرأى أو ذاك ، لا يحاربونك مجاهدين ، وإنما يحاربونك متغاظين ، فهم حطب جهنم ، ولو غطّوا أقوالهم بألف رداء من أردية الرياء

هل تفهم قول أبى فراس ؟

ومن شرفى أن لا يزال يعيبنى حسود على الأمر الذى هو عائب

إفهم هذا البيت ، فما وجدت من يفهمه على الوجه الصحيح

معنى هذا البيت أن الشاعر يؤاخذ بأقوال وأعمال يتمنى عائبوه أن تكون من زادهم المكسوب ، وكذلك يتمنى خصومنا أن تخلع عيوبُنا عليهم ، لأنهم يعرفون أنها عيوب رجال ، وعيوب الرجل هى العسف والسيطرة والاقتحام فى ميادين لا يطيقها غير الفحول

فإن صدّقتْ فِراستى فيك فستكون لك أنصبة ضخام مما يجيده صاغة الزور والبهتان ، وسيكون حاضرك وماضيك هدفاً لكل أفاك أثيم ، إلا أن ترى الأقدار أنك جدير بالرحمة من حَمل الأمانة الفكرية والعقلية ، فتروك شبحاً لا يثور عليه حاقد ولا حاسد ولا جهول

إسمع ، يا صديق !

فى كل ميدان تقوم جماعة من أهل الشجاعة والاستبسال ، فهذه جماعة تقاتل فى ميدان الوطنية ، وتلك جماعة تخاطر فى ميدان الاقتصاد ، إلى آخر ما أعرف وتعرف من أنواع الجماعات ، فكيف يخلو ميدان « الفكر الحرّ » من جماعة تصاول فى سبيل حمايته من طغيان أهل الغفلة والجمود ؟

وكيف يخلو زماننا من رجال يضحون بمنافعهم فى سبيل الحرية الفكرية ؟

وبأى وجه نلقى الله إذا تراجعنا وبأيدينا أسياف الحق وهى أقلامنا ؟

الجبن جائز على أى مخلوق ، إلا أن يكون من حَمَلة القلم أو السيف ، فإن كنت منا فأقدِمْ غير هيّاب ، وإلا ففى ميدان السلام الرخيص متسع للجبناء

أخوف مايخافه المفكرون من أبناء هذا العصر هو أن تصبح أعراضهم مضغة فى أفواه الغافلين والجاهلين ، وما خَطَرُ ذلك وهو هباء فى هباء ؟

إن لحومنا لحوم الأسود ، ولا تدخل مضغة منها جوف رجل إلا مزقته أفظع تمزيق ، وسوف يعلم المرجفون نبأ هذا النذير بعد حين

ثم اسمع ، يا صديق

هل تعرف الأثر الذى يقول « من مات غريباً مات شهيداً » ؟

كان المفهوم أن المراد هو الغربة الجسمية ، كأن يموت الرجل فى بلد غير بلده ، فكيف يصير من يموت وهو فى غربة روحية أو عقلية ؟

عند الله ندخر الجزاء على هذا الاغتراب ، وكيف يغترب من

يأنس بالله ويكاد يراه فى كل وقت وفى كل مكان ؟

إليك أوجه أشواقى ، أيها المحبوب ، وذلك هو اسمك عند الصوفية . إليك أوجه أشواقى ، فلولا الإيمان بسمو حكمتك فى خلق الوجود على هذا الأسلوب لكانت الإقامة فى بعض نواحيه جحيما لا يطاق

وأنا مع ذلك عاتب ، فما الذى يمنع من أن ترفع الحجاب لأعرف بعض ما أجهل من أسرار هذا الوجود

لقد هديتنى فعرفت أن لك حكمة فى خلق « الكوبرا » وهى أشرس الحيات ، لأن سمها ينفع فى دفع أشرس الأمراض وهو السرطان

فتى تهديني لأعرف حكمتك فى خلق الدساسين والنمامين والمفسدين والمرجفين من صاغة الزور والبهتان ؟

أيكونون من « الكوبرا » الآدمية ؟!

العدل بين الأرض والسماء

كتب أحد الوعاظ كلمة فى إحدى المجلات رداً على ما قلت فى الوعاظ وقد أراد ذلك الواعظ أن يذكرنى بأهمية الوعظ فذكر أشياء يجب أن ينزه عنها الجمهور المصرى ، ومن تلك الأشياء تقديم العرائض إلى ضريح الإمام الشافعى ، لينصف المظلومين من الظالمين

وكلام هذا الواعظ حديث معاد ، فقد قيل هذا الكلام قبل مئات السنين ، وهو لا يدل على فكر ولا عبقرية ، لأن أصغر متعلم يدرك أن الأمر بيد الله وحده ، وأن الشافعى لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً أو نفعاً ، فجهاد الوعاظ فى مثل هذا الشأن التافه جهاد فى غير ميدان

ولكن هذه العرائض لها مغزى فلسفى لا يفطن إليه ذلك الواعظ اللبيب ، وذلك المغزى هو اليأس من العدل بين أبناء الأرض ، والشعور بأن العدل لا يصدر إلا عن السماء

ومن هم المحتكمون إلى الإمام الشافعى ؟

هم جماعات من العوام عجزوا عن تقديم غرمائهم إلى ساحات القضاء ، لأنهم لم يجدوا الرسوم ، أو لأنهم لم يجدوا الشهود ، أو لأن حقوقهم على غرمائهم بلغت من الخفاء مبلغاً لا يفصل فيه غير السماء ، لأن قضاة الأرض لا يحكمون إلا بعد ظهور الأدلة والبراهين ، وهى لا تظهر فى جميع الأحيان

هل سمعتم أن وزارة العدل كلفت أحد رجالها درس تلك الشكايات ؟

كل ما يقع هو اهتمام الشيخ القائم على الضريح بتمزيق تلك العرائض حتى لا يجدها الشاكون فى أماكنها عند رجوعهم إلى الضريح ، وبذلك يفهمون أن الإمام الشافعى أخذها بيديه الكريمتين ليدرسها بعناية ، وليصدر حكمه الصارم على الظالمين

وإنما يفعل ذلك شيخ الضريح ليضمن عودة أولئك العوام بالنذور والهبات ، فهل أدبته وزارة الأوقاف ليكف عن عمله « المقبول » ؟

وكيف نعيب على العوام أن يستعينوا بالإمام الشافعى ، وجمهور المتعلمين فى مصر يؤمن بأن لا تقديم ولا تأخير بغير الوساطات والشفاعات ؟

التفتوا مرة واحدة إلى هذه المعانى ، يا جماعة الوعاظ ، ولا تكتفوا بإعادة الدروس التى تلقيتموها عن أشياخكم ، وهى دروس لم تصل بهم ولن تصل بكم إلى يقين

إلى وزير الأوقاف

وزير الأوقاف لهذا العهد هو أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة المصرية من قبل ، والتفاتاته الذهنية تجعل الفرصة مواتية لدرس هذا الموضوع الدقيق

وأنا أقترح أن يؤلف لجنة لدرس الشكايات التى توجه إلى المزارات المصرية لنعرف فهم الشعب لقدسية العدل ، ولنعرف أسباب يأسه من إنصاف القضاء

فإن أجاب — وسيجيب — فقد نظفر بفكرة فلسفية تؤكد القول بأن لا جديد تحت الشمس ، وأن الذين يقدمون شكاياتهم إلى المزارات الإسلامية كان لهم أجداد يقدمون شكاياتهم إلى المزارات الوثنية ، والمعنى واحدٌ عند أولئك وهؤلاء ، ومرجعه الأول هو اليأس من عدل الأرض ، والشواهد تنطق بأن لهذا المعنى وشائج فى الحياة المصرية

يجب أن تصادق سكرتير الوزير لتصل إلى الوزير

ويجب أن تصادق سكرتير الوكيل لتصل إلى الوكيل

فما ذنب العوامّ فى أن يتوهموا أن الحضرة السماوية لها

من أفهومنا :

حق الضيافة

للأستاذ على الطنطاوى

قد أكون على موعد يفوتنى بفواته خير عظيم ، ولا يبقى بينى وبينه إلا مقدار ما ألبس ثيابى وأمشى إليه ، فيجيئنى ضيف لا حاجة له عندى ، ولا خير له فى زيارتى ، ولا يبتغى منى إلا أن يدفع الملل عن نفسه بالبقاء ساعتين أو ثلاثاً عندى ، فيسقط فى يدى ، وأحار فى أمرى : إن استقبلته ضيعت موعدى ، وإن رددته أضعت « حق الضيافة » وتعرضت لسوء الأحدوثة ؛ ثم أختار أهون الشرين : فأرحب به وأدعوه ، وآمل أن أفهمه حقيقة حالى وأعجل له بالقهوة فينصرف . . . وأجلس بين يديه متململاً متضايقاً ، وأتلطف فى إفهامه والاعتذار إليه ، فلا يحفل بى ولا بموعدى ، ولا ينظر إلا إلى نفسه ورغبته فى قطع الوقت بهذه الزيارة ، فيقعد آمناً مطمئناً ، يحدثنى حديث السياسة ، ويسألنى عن الروس واليابان ، والصين وتركستان ، ويعرض علىّ رأيه فى الأنظمة التى ستعم العالم بعد الحرب ... ويفيض ويسهب ، وأنا أتقلب على النار ، ويبقى على ذلك حتى لا يبقى لى منفعة من الذهاب ، ولا يمكن تدارك ما فات ، فينصرف ليتحدث عنى بأنى لقيته بجفاء وخشونة ، وكلمته باقتضاب وإيجاز ، ولم أوفّه « حقوق الضيافة » !

وقد أكون مستغرقاً فى مطالعة ، أو منصرفاً إلى كتابة قد جمعتُ لها ذهنى ... فيجيئنى ضيف ، فأنزل إليه لأسمع منه لغو الحديث ، فيتفرق ما اجتمع من ذهنى ، وتفسد علىّ مطالعتى ، وإن أنا بعثت من يقول له : « ليس هنا » أكون قد كذبت ، وإذا اعتذرت إليه بمطالعتى أو كتابتى أكون قد قصّرت فى « حقوق الضيافة » !

وقد يأتى الضيف ومعه ولده ، فيعبث بالكراسى والمناضد ويكسر الكأس ، وربما أمره أبوه بأن يتسلى باللعب مع أولاد الدار ، فينطلق كالجنّ ... فيفسد كل ما يمر عليه ويزعج الأهل ويأتى كل كريهة ، فإذا زجرته أو كففته أو أفهمت أباه أنه ليس من الذوق ولا من التهذيب أن يُحمل ابنَه — أعنى عفريته — إلى بيوت الناس ، أكون قد فرطت فى « حقوق الضيافة » !

وإن كانت وليمة أو عقد ودعوت عشرين رجلاً ، جاءوك ومعهم عشرون ولداً ، فتنقلب الدار إلى مدرسة أو إلى مارستان ويتحول المضيف إلى معلم أو قاضى أولاد ، وقديماً قال المثل العامى : « قاضى الأولاد شنق نفسه » ... فإذا وقفت على الباب خادماً يمنع دخول الأولاد ، غضب الآباء المدعوون ، وانصرفوا ساخطين على هذا الذى لا يعرف « حقوق الضيافة » !

وقد يكون لك عدو تعرّض لك بأنواع الأذى ، وأراك فنون العدوان ... ثم نشأت له حاجة عندك ، فزارك فى دارك ، وأبى أن يشرب قهوتك حتى تقضى حاجته ، وربما كانت حاجته أن تنجح ابنه فى الامتحان ... فإذا قضيتها خنت أمانتك وعاد إلى مضارتك ... وإن أبيت عليه وأعرضت عنه ، وأفهمته أن

سكرتارية أرضية ، وهم يشهدون تأثير الشفاعات والوساطات فى جميع الشؤون ؟

ما ذنبهم وهم بفطرتهم من أهل القياس ؟

وهل يفهم هذا الكلام بعض من يتصدرون لهداية هذا الجيل ؟

افتحوا عيونكم وقلوبكم وعقولكم ، يا قادة الرأى فى هذه البلاد ، فإن لم تفعلوا فسيكون للقلم معكم تاريخ

مسابقة الأدب العربى لطلبة السنة التوجيهية

كتب إلينا جماعة من الناجحين فى امتحان الثقافة العامة يرجون أن تلتفت مجلة الرسالة إلى تشريح الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربى ، على نحو ما صنعتُ فى السنة الماضية . وأجيب بأن شواغل هذه الأيام لن تصرفنا عن ذلك الواجب ، وسنشرع فى تأديته بعد أسبوع أو أسبوعين ، بحيث يستطيع طلبة السنة التوجيهية أن يدركوا أسرار تلك المؤلفات قبل الامتحان

وأنا أعيد الرجاء الذى وجهتُه إلى أصدقاء الرسالة فى السنة الماضية ، وهو التفضل بمشاركتى فى أداء هذا الواجب ، رعايةً لحقوق أولئك الأبناء

أما الذين فازوا فى مسابقة العام الماضى فلهم منا أطيب التهانى ، ثم أصدق الرجاء فى أن يظلوا أمناء للحياة الأدبية ، ولو اتجهوا إلى العلوم والرياضيات . والله عزّ شأنه ولى التوفيق .

زكى مبارك

الامتحان أمانة ، وأن ابنه ضعيف كسلان لا يجوز نجاحه ، كنت اللوم العاتب ، لأنك لم تحفل « بحقوق الضيافة » !

* * *

والضيف يزورك حينما يحلو له لا حين يحلو لك ، ويبقى ما طاب له البقاء عندك ، ولا شأن له بفراغك ولا بشغلك ، ولا بضيق وقتك ولا بتعب أهلك ، فى الغداة تجوز الزيارة ، وفى الضحى وعند الزوال ساعة الغداء ، وفى الظل وقت الراحة ، وفى الأصيل وفى الليل . وقد يصل الزائر هذه الأوقات كلها بعضها ببعض ، فيشرفك بزيارته من الصباح ويلبث (يؤنسك) إلى وقت النام ، وقت منامه هو لا منامك أنت ، وربما زارك أقرباؤك ، أو أقرباء أقربائك بنسائهم ورجالهم وأطفالهم ؛ وأقاموا عندك (صلة للرحم) أياماً وليالى ، ونغصوا عليك عيشك ، وأفسدوا نظام دارك ، وأنت مضطر إلى السكوت لا تستطيع أن تقول شيئاً يمس (حق الضيافة) . وربما زارك الزائرون فى محل عملك ، فشغلوك عنه وأكسبوك غضب رؤسائك ، وسخط زملائك

* * *

ولقد كان الكرم والشجاعة عماد الأخلاق عند العرب وشعارها وجماع أمرها ، لمكان البداوة من حياتهم ، فقد كانوا يعيشون فى قفار قاحلة وقرى كالقفار ، لا فندق فيها ولا مطعم ولا خان ، وما للنازح فيها عن داره إلا أن ينزل ضيفاً على كريم يؤويه ويقريه ، ولم يكن فى بلادهم شرطة ولا نيابة ولا سجن فلم يكن للرجل إلا سيفه يعتصم به ، فتعودوا الشجاعة والكرم حتى صار ذلك طبعاً لهم وخلقاً ، وبالغوا فيهما وجانبوا القصد ، فبلغوا التبذير وقاربوا التهور ، وكان عذرهم فى ذلك أن الرجل منهم يطعِم حتى يطعَم ، ويقرى الطارق الغريب كى يُقرَى هو طارقاً غريباً ، واستمر ذلك إلى الإسلام ، بل لقد بولغ فيه بعده حتى أتى القوم بهذه العجائب التى نقرأ أخبارها فى الكتب . وانتهى ذلك إلينا فنشأنا على تقديس (حق الضيافة) وتقديمه على سائر الحقوق ، ورفعه مكاناً علياً لا يناله النقد ولا التقويم ، واتهام من يقول فيه مثل مقالتى باللؤم والبخل . لذلك أقدمت عليها متردداً يدفعنى إليها أننا فى مطلع حياة جديدة يجب فى مثلها تمحيص الأخلاق والعادات وتقويمها والإبقاء على النافع منها وطرح ما لا فائدة منه بعد ما تغير الزمان ، ولا يكون ذلك إلا بالخروج من ربقة التقليد الذى لا يفيد ، ومنه تقليد أجدادنا الأولين فى هذا الكرم القبيح الذى ذمه الله وسماه تبذيراً ، وجعل أهله إخوان الشياطين ، والقصد فى الأمر والتوسط فيه ، ووضع الأمور فى مطارحها ولو أن حاسباً مستقرياً نظر فيما ينفق عندنا فى كل سنة على الولائم والأعراس والمآتم من الأموال لهاله الحساب ، ولرأى أن هذه الأموال التى تنفق فيما لا طائل تحته ، ولا موجب له إلا التقليد الضار ، يمكن أن ينشأ بها من المدارس والمصانع ما يرفع أمتنا درجات فى سلم الارتقاء فى آن قريب ، فضلاً عما يكون فيه من راحة البال ، واضطراد الأعمال ، ودفع المكاره التى ذكرت أمثلة عليها فى مطلع هذه المقالة

وإذا كانت الحاجة هى التى علمت أجدادنا هذا الكرم ، فأى حاجة تدفعنا إلى الاستمرار عليه ؟ وما هو الضرر الذى ينال الضيف إن قلت له : أنا الآن مشغول فزرنى إن شئت فى وقت آخر ؟ ولم نخاف من ذلك وهو من آداب ديننا ، وقد كان من خلائقنا قبل أن يتخلق به الإفرنج ؟ وماذا يضر الأهل والأقربين أن يهنئوا بالمولود فلا يشربوا (الكراوية) ، وأن يحضروا (العرس) فلا يأكلوا الرز واللحم والبقلاوة ، وما هم فى صحراء كصحراء العرب يحتاج فيها إلى القِرى ، ولا هم جياع قد حضروا للطعام ، وليس القصد إلا الاجتماع وقد حصل ؟ لقد خبرنى صديق صادق مطلع أن نفقات عشر ولائم فقط من أوسط ما يكون فى الأعراس أو المآتم تكفى لفتح مدرسة ابتدائية تتسع لمائتى تلميذ ، فما قولك بنفقات الولائم كلها وسكاكر الأعياد وهدايا الولادة والعرس ؟

* * *

أنا لا أرتقب من الأمة أن تقرأ هذه المقالة وتنام ليلتها فتصبح وقد نبذت هذه العادات وحددت آداب الزيارة ، وتنكبت سبيل التبذير ، فإن هذا ما لا يكون ، وإنما أرتقب أن أجد من القراء من وهبه الله الجرأة فى الحق ، والرغبة فى الإصلاح فيسن للناس سنة (فى هذا الباب) حسنة يكون له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، كما صنع فى دمشق شيخها الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله ، وعادات الأفرنج فى الزيارات والولائم أصلح فى الجملة مما نحن عليه اليوم ، وتقديرهم للوقت أشد ، وهذا كله

نشيد الانتقام

شاعر الجرمان الأعظم

لأستاذ جليل

ألا إن قصيداً عبقرياً يصوغه (أبو محرز خلف) راوية العرب ومبدع تلك الطائفة من عبقرياتهم ، ويختاره (أبو تمام حبيب ابن أوس الطائى) أكبر شعراء العرب ومختار تلك الدواوين[1] الفائقات من أشعارهم ، ويطلع عليه (ولفغنغ غوث) أعظم شعراء الجرمان ومفكريهم فيروقه ويطربه بل يبهره فينظمه ، وإنما يعرف العبقرى العبقرى — لحقيق جد حقيق بالرواية فى (الرسالة) كتاب العرب، وديوان العلم والأدب . فخذوا هذا النشيد، وخذوا هذى السطور فى ابن غوث

وقد نقلت الشرح لهذه القصيدة فى ديوان الحماسة وأضفت إليه مالم يفسره التبريزى وأبو العلاء، وما رأيت فائدة فى إيراده راجعاً فى ذلك إلى هذه الكتب : المصباح ، الإفصاح ، الصحاح التاج ، اللسان ، المخصص ، النهاية ، الفائق ، الأساس ، تهذيب

(١) ديوان الحماسة أحدها ، ومن دأب أبى تمام فى هذا الكتاب أن يختار له المقطعات ، وقد يأخذ من القصيدة الطويلة بضعة أبيات ، ولم يثبت إلا ثلاث قصائد كاملة لم يحذف منها شىء ، قصيدتنا هذه إحداها ، ولا ريب فى أن أبا تمام رأى فيها ما رآه الشاعر الجرمانى الأعظم ، ومعلوم أن قسمة حبيب من العبقرية ليست قليلة

من آداب الإسلام ، والسلف كلهم كانوا على مثله، فلنقتبسه عن الأفرنج إذا كنا لا نتبع فيه سلفنا الصالح ، ولنجعل للزيارة آداباً وأوقاتاً ، ولنعلم أن (حق الضيافة) لا يقدم على حق المواعيد ، ولا حق العمل ، ولا حق الأهل ؛ وأن ردّ الضيف أهون من احتمال الأذى ، وإخلاف الوعد ، وترك العلم ، وإضاعة الأشغال ولنجعل إمامنا قول الله جل وعز « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » . صدق الله العظيم

علي الطنطاوي

الألفاظ ، كامل المبرد ، بلوغ الأرب ، مجمع الأمثال ، كتاب سيبويه ، شرح المفصل ، شرح الكافية ، مبهج ابن جنى ، خزانة الحموى ، شرح المتنبى للعكبرى ، شرح شواهد سيبويه ، شرح المقصورة الدريدية

والمأمول أن تكافأ (الرسالة) بما تصنع فيكاف الأساتذة الكرام فى كل إقليم عربى الطلاب فى أعلى صف ابتدائى وفى الصفوف الثانوية ، وفى الصفوف فى الكليات — إستظهار (نشيد الانتقام) . وإنه لمن الكفر فى دين الأدب ألا يحفظ شعراً عربياً أدهش شاعرَ الدنيا — جميعُ أدباء العرب

* * *

نشيد الانتقام

قال ثابت بن جابر[1] :

(إن بالشِّعب الذى دون سَلعٍ لقتيلاً ، دمُــــه ما يُطلُّ)

(الطل) مطل الدم والدية وأبطالها . دمه لا يذهب هدراً

قلت : (الشعب) الطريق فى الجبل ، والجمع الشعاب

(خلَّف العبء علىَّ وولّى أنا بالعبء له مُستقِل)

(العبء) الثقل ، والمراد به ههنا طلب دمه . قلت : أقل الشىء واستقله : رفعه وحمله . ومن المجاز هو لا يستقل بهذا الأمر : لا يطيقه .

(ووراء الثأر منى ابن أخت مَصِعٌ ، عقدته ما تحل)

(المصع) الشديد المقاتلة ، الثابت ههنا .

قلت : يقال : إنه لمصع بالسيف . والماصعة المجالدة بالسيوف ، والمجالدة : المضاربة

(مُطرقٌ يرشح سَمًّا كما أطرق أفعى يَنفثُ السم صِل)

قلت : أطرق : أرخى عينيه ينظر إلى الأرض ، ورجل مطرق : كثير السكوت . وفى حديث أم سلمة : نهش الرقشاء المطرق . (الصل) الحية الدقيقة الصفراء . يشبه الرجل بالصل إذا كان داهية ، قال النابغة :

ماذا رُزئنا به من حية ذكر نضناضة بالرزايا ، صل أصلال

(خبرٌ ما نابنا مُصمئِلٌ جلّ حتى دق فيه الأجلُّ)

(مصمئل) : شديد

(١) هو تابط شرا . وتعزى القصيدة إلى ابن شقيقته . . . السيد (الشنفرى) والخال وابن الأخت كلاهما فى الشعر والغزو بطل . . .

(بزّنى الدهر ـ وكان غشوماً ـ بأبىّ ، جارُه ما يُذَلّ)

(بأبى) الباء دخلت للتأكيد زائدة ، ويجوز أن يكون عدى (بزنى) بالباء لما كان معناه فجعنى ، فيكون من باب ما عدى بالمعنى دون اللفظ

قلت : بزه غلبه وغصبه ، وبز الشيء : انتزعه ، وأصل البزة (أى اللباس) من بززت الرجل أبزه إذا سلبته ، فسمى اللباس بما يؤول إليه من السلب ...!

(شامس فى القُرّ حتى إذا ما ذكت الشعرى فبردٌ وظل)

أى هو كريم ، وشامس أى ذو شمس ، يعنى أن من لجأ إليه فى القر وجده كالشمس التى تدفىء المقرور ، ومن لجأ إليه فى القيظ وجد لديه برداً وظلاً

قلت : الشعرى : كوكب نير ، طلوعه فى شدة الحر (ذكت) اشتد حرها ومراده طلوعها . وذكت الشمس ذكاء ، ومنه قيل لها ذُكاء وللصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها ، واشتقاق ذُكاء من ذكو النار وهو تلهبها

(يابسُ الجنبين من غير بؤس وندى الكفين ، شهم مُدل)

يريد أنه يؤثر بالزاد غيره على نفسه ، ومن عادتهم التمدح بالهزال . (الشهم) الذكى الحديد (المدل) هو الواثق بنفسه وآلاته

قلت : (البؤس) : الشدة والفقر (الشهم) الذكى الفؤاد والشهم السيد النافذ النجد

معنى (يابس الجنبين من غير بؤس) ـ كما أراه ـ أنه يتفحل ويخشوشن — غير مفتقر — كلفا بالرجولية والفحولة ومقتا للتخنث والتأنث والترف . وهل يفسد المرء بل الأمة كلها جماء إلا الترف ، إلا فرط التنعم والدعة . وأقوال ابن خلدون وغيره فى هذا المعنى مشهورة

كتب عمر (رضى الله عنه) إلى أهل حمص لا تَنبَّطوا فى المدائن ، ولا تعلموا أبكار أولادكم كتاب النصارى ، وتمعززوا ، وكونوا عربا خُشُنا

(لا تنبطوا ...) أى لا تتشبهوا بالأنباط فى سكنى المدائن والنزول بالأرياف ، أو فى اتخاذ العقار واعتقاد المزارع ، وكونوا مستعدين للغزو ، مستوفزين للجهاد (الأبكار) الأحداث (تمعززوا) من المعز وهو الشدة والصلابة . وقد نهى (رضى الله عنه) عما نهى عنه لأن القوم وقتئذ بعوث لإبلاغ الرسالة ،

فاليوم فى حمص وغداً فى الصين أو الأندلس

أين عمر ، أين أبو حفص عمر ، أين تلميذ محمد ؟!!

(ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما حل حل الحزم حيث يحل)

(غيث مُزْنٍ غامرٌ حيث يُجدى وإذا يسطو فليث أبَلّ)

(الأبل) المصمم الماضى على وجهه لا يبالى ما لقى

(مُسبِلٌ فى الحى أحوى ، رفلّ وإذا يغزو فسِمعٌ أزلّ)

(مسبل) من أسبال الإزار والبرد لأنهم يصفون ذا النعمة بذلك ، وإنما يحمدون ذلك فى حال الدعة والأمن ، فأما فى الشدائد وعند الحرب فإنهم يمدحون الرجل بالتشمير . (الرفل) الطويل الذيل . (أحوى) الذى به حوة ، وهى سواد فى الشفتين محمود ، أو مسبل شعراً أحوى أى أسود لأنهم كانوا يوفرون لممهم ، ويصفون الشاب بحسن اللمة . (أزل) الزلل خفة العجز ، وذلك خلقته

قلت : السمع سبع مركب لأنه ولد الذئب من الضبع ، وفى المثل : (أسمع من سمع) ويقال أيضاً : (أسمع من السمع الأزل) — : (أى الخفيف الوركين ، قليل لحم العجز والفخذين) لأن هذه الصفة لازمة له كما يقال للضبع العرجاء . قال :

تراه حديد الطرف أبلج واضحاً أغر طويل الباع ، أسمع من سمع

وليس فى الحيوان شيء عَدْوه كعدو السمع لأنه أسرع من الطير ، يقال : وثبات السمع تزيد على عشرين أو ثلاثين ذراعاً ..

(وله طعمان أرْىٌ وشَرْىٌ وكلا الطعمين قد ذاق كل)

(الأرى) يراد به العسل ، وإن كان فى الأصل عمل النحل

قلت : (الشرى) : الحنظل ، وفى المقصورة الدريدية :

لىَّ التواء إن معادى التوى ولى استواء إن مولى استوى

طعمىَ شرى للعدو تارة والراح والأرى لمن ودى ابتغى

(يركب الهول وحيدا ولا يصـ حبُه إلا اليمانى الأفل)

قلت : سيف أفل : ذو فلول ، وفلوله كسور فى حده . وسيف أفل : ذم لما به من الخلل الظاهر ، ومدح لما ضرب به كثيراً . سأل عروة بن الزبير عبد الملك أن يرد عليه سيف أخيه عبد الله ، فأخرجه فى سيوف منتضاة ، فأخذه عروة من بينها ، فقال له عبد الملك : بم عرفته ؟

فقال : بما قال النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(وفتو هجّروا ثم أسْروا ليلهم حتى إذا انجاب حلّوا)

(فتو) جمع فتى (هجروا) ساروا فى الهاجرة . يريد أنهم وصلوا السير بالسرى

(كل ماض قد تردى بماض كسنى البرق إذا ما يسل

ارتدى بسيفه ، وتردى ، واعتطف به ، ويسمى السيف الرداء والعطاف

قلت : (السنى) : الضوء . كل رجل ماض قد تردى بسيف ماض .. (الماضى) الجسور المقدم ، والماضى الأسد لجرأته والسيف لنفاذه فى الضريبة . مضى السيف مضاء قطع

(فادركنا الثأرَ منهم ولما ينج مِلْحيّين إلا الأقل)

قلت : (ملحيين) من الحيين ، حذف النون لسكونها وسكون اللام من الحيين كما قالوا فى بَلْمنبر وبلحارث — يريدون بنى العنبر وبنى الحارث . — ونحو من هذا قول قطرى :

غداة طفت عَلْماء بكرُ بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم

أراد على الماء ، ولا يقولون مثل هذا فى بنى النجار ؛ لأنهم لو قالوا : بَنْجار لحذفوا النون ، وقد أعلوا اللام بالأدغام ، فكان ذلك إجحافاً بالحرفين

ومن طريف ما وجدته فى باب الاختصار أو الاختزال ... فى الألفاظ ما ورد فى حديث ابن مسعود (رضى الله عنه) : أن امرأة ابن مسعود سألته أن يكسوها ، فقال : إنى أخشى أن تدعى جلباب الله الذى جلببك به !

قالت : وما هو ؟

قال : بيتك[1]

قالت : أجِنّك من أصحاب محمد تقول هذا ... ! !

أجنك أصله من أجل أنك أو لأجل أنك

(فاحتسوا أنفاسَ نوم فلما هوّموا رعتهمُ فاشمعلّوا)

(اشمعلوا) جدوا فى المضى ، رجل مشمعل أى جاد خفيف

قلت : حسا المرقة واحتساها وتحساها . (النفَس) الجرعة . ومن المجاز احتسوا أنفاس النوم ، (هوموا) إذا كان النوم قليلاً فهو التهويم . وفى حديث رقيقة : بينا أنا نائمة أو مهومة : التهويم أول النوم وهو دون النوم الشديد :

(فلئن فلّت هذيلٌ شباه لبما كان هذيلاً يفُلّ)

(الشباة) حد الشىء ، إن كانت هذيل تمكنت منه فكسرت حده فهو بما كان يؤثر من قبل فى هذيل

قلت : فى قصيدة أعشى باهله التى يرثى بها المنتشر :

إمّا يصبك عدو فى مُناوأة يوماً فقد كنت تستعلى وتنتصر

إما سلكت سبيلاً كنت سالكها فاذهب فلا يبعدنك الله منتشر

فى مناوأة : يقول فى وتر

(وبما أبركها فى مُناخ جَعْجَع ينقَب فيه الأظل)

(الجعجع) مناخ سوء ، وهو الأرض الغليظة (الأظل) باطن الخف (ينقب) يحفى . والمراد فيما كان ينال منهم ويحملهم على المراكب الصعبة

قلت : (المناخ) أصله الموضع الذى تناخ فيه الإبل . وأناخها : أبركها فبركت . واستناخت بركت ، ومن المجاز : هذا مناخ سوء : للمكان غير المرضى

(وبما صبّحها فى ذَراها منه بعد القتل ذهب وشلْ)

قلت : (ذراها) مأواها ، مكانها . الذرى كل ما استترت به ، يقال : أنا فى ظل فلان وفى ذراه ، أى فى كنفه . (الشل) : الطرد ، ومر فلان يشلهم بالسيف أى يكسّؤهم — يتبعهم ويطردهم —

صليَتْ منى هذيل بخِرق لا يمَلّ الشر حتى يملوا

قلت : الخرق : السخى الكريم الجواد يتخرق فى السخاء ويتسع فيه . والكريم الجواد شجاع ، والشجاعة أخت الكرم ، والخرق : الفتى الكريم الخليقة

(ينهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل)

(الصعدة) : القناة تنبت مستوية ، وجمعها صعدات ـ بفتح العين ـ لأنها اسم ، ثم قيل فى المرأة المستوية القامة والأتان الطويلة ... صعدة ، وهى وصف لها ، ويجمع حينئذ على صعدات — بسكون العين — لكونها صفة

قلت : النهل : الشرب الأول وقد نهل وأنهلته أنا ، والعل والعلل : الشربة الثانية ؛ وقيل الشرب بعد الشرب تباعاً ، ومن المستعار علّه ضرباً أى تابع عليه الضرب

(١) مقالة العلامة الدكتور منصور فهمى بك : (نساؤنا بين التقاليد والتجديد) فى (الرسالة) — قرئت وشكرت ، وإذا لم يهد القوم الزائغين الضالين — العلماء الهادون المهديون ، فمن يهدى ومن يرشد ومن يدل على طريق الخير !

(حلت الخمر وكانت حراماً وبلأى ما ألمت تحـل)

(ما ألمت) يجوز أن تكون (ما) صلة ، ويجوز أن تكون مع الفعل بعده فى تقدير المصدرية . (بلأى) ببطء . ألمت حلالاً أو إلماما حلالاً (الإلمام) الزيارة الخفيفة ، وتوسع فيه فأجرى مجرى حصلت عندى

قلت : فى حديث أم أيمن (رضى الله عنها) فبلأى ما استغفر لهم ، أى بعد جهد ومشقة وإبطاء . ويقولون : لأياً عرفت . وبعد لأى فعلت . قال زهير :

فلأياً بلأى ما حملنا وليدنا على ظهر محبوك ظماء مفاصله

نصبه على المصدر الموضوع موضع الحال ، والتقدير حملنا وليدنا مبطئين ملتئين . (المحبوك) الشديد الخلق (الظماء) القليلة اللحم ، وهو المحمود منها ، وأصل الظمأ العطش

قالوا : إن من عادتهم تحريم الخمر على أنفسهم حتى يدركوا ثأرهم ، قال امرؤ القيس :

حلت لى الخمر وكنت امرأ عن شربها فى شغل شاغل

فاليوم أشرب غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

يقول هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به ، فلما أدرك ثأره حلت له

اشرب : سكنت الباء ضرورة ، ومن يرد هذا ينشد : فاليوم أسق أو فاليوم فاشرب (الواغل) الداخل على الشَّرْب ولم يُدع

فاسقنيها يا سوادَ بنَ عمرو إن جسمى بعد خالى لخل

(الخل) المهزول . (سواد) رخمه عن سوادة ، ولك أن ترويه : يا سواد بن عمرو

قلت : فى (يا زيد بن عمرو ، ويا هند ابنة فاطمة) يجوز فى زيد وهند وجهان : الضم على الأصل والفتح للاتباع ، وحق الصفة أن تتبع الموصوف ، وههنا قد تبع الموصوف الصفة ، والفتح يختار ولا يجب ، وقد ذهب بعضهم إلى وجوبه

هذا البيت يذكرنا ببيتين فى (الجناس المنوى) لأبى بكر ابن عبدون ، فقد قال وقد اصطبح بخمرة ترك بعضها إلى الليل فصار خلاً :

ألا فى سبيل اللهو كأس مدامة أتتنا بطعم عهده غير ثابت

حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة وأمست كجسم الشنفرى بعد ثابت

بنت بسطام بن قيس كان اسمها (الصهباء) والشنفرى قال : (اسقنيها ... البيت) والخل هو الرقيق المهزول فظهر من كناية اللفظ الظاهر جناسان مضمران فى صهباء وصهباء ، وخل وخل ، وهما فى صدر البيت وعجزه . والجناس المنوى المضمر هو أن يضمر الناظم ركنى التجنيس ، ويأتى فى الظاهر بما يرادف المضمر للدلالة عليه ، فإن تعذر المرادف أتى بلفظ فيه كناية لطيفة تدل على المضمر بالمعنى كقول أبى بكر السابق ، وهو أحسن ما سمع من هذا النوع

أنا ممن يقول : عوذٌ بالله من هـذا (البديع) وأهله ، وما سطرت ما سطرت إلا إكراماً لتأبط شراً وابن أخته الشنفرى وخلف الفرغانى وغوث الجرمانى

(تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب لها يستهل)

استمار الضحك للضبع ، والاستهلال للذئب ، وأصل التهلل والاستهلال فى الفرح والصياح

(وعتاق الطير تغـدو بطانا تتخطاهم فما تستقـل)

يروى : تهفو بطاناً وهفت تهفو بمعنى تطير ، يقال : هفت الصوفة فى الهواء : إذا ارتفعت . يعنى بعتاق الطير أكلة اللحمان وعافية الجيف

قلت : العتيق : الخيار من كل شىء : التمر والماد والبازى ، وعتاق الطير الجوارح منها ، والجوارح من الطير والسباع ذوات الصيد لأنها كواسب أنفسها من قولك : جرح واجترح الواحدة جارحة . (بطاناً) ممتلئة البطون . (تتخطاهم) تخطو عليهم وتخطى الناس واختطاهم ، ركبهم وجاوزهم . (تستقل) استقل الطائر فى طيرانه : نهض للطيران وارتفع فى الهواء ، واستقلت الشمس فى الهواء : ارتفعت وتعالت

***

تم القصيد العبقرى ، وكل شرحه الذى رجعت فيه إلى ما سميت فى المقدمة ، وسأنشر الكلمة الموجزة فى ناظمه بالسان الجرمانى فى الجزء المقبل إن شاء الله تعالى

(***)

ناحية من طاغور

يجب أن نفهمها نحن . . .

للأستاذ حسين مروة

لم ترتعش روحى ارتعاشة الجزع فى تلك اللحظة وحدها : لحظة أذاع الأثير نبأ وفاة طاغور ، بل قد سرت فيها الرعشة كوجة الكهرباء منذ استطار فى العالم أن طاغور يعانى آلام المرض الخطير ، إذ اختلج فى إحساسى — حينذاك — أن هذه الإنسانية الكاملة التى تجتمع كلها فى شخص هذا العظيم ، قد أشرفت على ساعة الانتقال من دنيانا هذه إلى دنياها الجميلة فى ملكوت الله ، حيث تبلغ روح طاغور قمة الفرح الأسمى التى نشدتها بالحب الإلهى ، وبالتأمل فى جمال الأكوان التى (تجلّيها) روح الله .

قد اختلج فى إحساسى — حينذاك — أن إنسانيتنا المسكينة تكاد تلتهمها لجة اليأس بانقطاع هذا الخيط الجميل من نور الأمل الذى يمتد إليها من صوت طاغور .

وقد اختلج فى احساسى — حينذاك — أن أرضنا المعذبة تكاد تفقد فضلة إيمانها بالعدل والحق والخير ، بانطفاء هذا القبس الوهاج من إيمان طاغور .

وقد اختلج فى إحساسى ، كذلك ، أن ناس هذا الجيل تكاد تسكت فى جوانب ضمائرهم أصداء هذه الأنشودة الرخيمة التى يُترعها قلبُ طاغور رحمة ومحبة ودعوة صالحة للسلام ، فلا تتجاوب فى ضمائرهم — من بعدُ — إلا أصداء أنشودة واحدة تتعالى فى جوانب هذه الأرض من كل صوب ، يوقّعها قلبُ ماردٍ جبار يحدو بالإنسانية إلى هاوية الخراب والدمار : تلك أنشودة الحرب التى تجلجل اليوم فى الضمائر أكثر مما تجلجل فى الآذان .

ويا سرعان ما صدق القدر كل هذا الذى اختلج فى إحساسى منــذ تأذن الأثير باشتداد وطأة المرض على جسم طاغور ، ويا سرعان ما أزفت لحظة القدر ، فإذا هذا الإنسان العظيم يصعد إلى القمة العليا لينعم بحبه فى كنف الحبيب الأعلى ، تاركا هذه البشرية تزحف فى السفح الرهيب بين الآثام والأرجاس كما تزحف الحشرات الدنيا فى الأقذار والأنجاس .

وبعد : لقد مات طاغور ، فمن هو طاغور ؟

أهو شاعر ؟ أجل : ولكن شاعر يتغنى بأشواق الروح ليطهر أشواق الجسد ، ويعلن نداء الخير ليسكت صرخة الشر ، وينشد بجمال الموت ليسمو بجمال الحياة ، ويهدهد أحلام القلب لتزين جلال العقل ، وينقد أفراح الأمل ليهدم أبراج اليأس

أهو فيلسوف ؟ نعم : ولكن فيلسوف يتسامى إلى ما وراء الطبيعة لا لكى يهجر بيت الطبيعة ، بل لكى يستجلى أسرارها على هدى من الإشراق الإلهى ، ويستخرج كنوزها بعون من القدرة العليا المبدعة ، ويستكشف فضائلها وخيراتها على ضوء من صفاء الروح ، وسمو النفس ، وبساطة الفطرة ، ووضوح العقيدة ، وحرارة الإيمان ، وهذه هى خلاصة فلسفة الشرق القديم مجلوّةً بروح جديدة ، هى روح طاغور الصافيــة ، الطليقة ، السمحة

أهو صوفى ؟ أجل : هو كذلك ، ولكن أية صوفية هذه التى يلبس « جبّتها » طاغور ؟

هى لون جديد فى دنيا التصوف ، لون محبب للنفس ومحبب للعقل معاً ، لأنهــا صوفية جميلة أنيقة مترفة ، لا تتقشف ولا تتزهد ولا تتزمت ، وهى — حين تسمو بروح طاغور عن دنيا البشر لتفنيها فى ذات الله فناء مطلقاً — لا تذهلها نشوة الفناء عن آلام بنى الإنسان وشقاء أبناء التراب ، وإنما هى تستمد من حبها الإلهى السامى ، ومن نشوتها الروحية العليا — فيضاً من الحب للانسانية جمعاء ، بل هى كلما أمعنت فى الاقتراب من الحبيب الأعلى أمعنت فى الاقتراب من الإنسانية : تتلمس آلامها ، وتتحسس أحزانها ، وتتأثر مواطن شقائها ، ذلك لكى تقيم الدليل ، بأسلوب من إلهام الروح ، على أن رابطة الحب السامى بين الله والإنسانية هى أسمى روابط الحب ، وهى أهدى طرق النجاة من هذه الآلام والأحزان وهذه الضروب المختلفة من الشقاء التى يعانيها الإنسان على هذه الأرض ، ولكى ترى هذه الصوفية المذبة على وضع الإدراك الصحيح ـ

يجب أن تقف بفكرك لحظة عند هذه الأغنية من أغاني (البستاني) التي يستهلها طاغور بنداء يهتف به أن : « قد آذنت شمسك بالمغيب واشتعل رأسك شيباً ، فحسبك غناء وإنشاداً ، بل آن لك أن تصغي وتصيخ إلى داعي (الند) فتقول : لبيك »

فبماذا يجيب طاغور هذا النداء ؟ :

« . . . من للقلوب وعواطفها ، وللعيون وأسرارها إذا أنا تبوأت من ساحل الحياة صخرة صماء ولبثت شاخصاً إلى أكمة الموت وما وراءها[1] »

أتراه الآن صوفياً كهؤلاء الصوفيـة المتزمتين الغارقين في لذاذة الفناء بالله حتى لا يحسّون الحياة ولا تحسّهم الحياة ؟

لا : بل إنك لتراه إنساناً طفحت نفسه بالحياة حتى تملأها إحساساً ، وتملكته رسالتها إيماناً وعشقاً ، واتحد فيها حبه الإلهي وحبه الإنساني معاً ، وما الحياة — في فلسفة طاغور — إلا مجلّى من مجالي الروح الإلهية العليا ، ومن هنا كان طاغور « الصوفي » منسجماً مع طاغور « القصصي » أو « الروائي » إذ تراه في قصصه ورواياته يتناول صغائر حياة الناس ودقائقها يحللها ويجلوها صوراً إنسانية قوية الحركة والحيوية ، تثير في النفس ألواناً من العواطف والإحساسات النبيلة . ومن هنا أيضاً كان طاغور « الصوفي » منسجماً مع طاغور « الشاعر » ذلك الانسجام نفسه ، فتصوف الرجل لا يعني — في الواقع — إلا الحب بأرحب معانيه : الحب المنبثق من نفس رحبة تحب الله لكونه هو الله ، وتحب الإنسان لكونه إنساناً ؛ وإنك إذا رأيت إنساناً يدعي الإغراق في حب الذات الكلية العظمى ، ثم ينأى عن أخيه الإنسان ويضنُّ عليه بحبه ؛ فقل : إن هذا لا يعرف الله حقاً ، ولا يحبه حقاً ، وإنما هو يحب نفسه ليس غير : يشفق عليها من العذاب الخالد ، أو يرجو لها النعيم الخالد

ومن هذا كله ترى طاغور الشاعر ، والفيلسوف ، والصوفي ، والقصصي — يأتلف وينسجم مع طاغور « المصور » و « الموسيقي » أجمل وأتقن ما يكون الائتلاف والانسجام ، ذلك لأن شاعريته الرحبة ، وفلسفته المشرقة ، وصوفيته السمحة ، وفنه القصصي الحي — ليست هي كلها سوى مظهر من مظاهر رسالته الروحية التي شاء الله أن يلقيها إلى إنسان تتسع نفسه للتعبير عنها بكل ضرب من ضروب التعبير الجميل

أما طاغور « الإنساني » فهو هو نفسه ذلك الإنسان المتعدد الجوانب ، المتنوع « الشخصيات » ، وليست إنسانيته « شخصية » مستقلة مندمجة في « شخصياته » تلك ، لأن الروح الإنساني الشامل هو مركز القوة لكل ناحية من نواحيه ، بل تكاد تنحصر عظمة هاتيك النواحي بما تمدها به هذه الإنسانية الكبيرة من معاني السمو ، والسماحة ، والصفاء ، والشمول ؛ وبكلمة واحدة : إن جوانب طاغور المتعددة ، وإن مواهبه المتنوعة لتجتمع كلها في هذه « الإنسانية » الرحبة فتؤلف منها شخصية واحدة تشبه الكل البسيط الذي لا يتجزأ ولا يقبل التحليل والتفكيك

بقيت ناحية واحدة أغفلت ذكرها فيما سبق عمداً لأنها هي الناحية التي أقصد إليها في عنوان هذا المقال ، ولذلك أردت أن أتحدث عنها منفردة لكي أبلغ القصد الذي أرمي إليه ، وإن كانت هذه الناحية ليست إلا وجهاً من وجوه الصفة الإنسانية الغالبة على روح طاغور ، وأعني بهذه الناحية وطنية الرجل ، أو مفهوم الوطنية في تفكيره ، وفي اتجاهه الروحي ، وهنا أحب أن أعترف للقارئ الكريم بأنني — حين أقدمت على التعبير عما أحسست من جزع لفقد هذا الإنسان العظيم — لم أطمح لدراسته دراسة « تستوعب نواحي عظمته جميعاً ، وهي أبعد من أن تنال بهذه الكلمات الطائرة ، ولكنني أردت أن أستعين بهذا القدر الضئيل الذي أملك من الطاقة الروحية والذهنية على الوفاء بواجب ذي وجهين : وجه يتعلق بهذا العظيم الذي بلغ نشوته الكبرى بلقاء الروح الكلي الأعظم ، ووجه يتعلق بهذا الوطن العربي الذي يتقاضانا استخلاص العبرة ، واستخراج ناحية الانتفاع العملي من سيرة هذا العظيم ، وإذا كانت نواحي طاغور كلها موضع الانتفاع لكل وطن ، وكل قوم ، وكل فرد — فإن ناحيته الوطنية أشد لصوقاً بما نحن فيه اليوم من أحوال وظروف ، لأننا اليوم أحوج ما نكون إلى تفهم معنى الوطنية على ضوء جلي من تفكير وإلهام هذا الإنسان الملهم ، فلقد كادت تنقلب عندنا مقاييس الوطنية انقلاباً غريباً ، حتى كادت تكون الوطنية التي

---

(١) البستاني تعريب وديع البستاني ص ١٦

نفهمها هذه الأيام لا تعني سوى ارتقاب واغتنام أقصر الفرص لكسب الرزق أو الشهرة أو الحكم ، سواء أكان في ذلك خير الوطن أم جلب الضر إليه ، وسواء أكان في ذلك تخفيف الشقاء عن أهليه أم إنزال الشقاء عليهم أضعافاً مضاعفة

إن طاغور « الإنساني » الذي يشمل الإنسانية جماء بحبه وحنوه وصفاء قلبه ، هو نفسه طاغور « الوطني » الذي أفاض على الهند من هذا الحب والحنو والصفاء ما عرفه الهنود أنفسهم وقدروه قدره ، وقابلوه بفيض مثله من الحب والإكبار والإيمان ، وهل هذا غريب ؟

كلا : ليس شيء أقرب للاتساق مع الطبيعة والمنطق من أن يكون طاغور الإنساني وطنياً صادقاً ، عميق الإخلاص ، يؤثر مواطنيه بقسط كبير مما وهب قلبه الكبير من الحب الدافق والحنان الشامل ، ولكن ما هو مفهوم هذه الوطنية التي تتسق ذلك الاتساق مع نزعة إنسانية تتخطى الحدود والمعالم ، وتتخطى العرف والتقاليد والأوضاع ؟!

نترك الحديث عن وطنية طاغور وعن حدود هذه الوطنية في ذهنه — إلى سيرته العملية أولاً ، ثم إلى آثاره الأدبية ثانياً

أما سيرته العملية فتتجلى فيها وطنيته من نواح عدة : فلقد عنى طاغور برفع مستوى شعبه العقلي والروحي والاجتماعي عناية تظهر آثارها العظيمة فيما أسس من مدارس لتطبيق تعاليمه الفكرية والروحية والاجتماعية : تعاليمه التي يؤمن بها إيماناً منقطع النظير ، وتتملكه رسالتها النبيلة تملكا يشبه من وجوه كثيرة حالات القديسين ، تلك التعاليم التي كانت في عقيدته خير وسيلة لإنقاذ الشعب الهندي من صغاره وعبوديته ، ومن شقائه وبلائه ، ومن ضعته وانحطاطه ، ولعل أروع ظاهرة في سيرته العملية هذه ، هي محاولته التخفيف من حدة التقاليد البرهمية التي كانت توسع شقة الفوارق والحواجز بين طبقات الشعب وطوائفه ، وأنبل مظاهر هذه المحاولة تأسيس طاغور مدرسة عالية لطائفة المنبوذين ليثقفهم تثقيفاً عقلياً وروحياً يغرس في نفوسهم الاعتزاز بكرامتهم الإنسانية ، ويشعرهم بأقدارهم في الوجود ، ولقد أفاد طاغور من هذه المحاولة أن بث في روحية هؤلاء المنبوذين الخامدة لهباً من روحه كاد يقربهم منزلة من الطبقات الأخرى المترفعة عنهم ، وفي هذه المحاولة — كما ترى — مظهر رائع للوطنية الحق ، بمقدار ما فيها من نزعته الإنسانية النبيلة ، وفي سيرته العملية مظهر آخر للوطنية يتجلى في دعوته إلى إخماد لهب الأحقاد بين المسلمين والهندوس ، وإطفاء ثائرة البغضاء بين جميع الطوائف التي تؤلف شعوب الهند ، ولقد كانت له في هذا السبيل صيحات كريمة نافعة

فها أنت ترى أن الوطنية في عرف طاغور ليست عملاً سلبياً مبنياً على الصراخ والتهويش والادعاء الفارغ والتشدق بالألفاظ الفخمة المجنحة ، بل هي عمل إيجابي صامت يبني وينشئ ويتناول بالبناء والانشاء عقل الأمة وروحها قبل كل شيء ، لأن الأمة في رأيه ليست أمة حقاً إذا لم تكن ذات عقل ناضج وروح سام ، وذات وحدة عقلية وروحية شاملة ، على أن تكون في وحدتها العقلية والروحية مجتمعة على الإيمان بمثلها العليا ، إيماناً يلهب وجدانها بنزعة التأمل في جمال هذه المثل الكريمة ، وبنزعة التقديس لمظاهر الألوهة في هذا الكون العظيم

هذه أروع مجالي الوطنية في سيرة طاغور العملية ، وهي في ذاتها أمثلة عالية للاعتبار والاحتذاء ، وهي كذلك حدود واضحة لمعنى الوطنية الصحيح . أما ما تحدثنا به آثار هذا الرجل الأدبية عن مفهوم الوطنية في ذهنه ، فحسبك أن تقف من ذلك على بعض رواياته التي يدير فيها الحوار على ألسنة أشخاصها مشبعاً بالآراء والأفكار السامية حول موضوع الوطنية وحدودها ، ولعل في روايته « البيت والعالم » أعظم آرائه وأفكاره في هذا الباب ، فلقد دارت هذه الرواية كلها حول هذه النقطة ، وهي حدود معنى الوطنية كما تستقر في ذهنَي شخصين يختلفان كل الاختلاف بالاتجاه الفكري وبالمزايا النفسية وبالنزعات الخلقية أما أحدهما « سانديب » ، فهو زعيم وطني يثير حماسة الجماهير ببلاغة منطقه وبقوة إيمانه النفسي ، وبهذا الأسلوب نفسه ، يُلهب حقد الشعب على الأجانب ، ويدفعه إلى مقاطعة بضائعهم ، ويغريه بإيذاء المواطنين المتخلفين عن تنفيذ تعاليمه بكل وسيلة من وسائل الإيذاء ، بل يغريه في سبيل ذلك باستباحة كل جريمة وبارتكاب كل منكر ؛ وأما ثانيهما « نيكهل » ، فهو من راجات الهند ، مثقف ثقافة عالية ، ومهذب تهذيباً نفسياً سامياً عجيباً ،

وبسمو تهذيبه هـذا استطاع أن يطهر نفسه من الأحقاد والأضغان ، وأن يحملها على الهدوء والصفاء والتسامح فى وجه الأزمات والرجات النفسية ، وفى وجـوه الأشخاص الذين يحدثون هذه الأزمات والرجات فى مجرى حياته ، وجاهد فى أن يطهر نفسه أيضاً من نوازع الأنانية العمياء التى تضحى بهناء الآخرين وشخصياتهم فى سبيل هناء وشخصية صاحبها ، ثم يصوره لنا طاغور رجلاً قوى السلطان على نفسه إلى غاية استطاع عندها أن يكون إنساناً سامياً حقاً ، ثم يصوره رجلاً وطنياً يحب هناء شعبه ورخاءه وصون كرامته ، ولـكنه لا يتبجح بوطنيته هذه ، بل يعمل لها بهدوء وصمت : ينشئ المعامل لتشغيل العمال وتوفير الحاجات الصناعية الوطنية ، ويقتنى لبيته الأثاث الوطنى ويتغذى الأغذية الوطنية ، ويستعمل أدوات الزينة الوطنية ، ولـكنه — مع كل ذلك — لا يحاول إيذاء الأجنبى بإخراج بضائعه من مقاطعته ، أو إحراقها كما يفعل « سانديب » ، ولا يحاول أن يقهر أحداً من مواطنيه على استعمال بضاعة معينة ، لـكى لا يكون فى ذلك حرج أو ضرر عليه ، وهو — من أجل هذا — يقف من حركة « سانديب » موقف التحفظ والحذر ، وقد يحاول أن يجادل « سانديب » فى أساليب حركته المنيفة ، مصطنعاً فى جداله الهدوء والمنطق الرزين ، مبتعداً فى هذا الجدال أيضاً عن التأثر بالعصبية لرأيه رغم إيمانه به كل الإيمان .

أما « سانديب » ، فيصوره طاغور على النقيض من صـورة « نيكهل » هذه ، إذ يُرينا نفسه تصطخب بدوافع ونوازع هائلة مخيفة ، ويرينا شخصيته لا تعتمد فى تزعم الحركة الوطنية إلا على بلاغة المنطق وقوة الاستهواء ، بل لقد صوره طاغور رجلاً خداعاً ماكراً يستبيح لنفسه السرقة باسم الوطنية ، ولا يجد حرجاً فى إغراء زوجة « نيكهل » بالتمرد على حياتها الزوجية الوادعة المطمئنة ، المنمورة بسعادة الحب الجميل ، مستغلاً نزعتها الخيالية ليستفيد من أموالها ، يروى بها شهوات نفسه المتعطشة للزعامة لذاتها كغاية لا وسيلة ، وهكذا يستمر طاغور متتبعاً خطوات « سانديب » فى حركته الطاغية المنيفة حتى يستحل فى سبيلها خداع زوجة « نيكهل » ، وهدم هناءتها الزوجية ، وهدم أحلامها العظيمة التى بناها هو لها فى خيالها الملتهب ، وحتى يُنهى حياة هذه الأسرة الطيبة بفاجعة مروعة على حساب وطنيته الموهّة

بهـذا التصوير البارع يحدد لنا طاغور حقيقة الوطنية كما يرتضيها هو ، وكما يؤمن بها كوسيلة للعمل المنتج فى سبيل الأوطان ، ولعل هذا العرض يبقى ناقصاً إذا لم نشفعه ببضعة آراء وأفكار خطيرة أدارها على لسان « نيكهل » الذى يبدو لنا أنه هو الشخص المختار فى هذه الرواية لتمثيل آراء طاغور نفسه فى الوطنية ، وأنا أعرض هذه الآراء والأفكار لا لأجل إيضاح معنى الوطنية عند طاغور وحسب ، بل لأجل أن تكون أمثالاً عليا نؤمن نحن بها ، ونحفر لها مستقراً أميناً فى قرارات وعينا ، لعلها تكون عوناً لنا فى هذه الظروف والأحوال التى تحيط بنا اليوم :

قال (نيكهل) بعد أن أخرج المربية الأجنبية من قصره بتأثير ضغط الحركة الوطنية التى يقودها (سانديب) ، وقد شيعها بنفسه فى عربته فانتقدته الصحافة الوطنية المتطرفة لأجل ذلك من الانتقاد : « إننى أخدم بلادى ولكنى لا أعبدها ، فإنى أعبد الحق وهو أعظم من بلادى ، أما من يعبد بلاده كما يعبد الله فهو يسىء إليها ويتوهم أنه من المحسنين »

وكان نيكهل يجادل سانديب فى بعض آرائه الوطنية فقال له : « . . . أما حقيقة رأيى — الـكلام لنيكهل — فهى أن الذى لا يستطيع أن يتحمس لبلاده كما هى حقيقة ، والذى لا يستطيع أن يحب إنساناً لمجرد كونه إنساناً ، والذى يريد تأليه وطنه بالهتاف والهياج — فهو يحب الهياج أكثر مما يحب وطنه »

وحين شاع أن خزينة المهراجا قد سرقت جاء إلى (نيكهل) أستاذه الحكيم ، وفيما هذا يتحدث عن (سانديب) وأتباعه قال هذه الـكلمة المفهمة يعنى بها رجال الحركة المتطرفين : « لقد وضعوا الوطن حيث طردوا الضمير »

وقال (نيكهل) وهو فى نقاش مع (سانديب) :

« إنى أقول لك الحقيقة (ياسانديب) : إنك تجرح عواطفى حين تدعو الظلم واجباً ، وتطلق على البغى اسم الخيال الأدبى ، فليس العقل هو الذى يمنعنى عن السرقة بل الذى يمنعنى عنها عاطفة تدعونى إلى احترام نفسى »

أدباء ومدرسون ! . . .

« حديث ذو شجون إلى وزارة المعارف
وإلى الدكتور زكي مبارك . . . »

للأستاذ محمد سعيد العريان

تلطف الدكتور زكي مبارك فتناول في حديث الأسبوع الماضي موضوع « الترقية إلى المدارس الثانوية » ؛ وهو موضوع من حق صديقنا الدكتور زكي مبارك أن يتحدث عنه ، لأنه بسبيل من عمله الرسمي في وزارة المعارف ، وعمله الأدبي في مجلة « الرسالة » ؛ فليس من حق أحد أن يدهش للأسلوب الذي تناول به موضوعه ، أو الطريق الذي سلكه لإبداء الرأي فيه ؛ وإنه لمن الغبن أن يكون الدكتور زكي مبارك ملوماً على ما في حديثه ذاك من التناقض وفساد الحكم ؛ إذ كان يملي عليه الرأيَ حين يحكم شخصيتان لا تجتمعان على فكرة واحدة : شخصية زكي مبارك المفتش بوزارة المعارف ، وشخصية زكي مبارك المؤلف المحقق الأديب ؛ ومن أين لهاتين الشخصيتين أن تجتمعا على رأي وبينهما ما بينهما من الفوارق العقلية ، ولكل منهما مقياسه في موازين الأشياء . . . !

والموضوع الذي تناوله الدكتور زكي مبارك حقيق بالبحث والدراسة ، لأنه موضوع عام يتصل من قريب بشأن من أخص شؤوننا الأدبية ، إذ كان المعلم هو فكرة الشعب ، وأماني الغد ، ومستقبل الثقافة ، ولكن هذا الموضوع على عمومه يتصل بجانب من حياتي الخاصة يحرجني أن أتخذه موضوعاً للحديث ، ولعل كثيراً من الذين يقرءون لي في الرسالة منذ سنين ، لم يَدُرْ في خلد أحد منهم أن يسأل عن عملي الذي أتكسب منه ووظيفتي الرسمية التي أعيش بها قبل أن يُعرِّف بي الدكتور زكي مبارك . . .

ومعذرة إلى طائفة من القراء ، فإن الرأي العام في مصر وفي الشرق ما زال يقيس منازل الرجال على قدر منازلهم في مناصب الحكومة أو منازلهم في دولة المال !

على أنه لا مندوحة لي اليوم عن الحديث في موضوع كنت أتنكَّبه فراراً من التهمة ، ولست أطمع بعد في كلمة عطف أو أخشى كلمة ملام ، فإني لقوي بنفسي عن استجداء العطف أو خوف الملام ، ومن وجد في نفسه الطاقة فليس له عذر من التقصير ؛ وليغضب من يغضب لنفسه أو للحق ، فليس بي إلى أحد حاجة ، وليس لي في سبيل الحق أن أخاف سطوة إنسان !

* * *

وأبدأ حديثي لأصحح للدكتور زكي مبارك قوله : « الترقية إلى المدارس الثانوية » فإن كلمة « الترقية » هنا لا تؤدي معناها اللغوي كما يفهمه أهل التحقيق ، وليس في نقل معلم من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية أي معنى من معاني « الترقية » وليس ثمة فرق بين معلم هنا ومعلم هناك ، لا في الدرجة العلمية ، ولا في العمل ، ولا في المال ، ولكن الفرق كل الفرق في التلميذ وفي المكان . . .

هذا حق يعرفه زكي مبارك « المفتش بوزارة المعارف » ، كما يعرفه وزير المعارف نفسه ، وكما يعرفه المعلمون جميعاً في المدرستين الابتدائية والثانوية ؛ ولكن لماذا ، لماذا — والأمر كذلك — تصر وزارة المعارف على تسمية هذه النقلة « ترقية » ؟ ولماذا يشكو طوائف من المعلمين فيطلبون حقهم في هذه « الترقية » ؟

جواب ذلك : أن هذه « النقلة » هي مظهر من مظاهر « الثقة العلمية » بالمعلم المنقول ، وهي « اعتراف رسمي » بأن لهذا المعلم أهلية لتعليم طائفة من التلاميذ أنضج عقلاً من إخوانهم في المدرسة الابتدائية ؛ وهذه « الثقة العلمية » وهذا « الاعتراف الرسمي » هما كل جزاء المدرس المنقول ، وهما حسبه وكفايته ؛ وأهل العلم دائماً هم أقنع الناس بالقليل !

أكتفي بهذا القدر لأن الإطالة قد بلغت حداً لم أكن أقصد إليه

أما بعد : فيا أيها الإنسان العظيم الناعم الآن بفرحة الحب الأسمى ، لقد بلغت رسالتك الجليلة ، وأسكرت الدنيا بترانيمك المترعة رحمة ومحبة ، ودعوة للسلام والألفة ، فمن حقك أن تهنأ الآن بلقاء حبيبك الأعظم ، ومن حقك على الدنيا هذه أن تذكر فضلك ، وأن تهتدي بهدى روحك العظيم يوم تصحو من هذا الجنون المطبق ، وهي لا بد أن تصحو يوماً .

(بغداد) حسين مروه

... وقد سنت وزارة المعارف سنة منذ عامين : أن تُسبِّق بين المعلمين فى امتحان سنوى عام ، لتمنح أسبقهم ثقتها العلمية واعترافها الرسمى

***

لقد كثر ما تحدث المربون من عيوب الامتحان ، واختلال ميزانه ، وجنايته على شخصية التلميذ ... أفلم تجد الوزارة — بعد تجارب السنين — وسيلة لاختبار كفاية المعلم غير الامتحان وقد قالت ما قالت فيه وسمعت ما قيل ؟

أليس لدى وزارة « المعارف » من وسائل « المعرفة » فى ذلك غير امتحان « المعلمين » ؟ بلى ! هكذا قالت وزارة المعارف منذ سنتين وما تزال تقول : الامتحان !

الامتحان ؟ بالله كيف صارت عيوبه حسنات ، واختلال ميزانه دقة ، وجنايته على « شخصية التلميذ » سبيلاً إلى تحديد « شخصية المعلم » ؟

ولكن لا علينا من ذاك ؛ فليس يعنينا ما تكون وسيلة وزارة المعارف إلى اختبار معلميها ، ولو كانت المباراةَ بين المعلمين فى حمل الأثقال ... !

ولكن ، لأى شىء سنّت الوزارة سنة الإمتحان ؟

الوزارة تقول إنها تقصد من ذلك إلى استثارة القُوى والكشف عن « الكفايات المغمورة » ؛ هذا كلامها ؛ فما بالها تصر على امتحان ذوى القوى العاملة و « الكفايات المشهورة » إذا لم يكن القصد من الامتحان إلا الكشف أو الاستكشاف ؟

ما قيمة المصباح تشعله فى النهار والشمس طالعة ؟

وما عمل المظلة ترفعها على رأسك فى الظلام ولا مطر ولا غمام ؟

وماذا يقول المعلم يوم الامتحان إذا كانت مؤلفاته وأعماله الأدبية هى موضوع الامتحان ؟

***

هنا مشكلة أدبية عامة ، هى مشكلة « النفر الستة » الذين قَصَر عليهم الدكتور زكى مبارك حديثه فى العدد الماضى .

ليت شعرى ما شأنك وشأنهم يا صديقى ؟ إنك لتعرف هؤلاء النفر الستة معرفة الرأى والنظر ، وتعرف كم أبلَوْا فى جهادهم للعلم منذ سنين ؛ وأراك لم تنكر أقدارهم العلمية والفنية على طول ما تعتّبتَ عليهم وتجنيت .

هؤلاء النفر الستة يا صديقى — وأنا منهم — لم يرجوا وزارة المعارف أن ترقيهم إلى المدارس الثانوية كما ظننت ، فإنهم أصدق نظراً من أن تخدعهم الفروق الصغيرة بين الأسماء فتحملهم على الرجاء والاستجداء ...

بلى ، نحن لم نطلب هذه « الترقية » ، ولم نَسْعَ لها ، ولا نعرف لها طعما مما يمر فى الأفواه ويحلو ؛ وإن لنا من الإيمان بأنفسنا ومن الإيمان بمعنى الأدب ما يرتفع بنا عن ذلك المستوى ، ولكنا كتبنا لننبّه وزارة المعارف إلى معنى أدبى كان ينبغى ألا تتغفل عنه أو يتغفل عنه القائمون بشؤنها ؛ — كتبنا لننبهها إلى أنها بما أكثرت من الحديث والنشر عن امتحان المسابقة ، ونتائج المسابقة ، قد ألقت فى وهم الناس أن معلم المدرسة الابتدائية ليس له من العلم مثل حظ المعلم فى المدرسة الثانوية ، وليس له تحصيله وكفايته ... ...

هذا المعنى يا صديقى يسوءنى ويسوءك ، ولكنه يسىء إلى وزارة المعارف أكثر مما يسوءنى ويسوءك حين يعرف الناس أن بين المعلمين فى المدارس الابتدائية طائفة من أهل التأليف والتحقيق يدوى صوتهم فى آذان الشرق العربى وعلا حديثهم نوادى الأدب هنا وهناك ولا تكاد تحس بهم وزارة المعارف ..!

أى تهمة يا صديقى تنال وزارة المعارف فى سمعتها ، وماذا يقول الناس عن كفايتها وحسن تقديرها للآثار العلمية ، وهى تجهل أقدار العاملين من معلميها وما أنتجوا من بحوث وما استحدثوا من فنون ؟

... هذا المعنى يا صديقى هو الذى رفعنا من أجله الصوت إلى وزارة المعارف — ووزيرُها من أهل التأليف والتحقيق — نطلب إليها أنْ ترد إلينا الاعتبار العلمى ، فتعترف بنا أدباء ومؤلفين ومحققين

ولكنك تقول يا صديقى : « إن هذا الباب إن فُتح فسيتيح فرصاً كثيرة لأدعياء التأليف والتحقيق ... »

وأعيذك يا صاحبى أن تكون قصدتَ إلى المعنى الذى تشير إليه عبارتُك ؛ فأى عمل لوزارة المعارف إن كانت لا تدرك الفرق بين الدعىّ والأصيل من أهل التأليف والتحقيق ؟

ويذكرنى قولك هذا يا صديقى كلمةً قالها لى الدكتور فلان

منذ بضعة أشهر ؛ قال : « لو كنتَ موظفاً في مصلحة التنظيم لوجدتَ من وزيرها اعترافاً بجهودك الأدبي أكثر مما أنتَ واجدٌ اليوم في وزارة المعارف ... ! »

* * *

على أن للمسألة يا صديقي وجهاً أخطر من ذلك وأبعد أثراً في أدب الجيل ؛ فإن إنكار الفضل على « ستة نفر » استعلنوا بجهادهم بين ألف ومائتي معلم في المدارس الابتدائية ، جديرٌ بأن يُفقِد هؤلاء « النفر الستة » حلاوةَ الإيمان بمعنى الأدب ، ويردّهم آلات لا يعملون إلا « الواجب » ، الواجبَ الذي يُؤجَرون عليه بالطعام والشراب واللباس وزخرف الحياة ، وأعوذ بالله من سوء الخاتمة !

ومالي أبعد في الظن وأقدِّر وأتوقع وأترك الواقع الملموس ؟ ألستَ تعرف كما أعرف يا صديقي مَن الذي « يؤلف » أكثر الكتب المدرسية في وزارة المعارف ومن الذي « يشرّفها » باسمه الكريم ؟ ... أحسبك لا تطالبني بالتصريح بأكثر من ذلك ، لأنك لا تحاول أنت أن تنكره ولا أحاول أنا أن أخفيه ... ...

وتسألني : ما لهذا وللمشكلة التي نعالجها اليوم وتلك قضية من قضايا الأخلاق وهذه مشكلة من مشاكل الأدب ؟

وأقول : إنه ما دام الاعتبار الأول عند وزارة المعارف في الحكم على الآثار الأدبية هو « وظيفة المؤلف » فلا بدَّ أن يكون هناك تعاونٌ بين ذوي « العلم » وذوي « الجاه » شبيهٌ بالتعاون بين « رأس المال » و « جهد العامل » في تكوين « شركة » من شركات « الربح والتثمير » !

أتريد أمثلة يا صديقي أم كفاك ما تعرفه وأعرفه مما لا تحاول أنت أن تنكره ولا أحاول أنا أن أخفيه !

ولكني أراك لم تقتنع بعدُ بالعلاقة بين ما ذكرتُ وبين المشكلة التي نحن بسببها ؛ إذن فاعلم يا صديقي أن جرثومة ذلك الداء هي تلك « الأرستقراطية العلمية » التي تأبى أن تعترف بقيمة الإنتاج الأدبي لأحد من « صغار المعلمين » إلا ... إلا ماذا ؟ ... معذرة فقد نسيت !

أتُراك يا صديقي قرأتَ قصة « من أدباء الجيل »[1] ؟ نعم ، إنني أذكر ذلك ، فقد كانت موضوع حديث بيننا يوماً ، ولكني أشير عليك أن تعود إليها فتقرأها مرة ثانية ، فلعلك واجدٌ فيها متاعاً ولذة يرفهان عنك بعض ما تجد من ثقل هذا الحديث !

* * *

وأعود إلى ما كنا فيه ، فأسألك يا صديقي : أترى حقاً وصدقاً أنه لا بد من امتحان « المسابقة » للترقي في الوظائف حين تكون كفاية الموظف في حاجة إلى دليل ؟ ...

ففي أي مباراةٍ سبقتَ أنت حتى صرت « مربياً كبيراً » تحكم على أقدار « صغار المعلمين » ؟ وفي أي مباراة سبق فلانٌ وفلانٌ ليكونوا أعضاء في لجان الامتحان وحكاماً في مباريات المعلمين ؟ ...

وأبادر فأعتذر إليك وإلى فلان وفلان ؛ فما أردت أن أغض من أقداركم العلمية ، وإنكم لأدباء من أهل التأليف والتحقيق ...

... ولكني رأيتك في بعض ما ساقتك إليه شجونُ الأحاديث ، تنكر قيمة كل المقاييس العلمية إلا مقياس الامتحان ، فرأيت أن أعرف أين أنت هناك ؟ ...

أهذا ما تسميه الزهو البغيض ؟

اللهم إني أستغفرك وأستهديك ، وأسألك إلى ما جنَّبتني من الكبرياء ، أن تزيدني ثقة بنفسي ، ويقيناً بحق ، وإيماناً بعمل ! ...

وإنه لعلى الرغم مني — يا صديقي — ألا تتهيأ لي العواملُ النفسية التي تسمح لي أن أقبل على الامتحان ، وإن كانوا : « في أوربا وأمريكا يتقدمون إلى المسابقات بعد الخمسين ، ولهم في ميدان الجد الأدبي والعلمي مكان » ...

تسألني : لماذا ؟

وأسألك : لماذا ؟

وتعرف وتسكت ، وأعرف وأغضي ، وتفترُّ الشفاهُ عن بسمات حين تتراءى صورة فلان وفلان ... « وأنت تعرف ما أريد » !

محمد سعيد العريان

المدرس بالمدرسة الابتدائية

(١) الرسالة : العدد ٣٤٥ — ١٢ فبراير سنة ١٩٤٠

الوضع الصحيح
للاصلاح الاجتماعي في مصر

للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر

- ٢ -

ذكرنا في العدد ٤١٨ من هذه المجلة الغراء أن الوضع الصحيح للاصلاح الاجتماعي في مصر يقتضينا ألا ننظر إلى الفقر كمشكلة قائمة بذاتها ؛ لأنه — كما قلنا — نتيجة لمشاكل أخرى كثيرة . وعلى ذلك يجب علينا أن نبين مدى مساهمة تلك المشاكل في خلقه ومضاعفة آثاره المحزنة . وهي كلها مشكلات اجتماعية خطيرة ملحّة . واستمرار وجودها واستفحالها يجعلها تتفاعل بعضها مع بعض ، وتنتج عصير الشقاء الذي تتجرع كأسه الأغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد

والذين يتحدثون عن « الفقر » وحده مخطئون كل الخطأ ، إذ لا يحلون إلا بإعادة توزيع الأراضي على جميع أفراد الشعب على السواء وملء جيوب الفقراء بالمال . وهو أمر مستحيل وضار من الوجهة الاجتماعية ومناقض للبداهة السليمة والقوانين السماوية كلها ومنافٍ لمنطق الأشياء . فلو تحول الشعب يوماً ما إلى أغنياء بمثل هذه الطريقة لاضطرب المجتمع من جديد بعنف لتعيد الطبيعة توازنها الفطري ، وعاد معظم الفقراء إلى ما هو أشد وأنكى من فقرهم الأول . فللطبيعة قوانين خفية تسري من تلقاء نفسها وتحطم كل ما يقف في سبيلها . والفقر ظاهرة طبيعية ، ولكنه عند ما يتجاوز حده يصبح ظاهرة اقتصادية اجتماعية .

وإذا كنا قد تحدثنا في المقال السابق عن صلة الحالة الاقتصادية بالفقر ، فلنحاول اليوم أن نرسم صورة سريعة للصلة الوثيقة بين مشكلتي الجهل والفقر .

مشكلة الجهل في مصر

كثير من الناس ما زالوا يخلطون بين الجهل والأمية ، ولا يفرقون بينهما . فالأمية ضد التعليم بمعناه الضيق . أما الجهل فهو عكس الثقافة التي تستلزمها الحضارة والتربية العامة للشعب . وهي أوسع معنى من التعليم وأشد لزوماً منه . فالنبي عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان مثقفاً ، نيّر الفكر ، واسع الإدراك ، ولهذا تمكن من الاضطلاع برسالته العظيمة . وكم من رأسماليين عالميين وعظماء ومخترعين دوليين معروفين لم ينالوا قسطاً وافراً من التعليم . ويقابل هؤلاء متعلمون ، ومنهم من درسوا في الجامعات ، تراهم يتكلمون أو تقرأ لهم ما يكتبون فتشعر أن على شخصياتهم الباهتة سمات الجهل المطبق والمنطق السقيم . وعلى هذا يصح أن نقول : وكم في المتعلمين من جهلاء !

وقد كان الغرض من التعليم في الماضي هو تأهيل الشبان للأعمال الحكومية الآلية ، ولا شيء غير ذلك ، عند ما كانت تسيطر على دفة الحكومة والتعليم عقليات انجليزية ركزت بين أناملها تصريف الأمور ، وصار تبعاً لذلك الطلبة نسخاً متشابهة مكررة من أصل واحد ! ثم انتهى هذا العهد ، وظهرت في الوجود نظريات جديدة تربوية نادت بوجوب الاهتمام بشخصية الفرد ، وإنماء ملكات الابتكار المودعة في جهازه البشري الدقيق . وقد تطورت تلك النظريات ، وصارت توائم بين حاجات الفرد وحاجات الجماعة التي لا غنى عن المحافظة عليها ، ولا مفر من تنسيق نشاط أفرادها مع زيادة نفعها لهم ؛ وبذلك صار التعليم تربية وثقافة حرة مرنة لا مجرد تلقين معلومات جافة ، وحشو الأدمغة بدراسات ميتة لا غناء فيها ولا طائل تحتها . وصارت التجارب العلمية والعملية الكثيرة التي تطبق اليوم في أوربا وأمريكا توحي دائماً بالبرامج النافعة التي تكون أكثر انطباقاً على حاجات الفرد الغريزية والاجتماعية والمادية . وليس في نيتي أن أعتدي على اختصاص الفنيين وأخوض في شروح وفروق تلك النظريات التربوية الحديثة ، فأنا أمر عليها بقدر ما يسمح لي بحث اجتماعي كهذا ، وإنما أذكر أن هدف التربية الحديثة هو الإكثار من الكفايات الاجتماعية . وهي - أي الكفايات الاجتماعية - وحدها القادرة على الحياة والكفاح وكسب القوت المحترم الشريف في عصر مضطرب بالشهوات الماحقة والصوالح المتعارضة ، والنظريات العلمية المتجدّدة على الدوام . والتربية

الحديثة توحى بالتعليم الذى يناسبها ولا يعطل آثارها . وهى إذا سارت فى مجراها العلمى المنتج كانت أقوى درع ضد الفقر، وأيسر السبل إلى الثروة والغنى والمجد

ومصر لم تعمل بعد بهذه النظريات ، وإن كانت قد عرفتها وأرسلت البعثات تلو البعثات لدراستها ، ولم تأخذ بنصيبها من رسالة التربية الحديثة وإن كانت تنادى بها وتعطف عليها وتشترك فى مؤتمراتها . ويخطئ بل يكذب من يقول غير هذا عن وزارة المعارف . فهى نفسها إلى اليوم حائرة ضالة طريقها مرتبكة لم تعلم بعد رسالتها ، ولم تفهم مهمتها على وجه التحديد !! وهو أمر لو كان فى بلد آخر غير مصر لكان جريمة لا تغتفر ، ولاتهمت وزارة المعارف بإفساد حياة الناس ، ولرفعت عليها القضايا من أولياء أمور الطلبة ، ولثار عليها الرأى العام . وذلك لأن التعليم فى عصرنا هذا فريضة وطنية ، والتربية العامة واجب مقدس . ووزارة المعارف هى وحدها الأمينة عليهما ؛ فإذا هى اضطربت فى تأدية رسالتها كان الأمر نكراً ، واضطربت معها حياة الناس ، وارتبك سير الآلة الاجتماعية . وإذا كنا نعلم أن جهالة فرد قد تطوح بمستقبل أسرة أو عدة أسرات أمكننا أن نتصور مدى الخطورة فى جهالة شعب بأسره !!

ولنسرد الآن شيئاً من التفصيل عن هذه الناحية . فقد جاء فى الإحصاءات الأخيرة أن نسبة المتعلمين بين الصغار الذين بلغوا سن التعليم هى ١٢ ٪ . ولتبيان ضآلة هذه النسبة نذكر أنها فى السويد ٩٨ ٪ ، وفى تشيكسلوفاكيا ٦٠ ٪ ، وفى اليونان ٣١ ٪ ، مع أن المعروف عن هذه الدول أنها من الصف الثانى والثالث من حيث التعليم .

أما نسبة الأمية — ولا نقول الجهالة فأمر هذه أفدح وأنكى — فيمن فاتوا سن التعليم من الذكور فهى ٧٩ ٪ . وإن هذه النسبة المخجلة جداً لتصبح أشد هولاً لو أسقطنا من الحساب عاصمتى القطر (القاهرة والاسكندرية) إذ نجدها فى أسوان وأسيوط وجرجا ٩١ ٪ ، ثم تتراوح فى باقى المديريات بين ذلك وبين ٧٠ ٪ .

فإذا أردنا أن ندلف من التعميم إلى التخصيص وجدنا عار الأمية متفشياً بين أرباب المهن الحرة والفلاحين ، مع أن هذه الطبقات فى أشد الحاجة إلى التعليم ، بل وإلى نوع معين بالذات من التعليم .

ومن الغريب ، بل من المضحك المبكى ، أن مصر التى تشكو الأمية مر الشكوى بها أزمة بطالة بين المتعلمين . وهما مشكلتان متناقضتان ، وقلما تجتمعان فى بلد متحضر . وسر هذا التناقض أن المشرفين على التعليم — فى الماضى — لم يراعوا حاجة البلاد إلى التعليم ، ولم يحسبوا للضرورات الاجتماعية حساباً . ونحن اليوم ندفع ثمن هذه الجريمة الوطنية من كرامتنا وثروتنا القومية ، ونعانى تأخراً مخجلاً فى حضارتنا العقلية والأدبية والمادية .

ولو أردنا تشخيص مرض الأمية المتفشية فى مصر لوجدنا أسبابه كما يأتى مجتمعة وبلا ترتيب :

١ — ضآلة ما ينفق على التعليم بالنسبة لحاجة الشعب إليه ، والرغبة فى مسايرة العصر : فميزانية التعليم لا تزيد عن ٩½ ٪ من الميزانية العامة مع أن المستر كلاباريد — الخبير السويسرى الذى استقدمته الحكومة المصرية منذ أكثر من اثنى عشر عاما — أوصى برفع هذه النسبة إلى ١٢ ٪ على الأقل ، لأن إنفاذ مشروعات الإصلاح التى تتطلبها البلاد تتوقف على محو الأمية ، ونوع التعليم الذى يعطى لأفراد الشعب . ولكى ندلل على ضآلة ميزانية وزارة المعارف قد يكفى أن نضرب الأمثال . فنسبة ميزانية التعليم فى النرويج إلى الميزانية العامة ١٣٫٧ ٪ ، وفى الدانيمارك ١٤٫٢ ٪ ، وفى هولندا ١٩٫٣ ٪ ، وفى سويسرا ٣٠ ٪ مع أن شعوب هذه البلاد على درجة عالية من حيث التعليم

١ — سوء توزيع ميزانية التعليم

بدأت الحكومة المصرية بالاهتمام بالتعليم الإلزامى منذ سنة ١٩١٧ حين وضع المغفور له عدلى يكن باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت تقريراً وافياً عن ضرورة التوسع فى هذا النوع من التعليم بحيث يكفل تعليم ٨٠ ٪ من الذكور ، ٥٠ ٪ من الإناث ، وها هو ذا قد مر ما يقرب من ربع قرن والحالة آخذة فى الانحطاط ووزارة المعارف تسأل نفسها كل يوم : ما هى مهمة هذا التعليم ، وما هى أهدافه وبرامجه ؟ مع أنه فى يقينى أن مهمة وزارة المعارف لو اقتصرت على ذلك النوع من التعليم ، وقامت بها جاهدة ناجحة

لأدت رسالتها الشعبية على أكمل وجه ، ولكنها مضطربة موزعة الفكر بين هذا التعليم وغيره من أنواع التعليم الأخرى . وأعتقد — غير مغال — أنها قد فشلت فيها جميعاً ! وقد ترتب على ذلك أن صار هذا الجيل إلى فشل خطير ، أصبح معه عاجزاً عن الكفاح فى الحياة من أجل كسب القوت

ثم إن وزارة المعارف تضاعف ذلك الخطأ بإغفالها الحاجات الفردية والاجتماعية فى ميدانى التعليم والتربية ، واهتمامها بالتعليم النظرى القليل الثمرة فى عصرنا هذا أكثر من اهتمامها بالتعليم المهنى الغزير الفائدة . فقد بلغت نسبة إنفاقها على النوعين ٤ : ١ مع أن العكس هو الأولى والأحجى . ثم إن مصر شعب زراعى ولكن المزارع المصرى مازال يعيش بعقلية آبائه وأجداده حتى أصبح عاجزاً عن متابعة تقلبات الأسواق المحلية والعالمية التى يصرّف فيها محصولاته ، فقد سيطرت العقلية الجديدة المثقفة على كل شىء : على الحقل والمصنع والمتجر والسوق . ومصر ككل شعب زراعى لا تستطيع أن تعتمد فى معاشها على الزراعة وحدها وخاصة أن فى جوف تربتها مواد أولية ثمينة ، وجوها مناسب لصناعات عديدة ، وبها فعلاً نهضة صناعية متوثبة

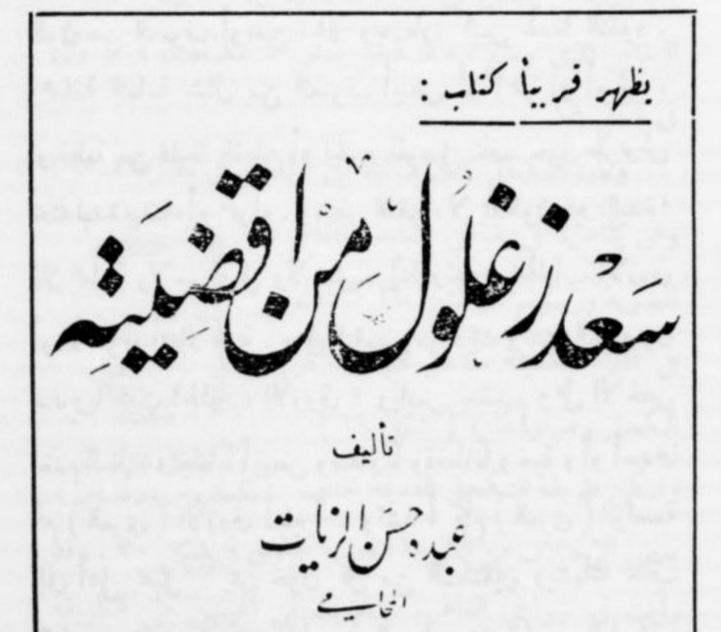
ووزارة المعارف تأبى إلا أن تخلىء فى كل شىء . فمصر برغم كونها بلداً ديمقراطياً يعيش على فأس الفلاح وجهد العامل ، وبرغم أن الشعب المصرى « يتمتع » بنسبة من الأمية لا مثيل لها فى العالم ، فإن وزارة المعارف لا تبذل من الجهد ، ولا من المال على التعليم الأولى والالزامى الخاص بهاتين الطبقتين قدر ما تبذله منهما على التعليم الخاص بأبناء الطبقات الميسورة والراقية . ومعنى ذلك أن فى مصر الديمقراطية تعليما أرستقراطياً ! وهو أمر من الأمور الكثيرة المعكوسة فى بلادنا العزيزة !

٣ — فساد البرامج التعليمية

من أبسط القوانين البديهية أن الوسائل تخضع للغايات وتخدمها ، وليس العكس ، لأن الوسائل فانية متغيرة ، أما الغايات فمن صفاتها الثبات والدوام . ومن المعروف أن البرامج الدراسية ليست بذاتها غاية مقدسة ، وإنما هى وسيلة لغاية اجتماعية وقومية . ولكن مصر جرى فيها العرف على أن تفنى الغايات فى الوسائل . وهذه القاعدة مطبقة على التربية والتعليم . فقد ضحيت التربية على مذبح التعليم دون أن يستفيد التعليم من هذه التضحية ! فوزارة المعارف لم تستطع إلى الآن أن تكون وزارة تربية ، وإنما ظلت وزارة تعليم بمعناه الضيق القديم : أى وزارة تلقين معلومات جافة ، ودراسات ميتة لا أثر للتجديد والابتكار فيهما . وبرامجها الدراسية أصدق شاهد على هذا ؛ فهى كل يوم فى شأن ، ولها فى نهاية وبداية كل عام دراسى ضحايا يعدون الآن بالآلاف يبتلعهم المجتمع المضطرب القاسى والكفاح الذى لا يرحم . فإذا شبهنا المجتمع بصرح مشيد ، أو بناء قائم ، كان فيه أولئك الطلبة الفاشلون كأنقاض الهدم ! فكل شاب متعلم فاشل هو « شهادة فقر حية » لنفسه ولأسرته . وهو جزء خرب فى آلة المجتمع .

فهل أحست وزارة المعارف بمسئوليتها فى هذا الخلل الخطير الكائن بجسم المجتمع ؟؟ أم هى مشغولة بكبار موظفيها وترقياتهم وأغراضهم ، ذاهلة عن رسالتها ، حائرة فى تحديد مهمتها ؟!

محمد عبد الرحيم عنبر
بوزارة الشئون الاجتماعية



٧ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الأول - الملابس

أما ملابس الطبقة السفلى فهي جد بسيطة : يلبسون سروالاً فوقه قميص طويل فضفاض ، أو ثوباً أزرق طويل الأكمام من الكتان أو القطن أو من الصوف الأسمر ؛ ويسمى الأول « عِريا » والآخر « زعبوطاً » ، وهو يشق ابتداء من الرقبة إلى الوسط تقريباً [١] . ويتمنطق البعض بمنطقة بيضاء أو حمراء من الصوف ؛ والخدم يتحزمون بحزام [٢] عريض أحمر اللون من الصوف أو من الجلد وبه عادة كيس لحفظ النقود . وعمامة العامة شال من الصوف أبيض أو أحمر أو أصفر ، أو قطعة من غليظ القطن أو الحرير الموصلي تلف حول طربوش تحته لبدة بيضاء أو سمراء . وبعض الفقراء لا يملكون غير اللبدة ؛ فلا عمامة ولا سراويل ولا نعل . إنما يرتدون الجلباب الأزرق أو الأسمر أو أسمالاً بالية . وعلى النقيض من ذلك يرتدي الكثيرون صديرياً تحت الجلباب الأزرق ؛ ويلبس بعضهم وعلى الأخص خدم العظماء ، جلباباً أبيض وصديرياً وقفطاناً وجبة ، أو أحدهما ثم (العري) الأزرق أخيراً . وتشد أكمام (العري) الواسعة إلى أعلى بحبل [٣] يمر حول كل من الكتفين ويشبك خلف الظهر ويعقد . وقد تعود الخدم (والسواس خاصة) هذه الطريقة ، ويستعملون لها حبالاً من الحرير الأحمر أو الأزرق القاتم . ويرتدي الكثير من أفراد الشعب في الشتاء عباءة كالتي وصفناها من قبل ، ولكنها أغلظ منها ، وبدلاً من اللون الأسود تكون أحياناً ذات خطوط عريضة سمراء وبيضاء أو زرقاء . وهناك نوع آخر من الأكسية كثير الاستعمال يتخذ من الصوف الأسود أو الأزرق القاتم ، وهو أوسع من العباءة ويسمى «دفية» [١] . أما النعال فهي من الجلد الراكشي الأحمر أو الأصفر أو من جلد الخراف . ونعال السواس تكون من الجلد الراكشي الأحمر القاتم ، ولكن أحذية البوابين والسقائين تكون عادة من الجلد الأصفر

وتمتاز عمامة المسلم باللون عن عمامة القبطي واليهودي وغيرهما من رعايا الباب العالي ، فهؤلاء يتعممون بالأسود أو الأزرق أو الرمادي أو الأسمر الخفيف ، ويلبسون عامة الثياب القاتمة . ويرجع استخدام الألوان لتمييز بين المذاهب والمشائر والأسر المالكة إلى عهد بعيد . فإن الإمام إبراهيم بن محمد لما قتله الخليفة الأموي مروان اتخذ بنو العباس الثياب السود لباساً لهم حداداً عليه ، ومن هنا أصبح سواد اللباس والعمامة الزي المميز للعباسيين وولاتهم . حتى أنهم كانوا إذا غضبوا على عامل حكموا عليه بلبس الأبيض . أما اللون الأبيض فقد اختاره مدعي النبوة (المقنع) ليميز حزبه عن العباسيين ؛ كما اختاره فواطم القاهرة لعدائهم لبني العباس . وكان سلطان مصر الملك الأشرف شعبان الذي حكم من سنة ٧٦٤ إلى ٧٧٨ هجرية - ١٣٦٢ إلى ١٣٧٦ ميلادية أول من أمر بتمييز الأشراف بالعمامة الخضراء . ومن الدراويش الرفاعيين من يلبسون عمامة من الصوف الأسود أو من الموصلي الزيتوني القاتم . أما عمامة الأقباط واليهود وغيرهم . فهي عادة من الموصلي أو الكتان الأسود أو الأزرق . والعمامة الغالبة الآن في مصر لا تختلف أشكالها كثيراً . فعمائم الخدم معقدة ذات تلافيف حلزونية مدرجة ، وكذلك عمائم كبار التجار والمتوسطين منهم وغيرهم من سكان العاصمة والمدن الكبيرة ، إلا أنها أقل حجماً منها . والعمامة التركية في مصر أكثر أناقة ؛ والعمامة السورية تمتاز بسعتها . وكان العلماء ورجال الدين والأدب يلبسون العمامة الواسعة الكبيرة

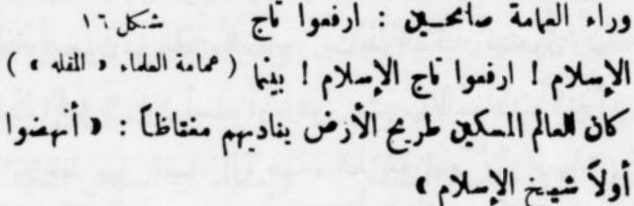
---

(١) ويلبس الزعبوط في الشتاء غالبا

(٢) يسمى « كمر » (٣) يسمى « شمار »

(١) وهناك نوع من الثياب الزرقاء أو البيضاء يسمى « ملاية » يلبسها بعض الرجال وأغلب النساء ؛ وسنصفها عند الكلام على ملابس النساء ويتشح بها الرجال فوق الكتفين أو حول البدن

ويسمونها «مُقلة» كما ترى في شكل ١٦ . والعمامة موضع الاحترام والإجلال؛ فلها في منازل الموسرين كرسي[1] توضع عليه ليلاً ولا يستعمل لغير هذا الغرض. وكثيراً ما يعد هذا الكرسي في جهاز العروس؛ كما كان من المعتاد أيضاً أن يكون للمرأة كرسي آخر لغطاء رأسها. ويحضرني حكاية قصها على صديق أسوقها إليك مثالاً لمقدار الاحترام الذي يكنه الشعب للعمامة. فقد رووا أن عالماً سقط من فوق حماره في شارع من شوارع المدينة فتدحرجت مقلته بعيداً عنه. فتجمع المارون وأخذوا يجرون وراء العمامة صائحين: ارفعوا تاج الإسلام! ارفعوا تاج الإسلام! بينما كان العالم المسكين طريح الأرض يناديهم مغتاظاً: «أنهضوا أولاً شيخ الإسلام»



شكل ١٦
(عمامة العلماء «المقله»)

***

ننتقل الآن إلى وصف هيئة النساء العامة وملامحهن. فالمصريات منذ بلوغهن الرابعة عشرة حتى العشرين، هن من حيث الجسم مثال الجمال؛ ومحياهن يسر العين، ويجذب النفس. ولكن سرعان ما يذوى هذا الجمال بعد أن يستحيل الشباب ويستكمل الجسم نموه. وطبيعة الجو تؤثر على طبيعة الصدر قبل الأوان، فترتخى هيئته وتستوى أجزاؤه؛ بينما يحتفظ الوجه بكل فتنته. وبالرغم من أن تراخى الزمن لا يذهب رواءهن، فإن كثيرات منهن متى بلغن الأربعين يصبحن، ولو كن جميلات في شبابهن، قبيحات الصورة كريهات المنظر. وأنوثة المصريات يبدأ نموها عند التاسعة أو العاشرة تقريباً؛ فتبلغ عنفوانها في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. ويلاحظ أن سحن النساء كسحن الرجال؛ إلا أن الشمس لاحتجابهن لا تسفعهن، ويعتزن بمحياهن البيضي الجميل، وقد يمرُض في بعضهن. أما العيون فدعجاء، نجلاء، لوزية الشكل، وطفاء الأهداب، تفيض وداعة تملك النفوس، وسحراً يسبي القلوب، ولم أر فيما رأيت عيوناً أجمل من العيون المصرية. ويزيدها جاذبية احتجاب الملامح بالنقاب. وتأثيرها في النفوس يزيده كحل الجفون كما ترى في شكل ١٧ . والكحل سناج اللبان المعطري المحروق. ويصنع أيضاً من سناج قشر اللوز. وهذان النوعان مع الاعتقاد بفائدتهما للعين يستعملان للزينة فقط. إلا أن هناك أنواعاً أخرى تستعمل لخواصها الطبية الحقيقية، وأخصها مسحوق الرصاص[2]، المضاف إليه المنزروت وعرق الذهب وسكر النبات ومسحوق الذهب البندق، وأحياناً مسحوق اللآلئ.

شكل ١٧
(عين مكحلة)

ويقال إن الأثمد كان يستعمل قبلاً لتكحيل أصول الأهداب. وتكحل العين بمِرْود صغير من الخشب أو العاج أو الفضة، دقيق الطرف كليل الحد، يبل أحياناً بماء الورد ثم يغمس في المسحوق ويمرر بين الجفنين. والوعاء الزجاجي الذي يوضع فيه الكحل يسمى «مُكْحَلة» كما ترى في شكل ١٨



(شكل ١٨ ـ مكاحل ومراود)

وعادة التكحل كانت شائعة بين الجنسين في مصر القديمة؛ وهي ظاهرة في نقوش المعابد والمقابر المصرية ورسومها. وكثيراً ما اكتشف في المقابر القديمة مكاحل فيها آثار الكحل ومراودها، (شكل ١٩). ولكن طريقة التكحل القديمة تختلف بعض الاختلاف عن الطريقة الحديثة كما ترى في شكل ٢٠ . وقد رأيت في ضواحي القاهرة نساء يكحلن أعينهن على الطريقة القديمة، ولم أصادف ذلك إلا مرتين

شكل ١٩
(مكحلة ومرود قديمان)



شكل ٢٠ ـ (الطريقة القديمة في التكحل)

---

(1) يسمى «كرسي العمامة»

(2) «كحل الحجر»

وهذه الطريقة نفسها كانت شائعة في عقائل الإغريق ونساء اليهود في قديم الزمن (١) . وعين المصرية على الجملة أجمل ما في وجهها . ويلاحظ أن جمال الملامح في المصريات أقل من جمال الهيئة ؛ ولكني بصرت بوجوه يعزها نوع من الحسن ينم عن حلاوة العذوبة ويعبر عن فتنة الأنوثة ؛ فيأخذ بمجامع القلب إلى حد ينكر الإنسان وقتاً ما أن الله لم يخلق للمصريات مثيلات في أي بلد آخر . والقليل من النساء يسفرن أمام الغريب مدفوعات إلى ذلك بالرغبة في إظهار جمالهن وإن ادعين غير ذلك . ومن ثم لا يستطيع الأجنبي أن يبني رأياً صحيحاً من هؤلاء النسوة . ولكن مثل هذه العيون لا يمكن أن تخلق إلا في الوجه الحسن ولو كانت تقاطيعه متوسطة الجمال ؛ أما الأنف فمستقيم القنا ؛ والشفاه أغلظ من شفاه الرجال دون أن تصل إلى غلاظة شفاه الزنوج ؛ غير أن الفم وغيره من قسمات الوجه تقرب من الجنس الحبشي . وأما الشعر فهو من ذلك الأسود الحالك المصقول الذي يناسب السحن كلها غير السحنة البيضاء ، وقد يكون غليظاً بعض الشيء ، ذا حلق من دون تجعيد

ويخضب نساء الطبقات الراقية والوسطى والكثير من الفقيرات أيديهن وأقدامهن بأوراق الحناء ، فتكتسب أطرافهن لوناً أحمر مشرباً بالصفرة ، أو برتقالياً قاتماً . والكثيرات منهن لا يصبغن غير أظافر الأصابع ، وبعضهن لا يتعدين عقود الأنامل ، والبعض الآخر يرسمن خطاً على صف العقود التالية ؛ وغير ذلك من الأشكال الغريبة الأخرى . إلا أن الطريقة الغالبة هي تخضيب أطراف الأيدي والأرجل حتى المفاصل الأولى ، وكذلك راحة الكف وبطن القدم (٢) ؛ وأحياناً يضاف خط بجانب المفاصل الوسطى وآخر فوق أصابع القدم بقليل كما ترى في شكل ٢١ ،

شكل ٢١ (تخضيب الأيدي والأقدام بالحنة)

والخضاب يكون بسحق أوراق الحناء وعجنها بالماء ، ثم تبسط على راحة الكف وأجزاء اليد الأخرى ، ثم تثنى الأصابع وتقبض اليد ، وتربط برباط من الكتان ليلة بطولها ؛ وكذلك القدم . ولا ينصل الخضاب إلا بعد أيام ، فيجدد كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وعادة الخضاب ليست قاصرة على مصر ، بل تتعداها إلى بلدان الشرق التي يمونها شاطئ النيل بالحناء

والحناء على الأظافر تكون أكثر لمعاناً وأشد صفاء وأطول بقاء . كما أن تخضيبها أو تخضيب الأصابع يعتبر بحق زينة للنساء ، إذ يحسن لون البشرة ويكسبه رقة . بيد أن بعض النساء يعمدن إلى طرق لا يستسيغها الذوق الأوربي ، فيُعقبن الحناء بمعجون من الجير والسناج وزيت بذر الكتان فيتحول لون الحناء الجميل إلى لون أسود أو زيتوني مشرب بالسواد . وكثيراً ما يلاحظ ميل النساء إلى هذه الطريقة فيُزيّنّ مخضبات الأظافر أو الأصابع بهذا اللون القاتم ، إلا أنهن يتركن العقود الوسطى بحمرة الحناء ؛ والكف على النقيض من ذلك يتوسطه خط عريض أسود ؛ وبعضهن يتبعن أبسط الطرق فيسودن الأنامل وراحة الكف كلها .

(يتبع) عدلي طاهر نور

---

(١) وكثيراً ما يستعمل الملقاط لتزجيج الحاجبين وزيادة تقوسهما

(٢) ويقال إن التخضيب له تأثير لطيف على البشرة ، وعلى الأخص في الجلد شدة الرخوصة والحساسية

ليالي القاهرة

الدمعة الخرساء!...

للدكتور إبرهيم ناجى

رفتُ الذى تخفين عِرفانَ مُلهَم   إذا الدمعةُ الخرساء لم تتكلّمِ
وأنتِ سماءٌ يعشقُ المرءُ نورَها   ويعشقُ ما فى أفقها من نجومِ
وإنّى إذا عيناكِ بالدمعِ غامتا   جديرٌ بأن يمشى على هُدبها فمى
عينى أُحلّقْ فى سمائكِ طائرًا   ويسبحْ خيالى فى سناكِ المعظّمِ
لا إنّ ضوءَ البدرِ إحسانُ محسنٍ   له أينما يسرى تفضّلُ مُنعمِ
طوفُ بهِ فى الناضرِ المتبسّمِ   وينشرُهُ فى الدارسِ المتهدّمِ
ويا رُبّما يغشى الخميلةَ ضاحكًا   فتحلمُ فى جوٍّ من السحرِ مُبهمِ
ينشرُ فى الأطلالِ ظلاً كأنّهُ   خيالُ الأمانى فى محاجرِ نُوَّمِ

ابرهيم ناجى

من غربة الروح

فى وادى التيه!...

للأديب عبد الرحمن الخميسى

شرّدتنى بين المجاهلِ أيّا   مٌ فصاحت فى وجهىَ الفلواتُ:
أيّها التائهُ المنقّلُ فى الرّمـ   ـلِ خطاهُ ضاقت بكَ العثراتُ
قدكَ! إنّ المسيرَ أنهكَ أقدا   مكَ والأفقُ غائمٌ والسماءُ
والأعاصيرُ نائحاتٌ حواليـ   ـكَ وبين القفارِ عاث المماتُ
أينما سرتَ فالخرابُ مقيمٌ   أنقذيهِ من البِلى يا حياةُ!
وخذيهِ إلى الذى يبتغيهِ   حولكِ الشعرُ والهوى والغناءُ
وكأنّ الرياحَ تسألنى: ما   ترتجيه لمَ السُّرى والعناءُ؟
قلتُ: أهوى أسيرُ إنّى أراها   هاتِهِ واحةٌ! وثَمّ ضياءُ!
وتغرّبتُ فى المهامهِ عطشا   نَ ولكن على عزّ الماءُ
أحملُ الفرحةَ الكبيرةَ بالآ   مالِ هانت حيالها الأعباءُ
وأغنّى على الجديبِ كأنّى   بلبلٌ راقهُ الشذى والنباتُ
أقتلُ الجوعَ والصدى فى فؤادى   بالأمانى... وكلّهنّ هباءُ
وبلغتُ السرابَ لم ألقَ شيئًا   أينَ ما كنتُ أرتجى يا سماءُ
ضاقَ بيَ الكونُ كلّهُ يا إلهى   بعدَ أمّى وقطّبت لى الحياةُ
يا عواءَ الذئابِ فى البلقعِ المجرُو   دِ! يا مَعْنى قد سمّتهُ الفلاةُ!
كُفَّ عن مسمعى فلم يبقَ غيرى   وأنا ميّتٌ كما قد ماتوا!

عبد الرحمن الخميسى

عينـــاها...

للأديب أحمد أحمد العجمى

إنّ فى عينيكِ من سحرِ الهوى   فتنًا ترقصُ فى قلبى سُكارى
كلّما أرسلتِ منها فتنةً   تتهادى أشعلت فى القلبِ نارا
وإذا أمعنتُ سرًّا فيهما   قتلتنى عينُكِ الوسنى جهارا
أنتِ يا فاتنةَ الدنيا، ويا   بابلَ السحرِ ويا قيدَ الأسارى
لم تكنْ عينكِ إلاّ قبسًا   كابتسامِ الفجرِ يفترُّ افترارا
وهىَ الآنَ سهامٌ وظُبًا   تقتلُ الصبَّ وتحييهِ مرارا
فاصنعى ما شئتِ يا فاتنتى   إنّ فى عينيكِ ليلاً ونهارا!

هدّئى روعى! وقولى لدمى   ويكَ يا ظمآنُ لا تشكُ الأوارا
هذهِ عينى! وذيّاكَ فمى   وإذا الوردُ رأى خدّى توارى
ثمّ تشكو ظمأ الروحِ معى   وأنا أسقيكَ من عينى عقارا
آهِ لو ترجعُ أيامُ الهوى   إذ خلعنا فى لياليها العذارا
وقضيناها ولا ندرى بها   بين أحلامٍ كأنفاسِ العذارى

أحمد أحمد العجمى



حول التعليم في العراق

ألقى الأستاذ فاضل الجالى مدير التربية والتعليم فى العراق فى مساء الثلاثاء ١٩٤١/٩/٩ محاضرة قيمة عن التعليم فى العراق على جمهرة من رجال التربية والتعليم فى مصر بنادى المعلمين

وقد تحدث الأستاذ عن سياسة العراق التعليمية ، وكان من بين المشكلات التى أثارها مشكلة الامتحانات ، وذكر أن العراق — علاجاً لهذه المشكلة — تتجه إلى أن تكون المدرسة هى صاحبة الرأى الأول فى نجاح الطالب إلى أن يصل إلى الامتحانات العامة وهى التى تعقدها وزارة المعارف ، ثم أمّل الأستاذ أن يتعاون رجال التعليم فى مصر والعراق فى بحث هذه المشكلة

ومشكلة الامتحانات قديمة فى مصر وغيرها ، وأذكر أن كثيراً من اللجان عقدت فى مصر وطال فيها بحثها . ولا شك أنها اهتدت إلى نتائج ، ولكننا لا نرى أثراً لهذه النتائج فى مدارسنا ؛ فالامتحانات هى هى، مقياسها خاطئ ومیزانها معتل .

وقد يكون من وضع الأمور فى مواضعها أن نقول إن هذا الرأى الذى تتجه إليه العراق — وهو أن تكون المدرسة هى صاحبة الرأى الأول فى نجاح الطالب — هو الرأى الذى رآه من قبل أستاذنا القبانى بك وأشار إليه فى كثير من بحوثه القيمة فى التربية ، بل إنه وضعه موضع التنفيذ فى المدرسة النموذجية الملحقة بمعهد التربية فنجح أى نجاح

والطريقة المتبعة فى هذه المدرسة أن يجتمع المدرسون بعد امتحان الفترة الأخيرة ونصب أعينهم نتائج الفترات الثلاث لكل تلميذ وما حصل عليه فى اختبار الذكاء وسن التلميذ، وأخيراً رأى كل مدرس فيه ، ومن كل هؤلاء يوضع التلميذ موضعه من النجاح أو البقاء فى فرقته أو نصح ولى أمره بتوجيهه إلى الوجهة التى يصلح لها إن لم يكن يرجى منه فى وجهته خير ، وقد يشرك ولى أمر التلميذ ـ فى بعض أحوال خاصة ـ فى نجاحه أو بقائه .

ويظهر أنه قد تبين لأولياء الأمور ، عند بحث هذه المشكلة فى مجلس النواب ، صواب هذا العلاج لمشكلة طال عليها الأمد فعزموا على الأخذ به فى بعض الفرق الأولى ، ولعلنا نراه قريباً فى جميع الفرق وفى جميع مراحل التعليم ناجحاً نجاحه فى المدرسة النموذجية .

محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة النموذجية

١ — حول كتاب الأستاذ الرافعى عن فريد بك

قرأت فى العدد (٤٢٩) من « الرسالة » كلمة للأديب لبيب السعيد عن هذا الكتاب اختلف فيها مع نفسه ونقض فى آخرها ما أثبته فى أولها ؛ إذ قال عنه : « إن الشباب سيجدون فيه كتاب تاريخياً دقيقياً » ، ثم قال بعد ذلك عن المؤلف : « إنه يتعقب زعيما بعينه فيبحث له عن زلات ! ويفسر تصرفاته بما يسيء إلى سيرته » . وهذا كلام لا يمكن لقارئ منصف أن يقبله ؛ لأن الدقة فى التأريخ تتنافى مع البحث عن الزلات وتلمس المساوئ ؛ ويلوح لى أنه كتب هذه الكلمة قبل أن يقرأ الكتاب ؛ أو هو قرأه ولم ينتبه إلى ما فيه من الحقائق والوثائق ! وآية ذلك أنه لم يذكر لنا شيئاً من مواضع الإحسان ولا مثلاً من مآخذ الإساءة . ولو ذكر لنا ولو حادثة واحدة غيرتها حزبية المؤلف عن وضعها الطبيعى وردها هو إلى حقيقتها التاريخية لوجدنا فى كلامه ما يستحق النظر .

ولعل هذه هى المرة الأولى التى يُرمى فيها الأستاذ الرافعى بالميل مع الهوى . ولعله كذلك الرجل الوحيد الذى أجمع مخالفوه فى الرأى والسياسة على نزاهته وعفته . وقد كان المغفور له « سعد زغلول باشا » يفاخر بمعارضته فى مواقفه البرلمانية ، ويتخذها مثلاً للمعارضة النزيهة .

ولست أدرى بعد هذا من أين جاء لبيب أفندى بما ادعاه على الأستاذ وهو شيء ليس فى كتابه ولا فى أى كتاب من كتبه .

٢ — أرعياء الشعر

تصفحت عدد السياسة الأسبوعية رقم ٢٣٩ فلفت نظرى فيه قصيدة منشورة فى صفحة الشعر تحت عنوان (أفى الحق أن

أنسى بلادىَ سلوة؟) وهى قصيدة مشهورة من عيون شعر الأستاذ معروف الرصافى شاعر العراق. وقد نشرت فى الصحف والمجلات منذ أكثر من عشرين سنة ! وهى مطبوعة فى كثير من كتب المحفوظات المدرسية . وهى موجودة أيضاً فى ديوان الرصافى ومطلعها :

هو الليل يغرى بالأسى فيطول ... ويرخى وما غير الهموم سدول

أبيت به لا الناربات طوالع ... على ولا للطالعات أفول

لفت نظرى أن أقرأ هـذه القصيدة منشورة فى السياسة الأسبوعية فى عدد الأسبوع الماضى بإمضاء « صلاح الدين الضيف ، من تمى الأمديد » . ولم أعجب لجرأة هذا الشاعر على انتحال شعر غيره لعلمى أن لصوص الشعر والأدب كثيرون ولـكن الذى عجبت له ، هو غفلة هـذا المسكين وحرصه على ألا يضع توقيعه الـكريم إلا على قصيدة معروفة لشاعر مشهور !

فإذا كان هذا الشاعر قد أرضى شهوته بنشر اسمه تحت هذه القصيدة . فماذا يكون حاله حين يعرف الناس أنه رقيع ، وليس له من هذه القصيدة غير التوقيع ؟ .

(المنصورة) على عبد الله

على هامش القاموس السياسى – « أفغانستان »

من الـكتب القيمة التى ظهرت فى هـذه الأيام كتاب : « القاموس السياسى » ، ولست أنكر ما تحمله الأستاذ أحمد عطية الله فى وضع هذا الـكتاب من التعب والنصب ، وقراء العربية يشكرونه على ما جمعه فيه من المعلومات القيمة المختصرة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمختلف بلدان المعمورة وإن كنت أعترض فى كلتى هذه على بعض ما كتبه فى قاموسه عن بلادى ، فذلك ذكراً للحقيقة وخدمة للقراء الـكرام

١ – يقول الأستاذ فى صفحة ٣٢ من قاموسه : « واستولى على العرش أمان الله خان الذى شن غارات ضد انجلترا ، انتهت بعقد صلح فى عام ١٩٢١ » ؛ ولقد لفت نظرى تسميته حرب استقلال أفغانستان بشن غارات ، والله أعلم أنها لم تكن شن غارات ، بل حرباً نظامية فى ثلاث جهات وعسى أن يوفقنى الله إلى شرح هذا الموضوع فى المستقبل

٢ – يقول الأستاذ فى نفس الصفحة السابقة أيضاً : « وفى عام ١٩٢٦ لقب نفسه بالملك أمان الله » ؛ وأعتقد أن الأستاذ يوافقنى على أن هذه الجملة تتعارض مع كتاباته السابقة التى قال فيها : إن أمان الله خان استولى على العرش عام ١٩١٩ ، وإن انجلترا اعترفت باستقلال أفغانستان عام ١٩٢١

فإذا كان أمان الله خان لقب نفسه بالملك عام ١٩٢٦ ، فماذا كان يلقب من عام ١٩٢١ إلى ذلك التاريخ ؟

إن ما عمله أمان الله خان عام ١٩٢٦ ، هو إنشاؤه مجلساً عاماً للأمة برياسته كان يسمى « لوى جركة » جمع فيه أعيان الأمة ونوابها وعلماءها ومفكريها ليستشيرهم ويتباحث معهم فى الإصلاحات الداخلية للمملـكة

٣ – قال الأستاذ فى صفحة ٣٣ من كتابه عن العلم الأفغانى إنه أخضر وأحمر وأسود بنقوش فى وسطه وليس العلم الأفغانى كما قال الأستاذ ، بل هو أسود وأحمر وأخضر . أما النقوش التى فى وسطه والتى ذكرها الأستاذ ، فهى رسم للجزء الداخلى من الجامع بالمحراب والمنبر

محمد هارون المجددى

إلى الأستاذ النشاشيبى

جاء فى مختار الصحاح مادة « سخُف » ، السخف بوزن القفل رقة العقل وبابه طرب فهو سخيف ، وقد استوقفتنى عبارته « من باب طرب » ، لأن الأوزان القياسية التى تأتى من باب فعِل فى الصفة المشبهة لم يذكر فيها هذا ، ومع أنى لا أنكر أن باب الصفة المشبهة كثيراً ما يعتمد على السماع ، إذ قد ورد من باب فَعِل أوزان سماعية منها : سعيد وسقيم وأسيف ومريض ... إلى غير ذلك . فقد حاولت أن أقف على الحقيقة كاملة ، فاتجهت إلى معاجم اللغة الـكبرى كلسان العرب والقاموس والأساس فلم أجد من نص على أن سخف من باب

فِعِل بل ضبطت فى كل المعاجم المذكورة بالضم على أنها من باب فعُل

جاء فى القاموس: سخف ككرم سخافة فهو سخيف، وجاء فى الأساس: وقد سخُف الثوب سخافة وهو السخيف النسج والصحاح للجوهرى مع أنه الأصل لكتاب مختار الصحاح وجدت الكلمة فيه أيضاً مضبوطة بالضمة. قال فى الصحاح: سُخفة الجوع رقته وهزاله يقال به سخفة من جوع. والسُّخف بالضم رقة العقل. وقد سخُف الرجل بالضم سخافة فهو سخيف. الجزء الثانى مادة سخف

هذا ما قدرت على بحثه ومراجعته وهو وإن كان يخول لى تخطئة المختار إلا أنى لا أزال أتوجه إلى الأستاذ النشاشيبى راجياً أن يبين لنا وجه الحق فى هذا؛ وإنى لفى لهفة وشوق للتزود من معارفه وآفاقه الواسعة التى وعتها مجلة الرسالة الغراء.

وبمناسبة ما جاء فى مختار الصحاح، أنقل كلمة للمرحوم الشيخ نصر الموريني فى مقدمته لكتاب الصحاح للجوهرى، يقول: « اختصر هذا الكتاب ابن الصائغ الدمشقى والجوابى والرازى. ومن بينهم المولى محمد المعروف بالقيسى المتوفى سنة ١٠١٦ ومختصره أنفع وأفيد من مختار الصحاح. كذا قيل لكنه لم يشتهر

وإذا كان هذا الكلام صحيحاً فما الذى منع وزارة المعارف عن طبع هذا المختصر؟... لعل الأستاذ يذكر لنا شيئاً عنه، ويعرفنا به؛ فلعل الوزارة تسمع صوته فتقوم على طبعه؛ وللأستاذ منا أصدق الشكر والمحبة

(بستان دمياط) عبد المنعم سليمان مسلم

تعقيب

رأيت الأستاذ « الكاتب الكبير » حفظه الله يقول فى مقاله « أحاديث التلاميذ المصريين » الرسالة رقم ٤٢٨ (... إن عيشنا رتيب رتيب) وفى قصيدة الشاعر حافظ ابراهيم العمرية « أذنت شمس حياتى بمغيب » يقول الشارحون الفاضلون للبيت:

لا ، لا يسئمه ذاك الذى يسئم الأحياء من عيش رتيب « الذى وجدناه فى كتب اللغة بهذا المعنى: الراتب لا الرتيب ». الجزء الثانى من الديوان طبعة عام ١٩٣٧

قلت: وكثيراً ما اجتهدت أن أقع على كلمة رتيب فيما أقرأه من الشعر والأدب القديمين ولكنى إلى اليوم لم أظفر بذلك والذى جعلنى أخوض فى ميدان التعقيب اللغوى، وهو ميدان وعر المسالك لا أحب لنفسى الخوض فيه، هو اضطرارى أحياناً إلى استعمال هذه الكلمة فى الشعر فانكب عنها لعدم اطمئنانى إليها

فهل الكاتب « المبارك » أن يبين لى رأيه فى ذلك أو يظهرنى على ورود هذه الكلمة فى قول قديم، فيفيدنا من علمه وأدبه، أعز الله قلمه فيما يصول ويجول؟

« نابلس » فدوى عبد الفتاح طوقان

فى اللغة

أشكر للأستاذ العلامة الكبير وحيد بك جوابه عن سؤالى الخاص بكلمة « هناء » ومع ثقتى بعلمه واطلاعه أرجو أن يسمح لى بسؤال آخر فى سبيل الخدمة اللغوية العامة:

بحثت أنا وبعض أصدقائى من الأدباء عن « هناء » فى لسان العرب وتاج العروس والمحيط للفيروزابادى والأساس للزمخشرى. حتى... المصباح المنير ومختار الصحاح، فلم نجد هذه الكلمة

فهل يتفضل السيد العلامة الكبير وحيد بك بأن يرشدنا — أنا والأصدقاء المنضمين إلىّ فى هذا السؤال — إلى المرجع الواردة فيه الكلمة المذكورة؛ والذى نعتقد من تحقيق العلامة الكبير أنه من المراجع الموثوق بها. (ع . ع)

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

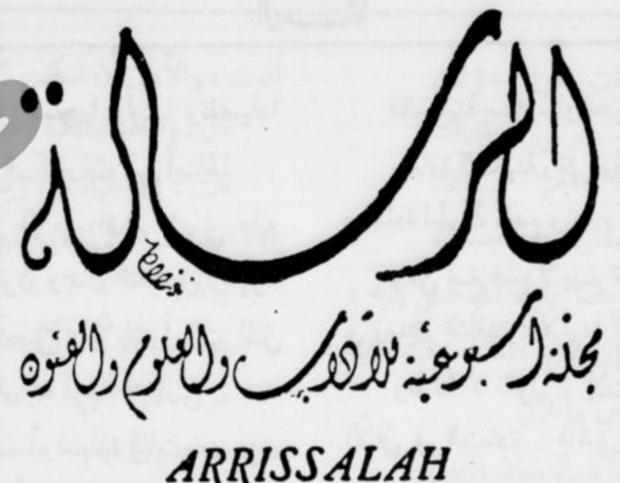


9me Année No. 431

Lundi - 6 - 10 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٣١ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٥ رمضان سنة ١٣٦٠ — الموافق ٦ أكتوبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

السعادة ...

للأستاذ عباس محمود العقاد

أرسل إلىّ الأديب عبد القادر محمود الذى عرف نفسه إلىّ بأنه « أحد الكتاب المحدثين » مقالاً عن السعادة مشفوعاً بخطاب يرجونى فيه « أن أصغى إلى حديثه قليلاً ثم أرد على صفحات الرسالة الغراء بما يروى ظمأه ويرشده إلى الحق إن كان قد حاد عن سبيله »

وخلاصة مقال الأديب أن السعادة وهم ليس له وجود ، وأن بعض الأشقياء مطبوعون على الشقاء فهم به سعداء ، وأن كل ما يقال عن السعادة إعادة لما قيل

ويسألنى الأديب بعد ذلك ماذا أقول ؟

فلا أدرى هل سأعيد قديماً بما أنا قائل فى هذه الصحيفة ، أو أننى مسوّغ هذه الإعادة بتصوير طريف

ولكننى لا أحسب الكاتب مطالَباً باختراع الآراء التى لم يسبق إليها ، ولا أرى عليه من غضاضة أن يبدى رأياً تقدم أصحاب الآراء بإبداء مثله ، وإنما الشرط أن يصدر عن تجربة ، وأن يروى من خبرة ، وأن يكون لكلامه لون من نفسه وحسه وتفكيره ، ولا عليه بعد ذلك أن يتشابه ما يقول وما كان قد قيل

والسعادة فى رأيى لا استحالة فيها إلا كالاستحالة فى كل مطلب من مطالب هذه الدنيا .

فأنت إذا أردت كسوة جميلة فى نسجها ولونها وتفصيلها

فأنت إذا أردت كسوة جميلة فى نسجها ولونها وتفصيلها وثمنها ومتانتها وجدتها حيث توجد الكثيرات من أمثالها

أما إذا أردت كسوة هى المثل الأعلى الذى لا يعلى عليه ولا يجارى فى جمال النسج وجمال اللون وجمال التفصيل وسهولة الثمن وطول البقاء فقد أردت المستحيل ، لأنك أردت المثل الأعلى الذى ليس له مثيل ، وهو بطبيعته فوق ما ينال

والسعادة إن أردتها سعادة لحظات أو سعادة لذات معهودات فأنت واجدها لا محالة فى وقت من الأوقات

أما إن أردتها سعادة العمر أو سعادة فى كل شىء لا نظير له ولا انقطاع لها فتلك هى الاستحالة التى لا تنفرد بها السعادة ، ولا فرق بين تعذرها وتعذر كل مطلوب على تلك الشريطة

فليست السعادة بوهم ، وليست الكسوة بوهم ، وليست اللقمة السائغة بوهم ، ولكن اللقمة السائغة مع رخصها وخجل بعض الناس من المقابلة بينها وبين السعادة تساوى السعادة الكبرى فى استحالتها إذا أنت خرجت بها من عالم المعهود وارتفعت بها إلى عالم الأحلام المأمول

لأن الاستحالة من طبيعة الأحلام ، وما من حلم يتحقق إلا بطلت تسميته بالحلم وانتقل إلى المحسوسات والمدركات

فالسعادة طبقات وأصناف

والصنف الرخيص منها موجود وموفور ومبذول ، والطبقة القريبة منها على متناول الباع الطويل والباع القصير

فإذا قيل : إن أصنافاً منها لا تبذل ولا تتوافر ، فكذلك الصنف الغالى من كل شىء ، حتى العدس والقطن والورق والتفاح

وإذا قيل : إن الطبقات العالية منها لا تنال أو لا تنال فى كل حين ولا ينالها كل إنسان ، فكذلك كل طبقة رفيعة من كل سلعة وكل ثمرة وكل موجود

هناك لحظات سعيدة فى الحياة . فهناك إذن سعادة لأمراء

ولكن ليس فى الدنيا أناس سعداء ، لأن السعادة اللازمة للانسان فى كل حالة وكل مطلب هى المثل الأعلى ، وهى الحلم ، وهى الغاية التى لا تدرك ، والبغية التى لا تنال

وما هى السعادة بعد هذا ؟

هل هى من عالم السكينة أو من عالم الحركة ؟ وهل السعيد من لا يتحرك ، أو السعيد من لا يسكن ؟

هى هذا وذاك ... ! !

فللسكينة سعادتها وللحركة سعادتها ، ولكنهما لا تتشابهان : سعادة السكينة رضى وارتياح خاليان من الشوق والطموح ، وسعادة الحركة تقدم ونجاح خاليان من القناعة والاكتفاء

ومن يبغ هذه لا يبغ تلك ، ومن طلبهما فليطلبهما متفرقين فى زمنين مختلفين ، لأنهما لا يجتمعان

وما لنا لا نقول : إن المثل الأدنى فى التعاسة نادر كالمثل الأعلى فى السعادة . فأشقى الأشقياء وأسعد السعداء فى الدنيا اثنان متكافئان متعادلان ، ولعلهما لا يوجدان ! !

ولو خرج أحد من الرحالين ليجوب أقطار الأرض باحثاً عن أشقى شقى للزمه من الوقت والعناء قريب مما يلزمه فى بحثه عن أسعد السعداء !

فلا يقل حانق على السعادة إنها مستحيلة فى هذه الدنيا ، لأن استحالتها من جنس كل استحالة ، ولأن يسرها من جنس كل يسر ، ولأن الفرق بين المثل الأعلى والمثل السائر فيها كالفرق بينهما فى أكلة أو لبسة أو رشفة أو ما شئت من متع الحياة

وهى ليست - بعد - شيئاً واحداً كتلك الجوهرة المكنونة التى يحكون عنها فى الأساطير ويتخيلونها فى كل يد تمتد بها على استواء ، لا فارق بين يد العبد ويد السيد ، ولا بين يد الجاهل ويد الخبير

وإنما السعادة سعادات : سعادة هذا شقاوة ذاك ، وسعادة إنسان فى حين من الأحيان غير سعادته فى غير ذلك الحين

أتسألنى عن السعادة المطلقة بالقياس إلى كل إنسان وإلى كل حين ؟

تلك ليس لها وجود ، وكذلك كل شىء مطلق من القيود والملابسات فى عالم القصور والفناء

* * *

ولنعلم أن اختلاف الناس فى أمر السعادة إنما هو اختلاف شعور قبل أن يكون اختلافاً فى الرأى والنظر

فهم يشعرون بالسعادة على اختلاف ، وإن فكروا فيها على اتفاق ؛ وهم يختلفون فى شعورهم بين عمر وعمر وبين حالة وحالة كاختلافهم فى كل ما يحبون وكل ما يكرهون

وأرجع إلى نفسى فأرانى قد شعرت بالسعادة على وجوه قلما تتماثل فى بضع سنوات

فى الشباب كنت أقول لها :

لا تطمعى اليوم منى بالسعى خلف خيالك

فقد سألتك حتى ملت طول سؤالك
وقد جهلتك لما سحرتنى بجمالك
فلا تغرى ببالى ولا أمر ببالك
أشقى الأنام أسير معلق بحبالك

تلك دالة الشباب يحسب أن السعادة خليقة أن تسعى إليه ، وأنه إذا أومأ إليها بيده فلم تبادر إلى لقائه فقد أسرفت عليه فى الدلال ، واستوجبت منه الإعراض والملال

وبعد حين كنت أحسب السعادة فى النسيان فأقول :

لذة النفس فى السلافة والشعر وفى الحب والسكرى والغناء
خير ما فى الحياة يا قلب ما أنسا ك ذكر الحياة والاحياء

وتلك هى مرحلة التجربة الأولى فى انتظار التجربة الثانية .

فأما التجربة الأولى فهى تجربة الفتور الذى يعقب الإلحاح الباكر : إلحاح الشباب فى الآمال

وأما التجربة الثانية ، فهى التى تعقب ذلك الفتور أو تلك الراحة ، من نشاط ووثوب

وجاءت فترة كنت أحسب السعادة فى الخطر :

عش آمن السرب كما تشتهى ما نحن ممن يغبط الآمنين
إن حياة الأمن فى شرعنا مشنوءة مثل حياة السجين
كلاهما يخفره حارس مسدد النظرة فى كل حين
أيتها الأخطار علمتنا بأننا الأحرار لو تعلمين

وهذه هى الفترة التى كنت أرى فيها الراحة حظاً للوضيع والتعب قسمة مفروضة على العظيم

إن الشقى الذى لا صنو يشبهه وللأصاغر أشباه وأمثال

ثم تكاملت عواطف النفس فتاقت إلى نصيبها من المجاوبة الناجحة والمقابلة المستوفاة ، وأيقنت أن السعادة مشهود لا يرى بعينين اثنتين بل بأربعة أعين ، وعاطفة لا يحسها قلب واحد بل قلبان متفقان ، فمن رامها بعينين وقلب فكأنما يرومها شطراً مسلوخاً من جسم ميت ، لأن الأجسام الحية لا تعيش شطرين

إن السعادة لن ترا ها فى الحياة بمقلتين
خلقت لأربع أعين تخلو بها ولمهجتين
لك مقلتان ومهجة أترى السعادة شطرتين؟

والتقيت بالزهاوى رحمه الله وأنا أومن بأن السعادة حقيقة وليست بأكذوبة ، فلما قال الأستاذ الزهاوى : لا سرور فى الحياة ولا لذة ، وإنما اللذة عدم الألم . قلت : هذا كقولنا إن الحياة عدم الموت ، والأولى أن تعكس القضية فيقال : إن الموت عدم الحياة

قال : ولم تقرن اللذة بالحياة وتجعل لهذه حكم تلك فى القياس ؟

قلت : إن الحياة قوة إيجابية لا قوة سلبية ، وكذلك الشعور بما يوافقها هو قوة إيجابية من نوعها وليس امتناع قوة أو عدمها ؟

والآن ؟

تسألنى ما قولك الآن !

قولى الآن أننى أعرف السعادة من وجهها ومن قفاها ، وفى صدقها وفى ريائها ؛ ولكننى أقاربها وأنا مشفق من عواقبها ، إذ أنا على يقين من كشف الحساب الذى يعقب كل نشوة من نشواتها . وكشف الحساب هذا عملة مسكوكة من المحظورات والمخاوف والشكوك ، وهى العملة التى تشترى بها السعادة على اختلاف أصنافها وطبقاتها ، فعلى قدر السعادة يكون الثمن ، وعلى قدر النشوة يكون الحذر والألم والتنغيص !

ولا أكتفى مع هذا بأن أقول : إن الخوف لازم لأداء ثمن السعادة ، بل أزيد عليه أن الخوف لازم لمعرفتها ولو بذلت لك بذل السماح ، وإن الخوف حافز إليها يغريك بنشدانها . فمن لم يخف لم يسعد ، وليس بالعالم الذى لا خوف فيه حاجة إلى السعادة !

عباس محمود العقاد

٩ ـ أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

استجابة

أعود إلى الكتابة تحت هذا العنوان استجابة لنداء الحياة ونداء النفس ؛ فقد نادتني الحياة الانسانية الراهنة الزاخرة إلى الايمان به وبمستقبله برغم إثمه وشره في عصره هذا ، وحملتني على ذلك بنبوتها ومعجزاتها . والحياة المدنية الحالية نبوة ! نبوة شبوعية ... أخذت جميع أمم الأرض بمعجزاتها وأخضعت أعناقهم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعة . فلنعرفها على حقيقتها . ولنعلم أنها باب الملكوت الذي وعدت به رسالات الشرق الأولى التي وجهت الانسانية

إنها نبوة الطبيعة وقوانينها ، وحقائق الأشياء وبراهينها ... لا نبوة الارشاد والتربيب والكلام الذي ألقاه الرجال الآباء في سمع الانسانية وهي في أدوار تكوين الضمير وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والاخلاص وسمو النظرة إلى الانسان في حياته هنا وفي مصيره هناك ... وهي صفات لا بد منها في المهود والمدارج ...

فاذ أنا لم أستجب لنداء هذه الحياة بالجسم الخفيف السريع ، والفكر اللطيف المباح الحاذق الفطن لأسرارها ، الواعي لخطرها وقيمها ، العارف باتجاهات قافلتها ... كنت من المتخلفين البلداء الكافرين بنعمة الله ! ولله في هذه الحياة المدنية الحالية نعم جليلة لا يكدرها إلا عنف وحماقة وطيش من بنيها

وقد نادتني النفس التي حاولت جهدي أن أحفظ لها حدودها وطابع عالمها الخاص وألا أسمح بطغيان الجسد عليها طغيانا يجعلها تذهل من ذاتها وتخلط بين معدنها الخاص والمعادن الأرضية إلى الايمان بها كذلك ، وحملتني على ذلك بما كشفته لي من آفاقها الخاصة التي لا دخل للتعليل البيولوجي والفسيولوجي فيها

وكنت حريا — وأنا أطلب الحق — أن أستمع الندائين فأوفق بين نداء النفس ونداء الحياة ، وأن أرى ضلال الذين عكفوا على الحياة المادية وحدها أو على النفس وحدها ولم يزاوجوا بينهما

إنتقال أسرار الطبيعة إلى الفكر — خليفة القهار — إدراك المادة ثم النفس ثم الله — لا عمق في العالم المادي — الفكر مجال مؤقت ومجال منتظر — باب مفتوح وباب مغلق — مضى عهد مضغ الكلام — لا سدود أمام الانسان — الطبيعة هي الحكم فيما يمكن وما يستحيل — تربية تعلم غزو الطبيعة — الطبيعة المطيعة — عصر الاحساس بقدرة الفكر — أسئلة يجب ترديدها دائما

ألقت الطبيعة أكثر صورها إلى فكر الإنسان ، وانتقل إلى ذهنه جانب كبير من أسرارها وقوانينها ، فصار يقلدها ويصنع في موادها ما يشاء من ألوان التجسيم والتشكيل والتحريك ، ويسلط بعضها على بعض ، وصار له مقام معلوم ملحوظ بين عوامل التكوين والتخريب فيها ...

وقد بنى أساس هذا التقليد على قواعدها الكلية ، وبقي التنويع والتفريع الذي لا ينتهي في الجزئيات والأشكال

وقد وصلت يده إلى منابعها وموادها الأولية : فهو يبحث الآن في الذرّة والكهرب والأثير ، ليعرف المبادئ الأولى للمادة والقوة والدفعة الأولى التي ابتعثتهما ودفعتهما ...

فماذا ينتظر الإنسان بعد فراغه من هذا التسلط ؟ وما هي النتائج ؟ أهي المغالبة والمنافسة والشهوة على الأساليب التقليدية الجاهلية ؟ إن هذه نتائج لا تتلاءم مع عالم فكره العالي ، ولا يصح أن تكون أهدافاً لهذه الصرامة والجد العظيم الذي تسير به الحياة وقوانينها في خدمته ... وإن المغالبة والمنافسة والشهوة بأساليبها المعروفة الوضيعة ، ينبغي أن تكون غير ذات خطر عنده ، بعد أن عرف آفاقاً جديدة لشهوات رفيعة ، وهي تحقيق أحلامه في الكشوف العلمية والانطلاق السريع بالطيران والسبح والسبق وإزالة الحواجز والسيطرة على القوى الآلية ، وغير ذلك من طلائع مجده وملكوته المرتقب !

إن الله قاهر فوق الطبيعة ، وهو يدرب « خليفته » في الأرض على التغلب على العقبات التي تعترض طريق أحلامه الطليقة وأفكاره المحررة من قيود المواد الثقيلة . والله أنشأه في الضرورات والآلام ليفتق هو الحيلة للخلاص منها ، ويكمل وسائل السيطرة الذاتية على المادة ؛ وإذا اطرد السير على منهاج تاريخه الذي عرفناه ، فسوف يتغلب على كل شيء

إن فكر الإنسان قانون ينمو ويتدرج غير واقف عند حد ؛ وقوانين الطبيعة صارمة جامدة متحجرة . ونموه في ذاته يجعل الطبيعة نامية به . ألا ترى ما يستحدثه فيها من المعجبات التي لا تنتهي ؟

وأرجو أن يفهم هذا القول فهماً عميقاً ، لأننا إذا فهمنا فكر الإنسان على هذا ، أدركنا موضعه ورسالته في الوجود ، وأحللناه محلاً رفيعاً يدفعه إلى العمل والسير في منهج محدد واضح ، وحملنا ذلك على أن نحوطه دائماً بقوانين تحفظه من الارتداد والضلال ، ونتدرج به حتى نستوعب كل مباحث المواد والقوى ، ونستخرج به أسرارها الكامنة ، وننتقل به نقلة تسلمنا إلى الوقوف على عتبات عالم آخر ، لعله أن يكون عالم النفس ...

وإن إدراك النفس لا يتأتى إلا بعد إدراكها ما في الكون المادي ؛ وهذا هو سر قلقها ونبشها في الطبيعة وعدم رضاها عن ركن واحد منها ؛ وكلما أخذت من الطبيعة سراً ، أحست أنها

تقترب به إلى إدراك ذاتها الجزئية ، لتدرك من وراء ذلك علماً من الروح الأكبر !

أجل . إن إدراك الكون لا بد منه لإدراك النفس ، إذ أن الفكر يرى كل عمق فى الحياة المادية يصير ضحلاً بعد ترديد النظر عليه واستيعابه بالإدراك . وطبيعى أن تشعر النفس بعد هذا الاستيعاب أنها أوسع وأعمق من الموجودات المادية ؛ وأن ترى آفاق الحياة المادية عددية لا أكثر وليس لها عمق ولا نهائية ؛ فهى فى موجودات الطبيعة ومستحدثات الإنسان لا تتعدى اختلاف النسب التركيبية بين العناصر التى تزيد قليلاً على التسعين

وما يخيل إلى البعض من أن هناك أعماقاً وأغواراً لا تنتهى فى المادة إنما هو صورة مما يحدث للناظر إلى لوحة فنية بارعة ذات صنعة موحية مثيرة للشعور باللانهائية . حتى إذا ما كشط سطحها قليلاً تذكر أنها ليست أكثر من تمويه وتخييل وبراعة فى بسط الأصباغ والأضواء والظلال وقبضها ، وتكشف له السطح الزاخر باللانهائية عن باطن محدود لا يتعدى ألوان الطيف السبعة !

إن الإنسان لم يعد يؤله الماء والنار والهواء والتراب ويفرغ عليها أوهام القداسة والهول اللذين كانا لها فى ذهنه قديماً ، بعد أن حلل عناصرها وركبها وتسلط عليها وسبر أغوارها . ولم تعد النفس العالمة التى تشرف على لجة البحر أو لجة الهواء أو أغوار التراب أو جحمة النار ، ترى فيها أكثر من مواد وقوى عمياء محكومة بقوانين أخذتها النفس فى حوزتها وجعلتها من مدخرات فكرها ، وتستطيع أن تولد بها ناراً وهواء وماء . . .

إنى أشعر حينما أقلب بصرى فى آفاق السماء وآفاق الأرض أن فكرى لا يستطيع التعمق فيها إلى ما لا نهاية ، بل يقف عند نهايات معينة هى العناصر المحدودة التى تألفت منها مادة السماء والأرض ، والنسب الهندسية والحسابية التى قام عليها بناء الأجسام وتشكيلها ؛ ثم يبدأ الإحساس بفراغ وعماء لا صور فيه ولا خواطر عنه

وطبيعى أن نظرة مثل نظرتى هذه لا يكون وراءها إحساس بخشية من الطبيعة ذاتها كما كان الأمر عند سكان الأرض القدماء الجاهليين، لأن حدودها رئيت وأسرارها عرفت وصورها طبعت فى النفس، ولكن يكون وراءها إحساس بخشية ورهبة من ذلك الذى خلقها هائلة هكذا وجعلها بهذه النسب الرياضية والهندسية والقوة الهائلة الجبارة . . .

إذاً ما هو المجال الحيوى غير المحدود لهذا الفكر الإنسانى الذى يرى عمق الكون المادى ضحلاً بعد ترديد النظر عليه ومعرفة أسرار تركيبه وقوانينه الهندسية والرياضية ؟

إنه لا بد عالم لا نهائى لا تدركه الأبصار والمناظير ولا تحلله المخابير ، ولا تسبر آفاقه المسابير والمعايير ، ولا تدركه علوم الزمان والمكان !

وطبيعى أن هذا المجال الحيوى بهذا الوصف لا يمكن أن يكون للفكر الإنسانى قدرة على إدراكه هنا فى هذه الدار التى نعيش فيها بالحواس وقيود المواد الثقيلة الكثيفة ، والفكر المحدود

ولهذا يجب أن ينصرف الفكر الإنسانى عن محاولة اقتحام هذه السبحات ويتوجه إلى المجال المحدود المؤقت الذى وضعنا فيه لندركه هو أولاً ونفرغ من استيعاب أسراره وظواهره

وإن من يريد التعمق الآن فى إدراك ما وراء الطبيعة ولا يقنع منه باللمحات والخطفات فلن يظفر بمحصول غير الشرود والخبال

وقد برهن تاريخ الإنسان على ذلك . فالأمم التى لا تزال تطلب فى هـذا العصر علم اليقين بالنفس والله قبل إدراك قوانين العلم الطبيعى ، والتى لا تزال تطلب الله عن طريق الشعر والوجدان وحده كالهندوكيين ولا تطلبه عن طريق البحث فى أرضه وهوائه ومائه والتطلع العلمى إلى سمائه ، ولا تقتص آثار يده فى صنع نماذج الطبيعة لتعرف مقدار ما عنده من العلم والإحاطة بالجزئيات والكليات، ولا تلخص أسرار صنعته وتختزلها فى قوانين ومعادلات حسابية وجبرية ، ولا تحاكى نماذج الطبيعة ، إنما هى أمم بدائية ضالة طريق تحقيق الأوطار والأشواق إليه ، جل مجده ، قليلة العلم بما عنده من أفانين تتجدد ولا تنفد ، تعرفه عن طريق العواطف والرموز، لا عن طريق الفكر والوضوح

إن الإرادة العليا مصرة على إغلاق ما وراء الطبيعة الآن أمام فكر الإنسان ، ولعلها تفتحه بعد أن يفرغ من إدراك كل ما فى الطبيعة أولاً

أما الطبيعة ذاتها فقد دل تاريخ العلوم على أن أبوابها تفتح لمن تركوا اتخاذ الكلام غاية وحيدة للحياة ، وعكفوا على محاربها وأطفالها وموجوداتها يقلبون النظر والفكر واليد فيها ثم يتكلمون بعد ذلك . . .

إن الكلام وسيلة لا غاية . هو قوالب لاختزان المعانى التى تنشأ من المزاوجة بين خواطر الفكر وخواص المادة . هو أوعية

الحقائق المرفوعة من الأجسام، إلى عالم التعبير والصور والأرقام. فلا يصح أن تمتلئ بتكاذيب الأماني وتخييلات الأحلام، إلا أن تكون تمهيداً من عالم الخيال والمثال لعالم الواقع. وكثيراً ما هدت سوانح الشعر إلى حقائق العلم...

* * *

فلا يضمن أحد السدود النظرية أمام عمل الإنسان فى الطبيعة ما دامت هى تلبيه وتتفتح له وتنتج. ولا يجوز حمله على السكون والركون إلى مواريث الأفكار القديمة التى تجعل الطبيعة أمام الإنسان حرماً مقدساً يجب التهيُّب من الشروع فى تغيير شىء فيه أو تنقيحه بالزيادة أو النقصان...

فهى وحدها الحكَمُ الذى تُرضى حكومته فى العمل فيها أو تركه...

فما دامت تفتح له الأبواب وتهتك الأستار فليدخل وليتوغل وهو موقن بأن هذا عمله الذى خلق من أجله... وليس إبقاء الطبيعة كما هى بدون تغيير عبادة" كما كان الزعم القديم، ولكن صار تغيير الطبيعة إلى الأصلح هو العبادة...

والتربية الناجحة هى التى توحى للنفس ألا تتقهقر وتتضاءل وتنزوى فى نفسها أمام قوى الطبيعة، بل تجعل من النفس قوة غازية موجبة غير سالبة، تؤثر فى الطبيعة بالتسخير والتحويل والتنقيح... والتربية الشرقية على العموم لا تزال تؤول قصور النفس الناشئ عن الجهل والكسل والعجز أمام الطبيعة بتأويلات تحمل فيها الأقدار العليا أكثر مما تحتمل، وتفر من وجه السدود والعوائق تحت تأثير قناعة مصطنعة تحيكها أخيلة طفلية، ولا تأخذ ما فى الحياة وإنما يأخذها ما فى الحياة

وقد كان الاعتماد على القوى السحرية هو أساس العمل لتحقيق الأمانى؛ والآن صار الاعتماد على القوى الآلية فى الطبيعة هو أساس ذلك العمل

لقد قدمت الطبيعة الطاعة أمام فكر الإنسان؛ فهو يأخذ نواصى كثير من قواها بقوانينها هى، وقد عرف الأبواب الخفية التى يتسلل إليها منها فأمعن فى غزوها

وإن أعمال العلماء الطبيعيين قد اكتسبت من جبروت الطبيعة شيئاً من الهول والاجتياح والاتساع؛ فمدافع كروب الثقيلة البعيدة المرمى، والقنابل الشديدة الانفجار، والقلاع الطائرة، والمناطيد، والخزانات العظيمة، والمحطات الكبرى لتوليد الكهرباء، والمصانع الواسعة، والإذاعة المبثوثة باللاسلكى وتمهيد الطرق العظيمة كطريق نيويورك — ميامى مثلاً، أو إكسبريس الشرق وغير أولئك... كلها أعمال عظيمة تمتاز بطابع الاتساع والهول والجهد الجبار

ولا يتوهمن متوهم أن هناك عداوة وغيظاً وحرباً ذات حقد بين الإنسان والطبيعة، وإنما الطبيعة صدر رحيب كصدر أم يمرح عليه أطفالها

نحن بنو الطبيعة ونتاج عواملها وتأثيراتها الظاهرة والخفية، جسمنا منها وعقلنا وتجاربنا، ولكن روحنا من الله بارئها؛ ولذلك كان لنا قدرة عليها وافتنان فى تنقيح موجوداتها ومحاكاتها والزيادة عليها... فلنبدأ عصر يقظة بالإحساس بحياتنا الممتازة، والإحساس بقدرتنا الفائقة على الأعمال العظيمة. وليكن ديننا هو حيرتنا ودهشتنا: كيف خلقنا؟ وكيف اقتدرنا؟ وكيف نعلم؟ وكيف نعمل؟

إن الراحة الدائمة هى فى أن نلقى بأجسامنا على صدر الطبيعة مفكرين فيها باحثين عاملين... وبأرواحنا بين يدى ربها متعرفين إليه صابرين على الدهشة والحيرة والإيمان بالغيب حتى يأتينا اليقين فى الآفاق وفى الأنفس. ولا بد وراء ذلك من تأويل ويقين!

قد يطير الطير فى أجواز الفضاء وهو فى ذهول... وقد يسبح الحوت فى جوف العباب وهو فى ذهول... وقد تَدْرُجُ الوحش والأنعام والبهائم على أديم الأرض وهى فى ذهول...

ولكن ابن الإنسان ينبغى له أن يتساءل دائماً: كيف أحيا؟! وكيف أفكر؟! وكيف أدرُج؟! وكيف أسبح؟! وكيف أطير؟! ثم كيف أريد وأقتدر؟!

وينبغى له ألا يغفل عن ترديد هذه الأسئلة:

ما الذى أخرج الإنسان من ركام الموات والجمود ومختلط القوى العمياء التى يزخر بها الكون؟

وما الذى وضع فكر الإنسان واختياره وسط الدورات الجبرية التى تتداول الأرض؟

وما الذى هيأ له مهاده الوثير المريح المستقر وسط النيران والصخور وتدافع القوى العمياء؟

إن رحلة واحدة فى جوف الماء الزاخر، أو الهواء الدافع، أو النار الموارة، أو التراب الثقيل الفادح المتراكم... كافية أن تشير لنا إلى موضعنا وخصوصياتنا فى الكون، وإلى رعاية من أخرجنا وسط هذه الأهوال والقوى العارمة المجنونة فى مهاد من رحمته بين عوامل جبروته وسطوته!

عبد المنعم محمد خلاف

التصريح بعـــد التلميح

فى توجيه الجيل الجديد

للدكتور زكى مبارك

كنت أوهم قرائى أن غايتى من المصاولات القلمية هى إيقاظ الحياة الأدبية بعد أن طال عليها الهجود . وذلك غرضٌ نبيل ولكنه أصغر من الغرض الذى أتسامى إليه ، وهو نقل المجتمع فى أخلاقه وآدابه من حال إلى أحوال

وقبل المضىّ فى شرح الغرض الذى أرمى إليه بهـذا المقال أذكر أن المجتمع المصرى مجتمع سليم ، فقد نهض بأعباء لا ينهض بها من يكون فى مثل حاله من التعرض لمكاره التقلبات الدولية . وخبرتى بطبقات المجتمع فى كثير من البلاد الشرقية والغربية دلتنى على أن المجتمع المصرى مفطور على التماسك ، وأقنعتنى بأن شبان مصر على جانب من الأخلاق التى تصوغ أكابر الرجال ، وإلا فكيف سَلِمتْ مصر من التصدع برغم ما تعانى من حوادث وخطوب ؟

هذا حق ، وإذن فلا خوف على مصر ما بقيتْ تلك المناعة من الانحلال

ولكنى مع ذلك خائف على مصير بلادى . فنى كل يوم أرى جماعات تغرى الشبان بالرجعة إلى العصور السحيقة ، عصور الجمود والخمود

ومن عجيب ما يقع فى مصر أن تكون الدعوة إلى الأخلاق مقصورة على أناس لا يعيشون إلا بأسندة من المجتمع ، مع أن العقل يوجب أن تصدُر الدعوة الأخلاقية عن رجال أقوى من المجتمع ، رجال يقيمون البراهين على أنهم فى حيوية ذاتية تعصمهم من المداهنة والرياء ، وتضمن لهم النجاة من مزالق التصنع والازدلاف

الدعوة إلى الأخلاق تصدُر عن الأقوياء لا عن الضعفاء ، لأن الأصل فى الخُلُق أن يكون قوة روحية وعقلية وذوقية تصل بصاحبها إلى شرف الثقة بالنفس فى غير ازدهاء ولا اختيال

أما صدور تلك الدعوة عن أناس لا يستطيعون مواجهة أمواج الحياة إلا إن أمددناهم بالعون والرعاية فهو عمل لا نرضى عنه إلا إذا نوينا التصدق والإفضال

وأقول بصراحة إنى لا أستريح إلى من يدعوننا فى كل يوم إلى التخلق بأخلاق العصور الذواهب ، بعد أن عرفتُ ما عرفت من أخبارها السود ، فقد كان الرجل يُسجن و تُستصفَى أمواله بلا تحقيق ، لأتفه الشبهات ، وكان التاريخ يُكتَب بالأجر فيجوز فيه الكذب والتهويل بلا حساب

فى العصور الماضية وُجِد حكام ولم توَجد شعوب ... وإنى أحب أن يكون فينا رجل مثل عمر بن الخطاب ، ولكنى أكره أن نعيش على النظام الذى عاش عليه عصر عمر بن الخطاب ... وأنا أرحّب بعودة هرون الرشيد ، ولكنى أكره أن يعود عصر هرون الرشيد ، فما يسمح عقلى بقبول الصورة التى عاش عليها المسلمون فى عهد ذلك الخليفة العظيم ، وإن لوّن عهدَه بروائع الألوان

وما رأيكم فى الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى وُلد فى بلادنا النائية ؟

كان غاية الغايات فى إيثار العدل ، وأنا أتمنى أن يعود ، إن كان للأموات إلى الدنيا مَعاد ، ولكنى أكره أن يعود عهدُه مرةً ثانية ، فقد كانت الأمم الإسلامية فى تناحُر وشقاق ، وكانت الإدارة الحكومية أضعف من أن تجمع الشمل ، وترأب الصدع ، وترتق الفُتوق ، فكانت أيامه قنطرة تحمل أثقال الفِتن من جانب إلى جانب ، بلا نِظام ولا وثاق ، وهى أيام لها سوابق ولواحق ، وبشؤمها المأثور هوت الأمم الإسلامية إلى المهاوى التى سجّلها التاريخ

وخلاصة القول أن « السّلف الصالح » لا يتمثـل فى غير الحكام العادلين ، وهم آحاد أو عشرات ، أما الشعوب فى تلك العهود فلم يكونوا يحتكمون إلى غير السيف ، وقد كان وحده الفَيْصل فى أكثر ضروب الخلاف

ماذا أريد أن أقول ؟

أريد النص على أن التعلق بأهداب العصور الماضية ضلال فى ضـلال ، وأن الذين يريدون أن يردّونا إليها ليسوا إلا أحياء يحملون قلوب الأموات ، وإن تردّوا بأردية الصالحين والأتقياء !

لم يكن للشخصية الفردية وجود صحيح فى العصور الخوالى ، ولا كان أحد يجرؤ على مواجهة الحكام بنقد ما يقع فى أعمالهم من جور واعتساف ، إلا نوادر من المعارضات قام بها أفراد من الزهاد والصوفية . نوادر فَرِح بها عشاق الصراحة والعدل

فسجلوها بطنطنة وتهليل ، لأنها كانت فى أنظارهم من جملة الغرائب والأعاجيب ... وهل يُنَـص على شىء إلا إن كانت فيه غرابة توجب الالتفات ؟

وخلاصة القول أنى أدعو إلى مدنية العصر الحديث ، فهى آخر ما اهتدت إليه العقلية الإنسانية ، وإن لم تخلُ من نقائص وعيوب . وسنساير هذه المدنية إلى أن تجىء مدنية أفضل منها وأنفع ، على فرض أن العقل الإنسانى يرتقى من يوم إلى يوم . ولعله يكون كذلك بفضل ما يرتطم فيه من مآثم الطغيان الدولى ؛ وهو طغيان يخلُق النفرة من البغى والعدوان ، ويورِّث نار الثورة على الظلم والظالمين

والحق أن عيوب المدنية الحديثة ليست بشىء بجانب مزاياها الأساسية ، وإنما يقع الخطأ من الغفلة عما لهـا من محاسن ، والوقوع فيما لها من عيوب . ولو كان لنا جميع فضائل الأقوياء وجميع مساويهم لتبدّل الحال غير الحال وصرنا على جانب من المَنَـعة نصاول به من نعاصر من كبار الشعوب ، ولـكن الخوف يساورنا من ناحية واحدة ، هى صعوبة التسلح بالفضائل وسهولة التردى فى العيوب

وهنا نقطة دقيقة لا أحب أن يَغفُـل عنها قرائى ، فقد يتوهمون أنى أنهاهم عن اتباع ما ورثوا من محمود التقاليد ، — وهذا وهمٌ فظيع — ففى التقاليد القديمة أشياء وأشياء تستحق الإعجاب . وليس عندى ما يمنع من أن يكون فينا من يساير المحمود من تقاليد القرن الثالث أو الرابع ، على شرط أن يحسّ تلك التقاليد إحساساً يمنحها قوة الفاعلية الأخلاقية ، أما متابعة السلف بلا وعى ولا إحساس فذلك ضربٌ من الجمود البغيض ، لأنه يردّنا إلى الحيوانات التى تسير فى طريقها المرسوم بلا تبصّر ولا إدراك . وبالإشارة يكتفى اللبيب !

لك أن تساير ما تشاء من المبادئ الأخلاقية ، مادمت تؤمن بالمبدأ الذى ارتضيته منهاجاً لحياتك ... وقد أصل إلى أبعد الحدود فأقول : إنه لا خوف عليك من التخلق بأبغض الأخلاق فى نظر المجتمع ، على شرط أن تكون اقتنعت فى سريرة نفسك بأنك على هدًى وأن معارضيك فى ضلال . فالذى نشكوه هو ضعف العزيمة الخُلُـقية ، كأن نرى جماهير تسير سير القطيع بلا إرادة ولا تمييز ، وتلك بداية الخذلان

يجب حتماً أن تكون لك إرادة صحيحة فيما تنصرف عنه وما تُقبِـل عليه . ولا قيمة لطواعيتك لآداب المجتمع إن خلَت تلك الطواعية من النية ... وهل يثاب من يقرأ القرآن على طريقة الببغاء ؟

لقد أنكر قوم صحة الصوم بالنسبة إلى من لا ينوى الصيام . فما معنى ذلك ؟ معناه أن العمل بلا نية ضياع فى ضياع

وأنت قد رأيت ناساً تأدبوا بأفضل ما أُثِر من آداب المجتمع ، ثم ظلوا متخلفين . ورأيت ناساً ثاروا على المحمود من تقاليد المجتمع ، فما ضرَّهم ذلك ولا فاتهم شىء من الطيبات . فهل تعرف سرَّ هذه الظاهرة الحيوية ؟

يرجع السرّ إلى أن النية هى الأصل فى موجبات الضر والنفع ؛ فالذى يساير التقاليد الجيدة خضوعاً للمجتمع بدون أن يكون له فى الإيمان بها نصيب يظل طول عمره ضعيف الـكفاية الأخلاقية ؛ وقد يُنسى فلا يشهد يوم الحساب ، لأنه صار أداة آليـة ، ومن كان كذلك فلا مكان له بين من يستحقون الحمد ، ومن يستأهلون الملام ... والذى يثور على المجتمع وهو مؤمن بأنه على حق — وإن كان فى الواقع من المبطلين — هذا الثائر قوى جداً من الوجهة الأخلاقية ، وهو أقرب إلى الله ممن يسايرون التقاليد الجيدة وهم غافلون عن مدلولها الصحيح

وهنالك طبقة منحطة أبشع الانحطاط ، وهى الطبقة التى تثور على التقاليد المحمودة بلا نية ولا إرادة ولا عزيمة ، وإنما تصنع ما تصنع على سبيل التظرف السخيف ، لأنها سمعت أن الثورة على تقاليد المجتمع تمد أصلاً من أصول التمدن الحديث ، وهـذه الطبقة هى التى تعوّق الوثبات الإصلاحية ، وهى التى تعطى الحجة لأهل البلادة من دعاة الخضوع لقديم التقاليد ، بلا تفريق بين الزائف والصحيح

وهؤلاء المتظرفون السخفاء هم خصومنا الألداء . فاليهم يرجع السبب فى نفرة الجمهور من الوثبات الإصلاحية ، وإن كان حالهم أقل بشاعة ممن يسايرون القديم على علاته ليسرقوا ثقة المجتمع الغافل عن مسالك أهل الرياء

والرأى عندى أنه لا قيمة لأى عمل إن لم يَصدُر عن النفس بحرارة وإيمان ، وإن كان فى ذات نفسه من جلائل الأعمال ، لأن القيمة الأخلاقية ترجع فى جوهرها إلى النية الصحيحة

فيما نأتى وما ندع ، بغض النظر عن الاهتداء إلى طريق الصواب. وقد ينتفع المخطئ أعظم الانتفاع بما يزاول من أخطاء ، لأن الله لا يحاسب من يقعون فى الخطأ عن جهل ، ولأن أعمالهم حين تتسق مع ضمائرهم تصون الشخصية الخلقية من الانحلال ، ولا كذلك من يعملون الصالحات بغير نية أو عقيدة ، فأعمالهم لا تقدم ولا تؤخر

وفى رياضة النفس على التطبع بكرائم الأخلاق أواجه الموضوع بعبارة أوضح وأصرح فأقول :

إن عندنا اليوم جمهورين يقتتلان حول القديم والحديث من التقاليد ، ولكنه اقتتال غير منبعث عن عقائد راسخة الجذور فى الصدور ، ومن أجل هذا ظل عديم الجدوى فى إيقاظ الحياة الأدبية والاجتماعية ، وقد ينقضى هـذا العصر بدون أن نشهد ثورة فكرية تحل عقال الأفئدة والعقول كالثورة التى شهدها من عاصروا محمد عبده وقاسم أمين

ولـكن ما أسباب هذا الجمود الدميم ؟

ترجع الأسباب إلى نوع الحياة التى يحياها المفكرون فى هذا الجيل ، وهم فريقان : فريق يعيش فى ظل الوظائف الحكومية ، وفريق يعيش فى ظل المنافع السياسية

أما الفريق الأول فأسير للمثل المغربى : « صاحب الوظيف وصيف » وانطباق هـذا المثل على الموظفين لا يحتاج إلى بيان . فالموظف فى مصر يهدَّد فى رزقه وأرزاق أبنائه حين يتعرض لغضب المجتمع ؛ والمجتمع يغضب لأضعف الأسباب ؛ وهو يريد أن يكون الموظف أداة حكومية كالأداة التى تسجل حضور الموظفين فى الصباح بدون أن تعرف ما تصنع ، فإن استباح الموظف لنفسه حرية الفكر والقول فله الويل ! ... أليس فى الدنيا أناس يحرّضون الرؤساء على مرءوسيهم بالخطابات السرية أو بالغمز المرذول فى بعض المجلات ؟

وعلى هذا يكون الأمل ضعيفاً جداً فى انبعاث الحياة الفكرية من بيئات الموظفين ، مع أنهم صورة الاستنارة الفكرية فى جميع البلاد ، بفضل حظوظهم من التثقيف والتهذيب

وأما الفريق الذى يشتغل بالسياسة من أهل الفكر والعقل فالأمل فى ثورته على غفلة المجتمع أضعف من الضعف ، لأن هذا الفريق يفكر دائماً فى المعارك الانتخابية ، وهى معارك لا يفوز فيها من يتعرض للقال والقيل ، ولو كان من أكابر الحكماء

السياسى لا ينجح أبداً إلا إذا راعى أهواء المرءوسين ، وفيهم الأحمق والعاقل ، والبليد واللبيب ، على تفاوت فى هذه الصفات لا يسرنى أن أقول رأيى فيه بغير التلميح

وعلى هذا يضعف الأمل فى انبعاث الثورة الفكرية من بيئات السياسيين ، كما ضعف الأمل فى انبعاث تلك الثورة من بيئات الموظفين .

فإلى أين تسير بلادى الغالية ؟ وكيف يجوز أن يمرّ بها زمن طويل أو قصير وهى محجوبة عن أقباس الحرية الفكرية ؟

هذا رجل يظاهر التمدن القديم ليقتات من فُتات الرجعيين ، وذاك رجل يظاهر التمدن الحديث لينتفع بجاه أدعياء التجديد ، وذلك مخلوق يساير أولئك وهؤلاء بلا بصيرة ولا يقين ، لأنه فى حقيقة أمره حيران ، أو لأنه ألِف السمسرة فى ميدان الأخلاق !

الرجعىُّ المؤمن بالرجعية غير موجود ، وإنما هو شبَح يتوهم أن له منفعة فى مؤازرة الرجعيين المزيفين

والمجدِّد المؤمن بالتجديد موجود ، ولـكنه غير مزوَّد بالشجاعة الوافية ، بدليل أنه يترك أخاه دَرِيئةً لسهام السفهاء ، فلا يدفع عنه كلمة البهتان ، ولا يمدّ إليه يد المواساة حين يناقشه الأغبياء !

إلى أين تسير بلادى الغالية ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟

لم ينبغ فى عصرنا مؤمن فى مثل حماسة الغزالى ، ولا صوفى فى مثل روحانية ابن الفارض ، ولا مرتاب فى مثل عقل أبى العلاء ، ولا فاجر فى مثل ظرف أبى نُوَاس ... فبأى وجه نلقى الله وقد خلا وادينا العزيز من أمثال هذه المعانى ؟ !

أتقدَّم إلى الله حطبَ جهنم وهم المذبذَبون بين القديم والحديث ؟ !

وكيف نجيب إذا هتف هاتفٌ يوم القيامة بأن المصريين فى بعض عهودهم لم يراعوا حقوق واديهم الجميل ؟

قد يقال : إن عندنا رجالاً يثورون على ركود المجتمع من وقت إلى وقت ؛ وهذا حق ، ولـكن ثورتهم فى أغلب أحوالها من الحديث المُعاد ، فهى فى ضعف المبتذلات ؛ فالنائب الذى صاح مرة بأن المصريين مختلفون فى الأزياء لم يأت بجديد ، فقد

سمع الناس هذه الصيحة قبل أعوام تُمدّ بالعشرات . وهذا الناثب نفسه لا يستطيع أن ينكر أن اختلاف الأزياء لم يعوّق « السلف الصالح » عن النهوض ؛ فما سمعنا أبداً أن الأزياء توحدت فى أمة إسلامية فى العصور التى يلقبونها بالعصور الذهبية ، حتى يصح القول بأن اختلاف الأزياء هو السبب فى تخلف الأمة المصرية ، والأستاذ الذى أتعب نفسه فى الكلام عن انحلال الأغانى الشعبية لم يأت بجديد ، فقد قيل هذا الكلام ألوف المرات ، ولم يكن توكيده فى احتياج إلى صيحة من عميد إحدى الكليات ! !

وأرجع فأقول إنى أكره أن يعيش الجيل الجديد بلا بصيرة ولا يقين ، لأن هذا الضرب من العيش ليس إلا ضرباً من الموت ، وإليكم أسوق بعض الشواهد :

كثر القول فى الدعوة إلى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية ، وقد شغلت نفسى بهذا الموضوع حيناً من الزمان ؛ ثم انصرفت عنه كل الانصراف ، حين شعرت بضعف الأساس الذى رجوت أن يقام عليه البناء

ولتوضيح هذا المعنى أقول : إنى رأيت الأزهريين لا يثقون بمعهدهم إلا ثقة صورية ، ولو شئت لصرحت بأنهم يثورون عليه ثورة لا يسترها غير السكوت ، بدليل أنهم لا يلتفتون إليه حين يجدون فرصة للتحرر والانطلاق

كانت مشيخة الأزهر إلى الشيخ سليم البشرى ، ومع ذلك ربّى جمهور أبنائه تربية مدنية لا دينية . ثم كانت إلى الشيخ أبى الفضل الجيزاوى، ومع ذلك ربى أبناءه تربية مدنية لا دينية . ثم كانت إلى أستاذنا الشيخ الأحمدى الظواهرى ، وقد ربى جميع أبنائه تربية مدنية . وشيخ الأزهر اليوم هو أستاذنا المراغى ؛ وقد ربى جميع أبنائه تربية مدنية ، وابنه مرتضى وكيل محافظة القنال وليس شيخاً لمعهد طنطا أو دسوق ؛ فماذا ترون فى مغزى هذا الشاهد الطريف ؟ ألا يدلكم على أن الأزهريين لا يثقون بمعهدهم إلا ثقة صورية ؟

إن كان الأزهر هو المثل الأعلى فى إعداد الشبان للحياة الدينية والدنيوية فكيف يفوت شيوخه الأجلاء أن يصونوا أبناءهم بالالتجاء إلى حصنه الحصين ؟

وإن لم يكن صالحاً لتربية هؤلاء الأبناء فكيف يفوت أولئك الآباء أن يصارحوا الأمة برأيهم فيه وهم هداتها إلى الدنيا والدين ؟

كان يتفق لبعض كبار العلماء أن يوزعوا أبناءهم بين المعاهد الدينية والمدارس المدنية ، كما صنع الشيخ محمد شاكر والشيخ عبد المجيد اللبان ؛ ولكن هذه الظاهرة قد انقرضت ولم يبق من الأزهريين من يربى أبناءه تربية دينية وهو يجد الوسيلة إلى تربيتهم على الطريقة المدنية . . . أليس لهذا المسلك من المعانى ما يوجب التفات من يسجلون التطورات الاجتماعية ؟ أليس هذا بشيراً أو نذيراً بأن الأزهر يريد أن يتحول ؟

وما يقال فى الأزهريين يقال فى كثير من الطبقات : فالمدرسون فى جملتهم لا يرضون أن يصير أبناؤهم إلى احتراف التدريس ، كأنهم يتوهمون أنه مهنة لا تمنح صاحبها أهلية الغنى والمجد . فكيف يؤدى المدرس واجبه تأدية حسنة وهو ينظر إلى مهنته بعين الاستخفاف ؟

والموظفون الذين ينشرون الثقافة الزراعية عن طريق المقالات والمحاضرات لا يرضون لأبنائهم أن يكونوا فلاحين ، مع أن الفلاحة هى أساس الثروة المصرية

يجب أن تؤمن كل طبقة بأنها شريك أمين فى الهيئة الاجتماعية . ويجب أن نحترم جميع أعمالنا احتراماً يصل إلى الحب لنتذوق طعم القيام بالواجب فى صدق وإيمان ، ولنسترد ما أضعناه من المنافع بسبب الفهم الخاطئ لاختلاف الطبقات ، وهو اختلاف لا يتم بدونه وجود صحيح

أما بعد ، فهذا مقال لم أرد به غير وجه الحق . وأنا أدعو جميع الكتّاب إلى الاهتمام بأمثال هذه الشؤون فى صراحة لا يصدها تهيب ولا احتراس ، وليثقوا بأن الشعب المصرى يقبل جميع الآراء ما صدرت عن نزاهة وإخلاص

الشعب المصرى لم يخذل داعياً من دعاة الحق ، ولم يصم أذنيه مرة واحدة عن كلمة الصدق ، فقد استجاب لجميع المصلحين ، وحفظ لهم منازلهم فى التاريخ ، فما تهيُّبُ بعض الكتاب من عرض ما يجيش فى صدورهم من الآراء الصحاح ؟

أقدموا غير هيّابين . فما فاز غير المزوّدين بفضيلة الشجاعة ونعمة الإيمان .

زكى مبارك

شاعر الجرمان الأعظم

يحيى ولفغنغ غوث

JOHANN WOLFGANG GŒTHE

لأستاذ جليل

طالع (يحيى ولفغنغ غوث) ناظم معاني (إنْ بالشعب ...) باللسان الجرماني على الدنيا سنة ١٧٤٩ وغاب سنة ١٨٣٢

وشعر ونثر — وقد هذب الدهر لغة القوم — فخير وبهر.

وقد روى الراوون محققين وصادقين أنه قَرزَمَ[١] وهو ابن ست سنين! «يا يحيى، خذ الكتابَ بقوة، وآتيناه الحكم[٢] صبيا»

وهو ثاني اثنين في الأقاليم الغربية لا ثالث معهما، وان يكون الثالث ... وإن سبق صاحب (هملت) في القريض بجملة أقواله فقد بذّ غوثُ شكسبير بفوست. ليست لشكسبير شبيهة فوست

وغوث هـذا هو ذو النقيبتين أعني العبقريتين: العبقرية الشعرية، والعبقرية العلمية. وهما عبقريتان لا تلتقيان عند إنسان. فأعظمْ بدماغ لف هاتين القوتين، وألّف بين الضّرتين![٣] أعظم به ثم أعظم!!

ولقد ظاهرت مؤلفات هـذا العبقري مقالات الوحديين والنشوئيين[٤] وأشياعهم كما ظاهرهم قريضه ـ أيما مظاهرة. وقال في (التحول)[٥] في مباحثه ذات القدر في النبات[٦] والحيوان مستقرياً مدققاً، ومفصلاً موضحاً، وهادياً أولى النهى إلى تلك القرابات الواشجات قبل أن يقول ابن لامرك، وقبل أن

(١) القرزمة: الابتداء بقول الشعر. (الأمالي، التاج)

(٢) الحكم: الحكمة. وفي حديث إن من الشعر لحكما أي حكمة ويروى: حكمة

(٣) الضرتان: امرأتان الرجل، سميتا ضرتين لأن كل واحدة تضار صاحبتها (اللسان) والضرائر الأمور المختلفة كضرائر النساء لا يتفقن (النهاية) بينهم داء الضرائر: الحسد (الأساس)

(٤) Évolutionnistes, Manistes

(٥) Tranformisme

(٦) في كتابه المشهور Métamorphose des plantes سنة ١٧٤٠

نسمع ابن دروين. ويدُ هذين الصكّين الملامتين في تينك للقالتين[١] الشهورتين بما بسطا في شرحهما ذا البسط وبتلك الإحاطة ـ مذكورة مشكورة لا تكفر. وللسلف الصالح كلمات في هـذه المعاني مختصرة متفرقة في المصنفات مبثوثة في المواضع المختلفة، وفي بعضها ما يلاقي تصريح بخنر وهيكل وهكسلي. وفي (الرسالة) ذات الرقم ٢٥٥ ص ٨٤٨ جملة ابن خلدون المجملة في تدريج التكوين. إنها سنة الله في إنشاء الكائنات «ولن تجد لسنة الله تبديلا»

والأستاذ (أرنست هيكل) يذكر في أكثر كتبه أعظم شعراء الجرمان ومفكريهم — كما يصفه — مفخماً ومتقوياً بأقواله في مقالاته (الوَحدية[٢]) ومباحثه المحكمة المحققة النشوئية. وقد أورد في كتابه (تأريخ الخلق الطبيعي[٣]) في الباب الرابع نصوصاً أو شذرات من مؤلفات (غوث) تعلن سبقه رجال (المذهب) في الاهتداء إلى ما هداه الله إليه

وكان نابغة الجرمان، سيد الجرمان يجل قائدنا وهادينا (أبا القاسم) إجلالاً كبيراً. ولن تفشى حسناتٍ لغوث تخاليطُ في (رواية). وقصيدته في يوم النصر، يوم الفصل، يوم (بدر) وشهدائه المؤمنين الخالدين الأبطال — شمس تضيء، شمس مضيئة أو سورة. وإن قوله في (القرآن) لهو القول. إنه يراه قد أعطِي فيه كل مقام حقه، وأخذ كل معنى من مقاصده لفظه كما يراه قوياً (إِشْتْيَرْنكْ[٤]) عظيما سامياً متعالياً (إِرْهابِنْ[٥]) رائعاً مهيباً (فُورْشْتْبارْ[٦]) قد خرق العادة؛ فلا غرو أن يبلغ أثره في العالم حيث بلغ

يا كتاب محمد، يا كتاب عظيم الدنيا، يا أعظم كتاب في هذا الكون، يا خالق هذي الأمة، يا باني ذاك المجد، هل يعرفك حق معرفتك إلا العبقريون، إلا الأقطاب الأغواث (النوئيون)؟!

(١) Théorie de la descendance سنة ١٨٠٩ Théorie de la sélection سنة ١٨٥٩

(٢) Manisme

(٣) Histoire de la création naturelle

(٤) و (٥) و (٦) ألفاظ جرمانية من وصف (غوث) (الكتاب المعجز الكريم).

هل يعرفك الجهلاء الأغبياء البله العمهون ؟

هل يعرفك العوام أو أشباه العوام من الأدبيين والممميين[١] ؟

هل يعرفك الشماريز أو المتشاعرون والكوتيبون الصغيرون الحقيّرون الأمعون[٢] ؟

هل يعرفك كل وغد نغل (مزور) مائق من المضللين الوخَين ؟

ألا إن القرآن في الكلام مثل محمد في الأنام ، فإن وجدت لمحمد خطيراً[٣] ألفيت للقرآن نظيراً « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »

وكان الأستاذ الأكبر (أرنست هيكل) يجهر كذلك بتبجيل (أكبر معاني الكون وصفوة النوع الإنساني) ، وبتفضيل شرعته — والإسلام يعلو ولا يُعلى — على تينك النحلتين . وذكره معظماً في كتابه (أحاجي الكون)[٤] أو معضلات الكون — وفي غيره من كتبه — وأظهر في ذلك الكتاب المادي أثر زيارته مساجد في نفسه حينما جاء الشرق (سنة ١٨٧٣) مادحاً هدوءاً وخشوعاً وسكينة فيها ، وهاجياً ضجيجاً وعجيجاً وشبذة في معابد أقوام وملة سماهم وسماها ، ولا أرى أنا أن أسميهم أو أسميها في هذا المقام حتى لا يغضب أصحاب لنا وأحباب

وغوت مطوق بفضل علمه وأدبه أجياد جميع الجرمانيين ، ولم يتفلت من قيد إحسانه متفلت منهم . فكل جرماني ـ كما يقول أحد الجرامنة ـ إما أن يكون قد درس مؤلفات غوت فاستفاد منها ، أو استفاد ممن درس مؤلفات غوت . ففضلُ (ذي المنقبتين) قد عم القوم قاطبة ـ عموماً

وإن شئت فقل : إن أمة غوت تتلو صحفه كما يتلو أهل الحنيفية (الكتاب) وكما يقرأ القراءون[١] من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل

وكتبه عند الجرمانيين ثروة كريمة جسيمة ، وقد أربت على أكثر من مئتي مؤلف

وغوت هو شائد الوحدة الجرمانية الحق ؛ فلغته وأدبه هما اللذان جمعا كلمة أولئك الأقوام المتفرقة ، وألفا بين قلوبهم المتوزعة . ولو أقامت (سياسة بسمرك) ألف سنة تجد في الفهم والتأليف ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن غوتاً ألف بينهم . إن سلطان الأدب والأديب واللغة في الأمم لقوي عظيم

وصيت هذا العبقري ومكانته في غير أمته من الغربيين مثلهما في أمته . وخلقه العالي وفضائله أعظم من شعره العجيب وعلمه . قال له كبير ذات يوم : ياغوث ، لقد أفاد الناس سلوكك ، وسيرتك أكثر مما استفادوا من علمك وأدبك . وأدبه وعلمه هما ما علمت

وإن بلاغة غوث وبراعة شكسبير لتعجزان عن أن تبينا فضائل تلك السيرة مزاياها وعجائبها ، فالجأ إلى التوهم واسجن في عالمه

وقال نابليون بونابرت وهو يومئ بيده إلى القطب النوث (غيث) : هذا رجل[٢] !

ولو أنصف هذا الملك لقال : هذا ملك[٣]

إنما غوث ملك : ما هذا بشراً ، إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم !

وإن غوثاً وأمثال غوث من العبقريين العظيمين الكرام الكاتبين الكاملين ، لمستغنون جد مستغنين عن شهادات الممجدين وإطراء المطرين من النابوليين وأشباه النابوليين

إنه الشمس تبدت ضحوة ، نورها الباهر خير الشاهدين ...

(***)

---

(١) فلان ممعي : لا رأي له يقول لكل أحد أنا معك

(٢) الأمع والأمعة هو الرجل لا رأي له ولا عزم ، يتابع كل أحد على رأيه ، ولا يثبت على شيء ، والهاء فيه للمبالغة ، ولا نظير له إلا رجل أمر وهو الأحمق . وكذلك الأمرة وهو الذي يوافق كل انسان على مايريده ، وتأمع الرجل واستأمع ، ورجال أمعون ، ولا يجمع بالألف والتاء (التاج)

(٣) فلان ليس له خطير أي ليس له نظير . وهذا خطير لهذا أي مثل له في القدر ، ولا يقال للدون إلا لمفيء السري (اللسان)

(٤) Les énigmes de l'univers

(١) القراء ـ كرمان ـ الناسك المتعبد ج قراءون ، وتقرأ إذا تفقه وتنسك (التاج)

(٢) هذا رجل : أي كامل في الرجال (الأساس)

(٣) قال الحكيم أبو العلاء :

ثلاث مراتب : ملك رفيع ... وانسان وجبل خير أنس

فان فعل امرؤ خيرا تعالى ... إلى قنس الملائك خير قنس

وإن خفضته همته تهاوى ... إلى جنس البهائم شر جنس

في الأساس : فلان واحد من جنسك ، وشعبة من قنسك : أصلك القنس بفتح أوله وكسره

شخصيات تاريخية

٢ - تيموستوكل

للأستاذ محمد الشبحات أيوب
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

كان اليونان إذن مهددين فى عام ٤٨٠ ق . م إذ علموا أن أجرزسيس سير جيشه الجرار من قلب آسيا الصغرى وأسطوله الضخم محاذياً السواحل الآسيوية والأوربية المحيطة بمضيق الهيلليسبونت لغزو بلاد اليونان ، طامعاً فى أن يقوم بما لم يستطع أن يقوم به أبوه من قبل وهو الانتقام من أثينا بل وإخضاع بلاد اليونان عامة ، فما كان عقله يصدق أن بلاداً صغيرة كبلاد اليونان تجرؤ على أن تقف فى وجه أعظم عاهل على وجه البسيطة حينذاك وهى على ما هى عليه من فرقة وانقسام وتباين واختلاف

وقد اختلف المؤرخون القدماء والمحدثون فى تقدير عدد الجيوش الفارسية واليونانية ، ولكنهم إن اختلفوا فى هذا التقدير نجدهم يجمعون على أن جيش أجرزسيس كان عظيم العدد جداً ، وعلى أن جيش اليونان كان دونه بكثير

جاء الفرس بهذه الجيوش الضخمة ووصلوا إلى شمال بلاد اليونان بعد أن عبروا ما عبروا من بحار ، وجابوا ما جابوا من سهول ووديان ، وتسلقوا ما تسلقوا من تلال وجبال ، وهم واثقون كل الثقة أنهم لا بد غالبون هـذا الشعب بل هذه الشعوب الإغريقية المختلفة على أمرها مقاصرين على انقسام اليونان وضعف اليونان وفقر اليونان ، وقد غاب عنهم أن اليونان كانوا يعرفون بلادهم تمام المعرفة ويثقون بقوادهم الذين سيقودونهم إلى النصر لأنهم يدافعون عن أعز شيء فى الحياة وهو الحرية والاستقلال

وكان تيموستوكل على علم بحركات الفرس كلها . لذلك أعد بلاده خير إعداد ، وجهزها بما كانت تحتاج إليه من وسائل الدفاع كبناء الأسوار والجدران ، ومن وسائل الهجوم كالسفن التى عمل على بنائها لتكوين الأسطول مما جعله يصمد أمام الأعداء ولا يتزعزع أمام هذه الغزوة الجريئة

ويعمل اليونان على توحيد الصفوف والاستعداد لملاقاة الأعداء فيعقدون مؤتمراً هو مؤتمر الجامعة اليونانية الثانى (فى أوائل ربيع عام ٤٨٠ ق . م) وفيه يقررون إرسال حملة للدفاع عن وادى تمبى فى الشمال بعد أن وعدهم سكان تلك الجهة ببذل المؤونة والمساعدة لهم ، وسارت الحملة عن طريق البحر وعلى رأسها قائد أسبرطى يساعده فى القيادة آخر أثينى هو صاحبنا تيموستوكل ، ووصلت هذه الحملة إلى تلك الجهة ولكنها لم تجد مؤونة ولا مساعدة فرجعت بخفى حنين

ويتفق اليونان أيضاً فى هذا المؤتمر على تنظيم خطوط دفاعهم فيجعلونها أربعاً . الأول عند وادى تمبى السابق الذكر ، والثانى عند الترموبيل ، والثالث عند وسط اليونان (بيوسيا وأتيكا) والرابع عند برزخ كورنث ويقررون التراجع عن الخط الأول إلى الخط الثانى وعن الخط الثانى إلى الخط الثالث وهكذا حتى الخط الرابع إذا لم يستطيعوا الاحتفاظ بأى خط من هذه الخطوط

وهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بخط دفاعهم الأول على نحو ما رأينا منذ حين ، لذلك نراهم يقررون ، عند ما علموا بخبر زحف الفرس إلى أواسط بلاد اليونان ، الوقوف عند خط الدفاع الثانى أى عند أراضى الترموبيل براً ، وعند رأس « الأرتيميزيون » بحراً ، والنقطتان تكمل كل منهما الأخرى ؛ ويوجهون نحو الأولى حملة برية بقيادة الملك الإسبرطى الشهير ليونيداس ، ونحو الثانية أسطولاً بقيادة رجل اسبرطى هو إربيباد ويساعده فى القيادة تيموستوكل . وقد تلاقى الجيشان جيش الفرس وجيش اليونان عند الترموبيل ، وكان ما كان من أمر هذه الهزيمة الساحقة التى مُنى بها ليونيداس وأتباعه ، حيث أبيد اليونان كلهم عن بكرة أبيهم فى هذا المكان الضيق بعد أن أظهروا من الشجاعة ما خلد اسمهم على صفحات التاريخ — أما عند النقطة الثانية فقـد التحم الأسطولان ، والأسطول اليونانى كامل العدد والعدة ، أما الأسطول الفارسى فقد هبت عليه زوبعة قبـل معركة « الأرتيميزيون » ودمرت ما يقرب من ثلثه تقريباً ، لذلك لقى الأسطول اليونانى نجاحاً بادئ الأمر ، ولـكنه لم يستطع أن يصمد أمام حركة تطويق قام بها جزء من الأسطول الفارسى نحو الجنوب إذ أراد الالتفاف حول جزيرة أيوبيا ليأخذ الأسطول اليونانى على غرة من الخلف ، ولحسن حظ هذا الأسطول نجده يتمكن من الإفلات والنجاة من هذا المأزق

الحرج فيرجع عند خط الدفاع الثالث أى عند وسط بلاد اليونان ، وقد دهش الفرس عند ما رأوا الأسطول اليونانى يتراجع بعد هذا النجاح النسبي الذى ناله ، ولكن اليونان فهموا أن هزيمة جيشهم فى الترموبيل قد قضت على خططهم الدفاعية وجعلتهم يخافون على قواتهم من الفناء ، من أجل هذا تراجعوا نحو الجنوب لأن هذه هى الفرصة الوحيدة لإنقاذ جيشهم وللاحتفاظ به للمستقبل .

من هذا يتبين أنه لم يكن لتيموستوكل موقف ظاهر واضح فى هذه المعارك وعلى الأخص فى الحملة البرية الأولى عند أرض تمبى ، وفى الحملة البحرية الأولى عند رأس الأرتيميزيون ، ولكنه بالرغم من ذلك موقف عظيم الخطر والأهمية ، لأنه كان هو الروح الذى يبعث فى الجيش الحمية والحماس ، وفى الأسطول الرغبة والإقدام على الهجوم ، إذ كان يقف إلى جانب القائد الإسبرطى موقف المرشد الناصح الأمين الذى يجعل مصلحة بلاده فوق أى اعتبار . وكان هذا القائد الإسبرطى يوافق على آرائه بالرغم مما فيها من خطورة وجرأة ؛ لأنه كان ينصح دائماً بالهجوم ، سائراً على هذا المبدأ الذى أخذ به نابليون من بعده وهو « الهجوم خير وسيلة للدفاع » ؛ وكان إلمامه التام بحالة الفرس وبحالة اليونان خير مشجع له للاقدام على الهجوم ؛ فهو يعلم أن اليونان أقلية فى العدد بالنسبة للفرس — ولكنهم أكثرية فى نواح أخرى — إذ كانوا أكثر تجانساً من أعدائهم ، (فلم يكن بينهم نفر من الأجانب ، على حين أن جيش الفرس يتكون فى أغلبيته من أفراد الشعوب العديدة الخاضعة لهم) وأكثر اتفاقاً فيما بينهم ، فهم يحاربون بطوعهم واختيارهم لأن مثلهم الأعلى هو المحافظة على استقلال بلادهم وإحاطة حريتهم وحرية بيوتهم وعائلاتهم وأراضيهم بسياج من المنعة والقوة . أما الفرس أعداؤهم فإنهم يسيرون بالسياط ويحاربون مجبرين ، لا لتحقيق مثل أعلى وإنما تنفيذاً لرغبة عاهل جبار استحوذ الطغيان منه على فؤاده واستولى الكبر على قلبه وعقله حتى شبه نفسه بالآلهة ، فساق هذه الجموع الزاخرة سوق الأنعام والماشية . ثم إن اليونان بعد هذا وذاك يفوقون أعداءهم فى الأسلحة التى كانوا مجهزين بها وفى القيادة التى كانوا يخضعون لها . وإلى جانب ذلك كله كان تيموستوكل على علم تام بحركات الأعداء ، يوقفه عليها هؤلاء الجواسيس ونقلة الأخبار الذين كان يبثهم بين أعدائه مثل هذا الملاح الماهر سكيلياس الذى أتى له بمعلومات عن الأعداء قبل موقعة الأرتيميزيون ؛ فأوقفه على ضعف الروح المعنوية فيهم ، وعلى انعدام المثل الأعلى بينهم ، وعلى عدم الانسجام بين وحداتهم المختلفة ، وعلى التنافر بين عساكر الجيش والأسطول الذين هم من عناصر جنسية مختلفة ، وكذلك على الكوارث التى أصابت الأسطول الفارسى كهذه الزوبعة التى هبت عليه قبل الأرتيميزيون فدمرت أربعمائة سفينة

* * *

ثم يتابع أجزرسيس سيره نحو الجنوب حتى يصل إلى أواسط بلاد اليونان ، وهو لا يحجم عن تخريب ما يلاقيه فى طريقه من قرى ومدن ، ولا يتردد عن انتهاك حرمة المعابد والأراضى المقدسة ، ولا يتأخر عن تدمير ما يقابله من محاصيل زراعية أو تماثيل للآلهة ، حتى ألقى الذعر فى قلوب بعض اليونان ، فخضعت له البلاد اليونانية الوسطى والشمالية ماعدا مقاطعة أثيكا . وكان من الأشياء المقررة عند اليونان أن يقف الجيش اليونانى عند الجبال التى تفصل بين مقاطعتى أثيكا وبيوسيا للدفاع عن المقاطعة الأولى ، ولكن هذا الجيش تراجع حتى برزخ كورنث ووقف هناك ينتظر ما سيجابهه من حوادث . أما الأسطول فكان هو الآخر مصوباً وجهته نحو الجنوب ، وقائده الاسبرطى يريد به التراجع نحو شبه جزيرة البيلوبونيز للدفاع عنها ، ونحن لا ننسى أن هذا القائد ، وهو إربياد ، اسبرطى يضع مصلحة بلاده فوق كل اعتبار ؛ ولكن تيموستوكل يتمكن بعبقريته وبشخصيته القوية من أن يقف فى وجه هذا القائد حتى يتغلب عليه ويوجه الأسطول كما يريد هو لا كما يريد هذا القائد فينجح فى تلك اللحظة الرهيبة فى حمل اليونان على اتخاذ قرار خطير ، ذلك هو القرار القاضى بأن يقف الأسطول اليونانى عند جزيرة سلامين ، من أجل هذا رأى اليونان أنهم مجبرون بعد هذا القرار الجديد على أن يرسموا خطة جديدة تضمن التعاون بين الجيش والأسطول للدفاع عن بلادهم وصد الغزاة

في سبيل العروبة

مصر والعـــالم العربى

للأســتاذ عمر الدسوقى

لا شك أن الحرب التى تدور رحاها اليوم ستتمخض عن انقلابات تاريخية وإقليمية ذات بال . ونحن — وإن لم نخض غمارها — متأثرون بنتائجها ؛ وكل أمة تيقظ فيها الشعور القومى ترى لزاماً عليها أن تفكر فى مصيرها ، وتحدد هدفها ؛ حتى تسير قُدُماً نحو غايتها حين تضع الحرب أوزارها .

ومصر قد سلكت حتى اليوم مسلكا رشيداً ، واتبعت سياسة ناجحة حكيمة إزاء هذه المحنة العالمية ، وكانت وفية صادقة لحليفتها ، برة بوعودها ، ولكنها لم تستغل هذا الموقف الشريف لخيرها وخير شقيقاتها العربية ، التى تنظر إليها بعين ملؤها الرجاء والأمل . وعندى أن القضية العربية هى من أهم المسائل الحيوية التى يجب أن تدرسها مصر دراسة جيدة ، وتوجه إليها عنايتها ، وتبذل فى سبيلها الجهود الصادقة .

أجل ! إن مصر تتمتع فى العالم العربى بمنزلة رفيعة ، فقد حباها الله موقعاً جغرافياً هيأ لها التجارة النامية والثروة الطيبة ، وجعلها صلة بين الشرق والغرب ، وسخر لها النيل يفيض على واديها بالخصب والنماء ، ويغدق عليها النعمة والاثراء ، فتصورها الناس فى كل وادٍ أرض الكنوز المطمورة ، والخيرات المتدفقة ؛ ثم إنهـا أكثر البلاد العربية سكاناً ، وقد سبقت شقيقاتها فى حمل مشعل النهضة على يد عاهلها الكبير محمد على باشا وخلفائه ، وخطت خطوات واسعة فى سلم الحضارة والعلم ، فأصبحت ذات سلطان قوى على الرأى العام فى البلاد العربية بما تملك من صحافة غنية منظمة ، ومجلات أدبية وعلمية تمد الغذاء الروحى لعدد كبير من أبناء العروبة يفتقدونها إذا تأخرت ، ويكبون عليها بشغف ونهم إذا أقبلت ؛ وبأزهرها المتيد وجامعتها الحديثة ؛ وبمطبعتها الخصبة التى ما فتئت تحيي القديم وتظهر الجديد من المؤلفات القيمة والكتب الثمينة ؛ وبكتابها الذين يزيدون فى ثروة التراث العربى ، ويتمتعون بشهرة واسعة فى كل مكان تسود فيه لغة الضاد لغزارة أفكارهم وجودة أساليبهم ، وتنوع كتاباتهم ؛ وبالغناء المصرى الذى يتردد على كل لسان فى ربوع العروبة ويهتز له الشيخ الكبير والحدث الصغير على الرغم مما به من نقص ، ولكن حسبهم أنه غناء مصرى حتى يفتنهم .

كل هذا جعل من مصر قبلة الأمم العربية ، ومثالاً تنسج على منواله وتترسم خطاه ، وتتنسم أخباره بلهفة وشوق ، حتى صار أبناؤها يختلفون فيما بينهم تبعاً لاختلاف الأحزاب المصرية ، ويعرفون عن وادى النيل كل صغيرة وكبيرة

فماذا كان موقف مصر من هذه البلاد التى تحبها حباً صادقاً لم يُشتر بالمـال ولم يُبتذل فى سبيله دعاية ؟

لقد تقاعست مصر عن القضية العربية فى الماضى — وهذه كلمة صريحة يجهر بها مصرى مخلص لبلاده — ولم تعمل على جذب هذه القلوب التى تهفو لها حباً وإخلاصاً !

زحف أجرزسيس بجيوشه وزحف حتى وصل إلى أبواب أثينا ، وكذلك كان الأسطول الفارسي متقدماً فى سيره نحو الجنوب حتى لا يبتعد كثيراً عن الجيش ، وخطة الفرس على ما نعلم تقضى بأن يتعاون الأسطول مع الجيش ؛ من أجل هـذا لم يجد الأثينيون أمامهم ـ والعدو على أبواب وطنهم ـ إلا أن يهجروا مدينتهم ، فأصدر الشعب الأثينى مجتمعاً فى مجلس «الأكليزيا» مرسوماً يأمر بإخلاء المدينة على ألا يبقى بها إلا نفر من الشيوخ للدفاع عنها . أما الفقراء من أفراد الشعب الذين لا يستطيعون أن يتحملوا نفقات الهجرة فقد نص هذا المرسوم بإعطاء كل شخص منهم مبلغاً من المال ليساعده على الرحيل ؛ وذهبت أغلبية الأثينيين بأبنائهم ونسائهم الى جزيرة سلامين حتى يروا ماسيقضى الله من أمر . أما الفرس فقد دخلوا المدينة ووجدوها قد خلت من سكانها إلا هذا النفر الضئيل من الشيوخ . وهذا النفر بالطبع لم يستطع أن يثبت فى وجههم فتغلبوا عليهم ، وصعدوا إلى قمة الأكروبول وأقاموا هناك حيث توجد معابد الآلهة

محمد الشحات أيوب

(البقية فى العدد القادم)

إى وربى ! تقاعست مصر حتى كاد يفلت من يدها الزمام ، وحتى قام من يناهضها ويعمل على تقويض سلطانها المتمكن فى الأفئدة ، بالدعاية الباطلة والإفك الصريح ، مؤولاً تقاعس مصر بالكبرياء ، وإعراضها بالغطرسة ، ومصر — يشهد الله — مما يقولون براء

أجل ! لقد شغلت القضية المصرية والكفاح فى سبيل الاستقلال كل أفكار وادى النيل ، ولكن لم تمنعهم هذه القضية عن الانتصار للحبشة مثلاً بالمال والنفوس والدعاية ، مع أن قطراً عربياً آخر كان ينكأ كل يوم بجراحات مثخنة مميتة ، ويجاهد جهاد المستبسل النوار فى سبيل حياته ، ومصر تنظر وكأن الأمر لا يعنيها ، حتى قيض الله لها رجلاً لا يوجد فى الألوف مثله ذكاء وعبقرية وإقداماً ، قدم لهذا القطر العربى المساعدة المالية السخية التى تكفكف دموع اليتامى والأيامى ، ودفع بمصر فى سبيل العروبة حاملاً بنفسه علم الدفاع ، ولكن أبت الأقدار إلا أن تناوئه فانزوى عن الميدان

كان لعمله هذا أثر محمود عند كل عربى ، وأخذت الأعناق تشرئب إلى مصر تنظر ماذا تفعل ، ولكن مصر رجعت إلى سابق عهدها من الصمت والتغافل ثم أشعلت نار الحرب وشغل كل امرىء بنفسه ، إلى أن أصبحت حليفة مصر — بريطانيا العظمى — مسيطرة على الموقف فى الشرق الأدنى ، وصرح رئيس وزرائها مستر تشرشل — مثال الصبر والجلد والبطولة فى الكفاح — بعطفه على القضية العربية ، فهل آن لمصر أن تعطف على القضية العربية وهى أولى الناس بهذا الأمر ؟

إن مصر عربية قلباً ودماً ولحمة وسدى ! وكل من يقول غير هذا فهو مأفون الرأى . سائلوا التاريخ عمن حفظ اللغة العربية وهى تحتضر فى كل مكان إلا فى مصر ! سائلوا التاريخ عن تلك الهجرات المتتابعة من ربوع العروبة إلى مصر منذ الفتح إلى اليوم !

إن بين مصر وبين البلاد العربية وشائج من الدم واللغة والتاريخ والأدب والعاطفة تحتم عليها أن تتبنى القضية العربية

وهنا أوجه كلمة صريحة إلى جماعة من الكتاب فى مصر أخذوا يتجادلون حول القضية العربية والقضية الإسلامية . مصر عربية إسلامية وعروبتها تحتم عليها أن تهتم بالقضية العربية وتتألم لنكبات الأمم العربية ، وتفرض عليها الاشتراك فى الحلف العربى ، وإسلامها من جهة ثانية يتطلب منها أن تنظر بعين العطف إلى القضايا الإسلامية فى جميع أنحاء المعمورة ، ولا اختلاف بين الجهتين ، ولا تناقض بين الميدانين : القضية العربية قومية ، والقضية الإسلامية دينية ، وفى استطاعة الانسان العاقل أن يكون وطنياً مخلصاً لوطنه مجاهداً فى سبيله ، وأن يكون متديناً ورعاً قائماً بواجبات دينه ، دون أن يكون هناك تناقض بين جهتى الإخلاص أو بلبلة فى أفكاره

وهنا أيضاً عتاب أوجهه إلى كتاب مصر عامة ، وإلى العلامة الدكتور زكى بصفة خاصة بأنهم جميعاً يستعملون كلمة « شرق » بدلاً من « عربى » ، والبلاد الشرقية الشقيقة بدلاً من البلاد العربية الشقيقة ، فكأن الصلة التى تربطهم بأبناء العروبة هى أنهم جميعاً شرقيون فحسب . هذه نقطة دقيقة طالما أثارها محبو مصر فى البلاد العربية ، وطالما خجلنا منها ونحن بين ظهرانيهم . فهل الدكتور زكى مبارك مستعد منذ الآن أن يستعمل كلمة عربى بدلاً من شرق وعربية بدلاً من شرقية ، فإنه ملوم بخاصة لخبرته بالبلاد العربية وتمتعه فيها بشهرة طيبة

وهاك عتاباً آخر لا أوجهه فى هذه المرة إلى الدكتور زكى مبارك ، فقد أدى ما عليه وزيادة ، ولكن أوجهه إلى كتاب مصر وإلى جمهرة القراء بها : يلوموننا فى البلاد العربية لعزلتنا الأدبية ، واعتزازنا بثقافتنا ، وعدم إقبالنا على ما تنتجه المطابع العربية ، وينشئه أو ينظمه حملة الأقلام بها . وهذا عتاب لعمر الحق فى محله ، ولقد كانت خطوة موفقة وسعياً محموداً ما قررته وزارة المعارف المصرية من دراسة الأدب العربى الحديث فى الأقطار العربية على بعض الأساتذة ، ولا عجب ، فالدكتور هيكل باشا جد عليم بشعور أبناء العروبة فى هذه الناحية ، وهو خبير بما عندهم من أدب رفيع وخيال خصب وإنتاج طيب

حول المسابقة إلى الثانوى

للأستاذ سيد قطب

قرأت فى عدد الرسالة الأخير ما كتبه الدكتور زكى مبارك خاصاً بمذكرة « الستة » المقدمة إلى وزارة المعارف لإعفاء « أشخاصهم » من التقدم إلى امتحان المسابقة . حسبما روى الدكتور والعهدة عليه فيما رواه

ولا أحب أن أتحدث عن امتياز هؤلاء الستة — فى صدد الحديث عن هذه المسابقة — فتلك مسألة تافهة لا يجوز لها أن تتدخل فى تقرير مبدأ من المبادئ العامة كمبدأ امتحان النقل إلى المدارس الثانوية

ولكنى أحب أن أتناولها تناولاً موضوعياً ، فأذكر أننى تقدمت فى العام الماضى بمذكرة لحضرات كبار المسؤولين فى الوزارة خاصة بموضوع اليوم ، لا أرى ضرراً من تلخيصها هنا والزيادة عليها بما جد لى من الرأى حولها ، ولا أجد حرجاً فى التصريح بأنها لقيت اقتناعاً بالأسس التى تضمنتها

لم أحاول أن أنكر مبدأ المسابقة فى ذاته ، فقد يكون أسلم المبادئ لتحقيق العدالة وإبراز المواهب ، والحد من المحسوبية والتحرر من ضغط الصلات الشخصية بين الرؤساء والمرءوسين سواء كانت طيبة أم رديئة

ولكنى أنكرت شكل المسابقة وقواعدها الحالية ونتائجها العملية ، ووجوه إنكارى لها هى هذه :

أولاً : أن المسابقة تتجه اتجاهاً خاطئاً إلى اختبار محفوظات المدرسين وتحصيلهم العلمى ، دون أن تتجه إلى اختبار ثقافاتهم وعقلياتهم ونمو شخصياتهم من جميع نواحيها

ووجه الخطأ فى هذا الاتجاه أنه تثبيت وتوكيد « لعقلية الامتحانات » التى نشكو منها بالقياس إلى التلاميذ ، ونعمل على التحرر من قيودها ، بانتهاج طرق « المدارس الناهضة » وطرق التربية الحديثة التى اهتدى إليها المربون فى القرن الأخير فامتحان المسابقة فى شكله الحاضر نكسة للعقلية التعليمية تضمن للعقلية القديمة البقاء والاستمرار فترة أخرى أطول مما كان مقدراً لها بعد النهضة الحديثة

فكان هذا الشر يجد مبرراً لو أن الوزارة قبل وضع المسابقة هذا الوضع قد قامت بإحصائية من تقريرات حضرات المفتشين المختصين عن خمس سنوات أو عشر أو بأية وسيلة أخرى ، فتبين لها أن أغلبية المدرسين أو عدد كبير منهم ضعفاء فى المادة العلمية وحينئذ تتجه اتجاهاً معقولاً إلى تقوية التحصيل فى أوساط المدرسين

ولكنها لم تقم بهذا الإحصاء ، والظواهر جميعها لا تشير إلى ضعف الأساتذة فى مادتهم العلمية ، وإن كانت هناك فى بعض الحالات نواح من الضعف فى الثقافة العامة وفى مسايرة المجتمع والعالم فى خطواته وفى نمو الشخصيات المطرد فى أوساط المدرسين منشأها مراعاة الأقدمية وحدها فى النقل إلى المدارس الثانوية ، وتسرب المحسوبية إلى المدارس على حساب الكفايات العلمية كذلك ! !

ثانياً : أن المسابقة فى وضعها الحاضر لا تضمن النمو المطرد فى ثقافات الناجحين وشخصياتهم ، طالما أنها لم تعن بهذه الناحية أية عناية . وليس ما يمنع هؤلاء أن ينسوا هذه المعلومات التى حفظوها بعد نجاحهم ووصولهم إلى ما يبتغون من النقل إلى التعليم الثانوى ، كما يصنع التلاميذ الذين نحشو أدمغتهم حشواً بالمعلومات على طريقة المسابقة سواء بسواء !

ولو أن المسابقة وجهت همها إلى اختبار الثقافة والعقلية

قلت : إن الدكتور زكى مبارك قد أدى ما عليه فى هذا الميدان ، إذ كتب عدة مقالات فى (الرسالة الغراء) عن الأدب العراقى ، تعد مقدمة طيبة لدراسة عميقة مستوفاة . أما الأدب السورى — بما فى ذلك السورى واللبنانى — فسآخذ على نفسى عهداً بدراسته على صفحات (الرسالة) إن شاء الله حينما أفرغ من هذا النداء الذى يعبر عن عواطف أبناء العرب وشعورهم حيال مصر العزيزة

[للحديث بقية]

عمر الدسوقى
وكيل كلية المقاصد الإسلامية ببيروت

والتأكد من نمو الشخصية لضمنت استمرار صلاحية المدرسين فالشخصية النامية لا تتغير بل يزيدها الزمن نمواً وثقافة ، لأن حوافزها إلى المعرفة والاطلاع حوافز شخصية قد تذكيها المسابقة ولكنها أصيلة على كل حال

وأصحاب هذه الشخصية هم الذين نضمن بهم رقى الثقافة ونهوض التعليم فى المدارس الثانوية وسواها ، ونضمن ألا ينتكسوا بعد اجتيازهم حواجز السباق !

وقد كان يصح للستة الذى روى عنهم الدكتور زكى ، أن يستندوا إلى مثل هـذا الرأى فيمدوا اشتغالهم بالتأليف والتحقيق العلمى قبل المسابقة دليلاً على أصالة هذه الحوافز فى نفوسهم وضماناتها لصلاحيتهم ؛ لولا أنهم آثروا أن تستهويهم هالات موهومة حول شخصياتهم الكريمة !

ثالثاً : أن النتائج العملية للمسابقة — على فرض أنها ستؤدى إلى اختيار أصلح العناصر — تؤدى فى الوقت ذاته إلى نتيجة سيئة على التعليم الابتدائى الحكومى والتعليمين الابتدائى والثانوى فى المدارس الحرة

وتفصيل ذلك أنها تستنفد بالتدريج كل العناصر الصالحة فى المدارس الابتدائية الأميرية والثانوية الحرة — أولئك الذين ينجحون فى المسابقة — فتعينهم الوزارة فى مدارسها أو تنقلهم إلى التعليم الثانوى . ولا يبقى بعد هؤلاء وهؤلاء إلا العاجزون — فرضاً — عن النجاح ؛ فينحط مستوى التعليم الابتدائى عامة ومستوى التعليم فى المدارس الحرة التى تنهض بعبء كبير فى ميدان التعليم

هذا كله من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن المدرس الذى يشغل وقته بتحصيل ما فى هذه الكتب المطولة الكثيرة العدد ، لا يستطيع أن ينهض بواجبه فى خلال العام المدرسى لتلاميذه وقد يرسب فيعاود الكرة فى عام آخر . والتلاميذ هم الذين يؤدون ثمن الاستذكار الدائم لمعلومات متفرقة لا يزيد تحصيلها شيئاً فى مقدرة المدرس الثقافية فى جميع الأحوال . ولا فى مقدرته العلمية فى كثير من الأحوال

* * *

هذه العيوب الأساسية فى نظام المسابقة الحاضر يمكن التفادى منها باتباع قواعد أخرى :

أولاً : أن تتجه المسابقة إلى اختبار ثقافة المدرس ونموها الدائم واختبار عقليته فى الوقت ذاته . وهذا الاتجاه يقتضى أن يكون الأساس الأول للاختبار تقديم رسالة علمية أو أدبية فى علوم اللغة العربية وآدابها القديمة أو الحديثة ، يناقش صاحبها فتتبين مقدرته وتقاس ثقافته وعقليته . ولا ضرر — إذا لم يكن بد من قياس التحصيل — أن يتبع نظام « التمبين » الأزهرى القديم فى بعض المواد لمعرفة مقدرة المعلم على التحصيل والاطلاع فى مختلف المؤلفات .

ثانياً : أن يمنح الناجح فى هذه المسابقة درجة علمية تبرر الجهد المبذول فيها تقابلها درجة مادية تحفز الهمة وتقوى العزيمة . ويمكن الاستدلال من رسالته على الناحية التى يبرز فيها فتستغل خير مواهبه فى تدريس هذه الناحية ولا سيما فى الفرق الثانوية المتقدمة !

ثالثاً : ألا تكون نتيجة النجاح الحتمية هى النقل إلى التعليم الثانوى . وأقول النقل لا كما تسميه وزارة المعارف ترقية ، فهذه الترقية لا وجود لها . بل توزع هذه الكفايات بعد منح أصحابها الدرجة العلمية والدرجة المادية على كل فروع التعليم . فتتوازن خطواته وتتعادل دعاماته . وليس التعليم الثانوى بأجدر من التعليم الابتدائى بالعناية والكفايات العلمية

رابعاً : أن تنظم الوزارة فى العطلات الصيفية محاضرات عامة للمدرسين ، وتجعل لنسبة الحضور فيها وزناً فى المسابقة وفى نظرتها لهؤلاء الأساتذة . ونظام المناطق يسهل على الوزارة هذا الأمر ويقسم جماعات المدرسين على هذه المناطق وييسر إلقاء المحاضرات فى كل منطقة

وتلك مادة دائمة للثقافة المتجددة يجب أن ينال المدرسون نصيبهم منها وهم أجدر طوائف الأمة بها . وهى ضمانة أكيدة لاستمرار الثقافة وتجددها .

* * *

بقيت مسألتان على هامش ما كتب الدكتور زكى مبارك ، أمر بهما كارهاً فى هذا المجال أولاهما : تلك الطعنة التى وجهها الستة الكرام — إذا صح ما روى عنهم — إلى ألف ومئتين

من الزملاء ، اختصوا أنفسهم دونهم بما زعموه من امتياز ، ليس هذا مكان مناقشته وامتحانه

٢ — انزلاق الدكتور زكى مبارك — وهو يؤيد المسابقة — إلى غمزات لا تليق ، كقوله :

« وقد أجريت المسابقة بين المدرسين فى الأعوام الأخيرة ، فكانت فرصة لمراجعات نحوية وصرفية وبلاغية وأدبية ، (غفل عنها أكثر مدرسى اللغة العربية) »

فالواقع — كما قلت — أن هذه المراجعات لا قيمة لها ، وأن ما له قيمة لم يغفل عنه أحد ، أو على الأقل لم تقم الوزارة بالإحصائية التى تؤيد هذا الزعم ، والأساتذة فى المدارس لا يجوز التجنى عليهم إلا بعد تثبت وتحقيق

أما غمزاته لأعضاء اللجان ، فذلك شأنه الخاص ، ولعل نقائص هذه اللجان كلها تنتفى عنها لو أتيح له أن يكون عضواً فيها ، وذلك مطلب لا أدرى ، أقريب هو أم بعيد على الدكتور ؟

« حلوان » سيد قطب

من بحوث مؤتمر التعليم

التعليم الأولى والالزامى

للأستاذ مصطفى شكرى بك

المراقب العـام للتعليم الأولى

[استهل الأستاذ مصطفى بك شكرى المراقب العام للتعليم الأولى تقريره من هذا التعليم ببيان مدى اهتمام الدول المختلفة به وما خصته به من اعتمادات كبيرة ، وتدرج من ذلك إلى ضرورة العناية به فى مصر والعمل على ترقيته]

مراحل التعليم الأولى

استطرد التقرير فذكر المراحل المختلفة التى مر بها هذا النوع من التعليم فى مصر منذ تولت أموره وزارة المعارف وهى ثلاث مراحل : أولها مرحلة الكتاتيب التى انحصرت مهمتها فى تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة ، ثم المرحلة الثانية التى صدر فيها قانون مجالس المديريات ، وأباح لها إنشاء المدارس الأولية ؛ وفى نفس هذا العصر قامت الوزارة بإنشاء مدارس المعلمين والمعلمات الأولية

ثم ذكر المرحلة الثالثة وهى التى بدأت بصدور الدستور عام ١٩٢٣ ، وما جاء فيه من أن التعليم الأولى إلزامى ومجانى بالمكاتب العامة ، وما تلا ذلك من إنشاء ١٢٧ مدرسة أولية سميت « مدارس المشروع » ، وكانت مجانية ، والدراسة فيها طول اليوم ، وكانت كالمدارس القديمة مع اهتمام بجملها فى أمكنة جديدة ، وتأثيثها تأثيثاً حسناً

وبعد ذلك قامت الوزارة باستعراض جميع النظم التى سبق التفكير فيها لتعميم التعليم الأولى ، وعدلت خطتها فى تعميم هذا التعليم تعديلاً أساسياً ، وقررت مشروع التعليم الإلزامى الحالى على أساس أن نحو خمسة آلاف من المكاتب العامة تكفى لتعليم الأطفال من سن ٧ إلى سن ١٢ ، باعتبار أن اليوم الدرسى نصف نهار ، لتستعمل غرف الدراسة لطائفتين من الأطفال قبل الظهر وبعده ، وأن نفقات المعلمين تخفض إلى أدنى حد ممكن ، وقد قدرت نفقات هذا المشروع بما لا يتجاوز ثلاثة ملايين من الجنيهات ، ووزعت نفقاته على ٢٣ سنة (من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٤٨) ، على أن تقوم الوزارة كل سنة بإنشاء عدد معين من المكاتب وتحول مدارسها القديمة ومدارس المشروع بالتدريج إلى النظام الجديد (نصف اليوم) ، على أن تتحمل الوزارة نفقات إعداد المعلمين ومرتباتهم ومرتبات الخدم وثمن الكتب والأدوات ونفقات التفتيش زيادة على نفقات ما ينشأ من هذه المكاتب فى المحافظات . وتتحمل مجالس المديريات نفقات الأماكن وأعدادها ، وكذلك الأثاث ، وتتولى إدارة هذه المكاتب لجنة فنية تسمى : « لجنة التعليم الإلزامى » مكونة من بعض أعضاء المجالس وبعض موظفين يمثلون الوزارة

ولما صدر قانون التعليم الأولى لسنة ١٩٣٣ ، بدأت الوزارة بتحويل جميع مدارسها (عدا مدارس البنات فى المحافظات) ، إلى نظام التعليم الإلزامى ، وأشارت على مجالس المديريات بأن

تنحو هـذا النحو فى مدارسها . وقد أدى التوسع فى التعليم وانتشاره إلى عجز ميزانيات المجالس عن تحمل نصيبها من النفقات ، فاضطرت الوزارة إلى أن تتحمل هذه النفقات

وفى أكتوبر سنة ١٩٣٤ أنشأت الوزارة فى الأقاليم ٧٢٠ مكتباً عاماً . وقد نص قانون التعليم الأولى بأن تتكفل مجالس المديريات بالتعليم الأولى فى المديريات ، وتتكفل به وزارة المعارف فى المحافظات .

وفى سنة ١٩٣٥ لاحظت الوزارة أن نظام المكاتب العامة لا يؤهل من يرغبون فى التعليم الابتدائى للحاق بمدارسه فى سن مبكرة ، وأن رياض الأطفال غير كافية لتحقيق هذا الغرض ؛ فأعادت إنشاء مدارس اليوم الكامل وجعلت التعليم فيها بالمصروفات ، ووضعت لها خطة خاصة تخالف خطة المكاتب العامة وأباحت قبول الأطفال فى سن الخامسة

وقد بدأ تنفيذ القانون المشار إليه فى نوفبر سنة ١٩٣٦ ، ثم صدرت لائحة تنفيذية لذلك القانون فى نوفبر سنة ١٩٤٠

وهى وإن كانت قد وسعت نطاق إشراف وزارة المعارف على التعليم الأولى بالأقاليم — إلا أنها لا تكفل تنظيم التعليم التنظيم الواجب — ولا تمكن الوزارة من النهوض به إلى المستوى الذى تنشده

اقتراحات المراقب لإدارة التعليم الأولى والإلزامى

ثم ذكر التقرير جملة اقتراحات قدمها الأستاذ المراقب لما يجب أن تكون عليه إدارة التعليم الأولى وهى :

١ — أن تتولى وزارة المعارف دون غيرها أمر الإشراف الفنى والصحي والإدارى على التعليم الأولى والإلزامى فى جميع أنحاء المملكة ، وأن يكون الإنفاق عليه من خزانة الدولة وفق الميزانية التى تضعها الوزارة على أن تضم النسبة المخصصة للتعليم الأولى بميزانيات مجالس المديريات إلى خزينة الدولة

٢ — تنظيم المراقبة العامة للتعليم الأولى تنظيماً يتفق مع أهمية هذا النوع من التعليم حتى تتمكن من مواجهة حركة الإصلاح بخطى ثابتة حاسمة

٣ — يلغى النظام الحالى لمديرى التعليم ونظام تفتيش المناطق للتعليم الأولى وتستبدل به وظيفة « مدير التعليم الأولى » بكل مديرية ومحافظة على أن يتبع مراقب المنطقة التعليمية . ويشرف هذا الموظف على سير التعليم الأولى والإلزامى وعلى تنفيذ الإلزام وفقاً لحاجة كل مديرية أو محافظة ، ويتبع كل مدير تعليم هيئة تفتيش لإرشاد رؤساء ومعلمى المدارس والمكاتب العامة على أن يشجع البارزون منهم بإفساح مجال الرقى لهم

٤ — تنظيم هيئة التفتيش الصحى على التلاميذ

٥ — إنشاء هيئة إدارية تخصص بكل منطقة لإنجاز الأعمال على وجه السرعة

ثم أشار التقرير إلى ما يجب أن يكون عليه الغرض من التعليم الإلزامى وهو تثقيف الطفل تثقيفاً عاماً إلى جانب محو الأمية ، على ألا يكون التثقيف سطحياً ، بل مؤسساً على دعائم ثابتة متينة

ويرى المراقب أن تبقى سن التلميذ كما هى الآن ، أى بين ٧ سنوات و ١٢ سـنة على أن تكون المكاتب على نظام اليوم الكامل ، وأن تكون مدة التعليم ٥ سنوات

نشر التعليم الإلزامى

دلت الإحصاءات على أن نسبة الأطفال المقيدين بالمدارس الأولية والمكاتب العامة تتراوح بين ثلث ونصف الأطفال الذين فى سن الإلزام ، وإذا سلمنا جدلاً بإمكان إعداد العدد اللازم من المعلمين والمعلمات لتعميم التعليم فإن تدبير الأماكن الصحية المناسبة وإعداد الأثاث والأدوات للتلاميذ ليس بالأمر الهين كما أن انتزاع هذا العدد من الأطفال من حياتهم اليومية مدعاة لتذمر الأهلين وهم لم يؤمنوا بعد بفوائد التعليم . ويرى التقرير — كإجراء تمهيدى — أن يقتصر التوسع فى تعليم الأطفال الذين فى سن الإلزام على المدن المتوسطة التى ازدهرت فيها بعض الصناعات . أما فيما يختص بالمحافظات والمدن الكبيرة فإن الحالة

تستمر فيها كما هي الآن حيث الإقبال على التعليم فيها مكفول بطبيعة الحال ، وأما فيما يختص بالقرى فإن التوسع فيها يكون بالتدريج وتقدر مدة تعميم التعليم الإلزامي على هذا الأساس بما لا يقل عن ١٥ سنة

مناهج الدراسة

وذكر التقرير جملة مقترحات لإكمال ما في مناهج الدراسة الحالية من نقص وهي تتلخص في جعلها مرنة حتى تناسب البيئة التي بها المدرسة وحذف بعض الموضوعات التي لا تتناسب وإدراك التلاميذ ووجوب الاهتمام بتدريس الأشغال اليدوية والتدبير المنزلي كما يرى تعيين بعض مدرسات رياض الأطفال في المدارس الأولية للبنات

نظام نصف اليوم

وانتقد التقرير نظام نصف اليوم ونادى بضرورة إعادة نظام اليوم الكامل لجملة أسباب : منها أن المقصود من التعليم الأولى هو إعداد الناشئين إعداداً حسناً لا أن يكون تعليمهم سطحياً وإلا كان في ذلك إسراف دون فائدة . ثم إن نظام اليوم الكامل يؤدي إلى مواظبة التلاميذ وخصوصاً في القرى وبهذا تقل قيمة ما يتكلفه الواحد منهم في المتوسط

وزيادة على ذلك فإن المنهج الحالي هو الحد الأدنى لما يجب أن يتلقاه التلميذ ، ولا يمكن تلقينه له في أقل من خمس سنوات كاملة ، كما أن هذا النظام ييسر أداء كل من التلميذ والمعلم لعمله ويدفع التلميذ إلى الإقبال على المكتب ويحببه فيه . ورد التقرير على ما يمكن أن يوجه من اعتراض على نظام اليوم الكامل بأنه يباعد بين التلميذ والعمل في الحقل أو المصنع تخلص بأن ذلك وإن كان صحيحاً في القرى الزراعية إلا أنه ليس كذلك في الجهات الصناعية لأن الصغير لا يصلح للأعمال الصناعية في مثل هذه السن المبكرة

إعداد المدرسين ورفع مستواهم

وختم المراقب تقريره بذكر حالة المدرسين وسوء إعدادهم لوظائفهم وضآلة مرتباتهم التي تتراوح بين ثلاثة وستة جنيهات مما يؤثر في حالتهم المعنوية وإقبالهم على عملهم

واقترح أن يرفع مستوى مدرسي الإلزام وزيادة ثقافتهم العلمية ، وذلك أثناء إعدادهم في مدارس المعلمين والمعلمات الأولية ، كما يجب الاهتمام برفع مستوى المدرسين الحاليين بإرشادهم ، والنهوض بهم علمياً وفنياً واجتماعياً ، كما نادى بوجوب تأمين المدرس على حالته ومستقبله ، حتى يعلم أن ترقيته لن تكون إلا نتيجة اجتهاده فقط ، كما يجب تخفيض عدد الدروس التي يكلف بها كل مدرس ، حتى لا تتجاوز ٣٤ درساً ، وهي الآن ٤٦ درساً في المتوسط ، كما رأى ضرورة رفع مرتباتهم ، حتى يليق بعملهم وتوازي ما يبذلونه من مجهود شاق

٨ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الأول

هنـاك عادة أخرى لا تختلف كثيراً عن عادة الخضاب شائعة بين نساء الدهماء في مدن الريف وقراه ، وفي العاصمة بدرجة أقل : تلك هي عادة الوشم « الدق » ، يكون في الوجه وغيره أو على الأقل في أعلى الذقن وظهر اليد اليمنى، واليسرى أحياناً ، وعلى الذراع اليمنى أو الذراعين معاً ، وفي القدم، ووسط الصدر ، والجبهة . وأغلب علامات الذقن والكفين شيوعاً يبينها الشكل رقم ٢٢ . وطريقة الوشم أن يوخز الجلد بمجموعة من الإبر تكون سبعاً في العادة على الشكل المراد رسمه، ثم يدلك الموضع بمزيج من سناج الخشب أو الزيت ومن لبن امرأة .







شكل ٢٢

١ - (فتاة موشومة)

٢ - (نماذج من وشم الذقن)

٣ - (وشم الأيدي والأقدام)

ثم بعد أسبوع ، قبل أن يبرأ الجرح ، يوضع عليه معجون من أوراق السلق الطازجة أو البرسيم فيكسبه لوناً أزرق أو مشرباً بالخضرة ؛ أو بدلاً من ذلك يدعك مكان الإبر بالنيلج .

وتوشم الأعضاء عادة في سن الخامسة أو السادسة وتقوم بعمله نساء النور . ويلاحظ أن أغلب نساء الصعيد الأقصى وهن يحززن بلونهن القاتم يشمن الشفاه ليكسبن أسنانهن بريقاً . إلا أن ذلك يُشرب لونهن القاتم زرقة لا يقبلها الذوق الأوربي [1]

ومن مميزات المصرية الواجب ذكرها قوامها الممشوق ومشيتها الجميلة . وهذه الصفة تشاهد خصوصاً في الفلاحة . ولا شك أن سبب ذلك ما تحمله على رأسها من جرار الماء وغيرها من الأثقال

أما ملابس نساء الطبقتين الوسطى والعليا فتمتاز بجمال نسيجها وأناقة زيها (شكل ٢٣) وقميص المـرأة كقميص الرجل فضفاض ، ولـكنه قصير فلا يكاد يصل إلى الركبتين . وهو أيضاً من النسيج نفسه ، أو من الكريب أسود أو غير أسود . أما السراويل، وتسمى « شنتيان » فهي واسعة ، وتكون من الحرير أو القطن المفوّف أو المطبوع أو المطرز أو من الأبيض الواحد الشكل . وتشد بتكة حول

شكل ٢٣ - (ملابس المنزل)

---

(١) أما المادة المستعملة عادة لنتف الشعر فهي نوع من الصمغ المسمى لبان شامي ، يوضع على الجلد ذائبا ، إلا أن هذه العملية ليست على حد قولهم ضرورية ؛ لأنه إذا وضع كما يؤكدون دم خفاش على بشرة الطفلة الحديثة الولادة لا ينبت فيها شعر

وتسمى المرأة التي عملت لها هذه العملية « مُوَطْوَطَة » من الوطواط . ويعمد بعض النساء إلى نتف الشعر بعد دلك الموضع برماد الفحم فقط .

الوركين تحت القميص[1] أما أطرافها السفلى فتشد إلى أعلى وتربط تحت الركبتين تماماً ، إلا أن طولها يهبط بها حتى القدمين وغالباً إلى الأرض . ويلبس فوق القميص والشنتيان سترة طويلة تسمى « يلك » من نسيج الشنتيان ، تشبه القفطان ، ولكنها أكثر التصاقاً بالجسم والذراعين ، وأكمامها أطول . واليلك له أزرار تشده إلى الجسم ، من الصدر إلى ما تحت الحزام حتى لا يتهدل ، كما هو الحال فى القفطان . وهو مشقوق الجانبين من أعلى الورك إلى أسفل ، ويشق عادة بحيث يكشف عن نصف الصدر لولا القميص . ولذلك كان الكثير من النساء يرتدين قميصاً واسع الصدر . ولا بد أن يكون اليلك طبقاً لأحسن الأزياء ضافياً حتى الأرض أو يكون له ذيل قصير . وقد يستبدل به صدرة قصيرة تسمى « عنترى » تصل إلى ما تحت الوسط بقليل وتشبه اليلك المقطوع الأسفل . ويمنطق الوسط بشال مربع أو بمنديل مطرز يطوى منحرفاً ويربط فى استرخاء ويتدلى طرفاه خلف الظهر . وقد يطوى طبقاً للزى التركي ، مثل حزام الرجال ، وإنما يكون أكثر استرخاء . وتوضع فوق اليلك جبة من الجوخ أو المخمل أو الحرير مطرزة بالذهب أو بالحرير الملون . وهى تختلف عن جبة الرجال بعدم سعتها ، وبالأخص فى مقدمها ؛ وتكون بطول اليلك . وكثيراً ما يستعمل بدلها سترة تسمى « سلْطة » من الجوخ أو المخمل مطرزة على غرار الجبة . ويتكون غطاء الرأس من طاقية وطربوش ثم منديل مربع يسمى « فارودية » من الموصلى الموشى أو المطبوع ، أو من الكريب ، يلف حولهما بقوة ويسمى هذا « ربْطة » . وكانت هذه المناديل تستعمل منذ قريب ، ولا زالت تستعمل أحياناً لربط عمائم النساء التى تكون مرتفعة مستوية بخلاف عمائم الرجال . وهناك نوع من التيجان يسمى « قرصاً » . وبعض الحلى الأخرى توضع على غطاء الرأس . وقد ألحقت بهذا الكتاب فصلاً خاصاً بحلى النساء وصفها وصورها . وهناك أيضاً « الطرحة » وهى قطعة طويلة من الموصلى الأبيض محبوكة الطرفين بالحرير الملون والذهب ، أو من الكريب الملون المرصع بأسلاك الذهب وصفائح ذهبية كفلوس السمك (ترتر) ، تطرح فوق الرأس وتتدلى على الظهر حتى تكاد تدانى الأرض أحياناً

أما الشعر ، فيضفر ضفائر ، من إحدى عشرة ضفيرة إلى خمس وعشرين عادة ، على أن يكون العدد فردياً ؛ ويضاف إلى كل جديلة ثلاثة خيوط من الحرير الأسود ، يعلق بها قطع ذهبية صغيرة تسمى : « صفا » وهى موصوفة فى ملحق للكتاب . ويقص الشعر فوق الجبهة وتتدلى منه على الصدغين خصلتان غزيرتان[1] حلقاً أو جدائل[2] والقليل من سيدات مصر يلبسن الجوارب ، غير أن أكثرهن ينتعلن المز (أى الحذاء الداخلى) وهو من الجلد الراكشى الأصفر أو الأحمر المطرز بالذهب أحياناً . وينتعلن بابوجا من الجلد الراكشى الأصفر ، مرتفع الطرف الأمامى مدببه ، عندما يمشين على البسط والحصر ، أو يستعملن قبقاباً[3] يعلو إلى تسع بوصات ولا يقل عن أربع ، ويزين بالصدف أو بالفضة . . . الخ ؛ والقبقاب يستعمله الرجال والنساء فى الحمام دائماً ، ولا يستعمله النساء فى المنزل ؛ إلا أن بعضهن ينتعلنه حتى لا يسحبن ذيل الثوب على الأرض ، وبعضهن يتخذنه ليبدون طويلات . . .

(شكل ٢٤)
سيدة متحلية بالقرص والصفا

تلك هى ملابس السيدات داخل المنزل ؛ أما ثياب الخروج ، فتسمى « تزييرة » ؛ فالسيدات كلما يخرجن من المنزل يتدثرن — علاوة على الملابس السابق وصفها — بدثار كبير فضفاض

(١) أما التركيات ، كما قيل لى ، فهن يربطن سراويلهن فوق المقبض .

(١) تسمى الواحدة منها « مقصوصا »

(٢) ويقسم النساء بمقصوصهن — كما يقسم الرجال بلحيتهم — فيمسكنه باليد صائحات : « وحياة مقصوصى »

(٣) ويسمى عادة « قُبقاب » بالضم

ضاف (يسمى « توب » أو « يسبلة ») ، يكاد عرض كيْه يعادل طوله[1] ، ويكون من الحرير الوردى أو البنفسجى ؛ ثم يضمن بعد ذلك « البرقع » — أى غطاء الوجه — وهو عبارة عن قطعة طويلة من الوصلى الأبيض تحجب الوجه كله ما عدا العينين ، وتسقط حتى القدمين . ويشد البرقع إلى الرأس بشريط ضيق يمر على الجبهة ، ويخاط مع طرفى النقاب الأعليين بعصابة تلف حول الرأس ، ثم يرتدين « الحبرَة » . وحبرة السيدة المتزوجة تتكون من نسجين من الحرير الأسود اللامع ، ويوجد فى أعلى الحبرة من الداخل ـ على بعد ست بوصات من طرفها ـ رباط ضيق من الحرير الأسود يربط حول الرأس . ويبين الشكل رقم ٢٥ طريقة لبسها . إلا أن البعض يقلدن تركيات مصر فيضممن مقدم الحبرة ، بحيث تخفى الملابس كلها ما عدا جزءاً من النقاب يعلو اليدين . أما غير المتزوجات فيرتدين حبرة من الحرير الأبيض

شكل ٢٥ ـ (زى الخروج)

أو شالاً . وبعض نساء الطبقات الوسطى لا يستطعن اقتناء الحبرة فيلبسن عوضاً عنها « إذاراً » — وهو قطعة بيضاء من نسيج القطن على شكل الحبرة ويلبس مثلها . أما الحذاء ، فهو « خف » من الجلد الأصفر يدخل فى بابوج

وثياب الخروج متعبة مربكة عند المشى ، وهى وإن كانت محتملة لدى سيدات الطبقة الراقية اللائى قلما يشاهدن راجلات ، فقد يرتديها غيرهن ممن لا يملكن أجرة الركوب . وإعداد هذه الملابس لإخفاء زينة المرأة وكل ما فيها من جاذبية أو ملاحة لا عيب فيه ، إذ أن الثوب ذاته يعوزه الكثير من الأناقة . إلا أن هناك اعتباراً يقتضينا أن نلاحظ عدم ملاءمة هذه الثياب لغرضها الأصلى ، وهو أن العيون التى تكاد تكون دائماً جميلة تزيدها جمالاً حجب تقاطيع الوجه التى يندر أن يبلغ جمالها جمال العين ؛ ثم إنها تجعل الأجنبى يتصور الوجه الجذاب وجهاً معيباً دميماً لاختفائه وراء القناع . ويرجع استعمال النقاب إلى قديم الزمن ، غير أن الظاهر من نقوش الفراعنة ورسومهم أن المصريات فى ذلك العهد كن سافرات ، ولكنهن فى الوقت الحاضر — حتى الخادمات منهن — يتخذن من فضل طرحتهن قناعاً يخفين وراءه الوجه ، إلا عيناً واحدة ، كلما وجدن فى حضرة رجال العائلة التى يخدمنها

(يتبع) عدلى طاهر نور

(١) مثل توب نساء الطبقة الدنيا كما فى الشكل رقم ٢٦

غَالِيَةُ ... فى لُبْنَان

للأستاذ أنور العطار

أَتدرينَ أنكِ أحلاميَهْ وَأنكِ أعذبُ أنغاميَهْ

وَأنّ خيالكِ فى خاطرِى يرفُّ كزنبقةٍ ناديَهْ

وَأنكِ أشعارىَ الماجساتُ بنفسِىَ فى العُزلةِ القاسيَهْ

***

ذكرتُكِ وَالقلبُ نهبُ الفتونِ رهينُ الرؤى الحلوةِ الوافيَهْ

وَ (لبنانُ) يسبحُ فى نشوةٍ منَ السحرِ وَالحُبّ وَالعافيَهْ

توشّحَ بالعَبقِ المُستطابِ وَغامَ فى البهجةِ الضافيَهْ

وَنامَ عَلى شُرُفاتِ الغمامِ وَطافتْ بِهِ الخضرةُ الحاليَهْ

تناثرُ فوقَ الروابى قُراهُ كما تتناثرُ آماليَهْ

عَلى كلّ مائسةٍ صادحٌ وَفى كلّ وارفةٍ شاديَهْ

وَتُصغِى الوِهادُ إلى قصّةٍ منَ الحُبّ تسردُها الساقيَهْ

وَقدْ أنصتَ الكونُ إلا الصدَى يُرددُ أنشودةَ الراعيَهْ

تطلّعُ فى زهوِها الراسياتُ حنيناً إلى عودةِ الثاغيَهْ

وَنمّ عَلى الدربِ سحرُ الغِناءِ فأغفَى عَلى النغمةِ الشاجيَهْ

وَظلّ المساءُ يحومُ عليهِ وَيرعاهُ بالمُقلةِ الرانيَهْ

وَفى خلوةِ الوادِ نبعٌ حبيبٌ يُهدهِدُ أوجاعهُ الباكيَهْ

كأنّ عَلى النبعِ قيثارةً تنوحُ مُلوّعةً شاكيَهْ

وَ(بيروتُ) نائمةٌ فى السفوحِ تتمّمُ أحلامها الزاهيَهْ

ترامتْ عَلى البحرِ مأخوذةً تُناجيهِ حانيةً صابيَهْ

قصائدُ حافلةٌ بالطيوبِ يموجُ بها السهلُ وَالرابيَهْ

تغنّى الليالِى بألحانِها فتغرقُ فى سكرةٍ باقيَهْ

***

... ...

رَأيتُكِ (لبنانِىَ) المشتهَى وَجنّتَهُ اللّذةَ الشافيَهْ

وَأبصرتُ وَجهكِ يطفو عليهِ وَيغمرُ أرجاءهُ النائيَهْ

... فغابتْ مسارحُهُ الغالياتُ وَلمْ يبقَ غيرُكِ يا (غاليَهْ)

(عاريا — لبنان) أنور العطار

أغنيـــة البحيرة

[مهداة إلى ناظم « أغنية الجندول » وملحنها البارع]

للأديب حسن أحمد باكثير

إن رأيتِ الصبح يبدى لكِ سحره فاذكرينى واذكرى يوم البحيرة

يوم أقبلتِ وفى يمناكِ زهره قد حكت من وجهكِ الوضاح ثغره

ونسيم الصبح يُهدى لكِ عطره والندى يكسو وجوه الزهر نضره

فعرتنى — حينما سلّمتِ — حيره أأداري القلب أم أعلن سره ؟

وأوارى الحب أم أُظهر أمره

أنتِ يا من وشحتْ بالزهر عمري وأضاءت بشعاع الطهر صدرى

أذكرينى واذكرى يوم البحيرة

***

لم أعد أذكر إلا أن نظره أشعلت فى قلبىَ الولهان جمره

وأطارت من حنايا الصدر زفره وأسالت من سواد العين عبره

وجنَت للروح تهياماً وحسره يا لَسحر الحب! ما أفتك سحره!

يا لمر القلب وما أعذب أمره ! إن أكن أنسيت ما أنسيت ذكره

ليتنى — إذ ذُقته — ما ذُقت مرّه

أنت يا من وشحت بالورد عمرى وأضاءت بشعاع الخلد صدرى

اذكرينى واذكرى يوم البحيرة

***

واذكرى إذ قلت: هذا اليوم غُره فى جبين العمر فانشتف بِشره

وانثرى من ثغرك الفتان دُرّه وانشري من شعرك الوسنان عِطره

أو دعينى أرتشف من فيك خمره أو أقبلْ خدّك الوردى مَره



جواب

وأجيب عن السؤال الثاني بأن « الهناء » في « تاج اللغة وصحاح العربية » من صحاح اللسان العربيّ ، دام الهناء للسائل الفاضل .

« زهير »

هما لابن عبد ربه

سأل الأديب أحمد حسن على شعيب في (العدد ٤٢٩) عن مقطوعتين من الشعر نسبتا في اليتيمة إلى حبيب بن أحمد الأندلسي وعزاها ابن عبد ربه إلى نفسه في « العقد » . والذي نرجحه أنهما لابن عبد ربه ، لأن الفتح بن خاقان ذكرهما مع شعر لابن عبد ربه في ترجمته من « مطامح الأنفس » ص٥٨ ، ولأنه عرف عن الثعالبي أنه ينسب شعراً إلى غير قائليه ، وقد نبه على ذلك الأستاذ الصاوي في كتابه « المراجع العربية » عند الكلام على « يتيمة الدهر » وأورد أمثلة (ص ٤٥ و ٤٦) منها نسبته شعراً إلى سيف الدولة . قال ابن رشيق إنه لابن الرومي ، وأبياتاً أخرى لسيف الدولة أيضاً قال ابن خلكان إنه رآها في ديوان عبد المحسن الصوري . بل أنه — أي الثعالبي — عزا مقطوعة لأبي المطاع الحمداني ذي القرنين ، ثم نسبها بعينها إلى ابن طباطبا الرسي المصري ، وهي تروى ليزيد بن معاوية وغيره ، انظر ص ٣٢ المراجع العربية . وإنا لتحقيق الأستاذ النشاشيبي لمرتقبون

أحمد صفوان

تحقيق في نسبة حديث

جاء في مقال غزوة حنين (العدد ٤١٧) من الرسالة : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الخوارج : « أكفار هم أم منافقون » ؟ فأجاب : « من الكفر فروا » . لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً » . فكتبت في العدد (٤٢٢) أستبعد نسبة هذا الكلام إليه ، وقطعت بأنه من كلام عليّ بن أبي طالب . فجاء الكاتب الفاضل صاحب المقال يسأل في العدد (٤٢٣) عن المصدر الذي نسب هذا القول إلى علي ، ويذكر أن مصدره هو : (السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٤٠) . ويقول في ختام كلمته : « ليس هناك ما يمنع صحة هذه النسبة إلى النبي على سبيل القطع »

فمن الخير أن نبين ما يمنع صحة هذه النسبة :

١ — كانت نشأة الخوارج بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من ربع قرن وعرفوا بهذا الاسم لخروجهم على عليّ في حرب صفين

٢ — إذا جعلنا صدور هذا الكلام عن النبي من باب الإخبار بالمغيبات اعترضنا أمران : الأول أن الأحاديث المأثورة في هذا الباب تذكر صفات عامة ولا تسمى أشخاصاً ولا فرقاً بأسمائها . والثاني أن الصحابة الكرام لا علم لهم بالمغيبات ، فكيف وقع إليهم إسم (الخوارج) حتى يسألوا عنه . ونحن نعرف أحاديث كثيرة يجعلها المحدثون في باب الكلام على الخوارج ، إلا أنها جميعاً ليس فيها هذا الإسم ؛ حتى أن ابن عمر وغيره كانوا إذا سئلوا عن الخوارج (بعد سنة ٣٦ هـ طبعاً) حدثوا بهذه الأحاديث التي فيها صفات قد تنطبق عليهم باجتهاد الراوي . وانظر في ذلك ما جاء في كتب الحديث بدلالة (مفتاح كنوز السنة : الخوارج) في أكثر من عشرين موضعاً

فتصامَمْتِ كما لو كنتِ صخره ومرت في وجهكِ الأخاذ حُمره

طرباً أخففتِ إذ حاولتِ ستره

أنت يا من عطَّرَت بالحب عمري وأضاءت بشعاع القلب صدري

اذكريني واذكري يوم البحيرة

واذكري الزورق إذ أوقفت سيره بعد ما اجتاز بنا عرض البحيره

فانتَحَيْنَا مجلساً تحت شُجيره مجلساً حُفَّ بماء وبخضره

وبأزهارٍ حباها الفجر طهره ومروج تلهم الشاعر شعره

فسكرنا عنده بالحب سكره لم تدم إلا كما تخطر خطره

آه لو عادت وعادت ألف مره

أنت يا من عطَّرَت بالحب عمري وأضاءت بشعاع القلب صدري

اذكريني واذكري يوم البحيرة

علي أحمد باكثير

٣ — هـذا الـكلام المنسوب إلى رسول الله ، المنقول من السيرة الحلبية يناقض ما قبله وما بعده فيها من الأحاديث الصحيحة كل المناقضة : فبينا يورد صاحب هـذه السيرة (٣ : ١٤٠) أحاديث فى كفرهم ووجوب قتالهم نرى هذا الـكلام ينفى عنهم الـكفر والنفاق صراحة

٤ — لو صح عن النبى شىء فيهم بصراحة ، ما وسع علياً أن يقول موصياً فيهم : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأ كمن طلب الباطل فأدركه » ، ولو صح ذلك ما جاز لابن عباس أن يقول فيهم لعلى : « والله ما سيماهم بسيما المنافقين وإن بين أعينهم لأثر السجود وهم يتأولون » ، وإنما المعقول أن يستشهدا بما قال النبى صلى الله عليه وسلم . ولو صح ذلك أيضاً لما جعلهم المحدثون (البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه) ممن تنطبق عليهم أحاديث المروق اجتهاداً منهم . أما سندى فى عزو هذا الكلام إلى صاحبه على بن أبى طالب فهو العقد الفريد وقد سهوت فذكرت الخوارج فى العدد (٤٢٢) وإنما هو فى أصحاب الجمل ورأى على فى الخوارج هو هو نفسه فى أصحاب الجمل على ما ذكرت لك آنفاً فى وصيته فيهم . جاء فى العقد الفريد : (ج ٣ ص ١٠٥ المطبعة الأزهرية) سنة ١٩٢٨ . سئل على عن أصحاب الجمل : «أمشركون هم؟» فقال : « من الشرك فروا » قال : « فمنافقون ؟ » قال : « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً » قال : « فما هم ؟ » قال : « إخواننا بغوا علينا »

ولعل أطرف الأشياء وأعجبها السند الجديد الذى أظفرنى به السائل . إن سندى فى نفى هذا الـكلام عن النبى صلى الله عليه وسلم هو السند نفسه الذى أحتج به فى نسبته إليه ، وسأنقل الفقرة نفسها مع ما قبلها ليتبين الحق على وجهه . جاء فى السيرة الحلبية (ج ٣ ص ١٢٠) ما نصه : « وقد قاتلهم (يعنى الخوارج) على كرم الله وجهه وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الخوارج « أهم كفار » فقال : « من الكفر فروا » فقيل : « أمنافقون ؟ » فقال : « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً » فقيل : « ما هم ؟ » فقال : أصابتهم فتنة فعموا وصموا » فلم يجعلهم صلى الله عليه وسلم كفاراً لأنهم تعلقوا بضرب من التأويل

ألا يرى معى الكاتب الفاضل والقراء الكرام أن (صلى الله عليه وسلم) الواردة بعد (سئل) وبعد يجوز أن تكون (يجعلهم) خطأ من ناسخ أو طابع ، وأن الكلام يستقيم بدونها ويتجه إلى الصواب ، فيكون من كلام على ويطابق ما جاء فى المصادر الصحيحة كلها . وذلك من أغرب ما يوقع به سهو أو خطأ . وسيبقى هـذا خطأ حتى يثبت بطريق صحيح يشتبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم

« دمشق » — سعيد الأفغانى

حول نقد كليلة ودمنة

طالعت باهتمام ما كتبه الأستاذ عبد السلام هارون فى نقد وتعليق على الطبعة الأخيرة لـكتاب « كليلة ودمنة » وقد رأيت أن أعلق على تعليقه الثالث المنشور بعدد (الرسالة) رقم ٤٢٨ على نقاط ثلاث لم يصحبه التوفيق فيها :

الأولى : « إذا جئتنى بالليل من غير نداء ولا رمى ، ولا شىء رتاب به » ؛ يتساءل الأستاذ بعدها بقوله : « فما ذلك الرمى ؟ » ويرجح أنها مصحفة « من الرمز » ، والحقيقة أن كلمة « الرمى » صحيحة وملائمة ، وليس هناك ما يحمل على العدول عنها ، بل وجد ما يوجب التمسك بها ، فالرمى بحجر أو حصاة وسيلة معروفة من وسائل التنبيه عند القدامى والمحدثين وهو أدعى إلى الارتياب ، ويفسر له ذلك ما روى فى نوادر ابن أبى عتيق : « عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق » قيل : وتمشى عبد الله ليلة ومعه رجل من الأنصار ، فوقع حجر فى الدار ، ووقع آخر وثالث ؛ فقال للجارية : اخرجى فانظرى أذّنوا المغرب أم لا ؟ فخرجت وجاءت بعد ساعة وقالت : أذّنوا وصلوا ؛ فقال الرجل الذى كان عنده : أليس قد صلينا قبل أن تدخل الجارية ؟! قال : بلى ، ولكن لو لم أرسلها تسأل عن ذلك لرُجمنا إلى الغداة أفهمت ؟ قال : نعم قد فهمت[1] !

وواضح من هذا أن صديقاً للجارية كان يدعوها بالرمى

الثانية : « رأس الخنازير » و « سيد الخنازير » ، يرجح الأستاذ أنها « رأس الخبّازين » ؛ ولا أدرى لمن يخبز هذا الخباز ومن الذى سيأكل خبزه من السباع الضارية ؟! ويؤيد الأستاذ ظنه بأنه قد أشير إليه فى بعض النسخ بعبارة « صاحب المائدة »

(١) نهاية الأرب ج ٤ ص ٧

وهذا دليل لا يقدم ولا يؤخر ، فما المانع من أن يكون « رأس الخنازير » هو « صاحب المائدة » في نفس الوقت ، وهذا هو الواقع ، وهو من دلائل الحبكة القصصية عند المؤلف ، حيث جعل الأسد يأمر بعزله عن وظيفة القيام على مائدته بعد ما تحدث « دمنة » عن قذارته ودمامته ، ولا أفهم كيف تدل كلمة « صاحب المائدة » على الخبازة ، ومائدة الأسد معروفة ألوانها ؟ وقد التفت إلى ذلك الأستاذ الرصفي في طبعته المصورة فقال : « وسيد الخنازير هذا كان خادماً على مائدة الملك ، كما يفهم مما بعد ... الخ »

الثالثة : « وانقلبت ظهراً لبطن ، وانجررت حتى دخلت جحرى » ويسأل حضرته قائلاً : « فماذا جره حتى انجر ؟ إنما هي : وانحدرت » ونحن نسأله على طريقته « ماذا قلبه حتى انقلب؟ وماذا حدره حتى انحدر ؟» ، فهذا الفعل المطاوع لا غبار عليه البتة ، وأمثاله كُثُرٌ في اللغة ، وهذا الفعل بالذات تقول عنه المعاجم : وقد جَرَّت الإبل تجر جراً إذا رَعَتْ وهي تسير ، أو الجرُّ أن تركب الناقة وتتركها ترعى ، وقد جرها يجرها « كالانجرار » فيهما ، وأنشد ابن الاعرابي :

« إني على أوْنِي وانجراري »

وهذه الأفعال المطاوعة — كانتشر وانكمش وانتقل — مطاوعة لعامل ذاتي لا لعامل خارجيّ ، أي تتجاوب مع عامل طبيعي فيها ، فهو قد قلب نفسه فانقلب ، وجر نفسه فانجر ، وحدر نفسه فانحدر .

هذا ما وجدته حرياً بالتنبيه عليه حتى لا يتهم الأستاذ الفاضل بالتكلف أو التحامل ... وأُعيذه منهما .

حسين منصور

حول كتاب « محمد فريد » أيضاً

في العدد ٤٢٩ من الرسالة وفينا هذا الكتاب القيم حقه من التقدير ، وأشرنا إلى أن المؤلف الفاضل قد تعقب زعيما بعينه في مواضع لم يكن التعقب فيها حتما عليه . وقد أنكر علينا أديب في العدد الماضي هذا القول وطالبنا بالمثال . ونحن نكتفي بأن ندله على الصفحات الآتية من الكتاب وهي صفحات : ١٨٨ و ٢٦٠ و ٣٥٥ و ٣٥٦ و ٣٨٨ و ٤١٢ ، فان فيها مقنعاً لمن يريد أن يقتنع

لبيب السعيد

محنة التعليم

أخي الأستاذ علي عبد الله

قرأت في العدد ٤٢٣ كلمتك في محنة التعليم الإلزامي ، فلم أعجب للفوضى التي وصفتها فيه ، وللنظم الجائرة المطبقة عليه ؛ ذلك لأن المصيبة عندنا في نظم التعليم وأساليبه ليست بأقل من مصيبتكم فيه إن لم أقل أشد وأفدح . أما العدل فلا عدل ، أما التقدير فلا تقدير . ترى المعلم النشيط ذا الوجدان الطاهر يلقى دروسه على طلابه من الصباح إلى المساء ، باذلا من الجهد ما يضنى جسمه ، مجرباً كل الوسائل الممكنة لإفهام الطلاب تنشئة صالحة قويمة ، وترى إلى جانبه المعلم الجاهل يقضي نهاره في راحة ودعة ، لأنه فقد الضمير والوجدان . فماذا تجد ؟

يحزنني والله أن أخبرك أن الأول مظلوم مهمل مغضوب عليه ، وأن الآخر مرضى عنه حائز ثقة رؤسائه ، يزيد مرتبه على مرتب ذاك زيادة قد تبلغ الضعف أحياناً . ولعلك تستغرب هذا وتود أن تعلم السبب في ذلك :

هناك أسباب كثيرة أجدرها بالذكر أن الأول لا ينافق ولا يماري ، ولا يتملق أولي الأمر ، وأن تقدير قيمة المعلم وقيمة عمله متوقف على تقارير المفتشين ، ولا أكتمك أن في هؤلاء المفتشين من برع في الرياضيات والطبيعيات براعة فائقة ، ولكنه لا يعرف من اللغة العربية إلا مبادىء لا تغنيه . ولو أن وزارة المعارف ولتهم تعليم ما اختصوا به لما عدت سبيل الحق ، ولأفاد الناشئون منهم ومن علمهم

وناحية أخرى ، هي أن قيمة المعلم — لدى أولي الأمر — لا بعلمه وفضله ، ولكن بما يحمل من شهادات ! فكلما كانت شهاداته أكثر كان أعلم وأفضل ، وهذه طريقة لا نراها عادلة كل العدل — وعلى الأخص في دروس اللغة العربية

وأنا مشفق بعد هذا — مثلاً — من أن أذكر كل ما أعرف ، فلا تحزن يا صاحبي ، وليكفك أن وجدانك مستريح وأن ثوابك غداً عند الله لا في هذه الدنيا

(دمشق) ناجي الطنطاوي

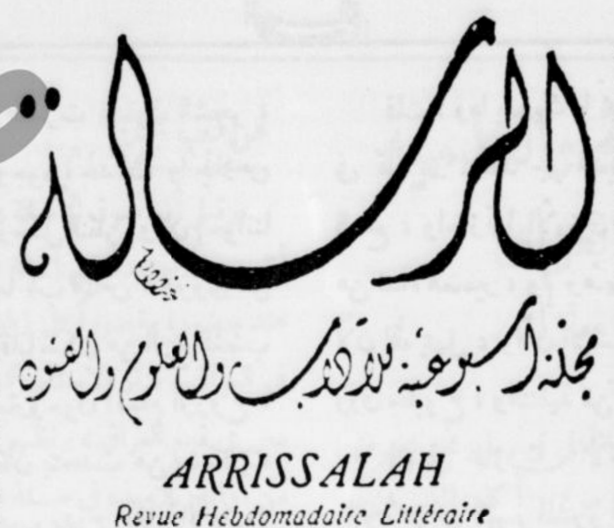
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 432 — Lundi - 13 - 10 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٣٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٢ رمضان سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٣ أكتوبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

من أحاديث القهوة

— ٣ —

حبسنى عن ندامى « الكافورة » عوادٍ من الشغل والمرض فلم أعد إلى الأنس بهم إلا بعد حين . وهذا الحين على قصره كان كافياً أن يحمل الحال غير الحال، ويبدّل الجو غير الجو

هذه طلائع الخريف الباكر قد هيمنت على الأفق : فالرياح السوافى تنوح على عذبات الشجر الوريق فيرتعد فَرَقاً من نذير الجفاف والموت ؛ والغمائم الرقاق تتجمع غُبْرًا كخَمَل النعام ، أو تتفرق بيضاً كندوف القطن ، فيتعاقب من تجمعها وتفرقها الظلام والنور والظل والحرور على صفحة النهر ووجه الأرض

وطلائع الخريف تبكر فى الريف فتحدث فى نظام الطبيعة قليلاً من الفوضى . ذلك أن الفيضان يشارف غايته المقدورة فى أوائل سبتمبر ، فيُترع النيل كل القنوات ، ويغمر أكثر الحقول ، ويكون من جراء هذا الرى الطافح أن يفتر الحر ، ويرطب الهواء ، وينعقد بخار الماء سحباً فى السماء ، وأندية على الأرض ، فلا تجد أواخر الصيف مناصاً من الرحيل . وفى رحيل الصيف على هذه الحال الفاجئة اضطراب فى حياة الناس والزرع . فالقطن يسوءه احتجاب الشمس عن اكتمال النضج فيفسد لوزه ، والإنسان يُعجله تغير الجو عن اتخاذ الحيطة فيميل اعتداله

***

سكنت الريح بعد هبَّة حمقاء هصرت غصون الشجر، وكشفت أغطية المناضد، وقلبت وجوه الحُدّاث والجُلاّس فقطعوا سلاسل الحديث، واسترجعوا رسُل النظر. وكان إخواننا المصطافون قد نابهم من ثورة الريح ما ناب الناس؛ فانزوى كل امرئ عن أخيه وانطوى على نفسه. فلما سكت عن الريح الغضب عادوا يستقبلون أنفاس الموج، ويستروحون أنسام الزروع، ويستمعون إلى الأستاذ نجيب، وكان يتحدث عن مشكلات التموين ومخزيات الإدارة. والأستاذ نجيب مدرس بكلية الآداب، قضى أسابيع من عطلته عند أهله في سمنود. وكان له بجانب ذهنه معدة كمعدة الأحياء لا تفتأ تطلب القوت. والقوت اليوم بفضل الطاغية «هتلر» لم يعد كما كان مبذول المنال يأتيك على اغتماض وأنت وادع؛ إنما أصبح عزيز الدرك لا تناله إلا ببطاقة أو صداقة أو شفاعة. فكان يلقي كتابه من يده، ثم يخرج ومعه بطاقة التوزيع يسأل عن القمح فلا يجاب، ويبحث عن البترول فلا يجد

نظام البطاقات محكم دقيق يضمن لكل بطاقة رصيدها، ولكل مستهلك نصيبه؛ فمن أين جاء الحرمان والخير موجود، وكيف سيطرت الفوضى والنظام قائم؟ كان الأمين الذي جعلته الحكومة على خزائن التموين قد قضى أن يكون مع بطاقة التوزيع تصريح منه لا يظفر به إلا ذو المال أو الجاه أو القربى؛ وصديقنا الأستاذ لم يؤته الحظ شفاعة من هذه الشفاعات الجابة، فبقي في جمهرة الفقراء يحتشدون كل يوم على باب الأمين يسألون فيه غير مجيب، ويسترحمون منه غير راحم. قال الأستاذ وقد نبض من الغيظ نابضه، فارتجفت شفتاه وتهدج صوته:

كان مئات من ذوي الضعف والمسكنة يتركون بيوتهم صفراً من القوت والوقود ويظلون النهار كله على باب هذا (الحاكم) قياماً وقعوداً وبأيديهم القفف والأكياس، وفي جيوبهم البطاقات والنقود، يسألونه التصريح مرة بالدعاء ومرة بالبكاء، فلا يجيبهم غير الجنود بعصيهم الملتهبة، وكلماتهم الغليظة؛ حتى إذا أمسى المساء انصرف المجدودون بتصاريحهم إلى تاجر بعينه يكتالون بالسعر المقرر، وانقلب المكدودون بأوعيتهم إلى التاجر نفسه يكتالون بالسعر المكرر. ومن عرق البائسين ودموع اليتامى تنتفخ جيوب وتكتظ كروش؛ وبأمثال هذا الموظف وذلك التاجر تدول دول وتسقط عروش!

قلت: وما يدريك يا نجيب، لعل الحال في بلدك هي الحال في كل بلد! لقد فجر التجار وهوَّدتهم المطامع، فاحتكروا السلع، واختزنوا الأرزاق، وعموا عن طريق الحق، وصموا عن نداء الضمير، ولم تزعهم خشية الله ولا سطوة الحكومة؛ لأن الله يمهل، ولأن الإنسان يهمل. والقانون من غير تنفيذ ورق مطبوع، والتنفيذ من غير خُلُق ظلم مسلح

إن في مخازن الأغنياء ومخابئ التجار من الأقوات ما لو عُرض للبيع المشروع لأعاد إلى الناس عيشهم الأول؛ ولكن الفقدان والحرمان سيدومان ما دام للطامع يد وليس له قلب، وللحكومة لسان وليس لها عين

إن الحكومة قد أيقظت وعيها ورأيها لشؤون الوقاية والتموين؛ وفي سبيلهما تستطيع أن تبتكر الأسلوب البارع وتسن النظام المحكم، ولكنها لا تستطيع أن تبعث النور في الحس المظلم، ولا الشعور في الفؤاد المصمت

هذه انجلترا تموّن ملايين الجنود من نهر النيل إلى بحر قزوين، ومن أقصى المحيط الغربي إلى أقصى المحيط الشرقي؛ فهل تجد مع ذلك جندياً في البر أو في البحر أو في الجو يزعم أن نصيبه الموفور من الطعام والشراب والفاكهة والخمر والحلوى والعتاد والسلاح والذخيرة لم يدركه في موعده الموقوت على أكمل نظام وأعدل قسمة؟ وهل كان هذا العمل المعجز ممكناً لو لم يكن بإزائه خلق يعين على قضاء الحق، وضمير يحث على أداء الواجب؟

قال الأستاذ علي: وهل عطل الأنظمة، وعوّق الإصلاح، وأوهن الملائق، وشتت الوحدة، وأشاع البؤس، غير فساد الأخلاق؟ إن ما أصابنا من نكد العيش وذل النفس وحبوط العمل، نتيجة محتومة لما أصبنا من فحش الجور وقبح الأثرة وسخف الذمة «ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة». فقال الأستاذ توحيد: إن التعبير هنا بالدابة من معجزات البلاغة القرآنية؛ فإن الناس إذا زاغوا عن طريق العدل، وخرجوا على منطق العقل، لا يصدق عليهم غير هذا اللفظ

وعادت الريح الباردة تهب هبوب الخلق الشموس فقطعت الحديث، وقوضت المجلس، وأنذرت القوم أن يهجروا الكافورة حتى يعود الربيع

المنصورة في ١٨/٩/١٩٤١ احمد حسن الزيات

الصلات الأدبية والعلمية

بين مصر والعراق

للدكتور زكى مبارك

قضى سعادة الدكتور محمد فاضل الجمالى فى مصر نحو شهرين كان فيهما موضع الحفاوة والترحيب من أكابر المصريين ، فالتفتت الأذهان من جديد إلى وجوب توكيد الصلات الأدبية والعلمية بين مصر والعراق . ويزيد فى أهمية هذا الالتفات وجاهة الغرض الذى حضر لتحقيقه هـذا الرجل المفضال ، فقد جاء يستحث المدرسين المصريين إلى المسارعة بالتوجه لخدمة العلم فى المدارس العراقية ، وعددُهم فى هذه المرة كثير جدًّا بحيث يكفى لتوكيد تلك الصلات إن أدرك جميع هؤلاء المدرسين أنهم سفراء مودة وإخلاص ؛ والمأمولُ أن يدركوا هـذا المعنى أتمّ الإدراك بفضل ما سيلقون فى بلاد الرافدَين من الإعزاز والتبجيل . أسبغ الله عليهم أثواب العافية ، وجعل التوفيق حليفهم فى جميع الشؤون !

أما بعد فموضوع هذا المقال مستوحًى من زيارة الدكتور الجمالى ، وقد كان يجب أن نتحدث عنه فى « الرسالة » قبل اليوم ، لأنه لم يزر مصر إلا موفداً لمهمة من أشرف المهمات ، وكان ذلك يوجب أن نتحدث عن قدومه ولو بعبارة وجيزة فى البريد الأدبى ، ولكن الدكتور الجمالى نفسه هو سبب ما وقع من السكوت ، فقد بدا لى أن أوجه إليه طائفة من الأسئلة المكتوبة ليجيب عنها إجابات مكتوبة طلباً للسلامة من الخطأ والتحريف ، ورعايةً لمركزه الدقيق ، وهو مركز لا يبيح له أن يتحدث عن الصلات بين مصر والعراق بلا تدبر ولا إمعان ، فقد رأيته غضب حين قرأ فى إحدى الجرائد أنه سئل عن النظام الجديد فى بلاده بعد الثورة الكيلانية وأنه أجاب بكيت وكيت ، فلما سألته عن سبب غضبه مع أن الجواب المنسوب إليه لا غبار عليه قال : لا يليق بمن يوفَد لمهمة علمية أن يتكلم عن شؤون سياسية

وأريد أن أقول إن الدكتور الجمالى حار فى الإجابة عن الأسئلة التى وجهتها إليه ، وكانت تلك الحيرة سبباً فى أن تتأخر الإجابة أسابيع ، فلم يقدمها إلى إلا وهو يتأهب للرحيل

عواطف نبيلة

وقبل أن أسوق الأسئلة والأجوبة أذكر أن الدكتور الجمالى أقام برهاناً جديداً على أصالة الأريحية العراقية ، فكان اهتمامه عند حضوره مقصوراً على زيارة الرجال الذين تشرفوا بخدمة العلم فى العراق ، فزار الأستاذ محمد عبد العزيز سعيد « أول أستاذ مصرى قدم العراق ، ونظّم دار المعلمين ، وكان الدكتور الجمالى من أوائل تلاميذه فى سنة ١٩١٨ » وزار الدكتور السنهورى الذى رفع القواعد من كلية الحقوق العراقية ؛ وسأل عن الأستاذ الزيات بلهفة وشوق فعلم أنه بعيد عن القاهرة ، وتفضّل فزارنى فى سنتريس ليرى البلد الذى قال فيه الشاعر عبد الرحمن البنّاء :

لِبُعدك كابدتْ بغدادُ حزناً ... وإن فرحتْ بقربك سِنتريسُ

ولن أنسى أبداً أن الأسابيع التى قضاها الدكتور الجمالى فى مصر كانت عندى من المواسم الروحية ، فقد كان يسأل عنى فى كل يوم ، كأنه رب البيت وكأنى الضيف

أخت بغداد والألقاب

واتصلت أيام الدكتور الجمالى عندنا بفكاهات كثيرة كان يوجهها إلىّ أقطابُ وزارة المعارف من وقت إلى وقت ، منها السؤال الذى واجهنى به سعادة الأستاذ شفيق بك غربال :

— سمعت أنك لم تُصَب بأخت بغداد ، فهل هذا صحيح ؟

— أُصِبت بالأخت الحقيقية لبغداد ، وهى « ليلى المريضة فى العراق » وفى هذه الإصابة مناعة من جميع العلل والأدواء .

وفى إحدى سهراتنا أعلن الدكتور الجمالى ثورته على كثرة الألقاب فى مصر ، فأجبت بأن الحال فى مصر غير الحال فى العراق ، فالظاهر أن الألقاب كانت تُشترى بأبخس الأثمان فيظفر بها من لا يستحقون التبجيل ، ولهذا ثار عليها العراقيون ؛ ولا كذلك الحال فى مصر ، فالألقاب عندنا لا ينالها من ليس لها بأهل ، وإن كان فى النحو باب يسمى باب الاستثناء

وأردت أن أنتقم من الدكتور الجمالى فكنت أخاطبه بعبارة : يا فاضل بك ؛ فلم يمض إلا وقت قليل حتى استأنس بلقب البكوية كل الاستئناس ، إلى الحد الذى سمح له بأن يسأل عن حظى من الألقاب الرسمية بعبارة تفيض بالعطف . وقد تحزّن حين أجبته بأن الألقاب لا تمنح للموظفين إلا حين تصل مرتباتهم

إلى مبلغ لا أصل إليه إلا بعد أعوام طوال ، ثم أردت أن أطمئنه فقلت : ولكن لا موجب للجزع فقد تنفع المؤلفات فى الظفر بالألقاب !

ومن المنتظر أن يستوحش فاضل « بك » حين يُنزع منه هذا اللقب بعد وصوله إلى بغداد ، ودنيا الألقاب إلى زوال !

الجواب المحذوف

فى الأسئلة التى وجهتها إلى الدكتور الجمالى سؤالٌ يقول : ما هى الشخصيات التى ظفرت بإعجابكم ؟ وما الشمائل الأصيلة لتلك الشخصيات ؟

وأجاب الدكتور الجمالى عن هذا السؤال بصفحة كاملة ، ثم عاد فخلط بياضها بسوادها فلم أتبين منها غير أشباح ، وإن كان تفضل فأبقى العبارة الخاصة بأحد الرجال . وقد سألته عن السبب فى حذف هذا الجواب فاعتذر بأنه قد يعرّضه إلى محرجات

وأجهدتُ عينىّ فى تعرّف تلك الأسماء فلم أهتد إلا إلى سمات خطية عرفت منها أسماء : السنهورى وغربال ومشرّفة وجوهر والقبانى وفهيم

وكان قبل ذلك حدثنى عن إعجابه بالدكتور سليمان عزمى والأستاذ على بدوى

وللدكتور الجمالى الحق كل الحق فى أن يسكت عمن عرف فى مصر من الرجال ، فلكل رجل فى مصر خصائص تتعب من يهمه التحدث عنها بإيجاز أو إطناب . وغِنى مصر بالرجال لا يحتاج إلى بيان ، والذى يتصل بمصر وهو فى مثل ذكاء الدكتور الجمالى وإخلاصه لا يستطيع النجاة من الفُتُون بما لرجالها من رجاحة العقل ، ونفاذ البصيرة ، وقوة اليقين

أما إعجاب المصريين بالدكتور الجمالى فهو إعجابٌ صادق ، وقد أطلعوه على دقائق النهضة العلمية والأدبية والفنية والاجتماعية . وتفردت أنا باطلاعه على دقائق الحياة الشعبية ، وذلك جانب يراه بعض الناس من الابتذلات وأراه من الطرائف ، فما فى مصر بقعة إلا وهى مصدر وحى أو مبعث خيال

زرت مع الدكتور الجمالى أكثر الأحياء الوطنية ، الأحياء التى نبت فيها آباؤنا وأجدادنا قبل أن يعرفوا المدنية الغربية ، الأحياء التى أوحت ما أوحت من فنون الرأى والعبقرية ، زرت معه « حىّ الخليفة » الذى نشأ فيه مصطفى كامل ، وهو حىٌّ تغلب عليه البداوة ولكنه مزوَّد بقوة الروح ، وفى رحابه نشأ كثير من جنودنا الأبطال

والأخوةُ التى بينى وبين الدكتور الجمالى فرضتْ عليه أن يرى مصر بعينىَّ ، مصر التى لم يُخلَق مِثلها فى البلاد ، مصر التى وُلد فيها موسى ، ونشأ بها عيسى ، وصاهرها محمد ، وهم صفوة الأنبياء

لم أر فى مصر شيئاً يجب إخفاؤه عن رجل من أرباب القلوب ؛ وإذا احتاجت مصر إلى الدفاع عن نفسها ، فلن يكون ذلك إلا بفضل جناية الجمال على الجيل

جمالُك فاتنٌ والحسنُ ذنبٌ لأهل الحسنِ فى شرع الذئابِ
فما شكواكِ من ظلماء طالت وتلك جنايةُ الجسد اللُّبابِ

إن استباح السفهاء من أهل البغى أن ينالوا مصر بسوء ، فسيكون لهم من وراء البغى ألوان وصنوف من غضب صاحب العزة والجبروت

مصر التى لم يهتف بمثلها شاعر ولا كاتب ولا خطيب ، مصر التى لم يتفتح الزهر فى أرض أكرم من أرضها ولا أخصب ، مصر التى لم يتخطر على ثرًى غير ثراها أسرابٌ لا ترى مثلها العيون فى شرق ولا غرب

مصر الجميلة الغالية ليس فيها ما يعاب ، فمن حق أن أطلع على خفاياها من يشاء ، فإن صحّ أن فيها ما يشوك ، فهو سواد الخال فى الخد الأسيل

بكاء غريب الألطاف

البكاء محرّم على الرجال إلا فى مقامين اثنين : مقام الشوق إلى الله ، ومقام الحزن لفراق الأحباب . والمقام الثانى صورة لا ينجينى من أطيافها المزعجات إلا تدوينها على القرطاس ، فإن الإنشاء كالبكاء يخفف ما تعانى القلوب من لواعج وأحزان . وكيف نعيش لو حُرِمنا الخلوة إلى القلم من وقت إلى وقت ، وقد أقفرت الدنيا من الصديق الذى ننفض بين يديه ما فى صدورنا من أشجان وكروب ؟

والصورة الآتية من صور البكاء تستحق التسجيل ، فهى واضحة الدلالة على أن الأخوة العربية قد انتقلت من حال الشرح والتفسير إلى حال الذوق والإيمان . فما تلك الصورة من البكاء ؟

فى الأيام الأخيرة لإقامة الدكتور الجمالى بالقاهرة جدّت

شواغل منعتني من الأنس بهذا الصديق النبيل ، وهي الشواغل التي تصحب افتتاح العام الدراسي ، ومع ذلك عرفت أنه سيغادر القاهرة في عصر هذا اليوم (١/١٠/٤١)

وقبل الموعد المحدد لقيام القطار بنحو خمسين دقيقة كنت في الفندق الذي نزل فيه لأصحبه إلى محطة باب الحديد ، ولكني لم أجده هناك ، ثم حضر بعد لحظات ، فكانت تحيته : لطفك يا دكتور ! وحدّق في وجهي لحظة ثم قال : هل تعرف أني قضيت مساء الأمس وصباح اليوم في البكاء لفراق القاهرة ؟ فابتسمت وقلت : الجروح قصاص ، فن واجب القاهرة أن تصنع بك بعض ما صنعت بي بغداد ، وأنا بكيت لفراق بغداد حتى رحمني أعدائي ، فاشرب قطرة من الكأس الذي شربتُه حتى الثمالة . واحترس من التزيد على المحبين !

ولم يقع في الوهم إلا أن الدكتور الجمالي يلاطفني بالحديث عن تحزّنه لفراق القاهرة ، فهو من بلد له تقاليد في مراعاة الآداب الإخوانية ، ولكن لم نكد نفارق الفندق في طريقنا إلى المحطة حتى غلب الرجل على وقاره ، وأخذت دموعه تبلل خديه على نحو ما يصاب به المتيّمون

ورأيت من الحزم أن أتجاهل ما يعانيه ، لئلا يزداد عناء إلى عناء ، فأخذت أشاغله بالسؤال عن معالي الدكتور سامي شوكت وسعادة الأستاذ طه الراوي ، وانطلقت فسردت له عشرات من الأسماء التي أحبها في أرجاء العراق ، ولم أطو عنه إلا أسماء من صادقت من رجال الجيش ، فقد خشيت أن أسمع أن فيهم من قُتِلَ في الحرب التي دامت ثلاثين يوماً . وكان لي في الجيش العراقي أصدقاء لا يفدون بغير الأرواح ، كتب الله لهم العافية من مكاره الصروف في هذه الأيام !

ثم بلغنا محطة باب الحديد وقد جفت دموع الدكتور الجمالي ، فرأينا هنالك طوائف من الإخوان ينتظرون باسمين ، فسُرّي عنه بأسرع من لمح البرق ، وأخذ يحاور ويناضل بعزيمة لا تعرف البكاء

وأراد الإخوان أن يصارحوه بحزنهم لفراقه فأشرت إليهم أن يكفوا ، فسكتوا وقد فهموا أني أعرف من أمره ما لا يعرفون ؛ والمصري أقدر الناس على فهم خطرات القلوب ولمحات العيون

وكان الدكتور الجمالي مع هذا مهدداً برجعة البكاء ، فقد كان يرى ناساً لا ينتظر أن يراهم في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم من أيام رمضان ، فكان يقول لمن يراه : غريق ألطافكم ! غريق ألطافكم !

وتمت الأعجوبة حين رأى أقطاب وزارة المعارف يَفِدون لتوديعه وهم رجال لا تسمح شواغلهم بأداء هذا الواجب في مثل هذه الأيام المثقلة بالتكاليف

وقد تأثر الدكتور الجمالي بهذا المنظر فكاد يبكي من جديد ، ثم صدّه حضور صاحب الفخامة نوري باشا السعيد ، فقد أخذ يسألني عن صحة ليلى بعبارات لا تخلو من فكاهة ومزاح

ودوّى صفير القطار فتحاجَز المودعون ، وانخرط الدكتور الجمالي في البكاء ، البكاء الذي لا يجيده في مثل هذا الموقف غير كبار الرجال

وما الذي يمنع الدكتور الجمالي من البكاء لفراق القاهرة ، وقد عاش فيها شهرين بعين المحب وقلب الصديق ؟

لو كان الدكتور الجمالي من الشعراء ونظم في توديع القاهرة ألف قصيدة لكان تعبيره عن أساه أقل بياناً من تلك الدموع النبيلة وقد جاد بها قلب نبيل

الثقافة المصرية

حدثني الدكتور الجمالي قال : « شُغلتُ عن مسايرة الثقافة المصرية نحو عشر سنين ، بسبب التفاتي إلى الثقافة الإنجليزية ، ثم كانت هذه الزيارة فتحاً جديداً ، وقد اشتريت من المؤلفات المصرية ما ملأ حقيبتين كبيرتين ، فحبي القديم لمصر أضيفَ إليه حب جديد ، كنت أحبها للأخوة العربية ، فصرت أحبها للأخوّة العلمية ، وإعجابي بتقدُّم مصر العلميّ جاوزَ ما كنتُ أقدِّر من الفروض »

ومع أنه زار مصر في أشهر العطلة المدرسية فقد عرف كيف يدرك ما عندنا من مذاهب الحياة التعليمية ، بفضل صلاته الوثيقة برجال التعليم ، وبفضل ما فطر عليه من حب الاستقصاء

وليس معنى هذا أن مصر وصلت إلى ما لم يصل إليه أحد في العالمين ، ولكن معناه أن الرجل شُغِل بالمحاسن عن العيوب ، فلم تقع عيناه في مصر على شيء غير جميل

وهذه النظرة الودية هي أساس التعارف الصحيح ، والداعون إلى الوحدة العربية فاتهم هذا الجانب ، وهو الابتداء بخلق صلات روحية وذوقية تصل العربي بأخيه عن طريق الحب والصفاء

أسئلة وأجوبة

لم يبق إلا أن نذكر بعض ما دوّنه الدكتور الجمالى بخطه ، مكتفين بالأهم ، لضيق المجال

س — ما هى الصفات التى يجب أن يتحلى بها المصرى حين يخدم العلم بالعراق ؟

ج — كل ما نريده للمصرى الذى يأتى لخدمة العراق هو أن يشعر بأنه فى بلاده وبين أهله وإخوانه ، ومتى شعر بأنه يخدم أبناء قومه فلا أشك فى أن عمله سيكون مثمراً أطيب الثمر . وإنى لأنصح لمن يشتغل بالتعليم فى العراق أن يبتعد عن البحث فى القضايا السياسية والأمور المذهبية ، فما دخلت هذه البحوث فى دور العلم إلا أفسدتها

س — أتراك مطمئناً إلى صحة القول بأن مصر صلة الوصل بين الشرق والغرب ؟

ج — إن مصر خير مثال لبلد تمسّك بشرقيته ثم غذاها بالنتاج الثقافى الغربى ، فمصر عربية فى روحها ، إسلامية فى تقاليدها ، وهى مع ذلك تأخذ عن الغرب أساليبه العلمية ، وأنظمته الصناعية والزراعية والتجارية ، فهى بودقة تصهر ثقافتى الشرق والغرب ، ونرجو أن تخرج منهما ثقافة موحدة لمحاسن كلتيهما ، وإذ ذاك تصبح مصر ومن ورائها البلاد العربية صلة الوصل بين الشرق والغرب حقاً

س — ما الذى تحب أن يُنقل من شمائل بغداد إلى القاهرة ومن شمائل القاهرة إلى بغداد

ج — أحب أن تُنقل بعض شمائل القاهرة إلى بغداد ، لا سيما ما يتعلق بتنظيم العمران وفتح الشوارع وتشجيرها والإكثار من الميادين والحدائق العامة ، ولا أرى ما يمكن نقله من بغداد إلى القاهرة

س — هل اتسع وقتك للنظر فى الفروق بين المناهج المصرية والمناهج العراقية ؟

ج — هناك فروق بين مناهج التعليم فى مصر والعراق ، وهذه الفروق ناتجة من أمرين : الأول أن العراق حديث فى نظامه التعليمىّ ، ولم تتولد له مشاكل تاريخية بعد ، ففى وسعه أن يطبق أحدث النظريات الفنية التعليمية بدون أن تكون فى الطريق عقبات خلفها له الماضى . أما أنظمة التعليم فى مصر فلها تاريخ بعيد نسبياً . فلا يمكن الأخذ بما هو صالح من الجديد إلا بالتدريج . والأمر الثانى هو أن العراق قد اعتنق الفكرة العربية منذ تكوينه الجديد بقيادة المغفور له الملك فيصل الأول ، فهذه الفكرة متغلغلة فى كل برامج التعليم ، ولم تصل هذه الفكرة فى مصر إلى صميم التعليم بعد كما هو الحال فى العراق

س — أنت زرت تركيا وكتبت عن التعليم فيها تقريراً مفصلاً ، فهل ترى وقد زرت مصر أننا قريبون أو بعيدون من الأتراك من الوجهة الثقافية ؟

ج — لا أستطيع أن أتحدث عن الثقافة التركية اليوم ، لأنى لم أتتبع التطورات الأخيرة فى معارف تركيا منذ وفاة المغفور له أتاتورك . أما الثقافة التركية كما عرفتها فى سنة ١٩٣٧ فكانت تختلف عن الثقافة فى مصر اختلافاً أساسياً وهى بعيدة عنها كل البعد . أولاً لأن الأتراك فى ثقافتهم قطعوا صلتهم بالماضى ووضعوا لأنفسهم أسساً جديدة واضحة وُجهت الثقافة بموجبها ، فهم أخذوا كل ما راقهم من المبادئ الغربية وتركوا الثقافة الشرقية وراءهم . وثانياً لأن الانقلاب التركى جاء شاملاً وسريعاً ، بينما مصر تسير على الأساليب الديمقراطية التدريجية ، فهى تُبقى الجيد من القديم وتضيف إليه الحديث ، ولذلك أرى أن الشقة الثقافية قد بعدت بين البلاد العربية والبلاد التركية . هذا ما بدا لى سنة ١٩٣٧ ولا أعرف ما هو الوضع اليوم هناك

[انتهى ما اخترناه من أجوبة الدكتور الجمالى]

أما بعد فقد فرغت من كتابة هذا المقال فى لحظة قدرت فيها أن الدكتور الجمالى لم يصل إلى الحدود المصرية ليجتازها إلى فلسطين . فليكن مقالى هذا تحية ثانية أقدمها إلى الصديق الذى ودع القاهرة بدموع الوفاء ، وليتفضل فيذكر أن القاهرة لا تنسى أحبابها أبداً ، ولو بَعُدت الدار وتقدُّم العهد

وإذا كان الدكتور الجمالى قد تلطّف فدعانى لزيارة بغداد مرة ثالثة فليعرف أنى ما فارقت بغداد ، ولا غاب عن عينى محيّاها الجميل

سيَسألُ قومٌ من زكىٌّ مباركٌ	وجسمى مدفون بصحراء صماء
فإن سألوا عنى ففى مصر مرقدى	وفوق ثرى بغداد مَرح أهوائى

زكى مبارك

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٥ —

نقد الأصول (*)

أهمية النقد ، التزييف والانتحال واثبات صحة الأصول

قد عرفنا أن التاريخ يدرس بواسطة الأصول كالوثائق وآثار ومخلفات الإنسان من الزمن الماضي . وحوادث التاريخ يمكن أن تعرف عن طريقين : عن طريق مباشر بملاحظة ومشاهدة الحوادث أثناء وقوعها، أو عن طريق غير مباشر بدراسة الآثار المتنوعة التي خلفتها هذه الحوادث . فالمعلومات عن حادث زلزال مثلاً يمكن معرفتها بطريق مباشر من بعض شاهدي العيان، أو بطريق غير مباشر بملاحظة آثار التدمير التي خلفتها الهزة الأرضية ، أو بقراءة وصف كتابي سجله أحد الناس عنها سواء بطريق المشاهدة أو بطريق الرواية . وهذا ينطبق تماماً على حوادث التاريخ . والحوادث والأوصاف التي يسجلها الرحالة المعاصر مثلاً تمتاز بإعطائها دقائق وتفاصيل ، وبتصويرها روح العصر ، وذلك ما لا يتاح للكاتب المتأخر . ولكنا نلاحظ أن وجود الكاتب في العصر الذي يسجل حوادثه ليس معناه أنه يمكنه الإحاطة بجميع نواحيه وإجادة الكتابة عنه . وذلك لعدة عوامل ، لاحتمال تحيزه للتيارات المتنوعة التي تسيطر على الفكر الإنساني، أو لتأثره في كتابته باتباع المصلحة للوصول إلى أغراض شخصية أو لتجنب الاضطهاد في بعض الأحيان ؛ وكذلك لعدم إمكان حصوله على جميع الأصول التاريخية ، بالرغم من عيشه في العصر الذي يدرسه ، والتي تظل خافية وممنوعة من التداول سنوات عديدة سواء لدوافع سياسية ، أو للرغبة في عدم إذاعة الأسرار الخاصة في حياة بعض الناس . فالأفضل دائماً أن يكون المؤرخ بعيداً عن العصر الذي يكتب عنه لكي تظهر الأصول والأسرار والخفايا بعد أن تتبلور حوادث التاريخ خلال الزمن الغابر

فحوادث التاريخ تعرف بصفة أساسية عن طريق غير مباشر بدراسة آثار الإنسان المختلفة التي تحفظ من الضياع . والمؤرخ في أغلب الأحوال لا يرى الحوادث نفسها ، وإنما يرى ويدرس آثارها . فآثار ومخلفات الإنسان المتنوعة هي نقطة البدء ، والحقيقة التاريخية هي الهدف الذي يتوخى المؤرخ الوصول إليه . وبين نقطة البدء والهدف يوجد طريق معقد متشابك تمتوره الأخطاء والمصاعب والعقبات العديدة ، والتي قد تبعد الباحث عن الهدف وعن الحقيقة التاريخية . والمؤرخ لا يجد غير هذا الطريق للوصول إلى غرضه . ودراسة وتحليل الأصول التاريخية في هذه المرحلة من أهم أدوار طريقة البحث ، وهي عبارة عن ميدان نقد الأصول التاريخية

وكما عرفنا نجد أن آثار الإنسان قد تكون أبنية وتماثيل ومصنوعات مادية ملموسة ، أو قد تكون آثاراً كتابية سجلها الإنسان عن الحوادث . فالنوع الأول أسهل في الدراسة لأنه توجد علاقة واضحة بين الآثار الماثلة أمام المؤرخ ، والتي يلمسها بحواسه ، وبين أسباب وجودها وارتباط ذلك بحوادث التاريخ . ولكن الكتابات التي يدونها الإنسان عن حوادث تاريخية معينة هي أثر عقلي سيكولوجي وليست الحادث التاريخي في ذاته ؛ فهي لا تزيد عن أنها مجرد رمز وتعبير عن أثر تلك الحوادث في ذهن الإنسان . فالآثار الكتابية تنحصر قيمتها في أنها عمليات سيكولوجية معقدة وصعبة التفسير ، لأن الإنسان نفسه على وجه العموم معقد مركب متضارب وصعب الفهم ، فلا ريب في أن تكون حوادثه والتعبير عنها على ذلك الغرار . وللوصول من الأصل التاريخي المكتوب إلى الحوادث ينبغي تعقب سلسلة

(*) يجد القارئ فصولا من نقد الأصول التاريخية في بعض المراجع مثل :

١ — أسد رستم : مصطلح التاريخ . بيروت ، ١٩٣٩ ص ١٠ — ١٣٠

٢ — Fling, F. M. : The Writing of History. Yale, U.S.A., 1926 pp. 48—102

٣ — Omans Sir Ch. : On the Writing of History. London, 1939. pp. 33—75

٤ — Langlois, Ch. V. & Seignobos, Ch. : Introduction to the Study of History English trans. by G. Berry. London, 1912 pp. 63—190

العوامل التى أدت إلى كتابته ؛ فلا بد من أن يحيي المؤرخ فى خياله سلسلة الحوادث التى قام بها كاتب الأصل التاريخى منذ أن شاهد وجمع معلوماته عن تلك الوقائع المعينة حتى دونها فى الأصل المكتوب والماثل أمام المؤرخ ، لكى يصل إلى الحوادث الأصلية . ويلاحظ المؤرخ قبل البدء فى نقد الأصل التاريخى وخاصة إذا كان مخطوطاً هل هو فى نفس الحالة التى وجد عليها من قبل ؟ ألم يبل ويتآكل وتضيع بعض أجزائه ؟ لكى يرممه ويجعله أقوى على البقاء والحفظ

وتوجد عدة أدوار ومراحل للنقد . فالنقد الخارجى أو الظاهرى external criticism يتعلق بعدة أمور مثل إثبات صحة الأصل والخطأ والمؤلف ؛ والنقد الداخلى أو الباطنى internal criticism ويبحث الحالات العقلية التى مر خلالها كاتب الأصل التاريخى ، فيحاول أن يعرف ما الذى قصده الكاتب ؟ وهل كان يعتقد فى صحة ما سجله ؟ وهل توفرت المبررات التى جعلته يعتقد صحة ما كتبه ؟ ... وأساس النقد الحذر والشك فى معلومات الأصل التاريخى ، ثم دراسته وفهمه واستخلاص الحقائق من ثناياه . والناس يتكلمون عن ضرورة النقد ولكن من الناحية النظرية فقط ؛ وهم فى الغالب لا يميلون إلى تطبيقه عملياً . والإنسان فى أحوال كثيرة ينقد الغير ولكن لا يحب أن يذكره الغير إلا بالمديح والثناء ! والإنسان فى أحوال كثيرة أيضاً أميل إلى الكسل والاهمال . والإنسان فى حياته اليومية قد يكون أميل إلى تصديق مايصادف هوى فى نفسه ، وأبعد إلى تكذيب مايصطدم بعواطفه ورغباته

والإنسان فى حياته اليومية أيضاً لا يستطيع أن يقبل أقوال جميع الناس بنفس الثقة وبنفس التقدير ، لأن الناس جميعاً لهم قيم وأغراض وأهواء مختلفة . وأصحاب النفوس الزائفة يكذبون وينافقون ويغررون للوصول إلى الأغراض والمطامع . أو ليس ذلك أدعى إلى الخداع والبعد عن الحقيقة السافرة ؟ فإذا كان هذا هو الحال فيما يتعلق بالحاضر فما بالنا بحوادث الأمس ، والأمس البعيد ؟ ولقد استخدم المؤرخون فى الزمن الماضى الأصول التاريخية بدون نقد أو حذر فوضعوا تعميمات خاطئة . وإنه لأسهل على الإنسان أن يصدق بغير مناقشة وأن يوافق بدون نقد وأن يجمع الوثائق والأصول التاريخية بغير تقدير أوزن دقيق ولكن لا يستطاع الوصول إلى الحقيقة التاريخية بدون نقد الأصول كل على حدة وبدون الموازنة بينها وتحديد العلاقة بين المعلومات الواردة فى كل منها ، ويستغرق ذلك زمناً طويلاً ولكن البحث العلمى التاريخى لا يمكن أن يكتب بدون ذلك . وليس هناك ما يضطر الباحث لأن يعمل فوق طاقته ، بل عليه أن يقصر عمله على النقطة التاريخية المحددة التى يستطيع أن يأتى فى بحثها بعمل أصلى جديد مبتكر بالنسبة للعلم كله . والباحث فى التاريخ كالباحث فى أى فرع من أنواع المعرفة ، إذا عرف بإخلاص قيمة البحث العلمى الصحيح الذى يستوفى شروط الزمان والمكان لن يرضى بغيره بديلاً مهما كانت الظروف

وأول مرحلة من مراحل نقد الأصول التاريخية هى إثبات صحة أو بطلان تلك الأصول . فإذا كان المصدر أو الأصل كله أو جزءاً منه مزيفاً أو منتحلاً فإنه لا يمكن الاعتماد عليه . وصحيح أن تزييف الأصول والوثائق اليوم أصعب منه فى الزمن الماضى ، ولكن دوافع التزييف والدس لا تزال قائمة كالمطامع والأهواء والكسب وحب الشهرة . والانتحال والتزييف يوجدان فى كل أنواع الأصول والمصادر . فالآثار المادية تزيف من أجل الكسب فى أحوال كثيرة . ومن الأمثلة على ذلك ما حدث من وجود مجموعة من الأوانى والأدوات الفخارية فى أورشليم فى ١٨٧٢ ؛ وقد دل على وجودها سليم العربى الذى كان يعمل فى خدمة بعض المنقبين عن الآثار فى تلك الأنحاء ، واشترى بعضها متحف برلين ، ولكن البحث العلمى أثبت أن هذه الآثار مزيفة . وفى الغالب كان سليم العربى نفسه هو صانعها بقصد الكسب . ومن الأمثلة على الكتابات المزيفة مجموعة من الخطابات والتواريخ والأشعار طبعت فى إيطاليا بين سنتى ١٨٦٣ و ١٨٦٥ على اعتبار أنها قد كتبت عن جزيرة سردينيا فى الفترة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر للميلاد

ولقد أثار ظهور هذه المجموعة دهشة كبيرة فى الأوساط العلمية ، لأنه كان مجهولاً وجود حضارة فى سردينيا من هذا النوع فى ذلك العهد . وبعد نشر هذا الكتاب ، وضعت الأصول الخطية فى مكتبة كاليارى فى سردينيا ، وحدثت مناقشات طويلة

عن هذه الآثار ، فعرضت الأصول الخطية على أكاديمية العلوم فى برلين لدرسها ، ففحص بعض العلماء الخطوط التى كتبت بها هذه الأصول ، وبحث البعض الآخر اللغة والأدب ، كما ناقش آخرون المعلومات التاريخية ، ووجدوا أن كل ما جاء بها لا ينطبق ولا يشابه ما عرف عن خطوط وكتابات وأدب وتاريخ سردينيا فى تلك القرون ، وقرر العلماء أن هذه الآثار الكتابية مزيفة

ومن هذا النوع أيضاً نجد ملحق مذكرات « بايى » عمدة باريس وأول رئيس للجمعية الوطنية فى حوادث الثورة الفرنسية واسمه : Supplément aux mémoires de Bailly ، ونشر لأول مرة فى (١٨٠٤) على أنه من وضع أحد أعضاء الجمعية التأسيسية فى باريس بدون تحديد الإسم ؛ وعندما أعيد طبع مذكرات « بايى » فى (١٨٢٢) اعتبر هذا الملحق من تأليف « بايى » نفسه . إلا أن الدكتور فلنج أستاذ التاريخ الأوربى بجامعة نبراسكا فى أمريكا استطاع أن يكشف مع بعض تلاميذه فى الجامعة عن حقيقة هذا الملحق[1] ؛ ووجدوا بالمقارنة الوافية أن فقراته شديدة القرب فى اللغة والأسلوب والمعلومات مما ورد فى بعض الجرائد التى كانت تصدر فى باريس فى (١٧٨٩)[2] ، مع تغيير ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم فى بعض الأحيان ، لكى يتفق ذلك مع مذكرات « بايى » الأصلية . ولو أن جامع هذا الجزء قد أشار إلى المواضع التى استقى منها مادته ، لكان ذلك عملاً نافعاً لمن لا يستطيع الوصول إلى إعداد تلك الصحف النادرة . وهذا الجزء يعتبر مثالاً لكيفية الانتحال ، وتحذيراً للباحثين بعدم قبول أى مصدر بثقة عمياء

والملكة « مارى أنطوانيت » من الشخصيات التاريخية التى دُست عليها رسائل لم تكتبها ، وهذا مما يجعل عمل المؤرخ صعباً . ولقد نشرت مجموعات من رسائلها تحتوى على الصحيح والمزيف منها ؛ ولجأ المزيفون إلى الاقتباس من رسائلها الصحيحة وتقليدها من حيث الخط والأسلوب . ولقد نشرت مجموعة من هذه الرسائل فى باريس فى (١٨٥٨) ، وتحتوى على رسالة لم تنشر من قبل بتاريخ ٢٠ يونيو ١٧٨٩ ، تبين أن مارى أنطوانيت اعتقدت أن أسلم سياسة ينبغى أن يتبعها لويس السادس عشر ، هى الانضمام إلى الشعب . فهل هذه الرسالة صحيحة أم مزيفة ؟ ولم يمكن العثور على أصلها المخطوط ، وهذا مما يجعل البحث صعباً . وبالدراسة المقارنة نجد أن مارى أنطوانيت كانت ميولها ضد الشعب ، وهذا يميل بالباحث إلى الشك فى صحة هذه الرسالة . إلا أنه من الجائز أن مارى انطوانيت كان لها هذا الرأى المخالف لما عُرف عنها ، إنقاذاً للموقف ؛ وهكذا لا يصل المؤرخ أحياناً إلى رأى قاطع فى صحة بعض الأصول التاريخية

وأخيراً نعرض لمثال درسه الدكتور أسد رستم . فإنه عند ما ثارت مشكلة البراق بين المسلمين واليهود ، وقدمت اللجنة الدولية لدرسها ، ظهرت وثيقة فى مصلحة المسلمين . ولكن اليهود عارضوا فى صحة هذه الوثيقة ، فعرضت على الدكتور رستم لفحصها من الوجهة الفنية التاريخية ، فوجد أنها عبارة عن رسالة صادرة من محمد شريف باشا حكمدار بر الشام[1] فى عهد الحكومة المصرية إلى السيد أحمد أغا دزدار[2] متسلم القدس[3] بتاريخ ٢٤ ربيع أول ١٢٥٦ هـ (٢٧ إيار ١٨٤٠) يخبره فيها بصدور إرادة شريفة خديوية من محمد على باشا بمنع اليهود من تبليط البراق مع إعطائهم حق الزيارة « على الوجه القديم[4] » . وفحص الدكتور رستم هذه الوثيقة بوسائل النقد الظاهرى والباطنى ، فوجد أن الوثيقة مكتوبة على ورق صكوكى قديم تركيبه الكيماوى وأليافه من نوع أوراق الحكومة المصرية فى مصر والشام فى ذلك العهد ؛ والمداد الذى دونت به هو مداد استانبولى . وأثبت التحليل الكيماوى والفحص بالمجهر أنه مزيج من الكاربون التجارى والصمغ والماء ؛ وأثبت المجهر أيضاً من أثر القلم على الورق أنها كتبت بقلم قصبى مما كان شائع الاستعمال فى ذلك العصر . وكان الخط هو السائد فى دواوين مصر والشام . وفاتحة الرسالة : « افتخار الأماجد الكرام ذوى الاحترام . . . » وخاتمتها : « لكى بوصوله تبادروا لإجراء العمل بمقتضاها . . . » تتفق مع أسلوب عهد محمد على . ثم عدم مراعاة قواعد اللغة

---

(١) Fling : op. cit. pp. 52—56

(٢) هذه الصحف هى :

Le Point du Jour
Courrier de Provence
Les Révolutions de Paris

١٧ ، ٢٦

---

(١) أى حاكم الشام من قبل الحكومة المصرية

(٢) دزدار من أصل فارسى استعمل فى التركية بمعنى قائد قلعة . ولعل أحمد أغا دزدار يرجع إلى أسرة حكمت القلاع

(٣) متسلم أى ملتزم الأموال والمشرف على الأمن وقواعد الضبط والربط

(٤) نص هذه الوثيقة فى كتاب الدكتور رستم عن مصطلح التاريخ ص (١٧ — ١٨)

الوعاظ والخطباء

للأستاذ علي الطنطاوي

تواردت الخواطر والأقلام (فى أجزاء الرسالة الأخيرة) على نقد أساليب الوعاظ فى الدعوة إلى الله ، فساء ذلك بعض الواعظين عندنا ، ولو فكروا فى مغزاه وما يلزم منه لسرهم ، ولعلموا أنه لولا الاعتراف بخطر الوعظ وأهله ، ومنزلتهم من الأمة ، وعلو قدرهم عند العامة ، ما كتب فى (الرسالة) عنهم ، ولا اشتغل الكتاب بنقدهم . ثم إن أولى ما ينبغى أن يتحلى به الواعظ أن يبدأ بنفسه فيعظها ، وأن يخلص قوله لله وعمله ، وأن يفرغ من شهوات نفسه ، فلا تملكه شهوة الشهرة والجاه ، ولا شهوة الغنى ولا شهوة النساء ، وأن يكون فى فعله أوعظ منه فى قوله ، فلا يأمر الناس بالزهد ثم يخالفهم إلى ما زهدهم فيه فيزاحم المتكالبين عليه ، ولا يتظاهر بالدين ابتغاء الدنيا وتوصلاً إليها ، فيجمع من حوله العاملين على الكسب الحلال ، والجادين فى جمع المال من حله ، ليأخذ من أموالهم ما يتعالى به عليهم ، وليذوق لذائذ العيش من عطاياهم ، وليسلبهم فوق ذلك حريتهم وعقولهم وكرامة أنفسهم عليهم ، فيصرفهم فى مآربه ، ويسيرهم حيثما شاء ، ويذلهم بين يديه ليستكبر عليهم ، ويجعل الدين وسيلة إلى ذلك ، فيجعل طاعة نفسه من طاعة الله ، بل ربما جعل نصيبها من هذا الشرك أكبر ، والعياذ بالله من ذلك . ولقد حدثنى من أقطع بصدقه أنه سمع مرة واعظاً من هؤلاء (يقص) على تلاميذه قصة مريد سمع شيخه يقول : يا ألله ، ثم يمشى (زعم القاص) على وجه الماء الجارى ، فسأله أن يتبعه ، فقال له الشيخ : قل يا شيخى فلان (يعنى الشيخ نفسه) ثم اتبعنى فإنك تمشى مثلى . ففعل المريد ذلك ، وتابعه أياماً ، ثم خطر له (يقول الواعظ) أن يقول : (يا ألله) ، مكان قوله : (يا شيخى) فقالها فغرق فى الماء ، ومات ...

فهل يشك مسلم فى أن هذا الوعظ مخالف للاسلام مباين له ؟ وهل يغضب الواعظ العالم الصادق أن ينتقد الواعظ الجاهل المُمَخْرِق الكذاب ؟ أو ليس من دأب الواعظ الصادق أن يتقبل النصيحة ويشكر عليها ويعمل بها ؟ وأن يتخلص من شرور نفسه قبل أن يتصدر للوعظ والإرشاد ،

العربية ووجود ألفاظ أعجمية الشيء الذى كان منتشراً فى مصر والشام فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم تذرع الدكتور رستم بأدلة أخرى ، فتأكد من محفوظات عابدين أن شريف باشا كان حاكماً عاماً على الشام من أوائل ١٢٤٨ هـ إلى أواخر ١٢٥٦ هـ . وعرف من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس أن أحمد أغا دزدار كان قائماً بأعمال المتسلمية فى القدس فى ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . وتثبت أيضاً من أن محمد شريف باشا كان يسيطر على جميع حكام مقاطعات الشام ومن بينهم متسلم القدس أحمد أغا دزدار ، ومن أنه كان يتلقى الأوامر من محمد على باشا وإبراهيم باشا لكى يبلغها للجهات المختصة . ووجد الدكتور رستم أيضاً أن محتويات هذه الوثيقة تتفق مع المعلومات المعروفة عن علاقة اليهود بالبراق وموقف المسلمين منهم من ناحية إباحة اليهود زيارته وتساهل حكومة محمد على الذى جعلهم يتطلعون للحصول على الإذن بتبليط البراق . وانتهى بحث الدكتور أسد رستم بإثبات صحة هذه الوثيقة من الوجهة الفنية التاريخية سواء من ناحية الورق والحبر والقلم وعادات المراسلة واللغة والأسلوب ، أو من ناحية شخص المرسل والمرسل إليه ، أو من ناحية مطابقة واتفاق معلوماتها مع الظروف التاريخية[١]

وهذه أمثلة عملية تبين أهمية وطريقة نقد الأصول التاريخية من ناحية إثبات صحتها وأصالتها وخلوها من الدس والتزوير والانتحال[٢] ؛ وبغير ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يعمل لأنه إذا بنى أبحاثه على الأصول المزورة خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة ومخالفة للواقع التاريخى . وسوف نبحث فى المقالات التالية نقد الأصول من نواح أخرى

(يتلى) حسن عثمان

---

(١) أسد رستم : مصطلح التاريخ : ص ١٦ — ٢٧

(٢) لم أذكر شيئا من الأمثلة العملية التى قمت بها وإنى أرجىء ذلك حتى أنفحر الوثائق التى تحت يدى

حتى يكون الإسلام هو الذي يتكلم على لسانه ، وحتى يتوهم السامعون أن ملكا هو الذي يعظهم ، أو جسداً إنسانياً ضم روح ملك من الملائكة قد ارتفع عن شهوات الأرض ليتصل بكمالات السماء ، وأنه لا يزهدهم في دنياهم ليحوزها من دونهم ؛ فإن أنسوا منه غير ذلك زهدوا فيه هو وفي وعظه ...

كان في مسجد من مساجد دمشق خطيب جهير الصوت ، طلق اللسان ، معتزل مستور ، يعتقد الناس إخلاصه ودينه وتخطيه أهواء نفسه ماشياً قدُماً على صراطه المستقيم ، صعد المنبر جمعة من الجمع ، فاستهل خطبة بآية من القرآن فيها وعيد للكافرين شديد ، ومضى من بعدها يبرق ويرعد ، ويسوق الجمل آخذاً بعضها برقاب بعض ، وكلها من مادة (كفر يكفر ...) حتى إذا ظن أنه أقنع وأشبع ، وملأ نفوس السامعين سخطاً وغضباً ، عمد إلى التصريح بعد التلويح ، فإذا الذي انصبت عليه هذه الحمم ، ونالته رجوم الشياطين ، (رجل تجرأ على دين الله ، فتكلم في الداعين إليه ، والدالين عليه ، ومن رضى عنهم الله وعقلاء خلقه : خطباء المساجد) . فلما قضيت الصلاة استقرى الناس الخبر فإذا هو صاحب جريدة كتب مقالاً معتدلاً في الدعوة إلى إصلاح الخطب المنبرية ، فبعث الخطيب بمقالة يرد بها عليه فلم ينشرها وإنما أشار إليها ، فكان جزاؤه أن تكون الخطبة كلها في ذمه وتكفيره . فانصرف الناس من يومئذ عما كانوا يعتقدون في الخطيب ولم يعد يبلغ وعظه ذلك المبلغ من نفوسهم ، وجعلوا يرون فيه خطيباً له (نفس) ، وهيهات ينفع واعظ أو خطيب له (نفس) ...

فتعالوا أنبئوني من الذي جعل المنبر ملكاً لهذا الخطيب ، يتصرف فيه تصرفه بثوبه ودابّته ، ويجعله سلماً له إلى شهرته وشهوته ، وهذا المنبر إرث رسول الله ، والخطيب خليفته في الدعوة إلى دين الله واطّراح النفس والهوى ؟ ألم يرو الرواة أن علياً أمير المؤمنين رضى الله عنه كان يتبع مشركاً (في المعركة) ليقتله ، فلما أيس المشرك من الحياة تلفت إلى عليّ فبصق على وجهه ، فكف عنه علي، فقيل له، فقال رضى الله عنه : كنت أنوى قتله لله وحده، فلما بصق علي خفت أن يكون قد داخلني غيظ منه، فخشيت أن يكون قتاله انتصاراً لنفسي، فلذلك كففت عنه . أليس في هذا الخبر (وإن لم يأت عن الثقات) عبرة وأسوة للواعظين ؟

وكيف أستطيع الاتعاظ بالخطيب الذي جاء في خطبته مرة بحديث موضوع ، فلما انتهت الصلاة وتفرق الناس أقبل عليه شاب من المشتغلين بالحديث والمنقطعين إليه فذكره بأن ذلك الحديث موضوع لا أصل له ، فما كان منه إلا أن رجع من الجمعة المقبلة ، فجعل خطبته في هذا الشاب وأصحابه (الوهابيين أعداء الرسول ...) وأثار عليهم العامة حتى نالهم شر وأذى . فأين مكان الإخلاص من نفس هذا الخطيب ؟

إن أول شرط للواعظ أو الخطيب أن يكون مخلصاً في وعظه لله ؛ والشرط الثاني أن يكون عالماً بالعربية ، عارفاً بالتفسير والحديث روايته ودرايته ، والفقه أصوله وفروعه ، وإلا كان وبالاً على الدين وأهله . ولقد أدركت والله من العامة من كان بكور العمامة ، ويطيل اللحية ، ثم يقعد للتدريس في مسجد دمشق الجامع فيقول ما شاء له الجهل والهوى ويجعله ديناً ، والمفتى والقاضي والعلماء يمرون عليه أو يعلمون به فلا ينكرون عليه ، ولو اعتدى هذا الرجل على جبة أحدهم لأقام عليه الدنيا . أفكان الدين أهون على أحدهم من جبّته ؟ وأدركت عاميًّا آخر ذكيًّا خدع طائفة من أذكياء البلد وعلمائه فاعتقدوا به ، وتأدبوا بين يديه ، وأخذوا عنه تفسير الآثار . وأعجب من هذا رجل يدعى النبوة يقيم الآن في غوطة دمشق ، وقد آمن به أكثر فلاحى قرية (حرستا) . ولقد خبرني من شهد صلاته بأصحابه أنهم يقهقهون ويكركرون كلما جاءت آية نعيم ، ويتصايحون مستبشرين ويهنئ بعضهم بعضاً ، وأنهم يبكون منتحبين مولولين كلما سمعوا في الصلاة آية عذاب ؛ وربما (أخذ بعضهم الحال) فقفز في الصلاة أو صاح أو انبطح بالأرض . ولهذا المتنبي أو (المتمهدي) ضريبة دائمة على أصحابه يؤدونها إليه باسم الزكاة فيشتري بها العقارات والحقول ...

والشرط الثالث حسن الأسلوب في الوعظ ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وابتغاء طريق اللين واللطف . وللواعظين أسوة في ذلك بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهم من سيرته قدوة صالحة ، فأين هم عنها ؟ وما لأكثر من عرفنا منهم لا يعرفون إلا طريق العنف والقسوة الذي يبعد الناس عن الدين ، ويغلظ قلوبهم عليه ، وينفرهم منه . فلا يرون في مجالسهم

شاباً من تلاميذ المدارس مثلاً إلا جعلوا الموضوع فى تفسيق من يحلق لحيته ، ومن يتشبه بالنساء ، وأمثال ذلك ، حتى تأكل هذا الشاب الأنظار ، فيغرق فى عرقه خجلاً ؛ ثم لا يعود إلى المسجد أبداً ؛ ولو أنهم حاسنوه وجاملوه لكان من المتقين .

حضر درس الشيخ « بدر الدين » رحمه الله تعالى شاب حليق حاسر من شبان (المودة) ، وكان الشيخ (على عادته) مطرقاً . فقال له أحد الثقلاء من الحاضرين : « سيدى ، ما حكم الشبان الذين يتخنثون ويتشبهون بالنساء ويتزيون بزى الكفار » . فأدرك الشيخ بذكائه النادر أن فى المجلس غريباً ، فرفع رأسه فلمح الشاب ، فدعاه فأجلسه بجواره وأكرمه ، وقال للسائل مؤنباً بأسلوبه الناعم : « يابا . . . هذا يتبارك به » يعنى أن شاباً مثله يطلب العلم ويؤم مجالسه ويستهدى الطريق إلى الله ، أهل لأن يتبرك به أمثال ذلك الثقيل الذين (قطعوا الطريق) إلى الله بثقلهم وغباوة قلوبهم

والشرط الرابع هو أن يعلم الواعظون أنه ليس فى الإسلام طبقة هى أولى بالله من طبقة ، وليس بين العبد وربه وسيط ، وأن الإسلام ليس فيه (رجال إكليروس) ، فإذا علموا ذلك اقتصدوا فى تكفير الناس لأتفه الأسباب ، وراجعوا الآثار الواردة ليعلموا حقيقة الكفر والإيمان ، فلا يرمون بالكفر كل من خالفهم فى رأى أو ناقشهم فى مسألة قد يكون لها وجوه ، ولا يصدرون مثل الكتاب الذى أصدره منذ بضع سنين عالم معروف فى دمشق — كان أصدر قبله بأكثر من عشر سنين كتاباً آخر — كفر فيهما كل من يقول بحركة الأرض ، وكفر الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا ؛ ورد أشنع الرد على ابن حزم والشيخ محمد بخيت المطيعى ، رحم الله الجميع . وأخذ بقوله بعض خطباء المساجد فكفروا على المنابر من يقول إن الأرض دائرة حول الشمس . ولا نسمع أحداً يجعل قيامك للضيف يدخل عليك كالسجود له سواء حكمهما ، لأن كلا منهما (على دعواه) من أركان الصلاة استويا فى ذلك . ونسى أن القعود أيضاً من أركان الصلاة ، أفيحرم قعودك بين يدى صديقك أو أستاذك ؟ ؟

* * *

والخطابة يوم الجمعة من أكبر أبواب الوعظ ، فإذا صلحت صلح بصلاحها فساد الأمة ، وإن فسدت أفسدت . فمتى يتم تنظيم الخطابة ، بحيث يختار لها الكفؤ العالم ويعدل عن طريق الوراثة فيها ، فلا تنتقل بعد الخطيب إلى ابنه الصغير الذى لا يُدرى ما يكون منشؤه ومرباه ، ويقام له وكيل رسمى ؛ بل يعلن عن الخطابة الخالية ، ويجمل بين الطالبين سباق وامتحان، ثم ينتقى أقدرهم عليها وأصلحهم لها . ولو كانت وراثة لورثها أبو بكر ابنه ولدفعها عمر إلى ولده . فمن أين جئتم بهذه القاعدة الواهية ؟

فإذا تم الاختيار على ما ترتضى المصلحة الاسلامية ، أخذ الخطيب بنوع رقابة أو إشراف يمكنه أن يحيد فيختار من الموضوعات ما يؤذى المسلمين ، أو يكون فيه منفعة للخطيب شخصية ، ويجعله ينتقى أقرب الموضوعات لأحداث الأسبوع ، فيبين فيها حكم الله ، ويأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر ، بشرط أن يقوم بهذه الرقابة جماعة العلماء أنفسهم ، وألا تمنع إلا ما يخالف الإسلام ومصلحة المسلمين ، وألا تمس حرية الخطيب فيما عدا ذلك ، وإذا تم الحصول على هذه الثمرات من غير رقابة أصلاً فذلك هو الأولى ، وهو ما عليه المسلمون من قديم الزمان

* * *

هذا وإن الموضوع خطير ، ومجال القول فيه ذو سعة ، والواعظون العاملون الصادقون أحق الناس بالكتابة فيه ، فإن صاحب الدار أدرى بما فيها ، وأحسن شىء أن يعطى القوس باريها ، وإننا نسأل الله أن يجعلنا من أهل الإخلاص

على الطنطاوى

شخصيات تاريخية

٣ - تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

(تابع)

تحتم إذن وضع خطة جديدة لمجابهة هذا الموقف الجديد ، فمن لليونان بقائد ماهر يستطيع وضع هذه الخطة ؟ لم يبحث اليونان كثيراً ، إنما نظروا إلى صفوفهم فوجدوه بينهم يحثهم على أن يتراجعوا ويتماسكوا ، فلما رأوه وكله ثقة واطمئنان إلى نتيجة النزاع وهى النصر الحاسم سرت الثقة بينهم وتجمدوا فى أماكنهم كالثلج الذى وقع على الأرض لا يريد أن يبرحها وقد تركوا أمورهم إليه وأسلسوا له القياد فوضع هذه الخطة التى كانت أساساً لما أحرزه اليونان من نصر عظيم فى موقعة سلامين الشهيرة . وأظنك أيها القارىء بعد هذا لم يخف عليك أن هذا القائد صاحب هذه الخطة إنما هو بطلنا تيموستوكل العامل الرئيسى فى إحراز النصر والاحتفاظ باستقلال اليونان كاملاً

اقتضت هذه الخطة أن يهجر الأثينيون مدينتهم إلى جزيرة سلامين القريبة من أرض وطنهم وأن يقف الأسطول اليونانى فى المضيق البحرى الذى يفصل بين أثينا وسلامين ، وهو مكان ضيق جداً ، إلى شماله تقع سواحل أتيكا ، وإلى جنوبه وغربه تقع سواحل سلامين ، وقد اختار تيموستوكل هـذا المكان لضيقه لأنه عقد العزم على أن تكون الموقعة الفاصلة فى البحر ، وشجعه على ذلك هذا النجاح الذى أحرزه فى الموقعة البحرية السابقة موقعة الأرتيميزون ، وفى هـذا المكان الضيق تنعدم الميزات الناشئة عن كثرة العدد وعما يمكن أن يقوم به العدو من حركات التفاف وتطويق بالنسبة لأسطوله الزاخر بالسفن . واختار هـذا المكان أيضاً لقربه من جزيرة سلامين وإليها هاجرت الأسر الأثينية ، وهى بإقامتها فى الجزيرة بالقرب من الأسطول لاشك خير مشجع لكل أثينى بل حافز لكل يونانى على الاستماتة والاستبسال فى سبيل الدفاع عن أرض الوطن واستقلال البلاد ؛ ونحن نعلم ما كان للأرض عند اليونان من حرمة وقداسة فهى رمز لكيانهم فى الحياة وفى الممات

لم ينل تيموستوكل بسهولة هـذا القرار القاضى بإلزام الأسطول اليونانى ساحل جزيرة سلامين الشمالى وإنما ناله بعد كبير عناء ، لأن اليونان كانوا مترددين جد التردد فى التزام هذا المكان . وكان القائد الأعلى وهو إريبياد متردداً هو الآخر ، بلغ تردده حداً عظيما جداً لأنه كان غير واثق من النصر من ناحية ، ولأنه كان يريد التراجع نحو الجنوب للدفاع عن بلاده وهى شبه جزيرة البيلوبونيز من ناحية أخرى . وقد عقد القواد ثلاثة مجالس حربية ظهر فيها هذا التردد بأجلى معانيه ، لذلك لم يكن أمام تيموستوكل إلا أن يسلك سبيل التهديد والوعيد ، فهدد بترحيل العائلات الأثينية إلى بلدة سيريس فى جنوب شبه جزيرة إيطاليا واتخاذها مقاماً للأثينيين جميعاً . وهم بهذه الهجرة يتركون الإسبرطيين وبقية اليونان وحدهم ، فلم يستطع القائد الإسبرطى بعد هذا إلا أن يسلم بوجهة نظر تيموستوكل وهو صاغر للنصيحة ومستسلم لهـذا الإرشاد ، آملاً انتهاز فرصة مقبلة لتنفيذ رأيه القاضى بالتقهقر والتراجع ، وهو قد رأى هذه الفرصة قد أقبلت حينما علم بحركات الأعداء وقرب إقدامهم على الهجوم ، فعزم على التراجع نحو الجنوب من جديد . وتفسير ذلك أن أجزرسيس عاهل الفرس جمع قواده فى فالير واستشارهم فيما يجب أن يتخذوه من أمر لأنفسهم فى هذه المعركة ، فأشاروا كلهم بضرووة الهجوم ما عدا الملكة أريتميز ملكة الدوريين فى جنوب غرب آسيا الصغرى ؛ وحجتهم فى ذلك أن المكان ضيق فهم يستطيعون إذن القضاء على أسطول اليونان إذا ما هاجموه هجوماً عنيفاً ، وقد غاب عنهم أن المكان ضيق لا يبيح لهم القيام بحركات تطويق أو التفاف أو انقضاض ، وإنما يحتم عليهم أن ينبسطوا انبساطاً ، وبذلك تنعدم الفائدة عن التجمع والتركز فيسهل لسفن الإغريق الصغيرة الحجم أن تتسلط على سفنهم الكبيرة فتحصرها فى هذا المكان الضيق وتصليها ناراً حامية

ولكن من أين لتيموستوكل هذا الهجوم وهو يكاد يكون الفرصة الوحيدة التى تجبر اليونان على التزام أماكنهم وإجبارهم على القتال ؟ لم يجد تيموستوكل أمامه إلا المكر والخداع ، وذلك

بأن يحث الفرس على المضى فى حركاتهم الهجومية ، بل والإسراع فيها ، فأرسل إلى ملكهم رجلاً من أتباعه يثق فيه كل الثقة - هو الخادم سيكينوس - لإبلاغه أن اليونان يحاولون الهرب من المضيق نحو الجنوب ، ولإيقافه أيضاً على حالة اليونان وتصورها على أنها تنم عن انقسام فى الرأى وتشعب فى المصالح واختلاف فى الرغبات ؛ فإذا أراد القضاء التام على أسطول اليونان فليس له إلا أن يقوم بهجومه هذا ، بل ويسرع فيه ؛ وقد اقتنع ملك الفرس بهذا الرأى ، ووقع فى الفخ وأسرع فى الهجوم ، فاضطر اليونان إلى أن يلزموا أماكنهم ولا يبرحوها ، وبذلك نجح تيموستوكل فى حمل اليونان على البقاء فى مضيق سلامين وللقتال فيه !

ثم التحم أسطول الفرس بأسطول اليونان ، وانتصر اليونان انتصاراً عظيماً كان له دوى هائل فى البلاد المتحضرة حينذاك ، وليس لنا أن نتحدث هنا عن تفاصيل هذه المعركة البحرية الحاسمة التى كان لها شأن وأى شأن فى تقرير مصير بلاد اليونان لمدة قرنين على أقل تقدير ، وإنما لنا أن نقرر هنا أن الفخر فى إحراز هذا النصر الحاسم إنما يرجع أولاً وقبل كل شىء إلى تيموستوكل القائد الأثينى العظيم . من أجل هذا ، لا نعجب إذا علمنا أن جائزة عظيمة منحت له لجسارته وشجاعته وحسن توجيهه للمعركة

وهذه المعركة تعد فى نظرنا أهم عمل أتاه تيموستوكل فى حياته فهى من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، إذ على إثرها زال الخطر الفارسى عن بلاد اليونان أو كاد ؛ وقد كانت هزيمة الفرس شنيعة جداً ، وبقدر ما كانت هذه الهزيمة ساحقة ، بقدر ما كان نصر اليونان عظيماً وحاسماً . ولقد اضطر اجزرسيس بعد ذلك إلى ترك بلاد اليونان ، ورجع إلى بلاده فى غير إبطاء ولا تمهل ، لأنه كان يخشى عواقب هذه المعركة ، ومر بمضيق الهيلليسبونت ، وهناك رأى الجسور التى كان قد بناها من قبل قد اقتلعتها الزوابع والأعاصير ، والشعوب التى كان قد أخضعها وهو فى طريقه إلى أثينا قد قامت بالثورة ضد سلطانه ونفوذه ؛ فلم يجد بداً من أن يترك ببلاد اليونان جزءاً من جيشه للاحتفاظ بسلطان الفرس على هذه البلاد ، ولانتهاز فرصة ربما تسنح فى المستقبل للتغلب على اليونان

أما اليونان ، فقد انقسموا على أنفسهم بعد زوال الخطر عنهم ، فاعتقد الاسبرطيون كما سبق أن اعتقدوا من قبل هم وغيرهم من بقية اليونان بعد موقعة ماراتون ، أن معركة سلامين نهائية ، لا يجسر الفرس أن يأتوا بعدها إلى بلادهم لغزوها . ورأى الأثينيون غير هذا الرأى ، إذ كانوا أكثر من الإسبرطيين حرصاً وتبصراً بعواقب الأمور ، فاعتقدوا أن الفرس لا شك سيعيدون الكرة من جديد ، وقد كانوا على حق فى ذلك ، لأن الفرس لا زالوا ببلاد اليونان يأمرون بإمرة قائدهم ماردونيوس الذى قادهم فى العام التالى إلى موقعة « بلاتية » ، وفيها التحموا بالجيش اليونانى وعلى رأسه الإسبرطى بوزانياس ، وكان أن انتصر اليونان من جديد ، وكان الانتصار عظيماً أيضاً

ولقد أسهبنا فى الحديث عن مقدمات معركة سلامين لأن النصر فيها راجع إلى تيموستوكل قبل أن يرجع إلى أى شخص آخر ، ولم نخض فى تفصيلاتها الحربية التى لها مجال آخر غير هذا المجال وكنا مضطرين اضطراراً إلى هذا الإسهاب لأن هذه المعركة من أهم المعارك التى أثرت على عقلية اليونان ، ذلك أن اليونان لضعف أمرهم ولصغر شأنهم لم يؤملوا أن يحرزوا هذا النصر الحاسم ضد أكبر دولة قوية فى هذا العصر وهى دولة الفرس لذلك كان هذا الانتصار انقلاباً عظيماً فى بلاد اليونان وضعها بالنسبة للدول الأخرى ، من أجل هذا قويت نشوة الفرح والسرور عندهم وزادت ثقتهم بأنفسهم ؛ وكان لهذه المعركة أيضاً دوى عظيم وتأثير كبير على العقلية اليونانية إذ ألهمت أحد كبار الشعراء وهو « إشيل » لجملته يكتب ، وقد كان شاهد عيان للمعركة ، تراجيدية رائعة هى تراجيدية الفرس فى أسلوب قوى فتان رفع من شأن اليونان وقوى الثقة بأنفسهم بقدر ما وضع من أمر الفرس وعاهلهم « أجرزسيس » فزادت حماسة اليونان وقوى شعورهم بأنهم أصبحوا دولة جديدة سيكون لها شأن خطير فى التاريخ . لذلك كانت هذه المعركة بداية لعصر جديد هو عصر ازدهار الحضارة الإغريقية وفيه وصلت الآداب اليونانية إلى القمة وتطورت العلوم والفنون ، بل ونظم الحكم التى حققت ما ترنو إلى تحقيقه الحضارة الأوربية الحديثة من حرية ومساواة ، فكانت الديمقراطية الأثينية فى عصر بركليس وكانت الآداب اليونانية فى عهد أشيل وسوفوكليس .

واعتزت أثينا بعد ذلك بهذا النصر ، فاعتبرها اليونان

صاحبة الفضل فى إبعاد الخطر الفارسى عنهم ، فالتفت حولها الدويلات اليونانية الصغيرة وعلى الأخص البحرية منها التى توجد فى بحر إيجه وطلبت إليها أن تدافع عنها ضد غزوات الفرس وتهديداتهم ، فكانت هذه الحركة بداية لتكوين حلف ديلوس الشهير ، وهو أساس الإمبراطورية الأثينية فى القرن الخامس قبل الميلاد .

ونحن لا يهمنا بعد أن بينا فضل تيمستوكل على هذا النحو ، أن يحاول هيرودوت أبو التاريخ الغض من شأن تيموستوكل والاقلال من أمره ، فكل ما أثاره حوله من ريبة وشكوك لا نثق فيه مطلقاً . وقد عرفت أيها القارئ الكريم من المقالة الأولى أن هيرودوت كان شديد التحامل على بطلنا هذا حتى قسا عليه قسوة شديدة . والغريب أن هيرودوت يتهم تيموستوكل بالخيانة العظمى نحو قومه ، ويحاول أن يقنعنا بأنه أرسل إلى ملك الفرس من يخبره بأنه لن يتعقبه هو وأسطوله ، بل على العكس من ذلك سيحتفظ بالأسطول اليونانى فى جزيرة سلامين ، وليس هناك من شك فى أن كلام هيرودوت مناقض للواقع . صحيح أن الأسطول اليونانى لم يتعقب الأسطول الفارسى أثر الموقعة مباشرة . وسبب هذا راجع إلى أن اليونان كانوا فى غفوة هى غفوة الانتصار ، ذلك أن الانتصار كان عظيما جداً بحيث أدخل على قلوبهم الفرح والسرور فلم يصدقوا أنفسهم أنهم أحرزوا هذا النصر الحاسم ، ولكنهم بعد أن أفاقوا من هذه الغفوة تعقبوا الأسطول الفارسى حتى جزيرة أندروس فوجدوه قد لاذ بالفرار فلم يعد بإمكانهم الالتحام به لإبادته والقضاء عليه ؛ ونحن نرد هذا الاتهام أيضاً لأن أعمال تيموستوكل خير شاهد على أنه كان يخدم وطنه بصدق وإخلاص ، فقد كان هو الوحيد الذى عمل على أن يلزم الأسطول اليونانى سواحل جزيرة سلامين للدفاع عن الأسر اليونانية المكدسة فى هذه الجزيرة وعن أرض الوطن المقدسة ، فكيف يجوز لعقولنا إذن أن تصدق ، إن كان لها منطق سليم تفكر به أن بطلاً قومياً هذا شأنه فى العمل على القضاء على عدوه بكل الطرق والوسائل يخون قضية وطنه وهو لم يدخر فى سبيل ذلك وسيلة إلا اتخذها كالمكر والخداع حينما أوقع ملك الفرس فى فخه فأوهمه أن اليونان ينقسمون على أنفسهم وعلى وشك الهروب من المكان الضيق الذى كانوا به عند سلامين بعد ما علموا من بدء تحرك الفرس وإقدامهم على الهجوم ، مما حفز عاهل الفرس على الإسراع فى هجومه ، وكان هذا الإسراع من أسباب فشله ، ومن العوامل التى ساعدت تيموستوكل واليونان على إحراز هذا النصر الحاسم

ليس هناك من شك فى أن تيموستوكل بطل يونانى عظيم خدم القضية اليونانية بكل صدق وإخلاص ؛ وهو وإن كان قد تخلى عن هذه القضية القومية فإن ذلك كان بعد موقعة سلامين وهو لم يلتجئ إلى هذا إلا بعد خطوات ، إذ الواقع أن سياسته تطورت جد التطور ، فبعد أن كان يأخذ صف اليونان ويدافع عنهم بشدة ، نجده يسير رويداً رويداً نحو جانب الفرس حتى يصبح من أتباعهم والخاضعين لهم والقائمين بخدمة سلطانهم ونفوذهم ، وأمر هذا التطور عجيب له قصة شائقة سنعرضها عليك أيها القارئ الكريم فى مقالة مقبلة إن شاء الله .

محمد الشحات أيوب

من كتاب « البحث عن المستقبل »

أمبراطورية ابن السعود

للأستاذ روم لاندو

بقلم الأستاذ حسن السلماني

طيف ملك

الفروض في السفارات الأجنبية والمفوضيات السياسية أنها تنقل البلاد التي تمثلها إلى قلب عاصمة الإنجليز . فمن (بلجريف سكوير) تفوح روائح سيام ، ومن (بورتلند بليس) تهب نسائم شيلي . ولكن مما يؤسف له أن أغلب هذه السفارات تستبدل بعادات بلادها عادات الأقطار التي أرسلت إليها ، وهذا لعمري نقص كبير في التمثيل . أما في المفوضية العربية بلندن فلا تجد مظاهر الحياة الأوربية منفساً لها

لقد تعرفت بالشيخ حافظ وهبة وزير المملكة السعودية المفوض بأحد المؤتمرات التي عقدت بلندن والتي اشتركنا سوية بها . ومعرفتنا هذه أدت إلى توحيد العلاقات الودية بيننا فزالت الحجب وصرنا صديقين حميمين

ولم تكن البساطة الظاهرة في مقام الشيخ حافظ ولا النكهة الطيبة في القهوة العربية التي يكثر تقديمها لزائريه مما جعلتني أكثر التردد على المفوضية العربية ، وإنما شوق لزيارة المملكة العربية السعودية هو الذي كان يدعوني إلى ذلك . والحقيقة أن طيف ابن السعود ملك البادية المخيم على تلك المفوضية كان يجذبني دائماً إلى قاعة الاستقبال في (إيتون بليس)

وعند ما طلبت التأشير على جواز سفري أفهمت أن أمر ذلك بيد جلالة الملك وحده . وليس للوزارة الخارجية أو المفوضيات إلا تقديم طلبات الراغبين بزيارة البلاد له، وهو وحده الذي يجيز لهم الدخول للمملكة . وجلالته يسمح لمن يشاء ويرفض من يشاء . ومن حسن حظي أن الشيخ حافظ وهبة كان على أهبة السفر إلى المملكة العربية السعودية فاغتنمت تلك الفرصة ورجوته أن يقدم طلبي بنفسه لجلالة الملك

وبعد عشرة أسابيع من مغادرته البلاد الإنجليزية دعيت إلى المفوضية العربية وأخبرت بموافقة سيد الجزيرة العربية على زيارتي لبلاده

وتتجلى الروح العربية بأجلى مظاهرها في المفوضية العربية بالقاهرة . فبناء المفوضية من الطراز العربي القديم ، وغرفة السفير بسيطة خالية من الطنافس الأوربية الغالية ، والقائم بشؤون المفوضية يرتدي الملابس العربية البدوية ؛ وإن نظراته الحادة النافذة إلى أعماق قلوب زائريه وسمرة محياه واسوداد لحيته توحي لزائريه صورة من صور البادية وساكنيها

ولا يتحدث السفير لزائريه إلا باللغة العربية ، لا لأنه يعجز عن التكلم بلغة أخرى ، ولكن لأن العرف العربي يحتم عليه ذلك . ويشعر المتحدث إليه لأول وهلة بأن نفسه تتوق لخيل الصحراء ، وتصبو لجمال الرمال ، وتشتاق لخيام البادية ؛ ولولا ما تقتضيه التقاليد لعاف ما يحيط به من أثاث أوربي لا يلتئم وطبعه ، ولاستبدل به الفراش العربي الوثير . وعند ما قابلته المرة الأولى تردد في التأشير على جوازي ، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن أبرق إلى مكة طالباً موافقة جلالة الملك . فلما جاءته الموافقة زاد في إكرامي واعتبرني من ضيوف جلالة سيده . وفي زيارتي الأخيرة للمفوضية أقام لي وليمة عربية فاخرة اختتمها بحديثه الشيق عن الدور المهم الذي لعبه لورنس في الحجاز ، ولم نفترق إلا ونحن صديقان حميمان

جدة

كانت الباخرة التي أقلتنا من السويس إلى جدة باخرة إيطالية صغيرة لم تر منذ أن أنزلت إلى البحر شيئاً من العناية أو الاهتمام . وكأن الخدم الصوماليين اعتادوا الإهمال حتى فيما يرتدون من ملابس بيضاء . وكانت ابتساماتهم الكثيرة وحسن تصرفهم لا تعوض عن رداءة الطعام . ويبدو لي أن الدعاية الإيطالية أغفلت البواخر الصغيرة المخصصة لنقل المسافرين من إيطاليا لجدة فالحبشة . ويعزى سبب ذلك ، حسبما أعتقد ، إلى أن أغلب راكبي تلك البواخر من الإيطاليين أو المصريين أو العرب

وكان من بين المسافرين القلائل شاب فى مقتبل العمر عرفت منه أنه ابن لأحد أغنياء المدينة المنورة قادم من اسطنبول حيث كان يدرس الطب بجامعتها . وكان يرتدى هذا الشاب الملابس الإفرنجية ويتكلم اللغة الإنجليزية والفرنسية ، ويكثر من تدوير جرامافونه الصغير . وفى أحد الأيام دعانى إلى سماع جرامافونه فى حجرته (قمرته) وما كادت رجلاى تتخطيان عتبة تلك الحجرة حتى شعرت بأن جميع المتناقضات اجتمعت فى ذلك الشاب ، وأن معالم المدنية الغربية وعالم الطب الحديث لا أثر لها فى تلك الحجرة الصغيرة . فالمقاعد والكراسى ، وحتى قاع الحجرة مغطاة بالرزم وبالصناديق وبالعلب ، وكأن أحواض الغسيل خصصت لحفظ الموز والبرتقال ، والرفوف عملت للطعام ولتعليق اللحم . والويل لمن أراد التنقل فى تلك الحجرة الضيقة ، فإن قدميه لا بد أن تصطدما بقدر أو بآنية ملقاة على الأرض ، أو قد تزلان من أثر قشرة موز أو قطعة من البرتقال ! أليس هذا من المتناقضات ؟ أو ليس بغريب أن تجد شاباً يدرس الطب بجامعة اسطنبول يستطيب طهى الطعام بنفسه وأكله على الطريقة العربية وحده ؟

ومن الغريب حقاً أن ذلك الشاب لم يتردد فى تقديمه الخمر والسجاير لمعارفه وهو عليم بأن قانون بلاده يحرم ذلك . إن فى أفعال هـذا الشاب يتجلى كرم المسلمين ممتزجاً بالملاذ التى لا يبيحها الدين الاسلامى . وكنت طوال سفرى أسائل نفسى : أكان هذا الشاب مثالاً لشباب بلاده ، أم قدر لى أن ألاقى فى المملكة الوهابية ما لاقيته فى مصر ؟

***

و(جدة) بلد غريب كأنه مجموعة من البيوت الخالية فى التناسق قذفها اليم إلى شاطئه القفر المغطى بالرمال . فمياه البحر أمامها ، والتلال الجرداء خلفها ، والرمال تغطى الميمنة منها والميسرة . ومما يزيد فى غرابة منظرها اختلاف أشكال أبنيتها : فبعضها مرتفع متعدد الطبقات ، وبعضها واطئ يقتصر على طابق أو طابقين . وجميع هذه الأبنية مطلية بالجير الطافى . والمدينة محاطة بسور قديم يضم تلك « الناطحات » البيضاء . أما أزقتها ضيقة ، وهذا ما يجعل المنازل تبدو أعلى مما هى عليه من ارتفاع .

وتظهر (جدة) للقادم بأبنيتها الطينية العالية كأنها صورة ممسوخة لمدينة (نيويورك) ، ولكن ما يكاد يقترب المسافر من الشاطئ ، حتى تظهر له الشرفات الخشبية التى يدعوها الناس هناك (بالمشربيات) ، ويستطيع تمييز النقوش الجبسية المقتبسة من الفن الفارسى أو الطراز التركى التى تزين أبواب المنازل ، والتى لا تعبر عن ذوق أو عن دقة فى الصنعة أو مهارة فى العمل .

ولا يفصل الصحراء عن المدينة إلا سور قديم كثير الأبواب عديد المسالك . وتحتل الأسواق والمقاهى وميادين بيع الحيوانات محلاً وسطاً بين المنازل . أما المفوضيات الأجنبية ، فليست ببعيدة عن الأسواق والمحلات التجارية . ولولا كثرة الذباب وانتشار الغبار وضيق الطرق وقذارتها ، لصح أن يقال : إن (جدة) مدينة جميلة . وتبدو المدينة أثناء الليل — وبالأخص فى الليالى المقمرة — أكثر روعة وجمالاً مما هى عليه فى النهار . وإن المتجول فى أزقتها الضيقة ، ليحسب نفسه خلال تلك الليالى النيرة فى عالم غريب أو فى مدينة خيالية ...

الله أكبر ...

وصلت (جدة) خلال موسم الحج لمكة . وتبعد مكة هذه خمسة وخمسين ميلاً عن جدة مينائها المهم والموضع الذى يضع الحاج ركبه فيه بعد طول السفر ، وبعد ما قاسى من صنوف المشاق ما قاسى . وهى المرسى الذى ترسو فيه البواخر المقلة للحجاج من أقاصى الأرض ومن أدانيها : من جاوة وسوماطرة ، من الهند وزنزبار ، من السودان ومراكش ، من الهند الصينية والصومال .

وقد بلغ عدد الحجاج فى ذلك العام نيفاً ومائة ألف ازدحمت بهم الشوارع ، واكتظت بهم الأسواق ، وضاقت بهم المدينة . وكانوا يمثلون جميع الأجناس البشرية ومختلف ألوان الناس ، ففيهم السيدات الجاويات الرشيقات اللاتى يسترن أجسامهن المستدقة بالسارى الحريرى الجميل ، ويتجولن فى الشوارع والأسواق جنباً لجنب مع أبناء البادية أصحاب النظرات الشزرة والشعور الكثة المغبرة ، والأصوات الخشنة العالية ؛ وفيهم

الصينيون بعيونهم اللوزية ، واليابانيون بجفونهم الثقلة ، والنجديون بسيمائهم الناطقة بشدتهم وخشونتهم ، والذين سرحوا شعورهم وضمخوها بالطيوب ، وكحلوا عيونهم بالكحل الفاحم ، وبينهم من وضع حول عنقه قلادة مرجانية أو عقداً زجاجياً ، وبينهم من تدلت من بين أصابعه مسبحة كهرمانية طويلة ، وفيهم من تجلبب بالملابس الكثيفة ، ومن ترك جسمه عارياً إلا من قطعة قماش صغيرة تستر ما يجب ستره

* * *

وفي اليوم الذي وصلت فيه (جدة) كان بعض الحجاج في عودته من مكة ، وبعضهم يتأهب للسفر لزيارة قبر النبي (ص) . ومنذ أن وطئت قدماي أرض الحجاز ، أخذت أسائل نفسي عن العوامل التي توحد بين هذه الأقوام المختلفة خلال أيام الحج . ولكنني لم أقض بينهم بضعة أيام حتى أدركت أن قدسية البيت بمكة وحرمة القبر بالمدينة أقوى العوامل في التأليف بين قلوب هذا العدد العديد في المسلمين ، وفي توجيههم وجهة واحدة على ما هم عليه من تباين في القومية واختلاف في العنصرية . ومع أنهم لا يتخاطبون فيما بينهم بلغة واحدة ، ولا يتبعون تقاليد متماثلة ، ولا تجمعهم رغبات موحدة ، فإن وحدة إيمانهم خلقت بينهم ألفة ومحبة تعجز من خلقها أي وحدة سياسية أو مبدأ اقتصادي آخر

وفي جميع زياراتي للحجاز لم أشاهد أو أسمع عن شجار واحد وقع بين أهل تلك البلاد وبين إخوانهم الحجاج ، مع أن جل أولئك الناس كانوا من الذين لا يضعون حداً لمشاكلهم ولاختلافاتهم إلا بالسيف والخنجر . ولا يرجع هذا لشدة بأس الحكومة وقوة شكيمتها فحسب ، بل إلى تغلغل العقيدة في نفوسهم ، واستقرار الإيمان في أعماق قلوبهم

ولا نعني بهذا أن ليس من خلاف بين الطوائف الإسلامية ، ولكن الذي يمضي لزيارة الحجاز أثناء موسم الحج يؤمن معي أن في الدين الإسلامي قوى تؤلف بين معتنقيه أشد وأقوى من تلك التي تفرق بينهم . والذي ينعم النظر ويطيل التأمل في أولئك الحجاج لا بد أن يشعر بأنهم بمجيئهم إلى هذه الأرض المقدسة قد طهروا أنفسهم من أدران النفعية الداعية لكل خلاف والمسببة لكل تفرقة . وكأن القبلة التي يتجهون إليها طهرت نفوسهم وألانت قلوبهم ، فصيرتها أكثر تسامحاً وأقل قساوة مما كانت عليه قبل أن تطأ أقدامهم تربة الحجاز

ولا أدري ، أيحق لنا — نحن أبناء الغرب — أن نستمر في تبجحنا بأن المسيحية تستطيع أن تؤلف بين طوائفنا المتباينة وأقوامنا المتناحرة ، فتضع بذلك أسس الإخاء وتشيد أركان المحبة في أوربا المسيحية ؟ متى يا ترى نؤمن . وقد كثرت اختلافاتنا فأثارت في نفوسنا الخيلاء والفخار بأن الدين أشد القوى التي تستطيع الوقوف بوجه ما يهدد كياننا الاجتماعي من أخطار ؟

* * *

يعتقد المسلمون أجمعون أن الحج للبيت أعظم ما يقومون به من عمل في حياتهم . وجلهم يؤمن بأن هذه الفريضة الدينية أكثر أهمية وأوفر أجراً من كل ما يأتيه المسلم من شعائر دينية أو من طقوس مذهبية . فالحج فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وفيه يمتحن الخالق عباده المؤمنين . ويندر بينهم من لا يملل نفسه ويمنيها بزيارة الأرض المقدسة ، ما دام أول الحج عبادة وآخره عهداً

والغريب من أمر هؤلاء المسلمين أنهم يتهافتون على الحج على ما فيه من مصاعب ومتاعب وأهوال . وهم شاعرون بأن تلك الجهود والشدائد قد تودي بحياتهم كما أودت بحياة الألوف من إخوانهم من قبل ، فكانت خاتمة حياتهم رقدة هادئة بين طيات التربة المباركة أو بجوار البيت المقدس . ومن حسن حظ المسلمين أنه منذ أن وضع ابن السعود يديه على أرض الحجاز ساد البلاد أمان وعمها رخاء ، وأخذ الحجاج يتمتعون باستقرار واطمئنان بعد ما ظلوا سنين طويلة يقاسون ، فضلاً عن أهوال السفر ومشاق الطريق ، اعتداء البدو من سكان الحجاز ونهبهم لأموالهم وأمتعتهم وطمع الموظفين الحجازيين فيهم

وما تكاد تطأ قدما الحاج أرض الحجاز ويمتع بصره بمنظر جبالها الجرداء ووديانها القاحلة حتى يشعر بزوال ما كان يقاسيه من عذاب أثناء سفره الشاق . فكأن رؤية شواطئ البلاد المقدسة تذهب التعب عن نفسه ، وتزيل المصاعب من سبيله ،

وتنسيه ما ينتظره من متاعب عند ما يعود إلى وطنه . وكم كان عجبي شديداً عند ما شاهدت في صباح يوم وصولي إلى جدة جماعة من الحجاج شاخصين نحو تلك التلال الجرداء التي تخفي وراءها قبلة المسلمين وأمنية كل فرد منهم . وكانت عيونهم تشع بنور الفرح ، وأفواههم صامتة حائرة ، وقلوبهم خافقة واجفة من وقع ذلك المنظر الذي كان يوحي إليهم السر الإلهي والإيمان الصادق

والله وحده يعلم ما سيشعرون به عند ما يقفون خاشعين نادمين على ما اقترفوا من ذنوب وما آتوه من آثام حيال الكعبة المقدسة بكسوتها الموشاة بالذهب ، أو عند ما يستلمون بأيديهم المرتعشة الحجر الأسود المبارك ، وعند ما يضعون شفاههم عليه ؛ ذلك الحجر الذي جاء به جبريل من السماء لإبراهيم الخليل ، والذي ظل المسلمون يقدسونه طوال القرون الثلاثة عشر الماضية

إن الأيام التي يقضيها الحاج بمكة والتي لا تزيد على خمسة عشر يوماً تمر كالحلم عليهم ، وفي هذه الأيام القلائل ينصرفون إلى عبادة الله متناسين ما في الأرض من متاع زائل ، كاظمين ما في قلوبهم من أحقاد ، كابتين ما في نفوسهم من شهوات ، متناسين عن جميع الاختلافات العنصرية ، والفروق المذهبية ، والمطامع الفردية ؛ كأنما اجتمعت أرواحهم جميعاً تحت سماء الكعبة التي سطرت على غطائها آيات القرآن وأحاديث الرسول

وكم من الحجاج يستطيع التعبير عن شعوره أثناء وقفته تلك ؟ إن ذلك اليوم هو اليوم الذي تنتصر فيه الروح على الجسد ؛ وإن تلك الوقفة في ذلك الحرم المترامي الأطراف لوقفة تقرب المسلم من المسلم ، وتجعله يشعر نحو أخيه في الدين بأعظم ما يشعر به نحو ابن أمه

البصرة — العراق

موسى السلمانه

---

٩ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

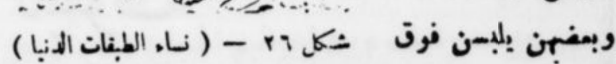
للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الأول

وملابس أغلب الموسرات من الطبقة الدنيا تتألف من سروال كشنتيان السيدات الراقيات، إلا أنه من أبيض القطن أو الكتان الواحد الشكل؛ وقميص أزرق من الكتان أو القطن لا يكون بسعة قميص الرجال، يصل إلى القدمين؛ وبرقع أسود من غليظ الكريب [١]؛ وطرحة زرقاء قاتمة من الموصلي أو الكتان. وبعضهن يلبسن فوق



شكل ٢٦ — (نساء الطبقات الدنيا)



القميص الطويل أو بدلاً منه ثوباً من الكتان كثوب السيدات الراقيات [٢] (شكل ٢٦)، وبعضهن يلبسن قميصاً قصيراً تحت القميص الطويل ويُضفن إليه أحياناً صديرياً أو عنترياً. وتشمر أكمام الثوب فوق الرأس حتى لا تضايق الشخص أو لتحل محل الطرحة [٣]. وقد يتدثر بعضهن فوق هذه الثياب بمعطف ذي مربعات شطرنجية يشبه الحبرة ويلبس مثلها أو مثل الطرحة [١] ويتكون من قطعتين من القطن المنسوج أشكالاً مربعة زرقاء وبيضاء، أو خطوطاً متشابكة تصبغ أطرافه بصبغ أحمر. ويسمى «مِلاية» [٢] (شكل رقم ٢٧).

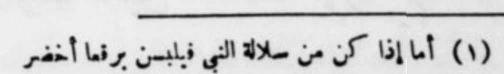


(شكل ٢٧ « الملاية »)

ويزين أعلى البرقع بلآلي زائفة، وقطع صغيرة من النقود الذهبية، وبعض الحلي الذهبية الصغيرة المسماة «برق» وأحياناً بخرزة من المرجان تحتها قطعة من النقود الفضية وبعض النقود الذهبية وغالباً بحبات من النحاس أو الفضة تسمى «عيون» تعلق في الأطراف (شكل رقم ٢٨). وتلف الرأس بمنديل أسود يسمى «عصبة» بحاشية حمراء وصفراء، يطوى منحرفاً ويعقد عقدة واحدة من الخلف (شكل رقم ٢٩). وقد يلبس الطربوش والفاروديه بدلاً من العصبة. وأحسن الأحذية التي ينتعلها نساء الرعاع تكون من الجلد الأحمر المراكشي المثني الطرف ولكن يغلب أن يكون طرفها مستديراً. والبرقع والنعال شائع الاستعمال في القاهرة والوجه البحري. أما في الصعيد فقل أن يستعملان



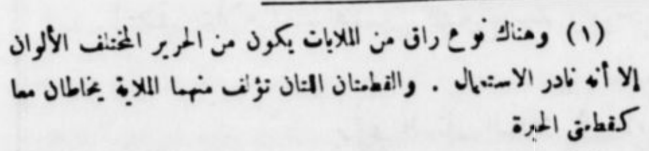
شكل ٢٨ ـ (براقع سود محلاة)



(١) أما إذا كن من سلالة النبي فيلبسن برقعاً أخضر

(٢) انظر الصورة اليسرى من الشكل ٢٦

(٣) انظر الصورة اليمنى في الشكل رقم ٢٦



(١) وهناك نوع راق من الملايات يكون من الحرير المختلف الألوان إلا أنه نادر الاستعمال. والقطعتان اللتان تؤلف منهما الملاية يخاطان معاً كقطعتي الحبرة

(٢) عوضاً عن «مُلاءة»

وعند الضرورة يستبدل بالبرقع إسدال الطرحة على الوجه .
والملاحظ أن نساء الطبقات السفلى حتى فى العاصمة لا ينتقبن .
والثياب الشائعة فى معظم القطر المصرى هى القميص الأزرق أى الثوب، والطرحة . أما فى أقاليم الصعيد الأقصى، وعلى الأخص ما فوق مدينة أخميم، فأغلب نسائها يتغطين بقطعة من الصوف الأسمر القاتم تسمى « هُلاليـة » تلف حول الجسم وتضم أطرافها فوق الكتفين[1] (شكل رقم ٣٠) وتستعمل قطعة مثلها كطرحة . وهـذا الثوب القاتم اللون بالرغم من جماله يشوه هيئتهن كالوشم الأزرق الذى برسمنه على شفاههن . والكثير من نساء الطبقة الدنيا يتحلين بحلى زائفة مختلفة من أقراط وعقود وأساور ومن خزام الأنف أحياناً ، وبعضها موصوفة ومصورة فى ملحق الكتاب

(شكل ٢٩ العصبة)

وترى المصريات أن واجب تغطية الرأس وما خلفه أولى من تغطية الوجه ، وحجب الوجه أولى من حجب أكثر أجزاء الجسم . وكثيراً ما رأيت فى هذا البلد نساء لا تكاد تسترهن أسمالهن الحقيرة ، وأخريات فى زهرة الشباب أو فى متوسط العمر لا يحملن على أجسادهن غير خرقة ضيقة تشد حول الوركين

(شكل ٣٠) قروية من الصعيد الأقصى من مدينة « طيبة »

(١) لا بد أن القارئ قد لاحظ أن هـذا الثوب الفاتن حلة من حلل الاغريقيات والرومانيات فى قدم الزمن

الفصل الثانى

الطفولة وتربية الأطفال

يسترشد المسلمون فى تربية أطفالهم والاعتناء بهم بأوامر الرسول (صلعم) وتعاليم الأئمة . ومن أول الواجبات عند ولادة الطفل التأذين فى أذنه اليمنى ، ولا بد أن يكون المؤذن ذكراً . ويقرأ بعضهم الإقامة، وهى تشبه الآذان تقريباً ، فى الأذن اليسرى[1] . والغرض من ذلك حفظ الطفل من الجن . وقد يتلى لهذا الغرض نفسه عبارة : « باسم الرسول وابن عمه على »

وكانت استشارة المنجمين قبـل تسمية الطفل واتباع ما يختارونه له ، عادة شائعة فى مصر والبلاد الإسلامية الأخرى . وقلما يتبع أحد الآن تلك العادة القديمة فيختار الأب لابنه اسماً من غير احتفال ولا تكلف ؛ أما تسمية البنت فتكون عادة باختيار الأم . وكثيراً ما يسمى الأولاد بأسماء الرسول (صلعم) (محمد ، أحمد أو مصطفى) أو أهل البيت (على ، حسن ، حسين الخ ...) أو أصحابه الأفاضل (عمر ، عثمان ، عمر الخ . . .) أو الرسل والأنبياء ، مثـل : (إبراهيم ، إسحق ، إسماعيل ، يعقوب ، موسى ، داود ، سليمان الخ ...) أو يسمون عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد القادر وما شابه ذلك ... أما البنات فكثيراً ما يسمين بأسماء نساء الرسول أو ابنته الحبيبة أو غيرهن من نساء عائلته مثل خديجة ، عائشة ، أمنه ، فاطمة ، زينب ، أو يسمين بأسماء تمنى محبوبة ، مبروكة ، نفيسه الخ ... أو بأسماء الزهور أو أى معنى لطيف آخر[2]

ولـما كان الاسم لا يتحتم توارثه على العموم ، فقد جرت العادة أن يميّز الشخص بعـلم أو أكثر : إما « كنية »

(١) انظر الفصل التالى فيما يتعلق بكلمتى « آذان » و « إقامة »

(٢) جرى ذوق العصر فى القاهرة على تغيير الأسماء الخمسة الأولى والاسم الأخير إلى خدوجه ، عيوشه ، أمونة ، فطومه ، زنوبة ، نفوسه وهناك أسماء أخرى تنطق بهذه الطريقة نفسها وهى تطلق هنا على سبيل الفضل والجاه (ويخطئ الكتاب الأوربيون فى كتابة اسم الرحالة الشهير ابن بطوطة بالتشديد Ibn-Battootah فيكتبونه ابن بطوطة بالتخفيف Ibn-Batûtah أو Ibn-Batootah)

مثل « أبو علي[1] » ، « ابن أحمد » ... الخ . أو « لقب » مثل « نور الدين » ، « الطويل » الخ ... أو « إسم » يتعلق بالبلد أو المولد أو الأصل أو المذهب أو التجارة أو الحرفة ... الخ[2] . مثل : الرشيدي ، الصباغ ، التاجر . وكثيراً ما يتوارث بعض هذه الأعلام وعلى الأخص الألقاب والنسب فتصبح لقب العائلة

أما ملابس أطفال الطبقتين الوسطى والعليا فهي كملابس الوالدين ، ولكنها قذرة غير مهندمة . ويلبس أطفال الفقراء إما قميصاً وطاقية من القطن أو طربوشاً ، وإما أن يُتركوا عراة حتى سن السابعة أو ما بعد ذلك . وقد لا يصعب عليهم الحصول على خرقة تستر بعض الجسم كما في أغلب القرى . ويلاحظ أن البنات الصغيرات اللائي لا يملكن إلا قطعة من رث النسيج لا تكفي الجسم والرأس معاً ، يفضلن تغطية الرأس ، وأحياناً يدفعهن الدلال إلى حجب الوجه بفضلة من النسيج بينما يترك الجسم كله مكشوفاً . أما الراقيات في سن الرابعة أو الخامسة ، فيلبسن كأمهاتهن النقاب الأبيض . ويحلق رأس الولد ، حينما يبلغ الثانية أو الثالثة أو قبل ذلك ، وتترك له خصلة في وسط الرأس وأخرى فوق الجبهة[3] . وقلما يحلق رأس البنات . ويُحمل الأطفال فوق أكتاف أمهاتهم وصبياتهم[1] على هيئة ركوب الخيل ، أما إذا كانت المسافة قريبة فيحملون فوق الورك

لا تُظهر الموسرات في تربية أطفالهن تسامحاً زائداً وشفقة مفرطة ، ولكن الفقيرات لا يبذلن نحوهم إلا العناية القليلة بقدر ما تقتضيه الطبيعة من الحاجة الضرورية . وقد جعل الشرع تمام الرضاعة حولين كاملين إلا إذا وافق الزوج على غير ذلك ، فيفطم الطفل عادة بعد السنة الأولى أو بعد سنة ونصف سنة . وينشأ الطفل — ذكراً أو أنثى — في الأوساط الموسرة ، بين جدران الحريم ، أو على الأقل داخل المنزل . ويستمر هكذا — تحت رعاية النساء — حتى يعهد به إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة كل يوم . ومن المهم ملاحظة أن ما يتعلمه الطفل في الحريم من واجباب الاحترام المشوبة بالعطف والمحبة نحو الوالدين وكبار السن ، يهيئه للاتصال بالعالم الخارجي كما سترى بعد قليل

وكثيراً ما يصطحب النساء أطفالهن عند الخروج للزيارة أو للتنزه ؛ فتحمل كل جارية أو خادمة طفلاً أو تجلسه أمامها على الحمار ، إذ جرت العادة أن تركب الخادمات مثل سيداتهن الحمير . وكان النساء إذا ركبن الحمير أدلين كل ساق على جانب To sit astride .

ولكن قلما ينعم أطفال الأغنياء بهذه التسلية الهينة ؛ فقد أثر على صحتهم طول الحجاب وشدة العناية وإفراط التغذية ؛ فيصبحون لذلك كثيري التقلب ، متكبرين ، أنانيين . ويندر كذلك أن يشتد نساء الطبقة الوسطى في تربية أطفالهن . ويتوقف تقدير الزوج لزوجه أو تقدير الناس لها إلى درجة كبيرة على كثرة النسل والعناية بالأطفال ؛ لأن الشرقيين رجالاً ونساء ، أغنياء وفقراء ، يعتبرون العقم لعنة وعاراً . ومن الشائن أن يطلق الرجل امرأته بلا سبب قوي ما دامت قد ولدت له طفلاً وما دام الطفل حياً . فالمرأة الولود تكون موضعاً لحب الزوج واحترام الناس ، وبيتها يكون مثابة للسرور والإيناس

(يتبع) عدلي طاهر نور

(١) وهناك معنى مجازي لهذه الكنية . أنظر ما يتعلق به في حاشية بآخر الفصل الرابع

(٢) يسمى « نسبة » أو « اسم منسوب »

(٣) من الشائع عند أكثر فلاحي مصر ، بمناسبة حلق رأس الطفل لأول مرة ، أن تذبح ذبيحة من المعز على قبر أحد أولياء الله ، الأقرب إلى البلد . ويعد اللحم لوليمة يدعى إليها الأصدقاء ويحضرها من يريد . وتلك العادة أكثر شيوعاً في الصعيد وعند القبائل التي لم يمض على إقامتها بشاطئ النيل زمن طويل . وكان العرب الجاهليون يجرون على هذه العادة . وكانوا يتصدقون بمقدار وزن الشعر ، فضة أو ذهباً . وقد تلقى هذه العادة بعض الضوء على الحالة المذكورة في سفر صموئيل الثاني ، الاصحاح الرابع عشر الآية ٢٦ ، ونصها : (وعند حلقه رأسه إذ كان يحلقه في آخر كل سنة ، لأنه كان يثقل عليه فيحلقه ، كان يزن شعر رأسه مئتي شاقل بوزن الملك ؛ المتعلقة بوزن أبشالوم شعر رأسه بعد ما حلقه) . وتسمى الذبيحة « عقيقة » ، وتقدم ضحية لافتداء الطفل من النار . وقد حرم الرسول صلى الله عليه وسلم عادة حلق بعض رأس الطفل وترك البعض الآخر

(١) أنظر أشعياء الاصحاح التاسع والأربعون ، الآية ، ونصها : ... فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن

ليالي القاهرة

بين الشاعر والريح

للدكتور إبرهيم ناجي

الشاعر:

لَستُ أنسى أبدًا ساعةً في العُمُرِ
تحتَ ريحٍ صفّقتْ لارتقاصِ المطرِ ! !
نوّحتْ للذكَرِ وشكتْ للقمرِ
وإذا ما طربتْ عربدتْ في الشجرِ

* * *

هاكَ ما قد صبّتِ الريحُ بأذنِ الشاعرِ
وهي تغري القلبَ إغراءَ النصيحِ الفاجرِ

الريح:

أوَ كُلُّ الحبِّ في رأيكَ غفرانٌ وصفحُ
أيها الشاعرُ تغفو تذكرُ العهدَ وتصحو
وإذا ما التامَ جُرحٌ جدّ بالتذكارِ جرحُ
فتعلّمْ كيفَ تنسى وتعلّمْ كيفَ تمحو

* * *

هاكَ فانظرْ عددَ الرملِ قلوباً ونساءْ
فتخيّرْ ما تشاءْ ذهبَ العمرُ هباءْ
ضلّ في الأرضِ الذي ينشدُ أبناءَ السماءْ
أيُّ روحانيةٍ تُعصرُ من طينٍ وماءْ

الشاعر:

أيها الريحُ أجلْ لكنّما هيَ حبّي وتعلاّتي ويأسي
هيَ في الغيبِ لقلبي خُلقتْ
أشرقتْ من قبلِ أن تشرقَ شمسي
فعلى تذكارِها أطبقتُ عيني ... وعلى موعدِها وسّدتُ رأسي

* * *

يا لها من صيحةٍ ما بعثتْ ... عندهُ غيرَ أليمِ الذِّكَرِ
أرقتْ في جنبهِ فاستيقظتْ ... كبقايا خنجرٍ منكسرِ
لمعَ النهرُ وناداهُ لهُ ... فمشى منحدرًا للنهرِ
ناضبَ الزادِ وما من سفرٍ ... دونَ زادٍ غيرُ هذا السفرِ

الشاعر:

يا حبيبي كلُّ شيءٍ بقضاءْ ... ما بأيدينا خُلقنا تعساءْ
ربّما تجمعُنا أقدارُنا ... ذاتَ يومٍ بعدما عزَّ اللقاءْ
فإذا أنكرَ خلٌّ خلَّهُ ... وتلاقينا لقاءَ الغرباءْ
ومضى كلٌّ إلى غايتهِ ... لا تقلْ شئنا وقلْ لي الحظُّ شاءْ

ابرهيم ناجي

صرخة ! !

للأديب عبد الرحمن الخميسي

علامَ أضحكُ والآفاقُ باكيةٌ ... والشمسُ تحجبُها الأنواءُ والظُّلَمُ
والريحُ قد دمدمتْ في السهلِ فاختنقتْ ... بها الأزاهرُ صرعى وهي تبتسمُ
والسيلُ يجرفُ من يلقاهُ مؤتلقاً ... حيًّا ويتركُ من أحرى بهِ العدمُ
والنارُ تأكلُ ما اخضرّتْ منابتُهُ ... أمّا الهشيمُ فتُبقي عمرَهُ الرِّممُ
علامَ أضحكُ يا أربابَ من زمني؟ ... وشاطئي فوقَهُ الأهوالُ ترتطمُ!
لكنّها ضحكةُ البركانِ قاذفةً ... من قلبيَ النارَ أذكى أصلَها الألمُ
إني أقولُ لهذا الدهرِ في صلفٍ: ... إشربْ دمائي وانهلْ أيها النهمُ!
وخذْ فهذا فؤادي في يدي قلقٌ ... واشبعْ فهيهاتَ يغشى مهجتي السأمُ
هيهاتَ تبلغُ إذلالي وتخضعُني ... إني عتيٌّ قويٌّ ثائرٌ برمُ!
وإن تمزّقْ ضلوعي منكَ صائبةٌ ... ففي فمي من جراحي بسمةٌ ودمُ!

عبد الرحمن الخميسي



حول كلمة «هناء»

سبق للأدباء أن تناولوا لفظة «هناء» بحثاً منذ ست سنوات ولا بأس من إيراد طرف من أقوالهم تعميماً للفائدة :

قال الأستاذ أسعد خليل داغر : إن الهناء صحيح ، لأنه اسم مصدر من هنّأ بتشديد النون كالسلام من سلّم والعزاء من عزّى والكلام من كلّم

وقال الأستاذ يوسف الدجوى من هيئة كبار العلماء : اشتهر في هذه الأيام التي كثر فيها الاجتهاد وشغف الناس بالانتقاد أن الواجب أن يقال هناءة لا هناء ، وهذا من قصور الاطلاع .

ففي كتاب الهمز لأبي زيد الأنصارى المطبوع ببيروت صفحة ٢٥ ما يفهد صحة ذلك وروده . وكذلك في كتاب «الفلك المشحون» ليونس المكي المتوفى في القرن الثامن ما يفيد ذلك أيضاً (ص ١٦٣) ومثل ذلك قول الأديب الكبير ابن نباته :

هناء محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

وقول إمام العربية محمد بن مالك في حروف الزيادة ذلك البيت المشهور :

هناء وتسليم تلا يوم أنسه نهاية مسئول أمان وتسهيل

وهو الذي قال : إنى قرأت صحاح الجوهرى فلم أستفد منه غير كلمتين

وقال الأستاذ محمد على الدسوقى صاحب كتاب «الألفاظ العامية» : الهناء والهناءة بمعنى — جاء في صحيفة ٢٤ من الجزء الرابع من المخصص : هنأنى الطعام يهنئنى والاسم الهناء

وقال الأستاذ وحيد بأهرام ١٩٣٥/٦/٥ : إن الهناء لفظ عربي وكفى ذكر وروده في تاج اللغة وصحاح العربية جاء فيه : هنأ يهنئنى بفتح فسكون ، ويهنؤنى بفتح فسكون هنأ وهناء .

ترى ، أيكتفى اللغويون والمتأدبون بما تقدم فيدعو كل منهم لأخيه بالهناء ، أم سوف يقوم قائم منهم بعد ست سنوات أخر فينكر هذا اللفظ ؟

يجمل بالمجمع اللغوى أن يهتم بمثل هذا الصواب المخطأ ويذيعه في نشرات على الناس ، فمن الخير تصحيح الخطأ ، أما تخطئة الصواب ، فجريمة لا تغتفر

«القناطر الخيرية» محمد فتح الباب

إلى الأستاذ الكبير ا . ع

ذكر الأستاذ الكبير (ا . ع) في العدد ٤٢٤ من الرسالة أن الكتاب والبلغاء يخطئون في استعمال كلمة (عَبْر) في نحو قول الصحف «ومن زمن قريب ادعت اليابان لنفسها حق مرور قواتها عَبْر شمال الهند الصينية» وقولها : «كلما فرغت مصانعنا من إخراج طائراتنا الضخمة أو جاءت إلى هنا عبر الأطلنطى» وقال إنها ترجمة خاطئة لكلمة انجليزية ذكرها

وإن الكتاب جعلوها في نسج الكلام ظرفاً كما يصنع الإنجليز بكلمتهم فأخرجوها عن معناها ووضعها اللغوى بلا مسوغ مطلقاً

قلت : قد جاءت هذه الكلمة في شعر إسلامي لسواد بن قارب الكاهن حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً

روى صاحب الجمهرة أن سواداً قال لعمر بن الخطاب : إن نجياً من الجن أتاه في ثلاث ليال متتابعة وبشره بظهور نبي يدعو إلى الحق . قال سواد : «فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلت لناقة من إبلي وأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت وبايعت وأنشأت أقول» :

أتانى نجيّى بعد هدء ورقدة ولم يك فيما قد عهدت بكاذب

ثلاث ليال قوله كل ليلة أتاك رسول من لؤى بن غالب

فشمّرت عن ذيلى الإزار وأرقلتْ

بيَ الدعلبُ الوجناء عَبْر السباسب (1)

(مقدمة جمهرة أشعار العرب ص ٢٦)

(1) ولعل من الانصاف أن أقول : يمكن تخريج الشاهد على غير ما استشهدت له بجعل (عبر) صفة للناقة ، جاء في القاموس «وناقة عبر أسفار مثلثة قوية» «تشق ما مرت»

ومن ثمّ يرى الأستاذ الكبير أن الكلمة صحيحة كما يستعملها الكتاب على عهدنا

ولو أننا أردنا تخريج الكلمة على وجه صحيح لوجدنا أكثر من وجه خلافاً لما يقول الأستاذ، وأقرب هذه الوجوه عندى أن تكون «عبْر» مصدراً مراداً به اسم الفاعل فتكون حالاً مما قبلها ويكون التقدير (مرور قواتها عابرة شمال الهند الخ) و (أو جاءت إلى هنا عابرة الأطلنطى)

والمصدر يقع فى موضع اسم الفاعل كما قال الله عز وجل: «إن أصبح ماؤكم غوراً» أى غائراً[1]، ويقال رجل عدل أى عادل[2] ويوم غمٌّ أى غامٌّ، كما يقع اسم الفاعل فى موضع المصدر نحو قول الشاعر[3]:

ألم ترنى عاهدت ربى وإننى لبين رتاج قائماً ومقام
على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من فىّ زور كلام[4]

وبعد. فلعلى أتيت الأستاذ الكبير بما يطمئن به قلبه والسلام

(بنى سويف) محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة الابتدائية

حول تقرير مراقب التعليم الأولى

كان تقرير الأستاذ مصطفى شكرى بك المنشور بعدد ٤٣١ من (الرسالة) بمثابة اعتراف صريح ببراءة المعلم من تبعة إخفاق التعليم الإلزامى، وإلقاء هذه التبعة على كاهل الذين وضعوا أصوله ورسموا فصوله، وأسسوا قواعده، وشرعوا مناهجه! وأهم هذه الحقائق التى وردت فى التقرير هى: عدم صلاحية النظام النصف يومى، وعدم كفاية الزمن لدراسة مواد المنهاج، وإرهاق المعلمين بتدريس ٤٨ حصة فى الأسبوع، وضآلة المرتبات، وعدم المساواة فى الترقيات، وتنازع السلطة بين الوزارة ومجالس المديريات ...

هذه حقائق لا مراء فيها، ولا يستطيع أحد أن ينكر أثرها فى فشل هذا التعليم، كما لا يستطيع أحد أن يحمِّل المعلم تبعة شىء منها، لأنها ليست من عمله، وقد رفع صوته منادياً بإصلاحها فلم يسمع له أحد قولاً ... !!

وقد أشار التقرير إلى ضرورة العناية بإعداد المعلم، وعندى أن الوزارة قد أهملت المعلم من ناحيتين:

الأولى عدم استقرار المناهج فى مدارس المعلمين، وعدم موافقتها لمقتضى الحال. والثانية إهمال مكتبات المدارس الإلزامية وعدم تزويدها بالكتب النافعة المفيدة التى يمكن للمعلم أن يرجع إليها ويستعين بها على توسيع ثقافته. فليس فى مكتبة المدرسة الإلزامية غير مختار الصحاح وتفسير الجلالين!!

أما علوم اللغة والدين والفقه والتاريخ والأدب وغيرها، فليس فيها منها ولا كتاب واحد!

على أن هذا لم يمنع الكثير من المعلمين من الاعتماد على أنفسهم فى اقتناء الكتب المختارة والمجلات النافعة. فاستطاعوا بفضل ذلك أن يظهروا على غيرهم، وأن يحصلوا على الشهادات العالية من منازلهم

ومن غريب المفارقات أن الوزارة بينما تبخل على المعلم الإلزامى حتى بالكتاب الذى يستفيد منه، تعطى الكثير من الكتب لمكتبات مدارسها الثانوية والابتدائية، وهى تعلم أن هذه الكتب ستبقى كما هى لا تقلب صفحاتها يد، ولا تنظر إليها عين، وأن شأنها شأن القرط عند مقطوعة الأذنين!

فعسى أن يكون لتقرير الأستاذ المراقب عند الوزارة من الأثر العملى ما يرجيه المشفقون وما يقدره المخلصون.

«المنصورة» علي عبد الله

حول نقد كتاب «كليلة ودمنة»

ستصدر ابتداءً من العدد المقبل بقية مقالات الدكتور عبد الوهاب عزام فى الرد على نقد الأستاذ عبد السلام هارون فى كتاب «كليلة ودمنة»

(١) راجع كامل المبرد ص ٧١ طبعة المكتبة التجارية

(٢) وهو أحد أقوال ثلاثة ثانيها أنه وصف بالمصدر على سبيل المبالغة كأنه نفس العدل وثالثها أنه على تقدير مضاف أي ذو عدل (راجع الصبان)

(٣) هو الفرزدق، وهما من أبيات قالها فى آخر عمره حين تعلق بأستار الكعبة وعاهد الله ألا يكذب ولا يشتم مسلما

(٤) قال المبرد: «وقوله: ولا خارجا، إنما وضع اسم الفاعل فى موضع المصدر. أراد لا أشتم الدهر مسلما ولا يخرج خروجا من فىّ زور كلام لأنه على ذا أقسم» الكامل ص ٧١



حوار عند الغروب (*)

للقاص الفرنسي بيير لويس

للأديب عبد الغني العطري

« بيير لويس شخصية أدبية فذة لها مكانتها الرفيعة في عالم الرواية والقصة والفكر . ولو لم يكن لهذا الكاتب سوى روايته الخالدة « أفروديت » التي تجري حوادثها في مدينة الإسكندرية ، ولو لم يكن له من أبطالها سوى « كريزيس » صاحبة تمثال « حياة خالدة » لكان ذلك كافيا لجعله في مقدمة زعماء الرواية العبقريين

وكما برع لويس في الرواية فقد برع في القصة والأقصوصة أيضا ، وله في ذلك مجموعة نفيسة سماها « Contes choisis » قصص مختارة ، والقطعة التي نقدمها اليوم لقراء الرسالة الزهراء تحتل المكان الثاني في هذه المجموعة الرائعة . ولعل أقوى مميزات هذه الأقصوصة الحوار الطريف « الساذج » الذي أجراه الكاتب على لسان راعية وراع (ع . ع)

أركاس — أيتها الفتاة ... يا ذات العينين السوداوين

مليتًا — لا تمسني !

— لن أمسك ... سأظل بعيداً عنكِ — كما ترين — يا أخت أفروديت ويا ذات الشعور الجميلة المعقدة على شكل عناقيد من الذهب . هأنذا أقف على جانب الطريق دون أن أستطيع الذهاب ، لا إلى الذين ينتظرونني ، ولا إلى الذين خلفتهم ورائي

مليتا — إذهب! إذهب! إنك تتكلم عبثاً، وتتفوه بما لا طائلة تحته أيها الراعي من غير غنم ، ويا جوّاب الطرق المشبوهة الوعرة إذا كنت لا تستطيع بعد سلوك الطريق العام فاذهب إذن عن طريق الحقول ، على ألا تطأ قدماك مرجي المخضوضر . أنت الذي لا أعرفه ... وإلا ناديت واستغثت

— من عساك تنادين في هذه الوحدة ؟

— الآلهة التي تسمعني

— إن الآلهة يا فتاتي الصغيرة بعيدة عنك الآن أكثر مما أنا بعيد عنك بكثير ولو كانت على مقربة منك لما منعتني من إبداء إعجابي بجمالك وسحرك ، لأنها تفخر بوجهك الصبوح وتزدهي وتعلم أنه تحفتها الرائعة

— صه أيها الراعي صه ! إليك عني . لقد حظرت أمي عليّ الإصغاء إلى أقوال الرجال . إني في هذا المكان أرعى نعاجيَ الكثيرة الصوف وأحافظ عليها إلى أن تتضيف الشمس ثم تأوى إلى مرقدها . يجب علي ألا أصغي إلى أصوات الفتيان الذين يمرون بهذا الطريق ، مع أنسام المساء والغبار المتطاير

— ولم ذلك ؟

— لست أدري السبب ، غير أن أمي تعرفه بدلاً مني . . . لم يمض بعدُ ثلاثة عشر عاماً على ولادتها إياي فوق سريرها المصنوع من ورق الشجر ، وسأكون عاقة لها إذا لم أصدع بكل ما تأمرني به

— لم تفهمي يا فتاتي مقصد أمك الرءوم ... إن أمك طيبة عاقلة ، حسناء محترمة . . . لقد حدثتك إذ حدثتك عن البرابرة الذين يجوبون الحقول والأرياف وهم يحملون المجّان (١) في يسراهم والسيوف في يمناهم ... هؤلاء يا فتاتي يستطيعون إيذاءك لأنك ضعيفة وهم أقوياء ... لقد قتل هؤلاء الأشرار في المدن التي احتلوها خلال الحروب البغيضة كثيراً من العذارى الحسان اللواتي يضاهي جمالهن جمالك . ولئن عثروا بك في طريقهم فلن يشفقوا عليك . . . أما أنا فأي أذى أستطيع إلحاقه بك ، ولست أحمل سوى جلد الخروف على كتفيّ ، وهذه العصا في يدي ... أنظري إليّ مليا ... أمخيف أنا إلى هذا الحد ؟ ...

— لا أيها الراعي ... لست مخيفاً ... إن ألفاظك عذبة ناعمة ، لذا يمكنني أن أصغي إليها طويلاً ؛ ولكنهم حدثوني فقالوا : إن أعذب الكلام وأحلاه أكثره إمعاناً في الغدر

(*) قطعة من كتاب (من أقاصيص الغرب) الذي سيصدر في أواخر هذا العام

(١) جمع مجن

والخداع ، وذلك حين يتمتم به شاب فى أذنى واحدة منا نحن الفتيات …

— أأفوز منك بجواب إذا وجهت إليك سؤالاً ؟

— أجل …

— بم كنت تفكرين تحت الزيتونة السوداء عندما مررتُ ؟

— لا أريد أن أخبرك به …

— ولكنى أعرفه !

— قله لى …

— إذا سمحت لى بالدنو منك ، وإلا فسألزم جانب الصمت ، لا أستطيع أن أقوله إلا همساً … فى أذنك ، لأنه سرك وليس سرى … أتأذنين لى بالدنو … وأن آخذ يدك بين يدى … ؟

— قل … بم كنتُ أفكر ؟

— فى نطاق زفافك …

— ولكن … من أنبأكَ بهذا ؟ أكنتُ أتحدث بصوت مرتفع ؟ أأنت إله أيها الراعى فتقرأ من مسافة بعيدة ما يجول فى خواطر العذارى ؟ … لا تنظر إلىّ هكذا … لا تحاول أن تقرأ أفكارى فى هذه اللحظة … !

— كنت تفكرين بنطاق زفافك وبالرجل المجهول الذى سيحل عقدته ببعض من ألفاظه المعسولة العذبة التى تخشينها الآن … تُرى ، أتخلو هذه أيضاً من الخيانة والغدر ؟

— إنى لم أستمع إليها بعد …

— ولكنك تستمعين إلى كلماتى ، وتنظرين إلى عينىّ … !

— لا أريدُ بعد أن أراهما …

— ستريهما فى الحلم …

— أيها الراعى … !

— لماذا ترتعشين عندما آخذ يدك فى يدىّ … ؟ لماذا تنحنين عندما أضمك إلى صدرى … ولم ينحسر رأسك الكاكيل عن كتفى … ؟

— أيها الراعى … !

— أكان فى الإمكان أن أضمك هكذا بين ذراعى وأنت شبه عارية … لو لم أكن زوجاً لك على وجه التقريب ؟

— ولكن لا … لست زوجاً لى … دعنى … دعنى … إنى خائفة … إليك عنى فأنا لا أعرفك . دعنى ، إن يديك تؤذيانى … دعنى … فلست أريدك !

— لم تتحدثين إلى أيها الطفلة بلسان أمك ؟

— لا ليست هى التى تتحدث إليك ، بل أنا التى أتحدث ، إنى عاقلة مفكرة . إليك عنى أيها الراعى فأنا أخجل أن آتى بمثل ما فعلته « نابيس » أو « فيليرا » أو « كاوى » اللواتى لم ينتظرن يوم زفافهن ، بل تعلمن أسرار « آفروديت » وأخذن ينسلن أولادهن فى الخفاء ! .. لا … لا … لن أستسلم ! فى إمكانك أن تمزق قميصى فلن أستسلم إليك أيها الراعى ! سأخنق نفسى بيدى هاتين قبل أن تنال منى مأرباً

— ولِمَ كل ذلك ؟ بل ماذا صنعت ؟ لقد لمست قميصك ولم أمزقه … ولثمت نطاقك دون أن أفك عقدته . ليكن ما تشائين ! سأتركك تذهبين حيث أردت … هيا اذهبى … إذهبى … لم لا تذهبين ؟

— دعنى أبكى

— لعلك تحسبين أن حبى لك قليل ضئيل حتى أسلبك من نفسك ثم أدعك تستسلمين إلى أحزانك ؟ أكنت أتحدث إليك هكذا مطولاً لو أنى لم أكن راغباً منك بغير ساعة من اللذة البهيمية التى تستطيع أية فتاة راعية أن تمنحنى إياها ؟ أما أنبأتك عيناى بما أريد ؟ ولكنك لا تنظرين إليهما أبداً … إنك تحجبين عينيك ، وترسلين عبرتيك

— أجل …

— ولكن … لو شئت لوددت أن أقضى عند قدميك حياة مفعمة بالحب والهوى ، ولغمرتك بألفاظى العذبة الناعمة ، ولكنت طوقتك بذراعى هاتين ، ووضعت رأسى على نهدك ، وفمى على ثغرك ، ولكنت أرسلت شعرك الجميل يداعبنى برفق وحنان ؛ ونحن نتناغى ونتبادل القبل . إصغى إلى قليلاً يا فتاتى ! لو شئت لصنعت لك كوخاً من أغصان خضر مزهرة وأعشاب طرية نضرة ملأى بالجنادب المغردة والجعلان الذهبية التى تشبه الجواهر فى قيمتها ! … فى ذاك المكان تنفردين بى طوال الليالى على فراش أبيض واحد هو معطفى الممدود ، وهناك يخفق قلبانا إلى جانب بعضهما إلى الأبد

— دعني أبكي أيضاً

— بعيداً عني ؟

— بين ذراعيك ... وأمام ناظريك !

— أي حبيبتي ... إن الظلام أخذ ينتشر ، وبدأ الليل يرخي سدوله ، وشرع النور يتوارى في السماء كطائر مجنح[1] لقد أصبحت الأرض بادية الظلمة . لم يعد يُرى من بعد سوى مجرى الجدول الفضي الطويل الذي يتلألأ كأنه نهر كبير من النجوم حول حقلنا ... فياله من نور عظيم !

— بلى إنه لعظيم ... والآن هيا ، تدنى

— تعالى ... إن الغابة التي سندخل الآن بين غصونها المتمايلة التي ستعانقنا جد عميقة ، ولعله يصعب على الآلهة نفسها أن تقطعها في رائعة النهار دون أن تصاب بشيء من الرعشة والخوف . وفي تلك الممرات الضيقة لا ترى آثار حوافر آلهة الغابات المزدوجة[2] متقفية آثار إلاهة الغابات . وكذلك لا تُرى بين الأوراق عيون آلهة الغاب الخضر ، محدقة بأنظار الرجال الفزعة . ولكننا لن نخشى شيئاً ولن نفرق أبداً ما دمنا نحن الإثنين معاً : « أنتِ ... وأنا »

— لا ، لن نخاف . إني أبكي بالرغم عني ، ولكني أحبك وسأذهب معك . إن في قلبي إلهاً ! هيا حدثني ... حدثني كثيراً ... إن صوتك لينطوي على إله أيضاً !

— أرسلي شعرك الجميل حول عنقي ، ولُفّي ذراعك حول نطاقي ، وضمي وجنتيك على وجنتي . إنتبهي واحذري . يوجد هنا حجارة . اخفضي بصرك ... يوجد هنا جذور ... الأرض ندية رطبة ، والعشب ينزلق تحت أقدامنا العارية . غير أني أشعر بحرارة نهدك تحت يدي

— لا تبحث عنه ، إنه ... صغير ، إنه ... فقيّ ، إنه ... غير جميل . في الخريف الماضي لم يكن أكبر منه ولا أنضج من يوم ولادتي . وكثيراً ما كان صديقاتي يسخرن مني بسبب ذلك . لقد بدا نموه في الربيع مع براعم الأزهار . لم يعد في طوق مواصلة المسير

— تعالى ... إننا نمشي في الظلام ... في الدجنة ، لم أعد أرى وجهك . لم نعد نظهر ، لقد لفنا الظلام واحتوانا الليل . تعالى نذهب إلى تلك الدوحة الكبيرة ، أمام أشعة القمر . إن ظلها الكبير ... إنه يمتد إلى حيث نحن . هيا ... تعالى ! ...

— إنها ضخمة ... إنها في حجم قصر !

— قصر زفافك الذي يفتح أبوابه لاستقبالنا نحن الإثنين في جوف هذا الليل المقدس

— إني أسمع ضجيجاً ... إنه حفيف النخيل

— نخيل حفلة الزفاف الصخّاب

— وهذه النجوم ؟

— إنها المشاعل

— وهذه الأصوات ؟

— إنها الآلهة

— أيها الراعي ، لقد دخلت هذا المكان وأنا عذراء مثل « أرتميس » التي يسطع علينا نورها من بعد ... من خلال الأغصان السود ، والتي قد تكون مصغية إلى حديثنا الآن . لست أدري أأحسنت في مجيئي معك إلى هذا المكان ، أم لم أحسن ولكني كنت أحس أن روحاً بين جنبيّ تنبعث وأنا معك ، روحاً قدسية بثها صوتك في أعماق . لقد منحتني السعادة الكاملة إذ منحتني يدك

— أيتها الفتاة ... يا ذات العينين السوداوين ، لم يَسْعَ أبوك ولا أبي إلى لمّ شملنا وتهيئة هذه السعادة لنا ، أمام مذبح مواقدهم وأنا أستبدل ثروتي بثروتك . نحن فقيران فنحن حُرّان إذن . إذا كان أحد قد سعى إلى زواجنا في هذا المساء فارفعي عينيك ، إنهم الأولمبيون حماة الرعاة

— أي زوجي ... ما اسمك ؟

— أركاس ... وما اسمك ؟

— مليتا .

« دمشق » عبد الغني العطري

(١) ذو جناحين

(٢) Satyres يرمزون لهذه الآلهة (بشخص) ذى شعور شعث ، وأذنين طويلتين في الرأس كآذان الحيوانات ، وقرنين صغيرين في الجبهة وساقي تيس ، وتحمل في يدها قصبا أو آلة موسيقية ... الخ (معجم لاروس الطبعة الثلاثون بعد المئتين صفحة ١٦٧٦)

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

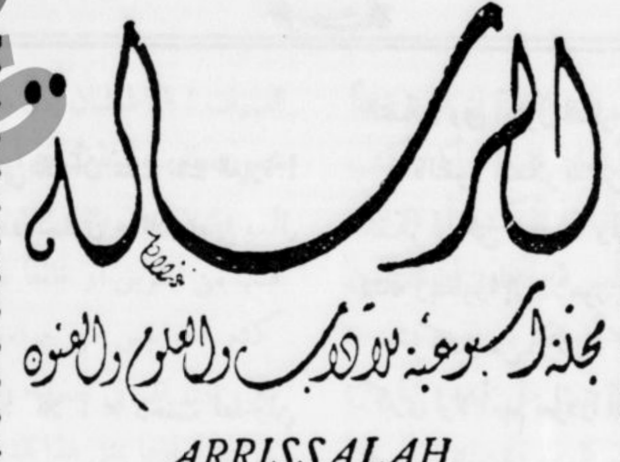


9me Année No. 433

Lundi - 20 - 10 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٣٣ «القاهرة في يوم الاثنين ٢٩ رمضان سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤١» السنة التاسعة

الفهـــــرس

لـــــو !

للأستاذ عباس محمود العقاد

من فكاهات الصحافة الأمريكية التي اطلعت عليها أخيراً قصة موضوعة على ما يظهر ، فحواها أن رجلاً صارماً من المطبوعين على حب الزجر والتنديد لقي في بعض المنازه رجلاً آخر يدخن لفيفة نفيسة ، ويبدو عليه الاستمتاع بتدخينها والارتياح إلى تقليبها بين شفتيه ؛ فاستباح لنفسه أن يخاطبه ، وجرت بينهما المحادثة التالية :

— كم لفيفة من هذا النوع تدخن في كل يوم ؟

— نحو عشر

— وكم ثمن الواحدة منها ؟

— خمسة قروش على التقريب

— يا للعجب ! خمسون قرشاً كل يوم تذهب دخاناً في الهواء ... فكم سنة مضت عليك وأنت تدخن ؟

— ثلاثون سنة !

إن خمسين قرشاً في اليوم تجتمع منها في ثلاثين سنة ثروة عظيمة ... أليس كذلك ؟

— بلى كذلك

— أفلا ترى تلك العمارة الجميلة التي على ركن الطريق ؟

— بلى أراها !

— إنك لو لم تدخن قط لتسنى لك أن تملك تلك العمارة !

قال واضع الفكاهة : وهنا عاد المسئول سائلاً وانثنى يسأل المتندد الزجار :

— هل تدخن ؟

فقال الرجل معاًنفاً مزهواً : كلا ! ما دخنت قط ولن أدخن أبداً

فسأله مرة أخرى : وهل تملك إذن تلك العمارة ؟

قال : كلا ! ...

قال : ولكننى أنا مالكها ... !

* * *

هذه قصة فيها مجال طويل للتأمل واختلاف النظر بين حظوظ الحياة وضروب المتعة فيها

فأى الرجلين على خطأ وأيهما على صواب ؟

إن واضع القصة قد سهل لنا أن نعرف خطأ المتندد الزجار ، لأنه أظهر لنا أن التدخين لم يحل بين الرجل المدخن وبين ملك العمارة التى تساوى تكاليف التدخين فى ثلاثين سنة

ولكننا نفرض أن الرجل لم يكن مالكها ؛ فهل يكون حتماً لزاماً أنه من المخطئين وأن لائمه المتصلف على صواب ؟ ؟

إذا قيل نعم إنه لمن المخطئين لأنه فقد عمارة كان فى وسعه أن يجدها أمامه ، فلماذا لا يقال إن العمارة كانت مفقودة فى السنين الثلاثين ولم يكن موجوداً فى حسه غير لذة التدخين ؟ ؟

نعم إن لذة التدخين لا تجتمع لبنة فوق لبنة ، وطبقة فوق طبقة ، وجداراً إلى جانب جدار ؛ ولكن ألا يوجد الشىء إلا إذا لمسناه لمس الجدران ؟ ألا يكون له أثر إلا إذا صدمنا فى الطريق كما تصدمنا العمارات ؟ ألا يجوز أن لحظات التدخين قد هيأت لصاحبها فرص ارتياح وثمرات حساناً من ثمرات الحياة ؟ ألا يجوز أنها أرضته حيث كان وشيكاً أن يغضب ؟ وأسلست آراءه حيث كانت وشيكة أن تختلط وتتعقد ؟ وشجعته على العمل حيث كان وشيكاً أن يتهاون ويتراجع ؟ ألا نحسب هذه اللحظات فى ثلاثين سنة لأنها لا تقاس بالمتر ولا ترصد بالأرقام ؟ ؟

تلك لعنة النقود المسكوكة ، وذلك مدى تأثيرها فى قواعد التفكير وفى أصول النظر إلى الأشياء

فالنقود المسكوكة من المخترعات التى علمت الناس نمطاً من الفكر لم يكن مطبوعاً ولم يكن من الضرورى أن يفكروا على مثاله وينظروا إلى الأمور بمنظاره لولا اختراع النقود !

وكثير من الأشياء كانت تكون لها فى تقويم الناس قيمة كبرى لولا أنهم تعودوا أن يُقَوِّموا كل شىء بعدد القطع من الذهب والفضة

بل كثير من الأشياء كانت تبطل قيمته الشائعة وكان يبطل الصراع عليه والتناحر حوله لولا اختراع النقد وشيوع التقويم على حسابه

فقلّ أن يعرف الناس اليوم قيمة لشىء لا يتحول إلى كذا من الدنانير وكذا من الدراهم

ومع هذا كم فى الدنيا من قيم غاليات لا تتحول إلى نقد ولا تباع بالنقد ، وليس لها فى سوق النقد حساب ؟

إن لذة التدخين محسوسة ، فالذى ينكرها يسهل على المدخنين أن يعرفوا خطأه أو يعرفوا الناس بخطئه ولو بعض التعريف

ولكن اللذات التى لا يحسها المنكرون كثيرات ، وهى لو أمكن تحويلها إلى ذهب وفضة لملأت الخزائن وأدارت حركة المصارف سنوات

فواحدة من اثنتين : إما أن تتحول ذهباً وفضة لنصونها عن البخس والنكران ، وإما أن نعرف خطأ الحساب الذى يدار على الذهب والفضة فى تقويم قيم الحياة . ويومئذ يربح الناس خيراً كثيراً ويستريحون من عناء كثير ، لأنهم لا يعرضون عن لذات نفسية أو فكرية كل ذنبها أنها لا توزن بالدرهم والمثقال ، ولا يتناحرون على قُنْية هى فى ظاهر الأمر ملك وفى باطنه حرمان

واضع القصة أرانا أن المدخن كان هو مالك العمارة ، وأن التدخين لم يفوّت عليه ملكها ؛ ولكنّ واضع القصة كان يستطيع أن يخطو وراء ذلك خطوة فيقول لنا إن الرجل لم يكن ليملك تلك العمارة لولا تدخينة أو تدخينات زينت له رأياً من الآراء أو صفقة من الصفقات ، فكانت العمارة بعض هذه الثمرات

وأقول هذا ولست أدخن الآن ، ولا أنا مؤمن بضرورة التدخين لمن يفكرون

بل أقول هذا وكنت أدخن أربعين لفيفة فى اليوم زمناً من الأزمان ، فلا أذكر أننى أشعلت لفيفة وأنا أكتب لأستعين بها على الكتابة ، وربما أطفأتها لأكتب أو اقرأ أو أقلب الرأى فى مسألة من المسائل ، فليس من تجاربى أن التدخين والتفكير متلازمان ، وكل ما أعنيه أن السرور الذى يشعر به الدخن ينبغى أن يحسب وإن لم يتمثل فى صورة الحجارة والحجرات ، وهكذا ينبغى أن يحسب كل سرور

كذلك لا دخل هنا للأخلاق والموازين الأدبية فى صواب التقويم والتقدير ؛ فإن صاحب العمارة قد يملكها بمال مكسوب من السحت والربا الفاحش ، ثم لا يقدح ذلك فى قيمة العمارة عند تقويمها بين البائعين والشراة

والسرور الذى يداخل الحس قد يرجع إلى الحرام المحظور فيدان كما يدان الحرام المحظور ، ثم لا ينفى هذا أنه سرور وليس بنعم ولا عذاب

ولهذا يجب أن توضع فى الميزان ثلاثون سنة فى المتعة التى تذهب دخاناً فى الهواء ولا تتحجر كبينات وعمارات فى الطرقات .

والفارق بين هذه وتلك أن العمارة تنقل من مالك إلى مالك ولا ينقل السرور الذى يستمتع به صاحبه أو يشترى منه بمال .

وهذه تفرقة سارية فى عرف السوق ؛ ولكنها ليست بسارية فى عرف الحياة

فسرور الأب بابنه لا ينقل ولا يباع ، ولكنه مع هذا أنفس من نفائس الأموال

وسرور العين بالجمال لا ينقل ولا يباع ، ولكنه مع هذا ثروة تفلس الدنيا بفقدانها أيما إفلاس

ومقياس النفاسة، صمد الاقتصاديون أو هبطوا ، وصاح رجال المال أو سكتوا ، هو فى نهاية الأمر مقدار ما توحيه من شعور .

فالعمارة لا تساوى حفنة من تراب إذا كانت تنتقل من يد إلى يد ولا يصطحب انتقالها بسرور بائع أو سرور شار أو سرور مستأجر

ونفَس واحد من لفيفة واحدة أنفس من جميع العمارات التى لا تترجم شعوراً فى حالة البيع أو حالة الشراء أو حالة الاستئجار ، أو فى حالة النظر إليها إن كان النظر إليها باعث شعور .

أليس الاطمئنان إلى الرزق هو خير ما تقتنى من أجله العمارات ؟ فالاطمئنان إذن هو ثمن العمارة الصحيح ، ولولا أنه شعور مطلوب لما بذلت فى أضخم العمارات أرخص الدريهمات .

ولكن هب مالك العمارة غير مطمئن إلى رزقه ؟ وهبه خائفاً عليها من الحريق أو خائفاً من إفلاس شركات التأمين ؟ وهبه كثير الهواجس من جراء ملكها ومنازعات المنازعين فيها ، فهى إذن فقر فى حسابه وفقر فى حساب كل متقن لما يشعر فى اقتنائه إياها بمثل هذا الشعور

نسى الناس هذه الحقيقة وخسروا بنسيانها ، لأن العملة سكت عقولهم بطابعها فأصبحت القيمة مرهونة بما يباع بكذا من الدراهم أو كذا من الدنانير ، وبطلت القيم النفسية التى هى الأساس وهى المرجع فى تقويم متع الحياة

ولو بقيت لنا رغباتنا وآمالنا كما كانت قبل اختراع النقد واختراع المال على الإجمال لتغير وجه التاريخ وتغيرت هموم النفوس وتغيرت أسباب الحروب والخصومات وأسباب النضال على العروض والمدخرات

ولتقريب هذا المعنى تخيل أن العملة وبديلاتها ستبطل بعد أسبوع فماذا يكون ؟ إنك لتبصر فى هذه الحالة من يعطى بيتاً ليشرب قدحاً من الليمون وليس بنادم ولا معدود من السفهاء

أو تخيل أن كل متعة فى الحياة أصبحت لا تنال إلا بهذه العملة الشائعة فماذا يكون ؟ إنك لتبصر فى هذه الحالة من يعطى تراث الأرض لينعم بشعاع من أشعة الشمس والقمر

أو تخيل أن كل نعمة روحية أو فنية قد أستطيع تحويلها بعد اليوم قروشاً وجنيهات فماذا يكون ؟ إنك لتبصر فى هذه الحالة رجلاً من أصحاب القرائح يشترى دولتين أو ثلاث دول بفكرة خالدة توحى إليه

وسيأتى لا ريب يوم يثوب الناس فيه إلى تفكير طليق من أسر العملة ومن طابع المسكوكات . فيومئذ يعرفون الغنى الصحيح ويرهبون الفقر الصحيح ، لأنهم يبذلون الجهد بمقدار حقه فيدخرون كثيراً من ضائع الجهود فى غير طائل ، ويأخذون حسبما يبذلون ، ثم لا يقومون الأشياء بمقدار صلاحها للانتقال من مالك إلى مالك فى غير جدوى ؟ بل بمقدار صلاحها للبقاء فى الخواطر والأرواح وهى شاعرة بما تستبقيه .

عباس محمود العقاد

١٠ - أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

زال عهد الصمت والجمود — رسالة يبعثها سر الانسان — ضآلة لا تبعث على الاستكانة — لا تتعجلوا النتائج — موارد فياضة معطلة تنتظر الصنعة — السيد هو إنسان الصناعة — بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ — مضى زمن التخريف فى الله وبقى التخريف فى الانسان — برزخ على هوة ! — سر ظهور الدين قبل العلم — أسس خفية لحياة الاجتماع — أباطل أصلح للحياة من الحق ؟ — مم تفجر نبع الضمير ؟ — حيث الأنس بالانسان .

قديماً كان كل شىء فى الطبيعة صامتاً جامداً أيام بدء ظهور الإنسان . فلم يكن يتكلم غيره هو ؛ بل كان هو أيضاً أبكم محبوس اللسان لا يتكلم إلا بمقاطع ساذجة وأصوات وجدانية ؛ وكانت وجوه الطبيعة جامدة مبهمة ، وأبوابها موصدة ...

والآن صارت الأشياء متكلمة محدثة طليقة الوجوه مفضوحة الأسرار . أنطقها الإنسان الذى علمه الله البيان فعلمه هو بدوره إياها وجرد منها حناجر تحدثه وتعيد عليه حديثه لتؤنسه فى رحلته إلى صوب مجهول ... !

ولقد زادت عجائب الكون بانضمام العجائب الإنسانية إلى العجائب الإلهية فى الطبيعة . وكان كفر الإنسان بالله ناشئاً من ذهوله عن بدائع مصنوعاته تعالى ، وكذلك صار الآن كفر الإنسان بنفسه ناشئاً عن ذهوله عن مصنوعاته هو !

ألا إن حمله على الإيمان بنفسه رسالة لا تحتاج إلى رسل يبعثهم سرُّ السماء إلى الأرض ، وإنما تحتاج إلى رسل يبعثهم سر الإنسان ووحى أعماله فى الأرض ...!

وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز : من هنا الطريق ... إلى الحياة والملكوت . إفعل هذا واترك هذا . كن كذا ولا تكن كذا ... حتى أدرك جادة الحياة الكبرى وبانت له تباشير المدنية المنشودة التى كان يحلم بها ويطالبها من الرسل كمعجزات . فأسرع إليها وغمرت حواسه دهشتها وأعاجيبها ، وألهاه ذلك عن التفكير فى نفسه فعاش فى ضجة ما يصنع كما تعيش دودة القز فى الشرنقة ...

وقد خلى الله بينه وبين الحياة بعد أن ترك له وصاياه فى الصحف الأولى ...

قد يقول قائل : ماذا يريد ذلك الإنسان المحدود من ضجته فى الأرض ؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه وجراراته ودباباته وطياراته وبوارجه ؟ إنه ضئيل ، وإن مسرحه ضئيل . فهو شىء صغير على سطح الأرض وهى ذرة سابحة مع ملايين الملايين من النجوم والكواكب . فماذا عساه أن يصنع حتى لو ركب الأرض نفسها وصرّف مقاليد سيرها كما يصرّف مقاليد طياراته وجراراته ؟ أليس للفناء نهايته ونهاية ما يصنع ؟

فأقول لأمثال هذا : رويدكم ... لا تتعجلوا نتائج حياة الإنسان ولا تشكوا فى أنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون بعد أن رأيتم من فعله مالو رآه آباؤكم لماتوا عجباً !

إنكم تشكون فيه لأنه لم تثبت لحياته نتائج دائمة ، وعندكم أن كل أعماله مَلاهٍ وسَلوَيَاتٌ فى شئون خاصة كالشئون الخاصة بأى فصيلة من فصائل الحيوان

كذلك قال الذين لا يعلمون من آبائكم مثل قولكم . إذ لم يروا ميتاً يرجع ومفقوداً يؤوب ... !

ولكن الأمر فى حياة الإنسان وخلوده ليس كما تتوهمون أمراً متعجلاً ، وليس ماضى عمره على الأرض طويلاً . إنه ثمرة لا بد من نضجها فى زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة وأسرار مخبوءة لها صلة وثيقة بالكون الطبيعى نفسه وبالروح الأكبر الذى وراء الطبيعة

وسيرى الذين يذهبون الآن أنهم بعد الموت فى دور انكشاف وظهور ، إذ لا يعقل أن يمضى هذا الخالق الصغير إلى الفناء المطلق ...

ثم أقول : ماذا تريدون أن يفعل إذاً ؟ أتريدونه ينام حالماً يدخن النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب إنسانية الشرق الضيِّعة ؟ أم تريدونه يجلس فارغاً ينتظر الموت وينشد الأشعار ولهو الأحاديث ؟

إن عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التى يستطيع تسخيرها ، وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ويثيرها أيما ثورة ليدخلها فى نطاق الحركة بعد السكون والحياة بعد الركود ... ولا عليه بعد ذلك أنه ضئيل فوق زورق ضئيل يسبح فى عَيْلم كبير ...

فلو نظر الإنسان إلى جبروت الطبيعة وهول السماء لاستصغر جهده على الأرض مهما عظم ولم يفعل فى حياته إلا ضرورات

احتياجاته . وبالطبع هذا يرده ضعيفاً مستضعفاً شقياً فريسة لغيره كما كان ؛ ولكنه إذا آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب ، وأنه على ضؤولة جسده يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسليط قوة طبيعية أخرى عليه . إذاً كان هذا به أولى وعليه أنفع وأجدى ، وكان هـذا أشرف له إذ يجعله قوة من القوى العاملة الجبارة فى الحياة

إن عليه أن يصنع ويتمتع ويتفرج بما يصنع ... وربما يكون هناك عالم آخر يتفرج أيضاً بما يصنع الإنسان ويتمتع به كما نتمتع نحن بنتاج النحل ومنافع كل كائن أقل منا فى الارض إدراكا واحتيالاً ...

إن الطبيعة تنازل فكره وتثيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى ، فالطفل يبحث فى محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته فيراه ويلمسه ويذوقه ويتسمعه ويشمه حتى يحيط بخواصه ويثير كوامنه ويطلقها خيراً من تعطيلها وسجنها

وقد وجدنا كل ما فى الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطاً غير معقد ، فياضاً بكميات كبيرة جداً ، خاضعاً للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع والتنويع ... فدلنا ذلك على أن هذه المواد إنما وضعت هكذا هائلة فياضة انتظاراً لصنعة ستتناولها بهـا يدٌ صَنَاعٌ

وكلما رأيت غزارة ماء الأمطار — وهو أصل الحيـاة — وكثرة المقادير التى تصبها الأنهار فى البحار فتذهب من غير انتفاع إلا بجزء قليل جداً منها . . . قلت : إن هذه الكميات الهائلة إنما أفيضت لا لإخصاب السهول الحافة بها فقط ، والتى تصل إليها مياهها فى سهولة ويسر . . . وإنما أفيضت لإخصاب هذه الأراضى البور من الصحارى والسهوب الظمأى المقيم ...

وكلما رأيت مناجم الأرض تمتلئ بالمعادن والركاز المعطلة وهى ذات النفع العظيم والإمتاع الدائم ، قلت : هنا مواد ظلت الطبيعة تحفظها فى صدرها حتى أتى يوم بعثهـا على يد من عرف أسرار الانتفاع بها فى زمن نمو علوم الآليات والكهرباء

وكلما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير متشبعة بهم... قلت : هذه مساكن احتياطية لأقوام آتين ستلجئهم ضرورات الزحام إلى سكناها وتعميرها وتعديل مهودها وأجوائها وإخصاب بقاعها ...

وكلما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد للطعام والدفء والصناعة ... قلت : هذه قدورٌ هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول لهذا المخلوق ...

فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضى والغابات ظلت تفيض فيوضها بالكيل الواسع ، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينتفع بها أحد انتفاعاً يبرر غزارتها إلى أن أتى عصر تفتح حاجات الإنسان الصناعية والعمرانية بتفتح أسرار الطبيعة لفكره ، فإذا بهذه الموارد التى كان يظن البعض أن فيها إسرافاً وتبذيراً يبدو لعيون العلماء وأرباب الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الإنسان واتساع افتنانه . . .

* * *

هذه الحياة الصناعية البارعة المعقدة كانت هى أعظم الوحيات الآخذات نفسى إلى الإيمان بالإنسان وإلى الكشف عن قوته الابتداعية النامية المنمية . وإن بها تفرده وامتيازه بين الكائنات فى إحداث الأشياء ، وفى تغلبه على غيره من الحيوانات ، بل وفى تغلب بعض أقوامه على بعض . وقد نمت قوته الصناعية نمواً عظيماً حتى بدت فى هذه القوى الساحقة التى يستخدمها الآن فى حربه ...

ولا شك أن إنسان الصناعة هو سيد الأرض . أما إنسان الزراعة فمهما افتن فيها وهندس واجتهد فإن حياته حياة بدائية ، لا تعقد الفكر ولا تترك فى الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة . وقد صارت الزراعة الآن خاضعة إلى حد كبير للصناعة ذات تبعية لها ...

ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التى تشيع بين الزراعيين فى المادة منتقلة إليهم من اعتمادهم بعد بذل جهودهم على مُنزل الغيث وباعث الخصب ... ومن طول معاشرتهم للنعاج الوديعة والبقر المطيعة والأنعام التى تعطى ولا تأخذ ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجتر سعيدة حالمة ...!

وطبيعى أن يتغلب من يدرب أطفاله على ركوب الحيوانات الحديدية وقيادة الوحوش الفولاذية على من يدرب أطفاله على ركوب الحمير والبغال ، وقيادة الأغنام والأبقار ...

وكل ما يحدثه الإنسان فى المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها ، وأخذها من محيط واسع عميق ، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع ، وقوة تعقيد فكرها

وقدرتها على إحداث نسب جديد ، بين العناصر والمواد ... وهذا ما لا وجود له فى الزراعة

ولكى تدرك ما أرمى إليه ، فكرْ فى الحياة الصناعية من المسمار الصغير إلى المصنع الكبير وما بينهما ...

***

يلام الإنسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملأ الدنيا به كما كان يلام فى العصور السالفة على غفلته عما صنع الله فى الطبيعة

ولقد مضى زمن التخريف والضلال فى العقيدة بالله رب الطبيعة ، لأن الحياة لا تحتمل الجهل به تعالى إلى الحد السخيف الذى كانت فيه عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها . ولا تحتمل أن تجرد الطبيعة منه تجريداً كالذى كان من المعطلين منكرى القصد والإرادة والعناية فيها . ولفظت العقول الأديان التى تعتمد على غير العقل فى إثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التى تليها ؛ وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها ، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها ، فيبق عليهم لتكمل عقائدهم فى الحياة أن يتيقظوا دائماً لمنشئها ومدبرها ، ويتقربوا إليه بالفكر فيه وتكريم اسمه كما يتقربون على الأقل لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانباً ضئيلاً ...

ولكن جدَّ تخريف وضلال فى العقيدة بالإنسان بسبب فرض لم يثبت فى نظرية النشوء والترقى ، أطلق حوله كثيراً من الاعتقادات الفاسدة . ومقاومة هذا التخريف الأخير هى أهم رسالات الدين فى هذا العصر .

***

هذا الفرض جعل كثيراً من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم وبين الله صلة محترمة أو عناية . وكأنهم يخجلون من التكريم والإحسان اللذين يقول الدين إن الله يصطنعهما فى معاملة الإنسان

وهم يقولون إن حياة الإنسان بالنسبة لله تعالى حياة تافهة ضئيلة ، وإن بينهما هوة سحيقة لا عبور لها ، وأن الحياة الإنسانية على الأرض لا تقدم ولا تؤخر فى سير الناموس الأعظم الذى ينتظم الكون . فسواء على الله وعلى الكون أن يضل الإنسان أو يهتدى ، أن يعف وأن يشره ... فتلك شئون خاصة به خاضعة لاعتبارات مجتمعه ، وسوف يفنى بأخلاقه وأعماله كما تفنى النمال والنحل ، وكل ما لبسته الحياة من غير رُجعى أو مصير أكل ...

ولكن الواقع أن نجمة الإنسانية وحدها ، وتنير الأرض بها وحدها ، وتعقد الدنيا بها وحدها ، واطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها بها وحدها ، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها ... هى أمور من الحق بحيث تشغلنا عن سواها وعن شبهات ضآلة الإنسان بالنسبة لله ... وهى ذاتها البرزخ الذى نعبر عليه تلك الهوة التى بيننا وبين الله !

فعند ما ينظر ناظر لظاهر مجموع الناس يخيل إليه أنه لا صلة بين قلوبهم وأفكارهم وبين السماء ، وأنهم غير مأبوه لهم من صاحب الوجود ... وحينئذ تنطلق الاعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق وراءها الغرائز الخطرة ، وتوجد « طمأنينة الكفر ! » وينظر الإنسان للانسان على أنه شىء تافه يصح سلبه واستعباده وقتله ...

ولكن عند ما ننظر للحياة الإنسانية من داخل القلب نجد النظر يخلق المنظور خلقاً آخر جليلاً ، ويشعر الناظر بأن عين الله راعية وصية على هذا المخلوق ...

فما أعظم أثر هذا فى طمأنينة النفس حتى لو كان باطلاً ! إنه يرفع آمال النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقها هى . مع أن الهوة بينها وبين الله سحيقة ، إذا استسلم الإنسان للعلم وحده فى عبورها لن يتمكن ! إذ يجد مكانه فى الوجود يكاد يكون لا شىء ... إذ الأرض ذاتها لا شىء بجوار عظمة الكون ، فما بالك بالفرد الضئيل فيها ؟

هذا يجعل للنفس ثقة وإحساساً بالعظمة ، إذ يجد به الإنسان لنفسه مكاناً ملحوظاً فى الوجود حين يجعل علاقته مباشرة بصاحب الوجود ...

ومن العجائب فى ظهور حياة الإنسان وتدرجها ، أن حياة التدين فيها سبقت حياة العلوم ، فبنيت حياة التعزية والثقة على الدين قبل العلم

ولو قد سبق العلمُ الدينَ إذاً لكان موقف الإنسان فى الحياة موقف ابن الطريق الشريد القادر الفاجر ، الذى لم يجد أباً وأماً يأخذ من حنانهما حناناً لنفسه ، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الإخلاص والرحمة والحب ، بل وجد نفسه مدركاً رشيداً ، ذكياً قاسياً ، على قارعة الطريق تدافعه زحمته ، يعرف جرائم الحياة وجفاءها ، وأخلاق الشوارع والأسواق ، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخُوَّة والنبوة ووصايا

الأمومة ؛ فيكون موقفه فيها موقف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة ...

* * *

علام يقوم بناء الحياة الإنسانية ؟

حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو امبراطورية ، فأجد ناسها يعيشون فى تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع ، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها ومصانعها ومعاهدها تقوم فى دقة وموازنة وجمال وأمانة كأنها من الطبيعة الموزونة بيد الله ... أسائل نفسى :

من الذى أقام بناء هذه الحياة الإنسانية فى تلك الأمة أو المجموعة على هذه الأوضاع العظيمة ؟ !

ومن الذى سدد جهاد أفرادها جميعاً نحو غايات مشتركة وأهداف موحدة ؟

ومن الذى أعطاها تلك الروح الاجتماعية التى تسلك فى أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد فى الجسم الواحد ؟

ومن الذى هذب طباعها ورققها وجملها وصقلها وسار بها شوطاً بعيداً من عيشة الوحشية والتأبد ، إلى هذه الإنسية والاجتماع ؟

ومن الذى أقام هذه الأسر والعائلات على التراحم وجمع أطفالها ورجالها على الحب ؟

إنه لا شك سر النبوات التى نبعت من القلوب الكبيرة التى كانت للانسانية فى مهد نشوئها كالأمومة الرحيمة المضحية المربية المسددة

إن هذا لا شك هو الأساس الأول الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية وذهب بناؤها مطرداً فى العلو والسموق

فلئن غابت الآن عن الأنظار القصيرة والأفكار المشلولة ، فكما تغيب أسس الأبنية العظيمة فى باطن الأرض ، لا تُرى ولا يعرفها إلا الناظرون فى الأعماق ...

ولقد مات الرعيل الأول من الآباء والأمهات ، ولكن بقى الأبناء دليلاً متجدداً عليهم ...

* * *

ثم نسأل : أيهما أصلح للحياة ؟ أأن يعتقد الإنسان أن الله به حَفِىّ ، وأن يؤمن بالإنسان فيحتفل لولادته ويقوم لجنازته ويؤثره على نفسه ، ويتواضع له ويحترم دمه وعرضه ، ويعيش فى سجون الأخلاق التى تسمو بالحياة الاجتماعية ، وتقلل الخلاف والشقاق وتنمى الحياة ، وتحيط الإنسان بجو من سكينة العلم ورقة الفن ، وتسخر العلم فى خدمته وتخفيف ويلاته ، وتضع أمامه أهدافاً مرسومة ومثلاً عليا ، وفلسفة يطرد بها الوفاق ؛ وتجعل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الرجال الآباء نماذج وقمماً يتطلع إليها . . . ؟ أم أن ينظر الإنسان إلى الإنسان كما ينظر للنبات والحيوان ... فإذا ولد فكجَحْرٍ أو الكلاب أو سَخْل النعاج ؛ يسخَّر ويُلعب به ، ولا عرض ولا ناموس ولا قيود ، وحياته حياة فنُّها آلىّ وعلمها للتدمير والغلبة ، ومُثُلُها مكيافلية . . . وإذا مات هلك وقذف به إلى ظلمة الأبد من غير رجعة أو ذكرى أو أمل فى مصير أكمل ؟ !

أما والله لو كان دين الإنسانية هذا خداعاً باطلاً ، لكان أعظم أثراً فى صلاح الحياة من ضده ولو كان الحق ! لأنه قانون الحياة الاجتماعية ، فإذا تركه الإنسان كان عليه أن يرتد إلى حياة الغابات ... وقد ارتد بعضه فعلاً الآن ... ولكنه سيعود ...

ولست أدرى : ما هو غرام بعض الناس فى أن يزعموا أنهم كشفوا تيارات واتجاهات فى الحياة تحمل الناس يعطمون الحياة الاجتماعية التى نمت مواريث علومهم وأخلاقهم فى أحضانها ؟

إن كل ما يضر حياة الجماعة ، فهو شر يميت الضمير وينزع منه الإيمان بالخير ويسلم إلى النكسة والارتداد

* * *

على أسوأ الافتراضات فى تفاهة أصل الإنسان وضآلة مكانه فى الوجود ، فتَفجُّرُ نبع الضمير فى قلبه وطواعيتُه تحت تأثيره لا بد أن يكونا بوحى وضغط من عالم أعلى ...

وهذا الروح اللطيف الذى يوجد فى القلب حين الحب ، أو حين مبادلة العلم والفكر ، أو حين تفتح القلوب بالخير ، أو حين النظر للوجود بالعين الصافية الآملة المتفائلة ، أو حين استحضار المعانى الكبيرة : كالمروءة والإيثار والتضحية الصامتة ، أو حين الإيمان العميق الرحب المشع ... هذا الروح هو مكان رصد الإنسان والأُنس به والأمل فيه

فلنرصده من هناك ليكون المنظر جميلاً أخاذاً ، يبعث على التفاؤل والحب والسمو إلى الاكتمال ... اولى من أن نرصده من مكان آخر يبدو منه مطموس الجمال ، مقبوح الخصال ، منحط المكانة ، باعثاً على التشاؤم والبغض والحقد وسوء المآل !

عبد المنعم محمد خلاف

في الطريق إلى الوحدة العربية

للدكتور زكي مبارك

[نص الخطاب الذي أرسله الدكتور زكي مبارك ليلقى في مؤتمر الخريجين بأم درمان]

أخي الأستاذ رئيس مؤتمر الخريجين

إليك وإلى إخواني عندك أقدم أصدق التحيات ، ثم أذكر مع الأسف أن المنهاج الذي رُسِم لحضوري وحضور الأستاذ « الزيات » لزيارة السودان لم يظفر بالتحقيق ، فقد قضى الأستاذ « الزيات » أسابيع بالمنصورة وهو مريض ، ثم منّ الله عليه بالعافية بعد فوات الوقت الذي يسمح بتأهبه لحضور مؤتمركم المرموق . أما أنا فقد صدّتني شواغل لو عرفتموها لأكرمتموني بالصفح الجميل . فلم يبق إلا أن أرسل إليكم هذا البحث ليلقيه الأستاذ « محمد حسنين مخلوف » بالنيابة عني ، أو يلقيه أديب من الخرطوم أو من أم درمان ، وسيُنشَر هذا البحث في « الرسالة » مع أيام المؤتمر ، ليكون تحية جهرية تؤيد بها مصر جهادكم النبيل

فماذا أريد أن يذاع باسمي في ناديكم بأم درمان ؟

أريد أن أتحدث عن العقبات التي تعترض السائر في الطريق إلى الوحدة العربية بلا مواربة ولا تلميح ، لأني أومن بأن عندكم من الفتوّة ما يوجب الخروج على الرموز في مثل هذا الشأن الدقيق ، ولأني أفهم جيداً أنكم من طلائع الجيل الجديد ، ومن الإساءة إليكم أن يرسل إلى ناديكم كلامٌ ملفوف تُعوزه صراحة الصدق وشجاعة الإيمان

ثم أواجه الموضوع فأقول :

كثُر التحدث في هذه الأيام وقبل هذه الأيام عن « الوحدة العربية » وذلك يشهد بأنها كادت تصبح من الغايات القومية في الشرق العربي ... وهل يمكن أن تدور « فكرةٌ » على ألسنة الملايين من العرب ، بدون أن يكون لها في قلوب تلك الملايين مكان ؟

إن هذه الفكرة لم تدُر على الألسنة إلا بعد أن تأصلتْ في القلوب ، فماذا نصنع لوقايتها من العواصف التي تثور من حين إلى حين ؟

نترك السياسة جانباً ، السياسة الدولية ، وننظر إلى هذه الفكرة من الوجهة القومية ، فمصيرُنا بأيدينا ، والله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ، وإذا سلمت ضمائرُنا من الزيغ والانحراف فلن تستطيع أية قوة في الأرض أن تصدنا عما نريد لأنفسنا من السداد والتوفيق

والعقبة الأولى في طريق الوحدة العربية هي عقبة الجنس ، فكثيرٌ من الناس يتوهمون أن الرجل لا يكون عربياً إلا إذا كان من أصلٍ عربيٍّ صميم ؛ وهذا خطأ في خطأ وضلال في ضلال ، فالعربيُّ الحق هو من انطبع على لغة العرب ولو كانت أصوله من المكسيك ، ولا يجوز عندي أن ينتسب إنسانٌ إلى العرب وهو لا يعرف من أسرار لغتهم غير أوهام وظنون ، ولو قدّم الوثائق التي تثبت أنه من سلالة الرسول

العروبة لغة لا جنس . العروبة لغة لا جنس . العروبة لغة لا جنس

ولو شئت لكررت هذه العبارة ألف مرة ، بدون أن أشعر بأنها حديث معاد ؛ لأن روحي يحس كل حرف من حروفها إحساساً قوياً ، ولو كررتها ألوف المرات

وإذن فمن واجبي أن أثور على من يقسم بلادنا إلى أجناس ، وبلادنا هي جميع البلاد التي تتكلم العربية في الأقطار الأفريقية والأسيوية

فجميع أهل مصر والسودان عرب ، وسكان أفريقيا الشمالية عرب ، والفلسطينيون والسوريون واللبنانيون كلهم عرب ، والعراقيون جميعاً عرب ، والهنود الذين يتكلمون لغتنا عرب ، وأهل فارس في أصولهم عرب ، لأنهم نهضوا بلغتنا المحبوبة في أجيال طوال

والأستاذ سلامة موسى عربي ، وإن كان يخاصمني من وقت إلى وقت حول مكانة العرب في التاريخ ، بل هو سليم العروبة إلى أبعد الحدود لأنه يتجنى على العرب بلغة العرب ، وعروبته أصح عندي من عروبة من صح نسبه إلى يعرب وليس له في خدمة اللغة العربية وجود

العروبة لغة لا جنس ، فليفهم هذا دعاة الوحدة العربية ، إن كانوا صادقين

وسيأتي يوم ندعو فيه مواطنينا إلى الاندماج في الكتلة العربية ، وأريد بهم المستشرقين من أبناء الألمان والروس

والفرنسيس والإنجليز والطليان والأسبان ، فأولئك إخواننا حقاً وصدقاً ، وإليهم يرجع الفضل في تشجيع الدراسات العربية ، وإحساسهم بالعروبة أصدق من إحساس العرب الذين غفلوا عن إدراك ماضي أسلافهم في خدمة الأدب الرفيع

العروبة لغة لا جنس ، فليتق الله بعض الناس ، وليعتبروا بحوادث التاريخ . فماذا دوّن التاريخ ؟

دوّن التاريخ أن « أمبراطورية اللغة العربية » تمزقت بسبب الاعتزاز بالجنس ، وهذا الاعتزاز الطائش هو الذي خلق الشعوبية ؛ فبسببه أقسم الفردوسي لينظمن الشهنامة بدون أن يحتاج إلى لفظة عربية ، وبسببه جلا سلطان اللغة العربية عن بلاد كان لها في دماء أبنائها مكان . وبسبب مقالة حمقاء كتبها كاتب أحمق في فضل العرب على الأتراك أقسم أتاتورك ليهجرن الحروف العربية . وبسبب هذا الاعتزاز الطائش عاشت لغات في المغرب والشام والعراق ، لقصد الطائشين من العرب عن القول بأن لغتهم أحسن اللغات ، وبأنها ستكون لغة الناس جميعاً في « دار الخلود » كأن للعرب وحدهم أبناء آدم ، وكأن من عداهم وحوش لبسوا أثواب الرجال ! !

العروبة لغة لا جنس . وهل كان جان جاك روسو فرنسي الأصل ، وبفضل بيانه الساحر نهضت لغة الفرنسيس ؟

العروبة لغة لا جنس . وهل كان أحمد شوقي عربي الأصل وهو من طلائع النهضة الشعرية في الأدب العربي الحديث ؟

العروبة لغة لا جنس . وهل كان وهيب دوس عربيّ الأصل وهو أصدق من عرفت في التغني بأشعار العرب من قدماء ومحدَثين ؟

وهل كان مكرم عبيد عربيّ الأصل وله خطب طوال تذكّر بخطب سحبان ؟

ليتّق الله بعض الناس في ميراث العروبة ، وليحذروا من أن يخربوا بيوتهم بأيديهم ، عن علم لا عن جهل ، وزلة العالم أبشع الزّلات

وما الموجب لأن يكون في الدنيا عربٌ خلّص ؟

لو اقتصر العرب على التزاوج فيما بينهم لبادوا وانقرضوا ، فما انطوت أمةٌ على نفسها إلا استهدفت للفناء

وهل استطاع العرب أن يسيطروا على العالم حيناً من الزمان إلا بسبب التخلص من العُنجُهية الجنسية ؟

إن التحرر من ربقة الجنس هو البَند الأول من وصية الزعيم العربي الأول ، وهو محمد بن عبدالله الذي مكّن العرب من سيطرة عالية لم تخطر لأسلافهم الأقدمين في بال ، وهي سيطرة روحية لن يظفروا بمثلها إلا إن تخلقوا بأخلاق ذلك الزعيم الحصيف

العربيّ الصحيح النسب إلى يعرب قليل الوجود ، وهو حين يوجد لا يكون إلا جمداً هامداً لا نفع فيه ولا غناء ، لأن التزاوج بين الأجناس شريعة طبيعية ، ولا يخرج على تلك الشريعة إلا من كُتب عليهم الأُفول

إن نبيكم صاهر أمماً لا تمت إلى العروبة بجنس ولا دين ، فهل تتوهمون أنكم أهدى منه إلى سواء السبيل ؟

اتقوا الله في أنفسكم وفي ماضيكم ، وتمسّكوا بشمائل ذلك الرسول لتفوزوا كما فاز أسلافكم الماجدون ، واتقوا حاضركم فتناً لا يتعرض لشرها إلا الجهلاء والأغبياء

العروبة لغة لا جنس ، فافهموا هذه الحقيقة يا بني آدم من أهل هذا الجيل

أما العقبة الثانية في طريق الوحدة العربية ، فهي عقبة الدين ؛ فقد توهم قومٌ أن العروبة والإسلام شيء واحد ، وبذلك كثُر ارتيابهم في صحة الأخوّة العربية ، حين يتصل بها ناس من غير المسلمين .

والحق كل الحق أن العروبة والإسلام شيء واحد ، على شرط أن نفهم المراد الصحيح لهذا التعبير المريب

الإسلام هو أصدق أثر صدَر عن العرب ، ولولا الإسلام لبادت لغة العرب منذ أزمان طوال

وإذن ، فمن واجب العرب من غير المسلمين أن ينظروا إلى الإسلام بعين الرفق والعطف لأنه صوتهم وصوت آبائهم وأجدادهم فيما غبر من الأجيال ، وإن لم تأنس آذانهم بذلك الصوت الجميل بفضل تناحر المذاهب والديانات ، وهو تناحر لن يقدر على طمر ذلك الينبوع الفياض

ذلك واجب العرب من غير المسلمين ، فما واجب العرب من المسلمين ؟

واجبهم أن يفهموا أن النصرانية واليهودية ديانتان عربيتان .

وهل نكون أعقل وأحكم من النبي محمد وقد نظر إليهما بعين الإعزاز والتبجيل ، ولم يحارب غير من شوهوا النصرانية واليهودية بالتزوير والتحريف ؟

للاسلام والنصرانية واليهودية مسرح واحد هو بلاد العرب ؛ وهذه الديانات هي سلطاننا الأدبي في الشرق والغرب ؛ وهي حجتنا يوم تُطلب الحجج على تفوق بعض الشعوب على بعض . ولعل هذا هو السبب في أن أكابر المسلمين في العصور الخوالي لم يفتهم أن يدونوا ما في التوراة والإنجيل من حكم وأمثال

إن من المعجزات أن تكون أعظم الديانات المسيطرة على العالم ديانات عربية الأصل ، فمن طاب له أن يغمز إحدى هذه الديانات فهو عربي مدخول ، لأنه لا يعرف أثرها في التنويه بمجد العرب في العالمين

الرأي عندي أن الروحانية العربية تطورت من حال إلى أحوال فانتقلت من الموسوية إلى العيسوية ثم إلى المحمدية . فهي قد تغيرت في الفروع ، مع الاحتفاظ بالأصول . والأصل الأصيل عندنا وعندهم هو التوحيد ، والتثليث الذي أنكره القرآن على النصارى لم يكن إلا صورة حرفية من صور الإغراق الذي أولع به بعض أنصار المسيح ، وهو إغراق ينكره النصارى المستنيرون في هذا الزمان .

إن القرآن يلاطف مخاصميه فيقول : « إنا أو إياكم لعلى هدًى أو في ضلال مُبين »

وعقيدة التثليث لم توجد بعد عدم ، فهي في الأصل عقيدة مصرية ، وعلى ذلك تكون جزءاً من ماضينا ، ونحن لن نتنكر لأجدادنا أبداً وإن قيل في عقائدهم ما قيل

ثم أثب إلى الغرض الذي أرمي إليه فأقول : إن الإسلام يحكم بالكفر الموبق على من يمس شخصية موسى أو عيسى بسوء ؛ فمتى ننتظر أن تكون شخصية محمد شخصية قدسية في البيئات المسيحية والاسرائيلية ؟ متى ؟ متى ؟ ومحمد أوصى أصحابه بأن ينظروا إلى موسى وعيسى بعيون لا ترى غير الجميل

وخلاصة القول أن اختلاف الديانات لن يعوق الأخوة العربية إذا صحت النيات ، لأنه اختلاف أراده صاحب العزة والجبروت ، وله في إيقاظ الحيوية العربية تاريخ أو تواريخ

قد يصير العرب جميعاً إلى دين واحد بعد جيل أو جيلين أو أجيال ، فليكن لهم منذ اليوم أدب واحد هو التآخي الصحيح ؛ فمن المؤكد أن المسلمين لن يسمحوا بهدم كنيسة أو كنيس إن تم لهم الفوز المطلق ، لأن معابد النصارى واليهود عنصر أصيل من عناصر الروحانية العربية ، ومن قال بغير ذلك فهو آثم في حق « الوحدة العربية » وهي فكرة دعا إليها نصارى الشام والعراق قبل أن يدعو إليها المسلمون ، ولذلك أسباب فصلتها قبل اليوم بإسهاب قيل ألف مرة : « إن الدين لله والوطن للجميع » ولو تدبرتم لعرفتم أن الدين لنا أيضاً ، والله لا ينظر إلى الصور ولا إلى الأعمال ، وإنما ينظر إلى القلوب

وخلاصة الخلاصة في تحرير هذه القضية أنه يمكن للرجل أن يكون عربي اللسان والذوق والعصبية ، ولو كان من أعداء الدين ، لأن العروبة لغة وليست بجنس ولا دين ، وإن كان من المفهوم أن القرآن هو سفير اللغة العربية إلى مختلف الشعوب . ومن واجب العربي غير المسلم أن يفرح لصيرورة القرآن في المشرقين ، لأن صيرورته من أقوى الحجج في نصرة القضية العربية .

والقائلون بأن اللغة العربية لغة المسلمين لا يخدمون الإسلام بهذا القول ، وإنما يبعدون عنه أنصاراً أمدته بهم جاذبية اللغة العربية . والشواهد تنطق بأن النصارى من العرب والمستعربين أدوا للاسلام خدمات يعرف أقدارها عقلاء الرجال

في الدنيا معنًى يسمَّى الدبلوماسية السياسية ، فلم لا يكون عندنا دبلوماسية إسلامية كالتي كان عند أسلافنا الأمجاد ، يوم كانت عقولهم تدعوهم إلى تألُّف من يخالفونهم في الدين ؟

* * *

أما العقبة الثالثة في الطريق إلى الوحدة العربية فهي اجترار حوادث التاريخ ، ولتوضيح هذه النقطة أقول :

كان أبناء العرب قد اختلفوا في أشياء مذهبية وسياسية وجنسية ، وهو اختلاف مشؤوم عاد عليهم بالوبال ، وكانت له عواقب في الأقطار المصرية والمغربية والسورية والعراقية ، ونال من قوة العروبة أضعاف ما نالت فوادح الخطوب ؛ فمن واجبنا أن نبالغ في تناسي ذلك الاختلاف إلى أن ننساه ، فإن لم نستطع فلننظر إليه بعين العقل ، ولنفهم أنه اختلاف قضت به ظروف لا يصح أن نحمل جرائرها بحال من الأحوال

كان بين الأقباط والمسلمين في مصر نزاع وقد محته الأُخوّة الوطنية ، فما الموجب لإحياء ذلك النزاع ؟ وكان بين السنة والشيعة في العراق شقاق ، وقد محته الأخوّة القومية ، فكيف يستبيح عاقل إحياء ذلك الشقاق ؟ وكان في البلاد السورية خلاف أثارته النزعات المذهبية ، وقد خمد ذلك الخلاف بفضل الأُخوة العربية ، فكيف يصح لإخواننا هناك أن يوقظوا

ذلك الخلاف ؟ وكان فى الأقطار المغربية قتال أرّثت ناره العصبيات الجنسية ، ثم أخمدته الأخوة الإسلامية ، فكيف يجوز بعث أسباب ذلك القتال ؟

إن من الجرائم المنكرة أن نرى نميق المفسدين يتصايح من وقت إلى وقت بدون أن نقضى عليه بحزم الرجال !

يجب أن نُفهم المفسدين أنهم حبائل الشيطان ، وأننا لا نجهل السر فى حرصهم على إذاعة ما يدّعون من مبادئ وآراء ؛ فهم جماعات من العاجزين عن طلب الرزق من وجهه الصحيح ، ومن كانوا كذلك فن واجبهم نحو بطونهم أن يلبسوا ملابس الدعاة إلى الحق ، والحق منهم بَرَاء !

كل دعوة إلى الفُرقة لها سبب تعرفه أسماء المفسدين ، والرجل الصادق فى الدين والوطنية لا يرضيه أبداً أن يثور بين قومه خلاف يصل إلى تمزيق الأواصر والصلات

ولن نستطيع رفع القواعد من بناء الوحدة العربية إلا إن ضمنّا السلامة من مكايد الذين يؤذيهم أن تزول أسباب الخلاف ، ومن الخلاف تمتلئ بطونهم الخاوية ، قاتَلَهم الله أنّى يؤفَكون !

***

وهنالك عقبة رابعة هى غفلة الصحافة عن رعاية الوحدة العربية ، وفى شرح هذه النقطة أضرب بعض الأمثال :

كاتب مصرى يقول : إن مصر أفضل الأمم العربية

وكاتب سورى يقول : إن المصريين ليسوا بعرب وإنما هم فراعين

وكاتب عراقى يقول : ليس للعروبة وطن غير العراق

فأمثال هؤلاء الكتّاب يجب صلم آذانهم بدون ترفق ، لأنهم دعاة الفُرقة والشتات

وأنا أقبل أن يجرّح المصرىُّ مصر ، ولو بسوء نية ، ولكنى أرفض أن يجرّحها أحد إخوانى فى الشام أو العراق ، ولو بحسن نية ، وكذلك الحال هنالك ، فالسوريون والعراقيون يقول كلٌّ منهم فى بلده ما يشاء ، ولكنه يغضب ويثور حين يُغمز بلده فى جريدة مصرية ، ولو كان الكاتب أصدق أنصار الوحدة العربية وفى هذا المقام أذكر أنى عاديت رجالاً من أهل لبنان لأنهم قالوا فى مصر كلاماً لا يقاس إلى بعض ما أقوله فيها من حين إلى حين

وقد اطلعت وأنا طالب فى السوربون على جريدة لبنانية تشكك العرب فى مركز مصر الأدبى ، فحفظت تلك الجريدة ، ونقلتها مع أمتعتى من باريس إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى بغداد ، وقد مزقت ما مزقت من الجرائد والمجلات لأخفف العبء عن مكتبتى بعض التخفيف ، ثم ظلت تلك الجريدة فى أمان من التمزيق ، لأرد عليها بعنف حين تسمح الظروف

يقع منى هذا الحق ، مع أنى أدّعى لنفسى حرية العقل ، فكيف يكون الحال عند إخوانى فى سائر الأقطار العربية إذا تعرضت بلادهم لكلمة سوء تصل من خارج الحدود الجغرافية ؟

من المؤكد أنى لم أتفرد بهذه النزوة العقلية ، فالعراق يقبل أن تُشتم بلاده فى جريدة عراقية ، ولكنه يرفض أن تُغمز فى جريدة سورية أو مصرية . واللبنانى يجرّح وطنه من وقت إلى وقت ، ولكنه يثور على ذلك التجريح إذا صدر عن جريدة مصرية أو فلسطينية أو عراقية

هذه نقطة حساسة جداً فلنراعها أتم المراعاة فى جميع الظروف ، ولنفهم أن إخواننا فى غير مصر لهم قلوب يؤذيها التحامل ولو بالرمز والإيماء

***

أما العقبة الخامسة فهى انصراف أبناء العرب بعضهم عن بعض ، فى الظروف التى توجب التعاضد والتساند والمواساة ، ولو بالكلام ، وهو لا يكلفنا كثيراً ولا قليلاً من العناء

إن كلمة وجيزة تُكتب فى جريدة مصرية طبًّا لجرح تعانيه إحدى البلاد العربية يقع موقع البلسم الشافى لذلك الجرح ، فما يخلُنا بمثل تلك الكلمة ، وهى أهون ما فى الدنيا من تكاليف ؟

وقد تلطفت المجلات السورية واللبنانية والعراقية فأخرجت أعداداً خاصة فى التنويه بالثقافة المصرية ، فماذا صنعت مجلات مصر فى رد ذلك الجميل ؟ بل ماذا صنعت هذه المجلات فى التنويه بمؤتمر الخريجين فى السودان ، والسودان أخو مصر الشقيق ؟ يجب أن ترفع غشاوة الغفلة عن بعض العيون ، ليصح لمصر أن تقول إنها الدعامة الأساسية للوحدة العربية ، وهى كذلك لو أرادت ، فهل تريد هذه الأخت الظلوم ؟

٢ - كليـــلة ودمنة

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتب الأستاذ عبد السلام هارون مقالات أربعا فى كتاب « كليلة ودمنة » كما نشرتُه . وقد عجلت جواب المقالة الأولى فى العدد ٤٢٦ من (الرسالة) ، ثم بدا لى أن أنتظّر فراغ الأستاذ من بحثه . فلما فرغ شغلتنى شواغل عن البدار إلى الإجابة ، فأرجو أن يقبل الأستاذ الناقد والقراء عذرى فى تأخير الإجابة التى انتظروها

وإجمال الكلام فى المقالات الثلاث أن كلام الأستاذ فيها ضروب، منها ما هو تفسير لكلمة غامضة ،أو توجيه للفظ يبدو فى السياق غريباً ؛ ومنها ماهو إجازة لوجه آخر غير الوجه الذى جرى عليه الكلام فى الكتاب . وهذا الأضرب من التفسير والتوضيح والتجويز يشكر عليها الأستاذ وأوافقه عليها . ومنها بحث فى أساليب ابن المقفع ، وهو موضوع يحتاج إلى مقدمات فى كتاب « كليلة ودمنة » لم تستوف كلها ، وللأستاذ رأيه فيه واجتهاده

وأما الضرب الذى يقتضينى الجواب ، فهو ما أخذه الناقد على كلمات أو جمل جاءت فى الكتاب وعدها غلطاً ، أو ظن غيرها أقرب منها إلى الصواب . وأنا أعرضُ على القراء آرائى فى مآخذ الأستاذ على النسق الذى أجرى عليه الكلام :

٨ — ٢٦١ : ٤ : (إن الملوك وغيرهم جُدُر أن يأتوا الخير إلى أهله) . أخذ الأستاذ على هذه الجملة أن جُدُر جمع جِدار لا جمع جدير قال : « وجمع فعيل صفة على فعُل نادر سمع منه نذير ونذر وجديد وجدد وسديس وسدُس

والجواب أنه يجوز أن يكون الكاتب قد أجرى جدير مجرى نذير وغيره ، والأولى مع هذا أن يتبع الكثير المعروف فيجمع جدير على جدراء

والمأخذ الثانى فى هذه الجملة أن الأستاذ ظن أن يأتوا فى الجملة بمعنى يعطون فقال : « الصواب يؤتون من آتى » . وليس هذا من الصواب فى شىء ، والمراد فى الجملة إتيان الخير بمعنى فعله . ولو غُيِّرت الجملة برأى الأستاذ إلى (يؤتوا الخير إلى أهله) ، لكان فيها مأخذان : الأول تعدية آتى بعلى وهى متعدية بنفسها كما فى القرآن :وآتوا اليتامى أموالهم ـولا تؤتوا السفهاء أموالكم ـ والثانى : أن يعدل بالجملة من أتى الخير بمعنى فعله ، وهو استعمال شائع ، إلى آتى الخير بمعنى أعطاه وهو استعمال غير معروف فى الكلام الفصيح . فعبارة الكتاب صحيحة واضحة لا يكون تغييرها إلا إفساداً لها

الضبط النحوى

عدَّد الأستاذ تحت هذا العنوان مآخذ :

١ — ص ١٨ س ١١ (فيعلم سر نفسه وما يضمر عليه قلبه) : قال وأضمر يضمر بمعنى أخفى يخفى فما يكون المعنى فى أن يخفى قلبَه عليه ؟ الصواب قلبُه بالرفع لأن القلب هو الذى يضمر الأسرار والنوايا : « والجواب أن من اليسير أن يضمن الكاتب « يضمر » معنى يطوى أو يطبق أو نحوه . وتحويل قلبه من المفعولية إلى الفاعلية يجعل معنى الجملة « يخفى

مصر تعمل ولا تتكلم، فهى بالفعل سناد الوحدة العربية، وهى بالفعل حصن العرب الحصين ، فكيف تبخل بكلمة تعلن بها أن أرض مصر ملكٌ ورثه العرب عن الفراعين ؟

يستطيع أى بلد أن يكفر بالعروبة حين يشاء إلا مصر ؛ فما يجوز لها أن تتخلى عن مجد بنته بأيديها فى عصور الظلمات ، حين كانت العروبة من خيالات الأوهام والظنون بعد سقوط بغداد بأيدى المغول

أما بعد فهذه كلمتى إلى مؤتمر الخريجين فى السودان ، وهى كلمة تلخص آرائى فى العقبات التى تعترض طريق الوحدة العربية ، وقد أوردتُها صريحة منزهة عن الرمز والتلميح ، لأنها ستلاقى على فتيان صراح هم شبان السودان ، أعزنى الله بودهم الوثيق

وهل تستطيع هذه الكلمة أن تغفر ذنوبى فى التقصير نحو ذلك القطر الشقيق ؟

ذلك جهد المقل ، وجهد المقل غير قليل ، وسأزور ناديكم بعد أسابيع ، فما يرضى الله أن أعيش بعيداً عن مصادر الوحى فى أعالى النيل

زكى مبارك

عليه قلبُه » فهل يرى الأستاذ أن هذه العبارة أسد من الأولى ؟

٢ — ١٤:٤١ (وشبهت الجرُذين بالليل والنهار، وقرضُهما دأْبهما فى إنفاد الآجال) قال: يصح أن تقرأ وقرضهما دأبهما باستمرار التشبيه الخ. والجواب أنى رجحت الرفع لأن فى النصب إخلالاً بنسق الجملة، بتعدية الفعل (شبهت) بالباء فى المفعولين الأولين «الجرذين بالليل والنهار» وتعديته بغير حرف فى المفعولين الآخرين (وقرضهما دأَبهما) فالاستئناف برفع قرضُهما أرجح

١٢٢ : ٤ (فأعادت ذلك عليه مراراً كلُّ ذلك لا يلتفت إلى قولها) وقال الأستاذ: ولا وجه للرفع هنا؛ والوجه كلَّ ذلك على الظرفية الزمانية ولا يصح أن يكون كل مبتدأ. وذلك لأن الضمير العائد عليها محذوف تقديره (فيه)، والبصريون يمنعون حذف الضمير العائدعلى لفظ كل إذا كان مبتدأ. ولذلك حكموا بشذوذ قراءة ابن عامر (وكلٌّ وعد الله الحسنى)

وليست الظرفية هنا حتما، بل يجوز أن يكون المعنى: كل ذلك القول لا يلتفت إليه، فالإشارة للقول لا للزمان. وقد وضع الكاتب الإسم الظاهر موضع الضمير فقال: (إلى قولها) بدل (إليه) والجملة على الوجهين ليست من الأساليب العربية المختارة

ص ١٧٩ : ٢ (ولم أذكر ما ذكرت ألا أكون أعرف منك الكرم والسعة فى الخلق) قال: الوجه إلا لكونى أعرف منك. وأقول ليس هذا وجهاً. فإن المعنى: لم أذكر ما ذكرت جهلاً بكرمك. فهو اعتذار عن الكلام السابق الذى يشعر بأن النيلم يشك فى كرم القرد. ويؤيد هذا أن بعد هذه الجملة: (ولكن أحببت أن تزورنى فى منزلى) وهو استدراك حسن فى الجملة التى أثبتناها فى الكتاب، وهو إثبات بعد نفى: لم أجهل كرمك ولكنى أحببت، ولا يحسن هذا الاستدراك إذا أجرينا الكلام على الوجه الذى رآه الأستاذ فجعلناه: (ولم أذكر ما ذكرت إلا لكونى أعرف منك الكرم ولكن أحببت الخ) والتأمل فى سياق الكلام يبين أن لا وجه إلا ما جاء فى متن الكتاب

١٩٩ : ٣ (لم تدر أيُّهما تأخذ) قال: والصواب أيَّهما بالنصب. وصدق، فالنصب أقر وأرجح وإن يكن للرفع وجه فما قصدته

فى تحقيق النص

أورد الأستاذ تحت هذا العنوان مآخذ:

ص ٢٦ س ١٠ : (مثل الحراث الذى يثير الأرض ويعمرها ابتغاء الزرع لا العشب). قال: (فما وجه العمارة فى طلب الزرع؟ الصواب يغمرها أى بالماء). وأقول: (إن الزرع ضرب من عمارة الأرض لا ريب). وما أحسب الكاتب إلا حاكي الآية القرآنية: (وأثاروا الأرض وعمروها). ولا يعبَّر عن سقى الأرض بغمرها؛ فكلمة يغمرها بعيدة من سياق الكلام هنا

ص ٣٨ س ٣ : فى الحديث عن الجنين: (منوط قمع سرَّته إلى مرىء بأمعائها). قال الناقد: وهو كلام متهالك مضطرب؛ فما العلاقة بين سرة الجنين وأمعاء الأم؟ إلى أن قال: (أما كلمة مرىء فعجيبة أيضاً). وانتهى إلى أن صواب الجملة: (منوط بجرىّ من سرته إلى صِفاقِ رحمها)

إن كان الأستاذ يريد أن يغلّط الكاتب الذى كتب باب برزويه فليجادله فى التشريح كما يشاء؛ وإن كان يريد أن فى الكتاب تحريفاً لم نهتد إلى صوابه فلست أرى رأيه. عبارة الكتاب: (منوط قمع سرّته إلى مرىء بأمعائها يمص به من طعامها وشرابها وبذلك يعيش ويحيا) وظاهر أن الكاتب يرى أن الجنين يصل بين سرته وأمعاء أمه مرىء أى مجرى للطعام كالمرىء الذى بين حلق الإنسان ومعدته؛ وأنه يتغذى من طعامها بهذه الصلة. فالكلام بيِّن معرب عن مراد الكاتب صواباً أم خطأ. وفى نسخة شيخو (منوط من سرته إلى سرة أمه وسلك السرة يمص من طعامها وشرابها) وفى نسخة طبارة (منوط بمعى من سرته إلى سرة أمه ومن ذلك المعى يمص ويقتبس الطعام) فالفرق بين نسختنا وهاتين النسختين أن سرة الجنين تفضى بهذا المعى أو المرىء إلى سرة الأم أو أمعائها. وعبارة الطعام والشراب تدل على أن الاتصال بواسطة سرة الأم أو بغير واسطتها ينتهى إلى الأمعاء، وهذا الذى تدل عليه عبارة نسختنا. وأما فرض الأستاذ أن أصل العبارة (منوط بمعى من سرته

إلى مراق رحمها) فندع الكلام فى صحته للأطباء . ومهما يكن رأى الأطباء فيه فلن يجيز الأدباء الأمناء على نشر الكتب أن يحولوا نص الكتاب إلى العبارة التى يقترحها الأستاذ مع بعدها عما فى النسخ كلها . ولو أبحت لنفسى التصرف فى متن الكتاب لما تركت به عبارة تقبل اعتراض النقاد

٦١٤ (وأصبح الرضا مجهوداً مفقوداً) يرى الأستاذ أن كلة مجهود محرفة من مجهول ويستشهد النسخ الأخرى، وله الحق؛ فكلمة مجهول أقرب إلى ظن القارئ من كلة مجهود؛ ولكنى لم أستحسن تغيير الكلمة لسببين : الأول أن مجهوداً تفيد معنى فى الجملة غير الذى تفيده كلة مفقوداً ، وأن كلتى مجهول ومفقود تؤولان إلى معنى واحد . والثانى أن الكاتب فى هذا الفصل وصف الأمور المعنوية بأوصاف تجمل القارئ لا يستغرب أن يوصف الرضا بأنه مجهود كما قال : وكأن الغدر أصبح مستيقظاً والوفاء نائماً ، وكأن الكذب أصبح غضاً والصدق قاحلاً ، وكأن الحق ولى عاثراً والإنصاف بائساً الخ

٧٠٤٤ (كالكحل الذى لا يؤخذ منه إلا مثل الغبار) قال صوابه إلا مثل غبار الميل. وأقول لا يكون هذا صواباً لأن الذى يؤخذ من الكحل ليس غباراً ولكنه يشبه الغبار . وإذا قلنا مثل غبار الميل فقد جعلنا ما على الميل غباراً، والغرض أن يشبه بالغبار، ثم جعلنا ما يؤخذ من الكحل مثل غبار الميل وهو غبار الميل نفسه فكلمة مثل لغو . والظاهر أن النسخ الأخرى زادت كلة الميل توضيحاً للعبارة لأن الكحل يؤخذ من المكحلة بالميل . ونسخة شيخو توافق نسختنا . وفى النسخ الأخرى إلا غبار الميل . فالعبارة (مثل غبار الميل) لا توافق العقل ولا النقل

٧٥ ، ١٢ (مثل المكارى كلما ذهب واحد جاء آخر مكانه) قال الأستاذ هى فى الأصل ونسخة شيخو ونسخة بولاق : (مثل البنى كلما ... الخ) ثم أخذ على الناشر تغيير الأصل واشتد فى هذه المؤاخذة .

وأنا قد بينت الأصل فى التعليق ويكون القارئ على بينة مما فعلت ، وأما حكمة التغيير التى سأل عنها الأستاذ فيدركها من تأمل فعرف المشبه فى هذه الجملة وتبين أنه لا يليق أن يجمع بين طرفى التشبيه هذين فى كتاب كهذا الكتاب ينشر فى مثل هذه الأحوال .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

من أخلاقنا !

للأستاذ علي الطنطاوي

أعرف رجلاً أنعم الله عليه بسعة المال ، وفطره على صدق الود وبسط اليد ، فأباح إخوانه ماله ، يغترفون منه اغترافاً ، ويأخذون منه علاً ونهلاً ، قرضاً حسناً لا يطالبون برده ، وهدية لا يسألون المقابلة بمثلها ، وهبة لا يُرتقب منهم عوض عنها ، ولا يسمعون كلمة منّ أو تذكير بها . وفَتَح لهؤلاء (الإخوان) — وما كان أكثرهم — داره ، وأفرد لهم جناحاً فيها لا يدخله أحد من حرمه وأهله ، وأقام عليهم خادماً وطاهياً ، وانقطع فيه لاستقبالهم قادمين بالبشاشة والترحيب ، وإيناسهم مقيمين وخدمتهم ، وتوديعهم راجلين مشيعاً إياهم بالكرامة ، شاكرهم على (تفضلهم) بالزيارة ، سائلهم (التكرم) بالعودة ...

ولبث هذا الرجل على ذلك حتى أضاع ماله كله ، فباع الدار وأثاثها ، وغدا فقيراً يحتاج إلى (الورقة السورية) ، فلا يجد في كل أولئك (الإخوان) من يدفعها إليه ، لا وفاء دين ، ولا مقابل هدية ، ولا عوضاً من هبة ، ولا قرضاً حسناً إلى أيام السعة ، اللهم إلا ربا ، ولا يرضى المرابون أن يقرضوا مفلساً ...

***

ولعلّ الرجل أخطأ حين عمد إلى هذا (الكرم الجاهلي) فأخذ به ، وترك التأدب بأدب القرآن الذي يقول : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً) ؛ والذي جعل المبذرين إخوان الشياطين . ولعله لاقى جزاءه ... فما سقت القصة للحكم عليه ، وإنما قصصتها لأنها ذكرتني بطائفة « من أخلاقنا » ، هي كالداء في جسم الأمة ، لا يجمل بالكتّاب وحملة الأقلام السكوت عنها والرضا بها ، وهم أطباؤها وأساتها ، وعندهم دواؤها

ذكرتني بما نكاد نراه كل يوم من الحوادث وما يكاد يعرف له كل قارئ شبيهاً ومثيلاً ، حين يأتيك الرجل من أصدقائك أو جيرانك متذللاً متواضعاً ، مظهراً للتقى والأمانة ، يسألك أن تقرضه مالاً قد تكون أنت في حاجة إليه في يومك أو غدك ويذكرك الكرم والثواب ؛ وربما استعان عليك بمن لا يرد طلبه عندك فتعطيه ما يريد ، تضعه في كفه خالياً به ، تستحي أن تشهد عليه شاهداً ، أو تأخذ به كتاباً ، مع أن الله أمر بكتابة الدين إلى الأجل المسمى أمر ندب واستحباب ، لا أمر إيجاب وافتراض ، فيأخذه منك ويذهب شاكراً فضلك ، مثنياً عليك ثناء يخجلك ويضايقك ؛ ثم لا تراه بعد ذلك ولا تبصر له وجهاً فتفتش عنه لتسأله رد المال وقد انقضت مدة الدين ، وتجددت حاجتك إليه ، فيروغ منك ، وينأى عنك ... فتطرق بابه ، فيقال لك هو غائب عن الدار ، فتعود إليه في الصباح فيقال هو نائم ، فترجع بعد ساعة فيقال خرج ... فتبتغي إليه الوسائل وتتشفع إليه بالأصدقاء . . . فيلقاك شامخ الأنف مصعّراً خده ، يقول : (يا أخي ، أزعجتنا بهذا الدين ... ما هذا الإلحاح الغريب ؟ أتخاف أن آكله ... !) وينتهرك وأنت تداريه ... ثم إن كان (رجلاً طيباً) دفع إليك الدين ، ولكن قرشاً بعد قرش ، و (ورقة) بعد (ورقة) ، فتريق في استيفاء دينك ماء وجهك ، وتنفق فيه الثمين من وقتك ، ثم لا تنتفع منه بشيء . وإن لم يكن (صاحب ذمة) أكل الدين كله ، وصرخ فيك حينما لقيك : (مالك عندي شيء . اشتك للمحاكم !) ، وهو يعلم أنه لا سند في يدك ، ولا بينة لك عليه . . . وهبك أخذت منه كتاباً بدينك ، أفتصبر على طول المحاكمة ومتابعتها وتأجيلها وتسويفها ، و (رسومها ومصارفها) ... إن ضياع المال أهون من إقامة الدعوى به[1]

ومثل هؤلاء المقترضين (الأفاضل) مستعيرو الكتب ، أولئك الذين تركوا في قلبي غصصاً حلفت بعدها بموثقات الأيمان أني لا أعير أحداً كتاباً . ولم أنج مع ذلك منهم ، ولم يردّ لي

(١) ولو سألتني دليلا لنبأتك أن لأسرتنا قضية في محاكم دمشق مر عليها إلى اليوم ثلاث وثمانون سنة (فقط) ، وانقضى عليها بطنان منا ومن خصومنا ، وربما متنا نحن أبناء البطن الثالث ولم تنته المحاكمة !

إلى الآن كتاب (كشف الظنون) الذى نسيت من استعاره منى منذ إحدى عشرة سنة ...

ولهؤلاء المستعيرين نوادر شهدت منها العجب ، منها أن أستاذاً محترماً فى قومه جاءنى مرة يلتمس إعارته جزءاً من تفسير الخازن من خزانة كتبى ، ليراجع فيه مسألة ويرده إلىّ عاجلاً ، ففعلت ؛ وانتظرت أربع ... أربع سنوات — والله — ثم ذكرته به ؛ فغضب وقال : « لايش العجلة يا أستاذ ، لم أراجع المسألة بعد ... » !

والذى يذكر منهم صاحب الكتاب ويتنازل فيرده إليه ، يرده مخلوع الجلد ، ممزق الأوصال . وأنكى منه المستعير المحقق الدقق الذى يرى فى الكتاب موطناً يحتاج إلى تعليق ، فيكتب التعليقة التى يفتح الله بها عليه على هامش كتابك بالحبر الصينى الذى لا يمحى ولا يكشط ، ويذيّلها باسمه الكريم ! !

وشر من هؤلاء جميعاً الثقيل الذى يتظرف ويتخفف ، فيرى أن من الظرف سرقة الكتب ، فإذا زارك وتركته فى المكتبة وخرجت لتأتيه بالقهوة أو الشاى أخذ كتاباً فدسّه تحت إبطه ، أو وضعه فى جيبه ثم ذهب به وأنت لا تدرى ...

* * *

وربما كان هذا الدين الماطل ، وذلك الذى يأكل الدين وينكره ، والذى يستعير الكتاب ويمسكه ، ربما كانوا عند العامة من أقطاب الوقت وأولياء الله الكبار ؛ ذلك لأن الناس جهلوا حقيقة التقى وبدلوا معناه ، فكان التقى فى صدر الإسلام هو الذى يتقى المحارم والمظالم ما ظهر منها وما بطن ، ولا يدخل جوفه ولا جيبه إلا طيباً حلالاً ، ويفر من مواطن الشبهات ، ولا يطلب المال إلا لإمساك الرمق ونيل القوام . والعيش عيش القناعة والرضا ، ولا يأخذه إلا من حلّه . ولم يكن الرجل ليشهد للرجل بالتقوى إلا إن صحبه فى سفره ، أو عامله فى مال ؛ فصار التقى اليوم من يكبّر عمته ، ويطيل لحيته ، ويوسع كمه ، ولا تفارق يده سبحته ، ولا يقف لسانه عن ذكر ؛ ومن يتوقر ويطيل المكث فى المساجد . وهذا كله حسن لا اعتراض عليه ، غير أن حسنه ينقلب قبحاً أبشع القبح إذا اتخذه صاحبه أحبولة يصطاد بها الدنيا ، كذلك الذى كان وصياً على أيتام ضعاف لا يملكون حيلة ، اغتر أبوهم بلحيته وسبحته فوصى بهم إليه ، فجرعهم كؤوس الذلة والجوع ، ونشأهم فى الأزقة نشأة اللصوص ، وأكل أموالهم وهو يقرأ كل يوم بصوته الجليل : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) ، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأذكار وحلقاتها ، ويجهر بالبكاء إذا سمع الموعظة ... وينكر أشد الإنكار على من يهمل السنن فيشرب بشماله أو يحلق لحيته ، والناس يتبركون بلثم يده .

فكيف السبيل إلى إفهام هؤلاء الناس ما هى حقيقة التقى كيلا يعظموا اللص ويجعلوه ولياً مباركاً ، ولا يغتروا بالصلاح المجانى الذى لا يكلف صاحبه مالاً بل يجمع به المال ، ويعلموا أن الله الذى وضع فى نفوس الشباب شهوة الجسد وضع فى نفوس (هؤلاء) المشايخ (لست أعنى المشايخ كلهم) شهوة المال ، وأنه لا فضل لأحدهما على صاحبه ؛ وأن الشيخ التقى هو الذى لا يقيم المال وزناً ، ولا عبرة بغضه البصر عن النساء واتباعه سبيل العفاف ؛ وأن الشاب الصالح هو الذى لا تغلبه على نفسه تلك الشهوة ولا عبرة ببذله المال ...

* * *

لقد انحدرت أخلاقنا حتى صار الشاب منا حين يخوض خضم الحياة ، ويرى الاختلاف بين ما علموه من الأخلاق فى المدرسة ، وما تواضع عليه الناس فى الحياة ، يقف حائراً مدهوشاً لا يدرى ما يأخذ وما يدع ؛ فلا هو يرتضى لنفسه التفريط فى أخلاقه : صدقه وأمانته وعزة نفسه ، ولا هو يرتضى الحرمان من المتع واللذائذ والمناصب العالية والرتبات الكبيرة يناله جزاء تمسكه بما علّموه من الأخلاق . حدثنى صديق لى أنه انتسب فى شبابه إلى الشرطة ، فجعلوه رئيس مصلحة السير فى بلدة من بلاد الشام ، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة أو أوفى من ذلك ، وكان مقره فى (مخفر) فى ظاهر البلد ، فمر عليه رتل من السيارات فيه حجاج آيبون ، وكان نظام تلك الأيام أن سيارة لا تجتاز على مخفره إلا بوثيقة وإذن ، لا أدرى ما صفتهما فقد نسيت دقائق حديثه ، ولم يكن معهم ذلك (الإذن) فوقفهم ومنعهم من المرور إلا به . (قال) فغاب السائق هنيهة ثم عاد

وفى يده صرة وضعها على مكتبي فيها أربعون ريالاً مجيدياً ، وقال هؤلاء حجاج آيبون يريدون التعجيل بالوصول ... وهذه الصرة ثمن (فنجان قهوة) رجاء السماح لهم الخ ... فلما سمعت ذلك قف شعرى وصحت به : أتريد أن ترشونى يا كذا وكذا ، وأمرت به فوقف ، واستلمت الهاتف (التلفون) أهتف بمدير الشرطة أرفع إليه الأمر وأنا أرى أنه سينزل به أشد الجزاء ، فإذا به يأمر بإطلاقه ، ويأذن للسيارات بأن تسافر على خلاف النظام ، وأن يبعث إليه بالمال ليجرى التحقيق . (قال صديق) وذهب المال ولم يعد ، وتركت العمل . ولو أنى بقيت لطرحت عن عاتقى ثقل الأخلاق التى تجعلنى غريباً بين زملائى ، وتحرمنى الغنى ، وتكسبنى غضب الرؤساء فلا يصيبنى ترفيع ، ولا يصل إلى خير . وليست هذه القصة فريدة فى بابها ، ولا هى نادرة من النوادر ، بل هى قصة كل يوم ، وهى الداء الذى يزداد ويسيطر والأساة عنه غافلون . وأين أساته وأهل السياسة مشغولون بالقتال على كراسى الحكم ، هى الدنيا لهم وهى الأخرى ، وأهل الأدب بين نائم يستمتع بشهى الأحلام ، ومستيقظ قد ألهاه هواه ، فهو يملأ الدنيا بكاء ونحيباً لأن صاحبته أمهرته بعد النجوم ولم تأته .. أو أنها قد وعدته بقبلة ثم وجدت أجمل منه أو أفسق فأعطته إياها . وأهل العلم يعيش أكثرهم على هامش الحياة لا هم له إلا مرتبه يقبضه من (دائرة الأوقاف) فى مطلع كل شهر ، ثم لا تراه ولا يراه أحد إلى الشهر الذى بعده ، أو (حاشية) يقرؤها ويعيدها على من حضر مجلسه ، قراءة تبرك لا قراءة تحقيق ، فلا يرجح ولا ينتقد ولا يقابل قانوناً على قاعدة فقهية ، ولا ينظر فى مشكلة من مشاكل العصر ليرى حكمها . ومن اشتغل منهم بالمسائل العامة أخذ نفسه بالاهتمام بأمر لا يقدم فى الدين ولا يؤخر ، ولا يتوقف عليه إيمان ولا كفر . والشباب الناشئون لجهلهم حقائق الإسلام ، وبعد ما بينهم وبين المشايخ ، وقصر أيديهم وأفهامهم عن نيل الكتب (ذات الشروح والحواشى) قد زهدوا فى كل ما هو شرقى واستهانوا به ، وعظموا ما يقابله من كل حماقة دعيت مذهباً اجتماعياً ، وكل سفسطة سميت فلسفة ، وكل كفر بالدين والعرض دعى أدباً ، وأعانهم على ذلك أن أكثر المدرسين من الدين لم يقدر لهم فهم علوم الإسلام والغوص على كنوز كتبه . ولست أطلق القول وأجنح إلى التعميم ، فإن فى كل فئة من هؤلاء الطيبين المصلحين ، ولكن الكثرة على نحو ما ذكرت . فمن أين يرجى إصلاح أخلاقنا وأوضاعنا ؟

ومن أين يرجى لأخلاقنا صلاح ، ولم نتفق بعد على (الأخلاق) التى ينبغى أن نتخلق بها ، فمنا من يرى المثل الأعلى فى أخلاق الجاهلية : كرم إلى حد التبذير ، وشجاعة إلى حد التهور ، كصاحبنا الذى استهلت بحديثه هذا المقال ، وعامة طائفة (الزكرت) فى الشام ، (وهى أشبه بالفتوة فى مصر) وأكثر البدو . ومنا من يميل إلى التخلق بأخلاق أجدادنا فى القرن الماضى على ما كانت عليه بلا زيادة عليها ولا نقصان منها ، ومن يخالفهم مخالفة الضد للضد فيرى أن نقتبس الأخلاق الغربية برمتها . وينتسب بهؤلاء الرأى فيميل كل إلى الأمة التى تعلم فى مدارسها أو رحل إلى أرضها ؛ ومن يرى اقتباس الجيد النافع من كل أمة من غير أن يحدد أو يبين . ولا دواء لهذه الفوضى فى رأيى ، ولا صلاح لأخلاقنا ، إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح الذى جاء به سيدنا وسيد العالم محمد صلى الله عليه وسلم ، لا الإسلام الذى يفهمه الحشويون والمتاجرون بالدين ، ولا الذى تفهمه العامة . فإذا فعلنا فثمة كل خير ، ولا يكون ذلك إلا إذا شمر العلماء وحققوا المسائل ، ودرسوا المشكلات ، وألقوا عن المصنفين الأولين رداء التقديس ، واستمدوا الأحكام من مواردها ثم ترجموا هذه الكتب القديمة إلى لغة العصر ، فأين من ينتدب نفسه لذلك ؟

على الطنطاوى

الصحافة والدولة

للأستاذ زين العابدين جمعة

المحامي

« هنري ويكهام استيد الذي نترجم له هذا الفصل من كتابه (الصحافة) صحافي ثبت وكاتب علم . درس دراسة واسعة وخبر الصحافة خبرة طويلة ناجحة ؛ إلى أن كان مراسلا لصحيفة التيمس في برلين وروما وفينا ، وأن انتهى إلى رياسة تحرير هذه الصحيفة . والرجل مفكر عبقري لا يتهيب أن يرتجل رأيه ويصارح الناس به . وقد تناول الصحافة الحاضرة في كتابه من مختلف نواحيها ؛ وكان من سياق تحقيقه العلمي والعملي أن أفاض فيما للصحافة من أثر حاسم فيما ينعم به الناس من حرية القول وحرية الرأي وحرية العمل ، وما صار يتهددها على يد الحكام المستبدين . » زين العابدين

عقب أن تولى هتلر زمام الحكم في ألمانيا بأشهر قلائل سألني النصح صحافي ألماني فيما يكابده من أمر ضرورة ملحة . ولقد عرفته رجلا طيب الخلق نقي الصفحة ؛ قضى السنين الطوال وهو يخدم إحدى الصحف اليومية الألمانية المهيبة الجانب لما امتازت به من نباهة الشأن واستقلال الرأي . وكان آنئذ قد تلقى بلاغاً ينبئه أن مركزه ، وبالتالي أرزاقه ، قد صار معلقاً بما يظهر من استعداده لإبرام ذلك الميثاق الذي « ينظمه » في سلك الاشتراكية الوطنية أو جماعة النازي التي لا يرى رأيها ولا يذهب مذهبها

لقد شق عليه الأمر ومرت برأسه خواطر متشعبة : أيبرم الميثاق فيضيع على نفسه ما تنعم به من كرامة الذات واستقلال الرأي ، أو يأبى عليهم التوقيع فلا يبقى له شيء يعيش عليه إلا ما يعتز به من احترام النفس واحترام النفس وحده . ثم أخذ يسألني عما يجمل به أن يختاره من مصير

والحق أنه لم يشق على النصح مثلما شق على من أمره . فهل كان يسعني أن أقول له : « لا توقع ، وسأرى أنه ما من ضير يصيبك أو ينتظرك في هذا السبيل ؟ » . نعم لقد كان مثل هذا القول سهلاً ميسوراً ؛ ولكن يا لما عندي من شجاعة رخيصة أن أقول لرجل كن مقداماً جريئاً فأحمله على أن يجازف بمقومات حياته وأسباب عيشه من غير أن أهيئ لغيرها السبيل !! والحق أني كابدت من أمر « قضيته الوجدانية » نصيباً لا يقل عما يكابده فيها من نصيب

ولعله كان بسبب ما يعوزني من شجاعة أدبية أن حاولت إعفاء نفسي من نصحه . وبدلاً من أن أتقدم برأي سألت سائلي أن يخبرني عن حقيقة مشاعره ، ثم ناقشت معه جميع الفروض والاحتمالات المرتبطة بالقبول أو المترتبة على الرفض . وإذ علمت من أمره أنه قد عقد النية على ألا يبرم الميثاق وأجمع رأيه على أن يحمل لهم حياته في كفه تاركا للمقادير أن تفعل به ما تشاء ، فقد رأيت أن ألبس في تفنيد حججه ثوب الدفاع . وعرضت له القضية من ناحية أخرى هي ما يصيب الشعب الألماني من ضرر إذا ما اجتثت من تربة الصحافة الحرة جميع الدوحات المباركة ، وحرمت الصحافة الألمانية من رجالها الأمناء النابهين . فاستحال عليهم في المستقبل القريب أو البعيد ترقب النهزة واغتنام الفرصة لمعاودة الجهاد وإصلاح المعوج وتقويم السبيل . والحق أني ما حاولت أن أحمله على العبث بوجدانياته إلا لأرفه عن نفسه عبء ما يشق عليها من مسئولية أدبية لما يتهدده وينتظره إذا لم يلب الدعوة ويبرم الميثاق . وكان أكبر همي أن أنقذه من نفسه فلا أدعه في ثورته النبيلة وغضبته العادلة يقرر لنفسه مصيراً عساه يلومها عليه فيما بعد

لقد عقد النية على التضحية بمادته والاحتفاظ بمثله ؛ وكانت له الخيرة بين القبول المذل والرفض المفقر . فآثر الرفض على القبول ، وتأبى عليهم في عزة وأنفة إبرام العهد ، وكان قدراً مقدوراً أن فقد مركزه وضاعت أرزاقه . ومنذ ذلك الحين أخذ يضرب في الأرض هائماً على وجهه لا يلوي على شيء إلا ما عساه أن يظفر منه بمرتزق جديد ، فلا يصيب من ملتمسه إلا ما يتبلغ به

ولقد قدر لي لعهد غير بعيد أن أجتمع به ثانية في قطر أجنبي حيث كان يبحث عن مرتزق ثابت وعيش مأمون . ويا له من شأن لا أقضي من نوله العجب أن أراه وما تبدر لي منه بادرة آنس منها أنه ارتاب يوماً في عدالة منهجه أو أنه أصبح في شك من صواب رأيه فاتهم نفسه في صدق اختياره

يالها من أمنية طيبة أن أراه في مستقبل العمر وقد اعتذر له الدهر عن خطيئته ووافاه الزمن بجزائه العادل ؟

إن منهج هذا الصحفي الحر ومنهج غيره من الصحفيين الذين لا يقلون عنه تضحية ولا إقداماً لما يجمل سلوك هؤلاء الصحفيين ، من غير جماعة النازي ، الذين استكانوا وأبرموا الميثاق على كره منهم ومنهجاً مهيناً قدراً . ألم يصبحوا مجرد أداة لا وزن لها ولا تقدير لمجهوداتها ؟ ألم يمسوا مجرد أبواق للدعاية التي هي من صميم كيان الحكومة النازية الاستبدادية ؟ ألم يقتصر أمرهم في التحرير على أن يستخدموا ما توفر لهم من كتابة وما تهيأ لهم من مواهب في تنظيم ما يتلقونه من الدكتور « جيبلز » أو « قلم المخابرات السرية » من موضوعات يؤمرون بكتابتها ويجبرون على إذاعتها ؟ ألم يهبوا لهم طابعاً رسمياً من ثياب عسكرية ليكون ذلك شاهداً على استرقاقهم وآية على عبوديتهم ؟ أيظل هؤلاء صحفيين بما تحمله كلمة الصحافة من معنى ، أم صاروا وقد جمدت قريحتهم وسقم وجدانهم تبعاً مستضعفين وعبدة مستعبدين ؟

إن الجواب على ذلك مدرج في مسائل أخرى أبعد مدى وهدياً إذا كانت الصحافة المقيدة المستعبدة تعتبر صحافة أصلاً بما تحمله كلمة الصحافة من معنى ، وإذا كانت الأمم الاستبدادية تفسح للصحافيين في ميادينها مكانة كتلك المكانة التي يعرفها الناس لها في الأمم الحرة

إن « الصحافة » الألمانية أداة حكومية خصت بأن تلعب الدور المنوط بها وفقاً للأسلوب النازي وتبعاً لوجهة النظر النازية في طبيعة الأمور ، وأولئك الذين يمنون بحرية الصحافة البريطانية كمظهر من مظاهر الحرية السياسية البريطانية على العموم يجب أن يفهموا ماهية هذه الأداة وعلاقتها بالنظام النازي

فلقد عرف الهر « ولهلم والدكرش » وجهة نظر النازي في الصحافة بأسلوب واضح يدعو إلى الإعجاب في مؤلف ألماني عنوانه : « واجب الصحافة السياسي » قائلاً : « إن جماع ما يمكننا أن نفهمه من واجب الصحافة السياسي هو أن نسلم تسليماً مطلقاً وأن نعترف اعترافاً قاطعاً لا يحده وصف ولا يقيده شرط بما « للزعامة » من شأن في الدولة وبما هو لزام عليها من تأييد الزعيم في رواج خططه تأييداً طليقاً من أي قيد أو تحفظ .

وإن للصحافة بأوسع ما ينطوي عليه عملها السياسي من دلالة ، مباحة لأن تكون من الاستسلام والخضوع بحال يتيسر معها أن تتضافر جهود الصحف الألمانية جميعاً على تدعيم أسلوب التجديد الناضج في الحياة السياسية . وبوسع الصحافة الألمانية بما تؤديه أو تخفق في تأديته أن تؤثر تأثيراً فعالاً ذاهباً إلى أبعد مدى في كيان الحكومة الألمانية . وهنا مهبط الاهتمام في إدراك ماهية العمل السياسي للصحف . ولقد كان من بواعث الغبطة وحسن التوفيق أن اختفت اختفاء تاماً من ميدان حياتنا الاجتماعية تلك الأغراض المتشعبة والمقاصد الملتوية والغايات المتنوعة ، كما اختفت أيضاً الصحف التي لم يكن يعنيها إلا أن تخدم المقاصد والأغراض الحزبية من غير أن تلق بالاً لما انطوى عليه العنصر الألماني « من المزايا الجنسية والقيم المعنوية » . ولقد أصبحنا الآن ونحن لا نسمح لأية صحيفة أن تجمل لها سياسة خاصة بها ، أو أن تدلى من وجهات النظر والآراء ما من شأنه أن يعرقل سبيل القيادة في الدولة . وقديماً تهيأ للنقد ميدان واسع الأرجاء بعيد المدى ، وكان بوسع الناقدين أن يجرى في خاطرهم أنهم يخدمون المصلحة العامة ؛ إلا أن الرقباء الغيورين قد رأوا بثاقب فكرهم في ذلك الزمن بعينه ما يلازم أمثال تلك الآراء من الزيف والخديعة ، وما يجب أن ننتهي إليه من إفساد وضلال . لقد أصبحنا اليوم ونحن نفهم فهماً تاماً أن العهد الجديد بحاجة إلى رأس جديد ، وأن الحكومة قد وطدت العزم على أن تحتفظ في يدها بقيادة الدولة ، وعلى الصحف أن تدرك مقتضيات هذا الشأن فتستعمل بكل الوسائل على تأييد خطط الحكومة

ولقد جهد الهر « ولدكرش » أن يؤثر في نفوس مواطنيه وأن يلبس آراءه ثوباً جذاباً فعالاً فاقتبس لها عبارات متنوعة من كلام الزعيم بحروفها ، وهي عبارات تلح في أن الثورة لا يسعها أن تنجح ما لم يتهيأ لها أن تطبع بطابعها الشعب بأسره ؛ فإن لزاماً على الدولة النازية أن تنشئ نشأ جديداً . وإن رسالة الصحافة هي أن تطبعهم بالطابع الحقيقي » أو بعبارة هتلر : « إن الصحافة هي الوسيلة إلى تهيئة المجموع لأن يربى نفسه وأن يتثقف على ضوء ما يراه ويختطه الزعيم الذي يقود الدولة » ولقد أدلى بهذه الآراء الدكتور « جيبلز » الذي اقتبس عنه الهر « ولدكرش »

مؤيداً نظره ومستصوباً رأيه . فصرح بأن ما يسمح به من رخص للكتابة مقيد بذلك الالتزام الماثل في أن تكون وقفاً على خدمة الدولة

والذي يخلص من أمر هذه الحقائق ومن سائر الحقائق الأخرى الملموسة هو أن جماع ما يتصور للصحافة من حرية ، بل وما يظن للفرد نفسه من حرية، قد حذف من منحى السياسة الألمانية ؛ فلم تعد الصحافة الألمانية قادرة أن تكون عنصراً من عناصر التعبير عن « الرأي العام » ، إذ فرضوا عليها أن تطبع في رءوس الجمهور ما جرى به قضاء زعيم الدولة أن يكون موضع التفكير العام . وكم يحتاج الأمر في بريطانيا — وفي البلاد الأخرى التي لا زالت الصحافة فيها تنعم من حريتها بمثل ما تنعم به في انجلترا — من جهود عقلية للاحاطة بكامل ما انطوت عليه تلك الثورة من معنى ، ولإدراك أن ما للصحافة المستعبدة « المتماثلة في الدرجة والأسلوب » من قوة ، لأكثر مثولاً فيما تكف عن قوله أو لا تجترئ على نشره منه فيما يتسنى لها نشره أو يطيب لها إثباته وإبرامه

ولو أن الأمور المؤكدة قد تصبح موضع ريبة ومبعث شك إذا لم تؤيدها الحقائق الماثلة في طبيعة الأشياء أو ينهض الدليل بحجتها ، إلا أن ما صادف الحقائق التي لها أثرها في تهيئة عقول الأفراد وتكوين آرائهم من ضياع أو تشويه ، قد صيغ بأسلوب ماكر قوي ، من شأنه أن يعطل النقد وأن يحول دون نمو الآراء المعارضة

وبهذه الطريقة امتدت عملية « الأسلوب الواحد » الإجبارية — التي خضعت لها الصحف الألمانية منذ عام ١٩٣٣ — إلى الشعب بأمره ، وكان ذلك من طريق تشويه الصحف للحقائق كما كان ذلك من طريق ما طبعته في رءوس قرائها في أوامر الزعيم ونواهيه

ولقد صار من مقتضيات التعامل مع ألمانيا — كما هو الحال مع الأمم الأخرى المحكومة حكماً استبدادياً — أن أصبح رجال السياسة والصحافة في الأمم الحرة يواجهون في الشؤون الدولية حالة لم يسبق لها مثيل ، فقد تغير بين الدول مقياس الصلات السياسية والعقلية ، ولم يعد هناك تكافؤ في تبادل الآراء العامة بين الأمم المحكومة حكماً استبدادياً والأمم التي لا زال الرأي فيها حراً ؛ ولم يعد هنالك أيضاً من شكوى ترفع أمام قضاء الشعب من نظام حكومته الاستبدادية

والأمر على النقيض من ذلك في الأمم الحرة ؛ إذ بوسع صحافة الحكومات الاستبدادية ووكالاتها الأخرى الخاصة بالدعاية والنشر — بل وكثيراً ما وسعها كما أيدتها التجارب — أن تتقدم بشكواها إلى الرأي العام في الأمم الحرة ، وأن تكون هذه الشكوى أحياناً ضد نظام ومصالح هذه الأمم الحرة ؛ إلا أن هذه المعاملة الكريمة لا يسمع لها صدى في الأمم المحكومة حكماً استبدادياً ، حيث لا تكافؤ في المعاملة ولا تعادل بين ما يعطى وما يؤخذ ، ولا ترقب للاقتناع والقبول بالدليل القاطع أو البرهان الدافع ما دامت الحكومة وحدها في الأمم الاستبدادية هي صاحبة الكلمة العليا والقضاء المبرم ، وما دام الشعب قد قدر له أن يجهل كل شيء من شأنه أن يهيئه لأن يتأبى على زعيم قبول سياسته — والواقع أن الفاشية في إيطاليا والشيوعية في روسيا السوفياتية ، بل وحتى القيصرية في روسيا القيصرية ، كل أولئك يعتبر موطناً للحرية إذا ما قورن بالنازية في ألمانيا . فلم تكن الرقابة التي فرضها قيصر الروس على الصحافة ، ولم تكن الرقابة التي بسطتها عليها « البيروقراطية » الباطشة القوية ، أو الإدارة السرية ، لتبلغ من التوفيق والنجاح ما بلغته النازية من إسكات سنة الصحف الكبرى، وهذا النظام الاستبدادي الذي يفرض على الشعب بأمره ما تبدعه الدولة وتصبو إليه من النظر والرأي يعتبر حدثاً جديداً وأمراً ثورياً وطابعاً مشؤوماً وقالباً معكوساً في العالم الجديد

(الكلام بقية)

زين العابدين جمعة
المحامي

١٠ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثاني

يلاحظ في مصر أن القليل من المال يكفي لإعالة ذرية كثيرة[1] وأسرة كبيرة. ومهما يكن تدليل الأطفال والولوع بهم عظيما، فهؤلاء يكنون ويظهرون لأبويهم احتراماً عميقاً خليقا بالمدح. ويعتبر المسلمون العقوق من أعظم الخطايا. وهم يضمونه لجسامته مع الكبائر الست الأخرى، وهي الشرك بالله وقتل النفس وقذف المحصنات بالزنا وأكل أموال اليتامى والربا الفاحش والتخلف عن جهاد العدو. وقلما ترى في مصر أو في العرب من لا يطيع والديه. ويصطبح الطفل، في الطبقات الوسطى والعليا، بتقبيل يد أبيه، ثم يقف أمامه باحترام وخشوع حتى يصدر إليه أمراً أو يسمح له بالانصراف. ولكن العادة جرت أن يقبل الأب ابنه ويلاطفه. ولا يقل احترام الطفل لأمه عنه لأبيه، وكذلك احترام أفراد العائلة الآخرين بمقتضى سنهم وقرابتهم ومراكزهم. ومن هنا تنشأ في الطفل السهولة واللباقة في تصرفاته خارج الحريم، كما تنشأ فيه الطاعة والولاء اللذان كثيراً ما يعدان، من غير حق، نتيجة الحكم الاستبدادي في الشرق[2]. ويندر أن يجلس الأبناء أو يأكلوا أو يدخنوا في حضرة الأب إلا إذا سمح لهم بذلك. وكثيراً ما يقومون أيضاً على خدمته وخدمة ضيوفه عند تناول الطعام وفي المناسبات الأخرى. ويظل الأبناء كذلك حتى بعد أن يصبحوا رجالاً. وقد دعيت مرة في شهر رمضان إلى الإفطار على مائدة تاجر مصري أعدت أمام داره. وكان يدعو كل شخص يمر بالقرب منا، مهما كان فقيراً، إلى مشاركتنا الطعام. ومع ذلك كان يقوم على خدمتنا اثنان من أولاده أكبرهما يبلغ الأربعين. وقد لاحظت أنهما لم يتناولا بالرغم من صيامهما طول اليوم غير جرعة ماء؛ فرجوت الأب أن يسمح لهما بالإفطار معنا، فأجاب رجائي في الحال؛ ولكنهما رفضا. وتتمتع الأم بأكبر قسط من عطف أطفالها ولكنها لا تتمتع مثل الأب بأكبر قسط من الاحترام. وقد رأيت خدماً كثيرين يعطون أمهاتهم ما يدخرون من أجرهم، وقلما كنت أرى من يدخر شيئاً لأبيه

ويلاحظ أن الأطفال المصريين، ما عدا أطفال الأغنياء، يظلون دائماً قذرى الشكل ممزقي الثياب، مع أنهم في محل الرغبة وموضع التفكير. وقد يشمئز الأجانب من رؤيتهم، ويسرعون في الحكم على المصريين بأنهم شعب قذر دون أن يبحثوا عن سبب آخر لذلك. ومن الملاحظ أيضاً أن أكثر الأطفال تدليلاً وعناية، أقذرهم جسما وأحقرهم ثياباً. وليس من الغريب أن ترى السيدات الجميلات في شوارع القاهرة متئدات في مشيتهن، معطرات الجو بعطر المسك، مراعيات في زينتهن الكاملة دقة النظافة ومنتهى الرقة، مستنيات بكحل عيونهن، مخضبات الأصابع، بينما يرافقهن طفل قد يكون الوحيد، وهو ملطخ الوجه ملوث الثياب. ومن الأشياء التي أثارت عجبي عند قدومي إلى هذا البلد مناظر من هذا القبيل؛ وقد لفتت نظري لغرابتها وتناقضها، فأخبرتُ أن الأم الحانية على أطفالها تهمل هندامهم فتتركهم بلا نظافة، وتلبسهم أحقر الملابس عمداً، وعلى الأخص عند ما يرافقونها في الخارج خوفاً من شر العين. ويخشى من الحسد بصفة خاصة على الأطفال لأنهم يعتبرون نعمة عظيمة ويشتهيها الجميع. ويرجع للسبب نفسه حجز الأطفال في الحريم طويلاً؛ حتى أن البعض يلبسن الذكور من أطفالهن ملابس الإناث لأن البنت أقل تعرضاً للحسد. وأطفال الفقراء ما زالت هيئتهم بعد أكثر إهمالاً. فهم فضلاً عن قلة ملابسهم وحقارتها أو تمام عريهم قذرون إلى أقصى حد. تغشى عيونهم الأدران والذباب دون أن يكترثوا لذلك. ويعتبر المصريون أن

---

(١) وقد ذكر ديودور الصيقلي أن قدماء المصريين كانوا يكونون أولادهم ويربونهم بأقل نفقة

(٢) إن نظام الحكومة الشرقية ليس إلا اتساعا لنظام المنزل الأبوي (Urquhart's Spirit of the East vol. ii p. 249) (روح الشرق تأليف أوركهارت الجزء الثاني ص ٢٤٩).

غسل العين أو حتى لمسها عند ما يسيل منها الصديد الذى يجذب الذباب ، مضر بها . ويؤكدون أن فقد البصر قد ينتج من كثرة لمس العين أو غسلها عند ما تصاب بهذا السيلان ، غافلين عن أن الغسل إنما يلطف الألم

ويختن الولد فى سن الخامسة أو السادسة ، وأحياناً بعد ذلك[1] وقبل الختان يحتفل القاهريون وغيرهم من الحضريين، إذا توفر لديهم مال ، بزف الولد فى موكب يمر بالشوارع المجاورة للمنزل . وكثيراً ما يحتفلون بزفة الختان مع زفة عرس فى الوقت نفسه تقليلاً من نفقات الاحتفال . وفى الحالة الأخيرة يتقدم الموكبَ الولدُ وحاشيته . والمحتفل به يلبس أحياناً عمامة من الكشمير الأحمر ، وقد يرتدى لاعتبارات أخرى ثياب أنثى ، فيلبس اليلك والساطة والقرص والصفا وغيرها من حلى النساء ، ليجذب العين الحاسدة إليها ويلهيها عن شخصه . وتستعار هذه الملابس عادة من بعض السيدات الموسرات ، وتكون من أنخر الملابس وأبهاها كما تكون كافية السعة لتلائم الولد . ويستعار كذلك حصان جميل العدة ليركبه المحتفل به . ويمسك الولد بيده اليمنى منديلاً مطرزاً مطوياً يضمه باستمرار أمام فمه ليحجب بعض وجهه اتقاء شر العين . ويتقدم المحتفلَ به صبى الحلاق الذى سيقوم بعملية الختان، وثلاثة من الموسيقيين أو أكثر ؛ وآلاتهم لا تتعدى الزمار والطبول ، كما ترى فى (شكل ٣١) . فالشخص الذى يتقدم الموكب هو صبى الحلاق — كما ذكر — ويحمل (الحِمْـل) وهو صندوق خشبى نصف أسطوانى ذو قوائم أربع قصيرة ، يزين وجهه قطع من المرايا ومن النحاس البارز النقش ، ويغطى ظهره بستار . وهذا الحمل هو شعار الحلاق . ويحمله الخادم بالطريقة المبينة فى الرسم ثم يتبعه الزمار والطبالان (وقد يتقدم بعضهم الحمل) ، ثم الولد يقود جواده سائس ؛ وأخيراً يمشى خلفه الكثير من القريبات والصديقات . وكثيراً ما يحتفل بختان ولدين معا وقد يحملهما حصان واحد . أما موكب العرس الذى كثيراً ما يتضمن موكب ختان كما سبق فسنتكلم عنه فى حينه . وسنذكر أيضاً وصفاً لبعض العادات الأخرى المتعلقة بالختان وبالأخص واحدة منها أقل شيوعاً وأكثر وجاهة ، فى الفصل المتعلق بمختلف الأفراح والأعياد الخاصة[1]

(١) عند الفلاحين ليس أقل من سن الثانية عشرة حتى الرابعة عشرة

وقلما يبذل الأبوان كثيراً من وقتهما أو انتباههما فى تربية الطفل تربية ذهنية ، قانعين بتثبيت بعض المبادئ الدينية فى ذهنه الصغير ، فإذا كانت لديهم المقدرة، يعهدون به للمدرسين.



(شكل ٣١)

ويلقن الطفل فى سن مبكرة بقدر الإمكان الشهادتين وحب الإسلام . وأكثر أطفال الطبقات العليا والوسطى ، وبعض أطفال الطبقات الدنيا يتعلمون فى الكتَّاب القراءة وتلاوة القرآن أو ترتيله[2] ؛ ثم يتعلمون بعد ذلك أغلب قواعد الحساب الشائعة

والكتاتيب كثيرة العدد لا فى العاصمة فحسب ، بل فى كل مدينة كبيرة ، كما يوجد فى كل قرية كبيرة مدرسة واحدة — على الأقل — ويلحق بكل مسجد وسبيل وحوض فى العاصمة كتَّاب يتعلم فيه الأطفال بأيسر الأجور ؛ إذ يتناول « الشيخ » أو « الفقى »[3] كل خميس من أب الطالب نصف قرش أو أى شىء آخر . ويتناول مدرس المدارس الملحقة بالمساجد أو بغيرها من مبانى العاصمة العامة سنوياً طربوشاً وقطعة

(١) وهناك عادة ذكرها سترابو Strabo (ص ٨٢٤) باعتبارها سادت مصر فى عهده ؛ ولا زالت شائعة فى أنحاء مصر يراعيها المسلمون والقبط جميعا إلا فى الاسكندرية وفى بعض المناطق الساحلية . وهى تسود أيضا جزيرة العرب وإن كانت أقل شيوعا . وقد لاحظ رلاند Reland الذى وصف هذه العادة وصفا ناقصا فى كتابه (فى الدين الاسلامى) ص ٧٥ نشرة ١٧١٧ (De Religione Mohammedica p. 75 ed.. 1717) وأن جالن Galen ذكرها أيضا

(٢) أنظر فصل الموسيقى

(٣) هـذا اللفظ تحريف لـكلمة « فقيه » التى تطلق فى مصر على الذين حذقوا الدين والفقه . أما الرجل الذى يحترف تلاوة القرآن أو يدرس تلاوة القرآن ، فيسمى عادة « فقى »

من الموصلى الأبيض للعمامة وقطعة من الكتان وحذاء . كذلك يتناول كل ولد طاقية من الكتان وقطعة من نسيج القطن طولها أربعة أذرع بلدية أو خمسة ، وقد يأخذون نصف ثوب من الكتان مقداره ١٠ أو ١٢ ذراعاً بلدياً وحذاء ، وأحياناً يعطون قرشاً أو نصف قرش ؛ وهذه الخلع تؤخذ من أموال موقوفة على المدرسة وتقدم فى شهر رمضان . ولا يحضر الأولاد إلا ساعات الدرس ثم ينصرفون إلى منازلهم . ويكتب الدرس عادة على ألواح من الخشب المصبوغ بالأبيض ، تمسح بعد كل درس ويكتب عليها الدرس الجديد . وتُعلَّم الكتابة أيضاً على اللوح نفسه . والعادة أن يجلس المدرس وتلاميذه على الأرض وكل تلميذ بيده لوحه أو نسخة من القرآن ، أو جزء من أجزائه الثلاثين ، توضع على كرسى من الجريد ، وباقى الأولاد جميعهم درس القراءة أو ينشدونه بصوت واحد عال ، هازين رؤوسهم وأجسامهم هزاً لا ينقطع أماماً وخلفاً ؛ وكذلك أغلب قراء القرآن يتبعون تلك العادة ظناً أنها تساعد على التذكر ، وليتصور القارئ أى ضجة يحدثونها[1] .

وأول ما يتعلم الأولاد حروف الهجاء ، الشكل ، ثم يتعلمون القيمة العددية لكل حرف من حروف الهجاء[2] . وقد جرت العادة قبل وصول التلميذ إلى تلك المرحلة الثالثة فى تعليمه أن يزين المدرس اللوح بالحبر الأسود والأبيض والصبغ الأخضر ، ثم يكتب حروف الهجاء بترتيبها العددى ويرسلها إلى والد التلميذ ، فيعيدها هذا إليه وعليها قرش أو قرشان . وهكذا يكرر ذلك فى مراحل التعليم اللاحقة ، وفى كل مرة يكتب الدرس التالى على اللوح . وعند ما يحفظ الولد القيمة العددية لحروف الهجاء يتمرن على قراءة الكلمات السهلة ، مثل أسماء الرجال ، ثم صفات الله التسع والتسعين ، وبعد ذلك يُحفَّظ الفاتحة فيكررها حتى يعيها تماماً ، ثم يشرع فى حفظ السور الأخرى . ويندر أن يتعلم الأولاد الكتابة إلا عند ما يخصصون لبعض الوظائف التى تتطلب معرفتها . وفى هذه الحالة يتعلمون الكتابة والحساب كذلك على يد « قبانى » ، وهو الشخص المنوط به وزن البضائع فى السوق على القبان . أما الذين يسلكون أنفسهم فى النظام الدينى أو فى أى مهنة علمية فيتبع غالبهم تعليماً منتظماً فى الجامع الأزهر

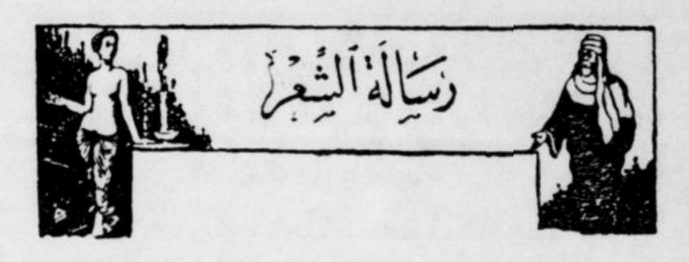
(١) والعقوبة العادية هى ضرب الطفل بجريدة من جريد النخل على بطن القدم

(٢) عند ما تستعمل حروف الهجاء الدالة على الأعداد ترتب على ترتيب الحروف الهجائية العبرية

وأغلب معلمى الكتاتيب قليلو العلم والاطلاع . والقليل منهم من تتعدى معرفته القرآن وبعض الأناشيد والأدعية ، فيؤجرون لتلاوتها وتلاوة القرآن فى المناسبات الخاصة . وقد حدثونى أخيراً عن رجل لا يحسن القراءة والكتابة نجح فى شغل وظيفة مدرس ؛ فقد كان يحفظ القرآن كله ولذلك سهل عليه الإصغاء إلى الأطفال وهم يسمعون الدرس . أما تعليمهم الكتابة فقد كان يستخدم فيها (العريف) مدعياً ضعف النظر . وبعد شغله هذا المنصب بأيام جاءته امرأة فقيرة ليقرأ لها خطاباً جاءها من ابن لها ذهب للحج . فتظاهر الفقى بالقراءة ولكنه لم يفه بحرف واحد . فاستوجست المرأة من سكونه شراً واستنتجت من هدوئه أخباراً سيئة فقالت له : « هل أصوِّت ؟ » فأجابها « نعم » وسألته : « هل أمزق ثيابى » فأجابها : « نعم » . فرجعت المسكينة إلى منزلها وأقامت هى وصاحباتها مناحة ومأتماً . ولم يطل عليها الزمن حتى عاد ولدها ، فسألته ماذا يعنى بهذا الخطاب الذى يخبرها بموته ؟ فلما شرح لها ما فى الخطاب ذهبت إلى المدرس وطلبت منه أن يوضح لها لماذا قال لها أن تصوت وتمزق ثيابها ما دام الخطاب يقرر أن ابنها بخير وأنه فى طريق العودة ؟ فأجابها غير مضطرب : « إن الله عنده علم الغيب . فمن أين لى أن أعرف أن ولدك سيعود سليما ؟ وكان خيراً لك أن تظنيه ميتاً حتى لا تنتظرى عودته ، وقد يخيب انتظارك » . فصاح بعض الجالسين مادحاً حكمته : حقاً إن « فقينا » الجديد رجل ثاقب البصر حكيم . وهكذا بين عشية وضحاها ارتفعت شهرة الرجل لغلطة غلطها[1] . وبعض الآباء يجعلون لأولادهم شيخاً يعلمهم فى المنزل . والعادة أن يعلم الأب ابنه الوضوء والصلاة وغير ذلك من الواجبات الدينية والأخلاقية على قدر إمكانه . وقد أمر الرسول (صلعم) أن يعوِّد الصلاة من يبلغ السابعة ويضرب من يمتنع منهم عند العاشرة ، كما أمر أن ينام الأولاد كل وحده فى هذه السن . ومع ذلك يندر أن يقوم المصريون بواجب الصلاة قبل البلوغ .

(يتبع) عدلى طاهر نور

(١) وقد وجدت بعد ذلك قصة تكاد تشبه هذه الحادثة تماما فى كتاب ألف ليلة وليلة ، طبعة القاهرة . وهى حكاية من الحكايات الملحقة بالفصل الثامن عشر من الترجمة التى ترجمتها لذلك الكتاب . ولذلك إما أن تكون القصة التى بلغتها غير صحيحة ، وإما أن يكون الرجل المشار إليه مقلداً للقصة السابقة . والحالة الأخيرة قد تكون محتملة ؛ فقد حكى لى عدة حكايات مماثلة تستحق التصديق فضلا عن أنى أعرف أن واحدة منها أمر واقعى



ليالي القاهرة

من «ن» إلى «هـ»

للدكتور إبرهيم ناجي

طَلَبْتِ الكِتابَةَ يا جَنَّتِي ... وَمَاذا تُرِيدِينَ أَنْ أَكْتُبا ؟
وَما في الجَوانِحِ خافٍ عَلَيْكِ ... وَقَلْبُكِ يَعْلَمُ مَا غُيِّبا ! !
سَأَكْتُبُ أَنَّكِ أَنْتِ الرَّبيعُ ... وَحُسْنُكِ أَنْضَرُ مَا فِي الرُّبَى
وَأَنْتِ الحَياةُ وَأَنْتِ الجَمالُ ... وَفَجْرُ الشَّبابِ وَحُلْمُ الصِّبا
أُنادِي بِإسْمِكِ عِنْدَ الصَّباحِ ... وَأَطْوِي عَلَى ذِكْرِكِ المَغْرِبا

ابرهيم ناجي

الوردة الذابلة

للأستاذ محمود عماد

قالت وقد ألقتْ على وجهها ... غبرةَ همٍّ لم تكد تنجلي :
إن تذبل الوردة ظلت لها ... بقية من عطرها الأولِ
قلنا وطيّ النفس ما طيّها ... لو شاءت الوردة لم تذبل
لو شاءت الوردة كنا لها ... ندىً إذا الأنداء لم تنزل
لو شاءت الوردة كنا لها ... شوكاً يقيها عبث الأنمل
لو شاءت الوردة كنا لها ... أرضاً مُوَطَّأةً على جدول
لو شاءت الوردة كنا لها ... شمساً تريقُ الضوء فى معزل
فظلّ للوردة ما أُعطيت ... من ناضر الحسن وغالى الحُلي
لكنها اختارت لها مغرساً ... بمثلها فى الورد لم يجمل
حيث الثرى هَمٌّ وحيث الندى ... همٌّ وحيث الضوء لم يُرسَل
فكان حقاً أن ترى حسنَها ... يزوى وألا تعجب المجتلى
وإن تعزت ببقايا الشذى ... فهو عزاء الكحل للأحول

محمود عماد

أحلام الموتى

للأستاذ على شوقى

متى أنا نازلٌ نُزُلَ الرِّجامِ ... ومُبْلِغتى الوفاةُ حمى الحِمامِ
فأغدو ظاعناً من دار هُونٍ ... مزايلها إلى دار السلام
أرانى والمَوادى عائداتى ... وواهبتى أضاميمَ السّقام
كطفلٍ ملّ من ندىٍ سقيم ... فمال عن الرضاع إلى الفطام
وما عَشِق الحياةَ سوى محبٍّ ... قضى منها لُباناتِ الغرام
ومن رضىَ المقام بها فإنى ... لأمرٍ ما رغبت عن المُقام
لئن آنستُ تحت الشمس ظلماً ... فمالى لا أفِرُّ إلى الظلام
فيا داراً سأبرحها ، سلامى ... عليكِ وإن صَفِرْتِ عن السلام
ويا أرضاً غداً ستكون قبرى ... ألا أعجلْتِنى قبل التمام
لعلى إن أمُتْ تبكى عيونٌ ... تُرَوِّى من مدامعها عظامى
عيون طالما أسهرت جفنى ... عليها وهى تنعم بالمنام
وتذكرنى شفاهٌ كنت حيناً ... أدين لها بمأثور الكلام
وتندبنى سُويعاتٌ تقضّت ... خضبت أكفها بدم المدام
رأيت العيش معنى كل شر ... وهذا الناس معنى الرغام
وما هذى الحياة سوى أمانٍ ... تَدَاولُ بين أحلام الأنام

على شوقى



إلى الأستاذ أحمد أمين

كنتُ أشرتُ فيما سلف من الأحاديث إلى أني سمعت كلاماً منسوباً إلى أحد المفكرين من الأجانب في محاضرة ألقاها الدكتور ابراهيم ناجي، ثم قرأت الكلام نفسه في «الثقافة» بعد يومين بصورة تشهد بأنه من مبتكراتك، وكانت الأمانة العلمية توجب أن تذكر النص الذي نقلت منه، وفقاً لقواعد «الدراسة الجامعية»

واليوم أذكر أن جريدة «الوفاء» التي تصدر في شرق الأردن نشرت مقالاً عنوانه «عدالة العمل» بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٩٤١، وفي التاريخ نفسه نشرت مجلة الثقافة التي تصدر في مصر مقالاً عنوانه «العدالة» وذلك توارد غريب!!

وعند الموازنة بين المقالين تبين أن الأصل واحد، فهما منقولان عن كتاب «البشرية الكاملة» للمؤلف الأمريكي فرانك كراين

ولكن بين المقالين فرقاً بسيطاً جداً، فالأستاذ صبحي زيد الكيلاني صاحب جريدة الوفاء نص على أن المقال مترجم عن الإنجليزية بقلم صبحي جلال القطب؛ أما الأستاذ أحمد أمين صاحب مجلة الثقافة فقد نص على أن المقالة من إنشاء أحمد أمين!

فهل لك أن تتفضل فتدلني على وجه «العدالة» في هذه القضية؟ وهل لك أن تذكر أن الدنيا فيها ناس يقرأون وينقدون ما يقرأون؟

يجب أن يفهم حضرة الأستاذ أن «الدراسة الجامعية» لا تمنح أصحابها حق انتهاب الأفكار والآراء؛ فإن أجاب بأنه «ترجم بتصرف» فأنا أقول بأن النص على الأصل واجب ولو كانت الترجمةُ بتصرف

وبالنيابة عنه أعتذر لمن شكاه من فضلاء عمان، والصديق ينوب عن الصديق في بعض الأحيان

زكي مبارك

عبر كذا ...

اطلعت على ما كتبه الأستاذ الفاضل محمد محمود رضوان في العدد ٤٣٢ من (الرسالة) في نقد ما ذهبت إليه من أن استعمال الكتاب الآن لكلمة (عَبْر) ـ مصدر عَبَره ـ ظرفاً غير صحيح [1]

(١) نشر بحثي هذا في العدد ٤٢٤ من الرسالة

فقال الأستاذ: «قد جاءت هذه الكلمة في شعر إسلاميّ لسواد بن قارب الكاهن، حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً»

ثم ساق حكاية سواد كما رواها صاحب الجمهرة، وفيها أبيات له، منها:

فشمرتُ عن ذيلي الإزار وأرقلت
بيَ الدعلب الوجناء عَبْر السباسب [1]

وبعد ذلك قال: «ومن ثم يرى الأستاذ الكبير أن الكلمة صحيحة كما يستعملها الكتاب على عهدنا»

فكأن الأستاذ ارتضى استعمال «عَبْر» ظرفاً أخذاً بظاهر عبارة الشاعر التي تنطبق في صورتها على استعمالات الكتّاب لهذا العهد. وكأنه يتوهم أنها منصوبة على الظرفية «بأرقلت»

ولكن الواقع أنها صفة ثالثة للناقة لا غير [2]؛ فإن الشاعر في مقام تعديد محاسن ناقته وما فيها من مزايا يقتدر بها على السرعة في أداء مهمته، فهو يصفها بالفتاء والقوة، وبأنها قادرة على شق السباسب، تمضي بها وتجرؤ عليها

ويؤيدني في أن الوصفية وحدها هي الوجه الواجب أني لم أجد لمعنى الظرفية في «عَبْر» أثراً فيما قرأت من كتب اللغة وراجعت وبحثت، وإن كانت الكتب التي بين أيدينا لا تحوى كل شيء، بل ما فاتها كثير جداً، كما نعترف بذلك جميعاً

ثم ترقّى الأستاذ في تفنيد مذهبي في هذا الموضوع فقال:

(ولو أننا أردنا تخريج الكلمة على وجه صحيح لوجدنا أكثر من وجه، خلافاً لما يقوله الأستاذ. وأقرب هذه الوجوه عندي أن تكون (عَبْر) مصدراً مراداً به اسم الفاعل، فتكون حالاً مما قبلها، ويكون التقدير: «صور قواتها عابرة شمال الهند ... الخ» و «أو جاءت إلى هنا عابرة الأطلنطي» [3]).

أقول: يكفي في الرد على هذا أن أذكّر الأستاذ أنه من المقرر أن المصدر قد يقع حالاً «إذا كان نكرة». فالتنكير شرط لازم، نحو: (ثم ادعُهنّ يأتينك سَعْياً) و (ينفقون أموالهم سراً) و (جاء بغتة) و (قتله صبراً) و (حضر سُرْعة)

(١) أرقلت: أسرعت. والدعلب: الفتية الشابة من النوق. والوجناء: الشديدة. وعبر السباسب: القوية على شقها وسلوكها. ويقال أيضا: عبر أسفار الرجل الجريء عليها. والكلمة للواحد والجمع والمؤنث

(٢) أي لا كما يرى الأستاذ من أن إمكان كونها صفة الناقة إنما هو وجه آخر لإعرابها، كما في حاشية مقاله.

(٣) تراجع أمثلتي في العدد ٤٢٤ من الرسالة

و (أقبل ركضاً) و (كلمته مشافهة) ... إلى غير ذلك [١] .

وقد رأيتَ أن (عَبْر) في الأمثلة الثلاثة التي أتيتُ بها للتوضيح في مقالي السابق معرفة بالإضافة . وكذا الحال في جميع ما نراه من ذلك كل يوم في الصحف والمجلات ؛ لأن استعمالها لا يكون إلا هكذا في أساليبها .

فلا يمكن إذاً أن تعرب (عبر) حالاً . فقد بطل تخريج الأستاذ أما المصدر المعرف فمجيئه حالاً نادر . والمسموع منه قليل جداً . وهو لا يَعْدُو أن يكون علم جنس ، كقولهم : جاءت الخيل بَدَادِ [٢] ، أو معرَّفاً بأل ، نحو : أرسلها العِراكَ [٣] .

بقي قول الأستاذ : (والمصدر يقع في موضع اسم الفاعل ... الخ كلمة) ، فهذا مما لسنا بسبيله . (ا . ع)

الأستاذ كرد علي في بيت المقدس

لبي الأستاذ محمد كرد علي دعوة الإذاعة الفلسطينية ، فتوجه إلى القدس وذهب من توه إلى بيت صديقه أديب العربية الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

وكانت أولى محاضراته : « هل تمدنا » قرر فيها الأستاذ أن الأمم العربية قطعت شوطاً بعيداً في المدنية منذ نصف القرن الماضي ، وتمنى لو تلقفنا من الغربيين عاداتهم وتقاليدهم فهي بالجملة خير من عاداتنا وتقاليدنا ؛ ولم ينس الأستاذ أن يذكر المرأة الشرقية وخروجها سافرة في العصر الحديث بعد أن كانت مكبلة بسلاسل يسمونها خلاخيل ، وأنها نالت قسطها الوافر من المدنية وتشبهت بأختها الغربية بمنافسة الرجل في مختلف ميادين الحياة .

وفي المحاضرة الثانية تكلم الأستاذ في موضوع : « الشاميون والتاريخ » قصر حديثه على سرد أسماء المؤرخين الشاميين ومؤلفاتهم وتاريخ وفاتهم ؛ وعلل الأستاذ وفرة المؤرخين في الشام لكونها كانت عاصمة العرب ، وفي العاصمة يتمثل ازدهار المدنية أكثر من سائر البلدان

وفي المحاضرة الثالثة حكى عن « طرائف فارس » وخصص كلامه في مخطوط يسمى « طرائف الطرف » فكشف عن قيمته التاريخية ثم ختم كلامه بالقول : إن في إيران مخطوطات عربية قيمة تفوق المخطوطات الموجودة في القاهرة وفي دمشق وذكر أن في مكتبة العلامة الإيراني « نصر الله » خمسين ألف مجلد عربي ، ويؤكد الأستاذ أن كثيراً من أغنياء إيران يهمهم أن ألا تخلو مكتباتهم من التآليف العربية فإن ذلك يدل - في عرفهم وتقاليدهم - على السراوة والنبل

وكان موضوع محاضرته الأخيرة : « بقية ما ترك لنا الأجداد » فافتتح كلامه بالأسف الشديد على أن فقدت المكتبة العربية كثيراً من المخطوطات الثمينة ثم قصر كلامه على التحدث عن « أبي حاتم بن حيان البستي » وذكر أنه لا يقل عن ابن ماجة في أهمية أسانيده للحديث ، ثم أعلن أسفه بأن أحداً من المترجين العرب لم يذكره في تآليفه ، ولولا ياقوت الحموي لكان نُسي كما نسي كثير من العلماء . ثم رجح الأستاذ أن نسبه ينتهي إلى « إياس بن مضر » وقال إن حياة هذا العالم الجليل قد انتهى بأن قتله خليفة المسلمين لتلبسه جريمة الاشتغال بالعلوم الرياضية .

عبد القادر جنيدي

إلى الكتاب

يجدُّ الردى فينا ونحن نهازله ونغفو ولا تغفو فواقاً نوازله

كنت أتحدث مساء يوم من الأسبوع الماضي عن « معركة الإصلاح الاجتماعي » مفتتحاً العام الدراسي الخامس لمدرسة الخدمة الاجتماعية ، فجال بخاطري وأنا أعرض وجوه المعركة أن أتساءل : أين كتابنا في مركز القيادة ، وأين هم في صف الجنود ، وأين هم في مجال الدعاية والإرشاد ؟ وهل وضعوا خطة وبرنامجاً لعلاج مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى ثم تهيئوا لخوض غمار المعركة حاملين علم الجهاد ، أو أنهم آثروا حياة الدعة وعيشة السكون ، والتزموا الحيدة المطلقة تلقاء هذه المعركة التي شنت فيها الآفات الاجتماعية الغارة علينا بغير رفق أو هوادة ؟

ثم ألقيت نظرة على ما طوى التاريخ من أحداث اجتماعية غيرت أوضاع الحياة ، فبصرت بأقلام الكتاب ولها السبق في ميدان الدعاية إلى المبدأ وبث الفكرة وحفز الهمم ومناصرة التجديد والإصلاح في نضالها مع قوى الرجعية ، وأحسست صولة القلم تسبق صولة السيف ، ورأيت مهمة التمهيد لمعركة الإصلاح يضطلع بها نفر من أئمة الكتاب يشقون الطريق للجنود ويرسمون الخطط للقادة ، ورأيت صرح الإصلاح وقد استقر على دعائمه الراسخة يحيط به سياج من أقلامهم

ثم شهدت ما حشدته الأمم للاصلاح من قوى فبصرت بقوة الأقلام يصول بها الكاتب القدير في الميدان ، ويشق ببريقها الظلام

---

(١) على أن ذلك ليس بمقيس على الأصح . قال السيوطي في الهمع : وأجمع البصريون والكوفيون على أنه لا يستعمل من ذلك إلا ما استعمله العرب . ولا يقاس عليه غيره . فلا يقال : جاء زيد بكاء . وشذ المبرد فقال : يجوز القياس اه .

(٢) بداد علم جنس للتبدد ، وهو التفرق ، مبني على الكسر كحذام

(٣) أرسلها : أي الابل . وعراكها : ازدحامها على الورد .



«أرواح شـــاردة»

تأليف الأستاذ الشاعر علي محمود طه

بقلم الأديب محمد فهمي كمال

هذه «الأرواح الشاردة» في تيه المرح والعذاب والحب، يحتفل بها شاعرنا علي محمود طه في كتابه الجديد احتفال الشاعر الهائم الذي تضطرب حياته في خضم هذا الكون المعظم، حيث تتوارى العوالم وتتلاشى الآفاق وتغيب الشطئان. ولقد وسم نفسه في عالم الأدب بالتيه والشرود، فهو «ملاح تائه» يهيم إثر «أرواح شاردة»، يجد لذته ومتعته في شروده وهيامه، حتى لكأنه أحد أولئك الشعراء البوهيميين الذي كتب عنهم «هنري برجير»، فهو ممن نلتمس عندهم غذاء الروح وريّ القلب في البيان المصطفى والخيال المنطلق والنغم المنسق!

ومن نِعم الأيام أن يصدر هذا الكتاب الجديد في زمن تصطخب فيه الآذان وتضطرب الأذهان بأنباء أفظع مجزرة بشرية تمثلها روح الشر على مسرح الوجود، بل نحن في محنتنا هذه أحوج ما نكون إلى أمثال هذه الكتب المختلفة بالذوق الجميل والفن الرفيع، أكثر من حاجتنا إلى كتب العلم والمعرفة والحكمة والفلسفة التي لو شئنا شيئاً منها لالتمسناه في الكتب التي نقل عنها المؤلف أو تأثر بها، وفي غيرها مما لم ينقل عنه أو يتأثر به، ولكنا نحب هذا المزاج البديع من فن الشاعر الثائر علي محمود طه الذي عشقناه وفُتنّا به في قصائده الفرحة وغنائياته المرحة!!

فهذا الشارد الحائر بين معالم الجمال ومفاتنه في مصر والبندقية وبرن وروما وفرساي وانسبروك، سعيدٌ بأن يلتقي بجماعة من الشاردين الحائرين أمثال: ڤيراين ورامبو وبودلير وشلي ودي ڤيني وموسيه وجورج سان وشو وويلز، ممن تناولهم بالدراسة، أو عرض لهم ولآثارهم عرضاً سريعاً.

فأما بول ڤيراين فحديثه ممتع، ألمّ فيه المؤلف بسيرة هذا الشاعر الخيم على العقول والقلوب، ويدفع بها النفوس إلى المثل العليا

وهنا ألقيت نظرة على مصر، فإذا بمعركة الإصلاح خامدة، وإذا الروح المعنوية متخاذلة يعوزها القادة والخطة والجنود وقوة الإيمان، مع اتساع الميادين وفداحة الخطوب وعظم المشكلات وقلة الزاد ووعورة الطريق، تكتنفنا عوامل الانحلال التي تقربنا إلى الهوة بخطوات واسعة. وشعرت أننا نسير في الظلام، وقد خبت الأضواء، واختفت مصابيح السماء، فصحت في نفسي والألم يحزها: «أين كتابنا من هذا النضال؟ هل آثروا العزلة في بروجهم العاجية، يشرفون علينا من عل، فيعبسون حيناً ويبتسمون أحياناً، ثم يقهقهون ملء أشداقهم، ثم يخلدون إلى متعتهم من الفن وروعة الخيال، يغذون بها روحهم، ويستوحون منها فيض أقلامهم؟

ألم يقض هؤلاء الكتاب فترة من سني حياتهم الناعمة في قرى الريف، فتثور نفوسهم لمشاهدة الحياة فيها، فيستلوا أقلامهم ليخوضوها معركة حامية في سبيل هؤلاء التعساء الذين ضن المترفون عليهم بقسط يسير من مقومات الحياة الإنسانية الكريمة؟ ألم يستشمروا ما يحيط بهم من مآسي الحياة المصرية؟ هل فكروا في وجوه الإصلاح ونصيب الكتاب في الدعوة إليه والنضال في سبيله؟ لقد حباهم الله بخيال خصب وروح اجتماعي سام ينم عنهما ما تزخر به مؤلفاتهم وبحوثهم من شذرات وخواطر، فكيف السبيل إلى استغلال هذه المواهب في توجيه قوى الخير لمكافحة عوامل الشر؟

يخيل إلى أن أدباءنا ينعمون بأنانية منقطعة النظير، هيأتهم لأن يعيشوا لأنفسهم، وأن يفكروا حين يفكرون، ويكتبوا حين تتحرك أقلامهم، لمتعة الروح وإرضاء الخيال، دون نظر لما تقتضيهم حقوق الوطن من التزامات تحتم عليهم أن يكونوا في مركز القيادة، وأن يتولوا مهمة الإرشاد

أين إنتاج أدبائنا مما توحي به الحرب، وما يتطلبه تنظيم الحياة الاجتماعية بعد الحرب؟ ألم يروا كيف نهض الكتاب في البلاد الغربية يعالجون المشاكل الاجتماعية التي أوجدتها الحرب، والتي ستتمخض عنها الحرب عندما تخبو نارها، فاستخلصوا العبرة، ووصفوا العلة، ورسموا الطريق للمستقبل؟!

يجب أن يتغير وجه الحياة المصرية في طرائق التفكير وأسس الثقافة ومعايير الإصلاح وروح التشريع، نتيجة لتلك الهزة العنيفة التي توشك أن تتداعى منها جوانب الحضارة القائمة، وأن يكون الكتاب قادة المعركة الإصلاحية التي تطالعنا كتائبها. فمكانهم منها في الطليعة، ولو عرضوا أنفسهم ليكونوا أول ضحاياها.

محمد العشماوي

نائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعي

الذى كان أرخم صوت صدح به الشعر الفرنسى فى القرن الذى أنجب هيجو ولامارتين وموسيه وجوتيه وسنت بيف ومالارمى وليكونت دى ليل وأناتول فرانس وغيرهم من الأعلام والعباقرة الأفذاذ

ولقد تناول المؤلف فى حديثه هذا أصول الفن مطوّفاً بالمصادر التى استمدت منها شاعرية فيرلين ألوانها الباهرة ، واستلهمت أنغامها الساحرة ؛ ثم تناول شخصية فيرلين بالاستقراء والتحليل ، هذه الشخصية التى قال أناتول فرانس فى صاحبها : « إنه سقراطى بالفطرة أو خبر من ذلك ، مخلوق خرافى ، حيوان غابة ، نصفه إنسان ، ونصفه حيوان ، نصفه وحش ضار ، ونصفه إله ، هائل كقوة طبيعية غير خاضعة لشريعة ما ... »

ولقد وفق المؤلف فى تفصيل ذلك كله وكان رائعاً ومتواضعاً فى ترجمته لقصيدة فيرلين فى الخريف ، بل إن أمانة النقل تبلغ فى هذه الترجمة مبلغاً عظيما مع الاحتفاظ بالروح الغنائى المرح الذى يفيض به شعر فيرلين

وفى عشرات الكتب والدراسات التى وضعت عن فيرلين نجد المؤلف قد ألم بالكثير من الآراء ، وقرّب هذه الشخصية العجيبة إلينا ، ولو أضاف إلى ما كتبه رأى « فرنسوا بوشيه » فى علاقة فيرلين برامبو لانتهى إلى الحقيقة ولما قال إنها لا تزال موضع تحقيق النقاد والمؤرخين

أما بودلير فقد عرض المؤلف لفنه وللعوامل الوضوعية والذاتية فى شاعريته أكثر مما عرض لسيرة حياته ، وإن كان لم يهمل ما رآه متصلاً أوثق الاتصال ببحثه القيم النفيس ، فقد تناول جانباً من حياة هذا الشاعر يلقى ضوءاً على المؤثرات التى عملت عملها فى شذوذه وغرابة طباعه وأطواره وحماسته فى عبادة شهواته ، وكان حديثه رائعاً عن نشأة بودلير ورحلته إلى جزائر الهند ، وعن أوكار الحشيش والأفيون ، وهذه الأجساد التى تنضح بشهواتها وتحترق أنفاسها من دخان العطور الشرقية المخدرة ؛ كما كان حديثه بليغاً وبديعاً عن هذه الفتاة السوداء التى نصبها بودلير إلهة للجمال بجسدها المعتل السقيم الذى علاّ الكلف أو البهق أديمه وهو يتخلع فى ثوب مهلهل خلق ...

ومن الحق أن نسجل فى هذا الفصل للأستاذ المؤلف قوته البيانية وطلاقته الفنية وحرارة تعبيره وإن كنا نأخذ عليه الإيجاز فى محاكمة بودلير مع أنه عرض لها أكثر من مرة فى فصله هذا مما يدلنا على إلمامه بدقائق هذه المحاكمة وخاصة عند ما نوه زعيم الإبداعيين فيكتور هيجو ودفاعه عن بودلير كفنان ،

وقد كان على المؤلف أن يُشبعَ الموضوع بتفاصيل هذا الدفاع

أما الكلمة التى نقلها المترجم عن الكاتبة « ريكا » فى الأدب الإنجليزى الحديث فهى من أدق وأوفى الدراسات التى كتبتها هذه الأديبة العظيمة فقد اشتغلت بالتأليف الأدبى مدى ثلاثين عاماً ، وحسبنا هذا ثقة بآرائها فى الأدب المعاصر

وقد وفق على محمود طه فى ترجمة قصيدة شلى ودى فينى وقصائد ماسفيلد وسيتول و « فنست ملاى » توفيقاً عظيما وخاصة فى الثلاث قصائد الأخيرة فإنه يبلغ الذروة فى الدقة والرقة والقوة

أما قصيدته فى قبرة شلى فقد جمعت كل ما سكبه قلب الشاعر الإنجليزى العظيم من الحلاوة والحرارة والصفاء وكل ما جادت به شاعرية المترجم من فنون التصوير والغناء وسمة الخيال وحسن الأداء ، ولقد قدم المترجم لقصيدتى شلى ودى فينى بكلمتين عن الشاعرين ولم يصنع ذلك فى بقية القصائد ، ولو كان صنع ذلك لحمدنا له صنعه

وما أحسب أن الملاح التائه قد أهمل عن عمد تعريفنا بملاح غير تائه هو جون ماسفيلد شاعر العرش البريطانى الذى بدأ حياته ملاحاً صغيراً يعمل فى البحر وهو فى الرابعة عشرة من عمره

أما القسم الأخير من كتاب أرواح شاردة ، فأنا شديد الإعجاب به ، مفتون بالصور التى رسمها المؤلف لرحلاته فى أوربا ، مشغوف بالحوار الذى أجراه على محمود طه على ألسنة الأشخاص الذين التقى بهم فى طريقه ؛ فليست هذه المقالات مجرد وصف وتزويق من الخيال ، بل هى ظلال وأضواء من الفن والعلم والأدب محتفلة بالرشاقة والعذوبة وخفة الروح ، ممثلة لهذه المناصر أبدع تمثيل ، كأقدر كتاب الأقصوصة ، حتى لتشيع فينا ألواناً من الطرب الروحى ساعة من زمن أو لحظة من وقت كما يُشيع إشراق الكأس المترعة طرَبَ الشرب ومرح الندمان ؛ وحبذا لو أتحفنا على محمود طه بكتاب يفرده لهذه الذكريات مضيفاً إليها ما أظنه لم يجد وقتاً لكتابته أو بالنسبة لحجم كتابه « أرواح شاردة »

أما القصيدة التى ختم بها المؤلف كتابه والتى أنشأها فى محنة باريس وطلعت بها (مجلة الرسالة) على العالم العربى ، فهى مثال من الحسرة والعبرة التى عرفناها فى شعر شوقى فى مثل هذه المناسبات !

فليهنأ عالم الأدب بملاحنا التائه ، وليهنأ هو بأرواحه الشاردة

محمد فهمى كمال

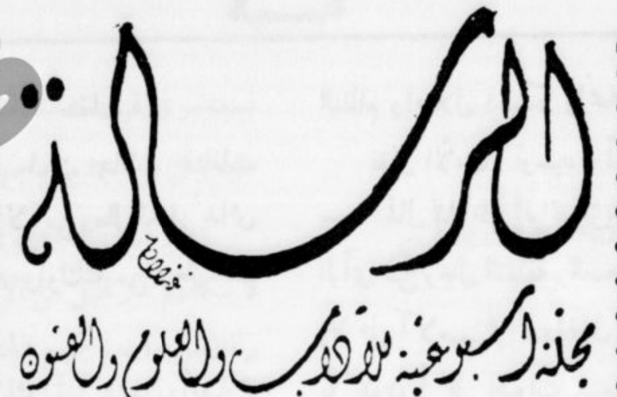
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 434

Lundi - 27 - 10 - 1941





بدل الاشتراك عن سنة
مصر
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـدد ٤٣٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ شوال سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

من أحاديث القهوة

— ٤ —

كأننا حين كنا نجلس فى لَحَق القهوة على شاطئ النهر كنا نُشرف على مسرح من مسارح الفكر والشعور لا يقع فى صفوه كدر من أوزار الناس ، ولا قذر من أوضار المادة . فلما دفعتنا بواكر الخريف إلى داخل القهوة أحسسنا الدنيا بصخبها وشغبها، وجدها ولعبها ، وصدقها وكذبها ، وفشلها وغلبها ؛ واستشعرنا ثقل الحياة وزحمة الناس وسخف الرواية الإنسانية تُمثل على أسلوب واحد كل يوم فى أى مكان من الأرض صغير أو كبير ، وبأى عدد من الناس قليل أو كثير

مسرح الحياة فى القهوة ضيق المجال ضئيل العدد قليل الشهود، ولكنه صورة مقاربةٌ لمسرحها فى الوجود الأكبر : ثلاث سلاسل من المناضد الرخامية امتدت فى ثلاثة أروقة ، قد جلس عليها هواة النرد والدومينو والشطرنج والورق : فأما النرد ، ومثله الدومينو ، فيمثل مذهب الحظ والتهويش فى ابتغاء الربح ؛ فلاعبه لا ينفك طياش الحلم ، جياش الدم ، يصك الخانة بالقشاط ، ويربك الخصم بالعياط والزياط . وأما الشطرنج ، ومثله الورق ، فيمثل مذهب الروية والأناة فى محاولة الكسب ؛ لذلك ترى لاعبه ساكناً ساكتاً كتمثال الحكمة ، تحسبه من طول تفكيره لا يعمل . ومكسب العقل أو الشطرنج بطيء ، ولكنه ثابت ،

ومكسب الحظ أو النرد مريح ولكنه متقلب

وعلى حواشى هذه السلاسل جاست جاعات مختلفات فى منهج السلوك ودرجة الثقافة؛ فهؤلاء من رجال العمل يُداهى بعضهم بعضاً فى مبايعة أو مقاولة، وأولئك من رجال العلم يتنازعون الحجج فى مناقلة أو مجادلة

وفى مماشى القهوة أفراد من صعاليك الخلق يمشون وأبصارهم لا تقع إلا على النعال أو على الأرض: أولئك هم ماسحو الأحذية ولاقطو الأعقاب؛ وهم يمثلون الذين رضوا بالهُون والدون، وجهلوا أن فوق الأرض سماء، وأن مع (البراطيش) طرابيش!

ولو أردنا لوجدنا لكل طبقة من طبقات المجتمع صورة من صُور القهوة نُشَقق عليها الحديث ونمعق فيها البحث، ولكننا نقف اليوم عند صورة هذه العيون المشدودة إلى الأرض، أو المعقودة فى النعال، فإنها أولى بالتفكير وأجدر بالرثاء

هذه الصورة تمثل الفلاح ابن الأرض وعبد الأرض؛ قصر نظره على الأرض ليزرع، كما قصرت البهيمة نظرها على الأرض لترعى؛ فلا هو يطمح أن يكون إنساناً يترقى، ولا هى تطمع أن تكون طائراً يرتفع. حتى الصلاة لا يعرف الفلاح منها غير الركوع والسجود؛ أما دخوله فيها بالتكبير، وخروجه منها بالتسليم، فمعنيان ميتان فى نفسه، لا يفهم من الأول صلته بالله، ولا من الآخر صلته بالناس. وإذا علمت أن هذا الفلاح فى بعض الأمم الدستورية الشرقية هو الكثرة الكاثرة والسواد السائد، علمت كيف يُزوَّر فيها الرأى العام، ويُزيَّف النظام الديمقراطى!

* * *

كانت هذه الصورة فى تلك الليلة مثاراً للحديث عن الفلاح وما يتحمله من سوء الحالة وقبح الجهالة؛ وكانت القهوة على ما تريد (الوقاية) مغلقة النوافذ مرخاة الستائر لا تملأ لضوضائها المكبوتة وأنفاسها المحبوسة متنفَّساً ولا فرجة؛ وكان اصطكاك النرد وارتفاع الأصوات وضجة المذياع قد جعلتنا أشبه باليهود فى بُرصة العقود، فلم نكد نسمع الأستاذ عدلى وهو يلقى هذا السؤال على الأستاذ توحيد:

— إذا صح أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال، فبماذا نعلل بقاءنا فى هذا الدرك الأسفل من الحياة ونحن لا نكاد نسمع فى كل مكان ومن كل إنسان غير الشكوى من اختلال النظام واعتلال الحكم وانحلال الخلق؟

فقال الأستاذ توحيد: أما إجماع الناس على الشكوى من سوء الحال فما أظن الواقع يؤيده. وإذا كنت تعنى إجماع أهل الرأى من رجال الثقافة والصحافة، فإن شكوى هؤلاء لا تدل إلا على آلامهم هم. والقول بأن الأمة متمدنة لأن فيها قوماً يأكلون أكل الذوات، ويلبسون لبس الخواجات؛ وبأنها متعلمة لأن فيها جماعة يحملون شهادات من كل نوع، ودرجات من كل قياس؛ وبأنها طموحة لأن فيها طائفة من مرهفى الحس وعشاق الكمال يطمحون إلى خطير المساعى، ويتشوفون إلى بعيد المطامع؛ ذلك القول لا يسوغه إلا الغرور أو الهزل

صحيح أننا كنا نقول قبل اليوم: إن المصريين أصل الناس، وإن مصر أم الدنيا؛ فلما رقَّت الأغشية الكثيفة عن العيون، كدنا نبصر موقعنا من البلاد وموضعنا من الأمم، ولكن ذلك لا يعنى أننا شعرنا بالنقص، ووقفنا على العلة، ورمنا بالجود، ونزعنا إلى التكمل

إن الفلاحين وهم جمهور الأمة قد مات فى نفوسهم — لسبب لا أدريه — ذلك القلق الروحى الذى يتحدى القدر ويخلق الطموح ويحقق التطور. فإذا انبثق فى صدورهم ذلك النور الإلهى اهتدوا إلى الطريق الإنسانى الذى أضلوه، فلا يحتاجون إلى من يبنى لهم المراحيض فى البيوت، أو يضع لهم النعال فى الأرجل. وليس العلم شرطاً فى حُبِّك النظافة وطلبك الحق وإبائك الضيم ورعايتك الصحة، فإن ذلك كله من مقتضيات الفطر السليمة. والبدوى على عنجهيته وجهله لا يزال المثل المضروب فى الاعتداد بالنفس والاحتفاظ بالكرامة. وفى يقينى أن الواجب الأول على رجال الدين وأقطاب الصحافة ورجال الإصلاح أن يقنعوا الفلاح بأنه إنسان. ذلك وحده كفيل أن يعلمه كيف يعيش، وأن يلهمه كيف يرقى!

وهنا قدح الأستاذ توحيد زِناده الفضىّ النادر، وأشعل سيجارَه التُّسكانىّ الفاخر؛ ولم يكد يطفئه ويستأنف الكلام حتى أُغلقت مفاتيح الأنوار، وأُطلقت صفارة الإنذار، فخشعت الأصوات، وسكنت الحركات، واستولى على الناس شعورٌ من صريع القلق ورياء الصبر فاستحال الإصغاء وانقطع الحديث!

(المنصورة) احمد حسن الزيات

كلمات صريحة :

فى التربيـــة والتعليم

للدكتور زكى مبـارك

شـعار التلميذ — فى مدارس البنات — ضرب التلاميذ — الغذاء فى المدارس — بين النظار والمدرسين — أخطار تهدد بعض المدارس الأهلية

شعار التلميذ

كنت اقترحت على حضرة صاحب العزة مراقب النشاط المدرسى أن يشير بأن تكون ملابس التلاميذ جميعاً من قماش واحد ، وبهندام واحد ، ليَسلم أغنياؤهم من آفة الازدهاء ، وينجو فقراؤهم من آفة الانضاع ، ولنضمن سلامة أولئك وهؤلاء من عوادى التنافس البغيض

ثم مضيت فكتبت كلة وجيزة فى جريدة (الأهرام) ، أردت بها التمهيد لعرض هذا الموضوع على « مؤتمر التعليم » ، فكيف استقبله كبار المربين بوزارة المعارف ؟

اتفقوا على صـواب الفكرة ، ولـكن معالى الوزير رأى فى تنفيذها إرهاقاً للآباء فى مثل هذه الظروف ، فقد يكون فيهم من يعجز عن إمداد أبنائه بأثواب جديدة فى العام الدراسى الجديد

ولا ريب فى أن معالى الوزير لم يرد غير الرفق بالآباء ، ولـكن ما رأىُ معاليه فيمن يحدثه بأن التلاميذ لن يرفقوا بآبائهم أبداً ، ولن يكون فيهم من يفهم أن الناس جميعاً يعانون قسوة الغلاء ؟

إن التلميذ طفل ، والطفل يعتقد أن أباه على كل شىء قدير ، وإذا فرضنا المستحيل وقدّرنا أن الطفل قد يراعى ظروف أبيه ، فلا يكلفه ما لا يطيق فى هذه الأيام ، فمن يضمن سلامة هذا الطفل من الألم المكبوت ، وهو يرى من بين التـلاميذ من يرجعون إلى المدارس وهم فى اختيال بمـا أعدوا للعودة المدرسية من الزينة والرُّواء ؟

ليس فى مصر تلميـذ واحد يقدر ظروف أبيه ، وإن فعل فسيشعر فى قرارة نفسه بأن أباه ضعيف الحول ، وأن الدنيا بخلت عليه وعلى أبيه بما يمحو عنهما شبهة العوز والاحتياج

وما وجودُ المصلحين إذا عجزوا عن رأب هذا الصدع بوسيلة لا تكلفهم غير قليل من الالتفات ، كأن يراعوا أن التلميذ جندى واللابس واحدة لجميع الجنود ؟

قد لا يخطر فى بال وزير المعارف أن فى مصر آباء يقتلون أنفسهم بالبلاء الذى يسمى « التفسيط » ، فأولئك الآباء يزوّدون أبناءهم بمـا يشتهون من طريق الدَّين ، فيظاهرون بمظاهر الغنى ، مع أنهم يستعجلون الفقر بخطوات سراع !

و « شعار التلميذ » وقاية من هذا الداء ، فقد يستطيع التلميذ الفقير أن يقضى العام كله بثوب واحد ، ما دام يتعهده بالصيانة والتنظيف ، ولن يكون فى ذلك ما يحرجه أمام رفاقه ، لأنه لم يلبس غير الثوب المطلوب

ومن أعجب العجب أن نفكر فى الطب لجميع أمراض المجتمع ثم ننسى الطب للأمراض التى يتعرض لهـا التلاميذ ، وهم بحكم أسنانهم الصغيرة معرّضون للآفات النفسية ، لأنهم يعجزون عن مقاومة آفات النفوس ، ولأن رفاقهم لا يعفونهم من الغمز والتلويح ، إذا رأوهم فى أثواب لا تقى لابسيها من التعرض للازدراء . . . وكل ثوب لا يكون ابن يومه هو فى نظر التلميذ علامة فقر وإملاق ... وكان الله فى عون من له أبناء يتعلمون فى المدارس المصرية ، ولو كان من الأغنياء !

وهنالك ظاهرة غريبة لا يلتفت إليها أكثر المربين ، فالتلميذ الذى يستحى من شكوى حاله إلى أبيه ، لا يستحى من الشكوى إلى أمه ، وليس بينه وبينها حجاب ، والأم امرأة لا مرء ، وإحساس المرأة بتفاوت الأزياء أحدّ من السيف الصقيل

فما ذا تصنع الأم ؟ إن بلّغت الشكوى إلى زوجها كدرته بلا موجب ، لأنها تعرف عجزه عن تحقيق ما يريد ابنها « الطفل » ، وإن كتمت شكواها وشكواه عاش البيت فى جو لا يطمسه غير رماد لا يحتمل عصف الرياح

ومن المزعج أن الأغنياء لا يكتفون بإسباغ الأثواب الجميلة على أبنائهم المنعَّمين ، وإنما يزوّدونهم بالمـال فى كل يوم ،

ليُقبِلوا على « مَقصف المدرسة » إقبال الأفاعي على الأوطاب . والمنصف أن يتصور كيف يكون حال التلميذ الذي لا يجد في جيبه غير قرش واحد بجانب التلميذ الذي يجد في جيبه عشرات القروش ؟

ذلك تلميذ يشتري شطيرة مكوَّنة من الخبز والفول بقرش أو نصف قرش ، وهذا تلميذ يلمّ بجميع ما في المقصف من ألوان وأصناف ، ثم يشاء له « أدبه » أن يزهد في الماء فلا يشرب غير منقوع المنجة أو الليمون

وليكن مفهوماً أن طبقات التلاميذ في الحاضر هم طبقات الرجال في الاستقبال ، ومعنى هذه اللفتة أن تناحر الطبقات في الغد توضع بذوره في المدرسة ، المدرسة التي أقيمت لتشييد صروح الأخلاق !

فما أعجبَ ما نصنع بأبنائنا ، وهم في أصل الفطرة أبرياء !

ثم ماذا ؟ ثم يشاء الأغنياء — عفا الله عنهم — أن لا يعود أبناؤهم إلى المنازل إلا في سيارات خصوصية !

وهنا أذكر حادثاً رواه أحد المفتشين ، قال :

« اتفق مرةً أن يدوم عملي في التفتيش على إحدى المدارس إلى الحصة الأخيرة ، فخرجت وقد أُعييت ، ولم أكد أخرج من باب تلك المدرسة حتى واجه الصفير آذاني من كل صوب ، فشعرت بدُوَار مخيف ، وبدا لي أن لا نجاة من أخطار السيارات التي تنتظر أبناء الأغنياء . ثم جمعت ما تبدد من قواي ونظرت حواليّ فرأيت التلاميذ الفقراء يتسللون إلى الطريق في ذلة وانكسار ، كأنهم طرائد لعار ورثوه عن آبائهم المساكين ! »

فما الموجب لأن يرجع بعض التلاميذ إلى منازلهم في سيارات خصوصية ، وفي طنطنة تجسّم ما بين الطبقات من فروق لا يسكت عنها الناس إلا عاجزين ؟

ما الموجب لذلك ولأكثر التلاميذ مواصلات أنفعُها المشي على الأقدام ليعوّدوا مواجهة الصعاب ، إن كان المشيُ عشر دقائق من جملة الصعاب ؟

إن صعادة سامي بك راغب وكيل وزارة المالية يصل إلى مقرّ عمله من طريق « المترو » ثم « الترام » وكأنه في مثل حالي !

ومنذ يومين صادفت الأستاذ خيري بك مراقب منطقة القاهرة حيران في ميدان باب الحديد ، لأنه وجد جميع قطارات « الترام » مشغولة — ومن ذلك فهمت أنه لا يقتني سيارة — وقد اشترك مع بعض زملائه في « تاكسي » ليصل إلى وزارة المعارف في الوقت المحدد . وكبار الموظفين في مصر لا يقتنون سيارات ، إلا أن يكونوا من محدَثي النعمة ومن هواة الشهرة بالترف والنعيم . . .

وهل أنسى أن الأستاذ نجيب بك حتاتة حدثني أنه لم يعرف المستر دنلوب إلا في الترام ، وكان المستر دنلوب في الأيام الخوالي طاغية وزارة المعارف ؟

وخلاصة القول أن الأغنياء في مصر لا يعرفون ما يجنون على أنفسهم وعلى أمتهم بما يتورطون فيه من إعلان الغنى والثراء

أيكون للغِنى هذا البريق الذي يزيغ الأبصار والبصائر ؟

ألا يرعوى بعض الأغنياء عن إعلان غناهم بتلك الطرق البهلوانية ، ليقوا بلادهم شر الفتنة المخوفة من حقد الفقراء على الأغنياء ؟

كل شيء جائز ، إلا أن تمتد ألسنة هذه النار إلى المدارس ، وهي فيما نرجو محاريب لا يتوجَّه إليها غير من تنزهوا عن التكبر والاستعلاء

أما بعد فما رأي وزير المعارف ؟

ما رأيُه في الدعوة إلى أن تكون المدرسة كالمسجد ، وفي المسجد حصيرٌ واحد لجميع المصلين ، ولو كان فيهم وزراء وأمراء ؟

يجب أن يكون « شعار التلميذ » واحداً لجميع التلاميذ ، ولو كان فيهم أبناء فلان وفلان ، لأنهم جميعاً جنود ، والملابس واحدة لجميع الجنود ، فإن لم يراع هذا وزير المعارف فسنسجل عليه أنه فرّط قليلاً في حق هذا الجيل

في مدارس البنات

يظهر أنه لا مُوجب للخوف من التنافس بين تلميذات المدارس فيما يتصل بالأزياء ، فالمرايل واحدة للجميع ، وهي تستر ما تحتها من الملابس القطنية أو الصوفية أو الحريرية ، إن صح

أن عند البنات من العقل ما يكفهن عن التطلع إلى ما تحت « المرايل » من أثواب !

ومع ذلك فلا بد من أن تحرص ناظرات المدارس على النظر فى هذه الدقائق ، لنضمن سلامة التلميذات من التنافس فى الأزياء

والناظرة أمٌّ ثانية ، وتعقّبها لهذه الشؤون لا يعدّ من الفضول ، وستظفر بالثناء من الأغنياء قبل الفقراء

أما المقصف فحاله فى مدارس البنات كحاله فى مدارس البنين وهو مصدر شر وبلاء ، ومن الواجب أن لا يباع فيه غير الأطعمة الضرورية ، بحيث لا تجد التلميذة غير « تصبيرة » تدفع الجوع الذى يطرأ قبل وقت الغداء ، أما تزويد المقصف بكل ما لذّ وطاب فهو فرصة لنمو العادات السخيفة ، كالتباهى بالغنى والترف والنعيم ...

وبدعة صَبغ الوجوه بالألوان قد وصلت إلى بعض تلميذات اليوم ، ولعلها وصلت إلى بعض المعلمات !

فلتنظر فى ذلك ناظرات المدارس ، فالتلميذات سيكن فى المستقبل ربات البيوت ، والرياضة على إيثار اللون الطبيعى ستنفعهن كل النفع ، فاللون الخمرىُّ أجمل الألوان ، والإبقاء عليه غاية من الغايات القومية ، لأنه من خصائص هذه البلاد ، ولأنه الوشيجة التى تقرّب بناتنا من أخواتهن فى الحجاز والعراق . وهل استطاع السواد أن يحجب الجمال الفتان عند أخواتهن فى السودان ؟

إن القول بأن « البياض نصف الحُسن » مدسوس على الرسول ، وهو فرية أذاعها الوافدون على العرب من الأقطار الرومية ، فلندفع عن اللون المصرى شر الأصباغ المجلوبة من بلاد لا تعرف من الجمال غير الطلاء

ضرب التلاميذ

العقوبات البدنية ممنوعة بأمر وزارة المعارف المصرية ، وتلك العقوبات موضع خلاف بين رجال التربية والتعليم ، وقد أجازها بعض الإنجليز والألمان ، بحجة أنها عقوبات طبيعية

والواقع أن بعض التلاميذ « يستأهلون الضرب » ولكن إقرار هذا المبدأ قد تكون له عواقب سود ، كما شهدت الحوادث التى ساقت مجترحيها إلى القضاء

والواقع أيضاً أن المدرس قد يكون مسئولاً عن شيطنة التلميذ فى بعض الأحيان ، فهو قد يحاسبه على كل لفتة وكل لفظة بأسلوب يحمله على العناد ، وإذا عاند التلميذ أستاذه كان ذلك بداية الاختلال فى الصفوف

التلميذ لا يجهد نفسه وقت الدرس بقدر ما يصنع المدرس ، ومعنى ذلك أن الإجهاد قد يعرّض المدرس لسرعة الانفعال ، ولا كذلك التلميذ ، فهو فى راحة نفسية تجيز له أن يضحك من غير موجب ، وقد يرسل النكتة لمنظر يراه من المدرس أو من بعض التلاميذ

وهنا تسنح الفرصة لإبراز قدرة المدرس على ضبط النفس ، ولو شئت لقلت إن من واجب المدرس أن يرحب من وقت إلى وقت بشيطنة التلاميذ ، لأنها من مظاهر الحيوية ، ومن الشواهد على أنهم أصحاء

وهل تكون المدرسة فى كل أوقاتها كدحاً فى كدح ، ونضالاً فى نضال ؟

إن العلة الأساسية هى الشعور بأن التلميذ مسئول عن النظر إلى الدنيا بعين المدرس ، وهذا شعور خاطئ ، فالمدرسون والتلاميذ يمثلون جيلين مختلفين ، ولا يتم بينهما التوافق إلا إذا روعى هذا الاختلاف

وإذا شعر التلميذ بأن أستاذه يتجاوز عن هفواته فى بعض الأحايين أضمر له الحب ، وانساق إلى الطاعة بأدب وإخلاص

أكتب هذا وتحت يدى وثائق تشهد بأن ضرب التلاميذ لا يزال مباحاً فى بعض المدارس الأولية والابتدائية ، أما المدارس الثانوية فتلاميذها يستطيعون الدفاع عن أنفسهم إذا اشتجر القتال !

الضرب ممنوع ، ممنوع ، ممنوع

والمدرس الحق هو الذى يشغل تلاميذه عن اللهو بجذبهم إلى موضوع الدرس بحيث تضيق صدورهم من التلميذ الذى لا يراعى أدب الاستماع ، ومتى صار التلاميذ من جنود المدرس أصبح من حقه أن يقول إنه من كبار المربين

الغداء في المدارس

أكثر المدارس الأهلية والأجنبية لا تقدّم لتلاميذها طعام الغداء ، فما سبب ذلك ؟

يرجع السبب إلى أن المصروفات المدرسية بدون الغداء تبدو هينة ، فإذا أضيف إليها الغداء ظهرت عسيرة الاحتمال

والمدارس التي لا تغذى تلاميذها تسمح لهم بالخروج ساعتين ، ليتغدوا في بيوتهم أو حيث شاءوا . وفي أغلب الأحوال يأخذ التلاميذ من آبائهم ثمن الغداء ، ثم يتغدون في المطاعم السوقية ، وقد يؤثرون الجوع ليدخروا من تلك القروش ما يعينهم على قضاء بعض السهرات ... والمهم هو النظر في الساعتين اللتين يقضيهما التلميذ بعيداً من المدرسة وبعيداً من البيت ، فماذا ترونه يصنع في هاتين الساعتين ؟

هل ترونه يصنع ما كان يصنع أمثاله يوم كانت الدنيا بخير ، ويوم كان التلميذ يذهب إلى أقرب مسجد فيصلي الظهر ثم يراجع دروسه بشغف وشوق ؟

يظهر أن الأمر لم يعد كذلك ، ويظهر أن لا مفر من وصف هاتين الساعتين بالمشئومتين ، ففيهما يعرف التلميذ أشياء لا تخطر المدرسة في بال

وإذن يجب منع التلاميذ من الخروج وقت الظهر ، ويجب أن يتغدوا في المدرسة ، لا في السوق ولا في البيت ، وفي مثل هذه الحال تمدُّ لهم المدرسة غداء قليل التكاليف ، لتبقى السهولة في المصروفات . وأهونُ طعام تمدُّه المدرسة سيكون أنفع للتلاميذ من طعام السوق ، وأصون لهم من الجرى في الطرقات

فإن لم تستطع هذه المدارس أن تغدّى تلاميذها وأن تصونهم من قضاء ساعتين بلا رقابة مدرسية ولا بيتية ، فيجب حتماً أن تسير على النظام الذي اختارته بعض المدارس الأجنبية ، وهو قضاء اليوم الدراسي في وقت موصول ، بحيث ينتهي في منتصف الساعة الثانية ، ثم يخرج التلاميذ إلى بيوتهم ليقضوا بقية النهار تحت رعاية الآباء

وأرجو أن يسمع بعض خلق الله هذا الكلام ، وما أحب أن أزيد .

بين النظار والمدرسين

توجد أزمة مكبوتة بين النظار والمدرسين ، ومَرَدُّ هذه الأزمة إلى الوهم الذي يقول بأن الناظر هو صاحب الأمر كله في الدار المدرسية ، بحيث لا يتصرف المدرسون أقل تصرُّف إلا بعد الاستئذان

وهذه الحال تُشعر المدرس بأن الصلة بينه وبين الناظر صلة رسمية لا تعليمية ، والفرق بين الصلتين بعيد ، فالصلة الرسمية لا تصل بالمدرس إلى حب الدار المدرسية ، أما الصلة التعليمية فتصل به إلى الشعور بأنه في داره وبين عشيرته الأقربين

ويؤلمني أن أصرّح بأن المدرسين لا يحبون مدارسهم إلا في أندر الأحيان ، فما سمعنا أن مدرساً في قنا رفض النقل إلى القاهرة بحجة أنه يشعر بأن بينه وبين مدرسته صلة روحية ، وإنما سمعنا أن المدرس يطلب النقل من مدرسة إلى مدرسة لأسباب بعيدة كل البعد عن المعاني التعليمية

فهل يكون للصلات بين النظار والمدرسين أثرٌ في خلق هذا العقوق ؟

أنا أتمنى أن يوجد عندنا المدرس الذي يرى في أحجار مدرسته شمائل قدسية ، فلا يرضى بفراقها ولو كانت في الواحات

وأتمنى أن يوجد عندنا الناظر الذي يشعر بالأبوّة للتلاميذ والأخوّة للمدرسين

بأيديكم أيها النظار والمدرسون أن تخلقوا في الجو المدرسيّ روحانية تعوّض ما يفوتكم من المناصب المحفوفة بالبريق الخلاب ، فإن غفلتم عن هذا الجانب فستظلون في الاكتواء بالمهنة التي لا تسعد غير من يُقبل عليها بصدق وإخلاص

أخطار تهدد المدارس الأهلية

للمدارس الأهلية تاريخ مجيد ، فقد عاونت على نشر التعليم ، وأمدت الأمة بجمهور كبير من المثقفين

ولكن هذه المدارس معرَّضة لأخطار قد تأتي على بنيانها

٣ – كليلة ودمنة

للدكتور عبد الوهاب عزام

ص ٩٥ س ٧ : (إن أرضاً يأكل جرذانها مائة منّ من حديد ليس بمستكبر لها أن تختطف بزاتها الفيلة) ، قال الناقد الفاضل : (ابن المقفع – فيما أشعر – لا يقول هذه الكلمة ، بل يقول بمستنكر) . ومما يجدر ذكره أن استكبر الشيء بمعنى رآه كبيراً وعظم عنده ، قولٌ منسوب إلى الإمام ابن جنى ولم يقله عامة اللغويين ... الخ

أقول : هذا القول جاء فى كتب اللغة كثيراً منسوباً إلى ابن جنى وغير منسوب ، وهو مقيس مسموع . وأرى أن (أُمستكبر) أولى بهذا الموضع من (مستنكر) ، لأن الاستنكار أن يعدّ الأمر نكراً ، والاستكبار أن يعدّ كبيراً ، ومرجع المعنى فى هذه الجملة إلى أنه مستكبر للبزاة أن تختطف الفيلة لا إلى استنكار هذا . ثم استعمال كلمة (لها) دون (عليها) أقرب إلى الاستكبار . فإن جاز أن توضع مستنكر هنا فمستكبر فى رأيى أقرب إلى سياق الحديث وأخصّ فى المعنى

ص ١٠٧ س ٦ (إذا جئتنى بالليل من غير نداء ولا رمى ولا شيء يرتاب به) قال الناقد : فما ذلك الرمى ؟ الصواب : « ولا رمز » وأقول إن الرمى هو الصواب لأن الرمز فى أغلب معانيه إشارة باليد أو غمز بالعين أو الحاجب . وهذا مما لا يبين بالليل وإنما أراد الكاتب أن ينبذ إليها شيئاً تعرف به حضوره .

ص ١١٥ س ١٣ وصفحات أخرى (رأس الخنازير وسيّد الخنازير) قال : عندى أنها رأس الخبّازين وسيّد الخبّازين . واستدل ببعض النسخ . وأرى أن الخنازير أقرب إلى الصواب لأن دمنة وصف هذا الرئيس بصفات الخنازير . وليس فى وصفه بأنه صاحب المائدة ما يجعله خبازاً ثم تسمية رئيس الجماعة سيدهم كما يقال سيّد الخنازير أقرب من أن يسمى رئيس الصناع سيدهم فيقال سيد الخبازين . وقد بينت اختلاف النسخ فى هذه الكلمة فى التعليق الحادى عشر من باب الفحص من أمر دمنة .

وعن هذا التعليق أخذ الناقد روايات النسخ التى استدل بها . ومن غريب ما وقع فى هذا النقل أنى قلت فى التعليق (وفى نسخة شيخو والسريانية) أعنى النسخة السريانية الحديثة فقال الأستاذ فى النقد : (وفى نسخة شيخو السريانية) . وليس لشيخو نسخة سريانية

من الأساس ، لا قدر الله ولا سمح ، فلتلك المدارس على الأمة حقوق

هذه المدارس لا تفكر فى استبقاء المدرس ، ولو وثقت به إلى أبعد الحدود ، فهو عندها ضيف يرحل متى شاءت أو شاء ، والرباط بينها وبينه عَقدٌ يُشترَى بملاليم وتخط فيه كلمات عديمة المدلول ، وإلا فكيف يجوز أن يبقى المدرس بلا علاوة ولا ترقية ولو أفنى شبابه فى تلك المدارس ؟

هل سمعتم أن مدرسة أهلية أغنت مدرسيها عن التطلع إلى الوظائف الأميرية ؟

لبعض تلك المدارس عذر مقبول ، كأن تكون قليلة المال ، أو مثقلة بالديون ، فما عذرُ المدارس التى أمدت أصحابها بالثراء العريض وجعلتهم من أعيان البلاد ؟

ولو كان هذا المسلك ينفع تلك المدارس لقلنا إن لها غاية اقتصادية ، ولكن هذا المسلك لا يجلب عليها غير الضر ، ولا يسوق إليها غير البوار . وما قيمة مدرسة يشعر تلاميذها بأن أساتذتهم ليسوا إلا معلمين ضاقت عنهم المدارس الأميرية فلم يجدوا سعة فى غير المدارس الأهلية ؟

لو كان لأصحاب تلك المدارس نصيب من الفهم الصحيح لقواعد الاقتصاد لجعلوا من وسائلهم إلى الثروة أن ينافسوا الحكومة فى تزويد مدارسهم بأكابر المدرسين ، ويومئذ تشعر الحكومة بأن لها منافسين أقوياء ، فيرتفع قدر المدرس ، وترتفع أقدار المدارس ، ويُنقَض الوهم القائل بأن التعليم « مهنة بلا مجد »

وعند الله يحتسب المدرسون جهادهم فى خدمة التربية والتعليم فهو عز شأنه لا يضيع أجر المجاهدين الصادقين

زكى مبارك

ص ١٢٧ س ١ : (وأخفت علىّ الشبكة حتى لجت فيها وصويحباتى) ؛ قال الناقد : إنما هو لحج — أى نشب — وقوله فى هذا سديد جيد ، أرجو أن يكون ابن المقفع أراده

ص ١٣٣ س ١٥ : (وكان الضيف رجلاً قد جال الآفاق) قال : والفعل جال لا يتعدّى بنفسه ، والوجه جال فى الآفاق .
أقول : والأمر فى هذا هين ، فقد قيل جوّل البلاد وجول فيها ولا يبعد أن يعدّى جال بالتضمين أو ضرب من التوسع

ص ١٣٩ س ٨ : (وانقلبت ظهر البطن وانجررت حتى دخلت جحرى) . قال : وإنما هى انحدرت — أى نزلت فى سرعة إلى الجحر — أقول : كان هذا وجهاً لو كانت الجلة « وانجررت فى جحرى » ، ولـكنها : « انجررت حتى دخلت فى جحرى » ، فقد جرّ الجرذ نفسه حتى بلغ الجحر . ولا يلزم أن نتصور الحجر فى مكان منخفض ، فنضع انحدر مكان انجرّ

ص ١٥٠ س ٧ (إن كان (العدو) بعيداً لم يأمن من معاودته وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده)

قال : متكشفاً أى بادياً ظاهراً وهى لا تساير الـكلام ، والصواب مكثباً أى دانياً الخ

ورأيى أن هذا ليس صواباً . فإن الاستطراد أن ينهزم المقاتل أمام قرنه ليكر عليه فهو ضرب من المـكيدة يراد به إبعاد القرن عن فريقه أو نحو هـذا . ومعنى الـكلام هنا أن الإنسان ينبغى أن يكون على حذر من عدوه فى كل حال ولا ينخدع بالحالات التى يظن فيها العدو بعيداً أو مهزوماً فإن رأى عدوه متكشفاً ظاهراً له غير ممنوع منه أو متظاهراً بالهزيمة فلا يأمن أن يكون هذا استطراداً يريد أن يخدعه به ليكر عليه . فإن وضعنا كلة « مكثباً » أى دانياً موضع « متكشفاً » اختل الكلام اختلالاً وكان معناه إن رأيت العدوّ قريباً فلا تغتر بقربه فلعله يريد أن يستطرد لك . وهو كلام متهافت ، لأن اقتراب العدو ليس من أحوال الخداع التى يغتر بها عدوه ، فيقال له : لا تغتر بقربه ، فإنه يستطرد لك . ثم حالة القرب مذكورة بعد هذه الجلة : (وإن كان متكشفاً لم يأمن استطراده ، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته)

١٦٦ : ١٥ (فإن الشر يدور حيثما دارت) . قال : هى حيثما دُرتَ — وليست كذلك فالضمير راجع إلى الطبائع المذكورة فى الجلة (أرأيتك لو أحرقناك بالنار كان جوهرك وطباعك يحترق معك ؟ فإن الشر يدور حيثما دارت)

١٧١ : ٤ (فابتليت ببلاء حرمت على الضفادع) : قال والجلة بهذا الوضع مبتورة ناقصة وتمامها (حرمت على الضفادع من أجله) أى من أجل البلاء وذلك كما فى صفحة ٧٧ من طبعة بولاق

أقول هذا الاعتراض وأشباهه يسيرٌ على من يريد أن يغير أسلوب الكتاب إلى الأسلوب المألوف المعروف كما فعل الكتّاب بنسخ الـكتاب الأُخرى . ولـكنى أزعم أن أمامنا نصاً آخر جديراً بالبحث وأن أسلوب ابن المقفع لا يخلو من أثر الفارسية ولعل هذه الجلة من شواهد هذا التأثير فليس فى الجلة الفارسية عائد على الموصول أو الموصوف . لهذا أثبتها كما وجدتها غير عادل عنها إلى روايات النسخ الأُخرى .

هذا إجمال الجواب عما يحتاج إلى جواب مما جاء فى المقال الثالث من مقالات الناقد الفاضل ، وموعدنا بالجواب عن المقال الأُخير العدد الآتى إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

الفن الجميل

في القرآن الكريم

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

يخطئ من يظن أن دين الله تعالى زهد محض ، وتقشف بحت ، ورهبانية لا تدنى بزينة الدنيا وزخرفها ، وتصوف مظاهره لبس المرقعات ، فلو صح ذلك لم يكن دين الله عاماً صالحاً لكل الناس ، وملائماً لكل زمان ومكان ، بل يكون خاصاً بطائفة من البشر ، تؤثر التقشف على التنعم ، والزهد في زينة الدنيا على التمتع بها . وليس كذلك دين الله تعالى ، لأنه دين عام صالح لكل الناس ، وملائم لكل زمان ومكان ، ولهذا جعل الزهد في الدنيا وزينتها مباحاً لمن يريده ، وأحل التمتع بتلك الزينة لمن يريدها ، حتى لا يكون فيه حرج على أحد في هذه الحياة ، ولا تضيق به طائفة من طوائف البشر ، وتسير الحياة في نظامها الصالح بدون إفراط أو تفريط

وعلى هذا الأساس جاء القرآن الكريم بالفن الجميل من البناء والنحت والتصوير والغناء وغير ذلك ، وذكر الله لنا فيه عهد ازدهار تلك الفنون في بعض ما أنزل من الشرائع ، وأقام من الملك ، وحكى ذلك في أسلوب يفيض مدحاً وإطراء لما ظهر من آثار تلك الفنون في هذه العهود ، ويدل على روعة تلك الآثار وجمالها ، وأنها كانت آية في الإبداع ، ومعجزة من معجزات الفن الجميل ، ومفخرة من المفاخر الباقية الذكر

وقد ازدهر من ذلك في عهد سليمان عليه السلام فنون كثيرة ، فبلغت فيه فنون البناء والنحت والتصوير أوج عظمتها ، ووصلت إلى أرقى ما وصلت إليه عند الأمم المتحضرة في العصور القديمة ، وقد ظهرت آثارها الرائعة فيما بنى سليمان من المساجد والقصور ، وفيما شيد من المدن والحصون ، وإلى هذا يشير الله تعالى في قوله : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) . ١٢ ، ١٣ من سورة سبأ

وكان بيت المقدس أعظم ما تجلت فيه تلك الآثار ، وتبارى في زينته أرباب الفنون الجميلة ؛ وكان داود عليه السلام قد ابتدأ بناء ذلك البيت لعبادة الله تعالى ، ثم مات قبل أن يتم بناءه ، فلما ملك سليمان عليه السلام من بعده مضى في إتمام ذلك البيت العظيم ، وعمل على أن يكون في عصره آية الآيات ، ومعجزة فنون البناء والنحت والتصوير ؛ فجمع له أرباب تلك الفنون من سائر الجهات ، وخص كل طائفة منهم بالعمل الذى تعرفه ، وأحضر الرخام والبلور من أماكنهما ، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح لتتلاءم مع ذلك البيت الذى يريد تشييده ، ويكون منها واسطة العقد وقلادة الجيد ، وقد جعلها اثنى عشر ربضاً ، وأنزل في كل ربض سبطاً من أسباط بنى إسرائيل ، ثم شرع في تشييد ذلك البيت العظيم وأحضر الذهب والفضة والجواهر واليواقيت والدر الصافى والمسك والعنبر والطيب ، وأتى من ذلك بشىء كثير لا يحصيه إلا الله تعالى ، أتته به أساطيله التى كانت تمخر عباب البحار ، وتتنقل فيها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، ثم أحضر المهرة من الصناع وأمرهم أن ينحتوا تلك الأحجار ويجعلوها ألواحاً ، وأن يصلحوا الجواهر ويثقبوا اليواقيت واللآلئ ، فبنى ذلك البيت بالرخام الأبيض والأخضر والأصفر ، وعمده بأساطين البلور الصافى ، وسقفه بأنواع الجواهر الثمينة ، وفصص سقوفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر ، وبسط أرضه بألواح الفيروزج ، فلم يكن على وجه الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك البيت ، حتى كان يضىء في الظلمة كالقمر ليلة البدر

وقد زاد في زينة ذلك البيت ما نقش فيه من الصور الجميلة ، وما أقيم فيه من التماثيل البديعة ، وكان بعضها مصنوعاً من النحاس وبعضها مصنوعاً من الرخام وبعضها مصنوعاً من الزجاج ، وكان منها ما يمثل صور الملائكة ومنها ما يمثل صور الأنبياء ، ومنها ما يمثل صور الصالحين ، ومنها ما يمثل صور السباع والطيور وغيرها . وكان من معجزات تلك التماثيل تمثالا أسدين كانا

موضوعين تحت كرسي سليمان عليه السلام ، وتمثالا نسرين كانا موضوعين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط له الأسدان ذراعيهما ، وإذا جلس على كرسيه أظله النسران بأجنحتهما

وإن ننس لا ننس حديث الصرح الذي شهده سليمان لبلقيس ملكة اليمن ، وأشار الله تعالى إلى عجيب شأنه في قوله (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) — ٤٤ — من سورة النمل

فهذا الصرح كان آية من آيات الفن الجميل ، وهو يدل أكبر دلالة على عظم ازدهاره في ذلك العهد ، وكان سليمان قد شيد ذلك الصرح لبلقيس ليريها عظمة ملكه ، ويطلعها على براعة أرباب الفنون في دولته ، فأقامه من الزجاج الأبيض كالماء ، وأجرى الماء تحته ، وألقى فيه السمك والضفادع وغيرهما من دواب البحر ، ثم وضع سريره في صدر المجلس وجلس عليه ، فلما أقبلت بلقيس قال لها سليمان ادخلي الصرح ، فحسبته لجة أي ماء عظيما ، وكشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان في صدر المجلس ، فقال لها إنه صرح ممرد من قوارير ، فحينئذ سترت ساقيها ، وعجبت من ذلك غاية العجب ، وعلمت أن ملك سليمان من الله تعالى ، فأسلمت لله رب العالمين

وكذلك ورد فن الغناء في القرآن الكريم منسوباً إلى داود عليه السلام ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد) ١٠ من سورة سبأ ، ولهذا يقال — نغمة داود — مثلاً في طيب الصوت ، وكان عليه السلام إذا قام في محرابه يقرأ الزبور عكفت عليه الوحش والطير تصغي إليه ، ويقال أيضاً — مزامير داود — لأنه فيما قيل كان له مزامير يزمر بها إذا قرأ الزبور ، فكان إذا اجتمع عليه الإنس والجن والوحش والطير أبكى من حوله . وقال المبرد : (مزامير آل داود كأنها ألحانهم وأغانيهم) ، وقال غيره : (إن طيب صوته ونغمة نغمته شبها بالمزامير ولا مزامير ولا معازف هناك)

وكان عثمان بن عفان أول من عني بتلك الفنون في الإسلام ، ولهذا أخذ عليه أعداؤه أنه بدل الإمارة على المسلمين من زي النسك إلى زينة الملك . وقد نقل ذلك أبو نصر العتبي في كتابه (اليميني عن رسالة البحتري في الترجيح بين الصحابة) ، وهذا شيء نراه مفخرة لعثمان رضي الله عنه — وإن رآه أولئك المتنطعون في الدين مذمة له — وقد أخذ عثمان بهم بتزيين المملكة الإسلامية بعد أن استقر أمرها ، وتغلبت على دولتي الفرس والروم ؛ فلم يعد من اللائق أن تبقى على مظاهر البداوة ، وقد دان لها من دان من أهل الحضارة

وكان مسجد المدينة أول ما عمد إلى تشييده ، فهدمه وبناه بالجص والحجارة ، وأحضر له مهرة البنائين من المملكة الإسلامية الواسعة . ثم أتى الوليد بن عبد الملك فأرسل إلى عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز ، فزاد في المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى جدرانه بالفسيفساء ، وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر

فيا رب هذا دينك جميل كل الجمال ، وليس فيه شيء من ذلك الحرج الذي أفسد أذواقنا ، وأغلظ طباعنا ، وعكس موازين الحسن والقبح بيننا ، حتى صرنا نرى الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً . ولا شك أن الفنون الجميلة هي التي تهذب الوجدان ، وترقق العاطفة ، فلا يسع أي دين أن ينكر فضلها ، أو يغض من شأنها . وقد ذكرنا من أمرها في القرآن ما فيه الكفاية لبيان شأنها فيه

عبد المتعال الصعيدي

اتجاهات الاقتصاد النازي

للأستاذ فؤاد محمد شبل

كلمة عامة

من المبادئ الأساسية للحزب الوطني الاشتراكي أن صالح المجموع يجبُّ صالح الفرد، وهذا يعني خضوع مصالح الأفراد لما تعتبره القوة الحاكمة في الدولة مصلحة للجماعة. ويتخذ القائمون على شئون ألمانيا اليوم هذا المبدأ ستاراً لتدخل الدولة في الشئون الاقتصادية للأفراد تدخلاً غير محدود المدى

وإنه وإن كان النظام الاقتصادي النازي ينافي في جوهره مبدأ «إدارة الدولة» إلا أنهم في الواقع قد بسطوا إشراف الدولة والمجالس البلدية على كثير من المشروعات. ومن المفارقات أن رجال النازي رغماً عن ذلك ينادون باعتناقهم المبدأ القائل بأن الحياة الاقتصادية يجب أن يكون قوامها الحافز الفردي والمشروع الفردي بمعنى الملكية الفردية لأدوات الإنتاج، وتحمل الفرد لأخطار المشروع، لكنهم يطالبون بخضوع الفرد لإشراف الدولة وتوجيهها. وليس هناك ما يغضب الألمان أكثر من تشبيه نظامهم الاقتصادي بالنظام الاقتصادي السوفيتي، وتراهم يقولون في معرض تفسيره والدفاع عنه أن نظامهم في جوهره لا يعتبر نهجاً اقتصادياً إذ ليس ثمة هيئة مركزية عليا تشرف على تنفيذ النهج، ولا نهج تسعى هذه الهيئة لتحقيقه على نحو المتبع في مشروع الخمس سنوات الذي تتبعه روسيا. فمشروع السنوات الأربع الأولى في ألمانيا كانت الغاية منه القضاء على التعطل والثانية لتحقيق الاستكفاء الاقتصادي للبلاد والاستعداد للحرب

ويسود الحياة الاقتصادية الألمانية نظام يدعونه نظام الزعامة، مبناه أن يقوم على كل جماعة منتجة «زعيم» تأتمر الجماعة بأمره، وهو مسؤول عن توجيه الإنتاج الخاص للجماعة إلى خير الوجهات التي تتفق والسياسة العليا المرسومة. على أنه قد خفف من قوة ضغط نظام الزعامة هذا في الصناعة، فعدل في السنوات الأخيرة بأن أوجدوا سلطة عليا تستأنف إليها آراء الجماعة عند اختلاف أعضائها وعدم وصولهم إلى قرار حاسم، هذا ويوجد جيش من الموظفين الرسميين مهمته التحقق من نفاذ قوانين الحكومة التي لا عد لها ولا نهاية، ويتجلى هذا التدخل بنوع خاص في كل ما يتعلق بالبيوت التي تعمل في التجارة الخارجية أو التي تطلب تصاريح للحصول على مواد أولية

وإذا استقرينا النظام الاقتصادي الألماني وجدناه يعوزه كثيراً وجود الارتباط بين أجزائه المختلفة، مما أفضى إلى نشوء كثير من المتاعب، وسبب خسارة في سجايا الفرد وكفايته الطبيعية. وليس أبعد عن الحقيقة من تصور الاقتصاد الألماني يسير ويعمل كالساعة دقة ونظاماً. فهذا النظام صورة براقة خلابة، لكنها زائفة مستعارة. وليس أدل على ذلك من التصريحات الكثيرة التي يذيعها قادة ألمانيا والمتكلمون عن سياستها الاقتصادية من أن هذا التدخل البعيد المدى في الحياة الاقتصادية والتنظيم الدقيق أمر وقتي وغير طبيعي وهو نتيجة للضروريات التي تجتازها ألمانيا ولا يلبث أن يذهب بذهابها

وإننا في هذا المقال سنجلو بعض الحقائق عن هذا النظام ثم نتبعه ببيان أساليب ألمانيا التجارية التي تعتبر إحدى صور هذا النظام التطبيقية

١ – هيمنة الدولة على جميع المعاملات المالية

تمكن الألمان بفرضهم رقابة قوية فعالة على التبادل الخارجي، أن يجعلوا اقتصادياتهم بمنأى من تأثير التغيرات التي تأخذ مجراها في بقية أنحاء العالم، فإنه وإن كان في قدرة العوامل الخارجية أن تحدث أثرها في حجم تجارة ألمانيا الخارجية، إلا أنها لا تستطيع أن تنشئ تبايناً واسع المدى بين قيمة كل من الواردات والصادرات عموماً؛ ونتيجة لهذا تمتعت ألمانيا منذ عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٣٧ ما خلا عام ١٩٣٤ بميزان تجاري موافق، فاستطاعت تسديد جزء كبير من ديونها للخارج التي ما فتئت تحد من حريتها في علاقاتها التجارية مع البلاد الأخرى. وثمة نتيجة أخرى لتقييد التبادل الخارجي، وهي فصل النظام النقدي الألماني والأسعار الداخلية عن الأسعار المالية التي أصبحت بعيدة عن تأثير الذهب؛ ومما يتصل بتقييد التبادل الخارجي وضع قيود شديدة على خروج الأموال ولا سيما العملة الأجنبية من البلاد

ولقد أصبح النظام النقدي في داخل ألمانيا قائماً على المبدأ العام الآتي، وهو أن حجم النقود والائتمان الموجودة في التداول يجب أن يتمشى مع الزيادة في الإنتاج وحصول السلع والخدمات،

وهذا ما يعبرون عنه بقولهم : the engenkonjuuktur statt pre'skonjunktur ؛ وبعبارة أخرى يرى الألمان إلى أن يكون نشاط الأحوال الاقتصادية ممثلاً في حجم الإنتاج ، لا القيمة الناجمة عن ارتفاع السعر

كما أعار الألمان اهتماماً فائقاً للحقيقة الاقتصادية الآتية : وهي أن المنبع الحقيقي لثروة جماعة ما هو العمل والإنتاج فحسب ، واعتبروا النقود شيئاً ثانوياً بالنسبة لها ، وإن لم يغفلوا دورها الهام في تمويل المشروع في جميع أشكاله ، كما اعتبروا الإنتاج الصناعي أهم أنواع الإنتاج

ولقد طبقوا في عملهم سياسة تبدو لأول وهلة أنها سياسة تضخم ، وذلك أن بنك الريخ خاصة ، والبنوك الأخرى عامة ، أنشأت أدوات المبادلة (سواء أكانت نقوداً ورقية أم اعتمادات) قبل عملية إنتاج الثروة ، إذ الأصل أن يتبع حجم النقود المتداولة حجم الثروة المنتجة . ولقد أظهرت التجربة أن خلق النقود يحمل معه ارتفاعاً تضخمياً في الأسعار ، ما دام أن هناك قدراً كبيراً من مصادر الثروة العاطلة وجزءاً من الطاقة الإنتاجية لا يستغل في الوجوه المنتجة المثلى . ولكي تتفادى أخطار التضخم ورزاياه يجب توفر شرطين : الأول ثبات مستوى الأجور ثباتاً جوهرياً . والثاني ألا يصحب عملية خلق النقود مجال ما تصدير رأس المال على نطاق واسع ، وهذا ما سعت ألمانيا إلى تحقيقه عن طريق تدخل الدولة

ولم تك ألمانيا بانتاجها هذه السياسة مسيرة بالاعتبارات المؤسسة على الفكرة والتحليل الاقتصادي فحسب ، ولكنها اضطرت إلى ذلك تحت ضغط الظروف التي ألفتها محيطة بها في عام ١٩٣٣ ، ففي هذا الوقت هبط إنتاج السلع الصناعية إلى مستوى غير عادي ، وكانت البلاد تعاني أزمة حادة للعاطلين ، بعكس صناعات الاستهلاك التي كانت تسير سيراً حسناً نسبياً ، وكانت هذه الحالة تعمل على رفع مستوى الأثمان في داخلية البلاد ، ولتفادي هذا رأت الدولة ضرورة ازدهار سلع الإنتاج التي أصابها الكساد أكثر من غيرها ، ولا سيما أن نمو الاستهلاك ينتج عنه زيادة في المستورد من المواد الأولية الخام التي لا يمكن تدبير وسائل تمويلها لافتقار البلاد إلى صكوك الدفع الأجنبية التي بها تدفع هذه الواردات . وعلى ذلك حصرت الدولة مجهودها في تنشيط الإنتاج وتدبير العمل للعمال بتشغيلها في الأعمال العامة وعلى الأخص التي تعتبر إنتاجاً رأسمالياً لا استهلاكياً

وبينما كان الإنعاش يقام مباشرة على اتساع الاستثمار الحكومي الذي اتخذ في مبدأ الأمر شكل أعمال عامة ثم أصبح للتسلح بعد ذلك المسحة التي تغلب على الأعمال العامة ، كان ثمة أمر من الأهمية بمكان غدا يهيمن على حجم الاستثمار الخاص وطابعه . فقد حل مكان الرغبة في اجتناء الربح هذه الغريزة التي تحفز الفرد على الاستثمار والمخاطرة في نظام اقتصادي حر تنظيم متقن محكم رسم في مبدأ الأمر لغرض الحيلولة دون اكتظاظ صناعات خاصة بالراغبين في الاستثمار ثم انتقل بعد ذلك إلى أن أصبحت الغاية منه توزيع الاستثمار وفقاً لأغراض الدولة

ولقد حد تماماً من وظيفة سعر الفائدة كمقياس لتوزيع الاستثمار بما اتخذته الدولة من تدابير تعمدت فيها إنزال سعر الفائدة إلى مستوى يعتبر واطئاً بالنسبة لما يمكن اجتناؤه من توظيف رأس المال لو كان هذا حراً . وتتجلى هذه النزعة في قانون صدر بمنع توزيع حصص فائدة على الأسهم والسندات تربو على ٦ ٪ ، وهذا القانون مضافاً إليه السيطرة على الأصدار الجديدة لرؤوس الأموال كان له أبلغ الأثر في تقليل أهمية البورصة كثيراً وإن بقيت لها وظيفتها في التعامل في الأوراق المالية القديمة

٢ — تثبيت الأجور والأسعار

ظل المستوى الأدنى لمعدلات الأجور على حاله لم يتغير منذ عام ١٩٣٣ رغماً عن زيادة دخول العمال الذين يعملون بالساعة ولا سيما دخول ذوي الأجور الأسبوعية وخاصة الذين يعملون منهم في الإنتاج الصناعي ؛ وهذه الزيادة تعزى إلى أسباب منها : زيادة الكفاءة الإنتاجية ، قلة العمال بالنسبة لكثرة الأعمال ، ذيوع أسلوب الأجر بالقطعة ، العمل الإضافي ... الخ

ولقد أخضعت الأسعار لرقابة كانت آخذة في الشدة من حين لآخر حتى توجت بقانون « وقف الأجور » الذي صدر في نوفبر سنة ١٩٣٦ والذي وقف حائلاً أمام كل زيادة في الأسعار تحدث دون موافقة مندوب الريخ لمراقبة الأسعار . ومنذ عام ١٩٣٣ هوت طائفة كبيرة من الأسعار بفعل تدخل الدولة . بيد أنه ظل كثير منها في ارتفاع . ومهما يكن من الأمر فقد كانت النتيجة الخالصة زيادة مقدارها ١٣ ٪ فحسب في الرقم القياسي العام للأسعار بين ١٩٣٣ ومارس ١٩٣٨

٣ - ابعاد الزراعة عن نظام الأثمان المعتاد

إعتبرت الزراعة الألمانية كلها وحدة تامة منفصلة عن مناحى الإنتاج الأخرى ونظمت على أنها كذلك ، وأصبح الإشراف تاماً على الإنتاج والتوزيع فى كل مرحلة من مراحلهما من وقت وجود المحاصيل فى يد الفلاح إلى وصولها إلى المستهلك . ويختلف مدى الإشراف على عمليات الزراعة كثيراً ؛ ففى حالة الإنتاج يكون الإشراف غير مباشر عادة ويتم من طريق تنظيم الأسعار وإسداء النصائح للمزارعين والدعاية . أما التوزيع فيتم مباشرة غالباً . وليس هناك سعر أعلى أو أدنى يحصل عليه الزارع لقاء محصوله ، ولكنه يحصل على سعر تضمنه الحكومة . وفى جميع المراحل التالية حتى وصول المحصول إلى المستهلك ، يتخذ ثمن الإنتاج أساساً لتحديد السعر على أن يسمح لتاجر الجملة والتجزئة والصانع الخ بالحصول على ربح عن طريق وضع معدل نسبى لكل

وفى خلال عامى ١٩٣٣ و١٩٣٤ ، انتشلت أسعار المنتجات الزراعية من الوهدة التى كانت قد تردت فيها فى سنى الكساد . ثم ثبتت الأسعار إلى مستوى حقق فى حينه عائداً مناسباً ؛ بيد أن هذه الاسعار لم تعد تغل ربحاً فى عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ بسبب ارتفاع تكاليف الزراعة وأسعار المنتجات الصناعية ؛ وكانت الغاية من ذلك التحديد حماية الزارع من تقلبات الأثمان العادية للسوق ، وتوفير أسباب الطمأنينة الاقتصادية له حتى يمكنه أن يتوفر على أداء واجبه فى إمداد الشعب الألمانى بمطالبه الغذائية الأساسية ولا سيما فى وقت الحرب

ولاعتبارات اجتماعية وسياسية وحربية نظر إلى الزارع نظرة خاصة . فعد جديراً بحماية الدولة ومساعدتها واعتبرت الزراعة طريقة للحياة لا وسيلة من وسائل عدة لاكتساب العيش . وأوحى إلى الزراع أنهم رمز نقاء العنصر الجرمانى وقوته . ولقد توجت هذه الآراء المتطرفة بقانون الوراثة الزراعية الذى عمل على خلق عدد كبير من الملكيات الزراعية من الأب إلى الإبن مجردة عن احتمال وقوعها فى الرهن والدين فى المستقبل

القضاء على التعطل

أخذ الحزب النازى بعد أن تولى السلطة على نفسه عهداً أن يضمن لكل مواطن ألمانى عملاً . ويتفرع عن اعتراف الدولة بحق كل فرد أن يجد عملاً ، حق الدولة فى إلزام كل فرد بالعمل . وهـذا المبدأ غير محدود المدى ، إذ قد يعنى أن للدولة الحق أن تقرر للفرد نوع العمل ومكانه وساعاته ومقدار الأجر ، مهما تنافى هذا مع مصلحته الخاصة وبيان ميوله ورغباته . وقد يكون لهذا الإجراء مبرر فى أوقات الحرب ، ولكن تطبيق هذا الرأى فى أوقات السلم أمر يتعارض مع حرية الفرد بجميع أشكالها ، وهو يدل دلالة لا ريب فيها على رغبتها فى الحرب واستعدادها لها والتهيؤ لها اقتصادياً على نحو ما يظهر لنا من استعراض تاريخ ألمانيا — الاقتصادى خاصة — منذ عام ١٩٣٣

وفى عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٤ عند ما كانت البلاد ترزح تحت عبء مشكلة المتعطلين ، أوجدت الحكومة أعمالاً لكثير منهم أعمالاً خلقتها الدولة خلقاً لدرء التعطل عن العمال . وكان العمال فى هذه الأعمال يعملون عملاً مرهقاً ، ولا يتناولون لقاءه سوى مصاريف جيبهم وغذاء ومأوى . ولم يكن لهم محيص من القبول إذ لو لم يوجد لهم هذا العمل لكانوا يتناولون الإعانة الضئيلة المخصصة للعاطلين فقط

وفى خلال السنوات ١٩٣٥ — ١٩٣٧ انتهى الأمر إلى هذا النوع من أعمال الترفيه عن العاطلين إذا استوعبت الأعمال الإنتاجية الجديدة كل العمال تقريباً . وإنه وإن كانت معدلات الأجور قد ثبتت بالنسبة لمستوى ١٩٣٣ — ١٩٣٤ إلا أنه لم يكن ثمة ما يمنع رب العمل من عدم دفع أجر أعلى لعماله ، أو العامل من تغيير عمله إذا أمكنه الحصول على أجر أفضل فى مكان آخر . ولقد حرم الإضراب وحتم عرض النزاع بين العمال وأصحاب الأعمـال على التحكيم الإجبارى ؛ كما ألغيت نقابات العمال واستبدل بها جبهة العمل التى كانت عظيمة النشاط فى حماية مصالح العمال . وكان ثمة نوع من تمثيل العمال فى جميع الصناعات عدا الصغير منها

بيد أنه كانت ثمة تغييرات عميقة الأثر فى علاقة الدولة بالعمال أخذت مكانها ابتداء من صيف ١٩٣٨ ، فزيادة توتر الموقف السياسى فى أوربا نتيجة لنزاع ألمانيا مع تشكوسلوفاكيا حمل الحكومة الألمانية على أن تقرر تحصين جبهة البلاد الغربية بأقصى سرعة ممكنة ، والتسرع فى إنجاز برنامج تسلحها على وجه العموم . ولما كانت البلاد قد انتفى منها التعطل تماماً ولم يعد ثمة عمال يزيدون على الحاجة لتشغيلهم فى أعمال جديدة فقد صدر مرسوم فى ٢٨

يونية سنة ١٩٣٨ يخول الدولة الحق فى دعوة أى مواطن ألمانى داخل البلاد ، ليعهد إليه القيام بأى عمل تعتبره الدولة ذا أهمية خاصة عاجلة بالنسبة إليها . وفى ظل هذا القانون نزع مئات الألوف من العمال من أعمالهم الأصلية بعد انتهاء حالة هذه الضرورة

ومهما يكن من الأمر فواضح أن الدولة فى ألمانيا تجمع فى يديها الآن سلطات لا حد لها على عمالها ، وهذه السلطات هى مما لا شك فيه حق من حقوق الدولة ، ولكن مما يميز حالة ألمانيا أنها استعملت فى أوقات السلام منذ تسلم النازى أزمة الحكم ، فى حين أنها فى غيرها من الدول لا يلتجأ إليها إلا فى الأوقات الغير العادية . وهنا يتبادر إلى ذهننا السؤال الآتى : هل تبقى هذه السلطات فى ألمانيا فى المستقبل بعد الحرب ، وبذلك يظل العامل الألمانى مسلوب الحرية فاقد الإرادة فى اختيار نوع ومكان العمل الذى يروقه ؟ هذا سؤال نترك الرد عليه لما يأتى به الغد . على أنه يمكننا أن نقرر مستندين فى ذلك على آراء الثقات الذين زاروا ألمانيا قبل الحرب ودرسوا أحوالها ، أن الحالة هناك وصلت إلى درجة التشبع فيما يختص بتشكيلات الدولة المالية ، وأن إضافة شىء جديد منها إلى الوجود منها فعلاً أمر لن يقابل بالارتياح من لدن الرأى العام الألمانى

٥ — تحقيق الاستكفاء الاقتصادى

تحت ألمانيا قبل الحرب نحو توفير المواد الغذائية والمواد الأولية فى بلادها التى يكون طلبها غير مرن ، أو التى تقطع عنها عند نشوب الحرب ، أو كوسيلة للضغط الاقتصادى أو السياسى إذا تعرضت البلاد للانهيار . بيد أن ألمانيا لا تصبو إلا إلى تحقيق الاستكفاء الاقتصادى التام الذى ينتج عنه توقف تجارتها الخارجية ، فما دامت لا تستورد فهى لا تصدر ، إذ أن غاية ألمانيا من التجارة الخارجية زيادة صادراتها لتدفع بأثمانها ما تشتريه من الخارج

أما فيما يختص بالمواد الأولية ، فقد وجهت السياسة الاقتصادية نحو إحداث تغيير أساسى فى أسس الصناعة من حيث اعتمادها على المواد الأولية النادرة الوجود فى ألمانيا أو التى يلزم استيرادها من الخارج، بأن تستبدل بها مواد أخرى يمكن إنتاجها فى ألمانيا بما يكفى حاجات الصناعات أو معظمها ، أو مواد يمكن استيرادها من الأقطار المجاورة لألمانيا التى لن تشترك فى الحرب طوعاً أو كرهاً . وتحقيقاً لذلك نرى المواد البديلة تأخذ مكان الحديد وغيره من المعادن ، والزيادة الكبيرة فى إنتاج الألومنيوم والمغنزيوم والحديد الخسيس النوع ، وحلول المطاط الصناعى محل المطاط الطبيعى ، والاستعانة بالألياف الصناعية عن القطن والصوف ، وابتكار البنزين الصناعى ... الخ

ولقد عملت هذه الخطة على إضافة أعباء جسيمة جديدة إلى النظام الاقتصادى الألمانى ؛ فسوق الاستغلال أصبحت مكتظة بالمشاريع المختلفة ، فأصبح الاستثمار ينوء بما ألقى على عاتقه من تمويل صناعات الاستكفاء ، ولأنه يزيد من الطلب على العمال فى وقت أصبحت فيه ألمانيا فى عوز تام إليهم ، وأصبحت مشكلة توفرهم فى البلاد من أخطر الشا كل التى تعتبر عاملاً يحد من نشاط الاقتصاد الألمانى . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه الصناعات تعتبر عملاً خاسراً من الوجهة التجارية ، إذ تتضمن ارتفاعاً فى تكاليف الإنتاج يؤدى إلى خفض مستوى معيشة السكان . بيد أن ألمانيا لم تراع سوى شىء واحد ، هو توفير أسس الفوز فى حرب قصيرة الأجل يستطيع تحملها الاقتصاد الألمانى

٦ — تفريق الصناعة والسكان

يعتقد الاقتصاديون الألمان أن تصميم المدينة الصناعية فى الوقت الحاضر وما تحشده جنباتها من عدد عديد من العمال تسكن فى حجر صيقة أمر فظيع لا يمكنهم قبوله . فهم يرغبون أن تقوم سياسة تفريق الصناعة عوضاً عن تركيزها وتجميعها بأن تنشأ مدن صناعية صغيرة موزعة فى أنحاء البلاد

ولقد شرعت ألمانيا منذ تولى النازى أزمة الحكم فى تنفيذ فكرتهم وكان الغرض الحربى هو الغاية الأساسية لتفريق البيوت الصناعية . بيد أن تفريق الصناعة أوجد مشا كل عدة لحياة البلاد الاقتصادية خصوصاً للزراعة . ولقد أنشىء فى برلين معهد أسموه « مجلس النهج المركزى » على اتصال بجميع الجامعات والسلطات الإقليمية للتشاور فى كل المسائل المتعلقة بإنشاء الطرق والمساكن والمصانع والمبانى المختلفة على وجه العموم . واختص المجلس المركزى برسم خطوط سياسة البناء والتعمير العامة للدولة بأجمعها ...

فبينما كان الجزء الأكبر من نشاط بناء المساكن فى ألمانيا منذ عام ١٩٣٣ آخذاً شكل بناء منازل فى المدن الكبرى التى كانت فى عوز شديد إلى المساكن ، كانت هناك حركة بناء مساكن للعائلات الصغيرة فى الضواحى والأرياف . ولقد كانت

شخصيات تاريخية

٤ – تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب

مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

لعل من الغريب أن نرى الديمقراطيـة الأثينية لا تفي تيموستوكل حقه من المجد والسلطان بعد انتصاره في معركة سلامين، بل على العكس من ذلك تنكرت له. ونحن لا نستطيع أن نبخسه حقه كما فعلت معه الديمقراطية الأثينية، فشأنها في هذا ربما لا يختلف في قليل ولا كثير عن شأن الديمقراطيات الأخرى في القديم أو الحديث. ويحدثنا هيرودوت أنها ذهبت إلى أبعد من هذا فعملت على أن تتخلص منه، فأرسلته في بعثة إلى أسبرطة ليطلب إليها أن تمد يد المعونة الحربية إلى أثينا في أقرب فرصة ممكنة، ولكنه فشل في هذه البعثة وعاد إلى وطنه فاستقبله مواطنوه استقبالاً فيه شيء كثير من الفتور، وأخذ عليه الأثينيون بوجه خاص كبرياءه وغطرسته، وحان وقت الانتخابات فلم يظهر اسمه من بين المنتخبين ليكونوا الاستراتيجيين العشرة وهم المشرفون على الحكم في الدولة، وأبعدوه عن الحكم وفضلوا عليه زعيم المحافظين وهو أرستيد. ولعل هناك وجهاً للمقارنة بين هـذا الموقف وموقف الديمقراطية الفرنسية غداة انتصارها في الحرب العالمية الكبرى الماضية، إذ تنكرت هي الأخرى لزعيمها وصاحب الفضل في انتصارها وهو كليمنصو فلم تنتخبه رئيساً للجمهورية؛ بل فضلت عليه شخصاً دونه في العبقرية، بل إنه يعد في حكم المتوسطين. وتعليل هذا بسيط: ذلك أن الديمقراطية تخاف على نفسها من هؤلاء الأبطال الذين يحرزون لها هذا النصر ويشيدون لها هذا المجد أن تحدثهم أنفسهم أن يحكموها عن طريق العنف والاستبداد ككل دكتاتور يستبد بالسلطة بعد اشتداد أمره وازدياد أتباعه، أو بعد نصر يصيبه في معركة تقحم فيها أو بعد نجاح في بعثة أوفد إليها. ومن الطبيعي أن يكون عدم عرفان الجميل على هذا النحو سبباً من الأسباب التي أدت إلى حفيظة تيموستوكل ضد بني قومه، فكانت هذه الغلطة في نظرنا أولى الخطوات التي أدت إلى تطور تيموستوكل من جانب اليونان إلى جانب الفرس حتى جعلته يقلع عن خدمتهم إلى خدمة أعدائهم

هذه الحركة مظهراً من مظاهر تنفيذ مشروع السنوات الأربع الثانية إذ أنه اتصل بحركة إنشاء المصانع الجديدة الخاصة بتحقيق الاستكفاء الاقتصادي للبلاد.

ولقد وجه إلى حركة إنشاء مساكن للعمال ولا سيما التي تقوم على إنشائها المنشئات الصناعية كثير من أوجه النقد، إذ أن هذا من شأنه زيادة اعتماد العامل على مخدومه. والواقع أن خطة الدولة الألمانية تجاه عمالها ذات وجهين، فهي من جهة تجعل من العمال شبه أرقاء لا حول لهم ولا قوة، فترهقهم بالعمل وتحدد لهم أجورهم وساعات العمل ونوعه ومكانه كما تشاء وإذا بها من الجهة الأخرى تعتنق بعض الإصلاحات الاجتماعية التي يقوم بها المجتمع الرأسمالي اليوم

ومن الخير أن نقرر أن طموح ألمانيا نحو هجرة صناعاتها من المدن الكبيرة ونقل العمال إلى الريف لم يتحقق إلا على نطاق ضيق وإن كان ما زال غرضاً تسعى لتحقيقه

* * *

هذه هي المعالم الأساسية للنظام الاقتصادي النازي؛ وتلك هي الاتجاهات التي يسير فيها، يبدو من تفصيها مدى الفراغ الواسع الذي يفصل بينها وبين النظم الاقتصادية الحرة التي تسير عليها دول كبريطانيا العظمى ومصر وفرنسا والولايات المتحدة. وعلى الذين ينظرون إلى هذا النظام من حيث النتائج التي حققها من انتفاء التعطل من ألمانيا ونشاط جهازها الاقتصادي أن يستعرضوا الظروف التي أحاطت بقيامه ثم وجوده، والأسباب التي عملت على وصوله إلى النتائج التي وصل إليها. وفي مكنة الدول الأخرى أن تستفيد من دراسته وأن تأخذ ببعض أساليبه التي حققت فوائد لألمانيا، على أن يلاحظ في تطبيق هذه النواحي أتم الحيطة والحذر، فألمانيا تخالف في روحها ونظمها وتقاليدها الشعوب الحرة الأخرى. فالأخذ بالنظام الاقتصادي الألماني وتطبيقه على علاته كما يبدو لبعض قصار النظر من الناس أمر لن ينتج منه سوى هدم كيان بلادهم وزعزعة نظمها الاقتصادية والاجتماعية وتعريضها للانهيار.

فؤاد محمد شبل

مفتش تموين أسكندرية

وبالرغم من هذا يتجاهل تيموستوكل هـذا التنكر وينسى نفسه ومطامعه ومصالحه الشخصية فيتفق مع خصمه ومنافسه الزعيم أرستيد على برنامج للاصلاح القوى الغرض منه بعث أثينا وإعادتها إلى الحياة بعد أن كانت قد أوشكت على الفناء على أثر غزوة أجرزسيس لها ، وذلك ببناء ما دمر من بيوتها وإصلاح ما خرب من أراضيها ، وكان أساس هذا البرنامج العبارة اليونانية الشهيرة التى مؤداها أن يجعل أثينا تعتمد على ميناء بيريه ، وكذلك الأرض تعتمد على البحر

وهذا البرنامج واسع شاسع لا يمكنه أن يتمه فى يوم وليلة ؛ لذلك نجده يفضل الأهم على المهم ، والضرورى على الزائد عن الحـاجة ، فيشجع على البدء أولاً بإقامة التحصينات اللازمة للدفاع عن الدولة بعد تخريب الفرس لها ، أما بناء البيوت وإزالة الخرائب والأنقاض عنها ؛ وأما إقامة المعابد الجميلة التى تناسب الآلهة فإنه يعمل على تأخيرها إلى فرصة أخرى مناسبة ؛ ثم نراه يحث قومه على الإسراع فى بناء هذه التحصينات حتى يتموها فى شهر واحد تقريباً ، وكانت نتيجة هذا كله أن أصبحت أثينا محاطة بسور متين يبلغ طوله ٩ كيلو مترات

وأنت لا تستطيع أن تظن أن تنفيذ هذا البرنامج سهل يسير ، كلا ثم كلا ! ذلك أن أعداء أثينا واقفون لها بالمرصاد ، مثل الدول المحيطة بها ، كأريجينيا وميجارا وكورنث . وقد فهمت هذه الدول القصد الذى ترمى إليه أثينا ، فأخذوا يتربصون لها ويحقدون عليها ، وعلى الأخص بعد موقعة سلامين ، لأنها كانت تعتبر صاحبة الفضل الأول فى إحراز النصر لليونان جميعاً ، وقد طلبت هـذه الدول إلى أسبرطة التى كانت على رأس الحلف البيلوبونيزى أن تعمل على هدم هذه الأسوار ، فهى تخاف من أثينا أن تستطيع وحدها الوقوف على أقدامها فتنجح فى الدفاع عن استقلالها ضد كل دولة تحدثها نفسها بغزو أراضيها ؛ فإذا ما تمكنت من الدفاع عن هذا الاستقلال والمحافظة عليه ربما أمكنها أن تلعب دوراً مهماً فى البيلوبونيز وفى غير البيلوبونيز . وقد لبت أسبرطة هذا النداء وأرسلت سفراء من لدنها يتكلمون باسمها أمام المجالس الأثينية ، ولـكن تيموستوكل يفسد عليهم خطتهم بسلوكه مسلك الختل والخداع ؛ فهو يحرص قبل كل شىء على أن تقام هذه التحصينات فى أقرب وقت مهما كلفه ذلك من جهد وعناء ، فتمكن من أن يحصل من مجلس « البولى » على قرار بإرساله هو على رأس سفارة إلى أسبرطة لمفاوضة أهل الحل والعقد هناك ، وفى الوقت نفسه طلب إلى أعضاء سفارته هذه أن لا يبرحوا أثينا حتى يتم بناء هذه التحصينات ؛ ثم ذهب إلى أسبرطة وأخذ يفارض ويفاوض ويماطل فى المفاوضة حتى فطن إلى ذلك أعداؤه وأعداء بلاده ، فنبهوا أسبرطة إلى هـذا الخداع وطلبوا إليها الإسراع فى العمل على تنفيذ رغبتهم حتى لا يفلت الأمر من يدهم وبدها . فترسل أسبرطة سفارة ثانية إلى أثينا ولا تكاد تصل هذه السفارة إلى هذه المدينة حتى تكون الأسوار قد تمت بفضل تفانى جميع المواطنين من شيب وشبان ونساء وأطفال فى إتمامها ، فاستطاع بعد ذلك أعضاء وفد تيموستوكل مبارحة أثينا والانضمام إليه فى أسبرطة ، فلما رآهم قد أصبحوا إلى جانبه خلع النقاب وكشر عن الأنياب ورفع الصوت عالياً معلناً لكل من يريد أن يستمع له أن بلاده لا تخضع لوعيد ولا لتهديد ، وأنها إذا أرادت أن تأتى أمراً فى داخل بلادها فهى وحدها صاحبة الأمر فى ذلك ، وهى حرة التصرف فى شؤونها الداخلية لا تقبل من أية دولة ولا من أية جهة أن تتدخل فى أمورها ؛ لذلك فإنها ترفض طلب أسبرطة وحلفائها . وما استطاع تيموستوكل إعلان هذا الرأى إلا بعد أن رأى أن وطنه قد استطاع الظفر فى الحرب ضد الفرس ، بل وأن هـذا الظفر يرجع قبل كل شىء إلى جهود بلاده وتضحياتها ، فإن كانت الدول اليونانية الأخرى قد ساهمت فى إحراز هذا النصر العام فإن هذه المساهمة ضئيلة لا تعد شيئاً مذكوراً إلى جانب ذلك المجهود الجبار الذى بذلته أثينا ، فالعدو قد ضرب أراضيها وانتهك حرمة معابدها وأراضى آلهتها ، والأثينيون بعد ذلك شردوا أيما تشريد ، وهاجروا من وطنهم إلى بلاد سلامين على نحو ما ذكرنا فى المقال السابق ، والأرض الأثينية كانت الميـدان الذى قاسى الأهوال ، وتحمل الـكوارث والمصائب . أما البلاد الأخرى فى البيلوبونيز فلم تقاس شيئاً من أهوال هـذه الحرب . أفهل يحق لها بعد ذلك أن تقسو على أثينا ، وأن تطلب إليها أن تكون مجردة من كل وسيلة من وسائل الدفاع ، وخاصة وأن تيموستوكل

ومع الأثينيون ما يزالون يعتقدون أن الحرب لم تنته وأن الفرس ربما يرجعون مرة أخرى لغزو بلادهم ؟ كلا ! إن ذلك لا يمكن أن يحدث بعد الآن فالدولة الأثينية قد أصبحت رشيدة تستطيع أن تدافع عن مصالحها وحقوقها ، بل وأن تذهب إلى أكثر من ذلك فتتناسى عن السياسة الذاتية إلى السياسة العامة ، وهي سياسة الدفاع عن جميع بلاد اليونان قاطبة . لم يسع أسبرطة أمام هذا الإصدار إلا أن ترضخ فتركت أثينا وشأنها . وقد لامها حلفاؤها وعابوا عليها هـذا المسلك فوصفوه بأنه ينم عن الضعف والتخاذل والإهمال ، لأنه من غير شك سيساعد أثينا على المضي في طريقها بعـد أن رأت أن أكبر الدول اليونانية لا تستطيع أن تمنعها من تحقيق سياستها ، فتشجعت ونهضت بعد هذا البعث الجديد وتمكنت من أن تسير قدماً إلى الأمام لتنفيذ سياستها الأمبريالية وهي سياسة التوسع والفتوح

نجح إذن تيموستوكل في هذه المهمة ، وهي إحاطة أثينا بالأسوار والتحصينات ، ولـكنه لم يهدأ له بال بعد ذلك إذ رأى أن هذه الأعمال الدفاعية لا تحقق الغرض منها إلا إذا أكملت بأعمال أخرى في ميناء بيريه . فيوجه إلى هذا الميناء كل جهوده لاعتقاده الجازم أن هذه الأعمال كلها مرتبطة ببعضها تمام الارتباط ، فلا يصلح عمل منها دون أن يتم العمل الآخر ، وهو كثيراً ما نادى — على نحو ما رأينا فيما سبق — أن مستقبل أثينا على البحار ، لذلك لم يكن من الغريب أن تكون سياسته كلها موجهة نحو البحر ، بل مرتكزه على البحر ، فالبحر في نظره عماد كل شيء كما قال في تلك العبارة الشهيرة التي أوردناها منذ حين : « أن الأرض الأثينية تعتمد على البحر والمدينة تعتمد على ميناء بيريه » . وتنفيذاً لهذه السياسة يعمل على إحاطة ميناء بيريه هي الأخرى بسور ، وقد تم ذلك فبلغ طوله عشرة كيلو مترات بعد أن بناه من الأحجار الضخمة التي استخرجها من المحاجر المجاورة . بل ربط تيموستوكل هذا الميناء الجديد بالميناءين المجاورين وهما « زيا » و « مونخيا » وجعلها كلها ميناء واحدة ومدينة واحدة ، وشجع الناس على أن يفدوا إليها من الخارج ، أي من البلدان القريبة منها ، فأقبلوا زرافات ووحداناً ، بعد أن رأوا أنفسهم قد أعفتهم هذه المدينة من الضريبة الثقيلة المسماة atéleia وهي التي كانت تفرض على كل أجنبي يريد أن يقيم بها ، فكثر سكانها وازدحموا ازدحاماً عظيماً حتى أصبحت بعد ذلك أهم ميناء في البحر الأبيض المتوسط ، واعتبرت قلب الإمبراطورية الأثينية النابض . ففيها يرسو الأسطول وهو عماد الإمبراطورية الأثينية البحرية ، ومنها تصدر الصادرات الأثينية وإليها ترد الواردات من الخارج ، كالقمح والخشب والمعادن من البلاد المحيطة بالبحر الأسود أو من آسيا الصغرى ومصر ، وكذلك من طريق الغرب من صقلية وبلاد اليونان الـكبرى في جنوب شبه جزيرة إيطاليا

سار الشعب الأثيني وراء تيموستوكل واتبع نصائحه ونفذ إرشاداته وتوجيهاته ولـكن إلى حين ؛ ثم سحب بعد ذلك ثقته من هذا البطل ومنحها لخصومه زعماء الحزب الأرستقراطي ، وكان من أبرزهم في ذلك الوقت أرستيد الذي طالما ذكرنا اسمه وشخصية أخرى جديدة ظهرت إلى جانبه ثم حلت محله بعد ذلك في زعامة هذا الحزب ، هي شخصية الشاب الأرستقراطي سيمون بن مليتاد بطل ماراتون . وكانت هذه الشخصيات الثلاث عبارة عن ثالوث يوجه شؤون الدولة ويدير دفتها في هذه الحقبة من التاريخ

تتغلب هاتان الشخصيتان الأرستقراطيتان ، أرستيد وسيمون ، في عالم السياسة الأثينية بقدر ما تتوارى شخصية تيموستوكل ويأفل نجمه ، وتتفق هاتان الشخصيتان على السياسة الخارجيـة وهي تقضي بالانصراف إلى شؤون حلف ديلوس والاهتمام بأمره حتى يكمل تنظيمه فيستطيع حينئذ أن يحقق الغرض الذي من أجله أسس وهو الدفاع عن اليونان في بحر إيجه وفي غرب آسيا الصغرى ضد الفرس ، وهما لا يترددان ، في سبيل تنفيذ هذه السياسة ، عن الاتفاق مع اسبرطة وتقسيم مناطق النفوذ معها ؛ فلها البر ولأثينا البحر . أما تيموستوكل فيقول بغير هذا ، يقول بتوجيه الاهتمام إلى حلف ديلوس ولكن على أن يكون هذا الحلف هو القوة المسيطرة وحدها في بلاد اليونان جميعاً ، فيجب أن تكون لأثينا السيادة في جميع أجزاء العالم اليوناني ، وهو يعلم تمام العلم أنه لا يستطيع تنفيذ هـذه

جولة في أسرار الناس

[مهداة إلى الدكتور زكي مبارك]

للأستاذ م . دراج

حقاً لقد صدق الذي قال : « إن الإرادة الحازمة لا تعرف المستحيل » فمن ذا يصدق أني أكتب هذا المقال بعد انتصاف الليل بساعات قضيتها أرقاً أفكر في الناس والمجتمع وكيف أن الغش والكذب والخادعة هي الأصناف الرائجة بل هي الوحيدة التي يتجر فيها تجار السياسة وسماسرة الأحزاب والمضاربون في سوق المنافع والفرص « الذهبية » . كان رأسي مملوءاً بالخواطر الثائرة والصور تحتشد أمامي ، والحقائق تندفع من وراء مخابئها تهتك أسرار مجرى الجمية التي أعيش ويعيش فيها ملايين من أبناء وطني مقيدين بأغلال الفقر الأسود الذي فرضه علينا دجالو السياسة والاجتماع والاقتصاد ، حتى لم أعد أطيق البقاء في فراشي فنهضت أعالج ضوء مصباحي الخافت نفشات في جده صالحاً للكتابة فيه ، وعدت أفتش عن قلم أسطر فيه خواطري اليقظة فلا أجد غير بقية لا تصلح ، وليس لي مكتب أجلس إليه ، وكلها عقبات كفيلة أن تثني رجلاً في مثل حالي عن الكتابة . فلست من البرزين في رجال المجتمع حتى تتهافت الصحف على كتاباتي ، ولا أنا ممن أوتوا حظاً من المال أذلل به عقبات النشر ، وليس لي بين الصحفيين أصدقاء يهتمون بأفكاري حق الاهتمام ، ومع ذلك أجد يدي قد امتدت إلى المصباح فوضعته قرب الوسادة ، وظفري قد نبش القشرة الخشبية حتى ظهر سن القلم إذ لا سلاح لدي ، ثم أنبطح على الفراش والورقة أمامي كما ينبطح الجندي في ساحة القتال . كل هذا من أجل من ؟ ألناس أكتب أم لنفسي ؟ وهل كان يجدر بي أن أكتب هذه المقدمة لو أنني كنت فيما أكتبه للناس مخلصاً ؟ هكذا قلت لنفسي :

على أية حال لقد تبينت في نفسي رغبة خفية للكتابة ، وللناس أسرار . ألا ترى أننا نحب دائماً أن نسمع رأي الناس فينا ؟ ومع ذلك نكره منهم النقد ولو كانوا في نقدهم محقين ؟ بل أكثر من ذلك نحب أن نطلع على خبايا نفوسنا عند دعاة العلم بالغيب ممن

السياسة وإسبرطة قائمة على رأس حلفها ، لذلك نادى بضرورة الاتفاق مع الفرس حتى يكون لأثينا الغلبة والسيادة ، وبذلك تغيرت سياسة تيموستوكل الخارجية تغيراً يكاد يكون تاماً بعد معركة سلامين . ألم نره ألد عدو للفرس وهو الشخص الذي كان روح المقاومة وبطل الاستقلال ؟ ألم نره قد عمل على التوحيد بين اليونان جميعاً ضد الفرس وردهم عن البلاد ؟ تغيرت إذن هذه السياسة ، فلم هذا التغيير ؟ الجواب على هذا السؤال بسيط لا يحتاج إلى كبير عناء ، فتيموستوكل لا يفكر إلا في وطنه وفي مصلحة وطنه ، ويكاد يكون هذا التفكير شاغله الأعظم ، فهو يريد لأثينا الزعامة على بلاد اليونان كلها والسيادة في البر والبحر معاً ، والآن وقد زال الخطر الفارسي لم يبق أمام وطنه إلا الخطر الإسبرطي ، وقد اعتقد اعتقاداً جازماً لا يخامره الشك أن الفرس بعد هزيمتهم الساحقة ، في معركة سلامين ، قد أصبحوا أقل خطراً من قبل . لذلك وجه سياسته إلى الاتفاق معهم حتى يتفرغ لمحاربة إسبرطة ، بخلاف الزعيمين السابق الذكر ، أرستيد وسيمون ، فهما ارستقراطيان ، تكاد تتفق ميولهما وتربيتهما مع الميول والتربية الاسبرطية ، فنزعتهما أرستقراطية لا تختلف عن النزعة الإسبرطية في قليل ولا كثير . وقد كانت هذه السياسة هي سياسة الحزب الارستقراطي طول القرن الخامس ق . م . أما تيموستوكل فهو ديمقراطي تختلف نزعاته عن نزعات إسبرطة ، وتختلف ميول الحزب الديمقراطي عن ميول الدولة الإسبرطية ، لذلك اصطدمت سياسة هذا الحزب بسياسة إسبرطة حتى كان ذلك من العوامل القوية التي دفعت أثينا إلى الحرب مع إسبرطة في النصف الثاني من القرن الخامس ق . م . وذلك في عهد بركليس .

(يتبع)

محمد الشحات أيوب

يفتحون « الكتاب » ويضربون « الرمل » ويقرأون فى الكف الماضى والحاضر والمستقبل أيضاً ، ونحن نعلم أنهم يرجمون بالغيب ؟ أليست كل هذه الشعوذات عناصر أكذوبة ضخمة جازت على عقول المفكرين فى هذا المجتمع المريض ؟ من يخاطرى ذلك الصحفى الذى يملأ صحيفته بالحديث عن نفسه وكيف قضى يومه بين زيارات وحفلات وسهرات ، وعجبت كيف يفرض على الناس أن يهتموا بسهراته ومقابلاته وأحلامه ؟ إن مثل هذا الصحفى يلقبونه أحياناً « صحافياً عبقرياً » لماذا ؟ ألا إنه يعلم أن فى وطنه آلاف المشكلات التى تستحق عنايته ككاتب يعبر عن آلام الشعب وأمانيه ، ثم يصرفهم عن الجد بالهزل ويحول بينهم وبين المطالبة بحقوقه بأمثال هذه « الطرق الأمريكية » ؟ وأنى دور المحامى الشهير الذى أعلن قريباً « أن العلاج الناجع لمثل هذا الوطن المنكوب بملايينه الجائعة العارية المريضة الجاهلة هى الاشتراكية ، ونسى أنه من الأثرياء الذين لا يحسنون فهم الروح الاشتراكية ، وأن الاشتراكية نفسها تأبى جمع المال بمثل هذه الوسائل بل وتحاربها أيضاً . ثم تقدمت صورة طبيب ملأ الجشع نفسه حتى لم يجد من العار أن يساوم المريض على فراش الخطر وأن يبهظ قدرته على الصرف بإطالة أسباب العلاج ، غير مراع فى ذلك حرمة المهنة ولا الضمير الإنسانى

هؤلاء الأطباء يدعون أنهم خدام الإنسانية ! وتذكرت فجأة أنى ركبت تراماً وسمعت بعض الذين أشقتهم أزمة الغلاء وعدت على قوتهم الضرورى يقولون : ليت الذين ينصحوننا بالصبر والقناعة ويوصوننا بعدم الإسراف ، يعلمون أن فى بيوتنا جياعاً لم يتذوقوا الطعام . الطعام الذى ينصحوننا بالاقتصاد فيه » وهل خفف هؤلاء الناصحون من مظاهر ترفهم أو رقوا الحال من يعملون فى مزارعهم أو قصورهم أو مصانعهم أو متاجرهم ؟

الجواب دائماً : لا ثم لا !!

هؤلاء الحكام والسياسيون يستطيعون فى كل وقت أن يصنعوا شيئاً لهذا البلد، ومع ذلك لا يفعلون ؟ إنهم حينما يرون كسب عطف الفلاح أو العامل بات أمراً جوهرياً لبقائهم لا ينفكون يتوددون إليه بشتى ألوان الوعود والأمانى العذاب ، حتى إذا تم لهم ما يريدون ، نسوا أو تجاهلوا ما كان

هل يمكن لمثل هذه الملايين البائسة أن تمنحهم ثقتها بعد أن ضيعوا عليهم ربع قرن من الزمان فى منازعات حزبية شخصية غايتها اقتسام المنافع واقتسام المناصب والسلطان ؟ وهل تغتفر لهم ضياع فرص قد يعز على المستقبل أن يجود بمثلها ؟؟ هذا سؤال سترد عليه الأيام المقبلة

كان فى نيتى أن أستيقظ لأسرار الناس ، وأطيل التأمل فى حياة الجمعية التى تعيش فيها ، ولكن بعد ما مضيت قليلاً عثرت على مفتاح هذه الأسرار فوجدت فيه الجشع المادى الذى لا حد له قد سيطر على عقول أفرادها فما يشفيها منه إلا طبيب ماهر جرىء يعرف موطن الداء ويعرف كيف يقضى عليه بالمصل المضاد ... ثم ألقيت قلمى ونمت مع أفكارى جنباً لجنب !

م . دراج

نفسية المحـــارب

للدكتور محمد حسنى ولاية

قبل أن أخوض فى هذا الموضوع أقول إن السادية Sadism هى النزعة إلى إيلام شخص آخر أو القضاء عليه ، مصحوبة بشعور لذيذ . وهذا الألم إما أن يكون وليد عامل مادى كالضرب بالسوط ، أو معنـوى كالتوبيخ والاحتقار . أما الماسوشية Masochism ، فهى على النقيض من هذا ، لأنها تنطوى على استعذاب العذاب والألم مادياً كان أو معنوياً

إن الذى يدعو الإنسان إلى قتل أخيه الإنسان هو النزعة السادية المتحكمة فى نفوس البشر جيماً ؛ وليست هذه النزعة غريبة عن نفوس النساء ، بل هى مستقرة فى أعماقهن بدليل ظهورها فى بعض العصبيات ، وأحياناً فى اللاتى بلغن سن اليأس

ويحمل كل إنسان — رجلاً كان أو امرأة — نزعة السادية متوازنة مع نزعة الماسوشية ؛ ويُبقى الرجل جانباً كبيراً من ساديته فى وعيه ، فيتسلط على المرأة ويتحكم فيها ، ويحاول التسلط على ضعفاء الرجال ، والتغلب على صعوبات الحياة . على أنه يكبت فى عقله اللاواعى (العقل الباطن) معظم النزعة الماسوشية

ويحدث عكس هذا فى المرأة ، لأن وعيها يحملها على الخنوع والاستسلام لبقاء معظم النزعة الماسوشية فيه . وكثيراً ما تبرز النزعة السادية فى المرأة عندما تصادف منافسة لها فى حب الرجل فتعمد حينئذ إلى الانتقام من أحدهما أو كليهما

تمنى السادية أن يهدم الإنسان سواه ليخلو له الجو ويستأثر بالحياة . فهى نزعة مقترنة بالرغبة فى الحياة والسيطرة . أما الماسوشية ، فتمنى أن يهدم الإنسان نفسه . فهى وثيقة الصلة بغريزة الموت ، وتستقر غريزة الحياة فى عقلنا الباطن جنباً إلى جنب غريزة الموت ؛ ولهذا الجانب من التمثيل المعنوى جانب مادى يقابله ، فغريزة الحياة تمثلها الغدد الجنسية التى تفرز العناصر الحيوية الأولى . أما غريزة الموت ، فيمثلها الجسد الذى مآله إلى البلى !

ولا يلجأ الإنسان إلى عداء الإنسان إلا إذا أمعن فى كبت النزعة الماسوشية ، وأبرز فى الوعى كل الطاقة النفسية المتعلقة بالسادية

يؤدى العرف فى أوقات السلم إلى أن يكبت الرجل شطراً من ساديته لينسجم مع المرأة والبيئة . أما فى زمن الحرب فتتحكم السادية فى العقل الواعى وحينئذ يتحرك الحيوان الرابض فى الأعماق ليقضى على فريسته . وليس هذا الحيوان سوى الإنسان البدائى الذى ما زال متمتعاً بكامل قوته وعدته

وحين تسير الجيوش لملاقاة العدو يتناسى كل جندى شخصيته ويعود إلى ماضيه الفطرى ويعمل كما كان يعمل آباؤه الأولون . وهو فى هذه الحالة يشعر بأنه ليس طوع نفسه ، ولكنه رهن الإرادة البشرية الأزلية التى تسيطر على سرائرنا جيماً . أما إذا أمعن الجندى فى وعى ذاته Self - Consciousness وشعر بأن شخصيته قائمة بذاتها لم تستطع روحه الاندماج مع الروح التى تقود زملاءه الجنود إلى التلاحم مع العدو

ويصيب بعض الجنود مرض الهستريا أو القلق العصبى بتأثير الحرب ؛ فنى الحالة الأولى قد يعترى الجندى شلل فى إحدى ذراعيه أو كلتيهما ، أو فى إحدى رجليه أو كلتيهما ، كما قد ينتابه العمى الهستيرى بتأثير الغازات الخانقة مثلاً ، أو الصمم بتأثير القنابل ، وكل هذه الأعراض نفسية يمكن شفاؤها بالعلاج النفسى

ويشعر المريض بالقلق العصبى بالخوف وخفقان القلب واهتزاز الأعضاء وغير ذلك ، أما شفاؤه فليس بعسير

وقد وجـد أن بعض المصابين بمسْتهل جنون المراهقة أشد ثباتاً وأرسخ نفسـية من بعض زملائهم لانطفاء انفعالاتهم وعواطفهم ، فهم لا يلمون بالأخطار المحدقة بهم ، ويسيرون فى الصفوف كالبهم السائمة

محمد حسنى ولاية

الصراع الأمريكي الياباني

الأديب محمد شاهين الجوهري

يتخذ الصراع الأوربي كل يوم مظهراً جديداً ، وتطغى الحرب الأوربية على كل ما عداها ، فاشتداد وطأتها وسرعة تطوراتها قد أكسباها خطورة ، وحولا إليها اهتمام العالم وتفكيره .

وإلى جانب هذا الصراع نضال آخر قد اتصلت أسبابهما : ذلك هو النضال القائم بين أمريكا واليابان ، وإنه وإن لم يكن قد دخل للآن في طور القتال إلا أنه على أشده . ووراء هذا النضال برنامج من التسلح لا يقف عند حد . فالأمتان تستبقان في هذا الميدان . وإذا عرفنا أنهما دولتان بحريتان يؤلف الأسطول خط دفاعهما الأول ، فسيكون البحر مسرحاً فسيحاً لنضال عنيف بين الأسطولين يرغم فيه القوي الأضعف على التخلي عن الميدان تاركاً له السيادة والسيطرة .

ولذا نجد جل اهتمام الدولتين وجهودهما مركزاً في تقوية بحريتيهما ، فكلتاهما تخصص الملايين لزيادة أسطولها وتقويته وجعله أكثر تفوقاً على خصمه . وليس أدل على هذا الاهتمام من أنه لم تكد تمضي ساعتان على توقيع الرئيس روزفلت اعتماد خمسة ملايين دولار لتعزيز البحرية الأمريكية ، حتى أعلن القائمون بأمر التنفيذ أنه قد تم التعاقد مع الشركات التي ستتولى بناء السفن .

أخذت اليابان في السنوات الأخيرة تقفو آثار السياسة الأوربية وتتبع خطاها ، واضعة نصب عينيها أن يكون لها من وراء كل أزمة أوربية ربح ومغنم . وأخذت أمريكا ترقب عن كثب تطورات السياسة الأوربية ، مسترشدة بها في توجيه سياستها . وهكذا رأينا الدولتين تسيران حسب ما تمليه عليهما تلك السياسة ، ولكن هناك تباين واضح بين السياستين

فالولايات المتحدة دولة قد خلت سياستها من كل مطمع استعماري ، ويهمها أن يسود السلام بقية الدول ، حتى تجد فيها أسواقاً رابحة لتجارتها . وقد رأت أيضاً أن مبادئها التي طالما نادت بها في الحرب الكبرى الماضية كقواعد ثابتة للسلم لم يحققها رجال السياسة الأوربية ، فضلاً عن أنها لم تسترد ما لها من الديون عند الدول التي اقترضت منها في الحرب الماضية . أضف إلى ذلك أن الشعب الأمريكي شعب قد أشبعته سياسة بلاده بمبادئ السلام ، فاتجه بجهوده وتفكيره إلى ميادين العمل السلمية ، فضرب بسهم رابح في نواحي النهضة المختلفة علمية كانت أم فنية ؛ وساعده على ذلك ما تتمتع به بلاده من ثروة طبيعية ومالية . لذلك كانت سياستها بعيدة عن التوسع والاستعمار

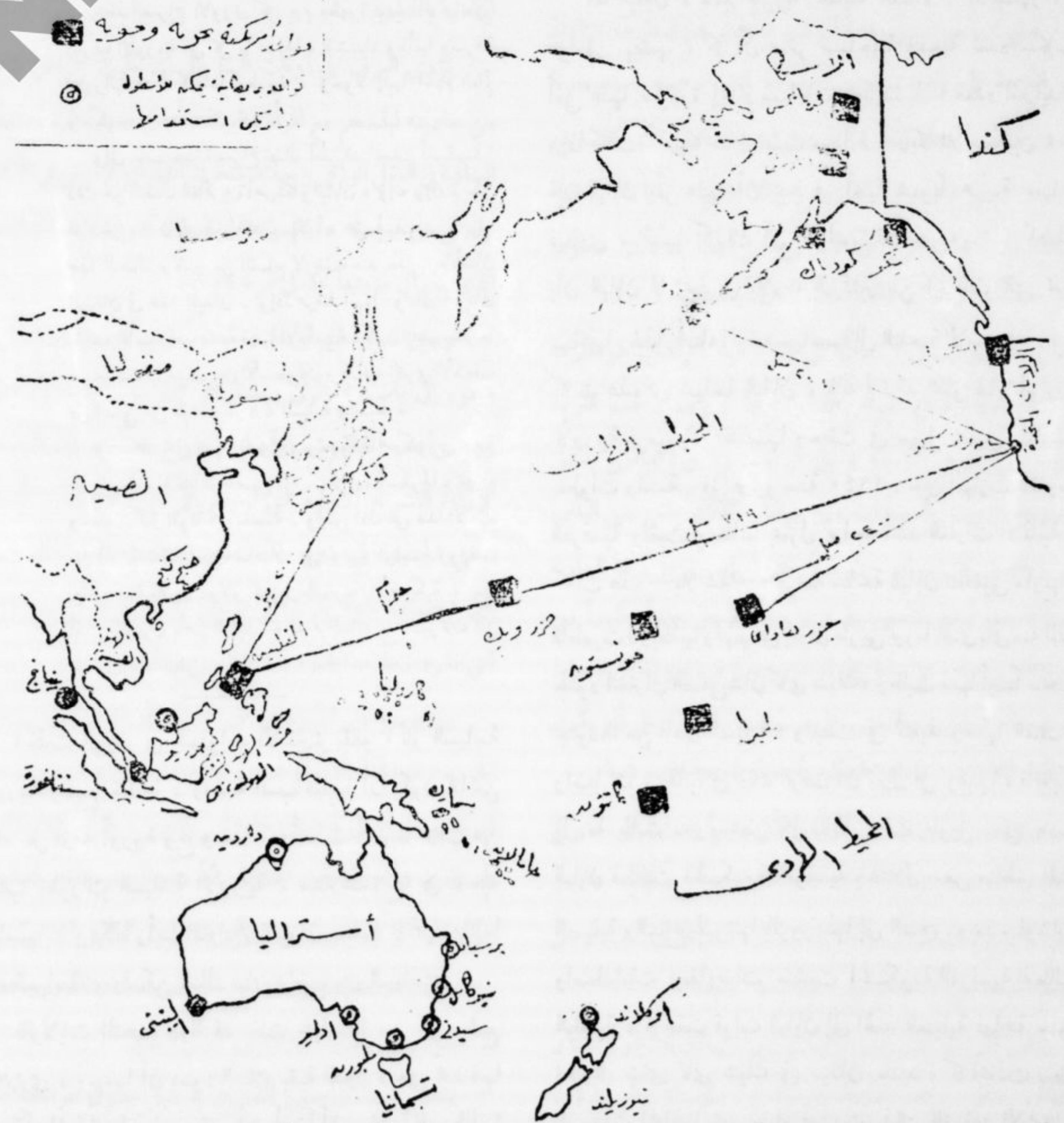
أما اليابان ، فامبراطورية حديثة النشأة . الاستعمار أهم عوامل نهضتها ، كما أن صغر مساحتها بالنسبة لعدد سكانها أملى عليها ضرورة إيجاد مساحات جديدة لهذا العدد المتزايد . وإذا كانت أمريكا قد ارتضت مبدأ « أمريكا للأمريكيين » ، فإن اليابان يعز عليها أن تجد في آسيا شعوباً غريبة عنها ، فينادي ساستها كذلك أن « آسيا للآسيويين » . ناهيك بأن اليابان لا تجد في بلادها الكثير من الخامات التي تلزم صناعتها . لهذا رأيناها توجه سياستها إلى الناحية الاستعمارية . فإذا كانت هذه هي سياسة اليابان ، فإنه لم تكد تخلق لها الحوادث الأوربية فرصة إلا اقتنصتها وخطت في سبيل تحقيق سياستها خطوات واسعة . ففي يونيو سنة ١٩٤٠ ، حين انهارت المقاومة الفرنسية وبقيت بريطانيا بمعزل تواجه أشد الغارات الألمانية ، كانت هذه — بلا شك — فرصة سانحة لليابان لتحقيق مآربها . فأظهرت لبريطانيا رغبتها في إقفال طريق بورما الذي يأتي منه المدد لجنود الجنرال الصيني شان كاي شيك ، وطلبت منها أيضاً سحب جنودها من المدن الصينية ؛ واتبعت في تنفيذ رغبتها العنف ، واضطرت بريطانيا في ذلك الوقت أن تنزل على رغبتها ، فأجابتها إلى ما طلبت . ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى عادت اليابان فطالبت الحكومة الفرنسية باحتلال بعض مناطق الهند الصينية والسماح لجيوشها بالمرور منها إلى الصين . وبعد مناوشات واصطدامات ومفاوضات خضعت الحكومة الفرنسية للمطالب اليابانية ، فزحفت قوات اليابان إلى الهند الصينية لمهاجمة جنود الجنرال شاي كاي شيك في ميدان جديد ، كما اتخذت بعض الوحدات اتجاهها نحو سيام فهددت بذلك القواعد الإنجليزية في سنغافورة ، وكذلك جزر الهند الشرقية الهولندية التي تعتمد عليها الولايات المتحدة في استيراد المطاط والقصدير اعتماداً كبيراً ، كما هددت جزائر الفلبين الواقعة تحت الحماية الأمريكية والتي لا تبعد عن الهند الصينية أكثر من ستمائة ميل

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٠ أمضت اليابان المحالفة العسكرية الثلاثية مع ألمانيا وإيطاليا، وينطوى هذا التحالف على أن تشترك الدول الثلاث المتحالفة فى الحرب ضد أية دولة — ومنها الولايات المتحدة — ورمت اليابان من وراء ذلك إلى ضمان اشتراك ألمانيا وإيطاليا معها إذا اشتبكت فى حرب مع الولايات المتحدة

تلك هى سياسة اليابان التى اتبعتها والخطط التى انتهجتها فا هو رأى الشعب الأمريكى حيال هذه السياسة ؟

يمكننا تلخيص آراء الأمريكيين فى رأيين :

أحدهما يرى إلى اتباع سياسة سلبية فى كل علاقة بين بلاده واليابان



وفى أكتوبر سنة ١٩٤٠ ألقى وزير خارجية اليابان بياناً أوضح فيه سياسة بلاده حيال الولايات المتحدة فقال : « إننى أوجه هذا التحدى إلى الولايات المتحدة، فإنها إذا رأت أن تؤثر الإقدام فى عمى وتعصب على أن تعمل ما من شأنه إحداث تغيير فى الحالة الراهنة فى المحيط الهادى فسنتقدم على محاربتها »

والرأى الآخر يرى أنه لا بد من مقاومة المطامع اليابانية ووقفها ، بل القضاء عليها بالقوة قبل أن يتسع نطاقها وتطغى على أمريكا وتصبح أمام خطر يهدد كيانها ويصعب مغالبته . فعلى أمريكا أن تأخذ أهبتها لمقاومة هذا الخطر . وفى هذا يقول ليبمان Lippmann الثقة الأمريكى « إن خير وسيلة للدفاع عن

الجزر ليست بمجرد حشد الأساطيل حول سواحلها لحراستها وارتقاب هجوم العدو ، ولكن بمباغتته في عقر داره وتحطيم الموانئ التي يأتي منها الغزو وتأمين المسالك البحرية »

وبعد انهيار المقاومة الأوربية وسيطرة الدول الديكتاتورية على أوربا أخذ الرأي العام الأمريكي يميل إلى مساعدة الدول التي تناهض الديكتاتورية حتى ولو أدى ذلك إلى تدخل أمريكا الفعلي في الحرب . ويقول أصحاب هذا الرأي إنه ليس على الولايات المتحدة أن تتجاهل ما تقوم به اليابان في الشرق الأقصى ، كما أنه ليس في الإمكان تهدئة اليابان وتسوية المشاكل القائمة تسوية سلمية ما لم تقبل أمريكا ما تمليه عليها اليابان

فاليابان ترغب في أن تنفض أمريكا يدها من النزاع القائم بينها وبين الصين وأن تكف عنها المساعدة ، وبمعنى آخر تتخلى أمريكا عن مبدأ حرية التجارة ، وعلى ذلك تصبح الصين بمعزل عن المونة الخارجية مما يسهل مهمة اليابان في القضاء عليها . ولكن كيف تنفذ الولايات المتحدة رغبة اليابان وتتركها تقضي على الصين — وهي بمثابة خط دفاعها الأول — ولذا ينادي أصحاب هذا الرأي بوجوب قطع التجارة مع اليابان ، لأن اليابان تنفق ثمن ما تصدره من الحرير إلى الولايات المتحدة على جيوشها في الصين ، فإذا ما قطعت التجارة عنها أصبحت اليابان عاجزة عن مواصلة هذه الحرب ، كما يرون ضرورة تصدير المؤن والذخائر إلى الصين لتكون أقدر على الدفاع عن نفسها وإنهاك قوى اليابان . ويرون كذلك أن اليابان — إذا لم تقف الولايات المتحدة في وجهها — ستحتل جزر الهند الشرقية الهولندية ؛ وعندئذ تقطع عن أمريكا ما تستورده من المطاط والقصدير وتملي عليها ما تشاء من الشروط في سبيل الحصول على حاجتها من هاتين المادتين . وهناك نقطة أخرى وهي أن الشعب في الولايات المتحدة ومن ورائه الشعوب الأمريكية اللاتينية يؤيد السياسة القائلة بمساعدة الصين ؛ فإذا ما كفت الولايات المتحدة عن هذه المساعدة ثارت روح الاستياء في الرأي العام الأمريكي . كذلك إذا تركت الولايات المتحدة أمر جزر الفلبين التي تعتمد على حمايتها وتثق بها ، فإن هذه الجزر ستكون بلا شك عرضة للغزو الياباني وهذا ما يسبب حنق الشعوب اللاتينية أيضاً وهو ما يخشاه رجال الحكم في الولايات المتحدة ، وينقسم أنصار السياسة السلمية إلى فريقين : فريق يرى أن قوة اليابان وخطرها على الولايات المتحدة أمر مبالغ فيه ، إذ أن اليابان منهمكة بكل قواها في الحرب الصينية وليس في مقدورها محاربة الولايات المتحدة أو تهديدها تهديداً فعالاً ؛ فليس على أمريكا أن تشغل نفسها بعشا كل الشرق الأقصى إذ يمكنها أن تستعيض عن المطاط الذي تستورده من جزر الهند الهولندية الشرقية بمطاط صناعي ؛ ويمكنها أيضاً استيراد ما تحتاجه من القصدير من أمريكا الجنوبية كما أن كلتا الدولتين سوق رابحة للأخرى ليس من المصلحة الاستغناء عنه

ويرى الفريق الآخر أن المحالفة العسكرية الثلاثية بين اليابان وألمانيا وإيطاليا قد وضعت أمريكا أمام مشكلة الحرب في المحيطين الهادي والأطلنطي ؛ وليست أمريكا الآن على استعداد لهذه الحرب حتى يتم بناء أسطولها الجديد . لذلك يرون وجوب حل المشاكل القائمة بين الولايات المتحدة واليابان حلاً سلمياً والعمل على تركيز جهود الأسطول الأمريكي في المحيط الأطلنطي ضد ألمانيا وإيطاليا

ويقول ليمان : « ليس البحر وحده ضماناً ضد الغزو ، فإن الجزر البريطانية التي لا تبعد سوى عشرين ميلاً من أوربا لم تتعرض للغزو منذ مئات السنين، بينما نجد أمريكا التي تبعد عن أوربا بآلاف الأميال عرضة لكثير من غزوات الأوربيين . إذن فليس البحر هو الذي يحمي بريطانيا أو أمريكا وإنما تحميها القوة التي تسيطر على هذا البحر »

لذا نجد أمريكا واليابان يخصان الأسطول بأكبر نصيب من ميزانية الحرب لبناء قطع حربية جديدة تضاف إلى أساطيلهما

ويظهر لنا البيان الآتي صورة واضحة عن قوة الأسطولين

النوع	الولايات المتحدة: ما تملكه الآن	الولايات المتحدة: ما تشرع في بنائه	الولايات المتحدة: المجموع	اليابان: ما تملكه الآن	اليابان: ما تشرع في بنائه	اليابان: المجموع
بارجة	١٥	١٧	٣٢	١٠	٤	١٤
حاملة طائرات	٦	١٢	١٨	٦	٢	٨
طراد	٣٧	٤٨	٨٥	٤٤	٦	٥٠
مدمرة	١٩٧	١٧١	٣٦٨	١٣٥ مدمرات وقوارب طوربيد	١٠	١٤٥
غواصة	١٠٣	٨٢	١٨٥	٦٩	١٣	٨٢
المجموع	٣٥٨	٣٣٠	٦٨٨	٢٦٤	٣٥	٢٩٩

وهنا يجدر بنا إجراء مقارنة بسيطة بين الأسطولين : فالبوارج الأمريكية Capital Ships أقل سرعة من مثيلاتها اليابانية ، ولكن مدافعها أقوى وأبعد مدى ؛ وتفوق حاملات الطائرات والطرادات والمدمرات الأمريكية مثيلاتها اليابانية في القوة والسرعة والحجم ، وبالأسطول الياباني قوارب طوربيد ولا بد أن تكون البحرية الأمريكية قد عملت لها حساباً ، وبجانب تقوية الأسطول ترى الولايات المتحدة في الدول المناهضة للديكتاتورية خطاً رئيسياً للدفاع عنها وعن مصالحها . لذا أسرعت بتقديم كل مساعدة ممكنة لهذه الدول ، لأنه إذا انهارت بريطانيا أصبحت اليابان حرة في توجيه ضرباتها في الشرق الأقصى ، وأنه ما دامت بريطانيا محاربة ، فسوف تبقى المصالح الأمريكية بعيدة من أي خطر أو تهديد ، كما أن استمرار الحرب الصينية معناه جعل اليابان في موقف لا يساعدها على مناهضة أمريكا في الشرق الأقصى ، أو تقديم أية معونة فعالة لألمانيا أو إيطاليا من شأنها إضعاف بريطانيا التي تعمل الولايات المتحدة جادة على إبقائها ، بل زيادة قوتها

ولتنفيذ هذه السياسة أصدر الرئيس روزفلت أمره بحظر تصدير الحديد إلى اليابان . ويجب أن نذكر أنه قبل أن يصدر الرئيس هذا الأمر كان قد وافق على اعتماد مبلغ ٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال لحكومة الجنرال شان كاي شيك ، وكان الغرض من هذا القرض في الظاهر شراء بعض المواد الخام من الصين ، وحقيقياً مضاعفة جهود المقاومة الصينية ضد اليابان ، كما طلبت الولايات المتحدة من بريطانيا إعادة فتح طريق بورما ، حتى يمكن توصل سبيل الإمدادات إلى الصين

ودأبت الولايات المتحدة على مد روسيا بأدوات الحرب اللازمة حتى تتمكن من تقديم مساعدتها للصين عن طريق روسيا ولتساعد روسيا أيضاً في حربها ضد الدول الديكتاتورية . ولا تألو الولايات المتحدة جهداً في سبيل تلك المساعدة ؛ وليس أدل على ذلك مما اتخذه الرئيس روزفلت والمستر تشرشل من قرارات في اجتماع المحيط ، ووصول مندوب الرئيس روزفلت الخاص إلى مؤتمر الحلفاء بموسكو

وهناك بعض اقتراحات ترى الولايات المتحدة الأخذ بها إذا جد ما يدعو لها وهي إرسال سفن حربية أمريكية إلى قاعدة سنغافورة وبعض القواعد الاسترالية . ويرى الخبراء الفنيون أن اتخاذ الأساطيل المشتركة لهذه القواعد سيقضي على كل محاولة تقوم بها اليابان للاستيلاء على جزر الهند الشرقية الهولندية إذ أن وجود ثلاثة أساطيل مشتركة — الأمريكي والبريطاني والهولندي — يجعل اليابان في حذر ، وخصوصاً وأن على الأسطول الياباني عبء ضرب الحصار على السواحل الصينية وتموين الجيش الياباني بالصين . وإذا ما عملت أمريكا بهذا الاقتراح فإنها ستنقل نقط الدفاع البحرية الرئيسية للولايات المتحدة من جزر هاواي إلى سنغافورة التي تبعد عن هاواي بمقدار ٦٫٠٠٠ ميل ، وهذا ولا شك سيسهل مهمة الأسطول الأمريكي في حماية جزر الفلبين واتخاذها قاعدة لإصلاح السفن وتضمن له حماية جزر الهند الشرقية الهولندية

ولكن تعترض هذا الاقتراح عقبات منها أن ذلك قد يكلف الأمريكيين ثمناً أغلى مما يستفيدونه من هذه الجزر ، إذ عليهم أن ينفقوا ملايين الدولارات على أسطول يخوض غمار معارك بحرية تقع على هذا البعد الشاسع من مراكز البحرية الأمريكية الرئيسية في المحيط الهادي

تلك هي الخطوات التي قطعتها كلتا الدولتين في هذا الصراع وهو كما نرى صراع قد اتصلت أسبابه بالصراع الأوربي ، صراع في أجلى معانيه بين الديمقراطية والديكتاتورية .

محمد شاهين الجوهري
معهد الصحافة العالي بالجامعة الأمريكية

أغنيـــــة الحب !

للشاعر « هاينى »

الأستاذ على محمود طه

يا رِفاقى غنت الفرحةُ فى كل مكان !
إن هذا زمنُ الحب ، فضِجُّوا بالأغانى !
ارفعوا الأقداح ملأى ، واشربوا نَخْبَ الحِسان
فالربيع السَّمْحُ يدعوكم إلى أكرم حان !

•••

الربيع المرِحُ الجذلان يختـــال فَخورا
إنه الحسن الذى يمـلأ بالحب الصـــدورا
كيف لا نقطف منـــه الثمر الحلو النضيرا ؟
أنت يأيتهـا الشمس املئى الآفاق نورا !

•••

يا رفاقى قد دعانا زمن الحب فهيـــا
أطلعَ الروضُ جَنى الكرمةِ والزهرَ النَّـديَّا
اقطفوا الأزهار منه واعصروا الكَرْمَ الجنيَّا
يا رِفاقي قد دعانا زمن الحب فهيا ! ...

على محمود طه

مضى أمسى ...

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

مضَى أمسي بأحلامى ... فمنْ يخلُقُ لى أمسى
وغاضَ مَعينُ أوهامى ... فمن يَرْوِى صَدى حسّى
مُنًى كَمْ أنعمتْ جامي ... بهنَّ ، ذهبْن أشتاتا
ورحن بسحـــر أيامى ... وما عودٌ لمـــا فاتا

وفى قلبى مآتمُـهُ ... على أمسِ الذى ماتا
وقد دَرَسَتْ معالمُـهُ ... فهل ترجعُ ؟ هيهاتا
وبومي راح هـــادِمُهُ ... يهيبُ بىَ : انظرى لغدِ
غدٌ خفيتْ مســالكه ... فدعنى ، ما غدى بيدى

غدى فى حُجُبِ الغيبِ ... فلا تكشفْ لىَ الحجبا
يثيرُ الروْعَ فى قلبى ... توَهُّمُ أن أرى الغيبا
أخاف أخاف أن يُرْبِى ... غدى جرعه إتعاسى
وما أسقيتُه حسبى ... فنحِّ صُبابةَ الكاسِ

أخافُ خفيَّةَ الأقدارْ ... وما أجْرَى لىَ القلمُ
وهـــذا الفلكُ الدوّارْ ... وفيه التيـــهُ والعدمُ
كئوسٌ للقضاء تُدارْ ... على الشَّرْب وهمْ لاهون
ائن عدموا لهنَّ خمّارْ ... فآذنهمْ ، غداً سيكون

نفضتُ يدىَّ من حُلُمِ ... نعمتُ به إلى حينِ
طوتهُ مجاهلُ العَدَمِ ... وعدت بخمر مغبونِ
وكم أفعمتُـــهُ بدمي ... أقرِّبُ من دمى زُلْفَى
عسى يبقى ، فوَاندمى ... تَخَطَّفَ من يدِى خطفا

لكمْ تصبو له نفسى ... وكم أشتاقُ أطيافَهْ
تجى وتروحُ فى حِسّى ... وضاءَ الحسنِ رفّافه
تلاشى بعـــدهُ أنسى ... وأزهقَ إثرَهُ روحى
فما أصبحُ أو أمسى ... سوى أنفاس مذبوحِ

(نابلس) فدوى طوقان

مذبح الحب ...

للأديب محمد عبد السلام كفافى

بانت به الناسُ أسْرَى وهى أحرارُ
وحَفَّهُ من دمِ العُشّاقِ أنهـــارُ

يخاله من يراه جنةً عَجَباً ... لكنه للـذى يرتاده نارُ !
قيُودُه من صَميم السحر قد صُنِعتْ ... والوجدُ سكينُه والحسنُ عقّارُ
يا مذبحاً لم يكنْ إلا لدَى خلدى ... له بناءٌ علا حائطَهُ أسوارُ
بُستانُه ناضرٌ ضافِى الجمالِ به ... ماءٌ وظلٌّ وأنسامٌ وأزهارُ
لم يسقِه مطرٌ لكنَّما هطلتْ ... عليه من أدمُعِ العُشّاقِ أمطارُ
ولم يعطِّرْهُ زهرٌ فوق أغصُنِهِ ... لكنه بعهودِ الحبِّ معطارُ



وفاة الآنسة «مي»

في يوم الأحد التاسع عشر من هذا الشهر استوفت الكاتبة الكبيرة (مي) أنفاسها في مستشفى (المعادي) وكانت قد نقلت إليه على أثر إغماء غشيها ثلاثة أيام وهي في بيتها لا يعلم بها أحد، حتى فطن إلى ذلك بواب المنزل فأبلغ أمرها إلى الشرطة. والسنوات الأخيرة من حياة (مي) كانت مأساة يرتاع لها الضمير ويلتاع القلب. وقد أشارت الرسالة إلى بعض فصولها في أعدادها السابقة

والآنسة (مي) تنتمي إلى أسرة زيادة من قضاء كسروان في لبنان، وقد ولدت مي بالناصرة حيث كان يعمل والدها المرحوم إلياس زيادة، وتلقت علومها الابتدائية بمدرسة عين طورة، ثم جاء بها والدها إلى مصر فاستكملت ثقافتها وتميزت بالذهن البارع والذوق السليم، والمشاركة في سائر العلوم، وحذقها للغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والأسبانية. ثم أخذت تنشر فيض قريحتها الخصبة في المحروسة ومجلة الزهور والمقتطف والهلال والأهرام والسياسة والرسالة؛ وغذت المكتبة العربية بطائفة من الكتب المتمة موضوعة ومنقولة. ومنذ بضع سنوات توفي والدها ثم والدتها فظلت بعدهما حزينة وحيدة، ثم مالت إلى العزلة وانقطعت عن الكتابة والتأليف. ثم أصابها مرض نفسي ساعد على ضعف أعصابها وانحلال قواها، فنقلوها إلى لبنان تستشفي فيه، حتى إذا أحست روح العافية رجعت إلى مصر فألقت محاضرة في الجامعة الأمريكية أعادت إلى الذاكرة وقفاتها على المنابر. ثم عادت صحتها فساءت في الأيام الأخيرة حتى توفاها الله. وفي عدد قادم ستقول الرسالة في الفقيدة الكريمة كلمة الإنصاف

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

كنت أحب أن أعفي نفسي من دراسة الكتب التي قررتها وزارة المعارف في مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية، بعد الذي عانيت من المتاعب في دراسة الكتب التي قررتها الوزارة في السنة الماضية، وإنما يتعبني هذا النوع من الدراسة لأنه يوجب النزاهة المطلقة في إصدار الأحكام الأدبية، وليس هذا بالشيء الهين، فأكثر أصحاب هذه الكتب أحياء، وقد تكون بيني وبين فريق منهم ترات وأحقاد، وتخليصُ النفس من الهوى مطلبٌ شاق، ولن أستطيع القول بأني مبرأ من الأهواء

ولكن الرغبة الكريمة التي أبداها بعض كبار المربين من أمثال الأستاذ أحمد نجيب هاشم ناظر مدرسة فاروق الأول الثانوية، والأستاذ سامي عاشور ناظر مدرسة شبرا الثانوية، والأستاذ حبيب اسكندر مدير مدارس التوفيق القبطية، هذه الرغبة الكريمة قوّت عزيمتي وأعانتني على صدّ هوى النفس

وما شدَا فيه طَيْرٌ إنما سَجَعَتْ ... عليه من أنفُسِ العُشَّاقِ أطيارُ

أضحتْ وقد أُطلِقَتْ من سجنها ولها ... في الحبِّ وصلٌ وفى الجنَّاتِ أوْكَارُ

من عهدِ آدمَ قد شُيِّدتَ وانفتلتْ ... تُعلِي بناءَك أجيالٌ وأدهارُ

فكنتَ بيتاً صغيراً ثم صِرْتَ وقد ... شِيدَتْ على صَفْحَةِ الدُّنيا لك الدارُ

كم من قتيلٍ بلا ذنبٍ أرقتَ له ... دماً وكم ذلَّ فى ناديك جَبَّارُ

وكم ببابك تنصبُّ الدموعُ وكمْ ... تُهدَى إليك أغاريدٌ وأشعارُ

وكم تُقَامُ صلاةٌ فيك خاشعةٌ ... تُتلَى بها من كتابِ الحبِّ أسطارُ

أسديتَ للفنِّ آلاءً مخلَّدةً ... تَرْوِي عُلاَهَا على الأيام آثارُ

كم قد أذعتَ حديثاً في الورى عجباً ... شدا به الشعر أو غَنَّتْهُ أوتارُ

وكم تماثيلَ تجلوها وكم صُوَرٍ ... تلقَّتِ الوحيَ فيها عنك أفكارُ

يا مذبحاً يتراءى للعيون وما ... يَبِينُ منه لِعَقْلِ الناس أسرارُ

حدِّثْ عن الزمن الخالي فكم طُوِيَتْ ... به من الوَجدِ فى ناديك أعمارُ

ولَّى ذَوُوها ولكن لا تزال لهم ... ذكرى على الدهر لا تَفْنَى وإكبارُ

صدقُ الوفاء وإن أوْدى بصاحبه ... حديثُهُ خالد فى الكون سيَّارُ

محمد عبد السلام كفافي

في معاملة بعض خصومي من رجال الأدب الحديث ، فأنا ماض بعون الله في درس الكتب المقررة لمسابقة هذه السنة بالنزاهة التي التزمتها في السنة الماضية ، لأن مقامي في نقد هذه الكتب مقام المدرس ، والمدرس لا يجوز له أن يواجه تلاميذه بغير الصدق ، وإن كان في الصدق ما يجرح هواه

وقد أرسلت الوزارة منشوراً بالكتب المقررة إلى جميع المدارس الأميرية والأهلية والأجنبية ، فلا موجب للنص عليها في هذه الكلمة الوجيزة . وهل يفوت المدرسين الأوائل أن يبلغوها إلى جميع الصفوف ؟ إنما يهمني أن أنص على أن كتاب « المنتخبات » لأستاذنا أحمد لطفي السيد باشا مقرر تحريريًا على جميع المتسابقين ، وليس عندي ما أقوله في هذا الكتاب بعد الذي قلته في العدد ٣٨٨ من مجلة « الرسالة » ، ويستطيع الطلبة أن يجدوه في مكتبات المدارس الأميرية والمكتبات العمومية

فإلى العدد المقبل ، وسأبدأ بتشريح كتاب « الأخلاق عند الغزالي » فلي بمؤلفه صلة شخصية ، وإن كنت أخشى أن يفسد النقد ما بيني وبين هذا المؤلف ، وهل جاملتُ صديقاً حتى أجامل هذا الصديق

زكي مبارك

١ — شكر ووعد

قرأتُ ما تفضَّل بكتابته الأستاذ محمد عبد الغني حسن ، في العدد ٤٢٦ من الرسالة الغراء ، فشكرتُ لحضرته وافر أدبه وحسن ظنه بي . وأودّ أن أذكر الآن ، أنني بعثتُ اليوم إلى هذه المجلة بمقال يحتوي على ما أمكنني الوقوف عليه من ترجمة جميل نخلة المدوّر . فعساي قمت ببعض الواجب نحو رجلٍ خدم الآداب العربية خدمة جليلة

أما طلبه الكتابة في « قصور سامراء » ، فذاك بحثٌ وفَّيناه حقه من العناية في بعض الملحقات التي أضفناها إلى كتاب « الديارات » للشابشتي ، ذاك الكتاب الذي نرجو من الله أن يوفقنا لنشره بالطبع في وقت نرجو أن يكون قريباً .

٢ — كتاب الشعور بالعور

بينما كنت أقلب فهرس المخطوطات العربية المصونة في خزانة كتب برلين ، وقع نظري على ذكر نسخة من كتاب « الشعور بالعور » لعلامة عصره صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ للهجرة . وهذه النسخة برقم ٩٨٦٧ من قائمة أهلوردت Ahlwardt فتذكرت حينئذ أنني قرأت نبذاً منشورة في مجلة الرسالة . ولما رجعت إليها[1] ألفيتها خمساً ، كتبها ثلاثة أفاضل في شأن هذا الكتاب ونسخه المعروفة . ويؤخذ من الفهرس المشار إليه أن نسخة برلين تقوم في (١١٢) صفحة متوسطة ، في كل منها ٢٧ سطراً ، وأنها كتبت قبل نحو من مائتي سنة

وبذلك ، تكون للنسخ المعروفة لهذا الكتاب ثلاثاً ، وهي :

١ — نسخة المغفور له أحمد زكي باشا ، المصورة عن مخطوط في بعض خزائن استانبول

٢ — نسخة الخزانة الخالدية في بيت المقدس ، وتاريخها سنة ٨٤١ هـ

٣ — نسخة برلين ، وهي التي ألمعنا إليها في هذه الكلمة

(بغداد) كوركيس عواد

تأبين الأستاذ يوسف أسعد

أقام شعراء المنصورة وأدباؤها في الأسبوع الماضي حفلة تأبين بنادي الأرز للأستاذ يوسف أسعد الشاعر الذي توفي في الشهر الماضي . وقد كانت هذه الحفلة صورة لوفاء الشعراء والأدباء في الدقهلية نحو شاعر هتف بأعذب الشعر في جميع المناسبات القومية والاجتماعية والخيرية ، وكان له أقوى الأثر في تشجيع النهضة الأدبية بالدقهلية

وقد ولد المرحوم يوسف أسعد في لبنان ، وأتم علومه بمدارسها ، واشتغل في أول أمره مدرساً لعلوم البلاغة في المدرسة الوطنية اللبنانية ؛ ثم اشترك في تحرير مجلة الحقيقة التي كان يصدرها المرحوم نعيم بك صوايا بلبنان ؛ ثم هاجر إلى مصر ، واختار المنصورة داراً ، واشتغل بالتجارة والزراعة ، فنجح فيهما ؛ إلا أن ذلك لم يصرفه عن قرض الشعر ومعالجة الأدب ، وقد كان أميل إلى الحكم والمواعظ ، وله في هذا المعنى كتاب قيم اسمه (رأس الحكمة مخافة الله) . رحمه الله رحمة واسعة ، وألهم أهله الصبر عليه ، وعوض أمته الخير من فقده .

(المنصورة) علي عبد الله

الأسود بن قنان

ورد هذا الإسم في كتاب مسهب بليغ جمع بين النثر

(١) أنظر الأعداد ٣٦٧ و ٣٦٨ و ٣٧٣ و ٣٧٤ من الرسالة .

والشعر ، للأمير أبي عبد الله بن الأحمر الغَرناطي ، بعثَ به إلى سلطان فاس متوسلاً مستغيثاً مُتوجعاً من بني الإسبان ومناكرهم ! وهو من إنشاء الشاعر الناثر أبي عبد الله محمد ابن عبد الله العربي العقيلي ، وقد سماه « الروض العاطر الأنفاس ، في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس »

وفي ثنايا الكتاب يقول مادحا السلطان المذكور : « ... أعز جاراً من أبي دُوَاد ، وأحمى أنفاً من الحارث بن عُباد ... إن أغاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان بذكر ، الخ »

فمن هو الأسود بن قنان ؟

يقول الأساتذة الأجلاء « السقا والإبياري وشلبي » الذين قاموا بضبط وتحقيق كتاب « أزهار الرياض في أخبار عياض » تعليقاً على هذا الاسم في الهامش : لم نجد[1] شيئاً عن الأسود ابن قنان هذا في المظان التي رجعنا إليها

وللإخوان الكرام كل العذر ، فالأسود بن قنان لم يسعده الحظ بالشهرة مع ما أوتيه من فتوة وأريحية وبأس ونجدة

وقد عناني أن أعرف هذا الرجل الهمام الذي وصفه العقيلي بأكرم خلة يتصف بها إنسان : وهي إغاثة الملهوف ! وخيل إليّ أنني مررت بهذا الإسم فيما قرأت وإن غاب عني المصدر ، حتى كنت ذات ليلة أتصفح (ديوان المعاني لأبي هلال العسكري) فعثرت به مصادفة في فصل المديح من كتاب المبالغة

قال أبو هلال[2] رواية عن أبي الحسن البرمكي عن محمد ابن ناجية الرصافي ، قال : كنت أحد من وقعت عليهم التهمة أيام الواقعة بمال مصر ، فطلبني السلطان طلباً شديداً ، حتى ضاقت عليّ الأرض برحبها ! فخرجت إلى البلاد مرتاداً رجلاً عزيزاً منيع الدار أعوذ به وأنزل عليه ، حتى انتهيت إلى بني شيبان بن ثعلبة ، فدفعت إلى بيت مشرف بظهر رابية منيمة ، وإلى جانبه فرس مربوط ورمح مركوز يلمع سنانه ، فنزلت عن فرسي وتقدمت فسلمت على أهل الخباء ، فرد على نساء من وراء السجف ، ورمقنني من خلل الستور بعيون كعيون أخشاف الظباء ! فقالت إحداهن :

اطمئن يا حضري ، فقلت : وكيف يطمئن المطلوب أو يأمن المرعوب ! وقلما ينجو من السلطان طالبه ، والخوف غالبه دون أن يأوي إلى جبل يعصمه ، أو معقل يمنعه . فقالت : يا حضري ، لقد ترجم لسانك عن قلب صغير وذنب كبير ، قد نزلت بفناء بيت لا يضام فيه أحد ، ولا يجوع فيه كبد ، ما دام لهذا الحي سَبد أو لبَد . هـذا بيت الأسود بن قنان ، أخواله كلب ، وأعمامه شيبان ، صعلوك الحي في ماله ، وسيدهم في فعاله ، لا ينازع ولا يدافع ، له الجوار وموقد النار وطالب الثار ، وبهذا وصفته أمامة بنت الجلاح الكلبية حيث تقول :

إذا شئت أن تلقى فتى لو وزنته ... بكل مَعَدّيّ وكل يمانى
وفى بهمُ حلماً وجوداً وسؤدداً ... وبأسا فهذا الأسود بن قنان
فتى كالفتاة البكر يسفر وجهه ... كأن تلالى وجهه القمران
أغرّ أبرّ ابنيْ نزارٍ ويعرُب ... وأوثقهم عقداً بكل لسان
وأوفاهمُ عهداً وأطولهم يداً ... وأعلاهمُ فعلاً بكل مكان
وأضربهم بالسيف من دون جاره ... وأطعنهم من دونه بسنان
كأن العطايا والمنايا بكفه ... سحابان مقرونان مؤتلفان

فقلت : الآن ذهبت عني الوحشة ، وسكنت الروعة ، فأنّى لي به ؟ ! قالت : يا جارية ، اخرجي فنادي مولاك ، فخرجت الجارية فما لبثت إلا هنيهة حتى جاءت وهو معها في جمع من بني عمه ، فرأيت غلاماً حسناً قد اخضر شاربه ، واختط عارضه ، وخشن جانبه . فقال : أي المنعمين علينا أنت ؟ فبادرت المرأة فقالت : يا أبا مرهف ، هذا رجل نبتْ به أوطانه ، وأزعجه سلطانه ، وأوحشه زمانه ، وقد أحب جوارك ، ورغب في ذمتك ، وقد ضمِنا له ما يضمنه لمثله مثلك ! فقال : بلْ الله فاك ! قال : فأخذ بيدي وجلس وجلست ؛ ثم قال : يا بني أبي وذوي رحمي ، أشهدكم أن هذا الرجل في ذمتي وجواري ، فمن أراده فقد أرادني ، ومن كاده فقد كادني ، وما يلزمني من أمره في حال إلا ويلزمكم مثله : فليسمع الرجل منكم ما يسكن إليه قلبه ، وتطمئن إليه نفسه . قال : فما رأيت جواباً قط أحسن من جوابهم ؛ إذ قالوا بأجمعهم : ماهي أول منة منَنتَ بها علينا ، ولا أول يد بيضاء طوّقتناها ، وما زال أبوك قبلك في بناء الشرف لنا ودفع الذم عنا ، فهـذه أنفسنا وأموالنا بين يديك !

ثم ضرب لي قبة إلى جانب بيته ، فلم أزل عزيزاً منيعاً حتى صنع لي السلطان ما أملت فانصرفت إلى أهلي

إذاً فالأسود بن قنان من شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ابن علي بن بكر بن وائل من ربيعة

علي الجندي

(١) ص ٩٥ — ١ — أزهار الرياض .

(٢) ص ٦١ — ١ — ديوان المعاني .

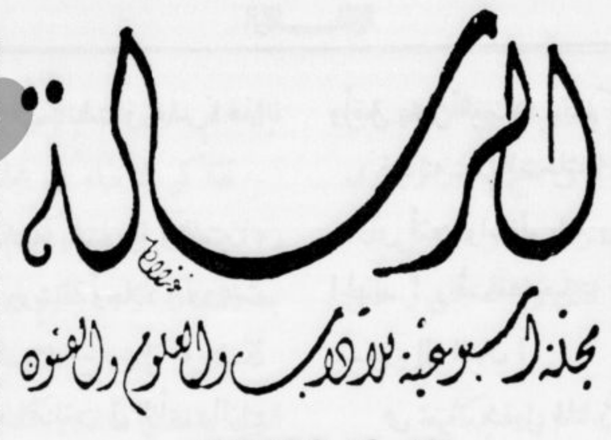
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 435

Lundi - 3 - 11 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة التاسعة — « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ١٣٦٠ — الموافق ٣ نوفبر سنة ١٩٤١ » — العـــدد ٤٣٥

الفهـــــرس

« مى »

للأستاذ عباس محمود العقاد

كنت يوماً بمكتب صحيفة « المحروسة » فلقيت وأنا خارج منه صاحبها الأستاذ الياس زيادة والد الآنسة « مى » رحمهما الله. وكان من عادته إذا لقينى أن يخاطبنى باسم الأديب حسين فتوح ، وإذا لقى الأستاذ فتوحا خاطبه باسمى ومشى معه أو مى مسافة يصحح فيها الاسم ويتلطف بالاعتذار ويتناول بعض الأحاديث العامة ...

وجرى الحديث إلى مؤلفات الآنسة فقلت : إنها جديرة بأن تفخر بها . إنها أعظم كاتبة فى العربية

قال : ولك أن تقول : أعظم كاتب

يريد أن المفاضلة والتفضيل قد يجريان بينها وبين الكتاب ولا يقتصر على الكاتبات . فقلت مزكياً شهادته : ليس زهو الأب وحده بالذى يملى عليك هذه الشهادة . إن كثيرين غيرك ليسبقونك إليها

وكان الرجل على حق فى فخره وتقديره. فثل الآنسة « مى » من يفخر بها الآباء وغير الآباء من أبناء العربية ، ومنزلتها فى الثقافة وخدمة الرأى منزلة فضلى بين الكتاب والكواتب ، وإن كنت قد أردت أنها أعظم كاتبات العربية جميعاً منذ عرفت

لغتنا الكاتبات ، ولم أرد أنها أعظم الكاتبات فى عصرنا هذا دون غيره

وما تتحدث به ممتع كالذى تكتبه بعد روية وتحضير ، فقد وهبت ملكة الحديث فى طلاوة ورشاقة وجلاء ، ووهبت ما هو أدل على القدرة من ملكة الحديث — ونعنى به ملكة التوجيه وإدارة الأحاديث بين الجلساء المختلفين فى الرأى والمزاج والمقام — فيكون فى مجلسها عشرة : منهم الوزير والموظف الصغير ، ومنهم المحافظ والغالى بالتجديد ، ومنهم المرح الثرثار والوقور المتزمت ؛ فإذا دار الحديث بينهم أخذ كل منهم حصته على سنة المساواة والكرامة ، وانفسح مجال القول لرأيه وللرأى الذى ينقضه ويشتد فى نقضه ، وانتظم كل ذلك فى رفق ومودة ولباقة ، ولم يشعر أحد بتوجيهها وهى تنقل الأحاديث من متكلم إلى متكلم ، ومن موضوع إلى موضوع ، كأنها تتوجه بغير موجه وتنتقل بغير ناقل ، وتلك غاية البراعة فى هذا المقام

بقيت لها هذه الملكة فى أشد أيام السقم والسآمة ، فلم يكن سامعها يحس فرقاً بين « مى » فى إبان عافيتها و « مى » فى ساعات الضنى والإعياء حين يستطرد الكلام إلى الأدب أو إلى التاريخ أو إلى معارض الآراء . ولم أسمع منها قط فى معرض من هذه المعارض إلا ما هو خليق بالإصغاء والتدوين

وكانت لها فطنة للضحك تحيي المساجلة وتزين الحوار ، ولكن فطنتها للمواقف المضحكة كانت أدق من فطنتها للنكتة واشتراكها فيها ، وكانت كبيرة الإعجاب بفكاهة المصريين التى تسميها « النقاشة » أو القافية التى لا تعذر ولا ترحم !

بحث بعض أساطين الشرقيين بعد الثورة الوطنية فى توحيد الزى الملائم للبلاد الحارة ، وكان أحمد شفيق باشا صاحب الحوليات والمذكرات المشهورة رئيساً لجماعة الرابطة الشرقية وحريصاً على إشاعة الزى الموحد بين الأمم العربية وأمم الشرق الأدنى عامة ، ولفرط حرصه على هذا لم ينتظر إقناع الناس ولبس الزى الذى ارتضاه ثم مشى به فى طرقات العاصمة إلى محطتها مؤثراً المشى على الركوب ليراه السابلة فى تلك الطرقات الحافلة

وكان يوم ثلاثاء ونحن فى مجلس الآنسة مى والزوار كثيرون وأقبل بعض الفضلاء يبتسم كمن يغالب ضحكة جامحة

فسألته : مم الضحك ؟ فقال : كنت اللحظة أعبر بار اللواء فنادانى أمين واصف بك وسألنى : أرأيت شفيق باشا فى زيه الجديد ؟ والله لقد حسبته مسجوناً مسوقاً إلى محطة العاصمة لتسفيره إلى اللبان ! !

مى تعرف شفيق باشا وتعرف أمين بك ، وتعرف أن الأول رئيس الثانى فى جماعة الرابطة الشرقية ، ومع هذا لم يرحمه حين جاء فى طريق القافية !

فلا أنسى كيف غلبت ضحكا لهذه المفارقة « المصرية » وهذا التشبيه العابث ، واندفعنا جميعاً نضحك وهى تضحك حتى أغرورقت عيناها بالدموع ، وحتى قال الأستاذ مصطفى عبد الرازق بحيائه المعروف : مابالنا أيها الإخوان نضحك هذا الضحك وننسى وقار المجلس ؟

فهتف به الأستاذ خليل مطران مداعباً : اضحك اضحك يا أخى ! من الذى يجد الضحك ويفرط فيه ؟

وكانت سهرة ضاحكة من سلامها إلى وداعها ، وكانت « مى » فى تلك الليلة كأحسن ما كانت بشاشة وأنساً وغبطة وإقبالاً على الحديث والمسامرة . . . رحمها الله . ما رأيتها بعد ذلك فى صورة آنس من تلك الصورة ، وتلك البشاشة كلها ، وذلك الذكاء كله الآن فى التراب ، بعد سنوات مسحت فيها النضرة ، ورانت النقمة ، ونضب معين الأمل والغبطة ، وطال الألم والعذاب ! ألا ما أسخف الحياة !

* * *

لقد كان مصابها بأمها بعد أبيها فى أشهر قلائل صدمة محطمة زلزلت كل ما بقى فى جنانها من يقين وسلوى

لكنها كانت قبل ذلك قاسية على نفسها كثيرة الانطواء على دخيلتها . وكان يخيل إلى أن احترامها المفرط خصلة عميقة فى سريرتها لازمتها من ريعان شبابها ، لأنها كانت قليلة الأمن والطمأنينة إلى الناس ، وكانت على دماثتها لا تدع الحواجز بينهم وبينها ، ولا تفتأ وراء سور من الحيطة والكتمان

وكنت أشفق من فرط احترامها وكلفتها ؛ فقلت لها يوماً

مجترئاً على مصارحتها : أنا على رأيك ياصديقتى فى أن الناس لا يؤمَنون ، ولكنى لست على رأيك فى نفع الحذر وجدوى الاحتراس . بل عندى أن عناء الاحتراس أضر من كل عناء يصيبنا به ترك الحذر وقلة المبالاة . فلا تبالى ولا تحترسى وانطلقى فى حياتك فذلك أخف الضررين

قالت : كأنك تعيد علىّ ما قاله الأستاذ داود بركات

قلت : وماذا قال !

فقصت علىّ حديثاً جرى بينهما فى السفينة وهما عائدان من أوربا ، وكانت فى السفينة سهرة راقصة والليل رائق والبحر ساج والطرب غالب على المسافرين . ورآها الأستاذ داود منزوية فى ركن من الأركان كأنها تأبى أن تشاركهم أو تشارك الطبيعة فى فرصة الصفاء . فناداها كالزاجر المندد : مابالك تعكفين على نفسك عكوف العجائز ؟ تعالى ارقصى واطربى مع هؤلاء الفتيات والفتيان فنهم من هو أكبر منك وكلهم يسبقونك فى مجال السرور

قلت : وبماذا أجبته ؟

قالت : تضايقت منه !

ثم أومأت إلى مندرة باسمة وقالت وهى تقتضب الحديث : فإن أردت أن أتضايق منك فعد إلى نصيحتك ونصيحته ... وإياك أن تعود !

وكنا نتبادل الرأى كثيراً ونختلف كثيراً ولا نستغرب هذا الخلاف ولا نكف عن تبادل الآراء ؛ لأن الخلاف بين كل أنثى وفية لطبيعتها وكل رجل وفىّ لطبيعته أمر من البداهة بمكان . فهى تنظر بعين حواء إلى حقائق الدنيا وهو ينظر بعين آدم ، وكلاهما مخلص فى خلافه ومستفيد

على أنها كانت ترى فى اللغة العربية واللهجة العامية مثل ما أراه ، وكانت على تربيتها الأوربية وإحاطتها بخمس لغات أجنبية تغار على عربيتها غيرة البداوة ، فلا تجارى الذين يميلون إلى مجافاة الفصحى وتبديل اللهجة والكتابة وتذهب فى هذا مذهباً قريباً من مذهب المحافظين المتشددين

واسمها « مى » إختصار لاسم « مارى » باختيار أول حروفه الميم وآخرها الياء ، ولكنها أحبت الاسم لعربيته لا لاختصاره ، فإن اسم مارى نفسه ليس بالاسم الطويل ولا الكثير الحروف

تذاكر الأدباء فى مجلسها يوماً مناقب رجل من أعظم رجالات المصريين فشاركتهم إعجابهم به وثناءهم عليه ، واستأذنت بعد ذلك أن تلومه أمامهم فى أمر صغير

قالت : كنت فى الجامعة المصرية فقدمنى إليه الأستاذ لطفى السيد وتفضل فأطرى كتاباتى العربية والأفرنجية بما شاء له فضله وتشجيعه

ثم قال : فلا أدرى لماذا نسى الزعيم العظيم أننى عربية وأننى كاتبة عربية واختار أن يخاطبنى بالفرنسية ويصر على مخاطبتى بها مع إجابتى له بالعربية على كل سؤال

وبدا عليها حقاً أنها غضبت لعربيتها من أن يخاطبها مصرى عظيم بغير لغته ولغتها ، وهى هى التى تتقن خمس لغات وتكتب بكل لغة كتابة يرضاها القراء من أبنائها . ولقد تكون الواحدة من بناتنا وما تحسن لغة واحدة كلاماً فضلاً عن الكتابة ، ثم لا تزال ترطن بها فى البيت والطريق مع أبناء جنسها كأنها لا تفهم لغة غيرها

وواجب لمى فى عنق العربية أن تغار على أدبها كغيرة مى على نسبتها إليها . فما عرفت العربية كاتبة أفضل من مى وأقدر وأجل ، وليس فضل الندرة هنا بأقل من فضل الإحسان والإتقان .

حياها الله فى ذكراها

عباس محمود العقاد

---

١١ ـ أومن بالانسان

للأستاذ عبد المنعم خلاف

آلهة وحيوانات — عمل الطبيعة فى تكوين الانسان الواحد — أزهرت الأشجار وأدركت الثمار — مدنية خالدة ذات سلطان مجيب شامل — جئنا لنحيا لا لنموت — الحياة بالفكر فى الجاهل والعامل — عبقرية المادة وعبقرية الروح — الذكاء البطر الجموح — إلى أحضان الأم الكبرى

إذا جردنا الإنسان مما أسبغته عليه الحياة للدنية من أفانينها وأنواعها وأشكالها ظهر لنا أن البون بعيد جداً بين الإنسان الذى أخرجته الطبيعة ، وهذا الإنسان الذى غيرته الصناعة وتعقيد الفكر . وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خلقه هو . ولكنه عالم غير خالد ولا متوالد إلا باطراد تقدم الإنسان . بخلاف مخلوقات الله فى الطبيعة فإنها أبدية دائمة تمر بها الطبيعة .

وكلما فكرت فى الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة وبين حياة رجل ألمانى أو انجليزى أو أمريكى وعقدت موازنة بينهما فى المأكل والملبس والملهى والمركب والمعمل والإنتاج والفكر والإحاطة بآفاق الدنيا والتسلط على الطبيعة ظهر لى أن الأول يكاد يكون فى صفوف نوع آخر غير الإنسان ، وأن الثانى ينقصه الروح والعدل ليكون الإنسان المنشود البار بوصايا الله ؛ لأنه هو الذى أحسن الأخذ عنه وخلفه فى الماديات خلافة واسعة ونمت على يده الحياة وتنوعت وتشققت مجاريها وتوسعت . . .

ولا يجوز عقلا أو شرعاً أن يعطى الأول الحياة وعزتها ، وأن يتسلط على الثانى ما دام كل منهما على حالته . كما لا يجوز لحيوان أن يسخر إنساناً .

وكلما استعرضت معارف الإنسان الذى المدونة فى كتبه وصحفه وألواحه وأرضه وآثاره أدركت مبلغ ما حله من أمانات الحياة . وأسرار الدنيا ذات الصمت والعمل .

ولا شك أن الإنسان العادى الذى يقرأ صحيفة يومية يحمل ذهنه من قضايا العالم وأخباره فى الصباح والمساء ما لم يكن فى حسبان أحد من السابقين ووجدانه ...

ولا شك كذلك أن هذا كله قد ترك أثره الواسع الشامل فى تكوين الذهن الإنسانى الحالى وتكييف أعصابه وإحساسه بالحياة، غير ما كان عليه الناس فى زمن المواصلات والثقافات المحدودة .

إن الأقدار تصنع عقل الإنسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل معارف الحياة العصرية

ومن الأعمال العظيمة التى تقوم بها الطبيعة الآن عملها فى تكوين الانسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها العظيمة ونعيش فى غيبوبة عن خطواتها بنا لا يدرك منا هذا التأثير إلا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة وتسجيل ظواهرها . وهؤلاء يكادون يكونون نادّين عن حبال الشبكة التى تلف غيرهم من أبناء الحياة .

لقد تركزت المعلومات فصارت القارات كالقرى .. وملايين الجنود كأصابع اليد . . . والدبابات كالنمال . . . والطائرات كالعصافير . . . وأخبار العالم الانسانى كله كأخبار الحى الواحد . . . !

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص فى فكر الانسان وتختزل صورها العظيمة فى أرقام وحروف ...

* * *

هذا العصر جدير أن يسمى « عصر الفوران والغليان » — على سبيل التشبيه بسطح ماء فى وعاء على نار — فقد لبث سطح الحياة ساكناً فى عصورها السالفة لا يتحرك إلا حركات موضعية . كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه فى النار . حتى إذا ما وصلت حرارته إلى درجة الغليان هدر وفار واشتد وقذف وتبخر وتحول ...

إن عوامل الحرارة كانت تحته من قديم ، ولكنها لم تصل منه إلى درجة الانضاج والحركة السريعة والتحويل إلا أخيراً . وكذلك عصر الانسانية الحالى هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهوراً شديداً متلاحقاً .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ؛ فعلموا أنواعهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم فى الحياة

وقد كانوا ضائعين مغمورين تائهين كأسرة مفرقة فرقها حادث ... ثم جمعتهم الظروف مرة ثانية ...

إنى أتخيل صورة الدنيا فى عقول ساكنيها الأولين ، وصورتها الآن فى عقول بنيها المثقفين ، فيصيبنى دهش مشوب بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الإنسان إلى غاية ابتدأت تنكشف وجوهها

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وحدهم هم المدركين وجهات الحياة . وكانوا فى الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب الكبير بين صبيان ، والراعى بين قطعان . وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون إليه . ولكن الآن صار العلم والدين والإدراك الصحيح شيئاً مشاعاً كالهواء والماء ، تقاربت فيه المعتقدات والآراء

* * *

أجل ، هذا زمن حصاد جهود الإنسانية ؛ فقد أزهرت الأزهار وأدركت الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعواد ، قد أينعت فيه عُلب الأسرار وحان قطافها ! !

أنظر فى بقاع الأرض جميعها تجد إنسانية تفتح عيونها وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة وتشترك فيها وتتلاقى مع غيرها فى خدمتها . وقد زال الانبهام والغموض اللذان كانت تحسهما عقول الإنسانية القديمة والمتوسطة فى ظواهر الحياة . وصار الإنسان معتمداً على نفسه وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب الطبيعة فى الإنتاج والاختراع ، وترك الاعتماد على الأمانى ، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار ...

ولنتلفت إلى الماضى كثيراً لندرك مدى ما كسبناه وحصلناه من محصولات الحياة كإنسانية واحدة وضع كل شعب وكل حضارة لبنة فى بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التى اقتحمت كل قطر وكل مدينة فى الأرض ، وصارت كقدر الله الذى لا مرد له ولا مفر منه

إنها حضارة باقية خالدة لن تبيد ولن تفنى ولن ترتد ! إذ أن بذورها ألقيت فى كل مكان ونبتت فيه . فلئن ذهبت أوربا إلى الخراب والدمار لسوف تبقى أمريكا . . . ولئن ذهبتا معاً لسوف يحمل المشعل أمم الشرق وتلك الأمم المنثورة فى أرض الله وجزر المحيطات وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هى نبوة الطبيعة ذات المعجزات الدائمة التى لا مفر من الإيمان بها والعمل لها وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجنى القطاف التى زرعها وتعهدها الأقدمون ، وزادت كل أمة فى ميراثها حتى صار فيها من كل قطر وِردٌ ومن كل أمة مدد ورِفْدٌ

* * *

إن هذه مدنية فرضت نفسها فرضاً على الناس جميعاً . فرضت آلامها وشرورها كما فرضت إسعادها وخيراتها وعلومها ، وصار الناس لا يستطيعون منها فراراً بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسراً واقتداراً

هى قدر لازم لا فكاك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة

ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة انتشارها فى كل مكان وليست كالمدنيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية . لأنها قامت على العلم الذى لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس ، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة

وكانت المدنيات السابقة تجارب وجذوراً متشعبة لجذع عظيم هو هذه المدنية الحالية

ولم يحدث فى الماضى أن صبغت مدنيةٌ الناسَ جميعاً كما فعلت هذه المدنية ، تخضع لها الموحد والوثنى والملحد والمؤمن والزنجى والإسكيمى والشرقى والغربى

ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعاً كما وجدت ميادين النشاط العلمى والآلى والصناعى والسياسى والأدبى فى رحاب هذه المدنية .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعاً كما اشتبكت الآن بفعل السرعة وسهولة الانتقال وتبادل المنافع وتشعب الاحتياجات

ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة فى مدارس الأمم جميعها كما درست هذه الثقافة المصرية .

فأى مكان نجا من سلطان مدنية الزمان ؟

أى طريق لم تجس خلاله السيارة ؟ وأى جو لم تخفق فيه الطيارة ؟ وأى بلد لم يستصبح بنور الكهرباء ؟

إن هذه المدنية تحيط بالإنسان فى كل أفق من آفاق حياته . وإنى استعرض الآن كل ما يحيط بى وأنا أكتب فأجد جميع ما تقع عليه عينى قد اشتركت فيه آلاف العمليات الإنسانية المعقدة . وقد صار إحساسى بها كاحساسى بضرورات حياتى . وأكاد لا أرى شيئاً خالصاً من يد الطبيعة وحدها إلا جسمى ... وحتى هو لم يسلم من هندسة الحلاق و « رتوشه » !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعله الإنسان فيها وما عقده وركبه ، لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ومدى العالم الذى أحدثه هو ... وإذا ألقيت نظرة على شارع فى نيويورك أو لندن أو القاهرة فإنه يروعك أن ترى ما فى مخازنه ومناظره وآثار الأيدى التى عملت فيه ، حتى لا تستطيع بعض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه من طول الأُلْفَة وطول الغفلة

عن التفكير فى مبادئ الحياة . . .

طوفوا فى شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة مدرك لمباديها لتعرفوا مقدار ما بينكم وبينها ومقدار قوتكم الابتداعية فتلتفتوا لأنفسكم متعجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والانتاجية من الضياع والذهول والنفلات !

إن أفراح الحياة تغمر قلبي حين أطوف بجسمى فى الشوارع العظيمة ، أو حين تطوف بى الحياة فى دور السينما ، فأرى عجائب ما استحدثه الإنسان فى عوالم المواد والمعانى ...

ولست أزهد فى رؤية الحياة المادية وتقصى دقائقها ، لأن كل دقيقة منها ترسل فى قلبي دقيقة من التعجب والإيمان ...

ما جئنا للحياة لنموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ، والقبر ليس نهاية ، وإنما هو بداية مرحلة تالية ... فعلى الذين يجعلون القبور نصب أعينهم فيهوّنوا من أجلها كل عظيم ولو كان الصحة أو العلم أو التفاؤل ، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله من شيء ، وينتفعوا به انتفاع الحلال والعقل والحفظ ...

ومن الكفر أن نترك الأجسام فريسة للجراثيم الفاتكة والآفات وعوامل الشؤم انتظاراً للموت الأكبر .. فيدب فيها منذ ولادتنا ..

كذلك يجب أن يكون إيمان الرجل المتمدن ... إيمان البصير الواثق بأن عمل النفس البشرية فى المادة باب إلى الإيمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلداء الأغرار !

إنى لا أعيش فى نفسى وحدها ، ولكنى أعيش فى نفوس بنى الدنيا جميعاً ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاقهم ، حتى أخرج ومعى كثير من أسرار الحياة فى القلوب والعقول ...

وأنصح لأصحاب الإيمان التقليدى أن يستحدثوا فى قلوبهم ونظراتهم ما أستحدث ، ليعرفوا أى لذة وأى إيمان مضاعف يغمر قلوبهم ...

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعانى ، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فان هذا هو الوضع الحقيقى لحياة الفكر والاستعمال الحق للروح وقوى الجسم ...

ولننعش بأفكارنا وأرواحنا دائماً ، سواء أكنا فى غابات خط الاستواء ، حيث الطبيعة بكر غير مفضوضة لم يطمثها إنس ولا جان ... أم فى مصانع « فورد » بنيويورك ، حيث يدور الفكر مع الحديد فى ضجة وتعقيد وقدرة !

***

الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة ، فلنقدم لهم عبقرية الروح ... فلنخدم أرواحهم كما خدموا أجسامنا ... !

إنهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكاؤهم تدبير أمورهم كلها فيما يخيل إليهم مع أن الواقع أنهم فى شبكة الأقدار العليا والتدبير الشامل لحياة الأرض . والرجل الذكي غنى بالحيل وتجدد الأفكار . والغنى يبعث دائماً على الطغيان . ومن هنا أُتى الغربيون ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده

وحين يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ثدى أمه ورعايتها ، ويعلو مستواه البدنى والعقلى عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه إياها إذا لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الإدراك والحب والرحمة والأدب ، وما دام ينسى أنه قطعة قدت من جسمها وقلبها ، وأنها الوشيجة الوثيقة بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة

وكذلك ينسى الإنسان الذكى عجزه أمام قهر صاحب الطبيعة ويستغنى بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها فيصير مخلوقاً يكاد يكون لا صلة بينه وبين ما فى الطبيعة من موجودات تسير طائعة بالإلهام والتوجيه

فهل نترك الغربيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم فى أودية بعيدة عن الرحمة والعدالة والأشواق إلى المجهول والبحث عن الله ذى الجلال ؟ !

أنتركها ونتركهم للحديد البليد القاسى يطبعها بطابعه ، ويوحى إليها ببأسه سياسة البطش والطغيان ، ويشغلها بضجته المنكرة عن همسات القلوب وأصوات الضمائر ؟

إننا إن تركناهم وتبعناهم على الخير والشر فسوف نكون فرائسهم وجَزَرَ سهوفهم وطحين طواحينهم الحديدية الحمراء !

فلنذكرهم بمبادئ الطبيعة أُمّنا وأُمّهم ، تلك المبادئ التى فيها من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من غير ضابط من هدى الطبيعة

وإن الطبيعة لتذكر أبناءها دائماً بوصايا الحق والعدل كما تذكر الأم البسيطة أبناءها الأذكياء بوصاياها وعواطفها التى

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

«الأخلاق عند الغزالي»

للدكتور زكي مبارك

تمهيد — الكتاب والمؤلف — اليوم المشهود — انتقال القلب من مكان إلى مكان — الروح السائد في الكتاب — العناصر الرئيسية — الكفر والإيمان — كلمة تنفع شبان الجيل الجديد ...

تمهيد:

أنا أشعر بأن مقال اليوم لن يخلو من ضعف ، لأني أكتبه وأنا كاره ، والإجادة لا تتاح إلا لمن يكتب بشغف وشوق ، وإنما أقبل كارهاً على مقال اليوم لأنه متصل بأحد مؤلفاتي ، وأنا لا أحسن وصف هذه المؤلفات إلا في المواقف التي تعدّ النفس بموجبات الزهو والخيلاء ، ولا شيء من ذلك في هذا الوقت ، لأن فورة الهجوم على كتاب « الأخلاق عند الغزالي » قد خمدت منذ أعوام ، بعد أن شغلتُ الناس وشغلوني بأبحاث بعيدة عن موضوع هذا الكتاب

ولكن ، ما الذي يدعو إلى هذا المقال وحالي كما وصفتُ ؟ يدعو إليه أن الكتاب مقرر لمسابقة الأدب العربي ، ولا بدّ من معاونة طلبة السنة التوجيهية على إدراك بعض ما فيه من مقاصد وأغراض ، على نحو ما صنعتُ في السنة الماضية ، وعلى نحو ما سأصنع في السنة الحاضرة ، في درس الكتب المقررة للمسابقة بين أولئك الطلاب

ولو أنني وجدت من ينوب عني في الكلام عن كتابي ، لأعفيت نفسي من هذا الواجب المزعج ، فلم يبق إلا أن أتكلم عن كتابي كما أتكلم عن كتب الناس ... وهل في الدنيا شريعة تفرض عليّ أن أنصف الناس وأظلم نفسي ؟

وليكن مفهوماً أني سأنظر إلى كتابي بعين المحب ، فحسبي وحسبُه ما عانينا من الظلم والاضطهاد . ألم يرفض جماعة من علماء العراق مصافحتي بحجة أني آذيت الغزالي ؟ ألم يَقُل جماعة من علماء مصر بأني وجهت أقوال الغزالي إلى غير ما كان يريد ؟ ألم يقترح الأستاذ جاد المولى بك أن يُنصّ في محضر الامتحان على أن اللجنة غير مسئولة عما في الكتاب من آراء ، وإنما مُنح مؤلفه إجازة الدكتوراه جزاء ما بذل من الاجتهاد في استنباط تلك الآراء ؟

لن أذكر كتابي بغير الجميل ، وإن كنت أعلم الناس بما فيه من عيوب هي في نظري من غرائب الجمال . وهل يعاب عليه غير أقباس من الحيوية لا ينجو منها شابٌ كالذي كنتُ في سنة ١٩٢٤ ؟

رُدوني إلى ما كنت عليه من شراسة وحُمق في ذلك العهد ، وخذوا ما أملك من ثروة وصيت ، فيومٌ واحد من شبابي أطيب وأنضر من جميع أطايب الوجود

الكتاب والمؤلف:

يقع هذا الكتاب في أكثر من أربعمائة صفحة بالقِطع المتوسط ، وثمنه خمسة عشر قرشاً ، أما النسخة المجلدة فتباع بعشرين ، فأرجو المكتبة التجارية أن تراعي هذا السِّعر ، فلا ترهق التلاميذ ، لأن أكثرهم أفقر مني

وقد قُدّم هذا الكتاب لنيل الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ ، وكانت لجنة الامتحان مؤلفة من حضرات الأساتذة الأكابر : منصور فهمي ، وأحمد ضيف ، ومحمد جاد المولى ، وعبد الوهاب النجار ، وأحمد عبده خير الدين ؛ وقد انتقل النجار وخير الدين إلى جوار الله ، فإلى روحَيهما في دار الخلود أقدّم أصدق التحية وأطيب الثناء

بنت عليها عشها . فمهما اختلفت أفكار الناس وأخلاقهم فإنهم يتوحدون حين يقفون بين يدي الطبيعة ويشعرون بشعور واحد فيه صدق الفطرة واعتدالها

ومبادئُ الأمومة وجوُّها وبساطتها وعدم تكلفها ، والحنينُ إليها والشوق إلى مهدها يجب ألا تنسى ؛ لكي يعيش الإنسان باراً بريئاً عامر القلب بالعواطف الشريفة ذات التأثير الكريم في خدمة الحياة !

وكما يوصف الرجل الذي يهجر أمه بالعقوق واللؤم مهما كانت هي بسيطة جاهلة ، ومهما كان هو فائق العقل واسع العلم عريض الجاه ، كذلك يوصف الرجل بالعقوق حين يهجر أحضان الأم الكبرى الطبيعة ، أو حين يؤذي أو يهمل إخوته منها !

عبد المنعم محمد خلاف

واسم المؤلف محمد زكي عبد السلام مبارك ، وكان فيما سمعت شابًا يحاول الوصول إلى الحق ، وطريق الحق كثير الأشواك والعقبات ، فلم يصل إلا بعد أن أدمى قدميه ، إن صحّ أن الله أراد أن يكون من الواصلين

ويظهر أن المؤلف كان يعاني ثورة روحية وعقلية عند تأليف هذا الكتاب ، وهو نفسه حدثني أنه صاحبَ الغزالي في مؤلفاته نحو خمس سنين ، فأسرَه الغزالي على نحو ما يصنع بمن يواجهون نوره الوهاج ، ورأى المؤلف أن تأليف كتاب في « الأخلاق عند الغزالي » لا يتيسر إلا بعد النجاة من أسر الغزالي ، فجمع قواه وكسر باب الأسر ، ليتنسم أرواح الحرية الفكرية ، وليلقى الغزالي لقاء النِّد للنِّد ، إن كان للغزالي أنداد

وفي مدى ثلاث سنين استطاع ذلك الشاب أن يكتب رسالة للدكتوراه في الفلسفة عن « الأخلاق عند الغزالي » ، وهي رسالة شرّقت وغرّبت ، بحق أو بغير حق ، واهتم بها الدكتور سنوك هوجرنيه ، فنشر في الثناء عليها بحثاً باللغة الهولندية كان طليعة التنويه بالمؤلف في بيئات المستشرقين

اليوم المشهود

هو اليوم الذي نوقش فيه المؤلف بجلسة علنية في الجامعة المصرية ، فقد كان بين الحاضرين جماعة من أساتذة الأزهر الشريف ، على رأسهم الأستاذ الجليل عبد المجيد اللبان شيخنا وشيخ أشياخنا وصاحب الفضل على كثير من العلماء ، وقد طاب للشيخ اللبان في ذلك اليوم أن يعترض من وقت إلى وقت بأسلوب يُحرج الممتحَن ويحرج لجنة الامتحان ، واقتفى أثره المرحوم الشيخ محمد الإبياري فاعترض بعبارات حملت الدكتور منصور فهمي على أن يعلن أن الجمهور لا يصح له التدخل في شؤون هي من حق لجنة الامتحان

وانتقلت الثورة من الجمهور إلى أساتذة الجامعة من غير لجنة الامتحان ، فتقدم معالي الأستاذ حلمي باشا عيسى وأسر في أذن الدكتور منصور فهمي أن الدكتور طه حسين يريد أن يوجه ثلاثة أسئلة إلى زكي مبارك ، فأعلن الدكتور منصور أن لأساتذة الجامعة وحدهم أن يتدخلوا في الامتحان ، وهو لذلك يعطي الكلمة للدكتور طه حسين ... والله الحفيظ !

وكانت معركة لم أنتصر فيها إلا بأعجوبة ، فقد كان الدكتور طه هزمني قبل ذلك في امتحانات الليسانس مرتين !

ثم كانت النتيجة أن يفوز الطالب بعد امتحان دام نحو ثلاث ساعات فيصير دكتوراً في الآداب بدرجة « جيد جداً » من الجامعة المصرية .

انتقال القلب من مكان إلى مكان

ورأى الأستاذ خليل بك ثابت أن يرسل مندوباً يشهد الامتحان ويحدث قراء المقطم عما وقع فيه من جدال وصيال ، وقد وقع اختياره على المرحوم حسن حسين ، وكان أديباً له بَدَوات ، فلخص معركة الامتحان بأسلوب صورني فيه بصورة الثائر على التقاليد الدينية ، فانبرى لمجادلتي على صفحات المقطم عالمان جليلان ، أحدهما الشيخ أحمد مكي ، طيب الله ثراه ، وثانيهما أستاذي في أكثر ما تلقيت من العلوم الدينية وهو الشيخ يوسف الدجوى ، ولم أستطع الرد على هذين الأستاذين الجليلين — وكان يشرفني أن أجاريهما في ميدان النضال — لأني علمت من إدارة الجامعة عن طريق الأستاذ سامي راغب أن مساعد السكرتير العام بوزارة المعارف وهو الأستاذ محمود فهمي النقراشي طلب من الأستاذين جاد المولى وخير الدين أن يقدما تقريراً عن امتحان زكي مبارك في الدكتوراه ، ولأن الدكتور طه والدكتور منصور نصحاني بالسكوت عما أثار امتحاني من جدال ، وهي نصيحة سجلها الدكتور طه في جريدة السياسة وهو ينقد كتاب « مدامع العشاق » في أوائل سنة ١٩٢٥

وأقول إن قلبي انتقل من مكان إلى مكان بسبب هجوم الشيخ أحمد مكي والشيخ يوسف الدجوى ، فما كنت أنتظر من هذين الأستاذين أن يثيرا مجاجة يهتاج بها الجمهور ، وتلتفت إليها وزارة المعارف

ولم يصح عندي أن هجوم الشيخ مكي والشيخ الدجوى يستند إلى الحق ، فأسررتها في نفسي ، وقلت إن رجال الدين لن يكونوا دائماً ملهَمين ، وذلك هو السبب في أني أجازيهم ظلماً بظلم وإجحافاً بإجحاف ، من حين إلى حين

ولكن لا بأس ، فقد استطاع كتاب « الأخلاق عند الغزالي » أن يقاوم هجمات الناقدين عدداً من السنين إلى أن تعرض له ناقد لا يرحم المؤلف، وإن كان يحمل اسم المؤلف ، ففي اليوم الرابع من

أبريل سنة ١٩٣٧ وقف طالب يؤدى امتحان الدكتوراه فى جلسة علنية بالجامعة المصرية . وكان أكبر همه أن ينقض آراء الطالب الذى وقف هذه الوقفة فى الخامس عشر من مايو سنة ١٩٢٤

فماذا صنع ؟ أثبت فى كتاب « التصوف الإسلامى » أنه ظلم الغزالى فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » والحكم على النفس من مظاهر القدرة على مغالبة الأهواء

روح الكتاب

وقد حاولت مرات كثيرة أن أرجع إلى هذا الكتاب بالتغيير والتبديل لأقدمه بصورة جديدة إلى عشاق الدراسات الأخلاقية ، ولكنه يأسرنى كلما نظرت فيه ، لأنى ألفته فى أوقات كنت فيها ثائر القلب والعقل على فهم القدماء للأخلاق ، وهى ثورة لم أنج من شرها إلى اليوم ، وقد أسايرها وتسايرنى إلى آخر أيامى . وكيف يهدأ من يروعه أن يرى فى رجال الدين من يعرفون خريطة الحياة الأخروية ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية ؟

إن كتاب « الأخلاق عند الغزالى » لم يكن إلا دعوة صريحة إلى التشكيك فى أصول الأخلاق الموروثة عن القدماء ، والمؤلف يقسم الفضائل إلى قسمين : فضائل سلبية وفضائل إيجابية ، ثم يقرر أن الغزالى وجه أكثر اهتمامه إلى الفضائل السلبية « ولم يُعنَ بشرح الفضائل الإيجابية كالشجاعة والإقدام والحرص وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك ، والسعى لنيل ما لا يجد ، فإنه لا يكفى أن يَسلم الرجل من الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف ، فإن الضعف شرٌ كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون »[1]

وقد عاب المؤلف على رجال الدين أن ينسحبوا من الميدان السياسى فى الأوقات التى يُفرَض فيها الجهاد ، فطوق الغزالى بطوق من حديد حين سجل عليه أنه لم يؤد واجبه فى التحريض على مقاومة الحملات الصليبية ، مع أنه « حجة الإسلام » ومع أن صوته كان مسموعاً فى أكثر الأقطار الإسلامية

وأثبت المؤلف فى لواحق الكتاب مقالاً نشره فى المقطم بتاريخ ٤ يونية سنة ١٩٣٤ أيد فيه القول بأن الدين الإسلامى دين فتح وامتلاك ، وهو مقال كتبه فى الرد على من ناوشوه من العلماء وفيه يقول :

(١) الأخلاق عند الغزالى ص ١٨٥

« الظاهر أن حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريبَ والاعتداء على الشعوب . كلا ، يا هؤلاء ! الدين الإسلامى دين فتح ، رضيتم أم كرهتم ، وللفتح آداب وشروط سنها الدين الحنيف ، وأنتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » إنما تجارون الأجانب الذين يتوددون إليكم بوصف الإسلام بالقناعة والرضا بالقليل ، وهذا خطأ صُراح ، فالدين الإسلامى أبعد الأديان عن الزهادة وأبغضها للخمول ، ولا حرج على الإسلام فى أن يرغب أتباعه فى امتلاك ناصية العالم ، فإن هذا أمل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية أو ملة قوية وضعت حداً لمطامعها فى الحياة ، وإنما ترغم الأمم الضعيفة أو الملل الضعيفة على أن تحدد آمالها وأطماعها بضيّق الحدود »[1]

وهذه الفقرة توضح بعض اتجاهات المؤلف فى تفسير الأغراض الصحيحة للدين الإسلامى

وأنكر المؤلف على الغزالى أن يتعلق بأهداب الآداب السلبية التى دعا إليها الإنجيل ، وفى ذلك يقول :

« إن الآداب التى وضعها الإنجيل غير طبيعية ، على معنى أنه لا يمكن أن يسكن إليها بطبيعته أحدٌ من الناس ، فالحكمة الإنجيلية التى تقول : (مَن ضربك على خدك الأيمن فأدِرْ له خدك الأيسر) حكمةٌ غير معقولة لا يقرّها عُرف ولا يدعو إليها قانون ... والحكمة المسيحية التى تقول : (من سخّرك ميلاً فامش معه ميلين) حكمة غير ممكنة القبول ، ومن المستحيل أن تجد مسيحيًّا يدير لك خدك الأيسر حين تضربه على خده الأيمن ، أما المسيحىّ الذى يتهمك ميلين حين تسخره ميلاً فهو نادر الوجود »[2]

ثم يقول المؤلف بعد كلام مفصّل فى نقد الأخلاق المسيحية :

« أليس من الغريب أن يصدّق الغزالى أن عيسى يقول : (من أخذ رداءك فأعطه إزارك) ومَن الذى يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب ؟ »

وينفى المؤلف عن نفسه تهمة التحامل على المسيح فيقول :

« ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نُبوة عيسى عليه السلام ، وإنما نرجح أن أتباعه جَنَوا على شريعته بما زوّروا باسمه من الأحاديث ، وهذه جناية كثيرة الأمثال فى تواريخ الشرائع ، فإن الإسلام مع تواتر سنده الأول وهو القرآن لم يَعدم من

(١) الأخلاق عند الغزالى ص ٤٢١

(٢) أنظر ص ٩٠

أصحاب النفلة وأصحاب الأغراض من زوّروا الأحاديث باسم النبيّ حتى كادوا يقضون على ما للاسلام من قوة الحق وروعة الجمال ... ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو إلى الزهد ، ولكننا نرجح أنها كانت تدعو إلى الزهد بقدر ما تفلّ من حدّة الناس وتقلل من جشعهم وطمعهم ، أما الدعوة إلى الفرار من طيبات ما أحلّ الله فهي دعوة بعيدة الوقوع من الأنبياء والمرسلين »[1]

هذا الروح السائد في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » هو الذي يعطفني عليه ، ويصرفني عن التعرض له بالحذف والإيصال ، مع أني رجعت عن بعض الآراء المدونة فيه حين ألفت كتاب « التصوف الإسلامي » ، وبين الكتابين أعوام تنقّل فيها عقلي من أفق إلى آفاق

والمهمّ هو أن ينظر طلبة السنة التوجيهية إلى المعضلات المبثوثة في هذا الكتاب بالعين التي نظر بها المؤلف ، ولهم أن يثوروا على المؤلف كما ثار على نفسه في كتاب « التصوف الإسلامي » إن اتسع وقتهم للبحث والاستقصاء

وأهم من هذا أن يمتحنوا ما في هذين الكتابين من آراء فلسفية ، ليُشعروا لجنة الامتحان بأنهم انتقلوا من الدرس والاستيعاب إلى النقد والتحقيق ، وليس هذا بكثير على شبان هم بإذن الله طلائع الجيل الجديد

العناصر الرئيسية

في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » أربعة عشر باباً ، وفي كل باب عدة فصول ، ومن مواد هذا الكتاب تتضح ألوان كثيرة من التفكير الفلسفي عند العقول الإسلامية ، وتظهر عبقرية الغزالي في نضارة وإشراق

وأسلوب الكتاب يغلب عليه الحذر والتهيّب ، وقد يصل إلى الرمز والإيماء ، لأن المؤلف كان يعاني رقابة عنيفة ، هي رقابة اللجنة المكلفة بالنظر في صلاحيته لامتحان الدكتوراه ، وإن كان من واجب المؤلف نحو نفسه أن يعلن أن تلك اللجنة لم تحذف منه غير فقرتين اثنتين ، ولم تُنشر بغير زيادة كلمات معدودة تحدّد المراد من بعض الأغراض

وكان شاع منذ أعوام أن كتاب « الأخلاق عند الغزالي » من تأليف الدكتور منصور فهمي ، وهي إشاعة تشرّفني وترفع من قدري ، فأنا تلميذ هذا المفكر الجليل ، ولو قضيتُ العمر في الثناء عليه لما وفيته بعض حقه في تعليمي وتثقيفي ؛ ولكن كتاب « الأخلاق عند الغزالي » كتابي لا كتابه ، بشهادة ما فيه من غطرسة واستعلاء ، وأستاذنا الدكتور منصور آية في التواضع المقبول

وكان يجب أن ألخص ما في الكتاب من أبواب وفصول ليسهُل درسه على المتسابقين ، ولكني نظرت فرأيته في غاية من الوضوح والجلاء ، فلم يبق إلا أن أنص على ما يجب درسه بعناية والتفات :

في الباب الأول فصول تصوّر عصر الغزالي بإيجاز وتصف الدسائس التي عرفها الغزالي ، وسيُسأل الطلبة عن محتويات هذا الباب

وفي الباب الثاني فصول عن أسرة الغزالي ومولده ونشأته وحياته الروحية ، ومبلغ فهمه للحياة ، وسيُسأل الطلبة عما حصّلوه من عناصر هذا الباب

والباب الثالث متعب ، لأنه خاص بالينابيع التي استقى منها الغزالي آراءه الفلسفية ، ولا بد للطلبة من مذاكرة أساتذتهم في الاهتداء إلى تلك الينابيع

وفي الأبواب التالية يكون الكلام في صميم المبادئ الأخلاقية بنظرتين مختلفتين : نظرة الغزالي ونظرة المؤلف ، ومن واجب الطلبة أن يمتحنوا هاتين النظرتين بفهم وذوق ، ليقيموا الدليل على ما يملكون من أصالة الفكر ورجاحة العقل

فإذا كان الباب التاسع رأينا المؤلف يحاسب الغزالي على آرائه في العلوم والفنون وفي التربية والتعليم ، وهو باب سيُسأل الطلبة عما فيه من آراء ، لأنه وثيق الصلة بالموازنة بين العقل القديم والعقل الجديد

وفي الباب العاشر يتكلم المؤلف عن الواجبات الفردية والاجتماعية ، ويقع هذا الباب في أكثر من خمسين صفحة ، ويكفي الطالبَ أن يدرس منه عشر صفحات ، ليواجه لجنة الامتحان وهو على شيء من التحصيل

وفي الباب الحادي عشر يطول الكلام عن تأثير الغزالي في عصره وما تلاه من العصور ، وللطالب أن يقرأ من هذا الباب

(1) أنظر ص ٩٣

ما يشاء ، ولكن عليه أن يدرس الصفحتين ٣٦١ و ٣٦٢

وفى الباب الثانى عشر كلامٌ عن أنصار الغزالى وخصومه ، وهو موضع اعتراض ، فقد قيل إن المؤلف أوجز فى الكلام عن أنصار الغزالى مع أنه تحدث عن خصومه بإطناب ، فعليك أن تعتذر عن المؤلف بلطف ! !

أما الباب الثالث عشر فهو فى الموازنة بين الغزالى والفلاسفة المحدَثين ، وفيه فصلٌ مهمٌ جداً عن الموازنة بين الغزالى وديكارت ولن تمفيك لجنة الامتحان من هذا الفصل ، لأنه من عيون الكتاب ، ولأن التأمل فيه قد يجذبك إلى الدراسات الفلسفية

وفى الباب الرابع عشر تجد (آراء علماء العصر فى الغزالى) من أمثال الأساتذة : منصور فهمى ، على عبد الرازق ، يوسف الدجوى ، محمد جاد المولى ، عبد العزيز جاويش ، الكونت دى جالارزا ، على العنانى ، عبد الوهاب النجار ، حسين والى ، عبد الباقى سرور ، أحمد أمين

فإن استطعت أن تقرأ الكتاب كله قراءة الفهم أولاً ، وقراءة النقد ثانياً ، فستظفر بالجائزة الأولى ، وسيصافحك وزير المعارف مصافحة الود والإعجاب

الكفر والإيمان

فى الموازنة بين الغزالى وكارَليل تقع صحائف أراها من النفائس ، وقد تكون أصدق ماجرى به قلمي ، وهى من صفحة ٣٨٩ إلى صفحة ٣٩٩ ، ولا أستطيع تلخيص تلك الصفحات فى هـذا المجال ، طلباً للنجاة من الدخول فى معارك نفضت من غبارها يدى ، فقد راضتنى الأيام بعد الجموح ، وانضممت كارهاً إلى العصابة التى تقول بأن الرياء سيد الأخلاق !

هذه الصفحات تنفعك فى الامتحان ، لأنها تشهد بأنك وصلت إلى الأسرار المطوية فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » وذلك هو الغرض المنشود ، ولكنها ستضرك وستؤذيك ، لأنها ستفرض عليك أن تزن « المسئولية الأخلاقية » بميزان جديد وأنت فى غنًى عن هذه المتاعب الثقال !

كلمة تنفع شباب الجيل الجديد

قد يكون فيكم من يتوهم أن اللجنة التى تحتكمون إليها فى مسابقة الأدب العربى يسرها أن تراكم أبواقاً تحكى ضلالات المجتمع فى فهم الأدب والأخلاق ، هيهات ثم هيهات ، فستؤلف تلك اللجنة من رجال وزارة المعارف ورجال كلية الآداب ، فأفهموهم بلسان الحال ولسان المقال أنكم طلائع الجيل الجديد ، وأنكم جديرون بما لهم فيكم من آمال

وبالنيابة عن اللجنة أوصيكم بدرس ما يطيب لكم من مواد الكتب المقررة للامتحان الشفوى ، على شرط أن تعلنوا اللجنة بذلك ، وعلى شرط أن يكون لكم فى التعقيب على المؤلفين آراء تجعلكم من أرباب الفكر الأصيل

ليس المهم أن تقرأوا الكتاب من الألف إلى الياء ، ولكن المهم أن تدركوا سريرة المؤلف ، وأن تحاسبوه بنزاهة وإخلاص

أنتم فى السنة التوجيهية إلى كليات الجامعة المصرية فأفهموا لجنة الامتحان أنكم انتقلتم من التحصيل إلى التفكير ، فالتفكير هو الغرض المنشود

وسنتكلم فى الأسبوع المقبل عن « ابراهيم الكاتب » ؛ فإلى اللقاء

زكى مبارك

ظهر حديثاً

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد السنوسى

إخصائى الحالات النفسية

يرشدك إلى الطريق التى يجب أن تسلكها فى الحياة طبقاً لاستعداداتك ويجعلك تكشف عن نقط الضعف فيك لتعمل على تقويتها أو للقضاء عليها . يكشف لك عما يهددك من الأمراض الجسمانية والنفسانية لتتبع طرق الوقاية منها ، يوضح لك كيف تحطم العقبات التى توقف نجاحك فى الحياة . وأخيراً تجد فيه تقارير عما تنطق به خطوط أيدى : دولة اسماعيل صدقى باشا . الدكتور طه حسين بك . الأستاذ عباس محمود العقاد . السيدة هدى هانم شعراوى . الدكتور عبد الله العربى بك . محمود حسيب بك . الأستاذ فريد أبوشادى بك . المطربة ملك . الفنانة أمينة رزق — ويطلب من مكتبة الأنجلو ٣٣ ش قصر النيل ، ومن المؤلف ٣٣ ش الملكة فريدة — ثمن النسخة خمسين قرشاً عدا أجرة البريد ٣ قروش داخل القطر و ٥ قروش خارج القطر

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

- ٦ -

نقد الأصـــول

تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان ومكان التدوين (*)

إذا ما ثبت الباحث أن الأصل أو المصدر التاريخى صحيح وغير مزيف فليس معنى ذلك أن المعلومات الواردة به ذات قيمة تاريخية كبيرة . ولا بد من نقد الأصل التاريخى من نواح أخرى . وبعض الأصول يحمل اسم مؤلفها وزمان ومكان تدوينها، والبعض الآخر الذى يكون عليه طابع الصحة وعدم التزييف يغفل بعض أو كل هذه النواحى ، فينقص ذلك من قيمتها التاريخية . فكيف يقدر الباحث قيمة الأصل التاريخى وهو يجهل اسم المؤلف وشخصيته وعلاقته بالحوادث التى كتب عنها ؟ هل شهدها بنفسه أم سمعها ونقلها عن الغير ؟ ومتى دونها ؟ هل دونها أثناء وقوع الحوادث أم بعدها بزمن طويل ؟ وفى أى مكان تم ذلك التدوين ؟ هل كان فى مكان وقوع الحوادث أم فى جهة بعيدة عنها ؟ من الضرورى جداً معرفة كل هذه النواحى بقدر المستطاع . فكيف السبيل إلى تحقيق كل ذلك ؟

إن معرفة اسم وشخصية كاتب الأصل التاريخى مسألة هامة لأن قيمة المعلومات التاريخية التى يوردها ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب وبمدى فهمه للحوادث وبكل الظروف التى تحيط به على وجه العموم . فالمعلومات التى يدونها الأمير أو الحاكم تختلف عن المعلومات التى يسطرها السياسى أو صاحب المهنة أو الجندى أو رجل الشعب . وكاتب الأصل التاريخى ، سواء كان شاهد عيان أو اعتمد على غيره من شهود العيان ، يعتبر الواسطة التى يصل المؤرخ عن طريقها إلى الوقائع التاريخية . فإذا كان الكاتب شخصاً صادقاً عدلاً بعيداً عن الأهواء بقدر المستطاع كانت معلوماته صحيحة بصفة عامة ، والعكس صحيح أيضاً . وعلى ذلك تتضح أهمية البحث لمعرفة أكبر قسط ممكن من المعلومات عن كاتب الأصل أو الوثيقة التاريخية . وفى هذه الناحية كغيرها من نواحى نقد الأصول التاريخية الأخرى ، يصبح عمل المؤرخ شبيهاً بعمل القاضى ، والقاضى يمتاز بأن شهود الحوادث أحياء أمامه بالحق أو بالكذب ينطقون ، ولكن المؤرخ عليه أن ينتقل من الحاضر إلى الماضى بالعقل والنقد والخيال ، وأحياناً تضيع عبثاً جهود المؤرخ لمعرفة اسم وشخصية كاتب الأصل التاريخى فيظل مجهولاً ، وأحياناً أخرى لا يمكن للمؤرخ إلا أن يجمع بعض المعلومات القليلة عنه . ونلاحظ أن وضع اسم شخص على أصل أو مصدر تاريخى لا يفيد دائماً أنه كاتبه كما فهمنا ذلك من عوامل الدس والانتحال . وإذا عثر الباحث على الأصل التاريخى المخطوط أمكن فى أحوال كثيرة التعرف على شخص الكاتب أو الاقتراب منه على الأقل ، بدراسة الخط ونوع الورق والحبر واللغة والأسلوب والمصطلحات الخاصة بعهد تاريخى معين وبدراسة المعلومات التاريخية الواردة به

وإنه ليختلط الأمر أحياناً على الباحث فى التاريخ فيخطئ فى نسبة الأصل التاريخى إلى كاتبه الحقيقى . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الأب بولس قرالى أنه عند حضور على باشا أمير البحر التركى إلى المياه السورية لفض النزاع القائم بين فخر الدين أمير لبنان ويوسف سيفا صاحب طرابلس فى يوليو سنة ١٦١٩ ، أرسل الأمير فخر الدين رسالة إلى الباشا التركى يعتذر فيها عن الحضور إليه بنفسه [١] . ويقول الأب قرالى أن الأستاذ اسكندر المعلوف قد أورد ترجمة هذه الرسالة باللغة العربية فى كتابه عن الأمير فخر الدين . والأستاذ المعلوف يعتبر أن هذه الرسالة قد صدرت عن فخر الدين ولكنه يتشكك فى تاريخ إصدارها ولا يمكنه أن يحدد ذلك [٢] ويذكر الأستاذ المعلوف أنه قد نقلها عن ريكو [٣] .

(*) يعبر الأستاذ فلنج عن هذه الرحلة من النقد بكلمة Localization ص ٦١ ، ولم أجد كلمة عربية واحدة تفيد هذا المعنى . فلعل بعض العارفين يمدنا بما عنده .

(١) Carali, P. : Fakhr ad Din II Principe del Libano e la Corte di Toscana (1605—1635). Roma, Roma, 1936 p. 99.

(٢) عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثانى . جونية ، لبنان ، ١٩٣٤ . ص ٣٨٥ .

(٣) *Knolles & Rycaut : The Turkish History from the* Original of that Nation to the GroWth of the Otfoman Empire. 3 vols. London, 1687. v. I. p. 693.

والواقع أن هذه الرسالة ليست لفخر الدين . والمؤلفان كنوللس وريكو قد أخذا معلوماتهما عن هذه الفترة عن كتاب مينادوى الرحالة الإيطالى المعاصر الذى زار سوريا ولبنان أثناء حملة إبرهيم باشا لإخضاع الدروز فى ١٥٨٥ . ومينادوى يورد نص هذه الرسالة باللغة الإيطالية ، ويقول إن ابن ممن قد أرسلها إلى إبرهيم باشا فى يوليو ١٥٨٥ . ولقد نقل كنوللس هذه الرسالة عن مينادوى إلى اللغة الإنجليزية . ولا يحدد مينادوى ولا كنوللس (وريكو) من هو المقصود بابن ممن . على أنه لا يمكن أن يقصد بابن ممن فى ذلك المقام الأمير فخر الدين ، لأنه كان إذ ذاك غلاماً صغيراً ؛ والمقصود بابن ممن ، هو قرقماز بن ممن والد فخر الدين ، وليس فخر الدين نفسه . والذى حاول إبرهيم باشا أن يحمله للقدوم عليه للغدر به . وبالبديهة لا يمكن أن تكون هذه الرسالة قد صدرت عن الأمير فخر الدين إلى الباشا التركى فى ١٦١٩ ، لأن كتاب مينادوى الذى يتضمن أقدم نص معروف عن هذه الرسالة قد طبع فى البندقية فى ١٥٩٤[١]

ومن الأمثلة التى توضح طريقة إثبات شخصية كاتب الأصل التاريخى أن الباحث فى التاريخ قد يجد خطاباً باللغة الإيطالية مدوناً فى باريس بتاريخ ٢٩ يونيو ١٧٨٩ وموجهاً إلى حكومة على رأسها مجلس شيوخ ، ولكن بدون تحديد تلك الحكومة وبدون تعيين الكاتب . وفحص هذا الكتاب يدل على أن كاتبه هو أحد السفراء الإيطاليين فى فرنسا . فمن هو ذلك السفير ؟ وإلى أية حكومة أرسل خطابه ؟ الحكومة الإيطالية الوحيدة التى كان على رأسها مجلس شيوخ فى ١٧٨٩ هى جمورية البندقية . فالخطاب إذاً قد كتبه سفير البندقية فى فرنسا إلى حكومته . فمن هو ؟ البحث فى سجلات أرشيف البندقية يدل على أن سفير البندقية فى باريس فى ذلك العهد كان أنتونينو كابللو[٢]

وقد يحتوى الأصل التاريخى على معلومات عن حوادث رآها شاهد العيان بنفسه أو على معلومات سمع بها ونقلها عن الغير . فينبغى أن يحدد الباحث على وجه الدقة أجزاء الأصل التى دونها الكاتب بناء على ما شهده بنفسه ، وتعتبر إذاً أصلاً من الطبقة الأولى ، وكذلك يحدد أجزاء الأصل التى اعتمد الكاتب فى تسجيلها على الغير ، وتعتبر أصلاً من الطبقة الثانية ، مع تحديد مصدر هذا النوع الأخير من المعلومات إذا أمكن ذلك . ومن الأمثلة التى توضح ذلك ما ذكره (كاميل ديمولان) فى بعض ما كتبه عن المشادة التى حدثت بين مندوب الملك لويس السادس عشر وبين ميرابو أثناء اجتماع مجلس طبقات الأمة فى ٢٣ يونيو سنة ١٧٨٩ . والباحث يعرف من التاريخ أن ذلك الاجتماع لم يكن حضوره مباحاً للجمهور ، وكاميل ديمولان لم يكن عضواً فى مجلس طبقات الأمة ؛ وعلى ذلك فإن ديمولان لم يسمع بنفسه ما قاله ميرابو لمندوب الملك . فكلامه عن هذه المشادة أخذه عن طريق السماع ، فيعتبر أصلاً من الطبقة الثانية . إنما وصف ديمولان لما شهده خارج مكان الاجتماع من قدوم الملك أو احتشاد الجماهير يعتبر أصلاً من الطبقة الأولى[١]

وفى بعض الأحوال يجد الباحث كتاباً طبع فى باريس فى ١٨٩٠ مثلاً . ومن المحتمل أن يكون مؤلفه قد نقله بنصه عن مؤلف سابق وضعه فى ١٨٥٠ بدون أن يشير إلى ذلك . فالمسؤول عن المعلومات الواردة هو الكاتب الأول السابق . وصحيح أن السطو على كتابة الغير والنقل منها بغير حساب قد نقص الآن ، ويمنعه القانون أحياناً ؛ ولكن كثيراً ما يجد الباحث أن من الأصول والوثائق ما هى إلا عبارة عن نقل حرفى لأصول ووثائق سابقة ، سواء قصد الناقل السرقة وانتحال المعلومات لنفسه أو جمعها لأنها تهمه وتفيده[٢] . فعلى الباحث فى التاريخ أن يتعقب الكاتب الأصلى ؛ وإنه لمن أهم المسائل فى هذه الناحية من النقد معرفة المصادر أو الوثائق التى أخذ عنها ذلك الأصل التاريخى . ومن الأمثلة على ذلك أن الباحث قد يعثر على مجموعة من الكتابات عن المصادمات البحرية بين العثمانيين والتسكان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر جمعها أحد المهتمين بإبراز بطولة التسكان وهو بَسْتيانو بالبيانى ، ولكن بدون تحديد المصادر التى أخذ عنها[٣] . والبحث فى سجلات

(١) Minadoi, G. : Historia della Guerra fra Turchi e Persiani. Venetia, 1594. pp. 279—281

(٢) Fling : op. cit. pp. 65—66

(١) Fling : op. cit. p. 79

(٢) Langlois & Seignobos : op. cit. p. 94

(٣) Archivio di Stato di Firenze : Strozzani I. 145. Imprese delle Galer (1550-1610). Bastiano Balbiani. pp. 1-45 b.

أرشيف فلورنسا التاريخي يوضح أن بالبياني قد اقتبس مثلاً من أقوال بعض رجال الحملات البحرية التسكانية بقيادة الفارس فرنشسكو دل مونتي والأميرال أنجرامي في الشرق الأدنى وفي شمال أفريقيا في ١٦٠٧[١]

وقد يجد الباحث أحياناً مجموعات من الأصول والوثائق تتناول بحث نقطة معينة، فينبغي إذاً جمعها وترتيبها وتقسيمها إلى مجموعات على حسب التقارب والاختلاف في المعلومات التي توردها، وقد يكون التقارب شديداً أو قد يوجد اختلاف بين هذه الأصول والوثائق، مثل الاقتصار والاجتزاء في مواضع، والإطالة وإعطاء تفصيلات ومسائل جديدة في مواضع أخرى. وقد توجد علاقة بين هذه الأصول التاريخية في ناحية النقل أو الاقتباس عن مصدر أساسي واحد. فعلى الباحث دراسة هذه الأوجه كلها لمعرفة الشخص أو الأشخاص الذين كتبوا في هذه النواحي المتشابهة والمختلفة لتقدير ووزن أقوال كل منهم، وسنعود إلى ذلك عند بحث ناحية أخرى من نواحي نقد الأصول التاريخية

وقد يكون الأصل التاريخي من عمل أكثر من مؤلف واحد. فالكثير من الأصول تدخل عليها إضافات وزيادات وتعليقات في مواضع مختلفة، ثم تطبع ويعتبر الأصل وما أضيف إليه كأنه من وضع كاتب واحد. إلا أنه من الممكن بدراسة هذا الأصل كشف الحقيقة؛ وإذا وجد الأصل المخطوط أصبح من السهل تمييز الأصل من الإضافات والزيادات. أما إذا ضاع الأصل المخطوط ولم يبق أمام الباحث إلا المطبوع أصبحت المسألة أكثر صعوبة. إلا أنه يمكن بالدراسة الوصول إلى نتائج معقولة. فيدرس الباحث اللغة: هل هي واحدة أم متغيرة، والأسلوب هل هو واحد أم متغير، وهل تسود الكتاب فكرة واحدة وروح واحدة، وألا توجد خلافات ومتناقضات وفجوات في تسلسل الأفكار؟ وإذا كان الكاتب الذي أضاف في موضع أو أكثر من النص الأصلي واضح الشخصية أمكن تمييزه، وإلا بقي مجهولاً لدى الباحث في التاريخ[٢]

(١) Archivio di Stato di Firenze : Mediceo. 2077. pp. 747—749 b. & 751—758 b.

(٢) Langlois & Seignobos : op. cit. p. 93

ولنعرض لمثال حققه الدكتور أسد رستم؛ فإنه قد عثر على مخطوطة صغيرة تتناول أخبار الدولة المصرية العلوية في سورية في زمن ابراهيم باشا، وكانت مُغفلاً من اسم المؤلف. ووجد الدكتور رستم أنها ليست تاريخاً واحداً، وإنما هي ثلاثة تواريخ فقسمها إلى (ا. ب. ج)؛ ولاحظ أن هذه الأقسام لا تعطي حوادث متسلسلة، ولا يبدأ قسم منها حيث ينتهي سابقه، وأن الحوادث تتكرر في أقسامها الثلاثة، ولاحظ أيضاً أن (ا، ج) يستعملان التاريخ الهجري، بينما (ب) يتخذ التاريخ المسيحي، ووجد أن (ج) أكبر الأقسام، وأن أخباره تتعلق بحوادث لبنان مع إعطاء تفصيلات شخصية درانية محلية عن دير القمر وبيت الدين. فرجح الدكتور رستم أن كاتب (ج) شخص لبناني دراني، أو أقام بدير القمر على الأقل. فقصد الدكتور رستم إلى المكتبة البطريركية في بكركي، وفحص أوراق ١٨٣١ — ١٨٤١، وبعد الدراسة الطويلة عثر على رسائل مكتوبة بنفس الخط الموجود في (ج)، وبنفس اللغة واللهجة، وعليها إمضاء القس أنطون الحلبي. فاتجه الدكتور رستم إلى بطريرك الموارنة ماري الياس حويك، وعرف منه أن القس أنطون كان من المقربين للأمير بشير الشهابي، وأنه سكن بيت الدين، وأنه كتب عن أحكام الأمير بشير، وعن حروب ابراهيم باشا في سورية، وأن أغلب ما كتبه قد أحرق أثناء حوادث الصدام بين المسيحيين والدروز في ١٨٤٥. وإذاً، فالقس أنطون الحلبي هو مؤلف المخطوطة (ج)[٢]

وليس يكفي أن نعرف اسم المؤلف فقط إذا كان مجهولاً؛ والغرض من معرفة الاسم هو معرفة شخصية وصفات الكاتب لأن ذلك سيكون له قسط كبير في تقدير قيمة المعلومات التي ترد في الأصل أو المصدر التاريخي. فلا بد من أن يجمع الباحث كل المعلومات الممكنة عن شخصية كاتب الأصل التاريخي. وأحياناً يمكن للباحث أن يجمع معلومات عن شخصية المؤلف من بعض كتب التراجم؛ أو يجمع معلوماته عن الكاتب من الأصل التاريخي الذي دوّنه. فمثلاً الكتابة المؤرخة في ٢٤ يونيو

(٢) أسد رستم: مصطلح التاريخ. ص ٣٤ — ٤٢

١٧٨٩ عن بعض حوادث الثورة الفرنسية فى باريس وفرساى يفهم الباحث من لغتها وأسلوبها وطريقة عرضها ومعلوماتها أن كاتبها شخص مثقف ، وأنه شاب قوى الجسم يمكنه أن ينتقل من باريس إلى فرساى أثناء المطر المنهمر ؛ ويدرك الباحث أنه شخص متحمس جرىء ثورى ، يتكلم بصراحة ويقرر أن ممثلى الشعب لا يخافون الموت ، ويعلم الباحث أيضاً أن الكاتب كان مهتماً بالحوادث التى شهدها لدقة وصفها وحسن التعبير عنها . ولا ريب فإن هذه الأوصاف تنطبق على « كاميل ديمولان » الذى كتب عن تلك الحوادث[1]

والمسألة التالية فى هذه الناحية من النقد هى معرفة زمن تدوين ذلك الأصل التاريخى . فالأصل أو الوثيقة قد تكون صحيحة ، وكاتبها قد يكون من الأشخاص الذين يتحرون الصدق والبعد عن الهوى ، ومع ذلك فقد يُنقص من قيمتها بُعد الزمن بين وقوع الحادث ورؤيته وبين تدوين أخباره . فالذاكرة تخون الإنسان ، ويفوت الكاتب حوادث وتفاصيل خاصة كلما بعد به العهد عن زمن وقوع الحادث مهما كانت رغبته فى قول الصدق ومهما حاول استرجاع وقائع الزمن الماضى . فإذا كان الكاتب لم يحدد تاريخ تدوين الأصل التاريخى ، فكيف يستطيع الباحث أن يحدد ذلك ولو بالتقريب ؟ فى بعض الأحيان يمكن بدراسة المحتويات وضع حدين لمبدأ ونهاية الأصل ؛ أى إنه يعين التاريخ الذى لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله ، والتاريخ الذى لا يمكن أن تكون هذه الحوادث قد وقعت بعده . ولتحديد ذلك ينبغى أن يكون الباحث صاحب ثقافة تاريخية واسعة تتعلق بالعصر الذى يدرسه . ولا بد أن تكون الوثيقة أو الأصل قد دون بعد آخر حادث ورد به ؛ ولكن من الجائز أن يكون التدوين قد حدث بعد ذلك بزمن قصير أو طويل . وإذا فرضنا أن كتاب سفير البندقية فى باريس لم يكن مؤرخاً ، فإنه يمكن معرفة تاريخ كتابته بدراسة محتوياته . فالحوادث التى ذكرها السفير هى حوادث يونيو ١٧٨٩ ؛ وآخر حادث ذكره هو اجتماع مجلس طبقات الأمة فى ٢٧ يونيو ١٧٨٩ ؛ وعلى ذلك فلا بد أن السفير قد دوّن كتابه بعد ذلك الحادث مباشرة وقبل أن يقع حادث آخر مهم . والمجلس اجتمع بعد ذلك فى ٣٠ يونيو ؛ فيكون السفير إذاً قد كتب خطابه إلى مجلس شيوخ البندقية فى ٢٨ أو ٢٩ يونيو ١٧٨٩[1]

ثم يواجه الباحث فى التاريخ مسألة أخرى هى مسألة تعيين مكان تدوين الأصل التاريخى ؛ وهى مرتبطة كل الارتباط بما سبق . وسواء كان النص الموجود أمام الباحث أصلاً تاريخياً من الطبقة الأولى أو أصلاً تاريخياً من الطبقة الثانية فلا بد من معرفة مكان تدوينه . فهل دون شاهد العيان الحوادث فى مكان وقوعها أو فى مكان بعيد عنه ؟ أو هل أخذ معلوماته عن أشخاص شهدوا الحوادث بأنفسهم ، وأين كان ذلك ؟ وهل كان التدوين فى مكان وظروف تجعل كاتب الأصل التاريخى قادراً على تصوير الوقائع تصويراً صحيحاً ، أم أن التدوين قد حدث فى مكان بعيد واعتمد الكاتب على الذاكرة والخيال فى سرد الوقائع ؟ المعلومات التاريخية التى ترد فى الأصل قد تحدد مكان التدوين فى بعض الأحيان . أو قد يمكن معرفة ذلك فى المعلومات العامة عن الكاتب . فمثلاً بابى كتب مذكراته فى ربيع ١٧٩٢ . ونعرف من التاريخ أن بابى كان فى ذلك الوقت مقيماً فى نانت . وإذاً فهو قد كتب مذكراته فى نانت وليس فى باريس مسرح الحوادث التى كتب عنها[2]

(يتلى) حسن عثمانه

(١) Fling : op. cit. pp. 72—73

(٢) « « p. 76

(١) Fling : op. cit. pp. 67—69.

إعلان فقد ختم

حامد جادو من كفر دميرة القديم بمركز طلخا غربية يعلن أن ختمه فقد منه وجدد بدله ، وهو خالى الديون ، وكل معاملة تظهر به تكون لاغية ويعاقب حاملها

ثورة على ابن سينا
أو عقلية «الأركانا»

للدكتور جواد علي

لقد كان صاحب هذه الثورة ومؤجج نارها طبيب سويسري وفيلسوف أوربي عاش في مدينة « باذل » Basel عاصمة العلم في المقاطعات السويسرية الألمانية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر للميلاد[1] . طبيب كانت له نفس تواقة على التنقل من مدينة أوربية إلى مدينة أوربية أخرى ، ومن جامعة أوربية إلى جامعة أوربية أخرى في سبيل طلب العلم والحقيقة ؛ في سبيل إدراك كنه الإنسان وسر هذا الكون وعظمته

ولكنه كان حيث هبط في أرض أو حل في مدينة يجد الكتب اللاتينية المويصة المترجمة عن العربية أو عن اليونانية تحتل المكان الأسمى في عالم علم ذلك الزمان : ويجد الأطباء والعلماء يتجادلون في أبحاثهم وفق القواعد المنطقية المترجمة عن العربية أو اليونانية رأساً . يدونون آراءهم في الكون والإنسان وفق ماجاء في كتب ابن سينا ولاسيما كتاب « القانون في الطب » وكتب أرسطو وجالينوس . لم يكونوا يحكمون عقولهم ، أو يستخدمون التجارب في أبحاثهم ، أو يجيلون النظر في الأفق البعيد . وهذا ما ساءه جداً ودفعه إلى إعلان عصيانه وتمرده على كتب العرب واليونان معاً[2]

وقد عرف ذلك الطبيب الفيلسوف باسم الطبيب المتنقل «بارسلس» ؛ أما اسمه الحقيقي فكان يتركب في الواقع من بضعة أسماء ضمت بعضها إلى بعض على عادة ذلك الوقت كان يدعى أوروليس ثيوفراستس بارسلس بومباستس فون هوهنسهايم (Aureolus Theophrastus Paracel Sus Bombastus Von Hohens Heim).[1]

دعى بالطبيب المتنقل لأنه كان مشغوفاً بالأسفار محباً للتنقل من محل إلى محل ومن مكان إلى مكان . ولقد كون فيه هذا الميل عقلاً يختلف جداً في طراز تفكيره وأسلوب اشتغاله عن طراز تفكير واشتغال عقول علماء ذلك الوقت . جمع في أنسجته وخلاياه خلاصة الثقافات الأوربية المختلفة والنزعات الثورية التي بعثتها النهضة الأوربية على القديم البالي ، وخلاصة النزعات العملية التي بعثتها التجارب العلمية التي بدأ يقوم بها علماء الطب والطبيعة في ذلك الحين . فشك في مقدرة كتب ابن سينا الطبية والفلسفية ، وتزلزل إيمانه بمقدرة كتب أرسطو أو أبقراط أو جالينوس على إنعاش حياة الإنسان من الناحيتين الروحية والمادية . ونادى في المجتمعات العلمية وعلى رؤوس الأشهاد أن عصر ابن سينا واليونان يجب أن يزول ، وأن أياماً جديدة يجب أن تحل محل تلك الأيام[2]

كانت فلسفة ابن سينا فلسفة هادئة ؛ وكذلك كانت فلسفة حكماء اليونان لم يكن فيها ما يبعث على المجازفات والمغامرات والبحث عن الأسرار ومجاهل الأرض . بينما كانت أوربا تتمخض عن حركة جديدة ، هي حركة تسخير العلم في خدمة الإنسان والاستفادة من الطبيعة في سبيل رفاهية ابن آدم . كانت كلمة « الأركانا » Arkana[3] من أبرز الكلمات وأحلاها في قاموس علم ذلك الزمان . وكلمة أركانا تدل على معان جمة عميقة تدل على المادة السرية التي يمكن بواسطتها تحويل أي معدن خسيس إلى معدن ثمين[4] . ولا يستغرب صدور هذا الميل المادي

---

(١) ولد في سنة ١٤٩٣ وتوفي في سنة ١٥٤١ م ، راجع عنه كتاب سيدهوف وعنوانه K. Sudhoff Thophrastus ParaceLsus Sein Lepen und Seine Persönlichkeit 1903. وكذلك كتابه الموضوع في نقد حياة بارسلس وقد طبعه في مجلدين بين سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٨ والكتب التي ألفها كل من F. Strunm في عام ١٩٠٣ و F. Gundolf في مجلدين في عام ١٩٢٨ و F. Peukert في عام ١٩٢٨ م أيضاً

(٢) راجع كتاب Ceschichte der Philoso الفيلسوف الشهير كارل فورليندر K. Vorländer ص ٢١٠

(١) راجع كتب التراجم المذكورة وكتاب Scherr وعنوانه : Deutsche Kultur Und Sittengeschichte ص ٣٦٠ وكذلك كتاب « قواعد تاريخ الفلسفة » الفيلسوف الشهير وندلبند Windelband ص ٣٠٩ ، ٣١٣

(٢) راجع كتاب ألفريد روزنبرك وعنوانه Der. Mythus ص ٢٥١

(٣) وهي كلمة لاتينية معناها المقصود المادة السرية ، وتدل على نفس مدلول « حجر الفلاسفة » في اللغة العربية

(٤) راجع Scherr Deutsche Kultur s, 360

الجشع من إنسان ذلك الوقت . فقد قلب القرن الخامس عشر العالم رأساً على عقب . كدّس الذهب والفضة فى بلاط ملوك البرتغال والأسبان ، وحرم الشعوب الأوربية الأخرى من مصادر القوت والثروة . ووجد حملة سر « الأركانا » فى قصور الأمراء وملوك أوربا مرتزقاً حسناً جداً . كانوا يجوبون عواصم أوربا ليعرضوا على سادتها آخر ما وصل إليه علمهم عن هذه الكلمة السحرية مشوقة الأغنياء . وكان أبرعهم وأشهرهم Georg Honauer . الذى تمكن بواسطة بضاعته فى علم (السيمياء[1]) وطلاقة لسانه ، من السيطرة على عقل الأمير (فردريك) أمير ورتمبرك فى عام ١٥٩٧ م ومن ابتزاز أموال الأمير بلا حساب ، لتحويل النحاس إلى المعدن الثمين الذهب . وقد سطر لنا عصر بارسلس عشرات وعشرات أمثال هذا العالم السيمياني الشاطر[2]

كانت « الأركانا » رمز عقلية الجيل الجديد ، ذلك الجيل الذى سخر من عقلية من تقدمه ، لأنها فى نظره عقلية قديمة آسنة ذات تفكير قديم . كانت تؤمن بالخرافات وزخارف القول وما جاء فى الأساطير . وما الأركانا فى نظره سوى ثورة جديدة على العصور القديمة وعلى ما أنتجته تلك العصور

ولكن الجديد فى عقلية الأركانا حقاً هو ثورة الفرد على الطبيعة وثورة الإنسان النشيط على الإنسان المتزن الهادئ ، ثورة الجرمانية على العربية واللاتينية[3]

ولكى يبرهن ذلك الإنسان الجديد على أنه إنسان جديد فى كل شيء . إنسان عملى حر فى إرادته وتفكيره فرّق بين علوم الأوائل وعلوم الأواخر ، بين علوم الأجيال التى سبقت القرن الخامس عشر وبين علوم الأجيال التى ظهرت بعد هذا القرن . سمى علم السحر القديم مثلاً « علم السحر الأسود »[4] ، فيميزه عن علم السحر الجديد الذى ابتدعه وسماه « علم السحر الأبيض »[1] . وعلم السحر الأبيض فى نظر إنسان ذلك الوقت علم جديد عملى مجرد عن الأباطيل والخرافات ؛ وقد ضن هذا الإنسان على القدماء حتى فى مصدر العلم فقال : إن مصدر علمه السماء ، أما مصدر علم القدماء فكانت الأرض[2]

وما دام مصدر السحر الأبيض السماء ، فلم لا تكون للأجرام السماوية ذاتها يد فى مقدرات الإنسان ؟ آمن إنسان الأركانا بفعل البروج والأفلاك فى مستقبل الإنسان ، ولكنه لم يؤمن كما آمن الأولون . نعم آمن بقدرة البروج والأفلاك ، وأيقن بأهمية علم التنجيم ليتمكن بواسطة أسرار هذا العلم من مماكسة تأثيرات ما فى السماء ، وليسخر قوى البروج الخفية فى صالح الإنسان . أما الإنسان الأول ، فقد آمن بها إيمان رجل مستسلم للمشيئة والأقدار يرجو رضا القوى الخفية لتجلب إليه السعادة والرفاهية

رأينا تأثير السماء على الإنسان ، فلم لا يكون للأرض نفس هذا التأثير على الإنسان ؟ نعم ، للأرض إذاً أثر هام على سكان الأرض ، وللانسان إذاً أن يبتدع علماً يقاوم تأثير هذه الأرض[3] ، بل للأرض نفس الأثر ، حتى على ما فى بطون الأرض ، فإذا ما تمكن الإنسان من اكتشاف سر هذا الأثر ، تمكن من إيجاد العلاج الناجع لمقاومة تأثير الأرض . وقد بحث الإنسان عن المادة السرية التى يمكن بواسطتها تحويل المعادن الخسيسة إلى معدن نفيس ، وتلك المادة المطلوبة السرية هى حجر الحكماء أو الفلاسفة كما كانوا يطلقون عليها فى القرن الخامس عشر للميلاد Steru der Weisen[4] تؤثر على حياة الإنسان مجموعة قوى أخرى على رأسها « روح الإله العالمية » Gottliche Weltseelle[5] التى تخللت جميع أجزاء هذا الكون ، وحلت فى كل شيء ، فأصبح الكون هو هو الكون ؛ وما الإنسان فى نظر بارسلس سوى « العالم الأصغر » Mikro Kosmos الذي هو صورة مصغرة « للعالم الأكبر » Marko Kosmos[6]

---

(١) ليتميز هذا العلم من علم الكيمياء

(٢) راجع كتاب الدكتور كبور Dr. Gebauer وعنوانه Deutsche Kulturgeschichte ص ٨١

(٣) راجع Der Mythus ص ٢٥١

(٤) راجع Du Prel Die Magie 1912, Schmidt Phi. wort. s, 386 و Levi, Gesch der M. 2 Bde 1926

---

(١) راجع Dr. Gebauer Deut Kultur s, 81 والمراجع السابقة

(٢) راجع Walter Schönfelder Philo im Überblick 1928 s, 21

(٣) Othmar Spann Philo Spiegel s, 275 271

(٤) Dr. Gebauer s, S'

(٥) نفس المصدر ص ٨١

(٦) Aster Gesch der Philo s, 175

وقد أسبغ صاحبنا على نظريته هذه ثوباً من أثواب الحلولية التى ترد فى الصوفية الإسلامية أيضاً (١) وقد كان لها صدى بعيد فى أنحاء أوربا ، أثرت على أفكار فلاسفة الطليان والألمان والإنكليز وغيرهم أمثال كيور دانو Ciordano (٢) وكامبنيلا Campenella (٣) وتيليزيو Telesio (٤) ورويشلين Reuchlin (٥) وبرونوميلنشوتن Bruno Melanchton (٦) وأكريبا فون نيتيسهايم Agripa von Nettesheim (٧) وهرمان لوتسه للفيلسوف الألمانى الشهير (١٨١٧ — ١٨٨١ م) فى القرن التاسع عشر للميلاد (٨) قال بارسلس وفى العالم الأصغر وهو الإنسان قوى بنائية روحية تقاوم الأرواح الخبيثة التى تكون فى الخارج وتساعد على بناء الجسم ودوام اتصاله بالعالم الأكبر ، وما العالمين سوى وحدة واحدة لا تتجزأ لذلك ، فأنا العالم والعالم أنا (٩) وقد سمى هذه المادة Archeus من كلمة Arche اليونانية ومعناها المادة الأساسية أو الأساس . وكان الفيلسوف اليونانى أنا كسمندد قد استعملها لتدل على هذا المعنى (١٠) والعلم الذى يبحث عن هذه المادة هو أشرف العلوم ؛ وحيث أن الطب هو العلم الباحث عنها ، لذلك كان علم الطب هو أشرف العلوم طراً وقد شرفه حتى على علم اللاهوت (١١)

(١) راجع كتب الأستاذ ماسنيون من الحلاج و Max. Horten فى كتابه من الفلسفة الاسلامية ، وكذلك بوير وغيرهم

(٢) فيلسوف إيطالى حر التفكير كان من المعارضين الكنيسة (١٥٤٨ — ١٦٠٠) . راجع Kuhlenbeck 1913 و Riehl 1900 وشميد ص ٨٩

(٣) فيلسوف إيطالى ولد فى عام ١٠٦٨ وتوفى فى عام ١٦٣٩ راجع كتابه « مماسكة الشمس » وقد طبع عام ١٩٠٠ م

(٤) فيلسوف إيطالى كذلك من الفلاسفة التجريبيين، ولد عام ١٥٠٨ وتوفى عام ١٥٨٨

(٥) من الانسانيين وقد حكم عليه بالهرطقة (١٤٥٥ — ١٥٢٢) راجع Geiger 1871

(٦) فيلسوف تأثر بالمبادئ التيوسوفية الشائعة فى ذلك العهد

(٧) طبيب وفيلسوف ، وكان من المتقدين بالسحر ، وكان يسخر من علوم زمانه (١٤٨٦ — ١٥٣٥) وقد ترجمت كتبه إلى الألمانية

(٨) (١٨١٧ — ١٨٨١) فيلسوف وعالم فسيولوجى ؛ راجع كتبه

(٩) وهى فكرة الحلولية . راجع Arthur Eloesser وعنوان كتابه (تاريخ الأدب الألمانى) ص ٣٤ ، ٣٥ ج ١

(١٠) راجع Schmidt Philo s, 39

(١١) K. Vorländer s, 210

ومن واجب الطبيب تنظيف هذه المادة مما قد يتعلق بها من الأرواح الخبيثة وذلك بواسطة العقاقير والأدوية المفيدة . وقد حضر الطبيب الفيلسوف قائمة بأسماء العقاقير والمشروبات المعدنية والأدوية السرية التى تنفع لمقاومة الأمراض النفسية والجسمية معاً . وما الأمراض فى نظره سوى صراع بين الـ Archeus وبين الأرواح الخبيثة والقوى الخارجية المحيطة بالإنسان (١) .

وبقدرة هذه العقاقير والمواد السحرية يستطيع الطبيب الذى هو أقرب مخلوق إلى الله من تنظيف الروح والجسد من الأدران ومن رفع مستوى البشرية إلى مصاف الأرواح السماوية العليا ، وبذلك يتم الاتصال بين « العقل الأول » أو « الروح » وبين العقل الثانى وهو الإنسان . ولذلك كانت لهذه الفلسفة شهرة عظيمة بين رجال المتصوفة من الأوربيين ولا سيما الألمان منهم ، فظهر حلاجهم وهو يعقوب بوك Jakob Boehme (٢) ؛ وظهر فالنتين وأيكل Valentin Weigel وظهر أمثال لهذين المتصوفين ينادون بالفناء والاتحادية (٣)

وبعد أن أتم بارسلس وضع قائمة عقاقيره السحرية أجج فى ليلة عيد الغفران من عام ١٥١٧ ناراً عظيمة فى حفل رهيب وتقدم فى موكب يتبعه تلاميذه والمعجبون بآرائه يحمل بيديه « إنجيل الاطباء » وهو كتاب « القانون فى الطب » لابن سينا « لوثر الأطباء » كما كانت أوربا تسميه Luther der Arzte ؛ وبعد خطبة وحفلة دينية مؤثرة ندد فيها بآراء ابن سينا وزعماء الطب من العرب واليونان ، ألقى بكتاب القانون فى النار معلناً بذلك دخول أوربا فى عصر تفكيرى جديد . ولكنه قوبل من الناس بازدراء عظيم واضطرت بلدية المدينة إلى إخراجه من مدينة « بازل » لتجاسره على كرامة أعظم طبيب عرفته العصور (٤)

اجتمعت فى بارسلس سذاجة القدماء وتفكير المحدثين . كان

(١) نفس المصدر

(٢) كان من أشهر متصوفة الألمان وهو حلولى يفرق بين ظاهر الشريعة وبين الحقيقة على مثال متصوفة المسلمين . راجع كتاب فورلندر ص ٢١٩ ولد عام ١٥٧٥ وتوفى عام ١٦٢٤ للميلاد

(٣) ولد هذا الصوفى عام ١٠٣٣ وتوفى عام ١٥٨٨ . راجع فورليندر ص ٢١٨

(٤) تجد القصة مفصلة فى تراجم حياة بارسلس ومختصرة فى كتاب الفيلسوف Vorländer ص ٣١٠

٢ ـ الصحافة والدولة

تأليف الصحفى العالمى ويكهام استيد

للأستاذ زين العابدين جمعة
المحامى

أما بالإضافة إلى إيطاليا فبمجرد النظر فى « الكتاب السنوى للصحافة الإيطالية » وفى صفحاته التى تربى على الألف صفحة كاف لأن تتكشف منه الحقيقة عن أمر تلك العبودية التى انتظمت الصحافة الفاشية فأمست خاضعة لها . ولقد كانت كبريات الصحف الإيطالية مثل صحيفة « الكوريبيرى دلاسيرا » التى تصدر من ميلان وصحيفة « الاستمبا » التى تطبع فى تورين — وحسبنا منها هاتان الصحيفتان — تنافس أعظم الصحف فى أوربا وتناهضها قبل أن تبتدع الفاشية نظاماً . بينما كان الصحفيون الإيطاليون ينعمون فى كتاباتهم بنصيب من الألمعية وبراعة الأسلوب ورقة العبارة لا يطاولهم فيه أحد

ولقد انتهى أمرهم اليوم إلى أن نظموا فى سلك « النقابات » والجمعيات الرسمية وأمسوا وهم لا يستطيعون أن يؤدوا عملهم ما لم تدون أسماؤهم فى سجل المهنة ، ليكون ذلك شاهداً على استقامة رأيهم وسلامة عقيدتهم فى النظام الفاشى . ولقد حددت مركزهم تلك الأوامر (الملكية) المقيدة تقييداً لا حد له ، وصيرتهم موظفين مؤتمرين بأوامر تلك الفئة الوحيدة التى تحكم الدولة . ولقد تلقى الصحفيون الإيطاليون درساً قاسياً عرفوا منه ما ينتهى إليه التمرد على الفاشية من مصير وخيم . فلقد رأوا أنبل الناس نفساً وأوفرهم استقامة بين ظهرانيهم يضربون بتلك الهراوة الفاشية ضرباً مبرحاً ، وقد يكون مميتاً — كما كان من أمر (جيوفانى أمندولا) — أو يحكم عليهم بعدد طويلة فى الأشغال الشاقة ، أو يرسلون إلى معسكرات ضاقت بمن سبقوا إليها أو زجوا فيها ، أو يوضعون تحت مراقبة البوليس فى الحالات الأخف وزناً وفى المخالفات الأقل خطورة وحتى أولئك الذين أمكنهم أن يهربوا من إيطاليا كالمرحوم (كارلو روزلى) قد أدركوا أنهم لم يكونوا بمنجى من أن تصل إليهم أيدى المجرمين ومُدى السفاحين

لذلك نجد فى الفصل الذى عنوانه : (روح الصحافة الفاشية وكيانها) — المذيل بعبارة عهد موسولينى كعنوان إضافى — من الكتاب السنوى للصحافة الإيطالية موضوعاً أقتبس منه ما يأتى :

« ووقتما ابتدعت الفاشية نظاماً للدولة ، واختفت من الميدان الصحف المعارضة بعباراتها القارصة وأسلوبها اللاذع ؛ ووقتما اهتدت إلى صوابها الصحف الناقمة الخارجة — تلك الصحف التى ذاعت ثقافتها العقلية التقليدية وكان لزاماً أن تحترم على الأقل ما بقيت لها ألقابها القديمة — فقد أحس الجمهور لوقت ما بشعور من الحيرة والارتباك ليس من الأمانة أن ينكر . إذا كان مما يتواتر على ألسنة الناس قولهم : « أيسعنا أن نقرر أن الحكومة لم تعد تخطىء ، وأن الدولة دائماً على صواب ؟ ؟ — وذلك لأن الجمهور الساذج غير المثقف يختلط عليه أمر « الحكومة » و « الدولة » فيخالهما شيئين مختلفين مع أنهما اليوم وحدة لا تتجزأ لها ذاتيتها وخاصيتها . ومراعاة للأمانة والحق يجب أن نقرر أيضاً — ما دام الدوتشى نفسه قد قرره — أن طبع الصحافة بالطابع الفاشى لم يكن بالأمر القريب المنال بل كان أمراً شاقاً ومنهجاً صعباً » ثم يحدثنا الكتاب السنوى إلى ذلك قائلاً : « ولكن أيسع أحداً اليوم أن يخبرنا عما إذا كانت الصحف هى التى تكون الرأى ، أو كان الرأى هو الذى يكون الصحف ؟ ؟ » ثم يضيف إلى ذلك :

« والصحف تارة تتقدم الأسلوب الثورى وتارة أخرى تكون لاحقة له عند ما يجرى قلب أوضاع المجتمع فى سبيل الدنية الحديثة انقلاباً جوهرياً ، تلك الدنيية التى جددت أسلوب النظم العامة والخاصة ووظيفتهما ، فى شعوب أوربية

زمانه زمان انتقال فطبعه بطابعه الخاص . وجد المحدثون فى زماننا فيه رمزاً من رموز التفكير العنيف والانسانية الفعالة . وعلى الأخص الكتاب الأوربيون منهم . وجد فيه ألفريد دوزنبرك رجلاً أوربياً أعلن حرب الجرمانية على السامية واللاتينية ؛ لذلك أسست جمعية أطلقت على نفسها اسم جمعية بارسلس قامت بنشر رسائله ومؤلفاته لأبناء القرن العشرين(١)

مراد على

(١) راجع Schmidt s, 471 وكتاب Der mythuo s, 251

عظيمة كإيطاليا وألمانيا . فنى هاتين الأمتين نجد الصحافة اليومية وقد تميزت عن سائر الصحف الأخرى فى باقى أمم الأرض تميزاً واضحاً »

فما هو هـذا الشىء الذى يميز الصحافة النازية الألمانية والفاشية الإيطالية عن غيرها من صحف العالم ؟؟ هنا يتولى « الكتاب السنوى » شرح هذا الفارق المميز فيقول :

« إن الفاشية التى كانت النتاج البكر بين حركات التجديد فى أوربا كانت حرباً صليبية كبرى لتحرير الروح الإيطالى ... فهل كانت رجعة إلى الفطرة الأولى ؟؟ نعم ، ولكنها فى الواقع مفتتح ثورة فعالة من شأنها أن تعيد إلى الشعب فى غداة ثورة تاريخية عظمى نوعاً من العيش الفذ والحياة البكر » . ثم يقول « الكتاب الثانوى » أيضاً :

إن الصحافة الفاشية قد بعثت شباب إيطاليا بعثاً جديداً ووضعت أمام عينيه ـ وقد أجادت الاختيار واحترزت من أمره ـ حقائق لها قيمتها التاريخية لا مجرد أخبار مشوشة مضطربة . وما برحنا على حال لا يضايقها أن نقرر أن الصحافة قد أتمت رسالتها تحت لواء النظام الفاشى ، ذلك النظام الذى وضع الصحافة فى الصف الأول ومنحها قيادة نبيلة ؛ الأمر الذى أصبح معه خضوع الصحف « لرأى الدولة » وهو من نوع استسلام الجندى المخلص لا من نوع تلك العبودية المفروضة على تابع أحسن إليه . و « رأى الدولة » هذا قد ورد ذكره وعرف فى المجلد الثامن من كتاب « كتابات وأقوال بنتو موسولينى » إذ جاء به : « إن رأس الحكمة الفاشية هو إدراك معنى « الدولة » ومعرفة جوهرها وفهم أعمالها والإلمام بأغراضها ومراميها . فإذا كان من مقتضيات الفاشـية أن تكون الدولة مطلقة التصرف فذلك من جهة تلك الصلات التى تربط الأفراد والجماعات بالدولة وتربط الدولة بهم . ولا يباح للأفراد والجماعات الحق فى التفكير وتكوين الرأى إلا إلى الحد الذى لا يتعدى نطاق ما اختطته الدولة . والحكومة الحرة لا تدبر أمر أعمال المجتمع وتصرفاته ولا تنهض بتقويم نتاجه المادى والروحى بل يقتصر أمرها على مجرد تسجيل النتائج ؛ بينا نجد الحكومة الفاشية ولها ما اختصت به من إدراكها لهذه المسائل ومن اختيارها لما تختاره منها ومن مشيئتها فيها ولهذا السبب لقبوها بالحكومة « الأدبية » ... »

* * *

انتهينا فيما تقدم — وبعبارة صريحة — من عرض المميزات والفوارق الأساسية بين وظيفة الصحافة فى الحكومة الاستبدادية ووظيفتها فى الأمم الحرة التى ما زالت حرية الأفراد فيها وهى تعد أمراً طبيعياً فى ذاته ؛ ولو كان المبدأ القائل بأنه : « فى سبيل الفاشية يجب أن تكون الحكومة حكومة مطلقة » هو مبدأ إيطالى الأصل والنزعة ، لساغ أن يتقبله العقل الإيطالى وأن يتحمل ما ينطوى عليه من أعباء الممارسة الفعلية لمسألة هى أهم مسائل النظام الاجتماعى والسياسى . ومهما كان من التناسق والتلازم فى أفكار موسولينى السياسية ، فهى مأخوذة — على وجه أو وجهين — من آراء « هيجل » الفيلسوف الألمانى الذى صيغت آراؤه عن الدولة ـ ولاسيما الدولة البروسية ـ فى قالب صـعب لأكثر من عصر مضى ؛ ولم يكن ما تلقاه « فردريك انجلز » ، « كارل ماركس » من آراء « هيجل » ؛ وما أوحى به إليهما فيما انتهيا إليه من نظر عن الدولة الشيوعية بالشئ القليل ، وعن « ماركس » ، « أنجيلز » تلقى « جورج سوريل » رسول النقابية[1] فى فرنسا أول ما تلقاه من مبادئ العنف النقابى كوسيلة للانقلاب السياسى والاجتماعى قبل أن يتعقبها إلى منهلها فى فلسفة « هيجل » ، وينهل من هذا النبع المسموم ؛ وعن « سوريل » تلقى « موسولينى » بدوره هذه المبادئ الضارة والنهج الوبيل

فلقد صرح « هيجل » آنئذ فى كتابه المعروف « بفلسفة التاريخ » بأن الدولة هى أسلوب فعال مطلق ، وتجسيد لفكرة (أى تجسيد الحقيقة الماثلة وراء الظواهر) . وعنده أن تلك الكائنات الحية التى تعيش تحت ظلال هذا الأسلوب من الحق المطلق ، ليس لها من الحق فى الاعتبارات المستقلة بأكثر أو بأقل مما للخلية بالإضافة إلى الهيكل البشرى ؛ وهو يقول: « إن الدولة هى أسمى فكرة وأجل وحى وأنبل خاطر ، ينمر الحياة ويعيش على وجه الأرض » ، لأن : « جماع ما للكائن الحى من قيمة وجماع ما ينعم به من الحقائق الروحية ، إنما يتهيأ له فقط ويأتيه عن طريق الدولة » ؛ يضاف إلى ذلك أن : الدولة غاية فى نفسها وشىء قائم بذاته ، وهى الغاية القصوى التى يسمو حقها الأعلى على حق الفرد الذى ينطوى أسمى واجباته فى أن يكون فرداً فى الدولة

(١) النقابية : حركة عمالية قوامها العمل على نقل وسائل الانتاج والتوزيع من ملاكها الحاضرين لاتحاد العمال ونقاباتهم . وسبيلها إلى ذلك عادة هو الأضراب العام .

وهذه التعاليم هي من نوع التوفيق بين وجهة النظر الحرة ووجهة النظر المسيحية على حقيقتها في الحياة. إذ كلا النظرين يجعل لشخصية الإنسان قيمة عظمى. تلك الشخصية التي يمدها المذهب الحر المنصر الأولى الذي لا غنى عنه في مجتمع مكلف حر من الكائنات الإنسانية. بينما تنظر إليها العقيدة المسيحية كمستودع للنفس الخالدة. والصحافة الحرة قد هيئت لأن تنهض فور الوقت بواجبها نحو الحرية الاجتماعية والسياسية إذ تكون لسانها الناطق وحارسها الأمين. إلا أن الأمر يختلف عن ذلك تحت نير تلك النظم السياسية التي تعامل الفرد كمجرد تابع خاضع في كل شيء لإرادة حكومة مطلقة تعبر عنها أوامر حاكم مستبد حيث لا تصادف الصحافة الحرة ولا الصحفيون الأحرار أي عدالة أو ضمان

ولكن المسألة لا تنتهي عند هذا الحد إذ تصل إلى الأعماق من فلسفة الصحافة ذاتها. ففي الأمم الحرة ليس من شأن الصحافة، ولا يمكن أن يكون من شأنها ومن شأن ما يسمى أحياناً (بمسئولية) الصحفي، أن تكون مجرد صدى يردد ما يجري على لسان الحكومة من رأي. أو تمني بالتزام ذلك الصمت الذي يأخذ رجال السياسة أنفسهم به، أو يجري في عقيدتهم أنه من مقتضيات المراكز التي يشغلونها. والصحف المستقلة إن أيدت الساسة في خططهم وكانت لهم سنداً في الاحتفاظ بمراكزهم فهي إنما تمنحهم هذا العون طليقة مختارة وعن عقيدة شخصية قوامها أن هؤلاء الساسة يخدمون مصالح المجتمع جهد طاقتهم

ولقد بين «روبرت لو» (اللورد شربروك فيما بعد) الفارق بين واجبات الصحافة الحرة وواجبات رجال السياسة بياناً علمياً صائباً في المقالين الافتتاحيين الخالدين اللذين حررهما لصحيفة «التيمس» في ٦، ٧ فبراير عام ١٨٥٢ وقتما كان «ديلان» ينهض برئاسة التحرير فيها

ففي شهر ديسمبر من عام ١٨٥١ قام «لويس نابليون» بحركة غير مشروعة كان من أمرها أن وثب إلى كرسي الامبراطورية في فرنسا فنصب نفسه إمبراطوراً للدولة التي كان يتولى رئاسة الجمهورية فيها. وكان من أمر اللورد «بلمرستون» الذي كان يتولى وزارة الخارجية في ذلك الوقت من وزارة «رسل» أن أقر بالنيابة عن بريطانيا العظمى هذا الأمر الواقع من غير أن يراجع زملاءه في ذلك ويبادلهم الرأي ومن غير أن يخطر المليكة به. وإذ ذاك قامت قيامة صحيفة «التيمس» وآذنته هو و«لويس نابليون» بحرب شعواء جاهدتهما بها وناهضتهما فيها. ولقد بلغ من قسوة هذا النضال العنيف وما صيغ به من عبارة قارصة وأسلوب لاذع أن «ضاق لويس نابليون به صدراً» وثارت ثائرته عليه، وأن غضب له من شايعه من الوزراء البريطانيين وحاولوا أن يفلتوا من حملاتها بتحكيم فيها. إلا أنه لم يكن من أمر إقرار «بلمرستون» لذلك الانقلاب الغير مشروع والذي كانت له اليد الطولى فيه إلا أن انتهى بعزله، إذ احتجت المليكة احتجاجاً حازماً على ما كان من خطل نهجه، وأبى عليه رئيس الوزارة قبول معاذيره أو إقراره على حججه. واختير فعلاً «لورد جرانفيل» خلفاً له وزيراً للخارجية من وزارة رسل. وعقب ذلك بحوالي الشهرين سقطت وزارة رسل بأجمعها. وتحين الفرصة «اللورد دربي» الذي خلف «لورد جون رسل» في رئاسة الوزارة. فما أن واتته — بمناسبة ما ثار وقتئذ من نقاش وما ألقي من خطب رداً على خطاب العرش — إلا أنحى على صحيفة التيمس باللائمة وقبح منها ما كان من سفور النقد وصراحة المهارة زاعماً: «أنه إذا كان من حق الصحافة البريطانية في هذه الأيام أن تطمح لأن تقاسم الساسة سلطانهم، أفلا يحق عليها أيضاً أن تقاسمهم مسئولياتهم ؟؟»

ولما كان «ديلان» صحفياً مستقلاً يعرف لحرية الرأي حقها وخطرها، فقد أحس من نفسه برغبة ملحة في ألا يدع هذه النظرية تمر من غير تحقيق وتمحيص ومن غير أن يظهر وجه الصواب منها، فأوحى إلى «روبرت لو» أن يفندها، وأن يبين للناس المبادئ التي تنظم كلا الأمرين حرية الصحافة وواجبات الصحفي في المجتمع الحر. ولقد نهض «لو» بهذه الحاجة برأي حازم وبصيرة نافذة؛ وإذ أخذ في مناهضة تلك المزاعم ومناقشة هذه القضية المنطقية التي أثارها «لورد دربي» بما زعمه من أن الصحافة التي تطمح في أن تشاطر الساسة سلطانهم يكون لزاماً عليها أيضاً أن تشاطرهم مسئولياتهم، كتب في عدد التيمس الصادر في اليوم السادس من شهر فبراير عام ١٨٥٢ المقال الآتي:

إذا كان الطرف الأول من هذه القضية ثابتاً مقرراً فلا جرم أن الطرف الثاني يتبعه في هذا الثبوت بداهة. ونحن من بين الناس جميعاً أقلهم ميلاً لأن نضع من شأن ما نهض به من عمل خطير أو ننكر ما يقع علينا من مسئوليات وما ننعم به من سلطان

١١ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تعليم البنات

قلما يتعلم البنات القراءة والكتابة . وكذلك لا يتعلمن الصلاة حتى بنات الطبقة الراقية . ويستخدم بعض الأغنياء « شيخة » لتزور الحريم يومياً فتعلم بناتهم وجواريهم إقامة الصلاة وتلاوة بعض سور من القرآن . وقد تعلمهن القراءة والكتابة ، إلا أن هذا ، حتى لنساء الطبقات الراقية ، شيء كالى يندر أن يتم [1] . وهناك عدة مدارس تعلم فيها البنات الخياطة والتطريز الخ . ولكن إذا سمحت الظروف يعهد بالبنات إلى « معلمة » تعلمهن تلك الأشغال في منازلهن

(١) وقد تتلقى بنات الطبقات الوسطى علومهن مع الأولاد في مدرسة واحدة . إلا أنهن عادة يلبسن الحجاب ولا يخالطون الأولاد . وكثيراً ما شاهدت بنات حسان الهندام يقرأن القرآن في مدرسة البنين .

الفصل الرابع

الحكومة [1]

قاست مصر — هذه السنوات الأخيرة — تقلبات سياسية عظيمة ، وزالت تبعيتها للباب العالي إلا قليلاً . وقد استقل حاكمها الحالي محمد علي تقريباً ، بعد أن أباد الغُز أو المماليك الذين شاركوا أسلافه الحكم ؛ إلا أنه أعلن ولاءه للسلطان ، وأصبح يؤدي الخراج للأستانة كما هي العادة . ثم إنه خضع لأحكام القرآن الأساسية والسنة . وهو — خلافاً لذلك — يتمتع بسلطة لا حد لها [2] . فهو يستطيع أن يقضي على أي فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة أو تبيين سبب . وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليتضمن ذلك حكم الإعدام . ولكن يجب ألا يفهم من كلامي أنني ألمح بميله إلى سفك الدماء بلا موجب . إن من طبع هذا الوالي الصرامة الحازمة لا القسوة الشريرة . وقد دفعه طموحه المطلق إلى جميع الأعمال ، فكان يجلب لنفسه المدح تارة أو الملامة تارة أخرى [3] . ويوجد في قلعة العاصمة مجلس للقضاء يسمى (الديوان الخديوي [4]) ، رأسه في غياب الباشا نائبه (الكخيا) [5] حبيب أفندي . ويبت رئيس الديوان الخديوي في الأمور التي تخرج عن اختصاص القاضي أو التي تكون واضحة بحيث لا تحتاج إلى الرجوع إلى القاضي أو أي مجلس آخر

(١) لما كان الاصلاح السياسي الذي أجراه محمد علي سيبقى أهميته العظيمة على الدوام ، ولما كانت التغييرات التي أحدثها خلفاؤه في نظمه قليلة الأهمية وعلى العموم مخالفة لكل تقدم ، فقد أبقيت هنا دون تغيير جوهري وصف حكومة مصر في سنتي ١٨٣٤ و ١٨٣٥ وهما خير سني حكمه

(٢) وإن كانت أرض ولايته نقصت كثيراً منذ كتابة هذا إلا أن سلطته في مصر بقيت كما هي على التقريب

(٣) إن حكومة مصر منذ الفتح العربي لم تتغير كثيراً عما هي عليه الآن في تأثيرها على شمائل السكان وعاداتهم وطباعهم ، ولذلك أرى أن لا حاجة إلى عرض تاريخ الماضي لتوضيح هذا الكتاب . إلا أنه يجب الاشارة إلى أن المصريين لا يسمح لهم الآن بالاستمرار في معاملة النصارى واليهود بتلك الغلظة التعصبية الشديدة التي كانوا يعاملونهم بها قبلا . ومن هنا يدين السياح الأوربيون لمحمد علي بالشكر ويعترفون له بالجميل . وقد يزيد هذا التقييد شعور التعصب الزائد بادئ الأمر ، ولكنه سيلطفه على الأرجح بمرور الزمن . ولم يتم بعد هذا التنبؤ ، وعلى النقيض من ذلك أثار استعمال العظماء ومستخدمي الحكومة للبدع الأوربية في ملبسهم وشمائلهم وعاداتهم المنزلية تعصب رجال العلم والدين وجلة الشعب عموما

(٥) « خديوي » نسبة إلى الكلمة التركية « خديف » أي الأمير

(٤) هكذا ينطق به في مصر والأصح « كياحيا » أو « كتخدا »

نستمده من قوة الشعب وثقة الجمهور . إلا أنه لا يعنينا مهما يتهيأ لنا من أمر هذا السلطان سواء أكان عظيماً أم صغيراً ، أن نقرر أن من مقتضياته أن نشاطر رجال السياسة أعمالهم ، أو أن هذا السلطان مقيد بمثل ما يتقيد به وزراء التاج من قيود العمل والزمن . وبمثل ما يلازمهم من واجب ومسؤولية ، فكل من هذين السلطانين متميز عن الآخر تمام التمييز في مقتضياته وواجباته . وهما على العموم أمران مستقلان ، وأحياناً شيئان متعارضان يسيران على خطين متوازيين فلا يتقابلان ، والصحافة تعبث بحريتها وتقيدها وتحد من نشاطها إثر تلك اللحظة التي تقبل فيها أن تشغل مركز المسود من السيد ، وأن تنزل منزلة التابع من المتبوع ؛ وهي إن عنيت بتأدية واجباتها باستقلال صحيح تام ؛ وبالتالي بما يتطلبه منها جماع المصلحة العامة ، لما وسعها أن تهادن رجال الساعة من الساسة أو تحالفهم ، أو أن تخضع مالها من شأن خالد ونفع متواصل لما يتهيأ لأية حكومة من سلطان موقوت ونفوذ سرعان ما يزول عنها أو تزول عنه

(البقية في العدد القادم) زهير العامري جمعة

وقد أقيمت فى أنحاء العاصمة دور كثيرة للشرطة ، فى كل منها بلوك نظام أى فرق منظمة . ويسمى الشرطى « قلق »[1] أو « قراقول »[2]. ويقبض على من يتهم بالسرقة أو السطو الخ ويقاد إلى دار الشرطة الرئيسى فى الموسكى حيث يسكن أغلب الفرنج . وبعد أن تثبت التهمة كتابة يقاد المتهم إلى « الضابط » أى رئيس شرطة العاصمة . وبعد أن يسمع الضابط القضية يرسل المتهم للمحاكمة أمام الديوان الخديوى[3]. وعند ما ينكر المتهم الجريمة الموجهة إليه ، ولم يكن هناك دليل على الإدانة ، يجلد ليحمل على الاعتراف بجريمته . وحينئذ ، إن لم يكن قبلا ، يعترف المتهم بالجريمة إذا كانت طبيعتها لا تعرضه لعقوبة شديدة . ويعترف اللص عادة بعد هذا التعذيب بقوله : « إن الشيطان أغرانى ففعلت » وعقوبة المجرمين يرتبها نظام مستبد ولكنه لطيف حكيم . ويكون عادة بإلزامهم القيام ببعض الأشغال العمومية مقابل قوت قليل ، مثل نقل القمامة وحفر القنوات الخ . وقد يجند الشبان الأقوياء متى كانت التهمة طفيفة . ويستحق محمد على على استخدامه المجرمين لإصلاح البلاد وتحسينه المدح الذى كان وقفاً على سابا كون Sabacon[4] الفاتح الحبشى وملك مصر الذى يقال إنه أدخل هذا النظام ؛ إلا أن الباشا كان شديداً فى معاقبة الجرائم التى ترتكب ضد شخصه فالإعدام هو العقوبة العادية فى أحوال كهذه.

(١) من التركية « قول لق »

(٢) والعامة يقولون « كركون »

(٣) كثيراً ما يستبد القائمون بأمر هذا المجلس وما أشبهه كما أن إتمام الاجراءات ينقصه الوقار والأدب . فكثيراً ما يستعمل الموظفون الأتراك حتى الكبراء منهم ألفاظا لا أستطيع أن أذكرها لشدة ما تتقزز منها النفس ، نحو المتقاضين .

(٤) سابا كو Sabaco أو شاباك Shabak أحد ملوك الأحباش . جرد حملة على مصر ونشر سلطانه عليها (٧٢٨ قبل الميلاد) . ولقب بملك مصر ، ولكنه ترك مباشرة الحكم لأخته أمنيريتس Ameniritis وزوجها بيانخى Piankhi . وكثيراً ما يرى شاباك وأخته على جدران معابد طيبة وغيرها .

وتؤكد الروايات اليونانية القديمة أن هذا الملك الحبشى حكم مصر حكما لطيفا فلم يلجأ أبداً إلى حكم الاعدام واستخدم المجرمين فى حفر القنوات وبناء الخزانات

(انظر The Historians's History of the World الطبعة الخامسة سنة ١٩٢٦ الجزء الأول ص ١٧٦) (المترجم)

وهناك عدة مجالس دنيا لإدارة شئون الأقاليم المختلفة ، وأهمها : أولاً . « مجلس المشورة » ويقال أيضاً « مجلس المشورة الملكية » تمييزاً له عن المجالس الأخرى . ويختار الباشا أعضاء هذا المجلس والمجالس المشابهة الأخرى ممن يتحلون بمواهب أو صفات أخرى . ولذلك تخضع جميع قراراتهم لإرادته ورغباته ؛ وهم آلته ورهن إشارته ، ويكونون لجنة تشرف على إدارة البلاد العامة وشئون الباشا التجارية والزراعية . وتعرض العرائض الموجهة إلى الباشا أو إلى ديوانه المتعلقة بالمصالح الخاصة أو بشئون الحكومة على أعضاء المجلس وتخضع لتقديرهم وحكمهم ، إلا إذا وقعت فى اختصاص المجالس الأخرى المذكورة فيما بعد . ثانياً (مجلس الجهادية) أو (مجلس المشورة العسكرية) واسمه يدل على مدى اختصاصه . ثالثاً مجلس (الترسخانة) أو البحرية . رابعاً (ديوان التجار) وقد أنشئ هذا المجلس الذى يتكون أعضاؤه من تجار مختلفى البلاد والدين تحت رئاسة (الشاه بندر) لينظر فى بعض الأحوال الناشئة عن المعاملات التجارية الحديثة مما لم ينص عليه فى القرآن أو السنة

ويتولى قاضى القاهرة القضاء فى مصر لمدة سنة واحدة ثم يرجع عند انتهائها إلى الآستانة . وجرت العادة أن يقوم القاضى من القاهرة مع قافلة الحج الكبيرة إلى مكة فيقضى واجبات الحج ويبقى فى المدينة المقدسة سنة واحدة ، وفى المدينة المنورة سنة أخرى[1] يقضى بين الناس . ويشترى القاضى منصبه بالممارسة من الحكومة التى لا تقيم أى اعتبار لمواهبه . غير أنه يجب أن يكون ذا علم ولو قليلاً ، وأن يكون عثمانياً حنفى المذهب . وقلما يجيد القضاة اللغة العربية لأن معرفتها لا تلزمهم . ولا يكاد القاضى فى القاهرة يعمل شيئاً غير التصديق على حكم (نائبه) الذى ينظر فى أغلب الدعاوى العادية والذى يختاره القاضى من علماء استنبول ، أو التصديق على قرار (المفتى) الحنفى الذى يقيم دائماً فى القاهرة ويصدر فتواه فى القضايا الصعبة ، ولكن النائب على الأكثر قليل المعرفة باللغة المصرية العامية

(١) جرت العادة أن يقدم القاهرة فى أول رمضان ولكن حدد فيما بعد أول محرم

ولذلك يجب على القاضي في القاهرة ، حيث يتكلم أغلب المتقاضين العربية ، أن يضع غاية ثقته في « الباش ترجمان » ؛ ومنصب هـذا دائم ، ومن ثم فهو يعرف أنظمة المحـكمة ، وخاصة نظام الرشوة ، وهو على أتم استعداد لأن يلقن هذا النظام لـكل من يستجد من القضاة والنواب . وقد يكون القاضي جاهلاً بالشرع جهلاً فاحشاً في كثير من تفاصيله ، وقد حدثت عدة أمثلة من هذا النوع ، ولـكن يجب أن يكون النائب بارعاً في الشرع علماً وعملاً

وعندما يرفع الشخص قضية يذهب إلى المحـكمة ويطلب من الباش رسول أن يرسل (رسولاً) ليحضر الخصم ، ويتناول الرسول قرشاً أو قرشين[1] يقسمهما مناصفة بينه وبين رئيسه على انفراد . ويحضر المدعي والمدعى عليه في بهو المحـكمة الـكبير : وهو غرفة كبيرة تواجه فناء فسيحاً ، ولها واجهة مكشوفة بها صف من الأعمدة والعقود ، ويجلس فيهـا كتبة يسمى الواحد منهم « شاهداً » ، وعمله أن يصغى إلى أقوال الطرفين في القضية ويدونها ، ورئيسهم الباش كاتب ، ثم يقصد المدعي أي واحد من هؤلاء الـكتبة ويقرر أمامه ظروف القضية ... فيثبتها الشاهد كتابة ، ويتناول جعلاً قدره قرش أو أكثر ، ثم بعد ذلك يصدر حكمه إذا كانت القضية لا قيمة لها والمدعى عليه يعترف بعدالتها ، وإلا قدم الطرفين إلى النائب في غرفة داخلية . وبعد أن يسمع النائب القضية يأمر المدعي أن يستصدر فتوى من مفتي الحنفية الذي يتناول جعلاً يندر أن يقل عن عشرة قروش، ويزيد غالباً على مائة قرش أو مائتين ، ويصدر النائب حكمه في القضايا التافهة منفرداً وبأقل تعب . أما القضايا المهمة أو المعقدة فإنها تنظر في غرفة القاضي الخاصة أمام القاضي نفسه والنائب ومفتي الحنفية الذي يستدعى للفصل فيها بفتوى ؛ وقد تزيد القضية صعوبة أو أهمية ، فيستدعى بعض علماء القاهرة ؛ وبعد أن يصغي المفتي إلى القضية يصدر حكمه كتابة ، فيصدق القاضي عليه ويختم الورقة بختمه ، وهـذا كل ما عليه أن يعمله في أي

(١) وكان القرش المصري عندما كتب هذا يساوي خمس الشلن أو بنسين وخمسي بنس ٢ ٢/٥

قضية . ويستطيع المتهم أن يبرئ نفسه باليمين إذا لم يقدم المدعي شهوداً ، فيضع يده اليمنى على القرآن ويقول : بالله العظيم ثلاث مرات ، مردفاً : وبمـا يحتويه هذا من كلام الله . ويجب أن يكون الشاهد عدلاً أو يزعم أنه كذلك ، وألا يكون له مصلحة في القضية . ويلزم لـكل دعوى شاهدان[1] على الأقل أو رجل وامرأتان ، ويجب أن يزكي الشاهدين شخصان آخران . وشهادة الكافر على المسلم لا تجوز شرعاً في حالة العقوبة الشديدة . والشهادة لصالح الإبن أو الحفيد أو الأب أو الجد لا تقبل وكذلك شهادة الأرقاء ، ولا يستطيع السيد أن يشهد لصالح عبده .

(يتبع)

عدلي طاهر نور

(١) هذا الحـكم أخذ من الأسفار الموسوية الخمسة . أنظر التثنية الاصحاح ١٩ الآية ١٥ ونصها : لا يقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التي يخطئ بها على فم شاهدين أو على فم ثلاث شهود يقوم الأمر . ويستطيع الرجل أن يمتنع عن الشهادة

رسالة الشعر

إلى ...؟!

«للشاعر المجهول»

تحدثتَ بالمتاف[1] أنك حاضرٌ   لإيناسِ رُوحى بعد بِضع دقائقِ
فكيف ترى عيشى يطولُ فأجتني   على شغفى أرواح تلك الشقائق
ألوفٌ من الأحلامِ طافتْ فداعبتْ
فؤادَ أسيرٍ ظامئ الروحِ وامق
فما صحَّ حُـــلمٌ فى هواك ولا انتهتْ
على اليأس مَوْجاتُ الدموع الدوافق
أأنتَ برغم الصدِّ والدَّل قادمٌ   لإسعاد مشتاقٍ و إنجاد عاشق ؟
أمثلك تسديه الحيـــاةُ إلى فتًى
مَرِيد الهوى والشوقِ وَغْرِ الخلائق ؟
وكيف أرى داري على ضِيق ساحها
تحيط بديَّان الشموس الشوارق ؟
سألقاك ـ هل ألقاك ؟ ـ فى ثوب ضَيْغَمٍ
يرى الرفق بالغزلان إحدي البوائق
تعالَ تجدْنى جذوةً من صبابةٍ   تسعَّرُ فى صدرِ مَشوقٍ وشائِق
لِنجواكَ أستبقي شبابى فعاطِنى
كؤوس الهوى قبل ابيضاضِ المفارق
وأعْزِزْ فؤاداً لو أردتَ جعلتَهُ
أعزَّ من الشغْواء[2] فى رأس شاهق

لقد مالت الدنيا وجافتْ وجانَبَتْ   فكنْ مُنقِذِي من جورها المتلاحق
إذا كنتَ لى يوماً ولو بعض ساعةٍ   تجودُ بها جُودَ الحبيبِ الموافق
فسوف أري الدنيا على سوء بغيها   أطايبَ من لهوِ الشبابِ الفرائِق

* * *

دقائِقُ كالأعوام طالتْ ولم تجِئ: حَماكَ إلهُ الحبِّ من كلِّ عائِق
سيَقتُلنى شوقى إليك فهل أرى   خيالك عند الموت وهو مُعانِقى
أُحِبُّك حُبَّ القلب للوَحْيِ فالْقَنِى   ولو لحظةً يَنْقذ إلى الغيب بارقى
شَبَبْتَ بقلبي ثورةً لم تُعانِها   جوانِحُ مَشغوفٍ ولا صدرُ حانق
وصيَّرْتَنِى لا صرتَ مِثلىَ عِبرةً   لِـكلِّ ألوفِ الروحِ جمِّ العلائق
فحتَّى متى أحنو عليك ولم أكنْ   بحفظك الميثاق يوماً بواثق
أُحِبُّك حُبَّ العَين للنور فاهدنى
إلى الصبر عن لقياك إن كنت صادق
وهل أبصر الراءون من عُصبة الهوى
نظيرَكَ فى أوهامِهم والحقائق ؟
لكَ المجدُ بينَ الخاتلين فولِّنى   قضاء الأسى بين القلوب الصوادق
أُحِبُّك حُبًّا لو تمثَّلتَ وَقْدَهُ
لأمسيتَ فى كربٍ من الحزن ساحق

* * *

إلى الله أشكو ما أعانيه من جوًى
هو الدهرُ يَرمى بالصروف الصواعق
إلى خالق الأرواحِ أشكو بَليَّتى   برُوحٍ غَدورٍ فى الغرام وماذِق
تؤرِّقنى أطيافُ ذكراهُ سُخْرَةً
برَوْعٍ كأهوال الخطوب الطوارق
فما الذنبُ؟ ماذنبى وما كنتُ فى الهوى
سِوَى شاعرٍ للصدقِ فى الحبِّ خالقِ
ستُطوَى أحابيلُ المِلاح وتنطفى   على الدهر نيرانُ الشُّجون المَواحِق
ويَبقَى نَشِيدى فى هواكَ وثيقةً   تُسَجِّلُ أحلامَ القلوب الخوافق

«الشاعر المجهول»

---

(١) المتاف : هو التليفون
(٢) الشغواء : العقاب بضم العين



المحتسب في الإسلام

نشرت مجلة الجمعية الصحية المصرية في عدد من أعدادها الأخيرة مقالاً قيما للدكتور فريد بك حلمي المفتش بوزارة الصحة عن نظام التفتيش على المأكولات والاشتراطات الصحية في العهد الفاطمي معتمداً في بحثه على كتاب « معالم القربة في أحكام الحسبة » لمؤلفه محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخن ، أثبت فيه أن المحتسب كان يقوم في هذا العهد بوظيفة مفتش مأكولات ومعاون صحة ومفتش موازين ومفتش بيطري ، وبالجملة يعتبر من رجال الضبطية القضائية ؛ وكانت الاشتراطات التي يفرضها المحتسب على المحلات لا تقل دقة عن اشتراطات وزارة الصحة اليوم إن لم تفقها ، وللتدليل على ذلك نذكر بعض ما يخص الجزارين قال :

« لا يجر الجزار شاة برجلها جراً عنيفاً ، ولا يذبح بسكين كالة لأن في ذلك تعذيب الحيوان ، ولا يشرع في السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة وتخرج منها الروح . وينهى الأبخر عن النفخ في الشاة عند السلخ لأن نكهته تغير اللحم وتزفره ، ويمنع المحتسب القصابون من الذبح على أبواب دكاكينهم فإنهم يلوثون الطريق بالدم والروث ، وهذا منكر يجب المنع منه ، وأن يفردوا لحوم المعز عن لحوم الضأن ، وينقطوا لحم المعز بالزعفران ليتميز عن غيره وتكون أذناب المعز معلقة على لحومها إلى آخر البيع ولا يخلط لحم الذكر بالأنثى » .

هذا جزء بسيط مما كان يقوم به المحتسب ، ومثل ذلك كان يفرض على كافة الحرف والصناعات .

وكان المحتسب يدخل في صميم الصناعة بشكل يعجب به ابن القرن العشرين لمعرفته بطارق الغش التي تخفى على الكثيرين ، والتي لا تعيها شروط وزارة الصحة إلا عن بعد . ومن شروط الحسبة والمحتسب أن يكون مواظباً على سنن رسول الله (صلعم) ، وأن يكون عفيفاً عن أموال الناس ، ووظيفته أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته الخ .

(كوم حماده) كامل يوسف

أصل كلمة النفط

أرى أن كلمة النفط عبرية الأصل ، وتنطق في العبرية نُفِتَ وقد وردت في التوراة في مواضع مختلفة بمعنى التقطير أو القطر أو القطرات ، وهو المعنى الأصلي الذي أخذ منه اسم زيت البترول (نفت) لعلاقة التقطير أو القطر في كلٍّ .

ففي الآية الثالثة من الإصحاح الخامس من كتاب الأمثال « لأن شفتي المرأة الأجنبية تقطران عسلاً (نفت) وفمها أنعم من الزيت » . وفي الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الرابع والعشرين من الكتاب نفسه « يا بني كل عسلاً لأنه لذيذ وقطره (نفت) حلو في فك » .

وفي الآية الثالثة عشرة من الزمور التاسع عشر نجد « وأحلى من العسل وقطر (نفت) الشهد » .

والأمثال والمزامير من أقدم كتب التوراة . ولا أذكر أنني عثرت في الأدب الجاهلي أو الإسلامي على كلمة نفط أو نفت فمن الرجح إذاً أن تكون الكلمة عبرية الأصل دخلت العربية بعد الفتح الاسلامي . هذا إلى أن كلمة (نفت) أو نفط مستعملة في الفارسية الحديثة والقديمة . وأذكر أنني قرأتها في الشاهنامة الفارسية ، وإن كنت لا أستطيع الآن وهنا أن أنص على موضعها لعدم المرجع

(بخت الرضا . سودان) عبد العزيز عبد المجيد

في نقد الأصول

ذكرني الدكتور حسن عثمان في بحثه — نقد الأصول — الذي هو فصل من بحوثه القيمات التي ينشرها في « الرسالة الزهراء » تحت عنوان (كيف يكتب التاريخ) ذكرني ذلك بما كنت قرأته في ترجمة الخطيب البغدادي المؤرخ العظيم ، فإنه لما رجع من مكة إلى بغداد تقرب من رئيس الرؤساء أبي القاسم بن مسلمة وزير القائم بأمر الله ، وكان قد أظهر بعض اليهود كتاباً

وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة وأنه خط علي رضي الله عنه ؛ فعرضه رئيس الرؤساء على أبي بكر الخطيب فقال : هذا مزور ، فقيل له من أين لك ذلك ؟ قال في الكتاب شهادة معاوية ابن أبي سفيان ومعاوية أسلم يوم الفتح وخيبر كانت في سنة سبع ؛ وفيه شهادة سعد بن معاذ وكان قد مات يوم الخندق في سنة خمس . فاستحسن ذلك منه

محمد أبو الزهراء

في الخوارج

كتب الأستاذان الصعيدي والأفغاني (في الأعداد ٤٢٢ ، ٢٣ ، ٣١) في تحقيق نسبة كلمة في الخوارج إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى سيدنا علي بن أبي طالب . وسأل الأستاذ الصعيدي عن المصدر الذي نسب هذا القول إلى علي ، وأجاب الأستاذ الأفغاني بأنه (العقد الفريد)

وإليك رواية تؤيد أن الخبر من كلام سيدنا علي وردت في قديم المصادر ووثيقها . قال الهيثم بن عدي حدثنا إسماعيل بن خالد عن علقمة بن عامر قال : سئل علي عن أهل النهروان أمشركون هم ؟ فقال من الشرك فروا ، قيل أمنافقون ؟ قال إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، فقيل فما هم يا أمير المؤمنين ؟ قال إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا . فهذا ما أورده ابن جرير الطبري وغيره في هذا المقام . أنظر (البداية والنهاية لابن كثير) ج ٧ ص ٢٨٩ و (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي) ج ٦ باب في الخوارج ، باب في أهل النهروان

أحمد صفوان

حق الضيافة

طلع علينا العدد (٤٣٠) من « الرسالة » وهو يحمل مقالاً قيماً للأستاذ — علي الطنطاوي — عن « حق الضيافة » وقد رأيت هذا المقال الممتع ثورة على أخلاقنا ونقداً لتقاليدنا وصورة من صميم الحياة المصرية فكشف الستار عن داء عضال في المجتمع يجب استئصاله ؛ وهذا لا يتنافى مع الشهامة والكرامة ، فقد اتخذت الضيافة في هذه الأيام وسيلة للمضايقة ومجالاً للتسلية والمسامرة وضياعاً للمصالح . وما أحوج مصر الحديثة التي أصبحت في احتياج إلى اتجاهات جديدة أن تجد من حملة أقلامها وقادة الرأي فيها مثل هذه الشجاعة فيثورون على هذه التقاليد التي تضر ولا تنفع . فإلى الأمام يا أستاذ — الطنطاوي — وأكثر من هذه الأبحاث ففيها ترقية للذوق الشرقي وتهذيب للأخلاق وسعادة للمجتمع والله موفقك ومبارك غايتك

محمد أحمد عمر

عبر كذا ...

رداً على الأستاذ الكبير « ا . ع » أقول :

كنت احتججت ببيت سواد بن قارب

فشمّرت عن ذيلي الإزار وأرقلت
بي الذعلبُ الوجناء عبر السباسب[1]

وقلت في الحاشية : « ولعل من الإنصاف أن أقول : يمكن تخريج الشاهد على غير ما استشهدت له بجعل عبر صفة للناقة الخ » ومن ثم يرى القارئ أني لم أوجب أحد الرأيين ، وأني أجزتهما ولكني — في هذا الشاهد — رجحت العبر بمعنى العبور ، على أن يكون مصدراً مراداً به اسم الفاعل

ولكن الأستاذ « ا . ع » يحتم في رده أن تكون صفة ثالثة للناقة لا غير . ويرى أن الشاعر في مقام تعديد محاسن ناقته وما فيها من مزايا ، فهو يصفها بالفتاء والقوة ، وبأنها قادرة على شق السباسب الخ ...

ورداً على ذلك أقول : لا يتعين في هذا الشاهد قصر المقام على تعديد محاسن الناقة ، فإن في قوله « الذعلب » أوهي الناقة السريعة ، و « الوجناء » وهي القوية الشديدة ، كما في اللسان ما يغني عن الوصف بأنها « عبر سباسب » ، وهو معنى لا يغاير سابقيه كثيراً

ويؤيدني فيما أذهب إليه ورود البيت في بعض الروايات على معنى الظرفية لا الوصفية . ففي السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٦٧ :

فشمرت من ذيل الإزار ووسّطت
بي الذعلب الوجناء بين السباسب

وكذلك الرواية في (سفينة الراغب ص ٦٣٨) نقلاً عن (أنوار الربيع في أنواع البديع)

---

(١) وثم تخريج ثالث في البيت لا أرى ما يمنعه ، بجعل العبر بمعنى الجانب أو الناحية كما في القاموس واللسان ، وتكون مفعولا لأرقلت بمعنى قطعت ، قال في اللسان : « وأرقل المفازة قطعها »

وليس معنى هذا أنني أؤيد استعمالها ظرفاً ، ولكني لا أزال أرى أنها مصدر وقع موقع اسم الفاعل . فقد خرج من حسابنا ما ساقه الأستاذ من الأدلة على أنها ليست ظرفاً ، فهو رأى لم أقل به .

ورجع إلى التخريج الذى رأيته ، وجهِدَ الأستاذ أن يفنّده ، فقال : إن المصدر لا يقع حالاً إلا إذا كان نكرة ، و « عبر السباسب » معرفة بالإضافة ، وأبطل بهذا - فى زعمه - تخريجى .

وأقول : إن الأستاذ لم يتبين رأيى على وجهه الصحيح ، إذ توهم أنى أرى « عبر » مصدراً أريد به الحال ، ولم أقل هذا ، وإنما قلت : إنه مصدر وضع موضع اسم الفاعل ، فهو عبر بمعنى عابر ، كما فى قوله تعالى : (إن أصبح ماؤكم غورا) ، أى غائراً ؛ ورجل عدل ، أى عادل ...

وسواء وقوع هذا المصدر بعد ذلك حالاً أو خبراً أو فاعلاً الخ فذلك راجع إلى السياق ... فقد أصبحت القضية الآن : هل يشترط تنكير المصدر إذا وقع موقع اسم الفاعل ، بصرف النظر عن كونه حالاً أو غير حال ؟

لم يقل أحد هذا ، فأنت تقول : « قاضيكم العدل » ، أى العادل ، و « أنصفنى عدلكم » ، أى عادلكم . فأنت ترى أنى لم أنص على أن كلمة « عبر حال » - حتى يشترط تنكيرها - وإنما نصصت على أنها مصدر بمعنى فاعل ، وكونها « حالا » أمر اقتضاه سياق الكلام فى الجمل التى ساقها الأستاذ وساعد عليه أن المصدر سيفقد تعريفه بعد التقدير ، وسيصير المضاف إليه مفعولاً ، وذلك فى قولك : « عابرةً الأطلنطى » ؛ فليس ثمَّ ما يمنع من أن يكون المصدر « حالا » بعد أن فقد تعريفه

وبعد ... فإنى أنشد الحقيقة ... وعلى الأستاذ أن يقنعنى - إن استطاع - فأسلم له . ومنى عليه التحية

« بنى سويف » محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة الابتدائية

حول كلمة « عبر »

سيدى الأستاذ الكبير « الزيات »

سلام الله عليك . قرأت بإعجاب كبير ما دبجته براعة الأستاذ الكبير « ا . ع » خاصاً باستعمال كلمة (عبر) ظرفاً وبيان وجه الخطأ فى ذلك . وإنا نوافق الأستاذ الكبير على كل ما أورده فى كلمته القيمة ؛ أما ادعاء الأستاذ محمد محمود رضوان صحة استعمال (عبر) ظرفاً واستشهاده على ذلك بقول سواد بن قارب :

فشمرت عن ذيلى الإزار ، وأرقلت
بِىَ الدعدب الوجناء عبر السباسب

فهو ادعاء باطل من وجهين :

الأول : احتمال كون (عبر) صفة للناقة ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال

الثانى : فساد المعنى بجعل (عبرَ) ظرفاً بمعنى بعدَ ؛ لأنه لا معنى لإرقال الناقة بعد قطع السباسب والانتهاء إلى غايتها

وعندى أنه يصح أن تكون (عبر) فى هذا البيت مصدراً مفعولاً لأجله ، ويكون المعنى أن الناقة أرقلت لعبر السباسب أى لعبورها . وهو معنى صحيح مناسب لا غبار عليه

هذا ، وللأستاذ الكبير إعجابى الكبير بأبحاثه اللغوية الممتعة .

والسلام عليكم ورحمة الله ابراهيم محمد نجا

الصباح الأدبى فى دمشق

أصدر فريق من أبناء دمشق الناهضين صحيفة أدبية راقية باسم « الصباح » ولم يشأ القائمون بهذا المشروع أن يكتفوا بالشبان من الأدباء ، بل اتفقوا مع فريق من أكابر الأدباء والأديبات فى البلاد العربية ، كى يغذوا « الصباح » بثمرات أقلامهم الناضجة ، وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة :

محمد كرد على ، شفيق جبرى ، خليل مردم بك ، عبد القادر المغربى ، محمد البزم ، ميشيل عفلق ، فؤاد الشائب ، صلاح الدين المحايرى ، زكى المحاسنى ، وداد سكاكينى ، فلك طرزى ، وغيرهم .

ومما لا نرتاب فيه أبداً أن « الصباح » ستكون كما ظهر من عددها الأول مرآة صادقة للأدب الجديد الناهض فى سورية .

ع ٠ ع

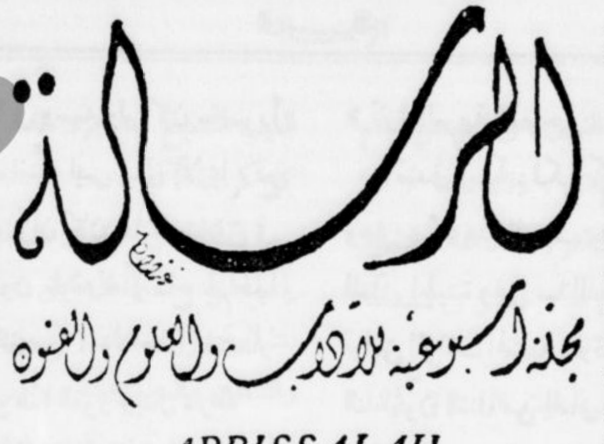
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 436 — Lundi - 10 - 11 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique



العـــدد ٤٣٦ «القاهرة في يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٠ نوفبر سنة ١٩٤١» السنة التاسعة

الفهـــرس

صفحة

تعقيب على رأيين

في الغناء والموسيقى بمصر

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

في مصر بصيص من العلم والفن مشى بنوره الأقلون ؛ وبان لبعضهم حقائق واقعة في وطنهم ، مانعة من إصلاح الفاسد وتيسير الرقيّ ، فمالوا طبعاً إلى كشفها لقومهم بشتى الأساليب في سبيل المصلحة للعامة . ومن هؤلاء أحياناً من يخص الغناء والموسيقى ببعض ما يكتب

هذا موضوع قد يتناوله كتاب تدفعهم إلى البحث فيه مصالح خاصة ، أو أهواء ليست في شيء من غرض الإصلاح ، أو مقرونة بقصده ، فيسيئون إلى أمتهم ، أو يكون ضرر صنيعهم أكبر من نفعه . أما دعاة الإصلاح الصادقون فلا غرض لهم سواه ؛ وهم لا يوجهون نقدهم إلى أشخاص معينين ، بل يكشفون حقائق طور من الأطوار أدّت إليه عوامل عامة أحدثت هذه الحال الشاملة التي لا يلام عليها الأفراد من مؤلفي الأغاني والملحنين والمغنين والموسيقيين

على أن المعلّمين والمثقفين ، المتفوّقين من أهل الفن ، يلام الواحد منهم إذا هو وقف من كلام النقاد على حال فنه الحقيقية

السيئة ، فلم يجتهد في إنقاذه منها بما في وسعه ولو كان مقصوداً بنقد ، أو واهما ذلك : لأن كل محب لفنه ليس يبالي إلا بما يرفع من شأن الفن . والإصلاح آت ، وإن كان مما لا يتحقق في لحظة . وأغلب الظن أن الذين يمهدون طرقه ، أو تتاح لهم فيها فتوح ، سوف يظهرون من هذا الفريق ؛ ولا يعادل انتصارُ على ناقدٍ لذةَ مسابق يسبق إلى مثل هذا الفوز وينال شرفه

ثم إن أولئك الدعاة ينظرون إلى المستنيرين المخلصين لفنونهم ويأملون الآن منهم أن يؤمنوا أولاً بحقائق عيوبها ، وأن يدركوا أن إزالة هذه العيوب يزيد الناجحين منهم نجاحا : فإن هذا الإيمان وهذا الإدراك هما مفتاح لباب الإصلاح . ولذا كان من النافع أن تُعرف آراؤهم فيما يلاحظ على الغناء والموسيقى بمصر .

* * *

أبدى شاعر نابه ، عميق العاطفة ، عذب الأسلوب ، رأيه في هذا الموضوع بمقال جاء فيه أنه رأى ، في سنة ١٩٢٥ ، ما يهدد الأخلاق من شيوع (الأغاني المكشوفة) فدخل مضمار النظم للغناء ؛ وبث في الزجل (روح الشعر من الطهر والعفة) ؛ وأدخل في نظمه (من أبحر الشعر ومجازاته ما وسّع دائرته ، وفتح للملحنين أبواباً كثيرة) ؛ فتناولت الأغاني (أبواباً جديدة من الغزل البرئ ، كان أهم عناصره الأمل والوفاء ، والذكرى والتضحية ، وما إلى هذا من صفات الحب الروحاني)

صدق . وهو جدير بالشكر على نزعته الفاضلة إلى الإصلاح . غير أن الوفاء والتضحية ، والذكرى والأمل ، أشياء قد توجد عند محب عزيز أبيّ ، وعند محب ذليل دنيّ ؛ وما وفاء هذا ، مثلاً ، كوفاء ذلك ؛ وأساليب العبارات الصادرة عن الخصلة الواحدة في الاثنين ، هي التي تصف لونها في كل منهما ، لاختلافه باختلاف نفسيّيهما ؛ فإن كان منظوم الشاعر الفاضل يمثّل جُلّه أو كله كلامَ المحب الأول ، فإن منظوم غيره هو ، في الأكثر ، كلام الثاني وهو طاغ على الأغاني

قال في المقال إن شعراء ناصروه في مذهبه فكانوا جميعاً أصحاب « المدرسة الحديثة » . ولم تقتصر أغانيهم على الحب ، « بل شملت أنواعاً من الوصف الرقيق في جمال الطبيعة » ؛ وأنهم بأسرهم ينظمون للمسرح والسينما والحاكي والراديو ، « وفي هذه الميادين مجال كبير للمعاني التي لا تذكر الحب » ؛ وينظمون « تارة بالعربية الفصحى ، وتارة بهذه العامية الفصحى » .

صدق أيضاً . لكن كم مِن وصف الطبيعة في جملة ما يغنَّى ؟ وهل جيّد هذا الوصف بين أغانينا أوفر من رديئه ؟ وهل أدرك المعاني الجيدة وغنى بها اللحن والمغنّي ، وأداها كل منهما تأدية توافق المواقف المختلفة ، وتشعر النفوس ببهجة الطبيعة ؟ وكم نظم الناظمون للغناء من المعاني التي « لا تذكر الحب » في ذلك المجال الكبير بميادين المسرحيات وسواها ؟ وما النسبة بين ما نظموا بالعربية الفصحى وبين ما نظموا بتلك العامية « الفصحى » ؟ هذه الأسئلة أجاب عنها النقاد إجابة صحيحة بشهادة حال الغناء والموسيقى عندنا .

ومن كلامه : « القول بأن الغناء ينحدر في مصر فيه من القسوة شيء كثير ، إذا قيس نتاج هذه السنين القليلة بعصور إسماعيل ، وتوفيق ، وعباس » ؛ و « قد زال من قاموس الغناء ما كان في القديم من ذكر الدلع والخصر والكفل ... والخمر ومجلسها ، والنديم ودلاله » ؛ و « انعدم من جو الغناء ذلك الغث المحدث ، وليد الحرب والثورة »

أليس في هذا الكلام مبالغة إذا جُرّد منها انعكس معناه ؟ فإن « جو الغناء » متسع لأكثر من جيد أغاني الجيدين من شعراء اليوم ؛ وليس من كلامهم العف كل ما يغنّى ، ولا أوفره ؛ ولم ينعدم في الأغاني « ذلك الغث المحدَث » ولا ذكر الدلع والدلال . وقد يوصف جمال الإنسان بلا تمجن ، كما يصوره المثّال ، وإنما العبرة بأسلوب الوصف . وكم يعبرون عن الشهوات الحسية بلهجة في اللحن وحركة في الغناء ، فيأتي تعبيرهم الصوتي الماجن أبلغ من الكلمة الصريحة ، ويثير غريزة الجمهور ؛ وذكر الخمر والخصر خير من تمثيل الاستخذاء والذل

والأهم أن غناء تلك العصور كان ، من الجهة الفنية ، أرقى من غناء اليوم ، إذ كان ملائماً لأغانيها ، وأصدق بملاءمته تأدية لمعانيها ، وأقرب إلى القلوب بصدقه وخلوه من التخليط المشوّه للفن . وقد غنوا قصائد وتواشيح ، وأدواراً سياسية ، وعزفوا بشارف . ذلك عهد مضى عليه ربع قرن ، وأصبح الغرب في مصر ، وساحت مصر في الغرب ؛ وهي اليوم في عصر الجامعة ، ومعاهد الموسيقى ، والحاكي ، والسينما ، والراديو ؛ ومع هذا كله فقد صرنا نؤدي الأغاني بخليط من الألحان كثيراً

ما يتنافر فيه الترح والمرح ، والشرق والغرب ، ويمزج من أنغام معازف تُضارب أنغام حناجر ، فى الغالب . ذلك بأننا تركنا الشعور والفهم وتبعنا السمع الضال والنزعة الجامحة والتقليد الأعمى . فليست الموازنة بين الماضى وبين هذا الحاضر فى مصلحة نتاجه .

احتج ، من غير موجب للتغنى بالحب حيث قال : « كيف تخلو الأغانى من ذكر الحب ، والله سبحانه وتعالى قد بنى الملك عليه وعمر ... وليس فى الوجود عاطفة أبعث للتضحية وأحيا للأمل ، وأخلق للنبوغ من هذه العاطفة الكريمة »

ولكن أحداً من الناس نُشر نقد له لم يقل بتجريد الأغانى من ذكر الحب ، وإنما قالوا ألاّ يُقصر الغناء عليه ، وألاّ يقصر هو على العاشق الذليل البكّاء : لأن حبه ليس من تلك « العاطفة الكريمة » فى الإنسان السليم من الآفات النفسية والجسمية ؛ وهو ضحية الاستهانة به ، فبأى الأشياء يضحى بعد الكرامة ؟ وأى أمل لميت الأحياء ؟ وفى أى ميدان ينبغ راض بالخزى أو معجَب بمثاله ؟

واحتج للشكوى والاستعطاف بقوله : « لم تخل أغانينا من الشكوى والاستعطاف ، فهما فى مرآة القلب أبداً ؛ ولكنها شكوى الحافظ للعهد ، الباقى على الود ، وهى ناحية فى دمنا نحن المصريين ... ولقد أُلفت أغانى كثيرة فى البطولة ، والوطنية ، والأخلاق ... ودخل فى أناشيد ... معان جليلة فى العزة والاستقلال ؛ ولكن الطلبة ، والجند ، والشعب ، لم يرددوا منها كثيراً ولا قليلاً » ؛ و « ردد الناس أكثر ما رددوا هذه الشكوى فطغت على بقية الأغانى واتهم الغناء عامة بالثين والميوعة »

فكأن اعتراض النقاد على الأغانى من الشكوى والاستعطاف سببه هما فى ذاتهما ، وإنما المنكر هو ذلك الروح العليل الذى ينفث الذل فيهما ، وهو طغيانهما طغياناً يتفشى معه الاستخذاء بالناس ؛ فالاحتجاج لهما مناقض لمصلحة المصريين ومصلحة الفن

وفى كم من الأغانى نجد « شكوى الحافظ للعهد ، الباقى على الود » ، ونجد استعطاف الإنسان الحر ؟ أليس الأغلب أنهما شكوى حيوان أذل من كلب مضروب ، واستعطاف هو الكدية الحقيرة ؟ فأى الأخلاق هما مثاله ! وحتى الأغنية البريئة من هذا العيب الشنيع قد يجرد اللحن والغناء شكواها واستعطافها من كل كرامة (١)

فالنقاد على حق فى اتهامهم « الغناء عامة بالثين والميوعة » لِما طغى — كما قال بحق — على الأغانى من الشكوى الخانعة السائمة والاستعطاف الذليل ، ولغير ذلك من عيوب الأغانى والتلحين والغناء جميعاً . وليس من الصواب أن يقال إن هذا الطغيان سببه ترديد الناس لتلك الشكوى ، وإنما طغت الشكوى من الأغانى فجرفهم طوفانها . ولو كان أهل الفن قد انساقوا وراء الشعب لكان صنيعهم تجارة لا فناً كما يزعمون

أما قوله : الشكوى « فى دمنا نحن المصريين » ، فهو كلام قد رجح فيه الشعرُ والإنشاء وعَمِىَ ظاهراً من الحال ولم يصب الحقيقة . وحسبنا أن نلاحظ أن هذا الشعب المصرى بعينه يتحمس لأبى زيد وعنترة تحمساً يدل على أن سر ميله إلى الأغانى الشاكية الباكية هو غير ضعف قابليته للطرب من غناء المعانى القوية والتغنى بها ، إن صح أن هذا الضعف فيه

إن أغانى البطولة والعزة ، والوطنية والاستقلال ، إذا أخرجت بطابع التمييع والتخنث فى ألحانها وفى غنائها وموسيقاها ، كان هذا التناقض البين فيها مضحكاً إضحاك نشيد مشهور فى مصر بهذه السخافة . وقد تعمد إظهار هذا التناقض كاوديس ، الممثل الهزلى الفرنسى ، فى أغنية حربية غناها بلحن غرامى ، فاستغرق النظارة فى الضحك وصفقوا له أى تصفيق . وإذا أغانٍ من هذا القبيل سممت باعتبارها جدية ، كانت مدعاة للسخرية والاحتقار ، فلا غرابة إذا مجّتها الأسماع وعافتها الطباع ، ولو جادت من كل وجه لتغنى بها الناس

ومن طريف الاحتجاج للأغانى التى يضعفها طغيان « الشكوى والاستعطاف » تعليله ضعفها — أو قلة الأغانى القوية — ليس بما « فى دمنا نحن المصريين » فحسب ، بل بطبيعة أصوات معازفنا أيضاً ، مبرراً بذلك ضعف أغانينا وموسيقانا معاً ، إذ قال : « كيف يقوم التخت بالإكثار من هذه الأغانى القوية وقد خلق من أنة العود وحنة الناى ورنة القانون ؟ »

الجواب أن هذه الآلات الأنانة الحنانة الرنانة ، هى مع ذلك

(١) ولذا يجب عندنا أن يعنى المؤلف بإفهام الملحن والمغنى دقائق الأحوال النفسية التى تمثلها أغنيته ، ولون روحها العام ، وأن يبدى ملاحظاته فيما يتعلق بالائتلاف المطلوب بين كلامها واللحن وغنائه ، وشبه هذا مألوف بين مؤلفى المسرحيات وممثليها فى الغرب

صيتة، منتهرة، نمارة، تخرج البشارف القوية المعانى، المطربة بما فيها من الشدة والرقة على أحسن تقويم ، كما يجمع الافتتان البديع بين الغزل والحماسة لا بين الغزل والذل ؛ تلك البشارف التى تتخيل موسيقاها معبرة بشدة فى رقة عن حب ، حب النفس العزيزة الأبية ، تعبيراً بعيداً عن ذلك التناقض فى كلام محارب يتهدد بصوت مغازل ، أو فى كلام جزل المعانى يغنيه صوت تلونه نفس مخنثة ، متضعضعة ، أريدت على التحمس

أوَ ليس لهذه المعازف أشباه مقاربة فى الآلات الغربية لا تصم أغانى الغربيين بطابع الخور والمذلة ؟ ؟ أليس هذا التخت هو الذى يُقحم فى غنائنا جملاً موسيقية قوية ، أو أخلاطاً مسيخة من الأنغام الأجنبية لا توائم سياقه ؛ وهو الذى يُشرك بعض معازف الغربيين فى تأدية ما نسرق من ألحانهم ؟ ؟ فكيف نتوهم أن ضعف أغانينا وغنائنا سببه (أنّة العود وحنّة الناى ورنّة القانون) ؟ إنما الصحيح هو العكس . ولم لا نحاول تحسين معازف التخت واختراع غيرها فى سبيل الإصلاح المنشود على كل حال ؟ ؟

تلك الكلمة فى التخت وما ورد فى المقال من أن توسيع دائرة الزجل (فتح للملحنين أبواباً كثيرة) هما كل ما ذكر الشاعر على التلحين والموسيقى . والواقع أن النقاد قد نبهوا إلى عيوبهما جميعاً ، وشمل نقدُهم الغناء — أى فن المغنّى ذاته — بل إن الكاتب الفبق عارض النقد برُمّته ، مبالغاً فى الإيجاز ، بقوله : إنه هو ومَن ناصره فى مذهبه من (شعراء هذه المدرسة الحديثة) ألّفوا الأغانى (فانتشر غناء جديد وموسيقى جديدة كانت غريبة على الخاطر والسمع معاً — أول الأمر — ثم مال إليها الشعب فتغنّى بها فى كل مكان)

إذا كان الشعب تغنّى بها لأنها الشكوى التى فى دمه فلم كانت غريبة على السمع والخاطر معاً أول الأمر ؟ ؟ وإذا كان يتغنى بها لغير ذلك ، أو لهذا وذاك ، فباب الأمل مفتوح لمن يتوخى الإصلاح : لأن (المدرسة الحديثة) تقرر أن فنها قد غيّر ذوق الشعب فى زمن قصير ، أوله سنة ١٩٢٥ ، حتى تَقبِل ما كان غريباً على السمع والخاطر ، فتغنّى به الناس فى كل مكان . وهذا تقرير يؤخذ منه أن ما فى دماء المصريين من الشكوى ، على قول صاحبه ، لم يحُل دون تذوّق الموسيقى الجديدة التى خلطت الأوبرا بالجاز ، وأن تغيير الذوق المصرى فى مدة وجيزة أمر ممكن . فلم يبق إلا أن نجعل التغيير إصلاحاً بدل الإفساد ، ولو فى زمن أطول

بيد أن الإصلاح المنشود قد يمتد به الزمن امتداداً لا نهاية له إذا كانت الجهات التى يجب عليها أن تؤيده تميل — على العكس — إلى معارضته بمثل الصوت الرسمى الذى قرر أنه « يجب ألا ننسى اختلاف الأذواق وتباين وجهات النظر فى التقدير عند البحث فى جمال الصوت وسلامة الأغنية من العيوب التى يشكو منها بعض دعاة الإصلاح »

أى نظر وأى ذوق عناهما هذا الإيجاب ؟ أى نظر ، يا ترى ، فى مثل الفرق الواضح بين الليل والنهار ، ونحن نتمنى أن يسمو بنا التعليم والتهذيب إلى أعلى مستويات الأمم الراقية فى هذا العصر المنير ؟ ! نرجو ألا يكون نظرَ العامة وأشباه العامة ممن تنزّهم قشور من معارف لا يدركون ما وراءها من حقائق ، نظرَ جماعات كأن أبصارهم لا تتصل بسوى أجسادها ، فلا علاقة لها بأنبل ما فى النفس الإنسانية من ملكات ؛ أو نظرَ أفرادٍ ضئيل تهذيبُ مشاعرهم فى الحياة ، قليل اطلاعهم على تحف من أنواع الفنون ، تافهةٍ ثقافتُهم الفنية ، سقيمةٍ بهذا النقص آراؤهم فى الغناء والموسيقى

وأى ذوق بالله فى العيوب التى يشكو منها بعض دعاة الإصلاح ؟ ! أهو ذوق تلك الجماهير التى تنتشى بمجالس الغناء بأنصافها السفلى وحدها ، فلا تستطيع أن تكبح جماح غرائزها إذا هى أحست من الصوت حركة تخنث أو همسة تأنث ، فينطلق عنان حيوانيتها ، وتضطرب أجسامها يمنة ويسرة فى قيام وقعود وتلويح بالجوارح ، ويعلو صفيرها وهذيانها استعادةً شاطّة لما لا تفهم فى الغناء سواه من دواعى الشبق ؛ وقد تقطّع بضجيجها وضجيجها أجل الجمل الصوتية التى يتأنق بها المغنى فى إظهار افتتانه وقدرته ، فتذهب مزايا هذه الجمل وتبقى الجماهير بثورتها البهيمية أشبه بتلك القبائل الهمجية فى حفلاتها الهائجة المائجة ، وذلك كله لا مثيل له فى أمة راقية من عالم المدنية .

والأعجب أن المغنين لا يتأمرون امتعاضاً من هذا الاعتداء الصارخ على فنهم لعلمهم يهذبون هؤلاء المستمعين ، بل هم يُسرّون بعمل المعتدين، إذ يعتبرونه دليل الاستحسان لفنهم، وإنما هو استحسان لشىء مخجل فى غير محله ووقته ؛ ولو كان للفن فى ذاته تقدير وحرمة عند تلك الجماهير ، لأظهرت استحسانها بعد سماع الأغنية

أو الجمل الممتازة فى غنائها ، كما يفعل المستمعون بأنصافهم العليا وحدها من أهل الدنية

فجمل كلام الشاعر الفاضل أن المدرسة الحديثة أبدلت الحب الروحانى بالحيوانى فى الأغانى ، وضمنتها شتى المعانى . وقد فضل الأغانى الحديثة ، بمقاصدها وعباراتها ، على أغانى عهد مضى ؛ وبرر ما فيها من الشكوى ، وهى تفجع وهوان ، ودافع عما يسمونه الموسيقى الجديدة ولم يبين ما هى ، وما هى إلا تخليط شنيع

وذلك كله يتعلق بالعرض من فنون الغناء والموسيقى ، سواء أعُد من الصفات المستحسنة أم العيوب المستهجنة . أما الذى يتعلق بالجوهر فهو الداء المنسد الوبيل ، الموجب للنقد ، المتأصل فى تلك الفنون ، وهو ما لم يذكر الشاعر ولم يشر إليه الصوت الرسمى بحرف

***

ألا إن وجه النقد الباقى بحذافيره[1] راجع إلى « ماهية الموسيقى والغناء الأصلية ، أى الدلالة الصوتية على الأحاسيس والخواطر » ، عائد إلى عيوب الائتلاف « بين معانى كلام الأغنية ومعانى لحنها وغنائه ، ومعانى موسيقاها » ؛ وهو مُنصب على جهلنا « أن اللحن الموسيقى إنشاء يجب ألا تتضارب الجمل الصوتية فى سياقه » من « تخليط قديم مسيخ بمسروقات محرفة من الألحان والموسيقى الغربية ، القديمة والحديثة ، ومن أصوات الجاز » ؛ وهو منبه على أننا لا نسلك سبيل الشرقيين القدماء ، أو الغربيين المعاصرين لنا ، فى التغنى بمختلف الأحاسيس فى مواقف الحياة الإنسانية المحوطة بجمال الطبيعة ، ومنبه أيضاً على أننا لا « نقلد الغرب فيما ارتقت إليه موسيقاه من التصوير Harmonie الذى عظم شأنه بالتحسين والابتكار فى المعازف » .

وقد قلت إن « الفنان يؤثر فى بيئته وجمهوره وإن تأثر منهما ، ومن هنا نصيبه فى تهذيب ذوق الجمهور وإعلاء مثله الأعلى بقدر مواهبه وسحر فنه ؛ ومن هنا تبعة الفنون الضالة ومسئولية أصحابها فى إفساد الأذواق » ؛ وإن فى مصر « معاهد أهلية وحكومية للموسيقى يجب عليها أن تلتفت إلى حقيقة حال هذه الفنون عندنا وإلى ما يصلح من شأنها ، فذلك خير لها من أن تظل على الأيام صوراً جوفاء خاوية ، لا تصلح إلا لتمكين الفن السقيم الضعيف والمحافظة عليه »

لكن ذاع صوت رسمى كأنه يقول : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! » فصدق القائل : « لما يصل رقينا إلى أن نشعر أن الغناء تربية للأمة »

محمد توحيد السلحدار

(١) النقد الشامل والرأى البين فى أعداد من الرسالة فى هذه السنة أرقامها ٤٠٢ و ٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤٠٥ .

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

ابراهيم الكاتب

للدكتور زكي مبارك

الكتاب والمؤلف — جناية المازني على موهبته الشعرية وعلى أسلوبه في الانشاء — ضاع المازني الشاعر فما مصير المازني الكاتب ؟ — المواهب تلاحق أصحابها ولو فروا منها إلى شعاب الجبال — المازني الشهيد — من إبراهيم الكاتب ؟ — الحب في نظر وزارة المعارف

الكتاب والمؤلف

يقع الكتاب في ٣٨٤ صفحة بالقطع الصغير ، وثمنه عشرة قروش ، وهو يطلب من مكتبة عيسى الحلبي بالقرب من مسجد الحسين .

والمؤلف لا يحتاج إلى تعريف ، فهو الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني أحد أقطاب الأدب الحديث

ولكن شهرة المازني في مصر وفي سائر الأقطار العربية لا تعفينا من النص على خصائص ذاتية لم يعرفها القراء من قبل

وإن كان المازني لم يترك مجالاً لمن يريد أن يتحدث عنه بإيجاز أو إطناب ، فأشعاره ومقالاته تسجل ما فيه من محاسن وعيوب

وهنا يحتاج الكلام إلى تقييد ، فالمازنيّ مغرًى بالسخرية من نفسه ، وقد يتوهم من لا يفهم أنه لا يقول عن نفسه إلا الحق وذلك وهم فظيع ، فهذا الرجل من أهل الجد الرزين ، وله مبادئ أدبية وقومية يحرص عليها حرص الأبطال ، وأقل ما يوصف به المازني أنه « رجل شهم » وهو من عناوين المروءة في هذه البلاد

عرفت المازني معرفة أدبية لا شخصية في أعوام الحرب الماضية ، وكان قد أخرج كتاباً في نقد « حافظ ابراهيم » وكان نقد حافظ في تلك الأيام يعد من شواهد التفوق . ثم زاد اهتمامي به حين سمعت أن حافظ ابراهيم كانت له يد في إخراج المازني من وزارة المعارف « وأنا هنا أحكي كلاماً فاضت به المجالس في ذلك العهد بغض النظر عما فيه من صحة أو بطلان »

ثم جاءت فرصة رأيت فيها المازني وجهاً لوجه في سنة ١٩٢٢ ولكن كيف ؟

كان الأستاذ عبد القادر حمزة اشترك مع عبد اللطيف بك الصوفاني — رحمهما الله — في إخراج جريدة الأفكار بصورة تجمع بين مقاصد الوفد المصري ومبادئ الحزب الوطني ، وكان عبد القادر ينظر إليّ بارتياب لصلتي الوثيقة بالحزب الوطني ، فكان يخفي عني أسماء المحررين الذين يساهمون في التحرير من بعيد ، ومن هؤلاء كاتب تنشر له « الأفكار » سلسلة من المقالات الرائعة بعنوان « الأسناد المتداعية » فمن ذلك الكاتب ؟ من ذلك الكاتب ؟ ليتني أعرف !

وفي ذات يوم دخلت على الأستاذ عبد القادر حمزة أبلغه ملاحظات الصوفاني بك على بعض ما في « الأسناد المتداعية » من آراء فابتسم وقال : إسأل الأستاذ ! فنظرت فرأيت المازني في حال تستوجب الرثاء ، فقد كان دامي العينين ، وكان كيانه يشهد بما يعاني من إعياء ، وكذلك عرفت أن ابراهيم المازني هو صاحب « الأسناد المتداعية »

وبعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ عرفت للمازني خبراً يشبه هذا الخبر الغريب ، وحياة هذا الرجل كلها غرائب

كنا زميلين في تحرير جريدة البلاغ ، ولم يكن بيننا ما يقع عادةً بين الزملاء من التنافس المكبوت ، فأسررت إليه مرة أن عندي موضوعاً أتهيب الكتابة فيه ، لأنه قد يضايق فضيلة الشيخ المراغي ، وهو إعلان الرسائل التي تُنال بها العضوية في « جماعة كبار العلماء » ، وبينتُ له أن من الواجب أن يكون حال تلك الرسائل شبيهاً بحال الرسائل التي تنال بها الدكتوراه من الجامعة المصرية ، فهي تُطبع وتُنشر ليعرف الجمهور أن الجامعة لا تعطي الألقاب العلمية بدون استحقاق ، فما الذي يمنع أن يكون الأمر كذلك مع « كبار العلماء » ؟ ؟

وطرب الأستاذ المازني لهذه الفكرة وقال إنه سيذيعها بالنيابة عني ، وكان مفهوماً أنه سيذيعها على صفحات « البلاغ » فماذا وقع ؟ رأيتها منشورة بعد أيام في جريدة « الأهرام » بدون إمضاء فعرفت من جديد أن المازني بروحين أو أرواح ، وعرفت أن الذي

كان يراسل « الأفكار » وهو فى « الأخبار » هو نفسه الذى يراسل « الأهرام » وهو فى « البلاغ » . ثم تعقبته فعرفت أن بينه وبين الأستاذ أنطون الجميّل صلات ، وأنه ينشر فى « الأهرام » أشياء بدون إمضاء ، رعايةً لمكانه فى « البلاغ »

جناية المازنى . . .

لا يحتاج القارئ إلى معرفة الأسباب التى استوجبت أن يتحرر المازنى من خدمة الحكومة المصرية ، وكان منذ أكثر من ثلاثين سنة أستاذاً بالمدارس الثانوية . وكان الظن أن يصير من أقطاب وزارة المعارف ، لو صبر على ما توجب الحياة الرسمية من تكاليف خفاف أو ثقال . . . لا يحتاج القارئ إلى معرفة تلك الأسباب، لأن المازنى لا يصلح أبداً لحياة الهدوء والاطمئنان . ولو أجلسناه على كرسى الوزارة لخلع نفسه بعد لحظات ، ليقول فى الوزارة ما يشاء ، وليغمز الرسميين كما يريد

وقد اشتغل المازنى بالتعليم فى المدارس الأهلية ، ولعله أنشأ لنفسه مدرسة لم تظفر بطول البقاء . ومن المؤكد عندى أن « الكاتب » هو الذى أضاع « المدرس » ؛ فما كاد يرى بوارق النضال السياسى حتى اندفع إليه بقسوة وعنف ، وكانت باكورة مقالاته السياسية رداً على المرحوم إسماعيل أباظه باشا . وكان هذا الرجل على جانب من القوة والعمق ، وكان لا ينشر شيئاً إلا بعنوان : « بيان لا بدّ منه » ، فرد عليه المازنى فى جريدة « النظام » بمقال عنوانه : « لا بدّ مما ليس منهُ بدّ »

ومضى المازنى ينشر فى الجرائد مقالات سياسية فى تأييد الخطة الوفدية . وجاء « مشروع ملنر » وكان للصحفيين الوفديين فى تأييده مجال — وكانت المعارضة فى ذلك الوقت بيد الحزب الوطنى — ثم ظهر مفاجأةً مقالان فى نقد ذلك المشروع لكاتبَيْن وفديين ، هما المازنى والعقاد ، فدعانى الأستاذ محمد الههياوى إلى التعليق على هذين المقالين . وكان رأيه أن ذلك صدع فى بناء الهيئة الوفدية . ولكن شجاعة المازنى والعقاد أوجبت أن أخصهما بكلمة ثناء

وجاء الخلاف بين أمين الرافعى وسعد زغلول ، فاندفع المازنى فى الهجوم على الوفد . وكانت مقالاته غاية فى القوة البيانية ، وفى حرارة أخطر من الجمر المتوقد ، بحيث لا يشك قارئٌ فى أن « الكاتب » سيعادى الوفد إلى آخر الزمان ، ولكن هذا « الكاتب » الذى يعادى الوفد علانية فى جريدة الأخبار هو نفسه « الكاتب » الذى يزور جريدة الأفكار كل صباح ويقدم إليها فى تأييد الوفد أشياء ! ؟

ويمرُّ زمنٌ قصير فنرى المازنى يعطف على الجريدة الرسمية للحزب الوطنى ويصادق الشيخ عبد العزيز جاويش . ثم يثب فجأة فينتقل إلى حزب الاتحاد ويزامل الدكتور طه حسين فى تحرير جريدة « الاتحاد » ، مع انعطافات خفية يغمز بها هذا الحزب فى جريدة « الأخبار » . ثم ننظر فنراه مع الأحرار الدستوريين فى صحبة الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير « السياسة » ، ونلتفت فنراه انتقل إلى « البلاغ » ، وبوصوله إلى « البلاغ » خطرت له فكرة الاستقرار الموقوت ! ؟

وفى أثناء هذه التنقلات السياسية كانت للمازنى تنقلات أدبية ، فكان يرسل إلى المجلات ما تقترح عليه . وقد أنشأ لنفسه مجلة كما كان أنشأ لنفسه مدرسة ؛ ولكن المازنى رجلٌ ملول ، وإنشاء مدرسة أو مجلة يحتاج إلى شمائل تبغض الملال

ولم يقف المازنى عند هذه المراحل من التنقل السريع ، فخاق لقلبه وعقله مجالات جديدة فى الحجاز والشام والعراق ، فهو من أعرف الناس بالتيارات الفكرية والسياسية فى أكثر البلاد العربية

أرانى أطلت من غير طائل ، فماذا أريد أن أقول ؟

أريد أن أهوى بيدى على رأس المازنى فأحطمه بلا ترفق ، عقاباً على ما صنع بنفسه بلا ترفق ! ؟

كان المازنى من أكابر الشعراء ، وكان يستطيع أن يعد الشعر بقوة روحية وذوقية تصل ما انقطع من لوامع هذا الفن الجميل

ولكن المازنى الذى « انشغل » بالكتابة فى جميع الأوقات ولجميع الأحزاب لم يعد يجد الفرصة للغناء ، ولا بد للشعر من غناء . والغناء يوجب الخلوة إلى النفس من حين إلى حين ؛ ومتى يخلو إلى نفسه من يعانى ضجيج المجتمع السياسى فى الصباح والمساء، ومن عوّد نفسه الأنس بالقيل والقال فى الكبائر والصغائر من شؤون هذا المجتمع الصخّاب ؟

وهنا يظهر انخداع المازنى أو خداعه ، فهو لا يقول إنه مشغول بالكلام عن الغناء ، وإنما يكابر فيزعم أنه لم يبق للشعر فى الدنيا مكان ، وأن الشعراء ليسوا إلا جماعة من الحمقى والمجانين !

وحول هذه القضية ثارت الخصومة بينى وبينه على صفحات البلاغ حين ظهر ديوانى فى سنة ١٩٣٤ ، وهى خصومة مسّت قلب المازنى ، وكان من المحتمل أن تكون لها عواقب سود ، ولكن الرجل تراجَعَ حين عرف أن غضبه لم يقم على أساس

وبعد أعوام حدثته بأنى انصرفت عن الشعر لحملق فى وجهى حلقة الغول وهو يصرخ : (أنت تبت ! أنت تبت !)

وكذلك يرى المازنى أن الانصراف عن الشعر توبة ، وكأنه يجهل أنه أساء إلى وطنه إساءة ستجعله من أهل النار يوم يقوم الحساب ، فضياع شاعر مثل المازنى ليس إلا نكبة وطنية . لا جزاه الله إلا بما هو له أهل !

ضاع المازنى الشاعر ، فما مصير المازنى الكاتب ؟

بدأ المازنى حياته النثرية بالطريقة الجاحظية ، وهى تقوم على أساس الازدواج ، وقد وفى المازنى لهذه الطريقة أصدق الوفاء فى أمد يزيد على عشر سنين ، وكان عهده فى رحاب هذه الطريقة أجمل عهوده الأدبية . فقد كان نموذجاً للكاتب الفنان ، وكان بناء الجملة على سنان قلمه غاية فى المتانة والجمال

ثم جنى المازنى على نفسه بالكتابة اليومية ، ولكن كيف ؟ يدخل الجريدة فيتحدث ويتحدث ثم يتحدث إلى أن يضيع الوقت وإلى أن تنفد قواه ، وفى آخر لحظة يكتب المقال المطلوب بأى أسلوب ، وكذلك صار المازنى يكتب كما يتحدث ، وبين الكتابة والحديث مراحل طوال

ثم ماذا ؟ ثم ابتدع المازنى طريقة جديدة هى كتابة أكثر مقالاته وقت إنشائها بالكتاب ، فينشئ المقال على أصوات : طق ، طق ، طق ! !

هل فهمتم ما أريد ؟

المازنى اليوم لا يكتب كما نكتب بقلم ومداد وقرطاس ، ليستطيع المحو والإثبات كما نستطيع ، وإنما تدور أنامله على المكتاب بوحى من رأسه الموهوب ؛ فيخرج المقال وهو كلام لا إنشاء

فمن هاله أن يرى بناء الجملة عند المازنى الجديد يخالف بناء الجملة عند المازنى القديم فليذكر هذا التاريخ من حياة هذا الفنان

ولكن . . .

ولكن المواهب تلاحق أصحابها ولو فرّوا منها إلى شعاب الجبال ، فالمازنى أديب موهوب ، وهو كتلة من العواطف والأحاسيس ، ومواهب هذا الرجل لن تتركه بعافية ، وسيظل المازنى هو المازنى ، ولو انتقل من تسطير مقالاته على المكتاب إلى تسطيرها على الهواء

ولعل لله حكمة فيما صار المازنى إليه ، فهو الشاهد على أن الفِطرة أفضل من الفن ، وهل الفن إلا الصدق فى النقل عن الطبع ؟

المازنى الجديد فنان بأسلوب جديد ، وسيكون له مكان فى تاريخ الأدب العربى ، فسيقال حتما إنه عاون على حماية اللغة الفصيحة من عوادى الجود

لقد بدا للأستاذ محمود تيمور أن يؤلف بعض الأقاصيص باللغة العامية ليغزو قلوب الطبقات الشعبية ، فهل وصل إلى ما يريد ؟

إن كتابة المازنى — وهى غاية فى إيثار الفصيح — أسهل وأوضح من كتابة تيمور العامية ، ولو ترك مصير اللغة إلى من يخطبون ودّ العوام لصارت إلى البلبلة ثم الفناء

والأستاذ محمود تيمور له يوم ، وسنلقاه بعد قليل ، فله فوق هذه الشرحة مكان

المازنى الشهيد

رأينا المازنى فى هذه الصفحات إنساناً يتنقل من أفق إلى آفاق . فهو مدرس أولاً ، وشاعر ثانياً ، وكاتب ثالثاً ، ورأيناه يساير جميع المبادئ وجميع الأحزاب ، فهل نعدّه من أهل الرياء ؟

لا بدّ مما ليس منه بد

لا بد من أن تقال فى هذا الرجل كلمة الحق ، فمن الإجرام أن نترك أدباءنا تحت حماية الأقاويل والأراجيف ، وهم صوت مصر فى الشرق

المازنى الذى عرفته رجلٌ صادق إلى أبعد الحدود ، صادق فى البغض وصادق فى الحب ، صادق فى الجد وصادق فى المزاح

كان صادقاً فى تأييد الأحزاب التى أيدها بالقلم واللسان . كان وفدياً صادقاً وهو يؤيد الوفد المصرى ، وكان وطنياً صادقاً وهو يؤيد الحزب الوطنى ، وكذلك كان حاله مع الدستوريين

والأتحاديين ، ولو بدا له أن يعاون الشيطان لبلغ غاية الصدق في تأييد الشيطان !

هذا رجل يعيش بأعصابه وإحساساته ، وقد يكون لبلائه باحتراف القلم تأثير في تقلباته النفسية والوجدانية . وما ظنكم برجل يكتب كل يوم فيستنفد ما يملك من بواعث القرار والهدوء ؟

وأهجم على الغرض الذي أرمي إليه فأقول : هذا رجل جنى عليه قلمه ، وجنى عليه إحساسه ، فلم يعرف قيمة الصبر على الانحياز إلى إحدى الجهات ، في زمن لا يعيش فيه المفكرون إلا بأسندة من العصبيات السياسية أو الاجتماعية

وزارة المعارف نسيت المازني ، فبينها وبين صحبته القديمة أعوام وأجيال

والأحزاب السياسية لا تذكر المازني ، فقد تقطَّع ما بينه وبينها من أسباب

لا يعرف المازني غير قرائه وهم أقوام لا حول لهم ولا طول ، فإلى من يتوجه هذا الرجل إذا بدا له أن يقصف قلمه في ساعة ملال ؟

الموظف الذي ينتفع بمرور الأيام في احتساء القهوة والتأشير على بعض الأوراق يواجه الشيخوخة وله معاش يضمن له الراحة والاطمئنان

والمتجرون في التراب يجمعون الألوف ، وحدّث ما شئت عن المتجرين في البهتان !

فما مصير « إبراهيم الكاتب » وقد قضى نحو أربعين سنة في صحبة القلم والقرطاس ؟ ما مصيره وقد عادى الجميع في سبيل رسالته الأدبية ؟

المازني حساس إلى الحد المزعج ، وهو يغتم حين يرى اسمه « إبراهيم » وضعتْ فيه ألف بعد الراء ، فهو عند نفسه « إبرهيم » لا « إبراهيم » والجنون فنون !

وهذا الإحساس المرهف هو الذي صير هذا الكاتب إلى ما وصفنا في هذه الصفحات ، فهل من الإسراف أن نطالب الدولة برعاية المصاير لمن يكونون في مثل حاله من العناء بحرفة الأدب والاكتواء بنار الكتابة كل يوم أو كل أسبوع في آماد طوال لا تصلح بعدها النفس لانتهاج مذهب جديد في الحياة الماشية ؟

إن الذين صدقوا في خدمة الأدب آحاد ، لا عشرات ولا مئات ، فهل تعجز الدولة عن تدبير معاش لأولئك الآحاد حين يطيب لهم أن يستريحوا من متاعب البيان ؟

من إبراهيم الكاتب ؟

إبراهيم الكاتب قصة غرامية تفرعت إلى شجون وصفية واجتماعية ، وقد تحدث المازني في المقدمة عما سلك من طرق التأليف ، بإسهاب يغني عن النص على ما فيها من مقاصد وأغراض . إنما يجب النص على مسألتين سلك فيهما المازني مسلك التحريف ولا أقول التضليل !

أما المسألة الأولى فهي إصراره على أن إبراهيم الكاتب غير إبراهيم المازني ، وحجته أن إبراهيم الكاتب يتلقى الحياة باحتفال ، أما إبراهيم المازني فيتلقى الحياة بغير احتفال (؟ !)

وأقول إني صحبت المازني أعواماً في جريدة البلاغ وأياماً في مدينة بغداد ، فما رأيت أشد منه احتفالاً بأتوافه من شؤون الحياة ، فهو يغضب ويثور لأوهى الأسباب ، فكيف يكون حاله فيما يمس جوهر المنافع الحيوية ؟

أما المسألة الثانية ، فهي الصفحات المنقولة حرفيًّا عن كتاب « ابن الطبيعة » ، ويقول المازني : إن هذا توارد خواطر لا سرقة أدبية ؛ ويقول الأستاذ علي أدهم : إن المازني نقل هذه الصفحات متعمداً ليجد الشاهد — عند اللزوم — على أن توارد الخواطر هو الأصل فيما يُنسب إليه من سرقات ، وهل من المعقول أن يسرق الكاتب خمس صفحات ؟ !

وهنا نعرض فكاهة تستحق التسجيل :

كنا في جريدة (البلاغ) في الأسبوع الأول من قدوم السير « لامبسون » ، وهو رجل فارع الطول ، ورأت إحدى الجرائد الإنجليزية أن تنص على طوله ، فنشرت جزءاً من صورته في الصفحة الأولى وقالت : إن البقية في الصفحة الثانية ! ! !

فقال المازني بغيظ وغمّ : ما الذي يمنع من سرقة هذا المدني ؟ !

واتهام المازني بالسرقات الأدبية معروف ، ولكن هذا لا يغض من قدرته البيانية ، فلله أول مترجم في مصر يوهمك وهو يترجم أنه الكاتب الأصيل

عند المازني عبارات كثيرة مجنحة بأخيلة أجنبية ، ولكنها لا تَرِد في كلامه إلا وهي مطبوعة بإحساسه الخاص ، فهو يستأسر للمعنى والصورة قبل أن يفكر في السرقة أو النقل ... فهل تراني أحسنت الدفاع عنك يا صديقي ؟

الحب فى نظر وزارة المعارف

قصة « ابراهيم الكاتب » قصة غرامية ، وفيها ألوان من اضطرام العواطف والأحاسيس ، فكيف جاز لوزارة المعارف أن تقررها لمسابقة الأدب العربى بين طلبة السنة التوجيهية ، مع أن هذه الوزارة كان يؤذيها أن يكون فى المحفوظات المقررة شىء من الغزَل والتشبيب ؟

تلك وجهة جديدة فى وزارة المعارف ، فهل نراها بمنجاة من الانحراف ؟

ولكن ، ماذا جنت وزارة المعارف فى عهودها السوابق من إخفاء قصائد الحب عن التلاميذ ؟ هل جعلتهم أقوى من تلاميذ انجلترا وألمانيا ، والحبُّ عند هاتين الأمتين له فى جميع النصوص الأدبية مكان ؟

لوزارة المعارف عندنا صوت فى إدارة الإذاعة اللاسلكية ، فهل اعترضت على أغانى الحب ؟ ؟ وكان لوزارة المعارف رأى فى توجيه الفِرق التمثيلية ، فهل اعترضت على الروايات التى يقع فيها تقبيل وعناق ؟ ؟

آن لوزارة المعارف أن تعرف أنه لا موجب للهرب من المطالب الروحية ، وأن الحزم كل الحزم فى أن تتولى هى تربية العواطف فى صدور التلاميذ ، لا أن تترك عواطفهم لرياضة الجهلة من السفهاء

المحرَّم هو الإسفاف فى تصوير الشهوات ، أما تشريح عاطفة الحب باعتبارها عاطفة إنسانية ، فهو غرضٌ يوجبه التعليم والتثقيف .

وما قيمة الحرص على إخفاء الجمال مصورًا فى قصيدة وجدانية ، وهو يُعرّض كل لحظة فى شوارع القاهرة ، وقد يباع بلا ميزان ؟

كونوا أساتذة التلاميذ فى جميع الشئون ، واحترسوا من تركهم تحت رحمة الأهواء ، واعلموا أن شغف التلاميذ بالنظر فى أحاديث الحب يرجع إلى إصراركم على القول بأنه حرام لا مباح ، فقديماً قيل : كل ممنوع مَتبُوع

وسلامٌ على إبراهيم ـ ابراهيم الكاتب ـ من صديقه الحميم :

زكى مبارك

كليـــــلة ودمنة

للدكتور عبد الوهاب عزام

(تتمة)

ص ١٩٥ س١٥ : (أرادوا إدخال النقص عليك فى ملكك) قال الأستاذ : « كلمة النقص ركيكة فى هذا المعرض لا يقولها مثل ابن المقفع وإنما هى النقض بالضاد المعجمة » ولست أرى فى النقص هنا ركاكة . وما كان لى أن أغير الذى أمامى فى أمر لا دليل فيه ، وهذا دأبى فى تصحيح الكتاب ، ولو كان الأمر إلى اختيارى لما اخترت إحدى الكلمتين ضربة لازب

ص ٢٠٠ س ٩ : (فإنها امرأة عاقلة لبيبة حريصة على الخير ، سعيدة من الملكات ليس لها فى النساء عديل) قال الأستاذ : « وكيف تكون سعيدة مع أن الملك أمر بقتلها الخ ... ثم هو فى معرض التنويه بخصالها ، وليست السعادة خصلة أو خلقاً — الأخلاق والوجه : سديدة الرأى من الملكات التى ليس « فى النساء عديل » وقال فى الحاشية أنظر كليلة ودمنة طبع بولاق » — والجواب أنه ما كان لمصحح أمين أن يغير برأيه سعيدة من الملكات إلى سديدة الرأى من الملكات التى الخ ... وطبعة بولاق وغيرها شواهد على ما جناه الناشرون المتصرفون بآرائهم فى متن الكتاب . ومعنى سعادة الملكة هنا أنها مباركة ميمونة كان عهدها مع الملك عهد سعادة وغبطة

ص ٢٠٨ س ١١ ، ١٢ (الذى يصنع الطعام وينظفه لسيده) يرى الأستاذ أن الكلمة ينضجه حرفها الناسخ إلى ينظفه . وهو رأى سديد ، وكان ينبغى أن يشار إلى هذا التعليق إن لم يجز تغيير المتن

ص ٢١٠ س ٥ : (والجرىء الجاهل المقدم على ما ليس له وإن أتلف نفسه ونفس غيره فى طلب حاجة وشحه) قال صوابه ونجحه . وأرى أن الصواب شحه يعنى حرصه على ما يطلب . وليس الشح الحرص على ما فى اليد فقط بل منه الحرص على أخذ ما ليس فى اليد وفى حديث ابن مسعود : والشح أن تأخذ مال أخيك بغير حقه . وفى حديث ابن عمر : إن كان شحك لا يحملك على أن تأخذ ما ليس لك فليس بشحك بأس

ص ٢٥٠ س ٣ : (فلما رأوا الأسد قد احتشد فى طلب اللحم وغضب) قال : أرى أنها احتدّ والحدّة تقارن الغضب . أقول بل هى احتشد وكذلك وقعت فى نسخة شيخو . واحتشد الإنسان فى الأمر إذا اجتهد وبذل وسعه فيه

ص ٢٤٧ س ٤ : (فما الذى يشبه كفّك من الدماء وتركك اللحم) قال : كلمة يشبه مقحمة ، ولعلها زيادة من الملل للناسخ حين تردّوه فى الكلمة بعدها — وقد وقفت عند هذه الجملة حين التصحيح وهممت أن أضع مكانها ما فى شيخو : (فما الذى يمسك كفّك عن الدماء) ولكنى وجدت فى آخر الجملة (وتركك اللحم) وفى شيخو وترك اللحم وهذا لا يستقيم مع كلمة يمسك . ورأيتها فى نسخة طهارة « فأى شىء يشبه كفك عن الدماء الخ ... » فآثرت الإبقاء على ما فى نسختنا . وكان يسيراً أن أغيرها كما غيرتها النسخ الأخرى . ومعنى الجملة : أى سيرة هذه التى لا نرى لها شبيهاً ؟

٢٧١ : ١١ (بفضل قسّمه لك وتابع نعمه عليك) قال : فعلى أى شىء عطف الفعل (تابع) ؟ — رأى أن تصحح الجملة على وجوه مختلفة — وأرى أن فى الجملة نظراً ولكن معناها بيّن ، وتابع معطوف على قسمه والضمير فى تابع يرجع إلى الله وليست جملة تابع وصفاً لفضل وإن كانت عطفاً على الوصف

٥٢ : ٢ (كالشعلة من النار التى يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً) قال الأستاذ إنه وجدها فى عيون الأخبار (يصوبها) أى يخفضها — وأقول : هو وجه حسن جيد ولكن لم يقع فى نسخة من نسخ الكتاب فلم يتوجه الرأى إليه . وهو حرىّ أن يؤخذ به ، وللناقد الشكر

٢٧٦ : ١٣ (ولم تجدى من الأسف والحزن على شبليك شيئاً إلا وقد كان من كنت تفعلين بأحبابه ماتفعلين بجد مثله أو أفضل منه) قال الأستاذ : وليس يقال حزن فلان حزناً أفضل من حزن فلان ... والوجه أمثل الخ . ولا أرى هذا وجهاً . وقد بيّنت فى التعليق أن الفضل معناه الزيادة . وعندى أن كلمة أفضل أقرب من أمثل فى هذا السياق . وإن فسرت أمثل بأنها من مثل بمعنى نكل كما فسرها الناقد

فى التعليقات

جادل الناقد الفاضل فى جمل رأيت أن بها أثراً من الفارسية ، وقلت إن ابن المقفع لم يسلم من تأثير الفارسية حين الترجمة —

وقد رأى الأستاذ أن لهذه الجمل أوجهاً في العربية الصحيحة . ولست أريد أن أتناول هذه الجمل بالتفصيل ، وحسبي أن أقول : إن هذه الصيغ أشيع في الفارسية وأقرب إلى أساليبها ، وقد ذكرتني بالفارسية حين قرأتها ، ولعل الذي حفز الأستاذ إلى الجدال في هذه الجمل أنه يرى « ابن المقفع أيقظ من أن يؤثر في بيانه العربي الخالص هجنة فارسية ، أو يلتاث في ترجمة هذه اللوثة » . ولست أشاركه هذا الرأي ، فلا ريب عندي أن أثر الفارسية يظهر أحياناً في أساليب ابن المقفع ؛ وهو أمر يحتاج إلى تفصيل وتبيين ، وعسى أن تتاح فرصة للكلام فيه

وبعد ، فقد آثرت الإيجاز في الرد على الناقد الأديب توفيراً للوقت وعلماً بأن قليلاً من القراء من يحمل نفسه على تتبع الجدال في جزئيات كهذه

ثم للأستاذ عبد السلام الشكر بما قرأ وبحث ودقق ونقد . وقد دل نقده على علم وأدب ، نسأل الله لهما المزيد ، كما نسأله أن يهدينا إلى السداد في الرأي والقول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

عبد الوهاب عزام

مملكة الشمس

أو CIVITAS SOLIS

للدكتور جواد علي

من الفلاسفة من يأبى خيالهم إلا أن يسمو من عالم الأرض إلى عالم السماء ؛ ومن هؤلاء الفيلسوف الإيطالي توماس كامبينيلا Thomas Campanella [1] صاحب مملكة الشمس المملكة المثالية Utopie التي افترضها هذا الفيلسوف لتكون المملكة الفاضلة من بين الممالك البشرية والنموذج الأعلى لكل الممالك التي تصورها العقل البشري بلا نقص أو هنة من الهنات . كان هذا الفيلسوف من الطليان الحركين الذين كانت لهم روح لا تستقر على حال . لم تعجبه حياة الرهبنة والتقشف على شدة تعلقه بمبادئ الدومينيكان . ولم يقبل بأن يسجن الانسان نفسه حراً مختاراً في بقعة ضيقة بين الأسوار والجدران باسم الرهبانية والدين . وقد دفعته هذه النزعة إلى الخروج على تقاليد جماعته وعلى الانضمام إلى زمرة السياسيين الثوديين الذين كانوا في مدينة نابولي يجاهرون ملك الأسبان بالعداء ؛ فسجن مقيداً في محبس المدينة المظلم مدة ستة وعشرين عاماً ونصف ، وعذب سبع مرات [1]

ومملكة الشمس التي أراد أن يقيمها هذا الفيلسوف مملكة تستند على الأسس والمبادئ الفلسفية التي تصورها أفلاطون في جمهوريته ودولته . ولكنه اختلف عن أفلاطون في شدة اعتنائه بالتنظيم ، وبالجزئيات ، وبتوزيع الأعمال على حكام هذه المملكة وعلى الأتباع . وقد اختلف في نظريته عن النظرية المثالية التي تصورها الفيلسوف الانكليزي توماس موروس [2] من ناحية مبدأ الحكم في هذه المملكة . فمملكة توماس موروس مملكة اشتراكية ديمقراطية النزعة تأخذ بمبدأ الانتخابات فيها ، والحرية القول والاعتقاد نصيب وافر . أما مملكة الفيلسوف الإيطالي فهي مملكة اشتراكية أيضاً ولكنها تمثل نظر العقلية الايطالية إلى الحكم خير تمثيل . هي النموذج الصالح لنظر العقل الإيطالي إلى الحكم ، لا محل فيها للحرية الفكرية ولا للمقيدة ، ولا مجال فيها لابداء الرأي أو الاعتراض . كل شيء يدبره الفلاسفة وهم الحكام . وكل شيء فيها قد نظم وقنن وضبط وعين حتى الأكل والشرب وساعات العمل وطراز الأنس والطرب [3]

يتصرف في شؤون مملكة الشمس حكيم ميتافيزيقي Metaphysicus يدعى Hoh هوه أو سول Sol [4] ؛ انفرد من بين جميع رجال المملكة بالحكمة والعلم وحسن التصرف ، فهو أعلم الناس وأحكمهم طراً . أحاط بكل شيء علماً فلا يعزب عنه في تدبير المملكة شيء [5] . وتكاد تكون صفات هذا الرئيس الحكيم هي نفس صفات « الرئيس الفيلسوف » الذي اختاره الفارابي ليحكم « أهل المدينة الفاضلة [6] » مع اختلاف في طريقة الحكم وتوزيع الأعمال ، وإمكانية التطبيق سببه اختلاف نظام الحكم في بلاد الإسلام في عهد الفارابي عنه في مملكة أسبانيا وإيطاليا في عهد الفيلسوف كامبنيلا . ينظر الفارابي إلى الحكومة

---

(١) ولد عام ١٠٦٨ وتوفي عام ١٦٣٨م . راجع Schmidt قاموس الفلسفة ص ٩٢

(١) راجع : Prof. Dr. A. Voigt die Sozialen Utopien ص ٦٤ وما بعد

(٢) ١٤٧٨ — ١٠٣٥ . وقد صور دولته المثلية في كتابه الذي وضعه باللاتينية : De Optimo Rei Peblicae Statu Deque Nova Insula Utopia 1516

(٣) راجع A. Voigt s, 66 (٤) ومعنى ذلك الشمس

(٥) راجع Hugo Stegmann Socialismus s, 105

(٦) راجع مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة من ص ٥٣ — ٦٠ وكذلك تاريخ الفلسفة الاسلامية دي بور تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ١٥١ م (١)

نظرة فلسفية أفلاطونية روحانية إسلامية مجردة بينما ينظر كامبينيلا إلى الحكومة بنظرة فلسفية مثالية عملية كأوليكية ، تعكس لنا صورة العقل الإيطالي في عهد هذا الفيلسوف

ويساعد الرئيس « سول » ثلاثة وزراء ، هم بون Pon وسن Sin ومور Mor اقتسموا شؤون المملكة كل حسب اختصاصه ونبوغه . وتصرفوا بالناحية التي اختصوا بها تصرف رجل خبير قدير لا يجاريه في فنه أي شخص آخر من أشخاص هذه المملكة[1] . وقد اختص الوزير « بون » من بين الوزراء بالشؤون الحربية وبمهمة الدفاع عن المملكة ، ووظيفته أن يبذل كل ما في وسعه لصد هجمات أي معتد أثيم يريد بالمملكة سوءاً .

وعلى كل مواطن في هذه المملكة كما في مملكة أفلاطون أن يساهم في الدفاع عن الوطن ، يستوى في ذلك الرجل والمرأة ، والمرأة لا تستثنى في هذه الحكومة من الجندية لأنها تساهم الرجل في شؤون الحياة . وهذه هي الفكرة التي صرح بها أفلاطون في جمهوريته[2]

أما الوزير سن Sin فهو وزير معارف هذه المملكة إليه ترجع أمور تعليم الشعب وتثقيفه ، وله واجبات كثيرة متفرعة فهو يشرف على تعليم الناس الفنون الحرة والفنون العملية الآلية (أي الصناعات) وهو يشرف على تعليم سكان المملكة قواعد العلم وأسراره . وهو يشرف على تعليم سكان هذه المملكة جميع فنون العلم التي يحتاجها الإنسان في الحياة

أما التعليم فهو إجباري عام يستوى في ذلك الذكور والأناث . خصص وزير المعارف لكل مدينة من مدن الشمس محلاً يدعى Orbis Pictus ليكون بمثابة مدرسة ذلك اليوم . والأوربيس بيكتس عبارة عن محل واسع عام أقيمت عليه سبعة جدر مربعة متساوية ، جدار من هذه الجدر في الوسط ، أما الجدر الأخرى فتحوط به على صورة هالة . وقد زينت هذه الجدر بالصور المختلفة التي تمثل سلسلة العلوم التي يحتاجها البشر وضعت بصورة منتظمة حسب تطور درجات العلم . وهنالك معلمون يوضحون للأطفال مغزى هذه الصور بصورة بسيطة سهلة لا تكلف فيها ولا إجهاد[3]

والتعليم في هذه المملكة من النوع المختلط ، والمنهج من النوع الموحد ، والكتاب الوحيد الذي يدرس في هذه المملكة

هو كتاب « الحكمة » وقد ألفه كامبينلا على طريقة فيثاغورس[1] جمع بين دفتيه من كل فن شيئاً . ويؤكد الفيلسوف أن كتابه هذا هو من أسهل وأحسن ما كتب ، وأن أسلوبه أزلي لا يتبدل ، لذلك لا يمكن لأي طفل بلغ العاشرة من العمر مهما كانت مقدرته العقلية أن يرسب في امتحانات الدولة أبداً . أما المواضيع النحوية واللغوية فلا مجال واسع لها في هذا الكتاب ولا في دائرة معارف مملكة الشمس ؛ لأن التوسع في هذه الأبحاث يبعث على الجمود الفكري ، وعلى توجيه العقل نحو التلاعب بالألفاظ وترك اللب وهو العقل . ولذلك نرى اللغوي يبذل كل جهوده في دراسة قشور الفكرة وهي الألفاظ فيحاول جهد طاقته تسخير الأفكار وسبكها حسب صناعته لتكون جملة من أحلى الجمل التي يستذوقها طبعه ؛ ولكنها في الواقع من أسخف ما يكتبه إنسان[2]

لا يقتصر التعليم في هذه المدينة على الدروس النظرية فقط ، بل يحتم القانون على كل طالب من طلاب هذه المملكة الانخراط في معامل المدينة لإتقانه فنون الصناعة والحصول على معلومات عامة عنها ؛ لا يستثنى من ذلك أي طالب من الطلاب . وبعد حصول الطالب على المعلومات الصناعية يساق إلى القرية إلى المزارع النائية حيث تعرض عليه مختلف أنواع النباتات والحيوانات ؛ ويعلم بنفس الوقت كيفية استغلال الأرض وتربية الماشية . ثم يساق بعد ذلك إلى الثكنات حيث يدرس الفنون الحربية وكيفية استعمال السلاح ليستوى في ذلك الذكور والإناث ![3]

أما وزارة الوزير « مور » فهي من أخطر الوزارات الثلاث لأنها وزارة حساسة مهمة تتعلق بالجنس وبالمحافظة على الجنس . عليها أن تنظم العلاقات الجنسية وأن تسهر على إنتاج جنس قوى من أحسن الأجناس ، وهي وزارة الحب ووزارة العلاقات الجنسية . فالرجال في هذه المملكة ملك مشاع للنساء ، والنساء في هذه المملكة ملك مشاع للرجال . لا زواج ولا استئثار ، كما لا زواج في جمهورية أفلاطون ولا استئثار . كل شيء عام . تقوم في هذه المملكة عاطفة الحب مقام عاطفة الزواج . لذلك كان أهم وظائف الوزير مور تنظيم هذا الحب حتى لا يؤدى إلى استئثار

[البقية في ذيل صفحة ١٣٧٦]

(١) راجع Stegmann s, 105 و Voigt s, 67

(٢) Voigt s, 67 راجع أيضاً كتاب أفلاطون Politeia طبعة Kta

(٣) Stegmann s, 105 و Voigt s, 68

(١) Voigt 69 و K. Vorländer s, 216

(٢) Stegmann s, 106

(٣) Stegmann s, 106 و Voigt s, 67

شركة مصر

تعلن الشركة ان منتجاتها من الخام الدمور والعبك والدبلان وغيره تباع فى المحلات المدرجة اسماؤها بعد وقد تعهدوا جميعا باحترام البيع على اساس قائمة التسعيرة الجبرية

شركة بيع المصنوعات المصرية

بالقاهرة فرع فؤاد الأول والموسكى والبواكى والسيدة زينب والفورية . اسكندرية . طنطا . المحلة . شبين الكوم . دمنهور . الزقازيق . السويس . الفيوم . المنيا . أسيوط . سوهاج

بنزايون

بالقاهرة وجامع البنات والأزهر وميدان مصطفى كامل . اسكندرية . سوهاج . المنيا . ملوى . اسيوط . الفيوم . طنطا . الزقازيق . المنصورة

سليم وسمعان صيدناوى

القاهرة . اسكندرية . الفيوم . المنصورة . اسيوط . طنطا

داود عدس وولده

القاهرة . شارع الأزهر وعماد الدين . اسكندرية

عفيفى الشهاوى ومحمود الشبان

شارع الحمزاوى الكبير بالقاهرة

الفرنوانى إخوان

ميدان الملكة فريدة بالقاهرة

المرجوشى بك

شارع الازهر الجديد

اوروزدى باك "عمر افندى"

بشارع عبد العزيز والسكة الجديدة . بالقاهرة

معارض الغرفة التجارية المصرية

القاهرة . اسكندرية . المنيا . الفيوم . بورسعيد . اسيوط . بنى سويف . المنصورة . طنطا

شركة التعاون المنزلى "لموظفى الحكومة"

اسكندرية . القاهرة . دمنهور

الهيتمى والشريف

طنطا . شارع صبرى

أولاد اسلام باشا "بنى سويف"

تجار القـ

حبيب توليد انو وولده . كباى اخوان . الشر
بورصلى . خليل وفيليب حبيب . ازاك ليفى وشه
محمد شلبى . سعد ومرزوق . محمد زكي الشبتي . ورثة
جرجس عبد الملك . عبد الرحمن الشيال . محمد عبد
أمين وولده . عبد الفتاح وشاحي . محمود أحمد ج
وأولاده . سلامه تادرس سيدهم . عبد العزيز قنديل

تجار الاسـ

اخوان نده وشركاهم . يوسف شلم وأولاده .
ابراهيم شريط . شركة المنسوجات المتحدة . اميل
قلو . روفائيل اوراس . موسى يشوعه مجر . د
عبد المنعم خفاجى . محمد مصباح . عمر فايد . محمد
عاشور سيف . محمد على حسانين

تجار الوجـ

محمود الاشرم — الزقازيق . صادق تراديت — :
محمود المصرى — منيا القمح . ابراهيم عطيه — ،
امام أمين العطار — قوص . عبد العظيم حسين
غمر . محمود مصطفى دسوقي — ميت غمر . العـ
دكرنس . السيد احمد طوبيا — كفر الدوار . .
دسوق . محمد مونيه — دسوق . ابراهيم العطار —
عبد الحميد برهامي — كفر الشيخ . عبد المقصود
كفر الشيخ . محمد المصيلحى — دسوق . عبد ا-
دسوق . أحمد الدفراوى — دسوق . حسين الله
عبد الله الخولى — دمنهور . سيد احمد الحوفى —
محمود نعينع — مطوبس . محمد احمد الوكيل — بسيو
عيسى — بنها . عفيفي عبد الكريم — بنها . عبد ا
إسحق يوسف — طوخ . مصطفى الجزار — :
على محمود عبد الحي — شبين الكوم . مصطفى
سراج — شبين الكوم . عبد الغني الجمى — ال
محمد عيد ملهط — منوف . مصطفى بسيوني —
المنصورة . احمد سيد احمد وحافظ صقر — المنـ
عبد الحميد الحاجة — المنصورة . محمد ابو الـ
المنصورة . عبد العزيز المنياوى — المنصورة . مـ
ميت غمر . عبد المنعم الرجي — ميت غمر

ـــر للغزل والنسج بالمحلة الكبرى

ح
ليـة . جوزيف والبير
لص حاد الكريم . محمود
مان . محمد ابراهيم عوف .
أسـعد الداعور . على
وبجداع . نسيم عدس
،. الحاج مصطفى ميكتس
ت
ميل دانا . صدني نجار .
اهيم نعمباس ، اخوان
. يوسف موسى بسوفير .
. السيد المرداني . خلفاء

ل
لسيد عمرو — منيا القمح
ن السيد نجم — فاقوس .
ا. حسين حسان — ميت
، . على متولي العدلاني —
ر الدوار . محمد القوال —
طه الماربه — كفر الشيخ .
فر الشيخ . محمد الماربه —
سوق . متولي البدوى —،
. محمد الكاتب — دمنهور .
سليمان اخو القة — دمنهور
د — طنطا . محمد عبد الحليم
بنها . عبد العال قمر — بنها .
محمد ابو عجيزه — شبين الكوم .
— شبين الكوم . محمد احمد
سيد احمد برهام — منوف .
. احمد يوسف الحاجه —
. فهمى على — المنصورة .
نصورة . محمد السمنودى —
صورة . ابراهيم غانم —
الدين — زفتى . محمد محمد

البغدادى — السنبلاوين . عوض جبر الشافعى — السنبلاوين. محمد احمد اللبان — دمياط .
احمد حموده — دكرنس . عبد المنعم الشامي — الزقازيق . بسطا وسعد حنحوت —
الزقازيق . العقادين — الزقازيق . تادرس بشاره — الزقازيق . ابو العنين قادوس —
المحلة . عبد الغني قادوس — المحلة . الهينمى والشريف — طنطا . احمد مصطفى الشبني —
طنطا ابراهيم الزواوى — طنطا . عبد المعطى الطيبي — المحلة . عبداه والشريف — طنطا .
عباس الويشي — طنطا . السيد القالى — طنطا . السيد احمد الغمرى — المحلة . على احمد
امام — المحلة حامد السحلي — المحلة . عبد الوهاب قادوس — المحلة . عبد المعطي الاعصر —
المحلة . حسن عبد الجواد — سمنود . شلبى السيد شلبي — نبروه . محمود الخضري - المحلة الكبرى .
غريب مصطفي نجم — المحلة الكبرى .

بتجار الوجه القبلي

عبد اللطيف وحش — الفيوم . احمد مختار وحش — الفيوم . الابيار والدش — الفيوم .
عبد الفتاح السويفى — الفيوم . مصطفى حسن — الفيوم . محمود على الشريف — الواسطى .
عثمان الشيمى — بني سويف . عرفه احمد خطاب — بني سويف . عبد اللطيف شعبان — بني سويف .
احمد وعبد العزيز حسين — بني مزار . محمد حسين وأخيه — بنى مزار . محمد حسن غانم — بني مزار
خلفاء احمد الملاح — الفشن . محمد أبو قوره — الفشن . مرقص مينا — مغاغه .
عزيز وأديب ميخائيل — المنيا . عبد الحميد الجندى — المنيا . اسماعيل الموسي — المنيا .
حسن رضوان — المنيا . عبد الرحيم كريم — ملوى . عبد الرحمن كريم — ملوى .
قرياص سمعان — ملوى . حسن عبده — ملوى . عياد رسوم — منفلوط . ويصا مرقص — منفلوط .
عزيز مجلع — أسيوط . نقولا مقار — أسيوط . سيد عبد العزيز سعد الدين — أسيوط .
أديب سوريان — أسيوط . فرج عبد الشهيد — أسيوط . احمد ومحمود عطيفى — أبوتيج .
عبيد بسطا — أبوتيج . بسيلي جرجس — طهطا . أولاد احمد عبد الوهاب — طهطا
عبد الرحيم حميدى — طهطا — مصطفى الرشيدى — سوهاج . عبد الرحمن البخ — اخميم .
جرجس تادرس — اخميم . عبد المجيد سالم — جرجا . عبد اللطيف سالم — جرجا
نصر الله شكر الله — البلينا . بدروس فلسطين عسل — فرشوط . حنى خليفه حنى — فرشوط .
عزيز مندري عشم الله — بهجورة . عطا الله عطيه فلسطين — دشنا . كيرلس عبده — دشنا .
احمد حسين أبو طالب — قنا . محمد وحسن سعد الدين — قنا . محمد محمود مساعد — قنا .
يوسف وشاحى — قنا . توفيق على السيد — قنا . ابراهيم عوده — قوص .
أمين حامد يوسف — قوص . محمود محمد خليل — قوص . أمين محمد خليل — قوص
محمد النجار يوسف — قوص . حكيم باسيلي — الاقصر . احمد كيلانى — الاقصر
محمد المغازي حته — اسنا . موسي حسن شنقير — اسنا . عزيز ورمزى ميخائيل — اسنا .
يونان عبد الملك — أدفو . محمود الحمصاني — كوم أمبو . عبده خالد حسن — كوم امبو .
طاهر حسن موسى — كوم امبو . عوض الله مكي — دراو . محمد سعيد يوسف — دراو .
على حسن الجعفرى — دراو . محمد محمود الشروني — محمد وأمين جبريل —
عبد محمد أطامش — مرسى وعباس شرينه — ادفو

جميل نخلة المدور

(١٨٦٢ – ١٩٠٧)

للأستاذ كوركيس عواد

١ – كلمة في تراجم رجال العصر

ما زال الشيء المدوّن من تراجم رجال عصرنا ضئيل القدر. فالباحث يحار في أكثر الأحيان، ليقف على ترجمة هذا أو أخبار ذاك! لأن ما بأيدينا من هذه التراجم لا يتعدّى العشرات! وأما أكثر العلماء والكتاب وغيرهم، فلا شأن لهم في تلك المدوّنات. إذ يأتي هؤلاء فيعملون ثم يذهبون إلى حيث يذهب الناس، ثم تندثر أخبارهم وتطمس معالمهم! ولو أحصينا كتب تراجم المحدثين لما تجاوزت العشرة على ما نظن. وهذا شيء زهيد، إذا ما قيس بالأسفار الموضوعة في تراجم الأقدمين. فللمؤلفين القدماء كتب لا تحصى في تراجم الرجال عامة، أو في تراجم طبقة أو فئة خاصة منهم. فأفردوا للأطباء مثلاً تراجم، وللوزراء تراجم، ومثل ذلك قل عن الأدباء والشعراء والنحاة والحكماء والمحدثين والفقهاء والحفاظ وغيرهم. بل إنك تجد تآليف خاصة بعدد من السنين: كتراجم رجال المائة السادسة أو السابعة أو الثامنة وهلم جرا؛ كما تلقى كتباً في تراجم من عاش في قطر ما أو بلدة ما، أو تراجم رجال المذاهب والفِرق، أو من تميّز بصفة أو أصيب بعاهة، كالمعمرين والمتطفلين والعميان. أو غير ذلك من صنوف التراجم التي يطول بنا ذكرها. وإن تمادينا في تعداد ما صنفه الأقدمون في التراجم، وقسناه بقلة ما صنفه المحدثون فيها، وجدنا ما في أيدينا من هذه التآليف الأخيرة شيئاً نزراً، يسف في بعض الأحوال، ويخيب آمالنا في أكثرها!

٢ – سبب كتابة هذا المقال

والذي حملنا على كتابة هذا المقال، هو كلمة قلناها[١] بشأن مقال ثمين عقده الأستاذ الفاضل محمد عبد الغني حسن في هذه

(١) الرسالة العدد ٤٢٥

(بقية المنشور على صفحة ١٣٧٣)

فردي وحتى لا يؤدي إلى حدوث مشاكل ونزاع بين الأفراد[١]

وعلى الوزير مور أن يهيئ لمملكة الشمس جيلاً منتخباً من أقوى العناصر البشرية وأجلها بنفس الوقت، كي يتمتع الجنسان بالسعادة والهناء؛ ولكي يتم ذلك، عليه أن يربي الأطفال تربية صحية، وأن يجهزهم بالطعام الكافي وبالملابس المقتضبة. والملابس في هذه المملكة من النوع الوحد أيضاً، تلبس في الصيف والشتاء على حد سواء، ولا فرق في هذه المملكة أيضاً بين ملابس الرجال والنساء[٢]

وإنك لا تجد في هذه المملكة أثراً للعائلة، كما لا تجد فيها أثراً للملكية الخاصة. كل شيء فيها عام، حتى الدين لا يستأثر فيه « الثالوث المقدس » رمز المسيحية بالنفوذ من بين مقدسات الإنسان. هكذا أراد « كامبينيلا » الراهب أن تكون مملكته المثلية على سطح الأرض[٣] على المثال الذي أراده أفلاطون، حتى في توزيع الأعمال وتقسيم الطبقات[١]. وكذلك حلم الفارابي المسلم فأراد أن تكون مدينته مدينة مثلية فاضلة، لما ميزاتها من بين المدن المثلية. وكذلك أراد ابن طفيل أن تكون البشرية في عقلية حي بن يقظان[٢]. وكذلك فكر الشيخ الحلي في جزيرته الخضراء. بمثل هذا فكرت عقلية عشرات وعشرات من مفكري الإسلام[٣]

لقد فشل أفلاطون حينما أراد أن يطبق ما تخيله عقله على سطح الأرض. وفشل الفيلسوف الإيطالي كاجنبيلا كذلك عندما أراد تطبيق مشروعه على سكان الأرض. هكذا يحلم فلاسفة البشر عن بشرية كاملة مثلى، ولكن أحلامهم تصطدم دائماً بحقيقة ثابتة تمثل فلسفة الواقع، وهي أن بين عالم الأحلام وبين عالم الحقائق بوناً يمثل بعد الأرض عن السماء. فآمن أيها القارئ بالواقع تعش سعيداً ما دامت لك حصة في هذه الحياة.

«بغداد» مراد علي

(١) راجع كتابه Citta del Sole 1602 «مملكة الشمس». وكذلك Wessely Sonnenstaat 1900

(٢) Ottmar Spann و K. Kautsky die vorläufer, voigt s, 70 Gesellschaf

(٣) Aster Gesch der Philo s, 188

(١) راجع H. Wuttge Erkennt 1897

(٢) راجع رسالته «حي بن يقظان» طبعة دمشق ١٩٣٥

(٣) راجع بحار الأنوار جـ ١٢ حيث تجد قصصاً مختلفة تمثل وجهة نظر المسلمين إلى دولة المهدي المنتظر

المجلة بعنوان : « مدن الحضارات القديمة » ثم إجابة[١] حضرته على كلمتنا المذكورة بعبارات رقيقة ، دلت على سمو أدبه ، وسعيه وراء الحقيقة أينما كانت . وقد طلب فيها أن أكتب ترجمة لجميل نخلة المدوّر . وما كدت أبدأ بذلك حتى وجدت الأستاذ أحمد صفوان يعقّب بنبذة[٢] على كلام الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ويؤكد فيها طلبه

وها أنذا ألبي طلبهما بما فى مكنتى وفاء لحق كاتب راحل ، خدم الأدب والتاريخ خدمة كبيرة . وقد استعنت فى كتابة هذه الترجمة بمؤلفاته نفسها ، وبالمراجع المختلفة التى بُحث فيها عنه والله المستعان

٣ — ترجمة جميل نخلة المدور

١ — مولده

كانت ولادة جميل فى بيروت سنة ١٨٦٢ ، ببيت عرف حينذاك بالجد والأدب . وقد أرخ الشيخ ناصيف اليازجى[٣] . أديب زمانه وكبير كتابه ، مولد جميل ، ببيتين من الشعر وهما[٤]

لنخلةَ قد أتى نجلٌ جميلٌ ... كما سُمِّيْ فَسَرَّ أبًا وأمَّا
دعوتُ فقلتُ بالتاريخ ينشو ... غلامٌ طابَقَ الاسمَ المسمَّى

سنة ١٨٦٢

٢ — والده

أما والده فهو ميخائيل بن يوسف مدور[٥] ، الذى ولد فى بيروت سنة ١٨٢٢ . ثم دخل فى مدرسة عين طورا فدرس اللغتين الفرنسية والإيطالية ، فضلاً عن اللغة العربية التى برع فيها . ثم أخذ يتعاطى التجارة زمناً مع إخوته . وفى سنة ١٨٥٢ اقترن بالسيدة روزا بنت نقولا صالحانى ، وكانت سيدة فاضلة أديبة

ولقد توغل ميخائيل فى تاريخ الغرب ، وأصاب بسهم وافر من آدابهم ؛ فاختير عضواً فى الجمعية الآسيوية الفرنسية بباريس ، والجمعية العلمية السورية ببيروت ، وكان صديقاً حميماً للشيخ ناصيف اليازجى . ومما يذكر له بلسان الثناء والحمد والتقدير الذى هو أهل له ، أنه فى الوقت الذى كانت سوق العلم كاسدة ، والإقبال على نشر الكتب يكاد يكون معدوماً فى البلدان الشرقية قام فطبع على نفقته فى سنة ١٨٥٤ مقامات اليازجى المعروفة بـ « مجمع البحرين » كما سبق له أن طبع « مقامات الحريرى » فأنشده الشيخ ناصيف قصيدة ، منها هذان البيتان :

ملكتَ الفضل فى شرعٍ وعرفٍ ... فليس على كمالك بعض خلف
إذا عدَّت رجال العصر يوماً ... فإنك واحــد بمقام ألف

وكان عوناً على إصدار أول جريدة عربية فى بيروت ، وهى « حديقة الأخبار » سنة ١٨٥٨[١]

وعُيّن ترجماناً فى قنصلية فرنسة ببيروت ، لأنه كان يجيد الفرنسية إجادته العربية ولبث فى هذا المنصب إلى آخر أيامه

وكانت له خدمات علمية ووطنية عديدة ، لا يسعنا استيفاؤها فى هذا المقام

وقد خلّف أربعة أبناء اشتهر منهم اثنان فى العلم والتأليف وهما نجيب[٢] وجميل صاحب الترجمة

٣ — شىء من حياة « جميل »

عرف « جميل » منذ صغره بالنباهة والذكاء وسلامة الذوق ، وأوتى قريحة وقادة لا تخبو نارها بسلاسة عبارته ، وبصيرة نقادة لا يخفى شرارها بطلاوة نوادره وحسن فكاهته ، وجداً يستسهل المتاعب ، وثباتاً يغلب المصاعب[٣] . وقد أظهر براعة كوالده فى تعلم العربية والفرنسية ؛ فوضع فى الأولى تصانيف ومقالات عديدة كما كان له من الثانية أكبر عون على توسيع آفاق فكره ، ونقل بعض المؤلفات منها إلى لغة الضاد

ولقد نالت مؤلفاته استحساناً من رجال عصره . فكتابه

---

(١) الرسالة العدد ٤٢٦

(٢) الرسالة العدد ٤٢٧

(٣) ولد سنة ١٨٠٠ وتوفى سنة ١٨٧١ وشهرته الأدبية والعلمية تغنى عن التعريف

(٤) تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب دى طرازى (١ : ١١٠)

(٥) ترجمته مفصلة فى تاريخ الصحافة العربية (١ : ١١١ — ١١٤) ومنها لخصنا هذا الكلام

(١) زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (٤ : ٢٠٤)

(٢) توفى نجيب فى ١٧ شباط ١٩٠٧ ، أى بعد وفاة أخيه « جميل » بأيام قلائل ، وترك كثيراً من الآثار الأدبية منها كتاب « بلاد الأندلس وأهلها » ، وهو بحث تاريخى لم يزل غير مطبوع (أنظر تاريخ الصحافة العربية ١ : ١١٤) ، وانتقد ترجمة كتاب « ألف ليلة وليلة » التى نقلها الدكتور يوسف مردروس من العربية إلى الفرنسية فى مجلدات شتى فعلق عليها الشروح الوافية ، وهذا أيضاً لم يطبع ، وله مقالات ذات شأن فى الصحف العربية المختلفة : كالبشير ، والجنة ، ولسان الحال ، والأهرام ، والوقت . فضلا عن الصحف الفرنسية الشهيرة كمجلة Journal Asiatique و Revue des Deux Mondes و Les Dépats وغيرها

(٣) بحروفه عن المقتطف (١٢ [١٨٨٨] ص ٥١٠) والكلام للمرحوم يعقوب صروف

« حضارة الإسلام في دار السلام » الذي يأتي الكلام عليه في مكان آخر من هذا المقال ، « قدّره وأنزلهُ منزلةً رفيعة كما يستحق ، كل من جودت باشا وزير المعارف العثمانية ، وأحمد مختار باشا الغازي المعتمد السلطاني في مصر سابقاً ، وغيرهما من مشاهير الرجال . وقد كافأه عليه حينئذ السلطان عبد الحميد بجائزة مالية تنشيطاً له على خدمة العلم »[١]

وهذا العلامة جبر ضومط ، أثنى على كتاب حضارة الإسلام المذكور ثناء عاطراً ، فقال فيه إنه « كتابٌ لو وُزن بالدرر لرجحها ! »[٢]

وذكر المؤرخ جورجي زيدان ، في معرض كلامه على ما أدّاهُ جميل المدور للغة العربية ، فقال إنه « خدم آداب هـذا اللسان خدمة حسنة يذكرها له التاريخ ما بقيت اللغة العربية ! »[٣]

وذكر إدورد فنديك في محتويات كتاب حضارة الإسلام أنها « مفيدة من حيث لغتها وآدابها ورونقها التاريخي » وزاد على ذلك قوله : « نحث كل شاب على اقتنائها »[٤]

وانتقل جميل إلى القاهرة ، وتولى في آخر حياته فيها تحرير جريدة « المؤيد »[١] وهي إحدى كبريات الصحف المصرية[٢] فأظهر من القدرة الصحافية حينذاك ما يشهد له بطول الباع فيها وكان قد نشر مقالات عديدة في مجلة « المقتطف » ومجلة « الجنان »[٣] للمعلم بطرس البستاني وأبنائه من بعده

وهنالك مناح مختلفة من حياته لم نتحققها ، لأن جميع المراجع التي بأيدينا لم تشر إليها . من ذلك هل كان قد تزوج ؟ وهل خلّف أبناء ؟ وفي أية سنة ارتحل إلى مصر ؟ وما هي الدواعي إلى ذلك ؟

٤ — وفاته

وقد أدركته المنيّة في القاهرة في ٢٤[٤] وقيل في ٢٦[٥] كانون الثاني سنة ١٩٠٧ ، وهو في عزّ كهولته ، إذ لم يتجاوز آنذاك من العمر السادسة والأربعين ! فمات بعيداً عن وطنه وذويه ، مأسوفاً عليه من عارفيه ومقدري فضله . فرحمهُ الله رحمة واسعة .

(البقية في العدد القادم) كوركيس عواد

(١) تاريخ الصحافة العربية (١ : ١١٥)
(٢) ضومط : فلسفة اللغة العربية (ص ١٨١)
(٣) زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (٢ : ٢٢٣)
(٤) فنديك : اكتفاء القنوع بما هو مطبوع (ص ٤١٧)

(١) يوسف أليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة (ص ١٧٢١)
(٢) أنشأها الشيخان أحمد ماضي وعلي يوسف سنة ١٨٨٩
(٣) تاريخ الصحافة العربية (٢ : ٤٥)
(٤) تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين للأب لويس شيخو اليسوعي (ص ٢٢) ، وتاريخ الصحافة العربية (١ : ١١٥)
(٥) شيخو : المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (ص ١٨٧) .

الخريف

L'AUTOMNE

لشاعر الحب والجمال « لامرتين »

أنشأ « لامرتين » هذه القصيدة فى خريف عام ١٨١٩ فى وقت من أوقات التألم والقنوط ، وهى حافلة بمرارة طريفة تصور الصراع بين الميل الغريزي إبان السكابة ، الذى يحبب الموت ، وبين الميل الغريزى إبان الانشراح ، الذى يوحى الأسف على الحياة ! ...

ويظهر أن الشاعر حين أنشأ هذه الأبيات كان يستذكر القصيدة المشهورة « سقوط أوراق Ehute de feuilles » للشاعر الفرنسى « ميلفوي Millvoye » (المترجم)

سلاماً أيتها الغابات المكللة ببقية من اخضرار ،
وأيتها الأوراق المصفرة فوق الأعشاب المبعثرة !
سلاماً أيتها الأيام الأخيرة الجميلة ! إن حداد الطبيعة
يلائم الألم ويروق لأنظارى .

***

اتبعتُ بخطوة الحالم المسلك المنعزل ؛
وأحب أن أرى بعدُ للمرة الأخيرة
هذه الشمس الشاحبة حيث يكاد ضوؤها الضعيف
ينبعث إلى قدمىَّ من خلال ظلمة الغابات .

***

نعم ، فى هذه الأيام من الخريف حيث تلفظ
الطبيعة النفس الأخير ،
أجد فى نظراتها المقنعة جاذبية وافرة .
إنها وداع صديق . إنها ابتسامة أخيرة
من الشفاه التى سيطبقها الموت إلى الأبد .

***

هذا ، وأنا على أهبة مغادرة أفق الحياة ،
باكياً خيبة الأمل من أيامى الطويلة ،
أتلفت ثانية ، وبنظرة الحاسد
أرمق هذه النعم التى لم أستمتع بها .

***

أيتها الأرض ، أيتها الشمس ، أيتها الأودية ،
أيتها الطبيعة الجميلة الحلوة ،
إننى مدين لك بِعَبرة على حواشى رمسى .
الهواء غزير الشذى ، والضياء بالغ النقاء !
تبدو الشمس فائقة الجمال أمام ناظرى المحتضر !

أريد الآن أن أفرغ حتى الثمالة
هذه الكأس الممتزجة بالسلسبيل وبالمرارة ؛
عسى أن تكون هناك قطرة من شهد باقية
فى قرارة هذه الكأس التى شربت منها الحياة !

***

فلربما كان المستقبل محتفظاً لى بعدُ
بعودة سعادة ضاع فيها الأمل !
ولربما كانت وسط الزحام نفسٌ جهلتها
ستفهم نفسى ، وستلبينى ! ...

***

تسقط الزهرة واهبة عطرها للنسيم ،
وهكذا يكون وداعها للحياة والشمس .
إننى أموت ؛ وعندما تزهق نفسى
تعبق كنغمة حزينة رخيمة .

(الأسكندرية) محمد أسعد ولاية

الصحافة والدولة

تأليف الصحفي العالمي ويكهام استيد
للأستاذ زين العابدين جمعة
المحامي
(تتمة)

إن أول واجبات الصحافة هو أن تظفر بالأخبار الصحيحة عن ماجريات الأمور في أقرب وقت مبكر . وأن تذيعها على الفور فتصبح وهي بين يدي الجمهور ملكا مشاعاً للأمة . أما رجال السياسة من الوزراء وغيرهم فإنهم يجمعون أخبارهم في غير علانية وبطريقة سرية ويحتفظون في حيطة مضحكة حتى بأخبار اليوم إلى أن تنتاب يقظة الصحافة على حذر السياسة في ميدان النشر . وقوام حياة الصحافة منوط بما يتهيأ لها أن تظفر به في ميدان الإذاعة والنشر . ومهما كان شأن ما يذاع على الناس تحت لوائها فلسوف يصبح جزءاً من ثقافة زمننا وتاريخه . والصحافة وهي تؤدي رسالتها تحتكم كل يوم وإلى الأبد إلى سلطان العقول المنثورة في الرأي العام . وإذا كان لزاماً عليها أن تتعقب سير الحوادث وتسبق الزمن فتتنبأ بما سيكون من أمرها ، فقد تعين عليها أن تقف عند مفترق الطريق بين الحاضر والمستقبل وأن تبسط ميدانها ليمتد إلى آفاق العالم

أما واجب السياسي فعلى النقيض من ذلك تماماً ، إذ يحرص على أن يخفي عن عين الرأي العام المعارف التي ينتظم بها أعماله ويكون منها آراءه . وهو يحتفظ برأيه في ماجريات الحوادث ، ويتباطأ في الادلاء بها إلى أبعد وقت يتهيأ له لغة السياسة . وهو إذا ما رجح عقله ونبلت أغراضه يحمل نفسه على خدمة المصالح الحقيقية لبلاده ، أو المصالح التي من شأنها أن تؤثر على بلاده تأثيراً مباشراً . وهو لا يخاطر فيتهور في حدسه وتصويره للمستقبل ؛ وهو يركز في صفقاته جماع تلك القوى التي تحاول الصحافة أن تذيع أمرها على العالم . فواجب إحدى القوتين إذن هو أن تفصح وتتكلم ، وواجب الأخرى أن تلازم وتتحرز . وإحداهما تبرر منهجها وتزكي صنيعها عن طريق التحليل والجدل ، والأخرى تظفر بسلطانها بكفاية من اليقظة والعمل . وإحداهما توجه عنايتها في الغالب من أمرها إلى الحق والمصلحة ، والثانية تتحدث إلى العقل وتخاطب العاطفة . والأولى تحوجها الضرورة إلى الحيطة والاحتراز . أما الثانية فمن ضروراتها أن تكون طليقة حرة

يخلص لنا إذن من هذا التناقض بين النهجين أن ما يلقى على كل من هاتين القوتين من المسئولية هو من التنوع والاختلاف بمثل ما تنوعت أعمالها واختلفت واجباتهما . وليس من غيب أعيب لنا معشر الصحفيين من أن ننكص على أعقابنا فلا نميط اللثام عن وجه الحقيقة لتظهر للناس بذاتها سافرة واضحة . وشأننا من الإفصاح والصدق لا يقل أثراً عما للهواء والنور من شأن في الحياة . فنحن مرتبطون بأن ندلي بالحقيقة كما نلمسها من غير أن نحسب للعواقب حساباً ، وألا ندع للظلم والاضطهاد سبيلاً ينفذان منه أو مأوى يسكنان إليه ويطمئنان فيه . بل نناهضهما فور الوقت ونعرضهما على قضاء العالم . . .

وإذا ما قاسم صاحب القلم العام رجل السياسة نفوذه إلى أية درجة كانت فإنه على الأقل يقاسمه من تلك الأغراض الشخصية التي تنظم شطراً كبيراً من السياسة الجارية ... والصحفي حتى لو لم يهلل له حزب أو يظفر كفاحه بالنجاح فيما يوجهه إليه من كسب ولاء أو بسط سلطان ؛ فتلك الآراء التي أذاعها ودافع عنها أو أنشأها إنشاء وابتدعها ابتداعاً - إن صح له مثل هذا التعبير - تسقط من يده في اللحظة التي يكتب لها النصر فيها حيث ينتهي أمرها بأن تأخذ مكانها بين الحقائق المقررة . والمسئولية التي يأخذ الصحفي بنصيبه منها هي في الحق قريبة الشبه بمسئولية رجل الاقتصاد أو المحاماة الذي ليس من شأنه أن يخلق نظاماً يتناسب مع مقتضيات اليوم ، بل شأنه أن يتقصى الحق وأن يصوغه في مبادىء ثابتة تنتظم شئون الحياة

لذلك كانت المسئولية الملقاة على عاتقنا أقل شأناً من المسئوليات التي يضطلع بها رجال السياسة ؛ إذ تقدر بمقياس يختلف عن مقياس هؤلاء اختلافاً تاماً . قوامه الاستقامة والواجب ... والصحافة مدينة بواجبها الأول للمصالح العامة التي تمثلها ، ولكن شأنها في ذلك لا يختلف عما لها من شأن وتأثير في قضية الحضارة في العالم أجمع . والصحافة البريطانية — وهي تشغل الآن هذه المكانة الفريدة في نوعها وسلطانها بما يهنأها من حرية صحيحة تامة — قد تعبث بمميزاتها عبثاً محزناً إذا ما أعوزتها الفطنة لإدراك ما هو لازم للمصلحة العامة في أوربا ولقد

يتفق مع أغراض الساسة أن يلقوا قناعاً على تمثال الحرية . وأن يهمسوا بشيء من ذلك الأسلوب التقليدي الاصطلاحي الذي صبغ صياغة ماكرة لتبرير أخطائهم في الشئون الأجنبية . ذلك الأسلوب الذي أملته مخاوفهم ولم تمله عقائدهم . ولكننا في سبيل ما نطمع فيه من الإصلاح وما نصبو إليه من التأييد والنجاح نترقب ذلك اليوم الذي تبعث فيه الحريات المسلوبة في أوربا من مرقدها وتظفر بنصيبها من الحياة وتهيء نفسها إلى بلوغ المستوى الذي نأمله ونتملق به . وعلى أية دعامة — بعد ذلك كله — يسع ساسة انجلترا أن يلتمسوا القوة والسيادة في وطنهم إذا ما تهددنا الضرر والأذى ما لم تكن تلك الدعامة ماثلة فيما يتهيأ للشعب البريطاني من عزمة مبصرة وحزم رشيد في الاضطلاع بالمبادئ التي ينهض على أساسها نظام حكومتنا واستقلالنا ؟ »

وقد لا يكون من الاسراف في التقدير أن يرى رجال الصحافة والسياسة في انجلترا أن من واجبهم اليوم أن ينعموا النظر في أمر ذلك السؤال الأخير الذي وجهته صحيفة التيمس في عبارة حاسمة امت وثمانين سنة خلت . وما كان لوتهيأ لأشياء كثيرة في أوربا أن تسلك هذا السبيل المعوج الفاجع لو أن قادة الصحف في بريطانيا فطنوا لتلك المبادئ التي بسطتها صحيفة التيمس في ذلك الحين

وإذ فرغت التيمس من عرض تلك المبادئ في مقالة واحدة من مقالاتها الافتتاحية فقد واصلت من اليوم التالي شرحها وتفصيلها لتبين على ضوئها حقيقة المصير الذي سبقت إليه فرنسا على يد لويس نابليون (تلك الحال التي تتفق الآن في أكثر من دلالة مع ما انتهى إليه الأمر في الشعبين الإيطالي والألماني)

وفي السابع من شهر فبراير عام ١٨٥٢ ، كتبت التيمس ما يأتي :

« إن الغايات التي يجب على الصحيفة المتعلقة بحب وطنها حقاً والتنورة أن تجعلها قيد النظر هي — كما نعتقد — عين غايات الوزير المتنور المحب لبلاده ؛ ولكن المناهج التي ينهجها الصحفي والوزير في تحقيق هذه الغايات والقيود التي يعملان تحت سلطانها تختلف اختلافاً أصيلاً واسع المدى . فالسياسي في صفوف المعارضة يتعين عليه أن يتكلم كانسان يعد نفسه لمنصب حكومي والسياسي في المنصب الحكومي يرى من واجبه أن يتكلم كانسان أعد للعمل والنضال . والوعود العامة والوثائق الرسمية بالإضافة له أشياء خارجة عن التمحيص والجدل ، إذ هي لديه مجرد مقياس لجس النبض والظفر بالثقة والتأييد . وإذ لا يعنى بتمحيص المشاكل السياسية وتحقيقها عنايته بأن يتولى قيادة الشئون العامة ، فلم يعد لزاماً عليه أن يتقصى الحقيقة كشيء واجب لذاته . أما الصحافة ، فهي من ناحية أخرى لا تشغل منصباً معيناً ، وهي تفصح عما تنصرف إليه من مراميها بوسيلة واحدة هي وسيلة المنطق والحوار والجدل . وإذ كانت غير مقيدة بما تقيدت به السلطتان الإدارية والتنفيذية من الواجبات فقد جاز لها ، بل ووجب عليها أن تخطو بإرادة حرة فوق هام تلك الأبحاث التي يتهيبها رجل السياسة ولا يجترئ على لمسها ... وإذا كان واجب الحكومة أن تعامل الحكومات الأخرى باحترام شكلي وإن خونت عناصرها واسودت صفحات أعمالها ، فقد كان من حسن حظ الصحافة أنها لم تخضع لمثل هذه القيود ، وأن يتهيأ لها من الأمر — وقد اجتمع الساسة يتبادلون عبارات الود ويشربون نخب المحبة والصداقة — أن تكشف الغطاء عن لب الحقيقة من أمرهم فيبرح الخفاء ، وأن تعلن عن معايب الحاكم ومقاذره وإن له سطوة الحكم وبيده عصا السلطان

فواجب الصحفي على هذا الوضع هو عين واجب المؤرخ ، كلاهما يتقصى الحقيقة ويعلو اعتبارها لديه فوق كل اعتبار . وكلاهما يبذل قصارى جهده في تحقيق ما يعرضه على قرائه . فلا يعرض عليهم ما تنصرف إليه رغبة الحكومة مهما كان شأنها ومهما عظم سلطانها ، بل الحق والحق الصراح . فإذا ما حاولنا إذن أن نخضع الصحفي والسياسي لقيود واحدة ولقواعد واحدة لكان معنى ذلك أن نجمع بين المتناقضين وأن نخلط بين شيئين اختلفا اختلافاً جوهرياً . وهو من الوجهة النظرية من الخطأ وسقم الرأي كشيء لم يسمع به أصلاً وغير متوقع الحصول من الوجهة الفعلية . فالصحافة لا تطمح — كما يقول « اللورد دربي » — في أن تظفر بسلطان الرجل السياسي . ولكنها تحتفظ لنفسها بهذا الاعتبار الذي طاب « للورد دربي » أن يزعمه لها — ليملنها بهذا الحكم الاستبدادي الجريء الصادر

عن مزاج دموي — لأمور أكثر احتراماً وأعظم تقديراً من مجرد السلطان الآمر والقوة الناشمة . . . ومع ذلك فنحن عند ما ناقشنا السياسة الفرنسية لم تبدر منا بادرة قبيحة ولم نضرب على تلك النغمة الآثمة التي صاغ بها اللورد دربي خطبته . فنحن لم نقل أصلاً إن حكومات فرنسا تماقبت في حلقات من اختلاس المنصب واغتصاب السلطان — سواء كان من هذا النوع أو من الآخر — في المتين سنة الأخيرة . فنكون إذن قد ناقضنا أنفسنا وقذفنا جيراننا . ونحن لو قررنا أن هذا الأسلوب من اغتصاب السلطان كان في مظهره أو نوعه نتاج الانتخاب الحر في الأمة . وأسوأ من ذلك لو أننا قررنا أن تلك السلطة غير المألوفة التي حصل عليها رئيس جمهورية فرنسا قد منحت له عن طريق ما ظهر من إجماع الرأي العام في فرنسا على اختياره . . . نقول لو أننا قررنا شيئاً من ذلك لكان في الواقع ما قررنا سبة للشرف الفرنسي ومعرة للقومية الفرنسية .

والحق أن أولئك الذين يقولون مثل تلك الأقوال أو يصدقونها يعاملون فرنسا الأبية الباسلة كما يعاملون جيشاً من العبيد فرض عليه أن يختار عاهله المخوف ليضع رأسه تحت أقدامه

* * *

إننا لو وضعنا في المقال المتقدم اسم «موسوليني» أو «هتلر» بدلاً من «رئيس الجمهورية الفرنسية» لوجدنا أن ما قررته التيمس عام ١٨٥٢ قد صار منطبقاً على تلك الحال التي انتهى إليها أمر الشعبين الإيطالي والألماني في هذا الربع الثاني من القرن العشرين . ونحن إذا قارنا بين لغة ما يتولى قيادة بلادنا من هذه الصحف اليومية العريقة في مناقشتها «للأعمال الطائشة» التي انتهت بذيوع الاستبداد في الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية بلغة التيمس عام ١٨٥٢ لما انتهت بنا المقارنة إلى ما يشرف صحافة اليوم في انجلترا أو يطمئننا على الثقة فيها . والغالب إن لم يكن هو الوضع الدائم من أمر أصحاب صحفنا الكبرى ورؤساء تحريرها أنهم قد استحوذ عليهم شيطان نظرية دربي القائلة بأنه «إذا ساغ للصحفي أن يطمح في أن يقاسم السياسي سلطانه فعليه أن يقاسمه أيضاً نصيباً من مسئولياته» وحسبوا سرابها ماء فضلوا السبيل اللهم إلا صحيفة أو صحيفتين من كبريات صحفنا اليومية . ولو كانت هذه النظرية مما يحمل الأخذ به أو يصح قبوله لما كان للصحف البريطانية من شفيع في التمرد على ذلك الطلب الذي بسطه الهر هتلر في شهري فبراير ومارس من عام ١٩٣٨ القائل بأنه لدوام الملاقات الطيبة بين الحكومتين النازية والبريطانية يلزم الأخيرة أن تبسط سلطانها على الصحافة البريطانية فتمنعها من نشر الأخبار أو الآراء التي لا يرغب فيها عاهل ألمانيا . ولقد كان بوسع الصحافة البريطانية على العموم أن تنزل منزلاً كريماً وتشغل مركزاً متيناً يتهيأ لها فيهما أن تتأبى في عزة وأنفة قبول مثل هذه المقترحات التي انطوى عليها طلب الهر هتلر ، وترفضها بالاحتقار اللائق بها لو لم تكن قد ضحت بحريتها في سبيل ذلك المنطق السقيم الذي أشرك الصحفي في مسئولية رجل السياسة

إن واجب الصحافة الأول لينصرف نحو الشعب ونحو الشعب فقط ، لا إلى أي وزير أو أية حكومة قد يتهيأ لها أن تشغل المنصب لوقت محدود . وهي لو فكرت أو عملت على خلاف مقتضى هذا الواجب لساقها ذلك إلى أن تقف في مفترق الطرق حيث تنحدر من أوج الاستقلال والحرية إلى الحضيض من الاستعباد الدكتاتوري

إن ما أصبحنا نواجهه من شأن حيوي يتهدده الخطر ، هو من صميم الفارق المميز بين النظر الحر والنظر الاستبدادي في الحياة السياسية . والمميز بين الحرية الشخصية المهيبة الجانب ، التي ينعم بها أعضاء مجتمع حر ينظرون إلى «الدولة» باعتبارها مجموعاً كلياً للوظائف الإدارية العامة التي يوفدون لها الوزراء ويهيئون لها الإدارات التنفيذية — وما وراء النظر الاستبدادي الفاشي أو النازي في الدولة باعتبارها «قوة مطلقة» وغاية في نفسها ووكالة شبه مقدسة تنعم بها الحكومة التي يخضع ، بل يجب أن يخضع لها المجتمع بجميع أعضائه وأفراده . وما إن تقبل وجهة النظر الاستبدادي في أمة من الأمم — حتى ولو كان هذا القبول على سبيل اللهو أو العبث — إلا واستتبع ذلك حتماً أن تسترق الصحف استرقاقاً كلياً أو جزئياً ، وعلى النقيض من ذلك يتوفر الضمان الوحيد الأكيد لحرية الصحافة متى نبذت النظر الاستبدادي في كلياته وجزئياته ، ومتى عملت على تدعيم سلطان

١٢ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزى ادورد وليم لين

للأستاذ عدلى طاهر نور

الحكومة — تابع الفصل الرابع

جرت العادة إلى وقت قريب أن يدفع الرسوم من يكسب القضية . أما الآن فيدفعها الطرف الآخر . والرسوم القضائية فى قضايا بيع الأموال تكون ٢٪ من مجموع الأملاك ، وفى قضايا الوصايا ٤٪ ، إلا إذا كان الوارث قاصراً فيدفع ٢٪ أما القضاء فى المسائل المتعلقة بملكية العقار فيكون رسمه ٢٪ إذا كانت قيمة العقار معلومة وإلا فيكون إيجار سنة . هذه هى الرسوم الشرعية ؛ ولكن كثيراً ما يلزم المتقاضى بأكثر من القدر الواجب . ويحدد نائب القاضى مقدار الرسوم فى غير الأحوال المتعلقة بالملكية . وهناك رسوم أخرى غير الرسوم القضائية يجب دفعها بعد الحكم . مثلاً ، إذا كان الرسم القضائى مائتين أو ثلاثمائة قرش، وجب دفع قرشين تقريباً إلى الباشترجان ؛ ومثلهما للباشرسول وقرش للرسول أو لكل رسول قام بعمل .

وكثيراً ما تؤثر مكانة المتقاضين أو الرشوة فى حكم القاضى . ويُرتشى النائب والمفتى على العموم ، ثم يتناول القاضى نصيبه من النائب . وقد يحكم فى القضية لصالح الطرف الذى يدفع أكثر من الآخر — وعلى الأخص — عندما تطول الخصومة . فصرامة العدل لا تتحقق دائماً لاستخدام المتقاضين الرشوة والشهادة الزور . وقد يصعب الوثوق بالمدى الهائل الذى وصلت إليه عادة الرشوة وشراء شهود الزور فى المحاكم الإسلامية ، وقد يقتضى ذلك أدلة قوية تستند إلى سلطة لا ريب فيها . وهأنذا أورد مثل هذا الدليل بتلخيص دعوى نظرت من زمن غير بعيد قصها علىّ ناموس الشيخ المهدى وإمامه ، وكان حينئذ مفتى القاهرة الأعلى (لكونه المفتى الأكبر لمذهب الحنفية) ، وكانت الدعوى قد عرضت عليه بعد أن أصدر القاضى حكمه فيها

توفى تاجر من تجار القاهرة عن أملاك قدرها ستة آلاف كيس[1] ، ولم يكن له وارث غير بنت واحدة . فلما سمع السيد محمد المحروق الشاه بندر بهذا الحادث رشا فلاحاً عادياً كان بواباً لشيخ محترم وكان الناس يعرفون عائلته ، ليدعى أنه ابن أخ المتوفى ، ورفع الأمر إلى القضاء . ولما كانت الدعوى ذات أهمية عظيمة استدعى بعض أكابر علماء المدينة ليحكموا فيها . وكانوا جميعاً محل رشوة المحروق أو تأثيره كما سيبين الآن . وأتى بشهود زور ليشهدوا بصدق ادعاء البواب ، وبآخرين ليزكوا هؤلاء الشهود . فقضى القاضى بثلاثة آلاف كيس لابنة المتوفى، وبالنصف الآخر للبواب ؛ وتناول المحروق المبلغ المحكوم به بعد أن خصم منه ثلاثمائة قرش أعطاها البواب

وكان المفتى الأكبر الشيخ المهدى غائباً عن القاهرة أثناء نظر الدعوى . فلما عاد بعد أيام توجهت ابنة التاجر المتوفى إلى منزله وقصت عليه أمرها متوسلة إليه أن ينصفها ومع أن المفتى اقتنع بما أصابها من جور ولم يشك فى صدق ما نسبته إلى المحروق فى هذه القضية ، فقد أخبرها أنه لا يستطيع نقض الحكم إذا لم يجد مخالفة فى إجراءات الدعوى ، وأنه سيطلع على الدعوى فى سجل المحكمة . ثم أسرع إلى الباشا الذى كان

(١) والكيس خمسمائة قرش . وكان يساوى حوالى سبعة جنيهات استرلينية ويساوى الآن خمسة جنيهات فقط .

الشعب وجعل الأمة مصدر السلطات جميعاً بحيث يعلو شأنها على كل اعتبار بين المواطنين الأحرار الذين يصممهم ، وقد توافرت لهم المعرفة التامة بما جريات الأمور على يد صحافة رشيدة غير هيابة ، أن يكون نصيبهم من الكفاية المرنة أوفر حظاً مما يحصلون عليه تحت لواء أية حكومة استبدادية مهما تهيأ لها من إطلاق اليد ونفوذ السلطان . وقد يخلص لنا ونحن نأسف له ونتوجع عليه أن رجال الصحافة والسياسة فى بريطانيا هم على السواء بحاجة إلى أن يتعلموا مبادئ الفلسفة السياسية

زين العابدين جمعة

المفتى عنده حظوة كبيرة لعلمه واستقامته ، وشكا إليه أن المحكمة قد أسقطت حرمتها بإفراطها فى الظلم ، وأن العلماء يقبلون شهادة الزور مهما كان أمرها واضحاً ساطعاً ، وأنهم أصدروا أخيراً حكماً أثناء غيابه أثار لغط المدينة وعجبها . فاستدعى الباشا القاضى وجميع العلماء الذين قضوا فى الدعوى لمقابلة المفتى فى القلعة . ولما اجتمعوا خاطبهم فى شكوى المفتى كما لو كان الأمر صادراً منه . فظهر السخط عليهم لهذه التهمة وطلب القاضى أن يعرف علام تستند هذه التهمة . فأجابه الباشا إلى قرائن عامة ، ولكنها تستند خاصة على القضية التى سلمت فيها المحكمة بادعاء بواب قرابة ووراثة لا يمكن الاعتقاد بحقه فيها . فأبان القاضى أنه أصدر الحكم تبعاً لإجماع العلماء الحاضرين حينئذ . فقال الباشا لنقرأ محضر الدعوى ؛ فأتوا بالمحضر ، فلما فرغوا من تلاوته قال القاضى بصوت جهورى ولهجة صادقة « وهكذا حكمت ! » فصاح المفتى بصوت أعلى وأكثر سلاطة « وكان حكمك زوراً » فشخصت الأنظار دهشة ، آناً إلى المفتى ، وآناً إلى الباشا ، وآناً آخر إلى العلماء . وأدار القاضى والعلماء رؤوسهم ، وأخذوا يعبثون بلحاهم ؛ ثم صاح القاضى ضارباً صدره بيده : « أنا قاضى مصر أصدر حكماً زوراً ؟ » وصاح العلماء : « ونحن ! نحن يا شيخ مهدى ! نحن علماء الإسلام نقضى قضاء زوراً ؟ » ، وقال المحروق ، وقد كان يحضر مجالس الباشا لما بينهما من معاملات تجارية ، « يا شيخ مهدى احترم العلماء كما يحترمونك » فصاح المفتى « يا محروق ! هل لك شىء فى هذا الأمر ؟ صرح بنصيبك فيه وإلا فالزم السكوت . اذهب وتحدث فى مجتمعات التجار ولا تسمح لنفسك مرة أخرى أن تنبس ببنت شفة فى مجلس العلماء » فترك المحروق القصر فى الحال لأنه أدرك كيف ينتهى الأمر ، وأن عليه أن يرتب أموره . وطالب العلماء المفتى بالدليل على بطلان قرارهم . فسحب المفتى من صدر قفطانه كتيباً فى أحكام المواريث وقرأ عليهم : « لإثبات دعوى القرابة والوراثة يجب التحقق من إسم أبى المدعى وأمه وجده لأبيه ولأمه وجدته لأبيه ولأمه » ولم يكن شهود الزور ممدين لإعطاء هذا البيان فكان هذا نقصاً فى الشهادة ينقض الحكم . وجئ بالبواب أمام المجلس ولما أنكر الفرية التى جعلوه محورها أمر الباشا أن يجلد بشدة ؛ ولكن على الرغم من التعذيب الذى احتمله ، لم يعترف إلا بأنه لم يتناول من الثلاثة آلاف كيس غير ثلاثمائة قرش . وفى أثناء ذلك ذهب المحروق إلى سيد البواب وأخبره بما حدث فى القلعة وما ينتظر ووضع بين يديه ثلاثة آلاف كيس ورجاه أن يذهب حالاً إلى المجلس ويسلم هذا المبلغ قائلاً أنه كان أمانة عنده من خادمه . وقد تم ذلك وأعيدت النقود إلى ابنة المتوفى

وفى قضية أخرى ساط فيها باشا من الباشاوات (غير محمد على) نفوذه على القاضى ومجلس العلماء حتى أصدروا حكما مخالفاً للشريعة فعارضهم الشيخ المهدى بالطريقة نفسها . وهذا المفتى مثل نادر فى النزاهة والاستقامة . وقد قال إنه لم يتناول على فتاويه أجراً . وقد توفى هذا الشيخ بعيد زيارتى الأولى لمصر . ويمكننى أن أسرد حوادث أخرى على ذيوع الرشوة فى القضاء ولكن ما قدمته يكفى

فى القاهرة خمس محاكم دنيا . وفى بولاق ميناء القاهرة الرئيسى ، محكمة ؛ وفى مصر العتيقة ، مينائها الجنوبى ، محكمة أخرى . ويرأس كل محكمة من هذه المحاكم الصغيرة شاهد من المحكمة الكبرى نائباً عن كبير القضاة الذى يصادق على تصرفاته . وتحال على هذه المحاكم القضايا المتعلقة ببيع الأموال والوصايا والزواج والطلاق . فالقاضى يزوج اليتيمات القاصرات اللاتى ليس لهن أقارب بالغ يتولون الوصاية . والنساء كثيراً ما يلجأن إلى أحكام الشريعة لإجبار أزواجهن على الطلاق .

ويوجد أيضاً فى كل مدينة من مدن الريف قاض يكون على العموم من أهل البلد ولا يكون أبداً تركياً . وهو يقضى فى جميع القضايا ، أحياناً فى حدود معرفته للشريعة ، وعادة طبقاً لفتاوى المفتى . ويقوم القاضى بخدمة القضاء فى أكثر من قرية

ولكل مذهب من المذاهب الأربعة « شيخ » أى رئيس دينى يختار من أعلم علماء المذهب ، ويقيم بالقاهرة . ويؤلف شيخ الجامع الأزهر ، وهو شافعى المذهب دائماً مع شيوخ المذاهب الأربعة والقاضى ونقيب الأشراف وغيرهم كثيرين مجلس العلماء[1]

(١) ويعطى لقب عالم بصفة أخص إلى أساتذة الفقه . ويستعمل الكتاب الأوربيون جمع هذه الكلمة عوضاً عن مفردها

الذى كان يثير الرهبة والاحترام فى نفوس الحكام الترك والمماليك ويحد من طغيانهم ؛ وقد فقدت الآن هذه الهيئة نفوذها على الحكومة إلا قليلاً . ويتحا كم الطرفان المتنازعان فى الخصومات التافهة أمام شيوخ المذاهب غالباً ، إذ أن كلا من هؤلاء هو مفتى مذهبه الأكبر ، ومحل الاحترام العظيم والامتثال التام . كما أن الباشا كثيراً ما يعرض على هؤلاء الشيوخ القضايا الصعبة الخاصة بأحكام القرآن والسنة . ولكنه لا يرى دائماً رأيهم ، مثل استشارته إياهم فى شرعية التشريح للعلم ، فلما أعلنوا أن التشريح يتنافى وأحكام الدين ، قرر ممارسته لطلبة الطب المسلمين

ويخضع حرس العاصمة للقيادة العسكرية أكثر من خضوعه للسلطة الدنية . وقد كان من سنوات قليلة تحت رياسة الوالى والضابط . إلا أنه منذ زيارتى الأولى لمصر ألغيت سهادة الأول . وكان واجب الرئيس أن يقبض على اللصوص وغيرهم من المجرمين . وكانت المومسات تحت ولايته . وكانت عنده قائمة بعددهن . وكان يفرض عليهن ضريبة . وكان يشرف أيضاً على سيرة النساء على العموم ويضيف من تتهم بفاحشة واحدة إلى قائمة المومسات وتفرض عليها الضريبة إلا إذا فضلت أن تتفادى هذا العار برشوة ذات اعتبار . وكان النظام المطرد ، ولا زال ، أن يلتزم شخص بجباية الضريبة من المومسات[1] العازبات والمتزوجات على العموم . ولكن أولئك الأخريات قد يقتلن إذا لم يستطعن الخلاص بالرشوة أو بحيلة أخرى . ومثل هذه الإجراءات مع ذلك تخالف القانون من ناحيتين . فنص القانون أن كل من يتهم امرأة بالزنا أو ارتكاب الفاحشة دون أن يقدم أربعة شهود على الجريمة يجلد ثمانين جلدة . وينص على عقوبات أخرى غير فقد الاعتبار والغرامة توقع على من حكم عليها

(يتبع)

عدلى طاهر نور

(١) منذ كتابة هذا أجبرت العاهرات فى مصر على ترك مهنتهن الفاحشة

الشاطئ والحرب

ليالى الزورق

أيها الشاطئ، قد طال بنا أمدُ البعدِ ولمّا نلتقِى

أينَ أيامٌ قضيناها هنا مشرقاتٍ من سناكَ المشرق

أتعودينَ معَ الصفوِ لنا ضاحكاتٍ يا ليالى الزورق

نُبصرُ الدنيا على نورِ الهوى

أينعتْ فيها الأمانى من جديد

أمْ تولى كلُّ شىء وانطوى

ذلكَ الماضى على ألّا يعود

أينَ يا شاطئ أحبابى ومَن كُنّ للعينين أنسًا ومنى

كم أتيناكَ بقلبٍ مُطْمَئِنْ ومَرحنا فى ظلالٍ من مُنى

أيُّنا أرهفَ أذْنًا للزمَن أيُّنا مَلَّ التلاقى أيُّنا

أنا يا شاطئ ظَمْآنُ إلى رقصاتِ الموجِ فى ضوءِ القمرْ

ما سلَتْ عينى ولا القلبُ سلا أمسياتٍ حالياتٍ وذِكَرْ

شدّ ما ألقاهُ من دهرى ألاَ ترجعُ الأيامُ تحيى ما غبرْ

وترى الدنيا على نورِ الهوى

أينعت فيها الأمانى من جديد

أم تولى كل شيء وانطوى

ذلك الماضى على ألا يعود

طالَ يا شاطئ، قد طالَ بنا أمد البعد ولما نلتقى

أين أيام قضيناها هنا مشرقات من سناك المُشرق

أتعودين مع الصفو لنا ضاحكات يا ليالى الزورق

(الاسكندرية) مصطفى على عبد الرحمن

الكأس الأولى ...

هَذِهِ كأسِى وَمَا أَعْجَبَ كأسِى !!

طفرَتْ بِى مِنْ جَوَى يَوْمِى وَأَمْسِى

وَجَلَتْ عالَمَ أفراحى وَأُنسِى

أنَا أفْدِيهَا بِأنفَاسِى وَنَفْسِى !

كلَّمَا قَبّلْتُ فَاهَا أغْرَقَتْ نَفْسِى صَدَاهَا

فِى عُبَابٍ مِنْ سَنَاهَا شَعَّ مِنْ بَدْرٍ وَشَمْسِ

•••

هِىَ فى كَفِّى وَرُوحى وَنَشِيدِى

نَبْأةٌ بَاحَ بِهَا سِرُّ الوُجُودِ

عُصِرَتْ فى سَجْوَةِ الدَّهْرِ البَعِيدِ

مِنْ شِفَاهِ الغِيدِ أوْ وَرْدِ الخُدُودِ !

رَفْرَفَتْ قَلبى المُعَنَّى فَصَبَا القَلبُ وَحَنّا

وَتَغَنّى وَتَمَنّى مَاضِىَ الحُبِّ السَّعِيد

•••

أشُعَاعٌ فى يَدِى أمْ قَطَرَاتُ ؟

وَشَرَابٌ فى فَمِى أمْ جَمَرَاتُ ؟

وَلَهِيبٌ فى دَمِى أمْ نَزَوَاتُ ؟

تِلكَ كأسُ الخَمْرِ بَلْ تِلكَ الحَيَاةُ !

هِىَ وَالسَّاقِى لَدَيَّا كلَّمَا أوْفَى عَلَيَّا

مَاسَ بِالكأسِ وَحَيَّا سَكْرَةً بَلْ سَكَرَاتُ ؟

•••

أنَا ظَمْآنُ وَكأسِى فى فَمِى

أتَغَنَّى بِالرُّضَابِ الشَّبِمِ

إنَّهُ رِيٌّ لِقَلبِى وَدَمِى

هَاتِهِ وَاعْطِفْ عَلَى كلِّ ظَمِى

بِكُؤُوسِ البَاقِيَاتِ أنتَ حَسْبِى مِنْ حَيَاتِى

هَاتِ مِنْ حُسْنِكَ هَاتِ لِفُؤَادِى المُلْهَمِ

•••

كتبها الأستاذ محي الدين الخطيب ... هذا عدا ما ترجم ونشر في صحف ومجلات الدنيا العربية ، قبل وفاة شاعرنا الفيلسوف وبعدها وهو كثير

« بغداد - الكرخ » محمود العبطة



طاغور في اللغة العربية

بعد أن نال الشاعر الهندي الفيلسوف السر (رابندرانات طاغور) جائزة نوبل للآداب ، وهو الشرقي الوحيد الذي نالها ، اشتهر اسمه في الخافقين ؛ فترجمت أكثر دواوينه وقصصه إلى سائر اللغات الحية ، وكان نصيب العربية منها غير قليل . وهذا الذي ترجم عنه يفوق ما ترجم عن أديب آخر غريب عن اللغة العربية . وها نحن نذكر لك ما وقع بأيدينا من مؤلفاته مترجماً : (البيت والعالم) قصة ترجمها الأستاذ طانيوس عبده . (البستاني) ديوان شعر ، ترجمه الأديب اللبناني وديع البستاني نظما ونثراً . (الضحية وروايات وأبحاث أخرى) ترجمها صاحب (المصور) الأستاذ إسماعيل مظهر . (خالق وقصص أخرى) ، و (وكيل البريد وقصص أخرى) ترجمهما الأديب الشاعر عبد اللطيف النشار ؛ وترجم الأستاذ عبد المسيح وزير كتاب (الزورق الذهبي) ونشر بعض قطعه . وترجم الأستاذ كامل محمود حبيب أناشيد طاغور الخالدة (جيتانجالي) التي نال بها الجائزة العالمية ، ونشرها في السنة السادسة من هذه المجلة الزاهرة ؛ وترجم هو أيضاً أحد دواوينه (البستاني) نثراً ، ونشره أخيراً في مجلة المقتطف الغراء ؛ وهناك رسالة عن حياته ومختارات من مؤلفاته ،

أنتَ وَالبَدْرُ وَآفاقُ الفَضَاء
وَالهوَى وَالشِّعْرُ في ظِلِّ المَسَاء
وَمُحَيَّاكَ وَكأسِي وَصَفَائِي
فِتَنٌ دَانَتْ خَيَالَ الشُّعَرَاء

كأسِيَ الأولَى أعِيدِي رَجْعَ أحْلامِي وَعِيدِي
وَصِلِينِي بِالخُلُودِ وَبِأسْبَابِ السَّمَاء !

(كوم النور) أحمد أحمد العجمي

الإصلاح الاجتماعي والتعليم

نشرت السيدة منيرة ثابت مقالاً في أهرام ٢٦ أكتوبر الماضي عن الإصلاح الاجتماعي والتعليم ذكرت فيه أنها ليست في حاجة لأن تذهب إلى الريف لترى وتلمس ما فيه من شقاء ؛ لأنها ترى في القاهرة نفسها ما يدمي الأكباد . فهؤلاء تلاميذ يريدون الالتحاق ببعض المدارس الأولية والإلزامية (وهي من أحط أنواع التعليم في طريقتها العلمية والاجتماعية) فتسد في وجوههم الأبواب لأسباب واهية . ثم اقترحت على الوزارة إغلاق هذه المدارس وتعميم التعليم الابتدائي وجعله مجانياً ، واستدلت على تأخرنا بمجانية التعليم بجميع أنواعه في العراق .

ومن يقرأ هذا المقال يعتقد أن السيدة الكاتبة لم تدرس مشكلة التعليم عندنا ؛ لأنه لا يوجد في القاهرة ولا في أي بلد من بلاد الدولة مدرسة أولية أو إلزامية تسد بابها في وجوه التلاميذ لأسباب واهية أو غير واهية . والمشاهد أن المدارس تشكو من عدم إقبال التلاميذ عليها حتى اضطرت الوزارة أخيراً إلى تنفيذ قانون الإلزام ، وتقديم الذين يمنعون أولادهم إلى المحاكمة . وفي كل مدرسة سجل خاص مستخرج من دفاتر الصحة بأسماء التلاميذ الذين بلغوا سن التعليم في منطقتها . والمدرسة هي التي تتولى طلب التلاميذ للتعليم ، كما تتولى إدارة القرعة طلب الشبان للتجنيد . وإذا كانت السيدة الكاتبة في شك من هذا فأنا زعيم لها بإلحاق من تريد من التلاميذ — مهما بلغ عددهم — بالمدارس التي يرغبون الالتحاق بها

ولا ريب في أنها جاوزت الحق حين ذكرت أن التعليم في المدارس الأولية والإلزامية من أحط أنواع التعليم : إذ ليس من المعقول أن تهون المدارس الأولية لأنها تعلم الأطفال أو يهون معلموها لأنهم يضعون الحجر الأول في بناء العقول ، وعلماء التربية يرون أن مرحلة الطفولة من أهم مراحل التعليم ، لا من أحطها كما ذكرت الكاتبة . على أن القائمين بالتعليم

فى مدارسنا الأولية والإلزامية من الرجال الذين تخصصوا فى هذه المهمة . وطريقتهم تساير أحدث مبادىء التربيـة الفنية . ولا يدانيهم فيها غيرهم مهما بلغ شأنهم

أما تعميم التعليم الابتدائى فلا سبيل إليه ، لأن الوزارة لم تستطع تعميم التعليم الأولى إلا بعد عشرين سنة ، وعلى أساس نصف يوم ، ولو جعلته يوماً كاملاً لاحتاجت إلى سبعة آلاف مدرسة وثلاثين ألف معلم ، غير الموجود عندها

فكيف تستطيع إذاً تعميم التعليم الابتدائى فى الدولة كلها ؟ ومن أين لها الرجال والمال ؟

أما مجانية التعليم بأنواعه فى العراق فسرها عدم الإقبال عليه وقد كان هذا حالنا فى الجاهلية الأولى !

ويلوح لى بعد هـذا أن اعتكاف السيدة الكاتبة فى برجها العاجى الذى ذكرته فى مقالها قد حجب عنها الكثير من الحقائق التى يعرفها عامة الناس .

أما المشكلة الحقيقية فليست فى عدم قبول التلاميذ فى المدارس الإلزامية ، وإنما هى فى إطعام الفقراء منهم وكسوتهم ، ومعالجة مرضاهم ، فإذا استطاعت الوزارة تدبير حل لهذه المشكلة ، فقد خطت فى سبيل الإصلاح الاجتماعى خطوة موفقة

(المنصورة) علي عبد الله

العروبة فى السودان :

سيدى ...

قد سررنا وايم الله أن يكون الدكتور مبارك أحد المشتركين بكلمة فى المهرجان الأدبى بأم درمان — بل بدرس قيم فى توحيد أواصر العروبة المتفرقة شيعاً وأحزاباً — فإن كلمته التى بعنوان « فى الطريق إلى الوحدة العربية » قد كانت حديث المجالس الأدبية فى كل ناد ... وهنا قلما تجد شاباً متعلماً لا يقرأ (الرسالة) بنظام ويلم بما فيها من بحوث قيمة وكلمات جيدة وشعر رصين ...

ثم إن الذى حدا بى لكتابة هذه الكلمة هو أن برسالته ما يلفت النظر : فإن السامع لها أو القارئ يشتم منها أن الأستاذ يعتقد أن العروبة فى السودان لغة لا جنس . وللايضاح ووضع الأمور فى نصابها نقول : إن بالسودان أكثر من النصف من العرب العريقين فى عروبتهم سواء فى الجنس أو اللغة أو الدين ؛ بل فيهم عدد هائل يتحدث بالعربية اليوم — وهم أميون — كما كان يتحدث بها العرب منذ قرون ، ويعيشون على نمط معيشة العرب منذ أجيال . من هذا النوع القبائل الآتية : الكداهلة ، الكبابيش ، الشنابلة ، الحمر ، الزيقات :

ولا يستطيع الدكتور أن يكتب عن السودان بصدق إلا بعد ما يزوره ويتحدث هنا فى « كردفان » مع عربانه ، فحينذاك يمكنه أن يضع السودان فى المحل اللائق به فى مراكب العروبة .

أما كيف كان بالسودان أكثر من النصف من العرب الصرف وكيف نزحوا إلى السودان ، ومتى كان ذلك ؛ فإذا شاء الدكتور علم ذلك ، فسيراه بجريدة (النهل) الغراء بقلم أحد الأدباء وله ولصديق السودان « الزيات » منى ومن كل سودانى سلام

« الأبيض — سودان » الفاتح النور

ظهر حديثاً :

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد السنوسى

إخصائى الحالات النفسية

يرشدك إلى الطريق التى يجب أن تسلكها فى الحياة طبقاً لاستعداداتك ويجعلك تكشف عن نقط الضعف فيك لتعمل على تقويتها أو القضاء عليها . يكشف لك عما يهددك من الأمراض الجسمانية والنفسانية لتتبع طرق الوقاية منها ، يوضح لك كيف تحطم العقبات التى توقف نجاحك فى الحياة . وأخيراً تجد فيه تقارير عما تنطق به خطوط أيدى : دولة اسماعيل صدقى باشا . الدكتور طه حسين بك . الأستاذ عباس محمود العقاد . السيدة هدى هانم شعراوى . الدكتور عبد الله العربى بك . محمود حسيب بك . الأستاذ فريد أبوشادى بك . المطربة ملك . الفنانة أمينة رزق — ويطلب من مكتبة الأنجلو ٣٣ ش قصر النيل ، ومن المؤلف ٣٣ ش الملكة فريدة — ثمن النسخة خمسين قرشاً عدا أجرة البريد ٣ قروش داخل القطر و ٥ قروش خارج القطر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



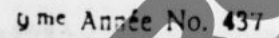
9 me Année No. 437

Lundi - 17 - 11 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠





بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

العـــدد ٤٣٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٨ شوال سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

أدب اليوميـــات

للأستاذ عباس محمود العقاد

(١) ... هل تكتبون مذكرات يومية ، أو هل فى نيتكم كتابة مذكرات أو تدوين ترجمة لحياتكم الحافلة كما يفعل كتاب الغرب ؟ وهل لا توافقوننى على أن كتاباً كهذا تصفون فيه ما صادفكم من عقبات وما تغلبتم عليه من الصعوبات ، وتقصون فيه ما لا يعرفه الكثيرون عن حياتكم الشخصية والأدبية والسياسية يكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة ؟

(٢) هل معنى عدم إقدامكم على الزواج إلى الآن أن الحياة الزوجية تقيد رجل الفكر أو تشغله عن أداء رسالته ، أم أنكم لم تهتدوا إلى المرأة التى ترونها المثل الأعلى لزوجة المفكر ؟

(٣) لكل إنسان أمانى وآمال ومطالب ، ومطالب من عاش لا تنتهى ... وهى تختلف باختلاف الأحوال والأيام ؛ ولكن ترى ما هى أعظم أمنية تتوقون إليها فى الحياة ؟

(الأسكندرية) أحمد عبد اللطيف الخضرارى
بالمعهد البريطانى

***

هـذه فقرات من رسالة وصلت إلىّ من الأديب صاحب الإمضاء المتقدم ، وفى الجواب عن بعض أسئلته ما يصح أن

الفهـــــرس

يشترك فيه حضرات القراء ، لأنه من موضوعات الكتابة العامة التى تطرق فى الكتب والمجلات

وأول هذه الأسئلة سؤاله عن المذكرات اليومية وما أدونه منها الآن أو بعد حين

وجوابى عن هذا السؤال أننى بدأت حياتى الأدبية — منذ الدراسة الأولى — بكتابة المذكرات والتعليقات على ما أطالع وأشاهد فى كل يوم ، وإننى لم أنقطع عن كتابة هذه المذكرات إلا فى السنوات الأخيرة التى لا تتجاوز خمس سنوات

فأول كتاب صدر لى هو « خلاصة اليومية » واسمه يدل عليه . فقد كان تلخيصاً لما أثبته فى مذكراتى اليومية من الآراء والملاحظات والأصول التى أتناولها بالتوسع إذا خصصتها بالكتابة

ثم ألفت كتابى « ساعات بين الكتب » وهو غير الكتاب الذى طبع بعد ذلك بهذا العنوان . فإنما كان الكتاب الأول تعليقات على القراءات التى تفرغتُ لها وأنا مقيم فى أيام الحرب الماضية بأسوان ، ولم يكن مجموعة مقالات أو فصول نشرت فى الصحف كالكتاب الذى يحمل الآن هذا العنوان

لكن المذكرات اليومية نوعان وليست بنوع واحد ؛ فهذا الذى ذكرته مقصور على شئون الفكر والقراءة كأنه فصول صغيرة أو موضوع متفرق فى عدة صفحات ، وهو النوع الذى أكثرت من الكتابة فيه ، وعندى منه الآن مجموعة صالحة فى انتظار الطبع كما هى ، أو فى انتظار التوحيد والتأليف ، لأنها تصلح لهذا وذاك

أما النوع الآخر وهو المذكرات عن حوادث الحياة وعوارضها فلم أشرع فى الكتابة فيه إلا مرة واحدة طالت بضعة شهور ؛ ثم مزقت ما كتبت وأحرقته ولم أعد إلى تجربة الكتابة فى هذا النوع مرة أخرى ، ولعلى لا أعود

ولكنى لا أحكم على أدب اليوميات كله بالتمزيق والإحراق من أجل أننى اضطررت إلى تمزيق ما كتبت وإحراقه ؛ لأن أسبابى غير أسباب الآخرين ، ودواعى غير دواعيهم ، والمحظورات التى أتقيها غير المحظورات التى يتقونها

فالواقع أننى من أرغب الناس فى قراءة اليوميات والانتفاع بها ، وهى فى اعتقادى أنفع القراءات للمؤرخ والمستطلع لأحوال الأمم وسرائر النفوس ، ولا سيما المكتوب منها بخلوص نية لا يشوبها التكلف والرياء ، ومعظم كتاب اليوميات ممن يتوخون خلوص النية وصدق الرواية عندما يخلون إلى صفحاتهم الخفية ، لأن المسألة عندهم « ظاهرة نفسية » أشبه بالتوجه إلى محراب الاعتراف ، وكأنهم يخففون أعباء ضمائرهم بإلقائها عنهم فى صفحات مسجلة يرجعون إليها ويؤمنون بصدقها وأمانتها ، كما يخفف الإنسان أعباء ضميره بالإفضاء إلى صديق أمين ؛ فهم مسوقون إلى صدق الكتابة بهذا الشعور العجيب الذى لا يستريح إلى غير الأمانة ، وفى هذه الراحة ضمان للقارئ أو ضمان للحقيقة أقوى من ضمان المحاسبة والبينات

واليوميات أدب مستفيض فى اللغات الأوربية عامة وفى مقدمتها اللغة الإنجليزية ، وهذا الأدب موضع دراسة المؤرخ والناقد النفسانى ، والفيلسوف ، والباحث العلمى ، وكل من تعنيه سير الجماعات والأفراد ؛ يشتركون فى دراسته وبحثه تارة لبيان الأسباب التى تدعو الناس فى فترة خاصة من الزمن إلى تدوين مذكراتهم والعكوف على أسرار ضمائرهم بمعزل عن الجماهير وشواغلهم العلنية ، وتارة لتحقيق الوقائع واستكشاف دخائل الرجال ، وتارة أخرى للمقابلة بين أحوال الجو فى البقعة الواحدة بين زمان وزمان ، ويأتون فى جميع هذه التعليلات والتخريجات بما يلذ الوقوف عليه ويفيد !

وما من كاتب يوميات فى الحقيقة إلا وهو ظاهرة نفسية كثيرة البدوات والغرائب ، كثيرة الجوانب التى تتعلق بها مباحث النفسانيين والحكماء . وقد أشرت إلى طرف من ذلك فى مقدمتى للجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا رحمه الله حيث قلت عن يوميات صمويل بيبز Samusl Bepys أنها موضع الحيرة عند بعض النقاد ، « فلا هم قادرون على أن يجزموا بأنه كتبها لنفسه ، لأن الإنسان لا يكتب كل هذه المجلدات وكل هذه الحوادث ليطلع عليها وحده ، ولا هم قادرون على الجزم بأنه كتبها للأجيال المقبلة ، لأنه كشف فيها أسراراً عن سيرته وسيرة أقربائه ، كان معروفاً أنه يخفيها أشد الإخفاء ويود لو يتعقبها بالمحو والنسيان »

ثم ضربت لذلك أمثلة شتى منها أن مسألة من المسائل البيتية

كدرته فأتلف جميع أوراقها وأسانيدها ثم عاد إلى مذكراته فدون فيها جميع تلك الأوراق والأسانيد بأقصى ما استطاع من إسهاب وتفصيل !

هذا هو العجب، وهذا هو موضع التأمل والدراسة ، وهذا الذي يجعل اليوميات مرجعاً صادقاً لدارس الحوادث ودارس الأخلاق .

فأنا لا أدين أدب اليوميات كله لأنني أحرقت يومياتي ولم يخطر لي أن أعيد التجربة مرة أخرى

وإنما يباعد بيني وبين كتابة اليوميات أمران كلاهما حقيق بالإثبات لأنهما أيضاً من ظواهر النفسيات وظواهر الفترة التي عشت فيها

وأول الأمرين أنني غير مطبوع على التوجه إلى محراب الاعتراف ، لأنه ضرب من الاستغفار لا أستريح إليه ، أو لأنني أدخر لنفسي خفاياها وأنزهها من البوح بها لأحد غير مستثنٍ من ذلك إلا القليل

فالمسألة التي تلعج خاطري وتثير شعوري وتتسرب إلى أعماق ضميري ليس مصرفها عندي أن أسجلها كما هي أو أفضي بها إلى أذن سامع قريب ، وإنما مصرفها أن أعبر عنها في الشعر والكتابة ، وأن أعرضها للتحليل والتقليب على وجوه شتى . فإذا حللتها واستخرجت معناها فقد استرحت منها وفتحت مغالقها ولم يبق فيها عندي موضع للمعالجة والاستقصاء

ورب كارثة نفسية من الكوارث المقعدات تسكن كما يسكن البحر المائج في لحظة واحدة ساعة انتهائي إلى مقطع الرأي فيها ، أو ساعة علمي بما ينبغي أن أقابلها به من عمل . وهذا الذي ينوب في طبيعتي مناب الإفضاء والبوح وما أسميه التوجه إلى محراب الاعتراف

أما الأمر الثاني الذي دعاني إلى إحراق يومياتي فهو راجع إلى حوادث الفترة التي نعيش فيها لا إلى البواعث الخلقية

وخلاصته أنني دونت تلك اليوميات لأستعين بها على تاريخ الفترة وتحليل أخلاق رجالها . ثم رأيت في أثناء الثورة الوطنية وبعدها بقليل أن ملفقي التهم ومدبري المكائد يستعينون بأمثال هذه اليوميات على طبخ القضايا وإحراج الأبرياء ، وظهر لي أن إثبات ملاحظاتي على رجال الفترة من العسر بمكان مع تعرض اليوميات للمصادرة والسؤال ، فآثرت إحراقها أيام اشتداد المحاكمات والمصادرات وأحرقت معها رسائل شتى وصوراً وأوراقاً لها في حياتي الخاصة أثر لا يزول ، وفاتني بإحراق هذه وتلك نفع كبير في مراجعة الحوادث التاريخية وصيانة الذكريات النفيسة ، ولكنه أقل من الضرر الذي كنت متعرضاً له ومعرضاً له غيري لو أبقيت عليها وحدث ما كنت أتوقعه بسببها

على أنني ودعت كتابة اليوميات ولكني لم أودع كتابة الذكريات أو كتابة ما يقول عنه الأديب صاحب الخطاب أنه قصة من الحياة الشخصية والأدبية والسياسية تكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة

ففي نيتي وأمام ذهني كتاب كبير أكسره على أجزاء منفصلة وأفرغ كل جزء منه لناحية مستقلة تتناول حياة الأديب وحياة الصحفي والنائب والسياسي معاً وحياة الإنسان في خاصته وعامته وحياة الباحث عن نفسه وكونه وإلهه وسائر ما يتصل بالعقيدة والسريرة الدينية

ويخيل إلي أنني لو فرغت سنة واحدة مكفي المؤونة استطعت أن أفرغ من أجزاء هذا الكتاب كلها بغير عناء كبير ، لأن أصوله وموضوعاته قلما تحوجني إلى مراجعات تفصيلية بعيدة من الذاكرة والوجدان

* * *

تلك كلمتي الموجزة في اليوميات ، وما كتبت منها وأنوي أن أكتب بعد حين

أما سؤال الزواج ، فقد أجبت عنه في (الرسالة) جواباً يغني فيه الإجمال عن الإسهاب ، وكل ما أزيده هنا أنني أستغرب المصادفة التي ساقت إلى أربعة أسئلة في شأن الزواج خلال شهر رمضان ، وإن كان أحدها لا يستغرب في وقت من الأوقات ، لأنه مزمن قديم يأتي من السيدة الوالدة على غير ميعاد ! فهل شهر رمضان — وما يعقبه من أفراح الأعياد — هما المسئولان عن مصادفة الأسئلة الثلاثة الأخرى ؟

وأما أمنيتي التي يسألني الأديب عنها سؤاله الأخير ، فلعلها لا تشرح في ذيل هذا المقال ، وأحرى بها أن تؤجل إلى مقال قريب ، لأنني لا أطرق منها جانباً يخصني دون غيري ؛ بل أطرق منها ما يصح أن يمتد إليه كل بحث وينظر فيه كل ناظر

عباس محمود العقاد

١٢ – أومن بالانســـان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

التحرر من التاريخ — نحن غير البائدين — تلاميذنا أصح علما بالطبيعة من أرسطو — العلوم والفنون ليست تحفاً تقتنى منفصلة من النفس — لا بد من قلوب حديثة — من جرائر التاريخ — الانسان يصنع أقداره — استطراد إلى مشكلة القدر — إلى المنتظرين بعثا من غير نفوسهم — الآن فقط وجد الحق أدوات الدعوة لتصحيح الأفكار عن الحياة — عباب التاريخ يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ! — لا مفر من عزل الطفولة لتصحيح أفكارها — مناقضات بين ما في الشوارع وما في الجامعات — صورة من دراستنا الحالية للتاريخ — طبائع مدللة ليست بنت زمانها — ما يستهلكه الخير وما يستهلكه الشر — هل مضت الحاجة إلى دور الغرائز في خدمة الحياة ؟ — حرب الآلهة

طالما ألححت بقلمي على التاريخ : هذا الجدار الماثل ... هذا السد القوي ... هذا السجن المتيد ... لأحطمه وأنقذ نفسي من جوه المعتم الخانق !

وطالما قلت : ما دام هذا الماضي القاصر الجاهل الخرف الوحشي يحمله الإنسان في أوعيته وأعصابه إلى الحاضر ، فهو دائماً في ضلاله القديم ، كما يعيش حامل الميكروبات الضارة دائماً في أمراض ونكسات .

والحقيقة التي يجب أن توضع نصب العيون الآن هي أن هذا الإنسان المصري هو غير الإنسان البائد بلا شك ! هو غيره في علمه وإدراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلاعه بأدوات تحقيق الاحتياجات وتفتيحه لكنوز الأرزاق والأقوات

فكيف يرضى أن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت وأن يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها في عصر الانكشاف والظهور والقدرة الفائقة ؟ !

كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر والجو وذرع الأرض بالطول والعرض ، ونبش كنوزها أن يعيش بأساليب الذي كان لا يعرف غير طريق القرية أو النجع أو الجزيرة التي يعيش فيها ؟

إن تلاميذ المدارس الابتدائية أصح علماً عن الأرض والطبيعة من سقراط وكونفوشيوس وأرسطو وابن سينا والفارابي وغيرهم من حكماء القدماء ؛ فكيف ترضى الإنسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية بأساليب جهلاء عصورهم ؟ !

إن التاريخ النفسي للحياة الإنسانية ينبغي أن يدرس بعين غريبة عنه ناقدة له في شك وارتياب . فما هو إلا سجل جهاد الناس في سبيل وصولهم إلى حقائق هذا العصر الحالي . فما يليق أن تؤخذ مرحلة من مراحله محطاً يطمئن الناس إليه بعقولهم ؛ لأن مراحله السابقة كانت مراحل موضعية ضيقة خاصة بأمة ما من أممه . ولكن أمر أمم الناس الآن أمر جماعة توشك أن تتقارب أهدافها وتشتبك مصالحها وتشتجر اشتجاراً لا خلاص لفروعها منه أبت أم كرهت

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم لا نغير ملابس النفس ؟ أنكون قروداً وببغاوات تحكي قضايا العلم الطبيعي بألسنتها وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها ؟

هل يكفي من العلم أن يقتنى في الحوافظ والذاكرات غير ممزوج ولا مدمج في الأعصاب والأحاسيس والانفعالات ، بل يوضع في الرءوس كما توضع التحف والدمى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع والشراء عند الحاجة ؟

إني أرى العلم ينبغي له أن يكون في كياننا كالماء في أعواد الشجر الحي لا يقف تسربه إليه وتفريع حياته إلا إذا جف وأحطب ومات ... فلا شجر بدون ماء ...

إن عملية عظيمة في داخل الحياة النفسية الإنسانية تنتظر إجراءها لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة !

* * *

ومن آثار التاريخ في الحياة المصرية هذا الخلاف المنيف بين الأديان بعد ما سطعت شمس الله الواحد ... وبعد ما أدرك العقل التناسق والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة مما لا يمكن أن يكون إلا بإدارة يد واحدة !

ومن آثاره كذلك فيها أننا لا نزال نخضع لمنطق الأمم التي كانت تعيش متحاجزة في سدود وتخوم تفصل بين عقولها وأخلاقها ومرافقها ، وتجعل الدنيا دنيوات ، والإنسانية الواحدة أنواعاً متباعدة ، وتجعل من اختلاف الأجناس والألوان واللغات اختلافاً أصيلاً جوهرياً بين الطبائع الإنسانية يبيح هذه العداوة الفاجرة المريرة المخربة للعمران ، ويحمل على المبالغة في البطش والطغيان ونسيان الصفات المشتركة بين بني الإنسان

ومن آثاره كذلك أن أكثر الناس لم يدرك بعد مدى الانتقال العظيم والترقى السريع والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة فيه ؛ ولذلك لا يزالون يضمرون فى أنفسهم اعتقادات متشائمة فى الإنسان ومستقبله ، ويدينون فى الحياة بدين السخط وإطلاق الغرائز الخطرة والآراء التافهة التى تجعل الإنسان يعبر الحياة بدون أن يجتهد فى ملء نفسه بأسرار التكوين ، وفى إضافة كشف أو اختراع أو منفعة إلى ميراث الحياة الإنسانية ... وليس هناك شىء أضر على الحياة الإنسانية من نزعة التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الإنسان ومستقبله !

ومن آثاره كذلك أننا رضينا أن يعيش أكثرنا جاهلاً أمياً لا يفقه مبادئ العلم والحياة التى فى رءوس العلماء مع أن نمو تلك الأسرار يتغير ويتقدم كل صباح ومساء ... وكأننا بذلك وأدنا هؤلاء الأحياء ودفناهم كما كانت تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد ... وكان هذا الإهمال منا بمثابة فعل من رأى أهله يموتون ظمأً واحتراقاً ، وهو على علم بمنبع ماء غزير يطفئ غلتهم ولوعتهم ويحيى نفوسهم ولكنه لا يسعى إلى إنقاذهم ...

ومن آثاره كذلك أننا نعيش فى ذهول عما يحيط بحياة الإنسان الآن من كنوز تتفتح وأعاجيب تخترع ، فترى الناشئ منا ينشأ بين القطارات والسيارات والطيارات والراديو والتليفون والنواصات والفونوغراف والفوتوغراف والسينما وغير أولئك ، ثم يجهل أمرها وتركيبها ولا يدرى عنها شيئاً ولا يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم ... كأن ذلك شىء تافه أو أمر بدهى لا يحتاج إلى فكر شديد وتعجب بالغ !

ومن آثاره أننا برغم إدراكنا الآن كثرة الأقوات وكفاية الأرزاق كثرة وكفاية تشبعان حاجات الإنسانية جميعها لو وزعت توزيعاً معقولاً بدون احتكار وتحكم وإتلاف لجانب من المحصول فى سبيل الاحتفاظ بالأسعار المرتفعة ... لا نزال نطيع الجشع والطمع ونعصى دواعى العدالة والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة !

ومن آثاره أننا لا نزال نغطى عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه « الأقدار » ، مع أن مفتاح الأقدار بأيدينا ، ومع أننا نرى أننا نصنع أغلب أقدارنا ، ومع أن دائرة الإيمان بالأقدار فى الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التى تأتى إلينا بدون حيلة أو خيرة منا ، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد ...

وهنا مكان استطراد إلى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه بعض الحديث :

هناك أقدار نريد أن تتحقق ، وهى أقدار الخير والسعادة ، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التى تهدينا تجاربنا إلى أنها عوامل جالبات لما نسعى إليه . فإن تحقق ما نبغى فذاك ، وإن لم يتحقق — وهذا قليل نادر — علمنا أن الإرادة العليا المسيطرة على وجودنا لها غاية غير غايتنا فى تلك المسألة التى نسعى لتحقيقها . والإيمان بتلك الإرادة يقضى حينئذ بالإذعان والتسليم لقدرها العالى الذى لا حيلة معه

وهناك أقدار نريد ألا تتحقق ، وهى أقدار الشر والشقاء ، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لدفعها بالأخذ بالأسباب التى تهدينا تجاربنا إلى أنها عوامل دافعات لما نخشاه ونتجنبه . فإن كان ما نبغى فذاك ، وإن لم يكن كان علينا كذلك الإذعان والتسليم للإرادة العليا .

تلك هى مشكلة الأقدار فى جانبيها . وفى كلا هذين الجانبين رأينا أن على الإنسان أن يقدم جهده فى التمهيد لها أو دفعها . فإذا وقف أمامها منتظراً مكتوف اليدين مشلول التفكير كان حرياً أن تأتى إليه أقدار الخير فلا ينتفع بها إذ لم يبذل لها جهداً من فكره وأمله ، وكان حرياً كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها وأن يجزع منها جزع الذى يظن أنه كان فى مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر فى ذلك ، فيظل ملوماً محسوراً ...

***

والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجدليات توحى إلينا بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والإيماء أن الذى ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها لن تكون حياته إلا كحياة ذلك البدوى ساكن الصحراء الذى لا يعمل عملاً لجلب الماء ، وإنما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء ، وطبيعى ألا تكون آماله بيده ، وأن يعيش حياته معرضاً لأخطار

الظمأ والجفاف معلق القلب مهدد العيش يتجدد قلقه كل سنة لأنه لم يمسك من أسباب الحياة إلا بحبل بعيد هيهات أن يكون في يده دائماً ...

وأنى تكون حياة هذا البدوى من حياة بدوى آخر مشى حتى اهتدى إلى ضفاف نهر تمسك منابعه بجوالب السحاب ، وتحلب الماء إليه جارياً ميسوراً ليده وأفواه دوابه وقطعانه ، ثم هو بعد ذلك يشق السواقى والقنوات ليصل منها الماء إلى كل بذرة بذرها؟!

لا شك أن كليهما أخذ من مصدر واحد ، ولكن أحدهما حمل نفسه على العسرى ، والآخر حملها على اليسرى ... وشتان ما بينهما !

فلينهض الراقدون على آذانهم فى الشرق الإسلامى مستسلمين فى صَغار لعوامل الشقاء والحرمان ، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازبة حتى يأتيهم آت من غير أنفسهم ينفخ فى الصور ، فإذا الأرض حولهم جيوش وجحافل ، ومصانع ومعامل ، ومعاهد ومعابد ، وحقول وجنات وعيون ، وإذا هم — بقدرة قادر ! — آلهة فى الأرض يحكمون !

لينهضوا وليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسى الذى انحدر إليهم من الجاهليات فهم يعيشون به فى الماضى وإن كانت أجسادهم تلبس أثواب القرن العشرين ...

ولتكن قوارع هذه الحرب أجراساً وأبواقاً تجمعهم وتدفعهم إلى السير مع قافلة سريعة المراكب ، متلاطمة المواكب ، غليظة الأثقال ، حاشدة جبال الحديد والفولاذ ، والقوى العارمة المجنونة التى يقول قائلها : « أنا القدر ! أنا القدر ! يا بنى البشر ! »

***

هل لنا أن نزعم أن الحق وصل إلى نفوس أكثر الناس فأدركوا صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه ، وحينئذ يحق لنا أن نتشاءم فى مستقبل الإنسان ؟

أؤكد أنه لم يصل فى عصر ما من عصور التاريخ إلا إلى القليل من الناس . وإلى الآن لم تقم دعوة إلى الحق الواضح فى الطبيعة بدون أن توضع فى طريقها أغشية وعقبات ومموهات تحجبه وتمنع الناس من إدراكه

والآن ، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الإقناع وأدوات التربية يجب بدء دعوة ...

وإن فى الناس لخيراً كثيراً جداً أعظم مما يتضح من النسبة التى نجدها فيهم الآن ...

والدليل على ذلك نجاح أمم الشمال فى أوربا خلقياً ، فقد أثرت فيهم التربية حتى أوشكت بلادهم أن تخلو من السجون والجرائم والخيانة حيث الثقة بالنفس الإنسانية وطيدة هناك

إن أدوات صحة النظر فى الحياة واتجاهاتها موفورة الآن لأغلب سكان الأرض ؛ ولكنهم مأخوذون عن ذلك بجرائر التاريخ . وكان من الواجب بعد العلم الغزير أن يوجد الفكر المادىُّ والقلب الكبير الذى نضج وطاب ؛ ولكن عباب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف الطفولة والبذور مع الجيف والقش والغُثاء ... وتلقى الجميع إلى المصب الذى تلتقى فيه الأخلاط والضلالات التى تركها أبناء الجهالة الأولون ...

فلا مفر من فصل البذور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ وإنشائها بأيد غير ملوثة إنشاء يرضى به هذا الزمان وعلومه وفنونه ، ويؤهل الإنسانية لتلك الخلافة الواسعة المتعاونة فى جهاد الطبيعة واستنزال بركاتها وثمراتها .

ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها إلى الإيمان بها كرحلة ممتعة أتاحها القدر لمن يخرج من العدم ، فيجب صرفها فى العمل والفرجة والاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من آفاقها

ولا مفر من تحويل عبقرية الفكر إلى عبقرية القلب والخلق والجسم . فالعلم والفن يجب صقل النفس بهما وإشراب الجسم إياهما وإخراجه على مقتضاهما بحيث لا تتخلف حياة الجسم وقواه وحركاته عن المدى الذى وصل إليه الفكر ... وبحيث لا يتخلف ما فى الشارع والحقل عما فى مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما إليها حتى تكون حياة الجماعة صورة ومظهراً صادقاً لحياة الجامعات والأندية الثقافية ، ولا يكون فى الأمة مفارقات ومناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع .

ولا مفر من حمل كل إنسان على أن يدرك نفسه ويستغرق فى التفكير فى حياته وحياة الإنسانية ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التى تتسلط بها الإنسانية على القوى العمياء الجبارة وتسخرها فى خدمتها

وما الإنسان بدون يقظة للمعنى الفائق والروح السامي الذى فى حياته إلا جسد يختلج ويضطرب فى ذهول وبلادة ، ويحيا هكذا حياة مغناطيسية آلية

* * *

ولكى ندرك جرائر التاريخ على العقول وأثره فى تدليس الحاضر وإفساده وتزوير النفوس سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق دراسته على ألسنة العجائز وفى المدارس ومجالس القصص :

يتفتح عقل الناشئ منا فتلقنه عجائز بيته وشيوخ قومه ومعلمو مدرسته تاريخ قوميته وتاريخ الإنسانية بأغلاطه ونقائصه ومحاولات العصور القاصرة فى فهم الحياة وجهاد الإنسانية فى شق طريقها الأول بين الصخور والمتاهات والعقبات . فما يكاد عقل الناشئ يصل إلى دور الحكم والموازنة حتى يكون قد تطبع بما وعى وأصابه ثقل التخمة وحيرة الامتلاء والتبلبل

ذلك لأن التاريخ لا يدرس على أنه محاولات أولية من الإنسان فيها أخطاء كثيرة ؛ فيجب الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور ؛ ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس والإعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم فى مغالاة وتعصب ، وبخاصة تاريخ القوميات والجنسيات

وكان من كبرى نتائج ذلك أن عاش كثير من الماضى الدنئ فى الحاضر . بل وجدنا جماعات تفر من الحاضر لتعيش فى الماضى وترى أنه كان الحياة .. ! وتمدح الناس بما فعلت الجدود وقالوا إنا على آثارهم مقتدون

فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم فى زمانهم بل فتحوها على الماضى وعاشوا به فى الحاضر ، وظهر أثر ذلك فى الافتتان بهوامش الحياة والعكوف على دراسة سطوحها وترك دراسة أصول الحياة وعلومها الطبيعية والتجريبية التى تبقى لها نتائج دائمة تسلم إلى نتائج أخرى فى سلم الترقى والتطور

وقد لاقى أكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها ، وإنما هى بنت الماضى السحيق ، وحملوا معهم فى رحلة العصور خرافات ووثنيات وسخافات احتفظوا بها حتى فى القرن العشرين ، ووضعوها حواجز وعوائق فى طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات والنبوات الدائمة التى لا تحتمل جدلاً أو مخرقة !

وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون فى كل عصر ركاماً من الغباوات والجهالات توضع فى طريق دعواتهم إلى الإصلاح والعلم وفتوح الذكاء ونور البصيرة ...

ليس قبيحاً جداً بالطفل أن يعترك مع إخوته على شئ يريده لنفسه ويريدونه لأنفسهم ، فيتصايحوا ويتضاربوا ويحطموا ما أمامهم ؛ لأن الطفل يعيش بالغرائز ، فهو أناني ضيق التفكير لا يدرى أن أباه يملك الكثير ، ولا يفهم فضيلة الإيثار إلا بعد التمييز والتدريب

ولكن ما بال الأمم التى رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض تتقاتل على البحر الزاخر والحقول المرعة والجو الواسع ؟ إن ذلك من أخلاق الطفولة وضيق آفاقها وتحكم الغرائز فى حياتها، وهذه صفات وجدت لها فى مخلفات التاريخ مبررات وحججاً وتأريثاً !

ومن العجائب أنهم يدمرون ما يسمون إليه من الغنى والثروة حين تثور غرائزهم ! وإن الحقد والشر والطمع لتستنفد وتهلك من مال الأمم الأثرة الجشعة ، ومن بذلها الدم الفياض ما لا يمكن للخير والسلام والإحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معشاره ! !

ونظرة واحدة إلى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفى فى البرهنة على هذا وعلى أن الإنسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق والعدالة والحسنى ، إلى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار فى مجرى التاريخ ، فسوف تظل هكذا تعمر لتدمر، وتعلم لتجهل ، وتتقدم لتتأخر

وكأن المقصود بحياة الإنسان إذا استمر على هذا هو تحقيق مشتهيات الغرائز وإظهار عبقريات النفس البشرية فى التخريب بعد التكوين : فهى طوراً تبنى وتعيش فى صفات البناء وأخلاقه، وطوراً تهدم وتعيش فى أخلاق الهدم وصفاته، لتدرك معالم الضدين المتقابلين الأبديين : الخير والشر ...

ولكن إن صح هذا كتعليل لحياة الشر فى الماضى حين كانت الحياة محتاجة إلى دوافع الغرائز لتدريب الإنسان فى طفولته على ما تهيئه له الأقدار فى مستقبله ولحمله على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة ، وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة

المغزل . والريف . ونفسى

[إلى الشاعر التائه صاحب « أرواح شاردة » الصديق على محمود طه]

للأستاذ راشد رستم

شردتُ من الحضر إلى الريف — وليس العجب أن يشرد المرء من الحضر إلى الريف — وإلا فأين معنى الشرود ، وأين موطن الشرود ، بل رأين الروح الشّرود ...

أما أنت يا صاحبي ، فقد شردت من الريف إلى الحضر ! ذلك إذا عددنا مصر ، بنيلها العظيم ، وزرعها النضير ، وإنسانها الكريم ، ريفاً وأى ريف ، ثم حسبنا بلاد الغرب بمياهها المدنية ، ومدنها الفتنة ، ورهطها النشيط ، حضراً وأى حضر ...

فهل أنا موفق هنا معك ، أم أنى شرود كذلك فى هذا الخيال وهذا التشبيه ؟ على أنه إذا كانت الأولى فانى منتصر ، وإن كانت الثانية فلست أنت المنتصر ...

***

ولكن خبرنى ، ما بالى أثير عليك غبار هذا الجدل وأنا فى سكون البكور من صباح منير ، وسط ريف هادىء بديع ! لماذا هذا الجدل وأنا فى جو نقى نظيف ، حيث البساطة والسهولة والوضوح ! فى هذا الصباح البدرى الذى لا تصيح فيه الديكة إلا لكى تدعو النيام إلى القيام ، والذى تحمل فيه الطيور النطاطة تحيات النهار — وهذا أول النور وآخر الظلام !

هذا صباح الريف ، سكون ولكن حياة . وها هى الطبيعة ، ناعسة تتمطى ولا تقوم . وأنا صاح قائم أذكر قول الشريف الرضى ، رضىّ النفس ، شارد الروح ، وهو يقول :

وأكتم الصبح عنها وهى غافلة حتى تكلم عصفور على علم

***

وهأنذا أتحدث عن هذا الصباح الغريب ، فقد كان صباحاً ساكناً ، ثم ثار ، ثم سكن . أثبت الحقيقة كما جاءت فيه — والحقيقة أصل لكل خيال — فقد جلست الساعة بعد هذا الشروق البهى ، و « مغزلى » فى يدى ، وأنا فى هذا المكان من الصعيد الصعيد البعيد ...

وهذه هى الأرض تغمرها مياه النهر الكريم ، تحفها سلسلة هذه الجبال الراسيات ، يضم القوم بينهما هذا الوادى الأخضر السهل الفسيح المتد

***

وإذ أنا فى هذه الحال ، هادىء النفس هادىء البال ، إذا بالبلدة الناعسة ، وهى تطرح عنها أطراف الليل ، تستيقظ على صوت مزمار وطبل — جماعة يحجون إلى دير بالجبل بعيد — حتى إذا عادوا من نذرهم وقد مرّوا علينا بالطريق ، صبحونا مبدرين مبكرين ، ودخلوا القرية وافدين ؛ حيّونا بأصوات البشير ، وتلقيناهم بأحسن تكريم ، وتبادلنا وإياهم فى ساعة هذا النهار المنعش الصبوح ، صفاء قلوب فى صفاء قلوب

***

ثم أداروا علينا من أنغامهم موسيقى ذات دوىّ بعيد وحنو قريب ، فأخذت القوم نشوة اليقظة بعد فترة الرقاد الطويل ، وتولتهم هزة الفرح ، فراحوا وزاس الحى يزمرون ويطبلون ، كما أنشأوا (يتحاطبون) ، يحملون عصيهم فى الفضاء ، تدور بهم وهم بها دائرون ، يتمددون ثم يلتفون ، وفى خفة يقفزون ، ليس فيهم طالب ولا مطلوب ، ولا غالب ولا مغلوب ، إذ هم فى لهو يمرحون ، وأهل القرية من حولهم معجبون مبتهجون

***

حتى إذا تحول الطرب ودارت للرقص أنغامه ، دارت فى الساحة من الرجال أربابه ، يتفكهون وإن كانوا به يتباهون ؟ غير أن للخلخال رنته ، وللخال المحجب سلطانه ، وقد دق

لا تتعدى أضرارها إلى هدم أصول الحياة وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الإنسانية ذات الحرمات والقيم التى لها اعتبارها ، كما هى الحال الآن فى نتائج هذه الحرب . . . فلن يصح الآن هذا التعليل بعد أن صار قتال الإنسان كقتال الآلهة لا كخصام الأطفال

وقتال الآلهة — لو كان هناك آلهة إلا الله — تخريب لأصول الحياة وسحق لبراعمها ومناطق نموها . وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل إليها والإطباق عليها لأنهم فرضاً خالقوها وواضعو أسرارها ...

فلنوحد الإنسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة فى التخريب ، كما وحدنا الأرباب !

ولنعلُ بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب ، من كل ذات ظفر وناب !

عبد المنعم محمد طهوف

الطبل لبنات الحى دقاته ، فنزلن الساحة يخطرن والقلب وقتها دقاته ، وأثارت بنات الحى فى الحى للرقص موجاته ، فارتفعت فى ميزان (الحرارة) شاراته ، وازدحم للميدان واشتدت حماساته ؛ فقد دارت بنات الحى فى الميدان للرقص دوراته ، وحمى الوطيس واشرأبت من الجمع هاماته ؛ هؤلاء هن للدلال والوقف والعطف سيداته ، وهؤلاء هن للف والميل والدوران ربّاته :

صان الإله رشيقةً مياسةً أربتْ على الغزلان فى الجولان

***

ثم خلت الساحة من حسان راقصاته ، إلا التى هى من بنات الحى أبين باناته . هيفاء هيفاء ، تخطر فوق الثرى وكأنها تصعد فى الجو إلى ثرياته ، خفةً ورشاقة وسناء ؛ بينما تراها هنا إذ تراها هناك . وهى إن حنّت على المشيب أقبلت عليه ترعاه ، فتجعله من فرط الرضا شباباً ... فإذا تجنّت على الشباب تحولت إليه تسبيه هياماً فتجعله هباء أو سراباً ...

وكأنى بهـا حمامة الصبح وهذا هو الصبح قد لاح ، فهل تهمد يا أليف الهوى وهـذا هو الإلف قد بان وسبحان الفتاح ؟ تعال . تعال . خذ الخصر بيمناك ، ودر بالساق مع الساق ، ولا تقل أين الساق . إن للحياة مداها ، وللروح فى حب الرضا قرباها ، ومناها ، ونجواها ...

***

وانظر الآن ! هذه هى الخيل تجرى فى أعنتها وفق هواها ، تدب دبيب السعد والخيلاء والخير معقود على نواصيها . وهؤلاء فرسانها لا يستطيعون لها كبحاً ، فتفزع تدخل بهم الساحة مسرعة ، كأنها تأبى إلا أن تأخذ نصيبها فى موكب هذا الصباح ، ولكنها ترتد سريعة جامحة ، كأنها من نيران أمامها خائفة ، وما هى إلا ذات الخلخال ، لا تزال فى الساحة قائمة ، لم تترك مكانها ، فكيف إذن للخيالة أن تستبيح الميدان ؟

لما أن رأتهم مندفعين ، وقفت وقفتها تكشف فيها لهم عن القسى والسهام ، فأدركوا ما قد يصيبهم من كبوات وغرام ، وخافوا على أنفسهم وخيلهم من الأذى والضرام ، وهكذا ارتدوا خائفين وهم هم السادة الشجعان ، من الخيالة والخيل والفرسان .

حتى إذا هدأ الروع ، واستقر الفؤاد ، عادوا بعدئذ إلى الساحة مطمئنين ، بل كراماً نازلين ، يدورون ويدورون ، يلعبون « ويفغرّسون »

والخيل تمزع مزعاً فى أعنتها كالطير ينجو من الشؤبوب ذى البرد

وللخيل صيحات وللفرسان صيحات

وهكذا بين جمال وجلال وكر وفر ، وصهيل وتهليل ، تسود البطولة أجواءنا ، وتملك النعومة أرواحنا ...

***

حتى إذا بلغت نشوة الفرح حدها ، وضيافة الصبح سمتها ، وأذن مؤذن الركب بالرحيل ، وأخذ القوم يعودون فى هدوء آسفين ، ونحن من ورائهم كذلك آسفون ؛ وخلا المكان ، وانفض المكان ، وإذا بى قد شردت من حالى دون أن أبرح مكانى ، وإذا بى يشتد شانى دون أن أترك شانى ، وإذا بى أرى مغزلى بجوارى فألجأ إليه لأجد عنده خلاصى

***

وإنى وقد آخذ مقامى من هذا الريف النظيف ، أبدأ كل يوم فيه بمـا قد هويته صغيراً ، ولا أزال أهواه كبيراً : « غزل » الصوف بهذا المغزل القديم المعروف ؛ إذ أجد للفكر إذا ما شرد ، وللنفس إذا ثارت ، راحة وسكوناً مع دورات هذا المغزل الأنيق الرشيق المتين

وإنك لتراه يتدلى فى الفضاء دائراً دائراً ، معلقاً فى خيط رفيع دائماً ؛ ينساب من بين أنامل ماهرة ، قد تكون كذلك ناعمة ، تجعله خيطاً رفيعاً ناعماً ، تتجلى فيه دقة الصنعة إذا ما جملته رفيعاً رفيعاً ، متيناً متيناً

تراه محمّلاً مثقلاً ، معلقاً فى ذلك الخيط المتين الرفيع ، كما يتعلق الهائمون الشاردون بالأمل فى خيط منه وحيد رفيع

يدور المغزل فى الفضاء مثقلاً مثقلاً ، كأنه النفس المثقلة بأنواع الهموم ، تنزلها يد الأقدار ، تلفها عليها فى سكون ودوام ، ثم تدور بها فى طيات هذه الحياة

هذا المغزل الذى بين يدىّ ، هو كهذه النفس التى بين جنبىّ ، حملتها كبيرة صغيراً ، ولا أزال أحملها كبيرة كبيراً

هذا المغزل بينما تراه خلياً حيناً ، مثقلاً أحياناً ، يدور فى فضاء الله ، كما تدور فيه هذه النفس ثائراً ، هادئاً صابراً

هذا المغزل مهما كان عتيقاً عريقاً ، فإنه متجدد دائماً ، نظيف دائماً ، رشيق دائماً ...

(منزومة كوم للنصورة) راشد رستم

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

ديوان البـــارودي

للدكتور زكي مبارك

تمهيد — نقد مقدمة هيكل باشا — نصيب البارودي من علوم اللغة العربية — الخمريات والغراميات — الجديد في شعر البارودي — التحكم في التاريخ — الطبيعة بين الصمت والنطق — المتنبئون في عهد توفيق — تاريخ الشعر العربي — للمصريون في عهد البارودي — ما صنع البارودي في منفاه

تمهيد

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول، طبع دار الكتب المصرية وشرح الأستاذين: علي الجارم بك، ومحمد شفيق معروف؛ وهو يطلب من مخازن وزارة المعارف ومن شهيرات المكاتب

وللشارحين كلمة يشكران فيها النقراشي باشا «لاهتمامه بإنجاز طبع الديوان»، وهيكل باشا «لتكرمه بكتابة التقديم» وجعفر والي باشا «لكبير معونته»، والسيد أشرف البارودي «لإمدادهما بأصول الديوان الخطية»

وكنت أحب أن يشير الشارحان إلى أن عناية وزارة المعارف بطبع دواوين الشعراء الذين رفعوا اسم مصر في العصر الحديث ترجع إلى العرابي باشا، فهو صاحب هذه الفكرة، وفي عهده ظهر ديوان حافظ ابراهيم سنة ١٩٣٧

وكنت أحب أيضاً أن يشيرا إلى الظرف الذي كُتب فيه التقديم، وقد تركه الدكتور هيكل باشا بدون تاريخ، لسبب توضحه الأسطر الآتية:

كانت وزارة المعارف إلى الدكتور هيكل في وزارة محمد محمود باشا الأخيرة، وفي تلك الأيام بُدِيء بطبع ديوان البارودي، وكان مفهوماً أن هيكل باشا سيكتب مقدمة الديوان؛ ثم استقالت وزارة محمد محمود باشا وتلتها وزارة علي ماهر باشا، وفي الوزارة الثانية كان النقراشي باشا وزير المعارف، فكتب إلى هيكل باشا يدعوه إلى كتابة مقدمة الديوان، مع أن ظواهر الأحوال كانت تقول بأن بين الرجلين شيئاً من الجفاء

ولو أشار الشارحان إلى هذه اللمحة الأدبية لكانت شاهداً جديداً على ما عند رجالنا من كرائم الآداب

وسكت الشارحان عن الشارح الأول، كما سكت عنه هيكل باشا، وفي الطبعات العلمية لا يجوز هذا الإهمال

ويستطيع طلبة السنة التوجيهية أن يسألوا أساتذتهم عن ذلك الشارح، إن كان يهمهم الاستقصاء

نقد مقدمة هيكل باشا

تقع هذه المقدمة في أكثر من ثلاثين صفحة بالقطع المتوسط، وقد كُتبتْ في ساعات غلب فيها الصفاء، فقد كان الدكتور هيكل في عزلة تشبه عزلة النساك بعد خروجه من المعارف، وكان يعاني الكَلَف بالخلوة إلى القلم بعد أن شُغِل عن الأنس به عدداً من الشهور الطوال

هي مقدمة جيدة جداً، وربما جاز القول بأنها أجود ما صدر عن الدكتور هيكل من الدراسات الأدبية، فقد نفذ إلى أعماق العبقرية البارودية، واستطاع في بعض النواحي أن يذيع سرها المكنون

وسيجيء في الامتحان التحريري سؤال أو أسئلة من هذه المقدمة، فمن الواجب أن نتناولها بالنقد الرفيق، لنساعد طلبة السنة التوجيهية على إدراك ما فيها من مقاصد وأغراض، فالنقد هو الذي يوجههم إلى فهم مدلولها الصحيح، وهو الذي يهديهم إلى مكانة البارودي في تاريخ الأدب الحديث

نصيب البارودي من علوم اللغة العربية

نص الدكتور هيكل باشا مرتين على أن البارودي كان يجهل النحو والصرف والعروض، والنص على هذا مرتين في المقدمة يشهد أن هيكل باشا لم يكن في هذا الحكم من المرتابين

فممن أخذ (حيثيات) هذا الحكم القاسي؟

أخذه عن الشيخ حسين المرصفي، فقد نص في (الوسيلة الأدبية) على أن البارودي كان يجهل النحو والصرف والعروض؛ وكان يجب على الدكتور هيكل أن يذكر أن الشيخ المرصفي لم يقل

هذا القول إلا فى مقام الثناء على ما كان البارودى يملك من بوارق الفطرة والطبع ، وإلا فمن العسير أن نصدّق أن البارودى كان يجهل مالا يجوز جهله من أصول النحو والصرف والعروض

ولكن أين الشواهد على علم البارودى بعلوم اللغة العربية ؟

فى الديوان رسالة مثبتة بالزنكوغراف ، وهى رسالة لم يلتفت إليها الدكتور هيكل ، ومنها أتخذ الشواهد على ضعف الحكم الذى نقله عن صاحب « الوسيلة الأدبية »

وإلى معاليه أسوق الحديث :

١ — فى ص ٤٣ جاء بخط البارودى فى وصف ما عانى هو ورفاقه من هياج البحر :

« ومكثنا على ذلك ثلاثاً ، لا نجد فيها غياثاً »

وعند تأمل الخط نجد أن الأصل (ثلاث) و (غياث) ، وأن البارودى التفت إلى الخطأ النحوى فرسم ألفين فوق هاتين الكلمتين ، وهذا يشهد بضعفه فى النحو ، ولكنه لا يشهد عليه بجهل النحو ، بدليل هذا التصحيح

٢ — وفى ص ٤٦ نجد بخط البارودى :

« هيهات ، ما كل شامة خالاً ، ولا كل حلقة خلخالاً »

وعند تأمل الخط نرى أن الأصل (خال) و (خلخال) ، ونرى البارودى وضع ألفين فوق هاتين الكلمتين

والتصحيح فى هذه المرة أدق ، فهو فى الشاهد السالف كان التفاتاً إلى حكم الظرف وحكم المفعول فى الإعراب ، وهو فى هذا الشاهد التفات إلى حُكم (ما) الحجازية ؛ وكان يسعه أن يبقى هاتين الكلمتين من التصحيح ليسير مع النحوى الذى يقول :

وَمُهفهَفِ الأعطافِ قلت له : انتسب
فأجاب : ما قتلُ المحب حرامُ

والذى يَفرِق بين (ما) الحجازية و (ما) التميمية لا يوصم بجهل قواعد اللغة العربية

٣ — وفى ص ٤٩ نجد بخط البارودى :

« بل حسبت أن قطرات المُزن ، دموع أسالتها زفرات الُحزن » ! ؟

وننظر إلى العين من دموع فنراها كانت (عاً) ثم أصارها البارودى (عٌ)

فما معنى ذلك ؟ معناه أنه توهمها أولاً مفعول (حسب) ثم أدرك أنها خبر (أن) والذى يجهل النحو لا يدرك هذا الفرق

٤ — وفى الصفحة نفسها نجد البارودى يقول :

« اللهمّ يا هادىَ الضُّلاّل فى الليل المدلهمّ ، وناصر الملهوفين فى غمرة اليوم المسلهمّ »

وننظر فنجد البارودى محا كلمة (الملهوفين) وأثبت كلمة (المُلاّك) حرصاً على الازدواج ، فنفهم أنه كان يعرف علم البديع

٥ — ومن هذا ما جاء فى ص ٥٠ حيث يقول :

« ما وعد إلا وأخلف ، ولا سالمَ إلا وأتلف »

فقد محا (سالمَ) وأثبت فوقها (أوعد) حرصاً على الجناس والطّباق !

٦ — وفى مقدمة الديوان يحدثنا البارودى عن (ذِكر الشيء باسم غيره لمجاورته إياه) فنفهم أنه كان يعرف أشياء من علم البيان

٧ — ونصَّ البارودى على قصائد فيها (لزوم ما لا يلزم) ، فكيف يقع هذا من رجل يحكم عليه هيكل باشا بجهل القوافى ؟

يضاف إلى هـذا أحكامه على الشعراء وهى تدل على بصره بالنقد الأدبى ، وكذلك تدل استفادته من المعاجم على فهمه لأصول علم الصرف

وصفوة القول أن البارودى كان على بينة من علوم اللغة العربية ، وإن لم يصل إلى التفوق فى تلك العلوم ؛ فقد كان يعتمد على فيض الفِطرة والطبع ، وهما أفضل أدوات الشعراء

الخمريات والغراميات

وطاب للدكتور هيكل باشا أن يؤكد أن البارودى لم يكن صادقاً فى الخمريات والغراميات ، وقد جزم بأن قصائده فى هذين الفنين لم تكن إلا محاكاة لأساليب القدماء

وهذا الحكم صواب من جانب وخطأ من جانب ، فهو صحيح فى الخمريات لأن أشعار البارودى فى الخمر لا تخلو من ضعف ، ولكن هذا الضعف لا يرجع إلى أن الخمر لم تذهب بعقل البارودى ، كما يقول الدكتور هيكل ، وإنما يرجع إلى أن وصف الخمر فن لا يحسنه جميع الشعراء وإن كانوا فى حبها من الصادقين

أما غراميات البارودى فهى صدق فى صدق ، وأشعاره فى العشق آية فى الإفصاح عن صَبَوات القلوب ، وقد تذكَّر بغراميات الشريف فى بعض الأحيان

وما الموجب لأن نقول للبارودى « كذبت » حين يتحدث فى أشعاره من هواه ، مع أنه يقول فى مقدمة الديوان :

« إنما هى أغراض حركتنى ، وإباء جمح بى ، وغرام سال على قلبى »

أما أن كان الدكتور هيكل يريد تنزيه البارودى عن مآثم الفتيان ، فلكلامه وجه مقبول ، فقد كان البارودى رئيس الوزراء فى بعض العهود ، ويجب على الوزراء أن يعيشوا بلا قلوب

الجديد فى شعر البارودى

ويقول الدكتور هيكل باشا إن الجديد الذى استدعى الإعجاب بشعر البارودى « هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو فى بساطة وسلاسة وقوة دون اعتماد على محسنات اللفظ البديعية »[1]

ونقول إن هذا التصوير بعيد من أذهان من عاصروا البارودى وكانوا مولعين بالزخرف والبريق ، وإذن يجب على الدكتور هيكل أن يتلمس رأياً غير هذا الرأى ، وهو قد اهتدى إلى الصواب بعد ست عشرة صفحة فقال :

« إن هذا الشعر كان جديداً كله ، كانت محاكاته الأقدمين جديدة ، وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة »[2]

فإذا أعيد طبع الديوان فليتفضل الدكتور هيكل بحذف الحكم الأول والاكتفاء بالحكم الثانى

التحكم فى التاريخ

للبارودى قصيدة لامية قال فيها ما قال فى التنديد بالمصريين ، وينص الديوان على أنها قيلت فى عهد « إسماعيل » ولكن الدكتور هيكل يعتسف فيحكم بأنها قيلت فى عهد « توفيق »

فهل يملك الحق فى نقل القصائد التاريخية من عهد إلى عهد ؟

إن عصر إسماعيل كان مبعث نهضة بإجماع الآراء ، وعصور النهضات لا تخلو من بواعث الحب والبغض ، والحمد والملام ، فكيف نستبعد صدور قصيدة ثائرة فى عهد إسماعيل ؟ وكيف عرف هيكل باشا أن البارودى لم يذق فى عصر إسماعيل غير القرار والاطمئنان ؟

لو أن الدكتور هيكل التفت إلى القصيدة التى أثبتها بيده فى ذيل الصفحة الثالثة والعشرين لرجع عن ذلك الاعتساف ، وهذه إشارة فيها كل البيان

الطبيعة بين الصمت والنطق

وشاء الدكتور هيكل باشا أن يحكم بأن « البارودى إذ كان يسجل الصور فى شعره لم يكن يسجلها فى صمتها وسكينتها على ما يولع به عشاق الطبيعة الصامتة »

فما معنى هذا الكلام ؟ ومتى صمتت الطبيعة فى أوصاف الشعراء ؟

لعله يريد أن يقول إن البارودى كان قوىّ الشعور بحيوية المناظر الطبيعية ، وبما فيها من فاعلية وانفعال ، فقصّر به التعبير عن بلوغ ما يريد

المستنيرون فى عهد توفيق

هم فى نظر الدكتور هيكل رجال الجيش ، وقصرُ الاستنارة على رجال الجيش فى ذلك العهد غير صحيح ، فقد كان فى مصر جماعات علمية وأدبية تفوق فى الاستنارة رجال الجيش ، والصواب وضع كلمة « السياسيين » فى مكان « المستنيرين » فقد كان رجال الجيش ساسة البلاد فى ذلك الحين

تاريخ الشعر العربى

ويقول الدكتور هيكل إن الشعر العربى قضى ألف سنة فى انحلال إلى أن بعثه البارودى ، فمن أين جاء بهذا القول ؟

أنحكم على ماضينا الأدبى هذا الحكم الظالم فى سبيل إنصاف البارودى ؟ ليرجع الدكتور هيكل إلى « مختارات البارودى » إن شاء ، فإن فعل فسيعرف أن البارودى يرى غير ما يراه ، فقد وصل اختياره إلى القرن السابع ، وصح له أن يحكم بأن سبط ابن التعاويذى وهو من شعراء القرن السادس كان يتابع الشريف الرضى ويمشى على أثر مهيار الديلمى . والبارودى الذى اعترف بحياة الجزالة الشعرية فى القرن السابع كان من شعراء القرن الثالث عشر ، وعلى هذا تكون المدة التى انحل فيها الشعر نحو خمسة قرون ، فكيف يجعلها الدكتور هيكل عشرة قرون ويوصى بإسقاطها من الحساب ؟

يشفع للدكتور هيكل أنه أراد المبالغة فى التنويه بمقام البارودى ، ولكن الإحسان إلى البارودى كان يتم بدون الإساءة

---

(١) ص ١٤

(٢) ص ٣٠

البحـــــر ...

[البحر لا ينام وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام]
« جبران »

للدكتور حسن عثمان

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

ضاقت نفس الشاعر بالأرض اليابسة التي تزدحم بالمدن، وتمج بالحركة، وتضيق بالتقاليد، وترهق بالأوضاع والمظاهر، فانطلق إلى الماء الفسيح، إلى البحر الطليق، يلتمس عوناً وملاذاً. واقترب منه رويداً رويداً وهو يشخص ببصره إلى زرقته من بعيد، وصوت أمواجه المتلاطمة يعلوها الزبد يضرب في أذنيه، ورائحة البحر المالحة تملأ صدره، ورياحه تتخلل غصون الشجر، فتهتز وتتمايل، وتخرج منها أصوات تجاوب أصداء البحر. وأخذ الشاعر يطيل السير وحيداً على شاطئه دون أن تسمع صوت أقدامه، وهو ينظر مطرقاً إلى هذه الأمواج تصطفق ثم تنساب على الشاطئ. ويتأمل ويفكر ويحلم وينعم الطرف فيما هو قريب وفيما هو بعيد، إلى أن يضيع نظره فيما وراء الأفق، في رهبة وسكون

ثم يقطع تفكيره وسكونه أصوات حوله فيتلفت، فإذا به يرى أخلاطاً من زبانية البشر، من عبيد الأرض، يهرعون إلى البحر لكي يطفئوا نيرانهم، ويطهروا نفوسهم من الآثام والخطايا. ويلمح الشاعر في ناحية قصية نفوساً هائمة وقلوباً دامية تصرخ من أعماقها في الظلام ... فيسارع إليها ويدرك شكاتها لأول نظرة ... فتثير في نفسه كل هذه الرؤى كوامن الشجن، وتهتز مشاعره، وتنهمر دموعه اللحة الساجيات غزيرة مختلطة بماء البحر اللح. ويحس البحر الواسع الرحيب هذه النيران، ويلمس تلك الخطايا والأشجان، فيقبلها ولا يلفظها. ويطهر الآثام، ويأسو الجراح

وترك الشاعر مكانه واعتلى ظهر سفين مطوّفاً إزاء الشاطئ، فشاهد صور اليابسة وألوانها. فهذه رمال وكثبان صفراء، تعلو من بينها باسقات النخيل، وتنحسر عنها مياه البحر الزرقاء؛ وتلك جبال شاهقات تكللها الخضرة، وأخرى صخور جرداء شامخات توازن بارتفاعها عمق البحر؛ وأولئك هم الصيادون والغواصون يجمعون اللآلئ والمرجان والأصداف والأعشاب من كنوز البحر وعجائبه؛ وهاتيك الطيور البيضاء تهبط إلى سطح الماء تلتقط الأسماك كأنها تشكو عصف البحر، فتعلو في جوف الطيور إلى الفضاء؛ وهذه الجزر وتلك الصخور

إلى تاريخ الشعر العربي. فليتفضل بمراعاة هذا الجانب من مقدمته في الطبعة التالية، إيثاراً للعدل، فما كان في أحكامه الأدبية من الظالمين

المصريون في عهد البارودي

حكم الدكتور هيكل بأنهم لم يكونوا يعرفون اللغة العربية، وإنما كانوا يتحدثون بلغة أخرى هي العامية

وهذا الكلام يحتاج إلى تحديد، فإن كان يريد الخواص فهو مسرف، فقد كان هؤلاء في يقظة عقلية وروحية، بدليل ما تركوا من نفائس المؤلفات، وإن كان يريد العوام فهم إلى اليوم يتكلمون العامية، ولم يستطع جهلهم أن يصد الخواص عن التحليق في أجواء الأدب الرفيع

البارودي في منفاه

اكتفى الدكتور هيكل بالنص على حنين البارودي إلى الوطن وهو في منفاه، وسكت عن مسألة مهمة جداً، وهي براعة البارودي في بعث « المدائح النبوية » بعد أن طال عليها الموت، ولهذه المسألة تفاصيل يضيق عنها هذا المجال

***

أما بعد فهذه ملاحظات لم يكن منها بد، لأن مقدمة الدكتور هيكل ستكون أساساً لدرس ديوان البارودي، ومن واجبنا أن ننبه المتسابقين إلى ما يوجه إليها من الاعتراض، ليكونوا على بينة من مكامن ذلك البحث الدقيق

وقد بقيت مآخذ لا تستوجب المسارعة إلى التنبيه، ولعلها تدق عن أفهام طلبة السنة التوجيهية، أما محاسن المقدمة التي كتبها هيكل باشا فهي أظهر من أن تحتاج إلى بيان

لم يبق إلا النظر في المقرر للمسابقة من أشعار البارودي، فإلى الأسبوع المقبل

زكي مبارك

المتناثرة تحيطها مياه البحر، وتتكسر حولها أواذيّه، ويتصاعد، على جنباتها رشاش الماء الأبيض؛ وهنا وهناك ينبثق نور الفنار المتألق، يشق حجب الظلام الحالك، ويرسل شعاع الأمل وسط الضباب الكثيف

ويبتعد السفين صوب البحر قليلاً قليلاً حتى يختفي الشاطئ عن البصر، ويتهادى أياماً وليالى طوالاً والأفق كله ماء وبحر، تلونه أطياف الشمس وأعماق البحر؛ فهو تارة أزرق داكن، وطوراً أغبر مصفر. ويمر السفين فوق جوف البحر. إن قاعه أرض وصخور ووديان وجبال وبراكين وقارات وعوالم ساكنة ومتحركة في أعماقه منذ الأزل. إنه عميق جداً. لا يصل الإنسان إلى قراره. ولا يعلم أحد كل ما طواه في صدره. ما الذي طواه بالأمس، وما الذي سيطويه في الغد.

إنه يحمل الأطفال من البشر فوق سطحه الفسيح في رفق وحنو. إنه يجول بهم ويستقبل الشمس إذ تبزغ في الصباح وترسل نورها فوق محيطه الواسع، وتغرب عند الأصيل وهي تودعه بأشعتها الأرجوانية. وفي الليل الصافي الساكن تتلألأ السماء بالنجوم البراقة، ويبدو القمر هلالاً وبدراً ساطعاً خلال السحاب الخفيف، فتنعكس أشعته الفضية على صفحته اللامعة، والنسيم يلمس أمواجه المهتزة المتلاقية. إنه هادئ وادع أليف. إنه يطرب. إنه يبسم وينشد ويترنم.

وفجأة يكفهر الجو، وتتلبد السماء بالسحب، ويومض البرق نذير العاصفة، وتشتد الريح، ويقصف الرعد مدوياً، ويدفع الإعصار أمواج البحر شاهقة تطاول السحاب، ثم تعود فتنكسر وتهوى على صفحته الصاخبة. إنه غاضب. إنه ثائر عنيف. إنه جبار. إنه يدوى بصوته الغاضب إلى عنان السماء. إنه رائع. إنه هائل جداً. إنه يطوح بالسفن فوق سطحه، ويقذفها عالية فوق أمواجه، ثم يهبط بها في لجته السحيقة. إنها ألاعيب تحمل طُرزاً من الكائنات ترتدى أثواباً زرقاء وحمراء وصفراء. إنها دُمى يمحو البحر ما بينها من فروق المابس، ويذيب عنها خيلاء الأرض. وكلها تتساوى وتصغر وتتضاءل أمام جبروته. ويفرق واضحاً أمامها الحد بين الأمس المعلوم وبين الغد المجهول، فتتأرجح كلها بين الحياة والموت في لحظات رهيبة ... ويبتون يطلق ضحكاته في الفضاء ساخراً! ... ثم تنجلي العاصفة، وتسكن الريح، ويعود البحر هادئاً وادعاً أليفاً، ويداعب هذه الخلائق التي

أرهقها غضبه ونورانه ... وحينئذ تثوب النفوس إلى رشدها، وتعرف القلوب دناءة الأحقاد وصغارة المطامع، وتنقشع عن البصائر غشاوة الباطل وزور البهتان

أيها البحر العريق! يا أبا الأرض ويا أصل الوجود ويا معلم الإنسانية ... أيها الحاجز بين القارات، أيها الواصل بين العوالم، يا من أجرت سحبك أنهار الأرض، وأقامت أمطارك معالم المدنية ... ويا من على سطحك جرت الفلك تحمل ثمار الحضارة ... ويا من شهدت أعطافك جولات الفراعنة، وسجلت أمواجك التحام الأساطيل ... ويا من خشعت مياهك فأفسحت الطريق لبني إسرائيل ثم أطبقت على آل فرعون من القوم الظالمين ... !

أيها البحر العظيم! لقد عبدك الأقدمون، ورسم أطيافك المصورون، وردد صدى أنغامك الشعراء والموسيقيون ... إنك هادئ صاف رائق. إنك ثائر عاصف عميق. إنك جبل أزرق. إنك مانع جامع. يقرأ الشاعر على صفحتك ما لا يسطره القلم، وما لا يقرأه الأمهون من الناس. إنه ينصت إلى أساطيرك وقصصك. إنه يستلهم معانيك ووحيك، ويبهره جمالك وجلالك، فلا يطيق النظر إليك، ويغمض العينين دونك، وتشيع في نفسه رائحتك، وتمر في خياله ذكرياتك وصورك

حسين عثمان

مواسم الأدب

للأستاذ كرم ملحم كرم

يوم لنا ويوم علينا. هذا حال الأدب؛ فلا بد فيه من يقظة وهجمة. والأدب وليد الحس، والحس تتفق له حيناً وثبات يصاول بها الفلك، ويدهمه حيناً سكون تغلب عليه فيه نومة ... هجمة الموت أهنأها!

فكأن للأدب مواسم يشع فيها ويكشف عن جبينه وقد دانت له مثلفات الوحي، وتفتحت عليه سموى الإلهام. كأنه يتقلب بين سعود ونحوس؛ فيضيء نجمة وقادة ليخبو كمصباح عاش إلى الزيت. فما إن تعصف به الناشية حتى تذهب باليانع من أطايبه، والنامي من أغصانه؛ ويحييه غيث ندي فيتلألأ بسخاء، ويزكو بسماح، ويعلو أبداً فيطول عين الشمس وينفذ إليها ساطعاً منها على الدنيا، مالئاً كل زاوية وحجاً وسنى!

ولقد بحثت عن الأدب فما اهتديت إليه بغير أبواب الملوك، وإنه ليجالس الملوك؛ يهشون له فيبش لهم، ويصدون عنه فيغمز بهم. فإن يهبوا له العطايا ينفحهم ببدائعه، وإن يعكسوها عنه وينتضوا في مقاتلته سيفاً حديداً يناهضهم بلسان أمضى من القاطع الفتاك.

وما هي عطاياهم تجاه بدائعه؟... عطاياهم تذوب ونفائسه تبقى؛ عطاياهم تذوب لا تثبت على الأيام، على حين أن نواجيه تفل من عزم الأبد، ولولاه، لولا ما يخلع عليهم من مديح، لتناست الأجيال المتعاقبة معظمهم؛ وحتى أهاجيه تمد آجالهم، فيصونهم الخلود، لكون الأدب تفنن بمآتيهم، أو أحسن النيل منهم وأبى على الزمن أن يبيد آيات سمت عن التلاشي والاضمحلال

بيد أن فضل الأدب على الملوك لا يمحو فضل الملوك على الأدب. فما بلغ الأدب أشده، بل هو لم يتنفس وتختلج فيه الحياة المطمئنة الوضيئة، لولا أن هؤلاء الملوك يغذونه بعطاياهم، وتوحي به مجالي الأبهة والجلال في معيشتهم وسكناهم. فالمهابة والندى من باعثات الوحي وحوافز البيان. فلا بد لمن تكمن فيه آيات البلاغة أن يحضنهما ويبوح بما يجيش في نفسه من إعجاب وإجلال...

فالتاج والصولجان ينطويان على عظمة ملموسة تفتق العاطفة على جودها، وتستل من أعماق القلوب الكلام الجنح والمنطق الحلال. فيفيض الأديب الموهوب بالبيان الصافي، وينتزع المعاني من مخابئها؛ بل هو يغوص عليها في مظانها يجلو بها العقد النظيم ويدفعه أنيق الصياغة، ساطع الجبين!

وقد تندفع إليه هذه المعاني عفواً، دون ما كد ذهن ولا إجهاد نفس. فالعظمة المنبسطة أمامه بسلطانها وبهائها تبعث في لبه القوة على توليد كل معنى جليل ليعادل بنسج بيانه المشهد السامي المنعة، المحفوف بالنعمة، المتوهج في عينيه

والملك الضلّيل نفسه لم يبلغ مكانته الشامخة في أدب الضاد لو لم يعش في أحضان ملوك، ويستنشق في بلاط أبيه شميم العزة، ويلمس بيديه فخامة السلطان. فأقبل إلى ساحة الأدب مثقلاً بفخفخة الملوك، وكان أدبه صدى هذه الفخفخة المبهدة للمعان المجلببة بالنعمى، اللينة الجانب، المكينة البنيان

وامرؤ القيس، الملك الضليل، في طليعة موكب الأدباء في لغة الضاد. فما اتى الأدب بيانه المنشور في سوى بدائع ذلك الفتى وقد جمحت به العاطفة فانطلقت من كبده حافلة بالقول الشعي والصوغ المحكم الأداء. وتوالت من بعده السلسلة حلقة حلقة، وكلها تنم عن طيب أصحاب الجلالة، أو من يستوى في معاقلهم من أصحاب الجاه الوسيع، والظل المأنوس؟

ومن أنطق بالأدب المصفى المتملس، وابن أخته طرفة بن العبد، وابن كلثوم، وابن حلزة اليشكري سوى الملك عمرو بن هند؟ ... فإن هذه القافلة من أدباء العهد الجاهلي مدينة لابن هند في الإبداع في النظم والإنشاد. وأنى لابن كلثوم أن يسمعنا معلقته التياهة:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لولا عمرو بن هند الملك الأثيل المجد الأبلج المنتمى؟

وهذه الشعلة المتأججة في منظوم النابغة الذبياني، أين كنا نجدها لولا النعمان بن المنذر، أبو قابوس؟ ... فالنابغة لم يسحب في أبياته وقوافيه ذيل الدلّ والإعجاب لولا هيبة السلطان وعاصمه الجليل:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومثله لبيد. فالنعمان مهّد له السبيل إلى النظم والإجادة وهو في سن تقصر عن البلوغ. فطعن في حضرة صاحب السلطان على الربيع بن زياد العبسي طعنات دامية أزاله بها عن مكانته السامقة وقد صاح بالنعمان والربيع بؤا كله:

مهلاً ، أبيت اللعن ، لا تأ كل معه !

ولن ننسى ابن أبي سُلمى ، زهيراً ، صاحب الحوليات القائل :

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش
ثمانين حولاً ، لا أبالك يسأمِ

فإن عليه لهرم بن سنان يداً في إفاضة النظم وفي تذليل المعاني الحسان :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله

والأعشى . ماذا نقول في الأعشى المتكسب ، جوّاب الآفاق ؟ أما أقام بباب الأسود ، أخي النعمان ، يغالي في المدح ويسأل العطاء – والهُسى تفتح الهُا ؟

هذا في العهد الجاهلي . ولقد كان العهد الإسلامي في مستهله أمضى حافز على النظم والإبداع . فالدعوة الإسلامية بحاجة إلى من ينادى بها ، ويذيع فضائلها ، والخصوم يتألبون عليها . فانتصب المنافحة عنها حسان بن ثابت الأنصارى . واعتمده النبي العربي في الكفاح . وأسمعنا كعب يتيمته :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ...

وطاف الحطيئة بالأبواب يستندى ويستجدى . ومن أمسك عند يده هدده بقحات لسانه ؛ فأنجده في الجاهلية أبو سفيان ، وأجزل له في الإسلام العطاء عمر بن الخطاب ، فابتاع منه لسانه بثلاثة آلاف درهم لئلا يطلقه في سب المسلمين لا يخشى ، ولا يتحامى فحش القول والتهشيم

ونبض العهد الأموى بالحياة ، فإذا الأخطل يبدو ويقبل في أثره الفرزدق وجرير . ثلاثة معاول للهدم ودك المعاقل الشمخرة . وبسط معاوية يده في استمالة الأدباء فكان للأدب في عهده موسم خصب وسوق نافقة . فكل من أحس في نفسه ميلاً إلى الأدب تبع ميله وماشى هواه . فالعهد بات عهد نظم وخطابة وإنشاء ، يمدح الأدباء معاوية ويزيد ابنه فتمتلئ أيديهم بالعطايا النفيسة ، وينعم الخلفاء ويكسب الأدب !

ولم يعدم هؤلاء الأدباء ساعات لهو يبيحون فيها للنفس سجيتها وينطقون بما ينتفض في قلوبهم من عاطفة مشبوبة وهوى دفين . فيحدثنا الأخطل عن حبه للكأس واستهانته بابنة العنقود وينصب جرير بفاتنته أم عمرو وقد سلبته صفاء القلب ؛ وتسبيه حور العيون ، فما يتمالك أن يقول :

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

ويفضح الفرزدق فسقه في مقاله :

هما دلتاني من ثمانين قامة ...

وهو هو القائل في زين العابدين ، حفيد علي بن أبي طالب :

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد خُتموا

والقصيدة من اسمى المنظوم ، وهي في المدح لا عديل لها ، فمن أوحى بها ؟ ... ابن بنت النبي ، ملك من سلالة ملوك وإن هم ناموا في مطلع نهضتهم عن التاج والصولجان

وعظمة سحبان وائل ، الخطيب البليغ اللسان ، أين تجلت في أبهى جلالها ؟ ... أليس في بلاط معاوية الأول ؟ ... وبيان عبد الحميد الكاتب أين سما ؟ في بلاط الخليفة الجعدى ، خاتمة الملوك الأمويين !

* * *

وزحزح العهد العباسي لثامه فإذا ابن المقفع في خدمة أعمام الخليفة ، وإذا الخليفة العباسي الثاني يدعوه إليه ويكلفه نقل الكتب الأعجمية الذائعة الصيت إلى لغة الضاد . وهكذا نعمنا بكليلة ودمنة ، أنق مثال للأدب الوزين !

واتسع المجال في منتدى الخلفاء لكل ناظم وكاتب . فقام أبو دلامة وأبو معاذ الأعمى بشار بن برد ، في بلاط المهدى . واشتد الإقبال على الأدب . ولم يكن بيت المال في بغداد دون بيت المال في دمشق ، فتألقت المدارس الأدبية ، وبدا المنشئون في سطوة وهناءة . فالعباسيون شاءوا أن يبزوا الأمويين في العلم وبث الدعوة . وما خلا الجو للرشيد حتى أصبح أدب الضاد مشعل هدى ؛ وكان قد أضاء في سمائه الخليل بن أحمد ، وأبو نواس، وأبو العتاهية ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وسيبويه ، والجاحظ ، والكسائي . وجاء المأمون فإذا أوسع نهضة أدبية في لغة الضاد تتجلى . فما شهدت لغتنا عهداً فواحاً خصباً في الأدب والعلم كعهد المأمون !

وقُبض المأمون فقامت دولة أخيه المعتصم . وفي كنف المعتصم لمع أبو تمام . وكان المتوكل فنبغ في رحابه الشاعر البحترى . وانتهى الموكب إلى المتنبي فتلظت مواهبه في حمى الملوك ، ولا سيما في بلاط سيف الدولة الحمداني

وما شذ الأدب في الأندلس عن القاعدة . فعاش في ظلال الملوك وانطفأ بانطفاء الملوك ، مثله في دمشق وبغداد . فما إن تنقضى الدولة حتى يأوى إلى المضجع . ولقد طال هجوعه نحواً

جميل نخـــلة المدور

١٨٦٢ – ١٩٠٧

للأستاذ كوركيس عواد

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

٤ – مؤلفاته

الذى لم يقف على شىء من ترجمة المؤلف قد يظن أنه رجل عراقى ، وهذا أمر متوقع ! فإن جميل نخلة المدوّر ، عُنِىَ عناية خاصة بتاريخ العراق ، وخدمه خدمة مشكورة بحفظها له التاريخ على مدى الأيام ، ويقدرها له أبناء العربية حق قدرها ، وعلى الأخص أبناء العراق منهم

فلقد قضى ردحاً من حياته فى تدوين تاريخ العراق قبل العهد الإسلامى وبعده بكتابيه : (تاريخ بابل وأشور) ، (حضارة الإسلام فى دار السلام) اللذين سنخصهما بجزء من كلامنا فى ما يلى من هذا المقال . ودونك لمحة عن كل من مؤلفاته :

١ – تاريخ بابل وأشور

لا نُغالى إذا قلنا إن (تاريخ بابل وأشور) هو أول كتاب ظهر من نوعه فى اللغة العربية !

والذى نمهده ، أنه لم تشهد العربية منذ صدوره حتى يومنا هذا سوى كتابين فى هذا الباب : أحدهما (تاريخ كلدو وأثور[1]) للعلامة المأسوف عليه السيد أدى شير . وثانيهما رسالة بعنوان : (مقالة فى مملكة أثور[2]) للعلامة البطريرك رحمانى . ولم نهتد إلى غير هذه التصانيف الثلاثة باللغة العربية مما يتعلق بهذا الموضوع الواسع النطاق . مع أن الكتب الموضوعة فيه باللغات الافرنجية نكاد لا نحصى لوفرتها !

على أن لجميل نخلة المدوّر فضل السبق فى هذا الميدان ؛ فقد نشر كتابه أولاً فى مقالات ظهرت على التوالى فى اثنين وعشرين جزءاً من المقتطف[3] . ثم جُمعت تلك المقالات فى كتاب خاص طبع ببيروت فى المطبعة الأميركية سنة ١٨٧٩ فى ٦٢ صفحة . ثم جُدّد طبعه بمطبعة الفوائد ببيروت سنة ١٨٩٣ فى ١٢٨ صفحة

ولا نرى للتعريف بهذا الكتاب خيراً من أن نقتبس من مقدمته الفقرة التالية على لسان مؤلفها[4] :

« ... وألّفتُ هذا الكتاب فى تاريخ أشور وبابل ، وقد جمعته من أشهر أقوال المؤلفين فى هذا الأوان ، مما وصلوا إلى تحقيقه بعد شهادة الاختبار والبرهان ؛ وقسمته إلى قسمين : أحدهما جغرافى يبين الحدود والمساحات ، والآخر تاريخى ذكرت فيه ترجمة من اشتهر من ملوكهم وعظمائهم ، وما اشتهر لهم من الفتوحات وعظائم الأعمال إلى حين انقضائهم ... »

وهذا الكتاب « وقف عليه اللغوى الشيخ إبراهيم اليازجى فهذّب عبارته وصحح مبانيه ، فجاء نقياً من الكلف ، بريئاً من الكلف ، قريب اللفظ على بُعد مرامه[5] »

وكم كنا نود ، لو أشار المؤلف إلى المراجع التى استند إليها فى تصنيف كتابه ، التى نظنها كانت بالفرنسية ، لإجادته هذه اللغة على ما أسلفنا الكلام عليه

(١) طبع المجلدان الأول والثانى فى بيروت سنة ١٩١٢ – ١٩١٣ ، والثالث فقدت مسودته فى الحرب العظمى للماضية على ما انتهى إلينا .

(٢) طبعت فى بيروت فى (٥١) صفحة دون ذكر سنة الطبع . وهى فى الأصل نشرت فى المجلد الأول من مجلة « الآثار الشرقية » ، الصادرة فى بيروت سنة ١٩٢٦

(٣) انظر المجلدات الثالث والرابع والخامس من المقتطف ، الصادرة فى السنين ١٨٧٨ – ١٨٨١ م .

(٤) تاريخ بابل وأشور (ص ٤ من الطبعة الأولى)

(٥) المقتطف (المجلد الخامس ، ص ٥٥)

من ستمائة سنة ، فلم يتنفس بسوى انتظام اليازجى الأول فى ديوان الأمير بشير الثانى حاكم لبنان

وكان قد بعث فى وادى النيل فى عهد محمد على . وبلغ أوجه فى دولة عباس حلمى . وقد زانه شوقى وخليل وحافظ وابراهيم اليازجى ونجيب الحداد وولى الدين يكن ومصطفى لطفى المنفلوطى بأبهى حلل البيان . وإنه ليتهادى اليوم فى خطوه متفيئاً دوحة أبناء محمد على الباذخة . فكأنه يستطيب أبداً صحبة الملوك . فلا تقوم له قائمة فى سوى جنابهم ، ولا تتقد فيه العزيمة وتلتهب الحياة إلا وهو يجالسهم . فوسمه موسمهم ، كأن دولتهم دولته ، وكأن أبناءه أشباه لهم وأنداد !

(بيروت) كرم ملحم كرم

وقد وقفنا منذ زمن على بحث للعلامة الأب أنستاس ماري الكرملي عنوانه : (سلوان الأسرى في إيوان كسرى[1]) ، فيه نظرات نقدية صائبة للأعلام الواردة في هذا الكتاب ، وجهها بشيء من العنف ، إلى مؤلف الكتاب ، أو بالأحرى إلى مصححه اليازجي

ومهما يكن من أمر فإن مباحث الكتاب أضحت في وقتنا هذا قديمة لا يركن إليها ، نظراً إلى ما دخل هذا (التاريخ) من الحقائق الجديدة التي هي ولا مراء وليدة علم الآثار . ولا يخفى أن هذا العلم قد أحرز تقدماً مدهشاً في مختلف الميادين خلال هذه المدة التي أربت على الستين سنة ! فإذا تركنا هذه الملاحظة جانباً ، وجدنا في الكتاب بعد ذلك دليلاً واضحاً على ما كان عليه ذلك العلم قبل أكثر من نصف قرن ! وفي معرفة ذلك فائدة جليلة لمن يعنى دراسة تاريخ العلوم

٢ — أتالا

صنف هذه القصة الخيالية الكاتب الفرنسي الشهير شاتوبريان[2] Chateaubriand سنة ١٨٠١م باللغة الفرنسية[3] وهي رواية انتزعها المؤلف من كتابه (عبقرية النصرانية)[4] ، ولم يكن يومئذ قد أكمله . والحادث الذي تدور عليه الرواية ورد في أميركة الشمالية ، وذلك أن (شكتاس) أسره جيل من الناس كان عدواً لرفاقه . فحكم عليه بالإحراق ، وكانت (أتالا)[5] ابنة الزعيم الأقوى للقبيلة المعادية ، فعشقت الأسير وخلصته في الليل وفرت به إلى القفار . أما وصف المؤلف لما انتاب العشيقين من الخوف والأمل والحب ووخز الضمير الذي كان يعذب هذين الفارين الطاهرين ، فمن القطع الأدبية الرائعة ! ففي هذه القصة المؤثرة التي وصف فيها الغرام وصفاً بليغاً أوحى شاتوبريان إلى أوربة بعالم جديد . فقد ذكر البحيرات العظيمة والحراج الأبكار التي تغشى أميركة الشمالية ؛ ثم انتقل إلى وصف قبائل هنودها وعاداتهم وأخلاقهم ومعتقداتهم ، وبيّن ما بين الحياة الهمجية والحياة المدنية من التضاد ؛ فزاد ذلك بما في الرواية من الإفادة

وقد نقلها جيل نخلة المدور إلى العربية ، وطبعها في بيروت سنة ١٨٨٢ م

والذي نعرفه أن لهذه الرواية ثلاث ترجمات عربية أقدمهن للخوري عيسى بترو الأورشليمي الرومي[1] ،ومن هذه الترجمة[2] نسخة خطية في خزانة باريس الوطنية (Ms. 3680) ، والثانية لجيل نخلة المدور ؛ والثالثة[3] لفرح أنطون ، وقد طبعت هذه الأخيرة في نيويورك سنة ١٩٠٨ في ٨ + ٤٨ صفحة

٣ — التاريخ القديم

هذا الكتاب مختصر في التاريخ ، لم يعلم مؤلفه الذي جمع مواده من مراجع مختلفة ، مبتدئاً به بسنة ٤٩٦٣ قبل الميلاد ، ومنتهياً به بسنة ٣٩٥ للميلاد ، وقد رتبه على مقدمة وثلاثة كتب ينطوي كل منها على فصول ، وسار فيه بحسب السنين

نقله جيل نخلة المدور إلى العربية ، وطبعه في بيروت سنة ١٨٩٥ في ٣٥٦ صفحة[4]

٤ — حضارة الإسلام في دار السلام

هذا هو أسمى مؤلفات جيل نخلة المدور ، وأعظمها شأناً ، والقطب الذي تدور عليه شهرته . فقد ألفه بطريقة ربما لم يسبقه إليها أحد في اللغة العربية[5] اشتغل في تصنيفه زهاء العشر سنوات . فقد نشر منه فصلاً في المقتطف[6] سنة ١٨٨٠ بعنوان (البصرة في خلافة المنصور) . فوطأ محرر المقتطف حينذاك لهذا الفصل بالكلمة التالية :

(١) المشرق (٥ [١٩٠٢] ص ٦٧٥ — ٦٧٦ بالحاشية)

(٢) ولد سنة ١٧٦٨ ومات في باريس سنة ١٨٤٨ م .

(٣) عنوانها الفرنسي Atala

(٤) Le génie du christirnisme

(٥) يقرب هذا الاسم من اللفظة العربية « الأثلة » النبتة المرونة التي سمي بها بعض النساء العربيات

(١) نقل إلى العربية بضعة كتب وبعض منقولاته تاريخها سنة ١٨١٢م

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (ص ١٢٠)

(٣) فهرس دار الكتب المصرية (٧ : ٢٤٩)

(٤) في فهرس دار الكتب (٥ : ١٠١) تفصيلات أخر عن هذا الكتاب .

(٥) هذه تشبه الطريقة التي سلكها برتلمي أحد أدباء فرنسة (١٧١٦ — ١٧٩٥ م) الذي روى على هذه الصورة سفر أحد الأجانب المدعو أناكرسيس (Anacharsis) إلى جهات اليونان قبل وفاة الاسكندر واصفاً ما يستحسنه من عادات اليونان وأخلاقهم وعلومهم . ومثله سفر تلياك Télémaque للكاتب الفرنسي فنيلون (١٦٥١ — ١٧١٥ م) وهذا الكتاب الأخير نقل إلى العربية وطبع

(٦) المقتطف (٥ [١٨٨٠] ص ١٧٧ — ١٨٠)

« هذه النبذة من كتاب قد باشر تأليفه الشاب اللبيب جميل أفندى المدوَّر ... [إلى أن قال] : فنطلب له تمام التوفيق إلى إنجاز هذا الكتاب الذى لا تحصى فوائده ولا تثمن فرائده »

ولم تظهر الطبعة الأولى لهذا الكتاب إلا فى سنة ١٨٨٩ م وهنا ندع القول للمؤلف يفصح لنا عن الطريقة المثلى التى سلكها فى تصنيف هذا الكتاب الخالد ، قال فى المقدمة :

« هذه رسائل ، وضمت فيها عصراً من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم ، وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملأوا العالم بآثار جلالهم ، وجعلت الكلام فيها لرحالة « فارسى » طوّفته معظم البلدان الإسلامية فى المائة الثانية للهجرة وطوقته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد ... »

فالكتاب رسائل تبلغ العشر عدًا ، كتبها الرحالة الفارسى الحيانى من سنة ١٥٦ إلى سنة ١٨٧ للهجرة ؛ وقد سطر الأولى وهو فى النهروان سنة ١٥٦ ، والثامنة وهو فى بحر تونس سنة ١٨٦ ، والتاسعة وهو فى المشاعر المباركة سنة ١٨٦ أيضاً . أما الرسائل السبع الباقيات فقد كتبها وهو فى بغداد

وقد لخصه من خمسة وثمانين تصنيفاً تمد بحق من أسمى المؤلفات العربية القديمة الباحثة فى علوم الدين واللغة والبلدان والأخبار والأدب وغير ذلك . وما لا بد من ذكره هو أنه لم يدون حقيقة أو يسطر قضية إلا أسندها فى الحاشية إلى المرجع الذى أخذها عنه ، وأشار إلى الصفحة فى كل مرة ينقل من هاتيك المؤلفات الخمسة والثمانين التى ألمعنا إليها . وفى هذا من المشقة ما لا يدركه إلا الذين عانوا مثل هذا التلخيص فى كتاباتهم

ومن يطالع هذا الكتاب ، يدرك أن الغرض من وضعه إظهار طرف من مآثر العرب ومفاخر الإسلام أيام هرون الرشيد والبرامكة . فهو يكشف للقارئ ما كان عليه القوم من علوم وآداب وعادات ومتاجر فى بغداد وغيرها من البلدان . أضف إلى ذلك أنه موضوعٌ على منوال رحلةِ لرحَّالةٍ متفقِّه بالعلوم والآداب المعروفة فى ذلك الزمن ، فهو يصف المدن والمعابد والمشاهد والمبانى والسفن والموانئ وهيئات الملوك والوزراء والعلماء والشعراء والمغنين وغيرهم من الرجال ، ويبين ما كانت عليه طباعهم وميولهم وأفعالهم كما وصفهم الواصفون من أبناء زمانهم المعاصرين لهم

وفى الكتاب ، من الفكاهات والنوادر والأخبار المحققة والآراء الصائبة ، ما تقر به العين وترتاح إليه النفس ، لأنه جاء فيها بألفاظ مستعذبة وعبارات بليغة

فهذه المزايا أهابت – على ما نظن – بوزارة المعارف المصرية الجليلة إلى طبعه وجعله كتاباً للمطالعة ، ولنعِمَ ما فعلت !

وقد أبدى أحد الكتاب ارتياباً فى صحة نسبة هذا الكتاب إلى جميل المدور ، فقال(1) : « ... وكان الشيخ ابراهيم اليازجى يصحح له (أى يصحح لجميل) ما يكتبه ، وفى أصحابهما من يرى أن حضارة الإسلام لليازجى ، وأنه نحله جميلاً فى أيام إدقاع الأول وإثراء الثانى ! »

غير أننا لا نميل إلى هذا الرأى ، ولا نرى فيه ما يحملنا على تصديقه ، لأن كتاباً يُنفق من العمر فى تأليفه نحو من عشر سنوات مما لا يجوز أن ينحل ، خصة وأن الشيخ ابراهيم اليازجى لم يكن بتلك الدرجة من الفاقة التى تدفعه إلى مثل هذا البذل العظيم !

٥ — خاتمة

هذه هى مؤلفاته المطبوعة التى بوسع القارئ أن يرجع إليها إن شاء . وثمة تآليف غيرها لم تطبع ، ولم نقف على شىء من أمرها سوى ما ذكره العلامة الأب شيخو(2) من أن لجميل « فى بيت أهله مخطوطات متفرقة أدبية وتاريخية وروائية »

ومما ورد فى نهاية مقدمة كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام قوله(3) :

« ... وقد عقدت النية ، إجابة لرغبة علماء المسلمين ، ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب ، على متابعة سرد التاريخ الإسلامى فى شكل هذه السلسلة من الروايات ، وتنسيقها فى مثل هذا النمط من درر الآيات البينات ... »

والذى يؤسف له أن تلك النية الحسنة لم تتحقق . ولا نرى السبب فى ذلك إلا اشتغاله بأمر الصحافة ، أو إلى أن يد المنون امتدت إليه فاخترمته ! ونحن واثقون من أن أمنيته لو كانت قد جرت مجرى التنفيذ لكنا نتمتع اليوم بذخائر كنز ثمين من الكتب ونرفل فى جنة من الأدب فيها من كل فاكهة زوجان .

(بغداد) كوركيس عواد

---

(1) الأعلام لخير الدين الزركلى (١ : ١٩٣)
(2) المخطوطات العربية (ص ١٨٧)
(3) حضارة الاسلام (مقدمة الطبعة الثانية)

شخصيات تاريخية

٥ - تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب

مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

قضى تيموستوكل البقية الباقية من حياته وهو يعمل على تنفيذ هذه السياسة ، ويكاد يكون هو الوحيد الذي سار في هذا الطريق ، فهو لا يألو جهداً إلا بذله للنكاية بالعدو اللدود وهو إسبرطة ، ولكن الشعب الأثيني تخلى عنه ولم يسايره ، إذ داخلته الشكوك من ناحية ، وخشى خطره وأصبح يعتقد أن له مأرباً في تنفيذ هذه السياسة ، لذلك كان وحده دون معين ولا نصير في هذه الفترة الأخيرة من حياته وهي الواقعة بين معركة سلاميس ومماته (من ٤٨٠ في ٤٦٤/٤٦٣ تقريباً)

قضى تيموستوكل هذه الفترة شريداً طريداً حتى لم نعد نسمع عنه كثيراً ، بحيث تكاد تكون هذه الحقبة من تاريخ حياته غامضة ، هي غامضة لقلة الوثائق التي تتكلم عنه ، وبالرغم من هذه القلة نستطيع أن نتنسم الأخبار من بين السطور التي كتبت عنها والتي توجد لدينا ، فهذه الوثائق لا تتحدث عنه إلا في فترات متقطعة ، ولكنها ، على ندرتها ، ثمينة جداً لأنها تخبرنا عن تيموستوكل وعن شيء من نشاطه ، فهي ترينا أن تيموستوكل الشيخ لا يختلف عن تيموستوكل الشاب . ألا يزال هو هو ، كله حركة ونشاط ، لا يعتريه اليأس ولا يفل من عزمه عظم المهمة التي ناط نفسه بالقيام بها ، فهو لا يحجم عن الانتقال من مكان إلى مكان للدس ضد إسبرطة والإيقاع بها أيما استطاع لذلك سبيلاً ، فنراه حيناً في أرجوس يعمل على قلب نظام الحكم الأوليجاركى وإقامة النظام الديمقراطى مكانه ، وحيناً آخر في دولتى إيليد وأركاديا . وهو في كل هذه البلاد يقوض من أسس النظام الأوليجاركى الذي يؤيد الدولة الإسبرطية ويشجع قيام النظام الديمقراطى لكي تكون عوناً للدولة الأثينية ، وفي سبيل ذلك نراه لا يتردد عن أشق المهام ، كتأليف اتحاد من المدن الأركادية لمحاربة اسبرطة ، وينجح في هذه المهمة ولكن اسبرطة له بالمرصاد إذ تتمكن من إلحاق الهزيمة بهذا الاتحاد الإركادى وتتغلب عليه في موقعة ديبايا (عام ٤٧٢/٤٧١ ق . م) ، نتفتح عينا تيموستوكل ويرى بوضوح كامل أن اسبرطة ما زالت قوية على بأس عظيم بحيث تستطيع التغلب على أعدائها ، فيحاول أن يسلك سبيلاً آخر ، إذ يسعى ، بعد هذا الفشل الذريع ، إلى النيل منها داخل حدودها وذلك بتقويض دعائم نظام حكومتها وإثارة المتاعب ضدها من سكانها مثل البيريك والهيلوث . ولتنفيذ هذه السياسة نجده يتقرب من شخص آخر يشبهه في المغامرة والجرأة وهو الملك الاسبرطى بوزانياس ؛ وينجح في التفاهم معه على التآمر ضد الحكومة القائمة ، ويعمل الاثنان للاتفاق مع ملك الفرس ، ولكن المشرفين على الحكومة الاسبرطية وفقوا في الكشف عن هذه المؤامرة والقبض على بوزانياس ، وقد ثبت لديهم أن تيموستوكل اشترك مع بوزانياس في التآمر ضد دولتهم ، فطلبوا إلى أثينا معاقبته ، وتلبي أثينا هذا الرجاء وتستدعيه من حيث كان يقيم . ويدلنا هذا على مبلغ كراهيته من الشعب الأثيني حينذاك ، ولكنه لم يأبه لهذا الاستدعاء ولم يحفل به ، بل ظل في الخارج ، ونحن لا نعرف في أي مكان كان يقيم في ذلك الحين ؛ ولكن كل ما نعرفه هو أنه كان يهرب من مكان إلى آخر خوفاً من أن يُقبَض عليه ويُحمَل إلى أثينا فتقتله إجابة لرغبة اسبرطة ؛ أخذ ينتقل من بلد الى بلد حتى ألقى به عصا التسيار إلى بلد عدو من أعدائه هو أدميتوس ملك « الولوس » في شمال غرب اليونان ، وقد كان عداء هذا الملك لتيموستوكل شديداً جداً . ولكنه استقبله وأضافه بالرغم من هذه العداوة الشديدة وهذا البغضاء المستحكم ؛ لأن عادات الضيافة عند اليونان كانت قوية لا تبيح للشخص أن يطرد ضيفه ولو كان من ألد أعدائه ؛ بل ولم يقبل هذا الملك أن يسلمه إلى أعدائه ، وذهب إلى أبعد من هذا فشجعه على الهرب ونظم له الوسيلة وجهزه بكل ما يحتاج اليه من وسائل السفر ، فتمكن له الذهاب إلى « بيدنا » في مقدونيا ، ومنها ركب السفينة قاصداً آسيا لملاقاة ملك الفرس ، ولكن زوبعة تهب على السفينة فتغير عن وجهتها حتى تصل إلى جزيرة ناكسوس في بحر إيجه فيحاول قبطانها

الرجوع به إلى أثينا ، ولـكنه ما زال وراءه بالوعود الخلابة الجميلة حتى حمله على أن يتوجه به نحو مقصده ، ووصلت السفينة آمنة سالمة إلى شواطئ آسيا الصغرى . وهناك نزل منها فى هذه البلاد . وطئت أقدامه أرض « إيفيز » ، فهل تظن أنه أخلد إلى الهدوء بعد ذلك ؟ وكيف السبيل إلى هذا ولا وطن له الآن يتعلق به ، ولا أرض يدافع عنها ، بل هو شريد طريد ؟ من أجل هذا صمم على مقابلة ملك الفرس ليرى ماذا هو فاعل به — وهنـا يختلف المؤرخون فى شخص الملك الذى قابله تيموستوكل ، فيقول المؤرخ توسيديد إنه وصل إلى عاصمة الفرس حينما اعتلى أرتاجزرسيس العرش ، ويقول المؤرخ فايناس ويوافقه على هذا الرأى بلاتارخوس إنه قدم نفسه ليوجزرسيس الذى طالما حاربه لا لأرتاجزرسيس — وهذا الخلاف بسيط لا يمنع الحقيقة الواقعة وهى أنه ذهب إلى عاصمة الفرس وقابل عاهل الفرس أيا كانت شخصية هذا العاهل ؛ وأن هذا قد أغدق عليه النعم والعطايا وخلع عليه كثيراً من الهدايا وعينه والياً على بعض المدن التى أخذ يسوسها حتى قضى نحبه وهو فى المنفى بعيداً عن وطنه وأرض آبائه وأجداده

هنا يختلف المؤرخون أيضاً فى الطريقة التى مات بها . فمنهم من يقول بأن ملك الفرس كلفه بقيادة حملة لمحاربة الأثينيين فى مصر ، ولـكنه رفض أن يخون وطنه فانتحر لعدم استطاعته تلبية مولاه وسيده . ومنهم من يقول بأنه مات ميتة طبيعية فى عاصمة ولايته ببلدة « ماجنيزيا » فى شمال آسيا الصغرى بعد مرض لم يمهله كثيراً

* * *

ألا ترى إذن إلى خاتمة حياة هذا البطل العظيم ، كيف انتهت على هذا النحو من الذلة والعار بعد أن كان قد وصل إلى قمة المجد وذروة الرفعة والسلطان ؟ ألا ترى أن هذا من شأن العظماء ، لا تسير حياتهم على وتيرة واحدة وإنما يعتريها الرفعة والانحطاط ؛ فأنت لا يمكنك بعد ذلك أن تظن أن تيموستوكل قد خان وطنـه ، إذ لم يصل إلينا شىء يثبت أنه قام بعمل ألحق الضرر ببلاده ، بل استمر مخلصاً لها وفياً أميناً ، حتى أنه رفض الذهاب فى حملة إلى مصر لمحاربة أبناء وطنه ، كما ذهب بعض المؤرخين مثل ستيزيمبروت Stésimbrote فهو وإن كان قد لجأ آخر الأمر إلى ملك الفرس فإنما كان ذلك اضطراراً منه ، لأنه رأى وطنه يطارده فى كل مكان راغباً الفتك به ، فتخلص من هذا وهرب حيث قابل ملك الفرس الذى أغدق عليه النعم والعطايا ، وشأنه فى هذا لا يختلف عن شأن غيره من كبار اليونان الذين كانوا يضطرون إلى خدمة ملك الفرس حينما يرون بلادهم تتصرف عنهم وتسحب ثقتها منهم ، ونحن بعد هـذا لا نستطيع أن نعتبر التجاءه إلى الفرس خيانة منه لبنى قومه ، وإنما كان ذلك لرغبته فى الحياة والإبقاء عليها . وكيف السبيل إلى كسب العيش ووطنه قد نفاه وشرده حتى أصبح لا يجد مكاناً يلتجىء إليه عند اليونان على سعة بلادهم وامتداد أطرافها . وقد يلومه بعض الناس على هذا الالتجاء إلى ملك الفرس ولا يبرئونه من تهمة خيانة وطنه ، إذ لو كان بريئاً حقاً من هذه التهمة لقدم نفسه إلى المحاكم وهى تفصل فى ذلك حتى ترجع الحق إلى نصابه ، ولكن غاب عن هذا الفريق أنه لم تكن توجد محاكم فى أثينا بالمعنى المعروف لدينا فى الوقت الحاضر ، وإنما كان الفصل فى قضايا الخيانة العظمى راجعاً إلى الشعب وحده ، ونحن نعلم ما كان عليه الشعب الأثينى من تهور واندفاع حينما تعرض عليه القضايا السياسية التى تتطاحن فيهـا المصالح وتتنازع عليها الأحزاب ؛ كلا ! لم يكن ذلك فى استطاعة تيموستوكل ولم يكن هذا الالتجاء إلى ملك الفرس خيانة منه وغدراً بالمعنى الصحيح ، فهو يعتبر من غير شك خطأ ولـكن لهذا الخطأ أسبابه ومبرراته التى تجعلنا لا نغلو فى الحكم عليه . وكيف نغلو فى الحكم على تيموستوكل وكانا إعجاب بما قام به من أعمال يعجز عن القيام بها كثير من أفراد البشر ؟ ألم يتعهد بلاده فى وقت الخطر ويعدها خير إعداد للمعركة الفاصلة ؟ ألم يحرز لها نصراً حاسماً أبعد عنها الخطر الفارسى إلى زمن طويل ؟ ألم يكن هو من الأشخاص الرئيسيين الذين شجعوا على تكوين حلف ديلوس ونحن نعرف أن هذا الحلف تطور فيما بعد حتى أصبح أمبراطورية تعرف فى التاريخ القديم بالأمبراطورية الأثينية البحرية ؟ ألم يعمل بعـد ذلك على التأسيس والإصلاح وإزالة الخرائب والأنقاض ببناء الأسوار وإقامة التحصينات ، حتى أصبحت أثينا ومعها بيريه قلب بلاد اليونان بل مركز الحضارة اليونانية حتى قال عنها بركليس « إنها أصبحت مدرسة اليونان

١٣ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الحكومة — تابع الفصل الرابع

سبقت الإشارة إلى عمل الضابط، وهو الآن رئيس الشرطة. أما مخبروه الذين لا تميزهم ميزة، فينتشرون في أحياء العاصمة ويختلطون بالناس في المقاهي وكلهم عيون وآذان — وأغلبهم لصوص عُفي عنهم — وهم يرافقون الحرس في دورته الليلية خلال شوارع القاهرة. ولا يسمح لأحد غير العمى بالتجول في الخارج بلا مصباح أو أي نور بعد غروب الشمس بحوالى ساعة ونصف. وقلما ترى سائراً بعد ساعتين أو ثلاث. ولا يكاد الليل ينتصف حتى تمر في العاصمة جميعها فلا تقابل أكثر من عشرة أشخاص أو عشرين خلا المراقبين والحراس وبوابي الحارات والدروب. وعند ما يمر عابر سبيل يناديه الحارس بالتركية: «من هذا؟[1]» فيرد المار بالعربية: «ابن بلد![2]» والحارس الخاص كذلك يصيح: «وحّد الله» أو «وحّد» فقط! فيجيبه السائر: «لا إله إلا الله». ولا يختلف النصارى من المسلمين في هذا القول، فهم يفهمون التوحيد فهماً مختلفاً. والمفروض أن اللص أو من يشرع في مخالفة القانون لا يجرؤ على النطق بهذه الكلمات. وبعض الأشخاص يجيبون الحارس بصوت مرتفع: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ويستخدم الحارس الخاص لحراسة الأسواق والأحياء ليلاً، وهم يحملون (نبوتاً) ولا يحملون مصباحاً

والعادة أن يتجول الظابط، أو أغا الشرطة، في شوارع القاهرة. ويرافقه غالباً السياف والشعلجي، أي حامل الشعلة المستعملة إلى الآن[3]. وهذه الشعلة تشتعل حال إضرامها فلا يصعد لهبها إلا حين تحرك في الهواء، عند ما تضرم لحاجة في الخارج. وهكذا تؤدي عمل مصابيحنا المعتمة. وقد يوضع على الطرف المشتعل إناء صغير أو جرة أو يغطى بشيء آخر حين لا تلزم الإنارة. ويقال إن اللصوص كثيراً ما يشعرون بالشعلة في الوقت المناسب فيتفادون مقابلة حاملها. وعقوبة من يقابله الشرطي بلا نور هي الضرب. وقلما يحاول المقاومة أو الهرب. وكان لرئيس الشرطة سلطة مطلقة في ضرب عنق أي مجرم أو مذنب بلا محاكمة حتى ولو كان القانون لا يعاقبه بالإعدام. وكذلك كان له مرؤوسون كما سترى بعدُ. وقد ندر في السنوات الأخيرة مباشرة هذه السلطة. وأعتقد أنه لم يعد يسمح لهم بذلك الآن. ويقوم أعوان الظابط بدورتهم الليلية مع الجنود لأنهم أحسن معرفة منهم بمخابئ اللصوص والأشرار ومناجمهم. ويندر أن يباشر الظابط نفسه سلطة تخرج عن حد القرع أو الجلد.

كثيراً ما يتخذ رؤساء الشرطة وسائل غريبة مثل التي نراها في بعض قصص ألف ليلة وليلة لاكتشاف المجرم. وأذكر هنا حادثاً لا يختلف في صحته أحد على سبيل المثال. وسأرويه بالطريقة

---

(١) «كيمن دور أُ» عوضا عن «كيم دور أُ»

(٢) ويجيبه «أعمى» اذا كان لا يرى

(٣) ويخطئ البارون هامر برجستال باستعمال «مشعلجي» بدلا من «شعلجي». فالعامل الأخير لا يحمل مشعلا ولكن شعلة مختلفة، وقد وصفت المشعل ورسمته في الفصل السادس

جميعاً»؟ ألم يؤسس لأثينا هذا الأسطول البحري العظيم الذي جعلها دولة بحرية بعد أن كانت دولة برية والذي كان العماد الذي تعتمد عليه الإمبراطورية الأثينية؟ قام تيموستوكل بهذه الأعمال الجليلة لأنه كان يضع مصلحة قومه في المكان الأول من اعتباره فيتناسى شخصه ومطامعه ويتجاهل حتى تنكر له قومه وبنو وطنه.

كان إذن تيموستوكل من بناة مجد أثينا في القرن الخامس حتى يدعونا هذا إلى أن نضمه في صف كبار الآثينيين، فهو لا يكاد يقل شأناً وأهمية عن زعيم آخر من زعماء الديمقراطية، وهو بركليس، وإن كان الناس قد أطلقوا على القرن الخامس عصر بركليس وأفردوا بركليس بهذه التسمية، فإننا نرى أنه يحق لتيموستوكل أن يدعي لنفسه شيئاً من هذا الفخر والمجد فيطالب بأن يسمى هذا القرن عصر تيموستوكل وبركليس معاً.

محمد الشحات أيوب

التى معمتها : قصد ذات يوم رجل مسكين أغا الشرطة وقال له : يا سيدى ، أقبلت إلىّ اليوم امرأة وقالت لى : خذ هذا القرص ودعه فى حيازتك وقتاً وأقرضنى خمسمائة قرش . فأخذته منها ، يا سيدى ، وأعطيتها الخمسمائة قرش وانصرفتْ . وبعد انصرافها قلت لنفسى : لأنظر إلى هذا القرص ، وتأملته فإذا هو من النحاس الأصفر ، فلطمت وجهى وقلت : سأذهب إلى الأغا وأقص عليه قصتى عسى أن يحقق هذه المسألة ويوضحها ، فليس هناك غيرك من يستطيع مساعدتى فى هذه القضية . فقال له الأغا : إصغ إلى ما أقوله لك يا رجل . أنقل ما فى دكانك ولا تترك فيه شيئاً ثم أقفله ، وبكر فى الذهاب صباح اليوم التالى ، وبعد أن تفتح دكانك صِح قائلاً : يا حسرتاه على أموالى ! ثم خذ فى يديك مدَرَتين واضرب نفسك بهما وصح : يا أسفاً على أموال الناس ! فإذا سألك أحد : ما ذا حدث فقل له : ضاعت أموال الناس ، فقدت رهناً كان عندى لامرأة ، لو كان ملكى لما انتحبت هكذا . هذا كفيل بأن يكشف لنا الأمر . ووعد الرجل بتنفيذ ما طلب منه ، فنقل كل ما فى دكانه . وفى بكرة اليوم التالى ذهب إلى دكانه وفتحه وأخذ يصيح : يا ويلاه على أموال الناس ، وأخذ مدَرَتين وضرب نفسه بهما وجعل يدور فى أنحاء المدينة صارخاً : يا حسرتاه على أموال الناس ! ضاع رهن لامرأة كان عندى ، لو كان ملكى لما أهمنى . فسمعتْ المرأة التى رهنت القرص صياحه وتبينت أنه الرجل الذى خدعته ؛ فقالت لنفسها : اذهبى وارفعى دعوى عليه ؛ وذهبت إلى دكانه راكبة حماراً لتكسب نفسها أهمية وقدراً ؛ وقالت له : يا رجل ، أعطنى مالى عندك ؛ فأجابها : ضاع ؛ فصاحت : قطع الله لسانك ! هل أضعت مالى ؟ لأذهبن إلى الأغا ولأخبرنه بذلك ؛ فقال لها : اذهبى ! وذهبت إلى الأغا وسردت شكواها ، فبعث الأغا فى طلب الرجل . فلما جاء قال للمشتكية : ما لك عنده ؟ فأجابته : قرص من الذهب البندقى الأحمر ؛ فقال الأغا : يا امرأة ، عندى هنا قرص ذهبى أود أن أريك إياه ؛ فقالت : أرينيه ، يا سيدى ، فإننى أعرف قرصى . فحل منديلاً وأخذ منه القرص الذى رهنته ، وقال : أنظرى ... فنظرت إليه وعرفته ... فطأطأت رأسها . وقال الأغا : ارفعى رأسك وأخبرينى أين نقود هذا الرجل ؟ فأجابت : يا سيدى ، إنها فى بيتى . فأرسل معها إلى المنزل السياف مجرداً من سيفه ، وعادت بكيس فيه النقود ، وأعيدت الخمسمائة قرش إلى صاحبها . ثم أمر الأغا السياف بأخذ المرأة إلى الرُّميلة ، وهى مكان فسيح مكشوف أسفل القلعة ، ليقطع رأسها هناك ونفذ الأمر !

أما أسواق القاهرة والموازين والمكاييل ، فتخضع لمراقبة المحتسب ، وهو يجوس من حين لآخر خلال المدينة ، يتقدمه عامل يحمل قسطاساً كبيراً ، ويتبعه الجلادون والخدم . وهو يمر على الدكاكين والأسواق واحداً واحداً ، وأحياناً يتفقد واحداً هنا وواحداً هناك ، فيفحص الميزان والأوزان والأكيال ، كما يستفهم عن أثمان المؤن من مأكولات وغيرها . وكثيراً ما يستوقف خادماً ما يقابله صدفة فى الطريق حاملاً مأكولات قد اشتراها ، فيسأله عن ثمنها ووزنها . فإذا تبين له أن البائع استعمل موازين أو مكاييل مغشوشة ، أو طفف الميزان أو زاد على سعر السوق ، أنزل به العقوبة فى الحال . والعقوبة العامة هى الضرب أو الجلد . ورأيت مرة رجلاً تنفذ عليه عقوبة مختلفة لبيعه خبزاً ناقص الوزن : خزم أنفه وعلقت فيه كعكة بطول الشبر وبسُمك عرض الأصبع ، وجرد من ثيابه إلا قطعة من الكتان حول صلبه ، وشُدَّ ، وذراعاه خلفه وقدماه فوق قاعدة صغيرة ، إلى قضبان شباك من شبابيك جامع الأشرفية فى أهم شوارع المدينة ، وبقى كذلك حوالى ثلاث ساعات معرضاً لأنظار الجمهور المحتشد وأشعة الشمس المحرقة

وكان ممن عُيّن محتسباً – بعهد قدوى الأول إلى مصر – رجل كردى اسمه مصطفى كاشف ، تولى سلطته بأقسى الطرق ، فكان يقطع شحمة الأذن أو طرفها لجرم مهما صغر ولغير جرم . وفى مرة قابل رجلاً شيخاً يقود حميراً محملة بطيخاً فأشار المحتسب إلى واحدة من أكبرها حجماً وسأل عن ثمنها . فأمسك العجوز شحمة أذنه وقال : إقطعها يا سيدى ! فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة فكان الجواب واحداً . فاغتاظ المحتسب ولكنه لم يتمالك أن ضحك ، وقال : « هل أنت مجنون أو أصم » ؟ ؟ فأجاب العجوز : « لا ، لست مجنوناً

ولا أمم ، ولكنى أعرف أننى إذا قلت ثمن البطيخة عشرة فضة فستقول : « إقطع أذنه » . وإذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة فستقول : « إقطع أذنه » . لذلك اختصرت الأمر وقلت اقطعها ودعنى أتبع طريقى » . ولم ينجه إلا ما فى تهكمه الفاجئ من فكاهة

كان قطع الأذن هو العقوبة العادية التى يوقعها هذا المحتسب، ولكنه اتبع أحياناً طرقاً مختلفة ؛ فقد عاقب جزاراً باع لحماً ينقص عن الوزن الحقيق أوقية ونصفاً بقطع هذا القدر من ظهره . وأمر بتجريد بائع كنافة حصل على زيادة فى الثمن تافهة من ثيابه ووضعه على الصينية النحاسية المستديرة حيث تسوى الكنافة وتركه كذلك حتى احترق احتراقاً رهيباً .

وكان يعاقب الجزارين بوضع كلابة فى أنوفهم يعلق بها قطعة من اللحم . وفى ذات يوم قابل هذا المحتسب رجلا حاملا صندوقاً كبيراً صفت فيه قلل فخارية من سمنود وهو يبيعها بوصفها من قنا ؛ فأمر أتباعه أن يكسروا القلل على رأسه واحدة واحدة .

وكان يظهر طغيانه خارج ولايته ؛ فى ذات مرة خطر له أن يرسل حصانه إلى الحمام ، وطلب من صاحب حمام بجواره أن يعد العدة لاستقباله والعناية بتحميته وتنعيم جلده . فثقل على صاحب الحمام هذا الأمر العجيب وخاطر بأن قال إن أرضية الحمام من الرخام ، وقد ينزلق الجواد فيقع ؛ وقد يصاب ببرد عند خروجه ، فيحسن لذلك نقل ماء الحمام إلى الإصطبل حيث تباشر عملية الحمام . فقال مصطفى كاشف : « إنى أرى السبب غير ذلك . أنت لا تريد أن يذهب جوادى إلى حمامك » . وأمر بعض خدمه أن يطرحوه أرضاً ويضربوه بالعصى حتى يأمرهم بالكف . ولم يأمرهم بالكف حتى مات المسكين

ولسنوات قليلة خلت كانت العادة أن يسعى بين يدى المحتسب عند طوافه بالمدينة لفحص الموازين والمكاييل ، رجل معه ميزان أكبر حجماً من الميزان المستعمل . ويقال إن قب هذا الميزان كان أنبوبة مجوفة بها زئبق ، فكان حامل الميزان يستطيع إذا عرف الذين رشوا سيده أن يرجح إحدى الكفتين بسهولة

ويشرف على الأسواق العامة المستخدمون المكلفون بمراقبة تجارة الباشا وصناعاته المختلفة . ووظيفتهم كوظيفة المحتسب سواء بسواء . وقد اشتهر بعضهم بارتكاب أرذل أنواع البغى والقسوة . وكان أحدهم ويسمى على بك (ناظر القماش) إذا وجد أحداً يملك نولاً خاصاً أو صادفه يبيع ما نسجه ، يشده فى قطعة من هذا النسيج يغمسها فى الزيت والقار ثم يعلقه هكذا على فرع شجرة ويوقد فيه النار ، فأباد الكثير بهذه الطريقة الوحشية . وقد مات هو نفسه حرقاً فى جم غفير أثناء انفجار مخزن بارود بمنحدر القلعة الشمالى سنة ١٨٢٤ . وقال صديقى الذى حدثنى عن فظائع هذا الوحش : « عند ما نقلت جثته لدفنها صلى عليها الشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر يومئذ فى مسجد الحسين ، وكنت أقوم بالتبليغ خلف الإمام ، فلما نطق الشيخ بالدعاء ساد السكوت بين الحاضرين الكثيرين ؛ ومضى الشيخ يقول : وكان من الصالحين، فلم يسمع لأحد صوت، فارتبك الشيخ وقال بصوت خافت : ليرحمه الله ؛ ثم قال صديقى مواصلا حديثه : الآن نستطيع أن نؤكد أن مصير هذا الرجل الملعون إلى جهنم، ومع ذلك لا تزال زوجته تقيم له ختمة فى منزلها ، وتوقد له كل ليلة شمعتين فى مسجد الحسين ! »

ولكل حى من أحياء العاصمة شيخ يسمى « شيخ الحارة » وهو يباشر سلطته للمحافظة على النظام ولفض صغير المشا كل بين السكان ولطرد من يعكر صفو الجيران . وتنقسم العاصمة إلى ثمانية أقسام يرأس كلا منها شيخ يسمى « شيخ الثمن »

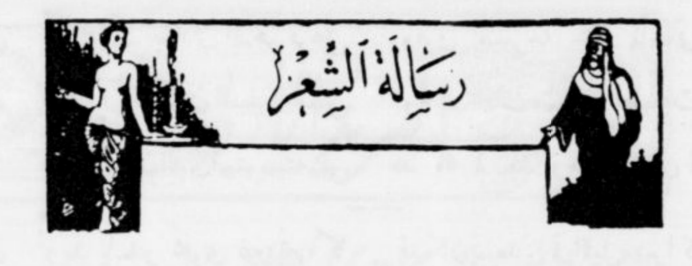
وكذلك كان لكل طائفة من الطوائف التجارية والصناعية المختلفة فى العاصمة وفى غيرها من المدن الكبيرة شيخ يحكم فى المنازعات المتعلقة بهذه التجارة أو الحرفة ، ويصدق على قبول الأعضاء الجدد

كذلك يخضع خدم القاهرة لأمرة شيوخهم . ويستخدم الخدم بواسطة هؤلاء الشيوخ إذ يشهدون لهم بحسن السلوك مقابل قرشين أو ثلاثة . فإذا ارتكب الخادم سرقة يلزم الشيوخ بتعويض السيد ، ولو لم يحصل على المال المسروق

واللصوص أيضاً ، منذ سنوات قليلة اتخذوا كبيراً منهم شيخاً عليهم ، وكثيراً ما كان هذا الشيخ يطالب بالبحث عن المسروقات وتقديم المجرمين للمحاكمة ؛ وكان على العموم يقوم بذلك . ومما يستحق الذكر أن هذا النظام العجيب كان سائداً فى عهد المصريين القدماء[1]

« يتبع » عدلى طاهر نور

(١) أنظر ديودور الصيقلى



الطـــير المهاجر

للشاعر الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

علمتني مواسمُ الروض أن الطـ
يرَ شتى : مهاجرٌ ومقيم

أتراني لا أسمع الطير إلا
في رياضي معششاً لا يريم ؟

رُبَّ شادٍ في هجرة يتغنى
وعليه السلام والتسليم

من جنوب إلى شمال ، وحيناً
من شمال إلى جنوب يحوم

فله حين يستقلُّ وداع
وله حين يُقبل التكريم

خذ من الطير كل يوم جديدا
فسواء جديده والقديم

كم مُوَلٍّ وصفوُه لا يولي
ومقيمٍ وصفوُه لا يقيم

عباس محمود العقاد

أريـــد ...

للأديب أحمد عبد المجيد الغزالي

جف الغدير ! فمن للظامئ الصادي ؟
وصوّح العود تحت الهاتف الشادي

ومات زهر الربى لا الطير تندبه
ولا الشعاع عليـه رائح غاد

حتى الزهور يغول الدهر نضرتها
لكل ناضرة من دهرها عاد

غاضت منابع شعري وهي زاخرة
وغام أفقي . أما من بارق هاد ؟

طال المسري وطريق شائك حلك
ولم يغن جديداً ذلك الحادي

أريد لي عالماً يختال (حاضره)
على شوارد هذا العالم (البادي)

أريد دنيا جديد الوحي يغمرها
فأستفيق على شدوي و إنشادي

أريد أن تسكبي الأنغام في خلدي
شيعت أمسي فهلاً تبعثين غدي ؟

مالي وقيثارة شُدَّت على خشبٍ
وأنت قيثارة شُدَّت على كبدي ؟

جفَّ النشيد على أوتارها فقدت
بكاء لا تحتفي بالطائر الغرِد !

طوقتها حانياً ، أبكي لياليها
كما بكى والدٌ برٌّ على ولد

فهدهدي أنت أحـلامي بأغنية
تنساب من نبعك الجاري من الأبد

وجدّدي عهدَها الماضي فإن عرضت
ذكرى أناشيدها في الحب فاتئدي

أنا الذي نهلت روحي أغانيها
كما ستنهلُ في أيامك الجُدُدِ

أريد ياجدولي الساري بأوهامي
أن تستبد بآمالي وآلامي

بالأمس ياجدولي والروض يضحك لي
نديت من عذبك السلسال أحلامي

واخترت من ورق الأزهار لي صحفاً
بيضاً ومن هذه الأغصان أقلامي

واليوم ياجدولي لا الروض يضحك لي
ولا مياهك تروي غـلة الظامي

ظمئت ياجدولي والجرح في كبدي
فهل لمائك يأسو جرحها الدامي ؟

قد كان شطك لى أنساً وعافية ... فكنت أقوى على دهرى وأيامى
فما لأنسى به غاضت منابعه ... ولم تعد ثرة تجرى بأحلامى

أريد يا كرم ، ماء غير رقراق ... فقد برمت بهمس الكأس والساقي
سقيت يا كرم كأسى وهي مترعة ... على شعاع سرى فى الكأس براق
ثملت يا كرم حتى عفت نشوتها ... وعفت صحنى على كأسى و إطراقي
مل الندامى خداع الكأس صائحة ... على صباح بنور الفجر دفاق
تميل أعناقهم والكأس دائرة ... حتى كأن الطلا تعويذة الراقى !
أنفت يا كرم تلك الخمر صافية ... كما ألفت يراعاتى وأوراقى
يا كرم ، ما صار خير الخمر أقدمها ... إن كان ثم جديد فالهوى باق

أريد يا زهرات الروض أنفاساً ... غير التى عرفتني الورد والآسا
ما عدت أستروح الأنسام عاطرة ... ريانة النفح تنسى القلب ما قاسا
نسيت بالروض أياماً لنا سلفت ... كان الندى خمرتى والوردة الكاسا
أشدو بشعرى مع الأطيار صادحة ... وقد أقمنا على الغدران أعراسا
فالزهر يبسم رفافاً لفرحتنا ... والغصن يختال تحت الزهر مياساً
رغبت يا زهرات الروض عن أرج ... قد كان يملؤنى وهماً ووسواسا
ففي جيوبك يا زهرات عن أرج ... ما بات يشعل فى الوجدان إحساسا

أريد يا طير تغريداً كتغريدى ... وأن تردده فى الدوح ترديدى
ما للأغانى تغنيها فأسمعها ... فلا تطامن من همى وتسهيدى
سئمت يا طير ألحاناً شدوت بها ... بين الرياحين أو فوق العناقيد
إن كان عندك لحن غير ما صدحت ... به رباك ، فوقعه على عودى
لو كنت كالطير فى الأجواء منطلقاً ... لأنشد الطير الدنيا أناشيدى
وبات يتبعــه فنى وجدته ... فلن يكون له فنى وتجديدى
يا ويح للطير ، لا زالت هواتفه ... تردد اللحن من أيام داود

أريد يا ليل ، إن رتلت آياتى ... أن لا تخفف أشجانى وآهاتى
دعنى لظلمتك الدكناء أقبسها ... نوراً يضىء حنايا دهرىَ العاتى
شقيت يا ليل بالأضواء تغمرنى ... فتوقظ الألم الغــافى بأناتى
قد كنت يا ليل تسليني إذا عصفت ... بى الأمانى فى كيد وإعنات
أما سمعت بعادى الدهر فزعنى ... ودون مسرحه غنى لمأساتى
ياليل أين السكون العبقرى مضى ... وخلف القلب مشبوب الصبابات
هذا السكون الذى استوحيته كلمى ... ما باله لم يعد وحياً لأبياتى ؟

أريد يا بدر نجوى غير نجواكا ... قد كان يسعدنى فى الليل مسراكا
أنداء نورك كانت بلسما عجبا ... للحب ما صنعت ـ يا بدر ـ يمناكا
دنياك دنيا الهوى والشعر عشت بها ... أجنى بها الزهر ، حتى زهرها شاكا
وما سلمت بدنيا الناس من نكد ... قد ضقت ذرعاً بدنياهم ودنياكا
تساقط النور أسلاكا كأن به ... سرا ، يساقطه يا بدر مثواكا
أضأت للناس حتى أظلموا ومضوا ... يسخرونك أشرارا وفتاكا
ماذا عليك ، إذا أرسلتها حمما ... تنقض يا بدر أجراماً وأفلاكا

أريد يا فجر ألا يشرق النور ... وأن يلف شعاع الصبح ديجور
وأن نظل هجوعاً فى مراقدنا ... فلا يؤرقنا فى الروض عصفور
ولا تجاوبه فى الأفق ساجعة ... مسحورة إلفها بالأفق مسحور
لو كان طير الربى يدرى مهازلنا ... يا فجر ، ما شاقه شدو وتصفير
هم روعوه بشر زاحموه به ... فى الجو ، فالطير فى دنياه مقهور
الطير ، سل عنه أذن الروض مرهفة ... يجبك زهر على الخلجان منثور
والقوم سل عنهم الحرب التى وقدوا ... يجبك أتونهــا بالنار مسعور

أريد يا أيها الماشى على النار ... أن تستفيق على صيحات أشعارى
تدب يا عالى فوق اللظى عجلاً ... غداً ستمضى برب الدار والدار
النيل فى عنقى حق سأبذله ... فى قذف قنبلة أو عزف قيثار
النيل إن رامه باغ به طمع ... رمى بجيش من الأشبال جرار
النيل فى كنف الأشبال حوزته ... وهم على رصد للطامع الضارى
جروا على مائه والفلك سامرهم ... يداعبون خيال الكوكب السارى
أنا المزار الذى غنى لسامرهم ... غداً أغني وطير النيل سمارى

أحمد عبد المجيد الغزالى



اقتراح مرفوع الى جماعة كبار العلماء

رفع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس جماعة كبار العلماء اقتراحاً جليل الفائدة، مبارك الآثار، يتصل بتنظيم جهود الجماعة وتوفير إنتاجها؛ وقد نظرت الجماعة الموقرة في هذا الاقتراح بجلستها المنعقدة في اليوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٣٦٠ ثم قررت تأليف لجنة من بعض أعضائها لبحثه وتدبير طريق تنفيذه برياسة حضرة صاحب الفضيلة المفتي الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

ويسرنا أن نسجل هذا الاقتراح الهام على صفحات الرسالة، لأنه دليل على اتجاه حسن طالما رجوناه ودعونا إليه

وهذا نص الاقتراح:

« إن هيئة كبار العلماء ركن مهم من أركان الإصلاح في الأزهر، بل الذروة التي يجب بلوغها منه ليعود إليه أولئك الفقهاء المحققون، والمحدثون الثقاة، والمفسرون الملهمون، واللغويون البلغاء، والمؤرخون الصادقون، وأهل الصلاح والتقى

« إن هيئة كبار العلماء هي التي يرجى منها أن تكون تاج الجامعة الأزهرية، ومن أعمالها أن يكونوا أساطين العلم وحفاظ الشريعة، ومقومي لغة القرآن لتركن الضمائر الواجفة إلى علمهم، وتهدأ النفوس الراجفة بهديهم وإرشادهم، وتطمئن قلوب المؤمنين لقيامهم حفاظاً لليقين، وحراساً على شريعة النبي الأمين »

بهذه العبارات الواضحة حددت لجنة إصلاح الأزهر المؤلفة في سنة ١٩١٠ من المغفور لهما عبد الخالق ثروت باشا وأحمد فتحي زغلول باشا، وصاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا أطال الله بقاءه، الغرض من جماعة كبار العلماء، وآمال الأمة الإسلامية فيها

ولم تزل الأمة الإسلامية ناظرة إلى هذه الجماعة الموقرة، ترقب منها أن تكون مصدر خير لها في دينها ودنياها. ترقب منها أن تعمل على إعلاء كلمة الله، ونشر ثقافة الإسلام وحياطتها بما يقويها، ويدفع عنها غائلة المعتدين. ترقب منها أن ترشدها إلى أحكام الدين نقية مما خالطها من شوائب الابتداع في عقائدها وعباداتها ونظمها ومعاملاتها

وإني أقترح تحقيقاً لهذه الآمال الجسام أن يؤلف لجماعة كبار العلماء مكتب على دائم، وأن يجعل لهذا المكتب مكان معين معروف شأن كل هيئة رسمية أو غير رسمية من الهيئات التي تعمل لأغراض خاصة

أما مهمة هذا المكتب بعد إنشائه فهي ما يأتي:

(ا) معرفة ما تهاجم به الأديان عامة، والدين الإسلامي خاصة في عصرنا الحاضر، والرد عليه رداً كافياً مقنعاً بأسلوب ملائم لطريقة البحث الحديث

(ب) بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها أو ليس كذلك، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس بدعة، والعمل على نشر كل ذلك ليرجع إليه الناس، وتنقطع به أسباب الفتنة والنزاع بين المسلمين

وقد سبق للأزهر في عهد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخه الحالي أن فكر في تأليف لجنة مشتركة من الأزهر ووزارة الأوقاف مهمتها القيام بهذه الناحية، وألفت اللجنة فعلاً برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم حمروش عضو جماعة كبار العلماء، وسارت اللجنة في عملها شوطاً بعيداً قاربت به الغاية

(ج) العمل على وضع مؤلف يحتوي على بيان ما في كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التي دست على التفسير وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن، والتي لا يدل على صحتها نقل ولا يؤيدها عقل، وهذا يشبه ما قام به رجال الحديث من تجريد الأحاديث الموضوعة في كتب خاصة يرجع إليها الناس

(د) إصدار الفتاوى في الاستفتاءات التي ترد من المسلمين في جميع الأقطار إلى مشيخة الجامع الأزهر

وقد فكرت مشيخة الأزهر الجليلة الحالية في هذا الشأن منذ سنة ١٩٣٦ وألفت لجنة برياسة أحد أعضاء جماعة كبار العلماء هو المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ حسين والي — طيب الله ثراه — ثم أسندت رياستها من بعده إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف الفحام وكيل الجامع الأزهر وعضو جماعة كبار العلماء

(ه) بحث المعاملات التي جدت وتجد في العصر الحاضر

من جهة حكم الشريعة فيها حتى يظهر للناس سمة صدر هذه الشريعة، وقدرتها على تلبية حاجات الناس فى مختلف العصور

(و) : تنظيم طرق الوعظ والإرشاد والاتصال بالهيئات المعدة لذلك كوزارة الشئون الاجتماعية والجمعيات الإسلامية فى مختلف الأقطار

وقد نصت على هذه الناحية لجنة الإصلاح التى أشرنا إليها سابقاً بقولها :

« ومنها — تريد هيئة كبار العلماء — تتألف لجنة تنسيق الوعظ والإرشاد ووضع قواعده »

كما عنى بها قانون تنظيم الجامع الأزهر الذى وضع فى عهد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخه الحالى إذ يقول فى المادة السادسة عشرة منه ما نصه :

« مادة ١٦ : تضع جماعة كبار العلماء نظام الدعوة والإرشاد وتصدره إلى الجهة المختصة لتنفيذه »[1]

(ز) : التنقيب عن الكتب المفيدة فى مختلف العلوم والعمل على إحيائها وإخراجها إخراجاً علمياً متقناً

والأزهر أجدر الهيئات وأقدرها على الاضطلاع بهذا العمل والوصول به إلى ما يرجى له من النجاح

(ح) : الإشراف على مجلة الأزهر والعمل على توجيهها فى طريق تخدم به الحركة الفكرية الإسلامية ، وتبرز به ثقافة الكليات الثلاث

***

هذا هو اقتراحى أضعه أمانة أمام جماعة كبار العلماء للنظر فيه بما أعتقد أنه جدير به من العناية والاهتمام، حتى يتم إقراره وتنفيذه

والله يتولانا جميعاً بهدايته وتوفيقه

محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء
ووكيل كلية الشريعة

مؤتمر الأديان فى لندن

عقد فى لندن المؤتمر الدولى للعقائد ، والغرض من هذا المؤتمر الذى يرأسه السير فرنسيس يونجهزبند هو نشر روح الإخاء بين بنى البشر من طريق الأديان والتفاهم المتبادل بين مختلف العقائد

وقد أذيع أن فى النية إرسال كتب ورسالات إلى زعماء الأديان غير المسيحية يطلب إليهم فيها إبداء موافقتهم على المبدأ الذى حوته قواعد السلام الخمس التى وضعها البابا منذ سنتين

وقد أرسلت كتب إلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر فى القاهرة ، وإلى الزعماء الدينيين فى بلاد العرب وتركيا والشرق الأوسط عامة ، وإلى الزعماء المسلمين والهنود والبوذيين فى الهند وبورما والشرق الأقصى

وقد حضر الشيخ حافظ وهبه وزير المملكة السعودية المفوض فى لندن اجتماع المؤتمر فى الأسبوع الماضى ، وخطب فى نهاية الاجتماع الأستاذ يوسف على الذى كان فى وقت ما مندوباً عن الهند فى عصبة الأمم والعميد السابق للكلية الإسلامية فى لاهور، فتحدث عن قواعد السلام التى يتوخاها مؤتمر الأديان المختلفة

وعقب ارفضاض الاجتماع أفضى السير فرنسيس يونجهزبند إلى مندوب وكالة الأنباء العربية بحديث قال فيه : « لقد تلقيت من فضيلة الشيخ المراغى مرتين ترحيباً صادقاً بفكرة المؤتمر وتحبيذاً طيباً لعقده ، ونحن على يقين من تأييده التام لفكرة التفاهم بين مختلف العقائد وتآزرها للوقوف فى وجه العدوان القائم عليها جميعاً . ويقينى أن فضيلته هو أحد الذين يقدرون القيمة الروحية قبل أى شىء سواها »

وبهذه المناسبة نذكر أن قواعد السلام الخمس التى ألمت إليها تلك الرسائل هى : ١ — حق الأمم جميعاً فى أن تعيش معاً تحت ظل السلام ٢ — الاتفاق المتبادل على نزع السلاح ٣ — توافر الوسائل المذللة لمراجعة المعاهدات التى تحوى مساساً أو ظلماً فى حق أى شعب من الشعوب ٤ — الاعتراف بحقوق جميع الأقليات ٥ — ضرورة توفر حسن النية إذا أريد حقاً التراضى على سلام مقيم

وفاة موريس ليبلان

توفى الكاتب الفرنسى موريس ليبلان المشهور بقصصه عن أرسين لوبين فى مدينة بربينيان

وقد ولد هذا الكاتب فى سنة ١٨٦٤ فيكون قد توفى عن ٧٧ عاماً ؛ وهو أول الكتاب الفرنسيين الذين اختصوا بكتابة الروايات البوليسية . وقد اشتهر بابتداعه شخصية أرسين لوبين بطل رواياته . ومما يجدر ذكره أن الحكومة الفرنسية عينت موريس ليبلان فى اللجنة التى عهد إليها تحقيق قضية ستافيسكى المعروفة ، وحادث مقتل المستشار برنس . ومن مؤلفاته : أرسين لوبين اللص الظريف ، أرسين لوبين ضد شرلوك هولمز ، المثلث الذهبى ، جرائم أرسين لوبين الثلاث ، أنياب النمر ... الخ

(١) القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ إعادة تنظيم الجامع الأزهر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

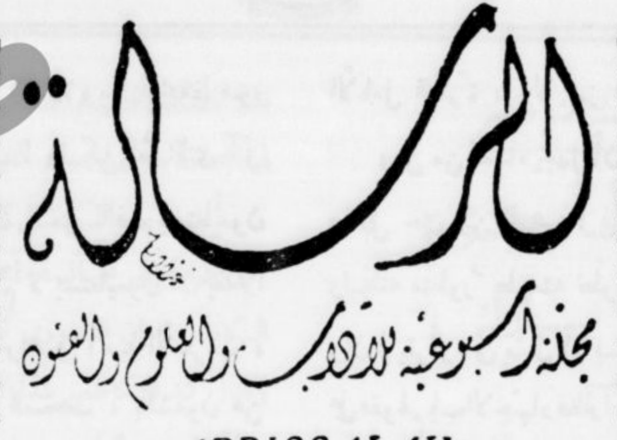


9me Année No. 438

Lundi - 24 - 11 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة التاسعة « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٤ نوفبر سنة ١٩٤١ » العـــدد ٤٣٨

لا تقولوا أين الكتاب
وقولوا أين القادة . . . !

أو كلما كظمت الأنفاس روائح الشر ، وكرَبت النفوس غواشى الفساد ، ذهل الناس عن مرسلى الريح ومثيرى القتام وقالوا أين الكتّاب ؟ هل الكاتب إلا نذير ؟ وهل على الكتّاب غير البلاغ ؟ لقد كتبوا حتى أوشك المداد أن ينفد ، وخطبوا حتى كاد الريق أن يجف ؛ ولكن أكثر العامة لا يقرأون ، وأكثر الخاصة لا يفهمون . ومتى أغنى القول عن الفعل ، وجَزَى الرأى عن العزيمة ؟

إن من أقبح ما يعاب علينا وعلى أمم الشرق أننا لم نعرف من أدوات السياسة ووسائل الإصلاح غير الكلام والكتابة ؛ فسياستنا خطب ، وإدارتنا تقارير ، ومناهجنا وعود . ولو كان الشعب قارئاً لرجونا من وراء الكتابة صلاح النفس فى الفرد وسمو الروح فى الجماعة ؛ ولكن الأمية لا تزال بفضل وزارة المعارف حجاباً مستوراً بين عيون الناس ونور الحق . فماذا عسى يصنع الكتّاب وليس لهم من الأمر شىء ؟ هل يصنعون إلا أن يفتحوا بأسنان أقلامهم أجفان النائمين لتثب إلى عيونهم صورُ العيوب فيدركوها ؟ وهم قد فعلوا ذلك ولم يألوا : فعلوه فى الكتب والصحف ، وفى المدارس والمسارح ، حتى لم يبق فى هؤلاء الذين تقسموا

الفهـــرس

الحكم ، وتوزعوا السلطان ، وتنازعوا القيادة ، من لم يحفظ صور الفساد ووجوه الصلاح عن ظهر قلب ! ولكن الله الذى آتى زعماءنا ملكة الكلام لم يؤتهم ملكة العمل ! فهم يستطيعون أن يقولوا ما قال الكتاب ، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ما فعل القادة . ومصداق ذلك أنك تراهم فى أندية الأحزاب ، وفوق مقاعد النواب ، وبين أعمدة الصحف ، يكشفون عن مواضع النقص ، ويشيرون إلى مواقع الكمال ، فيفتون فى كل مسألة فتوى العالم ، ويُدلون فى كل معضلة برأى الخبير ، ويعترضون على كل أمر اعتراض اليقظ ؛ فإذا وليناهم الحكم وخلينا بينهم وبين العمل ، التاث عليهم الأمر ، وبرّح بهم التطبيق ، وأصبح جهدهم مصروفاً إلى مناقضة القول بالقول ، ومعارضة الرأى بالرأى ؛ كأنما تبوأوا مقاعد الحكم ليردوا وهم وزراء ورؤساء ، على ما انتقدوه وهم كتاب وخطباء !

* * *

من من الزعماء يجهل أن الأمة لا تزال متخلفة فى الخلق والمعرفة والحضارة عن أدنى أمم الأرض المعدودة قروناً من الزمان ؛ فحياتها بدائية ، وأخلاقها همجية ، ونظمها ارتجالية ، ومعيشة الزراع والصناع فيها أقرب إلى معيشة البهيم ، منها إلى معيشة الإنسان الكريم ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؛ ولكن اشتغالهم بسفساف الأمور ، وخسيس المطامع ، ودنىء الشهوات ، صرفهم عن النظر فى شؤون الناس وأحوال المجتمع ، فلا يذكرون الشعب إلا يوم يقوم الانتخاب ، وتصطرع الأحزاب ، ويحتاج كل طامع إلى سلالم من أكتاف المساكين يصعد فيها إلى النيابة والحكم

ومن من الأغنياء يجهل أن الفقر فى مصر ضربٌ من الرق يذل النفوس ، ويقتل المواهب ، ويشكك المرزوء به فى العدل والحق ؟ فهو يسكن ليستكين ، ولكنه قد يثور ليثأر ؟

كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؟ وهم مقتنعون بأن علة هذا الفقر هى أكلهم الحق الذى جعله الله فى أموالهم للفقير ؛ ولكن العلم وحده لا يبسط الأنامل الكزّة ، ولا يهز النفوس الشحيحة !

ومن من العلماء يجهل أن دين الله صالح لكل جيل من الناس ولكل حين من الدهر ؟ فهو ثابت بحقيقته ثبوت الخالق ، ولكنه متطورٌ بطبيعته تطور المخلوق . كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؛ ولكنهم أغلقوا على عقولهم باب الاجتهاد فظلوا فى دنيا الماضين ، يذهبون ما ذهبوا ، ويقرأون ما كتبوا ، ويجذبون ركب الإنسانية إلى الوراء ثلاثة عشر قرناً ليأخذ من ساكنى القبور جواز المرور !

ومن من الموظفين يجهل أن الأمة هى أسرته الكبرى ، وأن الوطن هو بيته الأكبر ؛ فالعمل الذى يقوم به هو عمله ، والمال الذى يقوم عليه هو ماله ، والرجل الذى يقف أمامه فى شأن من الشؤون هو أخوه ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؛ ولكنهم فى الكثير الغالب يتحاملون على ضمائرهم فيخضعونها لسلطان الكبر والأثرة ، فيرفعون أقدارهم على أقدار الناس ، ويضعون المنفعة الخاصة فوق المنفعة العامة !

ومن من التجار يجهل أن الحرام لا يزكو ، وأن الغبن لا يحلّ ، وأن الحكرة لا تجوز ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه فى مقال أو يسمعوه فى خطبة ؛ ولكنهم فى سبيل الثراء الدنىء يتعامون عن بؤس الفقير ، ويتصامون عن صوت الضمير ، ويهتبلون فرص الحرب ليعصروا الذهب والفضة من دماء القتلى ودموع الأيامى وعرق العملة !

* * *

الواقع الذى لا مرية فيه أن أمم الشرق لا يعوزها إدراك النقص ولا عرفان الواجب ؛ إنما يعوزها الرجل الذى يطبق علمها على العمل ، ويوحد رأيها على الحق ، ويجرى خلقها على الرجولة ، ويجمع شتاتها على الطريق . فهل لصديقى العشماوى بك أن يوافقنى على أن مصر اليوم لا تحتاج إلى (علىّ) بلسانه الحكيم ، وإنما تحتاج إلى (عمر) بدرّته[1] الحازمة ؟

(المنصورة) احمد حسن الزيات

(١) الدرة علم على عصا عمر بن الخطاب

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

٢ ـ ديوان البارودي

للدكتور زكي مبارك

الذاتية البارودية : ما رواه الكاظمي وما رواه النقراشي — منابع الشاعرية البارودية : الشقاء بالحب ، والشقاء بالمجد ، والشقاء بالناس — وصف الحرب الروسية — البارودي في منفاه — جنازة البارودي : هل حلت على مدفنه ؟ وهل ودعها رجال الجيش ؟ ...

في الكلمة الماضية نصصنا على بعض الملامح من شخصية البارودي ، في سياق الكلام عن المقدمة التي كتبها الدكتور هيكل باشا للديوان . واليوم ننص على ملامح جديدة تعين الطلبة على إدراك الشمائل النفسية والذوقية لذلك الفارس الفنان

فمن هو البارودي في شخصيته الذاتية ؟

لم يتفق لي أن أهتمّ بمعرفة ذاتية البارودي من الذين عاصروه وكان ذلك في الإمكان ، فقد كانت لي صلات مع الشاعرَين العظيمين : شوقي وحافظ ؛ وكنت أستطيع أن أعرف منهما أشياء لو أني التفتّ إلى هذه الناحية ... على أن الالتفات إلى هذه الناحية لم يكن كل ما ضاع مني ، فقد كان في نيتي أن أسأل « شوقي » عن تفسير الإشارة التي مرّت في كلمته الوجيزة وهو يقدّم كتاب الدكتور محمد صبري « أدب وتاريخ » ، فقد قال كلاماً يشهد بأن للثورة العرابية أسراراً أخطر من أن تذاع ، ثم مضت الأيام والسنون ، ومات « شوقي » قبل أن أسأله عن المراد بذلك التلميح

ومع هذا ، فقد أراد القدَر أن تساق إليّ أخبار البارودي بدون أن أتجشم عناء الاستخبار ، بفضل السهرات التي قضيتها مع الشاعر عبد المحسن الكاظمي في أعوامه الأخيرة ، وكان من جيراني ، وكنت أغتنم الأنس بحديثه كلما سمحت الظروف .

ومن أحاديث الكاظمي عرفت أن المروءة المصرية تمثلت لعينيه في شخصيتين كريمتين : الأولى شخصية محمد عبده ، والثانية شخصية محمود سامي ؛ ولا أريد في هذا المقام أن أذكر ما كان بين الشيخ محمد عبده والشيخ عبد المحسن الكاظمي ، فقد فصّله الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا أجمل تفصيل في أبحاث يعرفها جمهور القراء ، وأنا أبغض الحديث المعاد

أما حديث الكاظمي عن البارودي ، فهو عجب من العجب .

كان البارودي على ألسنة أصحابه يتمتع بلقب « الأمير » ، ويقول الكاظمي : إن البارودي كان « أميراً » في جميع شمائله الذاتية . وقد أكد الكاظمي هذا المعنى في أحاديثه مى عشرات المرات ، وما كان اسم البارودي يجري على لسانه إلا ظهرت على وجهه أمارات الحزن الوجيع ، وقد سألته مرة عن سر هذه الحال فقال :

كنت أسكن في حارة « قِرمِز » بحيّ الجمالية ، وكان مسكني بغرفة صغيرة فوق سطح البيت ، وكان السُلّم مهدّم الدرجات وبدون درابزين ، وكان البارودي يرى من أدب « الإمارة » أن يردّ الزيارة لكل غريب ؛ وكنت يومئذ من الغرباء ، فقد كنت حديث العهد بالقدوم من العراق . وفي إحدى الزيارات تخوّف البارودي من ذلك السلم لضعف بصره ، فاعتمد بيده على الحائط ، فنفذ مسمار في كفه ، فزقه أشنع تمزيق ، وما ذكرت ذلك الحادث إلا تألمت لما كان يعاني « الأمير » في سبيل الوفاء !

ومن هذا الخبر البسيط نعرف كيف كان البارودي في شمائله الذاتية ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان مفتوناً بالمجد أعنف الفتون ، وأن الأريحية المصرية كانت ملء برديه ، عرفنا أنه كان بطبيعة نفسه من الأمراء بغض النظر عن مجده المورث

وهنا يتسع المجال لنادرة ذوقية تمد من الصور الشعرية ، وهي نادرة حدثني بها الأستاذ الكبير محمود فهمي النقراشي باشا في سنة ١٩٣١ ، قال :

كان البارودي يعرف مصيره بعد انهزام الجيش المصري في موقعة « التل الكبير » فاستدعى أحد أصدقائه من أعيان مديرية الغربية وأخبره أن في خزائنه كثيراً من الذخائر الذهبية ، وأنه يخشى أن تصير تلك الذخائر من غنائم المنتصرين ، ثم فوق بصره إلى ذلك الصديق وقال : هذه الذخائر وديعتي عندك ، فإن نفاني الإنجليز ومتّ في منفاي فهي لك مال حلال ، وإن أرادت الأقدار أن أرجع إلى مصر حياً بعد النفي فالنصف لي والنصف لك

وبعد سبعة عشر عاماً عاد البارودي من منفاه ، وطلب نصيبه من تلك الذخائر الذهبية ، فأنكرها ذلك الصديق ، وأظهر

استغرابه من أن تكون للبارودى عنده ودائع ، وقد خرج من مصر وهو حَريب سليب (؟!)

واتفق أن يمرض ذلك الصديق النادر بعد شهور فصار مرض الموت ، فتجشم الشيخ محمد عبده مشقة الانتقال إليه ليفهمه أن « الدنيا لا تغنى عن الآخرة » وأن من واجبه أن يردّ بعض تلك الديون ليلقى الله وهو خفيف الأوزار ، فجادت نفس ذلك المحتضر بعشرة آلاف وهو ينتظر أن يقبلها البارودى مع الحمد والثناء (؟!)

وجاء الشيخ محمد عبده إلى البارودى بصرّة ثقيلة فيها عشرة آلاف من الجنيهات المصرية ، وهو يرجو أن يكون فى تلك الصرة عزاء للبارودى عن بلواه بذلك العقوق

فماذا وقع ؟ نظر البارودى إلى الصرة نظر الليث الشبعان إلى التمر المعطوب ، وصاح : « لن آخذ درهما من هذه الألوف ، ويجب أن ترد حالاً إلى سارقها قبل أن يموت ، لتكوى بها جنوبه وهو مرموس ، وله الويل إن وقع بصرى عليه يوم الحساب أمام الواحد الديان »

هنا تنتهى رواية النقراشى باشا ، وقد بقى من الرواية فصل ، فما هو ذلك الفصل ؟

حدثنى من عرفوا الشيخ محمد عبده أنه كان يضفى بره وعطفه على من يقرأ فى حضرته بيتاً من الشعر بفهم وإدراك ؛ فكيف يكون حاله وهو يشهد هذه الصورة الشعرية ؟

من المؤكد أن الشيخ محمد عبده قد طرب لإباء البارودى ، وعظمة البارودى ، وإباء البارودى . ومن المؤكد أن هذه الواقعة أقنعته بأن مصر لا تزال بعافية ، وأنها ستكون إلى الأبد من أكرم المنابت لأحرار الرجال

أكتب هذا وأنا أذكر أن هيكل باشا قال فى تقديم الديوان إن البارودى « وُلد بمصر » فبأى مكان من « مصر » وُلد هذا الفارس الشاعر ؟ وفى أى مكان مات ؟

فى شارع « غيط العدة » بالقاهرة دار تسمى « سراى البارودى » وهى سراى عبثت بها مصلحة التنظيم ففعلت بها الأفاعيل ، ولم يبق منها غير جانب هو اليوم « مخزن » لبعض المتجرين فى توافه الأشياء

فإن لم يكن البارودى وُلد فى تلك الدار ففيها أبت يده أن تتسلم عشرة آلاف من الجنيهات لغرض تعجز عن وصفه ألوف القصائد والأقاصيص . ومن واجب « مصلحة الآثار العربية » أن تستبقى أطلال تلك الدار يوم تفهم أن الأدب له قدسية تفوق قدسية التاريخ

إن الفرنسيين أبقوا على منزل مضعضع الأركان بشارع سان جرمان فى باريس ، لأنه مولد شاعرهم « ميسّيه » ، وإلى ذلك المنزل يحج عشاق الأدب الفرنسى . فهل يعرف شبان مصر أين يقع منزل شاعرنا البارودى فى القاهرة ، وأين تقع دار هواه فى حلوان ؟

إلى الله المشتكَى من ضياع الأدب فى هذه البلاد ، ومنه نستمدّ العون على ما يعانى الأدب من نزوة أهل البغى والعقوق !

منابع الشاعرية البارودية

الشعر فيض من الشعور بحقائق الوجود ، وهى حقائق يحسها الناس بمقدار ، ويحسها الشاعر بقوة لا تتاح إلا لمن كان فى مثل روحه المتوقد وخياله الوثاب

والذى ينظر فى أشعار البارودى يجده أحس الحياة أعنف الإحساس ، وبراه انطبعَ على الشعور بما فيها من شهدٍ وصاب

وأقوى باعث عند البارودى هو الفُتُوّة ، فوجهه يشهد وآثاره تشهد بأنه كان من أكابر الفتيان

وفتوة البارودى فتوة أصيلة تأخذ وَقودها من القلب والروح ، فهى التى أشقته بالحب ، وأشقته بالمجد ، وأشقته بالناس

تنظر إلى البارودى المحب فترى فتًى فاتك الصبوات فى قدسية وجلال ، فتفهم أن الحب شريعة وجدانية لا يتردد الفتى فى اعتناقها ولو كان رئيس الوزراء . فالحب عند البارودى ليس نزوة شباب يُطاب منها المتاب ، وإنما هو جذوة روحية تصل صاحبها بسرائر الوجود ، وترفعه إلى أوج الخلود

هل قرأت أشعاره فى الحنين إلى روضة المقياس ؟

وهل تذكر أنه أول شاعر فى العهد الحديث تغنى بصبوات القلوب على شواطئ النيل ؟

وهل تعرف أنه صدَح بتلك الأغانى فى أوقات كان فيها الغَـزَل فناً لا يليق بعظماء الرجال ؟

إن البارودى مجّد الفتوة المصرية بتلك الأغاريد ، وجعل لمصر مكاناً فى ضمير الوجود ، فما نطرب الأريحية الإنسانية لأكرم ولا أشرف من التغنى بأوطار الأرواح فى مثل معاهد

الجيزة والروضة وحلوان ، وهى مماهد جهلها الشعراء ، وندَر فيهم من يعرف وجوهها الصبّاح

وفى أى عصر هتف البارودى بتلك الأغاريد ؟

فى العصر الذى كان فيه بدء كتب الشعر بالبسملة موضع خلاف بين جمهور المؤلفين

ثم ننظر فنرى الشاعر المفتون بمطالع الأقمار على شواطئ النيل قد امتشق السيف ليواجه الحرب فى كريت ، أو ليخوض البلاء فى فجاج الأراضى الروسية ، وهو فى هذه الموقعة أو تلك لا ينسى مواقع هواه فى ملاعب الجيزة والروضة وحلوان

إن حائية البارودى فى وصف الحرب الروسية لو تُرجمت اليوم ووُزعت على جنود الروس والألمان لرأوها من الأعاجيب ، وفيها يقول :

لعمرى لقد طال النوى وتقاذفت … مهامه دون الملتقى ومطاوحُ
وأصبحت فى أرض يحارُ بها القطا … وترهبها الجنان وهى سوارح
بعيدة أقطار الديامم لو عدا … سُليكٌ بها شأواً قضى وهو رازح
تصيح بها الأصداء فى غسق الدجى … صياح الثكالى هيجتها النوائح
تردّت بسمور الغمام جبالها … وماجت بتيار السيول البطائح
فأنجادها للكاسرات معاقلٌ … وأغوارها للعاسلات مسارح
مهالك ينسى المرء فيها خليله … ويندُر عن سوم العلا من ينافح
فلا جوٌ إلا سمهرىٌ وقاضبٌ … ولا أرض إلا شمّرىٌ وسابح
ترانا بها كالأسد ترصد غارةً … يطير بها فتقٌ من الصبح لامح
مدافعنا نصب العدا ومُشاتُنا … قيامٌ تليها الصافنات القوارح
ثلاثة أصناف تقيهن ساقةٌ … صياح العدا إن صاح بالشر صائح
فلست ترى إلا كماةً بواسلاً … وجُرداً تخوض الموت وهى ضوابح
نغير على الأبطال والصبح باسمٌ … ونأوى إلى الأدغال والليل جانح
بكى صاحبى لما رأى الحرب أقبلت … بأبنائها واليوم أغبر كالح
ولم يك مبكاه لخوف وإنما … توهمَ أنى فى الكريهة طائح
فقال: اتئد قبل الصيال ولا تكن … لنفسك حرباً إننى لك ناصح
ألم تر معقود الدخان كأنما … على عاتق الجوزاء منه سرائح
وقد نشأت للحرب مزنة قسطل … لها مستهلٌ بالمنية راشح
فلا رأىَ إلا أن تكون بنجوة … فإنك مقصود المكانة واضح
فقلت : تعلّم إنما هى خطة … يطول بها مجدٌ وتخشى فضائح
فما كل ماترجو من الأمر ناجحٌ … ولا كل ماتخشى من الخطب فادح

فهذه الحائية من عيون الشعر العربى ، ولو سمعها أبو فراس لسجد لها سجود الإعجاب ، فما عرفت اللغة العربية من الشعراء الفرسان أفحل من البارودى وأبى فراس

وللبارودى فى الحرب الروسية قصيدة أخرى هى الدالية ، ولكن أى قصيدة ؟ تلك أقباس لا تصدُر إلا عن روح مَرِيد ، من أرواح الفتيان الصناديد ، وفيها يخاطب أحبابه فى مصر فيقول :

نأت بى عنكم غربةٌ وتجهمتْ … بوجهىَ أيامٌ خلائقُها نُكدُ
أدور بعينى لا أرى غير أمةٍ … من الروس بالبلقان يخطئها العدّ
جوائلَ فى هام الجبال لغارةٍ … يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
إذا نحن سرنا صرّح الشر باسمه … وصاح القنا بالموت واستقتل الجند
فأنت ترى بين الفريقين كُبّةً … يحدث فيها نفسه البطل الجلد
على الأرض منها بالدماء جداولٌ … وفوق سراة النجم من نقعها لِبد
إذا اشتبكوا أو راجموا الزحف خلتهم … بحوراً توالى بينها الجزر والمدّ
تشلّهم شُلّ العطاش بنت بها … مراغمة السُّقيا وماطلها الورد
فهم بين مقتول طريح وهارب … طليح ومأسور يجاذبه القِد
نروح إلى الشورى إذا أقبل الدجى … ونغدو عليهم بالمنايا إذا نغدو
ونقع كلج البحر خضت غماره … ولا معقل إلا المناصل والجرد
صبرت له والموت يحمّر تارةً … وينغل طوراً فى العجاج فيسود
فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى … وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
صئول وللأبطال همس من الونى … ضروب وقلب القرن فى صدره يعدو
فما مهجة إلا ورمحي ضميرها … ولا لَبّة إلا وسيفى لها عِقد
وما كل ساع بالغ سُؤْل نفسه … ولا كل طلّاب يصاحبه الرشد
إذا القلب لم ينصرك فى كل موطن … فما السيف إلا آلة حملها إدّ

وقد تحدث فى هذه الدالية ، كما تحدث فى الحائية ، عن شوقه إلى مصر ولياليها البيض بروح لم يتحدث بمثله أحد من الشعراء

الذين سبقوه إلى الحديث عن معاهد الوجد بهذه البلاد

ثم يقضي القَدَر في مصير البارودي بما قضاه، فيشترك في الثورة العرابية، وتقع أحداث وخطوب تنقل وطنه من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود، ويلتفت فيرى دنياه خلت من الرمح والسيف، ولم يبق إلا أن يعيش في جحيم النفي والاغتراب بلا ظفر ولا ناب

لم يكن للبارودي نية في الثورة العرابية، فنحن نرجح أنه اشترك فيها بلا قلب، ولو كان من جناتها لصار التاريخ غير التاريخ فقد كان من مناوير الأبطال، وكان يستطيع أن يرد المكروه عن بلاده لو آمن بما آمن به العرابيون، وكان يستطيع على الأقل أن يظفر بالاستشهاد في ميدان الجهاد

ومعنى هذا الكلام أن البارودي كان يملك التنصل من تبعة الثورة العرابية ليسلم من التأذي بعواقبها السود، ولكن فتوته أبت عليه أن يقف ذلك الموقف البغيض. فشارك إخوانه في البأساء، واستسلم لحكم القضاء، في سبيل الوفاء

نُفيَ البارودي إلى سرنديب وهو في يأس من المعاد. فقد كانت الظروف الدولية تنطق بأن لا أمل في تغيير مركز مصر السياسي، وكانت الأخبار توافيه بأن مصر ضعيفة الرجاء في زحزحة الاحتلال

وفي تلك المدة كانت أحوال أهله في مصر تنتقل من ظلمات إلى ظلمات لغياب راعيها الأمين، فكان روحه ينتقل من جحيم إلى جحيم

هل رأيت الأسد المأنور في حديقة الحيوان، ولاحظت أنه يزأر من وقت إلى وقت ليسرى عن نفسه بالزئير مع اليأس من الحرية؟

كذلك كان البارودي، فما ترك الشعر الحماسي في أعسر أوقات الضيق والكرب؛ ولا سمحت نفسه بأن يتوب من الغطرسة والاستعلاء

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش ... بها بطلاً يحمي الحقيقة شدُّهُ
وإني امرؤ لا أستكين لصولة ... وإن شد ساقي دون مسعاي قده

ويطول بلاء البارودي في منفاه، ويستيئس من الأمجاد الحربية، فيقبل على الأمجاد الأدبية ليضمن لنفسه الخلود

وفي تلك الآماد من البلاء يلتفت البارودي التفاتة جدية إلى ماضي الشعر العربي فيضمه في الميزان ليختار من أطايبه ما يشاء

وهل كان معاصرو البارودي يعرفون من ماضي الشعر العربي مثل الذي يعرف؟

ثم تسمح الدنيا بأن يلتقي البارودي وطنه بعد اليأس من اللقاء، ولكنه لا يعيش في رحاب الوطن غير أعوام قصار قضاها وهو أشبه بالمكفوف، ولعله لم يمت إلا حين عرف أن القاهرة لن تكون أمام عينيه إلا سواداً في سواد، وكانت لياليها أشد إشراقاً من الصباح

ولم يتسع الوقت فأرجع إلى الجرائد المصرية في أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٤، لأعرف كيف كانت جنازة البارودي، وأغلب الظن أنها لم تحمل على مِدفع ولم يشترك في توديعها رجال الجيش رعاية لبعض الظروف الثقال، مع أن البارودي كان من نماذج البطولة المصرية في ميادين الحروب

انتهت دنيا البارودي، وانقضى ما كان يعاني من بوائق الغدر والجحود، وبقي للبارودي ما لم يبق لأمثاله من رجال السيف، بقي شعره المسطور على ضمير الزمان، والشاعر الصادق أخلد من الخلود

زكي مبارك

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٩٤١/٩/٢٤ في القضية رقم ٤٧٦ سنة ١٩٤١، ضد محمود مرسي سلامه تاجر بقالة بدمنهور بغرامة ٥٠٠ خمسمائة قرش صاغ والنشر على مصاريفه لبيعة كبريتا بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة.

التطور البشرى

للدكتور جواد على

ما هى مقاييس التمدن وأين هى مظاهره ؟ أهى فى حركات الإنسان وطراز ملابسه ومجموعة مظاهره الخارجية ، أم هى فى أثاث بيته وأشكال سيّاراته ووسائل راحته وعدد خدمه ، أم هى فى الإنتاجين العقلى والمادى للبشرية ؟ يختلف الجواب طبعاً على هذه الأسئلة باختلاف عقلية المرء ودرجة ثقافته . فجواب العلماء يختلف ولا شك عن جواب السواد الأعظم من الدهماء . وجواب الشرق يختلف كثيراً عن جواب الغربى ، وكذلك جواب الفقير عن جواب الغنى

أما المقاييس العلمية فتستند طبعاً على أسس فنية منتظمة ، وقواعد منطقية محكمة ، لا تكتفى بالمظاهر ولا تقتنع بالظواهر ، لها أحكام خاصة ونتائج تستند على مقدمات وبراهين . و « وحدة التطور » فى حيـاة البشرية بالنظر للغة العلم هى « الـكفاءة » والقابلية وقوة الابتكار ؛ وهى وحدة تقاس بها كفاية الأفراد كما تقاس بها كفاية الشعوب والأمم باختلاف الأجيال والعصور . فكلما أعرقت البشرية فى المدنية ازدادت قوة ابتكارها وتنوعت اختراعاتها وتشعّبتْ اكتشافاتها وتعقدت حياتهـا وزادتْ احتياجاتها عن مستوى حياة الإنسان السابق[1]

ولا تقتصر هذه الـكفاية على الـكفاية الروحية فقط ، بل تشمل الـكفاية الجسمية والمادية أيضاً . ومعنى هذه الـكفاية هو خلق جيل قوى جيل ، مثلاً ، ذى أعضاء وعضلات قوية متناسبة لا تدكه الأمراض ولا تؤثر فيه الجراثيم ، فهو يستطيع أن يقاوم ويقاوم . يتمرد على الطبيعة كما كانت الطبيعة تتمرد على الإنسان السابق . له أهداف ومثل عليا كما نال منها نصيباً طمع فى أخرى ؛ لا تقصر همته كما قصرت همة الشعوب المنقرضة[1]

والتقدم فى الناحية الثقافية معناه تقدم الإنسان تقدماً مطرداً فى دائرته الثلية مثل مثله العليا وأهدافه الأخلاقية ومطامعه فى الحياة وأساليب معيشته واحتياجاته البيتية بحيث تتعقد حياته الروحية وتصعب وتتنوع طرق تفكيره وطراز تعبيره عن أفكاره فى القول والـكتابة ، ويبدع فى الإفصاح عن شعوره وما يجيش فى نفسه فى الموسيقى والشعر والتمثيل والغناء . وكما تنوعت هذه وتشعبت وتميزت دلت هذه التطورات على تقدم ونمو وسير مع النواميس الطبيعية لهذا الكون . لذلك كانت احتياجات الشعوب المنحطة فى هذه الناحية ابتدائية بسيطة بينما هى قد تعقدت وتنوعت فى الأمم الأوربية المتقدمة تعقداً مهماً

وتطور البشرية دائماً من بشرية ذات قابلية معينة محدودة ، ومن بشرية ذات كفاية مقدرة ، إلى بشرية أكثر قابلية وكفاية هى نظرية العلماء الطبيعيين وأصحاب نظرية العالم الإنكليزى داروين والنظرية المعروفة باسم نظرية Malthusche Theorie[2] .

وهذا التناسق الذى يحدث بمرور الزمن فى نظام البشر فيجمع شمـل الحياة الإنسانية فى محيط معقد معين غير متباين بعد أن كانت الحياة غير متسقة متنافرة ، هو التطور المقصود فى نظر العالم الإنكليزى هربرت سبنسر Herbert Spencer[3] . وقد صور هذا التطورَ فى مدنية الإنسان الفيلسوفُ الألمانى هيكل بصورة ملفة من ملفات البردى تنفتح بصورة متوالية كلما انفتح دور فى حياة الإنسان المدنية حتى تنتهى بدرجة الـكمال أو الإنسانية المطلقة . وقد أطلق على هذا الدور Totalität Als Menschheit[4] . وهذا التطور هو من الملامات الفارقة بين

---

(١) من أحسن الـكتب التى ألفت باللغة الانكليزية فى هذا الموضوع هو كتاب « التقدم والفقر » للعالم الأمريكى الاقتصادى الشهير هنرى جورج (ولد عام ١٨٣٩م) ، وقد ترجم كتابه إلى معظم اللغات الحية ونال المؤلف شهرة علمية وسياسـية عظيمة فى أمريكا وأوربا حتى ألف باسمه حزبا سياسياً أطلق على نفسه اسم « حزب جورج » . راجع Stiegmann Socialismus ص ٢٩ .

(١) راجع كتاب Fartschritt Und Armut تأليف الأمريكى الشهير Henry George . ص ٣٤٧ وكذلك كتاب قاموس الفلسفة لشميد ص ١٨٦

(٢) نفس المصدر . ٣٤٧

(٣) سبنسر وهو فيلسوف انجليزى ولد فى دربى Derby عام ١٨٨٩م وتوفى عام ١٩٠٣ م وهو من الفلاسفة الذين لعبوا دوراً هاما فى العالم الفكرى فى انكلترة وقد ترجمت معظم كتبه إلى مختلف اللغات الأوربية

(٤) راجع كتب الفيلسوف الألمانى (Hegel) والـكتب الـكثيرة التى وضعت عنه . وهناك مذهب خاص فى الفلسفة عرف باسم (مذهب هيكل) ولا أتباع يعرفون (بالهيكليين) Hegelianer, Hegelianismus

الحيوان والإنسان وبين الشعوب المتمدنة وبين الشعوب المتوحشة . ونحن لا نكاد نشعر بظواهر التطور فى حياة الأمم الابتدائية والمتوحشة بينما نلمس ذلك بصورة جلية فى الأمم المتقدمة التى يظهر فيها التطور كلما تقدمت درجة فى المدنية . فوضوح التطور أو غموضه إذاً مقياس يعتبر من أهم المقاييس التى تستعمل لقياس مدنية أمة من الأمم وتقدير منزلتها من بين منازل شعوب الأرض

ولا بد أن يقترن ذلك التطور كما قلنا بالابتكار وبالإنتاج وبرفع مستوى المعيشة لأفراد الأمة Standard والرفاهية . ولفظه Smartness كما يطلق على ذلك الأمريكيون[1] ولذلك يعتبر الرأى العام الإنكليزى نفسه أرقى فى المدنية من الفرنسيين لأن الإنكليز أقدر منهم على الابتكار والإنتاج وعلى مجابهة الحوادث ، وأكثر منهم قابلية وكفاية بصورة عامة ، ودرجة الرفاهية لديهم أعلى من نسبة درجة الرفاهية لدى الفرنسيين[2]

وكلما كان هذا التطور فى المجتمع عاماً شاملاً كانت جذور الأمة فى المدنية أقوى فيها وأرسخ ، وأقدر على مجابهة مشكلات الأمور وحوادث الزمان، وأحكم فى السيطرة على أجزاء المملكة وعلى تكوين رأى عام متماسك متقارب فيها لا ينفك بسرعة . وهذا هو السر فى انهيار بنيان شعوب البلقان مثلاً بسرعة بينما نجد الأمم الجرمانية والإسكانديناوية قوية تقاوم للبشر والطبيعة على حد سواء

وهو من العلامات الفارقة بين الحضارات القديمة حتى القرون الوسطى وبعد ذلك، وبين الحضارة الحديثة والتى سبقتها . كان التطور فى الزمان السابق قد اقتصر على طبقة معينة من الناس وهى الطبقات العليا، أعنى رجال القصر وحاشية الحكومة ورجال اللاهوت . أما الطبقات الدنيا فكانت فى مستوى فكرى روحى منحط . لذلك لم تكن حلقات الأمة محكمة ، ولم يكن المستوى العقلى فيها متشابهاً أو واحداً . لذلك كانت خواص الأمة العقلية وخواصها الفسيولوجية منحطة واطئة ، لأنها لم تكن متطورة ، فلما أخذت الطبقات الدنيا تشارك الطبقات العليا

(١) راجع كتاب Fartschritt und Armut ص ٣٤٧ ، وكتاب The Histor of long civi. 1932 ص ٣٠٤

(٢) نفس المصدر وراجع أيضا كتب تاريخ الحضارة ، أو علم النفس الشعوب Volkerpsy chology

فى التعليم وتشاركها فى وظائفها العليا وحقوقها المكتسبة أدركت الأمراض التى كانت تحيط بها والأخطار التى كانت تهددها ، فاحترست منها وأخذت تقاومها مقاومة رجل عالم خبير فقوّت عقلها وقوّت جسمها فى وقت واحد[1] . ولذلك خفّ ضغط الشعوب المتوحشة على الشعوب المتمدنة ، ثم زال عنها بالتدريج .

كان أهم مميزات حضارة الإنسان الأول هو ضعف تلك الحضارة من حيث ناحية الدفاع تجاه الأمم المتوحشة إذ كانت القوة للعضلات وكثرة العدد . فلما تطور الإنسان وظهرت حضارة القوة انعكست الآية وأصبحت الشعوب المتوحشة فريسة الأمم المتمدنة القوية ، وأصبحت الأمم المتمدنة هى التى تملى إرادتها على الشعوب المتوحشة وتكيفها كيف تشاء ؛ لأن القوة لم تعد قوة العضلات ولا قوة الحجارة والطيش ، إنما هى قوة التكيف والتطور والابتكار والمهارة . وأصبحت الأمم المتمدنة لا تقاتلها إلا الأمم المتمدنة . والأمم المتمدنة هى الأمم التى تصمد أكثر من غيرها تجاه مطارقة الأعداء فى أية ناحية من نواحى الحياة

حقق التطور البشرى كثيراً من أحلام البشرية وفك بعض طلاسم الكون والوجود ، ولكن هل يستمر هذا التطور فى سيره السريع هذا ؟ وهل يأتى يوم تحقق فيه البشرية كل ما كانت تحلم به أو تصبو إليه ، فتتكون على الأرض البشريةُ المثلى وينعم الإنسان فى هذه الجنة الأرضية بالخلود والنعيم ؟ آمن بعض ذوى الخيال الواسع من العلماء بهذه الفكرة الجميلة فحاولوا قديماً وحديثاً استغلال العلم واستعباد العقل للعثور على سر الحياة واكتشاف لغز الموت لمقاومته ، واقتنع آخرون بنظرية إطالة عمر الإنسان مدة تزيد على مدة العمر الطبيعى . وأبى آخرون إلا أن يهتدوا إلى سر الكون ، وإلا أن يتوصلوا إلى إدراك كنه ما نسميه بالطبيعة ، وأن يجدوا لهم سبيلاً إلى الشمس والنجوم أو طرقاً للمحادثة مع سكان الأجرام العلوية على الأقل[2] .

(١) راجع كتاب Fortschritt ص ٣٦٢ ، وكذلك كتاب العالم Walter Bagehot وعنوانه Physics And Politics

(٢) راجع كتاب Fortschritt ص ٣٤٩ راجع أيضا قاموس الفلسفة لشميد ص ٤٠٤ . وكتب الفيلسوف الألمانى الشهير فرانس مولر لاير Franz Müller Layer (١٨٥٧—١٩١٦) ، والفيلسوف Golscheid Rudolf (١٨٧٠ — ١٩٣١) وهو صاحب نظرية الانسان الاقتصادى

ولكن دلت التجارب على أن كل تطور يعقبه تطور من جهة أخرى لا يرغب فيه الإنسان . فقضى علماء الطب على معظم الأمراض القديمة ، ولكن المعامل الكبرى والمدن الضخمة والسكك الحديدية وضجة الآلات والسرعة الرهيبة ، كل هذه جاءت إلى البشرية المتطورة بأمراض لم يكن يعرفها إنسان الماضي ، وستجيء بأمراض ولا شك لإنسان المستقبل لم نكن نعرفها نحن جزاء تطوره هذا .

وقد جاءت الاختراعات والثورة المادية بعوائد اجتماعية زلزلت بنيان البيت القديم وقوضت دعائم قدسيًاته الاجتماعية وقواعده الأخلاقية التى كان يعتز بها . وجاءت بعادات جديدة فرضتها عليه فرضاً ، ووسع هذا التطور مجال الحروب فجعلها عالمية وقد كانت موضعية ، وجعلها آلية تكلف الإنسان ثمناً باهظاً تبتلع معظم ميزانية الدولة فلا تنتهى الحرب حتى يدخل فى حرب أخرى جديدة أعم من تلك وأعظم [1]

لذلك تشاءم بعض الفلاسفة من هذا التطور فأعلنوا ثورتهم على التطور الحديث والمدنية الحديثة فاعتزل الفيلسوف الشهير شيخ المتشائمين المحدثين شوبنهور هذا الكون ومن فيه متمثلاً

(١) راجع كتب فلاسفة ما بعد الحرب العظمى . لا سيا كتب المتشائمين منهم والناقمين على الحرب

بآراء فلاسفة الهنود ساخراً من كل شيء إلا من كلبه الأمين الذى أطلق عليه كل العالم Welt gaum ليعبر بذلك عن مقدار استخفافه بهذا العالم [1]

وتبرم فيلسوف آخر هو الفيلسوف المتشائم شبنكلر من الحضارة الحديثة ومن الثقافة المادية التى صبغت كل شيء حتى المثل الأخلاقية بالصبغة المادية ، وهدد بناء أوربا بسقوط عاجل سريع فى أنجيله الفلسفى الجديد « سقوط الغرب » [2] وقد أبان فيه أن الإنسان قد تطور تطوراً سريعاً جداً

أما من حيث الناحية الروحية فقد سارت البشرية فيها ولا شك بخطوات سريعة أيضاً ولكن إلى الوراء ، ونادى الفيلسوف الدانماركى كيركه كارد Sören Kierkegaard أبناء قومه بعبارة تنم عن نفسية أوربا الحديثة : « هيا إلى الدين » [3]

ميراد على

(١) راجع الكتب المؤلفة فى حياة هذا الفيلسوف وكذلك الكتب التى ألفها نفسه ليعبر بذلك من آرائه الفلسفية . راجع شميد قاموس الفلسفة مادة شوبنهور

(٢) وقد كان لكتابه هذا الذي صدر فى جزأين صدى عظيم فى أوربا حتى اقتناه كل رجل مثقف فى تلك القارة وقد ترجم إلى أهم اللغات

(٣) وهو الفيلسوف Sören Kierkegaard (١٨١٣ — ١٨٥٥م) من الفلاسفة الذين أحدثوا انقلاباً كبيراً فى العقلية المسيحية فى أوربا . كان يرى وجوب خلق مسيحية جديدة على أسس فلسفية حديثة

من أدب الغرب

صفات زوجة

للدون فرنسيسكو دى كفيدو

بقلم الأديب يوسف روشا

هذه رسالة بعث بها « الدون فرنسيسكو دى كفيدو » فى سنة ١٦٣٣ إلى « الدونا اينا دي فونسيسكا » وصيفة ملكة أسبانيا ، ضمنها الصفات التى يود أن تكون عليها زوجته ، إذا ما قدر أن تكون له زوجة . والرسالة مكتوبة بأسلوب ممتع ، فيها شىء كثير من الفكاهة ، ويغلب عليها تلك الروح الشرقية التى قد تكون من بقايا ما خلفه العرب فى الأندلس من الأخلاق والعادات ، بعد أن دالت دولتهم

كل الذى أنشده فى الزوجة — لشرفى وراحة ضميرى — أن تكون قد تثقفت فى رعاية مولاتى ، ونشأت وترعرعت فى خدمتها ، واعتادت طاعتها لتحظى برضاى . أما إذا رأت مولاتى وأمرت على أنى جدير بزوجة أرق من هذه ، فنزولاً على رغبتها وتلبية لطلبها سأحاول فى هذه الرسالة تبيان الصفات التى يجب أن تتحلى بها تلك الزوجة التى قد ينعم الله بها علىّ ، وذلك بواسطة مولاتى ومولاى الأمير . على أنى لا أبتغى — علم الله — من وراء ذلك تنوير مولاتى ، بل تسليتها

أما أنا ، فعديم الأهمية ، لولا مولاى الأمير الذى هذبنى وقومنى ونشلنى من الهوة السحيقة التى ترديت فيها . وإذا كنت أتمتع الآن بشىء من الحظوة وسمة العيش ، فذلك لأنى عزفت ، والحمد لله ولمولاى الأمير ، عما كنت عليه سابقاً من الموبقات

لقد كنت شريراً ماكراً ، وبالرغم من أنى قد تركت تلك الصفات الآن ، فإننى لم أصلح كل الصلاح بعد . ذلك لأنى لم أهجر شرورى وآثامى عن ندم وتوبة ، وإنما نبذتها لأنى ضقت ذرعاً بها

أنا رجل من أرومة طيبة فى بلدى كما تعلم مولاتى . وإن لى داراً فى الجبال ، وأنا ابن والدين عزيزين أفخر بهما ، ولهما عندى أطيب الذكر ، على حين أن أعمالى — ولا ريب — تزعجهما وتسبب لهما حزناً عميقاً ...

يصفنى أعدائى بأنى أعرج . وكل ما فى الأمر أنى أبدو كذلك لعدم اهتمامى بنفسى . ولا يستطيع أحد أن يجزم هل أنا أعرجُ أو أحنى ركبتى . ومهما يكن من أمر ، فليراهن من يشاء على عرجى

أما سحنتى ، فلا أقول إنها ترضى من يراها ، ولكنها على كل حال ليست دميمة أو شنيعة إلى درجة تبعث على السخرية أو الاشمئزاز

والآن وقد أتيت على وصف نفسى وكشف النقاب عن وجهى ، أنتقل إلى وصف المرأة التى أرتضيها لنفسى إذا ما منّ الله بها علىّ . على أنى أعترف أنه لولا مشيئة مولاتى ورغبتها الملحة ، لكان من الحق لمن كان مثلى فى حقارة الشأن وضعة النفس أن يقبل على أمر كهذا ، وليس ثمة امرأة ترضى به بعلاً ... !

أود قبل كل شىء أن تكون زوجتى كريمة المحتد ، عفيفة حصيفة ؛ والصفة الأخيرة لازمة ، إذ لو كانت غبية لما عرفت كيف تحتفظ أو تستفيد من صفتيها الأخريين . ثم إنى أرجو أن تكون دمثة الأخلاق ، خفيفة الروح ، وأن تكون فضائلها فضائل امرأة متزوجة لا ناسكة متقشفة ، لأن الاهتمام بزوجها وبيتها أخلق بها من سماع الوعظ وإقامة الصلاة . أما إذا كانت على شىء من العلم والمعرفة ، فأفضل عليها النبيهة ، لأن العيش مع زوجة جاهلة أفضل وأسلم من العيش مع زوجة مغرورة

وأريدها وسطاً لا بشعة ولا جميلة ؛ لأن المرأة الدميمة مصدر خوف وفزع ولا تصلح رفيقة حياة ؛ والمرأة الجميلة تزعج أكثر مما تسر . أما إذا لم يكن بد من أن أختار إحداها ، فعلىّ بالجميلة ، لأن الهم أهون علىّ من الخوف ، ولأن تكون لى زوجة أحرسها ، أحبُّ إلىّ من أن تكون لى زوجة أفرُّ منها !

ثم إنى أريدها ميسورة لا غنية ولا فقيرة ، فلا هى تشترينى ولا أنا أشتريها ، إذ ليس ثمة فقر ما وجدت العفة والسماحة . إن الثرى الذى يرفض الزواج من امرأة لأنها فقيرة ، لهو غنى سافل ؛ وإن الفقير الذى يخطب امرأة لأنها غنية ، لهو فقير حقير

كذلك أريد زوجة بشوشة لا عبوسة ، لأن العيش مع هذه شقاء

متصل وعذاب مقيم . ثم إنى لا أريدها متشائمة تظل قابعة فى زاوية من زوايا البيت تنعق كالغراب

ويجب أن تكون حسنة الهندام فى غير إسراف ، وأن ترتدى ثياباً محتشمة لا تلك التى تخترعها الخليعات من النساء

ويجب ألا تعمل ما يعمله البعض ، وإنما تعمل ما يعمله الكل وأفضل الزوجة البخيلة على الزوجة المبذرة ؛ ذلك أن التبذير شر يجب الابتعاد عنه ، على حين أن البخل ، وإن كان ذميماً ، قد ينفع فى بعض الأحيان . على أنى أعد نفسى سعيداً إذا ظفرت بزوجة سخية

لا يهمنى أكانت بشرتها بيضاء أم سمراء ، أو كان شعرها أسود أم أشقر ، وإنما الذى يهمنى هو ألا تجمل شعرها أبيض إذا كان أشقر ، لأن ذلك يبعث على الغيرة وقد لا تحمد عقباه . ولا يهمنى أيضاً أكانت زوجتى طويلة أم قصيرة ، لأن فى كعب الحذاء تلافياً لهذا النقص الجسمى ؛ والكعب كالموت يسوى بين الناس

أما عن كونها هزيلة أو بدينة ، فأقول إنه إذا لم أستطع الحصول على زوجة تكون على الأقل معتدلة الجسم فأنا أفضل الهزيلة ... أحب أن تكون زوجتى هيكلا عظمياً لا قطعة من الشحم واللحم

ثم أريدها مكتملة الشباب لا طفلة ولا عجوزاً ، فالفرق بينهما كالفرق بين المهد واللحد . ذلك لأنى قد نسيت من زمان بعيد أناشيد المهد ، وأنا لم أتعلم بعد ترتيل المراثى . حسبى أن تكون امرأة ناضجة ، وأن تكون حديثة السن فتلك منة من الله

وأود من صميم قلبى ألا يكون فمها وعيناها ويداها على جمال خارق . ذلك أنها إذا بلغت الكمال فى هذه الأعضاء لما احتملها أحد ؛ لأنها فى هذه الحالة لا تنفك تلعب بيديها لتعرضهما على الناس ، ولا تنى تدير مقلتيها ليلحظهما الناس ، ومما يصعب احتماله أن ترى امرأة دائمة الضحك والتثاؤب لا لشىء سوى أن تريك أسنانها اللؤلؤية . إن القلق يذهب بالجمال ، وإن الإهمال يخفى العيوب

ولن أتزوج واحدة قد مات عنها أبواها ، وذلك لأتخلص من وجوب إحياء ذكريهما ؛ كما أنى لا أرغب أن يكون كل أهلها أحياء . ليدخل أبوها وأمها بيتى على الرحب والسعة ؛ أما عماتها فإلى جهنم وبئس المصير ؛ وسأوصى بقراءة الفاتحة على أرواحهن مرة بعد مرة.

وسأحمد الله وأشكره إذا ما منحنى زوجة ثقيلة السمع ، معقودة اللسان ؛ ذلك أن هاتين الحاستين كثيراً ما تضجران الأصحاب وتقطعان الزيارات . كما أن من دواعى سرورى واغتباطى أن تكون زوجتى سيئة الطبع ؛ لأن المرأة الكيسة لا تنفك تضرب على وتيرة واحدة متمنية أن لو كانت كباقى النساء وإن طبيعتها السجيحة هى المسؤولة عما تلاقى من الغبن

وأختم رسالتى هذه جاداً متوخياً الحقيقة كما بدأتها ، ومؤكداً لمولاتى أن الزوجة التى تحقق رغباتى هذه ستحظى عندى بأعظم منزلة . على أنى أعرف كيف أصبر على بلائها إن هى قلبت لى ظهر المجن . ذلك أنى قد لا أكون موفقاً فى زواجى ، ولكنى لن أكون زوجاً فظاً بحال من الأحوال . أطال الله حياة مولاتى ومولاى الأمير ومتعهما بالصحة والعافية إنه السميع المجيب

ترجمها من الانجليزية

(بغداد) يوسف روشا

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٩٤١/٩/٢٤ فى القضية رقم ٤٨١ سنة ١٩٤١ ضد حماد محمد باشم غاز تبع شركة ماتتاشوف من دمنهور بغرامة ٥٠٠ خمسمائة قرش صاغ والنشر على مصاريفه لبيعه غازاً بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة .

كلمة صريحة:

بين الأديبين
المصرى والسورى!
« لكاتب لبنانى »

أفضى الدكتور طه حسين بك إلى بعض الصحف العربية فى سوريا بكلمة يعزو فيها قلة التفات الأوساط الأدبية فى مصر إلى الأدب السورى الحديث — بما فيه اللبنانى — إلى عدم القيام (بواجب الدعاوة ...) لهذا الأدب . ولا حاجة إلى البيان أن الذين ينبغى أن يقوموا بواجب هذه الدعاوة إنما هم أفراد الجالية السورية اللبنانية فى مصر الشقيقة

ولقد أثارتْ هذه الكلمة بعض الأقلام بالمعارضة وبادّعاء تعذّر القيام بمثل هذه الدعاوة لأسباب لا سبيل الآن إلى ذكرها . وأنا أوثر أن أنقل ميدان هذا الكلام — وما يستتبع — إلى هذه المجلة الغراء لأطلع إخواننا المصريين — فى هذه الكلمة القصيرة — على بعض النواحى المؤثرة تأثيراً مباشراً فى تكييف الحركة الأدبية فى سوريا ولبنان

أما العُذر الذى انتحله الدكتور الفاضل — وهو (واجب الدعاوة ...) — يبتغى به تبرير موقف الأدب المصرى الحديث من أن يقال عنه إنه لا يأبه — أو على الأقل — لا يلتفت الالتفات المطلوب إلى تسجيل ظواهر الحركات الأدبية فى بلادنا ؛ هذا العذر ، لا أظن أن الدكتور نفسه مطمئن إلى صحته ، وإنما يكون أغضى — وأحسبه إغضاء متعمداً — عن حقيقة سأسجلها بعد حين على أدبنا — ولو كانت مُرّةً مؤلمة —

من الوهن فى التفكير أن يقال إن (الدعاوة) التى تقوم بها الجالية المصرية فى بلادنا — إن كان ثمة جالية مصرية تقوم حقاً بالدعاوة — هى التى أضاءت لنا الأدب المصرى الحديث ، وعرّفتنا به ، وحبّبتنا فيه ، فإن الواقع لا يثبت من هذا شيئاً ، إذ لم نر رجلاً مصريًّا فى بلادنا يطرسُ أية كلمة فى نقد كتاب مصرى صدر فى مصر (والنقد ينتظم حسناته وسيئاته) ، ولم نرَ رجلاً مصريًّا يعرض فى مكاتبنا كتباً صدرت فى بلاده دون أن يطلبها منا طالب ؛ اللهم إلا أن يكون مقتنعاً أنها لن ترد ، وأنها ستحوز الرضى ، وستنفق سوقها ، لما لها من أهمية عظمى وحاجة ماسة ، وطلب ملحاح فى بلادنا السورية واللبنانية ، فإذ ذاك يبعث بها فيعرضها ، وليس هذا من الدعاوة فى شىء ، إذ أن هذه المؤلفات لا تفتقر إلى مثل هذه الدعاوة

لهذا كله تصادف المؤلفات المصرية سوقاً رائجة فى بلادنا

وأما متعهدو المؤلفات عندنا — أو المؤلفون أنفسهم — فإنهم لا يجدون ميلاً إلى إرسال مؤلفاتهم لعرضها فى الأسواق المصرية خاصة ، لأنهم مقتنعون أنها لن تحوز الرضى ولن تنفق سوقها ، فيكون هذا داعيهم إلى الاجتزاء بعرضها فى أسواقنا ، وحسبهم ذلك

فالدعاوة التى ينيط الدكتور الفاضل بها رواج المؤلفات ، ليس لها من التأثير أى قسط .

فلماذا إذن تصادف المؤلفات المصرية ، وبالجملة الأدب المصرى جواً مواتياً فى مصر نفسها قبل سوريا ؟ ولماذا لا يصادف الأدب السورى هذا الجو نفسه فى سوريا بَلْه مصر ؟

أجل ! لماذا يأنس قراؤنا — نحن السوريين — صورةً إلى قراءة المؤلفات المصرية تفوق ميلهم إلى قراءة الكتب السورية حتى إنك لترى الكتب المصرية تحتل المركز الأول فى أسواقنا ؟

هذه أسئلة تتطلب أجوبتها صراحة وصدقاً لا تحامُل فيهما على جانب ، ولا إشادة فيهما ولا إطراء لجانب آخر !

من الحق ألا يعترف المرء أن من أسباب ذلك أن النتاج المصرى أكثر فائدة وأكبر قسطاً فى التفكير الحى ، وأكثر طلاوة فى الأسلوب ، وأوفر جمالاً فى ابتداع المعانى وخلق الطرائف ، وأرهف إحساساً فى تصوير العاطفة ؛ وبالجملة : أن النتاج المصرى أكثر نضوجاً . وهذه الظاهرة لا تخفى على أحد ، ولا يحاول أن يبخس من حقها أحد ، فمصر زعيمة البلاد العربية غير مُدافَعَة فى مضمار النتاج الأدبى بكل ما ينتظم من فروع ؛ وإن تكن مصر زعيمة البلاد العربية فى الأدب ، فليس بضائرها أن تلتفت إلى الحركات الأخرى . بيد أن الذى لا شك فى أنه السبب الأساسى فى رواج الأدب المصرى ، وفى كساد السورى — إلى حد — هو أن نتاج السوريين ضئيل ، لا يقاس بوفرة نتاج المصريين وضخامته وغزارته

وآية ذلك أن أى أديب مصرى شهير — فى عرف المصريين والسوريين على السواء — لا تقل مؤلفاته عن العشرة . وأكثر هؤلاء الأدباء تربو مؤلفاتهم على ذلك بكثير أو قليل . وإنا إذا قلنا (أديب شهير) فإنما أعنى أن مؤلفاته لا تجنح إلى الاسفاف أو الضعف ، ولا تميل إلى التعقيد والغموض . وبجملة واحدة أن مؤلفاته معروفة مفيدة قيمة . ومن الطبيعى أن يقوّم الأديب بعدد كتبه القيمة...

ولكننا نرى فى أدبنا ، أن أى أديب سورى شهير - فى عُرف السوريين فحسب (ولم أشفع معهم المصريين لقلة اطلاعهم ونقص معرفتهم فى هذا المضمار) - لا تربو مؤلفاته عن الخمسة ، وأكثر هؤلاء الأدباء تقل مؤلفاتهم عن ذلك بكثير أو قليل

قد يتجه[1] للقارىء هنا أنه قد يكون غرب عن بالى أمرُ المؤثرات فى البيئات ، وهذا أمر له قيمته وشأنه . ولكنك إذا استقرأت جميع المؤثرات فى الأدب ، وقارنتها بين الأدبيين فإنك تراها تختلف اختلافاً يسيراً ليس من شأنه أن يؤثر هذا التأثير العظيم فى النتاج الأدبى لكل من البلدين . فالوسط الذى يعيش فيه كلا الأدبيين يكاد يكون واحداً ، والمجتمع كذلك باعتبار أنه مجتمع عربى آماله واحدة ، وغايته واحدة ، يتكلم لغة واحدة ، والغالب فيه يدين بدين واحد ، وتحكمه حكومة واحدة ... الخ . وأما البيئة الطبيعية فتختلف كثيراً بين جو مصر الثابت ، وبين جو سوريا المتبدل المتغيّر بحسب الفصول ؛ وأنا أرى أن التبدل الجوى فى سوريا هو فى صالح فكر أدبائها ؛ لأنه دائماً يتلون بلونه ويتأثر أكبر الأثر به ؛ فجو مصر الثابت يورث العقل المصرى جواً ثابتاً فلا يتغير التفكير إلا بقدر . وأما جو سوريا المتبدل فيورث العقل جواً متبدلاً يعد هذا التفكير بأسباب الاضطراب الدائم ، والحركة المختلفة ، فيتمخض عن ألوان من التفكير كثيرة ، وضروب من العاطفة وفيرة[2]

والآن أعود — بعد أن كاد القلم يشط — إلى تعليل سبب هذا البون الشاسع فى النتاج الأدبى

إن الأدباء المصريين لا يألون جهداً ، ولا يدخرون قوة فى الكتابة ، بل يدأبون على امتصاص مداد القلم ، وعلى ترشف ماء معانيه ، فيكتبون ويكتبون ولا ينصبون ، وينهال عليهم الإطراء والتشجيع فيزدادون ... أجل إنهم يزدادون ... وهذه الحركة الدائبة فى الكتابة تفسح أمامهم طرقاً واسعة لاحبة فى التفكير ، وتحسر لأعينهم عن مجال جمة فينظرون ويتأملون ، وينهلون كأنهم لا يرتوون

وهم يحسون - إذا ما اضطرتهم ظروف قاسية إلى الانصراف عن الكتابة - بضيق شديد يبرمهم ويؤلمهم ، ويستشعرون حنيناً مشبوباً إلى « العودة إلى الروض ... »

لهذا كله ، أضحى نتاجهم الأدبى ضخماً غزيراً لا ينضب معينه ، ولا يجف مداده

وأما الأدباء السوريون واللبنانيون فهم على عكس ذلك ، وهذه هى الحقيقة المؤلمة

إن حقوق الصراحة لتوجب علينا القول : إن الأديب السورى الذى يقرزم[1] يعتقد أنه أصبح شاعراً أعظم ... وإن الأديب الذى كتب مقالة نالت بعض الإعجاب يثق بأنه أضحى المفكر الذى لا يجارى ، وإن الأديب الذى أصدر قصة أو قصتين يوقن بأنه أمسى القصصى الذى لا يبارى

ولكن من الحق كذلك أن نسجل أن فى سوريا ولبنان أدباء وعظماء تجود قرائحهم — إنما طابوا نفساً بالكتابة — بدرر بينة وآيات رائعات ، ولكنهم - مع الأسف ، والأسف الشديد - يجودون بمقال واحد فى السنة ، ويصدرون كتاباً واحداً فى العشر سنين !

إن هذا الانقطاع عن الكتابة من شأنه أن يخمد حيوية الفكر ، ويميت قوى التأمل والنظر إلى بعيد ، ويقضى على شبوب العاطفة . أنا لا أدعى أن ليس فى الأدب السورى شىء قيم ، فمعاذ الله أن يكون ذلك ؛ بل أقول إن الذى يصدر كتاباً قيما واحداً لا حاجة له بعد الآن إلى إجهاد نفسه وإتعابها . فقد سلس له قياد الفكر السامى . فليخلد إلى الراحة ، وليركن إلى برجه العاجى ، ولينتسك ما طاب له فى منسكه . ألم يطر عليه كافة القراء ؟ أولم تتشوف إليه كافة المجلات ...

الحق الذى لا مناص من إثباته هو أن الغرور والزهو والتكبر — تتملك كلها — أكثر أدبائنا ؛ فينتجون هذا الإنتاج الضئيل . إن كتاباً واحداً تصدرونه — أيها الأدباء قاطبة — لا قيمة له مهما جل فيه من فكر وسما ما يحوى من آراء

ماذا أفدت أيها الأديب (الساحر ..) الذى يدعى أنه يزجى

(١) يسنح (٢) هذه بعض المؤثرات وليست كلها

(١) يبتدىء بقول الشعر

إلى إمام الأزهر

العقـــائد الوثنيـــة
فى الكتب الأزهرية
للأستاذ محمود أبو رية

هذه كلة خالصة نرجو أن تبلغ مسامع الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأن تصيب مكان العناية منه فينهض بما أوتى من علم واسع وعزم قوى إلى العمل على تخليص العقائد الدينية من نزعات الوثنية ، وتحرير العقول من رق التقاليد الخرافية ، حتى تصبح هذه العقائد سالمة خالصة ، وتنطلق العقول والأفكار إلى العمل على كل ما يعود عليها بالنفع والخير . وإنه إن يفعل ذلك يكون قد أقام الأصل الأول للدين الإسلامى وهو التوحيد الخالص ، الذى هو (كمال الإنسان) كما قال أستاذنا الإمام محمد عبده ، ووضع أساس الإصلاح فى بلادنا إذ لا يقوم أى إصلاح فى أى مرفق من مرافق الحياة إلا بعد تطهير العقائد وتحرير العقول . ذلك بأن العقائد الفاسدة كما لا يخفى تأخذ بأيدى معتقديها وأرجلهم ، وتغل عقولهم عن التفكير الصحيح ، وتصيب عزائمهم بالشلل الاجتماعى ، فلا يعملون فى الحياة ولا يُعدون لما عدتها . وأنى لهم العمل وقد (رموا الحول ...) على ما اتخذوه أولياء بزعمهم فاستيقنوا أنهم يقضون حاجاتهم ويجيبون دعواتهم

وإن الذى جعل العقائد الوثنية تفشو ولا ريب بين المسلمين هم أكثر شيوخ الأزهر بما يبثونه فى فتاواهم وأحاديثهم ودروسهم ومجلاتهم ، ولولاهم لما وجدت الوثنية سبيلاً إلى عقائد المسلمين ، ذلك بأنك ترى الرجل من دجاجلة الصوفية يدس عقائد الشرك بين من يسميهم مريديه ، ويعبث ما شاء له الجهل أن يعبث بعقول هذه الطوائف الساذجة ، فإذا التفت إلى الشيخ الأزهرى ، وهو الذى يرجى منه أن يعمد إلى ما يبنيه هـذا الرجل الصوفى فيأتى عليه من القواعد ، لتنظر ماذا يصنع إزاء ذلك وجدته يناصر هذا الدجال ويؤيده ؛ وقد بلغ من بعضهم أن يمشى فى ركابه ويدعو الناس إلى احترامه وإجلاله فيقول : إن العلم علمان : علم الظاهر وهو لنا ، وعلم الباطن الذى هو علم الحقيقة وقد فاز به شيوخ الصوفية . وبذلك يصبح هذا الرجل الجهول قطب وقته وولى عصره

ولقد كنت يوماً أناقش أحد شيوخ الأزهر فيما يصنعه هو وأمثاله من العمل على إشاعة العقائد الوثنية بين المسلمين ، فكان مما أجاب به : إن هذه الأمور قد درسناها على شيوخنا فى الأزهر علماً وأخذناها عنهم عملاً ، وهى ثابتة فى الكتب الأزهرية . وقد

الوقت كله فى مطالعة المؤلفات القيمة وهو لم يصدر — مدى حياته الأدبية الطويلة — إلا كتابين أو ثلاثة ! !

وأنت ماذا جنيت أيها الشاعر الذى يقول إنه لا يرتاح ثانية من تصفح دواوين كبار الشعراء وهو لم يطلع الناس إلا على مقطوعات صغيرة ، هيهات أن تتجمع ديواناً ؟ !

وأنت أيها القاص الذى لم يصدر إلا كتاباً واحداً لم يحو أكثر من عشر قصص ، أكل ما وقع عليه بصرك من صور حية ، ومناظر جمة تثير الفكر ، وتمده بالحيـوية مثبت فى كتابك ذاك ؟ !

وأما أنت أيها الناسك المفكر ، فأفق مما أنت فيه ، واطفئ شمعتك الصغيرة التى لا تومض إلا ومضاً ، واخرج إلى الحياة ، إلى الشمس النيِّرة ... اخرج إليها بجسمك وعقلك وروحك وقلبك ، فإن لك فيها متسعاً !

لقد غزانا المؤلفون المصريون بمؤلفاتهم ، وأثبتوها إثباتاً فى بلادنا ، فتقبلناها شاكرين ، وعُجْنا على مطالعتها متهافتين . وذلك لأنها وافرة ، لأنها غزيرة ، ولأن فى هذه الغزارة قيمة عالية .

ولم نستطع غزو مصر — حتى ولا غزو أنفسنا (إذا أردنا المبالغة) — بمؤلفاتنا ، ولم يتقبلها المصريون لأنها نادرة ، لأنها قليلة جداً ، ولأن فى هذه القلة قيمة ضئيلة

كلا ! ليست « الدعاوة » التى قصرنا فيها هى السبب فى قلة التفاتهم إلينا ، وليست « الدعاوة » التى أوفوها حقها هى السبب فى تهافتنا على أدبهم !

لا يمضى الشهر المصرى دون أن نسمع أن كتابين أو ثلاثة قد صدرت ، وتمضى السنة السورية واللبنانية — بل السنون — دون أن نسمع أن كتاباً واحداً قد صدر !

إنها كلة صريحة آمل أن تثبت فيقرأها أدباؤنا ... علّ الجد يستحثهم ، ويحققون ما يدعون بأن نهضة كبرى تترعرع فى بلادنا .

(بيروت) « كاتب لبنانى »

قرر شيخنا الدردير في الخريدة أن من لا شيخ له فشيخه الشيطان . وقال إمامنا البيجوري في حاشيته على الجوهرة : إن الله تعالى يوكل ملكا على قبر الولي يقضي حوائج الناس . فنحن لا نقول إلا عن علم ولا نفتي إلا بدليل . ثم التفت إلى متعجباً وقال : كأنك لم تقرأ ما ينشر كل يوم في المجلات الدينية من الفتاوى الدجوية ، وآخرها فتوى فائدة الأربعاء القناوية . أو كأنك لم تطلع على القصيدة الصدفية في الاستغاثة بالحضرة الأحمدية البدوية التي نشرت بمجلة الرسالة الغراء ! ألا فادرس العلم الصحيح في مصادره ، وارجع إن أردت المزيد إلى ما أثبته الشيخان (الأكبران) الشرقاوي والبيجوري وهما ممن بلغوا درجة الإمامة وتولوا مشيخة الأزهر لترى كيف يكون علم العلماء المحققين . فغادرته ورجعت إلى هذه الكتب التي ذكرها لأرى ما فيها ، وما كدت أعبر بعض صفحاتها حتى تلقاني علم زاخر وجدت أن لا قبل لي بملاقاة أمواجه ، فقفلت راجعاً وقلت الهم إن السلام في الساحل

أما الكتاب الأول فهو شرح الخريدة البهية (للقطب الكامل والغوث الواصل أبي البركات سيدي أحمد الدردير)

قال هذا القطب بعد أن ذكر من العقائد ما شاء له علمه : إن على كل مسلم « اتباع شيخ عارف قد سلك طريق أهل الله على يد شيخ كذلك إلى أن ينتهي إلى رسول الله » ، ثم قال : «ومن لا شيخ له فشيخه الشيطان . وبعد ذلك أوجب على المسلمين تقليد الأئمة الذين ذكرهم اللقاني في الجوهرة بقوله :

وما لك وسائر الأئمة كذا أبو القاسم هداة الأمة
فواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم

على أن المسلم لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع في هذا الأمر وهو يجد في كتب العلم مع هذا القول قولا آخر هو :

ألا كل من لا يقتدي بأئمة فقسمته ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد سليمان أبو بكر خارجة

على أنا لا نعرض لذلك حتى لا نتحول عن تيار الحديث

ولما فرغ من وجوب تقليد الأئمة الأربعة قال باتباع أبي القاسم الجنيد ومن تبعه ، لأن من عداهم « من جميع الفرق على ضلال » ، ثم قال إن تمام النعمة في اتباع الأقطاب الربانيين أسياده أحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي وأبو الحسن الشاذلي ومحمد الخلوتي وعبد الله النقشبندي وأتباعهم « فهؤلاء كلهم سادات الأمة المحمدية »

وقد جاء الشيخ (المحشي) وهو (العلامة الكبير والفهامة النحرير سيدي أحمد الصاوي) فترجم لهؤلاء الأقطاب الربانيين وذكر مناقبهم . وقد أورد من مناقب الرفاعي أنه (أراد شراء بستان فأبى صاحبه ألا يبيعه إلا بقصر في الجنة) ، فقال له : (قد اشتريت منك بذلك) وكتب له عقداً هذه صورته : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما ابتاع إسماعيل من العبد أحمد الرفاعي ضامناً على كرم الله قصراً في الجنة يحف به حدود : الأول لجنة عدن ؛ الثاني لجنة المأوى ؛ الثالث لجنة الخلد ؛ الرابع لجنة الفردوس ، بجميع حوره وولدانه وفرشه وأشربته وأنهاره وأشجاره عوضاً عن بستانه في الدنيا ، والله شاهد على ذلك وكفيل) فلما مات إسماعيل دفن معه العقد فأصبحوا وإذا مكتوب على قبره « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً »

ونقل من كرامات السيد البدوي أن ابن دقيق العيد اجتمع به فقال له إنك لا تصلي ، ما هذا سَنَن الصالحين . فقال له اسكت وإلا طيرت دقيقك ، ودفعه فإذا هو بجزيرة متسعة جداً ، فضاق ذرعه حتى كاد يهلك ، فرآه الخضر فقال له لا بأس عليك ، إن مثل البدوي لا يعترض عليه . إذهب إلى هذه القبة وقف ببابها فإنه سيأتيك العصر يصلي بالناس فتعلق بأذياله لعل أن يعفو عنك ، ففعل فدفعه فإذا هو ببابه

وساق من كرامات الدسوقي أنه يعرف جميع اللغات حتى لغات الوحش والطير ، وأنه صام في المهد ، ورأى اللوح المحفوظ وهو ابن سبع سنين ، وأنه ينقل اسم مريديه من الشقاوة إلى السعادة . ومن أراد أن يستزيد من معرفة مناقب هؤلاء الأبطال فليرجع إلى هذه الرسالة فإن فيها العجب العجاب

أما الكتاب الثاني فهو حاشية الشيخ الباجوري على شرح ابن قاسم وقد جاء في باب الجنائز ما يلي :

لو شاهدنا الملائكة تغسله (الميت) لم يسقط عنا

« ولو غسل الميت نفسه كرامة كفي كما وقع لسيدي أحمد البدوي أمدنا الله من مدده »

والكتاب الثالث هو حاشية الشيخ الشرقاوي على متن التحرير لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري وقد قال في باب الجنائز

عَبْرَ كذا ...

للأستاذ الكبير «ا. ع»

يذكر القارئ أني كنت قد كتبت بحثاً في العدد ٤٢٤ من (الرسالة) أخطّئ فيه ما شاع في أقلام الكتاب من استعمالهم «عَبْرَ» - مصدر عَبَرَه - ظرفاً ، مسايرين الترجمة الخاطئة للكلمة Acrooss الإنجليزية

وقد سقت للتوضيح ثلاثة أمثلة مما تستعمله الصحف والمجلات كل يوم . وسأعرض هذه الأمثلة مرة ثانية ، وأبسط الموضوع بسطاً ، وأضمّنه مقتبسات من كلامي وكلام مُناظري مما يدور عليه البحث بيني وبينه ؛ حتى يعيه من القراء من لم يكن تتبعه منذ البداءة — وهذه هي الأمثلة :

١ — ومن زمن قريب ادعت اليابان لنفسها حق مرور قواتها «عَبْرَ» شمال الهند الصينية

٢ — وسنواصل كل شهر قذف ... بالقنابل الشديدة الانفجار ، كما فرغت مصانعنا من إخراج طائراتنا الضخمة ، أو جاءت إلى هنا «عَبْرَ» الأطلنطي

٣ — لهذا وصلوا بين باكو وباطوم «عَبْرَ» القوقاز بأنابيب فردّ عليّ الأستاذ الفاضل محمد محمود رضوان في العدد ٤٣٢ من (الرسالة) بأن هذه الكلمة قد جاءت في بيت لسواد بن قارب هو :

فشمرت عن ذيلي الإزار وأرقلت
بيَ الدعلب الوجناء عبْر السباسب[1]

ثم قال : ومن ثم يرى الأستاذ الكبير أن الكلمة صحيحة كما يستعملها الكتاب على عهدنا

وقال : ولو أردنا تخريج الكلمة على وجه صحيح لوجدنا أكثر من وجه ، خلافاً لما يقول الأستاذ : «وأقرب هذه الوجوه عندي أن تكون «عبْر» مصدراً مراداً به اسم الفاعل ، فتكون حالاً مما قبلها» ؛ ويكون التقدير : «مرور قواتها عابرة شمال الهند الخ» ، «أو جاءت إلى هنا عابرة الأطلنطي»[2]

فأنت ترى أنه في عبارته هذه قد أعرب في صراحة «عبر» حالاً فعقّبت عليه في العدد ٤٣٣ بأن المصدر لا يقع حالاً إلا إذا كان نكرة[3] و «عبْر» في الأمثلة التي أتيت بها — وفي غيرها مما تلوكه الصحف كل يوم — معرفة بالإضافة ، فلا تصلح

(١) لي إلى هذا البيت عودة بمناسبة ما جد للأستاذ فيه من تأويل الكلمة «عبر» ، فلا أتعرض له هنا

(٢) أرجو أن يرجع القارئ إلى هذه العبارة مرة بعد أخرى في أثناء تلاوته لهذا المقال ؛ فإن عليها مدار معظم هذا البحث

(٣) راجع ما قاله النحاة في هذا الموضوع ، وإن شئت فارجع إلى شروح ألفية ابن مالك وحواشيها عند قوله :

ومصدر منكر حالا يقع بكثرة كبغتة زيد طلع

أيضاً : «ولو شاهدنا الملائكة يغسلونه (الميت) لم يسقط عنا الطلب بخلاف ما لو كفنوه» إلى أن قال : ولو غسل الميت نفسه كرامة كما نقل عن سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه ، وكذا عن سيدي عبدالله المنوفي المالكي كفى لأنه من جنس المكلفين . وكذا لو غسل ميت ميتاً آخر كرامة »

نكتفي بهذا خشية الإطالة ، ونعرضه عرضاً بغير مناقشة ولا بحث يقرأه الناس ، ويطلع عليه إمام الأزهر ، وهو القيم على علوم الدين في هذه البلاد والمسموعُ الكلمة بين أرجاء العالم الإسلامي ، وكل ما نرجوه أن يوجه عنايته الجبارة إلى الإصلاح الصحيح لعلوم الأزهر ، وذلك بإصلاح الكتب الدينية التي تدرس فيه ، وبخاصة كتب العقائد منها ، وأن يقوم العمل على الأخذ بها والدعوة على ما جاء بها ، فلا يعبد الطاغوت في هذا البلاد من دون الله ، ومن لا يدين بها ويؤمن بأصولها يحال بينه وبين التصدي للدعوة إلى الدين ، لأن العالم أو الواعظ إذا لم يكن سالم العقيدة خالص التوحيد ، فإنه يكون أضر على الأمة من الجاهل

هذا ما نرجوه من شيخنا الأكبر، حتى يكون المسلم مستحقاً لوراثة الأرض بصلاح ، فيأخذ أمور الحياة بأسبابها ، ويستغلها بتسخير نواميسها ، ويتبع سنن من يعاصرنا من الأمم الراقية شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، ليتبوأ مكانه اللائق به من العزة والسلطان .

نفزع إلى شيخنا الأكبر في ذلك ، ونحن نعلم أنه ليس له غيره ، فهو المسئول عن حماية العقائد الدينية في هذه البلاد من عبث الجاهلين ، وقد تهيأ له من أسباب إنفاذ الإصلاح ما لم يتهيأ لمن سبقه من الأئمة المصلحين ، فلا عذر اليوم

«المنصورة» محمود أبو رية

أن تكون حالاً ؛ ثم جئت بعدة أمثلة مما يستشهد به النحويون لضرورة تنكير المصدر إذا وقع حالاً ؛ وقلت أيضاً : إن وقوع المصدر المعرف حالاً نادر جداً ، ولا يكون إلا فى صورتين يمثل لهما بمثالين هما : جاءت الخيل بَدادِ ، وأرسلها العِراك[1]

ولكن الأستاذ لم يُرِد أن يعترف بأنه قال ما قال — وهو ما خطّته يمينه صريحاً كما مرّ — فجاء فى العدد ٤٣٥ يقول ما نصه :

وأقول : إن الأستاذ لم يتبين رأيي على وجهه الصحيح ؛ إذ توهم أني أرى « عبراً » مصدراً أريد به الحال [تأمل] ، ولم أقل هذا [تأمل] ، وإنما قلت : إنه مصدر وضع موضع اسم الفاعل ، فهو عبر بمعنى عابر ، كما فى قوله تعالى : « إن أصبح ماؤكم غورا » ؛ ورجل عدل : أى عادل !

أقول : ما على القارئ إلا أن يرجع إلى عبارته ، فهي من الوضوح والسلامة والإيجاز بحيث لا توقع فى وهم أو ضلال .

ثم ترى الأستاذ بعد ذلك يعود فيؤكد إنكاره لما قال ، ويتسرّب من هذا الإنكار — فى شيء من الالتواء — إلى إجازة إعراب « عبر » حالاً ؛ إذ هذا المصدر — كما يقول — سيفقد تعريفه بعد التقدير ... الخ[2]

وإني واضع عبارته كلها أمام القارئ ، مراعاة للدقة ، وسوقاً للحجاج على وجهه الصحيح ، قال :

(فأنت ترى أني لم أنص على أن كلمة « عبر حال » حتى يشترط تنكيرها ، وإنما نصصت على أنها مصدر بمعنى فاعل [تأمل] . وكونها « حالاً » أمر اقتضاه سياق الكلام فى الجمل التي ساقها الأستاذ . وساعد عليه أن المصدر سيفقد تعريفه بعد التقدير . وسيصير المضاف إليه مفعولاً ، وذلك فى قولك : « عابرة الأطلانطى » ؛ فليس ثم ما يمنع من أن يكون المصدر « حالاً » بعد أن فقد تعريفه)

أقول : إن المثال[3] — وهو موضوع البحث والمناقشة — غير صحيح ؛ إذ لا يعرف فى العربية مصدر معرف يقع حالاً إلا فى صورتين أو صور قليلة شاذة — فلا يمكن أن يلتمس له من « التقدير » ما به يخرج من فساده المتأصل

ألا إن الموضوع من الخطورة بحيث لا ينبغي أن يُزْرَى فيه الكلام على عواهنه

بقيت مسألة ليست محل نزاع بيني وبين الأستاذ ، وهي ما أشار إليها بقوله : (فقد أصبحت القضية الآن : هل يشترط تنكير المصدر إذا وقع موقع اسم الفاعل ، بصرف النظر عن كونه حالاً أو غير حال ؟)

وللإجابة عن هذا أقول : يحسن أن يرجع الأستاذ مرة ثانية إلى ما جاء فى العدد ٤٣٣ ، فقد قلت فيه : (يكفي فى الرد على هذا أن أذكر الأستاذ أنه من المقرر أن المصدر قد يقع حالاً « إذا كان نكرة » . فالتنكير شرط ، نحو ... الخ)

(فأنت ترى أني قصرت كلامي على « المصدر الواقع حالاً » ولم أتعرض لغيره ، فلا محل هنا لهذا الاستفهام

وليس كذلك بيني وبينه خلاف فى المصدر قد يقع فى موضع اسم الفاعل ، ولا فى أن اسم الفاعل قد يقع فى موضع المصدر

وبعد فقد آن لي أن أختتم هذه الكلمة ، بعد أن أفرغت الوسع فى المقابلة بين كلام مناظري وكلامي . وإلى القراء أحتكم والله ولي التوفيق (ا . ع)

(١) يقول ابن هشام : إن « وحده » فى « جاء زيد وحده » من المصادر المعروفة التي وقعت حالا نادراً

(٢) لقد اضطره إلى هذه المحاولة أنه عاد فأدرك خطأه فى إعراب « عبر » حالا [أي من غير هذا التأويل] راجع قوله : ولو أردنا تخريج الكلمة ... الخ

(٣) أي فى قولهم « عبر الأطلانطى » أو نحوه مما غلطوا فأعربوا فيه (عبر) حالا

فضل الصفر على المدنية

للأستاذ قدري حافظ طوقان

قد يعجب القارىء الكريم من هذا العنوان . وقد يتبادر إلى ذهنه أسئلة عديدة : ما علاقة الصفر بالمدنية ؟ وهل للصفر قيمة ليكون له أثر في تقدم المدنية ؟ أليس الصفر صفراً يعنى الفراغ والعدم ؟ إذن فكيف يوضع هذا العنوان ويصرف له بعض الاهتمام ؟

ولكن مهلا ... لقد فكرنا في هذا الموضوع ، ورجعنا إلى الكتب الرياضية وغير الرياضية ، فتبين لنا أن للصفر خصائص وأفضالا . وما يكون لنا أن نقتحم هذا الموضوع لولا أن البحث قادنا إلى ذلك . وفي هذا المقال سنحاول تبيان الفوائد التي تجنيها المدنية من الصفر ، كما سنأتي على التسهيلات التي قدمها للبحوث الرياضية وغير الرياضية ، والتي لولاها لما تقدمت العلوم الرياضية تقدمها المشهود ، ولما استطاع العلماء أن يتقدموا بالجبر خطوات واسعة ، وبالتالي لما استطاعوا أن يتقدموا بالتي تعتمد على الرياضيات في كثير من مباحثها كالفيزياء والفلك والكيمياء .

نبذة تاريخية:

وقبل ذكر شيء عن الصفر وخصائصه وفوائده نرى أن نذكر أولاً نبذة عن تاريخ الترقيم واستعمال الصفر . إن النظام الذي نتبعه الآن في الترقيم مبنيّ على أساس القيم الوضعية ، وبواسطته يمكن ترقيم جميع الأعداد وإجراء الأعمال الحسابية بسهولة كبيرة . ولقد بقيت الأمم في القرون الخالية كالمصريين والبابليين واليونانيين وغيرهم محرومة من هذا النظام ؛ وكانوا يجدون صعوبة في إجراء الأعمال الحسابية ، حتى أن عمليتي الضرب والقسمة كانتا تقتضيان جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً .

ولو قدّر لأحد علماء اليونان من الرياضيين أن يبعث فقد يعجب من كل شيء ؛ ولكن عجبه يكون على أشده ، إذ يرى أن أكثر سكان الأقطار في أوربا وأمريكا يتقنون عمليتي الضرب والقسمة ويجرونها بسرعة وبدون عناء

ولما نهض العرب نهضتهم العجيبة ودوّخوا أكثر أقطار المعمورة ، اتصلوا بالهند فاقتبسوا فيما اقتبسوه منها الأرقام الهندية وقد قدروا النظام الترقيمي عندهم « عند الهنود » ففضلوه على حساب الجمل الذي كانوا يستعملونه قبلاً . ومن الغريب أن في بلاد الهند أشكالاً متنوعة ومختلفة للأرقام ، ولكن العرب بعد أن اطلعوا على أكثر هذه الأشكال كونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما باسم « الأرقام الهندية » وعرفت الثانية باسم « الأرقام الغبارية » . ففي بغداد والجانب الشرقي من العالم الإسلامي عم استعمال الأولى أي الأرقام الهندية ، وهي التي لا تزال شائعة ومستعملة في بلادنا . وشاع استعمال الثانية ، أي الأرقام الغبارية في القسم الغربي — في الأندلس وأفريقيا والمغرب الأقصى — وهذه الأرقام هي المستعملة الآن في أوربا والمعروفة باسم الأرقام العربية Arabic Numerals ولم يتمكن الأوربيون من استعمال هذه الأرقام في الأعمال الحسابية إلا بعد انقضاء قرون عديدة من اطلاعهم عليها ، أي أنه لم يعم استعمالها في أوربا والعالم إلا بعد انتهاء القرن السادس عشر للميلاد

ولم يفطن أحد قبل الهنود إلى استعمال « الصفر » في المنازل الخالية من الأرقام ؛ وقد أطلقوا عليها لفظة «سونيا» ومعناها « فراغ » واستعملوا النقطة (.) لعلامة للصفر ؛ وقد أخذها العرب عنهم واستعملوها في معاملاتهم . ويقال إن الهنود لم يلبثوا أن عدلوا عن استعمال النقطة وأخذوا يكتبون الصفر بصورة دائرة

فوائد الصفر

مما لا جدال فيه أن نظام الترقيم الذي نعرفه والمنتشر بين أكثر أمم الأرض هو من المخترعات الأساسية القيمة ذات الفوائد الجلّى التي توصل إليها العقل البشري ، وهذا النظام لم ينحصر — كما لا يخفى — في تسهيل الترقيم وحده ، بل تعداه إلى تسهيل جميع أعمال الحساب . ولولاه لما رأينا سهولة في الأعمال الحسابية ، ولاحتاج المرء إلى استعمال طرق عويصة وملتوية لإجراء الضرب والقسمة . ومما لا شك فيه أيضاً أنه لولا الصفر واستعماله في الترقيم لما فاقت الأرقام العربية والهندية غيرها من الأرقام ، ولما كان لها أية ميزة ، بل لما فضلتهما الأمم المختلفة على الأنظمة الأخرى المستعملة في الترقيم . والنظام المستعمل والشائع الآن يقضي بجعل قيمة الرقم تتغير بتغير منزلته ، أي أنهم أوجدوا منازل للأرقام تكسب الرقم الواحد قيماً مختلفة إذا نقل

من منزلة إلى أخرى ؛ فالرقم الذي على اليمين يدل على الآحاد ، والذي يليه على العشرات ، والذي يليه على المئات ، وهكذا . . . وإذا أردنا أن نكتب العدد (ثلاثة وأربعين) فإننا نضع الثلاثة في المنزلة الأولى ، أي منزلة الآحاد والأربعة في المنزلة الثانية ، أي منزلة العشرات . وهنا نجد أن الثلاثة دفعت الأربعة إلى المنزلة الثانية إلى اليسار وأعطتها قيمة الأربعين . ولكن إذا أردنا أن نكتب بالرقم العدد (أربعين) فمعنى ذلك أنه علينا أن نجد رقماً يدفع الأربعة إلى المنزلة الثانية إلى اليسار . وبذات الوقت لا يزيد في المجموع شيئاً ، ومن هنا استعمل الصفر ووضع علماء الهند علامة لتملأ المرتبة الخالية ، فجاءت مكملة لطريقة كتابة الأعداد بالأرقام

وللصفر فوائد أخرى هي من عظم الشأن في مكان عظيم لا يقل خطرها عن التي ألمعنا إليها ؛ فلولاها لما استطعنا أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات بالسهولة التي نحلها بها الآن . ويمكن القول بأن الرسم البياني لم يتقدم خطواته الواسعة إلا باستعمال الصفر . والرسم البياني من أهم البحوث الرياضية ، وعليه ترتكز الهندسة التحليلية ، وحلول كثير من المعادلات الصعبة ، بل هو الركن الأساسي للموضوعات التي تحتاج إلى استعمال علم الإحصاء . وهل تقدمت المثلثات تقدمها المعروف إلا بمعادلاتها ؟ ! وهل يستطيع الرياضي أن يتقدم خطوة في حلها إلا إذا استعمل إشارة (الصفر) ؟ !

قد يدهش القارئ إذا قلنا إن حساب التمام والتفاضل لا يستغني في بحوثه عن استعمال الصفر ، بل إن الصفر عامل مهم جداً في تسهيل حل كثير من مسائله العويصة الصعبة . وعلى كل حال يمكن القول بأن (الصفر) ضروري ولازم في البحوث الرياضية الحديثة والعالية ، إذ جعل كثيراً من الأوضاع والمعادلات قابلة للحل غير ملتوية المسالك يمكن الأخذ بها والاستفادة منها ، واستعمالها في فروع المعرفة من فلك وطبيعة وكيمياء وهندسة وما يتعلق بهذه من صناعة وفن

علاقة الصفر بالمدنية

ألا تشاركني أيها القارئ في الإعجاب بالأرقام التي نستعملها ويستعملها الأوربيون وبالنظام الذي يحتوي عليها ؟ أليس عجيباً ومثيراً للدهشة ألا نجد أقل صعوبة في كتابة أي عدد شئت – مهما كان كبيراً – من أرقام لا يتجاوز عددها عدد الأصابع ؟ ألا ترى معي أن هذه الأرقام العجيبة قد سهلت الأعمال الحسابية كثيراً ؟ ! ألا تعتقد أنه لولاها لما تقدمت المعاملات التجارية تقدمها الحاضر ، ولولاها أيضاً لوجدنا صعوبة كبيرة جداً في إجراء أبسط الأعمال في الضرب والقسمة ! !

أرجح أن كل هذا معروف لديك وتوافقني عليه ، ولكن قد يزيد عجبك إذا علمت أن إشارة (الصفر) هي التي أوجدت أكثر التسهيلات التي تراها في الترقيم ، وهي التي أعطت بعض الخصائص الممتازة للأرقام . لقد ظهر لك المقام العالي الذي يشغله (الصفر) في البحوث الرياضية ، وأنه عامل مهم في ترقيتها وفي تسهيل الصعب منها ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه لولا الصفر لما تقدم العلماء تقدمهم الغريب في العلوم الرياضية . وهنا قد يحلو للبعض أن يتساءل ويقول : قد يكون للصفر هذا المقام في الرياضيات ، وقد يكون له هذا الأثر الكبير في ارتقائها ؛ ولكن ما علاقة ذلك بالمدنية ؟ وهل المدنية تقوم على الرياضيات ؟ !

وجواباً على هذا السؤال ، ليسمح لنا القارئ أن نعطي الجواب أولاً فنقول : نعم ، إن المدنية في أساسها وجوهرها ترتكز على العلوم الرياضية .

إن كل فرع من فروع المعرفة يتقدم ويتناوله التغيير والتبديل ، وكلما اقترب من الأرقام زاد دقة في التعبير ونحا نحو الكمال ونحو الذروة من الحقيقة . قال كانت Kant : « يكون العلم دقيقاً إذا استعمل العلوم الرياضية في بحوثه » ولم يستطع العلماء أن يستفيدوا من بحوث الضوء ومن انكسار النور إلا بعد أن أفرغوا قوانين الانكسار في قالب رياضي ، وبذلك استطاعوا أن يستعينوا بالمعادلات والأرقام في العدسات التي تستعمل لإصلاح عيوب العين

إن علمي الفلك والفيزياء وصلا إلى درجة كبيرة من الدقة

والـكمال ، وما ذلك إلا بفضل الأرقام والمعادلات . جرد هذين العلمين من رياضيتهما بل جرد الـكيمياء الحديثة من معادلاتها وقوانينها وحينئذ لا يبقى إلا تعريفات ومبادئ لا يمكنك بحال من الأحوال أن تستفيد منها أو أن تطبقها فيما يعود على البشرية بالنفع والخير . ولن يستطيع العالم مهما كان قوى العقل خصب الفكر أن يقف على أسرار الطبيعة والـكون . ولن يستطيع الغوص فى بحارهما ليقف على كنوزهما وعجائبهما إلا إذا ألمّ بالرياضيات وكانت عنده خبرة بها ، وأن الـكيمياء الحديثة لفى حاجة إلى الرياضيات حاجتها إلى التجربة والاختبار ، وناهيك بالـكيمياء فهى الأساس الذى شيد عليه صرح الصناعة فى هذا القرن وجعلها تزدهر هذا الازدهار العجيب . إن هـذا العصر لهو عصر الهندسة وعصر الآلة ، وكل هذه فى حاجة إلى الرياضيات ولا يمكن الاستفادة منها أو تطبيقها على مقتضيات العمران إلا بذلك . قال البروفسور فوس Voss : « إن مدنيتنا التى ترتكز على الاستفادة من الطبيعة والسيطرة على عناصرها مبنية على أسس العلوم الرياضية » ، والهندسة وأنواعها والملاحة والصناعة كل هذه تحتاج إلى الرياضيات ، ولا يمكنها أن تستغنى عنها ، بل إن أسس إنشائها تقوم على الأرقام والمعادلات . وما يقال عن هذه يمكن أن يقال عن علوم أخرى إلى حد ما ، فإن هـذه كلما تقدمت واستطاعت أن تدخل الأرقام فى بحوثها اقتربت من الدقة والـكمال . فالعلوم على اختلافها إذا اقتربت من الـكمال فإنها لا بد محلقة فى سماء العلوم الرياضية ، وفى جو من الأرقام والمعادلات

من هنا تظهر لنا الفوائد التى تجنيها المدنية من العلوم الرياضية وفى استعمالها فى العلوم والفنون الأخرى ، وقد ظهر أيضاً كيف أن الحضارة الصناعية مبنية على أسس من الأرقام والمعادلات ، وقد سبق أن أبَنّا مكانة الصفر فى العلوم الرياضية وفضله فى تسهيل المسائل والأعمال ، ومن هذه النقطة يتبين للباحث فضل الصفر على المدنية والصناعة

وقبل الختام أود أن أوجه نظر القارىء إلى أنى أخشى أن يُساء فهم هـذا القول فيظن أن الصفر هو الـكل فى الـكل فى العلوم الرياضية وبالتالى فى المدنية ، ومع استبعادى لذلك أرغب فى القول بأن الصفر — ولا شك — عامل مهم فى البحوث الرياضية لا يستغنى عنه ، وهو لازم وضرورى لها ولتسهيل المعاملات والأعمال الحسابية ، وينتج من ذلك إلى أنه عامل مهم فى الصناعة والأعمال الإنشائية التى تحتاج إلى استعمال الأرقام والمعادلات . فالعجب لصفر يشغل هذا المقام السامى ويجنى منه الحضارة فوائد هى أعظم جانب من خطر الشأن

(نابلس) قدرى حافظ طوقان



حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٩٤١/٩/٢٤ فى القضية رقم ٤٨٠ سنة ١٩٤١ ضد محمد محمد البنا بائع غاز بدمنهور بغرامة ٣٠٠ قرش صاغ والنشر على مصاريفه لامتناعه عن بيع الغاز بالسعر المحدد قانونا بالتسعيرة

هؤلاء الكتاب

للأستاذ م . دراج

. . . وقلت لنفسي : لقد أصبح الناس يقابلون بالشك والارتياب كتابة الكتاب والمفكرين . فإذا تقصيت السر وجدتهم على حق فيما يشكون ؛ فقد باع هؤلاء الكتاب حرية الفكر بعبودية المال ، ورضوا وهم طلائع الأمة أن ينقادوا لرجال المال والأعمال ؛ وقلما تتفق مصالح الشعب ومصالح أولئك الرجال ؛ ولعل هذا هو أكبر ما تعانيه من بلاء ، بل لعله السر الوحيد فيما وصل إليه المجتمع من تفكك وانحطاط .

فالتنافس في سبيل القوت قد انقلب إلى تناحر مادي فظيع ليس له حدود ، وطريق الاستغلال مفتوح على مصراعيه لكل طارق ، وليس للكائنات البشرية قيمة تذكر أمام الغاية الكبرى ، وهي جمع المال والإثراء بأي ثمن . فالذي يستطيع أن يأتي بقدر من المال في عمل ما يجد العامل الذي يرضى بالدون من الكفاف ؛ ويستطيع أيضاً أن يرغمه على العمل ليل نهار بزيادة بضع قروش أو بضع مليمات ! وله الحق في هذا ما دامت قوانين الدولة لا ترسم حدوداً لمثل هذا الاستغلال الفظيع ، وما دام الضمير الإنساني لا ينزعج لهذه الحال ؛ فكل شيء على ما يرام ! أفبعد هذا نلوم الناس على انصرافهم وشكوكهم في إخلاص المفكرين والكتاب ؟ أليس الدليل الواضح أمامنا في كتابات الصحف اليومية وغير اليومية يعطي أصدق برهان على فساد « التفكير الجماعي » عند هؤلاء الكتاب . إنهم ليفسحون لرجال المال صدور الصحف يكتبون ويعلنون فيها ما شاء لهم الغرض . ثم لا يجدون غضاضة في إعطائهم فرصة للكلام عن بؤس الفلاح وشقاء العامل واضطراب الموظف وحيرة الجماعات ، ومتاعب الشعب جملة وتفصيلاً ... ليستتروا وراء هذه الإعلانات في ثوب الطبيب الذي يتوجع لآلام المريض ، وهو يعلم أن بلسمه الشافي بين يديه ، ولكنه لا ينزل عن الثمن بأي حال !

هؤلاء الكتاب يسيئون الظن في ذكاء « الغريزة المصرية الواعية » مثلما يسيئون إلى الشعب المصري بقوائم الإحسان التي يعلنون عنها كل يوم في صحفهم . لقد فسدت عندهم مقاييس الإصلاح ، فتوهموا أن الكلام قد يغني عن الخبز ، وأن الإحسان أجدى وسائل الإصلاح ، وأن الدنيا بخير ما داموا هم سعداء ! إلا أن الشعب المصري لا يطلب إحساناً ولا بكاء . . . لا ، ولا إشفاقاً ، وإنما يبغي علاجاً حاسماً يقضي على أسباب المرض دفعة واحدة لا تقسيطاً ؛ ولن يكون هذا العلاج إلا « جماعياً » تؤمن به الدولة وتسنه قوانينها ، حتى إذا جرى مجرى التنفيذ أفاد كل « خلية » في جسم الأمة ، كما تغذى الدماء الأعضاء المشلولة بالحياة .

هراء ... محض هراء ... كل ما تذيعه الصحف من علاجات أرباب المال ، لأنهم لا يريدون إلا تبرعاً ، والتبرع قد يفيد شخصاً وقد ينجد أسرة ، وقد ينقذ ألفاً من الناس ، ولكنه لا ينقذ شعباً بأسره يعد الفقراء فيه بضعة عشر مليوناً إلا بضع عشر ألفاً من الأثرياء .

هؤلاء الكتاب يعرفون — أو لا يعرفون — أن سكرة الموت يعقبها هزة عنيفة هي هزة اليأس أو الرجاء ، فماذا تراهم صانعين بأقلامهم المزيفة لو صح المريض ، وسلمت روحه من الفناء ، هل يظنون آنذاك أنها إحدى معجزات الإحسان ؟ ! أم يشهدون أن القوة الكامنة في قرارة النفس المصرية هي التي مهدت له طريق الحياة ؟

أيها الكتاب اطرحوا عنكم ضلال المادة . ثم اكشفوا الغطاء عن موطن الداء . تهيئون لكم وللناس فرصة طيبة للعودة إلى الحق والصراط المستقيم . فالتفكير الفردي لا يجذب الجماعات ، لأن الإحساس الجماعي يتطلب « تفكيراً جماعياً » ، ونحن في أشد الحاجة إلى هـذا اللون من التفكير يسود أذهان الكتاب ، ولا شيء سواه يمكن أن يضيء للمجتمع طريقه إلى الخلاص وسط هذا الظلام .

والداء العياء لهذا البلد هو الإعسار الشديد في العيش ، والإظلام الشديد في العقول والقلوب ، حتى أصبحت البيئة المصرية مزرعة لملايين الأمراض البشرية ، والأمية سبة في جبين كل مصري يتهمها الانحطاط في الأخلاق والتفكير والأحوال الماشية بوجه عام

داء مصر الوحيد هو الفقر بعينه بشهادة اللجنة المالية لمجلس الشيوخ . فإذا استطعتم أن تقولوا كلمتكم في هذا المرض العضال وشرحتم أسبابه وفصلتم نتائجه ورسمتم على هـذا النهج طريق الخلاص ، أمكنكم النهوض بهذه الأمة سريعاً ، أما غير ذلك فضرب من المحال ، وضجة وتشويش في غير مجال .

م . دراج

١٤ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الحكومة – تابع الفصل الرابع

يحكم بطريرك الأقباط ، وهو الرئيس الأعلى لكنيسته ، في القضايا الصغيرة بين المتقاضين من طائفته في العاصمة ؛ ويقوم مرؤوسوه من القسس مقامه في البلاد الأخرى ؛ وقد تستأنف أحكامهم أمام القاضي . وللمسلم الذي يعتدي عليه قبطي أن يرفع أمره إلى البطريرك أو إلى القاضي . أما القبطي الذي يقاضي المسلم فيجب عليه أن يقصد القاضي ؛ واليهود كذلك . والفرنجة أو الأوربيون على العموم لا يخضعون إلى غير قناصلهم إلا إذا جنوا على مسلم فيسلمون إلى السلطات التركية التي تستأنف أمامها من ناحية أخرى قضايا الفرنجة الذين يعتدي عليهم أي مسلم

ويخضع سكان الأقاليم لحكم المستخدمين الأتراك والمصريين . ويقسم القطر المصري إلى عدة مديريات واسعة يتولى كلا منها عثمانلي . وتقسم هذه المديريات إلى مراكز يديرها موظفون من الوطنيين يلقبون (بالمأمور) و (الناظر) . وللقرية كالمدينة شيخ يسمى (شيخ البلد) ، ويكون من أهل القرية المسلمين . وكان هؤلاء المستخدمون جميعاً ، ما عدا شيخ البلد ، أتراكا من قبل . وكان هناك ولاة أتراك آخرون يتولون المراكز ، وكان يطلق عليهم اسم (كاشف) و (قائمقام) وقد حدث هذا التغيير قبيل زيارتي الثانية لمصر . ويشكو الفلاحون من أن حالهم أصبحت أسوأ مما كان قبلاً . ولكنهم على العموم يقاسون طغيان الولاة الأتراك أشد مقاساة

ويبين الحادث الآتي حالة الفلاح المصري في بعض الأقاليم بعض البيان

في ليلة ما ذهب حاكم مدينة طنطا[1] وهو تركي[2] سيئ السيرة والسلوك ، إلى أهراء الحكومة بالمدينة ، فوجد فلاحين نائمين هناك . فسألهما من يكونان وماذا يفعلان في هذا المكان . فقال أحدهما إنه أحضر من إحدى قرى المركز ١٣٠ أردباً من القمح . وقال الآخر إنه أحضر ٦٠ أردباً من أرض تابعة للمدينة . فقال الحاكم لهذا : « أيها اللص ! هذا الرجل ورد ١٣٠ أردباً من قرية صغيرة ، وأنت تورد ٦٠ أردباً من أراضي المدينة ؟ . فأجاب فلاح طنطا : « هذا الرجل لا يورد القمح إلا مرة واحدة كل أسبوع أما أنا فأورده كل يوم . فأسكته الحاكم وأمر أحد الخدم أن يشنقه على فرع شجرة قريبة . فنفذ الأمر وعاد الحاكم إلى منزله . وفي الصباح التالي عاد ثانياً إلى الأهراء فبصر برجل ينقل غلالاً كثيرة إلى الداخل . فاستفسر عنه وعن المقدار الذي أتى به . فأجابه الخادم الذي شنق الفلاح في الليلة السابقة : « هذا هو الرجل يا سيدي الذي شنقته إطاعة لأوامرك ليلة أمس وقد أحضر ١٦٠ أردباً » فصاح الحاكم : « ماذا ؟ هل بعث الرجل من قبره ؟ » فأجابه الخادم : « لا يا سيدي . إنني علقته وقدماه كانتا تلمسان الأرض ، ولما انصرفت حللت عقدة الحبل . إنك لم تأمرني بقتله » فدمدم التركي قائلاً : « آها ! إن الشنق والقتل شيئان مختلفان . إن اللغة العربية غنية . في المرة القادمة سأقول اقتل . اعتن بأبي داود[3] » وهذه هي كنية الرجل

وأذكر حادثة أخرى تناسب المقام زيادة في بيان طبيعة الحكومة التي تحكم المصريين يومئذ : عُين فلاح ناظراً على المنوفية قبيل قدومي الثاني إلى مصر . وفي أثناء جباية الضرائب طولب فلاح فقير بمبلغ ستين ريالاً ؛ والريال تسعون فضه فالمبلغ مائة وخمسة وثلاثون قرشاً

---

(١) هكذا تنطق الآن . وكانت سابقاً طندتا (انظر الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك الجزء الثالث عشر صفحة ٤٥ : طندتا بمهملة مفتوحة فنون ساكنة فدال مكسورة فتناة فوقية مقصورة . كذا سمع من بعض الفضلاء ، والعامة يقولون طنتا وهي مدينة كبيرة ، واسمها القبطي القديم طنيطاد ، وقال ابن حوقل إن طندتا قرية كبيرة بها جوامع وأسواق ويلحق بها جملة قرى) . المترجم

(٢) سليمان أغا السلحدار وقد توفي حين كتابة هذا الكتاب

(٣) أبو داوود وأبو علي : كنية يستعملها فلاحو مصر على العموم ولا تعني والد داوود أو والد علي . وإنما تعني الذي أبوه داوود أو علي

فقال الفلاح إنه لا يملك غير بقرة لا تكاد تصلح شأنه وتقيم أوده هو وعائلته . فلم يأمر الناظر بضربه كما هي العادة عند ما يمتنع الفلاح عن دفع الضريبة ، وإنما بعث بشيخ البلد ليأتي ببقرة الفلاح المسكين، ثم أمر بعض الفلاحين بشرائها . فلم يستطع أحد شراءها لقلة المال . فأرسل الناظر في طلب الجزار وأمره بذبح البقرة وتقطيعها ستين قطعة . وبعد أن دفع إلى الجزار رأس البقرة أجرة له ، أحضر ستين فلاحاً معاً وأجبر كلا منهم على شراء قطعة من البقرة بريال . فذهب صاحب البقرة باكياً شاكياً إلى محمد بك الدفتردار رئيس الناظر وقال له : (ياسيدي أنا مظلوم بائس . لم أكن أملك غير بقرة واحدة ، بقرة حلوب كان لبنها قوتنا أنا وعائلتي ، وكانت تحرث لي الأرض وتدرس الغلال . وكانت معيشتي كلها عليها . وقد أخذها الناظر وذبحها وقطعها ستين قطعة باعها إلى جيراني بستين ريالاً . بينما كانت تساوي مائة وعشرين ريالاً أو أكثر . أنا مظلوم بائس غريب عن هذا المكان لأني من قرية أخرى ؛ ولكن الناظر لم يرحمني . وقد أصبحت أنا وعائلتي نسأل قوتنا ولم ندخر شيئاً . رحمتك وعدلك ياسيدي . أتوسل إليك بقداسة حريمك) فأمر الدفتردار بإحضار الناظر وسأله : (أين بقرة هذا الفلاح ؟) فقال الناظر : (بعتها) . (بكم ؟) . (بستين ريالاً) . (ولماذا ذبحتها وبعتها ؟) كان على صاحبها ستون ريالاً ضريبة على الأرض ، فأخذت البقرة وبعتها وفاء للمبلغ . (وأين الجزار الذي ذبحها ؟) . (في منوف) ، فأرسل الدفتردار في طلب الجزار ، فلما قدم قال له : (لماذا ذبحت بقرة هذا الرجل ؟) فأجاب الجزار : (إن الناظر أمرني وما كان لي أن أعصى أمره لئلا يضربني ويخرب بيتي . وقد ذبحتها وأعطاني الرأس أجرة لي) ، فقال الدفتردار : (يا رجل هل تعرف من اشترى اللحم ؟) فرد الجزار بالإيجاب . فأمر الدفتردار ناموسه بكتابة أسماء الستين رجلاً وإرسالها إلى شيخ بلدتهم لإحضارهم إلى منوف حيث أقيمت الشكوى ؛ وسجن الناظر والجزار . وفي اليوم التالي قدم شيخ القرية ومعه الفلاحون الستون . فأخرج السجينان وأوقفا بين يدي الدفتردار فسأل شيخ البلد والفلاحين : (هل كانت بقرة هذا الرجل تساوي ستين ريالاً ؟) فأجابوا : (ياسيدي إن قيمتها كانت أكبر) فبعث الدفتردار إلى قاضي منوف وقال له : (يا قاضي ، هذا رجل ظلمه هذا الناظر بأخذ بقرته وذبحها وبيع لحمها بستين ريالاً . فما حكمك ؟) فأجاب القاضي : (إن من يظلم أحد الرعية طاغية قاس . ألا تساوي البقرة مائة وعشرين ريالاً فباعها الناظر بستين ؟ إنه ظلم صاحبها) . فقال الدفتردار لبعض جنده : (اقبضوا على الناظر وجردوه من ملابسه وأوثقوه) . ثم قال للجزار : (يا جزار ألا تخشى ربك ؟ لقد ذبحت البقرة ظلماً » فأوضح الجزار مرة أخرى أنه إنما اضطر إلى إطاعة أمر الناظر . فقال الدفتردار : (أتنفذ ما آمرك به ؟) فأجاب الجزار : (نعم) . فقال الدفتردار : (إذبح الناظر) . وسرعان ما قبض الجند عليه وألقوه على الأرض ونحره الجزار كما ينحر الحيوان . فقال الدفتردار : (قطعه ستين قطعة) . فنفذ الجزار الأمر والحاضرون يتأملون هذا المنظر ولا يجرؤون على الكلام . ثم أمر الدفتردار للفلاحين الستين أن يتقدموا واحداً واحداً ، وفرض على كل منهم قطعة من لحم الناظر بدفع ريالين . وبهذه الطريقة حصل على مائة وعشرين ريالا . وبعد انصراف الفلاحين سأل الدفتردار القاضي : ماذا يكون جزاء الجزار ؟ فأجاب القاضي أن يجازى كما جازاه الناظر . فأمر الدفتردار أن يعطى رأس الناظر . وفرح الجزار بنصيبه الذي لا يساوي شيئاً وهو يحمد الله على أن حظه لم يخنه أكثر من ذلك . وانصرف وهو لا يكاد يصدق أنه نجا بهذه السهولة . أما صاحب البقرة فدفع إليه ثمن لحم الناظر

ويتعدى أغلب حكام الأقاليم في طغيانهم حدود السلطة التي خولهم الباشا إياها ؛ حتى شيخ القرية يسيء استعمال سلطته الشرعية عند ما ينفذ أوامر رؤسائه . وليست وظيفة شيخ القرية منصباً يقبض صاحبه مرتبه بلا عمل . ففي وقت جباية الضرائب كثيراً ماينال شيخ القرية من الضرب أكثر مما ينال مرؤوسيه ، إذ أنه عند ما لا يورد سكان القرية المبلغ المطلوب يضرب الشيخ لتقصير الفلاحين . وهو لا يدفع دائماً نصيبه حتى يشبع ضرباً . ويفتخر الفلاحون أجمعون بما يتركه الكرباج على أجسادهم من آثار لرفضهم دفع الضرائب . وكثيراً مايتباهون بعدد الضربات التي نالوها قبل

أن يدفعوا نقودهم . ويصف أميانوس أرسليوس Ammianus Marcellinus [1] مصر فى زمنه بالخلق نفسه

ويبلغ إيراد والى مصر ، على ما يقال ، ثلاثة ملايين جنيه استرليني [2] يرد نصفها تقريباً من الضرائب المباشرة على الأطيان ومما يؤخذ من الفلاح ظلماً بطريق غير مباشر . ويرد النصف الباقى على الأخص من الرسوم الجركية والضرائب على النخيل ومن بيع محصولات الأرض المختلفة التى تكسب الحكومة منها ما يزيد على الخمسين فى المائة . وقد نمى الباشا الحالى إيراده إلى هذا القدر باتباعه أشد الوسائل تعسفاً . فقد نزع من الملاك أراضيهم ومنحهم معاشاً بنسبة مساحة الأرض وصفاتها . ولذلك لم يكن للمزارع ما يخلفه لأولاده غير كوخه ، وقد يترك لهم بعض الماشية وبعض مدخرات طفيفة

وتقدر ضرائب الأطيان المباشرة حسب مزايا الأرض الطبيعية . ويبلغ متوسطها حوالى ثمانية شلنات للفدان [3] ، ولكن الفلاح لا يستطيع أن يحصى ما تطلبه الحكومة منه . فهو يعانى الكثير من الطلبات غير المباشرة (وهى تختلف باختلاف السنين ولكنها تفرض على الفدان) من الزبدة والعسل والشمع والصوف والسلال المصنوعة من السعف، والحبال المفتولة من ألياف النخيل، وغير ذلك من المحاصيل . ويجبر الفلاح أيضاً على دفع أجرة الجمال التى تحمل الغلال إلى شونة الحكومة ، وعلى القيام بنفقات عديدة أخرى . وتستولى الحكومة على جزء من محصول الأرض [4] ، وقد تستولى على المحصول كله بثمن مناسب معين لا يفى مع ذلك فى عدة أقاليم ما تبقى من ديون الفلاحين المصريين [5] . وكثيراً ما يضطر الفلاح للحصول على ضروريات الحياة ، أن يسرق محصول أرضه ويحمل ما يستطيع حمله إلى كوخه سراً . ويحضر الفلاح بذور أرضه بنفسه أو يأخذها سلفة من الحكومة ، ولكنه فى هذه الحالة قلما يتحصل على كمية كافية من التقاوى لأن القائمين بالأمر يسرقون منها مقداراً كبيراً قبل أن يسلموها للفلاح . ولا يتسع هذا الكتاب لذكر ما يعانيه الفلاح المصرى من ظلم المأمور والمستخدمين وخياناتهم . ويندر أن يستطيع الفلاح أن ينعم بالحياة مع شدة العذاب ، لذلك لا أرى ضرورة للقول بأن الفلاح قلما يثابر على تحمل أعباء الزراعة إلا إذا أجبره على ذلك الحكام

ولم يستول الباشا على الملكية الخاصة فحسب ، بل أضاف إلى خزائنه كثيراً من دخل المنشآت الدينية باعتبار أن أموالها المتراكمة تزيد على اللازم . وقد بدأ بفرض ضريبة — حوالى نصف ضريبة الأرض المنتظمة — على الأراضى الموقوفة على المساجد والسبل والمدارس العامة . . . الخ . ثم استولى على هذه الأراضى استيلاء تاماً ومنح عوضاً عنها بعض رواتب سنوية لترميم المبانى ولنفقة الأشخاص التابعين للوقف من نظار وموظفين دينيين وخدم وطلبة وغيرهم من المستحقين . وقد أثار الباشا بهذا مقت رجال العلم والدين الشديد ، وعلى الأخص نظار المساجد الذين كانوا يثرون من الأموال الوافرة المودعة تحت رعايتهم وأمانتهم . أما ما وقف على خدمة المساجد والمنشآت العامة (وهى أوقاف مختلفة وقفها كثيرون من طبقات مختلفة) فلم يمسها الباشا حتى الآن

وقد بلغت ضريبة النخيل حوالى مائة ألف جنيه استرليني ، وهى تقدر حسب أنواع النخيل ، وتكون — على العموم — بمقدار قرش ونصف قرش على كل نخلة

وتبلغ ضريبة الدخل المسماة « الفِرْدة » على العموم ١/١٢ أو أكثر من دخل الرجل أو مرتبه السنوى إذا أمكن تحديد ذلك ، إلا أن الحد الأقصى لا يتعدى خمسمائة قرش . وهى تفرض فى المدن الكبيرة على الأفراد وفى القرى على المنازل . وتبلغ ضريبة الدخل فى العاصمة ثمانية آلاف كيس أو حوالى أربعين ألف جنيه استرليني

ويدفع سكان العاصمة وغيرهم من سكان المدن الكبيرة ضريبة ثقيلة على الحبوب الخ . وضريبة الحبوب ثمانية عشر قرشاً على الأردب من كل نوع ، وهذا المقدار يساوى ثمن القمح فى مصر وقت المحصول الطيب

(يتبع)

عدلى طاهر نور

---

(1) وهو أشهر مؤرخى الرومان فى القرن الرابع بعد الميلاد . وكان من يونانى سوريا . ولد بأنطاكية بين سنتى ٣٢٥ و ٣٣٠ على التقريب ، وتوفى بعد سنة ٣٩١ . سلك نفسه فى نظام الجيش واشترك فى عدة حملات ثم رحل إلى إيطاليا حيث كتب تاريخ الامبراطورية الرومانية فى ٣١ جزءاً (المترجم)

(2) وبعضهم يقدره بخمسة ملايين والبعض الآخر أكثر من مليونين بقليل

(3) وقد أنقصت مساحة الفدان أخيراً

(4) وتستولى الحكومة دائما على بعض المحصولات كلها مثل القطن والكتان الخ

(5) حتى ديون قرية ما كثيراً ما تفرض على سكان قرية أخرى سبق أن دفعوا ما عليهم

جواب على تعزية

لا تقولي (عزّ) صبراً إننى أجد الصبر على خطبى محالا
كيف يُرجى من فؤاد حشوه لهبٌ أن ينضج الماء الزلالا
كافيني وُسع نفسى واعلمى أن للأنفس عجزاً واحتمالا

كل حيٍّ، كان ميتاً، صائرٌ إذ يحين الحين للموت مآلا
عمرنا للموت شوط وبه خطوات الموت سرًّا تتوالى
أنت إذ تصبح حيًّا يبتدى عمل الموت نمواً وانحلالا
وإذا ما عمل الموت انتهى قلت جاء الموت جهلاً وضلالا
فى الحياة اختبأ السرّ الذى فيه صار الموت للحىّ كمالا

حكم بالفلسفة نعرفها وبها ننعم فى السرّاء بالا
وإذا الضرّاء مسّت وقست عادت الحكمة وهماً وخيالا
أثر الحكمة فى النفس ولن تجد الحكمةُ فى الحسّ مجالا

من يكن فى صدره متّسعٌ للرزايا، منه حبل العمر طالا
إنما يأكل أيامَ الفتى همُّه، فاحذر من الهم اغتيالا
وارتقب فى كل يوم عجباً فالليالى بالأعاجيب حبالى
الصفا تحويك منه ساعة والشقا يطويك أعواماً طوالا
فاغتنم من روح ساعات الصفا ما يعزّيك إذا الصفو استحالا
وادّخر من صحة تحظى بها قوةً تلقى بها الدّاء العضالا
واتخذ من صحو أيام الرضا ما يقيم العقلَ إن سكرٌ أمالا

هذه أشجاننا يسمعها ساهر الليل إذا الهم استطالا
وعليها تهجع العين التى ضلّ عنها طارق الهمّ ومالا
مقلة تذرف دمعاً وفمٌ ليس يبدى، خشيةالله، مقالا

لا تقولى كيف يبكى رجلٌ يملأ الأعين حزماً وجلالا
حكمة الجبار فينا جعلت
من صروف الدهر ما يبكي الرجالا ...

(م. ع)

«طرابلس — الشام»

نظـــرة ...!

لما نظَرتِ إلى أمسِ مُليحَةً بين الجموع بلحظكِ المرتاب
رَفّتْ على شفتيكِ بسمةَ حائرٍ ما بينَ شِبْهِ رضًى وشبه عتاب
فقرأتُ فى عينيكِ عمرىَ كله وفهمتُ أنى قد أضعتُ شبابى
وذهبتُ لا ألوى على نفسى وبى مما تسعّرَ فى الجوانح ما بى
ضاقتْ بى الدنيا وكم ضاقت إذا ماجدَّ بى وجدى وعبّ عُبابى
لَخصْتُ عمرىَ كلَّه فى نظرةٍ زادت بحيرَتها علىَّ عذابى
والله ما كان ابتعادى عن قِلًى أبداً ولا عن هجرةٍ وَغِضَابِ
لـكنَّهَا الأقدارُ قد لَعِبَتْ بنا وَلِمَا بِهَا فى العمرِ شرُّ لِعَابِ
واليومَ أنفقتُ الشبابَ وكان لى كنزاً أبدّدُهُ بغيرِ حساب
وغدوتُ إنْ مرّ بُ الملاح تَرَدّنَ بى
أغضى بقلبٍ في ضلوعى كاب
أصبحتُ أنفرُ من جَمالِ عابرٍ يهتاجُ حُبًّا كان لى وَتَبابى
وَيُعيدُ ذكرى ناظِرَيْكِ وفيهما نورٌ خبا عنى وليس بخابِ
تذكو به نيرانُ وَجدى مثلما فى القفرِ يُذكي الظمأَ لمعُ سَرابِ
حسبى عقاباً فى الحياة بأننى يا هندُ قد صارَ الجمالُ عِقابى

خليل شيبوب

لا تقـــل ...!

أيها الراحلُ عن عينى غدًا كيف أحيا نائياً عن ناظريكْ
آهِ لو تعلمُ ما سوفَ أرى فى ليالى البعدِ ما هُنت عليكْ
كيف أحيا بين همى واشتياق
أشربُ الآلامَ من كأس الفراق
وألاقي فى التنائى ما ألاقي
من أمسى دهرِى إلى يوم التلاق
لا تَقلْ منّا دنا
يوم النوى
يا هوى نفسى وآمالَ مُناها



العروبة لغة لا جنس

نشرت « الرسالة » كلمة كريمة لحضرة « الفاتح النور » فى التعقيب على البحث الذى أرسلته لمؤتمر الخريجين فى السودان ، وهو يقول إن من سمع ذلك البحث أو قرأه يعتقد أن العروبة فى السودان لغة لا جنس ، مع أن بالسودان أكثر من النصف من العرب العريقين

وأجيب بأن السودان لم يشغلنى بالذات وأنا أعد ذلك البحث ، وإنما هو بحث عام أردت به رفع الأشواك من طريق العروبة فى أقطار اللغة العربية

ومن كلام هذا الأديب فهمت أن سكان السودان نصفهم عرب ونصفهم غير عرب ، « من حيث الجنس » وأنا أريد غير ما يريد ، أنا أريد أن تكون العروبة صفة أساسية لكل من يتكلم اللغة العربية ، ولو كان أجداده من الصين

وأقول مرة ثانية إن اعتزاز العرب بالجنس كان له تأثير سيئ فى تاريخ اللغة العربية ، فهو الذى أقام فى طريقها العقبات بالمشرق والمغرب ، وهو الذى أوجب أن يحرص الفردوسى على أن تخلو « الشاهنامة » من جميع الألفاظ العربية ، وهو الذى ساق أتاتورك إلى كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بعد أن كانت تكتب بالحروف العربية فى آماد طوال طوال

ويرى هذا الأديب أنى لا أستطيع الكتابة عن السودان بصدق إلا بعد أن أزوره وأتحدث مع عربان كردفان ؛ وأقول إن الغاية مختلفة بعض الاختلاف ، فأنا لا يهمنى أن يثبت أن سكان السودان كلهم أو جلهم من سلالات عربية ، بقدر ما يهمنى أن يثبت أن اللغة القومية لجميع أهل السودان هى اللغة العربية

وهنا يتسع المجال لحقيقة قليلة الخطور فى البال ، وهى أخوال الأشراف المنسوبين إلى الرسول ، فقد كان للرسول زوجات من أجناس مختلفات ، وكان من الممكن أن يكون للأشراف أخوال من الأقباط واليهود لو بقيت له أعقاب من جميع تلك الزوجات

أتريدون الحق ؟

الحق أن العرب يبتعدون من تعاليم زعيمهم الأكبر وهو محمد ، وهذا الابتعاد جديد ، فمن أسماء المسلمين عيسى وموسى وهرون وإسحاق ويعقوب وإبراهيم ، ولى صديق من نصارى العراق سيسمى ابنه محمداً حين يرزقه الله بمولود ، ليؤكد القول بأن محمداً زعيم العرب بغض النظر عن اختلاف الدين

إن صدرى ليضيق بالخلاف الذى يقع من غير موجب ، وأنا أدعو إلى تقديس الفكرة التى تقول بأن « الخال والد » والعرب صاهروا أكثر الشعوب ، ونقلوا إلى سلالاتهم كثيراً من الخصائص بفضل التسامح فى العصبية الجنسية ، فكيف نخرج على تقاليد أولئك الأسلاف ، بل كيف نخرج على أدب الرسول ؟

العروبة لغة لا جنس

ولى من هذا الرأى هدف لا يخفى على إخوانى فى جميع البلاد العربية ، وسأجاهد فى تأييد هذا الرأى بما أملك من الوسائل والأساليب ، إلى أن يصبح من البديهيات

ويسرنى أن أسجل أنى لا أقول وحدى بهذا الرأى ، فهو اليوم شريعة أدبية لجميع المتكلمين باللغة العربية على اختلاف الأجناس ، وسترون كيف يصبح هذا الرأى من العقائد بعد قليل من الزمان

زكى مبارك

لا تدعنى والضنى

إن الهوى

شعلة فى القلب لا يخبو لظاها

أترى أحيا هنا

نهب الجوى

تبلغ الآلام منى منتهاها

فارحم القلب ولا تقس عليه فؤادى ما هفا إلا إليك

عشت دنيا النور والصفو لديه يا ترى هل عاش كالدنيا لديك ؟

(الأسكندرية) مصطفى على عبد الرحمن

الخبازى

من المآخذ التى أخذها الأستاذ عبد السلام هرون على كليلة ودمنة ما جاء فى ص ١١٥ س ١٣ « رأس الخنازير وسيد الخنازير » قال : « عندى أنها رأس الخبازين وسيد الخبازين » واستدل ببعض النسخ

ولكن محقق الكتاب الفاضل الدكتور عبد الوهاب عزام

لم يرتض هذا الرأي فرد عليه في العدد ٤٣٤ من الرسالة قال : « وأرى أن الخنازير أقرب إلى الصواب ، لأن دمنة وصف هذا الرئيس بصفات الخنازير ، وليس في وصفه بأنه صاحب المائدة ما يجعله خبازاً الخ . »

قلت : ظاهر عبارة الدكتور الأخيرة « وليس في وصفه الخ . » أن الخباز غير صاحب المائدة ، وأن هذا من الأسباب التي يستبعد لها أن يكون المقصود خبازاً

وقد أوقع الدكتور الفاضل في هذا فهمُه « الخباز » بمعنى صانع الخبز ، وهو كذلك ، ولكن للخباز معنى آخر ورد كثيراً في كتب الجاحظ والمسعودي ، ولعله كان على عهد ابن المقفع . وهو استعماله بمعنى (خادم المائدة) أي ما نسميه الآن (السفرجي)، ولعله يقوم أحياناً بصنع بعض الطعام

وقد يبدو هذا الاستعمال غريباً لندرته ، ولكنك حين ترجع إلى ما أثبت من النصوص لا تجد ثم مجالاً للريب في صحته

١ — في كتاب البخلاء للجاحظ ص ١٦٠ : « قرَّبَ خباز أسد بن عبد الله — وهو على خراسان — شواء قد نضجه نضجاً . وكان يعجبه ما رطب من الشواء ، فقال لخبازه : أتظن أن صنيعك يخفى علي ؟ »

٢ — وفي البخلاء ص ١٦٤ : « جاء الخبازون فرفعوا الطعام »

٣ — وفيه أيضاً : « إذا دعا على مائدته بفضل دجاجة ... رد الخادم مع الخباز إلى القهرمان[1] حتى يصك له بذلك إلى صاحب المطبخ »

٤ — وفي الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٢٦ : « إن العرب[2] تقول للرجل الصانع ... خبازاً إذا كان يطبخ ويعجن »

٥ — وفي الحيوان ج ٥ ص ١٣٦ : « ولذلك صار الخبازون الحذاق قد تركوا الضأن لأن المعز يبقى شحمه ولحمه فيصلح أن يسمن مرات فيكون أصلح لأرباب العرس »

٦ — وفي « التاج في أخلاق الملوك » للجاحظ أيضاً ص ١٧٣ : « فلا يوضع عليها إلا الخبز والملح والخل والبقل ، فيأخذ منه شيئاً هو ومن معه ، ثم يأتيه الخباز بالبزماورد[1] في طبق الخ . »

وعلق على كلمة الخباز فيه محققه العلامة المغفور له أحمد زكي باشا بما ذكرنا من أنه خادم المائدة

٧ — ولعل مصدر هذا الاستعمال ما ورد في القاموس والمختار والأساس أن (خبزَ القومَ) معناها (أطعمهم الخبز)

قلت : فالخابز — والخباز مبالغة منه — هو المطعمُ الخبزَ ، ثم لعله توسع فيه فأطلق على المطعم أيا كان طعامه وهو خادم المائدة

وبعد . فورود هذا اللفظ في هـذا المعنى مما يؤيد الأستاذ هرون بعض التأييد ، ويوهي إحدى حجج الدكتور الفاضل

(بني سويف) محمد محمود رضوان

الأسود بن قنان

قرأت كلمة في (الرسالة) تحت هذا العنوان للأستاذ علي الجندي ، وأقول : إن مآثر « الأسود » التمر وأياديه البيض حملت بديع الزمان الهمذاني على أن يكتب مقامة باسم « المقامة الأسودية » نسبة إليه ، أتى فيها بما راه القارئ

وبهذه المناسبة أقول : إن الذي أرشدني إلى هذا المصدر ، هو الأستاذ البحاثة محمد فؤاد عبد الباقي

علي حسن هلال
بالمجمع اللغوي

مصر بين القطن والقمح

أذاع العالم الزراعي الكبير الأستاذ حسن الزيني بك حديثاً بالراديو على المزارعين أقنعهم فيه بمنطق الأرقام أن زراعة الحبوب على اختلافها أوفر وأيسر من زراعة القطن . وأهاب بكبار الملاك وبمصلحة الأملاك أن يكونوا قدوة للفلاحين في الإقلال من القطن والإكثار من القمح تأميناً لأقوات الشعب وتخفيفاً عن الفقير في هذه الظروف العصيبة . فإن من أعجب العجب أن تكون مصر في عصورها المختلفة من أوسع أهراء العالم للحبوب ثم لا يجد أبناؤها الرغيف إلا بشق الأنفس . وكان حديث الأستاذ واضحاً كل الوضوح مقنعاً كل الإقناع ؛ فعسى أن يكون قد وقع من سامعيه موقع الرضى والاستجابة .

(١) القهرمان : الخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده

(٢) ورد هذا الاستعمال إلى العرب مما يقرب استعمال ابن المقفع له

(١) البزماورد كما في « شفاء الغليل للخفاجي » كلمة فارسية استعملها العرب للرقاق الملفوف باللحم

تصويبات :

قرأت مواضع من الجزء الحادي عشر من تفسير القرطبي ، فوجدت فيها الأغلاط الآتية :

ص ٣ س ٢٢ : (مدجح) صوابها : (مدجج) . وص ٢٦ س ١ : (أَنتَهون) والصواب : (أَنتَهون) . و ص ٢٦ س ١١ (عبْدا) صوابها : (عبْداً) . وص ١٣٥ س ١٤ : (المقرَور) والصواب : (المقرُور) . و ص ١٥٣ س ١٤ : (يريدون) صوابها : (يردون) . و ص ١٨٧ س ٧ : (يلوَمها) صوابها : (يلومُها) . و ص ٢٦٨ س ٢٣ : (كثيرة) والصواب : (كثير) . و ص ٣٢٠ س ١٤ : (وأما ما يوسها) صوابها : (وأما يوسها) . وص ٣٤١ س ٢٢ : (كما اللسان) صوابها : (كما في اللسان)

أحمد صفوان

النفط

أستاذنا الكبير صاحب الرسالة

ذلك تحقيق لغوي عثرت عليه في مطالعاتي بمجموعتي من « المقتطف » سنة ١٩٢٨ ، في الجزء الخامس من المجلد الثاني والسبعين تحت مقال للدكتور أمين المعلوف صاحب المعجم الطريف في « علم الحيوان »

قال الدكتور :

« النِفط والقار والقير والكُفر والقُفر وقفر اليهود والحُمَر والزفت والمومياء والقَطران مواد هدروكربونية مؤلفة الهدروجين والكربون على نسب مختلفة والعلماء في أيامنا يطلقون القار وهو يطلق عند الرومان على جميع هذه المواد ، سواء كانت جامدة كالحُمَر، أو سائلة كالنفط، أو هوائية كالغاز الحقيقي . فالنفط بكسر أوله وإسكان ثانيه وقد يفتح أوله ، دُهن معدني أبيض أو أسود ضارب إلى الخضرة سريع الاحتراق يسمى باللاتينية بتروليوم أي دهن الحجر أو زيت الحجر

ولفظة النفط عربية سامية قديمة جداً أخذها اليونان عن العرب وقالوا نفثاً وهي ممناها . ومما يدل على أصلها السامي أنها بالسريانية والعبرانية مثل العربية مع اختلاف قليل في اللفظ . ثم إن اليونان كانت أول معرفتهم بالنفط في العراق، وكان من البديهي أن يسموه نفطاً كما سماه العراقيون من سريان ويهود وعرب ؛ ولعله سمي بذلك لخروجه من باطن الأرض ، كما يتضح من مادة نفط ومشتقاتها في كتب اللغة . كذلك نفث ونبط ونبض ونبث ونبش وأشباهها ، فكلها تدل على الخروج أو الدفع ثم تفرع من ذلك معنى الاحتراق . كقولنا تنفط الرجل غيظاً أي احترق ... »

ثم قال بعد كلام كثير مفيد . . . والنفط كما تقدم لفظة عربية فصيحة وهي شائعة عن العراقيين ...

(المنصورة) حسين محمود البشبيشي

جماعة تيسير الحج

ترحب بكل مستفهم عن جميع ما يتعلق بحج بيت الله وزيارة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل أمر يهم الحاج معرفته من أحكام دينية وحاجات السفر وأجور الانتقال وزيارة الآثار .

والجماعة إذ ترشد لشيء فإنما ترشد عن تجربة وخبرة تامة ؛ لأن أعضاءها ممن رزقهم الله حج بيته ، وقد سنحت لهم الفرص بتصوير جميع المشاهد الإسلامية التي ينبغي أن تزورها في مكة والمدينة

وإذا شرفت مقر الجماعة أخذت فكرة حقيقية عن الحج قبل سفرك ، وشاهدت أكثر من ستين صورة من صور الأماكن المقدسة ، وإن شئت الاستفهام بالرسائل فالجماعة على أتم استعداد للاجابة .

وللجماعة عدا الإرشاد غرض هام آخر ، هو أنها تساعد من يريد الحج على توفير المال اللازم له ، كما أنها تمده بجميع ما يحتاج إليه منه وفق قانونها .

وقد خصصت الجماعة لاستقبال الحجاج يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع فيما بين الساعة الرابعة والسادسة مساء بشارع رفعت رقم ٢٧ شبرا مصر

وكيل الجماعة

محمد الشافعي

مدرس بمدرسة شبرا الابتدائية للبنات

جريدة الواجب

نقلت جريدة « الواجب » الأسبوعية التي تصدر من مدينة المنصورة لصاحبها الأستاذ أحمد جاد جمعة إلى مدينة القاهرة شارع البراموني رقم ٦ تليفون ٤٧٧٣٨ وستظهر في ثوب جديد قشيب، يشترك في تحريرها نخبة من رجال الأدب والمحامين .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

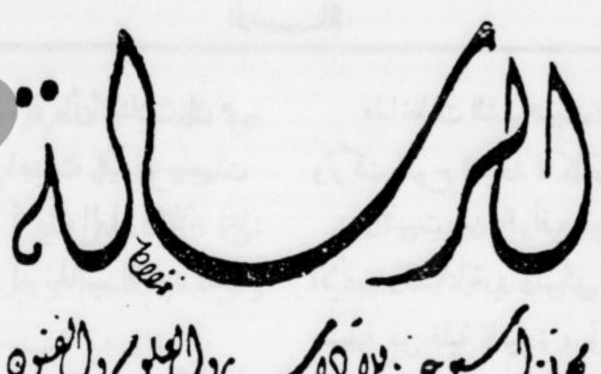


9 me Année No. 439

Lundi - 1 - 12 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مصـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٤٣٩ « القاهرة في يوم الإثنين ١٢ ذو القعدة سنة ١٣٦٠ — الموافق أول ديسمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

أمنيتي . . .

للأستاذ عباس محمود العقاد

قلت في ختام مقالي السابق : « أما أمنيتي التي يسألني الأديب عنها سؤاله الأخير فلعلها لا تشرح في ذيل هذا المقال، وأحرى بها أن تؤجل إلى مقال قريب ، لأنني لا أطرق منها جانباً يخصني دون غيري ، بل أطرق منها ما يصح أن يمتد إليه كل بحث وينظر فيه كل ناظر ... »

ولم أقصد بكتابة هذا المقال عن أمنيتي في الحياة إلا ما قصدته بكتابة مقالي السابق عن أدب اليوميات ، وهو تسجيل ظاهرة نفسية أستطيع أن أراقبها في نفسي وأن أتخذ من تجربتي لها فائدة أضيفها إلى تجارب غيري . فليس أصدق في دراسة النفسيات من تسجيل تجارب النفوس

وإذا صدقت تجربتي في هذا الباب فما من أمنية تسيطر على حياة الإنسان إلا ظهرت بذورها الأولى في بواكير صباه ؛ فإنني لم أتمنَّ في حياتي أمنية كبرى بعد التي تمنيته بين العاشرة والخامسة عشرة، وكل ما أضافته السنون من جديد أنني كنت في الطفولة أتمنى على سبيل الرمز والتلميح ، وأنني استوضحت أمانيَّ بعد ذلك فبرزت لي على ضوء الوصف البين الصريح

بين العاشرة والخامسة عشرة تمنيت على التوالي أن أصبح ولياً من أولياء الله ، وقائداً من كبار القادة ، وأديباً من رجال

القلم النابهين . فعلمت مع الزمن أن هذه الأمانىّ الثلاث إن هى إلا أمنية واحدة ضلت طريقها حتى اهتدت إليه ، وجهلت عنوانها حتى اتسمت به والتزمت مسماه ، وأن الولى والقائد إنما هما جانبان منطويان فى الجانب الأكبر أو الجانب الوحيد الذى هو جانب الباحث والمفكر والأديب

شاقنى من الولاية وأنا فى العاشرة تسخير قوى الطبيعة واستطلاع أسرار الدنيا والآخرة ؛ فقرأت مناقب الصالحين وكتب السحر ، وأردت أن أمشى على الماء ، وأن أطير فى الهواء ، وأن أتلو القسم على شىء من الأشياء فإذا هو مذعن مطيع ، وأن أدعو الغيب إلىّ فإذا هو مجيب سميع ؛ فصليت عشرات الركعات ، وسردت ألوف الأسماء ، وأوشكت أن أتمادى فى « الدروشة » وأن أزهد فى الدنيا وأنقطع للعبادة ، وأنتظم بين من يسمونهم أهل الطريق . ثم عصمنى حادثان صبيانيان يضحكان ، ولكنهما بما أعقبا وأفادا بالغان فى الجد والتسديد : أحدهما ضياع حذاء بالمسجد الكبير فى يوم صلاة جامعة بين أولئك أهل الطريق ! فقلت : إن أناساً يسرقون الأحذية فى مساجد الله لا يرجى بينهم فلاح . والآخر إمام من أئمة « المندل » كذب على الحاضرين باسمي وأنا أنظر لهم فى « الفنجان » لأستطلع الغيب ؛ فقلت إن الذى يكذب فى الحس المشهود ، لن يدلنى على الغيب المحجوب . وكان هذا وذاك فراق بينى وبين الولاية والكرامات .

أما قيادة الجيوش فكان لها سبب معقول فى تلك الأيام . فقد كانت بلدتى (أسوان) قاعدة من القواعد الكبرى فى طريق حملة السودان ، وكان فيها مقر الجنود المصريين والسودانيين والإنجليز الذين ينتظرون السفر ذاهبين أو قافلين ، وكنا نصبح ونمسى على خوف من الدراويش الذين يذبحون الرجال والنساء ويرفعون الأطفال مطعونين على أسنة الحراب . فكانت لعبتنا فى المدرسة تمثيل هذه الجيوش واستعجال النقمة من الأعداء .

ثم لم ألبث أن ظهر لى أن قيادة الجيش ليست هى الأمل المقصود ولا الأمنية الفضلى ؛ وأننى كنت من آل عطارد ولم أكن من آل المريخ ؛ لأننا كنا ننظم الجيوش على أساليب القصص العنترية والهلالية وما ورد عن سيف بن ذى يزن وأبطال ألف ليلة وليلة : فارس يبرز بين الصفوف ليتحدى خصومه بأبيات من الشعر أوفقرات من الكلام المسجوع ، وهذا هو بيت القصيد !

فلما نظمت الشعر عرفت ما أردت ، ووصلت إلى ما قصدت ، وتركت فتوح القيادة ، كما تركت من قبلها كرامات الولاية !

وانتهيت بعد طواف قصير فى هذا التيه الصغير إلى أمنية الأدب والكتابة ، ولكنى لا أزال ألمح فى باطن هذه الأمنية مسحة من غلبة القيادة ، ونفحة من أسرار الولاية ، وشوقاً إلى المجهول لم يقف قط عند حد من الحدود ؛ ولم يفارقنى قط حتى حين أحسبنى مستغرقاً فى الحس وفى غواياته وملاهيه

* * *

هذه عقدة من عقد النفوس التى التبست فيها أول الأمر تكنة القائد وصومعة العابد وروضة الشاعر . ثم انجلت الرؤية من وراء الغشاوة الظاهرة شيئاً فشيئاً ، حتى ظهر أن التكنة والصومعة والروضة شىء واحد يفترق من بعيد ويتفق من قريب

لكنّ العجيب غاية العجب هو أن تحل هذه العقدة على البداهة السهلة وعلى أيدى طائفة من التلاميذ لم يفهموا ما صنعوه ولعلهم لا يفهمونه بعد ذلك لو سئلوا فيه

وبيان ذلك أننا كنا قبل خمس وعشرين سنة نعمل فى التدريس بالمدرسة الإعدادية الثانوية : الأستاذ المازنى ، والأستاذ الزيات ، والأستاذ على الجندى ، وكاتب هذه السطور ، وطائفة مختارة من الفضلاء الذين لهم اليوم مكانهم الممتاز فى مناحى العلم والعمل بهذه البلاد

فقيل لنا يوماً إن التلاميذ المعاقبين يملأون جدران الحبس بالنوادر والفكاهات عن المدرسين ، وذهبنا إلى حجرات الحبس فقرأنا على الجدران أفانين من تلك النوادر والفكاهات : أذكر منها مما كتبوه عن المازنى وعنى : أن ناظر المدرسة سألنى وقد رآنى على بابها : أين صاحبك ؟ فقلت له : نسيته فى الدرج ! وأن العقاد دعا المازنى إلى وليمة على مائدة فلم يأكل المازنى ؛ ثم دعا المازنى العقاد إلى وليمة على الأرض فلم يأكل العقاد ! وكثير من أمثال هذه المساجلات نكتفى بما تقدم منها على سبيل التمثيل لأنه غير المقصود فى هذا المقال

أما المقصود فهو الألقاب التى أطلقها علينا أولئك الخبثاء وكشفوا بها من جوانب الشخصية ودخائل النفس ما يعيى به كبار النقاد

فاختاروا للأستاذ المازنى اسم تيمورلنك

وللأستاذ الزيات اسم الشاب الظريف

وللأستاذ على الجندى اسم ابن المقفع !

ولكاتب هذه السطور اسم حرحور !

أما الأستاذ المازنى فبراعة التسمية فى أنه كان يدرس التاريخ وأنه كسميّه صغير الجسم مصاباً بإحدى قدميه ، وأنه مسيطر على التلاميذ ، فلما يحتاج إلى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة ، لأنه كان مهيباً بينهم قديراً على أخذهم بعمابهم إياه قبل خوفهم من عقابه ؛ فجمعوا كل ذلك فى اسم تيمورلنك أحسن جمع مستطاع

وأما الأستاذ الزيات ، فدماثته ، وظرفه ، ولطف حديثه ، وأسلوبه الأدبى ، وأناقة ملبسه ، ترشحه لاسم الشاب الظريف أصدق ترشيح

وأما الأستاذ الجندى فقد لاحظ الخبثاء فى تسميته بابن المقفع أنه نحيل هزيل ، وأنه يدرس لهم كليلة ودمنة وقواعد البلاغة ، فوفقوا بين ذلك كله أبرع توفيق !

وأما كاتب هذه السطور فقد سموه « حرحور » باسم الكاهن الحكيم المصرى الذى انتزع الملك على صعيد مصر قبل الميلاد بألف سنة ؛ فلم تكفه أسرار الكهانة وحب الحكمة حتى طمح إلى الغلبة والسطوة . ولم يفت الخبثاء فى هذه التسمية أن كاتب هذه السطور من أقصى الصعيد حيث قامت دولة حرحور ! وهو ما كانوا يذكرونه بينهم كلما أخذتهم بالشدة التى اشتهر بها أهل الصعيد الأقصى

وفى براعة هذه التسميات شاهد على أن بداهة الجماهير لا تهبط بهم دائماً إلى ما دون طبقة الأفراد ، بل ربما ارتفعت بهم أحياناً إلى طبقة من الزكانة لا يبلغها الفرد الممتاز فى كل حين

* * *

فاسم حرحور قد جمع من جديد ما فرقته أيام الصبا الباكر بين طالب الولاية وطالب القيادة وطالب الشعر والثقافة . وقد دل من جديد على أن هذه الصور المختلفات لم تنب فى أطواء العمر كل الغياب ؛ فإلى جانب الروضة الأدبية لا يزال للشكنة مكان وللصومعة نصيب

ويسألنى سائل : ولم تمنيت الأدب أو تمنيت المنزلة الأدبية ؟

فأقول : إن « التعبير عن النفس » هو مزية الأدب والشعر والكتابة عامة ، وهو فى الوقت نفسه طريق إثبات النفس الذى يمثل الشكنة نحواً من التمثيل ، ويمثل البحث عن الحقائق والأسرار من قريب .

ويلوح لى أن التعبير عن النفس أو « إثبات النفس » عندى شىء لا أنساه حتى حين أكتب عن نبذ الشهوات وعن العبادة وعن الصيام قاصداً أو غير قاصد

ففى مقالى عن الصيام منذ ست عشرة سنة قلت سائلاً :

« ولكن هل الصوم من دواعى إنكار الذات المتنبهة ، أو هو من دواعى إثباتها وتوكيدها ؟ وهل هو من أسباب نسيان النفس الشاعرة وصحق كبريائها ، أو هو من أسباب تذكرها وتقرير وجودها ؟ »

ثم قلت مجيباً : « أكاد أقول إن الصوم بجميع درجاته وأنواعه حيلة نفسية خفية لتقرير وجودها وتوكيد عزتها ورفض كل ما يسىء الظن بها فى نظر صاحبها . وما أيسر أن نعرف ذلك ! حسبنا أن نراقب الحالة التى تناقض الصوم لنهتدى إلى الحقيقة من المقابلة بين النقيضين . فانظر على سبيل المثال إلى أى رجل تعرفه ممن أرخوا العنان لشهواتهم وأجابوا نفوسهم إلى أهوائها واسترسلوا فى الغواية بلا رادع ولا مقاومة ، فهل ترى هذا الرجل « واجداً » نفسه مكرماً لها ، أو تراه مبتذلاً نفسه فاقداً لها فى غمار شهواتها وتيار أهوائها ؟ إنك لا ترى رجلاً كهذا إلا قد ارتسمت على وجهه علامة احتقار هى قبل كل شىء موجهة إلى نفسه ... ولست أعرف ممنى للنفس فى حالة الاستسلام والاسترسال التى نشاهدها فيمن يلبون حاجات نفوسهم ولا يقفون لها فى شهوة من شهواتها ؛ فإن حكم هؤلاء فى هذه الحالة كحكم الخشبة المنساقة فى تيار الماء ، أو الريشة المتطايرة فى الهواء ؛ أى أنه هو حكم الجماد المفقود فى تيه النواميس الكونية بلا إدراك ولا شعور ولا إرادة . ولا يزال الإنسان شيئاً لا نفس له ولا استقلال لكيانه حتى يمتنع عن شىء يدفع إليه ويقف فى وسط التيار الذى يحيط به . فهنالك يجد نفسه بعد إذ فقدها بالمطاوعة ونسيان الذات ، ويشعر بمعنى رفيع هو أسمى معانى الحياة لم يسم إليه إلا الإنسان بين سائر الأحياء »

وفحوى هذا جميعه أننى تمنيت الأدب لأننى تمنيت التعبير عن النفس ، ولأن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندى تحقيق وجودها وتمتعها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها ، وليس فوق هذا المطلب من مطلب رفيع يتطلع إليه موجود شاعر بوجوده

عباس محمود العقاد

طموح الشباب

لصاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

مدير دار الكتب المصرية

تفضلت وزارة الشئون الاجتماعية فدعتني لأتحدث إلى الشباب في مطامحه. ولعلها بتلك الدعوة أحسنت الظن برجل طالما اتصل بشبابنا المثقفين، وأنه وإن حالت ظروفه دون وفرة الاتصال بهم، ففيما يحفظونه له من ود كريم، وفيما يحفظه لهم من حب وحنان، ما يسوّغ مد الأسباب بينه وبينهم ليفضي إليهم بما يعتقده خيراً وحقاً

فللوزارة إذن شكرى الخالص، إذ أتاحت لى فرصة التحدث إلى أبناء العروبة عامة، وإلى أبناء وطنى وكلهم أمل باسم مرموق لبلادهم العزيزة، وللشباب أنفسهم صادق دعواتى لعيشة راضية يملأها البشر والتفاؤل، وتنتشر منها مكارم الأخلاق وصدق العزائم، وتفيض بنعم المعنويات

لقد نشأ الشباب الحاضر في فترة من الزمن تمتد بين حربين عظيمتين، وتصطبغ بشر المنازع للنفوس الأمّارة بالسوء، وتتجلى فيها مساوئ الحياة المادية والآلية وتبدو عليها متاعب الأنانية والجشع، وتلوح منها مكاره المخادعة والعناد، وتلتزمها مخازى التحلل من القيود الأدبية، وتظهر فيها مخاطر الانحراف عن المنطق السليم، وتكتنفها مهازل الركون إلى مغانم المهارة البهلوانية، مما انتهى إلى تباين في الحظوظ من مغانم هذه الحياة، وتنافر بين الشعوب والطبقات، وتباغض وتناحر بلا هوادة ولا رحمة ...

ولو ذهبنا نستعرض ناشئة العالم المتحضر لوجدنا في بعض بلاد الغرب شباباً قد ترعرع في أجواء مسممة من أثر اليتم والأحقاد والغرور، مما كان له خطره الواضح في الانقلابات والثورات والأزمات وحدوث هذه الحرب الدامية

أما في بلاد أخرى كبلادنا العربية التي تأثرت بنتائج الحرب الماضية، فثم تغييرات سياسية، واضطرابات داخليه، وشهوات حزبية، ونزعات نفعية، وانقسامات واختلافات في الآراء، وثم تحرج عند شتى المشكلات العمرانية والثقافية والاقتصادية، مما انتهى بطائفة من شبابنا إلى الحيرة والإشفاق من المستقبل، والتشاؤم، وفتور الخلق والنزوع إلى الوصولية، والاستخفاف بالمألوف ...

ولعلَّ مختلف الظواهر والأحوال الاجتماعية التي اتصلت ببلادنا قد حملت شبابنا قسطاً من الآلام، وآخر من الآثام.

فأما هموم شبابنا وآلامه فلها ارتباط وثيق بما يشعر به من غموض المآل. وأما الأخطاء والآثام فنشؤها غفلة الشباب حين يغفل عن قيم الحياة الحقة، ليلتفت إلى قيمها الزائفة، وحين يضلله سراب الحياة الخلاب إلى غير ما يشتهى من مائها الزلال، وحين يطمئن عن ضعف في البصيرة إلى سطح الحياة المستقر على بركان ثائر، وحين ينصرف الشباب عن جد الحياة إلى هزلها الدائر، وعبثها الساخر، ويؤوب منها بالقدح الخاسر. وعلى الجملة حين تتبدى الحياة في ثوبها المزخرف، فتستدرج إلى صغائرها الباطلة وشهواتها من لا حصانة لهم من الشباب، وكان لكل ذلك أثره في أمزجة الناشئين وأعصابهم وسلوكهم، فتعدد فيهم المتشاءمون، وتكاثر فيهم المستخفون المستهترون، وأصبح بينهم المتمرد الجامح والخائر المهزوم.

على أننا نلتمس المعاذير للشباب على تشاؤمه واستخفافه، وجموحه وخوره، ونغتفر له انحرافه عن الطريق التي يرضاها له المنصحاء الخيرون، إذ ترجع التبعة في كل ذلك على ظروف الماضي القريب وملابساته. فإذا كان لأحد أن يتحمل قسطاً من اللوم، فعلى الآباء بعض أثقال هذه الملامة؛ أما شبابنا لخليق بهم أن تنالهم شفقة المشفقين، وحدب العاطفين

على أنه حرى بالنشء الجديد أن يوجهوا جهودهم، ويحولوا طموحهم إلى حياة أسمى من التي يتذوقون مرها، وأن ينشدوا جواً أصلح من ذلك الذى يتنسمون سمومه، فللشباب من مفسوح الحياة ومقتبل العمر ما يوسع له المجال لتحقيق عيش رضاه لنفسه ولمن يخلفونه؛ وله من نشاطه الحيوى ما قد يسخره في الخروج من الحياة المظلمة إلى حياة نيرة، وما قد يستخدمه لتحويل قطوب دنياه إلى بسمات، وزعازعها إلى نسمات، وأنينها إلى نغمات، فلا بأس مع الشباب، ولا يأس مع الحياة.

ويلوح لى أن أشد الحوافز لنشاط الشباب ، وأقوى المثيرات لحيويته ، وأمضى الشاحذات لعزيمته حين ينشد حياة أصلح من التى يحياها ، إنما يكون فى توجه الشباب إلى الأهداف العليا ، والمثل السامية ، ليسلم نفسه لسلطانها إسلاماً ، ويذعن لسيطرتها إذعاناً . وهل من هدف أولى من الخلق الكريم ليكون موضع طموح الشباب ؟ وهل من سلاح غير سلاح هذا الخلق يستطيع الشباب أن يحول به مذاق العيش حلواً وعذابه نعيماً ؟

إذن فالاعتزاز بالخلق الرفيع هو ما ينبغى أن يكون مثل شبابنا المائل ، ومطلبه الشامل

وإذا كان الخلق الكريم فى جلته وتفاصيله هو الهدف الذى ينبغى لشبابنا أن يروضوا أنفسهم عليه ، وأن يلقوا بأعمالهم فى دوائره وأحضانه ؛ فيقينى أن أكبر معين لإصابة هذا المرى هو التدين الصحيح

وإنى حين أعفى نفسى من الإسهاب فى تفاصيل الأخلاق الكريمة ، وبسط جزئياتها الرائعة ؛ أقرر بأن التدين الصحيح هو أفضل رائد للوصول إلى الأخلاق الفاضلة الرفيعة ؛ ذلك لأن الديانات على اختلافها قد أجمعت على تقديس الأخلاق الأساسية التى كانت أهداف الإنسانية مع تتابع العصور ، واختلاف الأجناس والأقاليم

وليست هذه الأخلاق المقررة مجهولة تحتاج إلى التذكير ، أو منكرة تحتاج إلى الإبانة والتعريف ، أو مستورة خفية تحتاج للكشف والإظهار ، إنما كل ما تحتاج إليه أن يستجيب الناس إليها ، وأن يأخذوا أنفسهم بالإذعان لدواعيها ، وأن يؤمنوا بأن تجارب العصور والأجيال لم تكن عبثاً حين لم تأت بما يضعف من قيمة هذه الأخلاق ، أو يشكك فى نفعها لدعم سعادة الأفراد وعظمة الأمم . فكل دين يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ؛ وما ندم قط امرؤ اتخذ من أخلاق دينه هادياً له فى معاملاته وسلوكه ؛ وما هانت ولا وهنت أمة تغرس أفرادها فى آداب الدين ، ذلك لأن التدين والدين يحضان على العزة والتضحية والإيثار والعدل والقسط وجدّ الحياة ومهيئات السلامة والسلام

ويقينى أن التدين الصحيح إذا استحال فى عناصر الدم دماً ، وفى عناصر الأعصاب عصباً ، وعلى الجلة فى عناصر النفس الناطقة روحاً ويقيناً وإيماناً ، فإن أعمال الناس جميعها تستقر على الخير ، وتدور فى دوائر الحق ، وتسرح فى ميادين الجمال ...

وحسبنا من التدين أن يذعن المرء لقيود والتزامات ونظم تحت رقابة حاضرة لا تغيب ، يقظى لا تغفل ، عالة لا تجهل ، تلك رقابة الضمير الطاهر ، تلك رقابة الوجدان الساهر ، تلك رقابة القوى القاهر ، تلك رقابة الله

وكما أن للتدين الصحيح رقابة على النيات الخافية والمنويات التى تؤثر فى صور المعاملات وأشكالها ، فإن له أجلى أثر فى رياضة الناس على حب النظام . فكل دين يقاضى أتباعه بأنواع من الشعائر فى فترات موقوتة ، وفى وضعات معينة ، وفى حالات خاصة ؛ فنى مختلف الصلوات ، وفى أنواع الخشوع ، وفى أصناف التوجهات ، نُظم للجسم والنفس من شأنها أن تؤلف المرء على حب النظام ، وما أحوج شبابنا لخلق النظام

قد يأخذ البعض على الديانات ما فيها من حواجز وحدود تحد مما تبيحه الحريات . على أنهم ينسون أنه لا خير فى الحريات ما لم تقف عند الحواجز والحدود ، وإن وراء حدود التدين هاوية فتاكة بالنفوس ، وتيهاً مضللاً للعقول والأحلام

وإذا أضيف إلى فضائل الدين ما يتعزى به المنكوبون المتقدون ، وما يأمله المستحقون ممن يعتقدون بعدل الله ، وينتظرون جزاءه الأوفى ، فما أحرى الشباب أن يرعى حرمة الدين ، ويتجه إلى هدفه المبارك المأمون

وزيادة على ما أتمناه لشبابنا من هذه المطامح المتقدمة ، أرجو أن يجعل من أهدافه المباشرة نزعة الكرامة الأدبية ، فعند ما يطمح المرء إلى هذه الكرامة ، وعند ما يشعر بحرارتها المنبعثة من الأعماق تتجلى له قيمته الإنسانية المقدسة من خلال ماضيه وحاضره ، وتفكيره وأمله ومسلكه الخاق ، وعندما يستذكر المرء معانى الكرامة ، فإنه يحس فى طواياه بنوع من عظمة النفس تدنيه إلى كل عمل حميد ، وتضعه فى كل منزل من المنازل التى تسدى فيها المكارم وتساق فيها المحاسن لخير نفسه ، وخير أمته ، وخير الناس أجمعين

فالكرامة إذن هى نزعة نفسية عالية يتحقق بها الخلق الشريف والوقف المنيف لدنيا يريدها المرء مصقولة معقولة كريمة

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

« أيام » طه حسين

للدكتور زكي مبارك

تنبيه — حيرة وارتباك — للرحلة الثانية — عمائم وطرابيش وبرانيط — أسرار كتاب « الأيام » — أحزان الطفل الضرير — صور وصفية — أما بعد فهذا كتاب

تنبيه

فى العام الماضى تكلمنا عن الجزء الأول من « الأيام » ، والمقرر للمسابقة فى هذه السنة هو الجزء الثانى ، وقد نشرته « مكتبة المعارف » بالقاهرة وثمنه عشرة قروش

ويهمنى قبل الشروع فى الكلام عن الجزء الثانى أن أنبه إلى مسألة طال فيها عتب العاتبين فى السنة الماضية ، فقد عابوا علىّ أن أقول فى صحيفة سيارة : إن الدكتور طه رجلٌ ضرير ؛ مع أنى قلت بصريح العبارة : إن توضيح الدقائق من كتاب « الأيام » لا يتيسر بغير النص على أن المؤلف يعبّر عن أغراض لا تتجسّم لغير المكفوفين ، والنقد يحتم هذا تحتيماً ، ولو سكتنا عن هذه الناحية لضاع الغرض من شرح مواطن القوة والضعف فى تلك المذكرات

أنا أريد أن أعاون طلبة السنة التوجيهية على فهم الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربى ، ولا يتم ذلك بدون إرشادهم إلى طريق الفهم المنشود ، ومؤلف « الأيام » ضرير ، ومراعاة هذا الجانب من شخصيته واجب مفروض ، لنعرف كيف واجه دنياه من طريق السمع واللمس والإحساس

يضاف إلى هذا أن الدكتور طه أكبر من أن يتأذى بالنص على أنه ضرير ، فهو يقول ذلك فى جميع صفحات « الأيام » ، وهو يعرف من أصول النقد الأدبى ما لا يعرف أولئك العاتبون ، ويعرف أن الكلام عما في كتابه من محاسن وعيوب لا يتفق مع التغاضى عن تلك الحالة الشخصية ، وهى حالة لا تنقص من منزلته الأدبية بأى حال

طه حسين ضرير ، كما يقول ، وقد سايرنا طفولته فى السنة الماضية ونحن ننقد الجزء الأول ، فكيف نراه فى حداثته ونحن ننقد الجزء الثانى ؟

بل هى نزعة إلهية تتأثر بها كل قوانا النفسية لتستنهض أكثر الفضائل من شجاعة وصدق ، وصراحة وجد ، وضبط للنفس ، وإيثار ووطنية وما إلى ذلك من الخلال الآدمية التى يأخذ بعضها برقاب بعض لتتحقق مشيئة الله حين أراد أن يكرم بنى آدم

وهـذه الكرامة التى أدعو شبابنا إليها غنية عن التعريف والوجاهة ، غنية عن الأحساب والأنساب ، ما دامت تستعين بالإيمان بأن الإنسان الحقيق بإنسانيته ، هو من يصدر عنه دائماً الخير وطيب العمل

وإنى حين أرسل صوتى إلى شبابنا ليحصر أهدافه فى دوائر الأخلاق والتدين والكرامة الإنسانية فإنى على يقين من أنه بذلك سيستصلح لنفسه عالماً نيراً مسعداً ، فما عالمنا إلا مظاهر نفوسنا وأخلاقنا تتجلى على صفحات هذا الوجود

وإن ما أرجوه لشبابنا الفتيان هو نفس ما أرجوه لفتياتنا . على أنهن حقيقات بأن يتذكرن مملكة البيت ، وما تقتضيه من أخلاق وسلوك ونزعات مما ينبغى أن يكون هدفاً للفتاة . وحسبى أن أشير إلى أنه من واجب فتياتنا المصريات والعربيات ، أن يحذرن ما انزلق إليه الكثيرات من فتيات الغرب وخدعن فى قيمته ، حين انحرفن عن هدف الحياة العائلية . فإسعاد العائلة فى عائلها ، وفى حسن تنشئ صغارها ، وإمداد وكرها بما يرفع النفوس ويقومها ويقويها ، هو أجدى على الأمة من كل ما تقوم به المرأة خارج البيت

وقصارى القول أرجو إلى شبابنا أن يفسحوا فى صدورهم ، وأن يحفظوا فى ألبابهم وتفكيرهم مكاناً للمعنويات ، ومجالاً للحياة الروحية ، فلا يقصروا همومهم على مطالب الثروة والدأب فيما يشتهون من متع الحياة وشهواتها

وأنهم ليحسنون مهما اختلفت عقائدهم أن يغفوا خاشعين مستبشرين فى كل صباح ليرسلوا من قلوبهم وعلى ألسنتهم صلاة عربية مبينة حين يقولون : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين »

منصور فهمى

حيرة وارتباك

فى هـذا الجزء بداية تقع فى ست صفحات ، وهى غاية فى الضعف عند من يجهل ، وغاية فى القوة عند من يعرف ، وربما كانت أعظم صفحات الكتاب ، برغم ما فيها من غموض والتواء

وترجع عظمة هذه الصفحات إلى أنها تمثل ما يعانى الطفل الضرير من حيرة وارتباك ، حين ينتقل من أرض إلى أرض ، ومن مكان مألوف إلى مكان مجهول

كان الطفل يعرف داره بالريف ، يعرفها بيديه ، فلم تخف عليه خافية من ملامح النوافذ والأبواب والسطوح ، وكان يجد الأنس كل الأنس فى جسّ تلك الأشياء باهتمام والتفات ، وسنرى كيف يفرح حين تسمح الظروف بأن يداعب الصندوق الذى أرسلته أمه إلى القاهرة لينتفع به أخوه ، فسيكون ذلك الصندوق مَراداً لسياحات كثيرة يتمتع بها الطفل حين يشاء ، فيجلس عليه مرة ، ويختبر أدراجه بيديه مرات ، ولا يفوته فى هذا الموقف أن يشير إشارة حزينة إلى أن أمه كانت تضع حُلِيّها فى هذا الصندوق يوم كان لها حُلىّ ، فنعرف أن أمه وقع لها ما يقع لأمهاتنا فى الريف من بيع « الصِّيغة » فى بعض الظروف ، ولأمهاتنا هنالك متاعب تستحق التأريخ

ترك الطفل داره بالريف ، وأقبل على داره بالقاهرة ، فكيف كان حاله فى داره الجديدة ؟ كيف ؟ كيف ؟

أقام أسبوعين وهو شارد اللب حيران : فهو يلمس جدراناً لا يعرف من أحوالها غير أوهام ، ويسمع أصواتاً لم يكن له بمثلها عهد . ألم ينزعج للصوت المجهول ؟ وأىّ صوت ؟ صوت كريه بغيض لا يصل إلى أذنيه إلا بعد أن يلفح وهجُ النار وجهه من قرب ، فما ذلك الصوت ؟ سيعرف أنه قرقرة النرجيلة ، فيهدأ ويستريح بعد أن مسه الخوف ، وبعد أن طال تفكيره فى السؤال ولم يصده غير الاستحياء

ولم يكن ذلك كل ما عانى فى هذين الأسبوعين ، فقد آذاه ما يحيط بداره الجديدة من روائح قذرة بغيضة لا تخلو من تعقيد . وسنعرف فيما بعد كيف صار يستبشر بهياج تلك الروائح ، لأن هياجها أثرٌ من وقدة الشمس ، وتلك الوقدة بشيرٌ بقدوم الصيف ، وهو فى الصيف يرجع إلى داره بالريف ، فيستريح من الأزهر والأزهريين ، فقد نصّ بعبارة صريحة على أن سجنه فى قفص الأزهر قد طال ، وأنه يرجو الخلاص بالانتساب إلى الجامعة المصرية ، عليها أزكى التحيات !

المرحلة الثانية

حين تكلمنا عن الجزء الأول من « أيام » طه حسين فى السنة الماضية كنا نجاريه فى المرحلة الأولى من حياته ، وهى تبدأ باليوم الذى عرف فيه كيف يختزن الذكريات ، وتنتهى باليوم الذى تأهب فيه لطلب العلم بالأزهر الشريف

وفى هذه السنة نجاريه فى الجزء الثانى وهو المرحلة الثانية ، وهى تبدأ باليوم الذى فرح فيه بدخول الأزهر وتنتهى باليوم الذى فرح فيه بالتحرر من الأزهر . وهو مع ذلك سيحدثنا فى الجزء الثالث أن صلته بالأزهر بقيت إلى أن تقدم لامتحان « العالمية » . وسنعرف أن اللجنة التى أدى أمامها امتحان العالمية قضت فى أمره بما لا يجب ، لأنها لم تستطع النفاذ إلى مواهبه العقلية ، أو لأن الأخبار كانت تواترت بأنه لا يحترم الأزهريين ، أو للسبب الذى حدثنا به فى سنة ١٩٢٧ ، فقد أخبرنا أن يداً أرادت أن يسقط فى امتحان « العالمية » ، وله على تلك اليد شهود جَبُن منهم من جبن ، وشَجُع من شجع ، والأمانة للتاريخ توجب أن نقول إن الدكتور طه حدثنا أنه حين أراد الطعن فى نزاهة لجنة الامتحان لم يجد من يجرؤ على الشهادة بالحق غير رجلين اثنين : سيد المرصفى ومحمد الابيارى

وإنما تعجلنا فأشرنا إلى كلام سيكون بداية الجزء الثالث ليعرف القراء كيف يتبرم الدكتور طه بماضى الشيخ طه ، وكيف رضى الانتقال من الشرق إلى الغرب بلا توديع ولا تسليم ، لينتقم ممن ظلموه ، أو ليصير رجلاً من طلائع الجيل الجديد ، ومن دعاة المدنية الحديثة ، بلا تحفظ ولا احتراس

عمائم وطرابيش وبرانيط

من واجب النقد الأدبى أن يبحث عن الأسرار المطوية فى ثنايا الحروف ، فما تاريخ طه حسين من الوجهة الفكرية والذوقية وهو يواجه دنياه فى المرحلة الأولى والثانية ؟

فى الجزء الأول يرى المجد مصوراً فى « العريف » وهو معلم الأطفال ، ثم يراه مصوراً فى « القاضى الشرعى » صاحب العمامة والجبة والقفطان

وفي الجزء الثاني نراه على عهده الأول ، نراه يحترم العمائم ثم ننظر في الصفحات الأخيرة فنراه يعلن أنه « ظفر بشيء طالما عناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش » (١)

فما سر هذا الانتقال ؟

كان يعرف أن أمور الدولة إلى أصحاب الطرابيش ، ولعله سمع أن ناساً اقترحوا على الشيخ محمد عبده أن يلبس الملابس الأفرنجية ليمكن أن يصير من الوزراء ، كما صار الشيخ سعد زغلول بعد ذلك من الوزراء

وقد صبر الدكتور طه على عمامته بعد فراق الأزهر بأعوام قصار أو طوال ، فأدى امتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٤ وهو معمم ، وأقلته الباخرة من الاسكندرية إلى مارسيليا وهو معمم ، ولكن ركاب تلك الباخرة قد التفتوا مندهشين إلى شيء يقع في البحر وقد ألقاه صاحبه بعنف ، فما ذلك الشيء ؟ هو عمامة طه حسين !!!

وقد تحدث الدكتور طه مع أحد الصحفيين بأنه لم يندم على شيء كما ندم على رمي عمامته في عرض المحيط ؛ ولكن الواقع غير ذلك ، الوقع أن الدكتور طه وُلد وعلى رأسه « برنيطة » وقد حدثني مرة أنه يرجح أن أسلافه القدماء كانوا من اليونان ، فإن لم يصح ذلك فهو في نزعته اليونانية مَدين لرواية ألفها الشاعر أحمد شوقي واسمها « ورقة الآس » وفيها تمجيد لليونان (٢)

ولهذا وذاك صلة بانتقال الرجل من حال إلى أحوال ، فقد انحدر من أسرة أكثرها مشايخ ، ولكنه مع ذلك يحيا حياة مدنية منقطعة عن حياة المشايخ تمام الانقطاع . والنص على هذا الانقلاب واجب ، لأنه يفسّر ما خفي من أسرار الوحي في اتجاهاته الأدبية والاجتماعية

ولكن هذا الشيخ اليوناني بقيت فيه ملامح من ذلك الشيخ الأزهري ، فما شاع يوماً أنه يدعو إلى اللغة العامية ، كما يصنع بعض المتظرفين الثقلاء ، ولا جاز عنده أن تكون العقيدة الإسلامية مجالاً للتشكيك والإيذاء ، وإن وقعت في بعض مؤلفاته عبارات تنافر المألوف من التعابير الدينية

هذا رجل بعيد الصلة بين حاضره وماضيه ، لأنه سريع القفز والوثب ، ولأنه على وفاق مع ضميره الفني والأدبي ، فهو يسايره إلى حيث يريد . وكل شيء عنده جائز ، إلا العدوان على اللغة العربية ، أو التحرش بالعقيدة الإسلامية ، فهما عنده في مقام القدسية والجلال !

وفي كتاب الأيام سطور تفصح عن أسباب القلق في حياة الدكتور طه حسين ، فهو يجزع من العزلة ويفزع من الانفراد ، لأن الاتصال بالناس هو أداته في الاتصال بالحياة الخارجية ، ومن هنا نجده حريصاً أشد الحرص على أن يكون لاتصاله بالناس ضروبٌ من الضجيج والعجيج ، لينجو من متاعب العزلة والانفراد ، وهذا هو السر في انتقاله من رأي إلى رأي ، ومن حزب إلى حزب ، ومن ميدان إلى ميدان !

كان مع الدستوريين وهم يقاتلون الوفديين ، وكان مع الوفديين وهم يقاتلون الأحزاب أجمعين ، فإذا انجلت المعارك السياسية وانقطع إلى الحياة العلمية كان من الواجب أن يخلق أزمة جامعية ، فإذا نُقل من الجامعة إلى وزارة المعارف كان من الحتم أن يخلق مشكلة في وزارة المعارف

ومع أن للدكتور طه عذراً في التخلف عن شهود بعض المآتم وحضور بعض الحفلات ، فهو يشهد جميع المآتم ويحضر جميع الحفلات ، ليطرد عن نفسه عناء العزلة والانفراد

فالذي ينظر إلى الأمور نظرة سطحية يحكم بأن الدكتور طه رجل متغيّر متحوّل ، أما الذي ينظر نظر المدقق فيرى التغيّر والتحول من صور الثبات والاستقرار بالنسبة إليه ، لأنهما يؤديان وظيفة أساسية في حياته اليومية !

ومن الجائز أن يكون لهذه النزعة دخلٌ في هيامه بالفروض والحدُوس وهو يساور الأبحاث الأدبية والتاريخية ، فمؤلفاته في أغلب أحوالها قليلة التعمق ، لأن التعمق يوجب أن يقف عند البحث الواحد عاماً أو عامين ، والوقوف يضايقه بعض الشيء ، لأنه يصرفه عن التحول والانتقال بين المعاني والآراء !

زار الدكتور طه باريس وأنا هنالك ، فلما مضيت للتسليم عليه أدهشني أن أجده في غرفة تطل على ميدان « الأوبسرفتوار » وهو ميدان صخّاب ضجّاج ؛ فقدّرت أنه يريد أن « يسمع » باريس بعد أن فاته أن « يرى » باريس !

ويحدثنا الدكتور طه في « الأيام » أنه كان يأنس أنساً شديداً بمراسلة إخوانه وهو في الريف ، وتفسير ذلك سهل ، فهو يلقي بالرسائل من يشاء من الإخوان

(١) الأيام جـ ٢ ص ٢٠٠

(٢) حدثني الدكتور طه بذلك في أحد أيام سنة ١٩٢٢

ويحدثنا أنه حين رجع إلى بلده بعد قضاء بضعة أشهر في الأزهر أقام معركة حول فكرة التوسل بالأولياء ، فما سر ذلك ؟ لم يُرد في الواقع غير خلق دنيا يراها عقله ، وإن لم ترها عيناه !

وقد سجل عتبه على أخيه ، الأخ الذي كان يتركه وحده ويمضي للسمر مع الأصحاب والشجراء ، ولو أن ذلك الأخ تأمل قليلاً لعرف أن أخاه الضرير أحوج الناس إلى الأنس بالأسمار والأحاديث :

وتأليف كتاب « الأيام » هو في ذاته تسلية لهذا المؤلف ، فهو يخلق لخاطره أجواء جديدة تحتشد فيها مواكب من الصخب والضجيج ، وإلا فكيف اتفق أن لا يفكر في إحياء تلك « الأيام » إلا وهو في المصايف الفرنسية ، حيث يُشغل عنه أهله بطرائف تلك المصايف ، ولا يبقى له إلا اجترار ما اختزن من الذكريات ؟

وقد شهد الدكتور طه على نفسه في مواطن كثيرة من كتاب « الأيام » باضطراب العقل ؛ وأقول إن هذا الاضطراب هو مصدر قوته الذاتية ، لأنه من مظاهر الحيوية ، ولأنه الشاهد على أنه من كبار الأحياء

وهل كان من العبث أن تنتقل الطبيعة بين فصول مختلفات أشد الاختلاف منها الصيف والشتاء ؟

هذا رجل حيّ ، يعد ويُخلف ، كما تعد الطبيعة وتخلف ، ويستنيم عند الخوف كما تستنيم الطبيعة عند الخوف ، ولا يتنمّر إلا عند الاطمئنان إلى الأمان

وسر القوة عند هذا الرجل أنه كما وصفت ، فهو من دعاة الثورة إن اتسع المجال للثورة ، وهو من دعاة الهدوء يوم يحس بأن المجال لا يسمح بغير الهدوء ، ولذلك شواهد يعرفها جميع الناس .

هو طه حسين ، ولن يكون غير طه حسين . وكيف يكون رجلاً آخر ، وهو ليس برجل آخر ؟ تلك إذن قضية ، ولم تكن له قضية ، وكيف تكون له قضية ، وهو أعظم من أن تكون له قضية ؟!

أسرار كتاب الأيام

نحن مع الدكتور طه في المرحلة الثانية من حياته الشخصية ؛ وكلمة « الشخصية » لها مدلول ؛ فهو في الجزء الثاني من الأيام لا يزال صبياً وفي أحلام الصبيان ؛ والصبي لا يخرج من الحياة الشخصية إلى الحياة الاجتماعية إلا في نطاق محدود

والعجب كل العجب أن يستطيع الرجل الكهل وصف حياته وهو طفل بتلك الدقة العديمة المثال

تكلم طه حسين عن حياته الأولى في الأزهر بعد أن فارقها بنحو أربعين سنة ، فكيف اختزن تلك الذكريات في أمد كاد يزيد على أربعة عقود ؟

الشيخ طه هو الذي كتب «الأيام» لا الدكتور طه ، فهي صور فطرية لأحلام طفل كانت دنياه محصورة بين حي الأزهر وحي الجمالية ، ولا يكاد قارئ هذه المذكرات يصدق أن كاتبها تخرج في السوربون وإن كانت السوربون هي السبب في أن يجيد مثل هذا القصص الطريف

جمال هذه المذكرات يرجع في جملته وتفصيله إلى ما انطوت عليه من الصدق . والكاتب يقول إنه ضرير ، ولو سكت عن هذه الناحية لأفصحت عنها الشواهد ؛ فهو لا يحدد أي مكان إلا بالنص على أنه من عن يمين أو عن شمال ؛ وهو يصور المعقولات بصور المحسوسات ، لتكون مما يُلمس أو يذاق ، فهذه ضحكة غليظة ، وذاك ابتسام سخيف ؛ وهو لا يذكر من عذوبة الشاي إلا أنه كان يوضع فوق ماء له أزيز عند اشتداد الغليان ؛ وهو لا يقول إنه كان يتسمع أحاديث الجيران وإنما يقول إنه كان يمد أذنيه مداً ليسمع أو ليلمس تلك الأحاديث ؛ وهو لا يقول إن أخاه كان يتركه إلى أن يعود ، وإنما يقول إن أخاه كان يلقيه كما يلقى المتاع ؛ وهو لا يقول إن الليل يستر الأشياء والأحياء وإنما يقول إن الليل : « يمس بيده الثقيلة العريضة هذه الأشياء وهؤلاء الأحياء » ويؤيد هذه اللفتة قوله في وصف بعض الأشخاص :

« كان ضحكه غريباً مضحكا حقاً ، فقد كان يبدأه عالياً ثم يقطعه ، ويضحك صامتاً لحظة ثم يستأنفه عالياً ، ثم يقطعه ، ويمضي فيه صامتاً ، ثم يستأنفه ، وهكذا »[1]

وهذه صورة لا تتفق لغير من يعتمد على السمع في وصف بعض الأشياء

وهنالك صورة ثانية تؤيد هذه اللفتة ، وهي قوله بأنه « كان

(١) الأيام ج ٢ ص ٦٦

يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه ، صوتاً متصلاً يُشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ »[1] ، ولهذه الالتفاتة أمثال وأمثال ، كأن يسجل بنفسه أنه كان مفتوناً بعد درجات السلالم ، وكأن يقول إنه كان يطرب لأصوات الملاعق وهي تداعب الأكواب ، وكأن يقول فيمن يصف امرأة حسناء : إنه كان يفصلها بعينيه تفصيلاً ، ويحللها في نفسه تحليلاً ، ويجردها من ثيابها تجريداً ؛ وكأن يقول إن الروائح الكريهة كانت تنعقد فتؤلف من فوق رأسه سحاباً رقيقاً ولكنه متراكم قد غشى بعضه بعضاً[2] وكأن يقول إن مواطئ أقدامه كانت تعتدل حيناً وتموج مرة أخرى[3] فذلك كله يشهد بأن « اللمس » أداته الأولى في الإحساس

أحزان الطفل الضرير

وفي كتاب الأيام صفحات تقهر عَصِيّ الدمع ، وهي صفحات Caractéristiques بالنسبة لذلك الطفل ، فهو يعدّ على أخيه جميع الهفوات مع الصفح الجميل ، وهو يذكر بعد أربعين سنة أنه لم يكن يتناول طعامه بحرية ، وأن نصيبه من ماء « الطُّرشي » لم يكن له وجود ، وأن الحديث على مائدة الفول المدمَّس لم يكن يزيد على كلمة أو كلمتين ، مع أن الطفل الضرير يحتاج إلى الكلام أشد الاحتياج ، بدليل أنه يحادث نفسه بصوت صخّاب حين لا يجد من يحادثه من الرفاق

ولم يقف بلاء ذلك الطفل عند هذا الحد ، فقد نص على أن فريقاً من أشياخه بالأزهر كانوا يقولون له حين يوجه إليهم بعض الاعتراض :

« اسكت يا أعمى ، اسكت يا أعمى »

وكان يعرف أنه أعمى ، مع الأسف الوجيع ، ومع العجز عن دفع ذلك الإسفاف

واتفق في تلك الأيام أن يتصل ذلك الصبي بشيخ من أصحاب المواهب ، وهو الأستاذ سيد بن علي المرصفي ، وهو رجلٌ ما ذكرتُه إلا رأيت أنه حجة مصر في العبقرية العربية

والدكتور طه يقول إنه كان يَفهم دُروس الشيخ سيد المرصفي في شرح الكامل للمبرد ، وذلك عنده سبب تلك الجاذبية ، ولكني أرجح أن السبب يرجع إلى أن الشيخ المرصفي كان ينشد الشعر بأساليب موسيقية تخدِّر التنابلين ، فلم يكن من العجب أن يستريح إلى إنشاده طفل في حال طه حسين ، وهو يواجه الوجود بأدوات أهمها السماع

وأقول إن الشيخ المرصفي كان غريباً في الأزهر وكان تلاميذه غرباء ، وبهذا أصبح طه حسين من المنبوذين في أنظار « العلماء » وصار من حقهم أن يهينوه ظالمين بالتصريح أو التلميح

ثم تمضي الدنيا بالطفل الضرير إلى ما لا يريد ، فيشيع بعض حاسديه أن يرى ما لا يرى الأزهريون من كُـفر « الحجّاج » وهو أعظم رجل تولى أمور العراق في نظر « العقل » لا في نظر « التاريخ »

وبهان الطفل الضرير لهذه الصحة الفكرية ، فيمسي وهو زنديق في أنفس الأزهريين ، وهم أصحاب الرأي الرسمي في الكفر والإيمان ، ثم تكون لذلك عواقب يعاني متاعبها إلى اليوم

صور وصفية

في الجزء الثاني من الأيام ألوان من الصور الوصفية ، ولا تظهر قيمة هذا الكتاب إلا لمن يلتفت إلى تلك الألوان

وأجمل صور هذا الكتاب ما جاء في وصف الشيخ سيد المرصفي ، وهي صورة جدية فصلت شمائل ذلك الشيخ أجمل تفصيل . والحياة الأزهرية بمزاياها ونقائصها نالت حظها من التسدون في الحدود التي تصورها الطفل ، وقد عاش في بيئة مولعة بتعقب العيوب ، وهو لهذا لم ير من الأزهر ورجاله غير ما يؤذي النفس ، ويثير البغض ، وماراه يلتفت إلى محاسن الأزهر إلا في أندر الأحيان

وحياة « الرَّبع » ظفرت بألوان لطاف ظراف هي غرة الكتاب ، وربما جاز القول بأنها من أطايب الأدب الحديث

والمجون له في هذا الكتاب مكان ، ولكنه مجون ملفوف ، إلا حكاية « أبو طرطور » فهي من المجون المكشوف ، وهو مكروه على أرجح الأقوال !

وعنى الطفل بوصف أخيه عناية فائقة ، فصوره في هزله وجده وغضبه ورضاه ، بأسلوب يغلب عليه العتاب

وتحدث الطفل عن أبيه حديث اللوم في حين وحديث الحمد في أحيان . أما حديثه عن أمه فهو من أروع صور الوفاء . ويظهر أنه لم يحب أحداً بلا قيد ولا شرط كما أحب أمه الغالية ، ولم يثق بأحد كما وثق بقلبها الرفيق . ولا تقل إن الذوق هو الذي نهاه عن أن يتحدث عنها كما يتحدث عن أبيه وأخيه ، فذلك كاتب وصّاف قد يستبيح في الخروج على الذوق ما لا يباح ، وإنما الوجه

---

(١) الأيام جـ ٢ ص ٥٤

(٢) ص ٤ (٣) ص ٦

الشيخ عبد الوهاب النجار (*)

جهوده في جمعية الشبان المسلمين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

لما قبض الله إلى جواره الكريم المغفور له المجاهد الشيخ « عبد العزيز شاويش بك » الوكيل الأول لهذه الجمعية، تلفت أعضاؤها يبحثون عمن يملأ مكانه الخالي، فلم يجدوا غير فقيدنا العزيز الذي اجتمعنا اليوم لتأبينه. إذ كان الشيخان — أسبغ الله عليهما فيوض رحمته — نظيرين في الدعوة إلى الله والعلم بأسرار الإسلام والبذل في سبيله والوقوف على أسرار تشريعه ومناهج دعوته، مع اطلاع واسع في مقارنات الأديان، وقدرة على حل كثير من العقد الاجتماعية التي تشغل بال الشباب في ظروف الانتقال الخطير التي يجتازها الشرق الإسلامي

وإذا كان الأستاذ « شاويش » لم يمد الله في أجله طويلاً في خدمة هذه الجمعية، بعد أن اشترك بجاهه وخبرته في دور تأسيسها، وتمهيد العقبات الأولى أمامها؛ فقد مد الله وبارك في خدمة الأستاذ « النجار » لهذه المؤسسة حتى نمت وأثمرت جهودها الدينية والاجتماعية

فمنذ ثلاث عشرة سنة والفقيد دائب على القيام بواجباته فيها، يأنس به الشبان ويستفتونه في قضايا الإسلام والشبهات التي تتراءى على عقولهم في فترة الانتقال واحتكاك العقل الشرقي بالعقل الغربي، وهو يفتيهم ويدحض ما يحوك في صدورهم من الشبهات، ويدخل على قلوبهم الطمأنينة وبرد اليقين وقوة العقيدة

وقد ساعده على الاقتراب من قلوبهم والدخول إلى عقولهم اتصاله بنصيب وافر من العلوم العصرية التي كان يعلم منها ما جعله ابن زمانه وربيب عصره لا رجلاً متخلفاً عن ملاحقة سير الحياة بالأحياء وسرعة نمو هذه المدنية العجيبة التي تتفتح فيها أسرار الطبيعة للعقول تفتحاً متلاحقاً يحير الألباب ويثير الدهشة، ويكشف عن كلمات الله التي ليس لها نهاية ولا نفاد!

فكان عليه رحمة الله يعلم من مباحث علوم الطبيعة والكيمياء والكهرباء وفنون الصناعات والآليات ما كان يثير إعجاب من يسمعونه وهو شيخ معمم تقدمت به السن، وتوجه فكره من قديم إلى الأدبيات وعلوم اللغة والشريعة والجدليات وما إليها من الميراث الشرقي النظري

ولا عجب أن يكون فقيدنا كذلك؛ فقد كان يحمل بين جنبيه قلب شاب ويحمل في رأسه عقل حكيم. وشباب القلب وحب الحكمة نعمتان جزيلتان تجعلان صاحبهما متفتح الفكر

(*) خطبة في حفلة تأبين الفقيد بدار المركز العام لجمعيات « الشبان المسلمين » بالقاهرة.

أن الدكتور طه لم ير من أمه غير الشمائل الأصيلة في الرفق والعطف والحنان

حديث الدكتور طه عن أمه حديثٌ نفيسٌ جداً، وهو يصدر عنه بحرارة وجدانية قليلة الأمثال. ألا ترون كيف صورها بأساليب مختلفات تشهد بأنه كان بها من المفتونين؟

من المفهوم أن الرجل لا يستطيع أن يذكر أمه بغير الجميل، ولكن الدكتور طه يخلق الفرص خلقاً ليتذوق النعيم بتصور ما كانت أمه تذرف من الدموع وهي تمد الزاد الذي يرسل إلى أبنائها الغائبين

كان الطفل في غرفة مغلقة النوافذ في يوم صائف، فلما خرج تروّح للنسائم الرطاب، فتذكر ما كانت أمه تطبع على جبينه من القُبُلات

والأم التي أنجبت طه حسين خليقة بكل إعزاز وإجلال

أما بعد فهذا كتاب

وأي كتاب؟ هو صفحات مقبوسة من القلب والروح، كتبها أديب مرهف الأعصاب، بعد أن تجنى عليه الوجود بلا رحمة ولا إشفاق

قال أستاذنا السنيور نالينو، ونحن نذكر عاهة طه حسين:

A sa place, je serais perdu !

وأقول إني لم أنقد الدكتور طه يوماً وأنا أتصور أنه ضرير، فما قُدَّ قلبي من الصخر حتى أصوب سنان القلم إلى رجل مكفوف، وإنما أنقده وأنا جاهل بحالته الشخصية، كما تعبر الأوراق الرسمية

طه حسين ليس بضرير، وإنما هي دعوى حمله عليها حب التظرف، وسيبقى هذا الرجل شاهداً على أن البصر السليم هو بصر القلوب

زكي مبارك

متجدد العزم متلفت الذهن نحو ما تلده الليالى من أعاجيب الحياة، بريئاً من الاشتغال بالأضغان الغليظة والسخافات التافهة التى تشغل بال الجهال وتصرفهم عن ملء قلوبهم وأوعيتهم بأسرار الوجود

وإلى هــذه الصفات فى الفقيد كان يرجع أنس الشباب به وحبهم إياه وحبه إيام وفهمه عقليتهم ومنازع نفوسهم فى زمانهم

يضاف إلى تلك الصفات أنه كان مؤرخاً واعياً وقصاصاً مملوء الحافظة بحوادث التاريخ ونوادر الرجال ، فكانت مجالسه عامرة بأعذب القصص وأطرف الحكايات . وتلك ميزة محببة إلى نفوس الناس جميعاً وخصوصاً للشبان الناشئين الذين يسرهم كثيراً أن يستمعوا لأحاديث الغابرين وصور الماضى تلقيها وتعرضها عليهم شيخوخة جليلة يتكلم الزمان على لسانها ويتحدث من خلال بيانها

وقد نفع الله شباب هذه الجمعية بالفقيد كمؤرخ إسلامى أجل نفع ؛ إذ كان لما يسرده من تاريخ الإسلام ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم وأبطاله ومغازيه وذكريات فتوح سيوفه وأقلامه ، أثر بالغ خالد فى توجيه نفوسهم إلى إحياء تلك الذكريات الغاليات والأمجاد الخالدات

وقد سمعت من السيد رشيد رضا رحمه الله قوله : إن العقيدة الإسلامية لا يربيها ويثبتها فى القلوب إلا قراءة التاريخ الإسلامى ؛ وإن أثر قراءة هذا التاريخ فى تكوينها أعظم بكثير من قراءة كتب العقائد والجدليات

وهذا قول صادق تزيده الأيام تأييداً . فكلما زاد اطلاع المسلمين على تاريخهم ونشطت المطبعة فى إخراج دقائقه ازدادت عقيدتهم رسوخاً وإيمانهم بأنفسهم وثوقاً

وقد جمع الفقيد إلى صفات المؤرخ الإسلامى ضلاعته فى الاطلاع على الأديان الأخرى ، وحفظه كثيراً من نصوص التوراة بالعربية والعبرية التى كان يحذقها، والأناجيل وإلمامه بأقوال شراحها، واستخلاصه من كل أولئك ما يؤيد رسالة الإسلام ويجلو أوصاف رسوله كما وردت فى تلك الكتب ، مما ملأ أيدى الوعاظ والدعاة الإسلاميين بالحجج الدامغة عن دينهم فى مجال الجدل الدينى ، ومما جعل الشبان فى عصمة من أضاليل الإرساليات الدينية الأجنبية التى همها تشكيك المسلمين فى رسالتهم الخالدة

* * *

وحين رأت هذه الجمعية أنه لا يتم صلاح لهذه الأمة إلا بصلاح نصفها الذى طال إهماله — أعنى نساءها — لأنهن الأساس فى بنائها والمتصرفات فى قلوب نشئها ، وعزمت أن تنشئ لهن دروساً دينية عهدت إلى الفقيد بإلقائها وتنظيمها بالاشتراك مع المغفور له شيخ العروبة أحمد زكى باشا . فنهضا بذلك نهضة كان لها أثرها . إذ حملت كثيراً من فضليات السيدات والآنسات المسلمات على تأسيس جمعيات نسوية للدعوة الدينية بين النساء وتوجيهن إلى فهم أسرار دينهن ، مما يبشر بتحقيق الآمال فى حركة الإصلاح

* * *

لم يكن نشاط الراحل الكريم قاصرا على خدمة أغراض هذه الجمعية فى داخل حدود مصر ، بل تعداها إلى البلاد العربية والإسلامية الشقيقة ، فقام إليها بسفارات عدة وأسفار بعيدة ؛ إذ اشترك فى أول مؤتمر إسلامى عام حين عقد بالقدس خاصاً بقضية فلسطين سنة ١٩٣١ ، وتزعم الرحلة التى قام بها جوالة الشبان المسلمين فى صيف السنة ذاتها إلى فلسطين وسوريا ولبنان . وكان وجوده على رأسها من أعظم أسباب الترحيب بها والالتفات إليها من السلطات والأندية الدينية والاجتماعية التى كان له فيها ذكر مرفوع . ثم قام برحلة مع جوالة الشبان المسلمين كذلك إلى تركيا فى صيف سنة ١٩٣٤

ولكن أعظم رحلة قام بها فى خدمة أهداف الجمعية هى رحلته إلى الهند سنة ١٩٣٦ فى البعثة الأزهرية التى بعثها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى لدراسة شئون طائفة المنبوذين فى الهند تمهيداً لدعوتهم إلى الإسلام ولدراسة شئون إخواننا المسلمين هناك عن قرب ، وإنشاء روابط تعارف بين رجالنا ورجالهم

هذه الرحلة الشاقة التى ركب الفقيد فيها البر والبحر والجو ، وتنقل فيها ببلاد الهند الواسعة يخطب ويكتب ويتحدث ، وهو الشيخ المعمر الذى يحتاج إلى الراحة والسكون ... هى أعظم شهادة له تدخله فى عداد المجاهدين الصادقين والعلماء العاملين الذين وهبوا الله جهودهم وأعمالهم بعد ما وهبوه ألسنتهم وأقلامهم إلى آخر رمق من حياتهم . والذين يعلمون أن العمل للاسلام فى هذا العصر لا يكون بتحصيل العلوم وتأليف الكتب وحدها بل لا بد معه من النزول إلى ميدان الجهاد العملى والاشتراك فى المعترك الأبدى بين الخير والشر والإصلاح والإفساد ...

حول مسرحيات محمود تيمور

من اتجاهات علم النفس
في المسرحية

للأستاذ زكي طليمات
مفتش شئون التمثيل بالمعارف

[أصدر الأستاذ الكبير محمود بك تيمور مؤلفاً يتضمن ثلاث مسرحيات جديدة فيها الكثير من طرافة التحليل النفسي ، فآثرت أن أقدم لقرائي إياها بهذا البحث الذي يكاد يكون قائماً بذاته ولذاته]

كثيراً ما يقع للقارئ المنقب في أروع القصص والمسرحيات الغربية ، مترجمة كانت أو بلغتها الأصلية ، — وقليلاً ما يقع له ذلك في مطالعة آثار أدباء الطليعة في مصر خاصة وفي الأقطار العربية عامة — أن يلاحظ شيئاً يستوقفه برهة ينسرح خياله فيها ، ويأخذ ذهنه بأسباب التأمل والمراجعة ، ذلك أنه يرى شخصية من شخصيات هذه المسرحية أو القصة يستوى فجأة على حالة تنبو عن التقويم النفسي العام الذي أجراه عليها المؤلف منذ بدء الرواية ، فإذا بهذه الشخصية تغمض وتبهم ، وإذا بها تصبح نهبة لتعقيد نفسي غريب ، فيصدر منها بادرات تتناقض مع المعقول صدوره منها قولاً أو فعلاً ، وتتراءى هذه الشخصية في النهاية وكأنما تلبسها ذاتان مختلفتان !! وهي مع كل هذا تبدو إنسانية أصيلة تحس بصدق خلجاتها ، ونلمح في وجهها أشباهاً فيمن نعرف من الناس أو فيمن يصل إلينا خبرهم بطريق السماع المقطوع بصحته .

إن الفكرة الشائعة على أن النفس الواحدة قد تبدو أحياناً في تصرفاتها وكأنما تلبسها شخصيتان متناقضتان ، نجد أعراقاً لها ممتدة بعيدة إلى صميم الأدب الاتباعي [1] ، ثم تلوح بادية الأشاجع في الأدب الرومانسي [2] ، هذا على الرغم من أن القاعدة الأساسية في علم النفس لدى الاتباعيين — والرومانسيون تبع لهم في هذا — هو أن كل ما يخطر بالنفس ويجري فيها واضح أمره لها ، لأنها تحسه وتدري بمسراه فيها ، فهي تتحكم فيه إذا شاءت بطريق الإرادة ، وهي تنظمه بمعاونة المنطق ، وتكون النتيجة الحتمية لهذه القاعدة : أنه بما أن النفس في هذا الصدد لا يخفى عليها

(١) ويعرف بالكلاسيكي وهو لون من الأدب جاء بعد القرون الوسطى
(٢) ويعرف بالرومانتيكي ، وهو لون من الأدب جاء بعد الأدب الكلاسيكي في فرنسا خاصة

وإن إدراك الحق ورسمه على الصحف أمر سهل جداً على النفوس ، ولكن العمل على تحقيقه وتجسيمه بين الناس متمثلاً في أشخاص وأعمال مهمة شاقة ، لا يتحملها إلا أولو العزم من محبي الإصلاح

***

هناك جانب خفي للفقيد في مؤازرة هذه الجمعية شاء هو أن يخفيه عمداً ، هو جانب بذله المال حسب طاقته في بعض حاجات هذه الجمعية وحاجات غيرها من وجوه البر . فقد كان لا يبخل بمال ، ولا يحسب حساب ذريته الخاصة في سبيل تحقيق مصلحة عامة ؛ وقد طال عمره وهو كبير الراتب ، ولكنه لم يتهالك على جمع شيء من الحطام الفاني ، ولم يخرج من الدنيا إلا عن ميراث الحكماء والأصفياء ...

إذا ورث الجهال أبناءهم غنى ... وما لا فما أشقى بني الحكماء !

***

ألا سلام على تلك الشيخوخة الجليلة السمحة المتفائلة التي كانت تضحي بما يصحب تقدم السن من الترفع والاعتزال ، وتمتزج بروح الشباب لتعطيهم خبرتها وتجاربها ...

وسلام على تلك الروح الرحبة اللطيفة الوديعة التي كانت كأنها لا تعرف الغضب والمساءات . . . وعلى ذلك القلب البرئ كقلوب الأطفال الأبرار ، وعلى تلك الأسارير المنبسطة التي يترقرق فيها الطهر وخلوص الطوية ، وعلى ذلك المنطق المنهوف عن الادعاء والغيبة وتجريح الناس ومقابلة السوء بالسوء ...

وسلام على تلك الجبهة العالية التي كرمت صفحتها عن سمات الذلة والخضوع لغير الحق . . . وعلى تلك الذاكرة الواعية التي ما كان يفر منها رقم أو مسألة من مسائل العلم والدين التي اطلعت عليها ، وما كان أكثرها !

ألا إن فقيدنا لم يكن شخصاً ، وإنما كان حديقة مزهرة مثمرة بأطايب المعاني العالية ، ورقائق الصفات الكريمة ، ووثائق الأخبار والأسمار والمعلومات ...

فرحمة الله له ، والخلود لذكراه ، والصبر الجميل لذويه وتلاميذه ومحبيه

عبد المنعم فهوف

شيء مما يختلج فيها ، إذن فكل ما يجرى فيها واضح المعالم والحدود تفصح عنه الأقوال والأفعال وتفسره [١]

على هذه السنة ، سنة الوضوح والإيضاح ، يقوم التحليل النفسي لدى الاتباعيين [٢] والرومانسيين ومن ينحو نحوهم في كتابة القصص والمسرحية التي هي معارض لنماذج بشرية تتنفس وتتحرك وتعمل فيها

بيد أن المؤلفين الاتباعيين والرومانسيين ، على أخذهم بقاعدة الوضوح هذه في علم النفس ، لم يكونوا بمنجاة من التعثر ببعض تلك الحالات النفسية المعقدة التي تبدو النفس خلالها ، وكأنها عالم يشوبه الغموض وتتجاوب أصداؤه بالمتناقضات والفوضى [٣]

فإذا كان موقف هؤلاء المؤلفين من هذه الحالات ؟ كانوا يحاولون التفسير جهدهم ليستخرجوا من الإبهام وضوحاً ومن الاضطراب نظاماً ، متجشمين في سبيل ذلك بياناً خطابياً حاذقاً ولهجة منطقية حارة يجرونها على ألسنة شخصيات رواياتهم ابتغاء الإفصاح ، ولييسروا على القارىء أمر الانتقال من النتائج إلى الأسباب وبالعكس من غير ما يضطرب المنطق اضطرابة عنيفة ، وليقيموا صلة ما بين ما هو معقول ومألوف صدوره عن هذه الشخصيات ، وبين ما هو غير معقول ونابٍ من بادرات طارئة وصور ذهنية معقدة في تواردها

وهذه الحالات النفسية المعقدة لدى الرومانسيين [٤] ، تمتاز عن مثيلاتها لدى الاتباعيين بأنها تكون عادة مبطنة بفورات نفسية طارئة . ومرجع هذا كما هو معلوم ، أن الأدب الرومانسي أساسه القلب ، فهو يترك الحبل على الغارب للتيارات العاطفية دون أن يُمد بينها وبين العقل الراجح شكيمة ولجاماً ، وهذا بخلاف ما هو عليه الأدب الاتباعي

(١) أصول هذه النظرية في علم النفس منحدرة من صميم فلسفة (ديكارت) ١٥٩٦ — ١٦٥٠ وهو أحد واضعي الفلسفة الحديثة

(٢) خير من جرى على هذه النظرية لدى الاتباعيين هو المؤلف المسرحي (بيير كورني) ١٦٠٦ — ١٦٨٤ ، ومن رواياته السيد . هوراس — سنا — بوليوكت

(٣) أروع ما تطالعنا هذه الحالات لدى المؤلف الاتباعي (جان راسين) ١٦٣٩ — ١٦٩٩ وذلك في مسرحيته (أندروماك) و (فيدر) . ولا سيما في المسرحية الأخيرة وذلك في المشهد الذي تعترف فيه (فيدر) لحبيبها (هيبوليت) بحبها الآثم . ونجد مثل هذه الحالات أيضاً في بعض ما كتبه (جان جاك روسو) و (ديدرو) في القرن الثامن عشر

(٤) أمثال (فكتور هوجو) ، و (دوفيني) و (ديماس الكبير)

لدى الواقعيين والطبعيين

وفي أواخر القرن الثامن عشر ، نزل بهذه القاعدة في علم النفس الكثير من الهزال والتمقيد ، فأخذت تتحور على أساس نزعة فكرية جديدة ، سداها ولحمتها أن الكائن الإنساني ليس فقط ما يريد أن يكونه ، أو ما تقضي إرادته أن يستقيم عليه ، لأن العناصر المادية تجرى تأثيرها على جسده بلا انقطاع . فهذا الكائن الإنساني خاضع لمؤثرات المناخ والبيئة لا بجسمه فحسب ، بل وبروحه أيضاً ، وما يتأثر به الجسد تتأثر به النفس . وما دام الأمر كذلك — في زعمهم — فواجب أن ننظر إلى النفس وخلجاتها من وجهة نظر علمية خالصة ، وذلك بأن نخضع خلجات النفس وبادراتها ولماتها إلى التحليل العلمي الصرف [١]

هذه النزعة لم تكن غير صدى لسيطرة النزعة العلمية والتحليلية في القرن التاسع عشر في فرنسا وانجلترا ، فوجدت نظريات الوراثة والبيئة مجالاتها الواسعة فيما تخرجه أقلام الكتاب القصاصين والمسرحيين ، وهكذا تمت غلبة المحسوس على غير المحسوس في كل شيء ، وأصبح علم النفس خاضعاً لآلية (المعمل) يحلل ويجزِّيء ، وما يحلل ويجزىء غير مظاهر المادة . وسيطرت الواقعية [٢] Realisme على ألوان الأدب والفنون ، وتبعتها فيها (الطبعية) Naturalisme وهي لون متطرف من الواقعية

ماذا كان يعمد إليه الكتاب الواقعيون والطبعيون وهم يعالجون في رواياتهم تحليل شخصيات ملقحة بالغموض تنتابها تعقيدات نفسية ؟

وقد يحسب القارىء أن هذه الحالات النفسية المعقدة قد انتهى زمانها بعد أن أخذ العلم يحلل كل شيء ويعلل . لا شيء من هذا لم يحدث ، لأن هذه الحالات عريقة في النفس البشرية التي لم تتغير ولن تتغير ، وما كانت هذه النزعة العلمية التحليلية

(١) هذه النزعة العلمية ترجع في أصولها إلى الفلسفة الايجابية ، أو الواقعية ، أو اليقينية Positivisme التي أقامها الفيلسوف الفرنسي (أوجست كنت ١٧٩٨ — ١٨٥٣) . وأساسها أن الفلسفة شيء لا يختلف عن العلم الذي يقوم على الملاحظة والتجارب والفروض وتعليل الظواهر باطراد قانون العلة والمعلول . وقد امتدت أطراف هذه الفلسفة إلى انجلترا فكانت آراء الفلاسفة : استيوارت ميل وهاريسون وسبنسر

(٢) الواقعية اتجاه من اتجاهات الأدب ، استكمل عناصر كيانه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وأصحابه يقولون بوجود العالم الخارجي وجوداً في ذاته ، وأن الحواس هي وسائل إدراكه ، ومظهرها في الأدب النقل المجرد من الطبيعة في المحسوس والمرئي الظاهر

لتحجز الكتاب عن تقديم هذه المخلوقات المعقدة التي تبدو كأنها ظاهرات عجيبة ، نظراً إلى أنها تعيش بيننا ونحس بها ، ولأن القصة والمسرحية من مجالات تسجيل النفس على اختلاف ضروبها وتعقد حالاتها . للمناخ والبيئة تأثير لا ينكر أحياناً على بعث كوامن النفس واصطخابها ، فهما عاملان يساعدان أحياناً على إحياء التناقض في الطبع الإنساني الواحد ، ويمهدان لتشقيقه وفتح فجوات في كيانه . ولا شك في أن المؤثرات التي تنزل بالجسم وتنال منه ، من شأنها أن تشق للنفس مسارب تنفلت منها في وثبات لا يمكن للمنطق الخالص أن يعللها ويفسرها .

نعهد سؤالنا فنقول : ماذا كان يعمل هؤلاء الكتاب ، كتاب الواقعية (والمعمل) إذا عرضت لهم تلك التعقيدات النفسية ؟

لم يكن يعمدون إلى الصمت ولا شك . لقد كان أسلافهم الاتباعيون والرومانسيون — وهم أقل ادعاء للعلم منهم ، ولم يبلغ العلم في زمنهم ما بلغه في الواقعية — يعللون هذه الظاهرات العجيبة تعليلاً منطقياً ويفسرونها تفسيراً عقلياً متواضعاً ، فكيف يلزم الصمت الكتاب الواقعيون والطبيعيون ، ربائب العلم والنظريات المادية ، وقد تطاول العلم في زمنهم على كل شيء يحاول تعليله وتحليله وتفسيره ! ! كان الواقعيون يتحدثون كثيراً ويفسرون طويلاً ، لا على أساس المنطق والعقل ، ولكن على أساس النظريات العلمية ، يتعلقون بأذيال العلم ويحملونه ما لا يقدر عليه ، ليقرروا بعد ذلك — وهم يلهثون — أن هذه التعقيدات والظاهرات الإنسانية العجيبة ، إنما هي حركات انعكاسية للنفس تجمت عن تغيرات واضطرابات عضوية في الجسم خاضعة لقوانين المادة[1]

افهوس المعمل

ولم يمض زمن طويل حتى خففت المادية من غلوائها بعد أن عجزت النظريات العلمية عن تفسير كل شيء ، وأفلس (المعمل) بعد أن أنهكه تحليل المركبات ، وصارت تلك التفسيرات التي يصدرها الكتاب الواقعيون والطبيعيون لا يؤبه لها ، بل غدت عقيمة عقم العقل نفسه في النفاذ إلى جوهر الأشياء واستنباط حقائقها . فاشرأبت النفوس إلى مطالعة وسائل جديدة غير الوسائل السالفة تقدم إليها ما ينقع غلتها في استطلاع المجهول الغامض في حناياها

الرمزية[1]

وكانت يقظة للنزعة الرمزية من جديد ، ولكن على غير غرار الرمزية الدينية (الصوفية) فقامت لها حركة بدأت في شمال أوربا وانحدرت إلى الجنوب ، وهذه الحركة في مجيمها ليست إلا مظهراً من مظاهر المزاج الأدبي العام للتحرر من (واقعية) الأدب ، ووثبة من وثبات الذهن إلى ارتياد آفاق جديدة للكشف عن الغامض في النفس وحل أحاجي تلك التعقيدات النفسية التي سبق أن تحدثنا عنها

شوبنهور وهارتمان

وجاءت تعاليم الفيلسوفين شوبنهور[2] وهارتمان[3] من ألمانيا فأضافت جديداً على هذه الحركة التحررية ، فقد حاول هذان الفيلسوفان أن يقررا أن العالم لا يسيره الذكاء ، بل هو خاضع في سيره إلى نوع من الإرادة تعمل وتعمل من غير أن تفسر عملها ومن غير أن تأبه لقواعد العقل والمنطق . وهذه فكرة من فلسفة ما وراء الطبيعة Métaphysique[4] ولا شك . ولكنها تحمل في طياتها عناصر جديدة شام فيها الأطباء وعلماء النفس آفاقاً جديدة فعقدوا عليها فصولاً وبحوثاً أسفرت عن جديد يصح أن يتخذ مفتاحاً للمغلق الغامض في النفس

خطوات جديدة

العالم تسيره قوة تعمل من غير أن تفسر عملها ومن غير أن تعبأ بقيود العقل والمنطق ، والنفس جزء من هذا العالم ... ! !
من هنا يبدأ الخيط الذي رسم الاتجاه الجديد لعلم النفس فن اكتشافات العلامة الفرنسي (شاركو) بين ١٨٧٠

---

(١) في رواية الكاتب الفرنسي أميل زولا نطالع أروع ما ورد من التحليل النفسي القائم على النظريات العلمية المجردة ، فقد اتخذ قوانين الوراثة أساساً لها لا يحيد عنه

(١) تحدثنا بإسهاب عن هذه الرمزية رمزية أواخر القرن التاسع عشر ، ثم عن الرمزية الحديثة في بحوث سابقة نشرتها هذه المجلة في أعدادها ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ، ٢٥٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥

(٢) شوبنهور . فيلسوف ألماني ١٧٨٨ — ١٨٦٠ — ومن مؤلفاته [العالم كإرادة وفكرة]

(٣) هارتمان فيلسوف ألماني ١٨٤٢ — ١٩٠٦ ومن مؤلفاته فلسفة العقل الباطن]

(٤) القصد من دراسة « ما وراء الطبيعة » أو الميتافيزيقية هو محاولة الكشف عن طبيعة الحقيقة اللانهائية

و ١٨٩٠ فى التنويم المنطيسى وإثباته أن فى الاستطاعة أن يسكب المنوم فى نفس الوسيط آراء وواردات لم يكن لها أصل فى ذهنه الواعى ويوجهه توجيهات لم يكن له قبل بها من قبل ...

إلى ما كتبه العلامة (ريبو) عن أمراض الذاكرة ، وذلك فى ما بين ١٨٨٢ و ١٨٨٥ وتدليله على أنه تسكننا حافظات لا نحسها — إذ ليس لنا بها علم من قبل — ولكنها تعيش فينا منحوية منطوية على نفسها ، وسرعان ما تنسرح وتنشر مطاويها فينا على أثر مرض طارئ ؛ وكيف أن كائناً إنسانياً عادياً متماسكاً ليس فى مظاهره شذوذ ما قد ينقلب فجأة شخصاً آخر ، شخصاً عادياً بدوره ، ولكنه لا يذكر شيئاً عن الشخص الأول ؛ وكيف أن هذا الكائن الإنسانى قد يجد من جديد شخصه الأول الذى كان يعيش ولا شك فى زاوية من عقله اللاواعى أو الباطن ، وذلك بمجرد اختفاء الشخص الثانى . . .

إلى ما انتهى إليه (بيير جانيه) فى دراسته للإبهام وللاضطرابات العصبية وأمراضها ، من أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأنه يمكن أن تعيش فى نفس كائن إنسانى واحد شخصيات عديدة وتيارات متباينة قد تتدخل فى بعضها أحياناً وتختلط مدومة مدوية !

العقل الظاهر والعقل الباطن

وقام العلامة (سيجموند فرويد) (١٨٥٦ — ١٩٣٩) النمساوى وأنشأ فصولاً جديدة فى التحليل النفسى تعرف باسم Psychanalyse أرجع فيها كل خليقة من الخلائق ، وكل عارضة من عوارض النفس إلى الغريزة الجنسية ، وقرر أنه يسكن النفس البشرية ذاتان ، الأولى طبيعية بدائية عارية من كل صقل جبلت وفاقاً للطبع المركب فينا ، والأخرى مختلفة اختلافاً بفعل التثقيف والتهذيب ، ومنسقة تنسيقاً صناعياً بيد الاجتماع والتواضع عليه. ثم استطرد البحث ليقول إن عقلنا — وهو واعيتنا الظاهرة — لا يجيب غير ما يصدر من الذات الأخرى التى هى من صنع التثقيف والتهذيب ، ولكن قد يقع كثيراً أن تتغلب الذات البدائية العارية من كل صقل وتنسيق فتجمح للنفس وتبدر منها بادرات طارئة فى القول أو الفعل تبدو غريبة معقدة ، وتلمع فى النفس لوامع خاطفة لا تعلل ولا تفصل !

برجسون (١٨٥٩؟ — ١٩٤٠)

وانبرى الفيلسوف الفرنسى برجسون يشن حرباً شعواء على النزعة الآلية والمادية وليدة العلم و (العمل) ، ويخطىء من يحسب الإنسان آلة صماء فى يد القوانين المادية ، وهاجم الذكاء والمنطق لينادى بوجود عنصر جديد فى النفس أسماه البصيرة L'intuition نعيش به أكثر مما نعيش بذكائنا ومنطقنا ، أى بالعقل . ثم حدد العقل الظاهر أو الواعى بما مفاده أن هـذا العقل الظاهر ليس إلا جزءاً من كياننا النفسى العام ، ودوره عملى خالص لا يتجاوز إلقاء ضوء مزدوج على أطراف الأشياء والتى يجب أن نعملها ، وعلى نواحى الفكر التى تتولاها ، وأنه ليس لهذا العقل الظاهر أن يفسر الأشياء وأن يفصح عنها . ثم قرر برجسون بعد ذلك : أننا نتجاوز أحياناً فى أعمالنا الحدود والمعالم التى يقيمها العقل الظاهر ، وأننا خاضعون فى تصرفاتنا إلى العقل الباطن ، باعتبار أنه النبع الخفى البعيد الغور المترامى الأطراف الذى ينساب منه فى خيط دقيق ماء رقراق ، هو عقلنا الظاهر !

كل هذا مع ما جاء على غراره جعل الحياة الباطنة تتغلب على الحياة الظاهرة ؛ فأخذ علم النفس يتجه اتجاهاً جديداً ، يتلخص فى أن العقل الواعى إنما هو شىء ظاهر سطحى لشىء باطن عميق قابع فى أغوار النفس ؛ وأنه إذا أردنا أن نبحث عن تفسيرات تلك التعقيدات النفسية من بادرات طارئة وواردات غريبة فلنطرق باب العقل الباطن حيث لا سلطان للعقل والذكاء ، ولا صوت للمنطق والإرادة ، وحيث الغرائز تتشابك وتفور

زكى طليمات

على هامش بحوث المجلس الأعلى

رسالة التعليم الالزامى

للأستاذ محمد كامل حته

لعل من أهم عوامل التعثر والاضطراب فى التعليم الالزامى ما يكتنف فكرته وأهدافه من البلبلة والغموض . ونحن نتقدم بهذه الكلمة فى بيان رسالة هذا التعليم إلى المجلس الأعلى بمناسبة تناوله إياه بالبحث فى اجتماع اليوم . (حته)

لم يكن عبثاً — وقد خرجت الأمة المصرية فى أعقاب الحركة الوطنية ظافرة بالحرية والدستور — أن ينص هذا الدستور على أن يكون التعليم الأولى إلزامياً بالمجان لجميع الناشئة من بنات وبنين ؛ لأن هذا النص على إلزامية التعليم ، وعلى نشره بين جميع طبقات الشعب بالمجان ، هو أول اعتراف بحق هذا الشعب فى أن يحيا حياة جديدة فيها كل ما يبثه التعليم فى النفوس من معانى الحرية والكرامة والرق ، وفيها الضمان الوحيد على أهلية هذا الشعب لما أحرزه من النتائج الوطنية ، وتثبيت دعائم النهضة القومية ، ومواصلة الجهود لتحقيق كل أسباب العزة وشوارد الآمال ...

لهذا كان مشروع التعليم الإلزامى فى مصر أهم مشروع تمخضت عنه النهضة الوطنية الحديثة ، لأنه مشروع تتصل أسبابه بجميع أفراد الشعب ، ولأنه الدعامة الأولى لكل إصلاح ينتقل بالأمة من حياة الجهل والخمول إلى حياة مستنيرة عاملة ، تستقيم بها الأوضاع الاجتماعية وتتعاون فيها الجهود على النهوض بجميع مرافق الأصلاح

* * *

لقد أطبقت ظلمات القرون ومظالم الأحداث على آفاق البلاد حقباً متطاولة ، فإذا هذا الوطن الذى أنبت أول حضارة على ظهر الأرض ، والذى كان قبلة العالم فى علومه وفنونه وآدابه ، والذى يفيض نيله عسجداً مذاباً ، وتخرج تربته من كل الثمرات ، والذى تخلق طبيعته الساحرة بطولة الأجسام والعزائم والعقول — إذا بهذا الوطن الذى توفرت فيه كل أسباب العظمة والخلود ، تتدهور الغالبية العظمى من أهله فى مهاوى الجهل والفقر والمرض والانحلال ، تدهوراً يبعث على الحسرة البالغة والأسف العميق !

وليس من شك فى أن العامل الأول الذى أدى إلى هذه النتائج المؤلمة ، والذى ترتبت عليه العوامل الهدامة الأخرى ، إنما هو الجهل الذى منى به السواد الأعظم من الشعب ، فعرضه لغيره من الآفات الاجتماعية التى تنخر فى كيانه وتحول بينه وبين كل تطور محمود

فالتعليم الإلزامى - إذاً - هو العلاج الحاسم الذى يجتث هذه الآفات من أصولها ، ويمد جسم الأمة بالقوة التى تقاوم بها آثار هذه الآفات ، والمناعة التى تقيها شرور العدوى والانتكاس

بل هو الشعاع الأول المنبثق من فجر النهضة إلى أعماق الريف السحيق ، يخترق فى سبيله الظلمات الداجية والضباب المركوم ، حتى يصل إلى تلك المجاهل النائية ، فتتفتح له الأجفان المطبقة ، وتستجيب له القلوب الصماء ، وما يزال هذا الشعاع يقوى وينتشر وما تزال العيون تتفتح والقلوب تستجيب ، حتى تتبدد تلك الظلمات وتستبين القافلة معالم الطريق ...

ومن هنا نستطيع أن نفهم رسالة التعليم الإلزامى فى مصر ، على صورتها الصحيحة ومعناها البعيد . فليست هذه الرسالة قاصرة على محو الأمية فحسب — كما يريد البعض أن تكون — لأن مكافحة الأمية ميدان محدود بالنسبة إلى الميادين الرئيسية الأخرى ، ولأن قصر هذه الرسالة على هذا الميدان عمل آلى تافه الأثر ضعيف النتائج ، لا يبث فى نفوس الناشئة فكرة سامية ، ولا يمدها بتوجيه سديد

بل إن فى هذا الحد من رسالة التعليم الإلزامى على هذا الوجه أضراراً عقلية واجتماعية هى شر من الأمية والجهل ؛ لأنك إذا وضعت فى يد الناشئ مفتاح القراءة والكتابة ، ولم تصب فى عقله المقاييس الصحيحة للحياة ، ولم تملأ أحاسيسه بالعواطف اللازمة لسعادة المجتمع — كان هذا المفتاح الذى فى يده يدور بوحى عقله القاصر المضطرب ، وإلهام غرائزه المستعرة العارمة ، فلا يفتح على نفسه وعلى المجتمع الذى يعيش فيه إلا أبواب الشرور ...

وإنما تمتد رسالة التعليم الإلزامى إلى آفاق أبعد من ذلك غاية

١٥ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الفصل الخامس

الحياة المنزلية

الآن – وحسبنا ما نظرنا في حالة مسلمي مصر الأخلاقية والاجتماعية – نستطيع أن نلقي نظرة على حياتهم المنزلية وعاداتهم المألوفة . ولنبدأ بالطبقتين العليا والوسطى

يطلق على رب العائلة أو من يبلغ سن الرجولة إذا لم يكن خادماً أو خاملاً لقب « شيخ » احتراماً وتشريفاً . والمعنى اللغوي لكلمة شيخ هو عجوز ؛ ولكن كثيراً ما تستعمل مرادفة لفظة « سيد » ، وإن أطلقت بصفة أخص على رجال الدين وأولياء الله . ويقال للشريف (من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم) « السيد » أياً كان منصبه . وكثير من الأشراف يشتغلون خدماً وزبالين وسائلين ومع ذلك يلقبون بالسيد ، ويميزون بالعمامة الخضراء[1] ؛ إلا أن غالبهم ، يفضلون على هذه الامتيازات لقب الشيخ والعمامة البيضاء . ويسمى من قام بفريضة الحج « الحاج »[2] . على أن هناك جملة حجاج ، مثل الأشراف ، يفضلون لقب الشيخ . ويطلق على المقاتل بوجه عام لقب « المعلم »

وقبل أن أصف عادات رب العائلة يجب أن أشير إلى الطبقات المختلفة التي قد تتكون منها العائلة : (الحريم) ، أي نساء المنزل ، ولهن غرف خاصة بهن يطلق عليها ، كما يطلق على النساء ، الحريم ولا يسمح للرجال بدخولها ما عدا رب العائلة وبعض الأقارب الأدنين والأطفال . ويتألف الحريم من زوجة أو أكثر ، ثم من الجواري . والبيض من الجواري

(١) كثيراً ما يتزوج رجال هذه الطبقة ونساؤها من غير الأشراف . ولما كان لقب الشريف يورث من أي الأبوين فقد كثر عدد من يتمتع بهذا التمييز كثرة عظيمة

(٢) هذه الكلمة تنطق هكذا في القاهرة وأغلب أنحاء مصر . ولكن أكثر البلاد العربية تنطقها « حاج » (بتعطيش الجيم) ويستعمل الأتراك والفرس بدلا منها كلمة « حاجى »

وأسمى غرضاً ، فهي ترى إلى تكوين الجيل على أساس قوي من الوطنية المستنيرة ، والإدراك السليم لحقائق المجتمع ، والحرص على حقوقه الاجتماعية ، والنهوض بأعبائه الثقال في مكافحة ما يندس في كيانه من الآفات ، ومسايرة القافلة الإنسانية في تنقلها السريع

وإلا فما قيمة تلك النتائج التي أحرزها الشعب في جهاده الطويل ، إذا لم يكن هذا الشعب قد تهيأ للانتفاع بها على الصورة التي تبدو فيها آثار التطور واضحة ملموسة ؟

وما قيمة تلك المبادئ التي كفل بها الدستور الحقوق والحريات ، إذا كان الشعب عاجزاً عن تمثل هذه المبادئ وتطبيقها في حياته الفردية والاجتماعية ؟

إننا بهذا الاتجاه السديد في فهم رسالة التعليم الإلزامي ، نستطيع أن نتبين السر فيما نشكوه من العيوب في نواحي السياسة العامة . ونستطيع أن نعلل الفشل الذي يلازم أكثر مشروعات الإصلاح في هذه البلاد ، لأن هذه المشروعات لم يسبقها إعداد التربة الصالحة لنموها وازدهارها ، وإيجاد الأيدي الشعبية القوية التي تقوم على تحقيق هذه المشروعات

تلك هي رسالة التعليم الإلزامي في مصر ، مستمدة من روح الدستور الذي وضع للمواطن المصري أرقى مبادئ السياسة والتشريع ، ومستلهمة من حاضر هذا الوطن المفتقر إلى كل إصلاح ، المشرئب إلى مستقبل وثيق الصلة بماضيه المجيد

(القاهرة) محمد كامل عشد

والحبشيات أو نساء الجلا[1] يقتنين على العموم للتسرى ، وأما السود منهن فيتخذن للخدمة ، وأخيراً الخادمات الحرائر . أما التابعون الذكور فهم عبيد سود أو بيض ، ثم خدم أحرار وهم الأكثرية . وقلما يبيح المصريون لأنفسهم ما أباح الدين من تعدد الزوجات . ولا يزال عدد من يباشر أكثر من امرأة بالزواج أو التسرى قليلاً . حتى أن أغلب الذين يكتفون بزوجة واحدة لا يتسرون ليتمتعوا بالهدوء المنزلى ، إذا لم يكن لسبب آخر . ولكن بعضهم يفضل اقتناء جارية حبشية للتسرى على القيام بالنفقات الزوجية المرهقة ، ويجعل لخدمتها جارية سوداء أو خادمة مصرية

ويندر أن يحتفظ الرجل بزوجتين أو أكثر فى المنزل نفسه ، وإلا خصص لكل منهن غرفة متميزة . ويقوم على خدمة رب الدار وضيوفه خادم أو أكثر ، ومنهم خادم يسمى (سقا) ، ولكنه على الأخص يقوم على خدمة السيدات وهن خارج المنزل فقط[2] ، ثم البواب وهو يجلس دائماً على باب المنزل ، والسائس للاعتناء بالاصطبل . وقلما يقتنى المصريون مماليك إذ أن أغلبهم فى حوزة أغنياء الترك . ويندر أيضاً أن يكون لأحد غير عظماء الأتراك أغاوات . ويفتخر أغنياء التجار المصريين عندما يسير فى ركابهم ، أو يحمل شبكهم ، عبد أسود

يبكر المصرى فى نومه وفى استيقاظه ، وهو ينهض للصلاة قبل الفجر ، وبينما يقوم بفروض الوضوء والصلاة تجهز له امرأته أو جاريته القهوة ، وتحشو له شبكه تبغاً وتقدمهما له حين ينتهى من فروضه الدينية

وكثير من المصريين لا يتناولون شيئاً قبل الظهر غير القهوة وتدخين الشبك ؛ وبعضهم يتناول أكلة خفيفة فى ساعة مبكرة . ويتكون الفطور من الخبز والبيض والزبد والجبن والقشدة أو لبن الزبادى ... الخ أو فطيرة تؤكل وحدها أو بالعسل يصب فوقها أو بالسكر . ومن الألوان المألوفة فى الفطور الفول المدمس ، وهو يدمس بإنضاجه على مهل ليلة بطولها فى إناء من الفخار يدفن إلى رقبته فى نار الفرن أو الحمام بعد أن تسد فوهته سداً محكماً . ويؤكل الفول بزيت بذر الكتان أو بالزبد ، وقد يعصر عليه قليل من الليمون . ويباع هذا الفول فى أسواق القاهرة وغيرها من المدن . ويتكون طعام الفقراء من الخبز « والدقة » وهى خليط من الملح والفلفل مع الزعتر أو النعناع أو الكمون وأحد المواد الآتية أو أكثرها أو جميعها : وهى الكزبرة والدارصينى والسمسم والحمص . ويصنع الخبز مستديراً مسطحاً ، بطول الشبر تقريباً وفى عرض الأصبع أو أقل

ويتمتع بالتدخين والقهوة كل من يستطيع لنفسه هذا الترف ، فى الصباح المبكر وأحياناً أثناء النهار . وهناك كثيرون يندر أبداً أن تراهم بدون شبك ، إما بين أيديهم وإما مع الخادم . ويحمل المدخن ، لاستعماله اليومى ، دخانه فى كيس من الصوف أو الحرير أو المخمل ، يضعه فى عب قفطانه ، وكثيراً ما يكون معه كيس آخر به الزناد والصوفان

ويبلغ طول قصبة التدخين (وأسماؤها عديدة منها الشبك[1] والعود الخ) أربعة أقدام أو خمسة ، والبعض أقصر من ذلك والبعض الآخر أطول بكثير . وما يستعمل عادة فى مصر يصنع من خشب « الجرْمَشق » وأكثر طول القصبة ، من الفم إلى ثلاثة أرباعها ، يغطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون أو تحدهما ماسورتان من الفضة المذهبة ؛ ويتدلى من الغطاء الحريرى فى الحد الأسفل شرابة حريرية ، وكان هذا الغطاء مخصصاً بادىء الأمر ليبلل بالماء فيبرّد بالتبخر الشبكَ وبالتالى الدخان . ولكن الشبك لا يغطى إلا إذا كان عتيقاً أو قبيح الشكل . وكثيراً ما يستعمل أيضاً الشبك المصنوع من خشب الكرز خصوصاً فى الشتاء وهو لا يغطى أبداً . ولا يبرد الدخان فى شبك الكرز صيفاً مثل ما يبرد فى الشبك السابق

---

(١) الجلا Galla شعب حامى يسكن شرق أفريقيا ، وهو منتشر فى أقاليم الحبشة الوسطى وكينيا . ويبدو أن لفظة « جلا » لقب حبشى

ويقول أرنو دابادى Arnaud d'Abbadie أن مسلمي الأحباش يروون أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما أرسل إلى « الجلا » من يدعوهم إلى الاسلام قال رئيسهم : كلا ! (أو جلا ، أى لا) فلما سمع الرسول بذلك قال : إذاً لتكن تسميتهم دالة على امتناعهم من الايمان

و « الجلا » جنس جميل الشكل إلى درجة عجيبة ، كميت البشرة ، ناعم الشعر مموجه ، وسيماه على العموم أوربية . (أنظر دائرة المعارف البريطانية ، مادة Gallas) . المترجم

(٢) إلا إذا كان هناك أغا ، والسقا على العموم هو رئيس الخدم

(١) من التركية (شبوق)

ذكره. أما «الحجر» فهو من الآجر[1]؛ وأما الفم أو «التركيبة» فيتكون من قطعتين أو أكثر من الكهرمان القاتم اللون، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع بالمينا والحجر اليمان واليشب والعقيق أو غير ذلك من الأحجار الكريمة أو المعادن النفيسة. والفم أثمن ما في الشبك، وقد يرصع بالماس. ويبلغ ثمن الشبك الأكثر شيوعاً بين الطبقة الوسطى من جنيه إلى ثلاثة جنيهات أسترليني. ويوضع فوق الشبك أنبوبة من الخشب كثيراً ما تتغير كلما تلوثت بزيت الدخان. والشبك ذاته يتطلب النظافة كثيراً، وينظف بألياف الكتان مشدودة في سلك طويل. ويعيش كثير من فقراء القاهرة على تنظيف الشبك

ويدخن أفراد الطبقة الراقية في مصر تبغاً له عطر لطيف لذيذ، يجلب أكثره من جوار اللاذقية في سوريا. وأحسن الأصناف «الدخان الجبلي» يزرع على تلال هذه المدينة. وهناك صنف قوي ينسب إلى مدينة صور، وهو الدخان الصوري، يخلط أحياناً بالصنف السابق ويستعمله أفراد الطبقة الوسطى. وعندما يدخن المصريون أو الشرقيون يسحبون نفساً طويلاً، فيصل كثير من الدخان إلى الرئة، ويعبرون عن التدخين عادة بشرب الدخان أو شرب التبغ. والقليل يبصق عندما يدخن. ولم أر أحداً يفعل ذلك إلا نادراً جداً.

ويستعمل بعض المصريين الشبك الفارسي الذي يمر فيه الدخان خلال الماء، وهذا النوع يستعمله عادة أفراد الطبقة الراقية ويسمى (نارجيلة) لأن الوعاء الذي يحوي الماء جوزة هندية (واسمها بالعربية نارجيلة) وهناك نوع آخر ذو وعاء زجاجي يسمى (شيشة)[2] وكلا النوعين له أنبوبة طويلة لينة. انظر (شكل ٣٣). وهناك نوع خاص من التبغ الفارسي يسمى (تنباك) يستعمل في شبك الماء. وهو يغسل أولاً عدة مرات ويجعل بعد ذلك في حجر الشبك وهو رطب، ثم يوضع عليه جمرتان أو ثلاث من الفحم. وللتنباك عطر لطيف مقبول. ولكن شدة استنشاق الدخان في هذا النوع من التدخين يضر الرئة

(١) ويوضع تحت الحجر صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من النار، ويستعمل أيضا صينية خشبية ليوضع فيها الرماد

(٢) كلمة فارسية بمعنى (زجاجة)

الضعيفة[1]. ومدخن الشبك الفارسي يشد الدخان إلى رئتيه مثل ما يستنشق الهواء الخالص. وترجع كثرة أمراض الكبد في بلاد العرب إلى استعمال النرجيلة، كما أنه في مصر يتألم الكثيرون جد الألم بسبب هذا. وهناك نوع يسمى (جوزة) يشبه النرجيلة إلا أن أنبوبته عصا قصيرة بدلاً من أنبوبة النرجيلة القابلة للانثناء، ويستعمله رجال الطبقة السفلى لتدخين التنباك والحشيش.



(شكل ٣٣) قصبات التدخين

(يتبع) عدلي طاهر نور

(١) وهي مع ذلك توصف لمن يصاب بالسعال. ويستعمل أحد أصدقائي (أشهر شعراء القاهرة) — وهو مصاب بالربو — النرجيلة من الصباح إلى الليل بلا انقطاع تقريبا

ليالى النيل

للأديب مصطفى على عبد الرحمن

يا ليالى النيلِ فى ظلّ الأمانى الزُّهْرِ عودى
وأعيدى الصفوَ والأنسَ لعينىَّ أعيدى
أنا ما زلتُ على عهدى فهلْ صُنتِ عُهودى

حيث غنتنا الضفافُ الحالماتُ أغنياتٍ ردَّد القلبُ صداها
شاعتْ الفرحةُ فيها والحياةُ واتهى البشرُ إلينا وتناهَى

والهـوى يَغْمُرُ رُوحينا بهاء وضِياء
والسنا يغمـرُ قلبينا فُتـوناً وصفاء
والمـنى تمـلأُ دنيانا أماناً ورجاء

ذاك عهدٌ صنته بين ضلوعى أتُرى تذكر عهدى ؟ أترُاها
أم تناستْ سحر أيامِ الربيع ناديات لألأ الكون نَدَاها

وضفافُ النيلِ فى ظلّ الأمانى البيضِ سكرى
حوَّم الطيرُ حوالَيها وفاض الكون بشرا
ولنا الموج تغنى وبنا الزورقُ أسرى

نحو نورِ الخـلدِ ترعاه المنى لحظات أنا والعمرُ فداها
ليت يا زورق لم ترجع بنا قِبْـلَةَ الشطآن يوما فنراها

ونذيرُ البين يسعى بين آمالى وبينى
وافترقنا للقـاء ورجاء وتمـنى
وأتى قلبىَ يسعى للتـلاقي بيد أنى

لم أجد فى الشط ما يشفى غليلى أين أفراحى وكأسى وطِلاها
وليالى النيل فى ظلّ ظليلِ ليتها عادت لنحيا فى سناها

طال شوقي وحنينى وهوى نفسى فعودي
وأعيدى الصفو والأنسَ لعينىَّ أعيدي
أنا ما زلت على عهدى فهل صنت عهودى ؟

(الأسكندرية) مصطفى على عبد الرحمن

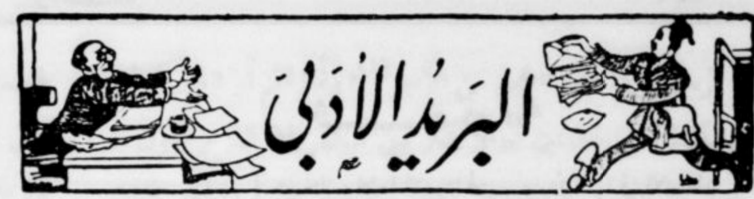
فـوزية

[هى فتاة وافاها القدر المحتوم يوم نجاحها فى الامتحان]

للأستاذ محمـد برهام

عَدَت المنون على الشباب الباكر فمحت بشاشات النجاح الباهر
نبنى أمانينا العراض على غد وغد على راجيه أشأم طائر
ظهرت نتيجة الامتحان وأنت فى الـ نزع الأخير ، ورهن موت قاهر
فوقفت أرقب والصحيفة فى يدي فتك المنيـة بالملاك الطاهر
الرقم يوحى لى التبسم للمنى والداء يوحى لي بدمع زاخر
تلميذتى ما كنت غير غمامة برقت ، وإلا لمحة فى الخاطر
الحفلة الكبرى التى سنقيمها لنجاحك اندثرت كأمس الدابر
لبس الممات إليك ثوب مهنئ ودهاك ضـنًّا بابتهاج الظافر
هلا تمهل بعـد فوزك مدة وأتاك من بعد انفضاض السامر
كم حذروك إذا خرجت كأنما ضمنوا النجاة بقولهم لك حاذرى
يا زهرة ما كاد ينشر طيبها حتى حرمنا من شذاها العاطر
نامى استريحى قد تعبت فلم يعد أحد يقول لك اسهرى أو ذاكرى

محمد برهام



هنأ وهناء

استقريت ما كتب فى « الرسالة » فى تحقيق هذه الكلمة فرأيت الأستاذ الجليل وحيد يعزو كلة (هناء) بالمد إلى الصحاح للجوهرى ، وقد رجعت إلى نسخة مخطوطة من الصحاح عند صديقنا الأستاذ أحمد عبيد (صاحب المكتبة العربية فى دمشق) لا نظير لها فيما أعلم ، وهى مكتوبة سنة ٨٥٠ هـ كتبها محمد ابن يوسف للصلتى ومضبوطة بالشكل الكامل ، ومنقولة من نسخة بخط ياقوت الموصلى (أنظر ابن خلكان ومقدمة الهورينى للصحاح) وفى آخرها ما نصه (بلغ العرض بنسخة نقلت من نسخة على بن عبد الرحيم بن الحسن السلمى الرقى المعروف بابن العصاد (أنظر ترجمته فى بغية الوعاة) وذكر أنه عارض بها عدة نسخ منقولة من خط أبى سهل الهروى النحوى (أنظر البغية) الذى نقله من خط المصنف وذكر أن عليها ما هذه صورته : عارضت هذا الجزء والذى قبله من كتاب الصحاح بالأصل المنقول عنه الذى بخط أبى سهل الهروى الذي نقله من خط المصنف واجتهدت فى تصحيحه واستدركت ما وقع فيه من السهو والتحريف عما عليه أكثر أهل اللغة. وكتب يحيى بن على الخطيب التبريزى (قال ياقوت) وهذه النسخة المعارض بها هذه النسخة فيها أيضاً شكوك كثيرة وكلام كأنه غيّر عن باقى النسخ وقد ذكرت أكثر ذلك فى حواشى هذه النسخة الخ ...

والذى وجدته فى هذه النسخة (هَنأً وهِنأً) بالفتح والكسر فى غير مدّ ، ومن ذلك يظهر أن الذى فى النسخة المطبوعة تطبيع فليصحح .

على الطنطاوى

غبر لا عبر

تتبعت ما كتبه الأستاذ الكبير (ا . ع) من أبحاث لغوية قيمة حول كلمات شائعات على أقلام كتاب هذا العصر ومنهن كلة (عَبْر) ، وتتبعت كذلك احتجاج الأستاذ رضوان لهذه الكلمة واستشهاده ببيت سواد بن قارب

فشمرتُ عن ذيلى الإزار وأرقلت
بى الدعلب الوجناء (عَبْر) السباسب

ثم ما نشأ أخيراً من مُحاجّات حول إعرابها ، ولا يسع المتتبعَ لهذا البحث إلا أن ينكر هذه الصناعة النحوية التى تأباها طبيعة هذه الكلمة ؛ وإلا أن يبحث عن رواية أخرى تساوق ذوق اللغة العربية . وأقول إنى عثرتُ على هذه الرواية فى بعض المراجع ؛ ففى تفسير ابن كثير فى الجزء السابع ص ٤٨٦ رُوى هذا البيت لسواد بن قارب فى قصيدة جاءت نهاية لقصة تتعلق بإسلامه ، ونحن لا يعنينا صحة هذه القصة وإنما تعنينا صحة هذا اللفظ الذى ورد فى البيت هكذا :

فشمّرتُ عن ساق الإزار ، ووسَّطتْ
بى الدّعلبُ الوجناء (غُبْر) السباسب

ولا أستبعدُ أن تكون رواية (عَبْر) مُصحّفة عن هذه الرواية (غُبْر) وقد قال صاحب لسان العرب فى مادة (غبَر) بعد كلام كثير فى تأويل حديث أبى هريرة « بينا رجلٌ فى مفازة غَبراء » إن الغبراء هنا هى الأرض التى لا يهتدى للخروج منها ؛ ولا شك أن (غُبر) جمع غبراء

وإذا كانت القصة التى وردت فيها القصيدة قد وضعت سواد ابن قارب هذا فى الهند وكلفته أن يُسرع إلى مكة ، أدركنا أى صباسب غُبْرٍ أوجبت عليه اجتيازها

وبعد فأرجو أن تكون هذه الرواية قد حلت ما بين الأستاذين من ألغاز النحو وأحاجيه

« دار العلوم » محى الدين صابر محمدين

التشريع المحكم والدستور الخالد

كنت كلما طالعتنا الرسالة الزهراء بشمائل وعادات المصريين المحدثين « فى النصف الأول من القرن التاسع عشر » أميل روحاً وحساً ومعنى لأعرف من عادات قومى ما أرّخه مستشرق أجنبى ونقله إلى أصحابه أستاذ مصرى ...

ولكنى عند ما أدركت الفصل الرابع – فى الحكومة [1] – وقرأت طرفاً منه شعرت أنى انتقلت من واد غير ذى زرع إلى رياض ذوات أفنان متمشياً مع المؤلف (أو المترجم) بقلب صادق

(١) « الرسالة » عدد ٤٣٦ ص ١٣٨٥

وحس مرهف كأن فيه ضالة منشودة . حتى إذا ما فرغت سرحت بأمانى وآمالى ...

إنه قرن مضى ... كان فيه مجلس العلماء يثير الرهبة والاحترام فى نفوس الحكام الترك والماليك ويحد من طغيانهم ثم فقدت — الآن — هذه الهيئة نفوذها على الحكام إلا قليلاً

هذا ـ وايم الله يا أقطاب الأزهر المعمور ـ كلام المستشرق « أدوارد وليم لين » وليس كلامى ولا كلام أى مصرى واسألوا فى ذلك الأستاذ عدلى طاهر نور ...

وايم الحق إنه ليقطع أنياط القلوب أن نفرح بمادة الدستور التى تنص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ثم نتغفى عن تنفيذ شرائعه وأحكامه حتى فقدت هيئتنا العلمية كلنها المستمدة من نور الله ووحى الرسول (ص) إلا ما تقوم به من وعظ

إن مدنيتنا ليست فى غير الرجوع إلى الوراء . فهل آن لنا أن نستبدل الوضعية بالسماوية، والغرض الأسفل بالطموح الأعلى، وعرض الدنيا بباقى الآخرة حتى تكون لنا سابق رهبتنا

على أنى لا ألبث أن أرى سحابة الوهم منقشعة أمام شمس الأمل الضاحية حين أذكر أن فى بلادنا مصلحين ومجاهدين يتكلمون ويعملون بقلوب مؤمنة وصدور تشع منها أقباس قدسية تبشر بمستقبل سعيد .

هذا هو الأستاذ الجليل الزيات يسلط — حتى على مجلته — إشعاعه الروحى الكريم ، فيفرد منها عدداً للهجرة ، ثم يقول قالته الكريمة : « ذلك محمد يا زعماء اليوم وهؤلاء أنتم ، فهل تحسون بينكم وبينه صلة ، أو تجدون بين سياستكم وسياسته مشابهة ؟ »[1]

وهذا هو الإيمان يتفجر من قلب كبير ، فينطلق فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر — وهو عَلم الدين المرفوع فى أيامنا هذى — ويقرر أمام مولانا الملك المفدى ووزرائه أن القرآن تشريع محكم ودستور خالد ، وأنه لا سعادة بدونه[2] .

غير ما له من مأثور القول وسديد الجهاد، كلأه الله بالنصر القريب!

وهذه هى (الرسالة) الزهراء تقول بلسان أحد كتابها الأفاضل : « فلنتبع المنهج الذى ألف به الإسلام بين المسلمين ، ولنطبق سياسته الحكيمة الرشيدة من جديد ، فسترون المعجزة تتجدد ، والرجاء يتحقق ، والحياة تبسم لنا ، والجد يصافحنا ، بعد عبوسها وجفائه »[1]

وهذه هى (رابطة الإصلاح الاجتماعى) برياسة الدكتور هيكل باشا تقر فى أول قراراتها أن « القرآن » تشريع سمد العالمين ... الخ ، ثم تطالب بالعمل به

وفى إمامنا الأكبر والمعبرين عن شعورنا باكورة جهاد يتوالى بعدها الثمر دانى القطوف ، فنسعد حكومة وشعباً ...

ولى إلى هذا الموضوع عودة ، إن تفضلت (الرسالة) الغراء فسمحت ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

« المحلة الكبرى » حلمى ابراهيم النبرى

(١) عدد الهجرة الأخير ص ٣٦٢

(٢) من إذاعاته الوعظية « بالمذياع » فى رمضان المنصرم

(١) عدد الهجرة الأخير ص ٤٢٩

فى ميزان الشعر

يقول الدكتور إبراهيم ناجى فى قصيدته (بين الشاعر والريح) فى عدد مضى من الرسالة :

هى فى الغيب لقلبى خُلقتْ   أشرقت من قبل أن تشرق شمسى

فعلى تذكارها أطبقتُ عينى   وعلى موعدها وسّدت رأسى

وفى البيت الثانى خطأ عروضى خشيت أن يكرره الشاعر فى قصائد أخر ، فيكدر ذلك من صفاء شعره . إذ البيت من بحر « الرمل » وعروض هذا البحر لا تكون إلا :

١ — محذوفة وأضربها ثلاثة : محذوف ، صحيح ، مقصور

٢ — مجزوءة صحيحة وأضربها ثلاثة أيضاً : مجزوء ، صحيح ، مجزوء مسبّغ ، مجزوء محذوف . فهذه أوزان ستة للرمل ... وظاهر أن البيت من الوزن الثانى — محذوف العروض صحيح الضرب — ولكن الشاعر صحح العروض هنا (.. بقتُ عينى : فاعلاتن) لأن الواجب أن يحذفها فتكون (فاعلاً أو فاعلنْ) لأن تصحيح العروض لا يجوز فى هذا البحر إلا حيث يقع « التصريع » ؛ وذلك إنما يكون فى أول القصيدة .

أرجو أن تتفضلو بالإشارة إلى هذا ، ولكم منى جزيل الشكر .

(جرجا) محمود عزت عرفة

الى الأستاذ على عبد الله

إنى معجب بكل ما كتبته حول مشكلة التعليم الإلزامى ، وبدفاعك عنه دفاع الجندى فى ساحة القتال

أستاذى . أعرض عليك رأياً فى التعليم الإلزامى خامرنى من مدة طويلة راجياً تمحيصه على صفحات مجلة الرسالة الغراء

أجمعت وزارة المعارف على أن نظام نصف اليوم من أسباب فشل التعليم الإلزامى وتبعها فى ذلك كثير من الكتاب . وعندى اقتراح يكفل تحويل جميع المدارس إلى نظام اليوم الكامل بدون زيادة فى الميزانية :

أولاً — يكون التعليم إلزامياً للبنين والبنات فى جميع مدارس المحافظات وعواصم المديريات وبنادر المراكز

ثانياً — يكون التعليم إلزامياً للبنين فقط فى جميع مدارس القرى . والفصول والمدرسون الموجودون فى كل مدرسة كافون لتعليم البنين يوماً كاملاً

ثالثاً — تقوم مجالس المديريات بترتيب القرى الواقعة فى اختصاصها ترتيباً تنازلياً على حسب أهمية كل قرية من حيث عدد سكانها وقابلية أهلها فى التعليم . وكلما وجد المال اللازم يبدأ بتنفيذ الإلزام على البنات وفق الترتيب المتقدم

ومنى لأستاذى كل تحية واحترام

سليم الحجيرى

مدرس إلزامى

تصويب

جاء فى مقالى (عدد ٤٣٨ من الرسالة) ما يأتى :

فى ص ١٤٣٢ : Acrooss ، والصواب : Across

وفيها : كما فرغت مصانعنا ، والصواب : كلما فرغت مصانعنا

وفى ص ١٤٣٣ [فى الهامش] : من المصادر المعروفة ، والصواب : من المصادر المعرفة

وفيها : فى المصدر قد يقع فى موضع اسم الفاعل ، والصواب : فى أن المصدر ... الخ

(ا . ع)



الصاحب والآلهة

لتشارلس جارفس

بقلم الأديب كمال رستم

وقف جاك كارلتون في ناحية من « الهملايا » يرقب رجاله وهم يقومون بتغطية السفح بالأكواخ الخشبية ، فما عتم أن أحس بشعور الرضى تزخر به نفسه

نزح جاك إلى تلك الأصقاع وفي رأسه مشروع كبير هو قطع الأدواح الباسقة القائمة في تلك الأجمة المترامية الأطراف وسط تلال الهملايا ، وتصدير الآلاف منها إلى الخط الحديدي الممتد على ثلاثة آلاف قدم من السهول الجنوبية

وعلى مسافة قصيرة أسفل التل وقف رئيس عماله « رينجت سينج » وعيناه أبداً شاخصتان إلى سيده ، وذراعه دوماً على أهبة الاستعداد لأن ترفع في أي وقت إشارة لآلاف الرجال الذين لا تكاد عيونهم تقع على شيء غيره ، وكان لهذا الرجل تأثير غريب على أهل هذه البقعة بلا استثناء !

وهو وإن بدت عليه آثار السن العالية كان رائيه يستملي فيه وداعة الطفل ، ويستجلي منه قوة خارقة للمألوف ؛ فيه شجاعة مدمرة لا تعرف الونى أو الفتور ، ثم هو بعد أملس البشرة عدا شارب أبيض يحكي الجليد . وكان وقتذاك يرتدي ثياباً وطنية من صوف الماعز ، وينتعل خفين من الشعر . ورنجت سينج هذا تجري في عروقه قطرات من الدم الملكي ، فهو سليل جنس « الراجا » العريق في القدم الذي ينحدر رأساً من سلالات آلهة عاشوا على مدى الأجيال وسط صقيع « جانجوتريا » أرومة « الجانجوتريين » العظام ، وكان طبعه وجلة مشاعره ، تغلب عليها الروح الأوربية ، وإن كان من العسير إن لم يكن من المستحيل على الفهم قبول ذلك . أما روحه فكانت تفيض بشاعرية مرهفة ، وأما قانونه فكان الانتقام ، وهو متأثر في كل من طبعه وقانونه بهؤلاء الرجال الذين نصبوا أنفسهم لنشر عقائد « البوذية » و « الشامانية » ؛ أما في روحه فقد كان يجنح إلى الذين وجدوا في طفولة العالم

وإن قلبه لينبض بحب اثنين في هذا العالم المملول : حفيده الطفل « سيكوندار » ، وسيده « الصاحب » كارلتون .

ولعل الجو في السهول السفلى لم يكن نقياً ، حتى لقد غدا الغلام سقيماً مدنفاً ، فأذن كارلتون لجده أن يصعد به إلى التلال ... وكان « سيكوندار » جميلاً فاتن الجمال ، ذا عينين نجلاوين تحكيان عيني غزال ؛ وهو وإن فاض عليه الجمال الهندي الآمر فقد التمع في عينيه كذلك بريق الحدة التي لا تقف بصاحبها الهندي عند حد ... وتعلق الطفل بكارلتون ، فغدا لا يفارقه أينما ذهب . وكان جاك قد أعطاه دواء أفاده فائدة ملموحة ، فعاده جماله العازب وصحه الذي زايله حيناً . . . وكان كارلتون يجلس إليه ويصغي إلى أحلامه وأوهامه وأقاصيصه عن مواطنيه القدماء وخرافاته عن الأحراج والأدغال . . . هذا وكارلتون لا يفتأ يفكر في فتاته « إيثيل » ... ولم يجحد رانجت الجميل الذي أسداه إليه « الصاحب » فأحبه وقدره ...

وفي هذه اللحظة التي بدا فيها حظ كارلتون معلقاً في كف القدر ، كانت عينا سيكوندار اللامعتان مثبتتين في كارلتون . . . وقد التمع فيهما بريق القلق ... هذا وكارلتون منتصب القامة ، مستيقظ الحواس ... !

وأخيراً ، أصدر أمره ، فهوت دوحة وانحدرت إلى أسفل المنحدر ... ومن ثم إلى البحيرة على مسافة ثلاثة آلاف قدم ... وتبعتها ثانية ثم ثالثة . . . وأخذت الأمور تجري مجرى حسناً ، فلمع بريق الرضا في عينيه ، ولكن لفظ (الرضى) لا يؤدي مفهوم السعادة . . . كان « جاك » قد تأله في قلبه حب « إيثيل رين » وهي ابنة « ماجور » قتل في غارة من تلك الغارات التي يشنها رجال العصابات من حين لآخر ... وكانت « إيثيل » في زيارة بعض أقربائها حين رآها « جاك » لأول مرة ، فاستشعر في قلبه حباً لها . . . ولكن ، من هو ؟ ... ضابط غابة لا أكثر ولا أقل ! . . . وإن حبه الصادق ليتخطى تلك الاعتبارات ... ما لم تكن إجازته قد ألغيت فجأة ، واضطر إلى الرحيل قبل أن يكشف لفتاته عن ذات قلبه ...

وبعد شهر من رحيله تواترت الأخبار تحمل إليه نبأ زواج فتاته من « هيرسن » مقاول أعمال الخطوط الحديدية الشهير ،

وهو عصامى جمع من عمله ثروة طائلة ، فأصبح بعد قادراً على أن يفرض حبه وقتما وحيثما شاء

ولم تكن « إيثيل » على علاقة طيبة بذويها ، ولعلهم أرغموها على قبول هذه الزيجة ...

* * *

عاد « جاك » إلى كوخه وخلع ثيابه ، ثم أشعل غليونه وراح يفكر فى فتاته ... وهو وإن كان قد أقسم ألا يفكر فيها ، فقد تداعت أفكاره بالرغم عنه ، وتراءت له « إيثيل » فى تلك الآونة فى جمالها الآسر ، وشعرها الأسود ، وأهدابها الوطف ، وشفتيها الصارختين . . . تراءت له كما رآها آخر مرة حين قال لها : « إلى اللقاء » . وأفاق من تأملاته على صوت « سيكوندار » يقول : ضيوف يا « صاحب » ! ...

فنهض من فراشه واتجه إلى باب الخيمة ، فأبصر جماعة صغيرة تتخذ طريقها إلى التل ، واستطاع أن يتبين من بين أفرادها رجلاً وامرأة من البيض

— أعد الشاى يا سيكوندار ... قال ذلك وأسرع للقائها فقابلها عند منعطف الممر ، فما عتم أن أخذ وأسقط فى يده !

لم تكن المرأة غير « إيثيل رين » ، كلا ، بل « إيثيل هيرسن » لأن هذا الرجل القصير البدين ذا العينين المكرتين والشفتين الغليظتين لا بد أن يكون زوجها . . . وامتقع وجه « إيثيل » وتقلصت شفتاها ، وأخذ كل منهما يحدق فى وجه صاحبه إلى أن بددت « إيثيل » ذلك الصمت الذى هوم على المكان بقولها :

— أهذا السيد « كارلتون » . إذن فأنت ضابط الغابة هنا ؟

فأجابها بهدوء :

— نعم ...

قالت :

— هذا زوجى ألح عليه المرض وأضناه ، جاء إلى هنا يلتمس الشفاء بين التلال ...

قال « هيرسن » :

— لا أظن أن الجو هنا أشد برودة من جو الوادى . أيبعد معسكرك كثيراً من هنا ؟ فأجابه جاك محاولاً أن يظهر سروره لرؤيته :

— كلا . لا يبعد كثيراً ، ويعد من تحصيل الحاصل أن أذكر لكما أنى مضيفكما على الرحب والسعة ، وأننا لن ندخر وسعاً لأن نجعل زورتكما لطيفة بهيجة . والجو هنا صحو عليل آمل أن يفيد السيد ، وكذا آمل أن يفيد السيدة ، وأضاف الجملة الأخيرة إذ استملى من بشرتها لمحة عابرة فإذا بها قد زايلتها حمرتها واستولت عليها بدلاً منها صفرة واهنة . وتبدت له جميلة يروعها الحزن فتفتن

* * *

أضافهما جاك فى خيمته وقدم الشاى لإيثيل . أما هيرسن فقد تجرع سائلاً من زجاجة كانت معه . وقام جاك بدور المضيف على أحسن وجه ، ووقف بنفسه على حقيقة مرض السيد هيرسن ، فهو وإن لم يكن قد رأى الرجل قبل الآن فقد تواترت إليه الروايات الكثيرة عنه . وجاك خبير بقراءة الوجوه ودلالاتها ؛ فالخطوط السود التى يقتم بها ما حول المآق ، والصوت الأجش الجاف ، والنظرات المتكسرة الحزينة ، إذا لم يكن كل أولئك من صنع الخمر ، فقد يكون مظهر السيد هيرسن قد غبنه غبناً صارخاً

وفى اليوم التالى أمر جاك بإعداد « خيمة » ليقيم فيها ضيفاه وخدمهما ؛ ولكن هيرسن طلب أن تضرب الخيمة فى وسط أجمة كان فى نهايتها معبد ، فهى بذلك فى نظر الأهلين أجمة مقدسة . فاضطر جاك أن يرفض الطلب ، وعرض عليه أن يضرب خيمته فى مكان آخر ؛ ولكن هيرسن أصر على مكان يقع مباشرة تحت الأدواح الظليلة حتى يتفيأ ظلالها . وبذلك يكون قد شاء أحد مكانين . يقع أحدهما فى خياله ، ويقع الثانى فى الأجمة المقدسة . وأخيراً رأى جاك فضاً للنزاع أن تضرب الخيمة بجانب لفيف من الأشجار

وغفا جاك فى هذه الليلة إغفاءة بسيطة كالليلة السابقة وعمل بحق على مقاومة حبه القديم لعقيلة هيرسن ، حتى خيل إليه أنه نجح فى ذلك . وقابلها وحدها فى الصباح ، وسألها عن هيرسن فأخبرته بأنه مريض ، وعزت مرضه إلى وعثاء السفر ، ولكن جاك لم يكن فى حاجة إلى معرفة مرض زوجها بعد إذ رأى بعينى رأسه بالأمس صناديق « الويسكى » يحملها العبيد إلى خيمة هيرسن .

لم يدخر جاك وسعاً فى إسعاد ضيفيه ، فكان يصحبهما إلى النزهات الجميلة . على أن هيرسن لم يكن يجد لذة فى مثل هذه الجولات ، وكانت زجاجة الويسكى هى الشىء الوحيد الذى يبعث الضوء إلى عينيه الذابلتين ، أما إيثيل فإنها لم تمل مطلقاً مشاهدة انحدار التل السريع إلى البحيرة الراقدة عند قدميه ، ولم تضجر

من محادثة الرجال ، وسماع صوت الأشجار تهوى من شاهق ، وأصوات العبيد تسرى من فوق التلال يرجع الفضاء دويها ، ثم تأخذ فى الضعف رويداً رويداً حتى تصلها رفيقة خافتة .

وأخذت الطبيعة تحسر لها فى كل يوم عن أسرار جديدة فى الآجام وفوق التلال ، وفى البحيرة السريعة الجريان . وكان جاك يصحبها فى أكثر هذه النزهات ، ويسير معها جنباً إلى جنب ، إلا أن أحدهما لم يكن يذكر الماضى بكلمة واحدة . فكان جاك يحدثها عن مشاهداته فى الهملايا ، وكانت هى بدورها ترثى لحال زوجها وتأوى عليه . ولقد اعتادا أن يجلسا على أحد التلال الرئيسية يجرى من تحتها الأنهار الجليدية على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم . وكانت قمة التل باردة شديدة البرودة ، بينما كان النهر الذى يجرى فى أسفل حاراً شديد الحرارة ! على أن الحرارة فى وسط المنحدر كانت معتدلة ! وكانت سهول الهند وكل مدنيات أوربا تبعد عن هنا كثيراً ، فأقرب محطة إلى هذا المكان تقع على بعد مائتين وخمسين ميلاً ، منها مائة ميل فى مسالك جبلية وعرة ، تكاد لا تسمح لحيوان أن يسير على طول حافة هاوية ... وكان كارلتون الحاكم المطلق على هذه الغابات جماء . وكان عمله ينحصر فى قطع أشجار « الدردار » ولم يكن يعكر عليه صفو حياته إلا صورة إيثيل تتراءى له بين الفينة والفينة ؛ ولكن ها هى ذى إيثيل إلى جانبه ، وهما ينصتان معاً إلى طائر « الكورلا » الأخضر يرجع تلك الكلمة الحبيبة : « أحبك » وهى الكلمة التى لم يفه بها لفتاته ، والتى لا يستطيع الآن أن يفوه بها !

وكان سكوندار الطفل يصحبهما دائماً فى نزهاتهما ، وقد أحب إيثيل حباً جماً وأحبته هى أيضاً ، فكانت تسمح له بأن يجلس عند قدميها عند ما تكون راقدة فى فراشها ، وتنصت إلى أقاصيصه التى لا تكاد تنتهى عن شجاعة الصاحب كارلتون ! ...

أما هيرسن فكان يبغض الطفل بغضاً شديداً

* * *

وفى ذات يوم صحب جاك إيثيل وزوجها ليريهما قرية مهجورة حلت عليها لعنة الآلهة ، لأن رئيس قبيلتها جرؤ على قطع شجرة من أشجار الدردار المقدسة ... وكان الموت عقاب هذه الجريمة ؛ فمات رئيس القرية وفر الأهلون تاركين وراءهم القرية قاعاً صفصفاً ! ... وما إن سمع هيرسن هذا القول حتى أغرب فى الضحك ثم قال :

— حقاً إن هؤلاء العبيد لتملأ الخرافات رؤوسهم ، وإنى لأريد أن أنزع عنهم بعضها ... وكان ثملاً يلمع فى عينيه الذابلتين بريق الدهاء والمكر

ومرت الأيام فى أمن وسلام ، حتى كان ذلك اليوم المشؤوم الذى مر فيه جاك هو وربجت سينج بخيمة هيرسن ، فإذا بصيحة يتمثل فيها الرعب والضراعة تطرق آذانهما . وما لبث بعدها أن اندفع سيكوندار من الخيمة يتبعه هيرسن ثائراً صاخباً ممسكاً بهراوته . وكاد الطفل يفر من الرجل الثمل لولا أن اشتبكت سترته بصندوق فارغ من الويسكى ، فلحق به هيرسن وضربه ضربة قوية جرى بعدها الطفل وهو يتلوى من الألم

فصاح جاك غاضباً : ما هذه القسوة يا هيرسن ؟

وخرجت إيثيل فى هذه الآونة واجفة القلب واكفة الدمع ، وقادت هيرسن إلى داخل الكوخ فى صمت وسكون

هذا ، ورينجت سينج ساكن هادئ لا تنفرج شفتاه على كلمة ، وإنما تآلفت قسماته على الإفصاح عما استسر فى نفسه ، وكاد الغضب يتطاير من عينيه ناراً ... واعتذر جاك عن هيرسن ، ولكن ربجت سينج ظل على صمته ، ومضى تاركاً سيكوندار لجاك ...

وفى الأصيل قابل جاك إيثيل وسارا معاً فى الأجمة المؤدية إلى معبد الدردار فى ذلك المكان المقدس . فقالت له بصوت هدّجه الألم :

— لقد كنا عبئاً ثقيلاً عليك إلى وقت طويل يا جاك ...

إنما يجب ألا نقضى ليلة واحدة بعد هذه ... نعم يجب أن نرحل

ولكن جاك رجاها أن تمكث أسبوعاً ، فقبلت بعد إلحاح ...

وما لبث أن أقبل هيرسن عليها وقد عاد إليه شعوره وقال :

— آسف ، فقد كنت فاقداً لصوابى يا كارلتون ...

وحانت منه التفاتة إلى الأجمة فقال :

— إنى لتعتلج فى نفسى رغبة ملحة فى أن أقطع بعض هذه الأشجار !

قال جاك :

— إقطع ما شئت من شجيرات التل ، ولكن لا تمس أشجار هذه الأجمة بسوء

فتساءل هيرسن بحزن :

— ولم لا تكون واحدة من هذه ؟

فأجابه جاك قائلاً :

— لأن أشجار هذه الأجمة مقدسة يا هيرسن . أنسيت سريعاً قصة القرية المهجورة ؟ ...

فأغرب هيرسن فى الضحك وقال :

— إنك خيالى يا كارلتون كهؤلاء العبيد . فما الذى يحدث لو أننى قطعت إحدى هذه الأشجار المقدسة ؟

فأجابه جاك :

— يحدث أولاً أن يغادرنى كل رجل فى هذا المكان ...

قال هيرسن هازئاً :

— وثانياً ؟ ...

أجابه جاك بهدوء :

— وثانياً هم يعتقدون أن الرجل الذى يجرؤ على مس إحدى هذه الأشجار المقدسة تحل عليه لعنة الآلهة وتنقضى حياته بانقضاء حياة الشجرة

فجرت على شفتيه بسمة ماكرة ثم قال :

— الحق أنى أبغض أجمتكم العابسة هذه ، وتركهما ومضى

***

كان جاك يتناول عشاءه حين طرق سمعه أصوات لا يمكن أن يخطئ فى معرفتها ... أصوات صاخبة ثائرة تنذر بشر مستطير آتية من الغابة . فنهض جاك واقفاً وأسرع إلى الخارج ؟ فما عتم أن رأى الشعب الهائج الثائر فى طريقه إلى الأجمة فتبعه ، فإذا الأجمة وقد زخرت بالجموع الحاشدة التى راحت تتفرق جماعات هنا وهناك . وفى إحدى هذه الجماعات أخذ القوم يضربون على صدورهم ، ويذرون الرمل فوق رؤوسهم بينما تعالت أصواتهم إلى عنان السماء مهددة منذرة

شق جاك طريقه وسط هذا الجمع الحاشد الذى أخذ يحدق فى شىء مسجى على الأرض ، وما لبث أن انجلى الموقف بوضوح ! هناك على الأرض كانت ترقد شجرة من أشجار المردار المقدسة هوت بها يد ملعونة ، وإلى جانبها جلس رينجت سينج يكاد يتميز من الغضب . والمرة الأولى لم يحى « رينجت سينج » الصاحب . فربت جاك على كتفه قائلاً : مر هؤلاء الرجال أن يعودوا من حيث أتوا يا رينجت سينج . فنهض الرجل واقفاً ، وحيا كارلتون ثم رفع عقيرته آمراً القوم أن ينصرفوا ... وغادر الرجال الأجمة ورؤوسهم مطرقة إلى الأرض ، وأيديهم لا تفتأ تضرب صدورهم ! حتى غابت أصواتهم فى الفضاء

***

عاد جاك إلى خيمته ، وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه . وأخيراً اقتنع بوجوب رحيل هيرسن فى الحال ، لأن كل ساعة يمكثها يعرض نفسه فيها لخطر ماحق ... وتهالك على فراشه ، ولكن الكرى نفر عنه فظل أرقاً مسهداً ، وإنه لكذلك إذا بصوت من الخارج يقول : يا صاحب ! يا صاحب !

فنهض من فراشه ، ورأى أمامه إيثل وسيكوندار

— أتريدنى؟ قالت إيثيل ذلك ، وقد امتقع وجهها وتقلصت شفتاها ، والتمع فى عينيها بريق هو مزيج من الحزن والرعب .

— كلا ... ولكن سيكوندار أشار إليه محذراً فاستدرك قائلاً :

— كلا لم أبعث فى طلبك . قال سيكوندار :

— لقد غدا الصاحب مجنوناً ، وأمسك بفأس يهدد بها من يقف فى طريقه . قال جاك :

— أدخلا وسأذهب بنفسى لأراه

فتعلقت إيثيل بذراعه قائلة :

— كن حذراً يا جاك ، فإنه كما وصف الطفل . فقال :

— خلى عنك مخاوفك

ومضى فى طريقه صوب خيمة هيرسن ، وما كاد يقترب منها حتى طرق سمعه صوت رهيب ، كما لو كان ثقل هائل قد هوى من شاهق ، وما نشب أن رأى مجموعة الأدواح التى كانت تظلل الخيمة تهوى بأجمعها عليها فتدكها دكاً . وصاح جاك مستنجداً ، فخف إليه جمع حاشد يتقدمه رينجت سينج وقد جرت على شفتيه بسمة الفوز والغلب . فصاح فيهم جاك :

— أسرعوا ، وانظروا ما إذا كان الرجل هناك . وقد كان هناك ، ولكنه لم يعد له ثمة مظهر من مظاهر الناس فقد سحقته مجموعة الأشجار سحقاً . ورفع رينجت سينج يديه إلى السماء وقال :

— الصاحب والآلهة ! وأسرع جاك إلى مجموعة الأشجار ولكنه لم يجد أملاً فى إنقاذ الرجل . أما كيف وقع هذا الحادث ، فهذا ما ظل جاك يتساءل عنه إلى أن كل لسانه السؤال ، فلم يكن ثمة إلا جواب واحد ... « الصاحب والآلهة ! »

(المنصورة) كمال رستم

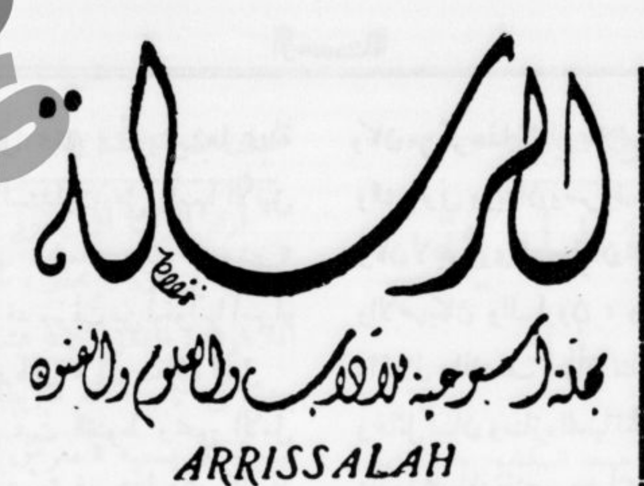
(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9 me Année No. 440
Lundi - 8 - 12 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٤٠ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٩ ذو القعدة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــرس

بعض الـكلام في « مي »

بمناسـبة الأربعين

وُلدت « مىّ » وعاشت ثم ماتت كما يولد النهر من قَطْر السماء ، فتربيه الطبيعة فى الينابيع الهادئة الفسيحة ؛ ثم تبعثه برسالة الحياة إلى حوضه ، فيشق بالجهد والصبر طريقه الموحش فى صخور الجبل وقفار الأرض وأصول الغاب ؛ ثم يُلقى على شاطئى الوادى ما حمّل من فضل الله ، فيحيا المَوات ، وتتجمع الخيرات ، وتنشأ الحضارات ، وتتألف الملاحم ، ويتكلم التاريخ ؛ ثم يأخذ النهر مجراه بين الحقول الناضرة والمدن العامرة شادياً بالمال والجمال والحب حتى يذهب فى عباب البحر كما تذهب الروح الطيبة فى فضاء اللانهاية !

لن نجد « لمىّ » فى حياتها وموتها أقرب من هذا التشبيه . فقد كانت من خلال ما غشِيَ الشرق من الهمود والظلام قبساً من الحياة من بصيصه وهيجه وسناه انتعش ما همد منه ، واستنار ما أظلم فيه

كانت « مىّ » فى حياة القاهرة ظاهرة من الظواهر العجيبة ! والعجيب فيها أنها كانت كممدوح المتنبي واحدة من ناس دنياها وليست منهم : كانت جنساً من الخَلْق الجهل تميز بخصائص الجنسين ، فكان فيه أفضل ما فى الرجل وخير ما فى

المرأة . فمن كان يسمعها خطيبة فى محفل ، أو يشهدها محدثة فى منزل ، كان يحسبها — وقد استدارت على رأسها الأنيق هالة من السحر والفتنة — « قليوبَ » إحدى بنات « جوبتير » التسع ، وإلٰهات الفنون الناعمة ، قد سرقت من أخواتها أسرار فنونهن ثم هبطت من فوق « البرناس » إلى ضفاف النيل

تجدد فى الناس آى المسيح تميت القنوط وتحيى الأمل

ومن يستطيع أن يحسب « مىّ » غير هذا وهى فتاة قد نشأت فى عهد كانت المرأة فيه شيئاً من المتاع ، ترى ولا تعلم ، وتسمع ولا تفهم ؛ ثم تحذق هى الكتابة والخطابة والشعر والفلسفة والتصوير والموسيقى ، وتتقن العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والإسبانية ، وهى لم تولد فى قصر ، ولم تتخرج فى جامعة ؟!

* * *

أبصرتْ « مارى زيادة » الدنيا أول مرة فى « الناصرة » بلد المسيح ، ومن هنا استوحى أبواها اسمها الأول على ما أظن ؛ ثم أرسلت إلى منبت أسرتها فى قضاء كسروان بلبنان ، فتقضت طفولتها قليلاً فى « عين طورة » ؛ ثم هاجرت إلى مصر مع والديها ، فتفتح صباها الغض على ماء النيل ، وتفتق ذهنها الصافى على نسيم الوادى . وكان والدها إلياس يحترف الصحافة ويصدر (المحروسة) ؛ فكان لها من عمل أبيها ، ومن أصالة الملكة فيها ، حافز سديد التوجيه إلى الأدب . ولكن أدبها على الرغم من نشوئه وبلوغه ونبوغه فى القاهرة لم يتأثر بأدب مصر ، وإنما تأثر فى شكله وموضوعه بأدب لبنان . ذلك لأن الأدب اللبنانى كان وحده فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر مظهر الحياة والجدّة والتنوع فى الأدب العربى الحديث . فبينما كان الأدب المصرى يَصدر عن الأزهر ، والأدب العراقى يصدر عن النجف ، والأدب السورى يجرى على أسلوب هذين الأدبين ، كان الأدب اللبنانى يصدر عن مدارس تتسم بسمة الدين ، ولكنها تعترف بوجود الدنيا ؛ فهى تعلم العلوم الحديثة ، وتلقن اللغات الحية ، وتعتمد فى أدب القلب على الإنجيل ، وفى أدب اللسان على القرآن ؛ فبعثت الكتب الصفراء ، ورتبت المعاجم المشوشة ، ونشرت الكتب المقبورة ، ولقحت الآداب العربية بالآداب الأوربية ، وكان من أثر هذا اللقاح النقد والترجمة والصحافة والتمثيل والقصص ؛

وكان من ثمر هذا اللقاح طلائع هذه النهضة من آل اليازجى والبستانى والشرتونى وزيدان وصروف وشميل والريحانى وجبران ومطران ؛ وكان لا بد لمارى العربيةِ أن تجنى ثمر الثقافة مما غرس الفرنسيسكان والأمريكان والمارون ، وأن تقبس نور العروبة من الضياء والهلال والمقتطف ، وأن تناجى عنادلنا الغَرِدة فى رياض مصر وخمائل لبنان ومنازه الدنيا الجديدة ، وأن يحملها الاعتداد بجنسها ولغتها على أن تقتصر من اسمها الأعجمى على طرفيه ليكون منهما اسمها العربى (مى) . وعلى هذا المنهج بلغت مى غايتها من الأدب والعلم والفن ، فاستفاض ذكرها على الألسنة ، وعظمت مكانتها فى الأفئدة ؛ ووصلت بينها وبين كثير من أولى الفكر والجاه أسباب من الروح ، فكان صالونها فى أيام الثلاثاوات كصالون الولادة بنت المستكفى منتجع الصفوة من أقطاب السياسة وأعيان الأدب ، يعكفون على أصدق مثال للأناقة واللباقة والذوق فى فتاة بارعة الظرف ، تشارك فى كل علم ، وتفيض فى كل حديث ، وتختصر للجليس سعادة العمر كله فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة !

لقد كان لمى ولصالون مى فى أدب العصر آثار وسمات : ألهمت صبرى ، وأوحت الرافعى ، وألهبت جبران ؛ ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان متنوعة الأفنان أضافت إلى ذخائر الفكر الإنسانى ثروة

ثم تقدم العصر وطوت (مىّ) أكثر مراحل الشباب ، فتنكر الدهر وتغير الناس ؛ وورد أبواها متعاقبين حياض المنون فاستكانت للحزن ، وأخلدت إلى الوحدة ، فانفض السامر الأنيس ، وانطفأ السراج اللامع ، وانحدرت (مىّ) فى طريق الوحشة والمرض والنسيان إلى نهايتها الأليمة !

* * *

أما بعد فقد قال بشار لبعض جلسائه ذات يوم : ما سمعت شعر امرأة قط إلا أحسست فيه الضعف ! فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال فى لهجة الفطِن المحترس : تلك فوق الرجال !

ونحن نقول فى مى ما قال بشار فى الخنساء ، ونزيد عليه أن مى هى الأديبة الكاملة فى تاريخ الأدب العربى كله ! أما إجمال هذا التفصيل فله مناسبة أخرى .

(المنصورة) احمد حسن الزيات

مسابقة الأدب العربى لطلبة السنة التوجيهية

معرض الآراء الحديثة

للدكتور زكى مبارك

كلمة المترجم — كيف يقرأ الطالب هذا الكتاب — تنبؤات سياسية — غاية وطنية — ما هذا الكلام ؟ — وما هذا أيضاً ؟ — التماسك فى الأخلاق البريطانية — الغيرة على الريف — فكرة فلسفية — وثبة جديدة موضوعات الدرس — اختبار جديد

« معرض الآراء الحديثة » كتاب ألفه لويس دكنسن ، وترجمه محمد رفعت . ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهو يقع فى ١١٥ صفحة بالقطع المتوسط ، وثمنه ستة قروش

كلمة المترجم

لم يبذل المترجم جهداً فى التعريف بالكتاب ، ولعله أساء إلى المؤلف بالكلمة التى نص فيها على أن فى الكتاب بعض المغالطات وبعض الخطأ فى الآراء ، فأنا أرجح أن المؤلف قصد تلك المغالطات وتلك الأخطاء ، ليبين ما قد يقع فى المجتمعات السياسية والأدبية من الانحراف ، أو ليتخذ منها وسيلة للنقاش والجدال .

فعلى الطلبة أن يراعوا هذه الناحية وهم يدرسون الكتاب

وحدثنا المترجم أنه حذف عبارات لا يستسيغها الذوق العربى وليته لم يفعل ؛ فإن الغرض من نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية يشمل التعريف بما بيننا وبين الأوربيين من اختلاف الأذواق .

وأراح المترجم نفسه من ترجمة العبارات التى وُشِّيت بالتشبيهات والإشارات إلى الأساطير اليونانية فى خطبة « فيفيان » لأنه « وجد أن كل عبارة من عباراته تستلزم شرحاً وتعليقاً طويلاً » وبهذا الكسل أضاع فرصة من فرص الترجمة ، وهى إعطاء القارئ العربى فكرة عن اتصال التعابير الإنجليزية بالأخيلة اليونانية فى بعض الشؤون

فأرجو أن يلتفت المترجم إلى هذه الملاحظات فى الطبعة الثانية

كيف يقرأ الطلبة هذا الكتاب

أراد المؤلف أن يصور الاتجاهات السياسية والاجتماعية والأدبية فى بلاد الإنجليز ، بأسلوب يشبه بعض الشبه أسلوب أفلاطون ؛ فأنطق ثلاثة عشر خطيباً بأقوال تلخص ما كان يعتلج فى ضمير المجتمع البريطانى عند تأليف الكتاب ، وبهذا صح له أن يسميه « معرض الآراء الحديثة » وهى آراء جماعة بعضهم من المحافظين ، وبعضهم من الأحرار ، وبعضهم من الاشتراكيين ، وبعضهم من الفوضويين وفيهم الأستاذ والصحفى والشاعر والأديب ورجل الأعمال

والمؤلف يصور هذه الجماعة وقد اجتمعت فى داره بالريف فى ليلة من ليالى يونيه ، وقد حملها القيظ على أن تسمر فوق السطح كما يصنع الناس فى بغداد ، وفى تلك السهرة تحدثت الجماعة بلا تحفظ ولا احتراس ، فقال كل خطيب ما قال وهو فى أمان ، بدون أن يخطر فى البال أن كلامه سيدون فى كتاب خاص

ويمعن المؤلف فى توكيد هذا الخيال الطريف ؛ فيشرح كيف كانت الأحوال النفسية لأولئك الخطباء ، وكيف كانوا يتبرمون بالجدل من حين إلى حين ، كأن يقول على لسان أحد المجادلين :

« لقد خلت الحلبة واختفت المقاعد الصامتة فى جوف الليل وبدت فى ضوء القمر الضعيف أشباح روحانية ترفرف على مشاهد خلافاتنا العارضة ، وهذه الأشباح هى التى تقف من خلفنا وتسدد الضربات التى يلوح أنها تصدر عنا ، فإذا ما انقضت آجالنا استنفرت هذه الأشباح خلقاً غيرنا للقتال والنزاع ، وإذا سحب النسيان ذيله على أسمائنا أحيطت أسماء غيرها بهالات من المجد الفانى . فعلام إذن نقضى الليل كله حتى مطلع الفجر فى كدح وضجيج ؟ إن سماء واحدة تظللنا ، ونجوماً بعينها تطلع وتغرب علينا ، وليست آراء رمتهم إلا زبداً يذهب جفاء ، وإن التيار ليجرف الجميع على حد سواء نحو القدر المحتوم ، فلنتقابل ولو فترة قصيرة أمام قوته الصامتة الجارفة ، ولنمد أيدينا لنتصافح فى هذه اللحظة من وراء هذه المنضدة »[1]

فهذه لفتة أديب متوجع من إيغال أهل الفكر والرأى فى الخصومة والعِداء ، ولهذه اللفتة نظائر لا تخفى على القارئ

(١) ص ٢٣

وهي تشهد بروحانية هذا الأديب[1]

وأرجع فأقول إنه يجب على الطالب أن يذكر أن المؤلف يجسم بعض الآراء عامداً متعمداً ، ليصح له أن يناقشها بعد ذلك بقوة أو بضعف ، ليصور اتجاه الآراء في بلاده أو ليصور اتجاهه الخاص ، وإن كان السياق يشهد بأنه نزه نفسه عن التحيز لهذا الرأي أو ذاك

تنبؤات سياسية

لم يحدثنا المترجم في مقدمته الوجيزة عن التاريخ الذي ظهر فيه كتاب « معرض الآراء الحديثة » ولم أجد من الوقت ما يسمح بتحقيق ذلك التاريخ ، فقد كانت النية أن أقرأ الكتاب في القطار وأن أكتب مقالي عنه بالليل ، حين أصل إلى أحد البلاد ، ولكن رفيقي في السفر وهو الأستاذ محمد خلف الله شغلني عنه بحواره الطريف ، فلم يبق إلا أن أقرأ الكتاب وأدون ملاحظاتي عليه في وقت لا يتسع لما ضاق عنه وقت المترجم الفضال ! وهل يطالَب المسافر بما لا يطالب به المقيم ؟

في الكتاب عبارة تدل على أنه أُلف قبل الحرب الماضية ، لأن المؤلف يشير في بعض عباراته إلى « عاهل ألمانيا » وهو بالتأكيد رجلٌ غير هتلر ، فهو غليوم الثاني

وهنا يظهر ما في الكتاب من تنبؤات تصورها العبارة الآتية :

« إني أرى المستقبل ينذر بالحروب وإشاعات الحروب ، ويُخيل إليّ أن هذه الأمة بنوع خاص قد أصبحت هدفاً لحسد شعوب أوربا وشرهها وكراهتها وأطماعها ، وما ذلك إلا بسبب ثرائها وقوتها ونجاحها المنقطع المثيل . أرى هذه الشعوب تتطلع إلى الخارج تبحث عن منافذ لسكانها المتزايدين ، ولكنها تجد أن الجنس البريطاني قد سبقها إلى احتلال كل ركن من أركان المعمورة ، وأن الراية البريطانية تخفق على جميع جهات الأرض ، ولكن أملنا الأكبر في المستقبل ينبعث من هذا الخطر الرئيسي ، لأن بلاد الإنجليز لم تعد مقصورة على انجلترا نفسها ، بل إنها قد بذرت في كل قارة من قارات العالم بذوراً حية قوية ترجو أن تتعهدها بالعناية لكي تدب فيها الحياة ، فيصبح كل منها عضواً نافعاً قائماً بواجبه في جسم هذه الأمبراطورية ، بل إنني لأرى الروح قد أخذت تسري في هذه الأعضاء ، وأعتقد أن المستعمرات البريطانية لن ينفرط عقدها فتتساقط عنا تساقط الفاكهة الناضجة عن الشجرة ، ولن تكون ممتلكاتنا غنيمة لغيرنا . وسوف تستيقظ الأمة عاجلاً أو آجلاً لتؤدي رسالتها الأمبراطورية وسوف تخفق معنا قلوب إخواننا الإنجليز من وراء البحار ، ويكون الاتحاد الذي أتنبأ به هو اتحاد الشعوب البريطانية في جميع أنحاء العالم ، لا اتحاد الإنسانية كلها »[1]

فإن كان هذا الكلام قبل الحرب الماضية فهو عجب ، وإن كان قبل الحرب الحاضرة فهو أعجب ، وهو نفسه الكلام الذي يهتف به الإنجليز في هذه الأيام ، والذي يستنفرون به أنصارهم في الشرق والغرب صباح مساء

غاية وطنية

وهذه العبارة تدلنا على أن المؤلف « غاية وطنية » ، فهو يريد تنبيه قومه إلى ما يحيط بهم من أخطار بسبب تحاسد الشعوب الأوربية ، ويحاول أن يخلق لبلاده عصبية في الأقطار التي تخفق فوقها الراية البريطانية

ومع أن المؤلف لا يجهل أن اصطراع الآراء المتنافرة قد يعرّض بلاده لأخطر المصاعب ، مع هذا لا يفوته أن يَعرض تلك الآراء بترفق وتلطف ، وكأن لسان حاله أو مقاله يشهد بأن تلك الآراء ليست إلا نباتات بريطانية جديرة بالعناية والاهتمام ، وإن لم يخلُ بعضها من شذوذ

ما هذا الكلام ؟

المؤلف حريص على ضرب الآراء بعضها ببعض ، ولكنه يتسامح مع الخطيب الذي شرح مزايا الأمة الأمريكية ، فما هذا الكلام ؟ ولأي غرض قريب أو بعيد استباح المؤلف أن يثني على الأمة الأمريكية بلا اقتصاد ولا اعتدال ؟

لذلك أغراض :

الغرض الأول هو التعريف بحقيقة الأمة الأمريكية في مذاهبها الماشية ، وهنا يهتم المؤلف بتقرير ما عليه الأمريكان من احترام الواقع الملموس ، وكأنه يدعو قومه إلى فهم هذا الجانب من الذهنية الأمريكية

(١) أنظر مثلا ما جاء في س ٣٨ وما جاء في س ١٠٧

(١) س ٢١

يقول الأمريكان : « دعونا نأكل ونشرب » يقولون ذلك وهم مؤمنون بقولهم إيماناً قوياً صحيحاً ، ولا يزيدون عليه ذلك القول المتبط السقيم « فإننا سنموت غداً »[1]

ومع أن المؤلف ساق هذا الكلام مساق السخرية من الأمريكان فأنا أرجح أن له غاية في عرضه على مواطنيه ، عساهم ينتبهون إلى تفاهة الاهتمام بالنظريات

الغرض الثاني هو الغض من قيمة المناقشات الدينية ، وهي المناقشات التي بددت قوى الشعوب الأوربية في أجيال طوال

من رأى المؤلف أن الدين في أمريكا نبات طفيلي بلا جذور وأن انتسابهم إلى المسيحية ليس إلا وهماً من الأوهام ، برغم ما تشهد الظواهر من تعلقهم بالدين

الغرض الثالث هو حرب البلادة الممثلة في اجترار الماضي ، فهو ينبه قومه إلى أن حرمان الأمريكان من الماضي الجليل في الآداب والفنون لم يحل بينهم وبين الظفر بالمكان الأول بين أقوياء الشعوب

الغرض الرابع هو الحط من قدر الثرثرة الاجتماعية ، فالأمريكان لا يفكرون في غير الابتكار والاختراع ، ليكونوا أقدر الناس على غزو الأسواق بالمنتجات التي تسير التمدن الحديث . وهو اتجاه ظاهر النفع بلا جدال

وما هذا أيضاً ؟

أعطى المؤلف الكلمة لرجل إيرلندي فوضوي ليقول على لسانه وهو يعرض أحد الأناشيد : « هو أقوى محدٍّ وجِّه إلى انجلترا بلادكم ، البليدة الطبع ، العقيمة الخيال ، الضعيفة التصور »

ومع هذا لم يفته أن ينطق ذلك الخطيب بأنه لا يقصد انجلترا بالذات ، وإنما يقصد أوربا وأمريكا والعالم كله ، فما معنى ذلك ؟

معناه أن للمؤلف غاية نبيلة ، هي إيقاظ العبقرية الإنسانية ، وهي لا توقظ بغير العنف ، ثم يقرر بلسان ذلك الخطيب « أن ما قام بالسيف لا يُمحَى بغير السيف ، وما أُسِّس على العنف لا يقضى عليه بغير العنف » وينطلق فيقرر مرة ثانية بلسان ذلك الخطيب أن في العالم فوضويين لم يُلقُوا خطاباً ولم يحملوا سلاحاً ، وهم المحاربون بقوة الروح

« إن في العالم أشياء بلغت من الشر مبلغاً لا تصلح معه إلا للاحراق ، وإن فيه عقبات قد وصلت إلى درجة من الهول والضخامة لا يغني معها إلا النسف بالديناميت ، وإن الهدم مقدمة ضرورية للخلق والبناء »

كذلك يقول المؤلف بلسان ذلك الفوضوي الإيرلندي ، فهل نراه يتربص بالأمة الإنجليزية ، هل نراه يدعو إلى العنف والعسف ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما هو رجل يصور اشتجار الآراء في عصره بنزاهة وإخلاص

ولكن ما غرض المؤلف من شتم انجلترا بلسان أحد الإيرلنديين ؟

له من ذلك غاية وطنية ، هي وصف انجلترا بسعة الصدر ، وسماحة القلب ، وإلا فكيف استباح أحد أبنائها أن يُنطق رجلاً إيرلنديّاً بأن النظام البرلماني في انجلترا واهي الأساس ؟

« ما أتعس حظ عضو البرلمان حين يضطر لإعطاء صوته في مسائل لا حصر لها ، ولا يدري منها أولياتها ، ولكنه يفعل ما يفعل إطاعة لأوامر رؤساء الأحزاب الذين تسيطر عليهم آلة حزبهم العمياء البلهاء ! إن ذلك النظام يجعل من الشعب عبيداً مسخرين للنواب ، ويجعل النواب مسخرين لرؤسائهم ، والرؤساء مسخرين لآلة عمياء مجردة من الضمير ... ... »[1]

والمؤلف لا يثور على النظام البرلماني في كل وقت ، وإنما يمنح فرصة الثورة على ذلك النظام لرجل إيرلندي ، وهو يرجو أن يكسب بذلك عطف الإيرلنديين على الإنجليز ، بأسلوب طريف ، هو « تصعيد » ثورتهم المكبوتة على الأمة الإنجليزية

التماسك في الأخلاق البريطانية

أشرت من قبل إلى أن هذا الكتاب يصور اشتجار الآراء بين جماعة من البريطان ، وأذكر الآن أن ما فيه من صيال ونضال يصور حيوية التماسك في الأخلاق البريطانية ، وللانجليز « في بلادهم » أخلاق صحاح ، وكلمة « في بلادهم » مستعارة من حافظ باشا عفيفي ، والنص عليها واجب ، لأن الإنجليز في غير بلادهم معرضون للخطأ والانحراف ، ويرجع ذلك إلى أن الإنجليزي بطيء الذهن وإن كان قوى الخلق ، وهو لذلك

---

(١) ص ٦٥

(١) انظر بقية هذا الكلام المزعج في ص ٣٣

ينتظر إلى أن توجد الحجج التي يحكم بها لك أو عليك ، وبهذا تضيع عليه فرص قد تعود وقد لا تعود

وأقول إن « معرض الآراء الحديثة » ألفه إنجليزى مطمئن فهو يحاور ويجادل تحت ظلال الأشجار فى الصيف أو بجانب الموقد فى الشتاء

إرجع إلى الصفحات التى تصور ما عانى المؤلف وهو يضرب الآراء بعضها ببعض فى تشريح مذاهب الأحرار والمحافظين

إرجع إليه وهو يكاد يهتف بأن الكفر من الشرائع ، وهو موقفٌ وصفه المترجم بأنه ينافى الذوق العربى ، ولو أنصف لقال إنه ينافى الذوق الإسلامى ، فما كانت العبارات التى حذفها المترجم إلا فناً من الكفر الملفوف ، وهى مع ذلك ليست إلا تصويراً لما يساور قلوب المؤمنين فى بعض الأحايين

الإنجليزى يكفُر حين يشاء ، ولكنه يكفُر كُفر الرجال لا كفر الأطفال ؛ فهو يشرِّح ما يجول بصدره من حقائق وأباطيل ، ليعرف المصادر التى توحى إليه بالشك أو اليقين

والذى يقرأ كتاب « معرض الآراء الحديثة » بدون إدراك هذا المعنى لن يكون له من فهمه غير أشباح وأطياف !

الريف ، الريف

فى الكتاب كلامٌ كثير عن الريف وسادة الريف ، ومن ذلك الكلام ندرك أن الأمة الإنجليزية ترى الريف ملجأها الأمين ، وقد تراه الأصل فى مجدها الأثيل

وشعور الإنجليز بأهمية الريف يخلُق فى كتّابهم ومصلحيهم فكرة العناية الموصولة بتجميل الريف والتألم لما يقع فيه من فقر أو عناء ! !

وهنا يلتفت المؤلف إلى سوء العاقبة ، عاقبة الإسراف فى تجسيم شقاء الريف فيقول بلسان أحد الخطباء :

« لقد كنت أقرأ فى أحد الأيام مقالاً من تلك المقالات المروِّعة عن حال الزراع ، ثم ذهبت بعد ذلك راكباً إلى الريف فتبين لى أنه لم يبلغ من السوء الحد الذى وصفه به الكاتب ، ولا أعنى بذلك أن حال الريف كلها كانت مما يسرّ له الإنسان ، ولكنه رغم هذا كان مدهشاً حقاً ؛ فقد رأيت خيلاً ضخمة يتدلى من جباهها شَعرٌ أشعث ، ترعى فى المروج الخضراء ، ورأيت ماشية تخوض فى الماء الضحل ، وجداول تحف بشطآنها أشجار الصفصاف ، وعصافير تزقزق ، وقنابر وطيوراً أخرى مغرِّدة . ورأيت بساتين الفاكهة ترتدى حلة من الزهر الأبيض النضر ، وحدائق صغيرة اهتز ورقها وربا فى ضوء الشمس الساطع وظلال السحب السارة فوق السهول ، ورأيت الزارع الذى أفاضوا فى وصف حاله وسط هذا كله ، فلم أره بمظهر البؤس المجسّم كما يقولون ، بل رأيته يفكر فى خيله أو فى عيشه وجبنه ، أو فى أطفاله يحْبُون فى الطريق ، أو فى خنازيره وديكته ودجاجه . ولست أظن بالطبع أنه يدرك ما فى هذه الأشياء كلها من جمال ، ولكننى واثق من أنه كان يشعر شعوراً مريحاً بأنه جزء من هذا كله ، وأن حاله طيبة ، ولم يكن قلقاً من حاله كما تقلقون من حاله . ولست أعنى من هذا أنْ لا حقّ لكم فى القلق ، ولكنى أعتقد أن من واجبكم أن لا تظنوا العالم كله شراً لا يطاق لمجرد أنكم تستطيعون أن تتصوروا عالماً خيراً منه[1] »

غاية فلسفية

ونظرة المؤلف فى هذا الموضوع نظرة إصلاحية ، وهى تشهد بأن الإنجليز يعانون بعض ما نعانى من كثرة الكلام عن متاعب أهل الريف ، وهو كلام يضرّ أكثر مما يفيد ، لأنه يزعزع طمأنينة الريفيين ، ويحرمهم الاستمتاع بما فى الحياة الريفية من خيرات وثمرات

ولكن للمؤلف من وراء هذا الكلام غاية فلسفية تمثلها دعوته الصريحة إلى الترحيب بالوجود فى جميع مناحيه ، ومن رأيه أن « الحياة نفسها هى النعمة ، وهذه النعمة دائمة فى جميع العصور ولجميع الطبقات » . ثم يندفع فيقرر أن « المُثُل العليا لا وجود لها فى الحقيقة » وهو بهذا يريد أن الحرمان من النعيم الموجود لا يعوَّض بالنعيم المنشود ؛ ثم يقفز إلى أعلى أبراج الفلسفة الشعرية فيهتف « إنى حين أغادر اجتماعاً أو أفرغ من قراءة مقال مروِّع عن الإصلاح الاجتماعى أشعر كأن من واجبى أن أعانق كل شىء وكل شخص أقابله لمجرد أنه أحسن إلى العالم بوجوده فيه ، أرى كأن من واجبى أن أعانق سائقى السيارات

(١) أنظر ص ٨٢

العامة والمركبات وأصحاب الحوانيت والأكواخ القذرة ومن فيها من الضحايا واللصوص . إن هؤلاء جميعاً فى الوسط الذى يعيشون فيه يطفون فوق نهر الحياة العظيم الذى كان وجوده فى الماضى والحاضر — وسيكون وجوده فى المستقبل — مبرراً كافياً لوجوده مهما كان البلد الذى يجرى فيه »[1]

وهذه لفتة شعرية على جانب من الصحة والقوة ، فإن التشكى الكثير من نظام الوجود ليس من علائم العافية ، إلا حين يراد به خلق نظام جديد ميسور ، لا تخيُّل نظام لا وجود له إلا فى أذهان المتكلفين

وثبة جديدة

ولكن المؤلف يثب بعد ذلك وثبة جديدة بلسان خطيب آخر فيقرر أن الإنسان فى طور التكوين ، وأن واجبه منذ هذه اللحظة أن يكوّن نفسه بنفسه ، فقد سارت به الطبيعة إلى الحد الذى وصلت به إليه ، فوهبته أعضاء جسمه وعقله ومبادئ روحه ، وأصبح فى استطاعته أن يكمل هذا الهيكل البديع أو يفسده إذا شاء

فماذا يريد المؤلف أن يقول ؟

يريد أن يحمل عبء الكمال فوق كاهل الإنسان لا كاهل الطبيعة « لأن الطبيعة لا تريد أن توجد إنساناً لا يستطيع أن يوجد نفسه ، فإذا عجز هو عجزت هى أيضاً ، ورجع المعدن إلى بودقته ، وبدأت العملية من جديد ، أما إذا نجح فنجاحه عائد عليه وحده ، فمصيره إذن فى يده هو لا فى يد غيره »[2]

وهذه لفتة أخلاقية ساقها المؤلف على لسان أحد الشعراء ، وتظهر قيمة هذه اللفتة لمن يتذكر الفروق بين الإنسان القديم والإنسان الجديد ، فقد استطاعت الإنسانية بتطورها المستمر أن تصل إلى آفاق كان يعجز عن تصورها الخيال

موضوعات للدرس

يظهر أن هذا المقال لن يتسع للالمام بما فى الكتاب من العناصر الأساسية ، فعلى الطلبة أن يراجعوا المسائل الآتية ، ليواجهوا لجنة الامتحان وهم على بينة من أكثر ما فى الكتاب من أغراض :

١ — الفرق بين النظرة المادية والنظرة الدينية : (راجع ص ٥٢)

٢ — هل تتدخل الدولة لتنظيم الزواج ؟ (ص ٥٣ و ٥٤)

٣ — هل يستطيع الشعب أن يحكم نفسه ؟ (ص ٥٥ و ٥٦)

٤ — تحرر الجيل الجديد من أوهام الجيل القديم (ص ٥٧)

٥ — بين العقائد والعواطف والعقول (ص ٤٦ و ٤٧)

٦ — نظرية المساواة دُرست فى مكانين ، فلأى غرض نوقشت هذه النظرية ؟

٧ — أنظر نقض فكرة الحرية فى (ص ١٧)

٨ — هل تستطيع الاشتراكية أو الفوضوية أن تغير الحقائق الأساسية ؟ (ص ٧٣ و ٧٤)

٩ — هل تعيش الحكومات لأنها سرقت حقوق الناس ؟ (ص ٣١ و ٣٢)

١٠ — الهجوم على التعليم الابتدائى والثانوى والعالى (ص ٥٤)

١١ — وضع المترجم تذييلاً تحدث فيه عن بعض الآراء وبعض الأعلام ، فانظر فى ذلك التذييل ، فقد يوجَّه إليك سؤال متصل بما فيه من المعلومات الفكرية أو التاريخية

١٢ — إن غام أمامك جوّ هذا الكتاب ، فاقض ساعة أو ساعتين فى درس كتاب « الإنجليز فى بلادهم » لتعرف المشكلات التى تعرّض لها « دكنسن » بالنقد والتشريح ، فالحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره ، كما قال القدماء

إختبار جديد

من المحتمل أن أكون عضواً فى اللجنة التى تحكم فى مسابقة الأدب العربى ، فما السؤال الذى أوجهه إلى المتسابقين عند اختبارهم فى هذا الكتاب ؟

سأسألهم عن الفروق بين اتجاهات الخطباء من طريق العبارة والأسلوب

وأدلكم على الجواب فأقول :

عبارة « كنتلوب » تختلف عن عبارة « فيفيان » أشد الاختلاف ، ولكن كيف ؟ إليكم يوجه السؤال !

وعبارة « إلس » تغلب فيها المعلومات على الدراسات ، فما سبب ذلك ؟ فكروا قليلاً تجدوا الجواب !

وبين أشخاص الكتاب خطيب دخل فى شعاب غير شعاب مهنته الرسمية ، فمن ذلك الخطيب ؟

(١) ص ٨٣ (٢) ص ١٠٣

كيف يكتب التاريخ ؟

للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٧ —

نقد الأصول

تحرى نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها [1]

نبحث الآن ناحية أخرى فى نقد الأصول التاريخية . فلا بد للمؤرخ قبل استخدام المعلومات التى ترد فى تلك الأصول أن يتحرى نصوصها ، وأن يتثبت من حرفية ألفاظها وعباراتها سواء المخطوط منها أو المطبوع . وعلى المؤرخ أن يبحث هل كتبت هذه الأصول بخط المؤلف ، أم أنها نقلت عن نسخة المؤلف الأصلية ؟ وإذا كانت قد طبعت فهل طابقت مخطوطة المؤلف الأصلية ؟ وألم يدخل عليها بعض التحريف اللفظى أو النقصان أو الزيادة الطفيفة سواء عن قصد أو عن غير قصد ؟ وإنه ليتضح لنا أهمية تحرى نصوص الأصول التاريخية وألفاظها عندما نجد أن مؤلف اليوم بالرغم من إمكانه مراجعة تجارب الطبعة بنفسه ، فإنه قد تفوته بعض الأخطاء القليلة . وعمال المطبعة كثيراً ما يجعلون المؤلف يقول كلاماً لم يقصده بالمرة ؛ وإن تغيير حرف بسيط فى كلمة قد يغير المعنى أو يقلبه رأساً على عقب

ولقد ضاع الكثير من الأصول التاريخية ولم يبق إلا نسخ أو صور منقولة عنها . فهل هذه النسخ قد نقلت عن الأصول الأولى ، أم نقلت عن صور لها ؟ فينبغى أن يتأكد الباحث من أن النص الموجود أمامه يطابق الأصل الأول الذى وضعه المؤلف . وإذا وجدت أخطاء فى النسخة المنقولة — وهو الغالب — لا بد من محاولة تصحيحها بالرجوع إلى الأصل الأول ، إن كان من المستطاع ذلك . وإذا ما اعتمد الباحث على نص منقول عن أصل أول ، ويحتوى على أخطاء فى النقل ، فإنه يحمّل المؤلف أموراً غير مسؤول عنها ، وإنما المسؤول عنها الناقل . ومشاهير المؤرخين لا يتحرون دائماً صحة نصوص الأصول التى يعتمدون عليها . وحتى وقت قريب كانت تطبع الأصول التاريخية بدون مراعاة طرق النشر العلمى ، سواء لتجنب المجهود أو للعجلة . إلا أنه قد حدث تقدم كبير فى هذا الميدان المهم فى الوقت الحاضر

والأصول التاريخية المخطوطة يمكن أن تقسم من ناحية تحرى النص وتحقيق اللفظ إلى ثلاث حالات . فالحالة الأولى هى أن يكون أمام الباحث الأصل الأول بخط المؤلف نفسه . ويمكن التأكد من ذلك بملاحظة نوع الورق والحبر وبدراسة خط المؤلف ولغته ومعلوماته من كتاباته الأخرى ، إن وجدت . وبتطبيق ذلك على الأصل الموجود يستطيع الباحث أن يستفيد وهو مطمئن من هذه الناحية ، من المعلومات التى يوردها هذا الأصل الأول ، كما يمكنه أن ينشر هذا الأصل التاريخى لفائدة العلم . إنما ينبغى أن يراعى عند النشر فى كل الحالات ، إبقاء الأصل الأول كما هو بحروفه وألفاظه وأجروميته وأخطائه الخاصة به ، بدون تصحيح أو تعديل فى النص نفسه . لأن أى تغيير قد يغير المعنى . وبقاء النص الأول كما هو يساعد الباحث على فهم تاريخ ذلك العصر المعين كما كان فعلاً ؛ فيدرك

(١) يمكن القارئ الذى يرغب فى دراسة هذه الناحية من نقد الأصول أن يرجع إلى فصول فى بعض المراجع مثل :
— أسد رستم : مصطلح التاريخ . ص ٤٤ — ٥٧
— Langlaois & Seignobos : op. cit. Eng. Trans. pp. 71-86
— Fling : op. cit. pp. 88-102

المفهوم أن هذا الكتاب يصور اصطراع الآراء فى عهد المؤلف ، فهل ترون أن انجلترا كانت فيها مشكلات لم يتعرض لها المؤلف ؟

أدلكم على الجواب فأقول : كنا ننتظر خطيباً يتحدث عن متاعب انجلترا فى المستعمرات ، وخطيباً يتكلم عن أزماتها الروحية ، وخطيباً يشرح خصائص الفرنسيس والألمان ، على نحو ما صنع الخطيب الذى شرح خصائص الأمريكان

وقد مرّ المؤلف مرور الطيف على المعضلات التعليمية ، فما سبب ذلك ؟

اقرأوا حياة المؤلف ، كما لخصها المترجم ، تجدوا الجواب !

أما بعد ، فهل ترون أنى دللتكم على أسرار هذا الكتاب ؟

لم يبق إلا أن تطلبوا أن أؤدى امتحان المسابقة بالنيابة عنكم ، يا أشقياء !

وأنا والله حاضر ، إن سمح وزير المعارف ! زكى مبارك

الباحث عقلية رجال العصر وأساليبهم فى التعبير ، ويلم بتطور اللغة والاصطلاحات التى سادت فى زمن مضى

ومن الأمثلة على ذلك ما أورده أحمد الخالدى الصفدى فى كتابه عن تاريخ الأمير فخر الدين المعنى من ألفاظ وأساليب عامية لبنانية محلية مختلطة بالتراكيب العربية ، مثل « سبق أهله وجا حتى يعلم الأمير ... فوصل بحال الليل إلى باب القلعة ودق الباب على البواب حتى يروح يعلم الأمير ... »[1] . ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ما ورد فى الفرمانات السلطانية العثمانية من التعبيرات الخاصة مثل « قدوة الأمراء الكرام ، عمدة الكبراء الفخام ، المختص بمزيد عنايت الملك العلام ... »[2] . أو الوثائق المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية والتى تحتوى على معلومات مدونة بلغة وأجرومية خاصة بالعصر الذى دونت فيه ، مثل Habbia Hauuto و Amicitia فى الوثائق الإيطاليـة[3] ؛ ومثل ألفاظ Scauoir و Celuy و Laysois الواردة فى الوثائق الفرنسية[4] ؛ ومما يخالف ذلك ألفاظ وأساليب ومصطلحات هذه اللغات فى الوقت الحاضر . فإذا ما نشرت مثل هذه الأصول التاريخية ينبغى أن تبقى كما هى بغير تعديل

والحالة الثانية فى هذه الناحية من نقد الأصول ، هى التى تضيع فيهـا نسخة المؤلف الأولى ، ولا يبقى أمام الباحث إلا نسخة واحدة منقولة عنها . فدراسة هذه النسخة المنقولة الوحيدة للتثبت من صحة ألفاظها ونصوصها تستلزم الدقة والحذر . ومهما كانت دقة الناسخ وأمانته فإنه قد يتعرض للخطأ فى النقل . وتوجد أسباب وأنواع للاختلافات التى يمكن أن تلاحظ بين الأصل الأول وبين المنقول عنه . فقد تسقط ألفاظ أو جمل عند النقل من باب النسيان أو السهو ، أو لعدم وضوح المعنى ، أو للخطأ فى قراءة بعض الألفاظ أثناء النقل ، أو للخطأ فى السمع إذا ما أملى على الناسخ ما يكتب . وبعض النساخ يغيرون ويبدلون الألفاظ التى ظنوا أنها وردت خطأ فى الأصل الأول ، واعتقدوا أن من واجبهم تصحيحها .

(١) أحمد الخالدى الصفدى : تاريخ الأمير فخر الدين ، المعنى نشره الدكتور أسد رستم والأستاذ أفرام البستانى ، بيروت ١٩٣٦ ، ص ٨

(٢) وثائق دمشق فى القرن الحادى عشر الهجرى

(٣) وثائق أرشيف فلورنسا فى ١٠٩٨

(٤) وثائق المكتبة الوطنية فى باريس فى ١٦١٤

والتغييرات الناتجة عن عمد أو عن خطأ فى فهم النصوص من الصعب تحقيقها فضلاً عن كشفها . وبعض الفقرات التى تسقط قد لا يمكن التعويض عنها . ولكن من المستطاع معرفة الأخطاء التى تحدث عفواً أو سهواً ، بملاحظة الارتباك فى المعنى أو الخلط فى بعض الحروف والكلمات ، ووضع أحرف أو كلمات مكان أخرى ، أو تكرار بعض المقاطع أو كتابة مقاطع بعض الكلمات مرة واحدة بدلاً من مرتين ، أو الخطأ فى تقسيم بعض الكلمات أو بعض الجمل . وكل هذه الأنواع من الأخطاء والتغييرات فى النصوص الأولى والتى تحدث سواء عفواً أو عن قصد ، قد قام بها الناسخون فى كل اللغات وفى جميع الأقطار وفى كل عصور التاريخ

وعلى الباحث فى حالة ضياع نسخة المؤلف الأولى مع بقاء نسخة واحدة منقولة عنها ، أن يدرس هذه النسخة ويعرف كل خصائصها من ناحية الشكل واللفظ والمصطلحات والمعلومات التاريخية ؛ ثم يدرس حياة المؤلف ومؤلفاته الأخرى إن وجدت ويلم بأشهر الكتاب المعاصرين الذين تناولوا نفس الموضوع الذى كتب عنه . وتطبيق هذه المعلومات على النسخة الوحيدة المنقولة يساعد فى أحوال كثيرة على تحرى نصها وعلى التثبت من صحة ألفاظها . ولقد حقق الدكتور أسد رستم مثالاً يوضح هذه الحالة . فهو قد وجد أن عدداً كبيراً من الأصول الأولى لمناشير إبراهيم باشا فى سوريا قد فقد ، وإنه لم يبق منها إلا نسخة واحدة منقولة ومطبوعة ؛ مثل المنشور الذى أصدره إلى متسلم دمشق فى صفر ١٢٤٨ هـ عن بعض حوادث اصطدامه بالعثمانيين والذى ورد فى كتاب « مذكرات تاريخية بقلم أحد كتاب الحكومة الدمشقيين » ونشره الأب قسطنطين الباشا . ولاحظ الدكتور رستم أن بعض ألفاظه غير واضحة . فبحث طويلاً حتى وصل إلى سجلات المحكمة الشرعية فى طرابلس ، وعثر على منشور أصدره إبراهيم باشا إلى متسلم طرابلس ويحتوى على نفس المعلومات التاريخيـة ؛ وأمكنه أن يستنتج أن ناسخ منشور إبراهيم باشا إلى متسلم دمشق قد أخطأ فى فهم بعض الألفاظ فقرأ استغنائوا « استفاقوا » وحيث أن « حنان » وأغنتام « غنائمهم » وهكذا[1]

(١) أسد رستم : مصطلح التاريخ : ص ٥٠ — ٥٣

وعلى كل حال فإن النسخة المنقولة عن أصل أول مجهول قد تقاوم كل جهود النقد لمحاولة الوصول إلى ذلك الأصل الأول وصحيح أن النقد كثيراً ما يمكنه أن يحدد التغييرات والأخطاء فى النص الوحيد المنقول، ولكنه كثيراً ما يقف عند ذلك دون أن يتخطاه إلى معرفة الأصل الأول . والباحث فى التاريخ قد يبالغ فى الشك فى بعض النصوص التى لم تتغير على الإطلاق، ويناقش النصوص أكثر مما ينبغى، ويضع افتراضات مبالغ فيها . ويعتبر عمل الباحث فى هذه الناحية نوعاً من الاجتهاد قد يصل إلى حد المغامرة

والحالة الثالثة هى التى يضيع فيها الأصل الأول ، وتبقى عدة نسخ تتشابه وتختلف فيما بينها ، ولا تعرف الصلة بينها ، ولا الصلة بينها وبين ذلك الأصل الأول . والباحثون السابقون كان عليهم أن يكافحوا للوصول إلى استخدام أول نسخة تقع فى أيديهم ، مهما كان نوعها ومهما كانت صلتها بالأصل الأول ثم أخذ الباحثون يتجهون إلى استخدام أقدم نسخة موجودة، ولكن قِدَم تدوين نسخة ما لا يعنى دائماً أنها أصح النسخ المنقولة عن الأصل الأول المجهول . فمثلاً مخطوط من القرن السادس عشر والذى ينقل عن أصل قديم ضائع من القرن الحادى عشر ، قد يكون أكثر قيمة من نسخة أخرى نقلت عن ذلك الأصل الضائع فى القرن الثالث عشر ، وتحتوى على تغييرات وأخطاء فى النص الأصلى . ولا شك فى أن الباحثين المحدثين يمتازون عن سابقيهم فى هذه الناحية ؛ فهم يستطيعون أن يقارنوا بين النسخ المتعددة المنقولة عن الأصل الأول ، فضلاً عن إمكان حصولهم على معلومات أفضل وأدق من تلك النسخ وعن العصر الذى وجدت فيه ، بقصد الوصول إلى النص الأول الصحيح بقدر الإمكان

وفى هذه الحالة يعمد الباحث إلى تحديد النص الأول ، أو أقرب ما يمكن إليه بالدراسة المقارنة ، وعلى أساس التشابه والاختلاف بين النسخ المختلفة ، وعلى أساس فهم لغة المؤلف وروحه والإلمام بعصره ، كما سبق الإشارة إلى ذلك . ولنفرض بأنه لدى الباحث عشرون نسخة لمخطوط واحد ، وأصلها الأول مفقود ؛ وأن ثمانى عشرة نسخة منها تتشابه نصوصها ، ولنسمها مجموعة (ا) ، وأن نسختين منها تتشابهان ولنسمهما (ب) . فالأغلبية العددية هنا لا قيمة لها ، ولا تدل على أن نصوصها هى الصحيحة . فمن الجائز أن سبع عشرة نسخة من مجموعة (ا) قد نقلت عن النسخة الثامنة عشرة . ففى هذه الحالة تكون مجموعة (ا) عبارة عن نسخة واحدة تكررت فى النسخ التى نقلت عنها . فيكون البحث موجهاً إذاً إلى تحديد أى النصين أقرب إلى الأصل الأول الضائع ، هل هو النص (ا) ، أم النص (ب) ؟

ويلاحظ الباحث عند تحديد العلاقة بين النسخ المتعددة لمخطوط واحد ، قاعدة شبه عامة ، وهى أن النسخ المتشابهة التى تحتوى على نفس المعلومات واردة بنفس اللغة وبنفس الأخطاء ، إما أن تكون قد نقلت عن بعضها البعض ، أو أنها قد نقلت جميعاً عن أصل أقدم منها ، أخذ عن الأصل الأول الضائع ، ويحتوى على نفس المعلومات ونفس الأخطاء . ولا يعقل من الناحية السيكولوجية أن عدداً من الناسخين ينقلون مستقلين أصلاً تاريخياً معيناً ويوردون نفس المعلومات بنفس اللغة وبنفس الأخطاء ؛ بل لا بد من وجود فوارق مختلفة بينهم

فعلى الباحث إذاً أن ينبذ جانباً النسخ المنقولة عن أصل واحد محفوظ ، وأن يستبقى فقط وبقدر المستطاع النسخ الرئيسية المستقلة التى نقلت عن الأصل الأول مباشرة ، أو التى نقلت عن أصل ثانوى معين منسوخ مباشرة عن ذلك الأصل الأول المجهول . وتقسم النسخ إلى جماعات وفصائل على أساس التقارب والاختلاف ، والقرب والبعد عن الأصل الأول ، إذا ما ثبت ذلك . وأنه لأفضل دائماً أن يكون لدى الباحث عدة نسخ أخذت مستقلة عن الأصل الأول الضائع . ونلاحظ أن كثرة النسخ تتعب الباحث أحياناً بدلاً من مساعدته فى العمل . وعند طبع الأصل التاريخى ، فى هذه الحالة ، ينبغى أن ترفق به فى الهامش الاختلافات التى توجد فى النسخ الرئيسية الأخرى .

(يتلى) حسن عثمان

آمـــال ...

للأستاذ محمد محمد المـــدنى

أخذت جماعة كبار العلماء تهتم بآمال الأمة المعقودة عليها ، وتفكر فى أن لها رسالة ، وتنظر فى الوسائل التى تؤدى بها هذه الرسالة

أخذت الجماعة تفكر فى هـذا كله ، وتهتم بهذا كله ، فتؤلف له اللجان ، وتضع له الخطط ، وذلك على أثر الاقتراح الذى رفعه إليها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الـكبير الشيخ محمود شلتوت بعد انضمامه إليها

وكان من آثار ذلك أن الأمة أخذت تلتفت إلى هذه الجماعة وتنظر إليها بعين الرضا بعد أن كانت تنظر إليها شزراً ، أخذت تدرك فائدتها وتستبشر خيراً بنهضتها المباركة ، ورجا الناس أن يغفر التاريخ لها ما ضيعت من عمر طويل يربى على الثلاثين عاماً ، وهى تغط فى نوم عميق هادئ متصل ، لا تـكدر صفوه الأكدار ، ولا تقطع اتصاله واطراده حوادث الليالى والأيام !

* * *

من الظواهر التى تدل على التفات الأمة لهـذه الجماعة ، ورضاها عن هذه النهضة ، تلك الرسائل التى جعلت تترى على رياسة الجماعة ، ولجان الجماعة ، وأعضاء الجماعة : فهذه رسالة تحمل معانى الغبطة والسرور ، وتتحمس فى التأييد والتشجيع ؛ وهذه رسالة تحث على تعجيل البر بهذه الأمة فى دينها وفقهها ، وعقائدها وعباداتها ، ونظمها ومعاملاتها ؛ وهذه رسالة تشفق على هذه الأغراض النبيلة من اللجان ، وما ألف الناس من تواكلها وتثاقلها ، وموت المشروعات النافعة على أيديها ؛ وهذه رسالة تتقدم باقتراحات تراها جديرة بالنظر والتنفيذ ، أو بالشكوى من عيوب مختلفة تريد لها الإصلاح والتقويم ... إلى غير ذلك

لقد لمست الأمة إذن فى هذه الجماعة معنى جديداً ، وأحست روحاً سرى فى أعضائها فسرت به « الآمال » ، وتجاوبت له أصداء النفوس بالمطالب والرغبات ، وأصبح الناس يتطلعون إلى هذه الجماعة لتنقذهم ممـا هم فيه ، ويرقبون على يديها إصلاح كثير من شئونها فى دينها ونظامها وثقافتها ، فإذا كنا نهنئ الجماعة الموقرة بهذه الثقة العظيمة من الأمة ، فإننا نحمد الله قبل كل شيء على هذه الظواهر الـكريمة التى تدل على حسن اتجاه الأمة إلى هذا الدين ، وتلمسها الأسباب للعودة إلى أحضانه ، والعمل بعبادته ، والاهتداء بهديه

إننا نحمد الله على ذلك ، ونستبشر به خيراً ، لأنه يدل على تأصل الروح الإسلامية فى المسلمين ، وعلى أن الأحداث لم تعبث بهـذه الروح ولم تفسدها ، وعلى أن الأمة لا تنتظر إلا القادة الصالحين ، لتسير وراءهم غير مترددة ولا وانية ، تحت راية القرآن الـكريم !

* * *

من ظن أن رسالة جماعة كبار العلماء رسالة سهلة يسيرة ، يكفى أن تنتبه لها ، وتأخذ فى أسباب أدائها ، وتجمع لها لجنة أو لجنتين ، وتعقد لها جلسة أو جلستين ، فقد ظن عجزاً

ذلك بأنها رسالة يجب أن تتضافر عليها الجهود لأعوام وأعوام ، وأن تحشد لها القوى المختلفة ، كما تجند الأمم قواها للحروب !

وهى رسالة تحتاج مع القوة إلى الشجاعة فى مواجهة الحقائق ، والجراءة على الباطل الذى مد رواقه ، وضرب بجرانه

وهى رسالة تحتاج مع القوة والشجاعة إلى الصبر والمثابرة والإخلاص للعلم والعمل والإنتاج

ستنظر الجماعة فى البدع التى شاعت وذاعت ، وتغلغلت فى أوساط العامة والخاصة حتى عد الناس كثيراً منها من الدين ، وأصبح عزيزاً عليهم يدافعون عنه ، ويغارون عليه

ستنظر الجماعة فيما لنا من عادات تتحكم فينا وتفرض علينا سلطانها الجبار ، وإرادتها القاهرة ، فنحافظ عليها ولا نتسامح فيها ، وربما عددناها من شعائرنا ، وحسبناها من تقاليد ديننا وزحمنا بها أنفسنا وأموالنا وحكمناها فى مصائرنا

ستنظر الجماعة فى هذا وأمثاله لتقرر ما هو بدعة وما ليس بدعة ، وتضع لذلك الأصول ، وتضرب فيه للناس الأمثال ، لعلهم يجتمعون على الحق ، ولا يهيمون فى أودية الباطل

وهنا ينبغى أن تتجلى شجاعة العلماء ، فما كان من خير

أقروه ، وما كان من شر أنكروه ؛ أما الخوف من العامة ومجاملتهم أو ممالأتهم على العقائد التى يعتقدونها ، أو العادات التى يألفونها ، وتأويل ذلك لهم على وجه له ظاهر من الصحة والقبول ، فهذا هو الخطر الأكبر ، ولو فعلته جماعة كبار العلماء لكان حكم التاريخ عليها قاسياً ، لأن التاريخ سيقول إن جماعة كبار العلماء قد سكتت عن رسالتها ثلاثين حولاً ، فلما استيقظت لما جملت تجارى أهواء الناس ورغبات الطوائف ، ولم تجرؤ على هدم الباطل ، فالتمست له المعاذير ، وأفتت فيه بالتأويل والتخريج !

ستنظر جماعة كبار العلماء فيما جد من نظم الأمة فى معاملاتها وقضائها واقتصادها ، وسترقب الأمة آراءها وبحوثها فى ذلك كله بقلوب واجفة لتعلم بأى روح سيمضى كبار العلماء فى حل مشاكلها وإصلاح نظمها ، أبالروح التى تدرك حاجات الناس ، وظروف الزمان ، وسماحة الشريعة ، وابتناءها على المصالح وعدم الحرج ؟ أم بالروح الجامدة المقلدة التى تتقيد برأى فلان وفلان ، وقواعد فلان وفلان ، مما اصطلح عليه المصطلحون فى زمان غير هذا الزمان ، وفى كتاب الله وسنة رسوله منأى عنه ، ومخلص منه ، وتيسير عظيم ؟

ستنظر جماعة كبار العلماء فى تفسير القرآن ، وما أدخلته الروايات المدسوسة عليه من إسرائيليات شوهت جمال القرآن وشغلت قارئه والمتدبر فيه عن العظة والاعتبار ، لتنبه على ذلك كله ، وترشد الناس إلى الصواب فيه ، وربما وضعت تفسيراً وسطاً للناس تنفى عنه الدخيل والضعيف والمكذوب

وهنا ينبغى أن ننبه إلى شىء آخر لا يقل خطراً عن هذه الإسرائيليات فى الإساءة إلى تفسير القرآن : ذلك كثرة الروايات المأثورة فى المعنى الواحد ، أو فى أسباب النزول

إنك لتقرأ الآية من كتاب الله فتراها واضحة لا غموض فيها ، حتى إذا أردت أن تستظهر على معناها الذى فهمت منها بكتاب من كتب التفسير وقعت فى بحر لجى لا ساحل له ، ورأيت روايات مختلفة متعارضة وغير متعارضة ، فلا تدرى بأيها تأخذ ، ولا بأيها تترك ، فتعود من حيث أتيت آسفاً على ما أثارته فى نفسك هذه التفاسير من شكوك

وهذا مما يشكو منه الناس من الشكوى ، وخصوصاً ضيوفنا من البلاد الإسلامية ، وفى بقائه صد عن القرآن الكريم وحجب عن نوره وهدايته

وقل مثل هذا فى « أسباب النزول » فليس من شك أن هذه الأسباب تفيد فائدة ما فى تجلية المعنى والإرشاد إليه ، ولكن الروايات فيها قد تعددت فى الموضع الواحد ، وتضاربت ، وربما أخرجت الآية أو الآيات إلى معنى سقيم يشهد الذوق السليم أنه لا يتفق وبلاغة القرآن وما له من عموم فى الهداية والتشريع ، ولو شئنا لضربنا لذلك الأمثال ولكنه بحث مستقل نرجو أن نعالجه بعد حين

فمن الخير إذن أن ينشر بين الناس تفسير تعتمده الجماعة يكون مع تنبيهه إلى الإسرائيليات خالصاً من هذه الروايات المتضاربة التى لا يعرف لها سند صحيح ، ولا يقرها ذوق سليم

وستنظر الجماعة فى واجب الدفاع عن الدين ، ورد المطاعن التى توجه إليه ، والشبه التى تثار حول عقائده أو قواعده

وأول واجب فى ذلك هو تبسيط العقائد ، وتنقية علم الكلام ولو إلى حد ما من الفلسفة التى طغت عليه وعقدته وجعلته فوق مستوى العامة وكثير من الخاصة . ثم الرجوع إلى طريقة السلف الصالح فى الإيمان بالغيب وما استأثر الله بعلمه دون تدخل فيه أو تهجم عليه ، فليس يضير المسلم مادام مؤمناً بأصل الحساب والسؤال أن يلقى الله من غير أن يعلم بالتحديد : هل سترتفع الأرض بنصف الميت الأعلى ليجلس للسؤال أو ستنخفض بنصفه الأسفل . وليس يضيره أن يلقى الله جاهلاً بلغة الملائكة السائلين أهى السريانية أم غيرها ، ولا بالموازين التى توزن بها أعمال الناس يوم القيامة : أمن حديد هى أم من نحاس ؟ وهل لما كفتان تسع كلتاهما السموات والأرض لو وضعت فيها أو هى على شكل آخر غير ما نعهد من موازين الدنيا ؟ فليس فى هذا كله فائدة مادام أصل الإيمان بالوزن والموازين كما ذكرها الله فى القرآن موجوداً والاعتقاد به حاصلاً

وستصطدم الجماعة حين تقوم بواجبها فى الدفاع عن الدين بفكرة التبشير ، وستعلم - حين تدرسها عن كثب - بخطرها

الشديد على ناشئة هذا الجيل والأجيال المقبلة ، هذا الخطر الذى يسرى فى خبث وخفاء ، كما تسرى الصلال فى رمال الصحراء ، أو كما تسرى الأمراض الخبيثة فى الأجسام ، هذا الخطر الذى يتمدد على الزمن ، وعلى أخلاقنا الكريمة المتسامحة ، وعلى تهاوننا فى مدافعته ، وعلى ثقتنا بمناعة هذا الدين وحصانته

سيلمسون بأنفسهم هذا الخطر، وسيقفون أمامه وجهاً لوجه، وسيرى الله عملهم ورسوله والمؤمنون ، فإذا سوّغوا لأنفسهم أن يهادنوه أو يسكتوا عنه ، أو يغمضوا عيناً على قذاه ، مجاملة لهذا الرئيس ، أو مراعاة لهذا الحاكم ، أو احتفاظاً بصداقة هذا الوزير ، أو تسامحاً حين يكون التسامح تفريطاً لا يغتفر ، فقد أضافوا إلى الخطر خطراً أشد ، وقد أعانوا عدوهم على أنفسهم ، ومكنوه من دينهم وعقائدهم ، وبالله نستعيذ !

إن الإسلام دين حصين ، وإن له لمناعة وقوة يستمدها من مبادئه الموافقة للعقول السليمة ، والطبائع المستقيمة : ذلك حق لا مرية فيه، ولكننا إذا اغتررنا به ، واستنمنا إليه لعبت بنا فنون الدعاوة وأثرت فى شبابنا أفاعيلها الخلابة ، وغررت بنا وسائلها الخادعة الفاتنة ، ويومئذ نرى السيل جارفاً ، فلا نستطيع أن نقف فى طريقه ونرى هذا المستصغر من الشرر وقد اندلع نيراناً حامية ، تلتهم كل شىء ، وتأتى على كل شىء !

ستنظر الجماعة فى هـذا كله ، وستصطدم بهذا كله ، فإن صبرت عليه ، واحتالت له ، ووفرت له الجهود والقوى ، ومسّكت فيه بأهداب الشجاعة ، واستعانت على تذليل عقابه بالإخلاص والتضحية ، كتب الله لها النجاح ، وحقق الله بها الآمال

وإن كانت الأخرى ... لا ! لا أقولها ولا أفرضها ، فإنى أرتاع من هولها وأشفق منها ، وأسأل الله السلامة من شرها !

***

أما بعد : فهل آن أوان النهوض والتقدم ، أو تلك آمال وأحلام يتعلل بها الراغبون فى الإصلاح ، وتتراءى لهم فى عالم الخيال ؟ وهل أحيلت هذه الرغبات والمقترحات إلى لجنة من الجماعة لتلبث قيد البحث والنظر أعواماً بعد أعوام حتى تصاب بالموت أو الهزال كما ألف الناس فيما يحول إلى اللجان ؟

لا . لا ، ومعاذ الله أن يكون ذلك هو الغرض ، فإن على رأس الجماعة الموقرة رجل الإسلام المصلح الغيور على مبادىء الدين والخلق : الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فلولاه ما نظرت الجماعة فى مثل هذه المقترحات ، ولولاه ما دارت فى نفس مقترحها ، ولولاه لتشكك فيها المتشككون ، وشغب عليها أهل الفتنة ، وابتلعتها لجج الجامدين !

وإن على رأس اللجنة التى تنظرها لرجلاً من رجال الأمة ، يعرف فيه الناس العلم وصفاء العقيدة ورجاحة العقل والميل إلى مبادىء الإصلاح : ذلك هو المفتى الأكبر الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم

فإلى هذين الرجلين العظيمين ، وإلى أعضاء الجماعة الموقرة عامة تتوجه الآمال : آمال الأمة ، وآمال الدين ، وآمال الأزهر . حقق الله الآمال .

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

ظاهرات نفسية

في مسرحيات محمود تيمور

الأستاذ زكي طليمات

مفتش شئون التمثيل بالمعارف

— ١ —

أصدر الأستاذ الكبير محمود تيمور مؤلفاً يتضمن ثلاث مسرحيات صغيرة هي: (الصعلوك) و(أبو شوشه) و(الموكب) مكتوبة باللهجة العامية، تناولتها الأقلام بما هي جديرة به من الاهتمام؛ لأن لتيمور بك اسماً نابهاً متفرداً بطرائفه في عالم القصص المصري، نُقِلَ بعضه بأقلام كتاب غربيين إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية، وأثيرت حوله بحوث من جانب بعض المستشرقين المعنيين بالأدب العربي المستحدث. وفوق ذلك فإن تيموراً سليل بيت عريق في خدمة الأدب العربي والتبريز في مجالاته المختلفة

بيد أن ما دبجته أقلام النقاد عن هذه المسرحيات الثلاث لم يتجاوز تسجيل مفاتنها الظاهرة، وذلك من حيث رشاقة الأسلوب، ورونق السياقة، وحبكة الوضع، ومن حيث الأغراض الاجتماعية التي تهدف إليها

والأسلوب وما يتبعه، والأغراض الاجتماعية وما يتعلق بها لا تعنيني بقليل أو كثير، لأنها ليست حقائق خالدة؛ بل هي أشياء تغير ابوءها من عصر إلى عصر، وأوضاع تتحور وتتبدل، تتغير النظرة إليها بتغير المزاج الاجتماعي، وبتبدل الذوق البياني في التركيب الإنشائي وفي السياقة وبتحور الصيغ الفنية الخاصة بكتابة المسرحية؛ والإنسان في هذا — كما يثبت الاستقراء في التاريخ — يحرق اليوم ما كان يعبده بالأمس، ثم يعود فيعبد ما حرق!

فإذا صح لي أن أعنى بمسرحيات تيمور — وهي طريقة جديرة بالعناية — فإن موضع اهتمامي سيكون مقصوراً على ما بتلك المسرحيات من حقائق ثابتة لا تتغير. والثابت الخالد من الحقائق في العمل الأدبي أو الفني إنما هو ما يتصل بالنفس البشرية وما تمتد أعراقه في تربة الإنسانية. وذلك لأن النفس خالدة، والإنسانية وحدة قائمة متماسكة في كل زمان ومكان لا تتجزأ ولا تتقسم، والنفس والإنسانية في المسرحية يتمثلان في أبطالها وشخوصها من ناحية تقويمهم في أصدق تكوين نفسي لكل منهم

***

إن المدمن قراءة هذه المسرحيات المستبطن دخائلها يطالعه شيء لا بد أن يستوقفه برهة يخلد أثناءها إلى التأمل والمراجعة، ذلك أن أبطال هـذه المسرحيات لا يجرون في الكشف عما في نفوسهم على سنة الوضوح التام والمنطق المنظم، وهو المألوف المتعارف عليه في الأدب الاتباعي والرومانسي والواقعي [1]، وهو المتداول أيضاً في نتاج أدبنا العربي المستحدث ما عدا القليل النادر

أجل، إن أبطال تيمور في مسرحياته الثلاث يغمضون أو يلغزون أحياناً وقد يغلفون الإغلاق كله، وهم يعطون قولاً ما يعارضونه فعلاً، وهم يثبون وثبات نفسية لا تستقيم مع المنطق الظاهر المألوف، فيتراءون وكأن كل واحد منهم قد ركب فيه شخصان أو أكثر!!

هل لي أن أجشم القارىء مشقة استذكار هذه المسرحيات؟

لا، بل حسبي أن أستأذنه متفضلاً أمر التلويح له ببعض الشيء منها، مما لا غنى عنه حتى يستقيم هذا البحث

لماذا مزّق (دردير أفندي) — وذلك في مسرحية (الصعلوك) — رزمة الألف جنيه وهي كل سلاحه الذي ينيله ما يريده من (وحيده هانم) القينة الفاتنة؟

وهل يعقل أن صعلوكاً يعيش بين الخصاصة والكسب الطارىء يتلف ألف جنيه من غير ما سبب قاهر؟

ولما أحجم (مؤنس بك) وذلك في مسرحية (أبو شوشة) عن معاودة اتصاله بحسنية هانم معشوقته السابقة — وقد سنحت له الفرصة التي أخطأته فيما مضى، وقد وجد كل منهما في قلبه الميل نحو صاحبه؛ ما الذي يحجزها عن إحياء الماضي الجميل؟

وكيف تأتى أن فضل الله باشا — وذلك في مسرحية الموكب — يقول بشيء ثم يفعل غيره، وينهى عن أمر ويأتي مثله؟

ما حقيقة هذا القنع الذي يخفي مسراه في نفوس هؤلاء الثلاثة ويظهر أثره سافراً في فعالهم؟ وهل حق أن الإنسان قد يبدو أحياناً وكأنما تسكن نفسه شخصيتان متناقضتان؟!

عن هذا الشيء أنشأتُ فصلاً طويلاً في العدد الماضي من هذه المجلة، أبنت فيه كيف أن علم النفس في اتجاهه الأخير

---

(١) أعود بالقارىء إلى البحث الذي نشرته الرسالة في عددها الماضي بعنوان «من اتجاهات علم النفس في المسرحية» ففيه جلاء لهذا.

أصبح يأخذ بما قرره العلماء والفلاسفة من أن كياننا النفسي الكامل يتألف من العقل الظاهر (الوعي)، ومن العقل الباطن (اللاوعي)، وأننا في تصرفاتنا خاضعون إلى التيارات الخفية التي تنطلق في واعيتنا الباطنة، وأن عقلنا الظاهر لا يستطيع أن يفسر اللوامع الخاطفة التي تبدر من هذه الواعية الباطنة، فتسلمنا إلى التناقض وإلى التعقيد، حتى نبدو وكأنما تعيش فينا شخصيتان تتناقضان أحياناً

على هدى هذا الاتجاه الأخير الذي يساير العلم في تقدمه، سنأخذ في نقدنا هذه المسرحيات من الناحية النفسية. وأغلب الظن أننا سنجد تفسيراً كافياً لتلك التعقيدات النفسية التي تتمثل واضحة ملموسة في شخصيات: (الصعلوك)، (مؤنس بك)، (فضل الله باشا)، إذا حاولنا أن نرد كل تعقيد نفسي فيها إلى حقيقته اللانهائية [1] التي تتجاوز مناطق الذكاء وحدود البيئة والوراثة، ولم نعبأ بأعراض العقل الظاهر أكثر من أن نتخذه دلالة ظاهرة لأشياء مضمرة، وتغلغلنا منحدرين إلى أعماق النفس ومتاهاتها، حيث تنحوي الغرائز وتنطوي على نفسها مكبوتة مغلولة، وحيث تصطخب تيارات خفيـة لا تتراءى على سطح الروح الذي قد لا يعدم هدوءاً ظاهراً

لنبدأ بمسرحية الصعلوك

الصعلوك في مسرحية تيمور هو (دردير أفندي) وحكايته تبدأ بمجرد ما يقدمه المؤلف إلينا؛ فنراه يقتحم خدر الفاتنة (وحيدة هانم) وهي واحدة من بنات التفريط وأشباه الحرائر. يقتحمه بسلاحه المألوف وهو تصعير الخد والملق والاسترضاء بالدعابة وإثارة الفضول. وإذ يلمح الرضاء في عيني الفاتنة الحوّل ويستوثق من غبطة مزاجها يصارحها بأنه يحمل في جيبه أوراق نقد مالي قيمتها ألف جنيه ربحها بطريق اليانصيب، وأنه معتزم أن يهبها لمن ترضى أن تقضي معه ليلة حمراء تمنحه فيها أفاويق اللذة الحسية. إنه يخرج أوراق النقد من جيبه ويعدها فلا تلبث (وحيدة) أن تهب مدومة شبا كها فوق رأسه في تلميح لا يخفى عليه، ويحس بأنه نائل منها ما عز عليه مناله من قبل. ها هي خمر (الشمبانيا) تطرى حنجرة سيد الساعة، وها هي (وحيدة) ذات الحول والطول بأناتها وجاذبيتها قد تهيأت لتقدم له ما يبتغيه.

الفرصة سانحة، والليل يستر العاشق ويميت رقاقد الأحلام، ولكن . . .

ولكن بدلاً من أن نرى (دردير أفندي) يهوى بذراعيه يعتنق المشوقة المستسلمة ويروى ظمأ حسه منها، إذ به يأخذ بأطراف حديث لا علاقة له بجوهر الموضوع القائم بينهما: حديث خيالي عن الجمال وقداسته؛ والحرير الأبيض - شبيه خدها الناعم - ولطيف ملمسه، وكيف تنتهك حرمة نصاعته إذا تأتى أن يدب عليه ذكر خنفس أسود مهما كان يحمل هذا الخنفس على ظهره من كريم الجوهر الغالي؛ ثم لا نلبث أن نرى (دردير أفندي) يحطم الكأس التي في يده ويخرج الأوراق المالية من جيبه، وينهال عليها دعكا وتمزيقاً في ثورة صاخبة، يشتبك فيها الضحك بالبكاء؛ فلا تلبث وحيدة أن تنهال عليه بالشتائم والضرب وتطرده شر طردة لتستلقي بعد ذلك على وجهها وتشهق بالبكاء في غيظ ثائر!

الآن نتساءل كيف بدرت هذه البادرة الغريبة من الرجل وليس فيما سبق منه ما يمهد لها أو يبيتها؟ كيف استيقظت هذه الخالجة الطارئة لتبدو في نطحة نفسية عجيبة؟

قد يقول قائل إنها الخمر التي أفقدته رأسه وأسلمته إلى هذا الهذيان؛ ولكننا نقول — دفعاً لهذا التعليل — إن الرجل متمرس بالخمر يعمد لحياها كما تشير إلى ذلك حياته السابقة. وفوق هذا فإنه لم يحتس من أخف أنواعها — وهي الشمبانيا — غير أربع كاسات!!

(قد يقول قائل - والقائل بهذا أحذق من الأول - : إن الرجل لا بد أن يكون عنيناً هامد الحس فافتعل هذه الفعلة يفتدي بها فضيحة، وفي دفع هذا التعليل نقول إن المؤلف لم يشر إشارة صريحة أو غير صريحة إلى هذا الأمر

إذن ماذا!

فلنحاول أن نرد دردير افندي هذا إلى حقيقته

(دردير افندي) هو - كما رسمه المؤلف - واحد من ذلك الصنف الإنساني الذي أعرفه باسم المفلس الطروب. هو رجل فقير بجيبه غني بنفسه، حبته الطبيعة القلب الكبير والحس المرهف، ولكنها لم تحبه الحظ المادي الذي يجعل حياته تستقيم على ما تقتضيه كرامة حسه وقلبه. هو جواب ذليل لآفاق الترف والنعيم لا يأخذ منها غير ما يؤذن بأخذه لكلب مدلل أو قط

(١) أي الميتافيزيقية

مرموق . بل هو أدنى مرتبة من ذلك . إنه مسخ يتفكه بنفسه كما يتفكه به الناس من أهل اليسار وفى مقدمتهم معشوقته (وحيدة) . وأعجب من هذا أنه يحس بكل شيء فيه ، فهو الضحكة الذى يرى موضع الفكاهة والسخرية فيه ، وهو الصعلوك المؤمن بصعلكته . مثل هذا الشخص يحب المال ويمقته فى آن واحد . يحبه بعقله الظاهر ، فتراه متهالكا على ملاذه بقدر ما لديه من وسائل محدودة . وهو يكرهه بدافع شيء آتٍ من وراء الوعى . لأن هذا المال قد أذله وحرمه ما تتوق نفسه إلى اجتنائه دائماً ، فتراه يسخر ؛ وإذا هبط عليه شيء من المال بطريق الكسب الطارئ — سباق ، ميسر ، يا نصيب — لم يتوان عن القضاء عليه بالإنفاق السريع المتلف ، وكأنه بدافع لا شعورى يثأر لنفسه من المال الذى يطول دائماً ارتقابه إلى مجيئه ، وكأنه أيضاً ، وبنفس الدافع اللاشعورى يلتمس التمتع بمظاهر الفخفخة والعظمة المادية التى حرمها بمجرد أن تصل إلى يديه وسائلها ، وهى المال . فهو يلقى به إلى البوار من أجل متعة عابرة بها ، هو يفعل كل هذا لأن عقله الباطن متشوف تشوفاً مكبوتاً إلى هذه المظاهر . ولعل هذه الظاهرة النفسية العجيبة تفسر لنا بعض ما نلاحظه كثيراً فى سلوك معوزين وفقراء يحبوهم الحظ السعيد فى لحظة بمال غير قليل فنراهم يتلفونه إسرافاً وتبذيراً بدلاً من أن يقيموا عليه ويتدبروا فى صرفه . هذه هى حقيقة (دردير افندى) بكامل كيانه النفسى ، أى بعقله الظاهر وبعقله الباطن ...

بعد هذا ، ألا يرى القارئ معى أن هذه البادرة الغريبة من جانب (دردير افندى) فى إتلافه المال الذى يملكه وهو واقف أمام معشوقته إنما ترجع إلى أمرين مأتاهما العقل الباطن : الأول يقظة الثأر من الحرمان الذى يكابده فى المال وما يجره من أسباب المتعة ، وهى يقظة جامحة تستنفد كل مدد فى العناصر التى تتاح لها حتى تقضى على نفسها وعليها . فالمتعة لا تستقيم فى نظره إلا إذا استنفدت كل معينه من الوسائل المادية ، فيكون قد جرى ، فيما أتاه ، على مألوفه فى مواقف سابقة تحدث عنها فى الرواية ، وكلها تشهد بأنه قد ألف القضاء على كل كسب طارئ من غير مبرر معقول !!!

والأمر الآخر انتفاض خالجة هامدة ارتفعت فجأة من أعماق الغرائز ، وقد تهيأت لها الظروف ، فأراد أن يثأر لنفسه من الذل الذى فرضته عليه هذه الغانية (وحيدة) ، هى ودنيا الغنى اللتان دأبتا على أن تتخذا منه ضحكة وبهلولاً !!

وقد يتساءل القارئ كيف ثأر (دردير افندى) لنفسه من (وحيدة) ؟ والجواب واضح لا يحتاج إلى تبيين لأنه واضح فى سياق المسرحية

ونعود فنقول : أتى هذا الرجل كل هذا ، وخرج على العقل والمنطق وهو لا يشعر ، لأنه إنما كان مسيراً بعقله الباطن الذى تكمن فيه الغرائز مكبوتة بفعل المختلق من الأوضاع الاجتماعية أو بضغط الظروف القاهرة . وما حديثه عن الجمال والحرير والخنفس إلا صدى ما ركبه عقله الظاهر ، وهو عقل لا يملك إلا التكييف السطحى لتصرفاتنا وانتحال الأسباب لها وفاقاً للمنطق . كما أن الحديث نفسه هو وسيلة المؤلف للتعبير والتعليل وأداته للايضاح ، وهو يحاول متعثراً أن تنشئ علاقة بين هذه البادرة الباطنية الغامضة ، وبين الواضح والمعقول فى أقوال وأفعال (دردير افندى)

ولا بد من الإشارة إلى أن المؤلف أطال فى تعليل وتفسير هذه البادرة أو هذه العقدة النفسية ، لأنه نحا فى هذا نحو الكتاب الرومانسيين كما يتضح ذلك فى بحثنا السابق عن اتجاهات علم النفس فى مراحل المسرحية

نعم إن تيمور صاغ مسرحيته على أساس الرومانسية ، فلم يكن له بد من أن يجرى على شرعتها فى تفسير العقدة النفسية ، وهو فى هذا قد أحسن التمهيد لهذه العقدة ، وذلك الانطلاق الغرزى فى ناحية من نواحى النفس بأن جعل (دردير افندى) يحتسى خمراً ، والخمر تساعد على إيقاظ هوامد النفس وانطلاق الرابض المكبوت فى أعماقها ، وتعمل على إسقاط القناع الذى تخفى النفس وجهها الأصيل وراءه

وليس فى جرى (تيمور) على سنة الرومانسيين فى إنشاء مسرحيته هذه ما يسلب شخصية الصعلوك طرافتها من الناحية النفسية ، إذ أن شخصية (دردير افندى) عريقة فى إنسانيتها تحيا بيننا ونحس بها ، هى أنموذج بشرى طريف سجل سماته قلم تيمور فى عالم المسرحية المصرية .

« للحديث بقية » زكى طليمات

الحرب والطبيعة البشرية

للأستاذ محمد أديب العامري

لا يظهر للقارئ من الكلمة [(١)] التي أرسلها الدكتور محمد حسني ولاية أن السادية Sadism والماسوشية Masochism نزعتان جنسيتان ، مع أن ذلك هو خاصهما كنزعتين ؛ وإنما يظهر له أن هاتين النزعتين صفتان في البشر عامتان فقط ، وأنهما تكمنان آناً وتبدوان آناً آخر على صورة مصطنعة وخفائية .

وربما كان الدكتور ولاية يحب أن يورد النزعتين مردودتين إلى أصلهما البيولوجي ، ولذلك كان ما يمكن أن يفهم قارئوه من السادية أنها نزعة تعني « أن يهدم الإنسان سواه ليخلو له الجو ويستأثر بالحياة ... أما الماسوشية ، فتعني أن يهدم الإنسان نفسه » .

« ويؤدي العرف في أوقات السلم » في نظر الدكتور أيضاً « إلى أن يكبت الرجل شطراً من ساديته لينسجم مع المرأة والبيئة ، أما في زمن الحرب فتتحكم السادية في العقل الواعي ، وحينئذ يتحكم الحيوان الرابض في الأعماق ... وحين تسير الجيوش لملاقاة العدو يتناسى كل جندي شخصيته ، ويعود إلى ماضيه الفطري ، ويعمل كما كان يعمل آباؤه الأولون ، وهو في هذه الحالة وهذه الإرادة البشرية الأزلية . . . »

وهذه التعاريف والاستنباطات القطعية التي تحمل طابع العلم الذي يؤمن به الناس اليوم ويخضعون له كانت تكون يسيرة الخطر لو أنها — على ضعف مبرراتها — لا تنتهي إلى تثبيت فكرة الويل والدمار والهلاك الرانية على قلب العالم ؛ فلا يمكن أن يفهم قراء الدكتور ولاية إلا أن الحرب على شكلها الحاضر متصلة بنزعات بشرية عميقة ، وإلا أن المحارب يشتق نفسيته من هذه النزعات المتأصلة ؛ ومن هنا بطبيعة الحال ستستمر الحرب هكذا ، بل وتشتد جيلاً بعد جيل إلى ما شاء الله !

والذي أرى هو غير هذا في المقدمات وفي النتائج

فالسادية والماسوشية — كما يرى كرافت إبنج Kraft-Ebing وفرويد Freud وغيرهما — إنما هما نزعتان متصلتان بالجنس مباشرة كما سبق أن أشرنا ، وإنهما في حالة بروزهما تعتبران انحرافاً جنسياً [(١)] — أي نوعاً من أنواع الضعف التناسلي — ويعتبر لِخت Licht أن عدم وقوعه على إشارات سادية وماسوشية في المصادر الأدبية اليونانية يدل على أن حياة اليونانيين كانت حياة صحية [(٢)] (يقصد الحياة التناسلية)

أما تصوير هاتين النزعتين كأنهما دافعان أساسيان للحرب والقتل الدائر اليوم أو مثله ، فليس له مبرر ؛ ولكن الذي له مبرر فيما يظهر هو أن الأصول البيولوجية لهاتين النزعتين ترجع إلى « الحاجة إلى التغلب على أية مقاومة يبديها الهدف الجنسي ، ولا تجدي معها حركات الداعبة » [(٣)] . وهو تعليل بسيط قريب الصلة بالظاهرة التي نحن بصدد الكلام عنها

أجل ، ترتد النزعتان في نظر بعض العلماء — وهذا إذا تعمدنا تعمقاً أشد — إلى شهوة أكل الإنسان اللحوم البشرية (أي خدمة غريزة حب السيطرة) ، ولكن هذا مشكوك فيه كثيراً كما سيتضح الآن

ومهما يكن من أمر فالرد الأساسي للسادية والماسوشية غير مؤكد الآن ، ولذلك يرى « فرويد » أن التفاسير الموضوعة لأصول هاتين النزعتين غير كافية ، وأنه من الممكن أن تكون هنالك دوافع نفسية عديدة ومتحدة لتكوين هاتين النزعتين .

وليس صحيحاً أن يقف الناس عند ما انتهى إليه فرويد أو غيره من الثقات ؛ ولكن الدكتور ولاية يقول بأن « كل إنسان — رجلاً كان أو امرأة — يحمل نزعة السادية متوازنة مع نزعة الماسوشية » . وهذه بالطبع حالة الإنسان العادي . ويقول هفلوك إليس Haevlock Ellis أيضاً إن « جميع حالات السادية والماسوشية تبدي آثاراً من النزعتين في الفرد الواحد نفسه » [(٤)]

وواضح من اجتماع النزعتين دائماً في فرد واحد أن وجودهما معاً لا يمكن أن يعزى إلى شهوة العدوان ، ومن ثم غريزة حب السيطرة (دع عنك القتل الإجماعي ـ الحرب) لأن هذا التأويل إن وضح للسادية فلن يوضح الماسوشية ، إلا إذا قلنا إن الإنسان يشتهي أن يقتل نفسه ، وهذا ينافر ما تنزع إليه غريزة البقاء ، التي لا يرتاب أحد في أصالتها وسيطرتها وشمولها

(١) ص ١٣٢٤ عدد ٤٣٤ من « الرسالة »

(١) Brill, Basic Writings of Freud, 1938

(٢) Licht, Sexual Life of Ancient Greece

(٣) Brill

(٤) Ellis, Sexual Impulse, 1903

وإذا كانت الحرب تطوراً للسادية فماذا ترى يكون تأويل دخول المرأة فى معترك الحروب اليوم ؟ وإذا استمرت الحرب أزمنة طويلة قبل أن يكتشف الناس غباوتهم فيها — فلا ريب أن المرأة ستسير جنباً إلى جنب فى الحرب مع الرجل . فهل تصلح الماسوشية ، وهى النزعة المتغلبة فى المرأة ، تأويلاً لمظهر هذه الحرب أيضاً ؟

وخلاصة ما أريد أن أقول هو أن هاتين النزعتين كما نعرف هما اليوم جنسيتان ، وأن أصولهما غير مؤكدة . على أنه مهما تكن هذه الأصول فمن المؤكد أنها أصول لا تمت إلى الحرب الإجماعية بسبب

وإذا كان العدوان أصل السادية فإن ذلك لا يعنى أن تتطور هذه النزعة فى اتجاه العدوان متضخمة . إذا تضخمت السادية كانت انحرافاً جنسياً . ذلك نعلمه بالتأكيد . وهفلوك إليس ، وهو من أكبر ثقات المسألة الجنسية ، يرى أن « القتل الإجماعى بالحرب ليس طريقة اجتماعية غير ملاءمة لدور الحضارة الحالية فحسب ، بل إنه على الإطلاق لا أساس له فى العالم »

وأرجح الرأى أن الدكتور ولاية يفرض أولاً أن الحرب شىء أزلى أو يتفق مع الطبيعة البشرية ثم يمضى ليجد الأسباب العلمية لهذا الغرض . ولما لم تكن الحرب فى شكلها الحاضر شيئاً يتفق مع الطبيعة البشرية ، ولا مع درجة الحضارة الراهنة للبشر ، على أقل تقدير ، فإن أية محاولة لإقامة هذه الظاهرة — الحرب — على أساس علمية تكون اصطناعية

إن من السهل أن نلاحظ أن الجندى لا يذهب إلى ساحة الحرب راضياً ، وإنما يدفع إليها دفعاً . فإذا ضحى فيها لم يكن عدوانه إلا مظهراً من دفاعه عن نفسه . إنه إن لم يقتل من يواجهه فهو مقتول لا محالة . فقتل غيره هو أضمن السبل لخلاص نفسه . وواضح أيضاً أن الجندى يحب فى كل وقت من أوقات الحرب أن يُسرَّح ليعود إلى أمنه وطمأنينته ، سواء أكان الجيش الذى يحارب فيه مغلوباً أو منتصراً

إن الحرب الإجماعية على شكلها الحاضر لا تتصل بالنوازع البشرية أو بالغرائز ، وإنما تقوم لمصلحة أناس محدودين ضاق نظرهم وتمكن الخوف من نفوسهم . وتشمل هذه المصلحة الدوافع النفسية الملتوية والدوافع المادية على السواء . إن سواد الجنود يحارب لغير دافع من نفسه ، فالقتل للقتل صفة غير معروفة . والدكتور ولاية يرى هذا فيقول إن الجندى عند ما ينعم النظر فى « وعى ذاته ويشعر بأنه شخصية قائمة بذاتها لا تستطيع روحه الاندماج مع الروح التى تقود زملاءه الجنود إلى التلاحم »

وهذا القول يقرر أن الوعى البشرى يخالف لروح الحرب التى يظن القارىء لمقال الدكتور أنها أزلية فتستمر أبد الدهر مستمدة نفسها من أعماق الطبيعة البشرية .

(السلط) محمد أديب العامرى

قيمـــــة الحرية

للصحافى العالمى ويكهام اسفيد

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامى

« من الممكن عندى صياغة جميع المسائل المتعلقة « بقيمة الحرية » فى أسئلة ثلاثة :

١ — هل الشخصية الحرة كعنصر من عناصر الحياة البشرية أنبه شأنا وأمن جانبا وأنفس قيمة من تلك الشخصية التى تنطبع وتتشكل وفقا لمشيئة قائد أعلى حاكم بأمره فى مصادر وموارد الدولة الاستبدادية المطلقة ؟

٢ — وهل يتوقع لارادة الفرد الحرة أن تخطو بمصالح البشر إلى الأمام أكثر مما يتوقع لارادته التى تدرج من المهد إلى اللحد على منهج موضوع يصيرها خاضعة لكلمة القيادة العليا خضوعا غبيا ومطيعة لها طاعة عمياء ؟

٣ — أليس هناك من ضرر يتهدد الجنس البشرى ، ومن خطر على تقدم المعارف وانتشار الثقافة ، ومن خوف على كل شيء نفهمه عن طريق « المدنية » بنشوء هذه الجماعات الغفيرة التى تسير فى مناهجها على نمط واحد ، وتجرى فى تفكيرها على أسلوب واحد ، وتنطلق خائفة مذعورة كقطيع من الغنم أمام راعيها ؟ »

ويكهام اسفيد

من القضايا التى يزعمون أنها من بداءة الرأى قولهم : « لكل بلاد ما تستحقه من صحافة » ، وإذ نفرض صحة هذه القضية من غير أن نسلم بحجتها يسعنا أن نتساءل : « وأية صحافة نستحقها نحن ؟ »

والجواب على ذلك ليس بالأمر الهين ؛ فقد جاء فى مقال لكاتب إيطالى - أغفل اسمه - نشر فى كتاب سنوى فاشى عن الصحافة الإيطالية قوله : « إذا كانت بريطانيا العظمى لا تزال تملك صحفاً تشغل مكانتها بين خيار صحف العالم ، فإنها ما برحت تملك صحفاً أخرى هى بلا شك أسوأ الصحف فى العالم ، أو على أى حال فى أوربا » . وإنى لا أجد بصدد هذا النظر سوى أسباب ضعيفة أخالفه الرأى فيها . اللهم إن صحافتنا حتى أسوأها شأناً ما زالت إلى الآن لا تخضع لأية رقابة رسمية ، أو تستعبد لأية قيادة حكومية ؛ إذ لا يسعنا أن نجمع بين النقيضين : حرية الصحافة وقيود الرقابة

والحرية التى سمحت لجريدة إقليمية كبرى (كالمنشستر جارديان) بأن تنادى غير هيابة بالحقائق اللازمة لسلامة الكيان السياسى بأجمه ؛ والحرية التى أباحت لصحيفة التيمس عام ١٨٥٢ أن تلقى على رجال السياسة درساً قيماً عن وظيفة الصحافة الحرة فى المجتمع الرشيد ، لا يسعنا أن نفقدها جلة رجاء أن نتخلص من الخبيث الضار ونحن نعنى بتنشئة الطيب النافع

ولكن هل الحرية شيء محبوب لذاته عظيم فى نفسه ، حتى أنه يصبح لزاماً علينا أن نتحمل من أجلها ما هو أقل صلاحية وجودة من شؤوننا ؟

إننا عند ما ننعم النظر فيما للصحافة البريطانية اليوم من شأن وفيما قد يتهيأ لها من مستقبل تصادفنا تلك القضية القديمة وأعنى بها ما للحرية الصحافة من مكانة وقيمة ، فاذا هى منها بمنزلة الأساس من البناء والأصل من الكائنات

ولقد صار واجباً على كل جيل أن يحل مشكلات هذه القضية لنفسه . أو ليس يتفق مع طبيعة الحياة الإنسانية اتفاقاً كبيراً ما صاغه جوت صياغة ماهرة فى عبارته الخالدة إذ قال : « إذا شئت أن تحتفظ بما ورثه لك آباؤك ، فعليك أن تهيئ نفسك لأن تكون قادراً على استرداده والظفر به »

وعندى أن الحرية لا ترتبط ارتباطاً كلياً أو جوهرياً بالحالات المادية أو بطرق الإنتاج الصناعى على الرغم مما يذهب إليه كارل ماركس فى مذهبه

وقد توجد علاقة دقيقة بين حق الفرد فى أن يظفر بنصيب من الملكيات الخاصة وحقه فى التمتع بحريته الإيجابية ، إذ القضاء على جميع الملكيات الخاصة من شأنه كما يتوقع له وينتظر من مصيره أن يعتمد الأفراد اعتماداً تاماً على الدولة ينتهى بأولى الأمر فيها إلى حال لا يحتملون معها الأفعال أو الآراء التى لا يرحبون بها ، ولا يسمحون للناس معها أن يتبرموا بها أو يلوموهم عليها . اللهم إلا معارضة سالبة صامتة تتردد فى صدور البرمين بالأوامر العالية ، وإن كانت الحرية المنشودة لجميع المقاصد الحيوية والأغراض العملية هى حرية الكائنات البشرية فى أن تعبر عن

وجودها وتفصح عن غاياتها بالكلام أو الكتابة أو العمل في حدود القوانين التي هي نتاج التشريع الحر والقبول الطليق فإن الصمت الإجباري وكم الأفواه لا يختلف كثيراً من إلقاء المقول في غياهب السجون

والصحافة ، وحق الرأي العام في الإفصاح والتعبير وعقد الاجتماعات والنظم النيابية . وسائر الميزات الأخرى للنظام الديمقراطي كل أولئك يحمل معنى الحرية لأنه سبيل المجتمع إلى التعبير الحر والرأي الطليق ، وهيهات أن يتهيأ الشعب أن يظفر بحريته بمعناها السياسي مالم يكن له الحق في النقد والمعارضة . ويندر أن تطمئن عقول الرجال لأسس الحياة وتتقبلها قبولاً حسناً مالم تمتحن هذه الأسس بأذى يتهددها أو قوى تنكرها أو تتجاهلها . ولعله بسبب ما يتهدد الحريات الأساسية الآن من عبث العابثين واضطهاد المضطهدين ، أو من إنكارهم عليها في مثل هذه المساحات المترامية الأطراف من أوربا والعالم ، أن يكون لها قيمة وشأن ، أن انصرفت الرغبة أخيراً للتفكير في تلك الأسس . ولتقصي مصادر تلك المذاهب التي بلغت من نفوس أجدادنا ما تبلغه العقيدة الصادقة والإيمان المتين ، ولمعرفة ما إذا كان يجب أن تصبح تلك العقائد محلاً للجدل أو هدفاً للانقلاب الاجتماعي وهي العقائد التي قاسى الناس الأهوال في سبيلها ولم تستقر في نفوسهم إلا بعد كفاح أجيال متعاقبة ، سأذكر هنا النتائج التي انتهى تفكيري إليها بعد إعمال الفكر في هذه المسائل وفي الكثير من نظائرها وتقصي ما لها من شأن وقيمة ، وسوف يتضح من أمرها أنها تمت بصلة وثيقة لمستقبل الصحافة

إنه لم يكن بالأمر العارض في إيطاليا وألمانيا — وفيهما اختفت الحرية وباتت الصحافة مجرد آلة للدعاية القومية أو الدعاية الخارجية، أن ينادي بالحكومة التي تخدمها تلك الصحافة « كحكومة استبدادية » وأي بحث قائم على التفكير السليم فيما للحرية من قيمة يحملنا فوراً على أن نمحص الحوار القائم بين « السلطان المطلق » و « السلطان النسبي » وينتهي بنا عاجلاً أو آجلاً لأن نقرر أن قوام الحرية العالية هو الإنكار الدائم للسلطان المطلق سواء أكان عقلياً أو روحياً أو سياسياً ، وأنها نتاج التجارب المستمرة التي تنهيأ لعقولنا ومشاعرنا، وأنها ثمرة الاتجاه المتواصل لعلاقاتنا وقيودنا الاجتماعية نحو المثل العليا

والقيود التي تحد من حريتنا في التصرف الآن ترجع إلى القوانين أو الالتزامات التعاقدية ، أو إلى عادات المجتمع الذي نرتبط به . والحرية التي ننعم بها الآن هي حرية « شرطية » كما يعبرون عنها في الاصطلاح السياسي ، بمعنى أنه يجب ألا تتعارض مع سلامة المجموع الذي تملك تغيير زمام هذه الحرية وتنعم بجناها . وهذه الحرية لا تمت بصلة إلى الحرية الصورية التي صورها «روبنسن كروزو» على رقعة جزيرته . تلك الجزيرة التي لم يسكنها إنسان قبل أن يبعث فيها إنسانه « فرايداي » إذ بوصول هذا الرجل إليها بدأت تدب فيها عناصر البيئة التعاونية وأسس الهيئة الاجتماعية . وعلى ضوء هذه الاعتبارات جميعاً غدت حريتنا الاجتماعية أو السياسية وهي ليست بالحرية المطلقة . وكلما قدر للمجتمع أن يتجاوز حالته البدائية تجاوزاً نسبياً تلك الحالة التي قد ينعم فيها كل رجل بحرية واسعة المدى يستمد معها قانونه من مشيئته كلما صارت حرية أفراده وهي أكثر اتصالاً وأشد تقيداً بحرية الآخرين . وهي أيضاً أقل إطلاقاً وأكثر خضوعاً للأوضاع والقيود الاجتماعية . ويسعنا أن ندعو هذه الحرية المقيدة « بالحرية الواقعية » ما خضعت لتلك القيود الأجنبية عنا ، والمستقلة عما لأشخاصنا من رغبة أو كراهية ؛ كما تتقيد حريتنا بقيود أخرى يسعنا أن نسميها « بالقيود المنوية » ومثل هذه القيود إذ نألفها وتهيئ أنفسنا لأن نسكن إليها ، يخف حملها ولا يشق علينا أمرها . فلا نشعر معها بشيء يقيد حريتنا . لأننا في الواقع لا نتأذى مما يقيد حريتنا من الناحيتين الاجتماعية والمادية لمجرد أنه تقييد لحريتنا فحسب ، بل نتأذى به إذا ما أحسسنا بثقله وضقنا به ذرعاً ، فنحن بعبارة أخرى نتأثر بقيود حريتنا « المنوية » أكثر مما نتأثر بضوابط « حريتنا الواقعية » التي لا يشق علينا شيء من أمرها حتى أحسسنا أنه ما من شيء يدعونا للثورة على القوانين أو للتمرد على العادات والنظم ؛ وشأننا في ذلك كشأننا مع قوانين الجاذبية من ناموس الطبيعة التي إذا ألفناها لا نجد من سبب للثورة عليها

ولكننا مع ذلك بحاجة لأن نكون على حذر من أمرنا قبل أن نقبل أسس الحرية التي نساق لها أو تساق إلينا ، ولا سيما

إذا كانت تلك الأسس من ذوات الطابع (المعنوى) وإلا انتهت قيود حريتنا بأن تستبد بنا استبداداً واسع المدى بالغ الأثر. فننتهى معها إلى أن نصبح عاجزين عن الاحتفاظ بحريتنا فى التفكير أو القول أو العمل. وآنئذ نفتقد عقائدنا وبالتالى إرادتنا فى مقاومة التدخل فى شئون حريتنا الواقعية. ويكون من أمرنا أن نتساهل فيما لا يجمل التساهل فيه، وأن نستبيح فى حق أنفسنا أن نخوف بالاستبداد المنظم الذى يشق علينا أمره ويصعب علينا احتماله. وعلى ضوء هذه الاعتبارات جميعاً كانت أولى النتائج التى انتهيت إليها من دراسة قيمة الحرية. إن من صواب الرأى أن نعلم أن الاستبداد بالرأى هو الشيء الوحيد الذى يلزمنا ألا نتسامح فيه إذا أردنا أن نظل أحراراً. لذلك كان لزاماً علينا مثلاً أن نتسامح فى أمر الصحف الرديئة لنظل أحراراً فى أن نحتفظ بصحافة طيبة، وهذه النتيجة تعود بى إلى قضية النسبية. فالأصل فى التسامح أن يثير الموازنة بين الحرية المطلقة والحرية المقيدة، وهذه الموازنة تنتهى بنا لأن ندرك أن جميع الحقائق نسبية، وأنه لا توجد حقيقة واحدة مطلقة سياسية كانت أو اجتماعية. وأن ندرك أيضاً أن الأمر لا يقتصر هنا على وجوب التسامح فى الآراء والعقائد، بل يتجاوزهما إلى التسليم بالحق فى النقد والاعتراف بحرية النقد، تلك الحرية التى أصبحت الآن عماد حرية الفرد ومصدر ما يصيبه من نجاح فى الثقافة أو العمل، إذ تحمل فى ثناياها المميزات الأساسية للجماعة الحرة، تلك المميزات التى يفصح عنها ما ينطبع فى الشعب من سجية التسامح فى الآراء التى قد لا يسلم بصحتها الكثير من أفراده، ولا تروق فى أعين غالبيتهم. وإذا ما تسامح الناس فى تقبل الآراء فى الوقت الذى لا ينعقد لهم إجماع على صحتها، وإذا ما تأبوا على أنفسهم أن يبطشوا بها أو يضيقوا بها ذرعاً، وإذا ما حرصوا أن يكون سبيلهم فى مناهضتها عن طريق المحاجة والإقناع، فإنهم على هذا النهج القديم يعترفون بحقيقة ما بين العقول البشرية من خلاف نزيه فى النظر والتقدير. وأنه لأشد رعاية لحرمة الرأى البشرى أن تمتحن المذاهب المختلفة عن طريق مقارنة الحجة بالحجة، ومقارعة الرأى بالرأى لا أن يفرض على الناس واحد من هذه الآراء أو تلك تحت سلطان القوة أو التهديد. والحرية السياسية لا تتفق مع تلك الحال التى يفرض فيها على الأمة رأى واحد، ويكون لزاماً عليها أن تتشابه فيها العقليات ويوحد النظر. بل هى على النقيض من ذلك تنهض على ما يجب أن ينعقد إجماع الشعب عليه من إباحة الاختلاف فى الرأى، كما تنهض على أن يعترف الجميع اعترافاً إيجابياً عملياً بأن اختلاف الآراء فى الهيئة الاجتماعية يجعل حياتها أخصب تربة وأكثر إنتاجاً مما يتيسر لها لو سارت على نهج واحد من من اطراد المذهب ووحدة النظر. والجماعة إنما ينعم بحريتها على وجهها الصحيح متى كانت عاداتها وقوانينها فى الوضع الذى يفسح المجال لرأى الفرد ويهيئ الميدان لتصرفاته الشخصية، فلا تضيق الخناق على حريته فى الرأى والتصرف إلا إذا أجراها على نهج غبى لو ترك وشأنه فيه لحال بين الآخرين وتمتعهم بحريتهم

والفرد لا ينعم فى الجماعة الحرة بما يظفر به من الحرية لمجرد أن قوانينها وعاداتها هى القوانين والعادات التى قد يفضلها على ما عداها، بل لأنه يحظى بنصيب كبير من توجيه شؤونها العامة والاجتماعية أن كان لكل مواطن حقه فى أن يدلى برأيه فى شؤون الدولة ويكون له أثره الفعال فى توجيه سياستها وإن كان من واجبه إلى ذلك أن يخضع لحكم الأغلبية وأن يقاسم بنى وطنه الحياة والعمل

(يتبع) زين العابدين جمعة

١٦ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الخامس — الحياة المنزلية

أما القهوة فهي تصنع قوية لا تحلى بالسكر ولا تخفف باللبن. وفنجان القهوة صغير لا يسع الكثير منها. وهو من الخزف ولا أذن له. فيوضع في ظرف من الفضة أو النحاس تبعاً لحالة الشارب. وهو يشبه تقريباً في شكله وحجمه ظرف البيض عندنا[1] ولتحضير القهوة يغلي الماء أولاً، ثم يضاف إليه البن بعد أن يحمص ويطحن حديثاً، ويقلب، ثم يعاد وعاؤه على النار مرات حتى تنضج القهوة رويداً رويداً، ثم تصب في الفناجين قبل أن يزول ما تكوّن على سطحها من القشدة. ويحب المصريون القهوة القوية الخالصة حباً شديداً، وقلما يضيفون إليها السكر؛ وبعضهم يحليها عند ما يشعر بتعب. ولا يضيفون اللبن أو القشدة أبداً، ولكن كثيراً ما يضعون فيها الحبهان. وتبخير الفناجين بالمصطكا شائعة. وقد يعطر الأغنياء القهوة بعطر العنبر اللذيذ. والطريقة الشائعة أن يوضع حوالي قيراط من العنبر في وعاء القهوة ويذاب على النار ثم تنضج القهوة في وعاء آخر بالطريقة السابق ذكرها، وبعد قليل تصب في الوعاء الأول (شكل ٣٤) ومن الناس من يستعمل العنبر للسبب نفسه بطريقة مختلفة. فهم يأخذون قيراطين من العنبر بعود صغير يضعونهما في قاع الفنجان ويصبون القهوة بعد ذلك. ومثل هذه الكمية تكفي أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وهذه الطريقة كثيراً ما يتخذها من يحب لنفسه شرب القهوة معطرة بالعنبر دون ضيوفه. وقد يقدم (بكرج) القهوة موضوعاً على جمر في وعاء من الفضة أو النحاس يسمى (عازق[1]) شكل ٣٥ ويعلق هذه الوعاء في ثلاث سلاسل. ويقدم الخادم القهوة ممسكا أسفل الظرف بين الإبهام والسبابة، وعندما يتناول الفنجان والظرف يستعمل كلتا يديه واضعاً شماله تحت يمينه.



(شكل ٣٤) طقم قهوة

وتستعمل مجمرة تسمى «منقلاً» ويسميها العامة «منقداً» من النحاس المبيض بالقصدير ويحرق فيه البخور أحياناً. ويتلذذ المصريون بالعطور تلذذاً عظيماً[2]. وكثيراً ما يبخرون غرفهم، وأكثر المواد استعمالاً لهذا الغرض بخور من نوع رديء يسمى (بخور البز) ويستعمل كذلك الجاوي والعود



(شكل ٣٥) العازق والمنقل

وقلما يرى المصري ماشياً أبعد من عتبة داره إذا استطاع أن يقتني ركوبة أو يستأجر حماراً. ولكن القليل من أهل القاهرة والمدن الأخرى من يخاطر باقتناء جياد[3]، معرضاً نفسه

---

(١) ويتكون الطقم الكامل من عشرة فناجين بظروفها موحدة الشكل، ومن فنجان آخر بظرفه من نوع أرقى يقدم لرب الدار أو الضيف الممتاز. وترى في الصورة رقم ٣٤ «البكرج» والظروف والصينية من الفضة، وتحت هذه المجموعة ظرف وفنجان من النوع نفسه على مقياس أكبر ثم ظرف نحاسي فوقه فنجان. وبعض الظروف تصاغ بالفضة المذهبة أو الموحدة الشكل. ويقتني القليل من الأثرياء ظروفاً ذهبية قد ترصع بالماس والياقوت وغيرهما من الأحجار، إلا أن كثيراً من المسلمين لا يستحسنون استعمال الأوعية الذهبية أو الفضية

(١) يعتبر البارون هامر برجستال أن هذه الكلمة محرفة ويضع عوضا منها كلة «شاسكي» مع أن لفظة عازق هي المستعملة بين المصريين

(٢) وقد يعطرون اللحية والشنب بعطر الزباد

(٣) ويرافق السيد خادم يحمل له الشبك سواء أكان راكبا أو راجلا

إلى الاشتباه فى أنه يمتلك أموالاً زائدة تفرض عليها ضرائب ورسوم أشد مما كان سيتحملها بوجه آخر . ويحشى عدة الجواد الحديثة بالقطن وتغطى بالجوخ أو المخمل وتطرز أو تزخرف ؛ ويزين اللجام عند الرأس والصدر بشراريب حريرية وقطع نقدية وغيرها من الزخارف الفضية . والعادة أن يركب البغال أغنياء التجار وكبار العلماء ، وعدة البغال كعدة الحمير تقريباً ، وعند ما يكون الراكب عالماً تغطى العدة بسجادة ، وكذلك قد تكون العدة التى يستعملها النساء بالرغم من شدة الاختلاف بينهما . وتستعمل الحمير فى شوارع القاهرة الضيقة المزدحمة . وهناك عدد كبير للكراء . واشتهرت القاهرة من زمن بجودة حميرها ، فهى أكبر من حمير بلادنا وأفضل منها فى كل ناحية . ويقدر ثمن الحمار الأصيل المدرب بحوالى ثلاثة جنيهات أو أربعة ، وقد يزيد ثمن بعض الحمير على ثمن الجواد العادى . ويجهز الحمار بعدة محشوة يغطى مقدمها بالجلد الأحمر ، ومقعدها بشرائط صوفية ناعمة ، ويكون الركاب عالياً دائماً . ويتقدم الراكب خادم أو خادمان ليفسحا الطريق ، ويحمل كل منهما (نبوتاً) قابضاً عليه من أسفل رافعاً إياه إلى أعلى . وقد يرافق الراكب للغاية نفسها خادم يجرى بجانب الحمار أو أمامه صائحاً فى المارة ليخلو الطريق يميناً أو شمالاً[1] . ومع ذلك يجب أن يكون الراكب حذراً فلا يعتمد على خادمه كل الاعتماد لئلا تصرعه أحمال الجمل الكبيرة . وهذه الحوادث قد لا يكون مفر منها فى شوارع القاهرة الأكثر ضيقاً والأشد ازدحاماً ، وعند ما ينزل السيد إلى منزل ما أو دكان ما يملأ الخادم له الشبك ويشعله

ويقضى المصرى أغلب وقته ، إذا لم يكن له عمل منتظم يشغله فى الركوب والزيارة ، أو شراء حوائجه ، أو فى التدخين أو شرب

(١) مثل هذا : إوعى . يمينك . شمالك . ظهرك . وشك . جنبك . رجلك . كعبك ! وإلى التركى : صاقين (أى احترس) ، وهى الصيحات المألوفة ، وكثيراً ما يضاف إليها : يا أفندى ! التركى : يا شيخ ! (للمسلم العجوز أو المتوسط العمر) : يا صبى ! (للشاب) : يا ولد ، أو يا ابنى ! (للولد) : يا شريف ! (للأشراف المعممين بالأخضر) : يا معلم ! (للنصرانى أو اليهودى من أهل البلد) : يا خواجه ! (للافرنجى) : يا ست ! (لسيدات الطبقة العليا والوسطى) : يا بنت ! (الفقيرة) : ويجب أن ينادى المرأة من الطبقة السفلى « يا بنت » ، مهما كان سنها كبيراً ، وإلا فالأرجح أنها لا تتحرك قيد أنملة ؛ وكثيراً ما يطلق على الفتاة الصغيرة أو المرأة الشابة « عروسة » . أما لقب : « حاجة » ، فهو نداء شائع للنساء فى الطريق

القهوة كثيراً وعلى مهل ، أو فى التحدث مع الأصدقاء فى المنزل ، أو التنعم بترف الحمام ساعة أو أكثر صباحاً . وفى الظهر عليه أن يؤدى الصلاة إذا كان يقوم بفروضه الدينية ، إلا أننى لاحظت أن القليل من المصريين نسبياً قد لا يهمل هذه الفروض ، وأن هناك كثيرين يندر أن يقيموا الصلاة أبداً . وبعد الظهر مباشرة (إذا لم يكن فطوره متأخراً) يتناول غداء خفيفاً ثم يأخذ الشبك والقهوة . وعند ما تشتد حرارة الجو لا يمنع نفسه من القيلولة . وكثيراً ما ينسحب ليستريح فى الحريم حيث تراعى زوجته أو جاريته راحته أو تدلك له قدميه ؛ وحينئذ ، أو عند ما يرغب فى الخلوة يقول الخادم للزائرين إن السيد فى الحريم ، فلا يستدعيه أحد إلا إذا كان لعمل ضرورى . وهو يتمتع مرة أخرى بين صلاة العصر إلى الغروب بالتدخين والقهوة بصاحبة أصدقائه فى المنزل أو فى الخارج . وبعيد غروب الشمس يتناول عشاءه

ويجب على الآن أن أصف وجبتى (الغدا) و (العشا) وكيفية تناولها ونظامهما . ولم ألاحظ فرقاً بينهما ، غير أن وجبة العشاء هى الأهم . والعادة أن يجهز الطعام فى العصر ، وما يفضل بعد وجبة العشاء يقدم أثناء وجبة الغداء فى اليوم التالى إذا لم يكن بالمنزل ضيوف . وعلى العموم يتناول رب الدار طعامه مع زوجته أو زوجاته وأطفاله . إلا أن كثيراً من الرجال ، وعلى الأخص رجال الطبقة العليا ، يمنعهم كبرياؤهم أو يشغلهم ارتباطهم بمجتمعاتهم عن تناول الطعام مع العائلة ، إلا فى بعض المناسبات القليلة ، وحتى بعض رجال الطبقة السفلى يندر أن يأكلوا مع زوجاتهم وأولادهم . ويجب على رب الدار عند ما يكون فى منزله صديق له أن يأمر بإحضار الطعام فى وقته وهذا لا بد منه إذا كان الضيف أجنبياً

ويغسل كل شخص يديه ، وفمه أحياناً ، بالصابون والماء قبل أن يتناول الطعام[1] ، أو على الأقل يصب على يده اليمنى بعض الماء (أنظر شكل ٣٦) ويحضر الخادم لذلك طستاً وإبريقاً من النحاس المبيض أو النحاس الأصفر[2] . وللطست غطاء به

(١) أنظر إنجيل مرقس ، الاصحاح السابع ، الآية الثالثة : « لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون ... »

(٢) وتكون هذه الأوعية ، فى منازل بعض الأثرياء ، من الفضة . وقد رأيت بعضها من النحاس المذهب

عدة ثقوب ، وفى وسطه نتوء لوضع الصابون ، فيمر الماء عند التسيل خلال هذه الثقوب إلى داخل الطست بحيث إذا قدم هذا إلى شخص آخر لا يرى الماء القذر ، ويعطى لكل فوطة



(شكل ٣٦) غسل اليدين قبل الأكل وبعده

والمائدة صينية مستديرة من النحاس المبيض ، أو من النحاس الأصفر أحياناً ، قطرها بين قدمين أو ثلاث أقدام . وتوضع على كرسى ارتفاعه حوالى خمس عشرة بوصة . ويصنع الكرسى من الخشب وقد طعم بالصدف أو الباغة أو العظم الخ .



(شكل ٣٧) الكرسى والصينية

فالصينية والكرسى يكونان السفرة (أنظر شكل ٣٧) وتوضع على الصينية أرغفة الخبز المستديرة التى سبق وصفها ، كاملة او مقطعة أنصافاً . ويصف معها حول الصينية أنصاف من الليمون لتعصر على المأكولات التى قد تحتاج إلى الحامض ، وملعقة من خشب البقس أو الأبنوس أو الباغة لكل آكل . وكثيراً ما يستعمل الخبز بدل الصحون . وبعد ذلك توضع أطباق اللحوم والخضر على اختلاف أنواعها ، جيمها مرة واحدة تبعاً للعادة المصرية أو طبقاً طبقاً حسب الطريقة التركية . وهذه الأطباق تكون من النحاس المبيض أو الخزف

ويجلس الآكلون على الأرض حول الصينية وعلى ركبتى كل منهم فوطته . أما إذا وضعت الصينية بجانب ديوان منخفض فيجلس البعض على الديوان والآخرون على الأرض . ولكن عند ما يكثر العدد توضع الصينية فى وسط الغرفة ويجلس الجميع حولها واضعين إحدى ركبتيهم على الأرض والأخرى (اليمنى) قائمة . وهذا هو الوضع المستحسن أثناء تناول الطعام (أنظر شكل ٣٨) وبهذه الطريقة يستطيع اثنا عشر شخصاً أن يجلسوا حول صينية سعتها ثلاث أقدام . ويشمر كل شخص عن ذراعه اليمنى حتى الكوع أو ما تدلى من كمه . وقبل أن يشرع أحد فى الأكل يسمى باسم الله(١) بصوت منخفض ظاهر ويبدأ رب الدار بالبسملة . ويعتبر هذا ملاطفة منه ودعوة إلى المدعوين لتناول الطعام . وعلى من يقال له بسم الله أو تفضل أن يقول إذا رفض الدعوة (هنيئاً) أو ماشابه ذلك . وقد يكون ذلك أيضاً خشية شر العين إذا وقعت على الأكل . ويقولون فى هذا : (لا بركة فى الطعام إذا اشتهى) . إلا أن الإلحاح الذى يدعو به المصرى الأجنبىّ إلى مشاركته الطعام يبين أن الذوق السليم وواجب الضيافة يحتمان عليه قول البسملة . ويبدأ بالأكل رب الدار ثم يتلوه الضيوف مباشرة .



(شكل ٣٨) جماعة يتناولون الطعام

والمصريون لا يستعملون السكين ولا الشوكة ، وإنما يستعملون بدلاً منهما الإبهام وأصبعين من اليمنى . وتستعمل الملاعق لتناول الحساء أو الأرز أو غيرهما من الأصناف التى لا يسهل تناولها بدونها . وقد تستخدم اليدان معاً فى أحوال

(١) أو بسم الله الرحمن الرحيم

سأذكرها الآن . وفى حالة ما توضع الأطباق جميعها مرة واحدة يغترف كل واحد من أى صنف يشتهيه أو من جميع الأصناف على التعاقب . وعند ما يقدم الطعام طبقاً طبقاً يتناول الواحد من الطبق بعضه ثم سرعان ما يرفع ليقدم غيره[1] ومن الأدب أن تناول صديقك قطعة مختارة . وأرى أن طريقة تناول المصريين والشرقيين طعامهم بالأصابع أرق مما يتصور الأوربيون الذين لم يشاهدوهم أو لم يسمعوا الوصف على حقيقته . فالواحد منهم يأخذ من الخبز قطعة يغمسها فى الطبق ثم يرفعها إلى فمه مصحوبة بقطعة صغيرة من اللحم أو غير ذلك من محتويات الطبق[2] ، وتكون قطعة الخبز مزدوجة بحيث تحيط بقطعة اللحم الخ ولا يستخدم عادة غير الإبهام والإصبعين الأولين . وإذا تناول شخص قطعة لحم تزيد على اللقمة وضعها عادة على رغيفه

(يتبع)   عدلى طاهر نور

(١) وقد أكل سيدنا عيسى وتلاميذه من طبق واحد . أنظر إنجيل متى ٢٦ — ٢٣ «فأجاب وقال : الذى يغمس يده معى فى الصفحة هو يسلمنى»

(٢) أو يغمس لقمته فى الطبق فقط . أنظر راعوث ٢ — ١٤ : «فقال لها بوعز عند وقت الأكل تقدمى إلى ههنا وكلى من الخبز واغمسى لقمتك فى الخل»

إلى « مى » . . .

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

طرحتِ الحياةَ وعبء الحياةِ   يا سيرةً من كِبار السِّيَرْ

نعاكِ النعيُّ إلى الخافقين   فعلّمنى كيف يهوى القمر

مضيتِ كأن لم تكونى ضياءً   ينيرُ القلوب ويجلو الفِكر

لعمركِ ، لو قام قبل النشور   رفاتٌ تلاشى وعظمٌ نخِرِ

لقامت سكينة فى إثر عمر   ة تستقبلانك دون الحفر

نهار الثلاثاء يا (مىّ) حالَ   محيّاه فهو شجٍ مكفهر

لأقسم بعدك ما أن يرقّ   نسيمُ أصائله والبكر

تفقد مجلسَك المستطابَ   وحلو الحديث وأنسَ السمر

وفكراً يُفيض على السامرين   جمالَ خيالاته والصور

وإذ يَنتثرُ طلُّ الحديثِ   على المنصتين نثارَ الزَّهَر

فتعبق حولك دنيا القلوبِ   ودنيا العقولِ بنشرٍ عطِر

وتهفو النفوسُ ، ويعنو لسحرِ   بيانك كلُّ بيانٍ سحر

* * *

ما تركتِ الغرُّ تنبىء كيفَ   يُخلِّدُ كلُّ عظيمٍ الأثر

كأنى بها قبستْ من طهو   ر سيناء يا (مىّ) تلك الغرر

أهذى « صحائفك » المشرقاتُ   أم الذهن ضاء خلالَ السُّطُرُ

وهاتيك أمّىَ « سوانحُ » أم نا   قبُ الفكر جلّى طباعَ البشر

خَبَرْتِ الحياة وحالاتِها   وأفعمتِ منها بحلوٍ ومُر

وكنتِ بشِرْعتها تعلمينَ   فبيّنتِ أحكامَها والعبر

تغلغل روحُك فى سرها   وكشّف من كُنهه ما استتر

وإذ جُزتِ يا (مىّ) أسفارَها   وما هى إلا سبيلٌ وَعُر

إلى عالمٍ دقّ تفسيره   وليس لوارده من صَدَر

فكيف وجدت لديه المُقامَ   وكيف يُصرّف فيه العمر ؟

بربكِ هل تستريحُ إليه الـ   قلوبُ وتنعمُ بالمستقر

بنفسى نُزُوعٌ إلى خُبْرِهِ   فهاتى حديثكِ واروى الخبر

هنالك أودعتُ نفساً صَفَتْ   إذا ثقُلتْ أنفسٌ من كدر

أخٌ إن عثرتُ أقال عثارى   وكان ملاذىَ والمدّخر

أحنُّ وأذكرُ آلاءه   فيصدعُ قلبى عذابُ الذكر

وأنظرُ فى إثره العابرينَ   فأشتاقُ لو كنتُ فيهم عَبَر ؟

* * *

هنا ضقتِ بالعيش ذرعاً فقرّى   هنالك عيناً بطيب المقر

تظلُّك من سدرة المنتهى   غصون دنا ظلُّها وانتشر

فلا النفس توهن من شقوةٍ   ولا الروحُ يا مى تشكو الضجر

(نابلس)   فدوى عبد الفتاح طوقان



يوم « مى »

فى يوم الخميس الماضى حفلت دار الاتحاد النسائى بصفوة من رجال الفضل والعلم أجابوا دعوة السيدة هدى هانم شعراوى لتأبين المنفور لها الآنسة « مىّ » . وكان الكلام لنخبة من أمراء البيان جلوا مآثر الفقيدة فى نواحى الثقافة والصحافة والسياسة والإصلاح، فتكلمت رئيسة الاتحاد عن « فقيدة العروبة النابغة » ، وتكلم معالى الدكتور هيكل باشا عن « مى والسياسة » ، وتحدث معالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا عن « ذكريات مى » ، والآنسة ابنة الشاطئ عن « مى الإنسانة » ، والدكتور منصور فهمى بك عن « مى والعروبة والأمومة » ، وألقى الأستاذان عباس محمود العقاد وخليل مطران بك قصيدتين من عيون الشعر . ثم تحدث الدكتور طه حسين بك عن « مى والأدب العربى » ، والأستاذة عزيزة عصفور عن « رسالة مى » ، والدكتورة نعيمة الأيوبى عن « مى والأبوة » . ثم نهض الأستاذ أنطون الجميّل بك فوجه الشكر عن أسرة الفقيدة إلى كل من شارك فى هذا العرس الحزين بقلبه أو لسانه . ثم ارفض الحفل وفى قلب كل من شهده حسرة لاذعة على أفول هذا النجم الذى لمع فى سماء الأدب حيناً ثم خبا والشرق أحوج ما يكون إلى وحيه وهديه . وفى العدد القادم سننشر جملة من مختار ما قيل . رحم الله الفقيدة الكريمة ، وعوض الأدب من فقدها خير العوض

هناء

أعاود بعدما قال الأستاذ المكرّم على الطنطاوى، فأقول: إنى سئلت عن «الهناء» فأجبت بأنه مذكور فى « تاج اللغة وصحاح العربية » ، ولكن لا أدري الآن الحكم الصحيح ، لأنه يجوز أن يكون فى النسخة « المخطوطة » التى اطلع عليها الأستاذ سهوٌ ، والعلم لله »

« رحيم »

تيسير الكتابة العربية

تجتمع فى الأيام القريبة المقبلة لجنة الأصول بالمجمع اللغوى لإقرار مشروع « تيسير الكتابة العربية » فى صورته الأخيرة بعد أن فرغت اللجنة التى كانت مؤلفة له من بحثه ودراسته وإدخال التعديلات عليه . وأساس هـذا المشروع اقتراح الأستاذ على الجارم بك ، ومبادئه الأساسية هى :

أولاً : يبقى للقرآن الكريم رسمه المأثور

ثانياً : تبقى صور الحروف العربية كما هى :

ثالثاً : توضع علامات للحركات والسكون والتنوين ، على أن تكون هذه العلامات داخلة فى بنية الكلمات ، لا هى فوقها ولا تحتها كما هو الآن ، حتى لا يخطئ اللسان فى بناء كلمة أو فى إعرابها

رابعاً : الحرف المفتوح لا توضع له علامة اختصاراً ، فترك العلامة دليل الفتحة ، وقد اختيرت الفتحة لكثرة دورانها فى الحروف ، فترك علامتها اختصار كثير

خامساً : لكل من الكسرة والضمة والسكون والتنوين علامة خاصة أشبه ما تكون بحرف جديد يتصل بالحرف الأصلى مباشرة .

وقد احتوى المشروع إلى جانب ذلك على قواعد تسهيل كتابة الهمزة والألف المتطرفة ، وكذلك وضعت قواعد للتقليل من العلامات ، وقواعد أخرى لمراعاة النطق فى الكتابة

ومما لاحظته اللجنة فى دراستها للمشروع ما تقتضيه الناحيتان الخطية والطباعية ، فروعى ذلك مراعاة عملية ، توصلاً إلى إمكان تنفيذ المشروع فى المطابع وفى الكتابة العامة

والمنتظر أن تفرغ لجنة الأصول من إقرار هذه القواعد والعلامات ، لتعرض على مجلس المجمع فى جلساته الأولى المقبلة ، حتى يعرض المشروع بعد ذلك بحذافيره على جمهور المشتغلين بالعلم والأدب والفن فى مصر والبلاد العربية

المؤتمر التعليمي العربي والأبحاث التمهيدية للدعوة اليه

اجتمعت فى الأسبوع الماضى برياسة معالى وزير المعارف اللجنة التى وكل إليها وضع منهاج المؤتمر التعليمى الذى ستدعو إليه مصر الأقطار العربية ، والذى تأمل وزارة المعارف أن تجعل منه فرصة مناسبة لتقريب الفكر العربى من المركز الثقافى فى القاهرة ، وأن نسعى به إلى تحقيق أمل قديم فى جعل شباب الأقطار العربية يتلقون ثقافة متقاربة موحدة بقدر الإمكان

وقد علمنا من بعض أعضاء هذه اللجنة أن أهم أعمال المؤتمر ستدور حول غرضين رئيسيين أولهما « الثقافة العامة » وثانيهما « المناهج المدرسية » . أما الغرض الأول فيقصد به ربط الشعوب العربية بلون ثقافى متجانس يستمد طابعه من المقومات المشتركة بين هذه الشعوب . وأما الغرض الآخر فمن السهل تحقيقه ؛ وعند ذلك يمكن للطالب فى أى قطر عربى أن يستكمل مراحل دراسته الثانوية أو العالية فى أى قطر آخر — وخصوصاً الآن فى مصر — من غير أن يواجه بسياسة تعليمية مضادة لما نشأ عليه

وسيعنى المؤتمر فى الموضوعات التى سيتعرض لها بالمشاكل التعليمية التى تشغل البال اليوم فى جميع البلاد العربية ومنها مصر وأهمها طرق التدريس ، وفى هذا الشأن قد تنتفع الأقطار العربية من خبرة المصريين بطرق التدريس الحديثة ؛ ولكن من المشكوك فيه الآن أن نحصل على اتفاق فى توحيد المناهج فى الوقت الذى راجت فيه عندنا فكرة التعليم الإقليمى أى وضع مناهج خاصة لكل إقليم على حدة ، بحسب ظروفه وحاجاته

أسرة الشعر بكلية الآداب

حددت أسرة الشعر بكلية الآداب برنامجها هذا العام فيما يلى

١ — ترحب الأسرة بكل دراسة تحليلية للشعر فى مختلف أوضاعه وللشعراء فى شتى نزعاتهم ويتناشد الأدباء والشعراء فى مصر والأقطار الشقيقة لهذه الغاية

٢ — ستقوم الأسرة بتنظيم حفلات نصف شهرية فى أحد مدرجات الكلية لإلقاء هذه الدراسات وعرض الأشعار المنتجة ومعاع الموسيقى والأغانى وستعطى للمستمعين فرصة للنقد والتعليق

٣ — ستصدر الأسرة مجلة (الشعراء) شهرية مؤقتاً تضم البحوث الفنية فى الشعر وروائع الشعر الحديث والقديم

٤ — ستقيم الأسرة فى نهاية العام (ليلة للشعر)

٥ — المكاتبات تكون باسم حضرة سكرتير أسرة الشعر بكلية الآداب

تحقيق تاريخي

قال الأستاذ أحمد أمين بك فى مقال نشرته مجلة (الثقافة) بعددها ١٣٠ : أن الشيخ يوسف الشربينى مؤلف كتاب : « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » من أعيان القرن الحادى عشر الهجرى ، وقد تعرض لكتابه « هز القحوف » بالتحليل فى هذا المقال ، ولا يعنينى الرد عليه فى صورته التحليلية وإنما الذى يعنينى أن أذكر أن « الشربينى » من أعيان القرن الثانى عشر ، لا من أعيان القرن الحادى عشر ، وأنه كان من العلماء الأعلام ، فلقد وقفت بخزانة كتب مولانا العلامة المؤرخ الشيخ محمد محمد حامد المراغى الجرجاوى على ما كتبه بخطه على نسخة « هز القحوف »

فى الفهرست لدار الكتب الأميرية ص ٢١٣ ج ٦ ما لفظه « هز القحوف » بشرح قصيدة أبى شادوف ، تأليف العلامة الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى من علماء آخر القرن الحادى عشر كان موجوداً سنة ١١٠٩

وقد علق على هذا العلامة المؤرخ المراغى الجرجاوى بقوله : رأيت مؤلفاً اسمه « السيف الصقيل ، فى عنق من يرد الطاقة الثلاث من غير تحليل » صرح فيه بالرد على هذا الضال ، وأنه شرح

فى تأليفه يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم من شهور سنة ١١٠٩ هـ ولفظه :

وبعد ، فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى ، كان الله له ورحم أباه وسلفه ، لما كان يوم الثلاثاء المبارك سابع عشر المحرم الحرام من شهور سنة ١١٠٩ هـ ، وأنا قاطن بثغر دمياط ومحل الخير والرباط ... الخ

ففى أوائل القرن الثانى عشر كان المؤلف على قيد الحياة ، فهو من علماء القرن الثانى عشر ، وهو من العلماء الأعلام ، لا كما يقول الأستاذ أحمد أمين بك أنه كان من المهرجين

هذه إلمامة موجزة أزجيها لخدمة التاريخ ، والله ولى التوفيق

« جرجا » محمود عساف أبو الشباب

رسالة المعلم الالزامى وكيف ينبغى أن تكون

فى العدد السابق من (الرسالة) الزاهرة أبان صديقى الأستاذ « محمد كامل حته » ماهية رسالة التعليم الإلزامى من حيث هو « مادة » وأجلى للقائمين بالأمر من أن التعليم الإلزامى أسمى مما يظنه البعض نحو قصوره على محو الأمية فحسب

وإتماماً للفائدة رأيت بهذه المناسبة أن أتكلم عن رسالة الذى عهد إليه عملية هذا البناء والذى وكل إليه مستقبل هذه الأمة وعن الأمانة التى وضعت فى عنقه لحملها عن طيب خاطر ألا وهو — المعلم الإلزامى —

المعلم الإلزامى له رسالة داخل المدرسة حيث الطفل لا يزال كالعجينة ، فهو الذى يصهرها ويصبغها كيفما شاء . وله رسالة خارجها : حيث الشعب وسواد الأمة فى القرية والمدينة

ومن هنا يجدر بنا أن نؤمن بأن المعلم الإلزامى له شأن آخر يختلف عن زميله الجامعى أو العالى من حيث الأهمية والخطر ... فهو رسول الأمة فى تعليم أبنائها داخل المدرسة وخارجها

ولذا يجب أن تكون حياته ملأى بالمثل الصالحة الجديرة بإنهاض الأمة وتثقيف عقول أبنائها وتقويم أخلاقهم .

وأن يكون هدفه المباشر مصلحة الطفل فى المدرسة وخارجها ، وأن ينظر فى أمر إصلاح القرية من نواحيها المختلفة ؛ فهناك فساد النفوس وإعراضها عن الحق ، وعلل الأجسام والأمراض الفاشية ، وسوء الحالة المادية وفساد النظام الصحى

وإن من أهم ما يثير حيويته حين ينشد الحياة الصالحة أن يكون عارفاً لنفسه حقها وأن يكون رجلاً أبياً عيوفاً ذا إرادة حديدية لا تغلب ، وعزيمة جبارة لا تقهر ، وأن يؤمن بشرف رسالته فيكون خير مثال يحتذى به فى القول والعمل جاعلاً نصب عينيه التفانى فى الواجب وإنكار الذات

ولكن هل المعلم الإلزامى يعرف رسالته ؟ وهل هو جدير بها ؟ وهل يؤديها على الوجه الأكمل ؟ وإذا لم يكن فلماذا ؟ وهل وجد اتحاد التعليم الإلزامى لتحقيق هذه الرسالة ؟ أم أن جهوده قاصرة على تحسين حال المعلم المادية فقط ؟

هذه أسئلة تدور على ألسنة كثير من الناس ، وهى جديرة بالرد عليها — وموعدنا العدد القادم إن شاء الله

محمود محمد عيد
وكيل نقابة القاهرة للتعليم الالزامى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



9me Année No. 441

Lundi - 15 - 12 - 1941

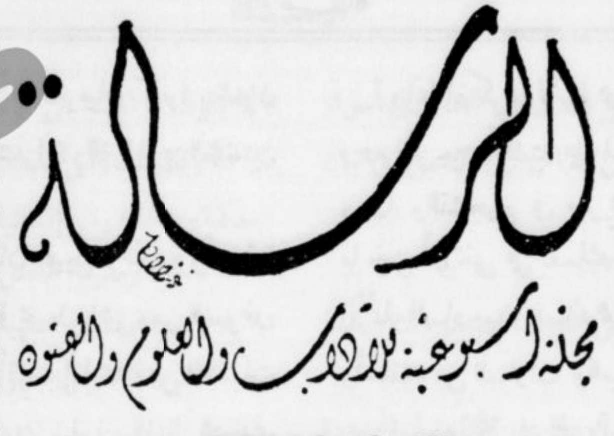


بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٤١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ ذو القعدة سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

وأمنيتى ... ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

« ... فهمنا من مقالكم « أمنيتى » ما هى العلاقة بين الفروسية وقرض الشعر ، أو بين أن تتمنى قيادة الجيوش وأن تتمنى النبوغ فى الأدب . ولكن تسمحون لى أن أقول إن العلاقة بين التدين والأدب لا تزال غير جلية ، فهل تتفضلون بتوضيحها ...

« ... ولا أدرى هل تمنيتم الأدب ولم تتمنوا شيئاً آخر من الدنيا ؟ ألم تتمنوا السعادة مثلاً ؟ ألم تتمنوا لذة من لذات الحياة ؟ أليس الحب أمنية للشاعر وإخوانه من رجال الفنون الجميلة ؟ فما قولكم فى هذا ؟ هل يغنى الأدب وحده عن كل هذه الأمانى المحبوبة ! ... »

محمود حسين

***

هذه نبذة من خطاب مطول فى التعقيب على مقالنا السابق عن أمنيتى فى الحياة ، نعود بها أو تعود بنا إلى هذا الموضوع الذى لا يزال أبداً فى حاجة إلى تكملة كاحتياج المرء إلى التمنى واستكناه ما يتمناه وإطالة القول فى هذا وذاك

ويلوح لى أن الأديب المستفهم يبحث عن علاقة بين الأدب والتدين كالعلاقة بين الأدب ونظم الشعر فى ميدان القتال للتحدى والتهويل على الأنداد

فالشعر قريب من الفروسية لأن الفرسان كانوا ينظمون الشعر بين الصفوف، فهم فرسان وشعراء؛ والقرابة بين الطائفتين واضحة على هذا المنوال

ولكن ما هي العلاقة بين الإيمان الديني والنزعة الأدبية؟ هنا يقول الأديب المستفهم إن العلاقة يحيط بها شيء من الغموض

والواقع أن العلاقة هنا أوضح وأقرب إذا بحثنا عن المناسبات السطحية التي من قبيل نظم الشعر بين صفوف القتال للتحدي والتهويل؛ فإن كثيراً من الشعراء ينظمون في الأغراض الدينية وفي الغزل الإلهي وفي شطحات الصوفية وأهل الطريق. فإن كان هذا هو المقصد من العلاقة بين الإيمان الديني والنزعة الأدبية فما أوضح الوضوع وما أبعده من الغموض! ...

إن الشعراء الصوفيين لا يقلون عن الشعراء الحماسيين، وقصائدهم رائجة بين الناس كرواج قصائد الفرسان، لأن حلقات الأذكار وما يشبهها أشيع في الأندية والمجالس التي تنشد فيها سير الأبطال بلغة الفصحاء أو بلغة العوام

ومن ذكرياتي في هذا الصدد أنني نظمت الشعر في الأغراض الدينية كما نظمته في المناجزة والدعوة إلى القتال

فقد أسلفت بمقالي السابق أنني أوشكت أن أسلك طريق «الدروشة» وأنقطع عن الدنيا ومساعيها. وكنت خلال ذلك أسمع الأذان من مؤذن المسجد المقارب لبيتنا وهو منشد مشهور بجمال صوته وحسن إلقائه، فكان يشجوني أن أسمع مقدمات الأذان قبل صلاة الجمعة وهي الأناشيد الثلاث التي كانوا يسمونها حسب ترتيبها بالأولى والثانية والثالثة، وكلها من الشعر المنظوم في التصوف أو مدح النبي عليه السلام

وكان مسموحاً للناشئين أن ينشدوا هذه القصائد مع المؤذن أو على انفراد، بل كان إنشاد الناشئين مفضلاً مستحباً لأنهم أقرب إلى صفاء النفس وطهارة العبادة

فاستأذنت في إلقاء إحدى هذه القصائد مرات، واخترت في بداية الأمر شعراً من دواوين البرعي وأمثاله. ثم تجرأت على نظم قصيدة طويلة أحكي بها شعر المديح النبوي، وأنشدتها دون أن أخبر أحداً بأنني ناظمها، وخفت أن يستكثروها عليّ بعد ظهور الحقيقة فختمتها ببيت لا أذكر منه إلا الشطرة الأخيرة وهي: «عباس من هو بالأشعار مدرار»

وإنما أذكرها لأنها هي الشطرة الوحيدة التي انتقدها أبي رحمه الله حين أطلعته على الحقيقة. فتبينت الفرح في أسارير وجهه والتشجيع في صريح كلامه، ولكنه قال لي برفق: ما ينبغي أن تثني على نفسك هذا الثناء وأنت ترى كيف يختم الأئمة المادحون قصائدهم بالتذلل والتوسل وتصغير ما قالوه وأسلفوه من الصلوات والعبادات

فهذه علاقة بين التدين ونظم الشعر كالعلاقة بين نظم الشعر والحماسة العسكرية، ولكنها كما قدمت علاقة سطحية توجد بين الأدب وبين كل موضوع ينظم فيه الشعراء. ففي وسعك على هذا القياس أن تقول مثلاً إن الهندسة «الميكانيكية» قريبة من الشعر لأن بعض الشعراء ينظمون في وصف الطيارة، وأن تقول كذلك إن علم الحيوان قريب من الشعر لأن بعض الشعراء ينظمون في وصف الخيل أو وصف العصافير

إلا أنها علاقة سطحية لا يرجع إليها في استكناه أسرار الشخصية الإنسانية وروابط الملكات والطبائع الخفية، وغير هذه العلاقة أردنا حين قلنا: «إن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندي تحقيق وجودها ومتمها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها»

فالتعبير عن النفس هو الأدب في لبابه

وما هو التعبير الذي عنيناه؟

التعبير الذي عنيناه هو كشف المكنون وتوضيح الأسرار وتمثيل الخفايا في صورة تخرجها من عالم الخفاء إلى عالم النور

وهنا العلاقة الوثيقة بين أعمق أعماق الدين وأعمق أعماق الأدب: هنا العلاقة بين استطلاع أسرار الوجود وبين معرفة النفس ومعرفة الإفصاح عن معانيها والإبانة عن أشواقها بلسان الأدب أو بلسان الفن على التعميم

فكل تعبير ينطوي على سر موضح مكشوف

وأي سر أعمق من سر الوجود وأحوج منه إلى التعبير والتقريب والإلحاح بعد الإلحاح في الاستكناه والاستطلاع

ذلك ما أردناه حين قلنا إن الصومعة قريبة من الروضة الأدبية، وذلك هو التعبير عن النفس بمعنى إثبات حقيقتها وإثبات العلاقة بينها وبين الحقائق الكبرى

ولكل نفس تعبيرها على حسب ما تحسه وتتوق إليه، فليس

من الضروري أن ينتهي التعبير بكل إنسان إلى التعمق في أسرار الدين ، ولكنه إذا انتهى ببعض الناس إلى التعمق في تلك الأسرار فليس ذلك بغريب

***

أما أنني تمنيت الأدب ولم أتمن السعادة فسبب ذلك بسيط لا نطيل الإفاضة فيه

سببه أن السعادة أمنية عامة وليست بالأمنية المحدودة أو الأمنية الخاصة

فمن قال إنه يتمنى السعادة فكأنما قال إنه يتمنى ما يتمناه كل إنسان ، وكأنه بذلك لم يقل شيئاً يستحق السؤال

كلنا يتمنى السعادة ، ولكن سعادة هذا غير سعادة ذاك

سعادة هذا في المعرفة ، وسعادة ذاك في جمع المال ، وسعادة غيرهما في السطوة والاستعلاء ، وسعادة آخرين في الراحة والقناعة ، وكلهم يتمنون السعادة على نحو من الأنحاء

فإذا سألني سائل ماذا تتمنى فهو لا ينتظر مني أن أحيله إلى السعادة مجملة غير مفصلة ، بل هو ينتظر مني أن أبين له الأمنية التي تسعدني إن ظفرت بها ، أو التي أعتقد أن طريقها هو طريق السعادة وإن لم أصل إليها

وكذلك لذة الحياة أو لذات الحياة . فهي مسألة وظيفة من وظائف البيئة الحية لا تحتاج إلى سؤال ، وما من حي إلا وهو يشتهي أن يشعر باللذة وأن يجتنب الألم . وغاية ما بين الأحياء من فروق في هذا الباب أن يختلفوا في أسباب اللذة ودرجاتها على نحو قريب من اختلافهم في أسباب السعادة ودرجاتها

هي وظيفة وليست أمنية

ومن قال إنني أطلب اللذة فكأنما قال إن لي معدة ولي عينين ويدين وقدمين ، وذلك غنى عن المقال

***

أما الحب وأنه أمنية للشاعر وإخوانه من رجال الفنون فذلك صحيح

ولكن من قال إن « التعبير عن النفس » لا يشمل الحب في بعض نواحيه ؟

ومن قال إن الاشتياق إلى الحب والاشتياق إلى التعبير عن النفس شيئان مختلفان ؟

إن الإنسان لا يجد نفسه في شيء كما يجدها في الحب ، وإنه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف ، ومن عطف وجود ، ومن رحمة وقسوة ، ومن خفايا وظواهر ، ومن نجهمة وضحك ، ومن حكمة وحماقة ، ومن إنسانية وحيوانية كما يعرف ذلك جميعه في الحب

فالحب ومعرفة النفس صنوان

ومعرفة النفس منتهية لا محالة إلى التعبير عنها ، ولو لم يكن هذا التعبير بالمنظوم والمنثور

ونحن حين قلنا إن « التعبير عن النفس » يجمع ما تفرق بين الشكنة والصومعة والروضة الأدبية قد قصدنا أن تحيا النفس أولاً وأن تشعر بالحياة شعورها الخاص بها قبل أن يتاح لها تمثيل ذلك في صورة من صور التعبير

ولم نخص الحب وحده بين دوافع الشعور ؟

لم لا نذكر المجد أو البر أو الجهاد الإنساني أو الوطنية أو غير ذلك من معارض الشعور ومعارض الشوق إلى التعبير ؟

فالتعبير عن النفس عندنا كلمة مقابلة للشعور بالنفس . ومتى شعرت النفس بحقيقتها فالعواطف الكبرى جميعاً حاضرة بغير استثناء ، مذكورة بغير تسمية ، معممة بغير تخصيص .

عباس محمود العقاد

الحيــــاة صادقة !

[إلى ضحية الحرمان والأحزان النابغة « مي » !]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

هـذه الشعلة التي تسكن جسم الحي ، تتطلب إحساساً كاملاً بها وذوقاً مستوعباً لها يتملاها مليًّا ، وينهل من حرارتها عبًّا وريًّا ...

هذه الشعلة تنادي الجسد أن يحييها ليحيا بها ، ويُمدها بوقود ليستدفئ ويستضيء ...

إنهـا كمعنى النار : حرارة في جسم حار ... عَرَضٌ على جوهر لا انفكاك بينهما ، ولا استقلال لوجود أحدهما عن الآخر ...

إنها لا تغتفر لمن يحاول كبتها وإخمادها ، وإنما تخزى فيه فتُصليه وتُرديه ...

شعلة الحياة هي أكبر هبات واهب الحياة ؛ لأنها نفحة من وجوده الخالد ! فكيف يأبى العود الأخضر أن يدب فيه النماء ، ويتسرب فيه المـاء ، وتنبثق منه البراعم ذات الأفراخ الزُّغب ، والأوراق الخضر ، والزهرات النضر ، والثمرات الصحاح المملوءة بأسرار الحياة ؟ !

لا جرم أن يصير هذا العود المتأبي على عوامل الحياة والنماء حطباً يحترق بعوامله الذاتية ويموت في موضع الحياة ، حتى تأتي يد الحطّـاب فتأخذه لتقذفه في النار ، وتنقى منه صفحة الحقل الخصيب ...

***

إن الحياة صادقة ، وذوو الفلسفات الذين ينادون بالحرمان من ينابيعها كاذبون !

إنهـا لا تحابي أطفالها الذين يأبون رضاع أفاويقها ، ولا تمكث بجوارهم لتدللهم طويلاً إلا ريثما يدركون وجهاتها ويصيرون صالحين لحمل شعلتها ذات الأمانات والأسرار ثم تجازيهم على العقوق والمخالفات ...

فلتحذر القلوب الشابة الشاعرة التي قد يخدعها ما في الفن من تزاويق وضباب ملون ، أن تستسلم لخطـفـات الشعراء المتشائمين ، وأخذات الرهبان المتسامين ، وشطحات المتصوفة المنقطعين ... أولئك الذين يصيرون أحراراً من قيود الأرض ، لا يعيشون في عش . . . وإذا عاش الإنسان في عش خضع لقوانين الأرض ، وارتبط بها كارتباط الحيوان والنبات بحبل القرية . . . فلم يفكر في الشرود

وأنى له الشرود ودواعي الحياة الأرضـية تناديه في قلبه بالعواطف الأبوية والزوجية ، وفي جسمه بالمحافظة لمقاومة عوامل هدم العش ، وفي فكره بالتدبير للاقتناء والتوريث ... !

أما إذا ظل متفرداً حتى جاء أوان الإدراك الـكلي ، وحان بلوغ الأشد ، فسيموت في نفسه الخوف من الحياة والحب لها ، وحب الارتباط بالواقع ... وسيُكْـفَى التدبيرَ والعمل للاقتناء والتوريث ، وسيستمر حتى يخلص فكراً طليقاً بعيداً عن قيود الأجسام وضرورات الأرض ، ويكون قلبه وكراً لما كنات غريبات من الأفكار والأوهام ، كما يكون الركن الخرب مسكناً لطيور وحشرات لا تحبها الحياة ، ولا تحب هي نور الحياة ... !

***

لن يجـدي الإنسان شيئاً أنه يقف حياته على ملء يديه بالأضواء والرياح والمياه ، وما لا قبض عليه ولا محصول يدوم منه إلا صوراً بيانية في ورقات جافة ...

إن الحياة هي كلمة الله النافذة إلى القلوب ، لا يحسها إلا من يحملها بأعبائها ، ثم يحاول أن يسلمها لغيره ... وقد أودعها الله قلب آدم ، « فجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم يرجعون ... »

إنهـا كلمة السر ! من لا يعرفها لا يستطيع أن يسير في المسالك والدروب التي طرقتها أرجل القافلة منذ فجر الحياة إلى يوم الناس هذا ...

***

كثير من المتطلعين المتوسمين لما يولد في الـكون من عجائب يحبون أن يروا مخدوعاً شاذاً يأتي إليهم بطبائع غريبة وألوان مستحدثة من الحياة والتفكير . ومن هنا كان إعجابهم بأمثال « أبي العلاء » و « نيتشه » و « شوبنهاور » وغيرهم من المتشائمين المتشككين الذين أبوا أن يمدوا أيديهم إلا إلى الحنظل والأشواك ويتركوا ما في الحياة من تفاح وأزهار . ومنشأ إعجابهم بأمثال هؤلاء أنهم يحبون أن يروا الشذوذ ليدركوا منه القاعدة العامة التي تنتظم حياتهم .

إنهم يحبون أن يروا الضحايا المصلوبين ليتخذوا منهم مادة لأقوالهم وخيالهم وتأملاتهم .

وكثيراً ما يخدع الشباب المفتون بهذه الحياة الشاعرة الحادة المتشائمة المنطلقة من قيود الأرض التي لفتت أنظار النقاد والمتكلمين ودعتهم إلى التحليل وإضفاء النعوت والألقاب وضفر أكاليل الغار ونثر الأزهار . فيحب أولئك الشبان الشعراء أن يحوزوا مثل تلك الشهرة ولو أصابتهم أوجاع المصلوبين والمحرومين ...

ولكن ما جدوى الشهرة وأكاليل الغار على من أقفر قلبه من بشاشات الحياة ؟ وعلى من رأى الحياة عبئاً ثقيلاً يود الفرار منه ولو إلى جهنم ؟

إن السعادة لن يكون منشؤها غير الفيض الذاتي من القلب الذي يتصل بأعماق الحياة ذات المسرات الأصيلة . ولن تأتي بها شهرة أو مال أو ألقاب يخلعها عشاق الأعاجيب .

فليحذر الشباب أن يصدقوهم ويكذبوا الحياة ...

***

كلا . لم نخرج إلى الوجود لنفطم أنفسنا عن أطايبه إلا ما فيه تأثيم ومساس بحقوق الجماعة التي تنمو بينها عوامل الحياة

فلنأخذ طوعاً من الوجود كل طيب مَرِيء كما نحمل كرهاً على تناول الخبيث الوبيء من آلامها ... وليس من العدالة أن نقبل الألم ونأبى السلامة ، إلا إذا أردنا أن تكون حياتنا سلسلة من النقمة والسخط والوجيمة واجترار الأحزان ورؤية الحياة من وجهها المظلم وحده ...

ولندفع أنفسنا إلى غايات الحياة الكبرى في شيء من الخديعة والتلبيس كما ندفع الأطفال إلى غايات مستقبلهم ...

وإن الاعتراف بازدواج المساءات والمسرات في الطبيعة هو أول أسس النجاح واجتياز محنة الاختبار في هذه الدار . ونكون سعداء حينما نخرج من هذه الحياة متوازنة فينا نواحي الآلام والمسرات . ونكون أسعد حينما نخرج متفائلين طيبة نفوسنا راضين عن الحياة وواهب الحياة ...

وإن الأقدار ترمينا بيد السوء لتمسح عنا بيد النعمى . فإذا وقعت علينا إحدى اليدين فمن الفطنة ألا ننسى أن الأخرى وراءها . فواجب أن نفر من الحزن ولا نحسبه ضربة لازب ، وألا يطيش بنا الفرح فنحسبه ضربة لازب ...

عينان لعينين ، وشفتان لشفتين ، ويدان ليدين : تريان وتذوقان وتذودان !

تلك شركة إنسانية أرادها الله وطبع عليها الحياة . فمن رأى بعينيه وحده لا يَرى نفسه ... ومن ذاق وحده قتل حِسَّه ... ومن ذاد وحده لم يحْمِ جنسه ...

شركة أرادها الله ليخرج من بينها أيدياً وشفاهاً وعيوناً تنظر وتذوق وتمطى شعلة الحياة حطباً ، ونواميسها عملاً ، وطواحينها طِحْناً ...

***

هذا الجنس الطيني لن يكون مَلَكياً خالصاً وهو في الأرض والمطلوب منه ألا ينسلخ ويتجرد من قوانين التراب . ومن قوانين التراب المزاوجةُ والتجمعُ والمؤالفةُ بين المتشابهات . فَبَدوات الآمال المحرَّرَة ، وأحلام الانطلاق الكلِّي لم تخلق لهذا العالم الأرضي ، وإنما هي نماذج مما سيكون هناك ... تراها أرواحنا لتتعلق بها وتعمل على بلوغها بعد الرحلة ...

والناس يحبون هنا بالجسد أكثر مما يحبون بالروح . فهم إن عجبوا من المتحررين من الأجسام فما ذاك لأنهم يريدون اقتفاء آثارهم ، وإنما يقفون أمامهم لحظة أو لحظات ثم ينفلتون إلى غمرات الحياة ذات السحر والسلطان الآسر القاهر !

فلا تأخذنكم خواطف العزلة يا شباب الشعراء ، ولا تتخطفنكم الأشباح والأوهام من رحاب الجماعة وأحضان الطبيعة ذات المنطق العملي ؛ فإن لذلك عقاباً صارماً وثمناً غالياً يدفع من الأعصاب والدماء وقوى الجسد والروح . ولا مقابل لذلك إلا قبض على ريح ، ومضغ لماء ، واغتراف من سراب !

***

ما نحن المتكلمين تجاه وجه الحياة الواضح المعروف إلا نكرات مبهمة لا يعرفها أحد . أما هي فوجهها معروف السمات صادق القسمات . فإذا طالعنا الناس بوجوه مخالفة لها كذبونا وصدقوها ...

وما منطقنا تجاه منطق الأبد العميق الذي يجر الأحياء إليه بقيود وحبال من سحره الخفي ، إلا منطق تافه ذو صوت خافت تذهب به ضجة الحياة ذات المراكب الثقيلة والمواكب المتلاطمة ...

فليكن وجه أدبنا صورة من وجه الحياة الصادق . . . وليكن منطقنا منتزعاً من منطقها الصارم ... ليكونا أدباً ومنطقاً

يخدمان أهداف الحياة ويخففان أعباءها ...

وليكن عرضُنا للآلام والأحزان عرض الذكر بدولتها على النفوس حتى لا تطيش بها الأفراح والمباهج ، لا عرض الذي جعلها عثور فتنة . وليكن أدب الحرمان بمقدار الحرمان الذي في الحياة ، لا يزيد عليه ولا يضخمه ولا يجتره ...

والحياة وُهوبٌ معطاء أكثر مما هي بخيلة ضنينة . فليكن تصويرنا لها بالفن كما هي ، بل إن استطعنا أن نزيد بالفن ألوان مسراتها وأنواع عطاياها فلنفعل ...

إن الحياة هِبةٌ عظمى ثمينة من واهبها ! فلنعرف لها مقدارها ...

ولنهتزَّ مع أعوادها الخضر للرياح والنسمات والأنداء والأضواء اهتزاز النماء والإنتاج والإثمار وإعطاء الأسرار للأبناء بعد أخذها من الآباء ...

***

ما ضر « ميًّا » لو عاشت « أنثى » للبيت والأمومة والفن المخفف بدل تلك الرهبانية التي اختطفتها من رحاب الحياة وانتهت إلى اختطافها من صومعة الفن كذلك ؛ فحرمت العروبة وحرمت الأدب من أعذب صوت نسوي يشدو ببيان عربي ؟

إن الفن تفر إليه النفس لتخفيف أعباء الواقع ؛ فينبغي ألا يتخذ غذاء دائماً للنفس وإلا فقد سحره وأورث النفس سآمة لا دواء منها . ومن أين الدواء وقد صار « أفضل ما في النفس بمنتالها » . وصارت الغُصّة مما كان يزيل الغصة ؟!

وما كان ضرها لو صرت بموت أبويها كما يمر سائر الناس بموت الآباء والأمهات : بكاء على الفراق حتى نتعود الفراق ، فيندمل الجرح وننسى إلا في ساعات الذكرى التي لا بد فيها من استحضار صور الأحباب والأعزاء الذاهبين ، فتدمع عيوننا دمعاً لذيذاً رقيقاً يغسل غشاوات القلب بماء غير حميم لذاع . . .

إن احتجاز الأحزان الثقيلة واجترارها أعظم ما يبتلى به القلب وتحطم به الأعصاب ويمحو بشاشات الأيام ويحبس النفس في جدرانها تحت ظلال من الخواطر القاتمة ...

مسكينة « مي » ! استغنت عن صداقاتها ومجالس أسمارها وأحاديثها في أشد أوقات حاجتها إلى السلوى بها !

لقد نجاها الموت من عذاب مثلث الأوجاع : التفرد ، والثكل ، والمرض ...

وما كان لأنثى أن تحمل مثل ما حملت وتنهض به ...

عبد المنعم خلاف

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

نداء المجهول

للدكتور زكي مبارك

التعاون بين الأدباء العرب — شخصية محمود تيمور — درس الطبقات الفقيرة هو أسهل الجوانب في الدراسات النفسية — فتنة المتشرقين — الولد سر أبيه — وهو أيضاً سر أخيه — صدق محمود تيمور يتمثل في «نداء المجهول»

الأدباء العرب

حديث اليوم عن «نداء المجهول» للأستاذ محمود بك تيمور، وتُطلب الطبعة الثانية من مكتبة المعارف بالقاهرة، وثمنها عشرة قروش

ورعايةً للوفاء نذكر أن هذا الكتاب طُبع أولَ مرة في بيروت بعناية «دار المكشوف»، وقيل في المقدمة إن نشره هنالك «برهان جديد على السعي الجِدّي في سبيل التعاون بين الأدباء العرب» — وهذا حق — فإخوانُنا في فلسطين وسورية ولبنان والعراق ينتهزون جميع الفرص لتوكيد صلات الإخاء بينهم وبين زملائهم في الديار المصرية، وتلك عاطفة يذكرها المصريون بالحمد والثناء، ولا يعلم إلا الله مقدار الاستيحاش الذي عانيناه يوم قضت الحوادث منذ أشهر بانقطاع البريد بيننا وبين تلك البلاد

شخصية محمود تيمور

كنت أشرت وأنا أتحدث عن الأستاذ إبراهيم المازني إلى أني سأضع الأستاذ محمود تيمور فوق المشرحة — وكذلك صنعتُ — فكتبت عنه مقالاً يؤذيه بعض الإيذاء، ثم مزقت ذلك المقال حين تذكرت أن محمود تيمور لم يشترك قبل اليوم في المعارك الأدبية، ولم يتعود دفع النصال بالنصال، وما يجوز ذوقاً أن نهجم على رجل لا يفكر في الدفاع

ولكني مع هذا مسئول أمام قرائي، ومن الواجب أن أحدثهم عن رأيي في أدب محمود تيمور بلا مواربة ولا رِياغ[1]، وهل من الحتم أن نعلن الحقيقة بعُنف، ونحن نملك إعلانها برفق؟

سأقول كل شيء في محمود تيمور بدون أن أعرّضه للضجر والامتعاض، إلا أن يغضب من الحق، كما يقع لبعض الناس

فمن محمود تيمور؟

هو شخصية ساهية لا ينم مظهرها على شيء، إلا بعد التأمل والتدقيق، كأن يذكر المتوسِّم أنه كاتب معروف، ولا بد أن تنطق معارف وجهه بأشياء، وفي الناس من لا ينطق إلا إن أنطقناه بالعنف أو باللين

وعند التفرس في وجه محمود تيمور نرى أنه «وَلَدٌ واهي» كما تقول العبارة البلدية، وهو في الواقع غاية في الوعْي. وسحنته الساهية تؤيد المثل الذي يقول «تحت السواهي دواهي»، وهذا أجمل ثناء يقدم إلى هذا الرجل الحصيف

والدليل على أن محمود تيمور داهية هو إقباله على فنه الأدبي بطريقة جدية من حيث لا يشعر أحد بأنه من أصحاب الأهداف، فمنذ أكثر من عشرين سنة وهو يفكر ويكتب بنظام لا يعرف الملال، وقد يتفق له في أحيان كثيرة أن يهيم في شوارع القاهرة بلا غرض ظاهر، فهل يصنع هذا الصنع إلا ليستوحي القاهرة ويتعرف إلى شمائل الناس في الغدو والرواح؟ الرأي عندي أن ذلك هو حاله في جميع ما عرف من البلاد، فأقاصيصه تشهد بأنه ينقل عن عيان لا عن سماع

ويحدثك ناسٌ أنهم زاروا محمود تيمور وسامروه، وأنهم سألوه عن كَيْتَ فأجابهم بذَيْتَ، وتنظر فتجد بعض أولئك من ذوي الغفلة العقلية، فما غاية هذا الرجل من الترحيب بأمثال أولئك الناس؟ ما غايته وأكثرهم يتوهمون أنه تلميذهم المطيع، وأنه سيمنحهم نعمة الخلود في ظلال العقل، لا في حظائر الخبال؟

محمود تيمور له غاية من صحبة من لا يعنون إليه بصلة نفسية أو ذوقية، وغايته هي درس الغرائز والأحاسيس فيمن يلقى من الناس، ولو كانوا من الأوشاب

ألم أقل لكم إن تشريح أجسام الضفادع لا يقل قيمة في نظر العلم عن تشريح أجساد الأسود؟

ولكن هذا الدهاء لم يمض بلا جزاء، فاهتمام تيمور بدرس النفوس الصغيرة حرمه نعمة التحليق في الجواء السامية، فمن النادر أن نراه يلتفت إلى المخاطر التي تصاول كبار النفوس. وأندر من ذلك أن نراه يهتم بتصوير الأزمات التي تصارع كبار

---

(١) الرياغ مصدر راوغ

المقول . وهل تخطر له هذه الأشياء على بال وهو لا يتمرس بالجانب الوعر من صخرة الوجود !

محمود تيمور يهتم بدرس الطبقات الفقيرة ، مع أنه « ابن ذوات » فما سبب ذلك ؟

أكاد أجزم بأنه يختار الجانب الأسهل من الدراسات النفسية ؛ فالفقير ينفض همومه بين يديك حين تحادثه لحظة من زمان ، أما الغنى فيطوى همومه عن جميع الخلائق ، وقد يلهو ويلعب وبين ضلوعه نيران تأكل الجبال

الغنى يعرف عن الفقير كل شيء ، لأنه يراه فى كل وقت ممثلاً فى الخادم أو السائق أو الصانع أو الفلاح ، ومن إلى هؤلاء ممن تقوم على كواهلهم قواعد المجتمع ، وهم لسذاجتهم ينطقون بما يشتجر فى صدورهم من آلام وآمال . ولو شئت لقلت إن الفقير يتحدث عن كل شيء ، حتى الوساوس التى يحوكها عقله الضيق ، والحيل التى يصوغها ذهنه الكليل

فهل تحتاج متاعب هؤلاء إلى كاتب فنان ؟

تمد يديك لمعاونة امرأة فقيرة على ركوب الترام فتهتف :

« الله لا يغلّب لك ولية »

وهى كلمة لا يهتف بمثلها الغنى ولو أنقذته من أنياب القضاء فى تهمة تبديد

محمود تيمور رجل هادئ أو كسلان ، وإلا فكيف جاز أن يقضى عشرين سنة فى صحبة القلم بدون أعداء ؟ وكيف يمادى رجل لم يستطع قهر الجمهور على درس إحدى المعضلات ؟ !

هو طبيب فى يده مشرط ، ولكن مشرط « هذا » الطبيب صورة ثانية من الرسوم فوق صفحة من كتاب !

وذلك مصير كل كاتب يهتم بإرضاء الجهلاء المتعالين ، وهم دعاة الموت ، أو هم الأموات وإن تردوا بأردية الأحياء

فمتى ننقل تيمور إلى صفوف المكافحين لنضع فى دمه شيئاً من الحديد ؟

فتنة المستشرقين

محمود تيمور من أكابر العقلاء ، ولكنه مهدد بأحد الأخطار المواحق . ومن البر بصديقك أن تبذل فى نصحه ما تملك ، وهذا الرجل من أعز أصدقائى ، فأنا ماض فى نصحه بلا تحفظ ولا احتراس

صديقنا « تيمور » مفتون بالمستشرقين ، وما أريد بهم الجماعة التى تُعنَى بدرس حياة العرب قبل الإسلام ، أو الجماعة التى تدرس حياة العرب فى عصر النبوّة ، أو الجماعة التى تدرس حياة الدنية الإسلامية فى عهود العباسيين والأُمويين ، أو الجماعة التى تدرس ما صار إليه أدب العرب بعد سقوط بغداد ، أو الجماعة التى تدرس العقلية العربية فيما سيطرت عليه من الممالك الأُوربية .

ما أريد هذه الجماعات العلمية ، فمحمود تيمور لا يلتفت إلى هؤلاء العلماء ، وإنما يلتفت إلى المستشرقين المشغولين بدرس الأُدب العربى الحديث ، وهم شبان على جانب ضئيل من التحصيل ولا يهمهم غير البريق

وأنا أعرف هؤلاء الشبان ، وأعرف غرضهم القريب والبعيد .

همُّ هؤلاء الشبان أن يوحوا إلى أبناء العرب أن مصير اللغة العربية مصير اللغة اللاتينية ، سواء بسواء ، وقد تفرّعت اللاتينية إلى لهجات ، فما الذى يمنع من أن تتفرّع العربية إلى لهجات ؟ وهل يكون ما بين مصر والشام والعراق من وشائج أقوى مما كان بين الفرنسيس والطليان والأُسبان ؟

يجب أن تحرص كل أمة من الشرق العربى على وجودها الذاتىّ بحيث يصبح لكل أمة لسان ، وإلا فهى أمم متأخرة لا تنصاع لقانون التطور ، وهو قانون !!!

وهؤلاء الصبيان من المستشرقين يسرهم أن يسجلوا أن أول من كتب العامية بحروفها النُّطقية هو فلان ، والأُستاذ محمود بك تيمور يسره أن يكون ذلك الفلان

ألم تقرأوا المسرحيات التى نشرتها مجلة « الحوادث » منذ أسابيع ، مع تقديم لطيف يشيد بجمل العامية لغة الأُدب المسرحىّ فى هذه البلاد ؟

هذا الصنف من أهل « الاستشراق » له تأثيرٌ سيئٌ فى حياتنا الأُدبية ، وهو يضلل الجمهور أشنع تضليل . ألا تَرونه يقدّم ويؤخر فى أقدار الأُدباء ، مع أن نقّاد الأُدب فى بلاد العرب هم أصحاب الحق الأُول فى تقويم الآثار العربية ؟

منذ أعوام نشرت جريدة « پارى سوار » مقالات دميمة عن « ليالى القاهرة » ؛ ورأت الحكومة المصرية أن تمنع تداول تلك الجريدة فى مصر بسبب تلك المقالات ، فما قصة الكاتب الذى قال فى « ليالى القاهرة » ما قال ؟

هو أديب فرنسى قدِم القاهرة ولم يزر غير الحانات ، فكان

نصيبه نصيب المستشرق الذي زار مصر ولم يرَ غير الأدباء المفتونين باللغة العامية ، وهم بشهادة أنفسهم من المتخلفين عن رعيل أهل الفكر والبيان

والخطر المخوف من مذهب محمود تيمور يرجع إلى أنه رجل محترم ، فهو من أدبائنا الكبار بلا جدال ، وإقباله على التعبير بالعامية ستكون له عواقب سود ، لطف الله به وهداه !

في مَدَى أربعة عشر عاماً لم يجرؤ واحدٌ من الأئمة على كتابة العامية العربية بالحروف النطقية ، كما صنع محمود تيمور في المجموعة التي نشرتها مجلة « الحوادث » ، وهي مجموعة تشهد بأنه انقاد لدعوة المستشرقين أبشع انقياد ، وسيهوي بها في قاع جهنم ألف خريف

الولد سر أبيه

أترك هذا الجانب الشائك ، وأنتقل إلى شرح مسألة طال حولها الخلاف ، وهي البُعد بين تيمور الأب وتيمور الابن ، فجمهورُ أهل النقد يرى أن محمود تيمور يسير في طريق ينكره أحمد باشا تيمور ، وكان هذا الباشا من أكابر أهل البحث والتحقيق

وأسارع فأقرر أن « محمود » سر أبيه في اللغة وفي القصص ، ولكن كيف ؟

ألّف تيمور باشا رسالة في اللغة العامية ، ولهذا المنحَى من التأليف مدلول ، فهو يشهد بأن ذلك الباحث العظيم كان يرى أن اللغة العامية خليقة بـ « ردّ الاعتبار » ، فهي لغة فصيحة لا ينقصها غير الإعراب ، وليس الإعراب شرطاً في البيان إلا عند خوف اللبس والغموض

وقد ورث محمودٌ عن أبيه هذه النزعة مع شيء من الانحراف أغراه به صنائع المستشرقين

ومحمود سرّ أبيه في القصص ، ولتوضيح هذه النقطة الدقيقة أقول :

مؤلفات تيمور باشا تغلب عليها النزعة القصصية ، وإن كانت في الأغلب من فنون البحث القائم على الأسانيد

هل قرأتم كتاب تيمور باشا عن « أعيان القرن الثالث عشر » ؟

قد تقولون : إن الأخبار الواردة في هذا الكتاب منقولة عن الواقع لا عن الخيال ؛ وأقول : إن تلك الأخبار الواقعية فيها نزعة خيالية ، وهل كانت القصة الجيدة غير حكاية صحيحة ؟

تيمور باشا لم يخترع ما في كتابه من حوادث ، ولكن أسلوبه في تخير الحوادث يشهد بأنه مبدع أقاصيص

وما الغرضُ من القصص ؟

للقصص غرضٌ واحد : هو إنطاق الحوادث بما كان يجب أن تقوله لو نطقتْ ، وهذا درس أقدمه لبعض الخلائق بالمجان

ولتيمور باشا كتاب عن أبي العلاء ، فإن قرأتم ذلك الكتاب ، فستعرفون أن المؤلف يرى الناحية القصصية أساس التأليف .

والولد سر أخيه

لمحمود تيمور أستاذ هو أخوه محمد تيمور ، وكان هذا الأخ مفتوناً بدرس الملامح البلدية ، وكتاب « ما تراه العيون » يؤيد هذا الفتون

كان محمد تيمور فتى تذوق أفاويق الحياة في باريس . ويقول من رآه إنه كان من نوادر أهل الجمال ، وشاءت لوذعيته أن يشترك في بناء المسرح المصري بالتأليف والنقد والتمثيل . ولا أزال أذكر كيف كنت أتعجب من مثل قوله على صفحات جريدة « المنبر » وهو يبدي إعجابه بأحد الممثلين : له ثنائي وقُبُلاتي ! ولو رجعنا إلى مقالاته في النقد المسرحي لوجدنا الإعجاب لم يكن له صورة في قلمه غير العناق !

فماذا ورث محمود تيمور عن محمد تيمور ؟

ورث عنه النظرة إلى الحياة الشعبية ، ولم يرث عنه النظرة إلى السريرة الأرستوقراطية ، ولو عاش محمد تيمور لصار من أكابر الشعراء في حدود تفتن أهل هذا الجيل

ولكن محمود تيمور له موهبة لم يظفر بمثلها أخوه ، وهي الصدق في الوصف ، الصدق الصادق الأمين ، فما قرأت شيئاً لمحمود تيمور إلا أدركت أنه يختزن ما يشاهد من الأحلام والأوهام ليزود به قلمه الوصّاف

نداء المجهول

ويتجلى فن محمود تيمور في قصة اليوم ، وهي : « نداء المجهول » وأي قصة ؟

قرأتها في جلسة واحدة ، مع أنها تقع في أكثر من مئة وستين صفحة ؛ ثم تلفتّ إليها في اليوم التالي فاشتهيت قراءتها من جديد

لم أقيِّد على المؤلف غير غلطتين اثنتين : الأولى تنويهه بأن الفندق الذي نزل فيه لم يكن يمانع في أن يجلس الزائرون على المائدة بالملابس البلدية ، وكان هذا غلطاً لأن حوادث القصة تقع في سنة ١٩٠٨ وفي قرية من قرى لبنان ليس فيها غير ثلاثة بيوت ، وليس من المعقول أن يكون لمثل تلك القرية في ذلك الوقت تقاليد أفرنجية

أما الغلطة الثانية فهي أفظع ، ولكن كيف ؟

هام بطل الرواية بفتاة انجليزية ، فأنست به واطمأنت إليه ، وقالت لنكن صديقين ، ثم شاء لها الدلال أن تقول : إنها امرأة بلا قلب

وهنا يذكر بطل الرواية أنه شعر بالخيبة والإخفاق

ولو تأمل هذا « البطل » لعرف أن ذلك إغراء

وكيف يعرف وهو محمود تيمور في سنة ١٩٠٨ ؟ وهل كان في ذلك الوقت غير طفل لا يعرف طبائع النساء ؟

نقد رقيق

قد أتعصب لمصر فأقول إن جبل لبنان لم يظفر بوصاف في قوة محمود تيمور ، ولكن أخانا تيمور أخلف الظن في فهم لبنان بعض الإخلاف ، وهل تكون الأخلاق اللبنانية في مثل ذلك الاتساق الرتيب ؟

« الشيخ عاد » نبيل الأخلاق من أول يوم إلى آخر يوم

و « الدليل مجاعص » سخيف التصرف من أول يوم إلى آخر يوم

و « حبيب » خادم الفندق أبله في جميع الأوقات

و « السائح المصري » لم يقدر على استغواء « سائحة إنجليزية » شرع الله ولا شرعك ، يا تيمور !

أما كان في مقدورك أن تلون الحيوية في أخلاق أولئك الأبطال ؟

***

أما بعد فهذه « رواية » لم يكتب مثلها كاتب في الموضوع الذي صيغت فيه ، وقد اشتهيت أن تكون هذه الرواية من وحي قلمي على شرط التحرر من أخطاء كاتبها الفضال !

وهل تعاب الرواية من أجل غلطة أو غلطات ؟

ألا يكفي أن المؤلف استطاع أن يقنعنا أنه البطل بحق وصدق ؟

زار كثير من المصريين لبنان ، وفيهم أدباء فضلاء ، فهل كان فيهم من استمع لـ « نداء المجهول » على نحو ما استمع هذا الفنان ؟

ثم أما بعد فالطلبة السنة التوجيهية أن يعرفوا أن رواية اليوم رواية وصفية من جميع الجوانب ، فهل يعرفون أين يقع ضرام التشبيب في تلك الصفحات ؟

ما المرض الذي كان يساور « مس إيفانس » ؟

وما السبب في تخاذل « الأستاذ كنعان » ؟ وما وجه السخرية من نزعته العلمية ؟

وكيف سخر المؤلف من بعض الأوضاع والتقاليد ؟

لم أقل شيئاً ، مع أني قلت كل شيء ، ولكن كيف كان ذلك ؟

أجيبوا أيها الفتيان النجباء — زكي مبارك

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٥ — ١٠ — ١٩٤١ في القضية رقم ٦١٧ سنة ١٩٤١ ضد محمد درويش مصطفى شلبي نجار بمينا مركز إيتاي البارود بالحبس شهرين بالشغل والنشر على مصاريفه لبيعه ذرة بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة

أول مقالة نشرتها
وأول درس ألقيته
للأستاذ علي الطنطاوي

إني لأخط عنوان هذا الفصل وأنا أسخر من نفسي ، إذ أحدث الناس حديث مقالاتي ، والناس في شغل عني وعن مقالاتي بهذا الهول الهائل ، والبلاء النازل ، والغلاء الشامل ، وبالله العوذ مما هو أشد وأعظم

ولعمر القراء ما أكثر الحديث عن نفسي لا لزهو ولا لكبر ولا غرور ؛ ولكنها صناعة الأدب يسوغ معها ما لا يسوغ مع غيرها . وإني « إذا أردتَ الجد » لمن أشد الأدباء زهادة في الأدب ، وإخال أن الناس في أدبي لأزهد ، ولولا كلمات أسمعهن أحياناً فيهن تعليق على ما أكتب أو ثناء عليه ، أو رسائل في مثل ذلك قد تأتيني ، أو فقرات قد أقرؤها في صحيفة فيها تنويه بي ، لولا ذلك « وما ذلك ؟! » ما ظننت أن أحداً يقرأ مقالاتي !

وما قصدت هذا الموضوع قصداً ، ولكني نبشت أوراق أفتش عن ورقة أريدها ، فخرج في يدي « عدد » من المقتبس قديم ، تاريخه سنة أربع وعشرين وتسعمائة وألف ، ففتحته أنظر فيه ، ففتحت لي دنيا من الذكريات اللذة ، وقرأته فقرأت فيه تاريخ نفسي : رأيتني في الصفوف الأوائل من الثانوية ، وحولي رفقة ما رأيت بعدهم مثلهم في إقبالهم على الدرس وجلادهم عليه ، وفي رسوخ ملكاتهم الأدبية ، وقوة طبعهم في الأدب وسليقتهم في اللغة ، وتسابقهم إلى مطالعة نفائس المصنفات ، ومعرفة المصادر والأمهات ، ولم يكونوا كشباب اليوم الذين يحاولون الكتابة قبل القراءة ، ويفترون بالنشر فيحسبون أنهم أنداد وأقران لكل من يكتب في الصحيفة التي تنشر لهم ، ويعلن أحدهم عن كتابه الذي سيصدره قبل أن يكتب منه عشر صفحات ، وينتقد الكاتب الكبير وهو لا يحسن أن يقيم لسانه في قراءة مقالة من مقالاته ، ويخدع الجلة عن أدبه فتظنه شيئاً فتخدع به القراء ، وما لم أذكر من صفاتهم آلم وأنكى ...

وكنت قد قرأت طائفة من الكتب أذكر أن منها (حياة الحيوان للدميري) . وهو أول ما طالعت من الكتب ، وهو دائرة معارف (كما يسمونها اليوم) أو هو مَعْلم جامع فيه فقه ولغة وأدب وقصص وتاريخ وخرافات وعلم وحقائق أفدت منه كثيراً ، (والصاحبي لأحمد بن فارس) وقد ألقى في نفسي إجلال العربية والإيمان بسعتها وجلالها ، وحبب إلى جزالة الأسلوب وفخولة اللفظ ، ولا أزال إلى اليوم أعجب برسالة ابن فارس هذا إلى من أنكر فضل الجديد لأنه جديد ، ومال إلى تقديس كل قديم لأنه قديم ، وأعدها من نفائس الآثار ، وهي في مقدمة الكتاب ، و (بلوغ الأرب للألوسي) وقد أورثني التعصب للعرب والمبالغة في ذلك ، ثم علمت أن قد كان فيه زيف كثير كما كان فيه صحاح كثير ، وما زلت أحفظ جلة صالحة من أخباره صحيحها وباطلها ؛ و (الأغاني) قرأته كله ، أعني أخباره وقصصه دون ما فيه من أسانيد وأصوات وأشعار وأنساب ، وهو رأس مالي في الأدب ؛ وقرأت (الكشكول) و (المخلاة) و (مراقي الفلاح) في الفقه الحنفي الزمني والذي قراءته ، أسبغ الله عليه رحمته ، (وشرح رسالة ابن زيدون) المطبوع على هامش (الغيث المنسجم) وكانت طريقتي في المطالعة أني إذا فرغت من دروس المدرسة دخلت مكتبتنا فتخيرت كتاباً فأخذته فنظرت فيه ، فإن أعجبني مضيت فيه لا أدعه حتى أتمه وإلا أخذت غيره ، لا أستعين على ذلك بمرشد ، ولا أستهدي بهاد ، إلا ما كان شيخنا الأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك يسمعه لنا من الكتب ويرشدنا إليه . وكنا نأخذ الأدب عن الأديب الضليع المتفنن الأستاذ سليم الجندي ، وكان يحذرنا (جزاه الله عنا خيراً) أن نقرأ الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر ، على اعترافه أن فيهم من أطفأت شمسه بدور البلغاء من الأوائل ، خشية أن نسيء الاختيار فتصيبنا عدوى الركاكة وهي شر من عدوى الكوليرا والجذام . فدخلت الجامعة وأنا لا أعرف من المصريين إلا المنفلوطي رحمه الله ، وكنت أظنه أبلغ كتاب العصر ، ولا أعدل بأسلوب (نظراته) شيئاً حتى وقع في يدي (رفائيل) للزيات ، فوجدته كنزاً من أغلى كنوز النثر ، وصغرت معه (عبرات) المنفلوطي حتى صارت كلا شيء . ثم عرفت الرافعي وقد أصدر كتابه (تحت راية القرآن) رفع الله به درجاته في الجنة ، فعلمت أن الله قد خلق من هو أبلغ من المنفلوطي ، إي والله ومن عبد الحميد وابن المقفع وابن العميد ، ومن كنا نراهم يومئذ

أئمة البلاغة واللَّسن . على أنى لم أنس المنفلوطى وترجمت عن شكرى له ولأستاذىّ الجندى والمبارك بإهداء الثلاثة كتابى (الهيثميات) وهو أول كتاب ألفته (١٩٣٠)

أقول، إنى أحسست بعد قراءة ما ذكرت من الكتب بشىء يجيش به نفسى ، فنفست عنها بمحاولة الكتابة فاستوى لى مقال ، نسيت اليوم موضوعه ، قرأته على رفيقى أنور العطار وكان يومئذ يجرب قول الشعر ، فأشار على أن أنشره فاستكبرت ذلك ، فما فتىء يزينه لى حتى لنت له . وغدوت على (إدارة) المقتبس وكانت فى شارع السنجقدار العظيم الذى صار خرائب وأطلالاً . فسلمت على أبى بسام الأستاذ أحمد كرد على رحمه الله ورحم جريدته ... ودفعت إليه المقال ، ولم يكن من إخواننا من يعرف طريق صحيفة أو يجرؤ على النشر فيها . وكنا يومئذ متلبسين بجريمة الحياء التى أقلع عنها شباب اليوم والحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه . فنظر فى المقال فرأى كلاماً مكتهلاً ناضجاً ، ونظر فى وجهى فرأى فتى فطيراً ، فعجب أن يكون ذاك من هذا ، وكأنه لم يصدقه فاحتال على حتى امتحننى بشىء أكتبه له زعم أن المطبعة تحتاج إليه فليس يصح تأخيره ، فأنشأته له إنشاء من يسابق قلمه فكره ، فازداد عجبه منى ووعدنى بنشر المقال غداة الغد ، فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبى أنظر هل نبتت لى أجنحة أطير بها لفرط ما استخفنى السرور . ولو أنى بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحى بهذا الوعد . وسرت بين الناس وكأنى أمشى فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً . وما أحسبنى نمت تلك الليلة ساعة ، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أى جنة من جنات عدن سوف أدخل فى غداة الغد ... أى كنز سأجد . وجعلت أرقب الصباح ولا ترقب عاشق متيم ينتظر وصلاً بعد طول الهجران ، حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار ، أخذت الجريدة ، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه ...

***

وعدت أنظر إلى الجريدة القديمة الصفراء وهى مائلة بين أوراق، وأفكر فى هذا الأدب ماذا جنى على وماذا جنيت منه . لقد سرت بعد تلك المقالة أعدو فى طريق النشر . فكتبت فى جرائد الشام ووفدت على خالى الأستاذ محب الدين الخطيب فى مصر ، فأخذ يدى وسدد خطواتى ، وكان لى أفضل مرشد ومعين ، وأفدت من خلقه ومن علمه ومن ماله ، ثم عدت إلى دمشق ، ثم اتصلت بالرسالة صديقة روحى وسميرة وحدتى ، وكانت لى خير مدرسة ، فيها الأستاذ الزيات خير مدرس . وكنت إذا نظرت فى كتاب ، أو أصغيت إلى حديث ، أو ضمنى مجلس ، أو شملتنى عزلة ، أو اضطجعت لأنام ، أو نهضت من منام ، أو ذكرت ماضياً ، أو فكرت فى آت ، أو أغمضت عينى متأملاً ، أو فتحتهما على مشهد من مشاهد السماء والأرض ، أجد فى كل ذلك موضوعاً لمقالة أكتبها أو فصل أنشئه ، وأجد الهمة حاضرة والذهن نشيطاً . ثم كرت أيام ، وغبر دهر ، وأصبحت لا أستطيع أن أخط سطراً على قرطاس ، وإذا كتبت لم أدر كيف أكتب ، ولا لماذا . وأبت بالتى أكتبه إلى (الرسالة) مضطرب الأعصاب متزلزلها ، فإن أخرته غضبت ، وإن ألقيت به تطبيعاً وخطئات لم ينتبه لها المصحح تألمت ، وإن وجدته نسب إلىّ ما لم أقل ، ويجعل فى المقالة أخطاء تدل على جهل الكاتب وما هى منى ولا أنا صاحبها ، عزمت على ترك الكتابة بالمرة وكبر على الأمر ، ثم إن جاءت المقالة منشورة قرأتها مرة لأطمئن عليها ومرة لأنقدها مجرداً من نفسى ناقداً لها ، ثم أرميها فلا أطيق النظر فيها ، ولا أجد من يحدثنى عنها كأنى أكتب لصخور الجبل لا لبنى آدم ...

فماذا أفدت من الأدب ؟ أما إنى لم أجد الأدب إلا عبثاً ، ولم أجد الأدباء إلا مجانين ، يسعى الناس وراء المال ويسعون وراء سراب خادع يسمونه (المجد الأدبى) . كلما أقبلوا عليه نأى عنهم فما هم ببالغيه حتى يموتوا . وما ينفع ميتاً ذكر فى الناس ، ولا يغنى عنه مجد ، ما ينفعه إلا ما قدم من عمل صالح — ولقد كان رفيقى سعيد الأفغانى أعقل منى إذ كان يمد شفته ساخراً كلما حدثته من آمالى فى الحياة ورغبتى فى أن أكون كاتباً يشار إليه بالأصابع ؛ وكنا يومئذ فى المدرسة الثانوية نتسابق إلى مطالعة الكتب ونتبارى فى تلخيصها والملاحظة عليها . فما صنع الزمان بآمالى ؟ لقد أرانى أنى كنت أسعى أطلب السراب ، فلا أصل إلى شىء ، وما ثمة شىء حتى أبلغه ...

هذه هى قصة ابتلائى بهذا الأدب الذى أنا تاركه اليوم ، أو ظان أنى تاركه ، ومقبل على الفقه أجدد العهد بما قرأت من كتبه ، وواهب له قوتى ووقتى ، فلهنأ الذين يجدون فى

سداً في وجوههم أن ينالوا من الأدب ما يريدون ، والذين يرون أني مزاحمهم على هذا المورد الآسن

ولقد كنت أهزل يوم كتبت أفضل الأدب على العلم ، وأين من أين ؟ وهل تستوي الحقائق والأوهام ؟ وهل من علم يوازي علم الفقه ويضارعه شرفا ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وبه تضمن الحقوق ، ويدرأ الخصام ويعم السلام ... ؟ ولئن فزع الشباب من زيّ أهل الفقه ، وخافوا أن يوصموا بالجمود والرجعية ، فما يفزع ذلك من سمّى بالشيخ وارتضاه له اسماً ، ولا تثقل عليه عمامته إن كوّرها ، ولا لحيته إن أطلقها ...

وللثياب ، لا جرم ، عمل في تكوين طبائع المرء وتوجيه سيرته ، فأنت حين تتخفف من الثياب ، أو تتخذ ثياب أهل الرياضة (السبور) ، فتلبس السراويلات المناكير القصار أو الشبان ، تشعر بالخفة وتميل إلى القفز والتوثب ، وتكره القرار على الأرض ؛ فإن أطلت لبسه ، أوشك أن يكون ذلك لك عادة ، وإن لبست الجبة ولبثت على هامتك العمامة ، ملت إلى التوقر والرزانة ، ولم تستطع أن تأتي ما هو مناف لها ، وتنزهت حتى عن قعود في قهوة ، أو ولوج سينمة ، أو إسراع في مشية في طريق ، أو مزحة نابية ، أو قهقهة مقرقمة في مجلس ... وتطبع على ذلك حتى يعود لك طبعاً . وإن اتخذت (البرنيطة) جنحت بالضرورة إلى مصاحبة أهلها ومجالستهم ، وملت عن المساجد ومجالس العبادة ، ولو كنت مصلياً متعبداً ، ومن هنا جاء النهي عن التشبه بغير المسلمين ، والأمثلة على ذلك كثيرة ...

على أني إن تركت الأدب فما أنا بتارك الكتابة ، وإن من الكتابة لعلماً ، وإن منها لإصلاحاً ، وإن منها لما ينفع الناس ويدلهم على طرق الخير ... كما أن من الكتابة ما هو ثرثرة جهلة ، وتسلية سخيفة ، ولغو من القول يذهب جفاء ... فلينظر ذوو الأقلام ما يأخذون منها وما يدعون ، ولينظر القراء ما يقرؤون منها وما يهملون ... !

* * *

أعتذر إلى القراء مرة ثانية من الحديث عن نفسي ، فإنه أثقل الأحاديث على أذن السامع ، ولكنها صناعة الأدب ، قاتلها الله ...

ولقد أردت حين شرعت في هذه المقالة أن أقول أشياء كثيرة زورتها في نفسي وأعددتها ، فلما بلغت الكلام عن أول درس ألقيته ، وذكرت هذه الرحلة من حياتي التي قضيتها معلماً ، وتنقلت فيها في الآفاق ، ورأيت فيها من المتع والآلام ، ومن بيض الليالي وسود الأيام ، ما لا يعلم حقيقته إلا الله ... وما لم أصف في مقالاتي في (الرسالة) إلا الأقلّ الأقلّ منه ...

لما بلغت ذلك اعتلج في نفسي من العواطف ، وثار فيها من الذكر ، ما عقل قلمي وحبسه عن المسير . وكيف أجمع في مقالة واحدة ما تفرق من قلبي في جنات دمشق ، وقد علمت في كل مدرسة فيها ، وفي (الحرش) الفتان من بيروت حيث (الكلية الشرعية) وعلى الشاطئ الوادع من دجلة حيث (الثانوية المركزية) ، وفي طريق الأُبلّة إحدى متنزهات الدنيا الأربعة حيث (الثانوية البصرية) ، وعلى سيف الفضاء الأرحب من (كركوك) بلد الذهب الأسود الذي يشتعل أبداً ، وعلى ضفة الفرات الجهل في دير الزور ، البلد الكريم أهله ، وحيث أذكر ولا أذكر

إنها لتخطر على قلبي الساعة آلاف من الصور التي مرت من قبل على عينيّ ؛ بل إني لأبصر الآن الآلاف من وجوه زملائي في التعليم وتلاميذي الذين أحببتهم ، تنبعث من ظلام الذكريات ؛ ثم تطيف بي محيية باسمة تتلو عليّ قصة نفسي ، وتمهد إليّ ما مضى من عمري ؛ فكيف إلى الاجتماع بهؤلاء الأصدقاء لأودعهم قبل أن يتجدد الفراق ، ولا حدث بهم عهداً ، كيف وقد تفرقوا تحت كل نجم ! كيف وقد علا منهم من علا وهبط من هبط ، وشغلتهم شواغل الحياة فلم يعودوا يذكرون معلماً ولو لم ينسهم ذلك العلم ! كيف ومنهم الوفي ومنهم الجاحد والناس معادن ...

يا رحمة الله للمعلمين ، لمن كان له منهم قلب ، وسلام على أيامي التي صرمتها معلماً ... وعلى كل من يقرأ هذا الفصل من زملائي وتلاميذي ، ولهم مني أوفى حب ، وتحيات قلبي !

(النبك — سوريه) **علي الطنطاوي**

القاضي الشرعي

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤١ في القضية رقم ٥٦٤ سنة ١٩٤١ ضد حمزة أحمد عيسى بقال بدمشلي مركز كوم حمادة بالحبس شهراً مع الشغل والنفاذ على مصاريفه لبيعه سكرا بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة

العقــــد النفسية

فى طريق التكون وفى طريق الزوال

للأستاذ حسين الظريفى المحامى

يراد بالعقدة كل مرض يصيب الحياة العقلية . وتفصيل ذلك أن الطفل يولد وعقله الواعى ستارة بيضاء ، حتى إذا اتصل بوالدته وذويه وبالوسط الذى هو فيه ، بدأ عقله الشاعر يتكون ويتطور ، ودوّنت على تلك الستارة معانى ما يأخذه عما حوله .

ويمكن إجمال أدوار الطفولة فى أن الطفل يشعر بادئ ذى بدء بأنه جزء من أمه ، حتى إذا بلغ الثلاث من العمر ، أخذ يشعر باستقلال نفسه ، وذكت فيه عاطفة فرض ما يريد على الغير ولفت نظرهم إليه .

ويلى هذا الدور ، دور السؤال عما حوله كمن يريد أن يحلل ويعلل ، ولا يندر أن يسأل الطفل عن نفسه : كيف وُجد ؟ ومن أين أتى ؟ وهو فى كل أدواره هذه يعمل على تكوين وتنمية عقله الواعى ، مفرغاً إياه فى الوضع الذى تهيئه له معانى وسطه المحدود .

فحياة عقلنا الظاهر يبدأ تاريخها منذ الولادة ، غير أن هذه الحياة قد تكون سلسلة متماسكة الحلقات ، وقد تقوم بين هذه الحلقات بعض الحواجز فتفقد السلسلة صفة التسلسل ، وما هذه الحواجز إلا العقد التى تعتور العقل الشاعر فى طور نموه ، فتقف حائلاً دونه ، وترغمه على تبديل اتجاهه الطبيعى بآخر معوج يدركه فيه بعض الشلل .

قد تكون هذه « العقد » فى صورة إدراك حقيقية مفلوطة تفقد جزءاً من العقل بعض ارتباطه ، وقد تكون منبعثة عن سوء تربية الطفل وعما وراء هذا من مختلف العوامل ، فينشأ الوليد شاذاً غير سوىّ

إن الدافع الجنسى فى الطفل يتكون بعد الولادة بقليل ، ومن مظاهره : مص الأصابع ، والرغبة فى القبض على الثدى بالشفاه ، حتى فى غير أوقات الرضاع . هذا ما يقوله الدكتور فرويد ويضيف إليه أن الطفل يوزع حبه على أفراد عائلته ، غير أنه يهب أكثره لأمه لشدة اتصاله بها ، فإذا ألهاها عنه الزوج نشأ عنده الكره لأمه والغيرة من أبيه ، ويزداد هذا الانفعال رسوخاً بتكرر الوقائع ، حتى يصبح فيه الطفل واقعاً بين عامل الحب لأحد أبويه ، وعامل البغض والغيرة ، فإذا بلغ الحلم وجه حبه إلى من يختار من الجنس الآخر ، وبذلك يجد الحب له منفذاً طبيعياً يفنى فيه . أما إذا لم يوجه التوجيه الصحيح لجهل الأبوين أو لشذوذ فى الطفل ، فقد يبقى الفتى محباً لأمه ، أو لمن يماثلها من الفتيات ، وتبقى الفتاة محبة لأبيها ، أو لمن يماثله من الفتيان ؛ وهذا مظهر من مظاهر الشذوذ الجنسى ، وهو ما يراد من العقدة . ذلك لأن سلسلة الفكر عن الحب وموطن وضعه فيه لم يجر على ما هو عليه بصورة طبيعية ، وإنما انحرف عمــا خلق له ، لعامل فى نفس الطفل ، أو لشذوذ فى تربيته ، وسلك طريقاً آخر غير سوى ، قد يكون مصدر كثير من آلامه طول حياته

كذلك يمر بالطفل دور يحب فيه معرفة ما يحيط بموضوع الولادة ، فيبدأ بالسؤال عنه فتسكته أمه بمــا يشعر بقبح الموضوع ، فيلتهب فيه حب الاستطلاع بطريقة غير حميدة ، ويجد فى الموضوع لذة على الرغم من إفهامه أنه قبيح ، وتكون النتيجة اعتقاد الطفل بأن الشىء اللذيذ هو الشىء القبيح . وهنا تنشأ العقدة . ويترتب على ذلك أحد أمرين ، فإما أن يكره الطفل أن تقترب منه أمه ، أو تتولد فيه الرغبة فى المخالطة المادية ، فينهج إحدى الطريقتين ، إما الخجل أو اللذة الجسدية ؛ فإذا انكفأ الطفل على ملذاته ورأى منه والده ما يريب وانتهره ولجأ معه إلى الشدة ، انقلب خوف الولد من أبيه إلى الكره له ، والاعتقاد بأنه لو لم يكن أقوى منه لمــا خذله ، وتكون العقدة فى نفس هذا الطفل ، هى شعوره بالضعف . ولما كان الصغير لا يجد أمامه مجالاً للافصاح عما وقع له فهو يحاول إخفاءه عن

الجميع ، ويوجد في محاولته هذه ، الصفات المضادة للصفات التي يحاول إخفاءها ، كطرق دفاعية نفسية ضد ما يشعر به من ضعف يوشك أن يظهر للناس

قال فرويد : إن العقل الباطن طريقتين متناقضتين للتعبير عما فيه ؛ فقد يكون رجلاً فاضلاً شريفاً ذلك الذي يطيل الحديث عن الشرف والفضيلة ، وقد يكون سافل النفس دنيئاً فأراد أن يخفي بهذا الحديث ما يعرفه في نفسه مخافة أن يعرفه الناس . وعلة هذا ، أن العقل الباطن يجب أن يعبر عن النشاط الكامن فيه فإذا كان أحد الطريقين مقفلاً اختار الطريق المقابل

إن الطفل يحمل كثيراً من الغرائز التي يجب أن تعبر عن ذاتيتها وحيويتها في أعماله ؛ فإذا نحن منعناه عن الإفصاح عن إحدى غرائزه ، اختار للتعبير عنها طريقاً آخر شاذاً ، تنشأ فيه العقدة في نفسه ، وقد يُضغط على رغبة التعبير عن إحدى الغرائز فتتسرب تلك الرغبة إلى قاع النفس وهي ممنوعة عن الظهور ، إلا أنها لا تسكن في موطنها الجديد ، وإنما تبقى فاعلة متفاعلة في حدود العقل الباطن ، حتى إذا سنحت فرصة الظهور خرجت من العقل الباطن إلى العقل الواعي ونفست عن نفسها في هذا الخروج

لنفرض أن طفلاً مدللاً أرسله أبواه إلى المدرسة فلم يجد فيها ما ألفه في بيته من الحنان ، فمثل هذا الطفل إما أن يغير سلوكه الذي اعتاده قبل دخوله المدرسة ، أو يبقى مستمراً عليه ، فإذا هو لم يختر ما وقع له وظل يريد من الحياة أن تكون مثلما رآه في بيته ، مملوءة بالحنو والرقة ، ففي هذه البداية ينتهي الوليد إلى اعتبار كل زميل له في الدراسة فظاً غليظ القلب فينفر من الاقتراب منه ، ويشعر بالبغض له ، ومن ثم يحدث له نفور من كل غريب حتى تكاد تعذبه كل تعارف جديد . وقد تغيب هذه الرغبة الشاذة في طيات عقله الباطن ، ويزيدها تطاول العهد إمعاناً في التواري ، إلا أنها تبقى حية عاملة وهي تكون جزءاً من عقل العليل . فالرغبة التي تربط الموضوع في هذا المثال ، هي العقدة

إن أكثر من نعرف يحمل في طيات نفسه من العقد النفسية ما يخرج حياة عقله عن السواء ويميل بها إلى جانب من الشذوذ يكتنف شعور صاحبه وإدراكه وعلى إرادته على ما يأتيه من قول وعمل . وقد ثبت في دائرة العلوم النفسية أن أخطر سنوات الطفولة ما يقع بين الثالثة والثامنة من العمر ، ففي غضون هذه السنوات يقع أكثر ما يدعى بعشا كل الطفولة

على أن العقدة في ذاتها لا تمد خطراً على صاحبها إلا إذا كانت متوارية عنه ، وهي تعمل من وراء حجاب من الزمن . فإذا حلت العقدة زال مابصاحبها من مرض يصيب العقل في الصميم

غير أن تحليل العقدة إلى العنصر الذي نشأت عنه ، وبعبارة أخرى أن تذكر الحادثة الخاصة التي تنطوي عليها العقدة ليس مما لا يشق على من يعانيه ؛ ذلك لأنه إذا فعل وجد نفسه أمام مانع عنيد هو الزمن ، فالعقدة لا تكتفي بالاختفاء وراء ثوبها المستعار وإنما تتوارى فيما وراء وقائع الزمن . وفي أحضان هذا الواقع تقع الصعوبة في تحليل العقدة . ولكن مهما يكن الأمر صعباً فإن طريق الخلوص إليه واضح لمن يريد

لنطلق العنان لما لنا من خواطر وأفكار ومنازع يعج بها العقل الباطن حتى نخرج بها إلى الذاكرة ، ومن ثم إلى عقلنا الواعي فنحللها فيه ونرجعها إلى مصادرها الحقيقية ، فإننا إن فعلنا ذلك استطعنا حل كافة العقد النفسية ، ومن ثم يسهل علينا التحرر منها بالإرادة وطول الممارسة

تلك هي طريقة التحليل النفسي ، بها نخرج بالعقدة إلى العقل الواعي ونربطها بالحادثة التي نشأت عنها فيظهر لنا بطلانها ، وبالتالي نتحرر منها وتصبح وكأن لم تكن بالأمس شيئاً

(بغداد) صبحي الظريفي

المحامي

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤١ في القضية رقم ٤٣٦ سنة ١٩٤١ ضد محمد عبد السيد إدريس بكوم صوان مركز أبي حمص بالحبس شهرين بالشغل والنشر على مصاريفه لبيعه ذرة بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة

٢ - قيمة الحـــرية

للصحافي العالمي ويكهام استيد

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

لقد زعموا أحياناً أن الجماعات التي يتولى أمرها سلطان يملي إرادته على الجميع هي أقوى من الجماعات التي يمنعها اختلاف الرأي فيها من الاتحاد في العمل . وأصحاب هـذه الدعوى يزعمون أيضاً أن التسامح آية من آيات الضعف ، وأن التعصب سجية من سجايا القوة ، وأغلب ظني أنها دعوى خاطئة ؛ فلقد يكون لمثل هذه الدعوي ما يبررها لو أنه كان من الممكن أن تظفر بحقيقة سياسية واحدة لا تقبل النقاش أو بمبدأ قاطع بات لا يحتمل الجدل ، ولـكن ما دام واقع الأمر على النقيض من ذلك إذ يتعذر افتراض شيء من عصمة الرأي البشري ، فإن محاولة القضاء على وجهات النظر المختلفة وتتويج رأي غير معصوم من الزلل بحيث لا يرتفع إليه النقد ولا يسمو إليه الجدل هو في الواقع من دون الرأي القائل بأنه ما دامت جميع الحقائق السياسية حقائق نسبية فمن صالح الجماعة أن تختار لنفسها من هـذه الحقائق ما يصادف من ذوي العقول الحرة القبول العام باعتباره أسلم القواعد التي يجب أن تتحكم في المصالح البشرية . والضعفاء من الناس هم أولئك الذين يستبيحون في حق أنفسهم أن يقضى على رأي الفرد فيهم فلا يسمع له صوت ولا يقام له وزن ، أو أولئك الذين يلتمسون الفرار من معضلات المعترك الإنساني بأن يعتصموا ببعض النظريات أو المذاهب الاستبدادية المطلقة التي يجدون في قبولها نجاة لهم مما يضطلع به المواطنون الأحرار من معاناة نقد الآراء وتقصي أوجه النظر ، ومن التردد بين الآراء وما يلازمه من قسوة الشك وألم الحيرة ، ومقياس النظم السياسية ماثل فيما يخلفه على المواطن الحر من طابع . ذلك المواطن الذي هو غرس يدها ونتاج تعاليمها ، والنظم التي تحرم تنوع الآراء وتصدم المذاهب وتخنق حرية النقد تنتهي بأن تصير أبناء البلاد على نمط واحد مطرد ، فتقضي بذلك على مرونة العقول البشرية وتنزل بها إلى الحضيض من ركود الحياة وجمود العقل ، وتقف حجر عثرة في سبيل تقدم الخلق الإنساني . فقضية النقد إذن هي قضية خطيرة الشأن عظيمة الأثر بحيث لا يتسنى للمدنية أن تصادف نجاحاً بدونها ؛ ولذلك كان حتماً على الجماعة إذا ما تأبت عار الخضوع ووصمة الجمود أن تبيح النقد إباحة لا يعطلها عقاب ولا يتهددها ضرر

ومع ذلك يوجد هنا فارق هام بين حرية النقد وحرية النهج ، إذ الناقد — كما لاحظ مستر « برنارد شو » في إحدى مقدمات كتبه — لا يسمح له أن يغير سلوكه الاجتماعي ما لم ينجح نقده في أن يغير القانون إذ استطرد قائلاً : « وإننا لعلى جهل خطير بأصول مدنيتنا حتى أن غالبيتنا لتحسب أن لها حقاً في أن تغير منهجها فور الوقت الذي تتغير فيه آراءها »

ومن أعقد المسائل التي تواجهنا في حياتنا الاجتماعية والتي قد يتيسر التغلب عليها وحل معضلاتها في المجتمعات الحرة بطريق الثقافة وحده أن نميز بين النقد النزيه ومجرد الثورة على الأوضاع الاجتماعية ، وأن نفرق بين حرية الرأي وحرية المبدأ وبين رخص النهج الاجتماعي

وإذا قدر للنقد أن يكون فعالاً منتجاً لا مجرد هدام للنظم والعادات التي تمت في ظروف غير تلك الظروف التي تنشئ الناس في وقت معين أصبح لزاماً أن تتوفر للشعب حرية البحث وحرية المعرفة وحرية الكلام وحرية الـكتابة ، وصار واجباً أن تناقش الآراء وتمحص الأصول التي أسست عليها تلك الآراء ، وهـذا أمر لا يتسنى وجوده ، كما اعترف بذلك الـكتاب النازيون ما لم يقم على دعامة من حرية الصحافة التي تنطوي فيها حرية المعارف علمية كانت أو أدبية . ولقد سجل هتلر نفسه هذه النظرية في كتابه (كفاحي) فقال : « يجب أن يكون هدف الحكومة أن تنشئ (هيئة اجتماعية من الـكائنات الحية يتشابه أفرادها مادياً وعقلياً) » . وزعم الدكتور (ديتريش) وهو الموظف الحكومي المتولي الإشراف على الصحافة النازية أن (رأي المجموع) لا رأي الفرد هو ما يجب أن يكون مصدر الثقافات جميعاً بما ينبعها من الدراسات العلمية . كما سودت

الدكتور (أوتو كيلويتر) وهو أستاذ نازى جامى (فكرة الجماعة) على فكرة الفرد

ومهما ظهر للشعوب التى تربت فى كنف الحرية من تعصب هذه الدعاوى ، فهى من وجهة النظر الاستبدادية إصلاح منطق سديد ؛ إذ فى البلاد التى ضيقوا الخناق على الحرية فيها لا يمكن احتمال الفكرة الفلسفية العميقة أو التحليل التاريخى الدقيق ما لم تنهر تلك الآراء التى فرضتها الحكومة المطلقة ونادى بها قائدها . فروسيا الشيوعية لا تقبل البحث الحر فى مسائل كالتى تتعلق بملكية الأشياء ؛ وألمانيا النازية لا تسمح للعقائد الخاصة بالدم والجنس أن تكون موضع بحث أو نقاش ؛ وإيطاليا الفاشية لا تطبق النظر الحر فى طبيعة الحكومة ووظائفها ، أو فى مكانة الأفراد بالنسبة للحكومة . وحسبها من شر أن أسكتت مثل هذا الفيلسوف العظيم (بنيد توكروس) . ولشد ما تثيرنى آراؤه عن الحكومة والحياة السياسية . ففى كتيبه (أورنيناتى) قال : « إن حبنا للدولة هو أن نعمل مع الدولة ، وأن نخص الدولة ونغمر حياتها السياسية بكامل ما يتوفر لنا من أسمى معانينا وأنبل مشاعرنا وأصدق ما يجرى فى معتقداتنا من الحقائق ، أى تلك الحقائق التى تصدر عن ولاء مكين وإيمان متين ، وعما ينبهنا لنا أن نأمله من مثلنا العليا . واشتراكنا مع الدولة على ضوء هذه الاعتبارات هو ما نسميه بالحرية بتعبير آخر . وهذه الحرية ليست بمقاومة الدولة أو بالإساءة إلى هيبتها وعظمتها ، ولكنها هى حياة الدولة بذاتها وإلا وسعنا أن نزعم أن الدم الذى يجرى مجدداً نفسه بدورة مستمرة فى أوردتنا هى حركة متمردة على ما لنا من سلطان فى ضبط حركة الوظائف العضوية من أجسامنا ، لهذا لا تكون الحرية ملحوظة فى الدولة ما لم تكن حرية سياسية مطبوعة على العمل مع مقتضيات حياة الدولة

والحق أن هذا الفيلسوف الإيطالى قد أثم فى حق الثقافة الفاشية إذ أهمل النظر للدولة — كدولة مطلقة — ثم أسرف فى الإساءة إلى النظام الفاشى ، فلم يشأ أن يعتبر الدولة إلا عنصراً تنفيذيًا للهيئة الاجتماعية وإلا مجموعاً كليًا للوظائف العامة التى تفوضها الأمة للهيئة التنفيذية لحماية الصالح العام وتدعيمه

ولا يبعد هذا المذهب عما ذهب إليه (جون استيوارت مل) وقتما وفق لأن يلمس بعض الظواهر الإيجابية لحرية الأمة فى رسالته الشهيرة عن « الحرية » فلقد أشار « مل » إلى أنه إذا عمل أى إنسان عملاً من شأنه أن يضر الآخرين كان من مقتضى العدالة أن يستوفى العقوبة التى فرضها القانون ، أو أن يلاقى جزاءه من الاستنكار والتحقير العام إذا كان ما فعله لا يقع تحت طائلة نصوص القانون ، ثم استطرد قائلاً :

وقد تقضى العدالة إلى ذلك بإجباره على القيام بأعمال إيجابية كثيرة شرعت لصالح الآخرين ، مثلما يلقى على عاتقه من عبء إثبات ما يدعيه فى ساحة القضاء ، أو ما يتحمله من نصيبه العادل فى الدفاع العام أو ما يضطلع به من الأعمال الاشتراكية الأخرى اللازمة لصالح الجماعة التى ينعم بحمايتها . ومثلما يفرض عليه من أعمال خاصة شرعت لصالح الفرد كأن يتقدم لإنقاذ حياة إنسان أو يتدخل بين الضعيف الذى لا سند له والقوى الذى لا حجة معه لينتصف للمظلوم من الظالم . وهى أمور إذا ما اتضح أن من واجب الرجل أن يؤديها كان من مقتضى العدالة أن تناقشه الهيئة الاجتماعية الحساب عن عدم وفائه بها . فالإنسان قد يلحق الضرر بغيره بسبب ما يقدم عليه من عمل ، أو نتيجة لامتناعه عما يجب عليه من عمل ، وفى كلا النهجين يجب حقاً وعدلاً أن يكون ملزماً بتعويض الضرر

وهذا النظر الصائب أنسب لحرية الصحافة وأشد انطباقاً عليها من غيرها . وكم تخفق الصحافة فى تأدية رسالتها للأمم الحرة ، وفى القيام بواجبها على وجهه الصحيح ، إذا هى صرت بالطغيان والظلم صرور الكرام ، أو ذلت واستكانت فأغمضت عينيها عما بواجهها من سوء استعمال الحق ومن التصرفات الضارة بالصالح العام . إذ واجب الصحافة أن تترصد الأخبار لتذيعها على الناس ، وأن تتعقب الخفاء حتى يبرح ، والخبئ حتى يظهر ، وأن تواجه الشبه حتى تنجلى ، وأن تفصح عن ذلك كله فى عبارة حاسمة صريحة ، فإذا بالصبح وقد تبين لذى عينين ، وإذ هى لا تدين بولاء ، ولا تتقيد بواجب إلا للشعب والشعب وحده لا لأية سلطة تتولى الحكم فى البلاد ؛ وإذ الطريق الوحيد لكبح

جماح الهيئة الحاكمة والحيلولة بينها وسوء استعمال الحق هو أن تذيع على الشعب كيف يتصرف رجال الحكومة بسلطانهم !

ووقتما أصر « مل » ذلك الفيلسوف الحر ، على أن يسأل الرجال ، وكذلك الصحافة من باب أولى ، لا عما يجترمونه من جرم فحسب ، بل عما يترتب على امتناعهم عما يجب عليهم عمله ، لم يكن نظره هذا يبعد عن تلك العبارة الدائمة الواردة فى تعاليم الكنيسة الإنجليزية ، وهى : « لقد عملنا ما كان يجب علينا ألا نعمله ، وأغفلنا عمل ما كان يجب علينا أن نعمله ، وافتقدنا رجاحة العقل وسداد الرأى » ؛ وبعبارة أخرى قد نكون جرائم الترك هوان للحرية كجرائم العمد

* * *

وإذا كان الإنتفاع بالحرية والدفاع عنها بحاجة حقاً إلى مجتمع متمدين نشط يصدر فى أعماله عن إرادة حرة وعزيمة صادقة ، فليس بأقل من ذلك وزناً ما نحن بحاجة إليه من إعادة النظر فى آرائنا وتنقيح مناهجنا فيما ينظم حريتنا على ضوء ما نتبينه من ماجريات الأمور وما ينتهى إلينا أو ننتهي إليه من تطور الأحوال وتغير الظروف . ومنذ قرن مضى كانوا يعتبرون ضريبة الدخل التى تستنفذ اليوم ما يربى على ربع إيراد المواطن الحر ، وتلك الواجبات والالتزامات المتوالية أو المتواترة التى قد يكون من شأنها أن تستأثر الدولة بنصف ما يفيده المواطن من ثروته . نقول إلى قرن مضى كانوا يعتبرون تلك الضرائب والقيود المالية غارة شعواء غير مشروعة على حق الملكية الخاصة وعلى الحرية الشخصية . أما اليوم فقد صارت هذه الضرائب أمراً مقبولاً أو نهجاً مقرراً لا يشق على الناس أمره ولا يتأذون به . ولأقل من عصر مضى تكلموا كثيراً عن حق المنتجين فى ابتياع « جنى الجهود[1] الطليقة » فى « سوق حرة » وكان أغلب ظن أولئك العمال الذين وسعهم أن يفيدوا أجوراً طيبة من بيع جهودهم أنهم قد أمسوا وهم ينعمون بكامل حريتهم ؛ وتاريخ حركة الاتحاد العمالى[2] التجارى فى هذه البلاد (انجلترا) هو تاريخ الجهود التى بذلت لتحقيق « هذه الحرية » وإصلاح شأنها عن طريق عقد الصفقات الاشتراكية الرابحة على الرغم من أن حقيقة نظام هذا الاتحاد التجارى ما كانت لتسمح للأفراد بأن يستقلوا عنها ببيع جهودهم مهما كان الثمن الذى يتهيأ لهم الحصول عليه

وما شرع للمصانع من قوانين كان له بلا ريب أثره فى التدخل فى حرية المنتجين وانتقاصها أصبح اليوم وهو يرى كأمر ضرورى لحماية عمال المصانع من أى استغلال غير عادى يكون عليهم غرمه وللمنتجين غنمه . ولا زال لدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأنه سوف يواجهنا يوم يحتاج الأمر فيه إلى إصلاح يعطل حرية المالك فى التصرف فى ملكه إذا لم يكتب للاصلاح النجاح فى القضاء على تلك الظاهرة السائلة فى إحلال الماكينات محل العمال والقضاء على تلك الأيدى المبسوطة للعمل بان تساق إلى نوع آخر من الرق الاقتصادى وتنتهى بها حاجتها إلى العمل لأن تكابد شقوة البطالة الإجبارية

(لاسكلام صلة) زين العابدين جمعة

---

(١) الجهود الطليقة هنا هى جهود أولئك العمال الذين لم ينضووا تحت لواء الاتحاد التجارى

(٢) الاتحاد العمالى التجارى هو اشتراك عمال أية تجارة فى جمعية منظمة بقصد إصلاح شأنهم وحماية مصالحهم المشتركة

بعد منتصف الليـــل

للأســـتاذ م . دراج

الدقائق تمر بطيئة ، وصبرى يوشك أن ينفد ، وكلما تطلعت إلى النافذة توهمت أننا أشرفنا على الصباح . . . وتمددت من اللفتات حتى عز الأمل فى انبلاجه أو كاد ، فازداد قلق ، واشتد تبرى بالفراش فنحيت عنى الغطاء بعيداً ، وفى حركة عصبية انتصبت واقفاً ، وقد صممت على أن أتنفس هواء الفضاء ! فمـا عدت أتحمل قُبَيْلاتها الجائمة تنقض علىّ فى غير رحمة ؛ لا ، ولا موسيقاها الخبيثة تجفل منها الحواس كل غدو ورواح . وخير لى أن يجف دمى من البرد فى الطرقات ، ولا تمتصه هـذه الحشرة الجائمة . ومن يدرى ؟ ربما قضت على أن ألازم « الملاريا » وأصادقها ولو لمدة أيام !

كنت لا أحمل ساعة ، وأنا كذلك دائماً ، وكان مبلغ تشاؤمى لا يتعدى أن الوقت حول الخامسة صباحاً . قلت لنفسى هذا الوقت المبكر أصلح جو يسرى عن الإنسان همومه ومتاعبه ، فيه تحتفل الطبيعة بالتقاء الليل والنهار فتلبس أبهى حللها ، وتغنى طيورها أعذب الألحان . وما ضرنى لو شاركت الطبيعة أعظم أفراحها وشهدت كيف تمثل قصتها الخالدة على مسرح الحياة ! لا شىء . أجل ، لا شىء

وأسرعت فارتديت ملابسى وهممت بالانطلاق ، ولـكنى غريب عن المدينة ، وفى منزل ليس لى فيه كل الحرية ، وليس من اللباقة أن أحرج مضيفى ، فأجرح عزة نفسه ، ولـكن ماذا أصنع وهذه حالى ، أنام ... ؟ لا أنام ! أبقى ... ؟ لا أبقى ، هذا مستحيل ! إذن لا مفر من الخروج ، وإذا كنت غريباً عن المدينة فأنا ضيفها فى الوقت نفسه ، وللضيف حقوق ولو حامت حوله الشبهات ...! بهذا التفسير غير المقنع أقنعت نفسى ، وأخذت أدلف من طريق إلى طريق ، وأنعطف مع الشارع إلى الميدان متمهلاً فى مشيتى لعلى ألمح تهاشير الصباح ؛ ولـكن الطريق خالية ، والناس نيـام ، والسكون يشمل الفضاء ، حتى الطير قد أخلد إلى أوكاره ، وأسلم نفسه للكرى ، والحراس هنا وهناك فى شبه غفوة يحتاجون إلى من يحرس أسلحتهم من أيدى اللصوص الجبناء . . . ! والساعة تدق الثانية بعـد منتصف الليل

ماذا ترانى أصنع ...؟ إنى لا أعرف أين يقع الفندق إن كان ثمة فندق يقبلنى فى هذا الوقت ، ولا أعرف أيضاً كيف الطريق إلى « استراحة الحكومة » فأنا مشرد من أجل العمل فى خدمة الدولة ، والدولة لا يعنيها من أمرى شىء . إنها لتكافئنى بالحسرة والخسران على ما أبذل من جهد ونصب ، هى ترهقنى ليستريح غيرى من أرباب الحسب والنسب وذوى الألقـاب والأرقام الضخمة . وما أشبه هؤلاء فى مراكزهم بأصحاب « العزب والوسايا » أو هم تماماً كالمهراجات فى الهند ، كلمـا تضخمت ثرواتهم ، هوت على الشعب نوازل الفقر والخراب ، والشعب هنا أمثالى من الموظفين الصغار ، « فالقانون المالى » لا يطارد إلا أمثالى بالحرمان من كل شىء ، حتى حق الإطمئنان إلى بقائى لأقوم بواجبى فى هدوء وانتظام ... !

لم أوافق على العودة ثانية من حيث فررت ، وإن خفت أن يصيبنى سوء من طول الوقت واشتداد البرد فى الهزيع الأخير من الليل ، وأنا رجل يؤثر البرد فى جسمى وأعصابى معاً . . . الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل ، وعلىّ أن أظل هكذا أربع ساعات طوال ! !

وقبل أن أفكر فى حل لسؤالى ، لاح لى شبح فى الظلام ، يمشى مشية الحذر ثم يمضى مندفعاً إلى الأمام ، ثم يتوقف وكأنه جندى يستكشف مواقع الأعداء ، وهكذا بدا لى أمره غريباً فحاولت أن استكشف سره .

يا لله ! إنهـا إنسانة تحمل وليداً وقد احتضنته إلى صـدرها وألقت وشاحها الممزق على الخرق المهلهلة المحيطة بجسمه . سألتها عن حالها فتوقفت ولم تحر جواباً . . . ثيابها

الريفية المزقة ، وروحها الحائرة ، وعقدة لسانها الظاهرة ، وصمتها البليغ ، وأخيراً ربيع حياتها ... ! كل هذا كشف عن حقيقة حالها ، هى تبيع نفسها من أجل المال ، المال الذى تشترى به الخبز ! هل اعطيها شيئاً مما وهبنى الله ؟ وهل يحل هذا الشيء مشكلتها ؟ لا ... لن أعطيها شيئاً ... ! ولن أشفق على حالها فأتركها فريسة لمجتمع مملوء بالذئاب الجائمة فقد تتعود الاستجداء فى مقابل ما ... ! وليس كل الناس ملائكة ...

هذه الإنسانة - لها على الدولة حقوق أهونها أن تكسوها وتطعمها ، وإلا فكيف يمكن أن تعيش عيشة شريفة فى مجتمع يقتتل فيه الناس من أجل اللقيم ؟ وإذا كان الحكام دائماً من الأغنياء الذين لا يتصورون كيف تجوع المعدة الآدمية ، فلترسل لهم هذه الإنسانة عبرة الحق لعلهم يهتدون ... وفجأة ظهر الشرطى بعد نومة طويلة بمظهر اليقظ اللبيب فأمسكت أنفاسى وظهر على شيء من الاضطراب . حاول أن ينال منى بالغمز واللمز ، فنهرته بشدة وأنا أعلم أنه سيركب رأسه .

وهناك حيث « ينام » رجال الشرطة على مصالح الناس انتظرت الضابط طويلاً أين هو ؟ أين هو ؟ لا أدرى ، ولكنى ألمح منطقته تتدلى من الشجب ، وسترته تضيء بأزرارها اللامعة فوق كرسى مكتبه . وهو غائب على كل حال ثلاث ساعات طوال ؛ وتبينت أخيراً أنها زوجة مات عنها زوجها لثلاثة شهور خلت ، ولا تدرى كيف تقطع الشقة بين الحياة والممات فهامت على وجهها بعد أن أرخى الليل سدوله ، تفتش عن رغيف ، ولو كسبته عن طريق غير شريف ، وهنا نتركها بين محاضر التحري تنتظر مستقبلها المجهول

وعدت إلى الشارع فوجدت الصبح قد غمر المدينة والناس يستقبلون الحياة فى معترك لجب ليس للتنافس فيه حدود ، فإذا تساءلت ، لماذا ؟ أجابوك : إنها الحرية التى تقدسها الدولة

م . وراع



١٧ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الخامس : الحياة المنزلية

يجهز الطعام بحيث يسهل تناوله بالطريقة السابق وصفها ، وهو يتكون في مجموعه من (اليخني) : وهو لحم مسلوق وبصل مقطع، أو قليل من البامية أو غيرها من الخضر ؛ و (القاوُرمة) : وهو لحم كثير التوابل مع البصل ؛ و (ورق محشي) : وهو ورق العنب أو الكرنب أو الخس : يحشى بالأرز واللحم المفروم بعد أن يتبلا بالملح والفلفل والبصل وغالباً بالثوم والبقدونس ، ويسلق ، ومحشي الخيار أو البادنجان أو القرع الكوسة ، و (الكباب) : وهو قطع صغيرة من لحم الضأن تشوى على السفود ، وبعض الألوان تتألف جميعها أو أغلبها من الخضر مثل : الكرنب والرجلة والإسباناخ والبامية والفول والترمس والحمص والقرع المقسم إلى قطع صغيرة والقلقاس والعدس الخ .

ويعد السمك المطبوخ بالزيت كذلك طبقاً مألوفاً ، وتطهى أغلب الأطعمة بالسمن لعدم وجود الدهن ، وتوضع فيها التوابل بكثرة ، ويذوب السمن في الصيف تماماً . ولا بد من استعمال اليدين معاً لتقطيع ما يقدم من الطيور . وقد يقوم بهذه العملية شخصان معاً كل بيده اليمنى فقط ؛ ولكن بعضهم يقوم بذلك وحده بدون مساعدة وبيد واحدة ، ولا يقبل بعض العرب لمس الطعام — على أي حال — بيسراهم[1] إلا إذا كانت بعظام مبعورة . وليس من غير المعتاد أن تقدم الطيور المنزوع عظامها المحشوة بالزبيب والفستق والخبز الفتت والبقدونس ، أو حل يأكله محشواً بالفستق الخ ؛ وهنا يسهل نزع اللحم بيد واحدة . وكثيراً ما تخلط الحلوى باللحم مثل : العنّاب والخوخ والمشمش الخ والسكر مع اليخني ؛ وكثيراً ما تقدم أيضاً مختلف أصناف الحلوى دون مراعاة نظام خاص بالنسبة للأصناف الأخرى .

ومن أصناف الحلوى المحبوبة الكنافة : وتصنع من دقيق القمح — وهي أدق من الشعرية — وتقلى بالسمن وتحلى بالسكر أو العسل . ولا تخلو المائدة من البطيخ في موسمه : وهو يقطّع قبل الأكل ويترك في الهواء ليبرد بالتبخر ، ولكن يجب ملاحظته حتى لا ينفث الثعبان سمه فيه ، لأن الثعبان — على حد قولهم — يحب البطيخ حباً شديداً ، ويشم رائحته على مسافة بعيدة . والبطيخ كثير في مصر كثرة زائدة ، وهو غالباً لذيذ الطعم . وآخر طبق يقدم الأرز المفلفل (بيلاف الأتراك) : ويوضع عليه الزبد ويتبل بالملح والفلفل ، إلا أن كثيراً ما يتبعه — على موائد الأثرياء — (خشاف)[1] : يتكون عادة من الماء والزبيب المسلوق فيه ويحلى بالسكر ثم يضاف إليه عندما يبرد قليل من ماء الورد[2] . وكثيراً ما يحل البطيخ محله[3] .

ويأكل المصريون باعتدال ولكن بسرعة ، وحالما ينتهي أحدهم يحمد الله ويقوم دون أن ينتظر الآخرين[4] ، فيقدم له الخادم الطست والأبريق ليغسل يديه وفمه بالصابون والماء كما سبق

ولا يشرب المصريون على الأكل غير الماء . وقد يقدم على مائدة الأغنياء (الشربات) التي سأصفها الآن . ولا يشرب العرب على الأكل إلا قليلاً من الماء ، أو لا يشربون مطلقاً ، وهم

(١) لأنها تستخدم استخداما نجسا

(١) من الفارسية (خوش آب) أي الماء الحلو

(٢) ويضرب بملعقة من الباغة أو الجوز الهندي

(٣) وأهم فواكه مصر وأحسنها البلح والعنب والبرتقال والليمون على أنواع مختلفة والتين والجميز والتين الشوكي والرمان والموز والبطيخ والشمام وما شابههما ، والخوخ والمشمش متوفران ولكن ينقصهما الطعم اللذيذ . والكمثرى نادرة وأغلبها تجلب من شينا وسوريا . ويبدو لك من هذا التعداد أنه ليس بمصر فاكهة طيبة

(٤) من المكروه أن يقوم الانسان أثناء تناول الطعام حتى ولو كان ذلك احتراما لقدوم عظيم . وقد حرم الرسول على أتباعه القيام أثناء الأكل أو على وشك تناول الطعام ولو حانت الصلاة

على العموم يتناولون جرعة كبيرة بعد الأكل مباشرة . ويمتاز ماء النيل بحلاوته ؛ ولكن ماء الآبار ، في القاهرة وغيرها ، يميل إلى الملوحة . ويشرب الماء إما في أوعية من الفخار أو طاسات من النحاس[1] وأوعية الفخار نوعان : (الدورق) (شكل ٣٩)



(شكل ٣٩) أوعية الماء المسماة « دورق » وسداداتها المختلفة

و (القلة) (شكل ٤٠) والأول ذو حلق ضيق ، والثانية حلقها واسع . وهما من صلصال ذي مسام يبرد الماء برودة لذيذة بالتبخر . وهما يوضعان لذلك في تيار الهواء . وكثيراً ما يسود



(شكل ٤٠) أوعية الماء المسماة « قلة »

داخل الوعاء بدخان بعض الأخشاب الصمغية ، ثم يعطر بدخان خشب (القَفَل) والمصطكا . ويستعمل لهذا الغرض وعاء صغير من الفخار يسمى مبخرة (شكل ٤١) يوضع فيه الفحم اللازم لحرق الخشب والمصطكا ، ثم تعلق القلة أو الدورق مقلوباً فوقه . ويشد حول رقبة الدورق خرقة على بعد بوصة من الحلق لمنع السناج أن ينتشر بعيداً على خارج الوعاء . وكثيراً ما يوضع

أيضاً قليل من ماء زهر البرتقال[1] فيكسب الماء طعماً لطيفاً .



(شكل ٤١) المبخرة والدورق الصيني

وللأوعية سدادات من الفضة أو النحاس أو القصدير أو الخشب أو أغطية من السعف المجدول . وهي توضع في صينية يسقط فيها الماء الراشح . وكثيراً ما تستعمل الأوعية الصينية (شكل ٤٢) في الشتاء عوضاً عن الفخار حتى لا يبرد الماء برودة شديدة[2] ويبين (الشكل رقم ٤٢) كاسَتي الشرب الأكثر شيوعاً . وبعض الكاسات ينقش في داخلها آيات قرآنية ، ولم أر ذلك كثيراً . ويبسمل الشارب قبل الشرب ويحمد الله بعده ، فيقول له كل من الأصدقاء الحاضرين : هنيئاً ، فيرد عليه : هناك الله



(شكل ٤٢) طاستان لشرب الماء

وبالرغم من إشارة قصص ألف ليلة وليلة إلى مائدة المدام فإن المصريين المسلمين في هذا العصر لا يقدمون النبيذ في المجتمعات العامة في أي وقت من الأوقات على العموم . إلا أن الكثيرين لا يمتنعون عادة عن شرب النبيذ مع الأصدقاء المقربين . وحينئذ لا يدخل الخادم غير الندامى أما غيرهم فيقول لهم : إن السيد ليس

---

(١) وكان قدماء المصريون يستعملون أقداحاً نحاسية للشرب فيها (هيرودوتس الكتاب الثاني الفصل السابع والثلاثون)

(١) (موية زهر أو موية زهر نارنج)

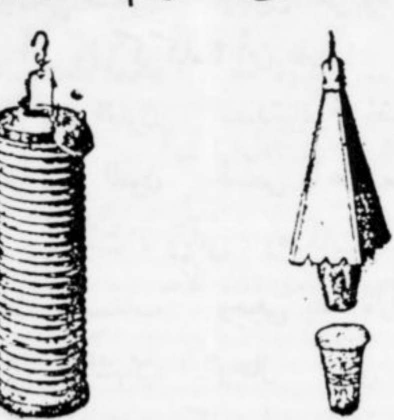
(٢) وقد لاحظ البارون هامر برجستال أنه كان يجب هنا الاشارة إلى وعاءين آخرين (في النشرة الأولى لهذا الكتاب) على الأخص لأن اللغات الأوربية اقتبست اسمها وهما : الجرة water-jar والدجان la dame-jeanne

بالدار أو أنه فى الحريم . وهؤلاء يحتسون النبيذ أثناء العشاء وقبله وبعده ويستحسن قبل العشاء لأنه على حد قولهم يثير الشهية . وقد أخبرنى صديق مسلم تاب عن الخمر بعد إدمان (ولا يمكننى أن أتحدث فى هذا الموضوع عن تجربة لأننى لم أشرب النبيذ أبداً فلم يدعنى مسلم قط إلى ندوة شراب) أن مائدة المدام تتألف من صينية مستديرة أو طبق زجاجى توضع على الكرسى ويصف عليها أبريقان للنبيذ والعنبر أو أكثر من إبريق معاً أحياناً وعدة أكواب صغيرة وصحن صغير فيه فاكهة يابسة وطازجة أو مخللات أحياناً ، وأخيراً شمعتان وغالباً باقة زهر تثبت فى شمعدان أو توضع على الصينية

(شكل ٤٣) أقداح الشربات

ويصنع المصريون عدة أصناف من (الشربات) وأكثرها شيوعاً الماء المحلى بالسكر فقط[1] ويكون زائد الحلاوة (والليموناتة) أو شراب الليمون نوع آخر ، وهناك صنف ثالث أحب إلى النفس وهو شراب البنفسج ويكون بسحق زهر البنفسج ووضعه مع السكر فى الماء وتركه على النار حتى يغلى ، وهذا الشراب أخضر اللون، وشراب التوت والخميض والزبيب[2] الذى يباع فى الشوارع، والعرق سوس والخروب، ويقدم الشراب فى أكواب مغطاة تسمى الواحدة على العموم (قلة) (شكل ٤٣) وبعض المألوف من هذه الأكواب يزين بزخارف مذهبة من الزهور وغيرها وهى توضع على صينية مستديرة مغطاة بقطعة من الحرير المطرز أو الجوخ المرصع بالذهب ، ويعلق على ذراع الخادم فوطة مستطيلة الشكل عريضة الحاشية المرصعة بالذهب والمطرزة بالحرير الملون ، ومن الجلى أنها تقدم لمسح الفم بعد الشراب ، ولكنها فى الواقع تتخذ للمباهاة أكثر منها للاستعمال

يقضى المصريون ما بين وجبة المساء وصلاة العشاء فى التدخين وشرب القهوة ، ويستأنفون لذة التدخين بعد فراغهم من الصلاة. وقد يلعبون الضامة أو الشطرنج أو غير ذلك ، أو على الأقل يتسامرون فينقضى الوقت دون أن يشعروا بأدنى ضيق . ويقضى أفراد العائلة المصرية وقتهم عندما تسمح الظروف فى حبور وبهجة ولكن فى هدوء . وكثيراً ما يقوم الرجال بزيارة أصدقائهم ليلاً وقت العشاء أو بعد ذلك ، ويستضيئون أثناء خروجهم بمصباح مستدير مموج الجوانب يسمى فانوس ، ويصنع من النسيج الشمع المشدود إلى حلقات من السلك بينما أعلاه وأسفله يصنعان من النحاس المبيض . وترى هذا النوع فى الشكل رقم ٤٤ ، وبجانبه النوع الشائع

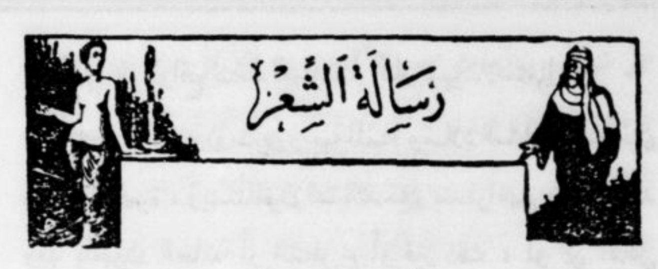


(شكل ٤٤)

وهو القنديل بغطائه الخشبى العادى الذى يقيه شبه الهواء . وهذا القنديل وعاء زجاجى صغير ذو أنبوبة صغيرة فى قاعه ، يدخل فيها ذبالة من القطن تلف على عود من القش . ويصب فيه الماء ثم الزيت وكثيراً ما يعلق القنديل على مدخل المنازل. ويخيم على داخل البيوت أثناء الليل جو قاتم ثقيل . ويكفى لإنارة الأبهاء الواسعة العالية ضوء شمعة أو شمعتين توضعان على الأرض أو على كرسى ؛ وقد تحاطان بوقاد زجاجى كبير ، أو توضعان فى مصباح من الزجاج لأن النوافذ من الخشب المشبك . والقليل من المصريين من يسهر أكثر من ثلاث ساعات أو أربع صيفاً بعد غروب الشمس (إذا أن الوقت يحسب عندهم من الغروب) وكثيراً ما يسهرون خمس ساعات أو ستا فى الشتاء

(يتبع) عدلى طاهر نور

(١) ويسمى « شربات » أو « شربات سكر » أو « سكر » فقط
(٢) وهذا الاسم يطلق أيضا على نوع من المشروبات المسكرة



قصيدة العقاد في «مى»

أين فى المحفل «مىّ» يا صحاب — عودتنا ها هنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب — مستجيب حين يُدعى مستجاب
أين فى المحفل «مى» يا صحاب ؟

سائلوا النخبة من رهط الندى — أين مي ؟ هل علمتم أين مى ؟
الحديث الحلو واللحن الشجى — والجبين الحر والوجه السنى
أين ولى كوكباه ؟ أين غاب ؟

أسف الفن على تلك الفنون — حصدتها، وهى خضراء، السنون
كل ما ضمته منهن المنون — غصص ما هان منها لا يهون
وجراحات ، ويأس ، وعذاب

شيم غرٌّ رضيات عِذاب — وحجى ينفذ بالرأى الصواب
وذكاء ألمعى كالشهاب — وجمال قُدُسى لا يعاب
كل هذا فى التراب ! آه من هذا التراب !

كل هذا خالد فى صفحات — عطرات فى رباها مثمرات
إن ذوت فى الروض أوراق النبات — رفرفت أوراقها مزدهرات
وقطفنا من جناها المستطاب

من جناها كل حسن نشتهيه — متعة الألباب والأرواح فيه
سائغ مِيز من كل شبيه — لم يزل يحسبه من يجتنيه
مفرد المنبت معزول السحاب

الأقاليم التى تنميه شتى — كل نبت يانع ينجب نبتا
من لغات طوفت فى الأرض حتى — لم تدع فى الشرق أو فى الغرب سَمتا
وحواها كلها اللب العُجاب

يا لذاك اللب من ثروة خصب — خير يقبس من حس وقلب
بين مرعى من ذوى الألباب رحب — وغنى فيه وجودٍ مستحب
كلما جاد ازدهى حسنا وطاب

طامه الناضد من شعر ونثر — كرحيق النحل فى مطلع فجر
قابل الفور على شاطئ نهر — فله فى العين سحر أي سحر
وصدى فى كل نفس وجواب

حى «ميا» إن من شيع ميا — منصفاً حيا اللسان العربيا
وجزى حواء حقا سرمديا — وجزى ميا جزاء أريحيا
للذى أسدت إلى أم الكتاب

للذى أسدت إلى الفصحى احتسابا — والذى صاغته طبعاً واكتسابا
والذى خالته فى الدنيا سرابا — والذى لاقت مصابا فمصابا
من خطوب قاسيات وصعاب

أتراها بعد فقد الأبوين — سلمت فى الدهر من شجو وبين
وأسى يظلمها ظلم الحسين — ينطوى فى الصمت عن سمع وعين
ويذيب القلب كالشمع المذاب

أتراها بعد صمت وإباء — سلمت من حسد أو من غباء
ووداد كل ما فيه رياء — وعداء كل ما فيه افتراء
وسكون كل ما فيه اضطراب

رحمة الله على «مى» خصالا — رحمة الله على «مى» فعالا
رحمة الله على «مى» جمالا — رحمة الله على «مى» سجالا
كلما سُجل فى الطرس كتاب

تلكم الطالعة ما زلت أراها — غضة تنشر ألوان حلاها
بين آراء أضاءت فى سناها — وفروع تتهادى فى دجاها
ثم شاب الفرع والأصل ، وغاب

غاب والزهرة تؤتى الثمرات — ثمرات من تجاريب الحياة
خير ما يؤتى حصاد السنوات — بعثرتهن الرياح العاصفات
ورمتهن تراباً فى خراب

ردّ ما عندك يا هذا التراب — كل لب عبقرى أو شباب
فى طواياك اغتصاب وانتهاب — خلقا للشمس أو شم القباب
خلقا لا لانزواء واحتجاب

ويك ! ما أنت برادٍّ ما لديك — أضيع الآمال ما ضاع عليك
مجد «مى» غير موكول إليك — مجد «مى» خالص من قبضتيك
ولها من فضلها ألف ثواب

عباس محمود العقاد

قصيدة مطران فى «مي»

قد تولى رفاقُنـــا وبقِينا   يعلم الله بعـــدهم ما لقِينا
هل من الصاب فى كؤوسك سُؤرٌ
قد سقينا يا دهر حتى روِينا
أوداع يتلو وداعاً وتأبين   على الإثر معقبٌ تأبينـــا
أيها الشاعر الذى كان حيناً   يتغنى وكان ينحَب حينا
حطِّم العود ، إن كر الليالى   لم يغادر فى العود إلا الأنينا
أن يُلِمّ الردى بمَيّ وأن يط   فئ مصباحها أليس غبينا ؟
طالع السعد كيف بدل نَوْءا
يبعث الريح والسحاب الهتونا
فإذا ما أقرّ أمسِ عيونا   قَرَّح اليومَ بالدموع عيونا
نعمة ما سخا بها الدهر حتى   آب كالعهد سالباً وضنينا
أبهذا الثرى ظفرت بحسن   كان بالطهر والعفاف مصونا
لهف نفسى على حِجًى عبقرى
كان ذخراً فصار كنزاً دفينا
إيه يا مى أمرف اليتم تبري   حاً بروح كان الوفىّ الحنونا
فقـــدك الوالدين حالا فحالا
جعل البيض من لياليك جُونا
ورمى أصغريك رامى الكبيري
ن فذاقا قبل المنون المنونا
أقفر البيتُ ، أين ناديك يا مـ
ي إليـــه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا   فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً   ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوب وهي غِرَاثٌ   من ثمار العقول ما يشتهينا
فى مجال الأقلام آل إليك السـ
بق فى المنشئات والمنشئينا
فى لغات شتى وفى لغة الضا   د تجيدين صوغ ما تكتبينا
أدب قد جمعت فيه علوما   يخطئ الظن عَدها وفنونا
وتصرفت فيـــه نظما ونثرا   باقتدار تَصرُّفَ الملهمينا
تبتغين الصلاح من كل وجه   وتعانين شقوة المصلحينا
وحى قلب يفيض بالحب للخير
ويهدى إليـــه من يهتدونا
ويود الحياة عزا وجهدا   لا يود الحياة خسفا ولينا
فهو آنا يبث بثاً رفيقاً   يملأ النفس رحمة وحنينا
وهو آنا يثور ثورة حر   عاصفاً عصفة تدك الحصونا
ينصر العقل، يكشف الجهل، يوحى الـ
عدل ، يرعى الضعيف والمسكينا
أين ذاك الصوت الذى يملك الأسـ
ماع فى كل موقف تفتينا
فُجِع الشرقُ في خطيبته الفصـ
حى وما كان خطبها ليهونا
أبلغ الناطقات بالضاد عَيَّت   بعد أن أدت البلاغ المبينا
أطربته وهـــذبته وحثتـ   ه على الصالحات دنيا ودينا
بكلام مفصل زانت الحكـ   مة فيه البيان والتبيينا
قدرته لفظاً ولحظا وإيما   ء بما ودت المنى أن يكونا
ذاك فى العيش ما شغلت به والـ
غيـــد تلهو وأنت لا تلهينا
لم ترومى إلا الجليل وجانبـ   ت الأباطيل واتقيت الفتونا
وجعلت التحصيل دأباً وآتيـ   ت جناه فطاب للمجتنينا
فعليك السلام ذكراك تحيا   وبرغم البعاد لا تبعدينا

خليل مطران



المجمع اللغوي والإنتاج الأدبي

طلب مجمع فؤاد الأول للغة العربية إدراج ثمانمائة جنيه في ميزانية السنة المقبلة لتشجيع الإنتاج الأدبي . وسيخصص نصف هذا المبلغ للممتازين في الآثار الأدبية التي يقرر المجمع أنها تستحق الجوائز ، ويخصص النصف الآخر لجائزتين يمنحهما الأول والثاني في فرع من الفروع التي يطلب إلى الأدباء المسابقة فيها

وعلى اللجنة المؤلفة لهذا الغرض أن تحدد كل عام في شهر فبراير النوع الأدبي للمسابقة وشروطها . فأما الآثار التي تجاز أو ينوه بها ، فهي التي يتحقق فيها أن يكون الأثر مظهراً للانتاج المستقل ، وأن يأتي في بابه بفائدة محققة ، وألا يكون قد سبق نشره قبل السنة التي تتناولها التقارير . وستضع هذه التقارير لجان فرعية من اللجان العامة ، واحدة للشعر ، وثانية للقصة والرواية ، وثالثة للمقالات والبحوث الأدبية من نقد وتاريخ ونحو ذلك

وعلى كل لجنة فرعية أن تتقصى الإنتاج الأدبي في الفرع الذي أسند إليها ، وأن تقدم تقريرها في شهر ديسمبر من كل سنة بملاحظاتها العامة على سير الحركة الأدبية في مصر والعالم العربي في هذا الفرع ، وعلى ما يمكن أن يكون ممتازاً من الإنتاج امتيازاً يقتضي تشجيع صاحبه معنوياً أو مادياً . ثم تدرس اللجنة العامة هذه التقادير في شهري ديسمبر ويناير ، وتعرض تقريرها على مجلس المجمع في شهر فبراير ، ثم يعقد المجمع جلسة علنية في شهر مارس تعلن فيها القرارات وأسبابها ، وينوه فيها بما استحق التنويه من الآثار الأدبية

هذا وقد نص على أنه لا يجوز لأعضاء المجمع أن يشتركوا في المسابقات أو ينوه بآثارهم . وسيمضي المجمع في تحقيق هذا المشروع بعد الموافقة على إدراج المبلغ المذكور في الميزانية

المؤتمر العربي للتعليم

تضمن تقرير اللجنة الفرعية لمؤتمر التعليم في البلاد العربية ، الكلام عن أغراض هذا المؤتمر وبرامجه ولجانه . فقيل عن المقصود به إنه أول حلقة من سلسلة المؤتمرات لبحث الأسس التي تقوم عليها أنظمة التعليم والمشكلات المشتركة بين البلاد العربية والسياسية العامة التي يجب وضعها للسير بمقتضاها، وأن من أغراضه وضع الأسس التي يقوم عليها التعليم نفسه ، وكذلك الوسائل العملية التي تحقق التنايات السالفة بين مختلف البلاد العربية

أما برنامجه فيلخص في القيام بالبحوث التالية :

— واجب الدولة بالنسبة إلى التعليم الأولي والعام
— أغراض التعليم الثانوي ووسائل تحقيقها
— مدى تأثر التعليم بالروح العربية
— تعليم اللغات الأجنبية
— مدى المركزية في التعليم
— كذلك يشمل البرنامج الكلام عن البعثات وتبادل الطلاب والأساتذة وعن المؤسسات الثقافية ، والزيارات العلمية والرياضية ، وتوحيد المصطلحات المدرسية ، وبحث المعادلة بين الشهادات

وقد تقرر أن يدعى إلى هذا المؤتمر كل من : العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والحجاز واليمن والسودان

وتقرر أن يفتح باب الاشتراك للهيئات والأفراد من مختلف البلاد ، سواء أكانت هيئات لها صبغات رسمية أم غير رسمية

واقترح تأليف لجنتين إحداهما لوضع الترتيبات الخاصة بهذا المؤتمر ، والأخرى لتحضير أعماله الفنية

كذلك اقترح أن يطرح على هيئة المؤتمر تأليف لجنة دائمة للعمل على تحقيق أغراضه طبقاً لما يستقر عليه رأي المؤتمرين

في المجمع العلمي العربي بدمشق

(ا) كنا ذكرنا منذ شهور[1] أن الأساتيذ أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق قد انتخبوا جميعاً الأستاذ العلامة

(١) انظر العدد ٤٠٦ من الرسالة الغراء

محمد كرد على رئيساً للمجمع المذكور . وقد عادوا فانتخبوا منذ أمد قصير الشيخ عبد القادر المغربي نائباً للرئيس ، والأستاذ خليل مردم بك أميناً للسر

والأستاذ المغربي أشهر من أن ينوه بلغوياته وآرائه وهو من أعضاء المجمع اللغوى فى مصر . أما الأستاذ مردم بك فقد جمع إلى أدب الدرس ورقة الشاعرية ، النبل وأدب النفس ، وهو أرفع من شغل هذا المنصب فى المجمع العلمى

***

(ب) كانت المحاضرة الثانية من محاضرات المجمع للأستاذ الشيخ نائب الرئيس عنونها بـ « غريب اللغة فى البرشان » ، وقدم لها بكلام طويل على ضرورة التسامح فى قبول الكلمات الأجنبيات التى لا ينبو عنها السمع أو يأباها الذوق ... وهو أخذاً بذلك جعل كلمة البرشان فى عنوان محاضرته . ثم فسر معنى هذه الكلمة ، وقرأ ما أرسله إليه أحد أصدقائه من أخبار أهل الكتاب فى القدس عنها ، وبين أنه يريد أن يجعل غريب اللغة فى أسلوب يسهل على السامع أو القارئ هضمه وقبوله ، كما يجعل الدواء المر ضمن « برشانة » ليسهل ابتلاعه . وقد عمد الأستاذ إلى الكلمات الغريبة فنسج حولها أقاصيص صغيرة تفهم بها وتحفظ . وقد « برشن » الأستاذ عدداً من غرائب الكلمات سرت الحاضرين وأضحكتهم . وها كم أنموذجاً منها . قال الأستاذ :

(كل خبر من أخبار العرب أو لفظ من ألفاظهم له علاقة بالبحر أو بالملاحة يكون فى الغالب مروياً أو محكياً عن قبائل عرب عُمان ، الساكنين على شاطئ البحر والحاذقين بصناعة البحر . غير أنهم لبعدهم عن بلاد مضر ، كان لهم لهجة خاصة بهم ، ويستعملون ألفاظاً من العربية لا يعرفها الحجازيون . فترى علماء اللغة إذا نقلوا كلمة من لهجتهم عبّروا عنها بقولهم : إنها كلمة عمانية أو لغة عمانية . فى المخصص (ج ٩، ص ١٤٦) : « القدف غرف الماء وسُبّه بلغة عمان » . وقُداف بوزن غراب معناه الغرفة الواحدة من الماء ...

ومن ملوك عُمان (الجُلَنْدى) ، قال بعضهم إنه هو الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً ، كما جاء فى التنزيل ، وقد كان ظالماً حتى ضرب بظلمه المثل قال الشاعر :

كان الجلندى ظالماً   وأنت منـــه أظلم

وكان للجلندى هذا بنتٌ أميرة فى نسبها وأصلها ، غير أنها بلهاء فى تصرفها وعقلها . وكان يحمّقونها ، وقد اشتهرت على ألسنة اللغويين باسم (العُمانية بنت الجلندى)

ذكروا فى حماقتها أنه كان لها غيلمة أى سلحفاة بحرية ، أرادت يوماً أن تلهو بها فألبستها حُلِيٌّ زينتها ، وسرحتها تمرح فى حدائق قصرها ، وغفلت عنها ، فهرولت الغيلمة إلى البحر وقَمَسَتْ فيه أى غاصت (والقَمْسُ الغوص ومنه القاموس الذى معناه البحر !) وبعد هنيهة تفقدت الأميرة سلحفاتها فلم تجدها وتيقنت أنها قمست فى البحر . فنادت جواريها ليساعدنها فى نزف ماء البحر واسترداد الغيلمة الآبقة ، فجلست وجعلن يغترفن ماء البحر بأكفهن ويَصببْنَه على رمل الساحل . وكانت الأميرة كلما آنست من جواريها فتوراً وضجراً حمّستهن قائلة (نزافِ نزافِ ، لم يبق غير قُدافِ) ونزاف اسم فعل أمر بمعنى انزف ، والنزف أن تنزح ماء البئر أو الحوض كله . أما معنى قداف فالغرفة الواحدة توهمن أنهن قاربن الإنتهاء

(دمشق)   صلاح الدين المنجد

تحرز مفسر عن التكفير فى رأى خطير :

يجازف كثير من الناس فى هذه الأيام بتكفير أصحاب الآراء الجديدة فى الدين ، ولا يكتفون بتخطئتها ، وترك عقيدة أصحابها لمن هو أدرى بها منهم ، ونحن نسوق لهم هذا المثل من تفسير غرائب القرآن لنظام الدين النيسابورى ، ليعرفوا كيف كان سلفنا الصالح يقابل الآراء الجديدة بالهدوء اللائق بكرامة العلم ، ويحاول ردها فى لين ورفق ، فلا يقيم فى ذلك مناحة باسم الدين ، ولا يجازف بالتكفير والتضليل كما نجازف اليوم . وقد جاء هذا الرأى الخطير فى تفسير الآيات الواردة فى قصة داود

وسليمان من سورة سبأ ، وفيها ذكر تسخير الجبال وتسبيحها مع داود ، وتسخير الرياح والشياطين لابنه سليمان ، وكذلك إلانة الحديد وإسالة القطر ؛ فقال النيسابورى : زعم بعض المتحذلقين أن المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء بحمده ، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ؛ والمراد من تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح ، والمراد من إلانة الحديد وإسالة القطر أنهم استخرجوا الحديد والنحاس بالنار واستعمال آلاتها ، والمراد بالشياطين ناس أقوياء ؛ ولا يخفى ضعف هذه التأويلات ، فإن قدرة الله في باب خوارق العادات أكبر وأكمل من أن تحتاج إلى هذه التكلفات

فالجمهور يرى في هذه الأشياء أنها كانت معجزات لداود وسليمان عليهما السلام ، ويفهمها على ظاهرها من الدخول في باب خوارق العادات ، فلما ساق النيسابورى ذلك الرأى الذى يخرجها من هذا الباب ، لم يفعل إلا أن جعله حذلقة لا داعى إليها ، لأن قدرة الله أكمل من أن تحتاج إلى مثلها ، والحذلقة يا معشر الناس شيء غير التكفير والتضليل ، وإنما يقال — حذلق — إذا أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده كما فعل هذا المتحذلق

ولو أن مثل ذلك الرأى ظهر في عصرنا لقامت له الدنيا وقعدت ، وامتلأت صفحات الجرائد والمجلات بألفاظ الكفر والضلال والإلحاد والزندقة ، وما إلى هذا من الألفاظ المؤذية ، وشر الإيذاء ما يتعلق بالعقيدة

فهل لكم يا معشر المجازفين بتكفير الناس أن تنتفعوا بسوق هذا المثل ، وأن تقتدوا بما فيه من الظرف واللباقة في الرد ، فقد سئم العقلاء جدلكم النابى في الدين ، لأنه يضر ولا ينفع ، ويبغض في الدين أكثر مما يحبب ، ولهذا أمرنا أن نجادل بالتي هي أحسن .

عبد المتعال الصعيدى

١ — نص مطير

أكثر المفسرين على أن الآية الكريمة « وقرن في بيوتكن » خاصة بنساء النبي صلى الله عليه وسلم . ولكن الإمام القرطبي يقول في تفسيره الجامع : « معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن بالمعنى — هذا لو لم يرد دليل في جميع النساء — فكيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة » . انتهى

٢ — غلطة مفسر كبير

جاء في كتاب أحكام القرآن للامام أبي بكر بن العربي في سورة التوبة : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » نفى الله عنهم العقل لنفى فائدته من الاعتبار والاستبصار ، وقد ينتفى الشيء بانتفاء فائدته ، إذ الشيء إنما يراد لمقصوده ، فإذا عدم المقصود فكأنه لم يوجد ... الخ

والصواب : (لا يعلمون) بدل (لا يعقلون) . فالتفسير غلط في غير موضعه

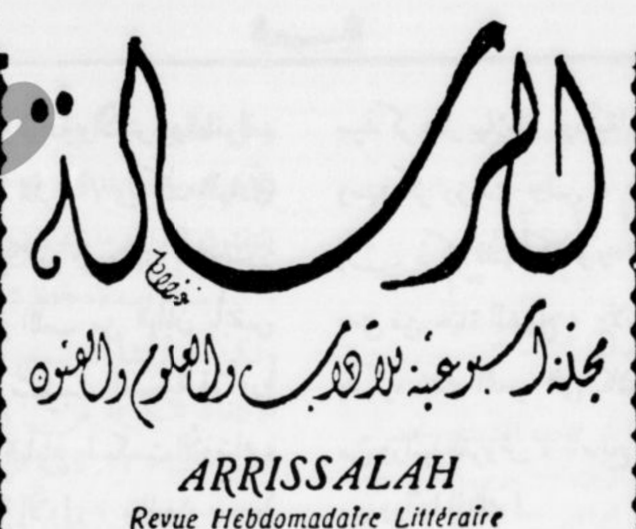
أحمد صفوان

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



6me Année No. 442 — Lundi - 22 - 12 - 1941





ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة التاسعة « القاهرة في يوم الاثنين ٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤١ » العـدد ٤٤٢

على ذكرى « عيد الميلاد »

بعد ثلاثة أيام تتجدد ذكرى « مولد المسيح » فيقف أبناء « قابيل » آلة الحرب ؛ ثم يخرون جاثين لله في الشكنات والمطارات والبوارج والخنادق والمخابئ والكنائس يرتلون حامرين نشيد السلام المأثور :

« المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ! »

فإذا أصبحوا انقلبوا سراعاً إلى آلات الفناء فأرسلوا منها الصواعق على إخوانهم الذين هتفوا معهم بالمجد لله في السماء ، وبالدوام للسلام على الأرض ! فسحقوهم أو أحرقوهم على رمال لوبيا ، وفوق ثلوج روسيا ، وبين أطباق الهواء ، وتحت أعماق الماء ؛ كأنما اختلت الدنيا ، واختبلت الناس ، وانقلبت المعاني ، فصار الدين معناه الكفر ، والسلام معناه الخصام ، والمفاوضة معناها الختل ، والمعاهدة معناها الغدر ، والأخوّة معناها العداوة ؛ وأصبح هذا الكوكب بقاراته ومحيطاته وسكانه كرة من النار تتقاذفها الأرجل الحديدية بين فريق هتلر وموسوليني والميكادو ، وفريق تشرشل وروزفلت وستالين . ولا يدري إلا الله من سيقذفها في (الجول) ؛ وما الجول هنا إلا عبودية الأبد أو حرية الأبد !

كان العالم المسيحي في مختلف أقطاره يجدد بعيد الميلاد

الفهـــرس

ما انطمس فى نفسه من معانى المودة والرحمة والأسرة والطفولة ، فيصل بالتزاور ما انقطع من أسباب القرابة ، ويؤكد بالتهادى ما وهى من عرى الصداقة ؛ وكان الميكادو على وثنيته يقوم بدور الشيخ الطيب « نويل » ، فيحمل اللعب من اليابان بأبخس الأثمان إلى كل بيت فيه طفل ؛ فلما صُلِبت المسيحية فى أوربا على صليب النازية المعقوف ، انتكست الطباع وانعكست الأوضاع ، وانكفأ بعض الشعوب إلى البربرية الأولى ، يغالبون بعصبية الجنس ، ويسودون ببأس الحديد . وجامل الميكادو فى الشر كما جامل فى الخير ، فترك دور الشيخ « نويل » وقام بدَور الأب « فُيوبتار[1] » ، فاستبدل بلعَب الأطفال من صور الدبابات والطائرات والسابحات ، قطعاً كالجبال من الحديد والبارود تدك مدائن البر ، وتبتلع جزائر البحر ، وتشعل النار فيما بقى من أطراف الأرض ، حتى أوشك أن يجاوز الصواب قول الفلكيين إنها كوكب متألم !

* * *

بعد ثلاثة أيام تعاود الناس ذكرى ليلة الميلاد وهم من تفاعل المذاهب والقرون فى رجفة من الصراع الماحق توشك أن تقيم عليهم القيامة . وسيذكر الشباب المجندون لمجالدة الحق أو مجاهدة الباطل أنهم كانوا فى مثل هذه الليلة أمام المواقد أو حول الموائد قرة عيون وزينة بيوت ، وأنهم فى هـذا اليوم يستقبلون عيد الحياة وهم مشردون فى مجاهل الأرض ومساقط الموت لا يعرفون متى يصرعون ولا أين يقبرون . ثم يقول هذا الشباب الريّق الريان لنفسه : أبعد التربيب والتهذيب والعيش الناعم والأمل الباسم والغد المرجوّ نصير طحيناً لهذه الرحا الماثلة من غير سبب موجب إلا نزوة من نزوات الطيش ، فى رأس رجل من طلاب العيش ؟ !

أما الستة الذين يحاولون أن يقرروا مصير العالم على مشيئة الله أو على هوى الشيطان ، فسيذكرون بمولد المسيح أشياء أُخَر :

سيذكر هتلر بيلاطس وديُقلِيانوس ، والدتشى يهوذا ونيرون . وسيذكر رزفلت بولس ، وتشرشل قسطنطين ؛ أما استالين إن ذكر فسيذكر لوثر ؛ وأما الميكادو فلا يذكره العيد معنى من حياة المسيح ، ولا مغزى من تاريخ المسيحية ؛ إنما يذكره تلك اللعب التى كان يقدمها إلى لهو الأطفال ليربح من ورائها القروش ، فأصبح اليوم يقدمها إلى قتل الرجال ليربح من ورائها الممالك !

* * *

سبحانك ربَّ السموات والأرض ! ما كان لنفس مؤمنة أن تحسبك تركت أمر هذا العالم لهؤلاء الحمقى من خَلقك .

لا جرم أن لك من هذه القارعة الصغرى حكمة تدق على بصيرة ابن آدم

إن مع القيامة نشوراً أكمل وحياة أفضل . كل نظام سنّه ابن العاصى سيتغير ، وكل قانون نَزَغ فيه الشيطان سيهاني .

لن يبقى يا مولاى غير شرعك ، ولن يدوم غير دينك

وكَلَت ابن آدم إلى نفسه فجرب قواه كلها فى تدبير أمره وتسخير غيره ، فما أنتج غير الاضطراب والخراب والفوضى .

تبجح بعلمه وتشريعه وفلسفته ؛ وزعم أنه هيمن على الغريزة بقوة الخلق ، وسيطر على الطبيعة بسلطان العلم ، وتوهم أنه يستطيع بما كشف من الأسرار وذلل من القوى أن يصنع مفاتح الغيب ويقتحم أبواب القدر ؛ فلما ابتليته بتحقيق زعمه وتطبيق فهمه ، تحرك فى طبعه الطين الراسب ، وتيقظ فى نفسه الحيوان الراقد ، وتألبت الأهواء على رأيه فاضطرب وتفرق ، وتغلبت المطامع على جسمه فتنازع وتمزق !

* * *

رباه إنا مؤمنون ، وإنا مطمئنون ! فأدم علينا نعمة الهداية ، واكفنا شرّ هذه الغواية ، واجعلنا الأدلاء على طريقك ، والأمناء على حقك ، حتى تنجلى هذه النقمة عن الدنيا ، فيرجع إليك الغوى ، ويخضع لك القوى ، ويلوذ بك الضعيف !

احمد حسن الزيات

(١) يعتقد أطفال المسيحيين أن بابا نويل يزور البيوت ليلة عيد الميلاد ومعه الأب فويتار فيوزع هو على عقلائهم اللعب والحلوى ، ويترك الأب فويتار لخبثائهم حزما من العصى الصغيرة اللينة

مسابقة الأدب العربى لطلبة السنة التوجيهية

ديوان حافظ ابراهيم

للدكتور زكى مبارك

تمهيد — اهتمام العرابى باشا بنشر آثار الأدب الحديث — شرح ديوان حافظ والنص على « محاسن » الشارحين — درس الديوان — توجيهات أدبية — المحدث حافظ ابراهيم — ما هو السر فى انتصار شوقى على حافظ ؟ وما قيمة حافظ على وجه التحديد ؟

تمهيد :

لما شعر « شوقى » رحمه الله بأن الشيخوخة بدأت تراوحه وتناديه أقبل بجدّ على طبع « الشوقيات » ليأمن الخوف على شعره من الضياع قبل أن يموت .

واتفق بعد ظهور الجزء الأول والثانى من « الشوقيات » أن قضيت ساعة مع « حافظ » فى منزل السيد حسن القاياتى فاقترحت عليه أن يجمع أشعاره على نحو ما صنع شوقى ، فأجاب بعبارة تنذر بالتسويف ، ويرجع ذلك إلى أن « حافظ[1] » لم يكن يملك من الصبر على المراجعة بعض ما كان يملك « شوقى » ، فقد كانت حياته اليومية مهدَّدة بالقلق ، وكان لا يجد الأنس فى غير الانتقال من مكان إلى مكان ، ليخرج من عزلته البيتية بمحادثة من يصادف من الرجال .

وبعد أن انتقل حافظ إلى جوار الله فى صيف سنة ١٩٣٢ قام جماعة من أصدقائه وقرروا الاحتفال بذكراه ، وكانت لهم يومئذ مشروعات عظيمة ، منها تأليف كتاب فى إظهار عبقريته يشترك فيه فحول الباحثين ؛ ومنها طبع ديوانه ، وإقامة قبره على قواعد عالية تذكّر الناس بمنزلته السامية ؛ ومنها دعوة الأدباء فى سائر الأقطار العربية للاشتراك فى حفلة التأبين ، إلى آخر ما يجود به الخيال فى مثل تلك الحال .

وفى ذلك العهد كتبت كلة فى « البلاغ » قلت فيها إن تلك القرارات لن ينفّذ منها شىء ، ورجوت أصدقاء « حافظ » أن يتفقوا ولو على عمل واحد هو طبع الديوان ، فقد كنت أعرف أن أدباءنا فى أغلب أحوالهم رجال أقوال ، لا أعمال ، وهل صنعوا شيئاً فى إنقاذ ما ترك « زكى باشا » من الآثار الأدبية ، وفيها نفائس قد لا يجود بمثلها الزمان ؟ وهل نظنهم يلتفتون إلى جمع ما تبدّد من آثار « محمد مسعود » ؟ .

لم يصنع أصدقاء حافظ شيئاً يؤكد الوفاء لذلك الروح الوهاج ، ولكن الله لم يشأ أن يضيع حافظ فى هذه البلاد ، فكانت تلك الالتفاتة الكريمة من وزير المعارف الأسبق « على زكى العرابى باشا » ، الالتفاتة التى قضت بأن يُطبع ديوان حافظ على نفقة وزارة المعارف ، وأن يكون ظهوره بداية لطائفة من المطبوعات تُحيي ما يُخاف عليه من آثار الشعر الحديث ، فقد كان من العَجب أن تكون مصادر الأدب فى القرن الثانى أقرب إلى الأيدى من مصادر القرن الرابع عشر ، وتلك ظاهرة لا نسكت عنها إلا كارهين .

وفى هذا المعنى كتبت فى جريدة المصرى مقالاً جاء فيه :

« إن العرابى باشا أخذ جزاءه الأوفى يوم ظهر ديوان حافظ ، فقد استطاع أن يؤدى إلى اللغة العربية خدمة جليلة بإحياء شاعر كان فى عصره ملء المسامع والأفواه والقلوب . . . وما الذى يمنع من أن يتفضل فيشير بطبع مجموعات وافية مما نظم الشعراء وكتب الكاتبون منذ فجر النهضة الحديثة إلى اليوم ؟ ! إنه خليق بأن يجعل ديوان حافظ فاتحة لعهد جديد من المطبوعات العلمية والأدبية التى تشهد بما صنعت مصر فى العهد الحديث ، وهو إن حقّق هذه الرغبة فسيمكّن الأدباء فى مصر وفى سائر الأقطار العربية من الوقوف على طلائع النهضة الأدبية ، وهى نهضة نرجو أن تقوى وتستفحل لتُشعر الأبناء والأحفاد بأن لهم لغة قوية تُطاول اللغات الحية ، وتسابقها فى ميادين العلوم والآداب والفنون . فإن قال الوزير إن أمثال هذه الأعمال مما يقوم به الأفراد لا الحكومات فإنا نجيب بأن الحال فى مصر تختلف عما عداها بعض الاختلاف ؛ فالمصريون لا يزالون يودون أن ترفع عنهم حكومتهم كثيراً من التكاليف ، ومن شواهد ذلك مطبوعات الجامعة المصرية ومطبوعات دار الكتب المصرية ؛ فهذه المطبوعات يعجز عنها الأفراد ، ولا تستطيع المكاتب أن تنهض بها إلا بجهد عنيف . وما بالنا نلحّ على الوزير فى تحقيق هذا الغرض ؟ إنه يعرف أن دراسة الأدب الحديث مقررة فى المدارس الثانوية والمعاهد العالية ، ودراسة هذا الأدب ستظل ضعيفة ما دامت المصادر بعيدة عن أيدى الأساتذة

(١) أنا أبغض إعراب الأعلام

والطلاب ؛ فهو حين يحقق هذا الغرض يؤدى خدمة أساسية لا كمالية ، ويجعل أبناءه فى المدارس الثانوية والعالية قادرين على التمكن من ناصية الأدب الحديث ، وهو كذلك سيصنّ شريعة جديدة لأمثاله من وزراء المعارف فى مختلف الأقطار العربية ؛ فقد نسمع بعد قليل أن وزراء المعارف فى الشام والعراق والمغرب والحجاز قرروا نشر ما اندثر عندهم من معالم الأدب الحديث ، وعندئذ تقترب هذه الشعوب بعضها من بعض ، وتضيع مآرب الباغين العادين من خصوم لغة القرآن »

وإنما أعدت هذه الفقرة من مقال نشرته قبل سنين لأنى أجد فيها دعوة يجب أن تجدَّد فى كل يوم ، فما تزال الحكومات العربية قليلة الالتفات إلى أهمية الأدب الحديث ، وما يزال فى الدنيا أقوام يرون الأدب الجديد أقل قيمةً من الأدب القديم ، مع أن أدبنا فى أكثر نواحيه أعظم حيويةً من أدب القدماء ، وهو يصور ما نحن عليه من قوة وضعف ، وإيمان وارتياب

شرح ديوان حافظ

شرح هذا الديوان ثلاثة من أهل الأدب ، هم الأساتذة : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الإبيارى . وقد نص الأستاذ أحمد أمين فى المقدمة على أن هذا الشرح أُريدَ به ناشئة الأدب وناشئة الشعر ، ولم يُرَد به الخاصة والمنتهون

ومعنى هذا الكلام أنهم قد يوضحون ما لا يحتاج إلى توضيح رعايةً لأفهام المبتدئين

وكان الأمر كما قالوا فى المواطن التى تسعفهم فيها المعجمات ، كأن يقولوا إن السدة هى الباب ، والشجون هى الأشواق

أما إذا احتاج الشرح إلى بحث فالمبتدئون فى حكم المنتهين ، ولا موجب للعناء !

ومن أمثلة ذلك :

١ — وردت فى شعر حافظ كلمة (آذار) فقال الشارحون : « شهر من شهور السنة المسيحية معروف »

فهل فى الحق أن المبتدئين من شبان مصر يعرفون آذار ؟ كان الواجب أن ينص على أن (آذار) هو شهر (مارس)

والقول بأن آذار من شهور السنة المسيحية خطأ فى التاريخ؛ والصواب أن يقال من شهور السنة الشمسية ، فقد عُرِفَ التقويم الشمسى قبل المسيح بأزمان طوال

ونحن اليوم نقول سنة قمرية وسنة شمسية ، أما أسلافنا من العرب فكانوا يقولون : سنة هلالية وسنة خَراجية

٢ — ورد فى شعر حافظ اسم (مانى) فقال الشارحون :

« هو صاحب مذهب المانوية المشهور »

فهل يمكن القول بأن مذهب المانوية مما يعرف المبتدئون ؟ ثم أراد الشارحون أن يبينوا الوقت الذى ظهر فيه (مانى) فقالوا إنه ظهر فى أيام سابور بن أردشير

وأقول إن هذا الكلام كان ينفع من يعيشون قبل ألف سنة ، يوم كان العرب على بيِّنة من تواريخ الأكاسرة ، أما اليوم فهو كلام غامض المدلول

٣ — ورد اسم (روسو) فى شعر حافظ فقال الشارحون :

« روسو كاتب فرنسى معروف ، وهو صاحب كتاب الاتفاق الجمهورى »

وما أعرف شيئاً عن كتاب « الاتفاق الجمهورى » ولعلهم يريدون كتاب « العَقد الاجتماعى » إلا أن يكونوا أبصر منى بالأدب الفرنسى ، وذلك جائز !

٤ — وكلمة (معروف) كثيرة الدوران على ألسنة الشارحين : فأبو تمام شاعر عباسى معروف ، والبحترى شاعر عباسى معروف ، وجمال الدين الأفغانى فيلسوف معروف ، ومحمد باشا سعيد هو الوزير المعروف ، إلى آخر ما نثروا فى الشرح من هذا اللفظ المعروف !

٥ — والترقيم خطأ فى بعض الأحيان ، فقد جاء فى المقدمة أن حاجة الشاعر إلى الخيال الخصب أقوى من حاجة الناثر ، والعبارة صحيحة ، ولكنها خُتمت بعلامة التعجب ، ولا موجب لذلك .

٦ — وأشير فى المقدمة إلى « حادثة المؤيد » بلا نص على مكانها من صفحات الديوان ، فهل أهملت لأنها من الحوادث المعروفة ؟

٧ — وكذلك أشيرَ إلى « وداع اللورد كرومر » ، والصواب « لورد كرومر » ، لأن « كرومر » فى هذه العبارة لا يقع موقع عطف البيان ، وإنما يقع موقع المضاف إليه من المضاف ، وهذا أمرٌ قد يخفى على المبتدئين ، كما خفى على الأستاذ أحمد أمين .

٨ — وفى المقدمة : « لئن نقص حظ حافظ فى الخيال فقد غطى عيبه شيوع الجمال فى سائر نواحيه » ؛ والصواب « لقد » وحافظ نفسه يقول :

لئن هَدَوْكم لقد كانت أوائلكم تهدى أوائلهم أزمان أزمان

وقد عثرت على شواهد وقعت فيها الفاء فى مكان اللام فى مثل هذا التعبير ، وإذن تُقبل تلك العبارة بقول مرجوح ، وإنما أدافع من هذا الخطأ لأنه وقع فى بعض أشعارى ! !

٩ — وفى ص ١٥١ ج ١ قال حافظ فى محمد المويلحى :

فإذا نثرت على الصحيفة خِلتها … غرساً ألحّ عليه صوب قطار

وجاء فى الشرح أن القطار جمع قطر بفتح فسكون وهو المطر ، ثم قال الشارحون : إن الديوان المطبوع فيه « نثار » مكان « قطار »

وأقول : إن الصواب إثبات « نِثار » وتصحيح كلمة « غرساً » ، فيكون البيت :

فإذا نثرت على الصحيفة خلتها … عرساً ألحّ عليه صوب نثار

والنثار هو المعروف فى مصر بالنقوط فى يوم العرس ، وذلك هو المراد .

١٠ — وفى ص ٦٦ ج ١ قال حافظ فى تحية واصف غالى :

مازلت تُلق على أسماعهم حججاً … فى كل ناد وتأتيهم بسلطان

حتى انثنيت وما للمُرب مجترئ … على البناء ولا زار على الباني

والصواب وضع كلمة « المَرب » مكان « المُرْب »

١١ — وفى الصفحة عينها أن رينان هو الفيلسوف الفرنسى المعروف الذى ردّ عليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما رمى به الإسلام والمسلمين من تهم ، وما نعرف أن للشيخ محمد عبده كانت له مواقف مع رينان ، وإنما كانت له مواقف مع هانوتو ، أما الذى ردّ هجوم رينان على المدنية الإسلامية فهو جمال الدين الأفغانى

١٢ — وفى ص ٦٠ ج ١ قال حافظ :

فانبرتْ ظبية الشآم وقالت … بعض هذا فقد رفعت الشآما

وجاء فى الشرح : أى قولى بعض هذا ، إذ لا نستحق كله .

والصواب أن يقال فى الشرح : إطوى بعض هذا ، فما نستحق كل هذا الثناء

١٣ — والاضطراب فى رسم الأعلام الأعجمية يقع أحياناً فى هذا الشرح ، فهو جُو الشاعر الفرنسى نراه مرة هيجو ومرة هوغو ومرة هوجو ؛ وهنا نذكر أن الأعلام الأوربية نُشرتْ جميعاً بحروف عربية ، وكان يجب أن ترسم أيضاً بالحروف اللاتينية ليُعرف نطقها بالضبط ، فإن تعذّر هذا على الأستاذين أحمد الزين وابراهيم الإبيارى ، فقد كان يسيراً على الأستاذ أحمد أمين

١٤ — والأخبار الأدبية المتصلة بقصائد حافظ لم تأخذ حقها من البيان ، وستصير هذه الأخبار من المنسيات بعد حين ، فكان من الواجب أن تسجل قبل أن تضيع ، فإن لها أهمية فى توضيح مرامى ذلك الشاعر البِرّيض

١٥ — وسكت الشارحون عمن سبقهم إلى شرح « القصيدة العمرية » ، وقد شُرحتْ مرتين : شرحها المرحوم محمد بك الخضرى ، وشرحها المرحوم مصطفى بك الدمياطى ، والنص على مثل هذا واجب فى الطبعات العلمية . وكان يجب أيضاً أن يُنص على تأثير هذه القصيدة فى الشعر الحديث ، فعلى غرارها صاغ الشيخ محمد عبد المطلب « القصيدة العلوية » ، وصاغ الشاعر عبد الحليم المصرى قصيدته فى الجد الأكبر للملك فؤاد ، وكان لتلك القصائد رنين فى المحافل الأدبية ، وقد تكون مصدر الوحى للشاعر أحمد محرم فى « الإلياذة الإسلامية »

درس الديوان

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول ، ولكن النظر فى الجزء الثانى ينفع ، لأنه يكمل صورة حافظ الشعرية

وفى الجزء الأول مقدمة كتبها الأستاذ أحمد بك أمين ، وهى مقدمة وافية ، ومراجعتها بعناية تعين الطلبة على اجتياز الامتحان ونقدم التوجيهات الآتية :

أولاً — جاء فى الجزء الأول أشعار تصور أشجان حافظ حين كان فى السودان ، فيجب الرجوع إلى ما يتصل بهذه الناحية فى الجزء الثانى

ومع هذا لا يستطيع الطلبة تصور محنة حافظ بأيامه فى السودان إلا إن نظروا فى كتاب « ليالى سطيح » ؛ والرجوع إلى هذا الكتاب مفيد جداً ؛ ففيه صفحات هى أقوى وأجل من كل ما هتف به حافظ فى دنياه ؛ وقد تكون أعظم ما أُثِر من الثورة على الاستبداد

وكان حافظ يحفظ « ليالى سطيح » عن ظهر قلب ، كما يحفظ قصائده الجياد ، ومن لم ير حافظ فى « ليالى سطيح » فهو من أدبه من الغافلين

ثانياً — حافظ كثير الكلام عما عرف من الرجال ، فديوانه ليس إلا صوراً جميلة أو دميمة لخلائق من اتصل بهم من قرب أو من بُعد ، ولهذا تقل فى شعره التأملات النفسية ، لأنه دائماً موصول بالمجتمع

ثالثاً — حافظ كثير التعريض في مدائحه وأهاجيه ، وهو تعريض لم يظفر بما يستحق من الشرح ، فإن استطاع الطلبة أن يواجهوا لجنة الامتحان بأشياء سكت عنها الشارحون فقد يظفرون بطيف من الثناء !

رابعاً — قد أُرِّخت أكثر قصائد حافظ ، وبقي فريق منها بدون تأريخ ، فعلى الطلبة أن يبحثوا عن المناسبات ، وإليهم هذا الشاهد :

في ص ٢٠١ ج ١ قال حافظ أبياتاً في توديع شوقي يوم سافر إلى مؤتمر المستشرقين ، وننظر في الشرح فنجد إحالة على الحاشية رقم ٥ ص ٥٠ . فإذا رجعنا إلى تلك الحاشية لم نجد كلاماً عن المؤتمر ولا عن مكانه في التاريخ ، فماذا نصنع ؟

نرجع إلى الجزء الأول من الشوقيات ، وهو أيضاً مقرر لمسابقة الأدب العربي ، فنجد أن ذلك المؤتمر عُقِد في جنيف (سبتمبر سنة ١٨٩٤)

خامساً — قد يُظن أن الشارحين دونوا جميع قصائد حافظ ، وليس الأمر كذلك ، فلحافظ قصائد لم تضف إلى هذا الديوان وسندل الشارحين على تلك القصائد عند الطبعة الثانية

سادساً — قال الأستاذ أحمد أمين إن الحزن الذي غلب على طبيعة حافظ هو الذي قضى بأن تكون أكثر قصائده في المراثي .

ونقول إن الرثاء كان يُفرض على حافظ في كثير من الأحايين ، ومن هنا تقلّ اللوعة في أكثر مراثيه ، فيستر الموقف باجترار حوادث التاريخ

سابعاً — قيل وقيل إن حافظ لم يكن من أهل الصدق في التغزّل والتشبيب ، فما سبب ذلك ؟

يرجع السبب إلى أن ضجيج المجتمع شغل حافظ عن سحر الجمال ، وقد يرجع إلى ضعف في حاسته الذوقية من هذه الناحية ، فالإحساس بالجمال يتفاوت عند الشعراء ، كما تتفاوت الحواسّ عند سائر الناس

وربما جاز القول بأن حافظ كان في سريرة نفسه من عبيد المجتمع ، فهو يغنّي على ليلى المجتمع قبل أن يغني على ليلاه ، والمجتمع كان ينتظر منه البكاء على المصائب اليومية ، قبل أن ينتظر منه التغريد فوق أفنان الجمال

ثامناً — تشهد أشعار حافظ بأنه كان ابن زمانه وابن وطنه ، فلم تكن له نزعة فلسفية ولا وثبة إنسانية إلا في أندر الأحيان ، وأشعاره في مآسي بعض الأمم الشرقية أو الغربية لم تكن إلا صدى للعواطف المصرية في ذلك الحين ، وهي في الأغلب عواطف تخلقها الجرائد والمجلات

المحدث حافظ ابراهيم

نقول في شعر حافظ وفي نثره ما نشاء ، ونتجنى عليه كما نريد ؛ أما حافظ المحدِّث فهو أديب لم تر مثله أندية الأدب منذ أجيال طوال

وما ظنكم برجل كان الزعيم سعد زغلول يتشهّى حديثه كما يتشهى عودة الشباب ؟

لا أذكر أني رأيت رجلاً في مثل ظرف حافظ ، ولا أكاد أصدق أن الدنيا ستسمح بأن يكون له ضريب أو مثيل

سألت أستاذي الشيخ (رنيه دوميك) عن أهمّ خصائص أناطول فرانس فأجاب :

Le meilleur causeur, la plume à la main

ولو أن شاعرنا حافظ كان يكتب كما كان يتكلم لكان سحره في اللغة العربية شبيهاً بسحر أناطول فرانس في اللغة الفرنسية

وبراعة حافظ في الحديث هي التي قضت بأن ينتصر عليه غريمه شوقي ... كان حافظ يتحدث ويتحدث إلى أن تنفد قواه فلا تبقى له قدرة على الغناء ؛ وكان شوقي يصمت ويصمت ليستجمّ فتبقى له القدرة على السجع والهُتاف . والقُوى الإنسانية لها حدود ، وإلا فكيف جاز أن يكون المدرسون أعجز الناس عن الشعر والخطابة والتأليف ؟

ألا يرجع ذلك إلى أنهم يضيعون نشاطهم في الدرس ، فلا تبقى لهم عافية يساورون بها تلك المواهب الأدبية ؟

أراد حافظ أن يُمتع أهل زمانه فأضاعوه . كان زينة الأندية والمحافل ، وكان حديثه أشهى من وعد الحبيب بعد طول الجفاء ، وأطيب من اندحار الرقيب ، وأشهى إلى النفس من الانتصار على السفهاء ، إن كان الانتصار على السفهاء من الممكنات !

عليك — يا حافظ — تحية الشعر والنثر والحديث

وإلى روحك في عالم الخلود ، نقدم آيات الثناء ، يا حجتنا الباقية على أن مصر مهد الروح المتوهج والقلب الخفاق

زكي مبارك

حكم في القضية ٥٦٣ سنة ٩٤١ عسكرية بني سويف بتغريم محمد علي طايع من نزلة عراقة مركز ببا خمسة جنيهات لأنه باع أذرة بأزيد من التسعيرة

بحث مقارن

الوضع الاجتماعي للمرأة في الإسلام

للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر

مقدمة

لم يتسع نطاق الحديث عن المرأة فى عصر من العصور بقدر اتساعه فى العصر الحاضر الذى يمكن أن يسمى بحق « عصر المرأة » . ففى كل زاوية من زوايا المعمورة تشمُّ رائحة المرأة : شخصاً ، أو موضوعاً ، أو عاطفة ، أو هدفاً . وبالجملة هى تشغل حيزاً كبيراً من تفكير الرجال وضمير المجتمع . وإذا كان كل شىء فى ذاته قابلاً للمدح والذم فإن المرأة قد تفردت بالحصول على نهايتيهما !

ولا عجب أن تحتل المرأة هذه المكانة العريضة ، فإنها لم تعد محلاً لقضاء شهوة ، أو سلعة تباع وتشترى ، أو خادمة ذليلة ، أو مواطناً لا حقوق له ، أو حتى تمثالاً جميلاً يركع الرجل تحت قدميه ؛ وإنما أصبحت الممثل اللاعب فى حياة الرجال من وراء ستار ، و « القالب » الفذ العميق الذى تتشكل فيه شخصية المجتمع ، ويحمل أفراده ملامحه ، وينطبع فيهم كل ما به من خير أو شر . ثم هى قبل كل شىء ما زالت — كما كانت منذ فجر البشرية — حجر الزاوية فى الأسرة الإنسانية

ومن البدهى أن يعنى المفكر المصرى بالكلام عن المرأة بعد إذ ظفرت بحقوق كثيرة ، ووثبت هذه الوثبة الاجتماعية الكبيرة ، وليبحث فيما إذا كانت قد جاوزت بذلك حدود طبيعتها ، واعتدت على حقوق الرجل ، وجنت فى النهاية على نفسها وعلى غيرها أم لا ؟ وأى الشرائع أهدى لها وأكثر اعتناء بها ؟

ثم هل الشريعة الإسلامية قد حررتها وأعزتها وصانتها أم قضت بعبوديتها وأذلتها وابتذلتها !

المرأة فى غير الشريعة الإسلامية

يروى لنا علماء الاجتماع أن الرجل ، عند بدء الخليقة ، كان يعيش عيشة الحيوان ، يطوف فى الأرض ، ولا يعرف الأسرة بالمعنى الذى نفهمه . ويعتقدون أنه لم تكن له يومئذ أوضاع مرعية فى اتصاله بالمرأة ، وكان كل احتفاله بها منصباً على أن يقضى شهوته البهيمية منها ثم ينصرف عنها لا يلوى على شىء ، وتظل هى وحدها حتى تضع حملها ، وتسعى لتقوت بنيها الذين لا يعرفون لهم أباً ، ولا يستشعرون الأبوة ، ولكنهم ينسبون إليها . ومن ثم كانت — المرأة — تبنى الأسرة بمفردها . ولم تكن لها فى تلك المرحلة قِبَلَ الرجل أو القبيل الذى تنتمى إليه أى نوع من أنواع الحقوق ، بل كانت حياتها كلها واجبات !

وبعد ذلك استقر الرجل بعض الاستقرار ، وبدأت « زعامة الأب Patriarchy » بعد « زعامة الأم Matriarchy » . وفى هذا الدور احتكر الرجل المرأة التى جعلها من عبيده وسراريه . وإذا كانت المرأة آنئذ قد تخففت من بعض العبء الذى كان ماقى على كاهلها إلا أنها لم تكن أكثر من ظل للرجل .

فهؤلاء هم الأثينيون — أكثر الأمم القديمة حضارة — عاملوا المرأة معاملة سقط المتاع ، تباع وتشترى فى الأسواق ، بل سموها رجساً من عمل الشيطان ، وحرّموا عليها كل شىء سوى تدبير البيت وتربية الأطفال ، وأباحوا للرجل التزوج بأى عدد من النساء . أما فى إسبرطة ، مع أن الرجل كان ممنوعاً من أن يتزوج بأكثر من واحدة إلا فى أحوال قاهرة ، فقد أبيح للمرأة أن تتزوج بأى عدد تشاء من الرجال !

وكانت المرأة عند اليهود تكره على الزواج والبغاء ، وتورث ولا ترث ، وكان محجوراً عليها التصرف فى مالها الخاص .

وكانت بعض الشرائع تبيح للأب بيع ابنته . ولم تكن المرأة فى القانون الرومانى شيئاً يذكر ، فهى قبل زواجها تحت سلطة أبيها ، فإذا تزوجت دخلت فى سلطة زوجها .

وكان العرب فى الجاهلية يئدون بناتهم ، وكان فيهم من يرى أنه لا قصاص ولا دية فى قتل المرأة !

وقد قرر أحد المجامع الملهمة (كذا !) فى روما أن المرأة حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة ، وأن يكم فمها كالكلب المسعور لمنعها من الضحك والكلام ! !

وفى سنة ٥٨٦ ميلادية عقدت بعض الولايات الفرنسية اجتماعاً عاماً ، شهده الآلاف من الرجال الذين ظلوا ساعات طوالا

يبحثون فيما إذا كانت المرأة إنساناً أو غير إنسان ؟ ! وبعد مناقشات جدّية عنيفة أصدر المجتمعون بأغلبية الأصوات قراراً يمنح المرأة درجة « الإنسانية » ، ولكنه يقضى فيما عدا هذا بأنها (لم تخلق إلا لخدمة الرجل) ! !

ويذكر التاريخ أن أهم إنصاف نالته المرأة قبل ظهور الإسلام بنحو ربع قرن ما منحه إياها القانون الرومانى ، فإن هذا القانون قد ترك للعذراء والأرملة كل حريتهما ما دامتا بالغتين سن الرشد . أما المتزوجة فقد وضعها تحت سلطة زوجها المطلقة ؛ فهى ، بحسب هذا القانون أشبه ما تكون بالمحجور عليه أو القاصر من الناحية القانونية ، ولزوجها السلطة الواسعة فى مراقبة شئونها الشخصية ، وهو حر التصرف فى ملكها ومالها من دونها ، وله أن يمنعها من الاجتماع بأى شخص لا يريد اجتماعها به ، وأن يفض رسائلها الصادرة منها أو الواردة إليها !

« كما[1] أنه من جهة أخرى كانت الكنيسة فى القرون الوسطى تعلم الأولاد أن الوحشية صفة التنين ، وأن المكر صفة الأفعى ، وأن المرأة قد جمعت بين الرذيلتين . وكان رينان الفيلسوف الفرنسى العظيم (١٨٣٣ — ١٨٩٢) يلاحظ أن الكنيسة رفعت المرأة إلى درجة جلب الخطيئة ! ونرى مارتن لوثير المصلح الدينى الألمانى الكبير ، ومؤسس المذهب البروتستنتى فى النصرانية (١٤٨٣ — ١٥٤٦) قد كان نصيراً لمذهب القائلين بحرمان المرأة من الثقافة . ونرى أيضاً الملك هنرى الثامن يصدر أمراً بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء وآخرين من طبقة منحطة ! وقد كان النساء طبقاً للقانون الإنجليزى العام (حوالى سنة ١٨٥٠) غير معدودات من (المواطنين) ؛ وكان لذلك مباحاً لبعولهن أن يضربوهن بعصا لا يزيد حجمها على رأس الإبهام . كذلك لم يكن لهن حقوق شخصية ، ولا حق ملكية فى ملابسهن ولا فى الأموال التى يكسبنها بعرق الجبين » ! !

وقد حدث ، فى عهد قريب ، أن باع رجل انجليزى زوجته لشخص كان ينازلها بخمسمائة جنيه بسبب فقره وعدم توافق طباعهما . ولما قدم الزوج للمحاكمة قال محاميه للقاضى أن لا وجه لإقامة الدعوى لأن القانون الإنجليزى كان يبيح بيع الزوجات ، بل لقد بلغ « ضمر » الزوجة فى سنة ١٨٠١ ستة بنسات (أى نحو ٢٤ مليما) ! ! ولكن القاضى لم يأخذ بدفاع المحامى اللبق ، وقضى بالحكم على الزوج بخمس سنوات ، ذاكراً فى أسباب حكمه أن القانون الذى يشير إليه المحامى ويستند عليه قد ألغى فى عام ١٨٠٥ (أى بعد نزول القرآن ، وإعلان حرية المرأة المسلمة بنحو اثنى عشر قرناً ! !)

واليهود هم أول أمة سمحت أن يكون الزواج مبنياً على مجرد الاختيار الشخصى ، وتقدمت عندهم حقوق المرأة بخطى كبيرة . وقد جاءت المسيحية من بعدهم فضاعفت هذه الحقوق ، وحرّمت تطليق المرأة إطلاقاً ، ثم أباحته بشروط مخالفة بذلك شرعتها ، بعد أن تبين لها أنه ضرورى للرجل والمرأة معاً ، وأعلنت استقلال المرأة بملكيتها كالإسلام ! أما تعدد الزوجات فلم تسمح به

والشائع فى أوربا اليوم هو الزواج المدنى ، والتحرر السريع من القيود الدينية المسيحية فيما يختص بالمرأة وعلاقتها بالرجل . فالطلاق مباح ، والزواج العرفى معترف به وبآثاره وبما يترتب على عشرة السوء ! وبالجملة قد تخلصت المرأة مما تقيدها به ديانتها ، وساعدها الرجل على ذلك ، وحصلت على حرية واسعة بلغت حد الأباحة ، وعلى احترام كبير وصل إلى درجة التقديس ، لا لأنها مخلوق ضعيف يستحق الرعاية والتنعم والصيانة ، بل لأنها مخلوق لطيف ، مؤنس ، رشيق ، يَفوح منه عبير العطور ، وينشر فى مجالسه السحر المذاب الحلو ، وأشياء أخرى تدلُّ عليها الآثام العميقة التى كانت تسبح فيها أوربا قبل هذه الحرب ، والفضائح التى كانت تزكم الأنوف !

المرأة فى الشريعة الإسلامية

ظل الناس فى بداوة الجاهلية الأولى ضاربين ، وفى غمرة الشهوات الهمجية غارقين ، وظلت المرأة تعانى مرارة الذل وقسوة الحيف والاستعباد حتى جاء (منقذ المرأة ومحررها) ، محمد النبى العربى بكتاب سماوى يقول : « ولهنّ مثلُ الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » ؛ فكانت هذه الآية الكريمة الوثيقة القانونية الأولى التى تعترف بإنسانية المرأة ، وحريتها ، وحقها فى الحياة ، ومساواتها للرجل مساواة نبيلة أبيَّة لا فضل فيها لمخلوق . ولقد فصّل الإسلام حقوق المرأة تفصيلاً دقيقاً بديعاً ، وتغلغل فى صميم حياتها حتى أنه عالج أصغر هواجسها ، وأتفه شؤونها ، وتناول أدق وأحرج أسرارها . فهو قد شمل حقوق المرأة بوصفها بنتاً وزوجاً وأمّاً وأختاً ، وكذلك بوصفها عضواً فى المجتمع الإنسانى ؛ وفيما يلى موجز ذلك :

(١) أنظر كتاب « المرأة الحديثة وكيف نسوسها » تعريب الأستاذ عبد الله حسين المحامى — ص ١٩

٢ — أوجب الإسلام للبنت النفقة شرعاً فى حياة أبيها حتى تتزوج ، وليس له أن يلزمها طلب الرزق كالابن . وإذا ما تزوجت ثم طلقت فعادت إلى بيت أبيها عادت نفقتها عليه بعد انتهاء مدة نفقتها الزوجية . وقد قررت الشريعة ذلك حماية للبنت من السقوط فى حمأة الرذيلة إذا أمسك عنها أبوها أو ألزمها طلب الرزق

٣ — جعل الإسلام رضا البنت عند بلوغها سن الرشد شرطاً لصحة العقد عليها . وليس لمخلوق كائن من كان أن يكرهها على الزواج بمن لا تريد . ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ؛ فقد كان إذا أراد أن يزوّج امرأة يأتيها من وراء حجاب فيقول لها : « يا بنيّة ، إن فلاناً خطبك فإن كرهته فقولى (لا) فإنه لا يستحى أحد أن يقول (لا) ، وإن أحببت فإن سكوتك إقرار » . وهذا الحق الطبيعى الرائع الذى مُنحته المرأة المسلمة فى القرن السابع للميلاد حُرمته المرأة الأوربية حتى القرن السادس عشر !

٤ — وقد أراد الرسول (ص) أن يدفع الناس إلى الاعتناء ببناتهم بعد أن حرّم الله وأدهن ، وأعطاهن حق الحياة المقرر للرجل فقال : من كانت له بنت جعلها الله له ستراً من النار ، ومن كانت عنده ابنتان أدخله الله الجنة بهما .

٥ — وكان بعض الرجال يسيئون معاملة زوجاتهم ، ويمتنع الزوج الكاره زوجته عن تطليقها حتى تفتدى نفسها بمهرها ، فنزلت الآية الكريمة (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) ؛ وقوله : (هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن) ؛ وقوله : (هو الذى خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ؛ وجاء فى أخبار الرسول أنه قال : (ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حق . أما حقكم على نسائكم فأن لا يوطئن فراشكم من تكرهون ، ولا يأذنّ فى بيوتكم لمن تكرهون ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع) ؛ وقال : (حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يضرب الوجه ، ولا يقبّح ، ولا يهجر إلا فى البيت) ؛ وقال : (عليكم باللطف والرفق بنسائكم : لا تظلموهن ، ولا تضيقوا عليهن ، فإن الله تعالى يغضب للمرأة إذا ظُلمت كما يغضب لليتيم) . وفى ذلك كله تبين روح الآداب الزوجية التى يبثها الإسلام فى تعاليمه ، وينزلها الله تعالى على لسان نبيه الكريم ، وفى تصرفاته ، وقدوته لعشيرته ، وبنى قومه الذين حكموا الدنيا ودوخوا العالمين عند ما كان الرجال يتقون الله فى نسائهم ، وكانت الأسرة الإسلامية منبع سرور وشهامة

وإن من آداب الإسلام العائلية لما يذهب إلى أبعد من هذه الحدود ، فقد روى أنه جاءت إلى عمر بن الخطاب امرأة قالت : إن زوجى يقوم الليل ويصوم النهار . فقال لها عمر : لقد أحسنت الثناء على زوجك ! فقال كعب بن سوار الجالس بجواره : بل لقد شكته ! تزعم أن ليس لها من وقت زوجها نصيب . قال عمر : فإذ قد فهمت ذلك فاقض بينهما — فقضى . ولو تدبرنا هذه اللفتة الإسلامية العابرة لوجدناها ترمز إلى إشكال عريق فى حياة المرأة ومصدر سوء تفاهم مزمن فى حياة كثير من الأسر !

وإذا كان المصلحون الاجتماعيون فى أوربا وأمريكا لم يهتدوا إلى الطريق الأمثل لفض المنازعات الزوجية إلا فى القرن الحالى ، فقد أشار الإسلام إلى ذلك فى القرن السابع . فقد قال سيدنا عمر بن الخطاب مخاطباً الأزواج : « إذا لم يفد المرأة الوعظ والهجر والضرب (ولن يضرب خياركم — وفى هذا معنى الحظر لشىء أباحه الله لضرورة قاسية وبشروط حتى لا يساء استعماله) عمد الرجل إلى التحكيم ، وهو أن يؤلف « مجلساً » من أهله وأهلها فيعرض كل من الزوجين ما يشكوه من الآخر ، فإن تمرد المحكوم عليه منهما فرقوا بينهما بالطلاق وهو آخر أنواع التأديب »

(البقية فى العدد القادم) محمد عبد الرحيم عنبر

حكم فى القضية ٦٦٥ سنة ١٩٤١ عسكرية بنى سويف بتغريم سيد عبد المطلب سالم من الزرابى ثلاثمائة قرش صاغ لأنه باع أذرة بأزيد من التسعيرة

بين موسيه وخالد الكاتب

للأستاذ صلاح الدين المنجد

أذكر أنى قرأت منذ شهور بعاد مقالاً ذكر فيه صاحبه أن الشاعر الفرنسى « موسّيه » كان يُشابه خالداً الكاتب فى بكائه وألمه وهواه ، وأن من الحق أن يسمّى خالد « موسيه الشرق » !

وقول كهذا القول يطوى فى ثناياه من التسرّع فى الحكم والجهل فى المقايسة النصيب الكبير ؛ فليس من الصحيح إقامة الموازنات بصلة هزيلة أو نسبة ضعيفة ، وليس من العلم إطلاق الألقاب بدون حذر أو أناة

لقد أحبّ « موسّيه » وأحبّ « خالد » ، وبكى موسّيه وبكى خالد ؛ فكانا فى الحب مختلفين ، وفى البكاء متباينين . أما الأول فقد بكى وتألم حتى سمى شاعر الألم . وكان الدافعَ إلى ذلك حبٌ مفجّع وقلبٌ محطّم . وكان شابًّا ناعماً يفوق لِداته بالرشاقة والأناقة والنبوغ . فلما أحبّ « جورج صاند » غرّد بحبها فى أشعاره وملأ به أناشيده وأغانيه . ثم حملها إلى إيطالية بلد الجمال والفن ليقضيا حياة حلوة كالعسل ، رقّافة كالنسيم ، ويتمتعا بالجمال البارع والحب الوليد . على أنها تركته بعد قليل وتبعت « باجيلّو » الطبيب الإيطالى . وكأنها كانت كالفراشة النشوى يروقها رشف الرحيق من كل زهرة ! فثار موسيه لما رأى إعراضها وهمّ أن يقتل الحبيبة والطبيب معاً ، ولكنه فضل البكاء على الجريمة ، ورحل عن « فينيسيا » باليأس والخيبة ؛ فهام فى رباع أوربة ثم عاد إلى فرانسة وأخرج للناس آيات رائعات ، غنى فيها بأشعار رقاق من السهل الممتنع ، آلامه البرحات وحبه الجريح ، ويأسه الداجى ، وإخفاقه المر . والحق أن موسيه كان بارعاً فى تصوير ذلك ، لأنه كان صادقاً ، والصدق يؤثر فى القلب الشاعر ويطربه ؛ ولأن آلامه ويأسه وإخفاقه عواطف ، تجدها قد لامست كل قلب ، وأقرحت كل كبد ، ولذلك يشعر المرء أن فى أشعار موسيه نوجاناً لما يعتلج فى حنايا ضلوعه . ولقد كان شاعرنا إذا وصف ألمه وذكر الرابيع التى رآها والأحوال التى صادفها واليأس الذى لقيه برح وأجاد . ولقد سما فى وصفه لحبيبته (فى ليلة تشرين) ففى هذه القصيدة تجد صورة أخّاذة للحبيبة الشهوانة ذات العينين السوداوين . العطشى للحب ، الظامئ للقبل ، التى لا تفى لحبيب ، ولا تقنع بحبيب . ولعل هذا آت عن فرة حسها وفرط شاعريتها وسميها وراء المتّع التى خلقت لها وأغوت الناس بها

على أن موسيه قد اتخذ من بكائه وألمه وسيلة للتعليم كما أرى ، فجاء طرف من شعره تعليمياً Didactique أبان فيه عن ضرورة الألم وأثره فى النفس ، ومحاسنه التى لا تنفد ومزاياه التى تهذب الروح وترهف الحس . يقول : « إن الرجل صانع والألم معلمه . والمرء لا يعرف نفسه إلا إذا تألم ؛ ولا شيء كالألم يجعلنا عظماء ذوى شأن » . ثم يدعو إلى الألم ويبرع فى الدعاوة له وتزيينه للناس . ويقولون إن أهل عصره كانوا يسيغون أشباه هذه الأقوال ، ويعجبون بمن يذرف الدمع ويصعد الحسرات ، وينظرون إلى الذين يقاسون آلام الحب وأسقام القلب نظرة إعجاب ؛ بل كانوا يشتهون ذلك . فمن عانى التهيام والتحنان والسهر ؛ والبكاء وما يدعو إليه الهوى فقد امتاز عن غيره بكثير

ولقد كان فلاسفة يونان الأقدمين ينصحون للفتى إذا سألهم النصح « أن اعرف نفسك بنفسك » وكانوا يحسبون أن السعادة الكبرى فى هذه الحروف الثلاثة . ثم تساءلوا : كيف يعرف المرء نفسه ؟ فركب كلٌّ مركباً ؛ أما موسّيه فقال « ينبغى لك أن تتألم كى تدرك ما تريد ، لأن المرء يعرف نفسه إذا تألم » وهو فى كلامه هذا ينطق عن تجربة ، ويعتقد أنه عرف نفسه وعبقريتها ، لما أدمى الحب قلبه فتألم . وعندئذ علا صوت قلبه الشجى . وصوت القلب كما يقول يصل وحده إلى القلب ، فهو يود أن يدع قلبه يتكلم دائماً فى كل حال . لأن على الشاعر أن يصغى إلى قلبه ويدع عقله ، وأن يبتغى رضا القلب قبل مرضات الناس . والحب إذا فجر الألم من القلب جعله غلاباً للمصاعب ، عزاماً فى المصائب ، لأن الألم رمز القوة وهو سبيل الخلود . والخير الفرد الذى بقى لنا

في الدنيا هو تذرافنا الدمع في بعض الأحايين

أفيكون حال خالد كحال موسيه ؟

لا جرم أن ما نعلمه من حياة موسيه أوفر مما نعلمه عن حياة خالد . لا شك أن كلا أحب وكلا بكى ، ولكن شتان ما بين البكائين . ولقد ذكروا أن خالداً كان كاتباً في الجيش ، وأنه كان يهوى جارية لبعض الوجوه ببغداد فلم يقدر عليها ، وأن محمد بن عبد الملك ولاه الإعطاء في الثغور ، فخرج إليها ، فسمع في طريقه منشداً ينشد ومغنية تغني :

من كان ذا شجن بالشام يطلبه
ففي سوى الشام أمسى الأهل والشجن

فبكى حتى سقط على وجهه مغشياً عليه ؛ ثم أفاق مختلطاً واتصل ووسوس . أفيكون سبب بكائه ومحيبه هواه لهذه الجارية أم هناك سبب آخر ؟ يقول صاحب الأغاني إن خالداً كان مغرماً بالمرد ينفق عليهم كل ما يفيد ، وأنه هوى غلاماً يقال له عبد الله كان أبو تمام يهواه ، فتهاجيا بسببه وأنه وسوس على أثر ذلك

وهنا نتساءل : « هل اتخذ خالد من بكائه وألمه ما اتخذه موسيه ؟ »

لا جرم أن خالداً لم يذهب مذهب موسيه في بكائه وألمه ، ولم يفطن للألم وأثره في النفس ، ولم يبرع في تصوير الألم براعة موسيه ، ولم تكن في شعره تلك الصفة الإنسانية التي نجدها عند موسيه . فقد نجد بعض التكلف في العواطف والغلو في المعاني لديه ؛ على أنه تفنن في وصف الدمع ، وشعره فيه يعذب ويرق . ولا شك أنه الشاعر الفرد الذي بلغ في وصف الدمع ما لم يبلغه أحد من شعرائنا ، وهذا ما يمتاز به من موسيه

ويحدثنا خالد في ديوانه أنه أصبح دنفاً هائماً بمن صارمه واحتجب عنه ، فبكى ؛ وجعل الدمع مداداً يكتب به على خده ما في فؤاده !

ثم طلب من الحبيب أن يفهم معاني دمعه . فلما أعرض عنه هواه وفقد الراحة ، لجّ في تذراف الدمع حتى تقرحت عيناه وطلبها العذر منه ، فلم يعذرها لأن قلبه لا يعذره ولا يشفق عليه

ولقد كان إذا مرض فلم يعده ، ونأى عنه طبيبه ، دعا الدموع فهي مطيعة له ، تسرع إليه وتجيبه . وهو ينصح لمن كان هذا شأنه أن يفعل ما فعله . وإذا أنكر الحبيب حبه ودنفه فهو يتخذ الدمع شفيعاً شهيداً . وما زال يبكي حتى كاد يعشب خده :

ولو أن خداً كان من فيض عبرة
يُرى معشباً لاخضر خدّي فأعشبا

كأن ربيع الزهر بين مدامعي
بما اخضل فيه من ضنى وتصببا

على أنني لم أبك إلا مودعاً
بقية نفس ودّعتني لتذهبا

وما زال هكذا حتى تخاصمت عينه وقلبه :

القلبُ يحسد عيني لذة النظر
والعينُ تحسد قلبي لذة الفكر

يقول قلبي لعيني كلما نظرتْ :
كم تنظرين ؟ رماك الله بالسهر

العين تورثه هماً فتشغله
والقلب بالدمع ينهاها عن النظر

هذان خصمان لا أرضى بحكمهما
فاحكم فديتك بين العين والبصر

فإذا نفد دمعه نادى :

نفدتْ عبرتي فهل
عبرةٌ أستعيرها ؟

***

فأنت ترى من هذه اللمحة الوجيزة أن الشاعرين مختلفان في حبهما وألمهما وبكائهما ، وأن لكل مزايا . ولعلي أعود إلى خالد فأوسع الكلام عنه

(دمشق) صلاح الدين المنجد

التفسير الكيميائي لأعمال العقل والحياة

للأستاذ حسين الظريفي

إن الحقائق العلمية التي أسفرت عنها بحوث الكيمياء الحيوية قد دلت على ارتباط مظاهر العقل والحياة بما يحمله الدم من مواد

قال أحد علماء علم الأحياء : « كنت أرتاب قبلاً في أن البحوث الكيميائية الحيوية والكيمياوية النفسية تستطيع أن تسفر عن رأي من الآراء في ظاهرة ليست من ظاهرات الطبيعة والكيمياء ، إلا أنني الآن أرى غير ذلك . ولأضرب على ذلك مثلاً غريباً بما قد يستطيعه بعض العلماء في المستقبل من القطع بأن نقصاً في إحدى مركبات الفسفور ، وزيادة في فعل التأكسد في ناحية معينة من قشرة الدماغ ، يصحبان دائماً العبقرية في الشعر

ولنستدل على حقيقة عنوان المقال ببعض آثار ما تفعله الغدد الصماء ؛ فقد ظهر أن هرمون البرولاكتين ، وهو مما تصنعه وتدفعه الغدة النخامية في فصها الأمامي ، ذو أثر خاص عند الإناث ، يدل على أن حب الأمومة قائم على أصل فزيولوجي ممثل بشكل مادة كيميائية قد تكون مؤلفة من جزئيات زلالية كبيرة

وعند ما يبلغ أحدنا دور المراهقة ، تبدأ الغدد التناسلية بإفراز هرموناتها الخاصة ، تلك التي تبدو على أثرها أعراض الصفات الجنسية الثانوية ، مثل ظهور الشعر في الوجه وتضخم الصوت عند الذكور ، ونمو الحوض والصدر وترسب الشحم تحت الجلد عند الإناث . فإذا كان في الغرائز الجنسية ما يبعثها على التهيج والغليان ، فإن الطبيعة تسلك في تهدئة هذه الغرائز طريقاً كيميائياً يحدثه لها هرمون البرولاكتين . فقد ظهر أن من مزاياه عرقلة مغالبة الغدد التناسلية عند ما تكون بها حاجة إلى التهدئة

على أن هذه الكتلة النسيجية الحمراء المتكنة في منخفض عند قاعدة الجمجمة التي لا يزيد وزنها عن نصف غرام ولا يربو حجمها على حجم حمصة كبيرة — وأعني بها الغدة النخامية — تعتبر الغدة الحاكمة في الجسم وإليها مرد الفضل في أعمال النمو البيولوجية

كذلك ظهر أن هرمون الثيروكسين ، وهو مما تفرزه الغدة الدرقية ، يقوم بأعمال الهدم والبناء في جسم الإنسان ، وإذا قل مقداره عن حده المعتدل تعرض الإنسان للبله وقصر القامة ؛ وأن بتأثير هرمون هذه الغدة يتميز الأذكياء عن الأغبياء والأقوياء عن الضعفاء بالرغم من أن ما يوجد منه في الجسم مقدار يسير

أما هرمون الأدرنالين ، وهو مما يفرزه الكظران ، فذو علاقة كبيرة بالتعبير عن الانفعالات القوية ، ذلك أنه يؤثر في الشجاع فيقدم وفي الجبان فيحجم ، ولهذا يزداد إفراز هذه المادة إذا تعرض الإنسان إلى خطر ، وبمقدار هذه الزيادة تزداد قوته المادية فيندفع إلى القتال والاستبسال أو إلى التعلق بأذيال الفرار

وقد وجد الأطباء أن مركز الانفعال كائن في جزء من مؤخرة الدماغ ، وأن بينه وبين الكظرين صلة وثيقة ، فإذا وقف الإنسان في موقف أغضبه أو أخافه ، فإن مركز انفعاله في الدماغ يرسل في الجهاز العصبي سلسلة من الرسائل إلى الكظرين فتحملهما على إفراز هرمون الأدرنالين لإيصاله عن طريق الدم إلى الكبد ، حتى إذا وصله حمله على إطلاق بعض السكر المخزون فيه لإيجاد طاقة جديدة ، يدفع بها المرء عنه الخطر بالمقاتلة أو الهزيمة

إن هذه الحقائق العلمية تذكرني بما كتبه أحد الأساتذة في موضوع الرقة في النفس والذهاب إلى أنها من مظاهر القوة دون أن يقوم هذا التقرير على غير مجرد التفكير والأدلاء بالأدلة البيانية . والواقع أن رقة النفس ككل ظاهرة أخرى إنما تقوم على أصول فزيولوجية تبعثها بعض المواد الكيمياوية ، وليست هي وليدة ضعف أو قوة ، وقد نجد قوى النفس أو الجسم قاسياً أو رقيقاً

إن جريمة القتل وهي أفظع ما يجره الإنسان على غيره ، قد تصدر عن رجل لم تعهد فيه القسوة أو الغلظة ، ذلك لأن الجاني لا يقوم بالجريمة مندفعاً بعامل من دماغه ، وإنما هي شيء يقع مما وراء الدماغ ، حيث يقوم الخلل في توازن ما تفرزه الغدد الصماء ، حتى لقد قال أحد العلماء :

إن غدد القاتل هي التي تسحب المسدس وتسدده نحو القتيل وتطلق عليه النار فترديه ، وأن غدد السارق هي التي تنقل قدميه إلى مكان الجريمة ، وهي التي ترفع يديه لأخذ مال الغير ، وهي التي تدفع به إلى التواري والهرب .

فالإنسان من حيث تركيبه الكيمياوي يقوم بالإجرام كما يقوم بغيره . ومظاهر الرقة ولطف المزاج قد يكون في الجاني وقد يكون في غيره ، بالنظر إلى قيام أو عدم قيام المواد الكيميائية التي ينبعث عنها ذلك المظهر .

وما تقدم في صدر هذا المقال عن قرض الشعر لا يخرج عن حدود الواقع ، وقد ضربتُ لقريحة الشاعر مثلاً بالبطرية الكهربائية ، فتأليف القصيدة يستهلك من قوى القريحة ما تحتاج فيه إلى أمد تستطيع به إعادة خزن ما فقد ، شأنها في ذلك شأن البطرية الكهربائية فإنها تحتاج إلى الشحن المستديم بقدر ما تطلق من كهرباء .

هذا قانون طبعي يجري حكمه على قريحة الشاعر كما تنفذ كلمته على البطرية الكهربائية سواء بسواء . والنتيجة الحتمية لهذه الخاصة الآلية ، هي أن الشاعر إذا أجهد ذهنه في قرض الشعر غير مبال بالاستهلاك دون التعويض ، انحدر شعره إلى هوة الضعف في معانيه ومبانيه ، كشأن كل مصباح يوصل بتيار بطرية لا يأتيها المدد بعد أن تنفد .

إن عمل الفنان ، ورجل الصناعة ، وجناية الجاني ، كل أولئك آثار ما تنفعل به مجاميع المواد الكيميائية ، ولكن مجال هذه المواد لم يزل البحث فيه عند بداية طريق طويلة ، ومتى يصل البحث فيه إلى الذروة ، يظهر كل شيء عند هذه المواد .

(بغداد) صبيح الغديري المحامي

مدرسة ...

للأستاذ أحمد الطاهر

سجا الليل وغشى المدينة ظلام دامس ، وكنت قد اخترت لليالى كتباً أخلو إليها كما يختار الأصدقاء : قليلة العدد كثيرة الوفاء . ولكننى برمت بها وبمجلسى ، فطويت أجنحتها وعمدت إلى المصباح فأغمضت عينه ، واندفعت إلى شرفة بمنزلى ففتحت بابها وخلوت إلى السماء ؛ فإذا القمر يطل منها على الأرض ، وينسكب عليها فيضاً سخياً من ضوئه الوهاج . ولا يستطيع أولو الأمر فى الحرب أن يرقوا إليه ، فيسدلوا عليه حجاباً أو ينذروه عقاباً . وقلت فى نفسى ما يقوله الناس فى هذه الأيام : وا حسرتاه ! كنا نجد فى ضوء القمر لذة ومتاعاً ، حين كان السلم يبسط رواقه على العالمين ، واليوم نوجس منه خيفة وارتياعاً ، حين اتخذت الطائرات ضوءه سلماً تهبط به على الآمنين . وما كادت الحرب تخطر ببالى حتى دفعتها عنى دفعاً . وأرسلت البصر إلى السماء ، فرأيت سحابة باسطة الذراعين تجرر أذيالها تسعى إلى القمر فى تؤدة ووناء ؛ ثم تبسط يدها على وجهه فيخبو ضوؤه قليلاً ؛ ثم تنداح فتحجب أكثر هذا الضوء ؛ ثم تنجاب عنه فإذا هو خارج من غمرته منبسط الأسارير كما عهدته . وإذا السحابة تخلفه وراءها وتمضى وهو باسم بسمة الحليم حين يمتحن فى حلمه ، وهى مطمئنة اطمئنان القوى حين يفوز بخصمه

سبحانك اللهم ! وغفرانك ! حسبنا أنا حرمنا نعمة الضياء بهذه الحرب فبسطت لنا فى سمائك كتاباً فيه سطور من نور . وحسبنا أننا قطعنا الأسباب على كل مبعث للضياء بما أسدلنا من سجف وأستار ؛ وإذا ضياء سمائك لا يحجبه حاجب ولا يمنعه ستار!

ترى هل أستطيع أن أقرأ فى هذا الكتاب المبسوط فى السماء؟ هل من سبيل إلى فهم بيان السماء؟ هل أفوز من القمر والسحاب والسماء والنجوم بحديث اطلع به على الناس مغتبطاً كما يزهو الصحفى حين يفوز بحديث زعيم أو عظيم مع ما بين الحديثين من تفاوت؟

ودار بخاطرى أننا أنشأنا مدارس لتعليم اللغات الحية وعكفنا على دراستها حتى قتلناها ، وأنشأنا معاهد لتعليم اللغات الميتة ، وعكفنا على ذكرها حتى أحييناها ، واحتدم بيننا الجدل فيما نفعل حتى اختلط الشك باليقين ، وانتصر قوم لزكى مبارك وتشيع قوم لأحمد أمين ، وما فى ثبت تلك المدارس والمعاهد مدرسة لتعليم لغة الطبيعة ولا « حصة » لدراسة لسان السماء والأرض الذى تنطق به كل المخلوقات ولا يفهمه إلا الأقلون ؟!

وقدرت أن من الخير لنا أن نهيب بالشعراء والأدباء ليدلوا الناس على هذه المدرسة ويبسطوا لهم نظامها ونهج الدراسة فيها ليقبلوا على دراسة لغة الطبيعة وتخصص أسرارها بالبحث ، وقدرت أن الإقبال على هذه المدرسة رهن بما يثار حولها من دعاوة وإعلان . ولم لا نحيط الفكرة بالدعاوة والإعلان ليقبل الناس عليها ونحن فى هذا الزمان نحيط الباطل بالدعاوة والإعلان حتى نحسبه حقاً ، ونبهرج الكذب والمين حتى يبدو لنا صدقاً ، واستوت لى فى هذا التفكير صورة (إعلان) من هذه المدرسة فإذا هى كما ترى :

مدرسة تعليم اللغة الطبيعية

المدرسة مؤسسة منذ خلق الله الكون وجعلها تذكرة وعبرة لأولى الألباب . مواد الدراسة فيها لا يحصيها حصر ولا يحيط بها بيان ، يأخذ منها الطلاب بقدر ما تسع جهودهم وتحمل أفهامهم : منها السماء ونجومها ، والسحب وأمطارها ورعودها وبروقها ، والشمس والقمر ، واليابس والماء ، والجبل والسهل ، والشجر والثمر ، والرياح والعواصف ، والرمل والحصى ، وكل ما تفزع إليه الأبصار البصيرة حين تضيق بها سبل الحياة فتلتمس فى جمالها النجاة ، وحين تحتبس النفس فى ظلمة المادة فتلتمس الفرج فى نور الطبيعة . ويدرس بالمدرسة الإنسان وطبائعه ، والحيوان وخصائصه ، كما تدرس العلل والأمراض فى مدارس الطب وصحة الأبدان . والدراسة فى هذه المدرسة ليلية حتى دراسة الشمس ! وقد اختير الليل لأن سواده ينم عن أدق أسرار الطبيعة كما ينم سواد العيون عن أسرار القلوب . والطبيعة خَفِرَة رقيقة يؤذيها الأضواء الوهاجة ، وتؤلمها الأصوات الصاخبة ، فلا تبدو فى أنصع أثوابها إلا فى سواد الليل ، ولا يشرق وجهها إلا بعد غروب الشمس ، ولا تستيقظ إلا حين ينام الناس ، ولا تنطق إلا حين يصمت كل لسان . ويشترط للانتظام بهذه المدرسة أن يقدم الطالب شهادة بأنه قد مارس الجمال والحب والفن فلم يفرق بين ثلاثتها ، وذاق لذاتها وآلامها وحلاوتها ومرارتها . ولا تقوم وثيقة الزواج مقام هذه الشهادة . وأن يقدم شهادة موقعاً عليها من اثنين من كبار علماء الأرض يعترف فيها معهما بأن مبلغ علمه وعلمهما أن الثلاثة

لا يعلمون شيئاً . والمدرسة تمد الطالب للعلم بلغة الطبيعة ، وعليه بعد هذا أن يناجيها بلسانها فيفهم أسرارها ويستودعها أسراره ويقدس جمالها ويحدث عن جلالها . وأنه لموفق سعيد إن استطاع أن يمضي معها في سبيل . »

***

وبعد فالشاعر أو الناثر الذي يفهم لغة الطبيعة ويتمرس بها لن يكون أدبه غثاً ولا تافهاً ، ولن يجد فيما يخرج للناس أو لنفسه من شعر أو نثر عناء ولا عنتاً إلا بمقدار ما يختار من الألفاظ جزلها وما يسبغ على أسلوبه من طلاوة . ذلك بأنه في إبراز المعاني والأخيلة والتشبيهات لا يمتح من بئر عميقة ، ولا يرحل إلى مكان سحيق ، إنما يتناول ذلك كله مما انطبع في نفسه ، وأوحى به حسه ، وانبجس من وجدانه ، يجريه في قصبة يراعه فإذا هو شعر أو نثر يتسلسل تسلسل ماء النهر

هذا هو الأدب الذي توحي به الطبيعة إن صادفت نفساً صافية وإحساساً دقيقاً ووجداناً سامياً وخاطراً سريعاً . تجده أدباً حياً ناطقاً يصدر طواعية لإحساس موجود وشعور قائم بالنفس ؛ ولا مراء في أن انطباع الصور في نفس الأديب شاعراً كان أم ناثراً هو الوسيلة التي تطوع له جيد الشعر أو النثر ، وذلك هو ما يعبرون عنه بهضم المعاني ، يقصدون بالتعبير أن يكون المعنى قد استقر في « بطن الشاعر » وجرى منه مجرى الدم ، وسرى فيه سريان الروح ، فلا يصدر إلا عما انطوى عليه إحساسه وقام بنفسه . وإنه ليجري مجرى هذا القول ما نراه من تأثر شاعر أو ناثر بشعر شاعر قبله أو ناثر تقدمه ، إن كان المتأخر قد بذل جهداً في دراسة أدب المتقدم ، وتقفى أثره وترسم خطاه . هنا لا نلبث أن نرى في شعر المتأخر وأدبه روح المتقدم ونفَسَه . وهنا يخطئ كثير من الناس فيحكمون على المتأخر بالسرقة ؛ وإنه لتَجَنٍّ لا مسوغ له ، وتعسف ليس له ما يجيزه . خذ مثلاً شعراء الأندلس في القرن الرابع الهجري، ترى أنهم أعجبوا بطريقة المتنبي ومذهبه وحاولوا السير على نهجه الذي ابتدع ؛ ولم يكن ذلك بدعاً، فإن أهل المغرب إذ ذاك قد أغرموا بالتشبه بفحول الشعراء والأدباء من أهل المشرق ؛ وإنك لواجد روح المتنبي ظاهرة بارزة في قول ابن هانئ الأندلسي :

جزعتُ حتى ليس بي جزع وحذرتُ حتى ليس بي حذر

ومن ذا الذي لا يلمس المتنبي في قول ابن زيدون :

سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

وهاك ابن زيدون هذا يقول في رسالته الهزلية : وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة . ألا يذكرنا هذا بما قاله المتنبي في ابن كيغلغ في ميميته التي أولها : لهوى النفوس سريرة لا تعلم ؟ ولندع المتنبي فقد تقفى آثاره كل من جاء بعده فتأثر به بعضهم وسطا عليه البعض ؛ ولننظر إلى البحتري يصف بركة المتوكل :

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً مثل الجواشن مصقولاً حواشيها

ولنضع إلى جوار هذا البيت بيتاً لابن حمديس يصف بركة المنصور :

وكأنما نسج النسيم لمائه درعاً فقدر سردها تقديرا

إنّا لنجد الجوهر في البيتين واحداً ، ولا يقبل بأي حال أن يحمل هذا محمل السرقة ، وإنما هو تفاعل نشأ من امتزاج شعر الشاعر المتقدم بنفس الشاعر المتأخر

على هذا النحو من التفاعل يكون أثر الطبيعة في شعر الشاعر أو نثر الكاتب الذي يفهم لغة الطبيعة ويتأثر بصورها ويؤخذ بمظاهرها ، ويفتتن بجمالها ، ويؤمن بجلالها : تفيض عليه غيثاً دافقاً ، وتوحي إليه وحياً صادقاً

وكذلك يكون الشعراء والأدباء

« الإسكندرية » الصاغ أحمد الطاهر

صدر حديثاً

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد الصنوسي

إخصائي الحالات النفسية

يحوي أحدث تطورات علم الكف به خرائط واضحة يجملك بسهولة تترجم خطوط الكف فتكتشف بنفسك عن إيحاءات خطوط يدك . فتعرف ما يهددك من الأمراض وتتبع طرق الوقاية منها ، وما يسبب لك المضايقات والعقبات وتقضي عليه . وبذلك يكون لك القدرة على تنمية مواهبك واستعداداتك فتصبح قادراً على السير في الطريق التي تكفل لك الطمأنينة والنجاح في الحياة . يطلب من المؤلف ٣٣ ش الملكة الفريدة ومن مكتبة الأنجلو ٣٣ ش قصر النيل ثمن النسخة ٥٠ قرشاً و٣ قروش للبريد داخل القطر و٥ للخارج .

٣ ـ قيمة الحرية

للصوافى العالمى ويكهام أستيد

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامى

(تابع)

تصبح مدارك الحرية ، اقتصادية كانت أو سياسية ، وهى آراء نسبية أى خاضعة لمقتضيات الظروف . والعلاقة الصحيحة القائمة بين الحرية الاقتصادية والحرية السياسية فى وقت معين وفى ظروف خاصة هى عندى موضوع يجب أن يعرض فى حينه للبحث الحر والدراسة الصحيحة والاستقراء السليم ، وليست بتلك المذاهب السياسية أو الاقتصادية الموضوعة . فأصحاب المبدأ الذى نادى بحرية التجارة ورفع القيود الجركية من ناحية ، وأتباع العقيدة الرقصية من ناحية أخرى ، مسئولون مباشرة أو من طريق غير مباشر عما أصاب الفلسفة الحرة من كسوف تلك الفلسفة التى كانت دعامة النظار الحر فى القرن التاسع عشر . ولو قدر لدعاة الاشتراكية أن يقفوا اليوم وقد تملكهم العجب وحاروا من أثر ما يرونه من مقاومة الحكومات الاستبدادية لأحكام العقيدة الرقصية فى روسيا وإكراه الناس على اعتناقها ، فإنهم يحسنون صنعاً لو أنعموا فى الأمر النظر ليعرفوا إلى أى حد قد يتكشف تحقير الرقصية والاشتراكية لمبادئ الحرية السياسية عن دواعى الشرور التى ألموا لها وبكوا عليها . إن ديكتاتورية الطبقات الدنيا ومذهب صراع الطبقات ليتناقضان مع النظر الفلسفى الصائب مثلما تتناقض معه عقائد الفاشية والنازية ؛ إذ لا يتهيأ للناس مع الحكومات الاستبدادية التى تتولى السلطان باسم الطبقات الدنيا أو الطبقات المجردة من الملكية من كفالة العيش والاطمئنان للحياة أكثر مما يتهيأ لهم مع الحكومات الاستبدادية التى تنهض بالحكم على حساب جماعات الشعب الأخرى التى قد يكون لديها من حطام الدنيا ما يفرض عليها أن تفقده ويعز عليها أن تتخلى عنه أو تفقده . ولقد كان هتلر فى عبارات قليلة من كتابه (كفاحى) أكثر فطنة وأبعد نظراً منه فى تلك المهارات التى عبر بها عن مخاوف الطبقة المتوسطة الضعيفة من أن ترجع القهقرى فيلقى بها فى غمار الطبقة الدنيا من الأجراء البائسين التى عملت على الإفلات من التردى فى غمرتها . وما أصابه هتلر من النظر الألمى الذى هداه إلى أن يجمل حركة « الاشتراكية الوطنية » فى وضع يتفق إلى حد ما مع رغبات الطبقة المتوسطة الرقيقة الحال الضعيفة الشأن فى ألمانيا ، لم يكن فى واقع الأمر بأقل مما أصابه مرقص والمرقصيون الاشتراكيون الذين أسموا ما رسموه من خطة للانقلاب الثورى الناجح على عقيدة قوامها أنه إذا تهيأ للطبقات الدنيا فى جميع أنحاء العالم أن تتحد وتظفر من وحدتها بقوة لا تقف أمامها قوة ، وبسلطان لا يقهره سلطان ، وسعها أن تحطم أغلالها وتحقق آمالها . والفاشية والنازية قد طبعتا الظلم بطابع رسمى وهما تحسبان أنهما تذودان عن الملكية وتسهران على حمايتها . ولقد أعرب (دون سالفادور دى مادارياجا) عن حقيقة الأمر فى أوجز عبارة ممكنة وبما مرن عليه من قوة البيان ودقة الأسلوب بقوله : « ليست الفاشية سوى صورة للشيوعية تراها العين على صفحة ماء يضطرب من الخوف »

وهنا وكما قصدت أن أبينه تتكشف الحقيقة عن أنه لم يكن بدعاً أن ينتظم هذه السلطات الاستبدادية المطلقة معنى واحد ، هو أنها لا تحتمل للصحافة حرية ، بل لا بد لها أن تقضى عليها ؛ وأولئك الرجال الذين لا يتأصل معنى الحرية فى أنفسهم نتيجة لشعور سليم وإيمان متين غالب أمرهم أن يضيقوا بحرية الصحافة ذرعاً . إلا أننا من جهة أخرى نجد مجرد التشدق بفضائل الديمقراطية والتمدح بالانضواء تحت لوائها ، وهو لا ينهض بديلاً عن الإيمان بالحرية إيماناً صادقاً رشيداً . والحق أن فقر الفكرة السياسية وعقمها فى الجماعة والأحزاب القديمة العهد ، وفى الأمم التى ما زالت تنعم بحريتها هو من أعظم الشواهد العقلية على ما نكابده من خمول الشأن فى زماننا هذا

وما دام الناس قد كتب عليهم أن تستأثر المادة برغباتهم وتملك عليهم عقولهم ومشاعرهم ، فلا يعملون إلا لها ، ولا يهتفون إلا بها ، ويتأصل فى معتقداتهم أنهم يعيشون للخبز وللخبز وحده ، ومادام أغلب ظنهم أن بيد الاقتصاد السياسى مفاتيح النعيم التى

تتفتح معها جميع الأبواب لتنفذ منها الحكمة الاقتصادية ، فسوف لا تصبح لغة الحرية يوماً ما وهي لغتهم الشعبية ، وسوف لا يتحدثون بها بذلك الأسلوب القوى السليم الذى يجرى على لسان عظماء القادة ممن يقدرون قيمة الحرية حق قدرها ، وإذ يعرفون لها فضلها يؤثرونها لذاتها . ومع ذلك قد تتكشف لهم الحقيقة عن أن أولئك القوم من رعاع الناس المحتقرين ، ومن أعداء البشر من المولعين النهمين ، ومن العمال المستضعفين ، ما برحوا وهم يتمتعون بنصيب كاف من الفطنة والرشد يدركون معه أن اختيار النظم الحرة للهيئات الاجتماعية اختياراً موفقاً صائباً لا يستقر فى الأفكار والعقائد التى تنادى بها جماعة الشيوعية الاستبدادية من ناحية اليسار ، والمذاهب والآراء التى تفرضها الهيئات الفاشية والنازية من ناحية اليمين ، بل يجب أن ينهض على المبادئ الحرة المنظمة التى ظلت أعظم ما يصبو إليه النظار ، وتنصب عليه التجارب فى بريطانيا رجاء النهوض بمدنية الجنس البشرى

***

إننا بحاجة لأن نمعن فى تقصى هذا الموضوع والاستزادة من استقرائه ودراسته ما دمنا نترقب ما قد ينتهى إليه من التحكم فى حرية الصحافة . وهنا نجد لزاماً علينا أن نتساءل لِمَ بلغ تهديدهم للحرية هذا المبلغ الخطير ، ولماذا انتهى إلى هذه الحال المروعة ؟

ولماذا ضيع أمثال هؤلاء الناس العظام من الطليان والألمان حريتهم واستكانوا للذلة وخضعوا للطغيان ؟ ولم يدلنا ظاهر أمرهم على أنهم يفخرون بتلك النظم التى تقضى على كرامة الإنسان وتضيق الخناق على الحرية ؟ ولم نرى فى بريطانيا هؤلاء القوم من عظماء الرجال العموميين وأصحاب الصحف الخطيرة الشأن الواسعة السلطان يطأطئون رءوسهم ويطامنون من نخوتهم أمام دعاة تلك النظم الاستبدادية وقادتها ؟ ولم يتعامون من تلك الجرائم النكراء التى تنادى بمسئولية قادة تلك النظم وهم إلى ذلك يعيرونهم آذاناً واعية ويمجدون أعمالهم ؟

والجواب على ذلك هو أنه وقتما ينهض فى الشعب نظام استبدادى كالشيوعية الروسية ويطبع نفسه بطابع من القوة الغاشمة والعنف المروع ثم يتأتى له بعون من رجال الشرطة الجبابرة القساة المنبثين فى كل مكان أن يسحق الحريتين السياسية والشخصية ويحرم على الناس الملكيات الخاصة ، تقف منه النظم الأخرى التى تزعم لنفسها حماية الملكيات الخاصة موقف المعارضة والمناضلة ، ثم لا يكون منها هى الأخرى إلا أن تتخذ من سلاح القوة والعنف ومن رجال البوليس السرى عوناً لها ، لا للقضاء على أولئك الرجال وتلك الأحزاب من شيمة الشيوعية فحسب ، بل والتحطيم سند الحرية وحماتها وممثلى الديمقراطية أيضاً

زين العابدين جمعة

---

١٨ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

الأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس — الحياة المنزلية

جرت العادة أن ينصرف التاجر بعد تناول الفطور مباشرة إلى حانوته أو مخزنه ولا يعود إلى المنزل قبل الأصيل[1] . ولديه هناك الفراغ الكافي للتدخين متى شاء ، وكثيراً ما يدخن حرفاؤه معه ، فيقدم إلى بعضهم شبكه الخاص ، والقهوة يستحضرها من أقرب مقهى . وقد يقضي أغلب يومه في التكلم مع الحرفاء أو مع جيرانه من التجار . والتاجر يقيم صلاته على العموم في دكانه ، ويتناول بعد صلاة الظهر طعاماً خفيفاً مثل طبق من كباب ورغيف من الخبز يحضرهما إليه خادم صغير من المنزل أو من السوق يومياً ، أو بعض الخبز مع الجبن أو المخللات ، أو غير ذلك مما يشتريه من الباعة المتجولين . ويدعو التاجر دائماً الحريف إلى مشاركته الطعام ، وقد يلح في الدعوة . ويحتفظ في دكانه بقلة كبيرة يملأها عند اللزوم سقاء متجول ، ويعود التاجر إلى منزله مساء للعشاء ، وسرعان ما ينام ...

والعادة أن ينام الرجل هو وزوجه في سرير واحد ، إلا أن أفراد الطبقة الوسطى يتخذون غالباً سرراً منفصلة . ويتكون السرير عند متوسطي الحال مما يأتي : حشيّة[2] طولها حوالى ست أقدام ، وعرضها ثلاث أقدام أو أربع ، توضع على سرير منخفض من جريد النخيل ، ومخدة ليستريح عليها الرأس ، وملاءة تفرش فوق الحشية والمخدة . وغطاء الصيف خفيف ، ويسمى (حراما) ، أما غطاء الشتاء فغليظ محشو بالقطن ويسمى (لحافا) . وقد توضع الحشية على الأرض إذا لم يوجد سرير ، أو توضع اثنتان معاً واحدة فوق الأخرى . وكثيراً ما يكتنفها مسندان من مساند الديوان ؛ والكلة[1] تعلق فوق السرير بأربعة خيوط تشد إلى مسامير تدق في الحائط . ويندر أن يغير المصري ملابسه عند النوم . وفي الشتاء ينام بملابسه العادية جميعها إلا الجبة والملابس الجوخية . أما في الصيف فينامون عراة أو شبه عراة . وينصب السرير شتاء في غرفة صغيرة تسمى (خزنة) وصيفاً في غرفة واسعة . ويطوى فرش السرير نهاراً ويوضع على جانب ، أو في الخزنة السابق ذكرها . وعند اشتداد الحر ينام أغلب الناس على أسطح المنازل أو في (الفسحة) : وهي غرفة لا سقف لها ؛ ولكن تعرضهم للهواء الطلق أثناء الليل يسبب لهم الرمد وأمراضاً أخرى .

وأكثر أنواع الأسرة شيوعاً ما يصنع من جريد النخل ، وهو يجاب البق الذي يكثر كثرة فاحشة في مصر أثناء الصيف مثل كثرة البراغيث في الشتاء ، وقد سبق ذكر هذه الحشرات والبلايا الأخرى التي يتعرض لها المصريون ليلاً ونهاراً[2] . والقمل أكثر هذه الحشرات إثارة للاشمئزاز ؛ ولكن الذي يغير ملابسه الداخلية كل يومين أو ثلاثة أيام قلما تضايقه هذه الحشرة ، وإن لم يكن تجنبها سهلاً دائماً حتى مع النظافة التامة . وإذا كان القمل يضايق فإن من السهل الخلاص منه ، لأنه لا يلصق بالجلد وإنما يوجد على العموم في الثياب . ومن الممكن أن ينظف المنزل من البراغيث بكثرة الغسل والكنس ، وأن يمنع الذباب من الدخول بوضع الشباك على الأبواب والنوافذ ، وإن كانت حلقاتها واسعة ، ولكن من المستحيل أن يطهر المنزل المصري من البق إذا كان أثاثه من الخشب كما هو الحال غالباً

وحياة الخدم الذكور كلها دعة وراحة ما خلا السائس الذي يجب عليه أن يرافق سيده وقت الركوب فيجري أمامه أو بجانبه

---

(١) سأصف الحوانيت وأخبار التجار في فصل الصناعة

(٢) طراحة

---

(١) « الناموسية » : وهي تصنع من الموصلي أو الكتان أو الكريب وهي عبارة عن مظلة بطول السرير وعرضه

(٢) في مقدمة الكتاب

وقد يقوم بعمله هذا في أشد الأوقات حراً ولمدة ساعات طويلة دون أن يبدو عليه التعب. ولكل ثرى من أثرياء القاهرة تقريباً بواب يلازم باب المنزل، وعدة خدم ذكور آخرين. وأغلب هؤلاء مصريون. ويستخدم أيضاً النوبيون في القاهرة وفي غيرها من مدن مصر. وكثيراً ما يقوم النوبيون بحراسة الأبواب؛ وهم على العموم أكثر أمانة من الخدم المصريين. وأجرة الخادم تافهة لا تتعدى ريالاً أو ريالين في الشهر، إلا أنه يتناول منحاً كثيرة[1] فيعطي السيد كل خادم في عيد الفطر بعض الملابس الجديدة أو خلعة كاملة من عرى وطربوش وعمامة. وعلى الخادم أن يدبر لنفسه ملابسه السنوية الأخرى ما عدا الحذاء أحياناً. وقد يتناول، علاوة على ما يعطيه السيد، بعض النقود من الضيوف أو من التجار الذين يعاملهم السيد وعلى الأخص عند ما يشترى صفقة كبيرة. وينام الخدم بملابس النهار على الحصر، ويغطون أنفسهم شتاء بدثار[2] أو حرام. وكثيراً ما يرفع الخادم الكلفة مع سيده فيضحك ويمزح معه. وفي بعض الأحوال الأخرى يخضع كل الخضوع ويظهر له كل الاحترام، ويتقبل كل ما يوقعه عليه من العقوبة البدنية بهدوء الأطفال.

ويراعى السيد الخادم العبد أكثر من الخادم الحر؛ ويحيا العبد حياة توافق طبيعته الكسولة. ويمكنه إذا كان غير راض عن عمله أن يجبر سيده على بيعه. وأغلب عبيد مصر يلبسون الملابس العسكرية التركية. وهم على العموم أشد الناس تعصباً في مصر وأكثر تعوداً على إهانة المسيحيين وكل من كان على غير دينهم الذي اعتنقوه دون أن يعرفوا من مبادئه أكثر مما يعرف أطفال العرب الذين لم يمض عليهم في المدارس أكثر من أسبوع. وسأذكر بعض أخبار الجواري في الفصل القادم

ومعرفة أحوال المصريين المحدثين كثيراً ما تجرنا إلى مقارنة عاداتهم المنزلية بعادات الأوربيين في القرون الوسطى؛ وما في هذه المقارنة من مشابهات، تعتبر أكثر تأثيراً مما فيها من مباينات. هذا بالنسبة للرجال؛ أما بالنسبة للنساء فالأمر على العكس الآن وقد أطلت الحديث عن الرجال يجب أن أنتقل إلى الكلام عن الحريم. ولكن يجب أولاً أن أذكر بعض الشيء عن الزواج وحفلاته.

يعتبر المصريون امتناع الرجل عن الزواج بلا مبرر عند بلوغ السن اللائقة مخالفاً للآداب ومسيئاً للسمعة. وقد لقيت أنا نفسي لارتكابي هذه الخطيئة (أقول ذلك حتى لا أذكر ما هو أشد قسوة)، مضايقات ومكاره كثيرة، واحتملت عتاباً شديداً أثناء زيارتيّ الأوليين لمصر. فقد بدا لي في المرة الأولى أن أنتقل من المنزل الذي سكنته بعض شهور في شارع كبير من شوارع القاهرة إلى منزل آخر في حي مجاور، وكتبت عقد الإيجار ودفعت العربون، ولكن جاءني وكيل المالك بعد يومين يخبرني أن سكان الحي وأكثرهم أشراف يعترضون على سكنى بينهم لأنني أعزب؛ ولكنهم يقبلونني بكل سرور إذا اقتنيت على الأقل جارية تنفي عني عار العزوبة. فأجبته إنني لا أنوي الإقامة بمصر فلا أحب أن اتخذ لي زوجة أو جارية قد يضطرني الرحيل إلى تركها. فأعاد إليّ العربون. وساعدني الحظ في حي آخر فلم يعترض على عزوبتي أحد، وإنما طالب مني الوعد بعدم السماح لأي شخص يلبس القبعة أن يزورني في الحي. ولكن بعد أن استقر بي المقام أخذ شيخ الحي يحاول إقناعي بوجوب الزواج. ولم يقم وزناً لكل ما أبديته من الحجج التي تمنعني عن الزواج وقال: «تذكر لي أنك تريد ترك مصر بعد سنة أو سنتين. وأن هنا أرملة شابة جميلة تسكن على مقربة منك، ويسرها أن تصبح زوجتك مع رضاها بأن تطلقها حينما تترك البلد. وفي وسعك طبعاً أن تفعل ذلك إذا لم تعجبك.» وقد استطاعت هذه الشابة مراراً أن تجعلني أبصر وجهها الجميل أثناء مروري بالمنزل الذي تسكنه مع أهلها. فقلت لصاحبي إنني رأيت وجهها بطريق الصدفة، وإنها آخر امرأة أرغب في الزواج منها في مثل هذه الظروف لتأكدي من أنني لا أستطيع طلاقها أو فراقها إذا عشت معها. وقد شق عليّ أن أسكت صديقي المخدوم. لقد ذكرت في المقدمة أن الأعزب أو من لا يقتني جارية يضطر إلى السكنى في الوكالة إلا إذا كان يعيش مع أهله، ولكن الفرنج الآن يعفون من هذا القيد.

وتبلغ المصريات في سن مبكرة قبل نساء البلدان الباردة. وكثيراً ما يتزوجن في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وقد ينضجن قبل السن بشكل يستحق الاعتبار ويتزوجن في

---

(١) ويطلب الخادم من السيد الأوربي أجراً مرتفعاً. كما أنه يتناول منه منحاً أوفر عدداً وقيمة. وتلك العطايا إذا منحت بتعقل يكون لها أثر حسن، ولكنها كثيراً ما تشجع على الكسل والخداع

(٢) أنظر سفر الخروج ٢٢ / ٢٦، ٢٧: (إن ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له. لأنه وحده غطاؤه. هو ثوبه لجلده. في ماذا ينام ..)

العاشرة[1] . إلا أن هذا الزواج البكر غير شائع . وقلما تبقين بدون زواج بعد السادسة عشرة . وقد تصبح الفتاة المصرية أماً في الثالثة عشرة أو قبل ذلك . ونساء مصر على العموم ولودات ، ولكن الأجنبيات اللاتي توطن مصر عقيمات غالباً . ويندر أن يعيش من يولد في مصر من أولاد الأجانب إلى سن الكهولة ولو كانت الأم مصرية . ولهذا يرجع السبب في تبني المماليك المعتقين غيرهم من المماليك

ومن الشائع بين العرب في مصر وغيرها أن يتزوج الرجل من ابنة العم أو الخال . ويستمرون بعد الزواج على التنادي بألقاب القرابة . لأن رابطة الدم لا تنفصم، ولكن صلة الزوجية عرضة للزوال . ومثل هذا الزواج يدوم على العموم بسبب رابطة القرابة ، وقد تربطهما وحدة البيئة في طفولتهما ، ولكن قلما يسمح للفتى أن يرى وجه قريبته في الطبقتين العليا والوسطى ، أو يقابلها أو يحادثها حين تقرب من سن البلوغ إلى أن تصبح زوجته

ويتم زواج العذراء في القاهرة بالطريقة الآتية ، إلا إذا كانت أرملة أو مطلقة فيكون الحفل صغيراً . تبدأ أم الراغب في الزواج أو إحدى قريباته بوصف الفتاة التي تكون عرفتها وذكر أحوالها ، وترشده في اختياره[2] . وقد يستخدم خاطبة وهي امرأة عملها أن تساعد الرجال في الزواج . وقد يستخدم أكثر من خاطبة . وتقدم الخاطبة بيانها عن الفتيات مسارة ، فتصف الواحدة أنها كالغزال جمالاً ورشاقة وصغيرة السن، والأخرى أنها ليست جميلة ولكنها غنية، وهكذا . والعادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع خاطبة لزيارة عدة بيوت . وللخاطبة حق الدخول لاحترافها سمسرة الزواج، إذ أن النساء كالرجال يستخدمنها أيضاً . وقد تقوم الخاطبة بمهنة (الدلالة) أيضاً تبيع الحلي والملابس الخ ، فيسهل عليها دخول البيوت تقريباً . وتقدم النساء اللاتي يرافقن الخاطبة ، للبحث عن زوجة لقريبهن ، باعتبارهن زائرات فقط ، وقد لا يلبثن طويلاً إذا لم يصادفن مرادهن ، ويفهم الطرف الآخر طبعاً القصد من الزيارة . ولكن إذا وجدن بين نساء المنزل (ولا بد من رؤيتهن جميع من يصلحن للزواج) فتاة أو امرأة شابة تتحلى بالصفات اللازمة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن ، إذا لم يكن طالب الزواج وقتئذ مستقبحاً ، عما تملك الفتاة من أملاك وحلي الخ . وقد تملك الفتاة إذا توفي أبوها منزلاً أو أكثر وحوانيت كثيرة الخ . وتملك كل بنت على وشك الزواج ، في الطبقتين العليا والوسطى ، مجموعة من الحلي الذهبية والجواهر في جميع الأحوال تقريباً . وبعد أن يستعلم الزائرات عن هذا وغيره يقدمن تقريرهن إلى الراغب في الزواج . فإذا رضي بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته . وتبالغ الخاطبة على العموم في حديثها عن صفات الرجل الجذابة وثروته الخ ، فتتحدث مثلاً عن شاب خامل تعلم هي أنه لا يكاد يملك شيئاً ولا يمتاز بشيء بقولها : « يا ابنتي ، إن الشاب الذي يرغب في الزواج منك صغير السن لطيف العشرة أنيق أمرد ثري جميل الملبس مغرم باللطائف ؛ إلا أنه لا يستطيع أن يتمتع بهذا الترف وحده فهو يريد أن تكوني شريكته . وسيعطيك كل ما يشترى بالمال ؛ وهو لا يخرج كثيراً ؛ وسيمضي وقته كله إلى جانبك يلاطفك ويدللك » .

عدلي طاهر نور



اللحن الجديد

« للشاعر المجهول »

بَعدَ السنينَ الطوالْ ورَغمَ كيدِ الأعادي
قد جازَ فيكَ المُحالْ ونلتُ منك مرادي

الليلُ غفوانَ يدرى ما كان بيني وبينَكْ
وكنت في الليل بَدرى وكان نورُك حُسنَكْ

في لحظةٍ صار عيشي يفوقُ عُمرَ الوجودْ
فليحرُس الحبُّ طيشي في قطف تلك الورود

تِهْ بعد هذا وسافِرْ إلى أقاصي نَواكْ
لم يَبقَ لي ما أحاذِرْ من شقوتي في هواك

لِمَنْ صفاؤك بعدي كدَّرتُ بالفتكِ وِردَكْ
أعيش إن رُمتَ وحدي فعِش إن اسطعتَ وحدك

أنت الأسيرُ الرهينْ لصَبوتي وخبالي
فاحذَرْ حِذارَ الطعين من سطوتي وصيالي

أأنت تُخلِف وعدكْ وكنتَ رمز الوفاء ؟
أأنت تُنكر عهدك يا جذوةً من صفاء ؟

لِمن تكون ؟ أجِبني فأنت فوقَ الظنون
بمن أهيم ؟ أعِذني قد طاب فيك الفتون

لو شئتُ، لا شئتُ، طارت غوايتي عن حِماك
ولو أردتُ لجالتْ مآثمي في رُباك

يا محنتي في المساءْ وفتنتي في النهارْ
قد طال فيك العناء فأين منك الفرارْ ؟

ماذا يريدُ غِضابُكْ ماذا يروم جفاكْ
إلى الفؤاد بِبابُكْ إذا أردتُ لِقاكْ

ارجعْ إليَّ تجِدْني كما عهدتَ وأسمح
أو فانتظِرْ بعدُ مني فتًى يسمّى ويَذبح

ظَبيٌ يروح ويَغدو في شائكات السهوب
ويأمنُ الليثَ يعدو أأنت ذاك الهوب ؟

سأستبيحُ احتِبالكْ إن نارَ شوقي إليكْ
سأستجيزُ اغتيالك إن طال خوفي عليك

بيني وبين اقتناصِكْ صُبابةٌ من حَياةْ
فاسلُكْ سبيل خلاصِكْ إن اشتهيتَ البقاء

إن كنتَ تُنكِرُ جهلاً فتْكَ القلوب الجوارحْ
فسوف أسقيك سَجْلاً يُدمِي عيونَ النوائح

لا ، لن تكونَ لغيري والله ، لا ، لن تكونْ
وكيف يا وَحْيَ شِعري أهابُ فيك المَنون

أضلَّ حبُّك قلبي والحبُّ كالنور يهدي
أكان عندكَ ذنبي أني وفيت بعهدي ؟

لولا التُّقى لجعلتُكْ ذبيحةً في الصلاةْ
ألا تراني أصرتُكْ تغريدةً في الحياةْ

أدوسُ جَمرَ الجحيمْ عند ارتياد جمالِكْ
فأين روضُ النعيمْ عند استياف وصالك

لَحنٌ كلحنِ الرحيقْ في الكأسِ ، ذاكَ بغامُكْ
فهل تراني أُفيقْ ومن شرابي كلامُكْ ؟

الزنبـــق

للأستاذ خليل مردم بك

حيّتكَ باسمةً ثغورُ الزنبقِ ... مفترةً عن طيّبٍ متألّقِ
ضمّتْ براعمُها شفاهَ مقبّلٍ ... وحنتْ عليكَ حنوَّ صبٍّ شيّقِ
وكأنها في الماء خودٌ شمّرتْ ... عن ساقها عند الورود لتستقي
وكأنها استحيتْ فغضّتْ طرفَها ... وتطامنتْ خفرًا برأس مطرق
نهلتْ أفاويقَ الندى زهراتُها ... فتفتحتْ كالشارب المتمطّقِ
لم تقوَ صُفراها على برد الندى ... أفما تراها ذاتَ ثغر أزرق
وترى عناقيد البراعم تنضوى ... متلازماتٍ في عناقٍ ضيّقِ
من طيّبِ الأنفاس والأردان ذى ... جفنٍ على حلم التعانق مطبق

عذراء تستهوى العيونَ بطلعةٍ ... وضّاءةٍ بيضاء كالعرض النقى
تختال من زهو الصبى في ميعةٍ ... ومن الشباب وحسنه في ريّق
فكأنها ببياضها وسنائها ... برزتْ إليكَ من الضحى في رونق
وتسربلتْ بغلالةٍ وبريطةٍ ... من سندسٍ خُضْرٍ ومن إستبرق
خفّاقة الأقراطِ زهراء الحلى ... معقودة الإكليل فوق المفرق
ما أقبلتْ إلا بثغرٍ باسمٍ ... وبعقلةٍ نشوى ووجهٍ مُشرقِ
وكأنها سكرى تمايل عنقُها ... ورنتْ بجفنٍ بالنعاس مرنّقِ
مرّ النسيمُ على الندى بجفونها ... فترجرجتْ قطراتُهُ كالزئبقِ
إنى ليشجينى الندى متعلقاً ... بجفونها كالمدمع المترقرقِ
تُغني بريّاها وطيب شميمها ... عن بابليٍّ في الدنان معتّقِ
أنفاسُها تحيي النفوسَ وريحها ... روحٌ تشيع بسائف متنشق

هيفاء إن رفّتْ أعاليها بدتْ ... في الحوض شرويَ رايةٍ في زورق
ماشئت في زهراتها من كوكبٍ ... متألقٍ بشعاعه متمنطق
كم زهرةٍ رفّتْ خلتُ فراشةً ... بيضاء رفَّ جناحُها بترفق
أطباقها مثلُ الأنامل شُبّكتْ ... في كل كمٍّ تلتقي في مأزق
أو كالجفون طويلةً أهدابُها ... من ناعسٍ ومغمّضٍ ومحدّق
أو لؤلؤٍ رطبٍ تشظى حوله ... صدفٌ أناف على بياض المهرق

إن الذى خلق الأزاهر خصّها ... بقضيبها وبتاجها والبيرق
الحورُ في جنات عدنٍ تجتلى ... والبيضُ منها في خمائل (جلّقِ)

(دمشق) خليل مردم بك

خدّاكَ خدّاكَ، آهاً ... من الجمال الفصيحْ!
عيناكَ عيناكَ، واهاً ... من الفتون الجريحْ!

لم يؤذني بُخْلُ لفظكْ ... في جهْرِهِ والخُفوتْ
عرفتُ من وحْي لحظكْ ... أنّ الهوى لا يموتْ

لو قيلَ يومَ احتضارى ... هــذا شقيقُ الفؤادْ
لأشرقتْ بكَ دارى ... وكانَ يومَ المعادْ

مَن أنتَ؟ ضلّ العَذولْ ... في غاية الافتضاحْ؟
مَن أنتَ؟ لا، لن أقولْ ... سِرُّ الهوى لا يُباحْ!

«الشاعر المجهول»

حكم في القضية ٦٠٧ سنة ١٩٤١ عسكرية بني سويف بتغريم نور الدين بدوى خضرى بشارع مقبل بني سويف مائتي قرش لأنه باع بطاطس بأزيد من التسعيرة



غُبْر وعبر

لخص الأستاذ الكبير ا . ع فى كلمته المنشورة بالعدد ٤٣٨ من الرسالة القضية التى بيننا حول كلمة (عبر) واحتجاجى لها واحتجاجه عليها

وكنت قد أزمعت أن أفصّل بالشواهد رأيى . حتى نشرت الرسالة بالعدد ٤٣٩ كلمة الأديب محيي الدين صابر بدار العلوم يدلنا على رواية أخرى لهذه الكلمة فى بيت سوار بن قارب وجَدَها فى تفسير ابن كثير وهى :

فشمرت عن ساق الإزار ووسّطَتْ
بى الدعلب الوجناء غُبْرَ السباسب

ثم قال إنه لا يستبعد أن تكون رواية عبر مصحفة عن غبر ، ثم نقل عن اللسان أن الغبراء هى الأرض التى لا يهتدى إلى الخروج منها

وأقول : إنها رواية سديدة جيدة ، ويؤيدها كثرة ورود هذه المادة (أغبر — غبراء ...) فى وصف السفر وقطع السباسب والفلوات ، ومن ذلك قول ذى الرمة :

وغبراء يقتات الأحاديث ركبها
وتشقى ذوات الضغن من طائف الجهل [١]

وقول القُلاخ :

وبلدٍ أغـبر مخشيّ المطلبْ
يضحى به موج السراب يضطرب [٢]

وقول ذى الرمة أيضاً :

وغبراء يحمى دونها ما وراءها ولا يختطيها الدهر إلا المخاطر [٣]

ومع هذا أقول : إن لهذه الرواية وجهاً من الضعف لا يخفى على اللبيب ...

ذلك أن العامل فى كلمة غُبر فى رواية ابن كثير هو الفعل (وسطت) ... والكلام بهما مستقيم لا غبار عليه .

ولكننا نعلم أن الرواية فى بعض المصادر (أرقلت) وهذه لا تتفق مع كلمة غبر جمع غبراء ولا يستقيم الكلام بهما لأن الإرقال هو الإسراع وفعله لازم [١] . فما معنى « وأسرعت بنا الناقة غبر السباسب » ؟

زد على ذلك أن الروايات مختلفة فى هذه الكلمة فهى (عبر) فى جمهرة شعر العرب ص ٢٦ ، وهى (بين) فى سفينة الراغب ص ٦٣٨ ، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٦٧ ، وشرح لامية العجم للصفدى ج ١ ص ١٨ ، وهى غبر فى ابن كثير

واختلاف الروايات على هذا النمط — مضافاً إليه وجه الضعف الذى ذكرت يعوز رواية ابن كثير إلى مرجع . فلسنا نستطيع إذن أن نقطع بها إلا بهذا المرجع المنشور

وبعد ... فقد رجا الأديب محيي الدين أن تكون هذه الرواية قد حلت ما بيننا من ألغاز النحو وأحاجيه ، وأقول إن القضية قد خرجت من كلمة (عبر) صحيحة كانت أو فاسدة ، إلى قضية نحوية أخرى جديرة بالبحث والتمحيص ، قلت وقال فيها الأستاذ ا . ع وليس من مصلحة اللغة أن يبتر الكلام فيها ... هى قضية المصدر الذى يقع حالا . وإن لى فى هذا الموضوع بحثاً للاجتهاد فيه نصيب كبير أرجو أن أوفق إلى عرضه إن اتسع صدر الرسالة لمثل هذه البحوث وإنه لكذلك إن شاء الله

محمد محمود رضوان

رسالة المعلم الإلزامى وكيف ينبغى أن تكون

أبنا فى كلمتنا السابقة عما يجب أن يكون عليه المعلم الإلزامى ووعدنا القارئ الكريم أن نجيب على تلك الأسئلة التى طالما جهر بها المشفقون على الأمة عن رسالة المعلم الإلزامى وهل يقدرها المعلم ؟ وهل أداها على الوجه المرضى ؟ وإذا لم يكن فلماذا

إما أن المعلم يعرف رسالته فهذا ما لا سبيل إلى جحوده ، وإما أنه أداها على الوجه الأكمل فهذه مسألة فيها نظر ...

---

(١) مجموعة المعانى ص ١٣٢ (٢) مجموعة المعانى ص ١٣٣
(٣) شرح المضنون به على غير أهله ص ١٠٢

(١) نعم إنه قد يأتى متعديا بمعنى قطع ولكنه قليل لا يكاد يذكر فيما أعلم فلا يعتد به

قام المعلم بعمله على قدر ما وسعه جهده ، ولكنه ارتطم بعوامل قوية حدت من عمله ، وأضعفت من معنويته ، وكان من أهم تلك العوامل

١ — أن وضع نظام « التعليم الإلزامى » لم يكن الوضع الطبيعى لمسايرة حاجة المجتمع فلم يحدد له هدف ، ولم يرسم له خطة فنظام « نصف اليوم » وتخبط الوزارة فى خطط الدراسة والمقررات وعدم الاستعانة بعنصر المعلم الالزامى فيما يتصورها من مشا كل جملته يمشى حبواً

٢ — عدم تقدير المعلم ، لا من الحكومة ولا من الشعب ، والحكومة وضعت العراقيل فى طريقه ولم توفر له وسائل العمل ، والشعب نفسه لم يتهيأ لأن يهضم هذا النوع من التعليم ، ونظر إليه نظرة المتشكك الوجل — وكان الناس فى هذا فريقين : فريق الأغنياء ، وقد خشوا على أنفسهم أن يتعلم الشعب ، وفى هذا انهيار لهم كما كانوا يظنون . . . وفريق العامة ، وقد كانوا نحو التعليم كالطبيب المداوى مع مريضه الجاهل

٣ — مرتب المعلم : حددت له الدولة راتباً ضئيلاً لا يكفيه القوت الضرورى ، فجملته يئن تحت عبء الحاجة

٤ — أرهق بالعمل إلى درجة الإعياء ، وضنت عليه الدولة بمـا يفتقر إليه من كتب ومراجع وأدوات

ولكن المعلم بقى وحده يصارع تلك العوامل بقوى نفسية عجيبة كان من أثرها قيام « اتحاد التعليم الإلزامى » ، فساعد المعلم على إزالة تلك الأشواك من طريقه ، وأمكنه أن يسمع صوت المعلم لمن يهدم الأمر ، وها هو ذا قد نجح بعض الشىء ، وكان من أثر ذلك أن تهيأت الأسباب لقبول دعوته ، وأرهفت الآذان وتفتحت لسماع حجته ، فتحركت الوزارة أخيراً فنشطت للعمل ، وها هو المجلس الأعلى ينظر ويبحث

ولو أن الدولة كرست جهودها لتحقيق مطالب التعليم الإلزامى ويسرت المعلم أسباب العمل — لكفاها مؤونة تلك الجهود التى تذهب سدى من تلك الجمعيات — ولقام هو بأفضل ممـا تقوم به وزارة الشؤون الاجتماعية

والأمل كبير فى الله وبفضل الاتحاد والاعتصام بالعروة الوثقى ، ومن كان لهم الفضل فى الأخذ بيد المعلم وعلى رأسهم أستاذنا الكبير الزيات أن تثمر رسالة المعلم وينجح التعليم ، وأن تنهض البلاد ، وفقنا الله إلى ما فيه الخير

محمود محمد عبيد

وكيل نقابة القاهرة للتعليم الالزامى

خطأ فى كتاب المفصل

فى كتاب « المفصل فى تاريخ الأدب العربى »(1) ـ تأليف بعض رجال المعارف ـ الأبيات التالية منسوبة إلى ابن رشيق القيروانى :

ولمـا بدا لى أنها لا تحبنى	وأن هواها ليس عنى بمنجلى
تمنيت أن تهوى سواى لعلها	تذوق صبابات الهوى فترق لى
فما كان إلا عن قليل وأشغفت	بحب غزال أدعج الطرف أكحل
وعذبهـا حتى أذاب فؤادها	وذوّقها طعم الهوى والتذلل
فقلت لها ، هذا بهذا ، فأطرقت	حياء وقالت : كل عاتب ابتلى

وهذه الأبيات نسبها ابن رشيق فى عمدته إلى على بن الله من سلالة جعفر بن أبى طالب حيث قال(2) : « ومثل هذه الحكاية ما قاله بعض الكتاب ، وقد دخل على على بن عبد الله بن جعفر ابن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وهو محبوس ، أين هذا الجعفرى الذى يتحدث فى شعره ؟ قال على : فعلمت أنه يريدنى لقولى : ولمـا بدا لى الأبيات فقلت أنا هو جعلت فداك »

(العراق — حلة) **عبد الرزاق ناظم**

بين صبرى وابن دريد

وقع نظرى على أبيات فى المنزل لإسماعيل صبرى وردت فى ديوانه . . . بعثت فى نفسى دهشة عجيبة لا لروعتها وفتنتها ، بل لأنها خلقت مشكلة عجيبة ، فما هى هذه المشكلة ؟

المشكلة أن هذه الأبيات بقليل من التحريف اللفظى وجدتها منسوبة « لأبى بكر بن دريد » فى مقال للشاعر الكبير محرم

(1) المفصل — الجزء الثانى ص ١٨٠

(2) العمدة — الجزء الثانى ص ١١٨ — ١١٩

بالعدد الثانى من المجلد الثالث لمجلة أبولو (أكتوبر سنة ١٩٣٢)

أما البيتان الواردان فى ديوان صبرى فهما :

إن الذى أبقيت فى مهجتى يا متلف الصبرِ ولم يشْعُرِ
حُشاشة لو أنها قطرةٌ تجول فى عينيكَ لم تُنْظَرِ

وأما بيتان « أبى بكر بن دريد » الواردان فى مقال الشاعر محرم فهما :

إن الذى أبقيت (من جسمه) يا متلفَ الصَّبِ ولم يشعر
(صُبابةٌ) لو أنها قطرةٌ تجول فى جفنيكَ (لم تقطر)

فليس من شك فى أن صبرى قد سرق البيتين وليس له غير تنهيير لم يوفق فيه . وليس من شك أيضاً فى غفلة المحققين لديوان صبرى عن هذه السرقة العجيبة .

حسين محمود البشبيشى

أيهما أصلح لتعليم الأطفال المعلم أم المعلمة ؟

كنت أعتقد بعد أن كتب الأستاذ الزيات كلمته عن المعلمين وبعد أن قدم الأستاذ مصطفى شكرى بك تقريره عن التعليم الأولى ، أن وجه الحق فى هذا الموضوع قد أصبح واضحاً ، وأن مجال القول لم يعد فى حاجة إلى إعادة ، وباب الكلام لا يتسع لزيادة !

ولكنى قرأت فى جريدة (المصرى) رأياً لوكيل وزارة المعارف المساعد الأستاذ شفيق غربال بك استحسن فيه إحلال المعلمات محل المعلمين ، وتمنى لو استطاعت الوزارة أن تعمم هذا فى جميع المدارس . وقال : (إن إحلال المعلمات محل المعلمين فى المدارس الأولية والإلزامية للبنات مشروع عظيم ؛ لأن المعلمة كالأم ، والأم أولى بحضانة الطفل ، ولو استطعنا أن نعمم ذلك فى المدارس الأولية والإلزامية ، لكان هذا أوفق وأحسن)

قرأت هذا وفهمت منه أن الأستاذ الوكيل يرى أن المعلمة أوفق وأحسن من المعلم حتى فى تعليم البنين ، لأنها كالأم والأم أولى بحضانة الطفل ! !

ولا شك أن هذا كلام يقال فى مقام العواطف لا فى مقام التربية والتعليم ، وإن حرمان الطفل من عناية المعلم أبلغ فى الضرر من حرمانه من رعاية المعلمة ! وحاجته إلى أبيه ، لا تقل عن حاجته إلى أمه ، وإذا قلنا إن المعلمة ستبعث فى نفسه الحنان والعطف والرقة والشعور بالجمال ، فإنه سيبقى مع ذلك فى حاجة إلى من يعلمه الرجولة والشجاعة والحزم والتضحية والبطولة والاعتداد بالنفس . ومن الذى يستطيع هذا غير المعلم ؟

أما الحضانة فليست للأم إلا قبل سن التعليم . فإذا بلغ الطفل السابعة كان لأبيه بنص الشريعة ؛ لأنه أدرى بتربيته ، وأبصر بمصلحته .

وإذاً يكون الاستدلال بحق الأم فى الحضانة غير مستقيم مع قواعد المنطق ، ولا مع وقائع الحال

والناس يرون الرجل الذى تنفرد المرأة بتربيته ناقص الرجولة ويقولون عنه (إنه ابن امرأة ! !)

ولم تأخذ البلاد الأوربية إلى الآن بنظرية انفراد المعلمة بتربية الطفل مع أن المرأة عندهم سبقت المرأة عندنا بأجيال ! كما أن ثقافة المعلم عندنا أرقى من ثقافة المعلمة ، لأن منهاج مدارس المعلمين أوسع من منهاج مدارس المعلمات ؛ والمعلم يزيد فى ثقافته بالدرس والمطالعة ، بينما المعلمة لا تفكر فى شىء من هذا بعد خروجها من المدرسة . والوزارة نفسها جعلت مناهج البنين غير مناهج البنات فى المدارس الإلزامية ! وفى كل هذا ما لا يستقيم مع رأى سعادة الوكيل !

على أن الوزارة قد حاولت تجربة هذه الطريقة منذ خمس سنوات ، فأشركت المعلمات مع المعلمين فى مدارس البنين . وترتب على هذا أن ساءت الحالة العلمية ، واختل النظام ؛ لأن المعلمة كانت تقف فى وسط التلاميذ حائرة . فإذا ثاروا وعجزت عن إسكاتهم جلست تبكى مغلوبة على أمرها ، حتى يأتى أحد المعلمين ، فيسكت التلاميذ عند رؤيته ، ويلزم كل واحد منهم عمله !

وأذكر أن معلمة ذهبت تشكو لرئيس المدرسة تلميذاً ، لأنه كان كلما ضربته بالمسطرة على يده يضحك ويسألها المزيد !

واضطرت الوزارة آخر الأمر وبعد أن ضج المفتشون من الفوضى . إلى تخصيص المعلمات بالتعليم فى مدارس البنات !

وإذاً يكون القول بإحلال المعلمات محل المعلمين فى المدارس الإلزامية مجازفة غير مأمونة العاقبة ، وفكرة أثبتت التجارب السابقة فشلها !

وأكبر ظنى أن مثل هذه الآراء المرتجلة ، هى التى أضاعت التعليم الإلزامى ، وأفسدت طرائقه ، وغيرت حقائقه ، وحالت بينه وبين الإنتاج المنشود . ولو أنصف القائمون بأمره لردوا الأشياء إلى أصولها ، والأصول إلى قواعدها ، ولرجعوا إلى المعلم يسألونه رأيه فيما هم فيه مختلفون ، ويستخبرونه عما لا يعلمون .

(المنصورة) علي عبد الله



الميتــــة ...

لجى دى موباسان

بقــلم الأديب كمال رستم

أحببتها حباً عنيفاً ! لِمَ يحب الإنسان ؟ أليس عجيباً ألا نرى في العالم إلا إنساناً ! ألا تقوم في النفس إلا فكرة ! ولا في القلب إلا رغبة ! ولا في الفم إلا اسم ! اسم يرق دواماً ! ... يرق كماء نبع تجاج من أعماق نفس ولمى ! يرق إلى الشفاه ! نذكره ! ونذكره ! نتمتم به دائماً ، وفي كل مكان كأنه صلاة !

سوف لا أقص قصتنا ؛ فليس للحب إلا قصة واحدة ! قابلتها وأحببتها ! هـذا كل ما في الأمر ! وعشت عاماً تغمرني رقتها ، وتحتويني بين ذراعيها ، وتحصني بطرفها ، وترعاني بلحظها ؛ وتلفني بأدوتها ، وتهمس إليّ بكلماتها ! ... محاطاً مطوقاً ، حبيساً في كل ما يصدر عنها بهذه الطريقة الفاضلة التي لم أحاول أبداً أن أعرف غيرها ، ليلاً كان أو نهاراً ، حياً كنت أو ميتاً ، على هذه الأرض العجوز أو في مكان آخر

ماتت زوجتي إذن ! كيف ؟ ... لا أدرى !

عادت ذات مساء مطير ، يبلل المطر ثيابها ، وفي اليوم التالي سعلت ، واستمرت تسعل حوالي أسبوع لزمت بعده سريرها !

كيف حدث ذلك ؟ ... لا أدرى !

عادها أطباء ... وصفوا الدواء ... ومضوا ! ...

واستحضرت أدوية ... وامرأة تجرعها إياها ! ...

كانت يداها دافئتين ، وجبهتها متقدة منداة ، ولحظها وامضاً حزيناً . حدثتها وأجابتني ! ما الذي قلناه ؟ لا أدرى !

نسيت كل ما قيل ! كله ... كله ! ... ماتت إذن ! وإني لأذكر جيداً آهتها الخافتة . آهتها الأخيرة ! ... وتأوهت الممرضة قائلة : « آه » ! فأدركت ... أدركت ! ...

لا شيء ؛ عرفت أكثر من ذلك ! أبصرت قساً انفرجت شفتاه من كلمة « خليلتك » ! خيل إليّ أنه سبها ؛ فليس لنا الحق منذ ماتت أن ندعوها كذلك ، ولذلك طردته !

وحضر آخر وكان طيب القلب للغاية ، لطيفاً للغاية حتى لقد استعبرت عند ما حدثني عنها ! ولقد أُخذ برأيي في ألف شيء بخصوص الجنازة ، لا أذكر الآن منها شيئاً مطلقاً وإن كنت أذكر جيداً صورة ناووسها ؛ وصوت المطرقة حينما أغلقوه عليها ! ... أواه يا إلهى ! ... وووريت ... ! ووريت ! هي ! في هذه الحفرة ! وحضر بعض الناس ! بعض الأصدقاء ! فررت منهم ! همت على وجهي طويلاً في الطرقات ! ثم عدت أدراجي إلى منزلي ؛ وفي اليوم التالي قمت بسفرة طويلة ! ...

* * *

رجعت أمس إلى باريس ! ...

وعند ما رأيت ثانية غرفة نومي ؛ غرفة نومنا ! مهادنا ، أثاثنا ، كل ما في هذا المنزل ... كل ما بقي من حياة شخص بعد موته ... أصبت برجمة حزن محض ! فقمت إلى النافذة وأطللت منها على الطريق ! ...

ولما لم أستطع أن أصبر على الإقامة بين هذه الأشياء ، بين هذه الجدران ، تناولت قبعتي وخرجت أبغي فكاكا ! وفي طريقي إلى الباب مررت بمرآة البهو الكبيرة التي وضعتها هناك ، لترى فيها نفسها من رأسها إلى أخمص قدميها كل يوم عند خروجها لتتأكد من أن زينتها كاملة ، وأنها تبدو جميلة آسرة من حذائها إلى قبعتها ! ...

وقفت أحدق في هذه المرآة التي طالما عكست صورتها ، طالما ! طالما ! . حتى خيل إليّ أنها تتراءى فيها ! ...

كنت ثم واقفاً ، مرتجفاً ، وعيناى مثبتتان على زجاج المرآة ؛ على الزجاج المسطح ! الضيق ! الرحيب ! ... الزجاج الذي يحتويها . ! يحتويها بأكملها ؛ يتمتع بمشاهدتها أكثر مني ؛ أكثر من نظرتي الولهى ! ... خيل إليّ أني أحببت هذه المرآة ! لمستها ؛ ألفيتها باردة أواه ! يا لها من ذكرى ! يا لها من ذكرى ! مرآة مؤلمة ! مرآة متقدة ! مرآة حية ! مرآة مرهوبة ! ...

سعداء هؤلاء الذين يحكى قلبهم مرآة ؛ يدعون صور المرئيات تنزلق عليها ، ويزيلونها متى شاءوا ، فهندى كل قلب ما احتواه ؟ ... كل ما مر أمامه ! كل ما شاهده ! كل ما سدد إلى عواطفه ! . إلى حبه ! ... كم أتألم ! ...

وخرجت ، وعلى غير وعى ! على غير إدراك ؛ دلفت إلى المقابر . وثم رأيت رمسها بسيطاً جداً ... رأيت صليباً من الرخام نقشت عليه هذه الكلمات ؟ ...

« أحبتنى وأحببتها ثم ماتت » !

كانت هناك ! فى أسفل ! عظاماً نخرة ! يا للهول !

لبثت هناك طويلاً ، طويلاً . . . ولما أقبل الليل قامت فى نفسى رغبة غريبة ، رغبة مجنونة ، رغبة نفس قانطة ! تشوقت إلى قضاء الليلة قريباً منها . . . ليلة أخيرة أذرف دمعى على قبرها !

ولكنهم سيبصرون بى وسيطردوننى ؛ فما العمل ؟ . . . نهضت ، وأخذت أضرب فى مدينة الموتى هذه . . . مضيت ! مضيت ! كم هى صغيرة هذه المدينة إلى جانب أختها ؛ تلك التى نراها ، ومع ذلك فالأموات أكثر عدداً من الأحياء

وإنه لمن المفارقات حقاً أن تكون كل هذه الدور الفخيمة ، والميادين الفسيحة ؛ كل هذه المساحة الشاسعة للأحياء القليلين ، يرقبون النهار ليتنفس ، ويكرعون ماء الينابيع وسلاف الكروم ، وينعمون بخيرات السهول ، بينما لا يكون لكل أجيال الموتى شىء . . . حقل . . . تقريباً لا شىء . تستردهم الأرض . تحملهم نسياً منسياً ... تبتلعهم ... ثم الوداع ! . . .

وفى نهاية القبور المأهولة ، أبصرت فجأة القبور المهجورة ، حيث بليت جسوم الموتى على طول الزمن وتم اختلاطها بالثرى ! حيث الصلبان نفسها قد تداعت ... وحيث يرقد فى الغد هؤلاء الذين قدر لهم أن يفنوا ... مكان ملىء بالورود المبعثرة ، وأشجار السرو السوداء الصامقات . . . حديقة حزينة شاسعة تعيش على جثث البشر ...

وكنت هناك وحدى فتسلقت شجرة خضراء وتواريت بين أفنانها الغليظة الظليلة كغريق يتشبث بها بصادفه ...

***

ولما احلولك الليل ... غادرت مكمنى ومشيت فى خطوات وئيدة ، فى خطوات مخنوقة ؛ على هذه الأرض المفعمة بالموتى . . . وأخذت أجول طويلاً طويلاً دون أن أقف لقبرها على أثر . . . الذراعان ممدودتان . . . العينان مفتوحتان . . . متلمساً القبور بيدىّ ، بقدمىّ ، بساقىّ ، بصدرى ، برأسى نفسه ... ؟

مضيت كضرير يتلمس طريقه . . . ألمس الأحجار ، والصلبان ، والنوافذ الحديدية ، والتيجان الزجاجية ، والأكاليل الزهرية الجافة ...

ورحت أقرأ الأسماء بأصابعى أمر بها على الحروف ... يا لها ليلة ، يا لها ليلة ! لم أجد قبرها ...

وكان القمر غائباً فاستولى علىّ الخوف ، وخوف مروّع فى هذا المكان الموحش ... بين صفين من القبور ... ؟

القبور ! القبور ! القبور ... !

قبور . . . إلى اليمين وإلى اليسار . . . إلى الأمام وإلى الخلف ... فى كل صوب قبور ... !

تهالكتُ على واحد منها ، لأنى لم أستطع أن أتابع السير أكثر من ذلك . . . لأن ساقىّ كانتا تلتويان . . . أصخت بأذنىّ أصغى لوجيب قلبى ... أصغى أيضاً لشئ آخر ... ماذا . . . ؟ نبأة مبهمة لا اسم لها . . . أكان ذلك فى رأسى المجنونة ... أكان ذلك فى غبش الليل الضارب سجوفه وأسداله ، أم تحت الأرض الخفية ... تحت الأرض المزروعة بجثث البشر؟ !

كم من الوقت مكثت هناك ؟ لا أدرى ... غدوت قعيداً من الخوف ... أصبحت ثملاً من الرعب ... على أهبة الصياح ... على أهبة الموت ... وفجأة ، خيّل إلىّ أن لوح الرخام الذى كنت جاثماً فوقه قد تحرك ... حقاً ، تحرك كما لو كان قد رُفع ... وبقفزة واحدة ألقيت بنفسى على الجدث المجاور ... وشهدت ... نعم ، شهدت الحجر الذى غادرته قد انتصب واقفاً

وظهر الميت ... هيكل عظمى ليس غير ... ! وإن كان الليل وقتذاك قد نشر على السكون ذوائبه . . . فقد رأيت . . . رأيت جيداً على الصليب هذه الكلمات : (هنا يرقد « جاك أوليفان » المتوفى في الواحدة والخمسين من سني حياته ، كان محباً لذويه ، شريفاً ، طيب القلب ... وتوفى إلى رحمة الله ... !)

ولما قرأ الميت هذه الكلمات المنقوشة على قبره ، انحنى إلى الأرض ، والتقط قطعة من الصخر ... قطعة صغيرة مدببة ... وأخذ يزيل هذه الكلمات بعناية ودقة ... أزالها عن آخرها ببطء وهدوء ، محدقاً بعينيه الواسعتين في المكان الذي كان منذ برهة متوارياً فيه ... وبطرف العظامة التي كانت يوماً ما سبابته ... كتب بحروف براقة لامعة :

« هنا يرقد « جاك أوليفان » المتوفى في الواحدة والخمسين من سني حياته ، تعجل بقسوة قلبه موت أبيه ليرثه ، عذب زوجه ، أشقى أولاده ، خدع جيرانه ، سرق كل ما استطاع سرقته ، ومات شقياً ... ! »

... ولما انتهى الميت من كتابته أخذ يشهد نتيجة عمله ...

ولاحظت في عودتي أن كل القبور قد فتحت ، وأن كل الهيا كل العظامية خرجت منها ، وأن الجميع مسحوا تلك الأكاذيب التي خطها ذووهم على قبورهم ليوهموا على الناس ؛ ورأيت أنهم كانوا جميعاً قساة القلوب ، حقودين ، مرائين ، كذابين ، خبثاء ، مفترين ، حساداً ... رأيت أنهم سرقوا وخدعوا وارتكبوا كل الأفعال المخجلة ، ووصموا بكل خلق دنيء . . . وهؤلاء الآباء الطيبون ... هؤلاء الزوجات الوفيات ... هؤلاء الأبناء المخلصون ... هؤلاء الحفيدات العفيفات ... هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء ... لا لوم عليهم جميعاً ، لأنهم لا يستطيعون أن يقرروا الحقيقة المؤلمة ... !

وراحوا جميعاً يخطون في وقت واحد على عتبة مسكنهم الأبدي الحقيقة القاسية ، الحقيقة المروعة ، الحقيقة المقدسة التي يجهلها الجميع أو يتجاهلونها وهم على قيد الحياة ... !

وأيقنت أنها لا بد قد قامت تكتب على جدثها ، وبدون أدنى خوف الآن ... فركضت وسط التوابيت نصف المفتوحة ، وسط الجثث ، وسط الهيا كل العظامية ... مضيت إليها واثقاً أني سأجدها في الحال ... ورأيتها من بعيد ... من غير أن أستجلي وجهها ، لأنها كانت قد غطته بالكفن ... وعلى الصليب الرخامي الذي قرأت عليه منذ برهة :

« أحبتني وأحببتها ثم ماتت ! »

لمحتها تكتب : « خرجت يوماً لتخون زوجها ، فأصابها برد تحت شؤبوب منهمر وماتت ! »

ورأيتني أهوى إلى الأرض مغشياً عليّ . وفي اليوم التالي وجدوني مسجّى إلى جانب مقبرة ... !

« المنصورة » كمال أحمد رستم

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



6me Année No. 443

Lundi - 29 - 12 - 1941

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مصر
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٤٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ ذو الحجة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

العاميـــة والفقر

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاء فى خطاب مطول من الأديب « عبد القادر المشماوى » يروى فيه مناقشة أدارتها جماعة « الرابطة المصرية ضد التدخين » وقالت فيها الأستاذة الفاضلة نعيمة الأيوبى — على رواية الأديب —

« لنكن عاديين فى أحاديثنا لنقدر أن نعبر عن شعورنا وأفكارنا ونتفاهم فى أغراضنا وشؤون إصلاحنا ، لا سيما مع الطبقات الفقيرة . ولنخلع عنا ذلك الرداء المزيف الصناعى الذى نلبسه كلما قابلنا عظيماً أو وقفنا فى حفل للخطابة ؛ فلا ندرى أأخطأنا فى التركيبات النحوية أم فى التعبير عن أفكارنا . ولنتكلم الآن باللغة التى نستعملها فى كل مناقشاتنا حتى فى مرافعاتنا أمام القضاء ، ألا وهى العامية »

قال الأديب عبد القادر المشماوى : « ثم نهض الأستاذ كامل الكيلانى عقب الدكتورة نعيمة الأيوبى وقال ما فحواه : « إنه لا يسمح بأية حال من الأحوال بالموافقة على نصرة العامية على اللغة العربية الفصحى . ومن لم يستطع التعبير عن أفكاره بالعربية الفصحى فما هو بمستطيع أن يعبر عنها بالعامية ... »

وهكذا إلى آخر ما ورد فى خطاب الأديب . ثم قال سائلاً : « ما رأيكم فى هذا الخلاف ؟ وهل يمكن نصرة اللغة الفصحى

في بلد سواده الأعظم من الأميين ؟ وإذا خاطبت إنساناً فقيراً باللغة الفصحى لتسدى إليه النصح والإصلاح هل يفهمك أو يظن أنك تسخر به فيحز ذلك في نفسه وينصرف عنك متألماً ؟ وأرجو أستاذي إذا تفضل بالجواب أن يكون رده على صفحات مجلة (الرسالة) الزاهرة الحبيبة إلى نفوسنا ، وإليكم عظيم الاحترام ... الخ »

* * *

تلك رواية الأديب ، وهي لا تستلزم في الجواب عليها أن أتعرض لتفصيلات رأيين لم أقف منهما على غير هذه الإشارات التي لا تشمل كل ما يقوله صاحب الرأي في شرحه والدفاع عنه .

فحسبنا أن نحصر الكلام هنا في العلاقة بين الفقر والعامية ، وهل من دواعي العطف على الفقير أو من دواعي النظر في مشكلة الفقر أن ننصر العامية على الفصحى ، وأن نعبر عن آرائنا باللغة التي يتكلمها الفقراء ؟

فالعامية قبل كل شيء هي لغة الجهل وليست بلغة الفاقة أو بلغة اليسار

وبين الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية التي لا جمال لها ولا طلاوة على عباراتها

وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى ، أو يعبرون بالعامية تعبيراً تزينه جمالها وتبدو عليه طلاوتها

فإذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ونستبقيه ونستزيده ، ولا نخفف وطأة الفقر ذرة واحدة بتغليب عبارات الجهالة على العبارات التي تصاغ بها آراء المتعلمين والمهذبين

إن علاج مشكلة الفقراء هي أن ترفع طبقتهم معيشة وتفكيراً وحديثاً ومنزلة من التعليم والتهذيب ، وليس علاج تلك المشكلة أن تسجل عليهم حالة من العجز والجهالة هي التي يشكون منها ويسألون المعونة على علاجها

وماذا يفيد الفقراء أن يسكن الأغنياء الأكواخ ؟

وماذا يفيد الفقراء أن يتكلم المتعلمون لغة الجهلاء ؟

وماذا يفيد الفقراء أن تساويهم في الحرمان من المال والعلم ومن الفصاحة وقدرة التعبير ؟

إنما يفيد الفقراء أن تصبح أكواخهم قصوراً أو كالقصور في الإراحة وتصحيح الأبدان

وإنما يفيدهم أن يكون نصيبهم من اللغة كأحسن نصيب يتملكه المتعلمون . فإن لم يبلغوا هذا المبلغ فالفائدة ألا يكون نصيبهم منها أحقر نصيب ، وألا تسجل عليهم هذه الحالة الزرية كأنهم لا يصلحون لغيرها ولا يطمحون إلى ما فوقها

وإنما يفيد الفقراء أن يساووا أحسن الناس لا أن يصبح أحسن الناس مثلهم في المعيشة والعمل والعلم والكلام

ولم يقل أحد أننا حين نبني القناطر والجسور والمستشفيات لعلاج داء الفقر ينبغي أن ننسى الهندسة لأن الفقراء لا يعرفونها

ولم يقل أحد أننا حين ندبر الطعام للمعوزين ينبغي أن نبطل أطايب الطعام لأن المعوزين لا يملكون أثمانها

فلماذا يقول قائل إن إهمال اللغة الفصحى واجب عند البحث في مشكلة الفقر والجهل لأن الفقراء والجهلاء لا يحسنون اللغة الفصحى ، وأن المناقشة في تلك المشكلة ينبغي أن تدور بالعامية لأنها هي اللهجة التي يتكلمها الفقراء والجهلاء ؟

يقول الأديب صاحب الخطاب : « إذا خاطبت إنساناً فقيراً باللغة الفصحى لتسدى إليه النصح والإصلاح هل يفهمك أو يظن أنك تسخر به ، فيحز ذلك في نفسه وينصرف عنك متألماً ؟ »

فمن اللازم أولاً أن نفرق بين اللغة الفصحى واللغة الصعبة التي لا يفهمها إلا الأقلون ؛ إذ ليس كل فصيح صعباً ولا كل عامي ركيك سهلاً على سامعيه

ومتى فرقنا بين الفصاحة والصعوبة أدركنا أن السهولة تتوافر للكلام الفصيح وتنفذ إلى أسماع الجهلاء غير حائل بينها وبين النفاذ إلى تلك الأسماع حركة الإعراب ولا صحة التركيب

هذا أولاً

أما « ثانياً » فمن اللازم أن نذكر أن العظات إنما تتلقى بالخشوع والتوقير كلما اقترنت في ذهن السامع بملابسات الخشوع والتوقير

والعظات التي تقترن في ذهن السامع بالمسجد وحلقات العلم أحرى أن تقترن بالنفوس الخاشعة والأسماع المصغية من عظات تحمل طابع السوق ومجالس اللهو والمزاح . وهذه المقارنة النفسية أشبه بمقارنة الهيبة التي تسرى إلى قلوب السامعين وهم يصغون إلى الواعظ في المسوح ولا تسرى إليهم وهم يصغون إليه في مباذل البيت أو ملابس السهرة وكسوة « الردنجوت »

أما شعور الجاهل الفقير وأنت تخاطبه بالفصحى فقد تختلف

فيه الأقوال حسب اختلاف الأحوال، ولكنه لو أنصف لامتعض ممن لا يخاطبه إلا وهو متنزل إلى لغة أوضع الطبقات، كأنه يترفع عن مخاطبته باللغة التي يخاطب بها أقرانه وزملاءه . وما أظن الجاهل الفقير يحب أن يترفع الأغنياء عن لقائه في حجرة الاستقبال التي يلقون فيها أقرانهم وزملاءهم ليخرجوا له إلى العراء حيث يجلس بغير مقعد وبغير مهاد ... فلماذا يحب الجاهل الفقير أن يتنزل مخاطبه من أسلوبه وأسلوب أقرانه وزملائه ليخاطبه بما هو دون ذلك الأسلوب؟

إننا لم نسمع أن أحداً تواضع حباً للفقير فخلع حذاءه ليمشي حافياً أو يلبس النعال؛ فما بال أناس يتواضعون فيخلعون لغة المعرفة والثقافة لأنها كما يزعمون لغة لا يفهمها الفقراء؟

ما خلت الدنيا قط ولن تخلو من التعلم والتعليم ، وإن اليوم الذي ننبذ فيه كل ما نتعلمه ونتعب في تعلمه لهو اليوم الذي ينحدر فيه الإنسان إلى الجهل الذي هو أشيع شيء بين الناس وأغناه عن معلمين ومتعلمين وعن جهد في التعليم والتحصيل

وإذا كنا نحتج لبقاء اللغة العامية بأنها اللغة التي يعرفها الجاهل بغير تعلم فلماذا لا نحتج لكل جهل بمثل هذا الاحتجاج؟ وأي شيء أحق من العقل الإنساني ومن النفس الإنسانية بأن نفهمهما على الوجه الأمثل حين نفهم اللغة الصالحة لإبداع أشرف المعاني وأرفع الصور الذهنية وأحقها بالبقاء والتخليد

واللغة العامية بطبيعتها لغة وقت محدود وجهة محدودة، فهي لا تصلح لبقاء أثر من الآثار التي تستحق البقاء . ولن نكسب شيئاً ولا الفقراء يكسبون بصيانة حديث العامة وإهمال الحديث الذي يخلد المتنبي والمعري وابن الرومي وشكسبير وهوميروس وسوفكليس وفرجيل

وما ارتقى العامة قط لأنهم فهموا نظام الصحة وقواعد الحكم وهم جهلاء أميون ، ولكنهم يرتقون حين يتعلمون ويقتدرون على فهم الكلام في لغة المعرفة والإرشاد . أما وهم أميون جهلاء فلن يفهموا ما يقال، ولو قيل لهم بلغة الجهال

وإنها لبدعة عجيبة تلك التي سرت في الزمن الأخير وتعلق بها أناس منا مخلصين وأناس منا مخدوعين وأناس منا يسيئون النية وهم على علم بالغرض مما يدعون إليه

فالدعوة إلى تغليب العامية إنما تنبع في مصدرها الأول من جانبين متناقضين وإن اتفقا في غرض واحد

لجانب الشيوعيين المنكرين للعقائد والأديان يحقدون على اللغة الفصحى كحقدهم على كل امتياز وارتفاع، وغرامهم بكل ما يهبط إلى مرتبة الصعاليك؛ ثم هم لا ينسون أن القضاء على العربية الفصحى فيه قضاء على دين المسلمين الذي يحاربونه كما يحاربون كل دين

وجانب المبشرين لا يعنيهم من الأمر إلا أن يحاربوا الدين بين الأمم العربية، فلا يعنيهم في بلادهم أن يغلبوا الكلام المسف المبتذل على الكلام المهذب الفصيح .

ومما يكشف عن سوء نية هؤلاء وهؤلاء أنهم يفضلون الكتب التي تؤلف بكلام العامة فيما يختارونه للترجمة إلى اللغات الأوربية؛ مع أن الترجمة لا تظهر فرقاً بين أسلوب العوام وأسلوب الخواص، ولا يدري من يقرأها وهو لا يعرف الأصل أهي من الكلام الدارج منقولة أم هي منقولة من كلام تلتزم فيه الفصاحة وحركات الإعراب .

فهو إذن تشجيع للعامية في وطنها وليس بتشجيع للعامية في اللغات الأخرى، ومن هنا ينكشف سوء النية الذي أومأنا إليه .

فرأيي فيما سأل عنه الأديب أن تغليب لغة الجهل كارثة على الأمة العربية وعلى العقل الإنساني لا تقل عن كارثة الفقر وسوء العيش، وأن علاج مسألة الفقر لن يتوقف في وجه من وجوهه على ترك الكلام الفصيح وتقديم الجهالة الكلامية، ولن يختلف الأمر هنا بين طب الأمراض البدنية وطب الأمراض الاجتماعية .

فلا الطبيب مضطر إلى إهمال لغة الطب وهو يعالج مريضه، ولا المصلح الاجتماعي مضطر إلى إهمال لغة المعرفة وهو يعالج الفقر أو الجهالة، وليس ما يفهمه الفقير الجاهل من عبارات العامة بأكثر مما يفهمه من لغة الخاصة إذا كانت الصعوبة في الإدراك أو كانت الصعوبة في الموضوع . فلو نقلت أرسطو إلى أوضع اللهجات لما سهلت فهمه أقل تسهيل، بل لعلك تزيد الصعوبة بإقحام المعاني الرفيعة في لغة لم تتهيأ لتمثيلها منذ زمن بعيد .

ولنرحم الفقير الجاهل برفعه إلى طبقة اليسار والمعرفة، والتسوية بينه وبين من يفصحون ويفقهون

أما رحمته بإبقائه حيث هو في عمله وكلامه ومداركه فتلك هي القسوة التي لا يسيغها الرحماء .

عباس محمود العقاد

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

« الشـــوقيات »

للدكتور زكي مبارك

أين مقدمة هيكل باشا ؟ — رأى الدكتور طه حسين في شاعرية « شوقي » — أخلاق شاعر الأخلاق — دسائس صحفية ! — كيف يدرس المتسابقون شعر « شوقي » ؟ — نهج البردة — الأندلس الجديدة — انتحار الطلبة — تغنى بالآثار المصرية — الحرب العثمانية اليونانية — تكايل أنقرة — انتصار الأتراك في الحرب والسياسة — رحالة الشرق

أين مقدمة هيكل باشا ؟

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول من « الشوقيات » ، وبه مقدمة بقلم معالي الدكتور هيكل باشا ، وكان في النية أن أنظر في تلك المقدمة نظرة نقدية ، على نحو ما صنعتُ بالمقدمة التي صدّر بها ديوان البارودي ، ولكني لم أجد المقدمة المنشودة في النسخة التي بين يديّ ، فأين ذهبتْ ؟ وكيف رضيتُ أن تظل نسختي عاطلة من تلك المقدمة العصماء ؟

لذلك تاريخ يجب تسجيله قبل أن يضيع ، فقد تأتي أيام يجهل فيها ما مرّ بالشوقيات من ظروف ، وللتاريخ الأدبي علينا حقوق ، فما ذلك التاريخ ؟

النسخة التي بيدي ناقصة ، ولكنها نفيسة جدًّا ، لأنها على نقصها مصححة بقلم « شوقي » في مواضع كثيرة ، وليس ذلك بالغنم القليل

وأواجه ذلك التاريخ فأقول :

كانت الصلة قويت بيني وبين « شوقي » في سنة ١٩٢٥ ، وكان شرع في طبع « الشوقيات » ، فشاء لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة لا أزال أذكر نصها بالحرف :
« سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية ، وستكتب أنت مقدمة أدبية »

وبعد أيام تلطّف فأهدى إليّ ما طُبع من الجزء الأول مصححاً بخطه الجميل ، لأكتب في تقديمه ما أريد

ورجعت إلى نفسي فتذكرت أن للمقدمات يُلتزم فيها الترفق ، وذلك ما يجمُل بكاتب مشغول بالنقد الأدبي مع شاعر لا يزال في الميدان ، وأسرعت فكتبت إليه خطاباً قلت فيه : إني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير الشعراء ، لأني أخشى أن أقول فيها كلاماً يصدني عن نقده إن رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد ، وهو ـ بارك الله في عمره ـ لا يكفّ عن مساورة الشعر والخيال في صباح أو مساء

وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع ، فغضب أشد الغضب وقال : « ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت ! ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ؟ لو طلب « شوقي » مني ما طلب منك — وأنا خصمه — لاستجبت بلا تردد ، فشوقي في رأيي هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبي »

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من « الشوقيات » ، وبه مقدمة الدكتور هيكل ، ونادى المنادي بوجوب الاحتفال بتكريم أمير الشعراء احتفالاً يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمم العربية ، وبرعاية الزعيم سعد زغلول

ثم يقام الحفل الحافل بدار الأوبرا الملكية في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٧ ، ويقول الشعراء والخطباء في « شوقي » ما يقولون بإطناب وإسهاب

ويلتفت الدكتور هيكل كاتب مقدمة « الشوقيات » فيرى من الواجب إصدار عدد خاص من (السياسة الأسبوعية) لتكريم « شوقي » ، ويُدعى للاشتراك في تحرير ذلك العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا الحديث . ويرى « شوقي » من حقه أن ينظر في محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان منها مقالي ... ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة مقدمة « الشوقيات » ؟ !

كانت (السياسة الأسبوعية) في تلك الأيام توجه التيار الأدبي في مصر وفي سائر البلاد العربية ، وكان إصدار عدد خاص عن شاعر من مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف ؛ ولكن « شوقي » لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيراً أو قليلاً من مقام أمير الشعراء

أخلاق شاعر الأخلاق[1]

غضب « شوقى » على ذلك العدد من (السياسة الأسبوعية) وكان « شوقى » إذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب ، فمضى أولئك المرتزقة يقولون فى الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الوريقات المتسمة زوراً بوسم الجرائد والمجلات ، فكتب الدكتور هيكل فى (السياسة الأسبوعية) مقاله المأثور : « أخلاق شاعر الأخلاق » ، وهو مقال فصّل فيه ما كان بينه وبين « شوقى » وتوعّده توعداً أليماً ، فقد نص على أن « شوقى » لن يظفر منه مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال !!!

ورأيت أن أرجع إلى الدكتور طه أستفتيه ، فابتسم وقال : كان مصيرك سيكون أفظع من مصير هيكل لو كتبت مقدمة « الشوقيات » !!!

ثم ماذا ؟ ثم ذهب « شوقى » الحقود ، « شوقى » الذى قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن يُنصب لها ميزان ، وبقى « شوقى » الشاعر ، « شوقى » الذى رثاه « المازنى » يوم مات ، بعد أن قال فيه ما قال !

دسائس صحفية

فسد ما بينى وبين شوقى بعد اعتذارى عن كتابة مقدمة الشوقيات ، فانقطعتُ عن لقائه بمكتبه فى شارع جلال ، وانقطع هو أيضاً فلم يعد يسأل عنى . وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة فى داره دعا إليها أساتذة الجامعة المصرية ، ولكنه تجاهل اسمى فلم يدعنى إلى استقبال ذلك الشاعر الصنّاج .

وسمع بذلك الحادث جماعة من الصحفيين فحرّضونى على إيذاء شوقى بمقال أو مقالين ، وزعموا أن مال شوقى لا ينال بغير الهجاء !

وما أنا ومال شوقى أو غير شوقى ؟

هل منحنا الله نعمة القلم الصوّال ، لنبتزّ الأموال ؟

إن شوقى الحقود حرمنى فرصة التمتع بصوت طاغور ، وما صوت طاغور بالقياس إلى الموسيقية الشوقية ؟

شوقى شاعر مصر ، وهو على جحوده أستاذ الأساتذة فى ميدان القصيد ، فمن الواجب أن أحفظ عهده إلى أن يموت ، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمى أو لسانى .

فعليك يا شاعرنا العظيم ألف تحية وألف سلام ! وحفظ الله عهدك بين أقطاب الأدب الرفيع !

كيف يدرس المتسابقون شعر شوقى

الغرض من هذه الدراسات هو توجيه من سيتبارَوْن فى مسابقة الأدب العربى ، فماذا نقول فى توجيه أولئك الشبان ؟

أهم قصيدة فى الجزء الأول من الشوقيات هى قصيدة « نهج البردة » . ولهذه القصيدة تاريخ يجدونه فى الطبعة الثانية من كتاب « الموازنة بين الشعراء » ، وما أريد أن أغتنم الفرصة فأعلن عن كتابى فى مجلة الرسالة بالمجان ، وإنما هى فرصة للطلبة الأعزاء ، فإن درسوا ما كتبتُ عن تلك القصيدة فى ذلك الكتاب فسيشغلون لجنة الامتحان بأبحاث تجوز بهم الصراط فى أمان .

وهنالك مرجع ينفعهم فى هذا الموضوع الدقيق ، وهو كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » ، وفى ذلك الكتاب تفصيل واف لتطور المدائح النبوية من عهد حسّان إلى عهد شوقى ، فقد بدأ هذا الفن مدحاً خالصاً ، ثم تحوّل إلى نزعة من « التشيّع » ثم صار فناً بلاغياً يسجل فنون « علم البديع » ثم عاد مدحاً صرفاً على لسان البارودى وشوقى والحملاوى ، مع تفاوت فى أسلوب الأداء[1] .

أما القصيدة الثانية فهى « الأندلس الجديدة » ، ويجب حفظها عن ظهر قلب ، لأنها من محفوظات لجنة الامتحان ، ولأنها فيما نعتقد أعظم قصيدة جاد بها الشعر الحديث فى تصوير التعاطف بين الأمم الإسلامية :

مقدونيا والمسلمون عشيرةٌ ... كيف الخؤولة فيك والأعمامُ
أترَيْنهم هانوا ، وكان بعزهم ... وعُلوُّهم يتخايلُ الإسلام
إذ أنتِ نابُ الليثِ ، كل كتيبة ... طلعتْ عليك فريسةٌ وطعامُ

وقد سما شوقى بهذه القصيدة سموًّا لا يدرك مداه غير من يَعرف أسرار الشعر وسرائر القلوب .

ولهذه القصيدة أهمية فى تأريخ شاعرية شوقى ، فقد كادت آراء النقاد تجمع على أن عبقرية شوقى لم تتفتح إلا بعد نفيه فى أيام الحرب الماضية ، وهو قد نظم هذه القصيدة فى سنة ١٩١٢ قبل النفى بأعوام .

---

(١) عنوان مقال للدكتور هيكل باشا

(١) أنظر همزية شوقى فى مدح الرسول ولاحظ تأثره بهمزية البوصيرى

ثم تجيء قصيدة « انتحار الطلبة » وهي قصيدة طوّقتْ بها وزارة المعارف بأطواق من حديد ، فالطالب المنتحر :

ناشئٌ في الورد من أيامه حَسْبُهُ الله أبالورد عَثرْ ؟
سدد السهم إلى صدر الصبا ورماه في حواشيه الغُرَر
بيدٍ لا تعرف الشر ولا خُلِقَتْ إلا لتلهو بالأكر

ولكن كيف صنع الطالب بنفسه ذلك الصنع المقوت ؟

قال ناسٌ : صرعةٌ من قَدَر وقديماً ظلمَ الناسُ القَدَرْ
ويقول الطبُّ : بل من جِنَّةٍ ورأيت العقل في الناس نَدَرْ
ويقولون : جفاءٌ راعَهُ من أبٍ أغلظَ قلباً من حجر
وامتحانٌ صَعَّبَتْه وطأةٌ شدَّها في العلم أستاذٌ نَكِر
لا أرى إلا نظاماً فاسداً فكك العلم وأودى بالأسر
من ضحاياهُ - وما أكثرها ! - ذلك الكاره في غض العُمُر

وتلك قصيدة نادرة ، فليتفهمها الطلبة وليحفظوها عن ظهر قلب ، فوضوعها يكاد يتجدد في كل يوم ، وهي تنهى عن آفة من آفات الضعف في هذا الجيل .

التغني بالآثار المصرية :

فاتحة الشوقيات هي قصيدة شوقي عن « كبار الحوادث في وادي النيل » وهذه القصيدة تصحح غلطة وقع فيها صاحب « الموازنة بين الشعراء » فقد نص على أن اسماعيل صبري هو أول شاعر سن مذاهب القول في وصف آثار الفراعين ، بعد أن ثار الجدال بينه وبين خليل مطران في سنة ١٩٠٤ ، ثم تشاء المقادير أن يعرف ذلك المؤلف أن شوقي سبق صبري في التغني بتلك الآثار الخوالد في القصيد الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤

فا ذلك القصيد ؟ هو قصيد طويل سجل به الشاعر ما كان لمصر من تحليق وإسفاف في أعوام تزيد على خمسة آلاف .

وهنا يظهر العجب العجاب ، فقد كان شوقي ناشئاً يوم نظم ذلك التاريخ ، ولكنه مع ذلك عرف كيف يهتف :

قل لبانٍ بنى فشادَ فغالى لم يجز مصرَ في الزمان بناء
ليس في المكنات أن تُنقل الأجـ ـبال شماً وأن تنال السماء
أجفل الجنُّ عن عزائم فرعو نَ ودانت لبأسها الآناء
شاد ما لم يشد زمان ولا أنشـ ـأ عصرٌ ولا بنى بنّاء
هيكلٌ تُنشر الديانات فيه فهي والناس والقرون هباء
وقبورٌ تحط فيها الليالي ويوارى الإصباح والإمساء

وهذه الباكورة كانت البشير بأن ستكون لشوقي مكانة في وصف آثار الفراعين

لقد طوّفت بأقطار كثيرة من الشرق والغرب ، فا رأت عيني مثل ما ترك الفراعين بوادي النيل ، وسيجتمع المؤتمر الطبي العربي بعد أيام بمدينة أسوان ، وسيعرف رجاله صدق هذا المقال بعد أن يزوروا آثار الأقصر ، عليها أزكى التحيات !

الحرب العثمانية اليونانية

هي حربٌ وقعت في عهد السلطان عبد الحميد ، ولم يذكر الديوان تاريخها بالضبط ، ولا اتسع وقتي لتحقيق ذلك التاريخ ، وأين من يصدق أني أكتب هذه الصفحات وأنا في « قطار الصعيد » ؟

هي إحدى قصيدتين اعترف فيهما حافظ بشاعرية شوقي ، ولم يكن حافظ يعترف لشوقي بشيء ، ولا كان شوقي يعترف لحافظ بشيء ، وآه ثم آه من تحاسد النظراء !

إعترف حافظ بقيمة البائية :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصرُ دين الله أيان تضرب

إعترف حافظ بقيمة هذه البائية في كتاب « ليالي سطيح » ولا أعرف الآن موقع هذا الاعتراف من ذلك الكتاب ، فعهدي بقراءته يرجع إلى زمن بعيد

أما القصيدة الثانية فهي بائية شوقي في « توت عنخ آمون » وكان حافظ يحفظ هذه البائية وقد أنشدنيها مرات ، وكان له في إنشادها ترجيع طريف

كانت البائية الأولى فتنة العصر الذي ظهرت فيه ، وكان جمهور الأدباء يحفظها عن ظهر قلب ، وراويها في هذا اليوم هو الأستاذ محمد سعيد لطفي بك ، وله بها هيام وغرام ، فهو ينشدها كلما لاحت فرصة للحديث عن شوقي

إقرأوا هذه البائية ، يا شباب اليوم ، لتعرفوا كيف نستهين بما ينظم الأطفال من الشعر في هذه السنين العجاف !

إقرأوا هذه البائية واحفظوها ، فهي من آيات الشعر الحديث

وما السيف إلا آية الملك في الورى ولا الأمرُ إلا للذي يتغلبُ
فأدّب به القوم الطغاة فإنه لنعم المربي للطغاة المؤدب
تنام خطوبُ الملك إن بات ساهراً وإن هو نام استيقظت تتألب

تعطيل أنقرة وعزل الآستانة

تلك قصيدة كافية تسجل انحسار الخلافة عن استامبول ، بعد حوادث تشيب ناصية التاريخ ، وتصور عزة الترك بأنقرة فى عهدهم الجديد

وفى هذه القصيدة توجع شوقى لعزل استامبول ، واعتذر عن أبنائها الأماجد ، فما نقلوا مركز الملك إلى أنقرة إلا رعاية لخطة من خطط الدفاع عن البلاد

لو أن سلطان الجمال مخلَّد   للبيحة لعذلتُ من عزلوك
خلعوك من سلطانهم فسليهمُ   أمِن القلوب وملكها خلعوك
لا يحزُننك من حُماتك خطة   كانت هى المُثلى وإن ساءوك
أبقال فتيان الحمى بك قصروا   أم ضيعوا الحُرمات أم خانوك ؟
وهم الخفاف إليك كالأنصار إذ   قلّ النصير وعزّ من يفديك
والشـترون بعالم ودمائهم   حين الشيوخ بجبـة باعوك
هدروا دماء الذائدين عن الحمى   بلسان مفتى النار لا مُفتيك
شربوا على سر العدو وغردوا   كالبوم خلف جدارك المدكوك
لو كنت مكة عندهم لرأيتهم   كمحمد ورفيقه هجـروك

وهو يشير فى هذه الأبيات إلى ما وقع من رجال الدين فى استامبول ، فقد أفتوا بوجوب مقاتلة الكماليين طاعة للحلفاء ، وكانوا احتلوا استامبول ، ولم يجلوا عنها بعد ذلك طائعين ، وإنما أكرهتهم السيوف الكمالية على الجلاء

والشاعر يجعل انتقال أتاتورك ورفاقه من استامبول إلى أنقرة شبيهاً بانتقال الرسول ورفيقه من مكة إلى المدينة ، وهو تشبيه على جانب من الجمال

انتصار الأتراك فى الحرب والسياسة

ثم يلتفت القارئ مرة ثانية فيرى شوقى يرجع إلى تمجيد أتاتورك من جديد ، بقصيدة بائية على غرار بائية أبى تمام فى فتح عمورية ، وقد تلاعب فيها بالمعانى وجال فى فنون القول كل مجال

كان عصمت باشا مندوب الأتراك فى مؤتمر لوزان ، وكان رجلاً ضعيف السمع لا يصل إليه الصوت إلا بالصياح ، فجمله شوقى :

أصمّ يسمع سر الكائدين له   ولا يضيق بجهر الحنق الصخب

والذى يقرأ أخبار الحرب فى هذه الأيام يرى الانسحاب يوصف بالجمال ، وقد سبق شوقى لغة هذه الأيام فقال فى انسحاب اليونان :

جدّ الفرارُ فألقى كل معتقل   قناته وتخلّى كلّ محتقب
يا حُسنَ ما انسحبوا فى منطقٍ عجَب
تُدمى الهزيمةُ فيه حُسنَ مُنسحَب

وكان ساسة اليونان منّوا شعبهم بمملكة جديدة فى بلاد الترك ، فقال شوقى :

هم حسّنوا للسواد البُله مملكةً
من لِبدة الليث أو من غِيله الأَشِبِ
وأنشأوا نزهةً للجيش قاتلةً   ومن تنزه فى الآجام لم يؤب

وكان الدكتور طه حسين كتب مقالاً فى جريدة الاتحاد أراد به التهوين من شأن هذه البائية ، فهل ينظر فيها من جديد ليعرف أنه كان من المخطئين ؟

رحالة الشرق

وهذه قصيدة عينية قالها شوقى فى تكريم الرحالة محمد حسنين باشا ، وكان استكشف واحتين فى الصحراء اللوبية ، ويضيق المقام عن شرح ما فى هذه القصيدة من أغراض ، ومع هذا لا يفوتنى أن أدل الطلبة على سجية شوقى فى الجنوح إلى التأمل العميق من حين إلى حين . وهل وازنَ أحدٌ بين الصحراء والحياة على نحو ما وازنَ بينهما شوقى إذ يقول :

كم فى الحياة من الصحراء من شَبَهٍ
كلتاهما فى مفاجاة الفتى شَرَعُ
وراء كل سبيل فيهما قَدَرٌ   لا تعلم النفس ما يأتى وما يدع
فلست تدرى وإن كنت الحريص متى
تهب ريحاهما أو يطلُع السبُعُ
ولست تأمن عند الصحو فاجئةً
من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدرى وإن قدرت مجتهداً
متى تحط رحالاً أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى
أن الدليل وإن أرداك متبَع

والبيت الأخير من وثبات الخيال

***

أما بعد فهذه كلمات سريعة بددت بها ساعات من الطريق بين القاهرة و « المنية » ولن أنظر فيها بعد ذلك ، فليتلقها القارئ على هواه ، بالحمد أو باللام ، وهل يكلف الله نفساً فوق ما تستطيع ؟

أثنيتُ على شوقى مرات وأنا أراجع الشوقيات ؛ ثم لمتُه مرة أو مرتين !

لقد أشرف بنفسه على طبع الجزء الأول والثانى ، فما كان ضرَّه لو أرَّخ جميع القصائد ، ونصَّ على جميع المناسبات ليتمثل القارئُ صور البواعث الروحية أو السياسية ؟

قصائد شوقى تمثل معضلات عصره أصدق تمثيل ، ولكن القراء لن يروها خليقة بهذا الوصف إلا إذا شُرحتْ مناسباتها بإسهاب ، فأين من ينهض بهذا الواجب قبل أن تنسى تلك المناسبات ؟

ثم أقول إن الشوقيات زادت إيمانى بمجد بلادى ، فقد امتطيت القطار وأنا متخوِّف من ضجر الطريق ، وما هى إلا لحظة حتى كانت الشوقيات وحياً يهتف بأن كل بقعة من أرض مصر معهد مجد أو محراب فتون

ليت شعرى والدهر حرب بنيه   وأياديه عنــــدهم أفياء

ما الذى داخلَ الليالى منا   فى صبانا وللبـــالى دهاء

فى هذه اللحظة أشعر بالندم على أنى ركبت القطار السريع ، ولم أركب القطار « القشَّاش » ، وهو القطار الذى يقف على جميع المحطات ، ويباع فيه القصب والبرتقال بسخاء ؟ !

وما أسعد من يمر بالقطار على جميع المحطات المصرية ، وقد بلغ عددها (٥٣٢)

يمر القطار السريع على قرى الصعيد مرور الطيف ، فلا يكاد المسافر يتذكر أن كل قرية من تلك القرى فيها أرواح وقلوب ، ولأهلها تاريخ أو تواريخ

هذه منارة تدل على مسجد ، فأين من يذكر أن مساجد الصعيد كانت لها أياد بيض فى حفظ العلوم الإسلامية ؟

وذلك فلاح يناجى الأرض مناجاة الحبيب للحبيب ، فأين من يذكر أن الفلاح المصرى قد يكون أخوف الناس من الله ، ثم لا تمنعه تقواه من انتهاب شبر أو فتر من أرض الجيران ؟

وهل يستطيع أحدٌ أن يقنع الفلاح المصرى بأن الجنة أجمل من أرضه الغالية ؟

ذنبُك مغفور — أيها الفلاح — فاعص الله كيف شئت فى انتهاب أرض جيرانك ، فذلك شاهد بأنك تقدر نعمة الله على أهل هذه البلاد !

ثم ماذا ؟ ثم أذكر أن هذا الكلام يخرج عن موضوع هذا المقال ، وأنى سأصل إلى « المنية » بعد لحظات ، وأن التمادى فى الثرثرة أمرٌ غير مقبول !

وما ذنبى إذا فتنتْنى بلادى ؟

أمِنَ الإثم هُتافى بالجمال   فى بلادٍ كلُّ ما فيها جميلْ

لو بعينى نظر اللاحى وجال   لرأى الفتنــة فى كل سبيل

حار الناس فى تعليل التفاوت بين شوقى وحافظ ، لعرفانهم بأن حافظ كان أذكى من شوقى بمراحل طوال ، فهل آن لهم أن يعرفوا أن شوقى تقدم لأنه كان من أكابر المُلاَّك فى هذه البلاد ، وأن حافظ تخلّف لأنه بشهادة نفسه لم يملك من أرض مصر نصف فدان ؟

ما أنا وهذا الكلام ؟ هذه ثرثرة لا تليق برجل منَّ الله عليه بركوب قطار الصعيد ، وهو قطار يساير نهراً بين جبلَيْن ، وتلك حال توحى بإعزاز السرعة والقسوة واللين ، ومن هذه العناصر الثلاثة يتكون جسر الخلاص ؟

أحبك — يا وطنى — أحبك أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول

أحبك — يا وطنى — وأستعذب عذابى فيك ، لأنك فى عينى وقلبى غاية فى روعة الجمال

لم يُعانِ أحدٌ من الظلم فى وطنه مثل ما عانيت ، فما زادنى ذلك الظلم الأثيم إلا عرفاناً بجمال وطنى . وهل رأيتم جميلاً غير ظلاَّم ؟ ؟

(قطار الصعيد فى ١٧/١٢/٤١)   زكى مبارك

مظاهر النظام التجارى النازى

للأستاذ فؤاد محمد شبل

إن دراسة طرائق ألمانيا التجارية أمر من الأهمية بمكان ، إذ يقودنا إلى تفهم أساليبها فى السيطرة الاقتصادية على وسط أوربا والبلقان التى تهمها النفوذ السياسى . كما تعتبر هذه الأساليب أهم جانب يشرح لنا النظام الجديد فى أهم صوره العملية ، ويظهر للعالم ما ينتظره من ورائه وما يتوقعه من تطبيقه من إلغاء حرية التعامل وتقييد التبادل تقييداً غير محدود المدى ، وتدخل الدولة فى كل ما جل ودق من شؤون الفرد . وسيظهر لنا تحليل السياسة التجارية التى اتبعت فى فترة تولى النازى أزمة حكم ألمانيا أن هذا النظام معناه تسخير الشعوب لمد ألمانيا بما يعوز صناعاتها من المواد الخام ، فضلاً عن إلغاء جميع الأوضاع النقدية المقررة التى ألفها العالم واطمأن إليها ، كما يبين لنا شرح هذا النظام مدى مسؤوليته عن الحرب الحاضرة

١ — تقييد حرية نقل الأموال

يعتبر عام ١٩٣١ السنة التى ولد فيها نظام التحكم فى التجارة الخارجية الذى كانت الغاية المرجوة منه الحيلولة دون سحب القروض الأجنبية من ألمانيا التى كانت دعامة ترتكز عليها قيمة المارك فى الخارج . ولما تولى النازى أزمة الحكم فى ألمانيا ، هرعت رؤوس الأموال الأجنبية فيها إلى الخروج منها حتى بلغت قيمة ما سحب منها ٥ر٤ مليار ريشمارك فى المدة ١٩٣٢ — ١٩٣٤ . هنا صدر مرسوم يقيد نقل الأموال التى يحصل عليها الأجانب من استثماراتهم داخل ألمانيا ، وخول للمدينين الألمان التخلص من التزاماتهم تجاه الخارج بإيداع قيمتها ماركات فى حساب خاص فى برلين . على أنه استمر تحويل الفوائد والأقساط المستحقة لقرض (داوز) والفوائد المستحقة لقرض (يونج) . أما أقساط الاستهلاك للقروض الأخرى ، فقد أوقف صرفها ، ودفعت نصف الفوائد المستحقة لها ، تحسب بالعملة الأجنبية إلى نهاية سنة ١٩٣٣ . أما الفوائد غير المحولة ، فإن الدائنين الأجانب منحوا سندات فى مكنتهم بيعها لبنك خصم الذهب ليحصلوا مقابلها على العملة الأجنبية . بيد أن هذا البنك لم يكن ليقبل شراء هذه السندات إلا بنصف قيمتها الأسمية ؛ أما النصف الآخر فكان يستخدمه البنك المذكور لإعانة الصادرات التى يؤمل الحصول — عن طريقها — على النصف الذى يحول . فكان الدائن الأجنبى يخسر من هذه العملية ربع الفوائد المستحقة له . ولقد جلبت ألمانيا فى هذا الحين على نفسها السخط من جراء تنظيمها التحكمى للنقد الأجنبى ، وسماحها بوجود عدد من فئات الماركات تعمل فى درجات مختلفة من الخصم ، إلا أنها كانت تبرر هذه الإجراءات بأن الدول الدائنة ترفض أن تقبل ديونها بضائع

وفى صيف عام ١٩٣٤ أصبح التبادل الألمانى الخارجى فى أسوأ الحالات ، فعلى حين كانت الواردات الألمانية فى ازدياد ، كانت الصادرات فى هبوط . فقاد هذا بالطبع إلى تواصل الضغط على الذهب وعلى العملة الأجنبية التى بها تدفع ألمانيا ديونها للخارج، فأصبح من المتعذر عليها الاستمرار فى عمليات التحويل وفقاً للأساس السابق مما دعاها فى يونية ٩٣٤ إلى إيقاف صرف الفوائد المستحقة عليها بالعملة الأجنبية وعرضت على الدائنين الأجانب سندات أجلها عشر سنوات بفائدة ٣ ٪ . وأسرعت البلاد الدائنة إلى المفاوضة مع ألمانيا للحصول على شروط أسخى ؛ وكثير منها قبل عقد اتفاقات مقاصة لتسوية ديونه ، وهذه الاتفاقات كان أثرها مزدوجاً فزادت صادرات ألمانيا إلى البلاد التى قبلتها وزادت صادراتها هى إلى ألمانيا

ولقد كان النظام المتبع فى الاستيراد منح المستوردين الألمان حصة من العملة الأجنبية بقيمة ما استوردوه فى عام ١٩٣١ . إلا أن هذه الحصة هبطت فى فبراير ١٩٣٤ إلى ٥٠ ٪ منها ؛ وفى مايو من نفس السنة أصبحت ٥ ٪ وأخيراً غدت تقدر يوماً بيوم طبقاً لنظرة بنك الريخ وخطته إزاء العملة الأجنبية

٢ — نظام المقاصة الفردية

فى سبتمبر ١٩٣٤ أعلن الدكتور شاخت وزير الاقتصاد

منهاجاً جديداً للتجارة الخارجية ، فألغى نظام الحصص السابق واستعيض عنه بنظام يقوم على الحصول على شهادة قبل إجراء كل عملية تتعلق بالتبادل الخارجي . وتنفيذاً لهذه الفكرة أنشئت سبع وعشرون إدارة تمثل سبعاً وعشرين صناعة أو مادة أولية ؛ وهذه الإدارات أصبحت المسئولة عن إعطاء تصاريح الاستيراد وعلى تقرير لأى البلاد أو لأى السلع تستخدم هـذه التصاريح . ولهذه الإدارات إشراف على الصادرات كذلك

ولقد أظهر التطبيق العملي للسياسة الجديدة مدى قيامها على المتاجرة الثنائية ومبادلة السلعة بالسلعة . كما أنشأت نظاماً متشابك النواحي لاتفاقات المقاصة الفردية التي تمثلت في طرائق ثلاث نشرحها على الوجه التالي :

مدار الطريقة الأولى أن المستورد الألماني الراغب في شراء سلع من الولايات المتحدة مثلاً يسعى للعثور على مصدر ألمـاني يريد بيع سلع للولايات المتحدة ، ولـكنه لا يستطيع الحصول على ثمن ما باعه الذي يبلغ بسعر الصرف س ٪ (مثلاً) أكثر من السعر العالمي . فعلى المستورد الألماني أن يدفع الـ س ٪ هذه وبذلك يمكن المصدر من تقبل السعر العالمي لسلعته . وفي مقابل الحصول على هذه الـ س ٪ يقبل المصدر الألماني التنازل عن حقوقه في النقد الأجنبي الذي يحصل عليه من بيع بضاعته إلى الولايات المتحدة . ولـما كان قد دفع علاوة س ٪ للمصدر فإنه يتقاضاها برفع سعر السلعة داخل ألمانيا. ومن الواضح أن مقدار الإضافة سالفة الذكر (س ٪ فرضاً) تتغير بتغير العلاقة بين مستوى الأثمان في الداخل والخارج كما يتعلق بطبيعة السلعة المستوردة ومدى الطلب عليها

والشكل الثاني الذي اتخذه نظام المقاصة يجرى على النسق التالي : مستورد ألماني (ا) يرغب في الحصول على سلعة من مصدّر إنجليزي (ب) . فإنه يعرض عليه إضافة في السعر الذي يشترى به زيادة عن السعر العالمي للسلعة المشتراة . والمصدّر الإنجليزي بدوره — لضمان حصوله على ثمن سلعته — يبحث عن مستورد إنجليزي (جـ) على استعداد أو يمكن ترغيبه (بإعطائه جانباً من الإضافة المذكورة آنفاً) لشراء السلعة التي يصدرها مصدّر ألماني آخر (د) . وتتم العملية كلها بحدوث المقاصة بين (جـ) و (ب) بالاسترليني وبين (ا) و (د) بالريشمارك !

الشكل الثالث للمقاصة هو نظام ماركات الأسكى ، ومضمونه أن المصدر الأجنبي الذي يبيع سلعته لألمـانيا يتقاضى نظيرها اعتماداً بماركات الأسكى . وهذا النوع من الماركات يمكنه بيعها — بخصم كبير — لمستورد السلع الألمانية . وبهذا يستطيع أداء ما اشتراه من ألمانيا بهذه الماركات . ولما كانت ماركات الأسكى هذه لا يتأتى بيعها إلا بعد دفع جانب منها . فكان المصدّر الأجنبي يدخل في حسبانه هذا الأمر فيزيد ثمن سلعته بما يحقق له الحصول على الثمن الأساسي . هذا وقد خصص لـكل قطر نوع خاص من ماركات الأسكى

٣ — مساوئ نظام المقاصة

العيب البارز في سياسة المقاصة كما ظهر تطبيقاً في ألمانيا هو تعقد أوجهها وتشابك مناحيها وعظم تكاليفها ، عوامل كان لها أثر بالغ في الحد من تقدم تجارة ألمانيا الخارجية . يضاف إلى ذلك أن تقييد الواردات مع زيادة الطلب على المواد الخام قد حتم تقييد توزيع هذه المواد داخل ألمانيا ، وتطبيق اتفاقات المبادلة والمقاصة في تجارة ألمانيا الخارجية معناه تقليل نصيبها من القطن الأميركي والصوف الاسترالي وغير ذلك من حاصلات البلاد التي تعتنق مبدأ حرية التبادل . وفي كثير من الحالات كان التباين كبيراً بين المواد الأولية موضوع المقاصة والمواد التي تتطلبها حاجات الصناعة . وهذا ما ظهر أثره واضحاً في صناعة المنسوجات الألمانية بسبب احتياجها إلى المواد الخام واختلاف نوع المواد المستوردة عن المطلوبة من الجهة الأخرى .

وأخيراً فإن تقرير سياسة القيمة الإسمية للمارك في الخارج جعل أسعار الجملة الألمانية أعلى من مثيلاتها في الخارج فأصبح من الضروري إعانة حركة الصادرات بشتى الوسائل . وهذا ما تحقق بفرض ضريبة على الصناعة بلغت في عام ١٩٣٥ حوالى الألف مليون مارك أي من ربع إلى خمس القيمة الأسمية للصادرات الألمانية في هذه السنة . وقد حاول الاقتصاديون الألمان تبرير هذا الإجراء بقولهم إنه تدبير اتخذ لمجابهة هبوط العملات الخارجية ولا يقصد به إغراء الأسواق الأجنبية بالبضائع الألمانية .

وإزاء هذه العيوب الخطيرة عمدت الحكومة الألمانية إلى تثبيت مستوى الأسعار فى داخل ألمانيا، ومنع تصدير رؤوس الأموال منها على نطاق واسع، وذلك بأن لا تستورد إلا ما تستطيع دفعه مما تحصل عليه من صادراتها، وأن توجه صادراتها إلى تلك الأقطار التى تتقبل بضائعها، والتى ألمانيا فى حاجة إلى منتجاتها. وتنفيذاً لهذه السياسة أنشئت شبكة من الإدارات لا تشرف على الواردات فحسب، ولكن على تنظيم حركة المواد الأولية داخل ألمانيا أيضاً

٤ — الميزان التجارى

حققت سياسة توجيه التجارة والإشراف عليها الغاية المرجوة منها من توازن ميزان ألمانيا التجارى، فبينما نتج عن عام ١٩٣٤ عجز فى ميزان ألمانيا التجارى قدره ٢٨٤ مليون ريشمارك أسفر عام ١٩٣٥ عن موافقة الميزان التجارى لها بنحو ١١١ مليون ريشمارك، وصعد هذا الرقم إلى ٥٥٠ مليون ريشمارك فى عام ١٩٣٦، وتعزى هذه النتيجة أساساً إلى تقييد الواردات التى هبطت فى عام ١٩٣٦ عن مثيلتها فى عام ١٩٣٤ بنحو ٢٣٣ مليون ريشمارك. ويلاحظ تغير فى نوع السلع المستوردة فى عام ١٩٣٦ عن تلك فى عام ١٩٣٤، فقد زاد المستورد من المواد الغذائية قليلاً فشغلت ٣٦ر٦ ٪ من مجموع الواردات فى عام ١٩٣٦ مقابل ٣٤ر٦ ٪ فى عام ١٩٣٤. أما المواد الأولية ونصف المصنوعة فقد شغلت ٥٥ ٪ فى عام ١٩٣٦ مقابل ٥٢ر٤ ٪ فى عام ١٩٣٤ فى حين هبطت نسبة الوارد من البضائع التامة الصنع من ١٢ ٪ من مجموع واردات ١٩٣٤ إلى ٩ر٤ ٪ من واردات ١٩٣٦ كما كان هناك تغير ملحوظ فى واردات ألمانيا. فقد زادت وارداتها من البلاد المجاورة لها وخاصة أوربا الجنوبية الشرقية وأميركا الجنوبية بينما هبطت وارداتها كثيراً من الولايات المتحدة واستراليا وفرنسا وهولندا وروسيا

أما الصادرات فقد زادت فى عام ١٩٣٦ عن مثيلتها فى عام ١٩٣٤ بنحو ٦٠٠ مليون ريشمارك، وتعزى هذه الزيادة إلى حد كبير إلى انتعاش أحوال التجارة العالمية كما يرد جانب منها إلى إعانة التصدير التى أشرنا إليها، وإذا ما علمنا أن ثمن واردات ألمانيا قد ارتفع بين عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ بمقدار ٣ر٨ ٪ بينما هبط ثمن صادراتها فى نفس المدة بمقدار ٢ر٨ ٪ فادركنا أن التبادل التجارى بمعناه الصحيح لم يكن موافقاً لها، مما جعل مركزها التجارى يزداد صعوبة، ولم ينتج الفائض فى الميزان التجارى فى عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ لألمانيا إلا حظاً ضئيلاً إذ كان عليها أن تدفع فوائد ديونها الخارجية التى ارتفعت فى عام ١٩٣٥ إلى ٥٥٠ مليون ريشمارك بسبب بعض اتفاقات المقاصة مع فرنسا ويوجوسلافيا بصفة خاصة

ولقد زادت واردات ألمانيا من ٤ر٢ مليار ريشمارك فى عام ١٩٣٦ إلى ٥ر٥ مليار ريشمارك فى عام ١٩٣٧ وصادراتها من ٤ر٨ مليار إلى ٥ر٩ مليار. وبلغت زيادة صادراتها عن وارداتها ٤٤٣ مليون ريشمارك فى عام ١٩٣٧ مقابل ٥٥٠ مليون ريشمارك. وبهذه الزيادة فى الصادر والوارد استطاعت ألمانيا أن تساهم فى حركة الإنعاش العامة للتجارة الدولية فى عام ١٩٣٧. بيد أن التبادل التجارى ظل فى غير مصلحتها بالنظر لزيادة أثمان وارداتها بمقدار ١٠ر٢ ٪ فى حين زادت أثمان صادراتها بنحو ٣ر٦ ٪ فحسب وكان الميزان التجارى غير موافق لألمانيا فى عام ١٩٣٨ نظراً لهبوط معدل صادراتها من جهة وزيادة وارداتها من المواد الخام التى عملت على تخزينها استعداداً للحرب. ومن الحرى بالذكر أن صادرات ألمانيا تتكون غالباً من المواد التامة الصنع التى تكون السلع الإنتاجية فيها نسبة كبيرة جداً وبالتالى فهى أكثر تأثراً بالأزمات الاقتصادية من الصادرات البريطانية مثلا الأكثر تغيراً وشمولاً

وفى مقال تال سنشرح اتجاهات التجارة الألمانية قبل الحرب وطرائق التوسع التجارى الألمانى.

فؤاد محمد شبل
مفتش تموين الاسكندرية



علماؤنا يعودون إلى المجتمع

لأزهرى كبير

... وأخيراً حققت الآمال العظيمة التي طمح إليها دعاة الإصلاح في مصر والشرق الإسلامي ، وتوّج هذا الجهاد الحافل بالفوز والتوفيق ، فأنصت الأزهر لهذه الدعوة الصارخة ، وآمن بها ، وأخذ يضيف إلى تاريخه التليد صفحات طريفة مجيدة . فمنذ أسابيع قرأنا أن عضواً بارزاً من جماعة كبار العلماء قدم إلى الجماعة اقتراحاً جديداً تشيع فيه الرغبة الصادقة في توجيه الثقافة في هذه الجامعة العظيمة وجهة جديدة صالحة تجمع بين أمرين عظيمين :

الأول : بعث روح الإنتاج العلمي ، والاضطلاع بأعبائه في شتى فروع الثقافة الدينية .

الثاني : العناية بشئون المجتمع ، وبحث مشكلاته الخلقية والاجتماعية والاقتصادية وبيان موقف الدين الإسلامي حيالها .

ثم علمنا أن هذا الاقتراح يشق طريقه نحو التنفيذ ، فأيقنا أن الأزهر مصمم على السير إلى أبعد غايات الإصلاح ، مؤمن بتوفيق الله ورعايته .

ولا يخالجنا شك في أن الجماعة – وقد ضمت عناصر جديدة ممتازة – ستظفر بتحقيق هذه الآمال ، وستكتب في تاريخ الأزهر الحديث أروع الصفحات . وليس هذا على الجماعة بكثير فقد عني بها الأستاذ المراغي عناية كريمة فآثر بعضويتها أولي الكفايات من العلماء الحريصين على مسايرة الحياة إلى أسمى غاياتها ، وتوجيه الحياة الاجتماعية بنور الدين وهدايته .

إن المجتمع في حاجة إلى الأزهر ، والأزهر في حاجة إلى المجتمع ، ولا ريب في أن اتجاه علمائنا نحو المجتمع وبحث شئونه ومشاكله ستجعل الناس على بينة من دينهم ، وتهديهم إلى سبل الخير والفضيلة والرشاد .

لقد مضى زمن الجدل العقيم في العقائد ، والبحث النظري في القشور دون اللباب ، وسئمنا الكلام في المياه التي يجوز بها التطهير والتي لا يجوز ، وفي إثبات كرامة الأولياء ونفيها ، وفي طبقات السماء أمن فضة هي أم من ذهب ، إلى غير ذلك ؛ وها نحن أولاء نشاهد إشراق عهد جديد يشارك فيه علماؤنا الناس ، وينزلون من عزلتهم التقليدية إلى حيث يسير الناس وتتحرك الحياة ، ويضعون شئون المجتمع ومشاكله نصب أعينهم ، ويقفون منه موقف الناصح الأمين .

ولعمري لقد ملأ الإيمان قلوب الناس ، بل وعقولهم يوم كان الدين روحاً وعقيدة وخلقاً وعملاً . ولم يمتحن المسلمون بأعظم من الجدل في العقيدة والخلاف في الدين ، حتى أحلّ ما كان معقوداً من ألفتهم ، وخمد ما كان متأججاً من روحهم . ولقد ظهر الغزالي في عصر مفعم بالفتن والاضطرابات والجدل والخلاف ، فدعا الناس إلى دين الله بلغة العاطفة والقلب حين رأى الدعوة إليه من طريق الخصومة والجدل داعية فتنة وثائرة ضلال ؛ ولكن الغزالي يئس من المجتمع لأنه كان يود أن يراه مجتمع ملائكة أبرار لا مجتمع شياطين أشرار ، فزهد في الحياة ، وعزف عن المجتمع ، واعتزل الناس ، إيثاراً لسلامة الدين والنفس وبعداً عن شرور المجتمع وسيئاته ؛ وقلده في مذهبه الاجتماعي أصحابه ومريدوه ، فظلت تلازم الروح نزعة لعلمائنا حتى العصر الحديث .

ولقد كانت أسمى غاية للأستاذ الإمام محمد عبده من إصلاح الأزهر أن يحمله على الاندماج في المجتمع ، والتغلغل في أعماقه ، والسمو به — عن طريق الإرشاد والتهذيب الديني الصحيح — إلى أبعد ما يستطاع من غايات ؛ وكان يريد من وراء ذلك أن يذكي في الأمة الإسلامية روح القوة والفضيلة ، وأن يدفع بها إلى الحياة الكريمة العزيزة ، لتستطيع أن تذود عن حريتها ، وتحافظ على تراثها المسلوب ، وحتى يتسنى لها — إذا تابعت السير في هذا المضمار — أن تستعيد ما كان لها من مجد باذخ

بحث مقارن

الوضع الاجتماعى للمرأة في الاسلام

للأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر

(تتمة ما نشر فى العدد الماضي)

(٦) الدين الإسلامى قد قرر استقلال المرأة بمالها وبحريتها فى حدود معقولة لا حرج فيها ولا تضييق . فالمرأة المسلمة تعتبر من الناحية القانونية الشرعية حرة فيما تملك من مال وعقار ، لا يمنعها مانع من التصرف بأى نوع من أنواع التصرفات ، ويجرى عليها فى ذلك ما يجرى على الرجل سواء بسواء ، وهما أمام القانون سواسية كأسنان المشط مهما كانت درجة قرابتها به ، وانتسابها إليه ، كما أنه ليس لزوجها أن يطلع على أسرارها إلا إذا حدث منها ما يوقعه فى الشبهة ، ولا يسافر بها إذا شرط لها أن لا يخرجها من بلدها

وجلال قديم ، فتسير فى قافلة الحياة البشرية داعية خير وهدى وسلام . ولقد أبى الأزهر حينئذ أن يستجيب لدعوة الأستاذ الإمام ، وآثر أن يبيض فى ظلام الجمود والحيرة عزوفاً عن الجديد الذى كان يؤمن بأنه بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ...

وبعد ربع قرن من وفاة الأستاذ الإمام تكشفت غيوم الحيرة ، وخضدت شوكة الجمود وحماته ، وألقيت مقادة الأزهر فى يد تلميذ من تلامذة الإمام ، فأخذت دعوته طريقها إلى قلوب الأزهريين وعقولهم ، وسرت فى الأزهر روح جديدة ، وأيقن رجالاته بضرورة الإصلاح ، وإن اتجهوا فى ذلك وجهات مختلفة متباينة ...

فليهد علماؤنا إلى المجتمع حاملين فى ظلمات الحياة الاجتماعية نور الدين وهدايته ، ناشرين فى ضلال الحياة الإنسانية دعوة الله ورسالته ، هادين الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم ...

(باحث)

---

(٧) وقد ترفق الدين الإسلامى بالمرأة بما يتناسب وكرامتها وعفتها ، وظروفها الاجتماعية ، ولها فيه أحكام خاصة بها من طهارة ، وصلاة ، وصيام ، وحج ، وزواج ، وطلاق ، وجهاد ، وشهادة وحداد ، وكل ما يتصل بشئونها

(٨) والمرأة فى الإسلام غير مكلفة بتعلم مالا حاجة لها به فى دينها وبيتها الذى ألقيت إليها مهمة إدارته وتدبير شئونه كلها على أحسن وجه . وليس لولى أمرها أن يلزمها طلب القوت ، وإذا كانت لا عائل لها فلا يمنعها من أن تتعلم ما تريد لا لتنافس الرجال ولكن لتعيش . وتحبيبا لها فى وظيفتها التى هيأتها الطبيعة لها قال رسول الله (ص) مخاطباً النساء جميعاً : « مهنة إحداكن فى بيتها تدرك جهاد المجاهدين إن شاء الله » . ولعلى لا أجاوز الصواب إذا قلت إن تعليم المرأة علوم الرجال يفسد أنوثتها فساداً لا يمكن إصلاحه ، ولا حتى تخفيف آثاره . وإذا كانت حياتنا الاجتماعية المضطربة قد سمحت لنفر من الكتاب المنافقين أن يضللوا المرأة ، ويخدعوها ، ويحرضوها على الالتواء عن وظيفتها الطبيعية وعلى أن تلج أبواب الجامعة والمدارس العالية حباً فى العلم ذاته فإنهم بذلك يقولون بألسنتهم مالا يؤمنون به فى قلوبهم . فهم أنفسهم الذين عادوا ، بعد إذ لبت المرأة دعوتهم تحت تأثير إغرائهم ، يصرخون مما ترتب على تلك الحال من مآس موجعة ، وضلال كبير ، وينذرون المجتمع بالويل والثبور ! وبجوار هؤلاء الداعين الزاعقين فريق آخر يتظاهر بالرصانة ولكنه لا يقل عنه خطراً إذ يهدئ الروع كذباً ، ويطامن النفوس عن غش وملق ، ولو كشفت من نية هذا الفريق الأخير لوجدت أن ما يقصده هو أن الذى يفزع منه الناس اليوم سيصير فى اعتقاد الجيل القادم شيئاً عادياً ، لا شىء فيه ، وهو تطور حقيق فى نفسية الشعوب ! وليس أدل على صواب العقيدة الإسلامية وبعد نظر الإسلام من أقوال بعض أساطين أوربا ودهاقينها فى كل العصور . فقديماً قال نابليون العاهل الفرنسى العظيم « إن التعليم العام لا يتفق وطبيعة المرأة لأنها لم تخلق لتعيش بين الجماهير ؛ فإن الزواج وتدبير شئون البيت هما أجل ما تحلم به كل امرأة غير شاذة » . وقال حكيم أوربى « إن أماً صالحة لخير من مائة معلم » وقال فيلسوف فرنسى « إنى لا أعترض على زوجة جارى إذا رأيتها تحرق رأسها وتمزق أعصابها فى الكتابة والتأليف ، ولكنى أريد من زوجتى ألا تعرف سوى حبا كما

الملابس وإتقان طهي الطعام » . وما أبلغ قول من قال منهم إن المرأة التي تقلد الرجال ترتكب خطأين في وقت واحد ؛ فهي تزيد عدد الرجال الآثمين ، وتنقص عدد النساء الصالحات ! »

ومن الغريب أن وزارة المعارف تتجاهل فيما تتجاهل هذه الحقيقة ؛ فهي لا تهتم بتهيئة الفتاة للقيام بوظيفتها الطبيعية اهتمامها بحشو رأسها الصغير بعلوم لا حاجة لها بها ، وتجعلها مغرورة بنفسها ، غير ملمة بمهمتها الأصلية وهي « البيت » أولاً وآخراً . فالفتاة التي تقتصر على التعليم الابتدائي أو الأولي لا تدري قليلاً أو كثيراً عن ذلك البيت الذي ينتظرها ، والزوج الذي يحلم بها . وتشاركها في ذلك أختها التي تلج أبواب الجامعة . أما المدارس التي تلقن الفتيات التدبير المنزلي ، أو الثقافة النسوية فهي قليلة ، ولا توجد إلا في مدن تعد على أصابع اليد . ووزارة المعارف ترتكب بذلك ، ولا شك ، في حق أمهات المستقبل خطأ لا يغتفر !

٩ — ولما كان الله قد اختار لكل دين خُلقاً فقد جعل خلق الإسلام الحياء . والله سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك عبثاً ، فعصمة المرأة في حيائها ، وخروجها عن ذلك الحياء يكلفها الكثير من التضحيات المرة التي لا قِبَل لها بها . فالمرأة التي تبدو في الطريق شبه عارية ، وتخالط الرجال في المجتمعات الصاخبة مخالفة للحياء وموقظة للفتنة النائمة . وذلك لأن المرأة بحكم طبيعتها مثار إعجاب الرجال ، ومحط أنظارهم ، وهدف اهتمامهم مهما تنكرت ، وهي مزهوة بذلك مهما أنكرت ! وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء فإنه إذا كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذي ليس له دواء » وقال : « والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما » . وسأل يوماً إحدى بناته : « أي شيء خير للمرأة ؟ » فقالت : « ألا ترى رجلاً ، وألا يراها رجل » فضمها النبي إلى صدره وقال : « ذرية بعضها من بعض » . والدين الإسلامي يتشدد في المباعدة بين النساء وغير محارمهن من الرجال لا يريد بذلك أن يحجر على حريتها ، ولا أن يحرم عليها التمتع بمباهج الحياة جميعاً ، وإنما يبغي صونها من كل سوء لأن سمعتها تتأثر من كل شيء . والذين يخدعونها عن هذه الحقيقة لا يرحمونها إذا علق بها أقل شك ، أو لحقت بها أدنى ريبة ! وليس المخلوق أرحم أو أعلم بالمرأة من خالقها الذي صنعها . والدليل على ذلك كثرة حوادث الطلاق بين الطبقات أو الأسر التي لا تبالي بتقاليد دينها ،

وتركت الأمر فوضى بين أفرادها . وإلا فليذكر لنا أولئك السادة أي شيء أفادته المرأة المسلمة من تمزيق نقاب الحياء ، وهجرها لبيتها ، واختلاطها بالرجال ؟ وليقارنوا مقارنة بسيطة بين مركزها الاجتماعي على هذه الحال ، ومركزها الاجتماعي الذي حدده لها الدين !

وعليه فليس في التزام المرأة المسلمة لبيتها ، وعدم اختلاطها بالرجال الأجانب عنها خمول ولا ذلة ولا حرمان من مباهج الحياة وإنما فيه انصراف إلى واجبها ، ومحافظة على سمعتها ، وتعفف عما يؤذي كرامتها ومستقبلها . وفي حدود حريتها المعقولة تستطيع أن ترقى ، وتتذوق متع الحياة ، وتتعلم ، وتأخذ بأساليب المدنية الحديثة الرفيعة .

١٠ — ويأخذ بعض الناس على الإسلام تقريره حق الطلاق أو الخلع وتعدد الزوجات . وهم لو علموا حكمتها وقيودهما لأدركوا أي ضمان وضعه الإسلام بذلك لتقوية أركان الأسرة ، ولسلامة بنيان المجتمع .

قال الله تعالى : (الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقال : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) . وقد ورد في القرآن الكريم آيات أخرى تدل كلها على مشروعيته . أما من السنة فقد روى أن النبي طلق إحدى زوجاته ثم راجعها . وقد طلق فريق كبير من الصحابة نساءهم ، منهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وقد شرع الطلاق للتخلص من رابطة الزوجية عند تباين الأخلاق ، وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله بحيث يفوت الغرض المقصود من الزواج وينقلب مضرة . فالناس مفطورون على التمايز والاختلاف في وجوه الرأي ، ومجبولون على الحب والبغض . والزواج قبل كل شيء هو اندماج رجل وامرأة اندماجاً كلياً بقصد التعاون على الحياة . ولما كان من المستحيل أن يندمج كل رجل مع كل امرأة ، كما أنه ليس من الميسور أن يتعرف كل رجل على المرأة التي تناسبه ، فقد جُعل الطلاق والخلع فرصة لكل زوجين أن ينفصلا عند ما يكون الانفصال أمراً لازماً حتى لا يتحرجا من الوقوع في المحظور ، فضلاً عما تجلبه العشرة الإجبارية من شقاء وعذاب لا حد لها .

والزواج عقد يجب أن تصان فيه حرية المتعاقدين الكاملة في الإنشاء والإلغاء مع تقييدها بما لا يخرج عن دائرة المنفعة . فإلزام زوجين متباغضين استحكمت بينهما حلقات النفور الوجع

قد يكون ، من الوجهة الاجتماعية والإنسانية والخلقية ، نكبة أكبر من نكبة السماح لهما بالفراق .

ولكن لما كان للطلاق في حد ذاته مع فائدته ومشروعيته آثار عنيفة ، فقد رتبت الشريعة الإسلامية ما يخفف من حدة هذا الضرر فضلاً عن تزهيدها الناس في استعمال هذا الحق ، حتى لا يُساء استغلاله وتفوت حكمته . فقد شُرط لإباحة الطلاق قيام الحكمة التي دعت إلى تشريعه ، فإذا لم تقم كان إيقاع الطلاق محرماً شرعاً . قال الله سبحانه وتعالى : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) : أي فلا تطلبوا الفراق ؛ وقال الرسول : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) ؛ وقال : (لعن الله كل ذوّاق مِطلاق) . ويقاس على الطلاق الخلع الذي أبيح للزوجة بمقتضاه أن تفتدي نفسها عند ما لا تجد في الزواج ما كانت تنشده ، فتشعر بالحرج في البقاء مع زوجها . ويستخلص بعض الفقهاء من ذلك كله أن الأصل في الطلاق الحظر والإباحة، استثناء زيادةً في تقييده وتضييق حدوده

وليس أصدق شاهد على ضرورة الترخيص للزوجين بالطلاق أو فصم عرى الزوجية عند اللزوم من مخالفة غير المسلمين لشرائعهم ، وتحايلهم على نصوصها فيما يختص بتحريم الطلاق !

ثم إن الشريعة الإسلامية قد جعلت الطلاق آخر حل ينتهي إليه الزوجان ، فقد أشار الله تعالى بالتحكيم بين الزوجين فيما يقع بينهما من الشقاق ، حتى إذا لم يفد ذلك ، كان الطلاق على يد جماعة من أهله وجماعة من أهلها ؛ وفي ذلك نزلت الآية الكريمة : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا) ؛ وقد أسلفنا قول عمر بن الخطاب عن (مجلس التحكيم)

أما مسألة تعدد الزوجات ، فإن أساس تشريعها قوله تعالى في سورة النساء : (وإن خِفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فانكِحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورُباع ، فإن خِفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) ؛ وقد فسر الفقهاء هذه الآية التشريعية تفسيرات شتى متباينة ، ولكنها تجتمع كلها عند نقطتين بارزتين مهمتين هما :

الأولى : إن التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع مباح ابتداء

الثانية : إذا خاف الرجل الجور وعدم العدل بين نسائه إذا تعدّدن ، يحرّم عليه التزوج بأكثر من واحدة

وعلى ذلك يكون الأصل الثاني قيداً للأصل الأول ، وهذا القيد مقصود به منع الضرر الذي ينشأ عن استعمال حق التزوج بأكثر من واحدة . ويتبين ذلك من قوله تعالى : (ذلك أدنى ألا تعولوا) : أي أقرب من عدم الجور والظلم ؛ وهذا يطابق ما تتقيد به كافة الحقوق في الشريعة الإسلامية

وبالرغم من أنه قيل : إن الحرمة الناتجة عن خوف الجور بين النساء إذا تعدّدن لا يترتب عليها بطلان عقد الزواج شرعاً ، فإن لولي الأمر ديانة أن يراقب استعمال هذا الحق ، ويحول دون استغلاله في عكس ما قصد منه ، لأن الله يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن ، فقد نتج من الإساءة في استعماله مفاسد جمة .

وقد وضعت وزارة العدل في سنة ١٩٢٨ مشروعاً لتعديل بعض أحكام الأحوال الشخصية ، اشتمل على تقييد استعمال حق التزوج بأكثر من واحدة بما يتفق وحكمة الشرع وروح نصوصه ؛ وقد تضمنت ذلك المواد الثلاث الأولى من المشروع ، ونصها :

المادة الأولى — لا يجوز لمتزوج أن يعقد زواجه بأخرى ، ولا لأحد أن يتولى عقد هذا الزواج أو يسجله إلا بإذن من القاضي الشرعي الذي في دائرة اختصاصه مكان الزوج

المادة الثانية — لا يأذن القاضي بزواج متزوج إلا بعد التحري وظهور القدرة على القيام بحسن المعاشرة والإنفاق على أكثر ممن في عصمته ومن تجب نفقتهم عليه من أصوله وفروعه

المادة الثالثة — لا تسمع عند الإنكار أمام القضاء دعوى زوجية حدثت بعد العمل بهذا القانون إلا إذا كانت ثابتة بورقة رسمية

وكان المشروع يتضمن مادة أخرى في هذا الباب حذفت منه أخيراً ؛ وكان نصها : « يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر ، أو بغرامة لا تزيد على عشرة آلاف قرش ، أو بهما معاً المتزوج الذي يخالف حكم المادة الأولى ، وكذلك من يتولى عقد هذا الزواج أو يسجله »

ويبدو من نصوص هذا المشروع بقانون أن المشرع قد أصاب الهدف الاجتماعي والإنساني العائلي الذي يرمي إليه الدين الإسلامي ؛ فلم يقصد منع استعمال حق وإنما يقصد تنظيمه بما يتفق والحكمة التي دعت إليه . وقد أشارت الوزارة إلى ذلك في مذكرتها الإيضاحية . وقد قال الله سبحانه وتعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . وقديماً قال الفقهاء : « إن الزواج عند العجز عن النفقة محرم » . ولكن المشروع السالف الذكر

لم يصدر بسبب مهاجمة بعض العلماء له ، وعدم تهيؤ ذهن الرأى العام الإسلامى لمثل هذا التنظيم الاجتماعى المصرى فى المسائل الدينية وهو ما يسمى (السياسة الشرعية) . وإذا علمنا أن مهاجمتهم للمشروع لم تنصب على ضرورة تقييد حق التعدد وإنما على عدم جواز وضع هذا التقييد بيد الحاكم أو القاضى ، بحجة أنه أمر شخصى اعتبارى من المتعذر تحديده بواسطة الغير . والرأى الأصح الذى يميل إليه جمهرة العلماء المصريين هو أن التعدد ليس حقاً مطلقاً ، وإنما هو حق معلق على قيام سبب يدعو إليه ، وأن الرجل إذا أساء استعمال حق له فإن لولى الأمر أن يحول بينه وبين ذلك بما له من ولاية سد الذرائع اتقاء للضرر قبل وقوعه . وعلى هذا الأساس شرع الحجر على السفيه المبذر . ومن هذا كله يتبين مدى سماحة الشريعة الإسلامية ، والضلال الذى يسير عليه بعض المسلمين والتى هى منه براء

وحق التعدد فى حد ذاته إذا ما استكمل الشروط اللازمة لاستعماله فى الحدود السالف ذكرها ، ليس فيه من الضرر الذى يصوره أعداء الدين الإسلامى ، فقد تدعو إليه ضرورة ماسة ، ويرتفع به حرج يقع على الزوجة إذا طلقت بسبب المرض أو العقم أو غير ذلك من الأسباب التى تجرُّ إلى المحظور

النتيجة :

يخلص مما قدمنا أن الدين الإسلامى وضع المرأة من الناحيتين الشخصية والاجتماعية فى أحسن وضع وأرحمه وأعدله وأيسره .

ولا مشاحة فى أن بين المسلمين من أساءوا إلى دينهم بفساد تطبيقهم لنصوصه ، وجمود تفسيرهم لروحه ، وأن المرأة المسلمة لو انتهت أحكام دينها ، وأنصفها الرجل الإنصاف الذى تمليه تلك الأحكام لما أصابها حيف ، ولما ذاقها ذلك مطلقاً من رق صحيح رفيع . فدينها فضلاً عن تقريره لحقوق لا تنالها أخت لها من أى دين وملة جعلها جوهرة بالغ فى صيانتها من كل عبث واستغلال . وإذا كانت المرأة الأوربية قد نالت نصيباً كبيراً من الاحترام بفضل تعليمها فإنها لا تتمتع فى شريعتها ، ولا فى قوانين بلادها بمثل الحقوق الرائعة التى قررها الإسلام . وقد اضطرت إزاء ذلك أن تعوّض ما فاتها من حقوق بالحرية الواسعة النطاق التى حصلت عليها ، والتى لا ضابط لها مما أدى إلى حرج مركزها الشخصى ، وفقدانها ما هو أعز من هذا القدر الزائد من الحرية ، ومما نتج عنه من تفكك عرى الأسرة الأوربية ، وانهيار المجتمع الغربى تفككا وانهياراً كانا الشرارة التى أشعلت لهيب الحرب المدمرة الحاضرة . وأظننى لست بحاجة إلى تذكير حضرات القراء بقول بيتان رئيس الدولة الفرنسية ، بعد سقوط فرنسا الأخير ، ولا بما فعله بعض ساسة أوربا وزعمائها من ردّ المرأة إلى بيتها لتقوم بمهمتها الأصلية ، وتضييق حريتها تضييقاً تمليه مصلحتها الخاصة ، ومصلحة المجتمع عامة إنقاذاً للأسرة والأمة معا .

محمد عبد الرحيم عنبر
مفتش بوزارة الشئون الاجتماعية

قيمـــة الحرية

للصحافي العالمي ويكهام استيد

بقلم الأستاذ زين العابدين جمعة المحامي

(تتمـة)

إذا ما غلب على ظن الهيئات المادية من أولئك القوم الذين ينعمون بما لهم من رصيد في صناديق التوفير أو ممن يحيون حياة طيبة في أكواخهم أو ممن يهنأهم ما جمعوا أو جمع لهم من طارف أو تليد ، أن ما يبدهم على وشك أن يزول عنهم ، ثم تركت لهم الخيرة بين نظامين أحدهما يضيع على الناس أموالهم وحريتهم ، والآخر يميل إلى الاستبداد بهم والتضييق على حريتهم، لانصرفت رغبتهم إلى ثاني المصيرين ، وفضلوا أن يضحوا بحريتهم في سبيل الاحتفاظ بأموالهم . وعندي أن هـذه الرغبة هي منبع الضلالة وعماد ما يتهدد الحرية عموماً وحرية الصحافة ضمناً من إرهاب أو طغيان هو أكثر أساليب الاستبداد تضليلاً للعقول البشرية، إذ لو ترك لأمثال هؤلاء الناس أن يدركوا ما سيسوقهم إليه خيارهم من مصير لعرفوا أنهم سوف يندمون على ما صنعوا ولات ساعة مندم . وسوف تتكشف لهم الحقيقة من أن خسارتهم في حرية التملك لم تكن بأقل من خسارتهم في حرية التفكير وحرية التصرف وحرية القول ونقائص ذلك النظام الذي يخلعون عليه اسماً غامضاً فيدعونه « بالنظام الرأسمالي » قد ترجح أو لا ترجح على فضائله . إلا أنه في الأمم التي احتفظت بنظامها النيابي الديمقراطي وبالتالي بحرية صحافتها ما زال « للرأسمالية » فضلها في ترك نقادها أحراراً في نقدهم إياها ، وبمون من النقد العام يتهيأ للاصلاح أن يقلم أظفار « الرأسمالية » ويخفف من غلوائها في استعمال حقوقها استعمالاً مضراً بالآخرين إن لم يسعه أن يضع الأمور في وضعها العادل . فإباحة النقد كما سبق لي بيانه هي سند الحرية في الجماعات المتمدينة أو هي كما عبر عنها أحد خدام بريطانيا الممتازين : « ما لنا من حق في أن نقول لأية حكومة كائنة ما كانت لقد ضقنا بك ذرعاً فالى صقر » فلا ضمان لحرية شخصية ، ولا أمل في تحقيق نجاح، ولا عاصم من طغيان، ولا أثر فعال للآراء الخاصة ، ما لم تتوفر للنقد جرمته وحريته .

والهيئات الاجتماعية الحرة التي ظفرت من حريتها بقسط كبير تنادي به صحافتها ، ويجري على ألسنة جماهيرها في الطرق العامة ، ويفصح عنه من يمثلها من نوابها تحت قبة دار النيابة بوسعها وقتما يكون الصالح العام بحاجة إلى تعديل الأساليب أو تغيير النظم أن تتخلص من حكامها وتغير قوانينها من غير أن تحدث حدثاً خطيراً أو توقدها ثورة شعواء . بينما نرى الأمر في الأمم الاستبدادية وهو يجري على غير هذا الوجه إذ لا يتيسر لها تغيير النظم وإصلاح المناهج إلا إذا تمرد الشعب على حكامه ، فاشتعلت فيها نيران الثورة ، ووثبت القوة النائمة لمناهضة القوة الغاشمة .

وقد يتهيأ للنظم الاستبدادية في وقت ما وفي ظروف استثنائية خاصة تمليها الضرورة القاهرة أن تكون أكثر نفوذاً وأوفر كفاية من النظم الديمقراطية . إلا أن مثل هذا الفضل الموقوت لا يقتضي حتماً أن الديمقراطيات التي تضطلع شعوبها بشئونها العامة ، وتوجهها صحافة يقظة جريئة سوف تظل دائماً وهي أقل كفاية وإنتاجاً من النظم الاستبدادية

ولا زال الحق الذي لا مرية فيه شاهد عدل على أن ما يتقيد به السلطان في الأمم الديمقراطية من قيود ، وما يستنفذه من وقت بين الاعتراف بما يجب أن يكون والقيام به فعلاً عند ما تنادي المصلحة العامة بوجوب التعديل أو التبديل هو من قبيل التعمق في التوقي والتحرز من أهوال الطفرة ونكبات الانقلاب

وما زال قيد النظر ومحك التجارب حتى في المسائل المتعلقة بالحياة أو الموت ، كالحروب مثلاً ما إذا كانت الديمقراطيات الحرة كنظم سياسية أقل شأناً من تلك الجماعات التي تتنزل عليها الأوامر من عروش قادتها . ومع ذلك ما كانت الديمقراطيات هي الخاسرة في الحرب العظمى الماضية ، ولو أن حاجتها الخطيرة إلى انسجام الرأي ووحدة القيادة في تلك الأوقات العصيبة كان من شأنها أن تنتهي بها إلى مصير موجع فاجع يفقدها أمنها وسلامها ويوردها موارد الهلاك

وعندى أنه من الممكن صياغة جميع المسائل المتعلقة بقيمة الحرية فى أسئلة ثلاثة :

هل الشخصية الحرة كعنصر من عناصر الحياة البشرية أنبه شأناً وأنفس قيمة من تلك الشخصية التي تنطبع وتتشكل وفقاً لمشيئة القائد الأعلى الحاكم بأمره فى مصادر وموارد الدولة الاستبدادية المطلقة ؟ وهل يتوقع لإرادة الفرد الحرة أن تخطو بمصالح البشر إلى الأمام أكثر مما يتوقع لإرادته التى تشب عليها من المهد إلى اللحد على نهج موضوع يصيرها خاضعة لكلمة القيادة العليا خضوعاً غبياً، ومطيعة لأوامر الزعامة طاعة عمياء ؟

أو ليس هنالك من ضرر يتهدد الجنس البشرى ومن خطر على تقدم المعارف وانتشار الثقافة ومن خوف على كل شىء نفهمه عن طريق « المدنية » بنشوء هذه الجماعات الغفيرة التى تسير فى مناهجها على نمط واحد وتجرى فى تفكيرها على أسلوب واحد وتنطلق خائفة مذعورة كقطيع من الغنم أمام راعيها ؟

وما زال رهن الدراسة وقيد البحث منذ زمن بعيد ما إذا كان عقل الفرد كعنصر من عناصر كيان الحياة البشرية وتوفير الحرية له فى التفكير والاستنتاج وتكوين الرأى أعلى قيمة وأكثر نفعاً من عقل هذا الخليط من الكائنات البشرية أو ما يسميه هتلر « بوحدة التطبيع » ، وعنده أن اتحاد الشعوب البريطانية فى الحرب العظمى الماضية كان نتيجة طبيعية لما امتازت به من « وحدة العقلية » ، وأن ما صادفته ألمانيا من الفشل فى تلك الحرب كان جزاء وفاقاً لشتات الآراء وتقلب الأهواء فى الشعوب الألمانية . وغالب أمره أنه لم يفهم أن ما نعمنا به آنئذ من انسجام العقلية كان جنى تعاون أعضاء الجماعات الحرة تعاوناً صادقاً للذود عن حياضهم ولإنقاذ حريتهم وقتما أدلهمت الخطوب ودق ناقوس الخطر ؛ أو أنه لم يدرك أن هؤلاء المواطنين الأحرار قد تخلوا عند الشدائد وبمحض إرادتهم عن حقوق كانت صعبة المنال غالية الثمن فكانت أثيرة عندهم عزيزة عليهم ، وصدروا فى ذهابهم عنها أو ذهابها عنهم عن وجدان سليم وشعور طليق من تكريس حياتهم للصالح العام ، وهو شعور كريم لا يتغلغل إلا فى نفوس أفراد مارسوا مسائل الحرية مراساً حكيما وطالت خبرتهم بها فألفوا الاضطلاع بمسئولياتها . ولقد كان من نتيجة هذا الفهم الخاطىء أن شرع هتلر شريعته عن وحدة عقلية المشاعر الألمانية على نهج من الطغيان والاستبداد ؛ إذ فرضها على الجماعات الألمانية جبراً وحملهم عليها بالدعاية تارة وبمجرد الإرهاب تارة أخرى ، ظناً منه أن مثل هذا النهج قد ينهض بديلاً عن الانسجام الحر والتعاون الطليق فى الشعوب الحرة

وشريعة هتلر هذه لم تكن فى مناحيها الحربية والسياسية بأجنبية عن جبلة الشعب الألمانى ، فهى على استعداد لأن تخضع لسلطان النظام وتتحرك فى كتل بشرية مرصوصة . وليس فى هذه الشريعة من جديد بالإضافة لتلك الفطرة الألمانية . اللهم إلا أنها قد قضت على حرية الرأى وحرية المعرفة وحرية الاستقراء وحرية النقد ، تلك الحريات التى اشتهرت بها الفلسفة والعلوم الألمانية وشيدت على أساسها فى الأزمان الخالية

إن تقدم المجتمع الإنسانى كما أفهمه لم يكن نتاج نظر « الكتل البشرية » أو جنى العمل على توحيد « عقلية الشعوب » . وتلك الخطوات التى خطاها الإنسان من بربريته الأولى إلى ما ينعم به الآن من مدنيته بل وحتى ما تهيأ له من أصغر نصيب منها كانت ثمرة تفكير أفراد عظماء نادوا بها ومهدوا السبيل إليها

وقوام الأمر من قيمة الحرية أن تهيئ لعقول الأفراد الفرصة فى مناهضة الرذيلة والجهل ، وأن تتقصى مظان الحق . فإذا ما صادفت منها ضالتها أشاعتها فى الناس وقائع صادقة وشهدت بصحتها حقائق مقررة من غير تردد أو وجل . وأن تفسح الميدان أمام الفرد للجهاد والإنتاج . وأن تكون من الناحيتين السياسية والاجتماعية الطريق الموصل إلى الخدمة العامة

أو لا يخلص لنا إذن أنها والنظم الاستبدادية منهجان متناقضان ونقيضان لا يجتمعان ، وأنها لا بقاء لها مع إرهاب الحاكم بأمره وطغيان المستبد برأيه .

* * *

وليت شعرى اليوم ما هو نصيب أولئك الرجال الذين بيدهم مقود الصحافة البريطانية من إدراك قيمة الحرية ؟ ؟ وما هو حظ قرائهم من فهم ما انطوت عليه « حرية الصحافة » من مبنى ومعنى ؟ ؟ وحتى ما سيظل جهلهم بهذه الأمور وتهاونهم فيها عاملاً على الحط من قدر الصحافة حتى يتهيأ للشعب أن يظفر من صحافته بحاجته وغنيته ؟

قد يصبح الجواب الشافى على هذه الأسئلة والعلاج الناجع

١٩ - المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

قد يزوج أهل الفتاة فتاتهم لمن يشاؤون دون موافقتها إذا كانت قاصرة . ويمكنها أن تختار زوجها إذا كانت بالغة ، وتعين من ينوب عنها في ترتيب الزواج وعقد العقد . والعادة أن تجتهد الخاطبة وقريبات القاصرة في الحصول على موافقتها . وكثيراً ما يعارض الأب في تزويج ابنته بمن ليس مثله من المهنة أو التجارة ، أو في تزويج الصغرى قبل الكبرى[1] . ويندر أن يستطيع العريس اختلاس نظرة من عروسه قبل أن تصبح في حوزته إلا إذا كانت من الطبقة السفلى فيسهل عليه أن يراها

وعند ما تشرع المرأة في الزواج تعين وكيلاً ينوب عنها في عقد العقد . وهذا التوكيل واجب إذا كانت الفتاة قاصرة ويكون أبوها حينئذ وكيلها وفي حالة وفاته يكون أدنى الأقارب الذكور أو الوصي المختار أو المعين . أما إذا كانت بالغة فتعين هي وكيلها ، أو تعقد الزواج بنفسها وذلك نادر

وبعد أن يختار الرجل عروسه طبقاً لبيان قريباته أو الخاطبة ، وبعد المدات الأولى السابق ذكرها يقابل مع بعض أصدقائه وكيل العروس ويحصل منه على الموافقة ، ثم يسأله عن مقدار المهر إذا كانت العروس قاصرة

ولا بد من دفع المهر كما ذكرت في فصل سابق . ويقدر المهر على العموم بالريال باعتبار كل تسعين فضة . والريال نقد اسمي لا وجود له . ويبلغ المهر عادة إذا كان دخل العروسين متوسطاً ألف ريال ، وقد لا يزيد على نصف هـذا المبلغ . ويقدر الأغنياء المهر بالكيس وهو خمسمائة قرش ، ويحددون المبلغ إلى عشرة أكياس أو أكثر . هذا في حالة العذراء ؛ أما مهر الثيّب فأقل بكثير . وكثيراً ما يحدث بعض المساومة في تحديد المهر كأي عملية مالية أخرى . فإذا طلب الوكيل ألف ريال يحتمل أن يعرض الطرف الآخر ستمائة ثم ينتهي الأمر بعد الزيادة والنقصان إلى ثمانمائة ريال . ويشترط دفع ثلثي المهر حالاً قبل العقد ، ويدفع الثلث الأخير إلى الزوجة عند الطلاق بغير إرادتها أو وفاة الزوج

[1] أنظر التكوين ٢٩ — ٢٦ « فقال لابان لا يفعل هكذا في مكاننا أن تعطى الصغيرة قبل البكر »

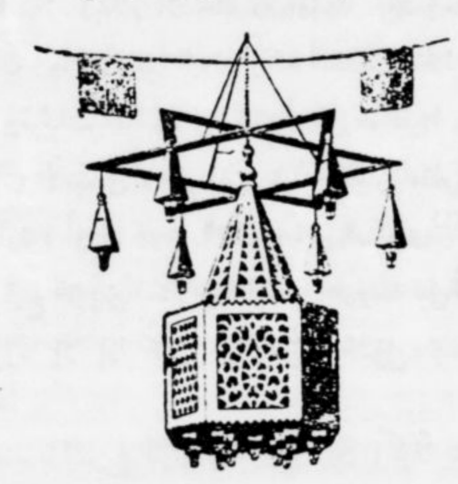
لتلك الأدواء أيسر مطلباً وأقرب منالاً لو أنه تحقق لدينا أن غالبية الصحف البريطانية أو حتى أقليتها النابهة قد تولى أمرها وقام بتحريرها رجال ممن قدروا قيمة الحرية قدرها فعرفوا أنها أسمى ما يمتلكه البشر من متاع الحياة .

لقد حان الوقت لأن نرفع ذلك الغشاء البراق الخادع الذي يغشى ثوب مدنيتنا « الديمقراطية » ونعمل على أن تظهر حقيقة ما انطوى عليه من لحمة نسجه . وآن الأوان ولا سيما للصحافة البريطانية وللرجال الذين يتولون أمرها لاختبار خيوط هـذا الثوب ليعرفوا ما إذا كان قد نسج نسجاً متيناً أميناً في تلك الأيام الخالية أو أنه في وضعه الحاضر وفي حياكته تعوزه متانة الغزل ، ويعيبه أنه صنع من خيوط ثياب قديمة عفا رسمها ، وافتقدت قوتها .

وقد يقتضي بقاء المؤسسات الحرة والأوضاع السياسية لحرية الفرد أن تعجل بتجربتها وبحثها ، وهي كما سماها « إرل بالفور » « شريان حياة » الهيئات السياسية بأجمعها . وليس بينها من شيء له من قوة الدلالة على ما اشتملت عليه من معانيها ومبانيها أكثر مما للصحافة الحرة منها ، الصحافة التي تحرر من قوامة القيود التجارية أو الصناعية أو المالية مثلما تحرر من الخضوع لأية سلطة سياسية كائنة ما كانت . ولذلك ما زال هنالك متسع من الوقت أمام صحافتنا وملاكها لأن يتدبروا أمرهم ، ويذكروا المواثيق التي تربطهم بالحرية وتربط الحرية بهم فيدللوا عن طريق رعاية هذه المواثيق والإخلاص لها أنهم قد ظفروا بالحل الصحيح لتلك المسألة التي تعتبر بحق « حجر الزاوية من المدينة الحديثة »

(المنصورة) زين العابدين جمعة

ويتم الاتفاق على هذا الأمر بقراءة الحاضرين الفاتحة . ثم يحدد يوم قريب ، قد يكون بعد اليوم التالى ، لدفع مقدم المهر والاحتفال بعقد الزواج الذى يسمى عقد النكاح [١] . ويسمى انجاز العقد كتب الكتاب ، ولكن قلما توجد وثيقة مكتوبة تثبت الزواج إلا إذا كان العريس بسبب انتقاله إلى مكان آخر يخشى أن يضطر إلى إثبات الزواج حيث لا يتيسر له إحضار شاهدى العقد . وقد يتم عقد الزواج حالما ينتهى الطرفان من الاتفاق على المهر ، ولكن كثيراً ما يعقد بعد يوم أو يومين من ذلك الوقت . ويذهب العريس فى اليوم المحدد مع صديقين أو ثلاثة إلى منزل العروس قرب الظهر عادة فيستقبلهم وكيل العروس وبعض أصدقائه . ويجب عقد الزواج بشهادة شاهدين مسلمين إلا إذا استحال ذلك . ويقرأ جميع الحاضرين الفاتحة ، ثم يدفع العريس مقدم المهر ويعقد بعد ذلك العقد بكل بساطة . فيجلس العريس على الأرض أمام وكيل العروس وكلاهما واضعٌ إحدى ركبتيه على الأرض ، ثم يمسك كل منهما يمنى الآخر ويرفع إبهامه ويضغط به على إبهام الثانى . ويتولى تلقين الطرفين صيغة العقد بعض الفقهاء . فيضع على اليدين المتماسكتين منديلاً ، ثم يستهل العقد عادة بخطبة لا تخرج عن بعض الإرشادات والصلوات وبعض الآيات والأحاديث التى تشير إلى فضل الزواج ومزاياه . ثم يطلب من الوكيل أن يقول : « أخطب لك (أو أزوجك) ابنتى (أو موكلتى) فلانة (ويسمى العروس) العذراء [٢] (أو العذراء البالغة) بمهر قدره كذا » ، وقد لا يذكر المهر . ثم يطلب من العريس أن يقول : « أقبل خطبتها (أو زواجها) وآخذها تحت رعايتى وأتكفل بحمايتها ، واشهدوا على ذلك أيها الحاضرون » . ويردد الوكيل قوله هذا على العريس مرة ثانية وثالثة فيجيبه الأخير فى كل مرة بما سبق . وحينئذ يقول كلاهما « والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين » ؛ ويعيد الحاضرون قراءة الفاتحة . وليس للخطبة التى تتلى فى هذه المناسبة كلام موضوع أو نظام معين وقد تحذف إطلاقاً . وقد يقبّل العريس (ويندر ذلك إلا إذا كان من الطبقة السفلى) بعد انتهاء العقد أيدى أصدقائه وغيرهم من الحاضرين ؛ ثم يُقدَّم الشربات إليهم ويمكثون حتى تناول الغداء . ويهدى إلى كل منهم منديل مطرز تقدمه عائلة العروس بينما يتناول الفقيه منديلاً مشابهاً تصر فيه قطع صغيرة من النقود الذهبية يقدمه له العريس . ويحدد ليلة الدخلة قبل انصراف الحاضرين . وتلك هى الليلة التى تنتقل فيها العروس إلى منزل العريس حيث يراها لأول مرة



(شكل ٤٥) قنديل وخلافه معلق احتفالا بعقد زواج

ويمهل العريس عروسه حوالى ثمانية أيام أو عشرة بعد عقد الزواج على العموم ، ويرسل إليها فى أثناء ذلك من حين لآخر بعض الفاكهة والحلوى الخ ، أو يهدى إليها شالاً أو بعض الأشياء الثمينة . وتشتغل عائلة العروس فى الوقت نفسه بإعداد الجهاز . ويصرف مقدم المهر فى شراء الجهاز الذى يصبح ملكاً للعروس ، فإذا طلقت يعاد إليها . وتدفع عائلة العروس مبلغاً أكبر قد يزيد على المهر نفسه فى إعداد الجهاز ، ولذلك لا يمكن القول بحق أن الزوجة تُشترى [١] ؛ ويرسل الجهاز عادة إلى منزل العريس على ظهور الجمال . وكثيراً ما يشمل الجهاز كرسى العمامة الذى سبقت الإشارة إليه ، وكرسى العمامة كبير الحجم بسيط الصنعة ،

(١) من الاعتقاد الشائع فى مصر أن من يعقد زواجه فى شهر محرم يخيب زواجه وتنحل عراه . ولذلك قلما يعقد عقد فى هذا الشهر . ويعتبر شوال أكثر الشهور ملاءمة لذلك

(٢) وإن لم تكن عذراء يعبر عن ذلك بكلمة (سيب) أو على الأصح ثيب .

(١) وفى الريف مع ذلك يتناول الأب أو الوصى للقصرمى على العروس المهر . ولا يعطى مقابل ذلك شيئا غير الفتاة وبعض الحبوب الخ أحيانا . فيجهز العريس فى هذه الحالة عروسه بكل شىء حتى ملابسها .

إذ يصنع أسفله وظهره من الناب ، وهو لا يستعمل للجلوس أبداً ، وقد تكون له مظلة . وتوضع العمامة عليه ، وتنطى بقطعة من الحرير السميك ترصع عادة بسلوك ذهبية . وقد يحتوى الجهاز على كرسيين : أحدهما لعمامة الزوج ، والآخر لعمامة الزوجة .

ويستقبل العريس عروسه فى مساء الجمعة أو الإثنين[1] ، ويعتبر يوم الجمعة أسعد الأوقات . فلنقرر إذاً أن العروس تنتقل إلى عريسها مساء الجمعة ، ويومئذ تضاء الشوارع أو الحى الذى يسكنه العريس أثناء الليلتين السابقتين أو قبل ذلك بالشمعدانات والفوانيس ، أو الفوانيس والقناديل الصغيرة ، يعلق بعضها فى حبال تمتد من منزل العريس وعدة منازل أخرى إلى المنازل المقابلة على جانبي الشارع ، وتعلق أيضاً مع القناديل ، أو منفصلة ، رايات حريرية ذات لونين : أحمر وأخضر[2] . ويقام فى منزل العريس أثناء هذه الليالى — وعلى الأخص الليلة الأخيرة التى تسبق عقد الزواج — عدة حفلات . ومن المعتاد فى هذه المناسبات أن يرسل المدعوون والأصدقاء الخاص الهدايا إلى منزل العريس قبل الدعوة بيوم أو يومين : فيرسلون سكراً وبناً وأرزاً وشمعاً أو حملاً ... وتوضع الهدايا السابقة على صينية نحاسية أو خشبية ، وتغطى بنسيج مطرز أو من الحرير . وتستخدم لتسلية المدعوين فرق موسيقية ومغنيات ومغنون وراقصات ، أو تقام

(١) لقد أخطأ (بركهاردت) بقوله أن يومى الاثنين والخميس ينجز فيهما الحفل الذى يسبق ليلة الدخلة مباشرة . وكان الواجب أن يذكر يومى الأحد والخميس . وقد ارتكب أيضا بعض الأخطاء عند الكلام على حفلات الزواج عند المصريين فى كتابه الأمثال العربية (ص ١١٢ — ١١٨) ومن الواجب على أن أذكر ذلك وإن كنت أخشى أن تكون شهرة (بركهاردت) فى تمحيص الأشياء سبباً فى جعل القارىء يظن أنه على حق فى هذه المواضع . ولكنى أكتب هذا الكلام فى القاهرة وكتاب « بركهاردت » أمامى بعد شدة البحث والخبرة .

(٢) ويرى القنديل الموضح فى شكل ٤٥ المصنوع من الخشب المدهون أخضر واحمر وابيض وازرق « ثريا » ويرى الاطار الذى يعلوه والذى يتدلى منه ستة قناديل « خاتم سليمان » وتسمى المجموعة كلها جمل قناديل

(ختمة) أو (ذكر)[1] . وتقدم العالمات الموسرة إلى الخاطبة و إلى (داية) العائلة و (والبلانة) وظهر العروس — بعد إتمام العقد بيوم أو يومين — قطعة من النسيج الذهبى ، وشالاً كشميرياً ، أو قطعة حريرية مفوفة من نسيج البلاد والشنتيان ؛ فتضع هؤلاء النسوة هذه الملابس على الكتف اليسرى ، ويربطن أطرافها معاً على الجانب الأيمن ، ويركبن الحمير وأمامهن طبالان أو أكثر ، ويمررن على صديقات العروس ليدعوهن إلى مرافقتها إلى الحمام ذهاباً وإياباً ، وإلى حضور الحفلات التى تقام بتلك المناسبة . وكلما يمررن على منزل تؤدب لهن مأدبة ، إذ أنهن يعلن من زيارتهن فى يوم سابق ، وتسمى أولئك : (مُودنات) ، أو على الأصح (مُوذنات) ، وينطقها العامة (مُدْنات) ؛ وقد رأيتهن أحياناً يسرن راجلات ، ولا يتقدمهن الطبالون ، ولكنهن كن يزغردن بدل دق الطبول ...

(يتبع) عدلى طاهر نور

(١) لا أصف هذه الحفلات هنا لأنى أفردت لها فصلا يتعلق بالحفلات الخاصة . والختمة عبارة من تلاوة القرآن جميعه ؛ وأما الذكر فهو ترديد اسم الله وصفات التوحيد الخ . وسأتكلم منهما بالتفصيل فى فصل آخر عند وصف الحفلات الدورية العامة .

حكم فى القضية ٥٦٠ عسكرية الفيوم سنة ٩٤١ ضد محمد السيد خليفة من السرايى بحبسه شهرين شغل وغرامه ٣٠٠ قرش صاغ لبيعه ذرة بثمن أزيد من المقرر

الأرض ...

للأستاذ محمد محمد توفيق

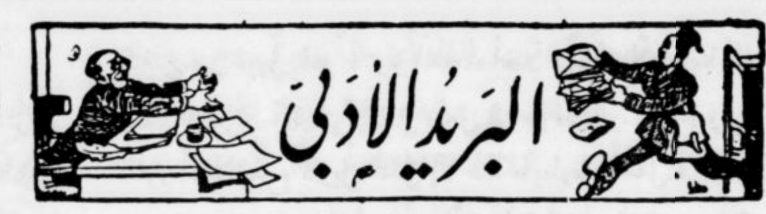
[أنطق صديقي الدكتور حسن عثمان البحر بمناجاته الرائعة على صفحات الرسالة الغراء ، وأبى أن يعود بشاعره إلى الأرض ، مؤثراً عليها عرائس البحر وعجائبه . فنطقت الأرض أم الكائنات بهذه الأبيات لعل الشاعر أن يعود إلى أحضان أمه ...]

أنا الأرضُ فوق كل حيٍ وميتٍ   وما البحر إلا ملتقى عبراتى
أنا الأرض مهد الكائنات ولحدها   فهل غفل الإنسان عن حسناتى؟
وعيتُ نداء الله فى كل خلقه   وما طاف بى مسٌ من الشُّبُهاتِ
ومن قبل خلق الكائنات عبدتُهُ   مع الشمس والأفلاكِ منطلقات
أدورُ كما دارت وأسعى كما سعت   مُؤَجَّجَةَ النيران ، محترقات
تُطَهِّرُنَا النارُ الإلهيَّةُ اللظى   وَتَصْهَرُنَا للخير والبركات
أنا الأرض كم حَجَّتْ وفودٌ وأعصرٌ   إلىَّ وكم بدَّلتُ ثوبَ حياتى !
وكم طيباتٍ فوق سطحى مُشاعةٍ   وكم من كنوزٍ فىَّ مُختزَناتِ
وكم من حياةٍ تملأ الروحُ كأسَها   وتسكبها فى أعظمٍ نَخِرَاتِ
وهذى العظامُ الناخراتُ أُحيلها   تراباً عليه تغتذى ثمراتى
أنا الأرضُ لا حىٌ علىَّ مُخَلَّدٌ   ولا ميتٌ يبقى بغير حياةِ
وما فتئ الناموسُ عندى كتابُهُ   فهلاَّ وعيتم حكمتى وعِظاتى
فيا بحرُ ... ماذا أنت يا بحرُ قائلٌ   وما صوتك المخنوق بالعبرات ؟
وما هتفاتٌ رجَّع الصخرُ شجوها   وما قَطَرَاتٌ ذُبْنَ فى قطرات
وما صرخاتٌ للأواذيِّ صُعَّدٌ   تُرَدِّدُها القيعان فى الدركات
لقد هاجنى يا بحرُ أنك شاعرٌ   وأنك فَذُّ الشعرِ والسَّبَحات
فأنطقتُ أطوادى وأجريتُ أنهُرى   وأوحيتُ نجواها إلى هضباتى
وأسكرتُها بالراحِ من كأسِ كرمةٍ   شهدتُ بها مَسًّا من السَّكَرَات
فيا بحرُ ... قل يا بحرُ ما أنت قائلٌ   فقد فاض بى بحرٌ من الكلمات
وقد طال إغفالى جمالى وزينتى   وقد طالَ بى صمتى وطال سُبَاتى
أنا الأرض للإنسانِ أُرْسِلْتُ جَنَّةً   علىَّ سلامُ اللهِ طولَ حياتى
وكنتُ لخلقِ الله مرعًى ومسرحاً   وما ضِقْتُ بالأنعام والحشرات
فلا نملةٌ تشقى إذا طاب سعيها   ولا طائرٌ إلا يصيبُ فتاتى
ولا دودةٌ مكنونةٌ وسط صخرةٍ   ولا هائمٌ فى البيد والفَلَوات
لكلٍ نصيبٌ من ترابى وأنعُمى   وكلٌ له حظٌ من النَّسمات
وكلٌ ينادينى بيا أمّ إن شكا   فأغمره بالحبِّ والدعوات
وأشرحُ صدرى للذى ضاق صدره   وأعتنقِ المكدودَ بالقُبُلات
وأسكبُ دمعى إن أبى المزنُ أدمُعاً   وأُرْمِلُ فى لحن الصَّبا زفراتى
فهُنَّ وَدِيعاتٌ علىَّ عزيزةٌ   وَصَوْنُ وديعاتِ الإله صلاتى
فإن غربت شمسُ الحياةِ فإننى   أُشيِّعُ أبنائى إلى الظُّلُمات
وأنشُرُ من فوقِ الترابِ عليهمُ   رداءً من الأعشابِ والزَّهَرات

ترابى ومائى فيهما كلُّ زينتى   وكلٌ أفانينى وكلُّ هِبَاتى
وإنك تُلْقِى جوهر التربِ واحداً   ويونع بالأثمار مُختلفات
فآلافُ آلافٍ من الزهر والغضا   وآلافُ آلافٍ من الثمرات
تفيض بها أرحامُ تربٍ رحيمةٌ   ويُرْضِعها التَّهْتَانُ بالقطرات
ولى ريشةٌ فى فنها عبقريَّةٌ   تُكَوِّنُ أزهاري بماء حياتى
وما طرَّ بى نبتٌ ولا هاجَ يابسٌ   ولا جفَّ قِطْميرٌ[1] بِشِقِّ نواةِ
ولا حملت حُبْلَى ولا خفَّ حملها   ولا دَبَّ مسجونٌ من اليَرَقات
ولا سَقْسَقَ العصفورُ والطلُّ بارقٌ   ولا هاجرت طيرٌ إلى القمَرَات
ولا حلَّق النَّسْر الكُمَيْتُ مُصَفِّراً   ولا انقض مسعوراً على الوُكُنات
ولا أطبقَتْ أنيابُ لَيْثٍ غَضَنْفَرٍ   على رَشَأٍ من ساكنى الأجماتِ
ولا انبجَسَ الماء الزلالُ من الصفا   ولا فاض يَنْبُوعٌ من الرَّبَوَات
ولا طلعت أكمامُ وردٍ وسَوْسَنٍ   ولا اخضرَّ رَيَّانٌ من الورقات
ولا عتَّقَتْ كرْمٌ دِناناً من الطلى   ولا نفخ النَّيْرُوزُ فى القَصَبَات
ولا هامَ نحلٌ بالأزاهيرِ شادِياً   يُقَبِّلُ مَعْسُولاً من الوَجَنات
ولا عصفَت ريحُ الخريف بشاحبٍ   من الورقِ الوسنانِ فى الشجرات
ولا سَنْبَلَتْ حبَّاتُ قمحٍ مُبَارَكٍ   ولا أبْلَحَتْ عيدانةٌ[2] بفلاة
ولا أرْطَبَتْ إلا بميقاتِ خالقٍ   يفيض على الأكوانِ بالرَّحمات!
أنا الأرض أطياف الرَّبابِ مظلَّتى   نهاراً وأسرابُ الغمام سُقاتى
وَرَيْدَانَتى[3] شعرى وقيثارتى الصَّبا   وتغريد أطيار الرُّبا نغماتى

---

(١) القطمير : قشرة النواة (٢) العيدانة : النخلة الفتية
(٣) الريدانة : الريح اللينة



مجلس التعليم الأعلى

عقد مجلس التعليم الأعلى اجتماعه الأول للدورة الحالية في الأسبوع الماضي برياسة معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف فافتتح معاليه الاجتماع بخطبة ضافية من جوامع الكلام عرض فيها مشكلات التعليم المختلفة وما يراه من أوجه علاجها .

وبدأ معاليه الحديث معرباً عن سروره بتحقيق المشروعات التي أقرها المجلس في دورته الماضية وأقرها البرلمان لنظم الامتحان والقوانين المتصلة بها ، ورجا أن تنتهي الوزارة والبرلمان من إقرار قانون التعليم الحر ونظام اللجان قريباً .

ثم تكلم عن التعليم الأولى وتعدد ألوانه بين نظام اليوم الكامل ، ونظام نصف اليوم ، ورياض الأطفال ، وما تجره هذه الألوان من تشكيل مختلف لعقلية التلاميذ ؛ وانتقل إلى الكلام من غرض هذا التعليم وهل هو محو الأمية أو تزويد عامة الشعب بقسط من الثقافة .

وبعد ما عرض لتاريخ التعليم الأولى في مصر قال إن وزارة المعارف في عهده حاولت الاستفادة من التعليم الإلزامي واتخاذه أساساً للحياة العملية فلم توفق في بعض التجارب وكان نجاحها محدوداً في بعضها الآخر .

وعالج أسباب هذه الحالة وهل هي في التعليم الإلزامي نفسه مع ما أسداه من خدمات للبلاد في استنارة الشعب ، وتنزيه عامته عن كثير من العادات السيئة ، أو مرجعه إلى عوامل أخرى .

وقال بعد ذلك : إن الوزارة بحثت أوجه النقص فرأت أن تتوحد السلطة التي تشرف على التعليم الإلزامي ، وأن يستبدل بنظام نصف اليوم نظام اليوم الكامل ، وأن تكون مدة التعليم الأولى ست سنوات تبدأ من سن السادسة ، وأن توحد خطة الدراسة ، فيما خلا اللغة الأجنبية ، بين التعليم الأولى والتعليم الابتدائي ، فإن تعذر توحيدها فلتقرب جهد المستطاع

وانتقل معاليه إلى الحديث عن مشكلة التغذية والحالة الصحية لتلاميذ الإلزامي وأوجه علاجها وما يقام في طريقها من عقبات

وأخطرُ في الأزهارِ وضّاحةَ السَّنا وأعقد إكليلا من الخرزات

وأبسمُ عن لمحٍ من البرق خُلَّبِ وأعبسُ بالإعصار والهبوات

وأصرخُ حتى يفزعَ الرعدُ في السما وتنخلعَ الأنكالُ مرتعدات

وأغضبُ حتى ينكرِ الكونُ غضبتي وأبسُط في صفحي يدَ الحسنات

أنا الأملُ الشَّعشاعُ في كلِّ غايةٍ أنا الجوهرُ المكنون في الجرات

أنا الذهبُ اللّمّاعُ في التربِ والصَّفا تذيبونه بالنار والحسرات

تذيبونه من فرط ما تعبدونه وما فيه من سحر سوى اللَّمعات

وتُسقَوْنَه كالمهلِ يشوي بطونكم فما ذَوْبُهُ إلا حميمُ طغاة

حميمٌ لمن لا يعرف الله قلبهُ ويسبح في بحر من المُحَرَّمات

فيا عابدي هذا الفلزِّ وما شرى وما ابتاعَ من جور ومن سطَوات

ويا صائغيه شهوةً في قلوبكم وزينةَ شيطانٍ وتاجَ عُتاةِ

ويامُرسليه في الأسارِ بر صُفْرَةً وشُحًّا وكِبْرًا جامد النظرات

وَتَبْلاً وأطماعاً وحرباً أثيمةً تُبيد وتُفني كلَّ ذاتِ حياة

أيا عابدي هذا الفلزّ وما شرى وما ابتاع من زهو ومن شهوات

رُوَيْدَكُمُ هلاّ أذبتمْ قلوبكم وقد جَمُدَتْ كالمرو(١) في الصَّخَرات

ويا ليت شعري كم نداءٍ أتاكم وأنتم من الآثام في غفلات !

نداءٍ لوَ انَّ الراسيات وَعَيْنَهُ لأطْبَقْنَ من أهواله صَعِقَات

وكم من نبيٍّ كلّم الله جاثياً وأطلق طوفاناً من العبَرات

فهلاّ خشيتم نِقمتي بعد نِعمتي أُسَلِّطُها سيلاً من اللعنات

وأُطلقُ صوتي قاصفَ الرعدِ داوياً وأنفخُ في بوق الرَّدى صَرَخاتي

وأُرسلُ زلزالاً عليكم وَغَيْلَماً فَتُطْبِقُ أطوادي على رَبَواتي

وتندلعُ النيرانُ من كلِّ ثغرةٍ وتندلقُ الأهوالُ من فَجَواتي

براكينَ من أفواهها تقذف الرَّدى مُسَعَّرَةَ الأحجار ، مُحْتَدِمات

تسيلُ على القيعان نارًا وحُرْقَةً تَصَعَّدُ منها أفجعُ الزَّفرات

وفي مثلِ لمحِ البرقِ ينهارُ عالمٌ من الكفر والآثام والشهواتِ !

أيا ساكني بيتي ذَرُوني أكُنْ لكم كما كنتُ أُمًّا جَمَّةَ الرَّحَماتِ

ولا تفجعوني في سنين مريرةٍ تَدِبُّ بها الساعاتُ مُكْتَهِلاتِ

فإني إخالُ العمرَ قد طالَ وانقضى وأحسبُ أن الحشر في لحظاتِ !

---

(١) المرو : حجارة بيض فيها نار

مالية ، وترك إبداء الرأى لحضراتهم فى هذه المسألة

واستطرد إلى موضوع تعليم اللغات الأجنبية فى المدارس الابتدائية ، وسأل : هل نأخذ برأى القائلين بعدم تعليم الطفل لغة أجنبية قبل الحادية عشرة من سنه ؟ أم أن أحوال مصر الخاصة تقتضى التجاوز عنه والأخذ بما يخالفه ؟

وبعد هذا تحدث عن معهد التربية الابتدائى وما تراه الوزارة من ضرورة إعادته ؛ ثم قال : وموضوع هذا المعهد من المسائل المعروضة على حضراتكم فى هذه الدورة ؛ وأكبر رجائنا أن تتعجلوا درسها والبت فيها ، حتى إذا أقررتموها دخلت فى ميزانية الوزارة للعام المقبل

ثم عرض للمسألة الأخيرة التى سيعرض بحثها فى هذه الدورة وهى مسألة التعليم الثانوى والغرض منه ومدى نجاحه فى الإعداد للجامعة وللتعليم العالى الفنى وغيره

وختم معالى الوزير خطبته بقوله : إذا بحثنا هذه المسائل نكون قد حددنا أغراضنا من التعليم فى حياة مصر الحاضرة ، ووضعنا الأساس السليم لسياستنا التعليمية ، وأعددنا أمتنا لمستقبل نرجو أن يكون زاهراً مجيداً

كيف تفسر معجزات داود وسليمان عليهما السلام

ذكر الأستاذ عبد المتعال الصعيدى فى العدد (٤٤٢) من مجلة الرسالة الغراء ، أن بعض المفسرين ذهب إلى أن المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شىء بحمده ، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ، وأن المراد من تسخير الريح لسليمان أنه راض الخيول وهى كالريح ، وأن المراد من إلانة الحديد وإسالة القطر استخراجهما بالنار واستعمال الآلات ، وأن المراد من الشياطين التى سخرت له ناس أقوياء . ثم ذكر أن نظام الدين النيسابورى جعل ذلك حذلقة لا داعى إليها ، لأن قدرة الله فى باب خوارق العادات أكبر من أن تحتاج إلى هذه التكلفات

وفى رأيى أن هذه التأويلات حذلقة حقاً ، ولكن النيسابورى لم يوفق فى الرد عليها . فأما أنها حذلقة فلأن صاحبها لم يحمله عليها إلا إرادة حملها على غير بابها من خوارق العادات ، فجرى فى التفسير وراء ميله وهواه ، وللتفسير أصول متبعة ، وقواعد مرسومة ، وشأنه فى ذلك كشأن كل العلوم ، فليس هوى النفس من سبيل العلم ، ولو اتخذناه أصلاً فى ذلك لأدى بنا إلى إنكار المعجزات كلها ، كما فعل بعض الناس قديماً وحديثاً . ومن المقرر أنه لا يصح تأويل النقل إلا عند ما يعارضه العقل ، فحينئذ يجب التوفيق بينهما بالتأويل ، لأن دلالة النقل ظنية ، ودلالة العقل قطعية ، والواجب حمل الظن على القطع ، ولا يصح العكس

وأما أن النيسابورى لم يوفق فى الرد على هذه الحذلقة ، فلأن معجزات الأنبياء لا يكفى فى إثباتها الاعتماد على إمكانها وقدرة الله عليها ، ذلك لأن الله تعالى يقدر على ما لا وجود له ، فقدرته على معجزة من المعجزات لا يكفى فى إثبات وجودها

وفى رأيى أنه يجب الرجوع فى معجزات داود وسليمان عليهما السلام إلى تاريخهما الصحيح ، لا إلى ما أحاط بتاريخهما من خرافات التاريخ ، فإذا ثبت من تاريخهما الصحيح أنهما عورضا فى الدعوة إلى الإيمان ، وطلب منهما هذه المعجزات دلالة على نبوتهما ، كانت هذه الآيات من باب المعجزات ، لأنها استوفت أركان المعجزة من خرق العادات ، والاقتران بالتحدى مع عدم المعارضة . وإذا لم يثبت من تاريخهما الصحيح شىء من ذلك ، كان لنا تأويل هذه الآيات بمثل ما أولت به أو غيره ، ولم يكن ذلك فى شىء من الحذلقة

ولكن أنى لنا هذا فى عصر طغى فيه الجمود ، وأسكت فيه الجامدون صوت الإصلاح ، كفانا الله شرهم ، وهداهم إلى ما فيه مصلحتنا ومصلحتهم ، إنه الهادى إلى سواء السبيل

(عالم)

أخطاء فى كتاب المنتخب

وقع نظري فى « المنتخب من أدب العرب الجزء الثانى — تأليف بعض رجال المعارف — » على أخطاء فى النحو والفهم فى قصيدة ابن الرومى التى مطلعها :

يا أخى أين عَهْدُ ذاك الإخاء   أين ما كان بيننا من صفاء

١ — فأما الخطأ الأول فهو :

وأرى أن رُقعةَ الأدمِ الأحمر (م) « أرضاً » علّقتها بدماء !

فكلمة « أرضاً » خطأ واضح — والصواب (أرضُ)

٢ — أما الخطأ الثانى فهو :

تقتل الشاة حيث شئت من الرقعة (م) « طباً » بالفيلة النّكراء

هكذا بكسر الطاء ثم قالوا فى الحاشية : طِبا علماً . . .

والأصوب بل الأليق بمقام المدح ، والأنسب للفن الشعري

أن تكون « طَبّاً » بفتح الطاء أى عالماً خبيراً . وقد وجدت فى «شرح ديباجة القاموس» الطبُّ بالفتح الماهر الحاذق بعمله . وجاء فى « أساس البلاغة » أنا طبٌّ بهذا الأمر عالم به . كما ورد فى المصباح ؛ ويقال للعالم بالشيء طَبٌّ

وعلى هذا يكون المعنى : إنك لتقتل الشاة خبيراً عليماً بالقتلة النكراء حينما شئت من رقعة الشطرنج

٣ — وأما الخطأ الثالث فهو :

راحةِ النفس والصيانةِ والعفةِ
والأمنِ فى حياء (رُوَاء)

هكذا بضم الراء ... وجاء بالحاشية (حياء رُواء أى جميل) والصواب : حياءٌ رَوَاء ... بفتح الراء ، أى حياء جم كثير

فقد سُمع حياء جم ... ولم يُسمع حياء جميل

حسين محمود البشبيشى

(حاشية) : ورد فى كلمتنا (صبري وابن دريد) خطأ مطبعى هو : « وأما بيتان أبى بكر ابن دريد » والصواب : « وأما بيتا أبى بكر ابن دريد ... »

المباراة الاجتماعية لرابطة الشباب المصرى

تبرع حضرة صاحب السعادة صالح عنان باشا رئيس رابطة الشباب بثلاثين جنيهاً مصرياً ـ كعادته فى كل عام ـ لتوزع على حضرات الكتاب المشتغلين بالمسائل الاجتماعية . وقد رأت الرابطة أن يكون موضوع مباراة هذا العام عن « تأثير المرأة فى توجيه الشعب » وقد حددت الرابطة يوم ٣١ يناير سنة ١٩٤٢ آخر موعد لقبول إجابات هذه المسابقة ، واشترطت أن تكتب على وجه واحد من الورق وألا تزيد على عشرين صفحة من حجم الفولسكاب ، وأن يكتب اسم المتسابق وعنوانه على ورقة مستقلة ، وترسل باسم الأستاذ أحمد ابراهيم خطاب سكرتير رابطة الشباب (بوستة القلعة بمصر) . أما جوائز هذه المباراة فسيمنح الفائز الأول خمسة عشر جنيهاً مصرياً ، والثانى عشرة جنيهات ، والثالث خمسة جنيهات ،

أما لجنة التحكيم فى هذه المباراة فمكونة من الأساتذة : خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم وعضو مجلس الشيوخ ، والدكتور أمير بقطر عميد قسم المعلمين بالجامعة الأمريكية ، والأستاذ محمد مظهر سعيد المفتش بوزارة المعارف

وستعلن نتيجة هذه المباراة فى شهر فبراير المقبل عند انعقاد مؤتمر الشباب الاجتماعى بقاعة يورت التذكارية .

فهرس موضوعات السنة التاسعة

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)